فتح الرحمن في تفسير القرآن (تفسير تعيلب)

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ٣٨٧٧٣
الطابع الزمني: ١٢-١٩-٢٢-٣٠-٠٧-٢٠٢٢
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

عن الكتاب

الكتاب: فتح الرحمن في تفسير القرآن (تفسير تعيلب)
المؤلف: الدكتور/ عبد المنعم أحمد تعيلب
[الكتاب مرقم آليا، وهو غير مطبوع]

عن المؤلف

١ سورة الفاتحة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الكتاب: فتح الرحمن في تفسير القرآن (تفسير تعيلب)
المؤلف: الدكتور/ عبد المنعم أحمد تعيلب
[الكتاب مرقم آليا، وهو غير مطبوع]
سورة الفاتحة:
بسم الله الرحمن الرحيم
هي أول سورة من سور ١ كتاب الله العزيز، ولها أسماء كثيرة منها: أم القرآن، فاتحة الكتاب، السبع أي المثاني، الكافية، الشافية، سورة الحمد.
روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد ابن المعلى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي. فقال: " ألم يقل الله: (. . استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم. .) ٢ "؟ ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد (ثم أخذ يدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته).
١ - (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)
{بسم الله}
أستعين وأبدأ دائما بالله الذي لا يعبد بحق سواه، وهو المتصف بكل جلال. ولعله اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.
وقيل: كانت أمرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى أتباعه. فالباء: إما متعلقة بفعل تقديره أبدأ باسم، وبمثله جاءت الآية الكريمة: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ٣
وإما متعلقة باسم تقديره ابدأ باسم الله ابتدائي. منه قوله تعالى: {وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم} ٤.
والاسم غير الذات بدليل قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها} ٥. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعة وتسعين اسما) ٦، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله عز وجل؛ وقوله تعالى {. . فادعوه بها} أي فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره.
والله علم على الرب تبارك وتعالى، ويقال: أنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال الله عز وجل: {هو الله الخالق البارئ المصور} ٧، وهو اسم لم يسم به غير الله عز شأنه.
وإلى هذا اتجه أبو الفداء إسماعيل بن كثير. ونحا نحوه صاحب تفسير روح المعاني حيث قال ما ملخصه: الباء للاستعانة أو المصاحبة. . متعلقة بفعل تقديره أبدأ يفيد التجدد الاستمراري. واسم من السمو " العلو " أو من السمة العلامة ويطلق على الذات والحقيقة؛ ومنه قوله تعالى {سبح اسم ربك} ٨ إذ التسبيح، إنما يتوجه إلى الذات الأقدس، وإنما يغاير الاسم المسمى في المعلومات التي تغيب عنا فتكون الأسماء دليلا عليها. وليس من الأسماء الحسنى - التسعة والتسعين - ما لفظه اسم فلا يحسن إلا أن يراد به الذات.
(الله) يفرق بينه وبين الإله بأنه لا يطلق على غير المولى جل شأنه. وهو للذات الجامعة لسائر الصفات.
بينما ذهب أبو عبد الله محمد القرطبي إلى أن معنى (بسم الله) قسم بالاسم الذي يدل على الذات والصفات. أو: بخلق الله وتقديره يوصل إلى ما وصل إليه.
وقيل: الباء للأمر أي: ابدأ باسم الله. أو على معنى الخبر أي: ابتدأت باسم الله.

وقيل في معنى اسم: لما علا على الأحرف والفعل سمى اسما.

(الله) الاسم الأعظم: لا يثنى ولا يجمع.

ومن قبلهم ذهب أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري إلى ما اقتبسوا بعضه ٩ وتفرد بما أورده عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويلهما: اقرأ بذكر ربك. . وقم واقعد بذكر الله. اهـ. و (الله) هو الذي يؤلهه كل شيء ويعبده كل شيء.

{الرحمن الرحيم}

اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ١٠.

و (الرحمن) ربما كان المقصود به مفيض الرحمة في الدنيا والآخرة يختص بها أهل الإيمان، مصداقا لوعده الحق: {. . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما} ١١.

قال أبو جعفر ١٢: إن الله تعالى ذكره، وتقدست أسماؤه، أدب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتعليم تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله. . وجعل ما أدبه به من ذلك وعمله إياه منه لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلا يتبعونه عليها في افتتاح أوائل منطقتهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم. اهـ.

نقول: ومن هذا ما علم الله نوحا عليه السلام من ذكر اسمه سبحانه في بداية ارتحاله {وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها} ١٣ وكذا ما علم الله سليمان النبي الملك من تصدير رسالته إلى ملكة سبأ بذكر الله العظيم {قالت يأيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. أن لا تعلوا علي وائتوني مسلمين} ١٤، كما وجهنا القرآن الكريم إلى ذكر الله على ما نطعم: {فكلوا مما ذكر اسم الله عليه} ١٥. وأرشدنا النبي الكريم إلى ذكر البسملة في أول كل فعل من أكل أو شرب أو ارتحال أو استشفاء أو استمتاع. . إلى غير ذلك من الأفعال. روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه). كما روى عمر بن أبي سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يا غلام سم الله، وكل بيمينك وكل مما يليك). وكذا روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا). وروى مسلم بسنده أن عثمان ابن أبي العاص شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله من شر ما أجد وأحاذر).

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) ١٦.

٢ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{الحمد لله}

الحمد: هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ١٧. وأما المدح فهو أعم من الحمد إذ قد يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك. هذا من وجهة نظر اللغويين.

أما أئمة التفسير فقالوا في معنى {الحمد لله}: الثناء على الله بصفاته خالصا له دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمطين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق وغذاهم من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم. فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا.

ونقل ابن جرير عن ابن عباس: قل يا محمد: الحمد لله، و (ال) للاستغراق. ويرى أن (الحمد لله) ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا الحمد لله.

وأورد ابن كثير: أن الألف واللام في (الحمد) لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى. ١٨
وفرق الحسن النيسابوري صاحب تفسير " غرائب القرآن ورغائب الفرقان " فرق بين الحمد والمدح فقال: (الحمد) للحي، والمدح للحي ولغير الحي كاللؤلؤة والياقوتة، والمدح قد يكون قبل الإحسان، والحمد إنما يكون بعد الإحسان. والحمد مأمور به مطلقا ١٩. وذهب إلى أن المعنى: المحامد التي أتى بها الأولون والآخرون من الملائكة والثقلين ٢٠ لله تعالى، وكذا المحامد التي سيذكرونها إلى وقت قوله تعالى: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} ٢١ وإلى أبد الآبدين.
ويرى أبو عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي أن {الحمد لله} توحيد وحمد، و (الحمد) أعم من الشطر، إذ (الحمد) ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من إحسان.
وأورد الألوسي صاحب " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني " أن (الحمد) يشترط له -شرعا - أن يكون الحامد معظما بشائه للمحمود ظاهرا وباطنا. كما روى: أن الشكر يكون -غالبا- بالعمل كما جاء في الآية الكريمة: {. . اعملوا آل داود شكرا} ٢٢.
و (الله) علم على الرب تبارك وتعالى، ويقال: إنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع الصفات. كما قال جل ثناؤه: {هو الله الخالق البارئ المصور} ٢٣ وهو اسم لم يسم به غير الله عز وجل ٢٤.
{رب}
سيد مطاع ومصلح مرب، ومالك، فربنا جل ثناؤه المعبود الذي لا مثل له ولا ند في عظمته وهيمنته، والمصلح أمر خلقه بما تولاهم به وأسبغه عليهم من رعايته ونعمته وهداه، والمالك الذي له الخلق والأمر.
{العالمين}
جمع عالم، وهو الصنف من الأمم، فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان، والجن عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه ٢٥.
وأما عن منزلة الحمد وفضل الحامدين فإن الحمد كلمة كل شاكر، وذكر رددته أنبياء الله ورسله، وتعبدهم به المولى سبحانه، قال الله -عز شأنه- لنوح عليه السلام {. . فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين} ٢٦، كما قال جل ثناؤه- حكاية عن إبراهيم عليه السلام -: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق.} ٢٧، وقال في قصة داود وسليمان {. . وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين} ٢٨، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا} ٢٩ وأهل الجنة يقولون - كما علمنا القرآن العظيم {. . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} ٣٠. {. . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} ٣١.
ولقد كان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم -وهو خير قدوة وأكرم أسوة - حامدا لله تعالى على كل حال ٣٢.
وروى مسلم في صحيحه عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها).
وروى البخاري والترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رفعت مائدته قال: (الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفئ ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا).
وروى مسلم عن أنس أنه كان إذا أوى إلى فراشه قال (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كَافِيَ لَهُ كفا له ولا مُؤْوِيَ مؤوى له).
وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول (اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد. .).
ومما روى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان).
٣ - (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

{الرحمن الرحيم}
ذو الرحمة الواسعة الدائمة.
أورد ابن جرير الطبري في تفسيره وفي الأثر (الرحمن): رحمان الآخرة والدنيا، و (الرحيم) رحيم الآخرة.
ومما أورد الألوسي:. . والمراد إيصال الخير. و (الرحمن) أبلغ من (الرحيم) لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى؛ فهو رحمان الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر؛ ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن؛ وهما صفتان مشبهتان بنيتا لإفادة المبالغة ٣٣.
أما الحسن النيسابوري فقد أورد نقولا كثيرة ٣٤ ومنها (الرحمن) بالنعماء وهي ما أعطى وحبا. و (الرحيم) باللأواء وهي ما صرف وزوى.
بينما نقل أبو عبد الله القرطبي ٣٥ عن (الجمهور من الناس). . أن (الرحمن) مشتق من الرحمة مبني على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى (الرحيم) ويجمع. ثم نقل عن القرطبي: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد. . والفائدة في ذلك ما قاله محمد ابن يزيد: إنه تفضل بعد تفضل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطالع الراغبين، ووعد لا يخيب أمله. . إلى أن قال: و (الرحمن) خاص الاسم عا

٢ سورة البقرة:

سورة البقرة:
سورة البقرة مدنية
١ - (الم)
{الم (١)}
إما أن تكون (الم) وما شاكلها من فواتح السور التي تكون من حروف تهج، وإما أن تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وإما أن تكون من المحكم الذي يمكن أن نجد سبيلا إلى تفسيره ١، وهي على هذا إما أن تكون اسما للسورة، أو ذكرت هذه الحروف بيانا لإعجاز القرآن الكريم إذ هو مكون من حروف كالتي يتكون منها كلامهم ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله، فعلم أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام العزيز الحميد، الحكيم المجيد. قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة مثل: {الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه}، {الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق} ٢، {المص. كتاب أنزل إليك} ٣، {الر. كتاب أنزلناه إليك. } ٤، {الم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه} ٥، {حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. } ٦ وغير ذلك. اه
٢ - (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)
{ذلك} يشار به إلى البعيد- غالباً {الكتاب} المكتوب الجامع.
{ريب} شك، تهمة. {هدى} دلالة ودعوة وتنبيه.
{للمتقين} للمتقين المعاصي والمساخيط، المطيعين لما أمروا به.
{ذلك الكتاب} هذا القرآن كتابنا الذي سما على الكتب وجمع كل الخير وكل البر والحق، وهو كتاب عزيز نفيس، هو الكتاب على الحقيقة. و (ذلك) يشار بها إلى البعيد غالبا، وهنا قد يكون المعنى: الإشارة إلى علو رتبته ورفعة شرفه.
مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن ٧: {ذلك} قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه: {ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم} ٨، أقول: وهو سبحانه أقرب إلينا من حبل الوريد وقد بين ذلك الذكر الحكيم في أكثر من آية {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} ٩ كما بين أنه تبارك وتعالى رقيب وشاهد {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ١٠، و (الكتاب) اسم من أسماء القرآن المجيد، وقد أورد منها صاحب تفسير غرائب القرآن ١١ نحوا من أربعين اسما، الله العليم سماه فرقانا، يقول جل وعز {تبارك الذي نزل الفرقان على

عبده} ١٢، ولعل في التسمية ما يشير إلى نزوله متفرقا على مدى بضع وعشرين سنة، أو لأنه يفرق بين الحق والباطل، وسماه المولى سبحانه (حكما) كما في الآية القرآنية {وكذلك أنزلناه حكما عربيا} ١٣ وسماه (روحا) و (نورا) يقول ربنا تقدست أسماؤه: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا} ١٤، ويقول: (. . ولكن جعلناه نورا. .) ١٥.

{لا ريب} لا شك ولا تهمة في أنه تنزيل الله الخالق جل وعلا، وأنه حق فإن قلت كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق، كم من شقي مرتاب فيه،؟ قلت: ما نفى من أحد مرتاب فيه وإنما المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه ١٦، وقيل: هو خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه.

{هدى للمتقين} الهدى قد يعني: التبيين والدلالة والتنبيه والدعوة، ومنها قول الله عز ثناؤه: {. . ولكل قوم هاد} ١٧: {. . وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} ١٨، وهذا هو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، وقد يعني الهدى: التأييد والتوفيق وخلق الإيمان في القلب، وهذا لا يقدر عليها إلا الله، يقول سبحانه: {. . ولكن الله يهدي من يشاء} ١٩، {إنك لا تهدي من أحببت} ٢٠، {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} ٢١، والمتقي: هو المؤتمر للمأمورات، المنتهي عن المحظورات، فحقيقة التقوى الخشية، وقد يراد بها التوحيد كما في قول الله عز من قائل: {. . وألزمهم كلمة التقوى} ٢٢، أي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وقد يراد بها الإخلاص، ومنه ما جاء في الآية الكريمة {. . فإنها من تقوى القلوب} ٢٣، أي: إخلاصها، عن ابن عباس: المتقون ٢٤: هم المؤمنون الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعة الله وقال قتادة: هم الذين نعتهم الله بقوله: {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة} ٢٥ واختيار ابن جرير ٢٦ أن الآية تعم ذلك كله، والفرقان الحكيم يبني ويدل على الحق ويرشد ويدعو إلى البر، {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم} ٢٧ لكن المنتفعين بهداه ٢٨ هم الذين يخشون الله، ويطلبون رحمته وثوابه ورضاه، {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٢٩، {وإنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٣٠.

٣ - (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

{يقيمون} يؤدون بتمام ويداومون، ويثبتون.

{الصلاة} العبادة المعروفة. {رزقناهم} أعطيناهم.

{ينفقون} يخرجون. {بما أنزل إليك} بالقرآن.

{الذين يؤمنون بالغيب} الذين يستيقنون بما لابد من التصديق الراسخ به وإن غاب عن أعينهم -الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض كما قال تعالى: {. . يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} ٣١ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم {. . وما أنت بمؤمن لنا} ٣٢، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ٣٣، فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا، هكذا ذهب أكثر الأئمة وحكاه الشافعي وأحمد إجماعا: أن الإيمان قولا وعملا، يزيد وينقص. . . وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، فقال أبو العالية: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وجنته ولقائه، وبالحياة بعد الموت. . ٣٤ - وأما الذين يرتابون في مطالب الإيمان فلا يهتدون بالقرآن بل قد يتمادون بعد سماعه في الطغيان، يقول ربنا جل ثناؤه: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} ٣٥، {. . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى} ٣٦، والإيمان شرعا- فيما ذهب إليه جمهور المحققين-: التصديق بما علم مجيء النبي صلى الله عليه وسلم به بضرورة، تفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا، وذهب البعض إلى أنه المعرفة بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، وجوانبه أشارت إليه مجتمعة آية في أوسط سورة البقرة {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} وآية كريمة في خواتمها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}، وزادت السنة سادسا: (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره).

{ويقيمون الصلاة} ويوفون الصلاة حقها، وذلك كقوله سبحانه: (. . لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل. .) ٣٧، أي

توفوا حقها بالعلم والعمل، (الصلاة) في الأصل الدعاء، وعند أهل الشرع مستعملة في ذات الأركان، وعرفوها بأنها العبادة ذات الهيآت والأقوال المخصوصة التي مفتتحها التحريم- تكبيرة الإحرام- ومختتمها التسليم، فرضا كانت أو نفلا-إلا أنه يحتمل أن يقال: المراد بها في الآية الفرض، لأن الفلاح قد نيط بها في قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي (أفلح والله إن صدق) بعد قول الأعرابي: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص أي على (الصلوات) ٣٨ المفروضة.
{مما رزقناهم ينفقون} الرزق لغة: هو ما ينتفع به، وعند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، والإنفاق: البذل والإخراج، وهذا شامل للنفقات الواجبة- نفقة الرجل على نفسه وعلى من يعول- وللزكاة كذلك.
إن الشرع القويم والطبع السليم يقضيان بأن ابتغاء السعادة وبلوغ منازل الأتقياء والفوز بهداية القرآن سبيلها إيمان وعبادة، وبهذا بشر أهل اليقين: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام} ٣٩ بعد قوله الحكيم {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين}، والمصلون المنتهون عن الفحشاء والمنكر يشرح الله تعالى صدورهم، ويطيب قولهم وفعلهم، ويجمع عليهم أمرهم، لا يدرك ذلك إلا من استيقن يقينهم وعمل عملهم، {إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلى المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين} ٤٠، فهؤلاء في الآخرة السعداء، وهم في هذه الحياة الدنيا لا يجزعون عند البلاء، ولا يضنون ببذل ولا يخشون في عطاء، بل بفضل الله تعالى يجودون، ومن طيبات ما أحل لهم يأكلون ويشربون ويتزينون ويتملكون، ويتصدقون ويهدون، وفريق من علماء القران على أن: {ومما رزقناهم ينفقون} مما نزل قبل أن تفرض الزكاة، فإن هذه السورة- سورة البقرة- أول ما نزل بالمدينة، والزكاة شرعت في السنة الثانية من الهجرة، ومن سماحة الإسلام أنه يرتب الإنفاق ويثيب عليه، ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم كل منفق لا يبذر ولا يتفاخر بأنه مأجور. ٤١
٤ - (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)
{وما أنزل من قبلك} الكتب السماوية السابقة.
{وبالآخرة} وبالبعث والحشر والحساب والجزاء.
{يوقنون} يعلمون دون شك.
{والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} يدرك الهدى والتقوى من آمن بالغيب، وأقام الصلاة، وأنفق مما رزقه الله، ويفوز بهما كذلك المصدقون بما أوحيت إليك، وبما أوحيت إلى الرسل من قبلك، ولقد عهد ربنا العظيم إلينا أن نستيقن بكلامه الذي آتاه مصطفاه وخاتم أنبيائه، وبما آتى الرسل السابقين من كلامه؛ {يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل. } ٤٢، ووصانا أن نذكر أهل الكتاب-أصحاب الكتابين التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارى- ووصانا أن نذكرهم في رفق بأننا لا نجحد ما جاءهم من الحق {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} ٤٣ والإسلام جاء مصدقا لشرائع الله التي شرعت للأمم التي خلت ومهيمنا عليها، واستحفظ خاتم النبيين على هذا الهدى الرباني الحكيم، فقال مولانا العلي العظيم: {قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} ٤٤، كما عهد إلينا بما عهد به إلى نبينا صلى الله عليه وسلم: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} ٤٥.
{وبالآخرة هم يوقنون} أي: وبالدار الآخرة هم عالمون علما راسخا في الرأس والنفس؛ و (الآخرة) في الأصل صفة، لكنها كالعلم بالغلبة على الحياة التي بعد حياتنا الأولى هذه- وقد تضاف الدار لها كقوله تعالى. . (. . ولدار الآخرة خير.) ٤٦ أي دار الحياة الآخرة، وقد تقابل الأولى كقوله سبحانه وتعالى: {. . له الحمد في الأولى والآخرة} ٤٧ والمعنى هنا الدار الآخرة أو النشأة الآخرة. . . (والإيقان) التحقق للشيء كسكونه ووضوحه. . . قال الجوهري: اليقين العلم وزوال الشك. .؛ وذهب الواحد وجماعة إلى

أنه ما يكون عن نظر واستدلال، فلا يوصف به البديهي، ولا علم الله تعالى، وذهب الإمام النسفي وبعض الأئمة إلى أنه العلم الذي لا يحتمل النقيض. . .، وذهب آخرون إلى أنه العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه سواء كان ضروريا أو استدلاليا، وذكر الراغب أن اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: على يقين، ويقال معرفة يقين، وهو سكون النفس مع ثبات الحكم. . ٤٨ - أما من جحد لقاء الله أو شك في مجيئه فقد عمى قلبه: {بل ادارك علمهم في الآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بل هم منها عمون} ٤٩ وأولئك لا يستنيرون بنور القرآن وإن كان الذي يتلوه عليهم هو خير الأنام عليه الصلاة والسلام، يقول الله جل علاه: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة لا يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} ٥٠، فيا عجبا كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجبا ممن يعرف النشأة الآخرة وعجبا ممن ينكر البعث والنشور وهو كل يوم يموت ويحيا، وعجبا ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور ٥١. ولكن أهل الإيمان والتقى يصدقون بيوم الدين، يوم الفصل بين العباد بعد بعث الأجساد والحشر والتناد لا يشكون في إحياء الموتى من قبورهم ولا في عرضهم على ربهم، ولا في جزائهم وثوابهم وعقابهم، ولا ينكرون شيئا من أحوال دار القرار التي أنبأنا بها الواحد القهار، العزيز الغفار.

٥ - (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{المفلحون} الفائزون.

{أولئك على هدى من ربهم} الموصوفون بالصفات التي أرشدت إليها الآيات المباركات السابقات يفوزون بالتمكن من الهدى، فالعرب تقول: فلان على الحق، أي متمكن من الحق، فلان على الباطل أي موغل فيه، متشبث به وقد يصرحون بذلك فيقولون: اتخذ الغواية مركبا، أما الذين صدقوا واستمسكوا بالوحي فإن مولاهم تبارك اسمه أصلحهم وحبب إليهم الاستقامة،

يقول الحكماء: الهدى من الله كثير، ولا يصلحه إلا بصير ولا يعمل به إلا يسير ألا ترى أن نجوم السماء يبصرها البصراء، ولكن لا يهتدي بها إلا العلماء.

{أولئك هم مفلحون} هم الفائزون الرابحون في الدنيا والآخرة، قال ابن أبي إسحاق عن ابن عباس: هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجو من شر ما منه هربوا وأما معنى قوله {أولئك على هدى من ربهم} فإن معنى ذلك أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم، - وتأويل قوله {أولئك هم المفلحون} أي: أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكرهم بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب- ٥٢.

٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{كفروا} غطوا وستروا. (سواء) مستو.

{أأنذرتهم} أخوفتهم.

وصف الله تعالى المتقين في الآيات الأربع السابقات وكأنها شاهدة بأن بصائر القرآن ونوره وموعظته تهدي إلى سبل السلام وتبلغ بالمتبعين لها الفوز والنجاح ورضوان الملك العلام أما الذين لا يتبعون الذكر فقد أنبأتنا هذه الآية أنهم لا يزدجرون عن الغي ولا يتهيبون عاقبة الزيغ والبغي ولا يسلكون سبيل الحق: " {إنما تنذر من اتبع الذكر} ٥٣، أي: فهذا ينفعه الإنذار أما المكذبون بالقرآن فما تغني عنهم النذر، ذلك أن القلوب إذ غلفها الغرور والكبر تحجرت، وفارقها صفاء الفطرة ولا يستويان جاء في محكم الفرقان: {. . . فويل للقاسية قلوبهم من الذكر أولئك في ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يظلل الله فماله من هاد} ٥٤، وهكذا من خرج على فطرة الله السوية فإن إنذاره وعدم إنذاره يستويان والكفر ضد الإيمان وهو المراد في الآية وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ومنه قوله عليه السلام في النساء في حديث الكسوف (. . ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء) قيل: بم يا رسول الله؟ قال بكفرهن قيل: أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت

منك شيئا قالت ما رأيك منك خيرا قط) أخرجه البخاري وغيره، وأصل الكفر في كلام العرب: الستر والتغطية.
وقوله تعالى {سواء عليهم} -معناه: معتدل عندهم الإنذار وتركه. . وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثله قوله تعالى {سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} ٥٥. . (. . أنذرتهم) والإنذار: الإبلاغ والإعلام ولا يكاد يكون إلا في تخويف يتسع زمانه للإحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ واختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب. . {لا يؤمنون} موضعه رفع خبر (إن) - ٥٦.
٧ - (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
{ختم} طبع وكتب {غشاوة} غطاء
{ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم} قال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفارة بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والقساوة والانصراف والحمية والإنكار ٥٧؛ وعن ابن عباس وابن مسعود ما حاصله: الختم على القلوب عدم الوعي عن الحق- سبحانه- مفهوم مخاطبته والفكر في آياته؛ وعلى السمع عدم فهمهم القرآن إذا تلي عليهم أودعوا إلى وحدانيته؛ وعلى الأبصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، [القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر وقال الله تعالى: {. . . كذلك لنثبت به فؤادك} ٥٨، ويقال: {ألم نشرح لك صدرك} ٥٩ يعني في الموضعين قلبك؛ وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب} ٦٠ أي عقل؛ لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين: والفؤاد محل القلب والصدر محل الفؤاد والله أعلم] ٦١.
٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)
بعض من البشر يقولون بألسنتهم ما ليس بقلوبهم، فكلامهم كلام المتخشعين وطويتهم على المكر والاحتيال والغدر بالمؤمنين: {. . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا} ٦٢ ولم تسبق سورة البقرة في النزول سورة تحدثت عن المنافقين في ثلاث عشرة آية كما نقرأها هنا ولعل من حكمة الله تعالى في ذلك أن السورة التي سبقتها نزلت قبل الهجرة، وهناك لم يكن من يظهر الإسلام ويخفي الكفر، بل كان على العكس من ذلك. قد يحدث أن يظهر شخص الكفر مستكرها لكنه على الحقيقة مؤمن فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، ونصره الله تعالى يوم بدر أكل الحقد صدور اليهود، فانبعث عبد الله بن أبي سلول وكان رأسا في المدينة وقال: هذا أمر قد توجه؛ وأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على مثل ضغنه وخبثه، يريدون أن يكيدوا الإسلام من داخله بعد أن يئسوا من النيل منه، وهم يناؤونه ويناصبونه العداء السافر المستعلن، يعتقدون بجهلهم أنهم يتلونه والتوائهم يغرون الله وأهل الإيمان، خابوا وخسروا فإن الله عليم بذات الصدور وقد هتك أستارهم وفضح أمرهم بقوله عز وجل: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} ٦٣ أي إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط: {وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وَهُم قد خرجوا به والله أعلم بما يكتمون} ٦٤
٩ - (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)
{يخادعون} يظهرون غير ما يخفون والمخادع يختل غيره عن شيئه ويحتال ليوقع المكروه به.
{يشعرون} يعلمون علم حس.
وإذا اعتلت نفوس المنافقين وفسد عقلهم وساء ظنهم بربهم ففعلوا معه فعل المخادع- تكلموا بكلام المسلمين وعملوا عمل الغادرين وظنوا أن هذه المراءاة تجوز وتروج على الحكيم العليم-
١٠ - (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)
{مرض} حالة توجب وقوع الخلل في الأفعال الصادرة عن موضوعها.
{فزادهم الله مرضا} كلما أنزل من وحي الله تعالى شيئا فكفروا به وازدادوا كفرا.

{أليم} وجيع {يكذبون} فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

لما فسدت طويتهم زادهم الله فسادا: فكأن المرض هنا علة في الدين ولا تستلزم بالضرورة أن تكون علة حسية في العضلة الصنوبرية التي في أيسر التجويف الصدري، والمعروف بالقلب؛ ومن عدل الله وفضله أن كلماته- وكلها صدق وعدل- تزيد العقلاء المهتدين تبصرا وهداية، وتزيد الضالين حسرة وخسارا: {. . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم} ٦٥: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} ٦٦؛ {وإنه لتذكرة للمتقين. وإنا لنعلم أن منكم مكذبين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحق اليقين} ٦٧. {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} ولهؤلاء المخادعين عذاب موجع أشد الوجع: بالغ النهاية في الألم: {. . قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يصهر به ما في بطونهم والجلود. لهم مقاطع من حديد} ٦٨: وذلك بكذبهم على ربهم وقولهم آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره: {ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة} ٦٩ - المنافق هو الذي لا يطابق ظاهره باطنه سواء كان ما في باطنه ما يضاد ظاهره أو كان خاليا عما يشعر به ظاهره. . . ولغلظ كفر المنافقين قال الله تعالى: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار} ٧٠: ووصف حال الكفار في آيتين، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية نعى عليهم فيها خبثهم ونكرهم، وفضحهم وسفههم، واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم،. . ودعاهم صما وبكما، وضرب الأمثال الشنيعة؛ قصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا. . . والضمير العائد إلى من يكون موحدا تارة باعتبار اللفظ، نحو: {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة} ٧١ ومجموعا أخرى باعتبار المعنى مثل: {ومنهم من يَسْتَمِعُونَ إليك} ٧٢، وقد اجتمع الاعتبار في الآية في {يقول} و {منا} وإنما اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر لأنهما قطرا الإيمان ومن أحاط بهما فقد حاز الإيمان بحذافيره، وفي تكرير الباء إيذان بأنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام، فلما أتوا بالجملة الفعلية ليكون معناها: أحدثنا الدخول في الإيمان لتروج دعواهم الكاذبة جاء بالجملة الاسمية ليفيد نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البث والقطع، وأنهم ليس لهم استئهال أن يكونوا طائفة من طوائف المؤمنين، فكان هذا أوكد وأبلغ من أن يقال: إنهم لم يؤمنوا ونظير الآية قوله تعالى: {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها} ٧٣ -

١١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

{لا تفسدوا} لا تخرجوا الشيء عن أن يكون منتفعا به.

{وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نَحْنُ مصلحون} ومن هؤلاء الناس الذين يخادعون من إذا قيل لهم لا تخرجوا بقلوبكم وعقولكم عما فيه صلاحها وفلاحها- إذ المكر والمخاتلة تفسد العباد- إذا نهوا عن الغي والفسوق ردوا بأنهم ما فعلوا إلا ما فيه الصلاح قال ابن عباس: قالوا: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب.

١٢ - (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ)

{ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون} ما هؤلاء إلا المتمحضون للإفساد، المقيمون عليه الموغلون فيه وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، ولم يدروا أنهم بتضييعهم أمانات الله، وشكهم في دينه قد بلغوا الغاية في الغي والإغواء.

١٣ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ)

{السفهاء} ضعاف العقول، الجهال

{وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء} دعوا إلى التخلي عن المكر والكفر فنفروا، ونودوا إلى التحلي بالتصديق بالحق واتباع الرشد نخسروا، وآذوا أهل اليقين، ورموهم بخفة العقل، وقلة المعرفة، وضعف الرأي؛ عن ابن عباس ما حاصله ٧٤: وإذا قيل لهم صدقوا كما صدق أصحاب محمد الذين تعرفونهم من أهل التصديق الراسخ بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله، وباليوم الآخر، فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل ونصدق بمحمد كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول

لهم ولا أفهام؟ {ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون} قال ابن كيسان يقال: ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، وإنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم، قال: ففيه جوابان: أحدهما- أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم، والوجه الآخر: أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فسادا وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه.

١٤ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)

{شياطينهم} أئمتهم في البغي من الإنس والجن. {مستهزؤون} مستخفون ساخرون.

{وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون} يبتغون بادعائهم الإيمان المصانعة للمؤمنين والمشاركة فيما يسوق الله إلى أوليائه من خير أو مغانم، فهم لهذا إذا واجهوا المؤمنين وجلسوا إليهم يعلنون إيمانهم- وقلوبهم منكرة- وقد نبأ الله المؤمنين من أخبارهم: فقال جل شأنه: {وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به. } ٧٥ أي يدخلون عليكم وهم على كفرهم، ويخرجون من عندك وما تغير من كفرهم شيء وحين يبتعدون عن أعينكم ومجالسكم ويذهبون ويخلصون إلى أقرانهم وكبرائهم وقادتهم وأشقيائهم من شياطين الإنس والجن- وكلهم أعداء الله، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا يقول هؤلاء المخادعون لأئمة ضلالهم: إنهم على إفكهم وكفرهم؛ وإنما صنيعهم في التكلم بكلام المسلمين والتردد على مجالسهم ومشاركتهم بعض أعمالهم ليس إلا على سبيل الاستهزاء والسخرية.

١٥ - (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

{يستهزئ} ينزل الهوان والحقارة بهم.

{يمدهم} يزيدهم ويلحق بهم ما يتمادون به.

{طغيانهم} غلوهم في كفرهم ومجاوزتهم الحد في فجورهم وشرهم.

{يعمهون} يتحيرون ويترددون.

{الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون} الله يجازيهم على الاستهزاء بالمؤمنين ويعاقبهم عقوبة المخادعين، فسمى هذا الجزاء باسم ما ارتكبوه من زور: (موافقا في اللفظ مخالفا في المعنى؛ وذلك كقوله سبحانه {وجزاء سيئة سيئة مثلها} ٧٦ مع أن اقتضاء الحقوق بر وعدل وليس من السوء في شيء لكن هذا كما قال علماء المعاني من باب المشاكلة أي الكلمتين واحد ومعناها مختلف كما في الآية الكريمة {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} ٧٧ مع أن العدوان الأول ظلم والثاني عدل {ويمدكم} أي ويمهلكم الله تعالى فيخلي بينهم وبين ما سلكوه في طغيانهم في تجاوزهم الحد في البغي والإغواء والغي {يعمهون} يتحيرون ويترددون. . {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٧٨ وذلك كقوله تعالى {إنما نملى ٧٩ لهم ليزدادوا إثما} ٨٠.

١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

{اشتروا} استبدلوا.

{الضلالة} الذهاب عن الصواب وإعياء الأمر.

{أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى} تخلوا عن هدى الله الذي جاءهم مقابل أخذهم الزيغ والحيرة والجور عن القصد هؤلاء البعداء في الغواية وإن كان ذكرهم قريبا استبدلوا الخبيث بالطيب، منهم من فضل الغواية منذ البداية ومنهم من أسلم ثم اتقى كالذين حكى القرآن عنهم: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله قلوبهم} ٨١، وإذا كانت معاوضة ومبادلة بين شيئين وصيغت مع دخول الباء على أحد العوضين فإن الباء تدخل على المتروك كما جاء في القول الحكيم {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير} أي تأخذون الشيء الأدنى مقابل أن تتركوا الشيء الذي هو خير {فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين} الربح تحصيل الزيادة على رأس المال، والتجارة التصرف في رأس المال طلبا للربح، صفقة خاسرة تلك التي أبرمها المخادعون فلا هم ظفروا بربح ولا بقي لهم رأس المال وقد يراد

بالضلال الهلاك كما في قول ربنا عز وجل {وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد} ٨٢ أي إذا أهلكنا وبلينا في القبور هل يجري علينا الإحياء ثانية والبعث والنشور كما أن الهدى قد يعني الاهتداء إلى دار الإسلام كما قال الملك العلام {والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم} ٨٣.

١٧ - (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ)

{مثلهم} حالهم وصفتهم {استوقد} أوقد

{ذهب} أزال {تركهم} أبقا بهم

نقل عن ابن مسعود وغيره أن أناسا دخلوا في الإسلام مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة: ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فأضاءت له ما حوله من قذي وأذى فأبصره حتى عرف ما يتقى فبينما هو كذلك إذ طفأت ناره فأقبل ما يدري ما يتقى من أذى فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر وأما النور فالإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وكانت الظلمة نفاقهم، حالهم كحال الذي توجه إلى الاستضاءة وطلبها من مصدرها ثم كرهها وصد عنها واختار الظلام لها بديلا ويصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما جاء في الآية الكريمة: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. } ٨٤ ولولا ذلك لقيل: كمثل الحمير. {وتركهم في ظلمات لا يبصرون} وتركهم الله إلى ظلمات أحقادهم، وسواد أطماعهم، فزادتهم عماية وغواية.

١٨ - (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ)

{صم} سدت مسامعهم {بكم} خرس لا ينطقون

{عمي} ذهبت أبصارهم {لا يرجعون} لا يعودون إلى الاهتداء

{صم بكم عمي فهم لا يعقلون} صم عن سماع الحق، فآذانهم مغلقة دونه، عمي عن سبيل السلام فلا يبتغونه، بكم عن القول الحق فلا يقولونه، وإنما تحرك به ألسنتهم مخاتلة وغدرا ولكنهم يتجافون عنه ولا يقدسونه بل لا يحبون أهل الحق ولا يكادون يطيقون رؤيتهم: {. . وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ} ٨٥ - ولا يرغبون الرجوع عن صفقتهم التي باعوا فيها الإخلاص واشتروا المكر والمخاتلة؛ {. . ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون} ٨٦؛ وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض مما ذكرناه نفيها من جهة ما؛. . ولقد أحسن الشاعر حيث قال: أصم عما ساءه سميع

وقال الدرامي:

أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر ٨٧

١٩ - (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)

{كصيب} كمطر {السماء} كل ما علاك فأظلك

{رعد} الصوت الذي يسمع من جهة السحاب {برق} الضوء المنبعث من السماء

{يجعلون أصابعهم في آذانهم} يضعون أطراف أصابعهم ليسدوا بها آذانهم

{الصواعق} الواقعات الشديدة من صوت الرعد أومن نار البرق والشهاب

{محيط} لا يفوته شيء

{أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت} تسع آيات سبقت بينت حقيقة المخادعين المنافقين، وبعدها أربع ضرب الله في كل اثنين منها مثلا لحالتهم وصفتهم وقصتهم، مضى المثل في الأول في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة، ثم عطف عليه المثل الثاني، {أو كصيب من السماء} أوحالهم كحال من سقط عليه المطر النازل من العلو ومن جهة السماء {فيه ظلمات ورعد وبرق} حين ينهمر الماء من السحاب يظلم الأفق، ويحتجب الضوء، ويحدث الرعد والبرق، فنسمع

الصوت القاصف، ونشهد الضوء المتوهج اللامع الخاطف؛ {يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت} يجعل المخادعون أناملهم وأطراف الأصابع السبابة منهم، ويضعونها في آذانهم ليسدوها لكيلا يسمعوا صوت الصاعقة خشية أن يميتهم سماعه {والله محيط بالكافرين} فلن ينفعهم حذرهم، لأن الكون كله في قبضته سبحانه، فقدرته محيطة بكل مخلوق وبكل مقدور، ولن يفلت منه أو يفوته أو يعجزه أحد؛ ويكن اعتبار المثل مركبا وتشبيها لهيئة بهيئة فلا يلزم أن نقابل بين كل ما ذكر في المشبه به وبين كل ما ذكر في المشبه به وكأن المعنى: مثل المختالين في ممالأتهم لأهل الكفر وضيقهم بأهل الإسلام وحذرهم من علو كلمة الله مثلهم كصفة الذي يشهد المطر الخير النافع الذي يحيي الله به الأرض ويسقي به الخلق فلا يفرحون بنزوله، ولا يتعرضون لبركته وإنما يخافون ما اقترن به ويحسبون كل صيحة عليهم كما وصفهم الله بقوله تعالى: {. . ولكنهم قوم يفرقون} ٨٨، جبناء فزعون.

٢٠ - (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{يكاد البرق يخطف أبصارهم} ضياء الإسلام ونوره تعشى به أعينهم فلا يطيقون سناه، {كلما أضاء لهم مشوا فيه} فإذا سكنت قلوبهم حينا أنسوا بما حمل الدين من نور، {وإذا أظلم عليهم قاموا} وسرعان ما تعاودهم الشقاوة فيؤثرون العوج على الاستقامة، والزيغ على القصد وفي مثل هؤلاء جاء القول الحق: {ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين} ٨٩. و {قاموا} أي وقفوا حائرين. {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم} ولو أراد الله أن يجردهم من نعمة السمع والبصر لما أغنى عنهم أحد من الله شيئا؛ والله أنذر المعاندين وبهتهم بقوله الحكيم: {قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به} ٩٠. {إن الله على كل شيء قدير} ٩١ إن ربنا المعبود بحق على ما يريد بالعباد من عفو أو مآخذة ومن إهمال أو معالجة مقتدر، وعلى إنقاذ كل ما يشاء من أمر قادر.

٢١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

{اعبدوا} وحدوا وأطيعوا.

{ربكم} سيدكم ومولاكم ومطاعكم ووليكم.

{خلقكم} أنشأكم وأبدعكم.

لعل في نداء الله تعالى كافة البشر ما يشهد لعموم الرسالة الخاتمة وأنها لجميع الآدميين منذ بعث خاتم النبيين، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين فمع أن السورة مدنية فإن الخطاب موجه إلى المؤمنين ومن عداهم؛ والعبادة تعني التوحيد كما تعني الطاعة

٢٢ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{جعل} صير.

{فراشا} وطاء ومستقرا. {بناء} سقفا

{الثمرات} حمل الشجر وأنواع المال. {رزق} قوتا وما يتمول وينتفع به. {أندادا} أكفاء وأمثال ونظراء.

وذكرت نعم في الآيتين المباركتين ليستدل الناس بها على المنعم سبحانه فيعبدونه ويشكرونه على ما خلق وما رزق، ويتركوا ما اختلقوه وزعموه وادعوه من أكفاء وأمثال ونظراء، فإن الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون {. . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون} ٩٢، فالله الولي هو الذي يستحق الطاعة والشكر وحده دون سواه، فهو الذي أنشأنا وآباءنا من العدم، وأبدعنا على خير مثال سبق فصورنا فأحسن صورتنا، وأتقن تقويمنا فنسأله كما حسن خلقنا أن يحسن خلقنا وتبارك الذي سخر علا الكون وسفليه، فالأرض لنا مستقر ووطاء والسماء فوقنا سقف وغطاء وما ينزل من السحاب المعلق جهة السماء إنما هو ماء مبارك يصيب به ربنا من يشاء ويصرفه عمن يشاء؛ فإذا أصاب به أرضا اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج نبت نقتات من حبه وجنات من نخيل باسقات وأعناب وزيتون ورمان وشجر مختلف الثمرات، نتفكه بها

ونتملك ما ييسر الله لنا من ثمنها فمن غير الله يخلق نخلقه أو يملك شيئا من رزقه؟.
{أنتم تعلمون} ٩٣ أنه لا أحد يخلق نخلقه: {ولئن سألتم من خلقهم ليقولن الله} ٩٤ والمشركون يعلمون أنه لا رازق إلا الله: {قل من يرزقكم من السماء والأرض أَمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون} ٩٥. نقل عن أبي عبيدة: (أندادا) جمع ند، وكأنه راعى في المعنى أن فعل (ند) يفيد النفور يقال ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه، قالوا: والند: المثل ولا يقال إلا للمثل المخالف. . من ناددت الرجل: خالفته وقول الموحد: ليس لله ند ولا ضد يعني: نفى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه واتخاذ الأنداد والشركاء جريمة دونها كل ذنب وجرم، وهي رأس الكبائر وأعظم الظلم سواء اعتقد المشرك ذلك، أو تابع غيره من الآباء والكبراء والقرناء في ظلالهم، والقول مثل قولهم ولعل هذا من حكمة الله تعالى في النهي عن مقاربة الشرك قولا أو اعتقادا، يقول سبحانه: {. . فاجتنبوا الرجس من الأوثان. } ٩٦؛ والزعم أن الأسباب تؤثر بذاتها دون جاعلها ومسببها تبارك وتعالى- زعم استقلال الأسباب بالتأثير- جحود بالله العلي الكبير؛ روى البخاري ومسلم في صحيحهما عند زيد ابن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بالحديبية على إثر سماء ٩٧ كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرا بنوء ٩٨ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)؛ ولئن كان نزول المطر في أكثر الأحيان يترتب على تقلبات فلكية، لكن خلقه ونزوله بقدرة الله تعالى ومشيئته؛ والأنواء وتأثيرها في حصول الأمطار لا يعدو أن يكون سببا يعلمه الله- جل جلاله- متى شاء ويبطل عمله متى يشاء والله الفعال بما يريد قادر على إنشاء الأشياء بلا أسباب بل وبلا مواد، كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد.
٢٣ - (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{ريب} شك
{شهداءكم} أعوانكم.
{سورة} قطعة من القرآن مشتملة على جملة من آياته.
في آيتين كريمتين سبقتا ساق الله تعالى البرهان على أنه- دون سواه- هو الخالق للأولين والآخرين، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، فلا حجة لمشرك يتخذ أندادا لرب العالمين؛ ثم بعد ذلك الكلمات التامات الصادقات العادلات- وكل كلمات ربنا تامة وصدق وعدل- أقام الله الحكيم فيها الحجة على أنه منزل الكتاب العزيز، فمن ارتاب في أنه كلام الذي ليس كمثله شيء فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فيما ادعوه من أنه من قول البشر؛ - قال الله جل ثناؤه لهم: وإن كنتم أيها المشركون من العرب، والكفار من أهل الكتابين ٩٩ في شك، وهو الريب مما نزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي، وأنا الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول فاتوا بحجة تدفع حجته لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق ومن حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه، وبرهانه على صحة نبوته وأن ما جاء به من عندي عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله، وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والدراسة فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز. . فيتقرر حينئذ عندكم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتقوله ولم يختلقه، لأن ذلك لو كان منه اختلاقا وتقولا لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيان بمثله، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعد أن يكون بشرا مثلكم. .) ١٠٠ – ومع حرصهم على التشكيك في الإسلام وكتابه أعجزهم أن يجيئوا بقرآن مثله، وقال المولى الحكيم سبحانه: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ١٠١، وعجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثل ١٠٢ سوره الكريمة وحاجهم القرآن فحجهم إذ ادعوا زورا وافتراء أن النبي ابتدعه من عند نفسه، أو اكتتبه من أساطير الأولين، فأكذبهم رب العالمين بقوله المبين: {أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم

الله. { ١٠٣؛ روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)؛ - أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه؛ وصدق الله العظيم: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} ١٠٤.

٢٤ - (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

{فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة} فإن لم تقدروا على الإتيان بسورة تماثل سورة من سور الكتاب العزيز في بلاغتها، وثبت عجزهم وعجز جميع الخلائق عن مضاهاة القرآن المجيد فاعلموا أنه من عندي؛ ولن تستطيعوا أن تجيئوا بما يماثله ويضاهيه وإن كانت شيئا لا يبلغ عشر معاشره، فلن يبق عليكم إلا أن تخشع قلوبكم لهذا الحق، وتستيقنوا بما فيه وتخضعوا لسلطانه وتستقيموا على منهاجه لتقوا أنفسكم عذاب جهنم الذي أعد لكل كافر بالآيات، شاك في صدقها أو تمامها أو عدلها.

٢٥ - (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار} لما كان في الآية التي تقدمت النذير لمن شك في الذكر الحكيم وأنه كلام العزيز العليم جاء في هذه البشرى للمستيقنين على هدى الكتاب الكريم بأن لهم جنات النعيم، يسكنون قصورها ويقطفون ثمارها، والأنهار تجري حولها أوفي أصول أبنيتها وأشجارها. {كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل} وفي كل حين تقدم الثمرات عطاء لأهل الجنة يقولون: هذه الثمرات قد رزقنا منها قبل إما أن يكون المراد: لقد أوتينا نحوها في الدنيا أو: قدمت إلينا هذه الثمرات قبل قليل هنا في الجنات؛ عن يحيى ابن أبي كثير: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذي أتيتنا به من قبل، فيقول الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف يقول أبو جعفر: كلما رزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ثمرات الجنة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل هذا في الدنيا. {وأتوا به متشابها} كله طيب خيار، لا رذل فيه أو: متشابها في اللون والمنظر مع ثمر الدنيا مختلفا في الطعم والذوق؛ - والغرض من تشابه ثمر الدنيا وثمر الآخرة أن الإنسان بالمؤلوف آنس، وإلى المعهود أميل، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ورأى فيه مزية ظاهرة أفرط ابتهاجه وطال استعجابه، وتبين كنه النعم فيه-. ١٠٥ {ولهم فيها أزواج مطهرة} للمؤمنين الذين استيقنوا بكل ما يجب التصديق به في الدنيا، وعملوا الأعمال الصحيحة في الدين- حسبما شرع موحيه جل علاه- لهم في الجنات نعيم من جملة ما ينعمون به أزواج طهرهن ١٠٦ الله تعالى؛ نقل عن مجاهد: لا يبلن ولا يتغوطن، ولا يلدن ولا يحضن، ولا يمنين ولا يبصقن. {وهم فيها خالدون}، والسعداء الذين ينالون الجنة يمكثون فيها ويبقون وقد يراد بالخلود المكث الطويل، لكن الذي في هذه الآية وأكثر ما جاء البقاء الأبدي، لأنه المعنى الحقيقي للخلود، وأما المكث الطويل فاستعمال مجازي فيه.

٢٦ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ)

{لا يستحيي} لا يترك ولا يمتنع ولا يخشى. {يضرب} يبين.

{بعوضة} الحشرة الصغيرة ذات الجناحين المعروفة.

{فما فوقها} فما دونها، إذ هي فوقها في الصغر وأقل منها.

{الحق} الأمر الثابت الصادق وضده الباطل.

{مثلا} كلاما حكيما يشبه مضربه بمورده.

{يظل} يترك في الضلال والضياع والحيرة والذهاب عن القصد.

{يهدي} يرشد، ويشرح الصدر، ويمكن للإيمان في القلب.

{الفاسقين} الخارجين عن حدود ربهم، الفجار والكفار.
إن المولى الحكيم جل علاه لا يخشى أن يضرب أي مثل ١٠٧ كان بأي شيء كان، صغيرا كان أو كبيرا و {ما} للتقليل؛ - فأخبر أنه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، فكما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: {. . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب} ١٠٨ ويقال: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون} ١٠٩ - ١١٠ {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم} فأهل اليقين والتصديق كلما ضرب الله تعالى مثلا علموا أنه صدق وعدل وحكمة لأنه كلام ربنا الذي له الجلال كله وهوالحكيم العليم. {وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا} ولكن المكذبين بوحي ربنا يسخرون من الآيات ويسألون سؤال المستهزئ وينكرون أن يكون لهذا الكلام أثر: {وإذا ذكروا لا يذكرون. وإذا رأوا آية يستسخرون. وقالوا إن هذا إلا سحر مبين} ١١١؛ {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم} ١١٢.
{يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين} عن ابن مسعود: فيزيد هؤلاء ضلالا إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذي ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به {ويهدي به} يعني بالمثل كثيرا من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق ما ضربه الله لهم مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به، وهذا شأن الكتاب العزيز كله: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} ١١٣.
{وما يضل به إلا الفاسقين} فهو موعظة تهدي للتي هي أقوم يتعظ ويهتدي به من عقل وسلمت فطرته واستقامت سريرته ويضيق به ويصد عنه من غفل وضل وفسدت فطرته وخبثت طويته، جاء في محكم التنزيل: {. . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى} ١١٤، {. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} ١١٥؛ {وإنه لحسرة على الكافرين} ١١٦؛ والفاسق: الخارج عن حدود الله.
٢٧ - (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)
{ينقضون} يفسدون ما أبرموه، ويتركون العمل به.
{عهد} أمر ووصى. {ميثاقه} عهده المؤكد باليمين.
{يقطعون} يهجرون، ويعقبون، ويصدون. {يوصل} يرعى.
{يفسدون} يتلفون ويسيئون.
{الخاسرون} الذين نقصوا نفوسهم حظها من الفلاح.
{الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه} وصف القرآن الفاسقين بأنهم الذين يفسدون ما أبرموا من عهد وقد وثقوه وأخذ ربنا عليهم ميثاقه أن يوفوا به وذلك وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعة الله تعالى ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنة رسله ونقضهم وذلك: ترك العمل به ثم وصفهم ثانيا بأنهم يهجرون ويعقون ويصدون عن الذي أمر الله تعالى أن يرعى؛ ووصفهم ثالثا بأنهم يفسدون في الأرض فيتلفون ويسيئون ويهلكون ويخرجون ويبغون. {أولئك هم الخاسرون} أشار إليهم بما يشار به إلى البعيد مع أنهم ذكروا قريبا إشارة إلى بعدهم في الهلاك والضياع وغبنهم أنفسهم، إذ نقصوها حظها من الفلاح والفوز والنجاة.
٢٨ - (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
{كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون} هذا إنكار وتعجيب من حال الذين لم يؤمنوا بربهم مع أنهم يعرفون نعمته وقدرته فهو المحيي والمميت، {ولئن سألتهم من خلقكم ليقولون الله فأنى يؤفكون} ١١٧ وقيل: تقرير وتوبيخ أي:

كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه؟ عن ابن عباس وابن مسعود: كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا فأحيا كم- أي خلقكم- ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ثم يحييكم يوم القيامة وهذا كقوله تعالى- حكاية عن إقرار البعض يوم البعث: {قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين.) ١١٨، والإحياءة الثانية يعقبها الحشر والعرض والسؤال والحساب وقضاء الله بين العباد المستتبع الفصل بين المصلحين والمفسدين، والمتقين والفجار، {فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} ١١٩.

٢٩ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{خلق} أوجد بعد العدم، وأنشأ واخترع.

{استوى} ارتفع وعلا، قصد إليها بخلقه وإبداعه.

{فسواهن} أبدعهن مستويات وحسنهن.

{هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا} الله الذي يحيي ويميت وإليه المصير حقه أن يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر ويطاع فلا يعصى فعجيب ومنكر أن يجحده الجاحدون ومع تفضله بنعمة الخلق فقد أسبغ الآلاء والعطايا والرزق ولمنافعنا سخر لنا كوكب الأرض وما فيه- ولانتفاعكم به في دنيا كم وذلك ظاهر وفي دينكم من النظر في عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم ومن التذكير بالآخرة وثوابها وعقابها لاشتماله على أسباب الأنس واللذة من فنون المطاعم والمشارب،. . . والمراكب والمناظر الحسنة البهية وعلى أسباب الوحشة والألم من النيران والصواعق. . . والغموض والمخاوف- ١٢٠ {ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سنوات} ربنا سبحانه أبدع الأرض وأوجدها في يومين وبارك فيها وقدر فيها أقواتنا في يومين فصارت أربعة أيام ثم خلق السماوات السبع في يومين فخلق السماوات والأرض في ستة أيام أي ما قدره ذلك لأن اليوم إنما يعرف ويتقصى بالدورة الفلكية المعلومة التي تكون سببا لليل والنهار وحين بدئ خلقهما لم يكن ثمة شمس ولا أرض ينشأ من دورانها وتحركها في فلكيها نهار وليل ومنهما يتكون اليوم؛ - {ثم استوى} {ثم} لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه، والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلو على الشيء، قال الله تعالى: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك. } ١٢١ وقال: {لتستووا على ظهوره} ١٢٢ وهذه الآية من المشكلات والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها وذهب إليه كثير من الأئمة وهذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى} ١٢٣ قال مالك: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأراك رجل سوء أخرجوه وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. . وقال البيهقي: قوله {استوى} بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء والقصد هو الإرادة وذلك جائز في صفات الله تعالى ولفظه {ثم} تتعلق بالخلق لا بالإرادة. . . {فسواهن سبع سموات} ذكر تعالى أن السموات سبع، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى: {. . . ومن الأرض مثلهن} ١٢٤،. . . وأنها سبع كالسموات السبع؛ روى مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {وهو بكل شيء عليم}. . . فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته- ١٢٥.

٣٠ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

{ربك} مالكك ووليك ومصلحك

{للملائكة} للخلق النورانيين سكان السماء جند الله المطيعين

{جاعل} خالق. {خليفة} يخلف من كان قبله في الأرض

{يسفك} يصب. {نسبح} ننزهك عما لا يليق بصفاتك.

{نقدس} نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك.

{وإذ قال ربك} امتن الله تعالى بأن خلق علوي الكون وسفليه وسخره لنا ثم امتن بتكريمه لأبي البشر لآدم عليه السلام وتشريفه لكل

بني جنسنا وإذ ١٢٦ قد تكون مسبوقة بجملة مقدرة أي: وابتدأ خلقكم إذا قال أو متعلقة بفعل محذوف، تقديره: واذكر إذ قال ربك، أو التقدير: واذكر وقت قول ربك ١٢٧ {للملائكة} جمع ملك والتاء للمبالغة كعلامة ونسابة.

{إني جاعل في الأرض خليفة}: إني خالق في هذا الكوكب الأرضي من يخلف الذين كانوا قبل فيها أو خلقا يخلق بعضهم بعضا عن أبي مسعود وابن عباس وأهل التأويل أن المعنى بالخليفة هنا آدم- عليه السلام- وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره- هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة.

. ودليلنا قول الله تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة}، وقوله تعالى: {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض. } ١٢٨ وقال: {وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض} ١٢٩ أي: يجعل منهم خلفاء. . واختلفت فيما يكون به الإمام إماما وذلك ثلاث طرق أحدهما النص،. . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصديق أو على جماعة كما فعل عمر وهو الطريق الثاني ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في تعيين عثمان ابن عفان رضي الله عنه، الطريق الثالث إجماع أهل الحل والعقد. . . شرائط الإمام. . . أحد عشر- ١٣٠.

{قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسد الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك} نقل ابن جرير، وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: فكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم: {إني أعلم ما لا تعلمون} يعني أن ذلك كائن منهم. . . قال، وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك فكأنهم قالوا يا رب اخبرنا – مسألة اختبار منهم لا على وجه الإنكار- واختاره ابن جرير لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}؟ فإذا كان المراد عبادك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال {إني أعلم ما لا تعلمون} أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد الذي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا – ١٣١ قال ابن جرير: التقديس هو التعظيم والتطهير ومنه. . . سبوح قدوس،. .: تنزيه له:. . قدوس: طهارة وتعظيم، وكذلك قيل للأرض مقدسة يعني. . المطهرة فمعنى قول الملائكة: ونحن نسبح بحمدك ننزهك ونبرؤك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك {ونقدس لك} ننسبك إلى من هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ (قال ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده).

٣١ - (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{آدم} أبو البشر-عليه السلام-. {الأسماء} العبارات {أنبئوني} أخبروني

{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم ١٣٢ أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم} ١٣٣ {الأسماء كلها} [عن ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل. . . وأشباه ذلك، {وعلم} واختلف. . في كيفية التعليم بعد أن فسر أنه فعل يرتب عليه الفعل غالبا وبعد حصول ما يتوقف عليه من جهة المتعلم كاستعداده. . . وتلقيه من جهة المعلم. . . خلق فيه- عليه السلام- بموجب استعداده- علما ضروريا تفصيليا بتلك الأسماء وبمدلولاتها. . {آدم} وإبراز اسمه عليه السلام للتنصيص عليه والتنويه بذكره و

{الأسماء} جمع اسم وهو باعتبار الاشتقاق: ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن من الألفاظ. . واستعمل عرفا في الموضوع لمعنى، مفردا كان أو مركبا مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما. . وقال الإمام: المراد بالأسماء صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، لأنها علامات دالة على ماهيتها، فجاز أن يعبر عنها بالأسماء. . . {ثم عرضهم على الملائكة} أي المسميات المفهومة من الكلام. . . وقيل الضمير للأسماء باعتبار أنها المسميات مجازا. . . عرض المسميات عليهم يحتمل أن يكون عبارة عن اطلاعهم على الصور العلمية والأعيان الثابتة. . أو إظهار ذلك في عالم تتجسد فيه المعاني- وهذا غير ممتنع على الله تعالى -. . {فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء}. . . وعندي أن المراد إظهار عجزهم وقصور استعدادهم عن رتبة الخلافة الجامعة للظاهر والباطن بأمرهم من الإنباء بتلك الأسماء على الوجه الذي أريد منها والإنباء في الأصل مطلق الإخبار- وهو الظاهر هنا ويطلق على الإخبار بما فيه فائدة عظيمة ويحصل منه علم أو غلبة ظن وقال بعضهم إنه إخبار فيه إعلام. . . للإيذان برفعة شأن الأسماء. . . {إن كنتم صادقين} أي فيما اختلج في خواطركم من أن لا أخلق خلقا إلا أنتم أعلم منه. . . وأفضل وقيل: إن المعنى {إن كنتم صادقين} في زعمكم أنكم احق بالاستخلاف أو أوفى في استخلافهم لا يليق. . . وليس هذا من المعصية في شيء لأنه شبه اختلجت وسألوا عما يزيحها. . فحاصل المعنى حينئذ أخبروني ولا تقولوا إلا حقا كما قال الإمام] ١٣٤.

٣٢ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

{العليم} بالغ العلم

{الحكيم} المحكم لكل ما تفعل وتقول، المتقن

عن ابن عباس: {قالوا سبحانك} تنزيها لله من أن يكون أحدا يعلم الغيب غيره تبنا إليك {لا علم لنا} تبرؤ منهم من علم الغيب {إلا ما علمتنا} كما علمت آدم وسبحان مصدر لا تصرف له ومعناه نسبحك كأنهم قالوا نسبحك تسبيحا وننزهك تنزيها ونبرؤك من أن نعلم شيئا غير ما علمتنا {العليم} العالم من غير تعليم {الحكيم} ذو الحكمة

٣٣ - (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

{تبدون} تظهرون. {تكتمون} تسرون وتخفون

{قال يا أدم أنبئهم بأسمائهم} قال الله تعالى آمرا آدم عليه السلام: أخبرهم الملائكة بأسماء الذين لم يعرفوهم {قال} لهم ربهم: ألم أقل لكم أني أعلم ما غاب في علوي الكون وسفليه وما وراءه و {أعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} قال ابن زيد فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا لآدم بالفضل وعن ابن عباس: {وأعلم ما تبدون} يقول: ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز.

٣٤ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

{فاسجدوا} فاخضعوا

{إبليس} جني أسكنه الله السماء حينا ثم أهبطه إلى الأرض {أبى} امتنع

{وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين} - {وإذ قلنا}، أي واذكر. . . {قلنا} ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما وإشادة بذكره. . . {اسجدوا} السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع. . . استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة {اسجدوا لآدم} وذلك يدل أنه كان أفضل منهم. . واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة فقال الجمهور كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض كالسجود المعتاد في الصلاة لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع. . . واختلف أيضا هل كان السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى أم كان جائزا بعده إلى زمن يعقوب عليه السلام لقوله تعالى {ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا} ١٣٥ فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحا إلى عصر رسوله صلى الله عليه وسلم ١٣٦

}إلا إبليس{. . . قال ابن زيد والحسن. . . إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا. . . والاستثناء على هذا منقطع مثل قوله تعالى: {. . ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. { ١٣٧. . . واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله عز وجل وصف الملائكة فقال: {. . . لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون{ ١٣٨ وقوله تعالى: {. . إلا إبليس كان من الجن{ ١٣٩ والجن غير الملائكة،. . . {أبى{ معناه: امتنع من فعل ما أمر به ١٤٠ {واستكبر{ تأنف واستعظم، وكره أن يستجيب ما أمره الله تعالى به، كما حكى القرآن قيله، في آية كريمة: {أأسجد لمن خلقت طينا{ ١٤١ وفي آية أخرى: {قال أرأيت هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا{ ١٤٢، وفي آية ثالثة: {قال أنا خير منه خلقتني من النار وخلقته من طين{ ١٤٣ وفي آية رابعة {قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون{ ١٤٤ {وكان{ أي وصار من الكافرين وظهر أنه جاحد بحق المولى وحقه جل علاه أن يطاع فلا يعصى لكن الاستكبار يعمي البصائر ويستنزل السخط ويستوجب العقاب وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صح عنه (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر) وفي رواية قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس) أخرجه مسلم، ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله، وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم ولقد حمل الكبر ناسا على إنكار الحق واليوم الحق وفيهم يقول الحق سبحانه {. . . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون{ ١٤٥ فحل بهم مقت الله: {. . . إنه لا يحب المستكبرين{ ١٤٦ وأحلهم دار البوار {. . . فلبئس مثوى المتكبرين{ ١٤٧ وجند الله المكرمون لا يستنكفون عن الخضوع للملك المهيمن جل علاه {. . . وهم لا يستكبرون{ ١٤٨.

٣٥ - (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

}أسكن{ لازم الإقامة

}زوجك{ زوجتك حواء

}رغدا{ عيشا هنيئا

}وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما{ بعد تكريم آدم عليه السلام وتعليمه وتكريم الملائكة تفضيلا له، من الله تعالى عليه بالزوجة حواء وبالمقام ١٤٩ في منازل رفعة وعلاء ١٥٠ وبأقوات ومطاعم رغيدة هنيئة من أي جوانبها شاء {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين{ نهى لآدم وحواء عن التلبس بالأكل من شجرة أشير إليها ونهيا عن الدنو منها ١٥١ {فتكونا من الظالمين{ عطف على {تقربا{ وهو مجزوم بحرف النون وجزمه ب {لا{ الناهية وكأن المعنى: قصيرا وتصبح من المتجاوزين لما أمرتما به إن أنتما اقتربتا من الشجرة المعينة،

٣٦ - (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

}فأزلهما{ استزلهما وأوقعهما في الزلة {اهبطوا{ انزلوا من فوق إلى الأسفل

}مستقر{ موضع استقرار في حياتكم أو بعد موتكم تكون فيها قبوركم

}متاع{ ما تمتعون به {حين{ وقت أجل

}فأزلهما الشيطان عنها{ طوى هنا ما بعد بينته آيات محكمات أخر، منها قول الحق تقدست أسماؤه: {فوسوس لهما الشيطان{ ١٥٢ {فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما. . .) ١٥٣ وأزل تكون بمعنى: نحى وعلى هذا يكون الضمير في {عنها{ عائد إلى الجنة أي: فلما نسي ما عهد إليهما به من توقي تلبيس إبليس {فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فَتَشْقَى{ ١٥٤ فوقعا في تزيينه وإغوائه فكان ذلك سبب تنحيتهما عن الجنة ويمكن أن تكون أزل بمعنى أوقعهما في الزلل والخطأ ويكون الضمير عائد إلى الشجرة فيصبح تقدير الكلام: فوسوس إليهما فأوقعهما في الزلل بسبب الشجرة والأكل منها و [عن] تأتي للسببية كما في قوله تعالى: {يؤفك عنه من أفك{ ١٥٥ أي: يصرف بسببه من هو مأفوك.

}فأخرجهما مما كانا فيه{ فبتنحية آدم وحواء من الجنة إذ دلاهما الشيطان ففوت عليهما سكنى الجنان وهنئ الطعام وبهي الكساء،

{فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. { ١٥٦ وقد أعذر الله تعالى إليهما: {فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى{ ١٥٧.
{وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو} طرد إبليس من ملأ السماء ثم أهبط آدم وزوجه من الجنة فحسدهما الشيطان على ما آتاهما الله تعالى من فضله وإذ طرد اللعين صاغرا ذليلا {قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون} ١٥٨ طلب الإمهال إلى يوم البعث وإذا قام الخلق للحساب فلا موت بعد ذلك لكن الحكيم سبحانه أمهله إلى حين يهلك من في السموات ومن في الأرض إلا من يشاء الله {قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم} ١٥٩؛ {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم} ١٦٠ {قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين} ١٦١ وهكذا بدأت حياة الجنس البشري على هذا الكوكب، والأبالسة لإغوائه بالمرصاد {بعضهم لبعض عدو} فهل يحذر الناس من تولى أعدائهم؟ {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا. { ١٦٢ {يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون} ١٦٣ {. . . أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا} ١٦٤.
{ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين} جعل الله تعالى الأرض مستقرا للثقلين الجن والإنس موضع استقرار لهم وتمتع وانتفاع إلى أجل قضاه الله الحكيم العليم فإذا انقضى قبروا على أن يجيء وعد الله الحق فيخرجون من أجداثهم ومن طيات الأرض التي نبتوا منها ودرجوا عليها ثم أعيدوا إليها وبعثوا منها، ثم تبدل الأرض غير الأرض.
٣٧ - (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)
{كلمات} فيها التوبة والاستغفار {فتاب عليه} قبل توبته
{فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم} ففهم آدم وأخذ وقبل من المولى سبحانه كلمات أشارت إليها الآية الكريمة: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} ١٦٥، {فتاب عليهم} فقبل الله تعالى توبتهما وتاب تعني في اللغة: الرجوع كآب وتاب وأناب وفي الشرع تعني علما بضرر الذنب وندما على الوقوع فيه وعزما على تركه وعدم العود إلى عصيان، - وكثيرا تطلق على الندم وحده لكونه لازما للعلم مستلزما للعمل وفي الحديث: (الندم توبة) - ١٦٦ قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تواب في ثلاثة أقوال: أحدهما—أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى وتوبة الله على العبد قبوله توبته، {إنه هو التواب الرحيم} ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلى الله إنابته إلى طاعته وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسقط من الأمور التي كان عليها مقيما مما يكرهه ربه فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه، وأما قوله {الرحيم} فإنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة ورحمته إياه إقامة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه.
٣٨ - (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)
{قلنا اهبطوا منها جميعا} تكرار- ربما للتوكيد، {جميعا} نصب على الحال، {فإما يأتينكم مني هدى} قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل، والبينات والبيان والخطاب وإن كان موجها إلى آدم وحواء وإبليس إذ أهبطهم من الجنة لكن لعل المراد: الذرية، {فمن تَبِع هُدَاي فلا خوف عليهم} فمن أقبل على سنن الرشد الذي بعثت به رسلي وبينته في كتبي وبثثته في آياتي فلا يخافون مما يقدمون عليه من أمر بالآخرة، {ولا هم يحزنون} على ما فاتهم من الدنيا ولا ما خلفوا فيها من مال وأهل وولد.
٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
{أصحاب} مقترنون ملازمون مخالطون
{خالدون} باقون ماكثون
{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} -والذين جحدوا آياتي وكذبوا رسلي وآيات الله: حججه وأدلته على

وحدانيته وربوبيته وما جاء به الرسل من الأعلام والشواهد على ذلك وعلى صدقهما فيما أنبأت به عن ربها وقد بينا أن معنى الكفر: التغطية على الشيء {أولئك أصحاب النار} يعني أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم المخلدون فيها أبدا إلى غير أمد ولا نهاية- ١٦٧ في الصحيح عن أبي سلمة ١٦٨ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقواما أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة).

٤٠ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

{يا بني إسرائيل} نداء لأبناء إسرائيل عليه السلام وذريته وهم يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم عليهم صلوات الله- (وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق.) ١٦٩. {اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم} تذكروا ما أنعمت به عليكم فلا تنسوا هذا العطاء والفضل ولا تغفلوا عنه، واشكروا من منحكم إياه. قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية اذكروا واشكروا نعمتي فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة عليهم أن أنجاهم من آل فرعون وجعل فيهم أنبياء وجعل منهم ملوكا وأنزل عليهم كتبا إلى ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته والنعم على الآباء نعم على الأبناء لأنهم يشرفون بشرف أبائهم- ١٧٠ {وأوفوا بعهدي أُوف بعهدكم} وعهد المولى تقدست أسماؤه: جميع ١٧١ أوامره ونواهيه ووصاياه وعهد جل وعز هو أن يدخلهم الجنة {وإياي فارهبون} وكأن المعنى وأنا ربكم فإياه فارهبوني أي خافوني إذ الخوف من غضبه وسخطه وعذابه يحمل على المسارعة إلى طاعة الله وتوقي معصيته، عن بن عباس أي أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب.

٤١ - (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

{وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به} عن مجاهد: يقول إنما أنزلت القرآن مصدقا لما معكم، التوراة والإنجيل، وعن أبي العالية يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ولا تكونوا أول من كذب به وجحد أنه من عندي، قال المبرد: هذا الكلام خطاب لقوم خوطبوا به قبل غيرهم فقيل لهم لا تكفروا. . فإنه سيكون بعدكم كفار فلا تكونوا أول الكفار فإنه يكون عليهم وزر من الكفر إلى يوم القيامة.

{ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا} أي لا تبيعوا ما آتاكم الله تعالى من العلم بكتابه وآياته بثمن قليل وخسيس وعرض من الدنيا قليل وبيعه إياه تركهم إبانة ما في كتابهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم للناس وأنه مكتوب فيه أنه النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل بثمن قليل وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم وأخذهم الأجر ١٧٢ ممن بينوا له منه-. ١٧٣

{وإياي فاتقون} لا تعبدون غيري ولا تطيعوا سواي ووحدوني فإن التقوى قد تعني التوحيد كما في الآية الكريمة{. . . وألزمهم كلمة التقوى. } ١٧٤ وقد تعني الإخلاص كما في قول المولى سبحانه: {. . فإنها من تقوى القلوب} ١٧٥ أي إخلاصها ١٧٦.

٤٢ - (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون} التلبيس: التخليط ومزج الحق بالباطل والكتمان: الإخفاء وترك الإيضاح والبيان، {وأنتم تعلمون} المفسدة في التمويه وفي الإخفاء، يضل بهما الناس عن الهدى فتخسروا ويشتد خسرانكم بما ضللتم وأضللتم: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون} ١٧٧ ولقد أخذ الله العهد على الذين أوتوا الكتاب أن يبينوا ولا يخفوا {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه} ١٧٨ وتوعد من أخفى أو لبس بشديد العقاب فقال تقدست أسماؤه: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم.} ١٧٩

٤٣ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

{وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين} أمر من الله العلي الأعلى بإتمام الصلاة وآدائها على أكمل وجوهها وبإعطاء الزكاة أهل استحقاقها وبالركوع وهو أن يحني المرء صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه -هذه صفة الركوع الشرعي - [(مع) تقضي المعية والجمعية ولهذا قال جماعة فأمرهم بقوله (مع) شهود الجماعة] ١٨٠.

٤٤ - (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}: قال قتادة:. . كان بنوا إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ويخالفون، فعيرهم الله عز وجل قال أبوا الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا والاستفهام هنا ليس على بابه- إذ أصله طلب الفهم – لكنه ربما يراد به التعجيب والتقبيح لمخالفة القول العمل والبر: مجامع الخير، فقد بين القرآن جوانب منه في الآية الكريمة {. . . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين وآتَى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} ١٨١ {وتنسون}: تتركون والأنفس جمع نفس وهي الروح بدليل قول الله تعالى: {الله يتوفى الأنفس. } ١٨٢ أي الأرواح وأصل التلاوة: الإتباع وسمي القارئ تاليا ربما لأنه يتبع بعض الكلام ببعض. وأصل العقل: المنع ثم استعمل في الدلالة على الإدراك والقوة التي يتأتى بها الفهم قال الزجاج: العاقل من عمل بما أوجب الله عليه فمن لم يعمل فهو جاهل روى الإمام مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقطاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما تلك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ١٨٣ وأنهى عن المنكر وآتيه) وهكذا ذم الله تعالى في كتابه قوما يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ولقد نهى سبحانه أن يخالف عمل المسلم قوله وجعل هذا التخالف من عظائم موجبات سخطه فقال جل وعز: {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} ١٨٤ وعلمنا- تقدست أسماؤه- أن المصطفين الأخيار كانوا يقيمون الحجة على أقوامهم بأنهم إنما يدعون إلى سنن استقامت عليه أنبياؤهم فيقول شعيب عليه السلام لقومه: {. . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت} ١٨٥ وسبيل الدعاة أن يتجردوا مخلصين لدعوتهم وأن يستقيموا على المنهاج ١٨٦ الذي يرتضونه لجماعتهم، فقد بين الكتاب الحكيم كيف جاء صاحب القرية بالسلطان المبين على القوم المكذبين إذ قال: {. . . يا قوم اتبعوا المرسلين ١٨٧. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون} ١٨٨.

٤٥ - (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

{واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} بيان لما يستعان به على الوفاء بعهد الله في عمل البر والدعوة إليه فالبر على الطاعة والصبر على المعصية يعنيان حبس النفس على الأولى وكفها عن الثانية والصبر في البأساء والضراء وحين البأس بمعنى كفها عن الهلع والجزع والتولية عند الزخف والصبر على البلاء يعني الرضا بما قسم الله وترقب أن يكشف الله السوء والصلاة التي يطمئن بها القلب تزيد اليقين في قدرة البر الرحيم على تفريج الكرب وما يلقاها إلا أهل الإيمان والطاعة كما شهدت بذلك الآيات المباركات {إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون} ١٨٩ وإن هذين الحبلين لعزيزان وإذ أمر خاتم الأنبياء عليه الصلوات والتسليم بالصبر علم أنه ما يعين عليه البر الرحيم: {واصبر وما صبرك إلا بالله. } ١٩٠ والتوفيق للعبادة – وعمودها الصلاة – ما يأتي إلا من فيض مولانا جل علاه: {وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. } ١٩١ وهكذا من يخشع لجلال العزيز الحكيم يهده إلى صراط مستقيم.

٤٦ - (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

{الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون} الظن هنا بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى {إني ظننت أني ملاق حسابيه} ١٩٢ فهو حكاية ما يقول من أوتي كتابه بيمينه ولهذا بشر في الآيات التاليات لهذه: {فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا

هنيئا بما أسلفتهم في الأيام الخالية} ١٩٣ فهي في أهل الإيمان الذين سعدوا {ملاقوا ربهم} أي يعرضون على الواحد القهار العزيز الغفار ويستيقنون أنه سيكرم مآبهم ويجزل ثوابهم تفضلا منه وكرما وهم إلى جزائه تباركت آلاؤه صائرون فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات-. ١٩٤

٤٧ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين} يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم،. . . قال أبو العالية في قوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين} على عالم من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل لقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس. } ١٩٥.

٤٨ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

{واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون} حذر الله تعالى من أحوال وأهوال يوم البعث والحساب والثواب والعقاب وأنه حين يأتي لن تكفي نفس عن نفس ولن يغني أحد عن أحد {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ١٩٦ {لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم} ١٩٧ {ولا يقبل منها شفاعة} النفس الخاطئة لا يقف إلى جانبها يوم الفزع قريب ولا خليل ولا يجادل عنها إنس ولا جن ولا ملك ويشهد الخاطئون على أنفسهم بالضلال المبين ويقولون ما حكاه الكتاب الحكيم: {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم} ١٩٨ كما أنبأنا بحال الملائكة المقربين فقال وهو أصدق القائلين (. . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} ١٩٩ {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٢٠٠ {ولا يؤخذ منها عدل} ولا يقبل عنها فداء فلو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة لا تقبل منهم ولو افتدى المجرم بأبيه أو ببنيه أو بما في الأرض كلهم فما ذلك بمنجيه {ولا هم ينصرون} ما لهم من قوة ولا ناصر فلا دافع ولا معين.

٤٩ - (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

في آيات سبقت نادى الله تعالى بني إسرائيل أن يتقوا سخطه ونقمته ويحذروا يوم الوعيد وهوله وشدته وفي هذه الآيات ذكرهم بأنعمه على آبائهم فقد تردهم الذكرى إلى شكره وعبادته فكأن ما سبق كالترهيب من العصيان وهذه كالترغيب إقرار بالفضل والإحسان وعدد المولى سبحانه آلاءه عليهم بتفصيل بعد الإجمال الذي قدم.

{نجيناكم} أخرجناكم من الضر إلى اليسر وخلصناكم وأنقذناكم

{آل} قوم وأتباع

{فرعون} ملك من ملوك مصر الأقدمين

{يسومونكم} يذيقونكم ويديمون متابعتكم ويلزمونكم {سوء} سيء وأشد.

{يذبحون} يقتلون بقطع الرقاب

{يستحيون} يتركونهن حيات ويستبقوهن دون ذبح

{بلاء} اختبار وامتحان ونقمة وضر ومكروه

واذكروا إذ خلصتكم من ملك مصر وأتباعه الذين صبوا عليكم سيء الأذى وأشده وأدومه فلا يدعون لكم وليدا إلا ذبحوه وقطعوا عنقه ولا يتركون لكم امرأة إلا استذلوها وأبقوها لخدمتهم. وفي هذا الاستضعاف محنة لهم قاسية ٢٠١ أو في هذا الإنجاء لهم منحة عالية فقد اتخذهم فرعون عبيدا وكان شطر دعوة موسى صلى الله عليه وسلم إليه أن يحرر هؤلاء المستذلين المقهورين وصدق الله العظيم: {. . . وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلي عباد الله} ٢٠٢ فقال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم؟ أخل سبيلهم وأول عهد ربنا إلى رسوليه موسى وهارون عليهما السلام أن يدعواه إلى تسريح هؤلاء المستعبدين كما جاء في القرآن المبين: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل} ٢٠٣.

٥٠ - (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٩ إظهار
{فرقنا} فصلنا وفلقنا وجعلنا منه فرقا
{أغرقنا} رسبناهم في الماء وغمرناهم به فأمتناهم
{وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون} واذكروا وقت تخليصكم من تسلط عدوكم فلم تنعموا بمجرد فكاكم وإنما صنعنا معجزة لم نجرها إلا على يد نبيكم فكان خلاصهم بانشطار البحر وتفرق صفحته لتنحسر عنهم طريق أيبسناه لمروركم {. . فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} ٢٠٤ {. . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا} ٢٠٥ وعظمت منة المولى الحميد المجيد إذ هم موسى - على ما روى- أن يضرب البحر بعصاه بعد أن تجاوزه ومن معه ليلتئم قبل أن يدركهم فرعون وجنده فناداه مولاه: {واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون} ٢٠٦ فأزلف الحكيم وقرب الجند الخاطئين من مهلكهم، واندفعوا يقدمهم فرعون إلى حتفهم ونهايتهم والإسرائيليون على الشاطئ يرون ما فعل الله بالجبارين وشيعهم.
٥١ - (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)
{اتخذتم} صنعتم وعجلتم. {العجل} ولد البقرة.
{ظالمون} متجاوزون الحد ومشركون
{وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون} واذكروا وقت ميعادنا لموسى أن يأتي إلى الوادي المقدس بجانب جبل الطور لنسمعه ما نشاء من كلامنا وأمرنا ووحينا بعد أربعين ليلة وحين غاب عنكم فتنكم السامري فصنع لكم من الحلية جسدا على صورة عجل ثم ناداكم لتجعلوا هذا الجسد إلها فجعلتموه إلها وفي هذا من الغي والخسران والجحود والنكران والسفه والبهتان ما فيه.
٥٢ - (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
{عفونا} تجاوزنا ومحونا الخطأ.
{تشكرون} تقرون بالنعمة وتنصرفون إلى الطاعة.
{ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون} ثم تجاوزنا عن ذنبكم ومحونا وتركنا عقوبتكم عليه لتشكروا صفح ربكم أن لم يعذبكم بجرمكم فتقلعوا عن غيكم.
٥٣ - (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
{الكتاب} المنزل من السماء.
{الفرقان} التوراة أو ما يفرق به بين الحق والباطل.
{وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون} واذكروا وقت إعطائنا موسى التوراة نورا يبين الحق وأعطيناه الفرقان والمعجزات التي تشهد له بالصدق ومن الآيات التسع التي تعرفوها لعل هذا يدلكم على الهدى ويقيمكم على الرشد والبر والتقى.
٥٤ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)
{فتوبوا إلى بارئكم} فعودوا إلى طريق الإيمان بخالقكم ومولاكم.
{التواب} كثير القبول لتوبة التائبين.
{الرحيم} واسع الرحمة.
{وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم} - القوم: الجماعة من الرجال دون النساء قال الله تعالى: {. . . لا يسخر قوم من قوم. } ٢٠٧ ثم قال: {. . . ولا نساء من نساء} ٢٠٨ وقد يقع القوم على الرجال والنساء قال الله تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه. } ٢٠٩ وكذا كل نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعا. .

{يا قوم} منادى مضاف، والمراد هنا بالقوم عبدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى. قوله تعالى {إنكم ظلمتم أنفسكم} استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس، وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة، والقليل موضع الكثرة. قال الله تعالى {. . ثلاثة قروء} ٢١٠ وقال {. . وفيها ما تشتهيه الأنفس} ٢١١،. . .

والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل. . . لما قال لهم: فتوبوا إلى بارئكم قالوا كيف قال: {فاقتلوا أنفسكم. } والصحيح أنه قتل لا على الحقيقة هنا. . . قال سفيان بن عيينة: التوبة نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم وكانت توبة بني إسرائيل القتل وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده قال الزهري لما قيل لهم: {فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} قاموا صفين فقتل بعضهم بعضا حتى قيل لهم كفوا. . . {بارئكم} البارئ الخالق وبينهم فرق، وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال. . . {فتاب عليكم} في الكلام حذف تقديره ففعلتم {فتاب عليكم} أي فتجاوز عليكم أي على الباقين منكم- ٢١٢ {إنه هو التواب الرحيم} (يعني الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه ويعني بالرحيم العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته) ٢١٣.

٥٥ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

{جهرة} معاينة، أو مجاهرين.

{الصاعقة} نار من السماء محرقة. {تنظرون} تشاهدون وترون.

{وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} واذكروا معاشر بني إسرائيل وقت قيل أسلافكم وآبائكم الأقدمين لموسى الكليم عليه الصلوات والتسليم لن نصدقك ولن نستجيب لك في الدعوة إلى الدين حتى نعاين رب العالمين، قال ابن عباس {جهرة} علانية.

وقد اختلف في جواز رؤية الله تعالى فأكثر المبتدعة على إنكارها ٢١٤ في الدنيا والآخرة وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعهما في الآخرة. . . وأكد في الجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام – ٢١٥.

{فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون} أصل الصاعقة: كل أمر هائل عاينه أو أصابه حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفا {وأنتم تنظرون} أي إلى الصاعقة التي أصابتكم.

٥٦ - (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{ثم بعثناكم} - ثم أحييناكم. . . {من بعد موتكم} بالصاعقة التي أهلكتكم وقوله: {لعلكم تشكرون} يقول فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما وليتكم من نعمتي عليكم بإحيائي إياكم استباقا مني لكم لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم بعد إحلال العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم فأماتتكم بعظيم خطئكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربكم.

٥٧ - (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{الغمام} السحاب {المن} صمغ حلو مع حموضة يشبه العسل.

{السلوى} طائر يشبه السماني.

{طيبات} مستلذات.

{أنفسهم يظلمون} بتخسيرها وفعل ما يوردها العذاب.

{وظللنا عليكم الغمام}. . . والغمام جمع غمامة كما السحاب جمع سحابة، والغمام هو ما غم السماء فألبسها من سحاب وقتام وغير ذلك مما يسترها من أعين الناظرين. . .

{وأنزلنا عليكم المن}. . . . عن الربيع ابن أنس قال {المن} شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجوه بالماء ثم يشربونه. . . {السلوى}. . . طائر يشبه السماني واحدة وجماعة بلفظ واحد كذلك السماني لفظ جماعها وواحدها سواء. . .

{كلوا من طيبات ما رزقناكم} وهذا مما استغنى بدلالة ظاهرة على ما ترك منه في الخطاب عليه {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}

وهذا أيضا من الذي استغنى بدلالة ظاهرة على ما ترك منه وذلك المعنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به وعصوا ربهم ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا ثم اكتفى بما ظهر عما ترك. . . {وما ظلمونا} بفعلهم ذلك ومعصيتهم. . . وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها. . . ربنا جل ذكره لا تضره معصية عاص، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ولا تنفعه طاعة مطيع ولا يزيد في ملكه عدل عادل بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصي وإياها ينفع المطيع وحظها يصيب العادل - ٢١٦.

٥٨ - (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

بعدما بينت الآيات السابقات بعض جنايات الإسرائيليين وإجرامهم بينت الآيات الثامنة والخمسون والتاسعة والخمسون جانبا من معاصيهم وأوزارهم إذ نكلوا عن الجهاد ونكصوا على أعقابهم واستنكفوا عن الخضوع لجلال الله والتوبة من آثامهم فجعل الله عقوبة الدنيا قبل ما أعد لهم في آخرتهم.

{رغدا} كثيرا واسعا. {حطة} احطط عنا ذنوبنا.

{نغفر} نصفح ونستر. {خطاياكم} جمع خطية وهي السيئة والمعصية.

{وسنزيد المحسنين} نزيد من صدق يقينهم واستقام سعيهم إحسانا على إحسانهم.

{وإذ} منصوبة ٢١٧ بفعل تقديره اذكر {قلنا} لعل القول قال موسى عليه السلام لكنه المولى سبحانه لأنه جل علاه هو الآمر به وهو موحيه ويمكن أن يقال هذا في الأوامر التي تضمنتها القصة مما سبق ومما سيأتي {ادخلوا هذه القرية} اقتحموها وأخرجوا منها من غلب عليها من الكفرة، والقرية: المدينة ٢١٨ من قرية إذا جمعت سميت بذلك لأنها تجمع الناس عن الطريق المساكنة واختلف في ذلك تعيينها لكن الذي عليه الجمهور ما نقل عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أنها بيت المقدس ٢١٩ وجائز أن يكون طلب الدخول هو ما نادوا به في آيات سورة المائدة: {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) ٢٢٠ فعصوا ونكلوا عن إخراج العماليق الكفار منها وقالوا ما بينه كتاب الله: {. . . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون} ٢٢١ فحرمها سبحانه عليهم أربعين سنة وقضى عليهم بالتيه في تلك المدة فقضوها بين الجبال جزاء لهم على مروقهم وفسوقهم بينما ذهب بعض المفسرين إلى أن الأمر بدخول القرية الوارد في هذه الآية الكريمة من سورة البقرة إنما هو أمر إباحة ونودوا إليه بعد التيه {فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين} أذن الله تعالى لهم إذ دخلوا القرية الموعودة أن يأكلوا من ثمرات زرعها ومما يتيسر لهم في شتى أرجائها من خير كثير واسع وعهد إليهم سبحانه أن يدخلوا باب هذه المدينة منحنين ركوعا كما نقل عن ابن عباس وأمروا أن يسألوا المولى أن يحط عنهم خطاياهم (وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح والفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روى أنه يوم الفتح -فتح مكة- داخلا إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع إلى ربه حتى إن عثنونه ٢٢٢ ليمس مورك ٢٢٣ رحله شكرا لله على ذلك) ٢٢٤ {نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين} أي إذا فعلتم ما أمرناكم به من الدخول إلى القرية خاضعين مستغفرين غفرنا لكم السيئات وضاعفنا لكم الحسنات، و {نغفر} مجزوم لأنه جواب الأمر وجزاؤه، {وسنزيد} معطوف على {نغفر} ولم يجزم لأن السين تمنع الجزاء عن قبول الجزم ومفعول {سنزيد} محذوف والتقدير ثوابا.

٥٩ - (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٨ إظهار

{فبدل} فغير.

{رجزا} عذابا ونتنا.

{فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم} روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة) وقال ابن عباس قال: ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى: {فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم} - أي: فبدل الظالمون منهم قولا

غير الذي قيل لهم وذلك أنه قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة. . . فزادوا حرفا في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر هذا في تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود هذا والقول أنقص من العمل فكيف في التغيير والتبديل في الفعل». . . .

{فأنزلنا على الذين ظلموا} كرر لفظ {ظلموا} ولم يضمره تعظيما للأمر». . . {رجزا}. . . .» والرجز: العذاب (بالسين) النتن والقذر. . . وقال الفراء: الرجز هو الرجس. . . وهو مشتق من الرجز وهو داء يصيب الإبل في أعجازها فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها {بما كانوا يفسقون} أي بفسقهم والفسق الخروج. . . ٢٢٥ - .

٦٠ - (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

{استسقى} سأل وطلب السقي. {انفجرت} انشقت. {مشربهم} موضع شربهم. {تعثوا} تفسدوا وتعتدوا.

{وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم} واذكروا حين طلب موسى لقومه الماء عند عدمه فأوحينا إليه أن يضرب بعصاه حجرا من الأحجار قال الحسن لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه، وقال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ٢٢٦.

{كلوا واشربوا من رزق الله} لكأن المعنى: وقلنا لهم كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المتفجر من الحجر وكل ذلك من فيض المعبود بحق ومن عطائه تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه. {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} نهاهم عن التجاوز والاعتداء والتخريب والإيذاء و {مفسدين} نصب على الحال وجائز أن تكون حالا مؤكدة.

٦١ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

{بقلها} نباتها الذي لا ساق له {قثائها} ثمرة نبت معروف.

{فومها} ثومها أو حمصها أو كل حب يختبر. {عدسها} النبتة المعروفة ذات الحبيبات الصغيرة. {اهبطوا} أنزلوا وآتوا {مصر} مدينة وأصله كل كورة تجمع فيها السكان

{ضربت عليهم} ألزموها وقضى عليهم بها {الذلة} الصغار.

{المسكنة} الفقر {عصوا} خالفوا {يعتدون} يتجاوزون الحد.

{وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها} (واذكروا ضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى الأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم. . .

{قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير} فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيئ الطيب النافع وقوله تعالى: {اهبطوا مصرا} هكذا هو منون مصروف وقال ابن عباس مصرا من الأمصار والمعنى أن هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوي مع دنائته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ولهذا قال: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم} أي ما طلبتم ولما كان سؤالكم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم.

{وضربت عليه الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله. } أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرا أي لا يزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم على ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون». . . استحقوا الغضب من الله». . . فمعنى الكلام رجعوا منحرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضبا ووجب عليهم من السخط سخط». . . هذا الذي جازيناهم

من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة العرش وهم (الأنبياء) وأتباعهم فانتقصوهم إلى أن أفضى الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا. . . . ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الكبر بطر الحق وغمط الناس) يعني رد الحق وانتقاص الناس الازدراء بهم والتعاظم عليهم. . . . {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} هذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهي؛ والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم) ٢٢٧.

٦٢ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{الذين هادوا} اليهود أتباع موسى عليه السلام الذين يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم.

{النصارى} أتباع عيسى عليه السلام.

{الصابئون} معظمو الكواكب.

وفي الآية الثانية والستين من هذه السورة الكريمة بيان لعقبى العاصين المعتدين وقضاء الله تعالى فيهم أن يبقوا أذلة صاغرين ثم يكون مثواهم في نار الجحيم وفي الآية الثالثة والستين بشرى بطيب المآب وجزيل الثواب للمصدقين المستيقنين المستقيمين على نهج القرآن المبين فأولئك هم السعداء في الدنيا ويوم الدين قال سفيان في معنى قوله تعالىّ {إن الذين آمنوا} المراد المنافقين كأنه قال الذين آمنوا في ظاهر أمرهم فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم؛ ٢٢٨.

{والذين هادوا} هم اليهود وسماهم بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل ٢٢٩.

{والنصارى} أتباع عيسى عليه السلام. و {الصابئين} معظمي الكواكب.

{من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم} من يؤمن من هؤلاء الذين ذكروا ويصدق ويستيقن بما يجب الإيمان به مما أوحى في الإسلام الدين الخاتم ومع رسوخ يقينه يلزم الطاعات ويجتنب السيئات فلهم ثواب الأبرار عند ربنا العزيز الغفار والاكتفاء بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر لاندراج الإيمان بالكتب والملائكة والرسل - فإن قال قائل: {فلهم أجرهم عند ربهم} وإنما لفظ {من} لفظ واحد، والفعل معه موحد؟ قيل: {من} وإن كان الذي يليه من الفعل موحدا فإن له معنى الواحد والاثنين والجمع والتذكير والتأنيث لأنه في كل هذه الأحوال على هيئة واحدة وصورة واحدة لا يتغير فالعرب توحد معه الفعل وإن كان في المعنى جمعا للفظه، وتجمع معه أخرى لمعناه، كما قال عز وجل: {ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون} ٢٣٠ فجمع مرة مع {من} الفعل لمعناه، ووحد أخرى معه الفعل لأنه في لفظ الواحد؛. . . فكذلك قوله تعالى: {من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم} وحد {آمن وعمل صالحا} للفظ {من} وجمع ذكرهم في قوله: {فلهم أجرهم} لمعناه: لأنه في معنى جمع؛ وأما قوله: {ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} فإنه يعني جل ذكره: ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة {ولا هم يحزنون} على ما خلفوا ورائهم من الدنيا وعيشها عند معاينته ما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده- ٢٣١.

٦٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

{ميثاقكم} عهدكم على طاعة الله واليقين به عهدا مؤكدا.

{الطور} اسم لجبل معروف في شبه جزيرة سيناء بين البحرين الأبيض والأحمر {آتيناكم} أعطيناكم {بقوة} بطاعة في الجد والعمل به.

{واذكروا ما فيه} واقرؤوا ما في التوراة تدبروه واحفظوا ما فيه ولا تضيعوه.

{وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة} عن قتادة: {الطور} الجبل كانوا بأصله فرفع عليهم فوق رؤوسهم فقال لتأخذن أمري أو لأرمينكم به وفي آية كريمة أخرى يقول المولى سبحانه: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنهم ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا

ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه. { ٢٣٢ أي قلنا خذوا ما أعطيناكم بجد واجتهاد وتدبروا ما فيه واحفظوا أوامره ووعيده ولا تنسوه ولا تضيعوه ليعقبكم ذلك التقوى.
٦٤ - (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
{ثم توليتم من بعد ذلك} أعرضتم بعد الميثاق ونقضتموه.
{ثم توليتم من بعد ذلك} أعرضتم عن العهد الذي واثقناكم به بعد أن رفع الجبل فوقكم {فلولا فضل الله عليكم} ولولا أن الله تفضل عليكم وتداركم وعفا عنكم ونالكم غفرانه ورحمته لصرتم من الناقصين أنفسهم حظها، قال ابن فارس المجمل الفضل: الزيادة والخير والإفضال: الإحسان.
٦٥ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)
{اعتدوا} تجاوزوا. {في السبت} في يوم السبت حيث صاروا فيه يعملون بعد أن كانوا عاهدوا الله ألا يعملوا فيه عملا تعظيما لذلك اليوم.
{خاسئين} أذلاء صاغرين مبعدين.
{ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت} قال السدي هم أهل أيلة وهي القرية التي كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت فلذلك قوله تعالى {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. { ٢٣٣ فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما يصنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك فقال لهم علماؤهم: ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهولا يحل لكم فقالوا إنما اصطدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل فقال: وعتوا أن ينتهوا فقال بعض الذين نهوهم لبعض: (. . . لم تعظون قوم الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) ٢٣٤ يقول لم تعظونهم وقد عظتموهم فلم يطيعوكم فقال بعضهم: (. . . معذرة إلى ربهم ولعلهم يتقون) ٢٣٥ فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار فتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا ولعنهم داوود عليه السلام فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطأوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة. . اه.
٦٦ - (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)
{نكالا} عقوبة ينزجر بها من وراءهم.
{لما بين يديها وما خلفها} لما حولها من القرى ولمن حضر معهم ومن يجيء بعدهم. {وموعظة} وتخويفا وتذكيرا.
{فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها} ٢٣٦ عن ابن عباس جعلناها ٢٣٧ بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى: {ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ٢٣٨ فالمراد لما بين يديها وما خلفها في المكان.
{وموعظة للمتقين} ونصحا وتعقيبا بالعواقب يمنع المتقين من الدخول فيما حرمه الله قال الماوردي وخص المتقين إن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين والمعاندين وقال الزجاج. {وموعظة للمتقين} لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا ما حرم الله عز وجل ما نهاهم عنه فيصيبهم ما أصاب صاحب السبت إذ انتهكوا حرم الله في سبتهم.
٦٧ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)
{هزؤا} لعبا وسخرية.
{وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزؤا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين} - وهذه الآية مما وبخ الله

بها المخاطبين من بني إسرائيل في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذ الله عليهم بالطاعة للأنبياء فقال لهم: واذكروا أيضا من نكثكم ميثاقي إذ قال موسى لقومه، وقومه بنو إسرائيل إذ ادارؤوا في القتيل الذي قتل فيهم إليه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزؤا والهزء اللعب والسخرية. . . ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله فيما أخبرت به عن الله من أمر ونهي هزو أو لعب فظنوا بموسى أنه في أمره إياهم عن أمر الله تعالى ذكره بذبح البقرة عند تدارئهم في القتيل إليه أنه هازئ ولاعب ولم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبي الله وهو يخبرهم أن الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة ٢٣٩. عن عبيدة قال كان في بني إسرائيل رجل عقيم أو عاقر، قال فقتله وليه فاحتمله فألقاه في سبط غير سبطه قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح قال فقال أولوا النهى: أتقتلون وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال فأتوا نبي الله فقال اذبحوا بقرة فقالوا أتتخذنا هزوا؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

٦٨ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

{قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة} إلى قوله: {فذبحوها وما كادوا يفعلون} قال فضرب فأخبرهم بقاتله قال ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبا قال ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم فلم يورث قاتل بعد ذلك ٢٤٠

{فارض} مسنة هرمة {بكر} صغيرة لم تحمل.

{عوان} نصف بين الكبيرة والصغيرة

{لا فارض} لا مسنة هرمة وعن مجاهد {لا فارض} قال لا كبيرة {ولا بكر} ولا صغيرة لم تلد وعن السدي في البكر لم تلد إلا ولدا واحدا {عوان بين ذلك} عن مجاهد وسقط قد ولدت بطنا أو بطنين وعن السدي التي ولدت وولد ولدها يقال هذه حرب عوان إن كانت حربا قد قوتل فيها مرة بعد مرة

٦٩ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٨ إظهار

{فاقع} صاف.

{فاقع لونها} يعني خالص لونها والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض والشدة وهو بياضه وشدته وصفاؤه

٧٠ - (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٨ إظهار

٧١ - (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٨ إظهار

{لا ذلول} لم تذلل بالحراثة ولا معدة للسقي في السانية.

{مسلمة} من العرج وسائر العيوب. {لاشية فيها} لونها واحد.

{وما كادوا يفعلون} ما ذبحوها إلا بعد جهد وقاربوا ألا يفعلوا لغلاء ثمنها وخوف الفضيحة في معرفة القاتل.

{لا ذلول} أي يذللها العمل {تثير الأرض ولا تسقي الحرث} عن السدي ليست بذلول يزرع عليها وليست تسقي الحرث وعن الربيع لا تعمل في الحرث {مسلمة} عن قتادة مسلمة في العرج وسائر العيوب {لاشية فيها} ليس فيها لون يخالف معظم لونها {وما كادوا يفعلون} إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلة مبادرتهم إلى أمر الله.

٧٢ - (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

{فادارأتم} فاختلفتم وتنازعتم

٧٣ - (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

{فقلنا اضربوه ببعضها} هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن، فلو كان في تعليمه

لنا فائدة تعود إلينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله. وقوله تعالى {كذلك يحيي الله الموتى} أي: فضربوه فحيي ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد.

٧٤ - (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

{ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون}.

يقول توبيخا لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ما شهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى. . . ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ٢٤١ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعدما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة. . . والمعنى إن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق،. . .

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: {فهي كالحجارة أو أشد قسوة} بعد الإجماع عن استحالة كونها للشك فقال بعضهم {أو} ههنا بمعنى الواو تقديره فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى {. . . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ٢٤٢ وقوله: {عذرا أو نذرا} ٢٤٣،. . . وقال آخرون {أو} ههنا بمعنى بل فتقديره فهي كالحجارة بل أشد قسوة-. ٢٤٤

٧٥ - (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

{يؤمنوا لكم} ينقادون لكم ويطيعون.

{يحرفونه} يتأولونه على غير تأويله.

{أفتطمعون أن يؤمنوا لكم} عن الربيع يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم {أن يؤمنوا لكم} يقول: أفتطمعون أن يؤمن لكم اليهود، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة. عن ابن عباس أي لا تحزن على تكذيبهم إياك وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا {وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله من بعدما عقلوه} قال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فحرفوه عن مواضيعه وقال ابن وهب التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا ولعل المراد بفريق منهم وطائفة علماء اليهود - كما قال مجاهد والسدي- لكن أبا جعفر ارتضى تأويلا آخر نقله عن الربيع بن أنس وحكاه بن إسحاق عن بعض أهل العلم ٢٤٥. {من بعد ما عقلوه} فهموه ووعوه {وهم يعلمون} الحق ويعرفون أنهم يتأولون الوحي على غير وجهه.

٧٦ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{فتح} قضى وحكم.

{ليحاجوكم} ليقيموا به الحجة عليكم

{وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذ خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم} هذا بيان لنفاق من نفاق اليهود معطوف على ما كان من فجور آبائهم وعلمائهم إذ يحرفون كلام الله عن مواضعه ومعنى هذه الآية قريب من معنى قول الحق تقدست أسماؤه {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون} ٢٤٦ {وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون} وأصل

الفتح في كلام العرب: النصر والقضاء والحكم ومنه قول ربنا تباركت آلاؤه: {. . . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} ٢٤٧ أي احكم بيننا وبينهم وأنت خير الحاكمين. عن قتادة {قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم} أي بما من عليكم في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا به عليكم. . . وعن السدي {قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم} من العذاب {ليحاجوكم به عند ربكم} هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض {أتحدثونهم بما فتح الله عليكم} من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم: (وقوله: {أفلا تعقلون} خبر من الله تعالى ذكره عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بما فتح الله عليهم أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون أن إخباركم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بما في كتبكم أنه نبي مبعوث حجة لهم عليكم عند ربكم يحتجون بها عليكم أي فلا تفعلون ذلك ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم ولا تخبروهم مثل ما أخبرتموهم به من ذلك.

٧٧ - (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

فقال جل ثناؤه: {أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون}. . . يعني بقوله جل ثناؤه أولا يعلم هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملتهم على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه، القائلون لهم {أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم} أن الله عالم بما يسرون فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم وتلاومهم بينهم على إظهار ما أظهروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم وعلى قيلهم لهم آمنا ونهى بعضهم بعضا أن يخبروا المؤمنون بما فتح الله للمؤمنين عليهم وقضى لهم عليهم في كتبهم من حقيقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه. {وما يعلنون} فيظهرونه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه المؤمنين به إذ لقوا من قيلهم لهم: آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به نفاقا وخداعا لله ولرسوله وللمؤمنين) ٢٤٨.

٧٨ - (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)

{أميون} لا يحسنون الكتابة.

{أماني} اختلافا للكذب {يظنون} يكذبون ويقلدون.

{ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون} الأمي من لا يحسن الكتابة ٢٤٩ قال مجاهد أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا ٢٥٠ وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب آماني يتمنونها والتمني قد يعني: تخرص الكذب وافتعاله والاستثناء هنا منقطع إذ الأماني ليست من نوع الكتاب كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . . مالهم به من علم إلا اتباع الظن. } ٢٥١ والظن ليس من نوع العلم وما هم إلا يشكون ولا يعلمون حقيقة ما يزعمون ويتقولون يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويتبعون ما هم فيه شاكون وفي حقيقته مرتابون مما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارهم عنادا منهم لله ولرسوله ومخالفة منهم لأمر الله واغترارا منهم بإمهال الله إياهم.

٧٩ - (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

{فويل} فهلاك ودمار.

{فويل}. . . . واد من صديد في جهنم،. . . . {للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا} يعني بذلك الذين حرفوا كلام الله من يهود بني إسرائيل وكتبوا كتابا على ما تأولوه من تأويلاتهم، مخالفا لما أنزل الله على نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ثم باعوه من قوم لا علم لهم بها ولا بما في التوراة، جهال بما كتب الله - لطلب عرض من الدنيا خسيس فقال الله تعالى {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}. . . إن قال لنا قائل: وما وجه {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم}

وهل تكون الكتابة بغير اليد حتى احتاج المخاطبون بهذه المخاطبة إلى أن يخبروا عنهم هؤلاء القوم الذين قص الله قصصهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم؟ قيل له إن الكتاب من بني آدم وإن كان منهم باليد فإنه قد يضاف الكتاب إلى غير كاتبه وغير المتولى رسم خطه فيقال: كتب فلان إلى فلان بكذا وإن كان المتولى كتابته بيده غير المضاف إليه الكتاب إذا كان الكتاب كتبه بأمر المضاف إليه الكتاب فأعلم ربنا بقوله {فول للذين يكتبون الكتاب بأيديهم} عباده المؤمنون أن أحبارهم اليهود تولوا كتابة الكذب والفرية على الله بأيديهم، على علم منهم وعمد للكذب على الله ثم تحله إلى أنه من عند الله وفي كتاب الله تكذبا على الله وافتراء عليه، فنفى جل ثناؤه بقوله {يكتبون الكتاب بأيديهم} أن يكون ولي كتابة ذلك بعض جهالهم بأمر علمائهم وأحبارهم. . . . . فالعذاب في الوادي السائل من صديد أهل النار في أسفلهم جهنم {لهم} يعني الذين يكتبون الكتاب الذي وصفنا أمره من يهود بني إسرائيل محرفا ثم قالوا هذا من عند الله ابتغاء عرض من الدنيا به قليل مما يبتاعه منهم وقوله {مما كتبت أيديهم} يقول من الذي كتبت أيديهم من ذلك {وويل لهم} أيضا {مما يكسبون} يعني مما يعملون من الخطايا ويجترحون من الآثام ويكسبون من الحرام بكتابهم الذي يكتبونه بأيديهم بخلاف ما أنزل الله ثم يأكلون ثمنه قد باعوه ممن باعوه منهم على أنه من كتاب الله ٢٥٢.

٨٠ - (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

{عهدا} وعدا عهده إليكم في وحيه

{وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة} عن الضحاك ٢٥٣ قال: قالت اليهود لا نعذب في النار في يوم القيامة إلا أربعين يوما مقدرا ما عبدنا العجل، ولقد بينت آية كريمة أخرى إمعانهم في الافتراء وسفه الخيلاء والاستعلاء فقال ربنا ذو الجلال والعزة والكبرياء {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ٢٥٤ ورد الله تعالى ما ادعوه، وبشر أهل الإيمان والإحسان بأنهم دون غيرهم أصحاب النعيم والمثوبة والفوز والرضوان {بلى من أسلم وجهة لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} ٢٥٥ {قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده} فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألهم: هل لهم عند الله عهدا وعهدهم إياه في وحيه أو ادخرتم وقلتم لا إله إلا الله ولم تشركوا ولم تكفروا به فإن كنتم قلتموها فارجوا بها وإن كنتم لم تقولوها فلم تقولون على الله ما لا تعلمون. والاستفهام هنا الإنكار.

٨١ - (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{كسب} عمل.

{أحاطت به خطيئته} جميع أعماله سيئات.

{بلى من كسب سيئة وأحاط به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}: {بلى} إثبات لما حرف النفي وهو قوله {لن تمسنا} النار أي بلى تمسكم أبدا بدليل قوله تعالى: {هم فيها خالدون} أي ماكثون أبدا (ولفظ الإحاطة حقيقة في المجسمات إحاطة السور بالبلد. . . . فنقل إلى الخطيئة وهي عرض لمعنيين من جهة أن المحيط يستر المحاط به والكبيرة تستر الطاعات ومن جهة أن الكبيرة تحيط الطاعات وتستولي عليها إحاطة العدو بالإنسان بحيث لا يتمكن الإنسان من الخلاص عنهم والآية إن وردت في اليهود فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ٢٥٦.

٨٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} عن ابن عباس: من آمن بما كفرتم - والخطاب لليهود الذين وصفتهم الآيات - وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع لهم أبدا

٨٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)

{لا تعبدون} خبر بمعنى الطلب.
{اليتامى} الصغار الذين مات آباؤهم ولا كاسب لهم.
{المساكين} الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.
{وأقيموا الصلاة} أتموا أداءها وأحسنوه.
{وآتوا الزكاة} أعطوا زكاة أموالكم مستحقيها.

{وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله} الميثاق العهد الموثق عن أبي العالية أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له وأن لا يعبدوا غيره ونقل عن بعض نحويي البصرة كأنك قلت استحلفناهم لا تعبدون أي قلنا لهم والله لا تعبدون أي: قلنا لهم والله لا تعبدون وقالوا والله لا يعبدون وهذا بالحقيقة يتضمن جميع ما لابد به في الدين لأن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره مسبوق بالعلم بذاته سبحانه وجميع ما يحب له ويستحيل عليه ومسبوق أيضا بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة- ٢٥٧ ومما أورد صاحب الجامع لأحكام القران وعبادة الله إثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه. ا ه. ولما كانت العبادة تعني كل هذا أمر الله تعالى بها جميع خلقه ولذلك خلقهم: قال تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} ٢٥٨، وقال جل ثناؤه: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} ٢٥٩. {وبالوالدين إحسانا} بعد بيان الحقوق وأعظمها وهي حق توحيد الله وإفراده بالعبادة والتصديق بالرسل والعمل بما أنزل في الكتب أمر بالإحسان إلى الوالدين فكأن التقدير يحسنون بالوالدين أو: وأمرناهم بالوالدين إحسانا أو قلنا لهم أحسنوا بالوالدين إحسانا. في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي؟ قال الجهاد في سبيل الله (وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد لأن النشأة الأولى من عند الله والنشء الثاني – وهو التربية- من جهة الوالدين ولهذا قرن سبحانه الشكر لهما بشكره فقال: {. . أن اشكر لي ولوالديك} ٢٦٠ والإحسان إلى الوالدين معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتثال أمرهما والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما وصلة أهل ودهما. . .) ٢٦١. {وذي القربى} أصحاب القرابة وهو معطوف على {وبالوالدين إحسانا} وكأن المعنى وقلنا لهم: أحسنوا بالوالدين وبذي القربى وصلوا الأرحام، والإحسان إليهم كالإحسان بالوالدين {واليتامى} معطوف على ما سبق، واليتيم من الأطفال الذي مات أبوه حتى يبلغ الحلم وقد وصى الكتاب الحكيم بحق رعاية اليتيم بحفظ المال وبالإنفاق عليه وتقديم المعروف إليه وحذر من أي بغي على ما يملك، وعده حوبا كبيرا وإثما مبينا وأنذر العائدين على أموالهم ظلما بأنهم {. . إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} ٢٦٢ وبشر أهل الرعاية لليتامى بأنهم اقتحموا العقبة التي بينهم وبين الجنة وفي ذلك جاءت الآيات المباركات: {فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة} ٢٦٣ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كافل اليتيم له أولغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار مالك- أحد رواة هذا الحديث – بالسبابة الوسطى والسبابة الأصبع التي تلي الإبهام. {والمساكين} معطوف أيضا على ما سبق وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم والإحسان إليهم تفقد أحوالهم ومواساتهم وإعطاؤهم حقهم من الزكاة والصدقة وفوق ذلك فقد سخط الله تعالى على من لا يحض غيره على رعاية هؤلاء المحتاجين الضعفاء يقول ربنا جل ثناؤه: {كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين} ٢٦٤ وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله- وأحسبه قال-: وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر)؛ {وقولوا للناس حسنا} أي وقولوا للناس قولا حسنا قال ابن عباس قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها

؛ وعن ابن جريج: (قولوا للناس صدقا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تغيروا نعته؛ وعن سفيان: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر) ٢٦٥. {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} – أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة- ٢٦٦، وقد أمر الله بكثير من تلك العهود في قوله سبحانه: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى

والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم} ٢٦٧ بل في هذه الآية الكريمة زيادة فيمن أمرنا الله بالإحسان إليهم الجار القريب والجار الأجنبي والصاحب بالجنب- الزوجة أو رفيق الطريق في السفر- والمسافر المملوك كما أكد الأمر بإفراده بالعبادة بقوله الحكيم {. . . ولا تشركوا به شيئا} ٢٦٨ عن ابن مسعود وإقامة الصلاة تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليه فيها {ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون} - وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بني إسرائيل أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له بأن لا يعبدوا غيره وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات ويصلوا الأرحام ويتعاطفوا على الأيتام ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها ويؤتوا زكاة أموالهم فخالفوا أمره في ذلك كله وتولوا عنه معرضين إلا من عصمه الله منهم فوفى بعهد الله وميثاقه. . . عنى الله جل ثناؤه بقوله {وأنتم معرضون} اليهود الذين كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعنى بسائر الآية أسلافهم. . . وأنتم يا معشر بقاياهم معرضون أيضا عن الميثاق الذي أخذ عليكم بذلك وتاركوه ترك أوائلكم- ٢٦٩.

٨٤ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

{تسفكون} تصبون وتريقون وتجرون.

عن ابن عباس ما حاصله: قوله سبحانه {وإذ أخذنا ميثاقكم} الآية خطاب من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام هجرته إليه، مؤنبا لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها فقال الله تعالى لهم: {ثم أقررتم} يعني بذلك إقرار أوائلكم وسلفكم وأنتم بذلك تشهدون على إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم بأن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ويصدقون بأن ذلك حق من ميثاقي عليهم يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج وذلك أن الأوس والخزرج - وهم النصارى- كانوا من الجاهلية عباد الأصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكان يهود المدينة ثلاث قبائل: (بنو قينقاع) و (بنو النضير) حلفاء الخزرج و (بنو قريظة) حلفاء الأوس فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتلوا كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}؟ ولهذا قال تعالى: {وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم} أي لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وقوله تعالى: {ثم أقررتم وأنتم تشهدون} ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

٨٥ - (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

{تظاهرون} أصله تتظاهرون أي تتعاونون.

{الإثم} الذنب {العدوان} الإفراط في الظلم

{أسارى} مأسورين {تفادوهم} تدفعون شيئا لتحريرهم.

{خزي} ذل وهوان

{ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم} الآية. . . والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود في

قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام، واليهود- عليهم لعائن الله- يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا} - ٢٧٠ ومما أورد القرطبي أن علماؤنا كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهرة وفداء أساراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى فقال {أفتؤمنون ببعض الكتاب} وهو التوراة و {تكفرون ببعض} قلت ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ليت بالمسلمين، بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلة وصاغرين يجري عليهم حكم المشركين فلا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قال علماؤنا: فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد قال ابن خويز منداد: تضمنت الآية وجوب فك الأسرى وبذلك وردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فك الأسارى وأمر بفكهم وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع ويجب فك الأسارى من بيت المال فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين ا ه. {فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا} فليس لمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه من عوض يثوب إليه وأجر يرد عليه إلا الهوان والصغار في هذه الحياة العاجلة {ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب} ويصار به في الآخرة إلى العقاب الذي لا عقوبة أوجع منه {وما الله بغافل عما تعملون} ما يغيب عن علم ربنا وسمعه وبصره شيء من قول القائلين وعمل العاملين وما في صدور العالمين وسينال كل مثوبة ما اكتسبت فهو إخبار فيه معنى الإنذار كقوله جل ثناؤه {. . . واعملوا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه. } ٢٧١.

٨٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

{اشتروا} استبدلوا واستحبوا

{أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون} أشار إليهم بما يشار به للبعيد ربما لبعدهم من الرحمة إذ استبدلوا الحياة الفانية بالدار الباقية وآثروا ما يفنى على ما يبقى كالذين أشار إليهم الكتاب الكريم في قول ربنا العظيم إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} ٢٧٢ فاستحقوا أن يخلدوا في لظى وسعير لا يخبو ولا ينتهي وما يجيره منه مجير.

٨٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

{وقفينا} وأتبعنا وأردفنا. {البينات} الحجج والدلالات.

{أيدناه} قويناه. {روح القدس} جبريل.

{تهوى} تحب.

{ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل} الواو عاطفة على ما قبل واللام موطئة للقسم وقد للتحقيق وهذا القسم والتوكيد والتحقيق لمزيد من تثبيت جنايات بني إسرائيل الذين بعث الله تعالى فيهم كثيرا من أنبيائه المصطفين الأخيار وأنزل فيهم كتبا سماوية تهدي إلى الرشد فصد عنها الفجار، فلقد أعطى ربنا سبحانه كليمه موسى عليه السلام التوراة فيها هدى ونور، وأرسل من بعد موسى رسلا كثيرين يوحى إليهم من أمره ما فيه الخير والبر- إنما يعني جل ثناؤه في قوله {وقفينا من بعده بالرسل} أي اتفقنا بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبيا بعد موسى صلى الله عليه وسلم إلى زمان عيسى ابن مريم فإنه بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها- ٢٧٣ {وآتينا عيسى بن مريم البينات}. . أعطينا عيسى المعجزات وخوارق العادات حججا تدل على نبوته ومنها كما هو معلوم إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وإبراء الأكمة والأبرص بإذن الله وإخبارهم إياه بإذن الله وما يدخرون في بيوتهم إلى غير ذلك. {وأيدناه بروح القدس} وقوينا عيسى وأعناه بعبدنا وأمين وحينا جبريل عليه السلام ٢٧٤. {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} تقريرا

لما ارتكبه الإسرائيليون وإنكارا لما يرتكبون من تحكيم الهوى ٢٧٥ فيما يسمعون مع أنه وحي الله فيما لا يسمعون وفي نعمه يتخوضون لكنهم كلما أرسل إليهم نبي بشيء لا يوافق ما يحبونه ويميلون إليه تأنفوا على النبي وما جاء به، وتأبوا عن الاستجابة إليه واستبعدوا رسالته وقد يتجاوزون تكذيبه إلى قتله فقد كذبوا عيسى عليه السلام ومحمد صلوات الله عليهما وقتلوا يحيى وزكريا سلام الله عليهم.

٨٨ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ)

{غلف} مغطاة مغلفة {لعنهم} أبعدهم وطردهم.

{وقالوا قلوبنا غلف} قال مجاهد عليها غشاوة وقال عكرمة عليها طابع {بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون} بين المولى سبحانه أنه على ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كما قال سبحانه {. . . فلما زاغوا أزاغ الله على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٢٧٦ فسبب نفورهم عن الإيمان هو أنهم نأوا عنه ونهوا عنه والذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله فقد طردهم جل وعلا وأبعدهم من رحمته {فقليلا} أي فإيمانا قليلا ما يؤمنون وقال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا ٢٧٧.

٨٩ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

{كتاب} القرآن الكريم

{مصدق لما معكم} يصدق الذي معهم من التوراة.

{يستفتحون} يستخبرون أو يستنصرون.

ولما جاء اليهود من بني إسرائيل القرآن المجيد الذي هو تنزيل المولى الحكيم الحميد والذي يتوافق وما آتاهم من التوراة والإنجيل وكانوا من قبل نزول القرآن الموحى به إلى خاتم النبيئين محمد عليه الصلاة والسلام كانوا يستنصرون ٢٧٨ به على الكافرين فلما بعث الله خاتم رسله وأنزل أكرم كتبه كفر به اليهود فاستحقوا أن يبعدوا من رحمة الله تعالى ومن هدايته فاستحبوا الكفر على الإيمان.

٩٠ - (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{بئس} ذم

{اشتروا} باعوا {بغيا} حسدا أو فسادا وابتغاء وطلبا

{فباءوا} فرجعوا {مهين} مذل

{بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده} ساء ما باعوا به أنفسهم فقد بخسوها حظها من الرشد والسلامة وأوردوها الخزي والسعير والندامة بجحودهم الحق وقد علموه لكن قد كرهه إليهم الحسد المطغي فلم يطيقوا أن يروا نعمة النبوة والوحي تنال خاتم النبيين عليه صلوات الله وفي هذا يقول القرآن الكريم {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ٢٧٩} فباؤوا بغضب على غضب} فرجعوا وعادوا بمقت من الله واستحقاق لحلول نقمته سبحانه بهم، فوق مقت واستحقاق مزيد من نقمة تضاف إلى سابقتها. عن الحسن وقتادة وغيرهما ما حاصله لابد من إثبات سببي غضب، أحدهما تكذيبهم عيسى وما أنزل عليه، والثاني تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فصار ذلك سببا بعد سبب لسخط بعد سخط. وعن السدي الأول لعبادة العجل والثاني لكتمانهم نعت محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم نبوته وعن عطاء وغيره المراد إثبات أنواع من الغضب مترادفة لأجل أمور موالية صدرت عنهم كقوله {. . عزير بن الله} ٢٨٠ {. . يد الله مغلولة} ٢٨١ {إن الله فقير ونحن أغنياء} ٢٨٢. {وللكافرين عذاب مهين} أي ولهم عذاب فوضع

{الكافرين} وضع المضمر ليدل على أنهم استحقوا العذاب والنقمة بسبب كفرهم {مهين} أي مضمر مذل مخز ولا يلزم من اقتران

العذاب بالإهانة تكرار فقد يكون العذاب ولا إهانة كالوالد يؤدب ولده.

٩١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{بما وراءه} بما سواه وبما بعده

{بما أنزل الله} بالقرآن الحكيم

{آمنوا بما أنزل الله} بكل ما أنزل الله من كتاب {قالوا نؤمن بما أنزل علينا} أي بالتوراة وبسائر كتب الأنبياء الذين أتوا بتقرير شرع موسى عليه السلام {ويكفرون بما وراءه} أي قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة والإنجيل وهو الحق الضمير يعود إلى ما وراءه أو إلى القرآن فقط و {مصدقا} حال مؤكد لوجود شرطها وهو كونها مقررة لمضمون جملة اسمية، أو كون مضمونها لازما لمضمون الجملة الاسمية فإن التصديق لازما حقية القرآن، فصار لازما كأنه هو العامل في {مصدقا} محذوف وهو يبدو أو يثبت على الأصح وأما الواو في وهو الحق فيجوز أن تكون معترضة فلا محل للجملة ويجوز أن تكون للحال وحينئذ إما أن يكون العامل فيها هو العامل في قوله {ويكفرون} على أنهما حالان متداخلان، وفي قوله {وهو الحق مصدقا لما معهم} دلالة على وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لما أثبت نبوته بالمعجزات ثم إنه أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله وأنه صلى الله عليه وسلم أمر المكلفين بالإيمان كان الإيمان به واجبا لا محالة، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعضهم وبعضها محال، وأيضا أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ولم يقرأ ولم يخط، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أتى بالقصص والأخبار المطابقة لما في التوراة، فيعلم أن بالضرورة أنه صلى الله عليه وسلم استفادها من قبل الوحي، وأيضا القرآن يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فلما أخبر الله تعالى أنه مصدق التوراة وجب اشتمال التوراة على الإخبار عن نبوته، فمدعي الإيمان بالتوراة يجب أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان كذبا ثم إنه بين من وجه آخر كذب دعواهم وهو أن التوراة لا تسوغ قتل الأنبياء وإنهم سوغوا ذلك وفيه دليل على أن إيراد المناقصة على الخصم جائزة والكلام وإن كان على وجه الخطاب إلى أن المراد بذلك أسلافهم، بدليل {من قبل} {وتقتلون} حكاية حال ماضية، وأصل {لم} لما بإدخال لام التعليل في ما الاستفهامية، حذفت الألف للتخفيف أي لأي غرض وبأي حجة كان أسلافكم يقتلون الأنبياء؟.

وفي قوله {إن كنتم مؤمنين} تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم الإيمان وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما تقدمه، وفيه تنبيه على أن اليهود المعاصرين خرجوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم من الإيمان بالتوراة كما أن أسلافهم خرجوا بقتل بعض الأنبياء عن الإيمان بها والله تعال أعلم- ٢٨٣

٩٢ - (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

{بالبينات} بالحجج المبينة لصدقه في دعوى الرسالة {اتخذتم العجل} عبدتم ما تصورتموه على هيئة ولد البقرة.

{ولقد جاء كم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون} في الآية الحادية والخمسين من هذه السورة المباركة قبح الله تعالى اليهود باتخاذ العجل إلها وعبادته من دون الله جل علاه، لكن هناك سبقت بقول الحق سبحانه {وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة} فإبان المواعدة وغيبة موسى عنهم وذهابه لميقات ربه تقربوا هم للعجل وههنا تنبيه على فرط قبحهم إذ ظهرت لهم المعجزات الواضحات البينات عن صدق كليم الله عليه السلام في حقيقة نبوته ثم عبدوا عجلهم الذي صنعه لهم وفتنهم به السامري فعلوا ذلك بعد مجيء الآيات والعلامات الشاهدة على أن موسى رسول رب العالمين وفي هذا بيان لإصرارهم على العناد على التكذيب، مع ما فيه من تسلية لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت له ولمن معه، فإن صنيعهم لم ينل من صبر موسى لكنه ثبت على الدعوة إلى ربه والتمسك بدينه وشرعه.

٩٣ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ

قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
}ميثاقكم{ عهدكم المؤكد
}ورفعنا فوقكم الطور{ علقنا جزءا من الجبل المسمى بذلك فوق رؤوسكم.
}بقوة{ بحزم وجد }وأشربوا في قلوبهم العجل{ اشتد شغفهم بحب عبادة العجل.
ومثل هذا يجب أن يكون من حكمة التكرار في قوله تقدست أسماؤه }وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة واسمعوا{ وفي هذه الآية بيان مرائهم ونهاية لجاجهم فإنهم أمروا بالسمع ليستيقنوا بالحق ويذعنوا له وينقادوا للشرع ويستقيموا على نهجه لكنهم قالوا سمعنا وعصينا والأكثرون على أنهم قالوا هذا القول -قالوا سمعنا لا سماع طاعة سمعنا قولك وعصينا أمرك ٢٨٤، }وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم{ (أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ وقوله تعالى }وفي قلوبهم{ بيان لمكان الإشراب ٢٨٥ كقوله }إنما يأكلون في بطونهم نارا{ ٢٨٦ وفي قوله }وأشربوا{ دلالة على أن فاعلا غيرهم فعل ذلك بهم كالسامري. . . وإبليس وشياطين الإنس والجن وذلك بسبب كفرهم واعتقادهم التشبيه على الله تعالى ولا ريب أن جميع الأسباب تنتهي إلى الله تعالى ٢٨٧).
}قل بئسا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين{ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين لليهود سوء صنيعتهم و }بئس{ لإنشاء الذم وفاعله قد يكون مظهرا وقد يكون مضمرا يعود إلى معهود ذهني والتقدير هنا بئس وساء شيئا يأمركم به إيمانكم بالتوراة عبادة العجل، أو: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله والتكذيب بكتبه، وجحود ما جاء من عنده، وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله وتأمر بخلافه. . . وإنما ذلك نفي من الله تعالى ذكره عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله وإعلام منه جل ثناؤه أن الذي يأمرهم بذلك أهواؤهم والذي يحملهم عليه البغي والعدوان ٢٨٨ (وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما قال قوم شعيب: }. . . أصلاتك تأمرك. { ٢٨٩ وكذلك إضافة الإيمان إليهم، واعلم أن الإيمان عرض ولا يصح منه الأمر والنهي لكن الداعي إلى الفعل والسبب فيه قد يشبه بالأمر كقوله }. . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر{ ٢٩٠). ٢٩١
٩٤ - (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
}قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين{ زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه }وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة{ ٢٩٢ }وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. { ٢٩٣ أكذبهم الله تقدست أسماؤه وألزمهم الحجة وأمر نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت إن كانوا صادقين في ادعائهم أنهم أصحاب الجنة وأنهم أهل النجاة والقرب من الله فلم يتمنوه لعلمهم بكذبهم.
٩٥ - (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
}ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم{ بظلمهم وفسقهم وصدهم عن ذكر الله واستحلال محارمه كرهوا الموت لمعرفتهم ماذا ينتظرهم في آخرتهم ولهذا جاء في صورة مباركة أخرى }قل يا أيها الذين هادوا إذا زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ٢٩٤{ وهكذا كل من عمر دنياه بخراب آخرته فإنه يكره أن ينتقل من العمار إلى الخراب.
٩٦ - (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)
}ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا{ هذا توطئة للقسم مع التوكيد فاليهود أحرص الناس على الحياة وأحرص من الذين أشركوا بالله لمعرفتهم بذنوبهم وألا خير لهم عند الله ومشركوا العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة. . . .

. . وذهب الحسن إلى أن الذين أشركوا مشركوا العرب خصوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث فهم يتمنون طول العمر- ٢٩٥ }يود أحدهم لو يعمر ألف سنة{ يتمنى ويحب اليهودي والمشرك والفاجر أن يمتد عمره إلى أطول مدى ٢٩٦ أو إلى مالا نهاية؛ }وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر. { وما ينحي به الكافر الخاسر عن العذاب تعميره ولا يباعد بينه وبين النار تطاول أجله ولن يستأخر أجل أبدا فإن إبليس قد أنظر إلى يوم الوقت المعلوم ومصيره دركات السعير واللظى والجحيم و }الله بصير بما يعملون{ والمعبود بحق سبحانه لا يخفى عليه عمل عامل وهو على كل شيء شهيد فسيجازي الباغين على بغيهم بالعذاب الشديد.

٩٧ - (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

}قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله{ مما أخرج البخاري عن أنس بن مالك قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه، قال: (أخبرني بهن جبريل آنفا) قال: جبريل؟ قال (نعم) قال ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية }من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك{ ٢٩٧ أي من عادى جبريل فإنه قد عادى الله لأن جبريل عليه السلام ما يتنزل إلا بأمر ربنا الملك القدوس وما يأتي به من وحي فإنما هو من وحي الله وخص القلب بالذكر لأنه موضع تلقي الهدى والعلم

}مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين{ وهذا القرآن الذي نزل به أمين الوحي جبريل على قلب خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام إنما جاء مصدقا لما سبقته من كتب الله التي أنزلت على رسل بعثوا من قبلك وجاء الكتاب العزيز هدى يدل على سبيل الفوز والنعيم المقيم ويثبت على صراط الله المستقيم، ويبشر المؤمنين أن لهم من الله فضلا كبيرا.

٩٨ - (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

}من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين{ مما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه (من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب. . .) ٢٩٨ وهذا إعلام من الله تباركت آلاؤه أن من عادى جبرائيل فقد عاداه وعادى ميكائيل وعادى جميع ملائكته ورسله يقول بن جرير رحمه الله: الذين سماهم الله في هذه الآية هم أولياء الله وأهل طاعته ومن عادى في الله وليا فقد عاداه الله وبارزه بالمحاربة ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته لأن العدو لله عدو لأوليائه والعدو لأولياء الله عدو له، فكذلك قال لليهود الذين قالوا إن جبريل عدونا من الملائكة وميكائيل ولينا منهم }من كان عدوا لله وملائكته ورسله فإن الله عدو للكافرين{ من أجل أن عدو جبريل عدو كل ولي لله وكذلك عدو بعض رسل الله عدوا لله ولكل ولي. . . إذ اليهود لما قالت: جبريل عدونا وميكائيل ولينا وزعمت أنها كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم أعلمهم الله أن من كان لجبريل عدوا فإن الله له عدو وإنه من الكافرين. . اهـ. وربما يراد ب }رسله{ من يرسلهم سبحانه أعم من أن يكونوا رسلا من الملائكة أو من البشر وعطف }جبريل وميكائيل{ من عطف الخاص على العام.

٩٩ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ)

}ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون{ عن ابن عباس: يقول فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابا وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى ففي ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون وقد دللنا فيما مضى. . . على أن معنى الكفر الجحود وكذلك بينا معنى الفسق وأنه الخروج عن الشيء إلى غيره فتأويل الآية: ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحات تبين لعلماء بني إسرائيل وأحبارهم الجاحدين نبوتك والمكذبين رسالتك أنت أنك لي رسول إليهم ونبي مبعوث وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه التارك منهم فرائض عليهم في الكتاب الذي تبين في تصديقه فأما المتمسك منهم بدينه والمتبع منهم حكم كتابه فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدقا وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدقوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل.

١٠٠ - (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون}. . . وأما العهد فإنه الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى ثم نقض بعضهم مرة بعد أخرى فوبخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك وعير به أبناءهم إذ سلكوا مناهجهم في بعض ما كان جل ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته فقال تعالى ذكره: أو كلما عاهد اليهود من بني إسرائيل ربهم عهدا وأوثقوه ميثاقا نبذه فريق منهم فتركه ونقضه. . . وأما النبذ فإن أصله في كلام العرب الطرح. . . والفريق والجماعة لا واحد له من لفظه- ٢٩٩

١٠١ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقا لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون} عن السدي لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة. . . وعن قتادة نقض فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله. . . القوم كانوا يعلمون ولكنهم أفسدوا علمهم وجحدوا وكفروا وكتموا.

١٠٢ - (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{اتبعوا} أقبلوا عليه واقتفوا أثره وفضلوه

{تتلوا} تقرأ أو تتابع وهي بمعنى تلت أو روت

{السحر} التمويه بالحيل والخدعة والأخذة وما لطف أخذه وخفي سببه

{بابل} قطر من الأرض قيل العراق وما والاه

{فتنة} ابتلاء واختبار {المرء} الرجل {زوجه} امرأته

{بإذن} بأمر أو بعلم ويتجوز بالأمر هنا عن التكوين

{اشتراه} استبدله {خلاق} نصيب {اشروا} باعوا

من سوء صنيع بني إسرائيل وما أكثرهم وأفجر إساءتهم أنهم طرحوا كتب الله تعالى المنزلة وأداروا ظهورهم لها، فعل المعرض المستخف وأقبلوا على ما افترته الشياطين على ملك سليمان عليه السلام وأنه قام على السحر والخدعة والأخذة صلى الله عليه وسلم وبهذا تسلط على الجن وسخر الطير والريح والله يشهد أنهم لكاذبون وبينت الآية الكريمة بهتانهم {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر} واقتفوا أثر التمويه بالحيل والتخييل وفضلوا أن يعملوه ويعلموه على أن يتبعوا ما أنزل الله من الحق والرشد والهدى ودعوة الناس إلى البر والخير، {وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت} و {ما} موصولة ٣٠٠ بمعنى الذي والواو للعطف على السحر وهما واحد إلا أنه نزل تغاير المفهوم منزلة تغاير الذات- ٣٠١ و {هاروت وماروت} عطف بيان للملكين، فكأن المعنى: يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت إذ أهبطا إلى العراق {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر} فكان السحر المنزل على الملكين ابتلاء للناس واختبارا ولله تعالى أن يمتحن عباده بما يشاء وقد اختبر سبحانه جنود طالوت بماء عذب مروا به في طريقهم إلى جهاد عدو الله وعدوهم فاختبروا من شرب هذا الماء {فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم. . } ٣٠٢ وها هنا قال الملكان إنما نحن محنة من الله نخبرك أن عمل الساحر كفر فإن أطعتنا نجوت وإن عصيتنا هلكت وما يعلم الملكان أحدا حتى ينهياه وينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء واختبار من الله فلا تكفر بأن تتعلمه معتقدا له أنه حق أو متوصلا به إلى شيء من

المعاصي والأعراض العاجلة {فيتعلمون} الضمير لما دل عليه العموم في {من أحد} أي فيتعلم الناس من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه إما لأنه اعتقد أن السحر حق فكفر فبانت منه امرأته وإما لأنه يفرق بينهما بالتمويه والاحتيال كالنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز ابتلاء منه، لا أن السحر له أثرا في نفسه بدليل قوله تعالى {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} بإرادته وقدرته لأنه إن شاء أحدث عند ذلك شيئا من أفعاله وإن شاء لم يحدث وكان الذي يتعلمونه منها لم يكن مقصورا على هذه الصورة ولكن سوء المرء وركونه إلى زوجته لما كان أشد خصت بالذكر ليدل بذلك على أن سائر الصور بتأثير السحر فيها أولى ٣٠٣ والتفريق بين الرجل وزوجته جرم عظيم لما جعل الله تعالى بينهما من الألفة التي هي من ملته سبحانه وآثار حكمته ورحمته يقول تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه {من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٣٠٤ فمن خبب امرأة على زوجها كان من الفاسقين وعمل عمل الشياطين وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال {إن الشيطان ليدعوا عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجيء أحدهم فيقول مازلت بفلان حتى تركته يقول كذا وكذا فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئا فيجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول نعم أنت ". {ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم} ويتعلم الإسرائيليون من السحر ما يغريهم تعلمه على العمل بشروره وآثامه فيخسرون معادهم ومهما حصلوا من كسب عاجل فيما انتفعوا به لأن الانتفاع القليل الزائل كلا انتفاع؛ {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} لقد علم

اليهود من بني إسرائيل كتابي وراء ظهورهم تجاهلا منهم، التاركون العمل بما فيه من اتباعك يا محمد واتباع ما جئت به بعد إنزالي إليك كتابي مصدقا لما معهم وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم وما في أيديهم المؤثرون عليه اتباع السحر الذي تلته الشياطين على عهد سليمان والذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت لمن اشترى السحر بكتابي الذي أنزلته على رسولي فآثره عليه، ماله في الآخرة من خلاق. . . . عن مجاهد. . . {من خلاق} يقول من نصيب. . . {ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون}. . . ذم من الله تعالى ذكره فعل المتعلمين من الملكين التفريق بين المرء وزوجه وأخبر منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ما شروا به أنفسهم برضاهم بالسحر عوضا عن دينهم الذي به نجاة أنفسهم من الهلكة جهلا منهم بسوء عاقبة فعلهم وخسارة صفقة بيعهم، إذا كان يتعلم ذلك منهم من لا يعرف الله ولا يعرف حلاله وحرامه وأمره ونهيه ثم عاد إلى الفريق الذي أخبر الله عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم. . . فأخبر عنهم أنهم قد علموا من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق. . . وإنما نفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله. . {لو كانوا يعلمون} بعد وصفه وإياهم بأنهم قد علموا، بقوله {ولقد علموا}، من أجل أنهم لم يعملوا بما علموا وإنما العالم العامل بعلمه وأما إن خالف عمله علمه فهو في معاني الجهال - ٣٠٥.

١٠٣ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{مثوبة} ثواب

{ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون} {لو} قد يراد بها الامتناع، أي امتنع إدراكهم ثواب الله وما عنده من النعيم والكرامة لامتناعهم عن الإيمان والتقوى وكأن المعنى لو ثبت أنهم آمنوا وصدقوا بما يجب التصديق به وخافوا ربهم وأطاعوه وتجنبوا عصيانه لأثيبوا ثوابا خيرا لهم من السحر وما اكتسبوا به {لو كانوا يعلمون} أن ثواب الله إياهم على ذلك خير مما وقعوا فيه -وإنما نفى بقوله {لو كانوا يعلمون} العلم أنهم كانوا عالمين بمبلغ ثواب الله وقدر جزائه على طاعته. . وثواب الله عز وجل عباده على أعمالهم بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه حتى يرجع إليهم بدل من علمهم بدل من علمهم الذي عملوا له- ٣٠٦ [وقد استدل بقوله {ولو أنهم آمنوا واتقوا} من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية من الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعي وأحمد ابن حنبل عن عمر بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر ٣٠٧ وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر] ورواه البخاري في صحيحه.

١٠٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
{راعنا} يوارى بها عن الرعونة وتفرق الحجة والعقل
{انظرنا} أقبل علينا وانظر إلينا فهي استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال
{يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا} نداء من الله تعالى للمؤمنين أن لا يتشبهوا بالسفهاء الإسرائيليين فقد كانوا عليهم اللعنة -يعمدون إلى كلام فيه تورية- ظاهره مقبول وقصدهم منه خبيث مرذول فإذا أرادوا استنصات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقولوا اسمع لنا وإنما يقولون راعنا ويقصدون رميه صلوات الله عليه بالرعونة والخفة والطيش وقد أظهر الله تعالى أضغانهم تلك بمثل قوله سبحانه {من الذين هادوا يحرفون الكلام عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين. } ٣٠٨ (وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم أنهم كانوا إذا سلموا يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نردد عليهم ب " وعليكم " والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين في أقوالهم وأفعالهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقر عليها. . . والله نهى المؤمنون أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم) ٣٠٩ وعلمنا سبحانه أن نقول {انظرنا} وأن نسمع له صلوات ربنا عليه ونطيعه {وللكافرين عذاب أليم} وعيد من الله تعالى وتحذير شديد ونذير لمن تشبه بالجاحدين المكذبين بالدين ولم يقر خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم.
١٠٥ - (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)
{يود} يتمنى ويحب {ذو} صاحب
{ما يود الذين كفروا} أنبأنا العليم الخبير بكراهية الكافرين لنا وحبهم لهلاكنا يستوي في ذلك كتابيهم ومشركهم {من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} ٣١٠ فهؤلاء اليهود والنصارى وأولئك الوثنيون يتمنون أن نحرم الهداية والرحمة يحسدوننا على ما آتانا الله من فضله - {من} الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون كقوله {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين. } ٣١١. . . . . والثانية لاستغراق الخير فإن {ينزل} في سياق النفي فمعنى ما يود أن ينزل: يود أن لا ينزل والثالثة لابتداء الغاية - ٣١٢ (وفي الآية دلالة على أن الله تعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين والاستماع من قولهم وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منه باطلاعه جل ثناؤه إياهم به على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما يستبطنون. . . {والله يختص برحمته من يشاء} والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته فيرسله إلى من يشاء من خلقه فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له واختصاصه إياهم بها وإفرادهم بها دون غيره من خلقه وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه وهدايته من هدى من عباده رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة ٣١٣ واستحقاقه به ثناؤه وكل ذلك رحمة من الله له؛ وأما قوله {والله ذو الفضل العظيم} فإنه من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه من عنده ابتداء وتفضلا منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه. . .) ٣١٤.
١٠٦ - (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
{ننسخ} نمحو ونبدل وننقل من حكم إلى غيره {ننسها} نؤخرها.
ربنا المعبود ولي التقدير خبير وبصير يشرع لعباده ما فيه خيرهم وقد ينقله سبحانه من حكم إلى حكم يعلم جل وعلا أن هذا التحول مما يصلح به أمرهم.
والنسخ لغة الإزالة ومنه نسخت الشمس الظل أي أزالته وقد يراد به النقل ومنه نسخت الكتاب وفي الاصطلاح رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر [ونسخ الآية -على ما ارتضاه بعض الأصوليون- بيان انتهاء التعبد بقراءتها كآية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما

نكالا من الله والله العزيز الحكيم أو الحكم المستفاد منها كآية {والذين يتفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج} ٣١٥ أو بهما كآية عشر رضعات معلومات يحرمن وفيه التأبيد المستفاد من إطلاقها. . فهو بيان بالنسبة إلى الشوارع ورفع بالنسبة إلينا

٣١٦ {أو ننسها} أو نرجئها أو نتركها من النسيان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها قاله ابن عباس والسدي ومنه قوله تعالى {. ونسوا الله فنسيهم} ٣١٧ أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب. . . وحكى الأزهري {ننساها} نأمر بتركها يقال أنسيته الشيء أي أمرت بتركه. .، {نأت بخير منها} لفظة {بخير} هنا صفة تفضيل والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف وفي آجل إن كانت أثقل وب {مثلها} إن كانت مستوية وقيل ليست بأخير التفضيل لأن كلام الله لا يتفاضل وإنما هو مثل قوله {من جاء بالحسنة فله خير منها} ٣١٨ أي فله منها خير أي نفع وأجر لا الخير الذي بمعنى الأفضل- ٣١٩.

١٠٧ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

{دون} سوى وبعد {ولي} مالك ومتولي {نصير} معين

{ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ويشهد ذلك ما ختمت به الآية الكريمة {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه كما يشاء فله الخلق والأمر. . . يحكم في عباده ما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} ٣٢٠ ويختبر عباده بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أمروا وترك ما عنه زجروا وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا وإما نقلا كما ترخصه آخرون منهم افتراء وإفكا. ٣٢١.

١٠٨ - (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

{ضل} حار وجار {سواء} مستوى ووسط

{السبيل} الطريق

{أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل} وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن المغيرة بن شعيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال وفي صحيح مسلم (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أكل عام يا رسول الله فسكت عنهم رسول الله ثلاثا، ثم قال عليه السلام: (لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم) ثم قال (ذروني ما تركتكم) الحديث و {أم} وإن كانت للاستفهام لكن ربما قد يراد بها الإنكار، نهى الله تعالى المؤمنين عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها كما قال سبحانه {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم. } ٣٢٢ أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ٣٢٣، وقال بعض المفسرين النهي عام يعم المؤمنين والكافرين كما قال تعالى {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء. } ٣٢٤ {ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل} والذي يقبل على الكفر ويعدل عن تصديق الأنبياء واتباعهم إلى مخالفتهم والتعنت في مساءلتهم - الذي يترك الإيمان ويختار عليه الكفر جائر عن وسط الطريق زائغ عن جادة السلام والإسلام.

١٠٩ - (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{فاعفوا} اتركوا العقوبة {واصفحوا} تجاوزوا عن التثريب وأعرضوا عنهم

}ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا{ تمنى وأحب كثير من اليهود -وفيهم نزلت التوراة- ومن النصارى -وفيهم أنزل الإنجيل- تمنوا ومازالوا يتمنون أن يرجع المسلمون إلى الكفر كما قال تقدست أسماؤه }ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء. { ٣٢٥ وقال عز وجل }ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. { ٣٢٦ يحذرنا سبحانه أن نأمن مكرهم أو نواليهم ونقفوا أثرهم يقول تباركت آلاؤه }يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين{ ٣٢٧ وقد نبأنا العليم الخبير أنهم ملئوا ضغنا ومردوا على النفاق }ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ{ ٣٢٨ }حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق{ وإنما يحب الكفار ضلالنا وإغوائنا ويسارعون في خبالنا لأنهم يحسدوننا على فضل وهداية مولانا لنا وهم يعلمون أنا على الحق وهم على الباطل لكن يكرهون أن نجوا وهم يهلكون ومعنى }من عند أنفسهم{ أي من تلقائهم من غير أن يجحدوه في كتاب ولا أمروا به. . . الحسد نوعان مذموم ومحمود فالمذموم أن تتولى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله }أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. { ٣٢٩ وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه وأنه أنعم على من لا يستحق، وأما المحمود فهو ما جاء في الصحيح من قوله عليه السلام (لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) وهذا الحسد معناه الغبطة وكذلك ترجم عليه البخاري (باب الاغتباط في العلم والحكمة) وحقيقتها أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من النعمة ولا يزول عنه خيره وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة ومنه قوله تعالى: }. . . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون{ ٣٣٠ - ٣٣١.

}فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره{ العفو ترك المآخذة بالذنب والصفح الإعراض والترك وزوال أثره من النفس والأمر إما واحد الأوامر، وإما واحد الأمور، أمرنا الله تعالى بالعفو عن إساءتهم والإعراض عن سفاهاتهم ومتابعة نصحهم والإشفاق عليهم وحسن الاستدعاء وترك التشدد، روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ٣٣٢ وأسامة وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ٣٣٣ - وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي- فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود وفي المسلمين محمد بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة ٣٣٤ الدابة خمر ٣٣٥ ابن أبي أنفة بردائه وقال: لا تغبروا علينا فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع إلى رحلك ٣٣٦. فمن جاء فاقصص عليه قال عبد الله بن رواحة بلى يا رسول الله فاغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا) فقال أي رسول الله بأبي أنت وأمي اعف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح عليه أهل البحيرة ٣٣٧ على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فلذلك فعل ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عفى عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ويصبرون على الأذى قال الله عز وجل }. . . ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن أشركوا أذى كثيرا. { ٣٣٨ وقال }ود كثير من أهل الكتاب{ فكان رسول الله يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن لهم فيه ٣٣٩، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا فقتل الله به من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان هذا أمر قد توجه ٣٤٠ فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا }إن

الله على كل شيء قدير} إن شاء الانتقام انتقم وإن شاء الهداية هدى فإنه يفعل ما يشاء ولا يعجزه شيء أراد.

١١٠ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير} إقامة الصلاة أداؤها تامة الأركان خاشعة كملت شروطها وآدابها ورعيت هيآتها وشعائرها ومواقيتها. وإيتاء الزكاة إعطاؤها مستحقيها بطيب نفس على ما شرع الله من صدقة فريضة أو تطوع. يحضنا مولانا على رعاية الغير بالعفو والصفح ورعاية أنفسنا بالطاعات البدنية والمالية ومهما عملنا من القربات والصالحات في هذه الحياة نلق ثوابه حاضرا مضاعفا يوم نلق الله. أخرج البخاري والنسائي عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله وإنما مالك ما قدمت ومال وارثك ما أخرت ". لفظ النسائي ولفظ البخاري: قال عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر "؛

{إن الله بما تعملون بصير} - وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير وشر ٣٤١ سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه من شيء فيجزيهم بالإحسان جزاؤه وبالإساءة مثلها ٣٤٢، وهذا الكلام وإن خرج مخرج الخبر فإنه فيه وعدا ووعيدا وأمرا وزجرا وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذا كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه. . . وليحذروا معصيته إذا كان مطلعا على راكبها بعد تقدمه إليه بالوعيد عليها وما أوعد عليه ربنا جل ثناؤه فمنهي عنه وما وعد عليه ربنا فمأمور به. أما قوله {بصير} فإنه مبصر صرف إلى {بصير} كما صرف مبدع إلى {بديع} - ٣٤٣

١١١ - (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{أمانيهم} ما يتمنونه {هاتوا} احضروا {برهانكم} دليلكم

{وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم} اليهود والنصارى أكثرهم يعض على يديه تغيظا أن هدانا الله إلى الحق ولا يألوا جهدا في السعي في فتنتنا عن الهدى والرشد وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون فانبعثوا يتشهون حصول ما لا يمكن أن يكون واختلقوا كذبا ومينا أنهم دون سواهم إلى الجنة صائرون وما زعمهم وافتعالهم إلا أماني ولهذا قال الشاعر: " إن الأماني والأحلام تضليل "

فهم يضللون أنفسهم ويضلل بعضهم بعضا ويريدون أن يضلوا غيرهم بقولهم الذي حكاه الحق سبحانه: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} وقوله جل علاه {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء} يريدون أن يوقعوا الآخرين في غيهم ليشاركوهم شقوتهم في مآلهم ومصيرهم. {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} رد الله تعالى افتراءهم وعهد إلى نبيه ثم إلينا أن ندعوهم إلى إحضار دليلهم على قولهم إن كانوا صادقين في ادعائهم.

١١٢ - (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{بلى} رد لما ادعوه وإثبات لما نفوه {أسلم وجهه} انقاد

{محسن} متقن لجميع ما يفعله

{لا خوف عليهم} مما ينتظرهم

{ولا هم يحزنون} على ما خلفوا من ورائهم

{بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} ليس الأمر كما زعموا بل الحق أنه من انقاد وأطاع مولاه وأتقن عمله لأولاه وعقباه وعبد الملك المهيمن كأنه يراه، فالجزاء الأوفى والثواب الأبقى مدخر عند الله ولا خوف عليه مما سيلقاه فالجنة مأواه، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم فإن البر يخلفهم وهو نعم الخليفة. وإنما عاد الضمير على من مفردا في قوله

سبحانه {فله} وعاد مجموعا في قوله عز ثناؤه {ولا خوف عليهم} رعاية للفظ {من} وهو مفرد ثم رعاية لمعناها، وهو جمع -وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس وينبوع الفكر والتخيل فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى لأن الوجه قد يكنى به عن النفس والذات {. . . كل شيء هالك إلا وجهه. } ٣٤٤ {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى} ٣٤٥. . وهذا الاسلام أخص من الإسلام الذي ورد في الحديث

" الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتأتي الزكاة وتصوم ٣٤٦ رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا " لأن هذه عبارة عن الإذعان الكلي بجميع القوى والجوارح في كل الأحوال والأوقات وهو الإسلام الذي أمر به إبراهيم عليه السلام {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} ويؤكد ذلك قوله {لله} أي خالصا. . وزاد التأكيد بقوله {وهو محسن} ومعنى الإحسان هو الذي في الحديث: " الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ". . والضابط أن كل ما فعلته لداعي الحق فهو عمل الحق. . وأما النية فهي انبعاث النفس وميلها إلى سلوك طريق الحق في كل فعل فاجتهد لتصيير ذلك ملكة لنفسك- ٣٤٧

١١٣ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{يتلون} يقرؤون {الكتاب} كتاب اليهود التوراة وكتاب النصارى الإنجيل {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء} الاختلاق وتشهي حصول ما لا يكون حمل اليهود والنصارى -إلا قليلا منهم- على الغواية وادعوا أنهم وحدهم أهل النعيم ومن عاداهم صائر إلى الجحيم فتواطأ قول الفريقين أولا على زعم كل فريق أنه الموعود بالجنة ثم انبعث كل قبيل يطعن في دين الآخر -عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل فقال رجل من أهل نجران من النصارى ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء} إلى قوله {فيما كانوا به يختلفون}. . . وإنما أخبر الله عنهم بقيلهم ذلك للمؤمنين إعلاما منه لهم بتضييع كل فريق منهم حكم الكتاب الذي يظهر الإقرار بصحته وأنه من عند الله، وجحودهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه، لأن الإنجيل الذي تدين بصحته وحقيته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى عليه السلام وما فرض الله على بني إسرائيل فيها من الفرائض وأن التوراة التي تدين بصحتها وحقيقتها اليهود تحقق نبوة عيسى عليه السلام وما جاء به من عند الله من الأحكام والفرائض، ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم. . مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابه الذي يشهد على كذبه في قيله ذلك. . . عن قتادة. . . كانت أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. . قال مجاهد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. . . {وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولكم}. . . عن السدي. . العرب قالوا ليس محمد صلى الله عليه وسلم على شيء. . .؛ {فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} يعني بذلك جل ثناؤه فالله يقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين. . . يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم فيتبين المحق منهم من المبطل بإثباته المحق ما وعد أهل طاعته على أعمالهم الصالحة ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر على كفرهم- ٣٤٨.

١١٤ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{خزي} ذل وهوان.

{ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها} استفهام يراد به النفي فكأن المعنى لا أحد أشد ظلما من الذي يمنع الناس من مساجد الله وإتيانها والعكوف فيها كراهية أن يذكر فيها اسم الواحد المعبود الملك الحميد المجيد وسعي في خراب المساجد

بانقطاع الذكر أو تخريب البنيان (قيل أن قوله {ومن أظلم} الذي هو في قوة: ليس أحد أظلم ليس على عمومه لأن الشرك أعظم من هذا الفعل {. إن الشرك لظلم عظيم} ٣٤٩ وكذا الزنا وقتل النفس، قلت أما استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى ففي غاية الحسن لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه لأن المانع من ذلك واضع للشيء في غير موضعه وأما أنه لا أظلم منه فلأنه إن كان مشركا فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه وإن كان يدعي الإسلام ففعله مناقض لقوله لأن من اعتقد أن له معبودا عرف وجوب عبادته له عقلا أو شرعا، والعبادة تستدعي معبدا لا محالة فتخريب المتعبد ينبئ عن إنكار العبادة وإنكار العبادة يستدعي إنكار المعبود فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلما وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق، والمنافق كافر أسوأ حال من الكافر الأصلي باتفاق). ٣٥٠

{أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين} هؤلاء الذين سعوا في خرائب المساجد ليس لهم أن يدخلوها وهذا إن كان خبرا إلا أنه قد يراد به الأمر أي جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم مساجد الله أو المسجد الحرام {لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} وكل ساع في تخريب بيوت الله يناله الذل والصغار في الدنيا ويحل عليه في الآخرة عذاب شديد مقيم.

١١٥ - (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

{المشرق} جهة الشروق من الشمس

{المغرب} ناحية غروبها. {فأينما} ففي أي مكان كنتم وحيثما توجهتم

{فثم} فهناك. {واسع} يسع خلقه بالعطاء والإفضال.

{ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم} لربنا الواحد المعبود بحق ملك جهة الشروق وجهة الغروب ما بينها من الجهات والمخلوقات، عن مجاهد حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة، وعن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله صلى الله عليم وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله {قد نرى تقلب وجهك في السماء} إلى قوله {فأينما تولوا فثم وجه الله}. . . قال: قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا، روى مسلم في صحيحه عن بن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية {فأينما تولوا ٣٥١ فثم وجه الله} فهو إذا تيسير على المصلي تطوعا في السفر يصلي حيث توجه من شرق أو من غرب {إن الله واسع} يسع الخلق جميعا بما يكفي ويغني ويقني {عليم} محيط علمه بكل الخلق وما يؤتون وما يذرون.

١١٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

{سبحانه} تبرأ ربنا وتنزه وتقدس عن كل نقص. {قانتون} مطيعون {وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون} -نوع آخر من قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين جميعا فقد مر ذكرهم في قوله {كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم} وفي قوله: {من أظلم. } كما مر، والضمير يصلح للعود إليهم فاليهود قالوا عزير بن الله والنصارى قالوا المسيح بن الله والمشركون من الأعراب قالوا الملائكة بنات الله {سبحانه} تنزيه له من ذلك وتبعيد بل له ما في السماوات والأرض ملكا وإبداعا وصنعا ومن جملتهم الملائكة وعزير والمسيح والولد لابد أن يكون من جنس الوالد ومن أين المناسبة بين واجب الوجود لذاته وممكن الوجود لذاته؟ اللهم إلا في مطلق الوجود وذلك لا يقتضي شركة في الحقيقة الخاصة بكل منهما وقد يتخذ الولد للحاجة في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته وذلك على الغنى المطلق والقيوم الحق محال {كل له قانتون} التنوين عوضا من محذوف أي: كل ما في السماوات والأرض. والقنوت في الأصل: الدوام ثم الطاعة أو طول القيام أو السكوت فالمعنى أن دوام الممكنات واستمرارها جميعا به ولأجله. . . المراد كونها شاهدة على وجود الخالق بما فيها من آثار القدرة وأمارات الحدوث أو كون جميعها في ملكه وتحت قهره لا يمتنع عن تصرفه فيها كيف يشاء وعلى هذه الوجوه جمع السلامة في {قانتون} للتغليب أو يراد كل من الملائكة وعزير والمسيح عابدون له مقرون بربوبيته

ومنكرون لما أضافوا إليهم من الولدية، وعلى هذا الوجه يجمع على الأصل. . .
١١٧ - (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)
{بديع} مبدئ ومنشئ على غير مثال سبق. {قضى} أراد. {أمرا} واحد الأمور. {فيكون} فيوجد.
{بديع} خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع السماوات والأرض عم أولا لأن الملكية والاختصاص لا يستلزم كون المالك موجودا للملوك ثم خص ثانيا فقال {بديع}. . أبدعته: اخترعته. ثم إنه تعالى بين كيفية إبداعه فقال: {فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} أصل التركيب من ق ض ى يدل على القطع. . وقضى أمرا حكم بأنه يفعله ٣٥٢ - ({كن}. . . . هي المراد بقوله عليه السلام (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق). . . فإذا قال لكل أمر {كن} ولكل شيء كن) فهن كلمات. . . . وإذا قيل [تامة] لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف. . . وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص كيد ودم وفم. . . فهي من الآدميين من المنقوصات لأنها على حرفين ولأنها. . . ملفوظة بالأدوات ومن ربنا تبارك وتعالى تامة. لأنها بغير الأدوات، تعالى عن شبه المخلوقين. . . الله عز وجل لم يزل آمرا للمعدومات بشرط وجودها قادرا مع تأخر المقدورات عالما مع تأخير المعلومات فكل ما في الآية يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن. وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل والمعنى الذي تقتضيه عبارة {كن} هو قديم قائم بالذات) ٣٥٣.
١١٨ - (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)
{لولا} هلا
{آية} دلالة وعلامة. {تشابهت قلوبهم} في الإصرار على الكفر
{يوقنون} يصدقون تصديقا لا شك معه.
{وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية} عن الربيع والسدي وقتادة {وقال الذين لا يعلمون} مشركوا العرب حكى القرآن قيلهم: هلا يكلمنا الله أي هلا يكلمنا بنبوة محمد أو يأتينا بعلامة تدل على أنه نبوته كما فصل قيلهم في آيات كريمات {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه. } ٣٥٤ { كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم} مثل هذا التعنت سلكه قوم من قبلهم فقال أتباع موسى لموسى عليه السلام {. . لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. } ٣٥٥ وقال الحواريون لعيسى عليه السلام {. . . . هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا. } ٣٥٦ {تشابهت قلوبهم} تشابهت قلوب مشركي العرب وقلوب من سبقوهم من المتعنتين في طلب العلامات وخوارق العادات الكثيرات من رسلهم عنادا ولجاجة ومراء. {قد بينا الآيات لقوم يوقنون} قد وضحنا العلامات الدالة على صدق رسلنا فيما بلغوا عنا وأظهرنا ذلك لقوم يريدون أن يصلوا إلى الحق واليقين فيصدقوا ولقد جاء من الأنباء ما يؤمن على مثله أهل الرشد من البشر أما من فسدت فطرته وعميت بصيرته فما تغني عنه النذر {. . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. } ٣٥٧ {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} ٣٥٨.
١١٩ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)
{بالحق} بالدين الحق.
{بشيرا} تخبر المؤمنون بما يسرهم فيرى أثر الاستبشار على وجوههم.
{ونذيرا} تنذر وتحذر من كفر وفجر من سوء عاقبتهم.
{ولا تسأل} ولا تؤاخذ.

{عن أصحاب الجحيم} عن المعذبين في جهنم.
{إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم} عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمر بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال أجل إنه والله لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسول سميتك المتوكل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح الله به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا {إنا أرسلناك بالحق} بالدين الذي لا أقبل سواه وبالقرآن الذي جعلته مصدقا لما سبق من كتبي ومهيمنا على التوراة والإنجيل. {بشيرا} تبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا {ونذيرا} تنذر من فجر وكفر شقوة وخزيا وجحيما وسعيرا {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم} لن نسألك عن ضلال من ضل ما عليك من حسابه من شيء إنما عليك البلاغ وقد بلغت وأما من افترى علي الكذب وكذب بالصدق إذ جاءه فسوف يدعوا ثبورا ويقول {. . . يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنها مالية هلك عني سلطانية} ٣٥٩.

١٢٠ - (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)
{ملتهم} دينهم وسنتهم وطريقهم.
يبين الخبير والبصير إصرار المبطلين على باطلهم وكيف زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا وأنهم يسخطون على كل ما ليس على شاكلتهم شأنهم في ذلك شأن الكفار الفجار وقد حكى القرآن الحكيم قيلهم {وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا. } ٣٦٠ والملة الدين والسنة والطريقة - فيه إقناط لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن إسلامهم وأن القوم قد بلغوا من التصميم إلى حد أنهم لا يقنعون بالكفاف ولا يرضون رأسا برأس بل يريدون منك عكس ما تطمع منهم زاعمين أن ملتهم التي حان نسخها هي الهدى ٣٦١ (وليس غرضهم يا محمد مما يقترحون من الآيات ما يؤمنوا بل لو آتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم. . . تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداوود وأحمد بن حنبل على أن الكفر ملة واحدة. . . وذهب أحمد ومالك في الرواية الأخرى إلى أن الكافر ملل فلا يرث اليهودي النصراني ولا يرثان المجوسي أخذا بظاهر قوله عليه السلام (لا يتوارث أهل ملتين) وأما قوله تعالى {ملتهم} فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في القول واللفظ. . . كما تقول أخذت عن علماء المدينة -مثلا- علمهم. . يعني علومهم) ٣٦٢ {قل إن هدى الله هو الهدى} أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر ويقرر أن بيان الله هو بيان القاطع والقضاء الفاصل بين الراشد والغاوي وأن دين الإسلام هو الحق وليس من بعده إلا الضلال فقد نسخ الأديان كلها، فأنا أدعوكم إلى وحي كله هدى وأنتم تدعون إلى هوى وردى، {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير} ذهب صاحب روح المعاني إلى أن حاصل المعنى متابعة أهوائهم محال لأنه خلاف ما علم صحته فلو فرض وقوعه كما يفرض المحال لم يكن له ولي ولا نصير يدفع عنه العذاب ا ه. والخطاب إما للرسول صلى الله عليه وسلم أو المراد أمته ٣٦٣ والأهواء مشتهياتهم وآرائهم الباطلة الناسخة.

١٢١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)
{يتلونه} يقرؤونه ويتبعونه.
{الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به} الذين من الله تعالى عليهم وأحسن إليهم وشرفهم فاختارهم ليكونوا أهل تعلم ما أنزل من كتاب وأهل تعليم لما فيه حق ورشد- وكله حق ورشد - هؤلاء يقرؤونه ويتدبرونه ويتبعونه إذ هم به مصدقون وبالهداية والسعادة التي جاء بها مستيقنون. {الكتاب} إما أن يكون مراد به الكتب المنزلة من عند الله تعم التوراة والإنجيل والقرآن وإما أن تكون أل في {الكتاب} للعهد والكتاب المعهود هو القرآن فيكون {الذين آتيناهم الكتاب} هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبهذا

فسر قتادة وقال بن زيد هم من أسلم من بني إسرائيل. والكتاب على هذا التأويل التوراة، والآية تعم -ثم التلاوة قد يكون مراد بها الاتباع كالذي في قول الله تعالى {والقمر إذا تلاها} ٣٦٤ وقد يراد به القراءة مع تدبر يلين منه القلب ويستقيم به النهج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها. وقد روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم: كان إذا مر بآية رحمة سأل وإذا مر بآية عذاب تعوذ، وقال الحسن هم الذين يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه- ٣٦٥ [وقوله:

{أولئك يؤمنون به} خبر أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتك يا محمد كما قال تعالى:

{ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم}. ٣٦٦ وقال: {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم. } ٣٦٧ أي إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيه من الأخبار بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة. . .] ٣٦٨

ورى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار ". فالضمير في " به " على هذا التأويل عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم و {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون} قال ابن زيد ٣٦٩ من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الخاسرون.

١٢٢ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} الآيتان السابعة والأربعون والثامنة والأربعون من هذه السورة المباركة بينتا هذه المعاني فهاتان إذا تكرير تذكير بني إسرائيل وإعادة لتحذيرهم ليكون النصح بليغا مؤكدا، ومعلوم -كما قدمنا- أن بني إسرائيل هم كل من تناسل من نبي الله يعقوب عليه السلام إذ هو يعقوب وإسرائيل وأورد صاحب روح المعاني قيل إن ما سبق ٣٧٠ كان للأمر بالقيام بحقوق النعم السابقة وما هنا لتذكير -نعمة بها فضلهم على العالمين- وهي نعمة الإيمان بنبي زمانهم وانقيادهم لأحكامه ليغتنموها ويؤمنوا بها ويكونوا من الفاضلين -لا المفضولين- وليتقوا بمتابعته عن أهوال القيامة وخوفها- كما اتقوا بمتابعة موسى عليه السلام.

١٢٣ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٢]

{تجزي} تغني. {عدل} فداء. {ينصرون} يمنعون ويستنقذون.

{يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} الآيتان السابعة والأربعون والثامنة والأربعون من هذه السورة المباركة بينتا هذه المعاني فهاتان إذا تكرير تذكير بني إسرائيل وإعادة لتحذيرهم ليكون النصح بليغا مؤكدا، ومعلوم -كما قدمنا- أن بني إسرائيل هم كل من تناسل من نبي الله يعقوب عليه السلام إذ هو يعقوب وإسرائيل وأورد صاحب روح المعاني قيل إن ما سبق ٣٧١ كان للأمر بالقيام بحقوق النعم السابقة وما هنا لتذكير -نعمة بها فضلهم على العالمين- وهي نعمة الإيمان بنبي زمانهم وانقيادهم لأحكامه ليغتنموها ويؤمنوا بها ويكونوا من الفاضلين -لا المفضولين- وليتقوا بمتابعته عن أهوال القيامة وخوفها- كما اتقوا بمتابعة موسى عليه السلام.

١٢٤ - (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

{ابتلى} اختبر. {بكلمات} بأوامر ونواه وتكاليف.

{فأتمهن} قام بهن ووفاهن. {إماما} قدوة.

{عهدي} الإمامة أو النبوة.
{وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات} في متعلق {إذ} احتمالات. . . والمشهور تعلقها بمضمر مقدم تقديره اذكر أو اذكروا وقت كذا والجملة حينئذ معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والجامع الاتحاد في المقصد من تذكيرهم وتخويفهم -تحريضهم عل قبول دينه صلى الله عليه وسلم واتباع الحق وترك التعصب وحب الرياسة وكذلك المقصد من قصة إبراهيم عليه السلام وشرح أحواله: الدعوة إلى ملة الإسلام وترك التعصب في الدين وذلك لأنه إذا علم أنه نال -الإمامة- بالانقياد لحكمته تعالى. . . وأن نبينا عليه السلام من دعوته ودعا في حق نفسه وذريته بملة الإسلام كان الواجب على من يعترف بفضله وأنه من أولاده ويزعم اتباع ملته ويباهي أنه من ساكن حرمه وحامي بيته أن يكون حاله مثل ذلك. ا ه
{ابتلى} اختبر وامتحن {إبراهيم} وقع عليه الاختبار والفاعل {ربه} وهذا من تقديم المفعول في الكلام على الفاعل فكأن المعنى عامل الله تعالى عبده ونبيه وخليله إبراهيم عليه السلام معاملة المبتلي المختبر وعهد إليه بتكاليف {فأتمهن} أتى بهن على الوجه الأتم وأداهن بإحسان وإتقان. عن ابن عباس قال: ما ابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله غير إبراهيم ابتلي بالإسلام فأتمه وكتب الله له البراءة فقال {وإبراهيم الذي وفي} ٣٧٢ فذكر عشرا في براءة ٣٧٣ فقال {التائبون العابدون الحامدون. } إلى آخر الآيات ٣٧٤ وعشرا في الأحزاب {إن المسلمين والمسلمات. } ٣٧٥ وفي سورة المؤمنين إلى قوله {والذين هم على صلواتهم يحافظون} ٣٧٦ وعشرا في سأل سائل ٣٧٧ وعن مجاهد قال ابتلي بالآيات التي بعدها {قال إني جاعلك للناس إماما} وقوله {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين}
وعن الربيع ما حصله فالكلمات {إني جاعلك للناس إماما} وقوله {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس} وقوله {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} وقوله {وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل.} الآية وقوله {إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت.} الآية قال فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم ٣٧٨ اهـ. {قال إني جاعلك للناس إماما} قال الله جل علاه مخاطبا إبراهيم نبي الله وخليل الله: إني مصيرك للناس قدوة ورسولا فأهل الإيمان من العالمين إلى يوم الدين يأتمون بك والرسل الذين أرسلهم من بعدك يستنون بسنتك التي تعمل بها بأمري ووحيي ولقد عهد الله تعالى إلينا نحن الأمة الخاتمة أن ننهج نهجه عليه السلام {. . . ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا.} ٣٧٩ ووصانا أن نتخذ من غيرته على أمانات ربنا الملك القدوس أسوة فقال جل علاه {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٣٨٠. {قال ومن ذريتي} عن الربيع قال إبراهيم ومن ذريتي يقول اجعل من ذريتي من يؤتم به ويقتدى به {قال لا ينال عهدي الظالمين} عن مجاهد لا أجعل إماما ظالما يقتدى به وعن قتادة {لا ينال عهدي الظالمين} ذلكم عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالم يعني لا يؤمنه من عذابه فأما في الدنيا فقد نالوا عهد الله فوارثوا به المسلمون وعاملوهم وناكحوهم به فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه.
١٢٥ - (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)
{مقام إبراهيم} مكان مقامه.
{مصلى} تصلون عنده.
{عهدنا} أوحينا وأمرنا. {طهرا بيتي} من الأوثان والرفث
{العاكفين} المعتكفين المقيمين. {الركع السجود} المصلين
{مثابة} مجمعا ومرجعا.
{وإذ جعلنا البيت مثابة للناس} واذكر إذ جعلنا الكعبة البيت الحرام المسجد العتيق مرجعا للناس يأتونه المرة بعد المرة ثم لا يقضون منه وطرا يتمنون العودة والرجوع إليه. {وأمنا} ملجأ ومعادا والمراد موضع أمن، إما لسكانه من الخطف أو لحجاجه من العذاب. . .

ولم يذكر للناس هنا كما ذكر من قبل اكتفاء به أو إشارة إلى العموم؛ أي: إنه أمن لكل شيء كائنا ما كان حتى الطير والوحش إلا الخمس الفواسق فإنها خصت من ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} عطف على {جعلنا} أو حال من فاعله على إرادة القول أي وقلنا لهم أو قائلين لهم اتخذوا والمأمور به الناس كما هو الظاهر. . . و {من} إما للتبعيض أو بمعنى في. . . والأظهر الأول، والمقام مفعل من القيام يراد به المكان، أي: مكان قيامه، وهو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم عليه السلام حين ضعف من رفع الحجارة التي كان ولده إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت. . . {وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل} أي: وصينا، أو أمرنا،. . . . {أن طهرا بيتي} أي: بأن {طهر} على أن {أن} مصدرية. . . والمراد من التطهير التنظيف من كل ما لا يليق، فيدخل فيه الأوثان والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع شرعا كالحائض،. . . {للطائفين} أي لأجلهم فاللام تعليلية،. . . والطائف: اسم فاعل من طاف به إذا دار حوله،. . . وقال ابن جبير: المراد: الغرباء الوافدون مكة حجاجا وزوارا؛ {والعاكفين} وهم أهل البلد الحرام المقيمون. . . . . وقيل هم المعتكفون فيه {والركع السجود} وهم المصلون، جمع راكع وساجد وخص الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي لأنهما أقرب أحواله إليه تعالى. . .

١٢٦ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

{اضطره} أدفعه وأسوقه.

{وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلد آمنا}. . . أي اجعل هذا المكان القفر بلدا. . . فالمدعو به البلدية مع الأمن،. . . {وارزق أهله من الثمرات} أي من أنواعها، بأن تجعل قريبا منه قرى يحصل فيها ذلك، أو تجئ إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما ٣٨١ _ {من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير} _ أي: ارزق من آمن من أهله دون من كفر؛ وقوله

{ومن كفر} الظاهر أن هذا كلام الله سبحانه ردا على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم، أي: وأرزق من كفر فأمتعه بالرزق قليلا. . ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر،. . . ومعنى {أضطره} ألزمه حتى أصير مضطرا لذلك لا يجد عنه مخلصا، ولا منه متحولا ٣٨٢ - [والتحقيق أن أحوال الكفار يوم القيامة عند إدخالهم النار شتى، وبذلك يحصل الجمع بين الآيات، وأن الاضطرار مجاز عن كون العذاب واقعا به وقوعا محققا حتى كأنه مربوط به؛. . . {وبئس المصير} المخصوص محذوف لفهم المعنى، أي وبئس المصير النار] ٣٨٣.

١٢٧ - (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{يرفع} يعلي ويبني. {القواعد} الأساس، ورفعها: رفع ما هو مبنى فوقها.

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل} لكأن المعني: واذكر وقت رفع إبراهيم البيت أساس البيت الحرام ٣٨٤ أول بيت وضع للناس، بناه وأعلى بناءه معه ولد إسماعيل عليهما السلام ويمكن أن يكون هذا القول الكريم قد عطف قول المولى سبحانه {وإذ قال إبراهيم} وجاء بصيغة المضارع مع أن الرفع قد مضى استحضارا لهذا الأمر [ليقتدي الناس به في إتيان الطاعات الشاقة مع الابتهال في قبولها وليعلموا عظمة البيت المبني فيعظموه] ٣٨٥؛ -ورفع القواعد ورفع ما هو مبنى فوقها _ ورفع القواعد صريح فيما ذهب إليه الأكثرون من أن القواعد كانت موجودة وأن إبراهيم عمرها ورفعها،. . . . . وإنما لم يقل: قواعد البيت ليكون الكلام مبنيا على تبيين بعد إبهام، ففيه تفخيم لشأن االمبين- ٣٨٦؛ ومما أورد صاحب جامع البيان: وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدام فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة، وجائز أن يكون ذلك أن القبة التي ذكرها عطاء مما أنشأه الله من زبد الماء، وجائز أن يكون ياقوتة أو درة أهبطها من السماء، وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل، ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي، لان حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن رسوله بالنقل المستفيض، ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها، ولا هو

إذ لم يكن به خبر على ما وصفنا مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس فيمثل بغيره، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد. . . . اه. {ربنا تقبل منا} وإبراهيم وإسماعيل إذ يبنيان البيت يقولان: يا ربنا تقبل عملنا هذا الذي نعمل طاعة لأمرك، ووفاء بعهدك؛ [وفي سؤال الثواب على العمل دليل على أن ترتبه عليه ليس واجبا، وإلا لم يطلب] ٣٨٧ ـ. . . . وقبول الله عمل العبد عبارة عن كون العمل بحيث يرضاه الله تعالى أو يثيب عليه. . . شبه الفعل من العبد بالهدية، وإثابة الله تعالى عليه ورضاه بالقبول ٣٨٨ ـ {إنك أنت السميع العليم} إنك يا مولانا ـ أنت السميع العليم دعاءنا ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا من طاعتك في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه. {العليم} بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة وما نبدي ونخفي من أعمالنا ٣٨٩ ـ.

١٢٨ - (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

{واجعلنا مسلمين لك} ثابتين عليه، ممنوحين المزيد منه.

{أمة} جماعة. {أرنا} رؤية بصرية أي؛ أو رؤية بصرية، أي بصرنا متعبداتنا.

{مناسكنا} جميع أعمال حجنا، أو جميع عبادتنا، أو مذابحنا التي نتقرب إليها بتقديمها.

{تب علينا} أصل التوبة: الأوبة والرجعة من مكروه إلى محبوب؛ وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالصفح له عن ذنبه، مغفرة له منه، وتفضيلا عليه.

{التواب} عظيم التفضل على عبادك بالعفو عنهم.

{الرحيم} واسع الرحمة.

{ربنا واجعلنا مسلمين لك} قد يراد بالإسلام الاستسلام والانقياد، وقد يراد به إخلاص النفس والقصد؛ والجعل: يأتي بمعنى الصنع والتصيير؛ ـ فإن أريد بالإسلام الدين والاعتقاد الطلب إلى الثبات والدوام، أي ثبتنا على ذلك ٣٩٠ ـ ومما أورد صاحب جامع البيان يقول: وهذا أيضا خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسماعيل أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: {ربنا واجعلنا مسلمين لك} يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك ولا في العبادة غيرك. اه، أما صاحب الجامع لأحكام القرآن فيقول: والإسلام في هذا الموضع: الإيمان والأعمال جميعا؛ ومنه قوله تعالى {إن الدين عند الله الإسلام. } ٣٩١ ففي هذا دليل لمن قال: إن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ٣٩٢. ا ه؛ {ومن ذريتنا أمة مسلمة لك} وهذه من دعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كذلك، فهما يسألان الله القريب المجيب أن يصنع ويصير من ذريتهما طائفة تنقاد لمنهاج الدين المرتضى، وتستقيم على دينه الذي لا يقبل غيره وتستسلم للشرعة التي وصى بها ـ وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة. كما قال الله تعالى: {. . قوا أنفسكم وأهليكم نارا. } ٣٩٣ ولأنهم أولاد الأنبياء وبصلاحهم صلاح كل الناس، فكان الاهتمام بصلاحهم أكثر وخصا البعض لما علما من قوله سبحانه: {. . ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه. } ٣٩٤ أو من قوله عز شأنه: {لا ينال عهدي الظالمين} باعتبار السياق أن في ذريتهما ظلمة، وأن الحكمة الإلهية تستدعي الانقسام إذ لولاه ما دارت أفلاك الأسماء. ولا كان من مكان من أملاك السماء ٣٩٥ ـ كان في الكلام حذفا والتقدير: واجعل من ذريتنا، {وأرنا مناسكنا} دعا الرسولان الكريمان لأنفسهما في أول الآية المباركة: {ربنا اجعلنا مسلمين لك} ثم لذريتهما: {ومن ذريتنا أمة مسلمة لك} ثم لهما وللذرية: {وأرنا مناسكنا} والرؤية إما قلبية بصيرية، أي علمنا وإما بصرية؛ والمناسك: قد تعني جميع العبادات أو جميع أعمال الحج، وقد تعني: المذابح التي يتقرب بها إلى المولى سبحانه: ف {أرنا} إن كان منقولا عن رؤية العلم فمعناه علمنا شرائع حجنا كيف هي؟، إذ أمرتنا ببناء البيت لنحج وندعوا الناس إلى حجه؛ وإن كان منقولا عن رؤية البصر ـ وهو الأظهر ـ. . . فالمعنى: بصرنا متعبداتنا في الحج. . . وقيل: المراد العلم والرؤية معا لأن الحج لا يتم إلا بأمور بعضها يعلم ولا يرى، وبعضها لا يتم الغرض منه إلا بالرؤية، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعا، وليس ببعيد، فإن اللفظ المشترك يصح إطلاقه على معنييه معا، وكذلك مدلولا الحقيقة والمجاز يصح إرادتهما معا من لفظ واحد، كالعقد والوطء من النكاح. غاية ما في الباب أن يكون هذا الإطلاق مجازا] ٣٩٦. {وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} أصل التوبة الأوبة

والرجعة من مكروه إلى محبوب وتوبة الرب على عبده عوده عليه بالصفح له عن عقوبة ذنبه مغفرة له منه، وتفضيلا عليه و {التواب} عظيم التفضيل على العباد بالعفو عنهم؛ {الرحيم} واسع الرحمة؛ فكأنهما عليهما السلام يسألان الصفح عن ترك الأولى، أو نحو ذلك، [التوبة منهما محمولة على ما عسى أن يكون فرط منهما من الصغائر عند من يجوزها على الأنبياء] ٣٩٧.

١٢٩ - (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{ابعث} أرسل. {رسولا} نبيا يدعوهم إليك وإلى شرعتك.

{يتلو} يقرأ، يتبع، يتابع. {آياتك} جمع آية قيل سميت كذلك لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام؛ أو لأن الآية من القرآن كالعلامة التي يفضي منها غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية. {الكتاب} القرآن.

{الحكمة} السنة، وقد تعني الإصابة في القول والعمل جميعا.

{يزكيهم }يطهرهم، برفع قدرهم.

{العزيز} الذي لا ند له ولا مثيل، والذي يغلب ولا يغلب.

{الحكيم} الذي لا يفوته الصواب _ والحكمة: وضع الشيء في موضعه_ أو: الحاكم، أو المانع من أراد أن يلم بسوء، أو يناله خسارة.

{ربنا وابعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} هذا التضرع إلى الله الحميد المجيد من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، وابنه الصديق إسماعيل، عليهما صلوات ربنا وسلامه دعوة للأمة الخاتمة: أن تتم عليها النعمة ببعثه النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد استجاب الله القريب المجيب فأرسل فينا مبعوثه ومصطفاه يرشد ويبصر ويهدي بوحي الله للتي هي أقوم، ويعلمنا المنهاج الأعز الأكرم، فعظمت بذلك المنة {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون} ٣٩٨ وإنها لمن آيات ربنا الكبرى أن يجمع برسوله الأمة من شتات، ويحييها برشده من موات: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣٩٩. وبهذا عظمت منته عز وتبارك: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٤٠٠ - {ربنا وابعث فيهم} أي أرسل في الأمة المسلمة وقيل: في الذرية. . . . {رسولا منهم} أي من أنفسهم، ووصفه بذلك ليكون أشفق عليهم، ويكونوا أعز به وأشرف. . . ولم يبعث من ذرية كليهما سوى محمد صلى الله عليه وسلم؛ وجميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لا من ذريتهما ٤٠١ _ وقد جاء في الأثر ما شهد لهذا ٤٠٢، والمفسرون مجمعون على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المراد، وإجماعهم حجة؛ وكانت طلبة إبراهيم عليه السلام أن يرسل النبي المرتجى يقرأ على الأمة آيات ٤٠٣ الله ويتابع تذكيرها بآلاء المنعم وبرهان جلاله، بما يشاهدون من بديع صنعه وسابغ أفضاله؛ {ويعلمهم الكتاب} يبين لهم معاني القرآن المجيد _ وذلك أن التلاوة وإن كانت مطلوبة لبقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصونا من التحريف، ولأن لفظه ونظمه معجز، وفي تلاوته نوع عبادة ولا سيما في الصلوات، إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأسنى تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام ٤٠٤ _ {والحكمة} الإصابة في القول والعمل جميعا، فلا يسمى حكيما إلا وقد اجتمع فيه الأمران، فيضع كل شيء موضعه؛ أوالمراد بها السنة؛ وعن ابن وهب: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: معرفة الدين والفقه فيه، والاتباع له؛ وعن قتادة _ وإليه ذهب الشافعي _ هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقيل: هي الفصل بين الحق والباطل؛ {ويزكيهم} يطهرهم، وينميهم، ويصلحهم ٤٠٥ {إنك أنت العزيز الحكيم} -أي الغالب المحكم لما يريد ٤٠٦، وعن ابن جرير أنك يا رب أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك والحكيم الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك ا ه.

١٣٠ - (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

{ملة} شريعة ودين، وسنة وطريقة.

{يرغب} يرغب في الشيء: يريد؛ ويرغب عنه: يتركه متعمدا زاهدا فيه لا يريده؛ أو يرى لنفسه عليه فضلا.

{سفه نفسه} حملها على الجهالة، أو أهلكها وأوبقها، أو نسي نفسه ولم يفكر فيها، وخسرها جهلا؛ أو صار سفيها؛ والسفه: الخفة والطيش والحمق؛ وتسفه فلانا عن ماله: إذا خدعه عنه.
{اصطفيناه} اخترناه واستخلصناه واجتبيناه للصفوة.
{ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه} وأي الناس يترك شريعة إبراهيم ودينه وطريقته ويزهد فيها لا يريدها إلا الذي حمل نفسه على الجهالة والضلالة وأهلكها وأوبقها أو نسيها ولم يفكر فيها وخسرها جهلا وصار سفيها والسفه الخفة والطيش والحمق والعرب تقول تسفه فلان عن ماله إذا خدعه عنه والاستفهام لتقرير النفي أي ما يرغب أحد عن سنة إبراهيم وملته الحنيفية إلا سفيه خاسر [وفيه توبيخ لليهود والنصارى ومشركي العرب وتعجيب من حالهم فإن أعظم مفاخرهم وفضائلهم الانتماء إلى إبراهيم ثم إنهم لا يؤمنون بالرسول الذي هو دعوته ومطلوبه بالتضرع والإخلاص. فإن قيل ملة إبراهيم عين ملة محمد في الأصول والفروع أو هما متحدتان في الأصول كالتوحيد والنبوة وأصول مكارم الأخلاق ولكنهما مختلفان في فروع الأعمال ولا سبيل إلى الأول وإلا لم يكن شرع محمد صلى الله عليه وسلم ناسخا لسائر الشرائع، ولا إلى الثاني لأنه يلزم أن يكون محمد أيضا راغبا عن ملة إبراهيم ولأن الاعتراف بالأصول لا يقتضي الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قلنا: المختار اتحاد الملتين في الأصول فقط، لكن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من جملة الأصول التي مهدها إبراهيم عليه السلام والمراد بملة إبراهيم في الآية أصولها التي لا تختلف بمر الأعصار وكر الدهور فلا يلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم راغبا عنها لأنه أمر باتباعها {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا. { ٤٠٧] ٤٠٨. {ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} ٤٠٩.
الدين الذي بعث به إبراهيم دين سمح مرتضى لا يزيغ عنه إلا هالك ومن بعثه الله الحكيم بذلك المنهاج القويم رسول كريم اجتباه ربنا واختاره واصطفاه يوم القيامة ينال من النعيم أعلاه.
١٣١ - (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
{أسلم} انقد، وأطع، واستمسك بما شرعته.
{أسلمت} انقدت وخضعت.
{إذ ٤١٠ قال له ربه أسلم ٤١١ قال أسلمت لرب العالمين} لعل هذه الآية المباركة كالسبب لما قبلها أو كشاهد على ما ذكر من أنه لا يرغب عن ملته إلا من خسر نفسه ولقد شهد ربنا جل وعز وكفى به شهيدا أن خليله عليه السلام خاصم أباه وقومه في ذات الله. . . {قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين} ٤١٢، {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} ٤١٣، وعهد إلينا الكتاب الحق أن نتخذ منه عليه السلام وممن اتبعه قدوة {لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده. { ٤١٤، و {إذ قال له ربه} -من باب الالتفات ولولا ذلك لكان حقه أن يقال: إذ قلنا له والأكثرون على أنه تعالى قال له ذلك قبل النبوة وقبل البلوغ، وذلك عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس واطلاعه على أمارة الحدوث فيها فلما عرف ربه قال له أسلم فإنه لا يجوز له أن يقول له قبل. . . ولا يكون المراد منه نفس القول بل دلالة الدليل عليه كقولهم نطق الحال قال تعالى {أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون} ٤١٥، فجعل دلالة الكلام برهانا، ويحتمل أن يكون هذا بعد النبوة والمراد استقامته على الإسلام وثباته عليه كقوله {فاستقم كما أمرت. { ٤١٦ - ٤١٧.
١٣٢ - (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
{ووصى} وعهد.
{ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} عهد إبراهيم إلى بنيه عهدا بعد عهد وكذا عهد يعقوب إلى أبنائه أن يا أبنائي إن الله اصطفى لكم واختار هذه الملة ملة الإسلام وارتضاها فاثبتوا على مقتضاها حتى تخرجوا

من الدنيا وأنتم على سنتها وهداها تستمسكون بأمانتها غير مفرطين ولا مبدلين ويعقوب هو ابن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام فيعقوب نافلة إبراهيم -ابن ابنه- وقد اقتدى بجده في توصية أبنائه بالتزام الإسلام حتى يفارقوا الدنيا والله عنهم راض مما أورد صاحب روح المعاني {ووصى بها إبراهيم بنيه} مدح له عليه السلام بتكميله غيره إثر مدحه بكماله في نفسه وفي توكيد لوجود الرغبة في ملته والتوصية والتقدم إلى الغير بفعل صلاح وقربة سواء كان حالة الاحتضار أولا، وسواء كان ذلك التقدم بالقول أو الدلالة وإن كان الشائع في العرف استعمالها في القول المخصوص حالة الاحتضار. ا ه. وهكذا بين الكتاب المجيد أن الذين هدى الله وأمر أن نقتدي بهم تواصوا بالحق وعهدوا إلى أهليهم بالثبات على الرشد فلتكن لنا فيهم الأسوة الحسنة.

١٣٣ - (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

{شهداء} حضورا تشاهدون.

{أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون} {أم} قد تكون للاستفهام دخلت على أم التي للإضراب بمعنى بل وقد تكون للاستفهام كما تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه وقد جاء في الكتاب العزيز {آلم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه. } ٤١٨، -وقيل الخطاب للمؤمنين ومعنى بل الإضراب عن الكلام الأول والأخذ فيما هو الأهم وهو التحريض على اتباعه صلى الله عليه وسلم بإثبات بعض معجزاته وهو الإخبار عن أحوال الأنبياء السابقين من غير سماع من أحد ولا قراءة من كتاب، كأنه تعالى بعد ذكر ما تقدم التفت إلى مؤمني الأمة أما شهدتم ما جرى؟ وأما علمتم ذلك بالوحي وإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فعليكم باتباعه. . . - ٤١٩، وقيل الاستفهام هنا للإلزام والتبكيت وتوبيخ اليهود على ادعائهم يهودية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام [وتأويل الكلام أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم الجاحدين نبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت أي إنكم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل وتنحلوهم اليهودية والنصرانية فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحق وإسماعيل وذريتهم بالحنفية المسلمة وبذلك وصوا بنيهم وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم فلو حضرتموهم فسمعتم منهم علمتم أنهم على غير ما تنحلوهم من الأديان والملل من بعدهم] ٤٢٠. و {شهداء} جمع شاهد بمعنى حاضر {إذ حضر يعقوب الموت} العامل في {إذ} ٤٢١ معنى الشهادة وحضور الموت أي: مجيء أسبابه وحلول مقدماته - وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا وعبر عن المعبود ب {ما} ولم يقل من لأنه أراد أن يختبرهم. . {قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق} في موضع خفض على البدل ولم تنصرف لأنها أعجمية. . . وسمى الله كل واحد من العم والجد أبا ٤٢٢ - {إلها واحدا} بدلا من {إلهك وإله آبائك} والنكرة تبدل من المعرفة ما دامت قد وصفت يقول المفسرون وفائدة الإبدال دفع توهم التعدد الناشئ من ذكر الإله مرتين أو نصب على المدح {ونحن له مسلمون} أي داخلون في الإسلام ثابتون عليه أو مذعنون مقرون بالعبودية.

١٣٤ - (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{أمة} طائفة من الناس وجماعة.

{خلت} مضت. {كسبت} عملت، وسعت وطلبت، وأصابت.

{تلك أمة قد خلت} جماعة إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنيه قد مضوا وذهبوا وتركوا هذه الدنيا وهؤلاء السلف الصالحون لا ينفعكم انتسابكم إليهم دون عمل صالح تقدمونه أنتم فقد جاء فيما روى مسلم في صحيحه: (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) {لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون} للأمة الصالحة إبراهيم وأولاده ونافلته ثواب ما قدموا من خير وبر ورشد ولكم أنتم أجر ما تجترحون {. . ولا تزر وازرة وزر أخرى} ٤٢٣ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعدله

وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة فالعبد مكتسب لأفعاله على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل،. . . وذلك التمكن هو مناط التكليف. ا ه.

١٣٥ - (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{كونوا} صيروا. {هودا} يهودا وهم أتباع موسى صلى الله عليه وسلم

{أو} للتنويع وليست للتخيير

{نصارى} أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام

{تهتدوا} تصيبوا الحق وتدركوا البر والرشد

{حنيفا} مستقيما ومنعطفا نحو القسط والعدل والرحمة

وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به صيروا إلى الديانة اليهودية كي تصيب الحق وتدركوا الرشد وقالت النصارى للنبي الخاتم – عليه صلوات الله وسلامه- ولأتباعه ليس الهدى إلا في اتباع ملة النصرانية فأمر المولى سبحانه نبيه أن يقول لهؤلاء وهؤلاء لن نتبع ما دعوتمونا إليه بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم فإنها الملة المستقيمة والمبعوث بها مال عن كل دين باطل والتزم التوحيد وتبرأ من كل شرك ومن كل مشرك والضمير في {قالوا} يعود على اليهود والنصارى وإن لم يذكروا قريبا لإمكان العلم بهما من السياق و {أو} للتنويع وليست للتخيير إذ اليهود والنصارى وكل فريق منهم يكفر الفريق الآخر وقد شهد كتاب الله الحق بذلك {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. } ٤٢٤ و {ملة إبراهيم} ربما تكون منصوبة بفعل محذوف والتقدير بل نتبع ملة إبراهيم و {حنيفا} منصوبة على الحال من مضاف إليه {إبراهيم} والمقصود التعريض بأهل الكتاب والعرب الذين يدعون اتباعه ويدينون بشرائع مخصوصة به من حج البيت والختان وغيرهما فإن في كل طائفة منهم شركاء فاليهود قالوا عزير بن الله والنصارى المسيح بن الله والعرب عبدوا الأصنام وقالوا الملائكة بنات الله – ٤٢٥

١٣٦ - (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

{والأسباط} أبناء يعقوب وهو إسرائيل – عليه السلام- {أوتي} أعطى

{أحد} لا يراد بها هنا الواحد الذي هو بداية العدد ولكن يراد بها الجماعة كما في قول المولى سبحانه {. . . لستن كأحد من النساء}

{قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} أمر تعالى نبيه والمؤمنين أن يقروا ويصدقوا بالله وبوحيه إلى خاتم رسله وبوحيه إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وكذا بوحيه إلى إسماعيل وإسحق ويعقوب الذي هو إسرائيل وبالأسباط الذين هم الأنبياء من ولد يعقوب وبالذي أعطي موسى وعيسى من كلمات ربنا وكتبه وبالذي أعطي كل نبي من لدن ربنا الحكيم الخبير، نؤمن أن ذلك كله حق وهدى ونور ونصدق ونستيقن أن كل الأنبياء دعاة إلى الرشد والخير لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ولا نتبرأ من بعضهم ونتولى بعضا بل نشهد أنهم حملة أمانات الحق جل ثناؤه ونحن لمولانا تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه خاضعون مطيعون، وقدم اليقين بالله تعالى في القول الكريم {قولوا آمنا بالله} لأنه الأصل والتصديق به سبحانه يستتبع التصديق بالنبوات والرسالات ثم قدم القرآن المجيد – وإن كان في الترتيب النزولي مؤخرا عن غيره لكنه في الترتيب الإيماني مقدم عن غيره- لكونه مصدقا له ولذا قدمه. . . {وما أوتي النبيون من ربهم} وهي الكتب التي خصت من خصته منهم أو يشمل ذلك المعجزات وهو تعميم بعد التخصيص كيلا يخرج من الإيمان أحد الأنبياء. . . . و {أحد}. . . حيث وقع في سياق النفي عم، واستوى فيه الواحد والكثير وصح إرادة كل واحد منهما وقد أريد به هنا الجماعة. . . وهذا غير الأحد الذي هو أول العدد في قوله تعالى {قل هو الله أحد} ٤٢٦ - ٤٢٧

١٣٧ - (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{شقاق} عداوة ومخالفة ومحاربة
{فسيكفيكهم} فسيكفيك ومن معك كيدهم.
{فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا} عن ابن عباس قال أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى وأنه لا يقبل عملا إلا به ولا تحرم الجنة إلا على من تركه. اه. {بمثل ما آمنتم} وقع التمثيل ما بين الإيمانين لا بين المؤمن به ومما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: ولما بين الطريق الواضح في الدين وهو أن يعترف الإنسان بنبوة كل من قامت الدلالة على نبوته من غير مناقضته، رغبهم في مثل هذا الإيمان وههنا سؤال وهو أن دين الإسلام وهو الحق واحد فما معنى المثل في قوله {بمثل ما آمنتم به}؟ والجواب أن قوله فإن آمنوا بكلمة الشك دليل على أن الأمر مبني على الفرض والتقدير أي فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم ومساويا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا ولكن لا دين صحيحا سوى هذا لسلامته عن التناقض بخلاف غيره فلا اهتداء إلا بهذا ونظيره قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به وقد علمت أن لا أصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوفيقه على أن ما رأيت لا أرى وراءه. . . والتمثيل بين التصديق أي فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم. . . وفي الآية دليل على أن الهداية كانت موجودة قبل هذا الاهتداء وهي الدلائل التي نصبها الله تعالى وكشف عن وجودها. والاهتداء: قبولها والعمل بها ليفوزوا بالسعادة العظمى. ا ه. {وإن تولوا فإنما هم في شقاق} وإذا أعرض هؤلاء الذين يدعون إلى اليهودية والنصرانية وأدبروا عما نودوا إليه من الحق والرشد والدخول في الإسلام دين الله الذي ارتضاه ولم يرتض سواه إن كان منهم ذلك الصدود فلا تبتئسوا يا أهل الإيمان فإن أولئك الأعداء يخالفون ويعاندون والله يكتب ما يبيتون ويمكرون {فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} وربنا الذي يسمع سرهم ونجواهم ويعلم ما أعدوا من صد عن الإسلام وهم بأهله سيرد كيدهم في نحورهم وكفى به وليا وكفى به نصيرا، يؤيد عباده على هؤلاء المبطلين وكان ذلك على الله يسيرا.
١٣٨ - (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)
{صبغة} ملة وشرعة ومنهاجا.
{صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون} {صبغة} الأولى قد تكون منصوبة على الإغراء أي لزموا صبغة الله دينه ومناهجه وشرعته والاستفهام ب {من} قد يراد به النفي فكان المعنى ولا أحسن من صبغة الله صبغة فهي أحسن من كل صبغة {ونحن له عابدون} وإنا على الإذعان لربنا لمستقيمون وله مطيعون موحدون.
١٣٩ - (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)
{أتحاجوننا} أتجادلوننا في الله وتدعون أنكم أولى به منا؟
{مخلصون} نبتغي بأقوالنا وأفعالنا وعباداتنا وسعينا وجهه سبحانه دون سواه.
{قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم} الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن ينكر هؤلاء المعرضين عن الحق المجادلين بالباطل أن يبطل مدعاهم أنهم أولى بالله من المسلمين كما ادعى اليهود والنصارى أنه لا حظ لمن عداهم في الفوز بنعيم الآخرة وإلى هذا يشير قول المولى تقدست أسماؤه {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم. } ٤٢٨ قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا نحن أولى بالله منكم لأنا أبناء الله وأحباؤه. ا ه. فكان المعنى أتجادلوننا الحجة على دعواكم والرب واحد؟ {ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم} كل مجزى بعمله - لنا جزاء أعمالنا الحسنة الموافقة لأمره ولكم جزاء أعمالكم السيئة المخالفة لحكمه ٤٢٩؛ {ونحن له مخلصون} نحن لا نرجو بإيماننا وعملنا إلا رضوان الله ولا نبتغي بذلك أحدا سواه ٤٣٠. [لا نشرك به شيئا ولا نعبد غيره أحدا كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان وأصحاب العجل معه العجل وهذا من الله تعالى ذكره توبيخ لليهود واحتجاج لأهل الإيمان. . . قولوا أيها المؤمنون لليهود والنصارى الذين قالوا لكم: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، أتحاجوننا في الله في دين الله الذي أمرنا أن ندينه به وربنا وربكم واحد عدل لا يجور وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا وتزعمون أنكم أولى بالله منا لقدم دينكم وكتابكم ونبيكم ونحن مخلصون له العبادة لم نشرك به شيئا وقد أشركتم في عبادتكم إياه فعبد بعضكم العجل وبعضكم المسيح وأنى تكونوا خيرا منا وأولى بالله منا؟] ٤٣١.

١٤٠ - (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

{بغافل} بخاف عليه أو ساه عما أنتم عليه أو تاركه

{أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله} عن الزجاج بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا أبالتوحيد فنحن موحدون أم باتباع دين الأنبياء فنحن متبعون {قل أأنتم أعلم أم الله؟} - بل الله أعلم وخبره أصدق وقد أخبر في التوراة والإنجيل والقرآن أن إبراهيم ما كان يهوديا أو نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وكيف لا وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ولأنهم مقرون بأن الله أعلم وقد أخبر بنقيض ما ادعوه فإن قالوا ذلك عن ظن فقد بان لهم خطؤه وإن قالوا ذلك عن بحود وعناد فما أجهلهم وأشقاهم، فإذن فائدة الكلام إما التنبيه وإما التجهيل {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله}؟. . {من الله}. . يتعلق بكتم أي: لا أحد أظلم ممن عنده شهادة ثم إنه لم يقمها عند الله وكتمها وأخفاها منه إما أن يتعلق بشهادة، كقولك: عندي شهادة من فلان ومثله {براءة من الله ورسوله} ٤٣٢ والمعنى ليس أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده جاءته من الله وفيه إشارة إلى أن المؤمنين لم يكتموا ما عندهم من الحق وشهدوا لإبراهيم بالحنيفية، وتعريض بأن أهل الكتاب قد كتموا شهادات الله فأنكروا نبوة محمد وحنيفية إبراهيم وغير ذلك من تحريفاتهم {وما الله بغافل عما تعملون} كلام جامع لكل وعيد لهم ولأضرابهم، ولو أن أحدا كان عليه رقيب من قبل ملك مجازى لكان دائم الحذر والوجل فكيف بالرقيب القريب الذي يعلم أسراره ويعد عليه أنفاسه وأفكاره هو يقدر على أن يدخله جنته أو ناره.

١٤١ - (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{أمة} طائفة وجماعة

{خلت} مضت. {لها ما كسبت} لها أجر ما عملت.

{تلك أمة} إشارة إلى إبراهيم وبنيه كما مر وإنما أعيدت الآية هنا لغرض آخر وهو زجرهم عن الاشتغال بوصف ما عليه الأمم السالفة من الدين فإن أديانهم لا تنفع إلا إياهم لاندراس آثارها وانطماس أنوارها وأما الآن فالدين هو الإسلام الثابت بالدليل القاطع والبرهان البين فيجب اتباع المعلوم واقتفاؤه وإلقاء المظنون وإلغاؤه ولا يسأل المتأخر عن المتقدم ولا المحسن عن المسيء وكل بعمله مجزى- ٤٣٣

١٤٢ - (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{السفهاء} الحمقى خفاف العقول الجهلاء الضالون المفترون

{ما ولاهم} أي شيء صرفهم. {المشرق} جهة شروق الشمس

{المغرب} جهة غروبها.

{سيقول} إخبار عن ٤٣٤ الماضي بفعل يدل على الاستقبال ربما لبيان أن مثل ذلك القول قد يستمر صدوره عن المنافقين والمشركين والمفترين. {السفهاء} الحمقى خفاف العقول الجهلاء الضالون المفترون والذين قالوا وأخبر القرآن عن قيلهم كانوا من أهل الكتاب والمشركين. وإذا كان من لا يميز بين ما له وعليه في أمر دنياه يعد سفيها شرعا فالذي يضيع آخرته أولى بهذا الاسم {من الناس} – لأن السفه يكون في جمادات وحيوانات ٤٣٥ - – [وفائدته بيان أن ذلك القول المحكي لم يصدر عن كل فرد من تلك الطوائف بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في آسن الفساد أو التنبيه على كامل سفاهتم بالقياس إلى الجنس] ٤٣٦. {ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها}؟ لعل المعنى ما الذي صرفهم – يريدون النبي ومن آمن معه – عن استقبالهم في صلاتهم البيت المقدس وقد ظلوا يتجهون إليه ويتخذونه قبلة سنوات واستفهامهم يعني أنهم ينكرون ذلك روى البخاري – رحمه الله- في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول اله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ٤٣٧ أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت

٤٣٨ وأنه صلى أول صلاة ٤٣٩ صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد ٤٤٠ وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم من قبل البيت وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله {وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} مما نقل عن ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس. ا ه. واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا روى البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى- في صحيحهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة {قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} أمر المولى سبحانه نبيه أن يذكر الناس بأن ما بين قطري مشرق الشمس ومغربها والكون كله ملك لله المهيمن الحكيم يرشد من أحب من عباده إلى النهج القويم والصراط المستقيم فهدانا إلى الوجهة التي اختارها وارتضاها.

١٤٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

{وسطا} عدولا وأخيارا

{ينقلب على عقبيه} يرتد عما كان عليه ويرجع

{وكذلك جعلناكم أمة وسطا} - كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطا. . . الأمة هي القرن من الناس والصنف منهم ومن غيرهم وأما الوسط فإنه في كلام العرب الخيار. . . وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسطا لتوسطهم في الدين فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين قالوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبيائهم وكذبوا على ربهم وكفروا به ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها- ٤٤١. {ولتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} اصطفى الله تعالى هذه الأمة واختارها واجتباها لتكون شاهدة على الأمم وخاتم النبيين محمد صلوات ربنا عليه وسلامه يشهد بعدالة أمته ويزكيها وكلمة {عليكم} يراد بها لكم لكن لما كان الشهيد بمعنى الرقيب جئ بعلى. روى البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه عن أبي سعيد الخدري- رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قول الله عز وجل {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}. . .) - وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مرت جنازة فأثني عليها خير فقال (وجبت وجبت وجبت) ثم مر عليه بأخرى فأثني عليها شر فقال (وجبت وجبت) فقال عمر فدى لك أبي وأمي، مر بجنازة فأثني عليها خير فقلت (وجبت وجبت وجبت) ومر بجنازة فأثني عليها شر فقلت (وجبت وجبت وجبت)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض) أخرجه البخاري بمعناه- ٤٤٢؛ {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} ولم نجعلك تتجه في صلاتك أو أمرك إلى بيت المقدس لشيء من الأشياء إلا

لينكشف أثر علمنا في أهل الثبات على الحق الذين يصدقونك ولا يردون أمرا مما شرعته لكم وفي الذين يعبدون على حرف فإن أصابتهم فتنة واختبار ارتدوا عن دينهم؛ مما يقول صاحب روح المعاني: واستشكلت الآية بأنها تشعر بحدوث العلم في المستقبل -وهو تعالى لم يزل عالما- وأجيب بوجوه: الأول -أن ذلك على سبيل التمثيل أي فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم؛ الثاني - أن المراد العلم الحالي الذي يدور عليه فلك الجزاء أي ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل فالعلم مقيد بالحادث والحدوث راجع إلى القيد؛ الثالث- أن المراد ليعلم الرسول والمؤمنون وتجوز في إسناد فعل بعض خواص الملك إليه تنبيها على كرامة القرب والاختصاص. . . . . ا ه.
لكن صاحب الجامع لأحكام القرآن نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معنى {لنعلم} لنرى والعرب تضع العلم مكان الرؤية والرؤية مكان العلم كقوله تعالى {ألم تر كيف فعل ربك. } ٤٤٣ بمعنى ألم تعلم؛ ثم قال: معناه علم المعاينة الذي يوجب الجزاء وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة علم ما يكون قبل أن يكون، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل تعلقا واحدا وهكذا كل ما ورد في الكتاب من هذا المعنى من قوله تعالى {. . . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء. } ٤٤٤ {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين. } ٤٤٥ وما أشبه ا ه. {وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله} قال الأخفش أي وإن كانت القبلة أو التحويلة أو التولية لكبيرة إلا على من خلق الله الهدى وكتب الإيمان في قلوبهم كما قال تعالى {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان. } ٤٤٦؛ {وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} العلماء على أنها نزلت في الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ٤٤٧ وقالوا سميت الصلاة إيمانا لاشتمالها نية وقول وعمل، وربنا جل ثناؤه وتقدست أسماؤه عظيمة رأفته بعباده أن يضيع ثواب عملهم رحيم به أن يحرمهم أجرهم- أي ولا تأسوا على موتاكم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فإني لهم على طاعاتهم إياي بصلاتهم التي صلوها كذلك مثيب لأني أرحم بهم من أن أضيع لهم عملا عملوه لي ولا تحزنوا عليهم فإني غير مآخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة لأني لم أكن فرضت ذلك عليهم وأنا أرأف بخلقي من أن أعاقبهم على تركهم ما لم آمرهم بعمله- ٤٤٨
١٤٤ - (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)
{شطر} ناحية. {المسجد الحرام} الكعبة.
{قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فلو وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون} عن قتادة: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت المقدس يهوى ويشتهي القبلة نحو البيت الحرام فوجهه الله جل ثناؤه لقبلة كان يهواها ويشتهيها؛ نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن أن هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى {سيقول السفهاء من الناس. } ويقول الزجاج في معنى {تقلب وجهك} تقلب عينيك في النظر إلى السماء {فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره} عن مجاهد قال: قالت اليهود: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا فكان يدعو الله جل ثناؤه ويستعرض للقبلة فنزلت {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطرا المسجد الحرام} وانقطع قول يهود: يخالفنا ويتبع قبلتنا ٤٤٩ في صلاة الظهر فجعل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال. ومما نقل عن ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن يهود تقول: والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم فكره ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ورفع وجهه إلى السماء فقال الله جل ثناؤه {قد نرى تقلب وجهك في السماء. } الآية و {شطر} يعني تلقاء ونحو {وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره} في أي مكان تكونون افترضت عليكم أن تصلوا ووجوهكم منصرفة نحو المسجد الحرام الكعبة المشرفة القبلة المرتضاة؛ {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون} الذين نزل عليهم كتابا سماويا قبلكم وهم اليهود والنصارى يعلمون أن ما شرع لك هو الحق الموحى إليك من قبل الحق تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه يجدون ذلك مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل لكنهم يحرفون الكلام عن مواضعه ويجحدون ما هو يقين لا ريب فيه وما ربنا العظيم بساه عما يمكرون ويبيتون لكنه سبحانه عليم بما يصنعون وسيعلم هؤلاء أي منقلب ينقلبون ويجزون ما كانوا

يقترفون.
١٤٥ - (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)
{ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض} قد تكون الواو للعطف على القول الكريم {وإن الذين أوتوا الكتاب} واللام موطئة للقسم هذا بيان من المولى الحكيم أن اليهود والنصارى لن يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم الخاتم وما جاء به -إلا من رحم الله وقليل ماهم- ومهما ساق من البرهان والحجة البالغة على أنه مبلغ عن ربنا العظيم فلن يتبعوه ولن يستقبلوا قبلته {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} ٤٥٠ - والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تدفعها بحجة وإنما خالفوك لمحض العناد ومحض المكابرة. . . {وما أنت بتابع قبلتهم} أي لا يكون ذلك منك فالجملة خبرية لفظا ومعنى سبقت لتأكيد حقيقة أمر القبلة كل التأكيد وقطع تمني أهل الكتاب فإنهم قالوا يا محمد عد إلى قبلتنا ونؤمن بك – ونتبعك مخادعة منهم لعنهم الله تعالى - وفيها إشارة إلى أن هذه القبلة لا تصير منسوخة أبدا وقيل إنها خبرية لفظا إنشائية معنى، ومعناها النهي؛ أي لا تتبع قبلتهم أي داوم على عدم اتباعها وأفرد القبلة وإن كانت مثناة- إذ لليهود قبلة وللنصارى قبلة- لأنهما اشتركا في كونهما باطلتين. . . ويؤيد ذلك أنه ليس في الإنجيل استقبال الشرق. . . {وما بعضهم بتابع قبلة بعض} أي أن اليهود لا تتبع قبلة النصارى ولا النصارى تتبع قبلة اليهود. . . وفي ذلك بيان لتصلبهم في الهوى وعنادهم بأن هذه المخالفة والعناد لا يختص بك بل حالهم فيما بينهم أيضا كذلك. . . {ولئن اتبعت أهواءهم} أي على سبيل الفرض وإلا فلا معنى لاستعمال {إن} الموضوعة للمعاني المحتملة. . . {من بعد ما جاءك من العلم} أي المعلوم الذي أوحي إليك. . . والمراد بعدما بأن لك الحق {إنك إذن لمن الظالمين} أي المرتكبين الظلم الفاحش. . . . وفي هذه المبالغات ٤٥١ تعظيم لأمر الحق وتحريض على اقتفائه وتحذير على متابعة الهوى واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء وذوو المرتبة الرفيعة إلى تجديد الإنذار عليه أحوج حفظا لمرتبته وصيانة لمكانته فلا حاجة إلى القول أن الخطاب للنبي والمعني به غيره --
١٤٦ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
{الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم} اليهود والنصارى أكثرهم يعرف البيت الحرام وأنه قبلة إبراهيم والقبلة المرتضاة للنبيين كما يعرف الوالد ولده أو يعرفون نبوة محمد وصدق رسالته. {وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} وبالتوكيد واللام الموطئة للقسم وغيرهما تبت القرآن الكريم بأنهم يعرفون نعم الله ثم ينكروها كما في قول المولى تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {. . . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. } ٤٥٢ وقوله سبحانه {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا. } ٤٥٣ وكذا قوله جل ثناؤه {. . . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} ٤٥٤.
١٤٧ - (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)
{الممترين} المترددين الشاكين
{الحق من ربك} ما جاءك من ربك هو الحق لا غير ومنه استقبال الكعبة {فلا تكونن من الممترين} – يقول الله جل ثناؤه اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وآتاك من عنده لا ما يقوله لك اليهود والنصارى. . . فاعمل بالحق الذي آتاك من ربك. . . فلا تكونن من الشاكين في أن القبلة التي وجهتك نحوها قبلة إبراهيم خليلي عليه السلام وقبلة الأنبياء غيره. . . فإن قال لنا قائل: أو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكا في أن الحق من ربه أو في أن القبلة من ربه أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله تعالى ذكره حتى نهي عن الشك في ذلك؟. . . . قيل ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه {يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين} ٤٥٥ ثم قال {واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا} ٤٥٦ فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم والنهي له والمراد به أصحابه المؤمنين- ٤٥٧.

١٤٨ - (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
{فاستبقوا} فبادروا وسارعوا
{ولكل وجهة هو موليها} عن الربيع. . فلليهود وجهة هو موليها وللنصارى وجهة هو موليها وهداكم الله عز وجل أنتم أيتها الأمة للقبلة التي هي قبلته. . . {فاستبقوا الخيرات} يعني فسارعوا. . بينت لكم أيها المؤمنون الحق وهديتكم للقبلة التي ضلت عنها اليهود والنصارى. . . فبادروا بالأعمال الصالحة شكرا لربكم وتزودوا في دنياكم لأخراكم فإني قد بينت لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط وحافظوا على قبلتكم ولا تضيعوها كما ضيعها الأمم قبلكم فتضلوا كما ضلت. ١٥٠ {أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا} في أي مكان تموتون وحيث تكون قبوركم يجمعكم الواحد القهار ليوم لا ريب فيه ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى فمن سارع بالخيرات أدرك عالي الدرجات في الجنات {إن الله على كل شيء قدير} تحققوا أن المعبود بحق سبحانه قادر على إخراجكم وبعثكم وحشركم وعلى كل ما يريد جل وعلا مقتدر.
١٤٩ - (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
{ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون} في الآية الكريمة السابقة ٤٥٨ أمر الله تعالى نبيه أن يتجه نحو البيت العتيق الكعبة {فول وجهك شطر المسجد الحرام} وفي هذه ذكر لأمر زائد وهو حالة الخروج وترك المدينة وعليه فلا تكرار {وإنه للحق من ربك} وإن استقبال الكعبة لهو الحق الثابت المنزل من المولى الحميد {وما الله بغافل عما تعملون} في هذا وعد للمؤمنين ووعيد للجاحدين المفترين فهو لن يضيع أجر المطيعين المحسنين ولن يفوته عقاب المعاندين المبطلين {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة} الأمر باستقبال الكعبة ذكر أولا ٤٥٩ مقترنا بمراد الله تعالى في أن يرضي نبيه ومصطفاه {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره} ثم أعيد ثانيا مع التذكير أن لكل صاحب دعوة وجهة يختارها الله تعالى له ويلزمه إياها {ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله كل شيء قدير ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام} ٤٦٠ وذكر ثالثا مقرونا بدفع حجج المخالفين.
١٥٠ - (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
{تخشوهم} تخافوهم وخشية الله تعالى طمأنينة في القلب تبعث على التوقي.
{ومن حيث خرجت فول وجهك شطرا المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة} والناس الذين احتجوا فأبطل الله تعالى حجتهم المشركون الكتابيون المنافقون ولهذا جاء في تمام الآية {إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني} مما يقول الطبري: نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي وأصحابه في استقبالهم الكعبة والمعنى لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا: ما ولاهم؟ وتحير محمد في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو منافق، والحجة بمعنى المحاجة التي هي المخاصمة والمجادلة وسماها الله حجة وحكما بفسادها حيث كانت من ظلمة؛ {ولأتم نعمتي عليكم} عرفتكم قبلتي قال سعيد بن جبير ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يدخله الجنة {ولعلكم تهتدون} ولتثبتوا على الهداية ولعل من الخير أن نذكر بعض ما دلت عليه هذه الآيات المباركات - آيات تحويل القبلة - أولا - دلت الآيات على أن في أحكام الله تعالى ناسخا ومنسوخا والأمة مجمعة على ذلك إلا من شذ، كان الحكم أولا أن يستقبلوا في صلاتهم بيت المقدس ثم نسخ هذا الحكم بوجوب استقبال الكعبة. ثانيا- من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول فإن أهل قباء لم يزالوا يصلون إلى بيت المقدس إلى أن آتاهم من يخبرهم بالحكم الناسخ فمالوا نحو الكعبة.
١٥١ - (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

{يتلو} يقرأ ويتبع ويتابع. {آياتنا} جمع آية وقد يراد بها الحجة والبرهان والعلامة قيل سميت الآية من القرآن ربما لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام أو لأن الآية من القرآن كالعلامة التي يفضى منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية.
{يزكيكم} يطهركم ويرفعكم {الكتاب} القرآن
{الحكمة} السنة وقد تعني الإصابة في القول والعمل جميعا
{كما أرسلنا فيكم رسولا منكم} عن مجاهد يعني بذلك العرب قال لهم جل ثناؤه ألزموا أيها العرب طاعتي وتوجهوا إلى القبلة التي أمرتكم بالتوجه إليها لتنقطع حجة اليهود عنكم فلا تكون لهم عليكم حجة ولأتم نعمتي عليكم وتهتدوا كما ابتدأتكم بنعمتي فأرسلت فيكم رسولا إليكم منكم - وذلك الرسول الذي أرسله إليهم محمد صلى الله عليه وسلم - وقيل لأتم نعمتي ببيان الشرائع وأهديكم إلى الدين إجابة لدعوة إبراهيم حيث قال {ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا} كما أرسلنا فيكم رسولا إجابة لدعوته حيث قال {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم} {يتلو عليكم آياتنا} - صفة {رسولا} وفيه إشارة إلى إثبات طريق إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام لأن تلاوة الأمي الآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته- ٤٦١ [وكون القرآن متلوا من أعظم النعم لأنه معجزة باقية ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ولأنه يتلى فتستفاد منه. العلوم ولأنه يتلى فيوقف على مجامع الأخلاق الحميدة ففي تلاوته خير الدنيا والآخرة] ٤٦٢ {ويزكيكم} ويطهركم ويؤدبكم ويسمو بكم بتربيتكم على ما يعزكم ويعلي أقداركم {ويعلمكم الكتاب} يعلمكم الرسول المصطفى محمد المبعوث إليكم بالقرآن فهو الحقيقة {والحكمة} السنة النبوية والفقه في الدين والإصابة في القول والفعل جميعا {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون} فسرها الطبري بقوله: فإنه يعني ويعلمكم من أخبار الأنبياء وقصص الأمم الخالية والخبر عما هو حادث وكائن من الأمور التي لم تكن العرب تعلمها فعلموها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم جل ثناؤه أن ذلك كله إنما يدركونه برسول الله صلى الله عليه وسلم. ا هـ.

١٥٢ - (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ)

{فاذكروني أذكركم} ذكر الله تعالى مطلوب على العموم يتناول الذكر باللسان وبالقلب وبالجوارح فالذكر اللساني كالتحميد والتسبيح والاستغفار والتهليل والتكبير وقراءة القرآن الكريم والذكر بالقلب كالتفكر في آيات الله القرآنية والكونية وفي الصفات الإلهية والأسرار الربانية، والذكر بالجوارح إعمالها فيما أمر الله لأنه دلالة على الذكر القلبي {أذكركم} مجزوم في جواب الأمر {فاذكروني} وعد الله تعالى الذاكرين أجرا ومغفرة ونعيما مقيما ويجعل لهم عزة ورفعة وعلوا وتكريما فقد روى الشيخان ٤٦٣ في صحيحهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه)؛ {واشكروا لي} أصل الشكر معرفة الإحسان والتحدث به فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه وقد وعد سبحانه أهل الشكر النجاة من النقم والمزيد من النعم فقال تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم. } ٤٦٤ وقال وهو أصدق القائلين {ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا} ٤٦٥ وقال جل ثناؤه {إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر} ٤٦٦ فأكثروا من الثناء على الله تعالى وشكره تسلموا وتغنموا {ولا تكفرون} -أي لا تكفروا نعمتي وأيادي فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب- ٤٦٧

١٥٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

{الصبر} قهر النفس على احتمال المكاره
{يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين} - [لما أوجب بقوله {فاذكروني أذكركم واشكروا لي} جميع الطاعات ورغب بقوله {ولا تكفرون} عن جميع المنهيات -فإن الشكر بالحقيقة صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه إلى ما أعطاه لأجله -ندب إلى الاستعانة على تلك الوظائف بالصبر والصلاة فالصبر قهر للنفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى والصلاة إذا اشتملت على مواجب الخشوع والتذلل للمعبود والتدبر لآيات الوعد والوعيد والترغيب والترهيب انجر ذلك إلى أداء حقوق سائر الطاعات

والاجتناب عن جميع الفواحش والمنكرات {إن الله مع الصابرين} بالنصر والتأييد ومزيد التوفيق والتسديد. . .] ٤٦٨.
١٥٤ - (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ)
{في سبيل الله} في طريق الجهاد لنصرة دين الله.
{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون} كأنه قيل استعينوا بالصبر والصلاة في إقامة ديني وسلوك سبيلي فإن احتجتم في ذلك إلى مجاهدة عدوي بأموالكم وأنفسكم فتلفت فإن قتلاكم أحياء عندي. نهى خلقه على أن يقولوا للشهداء إنهم موتى و {أموات} مرفوع بمضمر تقديره هم أموات وكذا أحياء ثم إن نهي المؤمنين عن أن يقولوا في شأن الشهداء أموات إما أن يكون دفعا لإيهام مساواتهم لغيرهم في ذلك البرزخ وتلك خصوصية نهذه المخالفأن لهم إن شاركهم في النعيم بل وزاد عليهم بعض عباد الله تعالى المقربين ممن يقال في حقهم ذلك وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون في شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولم يروه أبدا وليس في الآية نهي عن نسبة الموت إليهم بالكلية بحيث أنهم ما ذاقوه أصلا ولا طرفة عين وإلا لقال تعالى {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله} ماتوا فحيث عدل عنه إلى ما ترى علم أنهم امتازوا بعد أن قتلوا بحياة لائقة بهم- ٤٦٩ {ولكن لا تشعرون} لا تحسون ما حالهم بحواسكم لأنها من أحوال البرزخ التي ليس للحواس التي رزقناها في الدنيا إلى إدراكها من سبيل ولا طريق للعلم بها إلا بالوحي. وأورد بن جرير رحمه الله تعالى: فإن قال لنا قائل وما في قوله {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء} من خصوصية الخبر عن المقتول في سبيل الله الذي لم يعم به غيره؟ وقد علمت تظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وصف حال المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم فأخبر عن المؤمنين أنهم يفتح لهم من قبورهم أبوابا إلى الجنة يشمون منها روحها ويستعجلون الله قيام الساعة ليصيروا إلى مساكنهم منها ويجمع بينهم وبين أهليهم وأولادهم فيها وعن الكافرين أنهم يفتح لهم من قبورهم أبوابا إلى النار ينظرون إليها ويصيبهم من نتنها ومكروهها ويسلط عليهم فيها إلى قيام الساعة من يقمعهم فيها ويسألون الله فيها تأخير قيام الساعة حذرا من المصير إلى ما أعد الله لهم فيها مع أشباه ذلك من الأخبار؟ وإذا كانت الأخبار بذلك متظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الذي خص به القتيل في سبيل الله مما يعم به سائر البشر غيره من الحياة؟ وسائر الكفار والمؤمنين غيره أحياء في البرزخ أما الكفار فمعذبون بالمعيشة الضنك وأما المؤمنون فمنعمون بالروح والريحان ونسيم الجنان قيل إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك وأفاد المؤمنين بخبرهم عنهم -تعالى ذكره- إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحدا غيرهم في برزخه قبل بعثه. . . اهـ.
١٥٥ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)
{ولنبلونكم} ولنصيبنكم إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون أم تجزعون؟
{ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات} معطوف على مضمون الآيتين السابقتين – ١٥٤ - ١٥٣. من قوله سبحانه {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر. } إلى قوله جل ذكره {بل أحياء ولكن لا يشعرون} [والجامع أن مضمون الأولى طلب الصبر ومضمون الثانية {ولنبلونكم} الآية بيان مواطن الصبر والمراد لنعاملنكم معاملة المبتلي والمختبر] ٤٧٠ بقليل من الخوف ومن الجوع والقحط ونقص الأموال -وهي ما يتمول – بهلاك بعضه ونقص الأنفس بموت الأحبة أو قلتهم ونقص الثمرات تلفها أو نقصها أو قلتها {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} [خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من تتأتى منه البشارة والجملة عطف على ما قبلها. . . كأنه قيل الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة ولكن لمن صبر منكم وقيل على محذوف أي أنذر الجازعين وبشر،
١٥٦ - (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وفي توصيف الصابرين بقوله تعالى {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون} إشارة إلى أن الأجر لمن صبر وقت إصابتها كما في الخبر " إنما الصبر عند أول صدمة " والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه في نفس أو مال أو أهل - قليلا كان المكروه أو كثيرا- حتى لذغ الشوكة ولسع البعوضة وانقطاع الشسع، وانطفاء المصباح، وقد استرجع النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال (كل ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة له وأجر) وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل بالصبر باللسان وبالقلب بأن يخطر بباله ما خلق لأجله من معرفة الله تعالى وتكميل نفسه وأنه راجع إلى ربه وعائد إليه بالبقاء السرمدي] ٤٧١.

روى مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول {إنا لله وإنا إليه راجعون} اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها) قالت فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخلف الله لي خيرا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٧٢.

وأخرج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته).

١٥٧ - (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

{صلوات من ربهم} مدح وتعظيم {رحمة} نعم عاجلة وآجلة

{المهتدون} الملتزمون بمنهاج الصواب الفائزون بالكرامة والثواب

{أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} قال عمر رضي الله عنه نعم العدلان ونعم العلاوة أراد بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الاهتداء، وصلاة الله على عبده عفوه وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة وقال الزجاج: الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن. . ا ه. وقد يراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة - يعني تعالى ذكره بقوله {أولئك} هؤلاء الصابرون ٤٧٣ الذين وصفهم ونعتهم {عليهم} يعني لهم {صلوات} يعني مغفرة وصلوات الله على عباده غفرانه كالذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (اللهم صل على آل أبي أوفى) يعني اغفر لهم. . . ثم أخبر تعالى ذكرهم مع الذي ذكر أنه معطيهم على اصطبارهم على محنه تسليما منهم لقضائه من المغفرة والرحمة أنهم هم المهتدون المصيبون طريق الحق والقائلون مال يرضى عنهم والفاعلون ما استوجبوا به من الله جزيل الثواب.

١٥٨ - (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

{إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم}

{الصفا} الجبل الصغير المعروف بمكة.

{المروة} الجبل الصغير المقابل للصفا

{شعائر} جمع شعيرة وهي العلامة أو العبادة والشرعة والمنسك.

{حج} قصد وأوتي بعد بدء. {اعتمر} زار

{فلا جناح} فلا إثم ولا حرج {يطوف بهما} يسعى بينهما

{تطوع} تعبد أو فعله المؤمن من قبل نفسه.

روى البخاري في صحيحه عن عاصم بن سليمان قال سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام امسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} وفي رواية له رواها مسلم وغيره عن عروة عن عائشة قال: قلت أرأيت قول الله تعالى {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} فوا لله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما فقالت عائشة بئس ما قلت يابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه فلا كانت على جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا

يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل عز وجل {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} قالت عائشة قد سن ٤٧٤ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما فليس لأحد أن يدع الصواب بهما. {ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم} -معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكر له على تطوعه بما تطوع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به. {عليم} بما قصد وأراد بتطوعه بما تطوع به- ٤٧٥

١٥٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

{يكتمون} يتركون إظهار الشيء مع الحاجة إليه وحصول الداعي إلى إظهاره {البينات} ما أنزل الله تعالى على أنبيائه من وحيه.

{الهدى} ما يدل على الرشد ويزين طريق الحق والبر من حجة وبرهان

{يلعنهم الله} يقصيهم ويبعدهم ويطردهم من رحمته

{يلعنهم اللاعنون} يدعون عليهم بالطرد والإبعاد من الله تعالى ومن رحمته.

بعد أن بشر الله تعالى من أقام الملة الحنيفية وعظم الشعائر الإسلامية والمناسك الإبراهيمية حذر وتوعد الذين يتركون إظهار الحقائق التنزيلية وبيان السلطان والحجة العقلية من بعد ما نطقت بها الكلمات الربانية فمن أخفى من هذا الرشد ما تدعو الحاجة إلى إظهاره أو بدله وحرم الناس من نوره وبره فإن الله تعالى يقصيه ويبعده منه ومن رحمته، وكذا الخلائق تدعوا على من كتم أو بدل أن يطرده الواحد القهار من عداد الذين يدخلهم من عفوه وغفرانه وهذا الحرمان والإبعاد وطلب الخلائق إحلالهما بالكاتمين والمبدلين يكون في الدنيا ويوم الدين ويشهد لهذا القول ربنا وهو أصدق القائلين {. . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم ببعض} ٤٧٦ وقوله تقدست أسماؤه {. . كلما دخلت أمة لعنت أختها} ٤٧٧ وهكذا فمن كتم شيئا من الدين مع الحاجة إليه وحصول الداعي إلى إظهاره فقد وقع في إثم مبين ٤٧٨، روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثت أحدا بشيء أبدا، ثم تلا هذه الآية؛ -وفي الآية دليل على أن ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلف لا يجوز أن يكتم ومن كتمه فقد عظمت خطيئته، والمراد بالبينات كل ما أنزله الله على الأنبياء كتابا ووحيا، دون أدلة العقل، {والهدى} يدخل فيه الدلائل العقلية والنقلية لأن الهدى الدلالة فيعم الكل، وبعبارة أخرى: الأول هو التنزيل والثاني ما يقتضيه التنزيل من الفوائد. . . خبر الواحد والإجماع، والقياس حجة لأن الكتاب دل على هذه الأمور،. . . ومن الناس من يحتج بالآية على وجوب قبول خبر الواحد، لأن وجوب الإظهار دل على وجوب العمل بالذي أظهر ولا سيما وقد قال: {إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا} فحكم بوقوع البيان بخبرهم،. . . {أولئك} تبعيد لهم عن درجة الاعتبار {يلعنهم الله} يبعدهم عن كل خير {ويلعنهم} يدعو عليهم باللعن {اللاعنون} الذين يتأتى منهم اللعن ويعتد بلعنهم من الملائكة وصالحي الثقلين ٤٧٩، وقيل: يدخل فيهم دواب الأرض وهوامها فإنها تقول منعنا القطر بشؤم معاصي بني آدم {واللاعنون} دون اللاعنات تغليب. .

١٦٠ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

{تابوا} أنابوا وعادوا إلى طريق الحق.

{وأصلحوا} ما أفسدوا من أحوالهم وغيرهم وتداركوا ما فرط منهم

{وبينوا} ما كتموه وأظهروا للناس ما أحدثوه من توبة عما غووا.

{أتوب عليهم} أقبل توبتهم.

{إلا الذين} استثناء منهم. . . . {وأصلحوا} ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرطوا منهم {وبينوا} ما كتموه أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم ليعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به ويقتدي بهم غيرهم. . . {فأولئك أتوب عليهم} أقبل توبتهم بأن أسقط العقاب عنهم تجملا وأضع مكانه الثواب تجملا. . . - ٤٨٠.

١٦١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

{إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين} هذا مصير من خرج من الدنيا وهو مقيم على كفره يجحد الحق ويستره فما له من نصيب من رحمة الله وما لأحد مندوحة عن لعنه والبراءة منه

١٦٢ - (خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

{ينظرون} يمهلون أو يفوزون بنظرة رحمة.

{خالدين فيها} يبقون في اللعنة أو في النار ماكثين فيها أبدا {لا يخفف عنهم العذاب} لا يفتر عذابهم ولا تخف حدته في وقت من الأوقات {ولا هم ينظرون} لا ينظر الله تعالى إليهم نظر رحمة ولا تمهلهم الملائكة ليعتذروا

١٦٣ - (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

{وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} المعبود الذي يستحق عبادتكم واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ليس له شبيه ولا نظير ولا ند ولا ضد فلا تعبدوا معه غيره ولا تشركوا به سواه. [لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد] ٤٨١ في صحيح مسلم عن رسول الله يصلى الله عليه وسلم (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة).

١٦٤ - (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}.

{السماوات} البناء الكوني الذي نراه يعلونا وتتراءى لنا حوله قبة زرقاء وتبدو من خلاله الشمس والقمر والنجوم والكواكب.

{الأرض} الكوكب الترابي الذي نسكنه ونعيش فيه وندب عليه

{الليل} الوقت من غروب الشمس إلى طلوع الفجر

{النهار} الوقت من طلوع الفجر إلى غروب الشمس

{الفلك} السفن واحده وجمعه سواء

{فأحيا به الأرض} أخرج نبتها. {بعد موتها} بعد قحوطها وجدبها.

{بث} نشر وفرق. {دابة} ما يدب على الأرض

{تصريف} تحريك وتوجيه وتقليب.

{الرياح} واحدها ريح وهو نسيم الهواء

إيجاد البناء الكوني الذي نراه يعلونا كالسقف فوقنا وتتراءى لنا حوله قبة زرقاء وتبدو من خلاله الشمس والقمر والكواكب والنجوم، هذه السماوات بعظمتها وامتدادها وارتفاعها وجمالها وحفظها مرفوعة بغير عمد ونجومها المسخرات التي لا يحصيها عد وملئها الأعلى الذي لا يدانيه ملأ ولا جند وإنشاء الأرض بتراميها واتساع أرجائها وفرشها وتذليلها وخلق يابسها ومائها ومعادنها وأشجارها ونبتها وحيوانها وجاذبيتها وهوائها- ذانك برهان من ربنا على حكمة موجودهما سبحانه وقدرته وعلوه وجلاله ووحدانيته {واختلاف الليل والنهار} هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة ويختلفان في الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر والحركة والسكون نخلوف أحدهما إلى الآخر وانتظام أحوال النبات والحيوان والإنسان بهما دليل ثالث على حكمة الله تعالى ووحدانيته {والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس} السفن والمراكب التي تجري محمولة على الماء عذبة وملحة بالذي ينفع البشر من التجارات وسائر ما تصلح به أحوالهم من نقل وتعلم وجهاد وتواصل وتعبد وقضاء أوطار في ذلك دليل رابع على أن الله وحده موجد الكون كله ومدبره، {وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها} إتحاف ربنا لنا بالمطر الذي ينزل من جهة السماء فتكون به حياة من على الأرض وما عليها من إنسان أو حيوان أو نبات وبهذا تعمر البلاد بعد خراب إذ هي دون هذه الأحياء هامدة جامدة كالجسد لا

روح فيه ذلك برهان خامس على أن الله هو الخلاق الوهاب دون سواه وتبارك الملك القدوس القائل في محكم التنزيل {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد} ٤٨٢؛ كما قال جل ذكره {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها} ٤٨٣ وقال عز من قائل {. . . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ٤٨٤.
{وبث فيها من كل دابة} سادس البراهين – في هذه الآية الكريمة- دليل على تفرد ربنا الملك الكريم بالإيجاد والتدبير أن فرق في الأرض ونشر كل ما يدب عليها من حيوان -إنسي أو وحشي أو جني أو مستأنس- أو طير وهوام {وتصريف الرياح} تقليب الريح في جهات العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا على كيفيات مختلفة حارة وباردة ورخاء وعاصفة نصر ٤٨٥ وصر ٤٨٦ وملقحة وعقيم- إن الذي يجري الرياح ويوجهها حاملة ما يريد من رحمة أو عذاب من غوث أو هلاك خالق كل شيء وليس إلا هو سبحانه يحركها أو يسكنها ويلينها أو يعصفها فهذا دليل سابع على اقتدار الله دون سواه؛ {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} الغمام المسير بين السماء والأرض والمحمل بالماء على ثقله والمعلق في الفضاء دون علائق والموجه إلى حيث يريد الفاعل المختار عز شأنه أو المشحون بالهلاك والطوفان مثلما حدثت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر فإذا مطرت سر به وذهب عنه ذلك قالت عائشة فسألته فقال (إني خشيت أن يكون عذابا سلط على أمتي) ٤٨٧ كما أن الخبير البصير القدير سخر السحاب فهو يجمعه حينا دون حين لأنه لو دام لعظم ضرره من حيث إنه يستر ضوء الشمس ويكثر الأنواء والأمطار ويتعذر التردد في الحوائج ولو انقطع لعظم الضرر استلزامه الجدب والإمحال فإتيان الله به في وقت، ودفعه في الوقت لا يكون إلا بمسخر ومدبر وإلى هذا لفت البصائر والعقول {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٤٨٨ ثم يأتي بعد ذلك قول الحميد المجيد {. . . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} ٤٨٩ كما أن تراكمه وتخلخله وارتفاعه وانخفاضه وتجمعه وتشققه في كل ذلك حجة وبرهان على اقتدار الأحد الصمد اللطيف الخبير؛ {لآيات لقوم يعقلون} لدلالات تدل على عزة ربنا ونافذ إرادته وفي كل ما بينته الآية سلطان وحجة بالغة مقنعة لكل من يعقل: ومحال أن يكون شيء من هذه الآيات سلطان وحجة بالغة مقنعة لكل من يعقل ومحال أن يكون شيء من هذه الآيات الثمانية أو غيرها أوجد نفسه. . . أو أوجدته الطبيعة لأنها لو أحدثت نفسها لم تخل أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو وهي معدودة كان محالا لأن الإحداث لا يأتي – عقلا- إلا من حي عالم قادر مريد وما ليس بموجود لا يتصف بشيء من ذلك وإن كانت موجودة فوجودها يغني عن إحداث أنفسها؛ وما الطبيعة إلا مجموع تلك الظواهر والقوى ومحال أن تكون الصدفة أوجدتها، فإن مر جوز في بناء رفيع وقصر مشيد أن التراب والماء انضم أحدهما إلى الآخر ثم تولدت منهما اللبنات ثم تحولت تلك اللبنات وتركبت وتولد من تركيبها القصر ثم تزين بنفسه بالرسوم والنقوش اللطيفة- من قال ذلك قضى العقل عليه بالجنون.
ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعي فلا تلتفت
الحق أن كل هذه الأمور دلائل على وجود مبدع عظيم الشأن غني عن الزمان والمكان مبرأ عن سمات الحدوث والإمكان متفرد بالهيمنة والسلطان يقول الحسن النيسابوري: وإنما خص الآيات الثمانية بالذكر -مع أن سائر الأجسام والأعراض متساوية في الاستدلال بها على وجود الصانع بل كل ذرة من الذرات- لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعما على المكلفين ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيرا في الخواطر. ا ه
١٦٥ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)
{أندادا} جمع ند وهو المثل والنظير والشبه والضد والمخالف

{ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا} بعدما بينت الآية الكريمة السابقة بعضا من الحجة والبرهان على توحيد الله المتفرد بالجلال والسلطان جاءت هذه الآيات المحكمات تبين ضلال أهل الشرك والأوثان، بعض من البشر يتخذ من الخلق ما يزعم نديته لله تعالى وتقدس، ومن المفسرين من قال هي الأصنام وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى ومنهم من قال السادة الذين كانوا يطيعونهم على أوامرهم ونواهيهم محلين ما حرم الله، ومحرمين ما أحل الله {يحبونهم ٤٩٠ كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} قال المبرد: يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق أي إنهم مع عجز الأصنام يحبونها كحب المؤمنين لله مع قدرته، وعن ابن عباس والسدي المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال (أن تجعل لله ندا ٤٩١ وهو خلقك) -المراد بشدة محبة ٤٩٢ المؤمنين شدتها في المحل ورسوخها فيهم وعدم زوالها عنهم بحال لا كمحبة المشركين لآلهتهم حيث يعدلون عنها إلى الله تعالى عند الشدائد ويتبرؤون منها عند معاينة الأهوال- ٤٩٣؛ روى أن باهلة -قبيلة من قبائل العرب- صنعت آلهة لها من حيس وهو الأقط والسمن والتمر ثم أكلتها عام المجاعة وفيهم قال الشاعر:

أكلت حنيفة ربها زمن التجمع والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتابعة

{ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب} ولو يرى المشركون والكافرون والظالمون عذاب الله الذي أعد لهم في جهنم لعلموا حين يرونه فيعاينونه أن القوة لله جميعا وأن الله شديد عذابه لمن جحده وأشرك به وعصاه

١٦٦ - (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)

{الأسباب} الأبواب والحبال والنواصي والمودة والتواصل وما يتوصل به إلى شيء آخر

{إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار} وحين يرون ما أعد لهم من غليظ العذاب يتبرأ المتبعون من الأتباع فالأصنام قد يخلق القوى القدير فيها نطقا فتكفر بعابديها كما قال الحق جل ثناؤه {. . ويوم القيامة يكفرون بشرككم} ٤٩٤ والشيطان يقول يوم التغابن ما جاء من محكم التنزيل {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل. } ٤٩٥ ويتبرأ الملأ الأعلى ممن عبدوهم {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانون يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} ٤٩٦ فلا تواصل بين المشركين وبين ما شركوا وإنما يتعادون ويتلاعنون {. . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وما لكم من ناصرين} ٤٩٧ والمتجبرون رؤوس الكفر يقولون للذين {استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٤٩٨ وهكذا لا يفتر عنهم العذاب وهم فيه مبلسون بل يستسلمون.

١٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

{كرة} رجعة وعودة

{حسرات} مفردها حسرة وهي شدة الندامة

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦٦ إظهار

١٦٨ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

{حلالا} مباحا جائزا لم يحرمه الله وسمي الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه.

{طيبا} لذيذا زكيا طاهرا كثير الخير ليس فيه خبث ولا مكروه ولا نتن أو حلالا.

{خطوات الشيطان} أعماله وخطاياه. {مبين} مظهر

{يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان} حذرت الأيام السابقات من سوء مصير أهل الشرك

وأنذرت هذه أهل الضلال وأتباع الشيطان وقالة الإفك، روى الإمام مسلم في صحيحه في حديث عياض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (يقول الله تعالى إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال -وفيه- وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم) نادى الله تعالى العباد أن يأكلوا من طيبات الرزق والحلال يطلق على الجائز والمباح وما ليس بمحرم والطيب الطاهر اللذيذ الزكي وكثير الخير وما لا خبث فيه ولا مكروه ولا نتن، والحلال قال الكلبي: نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام وحرموا البحيرة السائبة والوصيلة والحامي وقال آخرون كانت العرب تستقذر أشياء فلا تأكلها، وتستطيب أشياء فتأكلها، فأحل الله لهم ما استطابوه مما لم ينزل بتحريمه تلاوة مثل لحوم الأنام كلها وألبانها ومثل الدواب التي من الضباب والأرانب وغيرها؛ ثم الحرام قد يكون حراما في جنسه كالميتة وقد يكون حراما لعرض كملك الغير إذ لم يأذن في أكله فالحلال هو الخالي عن القيدين؛ والطيب إن أريد به ما يقرب من الحلال فالوصف لتأكيد المدح مثل {. . . نفخة واحدة} ٤٩٩ أي الطاهر ٥٠٠ من كل شبهة ويمكن أن يراد بالطيب اللذيذ - ودعوا خطوات الشيطان الذي يوبقكم فيهلككم ويوردكم موارد العطب، ويحرم عليكم أموالكم، فلا تتبعوها ولا تعملوا بها؛ {إنه}. . إن الشيطان والهاء. . عائدة على الشيطان {لكم} أيها الناس عدو مبين يعني أنه قد أبان لكم عداوته بإبائه عن السجود لأبيكم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة واستزله بالخطيئة فأكل من الشجرة، يقول تعالى ذكره فلا تنتصحوه أيها الناس مع إبانته لكم العداوة ودعوا ما يأمركم به والتزموا طاعتي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه مما أحللته لكم وحرمته عليكم دون ما حرمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه طاعة للشيطان اتباعالأمره. . .

١٦٩ - (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

{بالسوء} ما يسيء ويحزن وتذم عواقبه

{الفحشاء} ما يقبح ويعظم شره ويقام الحد على فاعله أو الزنا.

{إنما يأمركم بالسوء}. . . الإثم. . . {الفحشاء}. . . كل ما استفحش ذكره وقبح مسموعه وقيل إن السوء الذي ذكره الله هو معاصي الله. . وقيل إن الفحشاء الزنا- ٥٠١ {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} كانوا يحرمون البحائر والسوائب ويزعمون أن الله تعالى حرمها فأكذبهم الله تعالى بقوله الحكيم {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون} ٥٠٢.

١٧٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)

{ألفينا} وجدنا

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون}.

وإذا قيل لهؤلاء الكفار كلوا مما أحل الله لكم ودعوا خطوات الشيطان وطريقه واعملوا بما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه استكبروا عن الإذعان للحق قالوا بل نأتم بآبائنا فنتبع ما وجدناهم عليه من تحليل ما كانوا يحلون وتحريم ما كانوا يحرمون. .

{أو لو كان آباؤهم} يعني آباء هؤلاء الكفار الذين مضوا على كفرهم بالله العظيم {لا يعقلون شيئا} من دين الله وفرائضه وأمره ونهيه فيتبعون على ما سلكوا من طريق ويؤتم بهم في أفعالهم؟ {ولا يهتدون} لرشد. . .

١٧١ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

{ينعق} يصيح بغنمه ويزجرها.

{دعاء} يكون للقريب {نداء} ويكون للبعيد

{صم} لا يسمعون {بكم} لا يتكلمون

{عمي} لا يرون ولا يبصرون.

{ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء}. . عن قتادة: هو مثل ضربه الله للكافر، يقول: مثل هذا الكافر

مثل هذه البهيمة التي تسمع الصوت ولا تدري ما يقال لها فكذلك الكافر لا ينتفع بما يقال له، عن ابن عباس: ومثل وعظ الكافر وواعظه كمثل الناعق بغنمه ونعيقه فإنه يسمع نعيقه ولا يعقل كلامه. . . {صم بكم عمي فهم لا يرجعون} لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وعن قتادة: بكم عن الحق فلا ينطقون به.

١٧٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

نادى ربنا العلي الكبير أهل الإيمان أن يطعموا الحلال الطيب وأن يتمولوه ويتملكوه -وإنما عبر بالأكل لأنه من أهم ما يحتاج إليه وطالبهم سبحانه أن يشكروا نعمة المنعم تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه فذلك مما يعظم به الجزاء ويستجاب به الدعاء روى الإمام مسلم وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال {يا أيها الناس إن الله طيب لا يحب إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم} ٥٠٣ وقال: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم} ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك)؟

١٧٣ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم} وبعد الدعوة إلى تناول الطيبات حصرت المحرمات بأداء الحصر {إنما} ليعلم أن ما وراء ذلك يبقى على أصله وهو الحل كما جاء في محكم التنزيل {قل لا أجد فيما أوحي إليك محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم} ٥٠٤ و {الميتة} ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح وما ليس بمأكول فزكاته كموته كالسباع وغيرهما؛ {والدم} وورد في هذه الآية مطلقا لكنه قيد في آية سورة الأنعام سورة المذكورة آنفا بقول المولى الحكيم {أو دما مسفوحا} والمطلق يحمل على المقيد ونقل القرطبي الإجماع على ذلك وأوردوا من السنة ما يشهد له ٥٠٥؛ {ولحم الخنزير} وإجماع الأمة على جملة لحم الخنزير إلا الشعر فإنه يخرز به نقل هذا عن القرطبي {وما أهل به لغير الله} ما ذكر به عند ذبحه اسم غير اسم الله عز وجل {فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم} لا خلاف بين أهل العلم متقدميهم ومتأخريهم في وجوب رد مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف. . .،

أورد هذا صاحب الجامع لأحكام القرآن واستشهد بأحاديث ٥٠٦ كثيرة {غير باغ ولا عاد} قال مجاهد وابن جرير غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم فيدخل في الباغي والعادي وقطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله {فإن الله غفور رحيم} - أي يغفر المعاصي فأولى ألا يؤاخذ بما رخص فيه ومن رحمته أنه رخص- ٥٠٧.

١٧٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم} توعد الله تعالى من يترك إظهار الحقائق التنزيلية وبيان السلطان والحجة العقلية من بعد ما نطقت بها الكلمات الربانية وبينتها الرسالات السماوية فمن أخفى من تلك الأمانات شيئا أو بدلها مقابل عرض يناله أو لحسد يأكل قلبه، فما حصل إلا لهب جهنم يجرجر في بطنه، ولن يفوز يوم القيامة ولن يظفر من الواحد القهار سبحانه بكلمة رحمة ولن تحط عنه خطيئة من خطيئاته بل النار مثوى لهم وفوح السعير وخزيها وقيدها وهوانها محيط به لا يفارقه ولا يخفف عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل ٥٠٨ مستكبر) يقول بعض العلماء وإما خص هؤلاء بأليم العذاب وشدة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصي إذ لم يحمله على ذلك حاجة ولا دعتهم إليه ضرورة كما تدعو من لم يكن مثلهم ومعنى {لا ينظر إليهم} لا يرحمهم. أ ه.

١٧٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

{أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى} استبدلوا واستعاضوا عن الهدى الضلالة، فاستحقوا أن يعوضوا عن المغفرة بعذاب الله جزاء وفاقا ببغيهم وزيغهم فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار

١٧٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

{ذلك} الوعيد الشديد أو ذلك الكتمان وسوء معاملتهم إنما هو {ب} سبب {أن الله نزل الكتاب} يعني جنس الكتب السماوية أو القرآن {بالحق} بالصدق أو بيان الحق وقد نزل في جملة ما نزل أن هؤلاء الرؤساء من أهل الكتاب لا يؤمنون ولا يكون منهم إلا الإصرار على الكفر فإنه تعالى ختم على قلوبهم {وإن الذين اختلفوا في الكتاب} جنسه فقالوا في البعض حق وفي البعض باطل، وهم أهل الكتاب، {لفي شقاق} خلاف {بعيد} عن الحق، أو الذين اختلفوا في القرآن فقال بعضهم شعر وبعضهم سحر وبعضهم أساطير الأولين أو الذين اختلفوا في التوراة والإنجيل فقدح كل منهما أو ذكر كل منهما للآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تأويلا آخر فاسدا أو حرفوا كلا منهما على وجه آخر لأجل عداوتك هم فيما بينهم في شقاق بعيد ومنازعة شديدة فلا ينبغي أن تلتفت إلى اتفاقهم على العداوة فإن ليس بينهم مؤالفة وموافقة. . واعلم أن الآية وإن نزلت في أهل الكتاب يشبه أن تكون عامة في كل من كتم شيئا من باب الدين. . وكان السبب في تعقيب هذا الحكم الأول أن أهل الكتاب قد حرموا بعض ما أحل الله كلحوم الإبل وألبانها وأحلوا بعض ما حرم الله كبعض الشحوم فسيقت الآية تعريضا بصنعهم وتصريحا بجزائهم وجزاء أضرابهم والله أعلم- ٥٠٩.

هذا وقد بينت بعض معاني هذه الآيات الكريمة المباركة: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب. } رقم ١٥٩. من هذه السورة.

١٧٧ - (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

{البر} اسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله.

{في الرقاب} في معاونة للعبيد والإماء والمكاتبين حتى يفكوا رقابهم.

{البأساء} المصائب في الأموال كالفقر ونحوه.

{الضراء} المصائب في الأبدان كالمرض ونحوه.

{البأس} الحرب

- ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا لشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر الذي يجب صرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال- ٥١٠ وقد تضمنت جوانب الإيمان الخمسة: الإيمان بالله تعالى وبالآخرة وبالملائكة وكتب ربنا المنزلة وبالنبيين سلام ربنا وصلاته عليهم أجمعين كما دعت الآية الكريمة إلى إعطاء المال وبذله لأصناف ستة: ذوي القرابة اليتامى والمساكين وأبناء السبيل المسافرين عابري الطريق والسائلين والعبيد الجواري المكاتبين على مال ليفكوا بهم رقابهم من الرق والأسر، وعهد الله تعالى إلينا في هذه الآية كذلك بإقامة الصلاة وإتيان الزكاة والوفاء بالوعد وبالصبر ٥١١ في مواطن الفقر وبلايا المال، وفي مواطن المرض وما يصيب الجسد وفي مواطن الجهاد والحرب سبعة عشر عهدا ٥١٢ من وفى بها فقد استحق أن يكون بارا دون من أدى البعض وضيع البعض ٥١٣، {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} عن الربيع قال: وكان الحسن يقول فتكلموا بكلام الإيمان فكانت حقيقة العمل صدقوا الله قال. وكان الحسن يقول هذا الكلام الإيمان وحقيقته العمل فإن لم يكن مع القول عمل فلا شيء – فمن فعل هذه الأشياء فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم وحققوا قولهم بأفعالهم لا من ولى وجهه قبل المشرق والمغرب وهو يخالف الله في أمره وينقض عهده وميثاقه ويكتم الناس بيان ما أمره الله ببيانه ويكذب رسله. وأما قوله {أولئك هم المتقون} فإنه يعني وأولئك

الذين اتقوا عقاب الله فتجنبوا عصيانه وحذروا وعده فلم يتعدوا حدوده وخافوا فقاموا بأداء فرائضه- ٥١٤.

١٧٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{القصاص} القود وهو القتل بالقتل أو الجرح بالجرح مثلا بمثل.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله لهذه الأمة {كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ٥١٥ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء} فالعفو أن يقبل الدية في العمد {فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان} يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان {ذلك تخفيف من ربكم ورحمة} مما كتب على من كان قبلكم {فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم} قتل بعد قبول الدية، و {كتب} بمعنى فرض - معناه. . أن الحر إذا قتل الحر فدم القاتل كفء لدم القتيل والقصاص منه دون غيره من الناس فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غير قاتله، والفرض الذي فرضه الله علينا في القصاص هو ما وصفت من ترك المجاوزة بالقصاص قتل القاتل بقتيله إلى غيره لا أنه وجب علينا القصاص فرضا وجوب فرض الصلاة والصيام حتى لا يكون لنا تركه ولو كان في ذلك فرضا لا يجوز لنا تركه لم يكن لقوله {فمن عفي له من أخيه شيء} معنى مفهوم لأنه لا عفو بعد القصاص- ٥١٦، وذهب آخرون إلى أن التقدير يا أيها الأئمة كتب عليكم استيفاء القصاص إن أراد ولي الدم استيفاءه {فمن عفي له من أخيه شيء} [المعنى فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو. . . فمن الآية: فمن عفي له من جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية وإنما قيل {شيء} من العفو ليعم أنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفي عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم يجب إلا الدية. وأخوه هو ولي المقتول وإنما قيل لهم إخوة لأنه لابسه من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به. . . أو ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام. وقد يستدل بهذا على أن الفاسق مؤمن لأنه تعالى أثبت الأخوة بسبب الدين {إنما المؤمنون إخوة} ٥١٧ مع أن قتل العمد العدوان بالإجماع من الكبائر] ٥١٨.

١٧٩ - (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

{ولكم في القصاص حياة} أي لكم في هذا الحكم الذي شرعه لكم حياة لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصا إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه. . . جعل القصاص الذي هو موت الحياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا إبقاء على أنفسهم واستدامة لحياتهم.

{يا أولي الألباب} جعل هذا الخطاب موجها إلى أولي الألباب لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصابا بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة. . . - ٥١٩.

{لعلكم تتقون} قال ابن زيد لعلك تتقي أن تقتله فتقتل به. اهـ

١٨٠ - (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

{كتب} وجب. {خيرا} مالا.

{الوصية} العهد وفي أصل معناها الصلة.

عهد الله تعالى إلى المؤمنين الذين تظهر فيهم علامات الموت ولهم مال يبلغ حدا فوق القلة والكفاف أن يوصوا ٥٢٠ بشيء من هذا الذي سيتركونه ويرتحلون عنه إلى أبويهم وقرابتهم دون تضييق على بعض مقابل الإغداق على الآخرين، فذلك الإيصاء على هذا النحو من الحقوق التي يرعاها أهل الخشية من الله العظيم وتقواه؛ روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده) وجواب {إن ترك} {الوصية} بتقدير فاء محذوفة أي إن ترك خيرا فالوصية، والعامل في {إذا} {كتب} والمعنى توجب إيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا

حضر. . ويمكن أن يقدر المعنى ههنا كما قدر في آية {كتب عليكم القصاص في القتلى} فكما أن التقدير هناك كتب عليكم استيفاء القصاص إن أراد ولي الدم استيفاءه يقال هنا كتب عليكم إذا أردتم الوصية وعندكم مال كثير أن توصوا قبل حلول الموت واحتج من لم يوجب الوصية بأن قال: لو كانت واجبة لما جعلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى إرادة الموصي حيث قال في الحديث الذي أورده آنفا (يريد أن يوصي) ولكان ذلك لازما على كل حال وعن قتادة وغيره الآية عامة تقرر الحكم بها برهة من الدهر ونسخ منها كل من كان يرث بآية الفرائض ٥٢١، وكذا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول آيات المواريث: {ليس لوارث وصية} ٥٢٢.

١٨١ - (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{إثمه} ذنبه

{فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم} في هذا تحذير للوصي والشاهد أن ينكر أحدا منهما الوصية أو ينقص فيها أو يبدل صفتها {فإنما إثمه على الذين يبدلونه} فما إثم التبديل في الإيصاء وما وزره إلا على من افترى وغير الإيصاء عن وجهه الذي أؤتمن عليه، {إن الله سميع عليم} فيسمع أقوال المبدلين والموصين ويعلم بنياتهم فيجازيهم على وفقها، وفي هذا وعيد للمبدلين ووعد للموصين. .

١٨٢ - (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{جنفا} ميلا وجورا.

{فمن خاف من موص جنفا أو إثما} الجنف. . الميل والجور والمراد به الميل في الوصية من غير قصد بقرينة مقابلته بالإثم فإنه إنما يكون القصد ومعنى {خاف} توقع. . {فأصلح بينهم} أي بين الموصى لهم من الوالدين والأقربين بإجرائهم على نهج الشرع وقيل المراد فعل ما فيه الصلاح بين الموصي والموصى له بأن يأمر بالعدل والرجوع عن الزيادة وكونها للأغنياء. . {فلا إثم عليه} في ذلك التبديل لأنه تبديل باطل إلى الحق {إن الله غفور رحيم} تذييل أتي به للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه وذكر المغفرة مع أن الإصلاح من الطاعات، وهي إنما تليق من فعل ما لا يجوز لتقدم ذكر الإثم الذي تتعلق به المغفرة. . . وفائدتها التنبيه على الأعلى بما دونه يعني أنه تعالى غفور للآثام فلأن يكون رحيما من أطاعه من باب الأولى ٥٢٣.

١٨٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

الصيام: لغة الإمساك عن الشيء وفي الشرع الإمساك عن المفطرات كالأكل والشرب والوقاع في زمان مخصوص هو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ولابد في صحته من النية وأن يقع في غير يومي العيد بالاتفاق ولابد للصائم من الإسلام والنقاء من الحيض والنفاس ومن العقل كل اليوم، ومن انتفاء الإغماء في جزء من اليوم قال القفال انظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف فبين أولا أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم السالفة فإن الأمور الشاقة إذا عمت خفت ثم بين ثانيا وجه الحكمة في إيجاب الصوم وحصول التقوى ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام قلائل لا بكلها ولا بأكثرها ثم بين رابعا أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن ليعلم شرفه فتوطن النفس له ثم ذكر خامسا إزالة المشقة في إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليهم من المسافرين والمرضى إلى زمن الرفاهية والصحة -وهي هيئة يكون بها بدن الإنسان في مزاجه وتركيبه بحيث يصدر عنها الأفعال كلها سليمة- والمرض زوالها {لعلكم تتقون} هذا أول بركات الصيام وثمراته فهو وقاية من النار ووقاية من المعاصي والأوزار وصلوات الله وسلامه على صفوة الأبرار نبينا محمد الصادق المختار، روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة. .) وفي رواية للبخاري (يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي) وفي رواية لمسلم (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشهوته من أجلي) وعن سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم (ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا) ٥٢٤

متفق عليه ٥٢٥ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه. ومن المتفق عليه كذلك ما رواه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين).

١٨٤ - (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر} نقل عن البخاري قوله اعتللت بنيسابور علة خفيفة وذلك في شهر رمضان فعادني إسحق بن راهوية في نفر من أصحابه فقال لي أفطرت يا أبا عبد الله فقلت نعم فقال خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة قلت حدثنا عبد الله بن المبارك عن ابن جريج قال قلت لعطاء من أي المرض أفطر؟ قال من أي مرض كان كما قال الله تعالى {فمن كان منكم مريضا} قال البخاري وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق اهـ. مما نقل علماء الأحكام. للمريض حالتان إحداهما ألا يطيق الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل {أو على سفر} العلماء مجمعون على أن سفر الطاعة كالحج والجهاد وطلب العلم والسعي في الرزق وصلة الرحم يباح فيه الفطر، وأما سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع. ومسافة الفطر ثلاثون ميلا عند البعض، وثمانية وأربعون عند البعض. ونقل عن الشافعي رحمه الله تعالى أن السفر في الوعر يكفي لإباحة الفطر فيه ثلاثة أميال {فعدة من أيام أخر} كأن التقدير من يكن منكم مريضا أو مسافرا فأفطر من رمضان مدة سفره أو مرضه فالواجب عليه مدة معدودة من أيام غير أيام رمضان يصومها. روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهارا ليراه الناس وأفطر حتى قدم مكة. وذهب الجمهور من الفقهاء ومنهم الأئمة الأربعة إلى أنه لا يجب تتابع القضاء لمجيئه في الآية مطلقا غير مقيد، كما لا يتحتم التعجيل به، فقد جاء في الصحيحين صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يكون علي الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان، فإن مات وعليه صوم قضي عنه، فقد رويا عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول اله صلى الله عليه وسلم (من مات وعليه صوم صامه عنه وليه) ولهما عن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها فقال (لو كان على أمك دين أكنت قاضيه) قال نعم قال (فدين الله أحق أن يقضى). {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له} روى البخاري بسنده عن بن أبي ليلى قال حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نزل رمضان فشق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ٥٢٦ ورخص لهم في ذلك فنسختها {وأن تصوموا خير لكم}. . لأن فرض الصيام هكذا: من أراد صام ومن أراد أطعم مسكينا وقال ابن عباس نزلت هذه الآية رخصة للشيوخ والعجزة خاصة إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم ثم نسخت بقوله* {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} فزالت الرخصة إلا لمن عجز منهم {فمن تطوع خيرا فهو خير له} قال ابن شهاب من أراد الإطعام مع الصوم، وقال مجاهد من زاد في الإطعام على المد وعن ابن عباس {فمن تطوع خيرا} قال مسكينا آخر {فهو خير له} {وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون} أي من الإفطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ وأما قوله {إن كنتم تعلمون} فإنه يعني إن كنتم تعلمون خير الأمرين لكم أيها الذين آمنوا من الإفطار والفدية أو الصوم على ما أمركم الله به.

١٨٥ - (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{بينات} دلالات واضحات ومبينات للحق.

{الفرقان} يبين بين الرشد والغي.

{شهد} حضر.

{شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان}. . . بعض أهل المعرفة بلغة العرب كان يزعم أنه سمي بذلك لشدة الحر الذي كان يكون فيه حتى تمرض الفصال. . . وأما قوله {الذي أنزل فيه القرآن} فإنه ذكر أنه أنزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. . ثم أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على ما أراد الله إنزاله عليه. . وأما قوله {هدى للناس} فإنه يعني رشادا للناس إلى سبيل الحق وقصد المنهج، وأما قوله {وبينات} فإنه يعني وواضحات {من الهدى} يعني من البيان الدال على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه وقوله {والفرقان} يعني الفصل بين الحق والباطل؛ {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} يريد إذا أهل وهو مقيم. . . وقال آخرون فمن شهده عاقلا بالغا مكلفا فليصمه، الصحيح من التأويل هو الثالث وهو قول من قال فمن شهد منكم الشهر فليصمه جميع من شهد منه مقيما {ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر}. . ومن كان مريضا أو على سفر في الشهر فأفطر فعليه صيام عدة الأيام التي أفطرها من أيام أخر غير أيام شهر رمضان - ٥٢٧ {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} ما يريد الله تعالى ليجعل علينا في الدين من حرج وإنما يريد ٥٢٨ بنا ما لا يعنتنا ولا يشق علينا يريد الشيء اليسير، واليسر لغة السهولة ومنه اليسار للغنى لأنه يتسهل به الأمور وتتسنى المقاصد والعسر نقيضه - أوجب الصوم على سبيل السهولة لأنه ما أوجب إلا في مدة قليلة من السنة ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض والمسافر وههنا يتحقق صدق قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت بالحنيفية السهلة السمحة). . فيمكن أن يستدل به على عدم وقوع التكليف بما لا يطاق {ولتكملوا العدة} قال ابن زيد كمال العدة أن يصوم ما أفطر من رمضان في سفر أو مرض أن يتمه، فإذا أتمه فقد أكمل العدة؛ {ولتكبروا الله على ما هداكم} هذا كأنه في معنى الطلب أي اذكروا الله شاكرين له أن هداكم لطاعته وإتمام عبادة صوم رمضان كما قال تعالى {فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا.} ٥٢٩ وقال تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله كثيرا لعلكم تفلحون} ٥٣٠ - ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد صلوات المكتوبات. . ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر في هذه الآية {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم} وقوله {ولعلكم تشكرون} أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك- ٥٣١.

١٨٦ - (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

{فليستجيبوا} فليطلبوا إجابتي أو فليجيبوا إلي إذا دعوتهم للإيمان. {يرشدون} يهتدون لما يصلحهم.

{وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان} روى الشيخان وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال (يا أيها الناس اربعوا ٥٣٢ على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله) وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل) قيل يا رسول الله وما الاستعجال قال (يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر كما روي عن عبد الله بن عمر وهو يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم {إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد} ٥٣٣ مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى {فإني قريب} أي بالإجابة وقيل بالعلم وقيل قريب من أوليائي بالإفضال والإنعام. . فإن قيل فما للداعي ٥٣٤ قد يدعو فلا يجاب؟ فالجواب أن يعلم أن قوله الحق في الآيتين {أجيب} و. . {أستجب} لا يقتضي الاستجابة مطلقا. . وقال بعض العلماء أجيب إن شئت كما قال {. . . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ٥٣٥ فيكون هذا من باب المطلق والمقيد {لعلهم يرشدون} قال الهروي الرشد الهدى والاستقامة.

١٨٧ - (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

}الرفث{ الاستمتاع والإفضاء.

}هن لباس لكم{ نسائكم سكن لكم.

}تختانون أنفسكم{ تنقصونها وتحرمونها الثواب.

}باشروهن{ خالطوهن وأفضوا إليهن. }ابتغوا{ اطلبوا.

}ما كتب{ ما قدر }الخيط الأبيض{ أول ما يظهر من البياض والضوء المستعرض في الأفق عند طلوع الصبح.

}حدود الله{ الأحكام التي تحجز بين الحلال والحرام.

}فلا تقربوها{ فلا تتعرضوا لها بالتغيير.

}أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن{ (هذه رخصة من الله للمسلمين ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. . }هن لباس لكم وأنتم لباس لهن{ قال ابن عباس يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن. . ولفظ البخاري عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله }علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم{. . }فالآن باشروهن{ يعني جامعوهن }وابتغوا ما كتب الله لكم{ يعني الولد. . واختار ابن جرير أن الآية أعم. . . }وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل{ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح ٥٣٦ من سواد الليل وعبر من ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ورفع اللبس بقوله }من الفجر{) ٥٣٧ روى البخاري عن سهل بن سعد قال كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد }من الفجر{ فعلموا أنما يعني الليل والنهار وأخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال لما نزلت }حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود{ عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر من الليل فلا يستبين لي فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له، فقال: (إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار) وفي رواية للبخاري قال أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبح قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت تحت وسادتي خيطا أبيض وخيطا أسود قال (إن وسادك لعريض ٥٣٨ أن كان الخيط الأبيض والخيط الأسود تحت وسادك) وفي أخرى له قال قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ قال (إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين) ثم قال (لا بل هما سواد الليل وبياض النهار) ٥٣٩ وأمر الله تعالى في الآية الكريمة }باشروهن وابتغوا{ و }كلوا{ و }اشربوا{ ليس للوجوب وإنما يدل على الاستحباب وقد بينت ذلك السنة المطهرة ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تسحروا فإن السحور بركة) ويستحب تأخير السحور كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت قال تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت لزيد كم كان بين الآذان والسحور قال قدر خمسين آية وفي صحيح مسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (لا يغرنكم من سحوركم آذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى ٥٤٠ يستطير هكذا) وحكاه حماد ٥٤١ بيديه قال يعني معترضا ٥٤٢. [ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنبا فليغتسل وليتم صومه فلا حرج عليه وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفا وخلفا لما رواه البخاري ومسلم من حديث

عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح جنبا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي وقوله تعالى {ثم أتموا الصيام إلى الليل} يقضي الإفطار عند غروب الشمس كما جاء في الصحيحين (إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم) وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)، ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل يوما يوم آخر ولا يأكل بينهما شيئا، روى البخاري ومسلم وغيرهما- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تواصلوا) قالوا يا رسول الله إنك تواصل قال (فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني) قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم يومين وليلتين ثم رأوا الهلال فقال (لو تأخر الهلال لزدتكم) كالمنكل لهم. . وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر) قالوا فإنك تواصل يا رسول الله قال (إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني) أخرجاه في الصحيحين. . {ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} أي لا تقربوهن مادمتم عاكفين في المسجد لا في غيره. . . المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفا في مسجده ولو ذهب إلى منزله في حاجة لابد له منها فلا يحل له فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. . وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام كما ثبت في السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي صلى الله عليه وسلم وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلا، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا [وفي رواية] تواريا أي حياء من النبي صلى الله عليه وسلم لكون أهله معه فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم (على رسلكما إنها صفية بنت حيي) أي لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيي أي زوجتي فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا أو قال شرا) قال الشافعي رحمه الله أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها لئلا يقعا في محذور وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا والله أعلم. . {تلك حدود الله} أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه {حدود الله} أي شرعها الله وبينها بنفسه {فلا تقربوها} أي لا تجاوزوها وتتعدوها. . {كذلك يبين الله آياته للناس} أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم {للناس لعلهم يتقون} أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون كما قال تعالى {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم} ٥٤٣] ٥٤٤.

١٨٨ - (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون}

{لا تأكلوا} قد يراد به لا تأخذوا ولا تستولوا

{بالباطل} في اللغة الذاهب الزائل واتباع اللهو وإبليس كما في الآية الكريمة {لا يأتيه الباطل} إبليس لا يزيد في القرآن ولا ينقص. والشرك كما في قوله تعالى {ويمح الله الباطل} والبطلة السحرة. وفي الشرع كل ما لم يؤذن بأخذه فهو باطل وحرام كالسرقة والغصب والرشوة ونحوها. {تدلوا} الأصل فيه إرسال الحبل في البئر ثم استعير للتوصل إلى الشيء. {فريقا} قطعة وجملة {بالإثم} بما وقع في

الذنب كالزور والخيانة.
نهى الله تعالى عن أخذ الأموال والاستيلاء عليها أو الأكل أوالانتفاع بها إن كانت مما لم يأذن به شرع الله كما نهى سبحانه عن الإدلاء بالأموال إلى الحكام رشوة أو إلقاء أمر الأموال المتنازع عليها وإسناد ذلك تحاكما إليهم بغية اقتطاع شيء من أموال الغير بغيا بشهادة زور أو بيمين كاذبة أو بصلحن مع العلم بأن المقضى له ظالم، والفرق بين الوجهين أن الحكام على الأول حكام السوء الذين يقبلون الرشا، فبها يصير المقصود البعيد قريبا، وإذا أخذها حاكم السوء مضى في الحكم من غير ثبت. . وعلى الثاني قد يكون الحاكم عادلا ولكن قد يشتبه عليه الحق ٥٤٥؛ روى البخاري ومسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال (إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها) {وأنتم تعلمون} أنكم على الباطل وارتكاب المعاصي مع العلم بقبحها أقبح وهذا أشد لعقابهم.

١٨٩ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون}.

{الأهلة} جمع هلال وهو ما يبدو من القمر في أول الشهر
{مواقيت} يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها
{البر} فعل الخير وما يتقرب به إلى الله تعالى.

أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها} وفي رواية لهما ٥٤٦ قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله {ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها}؛ مما أورد أبو جعفر في معنى مفتتح الآية قل يا محمد خالف بين ذلك ربكم لتصييره الأهلة التي سألتم عن أمرها ومخالفة ما بينها وبين غيرها فيما خالف بينها وبينه مواقيت لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستسرارها وإهلالكم إياها أوقات حل ديونكم وانقضاء مدة إجارة من استأجرتموه وتصرم عدة نسائكم ووقت صومكم وإفطاركم فجعلها مواقيت للناس وأما قوله {والحج} فإنه يعني وللحج يقول وجعلها أيضا ميقاتا لحجكم تعرفون بها وقت مناسككم وحجكم؛ {ولكن البر من اتقى} كأن في الكلام حذفا والتقدير ولكن البر من اتقى فخافه وأطاعه أو اتقى المحارم والفواحش والمنكرات.

١٩٠ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

{في سبيل الله} في طريق مرضاته ووفاء بأمانات دينه.
{لا تعتدوا} لا تتجاوزوا.

هذا أمر الله تعالى أن يحاربوا ويقاتلوا من يتهيأ لقتالهم أومن يتصدى لحربهم. والخطاب لجميع المسلمين لأن قوله {الذين يقاتلونكم} إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله؛ أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم- ٥٤٧ وفي صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع ({ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} [لا تعتدوا بقتال من نهيتم عن قتالهم غير المستعدين كالنساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد، أو بالمثلة والمفاجأة من غير دعوة الإسلام. . {إن الله لا يحب المعتدين} المتجاوزين عما شرع

الله لهم] ٥٤٨ عن ابن عباس يقول (لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلم وكف يده فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم) اهـ. مما يقول علماء الأحكام. وللمرأة آثار عظيمة في القتال منها الإمداد بالأموال ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن غير أنهن إذا حصلن في الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال؛ والرهبان لا يقتلون ولا يسترقون بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم؛ وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر لقول أبي بكر لزيد ٥٤٩: وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له؛ والشيوخ من الكفار لا يقتلون إن كانوا لا يطيقون القتال ولا ينتفع بهم في رأي، وأما مما كان تخشى مضرته بالحرب أو الرأي أو المال فهذا إذا أسر يكون الإمام فيه مخيرا بين خمسة أشياء: القتل أو المن أو الفداء أو الاسترقاق أو عقد الذمة على أداء الجزية؛ والعسفاء ٥٥٠ لا يقتلون، قال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب. اهـ.

١٩١ - (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

{الفتنة} الاختبار. أو العذاب أو الكفر {ثقفتموهم} صادفتموهم.

{واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل} في هذه الآية الكريمة زيادة في التكليف على ما في سابقتها فكان في الأولى الأمر بالجهاد معهم حيثما صادفناهم ووجدناهم وأدركناهم وأمر بإخراج أعداء الإسلام من مكة حيث أخرجوا أهل الإيمان السابقين الأولين منها والفتنة في الدين أشد من قتل من فعلوها أو أشق على نفوس المعروضين على الفتنة من أن يقتلوا فيستريحوا وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركا بالله من بعد إسلامه أشد عليه وأضر من أن يقتل مقيما على دينه.

. - ٥٥١ مما قال مجاهد فالقتل أخف عليه من الفتنة وقال غيره شركهم بالله وكفرهم به أعظم جرما وأشد من القتل الذي عيروكم به وهذا دليل على أن الآية في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله بن واقد بن عبد الله التميمي في آخر يوم من رجب الشهر الحرام؛ وسيأتي مزيد تفصيل لما حدث في سرية عبد الله بن جحش حين نعرض إن شاء الله لتفسير قول ربنا الحكيم {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه} الآية ٢١٧. من سورة البقرة.

{ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين} روى البخاري ومسلم ٥٥٢ في صحيحهما عن أبي شريح العدوي رضي الله عنه حديثا ومنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجرة فإن أحدا ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ليبلغ الشاهد الغائب) ومن رواية ابن عباس فيهما (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. .) وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا يحل لأحدكم أن يحمل السلاح بمكة) ٥٥٣ قال مجاهد الآية محكمة ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل وقال قتادة الآية منسوخة ٥٥٤ بقوله تعالى {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} ٥٥٥.

لكن إن قاتلنا عدو عند المسجد الحرام وجب قتاله؛ مما يقول بن خويز منداد: الإجماع قد تقرر بأن عدوا لو استولى على مكة وقال: لا أبرح من مكة لوجب قتاله وإن لم يبدأ بقتال، فمكة وغيرها من البلاد سواء.

١٩٢ - (فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{انتهوا} عن الفتنة أو عن القتال أو عن الكفر

{فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم} لكأن معنى هذه الآية يقارب معنى قول مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {قل للذين كفروا إن

ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} ٥٥٦ أي فإن انتهوا عن كفرهم فلا قتال بينكم وبينهم وسيتجاوز الله عن آثامهم وأوزارهم وما كان من شر فعلوه في حال كفرهم.

١٩٣ - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ)

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين} هذا أمر بالقتال معطوف على سابقه لكن لعل ذلك لوجوب أصل القتال وهذا لبيان غايته فإن عاد أهل الغي والضلال إلى سبيل الرشد والهدى ودخلوا في الدين المرتضى فأسلموا فلا تعتدوا عليهم لأن الإسلام عصم دماءهم وأموالهم وآخى بينكم وبينهم فعليهم ما عليكم ولهم ما لكم.

١٩٤ - (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

{الشهر الحرام} جنس الشهر الذي حرم الله تعالى القتال فيه

{فاعتدوا} فردوا عدوانه

{الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} - سبب نزولها ما روي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد ومقسم والسدي والربيع والضحاك وغيرهم قالوا نزلت في عمرة القضية وعام الحديبية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا حتى بلغ الحديبية في ذي القعدة سنة ست فصده المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف ووعده الله سبحانه أنه سيدخله فدخله سنة سبع وقضى نسكه فنزلت هذه الآية. . .

{والحرمات قصاص}. . وإنما جمعت الحرمات لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام والحرمة ما منعت من انتهاكه، والقصاص المساواة. . {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} عموم متفق عليه إما بالمباشرة إن أمكن وإما بالحكام. . . ولا يحل لأحد أن يقتص من أحد إلا بإذن السلطان - ٥٥٧ وسمي جزاء المعتدى عدوانا للمشاكلة، كما في قول الله عز وجل شأنه {وجزاء سيئة سيئة مثلها} ٥٥٨ فإن جزاء المسيء حق وعدل لا إساءة فيه وإنما جعلت مقابلتها بما يساوي سيئة مشاكلة ٥٥٩، {واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين} أمر بطاعة الله تعالى وتقواه لنتقيه سبحانه في الإفراط والتفريط وفي الانتصار لأنفسنا وترك الاعتداء بما لم يرخص لنا فيه، وبشرى بأنه جل وتقدس مع الذين يتقونه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه معنا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

١٩٥ - (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

{أنفقوا} اصرفوا المال في المصالح

{التهلكة} الهلاك. {المحسنين} الذين يعبدون الله كأنهم يرونه.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} روى البخاري ٥٦٠ عن حذيفة قال نزلت في النفقة أي لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة ٥٦١ وسبيل الله هنا الجهاد واللفظ يتناول بعد جميع سلبه قال المبرد {بأيديكم} بأنفسكم فعبر بالبعض عن الكل كما جاء في قول ربنا تبارك اسمه {ذلك بما قدمت يداك} ٥٦٢ وقال الزجاج وغيره التقدير لا تلقوا أنفسكم بأيديكم كما تقول لا تفسد حالك برأيك أي لا تأخذوا فيما لا يهلككم أي إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم.

{وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} أمر بالإحسان وهو أعلى مقاما ت الطاعة كما جاء في الحديث الصحيح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام إذ جاءه يسأله عن أمور -تعليما للأمة-: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وربما يكون معنى الأمر أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم ما تنفقونه في سبيله تعالى تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه وبشرى للمحسنين بأنه وهو الشكور يحب من أحسن في كل شأن تيسر له واستصحب الإتقان في كل ما يقول ويعمل، استجابة لهدى الكتاب العزيز {. . . وأحسن كما أحسن الله إليك} ٥٦٣.

١٩٦ - (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إتمام أفعالها بعد الشروع فيهما ولهذا قال بعده {فإن أحصرتم} أي صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامها ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم. . . وعن سفيان الثوري أنه قال إتمامها أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريبا من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره. . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع مرات عمر كلها في ذي القعدة: عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ ه، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة ٧ ه، وعمرة الجعرانه في ذي القعدة سنة ٨ ه وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معا في ذي القعدة سنة ١٠ ه، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ولكن قال لأم هانئ (عمرة في رمضان تعدل حجة معي) وما ذلك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط في الحديث عن البخاري ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها والله أعلم- ٥٦٤ وفي الصحيح أن النبي صلوات الله عليه وسلامه جمع بين الحج والعمرة وأمر من معه هدي من أصحابه أن يهل بهما معا؛ {فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي}، والإحصار المنع والحبس؛ والهدي ما يهدى إلى البيت الحرام من نعم ليذبح عنده قال الحسن: أعلا الهدى بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة وعن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال الله تعالى {فإذا أمنتم} فليس الأمن حصرا؛ وعن ابن مسعود وغيره الإحصار من عدو أو مرض أو كسر، زاد بعضهم أو ضلالا وهو التوهان عن الطريق وفي الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية فقال (حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني) والجمهور على أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه إن كان ثم ٥٦٥ هدي ويحلق رأسه أما المحصر بمرض فلا يحله إلا الطواف بالبيت وعند مالك وأصحابه يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعرفة لمرضه إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتحلل بعمرة وإن أقام على إحرامه إلى قابل، وإن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نهي عنه الحاج فلا هدي عليه والعلماء مختلفون في وجوب القضاء على من أحصر.

{ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله} - معطوف على قوله {وأتموا الحج والعمرة لله}. . لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حالة الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق {حتى يبلغ الهدي محله} ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنا أو من فعل أحدهما إن كان مفردا أو متمتعا كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك فقال (إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر) - ٥٦٦

{فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك} روى البخاري عن عبد الله بن معقل قال قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال: حملت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي فقال (ما كنت أرى أن الجهد بلغ هذا أما تجد شاة} قلت: لا، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع واحلق رأسك) فنزلت في خاصة وهي لكم عامة؛ {فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي} فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعا بالعمرة إلى الحج فليذبح ما قدر عليه من الهدي وأقله شاة وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية المتعة ٥٦٧ في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء، قال البخاري: يقال إنه عمر وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله {وأتموا الحج والعمرة لله} - وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرما لها إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضي الله عنه - ٥٦٨

{فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة} مما روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله)، {ذلك} [قيل: هي راجعة إلى التمتع فتدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه قالوا ومن تمتع منهم كان عليه دم وهو دم جناية لا يأكل منه وقيل إنها راجعة إلى الحكم وهو وجوب الهدي والصيام فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام كما يقوله الشافعي ومن وافقه] ٥٦٩، {واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب} - واتقوا الله في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه. . . ويدخل فيه الحج دخولا أوليا وبه يتم الانتظام {واعلموا أن الله شديد العقاب} لمن لم يتقه أي. . . استحضروا ذلك لتمتنعوا عن العصيان- ٥٧٠

١٩٧ - (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

{الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} كأن: المعنى أشهر الحج أشهر معلومات هن شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن ألزم نفسه في هذه الأشهر أن يحج وعزم على ذلك قطعا فلا يكونن منه رفث ولا فسوق ثم أخبر بانتفاء الجدال أي لا شك ولا خلاف في الحج، إذ قد ارتفع الخلاف الذي كان يحدثه النسئ؛ قال البخاري قال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة؛ قال عبد الله بن عمر الرفث إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذ ذكروا ذلك بأفواههم وعن ابن عباس الفسوق المعاصي أو السباب ويشهد لهذا ما جاء في الصحيح (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ورجح ابن كثير رأي القائلين هو جميع المعاصي كما نهى الله تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهيا عنه إلا أنه في الأشهر الحرم آكد- ولهذا قال {. . . منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم} ٥٧١ وقال في الحرم {. . . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم} ٥٧٢.

{ولا جدال في الحج} عن عبد الله بن مسعود قال أن تماري صاحبك حتى تغضبه {وما تفعلوا من خير يعلمه الله} [لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا وفعلا حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم بهم وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} عن عكرمة أن أناسا كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}.

[لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا فأرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها وقوله {واتقون يا أولي الألباب} يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام] ٥٧٣.

١٩٨ - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ)

روى البخاري عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم} في مواسم الحج ما عليكم من إثم في أن تطلبوا مزيدا من رزق الله أثناء حجكم ٥٧٤ ولا ينقص هذا من أجركم، وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة قال الله تعالى {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. } ٥٧٥.

{فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم} فإذا دفعتم بكثرة من المكان المعلوم المكرم وعدتم من

حيث بدأتم وكرتم راجعين نحو البيت فيما بين عرفة ومنى فصلوا وادعوا عند المشعر الذي بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة على محسر وليس مأزما عرفة من المشعر، وعن إبراهيم قال رأى ابن عمر الناس يزدحمون على الجبيل بجمع أي بمزدلفة فقال يا أيها الناس إن جمعا كلها مشعر وعن سعيد ابن جبير: المشعر الحرام ما بين المزدلفة فعرفة كلها موقف إلا عرنة ومزدلفة كلها مشعر إلا وادي محسر. {واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين} وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره والطاعة له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق لما وفقكم له من سنن إبراهيم خليله بعد الذي كنتم فيه من الشرك والحيرة والعمي عن طريق الحق وبعد الضلالة، كذكره إياكم بالهدى حتى استنقذكم من النار به بعد أن كنتم على شفا حفرة منها فنجاكم. . .

١٩٩ - (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} وذلك أن قريشا ومن ولدته قريش كانوا يقولون لا نخرج من الحرم فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعرفة معهم فأمرهم الله بالوقوف معهم، في صحيح مسلم عن عائشة قالت: الحمس ٥٧٦ هم الذين أنزل الله فيهم {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} قالت كان الناس يفيضون من عرفات وكان الحمس يفيضون من المزدلفة يقولون لا نفيض إلا من الحرم فلما نزلت {أفيضوا من حيث أفاض الناس} رجعوا إلى عرفات، وروى البخاري عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله {من حيث أفاض الناس} والمراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار وعلى هذا تكون {ثم} في الآية الكريمة على بابها للترتيب مع التراخي، أما إذا كان المراد المعنى الأول وأن المراد الإفاضة من عرفات فتكون ثم لعطف جملة على جملة ولا يراد منها الترتيب. {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} طلب العفو والصفح والغفران من ربنا البر الولي الكريم قربة وعبادة حضنا عليها الذكر الحكيم وجعلها مما يتضرع به أهل القبول والرضوان {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا} ٥٧٧. وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم). ورويا -رحمهما الله- عن عائشة رضي الله عنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد إذ أنزلت {إذا جاء نصر الله والفتح} إلا قال (سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي).

٢٠٠ - (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ)

{فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا} فإذا أتممتم شعائر حجكم وما به تتقربون من مناسك لله ربكم فأكثروا من ذكر مولاكم أكثر من ذكركم لآبائكم إذ هو سبحانه أهل أن يذكر فلا ينسى وقد عهد إلينا جل ثناؤه أن تلهج الألسن بتعظيمه وتمجيده فنادانا في محكم كتابه {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا} ٥٧٨ وأعد لمن ذكره كثيرا ٥٧٩ من ذكر أو أنثى الجزاء الأوفى {. . . والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٥٨٠، كما بين الصادق المصدوق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رفعة قدر الذاكرين ففي صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله، قال الله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا الله ما أجلسنا غيره، قال أما إني لا أستحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديث مني، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال (ما أجلسكم) قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا من الإسلام ومن به علينا قال الله ما أجلسكم إلا ذلك الله ما أجلسنا إلا ذلك قال (أما إني ما أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة) قال قتادة كان أهل الجاهلية إذ قضوا مناسكهم بمنى قعدوا حلقا فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم، به يخطب خطيبهم ويحدث محدثهم فأمر الله عز وجل

المسلمين أن يذكروا الله كذكر أهل الجاهلية آبائهم أو أشد ذكرا، وقيل جرى ذكر الآباء مثلا لدوام الذكر والمعنى كما أن الرجل لا ينسى ذكر أبيه فكذلك يجب ألا يغفل عن ذكر الله، وعن ابن عباس معنى الآية أن تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك لوالدك إذا ذكر بسوء وعلى جميع الوجوه فمعنى {أو} ههنا ليس التشكيك وإنما المراد به النقل عن شيء إلى ما هو أقرب وأولى. . . وإنما أمر الله تعالى أن يكون ذكره أشد لأن مفاخر آبائهم متناهية وصفاته الكمالية غير متناهية وتلك مشكوكة وهذه متيقنة وغاية الأول تضييع وحرمان، ولازم الثاني نور وبرهان- ٥٨١.

{فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق} نقل عن السدي قال: كانت العرب إذا قضت مناسكها وأقاموا بمنى يقوم الرجل فيسأل الله ويقول اللهم إن أبي كان عظيما الجفنة، عظيم القبة كثير المال فأعطني مثل ما أعطيت أبي ليس يذكر الله، إنما يذكر آباءه ويسأل أن يعطى في الدنيا وهذا نهي عن الدعاء المخصوص بأمر الدنيا وإن جاء في صيغة الخبر عنهم والخلاق النصيب؛ [ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضا إذا قصر دعواته في الدنيا وعلى هذا ف {ما له في الآخرة من خلاق} أي نخلاق الذي يسأل الآخرة

٢٠١ - (وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

{ومنهم} أي من الناس وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة. . .

٢٠٢ - (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{أولئك لهم نصيب مما كسبوا} هذا يرجع على الفريق الثاني فريق الإسلام أي لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء فإن دعاء المؤمن عبادة. . .

{والله سريع الحساب} لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إعمال فكر كما يفعله الحساب، قال الحسن حسابه أسرع من لمح البصر. .

.] ٥٨٢، روى البخاري عن أنس بن مالك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة.

٢٠٣ - (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

{واذكروا الله} أي بالتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمار يكبر مع كل حصاة.

{في أيام معدودات} هي أيام التشريق -ثلاثة أيام بعد النحر- والتكبير المقيد. . . يستحب في الأضحى، وتقييده هو أن يؤتى به في أدبار الصلوات خاصة واختلفوا في ابتدائه وانتهائه. . والقول الرابع يبتدأ به في صلاة الفجر يوم عرفة ويقطع بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو قول أكابر الصحابة كعمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم. . كما روى ابن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصبح يوم عرفة ثم أقبل علينا وقال الله أكبر ومد التكبير إلى العصر من آخر أيام التشريق ٥٨٣. . .

{فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه}. . . رفع الحرج في الاستعجال والتأخر دلالة على أن الحاج مخير بين الأمرين أو بأن أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من يجعل التعجل إثما ومنهم من يجعل المتأخر آثما مخالفا لسنة الحج فبين الله تعالى أن لا إثم على كل واحد منهما. . .

{لمن اتقى} أي ذلك التخيير ونفي الإثم عن التعجل والتأخر لأجل الحاج المتقي كيلا يتخالج في قلبه إثم منها فإن ذا التقوى متحرز من كل ما يريبه. . .

{واتقوا الله} أي: فيما يستقبل، فيه حث على ملازمة التقوى فيما بقي من عمره وتنبيه على مجانبة الاغترار بالحج السابق، كما أن قوله {واعلموا أنكم إليه تحشرون} توكيد للأمر بالتقوى وبعث على التشدد فيه لأن الحشر وهو اسم يقع على ابتداء خروج الناس من الأجداث إلى انتهاء الموقف يوجب تصوره لزوم سيرة الانتقاء عن ترك الواجبات وفعل المحظورات؛ والمراد من قوله {إليه} أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ ولا مستعان إلا هو {يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله} ٥٨٤ - ٥٨٥.

٢٠٤ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)
في آيات كريمات سبقت بين الكتاب العزيز حال أهل التقى والرشد والبر وفي هذه الآيات الثلاث حذر المولى سبحانه من سبيل أهل النفاق والغي والبغي، وقد عرفنا الله الخبير العليم من خلقهم الذي يرى في أرجاس ستة: الأول حسن كلامه في طلب الدنيا، الثاني استشهاده بالله كذبا وبهتانا، الثالث اللجاجة في إبطال الحق وإثبات الباطل، الرابع سعيه في الأرض للإفساد، الخامس السعي في إهلاك الحرث والنسل، السادس حمية الجاهلية.
{يعجبك} يروقك ويعظم في نفسك
{ألد الخصام} أشد الخصوم خصومة
٢٠٥ - (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠٤ إظهار
{تولى} أدبر وأعرض قاله الحسن أو غلب وصار وليا قاله الضحاك
{سعى} أسرع وعمل وقصد. {الحرث} الزرع
{النسل} كل ذات روح.
{لا يحب الفساد} لا يرضى به.
٢٠٦ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠٤ إظهار
{أخذته العزة} أحاطت به الأنفة.
{بالإثم} بسبب إقامته على الذنب.
{فحسبه} كافيه عقوبة. {المهاد} الفراش.
{وإذا قيل له اتق الله} في ارتكاب شيء من هذه المنهيات [والقائل إما الرسول صلى الله عليه وسلم قولا خاصا أو عاما لجميع المكلفين فيدخل المنافق فيه وإما كل واعظ وناصح {أخذته العزة بالإثم} أي أخذته الغلبة والاستيلاء والأنفة وحمية الجاهلية أن يعمل الإثم وذلك الإثم هو ترك الالتفات إلى هذا الوعظ وعدم الإصغاء إليه أو من قولهم أخذته الحمى أي لزمته وأخذه الكبر أي اعتراه ذلك لمعنى لزمته غرة العزة الحاصلة بسبب الإثم الذي في قلبه، وذلك الإثم هو الكفر والجهل وعدم النظر في الدلائل {فحسبه جهنم} كافية هي جزاء له. . سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب والعقاب {ولبئس المهاد} أي ما يمهد لأجله] ٥٨٦.
٢٠٧ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)
{يشري} يبيع
{ابتغاء مرضاة الله} طلبا لرضاه سبحانه.
{رؤوف} كثير الرفق والبر بهم.
{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله} وبعد التحذير من سبيل المجرمين الذين يقولون ما لا يفعلون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ولا يرقبون إلا ولا ذمة في مال أو دماء لقوم يؤمنون، وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا دعوا إلى الحق تولوا وهم معرضون مستكبرون، جاءت الآية المباركة بعد الثلاث السابقة تدعوا إلى الهدى والصراط المستقيم وتشكر لمن بذل نفسه مجاهدا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر طالبا لرضوان مولانا البر الرحيم؛ {والله رؤوف بالعباد} [فمن رأفته جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل. . . ومن رأفته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب ولو في لحظة أسقط عقابه وأعطى ثوابه ومن رأفته أن النفس له والمال له ثم إنه يشتري ملكه بملكه فضلا منه وامتنانا ورحمة وإحسانا] ٥٨٧.
٢٠٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)
{السلم} يعني الإسلام. {كافة} عامة جميعا.

{خطوات الشيطان} أعماله ومعاصيه. {مبين} مظهر.

لكأن هذه دعوة إلى الثبات على الإسلام والوفاء بأماناته كافة ٥٨٨ والحذر من متابعة الشيطان والانقياد لوسواسه -يا أيها الذين آمنوا بالألسنة والقلوب دوموا على الإسلام فيما تستأنفونه من أيامكم ولا تخرجوا منه ولا من شيء من شرائعه {ولا تتبعوا خطوات الشيطان} لا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أهل الغواية، والكائن في الدار إذا علم أن له في المستقبل خروجا منها لا يمتنع أن يؤمر بدخولها في المستقبل حالا بعد حال. . . أو أمرهم بأن يكونوا مجتمعين في نصرة الدين واحتمال البلوى فيه، ولا تتبعوا آثار الشيطان بالإقبال على الدنيا والجبن والخور في أمر الدين مثل {. . ولا تنازعوا فتفشلوا. } ٥٨٩ - ٥٩٠؛ {إنه لكم عدو مبين} حذرنا البر الرحيم الخلاق العليم من إبليس اللعين وقبيله إنسا وجنا فإنهم يدعون إلى الخسار والبوار وعذاب النار وقد أخذوا على أنفسهم أن يضلوا من انخدع بوسوستهم ضلالا بعيدا وإبليس حلف ليغوين البشر أجمعين إلا عباد الله المخلصين.

٢٠٩ - (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

{زللتم} أخطأتم. {عزيز} ذو عزة لا يمانع ولا يدافع.

{فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم} [فإن أخطأتم الحق فضللتم عنه وخالفتم الإسلام وشرائعه من بعدما جاءتكم حججي وبينات هداي واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون فاعلموا أن الله ذو عزة لا يمنعه من الانتقام منكم مانع ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع {حكيم} فيما يفعل بكم من عقوبة على معصيتكم إياه بعد إقامة الحجة عليكم، وفي غيره من أموره] ٥٩١.

٢١٠ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

{ينظرون} ينتظرون. {الغمام} السحاب.

{قضي الأمر} فرغ منه.

{هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله} ما ينتظرون إلا أن يجيئهم المولى سبحانه فالاستفهام ب {هل} هنا قد يراد بها النفي {ينظرون} بمعنى ينتظرون وقيل: المأتي به محذوف. والمعنى إلا أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته وفائدة الحذف كونه أبلغ في الوعيد لانقسام خواطرهم وذهاب فكرتهم في كل وجه؛ اليهود كانوا على اعتقاد التشبيه ويجوزون المجيء والذهاب على الله تعالى ويقولون إنه تعالى تجلى لموسى عليه السلام على الطور في ضلل الغمام فطلبوا مثل ذلك في زمن محمد صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يكون الكلام حكاية عن معتقد اليهود ولا يبقى إشكال فإن الآية لا تدل إلا على أن قوما ينتظرون إتيان الله وليس فيها دلالة على أنهم محقون في ذلك الانتظار أم مبطلون - ٥٩٢. ومما أورد صاحب الجامع ٥٩٣ لأحكام القرآن: {هل ينظرون} يعني التاركين للدخول في السلم و {هل} يراد بها هنا الجحد. . وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام ومن الملائكة وكما أنه سبحانه أحدث فعلا سماه نزولا واستواء كذلك يحدث فعلا يسميه إتيانا، وأفعاله بلا آلة ولا علة سبحانه؛. . . ولا يجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مما جاء في القرآن والخبر على وجه الانتقال والحركة والزوال لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام، تعالى الكبير المتعال ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام علوا كبيرا، والغمام السحاب الرقيق الأبيض سمي بذلك لأنه يغم أي يستر.

{وقضي الأمر}. . . وقع الجزاء وعذب أهل العصيان. . {وإلى الله ترجع الأمور} والأمور كلها راجعة إلى الله قبل وبعد وإنما نبه بذكر ذلك يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا. اهـ.

٢١١ - (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{آية بينة} دلالة وعلامة ظاهرة وواضحة مظهرة.

{سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة} اسأل أبناء يعقوب عليه السلام والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل واحد وهو السؤال سؤال تقريع فكم من علامة وبرهان تقوم بها الحجة والسلطان على وجه اليقين والإيمان والتصديق والإذعان لحقائق دين

الإسلام أنزلنا هذه العلامات الواضحات على أنبياء بني إسرائيل فمنهم من صدق ما جاءت به الأنبياء ومنهم من جحد وحرف {ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب} فتحريف ما نزل من الحق وكتمانه وتبديلهم الهدى من بعد ما عقلوه استوجبوا بها حلول عذاب الله بهم جزاء لهم على جرمهم ومهما كان سبب النزول فإن الوعيد يتناول كل نعمة أنعم الله تعالى بها على عبد من عباده كائنا من كان فوقع منه التبديل لها وعدم القيام بشكرها.

٢١٢ - (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

{يسخرون} يضحكون مستهزئين.

{زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة} خلق الله تعالى الكون وأودعه زينة وجمالا وبهجة وزخرفا فأما البررة العقلاء السعداء فإنهم يستمتعون بالزينة الطيبة الحلال ويترقبون أبرك وأدوم منها حيث يردون على مولانا ذي الإكرام الجلال لكن الكفرة والفجرة الأشقياء تستعبدهم الشهوات والزخارف والأهواء حتى يظنوا أنها مخلدتهم ويحسبوا أنه لا بعث ولا جزاء.

{ويسخرون من الذين آمنوا} جملة في موقع الحال فهم مع كونهم لا يرجون لقاء الله يهزؤون ممن اهتدى بهداه وقد فصل تمادي المستهزئين في آيات من كتاب الله: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} ٥٩٤. بل لقد سخروا -عليهم لعنة الله- من صفوة البشر محمد خاتم الأنبياء كما أخبره مولاه جل علاه {وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا} ٥٩٥.

{والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة} إما بالمكان وذلك لأنهم يكونون في عليين والكفار والذين أجرموا في سجين، وإما بالرتبة فإن المتقين في جنات ونهر {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٥٩٦. والذين كفروا في الذل والخزي والعذاب المهين {. . ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٩٧.

{والله يرزق من يشاء بغير حساب} يرزق من يشاء من مؤمن وكافر بغير حساب يكون لأحد عليه ولا مطالبة، ولا سؤال سائل، فالأمر أمره والحكم حكمه ولا يسأل عما يفعل. . ويحتمل أن يخص الرزق في الآية بالمؤمنين في الآخرة وعلى هذا يكون معنى {بغير حساب} أي رزقا واسعا وغذاء لا فناء له ولا انقطاع ولا حصر كقوله: {. . . يرزقون فيها بغير حساب} ٥٩٨ - ٥٩٩.

٢١٣ - (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{مبشرين} مخبرين بحسن مآب الأتقياء.

{منذرين} محذرين من سوء عاقبة الأشقياء. {بغيا} ظلما وتعديا.

{صراطا} طريق.

{كان الناس أمة واحدة} يمكن أن يكون هذا خبرا عن البشر بعد الطوفان الذي أهلك الله تعالى به من كذب رسوله نوحا عليه الصلاة والسلام فقد عمر الأرض إذ ذاك أهل الإيمان على قلتهم لكنهم كانوا متوحدين على الحق.

{فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين} لعل هنا محذوفا تقديره: فاختلفوا فبعث الله النبيين إذ بعد موت نوح عليه السلام دب الخلاف في الناس فمنهم من آمن ومنهم من كفر فأرسل الله تعالى الرسل تدعو إلى التوحيد والإسلام الذي دعا إليه نوح وبشروا من آمن بالخير وحسن المآب وجزيل الثواب وأنذروا من كفر بالخزي والهزيمة وأليم العذاب.

{وأنزل معهم الكتاب} مع ما حملت الرسل عن الله من تبشير وإنذار أوحي إليهم من كتب ربنا ما شاء أن ينزله سبحانه عليهم أو ما وصاهم به من الدعوة إلى كتب إخوانهم النبيين {بالحق} فإن إنزال الكتب يكون متلبسا بالحق شاهدا به كما قال ربنا في محكم القرآن {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل. } ٦٠٠.

{ليحكم بين الناس} [علة للإنزال المذكور أوله وللبعث وهذا البعث المعلل هو المتأخر عن الاختلاف فلا يضر تقدم بعثة آدم أي {فيما اختلفوا فيه} في الحق الذي اختلفوا فيه. . . {وما اختلف فيه} أي في الحق بأن أنكروه وعاندوه أو في الكتاب المنزل متلبسا به بأن حرفوه وأولوه بتأويلات زائغة والواو حالية، {إلا الذين أوتوه} أي الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف وإزاحة الشقاق، أي: عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل مزيحا للاختلاف سببا لرسوخه واستحكامه. . . وقيل عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم، ولأن غيرهم تبع لهم؛ {من بعد ما جاءتهم البينات} أي رسخت في عقولهم الحجج الظاهرة الدالة على الحق وفيه إيذان بتمكنهم من ذلك وبلوغهم الغاية القصوى فيه. . . ومنشأ ذلك مزيد حرصهم في الدنيا وتكالبهم عليها {فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه} أي بأمره أو بتوفيقه وتيسيره و {من} بيان {لما} والمراد: للحق الذي اختلف الناس فيه -فالضمير عام شامل للمختلفين السابقين واللاحقين وليس راجعا إلى {الذين أوتوه} كالضمائر السابقة والقرينة على ذلك عموم الهداية للمؤمنين السابقين على اختلاف أهل الكتاب واللاحقين بعد اختلافهم] ٦٠١.

{والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} يسدد مولانا سبحانه ويرشد من شاء من عباده إلى سبيل الحق الذي لا يضل سالكه ويعرفه ما يتوصل به إلى سعادة الدارين ويثبته على الحق والصواب والطريق التي لا اعوجاج فيها في الصحيحين صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي ويقول (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل مالك السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

٢١٤ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

{خلوا} مضوا. {البأساء} البلايا في الأموال.

{الضراء} المصائب في الأبدان. {زلزلوا} خوفوا.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} أظننتم أن تدركوا نعيم الآخرة وثوابها دون أن تختبروا كما اختبر الذين من قبلكم من أتباع الأنبياء؟ كلا فإن سنة الله تعالى في السابقين والتي لا تحول إلى يوم الدين أن يبتلى من ينتسب إلى الإيمان ليميز الخبيث من الطيب وهذا كقول المولى تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} ٦٠٢، وقوله جل ثناؤه {ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين} ٦٠٣، وكما في الآية الكريمة {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم} ٦٠٤، يقول اللغويون: {أم} هنا منقطعة بمعنى بل و {حسبتم} تطلب مفعولين فأن وما دخلت عليه في {أن تدخلوا} في تأويل مصدر سد مسد المفعولين وقيل المفعول الثاني محذوف والتقدير أحسبتم دخولكم الجنة واقعا و {لما} بمعنى لم أي ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا؛ {مستهم البأساء} المصائب في الأموال {والضراء} البلايا في الأبدان {وزلزلوا} خوفوا من الأعداء، روى البخاري عن خباب بن الأرث قال: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا قال: (إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع الميشار -وفي رواية المنشار- على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه فلا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه) ثم قال: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون). {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه} - أي انتهى أمرهم من البلاء إلى حيث اضطروا إلى أن يقول الرسول وهم أعلم الناس بما يليق به تعالى وما تقتضيه حكمته والمؤمنون المقتدون بآثاره المهتدون بأنواره {متى} يأتي {نصر الله} طلبا وتمنيا له، واستطالة لمدة الشدة -لا شكا ولا ارتيابا-. . . {ألا إن نصر

الله قريب}. . . أي فقيل لهم حينئذ تطييبا لأنفسهم بإسعافهم بمرامهم. . وليس التزلزل والانزعاج أعظم من الخوف وقد عرى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه وأخرجه الحاكم وصححه عن أبي مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز فذلك الذي نجاه الله تعالى من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي قد افتتن) - ٦٠٥.

٢١٥ - (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

{يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل} يسألك أصحابك أيها النبي ما الذي يتصدقون به وأي شيء يصلح أن يبذل تقربا إلى الله؟ قل إن الذي تريدون بذله وتجودون به من طيب أموالكم يحب ربكم أن تجعلوه في آباءكم وذوي قرابتكم في اليتامى المحتاجين إلى عونكم وفي المعوزين الذين لا يجدون ما يكفي لمطالب حياتهم ولوازم عيالهم، وفي المسافرين الذين قطعهم الارتحال عن أهلهم وأموالهم. عن السدي: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة وإنما هي النفقة ينفقها الرجل على أهله والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة، وعن ابن جريج هي ندب والزكاة غير هذا الإنفاق وعلى هذا لا نسخ فيها ومما أورد علماء الأحكام: واجب على الرجل الغني أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يصلحهما من طعام وكسوة وغير ذلك ونقل عن مالك رحمه الله تعالى: وعليه أن ينفق على امرأة أبيه كانت أمه أو أجنبية، فأما ما يتعلق بالعبادات من أموال فليس عليه أن يعطيه ما يحج به أو يغزو وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام، -المعنى لينفق أي شيء أراد لكن بشرط وهو أن يراعي الترتيب في الإنفاق فيقدم الوالدين لأنهما كانا السبب لوجوده وقد ربياه صغيرا ثم الأقربين لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء والترجيح لا بد له من مرجح والقرابة تصلح للترجيح لأنه أعرف بحاله، والاطلاع على غنى الغني من ما يحمل المرء على الإنفاق وأيضا لو لم يعطه قريبه احتاج إلى الرجوع إلى غيره وذلك عار وشر وأيضا قريب المرء كجزء منه، والإنفاق على النفس أولى من الإنفاق على الغير ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الاكتساب لصغرهم ثم المساكين الذين هم غير اليتامى وأبناء السبيل لأنهم سبب الاشتراك في دار الإقامة من أنفسهم ثم أبناء السبيل المنقطعون عن بلدهم وما لهم ما يتبلغون به أوطانهم، {وما تفعلوا من خير} من إنفاق شيء من مال على بناء على أن الخير هو المال، أو من كل ما يتعلق بالبر والطاعة – ٦٠٦ وهو محصيه لكم حتى يوفيكم أجوركم عليه يوم القيامة.

٢١٦ - (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

{كتب عليكم القتال وهو كره لكم} فرض الله تعالى على المؤمنين أن يقاتلوا أعداء دينهم وإن شق عليهم هذا القتال وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المال ومفارقة الأهل والوطن والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى، قلت: ومثله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرس وفصد وحجامة ابتغاء العافية ودوام الصحة ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق - ٦٠٧ والجهاد فرض له بين أمانات الدين ما بينه الكتاب المبين {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٦٠٨ ومئات الآيات الكريمة تحرض عليه وتبشر المجاهدين بما يقدمون عليه وكذا الأحاديث النبوية الصريحة الصحيحة، نقل أبو جعفر: هو على كل واحد حتى يقوم به من في قيامه الكفاية فيسقط فرض ذلك حينئذ عن باقي المسلمين كالصلاة على الجنائز وغسلهم الموتى ودفنهم وعلى هذا عامة علماء المسلمين وذلك هو الصواب عندنا لإجماع الحجة على ذلك. . وقال ابن عطية: والذي استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم فرض كفاية فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين. اهـ {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم} قال أبو عبيدة: {عسى} من الله إيجاب والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من مشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات

مات شهيدا {وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم} وعسى أن تحبوا الدعة والقعود عن القتال فليتسلط الكفار عليكم ويستبيحوا حرماتكم ويستأصلوكم عن آخركم {والله يعلم وأنتم لا تعلمون} فعلمكم قاصر لكن علم مولانا الخبير محيط وكامل وما شرع لكم إلا ما فيه خيركم في حياتكم هذه وفي آجل أمركم، وبحسب الجهاد أن اللطيف سبحانه جعله سببا للتمكين لدينكم فبالجهاد يثبتكم الله على طريقكم ويرغب الناس في إسلامكم وتعلوا به راية إيمانكم.

٢١٧ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال الذي يحدث في أيام من شهر حرام -وهي أربعة ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب- هل يحل لأحد أن يقاتل فيها فأجاب الوحي عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المولى جل علاه أن استحلال الأشهر الحرم بالقتال فيها خطيئة لكن صد الناس عن الإسلام والكفر بالملك العلام واستحلال حرمة البيت الحرام وإخراج النبي ومن آمن به وإقصائهم عن بيت ربهم وكعبته أعظم جرما وأكبر خطئا من الذي سألوا عنه والسائلون هم قريش والمشركون -على ما روي عن أبي اليسار عن جندب بن عبد الله- أو هم المسلمون على ما روى ابن عباس وأكثر الروايات على ذلك وهو اختيار أكثر المفسرين، أما البيهقي فقد صحح رواية جندب ٦٠٩ رضي الله تعالى عنه، قال الزجاج المعنى يسألونك عن القتال في الشهر الحرام {قتال فيه} ربما يكون الخفض هنا على نية تكرار العامل وهو {عن} أي عن الشهر الحرام عن قتال فيه أو هو بدل اشتمال من الشهر، ولما كان النكرة موصوفة أو عاملة صح في إبدالها عن المعرفة، {قل قتال فيه كبير} مبتدأ وخبر {وصد عن سبيل الله} مبتدأ {وكفر به} معطوف على صد {والمسجد الحرام} عطف على {سبيل الله {وإخراج أهله منه} عطف على صد وخبر الابتداء {أكبر عند الله} أي أعظم إثما من القتال في الشهر الحرام {والفتنة أكبر من القتل} أي فتنتهم المسلمين عن دينهم أي أن ذلك أشد جرما من قتلكم في الشهر الحرام.

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} تحذير من الله تعالى للمؤمنين من خبث وضغن الكافرين، عن عروة بن الزبير: هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين يعني على أن يفتنوا المسلمين عن دينهم حتى يردوهم إلى الكفر كما كانوا يفعلون بمن قدروا عليه منهم قبل الهجرة، و {حتى} هنا بمعنى كي أو بمعنى إلى {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} وعيد لمن يتبدل الكفر بالإيمان إلا من أكره ثم رجع مسلما فإن القرآن المجيد إذ توعد الذين كفروا بعد إيمانهم بأن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين، قال مستثنيا {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} ٦١٠ وحبوط الأعمال -أعاذنا الله منه- هو بطلانها وأن يذهب ويضيع ثوابها.

٢١٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} المصدقون المستيقنون بكل ما يجب الإيمان به والمفارقون أوطانهم والمخرجون منها من أجل الدين الحق وأهل الجهاد لإعلاء لواء الإسلام يؤملون في عفو الله تعالى وصفحه وثوابه ورضوانه وربنا الشكور لن يضل سعيهم ولن يحرمهم أجرهم ونورهم؛ - يحتمل أن يكون الرجاء بمعنى القطع واليقين ولكن في أصل الثواب، والظن إنما دخل في كميته وكيفيته وفي وقته وإنما جعل الوعد معلقا بالرجاء ليعلم أن الثواب على الإيمان والعمل غير واجب وإنما ذلك بفضله ورحمته. . وأيضا المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع هذه الخصال مستقصرين أنفسهم في نصرة دين الله

فيقدمون عليه راجين رحمته خائفين عقابه {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} ٦١١ - ٦١٢، عن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمة ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وإنه من رجا طلب، ومن خاف ٦١٣ هرب.

٢١٩ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

{يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما} في هذه الآيات المباركات الخمس أربع مسائل وقبلها: {يسألونك عن الأهلة} و {يسألونك ماذا ينفقون} و {يسألونك عن الشهر الحرام}؛ وروى عن ابن عباس قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة كلهن في القرآن. . . ما كانوا يسألونك إلا عما ينفعهم.

{الخمر} ما خامر العقل وغطاه وستره.

{الميسر} القمار. {العفو} فضل المال.

قالوا: نزلت في الخمر أربع آيات: نزلت بمكة {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا} ٦١٤ فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من أصحابه قالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فأم بعضهم فقرأ {قل يا أيها الكافرون} أعبد ما تعبدون فنزلت {. . . لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. } ٦١٥ فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوما فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار فضربه أعرابي بلحى بعير فشجه شجة موضحة ٦١٦، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت {. . إنما الخمر والميسر والأنصاب. } إلى قوله {. . فهل أنتم منتهون. } ٦١٧ فقال عمر انتهينا يا رب، والحكمة في وقوع التحريم على هذا الوجه أن القوم قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فلوا منعوا دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدرج والرفق وكل ما خامر العقل وخالطه فهو خمر وفيه ملحظ للستر ومنه خمار المرأة؛ {والميسر} القمار قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله، فنزلت الآية وقال أيضا: كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب، إلا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق، {قل فيهما إثم كبير} إثم الخمر ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وزوال العقل الذي يعرف به ما يجب لخالقة وتعطيل الصلوات والتعوق عن ذكر الله إلى غير ذلك. . . . وأما القمار فيورث العداوة والبغضاء لأنه أكل مال الغير بالباطل؛. . {ومنافع للناس} أما في الخمر فربح التجارة. . ومنفعة الميسر مصير الشيء إلى الإنسان في القمار بغير كد ولا تعب. . وقيل منفعته التوسعة على المحاويج. .

{وإثمهما أكبر من نفعهما} أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة- ٦١٨.

{ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} كأنما سألوا في الآية الكريمة السابقة رقم ٢١٥ من هذه السورة المباركة سألوا عن مصارف النفقة إلى من تصرف فأجيبوا {قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين. } وفي هذه سألوا كم ينفقون فأجيبوا ما يفضل عن حاجاتهم؛ روى الشيخان ٦١٩ وغيرهما ٦٢٠ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول). {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة} قال ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها.

٢٢٠ - (فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٩ إظهار

{تخالطوهم} تخلطوا أموالهم بأموالكم.
{أعنتكم} جهدكم وشق عليكم.
{كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة} قال ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها.
{ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم} عن ابن عباس قال: لما أنزل تعالى {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} ٦٢١ وقوله {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا} ٦٢٢، انطلق من كان عنده مال اليتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه وجعل يحبس له ما يفضل من طعامه حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت {قل إصلاح لهم خير} وهو كلام جامع لمصالح اليتيم والولي، أما لليتيم فلأنه يتضمن صلاح نفسه بالتقويم والتأديب وصلاح ماله بالتبقية والتثمير لئلا تأكله النفقة عليه والزكاة منه وأما الولي فلأن إحراز الثواب خير له من التحرز عن مال اليتيم حتى تختل مصالحه وتفسد معيشته- ٦٢٣.
{وإن تخالطوهم فإخوانكم} قال أبو عبيد: مخالطة اليتامى أن يكون لأحده المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه، ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه، قال أبو عبيد: وهذا عندي أصل لما يفعله الرفقاء في الأسفار فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسوية وقد يتفاوتون في قلة المطعم وكثرته وليس كل من قل مطعمه تطيب نفسه بالتفضل على رفيقه، فلما كان هذا في أموال اليتامى واسعا كان في غيرهم أوسع ولولا ذلك لخفت أن يضيق فيه الأمر على الناس.
{والله يعلم المفسد من المصلح} فيه تخويف، فإن التذكير بأن الملك المهيمن سبحانه خبير بمن يفسد أموال اليتامى ممن يصلحها ويجازي كلا بما عمل مما يحمل على التوجه للإصلاح والحذر من الإفساد؛ {ولو شاء الله لأعنتكم} من رحمته سبحانه أن شرع لكم الشرعة السمحة ولم يشرع لكم ما يشق عليكم أداؤه. {إن الله عزيز حكيم} غالب لا يمانع ولا يدافع {حكيم} يقضي بما هو صواب وحق.
٢٢١ - (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٩ إظهار
{تنكحوا} تتزوجوا.
{ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم} اختلف أهل التأويل في المراد بالمشركة في هذه الآية فقال بعضهم: كل مشركة عابدة وثن أو يهودية أو نصرانية أو مجوسية، وعن قتادة ما حاصله: أهل الكتاب غير داخلات في النهي، يقول ابن جرير: فمعنى الكلام إذن ولا تنكحوا أيها المؤمنون مشركات غير أهل الكتاب حتى يؤمن فيصدقن بالله ورسوله وما أنزل عليه والمراد بالنكاح في هذه الآية هو العقد ٦٢٤ أي لا تعقدوا على المشركات. {ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم} اللام مؤكدة تشبه لام القسم والأمة ربما يراد بها الرقيقة المؤمنة أو المرأة المؤمنة حرة كانت أو مملوكة لأن النساء كلهن إماء الله سبحانه؛ [وإن أعجبتكم المشركة من غير أهل الكتاب ٦٢٥ في الجمال والحسب والمال فلا تنكحوها فإن الأمة المؤمنة خير عند الله منها] ٦٢٦، مما نقل النيسابوري رحمه الله: لأن الإيمان يتعلق بالدين والمال والجمال والنسب يتعلق بالدنيا، ورعاية الدين أولى من رعاية الدنيا إن لم يتيسر الجمع بينهما، وقد تحصل المحبة والتآلف عند التوافق في الدين فتكمل منافع الدنيا أيضا من حسن الصحبة والعشرة وحسن الغيب وضبط الأموال والأولاد وأما عند اختلاف الدين فتنعكس هذه القضايا وقد يراد أضداد ما توقع منها.
{ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم} ولا فرق هنا بين مشرك وكتابي فلا يحل تزويج مسلمة من كافر أيا ما كان نوع كفره، {أولئك يدعون إلى النار} هؤلاء الذين حرم الله تعالى على المسلمين مناكحتهم من رجال أهل الشرك ونسائهم يدعون بأعمالهم إلى ما يدخل النار وأقوالهم ليست بأقل فحشا ولا نكرا ولا خطرا، {والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه [اقبلوا من الله

ما أمركم به فاعملوا به وانتهوا عما نهاكم عنه فإنه يدعوكم إلى الجنة يعني بذلك يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة ويوجب لكم النجاة إن عملتم به من النار، وإلى ما يمحو خطاياكم أو ذنوبكم فيعفو عنها ويسترها عليكم، أما قوله {بإذنه} فإنه يعني أنه يدعوكم إلى ذلك بإعلامه إياكم سبيله وطريقه الذي به الوصول إلى الجنة والمغفرة. . ويوضح حججه وأدلته في كتابه. . ليتذكروا فيعتبروا ويميزوا بين. . . دعاء إلى النار والآخر دعاء إلى الجنة وغفران الذنوب فيختاروا خيرهما لهم] ٦٢٧.

٢٢٢ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٩ إظهار

{فاعتزلوا النساء في المحيض} اجتنبوا جماع الزوجات حال حيضهن.

{من حيث أمركم الله} من حيث جاء الدم من ثم أمرت أن تأتى.

{ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن} في صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم (جامعهن ٦٢٨ في البيوت وصانعوا كل شيء إلى النكاح) ٦٢٩. نبأنا العليم الخبير أن الحيض يتأذى منه وتكره لونه ورائحته الفطرة السليمة ونهانا عن الاستمتاع بالزوجة حال خروج هذا الحيض منها، ولا إذن في أن يتمتع الرجل بامرأته إلا بعد طهرها من حيضها {فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله} أي فجامعوهن وهو أمر إباحة وكني بالإتيان عن الوطء. . . و {من} بمعنى في أي في حيث أمركم الله وهو القبل ونظيره قوله تعالى {. . . أروني ماذا خلقوا من الأرض} ٦٣٠ أي في الأرض، وقوله {. . . إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة} ٦٣١ أي في يوم الجمعة وقيل المعنى أي من الوجه الذي أذن لكم فيه. . وقال محمد ابن الحنفية: المعنى من قبل الحلال لا من قبل الزنى] ٦٣٢. {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} قال مجاهد من إتيان النساء في أدبارهن وعنه من الذنوب وقيل المتطهرون الذين لم يذنبوا فإن قيل كيف قدم بالذكر الذي أذنب على من لم يذنب قيل قدمه لئلا يقنط التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه كما ذكر في آية أخرى: {. . فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات} ٦٣٣.

٢٢٣ - (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٩ إظهار

{حرث} مزدرع. {أنى شئتم} كيف شئتم وأي وجه أحببتم.

{وقدموا لأنفسكم} قدموا الخير والعمل الصالح ليوم معادكم لربكم.

{نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين} روى البخاري ومسلم -واللفظ لمسلم- عن جابر بن عبد الله قال كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول فنزلت الآية {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم} زاد في رواية عن الزهري إن شاء مجبية ٦٣٤ وإن شاء غير مجبية غير أن ذلك في صمام واحد، وذكر الحرث يدل على أن الإتيان في غير المأتى محرم ٦٣٥، و {حرث} تشبيه، لأنهن مزدرع الذرية. {وقدموا لأنفسكم} لعل المعنى اعملوا الذي تجدونه منجيا لكم من كربات الآخرة {واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين} واتقوه في معاصيه أن ترتكبوها وفي حدوده أن تضيعوها فإنكم على ربكم تعرضون وبين يديه تحاسبون وبأعمالكم مجزيون، وعهد البر الرحيم سبحانه إلى رسوله وخاتم أنبيائه أن يبشر أهل التقوى واليقين بما أعد الله للأبرار من الدرجات العلى في جنات النعيم.

{ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله

سميع عليم}.
٢٢٤ - (وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
{ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس} وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يحلف ألا يبر ولا يصل ولا يصلح بين الناس، وعن القتبي: والمعنى إذا حلفتم ألا تصلوا أرحامكم ولا تصدقوا ولا تصلحوا وعلى أشباه ذلك من البر فكفروا اليمين. عن الزجاج: لا تمنعكم اليمين بالله عز وجل البر والتقوى والإصلاح وربكم سميع لأقوالكم ولكل مسموع محيط علمه بكل شيء، ومنه ما عقدتم عليه نياتكم. عن ابن عباس يقول: لا تجعلني عرضة ليمينك ألا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير. في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها)، وفيهما أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير).
٢٢٥ - (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
{لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم} قال ابن عباس هو قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة لا والله وبلى والله دون قصد اليمين وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها فأنزل قوله تعالى {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} في قول الرجل لا والله وبلى والله {ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم} أجمعوا على أن المعنى بما تعمدت. كما جاء في الآية الثانية {. ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان} ٦٣٦ {والله غفور رحيم} غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم فساتر عليهم فيها وصافح لهم بعفوه عن العقوبة فيها وغير ذلك من ذنوبهم {حليم} في تركه معالجة أهل معصيته العقوبة على معاصيهم - ٦٣٧.
٢٢٦ - (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
{للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر} للذين يحلفون على الامتناع من إتيان نسائهم مهلة وانتظار مدة لا تجاوز أربعة أشهر، فإن حلف أن لا يطأ امرأته أربعة أشهر فما دونهما لم يكن موليا وإنما هي يمين محض، {فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم} - فإن رجعوا إلى ترك ما حلفوا عليه أن يفعلوه بهن من ترك جماعهن فجامعوهن وحنثوا في أيمانهم فإن الله غفور رحيم بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين.
.
٢٢٧ - (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
{وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم} عن قتادة وابن مسعود كانا يجعلانها تطليقة إذا مضت أربعة أشهر فهي أحق بنفسها. . {فإن الله سميع} لطلاقهم إذا طلقوا {عليم} بما أوتوا إليهن- ٦٣٨.
٢٢٨ - (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
{قروء} واحدها قرء وهو الطهر أو الحيض. {يتربصن} ينتظرن.
{بعولتهن} أزواجهن. {درجة} فضيلة ومنزلة.
{والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء} هذا هو الحكم الثامن سبقته أحكام سبعة في ثمان آيات متتابعات تشرع للبيت المسلم: النفقة ومن يتزوج ومتى تعزل الزوجة وماذا يحل منها للزوج وأخيرا: الحلف والإيلاء قضى الله الحكيم أن تنتظر من طلقت دون زواج حتى تتم لها ثلاثة أطهار أو ثلاث حيض – على خلاف في ذلك بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء تتزوج إن شاءت

وهذا في ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن إذ لا عدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالأشهر ووضع الحمل، وعدة الأمة قرآن أو شهران لأنها على النصف من الحرة والقرء ولا يتبعض، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: عدة الأمة حيضتان {ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر} لم يؤذن الله تعالى لمطلقة أن تكتم ما يحدثه الله تعالى في رحمها من حيض أو حمل ما دامت تؤمن بما يجب الإيمان به من جوانب اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله والآخرة؛ عن مجاهد: لا يحل للمطلقة أن تقول إني حائض وليست بحائض ولا تقول إني حبلى وليست بحبلى ولا تقول لست حبلى وهي حبلى، فإن ذلك ليس من فعل من يؤمن بالله واليوم الآخر ولا من أخلاقه، بل من أخلاق النساء الكوافر فلا تخلقن أيتها المؤمنات بأخلاقهن-٦٣٩؛ {وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا} وأزواج المطلقات أولى ٦٤٠ بمراجعتهن خلال عدتهن إذا أراد المصالحة والرجعة. {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف} في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع (فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف). وقال ابن عباس: إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي - كأنه قيل ولهن عليهم مثل الذي لهم عليهن والمراد بالمماثلة -المماثلة في الوجوب- لا في جنس الفعل- فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال، أخرج الترمذي وصححه عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون إلا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن}. . . وجعلوا مما يجب لهن عدم العجلة إذا جامع حتى تقضي حاجتها. . {وللرجال عليهن درجة} زيادة في الحق لأن حقوقهم في أنفسهن. . . أو شرف فضيلة لأنهم قوام عليهن وحراس لهن يشاركوهن في غرض الزواج من التلذذ وانتظام مصالح المعاش ويخصونه بشرف يحصل لهم لأجل الرعاية والإنفاق عليهن. . وقال الراغب الدرجة نحو المنزلة. . ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة ومنه الآية فهي على التوجيهين مجاز. .؛ {والله عزيز} غالب لا يعجزه الانتقام ممن خالف الأحكام {حكيم} عالم بعواقب الأمور والمصالح التي شرع ما شرع لها- ٦٤١.

٢٢٩ - (الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

{فإمساك} فإرجاع إلى الزوجية. {تسريح} إخلاء سبيل وتطليق.

{مما آتيتموهن} مما أعطيتموهن من الأصدقة والمهور.

{إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله} يرى الزوجان عجزهما أو أحدهما عن رعاية الحقوق الزوجية التي شرع الله.

{لا جناح عليهما فيما افتدت} لا إثم على الزوج فيما يقبض ولا عليها فيما تبذل لحل روابط عشرة فيها أذى.

{تعتدوها} تتجاوزوها.

{الطلاق ٦٤٢ مرتان} التطليق الرجعي يملكه الرجل مرتين عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال: لا والله لا آويك إلي ولا تحلين أبدا فأنزل الله {الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أوتسريح بإحسان} فاستقبل الناس الطلاق جديدا من ذلك، من كان طلق أو لم يطلق ٦٤٣، وعن ابن عباس: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك أي في الثالثة فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئا؛ {ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا} - أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى {. . ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. } ٦٤٤، فأما إن وهبته المرأة شيئا عن طيب نفس منها

فقد قال تعالى {. . . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا} ٦٤٥ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ولهذا قال تعالى {ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به} الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة} ٦٤٦. ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية بطريق الأولى والأحرى - ٦٤٧. روى البخاري عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله، ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتردين عليه حديقته) قالت نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)؛ {تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون} شرائع المولى الحكيم التي شرعها حدود الله تمنع من الاجتراء على الفواحش فلا تتجاوزوها، صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله حد حدودا فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها)، يبين المولى لكم فصول ما بين حلاله وحرامه وأمره ونهيه؛ ومن يقتحم ما أحل ربنا إلى ما حرم فهو ظالم والظلم وصف قبيح من اتصف به بخس نفسه حقها وجار عن القصد فبغى على غيره واستوجب نقمة العزيز سبحانه فشقي في عاجله وساءت عاقبة أمره وفيه معنى التحذير والوعيد.

٢٣٠ - (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

{فإن طلقها} أي تطليقة بعد المرتين.

{فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره} من طلق امرأته مرتين ثم عاد فطلقها طلقة ثالثة فليس له أن يراجعها إذ بالطلقة الثالثة بانت منه بينونة كبرى لا يحل له أن يراجعها ولا أن يتزوجها إلا إذا تزوجها آخر بعد انقضاء عدتها منه فإن طلقها الثاني بعد دخوله بها وجماعه إياها ثم انتهت عدتها من المطلق الثاني حل للأول أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين ولهذا قال الحق تقدست أسماؤه {فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا} أي فإن طلقها الثاني فلا حرج عليها أن ترجع إلى الأول على نحو ما تقدم وبزواجها من الثاني وانفصالها عنه إن حدث وانقضاء عدتها منه تحل للأول، ولهذا يسمى الثاني محللا لأنه لولاه لما حلت للأول، وخشية أن يكون الاتصال بالثاني مجرد حيلة يتوصل بها إلى عودتها إلى الأول بينت الآية الكريمة أن رجعتها تحل {إن طلقها} أي الثاني، وجاءت ب {إن} التي لا تفيد إلا مجرد الاحتمال وعدم القطع فأما إن اشترط على الثاني أن يطلق ورضي فقد شارك في الإثم والسخط، روى البخاري رحمه الله تعالى عنه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لعن رسول الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله؛ {إن ظنا أن يقيما حدود الله} إن عزما أن يتعاشرا بالمعروف ورجح عندهما أو علما أن نكاحهما على غير دلسة -لم يدلسا فيه- {وتلك حدود الله} فواصل ربنا التي تميز الحلال من الحرام {يبينها} يوضحها، {لقوم يعلمون} لأن غير العلماء قد لا يستبينون، وربما يستبينون ولكنهم يضيعون، أما العالم فإنه يحفظ ويتعاهد ولهذا خاطب العلماء ٦٤٨.

٢٣١ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{فبلغن أجلهن} أشرفت عدتهن على الانتهاء.

{ضرار} لإيقاع الضرر. {الكتاب} القرآن.

{والحكمة} السنة. {يعظكم} يأمركم وينهاكم ويذكركم.

{وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف} لكأن المعنى وإن طلقتم الزوجات فقاربت ٦٤٩ العدة الانتهاء فإما أن تردوهن وتراجعوهن بقصد حسن المعاشرة والقيام بحقوق الزوجية وإما أن تتركوهن يقضين عدتهن، {ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا} نهى الله جل علاه أن تراجع المطلقة لا عن حاجة ولا عن محبة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ولقصد الاعتداء على حريتهن وتضييع حقوقهن؛ {ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه} إخبار في معنى النهي فإن الله جل ثناؤه ينهى عن البغي ويأمر بالعدل والإحسان وما أكرم النساء إلا كريم؛ {ولا تتخذوا آيات الله هزوا} نهى الله تعالى أن تتخذ فصوله بين حلاله وحرامه ودلائله وأمره ونهيه وأن تتخذ أحكامه لعبا وسخريا أو يسير بها في طريق الهزو بالهزو فإنها جد كلها، فمن هزل فيها لزمته ويقال هزئ بالشيء إذا طرحه ولم يأخذ به وعمل بغيره وقيل المعنى لا تتركوا أوامر الله فتكونوا مقصرين لاعبين ويدخل في هذه الآية الاستغفار من الذنب قولا مع الإصرار فعلا وكذا كل ما كان في هذا المعنى- ٦٥٠.
{واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} ولا تنسوا فضل ربكم عليكم في أن هداكم إلى هذا الدين وتذكروا تمام نعمته عليكم بما أنزل على نبيكم من قرآن حكيم وما أوحي إليه من السنة المطهرة المبينة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مراد الله فيما لم ينص عليه في الكتاب، يأمركم بذلك وينهاكم ويتوعد من ارتكب المحارم قابلوا هذا بالشكر والقيام بحق هذا الشرع العظيم والمنهاج القويم مما يقول صاحب روح المعاني: {وما أنزل عليكم}. . من عطف الخاص على العام. . و {ما} موصولة لحذف عائدها من الصلة و {من} في قوله تعالى {من البيان والحكمة} بيانية. . والإفراد بالذكر بعد الاندراج في المذكور إظهارا للفضل وإيماء إلى أن الشرف وصل إلى غاية لا يمكن معها الاندراج وذاك من قبيل:
فإن تفق الآنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال
{واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم} - وخافوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه في كتابه الذي أنزله عليكم وفيما أنزله فبينه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لكم أن تضيعوه وتتعدوا حدوده فتستوجبوا ما لا قبل لكم به من هذه الحدود وشرع لكم هذه الشرائع وفرض عليكم هذه الفرائض في كتابه وفي تنزيله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما أنتم عاملوه من خير وشر، وحسن وسيء، وطاعة ومعصية، عالم لا يخفى عليه من ظاهر ذلك وخفيه وسره وجهره شيء وهو مجازيكم بالإحسان إحسانا وبالسيء سيئا إلا أن يعفو ويصفح فلا تتعرضوا لعقابه ولا تظلموا أنفسكم- ٦٥١.
٢٣٢ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
{تعضلوهن} تمنعوهن. {أزكى} أعظم بركة ونفعا. {أطهر} أكثر تطهيرا من دنس الإثم.
{وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف} أخرج البخاري وغيره عن معقل بن يسار قال كانت لي أخت فأتاني بن عم لي فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقلت له يالكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها والله لا ترجع إليك أبدا وكان رجل لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فعلم الله تعالى حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله تعالى هذه الآية قال ففي نزلت فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه، وبلوغ الأجل ههنا على الحقيقة وليس مجازا عن القرب كما في الآية السابقة فكأن المعنى: إذا طلقتم من كن لكم زوجات ثم انقضت عدتهن ورغب الذي كان زوجا لها أن يقترن بها على نحو لا يكون مستنكرا شرعا ولا مروءة ورضيت هي بذلك فليس لوليها أن يمنعها ويحول بينها وبين أمر شرعه الله تعالى ورضيه لهما وعلى هذا فالمخاطب في مستهل الآية {وإذا طلقتم} الأزواج، وفي قول المولى تقدست أسماؤه {فلا تعضلوهن} الأولياء ولا يضر تشتت الضمائر لأن المعنى على هذا النحو ظاهر [الخطاب في هذه الآية بقوله {وإذا طلقتم} وبقوله {ولا تعضلوهن} إما أن يكون للأزواج ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهن من

أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن لحمية الجاهلية كما يقع كثيرا من الخلفاء والسلاطين غيرة على من كن تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلى من عصمه الله منهم بالورع والتواضع] ٦٥٢. {ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر} ما فصلته لكم من الأحكام نصح وتذكير بما أعددت للمطيعين أمري من الثواب وللخارجين عليه من العقاب، وإنما ينتهي عن الدخول فيما منعه الله منه وحرمه عليه من كان مستيقنا بالله تعالى وبلقائه وحسابه وجزائه وخص هؤلاء بالذكر لأنهم الممتثلون لأمر الله تعالى المسارعون إلى طاعته وإجلالا لمقامه تبارك وتعالى وحذرا من الآخرة {ذلكم أزكى لكم وأطهر} ذلكم الاتعاظ والامتثال أنمى لكم وأنفع وأبعد لكم من الخوض فيما يسخط الملك الكبير جل علاه. {والله يعلم وأنتم لا تعلمون} ربكم المعبود بحق يعلم من سرائركم وخفيات أموركم ما لا يعلمه بعضكم من بعض - فقد تخفى المصلحة والعاقبة علينا أو تشتبه المصلحة بالمفسدة فلا صلاح للمكلف إلا في طاعة علام الغيوب ليحوز سعادة الدارين والله ولي التوفيق- ٦٥٣.

٢٣٣ - (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} يبين الله لنا شرعة قويمة رحيمة أن ترضع الوالدة ولدها لمدة عامين كاملين ٦٥٤ بهما تبلغ الرضاعة نهايتها وهذا ما جاء بصيغة الإخبار ولكن الجمهور على أنه يراد به الأمر، والأمر ههنا للندب - ٦٥٥ غالبا- ولا يجب إذا لم يقبل الصبي غير ثدي أمه أو لم توجد من ترضعه أو عجز وليه عن الاستئجار وذهب كثير من الفقهاء إلى أن المراد {الوالدات} المطلقات عن مجاهد وغيره: إذا طلقن لأنها عقب آيات الطلاق ولأن الفرقة قد تحدث التعادي والتباغض وقد يقع الإهمال ثم إن إيجاب الرزق والكسوة يقتضي التخصيص إذ لو كانت الزوجية باقية لوجب على الزوج ذلك بسبب الزوجية لا الرضاع، بينما ذهب الواحدي وتابعه كثيرون إلى أن المراد الوالدات حال بقاء النكاح لأن المطلقة لا تستحق النفقة إنما تستحق الأجرة ثم إن النفقة والكسوة تجبان في مقابلة التمكين فإذا اشتغلت بالإرضاع والحضانة لم تتفرغ لخدمة الزوج فلعل متوهما يتوهم أن مؤنتها قد سقطت بالخلل الواقع في الخدمة فأزيل ذلك الوهم بإيجاب الرزق والكسوة وإن اشتغلت بالإرضاع واختار آخرون العموم فالتعقيب مع التعميم قائم وإيجاب الرزق والكسوة للمرضعات لا يقتضي التخصيص لأنه باعتبار البعض - اللائي هن زوجات-.

{وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} وعلى الآباء رزق الوالدات المرضعات بما يقوتهن ويغذيهن وبما يلبسن من ثياب تقيهن الحر والبرد وتسترهن- ويعني بقوله {بالمعروف} بما يجب لمثلها على مثله إذ كان الله تعالى ذكره قد علم تفاوت أحوال خلقه بالغنى والفقر وأن منهم الموسع والمقتر وبين ذلك فأمر كلا أن ينفق على من لزمته نفقته من زوجته وولده على قدر ميسرته كما قال تعالى ذكره {لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها. { ٦٥٦. {لا تكلف نفس إلا وسعها}. . لا تحمل نفس من الأمور إلا ما لا يضيق عليها ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك لا يوجب الله على الرجال من نفقة من أرضع أولادهم من نسائهم البائنات عنهم إلا ما أطاقوه ووجدوا إليه السبيل - ٦٥٧. {لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده} قال ابن شهاب والوالدات أحق برضاع أولادهن ما قبلن رضاعهن بما يعطي غيرهن من الأجر وليس للوالدة أن تضار بولدها فتأبى رضاعه مضارة وهي تعطى عليه ما يعطى غيرها من الأجر وليس للمولود له أن ينزع ولده من والدته مضارا لها وهي تقبل من الأجر ما يعطاه غيرها وعن ابن زيد لا ينزعه منها وهي تحب أن ترضعه فيضارها ولا تطرحه عليه وهولا يجد من ترضعه ولا يجد ما يسترضعه به. وعن الضحاك لا تضار أم بولدها فتقذفه إليه إذا كان الأب حيا أو إلى عصبته إذا كان الأب ميتا ولا يضار الأب المرأة إذا أحبت أن ترضع ولدها ولا ينتزعه؛ {وعلى الوارث مثل ذلك} عن الحسن إذا توفي الرجل وامرأته حامل فنفقتها من نصيبها ونفقة ولدها من نصيبه من ماله إذا كان له مال فإن لم يكن له مال فنفقته على عصبته وكان يتأول قوله: {وعلى الوارث مثل ذلك}

على الرجال. وعن قتادة: على وارث المولود ما كان على الوالد من أجر الرضاع إذا كان الولد لا مال له على الرجال والنساء على قدر ما يرثون.
{فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما} [{فصالا} أي فطاما وليس من باب المفاعلة وهي صدور الفعل من فاعلين كقتال وخصام وإنما هو تلاقي على فعال، كالعثار والإباق وذلك أن الولد ينفصل عن الاغتذاء بثدي أمه إلى غيره من الأقوات؛ وعن أبي مسلم يحتمل أن يكون المراد من الفصال إيقاع المفاصلة بين الولد والأم إذا حصل التراضي والتشاور في ذلك ولم يرجع ضرر إلى الولد وليكن الفصال صادرا عن تراضي منهما وتشاور ٦٥٨ مع أرباب التجارب وأصحاب الرأي فلا جناح عليهما في ذلك، زادا على الحولين لضعف في تركيب الصبي أو نقصا وهذه أيضا توسعة بعد التحديد وذلك أن الأم قد تمل من الإرضاع فتحاول الفطام والأب أيضا قد يمل إعطاء الأجرة على الإرضاع فيطلب الفطام دفعا لذلك لكنهم قد يتوافقان على الإضرار بالولد لغرض النفس فلهذا اعتبرت المشاورة مع غيرهما وحينئذ يبعد موافقة الكل على ما يكون فيه إضرار بالولد وإن اتفقوا على الفطام قبل الحولين وهذا غاية العناية من الرب بحال الطفل الضعيف ومع اجتماع الشروط لم يصرح بالإذن بل رفع الحرج فقط] ٦٥٩.
{وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف} رفع الله تعالى الضيق والإثم عمن يريد أن يطلب لولده الرضيع مرضعة بدلا من أمه وكان التقدير أن تسترضعوا لأولادكم فحذف اللام للعلم به كقول المولى سبحانه {وإذا كالوهم أو وزنوهم. } ٦٦٠، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم. {إذا سلمتم ما آتيتم} [ما أتيتموه المرأة أي ما أردتم إيتاءه مثل {. . . إذا قمتم إلى الصلاة} ٦٦١ - أي إذا أردتم القيام لها - ومن قرأ ما آتيتم بالقصر فهو من آتى إليه إحسانا إذ فعله لقوله تعالى {. . إنه كان وعده مأتيا} ٦٦٢ أي مفعولا. . وليس التسليم شرطا للجواز والصحة وإنما هو ندب إلى الأولى وفيه حث على أن الذي يعطي المرضعة يجب أن يكون يدا بيد حتى يكون أهنأ وأطيب لنفسها لتحتاط في شأن الصبي ولهذا قيد التسليم بأن يكون بالمعروف، وهو أن يكونوا حينئذ مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن قطعا لمعاذرهن] ٦٦٣. {واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير} وعهد الله إلينا أن نستصحب تقواه في كل ما نأتي ونذر، ومنه رعاية الصغار والحرص على ما فيه سلامتهم وإكرام من تقوم على شؤونهم -واعلموا أن الله بما تعملون أيها الناس سرها وعلانيتها وخفيها وظاهرها وخيرها وشرها بصير يراه ويعلمه فلا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه من شيء فهو يحصي ذلك كله عليكم حتى يجازيكم بخير ذلك وشره ومعنى {بصير} ذو إبصار وهو في معنى مبصر- ٦٦٤.
٢٣٤ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
{يتوفون} يموتون. {يذرون} يتركون.
{بلغن أجلهن} انقضت مدة عدتهن. {يتربصن} ينتظرن. {فيما فعلن في أنفسهن} من التزين والتعرض للخطاب.
{بالمعروف} بالذي لا يخالف ولا عادة مستحسنة.
في آيات كريمة سبقت بين الكتاب العزيز بعض أحكام المعتدة من طلاق، وفي هاتين الآيتين المحكمتين بيان لما شرع للمعتدة من وفاة زوجها وأن عليها أن تتأنى وتتصبر عن الزواج وتنتظر أربعة أشهر وعشرا فإنها المدة التي تنقضي بها العدة- وظاهرها العموم ومعناها الخصوص فإن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها، وضع حملها عند جمهور العلماء- فإذا انقضت مدة عدة المتوفى فلا إثم ولا ضيق فيما تفعله من ترك إحداد، ومن تعرض للخطاب بما أذن فيه الشرع ولم ينكره الطبع واذكروا أن المعبود بحق سبحانه يعلم ما تفعلون فلا تخالفوا عن أمره فإنه خبير بكل قول وبكل عمل ومثيب على ذلك، فافعلوا ما تدركون به جميل الثواب وحسن المآب.
بالسند المتصل عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تفتي المتوفى عنها زوجها أن تحد على زوجها حتى تنقضي عدتها ولا تلبس ثوبا مصبوغا ولا معصفرا ولا تكتحل بالإثمد ولا بكحل فيه طيب وإن وجعت عينها ولكن تكتحل بالصبر وما بدا لها من الأكحال سوى الإثمد مما ليس فيه طيب ولا تلبس حليا وتلبس البياض ولا تلبس السواد، بينما ذهب بعض الفقهاء إلى أن المتوفى عنها زوجها تربص بنفسها عن الأزواج خاصة فأما عن الطيب والزينة والمبيت بعيدا عن المنزل فلم تنه عن ذلك، ولم تأمر بالتربص بنفسها عنه. مما يقول الطبري رحمه الله وأما الذين أوجبوا الإحداد على المتوفى عنها زوجها فإنهم اعتلوا بظاهرة التنزيل وقالوا أمر الله المتوفى عنها زوجها أن

تربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا فلم يأمرها بالتربص بشيء مسمى في التنزيل بعينه بل عم بذلك معاني التربص، قالوا فالواجب عليها التربص بنفسها عن كل شيء إلا ما أطلقته لها حجة يجب التسليم لها، قالوا فالتربص عن الطيب والزينة والنقلة مما هو داخل في عموم الآية كما أن التربص عن الأزواج داخل فيها قالوا وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر بالذي قلنا في الزينة والطيب. . . اهـ.

وفي البخاري ومسلم عن أم عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ولا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب ٦٦٥ ولا تكتحل ولا تمس طيبا إلا إذا طهرت نبذة ٦٦٦ من قسط أو أظفار ٦٦٧) وفي الصحيحين عن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا) وعرفوا الإحداد بأنه ترك المرأة الزينة كلها من اللباس والطيب والحلي والكحل والخضاب بالحناء ما دامت في عدتها.

٢٣٥ - (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلا مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

{عرضتم} أفهمتم المعنى بلفظ محتمل له ولغيره.

{أكننتم} سترتم.

{حتى يبلغ الكتاب أجله} حتى ينتهي أمد العدة.

{ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم} روى البخاري ٦٦٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى {فيما عرضتم به من خطبة النساء} هو أن يقول إني أريد التزوج ولوددت أن تيسر لي امرأة صالحة وأورد النيسابوري أن النساء على ثلاثة أقسام أحدهما من تجوز خطبتها تعريضا وتصريحا وهي الخالية عن الزوج والعدة إلا إذا كان قد خطبها آخر وأجيبت إليه وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم (لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه). . ثانيا ما لا يجوز خطبتها تعريضا ولا تصريحا وهي المحصنة. . وثالثها ما يفصل في حقها من التعريض والتصريح وهي المعتدة غير الرجعية سواء كانت معتدة عن وفاة أو عن طلقات ثلاث أو عن طلقة بائنة كالمختلعة أو عن فسخ وسبب التحريم أنها مستوحشة بالطلاق فربما كذبت في انقضاء عدتها بالإقرار مسارعة إلى مكافأة الزوج، وأما المعتدة عن وفاة فظاهر الآية يدل على أنها في حقها لأنها ذكرت عقب آية عدة المتوفى عنها زوجها ثم إنه خص التعريض بعدم الجناح فوجب أن يكون التصريح بخلافه. . وعن أبي جعفر محمد بن علي أنها دخلت عليه امرأة وهي في العدة فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدي علي وقدمي في الإسلام، فقالت غفر الله لك أتخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال إنما أخبرتك بقرابتي من نبي الله قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يديه حتى أثر الحصير في يده فما كانت تلك خطبة {أو أكننتم في أنفسكم} أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا معرضين ولا مصرحين، أباح التعريض في الحال أولا ثم أباح أن يعقد قلبه على أنه سيصرح بذلك بعد انقضاء العدة {علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله} عن مجاهد قال ذكرك إياها في نفسك، قال: فهو قول الله {علم الله أنكم ستذكرونهن}، وعن ابن عباس {لا تواعدوهن سرا} يقول لا تقل لها إني عاشق وعاهديني ألا تتزوجي غيري ونحو هذا. عن قتادة هذا في الرجل يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها ألا تنكح غيره فنهى الله تعالى عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف ونهى عن الفاحشة والخضع من القول {إلا أن تقولوا قولا معروفا} لعل الأرجح أن {إلا} في هذا الاستثناء بمعنى لكن فكأن المراد لكن قولوا قولا معروفا، عن مجاهد يعني التعريض {ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله} عن مجاهد: حتى تنقضي العدة وعن الضحاك لا يتزوجها حتى يخلوا أجلها.

{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم} - فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أن تأتوا شيئا مما نهاكم عنه من عزم عقدة نكاحهن أو مواعدتهن في السر في عددهن وغير ذلك مما نهاكم عنه في شأنهن في حال ما هن معتدات وفي غير ذلك {واعلموا أن الله غفور رحيم} يعني أنه ذو ستر لذنوب عباده وتغطية عليها فيما تكنه نفوس الرجال من خطبة وذكرهم إياهن في حال عددهن وفي غير ذلك من خطاياهم وقوله {حليم} يعني أنه لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم- ٦٦٩.

٢٣٦ - (لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

في هاتين الآيتين بيان لبعض أحكام المطلقات اللائي لم يدخل بهن والآية الأولى فيمن طلقت قبل الدخول وقبل تحديد صداق ومهر، فإن {أو} في قوله سبحانه {أو تفرضوا} بمعنى الواو. إذ الآية الثانية فيمن طلقت قبل الدخول وسمي لها مهر فالأولى ليس لها حق في مهر لكن لها المتعة وهي شيء يعطى للمطلقة مواساة لها فيما لحقها من أذى بالطلاق قبل الدخول ودون أن تأخذ صداقا والجمهور من العلماء على أن الأمر في قول المولى جل ثناؤه {ومتعوهن} للوجوب وقد شرع الله الحكيم أن تكون المتعة المعطاة على قدر حال المعطى وجعلها ربنا مما يستحق على من أحسن في طاعة مولاه واتقاه مما نقل الشوكاني-رحمه الله- واعلم أن المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه ٦٧٠ الآية، وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئا وأن عدتهن ثلاثة قروء ٦٧١، ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها وهي المذكورة هنا فلا مهر لها بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها - إذا طلقت فلا عدة ٦٧٢ عليها، ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها فلها نصف المهر ولا عدة عليها وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم}، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها وهي المذكورة في قوله تعالى {. فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة} ٦٧٣؛ والمراد بقوله {ما لم تمسوهن} ما لم تجامعوهن. اهـ ٦٧٤؛ {متاعا بالمعروف حقا على المحسنين} فكأن المعنى ومتعوهن متاعا بما عرف في الشرع من الاقتصاد يحق ذلك عليهم حقا فكلكم مطالب بأن يكون محسنا في عبادته ومعاملاته.

٢٣٧ - (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣٦ إظهار

{وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح} من طلق زوجته قبل أن يستمتع بها وكان قد حدد لها مهرا فالواجب لها نصف المهر إلا أن تعفو فتترك وتتسامح في قدر ما استحقت أو يعفو وليها وجمهور المفسرين على أن النون لم تسقط مع أن في قول الله سبحانه {إلا أن يعفون} لكونها ضمير وليست بعلامة إعراب كما في المذكر فإنها فيه علامة إعراب ولهذا تسقط مع أن، كما في قوله جل ثناؤه {وأن تعفو أقرب للتقوى} والخطاب فيه للرجال والنساء وغلب أحدهما، غلب الرجال لأصالتهم؛ -وإنما كان عفو البعض أقرب إلى حصول معنى الاتقاء لأن من سمح بترك حقه تقربا إلى ربه فهو من أن يأخذ حق غيره أبعد، ولأنه إذا استحق بذلك الصنع الثواب فقد اتقى العقاب واحترز عنه، {ولا تنسوا الفضل بينكم} لا تتركوا التفضل والتسامح فيما بينكم وليس نهيا عن النسيان فإن ذلك غير مقدور بل المراد منه الترك. . ندب الله تعالى كلا منهما إلى تطييب قلب الآخر ببذل كل المهر أو تركه وإلا فالتصنيف ٦٧٥. {إن الله بما تعملون بصير} إخبار فيه الوعد والوعيد.

٢٣٨ - (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

{حافظوا} داوموا وواظبوا. {الوسطى} الأخير والأفضل.

{قانتين}. خاضعين مطيعين ساكتين

عهد المولى إلينا أن نداوم ونواظب على الصلوات وأن نلزم الصلاة الأخير الأفضل وهي صلاة العصر- على الأرجح ٦٧٦ - وأن نقف

لله تعالى في صلاتنا طائعين ٦٧٧ ساكتين روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشي ٦٧٨ سلمنا عليه فلم يرد علينا فقلنا يا رسول الله كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا فقال (إن في الصلاة شغلا)، ونقل ابن كثير عن صحيح ومسلم (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله) وصحت الأحاديث التي تشهد أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب - وفي رواية يوم الخندق - (ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)، وفي رواية: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، وذكر نحوه، وزاد في أخرى: ثم صلاها بين المغرب والعشاء، ولمسلم -في المساجد ومواضع الصلاة- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا أو حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا).

٢٣٩ - (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

{فإن خفتم} فزعتم وواجهتم العدو. {فرجالا} فأدوها حال ترجلكم.

{أو ركبانا} حال ركوبهم. {فإذا أمنتم} زال الخوف وانهزم العدو.

{فإن خفتم فرجالا أو ركبانا} - فإن خفتم من عدو لكم أيها الناس تخشونهم على أنفسكم في حال التقائكم معهم أن تصلوا قياما على أرجلكم بالأرض قانتين لله فصلوا رجالا مشاة على أرجلكم وأنتم في حربكم وقتالكم وجهاد عدوكم أو ركبانا على ظهور دوابكم فإن ذلك يجزيكم. . قال أبو جعفر: والخوف الذي للمصلي أن يصلي من أجله المكتوبة ماشيا راجلا، وراكبا جائلا: الخوف على المهجة عند السلمة والمسايفة في قتال من أمر بقتاله من عدو للمسلمين أو محارب أو طلب سبع أو جمل صائل أو سيل سائل نخاف الغرق فيه وكل ما الأغلب من شأنه هلاك المرء إن صلى صلاة الأمن فإنه إذا كان ذلك كذلك فله أن يصلي صلاة شدة الخوف - ٦٧٩. {فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون} قال ابن زيد: فإذا أمنتم فصلوا الصلاة كما افترض الله عليكم، إذا جاء الخوف كانت لهم رخصة، والصلاة قد تسمى ذكرا كما جاء في محكم القرآن {. فاسعوا إلى ذكر الله} ٦٨٠ وقيل المعنى فاشكروا الله لأجل إنعامه عليكم، وما في {كما علمكم} مصدرية أو كافة.

٢٤٠ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

{والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم}.

- عود إلى بيان بقية الأحكام السابقة أحكام العدة- عدة المتوفى عنها زوجها وفي {يتوفون} مجاز المشارفة. {وصية لأزواجهم}. . التقدير ليوصوا أو يوصون {وصية} أو كتب الله تعالى عليهم أو ألزموا {وصية}. . {متاعا إلى الحول}. . {غير إخراج} بدل منه بدل اشتمال. . المتاع عام شامل الإنفاق والإسكان جميعا والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك على الصحيح في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله {أربعة أشهر وعشرا} وهو وإن كان متقدما في التلاوة فهو متأخر في النزول - {فإن خرجن} بعد الحول ومضى العدة وقيل في الأثناء باختيارهن {فلا جناح عليكم} يا أولياء الميت أو أيها الأئمة {فيما فعلن في أنفسهن من معروف} لا ينكره الشرع كالتطيب والتزيين وترك الحداد والتعرض للخطاب أو في ترك منعهن من الخروج أو قطع النفقة عنهن كن مخيرات بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها {والله عزيز} غالب على أمره

ينتقم ممن خالف أمره في الإيصاء وإنفاذ الوصية وغير ذلك {حكيم} يراعي في أحكامه مصالح عباده فينبغي أن يمتثل أمره ونهيه-٦٨١. عن قتادة قال كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها كان لها السكنى والنفقة حولا في مال زوجها ما لم تخرج ثم نسخ ذلك بعد في سورة النساء فجعل لها فريضة معلومة الثمن إن كان له ولد وعدتها أربعة أشهر وعشرا فقال تعالى ذكره {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا} فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الحول؛ وعن ابن عباس إلا أن تكون حاملا فعدتها أن تضع ما في بطنها وقال في ميراثها {. . ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن} ٦٨٢ فبين الله ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة. وبعض من السلف ذهب إلى أن هذه الآية ثابتة الحكم لم ينسخ منها شيء وممن رأى ذلك مجاهد رحمه الله حيث قال في قوله تعالى {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا} قال: كانت هذه المعتدة تعتد عند أهل زوجها واجبا ذلك عليها فأنزل الله {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج} إلى قوله {من معروف} قال جعل الله لهم تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قوله تعالى ذكره {غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم} ٦٨٣ قال والعدة كما هي واجبة. اهـ.

٢٤١ - (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

لعل ما تضمنته هذه الآية الكريمة {وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين} كالتوكيد لما تضمنه القول الرباني الحكيم {ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين} وإلى هذا ذهب ابن زيد والأكثرون على أنها تفيد تأسيسا فعن سعيد بن جبير قال لكل مطلقة متاع -وإنما أنزلها الله تعالى ذكره على نبيه صلى الله عليه وسلم لما فيها من زيادة المعنى الذي فيها على ما سواها من آي المتعة إنما فيه بيان حكم غير الممسوسة إذا طلقت وفي هذه حكم جميع المطلقات في المتعة. . فأما المتقون فهم الذين اتقوا الله في أمره ونهيه وحدوده فقاموا بها على ما كلفهم القيام بها خشية منهم له ووجلا منهم من عقابه. . .

٢٤٢ - (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

{كذلك يبين الله لكم آيته لعلكم تعقلون} كما بينت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون وعرفتكم أحكامي والحق الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيي محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب لتعقلوا أيها المؤمنون بي وبرسلي حدودي فتفهموا اللازم لكم من فرائضي وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم وعاجلكم وآجلكم فتعملوا به ليصلح ذات بينكم وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم- ٦٨٤.

وهكذا شرع الله تعالى لنا منهاجا فصله سبحانه وأحكمه وما فرط فيه من شيء، ففي اثنتين وعشرين آية من هذه السورة المباركة – من الآية ٢١٩. وحتى الآية رقم ٢٤١. أكثر من اثنين وعشرين حكما نصفها في الطلاق والخلع والعدة والرجعة والمتعة فمن عقل عن ربنا البر الرحيم ما جاءنا من البينات والهدى واستقام على هذا وتزكى به فقد فاز وأفلح.

٢٤٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)

{ألم تر} استفهام قد يراد به التقرير والتعجيب، والرؤية ربما تكون بصرية بمعنى الإدراك والعلم والخطاب لكل ما يصلح له {إلى الذين خرجوا من ديارهم} نقل عن سيبويه المعنى: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، قوم تركوا ديارهم فارين من الوباء ٦٨٥ أو الجهاد ٦٨٦ فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه {وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم} عن محمد بن إسحق قال: بلغني أنه كان من حديثهم أنهم خرجوا فرارا من بعض الأوباء من الطاعون أو من سقم كان يصيب الناس -حذرا من الموت وهم ألوف حتى نزلوا بصعيد من البلاد قال لهم الله موتوا فماتوا جميعا فعمد أهل تلك البلاد فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ثم تركوهم فيها وذلك أن كثروا على أن يغيبوا [أي يدفنوا] فمرت بهم الأزمان والدهور حتى صاروا عظاما نخرة فمر بهم

حزقيل ابن بوزى فوقف عليهم فتعجب لأمرهم ودخله رحمة لهم. . حتى غشي عليه. . ثم أفاق والقوم جلوس يقولون سبحان الله سبحان الله قد أحياهم الله. وعن قتادة: مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم الله عقوبة ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها ولو كانت آجال القوم جاءت ما بعثوا بعد موتهم. ومما يقول: ابن جرير وأولى الأقوال في مبلغ عدد القوم الذي وصف الله خروجهم من ديارهم بالصواب: قول من حددهم بالزيادة عن عشرة آلاف دون من حده بأربعة آلاف. . وثمانية آلاف وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عنهم أنهم كانوا ألوفا وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم ألوفا وإنما يقال هم آلاف إذا كانوا ثلاثة آلاف فصاعدا إلى العشرة آلاف وغير جائز أن يقال هم خمسة ألوف أو عشرة ألوف. . اهـ.

{إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون} تذكير بحق الجواد الكريم الوهاب سبحانه وتوكيد لأنه صاحب المن والعطاء والإفضال {. . وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها} ٦٨٧ فهو الذي أصبغ ما ظهر منها وما بطن، خلق فسوى وقدر فهدى وأغنى وأقنى وغير ذلك من نعمه التي ينعمها عليهم في دينياهم ودينهم وأنفسهم وأموالهم كما أحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت بعد إمائته إياهم وجعلهم لخلقه مثلا وعظة يتعظون بهم وعبرة يعتبرون بهم وليعلموا أن الأمور كلها بيده فيستسلمون لقضائه ويصرفون الرغبة كلها والرهبة إليه- ٦٨٨. {ولكن أكثر الناس لا يشكرون} ومع أن شكر المنعم واجب فقليل من الناس من يقر بالفضل ويثني على المتفضل الوهاب كما بين المولى في محكم آيات الكتاب {. . . . وقليل من عبادي الشكور} ٦٨٩، بل يزداد البعض جحودا كلما بسط لهم في الرزق وصدق الله العظيم {. . إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٦٩٠؛ أكثر من ينعم عليهم من عباده بنعمه الجليلة ويمن عليه بمننه الجسيمة يكفر به ويصرف الرغبة والرهبة إلى غيره ويتخذ إلها من دونه كفرانا منه لنعمه التي توجب أصغرها عليه من الشكر ما يفدحه ومن الحمد ما يثقله؛ لا يشكرون نعمتي التي أنعمتها عليهم وفضلي الذي تفضلت به عليهم بعبادتهم غيري وصرفهم رغبتهم ورهبتهم على من دوني ممن لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا- ٦٩١.

٢٤٤ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم} هذا أمر من مولانا أن نقاتل أعداء الدين الصادين عن منهاج رب العالمين يحرضنا على الجهاد والتعرض للشهادة لأن الموت إذا لم ينفع منه الفرار فأولى أن يكون في سبيل الرفعة والتمكين والعمل تحت لواء الحق المبين [كيلا ينكص على عقبيه محب للحياة بسبب خوف الموت فإن الحذر لا يغني عن القدر {واعلموا أن الله سميع عليم} يسمع ما يقوله القاعدون والمجاهدون ويعلم ما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

٢٤٥ - (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} أي في باب الجهاد كأنه ندب العاجز عن الجهاد أن ينفق على الفقير القادر وأمر القادر على الجهاد أن ينفق على نفسه في طريق الجهاد. . وقد بني الكلام على طريقة الاستفهام لأن ذلك أدخل الترغيب والحث على الفعل من ظاهر الأمر. . ومعنى كونه حسنا حلالا خالصا لا يختلط به الحرام ولا يشوبه من ولا أذى ولا يفعله رياء وسمعة وإنما يفعله خالصا لوجه الله تعالى و {أضعافا} نصب على الحال أو على المفعول الثاني. . . وإنما جاز جمع المصدر بحسب اختلاف أنواع الجزاء والضعف: المثل. . . والمضاعفة كلها الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر. قيل الواحد بسبعمائة وعن السدي إن هذا التضعيف لا يعلم أحدكم هو، وما هو، وإنما أبهمه الله تعالى لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود {والله يقبض ويبسط} يقتر على عباده ويوسع فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة. . {وإليه ترجعون} فيجازيكم بحسب ما قدمتم من أعمال الخير. [. ٦٩٢.

٢٤٦ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

{الملأ} القوم أو أشراف القوم.
{هل عسيتم} هل أنتم قريب من التولي؟
{وما لنا} وما منعنا وأي شيء لنا في أن لا نقاتل؟
{أخرجنا من ديارنا وأبنائنا} طردنا وحيل بيننا وبين الأموال والأبناء والآل.
{كتب} فرض.
{تولوا} اضطربت نياتكم وفترت عزائمكم وجبنوا وأعرضوا.
{ألم تر} أي ألم تعلم؟ وهو استفهام ربما يراد به التقرير والتعجيب، والمخاطب إما النبي صلى الله عليه وسلم ينبئه الله تعالى ويقص عليه من أنباء ما سبق تثبيتا للفؤاد، وترسيخا لليقين والخطاب للنبي خطاب للأمة {إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى} إلى القوم والجماعة ٦٩٣ من أبناء يعقوب عليه السلام ومن ذريته الذين جاءوا من بعد موت موسى صلى الله عليه وسلم، {إذ قالوا لنبي الله لهم ابعث ملكا نقاتل في سبيل الله} جائز أن يكونوا هم الذين قال لهم الله موتوا ثم أحياهم وأن يكون النبي هو حزقيل وجائز أن يكونوا أقواما غيرهم ونبيا يسمى سمعون أو شمعون لكن لم يحصل العلم بذلك النبي وبأولئك الملأ من الخبر المتواتر، وخبر الواحد ٦٩٤ لا يفيد إلا الظن، أما العبرة فالتحريض على الجهاد. سألوا نبيهم أن يقيم لهم ملكا وأميرا قائدا يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك فيهم -كما روى- في سبط يهودا والنبوة في سبط لاوى. {قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا} ولما أنبأ العليم الخبير أن اليهود أحرص الناس على الحياة وأن الواحد منهم يود لو يعمر ألف سنة وأنهم يخشون ملاقاة أهل الصدق في اللقاء وجاء في محكم التنزيل {لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر} ٦٩٥، فكان نبيهم على علم بقعودهم على ملاقاة عدوهم، وكيف لا وقد قال آباؤهم لكليم الله موسى ولأخيه نبي الله هارون عليهما السلام {. . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} ٦٩٦ فقال النبي الذي طلبوا إليه أن يبعث لهم ملكا وأن ينصب عليهم أميرا وقائدا يجاهدون معه عدوهم قال: هل أنتم قريب من التولي والفرار؟ يعني أن لا تفوا بما تعدون الله من أنفسكم من الجهاد في سبيله فإنكم أهل نكث وغدر وقلة وفاء بما تعدون- ٦٩٧.
{قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين} في الكلام مقدر محذوف يعني لما سألوا نبيهم سأل نبيهم ربهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله فبعث المولى لهم ملكا وفرض عليهم الجهاد فلما جاءهم ما تمنوا أعرضوا واضطربت نياتهم وفترت عزائمهم وجبنوا عن الخروج للقاء العدو وكذلك كان أكثرهم، لكن قليلا صدقوا ما عاهدوا الله عليه {والله عليم بالظالمين} [وعيد لهم ولكل مكلف في الإسلام على القعود عن القتال وأي وعيد أبلغ من أن وضع الظالمين موضع الضمير العائد إليهم] ٦٩٨ مما أورد القرطبي رحمه الله وعن هذا المعنى نهى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا) رواه الأئمة. اهـ.
٢٤٧ - (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
{أنى} كيف. {سعة} كثرة وامتلاء وغنى ورفاهية وجدة وطاقة.
{اصطفاه} اختاره. {بسطة} فضيلة وزيادة. {يؤتى} يعطى.
{وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال} لما سألوا نبيهم تنصيب قائد يقاتلون العدو تحت إمرته أخبرهم أن المولى الحكيم سبحانه قد ارتضى لهم طالوت أميرا لهم فتأنفوا عن الخضوع له إذ هو من الأجناد وليس من سبط يهودا الذي من بيته تكون الملوك واعترضوا بأنه ليس من ذوي الأحساب، ولا من أرباب الثراء وذهب بعض المفسرين إلى أنهم سألوا نبيهم من أين يكون أو كيف يكون له الملك علينا والاستفهام حقيقي للتعجيب لا لتكذيب نبيهم

والإنكار عليه، {قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم} رد عليهم بأبلغ وجه وأكمله كأنه قيل: لا تستبعدوا تملكه عليكم لفقره وانحطاط نسبه عنكم، أما أولا فلأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اصطفاه واختاره وهو سبحانه أعلم بالمصالح منكم وأما ثانيا فلأن العمدة وفور العلم، ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية وجسامة البدن ليكون أعظم خطرا في القلوب وأقوى على كفاح الأعداء ومكابدة الحروب لا من ذكرتم، وقد خصه الله تعالى مالك الملك على الإطلاق وللمالك أن يمكن من شاء من التصرف في ملكه بإذنه، وأما رابعا فلأنه سبحانه واسع الفضل يوسع على الفقير فيغنيه {عليم} بما يليق بالملك من النسيب وغيره.

٢٤٨ - (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{آية} علامة. {التابوت} الصندوق.

{سكينة} وقار ورحمة.

{وقال لهم نبيهم} عطف على مثله مما تقدم وروايات القصاص متضافرة على أنهم قالوا لنبيهم ما آية ملكه واصطفائه علينا؟ فقال {إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت}. . . والتابوت الصندوق. . والمراد به صندوق كان يتبرك به بنو إسرائيل فذهب منهم. . وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه صندوق التوراة. . تغلب عليه العمالقة حتى رده الله تعالى. . . {وفيه سكينة من ربكم} أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة. . . و {من} لابتداء الغاية أو للتبعيض أي من سكينات ربكم؛ {وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون} هي رضاض الألواح وثياب موسى وعمامة هارون. . . وآلهما أتباعهما. . {تحمله الملائكة} حال من التابوت والحمل إما حقيقة أو مجاز. ،؛ {إن في ذلك} إشارة إلى ما ذكر من إتيان التابوت فهو من كلام النبي لقومه. . {لآية} عظيمة كائنة {لكم} دالة على جعل طالوت ملكا عليكم. . . {إن كنتم مؤمنين} أي مصدقين بتمليكه عليكم. . - ٦٩٩.

٢٤٩ - (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

{فصل} انفصل وخرج. {مبتليكم} معاملكم معاملة المختبر.

{مني} من أتباعي وأصحابي. {يطعمه} يذق طعمه.

{فشربوا} فكرعوا. {جاوزه} تخطاه وتركه. {طاقة} قدرة.

{يظنون} تعني هنا يوقنون. {فئة} جماعة وطائفة

{بإذن} بتيسيره.

{فلما فصل طالوت بالجنود} كان بين هذه الآية والتي سبقتها كلاما مقدرا إذ قد يكون المعنى آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، فآتاهم التابوت فأذعنوا لطالوت وأجابوا على المسير تحت رايته، -فأتاهم التابوت فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة- فصدقوا عند ذلك نبيهم وأقروا بأن الله قد بعث طالوت ملكا عليهم وأذعنوا له بذاك؛ يدل على ذلك قوله {فلما فصل طالوت بالجنود} وما كان ليفصل بهم إلا بعد رضاهم به وتسليمهم الملك له لأنه لم يكن ممن يقدر على إكراههم على ذلك فيظن به أنه حملهم على ذلك كرها- ٧٠٠. انفصل طالوت وخرج تاركا محلتهم متجها نحو عدوهم وتحت إمرته من أسلموه قيادهم فقال لجنده إن الله تعالى مختبركم بنهر ٧٠١ ومعاملكم سبحانه معاملة الممتحن ٧٠٢ بنهر سيصادفكم في طريقكم إلى عدوكم. {قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني} ليس من أهل طاعتي من شرب من هذا الماء الذي أخبرتكم به ليظهر من هو المطيع له ومن هو الخارج على طاعته {ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده} ومن لم يذق ماء هذا النهر فإنه مني وممن يصلح لمصاحبتي والقتال معي إذ من أطاع في

ذلك الأمر أطاع فيما عداه ومن عصى فيه فهو بالعصيان في سائر الشدائد أحرى، [ورخص لهم في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش، الدافعين أنفسهم عن الرفاهية فالمراد بقوله {فمن شرب منه} أي كرع ولم يقتصر على الغرفة] ٧٠٣. نقل الأزهري عن الليث طعم الشيء إذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا، {فشربوا منه إلا قليلا منهم} عطف على مقدر أي فبلغوا النهر فشربوا من مائه بإفراط إلا عددا يسيرا منهم لم يفرطوا في الشرب منه بل اقتصروا على ما رخص لهم فيه من الغرفة باليد، {فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} وبعد أن تخطى طالوت النهر ومعه القلة التي صبرت على الابتلاء ورضيت بالقضاء واستحقت واستأهلت صفة الإيمان قال بعضهم لبعض حين شاهدوا كثرة عدد عدوهم لا قدرة لنا على مواجهة هؤلاء الجنود الكثيفة وعلى رأسها الطاغية جالوت [والقائل بعض المؤمنين لبعض وهو إظهار ضعف لا نكوص. . {قال} على سبيل التشجيع لذلك البعض وهو استئناف بياني {الذين يظنون} أي يتيقنون {أنهم ملاقوا الله} بالبعث والرجوع إلى ما عنده وهم الخلص من أولئك والأعلون إيمانا فلا ينافي وصفهم بذلك إيمان الباقين فإن درجات المؤمنين في ذلك متفاوتة. . . {كم من فئة} أي قطعة من الناس وجماعة. . و {كم} هنا خبرية ومعناها كثير. . {قليلة} نعت لفئة على لفظها {غلبت} أي قهرت عند المحاربة {فئة كثيرة} بالنسبة إليها {بإذن الله} أي بحكمه وتيسيره. . {والله مع الصابرين} والمراد منه المعية بالنصر والإحسان لأنه في سائر القرآن مألوف استعماله في مثل ذلك. . .] ٧٠٤.

٢٥٠ - (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

{برزوا} وقفوا على أرض مستوية.

{أفرغ} صب. {ثبت أقدامنا} لا تزلزلنا كيلا نتزحزح عن طريق الحق.

{ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} وحين تلاقى الجمع المؤمن والجنود العادون على متسع من الأرض ومنفسح في ساحة الوغى وتهيأ المؤمنون للحملة على الكافرين وقتالهم فزعوا إلى ربنا القوي القدير الولي النصير يسألونه فيضا من الصبر حين البأس وأن يهبهم كمال القوة حتى لا يتزلزلوا وأن يعينهم على قهر عدوه وعدوهم، وإنه لهدى الكتاب الحكيم أن نتضرع حين البأس، يقول مولانا تبارك وتعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ٧٠٥ ويقول تقدست أسماؤه {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا والآخرة} ٧٠٦ - هكذا يجب علينا نحن أن نفعل لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدد وذلك بما كسبت أيدينا، وفي البخاري: وقال أبو الدرداء إنما تقاتلون بأعمالكم وفيه مسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفاكم) فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة قال الله تعالى {. . . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله} ٧٠٧ وقال {. . وعلى الله فتوكلوا} ٧٠٨ وقال {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} ٧٠٩ وقال {. . ولينصرن الله من ينصره} ٧١٠، فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة ٧١١ عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا.

٢٥١ - (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{فهزموهم} كسروهم. {آتاه} أعطاه.

{ذو فضل} صاحب مزيد من العطاء.

{العالمين} أصناف الخلق كل صنف منها عالم.

{فهزموهم بإذن الله} استعانوا بالله تعالى فأعانهم وربط على قلوبهم وثبتها فلم يرهبوا عدوهم وأيدهم عليهم ونصرهم وهي سنته التي

لا تتبدل يؤيد أهل التقى ويخزي من كفر وطغى ويجعل العاقبة لجند الحق مهما تعاظم الباطل عدة وعددا وبهذا جاء محكم التنزيل. {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون} ٧١٢. قتل المؤمنون الجند الباغي وكسروهم بقضاء الله تعالى وقدره وتيسيره وتوفيقه؛ {وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء} وأراد ربنا العزيز أن يجعل مصرع الجبار العنيد جالوت قائد الجيش الباغي في ذلك اللقاء على يدي جندي مؤمن هو داود ٧١٣ عليه السلام، وزاد الله تعالى عبده داود عزا وتكريما فأعطاه الملك على قومه والنبوة ٧١٤ فيهم وعلمه سبحانه ما شاء أن يعلمه والغرض منه التنبيه على أن العبد لا ينتهي قط إلى حالة يستغني عن التعلم سواء كان نبيا أو لم يكن ولهذا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم {. . . وقل ربي زدني علما} ٧١٥؛ {ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} عمران الكون يتأتى بفعل الخير ودرء الشر ولو استشرى البغي وإهلاك الحرث والنسل لبطلت منافع الأرض وتعطلت مصالحها وفي مثل هذا المعنى جاءت الآية الكريمة {. . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} ٧١٦؛ {ولكن الله ذو فضل على العالمين} بين سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شر الكافرين فضل منه ونعمة- ٧١٧.

٢٥٢ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

{تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق} الآيات التي أوحيت إليك وقرأها عليك الملك أمين وحينا جاءتك ناطقة باليقين الذي لا يرتاب فيه من له قلب، {وإنك لمن المرسلين} إذ تقص عليهم من أنباء ما قد سبق وأنت لم تقرأ من قبل كتابا ولا خططته بيمينك وإنما هي الرسالة التي بعثتك بها. [هذه الآيات التي اقتص الله فيها أمر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وأمر الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى الذين سألوا نبيهم أن يبعث لهم طالوت ملكا وما بعدها من الآيات إلى قوله {ولكن الله ذو فضل على العالمين} ويعني بقوله {آيات الله} حججه وأعلامه وأدلته، يقول الله تعالى ذكره: فهذه الحجج التي أخبرتك بها يا محمد وأعلمتك من قدرتي على إماتة من هرب من الموت في ساعة وهم ألوف وإحيائي إياهم بعد ذلك وتمليكي طالوت أمر بني إسرائيل بعد أن كان سقاء أو دباغا من غير أهل بيت المملكة. . . ونصرتي أصحاب طالوت مع قلة عددهم وضعف شوكتهم على جالوت وجنوده مع كثرة عددهم وشدة بطشهم حجج على من جحد نعمتي وخالف أمري وكفر برسولي من أهل الكتابين التوراة والإنجيل، العالمين بما اقتصصت عليك من الأنباء الخفية التي يعلمون أنها من عندي لم تترخصها ولم تتقولها أنت يا محمد. . . ولكنها حججي عليهم أتلوها عليك يا محمد بالحق اليقين كما كان لا زيادة فيها ولا تحريف ولا تغيير شيء منه عما كان وإنك يا محمد لمن المرسلين. . إنك لمرسل متبع في طاعتي وإيثار مرضاتي على هواك فاسلك في ذلك من أمرك سبيل من قبلك من رسلي الذين أقاموا على أمري كما آثره المرسلون الذين قبلك] ٧١٨.

٢٥٣ - (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

{تلك الرسل} هؤلاء الأنبياء الذين بعثناهم إلى أقوامهم بوحينا والذين قصصنا من أنبائهم -قال تلك ولم يقل ذلك مراعاة لتأنيث لفظ الجماعة وهي رفع بالابتداء و {الرسل} نعته وخبر الابتداء بالجملة - ٧١٩ {وفضلنا بعضهم على بعض} منحت طائفة منهم من فضلي مع النبوة خيرا زائدا عليها {منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} من المرسلين الذين تعرفهم يا محمد -وأنت منهم- من خصه الله تعالى بكلامه وفي إيراد الاسم الجليل بطريق الالتفات ٧٢٠ تربية للمهابة. . . {ورفع بعضهم درجات} ٧٢١ ربما يكون المعنى طائفة من رسلي فضلتهم بكلامي دون واسطة وطائفة فضلتهم فأعطيتهم المزيد من الكرامة ورفعة القدر؛ في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة وطهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت

الشفاعة) ٧٢٢، مما نقل عن مجاهد: كلم الله موسى وأرسل محمد إلى الناس كافة.
{وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس} أعطي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام مع النبوة الحجج والأدلة المثبتة صدق دعواه فكان يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله كما منحه مولانا آيات وعلامات أخر في كل منها برهانا على أن ربنا العظيم اصطفاه وارتضاه رسولا، ومنح الإنجيل الذي بينت آياته ما فرض عليه وعلى قومه، وأعانه الله وقواه بروح الله جبريل عليه السلام أمين الملائكة الكرام وملك الوحي ومع ذلك قد نالهم من قومهم ما ذكرناه لك بعد مشاهدة المعجزات وأنت رسول مثلهم فلا تحزن على ما ترى من قومك. . -وسبب تخصيص موسى وعيسى بالذكر هو أن أمتهما موجودون حاضرون فنبه على أن هذين الرسولين مع علو درجتهما، وتبين معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهما لهما، بل نازعوا وخالفوا، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أعرضوا، ثم إن الرسل بعد مجيء البينات ووضوح الدلائل اختلف أقوامهم فمنهم من آمن ومنهم من كفر وبسبب ذلك الاختلاف تقاتلوا وتحاربوا فلهذا قال تعالى {ولو شاء الله} أي أن لا يقتتلوا {ما اقتتل الذين من بعدهم} لاختلافهم في الدين وتكفير بعضهم بعضا {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن} لالتزامه دين الأنبياء {ومنهم من كفر} بإعراضه عنه {ولو شاء الله ما اقتتلوا} كرر الكلام تكذيبا لمن زعم أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم {ولكن الله يفعل ما يريد} وفي الآية دلالة على صحة مسألة خلق الأعمال، ومسألة إرادة الكائنات وأن الكل بقضاء الله وقدره. . . ٧٢٣.
٢٥٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
{يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} نداء من العزيز الوهاب إلى أهل اليقين والتصديق أن يبذلوا من الذي أوتوه فذلك خير من التقتير والشح إذ النفقة المرتضاة تبلغ بصاحبها أعلى منازل النعيم في أخراه وتعقبه أكرم الخلف في أولاه وصدق الله العظيم {. . وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} ٧٢٤، ويقول جل ثناؤه في المتصدقين حذرا من سخطه وطمعا في رضاه {فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا} ٧٢٥؛ بل تفضل عز وتقدس فبين أن الجواد السخي كلما بذل كان ربحه أوفر لأنه يبتغي مرضاة رب جليل يتقبل القليل ويعطي عليه الأجر الجزيل والثواب الجميل مصداقا لوعده الحق في محكم التنزيل {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم. } ٧٢٦، بينما يطوق البخلاء ما بخلوا به يوم القيامة ولن تغني عنهم أموالهم من الله شيئا وما لهم من شافعين ولا صديق حميم والأمر بالنفقة هنا قد يكون للوجوب وقد يكون للندب فمن النفقات الواجبة الزكاة وما به قيام نفس المنفق ومن يعول وصيانة الأمة المسلمة مما يتهددها ومن المندوبة القربات وصدقة التطوع، عن ابن جرير {أنفقوا مما رزقناكم} قال من الزكاة والتطوع. {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} يقول ادخروا لأنفسكم عند الله في دنياكم من أموالكم بالنفقة منها في سبيل الله والصدقة على أهل المسكنة والحاجة وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها وابتاعوا بها ما عنده مما أعد لأوليائه من الكرامة بتقديم ذلك لأنفسكم ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه بما ندبتكم إليه وأمرتكم به من النفقة من أموالكم -من قبل مجيء يوم. . لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه. . قادرين، لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب لا يوم عمل واكتساب. . . ثم أعلمهم تعالى ذكره أن ذلك. . يوم لا مخالة فيه نافعة كما كانت في الدنيا فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء. . فآيسهم تعالى ذكره أيضا من ذلك لأنه لا أحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله بل {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٧٢٧ . وأخبرهم أيضا أنهم. . لا شافع لهم عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا كما أخبر تعالى ذكره عن قيل أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم} ٧٢٨ وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص وإنما معناه من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة لأهل الكفر بالله لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض. . وأما قوله {والكافرون هم

الظالمون} فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: والجاحدون لله المكذبون به وبرسله هم الظالمون. يقول: هم الواضعون جحودهم في غير موضعه والفاعلون في غير مالهم فعله والقائلون ما ليس لهم قوله. . وفي قوله تعالى في هذا الموضع {والكافرون هم الظالمون} دلالة واضحة على صحة ما قلناه وأن قوله {ولا خلة ولا شفاعة} إنما هو مراد به أهل الكفر. . فإن قال قائل وكيف صرف الوعيد على الكفار والآية مبتدأة بذكر أهل إيمان، وذلك قوله {. . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر} ثم عقب الله تعالى ذكره الصنفين بما ذكرهم به؛ يحض أهل الإيمان به على ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته وفي جهاد أعدائه من أهل الكفر به قبل مجيء اليوم الذي وصف صفته
وأخبر فيه عن حال أعدائه من أهل الكفر به. . . - ٧٢٩.

٢٥٥ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

الآية المباركة المبدوءة بالقول الكريم {لا إله إلا هو} والمختتمة بقول ربنا عز وجل {وهو العلي العظيم} بينت أربعة عشر اسما للمولى جل ثناؤه وقد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم آية الكرسي وعلمنا أنها أعظم آي القرآن الكريم. ففي الصحيح عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم) قال قلت الله ورسوله أعلم. قال {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} فضرب في صدري وقال (ليهنك العلم يا أبا المنذر). قال ابن عباس أشرف آية في القرآن آية الكرسي وقال بعض العلماء لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمر وظاهر ثمان عشرة مرة و {الله} مبتدأ و {لا إله} مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود و {إلا هو} بدل من موضع لا إله وقيل {الله لا إله إلا هو} ابتداء وخبر وهو مرفوع محمول على المعنى أي: ما إله إلا هو وليس يعبد على الحقيقة ويستوجب العبادة غير الخالق البارئ الملك القدوس وهو خبر يقتضي النهي أي لا تعبدوا إلا الله و {الحي}
٧٣٠ اسم من أسماء ربنا الحسنى تقدست أسماؤه. [وأما قوله {الحي} فإنه يعني الذي له الحياة الدائمة والبقاء الذي لا أول له يحد ولا آخر له يؤمد، إذ كان كل ما سواه فإنه وإن كان حيا فلحياته أول محدود وآخر مأمود ينقطع بانقطاع أمدها وينقضي بانقضاء غايتها. . وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك فقال بعضهم إنما سمى الله نفسه حيا لصرفه الأمور مصارفها وتقديره الأشياء مقاديرها فهو حي بالتدبير لا بحياة وقال آخرون بل هو حي بحياة هي له صفة وقال آخرون بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به فقلناه تسليما لأمره] ٧٣١

{القيوم} لا يفتقر في قوامه إلى غيره وغيره يفتقر في قوامه إليه. كما أنه القائم على كل نفس بما كسبت. عن مجاهد: القائم على كل شيء وعن الربيع: قيم كل شيء يكلؤه ويرزقه ويحفظه.

{لا تأخذه سنة ولا نوم} لا يدركه نعاس ولا يعتريه نوم فهو منزه عن خفيف النوم وثقيله، عن الضحاك السنة الوسنة وهو دون النوم، والنوم الاستثقال. وقال ابن زيد الوسنان هو الذي يقوم من النوم لا يعقل، وقال ابن جرير: لا تحله الآفات ولا تناله العاهات وذلك أن السنة والنوم معنيان يغمران فهم ذي الفهم ويزيلان من أصاباه عن الحال التي كان عليها قبل أن يصيباه فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا: الله لا إله إلا هو {الحي} الذي لا يموت {القيوم} على كل ما هو دونه بالرزق والكلاءة والتدبير والتصريف من حال على حال. {لا تأخذه سنة ٧٣٢ ولا نوم ٧٣٣}. . لو نام لكان مغلوبا مقهورا لأن النوم غالب النائم قاهره، ولو وسن لكانت السماوات والأرض وما فيهما دكا لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته والنوم شاغل المدبر عن التدبير والنعاس يمانع المقدر عن التقدير بوسنه. اهـ. {له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} لله الأحد علوي الكون وسفليه فهو خالق كل شيء وما لله شريك أو ند أو ضد، فلا ينبغي أن نعبد غيره ولا يشفع عنده أحد لأحد إلا أن يمكنه الواحد القهار من الشفاعة لديه جل علاه؛ والاستفهام في القول الكريم {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} يعني النفي أي لا أحد يشفع لديه إلا من شفعه سبحانه وفي هذا رد على الذين زعموا أن ما أشركوا بالله إنما يتخذ شفيعا لديه {. . . ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} ٧٣٤

فأبطل المولى الحكيم زعمهم كما أن الآية المباركة قررت أن الكبير المتعال جل ثناؤه يأذن لمن يشاء في الشفاعة وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن شرفهم عز ثناؤه وأكرمهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، فمن حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم في صحيحه (حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فينا أحد مما أمرتنا به فيقول عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فينا أحد ممن أمرتنا به يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خير) وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ٧٣٥ - (فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما) ٧٣٦؛ {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} قال مجاهد: {ما بين أيديهم} الدنيا {وما خلفهم} الآخرة. ولا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه. {وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم} نقل ابن جرير -رحمه الله تعالى- بسنده عن سعيد ابن جبير رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: {كرسيه} علمه. كما نقل أقوالا عدة ثم قال: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس. . . وذلك لدلالة قوله تعالى ذكره: {ولا يؤوده حفظهما} على أن ذلك كذلك فأخبر
أنه لا يؤوده حفظ ما علم وأحاط به مما في السماوات والأرض وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم {. . ربنا وسعت كل شيء وعلما. } ٧٣٧، فأخبر تعالى ذكره أن علمه وسع كل شيء فكذلك قوله {وسع كرسيه السموات والأرض} وأصل الكرسي العلم ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب: كراسة. . . ومنه يقال للعلماء كراسي. . يعني بذلك أنهم العلماء الذين تصلح بهم الأرض ومنه قول الشاعر:
يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوب
وقيل: إنه جسم عظيم يسع السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما {وهو العلي} ذو العلو عن النظير والأشباه علي على خلقه، {العظيم} المعظم الموصوف بالعظمة وأكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه الذي لا يحيطون به علما وفوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه ٧٣٨ - هذا وقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فآتاني آت فجعل يحثوا من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فإني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة) قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال: (أما إنه قد كذبك وسيعود) فعرفت أنه سيعود فرصدته فجاء يحثوا من الطعام فأخذته، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة) قلت يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال (أما إنه كذبك وسيعود) فرصدته الثالثة فجاء يحثوا من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت ومن هي قال إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظا ولا يقربك الشيطان حتى تصبح فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما فعل أسيرك البارحة) قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال وما هي قلت قال لي إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من

أولها حتى تختم الآية {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح -وكانوا أحرص شيء على الخير- فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة) قلت لا قال (ذاك الشيطان).

٢٥٦ - (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاما. . وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية وقال آخرون بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف (دين الإسلام) فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل. . . قال الله تعالى {. ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون} ٧٣٩. . وفي الصحيح: (عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل} يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة- ٧٤٠. وعن الحسن وقتادة وغيرهما أن هذا في أهل الكتاب خاصة وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية والذين يكرهون أهل الأوثان والرشد والهدي والحق، والمراد به الإسلام. والغي: الضلال في المعتقد والرأي. {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} الطاغوت أي الشيطان، روى هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عكرمة أنه الكاهن [والأولى أن يقال بعمومه سائر ما يطغى. .] ٧٤١ فمن استيقن بالله جل علاه وصدق بأحديته وجلاله وكفر بسائر ما يضل ويطغى فقد استمسك بالحبل المتين حبل الله ورشد وأفلح وفاز- والله سميع إيمان المؤمن بالله وحده الكافر بالطاغوت عند إقراره بوحدانية الله وتبرئه من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله {عليم} بما عزم عليه من توحيد الله وإخلاص ربوبيته قلبه، وما انطوى عليه من البراءة من الآلهة والأصنام والطواغيت ضميره، وبغير ذلك مما أخفته نفس كل أحد من خلقه لا يكتم عنه سر ولا يخفى عليه أمر حتى يجازي كلا يوم القيامة بما نطق به لسانه، وأضمرته نفسه إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا- ٧٤٢.

٢٥٧ - (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} ربنا الواحد البر الرحيم نصير المؤمنين وظهيرهم يتولاهم بتوفيقه ويخرجهم ٧٤٣ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام- مبصرهم حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه وهاديهم فموفقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك بكشفه عنهم دواعي الكفر وظلم سواتر أبصار القلوب- ٧٤٤. {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} وأهل الجحود والكفر يتولاهم المضلون عن الحق لينهمكوا في الغي ويزدادوا نفورا عن الرشد وهؤلاء هم ملابسو النار وملازموها، ويمكثون فيها أبدا.

٢٥٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{حاج} خاصم وجادل ونازع الحجة وغالب ليكون له الظفر.

{آتاه} أعطاه. {يأتي بالشمس} يطلعها. {بهت} تحير وغلبه البرهان.

{ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك} الاستفهام تقريري تعجيبي فكأن المعنى ألم ينته علمك -والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى- إلى أول من تجبر وادعى الربوبية إذ جادل بالباطل وخاصم إبراهيم عليه السلام وغالبه طمعا في الظفر عليه ودافع عن زيفه وزيغه في ادعاء الألوهية كبرا وبطرا بالنعمة التي أعطاها الله إياها، نعمة الملك، قال قتادة: كنا نتحدث أنه ملك يقال له النمرود وهو أول ملك تجبر في الأرض وهو صاحب الصرح ببابل. وأصل المحاجة المغالبة بالحجة لكن ذاك المفتون لم تكن له حجة إنما كان يجادل بالباطل فسمي مراؤه حجة تجوزا؛ إبراهيم عليه السلام ينادي الناس ليعلموا أنهم إنما يعبدون من دون الله أوثانا لا تملك نفعا ولا ضرا ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا لكن الذي يملك الموت والحياة هو ربنا القدير جل علاه فكبر على هذا الأفاك ما دعي إليه وادعى زورا أنه يحيي ويميت {إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت} ألقى اللعين هذه الشبهة ليلبس على الناس الحق بالباطل، {قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين} فنقله إبراهيم عليه السلام إلى أمر لا يحتمل المغالطة وهو إطلاعه الشمس من مغربها إن كان يزعم لنفسه قدرة على شيء فتحير اللعين وانقطع عن جدله وأخرسه ما ساق إبراهيم من برهان. وهكذا لا يصلح الله عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين ولا يشرح للحق صدور الجبارين المتكبرين.

٢٥٩ - (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{خاوية} خالية ساقطة منهدمة أو باد أهلها وهي قائمة بلا عامر.

{أنى} كيف ومن ومتى؟ {عام} سنة. {لبثت} مكثت وبقيت.

{يتسنه} يتغير. {ننشزها} نرفعها.

{أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه} قال المبرد. . ألم تر من هو كالذي مر على قرية ٧٤٥؛ وقيل المراد بالقرية أهلها، وعن علي بن أبي طالب أنه قال هو عزير. يقول البعض خاوية من الناس وهي قائمة بلا عامر يعمرها وقيل ساقطة منهدمة، سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها، أو سقطا على عرصاتها. فسأل متعجبا من أي طريق وبأي سبب تعمر هذه بعد خرابها وهذا السؤال مشعر بأنه يعلم قدرة الله سبحانه على الإماتة والإحياء، {فأماته الله مائة عام ثم بعثه} ظاهر الإماتة إخراج الروح من الجسد والبعث رد الروح إليه وإحياؤه. والعام السنة {قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم} ربما يكون القائل له {كم لبثت} يسأله كم بقيت ميتا؟ ملك جاءه أو معمر عاينه عندما مات وشاهده حين ردت إليه روحه وجائز أن يكون الله جل وعلا. {قال لبثت يوما أو بعض يوم} أي مكثت وبقيت ميتا ربما بعض يوم. قال قتادة: ذكر لنا أنه مات ضحى وبعث عصرا فظن أنه لم يكمل يوما {قال بل لبثت مائة سنة فمد بصرك إلى الطعام والشراب الذي كان معك فستجده أنه على حاله لم يتغير حتى تعرف أن الذي حفظه من التغير قادر على أن يحيي الموتى {وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما} ربما ليطلعه الله تعالى على مزيد من برهان القدرة أطلعه على بقايا حماره وهي تجمع بقدرة من لا يعجزه شيء، يجمع العظم إلى العظم ثم يكسى باللحم وما فوق اللحم من جلد وشعر وما دونه من عرق وعصب. {فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} فلما اتضح له كيف تكون إعادة الحياة إلى من فارق الحياة وصار رميما قال أنا قد علمت من أمر الاقتدار على البعث علم مشاهدة وإني على مزيد من اليقين أن ربي على كل شيء يريده مقتدر.

٢٦٠ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

{بلى} يجاب بها عن السؤال المنفي فتفيد إثباتا.

{فصرهن} قطعهن واضممهن.
{يأتينك} يجئن إليك. {سعيا} ساعيات متحركات.
{وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} ليرى عيانا ما كان عنده من علم ذلك خبرا فيزداد يقينا برؤيته ذلك عيانا وعلى هذا يفهم الحديث الصحيح الذي خرجه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي). و {كيف} في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد فكأن المعنى: ليسكن قلبي إلى المعاينة بعد الإيمان بالغيب ٧٤٦؛ [ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم وحشاه شكا. . قطع النبي صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله على سبيل التواضع (نحن أحق بالشك من إبراهيم) أي ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى. . {قال} أي الرب {فخذ} الفاء لجواب شرط محذوف أي إن أردت ذلك فخذ] ٧٤٧ {أربعة من الطير فصرهن إليك} عن ابن عباس: هن طاوس ونسر وغراب وديك {فصرهن إليك} قطعهن واضممهن إليك، روى أنه أمر بذبحها ونتف ريشها وأن يقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها وأن يمسك رؤوسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال التي بحضرته وفي أرضه على كل جبل ربعا ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن كل جثة إلى رأسها؛ وهذا حاصل ما نقل عن مجاهد {واعلم أن الله عزيز حكيم} عن الربيع: واعلم أن الله عزيز في نقمته حكيم في أمره.
٢٦١ - (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
{مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة} عن السدي: هذا لمن أنفق في سبيل الله فله سبعمائة، وعن ابن زيد: هذا الذي ينفق على نفسه في سبيل الله ويخرج، وعن الربيع من بايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة، ورابط مع النبي بالمدينة، ولم يلق وجها إلا بإذنه، كانت الحسنة له بسبعمائة ضعف ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها؛ -وهذه الآية مردودة إلى قوله {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون} والآيات التي بعدها إلى قوله {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت وما بعد ذلك من نبإ الذي حاج إبراهيم مع إبراهيم، وأمر الذي مر على القرية الخاوية على عروشها وقصة إبراهيم ومسألته ربه ما سأل مما قد ذكرناه من قبل، اعتراض من الله تعالى ذكره بما اعترض به من قصصهم بين ذلك، احتجاجا منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعث وقيام الساعة وحضا منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله {وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم} يعرفهم فيه أنه ناصرهم وإن قل عددهم وكثر عدد عدوهم ويعدهم النصرة عليهم ويعلمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذلهم ومفرق جمعهم وموهن كيدهم وقطعا منه ببعضه عذر اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أطلع نبيه عليه من خفي أمورهم ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم، ليعلموا أن ما آتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله وأنه ليس بتخرص ولا اختلاق وإعذارا منه به إلى أهل النفاق منه ليحذروا بشكهم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يحل بهم من بأسه وسطوته مثل الذي أحلهما بأسلافهم، الذين كانوا في القرية التي أهلكها فتركها خاوية على عروشها ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذي يقرض الله قرضا حسنا وما عنده من الثواب على قرضه فقال {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} يعني بذلك مثل الذين ينفقون ٧٤٨ أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم كمثل حبة من حبات الحنطة أو الشعير أو غير ذلك من نبات الأرض التي تسنبل سنبلة بذرها زارع فأنبتت يعني فأخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، يقول: فكذلك المنفق ماله على نفسه في سبيل

الله أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته- ٧٤٩ في صحيح البيان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة) وفي رواية بلفظ: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله هذه في سبيل الله فقال (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) [{والله يضاعف} أي تلك المضاعفة {لمن يشاء} لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين في الإخلاص أو يضاعف بسبعمائة ويزيد عليها أضعافا لمن يستحق ذلك في مشيئته] ٧٥٠؛ {والله واسع} فضله يتسع وليس له حد ففيضه أكثر من خلقه {عليم} من يستحق منهم الزيادة عليم بما ينفق الذين ينفقون أموالهم في طاعته.

٢٦٢ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، الذين يمكن أن يكون مبتدأ وخبره {لهم أجرهم} فالمنفق في دين الله تعالى ونصرته والمتصدق ابتغاء مرضاة ربه إذا لم يلحق نفقته بالتقريع بما أعطى والتفاخر على الآخذ ولم يفعل مع من أحسن إليه مكروها، وعد الله هؤلاء أن ثوابهم لدى الغفور الشكور المولى البر الرحيم. {ولا خوف عليهم} فيما يستقبلون من كرب الآخرة {ولا هم يحزنون} على ما تركوا من مال وأهل وولد.

٢٦٣ - (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

{قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم} كلمة طيبة ورد للسائل بلين ٧٥١ وتجاوز عما قد يظهر منه من إساءة أفضل من منحه الصدقة ثم إلحاق الأذى به ٧٥٢. [لأنه إذا أتبع الإيذاء الإعطاء فقد جمع بين الإنفاع والإضرار وربما لم يف ثواب النفع بعقاب الضر وأما القول المعروف ففيه إنفاع من حيث إيصال السرور إلى قلب المؤمن ولا إضرار فكان الأولى. ومن الناس من خصص الآية بالتطوع لأن الواجب لا يحل منعه ولا رد للسائل فيه ورد بأن الواجب قد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن فقير إلى فقير؛ {والله غني} عن صدقة كل منفق فما وجه المن؟ {حليم} عن معالجته بالعقوبة إذا من ولا يخفى ما فيه من الوعيد] ٧٥٣. روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق).

٢٦٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

{يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} هذا النهي المتتابع في الآيات الثلاث، والوعيد على من آذى أو من يبصر كل من يرجى منه تبصر أن عرض المسلم وكرامة الفقير ٧٥٤ أمانة ينبغي الحفاظ على صيانتها ٧٥٥؛ والإبطال إذهاب الثواب وتضييع الأجر في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب). {كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين} مثل الذي أبطل ثواب صدقته بالمن والأذى كمثل الذي يبذل ويجود ليراه الناس جوادا لا يبتغي ببذله رضوان الله ولا يرجو ثوابه نقل ابن جرير بسنده عن عمرو بن حريث قال: إن الرجل يغزو ولا يسرق ولا يزني ولا يغل ولا يرجع بالكفاف، فقيل له لما ذاك؟ قال فإن الرجل ليخرج فإذا أصابه من بلاء الله الذي قد حكم عليه سب ولعن إمامه ولعن ساعة غزاء، وقال لا أعود لغزوة معه أبدا فهذا عليه وليس له، مثل النفقة في سبيل الله يتبعها من وأذى فقد ضرب الله مثلها في القرآن {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى. } حتى ختم الآية. وفي الصحيحين ٧٥٦ خبر الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل للمغنم ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال عليه صلوات الله وسلامه (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). وفي صحيح

مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه أعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)، ضرب الله تعالى مثلا للمرائي بإنفاقه وأن حاله كحال صخر أملس عليه تراب وانصب مطر شديد على هذا الصخر فترك المطر هذا أملس يابسا لا شيء عليه من ذلك التراب وكذلك أعمال المرائين لا يبقى لها عند الله تعالى مثوبة [وقيل المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فإنكم إن فعلتم ذلك لم تقدروا على شيء مما كسبتم فالتفت من الخطاب إلى الغيبة كقوله {. . . حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم} ٧٥٧ {والله لا يهدي القوم الكافرين} معناه. . سلب الإيمان عنهم] ٧٥٨.

٢٦٥ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير} وضرب الله تعالى مثلا للذين يبذلون من أجل رضوان الولي جل علاه وقد وطنوا أنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يذهب أجرها من المن والأذى قال زجاج: تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم جازمين بأن الله تعالى لا يضيع ثوابهم، مثل نفقة هؤلاء كمثل بستان بمكان مرتفع لأن الشجر فيه أزكى فإذا أصابه المطر الشديد تضاعف ثمره فإن فاته المطر الشديد أدركه البلل والقطر اليسير فثمره كذلك موفور وربنا تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه بكل عمل بصير فيجازي بحسب النية وخلوص الطوية.

٢٦٦ - (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

{أيود} أيحب. {جنة} بستان ذو شجر عظيم.

{وأصابه الكبر} لحقه ضعف المشيب. {إعصار} ريح عاصف.

{أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون} روى البخاري في صحيحه عن عبيد ابن عمير قال: قال عمر ابن الخطاب يوما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب} قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل، قال عمر: أي عمل قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله، وقال السدي: هذا مثل آخر لنفقة الرياء أنه ينفق ماله يرائي الناس به فيذهب ماله منه وهو يرائي فلا يأجره الله فيه فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت كما أنفق هذا الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته فلم يجد منها شيئا فكذلك المنفق رياء، زاد مجاهد: كذلك المفرط بعد الموت كل شيء عليه حسرة. {أيود} أي أيحب؟ والاستفهام يراد به النفي والجنة البستان ذو الشجر العظيم وخص النخيل والأعناب مع أنه جاء بعد ذلك {له فيها من كل الثمرات} ربما لفضلها على سائر الثمرات { كذلك يبين

الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون} عن ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقاءها.
٢٦٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
{طيبات} حلال. {تيمموا} أصله تتيمموا أي تقصدوا.
{الخبيث} الرديء. {تغمضوا} تطبقوا أجفان أعينكم.
{يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم} عهد الله تعالى إلى أهل الإيمان أن يزكوا ويتصدقوا من جياد وحلال ما جمعوا من رزق من نقد وعروض تجارة وأجر صنعة ومواش مثلما أمرهم في آية سبقت من هذه السورة أن يطعموا ويلبسوا ويمتلكوا الحلال الخير فقال تقدست أسماؤه {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم. } ٧٥٩، {ومما أخرجنا لكم من الأرض} فكأن المعنى وأنفقوا أيها المؤمنون وزكوا وتصدقوا من طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من حب وثمرات ومعادن وركاز وغير ذلك، والأمر {أنفقوا} قد يحمل على الوجوب فينصرف إلى ما يخرج في الزكاة والنفقات الواجبة لا يقبل فيها إلا ما كان سليما من العيوب وقيل محمول على الندب رغبنا سبحانه في تحري الجيد حين نبذل قال بالرأي الأول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى الثاني ذهب البراء والحسن وقتادة، مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: والآية تعم الوجهين لكن صاحب الزكاة تعلق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب ولأنه نهى عن الرديء، وذلك مخصوص بالفرض، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، ودرهم خير من تمرة، تمسك أصحاب الندب بأن لفظة افعل صالح للندب صلاحيته للفرض، والرديء منهي عنه في النفل كما هو منهي عنه في الفرض والله أحق من اختبر له. اهـ. {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ٧٦٠ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه} عن البراء رضي الله تعالى عنه: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء، ومما أورد ابن جرير: فأما إذا تطوع الرجل بصدقة غير مفروضة فإني وإن كرهت له أن يعطي فيها إلا أجود ماله وأطيبه. . . والصدقة قربان المؤمن فلست أحرم عليه أن يعطي فيها غير الجيد لأن مادون الجيد ربما كان أعم نفعا لكثرته أو لعظم خطره وأحسن موقعا من المسكين وممن أعطيه قربة إلى الله عز وجل من الجيد لقلته أو لصغر خطره وقلة جدوى نفعه على من أعطيه. . {واعلموا أن الله غني حميد}. . . غني عن صدقاتكم وعن غيرها إنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم ليغني بها عائلكم ويقوي بها ضعيفكم ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم لا من حاجة به فيها إليكم، ويعني بقوله {حميد} أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه وبسط لهم من فضله. . .
٢٦٨ - (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
{الشيطان يعدكم الفقر ٧٦١ ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا}. . . الشيطان يعدكم أيها الناس بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا. . . ويأمركم بمعاصي الله عز وجل وترك طاعته، {والله يعدكم مغفرة منه}. . يستر عليكم فحشاءكم بصفحه لكم عن عقوبتكم عليها فيغفر لكم ذنوبكم بالصدقة التي تتصدقون، {وفضلا} يعني: ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم فيتفضل عليكم من عطاياه، ويسبغ عليكم في أرزاقكم. . {والله واسع عليم}. . واسع الفضل الذي يعدكم أن يعطيكموه من فضله وسعة خزائنه {عليم} بنفقاتكم وصدقاتكم التي تنفقون وتصدقون بها يحصيها لكم حتى يجازيكم بها عند مقدمكم عليه في آخرتكم.
٢٦٩ - (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ)
{أولو الألباب} أصحاب العقول.
{يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا}. . يؤتي -يعطي- الله الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده ومن يؤت الإصابة منهم فقد أوتي خيرا كثيرا. . . جميع الأقوال التي قالها القائلون. . داخل فيما قلنا من ذلك، لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة وإذا كان ذلك كذلك كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره فهما خاشيا

لله فقيها عالما وكانت النبوة من أقسامه، لأن الأنبياء مسددون مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في الأمور، والنبوة بعض معاني الحكم}. . {وما يذكر إلا أولوا الألباب}. . وما يتعظ بما وعظ به ربه. . إلا أولوا العقول. . والمواعظ غير النافعة إلا أولي الحجا والحلول. . .

٢٧٠ - (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

{وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه}. . . أي صدقة تصدقتم أو أي نذر نذرتم يعني بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبررا في طاعة الله وتقربا إليه من صدقة أو عمل خير {فإن الله يعلمه} أي أن جميع ذلك بعلم الله لا يعزب عنه منه شيء ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جميعكم على ذلك، فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذي وعده من التضعيف، ومن كانت نفقته وصدقته رياء الناس ونذوره للشيطان جازاه بالذي أوعده من العقاب وأليم العذاب. . . {وما للظالمين}. . . وما لمن أنفق ماله رياء الناس وفي معصية الله وكانت نذوره للشيطان وفي طاعته {من أنصار} وهم جمع نصير. . من ينصرهم من الله يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة بطش ولا بفدية. اهـ.

٢٧١ - (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

{تبدوا} تظهروا.

{إن تبدو الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن وإخفاء التطوع أفضل؛ وقال ابن عباس جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها. . وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها. . قال وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة) وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه). {ويكفر عنكم من سيئاتكم} لعل المعنى: والله يجزي المتصدقين فيرفع لهم الدرجات ويمحو عنهم الخطيئات، {والله بما تعملون خبير} لا يغيب عنه شيء مما يعمل العاملون وهو ذو خبرة بما يسرون وبما يعلنون وسيجزي أهل البر ببرهم لا يبخسون.

٢٧٢ - (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)

{ليس عليك هداكم ولكن الله يهدي من يشاء} الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد هو وأمته، ويشهد لهذا أن ما قبله عام. {إن تبدوا الصدقات} وما بعد عام {وما تنفقوا من خير فلأنفسكم} عن ابن عباس قال: كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة من قريظة والنضير وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا فنزلت {ليس عليك هداهم} وعن قتادة: وذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا أنتصدق على من ليس من أهل ديننا فأنزل الله في ذلك القرآن {ليس عليكم هداهم} مما نقل عن علماء الأحكام: الصدقة التي أبيحت لغير المسلمين هي صدقة التطوع وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر لقوله عليه السلام (أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم)؛ قال ابن العربي: سائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبيها لدخولهم في اسم المسلمين، وفي صحيح مسلم أن رجلا تصدق على غني وسارق وزانية وتقبلت صدقته. {وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله} ثواب النفقة يعود إلى المنفق ولنفسه حصل العاقبة الحسنى؛ ومن أنفق يريد بنفقته الثواب ٧٦٢ فعليه أن يخلص النية والقصد وأن لا يرجو بذلك إلا رضوان الله جل علاه {وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون} ربنا تقدست أسماؤه لا يظلم مثقال ذرة {. . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ٧٦٣.

٢٧٣ - (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)
{التعفف} ترك الشيء مع القدرة على غشيانه.
{سيماهم} علامتهم.
{إلحافا} إلحاحا.
{للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا} من مصارف الصدقات التي يعظم أجرها إعطاء الفقراء الذين منعوا من السعي في طلب الرزق كالذين انقطعوا للعلم والجهاد فهم لا يتيسر لهم التنقل في البلاد بحثا عما يسد حاجتهم وهم مع عوزهم يتركون سؤال الغير وإن سألوا كنوا وتلطفوا ولم يلحوا وإن علامات الضر والمسكنة لترى في وجوههم لكنهم يتجملون بالصبر ويترقبون من الله تعالى كشف الضر وهؤلاء هم المساكين على الحقيقة فقد روى البخاري وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف اقرءوا إن شئتم يعني قوله {لا يسألون الناس إلحافا}). وفي رواية أخرجها عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بهذا الطواف التي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا). {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم} - فيه أن ثواب هذا الإنفاق الذي هو أعظم المصارف لا يكتنه كنهه فلذلك وكل إلى علم الله تعالى. . . ثم أرشد في خاتمة الآيات إلى أكمل وجوه الإنفاقات بقوله {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.
٢٧٤ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)
{الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}
وذلك أن الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة يكون ذلك منهم دليلا على الحرص البالغ والاهتمام التام كلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه متعللين بوقت وحال؛ والباء بمعنى في أي في الليل والنهار. و {سرا وعلانية} منصوبان على الظرفية أيضا أي في أوقات السر والعلن - ٧٦٤.
٢٧٥ - (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
أربع عشر ٧٧٤ آية تتابعت في البشرى للذين ينفقون في الطاعات ويخرجون الزكوات ويتصدقون على ذوي الحاجات في سائر الأحوال والأوقات وهدت إلى أدب الإنفاق وحذرت مما يذهب أجره كالرياء والمن والأذى وجاءت بعدها ست آيات تتوعد المرابين وتدعوهم إلى سبيل التائبين وتحبب إليهم إنظار المعسرين والتجاوز عن العاجزين
{يأكلون} ينتفعون بأكل أو شرب أو لبس أو ركوب أو تملك.
{الربا} الزيادة والكسب الحرام والنساء والقرض الذي يجر نفعا للمقرض.
{يقومون} يبعثون. {يتخبطه الشيطان من المس} يحركه حركة مضطربة جنونية. {سلف} تقدم ومضى.
وبدأت آيات الربا بقول مولانا الملك الحق المبين {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} -والربا في اللغة معناه الزيادة، والربا الذي عليه عرف الشرع شيئان: تحريم النساء ٧٦٥ والتفاضل في النقود وفي المطعومات - ٧٦٦. روى الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء) وفي رواية (الورق بالورق ربا إلا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء)؛ وهاء وهاء: هو أن يقول كل واحد من المتبايعين هاء فيعطيه ما في يده وقيل معناه هاك وهات أي خذ وأعط مثل الحديث الآخر (إلا يدا باليد) ومثل الذي يأخذ الأموال المكتسبة بتعامل ربوي مثله في تخبطه واضطرابه

واختلال مسيره يوم يبعث كمثل الذي يصرع وقد خالطه الجنون وقيل من عادة الناس إذا أرادوا تقبيح شئ أن يضيفوه إلى الشيطان كما في قوله تعالى {طلعها كأنه رؤوس الشياطين} ٧٦٧ فرد القرآن على ذلك -وأكثر المسلمون على أن الشيطان لا يبعد أن يكون قويا على الصرع والقتل والإيذاء بتقدير الله تعالى وللمفسرين في الآية أقوال: أحدهما أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقوله {من المس} يتعلق ب {لا يقومون} أي لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع من المس {ذلك} العقاب {بأنهم قالوا} بسبب قولهم {إنما البيع مثل الربا} وذلك أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلا ٧٦٨. . وأجاب الله تعالى. . بحرف واحد وهو قوله {وأحل الله البيع وحرم الربا} وحاصله إنكار التسوية وأن النص لا يعارض بالقياس ٧٦٩. . . ثم ظاهر الآية يدل على أن الوعيد إنما لحقهم باستحلالهم الربا دون إقدام على أكله مع اعتقاد التحريم ٧٧٠. . إطلاق اللفظ المستغرق على الأغلب عرف مشهور- ٧٧١.

{فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله} قال السدي أما الموعظة فالقرآن وأما ما سلف فله ما أكل من الربا وهكذا لا يؤاخذ الله تعالى بذنب اقترفه مذنب قبل أن يعلم حرمته ويشهد لذلك قول المولى تقدست أسماؤه {. . إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} ٧٧٢ عن الزجاج: فلا يؤاخذ بما مضى منه لأنه أخذ قبل نزول التحريم {وأمره إلى الله} لأنه انتهى عن أكل الربا كما انتهى عن استحلاله فهو المقر بدين الله العامل بتكاليفه فيستحق المدح والثواب وإن انتهى عن الاستحلال دون الأكل فإن شاء غفر له لقوله {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ٧٧٣، {ومن عاد} إلى استحلال الربا وأنه مثل البيع {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} لأنه كفر باستحلال ما هو محرم إجماعا. . .

ذكر ما يجري مجرى الداعي إلى ترك الربا وفعل الصدقة فقال {يمحق الله الربا ويربي الصدقات}

٢٧٦ - (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار

{يمحق} يذهب البركة. {كفار} مبالغ في الكفر. {أثيم} مبالغ في الذنب.

{يمحق الله الربا ويربي الصدقات} والمحق نقص الشيء حالا بعد حال ومنه محاق القمر وكل من محق الربا وإرباء الصدقات إما في الدنيا وإما في الآخرة وذلك أن الغالب في المربي وإن كثر ماله أن تؤول عاقبته إلى الفقر وتزول البركة عن ماله وذلك لدعاء الناس عليه وبغضهم إياه لسقوط عدالته وشهرته بالفسق والعدوان- ٧٧٥. وعن ابن عباس في تفسير هذا المحق أن الله تعالى لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حجا ولا صلة،

{والله لا يحب كل كفار أثيم} إن المصر على استحلال الحرام واستمرار الربا والسحت مبالغ في الكفر لا يحبه المولى سبحانه وكذا من تمادى في اقتراف الأوزار وأكل الربا فإنه مبالغ فيه في الإثم موغل في الفسوق والله لا يحب الكافرين ولا الفاسقين فكيف بالمبالغين في الغي والكفران.

٢٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [الذين صدقوا بالله وبرسوله وبما جاء من عند ربهم من تحريم الربا وأكله وغير ذلك من سائر شرائع دينه، وعملوا الصالحات التي أمرهم الله عز وجل بها والتي ندبهم إليها وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأدوها بسننها وآتوا -أعطوا- الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم بعد الذي سلف منهم من أكل الربا قبل مجيء الموعظة فيه من عند ربهم {لهم أجرهم} يعني ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقهم {عند ربهم} يوم حاجتهم إليه في معادهم {ولا خوف عليهم} يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم وكفرهم قبل مجيئهم موعظة ربهم، من أكل ما كانوا أكلوا من الربا بما كانوا من إنابتهم وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم

وتصديقهم بوعد الله ووعيده {ولا هم يحزنون} على تركهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكل الربا والعمل به إذا عاينوا جزيل ثواب الله تبارك وتعالى وهم على تركهم ما تركوا من ذلك في الدنيا ابتغاء رضوان الله في الآخرة فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه] ٧٧٦.
٢٧٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين} -لما بين سبحانه أنه من انتهى عن الربا فله ما سلف كان يجوز أن يظن أنه لا فرق بين المقبوض منه وبين الباقي في ذمة القوم ٧٧٧ - فقال تقدست أسماؤه {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا} دعوا واتركوا ما بقي من المقترضين زائدا على ما أقرضتموهم إياه (إن كنتم محققين إيمانكم قولا وتصديقكم بألسنتكم بأفعالكم) عن قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم الفتح " ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله وأول ربا أبتدئ به ربا العباس بن عبد المطلب " لكن الذي رواه أبو داود عن سليمان بن عمر عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع (ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وذكر الحديث.
٢٧٩ - (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار
{فأذنوا بحرب} فاستيقنوا بحرب.
{فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله} نقل عن ابن عباس: من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه وقيل المعنى إن لم تنتهوا فأنتم حرب لله ولرسوله: أي أعداء. {وإن تبتم} عن الربا {فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون} ({لا تظلمون} بأخذكم رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل {ولا تظلمون} يقول والغريم الذي يعطيكم ذلك دون الربا الذي كنتم ألزمتموه من أجل الزيادة في الأجل يبخسكم حقا لكم عليه فيمنعكموه، قال ابن زيد. . لا تنقصون من أموالكم ولا تأخذون باطلا لا يحل لكم.
٢٨٠ - (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار
{وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة} وإن كان معسرا برؤوس أموالكم التي كانت لكم عليهم قبل الإرباء فأنظروهم) ٧٧٨، عن ابن عباس: إنما أمر في الربا أن ينظر معسر وليست النظرة في الأمانة ولكن يؤدي الأمانة إلى أهلها {وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون} إن كنتم علمتم جزاء المتصدقين ورغبتهم في أن تدعوا لمن أعسر رأس المال الذي لكم عنده فلذلك أحسن عاقبة لمن تصدق على غريم معسر مما روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه) وفي صحيح مسلم (من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله).
٢٨١ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧٥ إظهار
{واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} يعظ الله تعالى عباده ويحذرهم الآخرة {يوما} هو يوم القيامة وتنكيره للتهويل، [وقوله {إلى الله} فيه مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله] ٧٧٩. {ثم توفى} تعطى كاملا { كل نفس} مكلفة {ما كسبت} ما عملت أي جزاء ما عملت {وهم لا يظلمون} واحذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه أن تردوا عليه بسيآت تهلككم أو بمخزيات تخزيكم أو بفضحات تفضحكم فتهتك أستاركم أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قبل لكم به وإنه يوم مجازاة الأعمال لا يوم استيعاب ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، كيف يظلم من جوزي

بالإساءة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا بل عدل عليك أيها المسيء وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن فاتقى امرؤ ربه فأخذ منه حذره وراقبه أن يهجم عليه يومه، وهو من الأوزار ظهره ثقيل ومن صالحات الأعمال خفيف وإنه عز وجل حذر فأعذر ووعظ فأبلغ عن ابن عباس: آخر آية عن النبي صلى الله عليه وسلم {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله}، وعن ابن جرير: يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بعدها تسع ليال وبدا يوم السبت ومات يوم الاثنين، عن عامر أن عمر رضي الله عنه قام لحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنه والله ما أدري لعلنا نأمركم بأمر لا يصلح لكم وما أدري لعلنا ننهاكم عن أمر يصلح لكم وإنه كان من آخر القرآن تنزيل آيات الربا فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبينه لكم فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، وفي رواية سعيد ابن المسيب عنه بزيادة فدعوا الربا والريبة.

٢٨٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{تداينتم} تعاملتم بالدين وهو كل شيء غير حاضر.

{أجل مسمى} وقت معلوم محدد.

{لا يأب} لا يمتنع. {سفيها} ضعيف العقل. {وليملل} وليمل على الكاتب ليكتب.

{تضل} تنسى. {تسأموا} تضيقوا.

{أجله} الوقت المؤجل له. {أقسط} أعدل.

{أقوم} أكثر استقامة. {وأدنى} وأقرب.

{ترتابوا} تشكوا. {فسوق} خروج عن الطاعة.

في الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أسلف فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم) وروى البخاري عن ابن عباس: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ثم قرأ {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى} نقل عن بعض الصحابة أن الآية في السلم خاصة لكن الإجماع على أنها ربما تكون نزلت بسبب السلم ثم هي تتناول جميع المداينات وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة، والعين عند العرب ما كان حاضرا ويقابله الدين وهو ما كان غائبا ومنه قول الشاعر:

وعدتنا بدرهمينا طلاء ... وشواء معجلا غير دين

{تداينتم بدين} أي تعاملتم تعاملا فيه مداينة ف {بدين} إذن تكون توكيدا ٧٨٠، كما في قوله تعالى {قالوا آمنا بأفواههم} ٧٨١. {إلى أجل مسمى} قال ابن المنذر: دل هذا على أن السلم إلى أجل مجهول غير جائز ودلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل معنى كتاب الله، يقول علماء الأحكام: وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثين حكما وهي أطول آية في القرآن، {فاكتبوه} أي اكتبوا الدين والأجل، مبينا محددا، وهل الأمر للوجوب أم للندب؟ الجمهور على أن كتابة الدين والأجل مستحبة، {وليكتب بينكم كاتب} قال عطاء: واجب على الكاتب أن يكتب {بالعدل} أي بالحق والمعدلة أي لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل وإنما قال {بينكم} ولم يقل أحدكم لأنه لما كان الذي له الدين يتهم في الكتابة التي عليه الدين وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعدل

لا يكون في قلبه ولا قلمه موادة لأحدهما على الآخر. .، الباء في قوله تعالى {بالعدل} متعلقة بقوله {وليكتب}. . قال مالك رحمه الله تعالى: لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها عدل في نفسه مأمون لقوله تعالى {وليكتب بينكم كاتب بالعدل} فالباء على هذا متعلقة ب {كاتب} أي ليكتب بينكم كاتب بالعدل ف {العدل} في موضع الصفة؛ {ولا يأب كاتب أن يكتب} نهى الله الكاتب على الإباء. . قال ابن العربي: والصحيح أنه أمر إرشاد فلا يكتب حتى يأخذ حقه ٧٨٢؛ {كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا} ليفضل الكاتب، فإن المولى سبحانه تفضل عليه فعلمه ما حرم منه غيره؛ [وليتول المدين إملال -إملاء- كتاب ما عليه من دين رب المال على الكاتب {وليتق الله ربه} المملي الذي عليه الحق فليحذر عقابه في بخس -نقص- الذي له الحق من حقه شيئا. . {فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل}. . . عن مجاهد. . . أما السفيه فالجاهل بالإملاء والأمور. . وأن الموصوف بالضعف وإن كان شديدا رشيدا إما لعي لسانه أو خرس به وأنه الموصوف بأنه لا يستطيع أن يمل هو الممنوع من إملائه، إما بالحبس الذي لا يقدر معه على حضور الكاتب الذي يكتب الكتاب فيمل عليه وإما لغيبته عن موضع الإملال. . . فوضع الله عنهم فرض إملال ذلك. . {فليملل وليه بالعدل} ولي السفيه والضعيف -ومن لا يستطيع-. . فوليه بمنزلته حتى يضع لهذا حقه- ٧٨٣.

{واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى}، ندب الله تعالى المتبايعين بالدين أو عامة المتعاملين إلى أن يشهدوا على تعاملهم وأن يلي هذا رجلان مسلمان حران فإن لم نجد رجلين يشهدان فلنستشهد برجل وامرأتين من العدول المرتضين، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة فإذا نسيت واحدة الشهادة ذكرتها الثانية بما وقع. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار)، فقالت امرأة منهن جزلة -تامة الخلق جيدة الرأي- ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: (تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن) قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: (أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين).

{ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا} الجمهور من الفقهاء على أن الشاهد إذا دعي لأداء الشهادة فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية. روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بشهادة قبل أن يسألها)، وفي الصحيحين (ألا أخبركم بشر الشهداء الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا) وكذا الحديث (ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) فهؤلاء شهود الزور.

{ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا} ذلكم الذي وصاكم الله تعالى به -من كتابة الدين- أو التعامل وكذا الإشهاد عليهما- لا ينبغي أن نتركه مهما كان المال المتعامل به صغيرا أو كبيرا وأيا ما كانت المدة لهذا الشيء قريبة أو بعيدة فإن الكتابة والاستشهاد أعدل في ميزان الشرع وأثبت للشاهد فقد ينسى، وأقرب إلى عدم الريبة والشك إذ حين التنازع يرجع إلى الكتاب الذي كتب فيفصل دون أن يرتاب أحد؛ {إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم} إلا أن تكون المعاملة تجارة نتقابضونها ونتفاصلون فيها ويذهب كل منكما بما اشترى من صاحبه فلا حرج عليكم ولا ضيق في ترك الكتابة، وكان ابن عمر إذا باع بنقد أشهد وإذا باع بنسيئة بتأجيل كتب. وقال الطبري: لا يحل لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلا أن يشهد وإلا كان مخالفا كتاب الله عز وجل وكذا إذا كان أجل فعليه أن يكتب ويشهد إن وجد كاتبا؛ وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على الندب والإرشاد لا على الحتم ومما قال عطية وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستئلاف -زرع الألفة- بترك الإشهاد وقد يكون عادة في بعض البلاد، وقد يستحيي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه فيدخل ذلك في الائتمان يشير إلى قول الله تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه {فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه} ويبقى الأمر بالإشهاد ندبا لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنعه منه. . اهـ.

}ولا يضار كاتب ولا شهيد{ عن الحسن وقتادة: لا يكتب الكاتب ما لم يمل عليه ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها، وعن ابن عباس وعطاء: لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهد أن يشهد، وعن الضحاك ومجاهد: بأن يدعى الشاهد إلى الشهادة والكاتب إلى الكتب وهما مشغولان فإذا اعتذرا بعذرهما أخرجهما وآذاهما؛ }وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم{ عن سفيان الثوري: من أوقع المضارة فقد وقع في المعصية وابن كثير يقول: فإنه فسق كائن بكم أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه. . .؛ }واتقوا الله{ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، }ويعلمكم الله{ كقوله }يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا. { ٧٨٤ وكقوله }يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتيكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به. { ٧٨٥، أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

٢٨٣ - (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

}فرهان{ فأشياء توضع عند المعطين تنوب مناب ما أخذ منهم.

}وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم{ حين يتداين المسافرون لهم أن يجعلوا بين المدين والدائن رهنا وشيئا يبقى لدى الدائن حتى يرد المدين ما أخذ فسيرد الرهن، فإن تساهل الدائن واطمأن إلى أمانة المدين فلم يكتب ولا ارتهن فعلى المدين أن يؤدي الأمانات إلى أهلها فإن المؤمن التقي إذا اؤتمن أدى بخلاف المنافق أعاذنا الله تعالى من النفاق فإنه إذا اؤتمن خان ونهى المولى الكبير المتعال أن تخفى الشهادة وأن يمتنع الشاهد عن أدائها أو يؤديها على غير وجهها فإن ذلك يستوجب مقت الله كقوله تعالى: }. . ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين{ ٧٨٦، وربنا محيط علمه بكل قول وعمل وبكل سر ونجوى فإن أضمر متعامل شرا أو غير كاتب أمرا أو كتم شاهد أو خان مؤتمن فما ربح ولا أفلح بل خاب وخسر لأن الذي يجزي -سبحانه- يعلم ما ظهر وما بطن ويجزي الذين أساءا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

٢٨٤ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم }لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله{ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها }آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير{ فلما فعلوا ذلك نسخها ٧٩٠ الله تعالى فأنزل الله عز وجل }لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا{ قال " نعم " }ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا{ قال " نعم " }ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به{ قال " نعم " }واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين{ قال " نعم " وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا) وفي رواية (ما وسوست به صدورها) ولمسلم: (ما لم يتكلموا أو يعملوا به).

}تبدوا{ تظهروا.

{لله ما في السموات وما في الأرض} ربنا الواحد المعبود مالك السماوات والأرض وملكهما وما فيهما {وإن تبدوا} تظهروا {ما في أنفسكم أو تخفوه} ما تحدث به النفس وما تنطوي عليه الجوانح أو تبقوه مستترا في صدوركم {يحاسبكم به الله} يسألكم عنه ويجزيكم به عاجلا وآجلا {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير} في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإن هم بحسنة فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا) إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة). ونقل عن طائفة من المفسرين والمأثور أنها محكمة لم تنسخ إذ لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وقد يحاسب سبحانه ويغفر ويشهد لهذا ما رواه قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول في النجوى؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول ٧٨٧: (يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم قال فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه أما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الأشهاد {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} ٧٨٨ (. {والله على كل شيء قدير} تذييل مقر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب- ٧٨٩. قال الزجاج لما ذكر الله تعالى عز وجل في هذه السورة الجلية الشأن، الواضحة البرهان فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، والحيض والطلاق والإيلاء، والجهاد وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدين والربا ختمها بهذا {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}.

٢٨٥ - (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨٤ إظهار

{آمن} صدق واستيقن.

{غفرانك} سترك وعفوك وصفحك. {المصير} الرجوع.

{آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} تعظيما لنبيه صلى الله عليه وسلم وأتباعه وتأكيدا وفذلكة لجميع ذلك المذكور من قبل وقد شهد سبحانه وتعالى هنا لمن تقدم في صدر السورة بكمال الإيمان وحسن الطاعة واتصافهم بذلك الفعل. . اهـ.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨٦ إظهار

٢٨٦ - (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨٤ إظهار

{وسعها} ما تقدر عليه. {إصرا} قيدا وثقلا وعهدا.

{مولانا} مطاعنا ومصلحنا ولينا.

{لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} بشر المولى سبحانه بأنه شرع لنا شرعة سمحة يريد بها اليسر لأهل الدين والرحمة للعالمين يقول ابن عطية: نص الله تعالى على أنه لم يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} وهو كقوله تعالى { كل

نفس بما كسبت رهينة} ٧٩١ وقوله جل ثناؤه {. . كل امرئ بما كسب رهين} ٧٩٢، وكذا القول الرباني الحكيم {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} ٧٩٣، فلكل عبد ثواب ما عمل من خير وعليه عقاب ما ارتكب من إثم وزور، {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} كأن في الكلام مقدارا أي قولوا ربنا لا تؤاخذنا، يعلمنا مولانا كيف نتضرع إليه قال ابن زيد: إن نسينا شيئا مما افترضته علينا أو أخطأنا شيئا مما حرمته علينا، ويقول ابن جرير: لا تؤاخذنا إن نسينا شيئا فرضت علينا عمله فلم نعمله أو أخطأنا في فعل شيء نهيتنا عن فعله على غير قصد منا إلى معصيتك ولكن على جهالة منا بخطأ. . . إن قال لنا قائل: وهل يجوز أن يؤاخذ الله عز وجل عباده بما نسوا أو أخطئوا فليسألوه أن يؤاخذكم بذلك؟ قيل إن النسيان على وجهين أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط والآخر على وجه عجز الإنسان عن حفظ ما استحفظ ووكل به وضعف عقله عن احتماله، فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط فهو ترك منه بفعله فذلك الذي يرغب العبد إلى الله عز وجل في تركه مؤاخذته به وهو النسيان الذي عاقب الله عز وجل به آدم صلوات الله عليه فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما} ٧٩٤، وهو النسيان الذي قال جل ثناؤه {. . فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا} ٧٩٥، فرغبة العبد إلى الله عز وجل بقوله ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا فيما كان من نسيان منه لما أمر بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطا منه فيه. . . وأما الذي العبد به غير مؤاخذ لعجز بنيته عن حفظه وقلة احتمال عقله ما وكل بمراعاته فإن ذلك من العبد غير معصية وهو به غير آثم. . وكذلك للخطأ وجهان. . .؛

{ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا}. . . يعني بالإصر العهد. . عنى بقوله: {ولا تحمل علينا إصرا} ولا تحمل علينا فنعجز عن القيام به ولا نستطيع {كما حملته على الذين من قبلنا} يعني على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالا وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها فلم يقوموا بها فعجلوا بالعقوبة. . . عن قتادة يقول: كما غلظ على من قبلنا. . . {ربنا ولا تحملنا ما طاقة لنا به}. . عن الضحاك. . لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق. . وعن السدي:. . التغليظ والأغلال التي كانت عليهم من التحريم. .

{واعف عنا واغفر لنا}. . قال ابن زيد:. . واستر علينا زلة إن أتيناها فيما بيننا فلا تكشفها ولا تفضحنا بإظهارها. .

{وارحمنا} لا ننال العمل بما أمرتنا به ولا نترك ما نهيتنا عنه إلا برحمتك، قال: ولم ينج أحد إلا برحمتك. . .

{أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه} قال قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى قوله {غفرانك ربنا} قال الله عز وجل: قد غفرت لكم فلما قرأ {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} قال الله عز وجل لا أحملكم، فلما قرأ {واغفر لنا} قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم، فلما قرأ و {وارحمنا} قال الله عز وجل: قد نصرتكم عليهم. اهـ.

وفي فضل هاتين الآيتين أخرج البخاري ومسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه)، وروى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال (بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلى اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)

وفي فضل السورة وردت أحاديث كثيرة ففي صحيح مسلم عن أبي أمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرةَ وآلَ عمرانَ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أوكأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابها اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)، قال معاوية بن سلام: بلغني أن البطلة السحرة وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) وفي هذه السورة المباركة آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي وقد أوردنا في تفسير الصحاح الواردة في فضلها. فمن أراد أن يشفع فيه كتاب الله يوم العرض على مولاه فليقرأ متدبرا

وليصحب القرآن العظيم مستجيبا لهداه وبعروته الوثقى مستمسكا، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق أن آيات الذكر الحكيم بدءا بآيات سورة البقرة إنما تحاج عن المتبعين للكتاب المبين (يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران. . تحاجان عن صاحبهما) أخرجه مسلم.

٣ سورة آل عمران:

سورة آل عمران:
مدنية وآياتها مائتان
كلماتها ٣٤٨٥ حروفها: ١٤٤٢٤
١ - (الم)
{الم}
السورة المبدوءة بحروف مقطعة تسع وعشرون سورة وحين ننطق بهذه الفواتح ننطق بأسماء الحروف ١ ثم من العلماء من عد هذه الفواتح مما استأثر الله تعالى بعلمه فردوا علمها إليه سبحانه ومنهم من قال: هي من المحكم الذي يمكن التوصل إلى معناه فإما أن تكون أسماء للسور أو أقساما أقسم ربنا جل وعز بها ولربنا الحكيم أن يقسم بما شاء وذهب البعض إلى أن كل حرف منها يدل على اسم من أسمائه الحسنى أو صفة من صفاته فالألف مفتاح اسم {الله} واللام مفتاح {اللطيف} والميم مفتاح اسمه {المجيد} وذهب آخرون إلى أنها ذكرت في أوائل السور للإعجاز إذ هذه الحروف ينطق الخلق بها والقرآن العزيز مركب منها ومع ذلك عجزوا وسيظلون عاجزين عن الإتيان بكلام يشبه كلام الملك القدوس عز وجل.
٢ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)
{الله لا إله إلا هو الحي القيوم}
المستحق للعبادة هو الله لا يستحقها سواه- و {الله} مبتدأ و {لا إله} مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبودا أو موجودا و {إلا هو} بدل من موضع {لا إله}. . . . . . {الحي القيوم} نعت لله عز وجل. . قال الطبري: عن قوم إنه يقال حي قيوم كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه. .، وقال السدي: المراد بالحي الباقي. . {القيوم}. . القائم بتدبير ما خلق عن قتادة وقال الحسن معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شيء منها، وقال ابن عباس معناه الذي لا يحول ولا يزول- ٢.
٣ - (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)
{الكتاب} القرآن. {بالحق} بالصدق. {لما بين يديه} لما سبقه.
{التوراة} كتاب الله المنزل على موسى عليه السلام.
{الإنجيل} كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام.
القرآن الموحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو وحي الحكيم سبحانه أنزله ٣ متلبسا بالحق مشتملا على ما يقيم بين الناس ميزان القسط والعدل وفيه ما يشهد للتوراة والإنجيل بالصدق ويبين ما أخفاه منهما أهل التحريف والزيغ، وقد جاء الفرقان والكتاب المجيد بعدهما ناسخا لهما مهيمنا عليهما ومن يجحد آيات ربنا التنزيلية وحججه التكوينية فإن عقابه على جحوده أليم موجع مذل دائم ولا يمنعه من بأس الله مانع.
٤ - (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)
{الفرقان} الذي فرق الله تعالى به بين الحق والباطل وهو القرآن.
{عزيز} لا نظير له ولا مثيل له والقاهر الذي يغلب ولا يغلب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
٥ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)
ربنا المعبود بحق لا يغيب عن سمعه وبصره ولا يستتر عن علمه شيء في الكون كله علويه وسفليه - وعبر عن معلوماته بما في الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك لقصور عباده بما سواها من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته من جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه وكفر من كفر- ٤. عن محمد ابن الزبير: {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} أي قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى جعلوه ربا وإلها وعندهم من علمه غير ذلك، غرة بالله وكفرا به وعنه {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء}
٦ - (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
{الأرحام} واحدها رحم وهو موضع الجنين من المرأة.
{هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء} قد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بني آدم فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل؟.
وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: قوله تعالى {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء} إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوما ثم تكون علقة أربعين يوما ثم تكون مضغة أربعين يوما فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكا يصورها كما يؤمر فيقول أذكر أو أنثى أو أشقى أو سعيد وما رزقه وما عمره وما أثره وما مصائبه؟ فيقول الله ويكتب الملك.
. ثم أعلمهم أنه الحكيم في تدبيره وإعذاره إلى خلقه ومتابعة حججه عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.
٧ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ)
{محكمات} معروف تفسيرها مفهوم أو لا يصرفن عما وضعن عليه.
{متشابهات} ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل أو لهن تصريف وتأويل.
{زيغ} ميل عن القصد. {تأويله} ما يؤول إليه الأمر ويصير.
{يذكر} يتذكر فلا ينسى ويتدارس فيحفظ دون ترك أو تضييع.
{أولوا الألباب} أصحاب العقول.
قوله {منه آيات محكمات}. . يعني آيات القرآن وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبينات والتفصيل وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام ووعد ووعيد، وثواب وعقاب وأمر وزجر ومثل وعظة وعبر. . وما أشبه ذلك. ثم وصف جل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن {هن الفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه- ٥.
أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب} قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه ٦ منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم).
٨ - (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)
{ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد}.

جاز أن يكون هذا من تتمة حال الراسخين ومقالهم فهم مستيقنون بأن محكم القرآن ومتشابهه تنزيل من الحكيم الحميد وهم يضرعون إلى ربنا القريب المجيب أن يثبتهم على هذا التصديق واليقين حتى لا تميل القلوب عن سبيل الحق والرشد ويدعونه أن يمنحهم رحمة في أولاهم وأخراهم كما يسألونه وهو الذي يبعث الخلائق يوم النشور أن ينجيهم من الخزي والعذاب وأن يعظم لهم الأجور وجائز أن يكون خبرا يراد به الطلب أي قولوا ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا - {رحمة} ليشمل جميع أنواعها فأولها أن يحصل في القلب نور الإيمان والتوحيد والمعرفة وثانيها أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية. . وثالثها أن يحصل له في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية ورابعها أن يحصل له عند الموت سهولة أسباب سكرات الموت، وخامسها سهولة السؤال والظلمة والوحشة في القبر، وسادسها في القيامة سهولة الخطاب وغفران السيآت وتبديلها بالحسنات، وسابعها في الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وثامنها في الحضرة رفع الأستار ورؤية الملك الجبار- ٠٧.

٩ - (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد}.

جاز أن يكون هذا من تتمة حال الراسخين ومقالهم فهم مستيقنون بأن محكم القرآن ومتشابهه تنزيل من الحكيم الحميد وهم يضرعون إلى ربنا القريب المجيب أن يثبتهم على هذا التصديق واليقين حتى لا تميل القلوب عن سبيل الحق والرشد ويدعونه أن يمنحهم رحمة في أولاهم وأخراهم كما يسألونه وهو الذي يبعث الخلائق يوم النشور أن ينجيهم من الخزي والعذاب وأن يعظم لهم الأجور وجائز أن يكون خبرا يراد به الطلب أي قولوا ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا - {رحمة} ليشمل جميع أنواعها فأولها أن يحصل في القلب نور الإيمان والتوحيد والمعرفة وثانيها أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية. . وثالثها أن يحصل له في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية ورابعها أن يحصل له عند الموت سهولة أسباب سكرات الموت، وخامسها سهولة السؤال والظلمة والوحشة في القبر، وسادسها في القيامة سهولة الخطاب وغفران السيآت وتبديلها بالحسنات، وسابعها في الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وثامنها في الحضرة رفع الأستار ورؤية الملك الجبار- ٠٨.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

{إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا} هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أن من لم يصدق بالله تعالى وما يجب الإيمان به فإن أقرب قريب إليهم من مال وولد لا يدفع عنهم ما نزل العزيز بهم من بأس، والمال والولد أول ما يفزع إليه عند النوازل، و {من} في قوله {من الله} للبدل مثل قوله {. . إن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٩ أي بدله والمضاف محذوف تقديره لن تغني عنهم بدل رحمة الله وطاعته شيئا وفي الحديث (ولا ينفع ذا الجد منك الجد) أي لا ينفعه جده وحظه في الدنيا بدل طاعتك وعبادتك ١٠ {وأولئك هم وقود النار} هم في الدنيا مخذولون وفي الآخرة تسعر بهم النار وما لهم من شفعاء ولا أنصار فهم حطب جهنم وتعلوهم الذلة والصغار.

١١ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{كدأب} كصنيع وحال وأمر وشأن وعادة.

{كدأب آل فرعون والذين من قبلهم} شأن الذين يكذبون بما بعث الله به النبي الخاتم كشأن قوم فرعون والأمم المكذبة من قبلهم مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح ومن على شاكلتهم ممن جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله فلما آسفونا أذقناهم الخزي وأحللنا بهم النقمة والبأس في الدنيا وعذاب الآخرة أخزى.

١٢ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

{قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} أمر من الله العلي الكبير إلى نبينا البشير النذير أن يحذر أهل الكفر من العذاب العاجل -الغلبة والهزيمة- والآجل- (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش.) ١١ عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا) فقالوا يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تأت مثلنا فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} إلى قوله {لأولي الأبصار}. ١٢ اهـ.

١٣ - (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ)

{لأولي الأبصار} لأصحاب الفهم.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} عن قتادة والربيع ما حاصله قد كان لكم علامة وعبرة ومتفكر في فرقتين التقتا للحرب وإحدى الفئتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان معه ممن شهد وقعة بدر والأخرى مشركو قريش {يرونهم مثليهم رأي العين} قال كان ذلك يوم بدر وكان المشركون تسعمائة وخمسين وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة عشر رجلا فإن قال لنا قائل فكيف قيل {يرونهم مثليهم رأي العين} وقد علمتم أن المشركين كانوا يومئذ ثلاثة أمثال المسلمين قلنا لهم كما يقول القائل -وعنده عبد- احتاج إلى مثله أنا محتاج إليه وإلى مثله ثم يقول أحتاج إلى مثليه فيكون ذلك خبرا عن حاجته إلى مثله وإلى مثلي ذلك المثل. . صار المثل اثنين والاثنان ثلاثة ١٣. وقال عبد الله بن مسعود قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا وذلك قول الله عز وجل {وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينكم. } ١٤ يقول أبو جعفر: فمعنى الآية على هذا التأويل: قد كان لكم يا معشر اليهود آية في فئتين التقتا إحداهما مسلمة والأخرى كافرة كثير عدد الكافرة قليل عدد المسلمة ترى الفئة القليل عددها الكثير عددها أمثالا لها أنها تكثرها من العدد بمثل واحد. . فهذا أحد معنيي التقليل الذي أخبر الله عز وجل المؤمنين أنه قللهم في أعينهم والمعنى الآخر منه التقليل الثاني على ما قاله ابن مسعود وهو أن أراهم عدد المشركين مثل عددهم لا يزيدون عليهم فذلك التقليل الثاني. . . {والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} والله يشدد ويقوي ويحصن ويحذر بعونه وتأييده وغلبه على عدوه من يشاء ويريد من عباده، إن في ذلك لمعتبرا ومتفكرا لأصحاب البصائر والعقول ومتعظا لمن يدرك الحق.

١٤ - (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

{البنين} الأولاد. {القناطير} واحدها قنطار وهو معيار يوزن به.

{المقنطرة} المضعفة أضعافا كثيرة.

{الذهب والفضة} المعدنان النفيسان.

{الخيل} اسم جمع لا واحد له من لفظه والواحد من معناه فرس

{المسومة} الراعية في المروج والمسارح والراعي.

{الأنعام} الإبل والبقر والغنم. {الحرث} كل ما يحرث ويزرع.

{متاع} ما يتمتع به ويتلذذ به. {المآب} المرجع.

{زين للناس حب الشهوات} حسن للبشر حب ١٥ ما تميل إليه نفوسهم، يسرون بنيله ويبتهجون وينزعون إلا قليلا إلى ما يرغبون، - واختلف الناس من المزين؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكره البخاري. وفي التنزيل

{إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها} ١٦ ولما قال عمر: الآن يا رب حين زينتها لنا نزلت.
{قل أؤنبئكم بخير من ذلكم. }
١٥ - (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)
{أؤنبئكم} هل أخبركم؟. {رضوان} رضا العظيم.
{قل أؤنبئكم بخير من ذلكم. } وقالت فرقة: المزين هو الشيطان وهو ظاهر قول الحسن فإنه قال: من زينها؟ ما أحد أشد لها ذما من خالقها فتزيين الله تعالى إنما هو الإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية على كل الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم. . واتباع الشهوات مرد وطاعتها مهلكة- ١٧.
عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ١٨ فكان المعنى الجنة لا تنال إلا بحبس النفس على مطالب الحق والصبر على ذلك وما يردي المكلف في جهنم من اتباع الهوى ومطاوعة النفس فيما تشتهيه {من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث}، {من} لبيان الجنس فالشهوات منها الميل إلى النساء ومنها حب الذكور من الذرية تكاثرا بهم ومنها حب جمع وتملك الأوزان التي تبلغ القناطير المضاعفة الكثيرة من الذهب ومن الفضة إذ بتلكها ووفرتها تحقق الرغائب وتدرك الأماني والمطالب إلا أن يشاء الله، ومن الشهوات التي تهفو إليها نفوس الكثيرين تملك الأفراس والحقول وما يحرث ويزرع. {ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب} هذه الزينات الحائلة والمتع العاجلة لا تلبث أن تفارق من تملكوها أو يفارقوها لكن ما أعد الله الغني الشكور للمتاجرين معه تجارة لا تبور الذين يبتغون فيما آتاهم ربهم الدار الآخرة -ما أعد هؤلاء الذاكرين الشاكرين خير وأبقى؛ وإنما يذم التعلق بهذه الشهوات إذا ألهت عن الوفاء بحق الله، وإلا فهي من الحلال الطيب. وصدق الله العظيم {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة} ١٩ فالنساء جاء الكتاب العزيز بشرعة الزواج منهن {. . فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم} ٢٠. كما جاءت السنة الصحيحة بالدعاء لمن أحسن اختيار الفضلى منهن، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (عليك بذات الدين تربت يداك) لكن الكثيرات منهن حبائل الشيطان ففي الصحيحين عن رسوله صلى الله عليه وسلم قال (ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء). والأبناء الأتقياء بركة على أنفسهم وعلى والديهم ومن هنا كان من ضراعة الرسل الكرام إلى ربنا الكريم الوهاب: {رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء} ٢١، {. . فهب لي من لدنك وليا} ٢٢. وعلمنا القرآن من دعاء عباد الرحمن {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} ٢٣ وأما حين لا يصلحون فهم العدو المبين وصدق الله العظيم (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم} ٢٤. يقال: في النساء فتنتان وفي الأولاد فتنة واحدة، فأما اللتان في النساء فإحداهما أن تؤدي إلى قطع الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأخوات، والثانية يبتلى بجمع المال من الحرام والحلال. وأما البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ابتلي بجمع المال لأجلهم. أقول وفي الذكر العزيز: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون} ٢٥. وفي الكتاب المجيد كذلك {إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٢٦ وأما حب المال الكثير فلا وزر فيه إذا جمع من الحلال، وأنفق في مرضاة ربنا ذي الجلال {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء. } ٢٧، ونعم المال الصالح للعبد الصالح؛ لكن الاغترار به والركون إليه يحمل على البغي والطغيان {إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} ٢٨ بل يطغى على العقول والقلوب حتى تستحب العمي على الهدى

وهكذا فتن صاحب الجنتين
{. قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن هذه الساعة قائمة} ٢٩ {يحسب أن ماله أخلده} ٣٠، وأما الخيل فقد أمرنا بإعدادها لتكون عونا لجند الحق المؤمنين وسبيلا لخذلان المبطلين يقول مولانا وهو أصدق القائلين {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} ٣١، وفي صحيح البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخيل معقودة في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم) وفي رواية (الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الخيل لثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له فهو لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء فهي على ذلك وزر)، أي مناوأة لأهل الحق وغلبة على حقوقهم " رواه البخاري في الجهاد والتفسير وغيرهما ورواه مسلم في الزكاة.
{قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة} - منتهى الاستفهام عند قوله {من ذلكم} و {للذين اتقوا} خبر مقدم و {جنات} رفع بالابتداء. قال ابن عطية وهذه الآية والتي قبلها نظير قوله عليه السلام (تنكح المرأة لأربع لمالها وحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) أخرجه مسلم وغيره، فقوله (فاظفر بذات الدين) مثل لهذه الآية وما قبل مثال للأولى فذكر تعالى وهو أنه إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى لهم (تريدون شيئا أزيدكم)؟ فيقولون يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا " رضاي فلا أسخط بعده أبدا " أخرجه مسلم. وفي قوله تعالى {والله بصير بالعباد} وعد ووعيد- ٣٢:
١٦ - (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)
{قنا} احفظنا واجعل لنا وقاية.
{الذين يقولون ربنا إننا آمنا} بدل من {للذين اتقوا} أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين يقولون، وذكر من خلق المتقين هنا ست خصال: أولها قولهم يا مليكنا وخالقنا إننا صدقنا لك وبكل ما أوجبت علينا التصديق به {فاغفر لنا ذنوبنا} فاستر علينا آثامنا لا تفضحنا بها واصفح يا مولانا عن مؤاخذتنا وعقوبتنا على اقترافها {وقنا عذاب النار} وحل بيننا وبين دخول جهنم {. ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته} ٣٣.
١٧ - (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)
{القانتين} الطائعين الخاضعين.
{الأسحار} واحدها سحر وهو سدس الليل الأخير.
{المستغفرين} السائلين ربنا المغفرة للذنوب وسترها والعفو عن العقوبة عليها.
{الصابرين} الحابسين أنفسهم على طاعة الله والحابسيها عن معصيته والثابتين على الرشد في السراء والضراء وحين البأس {والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار} بعد الخصلتين الأوليين ذكر حرف العطف إما لأن الموصوف بها متعدد وإما للدلالة على استقلال كل منهما وكمالهم فيها، فالصدق في القول والعمل والسر والعلانية يكتب صاحبه عند الله تعالى صديقا والخضوع لله الملك المهيمن والتضرع إليه سبحانه والمداومة ٣٤ على طاعته وبذل المال فيما يرضي رب العزة والجلال كل أولئك مما تدرك بها الجنات وترفع به الدرجات - في ترتيب طلب المغفرة في قوله تعالى {فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار} على مجرد الإيمان دليل على كفاية في استحقاق المغفرة والوقاية من النار من غير توقف على الطاعات، والمراد من الذنوب الكبائر والصغائر. {والمستغفرين بالأسحار} قال مجاهد والكلبي وغيرهما بالأسحار. عن زيد بن أسلم قال: هم الذين يشهدون صلاة الصبح من ثلث الليل بذلك لما فيها من الخفاء. وقال بعضهم السحر من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع، وفي الصحيح أنه تعالى وتنزه عن سمات الحدوث ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول (من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر) ٣٥.

١٨ - (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط} قال الزجاج: الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه فقد دلنا الله تعالى على وحدانيته بما خلق وبين؛ ويرى السدي وغيره أن المراد بأولي العلم المؤمنون كلهم. إنه سبحانه دل على وحدانيته بل وسائر كمالاته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره وما نصبه من الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وما أوحي من آياته الناطقة بذلك -كسورة الإخلاص وآية الكرسي- وغيرهما. . {والملائكة وأولوا العلم} عطف على الاسم الجليل ولا بد حينئذ من حمل الشهادة على معنى مجازي كامل شامل لا يسنده إلى هذين الجمعين بطريق عموم المجاز أي: أقر الملائكة بذلك وآمن العلماء به واحتجوا عليه. . . وقوله تعالى {قائما بالقسط} بيان لكماله تعالى في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته، و {القسط} العدل والباء للتعدية أي مقيما بالعدل. . {لا إله إلا هو} تقرير للمشهود به للتأكيد، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعي إنما يكون بالدليل. . ولينبني عليه قوله تعالى: {العزيز الحكيم} فيعلم أنه المنعوت بهما وقيل: لا تكرار لأن الأول شهادة الله تعالى وحده والثاني شهادة الملائكة وأولي العلم- ٣٦.

قال جعفر الصادق: الأولى وصف وتوحيد والثانية رسم وتعليم، يعني قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم.

١٩ - (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{إن الدين عند الله الإسلام} قال أبو العالية الدين في هذه الآية الطاعة والملة والإسلام بمعنى الإيمان ٣٧ والطاعات. فمن أراد شرعه وعبودية يرفعها مولاه جل علاه فليتبع الشرعة الحنيفية السمحة وإلا فلن يقبل الله تعالى منه عملا ولا صرفا ولا عدلا. {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}؛ {وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم} عن ابن عمر: بغيا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها. . . ولعل المراد ب {الذين أوتوا الكتاب} اليهود والنصارى وبالكتاب الجنس -واختلفوا في التوحيد وقيل في نبوته صلى الله عليه وسلم وقيل في الإيمان بالأنبياء -. وقوله تعالى {إلا من بعدما جاءهم العلم} زيادة أخرى، فإن الاختلاف بعد مجيء العلم أزيد في القباحة. . أي ما اختلفوا في وقت لغرض إلا بعد العلم لغرض البغي ٣٨. {ومن يكفر بآيات الله} من ينكر ويجحد حجج ربنا وكلماته الدالة على أن الدين المرتضى هو الإسلام {فإن الله سريع الحساب} فإن مولانا محيط علمه، تامة قدرته، سريع قضاؤه وجزاؤه، هذا نذيرنا لمن لم يستيقن برسالتنا ورسولنا.

٢٠ - (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

{فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن} [أي جادلوك بالأقاويل المزورة والمغلطة فأسند أمرك إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك، وقوله {وجهي} بمعنى ذاتي ومنه الحديث (سجد وجهي للذي خلقه وصوره). . وقوله {من اتبعن} {من} في محل رفع عطفا على التاء في قوله {أسلمت} أي ومن اتبعن أسلم أيضا. . قوله تعالى {وقولوا للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد} الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب {أأسلمتم} استفهام معناه التقرير.

وقال زجاج {أأسلمتم} تهديد وهذا حسن لأن المعنى أأسلمتم أم لا] ٣٩. فإن دخلوا في الإسلام فقد أصابوا سبيل الاستقامة وجادة الرشد وإن أعرضوا عما تدعون إليه فما أنت عليهم بوكيل وليس عليك هداهم إنما أنت مذكر ورسول تبلغ فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وربك ذو علم محيط بمن آمن وعمل صالحا، ومن بغى وغوى، وسيجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

مما يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى {قل يا أيها الناس إني

رسول الله إليكم جميعا} ٤٠ وقال تعالى {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} ٤١ وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه صلى الله عليه وسلم بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالا لأمر الله له بذلك. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار) ٤٢. . . وقال (. . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) ٤٣.

٢١ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

رضي الله تعالى لعباده الإسلام دون سواه، فمن كذب بالحق وقد جاءه وأعرض عن الهدى بعد أن تبين له وقتل الأنبياء وهم صفوة البشر الذين بعثوا بوحي رب القوى والقدر، أو قتلوا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فأنبئهم بما ينتظرهم من العقاب الموجع وتقييد قتلهم النبيين وما عطف عليه بالقول الكريم: {بغير حق} قيد لبيان الواقع فإن قتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط ٤٤ من الناس يكون إذا وقع دائما بغير حق فهو قيد ليس للاحتراز - دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجبا في الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. . وفي التنزيل {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف} ٤٥، ثم قال {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . } ٤٦ فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين. . . ٤٧.

روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

٢٢ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

{أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} والجاحدون الباغون وقتلة الأنبياء وأعداء الداعين إلى الحق كل أهل الفساد والغي هؤلاء بطل ثواب عملهم في عاجل حياتهم وآجلها.

{مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون}، {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون} ٤٨، {قل أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم} ٤٩، {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} ٥٠.

-فأما قوله {في الدنيا} فلم ينالوا بها محمدة ولا ثناء من الناس لأنهم كانوا على ضلال وباطل ولم يرفع الله لهم بها ذكرا بل لعنهم وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم. . . . . . فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمة فذلك حبوطها في الدنيا وأما في الآخرة فإنه أعد لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بورا لا ثواب لها. . {وما لهم من ناصرين. } وما لهؤلاء القوم من ناصر ينصرهم من الله إذا انتقم منهم بما سلف من إجرائهم واجترائهم عليه فيستنقذهم منه- ٥١.

٢٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون} [. . دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم أو إياهم والنصارى إلى الآيات الدالة على صحة نبوته من التوراة أو منها ومن الإنجيل فأبوا فنزلت، ومعنى قوله {نصيبا} أي حظا وافرا من علم الكتاب يريد أحبار اليهود. و {من} إما للتبعيض وإما للبيان والكتاب يراد به غير القرآن من الكتب التي كانوا مقرين بحقيتها. . ثم بين سبب التعجيب بقوله {يدعون إلى كتاب الله} وهو التوراة -كما مر-. . ولأنه تعالى عجب رسوله من تمردهم وإعراضهم وإنما يتوجه التعجيب إذا تمردوا عن حكم الكتاب الذي يعتقدون صحته. وعن ابن عباس أنه القرآن وليس ببعيد، لأنهم دعوا إليه بعد قيام الحجج على أنه كتاب من عند الله {ليحكم} أي الكتاب {بينهم} أي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فحذف الثاني

للعلم به أو يراد الحكم الاختلاف الواقع بينهم كما في قصة الزانيين، ولهذا راجعوا في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم. . {ثم يتولى فريق منهم} وهم الرؤساء والأحبار أو الذين لم يسلموا من أحبارهم، ومعنى: {ثم} استبعاد ما بين رتبتي الدعاء والتولي، {وهم معرضون} قوم لا يزال الإعراض ديدنهم وهجيراهم، والضمير في {هم} إما أن يرجع إلى الفريق، أي: هم جامعون بين التولي والإعراض، لا عن استماعهم الحجة في ذلك المقام فقط، بل عنه وعن سائر المقامات. وإما أن يرجع على الباقين منهم فيكون قد وصف العلماء والرؤساء بالتولي والباقين بالإعراض لأجل إعراض علمائهم ومتقدميهم. وإما أن يرجع إلى أهل الكتاب أي هم قوم عادتهم الإعراض عن قبول الحق؛ {ذلك} التولي والإعراض أو ذلك العقاب أو الوعيد بسبب أنهم كانوا يتساهلون في أمر العقاب ولا يفرقون بين ما يتعلق بأصول الدين وبين ما يتعلق بفروعه فقالوا {لن تمسنا النار إلا أياما معدودات}

٢٤ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{ذلك} التولي والإعراض أو ذلك العقاب أو الوعيد بسبب أنهم كانوا يتساهلون في أمر العقاب ولا يفرقون بين ما يتعلق بأصول الدين وبين ما يتعلق بفروعه فقالوا {لن تمسنا النار إلا أياما معدودات}

هي أيام عبادة العجل فاستوجبوا الذم من وجوه: أحدها -استقصار مدة العذاب ومن أين لهم العلم بذلك؟ وثانيها – أن عبادة العجل كفر والكفر يستحق به الكافر عذابا دائما، وثالثها- أن استثناء الأيام المعدودات فقط فيه دليل على أنهم استحقروا تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وذلك كفر صريح؛ {وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون} من قولهم: {. . نحن أبناء الله وأحباؤه} ٥٢ أو من قولهم {. . لن تمسنا النار إلا أياما} ٥٣، أو من قولهم: نحن أولي النبوة من قريش أو من زعمهم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم] ٥٤.

٢٥ - (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه} قال الفراء: إذا قلت: جمعوا ليوم الخميس معناه جمعوا لفعل يوجد في يوم الخميس أو وعيد لهم واستعظام للكرب الذي ينتظرهم يوم تلفح بالنار وجوههم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وإن عذاب ربنا لواقع ما له من دافع وينال كل مكلف جزاء ما فعل في دنياه فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وحاشا أن يظلمه الله ولا يظلم ربك أحدا.

٢٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذا ثناء على الله تعالى وإقرار بجلاله وحكيم تدبيره وسابغ أفضاله، فبيده الخلق والأمر والإعزاز والتذليل والقهر والتسخير والتبديل والتغيير، يبدع ما يشاء أن يبدع ويهب العطاء لمن يشاء ويوسع – {قل اللهم مالك الملك} تأكيد لما تشعر به الآية السابقة من مزيد عظمته تعالى وعظيم قدرته وفيه أيضا إفحام لمن كذب النبي صلى الله عليه وسلم ورد عليه لاسيما المنافقين الذين هم أسوأ حالا من اليهود والنصارى وبشارة له صلى الله عليه وسلم بالغلبة الحسية على من خالفه كغلبته بالحجة على من جادله. . {بيدك الخير}. . وتعريف الخير للتخصيص أي {بيدك} التي لا يكتنه كنهها. . وإنما خص {الخير} بالذكر تعليما لمراعاة الأدب وإلا فذكر الإعزاز والإذلال يدل على أن الخير والشر كلاهما بيده سبحانه وكذا قوله تعالى المسوق لتعليل ما سبق وتحقيقه: {إنك على كل شيء قدير}. . {تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل}

٢٧ - (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

{تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل} الولوج في الأصل الدخول. . . واستعير لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه. . وقال الجبائي: المراد بإيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر- ٥٥. . {وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي} عن الحسن قال: تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن [وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب تأويل من قال يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء من النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء وذلك إخراج الميت من الحي

وذلك أن كل حي فارقه شيء من جسده فذلك الذي فارقه منه ميت، فالنطفة ميتة لمفارقتها جسد من خرجت منه ثم ينشئ الله منها إنسانا حيا وبهائم وأنعاما وأحياء. . فإن كنت سلطت عيسى على الأشياء التي به يزعمون أنه إله: من إحياء الموتى وإبراء الأسقام والخلق للطير من الطين، والخبر عن الغيوب لتجعله آية للناس وتصديقا له في نبوته التي بعثته بها إلى قومه، فإن من سلطاني وقدرتي ما لم أعطه كتمليك الملوك وأمر النبوة ووضعها حيث شئت وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وإخراج الحي من الميت والميت من الحي ورزق من شئت من بر أو فاجر بغير حساب فكل ذلك لم أسلط عيسى عليه ولم أملكه إياه فلم يكن لهم في ذلك عبرة وبينة إذ لو كان إلها لكان ذلك كله إليه وهو في علمهم يهرب من الملوك وينتقل منهم في البلاد من بلد إلى بلد] ٥٦.

{اللهم} قال جمهور النحويين أصل اللهم يا الله فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو (يا) جعلوا بدله هذه الميم المشددة والضمة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، قال النضر بن شميل: من قال (اللهم) فقد دعا الله بجميع أسمائه و {مالك} منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان أي يا مالك الملك – وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه الأمة لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الإطلاق ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبيا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل في العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار- ٥٧

٢٨ - (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

{لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} عن ابن عباس: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين، وعن السدي: أما {أولياء} فيواليهم في دينهم ويظهرهم على عورة المؤمنين؛ رغب سبحانه في تولي أوليائه وحذر من الاستعانة أو الانتصار أو الاستظهار بأعدائه ٥٨.

{ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة} – وكون المؤمن وليا للكافر يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون راضيا بكفره والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يصدر عن المؤمن فلا يدخل تحت الآية لقوله: {يا أيها الذين آمنوا}. وثانيها- المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه. والثالث – كالمتوسط بين القسمين وهو الركون إليهم والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك. . مع اعتقاد أن دينهم باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه حذرا من أن يجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه، حتى يخصه بالموالاة دون المؤمنين ٥٩. فمن اتخذهم أعوانا وركن إليهم وولاهم في فسادهم وإضلالهم فليس من ولاية الله ولا من دينه في قليل ولا كثير لكن لاطفهم في ظاهر الأمر حين تمكنهم ليتقي خطرا عظيما يوشك أن يوقعه به في فله أن يصانعهم تقية ٦٠، وعرفوها بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء. روى البخاري عن أبي الدرداء: إنا لنبش ٦١ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم ويدل على جواز التقية ٦٢ قوله تعالى: {. . إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. } ٦٣.

{ويحذركم الله نفسه} - أي ذاته المقدسة وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز في المشاكلة كقوله {. . . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. } ٦٤ وفي غيرهما؛ وذهب بعض المتأخرين إلى منع ذلك إلا مشاكلة. وقال الزجاج معناه ويحذركم الله إياه ثم استغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل. قال: أما قوله. . تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك وقال بعض أهل العلم معناه ويحذركم الله عقابه مثل {واسأل القرية} ٦٥ فجعلت النفس في موضع الإضمار ٦٦. {وإلى الله المصير} [متى صرتم إليه وقد خالفتم ما أمركم به وأتيتم ما نهاكم عنه من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين نالكم من عقاب ربكم ما لا قبل لكم به، ويقول: فاتقوه واحذروه أن ينالكم ذلك منه فإنه شديد العقاب] ٦٧.

٢٩ - (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
{قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض} هذا نذير وتذكير بإحاطة علم ربنا الخبير الذي لا تخفى عليه خافية وما يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر سرا كان أو جهرا أو حديث نفس، والمؤمنون تقشعر جلودهم إذا ذكروا بآيات ربهم، في صحيح مسلم ٦٨ عن ابن عباس قال: لما نزلت {. . . وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله. } ٦٩ قال: دخل قلوبهم منه شيء لم يدخل قلوبهم من شيء: فقال النبي صلى الله عليه وسلم (قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا) قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} ٧٠ قال " قد فعلت " {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا} قال " قد فعلت " {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} قال " قد فعلت ".
{والله على كل شيء قدير} - والله قدير على معاجلتكم بالعقوبة على موالاتكم إياهم ومظاهرتكموهم على المؤمنين وعلى ما يشاء من الأمور كلها لا يتعذر عليه شيء أراده ولا يمتنع عليه شيء طلبه ٧١.
٣٠ - (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)
{يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا} جملة {ما عملت} في محل نصب على المفعولية {تجد} و {محضرا} مفعول ثان ٧٢ فكل من كان مكلفا في الدنيا سيجد جزاء ما عمل من الخيرات محضرا بإذن الله تعالى وذلك يوم البعث يوم الفصل أو تجده مسطرة في صحائف أعمالنا يوم يؤتون كتبهم بأيمانهم. و {يوم} منصوب إما بقول الحق سبحانه {ويحذركم الله نفسه} وإما بمحذوف تقديره اذكر {وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا} عن الحسن قال: يسر أحدكم أن لا يلقى عمله ذاك أبدا يكون ذلك مناه أما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها. وعن السدي: {أمدا بعيدا} مكانا بعيدا وهو قريب من قوله تعالى في حال تبري قرناء السوء بعضهم من بعض - {حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين} ٧٣، و {ما} في {وما عملت من سوء} إما معطوفة على {ما} الأولى أو مبتدأ خبره {تود} ٧٤ {ويحذرهم الله نفسه} - أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم فتوافونه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به ثم أخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده رحيم بهم ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه وتخويفهم عقوبته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه ٧٥.
٣١ - (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
{قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} قال الأزهر: محبة العبد لله ورسوله: طاعته لهما واتباع أمرهما ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران. قال ابن عرفة: المحبة ٧٦ عند العرب إرادة الشيء على قصد له ومما أورد سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض ".
{ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم} اتباع ما جاء به النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم يعقب حب الله تعالى وستره على ما يلمون به من خطأ وعفوه عما يقترفوه من لمم ما استغفروه وهو تقدست أسماؤه واسع المغفرة والرحمة.
٣٢ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
{قل أطيعوا الله والرسول} - حذف المتعلق مشعر بالتعميم أي في جميع الأوامر والنواهي؛ قوله {فإن تولوا} يحتمل أن يكون من تمام

مقول القول فيكون مضارعا حذفت فيه إحدى التاءين أي تتولوا ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيا. وقوله {فإن الله لا يحب الكافرين} نفي المحبة كناية عن البغض والسخط. . ٧٧ [فدل على مخالفته في الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول الأمي خاتم الرسل ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته. .] ٧٨ وهكذا علمنا المولى أن مخالفة النبي الخاتم تعقب العذاب العاجل والآجل. {. . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} ٧٩ وطاعته عليه السلام من طاعة المولى سبحانه {من يطع الرسول فقد أطاع الله} ٨٠.

٣٣ - (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{اصطفى} اختار وخص بفضل.

{العالمين} جمع عالم وكل جنس من المخلوقات يسمى عالما.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض فاصطفى ٨١ {آدم} عليه السلام، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما في ذلك من الحكمة. واصطفى {نوحا} عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قوم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا سرا وجهرا فلم يزدهم ذلك إلا فرارا فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى {آل إبراهيم} ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم؛ {وآل عمران} والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم - ٨٢.

{إن الله اصطفى} إن المولى سبحانه قد خص هؤلاء النبيين بفضل عظيم من لدنه قال بعض العلماء التقدير إن الله اصطفى دينهم وهو الإسلام، وقال الزجاج: اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم. وفي البخاري: عن ابن عباس قال: آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد يقول الله تعالى {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} وقيل {آل إبراهيم} نفسه. وكذا {آل عمران} ومنه قوله تعالى {. . وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون} ٨٣. وقيل المراد عيسى لأن أمه ابنة عمران.

٣٤ - (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{ذرية} أولادا ونسلا.

{ذرية} قال الأخفش: نصب على الحال أي في حال كون بعضهم من بعض أي ذرية بعضها ولد ٨٤ بعض، {بعضها من بعض} قال الحسن: يعني في التناصر في الدين كما قال: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض} ٨٥ يعني في الضلالة. اهـ.

٣٥ - (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{امرأة عمران} أم مريم. جدة عيسى عليه السلام.

{نذرت} جعلت على نفسي واجبا، والنذيرة الولد يجعل خادما للمتعبد من ذكر وأنثى.

{محررا} خالصا لله مفرغا لعبادته.

{إذ قالت امرأة عمران} قال محمد بن زيد: اذكر إذ، وقال الزجاج: المعنى واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران، قال محمد بن إسحق: وكانت لا تحمل فرأت يوما طائرا يزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا فاستجاب الله دعاءها فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررا أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس. اهـ.

{رب إني نذرت لك ما في بطني محررا} قال ابن قتيبة: المعنى نذرت لك أن تجعل ما في بطني مفرغا لعبادتك ولخدمة بيتك المقدس، قال الضحاك: جعلت ولدها لله والذين يدرسون الكتاب ويتعلمونه؛ {فتقبل مني إنك أنت السميع العليم} تضرعت إلى الله أن يتقبل

نذرها إنه سبحانه سميع الدعاء محيط علمه بكل الأشياء.

٣٦ - (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

{وضعتها} ولدتها.

{أعيذها} أجيرها وأمنعها وأحفظها بك.

{الرجيم} المطرود.

{فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى} فلما ولدت جنة أو حنة أو حبة ما كان في بطنها وقد نذرته قالت يا رب إني ولدت النذيرة أنثى، والله أعلم من كل خلقه بما ولدت، -أعلم بشأن أم مريم حين تحسرها وتحزنها من توهم خيبة رجاها وأنها ليست من الولي إلى الله تعالى في شيء إذ لها مرتبة عظمى وتحريرها تحرير لا يوجد منه- وقال الألوسي: قبل ذلك الجملة اعتراضية سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدره، و {ما} على هذا عبارة عن الموضوعة –المولودة- {وليس الذكر كالأنثى} كان المعنى ما ذكر كانت تترقب كالأنثى التي وهبتها لها، [ومريم في لغتهم العابدة فأرادت بقولها {وإني سميتها مريم} التقرب والطلب إلى الله أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها، ولهذا أردف بطلب الإعاذة لها ولولدها] ٨٦؛ {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} وإني أضرع إليك اللهم أن تجعل موئلها وملجأها ومعقلها ومعقل ذريتها إليك، وحفظهم من الشيطان المبعد المطرود لا يكون إلا بك. وقد أجاب الله دعاءها وحقق رجاءها وحفظها وولدها فكانت من القانتين وكان ابنها عيسى عليه السلام وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إلا مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} ٨٧.

٣٧ - (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

{فتقبلها} فرضيها أو فكفلها بالرعاية وسلك بها طريق السعداء.

{وأنبتها نباتا حسنا} سوى خلقها من غير زيادة أو نقصان.

{وكفلها زكريا} جعل الله الضامن لمصالحها زكريا عليه السلام.

{المحراب} المسجد أو مقام الإمام من المسجد.

{أنى لك هذا} من أين لك هذا.

{فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا} رضي الله تعالى عن النذيرة، عن ابن جرير: تقبل من أمها ما أرادت بها للكنيسة وأجرها فيها، {وأنبتها} قال نبتت في غذاء الله. وعن أبي عمر: حتى تمت فكملت امرأة بالغة تامة. ومما جاء في روح المعاني: رضي بمريم في النذر مكان الذكر ففيه تشبيه النذر بالهدية ورضوان الله تعالى بالقبول. . ولم يقبل قبلها أنثى. . ورباها الرب تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما... {وكفلها زكريا}. . ضمها الله تعالى إليه وجعله كافلا لها وضامنا لمصالحها على ما ذكر في حديث ابن عباس، {كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا} كل وقت دخل عليها كافلها زكريا عليه السلام حيث هي في المسجد أو في أعلى مكان فيه لقي بحضرتها طعاما لا كالطعام، قال مجاهد وعكرمة وغيرهما: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. {قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} قيل هو من قول مريم ردا على سؤال زكريا عليه السلام، ويجوز أن يكون مستأنفا يسألها كافلها زوج أختها من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا؟ فتجيب هو مما تفضل الله تعالى علي به إن المعبود الرزاق تقدست أسماؤه وتباركت نعمه وآلاؤه يمنح من يشاء من عباده

ما يريد سبحانه مما لا يعده العادون {. . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} ٨٨.
٣٨ - (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)
حين رأى زكريا عليه السلام من شأن مريم ما رأى من الإكرام والإنعام الذي أسبغه عليها المولى ذو الجلال والإكرام، دعا ربه متضرعا يا رب أعطني من عندك أولادا صالحين أو غلاما رضيا كما جاء في سورة أخرى {. . . فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا} ٨٩ إنك يا مولانا تجيب دعوة الداعي إذا دعاك، وفي هذا رد على بعض جهال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولد أحمق وما عرف أنه هو الغبي الأخرق ٩٠، كيف لا وقد جاء في محكم القرآن أن الرسل صلوات ربنا عليهم قد آتاهم مولانا الأولاد ورزقهم الأزواج {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية} ٩١، وأخبر سبحانه أن دعاء خليله إبراهيم عليه السلام بقوله الحق {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} ٩٢، وعد الذرية والأزواج من آياته وآلائه: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة. } ٩٣ ومن ثنائه على عباد الرحمن قال تبارك وتعالى {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} ٩٤، وقد ترجم البخاري على هذا: باب طلب الولد وترجم أيضا باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة. وساق حديث أنس بن مالك: قالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له، فقال (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته) وفي الصحيحين (اللهم اغفر لأبي وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين).
٣٩ - (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)
{فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى} خاطبت الملائكة زكريا شفاها بعد أن دعا ربه وتضرع إليه أن يهبه ذرية طيبة فخاطبوه وأسمعوه وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته كما يقول ابن كثير، أي فنادته الملائكة في حال قيامه مصليا أن الله سيوجد لك من صلبك ولدا اسمه يحيى وإنما جاء فنادته مؤنثة دون فناداه الملائكة مثلا -إذ الملائكة ليست إناثا- إنما جاءت هكذا لأن جماعة الذكور إذا تقدمت أفعالها أنثت الأفعال وذلك كقول الله تعالى {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} ٩٥ وذهب جماعة من أئمة التفسير إلى أن المراد بالملائكة جبريل، ربما لما يرون من أنه وحده الموكل بالوحي. لكن ثبت في الصحيح أن الوحي كانت تنزل به جموع من الملائكة أو ملك آخر سوى جبريل كلما قضى الله ذلك.
روى الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا -صوتا- من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته.
{إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين} ناداه جمع الملائكة الذين أرسلوا إليه بالبشرى أن الله سبحانه سيوجد لك من صلبك ولدا ذكرا وسيكون اسمه يحيى فأبشر {مصدقا بكلمة من الله} قال ابن عباس: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه له. . وهو أول من صدق عيسى. وكلمة الله عيسى وهو أكبر من عيسى عليه السلام. . . - والمراد بالكلمة عيسى عليه السلام،. . .، وإنما سمي عيسى عليه السلام بذلك لأنه وجد بكلمة {كن} من دون توسط سبب عادي. . وأريد بهذا التصديق: الإيمان - ٩٦. {وسيدا} قال ابن عباس: الحليم التقي وقال مجاهد: هو الكريم على الله عز وجل
{وحصورا} عن ابن مسعود وابن عمرو وغيرهما: لا يأتي النساء. {ونبيا من الصالحين} وسيكون ولدك يحيى مع الفضل الذي يبشر به من الأنبياء أي ناشئا منهم أو معدودا فيهم ف {من} على الأول للابتلاء وعلى الثاني للتبعيض. . وقد يقال: المراد من الصلاح الذي لابد منه فمنصب النبوة ألبتة من أقاصي مراتبه وعليه مبني دعاء سليمان عليه السلام {. . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} ٩٧ ولعله أولى مما قبل- ٩٨.
مما يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وهذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى {إنا

رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين} ٩٩ قال: أي الملك {كذلك الله يفعل ما يشاء} أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

٤٠ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

قال: أي الملك {كذلك الله يفعل ما يشاء} أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

٤١ - (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ)

{قال رب اجعل لي آية} أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني {قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا} أي إشارة، لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله {. . . ثلاث ليال سويا} ١٠٠ ثم أمر بكثرة الذكر والتسبيح في هذا الحال فقال تعالى {واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار} ١٠٢. اهـ.

٤٢ - (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

{وإذ قالت الملائكة} -تتمة لشرح أحكام اصطفاء آل عمران ووقعت قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في البين لما فيها مما يؤكد ذلك الاصطفاء، {وإذ} في المشهور منصوب باذكر -مقدرة- والجملة معطوفة على الجملة السابقة عطف القصة على القصة، وبينهما كمال المناسبة لأن تلك مسوقة أولا وبالذات لشرح حال الأم وهذه لشرح حال البنت ١٠٣، والأولى أن يكون المراد بالملائكة ههنا جبريل عليه السلام ويشهد لهذا قول الحق سبحانه {. . . فأرسلنا إليه روحنا} ١٠٤، ومعلوم أن جبريل عليه السلام سمي بذلك لأنه كان ينزل بوحي الله تعالى على أنبيائه وفي الوحي حياة الروح.

{يا مريم ١٠٥ إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين}، {اصطفاك} اختارك ويمكن أن يراد بالاصطفاء الأول ما اتفق لها أول أمرها فقد قبل الله تعالى تحريرها لخدمة البيت المقدس مع كونها أنثى وكان رزقها من عند الله وكفلها زكريا وسمعت كلام ملك الوحي إلى غير ذلك من أنواع اللطف، {وطهرك} -وأما التطهير فتطهيرها عن الكفر والمعصية كما قال في حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته: {. . ويطهركم تطهيرا} ١٠٦ وعن مسيس الرجال. . وعن الأفعال الذميمة والأقوال القبيحة. وأما الاصطفاء الثاني فهو ما اتفق لها في آخر عمرها من ولادة عيسى بغير أب وشهادته ببراءتها عما قذفها اليهود، قيل: المراد اصطفاؤها على نساء عالمي زمانها ١٠٧.

روى الشيخان ١٠٨ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها ١٠٩ خديجة بنت خويلد).

٤٣ - (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

{يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروا بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولدا من غير أب فقال تعالى {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى {وله من في السموات والأرض كل له قانتون} ١١٠، وقال مجاهد كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها والقنوت هو طول الركوع في الصلاة يعني امتثالا لقول الله تعالى {يا مريم اقنتي لربك} قال الحسن: يعني اعبدي لربك {واسجدي واركعي مع الراكعين} أي كوني منهم.

ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الأمر {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}.

٤٤ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

{ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك} أي نقصه عليك {وما كنت لديهم} أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر ومشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم في الأجر.

قال ابن جرير عن عكرمة: ثم خرجت أم مريم بها يعني بمريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام -وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة- فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتي، فقالوا هذه ابنة إمامنا- وكان عمران يؤمهم في الصلاة- وصاحب قربانا فقال زكريا: ادفعها إلي فإن خالتها تحتي، فقالوا لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها] ١١١.

٤٥ - (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

{المسيح} المبارك أو السيد أو ممسوح بالبركة واليمن أو المريض فيبرأ.

{وجيها} ذا جاه وشرف وقدر.

{المقربين} المكرمين بالمنزل الرفيع عند الله.

- شروع في قصة عيسى عليه السلام، والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام على المشهور، والقول شفاهي. . . و {إذ} المضافة إلى ما بعدها بدل من نظيرتها السابقة. . {يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه} كلمة (من) لابتداء الغاية مجازا وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة (لكلمة) وإطلاق الكلمة على من أطلقت عليه باعتبار أنه خلق من غير واسطة أب بل بواسطة {كن} فقط على خلاف أفراد بني آدم فكان تأثير الكلمة {كن} في حقه أظهر وأكمل. . وعلى ذلك أكثر المفسرين، وأيدوا ذلك بقوله تعالى {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} - ١١٢. {اسمه المسيح عيسى ابن مريم} أي المبارك وممسوح باليمن والبركة أو الذي يمسح المريض فيبرأ. نقل عن جمع من العلماء: وأما الدجال فسمي مسيحا لأنه يسيح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس فهو فعيل بمعنى فاعل في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة) الحديث، وفي صحيح مسلم كذلك-: " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ١١٣ واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان ١١٤ كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد ١١٥ فيقتله " الحديث.

{وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين} قال الأخفش: شريفا ذا قدر وجاه ومقربا عند الله، والنصب على الحال.

٤٦ - (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

{ويكلم الناس في المهد وكهلا}.

{المهد} مقر الصبي في رضاعه.

{كهلا} بين الشباب والشيخوخة.

{ويكلم الناس في المهد وكهلا} مما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ١١٦ عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب الجبار.) فكأن المعنى: وأقدرت بقدرتي عيسى على أن يكلم الناس صغيرا وهو ما زال بعد في مقر رضاعه وفراش طفولته ويكلمهم كبيرا؛ {ومن الصالحين} أي وهو من العباد الصالحين.

٤٧ - (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

{أنى} كيف ومن أين.

{يكون} يوجد.

{يمسسني} يفض إلي ويلامسني.

{قضى} حكم.

{قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} سألت مريم ربها عجبا مما سمعت لا تشككا في قدرة المولى سبحانه ولكن كأنما أرادت هل يكون هذا الولد الذي بشرت به من زوج يتزوجها في المستقبل أم يخلقه الله تعالى هكذا؟ ولذلك قالت {ولم يمسسني بشر} أي لم تنكح لم تتزوج والمسيس في القرآن الكريم يرد بمعنى استمتاع

الزوج بزوجته كما في الآية {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن} ١١٧ وكأنها تسأل: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج؟ {قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} قال الملك عليه السلام في جواب مريم عليها السلام: إن الذي خلق كل شيء حكم وأراد أن ترزقي بغلام دون أن يكون لك زوج، ومولانا القوي القدير لا يعجزه شيء يريده، بل يوجده ولو بغير أسباب فإذا توجه مراده جل وعلا إلى أي شيء تحقق المراد دون إبطاء.

٤٨ - (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)

{الكتاب} جنس الكتب المنزلة.

{الحكمة} الفقه والأحكام والعلوم العقلية.

{ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} قد يكون العطف هنا على {يبشرك} أي إن الله يبشرك وإن الله يعلمه، و {الحكمة} العلم، أو حسن الخلق، و {رسولا} نصبت بمحذوف تقديره ويجعله رسولا، و {التوراة} الكتاب السماوي المنزل على موسى صلى الله عليه وسلم.

٤٩ - (وَرَسُولا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{بني إسرائيل} أبناء يعقوب.

{بآية} بحجة وعلامة وبرهان.

{أخلق} أصور وأسوي بمقادير.

{بإذن} بقدرته ومشيئته.

{الأكمه} الذي ولد أعمى.

{الأبرص} المصاب بالوضح في جلده.

{أنبئكم} أخبركم.

{تدخرون} تخبئون.

{ورسولا إلى بني إسرائيل} وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب عليه السلام.

{أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} كأن في الكلام مقدرا، أي ناطقا بأني قد جئتكم بحجة وبرهان من ربكم وأمر معجز يشهد لي بالصدق وأني مبلغ عن الله – ثم بين عن الآية ما هي فقال. . . بأن أخلق من الطين كهيئة الطير والطير جمع طائر. . . فإن قال قائل وكيف؟ قيل: فأنفخ فيه وقد قيل أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير قيل لأن معنى الكلام فأنفخ في الطير ولو كان ذلك: فأنفخ فيها وكان صحيحا جائزا كما قال في المائدة {. . فأنفخ فيها} يريد فأنفخ في الهيئة. . . {وأبرئ الأكمه والأبرص} يعني بقوله وأبرئ وأشفي. . . عن مجاهد: الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل فهو يتكمه. . . عن قتادة قال: كنا نحدث أن الأكمه الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين. . وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه وسلامه أنه يقول ذلك لبني إسرائيل احتجاجا منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته وذلك أن الكمه والبرص لا علاج لهما فيقدر على إبرائه ذو طب بعلاج فكان ذلك أدلته على صدق قيله أنه رسول لأنه من المعجزات، مع سائر الآيات التي أعطاه إياها دلالة على نبوته. . . {وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم} وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء من الله يدعو لهم فيستجيب له. . وأما قوله {وأنبئكم بما تأكلون} فإنه يعني وأخبركم بما تأكلون مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه. {وما تدخرون} يعني بذلك: وما تعرفونه فتخبئونه ولا تأكلونه. . . فإن قال قائل: وما كان في قوله لهم: وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم من الحجة له على صدقه وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيرا فتصيب، قيل إن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، لم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ومن سائر أنبياء الله ورسله وإنما كان عيسى يخبر

به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال، ولكن ابتداء بإعلام الله إياه من غير أصل تقدم ذلك احتذاه أو بنى عليه أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه والمتكهن إلى رأيه. فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها وبين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك، {إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} يعني بذلك ثناؤه: إن في خلقي من الطين الطير بإذن الله وفي إبرائي الأكمه والأبرص وإحيائي الموتى وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ابتداء من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة، لعبرة لكم ومتفكرا تتفكرون بذلك فتعتبرون به أني محق في قولي لكم إني رسول من ربكم إليكم، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق {إن كنتم مؤمنين} يعني إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته، مقرين بتوحيده ونبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها- ١١٨.

٥٠ - (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{لما بين يدي} لما تقدمني وسبقني وكان أمامي.

{ولأحل} ولأبلغكم ما أحل الله.

{ومصدقا لما بين يدي من التوراة} جاء عيسى ابن مريم عليه السلام مؤمنا بما أنزل الله من كتاب سبق، والنحويون يرون أن {مصدقا} نصب على الحال من {وجئتكم} ومعلوم أن شأن الأنبياء عليهم السلام يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك مع أن عيسى كان فيما بلغنا عاملا بالتوراة لم يخالف شيئا من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل مما كان مشددا عليهم فيها، ولذلك جاء بعد هذا القول الكريم: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} عن الربيع قال: كان الذي جاء به عيسى ابن مريم ألين من الذي جاء به موسى قال: وكان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة لحوم الإبل والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى وحرمت عليهم الشحوم وأحلت لهم فيما جاء به عيسى. . . اهـ. والقرآن الكريم يبين أن الله تعالى ضيق على اليهود معايشهم وعجل لهم بعض النكال ببغيهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم. } ١١٩ {وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون} وأتيتكم من عند ربي وربكم بعلامات وحجج وبرهان على صدق ما أقول لكم. ووحد {آية} مع أنه عليه السلام أعطى آيات كثيرات على إرادة جنس الآيات وهي على الحقيقة متجانسة من حيث كونها جاءت شاهدا وبرهانا على صدقه في دعوى الرسالة، فاتقوا الله معاشر الإسرائيليين، إذ قد بين القرآن الحكيم إلى من بعث المسيح عليه الصلوات والتسليم فقال الحق سبحانه: {ورسولا إلى بني إسرائيل} فخافوا غضب الله تعالى وعقابه الذي ينزله بمن أعرض عن الحق بعد أن جاءه. {وأطيعون} [فإن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله ثم ختم كلامه بقوله {إن الله ربي وربكم}

٥١ - (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

{صراط مستقيم} طريق لا يعوج ولا ينحرف.

{إن الله ربي وربكم} إظهارا للخضوع واعترافا بالعبودية وردا لما يدعيه عليه الجهلة من النصارى الضالين المنحرفين عن الصراط المستقيم] ١٢٠ فقد شهد عليه الصلاة والسلام بالحق وأنه عبد لله تعالى كما أنهم عبيد لله سبحانه وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا، و (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون.) ١٢١، وما يكون لعيسى أن يقول ما ليس له بحق وهذه الآية وإن كان ظاهرها خبرا ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم على الوفد الذين حاجوه من أهل نجران بإخبار الله عز وجل عن أن عيسى كان بريئا مما نسبه إليه من نسبه إلى غير الوصف الذي وصف به نفسه من أنه لله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض إلا ما كان الله جل ثناؤه خصه به من النبوة والحجج التي آتاه دليلا على صدقه كما آتى سائر المرسلين غيره من الأعلام والأدلة على صدقهم، والحجة على نبوتهم - ١٢٢.

٥٢ - (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

قال أبو عبيدة معنى {أحس} عرف. وقال الزجاج: المعنى علم ووجد، وقال الفراء: أرادوا قتله. لما وجد المسيح عليه السلام من

أكثر من دعاهم نكران نبوته بعدما تبين لهم من برهان الله الذي أوتي عيسى. . استنصر عليهم فقال من أنصاري في السبيل إلى الله؟ عن الحسن ومجاهد: طلب النصرة ليحتمي بها من قومه ويظهر الدعوة. يقول علماء القرآن: وهذه سنة الله في أنبيائه وقد قال لوط عليه السلام {. . لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد} ١٢٣ أي عشيرة وأصحابا ينصرونني.

{وقال الحواريون نحن أنصار الله} قال الكلبي وأبو روق: أي أنصار نبي الله ودين الله والحواريون ١٢٤ أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشر رجلا عن ابن عباس: سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا صيادين وعن ابن أبي نجيح: كانوا قاصرين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب. وعن قتادة والضحاك سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء.

{آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون} من جملة قول الحواريين قولهم آمنا بالله أي صدقنا بجلال الله المعبود بحق واستيقنا بأنه الأحد الذي لم يولد ولم يلد ولم يكن له كفوا أحد واشهد يا عيسى بأنا مسلمون لربنا منقادون لشرعته خاضعون لسلطانه وأمره. نقل عن محمد بن جعفر بن الزبير: وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم. . . لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه يعني وفد نصارى نجران.

ومما يقول أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز وجل أن الإسلام دينه الذي ابتعث به عيسى بن مريم والأنبياء من قبله لا النصرانية ولا اليهودية، وتبرئة من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية ودان بها، كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم على وفد نجران.

٥٣ - (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

{ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين}

وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا ربنا آمنا أي صدقنا بما أنزلت يعني بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك واتباعنا الرسول يعني بذلك صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك. . فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق وأقروا لك بالتوحيد وصدقوا رسلك واتبعوا أمرك ونهيك فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك وأحلنا معهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك وصد عن سبيلك وخالف أمرك ونهيك؛ يعرف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيل الذين رضي أقوالهم وأفعالهم ليحتذوا طريقهم ويتبعوا مناهجهم، فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتج به على الوفد الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجران بأن قيل من رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قيلهم، ومناهجهم غير مناهجهم. اهـ.

٥٤ - (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

{ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين} المكر قد يراد به الاحتيال والخداع والسعي بالفساد في خفية ومداجاة، وإحكام الأمر توصلا إلى الشر؛ والضمير في {مكروا} يعود على الذين {أحس عيسى منهم الكفر} وهم بنو إسرائيل الذين دعاهم إلى الحق فأعرضوا وعاندوا وصدوا. عن السدي: بما أن عيسى سار بهم -يعني بالحواريين الذين يصطادون السمك- فآمنوا به واتبعوه إذ دعاهم حتى أتى بنو إسرائيل ليلا فصاح فيهم فذلك قوله {. . فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة} ١٢٥ الآية، أما مكر الله بهم فإنه فيما ذكر السدي: إلقاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى وهم يحسبونه عيسى وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك. نقل أسباط عن السدي: ثم إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين في بيت فقال عيسى لأصحابه من يأخذ صورتي يقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين} فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر فأخبروهم أن عيسى قد صعد به إلى السماء فجعلوا يعدون القوم فيجدونهم ينقصون رجلا من العدة ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه، فذلك قول الله عز وجل {. . وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} ١٢٦ قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم وقيل أصله من إجماع الأمر وإحكامه فلما كان المكر رأيا محكما قويا مصونا عن جهات النقض والفتور لا جرم سمي مكرا.

مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن روى أن ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل لا يفارقه ساعة فأمره جبريل أن يدخل بيتا فيه روزنة، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره ممن وكل ليقتله غيلة فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق: فرقة قالت كان الله فينا فذهب، وأخرى قالت كان ابن الله وأخرى قالت كان عبد الله ورسوله. . وقيل إنهم مكروا في إخفاء أمره وإبطال دينه، ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل أعداءه، وهم اليهود {والله خير الماكرين} أقواهم مكرا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب، واعلم أن المكر إن كان عبارة عن الاحتيال في إيصال الشر فهو في حق الله تعالى محال فاللفظ إذن من المتشابهات فيجب أن يؤول بأن جزاء المكر يسمى مكرا لقوله {وجزاء سيئة سيئة مثلها} ١٢٧، أو بأنه تعالى عاملهم معاملة من يمكر وهو عذابهم على سبيل الاستدراج وإن كان المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل لم يكن اللفظ متشابها لأنه غير ممتنع ١٢٨ في حق الله تعالى إلا أنه قد اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى غيره. اهـ.

عن الفراء وغيره: مكر الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون، وقال ابن عباس: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وذلك هو الاستدراج ليملي الله تعالى لهم، وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء كقوله {الله يستهزئ بهم} ١٢٩ {وهوخادعهم} ١٣٠.

٥٥ - (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

{إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك} {إذ} ظرف ل {مكر} أو لمحذوف تقديره اذكر فإذ صلة من قوله {ومكر الله} يعني ومكر الله بهم حين قال لعيسى إني متوفيك ورافعك إلي فتوفاه ورفعه إليه ١٣١. {متوفيك} قال الحسن وابن جريج معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت. وعن الربيع بن أنس هو وفاة نوم، قال الله تعالى {وهو الذي يتوفاكم بالليل} ١٣٢ أي ينيمكم لأن النوم أخو الموت، وقال المولى سبحانه {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها} ١٣٣. وعن قتادة والضحاك والفراء وغيرهم: هذا من المقدم والمؤخر لأن الواو لا توجب الرتبة والمعنى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقول الحق سبحانه {ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} ١٣٤، والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما والذي صح عن الصادق المصدوق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحسبك أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وأنه ما قتل وما صلب وأنه باق على الحياة حتى ينزل إلى الأرض قبل قيام الساعة. روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص ١٣٥ فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد). وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء ١٣٦ حاجا أو معتمرا أو ليثنيهما) ولا ينزل بشرع ينسخ شريعتنا بل يتعبد بما شرع لنا ففي صحيح مسلم ١٣٧ عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم).

{ورافعك إلي} مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: أما قوله فرافعك إلي فالمشبهة تمسكوا بمثله في إثبات المكان لله وأنه في السماء لكن الدلائل القاطعة دلت على أنه متعال عن الحيز والجهة فوجب حمل هذا الظاهر على التأويل بأن المراد إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي، ومثله قول إبراهيم: {. . إني ذاهب إلى ربي} ١٣٨ وإنما ذهب من العراق إلى الشام وقد سمي الحجاج زوار الله والمجاورون جيران الله والمراد التفخيم والتعظيم أو المراد إلى مكان لا يملك الحكم عليه هناك غير الله، فإن في الأرض ملوكا مجازية. . . ثم إنه كما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه عبر لذلك عن معنى التخليص بلفظ التطهير فقال {ومطهرك من الذين كفروا} أي من خبث جوارهم وسوء عشرتهم. {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} وليس هذا فوقية المكان بالاتفاق، فالمراد: الفوقية بالحجة والدليل وإما الفوقية بالقهر والاستيلاء وفيه إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة ولعمري إنه كذلك. . على أنا نقول: المراد بمتبعي

المسيح هم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعده فصدقوه في قوله {. ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. } ١٣٩ أو دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى. اهـ.

{ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون} هذا من الكلام الذي صرف من الخبر عن الغائب إلى المخاطبة، فقد كان الكلام الذي تقدم يخبر عن متبعي عيسى وعن الكافرين به ثم وجه الخطاب إلى كل من الفريقين بأنهم راجعون إلى الله المولى الحق، ومحاسبون بين يديه ومجزيون بما عملوا إن خيرا فخير وإن شرا فشر وذهب بعض علماء القرآن وأئمة البيان إلا أن {ثم} للتراخي الرتبي والترقي من كلام إلى آخر لا على التراخي في الزمان فحينئذ لا يلزم أن يكون رجوعهم إلى الله تعالى متأخرا عن الجعل في الزمان.

٥٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

{فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين} الفاء تفسيرية لما سبق من الإخبار عن الحكم بين الجميع -من آمن ومن كفر- فالذين جحدوا وكذبوا ولم يؤمنوا ولا استيقنوا يشقون في الدنيا بالإذلال والنكال أو بالوجل من غلبة الإسلام وأهله عليهم كما تعظم شقوتهم في الآخرة بالتخسير والتحسير وحر السعير وما يمنعهم من بأس الله تعالى مانع ولا يدفعه عنهم مدافع.

٥٧ - (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

{وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين} هذا حكم الله الحق في أهل الصدق الذين استيقنوا بما يجب الاستيقان وصلحت بواطنهم واستقاموا على الشرع الحنيف ففعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه فإن مولانا الشكور الغفور يوفر عليهم ويتم جزاء ما عملوا بقلوبهم وجوارحهم ويمنحهم ثواب ما قدموا ويعطيهموه وافيا من غير نقص {والله لا يحب الظالمين} أي لا يريد تعظيمهم ولا يرحمهم ولا يثني عليهم أو المراد يبغضهم على ما هو الشائع في مثل هذه العبارة، والجملة تذليل لما قبل مقرر لمضمونه.

٥٨ - (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

{ذلك} أي المذكور من أمر عيسى عليه السلام والإتيان به بما يدل على البعد للإشارة إلى عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته في الشرف {نتلوه عليك} أي نسرده ونذكره شيئا بعد شيء، والمراد تلوناه إلا أنه عبر بالمضارع استحضارا للصورة الحاصلة، اعتناء بها، وقيل يمكن الحمل على الظاهر لأن قصة عيسى عليه السلام لم يفرغ منها بعد. {من الآيات} أي الحجج الدالة على صدق نبوتك إذا أعلمتهم بما لا يعلمه إلا قارئ كتاب الله تعالى أو معلم، ولست بواحد منهما فلم يبق إلا أنك قد عرفته عن طريق الوحي {والذكر} أي القرآن وقيل اللوح المحفوظ وتفسيره به لاشتماله عليه، و {من} تبعيضية على الأول وابتدائية على الثاني. . . {الحكيم} أي المحكم المتقن نظمه أو الممنوع من الباطل أو صاحب الحكمة- ١٤٠.

٥٩ - (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

{مثل} صفة وحال عجيبة.

{إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم} صفة عيسى وحاله العجيبة في ولادته دون أب ودون أم -ووجه الشبه أن كلا منهما وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة بل الوجود من غير أب وأم أغرب فشبه الغريب بالأغرب لأنه المشبه به ينبغي أن يكون أقوى حالا من المشبه في وجه الشبه- ١٤١. [ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (إن عيسى عبد الله وكلمته) فقالوا: أرنا عبدا خلق من غير أب فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم (آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم) فذلك قوله تعالى {ولا يأتونك بمثل. } أي في عيسى {إلا جئناك بالحق. } في آدم {وأحسن تفسيرا} ١٤٢] ١٤٣.

{خلقه من تراب} بيان لوجه الشبه فكلاهما عليهما السلام وجدا بطريقة خارجة عن العادة و {من} لابتداء الغاية – والمعنى ابتدأ خلق قالبه من هذا الجنس، {ثم قال له كن فيكون} أي صر بشرا فصار فالتراخي على هذا زماني إذ بين إنشائه مما ذكر وإيجاد الروح فيه وتصييره لحما ودما زمان طويل ١٤٤. . وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال لأنه سبحانه احتج على النصارى وأثبت جواز

خلق عيسى عليه السلام من غير أب ولا أم - ١٤٥.
٦٠ - (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)
{الممترين} الشاكين.
{الحق من ربك} الذي تلوناه عليك هو الحق من مولاك أيها النبي الخاتم {فلا تكن من الممترين} [الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا في أمر عيسى عليه السلام] ١٤٦. - ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعالى {. . فلا تكونن من المشركين} ١٤٧ بل قد ذكروا في هذا الأسلوب فائدتين إحداهما أنه صلى الله عليه وسلم إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد في الثبات على اليقين نورا على نور، ثانيهما -أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فيفزع وينزجر عما يورث الامتراء لأنه صلى الله عليه وسلم مع جلالته التي لا تصل إليها الأماني إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره، ففي ذلك زيادة ثبات له صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولطف بغيره- ١٤٨.
٦١ - (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)
{حاجك} جادلك وخاصمك.
{نبتهل} نتباهل ونسترسل في الدعاء على الكاذب.
{فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم} فمن جادلك في أمر عيسى عليه السلام بعد الذي أنزل عليك من الآيات الموجبة للعلم بأنه عبد الله ورسوله {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إذ حاجه وفد نصارى نجران ١٤٩ وخاصموه في أمر المسيح أمره سبحانه أن يباهلهم ويلاعنهم ويدعوهم إلى أن يجمعوا أهلهم ويجمع هو صلوات الله عليه وسلامه أهله ثم يسترسل ويتضرع كلا الفريقين في الدعاء إلى الله جل علاه أن ينزل مقته ولعنته على الكاذب منهما. [قوله {تعالوا} أي هلموا وأقبلوا وأصله الطلب لإقبال الذوات، ويستعمل في الرأي إذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك تعال ننظر في هذا الأمر، قوله {ندع أبناءنا}. . اكتفى بذكر البنين عن البنات إما لدخولهن في النساء أو لكونهن الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن. .، وقوله {فنجعل لعنة الله على الكاذبين} عطف على نبتهل مبين لمعناه] ١٥٠. ولما دعاهم الرسول صلوات الله عليه وسلامه إلى التباهل أحجموا إذ هم مستيقنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وأنهم كاذبون، روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة أن العاقب والسيد أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه لا تلاعنه فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا نحن ولا عقبنا من بعدنا فقالوا له نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلا أمينا فقال (قم يا أبا عبيدة) فلما قام قال
(هذا أمين هذه الأمة).
٦٢ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
{القصص} الحديث الذي يورد خبرا بعد خبر ويتتبع المعاني.
{العزيز} الغالب غلبة تامة والقادر قدرة كاملة والذي لا نظير له.
{الحكيم} المتقن لكل شيء صنعا.
{إن هذا لهو القصص الحق} إذ الذي قصصناه عليك لهو الحق دون سواه أو إن هذا القرآن لهو الذي نتابع فيه ذكر الحق، ونوالي فيه إنباءك بما هو صدق ويقين. {وما من إله إلا الله} وليس من إله يستحق العبادة إلا الله ذو الجلال والإكرام وفيه رد على الثنوية القائلين زورا بإلهين اثنين وقد أبطل القرآن زعمهم بالقول الحكيم {وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد} ١٥١، وفيه كذلك رد على القائلين بالتثليث الذين نعى القرآن عليهم بقوله: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد} ١٥٢ وكذا

في الآية الكريمة {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد} ١٥٣.
{وإن الله لهو العزيز الحكيم} - أي الغالب غلبة تامة أو القادر قدرة كذلك أو الذي لا نظير له، {الحكيم} المتقن فيما صنع أو المحيط بالمعلومات ١٥٤ [وفيه جواب عن شبهة النصارى أن عيسى يقدر على الإحياء ويخبر عن الغيوب فإن هذا القدر من القدرة والعلم لا يكفي في الإلهية بل يجب أن يكون الإله غالبا لا يدفع ولا يمنع وهم يقولون إنه قد قتل ولم يقدر على الدفع ويلزم أن يكون عالما بكل المعلومات وبالعواقب الأمور وعيسى لم يكن كذلك.
٦٣ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)
{تولوا} أعرضوا أو تتولوا وتعرضوا.
{فإن تولوا} عما وصفت من التوحيد وأن إله الخلق يجب أن يكون قادرا على المقدورات عالما بجميع المعلومات ١٥٥ فاعلم أن إعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك معهم وفوض أمرهم إلى الله {فإن الله عليم بالمفسدين} لأنه عالم بحال المفسدين في الدنيا وبنياتهم وأغراضهم الفاسدة فيجازيهم بأعمالهم الخبيثة، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لما أورد على نصراني نجران من الدلائل ما انقطعوا معه ثم دعاهم على المباهلة فانخذلوا ورضوا بالصغار وقبلوا الجزية أمره الله تعالى بنمط آخر من الكلام مبني على الإنصاف يشهد به كل طبع مستقيم وعقل سليم فقال {قل يا أهل الكتاب}.
٦٤ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)
{كلمة} كلام.
{سواء} مستو عدل.
{أربابا} سادة يطاعون في معصية الله تعالى.
{قل يا أهل الكتاب}. . . قيل المراد يهود المدينة وقال اليهود والنصارى جميعا لأن ظاهر اللفظ يتناولهما. . والمراد من قوله {تعالوا} تعيين ما دعوا به والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالا من مكان إلى مكان والمعنى هلموا {إلى كلمة سواء} فيها إنصاف من بعضنا لبعض لا ميل فيه لأحد على صاحبه والسواء هو العدل والإنصاف لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف وفيه التسوية بينه وبين صاحبه أو المراد إلى كلمة سواء مستوية {بيننا وبينكم} لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل وتفسير الكلمة ب قوله {ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله} فمحل {ألا نعبد} خفض على البدل من {كلمة}. . . وهو خبر في معنى الأمر أي اعبدوا ربكم وإنما ذكر أمور ثلاثة لأن النصارى جمعوا بين ثلاثة فعبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به غيره لأنهم أثبتوا أقانيم ثلاثة: أبا وابنا وروح القدس ثم قالوا إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح وأقنوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم ولولا كون هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين لما جاز عليهما مفارقة ذات الأب والتضرع بناسوت عيسى ومريم، وحيث أثبتوا ثلاثة ذوات مستقلة فقد أشركوا ثم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا لأنهم أطاعوهم في التحليل والتحريم من تلقاء أنفسهم من غير شرعة وبيان ولأنهم يسجدون لهم ويطيعونهم في المعاصي وهوى النفس ورؤية الأمور من الوسائط
{أفرأيت الذي اتخذ إلهه هواه} ١٥٦، ولأن مذهبهم أن الكامل في الرياضة يظهر فيه أثر اللاهوت ويحل فيه فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فهم وإن لم يطلقوا عليهم اسم الرب إلا أنهم أثبتوا في حقهم معنى الربوبية فثبت أن النصارى جمعوا بين الأمور الثلاثة، وبطلانها كالأمر المتفق عليه بين العقلاء] ١٥٧.
{فإن تولوا} فإن أعرض الذين تدعوهم إلى ما أنزلت عليك ولم يقبلوا الكلمة السواء ولم يستيقنوا التوحيد واستمروا على شركهم {فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} فاعتزوا أنتم بما هديتكم إليه من الدين الحق وتابعوا الدعوة إليه وكونوا عنوانا عليه فذلك هو الفصل المبين {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٥٨ كما يقول الغالب لمغلوبه في جدال وصراع لزمتك الحجة فاعترف

بأني أنا الغالب أو يكون من باب التعريض ومعناه فاعترفوا بأنكم الكافرون حيث أعرضتم عن الحق بعدما تبين.
أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه فإذا فيه " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ".
٦٥ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{تحاجون} تجادلون وتخاصمون وتنازعون.
{يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} ينكر الله تعالى على اليهود والنصارى دعواهم أن إبراهيم وشريعته كانت اليهودية أو النصرانية -والكلام على حذف مضاف أي دين إبراهيم وشريعته لأن الذوات لا مجادلة فيها- ١٥٩ تنازعون وتجادلون ويزعم كل فريق منكم أنه سلام الله عليه كان على دينكم وكيف يعقل أن يكون على شرعة التوراة بقرون وكيف تزعمون أنه كان من أتباع الإنجيل -كتاب النصرانية- والإنجيل نزل بعد إبراهيم وبعد موسى الذي أنزلت عليه التوراة بدهر متطاول؟ ألا تتفكرون أفلا تعقلون بطلان ما تقولون؟
٦٦ - (هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
{ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم} أطلتم الجدال والمخاصمة ولا يتكلم موسى وعيسى عليهما السلام وقد تعلمون شيئا من اتباع آبائكم لملتيهما فلم تجادلون وتنازعون في أمر إبراهيم ولا علم لأحد بأنه كان على أي من ملتكما؟ [وفي الآية دليل على منع الجدال بالباطل بل ورد الترغيب في ترك الجدال من الحق كما في الحديث (من ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله ببيت في ربض الجنة) وقد ورد تسويغ الجدال بالتي هي أحسن.) ١٦٠ (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) ١٦١ ونحو ذلك فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التي تكون المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة] ١٦٢.
{والله يعلم وأنتم لا تعلمون} علمه سبحانه محيط وعلم العباد ليس إلا يسير على جانب ما جهلوه فالحق ما جاءنا عن العليم الخبير.
٦٧ - (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
{حنيفا} مائلا عن العقائد الزائفة.
{مسلما} منقادا لطاعة الحق أو موحدا.
{ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} شهد الله تعالى وكفى به شهيدا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن إلا المتنائي عن الملل الباطلة المنقاد لمنهاج ربه وسننه القويم الموحد لربه توحيدا لا يشوبه شرك المشركين، وبهذا أحق الله تعالى الحق وأبطل بهتان المفترين كما جاء في موطن آخر من القرآن العظيم {وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} ١٦٣.
٦٨ - (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)
{أولى} أقرب.
{إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} إن أحق الناس بإبراهيم والانتساب إليه ونصرته للذين استقاموا على سنته وملته وساروا على منهاجه وطريقته ووحدوا الله مخلصين له الدين حنفاء لله غير مشركين، وهذا النبي الخاتم ١٦٤ والذين صدقوا ما جاء به شرع الإسلام والله ناصر المستيقنين بالحق على من خالفهم والنبي الخاتم محمد صلى الله عليه سلم ممن اتبع إبراهيم عليه السلام وبهذا أمره مولاه جل علاه {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} ١٦٥ لكن أفرده بالذكر

تعظيما له كقول المولى تقدست أسماؤه {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ١٦٦ فالنخل والرمان من الفاكهة لكن أفردا بالذكر لأهميتهما فكذلك ههنا فمن اتبعوه: هذا النبي والذين آمنوا بما جاء به {والله ولي المؤمنين} ينصرهم ويجازيهم بالحسنى كما هو شأن الولي- ١٦٧.

٦٩ - (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

{ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم} يحب فريق من اليهود والنصارى خبالكم معاشر المسلمين ولا يكفون عن السعي لإغوائكم ويجتهدون في إضلالكم بالكيد والصد وبما يقدرون عليه من تلبيس وحرب، كما جاء في محكم التنزيل {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا} ١٦٨ وقد يراد بالإضلال الإهلاك كما في قول الحق سبحانه {وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد} ١٦٩، فالضالون المكذبون يريدون إضلال المهتدين وبهذا أنبأنا الخلاق العليم {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء} ١٧٠ وهكذا كان الأشقياء من الغابرين {وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا} ١٧١، ويتابعهم الغواة إلى يوم الدين {لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} ١٧٢ والكفر ملة واحدة {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} ١٧٣.

{وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون} – نفي وإيجاب، وما يشعرون أي وما يفطنون أنهم لا يصلون إلى إضلال المؤمنين وقيل. . لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة والله أعلم ١٧٤.

٧٠ - (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

{يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون} عن قتادة تشهدون أن نعت محمد صلى الله عليه سلم في كتابكم ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل النبي الأمي الذي يؤمن بالله تعالى وكلماته، وعن ابن جريج {وأنتم تشهدون} أن الدين عند الله الإسلام ومعنى الكفر بالتوراة والإنجيل إما بالكفر بما يدلان عليه فيكون قد أطلق اسم الدليل على المدلول أو الكفر بنفس التوراة والإنجيل لأنهم كانوا يحرفونهما وينكرون تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى {وأنتم تشهدون}: أنهم عند حضور المسلمين وعند حضور عوامهم كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا خلا بعضهم إلى بعض شهدوا بصحتها وعلى هذا فيكون في الآية إخبار عن الغيب فيكون معجزا. وقيل آيات الله وهي القرآن وشهادتهم أنهم يعرفون في قلوبهم أنه حق وقيل آيات الله: جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم، فمعنى تشهدون أنكم تعترفون بدلالة المعجزة على صدق المدعي ثم لما وبخهم على الغواية أردف التوبيخ بالإغواء وهو إما بإلقاء الشبهات في الدين وهو معنى لبسهم الحق بالباطل وإما بإخفاء الدلائل وهو كتمانهم الحق- ١٧٥.

٧١ - (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون} عن قتادة: لم تلبسون (تخلطون) اليهودية والنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام ولا يجزي إلا به وعن الربيع يكتمون شأن محمد صلى اله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

٧٢ - (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون} عن السدي: كان أحبار قرى عرينة اثني عشر حبرا فقالوا لبعضهم ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا نشهد أن محمدا حق صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم فحدثونا أن محمدا كاذب وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكون يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله بذلك، وعن ابن عباس {لعلهم يرجعون} لعلهم ينقلبون عن دينهم.

٧٣ - (وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

{ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم} جائز أن يكون الخطاب للمؤمنين يوصينا ربنا سبحانه أن لا نطمئن ونركن ونصدق إلا لمن آمن بديننا أما من خالفه فلا نؤمن به وجائز أن يكون هذا كالذي قبله مما حكاه الكتاب المجيد عن مكر اليهود كما نقل عن السدي أن المعنى لا تؤمنوا إلا لمن اتبع اليهود {قل إن الهدى هدى الله} قال بعض المفسرين اعترض بهذا القول الكريم في وسط الكلام عن قول اليهود {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم} فكأن المعنى: أو أن يحاجوكم عند ربكم أي لا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم ولا تؤمنوا أن يأتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تؤمنوا أن يحاجكم أحد عند ربكم، نقل عن الفراء ومثله عن الكسائي: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل {إلا لمن تبع دينكم} ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم {قل إن الهدى هدى الله} أي البيان الحق هو بيان الله عز وجل {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم} بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم و [لا] مقدرة بعد {أن} أي لئلا يؤتى أحد كقول الحق سبحانه {. . يبين الله لكم ألا تضلوا} ١٧٦ أي لئلا تضلوا فلذلك صلح دخول {أحد} في الكلام و {أو} أي حتى. مثل قولهم لا نلتقي أو تقوم الساعة أي حتى أو إلى أن – ويحتمل أن تكون الآية كلها خطاب للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم والمعنى لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من اتبع دينكم ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين ولا تصدقوا أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم من خالفكم أو يقدر على ذلك فإن الهدى هدى الله وإن الفضل بيد الله، قال الضحاك: إن اليهود قالوا إنا نحاج عند ربنا من خالفنا في ديننا فبين الله تعالا أنهم المدحضون المعذبون وأن المؤمنين هم الغالبون ومحاجتهم: خصومتهم يوم القيامة ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن اليهود والنصارى يحاجونا عند ربنا فيقولون أعطيتنا أجرا واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئا قالوا لا قال فإن ذلك فضلي أوتيه من أشاء) ١٧٧.

٧٤ - (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

{يختص برحمته من يشاء} ذهب الحسن ومجاهد إلى أن الرحمة قد يراد بها النبوة والهداية، وابن جريج إلى أنها ربما تعني الإسلام والقرآن، وقال أبو عثمان أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف {والله ذو الفضل العظيم} والمعبود بالحق تقدست أسماؤه صاحب الفضل الحق يمنحه من يشاء سبحانه ممن رضي عنهم وفضله جل علاه لا يقادر قدره، جليل أثره وخطره.

٧٥ - (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

{ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما} ينبئنا العليم الخبير أن بعضا من أهل الكتاب مؤتمن وإن بعضا منهم خائن وفي هذا تحذير لنا كي لا نخدع بهم وخص أهل الكتاب بالذكر – وإن كان سائر الناس كذلك فيهم الأمين والخائن – لأن الخيانة فيهم أكثر، - وذكر الله تعالى قسمين من يؤدي ومن لا يؤدي إلا بالملازمة عليه وقد يكون من الناس من لا يؤدي وإن دمت عليه قائما فذكر الله القسمين لأنه الغالب والمعتاد، والثالث نادر فخرج الكلام على الغالب- ١٧٨ الباء في {بقنطار} بمعنى على أو بمعنى في، أي في حفظ القنطار [{إلا ما دمت عليه قائما} استثناء من أعم الأحوال أو الأوقات أي {لا يؤده إليك} في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا في حال دوام قيامك أو في وقت دوام قيامك، والقيام مجاز عن المبالغة في المطالبة وفسر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالإلحاح والسدي بالملازمة. .] ١٧٩.

مما أورد أبو عبد الله القرطبي: الأمانة عظيمة القدر في الدين ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرحم على جنبتي الصراط كما في صحيح مسلم، فلا يمكن من الجواز إلا من حفظهما، وروى مسلم عن حذيفة قال: حدثنا النبي صلى الله عليه سلم عن رفع الأمانة قال (ينام

الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه) الحديث. . وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه السلام (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) والله أعلم. . . ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك، لأن فساق المسلمين يوجد فيهم من يؤدي الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا فطريق العدالة والشهادة ليس يجزي فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم {ليس علينا في الأميين سبيل}؟ فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحريمنا بغير حرج عليه ولو كان ذلك كافيا في تعديلهم لسمعت شهادتهم على المسلمين. اهـ.

{ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون} استحلال بعض أهل الكتاب ما ائتمنتموهم عليه ومماطلتهم في أدائه إليكم وإن كان يسيرا من أجل ادعاهم أنه لا حرج عليهم في أخذ أموالكم وسلب ما يقدرون عليه من حقوقكم - إما لأنهم يبالغون في التعصب لدينهم حتى استحلوا قتل المخالف وأخذ ماله بأي طريق كان وإما لأنهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، الخلق لنا عبيد فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا - ١٨٠ وقد يعنون بالأميين من ليس على دينهم وقد يقصدون ذلك العرب وأميتها إما لقلة من كان يكتب ويحسب منهم ١٨١ وإما لأنه لم يبعث فيهم نبي إلا خاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه الصلوات والتسليم {ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون} مما نقل عن ابن جريج: ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم وهم على علم بأن قيلهم هذا ادعاء وافتراء وتقول على الله تعالى بالباطل، أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: قال رجل لابن عباس: إنا نصيب في العمد ١٨٢ من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ونقول ليس علينا في ذلك بأس فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب {ليس علينا في الأميين سبيل} إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب أنفسهم.

٧٦ - (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

{بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين} قال الزجاج ما حاصله: عندي وقف التمام على {بلى} لأنه لمجرد نفي ما قبله أي بلى عليهم سبيل في ذلك، وما بعده استئناف إخبار من الله عز وجل عمن أدى أمانته إلى من ائتمنه عليها اتقاء الله ومراقبة وعيده. . ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود من أنه ليس عليهم في أموال الأميين حرج ولا إثم. . ولكن الذي أوفى بعهده. . والهاء في قوله {من أوفى بعهده} عائدة على اسم الله في قوله {ويقولون على الله الكذب} يقولون بلى من أوفى بعهد الله الذي عاهده في كتابه فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدق به وبما جاء به من عند الله من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها وغير ذلك من أمر الله ونهيه. . واتقى ما نهاه عنه من الكفر به وسائر معاصيه التي حرمها عليه فاجتنب ذلك مراقبة وعيد الله وخوف عقابه. . فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرمه عليهم ويطيعونه فيما أمرهم به ١٨٣ والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول.

٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة} {يشترون} يستبدلون؛ {بعهد الله} بأمر الله تعالى وما يلزم الوفاء به {وأيمانهم} حلفهم كذبا {ثمنا قليلا} عوضا حقيرا وهو متدن مهما كثر لقلته في جنب ما يفوتهم من الخير والثواب في العاجل والآجل وما يلحقهم من الخزي والنكال دنيا وآخرة فإنه لا نصيب لهم يوم يلقون ربهم سبحانه.

{ولا يكلمهم الله} كلاما تطيب به نفوسهم.

{ولا ينظر إليهم يوم القيامة} لا ينالهم من ربهم يوم القيامة نظرة عفو وصفح ورحمة بل ليس لهم يوم يلقونه سبحانه إلا العقاب المذل والمقام البئيس وصنوف الألم الموجع غاية الوجع نسأل الله تعالى العافية.

في صحيح البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان) فقال الأشعث بن قيس: في والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمت

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألك بينة) قلت لا قال لليهودي (احلف) فقلت يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي فأنزل الله {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا} إلى آخر الآية.

٧٨ - (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

{وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله} من بني إسرائيل طائفة تميل الكلام وتعوج به عن القصد ولا يبالون بعظم الإثم في ذلك وإن كان كلاما موحى به من السماء ويحرفونه عن مواضعه ويبدلونه وينقصون منه ويزيدون فيه ويتأولونه على غير وجهه وقيل المراد يميلون الألسنة بمشابه الكتاب، والألسنة جمع لسان يذكر ويؤنث

{ويقولون على الله الكذب} - أي في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى تعريضا وتصريحا {وهم يعلمون} أنهم كاذبون عليه سبحانه وهو تسجيل عليهم بأن ما افتروه عن عمد لا عن خطأ- ١٨٤.

٧٩ - (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

{ما كان} ما صح ولا استقام.

{لبشر} لواحد من الناس.

{يؤتيه} يعطيه.

{الكتاب} شيئا من الكتب السماوية المنزلة.

{الحكم} الحكمة والفهم والعلم.

{والنبوة} الأنباء عن الله تعالى.

{كونوا عبادا} كونوا عابدين يدعوهم إلى عبادة نفسه دون الله سبحانه.

{ربانيين} حكماء علماء أتقياء مصلحين.

ما يجوز ولا ينبغي ولا يستقيم مع العقل أن ينادي نبي أعطاه الله تعالى الرسالة إلى الخلق واصطفاه فأنزل عليه الوحي وبعثه بكتاب من كتبه السماوية الهادية إلى الرشد ومنحه مولانا الحكم والعلم والفهم ما يصح لمثل هذا الذي اختاره ربنا واصطفاه على علم أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه ولكن يدعوهم ويقول لهم كونوا أتقياء حكماء مصلحين بسبب كونهم عالمين ومعلمين للناس الخير والرشد والبر، والحاصل أن من قرأ بالتشديد ({تعلمون}) لزمه أن يحمل الرباني على أمر زائد على العلم والتعليم وهو أن يكون مع ذلك مخلصا أو حكيما أو حليما حتى تظهر السببية، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الرباني على العالم الذي يعلم الناس فيكون المعنى كونوا معلمين بسب كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم، وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه- ١٨٥.

مما نقل عن مجاهد في معنى {ربانيين} الرباني: الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسية والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم ومن المعلوم أن عدم الأمر قد يكون في معنى النهي فكان المعنى ما يجوز لنبي أن يأمر الناس بعبادة نفسه بل ينهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء - وإنما خص الملائكة والأنبياء بالذكر لأن الذين وصفوا بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح.

٨٠ - (وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

{أربابا} سادة مطاعين معبودين.

{أيأمركم} أي البشر وقيل الله {بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} ومعنى الاستفهام الإنكار أي إنه لا يفعل ذلك- ١٨٦ [ووجه كون

الخطاب للكفار وأن الآية نزلت فيهم بأنه يجوز أن يقال لأهل الكتاب {أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} أي منقادون مستعدون للدين الحق إرخاء للعنان واستدراجا] ١٨٧.

٨١ - (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

{وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} لعل المراد واذكر يا محمد إذ أخذ ربك الميثاق على النبيين لما أي قسما ١٨٨ لأن الله عز وجل أخذ ميثاق جميع الأنبياء بتصديق كل رسول ابتعثه إلى خلقه، مما قال الربيع {لتؤمنن به ولتنصرنه} يقول لتؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولتنصرنه وقال هم أهل الكتاب وقال طاووس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء ليصدقن بما جاء به الآخر منهم، وعن قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضهم بعضا وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصرونه، وعن ابن عباس: ذكر ما أخذ عليهم يعني على أهل الكتاب وعلى النبيين من الميثاق بتصديقه يعني بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم إذا جاءهم وإقرارهم به على أنفسهم. . اهـ.

{قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا} [. . أقررتم بالميثاق الذي واثقتموني عليه من أنكم مهما آتاكم رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وأخذتم على ذلكم إصري يقول وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرسل التي تأتيكم بتصديق ما معكم من عندي والقيام بنصرتهم، وإصري يعني: عهدي ووصيتي وقبلتم في ذلك مني، ورضيتموه والأخذ هو القبول في هذا الموضع والرضا من قولهم أخذ الوالي عليه البيعة بمعنى بايعه وقبل ولايته ورضي بها] ١٨٩.

{قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} عن علي ابن أبي طالب فاشهدوا على أممكم بذلك وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم.

٨٢ - (فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

{فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} من أعرض عن الوفاء بعهدي وأدبر واستكبر عن اتباع أنبيائي الذين أرسلوا يصدق بعضهم بعضا ويؤمنون بما أنزل الله من الكتاب ومن قعد عن نصرة الرسل وما أرسلوا به فهؤلاء المكذبون هم الخارجون على حدودي المنشقون عن سبيلي وديني الذي رضيته [وهاتان الآيتان وإن كان مخرج الخبر فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهد وأخذ به ميثاق من أخذ من أنبيائه ورسله فإنه مقصود به إخبار من كان حوالي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل أيام حياته صلى الله عليه سلم عما لله من العهد في الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى تذكيرهم ما كان الله آخذا على آبائهم وأسلافهم من المواثيق والعهود وما كانت أنبياء الله عرفتهم وتقدمت إليهم في تصديقه واتباعه ونصرته على من خالفه وكذبه وتعريفهم ما في كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثهم إليهم من صفته وعلامته] ١٩٠.

٨٣ - (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

{أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للعطف على مقدر وكأنه: أتتولون فتبغون وتطلبون وترضون غير دين الله؟ وقدم المفعول على الفعل لأنه المقصود بالإنكار ودين الله تعالى الذي لم يرتض سواه هو الإسلام {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه. } والطوع الاتباع والانقياد، والكره ما كان بمشقة وإباء من النفس و {طوعا وكرها} مصدران في موضع الحال أي طائعين ومكرهين.

عن الحسن {أسلم من في السماوات} وتم الكلام ثم قال {والأرض طوعا وكرها} وقال: والكاره المنافق لا ينفعه عمله. وذلك المعنى بينته آية كريمة {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها} ١٩١ - فالمؤمن مستسلم بقلبه لله والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع - ١٩٢ قال قتادة: أسلم المؤمن طوعا والكافر عند موته كرها ولا

ينفعه ذلك، بقوله {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} ١٩٣، {وإليه ترجعون} وإلى ربنا سبحانه الرجعى ليجزي الذي أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

٨٤ - (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

{قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط} لما كان عهد المولى تقدست أسماؤه إلى أنبيائه وإلى أممهم أن يؤمنوا بكل رسول وينصروا رسالته وصى نبيه وعلمنا في شخصه الكريم عليه الصلوات والتسليم أن نستيقن بكل ما يجب الإيمان به من رسالة ورسول، ومن قبل ذلك الاستيقان بالله جل وعلا، وصدقت وصدقت أمتي بالقرآن المنزل علي وصدقنا بالوحي الذي أنزله ربنا على إبراهيم وإسماعيل وعلى إسحق ويعقوب والأسباط ذرية يعقوب.

{وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم} وآمنا وصدقنا بما أوحي إلى موسى وبما أوحي إلى عيسى وبكل وحي أنزله ربنا على نبي من أنبيائه.

{لا نفرق بين أحد منهم} لسنا نصدق برسالة دون أخرى ولا نؤمن بنبي وندع الإيمان بمن سواه ولكنا نؤمن بجميع الرسالات وجميع الرسل فإن من فرق بالإيمان بين نبي ونبي فليس من الله في شيء، وصدق الله العظيم {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا} ١٩٤، وهذا هو منهاج ربنا الذي يريد أن يجتمع عليه الأولون والآخرون {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} ١٩٥، وفي سورة البقرة يقول الحق تقدست أسماؤه {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} ١٩٦، نحن لربنا طائعون ولدينه متبعون ولشرعه منقادون.

٨٥ - (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} ومن يطلب ويرتض سننا وسبيلا إلى الله غير سنن الإسلام وسبيله فقد زاغ عن القصد وتنكب عن الرشد وفاته كل الخير وعمله عليه رد ولن يدرك في الآخرة فلاحا ولا فوزا.

٨٦ - (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات} كان هذا من تتمة الوعيد على التولي عن الحق والخروج على الميثاق الذي واثق عليه الأنبياء أممهم من الإيمان برسالات ربنا ورسله وابتغاء ملة غير الإسلام الحنيف فهؤلاء الذين زاغوا يزيغ الله قلوبهم فصدورهم حرجة بهذا الدين القويم.

عن قتادة وعطاء والحسن: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم. اهـ.

و {كيف} استفهام يراد به النفي مثل قول الحق سبحانه {كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله} ١٩٧؟ أي لا يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله فالآية تبين أن الله لا يهدي إلى الحق قوما كفروا بعد إيمانهم وبعدما علموا أن الرسول حق وبعدما سمعوا الآيات التنزيلية القرآنية ورأوا الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية وشاهدوا معجزات النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

{والله لا يهدي القوم الظالمين}. . يقال: ظاهر الآية أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالما لا يهديه الله وقد رأينا كثيرا من المرتدين قد أسلموا وهداهم الله وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم، قيل له: معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يقبلون على الإسلام فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك- ١٩٨.

٨٧ - (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وبعد أن شهدوا أن الرسول حق {جزاؤهم} ثوابهم من عملهم الذي عملوه {أن عليهم لعنة الله} يعني أن حل بهم من الله الإقصاء والبعد {والملائكة والناس} ومن الملائكة والناس - يسألون لهم الإقصاء والبعد - إلا مما يسوؤهم من العقاب، {أجمعين} يعني من جميعهم لا من بعض من سماه جل ثناؤه من الملائكة والناس ولكن من جميعهم، وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم لأن عملهم كان بالله كفرا.

٨٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

{خالدين فيها} يعني ماكثين فيها يعني في عقوبة الله {لا يخفف عنهم العذاب} لا ينقصون من العذاب شيئا في حال من الأحوال ولا ينفسون فيه {ولا هم ينظرون} يعني ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون وذلك كله -أعني الخلود في العقوبة- في الآخرة، ثم استثنى جل ثناؤه الذين تابوا من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم فقال تعالى ذكره {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}

٨٩ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}

يعني إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن الإيمان فراجعوا الإيمان بالله ورسوله وصدقوا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند ربهم

{وأصلحوا} يعني: فإن الله لمن فعل ذلك بعد كفره غفور يعني ساتر عليه ذنبه الذي كان منه من الردة فتارك عقوبته عليه وفضيحته به يوم القيامة غير مؤاخذه به إذا مات على التوبة منه، رحيم متعطف عليه بالرحمة] ١٩٩.

عن مجاهد قال: جاء الحرث بن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزل الله عز وجل فيه القرآن {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم} إلى {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} قال فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحرث إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة قال الحارث فأسلم فحسن إسلامه.

وعن الحسن: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم. اهـ.

قال أبو جعفر: وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن من أن الآية معني بها أهل الكتاب على ما قال، غير أن الأخبار بالقول الآخر أكثر والقائلين به أعلم بتأويل القرآن وجاز أن يكون الله عز وجل أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ثم عرف عباده سننه فيهم فيكون داخلا في ذلك كل من كان كافرا فأسلم على عهد محمد صلى الله عليه وسلم ثم ارتد وهو حي عن إسلامه، فيكون معنيا بالآية جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما بل ذلك كذلك إن شاء الله فتأويل الآية إذن كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم يعني كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان قوما جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم أي بعد تصديقهم إياه وإقرارهم بما جاء به من عند ربه، {وشهدوا أن الرسول حق} يقول: بعد أن أقروا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلقه حقا وجاءهم البينات يعني وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة ذلك؛ {والله لا يهدي القوم الظالمين} يقول: والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظلمة وهم الذين بدلوا الحق إلى الباطل فاختاروا الكفر على الإيمان. اهـ.

٩٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

{إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون} عن أبي العالية: هم اليهود والنصارى والمجوس

أصابوا ذنوبا في كفرهم فأرادوا أن يتوبوا منها ولن يتوبوا من الكفر -يريدون التوبة من بعض الذنوب ولم يرجعوا بعد عن كفرهم - ألا ترى أنه يقول
{وأولئك هم الضالون}؟ وعن السدي: أما {ازدادوا كفرا} فماتوا وهم كفار، وأما {لن تقبل توبتهم} فعند موته إذا تاب لم تقبل توبته، قال أبو جعفر: وأولى في الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية قول من قال: عنى بها اليهود وأن يكون تأويله إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مبعثه بعد إيمانهم به قبل مبعثه {ثم ازدادوا كفرا} بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومقامهم على ضلالهم {لن تقبل توبتهم} من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ويراجعوا التوبة منه بتصديق ما جاء به من عند الله، وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها إذا كانت في سياق واحد وإنما قلنا معنى ازديادهم الكفر ما أصابوا في كفرهم من المعاصي لأنه جل ثناؤه قال {لن تقبل توبتهم} فكان معلوما أن معنى قوله {لن تقبل توبتهم} إنما هو معني به لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم لا من كفرهم، لأن الله تعالى ذكره وعد أن يقبل التوبة من عباده فقال {هو الذي يقبل التوبة من عباده} ٢٠٠ فمحال أن يقول عز وجل: أقبل ولا أقبل في شيء واحد وإذا كان ذلك كذلك، وكان من حكم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها بقوله {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} علم أن المعنى الذي لا يقبل التوبة منه غير المعنى الذي تقبل التوبة منه وإذ كان ذلك كذلك فالذي لا تقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره لأن الله لا يقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح فإن الله كما وصف به نفسه {غفور رحيم}، فإن قال قائل وما ينكر أن يكون معنى ذلك كما قال من قال: فلن تقبل توبتهم من كفرهم عند حضور أجله أو توبته الأولى؟ قيل أنكرنا ذلك لأن التوبة من العبد غير كائنة إلا في حال حياته، فأما بعد مماته فلا توبة، وقد وعد الله عز وجل عباده قبول التوبة منهم مادامت أرواحهم في أجسادهم ولا خلاف بين جميع الحجة في أن كافرا لو أسلم قبل خروج نفسه بطرفة عين أن حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه والموارثة وسائر الأحكام غيرها، فكان معلوما بذلك أن توبته في تلك الحال لو كانت غير مقبولة لم ينتقل حكمه من حكم الكفار إلى حكم أهل الإسلام ولا منزلة بين الموت والحياة يجوز أن يقال لا يقبل الله فيها توبة الكافر فإذا صح أنها في حال حياته مقبولة ولا سبيل بعد الممات إليها بطل قول الذي زعم أنها غير مقبولة عند حضور الأجل. . اهـ.

٩١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

{إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين} في الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدي به؟ فيقول نعم فيقال له لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك) ٢٠١: وهذا قول الحق جل علاه {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم} ٢٠٢، و {ذهبا} منصوب على نزع الخافض والتقدير: من ذهب أو منصوب على التمييز، والواو في قوله سبحانه {ولوا افتدى به} فإنها على رأي الزجاج وابن الأنباري - للعطف والتقدير: لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهبا لم ينفعه ذلك مع كفره ولو افتدى به أيضا لم يقبل منه وقيل يجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله تقدست أسماؤه د {ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به} ٢٠٣ [فإن قيل من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة شيئا وبتقدير أن يملك فلا نفع في الذهب هناك فما فائدة هذا الكلام؟ فالجواب أنه على سبيل الفرض والتقدير والذهب كناية عن أعز الأشياء والمراد أنه لو قدر على أعز الأشياء وفرض أنه بذله نفعا للآخذ وأن المبذول في غاية الكثرة لعجز أن يتوصل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب ربه] ٢٠٤، هؤلاء المبعدون في الكفر المصرون عليه المستديمون له

مدة حياتهم لهم العقاب الدائم الموجع في آخرتهم وما لهم من يشفع فيهم ولا من يدفع ما يحله الله بهم.
٩٢ - (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)
{لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم}.
{تنالوا} تعطوا وتدركوا وتصيبوا.
{البر} الصدق والطاعة والصلاح والخير والتقى والقربة وخير الدنيا والآخرة فخير الدنيا الهدى وسعة النعمة وخير الآخرة الفوز بالرضوان والخلود والجنة.
{تنفقوا} توسعوا وتنشروا وتتصدقوا وأنفق الرجل إنفاقا إذا وجد نفاقا ورواجا وكثر من يقبل على ما لديه.
[لما ذكر أن الإنفاق لا ينفع الكافر البتة علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة وهو الإنفاق من أحب الأشياء إليهم،. . البر. . . ما به يصيرون أبرارا ليدخلوا في قوله {إن الأبرار لفي نعيم} ٢٠٥ فيكون المراد بالبر ما يصدر عنهم من الأعمال المقبولة المذكورة في قوله {. . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} ٢٠٦، والثاني: الجنة أي لن تنالوا ثواب البر وقيل المراد بر الله وأوليائه وإكرامه وإياهم. . و {من} في قوله {من ما تحبون} للتبعيض. . وفيه أن إنفاق كل المال غير مندوب بل غير جائز لمن يحتاج إليه] ٢٠٧.
لن يبلغ المسلم درجة التقى والقربة ولن يصيب حقيقة الصدق مع الله والطاعات التامة له، ولن يمنح بر الله تعالى وثوابه ورضوانه وجنته حتى يبذل مما يحبه. عن عطاء قال: لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر.
في الصحيحين عن عمر قال: يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به؟ قال (احبس الأصل وسبل الثمرة).
روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة وكان أحب أمواله إليه بئر حاء ٢٠٨ وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله تعالى يقول {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} وإن أحب أموالي إلي بئر حاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بخ بخ ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين) فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.
{وما تنفقوا من شيء} - أي شيء تنفقوا طيب تحبونه أو خبيث تكرهونه. {فإن الله به عليم}. . فيجازيكم بحسبه. . وفي الآية ترغيب وترهيب- ٢٠٩.
٩٣ - (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
- لما نزل قول الله تعالى {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم} ٢١٠ وقوله. . {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر} ٢١١ وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثيرا من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم غاظهم ذلك واشمأزوا وامتعضوا، من قبل أن ذلك يقتضي وقوع النسخ ومن قبل أنه تسجيل عليهم بالبغي والظلم وغير ذلك من مساويهم، فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت: {كل الطعام} أي المطعومات كلها لدلالة {كل} على العموم، وإن كان لفظه مفردا سواء قلنا الاسم المفرد المحلى بالألف واللام يفيد العموم أو لا. والطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل. . فيحتمل أن يكون المراد الأطعمة التي كان يدعي اليهود في وقت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنها كانت محرمة على إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا يكون اللام في الطعام للعهد لا للاستغراق والحل مصدر كالعز والذل ولذا استوى فيه الواحد والجمع قال تعالى {. . لا هن حل لهم} ٢١٢، والوصف بالمصدر يفيد المبالغة وأما الذي حرم إسرائيل على نفسه فروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن يعقوب

مرض مرضا شديدا فنذر لئن عافاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام والشراب إليه لحمان الإبل وألبانها وهذا قول أبي العالية وعطاء ومقاتل. . وههنا سؤال وهو أن التحريم والتحليل خطاب الله تعالى، فكيف صار تحريم يعقوب سببا لحرمة؟ فأجاب المفسرون بأن الأطباء أشاروا إليه باجتنابه ففعل وذلك بإذن الله تعالى. . وأيضا الاجتهاد جائز على الأنبياء لعموم {. . فاعتبروا} ٢١٣ ولقوله في معرض المدح {. . لعلمه الذين يستنبطونه منهم} ٢١٤ ولأن الاجتهاد طاعة شاقة فيلزم أن يكون للأنبياء منها نصيب أوفر لاسيما ومعارفهم أكثر وعقولهم أنور وأذهانهم أصفى وتوفيق الله وتسديده معهم أوفى، ثم إذا حكموا بسبب الاجتهاد يحرم على الأمة مخالفتهم في ذلك الحكم. . والأظهر أن ذلك التحريم ما كان بالنص وإلا لقيل: إلا ما حرمه الله على إسرائيل فلما نسب إلى إسرائيل دل على أنه باجتهاده ٢١٥.

{قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين} قال الكلبي: لم يحرمه الله عز وجل في التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا أو صب عليهم رجزا وهو الموت، فذلك قوله تعالى {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات لهم أحلت لهم} ٢١٦ الآية وقوله {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر} إلى قوله {. . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون} ٢١٧.

٩٤ - (فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

{فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون} قال الزجاج: في هذه الآية أعظم دلالة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أخبرهم أنه ليس في كتابهم وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي. والافتراء الاختلاق والادعاء زورا، {من بعد ذلك} من بعد ما تبين له الحق. والظلم الجور ووضع الشيء في غير موضعه والإساءة وتجاوز الحد والميل عن القصد، فهؤلاء جمعوا هذا السوء كله جاروا إذ أساءوا الأدب مع الله تعالى وقالوا عليه سبحانه ما لم يقل ومالوا عن طريق الاستقامة فبخسوا أنفسهم حقها من الفوز والسلامة.

٩٥ - (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} أمر للنبي صلى الله عليه وسلم والأمة له تبع أن يذكروا بأن مولانا الحق يقول الحق ويهدي للتي هي أقوم فكل ما صدر عن ربنا فهو صدق وعدل ولا تبديل له فاتبعوا ملة الإسلام فإنها ملة إبراهيم عليه السلام والشرع الذي جاءه من الملك العالم، ولقد كان الخليل - صلوات الله وسلامه – حنيفا مائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق مستقيما على شرع الله تعالى ومنهاجه وما رضي عن شرك ولا بأهل شرك أبدا.

مما يقول الطبري: وإنما قال جل ثناؤه {وما كان من المشركين} يعني به وما كان من عدادهم وأوليائهم وذلك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم ونصرة بعضهم بعضا فبرأ الله إبراهيم خليله أن يكون منهم أو نصرائهم وأهل ولا يتهم وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين: اليهود والنصارى وسائر الأديان غير الحنيفية قال: لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة ولكنه كان حنيفا مسلما. اهـ.

٩٦ - (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

{أول} أسبق وأفضل

{بيت} مسجد، وبيت الله: الكعبة البيت الحرام.

{وضع} جعل وأعد وهيئ. {بكة} مكة.

{مباركا} كثير الخير ثابتا.

{هدى} هاديا. {للعالمين} لأجناس من الخلق كل جنس منها عالم.

إن أسبق وأفضل مسجد هيئ وأعد للناس كي يعبدوا الله تعالى فيه وحوله المسجد الحرام، الكعبة البيت العتيق {مباركا} كثير الخير يغفر الله الذنوب لمن طاف به واعتكف عنده وأقام الصلاة حوله، قال ابن عباس {مباركا} لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة وقال

القفال: يجوز أن تكون بركته ما ذكر في قوله تعالى {. . يجبى إليه ثمرات كل شيء} ٢١٨ وقيل بركته ٢١٩ دوام العبادة فيه ولزومها، ومباركا منصوب لوقوعه حالا. {وهدى للعالمين} يهدي من حجه واعتمره واستقبله وعظمه إلى ثواب الله عز وجل شأنه أو يهدي إلى ربه تبارك وتعالى بما فيه من الآيات العجيبة.

٩٧ - (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

{آيات بينات} علامات وحجج واضحات مبينات لبرهان من قدرة الله وحكمته.

{مقام إبراهيم} حيث أقام خليل الرحمن وتعبد أو قام هو وإسماعيل يبنيان.

{ولله على الناس حج البيت} فرض الله على الناس المستطيعين القصد إلى الكعبة البيت العتيق للطواف به وأداء سائر أركان الحج.

{فيه آيات بينات مقام إبراهيم} قال الأخفش: {مقام} مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيه آيات منها مقام إبراهيم، والواو في {ومن دخله كان آمنا} للاستئناف وما بعدها لبيان حكم من أحكام الحرم. وقال جماعة من العلماء: إن الآية خبر في معنى الأمر أي ومن دخله فأمنوه والمقام في اللغة – كما قال النحاس – من قام يقوم يكون مصدرا واسما للموضع ومقام من أقام والأصح- في رأي القرطبي ومن تابعه في تعيين المقام- أنه: الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن الطويل أن النبي صلى اله عليه وسلم لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ {. . واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} ٢٢٠ فصلى ركعتين قرأ فيهما ب {قل هو الله أحد} ٢٢١ {وقل يا أيها الكافرون} ٢٢٢، إن البيت العتيق وحماه منة لله تعالى على جيرانه والناس أجمعين يقول مولانا وهو أصدق القائلين: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا} ٢٢٣ قال تبارك اسمه {فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} ٢٢٤ وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) وقال (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق ٢٢٥ السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعض شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها) فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال (إلا الإذخر).

{ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} اللام لام الإيجاب والإلزام و {على} توكيد للإلزام في الصحيح عن أبي هريرة: خطبنا رسول الله صلى الله عليه سلم فقال (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) فقال رجل كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم الشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه). {من} بدل بعض من كل بدل من {الناس} فكان المعنى حج البيت على المستطيع من الناس والاستطاعة تعني ملك الزاد والراحلة ولو بأجرة وصحة البدن على وجه يمكنه الركوب وأمن الطريق وهناك شرط لصحة الحج على الإطلاق وهو الإسلام وشرط لصحة المباشرة بعد الإسلام وهو التمييز ولوقوعه عن حجة الإسلام شرطان البلوغ والحرية.

{ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} فيه من غاية السخط والخذلان والتغليظ على من لم يحج مع قدرته على الأداء ما فيه؛ عن ابن عباس والضحاك وعطاء وحسن والمجاهد: من كفر: من لم يره عليه واجبا. ويقول صاحب جامع البيان: من جحد فرض ذلك وأنكر وجوبه فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وعن سائر خلقه من الجن والإنس. اهـ.

٩٨ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

{أهل} أصحاب وأتباع.

{الكتاب} جنس الكتب المنزلة ويراد التوراة والإنجيل.

{شهيد} يرى ويسمع ويعلم ويطلع.

أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم -والأمة له في ذلك تبع- أن يجادلوا أصحاب التوراة والإنجيل اليهود والنصارى وأن ينكروا عليهم بجحودهم ما جاء عن الله تعالى من حجج وما تنزل من لدنه سبحانه من وحي وأن يخوفونهم بطش الله ونقمته وبأسه الذي لا يرد عن القوم الذين يطلع الله تعالى منهم على الفسوق والمروق والتكذيب بالحق؛ -يا معشر يهود وغيرهم من سائر من ينتحل الديانة بما أنزل الله عز وجل من كتبه ممن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد نبوته لم تجحدون حجج الله التي آتاها محمدا في كتبكم وغيرها التي قد ثبت عليكم بصدقه ونبوته وحجته؟. . . وأنتم تعلمون صدقه فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم معتمدون الكفر بالله وبرسوله على علم ومعرفة من كفرهم- ٢٢٦.

٩٩ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

{تصدون} تمنعون وتصرفون.

{سبيل} الطريق الموصلة إلى رضاه والدين الذي لا يقبل سواه.

{تبغونها} تريدونها وتطلبونها. {عوجا} ميلا من الاستواء.

{شهداء} عارفين تشاهدون الطريق السوية من الطريق العوجاء.

{قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن} إنكار من الله تعالى عليهم أن يكتفوا باستحباب الضلال بل عمدوا إلى الإضلال فانبعثوا يمنعون ويصرفون من استطاعوا ممن أسلم أو أراد الدخول فيه. [وكان صدهم عن سبيل الله إلقاء الشكوك والشبهات في قلوب ضعفة المسلمين وإنكار أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم ومنع من أراد الدخول في الإسلام بجهدهم وكيدهم أو بتذكير ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله] ٢٢٧. قال الزجاج: العوج بالكسر كسر العين في المعاني وبالفتح في الأعيان؛ يقال اعوج إذا كان في الدين والقول والعمل، ويقال: عوج بفتح العين في الأجسام كالسيف والفرس والحائط - ليس الله بغافل عن أعمالكم التي تعملونها مما لا يرضاه لعباده وغير ذلك من أعمالكم حتى يعاجلكم بالعقوبة عليهما معجلة أو يؤخر ذلك لكم حتى تلقوه فيجازيكم عليها، وقد ذكر أن هاتين الآيتين من قوله {يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله} والآيات بعدها إلى قوله {وأولئك لهم عذاب عظيم} نزلت في رجل من اليهود.

١٠٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

عن مجاهد قال: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشنآن حتى من الله عليهم بالإسلام قال فبينما رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان ومعهما يهودي جالس فلم يزل يذكرهما أيامهما، والعداوة التي كانت بينهم حتى استبا ثم اقتتلا قال فنادى هذا قومه وهذا قومه فخرجوا بالسلاح وصف بعضهم لبعض، قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد يومئذ بالمدينة فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يمشي بينهم وبين هؤلاء ليسكنهم حتى رجعوا ووضعوا السلاح فأنزل الله عز وجل القرآن في ذلك {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب} إلى قوله {عذاب عظيم}.

وعن قتادة: قد تقدم الله إليكم فيهم كما تسمعون وحذركم وأنبأكم بضلالتهم فلا تأمنوهم على دينكم ولا تنتصحوهم على أنفسكم فإنهم الأعداء الحسدة الضلال كيف تأمنون قوما كفروا بكتابهم؟ وقتلوا رسلهم وتحيروا في دينهم، وعجزوا عن أنفسهم؟ أولئك هم أهل التهمة والعداوة وهكذا فطاعة الأكثرين من اليهود والنصارى أعداء الدين ترد المؤمنين عن تآخيهم وألفتهم وتفضي إلى فرقتهم وارتدادهم وفتنتهم، فالتآخي أخو الإيمان والتفرق أخو الكفر.

-في رواية ابن زيد بن أسلم: خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن معه من المهاجرين فقال (يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا الله الله) فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ٢٢٨.

١٠١ - (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٠ إظهار
{يعتصم} يمتنع ويتمسك.
{بالله} بدينه وبطاعته سبحانه.
{هدى} وفق وأرشد. {صراط مستقيم} طريق غير معوجة دين الإسلام.
{وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم} إنكار أن يكون منهم متابعة للضالين وتعجيب أن يعوج من تتلى عليه الآيات المحكمات ومن يتعلم من الرسول سنن الرشد وهدى التقى الصالحات وهذا كقول الحق تقدست أسماؤه {وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} ٢٢٩. {ومن يعتصم بالله} الذي يمتنع بالله ويستمسك بدينه {فقد هدي إلى صراط مستقيم} تحقق هدايته للطريق المعتدلة التي لا عوج فيها، قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة لأن رسول الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أوتيه فينا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا وإن لم نشاهده انتهى. ولم يسند سبحانه التلاوة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام إشارة إلى استقلال كل من الأمرين في الباب وإيذانا بأن التلاوة كافية في الغرض من أي تال كانت- ٢٣٠.
١٠٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٠ إظهار
{حق تقاته} يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته} كأن المعنى يا من صدقتهم واستيقنتم بما يجب الإيمان به اتقوا الله اتقاء حقا، روى البخاري عن عبد الله قال: قال رسول اله صلى الله عليه وسلم (حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر) روي عن الربيع أنه لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل {فاتقوا الله ما استطعتم} ٢٣١ قال ابن عباس: قول الله عز وجل {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته} لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهد في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم، قال النحاس كل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. اهـ.
{ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} عن طاووس: على الإسلام وعلى حرمة الإسلام. نهى أن يدركهم الموت على خلاف حال الإسلام.
١٠٣ - (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٠ إظهار
{بحبل الله} بكتابه ووحيه. {ألف} أحل فيها الألفة والمودة.
{فأصبحتم} فصرتم. {شفا} حرف.
{واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} عن ابن مسعود: القرآن وعنه: الطاعة والجماعة فكأن المعنى: تمسكوا بكتاب الله يمنعكم من الشقوة والضلال ويعصمكم الله به الفتن وألزموا الطاعة والجماعة ينصرف عنكم التنافر والتناحر وتكونوا أهل التناصر والتآزر كما جاء في الكتاب العزيز في مثل النبي والمؤمنين {. . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه} ٢٣٢.
{واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها} عن عكرمة

أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر من الأنصار فآمنوا به وصدقوه فأراد أن يذهب معهم فقالوا يا رسول الله إن بين قومنا حربا وإنا نخاف إن جئت على حالك هذه أن لا يتهيأ الذي تريد فوعدوه العام المقبل، وقالوا: يا رسول الله نذهب فلعل الله أن يصلح تلك الحرب قال فذهبوا ففعلوا وأصلح الله عز وجل تلك الحرب وكانوا يرون أنها لا تصلح وهو يوم بعاث، فلقوه من العام المقبل سبعين رجلا قد آمنوا فأخذ عليهم النقباء اثني عشر نقيبا فذلك حين يقول {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم}.

عن قتادة قوله: {وكنتم على شفا ٢٣٣ حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته} كان الحي من العرب أذل الناس علة ٢٣٤ وأشقاه عيشا وأبينه ضلالة وأعراه جلودا وأجوعه بطونا معكومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه من عاش منهم عاش شقيا ومن مات ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظا وأدق فيها شأنا منهم حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب وأحل لكم به دار الجهاد ووضع لكم به الرزق وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا نعمه فإن ربكم منعم يحب الشاكرين وإن أهل الشكر في مزيد الله فتعالى ربنا وتبارك. اهـ.

١٠٤ - (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٠ إظهار

{أمة} طائفة.

{المعروف} ما عرف حسنة مما جاء به الشرع أو شهد به العقل.

{المنكر} ما تنكره الشرائع المنزلة وتأباه العقول السليمة.

{المفلحون} المدركون ما طلبوا الناجون مما منه هربوا.

{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} أمر الله جل علاه أن تكون منا طائفة تدعوا إلى الله وما فيه صلاح عباده وتأمر بفعل ما حسنه الشرع وتنهاهم عن إتيان المنكر والشر ومن يفعل ذلك الذي وصانا الله به فهو الرابح الفائز المدرك لما طلب الناجي مما منه هرب- {. . إلى الخير} وهو جنس تحته نوعان الترغيب في فعل ما ينبغي من واجبات الشرع ومندوباته، والكف عما لا ينبغي من محرماته ومكروهاته، فلا جرم أتبعه النوعين بزيادة في البيان فقال: {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} واختلفوا في أن كلمة من في قوله {منكم} للتبيين أو التبعيض- ٢٣٥.

وبالجملة: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق فلينظر الداعي إلى الخير في حال كل مكلف وغير مكلف حتى الصبيان ليتمرنوا والمجانين كيلا يضروا، ويدعوه إلى ما يليق به متدرجا من السهل إلى الأصعب في الأمر والإنكار، كل ذلك إيمانا واحتسابا لا سمعة ورياء ولا لغرض من الأغراض النفسانية والجسمانية وذلك أن هذه الدعوة منصب النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين بعده- ٢٣٦.

١٠٥ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٠ إظهار

{ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم} - لما أمر الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نهى عن ضده وكان ذلك مما لا يتم إلا بالقدرة على تنفيذه، كيف وفي الناس ظلمة ومتغلبون؟ فلا جرم حذر أهل الحق أن يتفرقوا ويختلفوا كيلا يصير ذلك سببا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف. . . قال بعضهم {. . تفرقوا واختلفوا} مؤداهما واحد والتأكيد للتكرير، وقيل معناها مختلف تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين أو تفرقوا بسبب التأويلات الفاسدة للنصوص واختلفوا بأن حاول كل منهم نصرة قوله. . - ٢٣٧.

{أولئك لهم عذاب عظيم} الذين اختلفوا بعد وضوح الحق من يهود أو نصارى أو من يقتفي أثرهم من المنتسبين إلى الإسلام لهم

عذاب عظيم.

١٠٦ - (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

{يوم تبيض وجوه} {يوم} قد تكون منصوبة بفعل تقديره اذكر وهو اليوم الآخر يجمل الله تعالى أهل رضوانه فيبيض ظواهرهم كما طهر بواطنهم وسرائرهم، {وتسود وجوه} وآخرون تسود بشرتهم كما خبثت سريرتهم وهم الذين أساءوا في دنياهم- {يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام} ٢٣٨ والظاهر أن البياض والاسوداد يكون لجميع الجسد، إلا أنهما أسندا للوجوه لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه وهو أشرف أعضاءه {فأما الذين اسودت وجوههم} تفصيل لأحوال الفريقين وابتدأ بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته {وتسود وجوه} وليكون الابتداء والاختتام بما يسر الطبع ويشرح الصدر {أكفرتم بعد إيمانكم} على إرادة القول المقرين بالفاء أي فيقال لهم ذلك. . والاستفهام للتوبيخ والتعجيب من حالهم. . والظاهر من السياق أن هؤلاء أهل الكتاب وكفرهم بعد إيمانهم: كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان به قبل مبعثه وإليه ذهب عكرمة- ٢٣٩. {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} هذا حكم ربنا الذي لا معقب لحكمه يصلى الذين شقوا عذابا شديدا لا يكتنه كنهه بسبب جحودهم وانعدام يقينهم.

١٠٧ - (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} وأما الذين سعدوا وبيض الله وجوههم ووهبهم نورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فأولئك يدخلهم ربنا في رحمته ويخلدهم في جنته وكرامته وينعمون لغير نهاية غاية- وإنما عبر ذلك بالرحمة إشعارا بأن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى ولهذا ورد في الخبر (لن يدخل أحدكم الجنة عمله فقيل له حتى أنت يا رسول الله فقال حتى أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته) ٢٤٠.

١٠٨ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

{تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين} هذه الآيات المنزلة في الذكر المعظمة في الشرف والقدر يقرؤها عليك أمين وحينا على مكث ويبلغك إياها بالصدق وما ربك بظلام للعبيد ولا يظلم أحدا مثقال ذرة فمن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها {. . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ٢٤١.

١٠٩ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

{ولله ما في السماوات والأرض} [وفي موجة النفي إلى الإرادة الواقعة على الفكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم والمراد بما في السماوات وما في الأرض مخلوقاته سبحانه أي له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء وعلى ما يريد وعبر ب {ما} تغليبا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم. . {وإلى الله ترجع الأمور} أي لا إلى غيره لا شركة ولا استقلالا] ٢٤٢.

١١٠ - (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

{كنتم} وجدتم وخلقتم {أخرجت} أظهرت.

{بالمعروف} بالخير والبر والطاعات. {المنكر} السوء والشر والمحرمات.

لما أجرى الكلام في مخاطبة المؤمنين إلى بيان أن كل ما في الوجود ملكه وملكه إبداعا. . وأن منتهى الكل إليه أتبع ذلك مزية هذه الأمة ليعلم أنها بسابقة العناية الأزلية إذ جعلهم مظهر الألطاف وذكر بعدها رذيلة أهل الكتاب ليعرف أنها لوقوعهم في طريق القهر ولا اعتراض لأحد على ما يفعله المالك في ملكه. . قال بعض المفسرين كان ههنا تامة، وانتصاب {خير أمة} على الحال أي حدثتم ووجدتم خير أمة، والأكثرون على أنها - كان- ناقصة فجاء إيهام أنهم موصوفون بالخيرية في الزمان الماضي دونما يستقبل، فأجيب بأن كان لا تدل على عدم سابق ولا انقطاع طارئ بدليل قوله {. . وكان الله غفورا رحيما} ٢٤٣. وقيل المراد كنتم في علم الله أو

في اللوح المحفوظ. . أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة كقوله {. . ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل} ٢٤٤. . وقيل إنها بمعنى صار أي صرتم خير أمة وأصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هي الطائفة الموصوفة بالإيمان به والإقرار بنبوته وإذا أطلقت الأمة في نحو قول العلماء اجتمعت الأمة، وقعت عليهم، يقال لكل من جمعتهم دعوته إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم لفظ الأمة إلا بهذا القيد. قال الزجاج: ظاهر الخطاب في {كنتم} مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام في حق كل الأمة ونظيره {. . كتب عليكم القصاص} ٢٤٥ {. . كتب عليكم الصيام} ٢٤٦ - ٢٤٧.

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة تشهد بفضل هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عز وجل وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة، ففي الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة)؟ فكبرنا ثم قال (إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة) وفيهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وآتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غدا لليهود وللنصارى بعد غد).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله نخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا وذكروا أشياء نخرج عليهم رسول الله فقال (ما الذي تخوضون فيه؟) فأخبروه فقال: (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال (أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال (سبقك بها عكاشة).

ونقل المفسرون بالمأثور عن قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله تعالى منها كأنه يشير بذلك إلى قول المولى سبحانه {تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} وجملة تأمرون وما بعدها في موقع الحال أي كنتم خير أمة حال كونكم آمرين بالبر والطاعات ناهين عن السوء والخطيئات مؤمنين بالله تعالى وبما يجب عليكم الإيمان به من الملائكة والآخرة والرسل والرسالات.

- وأما الإيمان بالله فلا شك أنه في هذه الأمة أكمل لأنهم آمنوا بكل ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب إلى غير ذلك ولا يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض. . . وإنما قدم الأمر بالمعروف على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات لأن الآية سيقت لبيان فضل الأمر بالمعروف وتأكد القيام به ولهذا كرر بعد قوله {ولتكن منكم أمة يدعون ٢٤٨ إلى الخير ويأمرون بالمعروف}. . على أن الواو لا تفيد الترتيب - ٢٤٩.

{ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم} لو أقر واستيقن أهل التوراة والإنجيل بما يجب الإيمان به كما استيقن المسلمون وأقروا وصدقوا بالله تعالى وكافة رسله وكتبه لكان أولى ٢٥٠ لهم من أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ويصدقوا بنبوة رسول الله ويجحدوا نبوة غيره؛ {منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} من اليهود والنصارى قلة آمنت بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم كعبد الله بن سلام وغيره وأكثر اليهود والنصارى فسقوا عن هدى الله وخرجوا عن ميثاقه الذي أخذ عليهم أن يؤمنوا بكل الرسل وأن يتبعوا النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.

ثم قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين ومبشرا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين فقال تعالى {لن يضروكم ٢٥١ إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون} ٢٥٢.

١١١ - (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ)

{يولوكم الأدبار} يفروا ويعطوا ظهورهم لمن يقاتلهم وينهزموا.
{لا ينصرون} يغلبون ويخذلون.
{لن يضروكم ٢٥٣ إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون} ٢٥٤.
هكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله، كذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ٢٥٥.
١١٢ - (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)
{ضربت} لزمت وصارت.
{الذلة} المهانة وهدر النفس والمال والأهل.
{أينما ثقفوا} في أي مكان وجدوا.
{بحبل من الله} باعتصام بذمة الله وبكتابه.
{وحبل من الناس} باعتصام بذمة المسلمين.
{وباءوا} ورجعوا وصاروا أحقاء. {المسكنة} الحاجة.
{يعتدون} يتجاوزون الحد.
{ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة} ثبتت عليهم الذلة وأحاط بهم الهوان في أي مكان يوجدون فيه وعلى كل حال قال الفراء إلا أن يعتصموا بحبل من الله أي بذمة الله أو كتابه وبذمة المسلمين حين تعقد الجزية وتضرب عليهم أو يعطون الأمان فإنهم بذلك يسلمون من القتل والأسر وسبي الذراري واستئصال الأموال وصاروا أحقاء بغضب الله، ورجعوا ولم يظفروا إلا بسخطه ونقمته التي لا تفارقهم وهم دائما محاويج لا يستشعرون غنى ولا قناعة.
{ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} ذلك الهوان الذي يحيطهم الله تعالى به بسبب تكذيبهم الرسالات والرسل وقتلهم الداعين إلى الله من الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس وما لهم في جورهم وسفكهم الدماء الزكية من حق أصلا لكنه البغي والفسوق والحيف وتعدي الحدود ونسبة القتل إليهم مع أن أجداد المخاطبين بهذا حين تنزل القرآن الكريم هم الذين فعلوا لأنهم رضوا بفعلهم وتابعوهم على غيهم ومروقهم.
١١٣ - (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)
{ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة} قال الفراء {أمة} رفع ب {سواء} والتقدير ليس يستوي أمة من أهل الكتاب قائمة. . وأمة كافرة أي لا يستوي أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا، والقائمة: المستقيمة العادلة من قولهم: أقمت العود فقام أي استقام وعن ابن مسعود: ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء، وقال ابن إسحق عن ابن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن ٢٥٦ سعية وأسيد بن سعية وأسيد ٢٥٧ بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله} إلى قوله {وأولئك هم الصالحين} وهذا يشهد للمعنى الذي أشير إليه أولا بل يعضده في ختام السورة الكريمة {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا لهم أجرهم عند ربهم} ٢٥٨.
وعن عطاء أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد صلى

الله عليه وسلم، قال القفال رحمه الله: لا يبعد أن يقال أولئك الحاضرون كانوا نفرا من مؤمني أهل الكتاب فقيل ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم. . . مع أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ولا يبعد أيضا أن يقال المراد من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله أهل الكتاب كأنه قيل أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين سماهم الله تعالى أهل الكتاب حالهم وصفتهم كذا فكيف يستويان؟.

- ثم إنه تعالى مدح الأمة المذكورة بصفات ثمان - أنها {قائمة} قيل: أي في الصلاة وقيل ثابتة على التمسك بدين الحق ملازمة غير مضطربة وقيل أي مستقيمة عادلة. . والصفة الثانية- {يتلون} أي أمة قائمة {يتلون آيات الله آناء الليل} فالتلاوة القراءة وأصل الكلمة الاتباع فكأن التلاوة هي اتباع اللفظ وآيات الله القرآن وقد يراد بها أصناف مخلوقاته الدالة على صانعها وآناء الليل ساعاته واحدها إني. . الصفة الثالثة - {وهم يسجدون} يحتمل أن يكون حالا من يتلون كأنهم يقرءون القرآن في السجدة تخشعا إلا أن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ألا إني نهيت أن أقرأ راكعا أو ساجدا يأباه. . . وأن يكون المراد وهم يصلون ويتهجدون والصلاة تسمى سجدة وركعة. . وأن يراد وهم يخضعون لله، كقوله {ولله يسجد من في السماوات والأرض} ٢٥٩ الصفة الرابعة - {يؤمنون بالله واليوم الآخر} فالصفات المتقدمة إشارة إلى كمالهم بحسب القوة النظرية. . والخامسة والسادسة - {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} وهاتان الصفتان إشارة إلى أنهم فوق التمام وذلك لسعيهم في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي وفيه تعريض بالأمة المذمومة أنهم كانوا مداهنين، وعن سفيان الثوري إذا كان الرجل محببا في جيرانه محمودا عند إخوانه فاعلم أنه مداهن، الصفة السابعة - {ويسارعون في الخيرات} أي المذكورات كلها وهي من صفات المدح لأن المسارعة في الخير دليل فرط الرغبة فيه حتى لا يفوت ففي التأخير آفات. وما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال (العجلة من الشيطان) مخصوص بهذه الآية. . . والأمور متفاوتة: منها ما يحمد فيه التأخير لكونه مما حصل على مهل وتدريج. . ومنها ما يحمد فيه التعجيل. . فتنتهز فيه الفرصة وتغتنم فإن الفرص تمر مر السحاب قال صلى الله عليه وسلم (اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك). الصفة الثامنة - {وأولئك من الصالحين} وذلك أن الأمور بخواتيمها والعاقبة غير معلومة إلا في علم الله تعالى بانخراطهم في سلك الصالحين فذلك المقصود وقصارى المجهود-. ٢٦٠

١١٤ - (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٣]

{ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة} قال الفراء {أمة} رفع ب {سواء} والتقدير ليس يستوي أمة من أهل الكتاب قائمة. . وأمة كافرة أي لا يستوي أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا، والقائمة: المستقيمة العادلة من قولهم: أقمت العود فقام أي استقام وعن ابن مسعود: ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء، وقال ابن إسحق عن ابن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن ٢٦١ سعية وأسيد بن سعية وأسيد ٢٦٢ بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله} إلى قولهّ {وأولئك هم الصالحين} وهذا يشهد للمعنى الذي أشير إليه أولا بل يعضده في ختام السورة الكريمة {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا لهم أجرهم عند ربهم} ٢٦٣.

وعن عطاء أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد صلى
الله عليه وسلم، قال القفال رحمه الله: لا يبعد أن يقال أولئك الحاضرون كانوا نفرا من مؤمني أهل الكتاب فقيل ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم. . . مع أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ولا يبعد أيضا أن يقال المراد من آمن بمحمد

صلى الله عليه وسلم فسماهم الله أهل الكتاب كأنه قيل أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين سماهم الله تعالى أهل الكتاب حالهم وصفتهم كذا فكيف يستويان؟.
- ثم إنه تعالى مدح الأمة المذكورة بصفات ثمان - أنها {قائمة} قيل: أي في الصلاة وقيل ثابتة على التمسك بدين الحق ملازمة غير مضطربة وقيل أي مستقيمة عادلة. . والصفة الثانية- {يتلون} أي أمة قائمة {يتلون آيات الله آناء الليل} فالتلاوة القراءة وأصل الكلمة الاتباع فكأن التلاوة هي اتباع اللفظ وآيات الله القرآن وقد يراد بها أصناف مخلوقاته الدالة على صانعها وآناء الليل ساعاته واحدها إني.
. الصفة الثالثة - {وهم يسجدون} يحتمل أن يكون حالا من يتلون كأنهم يقرءون القرآن في السجدة تخشعا إلا أن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ألا إني نهيت أن أقرأ راكعا أو ساجدا يأباه. . . وأن يكون المراد وهم يصلون ويتهجدون والصلاة تسمى سجدة وركعة. . وأن يراد وهم يخضعون لله، كقوله {ولله يسجد من في السماوات والأرض} ٢٦٤ الصفة الرابعة - {يؤمنون بالله واليوم الآخر} فالصفات المتقدمة إشارة إلى كمالهم بحسب القوة النظرية. . والخامسة والسادسة - {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} وهاتان الصفتان إشارة إلى أنهم فوق التمام وذلك لسعيهم في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي وفيه تعريض بالأمة المذمومة أنهم كانوا مداهنين، وعن سفيان الثوري إذا كان الرجل محببا في جيرانه محمودا عند إخوانه فاعلم أنه مداهن، الصفة السابعة - {ويسارعون في الخيرات} أي المذكورات كلها وهي من صفات المدح لأن المسارعة في الخير دليل فرط الرغبة فيه حتى لا يفوت ففي التأخير آفات. وما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال (العجلة من الشيطان) مخصوص بهذه الآية. . . والأمور متفاوتة: منها ما يحمد فيه التأخير لكونه مما حصل على مهل وتدريج. . ومنها ما يحمد فيه التعجيل. . فتنتهز فيه الفرصة وتغتنم فإن الفرص تمر مر السحاب قال صلى الله عليه وسلم (اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك). الصفة الثامنة - {وأولئك من الصالحين} وذلك أن الأمور بخواتيمها والعاقبة غير معلومة إلا في علم الله تعالى بانخراطهم في سلك الصالحين فذلك المقصود وقصارى المجهود-. ٢٦٥

١١٥ - (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

{وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين} ومهما فعلتم من صالح وبر فلن تجحدوا ثوابه بل يشكره الله لكم ويجزل لكم أجره ويتقبله منكم فإنه يتقبل عمل المتقين وهو أعلم بمن اتقى والأمة القائمة استجمعت جوانب التقوى فلها من ربنا الشكور هذه البشرى.

١١٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [لن تدفع عنه أمواله التي جمعها في الدنيا وأولاده الذين رباهم فيها شيئا من عقوبة يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة ولا في الدنيا إن عجلها لهم فيها، وإنما خص أولاده وأمواله لأن أولاد الرجل أقرب أنسبائه إليه وهو على ماله أقرب منه على مال غيره وأمره فيه أجوز من أمر في مال غيره، فإذا لم يغني عنه ولده لصلبه وماله الذي هو نافذ الأمر فيه فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم أبعد من أن تغني عنه من الله شيئا ثم أخبر جل ثناؤه أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله {وأولئك أصحاب النار} وإنما جعلهم أصحابها لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه، وقرينه الذي لا يزايله، ثم وكد ذلك بإخبارهم عنهم أنهم فيها خالدون صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها، إذ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النار التي أصلوها ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع نعوذ بالله منها ومما قرب منها من قول وعمل.

١١٧ - (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

القول في تأويل قوله: {مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته} يعني بذلك

جل ثناؤه شبه ما ينفق الذين كفروا أي شبه ما يتصدق به الكافر من ماله فيعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربه ٢٦٦ وهو لوحدانية الله جاحد ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذب في أن ذلك غير نافعه مع كفره وأنه مضمحل عند حاجته إليه ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد حرث قوم يعني زرع قوم أملوا إدراكه ورجوا ريعه وعائدة نفعه {ظلموا أنفسهم} يعني أصحاب الزرع عصوا الله وتعدوا حدوده {فأهلكته} يعني: فأهلكت الريح التي فيها الصر زرعهم ذلك بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم، يقول تعالى ذكره: فكذلك فعل بنفقة الكافر وصدقته في حياته حين يلقاه يبطل ثوابها ويخيب رجاءه منها {وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون}. . وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون ولأمره متبعون ولرسله مصدقون بل كان ذلك منهم وهم به مشركون ولأمره مخالفون ولرسله مكذبون. . . الكافر هو الظالم نفسه لإكسابها من معصية الله وخلاف أمره ما أوردها به نار جهنم وأصلاها به سعير سقر]. ٢٦٧

١١٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

{بطانة} خاصة {من دونكم} من سواكم.

{لا يألونكم خبالا} لا يقصرون فيما فيه إفسادكم.

{ودوا ما عنتم} أحبوا ما يعنتكم ويشق عليكم ويضركم أبلغ الضرر.

{بدت البغضاء} ظهرت شدة البغض لكم.

{من أفواههم} من فم كل منهم ومن فلتات ألسنتهم.

{بينا لكم الآيات} أظهرنا لكم العلامات الواضحات والدلالات الظاهرات

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم} نهى الله تعالى عباده الذين صدقوا واستيقنوا به سبحانه وبما يجب الإيمان به أن يتخذوا أولياء وأصفياء من سواهم والبطانة هم الخاصة الذين يطلعون على داخل أمر من يستبطنهم ويكاشفهم بما يستسر به، روى البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله) وقد حذر القرآن المجيد من موالاة أهل الكفر ٢٦٨ في آية كثيرة منها {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا}، ٢٦٩ ومنها {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم} ٢٧٠، ومهما كانوا من القربى فلا حل في موالاتهم {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان} ٢٧١ {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}. . ٢٧٢.

{ولا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر} ينبأ العليم الخبير بما تنطوي عليه نفوس أعداء الدين من بغض وحقد شديد على المؤمنين فهم لا يكفون عن إتيان كل ما يجر الفساد على المسلمين وأحب شيء إلى قلوبهم ما يجلب الضرر ويشق على الدين ومهما تواصوا بكتمان سخطهم ونقمتهم علينا فإن ألسنتهم تبسط بالسوء والنيل منا بين الحين والحين، فكيف بما انطوت عليه صدورهم من حقد مكين؟

{قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون} قد أظهرنا لكم الدلائل والعلامات الواضحات لكل من يعقل فإن وعيتم ما وعد كم به ربكم فاحذروا ما يبينه لكم عدوكم.

١١٩ - (هَأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

{تؤمنون بالكتاب} تصدقوا بجنس الكتب المنزلة كلها.
{عضوا عليكم الأنامل من الغيظ} عضوا بأسنانهم على أطراف أصابعهم.
{موتوا بغيظكم} دعاء عليهم أن يموتوا غما لما يرون من ائتلاف المؤمنين.
{ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم} تسعون لخيرهم العاجل والآجل فتدعونهم إلى الإسلام الموصل إلى دار السلام وهم يريدون لكم الرجوع إلى الكفر والآثام {وتؤمنون بالكتاب كله} تصدقون بكافة الكتب التي أنزلها قول الحق سبحانه {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك} ٢٧٣.
{وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ}، هؤلاء الخصوم الألداء مخادعون ماكرون محتالون إذا كانوا معكم في مجلس أو جمع ادعوا الإيمان استهزاء بكم وتقية منكم وطمعا في معرفة أسراركم وإذا خلا بعضهم إلى بعض عضوا أصابعهم تغيظا من الألفة التي بينكم والنصر والتأييد الذي يحالف جندكم.
{قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور} - خطاب لكل مؤمن وتحريض لهم على عداوتهم وحث لهم على خطابهم خطاب الخصماء، فإنه لا أقطع للمحبة من جراحة اللسان فالمقصود على هذا من قوله تعالى {موتوا بغيظكم} مجرد الخطاب بما يكرهونه والصحيح الذي اتفقت عليه كلمتهم أنه دعاء عليهم. . {إن الله عليم بذات الصدور} أي بما خفي فيها. .
١٢٠ - (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)
{حسنة} نعمة. {تسؤهم} تحزنهم. {سيئة} محنة وبلية.
{كيدهم} مكرهم. {محيط} أحاط علمه وجزاؤه لا مفر منه.
{إن تمسسكم} أيها المؤمنون {حسنة} نعمة من ربكم كالألفة واجتماع الكلمة والظفر بالأعداء {تسؤهم} أي تحزنهم وتغظهم {وإن تصبكم سيئة} أي: محنة كإصابة العدو منكم، واختلاف الكلمة فيما بينكم {يفرحوا} أي يبتهجوا {بها} وفي ذلك إشارة إلى تناهي عداوتهم إلى حد الحسد والشماتة. . {وإن تصبروا على آذاهم أو على طاعة الله تعالى ومضض الجهاد في سبيله {وتتقوا} ما حرم عليكم {لا يضركم كيدهم} أي: مكرهم وأصل الكيد المشقة. . {شيئا} نصب على المصدر أي {لا يضركم كيدهم شيئا} من الضرر لا كثيرا ولا قليلا ببركة الصبر والتقوى لكونها من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ومن تحلى بذلك كان في كنف الله تعالى وحمايته من أن يضره كيد عدو. . {إن الله بما يعملون} من الكيد. . {محيط} علما. . فيعاقبهم به أو فيثيبكم عليه- ٢٧٤.
١٢١ - (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
{وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} كأن المعنى: واذكر يا محمد إذ سرت من بين أهلك تتخذ للمؤمنين أماكن للقتال وأصل الغدو الخروج غدوة في الصباح قبل الظهيرة وعبر به هنا عن مجرد الخروج من غير اعتبار لوقت حدوثه، و {مقاعد} أي مواطن والمقعد والمقام يتوسع في معناهما فيراد به المكان ومنه قوله تعالى {في مقعد صدق}. . ٢٧٥ وقوله سبحانه {. . قبل أن تقوم من مقامك} ٢٧٦ أي من موضع حكمك وجمهور علماء القرآن وعلماء المغازي على أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد، قال عكرمة كانت يوم السبت للنصف من شوال وكان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بعد الصلاة في اليوم الرابع عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة {والله سميع عليم} سميع لكل قول عليم بكل ما ظهر وما بطن.
- لما وعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا واتقوا وخلاف ذلك إن لم يصبروا أتبعه قوله {وإذ غدوت من أهلك} {ولقد نصركم الله ببدر} يعني أنهم يوم أحد كانوا كثيرين مستعدين للقتال فلما خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم انهزموا ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين لكنهم أطاعوا أمر الرسول فغلبوا واستولوا على خصومهم- ٢٧٧.

١٢٢ - (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
{إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما} فرقتان منكم أيها المؤمنون حدثتهم أنفسهم بالرجوع عن القتال ولم يعزما على ذلك ولا صمما عليه لكن الله الرحيم تولاهما فثبتهما على الحق وحبب إليهما الجهاد مع النبي والمؤمنين، روى البخاري في صحيحه عن جابر قال: فينا نزلت {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا} قال نحن الطائفتان بنو حارث وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل {والله وليهما} {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ليثق بالله وحده أهل اليقين وليرضوا بقضائه مع السعي فيما لا بد منه من الأسباب.
١٢٣ - (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
{ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون} [بيان لما يترتب على الصبر والتقوى إثر بيان ما ترتب من عدمهما. . . وقال قتادة إن بدرا ماء بين مكة والمدينة التقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون وكان أول قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان يوم الجمعة سنة اثنين من الهجرة. والباء بمعنى - في- أي: نصركم الله في بدر {وأنتم أذلة} حال. . والمراد بها عدم العدة لا الذل المعروف] ٢٧٨ {فاتقوا الله} وأطيعوا واصبروا {لعلكم تشكرون} لتقوموا بشكره على ما أنعم به عليكم من النصر وليزيدكم بالشكر نصرا.
١٢٤ - (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ)
{إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين} في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه (اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فمازال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، فقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} ٢٧٩ فأمده الله تعالى بالملائكة.
١٢٥ - (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)
{بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين} نقل عن الحسن أن هذا كان يوم بدر وقال الربيع بن أنس أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا خمسة آلاف وأما مجاهد وعكرمة والضحاك فقالوا: هذا الوعد متعلق بيوم أحد، لكن لم يحصل الإمداد بالخمسة آلاف لأن المسلمين فروا يومئذ؛ - وقوله تعالى {بلى إن تصبروا وتتقوا} يعني تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقوني وتطيعوا - أمري ٢٨٠ {ويأتوكم من فورهم هذا} عن قتادة: أي: من وجههم هذا، وعن مجاهد أي: من غضبهم هذا؛ {مسومين} معلمين بسيما وهي العلامة. قال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم.
١٢٦ - (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
{وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم} -أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم- ٢٨١.
والقرآن الكريم يذكر باقتدار الله تعالى على إنفاذ ما يريد بسبب وبدون سبب ليعلق القلب بالمولى ويستيقن {وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم} من الغالب الذي لا يغلب سبحانه ومن الحكيم الذي لا يفوته الصواب أبدا، يأتي النصر منه جل جلاله لا من سواه وهذا كقوله تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا} ٢٨٢ ويقول عز وجل {ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض} ٢٨٣.

١٢٧ - (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

{ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين} يمدكم الله بالنصر ليحق الحق ويستأصل طائفة من الكافرين فيمكنكم من رقابهم وقطع أعناقكم {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم} ٢٨٤ أو يخذلهم فينهزموا ويرجعوا بذل الخيبة وفقدان الأمل.

١٢٨ - (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

{ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول (كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى) فأنزل الله تعالى {ليس لك من الأمر شيء}. وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى {ليس لك من الأمر شيء} الآية وقال البخاري أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو لأحد قنت ٢٨٥ بعد الركوع وربما قال إذا قام: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) يجهر بذلك وكان يقول في بعض صلاته في الفجر (اللهم العن فلانا وفلانا) لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله {ليس لك من الأمر شيء} والآية {أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} وقريب من هذا ما وصى الله تعالى به في آيات محكمات أخر {فذكر إنما أنت بمذكر لست عليهم بمسيطر} ٢٨٦ فربك مالك أمرهم إن شاء الله يهديهم إلى الحق فيظفروا بأجر من تاب وأناب إلى ربه، وإن يشأ يهلكهم ويخلدهم في العذاب بما جحدوا وظلموا.

١٢٩ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم} ليس لك يا محمد من الأمر شيء ولله جميع ما بين أقطار السماوات والأرض، من مشرق الشمس إلى مغربها دونك ودونهم يحكم فيهم بما شاء ويقضي فيهم بما أحب فيتوب على من أحب من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له ويعاقب من يشاء منهم على جرمه فينتقم منه وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم-٢٨٧.

١٣٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

نهى الله تعالى عن خطيئة من أكبر الخطايا وأمر بواحدة هي سبيل النجاة من كل مرهوب والظفر بأكرم مطلوب، حذر سبحانه من تعاطي الربا ورغب في الحرص على التقوى والمراد من الأكل الأخذ وبحسب المرابين من المقت والسخط أن الله تعالى ورسوله حرب لهما: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون} ٢٨٨. و {أضعافا} حال و {مضاعفة} صفة ل {أضعافا} وليس الموصوف وصفته هنا لتقيد النهي أي المحرم عليكم الربا الذي يكون أضعافا مضاعفة بل هو لبيان ما كانوا عليه من أخذ أضعاف الدين الذي كان في الابتداء، ومن المعلوم أن الربا محرم على كل حال قل أو كثر.

{واتقوا الله لعلكم تفلحون} - فيه أن اتقاء الله في هذا النهي واجب وأن الفلاح يقف عليه فلو أكل ولم يتق زال الفلاح ويعلم منه أن الربا من الكبائر لا من الصغائر، ويؤكد قوله {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}

١٣١ - (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

{واتقوا النار التي أعدت للكافرين} كان أبو حنيفة يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن

لم يتقوه في اجتناب محارمه وكون النار معدة للكافرين لا يمنع دخول الفساق وهم مسلمون فيها لأن أكثر أهل النار الكفار فغلب جانبهم- ٢٨٩.

١٣٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون} افعلوا ما أمركم الله به واجتنبوا كل ما نهاكم ربكم عنه واستجيبوا للرسول في كل ما ندبكم إليه لكي تدركوا رحمة الله تعالى أو افعلوا ذلك راجين رحمة البر الرحيم سبحانه.

١٣٣ - (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

{وسارعوا إلى مغفرة من ربكم} معطوف على ما سبق من الأمر بالتقوى والطاعة يوصينا الله جل علاه أن نبادر ونسابق ويباري بعضنا بعضا وننافس فيما يرجى أن ننال به ستر الذنوب والخطيئات، والعفو من ربنا فلا يعاقبنا على ما اكتسبنا من إثم وسيئات.

{وجنة عرضها السماوات والأرض} وبادروا وسابقوا إلى ما يدخلكم به الله بفضله سبحانه دارا تنعمون فيها وتخلدون وتسكنون في قصورها وتمرحون في روضاتها وقد أوسعنا فنعم الموسعون؛ روى أبو سعيد الخدري: (إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنى ويتمنى حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى لك ذلك وعشرة أمثاله) أخرجه مسلم في صحيحه. حتى كان عرضها ٢٩٠ عرض السماوات والأرضين وطولها يعلم مداه الخبير العليم وسقفها عرش ربنا العلي العظيم في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن). {أعدت للمتقين} هيئت دار النعيم لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

١٣٤ - (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

{الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين}: من صفات المتقين الموعودين بجنات النعيم أنهم أهل بر ورحمة وخلق كريم فهم ينفقون في اليسر والعسر ويبذلون ويجودون في الرخاء والشدة ويصلون ويتصدقون مما قل من المال أو كثر والبشرى لهم من الله الذي لا يخلف الميعاد {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} ٢٩١ وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال يا رسول الله هذه في سبيل الله فقال (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة).

{والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس}: يسكتون على ما يغيظهم ولا يظهرونه بقول ولا بفعل بل يردون غضبهم ويكفون عن إمضائه وإذا أسيء إليهم قابلوا إساءة المسيء بالإحسان إليه. ونقل عن الحسن: يقال يوم القيامة: ليقم من كان له على الله من أجر فما يقوم إلا إنسان عفا ثم قرأ هذه الآية {والعافين عن الناس} وهذا كقول الحق سبحانه {. . وإذا ما غضبوا هم يغفرون} ٢٩٢ وقوله تبارك اسمه {ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يأتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا} ٢٩٣.

{والله يحب المحسنين} - و (ال) إما للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولا أوليا وإما للعهد. . . الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن (تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك) - ٢٩٤.

١٣٥ - (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

{والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} [ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفا هم دون الصنف الأول فألحقهم بهم برحمته ومنه فهؤلاء هم التوابون] ٢٩٥. لم يقنط البر الرحيم جل ذكره من عصى من عفوه وألحقهم بالبررة الموعودين بدار كرامته وأثنى على من ألم بخطيئة ثم أناب إلى الرشد وجادته، {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} ٢٩٦ والفاحشة قد تعني السيئة المتزايدة القبح ويمكن أن تكون في الآية

صفة لموصوف محذوف والتقدير: والذين إذا فعلوا فعلة فاحشة {أو ظلموا أنفسهم} أذنبوا ذنبا يؤاخذ فاعله به ويعاقب عليه {ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم} -أي وعيده أو عقابه وأنه سائلهم أو نهيه أو جلاله الموجب للخشية والحياء منه، وعلى جميع التقادير فلا بد من مضاف محذوف وقيل المراد ذكروا الله بالثناء والتعظيم. . والمراد بالاستغفار الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل. . .

{ومن يغفر الذنوب إلا الله} لأن كمال قدرته وغناه كما أنه يقتضي إزالة ذلك العقاب عنه لكن صدور الرحمة عنه بالذات " سبقت رحمتي غضبي " فجانب العفو والمغفرة أرجح ولا سيما إذا اقترن الذنب بالتوبة والاعتذار والتنصل بأقصى ما يمكن للعبد- ٢٩٧.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم) {ولم يصروا على ما فعلوا} لم يقيموا على قبيح فعلهم ولم يعاودوه وليس في عزمهم ولا نيتهم أن يأتوه {وهم يعلمون} قال الحسن بن الفضل {وهم يعلمون} أن لهم ربا يغفر الذنب ويشهد بهذا حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال (أذنب عبدي ذنبا فقال اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أي رب اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين وفي آخره- اعمل ما شئت فقد غفرت لك) أخرجه مسلم، وقيل والحال أنهم يعلمون قبحها لأنه قد يعذر الجاهل ولا يعذر العالم - عن السدي: فيعلمون أنهم قد أذنبوا ثم أقاموا فلم يستغفروا {أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين}.

١٣٦ - (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

{أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين}

هؤلاء الذين وعدوا وبشروا يجزيهم الله تعالى على ما كان منهم سترا وغفرانا ونعيما وخلودا ومقاما في بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وأنعم به من أجر وما أعظمه من ثواب يمنحه الله من عمل الصالحات وكان من المستيقنين ولقي ربه على هذا الدين القويم.

١٣٧ - (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

{خلت} مضت. {سنن} أمم، أو طرق أو نذر مما جرى للمجرمين.

- يعني بقوله تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن} مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم، {سنن}: يعني مثلات سير بها فيهم وفيمن كذبوا بهم من أنبيائهم الذي أرسلوا إليهم بإمهالي أهل التكذيب بهم واستدراجي إياهم حتى إذا بلغ الكتاب فيهم الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي وأنزلت بساحتهم نقمتي فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا، {فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين}: يقول فسيروا أيها الضانون إن إدالتي من أدلت أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسلي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه عن خلافهم أمري وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي- ٢٩٨.

١٣٨ - (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

{بيان} تبيين. {هدى} شرح الصدور بالحق.

{موعظة} زجر عن السوء.

{هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} هذا الذي ناديتكم إليه من النظر في أحوال السابقين وعاقبة المكذبين أو هذا الذي جاءكم من

آيات كتابي: تبيين لكل من يعقل وبه تنشرح صدور الأتقياء للرشد وتلين بمواعظه قلوب المتقين إلى منهاج البر، وبكلمات ربنا التامات قامت الحجة على الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فقطع الله عذرهم بقوله الحكيم {وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون} ٢٩٩.

١٣٩ - (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{ولا تهنوا} ولا تضعفوا.

{الأعلون} الأرفع قدرا والأعز مقاما.

{ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}: نهى الله تعالى أن يحزن المؤمن لأن الحزن يضعفه والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم بربنا القوي متضرعا إليه أن يجيره مما يضعف النفس ويوهن العزم ٣٠٠، وجاء في آية كريمة مباركة: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ٣٠١ والله معكم ولن يتركم أعمالكم} ٣٠٢، وقال المولى تقدست أسماؤه: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون} ٣٠٣، وجعل التأييد والتيقن لأهل اليقين {. . . والعاقبة للمتقين} ٣٠٤ {. . . وكان حقا علينا نصر المؤمنين} ٣٠٥.

١٤٠ - (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

{قرح} جرح وألم.

{نداولها} نديل لهم من عدوهم مرة ونديل للعدو حينا.

{شهداء} مشهود لهم بالجنة.

{إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس}: إن تصبكم جراح وتقتل منكم طائفة فقد أصيب أعداؤكم بجراح وقتل- {وتلك الأيام}: اسم إشارة مشار به في ما بعده كما في الضمائر المبهمة التي يفسرها ما بعدها. . وفعله يفيد التضخيم والتعظيم و {الأيام}: بمعنى الأوقات أو الأيام العرفية وتعريفها للعهد إشارة إلى أوقات الظفر والغلبة الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية، ويوما بدر وأحد داخلان فيها دخولا أوليا، {نداولها بين الناس}: نصرفها بينهم فتديل لهؤلاء مرة ولهؤلاء أخرى، كما وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى واحد. . . وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإعلام بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة إلى أن يأتي أمر الله تعالى- ٣٠٦. {وليعلم الله الذين آمنوا}: لعل المعنى ليرى المؤمنين من المنافقين فيميز بعضهم ٣٠٧ عن بعض- والكلام من باب التمثيل أي ليعاملهم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم والعلم فيه مجاز عن التمييز من باب إطلاق اسم السبب على المسبب أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم. . وبالجملة لا يرد لزوم حدوث العلم الذي هو صفة قائمة بذاته تعالى وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه والإشعار بأن الإيمان لا ينطلق على غيره- ٣٠٨. {ويتخذ منكم شهداء}: ويصطفي ويختار بعضا منكم فيكرمهم بالشهادة فكأنهم يشهدون الجنة، عن عكرمة قال: لما أبطأ على النساء الخبر خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقتولان على دابة أو على بعير فقالت امرأة من الأنصار من هذا فلان أخو فلانة وزوجها أو زوجها وابنها فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: حي قالت فلا أبالي يتخذ الله تعالى من عباده الشهداء ونزل القرآن على ما قالت {ويتخذ منكم شهداء} {والله لا يحب الظالمين} [أي المشركين أي وإن أنال الكفار – وفي نسخة: أدال- من المؤمنين فهو لا يحبهم وإن أحل ألما بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين.

١٤١ - (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

{يمحص} ليختبر ويطهر.
{يمحق} ينقص ويهلك.
{وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين}. . وليمحص يختبر. . وليطهر أي من ذنوبهم على حذف مضاف المعنى وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا قاله الفراء. . يمحص يخلص. . . فالمعنى عليه ليبتلي المؤمنين ليقيهم وليخلصهم من ذنوبهم {ويمحق الكافرين} أي يستأصلهم بالهلاك] ٣٠٩.
١٤٢ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)
{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}: كان المعنى بل أتظنون أن تدركوا نعيم الآخرة والخلود في جنتها دون أن تجاهدوا وتصبروا على أمانات رب العالمين؟ لن يتحقق الفوز بالجنات إلا بالجهاد في سبيل الحق والصبر في البأساء والضراء وحين البأس مع صبر جميل على طاعة الله تعالى وصبر عن معصيته وتلك سنة للمولى - تقدست أسماؤه لا تتبدل، يقول جل ثناؤه: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذي خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا} ٣١٠، ويقول سبحانه: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلكم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} ٣١١، وفرق بين لم و {ما} فجعل لم لنفي الماضي ولما لنفي الماضي والمتوقع و {يعلم} منصوب بإضمار أن، وقال الزجاج: الواو بمعنى حتى.
١٤٣ - (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)
{ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون} جائز أن تكون الواو للعطف واللام موطئة للقسم، وقد للخصوص و {تمنون} أصلها تتمنون فحذفت إحدى التائين و {الموت} يعني القتال في سبيل الله وإن ترتب عليه الموت والضمير في {فقد رأيتموه} عائد على لقاء العدو المستفاد مما هو مسبق، {وأنتم تنظرون} أي والحال أنكم ترون اللقاء وتشهدونه، وقال الأخفش: هذا يكون بمعنى التأكيد لقوله {فقد رأيتموه} مثل {ولا طائر يطير بجناحيه} ٣١٢ وفي الآية إضمار أي فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم فررتم؟.
عن مجاهد قال: غاب رجال عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقوه فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر فلما كان يوم أحد ولى منهم فعاتبهم الله.
ومما أورد صاحب جامع البيان: وإنما قيل {ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه} لأن قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد بدرا كانوا يتمنون قبل أحد يوما مثل يوم بدر فيبلوا الله من أنفسهم خيرا وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر فلما كان يوم أحد فر بعضهم وصبر بعضهم حتى أوفى بما كان عاهد الله قبل ذلك فعاتب الله من فر منهم.
ونقل عن ابن إسحق: لقد كنتم تمنون الشهادة على الذي أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم يعني الذين حملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروجه بهم إلى عدوهم لما فاتهم من الحضور في اليوم الذي كان قبله بدر ورغبة في الشهادة التي قد فاتتهم.
روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: قال عمي أنس بن النضر -سمعت به- ولم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر عليه فقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من العام المقبل فاستقبله سعد ابن مالك فقال يا أبا عمر وأين؟ قال واها ٣١٣ لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فقالت عمتي الربيعة بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه ٣١٤ ونزلت هذه الآية {. . رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا} ٣١٥.
١٤٤ - (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)
{انقلبتم على أعقابكم} ارتددتم عن مواجهة العدو أو رجعتم عن ملة الإسلام.

{وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين} قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالشعب أمر الرماة أن يكونوا أصل الجبل لا ينتقلون سواء كان الأمر لهم أم عليهم فلما وقفوا وحملوا على الكفار هزموهم وقتل علي رضي الله عنه طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم والزبير والمقداد شدا على المشركين، ثم حمل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فهزموا أبا سفيان ثم إن بعض القوم لما رأوا انهزام الكفار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة وكان خالد ابن الوليد صاحب ميمنة الكفار، فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم وكثر القتلى في المسلمين ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر وكسر رباعيته وشج وجهه وأقبل يريد قتله فدب عنه مصعب بن عمير - وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد - حتى قتل ابن قميئة، واحتمل طلحة بن عبيد الله رسول الله، ودافع عنه أبو بكر وعلي، وظن ابن قميئة أنه قتل رسول الله فقال: قد قتلت محمدا وصرخ صارخا ألا إن محمدا قد قتل، قيل وكان الصارخ الشيطان ففشا في الناس خبر قتله صلى الله عليه وسلم فانكفؤوا وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو (إلي عباد الله) حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا آتانا خبر مقتلك فرغبت قلوبنا، فنزلت، فكأن المعنى: ليس محمد إلا مرسل كسائر إخوانه المرسلين بشر يموتون لكنهم عن ربهم مبلغون وعلى من صدقوا بالرسالة أن يثبتوا على اليقين ويكبتوا أعداء الدين ويتابعون الدعوة إلى رب العالمين. عن قتادة: قال ناس من علية أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم: قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به. ومما روى السدي: أقبل أبي ابن خلف الجمحي وقد حلف ليقتلن النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (بل أنا أقتلك) فقال: يا كذاب أين تفر؟ فحمل عليه فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في جنب الدرع فخرج جرحا خفيفا فوقع يخور خوران الثور فاحتملوه وقالوا ليس بك جراحة، قال أليس قال " لأقتلنك؟ " لو كانت لجميع ربيعة ومضر لقتلتهم ولم يلبث إلا يوما حتى مات من ذلك الجرح وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل. . اهـ.

{أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} فهل إذا مات خاتم النبيين أو قتل يرجع الناس عن إسلامهم أو عن قتال أعدائهم؟ هذا مما ينكر ويجحد {ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا} والذي يقعد عن مدافعة الكافرين أو الوفاء بأمانات الدين لن يضر إلا نفسه أما كلمة الله فستبقى عالية وسيشرف المولى سبحانه أقواما بالعمل تحت لوائهم {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} ٣١٦ {. . فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم} ٣١٧.

{وسيجزي الله الشاكرين} سيعظم ربنا المثوبة لمن قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حيا وميتا فهؤلاء هم الذين شكروا أنعم الله عليهم وأعلاها نعمة الهداية على الإسلام {. . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} ٣١٨.

١٤٥ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

{بإذن الله} بقضاء المولى سبحانه وقدره.

{كتابا مؤجلا} قضاء جعل الله له وقتا محددا.

{وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا} - لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له. . كقوله {. . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب} ٣١٩. . وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه. . {ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها} أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ولم يكن له في الآخرة من نصيب ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها، وما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} ٣٢٠

وقال تعالى {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا} ٣٢١ ولهذا قال ربنا {وسنجزي الشاكرين} أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ٣٢٢.

١٤٦ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

{وكأين} وكم وكثير.

{ربيون} ربانيون عالمون بجلال الله وحقه عابدون.

{وهنوا} انكسر حدهم بالخوف. {ضعفوا} عن عدوهم.

{استكانوا} خضعوا وذلوا.

{وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين} وكثير من الأنبياء قاتل معه أصحابه، قال الخليل الربي الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة، ومعرفة الربوبية لله تعالى. وعن مجاهد وعكرمة وغيرهما: الربيون الجماعات الكثيرة، وقال الحسن: وهم العلماء الصبر [هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم من المضي على منهاج نبيهم والقتال على دينه أعداء دين الله على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم. . فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله ولا لقتل من قتل منهم عن حرب أعداء الله ولا نكلوا عن جهادهم. . وما ضعفت قواهم. . وما ذلوا فتخشعوا لعدوهم في الدخول في دينهم ومداهنتهم فيه خفية منهم ولكن مضوا قدما. . صبرا على أمر الله. . والله يحب هؤلاء وأمثالهم] ٣٢٣.

١٤٧ - (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

{إسرافنا} تجاوزنا الحد.

{وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} الإسراف الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد، في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني). و {قولهم} منصوب على أنه خبر {كان} والقول الكريم {إلا أن قالوا} استثناء مفرغ أي ما كان قولهم -قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضما لأنفسهم؛ {وثبت أقدامنا} في مواطن القتال.

١٤٨ - (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

{فآتاهم} فأعطاهم. {ثواب الدنيا} النصر والغنيمة والعز.

{وحسن ثواب الآخرة} نعيم الآخرة الحسن.

{فآتاهم الله} بسبب ذلك {ثواب الدنيا} من النصر والغنيمة والعزة ونحوها {وحسن ثواب الآخرة} من إضافة الصفة إلى الموصوف أي ثواب الآخرة الحسن وهو نعيم الجنة جعلنا الله من أهلها- ٣٢٤.

١٤٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

بعد بيان هدى النبيين المجاهدين وصبر المقاتلين على ما يصيبهم في سبيل الله نصرة للحق والدين، والأجر الآجل الذي يجزله لهم مولانا خير الناصرين، حذرت الآية الكريمة من عاقبة مطاوعة الكافرين ملاحدة كانوا أو مشركين أو كتابيين أو منافقين فإن متابعتهم أو استنصاحهم أو مودتهم تردي في الغي والضلال والذل والخسران المبين والعذاب المهين وإن تقبلوا رأيهم يحملوكم على الردة عن دينكم فترجعوا عن الدين الذي ارتضاه الله هالكين أذهبت دنياكم وآخرتكم.

١٥٠ - (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

{بل الله مولاكم وهو خير الناصرين} – والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم وهذا خطأ وجهالة لأنهم عاجزون

مثلكم متحيرون وبغير إذن الله لا ينفعون ولا يضرون {وهو خير الناصرين} لو فرض أن لأحد سواه قدرة على النصر، لأنه خبير بمواقع الحاجات قدير على إنجاز الطلبات ينصر في الدنيا والآخرة بلا شائبة علة من العلات ونصرة غيره لو فرض -فإنه مخصوص بالدنيا وببعض الأمور وفي بعض الأوقات ولغرض من الأغراض الفاسدات كيف ولا ناصر بالحقيقة سواه- ٣٢٥.

١٥١ - (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

{سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا} روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة).

[والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام قال الله تعالى {. . وألقى الألواح} ٣٢٦ {فألقوا حبالهم وعصيهم} ٣٢٧ {فألقى موسى عصاه} ٣٢٨ قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

ثم قد يستعمل مجازا كما في الآية، وقوله {. . وألقيت عليك محبة مني} ٣٢٩. . {بما أشركوا بالله} تعليل، أي كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم، فما ف {ما} للمصدر ويقال أشرك به أي عدل غيره ليجعله شريكا. . {ما لم ينزل به سلطانا} حجة وبيانا، وعذرا وبرهانا، ومن هذا قيل للوالي: سلطان، لأنه حجة الله عز وجل في الأرض. ويقال إنه مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به السراج وهو دهن السمسم. . فالسلطان يستضاء به في إظهار الحق وقمع الباطل. . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان في شيء من الملل ولم يدل عقل على جواز ذلك ٣٣٠.

{ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين} عجل الله لهم الخزي والفزع في الحياة الدنيا ثم يردون في الآخرة إلى مأوى بئيس تعيس ونار يثوون ويقيمون ويخلدون في حرها وعذابها {. . ذلك جزيناهم ببغيهم} ٣٣١.

١٥٢ - (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

{ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه} أنجز ربنا ما وعد من تأييد الفئة القليلة المؤمنة على الكثيرة الكافرة بتقديره سبحانه واقتداره فاندفع المسلمون يوم أحد يقتلون المشركين ويستأصلونهم استئصالا. روى البخاري عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: (لا تبرحوا أماكنكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم)، يقول محمد بن كعب القرظي فلما التقى القوم قتل صاحب لواء المشركين وتسعة نفر منهم بعده وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يشتددن ٣٣٢ في الجبل وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا ٣٣٣ يقولون الغنيمة الغنيمة وترك بعض الرماة مركزهم طلبا للغنيمة.

{حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة} إلى أن جبنتم واختلفتم فيما أمرتم به وعصيتم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما لاحت بشائر النصر على العدو. عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ناسا من الناس يعني يوم أحد فكانوا من ورائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كونوا ها هنا فردوا وجه من قدمنا وكونوا حرسا لنا من قبل ظهورنا) وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما هزم القوم هو وأصحابه اختلف الذين كانوا جعلوا من ورائهم، فقال بعضهم لبعض لما رأوا النساء مصعدات في الجبل ورأوا الغنائم قالوا انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركوا الغنيمة قبل أن تسبقوا إليها وقالت طائفة أخرى بل نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنثبت مكاننا فذلك قوله {منكم من يريد الدنيا} للذين أرادوا الغنيمة {ومنكم من يريد الآخرة} للذين قالوا نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونثبت مكاننا. . اهـ.

{ثم صرفكم عنهم ليبتليكم} بعد أن كانت لكم الغلبة على المشركين صدر يوم أحد كفاكم ربنا عنهم حتى صرتم إلى غير ما كنتم عليه بل

إلى ضده فنزل بكم البلاء بسبب عصيان بعض منكم وانشغالهم بجمع الغنائم كأنه قيل قد نصركم الله تعالى إلى وقت فشلكم وتنازعكم. . و {ثم صرفكم} حينئذ عطف على ذلك. . {لقد عفا عنكم} بمحض التفضل أو لما علم من عظيم ندمكم على المخالفة - ٣٣٤. والخطاب عام أو خاص بمن خالف من الرماة ٣٣٥، {والله ذو فضل على المؤمنين} [هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء كانت الدولة لهم أو عليهم لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة] ٣٣٦.

١٥٣ - (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{إذ تصعدون ولا تلوون على أحد} الإصعاد الذهاب في الأرض والإبعاد فيها {ولا تلوون} لا تلتفتون، قال ابن إسحق أنبهم الله بالفرار عن نبيهم صلى الله عليه وسلم وهو يدعوهم لا يعطفون عليه لدعائه إياهم. {والرسول يدعوكم في أخراكم} وكان صلوات الله عليه حين ناداهم في الساقة والجماعة الأخرى، لأن الذين فروا تقدموا النبي وبقي هو في الجماعة المتأخرة {فأثابكم غما بغم} فقال الحسن {غما} يوم أحد {بغم} يوم بدر للمشركين، وسمي الغم ثوابا كما سمي جزاء الذنب ذنبا {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون} كأنه تعليل لما جرى أي كان ما كان لأجل أن لا تغتموا على ما فاتكم من النصر والغنيمة ولا ما وقع بكم من القتل والجراح فلا تأسوا لإدبار الدنيا ولا تفرحوا بإقبالها وهذا قريب من معنى قول الحق سبحانه {لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم} ٣٣٧ وربنا ذو خبرة وعلم محيط بكل عمل وفعل وقصد وقول، فيجازي المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته أو يعفو عنه.

١٥٤ - (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أصابكم الضر وكثر فيكم الجرح والقتل لكني تداركتكم بالسكينة تخالط قلوبكم والنعاس يخالط أهل اليقين منكم، أمنا أحللته أنفس الصادقين، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم} حملتهم على الهم وأقلقتهم حظوظ أنفسهم - يعني المنافقين: متعب بن قشير وأصحابه وكانوا خرجوا طمعا في الغنيمة وخوف المؤمنين، فلم يغشهم النعاس يتأسفون على الحضور. . . والواو في قوله {وطائفة} واو الحال بمعنى إذ أن طائفة يظنون أمر محمد صلى الله عليه وسلم باطل وأنه لا ينصر {ظن الجاهلية} فحذف. {يقولون هل لنا من الأمر من شيء لفظه استفهام ومعناه الجحد أي ما لنا من شيء من الأمر أي من أمر الخروج وإنما خرجنا كرها يدل عليه قوله تعالى إخبارا عنهم {ولو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا} قال الزبير أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ٣٣٨، {قل إن الأمر كله لله} {كله} نعت ل {الأمر أو تأكيد وقال الأخفش: بدل أي النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء {ويخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم} يضمرون خلاف الذي يظهرونه لك. {يقولون} في أنفسهم أو خفية لبعضهم إذ لو كان القول جهارا لم يكونوا منافقين والجملة إما بدل من {يخفون} أو استئناف. . - ٣٣٩. {لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا} [أي ما قتل عشائرنا فقيل إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ولما قتل رؤسائنا فرد عليهم فقال {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز} أي لخرج {الذين كتب} أي فرض {عليهم القتل} يعني في اللوح المحفوظ {إلى مضاجعهم} أي مصارعهم. . وقيل لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تصرعون فيه حتى يبتلي الله ما في الصدور ويظهره للمؤمنين. . .، والتقدير {وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم} فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم وليمحص عنكم

سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم وقيل معنى {ليبتلي} ليعاملكم معاملة المختبر وقيل ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيبا، وقيل هو على حذف مضاف والتقدير: ليبتلي أولياء الله تعالى. . {والله عليم بذات الصدور} أي ما فيها من خير وشر وقيل ذات الصدور هي الصدور لأن ذات الشيء نفسه.

١٥٥ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

{إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا}. . . والمراد من تولى عن المشركين يوم أحد، عن عمر رضي الله عنه وغيره، السدي: يعني من هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة دون من صعد الجبل. . ويعني {استزلهم الشيطان} استدعى زللهم بأن ذكرهم خطايا سلفت منهم فكرهوا الثبوت لئلا يقتلوا. . وعلى الجملة فإن حمل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه] ٣٤٠. . {إن الله غفور} يغطي سبحانه ويستر ذنب من زل ثم استغفر وتاب ونزع واستعتب فإن المولى سبحانه يعفو عنه ويصفح؛ {حليم} لا يعجل على من عصاه وخالفه أمره بالنقمة ولكن يمهل وينظر ليتذكر من يتذكر.

١٥٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا} نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بمن جحد أو نافق ولم يستيقن بحقائق الدين {وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا} فإن قيل كيف يخاطبون من مات أو قتل؟ أجيب بأنه ربما كان هذا من قول بعض الكافرين والمنافقين لبعضهم الآخر يقول فريق منهم لإخوانه في النسب أو في الكفر والنفاق لو أطعنا الذين سافروا للتجارة أو قضاء الأوطار ولم يخرجوا ما ماتوا ولو بقي معنا الذين ذهبوا للغزو وقعدوا ما قتلوا، ومن المفسرين من ذهب إلى أن اللام العاقبة في قول الله سبحانه {ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم} أي هذا القول والتخيل والتثبيط عن الانتشار في الأرض والخروج لملاقاة العدو يعقب أصحابه حسرة وندامة يوم القيامة حين يرون ثواب الساعين والمجاهدين - ومنهم من قال متعلق اللام قول المولى جل ثناؤه: {لا تكونوا} أي لا تكونوا مثلهم فإن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون تزيد من غمهم وغيظهم في الدنيا والآخرة {والله يحيي ويميت} رد لجهالتهم وجواب عن مقالتهم أي الأمر بيده والخلق له فقد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد وعلى المكلف أن يتلقى أوامره بالامتثال، فالله أعلم بحقيقة الأحوال ولا يجزي الأمور إلا على وفق إمضائه وإحكامه ونقضه وإبرامه وكل ميسر لما خلق له- ٣٤١ [وهذا من الله عز وجل ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم وإخراج هيبتهم من صدورهم وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلام منه لهم أن الإحياء والإماتة بيده وأنه لن يموت أحد ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له، ونهي منه لهم إذ كان كذلك أن يجزعوا الموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين، ثم قال جل ثناؤه {والله بما تعملون بصير} إن الله يرى ما تعملون من خير ومن شر فاتقوه أيها المؤمنون فإنه محص ذلك كله حتى يجازي كل عامل بعمله.

١٥٧ - (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

{ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون} نخاطب جل ثناؤه عباده المؤمنين يقول لهم: لا تكونوا أيها المؤمنون في شك من أن الأمور كلها بيد الله وأن إليه الإحياء والإماتة كما شك المنافقون في ذلك ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة وأخبرهم أن موتا في سبيل الله وقتلا في الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله ويتأخرون عن لقاء العدو. . . فتأويل الكلام ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم ليغفرن الله لكم وليرحمنكم فدل ذلك عليه الخبر عن فضل ذلك على ما يؤثرونه من الدنيا وما يجمعون فيها. . .

١٥٨ - (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

{ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون} -يعني بذلك جل ثناؤه ولئن متم أو قتلتم أيها المؤمنون فإن إلى الله مرجعكم ومحشركم فيجازيكم بأعمالكم فآثروا ما يقربكم من الله ويوجب لكم رضاه ويقربكم من الجنة من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته على الركون إلى الدنيا وما تجمعون فيها من حطامها الذي هو غير باق لكم بل هو زائل عنكم وعن طاعة الله والجهاد فإن ذلك يبعدكم عن ربكم ويوجب لكم سخطه ويقربكم من النار} ٣٤٢.

١٥٩ - (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} يمتن المولى سبحانه على النبي والمؤمنين ٣٤٣ بما هدى إليه مصطفاه صلى الله عليه وسلم من خفض جناحه لمن اتبعه وحمله على من أساء فأحبهم أعظم الحب وآثروه هم على أنفسهم وعلى أهليهم ولو كان صلوات الله عليه وحاشاه جافي الطبع أو متجهم الوجه أو قليل التفرق والشفقة لتفرق الناس عنه ولنفروا منه، عن قتادة أي والله لطهره الله من الفظاظة والغلظة وجعله قريبا رحيما بالمؤمنين رءوفا، وذكر لنا أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح {فاعف عنهم} لعل ذلك أمر بالصفح وعدم المؤاخذة على ما له عليه الصلاة والسلام في خاصته عليهم من تبعة {واستغفر لهم} ادع الله لهم أن يستر عليهم ما يكون خاصته عليهم من تبعة، {واستغفر لهم} ادع الله أن يستر عليهم ما يكون من سيئاتهم وأن لا يعاقبهم بذنوبهم {وشاورهم في الأمر} تقول العرب: شار العسل أي استخرجه واجتناه وأخذه من موضعه وأشرني على العمل أي أعني واستشار أمره إذا تبين وظهر، فالمولى سبحانه يأمر نبيه والأمة في ذلك تبعا له أن يأخذ الرأي من أهله فيما يحدث من أمور وأن يجتني ما عند الخبراء من خبرة في آية واقعة تكون. ففي المشورة كما يستفاد من أصلها اللغوي استبانة لوجه الحق واستظهار لخطة الرشد والحكمة والصواب، ومعلوم أن المشاورة تكون فيما لم يرد به الشرع، نقل في الجامع لأحكام القرآن قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب هذا ما لا خلاف فيه وقد مدح الله المؤمنين بقوله {. وأمرهم شورى بينهم} ٣٤٤ وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم استشار ٣٤٥ في أمر الخروج إلى غزوة بدر وكذا قبل السير إلى معركة أحد، كما أنه استشار في أمر الأسرى، وفي غير ذلك كما أشار عليه بعض الأصحاب رضوان الله عليهم بالمنزل يوم بدر وبالعريش يكون فيه، فقبل مشورتهم.

عن قتادة: أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحي السماء لأنه أطيب لأنفس القوم وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضا أو أرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على أرشده، وقال العلماء: وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن يكون عالما دينا وقلما يكون ذلك إلا في عاقل. قال الحسن: ما كمل دين امرئ ما لم يكمل عقله وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلا مجربا محببا لمن يستشيره وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة -وهي أعظم النوازل - شورى، قال البخاري: وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء في أمر العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها. مما يقول الطبري: وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادق وتآخ للحق وإرادة جميعهم للصواب من غير ميل إلى الهوى، ولا حيد عن الهدى فالله مسددهم وموفقهم.

وأما قوله {فإذا عزمت فتوكل على الله} فإنه يعني: فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما أنابك وحزبك من أمر دينك ودنياك فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع

وتحاول أن تزاول على ربك فثق به في كل ذلك وارض بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، فإن الله يحب المتوكلين وهم الراضون بقضائه والمستسلمون لحكمه فيهم وافق ذلك منهم هوى أو خالفه. اهـ. والعزم: قصد الإمضاء.

١٦٠ - (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

{إن ينصركم الله فلا غالب لكم} إن يقض الله تعالى أن تنصروا فأنتم منصورون لا محالة إذ مراده سبحانه لا يراد أبدا ولقد نصركم ببدر على قلتكم، وضعف عدتكم؛ {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده} الاستفهام هنا ليس يراد به طلب الفهم وإنما يعني النفي أي إن يشأ المولى ترككم دون معونة فلا ينصركم أحد من بعد خذلانه سبحانه وإياكم؛ {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} - وليخص المؤمنون إياه بالتوكل لما علم أن الأمر كله له ولا راد لقضائه ولا دافع لبلائه، ولأن الإيمان يوجب ذلك وليس المراد بالتوكل أن يهمل الإنسان حال نفسه بالكلية ويفرض الوسطاء والأسباب كما يتصور الجهال وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل وإنما التوكل هو أن يراعي الأسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق وتأييده وتوفيقه وتسديده ٣٤٦.

١٦١ - (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{وما كان لنبي أن يغل} عن ابن عباس: ما كان للنبي أن يقسم لطائفة من المسلمين ويترك طائفة ويجور في القسم، ولكن يقسم بالعدل ويأخذ فيه بأمر الله ويحكم فيه بما أنزل الله، يقول: ما كان الله ليجعل نبيا يغل من أصحابه فإذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك استنوا به؛ {ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة} في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك شيئا قد أبلغتك لألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس حمحمة ٣٤٧ فيقول يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته ثغاء ٣٤٨ يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع ٣٤٩ تخفق ٣٥٠ فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته صامت ٣٥١ فيقول يا رسول اله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)؛ والغلول الأخذ من المغانم التي يظفر بها المسلمون في قتال الكفار قبل أن تقسم [القليل والكثير لا يحل أخذه في الغزو وقبل المقاسم إلا ما جمعوا عليه من أكل المطاعم في أرض الغزو ومن الاحتطاب والاصطياد] ٣٥٢.

قال عطاء: في الغزاة يكونون في السرية فيصيبون أنحاء -زقاق وأواني- السمن والعسل والطعام فيأكلون وما بقي ردوه إلى إمامهم وعلى هذا جماعة العلماء. قال الحسن: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا افتتحوا المدينة أو الحصن أكلوا من السويق والدقيق والسمن والعسل فإذا غل الرجل في المغنم ووجد أخذ منه وأدب وعوقب بالتعزير. . . أجمع العلماء على أن للغال أن يرد جميع ما غل إلى صاحب المقاسم قبل أن يتفرق الناس إن وجد السبيل إلى ذلك وأنه إذا فعل ذلك فهي توبة له وخروج عن ذنبه- ٣٥٣.

{ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} وبعد العرض والحساب والحكم تعطى كل نفس جزاء ما عملته وأجره أو وزره وافيا من غير نقص أو بخس وهؤلاء المكلفون الذين حوسبوا لا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزداد عقاب عاصيهم.

١٦٢ - (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

{أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير} لا يستويان فيمن ابتغى رضوان الله سعد في أولاه وأخراه ومن أمعن في الجرم لم يظفر إلا بغضب الله وعذابه ومرجعه في الآخرة إلى دار السعير جهنم، وما أذم هذا الذي يصير إليه الخاطئون المجرمون. روي عن ابن إسحق أن المعنى: أفمن اتبع رضوان الله تعالى في العمل بالطاعة كمن باء بسخط منه سبحانه في العمل بالمعصية؟ والاستفهام هنا إنكاري.

١٦٣ - (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

{هم درجات عند الله} المطيعون والمجرمون ليسوا سواء فلكل درجات بما عملوا فهم ذوو درجات عند مولانا الذي يقضي بالحق، فالمؤمنون في الجنة في منازل يعلوا ويفضل بعضها بعضا، والكافرون في دركات النار بعضها أسفل من بعض {والله بصير بما يعملون} والمعبود بحق تقدست أسماؤه يرى ويعلم أعمال وأحوال كل المسلمين والمجرمين والمصلحين والمفسدين والمتقين والفجار. يقول المولى العزيز الغفار {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} ٣٥٤، ويقول تعالى {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة} ٣٥٥.

١٦٤ - (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

{لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم} من عظيم طول الله تعالى ومنته وفضله ونعمته على أهل الإسلام الدين المرتضى أن أرسل إليهم نبيا وأن اختار هذا النبي الخاتم من ولد إسماعيل ومن العرب، ومعنى المن ههنا الإنعام على من لا يطلب الجزاء منه والوجه في المنة إما أن يعود على أصل البعثة، وإما أن يعود إلى بعثة هذا الرسول، فمن الأول أن الخلق مجبولون على النقصان والجهالة والنبي يورد عليهم وجوه دلائل الكمال ويزيح عللهم في كل حال، وأيضا إنهم وإن شهدت فطرتهم وجوه دلائل الكمال، ويزيح عللهم في كل حال وأيضا إنهم وإن شهدت فطرتهم بوجوب خدمة مولاهم لكن لا يعرفون كيفية تلك الخدمة إلى أن يشرحها النبي صلى الله عليه وسلم لهم، وأيضا إنهم جبلوا على الكسل والملل فهو يورد عليهم أنواع الرغبات والترهيبات فيزول فتورهم ويتجدد نشاطهم، وبالجملة فعقول البشر بمنزلة أنوار البصر، وعقل النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة نور الشمس فكذلك لا يحصل الاهتداء بمجرد العقل ما لم ينضم إليه إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن الثاني أن هذا الرسول بعث من أنفسهم أي من جنسهم عربيا مثلهم أو من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده. .، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون به ووجه المنة أنه إذا كان اللسان واحدا سهل عليهم أخذ ما يجب أخذه عنه، وإذا كانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة كان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، والوثوق به وفيه أيضا شرف لهم ونخر، كما قال {وإنه لذكر لك ولقومك} ٣٥٦ وذلك أن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركا فيه بين اليهود والنصارى والعرب كانوا يفتخرون بموسى وعيسى. وبالتوراة والإنجيل وما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث الله محمدا وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائد على شرف جميع الأمم ٣٥٧.

{يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} وعهد ربنا جل ثناؤه نبينا أن يتلوا علينا آيات الله وأن يطهرنا ويحلي نفوسنا بكريم الخصال ويخليها عن ذميم الأقوال والأفعال {قد أفلح من زكاها} ٣٥٨ وأمانة تعليمنا الكتاب والسنة أداها الرسول الأمين عليه الصلوات والتسليم وورثنا أداء تلك الأمانات {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ٣٥٩. } وحذر وأنذر من كتم علما أو قعد عن تبيان الحق، أو حاد عن طريق الرشد فقال {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم} ٣٦٠.

مما أورد النيسابوري في معنى {يزكيهم}: الإرشاد يتم بأمرين التحلية والتخلية، فكما يجب على المعلم التنبيه على نعوت الكمال ليحظى المتعلم بها يجب عليه التحذير عن النقصان ليتحرز عنها وذلك بنحو ما يفعله النبي صلى الله عليه وسلم سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة من الوعد والإيعاد، والوعظ والتذكير، والتشبث بأمور الدنيا لتتقوى بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح ولذلك مدح بأنه على خلق عظيم وأنه أوتي مكارم الأخلاق. اهـ

{وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} مما نقل عن ابن إسحق: في عمياء من الجاهلية لا تعرفون حسنة ولا تستغيثون من سيئة، صم عن

الحق عمي عن الهدى. اهـ. فبعثة هذا الرسول بعد الجهل والحيرة تكون نعمة عظم موقعها ورحمة تم فضل الله بها على المؤمنين.

١٦٥ - (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} عن قتادة: أصيبوا يوم أحد قتل منهم سبعون يومئذ وأصابوا مثليها يوم بدر قتلوا من المشركين سبعين. . . ذكر لنا أن النبي الله صلى الله عليه قال لأصحابه يوم أحد لما قدم أبو سفيان والمشركون فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه (إنا في جنة حصينة) يعني بذلك المدينة (فدعوا القوم أن يدخلوا علينا نقاتلهم) فقال له ناس من أصحابه من الأنصار: يا نبي الله إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة وقد كنا نمتنع في الغزو في الجاهلية فبالإسلام أحق أن نمتنع فيه، فابرز بنا إلى القوم فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لامته فتلاوم القوم فقالوا عرض النبي صلى الله عليه وسلم القوم بأمر وعرضتم بغيره، اذهب يا حمزة وقل لنبي الله أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يناجز وإنه ستكون فيكم مصيبة) قالوا يا نبي الله: خاصة أوعامة؟ قال (سترونها) ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن بقرا تنحر فتأولها قتلا في أصحابه، ورأى أن سيفه ذا الفقار انقصم فكان قتل عمه حمزة، قتل يومئذ وكان يقال له أسد الله، ورأى أن كبشا أغبر فتأوله كبش الكتيبة عثمان بن أبي طلحة أصيب يومئذ وكان معه لواء المشركين، وعن عكرمة {قلتم أنى هذا} إذ نحن مسلمون نقاتل غضبا لله وهؤلاء مشركين، {قل هو من عند أنفسكم} عقوبة لكم بمعصيتكم النبي صلى الله عليه وسلم حين قال اهـ. وعن ابن إسحق: إنكم أحللتم ذلك بأنفسكم {إن الله على كل شيء قدير} أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير. اهـ. والهمزة للاستفهام الذي يعني اللوم و {أنى هذا} يعني من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل؟ - وفي الآية -على ما قيل- جواب ضمني عن استبعادهم تلك الإصابة، ويعني أن أحوال الدنيا لا تدوم على حالة واحدة فإذا أصبتم منهم مثل ما أصابوا منكم وزيادة فما وجه الاستبعاد؟ لكن صرح بجواب آخر يبري العليل ويشفي الغليل وتطأطئ منه الرؤوس، فقال سبحانه {قل} يا محمد في جواب سؤالهم الفاسد {هو} أي هذا الذي أصابكم كائن {من عند أنفسكم} أي أنها السبب حيث خالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتركهم المركز وحرصوا على الغنيمة فعاقبهم الله تعالى بذلك، قاله عكرمة ٣٦١.

١٦٦ - (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين} والذي أصابكم حين التقى جمعكم بجمع المشركين يوم أحد إنما كان بعلم الله تعالى وقدره {وليعلم المؤمنين} -المراد ليظهر للناس ويثبت لديهم إيمان المؤمن - ٣٦٢

١٦٧ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

{وليعلم الذين نافقوا} [المراد بالعلم هنا التميز والإظهار لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبي وأصحابه، قوله {وقيل لهم} هو معطوف على قوله {نافقوا} أي ليعلم الله الذين نافقوا والذين قيل لهم {تعالوا قاتلوا في سبيل الله} إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر {أو ادفعوا} عن أنفسكم إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فأبوا جميع ذلك وقالوا {لو نعلم قتالا لاتبعناكم}. . . لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ولكنا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه، وعبر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزمة له. . . وقيل معناه رابطوا، والقائل للمنافقين هذه المقالة هو عبد الله بن حرام الأنصاري والد جابر بن عبد الله، وقوله {هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان} أي هم في هذا اليوم الذي انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون، لأنهم قد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك،. . . {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} أقوالهم التي تتكلم بها ألسنتهم تخالف ما هو مستقر في صدورهم فهم يدعون الإيمان وقلوبهم ليس فيها إلا الكفر والأضغان، ولعل من الحكمة في ذكر {بأفواههم} بعد القول- وهو لا يكون إلا بالأفواه – التوكيد على أنهم نطقوا بهذا وتفوهوا به وذلك مثل قول المولى سبحانه {. .

ولا طائر يطير بجناحيه} ٠٣٦٣ {والله أعلم بما يكتمون} علم ربنا محيط بكل ما ظهر وبطن ويعلم ما بين يدي العباد وما يخفون ويعلم السر وما هو أخفى - مطلع عليه ومحصيه عليهم حتى يهتك أستارهم في عاجل الدنيا فيفضحهم به ويصليهم به الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

١٦٨ - (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: {الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين} يعني تعالى ذكره بذلك: وليعلم الله الذين نافقوا الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا. . . وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ما قالوا مما أخبر الله عز وجل عنهم قيلهم عن الجهاد مع إخوانهم وعشائرهم في سبيل الله. . . لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا. . ما قتلوا هنالك قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه سلم: قل يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين {فادرؤوا} يعني فادفعوا. . إن كنتم أيها المنافقون الصادقون في قيلكم لو أطاعنا إخواننا في ترك الجهاد في سبيل الله مع محمد صلى الله عليه وسلم وقتالهم أبا سفيان ومن معه من قريش ما قتلوا هنالك بالسيف وكانوا أحياء بقعودهم. . . فإنكم قد قعدتم عن حربكم وقد تخلفتم عن جهادهم وأنتم لا محالة ميتون- ٣٦٤ عن السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه.

١٦٩ - (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

لما بين سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ليتميز المؤمن من المنافق والكاذب من الصادق بين ههنا أن من لم ينهزم وقتل فله عند الله هذه الكرامة والنعمة وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون ٣٦٥، لا يظنن ظان أن الذين قتلوا مجاهدين في سبيل الله أمواتا بل هم أحياء، وقد صح ٣٦٦ أن حياتهم محققة؛ {عند ربهم يرزقون} [فيه حذف مضاف تقديره عند كرامة ربهم و {عند} هنا تقتضي غاية القرب. . . قال سيبويه فهذه عندية الكرامة لا عندية المسافة والقرب] ٠٣٦٧

١٧٠ - (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} الشهداء في سرور وحبور بما وهبهم البر الرحيم من نعيم وعطاء عظيم ويسرون ويفرحون كذلك بما أعد الله تعالى لإخوانهم في الإيمان الذين ما زالوا بعد أحياء، قال الزجاج: الإشارة بالاستبشار للذين لم يلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يقتلوا ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذي يثيب الله عليه فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم من فضله مستبشرون للمؤمنين بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. اهـ.

١٧١ - (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

{يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} يبتهج الشهداء بما تفضل عليهم المولى سبحانه من رضاه ونعيمه وبما شاهدوا من منازل السلامة والكرامة التي سيحل بها أهل الإيمان- النفس تبقى لها علاقة مع بدنها لا بالتحريك واكتساب الأعمال ولكن بالتلذذ والتألم ونحوها، وليس ببدع أن يتغير التعلق بحسب تغير الأطوار كما يتغير في مدة العمر بحسب الأسنان والأمزجة، والتحقيق فيه أن في هذا العالم جعلت متصرفة في البدن لأجل اكتساب الأعمال والملكات وأنه يفتقر إلى تحريك الأعضاء وأعمال الجوارح والآلات، وبعد الموت تجعل متصرفة فيه من جهة الجزاء والثواب فكيف يقاس أحدهما على الآخر، فلعله يكفي بعد الموت أن يكون له علاقة التلذذ والتألم والإدراك فقط إلى أن تقوم القيامة الكبرى، وهذا القدر لا ينافي كون البدن مشاهدا في القبر بلا تحرك ولا إحساس ولا نطق، ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وقال: (يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإني وجدت ما وعدني الله حقا) فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها قال (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا) وفي حديث عذاب القبر (إنه ليسمع قرع نعالهم) - ٠٣٦٨

١٧٢ - (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

{الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} هذه بشرى لمن تابع الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دون وهن لما أصابهم أو استكانة لعدوهم محتملين الأثخان والجراحات التي ألمت بهم، و {الذين} بدل من {المؤمنين} أو نعت لهم أو مبتدأ خبره {للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} و {استجابوا} أي أطاعوا، {القرح} الجراح والقتل و {من} في {منهم} للبيان فكلهم – رضوان الله عليهم- محسن وتقي. عن عكرمة قال: كان يوم أحد السبت للنصف من شوال فلما كان الغد من يوم أحد يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمر وبن حرام فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي يا ابني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو ليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم؛ وعن أبي السائب أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني عبد الأشهل كان شهد أحدا، فقال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين فلما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج في طلب العدو قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما لنا من دابة نركبها. وما منا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت أيسر جرحا منه، فكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها ثلاثا الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.

وعن السدي: انطلق أبو سفيان منصرفا من أحد حتى بلغ بعض الطريق ثم إنهم ندموا وقالوا بئسما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشديد تركتموهم ارجعوا واستأصلوهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فهزوا فأخبر الله رسوله فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ثم رجعوا من حمراء الأسد فأنزل الله جل ثناؤه فيهم {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح}.

١٧٣ - (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}، نقل عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر وابن حزم قال: مر به -يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم – معبد الخزاعي بحمراء الأسد وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة ٣٦٩ نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صفقتهم ٣٧٠ معه لا يخفون عليه شيئا كان بها ومعبد يوم مشرك، فقال: والله يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من حمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. . فلما رأى أبا سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في مجمع لم أر مثله قط، قال ويلك؟ ما تقول؟ قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل. . . فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، ومر به ركب من عبد القيس فقال أين تريدون؟ قالوا نريد المدينة قال ولم؟ قالوا نريد الميرة، قال فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها وأحمل لكم إبلكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا نعم قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه ولأصحابه لنستأصل بقيتهم فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبا سفيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم {حسبنا الله ونعم الوكيل}، وعن السدي: لما ندموا –يعني أبا سفيان وأصحابه- على الرجوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أرجعوا فاستأصلوهم فقذف الله في قلوبهم

الرعب فهزموا فلقوا أعرابيا فجعلوا له جعلا، فقالوا له: إن لقيت محمدا وأصحابه فأخبرهم أنا قد جمعنا لهم فأخبر الله جل ثناؤه ورسوله صلى الله عليه وسلم فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الأعرابي في الطريق فأخبرهم الخبر، فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ثم رجعوا من حمراء الأسد فأنزل الله فيهم وفي الأعرابي الذي لقيهم: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}. {فاخشوهم} نخافوا ولا تقفوا في وجه هذا الجمع الوفير. {فزادهم إيمانا} زاد القول المثبط الذين استجابوا لله والرسول إيمانا ٣٧١ فأمعنوا في طلب عدوهم متوكلين على ربهم.

١٧٤ - (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

{فانقلبوا بنعمة من الله وفضل} العطف بالفاء على محذوف تقديره نخرجوا في طلب أعداء الله فولى الأعداء ورجعوا هم والحال أنهم قد فازوا بتسليم الله إياهم وتثبيته يقينهم، وبعز بين الخلق والرضوان من الخالق جل علاه، وقد اتبعوا في كل أحوالهم ما فيه الفوز بمرضاة الله وثوابه ونعيمه والله هو المتفضل عليهم بهدايتهم إلى الحق والرشد وبكل فضل لا يحد مداه.

١٧٥ - (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه} اعلموا أهل الإيمان أن إبليس وجنده من شياطين الإنس والجن يوسوسون إلى أوليائهم ليثبطوهم عن القتال كما فعلت وسوستهم في نفس عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين وذهب جمع من المفسرين إلى أن المعنى أن الشيطان يخوف أولياءه وهم الكافرون؛ {فلا تخافوهم} -أي أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان، أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله {أن الناس قد جمعوا لكم} نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء. . .؛ وأمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال {وخافون} فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه، لأني الحقيق بالخوف مني والمراقبة لأمري ونهيي لكون الخير والشر بيدي، وقيده بقوله {إن كنتم مؤمنين} لأن الإيمان يقتضي ذلك- ٣٧٢، ومثله قول الله تعالى {. . . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا} ٣٧٣.

١٧٦ - (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر} في هذا النهي تسلية وتقوية فإن الوقوع في القبيح مما يألم له المؤمن فكيف بالمسارعة إلى الجحود، وشدة الرغبة في الضلال والإضلال والمبادرة إلى كل ما يبتغون به للمؤمنين والهلاك والخبال؟ قال القشيري: والحزن على كفر الكافر طاعة ولكن النبي صلى الله عليه سلم كان يفرط في الحزن كما قال تعالى {. . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} ٣٧٤ وقال سبحانه {. . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم تؤمنوا بهذا الحديث أسفا} ٣٧٥. وهكذا فالمؤمن الصادق له في رسول الله تعالى – وهو المبعوث رحمة للعالمين – أسوة حسنة، يألم لضلال الضالين ويأسف لغواية الغاوين لكن يتسلى بأن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ {إنهم لن يضروا الله شيئا} لن ينقصوا من ملك الله تعالى وسلطانه بغيهم وبغيهم فما روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربنا تبارك وتعالى {يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه}.

وبعضكم يرى أن الكلام على حذف مضاف والمراد أولياء الله وفي حذف ذلك وتعليق نفي الضرر به تعالى تشريف للمؤمنين وإيذان بأن

مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وتعالى وفي ذلك مزيد مبالغة في التسلية بل وفي التقوية أيضا، فإن المعنى على هذا لا يحزنك خوف أن يضروك فإنهم لن يضروا دين الله ولا أوليائه أبدا. {يريد ٣٧٦ الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة} - فيه دليل على أن الكفر بإرادة الله تعالى وإن عاقب فاعله وذمه لأن ذلك لسوء استعداده المقتضي إفاضة ذلك عليه،. . . وفي ذكر الإرادة إيذان بكمال خلوص الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما إرادة أرحم الراحمين. . . وصيغة المضارع للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها. . . ففيه إشارة إلى بقائهم على الكفر حتى يهلكوا فيه. {ولهم} مع هذا الحرمان من الثواب بالكلية {عذاب عظيم} لا يقدر قدره- ٣٧٧.

١٧٧ - (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ٣٧٨ ولهم عذاب أليم} من رضي بنكران ما يجب اليقين به ورغب في الكفر والشك والشرك وأعرض عن التصديق بالحق وتركه فلن ينقص بجحوده من ملك الله شيئا ولن ينطفئ نور الهدى ولن يشفى غيظه على أهل البر والتقى، وإنما ضرره راجع عليه في أولاه بالتدمير وفي أخراه يصلى حر السعير.

١٧٨ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم} لا يظنن كافر أن إمهال الله تعالى له وتنعيمه وحمله عليه فيه الخير له ٣٧٩ كلا {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين} وذلك كقول المولى تقدست أسماؤه {أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} ٣٨٠ ومهما أوتوا من متاع فإنهم به مستدرجون؛ {. . . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين} ٣٨١.

{إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين} [والآية نص في بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي وتوالي أمثاله على القلب كما تقدم في بيان ضده وهو الإيمان]. ٣٨٢

١٧٩ - (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

{ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة والحق أنها سنة من سنن مولانا الحكيم - تقدست أسماؤه فهو يقول {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون} ٣٨٣ وهي سنة لا تبدل فيها ولا تحول تمضي في الآخرين كما مضت في الأولين، {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} ٣٨٤ وقال تباركت آلاؤه {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون} ٣٨٥، وقال جل ثناؤه {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} ٣٨٦ - أي لابد أن يعقد شيئا من المحنة، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به صبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله وهتك به ستار المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ٣٨٧. وروى ابن جرير: حتى يخرج المؤمن من الكافر. قال أبو معاذ: مزت الشيء أميزه ميزا إذا فرقت بين شيئين فإن كانت أشياء قلت ميزتها تمييزا. {وما كان الله ليطلعكم على الغيب} [أي ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة وقد ظهر ذلك في يوم أحد فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا، فالآن قد أطلع الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام وصحبه على ذلك، وقيل معنى {ليطلعكم} أي وما كان ليعلمكم ما يكون منهم. . .؛ {ولكن الله يجتبي} أي يختار {من رسله} لاطلاع غيبه {من يشاء}] ٣٨٨. {فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم} نقل عن الكلبي فقال: قالت قريش تزعم يا محمد أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان وأن من اتبعك على

دينك فهو من أهل الجنة والله عنه راض، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك فنزلت، فعلى هذا يكون الخطاب موجها إلى من ظلوا على كفرهم، لكن الخطاب كان في أول الآية مع المؤمنين، فإذا راعينا السياق فيمكن أن يكون المعنى آمنوا الإيمان الخالص واثبتوا على هذا اليقين معشر المؤمنين، فإن أهل التصديق الراسخ، والتقوى التي تملأ القلوب فتفيض على الجوارح أعد الله تعالى لهم الجزاء الأوفى، والثواب الأبقى.

١٨٠ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

{ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم} ذهب بعض النحويين إلى أن في الكلام محذوفا، والتقدير: لا يحسبن الباخلون البخل هو خيرا لهم و {بل} لإبطال حسبانهم فالحق أن البخل شر لهم. عن السدي: هم الذين آتاهم الله من فضله فبخلوا أن ينفقوها في سبيل الله ولم يؤدوا زكاتها، ومما يقول الواحدي: وفي حكم الزكاة سائر المصارف الواجبة كالإنفاق على النفس وعلى الأقربين الذين يلزمه مؤنتهم، وعلى المضطر وفي الذب عن المسلمين إذا قصدهم عدو وتعين دفعهم بالمال. {سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} سيجعل لهم يوم القيامة طوق في النار، والبخل أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه ٣٨٩ وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الشح والضن والإمساك عن البذل فيما أمرنا الله أن نبذل فيه. ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم). وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا ٣٩٠ أقرع ٣٩١ له زبيبتان ٣٩٢ يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ٣٩٣ ثم يقول أنا مالك أنا كنزك -ثم تلا هذه الآية - {ولا يحسبن الذين يبخلون} الآية.

{ولله ميراث السماوات والأرض} يبطل ملك جميع المستخلفين ممن سموا مالكين فلا يبقى إلا الملك ذي القوة المتين - أخبر تعالى ببقائه ودوام ملكه وأنه في الأبد كهو في الأزل، غني عن العالمين فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فتبقى الأملاك والأموال لا مدعى فيها فجرى هذا مجرى الوارثة في عادة الخلق، وليس لها بميراث في الحقيقة لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئا لم يكن يملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السماوات والأرض وما بينهما، وكانت السماوات وما فيها، والأرض وما فيها له، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها؛ فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل ونظير هذه الآية قوله تعالى {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها. } ٣٩٤ الآية. والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا ٣٩٥؛ {والله بما تعملون خبير} مما يقول ابن جرير: إنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من الفضل وغيرهم من سائر خلقه ذو خبرة وعلم محيط بذلك كله، حتى يجازي كلا منهم على قدر استحقاقه، المحسن بالإحسان والمسيء على ما يرى تعالى ذكره.

١٨١ - (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر رضي الله عنه بيت المدارس فوجد يهودا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص -وكان من علمائهم وأحبارهم- فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله تعالى وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلا الله تعالى من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما تضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء ولو كان غنيا عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا عنا ما أعطانا الربا؛ فغضب أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله تعالى؛ فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه (ما حملك على ما صنعت)؟ قال: يا ر سول الله قال قولا عظيما، يزعم أن

الله تعالى شأنه فقير وهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله تعالى مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص فقال ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص تصديقا لأبي بكر رضي الله تعالى عنه هذه الآية وأنزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا} الآية.

{سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق} ستكتب ملائكتنا أقوال هؤلاء السفهاء وسيكتبون قتلهم الأنبياء ظلما والسين للتأكيد، وفي هذا ما فيه من الوعيد، لأنهم سيجزون بأقوالهم وأفعالهم التي تناهت في السوء والبغي وإنما نسبوا إلى قتل الأنبياء وأجدادهم هم القتلة لأنهم رضوا بفعلهم فشاركوهم بهذا الرضا جرمهم.

{ونقول ذوقوا عذاب الحريق} - سنكتب عنهم هذا الجهل في القرآن حتى يبقى على لسان الأمة إلى يوم القيامة. ثم عطف عليه قتلهم الأنبياء ليدل على أنهم كما لم يقدروا الله حق قدره حتى نسبوا إليه ما نسبوه، فكذلك لم يقضوا حقوق الأنبياء ففعلوا بهم ما فعلوا، {ونقول ذوقوا عذاب الحريق}. . . أي ذات حرقة والمعنى: ينتقم منهم فيقول لهم ذوقوا عذاب النار كما أذقتم المسلمين جرع الغصص وهذا القول يحتمل أن يقال عند الموت أو عند الحشر أو عند قراءة الكتب. . .

١٨٢ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

{ذلك} العذاب أو الوعيد {بما قدمت أيديكم} من السب والقتل، وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال يباشر باليد، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب، وإن كان بعضه باللسان أو بسائر الجوارح. . . {وأن الله} أي وبأن الله {ليس بظلام للعبيد}. . . إنه مالك الملك والمالك إذا تصرف في ملكه كيف يشاء لم يكن ذلك ظلما. . نفى حقيقة الظلم عنه في قوله: {وما ظلمناهم ٣٩٦. }، ولكنه نفى ههنا كثرة الشر والظلم أن يصدر عنه كأنه قال: إن خيل إليكم أن في الوجود شرا بناء على ما في ظنكم من أن الحكيم قد يصدر عنه الشر القليل بتبعية الخير الكثير، فاعلموا أني منزه عن صدور الشر الكثير مني، وأن هذا من الشر القليل الذي في ضمنه خير كثير-. ٣٩٧

١٨٣ - (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار} قال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف، فيقوم النبي في البيت ويناجي ربه، وبنو إسرائيل خارجون واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء، لها دوي وحفيف ولا دخان لها، فتأكل ذلك القربان، وهو البر الذي يتقرب به إلى الله تعالى. وقال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا. . وحيي بن أخطب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك الكتاب: وإن الله قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فإن جئتنا به صدقناك فنزلت.

{قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين} نقل عن السدي أن الشرط جاء في التوراة هكذا: من جاء يزعم أنه رسول الله تعالى فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار إلا المسيح ومحمدا عليهما الصلاة والسلام فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان. لكن جمهرة من العلماء قالوا بعدم ثبوت هذا الشرط أصلا، والله تبارك وتعالى يؤتي نبيه حجته ليبكتهم ويظهر كذبهم إذ أتتهم رسل كثيرة بالحجج الواضحات وبالقربان الذي تأكله النار، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم بل اجترؤوا على قتلهم مما يقطع بعظيم بغيهم وبالغ كذبهم.

١٨٤ - (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

{فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} ليعلم الله الحليم نبيه العظيم بأنه ليس بدعا في النبيين بل سنة الله فيه وفيمن يدعوهم هي سنته فيمن مضى من إخوانه المرسلين فقد كذبهم أقواهم وعموا عن البرهان والسلطان الذي آتاهم

الله، وصموا عن سماع الحق الذي أنزل عليهم وهو وحي الحميد المجيد وكلامه، فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون.

١٨٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

{كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} وعظ ووعد ووعيد، وعظ بأن الأولى دار ممر، وأن الآخرة هي المستقر، الأولى لعب وزينة وتفاخر وتكاثر والآخرة سعادة دائمة أو شقوة لا تنتهي. وفي الآية الكريمة وعد لأهل الصدق بالتنحية عن النار والفوز بالجنة مع الأبرار ووعيد للمغرورين أنهم سيحاسبون وسيجزون الجزاء الأوفى بما كانوا يعملون {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} ٣٩٨؛ {توفون} تعطون الأجور كاملة يوم الجزاء فأما -ما يقع من الأجور في الدنيا أو في البرزخ فإنما هو بعض الأجور، والزحزحة: التنحية والإبعاد. . . {فاز} ظفر بما يريد ونجا مما يخاف. . اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة ولا عيش إلا عيشها ولا نعيم إلا نعيمها فاغفر ذنوبنا واستر عيوبنا واعرض عنا رضا لا سخط بعده واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة - ٣٩٩.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله وباليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه). وروى الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها) ٤٠٠. وفي البخاري من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم باسمك أموت وباسمك أحيا) وفيه (خذ من حياتك لموتك).

١٨٦ - (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)

{لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} كأن المعنى والله لتختبرن في أموالكم ولتختبرن في أنفسكم، ولقد قضى ربنا بحكمته أن يكون الاختبار قرين الاستخلاف ٤٠١، {. . خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. { ٤٠٢ {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين} ٤٠٣،. . {ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون} ٤٠٤ - {في أموالكم} بالفرائض فيما والجوائح. . . والأولى القول بالعموم، {و} في {أنفسكم} بالقتل والجراح والأسر والأمراض وفقد الأقارب وسائر ما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد، وقدم الأموال على الأنفس للترقي إلى الأشرف. . -. ٤٠٥ {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا}؛ روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ٤٠٦، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد ابن عبادة ببني الحارث بن الخز رج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس به عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال لا تغبروا علينا فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا في مجالسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ثم ركب النبي صلى الله عليه سلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب)؟ يريد عبد الله بن أبي (قال كذا وكذا) فقال سعد: يا رسول اعف عنه واصفح فوالذي

أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمولى العليم الخبير يهتك أستارهم ويبين أحقادهم ويقول {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} ٤٠٧، وكذا حال أهل الشرك {وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه} ٤٠٨، {أذى كثيرا} - كالطعن في الدين وتخطئة من آمن والافتراء على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والتشبيب بنساء المؤمنين {وإن تصبروا} على تلك الشدائد عند ورودها {وتتقوا} أي تتمسكوا بتقوى الله تعالى وطاعته والتبتل إليه بالكلية إليه والإعراض عما سواه بالمرة بحيث يستوي عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه: {فإن ذلك}. . . الصبر والتقوى. . . {من عزم الأمور} أي الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل واحد. . . أو مما عزمه الله تعالى وأوجبه على عباده- ٤٠٩.

١٨٧ - (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

{وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه} قال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: إن الآية عامة لكل عالم فالذين أوتوا الكتاب على هذا كل ما آتاه الله علم شيء من الكتاب أي كتاب كان، ويشهد لذلك قول أبي هريرة: لولا ما آخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية، لتظهرن للناس أمانات الكتاب الذي علمتم ولا تخفوا منه شيئا، قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما له علم به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلفين، كان يقال: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكان يقال: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علم علما فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيرا فحفظه ووعاه وانتفع به.

{فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون} طرحوا العمل بما جاءهم من العلم وألقوه وراء ظهورهم حتى لا يذكر أبدا، وأخذوا مقابل كتمانهم الحق وتركهم العمل بما يهدي إلى الرشد- أخذوا به متاعا من حطام الدنيا فبئس شيئا يشترونه ذلك الثمن.

١٨٨ - (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم} الخطاب لكل ما يصلح له، ومعناه: لا تظن و {أتوا} يعني فعلوا ويتمنون أن يحمدهم الناس أو المسلمون بأمر لم يفعلوه، فلا تظنهم أنهم بمنجاة من عذاب النار، بل لهم العذاب الموجع. روى البخاري وغيره عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم -أهل الكتاب- عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه، - من هنا يعلم بعد القول بأن الأولى إجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتي من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن يحمده الناس بما هو عار منه من الفضائل. . نعم يزيده بعدا ما أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم. . أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرحا بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب ٤١٠ ثم تلا {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب} إلى آخر الآيتين. . - ٤١١.

١٨٩ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير} [أي هو مالك كل شيء فلا يعجزه شيء فهابوه ولا تخالفوه واحذروا غضبه ونقمته فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه] ٤١٢.

١٩٠ - (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ)
{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} من حجج الله تعالى وعلامات حكمته واقتداره ما بث في الكون من عجائب في إتقانها وعجيب صنعها ما يشهد أن بديع السماوات والأرض سبحانه واحد لا شريك له ولا مثيل له، لا ند له ولا ضد، وفي تسخيره هذه المخلوقات لنا ما يحمل كل عاقل على شكر المنعم الذي قدر ويسر، ولعل هذا الإخبار يراد به الطلب فكأنه: تدبروا أيها الناس واعتبروا، ففي بنيان السماء الذي لم يتشقق، وفي رفعها بدون عمد وفي سعتها ٤١٣ وعظيم خلقها وفي علو قدرها وشرف ملئها وفي كواكبها ونجومها وشمسها وقمرها معتبر ومدكر لكل صاحب عقل سليم جوهره؛ وفي الأرض التي ذللت وبسطت ومهدت وحولت السهل والجبل والماء واليابسة، وضمت أقوات العباد بل ومن ترابها كان جسد آدم عليه السلام وتحت أديمها تغيب عظامنا ورفاتنا، ويوم البعث تشقق عن أجسادنا مصداقا لوعد ربنا: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} ٤١٤ في هذا الكوكب الذي باركه الله ذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ وفي تعاقب الليل والنهار برهان ونعمة، فمن رحمته جعل الليل سكنا وجعل النهار معاشا فتبارك الله أحسن الخالقين؛ وفي فضل هذه الآيات المحكمات ٤١٥ وردت الأحاديث.
١٩١ - (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)
{الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض} لا ينقطعون عن ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم بألسنتهم وقلوبهم وعقولهم ويتأملون ويتدبرون بديع صنع ربهم في أنفسهم وفي الكون المحيط بهم؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه {قياما} و {قعودا} نصبا على الحال، {وعلى جنوبهم} في موضع الحال أيضا أي مضطجعين ومثله قوله تعالى {. . دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما} ٤١٦، على العكس والفكرة: تردد القلب في الشيء. وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة وفيه: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران وقام إلى شن ٤١٧ معلق فتوضأ وضوءا خفيفا ثم صلى ثلاثة عشر ركعة. {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار} يقول الذاكرون المتفكرون: يا ربنا شهدنا أنك ما خلقت هذه المخلوقات عبثا ولا لعبا ننزه مولانا ونقدسه أن يفعل شيئا إلا لحكمة؛ فاللهم احفظنا من حر جهنم وشرها وما يقرب إليها من قول أو عمل، وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} ٤١٨ - ٤١٩، ويقول صاحب الجامع لأحكام القرآن ما حاصله: ختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته، إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدير قدوس سلام، غني عن العالمين حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد. اهـ.
١٩٢ - (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)
{ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته} مما نقل عن الزجاج: أخزى الله تعالى العدو أي أبعده؛ وعن المفضل أهلكه؛ وعن ابن الأنباري: الخزي في اللغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع في بلاء واحتج حكماء الإسلام بهذه الآية على أن العذاب الروحاني أقوى من العذاب الجسماني وذلك لأنه رتب فيها العذاب الروحاني وهو الإخزاء بناء على الإهانة والتخجيل على الجسماني الذي هو إدخال النار، وجعل الثاني شرطا والأول جزاء والمراد من الجملة الشرطية الجزاء والشرط قيد له فيشعر أنه أقوى. . .، الآية ليست عامة لقوله تعالى {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا} ٤٢٠ فتحمل على من أدخل النار للخلود وهم الكفار. . .، وأيضا يحتمل أن يقال: الإخزاء مشترك بين التخجيل والإهلاك، والمثبت هو الأول والمنفي هو الثاني. . . {وما للظالمين من أنصار} أي: ليس لكل منهم ناصر ينصره ويخلصه مما هو فيه. . .، نفي الناصر لا يمنع نفي الشفيع لأن النصر دفع بقوة، والشفاعة تخليص بخضوع وتضرع. . .، وأجاب غير واحد- على تقدير عموم الظالم، وعدم الفرق بين النصر والشفاعة- بأن الأدلة الدالة

على الشفاعة- وهي أكثر من أن تحصى -مخصصة للعموم- ٤٢١.
١٩٣ - (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ)
{ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا} ويتضرع ويقول المتفكرون الوجلون متضرعين يا ربنا إننا سمعنا مناديا يقول آمنوا بربكم فصدقنا واستيقنا، عن محمد بن كعب قال: هو الكتاب، ليس كلهم لقي النبي صلى الله عليه وسلم فالمنادي: القرآن؛ وعن قتادة: سمعوا دعوة من الله فأجابوها فأحسنوا الإجابة فيها وصبروا عليها، ينبئكم الله عن مؤمن الإنس كيف قال، وعن مؤمن الجن كيف قال، فأما مؤمن الجن فقال {. . إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٤٢٢، وأما مؤمن الإنس فقال {. . إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا} الآية.
{ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار} ويدعون قائلين: يا ربنا فاستر ذنوبنا وإن عظمت وغط ما فرط منا من إساءة، فإنك قلت وقولك الحق {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما} ٤٢٣. وتوفنا مع أهل البر الذين توسعوا في طاعتك فاجعلنا اللهم معدودين منهم وعلى مثل درجاتهم.
١٩٤ - (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)
{ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك} ويتضرع المؤمنون إلى ربنا يسألونه يا ربنا ونرجوك أن تعطينا ما وعدتنا به على ألسنة رسلك من التأييد على العدو والفوز يوم البعث {ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد} -وأيدركون المراد بالموعود على ألسنة الرسل – النصر لا الثواب الأخروي – تعقيب ذلك بقوله تعالى {ولا تخزنا يوم القيامة} لأن طلب الثواب يغني عن الدعاء لأن الثواب متى حصل كان الخزي عنهم بمراحل، وهذا بخلاف ما إذا كان المراد من الأول الدعاء بالنصر في الدنيا فإن عدم الإغناء عليه ظاهر، بل في الجمع بين الدعاءين حينئذ لطافة إذ مآل الأول: لا تخزنا في الدنيا بغلبة العدو علينا فكأنهم قالوا لا تخزنا في الدنيا ولا تخزنا في الآخرة- ٤٢٤.
١٩٥ - (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)
{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ٤٢٥} دعا المؤمنون المتفكرون وسألوا الله الفوز بالعزة والنجاة من الخزي، فأجاب ربهم دعاءهم وحقق سؤلهم ورفع قدرهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل، - والمراد بالإضاعة ترك الإثابة؛ قوله {من ذكر أو أنثى}. {من} بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم؛ قوله {بعضكم من بعض} أي: رجالكم مثل نسائكم في الطاعة ونساؤكم مثل رجالكم فيها، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد- ٤٢٦؛ {فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم} فالذين تركوا أرضهم إلى أرض يأمنون فيها على دينهم، وأخرجهم أعداء الله واضطروهم إلى مفارقة أوطانهم؛ {وأوذوا في سبيلي} أصابهم الضر والبلاء بسبب إيمانهم بالله وعبادة ربهم {وقاتلوا} وحاربوا من حاد الله ورسوله، {وقتلوا} وبذلوا أرواحهم، وقضوا شهداء {لأكفرن عنهم سيئاتهم} ههنا قسم محذوف والتكفير الستر المستتبع -بفضل الله- الصفح وعدم العقوبة، {ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار} ولأسكننهم قصورا في جنات تجري من تحت بساتينها وحدائقها وأشجارها الأنهار، {ثوابا من عند الله} أي: ولأثيبنهم مثوبة من عندي ٤٢٧، وأنا أثيب الثواب ٤٢٨ الجزيل، {والله عنده حسن الثواب} – في تعليقه حسن الإثابة على احتمال المشاق في دينه، والصبر على صعوبة تكاليفه، دليل على أن حكمة الله تعالى اقتضت نوط الثواب والجنة بالعمل، حتى لا يتكل الناس. . . ولا يهملوا جانب العمل. .؛ عن الحسن: أخبر الله تعالى أنه استجاب لهم إلا أنه أتبع ذلك رفع الدعاء وما يستجاب به فلابد من تقديمه بين يدي الدعاء، يعني قوله {. . . والعمل الصالح يرفعه} ٤٢٩ - ٤٣٠. ثبت في الصحيحين أن رجلا قال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا

محتسبا مقبلا غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال " نعم " ثم قال " كيف قلت "؟ فأعاد عليه ما قال فقال " نعم إلا الدين قاله لي جبريل آنفا ".

١٩٦ - (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ)

{لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد} عن قتادة: والله ما غروا نبي الله ولا وكل إليهم شيئا من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك؛ فكأن الخطاب خرج بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم والمعني به غيره؛ فهو موجه إلى كل مكلف يسمع، والتقلب في البلاد: التنقل والسفر من بلد إلى بلد، وجلب التجارة، والتصرف في المزارع والمكاسب ومثله قول الله تعالى {. . فلا يغررك تقلبهم في البلاد} ٤٣١؛

١٩٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

{متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد}، المتاع ما يعجل الانتفاع به وسماه قليلا لأنه فان، وكل فان وإن كان كثيرا فهو قليل ٤٣٢؛ {ثم مأواهم جهنم} عما قليل يفنى ما متعوا به ثم يأوون ويرجعون ويصيرون إلى دار العذاب {وبئس المهاد} ذميم ما مهدوا لأنفسهم في السعير بما كفروا وصدوا عن الحق والخير والهدى.

١٩٨ - (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ)

{لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار} النزل ما يعجل للنزيل الضيف. ليس حال المسلمين كحال المجرمين فأهل الكفر نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ أما من آمن وعمل صالحا فلهم الحياة الطيبة والنعيم المقيم الأوفى وصدق الله العظيم {أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين} ٤٣٣؛ {نزلا من عند الله} يعني إنزالا من الله إياهم فيما أنزلهموها. . . {من عند الله} يعني من قبل الله ومن كرامة الله إياهم وعطاياه لهم، وقوله: {وما عند الله خير للأبرار} يقول: وما عند الله من الحياة والكرامة وحسن المآب خير للأبرار مما يتقلب فيه الذين كفروا فإن الذين يتقلبون فيه زائل فان، وهو قليل من المتاع الخسيس وما عند الله. . من كرامته للأبرار وهم أهل طاعته باق غير فان ولا زائل- ٤٣٤.

١٩٩ - (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب}، آيات محكمات سبقت، بينت حال الكافرين ومصير المؤمنين المتقين ثم بينت هذه حال من آمن بالإسلام من الكتابيين فطائفة ممن أوتوا التوراة والإنجيل صدقوا بما أنزل الله تعالى على أنبيائهم من كتبه، وآمنوا بما أنزل على النبي الخاتم وأمته ولم يستكبروا عن الإذعان لما نزل من الحق ولم يبدلوا ما استحفظوا عليه من سابق الوحي ولا كتموا شيئا من صفات النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل هؤلاء الأمناء السعداء يوفيهم الله أجرهم ويزيدهم من فضله فإن مولانا وعد ووعده الحق - {. . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ٤٣٥.

في الصحيحين -صحيحي البخاري ومسلم- عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين) فذكر منهم رجلا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، وفي الصحيحين كذلك أن النجاشي لما مات نعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال (إن أخا لكم قد مات فصلوا عليه) فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه؛ وبشرى الثواب المضاعف لمسلمة أهل الكتاب كما نقل عن مجاهد؛ وعن الحسن البصري معنى هذه الآية الكريمة هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله أجر اثنين، للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم، بل جاء في الآيات المحكمات {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم

مرتين} ٤٣٦.
٢٠٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
{يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} عن محمد ابن كعب القرظي: اصبروا على دينكم وصابروا على الوعد الذي وعدتكم ورابطوا عدوي وعدوكم حتى يترك دينه لدينكم؛ وعن زيد بن أسلم: صبروا على الجهاد وصابروا عدوكم ورابطوا على عدوكم، ومما يقول أبو جعفر ابن محمد الطبري: عنى بقوله: {اصبروا} الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى، صعبها وشديدها، وسهلها وخفيفها؛ {وصابروا} يعني: وصابروا أعداءكم من المشركين. لأن المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين أو اثنين فصاعدا ولا تكون من واحد إلا قليلا. . . وإذ كان ذلك كذلك فإنما أمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم حتى يظفرهم الله بهم، ويعلي كلمتهم ويخزي أعداءهم، وإلا يكن عدوهم أصبر منهم؛ وكذلك قوله {ورابطوا} معناه: ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم من أهل الشرك في سبيل الله؛ وأرى أن أصل الرباط: ارتباط الخيل للعدو كما ارتبط لهم عدوهم لهم خيلهم ثم استعمل ذلك في كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه من أراده من أعدائهم بسوء: ويحمي عنهم من بينه وبينهم ممن بغاهم بشر كان ذا خيل قد ارتبطها، أو ذا رجلة لا مركب له. اهـ.
يقول علماء الأحكام: المرابط في سبيل الله هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما، وأما سكان الثغور دائما بأهلهم الذين يعمرون ويكتسبون هنالك فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين، وقال بعضهم للرباط حالتان: حالة يكون الثغر مأمونا منيعا يجوز سكناه بالأهل والولد، وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إن كان من أهل القتال، ولا ينقل إليه الأهل والولد لئلا يظهر العدو فيسبي ويسرق والله أعلم. في صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها) وفي صحيح مسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان) ٤٣٧؛ وفي هذا دليل على أن الرباط أفضل الأعمال الذي يبقى ثوابها بعد الموت ٤٣٨، كما جاء في فضل الرباط حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ٤٣٩ إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ٤٤٠ طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة ٤٤١ وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع) والأحاديث في ذلك كثيرة ٤٤٢، {واتقوا الله لعلكم تفلحون} توقوا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة بما أمرتم به من الصبر والمصابرة والمرابطة كي تسلموا مما منه هربتم وتدركوا أفضل ما طلبتم.
ومما صح في فضل هذه السورة الكريمة: ما روى الإمام مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران -وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ٤٤٣ أو كأنهما حزقان ٤٤٤ من طير صواف تحاجان عن صاحبهما). وأخرج أيضا عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ٤٤٥ أو كأنهما غيايتان ٤٤٦ أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة) قال معاوية ٤٤٧: وبلغني أن البطلة: السحرة. وفي فضل خواتيمها جاءت الأحاديث النبوية الشريفة ومن أجمعها ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عائشة من طريق عطاء؛ وما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

٤ سورة النساء:

سورة النساء:
مدنية
وآياتها ست وسبعون ومائة
كلماتها: ٣٧٤٠؛ حروفها: ١٤٥٣٥
١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)
يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (١).
- لما كانت هذه السورة مشتملة على تكاليف كثيرة من التعطيف على الأولاد والنساء والأيتام، وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم عليهم، ومن الأمر بالطهارة والصلاة والجهاد والدية، ومن تحريم المحارم وتحليل غيرهن، إلى غير ذلك من السياسات ومكارم الأخلاق التي يناط بها صلاح المعاش والمعاد، افتتح السورة ببعث المكلفين على التقوى.
ومن غرائب القرآن أن فيه سورتين صدرهما (يأيها الناس) إحداهما في النصف الأول، وهي الرابعة من سوره، والأخرى في النصف الثاني، وهي أيضا الرابعة من سوره، ثم التي في النصف الأول مصدرة بذكر المبدأ: {اتقوا ربكم الذي خلقكم}، والتي في النصف الثاني مصدرة بذكر المعاد: (. . إن زلزلة الساعة شيء عظيم) (١)، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى بأنه خلقنا من نفس واحدة، أما القيد الأول وهو أنه خلقنا فلا شك أنه علة لوجوب الانقياد لتكاليفه، والخشوع لأوامره ونواهيه، لأن المخلوقية هي العبودية، ومن شأن العبد امتثال أمر مولاه، في كل ما يأمره وينهاه، وأيضا الإيجاد غاية الإحسان، فيجب مقابلتها بغاية الإذعان،. . .، وأما القيد الثاني وهو خصوص أنه خلقنا من نفس واحدة، فإنما يوجب علينا الطاعة لأن خلق أشخاص غير محصورة من إنسان واحد مع تغاير أشكالهم وتباين أمزجتهم واختلاف أخلاقهم دليل ظاهر وبرهان باهرعلى وجود مدبر مختار، وحكيم قدير؛ ولو كان ذلك بالطبيعة أو لعلة موجبة كان كلهم على حد واحد ونسبة واحدة؛ ثم في هذا القيد فوائد أخر، منها: أنه يأمر عقبه بالإحسان إلى اليتامى والنسوان، وكونهم متفرعين من أصل واحد،. . . أعون على هذا المعنى،. .، ومنها أنه إخبار عن الغيب فيكون معجزا للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يقرأ كتابا؛ وأجمع المفسرون على أن المراد بالنفس الواحدة ههنا: هو آدم عليه السلام (٢)؛ {وخلق منها زوجها} وخلق الله من النفس الواحدة والشخص الواحد الذي هو آدم عليه السلام الزوج الثاني (٣) له وهي حواء؛ عن قتادة: {وخلق منها زوجها} يعني حواء، خلقت من آدم من ضلع من أضلاعه؛ {وبث منهما رجالا ونساء} ونشر الله تعالى وفرق من آدم وحواء وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء كثيرات؛ {واتقوا الله الذي تساءلون به الأرحام} قال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به (٤)، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها؛ {إن الله كان عليكم رقيبا} أي: هو مراقب لجميع أحوالهم وأعمالهم، كما قال: (. . والله على كل شيء شهيد) (٥)، وفي الحديث الصحيح: " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك " وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، ليعطف بعضهم على بعض، ويحثهم على ضعفائهم، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه أولئك النفر من مضر وهم مجتابو النمار، أي من عريهم وفقرهم قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: {يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة} حتى ختم الآية، ثم قال: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد .) (٦) ثم حضهم على الصدقة، فقال: " تصدق (٧) رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره " وذكر تمام الحديث (٨).
٢ - (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)
{وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا (٢}

أمر الله تعالى أن نعطي الصغار الذين فقدوا آباءهم أن نعطيهم حقوقهم كاملة وأموالهم حين بلوغهم سِن التكليف، {ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب} قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة، ويقول شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم؛ وأقول فعلى هذا يكون المعنى: لا تفعلوا ذلك، فإن من فعل وظن أنه بهذا الاستبدال قد غنم فقد وهم، فهو بظلمه قد ترك ما كان حلالا طيبا، لأنه كسب مشروع، وأخذ سحتا وحراما لأنه حق لغيره، وإنما قلت ذلك لأن الباء تدخل على المتروك، ففي محكم التنزيل: (. . أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. .) (٩)؛ {إنه كان حوبا كبيرا} إن الاستبدال الجائر الذي يقتطع به حق اليتيم إثم عظيم، ومن الخطأ الكبير كذلك أكلكم أموالهم مع أموالكم، قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعا؛

٣ - (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)

{وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع}

في صحيح البخاري عن عائشة أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق (١٠)، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه {وإن خفتم ألا تقسطوا}، أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله؛ وفيه عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: {وإن خفتم ألا تقسطوا} قالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهم أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن؛ قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله: {ويستفتونك في النساء} (١١)، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدهم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال؛ والإقساط: العدل، والله تعالى يقول: (. . وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (١٢)، بخلاف قسط، فإنها تعني: جار وظلم، جاء في الكتاب العزيز: (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) (١٣)؛ {فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع} إن غلب على ظنكم أن تجوروا وتظلموا اليتيمة التي تتولون أمرها إذا تزوجتموها فتزوجوا من يحل لكم من النساء غيرها، وتطيب به نفوسكم وتستحسنوه، إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا؛ إن قيل: كيف جاءت {ما} للآدميين وإنما أصلها لما لا يعقل؟؛ فعنه أجوبة خمسة: الأول أن مَن وما قد يتعاقبان؛ قال الله تعالى: (والسماء وما بناها) (١٤) أي: ومن بناها؛ وقال: (. . فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع. .) (١٥)؛ ف {ما} ههنا لمن يعقل وهن النساء ـ (١٦) {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} قال الضحاك: في الميل والمحبة والجماع والعشرة، والقسم بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنين، فواحدة؛ {أو ما ملكت أيمانكم} من غلب على ظنه أنه لن يقدر على العدل بين الزوجتين أو الزوجات فليتزوج بواحدة يقتصر عليها ولا يتجاوزها، أو يستمتع بالجارية المملوكة؛ ـ وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم، كما يدل على ذلك جعله قسيما للواحدة في الأمن من العدل؛ وإسناد الملك إلى اليمين، لكونها المباشرة لقبض الأموال وإقباضها، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب. . ، قوله: {ذلك أدنى ألا تعولوا} أي: ذلك أقرب إلى ألا تعولوا (١٧) ـ (١٨)؛

٤ - (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا)

{وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا} أمر الله تعالى أن نعطي مَن نتزوج من النساء مهورهن، {نحلة} قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد: شريعة وديانة، وقال الكلبي: عطية وهبة؛ {وإنما سميت عطية من الزوج لأن الزوج لا يملك بدله شيئا، لأن البضع في ملك المرأة بعد النكاح كهو قبله، وإنما الذي استحقه الزوج هو الاستباحة لا الملك، والنحلة: العطية من غير بدل. . . ثم لما أمرهم بإيتاء الصدقات (١٩) أباح لهم جواز قبول إبرائها وهبتها، وانتصب {نفسا} على التمييز} (٢٠)؛

{فكلوه هنيئا مريئا} فخذوا ما طابت به نفوس الزوجات من مهورهن، وتملكوه وانتفعوا به منفعة تهنأون بها وتمرأون، وعبر عن التملك بالأكل.

٥ - (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا)

{ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا (٥)}

في الآية الثانية من هذه السورة أَمَر المولى سبحانه أن نعطي اليتيم ماله دون بخس، وكأن هاتين الآيتين الكريمتين لبيان الحين الذي تدفع إليهم أموالهم فيه، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ وإن كانوا قد رشدوا، ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد؛ عن سعيد بن جبير: لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده وإن كان شيخا؛ _ والمراد بالرشد نوعه، وهو المتعلق بحسن التصرف في أمواله وعدم التبذير بها، ووضعها في مواضعها؛. . واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين وهي للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم أنها بأيديهم وهم الناظرون فيها، كقوله: (فسلموا على أنفسكم. .) (٢١)؛. . .، أي: ليسلم بعضكم على بعض؛. . .. {التي جعل الله لكم قياما}. . . القيام والقوام: ما يقيمك، يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه: أي يصلحه؛. . .، وهو منصوب على المصدر: أي لا تؤتوا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموركم فتقومون بها قياما، وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموركم، فذهب إلى أنها جمع؛ وقال البصريون: قيما جمع قيمة؛. .: أي جعلها الله قيمة للأشياء_ (٢٢)؛ {وارزقوهم فيها واكسوهم} مهما يكن السفيه ممنوعا من التصرف في ماله لصغر أو عدم رشد فإن على وصيه أن يعطيه ما لابد له من طعام وشراب وكسوة؛ {وقولوا لهم قولا معروفا} فكما جرى له الأقوات ووفر له الكساء والأرزاق يتعهده بما يحبب إليه مكارم الأخلاق.

٦ - (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

{وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن ءانستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا (٦)}

{وابتلوا اليتامى} اختبروا من كان يتيما قبل أن تسلموا إليه ماله، فليتأمل الوصي أخلاق مكفوله، فإن تبين نجابته، وقدرته على رعاية المال، وحسن التصرف فيه فلا بأس أن يدفع إليه شيئا ليرى كيف يدبره، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه؛ {حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم} وحين تظهر علامات البلوغ على اليتيم المحجور عليه، ومنها: الإنبات_إنبات شعر إعانة_ والاحتلام، أي الرؤيا المنامية التي تجعله ينز الماء الدافق، ومنها: بلوغ خمس عشرة سنة أو سبع عشرة على خلاف بين الفقهاء في ذلك، وهذه العلامات تعم الذكر والأنثى، وتختص الأنثى بالحبل والحيض.

{فإن آنستم منهم رشدا} فإن رأيتم من هؤلاء الذين كانوا صغارا يتامى فبلغوا ورأيتم منهم حسن تصرف في أموالهم فادفعوها إليهم وأعطوهم إياها؛ {ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا} عن السدي والحسن: لا تسرف فيها_ وأصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط، وربما كان ذلك في التقصير_ لا تسرف فيها، ولا تبادر، تبادرًا أن يكبروا فيأخذوا أموالهم؛ {ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف} روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: إنما نزلت في والي اليتيم (٢٣) إذا كان فقيرا؛ أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بالمعروف؛ والعفة: النزاهة عن الشيء؛ وعن سعيد وغيره: يأخذ بقدر ما يحتاج إله قرضا (٢٤)، ثم إذا أيسر قضاه؛ {فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم} نادى الله تعالى الأوصياء أن يشهدوا على دفع ما كان تحت وصايتهم مِن مال مَن كانوا يتامى إلى أصحابه_ وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء؛. .، وقالت طائفة: هو فرض، وهو ظاهر الآية_ (٢٥)؛ {وكفى بالله حسيبا} كفى الله تعالى حاسبا لأعمالكم وشهيدا عليها ومجازا بها.

٧ - (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

{للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا} _ لما ذكر الله تعالى أمر اليتامى وصله بذكر المواريث، ونزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة يقال لها: أم كجة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئا، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير، وإن كان ذكرا، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة، فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهما، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرسا، ولا يحم كَلا، ولا ينكأ عدوا، فقال عليه السلام: " انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن " فأنزل هذه الآية ردًا عليهم، وإبطالا لقولهم، وتصرفهم بجهلهم، فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار، لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة، فضلوا بأهوائهم، وأخطئوا في آرائهم وتصرفاتهم،. . . {مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا} أثبت الله تعالى للبنات نصيبا في الميراث ولم يبين كم هو، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سويد وعرفجة ألا يفرقا من مال أوس شيئا، فإن الله جعل لبناته نصيبا ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل ربنا، فنزلت: {يوصيكم الله في أولادكم} إلى قوله تعالى: {الفوز العظيم} فأرسل إليهما: " أن أعطيا أم كجة الثمن مما ترك أوس، ولبناته الثلثين، ولكما بقية المال "،. استدل علماؤنا بهذه الآية في قسمة المتروك على الفرائض إذا كان فيه تغيير عن حاله،. . .، قال ابن أبي ليلى: إن كان فيهم من لا ينتفع بما يقسم له فلا يقسم، وكل قسم يدخل فيه الضرر على أحدهما دون الآخر فإنه لا يقسم، قال ابن المنذر: وهو أصح القولين، ورواه ابن القاسم عن مالك فيما ذكر ابن العربي، قال ابن القاسم: وأنا أرى أن كل ما لا ينقسم من الدور والمنازل و الحمامات، وفي قسمته الضرر ولا ينتفع به إذا قسم أن يباع ولا شفعة فيه، لقوله عليه السلام: " الشفعة في كل مالا يقسم فإذا وقعت الحدود فلا قسمة "، وأخرج الدارقطني _بسنده_ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا تعضية على أهل الميراث إلا ما حمل القسم "، قال أبو عبيد: هو أن يموت الرجل ويدع شيئا إن قسم بين ورثته كان في ذلك ضرر على جميعهم أو على بعضهم، يقول: فلا يقسم، وذلك مثل الجوهرة والحمام والطيلسان وما أشبه ذلك، والتعضية: التفريق، و. . ومنه قوله تعالى: (الذين جعلوا القرآن عضين) (٢٦)، وقال تعالى: (غير مضار. .) فنفي المضارة، وكذلك قال عليه السلام: " لا ضرر ولا ضرار " _ (٢٧)، قال الفراء: {نصيبا مفروضا} هو كقوله: قسما واجبا، وحقا لازما، فهو اسم في معنى المصدر فلهذا انتصب، والمفروض:
المقدر الواجب،

٨ - (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا)

{وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا ومعروفا}

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نسخت، ولا والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون الناس بها، هما واليان: والٍ يرث، وذلك الذي يرزق، ووالٍ لا يرث، وذلك الذي يقول بالمعروف، ويقول: لا أملك لك أن أعطيك، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم، ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية وصل لهم من الميراث، قال النحاس: فهذا أحسن ما قيل في الآية، أن يكون على الندب والترغيب في فعل الخير، والشكر لله عز وجل.

٩ - (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا)

{وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا}

عن ابن عباس: هذا وعظ للأوصياء، أي: افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأوليائكم من بعدكم، وعن مجاهد وغيره: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة، وروى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال: يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟، قال: " لا "، قال: فالشطر؟ قال:

" لا "، قال: فالثلث؟ قال: " الثلث والثلث كثير " ثم قال رسول الله صلى اله عليه وسلم: " إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس "، وفي الصحيح عن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الثلث والثلث كثير ".

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)

}إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا{

روى الشيخان ـالبخاري ومسلمـ في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اجتنبوا السبع الموبقات " ـ أي المهلكات ـقيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: " الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات "، وسمى اقتطاع مال اليتيم بغير حق أكلا أن الأثر في الإتلاف للشيء يكون بالأكل، وسمى المأكول نارا باعتبار ما يئول إليه، وخص البطون للتأكيد، كما في قول الله سبحانه: (. . يقولون بأفواههم. .) (٢٨)، و }ظلما {أي: أخذا ظلما، أو: أكل ظلم، أو نصب على الحالية، أي: ظالمين لهم، والسعير: الجمر المستعر، والصلاء: التسخين بقرب النار، أو مباشرتها.

١١ - (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

}يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ءاباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما (١١) *{

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي صلى الله عليه وسلم لا أعقل شيئا، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عَلَيَّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله، فنزلت }يوصيكم الله في أولادكم{ يعلِّمكم الله سبحانه ويعهد إليكم إذا مات الميت وخلف أولادا ذكورا وإناثا فميراثه يقسم بينهم: تأخذ البنت نصف ما يأخذ الابن؛ }فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك{ فإن لم يترك المتوفى أبناء وكان المتروكات بنات للميت ثنتين فأكثر، فلبناته الثلثان من ميراثه؛ }وإن كانت واحدة فلها النصف{ وإن كان المتروك للمتوفى ابنة واحدة، ليس معها ولد ذكر، فلهذه البنت نصف ميراث أبيها؛ }ولأبويه لكل واحدة منها السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس{ الآية بينت في بدايتها نصيب الأولاد حين ينفردون، وههنا بينت ماذا لهم وماذا للأبوين إذا اقتسموا التركة، ومعلوم أن اسم الولد يقع على الذكر وعلى الأنثى، فللأبوين سدسان والباقي للأولاد؛ فإن انفرد الوالدان ولم يكن معهما أحد من الأولاد ولا وارث سواهما فللأم الثلث، والباقي للأب؛ فإذا وجد مع الأبوين إخوة وأخوات حجبوا الأم من الثلث إلى السدس؛ }من بعد وصية يوصي بها أو دين{ كل ما ذكر من أنصباء الورثة تدفع إليهم بعد إنفاذ وصية المتوفى، وبعد قضاء ما كان عليه من دين، فإن كان أحدهما فالميراث بعده، وكذلك إن كان كلاهما؛ }آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا{ لا تعرفون من الذي فتح الله تعالى به أبواب الخير لكم أَمَن أوصى ببعض ماله أم من لم يوص، إذ بإمضائكم وصية مَن أوصى تتعرضون لثواب الآخرة؛ }فريضة من الله{ فرض الله ذلك فرضا؛ }إن الله كان عليما{ (بكل المعلومات، فيكون عالما بما في قسمة المواريث من المصالح والمفاسد }حكيما{ لا يأمر إلا بما هو الأحسن. . }كان{ ههنا منخلع عن اعتبار الاقتران بالزمان، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان، ولكنه من الأزل إلى الأبد عليم حكيم؛. . .

١٢ - (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ)

{ولكم نصف ما ترك أزواجكم} إلى قوله: {توصون بها أو دين}. . ولما جعل في الموجب النسبي حظ الرجل مثل حظ الأنثيين، فكذلك جعل في الموجب السببي وهو الزوجية حظ الزوج ضعف حظ الزوجة. . .، واختلفوا في تفسير الكلالة، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الكلالة، فقال: أقول فيه برأيي، فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريئ منه، الكلالة: ما خلا الوالد والولد، وعن عمر رضي الله عنه: الكلالة، من لا ولد له فقط} (٢٩)؛ {من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار} هذا الذي قسم الله لمن يرث بالكلالة لا يعطى للورثة إلا بعد إنفاذ ما وصى به المورث، وبعد سداد ما كان عليه من دين، وبعد أخذ أحدهما أو كليهما من التركة يقسم ما بقي بين الوارثين؛ ({والله عليم} يقول: والله ذو علم بمصالح خلقه ومضارهم، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومن يحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسما، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم، {حليم} يقول: ذو حلم على خلقه وذو أناة في تركه معاجلتهم بالعقوبة على ظلم بعضهم بعضا في إعطائهم الميراث لأهل الجند والقوة من ولد الميت، وأهل الغناء والبأس منهم دون أهل الضعف والعجز من صغار ولده وإناثهم) (٣٠).

١٣ - (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

{تلك حدود الله} عن قتادة: تلك حدود الله التي حد لخلقه، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة، فانتهوا إليها ولا تعدوها إلى غيرها؛ {ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم} ومن يستجب لأمر ربه، ويستقم على هدى نبيه يجزل الله ثوابه فيسكنه في الآخرة قصورا في دار النعيم وبساتين تجري من تحت أشجارها مياه الأنهار، وهو في هذا المقام الكريم مخلد لا يخرج منه، ولا يتحول عنه، ولا يذوق فيه الموت ولا السقم ولا الحزن، ولا ربح أعظم من ذلك.

١٤ - (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين}

ومن تنكب طريق الله، وحاد عن سنن رسوله، وخرج على أمر ربه يسكنه في الآخرة دار البوار، ويصليه لهب النار، وتعلوه الحسرة والذل والصغار، يمكث في هذا الحريق والعذاب؛ والعصيان إن أريد به الكفر فالخلود على بابه، وإن أريد به الكبائر وتجاوز أوامر الله تعالى فالخلود مستعار لمدة ما؛ كما تقول: خلد الله ملكه_ " (٣١).

١٥ - (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا)

واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا (١٥)

{واللاتي} اسم موصول للجمع من النساء؛ {يأتين} يرتكبن ويباشرن ويفعلن؛ {الفاحشة} الخطيئة البالغة القبح وهي الزنا؛ {فاستشهدوا عليهن أربعة منكم} تمهلوا حتى يكتمل الشهود على إفحاشهن أربعة من الرجال العدول المسلمين، والخطاب: للحكام، وقيل: للأزواج، {فإن شهدوا} فإن شهد عليهن العدول أربعة بأنهن فعلن الفاحشة ثبتت الجريمة بشهادتهم، {فأمسكوهن في البيوت} وكانت العقوبة حبس المفحشة في بيت ولا تمكن من الخروج {حتى يتوفاهن الموت} إلى أن تقبض أرواحهن بالموت {أويجعل الله لهن سبيلا} أو يشرع الله فيهن حكما آخر، ومخرجا مما صرن إليه من الحبس؛ في صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان النبي صلى

الله عليه وسلم إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربد (٣٢) وجهه، قال: فأنزل عليه ذات يوم، فلقي كذلك، فلما سري عنه قال: " خذوا عني خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر (٣٣) جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب (٣٤) جلد (٣٥) مائة والرجم ".

١٦ - (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

{واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما}

قال مجاهد وغيره: الآية الأولى في النساء عامة محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال خاصة، وبين بلفظي التثنية صنفي الرجال من أحصن ومن لم يحصن؛ فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى؛ وقال قتادة والسدي: {فآذوهما} ونحوهما؛ وقال ابن عباس: النيل باللسان والضرب بالنعال؛ {فإن تابا} ـأي من الفاحشة؛ {وأصلحا} يعني العمل فيما بعد ذلك؛ {فأعرضوا عنهما} أي اتركوا أذاهما وتعييرهما؛ وإنما كان هذا قبل نزول الحدود؛ فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية؛ وليس المراد بالإعراض الهجرة، ولكنها متاركة مُعرض؛ وفي ذلك احتقار لهم بسبب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى؛ والله تواب أي راجع بعباده عن المعاصي ـ (٣٦).

١٧ - (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

{إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما}

أمر الله تعالى عباده بالإنابة إليه، والعودة إلى سبيله ومنهاجه، والرجوع عما فعلوا من عصيان، فقال تقدست أسماؤه: (وأنيبوا إلى ربكم. .) (٣٧)، وقال عز ثناؤه: (. وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٣٨)؛ وقال: (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا. .) (٣٩)؛ ووعد سبحانه بقبول من أناب إليه (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت. .) (٤٠)، والتائبون هم أهل الفوز برضاه: (. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٤١)؛ ومن أسمائه الحسنى: التواب: (. . وأن الله تواب حكيم) (٤٢)؛ فكأن معنى الآية: ما قبول توبة من تاب إلا مِن المولى سبحانه، فإن على تأتي بمعنى مِن، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض كما في الآية الكريمة: (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده. .) (٤٣)، أي: منهم؛ وذلك القبول يمنح للذين يفعلون المعاصي ثم يتوبون دون تسويف وتأخير؛ فهؤلاء المنيبون يتجاوز الله عن سيآتهم؛ وأما {بجهالة} فقد نقل عن مجاهد أنه قال: الجهالة هنا العمد، وقال قتادة: أجمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية فهي بجهالة، عمدا كانت أو جهلا؛ وقال الزجاج: اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية.

١٨ - (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

{وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما}

حضور الموت: أي حضور علاماته؛ عن ابن عباس ما حاصله: نفى سبحانه أن يدخل في حكم التائبين من حضره الموت وصار في حين اليأس؛ كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان؛ لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع، لأنها حال زوال التكليف؛ ولا تقبل كذلك توبة من مات على الكفر إذ لا توبة في الآخرة؛ و {أعتدنا} أي: هيأنا وأعددنا لمن لم يتب إلا عند حضور علامات الموت، ولمن مات على كفره دون توبة، هيأنا لهم عذابا أليما موجعا.

١٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

{يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن} روى البخاري عن ابن عباس رضي الله

عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك؛ والعضل: المنع من الزواج؛ {ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن} قال قتادة: لا يحل لك أن تحبس امرأتك ضرارا حتى تفتدي منك؛ {إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} عن أبي قلابة قال: إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تختلع منه؛ ولقد شرع القرآن الحكيم في آية أخرى كريمة أن للزوج أن يأخذ من زوجته التي يخشى ألا تصون أمانات ربها له أن يأخذ منها مالا مقابل تسريحها، فذلك قول الحق سبحانه: (. . فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به. .) (٤٤)، وقصة التي أرادت أن تختلع من زوجها معروفة، وقد سألها رسول الله حين رغبت في فراق زوجها: " وتردين عليه حديقته " قالت: نعم، فقال صلى الله عليه وسلم لزوجها: " اقبل الحديقة وطلقها تطليقة "، أخرجه البخاري وابن ماجة وغيرهما، بألفاظ متقاربة، والمرأة اسمها: جميلة بنت عبد الله بن سلول، وزوجها: ثابت بن قيس بن شماس؛ عن ابن جريج عن عبد الكريم عن الحسن البصري: {بفاحشة} قال الزنا،. . فإن فعلت حل لزوجها أن يكون هو يسألها الخلع لتفتدي؛ وعن ابن عباس: {إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية؛ قال أبو جعفر: أولى ما قيل. . . أنه معني به كل فاحشة من بذاءة باللسان على زوجها، وزنا وأذى له، وزنا بفرجها،. . .، {مبينة}. . . ظاهرة بينة للناس أنها فاحشة،. . {وعاشروهن بالمعروف}. . .، خالقوهن من العشرة وهي المصاحبة. ا ه؛ {فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} ـ فههنا قد يميل طبعكم إلى المفارقة، ويكون الخير في الاستمرار على المواصلة، منه: الثناء في الدنيا بحسن الوفاء وكرم الخلق، ومنه الثواب في العقبى بالصبر على خلاف الهوى، ومنه حصول ولد نجيب، ومال كثير لليمن في صحبتها ـ (٤٥)، وله في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر " (٤٦).

٢٠ - (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

{وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا}

في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: " الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب " قالها ثلاثا، فقال الرجل: يا رسول الله؟ مالي! - يعني ما أصدقها- قال: " لا مال لك إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها " وقد استدل بعض علماء الأحكام بما في الآية على جواز إغلاء المهور، واستشهدوا بآثار كريمة (٤٧)؛ {أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا} البهتان: الكذب الذي يبهت ويحير المكذوب عليه، والباطل الذي يُتحيَّر من بطلانه، والإثم المبين: الذنب الواضح الظاهر؛ والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

٢١ - (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

{وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا}

إنكار بعد إنكار، وتعجيب من حال من يفعل ذلك؛ والإفضاء: الوصول إلى الشيء والاتصال به ومخالطته، هذا في اللغة، أما ههنا: فعن مجاهد والسدي: مجامعة النساء؛ وعن ابن عباس: الإفضاء: المباشرة، ولكن الله كريم يكني عما يشاء. ا ه. والميثاق الغليظ الذي أخذه الله للنساء على الرجال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ويشهد لهذا ما جاء في صحيح مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة حجة الوداع: " واستوصوا بالنساء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله "؛

٢٢ - (وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا)

{ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا}

نهى الله تعالى عن تزويج الابن من زوجةٍ كانت مِن قبلُ زوجةً لأبيه، لكن ما سلف من هذا الغي ومضى فاجتنبوه ودعوه؛ - وقيل: {إلا} بمعنى بعد، أي بعد ما سلف؛ كما قال تعالى: (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى. .) (٤٨)، أي: بعد الموتة الأولى؛ وقيل:

{إلا ما قد سلف} أي: ولا ما سلف، كقوله تعالى: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ} أي ولا خطأ،. . . وقيل في الآية إضمار. . {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف- (٤٩)؛ {إنه} إن زواج من سبق أن تزوجها الأب {كان فاحشة} كان ذنبا قبيحا مفحشا، {ومقتا} يستنزل مقت الله تعالى وسخطه، أو: يزرع البغضاء بين الابن وأبيه، {وساء سبيلا} وبئس هذا الصنيع طريقا، يُذَم مرتكبه، وتسوء عاقبته (٥٠).

٢٣ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

{حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبناء كم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما (٢٣) *}

عن ابن حميد- بسنده- عن عمرو بن سالم مولى الأنصار قال: حرم النسب سبع، ومن الصهر سبع، {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت} - فهؤلاء محرمات، بالنسب- ومن الصهر: {. . أمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نساء كم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف} ثم قال {والمحصنات من النساء} ومن قبل قال تبارك وتعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} - (فكل هؤلاء اللواتي سماهن الله تعالى وبين تحريمهن. . . محرمات غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال بإجماع جميع الأمة لا اختلاف بينهم في ذلك. .) (٥١)؛ ما جاء في روح المعاني: ليس المراد تحريم ذاتهن لأن الحرمة وأخواتها إنما تتعلق بأفعال المكلفين، فالكلام على حذف مضاف، بدلالة العقل، والمراد: تحريم نكاحهن، لأنه معظم ما يقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم، ولأن ما قبله وما بعده في النكاح،. . والجملة إنشائية، وليس المقصود منها الإخبار عن التحريم في الزمان الماضي،. . . و {أمهاتكم} تعم الجدات كيف كن،. . .، والمراد بالبنات: من ولدْتها أو ولدت مَن ولَدَها،. . . . .، والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث- الأخت لأبوين، والأخت لأب، والأخت لأم-، وكذا الباقيات،. .، ويدخل في العمات والخالات أولاد الأجداد والجدات،. . . . .، ولا يخفى أنه كما يحرم على الرجل أن يتزوج بمن ذكر، يحرم على المرأة التزوج بنظير من ذكر،. . . . . .، {{وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة} عطف على سابقه،. . . ومعنى-الرضاعة- لغة: مص الثدي، شرعا: مص الرضيع من ثدي الآدمية في وقت مخصوص، وأرادوا بذلك وصول اللبن من ثدي المرأة إلى جوف الصغير، . .،. . .، لا فرق بين المص والسقوط ونحوه،. . . ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم: " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب "،. . . . . . {وأمهات نسائكم} شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة إثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التي لها لحمة كلحمة النسب؛ والمراد بالنساء: المنكوحات- من أبرم عقد نكاحهن- على الإطلاق سواء كن مدخولا بهن أو لا، وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة؛. . . {وربائبكم اللاتي (٥٢) في حجوركم}. . والربيب: ولد المرأة من آخر، سمي به لأنه يربه -يرعاه- غالبا كما يرب ولده. ا ه؛ {من نسائكم اللاتي دخلتم بهن} الربيبة تحرم على من دخل بأمها، {فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم} فأما إذا عقد على أم الربيبة ثم طلقها قبل الدخول فلا إثم عليه بعد تطليق أمها أن يتزوج من تلك الربيبة، وكذا إن ماتت أمها قبل أن يدخل بها. {وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم} أي: وحرم الله عليكم أن تتزوجوا زوجات أبنائكم لا مَن تتبنونهم -وليس المقصود من ذلك إسقاط حليلة الابن من الرضاع فإنها حرام أيضا كحليلة الابن من النسب- (٥٣)، {وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سف} وحرم الله عليكم أن تجمعوا بين الأختين في الزواج- ولا فرق بين كونهما أختين من النسب أو الرضاعة- لكن ما سلف ومضى من هذا فلا تفعلوه، بعدما كان البعض يفعل، {إن الله كان غفورا

رحيما} إن المولى المعبود- تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه- كان وما يزال يستر زلات المستغفرين، ويصفح عن معاقبتهم عليها، واسع الرحمة أن يعذبهم بعد توبتهم.

٢٤ - (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

{والمحصنات من النساء} وحرم الله عليكم أن تتزوجوا امرأة في عصمة زوجها، {إلا ما ملكت أيمانكم} أي: إلا أن تكون امرأة كافرة قد وقعت في الأسر إذ قاتلهم المسلمون فإنها وإن كانت ذات زوج إلا أنها بقسم الإمام تصبح مملوكة لمن قسمت له فيحل له أن يستمتع بها بملك اليمين بعد أن يستبرئها؛ والاستبراء تربص مقداره نصف عدة الحرة فيما يتنصف ليعلم أنها ليست بذات حمل من زوجها الأول؛ في . صحيح مسلم (٥٤) أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابو سبيا يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا وتأثموا من غشيانهن، قال: فنزلت هذه الآية في ذلك (٥٥)؛ {كتاب الله عليكم} أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم؛ {وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين} وسائر النساء بعد من ذكر يحل لنا أن نطلبهن بأموالنا قاصدين التعفف عن الزنى؛ ويلحق بمن ذكرن في هذه الآيات المحكمات مَن حرمهن الله تعالى بوحيه الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم فيضم إلى المذكورات، فبذلك أمرنا: (. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. .) (٥٦)؛ روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها "؛ -أباح الله تعالى الفروج بالأموال،. . .، وجماعة أهل الحديث من أهل المدينة وغيرها، كلهم أجازوا الصداق بقليل المال وكثيره،. . .، {فما استمتعتم به منهم فآتوهن أجورهن فريضة} الاستمتاع: التلذذ؛ والأجور: المهور،. . . . .، فإذا جامعها مرة واحدة فقد وجب المهر كاملا إن كان مسمى، أو مهر مثلها إن لم يسم،. . {فريضة} نصب على المصدر في موضع الحال، أي: مفروضة؛. . {ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة} أي من زيادة أو نقصان في المهر؛ فإن ذلك سائغ عند التراضي بعد استقرار الفريضة- (٥٧)؛ {إن الله كان عليما حكيما}. (إن الله كان ذا علم بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم وغيرها من أموركم وأمور سائر خلقه، بما يدبر لكم ولهم من التدبير، وفيما يأمركم وينهاكم، لا يدخل حكمته خلل ولا زلل) (٥٨).

٢٥ - (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وءاتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥).

{ومن لم يستطع منكم طولا} الذي لا يجد منكم من المال سعة تمكنه {ينكح المحصنات المؤمنات} أي: يتزوج من حرة مؤمنة {فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات} فليتزوج جارية مسلمة مملوكة لواحد من إخوانه المؤمنين؛ مما يقول ابن زيد: لم يحل الله ذلك لأحد إلا لمن لا يجد ما ينكح به حرة، (فينكح هذه الأمة، فيتعفف بها) وينفق عليها، ولم يحل له حتى يخشى العنت؛ {والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض} حقيقة إيمانها وإيمانه يعلمها الله سبحانه، فما دامت أظهرت الإسلام حل للمسلم الذي عجز عن التزوج من حرة مسلمة، وخاف على نفسه الوقوع في الزنا إن بقي دون زوجة أن يتخذها زوجة، ونفوض- كالشأن في كل أمر- علم الحقيقة والسرائر لله الذي لا تخفى عليه خافية؛ {فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف} فتزوجوا من هؤلاء الجواري الإماء بإذن مواليهن وسادتهن، وأعطوهن مهورهن بما يقره الشرع ويرضاه أهل استقامة العقل والطبع، ولا يبخسوهن منه شيئا استهانة بهن لأنهن إماء؛ {محصنات}

عفائف، {غير مسافحات} غير زوان معلنات بالزنى، {ولا متخذات أخدان} ولا مستسرات بالزنى مع الأخلاء والأصدقاء، {فإذا أحصن} فإذا صارت الجارية المؤمنة العفيفة متزوجة، {فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب} قال أبو عمر: ظاهر قول الله عز وجل يقتضي ألا حد على أمة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن، فكان ذلك زيادة بيان. اهـ.

في صحيح البخاري ومسلم أنه قيل: يا رسول الله، الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ فأوجب عليها الحد، يقول أبو عبد الله القرطبي: والأمر عندنا أن أمة إذا زنت وقد أحصنت مجلودة بكتاب الله، وإذا زنت ولم تحصن مجلودة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولا رجم عليها، لأن الرجم لا يتنصف،. . .، وذكر في الآية حد الإماء خاصة، و لم يذكر حد العبيد، ولكن حد العبيد والإماء سواء، خمسون جلدة في الزنى، وفي القذف وشرب الخمر أربعون، لأن حد الأمة إنما نقص لنقصان الرق فدخل الذكور في ذلك بعلة المملوكية،. . .

{وأن تصبروا خير لكم} أي: الصبر على الغربة خير من نكاح الأمة،. . . ا هـ، {والله غفور رحيم} ومولانا المعبود بحق- تقدست أسماؤه- عظيم عفوه عمن لم يقدر على نكاح الحرة وخاف على نفسه الزنا، وعفوه سبحانه عميم وستره وصفحه عن كل مستغفر، ورحمته تتسع لكل مؤمن مستقيم.

٢٦ - (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

يريد الله لبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦)

{يريد الله ليبين لكم} قال الفراء: العرب تعاقب بين لام كي، وأن، فتأتي باللام التي على معنى كي في موضع أن في: أردت وأمرت، فيقولون: أردت أن تفعل، وأردت لتفعل، ومنه: (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. .) (٥٩)، (. . وأمرت لأعدل بينكم. .) (٦٠)، (. . وأمرنا لنسلم لرب العالمين) (٦١)؛ ومن فضل الله تعالى على الناس أوضح سبحانه وبين، وأوحى إلى نبيه ما حدث به لمزيد البيان، وقال في محكم القرآن: (. . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. . . . .) (٦٢)؛ {ويهديكم سنن الذين من قبلكم} ويرشدكم ويدلكم على طريق من سبقكم، فرسالة ربنا الخاتمة فيها حكم ما بيننا، ونبأ من سبقنا، وحجة وبرهان من ربنا، (ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) (٦٣)؛ فإن أريد بالسابقين: الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فالهداية في اتباعهم: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. .) (٦٤)؛ وإن أريد بهم من جعلهم الله نكالا، فالله يعرفنا أنهم لما تركوا أوامره وعصوا رسله، دمر عليهم، ليكون في ذلك لنا معتبرا؛ {ويتوب عليكم} والله يريد أن يتوب عليكم، - فتلافوا ما فرط منكم بالتوبة، يغفر لكم ذنوبكم- (٦٥) {والله عليم حكيم} (والله ذو علم بما يصلح عباده في أديانهم ودنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويذرون مما أحل أو حرم عليهم، حافظ ذلك كله عليهم، حكيم بتدبيره فيهم في تصرفاتهم فيما صرفهم فيه) (٦٦).

٢٧ - (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

{والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما}

مما جاء في روح المعاني: إذا فسر {يتوب} أولا: بقبول التوبة والإرشاد مثلا، وثانيا: بأن يفعلوا ما يستوجبون به القبول فلا يكون تكرارا،. . . .، {ويريد الذين يتبعون الشهوات} يعني الفسقة، أنهم يدورون مع شهوات أنفسهم،. . . . .، {أن تميلوا} عن الحق بموافقتهم فتكونوا مثلهم،. . {ميلا عظيما} بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندرة، واعترف بأنها خطيئة، ولم يستحل.

٢٨ - (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

{يريد الله أن يخفف عنكم}. . . .، يخفف في التكليف على العموم، فإنه تعالى خفف عن هذه الأمة ما لم يخفف عن غيرها من الأمم الماضية،. . . .، {وخلق الإنسان ضعيفا}. . . .، يستميله هواه وشهوته، ويستشيطه خوفه وحزنه، وقيل: عاجز عن مخالفة الهوى وتحمل مشاق الطاعة. ا هـ.

٢٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ

رَحِيمًا)
يأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما (٢٩)
{تأكلوا} تأخذوا وتملكوا. {بالباطل} بما خالف الشرع.
{تجارة} معاوضة ومقابلة بين شيئين.
{ولا تقتلوا أنفسكم} لا يقتل بعضكم بعضا، أو: لا يفعل أحدكم ما يزهق روحه.
نهى الله تعالى أهل الإيمان أن يأخذ أحد مالا إلا على طريقة شرعها في دينه الحنيف، مما قال السدي: نهى عن أكلهم أموالهم بينهم بالباطل وبالربا والقمار والبخس والظلم، قال ابن كثير: وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي ما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، {إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم} إلا أن تكون الأموال أموال تجارة فحذف المضاف وأقيم إليه مقامه، - والتجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة، ومنه الأجر الذي يعطيه البارئ سبحانه العبَد عوضا عن الأعمال الصالحة التي هي بعض من فعله، قال الله تعالى: (يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) (٦٧)، وقال تعالى: (. . . يرجون تجارة لن تبور) (٦٨)،. . .، وهي نوعان: تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر، وهذا تربص واحتكار، قد رغب عنه أولو الأقدار، وزهد فيه ذوو الأخطار، والثاني تقلب المال بالأسفار ونقله إلى الأمصار، فهذا أليق بأهل المروءة، وأعم جدوى ومنفعة،. . . .، ويستحب للتاجر ألا تشغله تجارته عن أداء الفرائض، فإذا جاء وقت الصلاة ينبغي أن يترك تجارته حتى يكون من أهل هذه الآية، (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة. .) (٦٩) - (٧٠)، وهناك أموال تستفاد بالحلال ولا تسمى تجارة، كالهبة والإرث، وأخذ الصدقات، والمهور، و أروش الجراحات، {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما. ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا} - أجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية: النهي أن يقتل بعض الناس بعضا-، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه - (٧١)، في الصحيحين: " من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة " وفي الصحيحين أيضا عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكينا نحر بها يده فما رفأ الدم حتى مات قال الله عز وجل عبدي بادرني بنفسه حرمت عليه الجنة "،
٣٠ - (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)
{ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان على الله يسيرا}
{عدوانا} تعديا على حق الغير.
{وظلما} وجورا عن الحق والعدل. {نصليه} نذيق جلده.
قال ابن جرير ما حاصله: {ذلك} إشارة إلى كل ما نهى عنه من آخر وعيد، وهو قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها} لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد، إلا من قوله: {يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم} فإنه لا وعيد بعده إلا قوله: {ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما} وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص، أو قتل الخطأ.
٣١ - (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا)
{إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما}
{كبائر ما تنهون عنه} مناهي الله التي توجب الحد أو صرح عليها بالوعيد.
من يبتعد عن فعل الذنوب العظيمة التي أوجب الله على فاعلها الحد، أو صرح عليها بوعيد، فإنه إن يفعل ذنبا صغيرا يستره ربه عليه ولا يؤاخذه به، وفوق ذلك يتفضل عليه بإدخاله دار النعيم والكرامة والخلد، وهذه البشرى كالتي بينها قول الحق- تقدست أسماؤه: (. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم. .) (٧٢)، وقد أورد في الحديث النبوي الشريف صحاح كثيرة تبين عظائم الذنوب، روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " (٧٣)، ورويا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: " من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه " قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: " يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه "، وفيهما كذلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ وفي رواية: أكبر؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك " قلت: ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك " قلت: ثم أي؟ قال: " أن تزاني حليلة جارك " ثم قرأ: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب. .) (٧٤)؛ وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر "؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: " الإشراك بالله وعقوق الوالدين " - وكان متكئا فجلس، فقال: " ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور "، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت، وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اجتنبوا السبع الموبقات " قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: " الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات "، عن طاوس قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: أرأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع. (٧٥)

٣٢ - (وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما (٣٢)

{ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} التمني: نوع من الإرادة يتوجه إلى المستقبل، فمن رغب في تحقيق خير وبر له، وتمنى أن يكون له مثل ما منح آخر من غير تمني زوال منحة الغير، فهذا يسمى غبطة، ولا حرج على من كان كذلك- شرعا- لأن هذا الحال ليس فيه تحاسد ولا تباغض؛ لكن المنهي عنه في الآية هو الرغبة في أن ينتقل إليه ما عند الآخر؛ عن ابن عباس: لا يتمنى الرجل يقول: ليت أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله؛ ومما نقل عن السدي: الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء (٧٦): نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال فإنا لا نستطيع القتال، ولوكتب علينا القتال لقاتلنا؛ {للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن} أورد ابن جرير – بسنده – عن أبي جرير يقول: لما نزل: {للذكر مثل حظ الأنثيين} قالت النساء: كذلك عليهم نصيبان من الذنوب كما لهم نصيبان مِن الميراث! فأنزل الله: {للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن} يعني: الذنوب، ورجحه ابن جرير- رحمه الله- وعن قتادة – ومال إليه القرطبي-: يريد: من الثواب والعقاب {النساء} كذلك، فللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها كما للرجل؛ ونقل عن ابن عباس: المراد بذلك الميراث؛ {واسألوا الله من فضله} نداء من ربنا إلى العباد أن يدعوه لحاجاتهم، وهو سبحانه القائل: (ادعوا ربكم تضرعا وخفية. .) (٧٧)، وبشر بتحقيق الرجاء؛ (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. .) (٧٨)؛ فاللهم يا من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عمن ناداه، تقبل عنا أحسن ما عملنا وتجاوز عن سيآتنا في أصحاب الجنة، وامنحنا من فضلك العظيم ما تجعلنا به وأحبابنا من سعداء الدنيا والآخرة، اللهم آمين؛ {إن الله كان بكل شيء} - بما يصلح عباده فيما قسم لهم من خير، ورفع بعضهم فوق بعض في الدين والدنيا، وبغير ذلك من قضائه وأحكامه فيهم {عليما} يقول: ذا علم- (٧٩).

٣٣ - (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

{ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم}

قال ابن زيد: الموالي: العصبة، هم كانوا في الجاهلية الموالي، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم أسماء فقال الله تبارك و تعالى: (فإن لم تعلموا آباءكم فإخوانكم في الدين ومواليكم. .) (٨٠)، فسموا: الموالي، قال: والمولى اليوم: موليان: مولى يرث ويورث فهؤلاء

ذوو الأرحام، ومولى يورث ولا يرث، فهؤلاء العتاقة؛. . .، ويعني بقوله: {مما ترك الوالدان والأقربون}: مما تركه والده وأقرباؤه من الميراث. ا ه. وأخرج البخاري عن ابن عباس: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى رسول الله بينهم، فلما نزلت: {ولكل جعلنا موالي} نسختها، ثم قال: {والذين عاقدت أيمانكم} إلا (٨١) النصر والرفادة (٨٢) والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصى له؛ - قيل والمراد هنا: العصبة: أي: ولكل جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض،. . . . والذين عاقدتهم أيمانكم فآتوهم نصيبهم: أي ما جعلتموه لهم بعقد الحلف- (٨٣)؛ {إن الله كان على كل شيء شهيدا} (أي: قد شهد معاقدتكم إياهم، وهو عز وجل يحب الوفاء)؛. . .؛

٣٤ - (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) {الرجال قوامون على النساء}. . أي يقومون بالنفقة عليهن، والذب عنهن؛ وأيضا فإن فيهم الحكام والأمراء ومن يغزو، وليس ذلك في النساء؛. .، {بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم} بين تعالى أن تفضيلهم عليهن في الإرث لما على الرجال من المهر والإنفاق؛. .؛ ويقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير؛ فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك؛. . .؛ و {قوام} فعال للمبالغة،. .؛ يقوم بتدبيرها وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز، وأن عليها طاعته وقبول أمره، ما لم تكن معصية؛ وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة والعقل والقوة في أمر الجهاد، والميراث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر} (٨٤)؛ {فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله} المرأة المسلمة التقية (٨٥) هي التي تطيع زوجها، وتحفظه في غيبته في نفسها وماله؛ والمحفوظ مَن حفظه الله سبحانه؛ {واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن} ومن خاف من زوجته ترفعا عليه، وعصيانا لأمره، وبغضا لمصاحبته فليعظها وليذكرها بحقه عليها، وما أوجب الله له من الطاعة والقوامة (٨٦)، وأن تأنفها عن تلبية ندائه مغضبة للمولى جل علاه؛ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح "، ورواه مسلم، ولفظه: " إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح "؛ {واهجروهن في المضاجع واضربوهن} روى مسلم – رحمه الله- في صحيحه، عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع: " واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان (٨٧) ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف "؛ نقل عن ابن عباس: يهجرها في المضجع فإن أقبلت وإلا فقد أذن لك أن تضربها ضربا غير مبرح، ولا تكسر لها عظما، فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية؛ {فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا} – أي: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها، مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها؛ وقوله: {إن الله كان عليا كبيرا} تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

٣٥ - (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) {وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها}. .، قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرها، ويمنع الظالم منهما من الظلم؛ فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا فينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال تعالى: {إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما}. . .

عن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما: إن رأيتهما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا؛ وقال: أنبأنا ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة. . . . . فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة؟! فقال: على يسارك في النار إذا دخلتِ؛ فشدت عليها ثيابها، فجاءت عثمان

فذكرت له ذلك، فضحك، فأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما، فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا- (٨٨)، وكذلك كل مصلح يوفقه الله للرشد والبر، ويوفق به للمودة والخير، {إن الله كان عليما خبيرا} هو سبحانه يعلم المفسد من المصلح، محيط بأحوال جميع الخلق، يجازي كل عامل بما عملَ ويثيب الذين أساءوا بشر ثواب، ويكرم الذين أحسنوا بأعظم مآب.

٣٦ - (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا)

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا (٣٦

{واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا} (٨٩) انقادوا لأمر المولى المستحق للعبادة والتذلل والطاعة دون سواه. {فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره} (٩٠)؛ وفي هذا المعنى جاءت آيات محكمات كثيرة، منها: (. . ألا لله الدين الخالص. .) (٩١)، ومنها: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين. .) (٩٢) ومنها: (. . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (٩٣)؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه "؛ وفي الصحيح: قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: " أتدري ما حق الله على العباد "؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: " أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا " ثم قال: " أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم ".

{وبالوالدين إحسانا} (٩٤) أي: أمركم أن تعبدوه وحده، وأمركم بالوالدين براً بهما؛ أو: ذلوا لله بالطاعة وأفردوه بالربوبية، واستوصوا بالوالدين إحسانا؛ قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان، والتزام البر والطاعة له والإذعان، مَن قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره. وهما الوالدان، فقال تعالى: (. . أن اشكر لي ولوالديك. .) (٩٥)؛ {وبذي القربى} وأمر سبحانه بصلة ذي القربى، وهم ذوو القرابة من قِبَل الأب أو الأم، {واليتامى} وهم الصغار الذين مات آباؤُهم، وصانا ربنا بالإحسان إليهم والحنو عليهم، لأنهم فقدوا العائل والحاني؛ {والمساكين} المحاويج الذين لا يجدون ما ينفقون؛ يقول اللغويون: المسكين: الذي لا شيء له، أو: لا شيء له يكفي عياله؛ قال يونس: الفقير أحسن حالا من المسكين؛ وقال الأصمعي: المسكين أحسن حالا من الفقير، لأن الله تعالى قال: (أما السفينة فكانت لمساكين. .) (٩٦)، فأخبر أنهم مساكين وأن لهم سفينة تساوي جملة، كما استدل علي بن حمزة على ذلك بقول المولى عز وجل: (أو مسكينا ذا متربة) (٩٧)، فأكد عز وجل سوء حاله بصفة الفقر، لأن المتربة: الفقر، ولا يؤكد الشيء إلا بما هو أوكد منه. ا. ه.

وصانا ربنا البر الرحيم بالصدقة على هؤلاء؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله- وأحسبه قال- وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر "؛ {والجار ذي القربى والجار الجنب} قال ابن عباس وعكرمة وغيرهما: الجار ذي القربى: الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب: الذي ليس بينك وبينه قرابة؛ وقال مجاهد: الجار الجنب: الرفيق في السفر؛ وذهب البعض إلى أن الجار ذي القربى هو الذي قرب جواره؛ روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه "؛ وروى عن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن " قيل: يا رسول الله، من؟ قال: " الذي لا يأمن جاره بوائقه " (٩٨).

ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك "؛ {والصاحب بالجنب} (٩٩) نقل عن علي وابن مسعود- رضي الله عنهما- أنهما قالا: هي المرأة؛ ونقل (١٠٠) عن سعيد بن جبير، وقتادة ومجاهد: هو: الرفيق في السفر؛ وقد تتناول الآية الجميع بالعموم؛ {وابن السبيل} - هو صاحب الطريق. . . الضارب

فيه فله الحق على من مر به محتاجا منقطعا به إذا كان سفره في غير معصية الله أن يعينه إن احتاج إلى معونة، ويضيفه إن احتاج إلى ضيافة، وأن يحمله إن احتاج إلى حملان، القول في تأويل قوله: {وما ملكت أيمانكم} يعني بذلك جل ثناؤه: والذين ملكتموهم من أرقائكم، فأضاف الملك إلى اليمين،. . .، لأن مماليك أحدنا تحت يده، وإنما نطعم ما تناوله أيماننا. . فأضيف ملكهم إلى الأيمان لذلك،. . . فأوصى ربنا جل جلاله بجميع هؤلاء عباده إحسانا إليهم، وأمر خلقه بالمحافظة على وصيته فيهم، فحق على عباده حفظ وصية الله فيهم، ثم حفظ وصية رسوله صلى الله عليه وسلم- (١٠١).

روى الشيخان- البخاري ومسلم- عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: " هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم "، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق "، {إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا} - فنفى سبحانه محبته ورضاه عمن هذه صفته، أي: لا يظهر عليه آثار نعمه في الآخرة، وفي هذا ضرب من التوعد، والمختال: ذو الخيلاء، أي الكبر، والفخور الذي يعدد مناقبه كبرا،. . .، وخص هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما تحملان صاحبيهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وغيرهم ممن ذكر في الآية، فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم- (١٠٢).

٣٧ - (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

{الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله} جائز أن تكون {الذين} في موضع نصب على البدل من {مَن} في قوله سبحانه في الآية السابقة: {من كان مختالا}، والبخل الذي قبحه الشرع: هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى، (وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو أشر خصال الشر ما هو أقبح منه، وأدل على سقوط نفس فاعله، وبلوغه في الرذالة إلى غايتها، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم، وكتمهم لما أنعم الله به عليهم {يأمرون الناس بالبخل} كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة،. . . وقد قيل: إن المراد بهذه الآية اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر، والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله في التوراة) (١٠٣)، {وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا} وهذا وعيد للجاحدين أنعم ربهم: أن الواحد القهار قد أعد لمن كفر مصيرا سيئا، وعقابا شديدا مذلا مخزيا، وهيأ لهم الخلود والمقام في دار الحسرة والحريق والآلام.

٣٨ - (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)

{والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} عطف على ما سبق، وتشريك لهم في الحكم والمال، فمستقر هؤلاء وأولئك النار، أولئك بشحهم، ومنعهم حقوق الله في مالهم وعملهم، وهؤلاء إنفاقهم بطرا وطلبا للمحمدة من الناس، لم يبتغوا بها وجه رب الناس، (. . لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. .) (١٠٤)، وما أعظم شقوة المفتونين، الذين يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا!، {ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا} زين لهم رفيق السوء، وعدو البشر أن يعرضوا عن الآخرة فقالوا: (. . ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) (١٠٥)، (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) (١٠٦)، (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه. .) (١٠٧)، وزعم الذي ابتلي بالحديقتين وفتنتاه أنهما مخلدتاه (. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) (١٠٨).

٣٩ - (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا)

{وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله} ما الذي على المانعين حق الله، والبخلاء الأشحاء على الضعفاء من العباد، والذين ألهتهم الزخارف عن اليقين بيوم التناد؟! وأي ضرر يصيبهم لو استيقنوا بربنا ولقائه، واستجابوا لندائه، وبذلوا وأعطوا مما أفاء عليهم من نعمائه؟! {وكان الله بهم عليما} - بعث على إصلاح أفعال القلوب، التي يطلع عليها علام الغيوب، وردع عن دواعي النفاق والرياء، والسمعة والفخار- (١٠٩).

٤٠ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)

إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠)

{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري- حديث الشفاعة- وفيه: " حتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استصقاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة إخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول جل وعز ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا "، فربنا البر الرحيم لا ينقص من جزاء المحسنين وزن ذرة من خير عملوه ولا يزيد على جزاء المسيئين وزن ذرة من وزر، فهو سبحانه لا يظلم قليلا ولا كثيرا، بل يتفضل فيضاعف الحسنات أضعافا قد تكون عشرة وقد تكون سبعمائة، وقد تضاعف إلى ما لا يعلمه إلا الله؛ ويحل رضوانه على من يشاء فلا يسخط بعد ذلك أبدا، (. . ورضوان من الله أكبر.) (١١٠).

٤١ - (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)

{فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا}

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اقرأ عَلَيَّ " قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: " إني أحب أن أسمعه من غيري " فقرأت عليه سورة {النساء} حتى بلغت: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} قال: " أمسك " فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل؛ {فكيف} الفاء فصيحة، و {كيف} محلها: إما الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وإما النصب بفعل محذوف،. . .، - أي إذا كان كل قليل وكثير يجازى عليه، فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم؟ أو: كيف يصنعون؟ أو: كيف يكون حالهم إذا جئنا يوم القيامة من كل أمة من الأمم وطائفة من الطوائف بشهيد يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال؟ - وهو نبيهم-؟ وجئنا بك يا خاتم الأنبياء {على هؤلاء} إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر {شهيدا} تشهد على صدقهم لعلمك بما أرسلوا، واستجماع شرعك مجامع ما فرعوا وأصلوا،. . .، وقيل: إلى المؤمنين: لقوله تعالى: (. . لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا.) (١١١)، فإذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة، وعظيم تلك الحالة، فماذا لعمري يصنع المشهود عليه؟! وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه- (١١٢).

٤٢ - (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)

{يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا}

في يوم الطامة الكبرى هذا يتمنى من جحد بآيات الله وعصى رسوله صلى الله عليه وسلم لو أنهم بقوا ترابا على أصلهم، أو دفنوا وسويت الأرض فوق أجداثهم؛ ومن البلاء الذين يحل بهم عجزهم عن كتمان ما كان من أوزارهم (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) (١١٣)، (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) (١١٤)؛ عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف عليَ في القرآن، قال: ما هو، أشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك، ولكن اختلاف؛ قال فهات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) (١١٥)، وقال: {. . ولا يكتمون الله حديثا} فقد كتموا، فقال ابن عباس: أما قوله: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركا، جحد المشركون فقالوا: (. . والله ربنا ما كنا مشركين) رجاء أن يغفر لهم، نختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا

يعملون، فعند ذلك {يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا}.
٤٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)

يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءاً فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا (٤٣).

نهى الله تعالى المؤمنين عن التلبس بالصلاة والشروع في أدائها حال سكر من كان يسكر يومئذ (١١٦)، ولا يؤذن له ولا يقبل منه الأداء إلا إذا كان مفيقا صاحيا، يعلم ما يصدر عنه من أفعال وأقوال؛ {ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا} عن علي رضي الله عنه قال: نزلت في السفر،. . . وعابر السبيل: المسافر، إذا لم يجد ماء تيمم؛ وعن الحكم: المسافر تصيبه الجنابة فلا يجد ماء فيتيمم؛ فكأن المعنى: يأيها الذين آمنوا لا تقبل من أحد منكم صلاته وهو سكران إلا إذا أفاق وعاد صاحيا، ولا تقبل صلاة (١١٧) من أجنب حتى يغتسل إلا أن يكون مسافرا؛ قال أهل اللغة: إذا قيل: لا تقرب بفتح الراء فمعناه: لا تتلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه: لا تَدْنُ منه؛ والجنب: الذي يجب عليه الغسل بالجماع، أو خروج المني، قاله ابن الأثير (١١٨)؛ {وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء احد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم} عن ابن مسعود: المريض الذي أرخص له في التيمم: الكسير والجريح، فإذا أصابته الجنابة لا يَحُل جراحتَه إلا جراحة لا يخشى عليها؛ - وإن كنتم جرحى أو بكم. علة لا تقدرون معها على الاغتسال من الجنابة وأنتم مقيمون غير مسافرين فتيمموا صعيدا طيبا،. .، وإن كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب فتيمموا،. . .، أو جاء أحد منكم من الغائط قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح فليتيمم صعيدا أيضا، والغائط: ما اتسع من الأودية،. .، وجعل كناية عن قضاء حاجة الإنسان لأن العرب كانت تختار قضاء حاجتها في الغيطان-.

وذكر عن مجاهد أنه قال في الغائط: الوادي؛. . . عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: اللمس: الجماع، قال: فأتيت ابن عباس، فقلت: إن ناسا من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع، قال: مِن أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غلب فريق الموالي، إن المس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما يشاء بما يشاء؛ (ثم إن نظم هذين الأمرين- المجيء من الغائط ومجامعة النساء- في مسلك سببي سقوط الطهارة، والمصير إلى التيمم- يعني: المرض والسفر- مع كونهما سببي وجوبها ليس باعتبار أنفسهما، بل باعتبار قيدهما المستفاد من قوله سبحانه: {فلم تجدوا ماء} بل هو السبب في الحقيقة،. . . كأنه قيل: أو: لم تكونوا مرضى ولا مسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الأسباب مع تحقيق ما يوجب استعماله من الحدث الأصغر أو الأكبر. . .

{فتيمموا صعيدا طيبا} الفاء واقعة في جواب الشرط، والظاهر أن الضمير راجع إلى جميع ما اشتمل عليه،. . والتيمم لغة: القصد،. .، والصعيد: وجه الأرض،. . .، والطيب: الطاهر،. . .، والمعنى: فتعمدوا واقصدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا، وهذا دليل واضح لجواز التيمم بالكحل والآجر،. . . .، ونصب {صعيدا} على أنه مفعول به، وقيل: إنه منصوب بنزع الخافض، أي فتيمموا (١١٩) بصعيد- (١٢٠) {فامسحوا بوجوهكم وأيديكم} روى البخاري عن عمران بن حصين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل في القوم، فقال: " يا فلان ما منعك أن تصلي "؟ فقال: يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء، قال: " عليك بالصعيد فإنه يكفيك "؛ {إن الله كان عفوا غفورا} إن الله لم يزل عفوا من ذنوب عباده وتركه العقوبة على كثير منها، ما لم يشركوا به، كما عفا عنكم أيها المؤمنون عن قيامكم إلى الصلاة التي فرضها عليكم في مساجدكم وأنتم سكارى.

{غفورا} - يقول: فلم يزل يستر عليهم ذنوبهم بتركه معاجلتهم العذاب على خطاياهم، كما ستر عليكم أيها المؤمنون بتركه معاجلتكم على

صلاتكم في مساجدكم سكارى، يقول: فلا تعودوا لمثلها، فينالكم بعودكم لما قد نهيتكم عنه من ذلك منكلة- (١٢١).
٤٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)
ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤)
{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب}؟ ألم ينته علمك، أو: ألم تنظر إلى من أنزل على أنبيائهم كتب ربانية سماوية؟! نالوا حظا وقسما من هذا الوحي الإلهي؛ يقول بعض المفسرين: فأما الذين آمنوا بالكتاب كله فقد قبلوا العلم دون تبعيض، كعبد الله بن سلام وأمثاله وفيهم نزل قول الحق سبحانه: (. . قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (١٢٢).
{يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل} يختارون الذهاب عن الحق، والميل إلى الغي؛ قال الزجاج ما حاصله: والمراد تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم لأغراضهم الفاسدة من أخذ الرشا، وحب الرياسة؛ ويحرصون على إضلالكم عن سبيل الرشد والهدى.
٤٥ - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)
{والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا}
لعل المعنى: ومولانا المعبود بحق أحاط بكل شيء علما، فهو خبير بصير بمن عادانا، لا يخفى عليه من كيدهم ومكرهم وتبييتهم لنا شيء، وبحسبنا أنه مولانا، وأن الكافرين لا مولى لهم، وبحسبنا أنه يؤيدنا، وهو خير الناصرين، فلن نتولى غيره، ولن نستنصر إلا به.
٤٦ - (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا)
{من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه} من اليهود طائفة- وما أكثرها- يبدلون ويغيرون الكلام عن أماكنه ووجوهه التي هي وجوهه، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل زورا منهم وافتراء؛ {ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين} عن ابن عباس: كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: اسمع لا سمعت، وهم يظهرون أنهم يريدون:. . غير مستمع مكروها ولا أذى؛ وعن مجاهد: قالت اليهود: سمعنا ما تقول ولا نطيعك؛ وقال ابن زيد: قال: {راعنا} طعنهم في الدين، وليهم بألسنتهم ليبطلوه ويكذبوه، قال: والراعن: الخطأ من الكلام؛ ويقول الألوسي: {راعنا} عطف على ما قبله، أي: ويقولون أيضا في أثناء خطابهم له صلى الله عليه وسلم هذا، وهو ذو وجهين كسابقه، فاحتماله للخير على معنى: أمهلنا وانظر إلينا،. .، واحتماله للشر بحمله على السب، ففي التيسير: إن راعنا بعينه مما يتسابون به، وهو للوصف بالرعونة،. . .، وقيل: بل كانوا يشبعون كسر العين، ويعنون- لعنهم الله تعالى -أنه- وحاشاه صلى الله عليه وسلم- بمنزله خدمهم ورعاة غنمهم،. . .، {ليا بألسنتهم} اللي يكون بمعنى الانحراف. . والانعطاف عن جهة إلى أخرى،. . .، والمراد هنا: إما صرف الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، وإما ضم أحد الأمرين إلى الآخر،. .
{وطعنا في الدين} أي: قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية،. .، {ولو أنهم} عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه {قالوا} بلسان المقال، كما هو الظاهر، أو: به وبلسان الحال، كما قيل: {سمعنا} سماع قبول،. . {وأطعنا} مكان قولهم: {عصينا}، {واسمع} بدل قولهم: {اسمع غير مسمع} {وانظرنا} بدل قولهم: {راعنا} {لكان} قولهم هذا {خيرا لهم} وأنفع من قولهم ذلك {وأقوم} أي: أعدل في نفسه،. .
{ولكن لعنهم الله بكفرهم} أي: ولكن لم يقولوا الأنفع والأقوم، واستمروا على ذلك، نخذلهم الله تعالى، وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم {فلا يؤمنون} بعد {إلا قليلا}. . .، إلا فريقا قليلا منهم، فإنه سبحانه لم يلعنهم؛ فلهذا آمن من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه،. . .، وقيل: إنه صفة مصدر محذوف، أي: إلا إيمانا قليلا،. . . وجوز على هذا الوجه أن يراد بالقلة العدم. ١ ه.
٤٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا)
{يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت

وكان أمر الله مفعولا}
نداء للكتابيين أن يصدقوا ويستيقنوا بالقرآن الذي جاء مصدقا لما سبقه من الكتب المنزلة ومهيمنا عليه، وتحذير لهم إن أقاموا على التكذيب أن يجعلهم الله نكالا، ويعجل لهم عقوبة في الدنيا كالتي حلت بأسلافهم ممن مسخوا قردة وخنازير، والله يفعل ما يشاء، لا يعجزه شيء أراده؛ عن ابن عباس: يقول: أن نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه.
٤٨ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)
{إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما}
في الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الظلم ثلاثة فظلم لا يغفره الله وظلم يغفره الله وظلم لا يترك الله منه شيئا فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك وقال: (. . إن الشرك لظلم عظيم) (١٢٣) وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض "؛ وعن أبي ذر قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة- حجارة صلبة سوداء- عشاء ونحن ننظر إلى أحد، فقال: " يا أبا ذر " قلت: لبيك يا رسول الله. قال: " ما أحب أن لي أحد ذاك عندي ذهبا أمسي ثالثة وعندي منه دينار إلا دينار أرصده- يعني لدين- إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا " فحثا عن يمينه وعن يساره وبين يديه، قال: ثم مشينا فقال: " يا أبا ذر إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا " فحثا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره قال: ثم مشينا، فقال: " يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك "، قال: فانطلق حتى توارى عني، قال: فسمعت لغطا، فقلت: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض له، قال: فهممت أن أتبعه، قال: فذكرت قوله: " لا تبرح حتى آتيك " فانتظرته حتى جاء، فذكرت له الذي سمعت فقال: " ذاك جبريل أتاني فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة "، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق " (١٢٤)؛ فالكافرون الذين يموتون على كفرهم لا يُغفر لهم والنار مأواهم ومصيرهم، يخلدون فيها وهي حسبهم؛ ومن أجرم جريمة دون الشرك فهو إلى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه؛ ذلك أن الكفر والجحود إنكار لأصول الدين، وخروج على فطرة رب العالمين.
٤٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا)
{ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا}
عن قتادة: هم أعداء الله اليهود، زكوا أنفسهم بأمر لم يبلغوه، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لا ذنوب لنا؛ ومما قال ابن زيد: قال أهل الكتاب: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى: (. . فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) (١٢٥)؛ وأصل التزكية: التنقية والتبرئة والتنزيه؛ في صحيح مسلم، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي برة: فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله نهى عن هذا الاسم، وسُميت برة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم " فقالوا: بم نسميها؟ فقال: " سموها زينب "؛ وكأن المنهي عنه في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف إنما هو مدح الإنسان نفسه عجبا وافتخارا ولغير غرض صحيح مثل التحدث بنعمة الله تعالى، أو للترغيب في الاقتداء به إن كان من أهل القدوة؛ أما التزكي العملي الذي هو تطهير النفس وتنزيهها عن القبائح، وتنمية حبها لنهج الخير والرشد، والاستزادة من العمل الصالح، فهذا هو الفلاح، وصدق الله العظيم: (قد أفلح من تزكى) (١٢٦) (قد أفلح من زكاها) (١٢٧)، وإنها لأمانة بعث بها رسولنا محمد خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم، يقول مولانا – تقدست أسماؤه-: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. .) (١٢٨)، ويقول جل وعز: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. .) (١٢٩)، ويقول تبارك و تعالى: (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم. .) (١٣٠)، وهي دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

.) (١٣١)؛ وإن أريد بالنهي أن لا يزكي بعضنا بعضا، كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بكرة أن رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ويحك قطعت عنق صاحبك- يقوله مرارا- إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسبه كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحدا " - فنهى صلى الله عليه وسلم أن يفرط في مدح الرجل بما ليس فيه فيدخله في ذلك الإعجاب والكبر، ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة، فيحمله ذلك على تضييع العمل، وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " ويحك قطعت عنق صاحبك "، وفي الحديث الآخر: " قطعتم ظهر الرجل " حين وصفوه بما ليس فيه؛ وعلى هذا تأول العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: " احثوا التراب في وجوه المداحين " أن المراد به: المداحون في وجوههم بالباطل وبما ليس فيهم، حتى يجعلوا ذلك بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنونه؛ فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون منه ترغيبا له في أمثاله، وتحريضا للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحا بما تكلم به من جميل القول فيه؛ وهذا راجع إلى النيات: (. . والله يعلم المفسد من المصلح. .) (١٣٢)؛ وقد مُدِحَ صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يحث في وجوه المداحين التراب، ولا أمر بذلك، كقول أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وكمدح العباس وحسان له في شعرهما، ومَدحه كعب بْن زهير، ومدح هو أيضا أصحابه، فقال: " إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع "؛ وأما قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث: " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وقولوا عبد الله ورسوله " فمعناه: لا تصفوني بما ليس في من الصفات تلتمسون بذلك مدحي، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا؛ وهذا يقتضي أن من رفع امرءاً فوق حده وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتد آثم؛ لأن ذلك لو جاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم- (١٣٣)؛ {ولا يظلمون فتيلا} عن قتادة: الفتيل: الذي في شق النواة،) (يعني بذلك جل ثناؤه: ولا يظلم الله هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يزكون أنفسهم، ولا غيرهم من خلقه، فيبخسهم من تركه تزكيتهم وتزكية من ترك تزكيته، وفي تزكية من زكى من خلقه، شيئا من حقوقهم، ولا يضع شيئا في غير موضعه، ولكنه يزكي من يشاء مِن خلقه فيوفقه، ويخذل من يشاء من أهل معاصيه، كل ذلك إليه وبيده، وهو في كل ذلك غير ظالم أحدا ممن زكاه أو لم يزكه فتيلا) (١٣٤).

٥٠ - (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا)

{انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا}

تعجيب مِن حال مَن يزعم لنفسه ما ليس فيها، ويختلق على الله تعالى غير الحق، وإن كذبا على الله تعالى ليس ككذب على أحد، فبحسب هؤلاء وزرا أن يتقولوا على ربنا سبحانه ما لم يقله، من مثل قول اليهود والنصارى: (. . نحن أبناء الله وأحباؤه. .) (١٣٥) وقولهم: (. . لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. .) (١٣٦)، وقولهم: (. . لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. .) (١٣٧).

٥١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا)

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}.

عن قتادة: الجبت (١٣٨): الشيطان؛ وعن مالك بن أنس: الطاغوت (١٣٩) ما عبد من دون الله أو خُضع له كائنا ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان. واختار ابن جرير أن الجبت والطاغوت: اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة؛ تعجيب مِن حال مَن أوتي هدى فاستحب الضلالة على الهدى، ودعا إلى الغواية والردى، وآثر أهل الزيغ على أهل الصلاح والتقى،

٥٢ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)

{أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا}

فهذا الباغي المسارع في ممالأة المعوجين، مبعد من رحمة البر الرحيم، لن يمنعه من نقمة الله مانع، ولن يدفع عنه مدافع؛ عن ابن زيد قال: جاء حيي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب، فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: نحن وأنتم خير منهم.
٥٣ - (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا)
{أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا}
عن ابن جريج: فليس لهم نصيب من الملك، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا، ولو كان لهم نصيب وحظ من الملك لم يكونوا إذا يعطون الناس نقيرا من بخلهم؛ والنقير: النقطة التي في ظهر النواة؛ ونقل النيسابوري ما حاصله: فإن قيل: كيف يعقل أنهم لا يبذلون نقيرا، وكثيرا ما يشاهد منهم بذل الأموال؟! يقال: لأنهم لا يبذلون شيئا نسبته إلى ما يملكون كنسبة النقير إلى النواة، أو لأنهم لا يطيبون بذلك نفسا لغلبة الشح عليهم "، والله تعالى أعلم. ا ه.
٥٤ - (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)
{أم يحسدون الناس على ما آتهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٥٤)}
بعد أن بين الله تعالى شح اليهود. بين حسدهم، فكأن المعنى: بل يحسد اليهود النبي وصحبه على ما أعطاهم الله تعالى من فضل في النبوة الخاتمة، وهيمنة كتابهم على الكتب السابقة، ونصر لهم وتأييد على كل من خالفهم؛ وليس ما آتينا محمدا وأصحابه من فضلنا ببدع فهم يعلمون أن الله يمن على من يشاء، وقد من على إبراهيم عليه السلام وذريته بالحكم والنبوة.
٥٥ - (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)
{فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (٥٥)}
- {فمنهم} أي اليهود، {من آمن به} أي: بالنبي صلى الله عليه وسلم، {ومنهم من صد عنه} أي: أعرض عنه؛ وقيل: الضمير في {به} راجع إلى ما ذكر من حديث {آل إبراهيم}. . . {وكفى بجهنم سعيرا} أي: نارا مسعرة- (١٤٠).
إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها
٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)
{إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا} (ويدخل فيها (١٤١) كل ما يدل على ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، وملائكته، والكتب والرسل، وكفرهم بها: أن ينكروا كونها آيات، أو يغفلوا عنها ولا ينظروا فيها، أو يلقوا الشكوك والشبهات فيها، أو ينكروها مع العلم بها، عنادا وحسدا، وبغيا ولددا به) (١٤٢)؛ و {سوف} كلمة تذكر للتهديد والوعيد، وتنوب عنها السين، كما في قوله تعالى: (سأصليه سقر) (١٤٣)، وقد تذكر للوعد، كما في قوله سبحانه: (ولسوف يعطيك ربك فترضى) (١٤٤)، و (. . سوف أستغفر لكم ربي. . .) (١٤٥)؛ {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب} - بدلناهم جلودا غير محترقة، وذلك أنها تعاد جديدة والأولى كانت قد احترقت فأعيدت غير محترقة، فلذلك قيل غيرها، لأنها غير الجلود التي كانت لهم في الدنيا، التي عصوا الله وهي لهم، قالوا: وذلك نظير قول العرب للصائغ إذا استصاغه خاتما من خاتم مصوغ بتحويله عن صياغته التي هو بها إلى صياغة أخرى: صغ لي من هذا الخاتم غيره، فيكسره ويصوغ له منه خاتما غيره، والخاتم المصوغ بالصياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أعيد بعد كسره خاتما قيل هو غيره، قالوا: فكذلك معنى قوله: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها} لما احترقت الجلود ثم أعيدت جديدة بعد الاحتراق قيل على ذلك المعنى؛. . . . وأما معنى قوله: {ليذوقوا العذاب} فإنه يقول: فعلنا ذلك بهم ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته بما كانوا في الدنيا يكذبون بآيات الله ويجحدونها؛. . {إن الله كان عزيزا حكيما} يقول: إن الله لم يزل عزيزا في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه، لا يقدر على الامتناع منه أحد أراده بضر، ولا الانتصار منه لأحد أحل به عقوبة. {حكيما} في تدبيره وقضائه- (١٤٦).

٥٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا)

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار} ذاك الاحتراق الذي بينته الآية السابقة مآل الكافرين، وأما هذا النعيم المقيم الذي تبشر به هذه الآية فإليه مصير المؤمنين العاملين الصالحات، لهم عند ربهم جنات وروضات من تحت أشجارها مياه جاريات، {خالدين فيها أبدا} ماكثين في الجنة لا يموتون ولا يُخرجون، ولا يبغون حولا، وهي دار خلد ومقامة، لا تحول ولا تزول؛ {لهم فيها أزواج مطهرة} قال ابن عباس: مطهرة من الأقذار والأذى؛ وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد؛ وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم، ولا حيض ولا كلف؛ {وندخلهم ظلا ظليلا} ينعمون في دار لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا؛ ونقل: لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك، وقيل: {ظليلا} دائما لايزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة.

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)

إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا (٥٨)

{تؤدوا} تعطوا. {الأمانات} جمع، والفرد: أمانة، مصدر بمعنى المفعول، أي ما تؤتمن عليه ويتعلق بذمتك من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فعلية أو قولية أو اعتقادية.

{العدل} الإنصاف والتسوية. {أهلها} أصحابها ومستحقيها.

{نعما يعظكم به} نعم الذي يعظكم الله تعالى به.

{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} عهد من الله تعالى موثق، مطلوب أن نوفيه إلى مستحقيه، دون نقص أو تأخير؛ - تعم جميع الأمانات، فأولها: الأمانة مع الرب تعلى في كل ما أمر به ونهى عنه، قال ابن مسعود: الأمان في كل لازمة، في الوضوء والجنابة، والصلاة والزكاة والصوم، وعن ابن عمر أنه تعالى خلق فرج الإنسان وقال: هذا أمانة خبأتها عندك فاحفظها إلا بحقها؛ وهذا باب واسع، فأمانة اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها، وأمانة العين أن لا يستعمله في النظر إلى الحرام، وأمانة السمع أن لا يستعمله في سماع الملاهي والمناهي والفحش والأكاذيب، وكذا القول في سائر الأعضاء؛ ثم الأمانة مع سائر الخلق، ويدخل فيه رد الودائع، وترك التطفيف ونشر عيوب الناس وإفشاء أسرارهم، ويدخل فيه عدل الأمراء مع الرعية والعلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى ما ينفعهم في دنياهم ودينهم، ويمنعوهم عن العقائد الباطلة، والأخلاق غير الفاضلة، وتشمل أمانة الزوجة للزوج في ماله وفي بضعها، وأمانة الزوج للزوجة في إيفاء حقوقها وحظوظها، وأمانة السيد للمملوك وبالعكس، وأمانة الجار للجار والصاحب للصاحب- ويدخل فيه نهي اليهود عن كتمان أمر محمد- والأمانة مع نفسه بأن لا يختار لها إلا ما هو أنفع وأصلح في الدين وفي الدنيا، وأن لا يوقعها بسبب اللذات الفانية في التبعات الدائمة، وقد عظم الله تعالى أمر الأمانة في مواضع من كتابه: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.) (١٤٧) (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (١٤٨)، وقال صلى الله عليه وسلم (١٤٩): " ألا لا إيمان لمن لا أمانة له " - (١٥٠)؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم مَن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان "؛ وقال ابن عباس: لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة؛ وقال ابن المنذر: أجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار؛ {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} لعل الأمر يشمل الحكم عن ولاية عامة أو خاصة أو عن تحكيم؛ في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " وكلكم راع فمسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على

بيت بعلها وولده (١٥١) وهي مسئولة عنهم والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام لمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفى ما عليه من الرعاية كان له الحظ الأوفر والجزاء الأكبر، وإلا طالبه كل أحد من رعيته بحقه (١٥٢)؛ يقول العلماء: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كل هؤلاء رعاة وحكاما على مراتبهم، وكذلك العالم حاكم، لأنه إذا أفتى حكم وقضى، وفصَل بين الحرام والحلال، والفرض والندب، والصحة والفساد فجميع ذلك أمانة تؤدى، وحكم يقضى، {إن الله كان سميعا بصيرا} - إن الله لم يزل سميعا لما تقولون وتنطقون، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس ولم تجاوزوهم به، {بصيرا} بما تفعلون فيما ائتمنكم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم، بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كله، حتى يجازي محسنكم
بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله- (١٥٣).

٥٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا)

{يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩)}

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون " قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: " أوفوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم "، وأخرجا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن رأى مِن أميره شيئا فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية "، وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من خلع يداً مِن طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية "، وفي صحيح مسلم كذلك عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- جالس في ظل الكعبة والناس حوله، مجتمعون عليه، فأتيتهم، فجلست إليه، فقال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره (١٥٤)، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة! فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور ينكرونها وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر " قال: فدنوت منه، فقلت: أنشدك بالله آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيده، وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ويقتل بعضنا بعضا، والله تعالى يقول: {يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما}؛ قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله؛ يأمر الله تعالى أهل الإيمان المستيقنين بأن يطيعوا ربهم فيأتمروا بأمره وينتهوا عن مناهيه، وأن يطيعوا الرسول، فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله؛ وعلى أهل التصديق بالحق أن يلتزموا كتاب الله وسنة نبيه؛ {وأولي الأمر منكم} قال ابن عباس: يعني أهل الفقه والدين، وقال مجاهد وعطاء: يعني العلماء؛ لكنا قد

قدمنا أن الأمر على العموم في كل أولي الأمر، وأن عهد الله أن نطيعهم في المعروف، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} عن مجاهد قال: فإن تنازع العلماء ردوه إلى الله والرسول، قال: يقول: فردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ وعن ابن جرير: فإن اختلفتم أيها المؤمنون في شيء من أمر دينكم أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم فاشتجرتم فيه، .، فارتادوا معرفة حكم ذلك الذي اشتجرتم أنتم بينكم، أو أنتم وأولوا الأمر فيه من عند الله، يعني بذلك من كتاب الله، فاتبعوا ما وجدتم، وأما قوله، {والرسول} فإنه يقول: إن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلا

فارتادوا معرفة ذلك أيضا من عند الرسول إن كان حيا، وإن كان ميتا فمن سنته، {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} يقول: افعلوا ذلك إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، يعني بالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب، فإنكم إن فعلتم ما أمرتم به من ذلك من الله الجزيل من الثواب، وإن لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العذاب،. . . .، {ذلك خير وأحسن تأويلا}. . فرد ما تنازعتم فيه من شيء إلى الله والرسول خير لكم عند الله في معادكم، وأصلح لكم في دنياكم، لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة وترك التنازع والفرقة، {وأحسن تأويلا} يعني: وأحمد موئلا ومغبة، وأجمل عاقبة. اه.

٦٠ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا)

ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا (٦٠)

{ألم تر} ألم تنظر، أو: ألم ينته علمك؟ {يزعمون} يقولون ويدعون {الطاغوت} الشيطان، وما عبد من دون الله.

{ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي: ألم تنظر، أو: ألم ينته علمك؟ إنكار على الذين مرضت قلوبهم مع ادعائهم الإيمان (١٥٥) فرغبوا عن طاعة الله تعالى والتحاكم إلى ما أنزل، ومالوا إلى حكم الظلمة الطغاة؛ قال الليث: قولهم زعم فلان، معناه: لا نعرف أنه صدق أو كذب؛ ومنه: زعموا: مطية الكذب؛ وقال ابن الأعرابي: الزعم قد يستعمل في القول المحقق لكن المراد في الآية: الكذب بالاتفاق؛ - هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله- (١٥٦)؛ وعن الشعبي وغيره أن سبب النزول شامل لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى: {. . . ويسلموا تسليما}.

وعن طائفة من علماء القرآن ما حاصله: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم: لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة؛ ودعا المنافق اليهودي إلى حكامهم؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم؛ فلما اختلفا اجتمعا على أن يحكما كاهنا في جهينة؛ فأنزل الله تعالى في ذلك: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك} يعني المنافق؛ {وما أنزل من قبلك} يعني اليهودي؛ {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} إلى قوله: {يسلموا تسليما}. ا ه.

{وقد أمروا أن يكفروا} يعدلون عن الاحتكام إلى شرع الله وقضاء رسوله، ويميلون إلى حكم الشيطان وأهل الطغيان، والحال أن الله سبحانه أمرهم أن يستيقنوا ببطلان كل سبيل غير سبيل المولى عز وتقدس-، {ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} يريد الأشقياء التحاكم إلى الباطل والمبطلين، ويريد إبليس وأعوانه أن يغووهم، فيعوجوا ويزيغوا زيغا لا يرجعون بعده إلى الرشد.

٦١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)

{وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا}

{يصدون} يعرضون. {صدودا} إعراضا.

إذا ذُكروا بالحق لا يذكرون، فهما ناديتوهم إلى الاستجابة والإذعان إلى منهج القرآن، وهدى خير الأنام، عليه الصلاة والسلام، فإنهم لنفاقهم يُعرضون عن الرسول وشرعته وسنته إعراضا، وأما صد المعتدي- أي منع غيره- فمصدرها صدا، ويشهد لهذا ما يشير إليه قول الله الحكيم: (. . قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله. .) (١٥٧)

٦٢ - (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)

{فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا}

{فكيف} استفهام للتعجيب.

{إحسانا} إتقانا، أو إعطاء فضل فوق الحق، فهو عدل وزيادة.

{توفيقا} موافقة بين الخصوم، وتقريبا بينهم.

تعجيب من الذين تحاكموا إلى غير ما أنزل الله، وتحذير ووعيد لهم، أي: كيف يكون حالهم حين يصيبهم بلاء بسبب ما ارتكبوه من السوء ثم أتوا إليك يعتذرون، ويحلفون: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك؟! عند ذلك ستنقطع بهم المعاذير، ولا يقدرون على الدفع، قال ابن كيسان: معناه: ما أردنا إلا عدلا وحقا، مثل قوله: {وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى. .) (١٥٨)، فكذبهم الله تعالى بقوله: {أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم}

٦٣ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا)

{فأعرض عنهم} فلا تقبل عليهم، ولا تولهم وجهك، أو: اترك عقوبتهم.

{عظهم} ذكرهم بما يدل على الهدى ويرد عن الردى.

{بليغا} بالغ التأثير، موصلا إلى كنه المطلوب، مطابقا لما هو مقصود.

{أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم} قال الزجاج: معناه: قد علم الله أنهم منافقون، {فأعرض عنهم} قيل: عن عقابهم، وقيل: عن قبول اعتذارهم، {وعظهم} ذكرهم بماهم إليه صائرون، {وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا} - أي ازجرهم بأبلغ الزجر في السر والخلاء، الحسن: قل لهم إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلتكم- (١٥٩).

٦٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

{لوجدوا} لعلموا قبول توبتهم، ولصادفوا قبولها لديه سبحانه.

{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} (أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم، وقوله: {بإذن الله}. . .، كقوله: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه} (١٦٠) أي: عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم، وقوله: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم} الآية، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والنسيان أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده ويسألونه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم) (١٦١).

٦٥ - (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}

{شجر} اشتبك واختلف واختلط. {حرجا} شكا أو ضيقا.

{ويسلموا تسليما} وينقادوا لأمرك انقيادا، ويذعنوا له برضًا.

روى الشيخان، وغيرهما، من طريق الزهري أن عروة بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام أنه خاصم رجلا من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج- مسيل ماء - من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك " فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟

فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: " اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك " - والجدر: المسقاة حول الزرع-، واستوعى رسول الله للزبير حقه، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: {فلا وربك} الآية؛ قال ابن جرير قوله: {فلا} رد على ما تقدم ذكره، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، ثم استأنف القسم بقوله: {وربك لا يؤمنون} {ويسلموا تسليما} قال الزجاج: {تسليما} مصدر مؤكد، أي: ويسلمون لحكمك تسليما، لا يدخلون على أنفسهم شكا ولا شبهة فيه؛ - وهذا في حياته صلى الله عليه و آله وسلم، وأما بعد موته فتحكيم الكتاب والسنة، وتحكيم الحاكم بما فيهما من الأئمة والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في الكتاب والسنة أو في أحدهما، وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة، بأن يكون عالما باللغة العربية وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعاني وبيان، عارفا بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيرا بالسنة المطهرة، مميزا بين الصحيح وما يلحق به، والضعيف وما يلحق به، منصفا غير متعصب لمذهب من المذاهب ولا لنحلة من النحل، ورعا لا يحيف ولا يميل في حكمه، فمن كان هكذا فهو قائم في مقام النبوة، مترجم عنها، حاكم بأحكامها؛ وفي هذا من الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود، وترجف له الأفئدة؛ فإنه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت} فضم إلى التحكيم أمرا آخر، هو عدم وجود حرج، أي حرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان، واعتلاج قلب وطيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضم إليه قوله: {ويسلموا} أي: يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا، ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال: {تسليما} فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه، ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليما لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة- (١٦٢).

٦٦ - (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦)

{ولو أنا كتبنا عليهم أن قاتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم} عن ابن عباس ومجاهد ما حاصله: ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم، وأمرناهم بذلك، أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها، ما قتلوا أنفسهم بأيديهم، ولا هاجروا من ديارهم فيخرجوا عنها طاعة لله ولرسوله، إلا قليل منهم ربما يفعلون رياء؛ {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذا لآتيناهم من لدنا لأجرا عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما} (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به من الانقياد والطاعة لله ورسوله- وسمى التكليف وعظا لاقترانه بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب- {لكان خيرا لهم} أي: أنفع وأفضل من غيره، أو: خير الدنيا والآخرة، لأن {خيرا} يستعمل بالوجهين جميعا، {وأشد تثبيتا} أقرب إلى ثباتهم على الإيمان والطاعة، لأن الطاعة تدعو إلى أمثالها، وتجر إلى المواظبة عليها، ولأنه حق، والحق ثابت والباطل زائل، وأيضا: الإنسان يطلب الخير أولا، فإذا حصل يطلب ثباته ودوامه؛ ثم بين أن ما يوعظون به كما هو خير في نفسه فهو أيضا مستعقب للخير.

٦٧ - (وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)

{وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما}

ثوابا جزيلا، و {إذا} جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا يكون لهم بعد الخير والتثبيت؟ فقيل: هو أن نؤتيهم من لدنا أجرا عظيما، وفي إيراد صيغة التعظيم في {آتينا} و {لدنا} وفي قوله: {من لدنا} وفي وصف الأجر بالعِظم وفي تنكير الأجر من المبالغة ما لا يخفى؛

٦٨ - (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)
والصراط المستقيم: الدين الحق، أو: الطريق من عرصة القيامة إلى الجنة، وهذا أولى، لأنه مذكور بعد استحقاق الأجر) (١٦٣).
٦٩ - (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)
{ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا}.
ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟، فقال: " المرء مع من أحب " قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن الله يبعثني معهم، وإن لم أعمل كعملهم؛ وروى الشيخان واللفظ لمسلم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم "، قالوا: يا رسول الله تلك منزل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين "؛ {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} فمن يستدم الانقياد لأمر ربنا ونهيه، ولهدي الرسول وسننه، ويرضى بحكمه، ولا يحتكم إلى غيره فهذا المطيع يدرك من درجات النعيم في الجنة أن يرافق أصحاب الدرجات العلى: من الأنبياء، وأهل الصدق والتصديق ومن تطابق أقوالهم أفعالهم، ومن ثبتت لهم الشهادة، وأصحاب الأعمال الباقية البارة الصالحة، وما أحسن هؤلاء الرفقاء! -
٧٠ - (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا)
{ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما}
ذلك الثواب بكمال درجته كأنه هو الفضل، وما عداه غير معتمد عليه، وذلك الثواب المذكور هو من الله لا غيره، وكفى بالله عليما بالطاعة وكيفية الثواب عليها؛ وفيه ترغيب للمكلف على إكمال الطاعة، والاحتراز عن التقصير فيها- (١٦٤).
٧١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا)
يأيها الذين أمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٧١)
{خذوا حذركم} كونوا حذرين.
{فانفروا ثبات} انهضوا لقتال العدو جماعات.
{أو انفروا جميعا} أو انهضوا لقتال العدو جيشا واحدا.
ربنا الحكيم العلام خبير بمكر أعداء الإسلام، وتربصهم بالمؤمنين، وترقب غرة منهم لاستئصالهم، ولهذا عهد الله سبحانه إلى أهل اليقين أن يستصحبوا سلاحهم حذرين (١٦٥)، جاء في الكتاب المبين: {. . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة} (١٦٦)، ولم يؤذن لأهل هذا الدين المرتضى أن يتركوا أسلحتهم جانبا مع دوام المرابطة إلا حين تقهرهم الأنواء أو الأدواء: {. . ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم} (١٦٧)، والآية هنا خطاب للمؤمنين أن يبقوا بسلاحهم مدججين، ولقتال عدوهم متابعين، فئات أو مجتمعين {يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا} - والمعنى: انهضوا لقتال العدو. . . جماعات متفرقات،. . {أو انفروا جميعا} أي مجتمعين جيشا واحدا، ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك- (١٦٨).
٧٢ - (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا)
{منكم} من دخلائكم. {ليبطئن} ليؤخرن وليتبطأن.
{شهيدا} مشاهدا حاضرا.

{وإن منكم لمن ليبطئن} وإن ممن أظهر إيمانه لكم نفاقا، ومَن يُحسب ظاهرا من جماعتكم لمن يتأخر عن الخروج لقتال الأعداء ويؤخر غيره، يَقعد ويُقعد من استجاب لتثبيطه وتأخيره وتخذيله، واللام في {لمن} للتوكيد، وفي {ليبطئن} للقسم؛ {فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا} فإن حل بكم ما تكرهون قال المنافق الشامت، المتربص المخذل، القاعد المتخلف: لقد نجوت إذ لم أشاركهم قتالهم، ولم أحضر معهم نزالهم، فلم يصبني ما أصابهم؛ ولولا مرض قلبه، وعمى بصيرته، لعلم أن تخلفه وتأخيره وتخذيله هو الهلاك والخسران والضلال البعيد!.

٧٣ - (وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)

{ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما}

وإذا قضى الله لكم نصرا ومغنما حسدكم الجبان المتأخر، وعض أنامل الغيظ عليكم، وندم أن لم يكن معكم، حتى يقاسمكم ما غنمتم؛ وكذلك تزين لأهل النفاق أن تخالف ألسنتهم قلوبهم، ولقد هتك الذكر الحكيم أستارهم، وبين إلى من يكون ولاءهم، فجاء في آية كريمة: {الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين}.

٧٤ - (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

{فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما}

{يشرون} يبيعون.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عَلَيَ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة "، - حض من الله المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به، على أحايينهم، غالبين كانوا أو مغلوبين،. . {فليقاتل في سبيل الله} يعني: في دين الله، والدعاء إليه، والدخول فيما أمر به، أهل الكفر به، {الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة} يعني: الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله أهل طاعته فيها، وبيعهم إياها بها: إنفاقهم أموالهم في طلب رضا الله كجهاد مَن أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه، وبذلهم مهجهم له في ذلك، أخبر جل ثناؤه بما لهم في ذلك إذا فعلوه فقال: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما} يقول: ومَن يقاتِل في طلب إقامة دين الله وإعلاء كلمة الله، أعداء الله. . فيقتله أعداء الله، أو يغلبهم فيظفر بهم،. . فسوف نعطيه في الآخرة ثوابا وأجرا عظيما، وليس لما سمى جل ثناؤه {عظيما} مقدار يعرف مبلغه عباد الله- (١٦٩)؛ لقد بين محكم التنزيل أن سلعة ربنا الغني الحميد تطلب بتقديم المال والروح: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. .) (١٧٠)، كما نادى على هذه التجارة الرابحة التي لا تبور: (يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) (١٧١)، ومع هذا الوعد الحق بالدرجات العلا والنعيم المقيم في دار الخلد والتكريم، فإن المولى تقدست أسماؤه تضمن تأييدهم وظفرهم وغلبتهم على من تصدى لهم: (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) (١٧٢).

٧٥ - (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)

{وما لكم لا تقاتلون في سبل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا}

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين؛ يحرض الكتاب العزيز أهل الإيمان أن يقاتلوا

لإعلاء دين الإسلام، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من أيدي الكفرة اللئام؛ والاستفهام في الآية قد يعني الحض والتحريض، واختار الزجاج أن {المستضعفين} معطوف على اسم الله عز وجل، أي: وفي سبيل المستضعفين، فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله؛ وهؤلاء المستضعفون يدعون ربهم، ويضرعون إليه أن يحفظ عليهم دينهم، ويقولون: يا ربنا خلصنا من المقام بين الظلمة الفجرة، وتول حفظنا أن نزل أو نفتن، وهيئ لنا من ترضاه عونا على الرشد، وإعلاء الدين، وإظهارا للحق.

٧٦ - (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

{الذين آمنوا يقاتلون في سبل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا} يُقوي الله تعالى عزم المؤمنين، ويحرضهم على قتال الغاوين الكافرين، ويذكرهم بأنهم الأعلون والله معهم، فهم يقاتلون في طريق تدعو إلى طاعة الله وإتباع منهاجه والاستمساك بشرعته، أما أعداؤهم فإنما يقاتلون في سبيل مرضاة الشيطان وإغواء بني الإنسان، {فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا} - فلا تهابوا أولياء الشيطان فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف، وإنما وصفهم جل ثناؤه بالضعف لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية، أو حسدا للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل، وبما له من الغنيمة والظفر إن سلم، والكافر يقاتل على حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وخوف- (١٧٣).

٧٧ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا آخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا (٧٧)

{ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية} الاستفهام قد يراد به التعجيب، والمخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، وكل من يصلح للخطاب؛ وربما يكون هذا في أمر ناس أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه؛ نقل نحو هذا عن السدي، ومنه: ولم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله. . .؛ وعن مجاهد: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة} إلى قوله: {لاتبعتم الشيطان إلا قليلا} ما بين ذلك في اليهود؛ وعن ابن عباس: نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم؛ وفريق من المفسرين منهم صاحب تفسير القرآن العظيم، وصاحب روح المعاني نقلوا عن ابن جرير وغيره نقولا تخالف ما أوردناه (١٧٤)؛ وهي مع قصورها عن مستوى الصحة تنسب إلى الصحب الكرام رضوان الله عليهم ما نتزههم عنه، كما أن السياق يأباه؛ يقول الحق جل علاه: {وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك}، {وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب} - ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم يعلم أن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام في الدار العاجلة؛ على ما هو معروف من سيرتهم- رضي الله عنهم- (١٧٥)؛ مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: وفي الآية دلالة على أن إيجاب الصلاة والزكاة كان مقدما على الجهاد، وهو أيضا ترتيب مطابق لما في العقول، لأن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله مقدمان على الترهيب والقتل في سبيل الله،. . .، يخشون الناس مشبهين لأهل خشية الله، أو أشد خشية من خشية أهل الله،. . .، وكلمة {أو} ليست للشك ههنا، فإن ذلك على علام الغيوب محال، ولكنها بمعنى الواو. . . .

}وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب{. . . . . .، هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا!، ثم أزال الشبهة وأزاح العلة بقوله: }قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير{ لا لكل الناس بل }لمن اتقى{، فإن للكافر والفاسق هنالك نيرانا وأهوالا، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر "، وأما ترجيح الآخرة: فلأن نعم الدنيا قليلة، ونعم الآخرة كثيرة، ونعم الدنيا منعطفة، ونعم الآخرة مؤبدة، ونعم الدنيا مشوبة بالأقذار، ونعم الآخرة صافية عن الأكدار، ونعم الدنيا مشكوكة التمتع بها، ونعم الآخرة يقينية الانتفاع منها.

٧٨ - (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

ثم بكت الفريق الخائفين بأنهم يدركهم الموت أينما كانوا، ولو كانوا في حصون مرتفعة،. . والغرض أنه لا خلاص لهم من الموت، والجهاد موت مستعقب للسعادة الأبدية، وإذا كان لا بد من الموت فوقوعه على هذا الوجه أولى. ا ه.

قال المفسرون: كانت المدينة مملوءة من النعم وقت مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ظهر عناد اليهود ونفاق المنافقين أمسك الله تعالى عنهم بعض الإمساك، كما جرت سنته (١٧٦) في جميع الأمم قال: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء. .) (١٧٧)، فعند هذا قالت اليهود والمنافقون: ما رأينا أعظم شؤما من هذا الرجل، نقصت ثمارنا، وغلت أسعارنا منذ قدم، فقوله تعالى: }وإن تصبهم حسنة{ يعني: الخصب والرخص وتتابع الأمطار }يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة{ يعني: الجدب وانقطاع الأمطار: }يقولوا هذه من عندك{ يقولون: هذا من شؤم محمد، وهذا كقوله: (. . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. .) (١٧٨)،. . .، فلا جرم أجابهم الله تعالى بقوله " }قل كل من عند الله{ وكيف لا و جميع الممكنات، من الأفعال والذوات والصفات، لابد من استنادها إلى الواجب بالذات، ولهذا تعجب من حالهم وقال: }فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا{ فنفى عنهم مقاربة الفقه والفهم، فضلا عن الفقه والفهم،. . .،

٧٩ - (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

}ما أصابك من حسنة فمن الله{. . السيئة تارة تقع على البلية والمحنة، وتارة تقع على الذنب والمعصية، ثم إنه تعالى أضاف السيئة إلى نفسه في الآية الأولى بقوله: }قل كل من عند الله{ وأضافها في هذه الآية إلى العبد بقوله:

}وما أصابك{ أي: يا إنسان، خطابا عاما، }فمن نفسك{، فلابد من التوفيق. . .، وما ذاك إلا بأن يجعل هناك بمعنى: البلية، وههنا بمعنى: المعصية، قال: وإنما فصل بين الحسنة والسيئة في هذه الآية، فأضاف الحسنة التي هي الطاعة إلى نفسه دون السيئة، مع أن كليهما من فعل العبد عندنا؟ لأن الحسنة إنما تصل إلى العبد بتسهيل الله وألطافه، فصحت إضافتها إليه، وأما السيئة فلا يصح إضافتها إلى الله تعالى، لا بأنه فعلها، ولا بأنه أمر بها، ولا بأنه رغب فيها، ا ه.

}وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا{ قال علماء المعاني: }رسولا{ حال من الكاف، أي: حال كونك ذا رسالة، و }الناس{ صفة }رسولا{ فأصل النظم: وأرسلناك رسولا للناس، فلابد للتقديم من خاصية، هو التخصيص، أعني: ثبوت الحكم للمقدم، ونفيه عما يقابله حقيقة أو عرفا، لا عما عداه مطلقا، فتعين حمل اللام على الاستغراق، ليثبت الحكم كل فرد من أفراد الإنسان، وينفي نقيض هذا الحكم وهو ما يزعمه الضالة من أنه مبعوثا إلى بعض الناس كالعجم. ا ه.

}وكفى بالله شهيدا{ يشهد بأنك مرسل داعيا إلى الله ومبشرا ونذيرا، وليس عليك إلا البلاغ، وربنا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٨٠ - (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا (٨٠)

}من يطع الرسول فقد أطاع الله{ في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني "، ذلك أن الرسول لا يقول من عند نفسه، وإنما

هو أمين صادق فيما يبلغ عن ربه، (ما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى) (١٧٩)؛ {ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا} والذي يدبر عن هدى خاتم النبيين، ويعرض عن دعوته فلا يستجيب لها، فما ضر إلا نفسه، ولن يُسأل الرسول عن ذنبه وجرمه، فهو عليه الصلاة والسلام ليس إلا مبشرا ونذيرا، لا يملك أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.

٨١ - (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

{ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون}، مما نقل عن ابن عباس: ناس كانوا يقولون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، فإذا برزوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله، وعن السدي: غيرت طائفة منهم ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم {والله يكتب ما يبيتون}. . يقولون، وعن ابن جرير غير جماعة منهم ليلا الذي تقول لهم، والله يكتب ما يغيرون من قولك ليلا في كتب أعمالهم التي تكتبها حفظته،. . {فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا}. . فأعرض يا محمد عن هؤلاء المنافقين،. . .، وخلهم ما هم عليه من الضلالة، وارض لهم بي منتقما منهم، وتوكل أنت يا محمد على الله، يقول: وفوض أنت أمرك إلى الله، وثق به في أمرك، وولها إياه {وكفى بالله وكيلا} يقول: وكفاك بالله، أي: وحسبك بالله وكيلا، أي: فيما يأمرك، ووليا لها ودافعا عنك وناصرا.

٨٢ - (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)

{أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} وصى الله العباد أن يتأملوا الذكر الحكيم وبيناته، ويعملوا العقل في برهانه ودلالاته، ليستيقنوا بصدقه ويستقيموا على هداياته، يقول مولانا في محكم التنزيل: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (١٨٠)، ويحض على التبصر والاعتبار: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (١٨١)، ويثني على الصفوة الأبرار بأنهم يصحبون الفرقان صحبة تفهم وتقديس وإذعان، (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) (١٨٢). ولكنهم يقاظ القلوب، فهام العقول، يفهمون عن الله ما يذكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانا سمعته، وقلوبا وعته- (١٨٣)؛ وهكذا لا يدعون آياته سبحانه إلى غيرها؛ وليسوا كالمنافقين الذين يظهرون الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان، لا يعونها ولا يبصرون ما فيها، فهم متساقطون عليها، غير منتفعين بها؛ مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وظاهر الآية يدل على أنه احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا انقطع النظم، ودلالة القرآن على صدق النبي من ثلاثة أوجه: الفصاحة، والاشتمال على الغيوب، والسلامة من الاختلاف (١٨٤) - وهو المقصود من الآية-،. . .، المراد: صحة نظمه، وكون كله بل كل جزء من أجزائه وأبعاضه بالغا حد الإعجاز، ومن المعلوم أن الإنسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة إذا كتب كتابا مشتملا على المعاني الكثيرة فلا بد أن يظهر التفاوت في كلامه،. . . . ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه معجز من عند الله تعالى؛ وفي الآية دلالة على وجوب النظر والاستدلال، وأضاف بعضهم: ودلت هذه الآية وقوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (١٨٥)، على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه؛ فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنع أن يُتأول على ما يسوغه لسان العرب، وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس.

٨٣ - (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا)

{وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به} في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع " (١٨٦)، نهى الله تعالى وذم من إذا أتاهم نبأ مما يوجب الأمن أو الحذر والخوف نشره في الناس؛ ومن هذا يعلم أن المؤمن مطالب بعدم التحديث بالشيء قبل تحقيقه والتثبت من صحته؛ {ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه

الذين يستنبطونه منهم} والاستنباط: الاستخراج، يقال: استنبط الرجل العين: إذا حفرها واستخرجها من قعورها، في الصحيحين عن عمر بن الخطاب حديث، ومنه أنه حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه جاء من منزله حتى دخل المسجد، فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فاستفهمه: أطلقت نساءك؟، فقال: " لا " فقلت الله أكبر، وذكر الحديث. .، وفي صحيح مسلم: فقلت: أطلقتهن؟ فقال: " لا " فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق الرسول صلى الله عليه وسلم نساءه، ونزلت هذه الآية: {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه}، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، يقول علماء الأحكام: وهو يدل على الاجتهاد إذا عدم النص والإجماع؛ لأن أولي الأمر يستخرجون على علم ما ينبغي أن يفشي وما ينبغي أن يكتم؛ {ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا} قال ابن زيد: هذه الآية مقدمة ومؤخرة، إنما هي: أذاعوا به إلا قيلا منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير؛ - المراد بالفضل والرحمة ههنا: نصرته تعالى ومعونته اللذان تمناهما المنافقون بقولهم: {فأفوز فوزا عظيما}، والتقدير: لولا حصول النصر والظفر على سبيل التتابع لتركتم الدين إلا القليل منكم، وهم أهل البصائر والعزائم من أفاضل المؤمنين، الذين يعلمون أنه ليس من شرط كونه حقا حصول الدولة في الدنيا، فلا تواتر الفتح والظفر يدل على كونه حقا، ولا انقطاع النصر والغلبة يدل على كونه باطلا، بل الأمر في كونه حقا وباطلا مبني على الدليل- (١٨٧).

٨٤ - (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلا)

{فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا} يأمر تعالى عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه؛. . عن أبي إسحق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث برسوله صلى الله عليه وسلم وقال: {فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك} إنما ذلك في النفقة؛ مما جاء في تفسير غرائب القرآن: {فقاتل} قيل إنه جواب لقوله: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل} كأنه تعالى قال: إن أردت الفوز فقاتل،. . .، ويعلم من قوله: {وحرض المؤمنين} أن الواجب على الرسول: إنما هو الجهاد، وتحريض الناس على الجهاد- أي الحث والإحماء عليه-، فإذا أتى بالأمرين فقد خرج عن عهدة التكليف، وليس عليه من كون غيره تاركا شيء؛. . .، و {عسى} من الله جزم، لأن الرجاء عليه محال، فهو إطماع، وإطماع الكريم إيجاب، فلزم الجهاد وإن كان وحده، فلا جرم أنه صلى الله عليه وسلم قال في بدر الصغرى (١٨٨): " لأخرجن وحدي فخرج وتبعه سبعون راكبا، ولو لم يتبعه أحد خرج وحده، ثم إنه تعالى كف بأس المشركين، وألقى الرعب في قلوب أبي سفيان وأصحابه، حتى ندموا وتركوا الحرب في تلك السنة؛ وفي الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق، لأنه تعالى لم يأمره بالقتال وحده إلا أنه كذلك، وقيل: اقتدى به أبو بكر حيث حاول الخروج وحده إلى قتال مانعي الزكاة؛ ومن عرف أن الأمر كله بيد الله، وأنه لا يحدث شيء إلا بقضاء الله، سهل عليه الفوت، وكان بمعزل عن تقية الموت؛ {والله أشد بأسا} أقوى سلطانا، وأعظم هيمنة على ما يريده، {وأشد تنكيلا} عقوبة مخيفة قاهرة، وعذابا موجعا.

٨٥ - (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

{من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها} عرفوا بأنها: إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال المنفعة إلى المشفوع له، فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك؛ وهي من الشفع، وهو الزوج في العدد، لأنه يصير مع صاحبه شفعا، فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن الشفاعة الحسنة الدعاء للمسلمين، في صحيح مسلم: " من دعا لأخيه بظهر الغيب فقال الملك الموكل به آمين ولك بمثل "، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء " (١٨٩)؛ {ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا} مما قال الحسن ومجاهد وغيرهما: الحسنة منها- من الشفاعة-: هي التي بها روعي حق مسلم ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم يؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر

جائز لا في حد من حدود الله ولا في إبطال حق من الحقوق، والسيئة: ما كان بخلاف ذلك؛ قال أهل اللغة: الكفل: النصيب، {وكان الله على كل شيء مقيتا} حسيبا، حفيظا، مقتدرا.

٨٦ - (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)

{وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها} - كانت العرب تقول عند التلاقي: حياك الله، دعاء له بالحياة، فأبدل الله ذلك بالسلام، ولعمري إن هذا أحسن لأن الحياة إن لم تكن مقرونة بالسلامة لم يعتد بها، بل لعل الموت خير منها، ولأن السلام اسم من أسماء الله تعالى فالابتداء به أولى- (١٩٠)؛ في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذ فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم "؛ وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أخبرها النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام يقرأ عليها السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله؛ وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السلام عليكم فقل وعليك "؛ وقد تضمنت الأخبار أن من قال لأخيه المسلم: سلام عليكم كتب له عشر حسنات فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله كتب له عشرون حسنة، فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة، وكذلك لمن رد من الأجر؛ {إن الله كان على كل شيء حسيبا} قال قتادة: محاسبا، يحاسب كل قائل وعامل، ويجازيه بقدر قوله وعمله.

٨٧ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

{الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا} لا أحد أصدق من الله، وهو سبحانه المعبود بحق دون سواه؛ واللام في {ليجمعنكم} لام القسم، وكل لام بعدها نون مشددة فهو لام قسم، أقسم الله تعالى بنفسه أنه جامع الخلق ليوم لا شك في مجيئه ووقوعه، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٨٨ - (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)

*فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (٨٨)

{فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا} في صحيح مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا؛ فنزلت: {فما لكم في المنافقين فئتين} وروى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة " وفيه عن أبي هريرة: ". . المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد " (١٩١)؛

{والله أركسهم بما كسبوا} قلب حالهم، وسيرمون في النار منكسين، بسبب كسبهم الكفر؛ {أتريدون أن تهدوا من أضل الله} الاستفهام يتضمن معنى الإنكار، فإنه ما ينبغي لمؤمن ولا لمؤمنة أن يظن بمن خذله الله خيرا، أو يرجو له صلاحا ورشدا؛

{ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} والذي يضلله الله مهما دعوته إلى الهدى فلن يهتدي، (. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. .) (١٩٢)، (. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. .) (١٩٣).

٨٩ - (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

{ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء} تمنى هؤلاء المنافقون أن تصيروا إلى ما صاروا إليه، وأحبوا كفركم لتستووا أنتم وهم في الزيغ والغي، فلم يكفهم أن استحبوا الضلال، ولكنهم تطلعوا إلى الإضلال، طمعا في أن يردوكم بعد إيمانكم كافرين؛

{فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله} - وللهجرة ثلاث استعمالات: أحدها- الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهو الاستعمال المشهور، وثانيها- ترك المنهيات، وثالثها- الخروج للقتال، وعليه حمل الهجرة من قال: إن الآية نزلت فيمن رجع يوم

أحد، على ما حكاه خبر الشيخين، وجزم به في الخازن- (١٩٤)؛ {فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا}. قال السدي: إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم؛ ونهى الله تعالى المؤمنين عن موالاتهم ومصافاتهم، أو الاستنصار بهم؛ -

٩٠ - (إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا)

ثم لما أمر بقتل هؤلاء الكفار استثنى عنه موضعين: الأول: {إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق} والمعنى: أن من دخل في عهد من كان داخلا في عهدكم فهم أيضا داخلون في عهدكم،. . . الثاني قوله: {أو جاءوكم} وفي العطف وجهان: أحدهما أن يكون معطوفا على صفة {قوم}، والمعنى: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو إلى قوم جاءوكم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم، ثانيهما العطف على صلة {الذين} كأنه قيل: الذين يتصلون بالمعاهد أو إلى الذين لا يقاتلوكم، وهذا أنسب بقوله في صفتهم:

{فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم} إلى آخر الآية، إذ بين أن كفهم عن القتال سبب استحقاقهم لنفي التعرض لهم بالاستقلال، لا بواسطة الاتصال، ومعنى: {حصرت صدورهم} ضاقت، والحصر: الضيق والانقباض، وهو في موضع الحال بإضمار قد،. . .، ثم هؤلاء الجاءون من الكفار أو من المؤمنين؟. . .، إنه تعالى لما أوجب الهجرة على كل من أسلم استثنى من له عذر، وهما طائفتان: إحداهما الذين قصدوا الرسول صلى الله عليه وسلم للهجرة والنصرة إلا أنه كان في طريقهم كفار غالبون فصاروا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وأقاموا عندهم إلى أن يمكنهم الخلاص، والثانية من صار إلى الرسول ولا يقاتل الرسول ولا أصحابه، لأنه يخاف الله فيه، ولا يقاتل الكافر أيضا لأنهم أقاربه، أو لأنه بقي أولاده وأزواجه بينهم فيخاف لو قاتلهم أن يقتلوا أولاده وأصحابه، فهذان الفريقان من المشركين لا يحل قتالهم، وأن كان لم يوجد منهم الهجرة ومقاتلة الكفار، وعلى هذا فمعنى قوله:

{ولو شاء الله لسلطهم عليكم} أي: لو شاء لقوى قلوبهم ليدفعوا عن أنفسهم إن أقدمتم على مقاتلتهم على سبيل الظلم،. . .، {فإن اعتزلوكم} أي: فإن لم يتعرضوا لكم {وألقوا إليكم السلم} أي الانقياد والاستسلام {فما جعل لكم عليهم سبيلا} فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

٩١ - (سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

{ستجدون آخرين} هم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا راجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم {كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها} أي: ردوا مقلوبين منكوسين فيها، وهذه استعارة لشدة إصرارهم على الكفر وعداوة المسلمين، لأن من وقع في حفرة منكوسا تعذر خروجه،

{فإن لم يعتزلوكم ويلقوا} أي: ولم يلقوا، ولم يكفوا {فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم} حيث تمكنتم منهم، قال الأكثرون: وفيه دليل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن إيذائنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم،. .، أما قوله {سلطانا} فمعناه حجة واضحة، لانكشاف حالهم في الكفر والغدر، أو: تسلط ظاهر حيث أذنا لكم في قتلهم- (١٩٥).

٩٢ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد

فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما (٩٢).
في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ' لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك (١٩٦) لدينه المفارق للجماعة " وفيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " (١٩٧)، وفيهما عن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع: " استنصت الناس " فقال: " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " وهكذا ينفر صلى الله عليه وسلم من قتل المسلم خشية أن يصل القاتل إلى النار مأوى أهل الكفر، أو يستحل قتل المؤمن فيصبح بذلك كافرا، ويحذرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من كل ما يفضي إلى تلك البلية المهلكة بلية القتل، فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يشير (١٩٨) أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار " (١٩٩)؛ {وما كان} نهي وتحريم، كقوله سبحانه: (. . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله. .) (٢٠٠)؛ {إلا خطأ} قال سيبويه والزجاج- رحمهما الله- {إلا} بمعنى: لكن، والتقدير: ما كان له أن يقتله البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، ومن مجيء إلا بمعنى لكن: قوله تعالى: {. . ما لهم به من علم إلا اتباع الظن} - ووجوه الخطأ كثيرة. . .، مثل أن يرمي صفوف المشركين فيصيب مسلما. . .، أو يرمي إلى غرض فيصيب إنسانا. . . {فتحرير رقبة مؤمنة} أي: فعليه تحرير رقبة؛ وهذه الكفارة التي أوجبها الله تعالى في كفارة القتل والظهار أيضا. . عن ابن عباس والحسن. .، الرقبة المؤمنة هي التي صلت وعقلت الإيمان. . .، {ودية مسلمة} الدية ما يعطى عوضا عن دم القتيل إلى وليه؛ {مسلمة} مدفوعة مؤداة. . .، وثبتت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الدية مائة من الإبل. . .، واختلفوا فيما يجب على غير أهل الإبل؛ فقالت طائفة: على أهل الذهب ألف دينار. . .، وأما أهل الورق- الفضة- فاثنا عشر ألف درهم. . . . .، ثبتت الأخبار عن النبي المختار محمد صلى الله عليه وسلم أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة؛. . .، {إلا أن يصدقوا}. . يعني: إلا أن يبرئ الأولياء ورثةُ المقتول القاتلين مما أوجب الله لهم من الدية عليهم؛. . .، وأما الكفارة التي هي لله تعالى فلا تسقط بإبرائهم. . .، {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن}. . . فإن كان هذا المقتول رجلا مؤمنا قد آمن وبقي في قوم وهم كفرة. . . فلا دية فيه، وإنما كفارته تحرير الرقبة. . .، {وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق} هذا في الذمي والمعاهد يُقتل خطأ فتجب الدية والكفارة؛. . . .، وأجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل؛. . .، {فمن لم يجد} أي الرقبة ولا اتسع ماله لشرائها؛ {فصيام شهرين} أي فعليه صيام شهرين {متتابعين} حتى لو أفطر يوما استأنف؛ هذا قول الجمهور؛. . . {توبة من الله} نصب على المصدر، ومعناه: رجوعا؛ وإنما مست حاجة المخطئ إلى التوبة لأنه لم يتحرز، وكان من حقه أن يتحفظ؛. . . .، {وكان الله} أي: في أزله وأبده {عليما} بجميع المعلومات {حكيما} فيما أحكم وأبرم- (٢٠١).

٩٣ - (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)

{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما} نقل عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم} قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ولا توبة له، فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم؛ وهذا الذي ذكره مجاهد عليه أهل السنة،.

فقد جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت عن الرسول صلى الله عليه وسلم: وفيه: " تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه "،.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله فقال له هل من توبة قال لا، فقتله فجعل يسأل فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له "، يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة، قال النحاس: القول فيه عند العلماء أهل النظر أنه محكم وأنه يجازيه إذا لم يتب فإن تاب فقد بين أمره بقوله: {وإني لغفار لمن تاب} (٢٠٢)، فهذا لا يخرج عنه، والخلود لا يقتضي الدوام، قال الله تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد.) (٢٠٣) الآية، وقال تعالى: (يحسب أن ماله أخلده) (٢٠٤)، وهذا يدل على الخلد يطلق على غير معنى التأبيد.

٩٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا (٩٤)

أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله تعالى ذلك إلى قوله {عرض الحياة الدنيا} تلك الغنيمة (٢٠٥)، وفي الصحيحين عن المقداد (٢٠٦) بن الأسود أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار، فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'لا تقتله " فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقتله فإنك إن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال "، وفيهما عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناه قال لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله "؟ قلت: كان متعوذا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، {كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم} كنتم قبل أن تهدوا إلى الإسلام كهؤلاء الذين قتلتموهم، لكن الله تعالى أنعم عليكم، فشرح صدوركم للحق، فترفقوا بالخلق وائتوا إليهم ما تحبون أن يؤتى إليكم، ولا تتهموا من دخل في الدين بأنه مصانع، {فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا} تثبتوا من حال مَن تلقون، وتذكروا أن المولى محيط علمه بعمل كل عامل فاعملوا خيرا لتنالوا الخير.

٩٥ - (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥)

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت {لا يستوي القاعدون من المؤمنين} دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: {غير أولي الضرر} والضرر قد يعني: النقصان في البنية كالعمى والعرج والمرض، أو: عدم الأهبة، فكأن المعنى: لا يستوي القاعدون والمجاهدون، إلا أولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين (٢٠٧)، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم أولئك أقوام حبسهم العذر " رواه البخاري في الجهاد (٢٠٨)،

{فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى} قال ابن جريج والسدي: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة واحدة، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات؛ {وكلا وعد الله الحسنى} أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله الحسنى، مثوبة الجنة.

٩٦ - (دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{درجات منه ومغفرة ورحمة} انتصبت كلها على البدلية من {أجرا}، عن قتادة: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة، وقال ابن زيد: هي الدرجات السبع التي ذكرها في سورة براءة: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب. .) (٢٠٩) فقرأ حتى بلغ: (. . أحسن ما كانوا يعملون) قال: هذه السبع الدرجات، قال: وكان أول شيء. فكانت درجة الجهاد مجملة، فكان الذي جاهد بماله له اسم في هذه، فلما جاءت هذه الدرجات بالتفصيل أخرج منها، فلم يكن له منها إلا النفقة، فقرأ: (لا يصيبهم ظمأ ولا نصب) وقال: ليس هذا لصاحب النفقة، ثم قرأ: (ولا ينفقون نفقة) قال: وهذه نفقة القاعد، وقال ابن محيريز ما حاصله: درجات الجنة، ويشهد لهذا ما جاء في الصحيحين:. . إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض "، {وكان الله غفورا رحيما} ولم يزل الله غفورا لذنوب عباده المؤمنين فيصفح لهم عن العقوبة عليها، رحيما بهم يتفضل عليهم بنعمه مع خلافهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.

٩٧ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

{إن الذين توفاهم الملائكة} إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة {ظالمي أنفسهم} يعني: مكسبي أنفسهم غضب الله وسخطه،. . {قالوا فيم كنتم} يقول: قالت الملائكة لهم:. . في أي شيء كنتم عن دينكم؟ {قالوا كنا مستضعفين في الأرض}. . . يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمان بالله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم- معذرة ضعيفة، وحجة واهية- {قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} يقول: فتخرجوا من أرضكم ودوركم، وتفارقوا من يمنعكم بها من الإيمان بالله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، إلى الأرض التي يمنعكم أهلها من سلطان أهل الشرك بالله فتوحدوا الله فيها وتعبدوه وتتبعوا نبيه؟! يقول الله جل ثناؤه: {فأولئك مأواهم جهنم} أي: فهؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم، الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. . مصيرهم في الآخرة جهنم، وهي مسكنهم {وساءت مصيرا} يعني: وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيرا ومسكني ومأوى.

٩٨ - (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)

ثم استثنى جل ثناؤه المستضعفين الذين استضعفهم المشركون من الرجال والنساء والولدان، وهم العجزة بالعسرة وقلة الحيلة وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام- من القوم الذين أخبر جل ثناؤه أن مأواهم جهنم أن تكون جهنم مأواهم للعذر الذي هم فيه، على ما بينه تعالى ذكره، ونصب {المستضعفين} على الاستثناء. . .

٩٩ - (فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا)

{فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم}. . لعل الله أن يعفو عنهم للعذر الذي هم فيه وهم مؤمنون، فيتفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة إذ لم يتركوها اختيارا، ولا إيثارا منهم لدار الكفر على دار الإسلام، ولكن للعجز الذي هم فيه عن النقلة عنها، {وكان الله عفوا غفورا} يقول: ولم يزل الله عفُوا يعني ذا صفح بفضله عن ذنوب عباده بتركه العقوبة عليها، غفورا ساترا عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها- (٢١٠).

١٠٠ - (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة} يبشر الله في كتابه الحق بأن الذي يترك دياره التي تصده عن دين ربنا القويم، ليلحق بدار حق ونصرة سينزله الله منزلا كريما، يغيظ به أهل الغي والبغي، ويفسح له في العيش والرزق، (. . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) (٢١١) (. . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه. .) (٢١٢)؛ {ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله} وبشرى للذي يشرع في الهجرة (٢١٣) ابتغاء نصرة الدين بأنه مأجور، وإن عاجلته المنية في طريقه قبل بلوغه مهجره؛ نقل عن عكرمة قال: طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته (٢١٤)، والذي ذكره عكرمة هو ضمرة بن العيص؛ {وكان الله غفورا رحيما} - ولم يزل الله تعالى ذكره غفورا يعني ساترا ذنوب عباده المؤمنين بالعفو لهم عن العقوبة عليها، رحيما بهم رفيقا- (٢١٥).

١٠١ - (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا)

وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١)

{وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة} ضربتم: تحركتم واضطربتم في البلاد وسافرتم، وخرجتم ذاهبين فيها، لتجارة أو جهاد أو طلب علم أو رزق أو نحوها، فلا حرج عليكم ولا تضييق، بل أذن الله لكم أن تخففوا من صلاتكم، من عدد ركعات الرباعية لتصير ثنائية، وفي النافلة تصلون في سفركم على رواحلكم إن شئتم، مستقبلين القبلة وغير مستقبلين لها، - والمراد من الأرض ما يشمل البر والبحر، والمقصود التعميم،. . .، والقصر خلاف المد، يقال: قصرت الشيء إذا جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه،. . . يراد بالصلاة الجنس ليكون المقصود بعضا منها وهي الرباعية- (٢١٦).

أخرج الشيخان- البخاري ومسلم- عن حارثة بن وهب الخزاعي أنه قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه بركعتين؛ أخرجا عن عبد الله بن يزيد: صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمنى أربع ركعات فقيل في ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فاسترجع (٢١٧)، ثم قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقلبتان؛ وفي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين وأبي بكر وعمر، وعثمان صدراً مِن إمارته ثم أتمها؛ وروى البخاري عن أنس يقول: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئا؟ قال: أقمنا بها عشرا؛ {وإن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} - خرج مخرج الغالب حال نزول الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة بل ما كانوا ينهضون إلا لغزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: {. . ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا} وكقوله تعالى: {وربائبكم اللاتي في حجوركم} - (٢١٨)؛ وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل عبد الله ابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر؟ فقال عبد الله بن عمر: يا ابن أخي إن الله تبارك وتعالى بعث إلينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا، فإنا نفعل كما رأيناه يفعل؛ ومما قال الشافعي: القصر في غير الخوف بالسنة، وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة؛ وفي صحيح مسلم عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: {. . فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} وقد أمن الناس؛ فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: " صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته " (٢١٩) - وفتنتهم إياها فيها: حملهم عليهم وهم فيها ساجدون، حتى يقتلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامتها وأدائها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له؛. . {إن

الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا} يعني: الجاحدون وحدانية الله. . قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله ورسوله، وتركم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة- (٢٢٠).

١٠٢ - (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

{وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة} روى الشيخان في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع أنه صلى بطائفة ركعة فلما قام للثانية فارقته وأتمت وذهبت إلى وجه العدو، جاء الواقفون في وجهه ورسول الله ينتظرهم فاقتدوا به فصلى بهم الركعة الثانية فلما جلس للتشهد قاموا فأتموا صلاتهم ولحقوه وسلم بهم؛ وأخرجا عن سالم عن أبيه في قوله سبحانه: {فأقمت لهم الصلاة} هي صلاة الخوف، صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، ثم انصرفت التي صلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فقاموا مقام أولئك مقبلين على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله صلى لله عليه وسلم ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة فصلوا ركعة ركعة فتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتان ولكل من الطائفتين ركعتان: ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وركعة بعد سلامه.

{ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة} يحب الجاحدون أن يباغتوكم حين تكون منكم غرة أو غفلة عن عدة حربكم، فيحملون عليكم وأنتم مشاغيل، فيتمكنون من قتلكم أو أسركم إن باغتوكم وأنتم لا تشعرون؛ {ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم} وما جعل الله عليكم من حرج ولا إثم إن كنتم ممطورين، أو أعلاء أو مجروحين أن تجعلوا سلاحكم في متناولكم مع أخذ الحذر من أن يباغتكم عدوكم، واحترسوا من كيدهم {إن الله أعد للكافرين عذابا مبينا} - تعليل للأمر بأخذ الحذر، أي: أعد لهم عذابا مذلا، وهو عذاب المغلوبية لكم، ونصرتكم عليهم، فاهتموا بأموركم، ولا تهملوا مباشرة الأسباب كي يعذبهم بأيديكم، وقيل لما كان الحذر من العدو موهما لغلبته واعتزازه نفى ذلك الإيهام بالوعد بالنصر وخذلان العدو لتقوى قلوب المأمورين، ويعلموا أن التحرز في نفسه عبادة، كما أن النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لذلك، لا للمنع عن الإقدام على الحرب- (٢٢١).

١٠٣ - (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)

{فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا} فإذا أديتم صلاة الخوف كما شرعت لكم وانتهيتم من أدائها فداوموا على ذكر الله سبحانه على أي حال كنتم، فإن ذكر الله تعظيم للمذكور تقدست أسماؤه، وتطمين للذاكر، (. . ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (٢٢٢) فإذا استقررتم وسكنتم من السير، وأمنتم مداهمة العدو فأتموا الصلاة وعدلوا أركانها واستكملوا شروطها وحافظوا على حدودها، واجتمعوا على أدائها، إن هذه الفريضة أمر عهد الله تعالى إليكم أن تقفوا لها وتحسنوا النهوض بها في أوقاتها.

١٠٤ - (وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

{ولا تهنوا في ابتغاء القوم} ولا تتوانو ولا يدركنكم ضعف في طلب الأعداء لتقاتلوهم، {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون

من الله ما لا يرجون} دعوة إلى المصابرة والمجالدة، وبشرى بأن خير الناصرين ولي الطائفة المجاهدة، ومثل هذا قول الحق سبحانه: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} (٢٢٣)، وقوله جل ثناؤه: (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) (٢٢٤)، وإنها سنته التي لا تتبدل: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (٢٢٥)؛ {وكان الله عليما} ولم يزل محيطا علمه بكل معلوم، ومنه، ما ادخر لكم من فتح ومغانم، {حكيما} فيما شرع لكم من مجاهدة الكفار والمنافقين، وما استحفظتم عليه من نصرة الدين.

١٠٥ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥) واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (١٠٦) ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما (١٠٧) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا (١٠٨) ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا (١٠٩) ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (١١٠) ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما (١١١) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢) ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١١٣) * لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما (١١٤) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (١١٥)

نُقولٌ كثيرة وردت في سبب نزول هذه الآيات الاثنتي عشرة بعضها مروي عن الصحابي قتادة (٢٢٦) بن النعمان رضي الله عنه، وبعضها عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما، وأخرى عن مجاهد وابن زيد وعكرمة، وهي مُجمِعة على أن مجرما من بني أبيرق كان منافقا اقترف فوق نفاقه خطيئة سرقة أو خيانة، ثم اتهم به بريئا،فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بزخرف قول المنافق ومن جادلوا عنه، لكن الله جل ثناؤه أعلم نبيه حقيقة الأمر، فلما افتضح أمر هذا الخائن فر فمات بمكة أوفي الطريق إليها مذموما مدحروا؛ لكنهم اختلفوا في الأبيرقي، هل هو بشر أو طعمة؟،واختلفوا في المفترى عليه، أهو لبيد بن سهل؟ أم أبو مليك أو أبو مليل؟، أم يهودي: يقال له: زيد بن السمين؟، وأيا ما كان سبب النزول فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

{إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق} شهادة من الله العظيم- وكفى به شهيدا- أن الرسول مبعوث من ربه، وأن الكتاب المنزل عليه أوحى إليه به متلبسا بالحق، وهذا توكيد لصدق الرسالة والرسول، {لتحكم بين الناس بما أراك الله} فالقرآن المجيد منهاج الله، والعباد مطالبون بالتحاكم إليه، - في هذه الآية تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وتكريم وتعظيم وتفويض إليه،. . . {بما أراك الله} معناه: على قوانين الشرع؛ إما بوحي ونص، أو بنظر جار على سنن الوحي؛ وهذا أصل في القياس؛ وهو يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى شيئا أصاب، لأن الله تعالى أراه ذلك، وقد ضمن الله تعالى لأنبيائه العصمة؛ فأما أحدنا إذا رأى شيئا يظنه فلا يقطع فيما رآه، ولم يرد رؤية العين هنا، لأن الحكم لا يرى بالعين؛ وفي الكلام إضمار، أي: بما أراكم الله، وفيه إضمار آخر، وأمض الأحكام على ما عرفناك من غير اغترار باستزلالهم؛. . {ولا تكن للخائنين خصيما}. . قيل: خصيما مخاصما. .، فنهى الله عز وجل رسوله عن عضد أهل التهم، والدفاع عنهم بما يقوله خصمهم من الحجة،. . . مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى؛. . قال العلماء: ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم؛ فإن هذا قد وقع على عهد

النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم نزل قوله تعالى: {ولا تكن للخائنين خصيما} وقوله: {ولا تجادل عن الذين يختانون نفسهم}، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه، لوجهين: أحدهما- أنه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعد بقوله: {ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا} والآخر- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حكما فيما بينهم، ولذلك كان يُعتذر إليه ولا يَعتذر هو إلى غيره، فدل على أن القصد لغيره.

١٠٦ - (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما}. . . والمعنى: واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل،. . . وقيل: الخطاب للنبي والمراد بنو أبيرق، كقوله تعالى: (يأيها النبي اتق الله. .) (٢٢٧)، (فإن كنت في شك. .) (٢٢٨).

١٠٧ - (وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم} هذا تعليم للأمة أن لا تنتصر لخائن، أو تدافع عنه، أو تتلمس له حجة داحضة، أو معذرة واهية، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، {إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما} فالخائض في الخيانة، العاكف على المعاصي والآثام بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة.

١٠٨ - (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا} يخاف المفترون أن يطلع الخلق على إفكهم، ولا يخافون اطلاع الخالق سبحانه على مكرهم وكيدهم، مع أنه جل وعلا سميع بصير خبير، يعلم سرهم ونجواهم: (. . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. .) (٢٢٩)، (أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (٢٣٠).

(. . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة. .) (٢٣١).

١٠٩ - (هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا} - ها أنتم الذين جادلتم- يا معشر من جادل عن بني أبيرق في الحياة الدنيا- والهاء والميم في قوله: {عنهم} من ذكر الخائنين، {فمن يجادل الله عنهم} يقول: فمن ذا يخاصم الله عنهم {يوم القيامة} أي: يوم يقوم الناس من قبورهم لمحشرهم، فيدافع عنهم ما الله فاعل بهم ومعاقبهم به، وإنما يعني بذلك أنكم أيها المدافعون عن هؤلاء الخائنين أنفسهم وإن دافعتم عنهم في عاجل الدنيا فإنهم سيصيرون في آجل الآخرة إلى من لا يدافع عنهم عنده أحد فيما بهم من أليم العذاب ونكال العقاب، وأما قوله: {أمن يكون عليهم وكيلا} فإنه يعني: ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلا يوم القيامة، أي: ومن يتوكل لهم في خصوم ربهم عنهم يوم القيامة- (٢٣٢).

١١٠ - (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما. ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما}

هكذا يبشر البر الرحيم أهل الإنابة بأنهم مهما أسرفوا على أنفسهم إثما وجرما ثم طلبوا العفو من الله فإنه سيدخلهم في رحمته، - وإنما خص ما يتعدى إلى الغير باسم السوء لأن إيصال الضرر إلى الغير سوء حاضر، . . . وعن بعضهم: أن الاستغفار لا ينفع مع الإصرار، فلابد من اقترانه بالتوبة، . . .

١١١ - (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

وقيل: {من يكسب إثما} الكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة، ولذلك لم يجز وصف الباري تعالى بذلك، والمقصود منه: ترغيب العاصي في الاستغفار، وكأنه قال: الذنب الذي أتيت به إنما يعود وباله وضرره إليك لا إلي، فإني منزه عن النفع والضر، ولا تيأس من قبول التوبة، {وكان الله عليما حكيما} تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب ما علمه منه.

١١٢ - (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ومن يكسب خطيئة} صغيرة، {أو إثما} كبيرة، وقيل: الخطيئة: الذنب القاصر على فاعله، والإثم هو الذنب المتعدى إلى الغير كالظلم والقتل. . . {ثم يرم به} أي بأحد المذكورين، أو بالإثم، . . .، أو بذلك الكسب {بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا} لأنه بكسب الإثم أثيم، وبرمي البريء باهت فهو جامع بين الأمرين، فلا جرم يلحقه الذم في الدارين.

١١٣ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ولولا فضل الله عليك ورحمته} ولولا أن خصك الله بالفضل، وهو النبوة، والرحمة، وهي العصمة {لهمت طائفة منهم}. . . من الناس. . {أن يضلوك} عن القضاء الحق والحكم العدل، {وما يضلون إلا أنفسهم} بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان، لأن وباله عليهم {وما يضرونك من شيء} لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما أمرت الأنبياء إلا بالحكم على الظواهر، أو هو وعد بإدامة العصمة له مما يريدون في الاستقبال من إيقاعه في الباطل، ثم أكد الوعيد بقوله: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} أي إنه أمرك بتبليغ الشريعة إلى الخلق فكيف يليق بحكمته أن لا يعصمك عن الوقوع في الشبهات والضلالات؛ {وعلمك ما لم تكن تعلم} من أخبار الأولين، فيه معنيان: أحدهما- أن يكون كما قال: (. . ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. .) (٢٣٣) أي: أنزل الله عليك الكتاب والحكمة وأطلعك على أسرارها، وأوقفك على حقائقهما، مع أنك ما كنت قبل ذلك عالما بشيء منهما، فكذلك يفعل بك في مستأنف أيامك، حتى لا يقدر أحد من المنافقين على إضلالك؛ الثاني- أن يكون المراد منها خفيات الأمور وضمائر القلوب، أي: علمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه مكايدهم ما تقدر به على الاحتراز منهم، {وكان فضل الله عليك عظيما} فيه دليل ظاهر على شرف العلم حيث سماه عظيما، وسمي متاع الدنيا بأسرها قليلا.

١١٤ - (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس} أشار إلى ما كانوا يتناجون به حيث يبيتون ما لا يرضى من القول، والنجوى: سر بين اثنين، . . . قال الفراء: قد تكون النجوى اسما ومصدرا، والآية وإن نزلت في مناجاة بعض قوم ذلك السارق بعضا إلا أنها في المعنى عامة والمراد أنه لا خير فيما يتناجى به الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا من أمر بصدقة، وفي محل {مَن} وجوه، . . . فإن كان النجوى: السر، جاز أن يكون {من} في موضع النصب لأنه استثناء الشيء من خلاف جنسه، . .

ومعناه: لكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. . وأبو عبيد جعل هذا من باب حذف المضاف، معناه: إلا نجوى من أمر. . . واعلم أن قول الخير إما أن يتعلق بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة، والأول إن كان من الخيرات الجسمانية فهو الأمر بالصدقة، وإن كان من الخيرات الروحانية. . . فهو الأمر بالمعروف، والثاني هو الإصلاح بين الناس. . . - (٢٣٤)،

١١٥ - (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى} المشاقة: أن يكون هذا في جانب وشق، وذاك في شق غيره، وهي تعني: المعاداة، والهدى: الرشد والبيان؛ وسبيل المؤمنين طريقهم {نوله ما تولى} نتركه إلى ما انحاز إليه، ومن شذ شذ في النار، وإنها لأسوأ منزل وقرار؛ وقد استنبط العلماء من القول الحكيم: {ويتبع غير سبيل المؤمنين} صحة القول بالإجماع.

١١٦ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا)

{إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} عدل المولى سبحانه أن يفرق بين مَن آمن ومَن كفر، فالله بريء من المشركين ورسوله، ولم يأذن- تقدست أسماؤه- أن يُطلب لمشرك غفران: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين. .) (٢٣٥)؛ وربنا لا يهدي من هو كاذب كفار، وعقبى الكافرين النار، {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا} (. . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (٢٣٦)، والشرك هو الظلم العظيم؛ وخص هذا الموضع به ليكون كالتكميل لقصة من سبق، بذكر الوعد بعد ذكر الوعيد في ضمن الآيات السابقة (٢٣٧) فلا يضر بُعدُ العهد، أو لأن للآية سببا آخر في النزول، فقد أخرج الثعلبي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني أشرك بالله تعالى منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جراءة وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله تعالى هربا وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله تعالى؟ فنزلت؛ {ومن يشرك بالله} شيئا من الشرك، أو أحدا من الخلق، وفي معنى الشرك به تعالى نفي الصانع، ولا يبعد أن يكون من أفراده {فقد ضل ضلالا بعيدا} عن الحق، أو عن الوقوع ممن له أدنى عقل، وإنما جعل الجزاء على ما قيل هنا: {فقد ضل}. . وفيما تقدم: {فقد افترى إثما عظيما} لما أن تلك كانت في أهل الكتاب وهم مطلعون من كتبهم على ما لا يشكون في صحته من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباع شريعته وما يدعو إليه من الإيمان بالله تعالى ومع ذلك أشركوا وكفروا فصار ذلك افتراء واختلافا وجراءة عظيمة على الله تعالى، وهذه الآية كانت في أناس لم يعلموا كتابا ولا عرفوا من قبل وحيا ولم يأتهم سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، فأشركوا بالله عز وجل وكفروا وضلوا مع وضوح الحجة وسطوع البرهان، فكان ضلالهم بعيدا، ولذلك جاء بعد تلك: {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم} وقوله سبحانه: {أنظر كيف يفترون على الله الكذب}، وجاء بعد هذه قوله تعالى: {إن يدعون من دونه إلا إناثا}.

١١٧ - (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا)

{إن يدعون من دونه إلا إناثا} أي: ما يعبدون، أو: ما ينادون لحوائجهم من دون الله تعالى إلا أصناما، والجملة لوجه ما قبلها، ولذا لم تعطف عليه، وعبر عن الأصنام بالإناث لما روي عن الحسن أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان لأنهم يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنسوان. . . . .، {وإن يدعون} أي: وما يعبدون بعبادة تلك الأوثان {إلا شيطانا مريدا} إذ هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم فكانت طاعتهم له عبادة، فالكلام محمول على المجاز، فلا ينافي الحصر السابق (٢٣٨). . . والظاهر أن المراد من الشيطان هنا: إبليس، وهو المروي عن مقاتل. . .، والمريد. .: العاتي الخارج عن الطاعة. . .

١١٨ - (لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

{لعنه الله} أي: طرده وأبعده عن رحمته. .، {وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا}. . والمراد: شيطانا مريدا، جامعا بين لعنة

الله تعالى وهذا القول الشنيع الصادر منه عند اللعن،. . .، والاتخاذ: أخذ الشيء على وجه الاختصاص، وأصل معنى الفرض: القطع، وأطلق هنا على المقدار المعين، لاقتطاعه عما سواه،. . .،

١١٩ - (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)

{ولأضلنهم} عن الحق، {ولأمنينهم} الأماني الباطلة، وأقول لهم: ليس وراءكم بعث، ولا نشر، ولا جنة، ولا نار، ولا ثواب، ولا عقاب، فافعلوا ما شئتم، وقيل: أمنيهم طول البقاء في الدنيا فيسوفون العمل،. . .، وروى الأول عن الكلبي {ولآمرنهم} بالتبتيك-كما قال أبو حيان- أو: بالضلال، كما قال غيره {فليبتكن آذان الأنعام} أي فليقطعنها من أصلها، كما روي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه، أو: ليشقنها -كما قال الزجاج- بموجب أمري، وذا إشارة إلى ما كانت الجالية تفعل من شق أو قطع أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا، وتحريم ركوبها، والحمل عليها، وسائر وجوه الانتفاع بها {ولآمرنهم فليغيرن} ممتثلين بلا ريث {خلق الله} عن نهجه وصورة أو صفة، ويندرج فيه ما فعل من فقء عين فحل الإبل إذا طال مكثه حتى بلغ نتاج نتاجه- ويقال له الحامي-، وخصاء العبيد، والوشم (٢٣٩)، والوشر، واللواطة، والسحاق ونحو ذلك، وعبادة الشمس والقمر والنار والحجارة مثلا، وتغيير فطرة الله تعالى التي هي الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على الناس كمالا، ولا يوجب لها من الله سبحانه زلفى- (٢٤٠)؛ {ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا} من يتابع الشيطان يستحوذ عليه، ويسلكه في حزبه ليكونا من أهل النار، وذلك غاية الخسران والهلاك والبوار، - بخس نفسه حظها فأوبقها بخسا. . يبين عن عطبه وهلاكه، لأن الشيطان لا يملك له نصرا من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمره، بل يخذله عند حاجته إليه- (٢٤١).

١٢٠ - (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا)

{يعدهم ويمنيهم} يوسوس الشيطان للذين يتولونه، ويلقي في صدورهم الأوهام، فقد يعدهم الفقر ويخوفهم غائلته إذا هم أنفقوا، حتى يشحوا ويبخلوا، ويمنيهم بطول العمر حتى يركنوا إلى العاجلة وينسون الآجلة (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) (٢٤٢)؛ {وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنا محيصا} وعد الشيطان كذب وخديعة وباطل (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها. .) (٢٤٣)؛ (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) (٢٤٤)؛ وكذلك منى عبدة الأصنام يوم الفرقان، بأنهم سينتصرون على أهل الإيمان: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) (٢٤٥)؛

١٢١ - (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)

وإبليس وأولياؤه ليس لهم في الآخرة إلا النار، لا يستطيعون هربا، ولا يجدون منها ملجأ.

١٢٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا)

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا} وبشرى للذين يتولون الله سبحانه، فهم به مستيقنون، وبكل ما يجب التصديق به مؤمنون، ولكل الفرائض يؤدون، وعن كل المحارم ينتهون، هؤلاء لهم من ربهم الوعد الذي لا يخلف، ويدخلهم دار النعيم والتكريم، يسكنون القصور تحفها البساتين، وتجري تحت أشجارها الأنهار، يخلدون في منازل الصدق، ولا يبغون عنها حولا، يمكثون فيها أبدا، ولا أحد أصدق من ربنا قولا فهو تقدست أسماؤه يقول

الحق، وكلماته التامات كلها صدق وعدل.
١٢٣ - (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)
ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣)
قال مجاهد: قالت العرب لن نبعث ولن نعذب، وقالت اليهود والنصارى: (. . لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. .) (٢٤٦)، (٢٤٧) (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. .) (٢٤٨)، {من يعمل سوءا يجز به} عن الربيع بن زياد قال: قلت لأبي كعب، قول الله تبارك وتعالى: {من يعمل سوءا يجز به} والله إن كان كل ما عملنا جزينا به: كما؟ قال: والله إن كنت لأراك أفقه مما أرى! إلا يصيب رجلا خدش ولا عثرة إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر حتى اللدغة والنفخة {ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا} في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت: {من يعمل سوءا يجز به} بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها "، - فإن حملت الآية على الكافر فليس له غدا ولي ولا نصير، وإن حملت على المؤمن فليس له ولي ولا نصير دون الله.
١٢٤ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)
{ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا} شرط الإيمان لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وقرى الأضياف، وأهل الكتاب بسبقهم،. . .، فبين تعالى أن الأعمال الحسنة لا تقبل من غير إيمان،. . .، يعني يدخلون الجنة بأعمالهم،. . النقير: النكتة في ظهر النواة- (٢٤٩).
١٢٥ - (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا)
{ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا} الاستفهام إنكاري، في معنى النفي، أي لا تجد مَن دينه أحسن مِن دين من أسلم، فأخلص نفسه لله تعالى، لا دين لرب سواه، وأخلص توجهه له سبحانه، وهو آت بالحسنات مجتنب للسيئات، أو مؤد لكل العبادات على أفضل حال، كأنه يؤديها وهو يرى ربه عز وتقدس، وسار على نهج أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي مال نهجه عن كل دين زائغ، وهداه ربنا إلى صراط مستقيم، ودين قويم؛ {واتخذ الله إبراهيم خليلا} الاتخاذ: أخذ: الشيء على وجه الاختصاص؛ والخلة- كما قال الزجاج- المحبة التي لا يداخلها خلل.
١٢٦ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا)
{ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا} مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: لما ذكر الوعد والوعيد وأنه لا يمكن الوفاء بهما إلا بالقدرة التامة على جميع الممكنات، والعلم الكامل الشامل لجميع الكليات والجزئيات، أشار إلى الأول بقوله: {ولله ما في السموات وما في الأرض} وأشار إلى الثاني بقوله: {وكان الله بكل شيء محيطا}، وإنما قدم القدرة على العلم لأن الفعل بحدوثه يدل على القدرة، وبما فيه من الأحكام والإتقان يدل على العلم،. . وقال بعضهم: الإحاطة أيضا ههنا بمعنى القدرة، كقوله تعالى: (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها. .) (٢٥٠)، ولا يلزم تكرار، لأن الأول لا يدل إلا على مالك لكل ما في السموات والأرض قادر عليهما، والثاني يفيد القدرة المطلقة على جميع الأشياء وإن فرضت خارج السموات والأرض. . اهـ.
١٢٧ - (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)
ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما (١٢٧).
{يستفتونك} يسألونك عن حكم الله.

{يفتيكم} يبين الحكم فيما سألتم عنه. {ترغبون} تميلون.
{أن تنكحوهن} نكاحهن وزواجهن، بتقدير {في} أو {عن}.
{المستضعفين من الولدان} الصغار من البنين، والبنات.
{تقوموا لليتامى} تنهضوا وتستوفوا الحق لليتامى.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: {ويستفتونك في النساء- إلى قوله- وترغبون أن تنكحوهن} قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العذق (٢٥١)، فيرغب أن ينكحها (أي عن أن يتزوجها) ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية؛ فكان المعنى: قل لمن يسأل عن أمر النساء وأحكامهن: الله يفتيكم فيهن، والقرآن يبين لكم من أحكامهن، ف {ما} في {وما يتلى عليكم} في موضع رفع، عطف على اسم الله تعالى؛ {في يتامى النساء} أي ما يتلى عليكم في شأنهن، في شأن اليتيمة، وهي الصغيرة من النساء التي لم تبلغ وقد مات أبوها؛ والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزوجها فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها (٢٥٢) عن الأزواج، خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها،. . . وقال ابن عباس: {والمستضعفين من الولدان} كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: {لا تؤتونهن ما كتب لهن} فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه؛ وعن ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: قول الله عز وجل: {وترغبون أن تنكحوهن}: رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن؛ {وأن تقوموا لليتامى بالقسط} كما إذا كانت ذات مال وجمال نكحتها واستأثرت بها؛ {وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما} تهييجا على فعل الخيرات وامتثالا للأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه،. . .،

١٢٨ - (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

{خافت} توقعت.
{بعلها} زوجها. {نشوزا} تجافيا وتعاليا، أو أذى وحرمانا.
{إعراضا} انصرافا وصدودا.
{الشح} البخل والضن، والإفراط في الحرص على الشيء.

يقول تعالى مخبرا ومشرعا من حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها. فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: {فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا}؛ ثم قال: {والصلح خير} أي من الفراق، وقوله: {وأحضرت الأنفس الشح} أي: الصلح عند المشاحة خير من الفراق- (٢٥٣)؛ في الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لها بيوم سودة؛ مما يقول صاحب (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير): قوله: {وأحضرت الأنفس الشح} إخبار منه سبحانه بأن الشح في كل واحد. . بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال، وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة، فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك شيئا منها؛ وشح الأنفس بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه، ومنه: (. . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (٢٥٤)؛ قوله: {وإن تحسنوا وتتقوا} أي تحسنوا عشرة النساء وتتقوا مالا يجوز من النشوز والإعراض {فإن الله كان بما تعملون خبيرا} فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه.

١٢٩ - (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

{تميلوا كل الميل} تتعمدوا الإساءة والظلم.

{فتذروها} فتتركوها.

{كالمعلقة} كالتي لا هي ذات زوج، ولا هي أيم.

{لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء} فيما يكون من بدنه وقلبه فذلك لا يستطيع يملكه.

قوله: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء} أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم: " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك " ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل، لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور في وسعهم وداخل تحت طاقتهم فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة، تشبيها بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء؛. . {وإن تصلحوا} أي ما أفسدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم نحوهن، {وتتقوا} وتحذروا الميل عن الحق والجور عن سنن العدل، {فإن الله كان غفورا رحيما} فإن ربنا المعبود بحق سبحانه ما زال يستر الخطايا، ويصفح عن مؤاخذة المسيئين إذا هم تابوا وسلكوا سبيل المحسنين، ويتفضل برحمة واسعة، وجنة عالية.

١٣٠ - (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)

{يغن الله كلا من سعته} يغن الله الزوج والزوجة إن تفرقا فيهب كلا من فضله.

{وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته} فإن لم يتوافق الزوج وزوجته، وتعذر أن يتصالحا، وحدثت الفرقة بينهما بالطلاق، يكْفِ الله تعالى كلا منهما ما أهمه، وييسر له حياة لا يحتاج فيها إلى من فارقه؛ {من سعته} أي: من غناه وقدرته، وفي ذلك تسلية لكل من الزوجين بعد الطلاق،. {وكان الله واسعا} أي: غنيا وكافيا للخلق. . {حكيما} متقنا في أفعاله وأحكامه.

١٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)

ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا (١٣١).

{ولله ما في السموات وما في الأرض} (فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة- ولا! ولا- وفيه من التنبيه على كمال سعته وعظم قدرته ما لا يخفى، والجملة مستأنفة جيء به- على ما قيل- لذلك) (٢٥٥)؛ {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله} أمرناكم كما أمرنا الذين سبقوكم وبعثت إليهم الرسل ونزلت فيهم الكتب، ووثقنا العهد إليكم وإليهم بأن تعبدوا الله مخلصين له الدين؛ {وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا. ولله ما في السموات وما في الأرض} وحذرناكم وإياهم أن تجحدوا ما علمتم أنه الحق، فمن كذب ولم يستيقن بما يجب الإيمان به فلن يضر إلا نفسه، وما ضروا الله بشيء (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) (٢٥٦)، (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس. .) (٢٥٧)، (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) (٢٥٨)،

١٣٢ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

}وكفى بالله وكيلا{ في النهاية: وكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة به أو عجزا عن القيام بأمر نفسه، والوكيل في أسماء الله تعالى هو القيم: وحقيقته أنه يستقل بالأمر الموكول إليه. ا هـ.

١٣٣ - (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا)

}إن يشأ يذهبهم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا{ يخوف الملك المهيمن عباده، وينذر البشر وبخاصة من غوى، بأنه عز وتقدس قادر على إهلاكهم وإفنائهم إذا يشاء، ولا يعجزه أن يعمر الأرض بخلق خير منهم، وهذا كالوعيد الذي في قوله سبحانه: (. . . وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم. .) (٢٥٩)؛ ونقل عن الزمخشري وابن عطية ومن يرى رأيهما أنه قد يكون المراد: خلقا آخرين غير جنس الناس؛ لكن صاحب البحر المحيط خطأ هذا الرأي، لمخالفته لاستعمال العرب؛ فإن- غيرا- تقع على المغاير في جنس أو وصف؛ و- آخر - لا يقع إلا على المعايرة بين أبعاض جنس واحد (٢٦٠).

١٣٤ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

}من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا{ ربنا له الآخرة والأولى، والذين غفلوا عن هذا أو عموا يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا: (. . فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) (٢٦١)؛ والسعداء يقولون: (. . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (٢٦٢)، وطلاب العاجلة وإن أظفرهم الله ببعض متاعها لا حظ لهم في الآجلة، فإن مولانا الحق يقول: (. . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) (٢٦٣)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما فعلت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله تعالى عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار "، أما من ابتغى بعمله رضوان ربه فإن الله يجمع له سعادة الدارين: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (٢٦٤). (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله. .) (٢٦٥) كيف يرائي المرائي وأن الله سميع بما يهجس في خاطره، وما تأمر به دواعيه؟! بصير بأحواله كلها ظاهرها وباطنها فيجازيه على ذلك.

١٣٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

}يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط{. ربنا ينادي أهل الإيمان أن يتحروا العدل والحق وأن يثبتوا عليه لا يصرفهم عنه صارف، فبالحق أنشئ الكون علويه وسفليه (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق. .) (٢٦٦)، وبه جاء وحي الكتاب المبين (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل. .) (٢٦٧)، وشاء ربنا الحكيم أن تحمل الرسل البرهان وتتلقى شرع الله الذي حرم الظلم والطغيان، ذلك إذ هو سبحانه يعلم أن هداية الرسل ونور الوحي والكتب يبلغان بالناس التخلق بالعدل: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. .) (٢٦٨)؛ مما يقول قتادة: وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط، والعدل ميزان الله في الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يُصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويرد المعتدي، ويوبخه تعالى ربنا تبارك؛ وبالعدل يصلح الناس؛ وفي المأثور أن عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم

أبغض إلي من أجدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض؛ وعن الراغب: أنه سبحانه نبه بلفظ القوامين على أن مراعاة العدالة مرة أو مرتين لا تكفي، بل يجب أن تكون على الدوام، فالأمور الدينية لا اعتبار بها ما لم تكن مستمرة دائمة، ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلا؛ {شهداء لله} وكونوا مؤدين شهادتكم لمرضاة ربكم المعبود بحق، {ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا} نقل ابن جرير عن ابن شهاب في شهادة الوالد لولده وذي القرابة، قال: كان ذلك فيما مضى من السنة في سلف المسلمين، وكانوا يتأولون في ذلك قول الله: {يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدان والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما} الآية، فلم يكن يتهم سلف المسلمين الصالح في شهادة الوالد لولده، ولا الولد لوالده، ولا الأخ لأخيه، ولا الرجل لامرأته، ثم دخل الناس بعد ذلك، فظهرت منهم أمور حملت الولاة على اتهامهم، وتركت شهادة مَن يُتهم إذا كانت من أقربائهم، وصار ذلك من الولد والوالد والأخ والزوج والمرأة، لم يتهم إلا هؤلاء في آخر الزمان؛ {فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا} ينهى الله عز وجل علاه عن اتباع الهوى فإن اتباعه سيجعلهم يعدلون عن الحق ويميلون، - واحتمال آخر وهو أن يراد: اتركوا الهوى لأجل أن تعدلوا، أي: حتى تتصفوا بصفة العدالة، لأن العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر، {وإن تلووا}. . من لوى إذا فتل،. .، والمعنى: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق وحكومة العدل {أو تعرضوا} عن الشهادة،. . . واعلم أن الإنسان لا يكون قائما بالقسط إلا إذا كان راسخ القدم في الإيمان- (٢٦٩)، {فإن الله كان بما تعملون خبيرا} فمن أدى الشهادة على وجهها أجر، ومن بدلها أو كتمها فهو مزور آثم قلبه.

١٣٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا)

{يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل}

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: (اهدنا الصراط المستقيم (٢٧٠) أي بصرنا وزدنا هدى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله.) (٢٧١)، وقوله: {والكتاب الذي نزل على رسوله} يعني القرآن {والكتاب الذي أنزل من قبل} وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: {نزل} لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة، ولهذا قال تعالى: {والكتاب الذي أنزل من قبل} (٢٧٢)؛ {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا}؛ وكل من لم يستيقن ويصدق تصديقا جازما بالله تعالى، وبالملائكة الكرام، وبالكتب السماوية، وبالرسل عليهم الصلاة والسلام، وباليوم الآخر والبعث والحشر والحساب، والوزن والثواب والعقاب فقد ذهب عن قصد السبيل وجار عن محجة الطريق إلى المهالك ذهابا وجورا بعيدا، لأن من كفر بذلك خرج عن دين الله الذي ارتضاه، ولم يرتض سواه.

١٣٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا)

{إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا} في صحيح مسلم عن عبد الله قال: " أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذه به ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام " (٢٧٣) _ ومعنى: {ثم ازدادوا كفرا} أصروا على الكفر، {لم يكن الله ليغفر ولا ليهديهم} يرشدهم {سبيلا} طريقا إلى الجنة، وقيل: لا يخصهم بالتوفيق كما يخص أولياءه؛ وفي هذه الآية رد على أهل القدر؛ فإن الله تعالى بين أنه لا يهدي الكافرين طريق خير، ليعلم العبد أنه إنما ينال الهدى بالله تعالى، ويحرم الهدى بإرادة الله تعالى أيضا؛ وتضمنت الآية أيضا حكم المرتدين- (٢٧٤).

١٣٨ - (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)
بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨).
{بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما} هذا بلاغ للناس ولينذروا به، فالذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم. .) (٢٧٥).
١٣٩ - (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)
{الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا}
نهى الله أهل الإيمان أن يوادوا ويصافوا ويتابعوا مَن غضب الله عليهم، وجعل ذلك مما يتميز به الخبيث من الطيب، فقال في مرضى القلوب: (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون) (٢٧٦)، وعلمنا من نوالي، فقال تقدست أسماؤه: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (٢٧٧)، وتلك من سنته التي لا تحول: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده. .) (٢٧٨)، واتخاذ الكافرين أولياء بدلا من موالاة المؤمنين منكر، ومنكر أن يُطلب بمصافاة الهلكى بلوغ طرف من الجاه أو الكرامة، فإنه من يهن الله فما له من مكرم، والذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون، فمن كان يريد العزة فليتول العزيز العليم، البر الرحيم، العلي العظيم، يمنحه فضلا وعزة، ومنعة ومددا.
١٤٠ - (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)
{وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم}
سبق نزول هذه الآية ما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة من قول مولانا عز ثناؤه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) (٢٧٩)، وإلى هذا أشير في هذه الآيات من سورة النساء وهي مدنية: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم} الآية، فهاتان الآيتان من سورة الأنعام هما اللتان أنزلتا في هذا الشأن قبل الهجرة، يقول ابن حيان ما حاصله: نسخ قوله: {إنكم إذا مثلهم} لقوله: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون)، فكأن المعنى: أنزل عليكم في القرآن أنكم إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بالآيات لا تقعدوا مع المستهزئين الكافرين حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء، فمن فعل ذلك ولم ينته وقعد مع المستهزئ فهو مثله، قيل: والمماثلة ليست في جميع الصفات، {إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا} المستعلن بكفره والمضمر له يصليان نار السعير خالدين مخلدين فيها أبدا.
١٤١ - (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)
{الذين يتربصون بكم} - يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفرة عليهم، وذهاب ملتهم، {فإن كان لكم فتح من الله} أي: نصر وتأييد، وظفر وغنيمة: {قالوا ألم نكن معكم}؟ أي: يتوددون إلى المسلمين بهذه المقالة، وإن كان للكافرين نصيب} أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما أحد فإن الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة {قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين}؟ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألونا خبالا وتخذيلا حتى انتصرتم عليهم. . .، وهذا أيضا تودد

منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم، قال تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة} أي: بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرا في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تُبلى فيه السرائر، ويحصل ما في الصدور، وقوله تعالى: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا}. . . قال السدي: {سبيلا} أي: حجة، ويحتمل أن يكون المعنى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، أي في الدنيا، بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا. .) الآية (٢٨٠)، وعلى هذا يكون ردا على المنافقين فيما أملوه، ورجوه وانتظروه، من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم-إلى قوله- نادمين) (٢٨١)،. . . .

١٤٢ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا)

{إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم} ولا شك أن الله لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم- كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرا- فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم. .) الآية (٢٨٢)، وقوله {وهو خادعهم} أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم-إلى قوله وبئس المصير) (٢٨٣)، وقد ورد في الحديث: " مَن سمع سمع الله به ومن رايا رايا الله به "،. . . {وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى} الآية، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي: الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها،. . ولا يعقلون معناها،. . . . ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: {يراءون الناس} أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبا، كصلاة العشاء في وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار "،. . . . {ولا يذكرون الله إلا قليلا} أي: في صلاتهم لا يخشعون، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون،. . . .

١٤٣ - (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)

{مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء} يعيش المنافقون محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا مع الكافرين ظاهرا وباطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يغريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك،. . . . {ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} أي: ومن صرفه عن طريق الهدى (. . فلن تجد له وليا مرشدا) (٢٨٤)، فإنه (من يضلل الله فلا هادي له. .) (٢٨٥)، والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون- (٢٨٦).

١٤٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

{يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا} بعد ست آيات متتابعات في ذم المنافقين ووعيدهم، نهى الله تعالى المؤمنين عن سلوك سبيلهم، وأن يصنعوا مثل صنيعهم، فيصاحبوا الكافرين ويناصحوهم، ويركنوا

إليهم ويوادوهم، فتكون عليهم بتلك الموادة مؤاخذة، ويعاقبهم الله عليها وله سبحانه في ذلك الحجة؛ وجائز أن يكون النهي كالتوكيد لوعيد المنافقين، وسماهم القرآن مؤمنين باعتبار ما يظهرونه ويدعونه من الإيمان، ولعل مما يسوغ هذا أن الآيات من قبل ومن بعد فيهم نزلت؛ يقول قتادة: إن لله سلطان على خلقه، ولكنه يقول: عذرا مبينا.

١٤٥ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

{إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار} ينذر الله أهل النفاق الذين ماتوا على ذلك بأنهم في أقصى قاع جهنم؛ وأكثر استعمال العرب لما يذهب صاعداً: درج، ولما يمضي نازلا: درك؛ عن ابن عمر: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار}؛ وقال تعالى في أصحاب المائدة: (. . فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) (٢٨٧)، وقال في آل فرعون: (. . أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (٢٨٨)، {ولن تجد لهم نصيرا} ومحال أن يكون لهم من ينقذهم من عذاب الله، أو يخرجهم مما هم فيه، أو يدفعه عنهم.

١٤٦ - (إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

{إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله أخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين} لكن من استوفى من الذين نافقوا أربعة فإن مولانا بمنه يسلكه مع المؤمنين، وأول ذلك أن ينيب ويستغفر ويرجع إلى طريق الحق، والثاني أن يصلح باطنه الذي أفسده، و الثالث أن يلجأ إلى الله دون سواه، والرابع أن يقصد بقوله وعمله وكل شأنه مرضاة الله، فمن ختم له بذلك فليستبشر؛ {وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما} إذ المؤمن له عند ربه درجات ومغفرة ورحمة، وعد الله لا يخلف الله وعده.

١٤٧ - (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

{ما يفعل الله بعذابهم إن شكرتم وآمنتم} ربنا تقدس وتبارك لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا، فإنه يقول وقوله الحق: (لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى) (٢٨٩)؛ {وكان الله شاكرا عليما} - تقديم الشكر (على الإيمان في القول الكريم: {إن شكرتم وآمنتم}) أهم، لأنه عبارة عن صرف جميع ما أعطاه الله تعالى فيما خلق لآجله، حتى تكون أفعاله وأقواله على نهج السداد وسنن الاستقامة؛ {وكان الله شاكرا} مثيبا على الشكر، فسمي جزاء الشكر شكرا، وفيه أنه يجزي على العمل القليل ثوابا كثيرا {عليما} بالكليات والجزئيات من غير غلط ونسيان، فيوصل جزاء الشاكرين إليهم لا كما يليق بحالهم بل كما يليق بكرمه وسعة فضله ورحمته (٢٩٠)؛ قال مكحول: أربع مَن كن فيه كن له، وثلاث مَن كن فيه كن عليه؛ فالأربع اللاتي له: الشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله تعالى: {ما يفعل الله بعذابهم إن شكرتم وآمنتم}، وقال الله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (٢٩١)، وقال تعالى: (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم.) (٢٩٢)؛ وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث؛ قال الله تعالى: (. . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.) (٢٩٣)؛ وقال تعالى: (. . ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.) (٢٩٤)، وقال تعالى: (. . إنما بغيكم على أنفسكم.) (٢٩٥).

١٤٨ - (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)

*لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما (١٤٨)

نقل عن الحسن: الرجل يظلم الرجل فلا يدعو عليه، ولكن ليقل: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج حقي، اللهم حل بينه وبين ما يريد من ظلمي؛ فهذا دعاء في المدافعة وهي أقل منازل السوء؛ وعن مجاهد أن المراد: لا يحب الله سبحانه أن يذم أحد أحدا أو يشكوه، إلا من ظلم، فيجوز له أن يشكو ظالمه، ويظهر أمره، ويذكره بسوء ما قد صنعه؛ في القاموس: الجهر بالشيء: الإعلان به والإظهار؛ وفي الصحاح: جهر بالقول: رفع صوته به- ولعل المراد هنا الإظهار وإن لم يكن برفع صوت، أي: لا يحب الله سبحانه أن يعلن أحد بالسوء كائنا من القول، إلا من ظلم، أي إلا جهر من ظلم فإنه غير مسخوط عنده تعالى- (٢٩٦)؛ ويستشهد لهذا بما جاء في الصحيح

(٢٩٧) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لي (٢٩٨) الواجد (٢٩٩) ظلم يحل عرضه وعقوبته "، قال ابن المبارك: يحل عرضه: يغلظ له، وعقوبته: يحبس له، وفي صحيح مسلم (٣٠٠): " مطل الغني ظلم "، فالموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ومطل ظلم، وذلك يبيح من عرضه أن يقال فيه: فلان يمطل الناس ويحبس حقوقهم، ويبيح للإمام أدبه وتعزيره (٣٠١) حتى يرتدع عن ذلك، نقل معناه عن سفيان، {وكان الله سميعا عليما}، تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدى الحد في الانتصار، فليتق الله ولا يقل إلا الحق، ولا يقذف مستورا.

١٤٩ - (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)

{إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا} في الحديث الصحيح: " ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه "، إن تظهروا حسنا من القول، أو إن تظهروا الصدقة، فإن الخير قد يراد به المال، أو: إن تظهروا أي خير من الأقوال والأفعال أو تسروا ذلك، أو تدفعوا عن العباد مضرة بعفوكم عمن أساء إليكم، وصفحكم عن مؤاخذته وقد أذن لكم فيها، فإن المعبود بحق سبحانه العفو عن العصاة مع قدرته على أخذهم؛ قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى، ونقل عن النيسابوري: {عفوا} عمن عفا، {قديرا} على إيصال الثواب إليه، وهو سبحانه كان ولم يزل صاحب العفو العظيم، والاقتدار التام العميم.

١٥٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)

إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠)

نقل عن قتادة أنه قال في الآيتين الأوليين: أولئك أعداء الله تعالى، اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى عليه السلام، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى عليه السلام، وكفروا بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم، فاتخذوا اليهودية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من الله عز وجل، وتركوا الإسلام وهو دين الله عز وجل الذي بعث به رسله؛ وقال بعضهم: الذين يكفرون بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام هم الذين خلص كفرهم الصرف بالجميع، فنفوا الصانع مثلا وأنكروا النبوات، والذين يفرقون بينه تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام هم الذين آمنوا بالله تعالى وكفروا برسله عليهم الصلاة والسلام، والذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض هم الذين آمنوا ببعض الأنبياء عليهم السلام وكفروا ببعضهم؛ - والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته. . تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانا شرعيا، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية،. . .، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلا وأقوى برهانا منه، أو نظروا حق النظر في نبوته، - (٣٠٢)، مما يقول صاحب جامع البيان: {ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا}. . أن يتخذوا بين أضعاف قولهم: نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض سبيلا، يعني طريقا إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها، يدعون أهل الجهل من الناس إليه.

١٥١ - (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

فقال جل ثناؤه لعباده منبها لهم على ضلالتهم وكفرهم: {أولئك هم الكافرون حقا}. . . . .، فهم الجاحدون وحدانية الله ونبوة أنبيائه حق الجحود، المكذبون بذلك حق التكذيب، فاحذروا أن تغتروا بهم وببدعتهم،. . .، وأعتدنا لمن جحد بالله ورسوله جحود هؤلاء الذين وصفت لكم أمرهم،. . عذابا. . يهين من عذب به بخلوده فيه ا ه.

١٥٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم} في مقابلة الوعيد بالعذاب المهين للجاحدين جاء الوعد

بالثواب العظيم للمصدقين بالله ورسله أجمعين، فبشرى للنبي وأمته المستيقنين (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) (٣٠٣)؛ و {سوف} ليست للتبعيد، ولكنها للتوكيد، وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ {وكان الله غفورا} لمن هذه صفتهم ما سلف لهم من المعاصي والآثام {رحيما} بهم فيضاعف حسناتهم، ويزيدهم على ما وُعدوا- (٣٠٤)

١٥٣ - (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا)

يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا (١٥٣)

{كتابا من السماء} ألواحا مكتوبة تنزل من السماء وقد سطر فيها الوحي.

{فقد سألوا موسى} سأل أسلافهم وأوائلهم نبي الله موسى عليه السلام.

{أرنا الله جهرة} نعاينه وننظر إليه.

{الصاعقة} النار التي تنزل عليهم فتهلكهم.

{اتخذوا العجل} اختاروه وعبدوه.

{البينات} الدلائل الواضحات مثل العصا والحية وانفلاق البحر.

{فعفونا عن ذلك} فأحيينا من صعقوا منهم بعد موتهم.

{وآتينا موسى سلطانا مبينا} أعطينا نبينا موسى حجة تبين عن صدقه وحقيقة نبوته.

{يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء} يخبر الله تعالى عن طائفة من أهل الكتاب الذين حُملوا أماناتها فلم يوفوا، وجاءتهم فيها البشرى بالنبي الخاتم فكانوا من أول من صد عنه، ومن تعنتهم أن سألوه إنزال ألواح من السماء سطر فيها الوحي جملة، عن السدي: قالت اليهود: إن كنت صادقا أنك رسول فآتنا كتابا مكتوبا من السماء كما جاء به موسى؛ وعن محمد بن كعب القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله: {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء} إلى قوله: {وقولهم على مريم بهتانا عظيما}؛ {فقد سأل موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة} - توبيخ من الله جل ثناؤه سائلي الكتاب الذين سألوا رسول الله صلى االه عليه وسلم أن ينزله عليهم في مسألتهم إياه ذلك، وتقريع منه لهم، يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: يا محمد لا يعظمن عليك مسألتهم ذلك، فإنهم من جهلهم بالله وجراءتهم عليه واغترارهم بحلمه لو أنزلت عليك الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العجل واتخذوه إلها يعبدونه من دون خالقهم وبارئهم الذي أراهم من قدرته وعظيم سلطانه ما أراهم، لأنهم لم يَعْدوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم،. . . {ثم اتخذوا العجل} فإنه يعني: ثم اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوه من رؤية ربهم جهرة بعد ما أحياهم الله فبعثهم من صعقتهم العجل الذي كان السامري نبذ فيه ما نبذ من القبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل عليه السلام إلها يعبدونه من دون الله،. . . {من بعد ما جاءتهم البينات}. . الدلالات الواضحات بأنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة،. .، يقول الله مقبحا إليهم فعلهم ذلك، وموضحا لعباده جهلهم، ونقص عقولهم وأحلامهم، ثم أقروا للعجل بأنه لهم إله وهم يرونه عيانا، وينظرون إليه جهارا، بعد ما أراهم ربهم من الآيات ما أراهم أنهم لا يرون ربهم جهرة وعيانا في حياتهم الدنيا، فعكفوا على عبادته مصدقين بألوهيته، وقوله: {فعفونا عن ذلك} يقول: فعفونا لعبدة العجل عن عبادتهم إياه. . . بالتوبة التي تابوها إلى ربهم بقتلهم أنفسهم وصبرهم في ذلك على أمر ربهم، {وآتينا موسى سلطانا مبينا} يقول: وآتينا موسى حجة تبين عن صدقه وحقيقة نبوته، وتلك الحجة: هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها- (٣٠٥).

١٥٤ - (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

{ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم} لما لم يوفوا بعهدهم ليعملن بالتوراة علق الله جانبا من جبل الطور فوق رءوسهم ليبقوا على خوف من وقوعه.

{وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا} أمرناهم أن يدخلوا باب المدينة الموعودة ساجدين، خضوعا لله تعالى.

{وقلنا لهم لا تعدلوا في السبت} وعهدنا إليهم أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت ولا يعرضوا لها، وأحل لهم ما وراء ذلك.

{ميثاقا غليظا} عهدا مؤكدا مشددا.

{ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم} لما لم يوفوا بعهدهم: ليعملن بالتوراة علق الله جانبا من جبل الطور فوق رءوسهم، ليبقوا على خوف من وقوعه، فيلتزموا العمل بما جاءهم في الوحي المنزل على نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، وفي هذا جاء قول الحق سبحانه: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) (٣٠٦)؛ كما جاء بيان عبادتهم العجل في الآيات من رقم ٥١ إلى ٤٥ من سورة البقرة، وفي آيات من سورة الأعراف وسورة طه؛ {وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا} أمرهم الله تقدست أسماؤه أن يدخلوا باب المدينة التي وعدوها ساجدين، إقرارا بفضله سبحانه، فدخلوا يزحفون، تعظماً أن يسجدوا وتأنفا، {وقلنا لهم لا تعدوا في السبت} وأمرناهم أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت، ولا يعرضوا لها، وأحللنا لهم ما وراء ذلك، فتعدوا أمرنا، فأحللنا بهم بأسنا؛ يقول مولانا العلي الكبير: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (٣٠٧)؛ {وأخذنا منهم ميثاقا غليظا} وأخذ الله تعالى عليهم عهدا مؤكدا مشددا أن ينهضوا بأمره وشرعه الذي أوحاه إليهم دون تفريط.

١٥٥ - (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا)

{فبما نقضهم} فبسبب خلفهم عهودهم. {وقولهم قلوبنا غلف} مغلقة مغطاة بغشاوة تمنع وصول الوحي إليها.

{بل طبع الله عليها} بل لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

{فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا} فبسبب خلفهم الوعد ونقضهم مع الله العهد، وجحودهم بآيات الله الكونية والتنزيلية، وقتلهم أنبياء الله عدوانا وظلما، ومن أجل ادعائهم أن قلوبهم لا تعي ما جاء عن ربهم، لعنهم سبحانه وغضب عليهم، وتركهم في عمايتهم وغيهم، فلا يصدقون بحق إلا تصديقا قليلا كالعدم، أو لا يصدق ويستيقن منهم إلا القليل.

١٥٦ - (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)

{بهتانا} كذبا يحير من كُذِب عليه.

{وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما} عن ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا، - فإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، وكذا إنكارهم نبوة عيسى كفر، ونسبتهم الزنا لمريم بهتان عظيم- (٣٠٨).

١٥٧ - (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)

{شبه لهم} أُلقي شبهه على رجل من حوارييه فأخذ الشبيه وقتل وصلب.

{وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} لعنة اليهود كانت بسبب نقضهم عهد الله

ليعملن بما في التوراة، وبسبب قتلهم الأنبياء ظلما كما قتلوا زكريا عليه السلام، وبسبب تكذيبهم بآيات الله الكونية والتنزيلية، وبسبب رميهم مريم النقية التقية المطهرة والمصطفاة، وافتراء الزنا عليها، وبسبب ما ادعوه من قتل المسيح عيسى عليه السلام؛ (وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه: وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهواإليه أن في بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل ولي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثني عشر وقيل سبعة عشر نفرا- وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت- فحصروه هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيُكم يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك. .) (٣٠٩) الآية، فلما رُفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا- كما ظن اليهود- أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ويقال أنه خاطبها، والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه، وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى- وهو أصدق القائلين-: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} أي: رأوا شبهه فظنوه إياه، ولهذا قال: {وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن} يعني بذلك من ادعى أنه قُتل من اليهود، ومن سلمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال؛ ولهذا قال: {وما قتلوه يقينا} أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

١٥٨ - (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

{بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما} أي: منيع الجناب، لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه {حكيما} أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم) (٣١٠)؛ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، فخرج عليهم ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يُلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا، فقال: هو أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، هؤلاء (اليعقوبية) وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، هؤلاء (النسطورية) وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، هؤلاء (المسلمون) فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا

حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم. ا ه (٣١١).

١٥٩ - (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

{وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} سينزل عيسى ولا يبقى أحد من أهل التوراة والإنجيل حينئذ إلا ليصدقن بمجيئه حيا قبل أن يموت.

{وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} سينزل عيسى عليه السلام آخر الزمان، ولا يبقى أحد من أهل التوراة والإنجيل حينئذ إلا ليصدقن بمجيئه حيا قبل أن يموت- سلام الله عليه- وفي هذا مزيد تكذيب للذين زعموا أنه قتل وصلب؛ روى البخاري (٣١٢) في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها "، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا}؛ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم "؟! ومن حديث لمسلم عن عبد الله بن عمرو- وفيه-: " يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين. . فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه. . "، وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم والدجال وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق- أو تحشر- الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا "؛ {ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا} قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بالعبودية لله عز وجل، أقر بالعبودية على نفسه.

١٦٠ - (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا)

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٦٠)

من سنن الله تعالى التي لا تحول ولا تتبدل أن البطر بالنعم مجلبة للنقم، وقد مضى هذا في الأولين (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) (٣١٣)؛ ويسوق ربنا القول الحكيم عصمة للمتدبرين من مصائر البطرين: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (٣١٤)؛ وهكذا عجل الله النقمة لليهود لقاء غيهم، وعتوهم عن أمر ربهم، يقول تقدست أسماؤه: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) (٣١٥)، فهم مع الكنود والجحود، والشر والكفر، والغي والبغي، وتجاوز الحد، وأمعنوا في الفتنة عن الإسلام والصد، فضلوا وأضلوا كثيرا.

١٦١ - (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

{وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل} واختاروا الربا لأنفسهم واختصوا به مستحلين الاستحواذ على أموال الناس وعلى الأخص العرب أبناء إسماعيل عليه السلام: (. . ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل. .) (٣١٦)؛ عن مجاهد: {وأخذهم الربا} وهو أخذهم ما أفضلوا على رءوس أموالهم لفضل تأخير في الأجل بعد محلها؛ {وأكلهم أموال الناس بالباطل} بالرشوة وبالكسب الخبيث الذي كانوا يأخذونه على تحريفهم فيما أنزل الله من وحي (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (٣١٧)، وكذا سائر الأوجه المحرمة من سرقة وغش وغضب ونحو ذلك؛ {وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما} ضيق الله تعالى عليهم معيشتهم عقوبة معجلة في الدنيا، مع ما هيأ لهم من عقاب شديد، ومصير بئيس، وعذاب موجع دائم، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

١٦٢ - (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

{لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} إلا من كان منهم ثابت العلم، منتفعا به، مستقيما على نوره، مصدقا مستيقنا بهداه، فإنه يصدق بالكتب المنزلة من قبل من التوراة والزبور والإنجيل، ويستيقن بالقرآن وهو المصدق لها والمهيمن عليها، - وقد وصفوا بالإيمان بعدما وصفوا بما يوجبه من الرسوخ في العلم بطريق العطف المبني على المغايرة بين المتعاطفين، تنزيلا للاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي- (٣١٨)؛ {والمقيمين الصلاة} نصب على المدح- عند كثير من النحاة- وإقامتها قد تعني: إتمامها من تقويم الشيء وتحسينه وتحقيقه، وقيل يؤدونها على ما فيها من قيام وغيره، فعبر عنها بالقيام، لأن القيام من فروضها، وإن كانت تشتمل على غيره؛ - فذكر ركنا من أركانها الذي هو من فروضها، ودل به على أن ذلك فرض فيها، وعلى إيجاب ما هو من فروضها، فصار ({المقيمين الصلاة}) موجبا للقيام فيها، ومخبرا به عن فرض الصلاة، ويحتمل: المديمين فروضها في أوقاتها، كقوله تعالى: {. . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا} أي: فرضا في أوقات معلومة لها، ونحوه قوله تعالى: (. . قائما بالقسط. .) (٣١٩)، يعني: يقيم القسط ولا يفعل غيره، والعرب تقول في الشيء الراتب الدائم قائم،. . .، وقيل هو من قول القائل: قامت السوق، إذا حضر أهلها، فيكون معناه: الاشتغال بها عن غيرها، ومنه: قد قامت الصلاة؛ وهذه الوجوه على اختلافها يجوز أن تكون مرادة بالآية- (٣٢٠)؛ {والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما} والمعطون زكاة أموالهم مستحقيها، والمصدقون المستيقنون بالله وباليوم الآخر فأصحاب هذه المنازل من اليقين هيأ الله تعالى لهم الثواب الجزيل في جنات النعيم.

١٦٣ - (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

*إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا (١٦٣)

{إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} الوحي: إعلام في خفاء، يقال وحى الكلام وحيا، وأوحى إليك إيحاء؛ في هذا تكريم للرسالة والرسول، فإنه مبعوث من لدن ربه، ولا يقول من عند نفسه، وإنما يبلغ كلمات ربنا، وإنها لتامات صادقات عادلات لا مبدل لها، وما هو ببدع من الرسل، وما رسالته إلا كسائر الرسالات، لكنها الخاتمة الدائمة، وهذا قريب من معنى قول الحق جل ثناؤه: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم. .) (٣٢١)، فوحي الله إلى خاتم أنبيائه كوحيه سبحانه إلى نوح أول أولي العزم من الرسل، ومن جاء من بعده، وعطف الوحي إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان على الوحي إلى النبيين مع انتظامهم في سلكهم تشريفا لهم وإظهار لفضلهم، وهو من عطف الخاص على العام، كما في قوله تعالى: (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال. .) (٣٢٢)، وكما في الآية الكريمة؛ (فيهما فاكهة ونخل ورمان) (٣٢٣)؛ {والأسباط} - وهم أولاد يعقوب عليه السلام في المشهور، وقال غير واحد: إن الأسباط في ولد إسحق كالقبائل في أولاد إسماعيل، وقد بعث منهم عدة رسل، فيجوز أن يكون أراد سبحانه بالوحي إليهم الوحي إلى الأنبياء منهم،. . .، ولم يصح أن الأسباط الذين هم إخوة يوسف عليه السلام كانوا أنبياء، بل الذي صح عنده- وألف فيه الجلال السيوطي رسالة- خلافه- (٣٢٤) {وآتينا داود زبورا} وأعطينا داود عليه السلام وأنزلنا عليه كتابا هو الزبور، وقد نقل عن العلماء أن فيه مائة وخمسين سورة ليس فيها حُكْم من الأحكام، وإنما هي حِكَم ومواعظ، وتحميد وتمجيد، وثناء على الله تعالى شأنه، قالوا: وكان داود عليه السلام يقرأ من الزبور بصوت بالغ الحسن فيؤثر في الأسماع والقلوب.

١٦٤ - (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)

{ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك} وأرسلنا رسلا أوحينا إليك أخبارهم قبل هذه السورة، وأنبأتك شأنهم، {ورسلا لم نقصصهم عليك} وآخرين من المرسلين عليهم الصلوات والتسليم لم أعرفك نبأهم، ولا فصلت لك أمرهم، {وكلم

الله موسى تكليما} ({تكليما} مصدر معناه التأكيد، يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاما في شجرة فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون المتكلم متكلما، قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا. .، لما قال {تكليما} وجب أن يكون كلاما على الحقيقة من الكلام الذي يُعقل.) (٣٢٥).

١٦٥ - (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

{رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} أرسلناهم رسلا يبشرون أهل الطاعات، وينذرون أهل الخطيئات، لئلا يكون للناس بعد إرسالهم معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) (٣٢٦)؛ وسميت المعذرة حجة مع أن الله تعالى له الحجة البالغة تنبيها على أن هذه المعذرة مقبولة لديه، تفضلا منه ورحمة؛ {وكان الله عزيزا حكيما}. - ولم يزل الله ذا عزة في انتقامه ممن انتقم من خلقه على كفره به ومعصيته إياه بعد تثبيته حجته عليه برسله وأدلته {حكيما} في تدبيره فيهم ما دبره- (٣٢٧).

١٦٦ - (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

{لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون} (لابد له من مستدرك أن لكن لا يبتدأ به، وفي ذلك المستدرك وجهان: أحدهما- أن هذه الآيات بأسرارها جواب عن قول اليهود: لو كان نبيا لنزل عليه الكتاب جملة، وهذا الكلام يتضمن أن هذا القرآن ليس كتابا نازلا عليه من السماء، فلا جرم قيل {لكن الله يشهد} بأنه نازل عليه من السماء، الثاني- أنه تعالى لما قال: {إنا أوحينا إليك} قال القوم: نحن لا نشهد لك بذلك، فنزل، {لكن الله يشهد} ومعنى شهادة الله: إنزال القرآن بحيث عجز عن معاضته الأولون والآخرون، أي: يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله إليك، ثم فسر ذلك وأوضح بقوله: {أنزله بعلمه} أي: متلبسا بعلمه الخاص الذي لا يعلم غيره، أو: بسبب علمه الكامل،. . .، أو: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه، أو: أنزله بما علم من مصالح العباد فيه، أو: أنزله وهو عالم به، رقيب عليه، حافظ له من شياطين الجن والإنس، {والملائكة يشهدون}. . فشهادته تستتبع شهادتهم، ومَن صدقه رب العالمين، وملائكة السموات والأرضين، لم يلتفت إلى تكذيب أخس الناس إياه {وكفى بالله شهيدا} وإن لم يشهد غيره) (٣٢٨).

١٦٧ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالا بَعِيدًا)

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا (١٦٧).

شهد الله تعالى بالحق، وأنه أرسل محمدا خاتم النبيين بالهدى ودين الحق، فمن يعرض عن هذا الرشد، أو يجحد هذا الإسلام فقد غوى، ومن يمنع الناس عن الدخول في الملة الحنيفية فقد صد عن طريق الله القويم، ومنهاجه المستقيم، فهلك وأهلك غيره، وسيحمل يوم القيامة وزره ووزر من فتنه وأضله (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) (٣٢٩).

١٦٨ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا)

{إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا} تحذير لمن جحد وبغى أن يحرم الهدى، فإن من اتخذ الشيطان وليا صده عن الرجوع إلى الحق: (كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) (٣٣٠).

١٦٩ - (إِلا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

وعيد شديد لمن نأى عن الإسلام ونهى عنه بأنه ما لم يتب فليس له في الآخرة إلا النار، مخلدا فيها، وبئس القرار، ولن يصعب هذا على الواحد القهار، ولن يعبأ سبحانه ولن يبالي بالفجرة الأشرار، فإنه المهيمن العزيز الجبار.

١٧٠ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

{يأيها الناس قد جاءكم الرسول من ربكم فآمنوا خيرا لكم} نداء وبلاغ لكل المكلفين، وشهادة بصدق النبي وقدسية هذا الدين، ودعوة للتصديق بالحق، وبشرى للمستيقنين؛ فيا معشر المكلفين، قد بعثنا محمدا إليكم كافة، وأرسلناه إليكم متلبسا بالحق الذي هو القرآن والإسلام والتوحيد، فاستيقنوا بما جاءكم يكن الإيمان واليقين بذلك خيرا لكم؛ {وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله عليما حكيما} ومن يكفر بالإيمان فلن يضر الله شيئا، - وإن تجحدوا رسالته وتكذبوا به وبما جاء به من عند ربكم فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به لن يضر غيركم، وإنما مكروه ذلك عائد عليكم دون الله الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، وذلك أن لله ما في السموات والأرض ملكا وخلقا، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من أمره، وعصيانكم إياه فيما عصيتموه فيه من ملكه وسلطانه شيئا،. . . {وكان الله عليما} بما أنتم صائرون إليه،. .، وعلى علم منه بذلك منكم أمركم ونهاكم {حكيما} يعني حكيما في أمره إياكم بما أمركم به، وفي نهيه إياكم عما نهاكم عنه، وفي غير ذلك من تدبيره فيكم وفي غيركم من خلقه- (٣٣١).

١٧١ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٧١)

{يأهل الكتاب} يا من تنتسبون إلى جنس الكتاب المنزل من قبل: التوراة والإنجيل.

{لا تغلوا} لا تُفْرِطوا، ولا تُفَرطوا، فلا تجعلوا عيسى ربا، ولا تجعلوه لغير رشدة.

{المسيح} المبارك، أو الممسوح بالبركة، أو الذي يمسح المعتل فيبرأ بإذن الله.

{وكلمته} كونه الله تعالى بكلمته الحكيمة (كن) فكان بشرا من غير أب.

{وروح منه} رحمة من الله، وبرهان، أو: روح من خلق الله سبحانه، أو: رسول منه.

{ولا تقولوا ثلاثة} لا تقولوا: آلهتنا ثلاثة، أو: هو ثالث ثلاثة، أو: الآلهة ثلاثة.

{انتهوا خيرا لكم} انتهوا من التثليث يكن الانتهاء عنها خيرا لكم.

{سبحانه} نزهوه وقدسوه وبرءوه عن كل عيب ونقص واتخاذ صاحبة أو ولد.

{يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق} هذا بيان للناس وبلاغ لليهود والنصارى المنتسبين إلى التوراة والإنجيل ومن على شاكلتهم، لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد، نهى لهم عن تجاوز الحد في الدين بالغلو فيه أو التجافي عنه، بالإفراط أو التفريط في أماناته؛ ومن الإفراط: غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، ورموا مريم الطاهرة بيوسف النجار التقي العابد؛ ولا تزعموا أن الله تعالى حل في بدن إنسان، أو اتحد بروحه، فهذا زور وباطل؛ وذهب جماعة من المفسرين إلى أن في النداء تجريدا وفي الخطاب تخصيصا، وأنه موجه إلى النصارى زجرا لهم عما عليه من الضلال البعيد، من قولهم: عيسى إله، أو، ابن إله، أو: ثالث ثلاثة؛ في صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبد الله ورسوله "؛ - بل قد غلوا في أتباع عيسى عليه السلام وأشياعه ممن زعم أنه على النصرانية فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوا سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا، ولهذا قال الله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله.) (٣٣٢). . - (٣٣٣)؛ {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} قال قتادة: هو كقوله: (. . كن فيكون) (٣٣٤)، وقال شاذ ابن يحيى: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى؛ روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم: " من شهد أن لا إله إلا الله وحده

لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل "؛ فعيسى عليه السلام ليس إلا نبيا كسائر إخوانه النبيين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. .) (٣٣٥)، (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه. .) (٣٣٦)؛ }إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون{ (٣٣٧)، وهكذا كل مراد الله تعالى يتحقق بأمره سبحانه (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (٣٣٨)، }وروح منه{ (من هاهنا) لابتداء الغاية، أي من خلقه ومن عنده، وليست للتبعيض كما تقول النصارى- عليهم لعائن الله- ومثل هذا في القرآن قول الحق جل شأنه: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه. .) (٣٣٩)، والروح قد تعني الرحمة، كما في قوله تعالى: (. . وأيدهم بروح منه. .) (٣٤٠)، وقد تعني الرسالة، كما سمى جبريل عليه السلام (روح القدس) لأنه ينزل بالوحي المقدس على من يصطفيهم الله، - وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: (. . هذه ناقة الله. .) (٣٤١)، وفي قوله: (. . وطهر بيتي للطائفين. .) (٣٤٢)،. .، وهذا كله من قبيل ونمط واحد- (٣٤٣)؛ }فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة{ فصدقوا واستيقنوا بجلال الله الذي ليس كمثله شيء، وآمنوا برسله وأنهم رجال اصطفاهم من خلقه، وبعثهم برسالاته ووحيه، فهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ليس لهم من الألوهية شيء، وعيسى واحد منهم؛ }ولا تقولوا ثلاثة{ _ هي خبر مبتدأ محذوف، أي: الله ثلاثة إن كان معتقدهم أن الذات جوهر واحد، وأنه ثلاثة بالصفات، ويسمونها: الأقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس؛ وربما يقولون: أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم

الحياة؛ أو: الآلهة ثلاثة إن كان في اعتقادهم أنها ذوات قائمة بأنفسها: الأب والأم والابن،. . - سورة الحج. من الآية ٢٦.، (ومحصول كلامهم يئول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته؛ وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلهية؛ فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلا به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلا به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضا؛ لأنهم معارَضون بموسى عليه السلام، وما كان يجري على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعبانا، وفلق البحر، واليد البيضاء، والمن والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء) (٣٤٤)؛ مما جاء في فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله،. .، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين؛ والحق ما أخبرنا الله به في القرآن؛ وما خالفه في التوراة أو الإنجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرفين وتلاعب المتلاعبين؛ ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام؛ وحاصل ما فيها جميعا أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت ألفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط، وذكر ما قاله عيسى وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتابا، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوارة ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها، وهكذا الزبور فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام؛ وكلام الله أصدق، وكتابه أحق، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم وأن الزبور كتابه آتاه داود وأنزله عليه. ا ه؛ ومما نقل صاحب روح المعاني: ذهب الملكانية أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم، وأن كل واحد منها إله، وصرحوا بإثبات التثليث، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة- سبحانه وتعالى عما يشركون- وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته وامتزجت به امتزاج الماء بالخمر، وانقلبت الكثرة وحدة، وأن المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي، وأن مريم ولدت إلها أزليا، مع اختلافهم في مريم أنها إنسان كلي أو جزئي، واتفقوا على أن اتحاد اللاهوت بالمسيح دون مريم، وأن القتل والصلب وقع

على الناسوت واللاهوت معا،. . .
ومن النسطورية من قال: إن كل واحد من الأقانيم الثلاثة حي ناطق موجود، وصرحوا بالتثليث كالملكانية، ومنهم من منع ذلك،. .، وزعموا أن الابن لم يزل متولدا من الأب، وإنما تجسده وتوحده بجسد المسيح حين ولد، والحدوث راجع إلى الناسوت، فالمسيح إله تام، وإنسان تام، وهما قديم وحديث، والاتحاد غير مبطل لقدم القديم ولا لحدوث الحادث، وقالوا: عن الصلب ورد على الناسوت دون اللاهوت،. . . . .، ومن النصارى من زعم أن معنى اتحاد اللاهوت بالناسوت: ظهور اللاهوت على الناسوت وإن لم ينتقل من اللاهوت إلى الناسوت شيء ولا حل فيه، وذلك كظهور نقش الطابع على الشمع، وحكى المؤرخون وأصحاب النقل أن أريوس أحد كبار النصارى كان يعتقد هو وطائفته توحيد الباري ولا يشرك معه غيره، ولا يرى في المسيح ما يراه النصارى، بل يعتقد رسالته، وأنه مخلوق بجسمه وروحه، ففشت مقالته في النصرانية، فتكاتبوا واجتمعوا بمدينة نقية عند الملك قسطنطين وتناظروا، فشرح أريوس مقالته، فرد عليه الأكصيدروس بَطْريق الإسكندرية، وشنع على مقالته عند الملك، ثم تناظروا، فطال تنازعهم، فتعجب الملك من انتشار مقالتهم وكثرة اختلافهم، وقام لهم البِتْرك وأمرهم أن يبحثوا عن القول المرضي، فاتفق رأيهم على شيء فحرروه وسموه بالأمانة-وأكثرهم اليوم عليها، وهي: نؤمن بالله تعالى الواحد الأب صانع كل شيء، ملك كل شيء، صانع ما يُرى وما لا يُرى، بالرب الواحد المسيح ابن الله تعالى الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوع، إله حق، من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معاشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومريم وصار إنسانا، وحُبل به وولد من مريم البتول واتجع وصلب أيام فيلاطس ودفن في اليوم الثالث،. .، ثم شرع في الرد على إفكهم، وأطال في الرد (٣٤٥)، ومما قال: قولهم: إن اللاهوت ظهر بالناسوت فصار هو هو، فأما أن يريدوا به أن اللاهوت صار عين الناسوت،. . . فيرجع إلى تجويز انقلاب الحقائق وهو محال، وإما أن يريدوا به أن اللاهوت اتصف بالناسوت فهوأيضا محال، لما ثبت من امتناع حلول الحادث بالحادث، وأما الأمانة التي هم بها متقربون وبما حوته متعبدون، فبيان اضطرابها وتناقضها وتهافتها من وجوه: الأول أن قولهم: نؤمن بالواحد الأب صانع كل شيء، يناقض قولهم: وبالرب الواحد المسيح مناقضة لا تكاد تخفى، الثاني أن قولهم إن يسوع المسيح ابن الله تعالى البكرمشعر بحدوث المسيح، إذ لا معنى لكونه ابنه إلا تأخره عنه، إذ الوالد والولد لا يكونان معا في الوجود، وكونهما معا مستحيل ببداهة العقول، لأن الأب لا يخلو إما أن يكون ولد ولداً لم يزل أو: لم يكن، فإن قالوا: ولد ولدا لم يزل، قلنا: فما ولد شيئا، إذ الابن لم يزل، وإن ولد شيئا لم يكن فالولد حادث مخلوق، وذلك مكذب لقولهم: حق من إله حق من جوهر أبيه،. .، الثالث أن قولهم إله حق من إله حق من جوهر أبيه يناقضه قول المسيح في الإنجيل: وقد سئل عن يوم القيامة فقال: لا أعرفه ولا يعرف إلا الأب وحده،. . الرابع أن قولهم إن يسوع أتقن العوالم بيده وخلق كل شيء، باطل مكذب لما في الإنجيل، إذ يقول متى: هذا مولد يسوع المسيح ابن داود، وأيضا خالق العالم لابد وأن يكون سابقا عليه، وأني بسبق المسيح وقد ولدته مريم؟ وأيضا في الإنجيل إن إبليس قال للمسيح، اسجد لي وأعطيك جميع العالم وأملكك كل شيء، ولا يزال يسحبه من مكان إلى مكان، ويحول بينه وبين مراده، ويطمع في تعبده له، فكيف يكون خالق
العالم محصورا في يد بعض العالم؟ نعوذ بالله تعالى من الضلالة،. . .، قولهم: إنما نزل لخلاص معشر الناس يريدون به آدم عليه السلام لما عصى أوثق سائر ذريته في حبالة الشيطان وأوجب عليهم الخلود في النار فكان خلاصهم بقتل المسيح وصلبه والتنكيل به، وذلك دعوى لا دلالة عليها، هب أنا سلمناها لهم، لكن يقال: أخبرونا! مم هذا الخلاص الذي تعنّى الإله الأزلي له وفعل ما فعل بنفسه لأجله؟ ولم خلصكم؟ وممن خلصكم؟ وكيف استقل بخلاصكم دون الأب والروح والربوبية بينهما؟ وكيف ابتذل وامتهن في خلاصكم دون الأب والروح؟ قولهم: ونؤمن بمعمودية واحدة لغفران الذنوب فيه مناقضة لأصولهم، وذلك أن اعتقاد النصارى أنه لم نغفر خطاياهم بدون قتل المسيح،. . ودعوه مخلص العالم من الخطيئة، فإذا آمنوا بأن المعمودية الواحدة هي التي تغفر خطاياهم وتخلص من ذنوبهم فقد حرصوا بأنه لا حاجة إلى قتل المسيح لاستقلال المعمودية بالخلاص والمغفرة فإن كان التعميد كافيا للمغفرة فقد اعترفوا أن وقوع القتل عبث، وإن كانت لا تحصل إلا بقتله فما فائدة التعميد، وما هذا الإيمان؟.! ه.

{إنما الله إلَه واحد سبحانه أن يكون له ولد} نزهوا الله تعالى وبرئوه، وقدسوه أن يتخذ صاحبة أو ولدا، - ثم أخبر جل ثناؤه عباده أن عيسى وأمه ومن في السموات ومن في الأرض عبيده وملكه وخلقه، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه، احتجاجا منه بذلك على من ادعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبدا مملوكا، فقال: {له ما في السموات وما في الأرض} يعني: لله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكا وخلقا، وهو يرزقهم ويقوتهم ويدبرهم، فكيف يكون المسيح ابنا لله وهو في السموات أو في الأرض غير خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن، وقوله: {وكفى بالله وكيلا} وحسب ما في السموات وما في الأرض بالله قيما ومدبرا ورازقا من الحاجة معه إلى غيره- (٣٤٦).

١٧٢ - (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)

{يستنكف} يتأنف، أو يعيب.

{لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون} لن يأنف المسيح العبودية لله تعالى ولن يتأبى عنها، ولن تأنف الملائكة العبودية، ولن ينقطعا عنها، وكلاهما من المقربين، وقد شهد المولى سبحانه لعيسى بأنه صاحب منزلة عالية (. . وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) (٣٤٧)، وشهد عز ذكره للملائكة بأنهم عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون.

{ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} هذا وعيد لمن تأنف عن العبودية لربه وانقطع عن أداء ما أوجب الله على العباد، وتأبى واستكبر عن الخضوع لجلال خالقه وبارئه، فإنه مردود إلى ربه، وموقوف بين يديه، ومجزي بالاستكبار في الدنيا صغارا وذلا في الآخرة (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل. .) (٣٤٨)، (. . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (٣٤٩)، (. . . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) (٣٥٠)، والحشر يجمع الله تعالى فيه المطيعين والمستنكفين، لكنه سبحانه لا يسوي بين المسلمين والمجرمين، الذين استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة، والذين تولوا عن الهدى يدعون إلى نار جهنم دعا، ويساقون إلى المحشر سوقا مهينا (. . يوم يدع الداع إلى شيء نكر. خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) (٣٥١)؛ (فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير) (٣٥٢).

١٧٣ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)

{فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله} لكن المؤمن الصالح يجزى ثواب ما عمل في دنياه جزاء موفورا، ويتفضل عليه مولانا البر الرحيم بمزيد من المثوبة والرضوان والتكريم: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (٣٥٣)؛ {وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} ومن تأبى وتأنف عن عبادة ربه في الدنيا وانقطع عن طاعته وتعظم عنها فيحشر أعمى، ويغل ويسلسل في جهنم يصلاها مذموماً مدحورا، وعذابه فيها موجع شديد دائم، وما له من يخلصه أو يدفع عنه ما أحله الله به (والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣٥٤).

١٧٤ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (١٧٤)

ينادي الناس ويخاطبون بالرسالة الخاتمة، لأنها الرسالة التامة: (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا. .) (٣٥٥)، (وما أرسلناك إلا كافة للناس. .) (٣٥٦)، والبرهان: ما يبرهن به على المطلوب، وقد جاءنا عن ربنا السلطان والحجة والبيان، في آيات كونية وتنزيلية، بشر بها ودعا إليها السراج المنير، خاتم النبيين (. . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) (٣٥٧)، وعن الثوري: البرهان يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، لأن معه البرهان وهو المعجزة؛ وعن الحسن: النور المبين هو القرآن، لأن به تتبين الأحكام ويهتدي به من الضلالة، فهو نور مبين، أي: واضح بين؛ ويحتمل أن يراد بالنور والبرهان كليهما القرآن

١٧٥ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

{فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما} قال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن، وقال ابن كثير: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، ونقل الحسن النيسابوري: {آمنوا بالله} في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، {واعتصموا به} تمسكوا بدينه، أو لجأوا إليه في أن يثبتهم على الإيمان، ويصونهم عن زيغ الشيطان، {فسيدخلهم في رحمة منه} المؤمنون بالله المعتصمون بمنهاجه وكتابه سيدخلهم الله تعالى جنته ودار كرامته، {وفضل} وإحسان لا يشبه إحسان، يمنحونه فوق ما متعوا به من نعيم، {ويهديهم إليه صراطا مستقيما} يهديهم ربهم بإيمانهم- وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات- (٣٥٨).

١٧٦ - (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (١٧٦)

قال البخاري عن أبي إسحق قال: سمعت البراء قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت {يستفتونك}، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب علي فعقلت فقلت إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض، وأخرج مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: " ما تكفيك آية الصيف التي في آخرها النساء "؟ وأخرج البخاري ومسلم عن عمر قال: ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهن عهدا ننتهي إليه الجد والكلالة وأبواب من الربا، والمراد بالولد هنا: الابن، وهو أحد معنيي المشترك، لأن البنت لا تسقط الأخت، وثبت في الصحيح أن معاذا قضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنت وبنت ابن وأخت فجعل للبنت النصف وللأخت النصف، وثبت في الصحيح أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في بنت وبنت ابن وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي؛ فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت.

{يستفتونك} يسألك أصحابه يا محمد سؤال تعلم، ويطلبون بيان ما أشكل من حكم ميراث الكلالة، {قل الله يفتيكم في الكلالة} قل لأصحابك وسائليك وكل من يقال له: الله يحكم فيما أشكل عليكم من ميراث من لا ولد له ولا والد؛ قال الفراء: الكلالة من القرابة ما خلا الوالد والولد، سموا كلالة لاستدارتهم بنسب الميت، الأقرب فالأقرب، من تكلله النسب إذا استدار به، وسمعته مرة يقول: الكلالة من سقط عنه طرفاه، وهما أبوه وولده؛ فكل من مات ولا والد له ولا ولد فهو كلالة ورثته، وكل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد له فهو كلالة مورثه؛ وهذا مشتق من جهة العربية موافق للتنزيل والسنة؛ فالكلالة ههنا الأخت للأب والأم، والأخوة للأب والأم، فجعل الأخت الواحدة نصف ما ترك الميت، والأختين الثلثين، والأخوة والأخوات جميع المال بينهم، للذكر مثل حظ الأثنيين؛ أما في الآية الثانية عشرة من هذه السورة الكريمة: {وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث} فإن الكلالة تعني: الإخوة والأخوات لأم، لكن هنا تنصرف إلى الإخوة الأشقاء-

الإخوة لأب وأم- والأخوات الشقيقات كذلك.
{إن امرؤ هلك} إن مات امرؤ صفته أنه لا ولد له، أو مات حال كونه لا ولد له، {وله أخت} من الأبوين أو من الأب، لأن الأخت من الأم فرضها السدس، كما بين الله تعالى في الآية رقم ١٢.
{. . وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس}، {فلها نصف ما ترك} - أي بالفرض والباقي للعصبة، أو: لها بالرد إن لم يكن له عصبة، والفاء واقعة في جواب الشرط {وهو} أي المرء المفروض {يرثها} أي: أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقائه، والجملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب؛ وقد سدت- كما قال أبو البقاء- مسد جواب الشرط في قوله تعالى: {إن لم يكن لها ولد} ذكرا كان أو أنثى، فالمراد بإرثه لها إحراز جميع مالها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية، لا إرثه لها في الجملة، فإنه يتحقق مع وجود بنتها، والآية كما لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على سقوطهم به، وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب، إذ صح عنه صلى الله عليه وسلم: " ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي عصبة ذكر " ولا ريب في أن الأب أولى من الأخ، وليس ما ذكر بأول حكمين بُين أحدهما بالكتاب والآخرُ بالسنة. هو الضمير لمن يرث بالإخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وحكم ما فوق الاثنتين كحكمهما، . .، وذكر أبو حيان لتخريج الآية وجهين: الأول أن ضمير كانتا لا يعود على الأختين بل على الوارثين، وثم صفة محذوفة لاثنتين، والصفة مع الموصوف هو الخبر، والتقدير: {فإن كانتا} أي: الوارثتان {اثنتين} من الأخوات، فيفيد إذ ذاك الخبر ما لا يفيده الاسم، وحذف الصفة لفهم المعنى جائز؛ والثاني أن يكون الضمير عائدا على الأختين- كما ذكروا- ويكون خبر {كان} محذوفا لدلالة المعنى عليه وإن كان حذفه قليلا، ويكون اثنتين حالا مؤكدة، والتقدير: فإن كانتا أي الأختان له، أي للمرء الهالك، ويدل على حذف له: {وله أخت}؛ {وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين} أصله: وإن كانوا إخوة وأخوات، فغلب المذكر بقرينة {رجالا ونساء} الواقع بدلا،. . {يبين الله لكم} حكم الكلالة، أو: أحكامه وشرائعه التي من جملتها حكمها،. . {أن تضلوا} كراهة أن تضلوا في ذلك،. . وذهب الكسائي والفراء وغيرهما. . إلى تقدير اللام ولا في طرفَيْ {أن} أي: لئلا تضلوا- (٣٥٩)؛ {والله بكل شيء عليم} والله تعالى محيط علمه بجميع الأشياء، فهو قد شرع وقدره بحكمة وخبرة وعلم.
ختم السورة ببيان كمال العلم، كما أنه ابتدأها ببيان كمال القدرة، وبهما يحصل الترهيب والترغيب للعاصي والمطيع؛ نسأل الله العون على ذكره وشكره وحسن عبادته، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر اللهم آمين.

٥ سورة المائدة:

سورة المائدة:
مدنية
وآياتها عشرون ومائة
كلماتها: ٢٠٤٨ حروفها: ١١٧٣٣
١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)
يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد (١)
{أوفوا} أتموا، أدوا وافيا. {العقود} ما تعاقدتم وتواثقتم عليه.
{بهيمة} ما استبهم من الحيوان. {الأنعام} الإبل والبقر والغنم.
{مُحلي الصيد} مستحلين صيده. {حُرم} محرمون أو على حال الإحرام.
قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل ليس فيها منسوخ، وفيها ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها؛ وهي: {المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع}، {وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام}، {وما علمتم من الجوارح مكلبين}، {وطعام الذين أوتوا الكتاب}، {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} وتمام الطهور {وإذا قمتم إلى الصلاة}، {والسارق والسارقة}، {. . لا تقتلوا

الصيد وأنتم حرم} إلى قوله: {عزيز ذو انتقام} و {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}، وقوله تعالى: {شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت} الآية:. . وفريضة تاسعة عشرة وهي قوله جل وعز: {وإذا ناديتم إلى الصلاة} ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة (الجمعة) فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات.

{يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} قال ابن عباس:. . {أوفوا بالعقود} يعني: ما أحل وما حُرم، وما فُرض وما حُد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد ذلك فقال: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (١).

قال ابن زيد في قوله: {يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} قال: عقد العهد وعقد اليمين وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد النكاح، قال: هذه العقود خمس، وقال ابن جرير: يأيها الذين آمنوا أقروا بوحدانية الله وأذعنوا له بالعبودية، وسلموا له الألوهية، وصدقوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه {أوفوا بالعقود} يعني أوفوا بالعهود التي عاهدتموها ربكم، والعقود التي عاقدتموها إياه وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقا، وألزمتم أنفسكم بها لله فروضا فأتموها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموه منكم أوجبتموه له على أنفسكم، ولا تنكثوها فتنقضوها بعد توكيدها.

قال الزجاج: أوفوا بعقد الله عليكم، وبعقدكم بعضكم على بعض، والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل، {أحلت لكم بهيمة الأنعام} البهيمة: اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها، والأنعام: اسم (٢) للإبل والبقر والغنم، {إلا ما يتلى عليكم} إلا ما يقرأ (٣) عليكم تحريمه في القرآن العظيم، كقول المولى سبحانه: {حرمت عليكم الميتة} وفي السنة كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في صحيحه: " كل ذي ناب من السباع فأكله حرام "، {أحلت} جعلها الله تعالى حلالا، وفيه إبطال لافتراء المفترين الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والذين كانوا يقولون: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء، وقد أزهق الحق إفكهم، وأسقط الكتاب العزيز كذبهم، فقال مولانا سبحانه: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) (٤)؟! {غير محلي الصيد وأنتم حرم} أي لا محلين الصيد (٥) في حالة الإحرام، وفي الحرم (٦)، و {حرم} قيل: مفرد يستوي فيه الواحد والجمع، كما يقال: قوم جنب، قال الجوهري: رجل حرام أي مُحْرِم، والجمع: حُرُم، {إن الله يحكم ما يريد} المولى الذي لا رب غيره ولا إله سواه حكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، يشرع ما يشاء كما يشاء، لا معقب لحكمه.

عن قتادة: يُحكِم ما أراد في خلقه، وبين لعباده، وفرض فرائضه، وحد حدوده، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته، - فأوفوا أيها المؤمنون بما عقد عليكم من تحليل ما أحل لكم، وتحريم ما حرم عليكم، وغير ذلك من عقود، فلا تنكثوها ولا تنتقضوها- (٧).

٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{لا تُحلوا} لا تعدوها مما يحل نيله.

{شعائر} معالم الحج، وشرائع الله، وهدى الكعبة.

{الشهر الحرام} مفرد يراد به الجمع، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

{الهدى} ما أهدى إلى البيت الحرام من ناقة أو بقرة أو شاة.

{القلائد} ما علق على أسنمة الهدايا وأعناقها علامة أنه لله سبحانه.

{آمين} قاصدين. {يبتغون} يرجون ويطلبون.

{وإذا حللتم} صرتم إلى حال الإحلال بعد أن كنتم محرمين.

{لا يجرمنكم} لا يحملنكم. {شنآن} بغض وكره.

إن صدوكم} أن منعوكم، لأجل منعكم.

{تعاونوا} ليعن بعضكم بعضا. {البر} الخير والمعروف.

{التقوى} أداء المأمورات واجتناب المنهيات.

{الإثم} الذنب المترتب على الجريمة. {العدوان} ظلم الناس.

{اتقوا الله} خافوه وأطيعوه.

{يأيها الذين آمنوا لا تحلو شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا} عن عطاء وقد سئل عن {شعائر الله} فقال: حرمات الله، اجتناب سخط الله، واتباع طاعته، فذلك شعائر الله؛ وعن ابن عباس قال: كان المشركون يحجون البيت الحرام، ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر ويتجرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال الله عز وجل: {لا تحلوا شعائر الله}، ومما قال ابن جرير: لا تستحلوا أيها الذين آمنوا معالم الله، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج من تحريم ما حرم الله إصابته فيها على المحرم، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيها، وفيما حرم من استحلال حرمات حرمه وغير ذلك من حدوده وفرائضه، وحلاله وحرامه، لأن كل ذلك من معالمه وشعائره التي جعلها أمارات بين الحق والباطل، يعلم بها حلاله وحرامه، وأمره ونهيه؛ وإنما قلنا: ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى: {لا تحلوا شعائر الله}، لأن الله نهى عن استحلال شعائره، ومعالم حدوده وإحلالها، نهيا عاما من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء، فلم يجز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها؛ ولا حجة بذلك كذلك. ا ه.

{ولا الشهر الحرام} نهى عن استحلال جنس الشهر الحرام، والأشهُر الحرم- كما هو معلوم- أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ واستحلالها يكون بالقتال فيها؛ {ولا الهدي ولا القلائد} الهدي: ما أهدى إلى الكعبة وتَقرب به إلى الله تعالى من النسائك- الذبائح- ومفرده هدْية، مع قلادة، وهي ما يقلد به الهدي من نعل أو حبل أو غيره؛ عن مجاهد قال: القلائد: اللحاء في رقاب الناس والبهائم أمن لهم؛ وعن السدي: كان العرب يتقلدون من لحاء شجر مكة، فيقيم الرجل بمكانه، حتى إذا انقضت الأشهر الحرم فأراد أن يرجع إلى أهله قلد نفسه وناقته من لحاء الشجر، فيأمن حتى يأتي أهله؛ نهى من الله جل ذكره عن استحلال حرمة المقَلد، هديا كان ذلك أو إنسانا؛ {ولا آمين البيت الحرام} ولا تحلوا قاصدين البيت الحرام؛ {يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا} يلتمسون إذا قصدوا المسجد العتيق أرباحا في تجارتهم وأن يرضى الله عنهم بحجهم؛ - نسخ الله من هذه الآية قوله: {ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام} لإجماع الجميع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها، كذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أمانا من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان- (٨).

عن قتادة في قوله: {يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا} قال: هم المشركون يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم؛ وفي رواية عنه: والفضل والرضوان اللذان يبتغون: أن يصلح معايشهم في الدنيا، وأن لا يعجل لهم العقوبة فيها؛ {وإذا حللتم فاصطادوا} - الصيد الذي نهيتكم أن تُحِلوه وأنتم حرم. . فلا حرج عليكم في اصطياده واصطادوا إن شئتم حينئذ- (٩)؛ {ولا يجرمنكم} لا يحملنكم؛ {شنآن قوم} عن ابن عباس: لا يحملنكم بغض قوم؛ {أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا} (لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام- وذلك عام الحديبية- على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلما وعدوانا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}، وقال بعض السلف: ما عاملت مَن عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض) (١٠)؛ {وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} وصانا الله تعالى أن يعين بعضنا بعضا على كل حق وخير ورشد (١١)، وعلى كل طاعة وقربة، ونهى سبحانه أن يُعين أحد أحدا على ذنب ووزر وخطيئة، أو على جور وبغي وعدوان.

روى البخاري وغيره عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما "، قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوما، فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: " تحجزه وتمنعه عن الظلم فذاك نصره "؛ {واتقوا الله إن الله شديد العقاب} - وهذا وعيد من الله جل ثناؤه وتهديد لمن اعتدى حده، وتجاوز أمره؛ يقول عز ذكره: {واتقوا الله} يعني: واحذروا الله أيها المؤمنون أن تلْقَوه في معادكم وقد اعتديتم حده فيما حد لكم، وخالفتم أمره فيما أمركم به، أو نهيه فيما نهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليم عذابه، ثم وصف عقابه بالشدة، فقال عز ذِكْره: إن الله شديد عقابه لمن عاقبه من خلقه، لأنها نار لا يطفأ حرها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهبها، نعوذ بالله منها ومن عمل يقربنا منها- (١٢).

٣ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم (٣)

{الميتة} ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد.

{الدم} السائل الأحمر المعروف، ولو كان من الأنعام أو مما يحل أكله من الصيد.

{ولحم الخنزير} لحم الحيوان المسمى بهذا الاسم، ويلحق باللحم جميع أجزاء ذلك الحيوان.

{وما أهل لغير الله} ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله.

{المنخنقة} التي تموت بالخنق. {الموقوذة} التي تضرب بشيء ثقيل حتى تموت.

{المتردية} التي تقع من شاهق أو موضع مرتفع فتموت.

{النطيحة} التي تموت بسبب نطح غيرها لها.

{ما أكل السبع} ما عدا عليها وحش فأكل بعضها فماتت.

{إلا ما ذكيتم} إلا ما ذبحتم ذبحا شرعيا.

{وما ذبح على النصب} ما يذبح عند الأصنام.

{وأن تستقسموا بالأزلام} أن تطلبوا القسم مِن القِداح.

{ذلكم فسق} ارتكاب أي من تلك المحرمات ذنب عظيم وخروج عن طاعة الله.

{يئس} انقطع رجاؤهم. {فلا تخشوهم} لا تخافوا جمعهم وعُدتهم.

{اضطر في مخمصة} دعته ضرورة الجوع إلى أكل شيء من تلك المحرمات.

{غير متجانف لإثم} غير مائل لذنب وحرام.

في الآية الأولى من هذه السورة الكريمة شرع الله تعالى إباحة أكل لحوم الأغنام من الإبل والبقر والغنم، عدا ما سيتلى من الوحي المنزل في النهي عن بعض مِن هذه المطعومات، فقال تقدست أسماؤه: {حرمت عليكم الميتة} وهي ما مات (١٣) من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة- ذبح بالكيفية المرتضاة شرعا- والأزواج الثمانية: الإبل، البقر، الضأن، المعز، ذكورها وإناثها؛ أو من غير اصطياد فيما يحل صيده؛ {والدم} هو ذاك الخليط المعروف، حرم الله تعالى أكله مهما كان الحيوان الذي انفصل عنه هذا الخليط، وقد جاء

تحريمه ههنا مطلقا، لكنه قيد في قول المولى تباركت آلاؤه: (قل لا أجد فيما أوحي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا.) (١٤): ومعلوم أن المطلق يحمل على المقيد؛ - فأما ما كان قد صار في معنى اللحم، كالكبد والطحال، وما كان في اللحم غير منسفح (١٥)، فإن ذلك غير حرام لإجماع الجميع على ذلك- (١٦)؛ {ولحم الخنزير} وحرم عليكم أيها المؤمنون أكل لحم الخنزير (١٧)، أهليه وبريه، واللحم يعم جميع أجزائه؛ {وما أهل لغير الله به} ما ذكر عند ذبحه اسم غير الله، فهو حرام؛ {والمنخنقة} قال السدي: هي التي يدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتموت؛ والخنق: حبس النفَس سواء فعل بها ذلك آدمي (١٨)، أو اتفق لها ذلك، في حبل أو بين عودين أو نحوه، فإنها لا تحل لآكل؛ {والموقوذة} عن الضحاك: التي تضرب حتى تموت (١٩)؛ {والمتردية} - حرمت عليكم الميتة ترديا من جبل أو في بئر أو غير ذلك، وترديها: رميها بنفسها من مكان عال مشرف إلى أسفله؛. . {والنطيحة}. . الشاة التي تنطحها من النطاح بغير تذكية، فحرم الله جل ثناؤه ذلك على المؤمنين إن لم يدركوا ذكاته قبل موته- (٢٠)؛ {وما أكل السبع} أي: وحرم الله تعالى عليكم أن تأكلوا مما أكل الوحش والحيوان المفترس منه، فإن أكل السبع- كالأسد والنمر والثعلب والذئب ونحوها- من بهيمة بعضها فماتت بذلك فهي حرام؛ {إلا ما ذكيتم} (إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي.

وروى عن عمر. . ألا إن الذكاة في الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق؛ وفي الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي العشراء الدرامي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: " لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك " وهو حديث صحيح، لكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة؛ وقوله تعالى: {وما ذبح على النصب} كانت النصب حجارةً حول الكعبة،. . كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله؛. . . ينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله؛ وقوله تعالى: {وأن تستقسموا بالأزلام} أي: حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها زلم،. . .، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك؛ وهي عبارة عن قداح ثلاثة على أحدها مكتوب افعل، وعلى الآخر لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء،. .، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام) (٢١)؛ في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام (٢٢)، فقال: " قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا "؛ وهكذا فالاستقسام بالأزلام هو الحادي عشر مما حرم الله تعالى في هذه الآية؛ - وإنما ذكر مع الذبح على النصب لأنهم كانوا يفعلون كلا منهما عند البيت كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوا أو تجارة أو نكاحا. . . ضرب القداح- (٢٣).

{ذلكم فسق} الإشارة إما إلى أقرب مذكور، وهو الاستقسام بالأزلام، وإما أن تكون إلى جميع ما ذكر من استحلال أي شيء من الأحد عشر، فكل شيء منها فسق وخروج من الحلال إلى الحرام، - والانكفاف عن هذه المحرمات من الوفاء بالعقود؛ إذ قال: {أوفوا بالعقود}؛ {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم} يعني أن ترجعوا إلى دينهم كفارا؛ قال الضحاك: نزلت هذه الآية حين فتح مكة؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع،. . .، ودخلها ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا من قال لا إله إلا الله فهو آمن، ومَن وضع السلاح فهو آمن؛ ومن أغلق بابه فهو آمن؛. . . {فلا تخشوهم واخشوني} أي: لا تخافوهم وخافوني فإني أنا القادر على نصركم؛. . {اليوم أكملت لكم دينكم} وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حج؛ فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية: {اليوم أكملت لكم دينكم} الآية؛ على ما نبينه؛ وروى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا؛ قال: وأي آية؟ قال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة في يوم جمعة؛ لفظ مسلم؛ وعند النسائي: ليلة جمعة؛. . . وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة؛ قلت: القول الأول أصح، أنها نزلت في يوم

جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته (العضباء)، فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت؛ و {اليوم} قد يعبر بجزء منه عن جميعه، وكذلك عن الشهر ببعضه، تقول: فعلنا في شهر كذا كذا. .، ومعلوم أنك لم تستوعب الشهر. .؛ والدين عبارة عن الشرائع التي شرع وفتح لنا؛ فإنها نزلت نجوما (٢٤) وآخرها ما نزل منها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حكم، قال ابن عباس والسدي؛ وقال الجمهور: المراد معظم الفرائض والتحليل والتحريم- (٢٥)؛ {ورضيت لكم الإسلام دينا} واخترت لكم الشرع الكامل القويم، دينونة وطاعة منكم لي، وأخبرتكم برضاي به لكم، فإنه سبحانه لم يزل راضيا لأمة خاتم أنبيائه محمد صلوات ربنا عليه وسلامه بالإسلام (فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره (٢٦)،. . . {فمن اضطر في مخمصة} هذا متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض، أي: من دعته الضرورة في {مخمصة} أي: مجاعة، إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات) (٢٧)؛ {غير متجانف لإثم} غير مائل لحرام، غير ظالم بفعله، وغير متعد ما حُد له؛ {فإن الله غفور رحيم} - في هذا الكلام متروك، اكتفى بدلالة ما ذكر عليه منه، وذلك أن معنى الكلام: فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية غير متجانف لإثم فأكله فإن الله غفور رحيم، فترك ذكر فأكله وذكر له الدلالة سائر ما ذكر من الكلام عليهما، وأما قوله: {فإن الله غفور رحيم} فإن معناه: فإن الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية أكله في مخمصة غير متجانف لإثم غفور رحيم، يقول: يستر له عن أكله ما أكل من ذلك بعفوه عن مؤاخذته إياه، وصفحه عنه وعن عقوبته عليه، {رحيم} يقول: وهو به رفيق، من رحمته ورفقه به أباح له أكل ما أباح له أكله من الميتة وسائر ما ذكر معها في هذه الآية في حال خوفه على

نفسه من كَلَب الجوع وضُر الحاجة العارضة ببدنه- (٢٨).

٤ - (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{الجوارح} الكلاب والطير الجارح. {مكلبين} معلمين لها الصيد.

{أمسكن عليكم} حبسن لكم.

{يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين} يسألك المؤمنون أيها النبي يقولون: أي شيء أحل الله تعالى لهم من المطاعم؟ (أو الذي أحل لهم من المطاعم إجمالا، ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم) (٢٩)؟؛ فبلغهم أني أحللت لهم ما ليس بخبيث منها؛ - وهو ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد، أو: أحل لكم كل ما يستلذ ويشتهى عند أهل المروءة والأخلاق الجميلة- (٣٠)؛ {وما علمتم من الجوارح مكلبين} فكأن المعنى: وأحل لكم أكل صيد ما علمتموه من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد، والبازي والصقر؛ وجرح في اللغة تأتي بمعنى كسب، ومنه قول مولانا تقدست أسماؤه: (. . ويعلم ما جرحتم بالنهار. .) (٣١) أي ما كسبتم في النهار؛ (وانتصاب {مكلبين} على الحال من {علمتم}، وفائدة هذه الحال مع الاستغناء عنها ب {علمتم} أن معلم الجوارح ينبغي أن يكون ماهرا في علمه، مدربا فيه، موصوفا بالتكليب،. . . والجمهور على أن الجوارح يدخل فيه ما يمكن الاصطياد به من السباع؛ قالوا: المكلب: مؤدب الجوارح ورائضها لأنها تصطاد لصاحبها، وإنما اشتق من الكلب لكثرة هذا المعنى في جنسه، أو لأن كل سبع يسمى كلبا، كقوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " فأكله الأسد، أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة،. . وهب أن المذكور في الآية إباحة الصيد بالكلب، لكن تخصيصه بالذكر لا ينفي حل غيره لجواز الاصطياد بالرمي وبالشبكة ونحوها مع سكوت الآية عنها؛ {تعلمونهن} حال ثانية، أو استئناف {مما علمكم الله} من علم التكليب، لأن بعضه إلهام من الله) (٣٢)؛ {فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه} روى البخاري ومسلم عن أبي ثعلبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله " (٣٣)؛ {واتقوا الله إن الله سريع الحساب} -يعني جل ثناؤه: واتقوا الله أيها الناس فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه فاحذروه في ذلك أن تقدموا على خلافه، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة، أو مما تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تَطعَموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان

وعبدة الأصنام ومن لم يوحد الله من خلقه، أو ذبحوه، فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه، ثم خوفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره، فقال: اعلموا أن الله سريع حسابه لمن حاسبه على نعمته عليه منكم، وشكر الشاكر منكم ربه على ما أنعم به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى، لأنه حافظ لجميع ذلك فيكم، فيحيط به، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازي المطيع منك بطاعته، والعاصي بمعصيته، وقد بين لكم جزاء الفريقين. .

٥ - (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{الطيبات} اللذائذ المباحة.

{وطعام الذين أوتوا الكتاب} ذبائح أهل الكتاب اليهود والنصارى ومآكلهم.

{المحصنات من المؤمنات} العفائف، أو الحرائر

{المحصنات من الذين أوتوا الكتاب} العفائف أو الحرائر من اليهوديات والنصرانيات.

{أجورهن} مهورهن. {مسافحين} معاهرين زانين.

{أخدان} معشوقات.

{اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم}. . . اليوم أحل الله لكم أيها المؤمنون الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها؛ وقوله: {وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم}، وذبائح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أوتوا التوراة والإنجيل وأنزل عليهم فدانوا بهما أو أحدهما {حل لكم} يقول: حلال لكم أكله دون ذبائح سائر أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وعبدة الأوثان والأصنام، فإن من لم يكن منهم ممن أقر بتوحيد الله عز ذِكْرُه، ودان دين أهل الكتاب فحرام عليكم ذبائحهم- (٣٤)؛ {وطعامكم حل لهم} كما أحل المولى لنا أن نأكل من طعام أهل الكتاب أحل لهم أن يأكلوا من طعامنا؛ {والمحصنات من المؤمنات} وأحل الله تعالى لنا أن نتزوج من الحرائر العفيفات من أهل الإيمان بالدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم-صلى الله عليه وسلم- ولعل ذكر هذا الحكم كالتمهيد لذكر الحكم الذي بعده: {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} فكأن المعنى: وأحل لكم أن تتزوجوا من النساء الحرائر العفيفات ممن أنزل عليهم كتاب سماوي قبل الذي أنزل عليكم؛ قال مجاهد: المحصنات: الحرائر؛ والجمهور على أن المحصنات: العفيفات (لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل- حشفا وسوء كيلة-؛ والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: (. . محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان. .) (٣٥).

عن ابن عباس: نزلت هذه الآية: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن. .) (٣٦)، قال: فحجز الناس عنهن، حتى نزلت الآية التي بعدها {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} فنكح الناس نساء أهل الكتاب،. . فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة. . إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) (٣٧)؛ {إذا آتيتموهن أجورهن} أي: إذا أعطيتموهن مهورهن، وجواب إذا محذوف، أي: فهن حلال؛ {محصنين غير مسافحين} أذن الله تعالى بالتزوج من العفيفة وعهد إلى الزوج أن يكون عفيفا غير مستعلن بالزنا، {ولا متخذي أخدان} ولا متخذا خليلة وخدنا ومعشوقة يستسر بمعاهرتها؛ والخدن يقع على الذكر والأنثى؛ {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} والذي يجحد شرائع الإسلام، وينكر ما يجب الإيمان به والإذعان له يبطل ثواب ما عمل، مهما ظن أنه قربة إلى المولى سبحانه؛ {وهو في الآخرة من الخاسرين} وهذا الجاحد المتجافي عما أوحى الله من أمانات هذا الدين، يسلمه جحوده وإنكاره إلى الخسران والهلاك والبوار، في الآخرة دار القرار.

٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماءا فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦)

{وجوهكم} ما واجه من بدن الإنسان من تسطيح الجبهة إلى منتهى الذقن طولا، ومن الأذن إلى الأذن عرضا.

{الكعبين} العظمين الناتئين البارزين من جانبي الساق، ففي كل رجل كعبان.

{المرافق} المواصل، واحدها مرفق، وهو موصل الذراع في العضد.

{جنبا} ذوي جنابة بسبب الجماع أو خروج المني.

{فاطهروا} فتطهروا بالاغتسال وتعميم البدن بالماء.

{الغائط} الأحداث الخارجة من المخرجين- القبل والدبر- سميت الأحداث بذلك لأن مكانها إذ ذاك كان الغيطان ليغيبوا فيها عن أعين الناس.

{لامستم} جامعتم، أو التقى جلدكم ومس شيئا من جلد المرأة.

{فتيمموا} فاقصدوا. {صعيدا طيبا} ما صعد على وجه الأرض طاهرا.

{حرج} ضيق ومشقة.

{يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين} عهد الله تعالى إلى أهل الإيمان كلما أرادوا القيام إلى الصلاة ولم يكونوا على طهر أن يتوضؤوا فيغسلوا وجوههم- واحدها وجه-وهو العضو من الإنسان الذي يواجه من يقابله، والذي يحده من أعلى: منابت شعر الرأس ومن أسفل ملتقى عظام الفكين، وحده عرضا ما بين الأذنين- ويغسلوا أيديهم من أصابع الكفين إلى عظم المرفقين- المفصلين اللذين يصلان الذراع بالعضد؛ وأن يمسحوا بالماء بعض رءوسهم، ويغسلوا أرجلهم حتى العظمتين البارزتين على جانبي كل من الساقين؛ وهذه آية الوضوء؛ قال ابن عطية: لكن من حيث كان الوضوء متقررا عندهم مستعملا، فكأن الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التيمم؛ قال القرطبي؛ ومضمون هذه الآية داخل فيما أمر به من الوفاء بالعقود وأحكام الشرع، وفيما ذكر من إتمام النعمة؛ فإن هذه الرخصة من إتمام النعم؛ وأورد النيسابوري في تفسير الآية ثمانيا وستين مسألة؛ ومما نقل ابن كثير: فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث واجب، وفي حق المتطهر ندب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله، قال: " إني عمدا فعلته يا عمر " رواه مسلم وأهل السنن،. . أما مشروعيته استحبابا فقد دلت السنة على ذلك، فعن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث؛ وقد رواه البخاري وأهل السنن؛. . .، ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده "؛. . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق؛. . . وقوله: {وأيديكم إلى المرافق} أي: مع المرافق، كما قال تعالى: (. . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا) (٣٨)؛ ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه، لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أمتي يُدْعُونَ يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل "، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ". . .
ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس. . . أو إنما يستحب مسحة واحدة. . . لحديث حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثا فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثا ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم قدمه اليمنى ثلاثا، ثم قدمه اليسرى ثلاثا مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: " من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه " أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين. ا ه.
{وإن كنتم جنبا فاطهروا} ما تقدم من الآية الكريمة بين طهور من أحدث حدثا أصغر يكفيه الوضوء، وأما من صار جنبا لإنزاله المني، أو جماعه للمرأة فقد أحدث حدثا أكبر فعليه أن يتطهر بالاغتسال الذي هو تعميم البدن بالماء، ويتحتم هذا إذا حل وقت الصلاة، ويلحق بالجنب الحائض والنفساء إذا انقطع الحيض والنفاس وحل وقت الصلاة؛ {وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه} روى البخاري عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فثنى رأسه في حجري راقدا، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة، فتمنيت الموت لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مني، وقد أوجعني، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت {يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم} إلى آخر الآية، فقال أسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم؛ وعن ابن مسعود: المريض الذي قد أرخص له في التيمم هو الكسير والجريح؛ وأولها ابن جرير فقال: وإن كنتم جرحى أو بكم قروح أو كسر أو علة لا تقدرون معها على الاغتسال من الجنابة وأنتم مقيمون غير مسافرين فتيمموا،. . . وإن كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب فتيمموا. . أو جاء أحد منكم من الغائط قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح فليتيمم. . عن ابن عباس: الملامسة الجماع، ولكن الله كريم يكني عما شاء،. {فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه} فإن لم تجدوا أيها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم مرضى مقيمون، أو على سفر أصحاء، أو قد جاء منكم من قضاء حاجته، أو جامع أهله في سفره ماء. . فتعمدوا واقصدوا وجه الأرض طيبا يعني طاهرا نظيفا غير قذر ولا نجس جائزا لكم حلالا. . فاضربوا بأيديكم الصعيد الذي تيممتموه. . بأيديكم فامسحوا بوجوهكم وأيديكم مما علق بأيديكم منه ا ه.
{ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج} ربنا المعبود الذي لا إله سواه إنما يريد بنا اليسر ولا يريد أن يجعل علينا في شريعته السمحة ما فيه ضيق ومشقة، فجعل تراب الأرض لنا طهورا؛ {ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم} ليطهركم من الأحداث والأنجاس، وينقيكم من الخطايا والذنوب، وليتم النعمة بالهداية إلى الحق، والنعيم في جنة الخلد؛ {لعلكم تشكرون} نعمته، فتظفروا بثواب الشاكرين في الدنيا ويوم الدين؛ وهكذا فالطهارة شرط لصحة الصلاة، فقد روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يقبل الله صدقة من غلول ولا صلاة بغير طهور "، وروى كذلك عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض والصوم جنة والصبر ضياء والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ".
٧ - (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
{ميثاقه} عهده الذي وثقتموه وأكدتموه.
{ذات الصدور} صواحب الصدور، وهي القلوب.
{واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا} - يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا

الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه، وإبلاغه عنه، وقبوله منه،. . وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله؛ وقال الله تعالى: (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) (٣٩) - (٤٠).

{واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} وصية من ربنا الملك المهيمن بالتقوى، وفاء بعهده، وقياما ببعض حقه، وحذرا من سرائرنا على توجه إلا إليه.

٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{قوامين لله} ناهضين بالحق لأجل ثواب الله، كثيري القيام بأداء أماناته.

{شهداء بالقسط} تشهدون بالعدل.

{ولا يجرمنكم شنآن قوم} لا يحملنكم بغض جماعة من الناس.

{يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط} يدعونا ربنا لننهض بحقوقه، ونحرص على القيام بأماناته، فلنقم في أنفسنا بالقربان والعبادات وفي غيرنا بالوصية بالخير، والنهي عن الشر، وإشاعة الرشد والبر، ابتغاء مرضاة مولانا سبحانه وثوابه، ولنشهد بالعدل دون حيف أو جور؛ قال: عطاء: لا تحاب في شهادتك أهل ودك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعدائك وأضدادك؛ وقال الزجاج: بينوا دين الله، لأن الشاهد يبين ما يشهد عليه؛ {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا} (أمر جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدا إلا على سبيل العدل والإنصاف، ويتركوا الظلم والاعتساف،. . أي: لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا، أي فيهم، فحذف للعلم، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا فقال: {اعدلوا} ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل فقال: {هو} أي العدل الذي دل عليه {اعدلوا}، {أقرب للتقوى} أي إلى الاتقاء من عذاب الله، أو من معاصيه؛ وقيل: المراد سلوك سبيل العدالة مع الكفار الذين صدوا المسلمين عن البيت، بأن لا يقتلوهم إذا أظهروا الإسلام، أو لا يرتكبوا ما لا يحل من مُثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء، أو نقض عهد، أو نحو ذلك؛ وفي هذا تنبيه على أن العدل مع أعداء الله إذا كان بهذه المكانة، فكيف يكون مع أوليائه وأحبائه؟!

٩ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

{الصالحات} الطاعات والقربات الموافقة لشرع الله تعالى.

{مغفرة} ستر للخطايا، وصفح عن المعاقبة عليها، والمؤاخذة بها.

ثم ختم الكلام بوعد المؤمنين) (٤١).

١٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

{أصحاب الجحيم} ملازموا النار العظيمة المؤججة في مهواة.

{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٠)}

كانت الآية التاسعة بشرى بالنعيم الذي وعد الله المؤمنين، والتي بعدها نذير ووعيد للجاحدين المكذبين بأنهم ملازموا النار شديدة التأجج والتوهج، ومترددون في مهاويها ودركاتها.

١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

{يبسطوا} يمدوا. {فكف} فرد وحجز.

{فليتوكل} فليتخذوا وكيلا

{يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم} تذكير بنعمة أنعمها عليهم بعد النعمة العامة التامة التي عاهدوا فيها على الإيمان والسمع والطاعة، والمؤمنون إذا ذكروا ذَكروا وشكروا، وهذه تجلت في أن الله تعالى صرف عنهم كيد عدوه وعدوهم إذ هَم الكفرة الفجار (٤٢) أن يبطشوا بالصفوة الأبرار، فحال ربنا بينهم وبين ما أرادوا؛ {واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون} - واحذروا الله أيها المؤمنون أن تخالفوه فيما أمركم ونهاكم، وأن تنقضوا الميثاق الذي واثقكم به، فتستوجبوا منه العقاب الذي لا قبل لكم به، {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} يقول: وإلى الله فليلق أزمة أمورهم، ويستسلم لقضائه، ويثق بنصره وعونه، المقرون بوحدانية الله، ورسالة رسوله، العاملون بأمره ونهيه، فإن ذلك من كمال دينهم. وتمام إيمانهم، وإنهم إذا فعلوا ذلك كلأهم، ورعاهم وحفظهم ممن أرادهم بسوء، كما حفظكم ودافع عنكم أيها المؤمنون اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليكم كلاءة منه لكم، إذ كنتم من أهل الإيمان به وبرسوله دون غيره، فإن غيره لا يطيق دفع سوء أراد بكم ربكم، ولا اجتناب نفع لكم لم يقضه لكم- (٤٣).

١٢ - (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

{بني إسرائيل} أبناء يعقوب.

{نقيبا} شاهدا وضمينا، وأمينا على قومه، وكبيرا في جماعته.

{أقمتم} أديتم بتمام. {آتيتم} أعطيتم، {السبيل} الطريق.

{عزرتموهم} نصرتموهم وآزرتموهم على الحق.

{وأقرضتم الله} أنفقتم في سبيل رضاه. {لأكفرن} لأزيلن.

{آمنتم} صدقتم.

{سواء} وسط.

{ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم} وتحققوا واستيقنوا أني أخذت على بني إسرائيل عهدا وموثقا بالوفاء بأماناتي، وطاعتي والتصديق برسالاتي، واختيار موسى كليمي من كل سبط من أسباط بني إسرائيل رجلا يكون حاكما فيهم، وشاهدا عليهم وضمينا، وكبيرا في جماعته وأمينا؛ - وهذه الآية نزلت إعلاما من الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، أخلاق الذين هموا ببسط أيديهم إليهم من اليهود- (٤٤)؛ عن الحسن:. . الذي هموا به من الغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه من صفاتهم وصفات أوائلهم وأخلاقهم وأخلاق أسلافهم قديما. . اهـ.

{وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار}، (ومعنى {إني معكم} إني ناصركم ومعينكم، والتقدير: وقال الله لهم، فحذف الرابط للعلم به، والخطاب للنقباء أو لكل بني إسرائيل، والحاصل أني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم؛ فهذه مقدمة معتبرة جدا في الترغيب والترهيب، ثم ذكر بعدها جملة شرطية، مقدمها مركب من خمسة أمور، والجزاء هو قوله: {لأكفرن} وهو إشارة إلى إزالة العقاب؛ وقوله: {ولأدخلنكم} هو إشارة إلى إيصال الثواب؛ واللام في {لئن أقمتم} موطئة للقسم، وفي {لأكفرن} جواب له، ولكنه سد مسد جواب الشرط) (٤٥)؛ {فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل} فكل من جاءته نعمة الهداية ومعرفة الحق ثم جحد وغوى وكذب وعصى، فقد اعوج عن قصد الطريق المستقيم؛ وهكذا شرع المولى الحكيم أداء الصلاة تامة قويمة، وإعطاء الزكاة مستحقيها، والتصديق برسالات الله، ونصرتها ورد الكيد عنها، فإن التعزير يعني النصرة ودفع الخصوم؛ وإقراض الله تعالى يعني الإنفاق فيما يحب ويرضى، ولعل من الحكمة في ذكره بعد الزكاة الإرشاد إلى بذل الصدقات المندوبة؛ - وههنا

أسئلة: لم أخر الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أن الإيمان مقدم على الأعمال؟ وأجيب- بعد التسليم أن الواو للترتيب- بأن اليهود كانوا معترفين بأن النجاة مربوطة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل، فذكر أنه لابد بعد الصلاة والزكاة من الإيمان بجميع الرسل، وإلا لم يكن لتلك الأعمال أثر؛ . . . آخر- لم قال: {فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل}؟ فإن من كفر قبل ذلك أيضا فقد أخطأ الطريق المستقيم الذي شرعه الله لهم؟؛ والجواب: أجل، ولكن الضلال بعد الشرط المؤكد المعلق به الوعيد العظيم أشنع، فلهذا خص بالذكر- (٤٦).

١٣ - (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

{يحرفون} يميلون. {نسوا} تركوا. {حظا} نصيبا.

{خائنة} خيانة، وفعلة خائنة. {فاعف} فتجاوز عن عقوبتهم.

{واصفح} وأعرض عما كان من إساءتهم.

{المحسنين} الذين أحسنوا بعفوهم.

{لعناهم} أبعدناهم وطردناهم من رحمتنا.

{فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به} فبسبب نقض بني إسرائيل عهد الله وميثاقه الذي أخذ عليهم لعنهم سبحانه وأبعدهم وطردهم عن رحمته، (. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. .) (٤٧)، وجعل قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، لا تلين لذكر، ولا تستجيب لموعظة؛ وانطلقوا يغيرون كلام الله تعالى عن مواقعه ويبدلونه، ويتجدد منهم هذا الافتراء ويتابعونه؛ وتركوا بعضا مما وصاهم الله تعالى بأدائه ورعايته؛ والنسيان بمعنى الترك جاء به القرآن الحكيم، يقول مولانا العلي العظيم: (. . نسوا الله فنسيهم. . .) (٤٨)؛ {ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم} ينبئ الله تعالى رسوله، ويعلم الأمة الخاتمة أن الغدر ونقض العهد في الخلف من أبناء الغادرين من الإسرائيليين باق فيهم كما كان في الناكثين من أسلافهم، إلا طائفة قليلة يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق؛ {فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين} لعل المراد: الأمر بالعفو عنهم في جهالة ارتكبوها، أو حماقة عزموا عليها، ماداموا لم يقاتلونا في الدين، ولا عملوا على إخراجنا من ديارنا، ولا ظاهروا على إخراجنا، وهم مع ذلك يؤدون الجزية، ويخضعون لما شرعه الإسلام في تعاملنا معهم؛ {إن الله يحب المحسنين} قال ابن عباس: معناه: إذا عفوت فأنت محسن، وإذا كنت محسنا فقد أحبك الله.

١٤ - (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤)

آيتان كريمتان سبقتا في بيان غدر اليهود، وهنا تقبيح من بعدهم {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به} لكأن الميثاق في الآية السابقة أخذ على اليهود بقرينة ذكر النقباء الاثني عشر، فليس المراد على هذا جميع بني إسرائيل، وأما في هذه الآية فقد أعطى النصارى ميثاقا أن يكونوا أنصار الله فكانوا- إلا قلة- أنصار الشيطان، وتركوا نصيبا مما نودوا إليه، وعاهدوا عليه (يقول عز ذكره: أخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي، وأداء فرائضي واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود فبدلوا كذلك دينهم، ونقضوا نقضهم، وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيعوا أمري) (٤٩)؛ عن قتادة: نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهد الله الذي عهده إليهم، وأمر الله الذي أمرهم به؛ وعن السدي قال: قالت النصارى مثل ما قالت اليهود ونسوا حظا مما ذكروا به؛ {فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} فألقينا وألصقنا وألزمنا

وحرشنا بينهم الأهواء المتخالفة، والتنافر والجدال والتخاصم، قال السدي: قال في النصارى. . {فنسوا حظا مما ذكروا به} فلما فعلوا ذلك أغرى الله عز وجل بينهم وبين اليهود العداوة والبغضاء. . وعن الربيع: إن الله عز ذكره تقدم إلى بني إسرائيل أن لا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا، وعلموا الحكمة ولا تأخذوا عليها أجرا، فلم يفعل ذلك إلا قليل منهم فأخذوا الرشوة في الحكم، وجاوزوا الحدود، فقال في اليهود حيث حكموا بغير ما أمر الله (. . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. .) (٥٠) وقال في النصارى: {فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة}، - فإن قال قائل: وما العداوة التي بين النصارى فتكون مخصوصة بمعنى ذلك؟ قيل: ذلك عداوة النسطورية واليعقوبية (٥١)، والملكية والنسطورية واليعقوبية-، {وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} يحذر مولانا الملكُ المهيمن هؤلاء الخائنين، ويتوعدهم بما هم ملاقوه يوم الدين، من الخذلان والعذاب المهين، جزاء ما أشركوا بالله رب العالمين.

١٥ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

{يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير}، مولانا الحكيم نادى من نزلت عليهم كتب سابقة، من نزلت عليهم التوراة، ومن نزل عليهم الإنجيل، إذ المراد ب {الكتاب} الجنس، يذكر الله تعالى هؤلاء بأن النبي الخاتم بعثه العزيز العليم سبحانه ليحق الحق ويظهر ما أخفاه اليهود والنصارى مما تنزلت به الكتب السماوية، كآية الرجم، وقصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، ومن قبل ذلك أخفوا ما بشرت به التوراة والإنجيل من رسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم، ويترك ولا يبين ما لا حاجة إلى تبيينه، ويتجاوز عنه فلا يخبر به، - الكتاب جنس صادق بالواحد والاثنين وما فوقهما، والتعبير عنهم بعنوان أهلية الكتاب التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه، وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون،. . . {يبين لكم} حال من {رسولنا} وإيثار الفعلية للدلالة على تجدد البيان،. . . والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء، و {ما} موصولة اسمية، وما بعدها صلتها، والعائد محذوف (٥٢). . . . {ويعفو عن كثير} أي: ولا يظهر كثيرا مما كنتم تخفونه إذا لم تدع إليه داعية دينية، صيانة لكم عن زيادة الافتضاح- (٥٣) {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين} النور، قد يراد به الإسلام، ونقل عن الزجاج أنه محمد عليه الصلاة والسلام، والكتاب المبين: القرآن، فإنه مبين للحجج والبراهين، والهداية والأحكام.

١٦ - (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم} الضمير في {يهدي} راجع إلى الكتاب، لأنه أقرب مذكور، أو إليه وإلى النور، وجاء الضمير {به} دون تثنية لأن النور والكتاب كالشيء الواحد، أي يرشدني إليه ويدلني عليه، وقد يراد بها شرح الصدر للإسلام، وتزيين البر في القلب- {من اتبع رضوانه} أي: من علم الله تعالى أنه يريد اتباع الله تعالى بالإيمان به،. . {سبل السلام} أي: طرق السلامة من كل مخافة، - قاله الزجاج- فالسلام مصدر بمعنى السلامة،. . {ويخرجهم} الضمير المنصوب عائد إلى {من} والجمع باعتبار المعنى، كما أن إفراد الضمير المرفوع في {اتبع} باعتبار اللفظ، {من الظلمات إلى النور} أي من فنون الكفر والضلال إلى الإيمان، {بإذنه} أي: بإرادته أو بتوفيقه- (٥٤)، {ويهديهم إلى صراط مستقيم} (٥٥) قال الحسن، هو دين الإسلام الموصل إلى الله تعالى، وقيل: المراد بالصراط المستقيم: طريق الجنة.

١٧ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} قضى الله الحق على من زعموا أن عيسى ابن مريم هو الله- قضى ربنا عليهم بأنهم

كفروا، أخفوا الصدق، وأظهروا الباطل، وستروا الحق، ونطقوا بالزور والإفك والبهتان؛ وربما كانت فتنتهم تلك لما أُيد به من نفخه- مثلا- في طينة فإذا هي طير، ومن إبرائه للمرضى، وإحيائه لبعض الموتى؛ فحين أجرى الله تعالى على يدي عبده ونبيه عيسى عليه السلام الخوارق والمعجزات سولت لهم شياطينهم أنه لا يفعل ذلك إلا من كان إلها فنسبوه إلى الألوهية، مع أنه صلوات الله عليه وسلامه علمهم منذ البداية أنه ما قدر على شيء مما شاهدوه من هذه الآيات إلا بإقدار الله تعالى له: (. . . أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. .) (٥٦)، ثم يقول عنه الكتاب الحكيم: (. . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (٥٧)؛ وما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات والمعجزات ما آمن على مثله البشر، وما ادعى أقوامهم أنهم بما أجرى الله على أيديهم من خوارق العادات صاروا آلهة؛ {قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا} حجة لله تعالى يعلمها خاتم أنبيائه، ويعلمها الأمة، ليدفع بها فرية النصارى وادعاءهم أن عيسى هو الله؛ والاستفهام هنا متضمن معنى الإنكار والنفي، أي: لا يملك أحد مدافعة الله، ولا يقدر كائن على رد ما يمضيه القوي الفعال لما يشاء، إذا اتجهت مشيئته-جل علاه- إلى إهلاك عيسى وأمه وجميع من في الأرض فلا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يغالبه مغالب، ولا يستطيع عيسى أن يدفع عن نفسه أو عن أمه ضرا أو سوءا، فما هو إلا عبد الله ورسوله، وما من إله إلا الله؛ يقول ابن جرير:. لو كان المسيح كما يزعمون أنه هو الله- وليس كذلك- لقدر أن يرد أمر الله إذا جاء بإهلاكه وإهلاك أمه، وقد أهلك أمه فلم يقدر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك، ففي ذلك لكم معتبر إن اعتبرتم، وحجة عليكم إن عقلتم، في أن المسيح بشر كسائر بني آدم، وأن الله عز وجل هو الذي لا يُغلَب ولا يقهر، ولا يُرَد له أمر، بل هو الحي الدائم القيوم الذي يحي ويميت، وينشئ ويفني، وهو حي لا يموت. ا ه.

{ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء} الله مالك جميع الكون، وبارئ كافة الخلق، يوجد ما يشاء، ويمضي ما يريد؛ ومِن بالِـغ تخبط هؤلاء الغلاة الضالين عن سبيل الله، الزاعمين أن المسيح هو الله، افتراؤهم فيما ادعوه إنجيلا (٥٨) أن إبليس قد حبس عيسى حتى خلصه الله من أسر عدوه؛ فكيف ينسبون إلى الألوهية من لا يملك قهر إبليس، ولا يقوى على جلب النفع لنفسه ولا درء الأذى عنها؟!؛ {والله على كل شيء قدير} مقتدر ربنا على صنع ما يشاء، فعال لما يريد، فهو المستحق للعبادة، ولا المسيح الذي يعجز عن دفع ما يصيبه مِن ضر، أو صرف ما ينزل بأمه من هلاك؛ فلا يفتننكم أن يولد عيسى دون أب، فإن الله تعالى يخلق سلالة من ذكر وأنثى، كشأن خلقه سائر البشر، ويخلق دون ذكر ولا أنثى، كخلقه آدم أبي البشر، فلا أب له ولا أم، ويخلق من أنثى دون ذكر، كالمسيح ابن مريم.

١٨ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير (١٨)

{وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} -حكاية لما صدر من الفريقين من الدعوى الباطلة لأنفسهم، وبيان لبطلانها، إثر ذكر ما صدر عن أحدهما من الدعوى الباطلة لغيره، وبيان بطلانها، أي قال كل من الطائفتين هذا القول الباطل؛ ومرادهم بالأبناء: المقربون، أي: نحن مقربون عند الله تعالى قرب الأولاد من والدهم، وبالأحباء: جمع حبيب، بمعنى محب أو محبوب، ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء: الخاصة، كما يقال: أبناء الدنيا، وأبناء الآخرة،. . . وعن الحسن أن النصارى تأولوا ما في الإنجيل من قول المسيح إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، فقالوا ما قالوا- (٥٩)؛ {قل فلم يعذبكم بذنوبكم} بين الكتاب الحكيم سبيل إبطال ما افتروه، فعلمنا أن نرد عليهم إلزاما لهم وتبكيتا، فنقول: إن كان ما زعمتموه صحيحا وأنكم أبناؤه وأحباؤه فكيف يعذبكم؟! (وهكذا اثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء

الله بمجرد الدعوى الباطلة والأماني العاطلة، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم فقال: {قل فلم يعذبكم بذنوبكم} أي إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الذنوب بالقتل والمسخ، وبالنار في يوم القيامة كما تعترفون بذلك لقولكم: (. . لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. .) (٦٠) فإن الابن من جنس أبيه، لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب وأنتم تذنبون، والحبيب لا يعذب حبيبه وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى؛ وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف) (٦١)؛ {بل أنتم بشر ممن خلق}، {بل} للإضراب، أي ليس الأمر كما زعمتم من أن لكم فضلا على الناس ومزية، وإنما أنتم كسائر الآدميين، ويحاسبكم على الطاعة والمعصية، ويحكم فيكم ما يريد؛ {يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} يتجاوز عمن يريد رحمته، ويستر عليه خطيئته، فلا يفضحه بها، ويحل غضبه وشديد عقابه على من أراد أن يؤاخذه بما اكتسب، وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة؛ {ولله ملك السموات والأرض وما بينهما} فهو يقضي في خلقه وملكه، ويحكم لا معقب لحكمه؛ -وكل ذلك له تعالى، لا ينتمي إليه سبحانه شيء إلا بالمملوكية والعبودية، والمقهورية تحت ملكوته، يتصرف فيه كيف يشاء إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وإثابة وتعذيبا، فأنى لهؤلاء ادعاء ما زعموا؟!، وربما يقال: إن هذا مع ما تقدم رد لكونهم أبناء لله تعالى بمعنى أشياع نبيه، ففي أولا كونهم أشياعا، وثانيا وجود بنين له عز شأنه، {وإليه المصير} أي: الرجوع في الآخرة {إليه} - لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا- فيجازى كلا من المحسن والمسيء بما يستدعيه علمه من غير صارف يثنيه، ولا عاطف يلويه.

١٩ - (يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{يا أهل الكتاب} تكرير للخطاب بطرق الالتفات، ولطف في الدعوة،. . . . {قد جاءكم رسولنا يبين لكم} على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة (الشرائع والأحكام النافعة معادا ومعاشا- المقرونة بالوعد والوعيد،. . . {على فترة من الرسل} فإن فتور الإرسال وانقطاع الوحي إنما يحوج إلى بيان الشرائع والأحكام. . . {أن تقولوا} تعليل لمجيء الرسول بالبيان، أي كراهة أن تقولوا،. . أو: لئلا تقولوا- معتذرين من تفريطكم في أحكام الدين يوم القيامة- {ما جاءنا من بشير ولا نذير} وقد انطمست آثار الشريعة السابقة وانقطعت أخبارها،. . . والفاء في قوله تعالى: {فقد جاءكم بشير ونذير} تفصح عن محذوف، ما بعدها علة له، والتقدير هنا: لا تعتذروا فقد جاءكم، وتسمى الفاء الفصيحة،. . وتنوين {بشير ونذير} للتفخيم، {والله على كل شيء قدير} فيقدر على إرسال الرسل تترى، وعلى الإرسال بعد الفترة- (٦٢).

٢٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

{وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا} واذكر قول موسى- كليم الله تعالى، ورسولُه- حين قال لبني إسرائيل رهطه الذين بعث فيهم مذكرا بأفضال الله تعالى عليهم، يعرفهم أنعم ربهم لكي يشكروا، ولا يجحدوا ويكفروا، (هذه الآيات متضمنة للبيان من الله سبحانه بأن أسلاف اليهود الموجودين في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم تمردوا على موسى وعصوه، كما تمرد هؤلاء على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعصوه، وفي ذلك تسلية. . . وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، لأن الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى، وامتن عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم، قوله: {وجعلكم ملوكا} أي: وجعل منكم ملوكا، وإنما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام على تقديره. . . وقيل: المراد بالملك: أنهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون،. . . والظاهر أن المراد من الآية الملك الحقيقي،. . . {وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين} أي: مِن المن والسلوى، والحَجر والغمام. وكثرة الأنبياء وكثرة الملوك، وغير ذلك؛ والمراد عالمي زمانهم) (٦٣)؛ عن مجاهد: {وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين} يعني أهل ذلك الزمان. .

٢١ - (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

{يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} ناداهم موسى عليه السلام يحرضهم على فتح البلاد المطهرة وطرد الكفار منها، ويحذرهم التولي والفرار من الزحف على عدوهم، فإن من جَبُن وولى الأعداء ظهره فقد باء بغضب من الله، وهلك في أولاه وأخراه، عن قتادة: {الأرض المقدسة} هي الشام، وعن السدي: {التي كتب الله لكم} التي أمركم الله بها: أي فرض دخولها عليكم، ووعدكم دخولها وسكناها لكم، قال ابن عباس: كانت هبة، ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم.

٢٢ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

{قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون} عن الفراء والزجاج: الجبار: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد، وعن غيرهما: الجبار: المصلح أمر نفسه وأمر غيره، ثم استعمل في كل من اجتر نفعا إلى نفسه بحق أو باطل الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدي إلى ما ليس به بغيا على الناس وقهرا لهم، وعتواً على ربه. . جبار، ومن أسماء الله- تعالى ذكره- (الجبار) أنه المصلح أمر عباده، القاهر بقدرته، قذف الوهن في قلوب بني إسرائيل، وتهيبوا عدوهم بعصيان أمر ربهم ونبيهم، معتذرين بأن الأرض المطهرة التي أمروا بالسير إليها يسكنها أعداء عتاة لا قبل لهم بملاقاتهم، أما إن ترك الجبارون هذه البلاد الموعودة فلن يتلبث الإسرائيليون في دخولها.

٢٣ - (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون} عن مجاهد ما حاصله: الرجلان اللذان أنعم الله عليهما. هما: كلاب بن يوفنه، ويوشع بن نون، - فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم، حرضهم رجلان، لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن خاف أمر الله ويخشى عقابه- (٦٤). . فقالا: {ادخلوا عليهم الباب} أي باب المدينة هؤلاء الجبارين، {فإذا دخلتموه فإنكم غالبون} لعلهم قالوا ذلك ثقة بوعد الله الذي لا يتخلف، ويقينا منهم بأن العاقبة للمتقين {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} كأن هذا من تتمة تحريض الرجلين المنعم عليهما، وجها القوم إلى المولى القوي القدير، ليستجيبوا لأمره، ويطمئنوا إلى تأييده ونصره، ويستيقنوا بأنه خير الناصرين إن كانوا حقا من المصدقين بالله وكتبه والنبيين.

٢٤ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ)

قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤)

ظل الإسرائيليون الذين كانوا مع موسى عليه السلام يرهبون عدوهم وينقضون ميثاقهم، ويعصون نبيهم، ولم يصيخوا سمعا لنصيحة الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، بل أصروا على النكول عن الجهاد، ولم يلتفتوا إلى تحريض وتبشير يوشع وكالب، بل وجهوا الخطاب إلى نبي الله تعالى وكليمه قائلين: يا موسى إنا لن ندخل الأرض المقدسة التي وعدتنا أنها لنا ما دام فيها أهلها، - وهذا عناد، وحَيْد عن القتال، وإياس من النصر، ثم جهلوا صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا: {فاذهب أنت وربك} وصفوه بالذهاب والانتقال، والله متعال عن ذلك، وهذا يدل على أنهم كانوا مُشَبهة، وهو معنى قول الحسن- (٦٥)، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهدا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون} ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرق لذلك، وسره ذلك، وهكذا رواه البخاري في المغازي، {إنا هاهنا قاعدون} سنبقى في مكاننا لا نبرح، {أبدا} دهرا طويلا، أو فيما يستقبل من الزمان كله، {ماداموا فيها} أي في تلك الأرض، وهو بدل من {أبدا}،. . ومثله في الإبدال قوله:

وأكرم أخاك الدهر مادمتما معا ... كفى بالممات فرقة وتنائيا

فإن قوله: ما دمتما بدل من الدهر، {فاذهب} أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب {أنت وربك} أي: فقاتلاهم وأخرجاهم حتى ندخل الأرض، وقالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وعدم مبالاة، وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبئ عنه

غاية جهلهم، وقسوة قلوبهم، والمقابلة بقوله تعالى: {إنا ها هنا قاعدون}. . . .، وأرادوا بالقعود عدم التقدم لا عدم التأخر أيضا.
٢٥ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)
{قال} موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريق البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة، فليس القصد إلى الإخبار وكذا كل خبر يخاطب به علام الغيوب يقصد به معنى سوى إفادة الحكم أو لازمه، فليس قوله رداً لما أمر الله تعالى به، ولا اعتذارا عن عدم الدخول) (٦٦)؛ {رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي} ولا يستجيب لي في المسارعة إلى طاعتك سوى نفسي وأخي، ولعله كان يعني من آخاه في الدين وهم قلة، {فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} عن الضحاك:. . . اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم،. . . . فقضى الله جل ثناؤه بينه وبينهم أن سماهم فاسقين؛ وعنى بقوله {الفاسقين} الخارجين عن الإيمان بالله وبه إلى الكفر بالله وبه. ا ه.
٢٦ - (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)
{قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض} نقل ابن جرير عن الربيع ما حاصله:. . حتى إذا خلت أربعون سنة وكانت عذابا بما اعتدوا وعصوا أوحى إلى موسى: أن مُرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة فإن الله قد كفاهم عدوهم؛ وعن عكرمة قال: التحريم لا منتهى له، وعن ابن اسحق: فلما شب النواشئ من دراريهم وهلك آباؤهم وانقضت الأربعون سنة التي تتيهوا فيها، وسار بهم موسى ومعه يوشع بن نون وكالب بن يوفنه. . فدخلها بهم؛ ثم قال أبو جعفر: وأولى ذلك عندي بالصواب قول من قال: إن الأربعين منصوبة بالتحريم، وأن قوله {محرمة عليهم أربعين سنة} معنى به جميع قوم موسى لا بعض دون بعض منهم، لأن الله عز ذكره عم بذلك القوم ولم يخصص منهم بعضا دون بعض، وقد وفى الله بما وعدهم به من العقوبة، فتيهم أربعين سنة، وحرم على جميعهم في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائهين دخول الأرض المقدسة، فلم يدخلها منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حرم الله عز وجل عليهم فيها دخولها، ثم أذن لمن بقي منهم وذراريهم بدخولها مع نبي الله موسى والرجلين اللذين أنعم الله عليهما، وافتتح قرية الجبارين إن شاء الله نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم، وعلى مقدمته يوشع، ا ه. {فلا تأس على القوم الفاسقين} عن السدي قال: لما ضرب عليهم التيه ندم موسى صلى الله عليه وسلم فلما ندم أوحى الله إليه: {فلا تأس على القوم الفاسقين} لا تحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين.
٢٧ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)
واتل عليهم نبأ ابني أدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (٢٧) أمر الله تعالى نبيه أن يقرأ على الناس، أو على أهل الكتاب خبر وقصة ابني آدم: {واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق} أي: قراءة ملتبسة بالصدق، فإن نبأ الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل: (إن هذا لهو القصص الحق. .) (٦٧) - أو ملتبسة بالغرض الصحيح، وهو: تقبيح الحسد، والتحذير من سوء عاقبة الحاسد- (٦٨)، {إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر} عن عبد الله بن عمرو، قال: إن ابني آدم اللذين قربا (٦٩) قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وأنهما أُمرا أن يُقربا قربانا، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبة به نفسه، وإن صاحب الحرث قرب شر حرثه. . غير طيبة بها نفسه، وإن الله تقبل قربان صاحب الغنم،. . . وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه،. . أيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط يده إلى أخيه؛ وعن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين فيتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربُه الرجل، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قربنا قربانا! وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فأكلته، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعيا، وكان الآخر حراثا. .، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة

وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورُد عَلَيَّ؟! فلا والله لا تنظر الناس إلي وإليك وأنت خير مني، ف {قال لأقتلنك}، فقال له أخوه: ما ذنبي؟! {إنما يتقبل الله من المتقين}، عن قتادة: قال: هما هابيل وقابيل، قال: كان أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب ماشية فجاء أحدهما بخير ما له وجاء الآخر بشر ماله، فجاءت النار فأكلت قربان أحدهما وهو هابيل وتركت قربان الآخر فحسده فقال: لأقتلنك، مما جاء في جامع البيان: وكانت قرابين الأمم الماضية قبل أمتنا كالصدقات والزكوات فينا، والقربان في أمتنا الأعمال الصالحة، من الصلاة والصيام والصدقة على أهل المسكنة، وأداء الزكاة المفروضة. ا ه.

٢٨ - (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

{لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنك إني أخاف الله رب العالمين} -المقتول قال لأخيه: ما أنا بباسط يدي إليك إن بسطت إلي يدك، لأنه كان حراما عليه من قتل أخيه مثل الذي كان حراما على أخيه القاتل من قتله، فأما الامتناع من قتله حين أراد قتله فلا دلالة على أن القاتل حين أراد قتله وعزم عليه كان المقتول عالما بما هو عليه عازم منه ومحاول من قتله فترك دفعه عن نفسه، بل قد ذكر جماعة من أهل العلم أنه قتله غيلة، اغتاله وهو نائم، فشرخ رأسه بصخرة، فإذا كان ذلك ممكنا ولم يكن في الآية دلالة على أنه كان مأمورا بترك منع أخيه من قتله لم يكن جائزا ادعاء ما ليس في الآية، إلا ببرهان يجب تسليمه- (٧٠)؛ وقيل: المعنى: لا أبسط يدي إليك لغرض قتلك، وإنما أبسط يدي إليك لغرض الدفع؛ {إني أخاف الله رب العالمين} هذه من حكاية ما قال هابيل الذي يرد على قابيل إذ توعده بالقتل، يبين لأخيه أنه لن يعمد إلى قتله، مخافة أن يغضب المولى عليه لجرمه، (وفيه إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أتم وجه، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى) (٧١).

٢٩ - (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

{إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين} {تبوء}: ترجع (٧٢)؛ نقل عن الثعلبي أن أكثر المفسرين على أن المعنى: إني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عملته قبل قتلي؛ وسئل أبو الحسن ابن كيسان: كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار؟ فقال: إنما وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل. . . فقيل له: فكيف قال: بإثمي وإثمك، وأي إثم له إذا قتل؟ فقال ما روى عن مجاهد: المعنى: بإثم قتلي، وإثم ذنبك الذي من أجله لم يتقبل قربانك؛ {فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين} فتصير إن قتلتني من ساكني دار العذاب وملازميها مدة كونك ولبثك فيها- إذ لم يثبت كفره بتلك الخطيئة، ولا أشير إلى تخليده_؛ عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى الناس رجلا لابْنُ آدم الذي قتل أخاه، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شيء، وذلك أنه أول مَن سن القتل؛ وعن إبراهيم النخعي قال: ما من مقتول ظلما إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه؛ في صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه سن القتل أولا ".

٣٠ - (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين} فسهلت نفس القاتل للقاتل أمر إزهاق روح أخيه، وصورت له أن قتل أخيه طوع يسير؛ - وفي ذكر تطويع نفسه له بعدها تقدم من قول قابيل: {لأقتلنك}، وقول هابيل: {لتقتلني} دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقاولة- (٧٣)؛ فصار بقتل أخيه خاسرا، فاته الكثير من ربح الدنيا، إذ أهلك أخاه، وفجع أهله، وسن القتل؛ ومن المعلوم أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها؛ وخسرانه في الآخرة لا يقادر قدره؛ وهكذا ففي الآيات الكريمات تقبيح للحسد، وتحذير منة سوء عاقبة الحاسد في عاجله وآجله، حتى لقد يبلغ به هذا الداء أن يهلك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة، وأولاهم بالحنو عليه، ورفع الضر إذا نزل به؛ وفي الأجل يأكل الحسد حسنات الحاسد كما تأكل النار الحطب؛ بل وفي الآيات المباركات وعيد للغادرين الغاوين، ووعد للمتقين المصلحين؛ فإن التقى المصلح وإن بغي عليه منصور، إن فاته نصر الدنيا، فحسبه

ما أعد الله له في العقبى، والغادر الجائر بغيه على نفسه؛ يقول أبو جعفر: يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واتل على هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليكم، عليك وعلى أصحابك معك، وعرفهم مكروه عاقبة الظلم والمكر، وسوء مغبة الجور ونقض العهد، وما جزاء الناكث، وثواب الوافي خبر ابني آدم هابيل وقابيل، وما آل إليه أمر المطيع منهما ربه، الوافي بعهده، وما إليه صار أمر العاصي منهما ربه، الجائر الناقض عهده، فلتعرف بذلك اليهود وخامة غب عدوانهم، ونقضهم ميثاقهم بينك وبينهم، وهمهم بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم في حسن ثوابي وعظيم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتول الوافي بعهده من ابني آدم، وعاقبت به القاتل الناكث عهده عزاء جميلا. ا ه.

٣١ - (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

{فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا (٧٤)، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين} عن ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه {. . يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} الآية؛ فتأويل الكلام: فأثار الله القاتل إذ لم يدر ما يصنع بالمقتول غرابا. . يحفر في الأرض، وفي الكلام محذوف ترك استغناء، أي فأراه، فواراه حينئذ، فأصبح (٧٥) نادما على ما اقترف من زور.

٣٢ - (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

{من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا} لعل المعنى من أجل (٧٦) جريرة ذلك القاتل ولجنايته بقتل أخيه ظلما وحسدا قضينا على بني إسرائيل وشرعنا، أو أنزلنا عليهم حُكما مكتوبا، فإنهم أول من جاءتهم الألواح كتب الله فيها ما شرع، ومنه تغليظ عقوبة القاتل، وتعظيم حرمة الدماء، وقضى ربنا سبحانه أن سفك دم إنسان واحد كأنما هو إهدار دماء البشر أجمعين، وصيانة حياة امرئ واحد كأنما هي حفظ على سلامة الناس كافة؛ عن ابن عباس: من شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعا، ومن قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا؛ وعن ابن زيد ما حاصله: لو قتل واحداً لوجب عليه من القصاص به والقود بقتله مثل الذي يجب عليه من القود والقصاص لو قتل الناس جميعا؛ ورواية ابن وهب عنه: من أحياها أعطاه الله جل وعز من الأجر مثل ما لو أنه أحيا الناس جميعا، أحياها فلم يقتلها وعفا عنها، قال: وذلك ولي القتيل، والقتيل نفسه يعفو عنه قبل أن يموت، قال: كان أبي يقول ذلك؛ ومما قال قتادة: عظم والله أجرها، وعظم وزرها (٧٧)، فأحيا يا ابن آدم بمالك، وأحيا بعفوك إن استطعت، ولا قوة إلا بالله، وإنا لا نعلمه يحل دم رجل مسلم من أهل القبلة إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه فعليه القتل، أو زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل متعمدا فعليه القود؛ وعن سليمان بن علي الربعي قال: قلت للحسن: {من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس} الآية، أهي لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل (٧٨)، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا؛ " ومما قال الحسن: ظننت يا ابن آدم أنك لو قتلت الناس جميعا فإن لك من عملك ما تفوز به من النار؟! كذبتك والله نفسك وكذبك الشيطان؛ (معنى الإحياء في قوله: {ومن أحياها} من سلم الناس من قتله إياهم إلا فيما أذن الله في قتله منهم. . . معنى الإحياء: سلامة جميع النفوس منه، لأنه من لم يتقدم على نفس واحدة فقد سلم منه جميع النفوس- (٧٩) (وخص بني إسرائيل بالذكر لأن السياق في تعداد جناياتهم، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء؛. . . وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد في الأرض) (٨٠) - ٨١).

{ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون} اللام موطئة للقسم، فكأن المعنى: وقسما لقد بعثنا أنبياء إليهم بالحجة والسلطان والبرهان، وبكلماتنا الدالة على الرشد، المبينة لوجه الحق، ثم تمادى الكثير منهم بعدما تبين الهدى، وشدد النكير على من جحد واعتدى، وعتا أكثرهم وتجاوزوا حدود الله؛ - وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها كما كانت (بنو قريظة) و (بنو النضير) يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا من أسروه وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث قال: (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض. .) (٨٢) - (٨٣).

٣٣ - (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض} (لا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود؛ وفي قوله تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله} استعارة ومجاز إذ الله سبحانه تعالى لا يحارب ولا يغالب لما هو عليه من صفات الكمال، ولما وجب له من التنزيه عن الأضداد والأنداد؛ والمعنى: يحاربون أولياء الله؛ فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكبارا لإذايتهم، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء في قوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا. .) (٨٤)، حث على الاستعطاف عليهم؛ ومثله في صحيح السنة: " استطعمتك فلم تطعمني " الحديث أخرجه مسلم) (٨٥)؛ والحرب في الأصل: السلب والأخذ، يقال: حربه إذا سلبه، والمراد به ههنا هو قطع الطريق؛ نقل عن مالك: المحارب عندنا من حمل على الناس في مصر أو في برية وكابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة-هائجة_ ولا ذَحْل-ثأر- ولا عداوة؛ وعن الشافعي وغيره: حكم ذلك في المصر أو في المنازل والطرق وديار أهل البادية والقرى سواء، وحدودهم واحدة؛ عن ابن عباس: إن أخذ المال وقَتَل قطعت يده ورجله ثم صلب، فإذا قَتَل ولم يأخذ المال قتل، وإن هو لم يأخذ المال ولم يقتل نُفي (٨٦)؛ وحكي مكحول أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس في السجون، وقال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذيهم؛ يقول بعض العلماء الحكام: والظاهر أن الأرض في الآية هي أرض النازلة، وقد تجنب الناس قديما الأرض التي أصابوا فيها الذنوب؛ نقل عن جمع من الصحابة والتابعين إن الإمام مخير في الحكم على المحاربين، يحكم عليهم بأي الأحكام التي أوجبها الله تعالى من القتل أو الصلب أو القطع أو النفي بظاهر الآية؛ قال ابن عباس: ما كان في القرآن {أو} فصاحبه بالخيار. ا هـ.

{إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض} والقطع من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى من الرجل اليسرى، أو العكس؛ {ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} شرع الله تعالى تلك العقوبة، وشدد عليهم الجزاء العاجل ردعا لهم عن سوء فعلهم، جعله فضيحة لهم وإذلالا، وليكونوا لغيرهم نكالا، صيانة لأموال الناس ودمائهم، وتقديساً لحقهم وأمنهم؛ {ولهم في الآخرة عذاب عظيم} بقدر عظم جرمهم يكون أليم عذابهم، فربنا جل وعز لا يظلم الناس شيئا (. . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) (٨٧)؛ وهذا إذا ما مات على فجوره فلم يغفر له ولا عُفي عنه.

٣٤ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} عن عامر الشعبي أن حارثة بن بدر خرج محاربا، فأخاف السبيل، وسفك الدم، وأخذ المال، ثم جاء تائبا مِن قبْل أن يُقدَر عليه، فقبل علي بن أبي طالب رضي الله عنه توبته، وجعل له أمانا منشورا

على ما كان أصاب من دم أو مال؛ {فاعلموا أن الله غفور رحيم} يبين مولانا تقدست أسماؤه أنه بعفوه غير مؤاخذ من تاب من أهل الحرابة وغيرهم بذنوبهم، لكنه بفضله يعفو عنها فيسترها عليهم فلا يفضحهم بها، ويرحمهم فيترك عقوبتهم عليها.

٣٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون} أجيبوا ربكم فيما أمركم ونهاكم، واطلبوا القربة (٨٨) إليه بالعمل بما يرضيه، وجاهدوا عدو الله وعدوكم، كيما تفوزوا بالعز الذي كتب الله للمؤمنين الصادقين المجاهدين في الدنيا، وتدركوا النعيم الذي لا يبيد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ مما جاء في تفسير القرآن العظيم: والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضا عَلَم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة "، حديث آخر في صحيح مسلم، قال صلى الله عليه وسلم: " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا فإنه من صلى عَلَيَ صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل لي الوسيلة (٨٩) حلت عليه الشفاعة. . ا ه.

٣٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} هذا تحذير ووعيد من الله لمن كفر ولم يؤمن بما يجب التصديق به والإذعان له، ينبئه العليم الخبير أنه حين يرى عقاب الآخرة الذي أعد له يتمنى أن يفتك منه بأية فدية فلا يجد إلى ذلك سبيلا، إذ حقت عليه الشقوة، ومضت فيه الكلمة الفصل: (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) (٩٠)، (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة.) (٩١)؛ ولعل المعنى: لو أن لكل واحد منهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدي به من سوء المصير ما أنجاه ذلك من عذاب السعير، ويشهد لهذا قول الحق تقدست أسماؤه: (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به.) (٩٢)؛ ويقول جل وعز: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) (٩٣)؛ وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك فيقول شر فيقال هل تفتدي بقراب الأرض ذهبا قال فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار "

٣٧ - (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

{يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} يود (٩٤) الكافرون أن يفلتوا من حر السعير، وأن يفارقوا دركات اللظى ودار البوار والثبور، لكن حق القول من ربنا أنهم فيها ماكثون، وعن موجع عقابها لا يتحولون، فهم فيها مخلدون؛ والآيتان في حق الكفار، فلا ينافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج (٩٥) منها؛ في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة " قال يزيد الفقير: فقلت لجابر: يقول الله تعالى: {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها} قال: اتل أول الآية: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به} ألا إنهم الذين كفروا.

٣٨ - (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٣٨) - لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا

وهو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية وهو السارق، وذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان، لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال في تشريع الأحكام،. . . والسرقة. . اسم الشيء المسروق. . . وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين،. . . القطع معناه الإبانة والإزالة، وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين تثنيتين، وقد بينت السنة أن موضع القطع: الرسغ،. . . والسرقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعدا، ولابد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة،. . . . . . {جزاء بما كسبا} مفعول له، أي: فاقطعوا للجزاء،. . . والباء سببية، وما مصدرية، أي: بسبب كسبهما. . . {نكالا} بدل من {جزاء} - (٩٦)؛ مما أورد صاحب الجامع (٩٧) لأحكام القرآن؛ فإن قيل: قد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده " وهذا موافق لظاهر الآية في القطع في القليل والكثير؛ فالجواب أن هذا خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير، كما جاء في معرض الترغيب بالقليل مجرى الكثير في قوله عليه السلام: " من بنى لله مسجدا ولو كمفحص (٩٨) قطاة بنى الله له بيتا في الجنة "؛ وقيل: إن ذلك مجاز من وجه آخر؛ وذلك أنه إذا ضري بسرقة القليل سرق الكثير فقطعت يده؛ وأحسن من هذا ما قاله الأعمش وذكره البخاري في آخر الحديث كالتفسير قال: كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يساوي دراهم؛ قلت: كحبال السفينة وشبه ذلك، والله أعلم. ا هـ؛ نسبوا إلى أبي العلاء المعري أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، فقال:

يد بخمس مئين عسجد فديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

قالوا فرد عليه القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله قائلا:

عز الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

أي: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت؛ {والله عزيز حكيم} وربنا الذي لا يستحق العبادة سواه يَغْلِب ولا يغلب وهو القاهر فوق عباده، لا يمانعَ ولا يدافع؛ ولا تفوته الحكمة ولا الصواب أبدا.

٣٩ - (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه} من يعمل سوءا ثم يستغفر الله، ومن يذنب ذنبا فيه حد ثم يُحد وهو منيب إلى ربه، فإن مولانا يقبل توبته؛ عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اقطعوا يدها "، فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار، فقال: " اقطعوا يدها " فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: " نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك " فأنزل الله في سورة المائدة: {فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم} وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين.

٤٠ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير} يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: - ألم يعلم هؤلاء القائلون لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، الزاعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، أن الله مدبر ما في السموات وما في الأرض ومصرفه وخالقه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أراده، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء مما فيهما ولا مما في واحدة منهما فيحابيه بسبب قرابته منه فينجيه من عذابه وهو به كافر، ولأمره ونهيه مخالف، أو يدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه، ولكنه يعذب مَن يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والمسخ وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة عليه من كفره ومعصيته فينقذه من الهلكة، وينجيه من العقوبة، {والله على كل شيء قدير} يقول: والله على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه على معصيته، وغفران من أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه،

وغير ذلك من الأمور كلها قادر، لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والعباد عباده، وخرج قوله: {ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض} خطابا له صلى الله عليه وسلم، والمعنيُ به مَن ذكرت مِن فِرَق بني إسرائيل الذين كانوا بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما حواليها. . - (٩٩).

٤١ - (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٤١)

روى مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: مُر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي، محمما مجلودا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: " هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم "؟ قالوا: نعم فدعا رجلا من علمائهم، فقال: " أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم "؟! قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم (١٠٠) والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أولُ من أحيا أمرك إذ أماتوه " فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: {يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا} يقول: ائتوا محمدا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تبارك وتعالى: {. . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} {. . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}. . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} في الكفار كلها.

{يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر} عهد الله تعالى إلى خاتم المرسلين محمد عليه الصلوات والتسليم أن لا يغتم لتكذيب المكذبين لرسالته- والمراد بالمسارعة في الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة، وإيثار كلمة {في} على (إلى) للإيذان بأنهم مستقرون في الكفر لا يبرحون، وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها، كإظهار موالاة المشركين، وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك؛. . لا تحزن ولا تبال بتفاهتهم في الكفر بسرعة حذرا. . من شرهم، وموالاتهم للمشركين، فإن الله تعالى ناصرك عليهم؛ أو شفقة عليهم حيث لم يوفقوا للهداية، فإن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء- (١٠١)؛ {من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم} يقول بعض النحاة: كأن التركيب على نية التقديم والتأخير، أي: قالوا بأفواههم آمنا، وهؤلاء هم المنافقون، يرضونكم بألسنتهم فيتكلمون بالإسلام، وتأبى صدورهم أن تذعن لوحي الله الحق؛ {ومن الذين هادوا} ربما يكون المعنى: ولا تحزن من كيد الذين هادوا، اليهود الغدرة الفجرة، فهو عطف على {من الذين قالوا}؛ {سماعون للكذب} ذهب البعض إلى أن اللام للتعليل، أي يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليتقولوا عليه بالباطل؛ - (ابتدأ فقال: {سماعون للكذب} أي: هم سماعون، ومثله: (. . طوافون عليكم. .) (١٠٢)؛ وقيل: الابتداء من قوله: {ومن الذين هادوا} أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب، أي قابلون لكذب رؤسائهم من تحريف التوراة؛. . . قال سفيان بن عيينة: إن الله سبحانه ذكر الجاسوس في القرآن بقوله: {سماعون لقوم آخرين لم يأتوك}. . . . {يحرفون الكلم من بعد مواضعه} أي: يتأولونه على غير تأويله بعد أن فهموه عنك وعرفوا مواضعه التي أرادها الله عز وجل؛ وبين أحكامه؛. . . والمحرفون من اليهود بعضهم لا كلهم،. . {يقولون} في موضع الحال من المضمر في {يحرفون}) (١٠٣)؛ {إن أوتيتم

هذا نخذوه} أي إن أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بالجلد فاقبلوا، {وإن لم تؤتوه فاحذروا} وإن أفتاكم بالرجم ولم يطاوعكم على الجلد فلا تقبلوا منه ما قضي به من رجم الزاني المحصن، {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا} من يشأ الله تعالى له الضلالة عن الرشد فلن تنفعه، ولن ينفعه شيء؛ عن الحسن وغيره: عذابه؛ وعن السدي: {فتنته} إهلاكه، وعن الزجاج: خزيه وفضيحته بإظهار ما ينطوي عليه؛ وقد يشهد لهذا الأخير قول الله تعالى بعد ذلك: {لهم في الدنيا خزي} فيهتك الله تعالى أستارهم، ويزداد غمهم بظهور الإسلام وتمام نوره؛ {ولهم في الآخرة عذاب عظيم} شديد عقاب الله تعالى لهم في الآخرة، ومع بالغ شدته فإنه دائم لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

٤٢ - (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٢)

{أكالون} كثير أكلهم وجمعهم وأخذهم. {السحت} للمال الحرام.

{بالقسط} بالعدل.

{سماعون للكذب} يكرر الذكر الحكيم أن اليهود مردوا على تسمع البعض منهم لما يقول النبي صلى الله عليه وسلم ليتقول عليه، ثم أخبر العليم الخبير سبحانه أنهم أحرص الناس على أكل المال الحرام وأخذه وجمعه. {أكالون للسحت} قال عمر: ما كان من السحت: الرشا ومهر الزانية؛ ونقل عن عمر وعثمان وعلي وغيرهم: الرشوة (١٠٤) في الحكم، ومهر البغي، وعسب الفحل. . .، زاد بعضهم ونقص بعضهم؛ قال المهدوي: ومن جعل كسب الحجام (١٠٥) ومن ذكر معه سحتا فمعناه أنه يسحت مروءة آخذه.

{فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} روى البخاري في صحيحه عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما تجدون في التوراة في شأن الرجم "؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا صدقت يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة؛ {فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم} خير الله تعالى نبيه بين الحكم والإعراض؛ - ثم اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، هل هو ثابت اليوم، وهل للحكام من الخيار في الحكم والنظر بين أهل الذمة والعهد إذا احتكموا إليهم مثل الذي جعل لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، أم ذلك منسوخ؟، فقال بعضهم: ذلك ثابت اليوم لم ينسخه شيء، وللحكام من الخيار في كل دهر بهذه الآية مثل ما جعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم؛. .؛ وقال آخرون: بل التخيير منسوخ، وعلى الحاكم إذا احتكم إليه أهل الذمة أن يحكم بينهم بالحق، وليس له ترك النظر بينهم؛. . وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: إن حكم هذه الآية ثابت لم ينسخ، وإن للحكام من الخيار في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم فاحتكموا، وترك الحكم بينهم والنظر، مثل الذي جعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك في هذه الآية، وإنما قلنا: ذلك أولاهما بالصواب لأن القائلين: عن حكم هذه الآية منسوخ زعموا أنه نسخ بقوله: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله} وقد دللنا في كتابنا كتاب البيان عن أصول الأحكام أن النسخ لا يكون نسخا إلا ما كان نفيا لحكم غيره بكل معانيه حتى لا يجوز اجتماع الحكم بالأمرين جميعا على صحته بوجه من الوجوه،. . . وإذا لم يكن في ظاهر التنزيل دليل على نسخ إحدى الآيتين الأخرى، ولا نفى أحد الأمرين حكم الآخر، ولم يكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر يصح بأن أحدهما ناسخ صاحبه ولا من المسلمين على ذلك إجماع، صح ما قلنا

من أن كلا الأمرين يؤيد أحدهما صاحبه ويوافق حكمه حكمه، ولا نسخ في أحدهما للآخر- (١٠٦)؛ {وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} وإن تركت الفصل في خصوماتهم، وعادوك من أجل ذلك فلا تبال بعداوتهم فإني سأكفيكهم، وأرد عنك كيدهم، وإذا أردت أن تحكم بينهم فالتزم العدل فإني أُحِب من أقسط (١٠٧) وعدل.

٤٣ - (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

{يتولون} يعرضون وينصرفون.

{وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين} عجب الله تعالى من سوء صنيع اليهود، وحذرهم عاقبة أمرهم، وفعلهم مذموم من وجوه، فهم بدلوا حكم الله الذي نزله في التوراة، ثم جاءوا يحتكمون إلى من كتموا بشرى نبوته، وعمدوا إلى تكذيبه حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، ثم أعرضوا عن قضائه بينهم بعدما تقاضوا عنده؛ ومن فعل ذلك فليس من الإيمان ولا من أهل الإيمان في شيء.

٤٤ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

{الربانيون} المربون بالعلم. {الأحبار} العلماء.

{استحفظوا} استودعوا.

{هادوا} عادوا وتابوا. {اخشون} خافون وارهبون.

{ولا تشتروا بآياتي} ولا تستبدلوا بوحي.

{ثمنا} مقابلا من رشوة أو جاه أو حظ من حظوظ الدنيا

{إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور} عظم الله تعالى كتابه المنزل على موسى عليه السلام؛ ومجده بأنه وحيه، جعل فيه ما يرشد إلى الحق ويهدي إلى الرشد، وفيه الضياء الذي يُكشَف به ما تشابه على الناس وأظلم؛ وفيه بيان الشرائع، والتبشير بالنبي الخاتم؛ {يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون} يحكم بالتوراة الأنبياء الذين انقادوا لشرع الله تعالى وخضعوا؛ عن عكرمة: {النبيون الذين أسلموا} (١٠٨) النبي صلى الله عليه وسلم ومن قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحق؛ {للذين هادوا} أي الذين تابوا من كفر ورجعوا بعد زيغ كان منهم، وهذا يعني الحكم لهم وعليهم؛ {والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء} ويحكم بالحق الذي في التوراة {الربانيون} المربون بالعلم، {والأحبار} والعلماء؛ بسبب ما استحفظوا عليه من كلام الله تعالى في كتابه- وقد أخذ الله على العلماء أن يحفظوا كتابه من وجهين: أحدهما-أن يحفظوه في صدورهم، ويدرسوه بألسنتهم؛ والثاني-أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه؛ {وكانوا} أي هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار {عليه} على أن كل ما جاء في التوراة حق من عند الله {شهداء} رقباء لئلا يبدل،. . . ثم نهى اليهود المعاصرين عن التحريف لرهبة فقال: {فلا تخشوا الناس واخشون} وعن التغيير لرغبة فقال: {ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا} وهو الرشوة وابتغاء الجاه، ثم عمم الحكم فقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الكافرون} - (١٠٩).

٤٥ - (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

{كتبنا} قضينا وشرعنا.

{كتبنا} فرضنا

{النفس بالنفس} تقتص النفس وتقتل إذا قتلت نفسا بغير حق.

{العين بالعين} وتقلع العين مقابل قلع عين ظلما، وتفقأ.

{والجروح قصاص} تقتص الجراح بالجراح.

{فمن تصدق به فهو كفارة له} فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للجارح.
{وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص} عن ابن عباس: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح؛ (وهذا إخبار من الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن اليهود، وتعزية منه له عن كفر من كفر منهم به، بعد إقراره بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله، وتعريف منه له جراءتهم قديما وحديثا على ربهم وعلى رسل ربهم، وتقدمهم على كتاب الله بالتحريف والتبديل) (١١٠)؛
{فمن تصدق به فهو كفارة له} نقل مجاهد عن ابن عباس: كان على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ليس بينهم دية في نفس ولا جرح، قال: وذلك قول الله تعالى ذكره: {وكتبنا عليهم فيها} في التوراة، فخفف الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فجعل عليهم الدية في النفس والجراح، وذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن تصدق به فهو كفارة له؛ وربما يكون المراد: مَن تصدق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجاني، فهو كفارة للمتصدق يكفر الله عنه بها ذنوبه؛ {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} المتجاوزون الحد، البالغون أقصى غايات الظلم والبغي.
٤٦ - (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)
{هدى} إرشاد للناس إلى الحق.
{نور} ضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم.
{وقفينا} أتبعنا. {آتيناه} أعطيناه، وأنزلنا عليه.
{وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين} وبعثنا من بعد النبيين الذين أسلموا، وأتبعناهم بعيسى ابن مريم، المسيح عليه السلام، وأرسلناه حال كونه مصدقا لما سبقه من كتابنا {التوراة}، المنزل على موسى، وأعطينا عبدنا المسيح عيسى وأنزلنا عليه كتابنا {الإنجيل} فيه الهداية إلى الحق، والنور الذي يزيح ظلمات الشرك والشك، وجعلنا {الإنجيل} مصدقا لما جاء في {التوراة} وهاديا للتي هي أقوم، وواعظا لكل من عظم مقام ربه ووفي بعهده والتزم؛ - وجعل كله هدى بعد ما جعل مشتملا عليه مبالغة، في التنويه بشأنه لما أن فيه البشارة بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أظهر، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المهتدون بهداه، والمنتفعون بجدواه- (١١١) وذلك كقوله تقدست أسماؤه: (. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (١١٢)، وكذا: (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.) (١١٣) وقوله عز ثناؤه: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (١١٤).
٤٧ - (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
{وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} أي المتمردون الخارجون عن حكمه وعن الإيمان به؛ وهذا قبل بعثة خاتم النبيين، وقبل أن يتنزل القرآن الحكيم، أما بعد نزول الفرقان، وإرسال محمد عليه الصلاة والسلام فهم وكُل الناس مدعوون إلى الدخول في الإسلام الذي لم يرتض الله تعالى دينا سواه، ومطالبون بالعمل بما جاء في الكتاب العزيز، قرآن الله المجيد؛ ومعلوم أن الحديث الذي جاء في صحيح مسلم عن البراء بن عازب ورد فيه: فأنزل الله تبارك وتعالى: {. . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}
{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} {. . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} في الكفار كلها.
٤٨ - (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨)

{الكتاب} القرآن المجيد. {لما بين يديه من الكتاب} لما سبقه من كتب.

{مهيمنا} رقيبا، ومؤتمنا. {شرعة} طريقة توصل إلى النجاة.

{منهاجا} سبيلا مستمرا. {ليبلوكم} ليختبركم. {آتاكم} أعطاكم.

{فاستبقوا الخيرات} فسارعوا إلى الطاعات. {مرجعكم} مصيركم.

{فينبئكم} فيخبركم.

تحدثت الآيات من قبل عن التوراة والإنجيل، الكتابين المنزلين من لدن الله العزيز العليم، وبينت ماذا على من أنزلا فيهما من وجوب الاهتداء بهديهما، والاستضاءة بنورهما، والاحتكام إلى شرعهما، ثم جاءت هذه الآيات تمجد الكتاب الحكيم، القرآن العظيم وتذكر بفضله على سائر الكتب {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} فالمخاطب النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأل في {الكتاب} المنزل عليه للعهد، و {بالحق} أي متلبسا بالحق، و {الكتاب} الذي أنزل من بين يديه، وأوحى إلى رسولين سبقا النبي الخاتم في الزمان، أل فيه للجنس، أي جنس الكتب السالفة المنزلة، والمراد: التوراة والإنجيل، و {مهيمنا} أي: شهيدا، كما روي عن ابن عباس؛ وعن قتادة: {مصدقا لما بين يديه} الكتب التي خلت قبله، {ومهيمنا عليه} أمينا وشاهدا على الكتب التي خلت قبله؛ وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب؛ {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: مادام القرآن أمينا على الكتب السالفة وشاهدا على الحق الذي تضمنته، ومادام ينسخ غيره، ولا ينسخه غيره، فاحكم بين من تحاكم إليك بما أنزل الله تعالى عليك- في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح والقود والنفوس، فارجم الزاني المحصن، واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلما، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقا في ذلك ما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه، يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود. . يقول: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاختر الحكم عليهم ولا تتركن العمل بذلك اتباعا منك أهواءهم، وإيثارا لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي- (١١٥)؛ وجائز أن يكون المخاطب بالنهي النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد سائر الحكام؛ ويجوز أن يُنهى من لا يتصور منه وقوع المنهي عنه، كما في قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار.) (١١٦)؛ {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} جعل الله تعالى بحكمته لكل أمة طريقة توصل إلى النجاة {شرعة} وخصها بمنهاج وسبيل مستمر يُبلغ من استمسك به رضوان المولى وثوابَه؛ ومهما تفاوتت الشرائع التي بعث ربنا بها رسله فإن أصل الإيمان في تلك الرسالات لا يختلف؛ في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد " وقد نطق الكتاب الحق بأن اختلاف ملة عن ملة لا ينافي اشتراك كافة الرسالات في اليقين بوحدانية الله المعبود بحق، والدعوة إلى إفراده بالطاعة والتقديس دون سواه، يقول جل علاه: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (١١٧).

{ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} - ولو شاء ربك لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجا غير شرائع الأمم الأُخَر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمة واحدة لا تختلف شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى ذكره يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصي، والعامل بما أمره في الكتاب الذي أنزله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم من المخالف؛ والابتلاء: هو الاختبار. . . الخطاب وإن كان لنبينا صلى الله عليه وسلم فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم، ولكن العرب من شأنها إذا خاطبت إنسانا وضمت إليه غائبا فأرادت الخبر

عنه أن تُغلب المخاطب، فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب، فلذلك قال تعالى ذكره-: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}. . قوله: {فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} يقول تعالى ذكره: فبادروا أيها الناس إلى الصالحات من الأعمال والقرب إلى ربكم، بإدمان العمل بما في كتابكم الذي أنزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحانا لكم وابتلاء، ليتبين المحسن منكم من المسيء فيجازي جميعكم على عمله جزاءه عند مصيركم إليه، فإن إليه مصيركم جميعا فيخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى،. .
. فإن قال قائل: أو لم ينبئنا ربنا في الدنيا قبل مرجعنا إليه ما نحن فيه مختلفون؟ فقيل: إنه بين ذلك في الدنيا بالرسل والأدلة والحجج، دون الثواب والعقاب عيانا، فمصدق بذلك ومكذب، وأما عند المرجع إليه فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاة التي لا يشكون معها في معرفة المحق والمبطل. . - (١١٨).

٤٩ - (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

{يفتنوك} يصدوك ويردوك.

{تولوا} صدوا وأعرضوا.

{وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون} وهذا توكيد لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحكم بين المتحاكمين إليه بما أنزل الله عليه، وتذكير لكل حاكم ان يستمسك بالحق، وأن لا ينصرف عن القضاء به بين الناس مخافة أن يصرفوه إلى تحقيق أهوائهم، ويقال في النهي هنا ما قيل من قبل فإنما أن يكون الخطاب للنبي والمراد سائر الحكام؛ أو أن النهي يجوز أن يوجه إلى من لا يتصور منه وقوع المنهي عنه؛ {عن بعض ما انزل الله إليك} لعل في هذا ما يقطع طمع الأعداء في أن يصرفوا المؤمن ولو عن بعض أمانات الله لديه؛ ولقد استحفظنا مولانا على الدين كله، وبين الكتاب الحكيم أن قوما استجابوا لأعداء الحق في شيء من الباطل فغدوا بهذا من المرتدين. يقول مولانا الحق المبين: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) (١١٩).

{فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون} فإن أعرض المتحاكمون إليك عن القضاء بالقسط، وانصرفوا مدبرين عنه متجاوزين له فليرتقبوا من الله العزيز بطشة عاجلة تحل بهم عقوبة على بعض آثامهم وأوزارهم، ويوم القيامة يوفون جزاءهم، ويَصْلَوْن السعير الذي أعد لهم؛ وليصبر أهل الرشد، والدعاة إلى البر والخير والقسط، ولا يهولنهم كثرة المبطلين، الخارجين على حدود رب العالمين، فإنها سنته الماضية في الأولين والآخرين، وصدق مولانا العلي العظيم: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (١٢٠).

٥٠ - (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

{يبغون} يريدون ويطلبون.

{أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} أيتولون ويعرضون عن حكم الله الذي أوحاه ويطلبون حكم عبدة الأوثان والأصنام، وتلك هي الملة الجاهلية؟! وليس من حكم أفضل وأحسن عاقبة من حكم الخبير البصير اللطيف القدير جل علاه؛ مما روى البخاري عن ابن عباس-مرفوعا-: " أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية. . ".

٥١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٥١)

{أولياء} نصراء.

نهى الله تعالى عن مناصرة اليهود والنصارى، ومعاشرتهم معاشرة أهل الحق، (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض.) (١٢١) فالكفر ملة واحدة، والجنس الزائغ ينضم إلى ما هو من جنسه في الغي و البغي؛ ولعل النداء هنا لكل من يتصف بالإيمان، أعم من أن يكون ظاهرا وباطنا، أو ظاهرا فقط، فيدخل المسلم والمنافق-والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة؛ وقوله: {بعضهم أولياء بعض} تعليل للنهي، والمعنى: أن بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وبعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي اليهود والنصارى، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى، للقطع بأنهم في غاية من العداوة والشقاق: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء.) (١٢٢)؛ وقيل: المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى وتعاضدها وتناصرها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين، ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها تقتضي أن هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم} أي فإنه من جملتهم وفي عدادهم، وهو وعيد شديد، فإن المعصية الموجبة للكفر هي التي قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية- (١٢٣).

{إن الله لا يهدي القوم الظالمين} المتجاوز حدود الله، المعرض عن آياته لا ينال توفيقا، ولا ينشرح بالدين الحق صدرا.

٥٢ - (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

{في قلوبهم مرض} شك ونفاق.

{يسارعون فيهم} في معاونتهم.

{تصيبنا دائرة} تنزل نائبة، وتدور أمور.

{بالفتح} بفتح بلاد المسلمين.

{أمر من عنده} سعة للمسلمين.

{فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة} عن قتادة: أناس من المنافقين كانوا يوادون اليهود ويناصحونهم دون المؤمنين، والخطاب في {فترى} إما للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح للخطاب، والرؤية إما قلبية وإما بصرية؛ {يسارعون فيهم} يتبادرون إلى موالاتهم؛ والدائرة: نزول نائبة، أو دوران أمور؛ والمرض في القلوب: الشك والنفاق؛ يقول الذين نافقوا مسارعين إلى مودة أهل الكفر: نخشى أن تدور الدائرة على المؤمنين، وتكون الدولة لأعدائهم فيصيبنا منهم ما نكره: (وقد رد الله تعالى عليهم أعمالهم الباطلة، وقطع أطماعهم الفارغة، وبشر المؤمنين بحصول أمنيتهم بقوله سبحانه: {فعسى الله أن يأتي بالفتح} فإن عسى منه عز وجل وعد محتوم، لما أن الكريم إذا أطمع أطعم، فما ظنك بأكرم الأكرمين؟!؛ والمراد بالفتح فتح مكة-كما روى عن السدي- وقيل: فتح بلاد الكفار، واختاره الجبائي؛ وقال قتادة، ومقاتل: هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه، وإعزاز الدين. . . {أو أمر من عنده} وهو القتل وسبي الذراري لبني قريظة، والجلاء لبني النضير. . . - وبه يتعلق. {على ما أسروا}. . {فيصبحوا} أي أولئك المنافقون.. . والمراد فيصيروا {على ما أسروا في أنفسهم} من الكفر والشك في أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم {نادمين} خبر-يصبح- وبه يتعلق. {على ما أسروا}. .

٥٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

{جهد أيمانهم} حَلِفهم وقَسَمهم الغليظ.

{حبطت أعمالهم} بطل ثواب عملهم وذهب أجره.

{ويقول الذين آمنوا} كلام مستأنف مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة،. . . . والمعنى: ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم، ويرجون دولتهم، ويظهرون لهم غاية المحبة، وعدم المفارقة عنهم في السراء والضراء

عند مشاهدتهم تخيبة رجائهم، وانعكاس تقديرهم، لوقوع ضد ما كانوا يترقبونه ويتعالون به، تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم} أي بالنصرة والمعونة- كما قالوه- فيما حكي عنهم: (. . وإن قوتلتم لننصرنكم. .) (١٢٤). . والمعنى: إنكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم في ذلك؛. . واختار غير واحد أن المعنى: يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: {أهؤلاء الذين أقسموا بالله} تعالى لليهود. . .، و {جهد أيمانهم} منصوب على أنه مصدر- لأقسموا- من معناه، والمعنى: أقسموا إقساما مجتهدا فيه. .) (١٢٥)؛ {حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين} قد تكون هذه الجملة دعائية، دعاء عليهم بالهلاك والوبال وذهاب ثواب الأعمال، وقد تكون مسوقة من لدن المولى تعالى لبيان مآل ما صنعوه، وقد تكون من جملة ما يحكيه الكتاب المبين من قول المؤمنين.

٥٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

{يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} الآيات التي سبقت حذرت من موالاة اليهود والنصارى، وأن من تولاهم فهو من جملتهم وفي عدادهم، وأما هذه فقد بينت بعض أحكام المرتدين؛ لكن صاحب تفسير القرآن العظيم ذهب إلى غير هذا فقال: يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة: إنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلا، كما قال تعالى: (. . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (١٢٦)؛ وقال تعالى: (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز) (١٢٧)، أي بممتنع ولا صعب. ا هـ- وهذا من إعجاز القرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيبا، فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته صلى الله عليه وسلم- (١٢٨)؛ قال ابن اسحق: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد؛ مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جواثي (١٢٩)، وكانوا في ردتهم على قسمين: قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها، وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها؛ قالوا: نصوم ونصلي ولا نزكي، فقاتل الصديق جميعهم، وبعث خالد بن الوليد إليهم بالجيوش فقاتلهم وسباهم؛ على ما هو مشهور من أخبارهم (١٣٠). ا هـ.

{فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} الفاء واقعة في جواب شرط {مَن} فكان التقدير: من يرتد عن الإسلام فسوف يأتي الله مكانهم بعد إهلاكهم بقوم من صفاتهم أنهم يحبون الله تعالى، يميلون إليه سبحانه بصدق ويسارعون إلى مرضاته، ويحبهم جل وتقدس فيثيبهم أجزل الثواب، ويكرمهم ويرضى عنهم؛ ومن رضوانه سبحانه يمنحهم عطفا وحنوا على إخوانهم المؤمنين، متذللين لهم، {أعزة على الكافرين} -أشداء متغلبين عليهم- مِن عَزَهُ، إذا غلبه- ونص العلامة الطيبي أن هذا الوصف جيء به للتكميل، لأن الوصف قبله يوهم أنهم أذلاء محقرون في أنفسهم، فدفع ذلك الوهم بالإتيان به. . - (١٣١)، فهم مع عُلُو مقامهم، وهيبتهم في نفوس أعدائهم، يخفضون أجنحتهم يتواضعون، كما جاء في قول الحق تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم. .) (١٣٢)، كما علمنا في شخص نبيه الكريم، بقوله الحكيم: (. . واخفض جناحك للمؤمنين) (١٣٣)؛ {يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم} (يجمعون بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين،. . متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومناقبهم مثالب، حسدا وبغضا، وكراهة للحق وأهله) (١٣٤)؛ مما يقول القرطبي-رحمه الله تعالى-: فدل بهذا على تثبيت إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي-رضي الله تعالى عنهم-؛ لأنهم جاهدوا في الله عز وجل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوا المرتدين بعده، ومعلوم أن من كانت فيه هذه الصفات فهو ولي الله تعالى؛ وقيل: الآية عامة في كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة؛ والله أعلم. ا هـ.

وعن قتادة: أنزل الله هذه الآية (١٣٥) وقد علم أنه يرتد مرتدون من الناس، فلما قبض الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام. . فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه حتى سبي وقتل وحرق بالنيران أناسا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة، حتى أقروا بالماعون- وهي الزكاة- صغرة أقمياء، فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية، فاختاروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم: أن يستعدوا أن قتلاهم في النار، وأن قتلى المؤمنين في الجنة، وأن ما أصابوا من المسلمين مِن مال ردوه عليهم، وما أصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال؛ {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} ذلك العطاء الذي منح المولى أهل محبته من حنو على المسلمين، وغلظة على الكافرين، ومضاء في الحق، وشدة في الدين، ذلك العطاء تفضل من الوهاب الغني يهبه مَن يشاء من عباده، وهو-تباركت آلاؤه- عظيم المنن والآلاء، محيط العلم بكل الأشياء.

٥٥ - (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} -ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله والمؤمنون الذين صفتهم ما ذكر- تعالى ذِكرُه- فأما اليهود والنصارى الذين أمركم الله أن تبرءوا من ولايتهم، ونهاكم أن تتخذوا منهم أولياء فليسوا لكم أولياء ولا نصراء، بل بعضهم أولياء بعض، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا؛ - (١٣٦) نقل الطبري بسنده عن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى عبادة بن الصامت إلى رسوله الله صلى الله عليه وسلم- وكان أحد بني عوف بن الخزرج- فخلعهم إلى رسول الله وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه نزلت (١٣٧): {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} يقول عُبادَة: أتولى الله ورسوله والذين آمنوا، وتبرئه من ولاية بني قينقاع وولايتهم، إلى قوله: {. . فإن حزب الله هم الغالبون}؛ إن مولانا سبحانه عهد إلينا في محكم التنزيل أن ندع ولاية من حاد الله ورسوله ولو كانوا أولى قربى: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان.) (١٣٨)؛ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل وده هم أهل التقوى وإن بعد نسبهم، ومن عداهم ليسوا من الله تعالى ولا من رسوله في شيء؛ في الصحيح: " إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين ".

٥٦ - (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)

{ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} عن السدي: لا تخافوا الدولة ولا الدائرة،. . والحزب هم الأنصار (١٣٩)؛ وأورد الشوكاني:. . وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم،. . . وقد وقع- ولله الحمد- ما وعد الله به أولياءه وأولياء رسله وأولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوهم، فإنهم غلبوا اليهود بالسبي والقتل الابتلاء وضرب الجزية، حتى صاروا-لعنهم الله- أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كلكل المؤمنين يطحنونهم كيف شاءوا، ويمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية. ا ه.

٥٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٥٧)

نهى الله جل علاه أن نوالي المستهزئين (١٤٠) بالدين والذين يسيرون به إلى غير وجهه (١٤١)، وهذا يعم كل من فعل ذلك من اليهود والنصارى، ومن المشركين، ومن المنافقين وأهل البدع المدعين أنهم على الإسلام؛ {واتقوا الله إن كنتم مؤمنين} واخشوا ربكم المعبود بحق أن تحبوا أو تناصروا أحدا من هؤلاء، فإن ذلك هو مقتضى الإيمان، كما جاء في القرآن: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح

منه. .) (١٤٢).
٥٨ - (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)
{وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} النداء: الدعاء بصوت مرتفع، وعلماء القرآن على أن الأذان (١٤٣) لم يذكر في الكتاب العزيز إلا في هذه الآية، وأما قوله تعالى: (. . إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم. .) (١٤٤)، فهو خاص بنداء الجمعة، والباء في {بأنهم} للسببية، أي: سخريتهم من أذانكم وصلاتكم (١٤٥) بسبب فساد عقولهم، وطيشهم وعمي قلوبهم، ولو عقلوا لما أقدموا على ما فعلوا.
٥٩ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)
{قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثرهم فاسقون} الاستفهام للتبكيت، وفيه إنكار عليهم، وإلزام لهم بكفرهم، فكأن المعنى: قل لأولئك المستهزئين بالدين، الساخرين من العبادات والعابدين: هل تنكرون وتعيبون منا إيماننا بالله وبالقرآن، وإيماننا بما أنزل الله تعالى قبل كتابنا من كتب كالتوراة والزبور والإنجيل؟! هل تكرهوننا على ذلك ولأجله، ولأجل أن أكثرهم متمردون لا يؤمنون بأي مما يجب التصديق به والإذعان له! - هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعا كما في قوله تعالى: (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) (١٤٦)، وكقوله: (. . وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله. .) (١٤٧) - (١٤٨).
٦٠ - (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)
{قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل} - تبكيت لأولئك الفجرة أيضا ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ما هم عليه من الدين المحرف، وفيه نعى لهم على سبيل التعريض بجناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها، ولم يصرح سبحانه لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد، وخاطبهم قبل البيان بما ينبئ عن عظم شأن المبين، ويستدعي إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخْبِر به، والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطرا لما أن النبأ هو الخبر الذي له شأن وخطر،. . .، واعتبرت الشرية بالنسبة إليه- مع أنه خير محض منزه عن شائبة الشرية بالكلية- مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته، وحاشاه، ليثبت أن دينهم شر من كل شر،. . . . {مثوبة عند الله} أي جزاء ثابتا عنده تعالى، وهو مصدر ميمي بمعنى الثواب، ويقال في الخير والشر لأنه ما رجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، سمى به بتصور أن ما عمله يرجع إليه، كما يشير إليه قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (١٤٩)، حيث لم يقل سبحانه: ير جزاءه، إلا أن الأكثر المتعارف استعماله في الخير، ومثله في ذلك المثوبة، واستعمالها هنا في الشر على طريقة التهكم- (١٥٠).
{من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت} أنبئكم بشر مصير وجزاء يوم القيامة أعده الواحد القهار للذين أبعدهم من رحمته؟، وأحل بهم غضبا لا يرضى بعده عنهم أبدا، كما عجل سخطه بأسلافهم الذين مسخهم قردة وخنازير، وجعل منهم من عبد الشيطان والباطل والطغيان؛ في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: " إن الله لم يهلك قوما- أو قال لم يمسخ قوما- فيجعل لهم نسلا ولا عقبا إن القردة والخنازير كانت قبل ذلك ") {من لعنه الله} خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف، أي: هو لعن من لعنه الله، أو: دين من لعنه الله،. . {وجعل منهم القردة والخنازير} أي: مسخ بعضهم قردة وخنازير. . فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير،. . {وعبد الطاغوت{. . ومن عبد الطاغوت،. . . . {أولئك شر مكانا} الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لأهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازيا، قوله: {وأضل عن سواء السبيل} معطوف

على {شر} أي: هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم) (١٥١).
٦١ - (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)
{وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به} كان هؤلاء اليهود والنصارى المكرة قد مردوا على النفاق، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، ويدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم يظهرون الإسلام والله يعلم أنهم دخلوا على الكفر، وخرجوا وهم مقيمون عليه، فويل لهم: (ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) (١٥٢)؛ (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) (١٥٣).
{والله أعلم بما كانوا يكتمون} والإله المعبود بحق سبحانه محيط علما بما أضمروه من نفاق، وما أخفوه من غيظ وأضغان، وهو مجازيهم بما انطوت عليه نفوسهم الغادرة من مخاتلة ومخادعة: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) (١٥٤).
٦٢ - (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} الخطاب وإن يكن للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو صالح لأن يراد به كل من يصلح للخطاب، فكأن المعنى: وتظهر فيهم المبادرة إلى ارتكاب الأوزار والآثام، وإلى البغي والعدوان، وأكل الرشا وجمع الأموال الحرام، فبئس العمل عملهم؛ - والكلام مسوق لوصفهم بسوء الأعمال بعد وصفهم بسوء الاعتقاد،. . . والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار- (١٥٥).
٦٣ - (لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)
{لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون}، هلا زجرهم علماؤهم الذين يقتدون بهم، وقراء كتبهم الذين يلقنونهم هلا نهاهم هؤلاء وأولئك عن القول الكاذب والكسب المحرم؟! بئس الصنيع صنيعهم؛ والفعل ما يصدر عن الحيوان ولو دون قصد؛ والعمل ما يصدر عن مدرك قصدا؛ أما الصنيع فهو العمل المتقن الذي يصدر عن ذي خبرة؛ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (١٥٦): ما في القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية؛ -فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم، ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشد حالا وأعظم وبالا من العصاة، فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما أوجب عليه النهوض به، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وأعنا على ذلك وقونا عليه ويسره لنا، وانصرنا على من تعدى حدودك، وظلم عبادك إنه لا ناصر لنا سواك، ولا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين،. . .
٦٤ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)
{وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. }. . اليد عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: (وخذ بيدك ضغثا.) (١٥٧)، وعلى النعمة، كقولهم: كم يد لي عند فلان؛ وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: (. . قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.) (١٥٨)، أو على التأييد، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " يد الله مع القاضي حين يقضي " وتطلق على معان أخر؛. . . فمراد اليهود هنا- عليهم لعائن الله- أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: {غلت أيديهم} دعاء عليهم بالبخل،. . . ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة،. . . {ولعنوا بما قالوا} معطوف

على ما قبله، والباء سببية، أي: أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم. .، ثم رد سبحانه بقوله: {بل يداه مبسوطتان} أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود. . . . . {ينفق كيف يشاء} جملة شاء مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه، أي: إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء قتر، فهو القابض الباسط- (١٥٩)؛ {وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا} عن قتادة: حملهم حسد محمد صلى الله عليه وسلم والعرب على أن كفروا به وهم يجدونه مكتوبا عندهم؛ {وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين} وأوقع الله تعالى بين هؤلاء الغادرين من اليهود- والنصارى معهم- أوقع بينهم التعادي والتباغض فجعل بأسهم بينهم، وسيبقون هكذا متنافرين مدى الحياة، وكلما أظهروا كيدا بالمسلمين صرف الله تعالى مكرهم عن عباده المؤمنين، وهم يمكرون ويدبرون ليطفئوا نور رب العالمين، لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ويدفع باطل المفترين، ويحق بكلماته ويقطع دابر المفسدين، وأل في {المفسدين} قد تكون للجنس، وهم داخلون فيه دخولا أوليا، وقد تكون للعهد.

٦٥ - (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥)

في سبع آيات قبل هذه من الآية ٥٧ حتى الآية ٦٤ بين الكتاب العزيز بعض إفك الإسرائيليين ومكرهم وزورهم إذ سخروا من الدين ومن المصلين، وما قدروا الله العلي العظيم، ومن حِلْمِه سبحانه أن ذكر أنهم مع إسرافهم في فجورهم وافترائهم لو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه، واجتنبوا البغي والفساد، لغفر لهم ما كان من غي وآثام، ولأدركوا نعيم الجنة دار السلام؛ - {ولو أن أهل الكتاب} وهم اليهود والنصارى {آمنوا} بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فصدقوه واتبعوا ما أنزل عليه، {واتقوا} ما نهاهم الله عنه فاجتنبوه، {لكفرنا عنهم سيآتهم} يقول: محونا عنهم ذنوبهم فغطينا عليها، ولم نفضحهم بها، {ولأدخلناهم جنات النعيم} يقول: ولأدخلناهم بساتين ينعمون بها في الآخرة. . .

٦٦ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

{ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم}. . ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل. . وعملوا بما أنزل إليهم من الفرقان (١٦٠) الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم. . . . . لأنزل الله عليهم من السماء قطرها، فأنبتت لهم به الأرض حبها ونباتها، فأخرج ثمارها. . . ولأكلوا من بركة ما تحت أقدامهم. . وذلك ما تخرجه الأرض من حبها ونباتها.

{منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون} مقتصدة في القول في عيسى ابن مريم قائلة فيه الحق أنه رسول الله (. . وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. .) (١٦١)، لا غالية قائلة إنه ابن الله-تعالى عما قالوا من ذلك- ولا مقصرة قائلة هو لغيرِ رشْدَه (١٦٢).. . . وكثير منهم سيء عملهم- (١٦٣).

٦٧ - (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّـغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

{يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين} تذكير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمانة تبليغ كافة ما أوحاه إليه مولاه جل علاه؛ وعن ابن عباس: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته؛ - وهذا تأديب للنبي صلى الله عليه وسلم، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئا من وحيه؛ فدلت الآية على رد قول من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة (١٦٤) -، ودلت على أنه صلى الله عليه وسلم لم يسر إلى أحد شيئا من أمر الدين، لأن

المعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهرا، ولولا هذا ما كان في قوله عز وجل: {وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} فائدة- (١٦٥) في صحيح مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: {يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} وقبح الله الروافض (١٦٦) حيث قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه، وفي صحيح البخاري عن وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل (١٦٧)، وفكاك الأسير، وان لا يقتل مسلم بكافر، وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت: لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من القرآن لكتم هذه الآية: (. . وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.) (١٦٨)، وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يومئذ: " أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون "؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم، ويقول: " اللهم هل بلغت "؟! {والله يعصمك من الناس} لا تبال بكثرة مخالفيك، ولا يهولنك مكرهم، فإن الله تعالى كافيك، ودافع عنك مكروه كل من يتقى مكروهه- ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يُظن أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنه بين لعباد الله ما أنزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبى من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعا أو كرها. . . وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله ولإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهراني من ضاد الله وعانده ولم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا (١٦٩) وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيمانا وصلابة في دين الله، وشدة شكيمة في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلوا الأقدام ومضطربوا القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلفة، وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي محنة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (١٧٠)؛ قوله: {إن
الله لا يهدي القوم الكافرين} جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة، أي: إن الله لا يجعل لهم سبيلا إلى الإضرار بك، فلا تخف، وبلغ ما أمرت بتبليغه- (١٧١).

٦٨ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

{قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم} هذا أمر من الله الحكيم أن نبصر اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شيء يعتد به من الدين حتى يعملوا بما في التوراة والإنجيل والقرآن، ويؤمنوا بذلك، ويقروا ويصدقوا بأن ذلك كله من وحي العزيز الحكيم، لئلا تكذبوا بشيء منه، (ولا تفرقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، فإن الكفر بواحد من ذلك كفر بجميعه، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا، فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها) (١٧٢)؛ {وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين} اللام موطئة للقسم، والطغيان: تجاوز الحد، والكفر: الجحود وعدم التصديق، والأسى: التأسف والحزن، ينبئنا العليم الخبير أن أكثر الضالين المكذبين لا يهتدي بالقرآن الحكيم ولا يستنير بنوره، بل في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، وصدق الله العظيم: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (١٧٣).

٦٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} - {إن الذين آمنوا} الخ. جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين، والمراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون، {والذين هادوا} أي دخلوا في دين اليهود، {والصابئون} مرتفع على الابتداء وخبره محذوف، والتقدير: والصابئون والنصارى كذلك، قال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقدير والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك- (١٧٤)، فإن أريد بالمؤمنين في قول المولى سبحانه: {إن الذين آمنوا} جميع أهل الإسلام: من خلص إيمانه، ومن يدعي الإسلام من المنافقين، فالمراد بمن آمن: من استمر على الإيمان الصادق واستمر وثبت عليه، ومن ترك النفاق إلى صحيح اليقين، فتطابق ما استقر في قلبه، وصدقه عمله. (وفائدة هذا التقديم- {والصابئون} -: التنبيه على أن التوبة مقبولة البتة، وذلك أن الصابئين بين هؤلاء المعدودين ضلال، لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، أي خرجوا، فكأنه قال: كل هؤلاء الفرق إذا أتوا بالإيمان والعمل الصالح قبلت توبتهم حتى الصابئون، ولو قيل: الصابئين لم يكن من التقديم في شيء لأنه ثابت في مركزه الأصلي، وإنما تطلب فائدة التقديم للمزال عن موضعه، والراجع إلى اسم {إن} محذوف، والتقدير: من آمن منهم) (١٧٥).

مما قال قتادة: الصابئون: عبدة الملائكة، والنصارى هم الذين نزل فيهم الإنجيل، ومن دخل في دينهم بعد، ومعلوم أن هذه الفرق لا يثبت لها الإيمان بعد إرسال خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام إلا إذا صدقت برسالته واتبعت النور الذي أنزل معه ونهجت نهجه وسلكت سبيله فهؤلاء لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أحوال الآخرة وأهوالها، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من أهل ومال وولد، فإن المولى تقدست أسماؤه يخلفهم في ذلك كله.

٧٠ - (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)

لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٠)

{لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل} اللام موطئة للقسم و {قد} للتحقيق، أخذ الله تعالى عهدا مؤكدا وعقدا موثقا على أبناء يعقوب عليه السلام وذريته أن يستجيبوا لربهم ويسلموا له، وهذه هي الآية الثالثة (١٧٦) في هذه السورة (١٧٧) الكريمة التي ينبئنا فيها العليم الخبير أنه أخذ العهود والمواثيق عليهم، - والمراد بالميثاق المأخوذ: العهد المؤكد الذي أخذه أنبياؤهم عليهم في الإيمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، واتباعه فيما يأتي ويذر، أو في التوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة {وأرسلنا إليهم رسلا} ذوي عدد كثير، وأولي شأن خطير، يعرفونهم ذلك، ويتعهدونهم بالعظة والتذكير. . - (١٧٨).

{كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم} قال أبو حيان {كلما} منصوبة على الظرفية لإضافتها إلى ما المصدرية الظرفية، وقد تسمى شرطية لاقتضائها جوابا كالشرط غير الجازم، وجوابها {فريقا كذبوا وفريقا يقتلون} أي: كلما بعث الله إليهم رسولا استكبروا أن يطيعوه، وتواصوا أن يعاندوه، فإما كذبوه وصدوا عنه، وإما آذوه وقتلوه، كما قتلوا زكريا ويحي عليهما السلام، وكذبوا عيسى وكثيرا من الأنبياء.

٧١ - (وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

{وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا} ظن هؤلاء الإسرائيليون الذين نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وكذبوا رسله وآذوهم وقتلوهم- ظنوا أن لن يصيبهم من ربهم عذاب، ولن يترتب على فعلهم الأثيم شر فتمادوا في فنون الغي والبغي، وعموا عن الهدى والبر بعد ما هداهم الرسل إلى منهاج الحق والرشد، وصموا عن استماع ما جاءوهم به من النور والعظات، والعلم والآيات البينات، ولعلهم ظنوا أن لن يمسهم بلاء بسوء صنيعهم ربما لزعمهم أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، أو لإهمال الله لهم فأمنوا بأسه، {ثم تاب الله عليهم} قبل توبتهم إذ عادوا إلى الاستقامة بعد ما اعوجوا {ثم عموا وصموا كثير منهم} ثم لم يلبث أكثرهم إلا يسيرا حتى عادوا إلى ما كانوا فيه من زيغ ونكث، وعتو وفساد، {والله بصير بما يعملون} وربنا مطلع عليهم، وناظر إليهم يرى ما يفعلون، ويكتب ما يمكرون.

٧٢ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

{لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم} أكْفَرَ الله تعالى من زعموا أن عيسى هو الله، سواء زعموا أن ذلك بحلول أو اتحاد، وعلم المسيح كيف يرد على إفكهم، فناداهم: أن اعبدوا الله خالقي وخالقكم وخالق كل شيء ووليه ومدبره فهو وحده المستحق للعبادة، وما أنا إلا مربوب مخلوق مثلكم، ومملوك والله مالك أمري وأمركم؛ {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة} في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث مناديا في الناس: " إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة " وفي لفظ: " مؤمنة "، {ومأواه النار} مسكنه دار العذاب المقيم، ومرده ومصيره إلى لهب الجحيم؛ - {. . حرم الله عليه الجنة}. . يمنع من دخولها كما يمنع المحرم عليه من المحرم،. . إذ لا تكليف ثمة،. . {ومأواه النار} فإنها المعدة للمشركين، وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثر حرمانهم الثواب،. . . {وما للظالمين من أنصار} أي ما لهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار، وإدخالهم الجنة،. . وهو إما من تمام كلام عيسى عليه السلام، وإما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام وتقريرا لمضمونها- (١٧٩).

٧٣ - (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} وهذا نبأ من الله الحق عن طائفة تؤمن بالتثليث (١٨٠)، تقول منكرا وزورا: الله ثالث آلهة ثلاثة؛ (وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية، كانوا- فيما بلغنا- يقولون: الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أبا والدا غير مولود، وابنا مولودا غير والد، وزوجا متتبعة بينهما) (١٨١)؛ ويدل على أن هذا بهتانهم ما جاء في قول الحق جل علاه: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق}؛ {وما من إله إلا إله واحد} ليس المعبود بحق متعددا، بل هو إله واحد لا شريك له، ولا معبود في الكون يستحق العبادة سواه، هو رب ما نرى وما لا نرى وإله جميع الكائنات وسائر الموجودات، واحد لا ثاني له ولا شريك، ولا ند له ولا ضد ولا مثيل؛ {وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} وعيد للذين لم يؤمنوا بوحدانية الله، فمن لم يرجع من المشركين عن شركه فقسما لنذيقنه عذابا موجعا يبقى فيه خالدا مخلدا، مع ما نعجل له في الدنيا من عذاب العداوة والبغضاء فيما بينهم، والنحوسة تحل بهم؛ قال الزجاج: يعني الذين أقاموا على هذا الضلال، أما من تاب وأناب إلى التوحيد فما هو من المعذبين، فمن إذا في قوله تعالى: {منهم} للتبعيض، ويجوز أن تكون للبيان، والمراد: ليمسنهم، ولكن أقيم الظاهر مقام المضمر تكريرا للشهادة عليهم بالكفر.

٧٤ - (أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه} استفهام يراد به الطلب والأمر، وفيه تعجيب من إصرارهم على الشرك، - أي: ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقوال الباطلة فلا يتوبون إلى الله تعالى الحق ويستغفرونه بتنزيهه تعالى عما نسبوه إليه عز وجل. . - (١٨٢)؛ {والله غفور} يتجاوز عن ذنوبهم وعن الذنوب كلها لمن استغفره؛ {رحيم} واسعة رحمته فلا تضيق بالذين أسرفوا على أنفسهم، وافتروا على ربهم، بل تشملهم إن أنابوا إلى الله وأسلموا له.

٧٥ - (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

{ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام} ليس عيسى ابن مريم- كما زعم المبطلون- من الإلهية في شيء، لكنه (ابن مريم، ولدته ولادة الأمهات أبناءهن، وذلك من صفة البشر، لا من صفة خالق البشر، وإنما هو لله رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله، فمضوا وخلوا، أجرى- الله- على يديه ما شاء أن يجريه عليها من الآيات والعبر، حجة له على صدقه، وعلى أن لله رسول. . . كما أجرى على أيدي من قبله من الآيات والعبر حجة لهم على حقيقة صدقهم في أنهم لله رسل) (١٨٣)؛ وربنا تقدست أسماؤه يقول: (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل. . .) (١٨٤)؛ وأمه واحدة من النساء عابدة

مصدقة بكلمات ربها ورسله (١٨٥)، وفي النساء من يتصف بهذه الصفات ولم يدع أحد إلهية واحدة منهن {كانا يأكلان الطعام} ومن كان يأكل الطعام كسائر البشر لا يصح أن يكون إلها (١٨٦)؛ {انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} - انظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى الآيات وهي الأدلة والأعلام والحجج على بطول ما يقولون في أنبياء الله، وفي فريتهم على الله وادعائهم له ولدا، وشهادتهم لبعض خلقه بأنه لهم رب وإله، ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قيلهم، ولا ينزجرون عن فريتهم على ربهم وعظيم جهلهم، مع ورود الحجج القاطعة عذرهم عليهم،. . ثم انظر مع تبييننا لهم آياتنا على بطول قولهم أي وجه يصرفون عن بياننا الذي بينته لهم، وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلون- (١٨٧).

٧٦ - (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم} هذه حجة لله تعالى بالغة، وإنكار على كل أهل العقائد الزائغة المتجاوزين عبادة القدوس المهيمن إلى عبادة مخلوق عاجز، ومتجاوزين دعاء القريب المجيب العليم الحكيم إلى دعاء ما لا يسمع ولا يبصر، ولو سمع ما استجاب، فهو لا يملك نفعا ولا يدفع ضرا عن نفسه، فضلا عن أن يهب شيئا من ذلك لغيره؛ ومن المفسرين (١٨٨) من وجه معنى الآية الكريمة إلى الإنكار على عبدة الأصنام والأنداد والأوثان، وقال: فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يبصر ولا يعلم شيئا؛ لكن السياق إلى غير هذا، فما قبل الآية وما بعدها إنما هو في كفر من كفر من بني إسرائيل؛ ومن المفسرين (١٨٩) من قال: المراد هنا المسيح عليه السلام؛ ومنهم (١٩٠) من قال: والمراد بما لا يملك عيسى، أو: هو وأمه. .؛ ولكن الآية تعم.

٧٧ - (قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

{قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق} أمر الله تعالى نبيه أن يقول لمن أنزلت فيهم التوراة والإنجيل وعاصر نزولها أسلافهم: لا تتجاوزوا الحد في تدينكم بإفراط أو تفريط دون حق لكم في ذلك؛ و {غير الحق} صفة مؤكدة لا مميزة، لأن الغلو لا يكون حقا أبدا؛ - يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله أو هو ابنه ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ {ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا} يقول: ولا تتبعوا أيضا في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: هو لغير رشدة، وتبهتوا أمه كما يبهتونها بالفرية، وهي صديقة؛ {وأضلوا كثيرا} يقول- تعالى ذكره-: وأضل هؤلاء اليهود كثيرا من الناس فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر بالله، والتكذيب بالمسيح؛ {وضلوا عن سواء السبيل} يقول: وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق، وركبوا غير محجة الحق، وإنما يعني- تعالى ذكره- بذلك: كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله: عيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم، وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه، وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم الله به- (١٩١).

٧٨ - (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.} عن ابن عباس ما حاصله: لعن الله تعالى كفار بني إسرائيل في الزبور والإنجيل على لسان رسوليه الكريمين داود وعيسى، فأنزل سبحانه وتعالى فيهما: ملعون من يكفر من بني إسرائيل بالله تعالى أو أحد من رسله عليهم السلام؛ نقل ابن جرير: قال ابن زيد. . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن رحى الإيمان قد دارت فدوروا مع القرآن حيث دار فإنه قد فرغ الله مما افترض فيه وإنه كانت أمة من بني إسرائيل كانوا أهل عدل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فأخذهم قومهم فنشروهم بالمناشير وصلبوهم على الخشب وبقيت منهم بقية فلم يرضوا حتى داخلوا الملوك وجالسوهم ثم لو يرضوا حتى واكلوهم فضرب الله تلك القلوب بعضها ببعض فجعلها واحدة فذلك قول الله تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود} إلى {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}. . ماذا كانت معصيتهم قال: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}

٧٩ - (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

{كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}. . وبما عصوا الله نخالفوا أمره. . وكانوا يتجاوزون حدوده،. . . لا يتناهون عن منكر فعلوه ولا ينهى بعضهم بعضا، ويعني بالمنكر: المعاصي. . . وهذا قسم من الله تعالى ذكره يقول: أقسم لبئس الفعل كانوا يفعلون في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تعالى وركوب محارمه، وقتل أنبياء الله ورسله. .

٨٠ - (تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

{ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون}. . ترى يا محمد كثيرا من بني إسرائيل. . يتولون المشركين من عبدة الأوثان، ويعادون أولياء الله ورسله. . . أقسم لبئس الشيء الذي قدمته لهم أنفسهم أمامهم إلى معادهم في الآخرة. . . قدمت لهم أنفسهم سخط الله عليهم بما فعلوا. . . وفي عذاب الله يوم القيامة. . دائم مقامهم ومكثهم فيه. ا ه.

٨١ - (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

{ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي} لو كان هؤلاء الذي قادتهم أنفسهم إلى ما أسخط الله عليهم، لو كانوا على إيمان بالله وتصديق بالنبي الذي أرسل إليهم موسى عليه السلام، أو بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم {وما أنزل إليه} والذي أنزله ربنا على موسى في التوراة، أو ما أنزله سبحانه على النبي الخاتم في القرآن، {ما اتخذوهم} لو كانوا أصحاب يقين صادق بالحق ما اتخذوا المشركين، ولا اليهود الغادرين أنصارا وأحبابا، لأن الإيمان يأبى عليهم ذلك، {ولكن كثيرا منهم فاسقون} خارجون عن الدين، مُفْرِطون في المخادعة والنفاق؛ - جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء، وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم،. . . أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} إلى قوله: {فاسقون} " ثم قال: " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم " وأخرجه الترمذي؛. . . . والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين؛ فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه؛. . وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم- (١٩٢) في صحيح (١٩٣) مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ".

وهكذا فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية، وتارك ذلك شريك للعصاة، متعرض لسخط مولاه؛ إن الوفاء بهذه الأمانة الدينية سبيل القوامة على البشرية، وصدق مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه، وهو القائل في محكم التنزيل: (كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.) (١٩٤)، وقال جل ثناؤه: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (١٩٥).

٨٢ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢)}

في آيات قبل هذه بين الكتاب العزيز بعض سبل الخبال والضلال التي اتبعها الغواة من الإسرائيليين، فلعنهم الله تعالى فيما أنزل من كتبه، وعلى ألسن المرسلين-صلوات ربنا على النبيين أجمعين- ثم بدأت الآية الكريمة {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين

أشركوا} كالتقرير لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود والذين اتخذوا من دون الله سبحانه آلهة، ودخول اللام عليها يزيدها تقريرا وتوكيدا، فهي المواطئة للقسم، والخطاب لسيدنا رسول الله صلوات ربنا عليه وسلامه، ولكل من يصلح للخطاب، فكأن المعنى: لتلاقُن أغلظ الناس في عداوتكم أيها المؤمنون من كان يهوديا (١٩٦) أو مشركا، - ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهتة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- (١٩٧)، (وفي الآية من الفائدة أن التمرد والمعصية عادة لهم ففرغ يا محمد ولا تبال بمكرهم، ولا تحزن على كيدهم) (١٩٨).

{ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون} عن مجاهد: هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وقال السدي: بعث النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر رجلا من الحبشة سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكَوْا وآمنوا، فأنزل الله عليه فيهم: {وأنهم لا يستكبرون}.

٨٣ - (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

{وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} فآمنوا، ثم رجعوا إلى النجاشي، فهاجر النجاشي معهم، فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، واستغفروا له؛ - الله تعالى وصف صفة قوم قالوا إنا نصارى: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس ودادا لأهل الإيمان بالله ورسوله. . . قربت مودة هؤلاء. . للمؤمنين من أجل أن منهم قسيسين ورهبانا- (١٩٩)، قال ابن زيد: القسيسين: عُبادهم؛ وقيل: القسيسون: خطباؤهم وعلماؤهم، والرهبان: عبادهم؛ أثنى الكتاب الحق عليهم بأن فيهم العلماء والعباد المتواضعون، المنقادون للحق المنصفون، المسارعون إلى الإذعان للرشد وعلى ما فرط منهم يبكون، المتضرعون إلى المولى أن يجعلهم مع أمة الإسلام الشاهدة بصدق رسل الله عليهم الصلاة والسلام، المستمسكون بالبر والهدى، يرجون رحمة ربهم ورفقة من صلح واتقى. (٢٠٠).

٨٤ - (وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

{وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين} {وما لنا} لإنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع حصول موجبه وهو الطمع في إنعام الله عليهم بإدخالهم دار ثواب الصالحين؟! قالوا ذلك في أنفسهم أو فيما بينهم وبين قرنائهم- وكل {لا نؤمن} نصب على الحال، ويحتمل أن يكون (الطمع) حالا من {لا نؤمن}. كأنهم أنكروا أن لا يوحد الله وهم يطمعون في الثواب: وأن يكون عطفا على {لا نؤمن} أي ما لنا بجمع بين التثليث وبين الطمع؟!.

٨٥ - (فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

{فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين} فسيعطيهم الله الشكور جزاء إيمانهم وصلاحهم نعيما في جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار، دائما في دار الكرامة هذه مكثهم، لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها، وهذا ما أعده البر الرحيم الشكور الكريم لكل من اتقى وأحسن.

٨٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم} وكما نجزي من أحسن بالحسنى، فإنا نجازي الكافر الجاحد المكذب بالآيات التنزيلية والعلامات الكونية والدلائل الآفاقية والأنفسية-جزاء هؤلاء المكث والسكنى في النار المتوقدة لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور، فاللهم قنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

٨٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٨٧) وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (٨٨) أكثر من أربعين آية من هذه السورة الكريمة علمتنا الكثير من أحوال أهل التوراة والإنجيل، ثم جاءت الآيتان المباركتان بحل المطاعم والمشارب والمتع الشريفة- كيلا يتوهم متوهم أن مدح القسيسين والرهبان يوجب إيثار طريقتهم في هذا الدين. . . ومن المعلوم أن توسع الإنسان في اللذات والطيبات يمنعه الاستغراق في تحصيل السعادات الباقيات. . . فالجواب: أن الرهبانية المفرطة مما توقع الآفة في الأعضاء الرئيسية التي هي القلب والكبد والدماغ والأنثيان، فيختل الفكر، ويقل التأمل في الجواهر الروحانية ومباديها، على أن النفوس القوية لا يمنعها التصرف في الجسمانيات عن التأمل في الروحانيات، فالرهبانية دليل الضعف والقصور؛ والكمال في الوفاء بالجهتين؛ وكيف لا؟ والرهبانية توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل!؛ وترك الترهب مع رعاية وظائف الطاعة يفضي إلى سعادة الدارين.. . .

ومعنى {تحرموا} لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله، ولا تظهروا باللسان تحريمه، أو: لا تجتنبوه اجتنابا يشبه اجتناب المحرمات، فهذه الوجوه محمولة على الاعتقاد والقول والعمل.. . . والطيبات: المستلذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب؛ ثم نهى عن الاعتداء مطلقا ليدخل تحته النهي عن الإسراف. . .

٨٨ - (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٧ إظهار

و {كلوا} أمر إباحة وتحليل، {مما رزقكم الله} في إدخال {من} التبعيضية إرشاد إلى الاقتصاد والاقتصار في الأكل على البعض، وصرف الباقي إلى المحتاجين- (٢٠١). ونقل القرطبي ما حاصله: في هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها رد على غلاة المتزهدين، وعلى أهل البطالة من المتصوفين، إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه؛ قال الطبري (٢٠٢): لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح.. . . ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مظعون، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون، إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛. . . أخرج الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا معان بن رفاعة، قال: حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية من سراياه؛ قال: فمر رجل بغار فيه شيء من الماء فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا؛ قال: لو إني أتيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك، فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل؛ فأتاه فقال: يا نبي الله إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا؛ قال: فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة "؛ قال الطبري: فإن ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ؛ وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببا إلى طاعته؛ والأكل في هذه الآية عبارة عن التمتع بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك؛ {واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} خافوا ربكم الذي تستيقنون بحكمته أن تعتدوا في حدوده فتحرموا على أنفسكم ما أحل سبحانه لكم من الطيبات، أو تحلوا لأنفسكم ما لم يأذن به، فإن التصديق الجازم واليقين الراسخ يُلزمان أهل الإيمان سلوك سبيل الطاعة والقصد، دون تفريط أو غلو.

أخرج الإمام مسلم (٢٠٣) في صحيحه عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على الفراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: " ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني "، وأخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٤) عن أنس أيضا، ولفظه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته: فلما أخبروا كأنهم تقالوها- فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ".

٨٩ - (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان} عن عائشة رضي الله عنها: لغو اليمين ما لم يعقد عليه الحالف قبله، فكل يمين من غير قصد تعد لغوا، ومنها قول الحالف: لا والله، وبلى والله، دون تصميم على ما حلف عليه، وربما يكون سبق لسان من غير نية، و {في} قد تكون بمعنى: مِن، فهذه يرجى أن لا يعاقب الله عليها، ولا يطلب إلى صاحبها كفارة، ولكن المولى سبحانه يؤاخذ بالإيمان المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث فيها، كأن حلف أن لا يفعل شيئا ثم فعله، أو حلف أن يفعل شيئا ثم لم يفعله، وهناك نوع ثالث من الأيمان وهو اليمين الغموس، والعلماء يعدونه من الكبائر، بل من أكبرها (٢٠٥)، وفيه نزل قول الحق تقدست أسماؤه: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) (٢٠٦)، {فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة} فكأن المعنى فكفارة ما عقدتم من الأيمان إذا حنثتم فيه إطعام عشرة محاويج.

نقل ابن جرير بسنده عن عمر: لكل مسكين مدان من حنطة، وفي رواية ثانية له: لكل مسكين نصف صاع من بر أو نصف صاع من تمر، ونقل عن علي: نصف صاع من حنطة، وعن الحسن: يغذيهم ويعشيهم، أو يكسو كل واحد منهم ثوبا، وعن أبي جعفر: كسوة الشتاء والصيف ثوب ثوب، أو يفك- كفارة عن يمينه- أسر عبد، يعتق رقبته، ويحرره، - {فكفارته}: أي الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها أحد هذه الأمور، ويسمى بالواجب المخير، وحاصله أنه لا يجب الإتيان بكل واحد منها، ولا يجوز الإخلال بجميعها، ولكنه إذا أتى بأي واحدة منها فإنه يخرج عن العهدة، ومن هنا قال أكثر الفقهاء: الواجب واحد لا يعينه من الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة، فإن عجز عنها جميعا فالواجب شيء آخر وهو الصوم- (٢٠٧).

{فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم} فمن لم يستطع التكفير عن يمينه التي حنث فيها، ولزمه أن يكفر عنها (٢٠٨) ثم لم يتيسر له أن يأتي بخصلة من الخصال الثلاث المذكورات آنفا فليصم ثلاثة أيام تكفيرا عما وقع فيه، وهذا ما شرعه لكم مولاكم، سترا لخطاياكم، وتغطية لما كان منكم إذا حلفتم وما وفيتم، {واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون} {واحفظوا أيمانكم} قللوها ولا تكثروا منها، أولا تتركوها بغير تكفير إذا حنثتم فيها، أولا تنسوها تهاونا بها، كذلك يوضح الله تعالى لكم أحكامه وأعلام شرعه، لتشكروا نعمة البيان وتسهيل المخرج من الحرج.

روى الإمام مسلم- رحمه الله-في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير "، كما روى عن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي فرض الله "، واللجاج في اليمين: المضي على مقتضاه وإن

لزم من ذلك حرج ومشقة، وترك ما فيه منفعة عاجلة أو آجلة، ولا يعتل باليمين، فإن المولى الحكيم أنزل في كتابه الكريم: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. .) (٢٠٩).

٩٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{الخمر} ما خامر العقل وغطاه. {الميسر} اللعب بالقداح.

{الأنصاب} ما نُصِب فعُبد كالأصنام، قال ابن سيده: كل شيء رفع واستقبل.

{الأزلام} القداح، والسهام يستقسم بها. فهو نصب.

{رجس} قذَر، نجس، قبيح، حرام.

يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠)

- هذا بيان من الله تعالى ذكره للذين حرموا على أنفسهم النساء والنوم واللحم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تشبها بالقسيسين والرهبان، فأنزل الله فيهم على نبيه صلى الله عليه وسلم كتابه ينهاهم عن ذلك فقال: {يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم} فنهاهم بذلك عن تحريم ما أحل الله لهم من الطيبات، ثم قال: {ولا تعتدوا}. . في حدودي فتحلوا ما حرمت عليكم فإن ذلك لكم غير جائز، كما غير جائز لكم تحريم ما حللت، وإني لا أحب المعتدين. ثم أخبرهم عن الذي حرم عليهم مما إذا استحلوه وتقدموا عليه كانوا من المعتدين في حدوده، فقال لهم: يأيها الذين صدقوا الله ورسوله إن الخمر التي تشربونها والميسر الذي تتياسرونه والأنصاب التي تذبحون عندها والأزلام التي تستقسمون بها {رجس} يقول: إثم ونتن سخطه الله وكرهه لكم- (٢١٠)، والخمر ما خامر العقل وغطاه وستره فأسكره أو خدر إدراكه ووعيه أو فتره (٢١١)، {والميسر} أي: اللعب بالقداح، وطلب غرة من يلاعب ليخدعه فيقمره (٢١٢)، قال مجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر (٢١٣) حتى لعب الصبيان بالجوز، وقال عطاء في الميسر: إنه القمار بالقداح في كل شيء، {والأنصاب} كل ما نصب فعبد كالأوثان والأصنام (٢١٤)، {والأزلام} السهام التي يُستقسم بها، وكانت لقريش في الجاهلية سهام مكتوب عليها: افعل ولا تفعل، قد زلمت وسويت ووضعت في الكعبة، يقوم بها سدنة البيت، فإذا أراد الرجل سفرا أو نكاحا أتى السادن فقال: أخرج لي زلما، فيخرجه وينظر إليه، فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح النهي قعد عما أراده، قال الشاعر مادحا:

لم يزجر الطير إن مرت به سُنُحا ... ولا يُفيض على قِسْم بأزلام

{رجس من عمل الشيطان} عن ابن زيد: الرجس: الشر، وهو شامل لمعاني: القذر، والنجس، والقبيح، والحرام، - وإفراد الرجس مع أنه خبر عن متعدد (الخمر والميسر والأنصاب والأزلام) لأنه مصدر يستوي فيه القليل والكثير،. . . {من عمل الشيطان} في موضع الرفع على أنه صفة {رجس} أي: كائن من عمله، مسبب من تزيينه وتسويله- (٢١٥)"، {فاجتنبوه لعلكم تفلحون} فلا تقربوا شيئا من هذا الشر رجاء أن تدركوا ما فيه الفوز بالمرغوب والسلامة من كل مرهوب، في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت في آيات من القرآن، وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حسن- والحسن البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم وزق من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رجل لحي جمل فضربني به فجرح أنفي، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأنزل الله تعالى في- يعني نفسه إذ شرب الخمر- {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه}، (تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة، فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس. .) (٢١٦) أي في تجارتهم، فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس وقالوا: نأخذ منفعتها ونترك إثمها، فنزلت هذه الآية: (. . لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى. .) (٢١٧)، فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة

حتى نزلت: {يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس} الآية، فصارت حراما عليهم، حتى صار يقول بعضهم: ما حرم الله شيئا أشد من الخمر) (٢١٨).

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم رواية- قربة- خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . هل علمت أن الله حرمها "؟! قال: لا، قال: فسار رجلا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بم ساررته "؟ قال: أمرته ببيعها، فقال: " إن الذي حرم شربها حرم بيعها " قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها- وفي الصحيحين- صحيحي البخاري ومسلم، عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبي طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟! فقالوا: حتى ننظر، ونسأل، فقالوا: يا أنس! اسكب ما بقي من إنائك، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ، وروى الشيخان- البخاري ومسلم- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة "، وروى مسلم عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة " وفي الصحيحين: " لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ".

٩١ - (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

{ويصدكم} ويردكم ويمنعكم.

{منتهون} تاركون.

{إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون} في الآية الكريمة التي سبقت جاءت القبائح الأربع بعد أداة الحصر {إنما} فكلها لا تكون أبدا إلا من أخبث الشر وأقبحه، وفي هذه حصر مراد الشيطان في اتخاذ مأثمي الخمر والميسر سبيلا لصد المخامرين والمقامرين عن عبادة الخالق سبحانه، وطريقا لزرع التعادي والتباغض بين المخلوقين، والاستفهام في ختام الآية: {فهل أنتم منتهون} زجر ووعيد شديد، - وإنما أفرد ذكر الخمر والميسر ثانيا لأن الخطاب مع المؤمنين: فقرنهما أولا بذكر الأنصاب والأزلام تنبيها على أنها جميعا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك (٢١٩)، ثم أفردهما لأن الكلام مسوق لتحريمهما على المخاطبين حيث إنهم كانوا لا يتعاطون سوى هذين- (٢٢٠).

٩٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

{توليتم} أعرضتم

{وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا} لما كان به {فهل أنتم منتهون} قد يراد به: انتهوا، عطف عليه الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام (أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه، ويدخل فيه أمرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولا أوليا، {واحذروا} أي مخالفتهما في ذلك، وهذا مؤكد للأمر الأول، وجوز أن يكون المراد: أطيعوا فيما أمرا، واحذروا عما نهيا، فلا تأكيد) (٢٢١)، {فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين} فالمعرضون عن الطاعة والمقبلون على الآثام عليهم أن يتذكروا أنه لا حجة لهم يوم يلقون ربهم، فقد أعذر سبحانه إليهم، وبين لهم الرسول وبلغهم ما شرع المولى مما فيه صلاحهم.

٩٣ - (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

{جناح} حرج وإثم.

{اتقوا} افعلوا ما أمر ربكم، وابتعدوا عما حذركم منه لتتقوا غضبه وعذابه.

{ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات} رفع الله تعالى الحرج والإثم عن المؤمنين الصالحين في طعامهم وكل أحوالهم إذا استصحبوا الإيمان والتقوى والعمل الصالح، صح أنه لما نزلت آيات تحريم الخمر التي

تحدثنا عنها آنفا نادى مناد: ألا إن الخمر قد حرمت، يقول أنس: فجزت في سكك المدينة، فقالوا: قتل فلان وفلان وهي في بطونهم، فأنزل الله تعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا}؛ أي لا يأثمون في ذلك إذا اتقوا المحرمات، لأنهم شربوها حين كانت محللة؛ {ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين} ثم استداموا التقوى وثبتوا على الإيمان واستجابوا لكل ما يأتيهم من شرع الله، وبمداومة العمل الصالح يبلغ من أحبه الله جل علاه مرتبة الإحسان، فإذا هو يعبد الله كأنه يراه.

٩٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{ليبلونكم} ليختبرنكم- يعاملنكم معاملة المختبر-.

{تناله} تدركه وتصل إليه. {رماحكم} جمع رمح- سلاح معروف-.

{ليعلم الله من يخافه بالغيب} ليظهر الله من يخاف عقابه الغائب عنكم.

{اعتدى} تجاوز ما شرع. {أليم} مؤلم موجع.

يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (٩٤)

سنة الله تعالى أن يبتلي عباده، والأمانة التي حملناها أن نتبع منهاجه فنفوز ونفلح؛ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يقع في السخط والخسران المبين، وما اختبرنا به المولى سبحانه الكف عن الصيد البري ما دمنا على إحرام {يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم}، قال مقاتل بن حيان: ابتلاهم بالصيد وهم محرمون عام الحديبية، حتى إن الوحش والطير يغشاهم في رحالهم فيقدرون على أخذها بالأيدي وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط، فنهاهم الله عن ذلك ابتلاء؛ قال الواحدي: الذي تناله أيديهم من الصيد الفراخ والبيض وصغار الوحش، والذي تناله الرماح: الكبار؛ {ليعلم الله من يخافه بالغيب} -كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به، والمنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه من الذي يخاف الله فيتقي ما نهاه عنه أو يجتنبه خوف عقابه {بالغيب} بمعنى في الدنيا بحيث لا يراه،. وإن ما لم يعاين فإن العرب تسميه غيبا. فتأويل الكلام إذا: ليعلم أولياء الله (٢٢٢) من يخاف الله فيتقي محارمه التي حرمها عليه، من الصيد وغيره، بحيث لا يراه ولا يعاينه- (٢٢٣) وهكذا، فإن من يَقْدُر الله تعالى حق قدره يعظم ربه سبحانه ويقدسه، ويتهيبه ويحذر غضبه: (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) (٢٢٤)؛ {فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم} فمن تجاوز منكم بعد إنذارنا هذا فعاود الصيد وهو محرم فقد خالف شرعي واستحق عقابي الموجع.

٩٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

{وأنتم حرم} حال كونكم على إحرام.

{متعمدا} قاصدا عالما بالتحريم.

{فجزاء مثل ما قتل من النعم} فعليه جزاء مماثل لما قتل بذبحه من الإبل أو البقر أو الغنم.

{ذوا عدل منكم} رجلان صاحبا عدالة من المسلمين.

{هديا بالغ الكعبة} يذبح قاتل الصيد ما حكم به العدلان عند الكعبة للفقراء.

{أو عدل ذلك صياما} أو ما يعادل ذلك الذي حكم به، يقدر ويصوم عنه أياما.

{عفا الله عما سلف} تجاوز سبحانه عما مضى.

{ومن عاد} من رجع نخالف. {فينتقم} يحل به بلاء وعذابا ونقمة.

{عزيز} لا نظير له، ولا غالب يغلبه.
{ذو انتقام} صاحب انتقام شديد.
{يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} هذا نهي من الله للمؤمنين عن قتل الصيد وهم في حال إحرامهم، والألف واللام في {الصيد} للعهد، أو للجنس، ثم جاءت الآية التي بعد هذه تقصر الحظر على الصيد البري، أما الصيد البحري فهو مباح للمقيم والمسافر والحال والمحرم؛ {وأنتم حرم} أي: والحال أنكم محرمون بالحج، وبالعمرة كذلك؛ {ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما} ومن يقتل منكم صيدا بريا حال إحرامه وهو يقصد قتله فهو مطالب شرعا بإحدى ثلاث: أن يشتري بقيمة ما صاد بهيمة من بهائم الأنعام- الإبل، البقر، الضأن، المعز- يهديها لتذبح في الحرم وتوزع على فقرائه، أو: يطعم بالقيمة محاويج، أو يصوم أياما بعدما يوازي أنصاف آصع من حنطة يعدل ثمنها قيمة ما أتلف من صيد؛ {ليذوق وبال أمره} شرع الله تعالى ما شرع من جزاء من قتل صيدا حال إحرامه لأجل أن يتجرع الواقع في هذا الإثم عقوبة ومشقة أعقبهما سوء صنيعة؛ إذ الوبال: سوء العاقبة، والمرعى الوبيل الذي يتأذى به بعد أكله؛ {عفا الله عما سلف} تجاوز المولى البر الرحيم- تقدست أسماؤه- عما مضى قبل أن يجيئكم منه الهدى؛ {ومن عاد فينتقم الله منه} قال ابن جريج: قلت لعطاء: {ما عفا الله عما سلف}؟ قال: عما كان في الجاهلية، قال: قلت: وما {ومن عاد فينتقم الله منه}؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة، قلت: فهل في العود من حد تعلمه؟! قال: لا، قال: قلت: فترى حقا على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدي؛ {والله عزيز ذو انتقام} - والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأن الخلق خلقه والأمر أمره، له العزة والمنعة؛ وقوله: {ذو انتقام} يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه- (٢٢٥).
٩٦ - (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)
{وللسيارة} للمسافرين- لأنهم يتابعون السير-
{تحشرون} تجمعون لديه، وتوقفون بين يديه.
{أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم والسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما} هذا بيان من ربنا، في شأن الصيد البحري وبيان لبعض أحكامه.
قال مجاهد: يصطاد المحرم والمحل من البحر ويأكل من صيده؛ وعن أبي بكر: طعام البحر: كل ما فيه؛ (والمراد بالبحر هما: كل ماء يوجد فيه صيد بحري، وأن كان نهرا أو غديرا)، . . أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتيعا لكم: أي لمن كان مقيما منكم يأكله طريا، {وللسيارة} أي المسافرين منكم يتزودونه ويجعلونه قديدا)، . . .؛ قوله: {وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما} أي حرم عليكم ما يصاد في البر ما دمتم محرمين، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالا، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم، لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح، . . .؛ قوله: {واتقوا الله الذي إليه تحشرون} أي: اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذي إليه تحشرون لا إلى غيره؟، وفيه تشديد ومبالغة في التحذير، . . .
٩٧ - (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
{جعل} خلق.
{الكعبة} البنية المربعة المكعبة الظاهرة البارزة.
{قياما} يقوم عليها صلاح معاشهم ومعادهم.
{والهدي} ما يهدى من الإبل والبقر والغنم ليذبح في الحرم، طعمة للمساكين.
{والقلائد} ما يوضع في أعناق الهدي علامة على كونها سيقت لتذبح في الحرم.
{والشهر الحرام} الأشهر التي حرم الله تعالى فيها القتال؛ وهي أربعة في كل عام.

قوله: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس} جعل هنا: بمعنى خلق، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة، والتكعيب التربيع. . .؛ وقيل: سميت كعبة لنتوئها وبروزها،. . . {والبيت الحرام} عطف بيان. . . وسمي بيتا لأن له سقوفا وجدارا، وهي حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن، وسمي حراما لتحريم الله سبحانه إياه؛ وقوله: {قياما للناس}. . .، معنى كونه قياما: أنه مدار لمعاشهم ودينهم: أي يقومون فيه بما يصلح دينهم ودنياهم: يأمن فيه خائفهم، وينصر فيه ضعيفهم، ويربح فيه تجارهم، ويتعبد فيه متعبدهم؛ قوله: {الشهر الحرام} عطف على الكعبة، وهو ذو الحجة وخصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج، وقيل: هو اسم جنس، والمراد به الأشهر الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب؛ فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دما، ولا يقاتلون بها عدوا، ولا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياما للناس؛ {والهدي والقلائد} أي: وجعل الله الهدي والقلائد قياما للناس؛ والمراد بالقلائد: ذوات القلائد من الهدي، ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها، والإشارة ب {ذلك} إلى الجعل، أي: ذلك الجعل {لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض}. . يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض، ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فإنها من جملة ما فيهما فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم، ودفع لما يضركم؛ {وإن الله بكل شيء عليم} هذا تعميم بعد التخصيص) (٢٢٦).

٩٨ - (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} في هذه تحذير للمخالفين، فإن العزيز توعد من عصى ولم يتب بالعذاب المؤلم الموجع وسوء العاقبة، وفيها بشرى للمتقين المنيبين المستغفرين بأن مولانا ساتر عليهم ما فعلوه إن هم تابوا إليه منه وأقلعوا عن ارتكابه، واسعة رحمته لن تضيق بهم إذا رجعوا إلى ما فيه مرضاة ربهم.

٩٩ - (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

{تبدون} تظهرون. {تكتمون} تسرون وتخفون.

{ما على الرسول إلا البلاغ} النبي المبعوث فيكم ليس بمسئول عما يجرم المجرمون إنما عليه البشارة والإنذار، وقد بشر- عليه الصلاة والسلام- وأنذر، وأعذر وحذر، وقام بما حمل من أمانات الدعوة، {والله يعلم ما تبدون وما تكتمون} فالذين لم يرعوا الأمانة- أسروا بذلك أو جهروا به- هم الخاسرون، وسواء عنده- عز وجل- من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار.

١٠٠ - (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون (١٠٠)

سنة الله تعالى أن يخالف بين الحسن والقبيح، والصالح والفاسد، فليسا سواء، لا في الأولى ولا في العقبى، وقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغنا هذا الحق عن ربنا الحق: {قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث}، والخبيث: المكروه (٢٢٧)، فإن كان في الكلام فهو الشتم، وإن كان من الملل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار؛ والطيب: خلاف الخبيث، وقد تتسع معانيه (٢٢٨)؛ {ولو أعجبك كثرة الخبيث} ليس يستوي ما هو طيب ومن هو طيب مع ما خبث ومن خبث أعجبك كثرة الخبيث أو لم يعجبك، والمخاطب هنا: كل من يصلح للخطاب؛ وربنا بحكمته فرق بين الحق والباطل وأهل كل منهما، وبين البر والفاجر، وبين المهتدين والغاوين، وبين المصلحين والمفسدين، يقول سبحانه وهو أصدق القائلين: (أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (٢٢٩)، ويقول تقدست أسماؤه: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (٢٣٠)، ويقول تباركت آلاؤه: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون) (٢٣١)؛ - لا يعتدل العاصي والمطيع لله عند الله ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأن أهل طاعة الله هم المفلحون، الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلوا دون أهل معصيته، وأن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا؛ يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: فلا تعجبن من كثرة من يعصى الله فيمهله ولا يعاجله بالعقوبة، فإن العقبى الصالحة لأهل الله عنده دونهم،. . . وهذا الكلام وإن كان مخرجه مخرج الخطاب لرسول الله صلى الله عليه

وسلم فالمراد به بعض أتباعه، يدل على ذلك قوله: {فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون} - (٢٣٢) فاحذروا الله يا أصحاب العقول أن تغركم سطوة الباطل، أو ما مُتع به الفجار من زخرف وعرض حائل، بل على من أراد الفوز بما يرغب، والنجاة مما يرهب أن يؤثر ما بقي على ما يفنى (٢٣٣)؛ (وهو عام في حرام الأموال وحلالها، وفاسد الأعمال وصالحها، وسقيم المذاهب وصحيحها، ورديء النفوس وجيدها، وأخبث الخبائث الروحانية: الجهل والمعصية؛ وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعته؛ والبون بين الصنفين في العالم الروحاني أبقى وأدوم، وأجل وأعظم، فلا تستبدل الخبيث يا إنسان بالطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث، لأن كثرته في التحقيق قلة، ولذته في نفس الأمر ذلة، وفقده زيف، وصرف العمر في طلبه حيف) (٢٣٤). {يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم} في الصحيحين عن أنس قال: قال رجل: يا نبي الله من أبي؟ قال: " أبوك فلان " قال: فنزلت:

١٠١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

{يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم} الآية؛ وروى البخاري-رحمه الله- في صحيحه عن أنس حديثا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه: " فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا' فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: " النار "، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: " أبوك حذافة " وذكر الحديث (٢٣٥)؛ وروى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعا وهات وكره لكم ثلاثا قيل قال وكثرة السؤال وإضاعة المال " - قال جماعة من العلماء: المراد بقوله: " وكثرة السؤال " التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تنطعا، وتكلفا فيما لم ينزل، والأغلوطات وتشقيق المولدات،. . . قال مالك: أدركت أهل هذا البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير من حضر من العلماء، فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل، لكن الآية مصرحة بأن السؤال المنهي عنه إنما كان فيما تقع المساءة في جوابه، ولا مساءة في جواب نوازل الوقت فافترقا؛ لكن بعض السلف قد كان يكرهها إذا لم تكن قد وقعت، فكان عمر رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن، ونقل عن زيد بن ثابت أنه كان يقول إذا سئل عن الأمر: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم قد كان حدث فيه بالذي يعلم، وإن قالوا: لم يكن قال: فذروه حتى يكون، وعن عمار بن ياسر وقد سئل عن مسألة فقال: هل كان هذا بعد؟ قالوا: لا، قال: دعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمناها لكم؛ وعن ابن عباس قال: ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما سألوه عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن؛ منهم: (ويسألونك عن الشهر الحرام.) (٢٣٦)، (ويسألونك عن المحيض.) (٢٣٧)، وشبهه، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم؛ قال ابن عبد البر: السؤال اليوم لا يخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله، فمن سأل مستفهما راغبا في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به، فشفاء العي (٢٣٨) السؤال؛ ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره (٢٣٩).

{وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم} قال الجرجاني: الكناية في {عنها} ترجع إلى أشياء أخر، كقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) (٢٤٠ يعني آدم، ثم قال: (ثم جعلناه نطفة.) (٢٤١) أي: ابن آدم، لم يجعل نطفة في قرار مكين، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله، وعرف ذلك بقرينة الحال؛ فالمعنى: وإن تسألوا عن أشياء حين ينزل القرآن من تحليل أو تحريم أو حكم، أو مست حاجتكم إلى التفسير، فإذا سألتم فحينئذ تبد لكم؛ فقد أباح هذا النوع من السؤال، ومثله: أنه بين عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل، ولم يجر ذكر عدة التي ليست بذات قرء ولا حامل، فسألوا عنها فنزل: (واللائي يئسن من المحيض.)

(٢٤٢) فالنهي إذا في شيء لم يكن بهم حاجة إلى السؤال فيه، فأما ما مست الحاجة إليه فلا. ا ه.
{عفا الله عنها والله غفور حليم} تجاوز سبحانه عنها فلم يحرمها ولم يبين حلها فهي معفو عنها، أو تجاوز عز شأنه عما سلف من أمور قد خلت، كالذي كانوا يسألون عنه من أمور الجاهلية وما جرى مجراه؛ {والله غفور حليم} - والله ساتر ذنوب من تاب منها فتارك أن يفضحه في الآخرة {حليم} أن يعاقبه بها لتغمده التائب منها برحمته وعفوه عن عقوبته عليها؛. .
١٠٢ - (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)
{قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين} يقول تعالى ذكره: قد سأل الآيات قوم من قبلكم، فلما آتاهموها الله أصبحوا بها جاحدين منكرين أن تكون دلالة على حقيقة ما احتج بها عليهم وبرهانا على صحة ما جعلت برهانا على تصحيحه، كقوم صالح الذين سألوا الآية، فلما جاءتهم الناقة عقروها، والذين سألوا عيسى مائدة تنزل عليهم من السماء، فلما أعطوها كفروا بها وما أشبه ذلك فحذر الله تعالى المؤمنين بنبيه صلى الله عليه وسلم أن يسلكوا سبيل مَن قبلهم مِن الأمم التي هلكت بكفرهم بآيات الله لما جاءتهم بعدما سألوها، فقال لهم: لا تسألوا الآيات ولا تبحثوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فقد سأل الآيات مِن قبلكم قوم فلما أوتوها أصبحوا بها كافرين- (٢٤٣)؛ في صحيح مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته " (٢٤٤).
١٠٣ - (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)
ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون
على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون (١٠٣)
({جعل} هما بمعنى: سمى، كما قال تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا. .) (٢٤٥). أي: سميناه، والمعنى في هذه الآية: ما سمى الله، ولا سن ذلك حكما، ولا تعبد به شرعا، بيد أنه قضى به علما، وأوجده بقدرته وإرادته خلقا؛ فإن الله خالق كل شيء من خير وشر، ونفع وضر، وطاعة ومعصية) (٢٤٦)؛ عن سعيد بن المسيب: البحيرة هي التي يمنع درها إلا للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس؛ وأما السائبة فهي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم؛ وكان البحر- شق الأذن- علامة التخلية؛ وقال الشافعي: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرمت؛ قال:
محرمة لا يطعم الناس لحمها ... ولا نحن في شيء كذاك البحائر
وأما الوصيلة والحام؛ فقال ابن وهب قال مالك: كان أهل الجاهلية يعتقون الإبل والغنم يسيبونها، فأما الحام فمن الإبل؛ كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه، وأما الوصيلة فمن الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيبوها؛ وقال ابن إسحق (٢٤٧) الوصيلة الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، قالوا: وصلت؛ فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون الإناث، إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبه (٢٤٨) في النار وكان أول من سيب السوائب "؛ {ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون} - الذين بحروا البحائر، وسيبوا السوائب. . . . . مثل عمرو. . وأشكاله ممن سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة، وغيروا دين الله دين الحق، وأضافوا إلى الله تعالى أنه هو الذي حرم ما حرموا، فقال تعالى ذكره: ما جعلت من بحيرة ولا سائبة؛ ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك ويفترون على الله الكذب. . . {وأكثرهم لا يعقلون} هم أتباع من سن لهم هذه السنن من جهلة المشركين، فهم لا شك أنهم أكثر من الذين سنوا لهم ذلك، فوصفهم الله تعالى بأنهم لا يعقلون لأنهم لم يكونوا يعقلون أن الذين سنوا لهم تلك السنن وأخبروهم أنها من عند الله كذبة في أخبارهم أفكة، بل ظنوا أنهم فيما يقولون محقون، في أخبارهم صادقون، وإنما معنى الكلام: وأكثرهم لا يعقلون أن ذلك التحريم الذي حرمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله تعالى كذب وباطل.

١٠٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)

{وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون}. . . . . . تعالوا إلى تنزيل الله وآي كتابه وإلى رسوله ليتبين لكم كذب قيلكم فيما تضيفونه إلى الله تعالى من تحريمكم ما تحرمون من هذه الأشياء، أجابوا من دعاهم إلى ذلك: حسبنا ما وجدنا عليه من قبلنا-آباءنا- يعملون به، ويقولون نحن لهم تبع، وهم لنا أئمة وقادة قد اكتفينا بما أخذنا عنهم. ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل. . . ما كانوا فيما هم به عاملون من ذلك على استقامة وصواب، بل كانوا على ضلالة وخطأ- (٢٤٩).

١٠٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٥)

يقول ابن عباس في تفسير هذه الآية: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، قال بعض العلماء: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: التحذير مما يجب أن يحذر منه، وهو حال من تقدمت صفته ممن ركن في دينه إلى تقليد آبائه وأسلافه، {عليكم أنفسكم} ألزموا أنفسكم بحفظها عما يسخط الله تعالى، - (وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد، وقد قال الله سبحانه: {إذا اهتديتم} وقد دلت الآيات القرآنية، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا وضيقا متحتما) (٢٥٠)، صح (٢٥١) أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: يأيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية {يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الناس رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب " (٢٥٢)، {إلى الله مرجعكم جميعا} إلى المولى الواحد القهار لا إلى غيره يوم القيامة تردون، وبين يديه توقفون، {فينبئكم بما كنتم تعملون} فيخبركم بالذي علمتموه في دنياكم، ثم يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

١٠٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ)

يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين (١٠٦)

روى البخاري (٢٥٣) عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة، فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاما (٢٥٤) من فضة مخوصا (٢٥٥) بالذهب، فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما كتمتما ولا اطلعتما " ثم وجد الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، قال: فأخذوا الجام، وفيهم نزلت هذه الآية، {يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم} شرع الله تعالى للمؤمنين أن يوصوا عند ظهور أمارات الموت، ويشهد على الوصية شاهدان من الأقارب، أو أجنبيان إن وقع الموت في السفر، {شهادة بينكم} أي شهادة ما بينكم {اثنان ذوا عدل منكم} أي أن يشهد اثنان عدلان قريبان، فعن الحسن والزهري- وعليه جمهور الفقهاء- أن {منكم} أي من أقاربكم، و {من غيركم} أي من الأجانب، وعن ابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وسعيد بن جبير، وغيرهم أن {منكم} أي من أهل ملتكم، و {من غيركم}

أي من كافر كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا أو عابد وثن، - ورد: (شهد) في كتاب الله تعالى بأنواع مختلفة: منها قوله تعالى: (. . واستشهدوا شهيدين من رجالكم. .) (٢٥٦)، قيل: معناه: أحضروا، ومنها: (شهد) بمعنى قضى أي أعلم، قاله أبو عبيدة، كقوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو. .) (٢٥٧)، ومنها (شهد) بمعنى أقر، كقوله تعلى: (. . والملائكة يشهدون. .) (٢٥٨)، ومنها (شهد) بمعنى الحكم، قال الله تعالى: (. . وشهد شاهد من أهلها. .) (٢٥٩)، ومنها (شهد) بمعنى حلف، كما في اللعان، و (شهد) بمعنى وصى، كقوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم} وقيل: معناها هنا الحضور للوصية- (٢٦٠) {إذا حضر أحدكم الموت} أي: إذا قارب المجيء، كما في قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم} أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وقربت إقامتها، وكقوله سبحانه: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان. .) (٢٦١)، أي إذا قاربتم القراءة، {حين وصية} بدل من {إذا حضر} فوقتهما واحد وهما متلازمان، قال أبو علي: {شهادة} رفع بالابتداء، والخبر في قوله {اثنان} التقدير: شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما قال تعالى: (. . وأزواجه أمهاتهم. .) (٢٦٢) أي: مثل أمهاتهم، {ذوا عدل منكم} أي صاحبا عدالة منكم معاشر المسلمين، {أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت} فإن ضربتم في الأرض أي سافرتم فحضر أحدكم الموت ولم يجد مسلمين يشهدان على وصيته قبل موته فشرع الله تعالى له أن يشهد على وصيته اثنين ممن حضره من الكفار، {تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله} فإن أشهد الموصي كافرين- إذ كان حين حضرته الوفاة وعزم على الوصية مسافرا ولم يجد مؤمنَيْن- وشك الموصَى لهما، فنستحلفهما فيحلفان، قائلين: ما كذبنا، وما خنا ولا بدلنا وقد شهدنا بالحق وما بدلنا: ولا نشتري بقسمنا عوضا نأخذه، أو ندفعه إلى أحد، نحصله لغيرنا أو لأنفسنا، ولو كان الذي نقسم له ذا قربى منا، ولا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض، أو يقولان في شهادتهما ما في هذا المعنى، و {من بعد الصلاة} قد يكون المراد بها من بعد صلاة العصر، إذ صح

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذ لاعنَ بين العجلانين لاعن بينهما بعد صلاة العصر- ومعلوم أن المطلق يحمل على المقيد-، ويستشهد لهذا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: " من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان "، {إنا إذا لمن الآثمين} يقولان ما في معنى: نحن إذا كتمنا شهادة الحق وقعنا في إثم وذنب وكذا إن حرفناها وغيرناها، وأضاف الشهادة إلى مولانا سبحانه في قوله: {ولا نكتم شهادة الله} تشريفا للكلمة الحق وإعظاما لشأنها.

١٠٧ - (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

{فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين.} قال ابن عباس: فإن ارتيب في شهادتهما استُحلِفا- بعد الصلاة- بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا، فإن اطلع الأولياء على أن الكافريْن كذبا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافريْن باطلة، وإنا لم نعتد،. . . فترد شهادة الكافريْن، وتجوز شهادة الأولياء، ويقول السدي: فإذا شهدا وأجاز الإمام شهادتهما على ما شهدا قال لأولياء الرجل: اذهبوا فاضربوا في الأرض واسألوا عنهما، فإن أنتم وجدتم عليهما خيانة أو أحدا يطعن عليهما رددنا شهادتهما، فينطلق الأولياء فيسألون، فإن وجدوا أحدا يطعن عليهما، أو هما غير مرضيين عندهم، أو اطلع على أنهما خانا شيئا من المال وجدوه عندهما، فأقبل الأولياء فشهدوا عند الإمام وحلفوا بالله لشهادتنا أنهما لخائنان متهمان في دينهما مطعون عليهما أحق من شهادتهما بما شهدوا، ما اعتدينا، - هذا الفعل إذا فعلتم بهم أقرب لهم أن يصْدُقوا في أَيْمانهم ولا يكتموا، ويقروا بالحق ولا يخونوا،. . . ويخاف هؤلاء الأوصياء. . أن ترد أَيْمانهم على أولياء الميت. . . فيصدقوا حينئذ في أيمانهم وشهادتهم مخافة الفضيحة على أنفسهم، وحذرا أن يستحق عليهم ما خانوا فيه أولياء الميت وورثته. . . .

١٠٨ - (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

{ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين} وخافوا الله أيها الناس وراقبوه في أَيْمانكم أن تحلفوا بها كاذبة وأن تُذهبوا بها مال مَن يحرم عليكم مالُه، وأن تخونوا من ائتمنكم. . اسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به، فاعملوا به وانتهوا إليه،. . . والله لا يوفق مَن فسق عن أمر ربه فخالفه وأطاع الشيطان وعصى ربه- (٢٦٣).

١٠٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

*يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب (١٠٩)

يوم يحشر الله تعالى الخلائق إنسا وجنا بأرواحهم وأجسادهم، ويجاء بكل أناس بإمامهم، ويطلب إلى الرسل أن يشهدوا على أممهم، يفوضون العلم إلى مولاهم وربهم، الذي لا يغيب عن علمه ما ظهر أو بطن من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ وإنه لوعد ربنا الذي لا يخلف: (فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون) (٢٦٤)؛ (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) (٢٦٥)؛ قال السدي: نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا: {لا علم لنا} ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم. ا ﻫ، تحقيقا للوعد المفعول: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (٢٦٦)!؟ {يوم} ظرف زمان- والعامل فيه مقدر- أي: واتقوا يوم يجمع الله الرسل؛ وجائز أن يكون التقدير يوم يجمع الله الرسل يكون من الأهوال ما يكون؛ قال النحاس: والصحيح في هذا المعنى: ماذا أجبتم في السر والعلانية، ليكون هذا توبيخا للكفار،. . . فيكون هذا تكذيبا لمن اتخذ المسيح إلها؛ وقال ابن جريج: معنى قوله: {ماذا أجبتم}؟ ماذا عملوا بعدكم؟؛ قال أبو عبيد: ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يرد علي أقوام الحوض فيُختلَجون (٢٦٧) فأقول أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " قال الماوردي: فإن قيل: فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ فعنه جوابان: أحدهما- أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم، وكذبهم عليهم من بعدهم؛ الثاني- أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رءوس الأشهاد ليكون ذلك نوعا من العقوبة لهم. ا ﻫ.

١١٠ - (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين (١١٠)

{إذ قال الله يا عيسى ابن مريم} - بدل من {يوم يجمع الله الرسل} وقد نصب بإضمار اذكر،. . . وصيغة الماضي لما مر آنفا من الدلالة على تحقيق الوقوع، والمراد بيان ما جرى بينه تعالى وبين فرد من الرسل المجموعين على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه عز وجل وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج على تفصيل أحوال الباقين، وتخصيص عيسى عليه السلام بالذكر لما أن شأنه عليه الصلاة والسلام متعلق بكلا فريقي أهل الكتاب المفرطين والمفَرطين الذي نعَتْ هذه السورة الكريمة جناياتهم، فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسراتهم- (٢٦٨)؛ {اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا} يذكره العزيز الغفار بإنعامه عليه توبيخا للكفرة الغالين والمتجافين عن الرشد، وتحسيرا للذين قالوا في عيسى غير الحق؛ والإنعام على الوالدة كأنما هو إنعام على الوالد، ولأن مكارم الأخلاق عنوان على طيب الأصول والأعراق؛ و {أيدتك} (٢٦٩) أمددتك بالعون والنصر والقوة؛ و {روح القدس} هو جبريل عليه السلام- وكون هذا التأييد نعمة عليه الصلاة والسلام مما لا خفاء فيه، وأما كونه نعمة على والدته فلما ترتب عليه من براءتها مما نسب إليها- وحاشاها- وغير ذلك- (٢٧٠) {تكلم الناس في المهد} خرقت لك العادات، فأنطقتك صبيا صغيرا في فراش الطفولة، وذلك مما فصله الكتاب المجيد في آيات محكمات أخر: (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا. يا أخت هارون

ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا. قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا. ذلك عيسى ابن مريم.) (٢٧١)؛ {وكهلا} تكلمهم في طفولتك كما تتكلم حال اكتمال قوتك وعقلك؛ في الصحاح: الكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين، وقال ابن الأثير: من زاد على الثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: الكهل: الحليم العاقل؛ وجاء في تفسير القرآن العظيم: وجعلتك نبيا داعيا إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيرا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي،. . . تدعوا إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمن {تكلم} (٢٧٢) تدعو، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب. ا هـ.

{وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} يمتن المولى الوهاب على عبده ونبيه عيسى عليه السلام وعلى أمه مريم، ويذكره بوقت إنعامه عليه ومنحه إياه العلوم النظرية والحكم العملية، وإيتائه الكتب السماوية: التوراة وقد أنزلت من قبله على نبي الله وكليمه موسى، فيها الضياء والبرهان، كما أنزل على المسيح-صلوات الله عليه- الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وقد كان المسيح عليه سلام الله يحتج بالتوراة على اليهود حين يجادلونه، ويبين لهم ما أخفوه منها، ويحل لهم بعض ما حُرم عليهم فيها، كما علمتنا الآية الكريمة: (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون) (٢٧٣).

{وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني} واذكر إذ تصور من الطين وتعمل شيئا على مثل صورة الطير فتنفخ في هذه الصورة فتصير طائرا بتيسيري وتسهيلي وإقداري لك على هذا الفعل؛ {وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني} تشفي الأعمى المطموس البصر، والذي أصابه سقم الجلد وعلة البرص، وذلك الشفاء قد سهلته لك ومكنتك منه؛ {وإذ تخرج الموتى بإذني} واذكر وقت أن أقدرتك على أن ترد الروح إلى بعض الموتى الذين أردتُ أن أحييهم إظهارا لأمر معجز أجريه على يديك؛ {وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين} واذكر إذ دفعت وصرفت عنك كيد الكافرين الإسرائيليين، الذين كرهوا ما أنزل الله عليك من الحق والهدى والآيات التنزيلية والتكوينية، فهموا بقتلك لكني عصمتك، ورفعتك إلي ونجيتك؛ ومع نهيهم عما جئت به وإعراضهم عنه، ووصفهم له بالسحر الظاهر، فإني جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

١١١ - (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

{وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون} ومن أنعمي عليك أن أمرت الحواريين- المخلصين من أصحابك- أمرتهم في الإنجيل على لسانك، قال الزجاج ما حاصله: الوحي في كلام العرب يأتي بمعنى الأمر، كما جاء فيما أنشده بعضهم:

الحمد لله الذي استقلت ... بإذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت

أي: أمرها أن تقر فامتثلت؛ وقد يراد بالوحي: الإلهام، كما في قوله تعالى: (وأوحينا إلى موسى.) (٢٧٤)، (وأوحى ربك إلى النحل.) (٢٧٥)، {أن آمنوا بي وبرسولي} إيحائي إليهم مفسر بأن يصدقوا ويستيقنوا بي، ويصدقوا ويستجيبوا لرسولي إليهم عيسى ابن مريم؛ {قالوا آمنا} قال الحواريون: استجبنا لأمر ربنا، واستيقنا بأنه الحق ونبيه حق وكلامه حق؛ {واشهد بأننا مسلمون} سألوا الله تعالى أن يكتبهم مسلمين، ويقبلهم مؤمنين، ويثبتهم على الرشد مخلصين، أو طلبوا إلى عيسى عليه السلام أن يشهد لهم بالإسلام والانقياد.

١١٢ - (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٢)

{إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم} - منصوب باذْكر على أنه ابتداء كلام لبيان ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه، منقطع عما قبله، كما يشير إليه الإظهار (٢٧٦) في مقام الإضمار- (٢٧٧)؛ {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال

اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، وتطلق على نفس الطعام كذلك، واختار بعضهم أن المائدة كل ما يُمد ويُبسط. المراد بها: السفرة، وهل قالوا هذا القول ليزدادوا بالآية ونزول المائدة إيمانا، ويعلموا علم مشاهدة وعيان بعد علم الإيمان والاستيقان؟ أم قالوه لأن قلوبهم لم تكن مطمئنة بالإيمان؟ ذهب ابن عطية إلى أنهم كانوا مؤمنين، وأيد ذلك بقوله تعالى: {فمن يكفر بعد منكم}، وبأن وصفهم بالحواريين ينافي أن يكونوا أهل الباطل، وبأن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والاقتداء بسننهم في قوله عز من قائل: (. . كونوا أنصار الله. .) (٢٧٨)، وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح الزبير، فقال: " إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير "؛ لكن ابن جرير خالفه في ذلك وقال: خبر الله تعالى عن القوم ينبئ بخلاف ذلك، وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم: {اتقوا الله إن كنتم مؤمنين}.

١١٣ - (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)

{. . نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا} فقد أنبأ هذا عن قيلهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته، فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم مرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم، وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختبارا. ا هـ.

١١٤ - (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

{قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين}؛ إلى الله القريب المجيب توجه عيسى عليه السلام داعيا ربنا سبحانه أن يهبهم طعاما يأتيهم من السماء فتنشرح به قلوب أولهم وآخرهم، وتزداد حجج الله الواضحات حجة، ثم ختمت ضراعته بسؤال الغني الوهاب أن يمنحهم الرزق والعطاء، والفضل العاجل والآجل، فإنه- تباركت آلاؤه- ذو الفضل العظيم؛ وفي جامع البيان: {تكون لنا عيدا}: نعبد ربنا في اليوم الذي تنزل فيه، ونصلي له فيه كما يعبد الناس في أعيادهم،. . {لأولنا وآخرنا}. . للأحياء من اليوم ومن يجيء بعدنا،. . {وآية منك}. . وعلامة وحُجة منك يا رب على عبادك في وحدانيتك، وفي صدقي على أني رسول إليهم بما أرسلتني به. . ا هـ.

١١٥ - (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

{قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} عن عمار بن ياسر-يرفعه- نزلت المائدة خبزا ولحما وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير؛ وعن عبد الله بن عمرو: إن أشد الناس عذابا ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

١١٦ - (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦)

واذكر إذ يقول الله لعبده ونبيه عيسى يوم الجمع: أأنت دعوت الناس إلى اتخاذك وأمك مريم إلهين من دوني؟! وإنما جاء الفعل {قال} بصيغة المضي ليدل على الثبوت وتحقق الوقوع، كما في قول مولانا تباركت آلاؤه وتقدست أسماؤه: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه. .) (٢٧٩)، {قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} فيجيب عيسى عليه السلام مولانا الملك العلام منزها له جل شأنه عما يقول المفترون، ما ينبغي ولا يحق لي أن أقول زورا، وأزعم لنفسي ما ليس من حقها، فإنني مربوب ولست برب، وعابد ولست بمعبود؛ وبهذا قضى النقل والعقل، جاء في محكم التنزيل: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله. . . ولكن كونوا ربانيين. .) (٢٨٠)، (. . وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. .) (٢٨١)، (إن الله ربي وربكم

فاعبدوه.) (٢٨٢)، (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه.) (٢٨٣)؛ {إن كنت قلته فقد علمته} يرد عيسى الأمر إلى علم الخبير الرقيب الحسيب، وهو جل علاه يعلم أنه لم يقله، لكن لعل من حكمته في ذلك أن يكذب المبطلين؛ {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك} - إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي،. . لأنك تعلم ضمائر النفوس. . . فكيف بما قد نطقت به؟!. . ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه، {إنك أنت علام الغيوب}. .؟ إنك أنت العالم بخفيات الأمور- (٢٨٤).

١١٧ - (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

{ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} (٢٨٥) ولم تكن دعوتي إلى قومي إلا حضهم على عبادة المولى الحميد، المليك المقتدر، خالقي وخالقكم وخالق كل شيء، وكنت حفيظا عليهم بما أمرتهم، وقت مقامي بينهم، فلما رفعتني كنت أنت الحافظ عليهم، والشاهد على أفعالهم والعالم بهم، ترعاهم دون سواك، وأنت مطلع على قولي وقولهم، ومن عصى ومن أطاع؛ قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها.) (٢٨٦) يعني وقت انقضاء أجلها؛ ووفاة النوم، قال الله تعالى: {وهو الذي يتوفاهم بالليل} (٢٨٧) يعني: الذي ينيمكم؛ ووفاة الرفع، قال الله تعالى: {يا عيسى إني متوفيك ورافعك}.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بموعظة فقال: " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) (٢٨٨) ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام- ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح (٢٨٩) {. . وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} قال فيقال لي إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ".

أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله عز وجل في إبراهيم: (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) (٢٩٠).

١١٨ - (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وقال عيسى عليه السلام:

{إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} فرفع يديه وقال: " اللهم أمتي " وبكى، فقال الله عز وجل: " يا جبريل اذهب إلى محمد- وربك أعلم- فسله ما يبكيك " فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال- وهو أعلم. . فقال الله: " يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك "؛ ولعل من حكمة مولانا الخبير في ختم الآية بالقول الكريم {العزيز الحكيم} أنه مقترن بالشرطين كليهما، أولهما وآخرهما- {إن تعذبهم} و {إن تغفر لهم}.

١١٩ - (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (١١٩)

هذا الذي قصصناه يقع في يوم ينفع الصادقين فيه صدقهم- وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعا في كل الأيام لوقوع

الجزاء فيه- (٢٩١)؛ يحلهم البر الرحيم بساتين في دار المقامة والنعيم، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وقد رضي عنهم العزيز الغفار، رضا لا يغضب بعده أبدا، وهم في أتم الرضا عن نعيم أفاضه عليهم الحميد المجيد، {ذلك الفوز العظيم} إدراك تلك السعادات، والنجاة من الأهوال والعذاب والكربات والحسرات ربح لا ربح فوقه؛ (لمثل هذا فليعمل العاملون) (٢٩٢)، (. . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (٢٩٣)، فاللهم اجعلنا ممن يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

١٢٠ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{لله ملك السموات والأرض وما فيهم وهو على كل شيء قدير} له سلطان السموات والأرض وما فيهن دون عيسى الذي تزعمون أنه إلهكم، ودون أمه ودون جميع من في السموات ومن في الأرض، فإن السموات والأرض خلق من خلقه، وما فيهن، وعيسى وأمه من بعض ذلك، ينبههم وجميع خلقه على موضع حجته عليهم ليدبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه؛ والله الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن قادر على إفنائهن وعلى إهلاكهن، وإهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعا، كما ابتدأ خلقهم، لا يعجزه ذلك، ولا شيء أراده، لأن قدرته القدرة التي لا يشبهها قدرة، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة. والحمد لله رب العالمين.

٦ سورة الأنعام:

سورة الأنعام:
مكية وعن ابن عباس: غير ست آيات.
وآياتها ١٦٥

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

{جَعَلَ} يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: {وَجَعَلَ الظلمات والنور} وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صيّر، كقوله: {وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا} [الزخرف: ١٩] والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [الأعراف: ١٨٩] {وَجَعَلَ الظلمات والنور}؛ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار {ثم جعلكم أزواجاً} [فاطر: ١١] {أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا} [ص: ٥]. فإن قلت: لم أفرد النور؟ قلت: للقصد إلى الجنس، كقوله تعالى: {والملك على أَرْجَائِهَا} [الحاقة: ١٧] أو لأن الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلاّ وله ظلّ، وظلّه هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار. فإن قلت: علام عطف قوله: {ثْمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ يَعْدِلُونَ}؟ قلت: إما على قوله: {الحمد للَّهِ} على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلاّ نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته، وإما على قوله: {خَلَقَ السماوات} على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام: ٢] استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

٢ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

{ثُمَّ قَضَى أَجَلاً} أجل الموت {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} أجل القيامة. وقيل: الأجل الأوّل: ما بين أن يخلق إلى أن يموت. والثاني: ما بين الموت والبعث وهو البرزخ. وقيل: الأوّل النوم. والثاني: الموت. فإن قلت: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيره، فلم جاز تقديمه في قوله: {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ}؟ قلت: لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مّن مُّشْرِكٍ} [البقرة: ٢٢١] فإن قلت: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كيس، وما أشبه ذلك؛ فما أوجب التقديم؟ قلت: أوجبه أن

المعنى: وأي أجل مسمىً عنده تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم.
٣ - (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)
{في السماوات} متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيها. ومنه قوله: {وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله} [الزخرف: ٨٤] أو وهو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها، أو هو الذي يقال له: الله فيها- لا يشرك به في هذا الاسم، ويجوز أن يكون {الله في السموات} خبراً بعد خبر على معنى: أنه الله وأنه في السموات والأرض بمعنى أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء، كأن ذاته فيهما، فإن قلت: كيف موقع قوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}؟ قلت: إن أردت التوحد بالإلهية كان تقريراً له؛ لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم. أو خبر ثالث {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} من الخير والشرّ، ويثيب عليه، ويعاقب.
٤ - (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
{مِّنْ في {مِّنْ ءَايَةٍ} للاستغراق. وفي {من آيات ربهم} للتبعيض. يعني: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين: تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب.
٥ - (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
{فقد كذبوا} مردود على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق {لَمَّا جَاءهُمْ} يعني القرآن الذي تحدُّوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاء} الشيء الذي { كَانُواْ بِهِ يستهزئون} وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزءوا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلوّ كلمته.
٦ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)
مكن له في الأرض: جعل له مكاناً له فيها. ونحوه: أرّض له. ومنه قوله: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض} [الكهف: ٨٤] {أَوَ لَمْ نُمَكّن لَّهُمْ} [القصص: ٥٧] وأمّا مكنته في الأرض فأثبته فيها. ومنه قوله: {وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ} [الأحقاف: ٢٦] ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله: {مكناهم فِى الارض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ} والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا. والسماء المظلة؛ لأن الماء ينزل منها إلى السحاب، أو السحاب أو المطر. والمدرار: المغزار. فإن قلت: أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟ قلت: الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده، كقوله تعالى: {وَلاَ يَخَافُ عقباها} [الشمس: ١٥].
٧ - (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)
{كتابا} مكتوباً {فِى قِرْطَاسٍ} في ورق {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} ولم يقتصر بهم على الرؤية، لئلا يقولوا سكرت أبصارنا، ولا تبقى لهم علة. لقالوا {إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.
٨ - (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ)
{لَّقُضِىَ الأمر} لقضي أمر إهلاكهم {ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} بعد نزوله طرفة عين. إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: {وَلَوْ أَننا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى} [الأنعام: ١١١] لم يكن بدّ من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة،

فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ومعنى {ثُمَّ} بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

٩ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)

{وَلَوْ جعلناه مَلَكاً} ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: {مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ} [المؤمنون: ٣٣]، {وَلَوْ شَاء رَبُّنَا لأنزل ملائكة} [فصلت: ١٤] {لجعلناه رَجُلاً} لأرسلناه في صورة رجل، كما. كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الأحوال في صورة دحية. لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم} ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون: إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأني ملك لا بشر- كذبوه كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن، فهو لبس الله عليهم. ويجوز أن يراد: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم} حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة: وقرأ ابن محيصن: «ولبسنا عليهم»، بلام واحدة. وقرأ الزهري: «وللبّسنا عليهم ما يلبّسون»، بالتشديد.

١٠ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

{وَلَقَدِ استهزئ} تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من قومه {فَحَاقَ} بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

١١ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

فإن قلت: أي فرق بين قوله {فانظروا} وبين قوله: {ثُمَّ انظروا}؟ قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: {فانظروا} فكأنه قيل سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله: {سِيرُواْ فِي الارض ثُمَّ انظروا} فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح.

١٢ - (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{لّمَن مَّا فِى السماوات والأرض} سؤال تبكيت، و {قُل لِلَّهِ} تقرير لهم، أي هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره {كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة} أي أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السموات الأرض، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة} فيجازيكم على إشراككم. وقوله: {الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} نصب على الذم، أو رفع: أي أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم، والأمر على العكس؟ قلت: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون.

١٣ - (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{وَلَهُ} عطف على الله {مَا سَكَنَ فِى الليل والنهار} من السكنى وتعديه بفي كما في قوله: {وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ}. {وَهُوَ السميع العليم} يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

١٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

أوَليّ {أَغَيْرَ الله}؟ همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو {اتخذ} لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم. ونحوه {أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون} [الزمر: ٦٤] {ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ} [يونس: ٥٩]. وقرئ {فَاطِرِ السماوات} بالجرّ صفة لله، وبالرفع على المدح. وقرأ الزهري: «فَطَرَ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدعتها {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} وهو يرزُق ولا يُرْزَق، كقوله: {مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ} [الذاريات: ٥٩] والمعنى: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ: «ولا يَطعم»، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: «وهو يُطْعَمُ ولا يُطْعِمُ»، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: «وهو يطعم ولا يطعم»، على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم، ولا يستطعم. وحكى الأزهري: أطعمت، بمعنى استطعمت، ونحوه أفدت. ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح، كقولك: وهو يعطي ويمنع، ويبسط، ويقدر، ويغني ويفقر {أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} لأنّ النبي سابق أمته في الإسلام، كقوله {وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين} [الأنعام: ١٦٣] وكقول موسى: {سبحانك تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين} [الأعراف: ١٤٣] {وَلاَ تَكُونَنَّ} وقيل لي لا تكونن {مِنَ المشركين} ومعناه: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

١٦ - (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

و {مِنْ يُصْرَفْ عَنْهُ} العذاب {يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} الله الرحمة العظمى وهي النجاة، كقولك: إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه؟ تريد: فقد أتممت الإحسان إليه أو، فقد أدخله الجنة، لأن من لم يعذب لم يكن له بدّ من الثواب. وقرئ: «من يَصْرِفْ عنه» على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم فقد رحمه، بمعنى: من يدفع الله عنه. ويحفظه، وقد علم من المدفوع عنه. وترك ذكر المصروف؛ لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله وهو العذاب. ويجوز أن ينتصب يومئذ بيصرف انتصاب المفعول به، أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم: أي هوله، فقد رحمه. وينصر هذه القراءة قراءة أبيّ رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

١٧ - (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرّ} من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو {وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ} من غنى أو صحة {فَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ} فكان قادراً على إدامته أو إزالته.

١٨ - (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

{فَوْقَ عِبَادِهِ} تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة، كقوله: {وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون} [الأعراف: ١٢٧] الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم. ولذلك صحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح: جسم لا كالأجسام.

١٩ - (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

وأراد: أي شهيد {أَكْبَرُ شهادة} فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم {قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ} يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: {قُلِ الله} بمعنى الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ {شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ} أي هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون {الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ} هو الجواب، لدلالته على أنّ الله عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له {وَمَن بَلَغَ} عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة. أي: لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم. وقيل: من الثقلين. وقيل: من بلغه إلى يوم

القيامة. وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم {أئنكم لتشهدون} تقرير لهم مع إنكار واستبعاد {قُل لاَّ أَشْهَدُ} شهادتكم.

٢٠ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{الذين ءاتيناهم الكتاب} يعني اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ} بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته. ثم قال: {الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} من المشركين من أهل الكتاب الجاحدين {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} به.

٢١ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة، والبرهان الصحيح، حيث قالوا: {لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَاؤُنَا} [الأنعام: ١٤٨] وقالوا: {والله أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ٢٨] وقالوا: {الملائكة بَنَاتُ الله} و {هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله} [يونس: ١٨] ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

٢٢ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ} ناصبه محذوف تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف {أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ} أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله. وقوله: {الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} معناه تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان. وقرئ: «يحشرهم». «ثم يقول»: بالياء فيهما. وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة. فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم، وحسرتهم

٢٣ - (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

{فِتْنَتُهُمْ} كفرهم. والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم - الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه وافتخروا به، وقالوا دين آبائنا- إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به. ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمي فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: «تكن» بالتاء و (فتنتهم)، بالنصب. وإنما أنث {أَن قَالُواْ} لوقوع الخبر مؤنثاً، كقولك: من كانت أمّك؟ وقرئ بالياء ونصب الفتنة. وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ: «ربنا» بالنصب على النداء.

٢٤ - (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{وَضَلَّ عَنْهُم} وغاب عنهم {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي يفترون إلهيته وشفاعته. فإن قلت: كيف يصحّ أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور على أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً: ألا تراهم يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظالمون} [المؤمنون: ١٠٧] وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، {وَنَادَوْاْ يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف: ٧٧] وقد علموا أنه لا يقضى عليهم. وأما قول من يقول: معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحملُ قوله: {انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ} يعني في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عيّ وإفحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو نابٍ عنه أشدّ النبوّ. وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْء أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون} [المجادلة: ١٨] بعد قوله: {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [المجادلة: ١٤] فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

٢٥ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ

يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)
{وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} حين تتلو القرآن. روي: أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل، وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا للنضر: يا أبا قُتَيْلَة، ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته - يعني الكعبة - ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً. فقال أبو جهل: كلا، فنزلت. والأكنة على القلوب، والوقر في الأذان: مثلٌ في نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته. ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: {وَجَعَلْنَا} للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه. أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم {وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب} [فصلت: ٥] وقرأ طلحة: «وقراً» بكسر الواو {حتى إِذَا جاءوك يجادلونك} هي حتى التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله: {إِذَا جاءوك} {يَقُولُ الذين كَفَرُواْ} و {يجادلونك} موضع الحال. ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاءوك في محل الجرّ بمعنى حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: يقول {الذين كفروا}. وتفسير له. والمعنى بأنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون: {إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين} فيجعلون كلام الله وهو أصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب.
٢٦ - (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)
{وَهُمْ يَنْهَوْنَ} الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه، ويثبطونهم عن الإيمان به {عَنْهُ وينأون} بأنفسهم فيضلون ويضلون {وَإِن يُهْلِكُونَ} بذلك {إِلاَّ أَنفُسُهُمْ} ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به. وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً. فقال:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِم ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَابْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا
وَدَعَوتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَعَرَضْتُ دِيناً لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذَارِيَ سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

فنزلت.
٢٧ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
{وَلَوْ تَرَى} جوابه محذوف تقديره. ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً {وُقِفُواْ عَلَى النار} أروها حتى يعاينوها. أو اطلعوا عليها اطلاعاً هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته، وقرئ: «وقفوا» على البناء للفاعل، ومن وقف عليه وقوفاً {يا ليتنا نُرَدُّ} تم تمنيهم. ثم ابتدأوا {وَلاَ نُكَذّبَ بآيات رَبّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين} واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات. شبهة سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود، بمعنى: دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني. ويجوز أن يكون معطوفاً على نردّ، أو حالاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني. فإن قلت: يدفع ذلك قوله: {وَإِنَّهُمْ لكاذبون} لأن المتمنّي لا يكون كاذباً. قلت: هذا تمنٍّ قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمنّ في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان. وقرئ: «ولا نكذب ونكون» بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

٢٨ - (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

{بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ} من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم؛ فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردّوا لآمنوا. وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه. وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم {وَلَوْ رُدُّواْ} إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار {لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} من الكفر والمعاصي {وَإِنَّهُمْ لكاذبون} فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

٢٩ - (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

{وَقَالُواْ} عطف على لعادوا. أي: ولو ردّوا لكفروا ولقالوا: {إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا} كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله: وإنهم لكاذبون، على معنى: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا. وكفى به دليلاً على كذبهم.

٣٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

{وُقِفُواْ على رَبّهِمْ} مجاز على الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم. وقيل: عرفوه حق التعريف {قَالَ} مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال: {أَلَيْسَ هذا بالحق} وهذا تعيير من الله تعالى لهم على التكذيب. وقولهم - لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء -: ما هو بحق وما هو إلا باطل {بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها. وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخر.

٣١ - (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

و {حتى} غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غاية له. أي ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة. فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات فقد قامت قيامته» أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة {بَغْتَةً} فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغتة، أو على المصدر كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة {فَرَّطْنَا فِيهَا} الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرّطت في فلان. ومنه فرّطت في جنب الله {يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ} كقوله: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور، كما ألف الكسب بالأيدي {سَاء مَا يَزِرُونَ} بئس شيئاً يزرون وزرهم، كقوله {سَاء مَثَلاً القوم} [الأعراف: ١٧٧].

٣٢ - (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة. وقوله: {لّلَّذِينَ يَتَّقُونَ} دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: (ولدار الآخرة) وقرئ: «تعقلون» بالتاء والياء.

٣٣ - (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

{قَدْ} في {قد نعلم} بمعنى «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته، كقوله:

أَخُو ثِقَةٍ لاَ تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَه ... وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ

والهاء في {إِنَّهُ} ضمير الشأن {لَيَحْزُنُكَ} قرئ بفتح الياء وضمها. و {الذى يَقُولُونَ} هو قولهم: ساحر كذاب {لاَ يُكَذّبُونَكَ} قرئ بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذباً في زعمه وأكذبه إذا وجده كاذباً. والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله، لأنك رسوله المصدق

بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتّابه. ونحوه قول السيد لغلامه -إذا أهانه بعض الناس - إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني. وفي هذه الطريقة قوله تعالى: {إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله} [الفتح: ١٠] وقيل: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم. وقيل: فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق، ولكنهم يجحدون بآيات الله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء، ولكنهم كانوا يجحدون. وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به. وروي: أنّ الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة، فماذا يكون لسائر قريش، فنزلت، وقوله: {ولكن الظالمين} من إقامة الظاهر مقام المضمر، للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم.

٣٤ - (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)

{وَلَقَدْ كُذّبَتْ} تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على أن قوله: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذّبُونَكَ} [الأنعام: ٣٣] ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني {على مَا كُذّبُواْ وَأُوذُواْ} على تكذيبهم وإيذائهم {وَلاَ مُبَدّلَ لكلمات الله} لمواعيده من قوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون} [الصافات: ١٧١] {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين} بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

٣٥ - (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

كان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل: {لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ} [الشعراء: ٣]، {إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦]، {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأرض} منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها {أَوْ سُلَّماً فِى السماء فَتَأْتِيَهُمْ} منها {بِئَايَةٍ} فافعل. يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يودُّ أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات، كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها. وحذف جواب «إن» كما تقول إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره ولو شاء الله لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين} من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.

٣٦ - (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ} يعني: أن الذين تحرص على أن يصدّقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع، كقوله: {إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى} [النمل: ٨٠] {والموتى يَبْعَثُهُمُ الله} مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة {ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان. وأنت لا تقدر على ذلك. وقيل: معناه: وهؤلاء الموتى - يعني الكفرة - يبعثهم الله. ثم إليه يرجعون، فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم وقرئ:

«يرجعون»، بفتح الياء.
٣٧ - (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)
{لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ} نزل بمعنى أنزل. وقرئ: «أن ينزل» بالتشديد والتخفيف. وذكر الفعل والفاعل مؤنث. لأن التأنيث آية غير حقيقي، وحسن للفصل. وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم {قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ على أَن يُنَزّلٍ ءايَةً} تضطرهم إلى الإيمان. كنتق الجبل على بني إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب {ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.
٣٨ - (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)
{أُمَمٌ أمثالكم} مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم {مَّا فَرَّطْنَا} ما تركنا وما أغفلنا {فِى الكتاب} في اللوح المحفوظ {مِن شَيْء} من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به {ثُمَّ إلى رَبّهِمْ يُحْشَرُونَ} يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي: " أنه يأخذ للجماء من القرناء "، فإن قلت: كيف قيل: {إِلاَّ أُمَمٌ} مع إفراد الدابة والطائر؟ قلت: لما كان قوله تعالى: {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ} دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقال: وما من دواب ولا طير، حمل قوله: {إِلاَّ أُمَمٌ} على المعنى، فإن قلت: هلا قيل: وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله: {فِى الأرض} و {يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} قلت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة فقط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا طائر»، بالرفع على المحل، كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة «ما فرطنا» بالتخفيف.
٣٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
فإن قلت: كيف أتبعه قوله: {والذين كَذَّبُواْ بئاياتنا}؟ قلت: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال: والمكذبون {صُمٌّ} لا يسمعون كلام المنبه {وَبُكْمٌ} لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع {مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ} أي يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف {وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ} أي يلطف به لأنّ اللطف يجدي عليه.
٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{أَرَأَيْتُكُم} أخبروني. والضمير الثاني لا محل له من الإعراب؛ لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيداً ما شأنه؟ وهو خلف من القول، ومتعلق الاستخبار محذوف، تقديره: إن أتاكم عذاب الله {أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة} من تدعون. ثم بكتهم بقوله: {أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ} بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ، أم تدعون الله دونها.
٤١ - (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)
{بَلْ إياه تَدْعُونَ} بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ} أي ما تدعونه إلى كشفه {إِن شَاء} إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة {وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت: لأن أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر

ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضرّ دون غيره، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: {أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ} كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله. فإن قلت: إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ} مع قوله: {أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة} وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟ قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة، وهو قوله: {إِن شَاءَ} إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه.

٤٢ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

البأساء، والضراء: البؤس، والضر. وقيل: البأساء: القحط والجوع. والضراء: المرض ونقصان الأموال والأنفس. والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم.

٤٣ - (فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ} معناه: نفي التّضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

٤٤ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ} من البأساء والضراء: أي تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم {فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَىْء} من الصحة والسعة وصنوف النعمة، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى، طلباً لصلاحه {حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ} من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر، من غير انتداب لشكر ولا تصدّ لتوبة واعتذار {أخذناهم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ} واجمون، متحسرون آيسون.

٤٥ - (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{فَقُطِعَ دَابِرُ القوم} آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم {والحمد للَّهِ رَبّ العالمين} إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم. وقرئ: {فَتَحْنَا} بالتشديد.

٤٦ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

{إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم} بأن يصمكم ويعميكم {وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ} بأن يغطي عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم {يَأْتِيكُمْ بِهِ} أي يأتيكم بذلك، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه {يَصْدِفُونَ} يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

٤٧ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل: {بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً. وقرئ: «بغتة أو جهرة» {هَلْ يُهْلَكُ} أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: (هل يهلك) بفتح الياء.

٤٨ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ} من آمن بهم وبما جاؤا به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة {وَأَصْلَحَ} ما يجب عليه إصلاحه مما كلف.

٤٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

جعل العذاب ماساً، كأنه حيّ يفعل بهم ما يريد من الآلام. ومنه قولهم: لقيت منه الأمرّين والأقورين، حيث جمعوا جمع العقلاء.

وقوله: {إِذَا رَأَتْهُمْ مّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً} [الفرقان: ١٢].

٥٠ - (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ)

أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله - وهي قسمة بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه. أي لم أدّع إلهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزل الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها. وإنما أدّعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوّة {هَلْ يَسْتَوِى الأعمى والبصير} مثل للضالّ والمهتدي ويجوز أن يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحي إليه. ومن لم يتبع. أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوة. والمحال وهو الإلهية أو الملكية {أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إليَّ مما لا بدّ لي منه. فإن قلت: {أَعْلَمُ الغيب} ما محله من الإعراب؟ قلت: النصب عطفاً على قوله: {عِندِى خَزَائِنُ الله}، لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

٥١ - (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

{وَأَنذِرْ بِهِ} الضمير راجع إلى قوله: و {وَمَا يُوحِى إِلَيَّ} و {الذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ} إمّا قوم داخلون في الإسلام مقرّون بالبعث إلاّ أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما يوحي إليه {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وأمّا أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث. وإمّا ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمردّين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: {لَّيْسَ لَهُمْ مّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} في موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم، ولا بدّ من هذه الحال، لأنّ كلاًّ محشور، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال.

٥٢ - (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي عبادته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام. وقيل معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته. روي:

أن رؤوساً من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم - وأرواح جبابهم - وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين. فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت. فقال: نعم، طمعاً في إيمانهم. وروي: أن عمر رضي الله عنه قال: لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون. قال فاكتب بذلك كتاباً، فدعا بصحيفة وبعليّ رضي الله عنه ليكتب. فنزلت. فرمى بالصحيفة، واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته. وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت: {واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم} فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمّتي. معكم المحيا ومعكم الممات و {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَيْء} كقوله: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبّى} [الشعراء: ١١٣] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَيْء} بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما

يقولون عند الله، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعدّاهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدّاك إليهم، كقوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى} [الزمر: ٧]. فإن قلت: أما كفى قوله: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ} حتى ضم إليه {وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ}؟ قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنيّ في قوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى} [الزمر: ٧] ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً، كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه. وقيل: الضمير للمشركين. والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين {فَتَطْرُدَهُمْ} جواب النفي {فَتَكُونَ مِنَ الظالمين} جواب النهي. ويجوز أن يكون عطفاً على {فَتَطْرُدَهُمْ} على وجه التسبيب، لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم. وقرئ: «بالغدوة والعشي».

٥٣ - (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

{وكذلك فَتَنَّا} ومثل ذلك الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض، أي ابتليناهم بهم. وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للمسلمين {أهؤلاء} الذين {مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} أي أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم العبيد والفقراء، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير، ونحوه {أَأُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا} [القمر: ٢٥]، {وَلَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [الأحقاف: ١١]. ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا، حتى كان افتنانهم سبباً لهذا القول، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلاّ مخذول مفتون {أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين} أي الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان. وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق.

٥٤ - (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ} إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم. وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم. وكذلك قوله: {كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة} من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ: «إنه» فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل: {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ} وبالفتح على الإبدال من الرحمة {بِجَهَالَةٍ} في موضع الحال، أي عمله وهو جاهل. وفيه معنيان، أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة لأنّ من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظانّ فهو من أهل السفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير. ومنه قول الشاعر:

عَلَى أَنَّهَا قَالَتْ عَشِيَّةَ زُرْتُهَا ... جَهِلْتَ عَلَى عَمْدٍ وَلَمْ تَكُ جَاهِلا

والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة. ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته. وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة.

٥٥ - (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

وقرئ: «ولتستبين» بالتاء والياء مع رفع السبيل لأنها تذكر وتؤنث. وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل. يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين. من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه إمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به، فصلنا ذلك التفصيل.

٥٦ - (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

{نُهِيتُ} صرفت وزجرت، بما ركب فيّ من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون {مِن دُونِ الله} وفيه

استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة {قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ} أي لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً} أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعني أنكم كذلك.

٥٧ - (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: {قُلْ إِنّى على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى} ومعنى قوله: {إِنّى على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى وَكَذَّبْتُم بِهِ}: إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أنتم حيث أشركتم به غيره. ويقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذا كان ثابتاً عندك بدليل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا بالعذاب المستأصل فقال: {مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء} [الأنفال: ٣٢] {إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ} في تأخير عذابكم {يَقْضِي الحق} أي القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه {وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين} أي القاضين. وقرئ: «يقص الحق» أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره، من قص أثره.

٥٨ - (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

{لَّوْ أَنَّ عِندِى} أي في قدرتي وإمكاني {مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} من العذاب {لَقُضِىَ الأمر بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ} لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي وامتعاضاً من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعاً {والله أَعْلَمُ بالظالمين} وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم. وقيل {على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى} على حجة من جهة ربي وهي القرآن {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي بالبينة. وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن. فإن قلت: بم انتصب الحق؟ قلت: بأنه صفة لمصدر يقضي أي يقضي القضاء الحق. ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها، أي يصنع الحق ويدبره. وفي قراءة عبد الله: «يقضى بالحق» فإن قلت: لم أسقطت الياء في الخط؟ قلت: إتباعاً للخط اللفظ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

٥٩ - (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة، لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال. ومن علم مفاتحها وكيف تفتح، توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. والمفاتح: جمع مفتح وهو المفتاح. وقرئ: «مفاتيح»، وقيل: هي جمع مفتح - بفتح الميم - وهو المخزن. {وَلاَ حَبَّةٍ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ} عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل: وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه. وقوله: {إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ} كالتكرير لقوله: {إِلاَّ يَعْلَمُهَا} لأنّ معنى {إِلاَّ يَعْلَمُهَا} ومعنى {إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ} واحد. والكتاب المبين: علم الله تعالى، أو اللوح. وقرئ: «ولا حبةٌ، ولا رطبٌ، ولا يابسٌ» بالرفع. وفيه وجهان: أن يكون عطفاً على محل {مِن وَرَقَةٍ} وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره {إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ}: كقولك: لا رجل منهم ولا امرأة إلاّ في الدار.

٦٠ - (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل} الخطاب للكفرة، أي أنتم منسدحون الليل كله كالجيف {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار} ما كسبتم من الآثام فيه {ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل، وكسب الآثام بالنهار، ومن أجله، كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول: في أمر كذا {ليقضى أَجَلٌ مّسَمًّى} وهو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم.

{ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} وهو المرجع إلى موقف الحساب {ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} في ليلكم ونهاركم.
٦١ - (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ)
{حَفَظَةً} ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون. وعن أبي حاتم السجستاني أنه كان يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم، حتى قال فيه: أنت شبيه الحفظة، تكتب لغط اللفظة: فقال أبو حاتم: وهذا أيضاً مما يكتب. فإن قلت: الله تعالى غنيّ بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} أي استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه. وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناوله. وما من أهل بيت إلاّ ويطوف عليهم في كل يوم مرّتين. وقرئ: «توفاه»، ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعاً بمعنى تتوفاه. و {يُفَرِّطُونَ} بالتشديد والتخفيف، فالتفريط التواني والتأخير عن الحدّ، والإفراط مجاوزة الحدّ أي لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه.
٦٢ - (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)
{ثُمَّ رُدُّواْ إِلى اللهِ} أي إلى حكمه وجزائه {مولاهم} مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم {الحق} العدل الذي لا يحكم إلاّ بالحق {أَلاَ لَهُ الحكم} يومئذ لا حكم فيه لغيره {وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين} لا يشغله حساب عن حساب. وقرئ: «الحقَّ» بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحقَّ.
٦٣ - (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)
{ظلمات البر والبحر} مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما. يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب. أي اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل؛ ويجوز أن يراد. ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} على إرادة القول {مِنْ هذه} من هذه الظلمة الشديدة.
٦٤ - (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)
وقرئ: {يُنَجِّيكُمْ} بالتشديد والتخفيف، وأنجانا، وخفية، بالضم والكسر.
٦٥ - (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)
{هُوَ القادر} هو الذي عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة {عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ} كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل من فوقكم: من قبل أكابركم وسلاطينكم. ومن تحت أرجلكم: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} أو يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، من قوله:
وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ ... حَتَّى إِذَا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل أنّ فناء أمتي بالسيف»، وعن جابر بن عبد الله: لما نزل {مّن فَوْقِكُمْ} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بوجهك» فلما نزل: {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} قال: «هاتان أهون» ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة.

٦٦ - (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

والضمير في قوله: {وَكَذَّبَ بِهِ} راجع إلى العذاب {وَهُوَ الحق} أي لا بدّ أن ينزل بهم {قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} بحفيظ وكُل إليّ أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً، إنما أنا منذر.

٦٧ - (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

{لِّكُلِّ نَبَإٍ} لكل شيء ينبأ به، يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به {مُّسْتَقِرٌّ} وقت استقرار وحصول لا بدّ منه. وقيل: الضمير في {نَبَإٍ} للقرآن.

٦٨ - (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

{يَخُوضُونَ فِى ءاياتنا} في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} فلا تجالسهم وقم عنهم {حتى يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ} فلا بأس أن تجالسهم حينئذ {وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان} وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم {فَلاَ تَقْعُدْ} معهم {بَعْدَ الذكرى} بعد أن تذكر النهي. وقرئ: «ينسينك» بالتشديد. ويجوز أن يراد: وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول {فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى} بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم.

٦٩ - (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

{وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَىْءٍ} وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم {ولكن} عليهم أن يذكروهم {ذكرى} إذا سمعوهم يخوضون، بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم. ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون، أي يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها. وروي: أن المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخص لهم. فإن قلت: ما محل {ذكرى}؟ قلت: يجوز أن يكون نصباً على: ولكن يذكرونهم ذكرى، أي تذكيراً. ورفعاً على: ولكن عليهم ذكرى. ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل {مِن شَىْءٍ}، كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد، لأنّ قوله: {مِنْ حِسَابِهِم} يأبى ذلك.

٧٠ - (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

{اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً} أي دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً. وذلك أن عبدة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل دون الجد. أو اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم. أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً، حيث سخروا به واستهزؤوا. وقيل: جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً، وغير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى «ذرهم» أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم، {وَذَكِّرْ بِهِ} أي: بالقرآن {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ} مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها. وأصل الإبسال المنع، لأن المسلم إليه يمنع المسلم، قال:

وَإبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... بَعَوْنَاهُ وَلاَ بِدَمٍ مُرَاقِ

ومنه: هذا عليك بسل، أي حرام محظور. والباسل: الشجاع لامتناعه من قرنه، أو لأنه شديد البسور. يقال: بسر الرجل إذا اشتد

عبوسه. فإذا زاد قالوا: بسل. والعابس: منقبض الوجه {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} وإن تفد كل فداء، والعدل: الفدية. لأن الفادي يعدل المفدي بمثله. وكلّ عدل: نصب على المصدر. وفاعل {يُؤْخَذْ} قوله: {مِنْهَا} لا ضمير العدل لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله تعالى: {وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [البقرة: ٤٨] فبمعنى المفدي به، فصحّ إسناده إليه {أولئك} إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً. قيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

٧١ - (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

{قُلْ أَنَدْعُواْ} أنعبد {مِن دُونِ اللهِ} الضارّ النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا {وَنُرَدُّ على أعقابنا} راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام {كالذي استهوته الشياطين} كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان {فِى الأرض} المهمه {حَيْرَانَ} تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع {لَهُ} أي لهذا المستهوي {أصحاب} رفقة {يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى} إلى أن يهدوه الطريق المستوي. أو سمي الطريق المستقيم بالهدى، يقولون له {ائتنا} وقد اعتسف المهمه تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده: أن الجنّ تستهوي الإنسان. والغيلان تستولي عليه، كقوله: {كالذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس} [البقرة: ٢٧٥] فشبه الضالّ عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم {قُلْ إِنَّ هُدَى الله} وهو الإسلام {هُوَ الهدى} وحده وما وراءه ضلال وغيّ {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا} [آل عمران: ٨٥]. {فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال} [يونس: ٣٢]. فإن قلت: فما محل الكاف في قوله: {كالذي استهوته}؟ قلت النصب على الحال من الضمير في {نُرَدُّ على أعقابنا} أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت: ما معنى {استهوته}؟ قلت: هو استفعال، من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه. فإن قلت: ما محل: {أُمِرْنَا}؟ قلت: النصب عطفاً على محل قوله: {إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى} على أنهما مقولان، كأنه قيل: قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم. فإن قلت: ما معنى اللام في {لِنُسْلِمَ}؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم. فإن قلت: فإذا كان هذا وارداً في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعو؟ قلت: للاتحاد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

٧٢ - (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

فإن قلت: علام عطف قوله: {وَأَنْ أَقِيمُواْ}؟ قلت: على موضع {لِنُسْلِمَ} كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم، وأن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا: أي للإسلام ولإقامة الصلاة.

٧٣ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

{قَوْلُهُ الحق} مبتدأ. ويوم يقول: خبره مقدّماً عليه، وانتصابه بمعنى الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء {كُن} فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أي لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب. و {يَوْمَ يُنفَخُ} ظرف لقوله: {وَلَهُ الملك} كقوله: {لِّمَنِ الملك اليوم}؟ [غافر: ١٦] ويجوز أن يكون {قَوْلُهُ الحق} فاعل يكون، على معنى: وحين يقول لقوله الحق، أي لقضائه الحق {كُن} فيكون قوله الحق. وانتصاب اليوم لمحذوف دلّ عليه قوله {بالحق} كأنه قيل: وحين يكوّن ويقدّر يقوم بالحق {عالم الغيب} هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

٧٤ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

{ءَازَرَ} اسم أبي إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية تارح. والأقرب أن يكون وزن {ءَازَرَ} فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه. وقرئ: «آزر» بالضم على النداء. وقيل: «آزر» اسم صنم، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهنّ، فقيل: ابن قيس الرقيات. وفي شعر بعض المحدثين:

أُدْعَى بِأَسْمَاءَ نَبْزاً فِي قَبَائِلِهَا ... كَأَنَّ أَسْمَاءَ أَضْحَتْ بَعْدُ أَسْمَائِي

أو أريد عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ: «ءأزر» تتخذ أصناماً آلهة بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة، وهو اسم صنم. ومعناه: أتعبد آزراً على الإنكار؟ ثم قال: تتخذ أصناماً آلهة تثبيتاً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار، لأنه كالبيان له.

٧٦ - (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل} عطف على قال إبراهيم لأبيه: وقوله: {وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم} جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: مثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ملكوت السموات والأرض: يعني الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحنا صدره وسدّدنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. وليكون من الموقنين: فعلنا ذلك. ونروي: حكاية حال ماضية، وكان أبوه [آزر] وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصحّ أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، مدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها {هذا رَبّى} قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة {لا أُحِبُّ الآفلين} لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام.

٧٧ - (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

{بَازِغاً} مبتدئاً في الطلوع {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى} تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه.

٧٨ - (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

{هذا أَكْبَرُ} من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومه {إِنّى بريء مّمَّا تُشْرِكُونَ} من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها.

٧٩ - (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السماوات والأرض} أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله. والأوّل أظهر لقوله: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى} وقوله: {قَالَ ياقوم إِنّى بَرِىء مّمَّا تُشْرِكُونَ}.

فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب. فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: {هذا رَبّى} والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك، و {لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ} [الأنعام: ٢٣] وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله «علام» ولم يقولوا «علامة» وإن كان العلامة أبلغ، احترازاً من علامة التأنيث. وقرئ: «تري إبراهيمَ ملكوتُ السموات والأرض» بالتاء ورفع الملكوت. ومعناه: تبصره دلائل الربوبية.

٨٠ - (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ)

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ} وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك {وَقَدْ هدان} يعني إلى التوحيد {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} وقد خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء {إِلاَّ أَن يَشَاء رَبّى شَيْئاً} إلاّ وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف، فحذف الوقت، يعني لا أخاف معبوداتكم في وقت قط، لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة، إلاّ إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنباً استوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجلعها قادرة على مضرتي {وَسِعَ رَبّى كُلَّ شَىْء عِلْماً} أي ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها {أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.

٨١ - (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{وَكَيْفَ أَخَافُ} لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه {و} أنتم {لا تخافون} ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه {سلطانا} أي حجة، لأن الإشراك لا يصحّ أن يكون عليه حجة، كأنه قال: وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازاً من تزكيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله: {فَأَىُّ الفريقين} يعني فريقي المشركين والموحدين.

٨٢ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

ثم استأنف الجواب على السؤال بقوله: {الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ} أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس.

٨٣ - (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

{وَتِلْكَ} إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل} إلى قوله: {وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}. ومعنى {ءاتيناهآ} أرشدناه إليها ووفقناه لها {نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء} يعني في العلم والحكمة.

٨٤ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

وقرئ بالتنوين {وَمِن ذُرّيَّتِهِ} الضمير لنوح أو لإبراهيم. و {دَاوُودُ} عطف على نوحاً، أي وهدينا داود.

٨٧ - (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{وَمِنْ ءابَائِهِمْ} في موضع النصب عطفاً على كلاًّ، بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم.

٨٨ - (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{وَلَوْ أَشْرَكُواْ} مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات. لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم، كما قال تعالى وتقدّس {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥].

٨٩ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

{ءاتيناهمالكتاب} يريد الجنس {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا} بالكتاب والحكمة والنبوّة. أو بالنبوّة {هؤلاء} يعني أهل مكة {قَوْماً} هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: {أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده} وبدليل وصل قوله: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء} بما قبله. وقيل: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به. وقيل: كل مؤمن من بني آدم. وقيل: الملائكة وادّعى الأنصار أنها لهم. وعن مجاهد: هم الفرس. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكّل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في

{بِهَا} صلة كافرين. وفي {بكافرين} تأكيد النفي.
٩٠ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)
{فَبِهُدَاهُمُ اقتده} فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلاّ بهم. وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع، فإنها مختلفة وهي هدى، ما لم تنسخ. فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً. والهاء في {اقتده} للوقف تسقط في الدرج. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف.
٩١ - (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)
{وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ} وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم وأجلّ نعمته {وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين} [الأنبياء: ١٠٧] أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة. والقائلون هم اليهود، بدليل قراءة من قرأ: «تجعلونه» بالتاء. وكذلك {تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ} وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل: {جَاء بِهِ موسى} وهو نور وهدى للناس، حتى غيروه، ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وروي: أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنّ الله يبغض الحبر السمين؟ فأنت الحبر السمين، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود " فضحك القوم، فغضب، ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له قومه: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. وقيل: القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب، لكنا أهدى منهم {وَعُلّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ} الخطاب لليهود، أي علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم، وأنتم حملة التوراة، ولم يعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم {إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسرائيل أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: ٧٦] وقيل الخطاب لمن آمن من قريش، كقوله تعالى: {لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم} [يس: ٦]. {قُلِ الله} أي أنزله الله، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ} في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب. و {يَلْعَبُونَ} حال من ذرهم، أو من خوضهم، ويجوز أن يكون {فِى خَوْضِهِمْ} حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم.
٩٢ - (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)
{مُّبَارَكٌ} كثير المنافع والفوائد {وَلِتُنذِرَ} معطوف على ما دلّ عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وقرئ: «ولينذر» بالياء والتاء. وسميت مكة {أُمَّ القرى} لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم. لأنها أعظم القرى شأناً لبعض المجاورين:
فَمَنْ يَلْقَى فِي الْقُرَيَّاتِ رَحْلَه ... فَأُمُّ الْقُرَى مُلْقَى رِحَالِي وَمُنْتَابِي
{والذين يُؤْمِنُونَ بالاخرة} يصدّقون بالعاقبة ويخافونها {يُؤْمِنُونَ} بهذا الكتاب. وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة لأنها عماد الدين. ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها.

٩٣ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

{افترى عَلَى الله كَذِبًا} فزعم أن الله بعثه نبياً {أَوْ قَالَ أُوْحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْء} وهو مسيلمة الحنفي الكذاب. أو كذاب صنعاء الأسود العنسي. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يديّ سوارين من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحى الله إليّ أن أنفخهما، فنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة. وكذاب صنعاء الأسود العنسي» {وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ الله} هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي. كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليماً، كتب هو: عليماً حكيماً. وإذا قال: عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً. فلما نزلت: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ} [المؤمنون: ١٢] إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان: فقال: تبارك الله أحسن الخالقين. فقال عليه الصلاة والسلام اكتبها: فكذلك نزلت، فشك عبد الله وقال: لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحي إليّ مثل ما أُوحي إليه. ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال: فارتدّ عن الإسلام ولحق بمكة، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤن {وَلَوْ تَرَى} جوابه محذوف. أي: رأيت أمراً عظيماً {إِذِ الظالمون} يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة، فتكون اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. و {غَمَرَاتِ الموت} شدائده وسكراته، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدّة الغالبة {بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم. وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح، والتشديد في [الإزهاق]، من غير تنفيس وإمهال، وإنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله، ويقول له: [أخرج] إليّ ما لي عليك الساعة، ولا أريم مكاني، حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} خلصوها من أيدينا، أي لا تقدرون على الخلاص {اليوم تُجْزَوْنَ} يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع، وأن يريدوا الوقت الممتدّ المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. والهون الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه {عَنْ ءاياته تَسْتَكْبِرُونَ} فلا تؤمنون بها.

٩٤ - (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

{فرادى} منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه، وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاء لله {كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ} على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد {وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم} ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة {وَرَاء ظُهُورِكُمْ} لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدّمتموه لأنفسكم {فِيكُمْ شُرَكَاء} في استبعادكم، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها، فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استعبادهم. وقرئ: «فرادى» بالتنوين. وفراد، مثل ثلاث. وفردى، نحو سكرى: فإن قلت: كما خلقناكم، في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا، أي مجيئنا مثل خلقنا لكم {تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} وقع التقطع بينكم، كما تقول: جمع بين الشيئين، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول قوتل خلفكم وأمامكم. وفي قراءة عبد الله: «لقد تقطع ما بينكم».

٩٥ - (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

{فَالِقُ الحب والنوى} بالنبات والشجر. وعن مجاهد: أراد الشقين الذين في النواة والحنطة {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت} أي الحيوان، والنامي من النطف. والبيض والحب والنوى {وَمُخْرِجُ} هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي. فإن قلت: كيف قال: {مُخْرَجَ الميت مِنَ

الحي} بلفظ اسم الفاعل، بعد قوله: {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت} قلت: عطفه على فالق الحب والنوى، لا على الفعل. ويخرج الحيَّ من الميت: موقعة موقع الجملة المبينة لقوله: {فَالِقُ الحب والنوى} لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحيّ من الميت، لأنّ النامي في حكم الحيوان. ألا ترى إلى قوله: {يحيي الأرض بعد موتها} [الروم: ٥٠]، {ذَلِكُمُ الله} أي ذلكم المحي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية {فأنى تُؤْفَكُونَ} فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

٩٦ - (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

{الإصباح} مصدر سمي به الصبح. وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح، وأنشد قوله:

[أفْنَى] رَبَاحاً وَبَنِي رَبَاحِ ... تناسُخُ الإمْسَاءِ وَالإصْبَاحِ

بالكسر والفتح مصدرين، وجمع مساء وصبح. فإن قلت: فما معنى فلق الصبح، والظلمة هي التي تنفلق عن الصبح. كما قال:

تَرَدَّتْ بِهِ ثُمَّ انْفَرَي عَنْ أدِيمِهَا ... تَفَرّى لَيْلٍ عَنْ بَيَاضِ نَهَارِ

قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يراد فالق ظلمة الإصباح، وهي الغبش في آخر الليل، ومنقضاه الذي يلي الصبح. والثاني: أن يراد فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره. وقالوا: انشق عمود الفجر. وانصدع الفجر. وسموا الفجر فلقاً بمعنى مفلوق. وقال الطائي:

وَأزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أبْيَضِهِ ... وَأوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

وقرئ: «فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً» بالنصب على المدح. وقرأ النخعي: «فلق الإصباح وجعل الليل» السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار: سكن؛ لأنه يستأنس بها. ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله: {لتسكنوا فيه} {والشمس والقمر} قرئاً بالحركات الثلاث، فالنصب على إضمار فعل دلّ عليه جاعل الليل، أي وجعل الشمس والقمر حسباناً. أو يعطفان على محل الليل. فإن قلت كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية، لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضيّ، ولا تقول: زيد ضارب عمراً أمس؟ قلت: ما هو في معنى المضيّ، وإنما هو دال على جعل مستمرّ في الأزمنة المختلفة، وكذلك فالق الحب، وفالق الإصباح، كما تقول: الله قادر عالم، فلا تقصد زماناً دون زمان، والجر عطف على لفظ الليل، والرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: والشمس والقمر مجعولان حسباناً، أو محسوبان حسباناً. ومعنى جعل الشمس والقمر حسباناً: جعلهما على حسبان، لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحسبان - بالضم -: مصدر حسب، كما أنّ الحسبان - بالكسر - مصدر حسب. ونظيره الكفران والشكران {ذلك} إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم {تَقْدِيرُ العزيز} الذي قهرهما وسخرهما {العليم} بتدبيرهما وتدويرهما.

٩٧ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

{في ظلمات البر والبحر} في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما لملابستها لهما، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات.

٩٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

من فتح قاف المستقر، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدراً. ومن كسرها، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول. والمعنى فلكم مستقرّ في الرحم. ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها. أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع. فإن قلت: لم قيل {يَعْلَمُونَ} مع ذكر النجوم و {يَفْقَهُونَ} مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له.

٩٩ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا

قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ} بالماء {نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} نبت كل صنف من أصناف النامي، يعني أن السبب واحد وهو الماء. والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: {يسقى بِمَاء واحد وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل} [الرعد: ٤]. {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ} من النبات {خَضِرًا} شيئاً غضاً أخضر. يقال أخضر وخضر، كأعور وعور، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة {نُّخْرِجُ مِنْهُ} من الخضر {حَبّاً مُّتَرَاكِبًاً} وهو السنبل. و {قنوان} رفع الابتداء. و {مِنْ النخل} خبره. و {مِن طَلْعِهَا} بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه تقديره ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب، كان {قنوان} عنده معطوفاً على حب. والقنوان: جمع قنو، ونظيره: صنو وصنوان. وقرئ: بضم القاف وبفتحها، على أنه اسم جمع كركب؛ لأنّ فعلان ليس من زيادة التكسير {دَانِيَةٌ} سهلة المجتنى معرضة للقاطف، كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول. وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض. وقيل: ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة، لأنّ النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة، كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر} [النحل: ٨١] وقوله: {وجنات مّنْ أعناب} فيه وجهان، أحدهما: أن يراد: وثم جنات من أعناب، أي مع النخل. والثاني: أن يعطف على {قنوان} على معنى: وحاصلة، أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب، أي من نبات أعناب. وقرئ: «وجنات» بالنصب عطفاً على {نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} أي: وأخرجنا به جنات من أعناب، وكذلك قوله: {والزيتون والرمان} والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص، كقوله: {والمقيمين الصلاة} [النساء: ١٦٢] لفضل هذين الصنفين {مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه} يقال اشتبه الشيئان وتشابها، كقولك استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وقرئ: «متشابهاً وغير متشابه» وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه، والرمّان كذلك كقوله:

كُنْتُ مِنْهُ وَوالِدَي بَرِيًّا ...

والمعنى: بعضه متشابهاً وبعضه غير متشابه، في القدر واللون والطعم. وذلك دليل على التعمد دون الإهمال {انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال. وقرئ {وَيَنْعِهِ} بالضم. يقال: ينعت الثمرة ينعاً وينعاً. وقرأ ابن محيصن: «ويانعه». وقرئ: «وثمره»، بالضم.

١٠٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)

إن جعلت {لِلَّهِ شُرَكَاء} مفعولي جعلوا، نصبت الجنّ بدلاً من شركاء، وإن جعلت {لِلَّهِ} لغواً كان {شُرَكَاء الجن} مفعولين قدم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك مَن كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء. وقرئ: «الجن» بالرفع، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن. وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين. والمعنى أشركوهم في عبادته، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله. وقيل: هم الذين زعموا أنّ الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ {وَخَلَقَهُمْ} وخلق الجاعلين لله شركاء. ومعناه: وعلموا أن الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكاً للخالق. وقيل: الضمير للجن. وقرئ: «وخلقهم»، أي اختلاقهم الإفك، يعني: وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم {والله أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ٢٨]، {وَخَرَقُواْ لَهُ} وخلقوا له، أي افتعلوا له {بَنِينَ وَبَنَاتٍ} وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة يقال: خلق الإفك وخرقه واختلفه واخترقه، بمعنى: وسئل الحسن عنه فقال: كلمة عربية كانت العرب تقولها: كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم: قد خرقها والله، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه، أي اشتقوا له بنين وبنات، وقرئ: «وخرّقوا» بالتشديد للتكثير، لقوله: {بَنِينَ وَبَنَاتٍ} وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما «وحرّفوا» له، بمعنى: وزوّروا له أولاداً لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل {بِغَيْرِ عِلْمٍ} من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن

رمياً بقول عن عمى وجهالة. من غير فكر وروية.
١٠١ - (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
{بَدِيعُ السماوات} من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، كقولك: فلان بديع الشعر أي بديع شعره أو هو بديع في السموات والأرض كقولك فلان ثبت الغدر، أي ثابت فيه، والمعنى أنه عديم النظير والمثل فيها. وقيل: البديع بمعنى المبدع، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره {أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} أو فاعل تعالى، وقرئ بالجرّ ردّاً على قوله {وَجَعَلُواْ للَّهِ} أو على {سبحانه}. وبالنصب على المدح، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه، أحدها: مبدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً. والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس، فلم يصحّ أن تكون له صاحبة، فلم تصحّ الولادة. والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ: «ولم يكن له صاحبة» بالياء وإنما جاز للفصل كقوله:
لقد ولد الأخيطل أم سوء ...
١٠٢ - (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)
{ذلكم} إشارة إلى الموصوف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي {اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خالق كُلّ شَىْء} أي ذلكم الجامع لهذه الصفات {فاعبدوه} مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال: {وَهُوَ على كُلّ شَىْء وَكِيلٌ} يعني وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.
١٠٣ - (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)
البصر: هو الجهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر، به تدرك المبصرات، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيآت {وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار} وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك {وَهُوَ اللطيف} يلطف عن أن تدركه الأبصار {الخبير} بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.
١٠٤ - (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)
{قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبّكُمْ} هو وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقوله: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر {فَمَنْ أَبْصَرَ} الحق وآمن {فَلِنَفْسِهِ} أبصر وإياها نفع {وَمَنْ عَمِىَ} عنه فعل نفسه عمى وإياها ضرَّ بالعمى {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.
١٠٥ - (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)
{وَلِيَقُولُواْ} جوابه محذوف تقديره. وليقولوا درست تصرّفها. ومعنى {دَرَسْتَ} قرأت وتعلمت. وقرئ: «دارست» أي دارست العلماء. ودرست بمعنى قدّمت هذه الآيات وعفت كما قالوا: أساطير الأولين، ودرست بضم الراء، مبالغة في درست، أي اشتد دروسها. ودرست - على البناء للمفعول - بمعنى قرئت أو عفيت. ودارست. وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم، وجاز الإضمار، لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم. ويجوز أن يكون الفعل للآيات، وهو لأهلها، أي دارس أهل الآيات وحملتها محمداً، وهم أهل الكتاب. ودرس أي درس محمد. ودارسات، على: هي دارسات، أي قديمات. أو ذات دروس، كعيشة راضية، فإن قلت:

أي فرق بين اللامين في {لِّيَقُولواْ}، {وَلِنُبَيِّنَهُ}؟ قلت: الفرق بينهما أنّ [الأولى] مجاز والثانية حقيقة، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين، شبه به فسيق مساقه. وقيل: ليقولوا كما قيل لنبينه: فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: {وَلِنُبَيِّنَهُ}؟ قلت: إلى الآيات لأنها في معنى القرآن، كأنه قيل: وكذلك نصرف القرآن. أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر، لكونه معلوماً إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل، كقولهم: ضربته زيداً. ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست: درست الكتاب ودارسته، فيرجع إلى الكتاب المقدّر.

١٠٦ - (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

{لاَ إله إِلاَّ هُوَ} اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي لا محلّ له من الإعراب. ويجوز أن يكون حالاً من ربك، وهي حال مؤكدة كقوله {وَهُوَ الحق مُصَدّقًا} [البقرة: ٩١].

١٠٨ - (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{وَلاَ تَسُبُّواْ} الآلهة {الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله} وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] لتنتهينّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجونّ إلهك. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسبّ الله تعالى. فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة، فكيف صحّ النهي عنه، وإنما يصحّ النهي عن المعاصي قلت: ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة، فيجب النهي عنها لأنها معصية، لا لأنها طاعة كالنهي عن المنكر هو من أجلّ الطاعات، فإذا علم أنه يؤدّي إلى زيادة الشرّ انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي. كما يجب النهي عن المنكر. فإن قلت: فقد روي عن الحسن وابن سيرين: أنهما حضرا جنازة فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا. قلت: ليس هذا مما نحن بصدده، لأنّ حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهنّ يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سبّ الآلهة. وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن. {عَدْوًا} ظلماً وعدواناً. وقرئ: «عُدوّاً» بضم العين وتشديد الواو بمعناه. ويقال: [عدا] فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء. وعن ابن كثير: «عدوّاً»، بفتح العين بمعنى أعداء {بِغَيْرِ عِلْمٍ} على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به {كذلك زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ} مثل ذلك التزيين زينا لكل أمّة من أمم الكفار سوء عملهم. أو خليناهم وشأنهم، ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم. وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا {فَيُنَبِّئُهُم} فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

١٠٩ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ)

{لَئِن جَاءتْهُمْ ءايَةٌ} من مقترحاتهم {لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله} وهو قادر عليها، ولكنه لا ينزلها إلاّ على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي. فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها {وَمَا يُشْعِرُكُمْ} وما يدريكم {أَنَّهَا} أن الآية التي تقترحونها {إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال عزّ وجلّ وما يدريكم أنهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به ألا ترى إلى قوله {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقيل: {أَنَّهَا} بمعنى «لعلها» من قول العرب: ائت السوق أنك تشتري لحماً. وقال امرؤ القيس:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لأَنَّنَا ... نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خُذَامِ

وتقويها قراءة أبيّ «لعلها إذا جاءت لا يؤمنون»، وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة. ومنهم من جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح وقرئ: «وما يشعرهم أنها إذا جاءت

لا يؤمنون» أي يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعاً عليها فلا يؤمنوا بها.

١١٠ - (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ. . . . وَنَذَرُهُمْ} عطف على (يؤمنون)، داخل في حكم وما يشعركم، بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنّا نقلب أفئدتهم وأبصارهم: أي نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أي نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه. وقرئ: «ويقلب ويذرهم» بالياء أي الله عزّ وجلّ. وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم» على البناء للمفعول.

١١١ - (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة} كما قالوا {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة} [الفرقان: ٢١]، {وَكَلَّمَهُمُ الموتى} كما قالوا: {فَأْتُواْ بِآبَائِنَا} [الدخان: ٣٦]، {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْء قُبُلاً} كما قالوا {أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً} [الإسراء: ٩٢] قبلاً كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات. وقيل: {قُبُلاً} مقابلة. وقرئ: «قبلا» أي عياناً {إِلا أَن يَشَاء الله} مشيئة إكراه واضطرار {ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات. أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطّرهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

١١٢ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً} وكما خلينا بينك وبين أعدائك، وكذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم نمنعهم من العداوة، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب {شياطين} على البدل من عدوّاً. أو على أنهما مفعولان كقوله {وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن} [الأنعام: ١٠٠] {يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ} يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس. وكذلك بعض الجنّ إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك ابن دينار: إن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ، لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الأنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عياناً {زُخْرُفَ القول} ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه {غُرُوراً} خدعاً وأخذاً على غرّة {وَلَوْ شَآء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} ما فعلوا ذلك، أي ما عادوك، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

١١٣ - (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

{ولتصغى} جوابه محذوف تقديره: وليكون ذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر. والضمير في {إِلَيْهِ} يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين {أَفْئِدَةُ} الكفار {وَلِيَرْضَوْهُ} لأنفسهم {وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} من الآثام.

١١٤ - (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

{أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِى حَكَماً} على إرادة القول، أي قل يا محمد: أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق منا من المبطل {وَهُوَ الذى أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب} المعجز {مُفَصَّلاً} مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة

على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين} من باب التهييج والإلهاب، كقوله تعالى: {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين} [الأنعام: ١٤] أو {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين} في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به. ويجوز أن يكون {فَلاَ تَكُونَنَّ} خطاباً لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه، فما ينبغي أن يمتري فيه أحد. وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته.

١١٥ - (وَتَمَّتْ كَلِمتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} أي تمّ كل ما أخبر به، وأمر ونهى، ووعد وأوعد {صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لكلماته} لا أحد يبدّل شيئاً من ذلك مما هو أصدق وأعدل. وصدقاً وعدلاً. نصب على الحال. وقرئ: «كلمة ربك»، أي ما تكلم به. وقيل: هي القرآن.

١١٦ - (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأرض} أي من الناس أضلوك، لأن الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن} وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} يقدّرون أنهم على شيء. أو يكذبون في أنّ الله حرّم كذا وأحلّ كذا.

١١٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

وقرئ: «من يضل» بضم الياء أي يضله الله.

١١٨ - (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

{فَكُلُواْ} مسبب عن إنكار اتباع المضلين، الذي يحلون الحرام ويحرّمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله أحقّ أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا.

١١٩ - (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

{مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ} خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكى ببسم الله {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ} وأي غرض لكم في أن لا تأكلوا {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم} وقد بين لكم ما حرّم عليكم مما لم يحرّم وهو قوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة} [المائدة: ٣] وقرئ: «فصل لكم ما حرّم عليكم» على تسمية الفاعل، وهو الله عزّ وجلّ {إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ} مما حرّم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة {وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ} قرئ بفتح الياء وضمها، أي يضلون فيحرّمون ويحللون {بِأَهْوَآئِهِم} وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

١٢٠ - (وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

{ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ} ما أعلنتم منه وما أسررتم. وقيل: ما عملتم وما نويتم. وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السرّ.

١٢١ - (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

{وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي، يعني وإنّ الأكل منه لفسق. أو إلى الموصول على: وإنّ أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً. فإن قلت: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد. قلت: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه: كقوله: {أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ} [الأنعام: ١٤٥] {لَيُوحُونَ} ليسوسون {إلى أَوْلِيَائِهِمْ} من المشركين {ليجادلوكم} بقولهم: ولا تأكلوا مما قتله الله. وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة {إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ} لأنّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به. ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمة الله مرخصاً في النسيان دون العمد، ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

١٢٢ - (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدي والضال، بمن كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به، فيميز بعضهم من بعض، ويفصل بين حلاهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله: {كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} كمن صفته هذه وهي قوله: {فِى الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى: {مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَا أَنْهَارٌ} [محمد: ١٥] أي صفتها هذه، وهي قوله: {فِيهَا أَنْهَارٌ}. {زُيّنَ للكافرين} أي زينه الشيطان، أو الله عزّ وعلا على قوله: {زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم} [النمل: ٤]. ويدل عليه قوله: {وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلّ قَرْيَةٍ أكابر مُجْرِمِيهَا} ويدل عليه قوله: {وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلّ قَرْيَةٍ أكابر مُجْرِمِيهَا}

١٢٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

{وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلّ قَرْيَةٍ أكابر مُجْرِمِيهَا} يعني: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك. ومعناه: خليناهم ليمكروا وما كففناهم عن المكر، وخصّ الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس، كقوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} [الإسراء: ١٦] وقرئ: «أكبر مجرميها» على قولك: هم أكبر قومهم، وأكابر قومهم {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ} لأنّ مكرهم يحيق بهم. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً. وروي: أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيّ يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت ونحوها قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرئ مّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً} [المدثر: ٥٢].

١٢٤ - (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

{الله أَعْلَمُ} كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفى للنبوة إلاّ من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم {سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ} من أكابرها {صَغَارٌ} وقماءة بعد كبرهم وعظمتهم {وَعَذَابٌ شَدِيدٌ} في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

١٢٥ - (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

{فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ} أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلاّ بمن له لطف {يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام} يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحبّ الدخول فيه {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ} أن يخذله ويخليه وشأنه، وهو الذي لا لطف له {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً} يمنعه ألطافه، حتى يقسو قلبه، وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان. وقرئ: «ضيقاً» بالتخفيف والتشديد: {حَرَجاً} بالكسر، حرجاً - بالفتح - وصفاً بالمصدر {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السماء} كأنما يزاول أمراً غير ممكن. لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة. وقرئ: «يصعد»، وأصله يتصعد. وقرأ عبد الله: «يتصعد». و «يصاعد». وأصله: يتصاعد ويصعد،

من صعد، ويصعد من أصعد {يَجْعَلُ اللهُ الرجس} يعني الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤدّي إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب.

١٢٦ - (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

{وهذا صراط رَبّكَ} وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان {مُّسْتَقِيماً} عادلاً مطرداً. وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: {وَهُوَ الحق مُصَدّقًا} [البقرة: ٩١].

١٢٧ - (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{لَهُمْ} لقوم يذكرون {دَارُ السلام} دار الله، يعني الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر {عِندَ رَبّهِمْ} في ضمانه كما تقول لفلان عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها، كقوله: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]، {وَهُوَ وَلِيُّهُم} مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

١٢٨ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ} منصوب بمحذوف، أي واذكر يوم نحشرهم، أو يوم نحشرهم قلنا {يا معشر الجن} أو ويوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجنّ كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم. والجنّ هم الشياطين {قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس} أضللتم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم فحشر معكم منهم الجم الغفير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياع {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس} الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم {رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} أي انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم، وقيل: استمتاع الإنس بالجنّ ما في قوله: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مّنَ الجن} [الجن: ٦٠] وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال: أعوذ بربّ هذا الوادي، يعني به كبير الجنّ. واستمتاع الجنّ والإنس: اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم إجارتهم لهم {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا} يعنون يوم البعث وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم {خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللهُ} أي يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلاّ ما شاء الله إلاّ الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم. أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه. أهلكني الله إن نفست عنك إلاّ إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلاّ التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلاّ إذا شئت، من أشد الوعيد، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ} لا يفعل شيئاً إلاّ بموجب الحكمة {عَلِيمٌ} بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

١٢٩ - (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

{نُوَلّى بَعْضَ الظالمين بَعْضاً} نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو نجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا {بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.

١٣٠ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} واختلف في أن الجنّ هل بعث إليهم رسل منهم، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم، لأنهم به آنس وله آلف. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة، وإنما قيل: رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحَّ ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢] وقيل: أراد رسل الرسل من الجنّ إليهم، كقوله تعالى: {وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩] وعن الكلبي: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجنّ {قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ} لأن الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً لهم. وقولهم: {شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم، وأنهم محجوجون بها. فإن قلت: ما لهم مقرّين في هذه الآية جاحدين في قوله: {والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]؟ قلت: تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول، فيقرّون في بعضها، ويجحدون في بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم. فإن قلت: لم كرّر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون؟ والثانية: ذمّ لهم، وتخطئة لرأيهم، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

١٣١ - (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

{ذلك} إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة، وهو خبر مبتدأ محذوف: أي الأمر ذلك. و {أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى} تعليل، أي الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن «أن» هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، على معنى: لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم. ولك أن تجعله بدلاً من ذلك، كقوله: {وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الامر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآْءِ مَقْطُوعٌ} [الحجر: ٦٦]، {بِظُلْمٍ} بسبب ظلم قدموا عليه. أو ظالماً، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون ولم ينبهوا برسول وكتاب، لكان ظلماً، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح.

١٣٢ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

{وَلِكُلٍّ} من المكلفين {درجات} منازل {مِّمَّا عَمِلُواْ} من جزاء أعمالهم {وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ} بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

١٣٣ - (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

{وَرَبُّكَ الغنى} عن عباده وعن عبادتهم {ذُو الرحمة} يترحم عليهم بالتكليف ليعرّضهم للمنافع الدائمة {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أيها العصاة {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء} من الخلق المطيع {كَمَا أَنشَأَكُمْ مّن ذُرّيَّةِ قَوْمٍ ءاخَرِينَ} من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

١٣٥ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

«المكانة» تكون مصدراً يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن. وبمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة. وقوله: {اعملوا على مَكَانَتِكُمْ} يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله، على مكانتك يا فلان، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه {إِنّى عامل} أي عامل على مكانتي التي أنا عليها. والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} أينا تكون له العاقبة المحمودة.

وطريقة هذا الأمر طريقة قوله {اعملوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت: ٤٠] وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلاّ الشرّ، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه، فإن قلت: ما موضع {مَن}؟ قلت: الرفع إذا كان بمعنى «أي» وعلق عنه فعل العلم. أو النصب إذا كان بمعنى «الذي» و {عاقبة الدار} العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها. وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذر محقّ والمنذر مبطل.

١٣٦ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا بأنّ الله غنيّ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها: وقوله: {مِمَّا ذَرَأَ} فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي، لأنه هو الذي ذرأه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكيه {بِزَعْمِهِمْ} وقرئ: بالضم، أي قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك، لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القربة {فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله} أي لا يصلّ إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين {فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَائِهِمْ} من إنفاق عليها بذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك {سَاء مَا يَحْكُمُونَ} في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

١٣٧ - (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

{وكذلك} ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو علم من الشياطين. والمعنى: أن شركاءهم من الشياطين، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد، أو بنحرهم للآلهة وكان الرجل في الجاهلية يحلف: لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم، كما حلف عبد المطلب. وقرئ: «زين» على البناء للفاعل الذي هو شركاؤهم، ونصب {قَتْلَ أولادهم} وزين، على البناء للمفعول الذي هو القتل، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دلّ عليه زين، كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه؟ فقيل: زينه لهم شركاؤهم. وأما قراءة ابن عامر: «قتل أولادهم شركائهم» برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما بغير الظرف، فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر، لكان سمجاً مردوداً، كما سمج وردّ.

زَجَّ الْقَلُوصِ أَبِي مَزَادَهْ ...

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته. والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء. ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء-لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب {لِيُرْدُوهُمْ} ليهلكوهم بالإغواء {وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} وليخلطوا، عليهم ويشبهوه. ودينهم: ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك. وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه. وقيل معناه وليوقعوهم في دين ملتبس. فإن قلت: ما معنى اللام؟ قلت: إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة {وَلَوْ شَاء الله} مشيئة قسر {مَّا فَعَلُوهُ} لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل. أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك، إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الإشارة {وَمَا يَفْتَرُونَ} وما يفترونه من الإفك. أو وافتراؤهم.

١٣٨ - (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{حِجْرٌ} فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات: وقرأ الحسن وقتادة {حجرٌ} بضم الحاء. وقرأ ابن عباس: «حرج»، وهو من التضييق وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: {لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء} يعنون خدم الأوثان، والرجال دون النساء {وأنعام حُرّمَتْ ظُهُورُهَا} وهي البحائر والسوائب والحوامي {وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا} في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها. والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذا أنعام حجر، وأنعام محرّمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله. فجعلوها أجناساً بهواهم، ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله {افتراء عَلَيْهِ} أي فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانتصابه على أنه مفعول له: أو حال، أو مصدر مؤكد، لأنّ قولهم ذلك في معنى الافتراء.

١٣٩ - (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور الإناث. وأنث {خَالِصَةٌ} للحمل على المعنى، لأنّ مافي معنى الأجنة وذكر {وَأَنْعَمٌ حُرّمَتْ} للحمل على اللفظ. ونظيره {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ} [محمد: ١٦] ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر. وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص، كالعاقبة أي ذو خالصة. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: «خالصة» بالنصب على أنّ قوله {لِّذُكُورِنَا} هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدمة، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله. وقرأ ابن عباس: «خالصة» على الإضافة. وفي مصحف عبد الله: «خالص». {وَإِن يَكُن مَّيْتَةً} وإن يكن ما في بطونها ميتة. وقرئ: «وإن تكن»، بالتأنيث، على: وإن تكن الأجنة ميتة. وقرأ أهل مكة: «وإن تكن ميتة» بالتأنيث والرفع على كان التامة وتذكير الضمير في قوله: {فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء} لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى، فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله تعالى: {ولا تقولوا لما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حلال وهذا حَرَامٌ} [النحل: ١١٦].

١٤٠ - (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر {سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ} لخفة أحلامهم، وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم، لا هم. وقرئ: «قتلوا» بالتشديد {مَا رَزَقَهُمُ الله} من البحائر والسوائب وغيرها.

١٤١ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

{أَنشَأَ جنات} من الكروم {معروشات} مسموكات {وَغَيْرَ معروشات} متروكات على وجه الأرض لم تعرّش. وقيل: «المعروشات» ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه {وَغَيْرَ معروشات} مما أنبته [الله] وحشياً في البراري والجبال، فهو غير معروش. يقال: عرّشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان. وسقف البيت: عرّشه {مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ} في اللون والطعم والحجم والرائحة. وقرئ: «أكله» بالضم والسكون وهو ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه، لكونه معطوفاً عليه. ومختلفاً: حال مقدّرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك، كقوله تعالى: {فادخلوها خالدين} [الزمر: ٧٣]. وقرئ: «ثمرة» بضمتين. فإن قلت: ما فائدة قوله: {إِذَا أَثْمَرَ} وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قلت: لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل: إذا أثمر، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلاّ إذا أدرك وأينع {وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} الآية مكية،

والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدّق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر، ونصف العشر. وقيل مدنية، والحق هو الزكاة المفروضة. ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء {وَلاَ تُسْرِفُواْ} في الصدقة كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس: أنه صرم خمسمائة نخلة ففرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله {وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً} [الإسراء: ٢٩].

١٤٢ - (وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

{حَمُولَةً وَفَرْشًا} عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش. وقيل: «الحمولة» الكبار التي تصلح للحمل «والفرش» الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها، مثل الفرش المفروش عليها {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان} في التحليل والتحريم من عند أنفسكم فعل كما أهل الجاهلية.

١٤٣ - (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{ثمانية أزواج} بدل من حمولة وفرشاً {اثنين} زوجين اثنين، يريد الذكر والأنثى، كالجمل والناقة، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والتيس والعنز - والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منها زوجاً، وهما زوجان، بدليل قوله: {خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى} [النجم: ٤٥] والدليل عليه قوله تعالى: {ثمانية أزواج} ثم فسرها بقوله: {مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين}، {وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين} ونحو تسميتهم الفرد بالزوج، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه: تسميتهم الزجاجة كأساً بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز، كتاجر وتجر. وقرئا بفتح العين. وقرأ أبيّ: «ومن المعزى» وقرئ: «اثنان» على الابتداء.

الهمزة في {آلذكرين} للإنكار والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن والذكر من المعز. وبالأنثيين: الأنثى من الضأن والأنثى من المعز، على طريق الجنسية. والمعنى إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنسين الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا مما تحمل إناث، الجنسين وكذلك الذكران من جنسي الإبل والبقر والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون قد حرّمها الله، فأنكر ذلك عليهم {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ} أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدلّ على تحريم ما حرّمتم {إِن كُنتُمْ صادقين} في أنّ الله حرّمه.

١٤٤ - (وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء} بل أكنتم شهداء. ومعنى الهمزة الإنكار، يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم؟ وذكر المشاهدة على مذهبهم، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرّمه، فتهكم بهم في قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء} على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين، لأنكم لا تؤمنون بالرسل {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا} فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم {لِيُضِلَّ الناس} وهو عمرو بن لحي بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

١٤٥ - (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإن قلت: كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه؟ قلت: قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبي من المعدود. وذلك أنّ الله عزّ وجلّ منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وإباحتها لهم، فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها، والاحتجاج على من حرّمها

تأكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلاّ للتوكيد {فِي مَا أُوحِىَ إِلَيَّ} تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه، لا بهوى الأنفس {مُحَرَّمًا} طعاماً محرّماً من المطاعم التي حرّمتموها {إلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً} إلاّ أن يكون الشيء المحرّم ميتة {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} أي: مصبوباً سائلاً كالدم في العروق، لا كالكبد والطحال. وقد رخّص في دم العروق بعد الذبح {أَوْ فِسْقًا} عطف على المنصوب قبله. سمى ما أهلّ به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق. ومنه قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام: ١٢١] وأهل: صفة له منصوبة المحل. ويجوز أن يكون مفعولاً له من أهلّ، أي أهلّ لغير الله به فسقاً. فإن قلت: فعلام تعطف {أُهِلَّ}؟ وإلام يرجع الضمير في {بِهِ} على هذا القول؟ قلت: يعطف على يكون، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ في يكون {فَمَنِ اضطر} فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات {غَيْرَ بَاغٍ} على مضطر مثله تارك لمواساته {وَلاَ عَادٍ} متجاوز قدر حاجته من تناوله {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} لا يؤاخذه.

١٤٦ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

ذو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله: {فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء: ١٦٠] وقوله: {وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا} كقولك: من زيد أخذت ماله، تريد الإضافة زيادة الربط. والمعنى أنه حرّم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلاّ الشحوم الخالصة، وهي الثروب وشحوم الكلى. وقوله: {إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا} يعني إلاّ ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحقة {أَوِ الحوايا} أو اشتمل على الأمعاء {أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ} وهو شحم الإلية. وقيل: {الحوايا} عطف على شحومهما. و «أو» بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين {ذلك} الجزاء {جزيناهم} وهو تحريم الطيبات {بِبَغْيِهِمْ} بسبب ظلمهم {وِإِنَّا لصادقون} فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة. فلما عصوا وبغوا ألحقناهم بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب.

١٤٧ - (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

{فَإِن كَذَّبُوكَ} في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً {فَقُلْ} لهم {رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة} لأهل طاعته {وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ} مع سعة رحمته {عَنِ القوم المجرمين} فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته.

١٤٨ - (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ)

{سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ} إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال: {وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآء الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء} [النحل: ٣٥] يعنون بكفرهم وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم، وتحريمهم ما أحلّ الله، بمشيئة الله وإرادته. ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك، كمذهب المجبرة بعينه {كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ} أي جاءوا بالتكذيب المطلق، لأن الله عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دلّ على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك. فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره {حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا} حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم {قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ} من أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به فيما قلتم {فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} وهذا من التهكم، والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة {إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن} في قولكم هذا {وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} تقدّرون أن الأمر

كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ: «كذلك كذب الذين من قبلهم» بالتخفيف.

١٤٩ - (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

{قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة} يعني فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّهِ الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم {فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} منكم ومن مخالفيكم في الدين، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم، لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

١٥٠ - (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

{هَلُمَّ} يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنث وتجمع. والمعنى: هاتوا شهداءكم وقرّبوهم. فإن قلت: كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أنّ الله حرم ما زعموه محرّماً، ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصحّ التمسك به. وقوله: {فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} يعني فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم: لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين كَذَّبُواْ بأياتنا} من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله تعالى. فإن قلت: هلاّ قيل: قل هلم شهداء يشهدون أنّ الله حرّم هذا؟ وأي فرق بينه وبين المنزل؟ قلت: المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبطل الباطل، فأضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض. ويناقضه قوله تعالى: {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ}.

١٥١ - (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«تعال»، من الخاص الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ. و {مَا حَرَّمَ} منصوب بفعل التلاوة، أي أتل الذي حرمه ربكم. أو يحرم بمعنى: أقل أيّ شيء حرّم ربكم، لأنّ التلاوة من القول، و «أن» في {أَلاَّ تُشْرِكُواْ} مفسرة و «لا» النهي. فإن قلت: هلاّ قلت هي التي تنصب الفعل، وجعلت أن لا تشركوا بدلاً من {مَا حَرَّمَ}؟ قلت: وجب أن يكون {لا تُشْرِكُواْ} و {لاَ تَقْرَبُواْ} و {لاَ تَقْتُلُواْ} و {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل} [الأنعام: ١٥٣] نواهي لانعطاف الأوامر عليها، وهي قوله: {وبالوالدين إحسانا} لأنّ التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً. و {أَوْفُواْ}، {وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا} [الأنعام: ١٥٢]، {وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ} [الأنعام: ١٥٢]. فإن قلت: فما تصنع بقوله: {وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه} فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل، حتى يكون المعنى: أتل عليكم نفي الإشراك والتوحيد، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيماً؟ قلت: أجعل قوله: {وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا} [الأنعام: ١٥٣] علة للاتباع بتقدير اللام، كقوله تعالى: {وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً} [الجن: ١٨] بمعنى: ولأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه. والدليل عليه القراءة بالكسر، كأنه قيل: واتبعوا صراطي لأنّه مستقيم، أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم. فإن قلت: إذا جعلت {أن} مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرّم ربكم، وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله، كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي فما تصنع بالأوامر قلت لما وردت هذه

الأوامر مع النواهي وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهي الإساءة إلى الوالدين، وبخس الكيل والميزان. وترك العدل في القول، ونكث عهد الله {مِّنْ إملاق} من أجل فقر ومن خشيته، كقوله تعالى: {خَشْيَةَ إملاق} [الإسراء: ٣١]. {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} مثل قوله: {ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢٠]. {إِلاَّ بالحق} كالقصاص، والقتل على الردة، والرجم.

١٥٢ - (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

{إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ} إلاّ بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم، وهي حفظه وتثميره والمعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشدّه فادفعوه إليه {بالقسط} بالسوية والعدل، {لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} إلاّ ما يسعها ولا تعجز عنه. وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك، لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفوٌّ عنه {وَلَوْ كَانَ ذَا قربى} ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل، فما ينبغي أن يزيد في القول أو ينقص، كقوله: {وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوالدين والأقربين} [النساء: ١٣٥].

١٥٣ - (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقرئ: «وأَنْ هذا صراطي مستقيماً» بتخفيف «أن» وأصله: وأنه هذا صراطي، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث. وقرأ الأعمش: «وهذا صراطي». وفي مصحف عبد الله: «هذا صراط ربكم». وفي مصحف أبيّ: «وهذا صراط ربك» {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل} الطرق المختلفة في الدين، من اليهودية والنصرانية، والمجوسية، وسائر البدع والضلالات {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ} فتفرقكم أيادي سبا {عَن سَبِيلِهِ} عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام. وقرئ: «فَتَّفَرَّقَ» بإدغام التاء. وروى أبو وائل عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أنه خط خطاً ثم قال: هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية " {وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه} وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب. وقيل: إنهنّ أمّ الكتاب، من عمل بهنّ دخل الجنة، ومن تركهنّ دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شيء في التوراة. فإن قلت: علام عطف قوله: {ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب} قلت: على {وصاكم بِهِ}. فإن قلت: كيف صحّ عطفه عليه بثم - والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل-؟ قلت: هذه التوصية قديمة، لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتاب، فكأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً.

١٥٤ - (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

{ثُمَّ} أعظم من ذلك أنا {ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب} وأنزلنا هذا الكتاب المبارك. وقيل: هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ} [الأنعام: ٨٤] {تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ} تماماً للكرامة والنعمة، على الذي أحسن، على من كان محسناً صالحاً، يريد جنس المحسنين. وتدلّ عليه قراءة عبد الله: «على الذين أحسنوا» أو أراد به موسى عليه السلام، أي تمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته، أي زيادة على علمه على وجه التتميم. وقرأ يحيى بن يعمر: «على الذي أحسن»، بالرفع، أي على الذي هو أحسن، بحذف المبتدإ كقراءة من قرأ: {مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً} [البقرة: ٢٦] بالرفع أي على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه. أو آتينا موسى الكتاب تماماً، أي تامًّا كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي: أتمّ له الكتاب على أحسنه.

١٥٦ - (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

{أَن تَقُولُواْ} كراهة أن تقولوا {على طَائِفَتَيْنِ} يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل {وَإِن كُنَّا} هي إن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين، على أن الهاء ضمير الشأن {عَن دِرَاسَتِهِمْ} عن قراءتهم، أي لم نعرف مثل دراستهم.

١٥٧ - (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

{لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ} لحدّة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها، على أنا أمّيون. وقرئ: «أن يقولوا» أو يقولوا، بالياء {فَقَدْ جَاءكُمْ بَيّنَةٌ مّن رَّبّكُمْ} تبكيت لهم، وهو على قراءة من قرأ: «يقولوا» على لفظ الغيبة أحسن، لما فيه من الالتفات. والمعنى: إن صدّقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآيات الله} بعد ما عرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك {وَصَدَفَ عَنْهَا} الناس فضلّ وأضلّ {سَنَجْزِى الذين يَصْدِفُونَ عَنْ ءاياتنا سُوء العذاب} كقوله: {الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب} [النحل: ٨٨].

١٥٨ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

{الملائكة} ملائكة الموت، أو العذاب {أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ} أو يأتي كل آيات ربك. بدليل قوله: {أَوْ يأْتِىَ بَعْضُ ءايات رَبّكَ} يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات. أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك. وعن البراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطُلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن " {لَمْ تَكُنْ آمنت مِن قَبْلُ} صفة لقوله نفساً. وقوله: {أَوْ كَسَبَتْ فِى إيمانها خَيْرًا} عطف على آمنت. والمعنى أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً، ليعلم أنَّ قوله: {الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات} [البقرة: ٢٥] جمع بين قرينتين، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلاّ فالشقوة والهلاك {قُلِ انتظروا إنا مُنتَظِرُونَ} وعيد. وقرئ: «أن يأتيهم الملائكة» بالياء والتاء. وقرأ ابن سيرين: (لا تنفع) بالتاء، لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهبت بعض أصابعه.

١٥٩ - (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

{فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلاّ واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلاّ واحدة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلاّ واحدة " وقيل: فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرئ: «فارقوا دينهم» أي تركوه {وَكَانُواْ شِيَعاً} فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها {لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْء} أي من السؤال عنهم وعن تفرّقهم. وقيل: من عقابهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

١٦٠ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{عَشْرُ أَمْثَالِهَا} على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف، تقديره عشر حسنات أمثالها، وقرئ: «عشرُ أمثالُهَا» برفعهما جميعاً على الوصف. وهذا أقلّ ما وعد من الإضعاف. وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثواباً بغير حساب. ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم.

١٦١ - (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{دِينًا} نصب على البدل من محل {إلى صراط} لأنّ معناه: هداني صراطاً، بدليل قوله: {وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً} [الفتح: ٢] والقيم: فيعل، من قام، كسيد من ساد، وهو أبلغ من القائم. وقرئ: «قيماً» والقيم: مصدر بمعنى القيام وصف به. و {مِلَّةِ إبراهيم} عطف بيان. و {حَنِيفاً} حال من إبراهيم.

١٦٢ - (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى} وعبادتي وتقرّبي كله. وقيل: وذبحي. وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر} [الكوثر: ٢] وقيل: صلاتي وحجّي من مناسك الحج {وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى} وما آتيه في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح {للَّهِ رَبِّ العالمين} خالصة لوجهه.

١٦٣ - (لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

{وبذلك} من الإخلاص {أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين} لأنّ إسلام كل نبيّ متقدّم لإسلام أمّته.

١٦٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

{قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِى رَبّاً} جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي منكر أن أبغي رباً غيره {وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَىْء} فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: {قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ} [الزمر: ٦٤]، {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا} جواب عن قولهم: {اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم} [العنكبوت: ١٢].

١٦٥ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

{جَعَلَكُمْ خلائف الأرض} لأنّ محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمّته سائر الأمم. أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً. أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات} في الشرف والرزق {لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءاتاكم} من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغني بالفقير {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب} لمن كفر نعمته {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة، لأنّ ما هو آت قريب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلّى الله عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»

٧ سورة الأعراف:

سورة الأعراف:
سورة الأعراف مكية وهي مائتان وست آيات

٢ - (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

{كِتَابٌ} خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب. و {أُنزِلَ إِلَيْكَ} صفة له. والمراد بالكتاب السورة {فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مّنْهُ} أي شك منه، كقوله: {فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس: ٩٤] وسمى الشك حرجاً، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه. أي لا تشكّ في أنه منزل من الله، ولا تحرج من تبليغه لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم. فإن قلت: بم تعلق قوله: {لّتُنذِرَ}؟ قلت: بأنزل، أي أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهي، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه، متكل على عصمته، فإن قلت، فما محل ذكرى؟ قلت: يحتمل الحركات الثلاث. النصب بإضمار فعلها. كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيراً لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير، والرفع عطفاً على كتاب، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف. والجر للعطف على محل أن تنذر، أي للإنذار وللذكرى. فإن قلت: النهي في قوله: {فَلاَ يَكُن} متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قلت: هو من قولهم: لا أرينك ههنا.

٣ - (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)

{اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم} من القرآن والسنّة {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ} من دون الله {أَوْلِيَاء} أي ولا تتلوا من دونه من شياطين الجنّ والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم، وأمركم باتباعه. وعن الحسن: يا ابن آدم، أمرت باتباع كتاب الله وسنّة محمد صلى الله عليه وسلم. والله ما نزلت آية إلاّ وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: «ولا تبتغوا» من الابتغاء {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا} [آل عمران: ٨٥]. ويجوز أن يكون الضمير في {مِن دُونِهِ} لما أنزل، على: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء {قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره. وقرئ: «تذكرون»، بحذف التاء. «ويتذكرون» بالياء. و {قَلِيلاً}: نصب يتذكرون، أي تذكرون تذكراً قليلاً. و {مَآ} مزيدة لتوكيد القلة.

٤ - (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

{فَجَاءهَا} فجاء أهلها {بَيَاتًا} مصدر واقع موقع الحال، بمعنى بائتين. يقال: بات بياتاً حسناً، وبيتة حسنة، وقوله: {هُمْ قَائِلُونَ} حال معطوفة على «بياتاً»، كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين. فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل {قَرْيَةٍ} أو قبل الضمير في {أهلكناها}؟ قلت: إنما يقدّر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها. وإنما قدّرناه قبل الضمير في {فَجَاءهَا} لقوله {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} فإن قلت: لا يقال: جاءني زيد هو فارس، بغير واو، فما بال قوله: {هُمْ قَائِلُونَ}؟ قلت: قدّر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً، أو هو فارس. أو جاءني زيد هو فارس، لم يحتج فيه إلى واو، لأنّ الذكر قد عاد إلى الأول. والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً. لاجتماع حرفي عطف، لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل، فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، كلام فصيح وارد على حده وأما جاءني زيد هو فارس فخبيث. فإن قلت: فما معنى قوله: {أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا} والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس؟ قلت: معناه أردنا إهلاكها، كقوله: {إذا قمتم إلى الصلاة} [المائدة: ٦] وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة، لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشدّ وأفظع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

٥ - (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ} ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلاّ اعترافهم ببطلانه وفساده. وقولهم: {إِنَّا كُنَّا ظالمين} فيما كنا عليه. ويجوز: فما كان استغاثتهم إلاّ قولهم هذا، لأنه لا مستغاث من الله بغيره، ومن قولهم دعواهم: يا لكعب. ويجوز، فما كان

دعواهم ربهم إلاّ اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم، وأن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذمّ أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، و {دَعْوَاهُمْ} نصب خبر لكان، و {أَن قَالُواْ} رفع اسم له، ويجوز العكس.

٦ - (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

{فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} {أُرْسِلَ} مسند إلى الجار والمجرور وهو {إِلَيْهِمْ} ومعناه: فلنسألنّ المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: {وَيومَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين} [القصص: ٦٥] ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: {يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ} [المائدة: ١٠٩].

٧ - (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم} على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم {بِعِلْمٍ} عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم {وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} عنهم وعما وجد منهم، فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟ قلت: معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

٨ - (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{والوزن يَوْمَئِذٍ الحق} يعني وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها. ورفعه على الابتداء. وخبره {يَوْمَئِذٍ}. و {الحق} صفته أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن الحق، أي العدل. وقرئ: «القسط». واختلف في كيفية الوزن فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق، تأكيداً للحجة، وإظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم، وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والإشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب. وقيل: هي عبارة عن القضاء السويّ والحكم العادل {فَمَن ثَقُلَتْ موازينه} جمع ميزان أو موزون، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات. أو ما توزن به حسناتهم. وعن الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل. وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف.

٩ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

{بآياتنا يَظْلِمُونَ} يكذبون بها ظلماً: كقوله: {فَظَلَمُواْ بِهَا} [الإسراء: ٥٩].

١٠ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)

{مكناكم فِى الأرض} جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً. أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش} جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. أوما يتوصل به إلى ذلك. والوجه تصريح الياء. وعن ابن عامر: أنه همز، على التشبيه بصحائف.

١١ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

{وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم} يعني خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر، ثم صورناه بعد ذلك. ألا ترى إلى قوله: {ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ} الآية {مّنَ الساجدين} ممن سجد لآدم.

١٢ - (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

{أَلاَّ تَسْجُدَ} «لا» في {أَن لا تَسْجُدَ} صلة بدليل قوله: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ} [ص: ٧٥] ومثلها {لّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب} [الحديد: ٢٩] بمعنى ليعلم: فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟ قلت: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب. وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ {إِذْ أَمَرْتُكَ} لأن أمري لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك

حتماً لا بدّ منه، فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب. فإن قلت: كيف يكون قوله: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ} جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعني كذا؟ قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أُمر به.

١٣ - (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

{فاهبط مِنْهَا} من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين {فَمَا يَكُونُ لَكَ} فما يصحّ لك {أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا} وتعصي {فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين} من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أولياؤه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً، إذا أهنته. وفي ضدّه: قم راشداً. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار. وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمَتَهُ وقال: انتعش أنعشك الله. ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض.

١٤ - (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

١٦ - (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

{فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى} فبسبب إغوائك إياي لأقعدنّ لهم. وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفساً ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك. والمعنى: فبسبب وقوعي في الغيّ لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم. فإن قلت: بم تعلقت الباء، فإن تعلقها بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم، لا تقول: والله بزيد لأمرّنّ؟ قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فبما أغويتني أقسم بالله لأقعدنّ، أي فبسبب إغوائك أقسم. ويجوز أن تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد، فكان جديراً بأن يقسم به. ومن تكاذيب المجبرة ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين. وقيل: {مَا} للاستفهام، كأنه قيل: بأي شيء أغويتني، ثم ابتدئ لأقعدنّ. وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية، قليل شاذ. وأصل الغيّ الفساد. ومنه: غوى الفصيل، إذا بشم. والبشم: فساد في المعدة {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم} لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدوّ على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف، كقوله:

كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ ...

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن، أي على الظهر والبطن. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِه: قعد له بطريق الإسلام فقال له: تدع دين آبائك، فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتتغرب، فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك، فعصاه فقاتل ".

١٧ - (ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم} من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الغالب. وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: {واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} [الإسراء: ٦٤]. فإن قلت: كيف قيل: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} بحرف الابتداء {وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} بحرف المجاوزة؟ قلت: المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به. فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس. وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه، وعن شماله وعلى شماله، قلنا: معنى «على يمينه» أنه تمكن من جهة اليمين تمكُّن المستعلي من المستعلى عليه.

ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له. ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره، كما ذكرنا في «تعال». ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي، ويبتدئ الرمي منها. كذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل. ومن بين يديه ومن خلفه: لأن الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جئته من الليل، تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلاّ قعد لي الشيطان على أربع مراصد: من بين يديّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي: أمّا من بين يدي فيقول: لا تخف، فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحا} [طه: ٨٢] وأمّا من خلفي، فيخوّفني الضيعة على مخلفي فأقرأ: {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا} [هود: ٦] وأمّا من قبل يميني، فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ: {والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨] وأمّا من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سبأ: ٥٤]. {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين} قاله تظنيناً، بدليل قوله: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} [سبأ: ٢٠] وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

١٨ - (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

{مَذْءُومًا} من ذأمه إذا ذمّه. وقرأ الزهري: «مذوما»، بالتخفيف، مثل مسول في مسئول. واللام في {لَّمَن تَبِعَكَ} موطئه للقسم. و {لأَمْلأَنَّ} جوابه، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط {مِّنكُمْ} منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب، كما في قوله: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: ١٣٨]. وروى عصمة عن عاصم: «لمن تبعك» بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، وهو قوله: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}، على أن {لأَمْلأَنَّ} في محل الابتداء، و {لَّمَن تَبِعَكَ} خبره.

١٩ - (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

{وَعَلَّمَ ءادَمَ} وقلنا: يا آدم. وقرئ: «هذي الشجرة» والأصل الياء، والهاء بدل منها.

٢٠ - (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

ويقال: وسوس، إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره. ومنه وسوس الحليّ، وهو فعل غير متعدّ، كولولت المرأة ووعوع الذئب، ورجل موسوس- بكسر الواو- ولا يقال موسوس بالفتح، ولكن موسوس له، وموسوس إليه، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه {لِيُبْدِيَ} جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره، وأن لا يطلع عليه مكشوفاً. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في {وُورِيَ} لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قلت: لأن الثانية مدّة كألف وارى. وقد جاء في قراءة عبد الله: «أورى» بالقلب {إلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} إلاّ كراهة أن تكونا ملكين. وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا. وقرئ: «ملكين» بكسر اللام، كقوله {وَمُلْكٍ لاَّ يبلى} [طه: ١٢٠]. {مِنَ الخالدين} من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: «من سوأتهما»، بالتوحيد، «وسوّاتهما»، بالواو المشددة.

٢١ - (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)
{وَقَاسَمَهُمَا} وأقسم لهما {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين}. فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفا. ومنه قوله تعالى: {تَقَاسَمُواْ بالله لَنُبَيّتَنَّهُ} [النمل: ٤٩]. قلت: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقالا له أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم. أو أقسم لهما بالنصحية وأقسما له بقبولها. أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.
٢٢ - (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)
{فدلاهما} فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة {بِغُرُورٍ} بما غرّهما به من القسم بالله. وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له {فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة} وجدا طعمها آخذين في الأكل منها. وقيل: الشجرة هي السنبلة. وقيل: شجرة الكرم {بَدَتْ لَهُمَا سوءاتهما} أي تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني. وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار. وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا، بمعنى جعل يفعل كذا. وقرأ أبو السَّمَّال: «وطفقا» بالفتح {يَخْصِفَانِ} ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها، كما يخصف النعل، بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور.
وقرأ الحسن: «يخصفان» بكسر الخاء وتشديد الصاد، وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: «يُخصفان»، من أخصف، وهو منقول من خصف أي يخصفان أنفسهما وقرئ: «يخصفان» من خصف بالتشديد {مِن وَرَقِ الجنة} قيل: كان ورق التين {أَلَمْ أَنْهَكُمَا} عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس وروي: أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزّتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلاّ كدّاً. فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز.
٢٣ - (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً لأنفسهما، وقالا: {لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين} على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.
٢٤ - (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)
{اهبطوا} الخطاب لآدم وحواء وإبليس. و {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} في موضع الحال، أي متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه {مُسْتَقَرٌّ} استقرار، أو موضع استقرار {ومتاع إلى حِينٍ} وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وتراً، وحنطته وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.
٢٦ - (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)
جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأنه قضى ثم وكتب. ومنه {وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأنعام ثمانية أزواج} [الزمر: ٦] والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح، كما قال: {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}. {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} [النحل: ٦] وقرأ عثمان رضي الله عنه: «ورياشاً» جمع ريش، كشعب وشعاب

{وَلِبَاسُ التقوى} ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه عن الابتداء وخبره إمّا الجملة التي هي {ذلك خَيْرٌ} كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. وأمّا المفرد الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة، لأنّ مواراة السوأة من التقوى، تفضيلاً له على لباس الزينة. وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف، أي وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير. وفي قراءة عبد الله وأبيّ: «ولباس التقوى خير» وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب وقرئ: «ولباس التقوى»، بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً {ذلك مِنْ ءايات الله} الدالة على فضله ورحمته على عباده. يعني إنزال اللباس {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

٢٧ - (يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

{لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان} لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة، كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} حال، أي أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ} تعليل للنهي وتحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. وعن مالك بن دينار: إنّ عدواً يراك ولا تراه، لشديد المؤنة إلاَّ من عصم الله {وَقَبِيلُهُ} وجنوده من الشياطين، وفيه دليل بَيِّنٌ أن الجنّ لا يرون ولا يظهرون للإنس، وأن أظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدّعي رؤيتهم زور ومخرقة {إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي خلينا بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سولوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول. فإن قلت: علام عطف وقبيله؟ قلت: على الضمير في يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشأن والحديث، وقرأ اليزيدي: «وقبيله» بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم إنّ، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في إنه، كان راجعاً إلى إبليس.

٢٨ - (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

الفاحشة: ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها. وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم. والثاني: افتراء على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون: لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه. وعن الحسن: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله. وتصديقه قول الله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءاباءنا والله أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء} لأن فعل القبح مستحيل عليه لعدم الداعي ووجود الصارف، فكيف يأمر بفعله {أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ} إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط. وقيل: المراد بالفاحشة: طوافهم بالبيت عراة.

٢٩ - (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

{بالقسط} بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز. وقيل: بالتوحيد {وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ} وقل: أقيموا وجوهكم أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها {عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ} في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود وهو الصلاة {وادعوه} واعبدوه {مُخْلِصِينَ لَهُ الدين} أي الطاعة، مبتغين بها وجه الله خالصاً {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق، والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠ - (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)
{فَرِيقًا هدى} وهم الذين أسلموا، أي وفقهم للإيمان {وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة} أي كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون. وانتصاب قوله: {وَفَرِيقًا} بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة {إِنَّهُمُ} إن الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة: {اتخذوا الشياطين أَوْلِيَاء} أي تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله.
٣١ - (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)
{خُذُواْ زِينَتَكُمْ} أي ريشكم ولباس زينتكم {عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ} كلما صليتم أو طفتم وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب. وقيل: الزينة المشط. وقيل: الطيب. والسنّة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلاّ قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: كلوا واشربوا ولا تسرفوا. وعن ابن عباس رضي الله عنه: " كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. " ويحكى: أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: {وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ} فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كل بدن ما عوّدته» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.
٣٢ - (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)
{زِينَةَ الله} من الثياب وكل ما يتجمل به {والطيبات مِنَ الرزق} المستلذات من المآكل والمشارب. ومعنى الاستفهام في من: إنكار تحريم هذه الأشياء. قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها {قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الحياة الدنيا} غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها {خَالِصَةً} لهم {يَوْمُ القيامة} لا يشركهم فيها أحد. فإن قلت: هلا قيل: هي للذين آمنوا ولغيرهم. قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة تبع لهم، كقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار} [البقرة: ١٢٦] وقرئ: «خالصةً» بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.
٣٣ - (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)
{الفواحش} ما تفاحش قبحه أي تزايد. وقيل: هي ما يتعلق بالفروج {والإثم} عام لكل ذنب. وقيل: شرب الخمر {والبغى} الظلم والكبر، أفرده بالذكر كما قال: {وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى}. {مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سلطانا} فيه تهكم، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله} وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.
٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)
{وَلِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم وقرئ: «فإذا جاء آجالهم». وقال: {سَاعَةً} لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه.

٣٥ - (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ} هي «إن» الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط. ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟ قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء. والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم. وقرئ: «تأتينكم»، بالتاء.

٣٧ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

{فَمَنْ أَظْلَمُ} فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب} أي مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار {حتى إِذَا جَاءتْهُم رُسُلُنَا} حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، أي إلى وقت وفاتهم، وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام ههنا الجملة الشرطية، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا. و {يَتَوَفَّوْنَهُمْ} حال من الرسل، أي متوفيهم. والرسل ملك الموت وأعوانه. «وما» وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون {ضَلُّواْ عَنَّا} غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم، اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

٣٨ - (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)

{قَالَ ادخلوا} أي يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بآياته} وهم كفار العرب {فِى أُمَمٍ} في موضع الحال، أي كائنين في جملة أمم، وفي غمارهم مصاحبين لهم، أي ادخلوا في النار مع أمم {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ} وتقدّم زمانهم زمانكم {لَّعَنَتْ أُخْتَهَا} التي ضلت بالاقتداء بها {حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا} أي تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} منزلة وهي الأتباع والسفلة {لأولاهم} منزلة وهي القادة والرؤس. ومعنى لأولاهم: لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم {عَذَاباً ضِعْفاً} مضاعفاً {لِكُلّ ضِعْفٌ} لأنّ كلا من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين {ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ} قرئ الياء والتاء.

٣٩ - (وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

{فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة {لِكُلّ ضِعْفٌ} أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف {فَذُوقُواْ العذاب} من قول القادة، أو من قول الله لهم جميعاً.

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أبواب السماء} لا يصعد لهم عمل صالح {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب} [فاطر: ١٠]، {كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيّينَ} [المطففين: ١٨] وقيل: إنّ الجنة في السماء، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرّق لهم إليها ليدخلوا الجنة. وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين. وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون، ففتحنا أبواب السماء. وقرئ: «لا تفتح»، بالتشديد. «ولا يفتح» بالياء. «ولا تفتح» بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أنّ الفعل للآيات. وبالياء على أن الفعل لله عزّ وجلّ. وقرأ ابن عباس: «الجمل»، بوزن القمل. وسعيد بن جبير: «الجمل» بوزن النغر. وقرئ: «الجمل» بوزن القفل. «والجمل» بوزن النصب. «والجمل». بوزن الحبل. ومعناها القلس الغليظ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سمّ الإبرة، والبعير لا يناسبه؛ إلاّ أن قراءة العامة

أوقع لأنّ سم الإبرة مثل في ضيق المسلك. يقال: أضيق من خرت الإبرة. وقالوا للدليل الماهر: خِرِّيت، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر. والجمل: مثل في عظم الجرم. قال:

جِسْمُ الْجِمَالِ وَأَحْلاَمُ الْعَصَافِيرِ ...

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام، فقيل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلاّ في باب واسع، في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل، فقال: زوج الناقة، استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ: «في سم» بالحركات الثلاث: وقرأ عبد الله: «في سم المهيط» والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم: ما يخاط به وهو الإبرة {وكذلك} ومثل ذلك الجزاء الفظيع {نَجْزِى المجرمين} ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كلّ من أجرم عوقب، وقد كرره فقال: {وكذلك نَجْزِى الظالمين} لأنّ كلّ مجرم ظالم لنفسه.

٤١ - (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

{مِهَادٌ} فراش {غَوَاشٍ} أغطية. وقرئ: «غواش» بالرفع، كقوله تعالى: {وَلَهُ الجوار المنشآت} [الرحمن: ٢٤] في قراءة عبد الله.

٤٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} جملة معترضة بين المبتدإ والخبر، للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل والصالح. وقرأ الأعمش: «لا تكلف نفس».

٤٣ - (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

من كان في قلبه غلّ على أخيه في الدنيا نزع منه، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلاّ التوادّ والتعاطف. وعن عليّ رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم {هَدَانَا لهذا} أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ} اللام لتوكيد النفي ويعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه. وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو، على أنها جملة موضحة للأولى {لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحق} فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرّباً وتعبداً، كما نرى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة: {ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة} أن مخففة من الثقيلة تقديره: ونودوا بأنه تلكم الجنة {أُورِثْتُمُوهَا} والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أي، لأنّ المناداة من القول، كأنه قيل: وقيل لهم أي تلكم الجنة أورثتموها. {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطلة.

٤٤ - (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

«أن» في {أَن قَدْ وَجَدْنَا} يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك {أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين} وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة في غمهم، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم: لعنة الله على الظالمين. وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار. وقرئ: «أن لعنة الله» بالتشديد والنصب. وقرأ الأعمش: «إن لعنة الله» بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء {أَذِنَ} مجرى قال. فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم وما نعيم أهل الجنة إلاّ عذاب

لهم فأطلق لذلك.
٤٦ - (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)
{وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} يعني بين الجنة والنار. أو بين الفريقين، وهو السور المذكور في قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ} [الحديد: ١٣] {وَعَلَى الأعراف} وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك {رِجَالٌ} من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم، كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة {يَعْرِفُونَ كُلاًّ} من زمر السعداء والأشقياء {بسيماهم} بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها، يلهمهم الله ذلك: أو تعرّفهم الملائكة.
٤٧ - (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)
إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار} ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم: {أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ} إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة {ادخلوا الجنة} يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه. وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. قوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم} فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش: «وإذا قلبت أبصارهم».
وقرئ: «ادخلوا الجنة» على البناء للمفعول. وقرأ عكرمة: «دخلوا الجنة»، فإن قلت: كيف لاءم هاتين القراءتين قوله: {لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}؟ قلت: تأويله: ادخلوا، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا. ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال {مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ} المال أو كثرتكم واجتماعكم {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} واستكباركم عن الحق وعلى الناس، وقرئ: «تستكثرون» من الكثرة.
٤٨ - (وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار} ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم: {أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ} إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة {ادخلوا الجنة} يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم،

وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه. وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. قوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم} فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش: «وإذا قلبت أبصارهم».

وقرئ: «ادخلوا الجنة» على البناء للمفعول. وقرأ عكرمة: «دخلوا الجنة»، فإن قلت: كيف لاءم هاتين القراءتين قوله: {لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}؟ قلت: تأويله: ادخلوا، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا. ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال {مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ} المال أو كثرتكم واجتماعكم {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} واستكبارکم عن الحق وعلى الناس، وقرئ: «تستكثرون» من الكثرة.

٤٩ - (أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم تِلْقَاء أصحاب النار} ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم: {أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ} إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة {ادخلوا الجنة} يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم،

وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه. وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. قوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارهم} فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش: «وإذا قلبت أبصارهم».

وقرئ: «ادخلوا الجنة» على البناء للمفعول. وقرأ عكرمة: «دخلوا الجنة»، فإن قلت: كيف لاءم هاتين القراءتين قوله: {لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}؟ قلت: تأويله: ادخلوا، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا. ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال {مَا أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ} المال أو كثرتكم واجتماعكم {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} واستكبارکم عن الحق وعلى الناس، وقرئ: «تستكثرون» من الكثرة.

٥٠ - (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

{أَفِيضُواْ عَلَيْنَا} فيه دليل على أن الجنة فوق النار {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله} من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة. كقوله:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بَارِداً ...

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم، كما يفعل المضطر الممتحن. {حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين} منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرّم عليه ويحظر، كقوله:

حَرَامٌ عَلَى عَيْنِيَّ أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى ...

٥١ - (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

{فاليوم ننساهم} نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به {كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا} كما فعلوا بلقائه فعل الناسين، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

٥٢ - (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{فصلناه على عِلْمٍ} عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه، حتى جاء حكيماً قيماً غير ذي عوج قرأ ابن محيصن فضلناه بالضاد المعجمة بمعنى فضلناه على جميع الكتب، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها، و {هُدًى وَرَحْمَةً} حال من منصوب فصلناه، كما أن على علم حال من مرفوعه.

٥٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} إلاّ عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد {قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحق} أي تبين وصحّ أنهم جاؤوا بالحق {نُرَدُّ} جملة معطوفة على الجملة قبلها، داخلة معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء؟ أو هل نردّ؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه. فلا يقدّر: هل يشفع لنا شافع أو نردّ؟ وقرأ ابن أبي إسحاق: «أو نردّ» بالنصب عطفاً على «فيشفعوا لنا» أو تكون «أو» بمعنى «حتى أنّ» أي يشفعوا لنا حتى نردّ فنعمل وقرأ الحسن بنصب «نردّ» ورفع {فَنَعْمَلَ} بمعنى: فنحن نعمل.

٥٤ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

{يُغْشِى الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً} وقرئ: «يغشى» بالتشديد، أي يلحق الليل النهار، أو النهار بالليل يحتملهما جميعاً. والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: يغشى الليل النهار، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار، أي يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً، حسن الملاءمة لقراءة حميد {بِأَمْرِهِ} بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات، أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمي ذلك أمراً على التشبيه، كأنهن مأمورات بذلك. وقرئ: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات»، بالرفع. لما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال: {أَلاَ لَهُ الخلق والأمر} أي هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

٥٥ - (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

{تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} نصب على الحال، أي ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً. والتضرع تفعُّل من الضراعة وهو الذل، أي تذللاً وتملقاً. وقرئ: «وخِفْيَة» وعن الحسن رضي الله عنه: إنّ الله يعلم القلب التقي والدعاء الخفي، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السرّ فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلاّ همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أنّ الله تعالى يقول: {ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} وقد أثنى على زكريا فقال: {إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً} [مريم: ٣] وبين دعوة السرّ ودعوة العلانية سبعون ضعفاً. {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين} أي المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج؛ هو رفع الصوت بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول:

اللَّهمّ إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل " ثم قرأ قوله تعالى: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين}.

٥٦ - (وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

{إِنَّ رحمت الله قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} كقوله: {وَإِنّى لَغَفَّارٌ لّمَن تَابَ وَامَنَ وَعَمِلَ صالحا} [طه: ٨٢]. وإنما ذكر {قَرِيبٌ} على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أي شيء قريب. أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول كما شبه ذاك به، فقيل قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر، الذي هو النقيض والضغيب. أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي.

٥٧ - (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

قرئ: «نشراً وهو مصدر نشر. وانتصابه إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشراً. وإمّا على الحال بمعنى منتشرات. ونشراً جمع نشور. ونشراً تخفيف نشر، كرسل ورسل. وقرأ مسروق: «نشراً»، بمعنى منشورات، فعل بمعنى مفعول، كنقض وحسب. ومنه قولهم «ضم نشره» وبشراً جمع بشير. وبشراً بتخفيفه. وبشراً - بفتح الباء - مصدر من بشره بمعنى بشره، أي باشرات، وبشرى {بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ} أمام رحمته، وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلّها وأحسنها أثراً {أَقَلَّتْ} حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة، لأن الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلاً {سَحَابًا ثِقَالاً} سحائب ثقالاً بالماء جمع سحابة {سقناه} الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً {لِبَلَدٍ مَّيّتٍ} لأجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه. وقرئ: «مَيْتٍ» {فَأَنزَلْنَا بِهِ} بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق. وكذلك {فأخرجنا به. . . كذلك} مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات {نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} فيؤدّيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين. إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

٥٨ - (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

{والبلد الطيب} الأرض العذاة الكريمة التربة {والذى خَبُثَ} الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به {بِإِذْنِ رَبّهِ} بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً لأنه واقع في مقابلة {نَكِدًا} والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ: «يخرج نباته» أن يخرجه البلد وينبته وقوله: {والذى خَبُثَ} صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، لحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه، إلاّ أنه كان مجروراً بارزاً، فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدّر: ونبات الذي خبث. وقرئ: «نكداً» بفتح الكاف على المصدر. أي ذا نكد. ونكداً، بإسكانها للتخفيف، كقوله: نزه عن الريب، بمعنى نزه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين، ولمن لا يؤثر شيء من ذلك. وعن مجاهد: آدم وذرّيته منهم خبيث وطيب. وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد {كذلك} مثل ذلك التصريف {نُصَرّفُ الآيات} نردّدها ونكرّرها {لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} نعمة الله وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها. وقرئ: «يصرف» بالياء أي يصرفها الله.

٥٩ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا} جواب قسم محذوف. فإن قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلاّ مع «قد» وقلّ عنهم، نحو قوله:
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ ... لَنَامُوا. . . . .

قلت: إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لا تساق إلاّ تأكيداً للجملة المقسم عليها، التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوحاً عليه السلام وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً وهو نوح بن لمك بن

متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: «غيره» بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره. والجرّ على اللفظ والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلاّ إياه، كقولك: ما في الدار من أحد إلاّ زيد أو غير زيد. فإن قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله: {اعبدوا الله}؟ قلت: الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة. والثانية: بيان للداعي إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

٦٠ - (قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

{الملأ} الأشراف والسادة: وقيل: الرجال ليس معهم النساء {فِي ضلال} في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

٦١ - (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فإن قلت: لم قال: {لَيْسَ بِى ضلالة} ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: ما لي تمرة فإن قلت: كيف وقع قوله: {وَلَكِنّي رَسُولٌ} استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟ قلت: كونه رسولاً من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن الضلالة.

٦٢ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

وقرئ: «أبلغكم» بالتخفيف. فإن قلت: كيف موقع قوله: {أُبَلّغُكُمْ}؟ قلت: فيه وجهان. أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين. والثاني: أن يكون صفة لرسول. فإن قلت: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قلت: جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه، كما قال:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ...

{رسالات رَبّى} ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر. ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس، وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة {وَأَنصَحُ لَكُمْ} يقال نصحته ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصحية أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام {وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي من صفات الله وأحواله، يعني قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين. وقيل: لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد: وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إليّ بها.

٦٣ - (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{أَوَ عَجِبْتُمْ} الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم {أَن جَاءكُمْ} من أن جاءكم {ذِكْرٌ} موعظة {مّن رَّبّكُمْ على رَجُلٍ مّنْكُمْ} على لسان رجل منكم، كقوله: {مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ} [آل عمران: ١٩٤] وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، يعنون إرسال البشر، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة {لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ} ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار {وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

٦٤ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

{والذين مَعَهُ} قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافث، وستة ممن آمن به. فإن قلت: {فِى

الفلك} بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بمعه، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك. ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء، أي أنجيناهم في السفينة من الطوفان {عَمِينَ} عمى القلوب غير مستبصرين. وقرئ: «عامين». والفرق بين العمى والعاميّ: أن العمى يدلّ على عمى ثابت، والعاميّ على حادث. ونحوه قوله: {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} [هود: ١٢].

٦٥ - (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

{أخاهم} واحداً منهم من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم. وإنما جعل واحداً منهم، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته، وهو هود بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح، وأخاهم: عطف على نوحاً. و {هُودًا} عطف بيان له. فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: {قَالَ ياقوم} ولم يقل «فقال» كما في قصة نوح؟ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبدوا الله، وكذلك {قَالَ الملا}.

٦٦ - (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

{قَالَ الملا} فإن قلت: لم وصف الملأ [ب] {الذين كَفَرُواْ} دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن. ونحوه قوله تعالى: {وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاء الآخرة} [المؤمنون: ٣٣] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذمّ لا غير {فِي سَفَاهَةٍ} في خفة حلم وسخافة عقل، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها.

٦٧ - (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم - أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

٦٨ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

{نَاصِحٌ أَمِينٌ} أي عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما حقي أن أُتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه.

٦٩ - (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} أي [خلفتموهم] في الأرض، أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم {فِى الخلق بَسْطَةً} فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول والبدانة. قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مائة ذراع {فاذكروا ءالآء الله} في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه. وواحد الآلاء «إلى» نحو إني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعناب. فإن قلت: «إذ» في قوله: {إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء} ما وجه انتصابه؟ قلت: هو مفعول به وليس بظرف، أي اذكروا وقت استخلافكم.

٧٠ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ} أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء. في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به. فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: {أَجِئْتَنَا} قلت: فيه أوجه: أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم. وأن يريدوا به الاستهزاء، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لا يرسل إلاّ الملائكة، فكأنهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يجيء

الملك، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرّض بذلك والقصد، كما يقال: ذهب يشمتني، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرّضت لنا بتكليف ذلك؟ {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} استعجال منهم للعذاب.

٧١ - (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

{قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم} أي حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم. جعل المتوقع الذي لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع. ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب قد كان ذلك. وعن حسان، أنّ ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل، فجاء يبكي. فقال له يا بنيّ مالك؟ قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردى حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني، قد قلت الشعر. والرجس: العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب {فِى أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا} في أشياء ما هي إلاّ أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة. ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده. وهذا كقوله تعالى: {مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْء} ومعنى {سَمَّيْتُمُوهَا} سميتم بها من: سميته زيداً.

٧٢ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

وقطعُ دابرهم: استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم. وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت. وكانت لهم أصنام يعبدونها. صداء. وصمود، والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً، فكذبوه وازدادوا عتوّاً وتجبراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرّم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم معاوية ابن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً، منهم قيل بن عنز، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه. فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان. - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك، وقال: قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين. فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله. فقال معاوية:

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللَّهَ يَسْقِينَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إنَّ عَادا ... قَدْ امْسَوْا مَا يُبِينُونَ الْكَلاَمَا

فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدمنّ معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء. ياقيل، اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهنّ ماء فخرجت على عاد من وادٍ لهم يقال له المغيث، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا. فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: {وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد ابن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أنّ الهلاك خصّ المكذبين، ونجى الله المؤمنين.

٧٣ - (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

قرئ: {وإلى ثَمُودَ} بمنع الصرف بتأويل القبيلة، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحيّ، أو باعتبار الأصل، لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود

بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل: سميت ثمود لقلة مائها، من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى {قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ} آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوّتي. وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: {هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ ءايَةً} وآية نصب على الحال، والعامل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية. ولكم: بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود، لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال: لكم خصوصاً، وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير فحل وطروقة آية من آياته، كما تقول: آية الله. وروى أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام، وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلاّ قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعوا إلهك، وندعوا آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم، ثم قال سيدهم - جندع ابن عمرو، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة - أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة التي شاكلت [البخت]- فإن فعلت صدّقناك وأجبناك. فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدّقنّ، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء. كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلاّ الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً. وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشقّ ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أمّ غنم، وصدقة بنت المختار - لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي - فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه قارة فرغى ثلاثاً وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها. فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة، وبعد ذلك غدٍ ووجوهكم محمرّة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة، ثم يصحبكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه. فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا

{تَأْكُلْ فِى أَرْضِ الله} أي الأرض أرض الله والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم {وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء} لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله. ويروى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه، " «لا يدخلنّ أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاّ أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم» " وقال صلى الله عليه وسلم: " يا علي، أتدري من أشقى الأوّلين»؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين»؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك» " وقرأ أبو جعفر في رواية: «تأكل في أرض الله» وهو في موضع الحال بمعنى آكلة.

٧٤ - (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

{وَبَوَّأَكُمْ} وترلكم. والمباءة: المنزل {فِى الارض} في أرض الحجر بين الحجاز والشام {مِن سُهُولِهَا قُصُوراً} أي تبنونها من سهولة الأرض

بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر. وقرأ الحسن: «وتنحتون» بفتح الحاء وتحاتون بإشباع الفتحة، كقوله:
يَنْبَاعُ مِنْ ذَفْرَى أَسِيلٍ حُرَّةٍ ...
فإن قلت: علام انتصب {بُيُوتًا}؟ قلت: على الحال، كما تقول: خِطْ هذا الثوب قميصاً وابْرِ هذه القصبة قلما، وهي من الحال المقدّرة، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب ولا القصبة قميصاً وقلماً في حال الخياطة والبري. وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.
٧٥ - (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)
{لِلَّذِينَ استضعفوا} للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم، و {لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ} بدل من الذين استضعفوا. فإن قلت: الضمير في منهم راجع إلى ماذا؟ قلت: إلى {قَوْمِهِ} أو إلى {الذين استضعفوا}. فإن قلت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل {مَنْ ءامَنَ} مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين: {أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبّهِ} شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية، كما تقول للمجسمة: أتعلمون أن الله فوق العرش. فإن قلت: كيف صحّ قولهم: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} جواباً عنه؟ قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة: {إِنَّا بالذى ءامَنْتُمْ بِهِ كافرون} فوضعوا {ءامَنتُم بِهِ} موضع {أُرْسِلَ بِهِ} رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً.
٧٦ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{لِلَّذِينَ استضعفوا} للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم، و {لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ} بدل من الذين استضعفوا. فإن قلت: الضمير في منهم راجع إلى ماذا؟ قلت: إلى {قَوْمِهِ} أو إلى {الذين استضعفوا}. فإن قلت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل {مَنْ ءامَنَ} مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين: {أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبّهِ} شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية، كما تقول للمجسمة: أتعلمون أن الله فوق العرش. فإن قلت: كيف صحّ قولهم: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} جواباً عنه؟ قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة: {إِنَّا بالذى ءامَنْتُمْ بِهِ كافرون} فوضعوا {ءامَنتُم بِهِ} موضع {أُرْسِلَ بِهِ} رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً.
٧٧ - (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)
{فَعَقَرُواْ الناقة} أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلاّ بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلاّ واحداً منهم {وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ} وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله: {فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ الله} [الأعراف: ٧٣] أو شأن ربهم وهو دينه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدر عتوّهم عن أمر

ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم. ونحو عن هذه ما في قوله: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى} [الكهف: ٨٢]، {ائتنا بِمَا تَعِدُنَا} أرادوا من العذاب. وإنما جاز الإطلاق لأنه كان معلوماً. واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين.

٧٨ - (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

{الرجفة} الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها {فِي دَارِهِمْ} في بلادهم أو في مساكنهم {جاثمين} هامدين لا يتحركون موتى. يقال: الناس جثم، أي قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة. ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى. وعن جابر: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما مرّ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم إلاّ رجل واحد كان في حرم الله. قالوا من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»، وروى: أنّ صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره. وروى: أنه عليه السلام مرّ بقبر أبي رغال فقال: " «أتدرون من هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فذكر قصة أبي رغال، وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن.

٧٩ - (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

" {فتولى عَنْهُمْ} الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعدما أبصرهم جاثمين، تولى مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول يا قوم لقد بذلت فيكم وسعي ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم {لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين} ويجوز أن يتولى عنهم تولي ذاهب عنهم، منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب. وروى: أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت. وروى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار. وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم. فإن قلت: كيف صحّ خطاب الموتى وقوله: {وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين}؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني؟ وقوله: {وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين} حكاية حال ماضية.

٨٠ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

{وَلُوطًا} وأرسلنا لوطاً. و {إِذْ} ظرف لأرسلنا. واذكر لوطاً، وإذ بدل منه، بمعنى: واذكر وقت: {قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة} أتفعلون السيئة المتمادية في القبح {مَا سَبَقَكُمْ بِهَا} ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها قبله. ومنه قوله عليه [الصلاة و] السلام: " سبقك بها عكاشة " {مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين} «من» الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: {أَتَأْتُونَ الفاحشة} ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها. أو على أنه جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: لما لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

٨١ - (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال} بيان لقوله: أتأتون الفاحشة. والهمزة مثلها في {أَتَأْتُونَ} للإنكار والتعظيم. وقرئ: «إنكم» على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال، من أتى المرأة إذا غشيها {شَهْوَةً} مفعول له، أي للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلاّ مجرّد الشهوة من غير داع آخر، ولا ذمّ أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، [و] أنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مٌّسْرِفُونَ} أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في بعض قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: ١٦٦].

٨٢ - (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)
{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا} يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام، من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشرّ كله، لكنهم جاؤا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم. وقولهم: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد.
٨٣ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)
{وَأَهْلَهُ} ومن يختصّ به من ذويه أو من المؤمنين {مِنَ الغابرين} من الذين غبروا في ديارهم، أي بقوا فهلكوا. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن. وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار.
٨٤ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)
وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم. وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم. وروي: أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه. فإن قلت: أي فرق بين مطر وأمطر؟ قلت: يقال مطرتهم السماء وواد ممطور. وفي نوابغ الكلم: حرى غير ممطور. وحرى أن يكون غير ممطور ومعنى مطرتهم: أصابتهم المطر، كقولهم: غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم. ويقال: أمطرت عليهم كذا، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء} [الأنفال: ٣٢]، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مّن سِجّيلٍ} [هود: ٨٢]. ومعنى {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا} وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً يعني الحجارة. ألا ترى إلى قوله: {فَسَاء مَطَرُ المنذرين} [الأعراف: ٨٤].
٨٥ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين {قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ مّن رَّبّكُمْ} معجزة شاهدة بصحة نبوّتي أوجبت عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله: {قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ مّن رَّبّكُمْ} ولأنّه لا بدّ لمدعي النبوّة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلاّ لم تصحّ دعواه، وكان متنبئاً لا نبياً غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه. ومن معجزات شعيب عليه السلام: ما روي من محاربة عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام، فكانت معجزات لشعيب. فإن قلت: كيف قيل: {الكيل والميزان} وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال، أو سمي ما يكال به الكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر، ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه. ومنه، قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسبها حمقاء وهي باخس. وقيل: {أَشْيَاءهُمْ} لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلاّ مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين. وروى: أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطاعاً، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفاً {بَعْدَ إصلاحها} بعد الإصلاح فيها، أي لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافته كإضافة قوله: {بَلْ

مَكْرُ الليل والنهار} [سبأ: ٣٣] بمعنى بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف {ذلكم} إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. ومعنى: {خَيْرٌ لَّكُمْ} يعني في الإنسانية وحسن الأحدوثة، وما تطلبونه من التكسب والتربح، لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم.

٨٦ - (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلّ صراط} ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم} [الأعراف: ١٦] فتقعدوا بكل صراط أي بكل منهاج من مناهج الدين.

والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله} ومحل {تُوعَدُونَ} وما عطف عليه: النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله، وباغيها عوجاً. فإن قلت: صراط الحق واحد، {وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] فكيف قيل: بكل صراط؟ قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه. فإن قلت، إلام يرجع الضمير في {ءَامَنَ بِهِ}؟ قلت: إلى كل صراط. تقديره: توعدون من آمن به وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير، زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه. وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مر بهم إنَّ شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عَشَّارين {وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} وتطلبون لسبيل الله عوجاً، أي تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها: أو يكون تهكماً بهم، وأنهم يطلبون لها ما هو محال، لأن طريق الحق لا يعوج {واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً} إذ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم {فَكَثَّرَكُمْ} الله ووفر عددكم. قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا. ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم: فجعلكم مكثرين موسرين. أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد {عاقبة المفسدين} آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة.

٨٧ - (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

{فاصبروا} فتربصوا وانتظروا {حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا} أي بين الفريقين، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله: {فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبّصُونَ} [التوبة: ٥٢] أو هو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم. ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين، أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب {وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين} لأنّ حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الحيف.

٨٨ - (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

أي ليكوننّ أحد الأمرين: إمّا إخراجكم، وإمّا عودكم في الكفر. فإن قلت: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا} وكيف أجابهم بقوله: {إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا} والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلاّ ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟

قلت: لما قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ} فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: {لَتَعُودُنَّ}

فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: {إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا} وهو يريد عود قومه، إلاّ أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب. فإن قلت: فما معنى قوله {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء الله} والله تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قلت: معناه إلاّ أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف، لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْء عِلْمًا} أي هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تحوّل، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان {عَلَى الله تَوَكَّلْنَا} في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان. ويجوز أن يكون قوله:

{إِلاَّ أَن يَشَاء الله} حسماً لطمعهم في العود، لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة.

{أَوَلَوْ كُنَّا كارهين} الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين.

وما يكون لنا، وما ينبغي لنا، وما يصحّ لنا. {رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا} احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا {وَبَيْنَ قَوْمِنَا} وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل {وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين} كقوله: {وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين} [يونس: ١٥٩].

فإن قلت: كيف أسلوب قوله: {قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ}؟ قلت: هو إخبار مقيد بالشرط، وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام. لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر، لأنّ الكافر مفتر على الله الكذب، حيث يزعم أن لله نداً ولا ندّ له. والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل. والثاني: أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

٨٩ - (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]

أي ليكوننّ أحد الأمرين: إمّا إخراجكم، وإمّا عودكم في الكفر. فإن قلت: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا} وكيف أجابهم بقوله: {إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا} والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلاّ ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟

قلت: لما قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين ءامَنُواْ مَعَكَ} فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: {لَتَعُودُنَّ}

فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: {إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا} وهو يريد عود قومه، إلاّ أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب. فإن قلت: فما معنى قوله {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء الله} والله تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قلت: معناه إلاّ أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف، لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْء عِلْمًا} أي هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تحوّل، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان {عَلَى الله تَوَكَّلْنَا} في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان. ويجوز أن يكون قوله:

{إِلاَّ أَن يَشَاء الله} حسماً لطمعهم في العود، لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة.

{أَوَلَوْ كُنَّا كارهين} الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين.
وما يكون لنا، وما ينبغي لنا، وما يصحّ لنا. {رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا} احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا {وَبَيْنَ قَوْمِنَا} وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل {وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين} كقوله: {وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين} [يونس: ١٥٩].
فإن قلت: كيف أسلوب قوله: {قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ}؟ قلت: هو إخبار مقيد بالشرط، وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام. لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر، لأنّ الكافر مفتر على الله الكذب، حيث يزعم أن لله نداً ولا ندّ له. والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل. والثاني: أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

٩٠ - (وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)

{وَقَالَ الملا الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} أي أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان {لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون} لاستبدالكم الضلالة بالهدى، كقوله تعالى: {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فَمَا رَبِحَت تجارتهم} [البقرة: ١٦] وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية، فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في {لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً} وجواب الشرط؟ قلت: قوله: {إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون} سادّ مسدّ الجوابين {الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً} مبتدأ خبره.

٩٢ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} وكذلك {كَانُواْ هُمُ الخاسرين} وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأنّ الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه فإنهم الرابحون. وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في ردّ مقالة الملإ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

٩٣ - (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)

الأسى: شدّة الحزن. قال العَجَّاجُ:

وانحلبت عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى ...

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدّقوني فكيف آسي عليكم يعني أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى ابن وَثَّاب: «فكيف إيسى»، بكسر الهمزة.

٩٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

{إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساء} بالبؤس والفقر {والضراء} بالضرّ والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة.

٩٥ - (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة} أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة والرخاء والصحة والسعة كقوله: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات} [الأعراف: ١٦٨] {حتى عَفَواْ} كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «واعفوا عن اللحى»، وقال الحطيئة:

بِمُسْتَأْسِدِ القِرْيَانِ عَافٍ نَبَاتُهُ ...
وقال:
وَلَكِنَّا نَعُضُّ السَّيْفَ مِنْهَا ... بِأَسْوَقَ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ
{وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءابَاءنَا الضراء والسراء} يعني وأبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مسّ آباؤنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلاّ أن نأخذهم بالعذاب {فأخذناهم} أشدّ الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم.
٩٦ - (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
اللام في القرى: إشارة إلى القرى التي دلّ عليها قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّبِيٍّ} [الأعراف: ٩٤] كأنه قال: ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا {ءامَنُواْ} بدل كفرهم {واتقوا} المعاصي مكان ارتكابها {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض} لآتيناهم بالخير من كل وجه. وقيل: أراد المطر والنبات {ولكن كَذَّبُواْ فأخذناهم} بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس. فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنه قولهم: فتحت على القارئ إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين.
٩٧ - (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ)
البيات يكون بمعنى البيتوتة. يقال: بات بياتاً. ومنه قوله تعالى: {فَجَاءهَا بَأْسُنَا بياتا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} [الأعراف: ٤] وقد يكون بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. يقال: بيته العدو بياتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبييتاً، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بياتاً.
و {ضُحًى} نصب على الظرف. يقال: أتانا ضحى، وضحيا، وضحاء والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت. والفاء والواو في {أَفَأَمِنَ} و {أَوَ أَمِنَ} حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار. فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: {فأخذناهم بَغْتَةً} وقوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى} [الأعراف: ٩٦] إلى {يَكْسِبُونَ} وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء، لأنّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ وقرئ: أو أمن على العطف بأو {وَهُمْ يَلْعَبُونَ} يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.
٩٨ - (أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]
البيات يكون بمعنى البيتوتة. يقال: بات بياتاً. ومنه قوله تعالى: {فَجَاءهَا بَأْسُنَا بياتا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} [الأعراف: ٤] وقد يكون بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. يقال: بيته العدو بياتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبييتاً، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بياتاً.
و {ضُحًى} نصب على الظرف. يقال: أتانا ضحى، وضحيا، وضحاء والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت. والفاء والواو في {أَفَأَمِنَ} و {أَوَ أَمِنَ} حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار. فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: {فأخذناهم بَغْتَةً} وقوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى} [الأعراف: ٩٦] إلى {يَكْسِبُونَ} وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء، لأنّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ وقرئ: أو أمن على العطف بأو {وَهُمْ يَلْعَبُونَ} يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.
٩٩ - (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

فإن قلت: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ}؟ قلت: هو تكرير لقوله: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى} [الأعراف: ٩٧] ومكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولاستدراجه. فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة. وعن الربيع بن خثيم: أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إنّ أباك يخاف البيات، أراد قوله: {أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بياتا}.

١٠٠ - (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)

إذا قرئ: «أو لم يهد» بالياء كان {أَن لَّوْ نَشَاء} مرفوعاً بأنه فاعله بمعنى: أو لم يهد للذين يخلفون، من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو أنّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورّثين. وإذا قرئ بالنون، فهو منصوب كأنه قيل: أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أو لم نبين لهم أنا {لَّوْ نَشَاء أصبناهم بِذُنُوبِهِمْ} كما أصبنا من قبلهم. وإنما عدّى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين. فإن قلت بم تعلق قوله تعالى: {وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ}؟ قلت: فيه أوجه، أن يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى {أَوَ لَمْ يَهْدِ} كأنه قيل: يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم. أو على يرثون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم. فإن قلت: هل يجوز أن يكون {وَنَطْبَعُ} بمعنى وطبعنا، كما [كان] {لَّوْ نَشَاء} بمعنى: لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قلت: لا يساعد عليه المعنى؟ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها. وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة، وأن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

١٠١ - (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

{تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا} كقوله: {هذا بَعْلِي شَيْخًا} [هود: ٧٢] في أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون {القرى} صفة لتلك و {نَقُصُّ} خبراً، وأن يكون {القرى نَقُصُّ} خبر بعد خبر. فإن قلت: ما معنى: {تِلْكَ القرى} حتى يكون كلاماً مفيداً؟ قلت: هو مفيد، ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم. فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات. ومعنى اللام تأكيد النفي وأنّ الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر. وعن مجاهد: هو كقوله: {وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨]. {كَذَلِكَ} مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

١٠٢ - (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

{وَمَا وَجَدْنَا لاِكْثَرِهِم مّنْ عَهْدٍ} الضمير للناس على الإطلاق، أي وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني أنّ أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى {وَإِن وَجَدْنَا} وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة، لئن أنجيتنا لنؤمننّ، ثم نجّاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: {لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ} إلى قوله: {إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الأعراف: ١٣٥] والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيداً ذا الحفاظ، بدليل دخول «إن» المخففة واللام الفارقة. ولا يسوغ ذلك إلاّ في المبتدإ والخبر. والأفعال الداخلة عليهما.

١٠٣ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

{مّن بَعْدِهِمْ} الضمير للرسل في قوله: {وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم} [الأعراف: ١٠١] أو للأمم {فَظَلَمُواْ بها} فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من وادٍ واحد {إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدّوهم عنها، وآذوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، فلذلك قيل: فظلموا بها، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان.

١٠٤ - (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

يقال: لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر وكان اسمه قابوس. وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان.

١٠٥ - (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

{حَقِيقٌ عَلَىَّ أَنْ ا أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق} فيه أربع قراآت، المشهورة: «وحقيق عليّ أن لا أقول»، وهي قراءة نافع: «وحقيق أن لا أقول» وهي قراءة عبد الله: «وحقيق بأن لا أقول» وهي قراءة أبيّ وفي المشهورة إشكال، ولا تخلو من وجوه، أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس، كقوله:

وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ ...

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح «وحقيق عليّ أن لا أقول» وهي قراءة نافع. والثاني: أنّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق، أي لازماً له. والثالث: أن يضمن {حَقِيقٌ} معنى حريص، كما ضمن «هيجني» معنى ذكرني في بيت الكتاب. والرابع: - وهو الأوجه - الأدخل في نكت القرآن: أن يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روى أنّ عدو الله فرعون قال له - لما قال: {إِنّي رَسُولٌ مّن رَّبّ العالمين} كذبت، فيقول: أنا حقيق عليَّ قول الحق أي واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به، ولا يرضى إلاّ بمثلي ناطقاً به {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إسرائيل} فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

١٠٦ - (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

فإن قلت: كيف قال له: {فَأْتِ بِهَا} بعد قوله: {قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بآية}؟ قلت: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتني بها وأحضرها عندي لتصحّ دعواك ويثبت صدقك.

١٠٧ - (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

{ثُعْبَانٌ مٌّبِينٌ} ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان. وروى أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحية الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى، خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

١٠٨ - (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

فإن قلت: بم يتعلق {للناظرين}؟ قلت: يتعلق ببيضاء. والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلاّ إذا كان بياضا عجيباً خارجاً عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى: أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة.

١٠٩ - (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

{إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ} أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض. فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعُزي ههنا إليهم قلت قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا: أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدائن حاشرين يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ}. وقرئ: «سحار»، أي يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة: أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي. وقيل: قال فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم، كأنه قيل [قال]: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجئه، بالهمزة: «وأرجه»، من أرجاه وأرجاه.

١١٠ - (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٩]

{إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ} أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض. فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعُزي ههنا إليهم قلت قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا: أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدائن حاشرين يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ}. وقرئ: «سحار»، أي يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة: أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي. وقيل: قال فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم، كأنه قيل [قال]: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجئه، بالهمزة: «وأرجه»، من أرجاه وأرجاه.

١١١ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٩]

{إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ} أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض. فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعُزي ههنا إليهم قلت قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا: أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدائن حاشرين يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ}. وقرئ: «سحار»، أي يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة: أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي. وقيل: قال فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم، كأنه قيل [قال]: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجئه، بالهمزة: «وأرجه»، من أرجاه وأرجاه.

١١٢ - (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٩]
{إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ} أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض. فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعُزي ههنا إليهم قلت قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا: أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى المدائن حاشرين يَأْتُوكَ بِكُلّ ساحر عَلِيمٍ}. وقرئ: «سحار»، أي يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة: أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي. وقيل: قال فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم، كأنه قيل [قال]: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجئه، بالهمزة: «وأرجه»، من أرجاه وأرجاه.
١١٣ - (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)
فإن قلت: هلا قيل: وجاء السحرة فرعون فقالوا: قلت: هو على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاءوه؟ فأجيب بقوله: {قَالُواْ أَإِنّ لَنَا لأَجْرًا} أي جعلا على الغلبة: وقرئ: «إن لنا لأجراً» على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه: كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم، كقول العرب: إنّ له لإبلاً، وإنّ له لغنما، يقصدون الكثرة.
١١٤ - (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)
فإن قلت: {وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين} ما الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب، كأنه قال إيجاباً لقولهم: إن لنا لأجراً: نعم إنّ لكم لأجراً، وإنكم لمن المقرّبين، أراد: إني لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإنّ لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب، وهو التقريب والتعظيم، لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة. وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج. وروى: أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلاّ أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به. وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر. وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى. وقيل: قال فرعون: لا نغالب موسى إلاّ بما هو منه، يعني السحر.
١١٥ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)
تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع. وقولهم: {وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين} فيه ما يدلّ على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل.
١١٦ - (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)
وقد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم. وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً {سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس} أروها بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه، كقوله تعالى: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى} [طه: ٦٦]. روي: أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيات، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضاً

{واسترهبوهم} وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم {بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} في باب السحر. روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة.

١١٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

قيل: جعلوا فيها الزئبق {مَا يَأْفِكُونَ} ما موصولة أو مصدرية، بمعنى: ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه تسمية للمأفوك بالإفك روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال رفعها موسى. أو إفكهم فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

١١٨ - (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{فَوَقَعَ الحق} فحصل وثبت. ومن بدع التفاسير: فوقع قلوبهم، أي فأثر فيها من قولهم. قاس وقيع.

١١٩ - (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

{وانقلبوا صاغرين} وصاروا أذلاء مبهوتين.

١٢٠ - (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

{وَأُلْقِىَ السحرة} وخرّوا سجداً: كأنما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم. وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا. وعن قتادة: كانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة. وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا، وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله.

١٢٣ - (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

{ءَامَنْتُمْ بِهِ} على الإخبار، أي فعلتم هذا الفعل الشنيع، توبيخاً لهم وتقريعاً. وقرئ: «أآمنتم»، بحرف الاستفهام، ومعناه الإنكار والاستبعاد {إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى المدينة} إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا لكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان. وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر. وإن غلبتني لأومنن بك، وفرعون يسمع، فلذلك قال ما قال: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وعيد أجمله ثم فصله.

١٢٤ - (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

بقوله: {لأُقَطّعَنَّ} وقرئ: «لأقطعن» بالتخفيف، وكذلك {ثُمَّ لأُصَلّبَنَّكُمْ} {مّنْ خلاف} من كل شقّ طرفاً. وقيل: إن أوّل من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

١٢٥ - (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

{إِنَّا إلى رَبّنَا مُنقَلِبُونَ} فيه أوجه، أن يريدوا: إنا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك. أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا، أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله، فما تقدر أن تفعل بنا إلاّ ما لا بدّ لنا منه.

١٢٦ - (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

{وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ ءامَنَّا} وما تعيب منا إلاّ الإيمان بآيات الله، أرادوا: وما تعيب منا إلاّ ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها، وهو الإيمان. ومنه قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ. . . {أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول: قد مازحتك، أي يغمره بالحياء، والخجل. أو صبّ علينا ما يطهرنا

من أوضار الآثام، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} ثابتين على الإسلام.

١٢٧ - (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

{وَيَذَرَكَ} عطف على {لِيُفْسِدُوا} لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم، وكان ذلك مؤدّياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك. أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء، نحو قول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي ... وَبَيْنَكُمُ الْمَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ

والنصب بإضمار «أن» تقديره: أيكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك. وقرئ: (ويذرك وآلهتك) بالرفع عطفاً على أتذر موسى، بمعنى: أتذره وأيذرك، يعني: تطلق له ذلك. أو يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى: أتذره وهو يذرك وآلهتك. وقرأ الحسن: (ويذرك) بالجزم، كأنه قيل: يفسدوا، كما قرئ: {وَأَكُن مِّنَ الصالحين} [المنافقون: ١٠] كأنه قيل: «أصدّق». وقرأ أنس رضي الله عنه: «ونذرك»، بالنون والنصب، أي يصرفنا عن عبادتك فنذرها. وقرئ: «ويذرك وإلاهتك»، أي عبادتك. وروي: أنهم قالوا له ذلك، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام، ويقولون: ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: أنا ربكم الأعلى {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ} يعني سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه، وأنه منتظر بعد.

١٢٨ - (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

{قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله} قال لهم ذلك - حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا - يسكنهم ويسليهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم. فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة. وأمّا {وَقَالَ الملا} [الأعراف: ١٢٧] فمعطوفة على ما سبقها من قوله: {قَالَ الملا مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ} وقوله: {إِنَّ الأرض للَّهِ} يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة، كقوله: {وَأَوْرَثَنَا الأرض} [الزمر: ٧٤] وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس، وغرضه أن يتناوله تناولاً أولياً {والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ} بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط، وأن المشيئة متناولة لهم. وقرأ: «والعاقبة للمتقين» بالنصب: أبيّ وابن مسعود، عطفاً على الأرض.

١٢٩ - (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

{أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ، وإعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب {عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ} تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل. وكشف عنه، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر {فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال: قد بقي فينظر كيف تعملون.

١٣٠ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)
{بالسنين} بسني القحط. و «السنة» من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أقحطوا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم. وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلاّ تمرة {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله، ولأن الناس في حال الشدّة أضرع خدوداً وألين أعطافاً وأرق أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية.
١٣١ - (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)
{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الحسنة} من الخصب والرخاء {قَالُواْ لَنَا هذه} أي هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك. الجل للفرس {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيّئَةٌ} من ضيقة وجدب {يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ} يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه من عندك. فإن قلت: كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة، وإن تصبهم سيئة بإن وتنكير السيئة؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه. وأمّا السيئة فلا تقع إلاّ في الندرة، ولا يقع إلاّ شيء منها. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء {طَائِرُهُمْ عِندَ الله} أي سبب خيرهم وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيئته، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه، كقوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ مّنْ عِندِ الله} [النساء: ٧٨] ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: {النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} [غافر: ٤٦] الآية. ولا طائر أشأم من هذا. وقرأ الحسن: «إنما طيركم عند الله»، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير، ونظيره: التجر، والركب. وعند أبي الحسن: هو تكسير.
١٣٢ - (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)
{مَهْمَا} هي «ما» المضمنة معنى الجزاء، ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى ما تخرج أخرج، {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت} [النساء: ٧٨]، {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ} [الزخرف: ٤١] إلاّ أنّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم أن «مه» هي الصوت الذي يصوت به الكاف، و {مَا} للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فإن قلت: ما محل مهما؟ قلت: الرفع بمعنى: أيما شيء تأتنا به. أو النصب، بمعنى: أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ومن آية: تبيين لمهما. والضميران في {بِهِ} و {بِهَا} راجعان إلى مهما، إلاّ أنّ أحدهما ذكر على اللفظ، والثاني أنث على المعنى، لأنه في معنى الآية. ونحوه قول زهير:
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِيءٍ مِنْ خَلِيقَة ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ
وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية، فيضعها غير موضعها، ويحسب مهما بمعنى متى ما، ويقول مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه، وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءايَةٍ} بمعنى الوقت، فَيُلْحِدْ في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه. فإن قلت: كيف سموها آية، ثم قالوا لتسحرنا بها؟ قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.
١٣٣ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)
{الطوفان} ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل. قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا

يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره. وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام. وعن أبي قلابة: الطوفان الجدري، وهو أوّل عذاب وقع فيهم، فبقي في الأرض. وقيل: هو المُوتان وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم، فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهراً، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة، فكشف عنهم بعد سبعة أيام: خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا، فأقاموا شهراً، فسلّط الله عليهم القمل وهو الحمنان في قول أبي عبيدة كبار القردان.

وقيل: الدبا، وهو أولاد الجراد. وقبل نبات أجنحتها. وقيل: البراغيث. وعن سعيد بن جبير: السوس، فأكل ما أبقاه الجراد، ولحس الأرض، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصُّه، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيراً. وعن سعيد بن جبير، أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر، فضربه موسى بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيئاً من ثوب ولا طعام ولا شراب إلاّ وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدرو وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلاّ أن نتوب التبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً، فشكوا إلى فرعون فقال: إنه سحركم فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية إجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فيَّ فيصير الماء في فيها دماً. وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمصّ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجاً. وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماً. وقيل: سلط الله عليهم الرعاف وروي: أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، وروي: أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب، إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية. فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: «والقمل»، بفتح القاف وسكون الميم، يريد القمل المعروف {ءايات مفصلات} نصب على الحال. ومعنى مفصلات: مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم. أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم؟.

١٣٤ - (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ} ما مصدرية. والمعنى بعهده عندك وهو النبوّة والباء إمّا أن تتعلق بقوله: {ادع لَنَا رَبَّكَ} على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوّة. أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك. وإمّا أن يكون قسماً مجاباً بلنؤمنن، أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك.

١٣٥ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

{إلى أَجَلٍ هُم بالغوه} إلى حدّ من الزمن هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله {إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} جواب لما، يعني: فلما كشفناه عنهم فاجأوا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا.

١٣٦ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

{فانتقمنا مِنْهُمْ} فأردنا الانتقام منهم {فأغرقناهم}. واليم: البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم، لأن المستنفعين به يقصدونه {بأنهم كذبوا بآياتنا} أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

١٣٧ - (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

{القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ} هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية {بَارَكْنَا فِيهَا} بالخصب وسعة الأرزاق {كَلِمَتُ رَبّكَ الحسنى} قوله: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض} إلى قوله: {مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ} [القصص: ٦] والحسنى: تأنيث الأحسن صفة للكلمة. ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تمَّ على الأمر إذا مضى عليه {بِمَا صَبَرُواْ} بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر. وانتظار النصر ضمن الله له الفرج. وعن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف، وقد سمع قوله. وتلا الآية. ومعنى خف: طاش جزعاً وقلة صبر، ولم يرزن رزانة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: «وتمت كلمات ربك الحسنى» ونظيره {مِنْ ءايات رَبّهِ الكبرى} [النجم: ١٨]. {مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ} ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} من الجنات {هُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات} [الأنعام: ١٤١] أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء. كصرح هامان وغيره وقرئ: «يعرشون» بالكسر والضم. وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح. وبلغني أنه قرأ بعض الناس: «يغرسون» من غرس الأشجار. وما أحسبه إلاّ تصحيفاً منه.

١٣٨ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من مملكة فرعون واستعباده، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفهم ظلوم كفار جهول كنود، إلاّ من عصمة الله {وَقَلِيلٌ مّنْ عِبَادِىَ الشكور} [سبأ: ١٣] وليسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة. وروي: أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله تعالى: {فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ} فمرّوا عليهم {يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ} يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر. وذلك أوّل شأن العجل وقيل: كانوا قوماً من لخم. وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقرئ: «وجوّزنا» بمعنى أجزنا. يقال: أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه. وقرئ: «يعكفون» بضم الكاف وكسرها {اجعل لَّنَا إلها} صنماً نعكف عليه {كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ} أصنام يعكفون عليها. «وما» كافة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن علي رضي الله عنه أنّ يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه. فقال: قلتم اجعل لنا إلها قبل أن تجفّ أقدامكم {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

١٣٩ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{إِنَّ هَؤُلَآءِ} يعني عبدة تلك التماثيل {مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ} مدمّر مكسر ما هم فيه، من قولهم إناء متبر، إذا كان فضاضاً. ويقال لكسار الذهب: التبر، أي يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يديّ، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً {وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلاّ وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان زعمهم تقرباً إلى الله كما قال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً} [الفرقان: ٢٣] وفي إيقاع {هؤلاء} اسماً لإن، وتقديم خبر المبتدإ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

١٤٠ - (قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلها} أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحد غيركم، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره. ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم - مع كونهم مغمورين في نعمة الله - عبادة غير الله.

١٤١ - (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

{يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب} يبغونكم شدّة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها. فإن قلت: ما محل يسومونكم؟ قلت: هو استئناف لا محلّ له. ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين أو من آل فرعون. و {ذلكم} إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. والبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: «يقتلون» بالتخفيف.

١٤٢ - (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

وروي: أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشمّ من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك. وقيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها. ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة، وفصلها ههنا. و {ميقات رَبّهِ} ما وقته له من الوقت وضربه له. و {أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} نصب على الحال أي تمّ بالغاً هذا العدد. و {هارون} عطف بيان لأخيه. وقرئ بالضم على النداء {اخلفنى فِى قَوْمِى} كن خليفتي فيهم {وَأَصْلَحَ} وكن مصلحاً. أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى [الفساد] فلا تتبعه ولا تطعه.

١٤٣ - (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

{لميقاتنا} لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدناه. ومعنى اللام الاختصاص فكأنه قيل: واختصّ مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح وروي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلمه في أوّل الأربعين {أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ} ثاني مفعولي أرني محذوف أي أرني نفسك أنظر إليك، فإن قلت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: أرني أنظر إليك؟ قلت: معنى أرني نفسك، اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك، فإن قلت: فكيف قال: {لَن تَرَانِى} ولم يقل: لن تنظر إليّ لقوله: {أَنظُرْ إِلَيْكَ}؟ قلت: لما قال: {أَرِنِى} بمعنى اجعلني متمكناً من

الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطِّلْبَة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: لن تراني، ولم يقل لن تنظر إليّ. فإن قلت: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك -وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة. وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة. ومنعُ المجبرة إحالته في العقول غير لازم، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبه وقد قال- حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة - {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا} [الأعراف: ١٥٥] إلى قوله: {تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء} [الأعراف: ١٥٥] فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً؟ قلت: ما كان طلب الرؤية إلاّ ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بدَّ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النصّ من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: {لَن تَرَانِى} ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال: {رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ}. فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك؟ قلت: لأنّ الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزّة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه، إرادة مبنية على قياس فاسد، فلذلك قال موسى: أرني أنظر إليك، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك: كان غيره أولى بالإنكار، لأنّ الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم. وقوله: {أَنظُرْ إِلَيْكَ} وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبي الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟ فإن قلت: ما معنى {لَن}؟ قلت: تأكيداً النفي الذي تعطيه «لا» وذلك أن «لا» تنفي المستقبل. تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى: أنّ فعله ينافي حالي، كقوله: {لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ} [الحج: ٧٣] فقوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار} [الأنعام: ١٠٣] نفي للرؤية فيما يستقبل. و {لَن تَرَانِى} تأكيد وبيان

، لأنّ المنفي مناف لصفاته. فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: {ولكن انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أنّ النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: {وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً} [مريم: ٩١]. {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ} كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته {فَسَوْفَ تَرَانِى} تعليق لوجود الرؤية موجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدبج بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع. ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى}. {فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته {جَعَلَهُ دَكّاً} أي مدكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير. والدكّ والدقُّ أخوان كالشك والشقّ وقرئ: «دكاء» والدكاء اسم للرابية الناشزة من الأرض كالدكّة أو أرضاً دكاء مستوية. ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء، أي مدّها مستوية. وقرأ يحيى بن وثاب: «دكاً» أي قطعاً دكا جمع دكاء {وَخَرَّ موسى صَعِقًا} من هول ما رأى. وصعق من باب: فعلته ففعل. يقال صعقته فصعقت. وأصله من الصاعقة. ويقال لها الصاقعة. من صقعه إذا ضربه على رأسه ومعناه: خرّ مغشياً عليه غشية كالموت. وروي: أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزّة؟ {فَلَمَّا أَفَاقَ} من صعقته {قَالَ سبحانك} أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها {تُبْتُ إِلَيْكَ} من طلب الرؤية {وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين} بأنك لست بمرئيّ ولا

مدرك بشيء من الحواس.

فإن قلت: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته، فمّم تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبها وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنّة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً. ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة، فإنه من منصوبات أشياخهما والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لَجَمَاعَةٌ سَمَوْا هَوَاهُمْ سُنَّة ... وَجَمَاعَةٌ حُمْرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَه

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شَنْعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالبَلْكَفَهْ.

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله: {أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً، كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك {أَنظُرْ إِلَيْكَ} أعرفك معرفة اضطرار، كأني أنظر إليك، كما جاء في الحديث: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى {قَالَ لَن تَرَانِي} أي لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل. فإني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات، فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها، {فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته {جَعَلَهُ دَكّا وَخَرَّ موسى صَعِقًا} لعظم ما رأى {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سبحانك تُبْتُ إِلَيْكَ} مما اقترحت وتجاسرت {وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين} بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

١٤٤ - (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

{اصطفيتك عَلَى الناس} اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم {برسالاتي} وهي أسفار التوراة {وبكلامي} وبتكليمي إياك {فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ} ما أعطيتك من شرف النبوّة والحكمة {وَكُنْ مّنَ الشاكرين} على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم. وقيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم النحر. فإن قلت: كيف قيل؛ اصطفيتك على الناس وكان هارون مصطفى مثله نبياً؟ قلت: أجل، ولكنه كان تابعاً له ورداءاً وزيراً. والكليم: هو موسى عليه السلام، والأصيل في حمل الرسالة.

١٤٥ - (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح وقيل: سبعة. وقيل؛ لوحين، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء. وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشقها بأصابعه. وعن الحسن كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع. وقوله: {مِن كُلّ شَىْء} في محل النصب مفعول كتبنا. و {مَّوْعِظَةً} وتفصيلاً بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزأ منه في سنة لم يقرأها إلاّ أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليهم السلام. وعن مقاتل: كتب في الألواح: إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا بإسمي كاذبين؛ فإن من حلف بإسمي كاذباً فلا أزكيه، ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين {فَخُذْهَا} فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: {فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ} [الأعراف: ١٤٤] والضمير في {خُذْهَا} للألواح، أو لكل شيء، لأنه في معنى الأشياء، أو [للرسالات]، أو للتوراة. ومعنى {بِقُوَّةٍ} بجدّ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل {يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} أي فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر

للثواب، كقوله تعالى: {واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبّكُمْ} [الزمر: ٥٥] وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب، لأنه أحسن من المباح. ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به، دون ما نهوا عنه، على قولك: الصيف أحرّ من الشتاء {سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين} يريد دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم. وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم. وقيل: دار الفاسقين: نار جهنم. وقرأ الحسن: «سأوريكم» وهي لغة فاشية بالحجاز. يقال: أورني كذا، وأوريته. ووجهه أن تكون من أوريت الزند كأنَّ المعنى بيّنه لي وأنره لأستبينه وقرئ: «سأورثكم» قراءة حسنة يصححها قوله: {وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ} [الأعراف: ١٣٧].

١٤٦ - (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

{سَأَصْرِفُ عَنْ ءاياتي} بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها، غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم. وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي " وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى، بأن جمع لها السحرة، فأبى الله إلاَّ علو الحقّ وانتكاس الباطل. ويجوز: سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها. وتسميتها سحراً بإهلاكهم. وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها، لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم {بِغَيْرِ الحق} فيه وجهان: أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين، لأن التكبر بالحقّ لله وحده. وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءايَةٍ} من الآيات المنزلة عليهم {لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} وقرأ مالك بن دينار: «وإن يروا» بضم الياء. وقرئ: «سبيل الرشد» و «الرشد» و «الرشاد»، كقولهم: السقم والسقم والسقام. وما أسفه من ركب المفازة، فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفاً مردياً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه {ذلك} في محل الرفع أو النصب على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسبب.

١٤٧ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{وَلِقَاء الآخرة} يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به. أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة.

١٤٨ - (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

{مِن بَعْدِهِ} من بعد فراقه إياهم إلى الطور، فإن قلت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلاً، والمتخذ هو السامري؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم، لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به، فكأنهم أجمعوا عليه. والثاني: أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه. وقرئ: «من حليهم» بضم الحاء والتشديد، جمع حلي، كثدي وثديّ، ومن حليهم - بالكسر - للإتباع كدلى. ومن حليهم، على التوحيد، والحلي: اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة. فإن قلت: لم قال: من حليهم، ولم يكن الحليّ لهم، إنما كانت عوارى في أيديهم؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا: {فأخرجناهم مّن جنات وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وأورثناها بَنِى إسرائيل} [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، {جَسَداً} بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار: صوت البقر، قال الحسن: إنّ السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقذفه في فيِّ العجل، فكان عجلاً له خوار. وقرأ علي رضي الله عنه: «جؤار» بالجيم والهمزة، ومن

جأر إذا صاح. وانتصاب جسداً على البدل من {عِجْلاً} {أَلَمْ يَرَوْاْ} حين اتخذوه إلها أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل، حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبل الحقّ ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة، وبما أنزل في كتبه. ثم ابتدأ فقال: {اتخذوه} أي أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر {وَكَانُواْ ظالمين} واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم، ولا أوّل مناكيرهم.

١٤٩ - (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{وَلَمَّا سُقِطَ فَى أَيْدِيهِمْ} ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها. و {سُقِطَ} مسند إلى {فَى أَيْدِيهِمْ} وهو من باب الكناية. وقرأ أبو السميفع: «سقط في أيديهم»، على تسمية الفاعل، أي وقع العض فيها، وقال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم، أي في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس، بما يحصل في اليد ويرى بالعين {وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ} وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرئ: «لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا»، بالتاء. وربنا، بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين، كما قال آدم وحواء عليهما السلام: وإن لم تغفر لنا وترحمنا.

١٥٠ - (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

الأسِف: الشديد الغضب {فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ} [الزخرف: ٥٥] وقيل: هو الحزين {خَلَفْتُمُونِى} قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي. وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم هارون عليه السلام والمؤمنون معه. ويدلّ عليه قوله: {اخلفنى فِى قَوْمِى} [الأعراف: ١٤٢] والمعنى: بئس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله. فإن قلت: أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قلت: الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني. والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم. فإن قلت: أي معنى لقوله: {مِن بَعْدِى} بعد قوله: {خلفتموني}؟ قلت: معناه من بعد ما رأيتم مني، من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له. أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد. وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر، حين قالوا: {اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ} [الأعراف: ١٢٨] ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه. ونحوه: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} [الأعراف: ١٦٩] أي من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره، ويضمن معنى سبق فيتعدّى تعديته، فيقال عجلت الأمر، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولن أرجع إليكم فحدَّثتم أنفسكم بموتي، فغيّرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروي: أنّ السامري قال لهم - حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى -: إنَّ موسى لن يرجع، وإنه قد مات وروي: أنهم عدّوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا {وَأَلْقَى الالواح} وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضباً لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديداً شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً ولذلك كان أحبّ إلى بني إسرائيل من موسى. وروي: أنّ التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي الهدى والرحمة {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ} أي بشعر رأسه {يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} بذؤابته وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه فرط في الكف {ابن أُمَّ} قرئ بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة. «وابن أمي»، وبالياء. «وابن إمّ»، بكسر الهمزة والميم. وقيل: كان أخاه لأبيه وأمّه، فإن صحّ فإنما أضافه إلى

الأم، إشارة إلى أنهما من بطن واحد.
وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب، ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها {إِنَّ القوم استضعفوني} يعني أنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار. وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلاّ أن يقتلوه {يَقْتُلُونَنِى فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الاعداء} فلا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرئ: «فلا يشمت بي الأعداء»، على نهي الأعداء عن الشماتة. والمراد أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله {وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ القوم الظالمين} ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قريناً لهم وصاحباً. أو ولا تعتقد أني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم. لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء.
١٥١ - (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)
{قَالَ رَبّ اغفر لِى وَلاخِى} ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة. وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.
١٥٢ - (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)
{غَضَبٌ مّن رَّبّهِمْ وَذِلَّةٌ} الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة: خروجهم من ديارهم لأنّ ذل الغربة مثل مضروب. وقيل: هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية {المفترين} المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.
١٥٣ - (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)
{والذين عَمِلُواْ السيئات} من الكفر والمعاصي كلها {ثُمَّ تَابُواْ} ثم رجعوا {مِن بَعْدِهَا} إلى الله واعتذروا إليه {وَءامَنُواْ} وأخلصوا الإيمان {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا} من بعد تلك العظائم {لَغَفُورٌ} لستور عليهم محاء لما كان منهم {رَّحِيمٌ} منعم عليهم بالجنة. وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم. عظَّم جنايتهم أو لا ثم أردفها تعظيم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجلّ، ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة: وهي وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة، لا يلتفت إليها حازم.
١٥٤ - (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)
{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب} هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلاّ لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلاّ فما لقراءة معاوية بن قرة: «ولما سكن عن موسى الغضب»، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة. وقرئ: «ولما سكت» و «أسكت» أي أسكته الله، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفئ غضبه {أَخَذَ الألواح} التي ألقاها {وَفِى نُسْخَتِهَا} وفيما نسخ منها، أي كتب. والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة {لِرَبّهِمْ يَرْهَبُونَ} دخلت اللام لتقدم المفعول، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً. ونحوه {لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} [يوسف: ٤٣] وتقول: لك ضربت.
١٥٥ - (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)
{واختار موسى قَوْمَهُ} أي من قومه، فحذف الجار وأوصل الفعل، كقوله:

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً ...

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً، من كل سبط ستة حتى تتاموا اثنين وسبعين، فقال: ليتخلف منكم رجلان: فتشاحوا، فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع. وروي: أنه لم يصب إلا ستين شيخاً، فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً. وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين، ولم يتجاوزوا الأربعين، قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سينا، لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم: ادنوا، فدنوا، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم، فقالوا: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فقال: رب أرني أنظر إليك، يريد: أن يسمعوا الردّ والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني، ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة {قَالَ} موسى {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وإياى} وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة: لو شاء الله لأهلكني قبل هذا {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا} يعني أتهلكنا جميعاً، يعني نفسه وإياهم، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء، وهم طلبوها سفهاً وجهلاً {إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ} أي محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً، حتى افتتنوا وضلوا {تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِى مَن تَشَاء} تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت. وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه، لأن محنته لما كانت سبباً لأن ضلّوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام {أَنتَ وَلِيُّنَا} مولانا القائم بأمورنا.

١٥٦ - (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

{واكتب لَنَا} وأثبت لنا وأقسم {فِى هذه الدنيا حَسَنَةً} عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة {وَفِي الآخرة} الجنة {هُدْنَا إِلَيْكَ} تبنا إليك. وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب. والهود: جمع هائد، وهو التائب. ولبعضهم:

يَا رَاكِبَ الذَّنْبِ هُدْهُد ... واسْجُدْ كَأَنَّكَ هُدْهُد

وقرأ أبو وجرة السعدي: «هدنا إليك» بكسر الهاء، من هاده يهيده إما حرّكه وأماله. ويحتمل أمرين، أن يكون مبنياً للفاعل والمفعول بمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير: فعلنا، كقولك: عدت يا مريض بكسر العين، فعلت من العيادة. ويجوز: عدت بالإشمام. وعدت، بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض. وقول القول. ويجوز على هذه اللغة أن يكون {هُدْنَا} بالضم فعلنا من هاده يهيده {عَذَابِى} من حاله وصفته أني {أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء} أي من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه، ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة. وأمّا {رَّحْمَتِى} فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلاّ وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: «من أساء» من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كتبه خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون، لا يكفرون بشيء منها.

١٥٧ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{الذين يَتَّبِعُونَ الرسول} الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن {النبى} صاحب المعجزات {الذي يَجِدُونَهُ} يجد نعته أولئك الذين

يتبعونه من بني إسرائيل {مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل. . . وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات} ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة، كالشحوم وغيرها. أو ما طاب في الشريعة والحكم، مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلي كسبه من السحت، ويحرّم عليهم الخبائث ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به أو ما خبث في الحكم، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة.
الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وكذلك الأغلال. مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، نحو: بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت.
وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم. وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة. وقرئ: «آصارهم» على الجمع {وَعَزَّرُوهُ} ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ. وقرئ بالتخفيف. وأصل العزر: المنع. ومنه التعزير للضرب دون الحدّ، لأنه منع عن معاودة القبيح. ألا ترى إلى تسميته الحدّ، والحدّ هو المنع. و {النور} القرآن. فإن قلت: ما معنى قوله {أُنزِلَ مَعَهُ} وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: معناه أنزل مع نبوّته، لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. ويجوز أن يعلق باتبعوا. أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهي عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.
فإن قلت: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قلت: لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل، أجيب بما هو منطوٍ على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى، وعرّض بذلك في قوله: {والذين هُم بآياتنا يُؤْمِنُونَ} وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.
١٥٨ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
{إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجنّ. وجميعاً: نصب على الحال من إليكم. فإن قلت: {الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض} ما محله؟ قلت: الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعني، وهو الذي يسمى النصب على المدح. ويجوز أن يكون جراً على الوصف، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم. {إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقوله: {لاَ إله إِلاَّ هُوَ} بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض، وكذلك {يُحْيِي وَيُمِيتُ} وفي {لاَ إله إِلاَّ هُوَ} بيان للجملة قبلها، لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي يحيي ويميت: بيان لاختصاصه بالإلهية، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره {وكلماته} وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ: «وكلمته» على الإفراد وهي القرآن. أو أراد جنس ما كلم به. وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم. وقيل: هي الكلمة التي تكوّن [عنها] عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: {كُنَّ} وإنما قيل إن عيسى كلمة الله، فخصّ بهذا الاسم، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة، ولم يكن من نطفة تمنى {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} إرادة أن تهتدوا. فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: {إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ}؟ قلت: عدل من المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه.
١٥٩ - (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

{وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ} هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى، ذكر أنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم. وقيل: إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. وذُكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا. قال: هذا محمد النبي الأميّ، فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد، فليقرأ عليه مني السلام فردّ محمد على موسى عليهما السلام السلام، ثم أقرؤهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت» وعن مسروق. قرئ: بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال: عبد الله: يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين: وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين. وهذا من باب الفرض والتقدير وإلاّ فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق، وتغلغل في كل نفق، ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها، وإلاّ وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

١٦٠ - (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{وقطعناهم} وصيرناهم قطعاً، أي فرقاً وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم. وقرئ: «وقطعناهم» بالتخفيف {اثنتى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا} كقولك: اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً؟ وهلاّ قيل: اثني عشر سبطاً؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأنّ المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة. ونظيره:

بينَ رِمَاحَيْ مَالِكٍ وَنَهْشَلِ ...

و {أُمَمًا} بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أمماً لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمّه الأخرى، لا تكاد تأتلف. وقرئ: «اثنتي عشرة» بكسر الشين {فانبجست} فانفجرت. والمعنى واحد، وهو الانفتاح بسعة وكثرة: قال العجاج:

وَكَيْفَ غَرْبِيّ دَالِجٍ تَبَجَّسَا ...

فإن قلت: فهلا قيل: فضرب فانبجست؟ قلت: لعدم الإلباس، وليجعل الإنبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أنّ الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه من انتفاء الشكّ عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به. من قوله: {كُلَّ أُنَاسٍ} نظير قوله: اثنتي عشرة أسباطاً، يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والأناس، اسم جمع غير تكسير، نحو. رخال وتناء وتؤام وأخوات لها. ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير، والضمة بدل من الكسرة، كما أبدلت في نحو. سكارى وغيارى من الفتحة {وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام} وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه، و {كُلُواْ} على إرادة القول {وَمَا ظَلَمُونَا} وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم، ولكن كانوا يضرون أنفسهم. ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

١٦١ - (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ} واذكر إذ قيل لهم. والقرية: بيت المقدس. فإن قلت: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض. ولا تناقض بين قوله، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها، وبين قوله: فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: {نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم سَنَزِيدُ المحسنين} موعد بشيئين: بالغفران، وبالزيادة، وطرح الواو لا يخلّ بذلك، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين، وكذلك زيادة.

١٦٢ - (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُم فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

{مِنْهُمْ} زيادة بيان، وأرسلنا، وأنزلنا. و {يَظْلِمُونَ} ويفسقون من واد واحد. وقرئ: «يغفر لكم خطيئاتكم» «وتغفر لكم خطايا كم». و «خطيئاتكم»، و «خطيئتكم»، على البناء للمفعول.

١٦٣ - (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

{وسلهم} وسل اليهود. وقرئ: «واسألهم». وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأنّ هذا من علومهم التي لا تعلم إلاّ بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة الوحي. ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك: أعدوتم في السبت؟ والقرية أيلة. وقيل: مدين. وقيل: طبرية. والعرب تسمي المدينة قرية. وعن أبي عمرو بن العلاء. ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني رجلين من أهل المدن {كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر} قريبة منه راكبة لشاطئه {إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت} إذ يتجاوزون حدّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. وقرئ: «يعدّون» بمعنى يعتدون، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويُعدّون من الإعداد، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة. والسبت: مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، فمعناه: يعدّون في تعظيم هذا اليوم، كذلك قوله: {يَوْمَ سَبْتِهِمْ} معناه يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدل عليه قوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ} [و] قراءة عمر بن عبد العزيز: «يوم إسباتهم»، وقرئ: «لا يسبتون»، بضم الباء. وقرأ علي: «لا يسبتون» بضم الياء، من أسبتوا. وعن الحسن: «لا يسبتون» على البناء للمفعول، أي لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا، فإن قلت: إذ يعدون، وإذ تأتيهم، ما محلهما من الإعراب؟ قلت: أمّا الأوّل فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها، كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال. ويجوز أن يكون منصوباً بكانت، أو بحاضرة. وأمّا الثاني فمنصوب بيعدون. ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة {شُرَّعًا} ظاهرة على وجه الماء. وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض. يقال شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا. وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا {كذلك نَبْلُوهُم} أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

١٦٤ - (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

{وَإِذْ قَالَتِ} معطوف على إذ يعدون، وحكمه حكمه في الإعراب {أُمَّةٌ مّنْهُمْ} جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، حتى أيسوا من قبولهم، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا الله مُهْلِكُهُمْ} أي مخترمهم ومطهر الأرض منهم {أَوْ مُعَذّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا} لتماديهم في الشرّ. وإنما قالوا ذلك، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم {قَالُواْ مَعْذِرَةً إلى رَبّكُمْ} أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء.

وقرئ: «معذرة» بالنصب، أي وعظناهم معذرة إلى ربكم، أو اعتذرنا معذرة.
١٦٥ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)
{فَلَمَّا نَسُواْ} يعني أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه {أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا} الظالمين الراكبين للمنكر. فإن قلت: الأمة الذين قالوا {لِمَ تَعِظُونَ} من أي الفريقين هم أمن فريق الناجين أم المعذبين قلت من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث. ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلاّ سبباً للتلهي بك. وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين، ولم يخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حرصهم وجدّهم في أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: {فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ} [الكهف: ٦] وقيل: الأمة هم الموعوظون، لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قوما تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم؟ وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: لم تعظون قوماً؟ قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، فلم أزل به حتى عَرَّفْته أنهم قد نجوا. وعن الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان. وروي: أنّ اليهود أُمروا باليوم الذي أُمرنا به وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت، فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد، وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً كأنها المخاض، لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضاً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، فلا تقدر على الخروج منها. وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم شواه يوم الأحد، فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، فصار أهل القرية أثلاثاً، ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وثلث قالوا: لم تعظون قوماً؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة.
فلما لم ينتهوا قال المسلمون: إنا لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار: للمسلمين باب، وللمعتدين باب. ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنّ للناس شأناً، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الأنس، والأنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه ويبكي، فيقول: ألم ننهك فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة، والشيوخ خنازير. وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها، أثقلها خزياً في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة، هاه وايم الله، ما حوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم. ولكن الله جعل موعداً، والساعة أدهى وأمرّ {بَئِيسٍ} شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً، إذا اشتدّ، فهو بئيس. وقرئ: «بئس»، بوزن حَذِر. وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء. كما يقال: كبد في كبد. وبيس على قلب الهمزة ياء، كذيب في ذئب، وبيئس على فيعل، بكسر الهمزة وفتحها، وبيس بوزن ريس، على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها، وبيس على تخفيف بيس، كهين في هين. وبائس على فاعل.
١٦٦ - (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)
{فَلَمَّا عَتَوْاْ عَمَّا نُهُواْ عَنْهُ} فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه، كقوله: {وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ} [الأعراف: ٧٧]، {قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً} عبارة عن مسخهم قردة، كقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] والمعنى: أنّ الله تعالى عذبهم أوّلاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم. وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله: {فَلَمَّا نَسُواْ} والعذاب البئيس: هو المسخ.

١٦٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

{تَأَذَّنَ رَبُّكَ} عزم ربك، وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأنّ العازم على الأمر يحدّث نفسه به ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله: {لَيَبْعَثَنَّ} والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثنّ على اليهود {إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سُوء العذاب} فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس، إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر. ومعنى ليبعثن عليهم ليسلطنّ عليهم، كقوله: {بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد} [الإسراء: ٥]

١٦٨ - (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{وقطعناهم فِي الأرض أُمَمًا} وفرّقناهم فيها، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم {مّنْهُمُ الصالحون} الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين {وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك} ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة. فإن قلت: ما محل دون ذلك؟ قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، ونحوه {وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ} [الصافات: ٦٤] بمعنى: وما منا أحد إلاّ له مقام {وبلوناهم بالحسنات والسيئات} بالنعم والنقم {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} فينيبون.

١٦٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{فَخَلَفَ} من بعد المذكورين {خَلْفٌ} وهم الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم {وَرِثُواْ الكتاب} التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادنى} أي حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها. وفي قوله: {هذا الأدنى} تخسيس وتحقير. والأدنى: إما من الدنوّ بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب، وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. وفاعل {سَيُغْفَرُ} الجار والمجرور، وهو {لَنَا} ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون {وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} الواو للحال، أي يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين. وغفران الذنوب لا يصحّ إلاّ بالتوبة، والمصر لا غفران له {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مّيثَاقُ الكتاب} يعني قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلاّ بالتوبة {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ} في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة هو مذهب اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه الله، يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا، لأنا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم الله، وتلا الآية {والدار الآخرة خَيْرٌ} من ذلك العرض الخسيس {لّلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الرشا ومحارم الله. وقرئ: «««ورثوا الكتاب»»، (وإلاّ تقولوا)، بالتاء. وادّارسوا، بمعنى تدارسوا. وأفلا تعقلون، بالياء والتاء. فإن قلت: ما موقع قوله: {أَلا يِقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق}؟ قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور في الكتاب. وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله. وتقوّل عليه ما ليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان {أَن لاَّ يِقُولُواْ} مفعولاً له. ومعناه: لئلا يقولوا. ويجوز أن تكون {أَن} مفسرة، و {لاَ تَقُولُواْ} نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلاّ الحق؟ فإن قلت: علام عطف قوله: {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ}؟ قلت: على {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم}، لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

١٧٠ - (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

{والذين يُمَسّكُونَ بالكتاب} فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره {إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين} والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم، لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب، كقوله: {إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} [الكهف: ٣٠] والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون، ويكون قوله: {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} اعتراضاً. وقرئ: «يمسكون» بالتشديد. وتنصره قراءة أبيّ: «والذين مسكوا بالكتاب»، فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة. ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟ قلت: إظهار لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقه بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «والذين استمسكوا بالكتاب».

١٧١ - (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

{وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ} قلعناه ورفعناه، كقوله: {ورفعنا فوقهم الطور}. ومنه: نتق السقاء، إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف {وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة. لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلاّ ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلاّ على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله. لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلاّ اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلاّ اهتز وأنغض لها رأسه {خُذُواْ مَا ءاتيناكم} على إرادة القول. أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من الكتاب {بِقُوَّةٍ} وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه {واذكروا مَا فِيهِ} من الأوامر والنواهي ولا تنسوه، أو اذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه. ويجوز أن يراد: خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه، كقوله: {إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض} [الرحمن: ٣٣] فانفذوا. {واذكروا مَا فِيهِ} من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: «وتذكروا» وقرئ: «واذّكروا»، بمعنى وتذكروا.

١٧٢ - (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

{مِن ظُهُورِهِمْ} بدل من بني آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرّياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم. قوله: {أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا} من باب التمثيل والتخييل! ا ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه [الصلاة و] السلام، وفي كلام العرب. ونظيره قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠]، {فَقَالَ لَهَا وَلِلاْرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١] وقوله:

إِذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ ...

قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا قَرْقَارِ ...

ومعلوم أنه لا قول ثَمَّ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى {وأَن تَقُولُواْ} مفعول له، أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة {أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين} لم ننبه عليه.

١٧٣ - (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

{أو} كراهة {أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذرية من بعدهم} فاقتدينا بهم، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء. كما لا عذر لآبائهم في الشرك - وأدلة التوحيد منصوبة لهم - فإن قلت: بنو آدم وذرّياتهم من هم؟ قلت: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله، حيث قالوا: عزير ابن الله. وبذرياتهم: الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم. والدليل على أنها من المشركين وأولادهم: قوله: {أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ} والدليل على أنها في اليهود: الآيات التي عطفت عليها هي، والتي عطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها، وذلك قوله: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ القرية} [الأعراف: ١٦٣]، {وإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ} [الأعراف: ١٦٤]، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ} [الأعراف: ١٦٧]، {وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ} [الأعراف: ١٧١]. {واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءاتيناه ءاياتنا} [الأعراف: ١٧٥]. {أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون} أي كانوا السبب في شركنا، لتأسيسهم الشرك، وتقدّمهم فيه، وتركه سنة لنا.

١٧٤ - (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{وكذلك} ومثل ذلك التفصيل البليغ {نُفَصّلُ الآيات} لهم {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ: «ذريتهم» على التوحيد. وأن يقولوا: بالياء.

١٧٥ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

{واتل عَلَيْهِمْ} على اليهود {واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ مِنْهَا} هو عالم من علماء بني إسرائيل. وقيل: من الكنعانيين، اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله {فانسلخ مِنْهَا} من الآيات، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره {فَأَتْبَعَهُ الشيطان} فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له. أو فأتبعه خطواته. وقرئ: «فاتبعه» بمعنى فتبعه {فَكَانَ مِنَ الغاوين} فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل.

١٧٦ - (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

{وَلَوْ شِئْنَا لرفعناه بِهَا} لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات {ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض} مال إلى الدنيا ورغب فيها. وقيل: مال إلى السفالة. فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع قلت المعنى. ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها. وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة. والمراد: ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها. ألا ترى إلى قوله: {ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض} فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون {وَلَوْ شِئْنَا} في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب} فصفته التي هي مثل في الخسّة والضعة كصفة الكلب في أخسّ أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه - أي شدّ عليه وهيج فطرد - أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه. وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلاّ إذا هيج منه وحرّك، وإلاّ لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فوضع قوله {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب} موضع حططناه أبلغ حط لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه، الكلب منقطع الفؤاد، يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه. وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث. فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟ قلت: النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلة لاهثاً في الحالتين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب {ذلك مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بثاياتنا} من اليهود بعد ما قرأوا نعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به {فاقصص} قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيحذرون مثل عاقبته، إذا ساروا نحو سيرته، وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم.

١٧٧ - (سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)

{سَاء مَثَلاً القوم} أي مثل القوم. أو ساء أصحاب مثل القوم. وقرأ الجحدري: «ساء مثل القوم». {وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} إما أن يكون معطوفاً على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب، بآيات الله وظلم أنفسهم. وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلاّ أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصّوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها.

١٧٨ - (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

{فَهُوَ المهتدى} حمل على اللفظ. و {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون} حمل على المعنى.

١٧٩ - (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

{كَثِيرًا مّنَ الجن والإنس} هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحقّ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واستماع الآذان. وجعلهم - لإعراقهم في الكفر وشدّة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلاّ أفعال أهل النار - مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دَلُوكاً عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار. ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلاّ لكذا. والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع علمهم أنه النبي الموعود. وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم، كأنهم خلقوا للنار {أُوْلَئِكَ كالانعام} في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر {بَلْ هُمْ أَضَلُّ} من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر {أُوْلَئِكَ هُمُ الغافلون} الكاملون في الغفلة. وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارّها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

١٨٠ - (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{وَلِلَّهِ الاسماء الحسنى} التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدلّ على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغيرذلك {فادعوه بِهَا} فسموه بتلك الأسماء {وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَئِهِ} واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحقّ والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يانخي. أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى. نحو أن يقولوا: يا ألله، ولا يقولوا: يا رحمن وقد قال الله تعالى: {قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الاسماء الحسنى} [الإسراء: ١١٠] ويجوز أن يراد: ولله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها، وقيل: إلحادهم في أسمائه: تسميتهم الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

١٨١ - (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

لما قال: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً} [الأعراف: ١٧٩] فأخبر أنّ كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار، أتبعه قوله: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا

أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق} وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقول إذا قرأها: " هذه لكم " وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها، {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق} [الأعراف: ١٥٩] وعنه صلى الله عليه وسلم: «إنّ من أمّتي قوماً على الحقّ حتى ينزل عيسى عليه السلام» وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب. وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

١٨٢ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة. قال الأعشى:

فَلَوْ كُنْتَ فِي جُبٍّ ثَمَانِينَ قَامَةً ... وَرَقِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

لَيَسْتَدرِجَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهِرَّه ... وَتَعْلَمَ أَنِي عَنْكُمْ غَيْر مُفْحَمِ

ومنه: درج الصبي إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء. ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض. ومعنى {سَنَسْتَدْرِجُهُم} سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم {مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع أنهماكهم في الغيّ. فكلّما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدّدوا معصية، فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه.

١٨٣ - (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

{وَأُمْلِي لَهُمْ} عطف على {سَنَسْتَدْرِجُهُم} وهو داخل في حكم السين {إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ} سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان.

١٨٤ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

{مَا بِصَاحِبِهِم} بمحمد صلى الله عليه وسلم {مِّن جِنَّةٍ} من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون. وعن قتادة: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم علا الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوّت إلى الصباح.

١٨٥ - (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ} نظر استدلال {فِى مَلَكُوتِ السماوات والأرض} فيما تدلاّن عليه من عظم الملك. والملكوت: الملك العظيم {وَمَا خَلَقَ الله مِن شَىْء} وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء ومن أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف {وَأَنْ عسى} أن مخففة من الثقيلة، والأصل: أنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن. والمعنى: أو لم ينظروا في أنّ الشأن والحديث عسى {أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ} ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن. فإن قلت: بم يتعلق قوله: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}؟ قلت: بقوله: {عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ} كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا.

١٨٦ - (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قرئ: «ويذرهم» بالياء والنون، والرفع على الاستئناف، ويذرهم، بالياء والجزم عطفاً على محل {فَلاَ هَادِيَ لَهُ} كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

١٨٧ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا

بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{يَسْئَلُونَكَ} قيل: إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً، فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش. و {الساعة} من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. {أَيَّانَ} بمعنى متى. وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه، لأنّ معناه أيّ وقت وأيّ فعل، من أويت إليه، لأنّ البعض آو إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جني، وأبى أن يكون من «أين» لأنّه زمان، «وأين» مكان. وقرأ السلمي «إيان» بكسر الهمزة {مرساها} إرساؤها، أو وقت إرسائها، أي إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسّوه ثباته واستقراره. ومنه رسي الجبل وأرسي السفينة. والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله {ثَقُلَتْ فِى السماوات والأرض} والمعنى حتى يرسيها الله {إِنَّمَا عِلْمُهَا} أي علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، ولم يخبر به أحداً من ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك {لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} أي لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلاّ هو وحده إذا جاء في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها {ثَقُلَتْ فِى السماوات والأرض} أي كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، وبودّه أن يتجلى له علمها وشقّ عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها. أو لأنّ كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها {إِلاَّ بَغْتَةً} إلاّ فجأة على غفلة منكم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوّم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه " {كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا} كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها، لأنّ من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم فيه ورصن وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه إحفاء الشارب. إحتفاء البقل: استئصاله. وأحفى في المسألة، إذا ألحف وحفي بفلان وتحفى به: بالغ في البرّ به. وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت. وقرأ ابن مسعود: «كأنك حفيّ بها» أي عالم بها بليغ في العلم بها. وقيل: {عَنْهَا} متعلق بيسألونك: أي يسألونك عنها كأنك حفيّ أي عالم بها.

وقيل: إن قريشاً قالوا له إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسألونك عنها كأنك حفيّ تحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص، كسائر ما أوحي إليك. وقيل: كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحداً من خلقه. فإن قلت: لم كرر يسألونك وإنما علمها عند الله؟ قلت: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله: {كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا} وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة، منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله {ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ} أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها.

١٨٨ - (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى} هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب: أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرركما المماليك والعبيد {إِلاَّ مَا شَاء} ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب} لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، من استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضارّ، حتى لا يمسني شيء منها. ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب. ورابحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً [و] مخطئاً في التدابير {إِنْ أَنَا إِلاَّ} عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما

من شأني أني أعلم الغيب {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم. أو يتعلق بالتبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً أي إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

١٨٩ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

{مِّن نَّفْسٍ واحدة} وهي نفس آدم عليه السلام {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وهي حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه. أو من جنسها كقوله: {جَعَلَ لَكُمْ مّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} [النمل: ٧٢] {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال: {لِيَسْكُنَ} فذكر بعد ما أنث في قوله: «واحدة» «منها زوجها»، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم. ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى. والتغشي: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان {حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا} خف عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالي من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه. وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته {فَمَرَّتْ بِهِ} فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق وقيل: {حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا} يعني النطفة {فَمَرَّتْ بِهِ} فقامت به وقعدت. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: «فاستمرت به» وقرأ يحيى بن يعمر «فمرت به» بالتخفيف. وقرأ غيره «فمارت به» من المرية، كقوله: {أفتمارونه} وأفتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتابت به. {فَلَمَّا أَثْقَلَت} حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت. وقرئ «أُثقلت»، على البناء للمفعول: أي أثقلها الحمل {دَّعَوَا اللهُ رَبَّهُمَا} دعا آدم وحواء رَبَّهما ومالِكَ أمرهما الذي هو الحقيقي بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا: {لَئِنْ ءاتَيْتَنَا} لئن وهبت لنا {صالحا} ولداً سوياً قد صلح بدنه وبريء. وقيل: ولداً ذكراً، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في {ءَاتَيْتَنَا} و {لَّنَكُونَنَّ}. لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما.

١٩٠ - (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

{فَلَمَّا ءاتاهما} ما طلباه من الولد الصالح السويّ {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك {فِيمَا ءاتاهما} أي آتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك بقوله: {فتعالى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ} حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة، وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم آل قصي ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد.

فَيَا لَقُصَيّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُم ... بِهِ مِنْ فَخَارٍ لاَ يُبَارَى وَسُودَدِ

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصيّ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصيّ وعبد الدار، وجعل الضمير في {يُشْرِكُونَ} لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ «شركا»، أي ذوي شرك وهم الشركاء، أو أحدثا لله شركاً في الولد.

١٩١ - (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله: {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله عز وجل خالقهم. أو لا يقدر على اختلاق شيء، لأنه جماد، وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يختلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم.

١٩٢ - (وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)
{وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ} لعبدتهم {نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ} فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذي يدفعون عنهم ويحامون عليهم.
١٩٣ - (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)
{وَإِن تَدْعُوهُمْ} وإن تدعوا هذه الأصنام {إِلَى الهدى} أي إلى ما هو هدى ورشاد، وإلى أن يهدوكم. والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ويدل عليه قوله: {فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صادقين} {سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ} أم صمتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم. فإن قلت: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: {وإذا مس الناس ضرّ} [الروم: ٣٣] فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.
١٩٤ - (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله} أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله {عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} وقوله: {عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} استهزاء بهم، أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم.
١٩٥ - (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ)
ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم. وقرأ سعيد بن جبير: «إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، على إعمال «إن» النافية عمل «ما» الحجازية {قُلِ ادعوا شُرَكَاءكُمْ} واستعينوا بهم في عداوتي {ثُمَّ كِيدُونِ} جميعاً أنتم وشركاؤكم {فَلاَ تُنظِرُونِ} فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء} [هود: ٥٤] قال لهم: {إِنّى بريء مّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ} [هود: ٥٥].
١٩٦ - (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)
{إِنَّ وَلِيّىَ الله} أي ناصري عليكم الله {الذي نَزَّلَ الكتاب} الذي أوحى إلي كتابه وأعزني برسالته {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين} ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم.
١٩٨ - (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)
{يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} يشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه {وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} وهم لا يدركون المرئيّ.
١٩٩ - (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)
{العفو} ضد الجهد: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، كقوله صلى الله عليه وسلم: " يسروا ولا تعسروا " قال:
خذِي الْعَفْوَ مِني تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ... وَلاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ
وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم، وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً. والعرف:

المعروف والجميل من الأفعال {وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين} ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم. وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل (ما هذا) فقال: لا أدري حتى أسأل [العالم]، ثم رجع فقال: «يا محمد» إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»». وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

٢٠٠ - (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{وَإِمَّا يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ} وإما ينخسنّك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به {فاستعذ بالله} ولا تطعه. النزغ والنسغ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل جدّ جدّه. وروي: أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يا رب والغضب فنزل {وإما ينزعنَّك من الشيطان نزع} ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر رضي الله عنه: إنّ لي شيطاناً يعتريني.

٢٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

{طائف مِنَ الشيطان} لمة منه مصدر، من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً قال:

أَنَّي أَلَمَّ بِكَ الْخَيَالُ يِطِيفُ ...

أو هو تخفيف طيف فيعل، من طاف يطيف كلين أو من طاف يطوف كهين. وقرئ: «طائف»، وهو يحتمل الأمرين أيضاً. وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته {تَذَكَّرُواْ} ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم.

٢٠٢ - (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ)

وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يمدونهم في الغيِّ، أي يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم. وقرئ: «يُمدّونهم» من الإمداد. ويمادّونهم، بمعنى يعاونونهم {ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا. قوله: {وإخوانهم يَمُدُّونَهُمْ} كقوله:

قَوْم إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَاثِبِهَا ...

في أنّ الخبر جار على ما هو له. ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين، فيكون الخبر جارياً على ما هو له، والأوّل أوجه، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. فإن قلت: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قلت: المراد به الجنس، كقوله: {أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت} [البقرة: ٢٥٧].

٢٠٣ - (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

اجتبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه: أي جمعه، كقولك: اجتمعه، أو جبي إليه فاجتباه: أي أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى {لَوْلاَ اجتبيتها} هلا اجتمعتها، افتعالا من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: {إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ} [سبأ: ٤٣] أو هلا أخذتها منزّلة عليك مقترحة؟ {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحى إِلَيَّ مّن رَّبّى} ولست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها {هذا بصائر} هذا القرآن بصائر {مّن رَّبّكُمْ} أي حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

٢٠٤ - (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{وَإِذَا قرئ القرءان فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ} ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة. وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل معناه: وإذا تلا

عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل: معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.
٢٠٥ - (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)
{واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ} هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك {تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} متضرعاً وخائفاً {وَدُونَ الجهر} ومتكلماً كلاماً دون الجهر، لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر {بالغدو والأصال} لفضل هذين الوقتين. أو أراد الدوام. ومعنى بالغدوّ: بأوقات الغدو، وهي الغدوات. وقرئ: «والإيصال»، من آصل إذا دخل في الأصيل، كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدوّ {وَلاَ تَكُنْ مّنَ الغافلين} من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.
٢٠٦ - (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)
{إِنَّ الذين عِندَ رَبّكَ} هم الملائكة صلوات الله عليهم. ومعنى {عِندَ} دنوّ الزلفة، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة».

٨ سورة الأنفال:

سورة الأنفال:
سورة الأنفال مدنية وهي خمس وسبعون آية
١ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
النفل: الغنيمة، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:
إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ...
والنفل ما ينفله الغازي، أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه. أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه أو ربعه. ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه. وعند الشافعي رحمه الله في أحد قوليه: لا يلزم. ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر، وفي قسمتها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم، ولمن الحكم في قسمتها؟ أللمهاجرين أم للأنصار؟ أم لهم جميعاً؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، فلما يسر الله لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردءاً لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم [وقالوا] لرسول الله صلى الله عليه وسلم: المغنم قليل والناس كثير: وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك. فنزلت. وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت: إنّ الله قد شفى صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القَبَضِ فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال، فقال: يا سعد، إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين. وقرأ ابن محيصن: «يسألونك علنفال» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام،

وإدغام نون عن في اللام: وقرأ ابن مسعود: «يسألونك الأنفال» أي يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال. فإن قلت: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله: {قُلِ الانفال لِلَّهِ والرسول}؟ قلت: معناه أنّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوّضاً إلى رأي أحد، والمراد: أنّ الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي {فاتقوا الله} في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متحدين متآخين في الله {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم.

وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسموا غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليردّ بعضكم على بعض. فإن قلت: ما حقيقة قوله: {ذَاتَ بِيْنِكُمْ}؟ قلت: أحوال بينكم، يعني ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، كقوله: {بِذَاتِ الصدور} [آل عمران: ١٩٩] وهي مضمراتها. لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البين، كقولهم: اسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب. وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها. ومعنى قوله: {إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} إن كنتم كاملي الإيمان.

٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

واللام في قوله: {إِنَّمَا المؤمنون} إشارة إليهم. أي إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله: {أُوْلئِكَ هُمُ المؤمنون حَقّاً}. {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} فزعت. وعن أمّ الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإنّ الدعاء يذهبه. يعني فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله وعزّة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله} [الزمر: ٢٣] لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه. وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له: اتق الله فينزع. وقرئ «وجلت»، بالفتح، وهي لغة نحو «وبق» في «وبق»، وفي قراءة عبد الله: «فَرِقَتْ» {زَادَتْهُمْ إيمانا} ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة في نفس. لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، وقد حمل على زيادة العمل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (عن النبي صلى الله عليه وسلم): " الإيمان سبع وسبعون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان " وعن عمر بن العزيز رضي الله عنه: إن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان {وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ولا يفوّضون أمورهم إلى غير ربهم، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

٣ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

٤ - (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

{حَقّاً} صفة للمصدر المحذوف، أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي {أُوْلئِكَ هُمُ المؤمنون} كقولك: هو عبد الله حقاً، أي حق ذلك حقاً.

وعن الحسن أنّ رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: {إِنَّمَا المؤمنون} فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا. وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه، يعني كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً، وبهذا تعلق من يستثني في الإيمان. وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ممن لا يستثني

فيه. وحكي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثنى في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: {والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين} [الشعراء: ٨٢] فقال له: هلا اقتديت به في قوله: {أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى} [البقرة: ٢٦٠] {درجات} شرف وكرامة وعلو منزلة {وَمَغْفِرَةٌ} وتجاوز لسيئاتهم {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} نعيم الجنة. يعني لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم، وهذا معنى الثواب.
٥ - (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ} فيه وجهان أحدهما. أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدإ محذوف تقديره. هذه الحال كحال إخراجك. يعني أنّ حالهم في كراهة ما رأيت من تنفل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب. والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله: {الانفال لِلَّهِ والرسول} [الأنفال: ١] أي الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون. و {مِن بَيْتِكَ} يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنها مهاجره ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه {بالحق} أي إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه {وَإِنَّ فَرِيقاً مّنَ المؤمنين لَكَّرِهُونَ} في موضع الحال، أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك: أن عير قريش أقبلت من الشأم فيها تجارة عظيمة معها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً رأيت كأنّ ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدث بها العباس فقال أبو جهل: ما يرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير. في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير، فقيل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، ونقيم القينات والمعازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يصب العير، وإنا قد أعضضناه، فمضى بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة - فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إمّا العير، وإمّا قريشاً، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال: ما تقولون، إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدوّ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم ردّد عليهم فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدوّ، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك فامض.
فوالله لو سرت إلى عدن أبين. ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس وهو يريد الأنصار، لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعلّ الله يريك منا ما تقرّبه عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنّ

الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروي: أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم؟ قال: لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين. وقد أعطاك ما وعدك، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين لَكَٰرِهُونَ}.

٦ - (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

والحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقى النفير، لإيثارهم عليه تلقي العير {بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ} بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون. وجدالهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب؟ وذلك لكراهتهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم لقلة العدد، وأنهم كانوا رجالة. وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان.

٧ - (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

{وَإِذْ} منصوب بإضمار اذكر. و {أَنَّهَا لَكُمْ} بدل من إحدى الطائفتين. والطائفتان: العير والنفير. {غَيْرَ ذَاتِ الشوكة} العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم: والشوكة: الحدّة مستعارة من واحدة الشوك. ويقال: شوك القنا لشباها. ومنها قولهم: شائك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير، لأنها الطائفة التي لا حدّة لها ولا شدّة، ولا تريدون الطائفة الأخرى {أَن يُحِقَّ الحَقَّ} أن يثبته ويعليه {بكلماته} بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر الآخر: فاعل من دبر. إذا أدبر. ومنه دابرة الطائر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلوّ الكلمة، والفوز في الدارين. وشتان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوّتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزّكم وأذلهم، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها. وقرئ: «بكلمته»، على التوحيد.

٨ - (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

فإن قلت: بم يتعلق قوله: {لِيُحِقَّ الحق}؟ قلت: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا لهما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. فإن قلت: أليس هذا تكريراً؟ قلت: لا، لأنّ المعنيين متباينان، وذلك أنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدّر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى: وقيل: قد تعلق بيقطع.

٩ - (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

فإن قلت بم يتعلق {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ}؟ قلت: هو بدل من {إِذْ يَعِدُكُمُ} [الأنفال: ٧] وقيل بقوله: {لِيُحِقَّ الحق وَيُبْطِلَ الباطل} واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بدّ من القتال، طفقوا يدعون الله ويقولون: أي ربنا انصرنا على عدوّك، يا غياث المستغيثين أغثنا. وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلثمائة، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض - فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك " {أَنِّي مُمِدُّكُمْ} أصله بأني ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله. وعن أبي عمرو أنه قرأ: «إني ممدكم» بالكسر، على إرادة القول، أو على إجراء

استجاب مجرى {قَالَ} لأنّ الاستجابة من القول. فإن قلت: هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قلت: اختلف فيه، فقيل: نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها عليّ بن أبي طالب في صور الرجال، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخوا أذنابها بين أكتافهم. فقاتلت: وقيل: قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين. وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم: وروي:

(أنّ رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين: إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه، فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشقّ وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " صدقت ذاك من مدد السماء " وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي، وقيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإنّ جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقرئ «مردفين» بكسر الدال وفتحها، من قولك: ردفه إذا تبعه. ومنه قوله تعالى: {رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ} [النمل: ٧٢] بمعنى ردفكم. وأردفته إياه: إذا أتبعته. ويقال: أردفته، كقولك أتبعته، إذا جئت بعده، فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى متبعين، أو متبعين، فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو من أن يكون بمعنى: متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى: متبعين إياهم المؤمنين، أي يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقتهم، ليكونوا على أعينهم وحفظهم.

أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة: ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران: {بِثَلاثَةِ ءالاَفٍ مّنَ الملائكة مُنزَلِينَ} [آل عمران: ١٢٤]. {بِخَمْسَةِ ءالافٍ مّنَ الملئكة مُسَوّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥] ومن قرأ: «مردفين» بالفتح فهو بمعنى متبعين أو متبعين. وقرئ «مردّفين»، بكسر الراء وضمها وتشديد الدال: وأصله مرتدفين، أي مترادفين أو متبعين، من ارتدفه، فأدغمت تاء الافتعال في الدال، فالتقى ساكنان فحرّكت الراء بالكسر على الأصل، أو على إتباع الدال. وبالضم على إتباع الميم. وعن السدي: بآلاف من الملائكة. على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران. فإن قلت: فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين، والمردفين بارتدافهم غيرهم؟ قلت: بأن المراد بالألف من قاتل منهم. أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم.

١٠ - (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في {وَمَا جَعَلَهُ}؟ قلت: إلى قوله: {أَنّي مُمِدُّكُمْ} [الأنفال: ٩] لأن المعنى: فاستجاب لكم بإمدادكم. فإن قلت: ففيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى قوله: {إِنّي مُمِدُّكُمْ} لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول. ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدّكم {إِلاَّ بشرى} إلا بشارة لكم بالنصر، كالسكينة لبني إسرائيل، يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم {وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله} يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله.

{إِذْ يُغَشّيكُمُ} بدل ثان من {إِذْ يَعِدُكُمُ} [الأنفال: ٧] أو منصوب بالنصر، أو بما في {مِنْ عِندِ الله} [الأنفال: ١٠] من معنى الفعل، أو بما جعله الله، أو بإضمار اذكر.

١١ - (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ)

وقرئ «يغشيكم» بالتخفيف والتشديد ونصب النعاس والضمير لله عزّ وجل. و {أَمَنَةً} مفعول له. فإن قلت: أما وجب أن يكون

فاعل الفعل المعلل والعلة واحداً؟ قلت: بلى، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس. تنعسون، انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم. والمعنى: إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا، أي لأمنكم، و {مِّنْهُ} صفة لها: أي أمنة حاصلة لكم من الله عزّ وجلّ. فإن قلت: فعلى غير هذه القراءة قلت: يجوز أن تكون الأمنة بمعنى الإيمان، أي ينعسكم إيماناً منه. أو على يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً، فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب على أنّ الأمنة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم؟ أي يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم؟ وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلت: لا تبعد فصاحة القرآن عن احتماله، وله فيه نظائر، وقد ألم به من قال:

يَهَابُ النوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُونا ... تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَّارٌ شَرُودُ

وقرئ «أمنة» بسكون الميم. ونظير «أمن أمنة» «حيي حياة» ونحو «أمن أمنة» «رحم رحمة» والمعنى: أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم، فلما طمأن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضي الله عنه: النعاس في القتال: أمنة من الله، وفي الصلاة: وسوسة من الشيطان {وَيُنَزِّلُ} قرئ بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الشعبي «ما ليطهركم به» قال ابن جني: ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره، فكأنه قال: ما للطهور. و {رِجْزَ الشيطان} وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش. وقيل: الجنابة، لأنها من تخييله. وقرئ «رجس الشيطان» وذلك أن إبليس تمثل لهم، وكان المشركين قد سبقوهم إلى الماء ونزل المسلمون في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم، فقال لهم: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة، فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا، فأنزل الله عز وجل المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادي، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضأوا، وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس. والضمير في {بِهِ} للماء. ويجوز أن يكون للربط، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم في مواطن القتال.

١٢ - (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

{إِذْ يُوحِى} يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من {إِذْ يَعِدُكُمُ} [الأنفال: ٧] وأن ينتصب بيثبت {إِنّى مَعَكُمْ} مفعول يوحي وقرئ «إني» بالكسر على إرادة القول، أو على إجراء يوحي مجرى يقول، كقوله: {أَنّي مُمِدُّكُمْ} [الأنفال: ٩] والمعنى: أني معينكم على التثبيت فثبتوهم. وقوله: {سَأُلْقِى . . . فاضربوا} يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: {أَنّي مَعَكُمْ فَثَبّتُواْ} ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. واجتماعهما غاية النصرة. ويجوز أن يكون غير تفسير، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدّون بالملائكة. وقيل: كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفنّ، ويمشي بين الصفين فيقول: أبشروا، فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه. وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ «الرعب» بالتثقيل {فَوْقَ الاعناق} أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح، لأنها مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييرا للرؤوس. وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق، يعني ضرب الهام. قال:

وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْبَطَلِ الْمُشِيحِ ...

غَشَّيْتُهُ وَهْوَ فِي جَأْوَاءَ بَاسِلَةٍ ... عَضْباً أَصَابَ سَوَاءَ الرَّأْسِ فَانْفَلَقَا

والبنان: الأصابع، يريد الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوي، لأن الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن

يجمعوا عليهم النوعين معاً. ويجوز أن يكون قوله {سَأُلْقِي} إلى قوله: {كُلَّ بَنَانٍ} عقيب قوله: {فَثَبّتُواْ الذين ءامَنُواْ} تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به، كأنه قال: قولوا لهم قولي: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب} أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي: {سَأُلْقِي} فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

١٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{ذلكم} إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل، ومحله الرفع على الابتداء و {بِأَنَّهُمْ} خبره، أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم. والمشاقة: مشتقة من الشق، لأن كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه، وسئلت في المنام عن اشتقاق المعاداة فقلت: لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة، كما قيل: المخاصمة والمشاقة، لأن هذا في خصم أي في جانب، وذاك في خصم، وهذا في شق، وذاك في شق. والكاف في {ذلك} لخطاب الرسول عليه [الصلاة و] السلام، أو لخطاب كل واحد.

١٤ - (ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

وفي {ذلكم} للكفرة، على طريقة الالتفات. ومحل {ذلكم} الرفع على ذلكم العقاب، أو العقاب ذلكم {فَذُوقُوهُ} ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذلكم فذوقوه، كقولك: زيداً فاضربه {وَأَنَّ للكافرين} عطف على ذلكم في وجهيه، أو نصب على أن الواو بمعنى مع. والمعنى: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقر الحسن «وإن للكافرين» بالكسر.

١٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ)

{زَحْفاً} حال من الذين كفروا. والزحف: الجيش الدهم لذي يرى لكثرته كأنه يزحف، أي يدب دبيباً، من زحف الصبي إذا دبّ على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفرّوا، فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين. أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أُشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً، وتقدمه نهي لهم عن الفرار يومئذ.

١٦ - (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

وفي قوله: {وَمَن يُوَلّهِمْ يَوْمَئِذٍ} أمارة عليه {إِلاَّ مُتَحَرّفاً لّقِتَالٍ} هو الكرّ بعد الفرّ، يخيل عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها {أَوْ مُتَحَيّزاً} أو منحازاً {إلى فِئَةٍ} إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وعن ابن عمر رضي الله عنه: (خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت: يا رسول الله نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فئتكم). وانهزم رجل من القادسية، فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلكت، فررت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فئتك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. فإن قلت: بم انتصب {إِلاَّ مُتَحَرّفاً}؟ قلت: على الحال، وإلا لغو. أو على الاستثناء من المولين، أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرّفاً أو متحيزاً. وقرأ الحسن «دبره» بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوّز.

١٧ - (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاخر، فكان القائل يقول: قتلت وأسرت، ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <p (٤١٨) > " هذه قريش قد جاءت بخيلائها ونخرها يكذبون رسلك، اللهم إني أسألك ما وعدتني، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال: - لما التقى الجمعان - لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه " فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، فقيل لهم {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ} والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم {ولكن الله قَتَلَهُمْ} لأنه هو الذي أنزل

الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر وقوّى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع {وَمَا رَمَيْتَ} أنت يا محمد {إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى} يعني أنّ الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّ صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأنّ أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عزّ وجلّ، فكأن الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً. وقرئ «ولكن الله قتلهم» ولكن الله رمى، بتخفيف «لكن» ورفع ما بعده {وَلِيُبْلِيَ المؤمنين} وليعطيهم {بَلاء حَسَنًا} عطاء جميلاً. قال زهير:

فَأبلاهُمَا خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذِي يَبْلُو ...

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك {إِنَّ الله سَمِيعٌ} لدعائهم {عَلِيمٌ} بأحوالهم.

١٨ - (ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

" ذلكم " إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع: أي الغرض ذلكم وأن الله موهن " معطوف على ذلكم. يعني: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين. وقرئ: موهن بالتشديد. وقرئ على الإضافة وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال.

١٩ - (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح} خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهمّ انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا. وروي: أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين. وروي أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهمّ أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم، أي فأهلكه. وقيل: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ} خطاب للمؤمنين {وَإِن تَنتَهُواْ} خطاب للكافرين، يعني: وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم {فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} وأسلم {وَإِن تَعُودُواْ} لمحاربته {نَعُدْ} لنصرته عليكم {وَأَنَّ الله} قرئ بالفتح على: ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك وقرئ بالكسر، وهذه أوجه. ويعضدها قراءة ابن مسعود «والله مع المؤمنين» وقرئ «ولن يغني عنكم» بالياء للفصل.

٢٠ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)

{وَلاَ تَوَلَّوْاْ} قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها، والضمير في {عَنْهُ} لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّ المعنى: وأطيعوا رسول الله كقوله: الله ورسوله أحق أن يرضوه، ولأنّ طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد {مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله} [النساء: ٨] فكأن رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله وأنتم تسمعونه. أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصمّ المكذبين من الكفرة.

٢١ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

{وَلاَ تَكُونُواْ كالذين قَالُواْ سَمِعْنَا} أي ادّعوا السماع {وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} لأنهم ليسوا بمصدّقين فكأنهم غير سامعين. والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها، كان تصديقكم كلا تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن.

٢٢ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

ثم قال: {إِنَّ شَرَّ الدواب} أي إن شر من يدب على وجه الأرض. أوإنّ شر البهائم الذين هم صمّ عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من

جنس البهائم، ثم جعلهم شرّها.

٢٣ - (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

{وَلَوْ عَلِمَ اللهُ} في هؤلاء الصم البكم {خَيْرًا} أي انتفاعاً باللطف {لأَسْمَعَهُمْ} للطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا} عنه. يعني: ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف، فلذلك منعهم ألطافه. أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا، وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير، وسويد بن حرملة: كانوا يقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء. وعن ابن جريج: هم المنافقون. وعن الحسن: أهل الكتاب.

٢٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

{إِذَا دَعَاكُمْ} وحد الضمير كما وحده فيما قبله، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة. الطاعة والامتثال. وبالدعوة: البعث والتحريض. وروى أبو هريرة: " أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على باب أبيّ بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي. قال: ألم تخبر فيما أوحي إليّ {استجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك " وفيه قولان، أحدهما: إن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته {لِمَا يُحْيِيكُمْ} من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أنّ الجهل موت. ولبعضهم:

لاَ تُعْجِبَنَّ الْجَهُولَ حُلَّتُه ... فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ

وقيل لمجاهدة الكفار، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم، كقوله: {وَلَكُمْ فِي القصاص حياة} [البقرة: ١٧٩] وقيل للشهادة، لقوله: {بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبّهِمْ} [آل عمران: ١٦٩]. {واعلموا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ} يعني أنه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليماً كما يريده الله، فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله {واعلموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة. وقيل: معناه إنّ الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه، ويغير نياته ومقاصده، ويبدله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً، وبالنسيان ذكراً، وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى. فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر، وبينه وبين الكفر إذا آمن، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقيل معناه: أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله، لا يخفي عليه شيء من ضمائره، فكأنه بينه وبين قلبه. وقرئ: «بين المرّ» بتشديد الراء. ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء، كالخب، ثم نوى الوقف على لغة من يقول: مررت بعمر.

٢٥ - (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{فِتْنَةً} ذنبا. قيل هو إقرار المنكر بين أظهرهم. وقيل: افتراق الكلمة. وقيل: {فِتْنَةً} عذاباً. وقوله: {لاَّ تُصِيبَنَّ} لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر. أو نهياً بعد أمر. أو صفة لفتنة، فإذا كان جواباً، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً فعمهم الله بالعذاب، وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبنّ، ونظيره قوله:

حَتَّى إذَا جَنَّ الظَّلاَمُ وَاخْتَلَط ... جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطّ

أي بمذق مقول فيه هذا القول، لأنه سمار فيه لون [الورق] التي هي لون الذئب. ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود: «لتصيبنّ»،

على جواب القسم المحذوف. وعن الحسن: نزلت في عليّ وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير: نزلت فينا وقرأناها زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها. وعن السدي: نزلت في أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل. وروي: (أن الزبير كان يساير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، إذ أقبل عليّ رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف حبك لعليٍّ؟ فقال يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني أحبه كحبي لوالدي أو أشدّ حباً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله)، فإن قلت: كيف جاز أن يدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قلت: لأنّ فيه معنى النهي، إذا قلت: أنزل عن الدابة لا تطرحك، فلذلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبنّ ولا يحطمنكم. فإن قلت: فما معنى {مِنْ} في قوله: {الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ}؟ قلت: التبعيض على الوجه الأول، والتبيين على الثاني، لأنَّ المعنى: لا تصيبنكم خاصة على ظلماكم؛ لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس.

٢٦ - (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{إِذْ أَنتُمْ} نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف: أي اذكروا وقت كونكم أقلة أذلة مستضعفين {فِى الأرض} أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش {تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس} لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء منافين مضادّين {فَآوَاكُمْ} إلى المدينة {وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ} بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر {وَرَزَقَكُم مّنَ الطيبات} من الغنائم {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} إرادة أن تشكروا هذه النعم وعن قتادة: كان هذا الحيّ من العرب أذلّ الناس، وأشقاهم عيشا، وأعراهم جلداً، وأبينهم ضلالا، يؤكلون ولا يأكلون، فمكن الله لهم في البلاد، ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً.

٢٧ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

معنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه: تخوّنه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير فقيل: خان الدلو الكرب، وخان المشتار السبب لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له. ومنه قوله تعالى: {وَتَخُونُواْ أماناتكم} والمعنى لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه، ورسوله بأن لا تستنوا به. و {أماناتكم} فيما بينكم بأن لا تحفظوها {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} تبعة ذلك ووباله، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون، يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن. وروي: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى، هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبح، قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله فنزلت، فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك. فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي. فقال صلى الله عليه وسلم: يجزيك الثلث أن تتصدّق به. وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقيل: {أماناتكم} ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده. فإن قلت: {وَتَخُونُواْ} جزم هو أم نصب؟ قلت: يحتمل أن يكون جزماً داخلاً في حكم النهي وأن يكون نصباً بإضمار «أن» كقوله: {وَتَكْتُمُواْ الحق} [البقرة: ٤٢] وقرأ مجاهد: «وتخونوا أمانتكم»، على التوحيد.

٢٨ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

جعل الأموال والأولاد فتنة، لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب. أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده و {اللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدي إليه هممكم، وتزهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد؛ حتى تورّطوا أنفسكم من أجلهما، كقوله: {المال والبنون} الآية [الكهف: ٤٦] وقيل: هي من جملة ما نزل في أبي لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده.

٢٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

{فُرْقَانًا} نصراً؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله. ومنه قوله تعالى: {يَوْمَ الفرقان} [الأنفال: ٤١] أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: «بتّ أفعل كذا» حتى سطع الفرقان: أي طلع الفجر. أو مخرجاً من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور. أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة.

٣٠ - (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين} لما فتح الله عليه، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكرإذ يمكرون بك وذلك أن قريشاً - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوى متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها؛ وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناهم واسترحنا. فقال الشيخ - لعنه الله -: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأيا. فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: اتّشح ببردتي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم {ليثبتوك} ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعاً. وقرئ: (ليثبتوك)، بالتشديد. وقرأ النخعي: (ليثبتوك)، ومن البيات. وعن ابن عباس: (ليقيدوك)، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق {وَيَمْكُرُونَ} ويخفون المكايد له {وَيَمْكُرُ الله} ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة {والله خَيْرُ الماكرين} أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

٣١ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

{لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذا} نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلي دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يماتنهم واحد، فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهالكهم على أن يغمروه. وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك، وأنه من جملة تلك الأساطير.

٣٢ - (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

وهو القائل: {إِن كَانَ هذا هُوَ الحق} وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. ومراده نفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق، كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقاً، فأمطر علينا حجارة. وقوله: {هُوَ الحق} تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق. وقرأ الأعمش {هُوَ الحق} بالرفع، على أن هو مبتدأ غير فصل. وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال: أمطرت السماء، كقولك أنجمت وأسبلت ومطرت، كقولك: هتنت وهتلت، وقد كثر الأمطار في معنى العذاب. فإن قلت: ما فائدة قوله: {مّنَ السماء}؟ والأمطار لا تكون إلا منها. قلت: كأنه يريد أن يقال: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع {حِجَارَةً مّنَ السماء} موضع السجيل، كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد، تريد درعاً {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي بنوع آخر من جنس العذاب الأليم، يعني أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه. وعن معاوية أنه قال لرجل من سبإ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق {إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً} ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

٣٣ - (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

اللام لتأكيد النفي، والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة؛ لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه إشعار بأنهم مرصودون بالعذاب إذا هاجر عنهم. والدليل على هذا الإشعار قوله: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذّبَهُمُ الله} وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب، كأنه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم أن لا يعذبهم {وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} في موضع الحال.

٣٤ - (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

ومعناه نفي الاستغفار عنهم: أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم، كقوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧] ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا يتوقع ذلك منهم. وقيل معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين، {وَمَا لَهُمْ أَن لا يُعَذّبَهُمُ الله} وأي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم، يعني: لا حظّ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة. وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدّون عن المسجد الحرام كما صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الصدّ، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء {مَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ} وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ المتقون} من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام {ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة. أو أراد بالأكثر: الجميع، كما يراد بالقلة: العدم.

٣٥ - (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

المكاء: فعال بوزن الثغاء والرغاء، من مكا يمكو إذا صفر: ومنه المكاء، كأنه سمي بذلك لكثرة مكائه. وأصله الصفة، نحو الوضاء والفراء. وقرئ: (مكا) بالقصر. ونظيرهما البكي والبكاء. والتصدية: التصفيق، تفعلة من الصدى أو من صدَّ يصدّ، {إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} [الزخرف: ٥٧] وقرأ الأعمش: «وما كان صلاتهم» بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه، فإن قلت: ما وجه هذا الكلام؟ قلت: هو نحو من قوله:

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُه ... أَدَاهَمَ سُوداً أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْراً

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة: الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته يخلطون عليه {فَذُوقُواْ} عذاب القتل والأسر يوم بدر، بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

٣٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، كان يطعم كل واحد منهم كلّ يوم عشر جزائر. وقيل: قالوا لكل من كان له تجارة في العير: أعينوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر. وقيل: نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً {لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله} أي كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد وهو سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك {ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} أي تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكأن ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة {ثُمَّ يُغْلَبُونَ} آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا قبل ذلك فيرجعون طلقاء {كَتَبَ الله لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]. {والذين كَفَرُواْ} والكافرون منهم {إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه.

٣٧ - (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

{لِيَمِيزَ الله الخبيث} الفريق الخبيث من الكفار {مِنَ} الفريق {الطيب} من المؤمنين، فيجعل الفريق {الخبيث بَعْضَهُ على بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً} عبارة عن الجمع والضم، حتى يتراكبوا، كقوله تعالى: {كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} يعني لفرط ازدحامهم {أولئك} إشارة إلى الفريق الخبيث، وقيل: ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان في نصرته {فَيَرْكُمَهُ} فيجعله في جهنم في جملة ما يعذّبون به، كقوله: {فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ} الآية [التوبة: ٣٥]، واللام على هذا متعلقة بقوله: {ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} وعلى الأوّل يحشرون، وأولئك: إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ: ليميز على التخفيف.

٣٨ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ)

{قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} من أبي سفيان وأصحابه. أي قل لأجلهم هذا القول وهو {إِن يَنتَهُواْ} ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم، وهي قراءة ابن مسعود. ونحوه: {وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [الأحقاف: ١١] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه، أي إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام {يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ} لهم من العداوة {وَإِن يَعُودُواْ} لقتاله: {فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأولين} منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر. أو فقد مضت سنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم فدمّروا، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. وقيل: معناه أنّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي، وخرجوا منها كما تنسلّ الشعرة من العجين. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام. " الإسلام يجب ما قبله " وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط. وأما الذمي فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الآدميين. وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله في أنّ المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردّة. وقبلها، وفسر {وَإِن يَعُودُواْ} بالارتداد. وقرئ «يغفر لهم» على أن الضمير لله عز وجل.

٣٩ - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{وقاتلوهم حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ} ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده {فَإِنِ انْتَهَوْا} عن الكفر وأسلموا {فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} يثيبهم على توبتهم وإسلامهم. وقرئ: «تعملون»، بالتاء، فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام {بَصِيرٌ} يجازيكم عليه أحسن الجزاء.

٤٠ - (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

{وَإِن تَوَلَّوْا} ولم ينتهوا {فاعلموا أَنَّ الله مَوْلاكُمْ} أي ناصركم ومعينكم، فثقوا بولايته ونصرته.

٤١ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} ما موصولة. و {مِن شَىْء} بيانه. قيل: من شيء حتى الخيط والمخيط. {فَأَنَّ للَّهِ} مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فحق، أو فواجب أن لله خمسه. وروى الجعفي عن أبي عمرو، فإن لله بالكسر. وتقويه قراءة النخعي: «فللَّه خمسة». والمشهورة آكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، [و] لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه، من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ «خمسه» بالسكون فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفل، استحقوه حينئذٍ بالنصرة والمظاهرة، لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما، أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة: فقال صلى الله عليه وسلم: " إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد " وشبك بين أصابعه وثلاثة أسهم: لليتامى والمساكين، وابن السبيل. وأمّا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وأمّا عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين: كعدّة الغزاة من السلاح والكراع ونحو ذلك. وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين. والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك بن أنس رحمه الله: الأمر فيه مفوّض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم. فإن قلت: ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره عليه قلت: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول، لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله: {والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [التوبة: ٦٢] وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب. وأن يراد بقوله: {فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ} أن من حق الخمس أن يكون متقرّبا به إليه لا غير. ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة، تفضيلاً لها على غيرها.

كقوله تعالى: {وَجِبْرِيلَ وميكال} [البقرة: ٩٨] فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين. وعلى الثاني ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة. وعنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى. ثم يقسم ما بقي على خمسة. وقيل: إن سهم الله تعالى لبيت المال، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة. وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم

الخمس وقال: إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوّج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم، فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنيّ لا يعطى من الصدقة شيئاً، ولا يتيم موسر. وعن زيد بن علي رضي الله عنه: كذلك قال، ليس لنا أن نبني منه قصوراً، ولا أن نركب منه البراذين. وقيل: الخمس كله للقرابة. وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له: إنّ الله تعالى قال: {واليتامى والمساكين} [البقرة: ٨٣] فقال: أيتامنا ومساكيننا. وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لولي الأمر من بعده. وعن الكلبي رضي الله عنه أنّ الآية نزلت ببدر. وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة. فإن قلت: بم تعلق قوله: {إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللهِ}؟ قلت: بمحذوف يدل عليه {واعلموا} المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرّد، ولكنه العلم المضمن بالعمل، والطاعة لأمر الله تعالى، لأنّ العلم المجرّد يستوي فيه المؤمن والكافر {وَمَا أَنزَلْنَا} معطوف على {بِاللهِ} أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل: {على عَبْدِنَا} وقرئ «عبدنا» كقوله: {وَعَبَدَ الطاغوت} [المائدة: ٦٠] بضمتين {يَوْمَ الفرقان} يوم بدر. و {الجمعان} الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ {والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ} يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز، كما فعل بكم ذلك اليوم.

٤٢ - (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{إِذْ} بدل من يوم الفرقان. والعدوة: شط الوادي بالكسر والضم والفتح. وقرئ «بهنّ وبالعدية» على قلب الواو ياء، لأنّ بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية. والدنيا والقصوى: تأنيث الأدنى والأقصى. فإن قلت: كلتاهما «فعلى» من بنات الواو، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟ قلت: القياس هو قلب الواو ياء كالعليا. وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل. وقد جاء القصيا، إلا أنّ استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و «أغيلت» مع «أغالت» والعدوة الدنيا مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة {والركب أَسْفَلَ مِنكُمْ} يعني الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل. وأسفل: نصب على الظرف، معناه: مكاناً أسفل من مكانكم، وهو مرفوع المحل؛ لأنه خبر المبتدأ. فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين «وأن العير كانت أسفل منهم»؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته، وتكامل عدّته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم وأنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله سبحانه، ودليلاً على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوّته وباهر قدرته، وذلك أنّ العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل، ولا يمش فيها إلا بتعب ومشقة. وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها، تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم. ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم في القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم. وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر. ليقضي أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان {وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ} أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه القتال، لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله

صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله وسبب له {لِّيَقْضِيَ} متعلق بمحذوف، أي ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك.

وقوله: {لِيَهْلِكَ} بدل منه. واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة، لا عن مخالجة شبهة، حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغرّ المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها. وقرئ: «ليهلك» بفتح اللام وحي، بإظهار التضعيف {لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} يعلم كيف يدبر أموركم ويسوي مصالحكم. أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

٤٣ - (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ} نصبه بإضمار اذكر. أو هو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بقوله {لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك {فِى مَنَامِكَ} في رؤياك. وذلك أن الله عزّ وجل أراه في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. وعن الحسن: في منامك في عينك، لأنها مكان النوم، كما قيل للقطيفة: المنامة، لأنه ينام فيها. وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم عليه بكلام العرب وفصاحته {لَّفَشِلْتُمْ} لجبنتم وهبتم الإقدام {ولتنازعتم} في الرأي، وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم، وترجحتم بين الثبات والفرار {ولكن الله سَلَّمَ} أي عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور} يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

٤٤ - (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

{وَإِذَا يُرِيكُمُوهُمْ} الضميران مفعولان. معنى: وإذ يبصركم إياهم. و {قَلِيلاً} نصب على الحال، وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدّوا ويثبتوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً {وَيُقَلّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ} حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور. فإن قلت: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: {يَرَوْنَهُمْ مّثْلَيْهِمْ رَأْىَ العين} [آل عمران: ١٣] ولئلا يستعدوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أوّلاً وكثرتهم آخراً. فإن قلت: بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قلت بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟.

٤٥ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{إذا لَقِيتُمْ فِئَةً} إذا حاربتم جماعة من الكفار، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء اسم للقتال غالب {فاثبتوا} لقتالهم ولا تفرّوا {واذكروا الله كَثِيراً} في مواطن الحرب مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة. وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره. وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهده مع البغاة والخوارج - من البلاغة والبيان ولطائف المعاني، وبليغات المواعظ والنصائح - دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

٤٦ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)
{وَلاَ تنازعوا} قرئ بتشديد التاء {فَتَفْشَلُواْ} منصوب بإضمار أن، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ: «وتذهب ريحكم» بالتاء والنصب وقراءة من قرأ: «ويذهب ريحكم» بالياء والجزم والريح: الدولة، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها، فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. ومنه قوله:
يَا صَاحِبَيَّ أَلاَ لاَحَيَّ بِالْوَادِي ... إلاّ عبيدٌ قُعُودٌ بَيْنَ أذوَاد
أَتَنْظِرَانِ قَلِيلاً رَيْثَ غَفْلَتِهِم ... أَمْ تَعْدُوَانِ فَإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي
وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ".
٤٧ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)
حذرهم - بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي - نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم {كالذين خَرَجُواْ مِن ديارهم} هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدراً نشرب بها الخمور، وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب. فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله.
٤٨ - (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)
{و} اذكر {إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم} التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووسوس إليهم أنهما لا يغلبون ولا يطاقون، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم، أي بطل كيده حين نزلت جنود الله وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم. وقيل: لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب، فكان ذلك يثنيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني - وكان من أشرافهم - في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإني مجيركم من بني كنانة. فلما رأى الملائكة تنزل، نكص وقيل: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وفي الحديث: «وما رؤى إبليس يوماً أصغر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤي يوم بدر» فإن قلت: هلا قيل لا غالباً لكم كما يقال: لا ضارباً زيداً عندنا؟ قلت: لو كان (لكم) مفعولاً لغالب، بمعنى: لا غالباً إياكم لكان الأمر كما قلت، لكنه خبر تقديره: لا غالب كائن لكم.
٤٩ - (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
{إِذْ يَقُولُ المنافقون} بالمدينة {والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} يجوز أن يكون من صفة المنافقين، وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام. وعن الحسن: هم المشركون {غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} يعنون أنّ المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوّون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جواباً لهم {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَإِنَّ الله عَزِيزٌ} غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي.
٥٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)
{وَلَوْ تَرَى} ولو عاينت وشاهدت، لأن «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال. و {إِذْ} نصب

على الظرف وقرئ: «يتوفى» بالياء والتاء و {الملائكة} رفعها بالفعل و {يَضْرِبُونَ} حال منهم، ويجوز أن يكون في {يَتَوَفَّ} ضمير الله عز وجل، و {الملائكة} مرفوعة بالابتداء، و {يَضْرِبُونَ} خبر. وعن مجاهد: وأدبارهم: استاههم، ولكن الله كريم يكنى، وإنما خصوهما بالضرب. لأنّ الخزي والنكال في ضربهما أشدّه، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطي الرجل القوي البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض، فيضربه على دبره ضربه واحد بقوّته فيجمد في مكانه. وقيل: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر {وَذُوقُواْ} معطوف على {يَضْرِبُونَ} على إرادة القول: أي ويقولون ذوقوا {عَذَابَ الحريق} أي مقدمة عذاب النار. أو وذوقوا عذاب الآخرة: بشارة لهم به. وقيل: كانت معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا بها التهبت النار أو ويقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب {لَوْ} محذوف: أي لرأيت أمراً فظيعاً منكراً.

٥١ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

{ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة، و {ذلك} رفع بالابتداء و {بِمَا قَدَّمَتْ} خبره {وَأَنَّ الله} عطف عليه، أي ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله {لَيْسَ بظلام لّلْعَبِيدِ} لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين. وقيل: ظلام للتكثير لأجل العبيد أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه.

٥٢ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الكاف في محل الرفع: أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه: أي داوموا عليه وواظبوا. و {كَفَرُواْ} تفسير لدأب آل فرعون.

٥٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

و {ذلك} إشارة إلى ما حل بهم، يعني ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصحّ في حكمته أن يغير نعمته عند قوم {حتى يُغَيّرُواْ مَا} بهم من الحال. فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوإ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب {وَأَنَّ الله سَمِيعٌ} لما يقول مكذبو الرسل {عَلِيمٌ} بما يفعلون.

٥٤ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

{كَدَأْبِ ءالِ فِرْعَوْنَ} تكرير للتأكيد. وفي قوله: {بآيات رَبّهِمْ} زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب {وَكُلٌّ كَانُواْ ظالمين} وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

٥٥ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{الذين كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي أصروا على الكفر ولجوا فيه، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم.

٥٦ - (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ)

{الذين عاهدت مِنْهُمْ} بدل من الذين كفروا، أي الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود {وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار.

٥٧ - (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الحرب} فإما تصادفنهم وتظفرن بهم {فَشَرّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ} ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم، من وراءهم من الكفرة، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه «فشرذ» بالذال المعجمة بمعنى: ففرق، وكأنه مقلوب «شذر» من قولهم (ذهبوا شذر مذر)، ومنه: الشذر: المتلقط من المعدن لتفرّقه وقرأ أبو حيوة «من خلفهم» ومعناه: فافعل التشريد من ورائهم، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء وأوقعه فيه؛ لأن الوراء جهة المشردين، فإذا جعل الوراء ظرفاً للتشريد فقد دلّ على تشريد من فيه، فلم يبق فرق بين القراءتين {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} لعلّ المشردين من ورائهم يتعظون.

٥٨ - (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ} معاهدين {خِيَانَةً} ونكثاً بأمارات تلوح لك {فانبذ إِلَيْهِمْ} فاطرح إليهم العهد {على سَوَاء} على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بيناً أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك {إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخائنين} فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع وقيل: على استواء في العلم بنقض العهد. وقيل على استواء في العداوة. والجار والمجرور في موضع الحال، كأنه قيل: فانبذ إليهم ثابتاً على طريق قصد سوى، أو حاصلين على استواء في العلم أو العداوة، على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم معاً.

٥٩ - (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ)

{سَبَقُواْ} أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم {إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ} إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم وقرئ: أنهم بالفتح بمعنى: لأنهم، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل إلاَّ أنَّ المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح وقرئ: «يعجزون» بالتشديد وقرأ ابن محيصن: «يعجزون»، بكسر النون وقرأ الأعمش «ولا تحسبِ الذين كفروا» بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقرأ حمزة: «ولا يحسبن» بالياء على أن الفعل للذين كفروا وقيل فيه: أصله أن سبقوا، فحذفت أن، كقوله: {وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق} [الروم: ٢٤] واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: «أنهم سبقوا». وقيل: وقع الفعل على أنهم لا يعجزون، على أن «لا» صلة، وسبقوا في محل الحال، بمعنى سابقين أي مفلتين هاربين. وقيل معناه: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهوماً. وقيل: ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا. وهذه الأقاويل كلها متمحلة، وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة. وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

٦٠ - (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)

{مِن قُوَّةٍ} من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها. وعن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثاً. ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله. وعن عكرمة: هي الحصون، والرباط: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال وقرأ الحسن «ومن ربط الخيل» بضم الباء وسكونها جمع رباط. ويجوز أن يكون قوله: {وَمِن رّبَاطِ الخيل} تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به، كقوله: {وَجِبْرِيلَ وميكال} [البقرة: ٩٨] وعن ابن سيرين رحمه الله: أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله في الحصون؟ فقال: يشتري به الخيل، فترابط في سبيل الله ويغزي عليها، فقيل له: إنما أوصى في الحصون، فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

أَنَّ الْحُصُونَ الْخَيْلُ لاَ مَدَرُ الْقُرَى ...

{تُرْهِبُونَ} قرئ بالتخفيف والتشديد وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما «تخزون» والضمير في {بِهِ} راجع إلى ما استطعتم {عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ} هم أهل مكة {وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ} هم اليهود، وقيل: المنافقون وعن السدي: هم أهل فارس، وقيل: كفرة الجن، وجاء في الحديث: " إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق " وروي: أنّ صهيل الخيل يرهب الجن.

٦١ - (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

جنح له وإليه: إذا مال. والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب قال:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ ... وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

وقرئ بفتح السين وكسرها. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الآية منسوخة بقوله تعالى: {قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله} [التوبة: ٢٩] وعن مجاهد بقوله: {فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [التوبة: ٥] والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً وقرأ الأشهب العقيلي: «فاجنح» بضم النون {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإنّ الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم. قال مجاهد، يريد قريظة.

٦٢ - (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

{فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ} فإن محسبك الله: قال جرير:

إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ ... أَنْ تَلْبَسُوا خَزَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا

٦٣ - (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة، لأنّ العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية، والإنطواء على الضغينة في أدنى شئ وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا - لا يكاد يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتحدوا، وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب. فهو يقلبها كما شاء. ويصنع فيها ما أراد، وقيل: هم الأوس والخزرج، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤسائهم ودق جماجمهم، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى، وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تجتنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً، وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبليغ قدرته.

٦٤ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{وَمَنِ اتبعك} الواو بمعنى مع وما بعده منصوب، تقول: حسبك وزيداً درهم، ولا تجرّ؛ لأنّ عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع قال:

فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ عَضْبٌ مُهَنَّدُ ...

والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً أو يكون في محل الرفع: أي كفاك الله وكفاك المؤمنون، وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال، وعن ابن عباس رضي الله عنه نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير: أنه أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر، فنزلت.

٦٥ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

التحريض: المبالغة في الحث على الأمر من الحرض، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت، أو أن تسميه حرضاً: وتقول له: ما أراك إلا حرضاً في هذا الأمر وممرضاً فيه، ليهيجه ويحرّك منه. ويقال: حركه وحرضه وحرصه وحرشه وحربه، بمعنى، وقرئ «حرص»، بالصاد غير المعجمة، حكاها الأخفش، من الحرص، وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأييده، ثم قال: {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} أي بسبب أنَّ الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى.

٦٦ - (الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وعن ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب. قيل: ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه، وذلك بعد مدّة طويلة، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل: كان فيهم قلة في الابتداء، ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف. وقرئ «ضعفاً»، بالفتح والضم، كالمكث والمكث، والفقر والفقر. وضعفاً: جمع ضعيف. وقرئ الفعل المسند إلى المائة بالتاء والياء في الموضعين، والمراد بالضعف: الضعف في البدن. وقيل: في البصيرة والاستقامة في الدين، وكانوا متفاوتين في ذلك فإن قلت: لم كرّر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرّتين قبل التخفيف وبعده؟ قلت: للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت؛ لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

٦٧ - (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

وقرئ: «للنبي»، على التعريف وأسارى. ويثخن، بالتشديد. ومعنى الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك. ومعنى {مَا كَانَ} ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر، فلما كثر المسلمون نزل {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد: ٤] وروي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتي بسبعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب، فاستشار أبا بكر رضي الله عنه فيهم فقال: قومك وأهلك استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر رضي الله عنه: كذبوك وأخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء: مكن علياً من عقيل، وحمزة من العباس، ومكني من فلان لنسيب له، فلنضرب أعناقهم. فقال صلى الله عليه وسلم: " إنّ الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإنّ مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: " {فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦] " ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: " {رَّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الارض مِنَ الكافرين دَيَّاراً} [نوح: ٢٦] ثم قال لأصحابه: " أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق " وروي: أنه قال لهم: إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدّتهم، فقالوا: بل نأخذ الفداء، فاستشهدوا بأحد، وكان فداء الأسارى عشرين أوقية، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً وستة دنانير. وروي: أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - وروى أنه قال: لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ، رضي الله عنهما، لقوله كان الإثخان في القتل أحب إليّ {عَرَضَ الدنيا} حطامها، سمى بذلك لأنه حدث قليل اللبث، يريد

الفداء {والله يُرِيدُ الأخرة} يعني ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل وقرئ: «يريدون»، بالياء وقرأ بعضهم «والله يريد الآخرة»، بجرّ الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله كقوله:

أَكُلَّ امرئ تَحْسبِينَ امْرَأً ... وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَاً

ومعناه والله يريد عرض الآخرة. على التقابل، يعني ثوابها {والله عَزِيزٌ} يغلب أولياءه على أعدائه ويتكنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء، ولكنه {حَكِيمٌ} يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون.

٦٨ - (لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ} لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو أنه لا يعاقب أحد بخطأ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم. وقيل: كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها. وقيل: إن أهل بدر مغفور لهم. وقيل: إنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك {فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ} روي: أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها، فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء، لأنه من جملة الغنائم {واتقوا الله} فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

٦٩ - (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإن قلت: ما معنى الفاء؟ قلت: التسبيب والسبب محذوف، معناه: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالاً: نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر، أي أكلاً حلالاً، وقوله: {إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

٧٠ - (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{فى أَيْدِيكُم} في ملكتكم، كأن أيديكم قابضة عليهم وقرئ: «من الأسرى» {فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً} خلوص إيمان وصحة نية {يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ} من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة وفي قراءة الأعمش. «يثبكم خيراً» وعن العباس رضي الله عنه أنه قال: كنت مسلماً، لكنهم استكرهوني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك " فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا أو كان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس: " افد ابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد، تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال له: فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل؛ فقال العباس وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» " قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، فأمّا إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي. وروي: أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة) وقرأ الحسن وشيبة: «مما أُخِذَ منكم»، على البناء للفاعل.

٧١ - (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ} نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردّة واستحباب دين آبائهم {فَقَدْ خَانُواْ الله مِن قَبْلُ} في كفرهم به ونقض

ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه {فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة. وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء.

٧٢ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الذين هاجروا: أي فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله ورسوله: هم المهاجرون. والذي آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم: هم الأنصار {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرابات، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى {وَأُوْلُو الارحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ} وقرئ: «من ولايتهم»، بالفتح والكسر أي من توليهم في الميراث. ووجه الكسر أن تولى بعضهم بعضاً شبه بالعمل والصناعة، كأنه بتوليه صاحبه يزاول أمراً ويباشر عملاً {فَعَلَيْكُمُ النصر} فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين {إِلاَّ على قَوْمٍ} منهم {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ} عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدئون بالقتال، إذا الميثاق مانع من ذلك.

٧٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

{والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين {أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [الأنفال: ٧٢] ومعناه: نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانو أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً ثم قال: {إِلاَّ تَفْعَلُوهُ} أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار. ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً وقرئ «كثير» بالثاء.

٧٤ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

{أُوْلَئِكَ هُمُ المؤمنون حَقّاً} لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{والذين ءامَنُواْ مِن بَعْدُ} يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله: {والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان} [الحشر: ١٠] ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً {وَأُوْلُو الارحام} أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة {فِى كتاب الله} تعالى في حكمه وقسمته. وقيل في اللوح. وقيل في القرآن، وهو آية المواريث وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا».

٩ سورة التوبة:

سورة التوبة:

مدنية وآياتها تسع وعشرين ومائة
لها عدة أسماء: براءة التوبة المقشقشة المبعثرة المشردة المخزية الفاضحة المثيرة الحافرة المنكلة المدمدمة سورة العذاب لأن فيها التوبة على المؤمنين وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب والله ما تركت أحداً إلا نالت منه. فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور قلت: سأل عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا لن نضعها وكانت قصتها شبيهة بقصتها فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين. وعن أبي بن كعب: إنما توهموا ذلك لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود. وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ والمحاربة قال الله تعالى: " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً " النساء: ٩٤ قيل: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى فمن دعي إلى الله عز وجل فأجاب ودعي إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى وأما النبذ فإنما هو البراءة واللعنة وأهل الحرب لا يسلم عليهم ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس ولا بأس: هذا أمان كله. وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة كلتاهما نزلت في القتال تعدان السابعة من الطُّوَل وهي سبع وما بعدها المئون وهذا قول ظاهر لأنهما معاً مائتان وست فهما بمنزلة إحدى الطول. وقد اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.
١ - (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
{بَرَاءَةٌ} خبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة و {مِّنَ} لابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله {إِلَى الذين عَاهَدْتُمْ} كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان. ويجوز أن يكون {بَرَاءَةٌ} مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر {إِلَى الذين عَاهَدْتُمْ} كما تقول: رجل من بني تميم في الدار وقرئ «براءة» بالنصب، على: اسمعوا براءة وقرأ أهل نجران «مِن الله» بكسر النون والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته. والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم. فإن قلت: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أوّلاً فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما [تجدّد] من ذلك فقيل لهم: اعلموا أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين.
٢ - (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)
وروي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرض لهم، وهي الأشهر الحرم في قوله: {فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم} وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، فأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه؟ فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا عليّ سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. وروي: أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً، فرجع أبو بكر رضي الله

عنهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء قال: " نعم، فسر وأنت على الموسم، وعليّ ينادي بالآي " فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس، إني رسول رسول الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية.

وعن مجاهد رضي الله عنه ثلاثة عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: «أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده» فقالوا عند ذلك يا علي، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف. وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؛ لأنّ العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه. لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فأزيحت علتهم بتولية ذلك علياً رضي الله عنه فإن قلت: الأشهر الأربعة ما هي؟ قلت: عن الزهري رضي الله عنه أنّ براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وقيل هي عشرون من ذي الحجة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من شهر ربيع الآخر. وكانت حرماً؛ لأنهم أُومنوا فيها وحرّم قتلهم وقتالهم. أو على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها. وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول؛ لأنّ الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم، ثم صار في السنة الثانية من ذي الحجة. فإن قلت ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك؟ قلت: قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها {غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} لا تفوتونه وإن أمهلكم، وهو مخزيكم: أي مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

٣ - (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

{وَأَذَانٌ} ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها، ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال: عمرو معطوف على زيد، في قولك: زيد قائم، وعمرو قاعد، والأذان: بمعنى الإيذان وهو الإعلام، كما أنّ الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. فإن قلت: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قلت: تلك إخبار بثبوت البراءة. وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. فإن قلت: لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ قلت: لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث {يَوْمَ الحج الأكبر} يوم عرفة. وقيل: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، من الطواف. والنحر، والحلق، والرمي. وعن علي رضي الله عنه: أن رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: ما الحج الأكبر؟ قال يومك هذا. خل عن دابتي. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال " هذا يوم الحج الأكبر " ووصف الحج بالأكبر لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - فهو الحج الأكبر. وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً وقرئ «إنّ الله» بالكسر لأنّ الأذان في معنى القول {وَرَسُولُهُ} عطف على المنوي في {بريء} أو على محل «إن» المكسورة واسمها وقرئ بالنصب، عطفاً على اسم إن أو لأنّ الواو بمعنى مع: أي بريء معه منهم، وبالجرّ على الجوار. وقيل: على القسم، كقوله: لعمرك. ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء، فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية {فَإِن تُبْتُمْ} من الكفر والغدر {فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ} عن التوبة، أو ثبتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

٤ - (إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

فإن قلت: مم استثنى قوله {إِلاَّ الذين عاهدتم}؟ قلت: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: {فَسِيحُواْ فِى الأرض} [التوبة: ٢] لأن الكلام خطاب للمسلمين. ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فقولوا لهم سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم والاستثناء بمعنى الاستدراك، وكأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفيَّ كالغادر {إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين} يعني أنّ قضية التقوى أن لا يسوّي بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك {لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً} لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط {وَلَمْ يظاهروا} ولم يعاونوا {عَلَيْكُمْ} عدوّاً، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد:

لاَهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الأَتْلَدَا

إن قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدَا

فقال عليه الصلاة والسلام: " لا نصرت إن لم أنصركم " وقرئ: «لم ينقضوكم»، بالضاد معجمة أي لم ينقضوا عهدكم. ومعنى {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ} فأدّوه إليهم تامّاً كاملاً. قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحيّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتمّ إليهم عهدهم.

٥ - (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

انسلخ الشهر، كقولك انجرد الشهر، وسنة جرداء. و {الاشهر الحرم} التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا {فاقتلوا المشركين} يعني الذين نقضوكم وظاهروا عليكم {حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} من حلّ أو حرم {وَخُذُوهُمْ} وأسروهم. والأخيذ: الأسير {واحصروهم} وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد. وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام {كُلَّ مَرْصَدٍ} كلّ ممرّ مجتاز ترصدونهم به، وانتصابه على الظرف كقوله {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم} [الأعراف: ١٦]. {فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر. أو فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم كقوله:

خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ ...

وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام {إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

٦ - (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ)

{أَحَدٌ} مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء، لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين ما بعثت له فأمّنه {حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله} ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر {ثُمَّ أَبْلِغْهُ} بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا، لأنّ الله تعالى يقول: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك} الآية. وعن السُدّي والضحاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: {فاقتلوا المشركين} [التوبة: ٥]. {ذلك} أي

ذلك الأمر، يعني الأمر بالإجارة في قوله: {فَأَجِرْهُ}. {ب} سبب {أَنَّهُمْ} قوم جهلة {لاَّ يَعْلَمُونَ} ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

٧ - (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

{كَيْفَ} استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد، لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أضداد وغرة صدورهم، يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله: {إلاَّ الذين عاهدتم} أي ولكن الذين عاهدتم منهم {عِندَ المسجد الحرام} ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم {فَمَا استقاموا لَكُمْ} على العهد {فاستقيموا لَهُمْ} على مثله {إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين} يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين.

٨ - (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

{كَيْفَ} تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى ... فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلِيبُ

يريد: فكيف مات. أي: كيف يكون لهم عهد {و} حالهم أنهم {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ} بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم {لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ} لا يراعوا حلفاً. وقيل: قرابة. وأنشد لحسان رضي الله عنه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْش ... كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأَلِ النَّعَامِ

وقيل: {إِلاًّ} إلها وقرئ: «إيلا»، بمعناه وقيل: جبرئيل، وجبرئل، من ذلك. وقيل: منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه ان اشتقاق الإلّ بمعنى الحلف، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الأل وهو الجؤار، وله أليل: أي أنين يرفع به صوته. ودعت ألليها: إذا ولولت، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إلّ. وسميت به القرابة، لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق {يُرْضُونَكُم} كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل {وَأَكْثَرُهُمْ فاسقون} متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم، ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادي عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.

٩ - (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{اشتروا} استبدلوا {بآيات الله} بالقرآن والإسلام {ثَمَناً قَلِيلاً} وهو اتباع الأهواء والشهوات {فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ} فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم.

١٠ - (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

{هُمُ المعتدون} المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

١١ - (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

{فَإِن تَابُواْ} عن الكفر ونقض العهد {فَإِخوَانُكُمْ فِى الدين} فهم إخوانكم على حذف المبتدأ، كقوله تعالى: {فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم} [الأحزاب: ٥]، {وَنُفَصّلُ الآيات} ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

١٢ - (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

{وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ} وثلبوه وعابوه {فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر} فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّداً وطغياناً وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمدبشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعناً ظاهراً، جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمّة {إِنَّهُمْ لا أيمان لَهُمْ} جمع يمين: «وقرئ: لا إيمان لهم، أي لا إسلام لهم» أو لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث، ولا سبيل إليه، فإن قلت: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله: {وَإِن نَّكَثُواْ أيمانهم} ثم نفاها عنهم؟ قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا إيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يميناً. وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لا يوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث {لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ} متعلق بقوله {فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر} أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء. وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لاحن محرف.

١٣ - (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

{أَلاَ تقاتلون} دخلت الهمزة على {لاَ تقاتلون} تقريراً بانتفاء المقاتلة. ومعناه: الحضّ عليها على سبيل المبالغة {نَّكَثُواْ أيمانهم} التي حلفوها في المعاهدة {وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول} من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، حتى أذن الله تعالى له في الهجرة، فخرج بنفسه {وَهُم بَدَءوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادءون بالقتال والبادئ أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله، وأن تصدموهم بالشرّ كما صدموكم؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضّهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحضّ عليها. ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بأن لا تترك مصادمته، وأن يوبخ من فرط فيها {أَتَخْشَوْنَهُمْ} تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها {فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ} فتقاتلوا أعداءه {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلاّ ربه، ولا يبالي بمن سواه، كقوله تعالى: {وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله} [الأحزاب: ٣٩].

١٤ - (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

[و] لما وبخهم الله على ترك القتال، جرّد لهم الأمر به فقال: {قاتلوهم} ووعدهم - ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم - أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً، ويخزيهم أسراً، ويوليهم النصر والغلبة عليهم {وَيَشْفِ صُدُورَ} طائفة من المؤمنين، وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه، فقال: " أبشروا فإن الفرج قريب ".

١٥ - (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{وَيُذْهِبْ غَيْظَ} قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصّل الله لهم هذه المواعيد كلها، فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته {وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَاء} ابتداء كلام، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: «ويتوب» بالنصب بإضمار «أن» ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى {والله عَلِيمٌ} يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان {حَكِيمٌ} لا يفعل إلاّ ما اقتضته الحكمة.

١٦ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{أَمْ} منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان. والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة أي بطانة، من الذين يضادّون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم {وَلَمَّا} معناها التوقع، وقد دلّت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. وقوله: {وَلَمْ يَتَّخِذُواْ} معطوف على جاهدوا، داخل في حيز الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم المخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله. والوليجة: فعيلة من ولج، كالدخيلة من دخل. والمراد بنفي العلم نفي المعلوم، كقول القائل. ما علم الله مني ما قيل فيّ، يريد: ما وجد ذلك مني.

١٧ - (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ} ما صحّ لهم ما استقام {أَن يَعْمُرُواْ مساجد الله} يعني المسجد الحرام، لقوله: {وَعِمَارَةَ المسجد الحرام} وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان، أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها، دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد، لأنّ طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك. و {شاهدين} حال من الواو في {يَعْمُرُواْ} والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته. ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل: هو قولهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك. وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك، فطفق عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول. فقال العباس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجراً. إنا لنعمر المسجد الحرام. ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج ونفك العاني، فنزلت {حَبِطَتْ أعمالهم} التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة. وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبها، فما ظنك بالمقارن. وإلى ذلك أشار في قوله: {شاهدين} حيث جعله حالاً عنهم ودلّ على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة، وذلك محال غير مستقيم.

١٨ - (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله} وقرئ بالتوحيد: أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رمّ ما استرمّ منها، وقمها وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وتعظيمها، واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم، بل هو أجلّه وأعظمه، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «(يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة» وفي الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» وقال عليه [الصلاة و] السلام: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زوّاري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره» وعنه عليه [الصلاة و] السلام: «من ألف المسجد ألفه الله» وقال عليه [الصلاة و] السلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» وعن أنس رضي الله عنه: (من أسرج

في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه). فإن قلت: هلاّ ذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه [الصلاة و] السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان، والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه [الصلاة و] السلام. وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟ فإن قلت: كيف قيل: {وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهُ} والمؤمن يخشى المحاذير، ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ قلت: هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران: أحدهما حقّ الله، والآخر حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حقّ الله على حقّ نفسه. وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم {فعسى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ المهتدين} تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسن لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى. وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

١٩ - (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

السقاية والعمارة: مصدران من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بدّ من مضاف محذوف تقديره {أَجَعَلْتُمْ} أهل {سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ ءامَنَ بالله} تصدقه قراءة (ابن الزبير وأبي وجزة السعدي) وكان من القراء: «سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام»، والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوي بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر. وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل. وقيل: إن علياً رضي الله عنه قال للعباس: يا عمّ ألا تهاجرون، ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ألست في أفضل من الهجرة: أسقي حاجّ بيت الله، وأعمر المسجد الحرام، فلما نزلت قال العباس: ما أراني إلاّ تارك سقايتنا. فقال عليه السلام: " أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً ".

٢٠ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

هم {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله} من أهل السقاية والعمارة عندكم {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفائزون} لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم.

٢١ - (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

وقرئ: «يبشرهم» بالتخفيف والتثقيل، وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة.

٢٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلاّ بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا: يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة فنهى الله تعالى عن موالاتهم. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحبّ في الله ويبغض في الله: حتى يحبّ في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه "

٢٤ - (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا

أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وقرئ: «عشيرتكم» و «عشيراتكم»، وقرأ الحسن: وعشائركم {فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِىَ الله بِأَمْرِهِ} وعيد عن ابن عباس هو فتح مكة وعن الحسن هي عقوبة عاجلة أو آجلة. وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها بمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟.

٢٥ - (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

مواطن الحرب: مقاماتها ومواقفها قال:

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلاَيَ طُحْتَ كَمَا هَوَى ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِي

وامتناعه من الصرف لأنه جمع، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة: وقعات بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة. فإن قلت: كيف عطف الزمان والمكان وهو {يَوْمِ حُنَيْنٍ} على المواطن؟ قلت: معناه وموطن يوم حنين. أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين. ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذالظاهر. وموجب ذلك أنّ قوله: {إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ} بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصحّ؛ لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلاّ إذا نصبت «إذ» بإضمار «اذكر» وحنين: وادٍ بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة، منضماً إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب فكانوا الجمّ الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل قائلها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: أبو بكر رضي الله عنه وذلك قوله: {إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} فاقتتلوا قتالاً شديداً وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل، ليس معه إلاّ عمه العباس رضي الله تعالى عنه آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه صلى الله عليه وسلم، وما هي إلاّ من آيات النبوة وقال: يا ربي ائتني بما وعدتني. وقال صلى الله عليه وسلم للعباس - وكان صيتاً: صيح بالناس، فنادى الأنصار فخذاً فخذاً، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البقرة، فكرّوا عنقاً واحداً وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال: هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم به ثم قال: انهزموا ورب الكعبة فانهزموا، قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض. خلفهم على بغلته {بِمَا رَحُبَتْ} ما مصدرية، والباء بمعنى مع، أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أن الجارّ والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بثياب السفر، أي ملتبساً بها لم أحلها، تعني مع ثياب السفر.

والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب، فكأنها ضاقت عليكم {ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} ثم انهزمتم.

٢٦ - (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

{سَكِينَتَهُ} رحمته التي سكنوا بها وآمنوا {وَعَلَى المؤمنين} الذين انهزموا. وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

وقع الهرب {وَأَنزَلَ جُنُوداً} يعني الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً {وَعذَّبَ الذين كَفَرُواْ} بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري.

٢٧ - (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{ثُمَّ يَتُوبُ الله} أي يسلم بعد ذلك ناس منهم. وروي: أنّ ناساً منهم جاؤوا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. قيل: سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الأبل والغنم ما لا يحصى، فقال: إنّ عندي ما ترون، إنّ خير القول أصدقه، اختاروا: إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم. قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنّ هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء طابت نفسه أن يردّه فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه. قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا.

٢٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

النجس: مصدر، يقال: نجس نجساً، قذر قذراً. ومعناه ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنّهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ. وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين. وقرئ: «نجس»، بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس وهو تخفيف نجس، نحو: كبد، في كبد {فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام} فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية {بَعْدَ عَامِهِمْ هذا} بعد حجّ عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر على الموسم، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدلّ عليه قول عليّ كرّم الله وجهه حين نادى ببراءة: ألا لا يحجّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضي الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحة ويعزلوا عن ذلك {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً} أي فقراً بسبب منع المشركين من الحجّ وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ} من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدراراً، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية. وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: «عائلة»، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالاً عائلة. ومعنى قوله: {إِن شَاءَ} الله. إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم {إِنَّ الله عَلِيمٌ} بأحوالكم {حَكِيمٌ} لا يعطي ولا يمنع إلاّ عن حكمة وصواب.

٢٩ - (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

{مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب} بيان للذين مع ما في حيزه. نفى عنهم الإيمان بالله لأنّ اليهود مثنية والنصارى مثلثة. وإيمانهم باليوم الآخر

لأنهم فيه على خلاف ما يجب وتحريم ما حرّم الله ورسوله، لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة. وعن أبي روق: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل. وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده. سميت جزية، لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، أو لأنّهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل {عَن يَدٍ} إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ فمعناه على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد: أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك قالوا: أعطى بيده. إذا انقاد وأصحب. ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة، كما يقال: خلع ربقة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد. ولكن عن يد المعطي إلى يد الأخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم. لأنّ قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم {وَهُمْ صاغرون} أي تؤخذ منهم على الصغار والذل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم - والمتسلم جالس، وأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية، وإن كان يؤدّيها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض. واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة: تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابئ وحربي، إلاّ على مشركي العرب وحدهم. روى الزهري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية، إلاّ من كان من العرب وقال لأهل مكّة: «هل لكم في كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدّت إليكم العجم الجزية»، وعند الشافعي لا تؤخذ من مشركي العجم. والمأخوذ عند أبي حنيفة في أوّل سنة من الفقير الذي له كسب: اثنا عشر درهماً. ومن المتوسط في الغني: ضعفها، ومن المكثر: ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له. وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار، فقيراً كان أو غنياً، كان له كسب أو لم يكن.

٣٠ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

{عُزَيْرٌ ابن الله} مبتدأ وخبر، كقوله: المسيح ابن الله، وعزير: اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه: امتنع صرفه. ومن نوّن فقد جعله عربياً. وأمّا قول من قال: سقوط التنوين للالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: «أحد الله» أو لأنّ الابن وقع وصفاً والخبر محذوف وهو معبودنا، فتمحل عنه مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة، وما هو بقول كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامُ بنِ مشْكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا ذلك. وقيل: قاله فنحاص. وسبب هذا القول أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم فحفظه التوراة. فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلاّ لأنه ابنه. والدليل على أنّ هذا القول كان فيهم: أنّ الآية تليت عليهم، فما أنكروا ولا كذبوا، مع تهالكهم على التكذيب. فإن قلت: كل قول يقال بالفم فما معنى قوله: {ذلك قَوْلُهُم بأفواههم}؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلاّ لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدلّ على معان. وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له مقول بالفم لا غير. والثاني: أن يراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد {يضاهون} لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً. والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه. وقيل: الضمير للنصارى،

أي يضاهي قولهم: المسيح ابن الله، قول اليهود: عزير ابن الله، لأنهم أقدم منهم. وقرئ: «يضاهؤن» بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل: وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة كما في عرقئ {قاتلهم الله} أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا، تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم {أنى يُؤْفَكُونَ} كيف يصرفون عن الحق؟.

٣١ - (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

اتخاذهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرّم الله وتحريم ما حلّله، كما تطاع الأرباب في أوامرهم. ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به: عباده، بل كانوا يعبدون الجنّ {يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان} [مريم: ٤٤] وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: " أليسوا يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرّمه الله فتحلونه "؟ قلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم». وعن فضيل رضي الله عنه. ما أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وأمّا المسيح فحين جعلوه ابناً لله فقد أهلوه للعبادة. ألا ترى إلى قوله: {قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين} [الزخرف: ٨١]. {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إلها واحدا} أمرتهم بذلك أدلّة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة {سبحانه} تنزيه له عن الإشراك به، واستبعاد له. ويجوز أن يكون الضمير في {وَمَا أُمِرُواْ} للمتخذين أرباباً، أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلاّ ليعبدوا الله ويوحدوه، فكيف يصحّ أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم.

٣٢ - (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة. ليطفئه بنفخة ويطمسه.

٣٣ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

{لِيُظْهِرَهُ} ليظهر الرسول عليه السلام {عَلَى الدين كُلِّهِ} على أهل الأديان كلهم. أو ليظهر دين الحق على كل دين. فإن قلت: كيف جاز، أبى الله إلاّ كذا، ولا يقال: كرهت أو أبغضت إلا زيداً؟ قلت: قد أجرى «أبى» مجرى «لم يرد» ألا ترى كيف قوبل {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ} بقوله: {ويأبى الله} وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلاّ أن يتمّ نوره.

٣٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ. ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله. وإمّا على أن الأحوال يؤكل بها فهي سبب الأكل. ومنه قوله:

إنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا ... يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إكَافَا

يريد: علفاً يشترى بثمن إكاف. ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع {والذين يَكْنِزُونَ} يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز. وقيل: هي ثابتة، وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "

ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً " وعن عمر رضي الله عنه أنّ رجلاً سأله عن أرض له باعها فقال: أحرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك. قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدّى زكاته فليس بكنز وعن [ابن] عمر رضي الله عنهما: كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن [أبي] الجعد رضي الله عنهم أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تباً للذهب تباً للفضة " قالها ثلاثاً. فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال: " لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه " وبقوله عليه الصلاة والسلام: " من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها " وتوفي رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كية» وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال: «كيتان» قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأمّا بعد فرض الزكاة، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه، ويؤدّي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه. ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية، لأنّ الإعراض اختيار للأفضل، والإلاّ دخل في الورع والزهد في الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه، ولكل شيء حدّ.

وما روي عن علي رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما زاد فهو كنز. كلام في الأفضل. فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها، وقد ذكر شيئان؟ قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ: لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم، فهو كقوله: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا} وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال. وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب، كما أن معنى قوله:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ ...

وقيار كذلك. فإن قلت: لم خصّا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قلت: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلاّ من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

٣٥ - (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

فإن قلت: ما معنى قوله: {يُحْمَى عَلَيْهَا}؟ وهلا قيل: تحمى، من قولك: حمى الميسم وأحميته، ولا تقول: أحميت على الحديد؟ قلت: معناه أن النار تحمى عليها، أي توقد ذات حمى وحرّ شديد، من قوله: {نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة: ١١] ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى. فإن قلت: فإذا كان الإحماء للنار، فلم ذكر الفعل؟ قلت: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: يحمى عليها، لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير وعن ابن عامر أنه قرأ: «تحمى» بالتاء. وقرأ أبو حيوة: «فيكوى» بالياء. فإن قلت: لم خصّت هذه الأعضاء؟ قلت: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها في سبيل الله - إلاّ الأغراضَ الدنيوية، ومن وجاهة عند الناس، وتقدّم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ذهب أهل الدثور بالأجور " وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم. وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم {هذا مَا كَنَزْتُمْ} على إرادة القول. وقوله: {لأَنفُسِكُمْ} أي كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم {فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}. وقرئ: «تكنزون» بضم النون أي وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين.

٣٦ - (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا

فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

{في كتاب الله} فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصواباً. وقيل في اللوح: {أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} ثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، وواحد فرد وهو رجب. ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض» والسنة اثنا عشر شهراً: منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرّم. ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. والمعنى: رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجّة، وبطل النسئ الذي كان في الجاهلية، وقد وافقت حجّة الوداع ذا الحجّة، وكان حجّة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة {ذلك الدين القيم} يعني أنّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرّمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً: الأصم ومنصل الأسنة، حتى أحدثت النسئ فغيروا {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ} في الحرم {أَنفُسَكُمْ} أي لا تجعلوا حرامها حلالاً. وعن عطاء: تالله ما يحلّ للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلاّ أن يقاتلوا، وما نسخت، وعن عطاء الخراساني رضي الله عنه: أحلّت القتال في الأشهر الحرم براءة من الله ورسوله. وقيل: معناه لا تأثموا فيهن، بياناً لعظم حرمتهن، كما عظم أشهر الحجّ بقوله تعالى: {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ} الآية [البقرة: ١٩٧] وإن كان ذلك محرّماً في سائر الشهور {كَآفَّةً} حال من الفاعل أو المفعول {مَعَ المتقين} ناصر لهم، حثّهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

٣٧ - (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

والنسيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقّ عليهم ترك المحاربة، فيحلّونه ويحرّمون مكانه شهر آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرّمون من شقّ شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: {لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله} أي ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين. وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عزّ وعلا {إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً} [التوبة: ٣٦] يعني من غير زيادة زادوها. والضمير في: يحلونه، ويحرّمونه للنسيء. أي إذا أحلّوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا فحرّموه في العام القابل، وروي: أنه حدث ذلك في كنانة لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إنّ آلهتكم قد أحلّت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول: إنّ آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. جعل النسيء زيادة في الكفر، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥]، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً {فَزَادَتْهُمْ إيمانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]. وقرئ: «يُضِل» على البناء للمفعول، و «يَضَل» بفتح الياء والضاد، و {يُضَلُّ} على أن الفعل لله عزّ وجلّ. وقرأ الزهري: «ليوطئوا» بالتشديد. والنسيء مصدر نسأه إذا أخره. يقال نسأه ونسأ ونساء ونسيئاً، كقولك: مسه مساً ومساساً ومسيساً. وقرئ بهنّ جميعاً. وقرئ: «النَسَى» بوزن الندى. و «النِسي» بوزن النهي، وهما تخفيف النسئ والنسء. فإن قلت: ما معنى قوله: {فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ الله}؟ قلت: معناه فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرّم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها {زُيّنَ لَهُمْ سُوء أعمالهم} خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة {والله لاَ يَهْدِى} أي لا يلطف بهم بل يخذلهم. وقرئ: «زين لهم سوء أعمالهم» على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ.

٣٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ)

{اثاقلتم} تثاقلتم. وبه قرأ الأعمش، أي تباطأتم وتقاعستم. وضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بإلى. والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، ونحوه: {أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٦] وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وقرئ: «أثاقلتم»؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ. فإن قلت: فما العامل في «إذا» وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ قلت: ما دلّ عليه قوله: {اثاقلتم} أو ما في {مَالَكُمْ} من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائماً، وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف. استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو، فشقّ عليهم. وقيل: ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة إلاّ ورّى عنها بغيرها إلاّ في غزوة تبوك ليستعدّ الناس تمام العدة {مِنَ الاخرة} أي بدل الآخرة كقوله: لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ملائكة [الزخرف: ٦٠]. {فِى الآخرة} في جنب الآخرة.

٣٩ - (إلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{إِلاَّ تَنفِرُواْ} سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً: وقيل: الضمير للرسول: أي ولا تضروه، لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: {قَوْماً غَيْرَكُمْ} [التوبة: ٣٩] أهل اليمن. وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

٤٠ - (إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فإن قلت: كيف يكون قوله: {فَقَدْ نَصَرَهُ الله} جواباً للشرط؟ قلت: فيه وجهان أحدهما: إلاّ تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلاّ رجل واحد ولا أقل من الواحد، فدلّ بقوله: {فَقَدْ نَصَرَهُ الله} على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت، فلن يخذل من بعده. وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله: {مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ} [محمد: ١٣] لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه {ثَانِيَ اثنين} أحد اثنين، كقوله: {ثالث ثلاثة} وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى: (أنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر) وانتصابه على الحال. وقرئ: «ثاني اثنين» بالسكون و {إِذْ هُمَا} بدل من إذ أخرجه. والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً {إِذْ يَقُولُ} بدل ثان.

وقيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللّهم أعم أبصارهم " فجعلوا يتردّدون حول الغار ولا يفطنون. وقد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر، لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة {سَكِينَتَهُ} ما ألقى في قلبه من الأمنة، التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه، والجنود الملائكة يوم بدر، والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا: دعوتهم إلى الكفر {وَكَلِمَةُ الله} دعوته إلى الإسلام. وقرئ: « كلمة الله» بالنصب، والرفع أوجه و {هِىَ} فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلوّ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

٤١ - (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{خِفَافًا وَثِقَالاً} خفافاً في النفور لنشاطكم له، وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو خفافاً لقلة عيالكم وأذيالكم، وثقالاً لكثرتها. أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه. أو ركباناً ومشاة. أو شباباً وشيوخاً. أو مهازيل وسماناً. أو صحاحاً ومراضاً. وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول

الله صلى الله عليه وسلم: أعليّ أن أنفر؟ قال: نعم، حتى نزل قوله: {لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ} [النور: ٦١]. وعن ابن عباس: نسخت بقوله: {لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى} [التوبة: ٩١] وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو. فقلت: يا عمّ لقد أعذر الله إليك فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، إلا أنه من يحبه الله يبتله. وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنّي الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع {وجاهدوا بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ} إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

٤٢ - (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، أي لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال {وَسَفَرًا قَاصِدًا} وسطاً مقارباً {الشقة} المسافة الشاقّة. وقرأ عيسى بن عمر: «بعدت عليهم الشقة» بكسر العين والشين ومنه قوله:

يَقُولُونَ لاَ تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَه ... وَلاَ بُعْدَ إلاّ مَا تُوَارِي الصَّفَائِحُ

{بالله} متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين، أي سيحلفون بعني المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله {لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} أو سيحلفون بالله ويقولون: لو استطعنا، وقوله: {لَخَرَجْنَا} سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم. وقد كان من جملة المعجزات. ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان، كأنهم تمارضوا. وقرئ: «لو استطعنا»، بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: {فَتَمَنَّوُاْ الموت} [البقرة: ٩٤]. {يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ} إما أن يكون بدلاً من سيحلفون، أو حالاً بمعنى مهلكين. والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف. ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: {لَخَرَجْنَا} أي لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

٤٣ - (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

{عَفَا الله عَنكَ} كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. و {لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ} بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلاّ استأنيت بالإذن {حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ} من صدق في عذره ممن كذب فيه. وقيل: شيئان فعلهما رسول الله ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى.

٤٤ - (لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

{لاَ يَسْتَأْذِنُكَ} ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبداً، ولنجاهدنّ أبداً معه بأموالنا وأنفسنا. ومعنى {أَن يجاهدوا} في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا {والله عَلِيمٌ بالمتقين} شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجزل الثواب.

٤٥ - (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ} يعني المنافقين، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً {يَتَرَدَّدُونَ} عبارة عن التحير، لأنّ التردد ديدن المتحير، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر. وقرئ: «عدة»، بمعنى عدّته فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا ...

من حذف تاء التأنيث، وتعويض المضاف إليه منها.
٤٦ - (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)
وقرئ: «عِدة» بكسر العين بغير إضافة، و «عدة» بإضافة. فإن قلت: كيف موقع حرف الاستدراك؟ قلت: لما كان قوله: {وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج} معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو. قيل: {ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم} كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم، كما تقول: ما أحسن إليَّ زيد، ولكن أساء إليّ {فَثَبَّطَهُمْ} فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث {وَقِيلَ اقعدوا} جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود. وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة. وقيل: هو قولهم لأنفسهم. وقيل: هو إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم في القعود. فإن قلت: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة، وتعالى الله عن إلهام القبيح؟ قلت: خروجهم كان مفسدة، لقوله: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً}.
٤٧ - (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة. فإن قلت: فلم خطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأذن لهم فيما هو مصلحة؟ قلت: لأنّ إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها، فمن ثم أتاه العتاب ويجوز أن يكون في ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت عليهم الحجّة ولم تبق لهم معذرة. ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق، وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فإن قلت: ما معنى قوله: {مَعَ القاعدين}؟ قلت: هو ذمّ لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون والخوالف، ويبينه قوله تعالى: {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف} [التوبة: ٨٧، ٩٣]. {إِلاَّ خَبَالاً} ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأنَّ الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلاّ خبالا، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعمّ العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً، لأنّ الخبال بعض أعمّ العام كأن قيل ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً والخبال الفساد والشر {ولأَوْضَعُواْ خلالكم} ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين.
يقال: وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم؛ لأنّ الراكب أسرع من الماشي. وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: «ولأرقصوا» من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها قال:
وَالرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنى فَالْغَبْغَبِ ...
وقرئ: «ولأوفضوا» فإن قلت: كيف خطّ في المصحف: ولا أوضعوا، بزيادة ألف؟ قلت: كانت الفتحة تكتب إلفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحتها ألفاً أخرى، ونحو: أو لا أذبحنه.
٤٨ - (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)
{يَبْغُونَكُمُ الفتنة} يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم {وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ} أي نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم. أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم {وَلَقَدْ ابتغوا الفتنة} أي العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك، كما فعل عبد الله بن أبيّ يوم أحد حين انصرف بمن معه وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله

صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به {مِن قَبْلُ} من قبل غزوة تبوك {وَقَلَّبُواْ لَكَ الامور} ودبروا لك الحيل والمكايد، ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك. وقرئ: «وقلبوا» بالتخفيف {حتى جَاء الحق} وهو تأييدك ونصرك {وَظَهَرَ أَمْرُ الله} وغلب دينه وعلا شرعه.

٤٩ - (وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

{ائذن لّي} في القعود {وَلاَ تَفْتِنّى} ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم، بأن لا تأذن لي فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت. وقيل: ولا تلقني في الهلكة، فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجدّ بن قيس: قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتنّي ببنات الأصفر يعني نساء الروم، ولكني أعينك بمال فاتركني. وقرئ: «ولا تفتني» من أفتنه {أَلا فِى الفتنة سَقَطُواْ} أي إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف. وفي مصحف أبيّ رضي الله عنه: سقط؛ لأنّ «من» موحد اللفظ مجموع المعنى {لَمُحِيطَةٌ بالكافرين} يعني أنها تحيط بهم يوم القيامة. أو هي محيطة بهم الآن؛ لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

٥٠ - (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

{إِن تُصِبْكَ} في بعض الغزوات {حَسَنَةٌ} ظفر وغنيمة {تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ} نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الإنحراف عنك، و {يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا} أي أمرنا الذي نحن متسمون به، من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم {مِن قَبْلُ} من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم {وَّهُمْ فَرِحُونَ} مسرورون. وقيل: تولوا: أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٥١ - (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «قل هل يصيبنا»، وقرأ طلحة رضي الله عنه: «هل يصيّبنا»، بتشديد الياء. ووجهه أن يكون «يفعيل» لا «يفعل» لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب، وصاب السهم يصوب، ومصاوب في جمع مصيبة، فحقّ «يفعل» منه «يصوّب» ألا ترى إلى قولهم: صوّب رأيه، إلاّ أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب. ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: {إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا} مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلاّ ما اختصنا الله [به] بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة. ألا ترى إلى قوله: {هُوَ مولانا} أي الذي يتولانا ونتولاه، ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون} وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ما هو حقهم.

٥٢ - (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

{إِلا إِحْدَى الحسنيين} إلاّ إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب، وهما النصرة والشهادة {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ} إحدى السوأتين من العواقب، إمّا {أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مّنْ عِندِهِ} وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود {أَوْ} بعذاب {بِأَيْدِينَا} وهو القتل على الكفر {فَتَرَبَّصُواْ} بنا ما ذكرنا من عواقبنا {إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبّصُونَ} ما هو عاقبتكم، فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه.

٥٣ - (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

{أَنفِقُواْ} يعني في سبيل الله ووجوه البر {طَوْعاً أَوْ كَرْهاً} نصب على الحال، أي طائعين أو مكرهين. فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: {لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ}؟ قلت: هو أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى: {قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً} [مريم: ٧٥] ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله تعالى: {استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠] وقوله:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً ...
أي لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك - أسأت إلينا أم أحسنت. فإن قلت: متى يجوز نحو هذا؟ قلت: إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له، فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أنّ كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوّة محبتي لك، وعامليني بالإساءة. والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل:
أَخُوكَ الَّذِي إنْ قُمْتَ بِالسَّيفِ عَامِدا ... لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ فِي الْوُدِّ
وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه؟ فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبل؟ أهو ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً. وقوله: {طَوْعاً أَوْ كَرْهاً} معناه طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين. وسمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه. أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم. وروي: أنها نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مالي أعينك به فاتركني {إِنَّكُمْ} تعليل لردّ إنفاقهم. والمراد بالفسق: التمرّد والعتو.

٥٤ - (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ)

{أَنَّهُمْ} فاعل منع. وهم، وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: «أن تقبل»، بالتاء والياء على البناء للمفعول. ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد. وقرأ السلمي: «أن يقّبل منهم نفقاتهم» على أن الفعل لله عزّ وجلّ {كسالى} بالضم والفتح، جمع كسلان، نحو سكارى وغيارى، في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين} [البقرة: ٤٥] وقرأت في بعض الأخبار: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول: كسلت، كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإنّ الكسل من صفات المنافقين، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه. فإن قلت: الكراهية خلاف الطواعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله {طَوْعاً} ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلاّ وهم كارهون. قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلاّ عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

٥٥ - (فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

الإعجاب بالشيء: أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه. والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، كقوله تعالى: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ} [طه: ١٣١] فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرضه للتغنم والسبي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم. فإن قلت: إن صحّ تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى، فما بال زهوق أنفسهم {وَهُمْ كافرون}؟ قلت: المراد الاستدراج بالنعم، كقوله تعالى: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً} [آل عمران: ١٧٨] كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

٥٦ - (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

{لَمِنكُمْ} لمن جملة المسلمين {يَفْرَقُونَ} يخافون القتل وما يفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تقية.

٥٧ - (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

{مَلْجَئاً} مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة {أَوْ مغارات} أو غيراناً. وقرئ بضم الميم، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور. وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم. ويجوز أن يكون من: أغار الثعلب، إذا أسرع، بمعنى مهارب ومفارّ {أَوْ مُدَّخَلاً} أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون، وهو مفتعل من الدخول. وقرئ مدخلاً من دخل ومدخلاً من أدخل: مكاناً يدخلون فيه أنفسهم. وقرأ أبيّ بن كعب رضي الله عنه: متدخلاً وقرئ: لو ألوا إليه لالتجؤا إليه {يَجْمَحُونَ} يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يردّه اللجام. وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمزون. فسئل فقال: يجمحون ويجمزون ويشتدّون واحد.

٥٨ - (وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

{يَلْمِزُكَ} يعيبك في قسمه الصدقات ويطعن عليك. قيل: هم المؤلفة قلوبهم. وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه " ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ " وقيل: هو أبو الجواظ، من المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكما إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون». وقرئ: يلمزك بالضم، ويلمزك ويلامزك. التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين وما فيه صلاح أهله، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة: أي وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط.

٥٩ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

جواب «لو» محذوف تقديره: لو أنهم رضوا لكان خيراً لهم. والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أتانا اليوم {إِنَّا إِلَى الله} في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون.

٦٠ - (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاءِ} قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها، لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم. ونحوه قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها، وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزاك. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحبّ إليّ. وعند الشافعيّ رضي الله عنه، لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية وعن عكرمة رضي الله عنه أنها تفرق في الأصناف الثمانية. وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية {والعاملين عَلَيْهَا} السعاة الذين يقبضونها {والمؤلفة قُلُوبُهُمْ} أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة. والرقاب: المكاتبون يعانون منها. وقيل: الأسارى. وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق {والغارمين} الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب. وقيل: الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا {وَفِى سَبِيلِ الله} فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم {وابن السبيل} المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غنيّ حيث ماله {فَرِيضَةً مّنَ الله} في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله إنما

الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم. وقرئ: «فريضة» بالرفع على: تلك فريضة. فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأن «في» للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة أو الرقّ أو الأسر، وفي فكّ الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير «في» في قوله: {وَفِى سَبِيلِ الله وابن السبيل} فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. فإن قلت: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم؟ قلت: دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم، حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه؟.

٦١ - (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذنٌ سامعة، ونظيره قولهم للربيئة. عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه {هُوَ أُذُنٌ}. وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك ودلّ عليه قراءة حمزة «ورحمةٍ» بالجرّ عطفاً عليه أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلاّ أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة. وقيل: إنّ جماعة منهم ذمّوه صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم. وقرئ: «أذن خير لكم»، على أن أذن خبر مبتدإ محذوف، وخير كذلك، أي هو أذن هو خير لكم يعني إن كان كما تقولون فهو خير لكم، لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم. وقرأ نافع بتخفيف الذال. فإن قلت: لم عدّي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدّي بالباء وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه، لكونهم صادقين عنده، فعدّي باللام، ألا ترى إلى قوله: {وَما أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين} [يوسف: ١٧] ما أنبأه عن الباء. ونحوه: {فما آمن لموسى إلاّ ذرية من قومه} [يونس: ٨٣]، {أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون} [الشعراء: ١١١]، {ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ} [طه: ٧١] فإن قلت: ما وجه قراءة ابن أبي عبلة: ورحمة بالنصب؟ قلت: هي علة معللها محذوف تقديره: ورحمة لكم يأذن لكم، فحذف لأنّ قوله: {أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ} يدلّ عليه.

٦٢ - (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

{لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ} الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مرضيّ واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني

وجبر مني. أو والله أحقّ أن يرضوه، ورسوله كذلك.
٦٣ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)
المحادة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ {فَأَنَّ لَهُ} على حذف الخبر، أي: فحق أن له {نَارِ جَهَنَّمَ} وقيل: معناه فله، وأنّ: تكرير؛ لأن في قوله: {أَنَّهُ} تأكيداً، ويجوز أن يكون {فَأَنَّ لَهُ} معطوفاً على أنه، على أن جواب {مَن} محذوف تقديره: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له نار جهنم. وقرئ: «ألم تعلموا» بالتاء.
٦٤ - (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)
كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم؛ حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلاّ شرّ خلق الله، لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين. وفي قلوبهم: للمنافقين. وصحّ ذلك لأن المعنى يقود إليه. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم. ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها. وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أي ليحذر المنافقون. فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: {يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ} فما معنى قوله: {مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}؟ قلت: معناه محصل مبرز إنزال السورة. أو أنّ الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أي تحذرون إظهاره من نفاقكم.
٦٥ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)
بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا عليّ الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر {أبالله وءاياته وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تستهزئون} لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.
٦٦ - (لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)
{لاَ تَعْتَذِرُواْ} لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم {قَدْ كَفَرْتُمْ} قد ظهر كفركم باستهزائكم {بَعْدَ إيمانكم} بعد إظهاركم الإيمان {إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مّنكُمْ} بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق {نُعَذّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ} مصرين على النفاق غير تائبين منه. أو أن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزئوا فلم نعذبهم في العاجل نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير: لأنّ المسند إليه الظرف، كما تقول: سير بالدابة. ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى، كأنه قيل: إن ترحم طائفة، فأنث لذلك وهو غريب، والجيد قراءة العامّة: إن يعف عن طائفة، بالتذكير. وتعذب طائفة، بالتأنيث. وقرئ: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وجلّ.
٦٧ - (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
{بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ} أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: {وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ} [التوبة: ٥٦] وتقرير قوله: {وَمَا هُم مّنكُمْ} [التوبة: ٥٦] ثم وصفهم بما يدلّ على مضادة حالهم لحال المؤمنين {يَأْمُرُونَ بالمنكر} بالكفر والمعاصي {وَيَنْهَوْنَ عَنِ

المعروف} عن الإيمان والطاعات {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} شحا بالمبارّ والصدقات والإنفاق في سبيل الله {نَسُواْ اللهَ} أغفلوا ذكره {فَنَسِيَهُمْ} فتركهم من رحمته وفضله {هُمُ الفاسقون} هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرّد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: {كسالى} [النساء: ١٤٢] فما ظنك بالفسق.

٦٨ - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

{خالدين فِيهَا} مقدّرين الخلود {هِىَ حَسْبُهُمْ} دلالة على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه {وَلَعَنَهُمُ اللهُ} وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المكرمين {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار، مقيم دائم كعذاب النار. ويجوز أن يريد: ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن، خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

٦٩ - (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

الكاف محلها رفع على: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو نصب على: فعلتم ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا. ونحوه قول النمر:

كَالْيَوْمِ مَطْلُوباً وَلاَ طَلَبَا ...

بإضمار «لم أر» وقوله: {كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً} تفسير لتشبيههم بهم، وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب وهو ما خلق للإنسان، أي قدّر من خير، كما قيل له «قسم» لأنه قسم. ونصيب، لأنه نصب، أي أثبت. والخوض: الدخول في الباطل واللهو {كالذي خَاضُواْ} كالفوج الذي خاضوا، وكالخوض الذي خاضوه. فإن قلت: أي فائدة في قوله: {فاستمتعوا بخلاقهم} وقوله: {كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بخلاقهم} مغن عنه كما أغنى قوله: {كالذي خَاضُواْ} عن أن يقال: وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قلت: فائدته أن يذمّ الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله. وأما {وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ} فمعطوف على ما قبله مستند إلى مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة {حَبِطَتْ أعمالهم فِي الدنيا والآخرة} نقيض قوله: {وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [العنكبوت: ٢٧].

٧٠ - (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{وأصحاب مَدْيَنَ} وأهل مدين وهم قوم شعيب {والمؤتفكات} مدائن قوم لوط. وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح. وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر {فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ} فما صحّ منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

٧١ - (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} في مقابلة قوله في المنافقين: {بَعْضُهُم مّن بَعْضٍ}. {سَيَرْحَمُهُمُ الله} السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يوماً، تعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً} [مريم: ٩٦]، {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى} [الضحى: ٥]، {سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ} [النساء: ١٥٢]. {عَزِيزٌ} غالب على كل شيء قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب {حَكِيمٌ} واضع كلا موضعه على حسب الاستحقاق.

٧٢ - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

{ومساكن طَيّبَةً} عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و {عَدْنٍ} علم، بدليل قوله: {جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن} [مريم: ٦١] ويدلّ عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصدّيقون، والشهداء. يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك» وقيل: هي مدينة في الجنة. وقيل: نهر جناته على حافاته {ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ} وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت. وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المرّة من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده {ذلك} إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان: أي هو {الفوز العظيم} وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً. وروى: " أنّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً ".

٧٣ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

{جاهد الكفار} بالسيف {والمنافقين} بالحجّة {واغلظ عَلَيْهِمْ} في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، وعن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه فإن لم يستطع فبقلبه. يريد الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

٧٤ - (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد. فقال الجُلاَس: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا، فنحن شرّ من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل، والله إنّ محمداً لصادق وأنت شرّ من الحمار. وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللّهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزلت {يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ} فقال الجلاس: يا رسول الله، لقد عرض الله عليّ التوبة. والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته {وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم} وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام {وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ} وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك عند مرجعه من تبوك: تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر

بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا. وقيل: همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبيّ وإن لم يرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم {وَمَا نَقَمُواْ} وما أنكروا وما عابوا {إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ} وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى {فَإِن يَتُوبُواْ} هي الآية التي تاب عندها الجلاس {فِي الدنيا والآخرة} بالقتل والنار.

٧٥ - (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

روي: أنّ ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا ثعلبة، قليل تؤدّي شكره وخير من كثير لا تطيقه» فراجعه وقال: والذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حقّ حقّه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد. قال: «يا ويح ثعلبة»، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلاّ جزية، ما هذه إلاّ أخت الجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه: «يا ويح ثعلبة» مرّتين، فنزلت، فجاءه ثعلبة بالصدقة، فقال: «إنّ الله منعني أن أقبل منك، فجعل التراب على رأسه فقال: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه. وقرئ: «لنصدّقن ولنكوننْ» بالنون الخفيفة فيهما {مِّنَ الصالحين} قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحجّ.

٧٧ - (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

{فَأَعْقَبَهُمْ} عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما: أن الضمير للبخل. يعني: فأورثهم البخل {نِفَاقاً} متمكناً {فِي قُلُوبِهِمْ} لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه. والظاهر أن الضمير لله عزّ وجلّ. والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين. ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ: «يكذبون»، بالتشديد، وألم تعلموا، بالتاء. عن عليّ رضي الله عنه.

٧٨ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

{سِرَّهُمْ ونجواهم} ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها.

٧٩ - (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{الذين يَلْمِزُونَ} محله النصب أو الرفع على الذمّ. ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم. وقرئ: «يلمزون»، بالضم {المطوعين} المتطوّعين المتبرعين. روي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب. وقيل: بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت " - فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً - وتصدّق عاصم بن عديّ بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بتّ ليلتي أجرّ بالجرير على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون

وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاّ رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبّ أن يذكر بنفسه ليعطي من الصدقات، فنزلت {إِلاَّ جُهْدَهُمْ} إلاّ طاقتهم. قرئ بالفتح والضم {سَخِرَ الله مِنْهُمْ} كقوله: {الله يستهزئ بِهِمْ} [البقرة: ١٥] في أنه دعاء. ألا ترى إلى قوله: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

٨٠ - (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فنزلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين " فنزلت: {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [المنافقون: ٦] وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير، قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لأُصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنَ الْعَاصِي ... سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي

فإن قلت: كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله: {ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ}. . . الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: «قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين» قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه، كقول إبراهيم عليه السلام {وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦] وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة: لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

٨١ - (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

{المخلفون} الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان {بِمَقْعَدِهِمْ} بقعودهم عن الغزو {خلاف رَسُولِ الله} خلفه. يقال: أقام خلاف الحي. بمعنى بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حيوة: خلف رسول الله. وقيل: هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال، أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له {أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنْفُسِهِمْ} تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاقّ العظام لوجه لله تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض. وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا} استجهال لهم، لأنّ من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوُّن في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل: ولبعضهم:

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا ... مَسَاءَةَ يَوْمٍ أَرْيُهَا شِبْهُ الصَّابِ

فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسَرَّةَ سَاعَة ... وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةَ أَحْقَابِ

٨٢ - (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

معناه: فسيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً {جَزَاءً} إلاّ أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

٨٣ - (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

وإنما قال {إلى طَائِفَةٍ مّنْهُمْ} لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخلقون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم {فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ} يعني إلى غزوة بعد غزوة تبوك. {أَوَّلَ مَرَّةٍ} هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلاّ النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين {مَعَ الخالفين} قد مرّ تفسيره. [و] قرأ مالك بن دينار رحمه الله: «مع الخلفين» على قصر الخالفين. فإن قلت: {مَرَّةٍ} نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ قلت: أكثر اللغتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهنّ. ثم إنّ قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه. ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة. وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

٨٤ - (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

روي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه قال: أهلكك حبّ اليهود. فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلّي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته، فسأله عن اسمه فقال: أنت عبد الله ابن عبد الله. الحباب: اسم شيطان، فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلّي على عدوّ الله، فنزلت وقيل: أراد أن يصلّي عليه فجذبه جبريل. فإن قلت: كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له. وذلك أنّ العباس رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلاً طوالاً، فكساه عبد الله قميصه. وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد ولكنّا نأذن لك، فقال: لا، إن لي في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك، وإجابة له إلى مسئلته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يردّ سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة ويعمل بعادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي: أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره، ولا يشمت به الأعداء، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون إلباسه إياه لطفاً لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إنّ قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب» فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك ترحمه واستغفاره كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتماً عليه. فإن قلت: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قلت: لم يتقدم نهي عن الصلاة عليهم، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم، لما في ذلك من المصلحة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة، إلاّ أني أعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخادع {مَّاتَ} صفة لأحد. وإنما قيل: مات، وماتوا بلفظ الماضي - والمعنى على الاستقبال - على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة {أَنَّهُمْ كَفَرُواْ} تعليل للنهي.

٨٥ - (وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

وقد أعيد قوله: {وَلاَ تُعْجِبْكَ} لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

٨٦ - (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله: {وَإِذَا نُزّلَتْ سُورَةٌ} كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه. وقيل: هي براءة،

لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد {أَنْ ءَامِنُوا} هي أن المفسرة {أُوْلُو الطول} ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً {مَعَ القاعدين} مع الذين لهم علة وعذر في التخلف.

٨٧ - (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)

{فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك.

٨٨ - (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{لكن الرسول} أي إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً، كقوله: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً} [الأنعام: ٨٩]، {فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبّكَ} [فصلت: ٣٨]. {الخَيْرَاتِ} تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ. وقيل: الحور، لقوله: {فِيهِنَّ خيرات} [الرحمن: ٧٠].

٩٠ - (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{المعذرون} من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ: وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له: أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم، ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} وقرئ: «المعذرون» بالتخفيف: وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه. قيل: هم أسد وغطفان. قالوا: إن لنا عيالاً: وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا، فقال صلى الله عليه وسلم: «سيغنيني الله عنكم». وعن مجاهد. نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى: وعن قتادة: اعتذروا بالكذب. وقرئ: «المعذّرون» بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى اعتذر، وهذا غير صحيح؛ لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد، في المطوّعين، وأزكى وأصدق. وقيل: أريد المعتذرون بالصحة، وبه فسر المعذرون والمعذرون، على قراءة ابن عباس رضي الله عنه الذين لم يفرطوا في العذر {وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ} هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان. وقرأ أبيّ: « كذبوا» بالتشديد {سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ} من الأعراب {عَذَابٌ أَلِيمٌ} في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

٩١ - (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{الضعفاء} الهرمى والزمنى. والذين لا يجدون: الفقراء. وقيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السرّ والعلن، وتوليهما، والحبّ والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه {عَلَى المحسنين} على المعذورين الناصحين، ومعنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم.

٩٢ - (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

ولا طريق للعاتب عليهم {قُلْتَ لاَ أَجِدُ} حال من الكاف في {أَتَوْكَ} وقد قبله مضمرة، كما قيل في قوله: {أَوْ جَاءوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ} [النساء: ٩٠] أي إذا ما أتوك قائلاً لا أجد {تَوَلَّوْاْ} ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها. وقيل: «المستحملون» أبو موسى الأشعري وأصحابه. وقيل: البكاؤون، وهم ستة نفر من الأنصار {تَفِيضُ مِنَ الدمع} كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض، و «من» للبيان كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز {أَلاَّ يَجِدُواْ} لئلا يجدوا. ومحله نصب على أنه مفعول له، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

٩٣ - (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

فإن قلت: {رَضُواْ} ما موقعه؟ قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف {وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ} يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم. فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: {قُلْتَ لاَ أَجِدُ} استئنافاً مثله، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا، فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: قلت لا أجد ما أحملكم عليه. إلاّ أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض {قُلْتَ} نعم.

٩٤ - (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

ويحسن {لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ} علة للنهي عن الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال وقوله: {قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ} علة لانتفاء تصديقهم لأنّ الله عزّ وجلّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشرّ والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم {وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ} أتنيبون أم تثبتون على كفركم {ثُمَّ تُرَدُّونَ} إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسرّ وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك.

٩٥ - (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

{لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ} فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم {فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ} فأعطوهم طلبتهم {إِنَّهُمْ رِجْسٌ} تعليل لترك معاتبتهم، يعني أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة. والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} يعني وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم.

٩٦ - (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

{لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ} أي غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم {فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ} فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل: إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم. وقيل: هم جدّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً منافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» وقيل: جاء عبد الله بن أبيّ يحلف أن لا يتخلف عنه أبداً.

٩٧ - (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{الاعراب} أهل البدو {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنّة {وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ} وأحقّ بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الجفاء والقسوة في الفدّادين» {والله عَلِيمٌ} يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر {حَكِيمٌ} فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

٩٨ - (وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{مَغْرَمًا} غرامة وخسراناً. والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلاّ تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده {وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر} دوائر الزمان: دوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء} دعاء معترض، دعا عليهم بنحو ما دعوا به، كقوله عزّ وجلّ: {قَالَتْ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: ٦٤] وقرئ «السُّوء» بالضم وهو العذاب، كما قيل له سيئة. والسوء بالفتح، وهو ذمّ للدائرة، كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق،

لأنّ من دارت عليه ذامّ لها {والله سَمِيعٌ} لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة {عَلِيمٌ} بما يضمرون.

٩٩ - (وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم {قربات} مفعول ثان ليتخذ. والمعنى: أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله {وصلوات الرسول} لأنّ الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله: " اللَّهم صلّ على آل أبي أوفى " وقال تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٣] فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات {ألا إِنَّهَا} شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك {سَيُدْخِلُهُمُ} وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدلّ هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: «قُربة» بضم الراء. وقيل: هم عبد الله وذو البجادين ورهطه.

١٠٠ - (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ} هم الذين صلّوا إلى القبلتين. وقيل: الذين شهدوا بدراً. وعن الشعبي: من بايع بالحديبية وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين {و} من {الأنصار} أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن. وقرأ عمر رضي الله عنه: «والأنصارُ» بالرفع عطفاً على (السابقون). وعن عمر أنه كان يرى أن قوله: {والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ} بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبيّ، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة {وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ} [الجمعة: ٣] وأوسط الحشر {والذين جاءوا مّن بَعْدِهِمْ} [الحشر: ١٠] وآخر الأنفال {والذين ءامَنُواْ مِن بَعْدُ} [الأنفال: ٧٥]. وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك؟ قال: أبيّ، فدعاه فقال: أقرأنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنك لتبيع القرظ بالبقيع، قال: صدقت، وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وآوينا وطردتم. ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء، وخبره {رَّضِىَ الله عَنْهُمْ} ومعناه: رضي عنهم لأعمالهم {وَرَضُواْ عَنْهُ} لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف: تحتها، بغير من.

١٠١ - (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ} يعني حول بلدتكم وهي المدينة {منافقون} وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها {وَمِنْ أَهْلِ المدينة} عطف على خبر المبتدإ الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدإ والخبر إذا قدّرت: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أنّ {مَرَدُواْ} صفة موصوف محذوف كقوله:

أَنَا ابْنُ جَلاَ. . . . .

وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ أو صفة لمنافقون، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره {مَرَدُواْ عَلَى النفاق} تمهروا فيه، من مرن فلان عمله، ومرد عليه: إذا درب به وضرى، حتى لان عليه ومهر فيه، ودّل على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله: {لاَ تَعْلَمُهُمْ} أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك، لفرط تنوّقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم، ثم قال: {نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} أي لا يعلمهم إلاّ الله، ولا يطلع على سرهم غيره، لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر

المخلصين من المؤمنين، لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به، فلهم فيه اليد الطولى {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ} قيل: هما القتل وعذاب القبر. وقيل: الفضيحة وعذاب القبر. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين، فقال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرج ناساً وفضحهم)، فهذا العذاب الأوّل، والثاني عذاب القبر. وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم {إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} إلى عذاب النار.

١٠٢ - (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ} أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين، وكانوا ثلاثة: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام. وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم: بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل المسجد فصلى ركعتين - وكانت عادته صلى الله عليه وسلم كلما قدم من سفر -فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلهم، فقال: وأنا أقسم أن لا أحلّهم حتى أومر فيهم، فنزلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فنزلت: خذ من أموالهم {عَمَلاً صالحا} خروجاً إلى الجهاد {وَءَاخَرَ سَيِّئاً} تخلفاً عنه. عن الحسن وعن الكلبي: التوبة والإثم. فإن قلت: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به؟ قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأنّ المعنى خلط كل واحد منهما الآخر، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه. وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنّك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو وجعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً، بمعنى شاة بدرهم. فإن قلت: كيف قيل: {أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} وما ذكرت توبتهم؟ قلت: إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فقد ذكرت توبتهم.

١٠٣ - (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{تُطَهِّرُهُمْ} صفة لصدقة. وقرئ: «تطهرهم»، من أطهره بمعنى طهره. و «تطهرهم»، بالجزم جواباً للأمر. ولم يقرأ {وَتُزَكِّيهِمْ} إلاّ بإثبات الياء. والتاء في {تُطَهِّرُهُمْ} للخطاب أو لغيبة المؤنث. والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنّة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة إذا أخذها. وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت، وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ: «إن صلاتك» على التوحيد {سَكَنٌ لَّهُمْ} يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم {والله سَمِيعٌ} يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم {عَلِيمٌ} بما في ضمائرهم، والغمّ من الندم لما فرط منهم.

١٠٤ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

قرئ: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ} بالياء والتاء، وفيه وجهان، أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم {أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة} إذا صحّت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين. وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردّها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

١٠٥ - (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{وَقُلِ} لهؤلاء التائبين {اعملوا} فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أو شراً - على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير

التائبين ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت. فإن قلت: فما معنى قوله: {وَيَأْخُذُ الصدقات} قلت: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: {فَسَيَرَى الله} وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

١٠٦ - (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

قرئ: «مرجون» و «مرجؤن» من أرجيته، وأرجأته: إذا أخرته. ومنه المرجئة، يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم {إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ} إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا {وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} إن تابوا، وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة ابن الربيع: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغمّ، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأخلصوا نياتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله {والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ}. وفي قراءة عبد الله: غفور رحيم. وإمّا للعباد: أي خافوا عليهم العذاب وارجوا لهم الرحمة.

١٠٧ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

في مصاحف أهل المدينة والشام: الذين اتخذوا بغير واو، لأنها قصة على حيالها. وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي: أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي فيه، ويصلّي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد: لا أجد قوماً يقاتلوك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين. أن استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال صلى الله عليه وسلم: إني على جناح سفر وحال شغل. وإذا قدمنا إن شاء الله صلّينا فيه، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عديّ وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين {ضِرَارًا} مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة {وَكُفْراً} وتقوية للنفاق {وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين} لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم {وَإِرْصَادًا} وإعداداً {لِ} أجل {مَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ} وهو الراهب: أعدوه له ليصلّي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحبّ أن أصلّي فيه، فإنّه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً. وعن عطاء: لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه، فإن قلت: {والذين اتخذوا} ما محله من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الاختصاص.

كقوله: {المقيمين الصلاة} [النساء: ١٦٢] وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله: {والسارق

والسارقة} [المائدة: ٣٨]. فإن قلت: بم يتصل قوله: {مِن قَبْلُ}؟ قلت: باتخذوا، أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف {إِنْ أَرَدْنَا} ما أردنا ببناء هذا المسجد {إِلاَّ} إلا الخصلة {الحسنى} أو الإرادة الحسنة، وهي الصلاة. وذكر الله والتوسعة على المصلين.

١٠٨ - (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

{لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى} قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة، وهو أولى، لأنّ الموازنة بين مسجدي قباء أوقع. وقيل: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: " هو مسجدكم هذا مسجد المدينة " {مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} من أول يوم من أيام وجوده {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ} قيل: لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها: فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم. فقال صلى الله عليه وسلم: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم. قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال صلى الله عليه وسلم: «مؤمنون ورب الكعبة». فجلس ثم قال: يا معشر الأنصار، إنّ الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط، فقالوا: يا رسول الله، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبي صلى الله عليه وسلم: {رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ}. وقرئ، «أن يطهروا» بالإدغام. وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها. وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة، ويتبعون الماء أثر البول. وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. وقيل: يحبّون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم، فحموا عن آخرهم. فإن قلت: ما معنى المحبتين؟ قلت: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحبّ للشيء المشتهى له على إيثاره. ومحبة الله تعالى إياهم: أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم، كما يفعل المحبّ بمحبوبه.

١٠٩ - (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قرئ: أسس بنيانه» و «أُسس بنيانه»، على البناء للفاعل والمفعول. وأسس بنيانه، جمع أساس على الأضافة، وأساس بنيانه، بالفتح والكسر: جمع أس، وآساس بنيانه على أفعال، جمع أس أيضاً، وأس بنيانه. والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه {خَيْرٌ أَم مَّنْ} أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل {شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. فإن قلت: فما معنى قوله: {فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ}؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلاّ أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. ووزنه فعل، قصر عن فاعل، كخلف من خالف. ونظيره: شاك وصات، في شائك وصائت. وألفه ليست بألف فاعل، إنما هي عينه. وأصله هور وشوك وصوت. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف، بسكون الراء: فإن قلت: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر: على تقوىً من الله، بالتنوين؟ قلت: قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث، كتترى فيمن نوّن، ألحقها بجعفر. وفي مصحف أبيّ: فانهارت به قواعده. وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منه. وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم

فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فعذره وصدّقه وأمره بالصلاة بقومه.

١١٠ - (لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{رِيبَةً} شكاً في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين، وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجلّ: {ضِرَارًا وَكُفْرًا} [التوبة: ١٠٧] فلما هدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ازدادوا -لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم - تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام، فمعنى قوله: {لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ} لا يزال هدمه سبب شكّ، ونفاق زائد على شكّهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحلّ أثره {إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} قطعاً وتفرّق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه. وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها. ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار. وقرئ: «يقطع»، بالياء. و «تقطع» بالتخفيف. و «تَقطع» بفتح التاء بمعنى تتقطع. وتقطع قلوبهم، على أن الخطاب للرسول أي إلاّ أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم. وقرأ الحسن: إلى أن، وفي قراءة عبد الله: «ولو قطعت قلوبهم». وعن طلحة: ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب. وقيل: معناه إلاّ أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

١١١ - (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى. وروى: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن عمر رضي الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعاً. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها. وروي: أنّ الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. ومرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيّ وهو يقرؤها فقال: كلام من؟ قال كلام الله. قال: بيع الله مربح لا نقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد {يقاتلون} فيه معنى الأمر، كقوله: {وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ} [الصف: ١١]. وقرئ: «فيقتلون» و «يقتلون» على بناء الأوّل للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس {وَعْدًا} مصدر مؤكد. أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته {فِي التوراة والإنجيل} كما أثبته في القرآن، ثم قال: {وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله} لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

١١٢ - (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

{التائبون} رفع على المدح. أي: هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين. ويدلّ عليه قراءة عبد الله وأبيّ رضي الله عنهما: «التائبين» بالياء إلى: والحافظين، نصباً على المدح. ويجوز أن يكون جراً صفة للمؤمنين. وجوّز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف، أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا، كقوله: {وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى} [النساء: ٩٥] وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون. ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون، وما بعده خبر بعد خبر، أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق. و {العابدون} الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها. و {السائحون} الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم. وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه.

١١٣ - (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)
قيل: قال صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب: «أنت أعظم الناس عليَّ حقاً، وأحسنهم عندي يداً، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي»، فأبى فقال: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه»، فنزلت. وقيل: لما افتتح مكة سأل أي أبويه أحدث به عهداً؟ فقيل: أمك آمنة، فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فنزلت. وهذا أصحّ لأنّ موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه. وقيل: قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم} لأنهم ماتوا على الشرك.
١١٤ - (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)
قرأ طلحة وما استغفر إبراهيم لأبيه، وعنه: وما يستغفر إبراهيم، على حكاية الحال الماضية {إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} أي وعدها إبراهيم أباه، وهو قوله: {لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} [الممتحنة: ٤] ويدلّ عليه قراءة الحسن وحماد الراوية: وعدها أباه. فإن قلت: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلت: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي، لأنّ العقل يجوّز أن يغفر الله للكافر. ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه: لأستغفرنّ لك ما لم أنه. وعن الحسن قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فلاناً يستغفر لأبائه المشركين، فقال: ونحن نستغفر لهم فنزلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له، فقال: أليس قد استغفر إبراهيم فإن قلت: فما معنى قوله: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}؟ قلت: معناه: فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره فهو كقوله: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم} [التوبة: ١١٣]. {أَوَّاهٌ} فعال، من أوه كلأل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه. ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له، مع شكاسته عليه، وقوله: «لأرجمنك».
١١٥ - (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالاً، ولا يخذلهم إلاّ إذا أقدموا عليه بعد بيان خطره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه. وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها: وهي أنّ المهديّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال، والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف.
١١٧ - (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)
{تَابَ الله على النبى} كقوله: {لّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢] وقوله: {واستغفر لِذَنبِكَ} وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلاّ وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوّابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله: {عَفَا الله عَنكَ} [التوبة: ٤٣]، {فِى سَاعَةِ العسرة} في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشية واليوم:

غَدَاةً طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ ...
وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً ... عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحِمْيَراً
إذَا جَاءَ يَوْماً وَارِثِي يَبْتَغِي الْغِنَى ... يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَى وَلاَ صِفْر
والعسرة: حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على بعير واحد. وفي عسرة من الزاد: تزوّدوا التمر المدود والشعير المسوّس والإهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء. وفي عسرة من الماء، حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها. وفي شدّة زمان، من حمارّة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة {كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه. وفي «كاد» ضمير الشأن، وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله. وقرئ: «يزيغ» بالياء. وفي قراءة عبد الله: «من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم»، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة وأمثاله {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} تكرير للتوكيد. ويجوز أن يكون الضمير للفريق: تاب عليهم لكيدودتهم.
١١٨ - (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)
{الثلاثة} كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. ومعنى {خُلِّفُواْ} خلفوا عن الغزو وقيل عن أبي لبابة وأصحابه حين تيب عليهم بعدهم وقرئ «خلفوا» أي خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم. وقرأ جعفر الصادق رضي الله عنه: «خالفوا». وقرأ الأعمش: «وعلى الثلاثة المخلفين» {بِمَا رَحُبَتْ} برحبها، أي: مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه {وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ {وَظَنُّواْ} وعلموا {أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ} سخط {اللهِ إِلاَّ} إلى استغفاره {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به. عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلاّ ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله. ولم يكن لآخر إلاّ أهله فقال: يا أهلاه ما بطأني ولا خلفني إلاّ الضنّ بك لا جرم، والله لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فركب ولحق به. ولم يكن لآخر إلاّ نفسه لا أهل ولا مال، فقال: يا نفس ما خلفني إلاّ حبّ الحياة لك والله لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به. قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصرّ عليها. وعن أبي ذرّ الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سواده: كن أبا ذرّ، فقال الناس: هو ذاك، فقال: " رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده " وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظلّ، وبسطت له الحصير، وقرّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظلّ ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضحّ والريح.: ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكانه. ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له. ومنهم من بقي لم يلحق به. منهم الثلاثة. قال كعب: لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: «ليت شعري ما خلف كعباً»؟ فقيل له: ما خلفه إلاّ حسن برديه والنظر في عطفيه. فقال معاذ: [بئس ما قلت والله يا رسول الله] ما أعلم إلاّ فضلاً وإسلاماً، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا

نقربهنّ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربي {ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله حتى صافحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهو يستنير استنارة القمر: (أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك، ثم تلا علينا الآية). وعن أبي بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح؟ فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

١١٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

{مَعَ الصادقين} وقرئ: «من الصادقين» وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: {رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عاهدوا الله عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣] وقيل: هم الثلاثة، أي كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم.

١٢٠ - (مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، أي كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظموا في جملتهم، واصدقوا مثل صدقهم. وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يُنجزه. اقرءوا إن شئتم: وكونوا مع الصادقين فهل فيها من رخصة؟ {وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ} أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم في الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعزُّ نفس عند الله وأكرمها عليه. فإذا تعرضت مع كرامتها وعزّتها للخوض في شدّة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرّضت له، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخفّ شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية {ذلك} إشارة إلى ما دلّ عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته، كأنه قيل ذلك الوجوب {ب} سبب {إِنَّهُمْ لا يُصِيبُهُم} شيء من عطش، ولا تعب، ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم. ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيظهم ويضيق صدورهم {وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً} ولا يرزءونهم شيئاً بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك {إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله، وذلك مما يوجب المشايعة. ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة، لا الوطء بالأقدام والحوافر، كقوله عليه السلام: " آخر وطأة وطئها الله بوج " والموطئ. إما مصدر كالمورد وإما مكان فإن كان مكاناً فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطئه والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً، وأن يكون بمنعى المنيل. ويقال: نال منه إذا رزأه ونقصه، وهو عام في كل ما يسؤوهم وينكبهم ويلحق بهم ضرراً. وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك، وكذلك الشرّ. وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة، لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم. ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب، وأمدّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه المهاجر بن أبي أمية وزياد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم. [و] عند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين، وقرأ عبيد ابن عمير: «ظماء» بالمدح يقال: ظمئ ظماءة وظماء.

١٢١ - (وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً} ولو تمرة ولو علاقة سوط {وَلاَ كَبِيرَةً} مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة {وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا} أي أرضاً في ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو في الأصل «فاعل» من ودى إذا سال. ومنه الودي. وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض. يقولون: لا تصلّ في وادي غيرك {إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ} ذلك من الإنفاق وقطع الوادي: ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله: {لِيَجْزِيَهُمْ} متعلق بكتب أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

١٢٢ - (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

اللام لتأكيد النفي. ومعناه أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن. وفيه أنه لو صحّ وأمكن، ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب التفقه على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة {فَلَوْلاَ نَفَرَ} فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر {مِن كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طَائِفَةٌ} أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير {لّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدين} ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها {وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ} وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه: إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمّونها من المقاصد الركيكة، ومن التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجلّ: {لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأرض وَلاَ فَسَاداً} [القصص: ٨٣]. {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً. ووجه آخر: وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث بعثاً - بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد - استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأنّ الجدال بالحجّة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف. وقوله: {لّيَتَفَقَّهُواْ} الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف، النافرة من بينهم {وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ} ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

١٢٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

{يَلُونَكُمْ} يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. ونظيره {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين} [الشعراء: ٢١٤] وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام. وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر. وقيل: الروم، لأنهم كانوا يسكنون الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق وغيره، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم؟ فقال: عليك بالروم. وقرئ: «غلظة» بالحركات الثلاث، فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة ونحوه {واغلظ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ٧٣] {وَلاَ تَهِنُواْ} [آل عمران: ١٣٩] وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدّة العداوة والعنف في القتل والأسر، ومنه {وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ الله} [النور: ٢]. {مَعَ المتقين} ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدّوه.

١٢٤ - (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

{فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ} فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه} السورة {إيمانا} إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به. وأيكم: مرفوع بالابتداء. وقرأ عبيد بن عمير: «أيكم» بالفتح على إضمار فعل يفسره

{زَادَتْهُ} تقديره: أيكم زادت زادته هذه إيماناً {فَزَادَتْهُمْ إيمانا} لأنها أزيد لليقين والثبات، وأثلج للصدر. أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان، لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

١٢٥ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

{فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} كفراً مضموماً إلى كفرهم، لأنهم كلما جدّدوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً، ازداد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

١٢٦ - (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قرئ: «أولا يرون»، بالياء والتاء {يُفْتَنُونَ} يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا يذكرون، ولا يعتبرون، ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده. أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتلهم وينكل بهم، ثم لا ينزجرون.

١٢٧ - (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

{نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ} تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين {هَلْ يَرَاكُمْ مّنْ أَحَدٍ} من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون: هل يراكم من أحد. وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين {صَرَفَ الله قُلُوبَهُم} دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح {قلوبَهُم} بسبب أنهم {قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} لا يتدبرون حتى يفقهوا.

١٢٨ - (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

{مّنْ أَنفُسِكُمْ} من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} أي شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحقّ الذي جاء به {بالمؤمنين} منكم ومن غيركم {رءوفٌ رَّحِيمٌ}. وقرئ: «من أنْفَسِكم» أي من أشرفكم وأفضلكم. وقيل: هي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما. وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: {رءوفٌ رَّحِيمٌ}.

١٢٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

{فَإِن تَوَلَّوْاْ} فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض إليه، فهو كافيك معرّتهم ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: {العظيمُ} بالرفع. وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره. وعن أبيّ ابن كعب: آخر آية نزلت: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ}.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما نزل عليّ القرآن إلاّ آية آية وحرفاً حرفاً، ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا عليّ ومعهما سبعون ألف صفّ من الملائكة ".

١٠ سورة يونس:

سورة يونس:
مكية وهي مائة وتسع آيات

١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)
{الر} تعديد للحروف على طريق التحدي. و {تِلْكَ ءايات الكتاب} إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة. و {الحكيم} ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها. أو وصف بصفة محدثة. قال الأعشى:
وَغَرِيبَةٍ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةٍ ... قَدْ قُلْتُها لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا
٢ - (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)
الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه. و {أَنْ أَوْحَيْنَا} اسم كان، وعجباً: خبرها. وقرأ ابن مسعود: «عجب» فجعله اسماً وهو نكرة و {أَنْ أَوْحَيْنَا} خبراً وهو معرفة، كقوله:
يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ ...
والأجود أن تكون «كان» تامة، وأن أوحينا بدلاً من عجب. فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: {كَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً}؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك: أكان عند الناس عجباً؟ قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنّ الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلاّ يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب، لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلاّ بشر مثلهم. وقال الله تعالى: {قُل لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً} [الإسراء: ٩٥] وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً، لأنّ الله تعالى: إنما يختار من استحق الاختيار، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة. والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء {وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى} [سبأ: ٣٧] والبعث للجزاء على الخير والشرّ هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء {أَنْ أَنذِرِ الناس} أن هي المفسرة، لأنّ الإيحاء فيه معنى القول: ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا أنذر الناس. و {أَنَّ لَهُمْ} الباء معه محذوف {قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبّهِمْ} أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة. فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد. وباعاً لأنّ صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق {إِنَّ هَذَا} إن هذا الكتاب وما جاء به محمد {لسحر} ومن قرأ: «لساحر» فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبيّ: «ما هذا إلاّ سحر».
٣ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)
{يُدَبّرُ} يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، لئلا يلقاه ما يكره آخراً. و {الأمر} أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: قد دلّ بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير، وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: {مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ} دليل على العزة والكبرياء، كقوله: {يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن} [النبأ: ٣٨] و {ذلكم} إشارة إلى المعلوم

بتلك العظمة، أي ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة {فاعبدوه} وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع {أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

٤ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً} أي لا ترجعون في العاقبة إلاّ إليه فاستعدوا للقائه {وَعَدَ الله} مصدر مؤكد لقوله: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} و {حَقًّا} مصدر مؤكد لقوله: {وَعَدَ الله}. {إِنَّهُ يبدؤ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ} استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو أنّ الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم. وقرئ: «أنه يبدؤ الخلق» بمعنى لأنه. أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله: أي وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته. والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه. وقرئ: «وعد الله»، على لفظ الفعل. ويبدئ، من أبدأ. ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً، أي حقّ حقاً بدأ الحلق، كقوله:

أَحَقّاً عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيا ... وَلاَ ذَاهِباً إلاَّ عَلَيَّ رَقِيبُ

وقرئ: «حق أنه يبدؤ الخلق» كقولك: حق أنّ زيداً منطلق {بالقسط} بالعدل، وهو متعلق بيجزى. والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم. أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً، لأنّ الشرك ظلم. قال الله تعالى: {إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] والعصاة: ظلاّم أنفسهم، وهذا أوجه، لمقابلة قوله: {بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}.

٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

الياء في {ضِيَاء} منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها. وقرئ: «ضئاء» بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: عقا. والضياء أقوى من النور {وَقَدَّرَهُ} وقدّر القمر. والمعنى وقدّر مسيره {مَنَازِلَ} أو قدّره ذا منازل، كقوله تعالى: {والقمر قدرناه مَنَازِلَ} [يس: ٣٩]. {والحساب} وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي {ذلك} إشارة إلى المذكور أي ما خلقه إلاّ ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ: «يفصل»، بالياء.

٦ - (إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

خصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

{لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحبّ العاجل عن التفطن للحقائق. أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف {وَرَضُواْ بالحياة الدنيا} من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي، كقوله تعالى: {أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة} [التوبة: ٣٨]. {واطمأنوا بِهَا} وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً وأمّلوا بعيداً.

٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

{يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدّي إلى الثواب، لذلك جعل {تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار} بياناً له وتفسيراً، لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم} [الحديد: ١٢] ومنه الحديث: " إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صُوَر حسنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة وأما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة

سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار " فإن قلت: فلقد دلّت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور. قلت: الأمر كذلك. ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أي بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه.

١٠ - (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{دَعْوَاهُمْ} دعاؤهم، لأنّ «اللّهم» نداء لله ومعناه: اللّهم إنا نسبحك، كقول القانت في دعاء القنوت: اللّهم إياك نعبد ولك نصلّي ونسجد. ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ} [مريم: ٤٨] على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلاّ أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة، كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ البيت إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً} [الأنفال: ٣٥]. {وَءاخِرُ دعواهم} وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح {أَنِ} يقولوا: {الحمد للَّهِ رَبّ العالمين}. ومعنى {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام} أنّ بعضهم يحيي بعضاً بالسلام. وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول. وقيل: تحية الله لهم. وأن هي المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه الحمد لله، على أن الضمير للشأن كقوله:

أَنْ كُلَّ هالِكُ مَنْ يَحْفَي وَيَنْتَعِلُ ...

وقرئ: «أَنَّ الحمدَ لله» بالتشديد ونصب الحمد.

١١ - (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أصله {وَلَوْ يُعَجّلُ الله لِلنَّاسِ الشر} تعجيله لهم الخير، فوضع {استعجالهم بالخير} موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد أهل مكة. وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعني: ولو عجلنا لهم الشرّ الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه {لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} لأميتوا وأهلكوا. وقرئ: «لقضى إليهم أجلهم» على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ، وتنصره قراءة عبد الله: «لقضينا إليهم أجلهم» فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: {فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} وما معناه؟ قلت: قوله: {وَلَوْ يُعَجّلُ الله} متضمن معنى نفي التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشرّ، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم {فِي طغيانهم} أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاماً للحجّة عليهم.

١٢ - (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{لِجَنبِهِ} في موضع الحال، بدليل عطف الحالين عليه أي دعانا مضطجعاً {أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا}. فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلت: معناه أنّ المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضرّ، فهو يدعونا في حالاته كلها - إن كان مضطجعاً عاجز النهض متخاذل النوء أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب - إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها. ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالاً وهو صاحب الفراش. ومنهم من هو أخفّ وهو القادر على القعود. ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء، لأنّ الإنسان للجنس {مَرَّ} أي مضى على طريقته الأولى قبل مسّ الضرّ، ونسي حال الجهد. أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به {كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا}، كأنه لم يدعنا، فخفف وحذف ضمير الشأن قال:

كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقّانِ ...

{كذلك} مثل ذلك التزيين {زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ} زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته {مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

١٣ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)
{لَمَّا} ظرف لأهلكنا: والواو في {وَجَاءتْهُمْ} للحال، أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات. وقوله: {وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي، يعني: ما كانوا يؤمنون حقاً تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجّة ببعثه الرسل {كذلك} مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك {نَجْزِي} كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرئ: «يجزي» بالياء.
١٤ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)
{ثُمَّ جعلناكم} الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا {لِنَنظُرَ} أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم. و {كَيْفَ} في محل النصب بتعلمون لا بننظر، لأنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله. فإن قلت: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة قلت: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه.
١٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
غاظهم ما في القرآن من ذمّ عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا: {ائت بِقُرْءانٍ} آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك {أَوْ بَدّلْهُ} بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة. وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان {مَا يَكُونُ لِى} ما ينبغي لي وما يحلّ، كقوله تعالى: {مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقّ} [المائدة: ١١٦]. {أَنْ أُبَدّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِى} من قبل نفسي. وقرئ: بفتح التاء: من غير أن يأمرني بذلك ربي {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ} لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك، إلاّ متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وأن بدّلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ تبديل ولا نسخ {إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى} بالتبديل والنسخ من عند نفسي {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}. فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: {ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا}؟ قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا. ويقولون: افترى على الله كذباً، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله. مع علمهم بأنّ العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز. فإن قلت: لعلهم أرادوا: ائت بقرآن غير هذا أو بدّله، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته. وأراد بقوله: {مَا يَكُونُ لِى} ما يتسهل لي وما يمكنني أن أُبدّله. قلت: يردّه قوله: {إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى}. فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله.
١٦ - (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{لَّوْ شَاء الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ} يعني أن تلاوته ليست إلاّ بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلاّ الله، وقد

بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به {وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ} ولا أعلمكم به على لساني. وقرأ الحسن: «ولا أدراتكم به» على لغة من يقول: اعطاته وأرضاته، في معنى أعطيته وأرضيته. وتعضده قراءة ابن عباس: «ولا أنذرتكم به»». ورواه الفراء: «ولا ادرأتكم به» وبالهمز. وفيه وجهان، أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج. ورثأت الميت وحلأت السويق، وذلك لأنّ الألف والهمزة من وادٍ واحد. ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة. والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأدرأته إذا جعلته دارئاً. والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني. وعن ابن كثير: «ولأدراكم به» بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلاً دون سائر الناس {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً} وقرئ: «عمراً» بالسكون. يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعاً وكهلاً، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} فتعلموا أنه ليس إلاّ من الله لا من مثلي. وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم: ائت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه.

١٧ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

{مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً} يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء.

١٨ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

{مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرّ. وقيل: إن عبدوها لن تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرّهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزّى ومناة وهبل وأسافاً ونائلة {و} كانوا {يَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله} وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزّى {أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ} أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً لأنّ الشيء ما يعلم [به] ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه. فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنّ الذي أنبؤا به باطل غير منطوٍ تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه. وقرئ: «أتنبئون» بالتخفيف. وقوله: {فِى السماوات وَلاَ فِى الأرض} تأكيد لنفيه، لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم {تُشْرِكُونَ} قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية، أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

١٩ - (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ} وهوتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة {لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ} عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب.

٢٠ - (وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

وقالوا: {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ} أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك

من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل آية قط، حتى قالوا: {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ رَبِّهِ}، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ {فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ} أي هو المختصّ بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلاّ هو {فانتظروا} نزول ما اقترحتموه {إِنّى مَعَكُم مّنَ المنتظرين} لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

٢١ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه، و «إذا» الأولى للشرط، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق. ومعنى {مَسَّتْهُمْ} خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صحّ قوله: {أَسْرَعُ مَكْرًا}؟ قلت: بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضرّاء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم. والمعنى: أنّ الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام {إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ} إعلام بأنّ ما تظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وقرئ: «يمكرون»، بالتاء والياء. وقيل: مكرهم قولهم: سقينا بنوء كذا. وعن أبي هريرة: إنّ الله ليُصَبّح القوم بالنعمة ويُمَسّيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا.

٢٢ - (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

قرأ زيد بن ثابت: «ينشركم» ومثله قوله: {فانتشروا فِى الأرض} [الجمعة: ١٠]، {ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠] فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية التسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيّزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك والدعاء بالإنجاء. فإن قلت: ما جواب «إذا»؟ قلت: جاءتها. فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؛ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به. فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح. فإن قلت: ما وجه قراءة أمّ الدرداء: «في الفلكي» بزيادة ياء النسب؟ قلت: قيل هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري. ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلاّ فيه. والضمير في {جرين} للفلك، لأنه جمع فلك كالأسد، في فعل أخي فعل. وفي قراءة أمّ الدرداء: «للفلك» أيضاً، لأنّ الفلكي يدلّ عليه {جَاءتْهَا} جاءت الريح الطيبة، أي تلقتها. وقيل: الضمير للفلك {من كُلّ مَّكَانَ} من جميع أمكنة الموج {أُحِيطَ بِهِمْ} أي أهلكواجعل إحاطة العدوّ بالحي مثلاً في الهلاك {مُخْلِصِينَ لَهُ الدين} من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} على إرادة القول. أو لأنّ {دَعَوُاْ} من جملة القول: {يَبْغُونَ فِى الأرض}.

٢٣ - (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{يَبْغُونَ فِى الأرض} يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك، ممعنين فيه، من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد. فإن قلت: فما معنى قوله: {بِغَيْرِ الحق} والبغي لا يكون بحق؟ قلت: بلى، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة. قرئ: «متاع الحياة الدنيا»، بالنصب: فإن قلت: ما الفرق بين

القراءتين؟ قلت: إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدإ الذي هو {بَغْيُكُمْ} و {على أَنفُسِكُمْ} صلته، كقوله: {فبغى عَلَيْهِمْ} ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لابقاء لها وإذا نصبت {فَعَلَىَّ أَنفُسُكُمْ} خبر غير صلة معناه إنما بغيكم بال على أنفسكم، و {متاع الحياة الدنيا} في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا. ويجوز أن يكون الرفع على: هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تمكر ولا تعن ماكراً، ولا تبغ ولا تعن باغياً، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً» وكان يتلوها. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشرّ عقاباً البغي واليمين الفاجرة»، وروي: «ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين» وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي. وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَة ... فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ

لَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْماً عَلَى جَبَلٍ ... لانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ}.

٢٤ - (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه {فاختلط بِهِ} فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً {أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت} كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين. وأصل {ازّينت} تزينت، فأدغم. وبالأصل قرأ عبد الله. وقرئ: «وأزينت»، أي أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أي صارت ذات زينة. وازيانت، بوزن ابياضت {قَادِرُونَ عَلَيْهَا} متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لعلتها {أَتَاهَا أَمْرُنَا} وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم {فَجَعَلْنَاهَا} فجعلنا زرعها {حَصِيداً} شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله {كَأَن لَّمْ تَغْنَ} كأن لم يغن زرعها، أي لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه، وإلاّ لم يستقم المعنى. وقرأ الحسن: «كأن لم يغن» بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع. وعن مروان أنه قرأ على المنبر: «كأن لم تتغن» بالأمس، من قول الأعشى:

طَوِيلُ الثَّوَاءِ طَوِيلُ التَّغَنِّي ...

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

٢٥ - (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{دَارُ السلام} الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها. وقيل السلام السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشوّ السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم {إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما} [الواقعة: ٢٦] {وَيَهْدِى} ويوفق {مَن يَشَآء} وهم الذين علم أنّ اللطف يجدي عليهم، لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلاّ المهديون.

٢٦ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{الحسنى} المثوبة الحسنى {وَزِيَادَةٌ} وما يزيد على المثوبة وهي التفضل. ويدلّ عليه قوله تعالى: {وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ} [النساء: ١٧٣] وعن عليّ رضي الله عنه: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها.

وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلاّ أمطرتهم. وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحبّ إليهم منه» {وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ} لا يغشاها {قَتَرٌ} غبرة فيها سواد {وَلاَ ذِلَّةٌ} ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النارإذكاراً بما ينقذهم منه برحمته. ألا ترى إلى قوله تعالى {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس: ٤١] {وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [يونس: ٢٧].

٢٧ - (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

فإن قلت: ما وجه قوله: {والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيّئَةٍ بِمِثْلِهَا} وكيف يتلاءم؟ قلت: لا يخلو، إمّا أن يكون {والذين كَسَبُواْ} معطوفاً على قوله: {لّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} [يونس: ٢٦] كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإمّا أن يقدّر: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وهذا أوجه من الأوّل، لأنّ في الأوّل عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل، لأنه دلّ بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودلّ ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله. وقرئ: «يرهقهم ذلة» بالياء {مّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ} أي لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه. ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين {مُظْلِماً} حال من الله. ومن قرأ: (قطعاً) بالسكون من قوله: {بِقِطْعٍ مّنَ اليل} [هود: ٨١] جعله صفة له. وتعضده قراءة أبيّ بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم. فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل، فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إمّا أن يكون {أُغْشِيَتْ} من قبل إن {مّنَ الليل} صفة لقوله: {قِطَعًا} فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإمّا أن يكون معنى الفعل في {مّنَ الليل}.

٢٨ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)

{مَكَانَكُمْ} الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم. و {أَنتُمْ} أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله: الزموا {وَشُرَكَاؤُكُمْ} عطف عليه. وقرئ: «وشركاءكم» على أنّ الواو بمعنى مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم. والوصل التي كانت في بينهم في الدنيا. أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم، كقوله تعالى: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} [غافر: ٧٣] وقرئ: «فزايلنا بينهم» كقولك: صاعر خدّه وصعره، وكالمته وكلّمته. {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} إنما كنتم تعبدون الشياطين، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم.

٢٩ - (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)

{إِن كُنَّا} هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وهم الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم.

٣٠ - (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{هُنَالِكَ} في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أوفي ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان {تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ} تختبر وتذوق {مَّا أَسْلَفَتْ} من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن، أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله. ومنه قوله تعالى: {يَوْمَ تبلى السرائر} [الطارق: ٩] وعن عاصم: نبلو كلّ نفس، بالنون ونصب كل: أي نختبرها باختبار ما أسلفت من

العمل، فنفرق حالها بمعرفة حال عملها: إن كان حسناً فهي سعيدة، وإن كان سيئاً فهي شقية. والمعنى: نفعل بها فعل الخابر، كقوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [هود: ٧] ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشرّ. وقرئ: «نتلو»، أي نتبع ما أسلفت، لأنّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار. أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شرّ {مولاهم الحق} ربهم الصادق ربوبيته، لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة. أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً. وقرئ: «الحق» بالفتح على تأكيد قوله: {رُدُّواْ إلى اللهِ} [الأنعام: ٦٢] كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل. أو على المدح كقولك: الحمد لله. أهل الحمد {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله. أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

٣١ - (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)

{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض} أي يرزقكم منهما جميعاً، لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته {مِنْ يَمْلِكُ السمع والأبصار} من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه {وَمَن يُدَبِّرُ الأمر} ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص {أَفَلاَ تَتَّقُونَ} أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال.

٣٢ - (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

{فَذَلِكُمُ} إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله {رَبُّكُمُ الحق} الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر {فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال} يعني أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال {فأنى تُصْرَفُونَ} عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

٣٣ - (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{كَذَلِكَ} مثل ذلك الحق {حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقّت كلمة ربك {عَلَى الذين فَسَقُواْ} أي تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحدّ الأقصى فيه، و {أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} بدل من الكلمة أي حقّ عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

٣٤ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

فإن قلت: كيف قيل لهم {هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يبدأ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ} وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابراً ردّاً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ} فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم.

٣٥ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى اشترى. ومنه قوله: {أَمَّن لاَّ يَهِدِّى}. وقرئ: «لا يهدّى» بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال. والأصل: يهتدي، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت

لالتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: «إلاّ أن يهدى» من هداه وهدّاه للمبالغة. ومنه قولهم: تهدى. ومعناه أن الله وحده هو الذي يهدي للحق، بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير، يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحقّ بالاتباع، أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلاّ أن يهديه الله وقيل: معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه {إِلاَّ أَن يهدى} إلاّ أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصحّ منه الاهتداء إلاّ أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} بالباطل، حيث تزعمون أنهم أنداداً لله.

٣٦ - (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ} في قرارهم بالله {إِلاَّ ظَنّاً} لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم {إِنَّ الظن} في معرفة الله {لاَ يُغْنِى مِنَ الحق} وهو العلم {شَيْئاً} وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنّها شفعاء عند الله إلاّ الظنّ. والمراد بالأكثر: الجميع {إِنَّ الله عَلِيمٌ} وعيد على ما يفعلون من اتباع الظنّ وتقليد الآباء. وقرئ: «تفعلون» بالتاء.

٣٧ - (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{وَمَا كَانَ هذا القرءان} افتراء {مِن دُونِ الله ولكن} كان {تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ} وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها، كقوله تعالى: {هُوَ الحق مُصَدِّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [فاطر: ٣١]. وقرئ: «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب» على: ولكن هو تصديق وتفصيل. ومعنى وَمَا كَانَ أن يَفْتَرِى. وما صحّ وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفتري {وَتَفْصِيلَ الكتاب} وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله: {كتاب الله عَلَيْكُمْ} [النساء: ٢٤]. فإن قلت: بم اتصل قوله: {لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ العالمين} قلت: هو داخل في حيز الاستدراك. كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب كائناً من رب العالمين. ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون {مِن رَّبّ العالمين} متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون {لاَ رَيْبَ فِيهِ} اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم.

٣٨ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{أَمْ يَقُولُونَ افتراه} بل أيقولون: اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم. أو إنكار لقولهم واستبعاد. والمعنيان متقاربان {قُلْ} إن كان الأمر كما تزعمون {فَأْتُواْ} أنتم على وجه الافتراء {بِسُورَةٍ مّثْلِهِ} فأنتم مثلي في العربية والفصاحة. ومعنى {بِسُورَةٍ مّثْلِهِ} أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم. وقرئ: «بسورة مثله» على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله {وادعوا} من دون الله {مَنِ استطعتم} من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله: يعني: أنّ الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه {إِن كُنتُمْ صادقين} أنه افتراء.

٣٩ - (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

{بَلْ كَذَّبُواْ} بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجئوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية، إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها في أوّل وهلة، واشمأز منها قبل أن يحسّ إدراكها بحاسّة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلاّ صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب. فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}؟ قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل،

تقليداً للآباء. وكذبوه بعد التدبر، تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدّي، ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً {كَذَلِكَ} أي مثل ذلك التكذيب {كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ} يعني قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا.

وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون. ويجوز أن يكون معنى {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

٤٠ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

{وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين} بالمعاندين، أو المصرين.

٤١ - (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

{وَإِن كَذَّبُوكَ} وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت، كقوله تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِئ} [الشعراء: ٢١٦] وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

٤٢ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ)

{وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرآت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرّس واستدلّ إذا وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر.

٤٣ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ)

وأتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى العمى - وهو فقد البصر - فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن. وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصمّ والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله: {أَفَأَنتَ. . . . . أَفَأَنتَ} دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلاّ الله عزّ وجلّ بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل، إلاّ هو وحده.

٤٤ - (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا} أي لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين، يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب. ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

٤٥ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

{إِلاَّ سَاعَةً مّنَ النهار} يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل: في القبور، لهول ما يرون {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلاّ قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم. فإن قلت: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ} و {يَتَعَارَفُونَ} كيف موقعهما؟ قلت: أما الأولى فحال من «هم» أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلاّ ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق

بالظرف. وإما أن تكون مبينة، لقوله: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً} لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً {قَدْ خَسِرَ} على إرادة القول، أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر {وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

٤٦ - (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)

{فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} جواب نتوفينك، وجواب نرينك محذوف، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة. فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقرأ ابن أبي عبلة: «ثَم» بالفتح، أي هنالك. ويجوز أن يراد: أنّ الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

٤٧ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ} يبعث إليهم لينبههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق {فَإِذَا جَاءَ} هم {رَسُولُهُمْ} بالبينات فكذبوه، ولم يتبعوه {قُضِىَ بَيْنَهُمْ} أي بين النبيّ ومكذّبيه {بالقسط} بالعدل، فأنجى الرسول وعذّب المكذّبون، كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: ١٥] أو لكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، كقوله تعالى: {وَجِئ بالنبيين والشهداء وَقُضِىَ بَيْنَهُم بالحق} [الزمر: ٦٩].

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{متى هذا الوعد} استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له.

٤٩ - (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

{لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً} من مرض أو فقر {وَلاَ نَفْعاً} من صحة أو غنى {إِلاَّ مَا شَاء الله} استثناء منقطع: أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ {لِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} يعني أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحدّ محدود من الزمان {إِذَا جَاء} ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا. وقرأ ابن سيرين: «فإذا جاء آجالهم».

٥٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

{بَيَاتًا} نصب على الظرف، بمعنى. وقت بيات، فإن قلت: هلا قيل ليلاً أو نهاراً؟ قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت. والبيات بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله: {نَهَاراً} معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلت بالمعاش والكسب. ونحوه {بياتا وَهُمْ نَائِمُونَ} [الأعراف: ٩٨]، {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٨] الضمير في {مِنْهُ} للعذاب. والمعنى: أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قيل أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه. وقيل: الضمير في {مِنْهُ} لله تعالى. فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط قلت تعلق بأرأيتم لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه. فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه. قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام؛ لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً أن يستعجله. ويجوز أن يكون {مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون} جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ بما تتعلق الجملة بأرأيتم، وأن يكون.

٥١ - (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءامَنْتُمْ بِهِ} جواب الشرط، و {مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون} اعتراضاً. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى} [الأعراف: ٩٧]، {أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى} [الأعراف: ٩٨]. {ءآلئان} على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به {وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار. وقرئ: «آلان»، بحذف الهمزة بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

٥٢ - (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

{ثُمَّ قِيلَ الذين ظَلَمُواْ} عطف على «قيل» المضمر قبل آلآن.

٥٣ - (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ} ويستخبرونك فيقولون: {أَحَقٌّ هُوَ} وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء. وقرأ الأعمش: «آلحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أنّ اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود. و {إِى} بمعنى «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: إيوَ، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

٥٤ - (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{ظَلَمَتْ} صفة لنفس على: ولو أنّ لكل نفس ظالمة {مَّا فِى الأرض} أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها {لاَفْتَدَتْ بِهِ} لجعلته فدية لها. يقال: فده فافتدى. ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه {وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب} لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المقدّم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامداً مبهوتاً، وقيل: أسر رؤساؤهم الندامة من سفالتهم الذين أضلوهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم وقيل أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سرّ الشيء، خالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد {وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ} أي بين الظالمين والمظلومين، دلّ على ذلك ذكر الظلم.

٥٥ - (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

ثم أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعدوه من الثواب والعقاب فهو حق. وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجىٔ ولا يغتر به المغترون.

٥٦ - (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

ثم أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعدوه من الثواب والعقاب فهو حق. وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجىٔ ولا يغتر به المغترون.

٥٧ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

{قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ} أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد {وَ} هو {شِفَآء} أي دواء {لّمَا فِى} صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق {وَرَحْمَةً} لمن آمن به منكم.

٥٨ - (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

وأصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا. وقرئ: «فلتفرحوا» بالتاء وهو الأصل والقياس، وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي. وعنه: لتأخذوا مصافكم» قالها في بعض الغزوات. وفي قراءة أبيّ: «فافرحوا» {هُوَ} راجع إلى ذلك. وقرئ: «مما تجمعون» بالياء والتاء. وعن أبيّ بن كعب: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا: {قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ} فقال: بكتاب الله والإسلام» وقيل: «فضله» الإسلام «ورحمته» ما وعد عليه.

٥٩ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

{أَرَأَيْتُمْ} أخبروني. و {مَّآ أَنزَلَ الله} «ما» في موضع النصب، بأنزل، أو بأرأيتم، في معنى: أخبرونيه {فَجَعَلْتُمْ مّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً} أي أنزله الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقولهم: {هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ}، {مَا فِى بُطُونِ هذه الانعام خَالِصَةٌ لّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا} {الله أَذِنَ لَكُمْ} متعلق بأرأيتم. وقل: تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء. وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلاّ بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلاّ فهو مفتر على الله.

٦٠ - (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ)

{يَوْمُ القيامة} منصوب بالظن، وهو ظنّ واقع فيه، يعني: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره. وقرأ عيسى ابن عمر: «وما ظنّ» على لفظ الفعل. ومعناه: وأي ظنّ ظنّوا يوم القيامة. وجيء به على لفظ الماضي لأنه كائن فكأن قد كان {إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس} حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام {ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

٦١ - (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

{وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ} «ما» نافية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشأن: الأمر، وأصله الهمز بمعنى القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير في {مِنْهُ} للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل، كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن، لأنّ كلّ جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو لله عزّ وجلّ. وما {تَعْمَلُونَ} أنتم جميعاً {مِنْ عَمَلٍ} أيّ عمل كان {إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا} شاهدين رقباء نحصي عليكم {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه {وَمَا يَعْزُبُ}. قرئ بالضم والكسر «وما يبعد وما يغيب»، ومنه: الروض العازب {وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ} القراءة بالنصب والرفع، والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل {مِن مّثْقَالِ ذَرَّةٍ} أو على لفظ {مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء: ٤٠] فتحاً في موضع الجرّ لامتناع الصرف: إشكال، لأنّ قولك: «لا يعزب عنه شيء إلاّ في كتاب» مشكل. فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله: في سورة سبأ {عالم الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ

فِى السموات وَلاَ فِى الأرض} [سبأ: ٣]؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: {لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ} [سبأ: ٣] لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

٦٢ - (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{أَوْلِيَاء الله} الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة.

٦٣ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

وقد فسر ذلك في قوله: {الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} فهم توليهم إياه {لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِى الأخرة}.

٦٤ - (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

فهو توليه إياهم. وعن سعيد بن جبير: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل: من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين يذكر الله برؤيتهم» يعني السمت والهيئة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الإخبات والسكينة. وقيل: هم المتحابون في الله. وعن عمر رضي الله عنه: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله، خبرنا من هم وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم، قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ الآية: {الذين كَفَرُواْ} نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى، والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» وعنه عليه الصلاة والسلام: ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات. وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن. وعن أبي ذرّ:

قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة. قال الله تعالى: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملئكة أَن لا تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة} [فصلت: ٣٠] وأمّا البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها، وغير ذلك من البشارات {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله} لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده، كقوله تعالى: {مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ} [ق: ٢٩] و {ذلك} إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

٦٥ - (وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{وَلاَ يَحْزُنكَ} وقرئ: «ولا يحزنك» من أحزنه {قَوْلُهُمْ} تكذيبهم لك، وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك {إِنَّ العزة للَّهِ} استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: ما لي لا أحزن؟ فقيل: إن العزّة لله جميعاً، أي إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم {كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى} [المجادلة: ٢١]. {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} [غافر: ٥١] وقرأ أبو حيوة «أن العزة» بالفتح بمعنى لأن العزة على صريح التعليل ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به {هُوَ السميع العليم} يسمع ما يقولون. ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه. وهو مكافئهم بذلك.

٦٦ - (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)

{مَن فِى السماوات وَمَنْ فِى الأرض} يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصّهم، ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى: ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، ما وراءهم مما لا يعقل

أحقّ أن لا يكون له نداً وشريكاً، وليدلّ على أن من اتّخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى: وما يتبعون شركاء، أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء، لأنّ شركة الله في الربوبية محال {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ} ظنهم أنها شركاء {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً. ويجوز أن يكون {وَمَا يَتَّبِعُ} في معنى الاستفهام، يعني: وأي شيء يتبعون. و {شُرَكَاء} على هذا نصب بيدعون، وعلى الأوّل بيتبع. وكان حقه. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء، فاقتصر على أحدهما للدلالة. ويجوز أن تكون «ما» موصولة معطوفة على «من» كأنه قيل: ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تدعون، بالتاء، ووجهه أن يحمل {وَمَا يَتَّبِعُ} على الاستفهام، أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة} [الإسراء: ٥٧] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلاّ الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبييون من الحق.

٦٧ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحّدوه بالعبادة، بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم {لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} سماع معتبر مدّكر.

٦٨ - (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

{سبحانه} تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء {هُوَ الغنى} علة لنفي الولد لأنّ ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً {لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض} فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدا {إِنْ عِندَكُمْ مّن سُلْطَانٍ بهذا} ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: {إِنْ عِندَكُمْ} على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان {أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ} لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم.

٦٩ - (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)

{يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب} بإضافة الولد إليه.

٧٠ - (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

{متاع فِى الدنيا} أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

٧١ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)

{كَبُرَ عَلَيْكُمْ} عظم عليكم وشقّ وثقل. ومنها قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين} [البقرة: ٤٥]. ويقال: تعاظمه الأمر {مَّقَامِى} مكاني، يعني نفسه، كما تقول: فعلت كذا لمكان فلان: وفلان ثقيل الظل. ومنه: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ} [الرحمن: ٤٦] بمعنى خاف ربه. أو قيامي ومكثي بين أظهركم مدداً طوالاً أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً أو مقامي وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود {فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ} من أجمع الأمر، وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه. قال:

هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وَأَمْرِي مُجْمَعُ ...

والواو بمعنى «مع» يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم. وقرأ الحسن: «وشركاؤكم» بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيداً وعمرو. وقرئ: «فاجمعوا» من الجمع. وشركاءكم نصب للعطف على المفعول، أو لأنّ الواو بمعنى «مع» وفي قراءة أبيّ: «فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم» فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم، كقوله: {قُلِ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ} [الأعراف: ١٩٥] فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي. وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً. وأما الثاني ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أي غماً وهماً، والغم والغمة، كالكرب والكربة. والثاني أن يراد به ما أريد بالأمر الأوّل، والغمة السترة من غمه إذا ستره. ومنها قوله عليه السلام: " ولا غمة في فرائض الله " أي لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به {ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ} ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدّوا إليَّ قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى: {وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر} [الحجر: ٦٦] أو أدّوا إليّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه {وَلاَ تُنظِرُونَ} ولا تمهلوني. قرئ: «ثم افضوا إليّ» بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إليّ بشرّكم. وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصحروا به إليَّ وأبرزوه لي {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ}.

٧٢ - (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم {إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ} وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلاّ لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين} الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به.

والمراد أن يجعل الحجّة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن [عن] تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير.

٧٣ - (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

{فَكَذَّبُوهُ} فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ} يخلفون الهالكين بالغرق {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين} تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله، وتسلية له.

٧٤ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

{مِن بَعْدِهِ} من بعد نوح {رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ} يعني هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً {فَجَاءُوهُم بالبينات} بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} فما كان إيمانهم إلاّ ممتنعاً كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه {بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق. فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد {كَذَلِكَ نَطْبَعُ} مثل ذلك الطبع المحكم نطبع {على قُلُوبِ المعتدين} والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم، لأنّ الخذلان يتبعه. ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

٧٥ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

{مّن بَعْدِهِمْ} من بعد الرسل {بئاياتنا} بالآيات التسع {فاستكبروا} عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها {وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} كفاراً ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردّها.

٧٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

{فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا} فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهارون {قالوا} لحبهم الشهوات {إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلاّ تمويهاً وباطلاً.

٧٧ - (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

فإن قلت: هم قطعوا بقولهم: {إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} على أنه سحر، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقّ} أتعيبونه وتطعنون فيه. وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه، ونحو القول: الذكر، في قوله: {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} [الأنبياء: ٦٠] ثم قال: {أَسِحْرٌ هذا} فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دلّ عليه قولهم: {إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} كأنه قيل: أتقولون ما تقولون، يعني قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله: {أَسِحْرٌ هذا وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون} حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح {وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون} كما قال موسى للسحرة: ما جئتم به آلسحر، إنّ الله سيبطله.

٧٨ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

{لِتَلْفِتَنَا} لتصرفنا. واللفت والفتل: أخوان، ومطاوعهما الالتفات والانفتال {عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا} يعنون عبادة الأصنام {وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء} أي الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر. ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيه ... جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ

ينفي ما عليه الملوك من ذلك. ويجوز أن يقصدوا ذمّهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا، كما قال القبطي لموسى عليه السلام: إن تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} أي مصدّقين لكما فيما جئتما به. وقرئ: «يطبع» ويكون لكما، بالياء.

٧٩ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

{مَا جِئْتُمْ بِهِ} ما موصولة واقعة مبتدأ. و {السحر} خبر، أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. وقرئ: «آلسحر» على الاستفهام. فعلى هذه القراءة «ما» استفهامية، أي: أيّ شيء جئتم به، أهو السحر؟ وقرأ عبد الله: «ما جئتم به سحر» وقرأ أبيّ: «ما أتيتم به سحر». والمعنى: لا ما أتيت به.

٨١ - (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

{إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ} سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة {لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين} لا يثبته ولا يديمه، ولكن يسلط عليه الدمار.

٨٢ - (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

{وَيُحِقُّ الله الحق} ويثبته {بكلماته} بأوامره وقضاياه. وقرئ: «بكلمته» بأمره ومشيئته.

٨٣ - (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

{فَمَا ءامَنَ لموسى} في أوّل أمره {إِلاَّ ذُرّيَّةٌ مّن قَوْمِهِ} إلاّ طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلاّ أولاد من أولاد قومه. وذلك

أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه وماشطته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: {وَمَلَئِهِمْ}؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر. أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ويدلّ عليه قوله: {أَن يَفْتِنَهُمْ} يريد أن يعذبهم {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض} لغالب فيها قاهر {وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين} في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبية.

٨٤ - (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

{إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُم بِاللهِ} صدقتم به وبآياته {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ} فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا نفوسهم لله، أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط. ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، وإن كانت بك قوّة.

٨٥ - (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

{فَقَالُواْ على الله تَوَكَّلْنَا} إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

٨٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

تبوّأ المكان: اتخذه مباءة، كقولك: توطنه، إذا اتخذه وطناً. والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه {واجعلوا بُيُوتَكُمْ} تلك {قِبْلَةً} أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة. فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أوّلاً، ثم جمع، ثم وحد آخراً. قلت: خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتاً، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خصّ موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً لها وللمبشر بها.

٨٨ - (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)

الزينة: ما يتزين به من لباس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت. فإن قلت: ما معنى قوله: {رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ}؟ قلت: هو دعاء بلفظ الأمر، كقوله: {رَبَّنَا اطمس}، {واشدد}، وذلك أنه لما عرض عليهم أيات الله وبيناته عرضاً مكرّراً وردّد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلاّ استكباراً، وعن النصيحة إلاّ نبوّا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلاّ الغي والضلال، وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله - اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلاّ أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه،

كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال. وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أحقّ بذلك وأحقّ كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه، حسرة على ما فاته من قبول نصيحته، وحرداً عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشدّ على القلوب. الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} جواب للدعاء الذي هو «اشدد» أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلّوا. وقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} عطف على ليضلوا. وقوله: {رَبَّنَا اطمس على أموالهم واشدد على قُلُوبِهِمْ} دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: «أئنك آتيت» على الاستفهام، واطمس بضم الميم.

٨٩ - (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

قرئ: «دعواتكما». قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن. ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان. والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته {فاستقيما} فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجّة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلاّ قليلاً ولا تستعجلا. قال ابن جريج، فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة {وَلاَ تَتَّبِعَانّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ} أي لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح عليه السلام {إِنّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين} [هود: ٤٦]. وقرئ: «ولا تتبعان» بالنون الخفيفة، وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، وبتخفيف التاء من تبع.

٩٠ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعشى:

وَإِذَا تُجَوِّزُنَا حِبَالِ قَبِيلَةٍ ...

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوّزنا بني إسرائيل في البحر كما قال:

كَمَا جَوَّزَ السَّكِّيّ فِي الْبَابِ فَيْتَقُ ...

{فَأَتْبَعَهُمْ} فلحقهم. يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: «وعدوّا». وقرئ: أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته. وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

٩١ - (ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

{ءآلئان} أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك. قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق. وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه. والذي يحكي أنه حين قال: {ءامَنتُ} أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه. وأمّا ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين لله وملائكته: وفيه جهالتان، إحداهما: أنّ الإيمان يصحّ بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه. والأخرى: أنّ من كره إيمان الكافر وأحبّ بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضا بالكفر كفر {مِنَ المفسدين} من الضالين المضلين عن الإيمان، كقوله: {الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [النحل: ٩٨]. وروي: أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه.

٩٢ - (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

{نُنَجّيكَ} بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر. وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض. وقرئ: «ننحيك» بالحاء: نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور {بِبَدَنِكَ} في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس، أو بدرعك. قال عمرو بن معديكرب:

أَعَاذِلُ شِكَّتِي بَدَنِي وَسَيْفِي ... وَكُلُّ مُقَلّصٍ سَلِسُ القِيَادِ

وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: «بأبدانك» هو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني: ببدنك كله وافياً بأجزائه. أو يريد: بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها {لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً} لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبداً. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وكأن مطرحه كان على ممرّ من بني إسرائيل حتى قيل: لمن خلفك. وقيل: {لِمَنْ خَلْفَكَ} لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن تظهر للناس عبوديته ومهانته، وأنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عزّ وجلّ، فما الظنّ بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك، فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: «لمن خلقك» بالقاف: أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادّعائك العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أنَّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبه في أمرك.

٩٣ - (وَلَقَدْ بوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبوَّأَ صِدْقٍ وَرزَقْنَاهم مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{مُبوَّأَ صِدْقٍ} منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام {فَمَا اختلفوا} في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلاّ من بعد ما قرأوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه. وقيل: هو العلم بمحمد صلى الله عليه وسلم واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب، اختلافهم في صفته ونعته، وأنه هو أم ليس به. بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه. كما قال الله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [البقرة: ١٤٦].

٩٤ - (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

فإن قلت: كيف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {فَإِن كُنتَ في شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ} مع قوله في الكفرة: {وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكّ مّنْهُ مُرِيبٍ}. قلت: فرق عظيم بين قوله: {إِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} بإثبات الشكّ لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: {فَإِن كُنتَ فِي شَكّ} بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيّل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً {فَاسْأَلِ الذين يَقْرَؤونَ الكتاب} والمعنى: أنّ الله عزّ وجلّ قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم، لأنّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يأكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شكّ فرضاً وتقديراً وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلّها وإماطتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحقّ فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل الله إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشكّ فيه، ثم قال: {لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبّكَ} أي ثبت عندك

بالآيات والبراهين القاطعة أنّ ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين}.

٩٥ - (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله} أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله. ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب، كقوله: {فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهيراً للكافرين وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ} [القصص: ٨٧] ولزيادة التثبيت والعصمة، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: " ولا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق " وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شكّ طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقيل: خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد خطاب أمته. فإن كنتم في شكّ مما أنزلنا إليكم، لقوله: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً} [النساء: ١٧٤] وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشكّ، كقول العرب: إذا عزّ أخوك فهن. وقيل: «إن» للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل، يعني: لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى. وقرئ: «فاسأل الذين يقرؤون الكتب».

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ)

{حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ} ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره. وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومراد تعالى الله عن ذلك.

٩٨ - (فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

{فَلَوْلاَ كَانَتْ} فهلا كانت {قَرْيَةٌ} واحدة من القرى التي أهلكناها، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف، ولم تأخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بخنقه {فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار. وقرأ أبيّ وعبد الله: «فهلا كانت» {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} استثناء من القرى، لأنّ المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا. ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلاّ قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع على البدل، هكذا روي عن الجرمي والكسائي. روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب. فلبسوا المسوح، وعجوا أربعين ليلة. وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان، وبين الذواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة. وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم، حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيردّه، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: «يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلاّ أنت» فقالوها فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللّهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

٩٩ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ} مشيئة القسر والإلجاء {لآمَنَ مَن فِى الأرض كُلُّهُمْ} على وجه الإحاطة والشمول {جَمِيعاً} على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه. ألا ترى إلى قوله: {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس} يعني إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت. وإيلاء الاسم حرف الاستفهام، وللإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن في المكره من هو؟ وما هو إلاّ هو وحده لا يشارك فيه، لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطّرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر.

١٠٠ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ} يعني من النفوس التي علم أنها تؤمن {إِلاَّ بِإِذْنِ الله} أي بتسهيله وهو منح الألطاف {وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ} قابل بالإذن بالرجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر، كقوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} وسمي الخذلان رجسا وهو العذاب لأنه سببه. وقرئ: «الرجز» بالزاي. وقرئ: «ونجعل» بالنون.

١٠١ - (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

{مَاذَا فِى السموات والأرض} من الآيات والعبر {وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر} والرسل المنذرون. أو الإنذارات {عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون وقرئ: وما يغني بالياء، و «ما» نافية، أو استفهامية.

١٠٢ - (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

{أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ} وقائع الله تعالى فيهم. كما يقال: «أيام العرب» لوقائعها.

١٠٣ - (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

{ثُمَّ نُنَجّى رُسُلَنَا} معطوف على كلام محذوف يدلّ عليه قوله: {إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ} كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية {والذين ءامَنُواْ} ومن آمن معهم، كذلك {نُنجِ المؤمنين} مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم، ونهلك المشركين. و {حَقّاً عَلَيْنَا} اعتراض، يعني: حقّ ذلك علينا حقاً. وقرئ: «ننجّ» بالتشديد.

١٠٤ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{يا أَيُّهَا الناس} يا أهل مكة {إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى} وصحته وسداده، فهذا ديني فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف، لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشكّ، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم {ولكن أَعْبُدُ الله الذى يَتَوَفَّاكُمْ} وإنما وصفه بالتوفي، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي، فيعبدون دون ما لا يقدر على شيء {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين} يعني أنّ الله أمرني بذلك، بما ركب فيّ من العقل، وبما أوحي إليّ في كتابه. وقيل: معناه إن كنتم من ديني ومما أنا عليه أثبت عليه أن تركه وأوافقكم فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري، واقطعوا عني أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا اختار الضلالة على الهدى، كقوله: {قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون: ١ - ٢]. {أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ} أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارّة مع «أن» و «أن». وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

١٠٥ - (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

فإن قلت: عطفُ قوله: {وَأَنْ أَقِمْ} على {أَنْ أَكُونَ} فيه إشكال، لأنّ «أن» لا تخلو من أن تكون التي للعبارة، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول، لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك. والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو {أَقِمْ} لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب. قلت: قد سوّغ سيبويه أن توصل «أن» بالأمر والنهي، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر. والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال {أَقِمْ وَجْهَكَ} استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالاً. و {حَنِيفاً} حال من الدين، أو من الوجه.

١٠٦ - (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ)
{فَإِن فَعَلْتَ} معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكني عنه بالفعل إيجازاً {فَإِنَّكَ إِذًا مّنَ الظالمين} إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، {إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [القمان: ١٣].
١٠٧ - (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضرّ، أنّ الله عزّ وجلّ هو الضارّ النافع، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلاّ هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به. وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله واحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: {إِنْ أَرَادَنِىَ الله بِضُرّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ} [الزمر: ٣٨]. فإن قلت: لم ذكر المسّ في أحدهما، والإرادة في الثاني؟ قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدلّ بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: {يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.
١٠٨ - (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)
{قَدْ جَاءكُمُ الحق} فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجّة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلاّ نفسه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلاّ نفسه، واللام وعلى: دلا على معنى النفع والضرّ. وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل. وفيه حثّ على إيثار الهدى واطراح الضلال مع ذلك {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم على ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.
١٠٩ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)
{واصبر} على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم {حتى يَحْكُمَ الله} لك بالنصرة عليهم والغلبة.
وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال: " إنكم ستجدون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني " يعني أني أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة»، قال أنس: فلم نصبر. وروي أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: ما لك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقال صلى الله عليه وسلم: " يا معشر الأنصار، إنكم ستلقون بعدي أثرة " قال معاوية: فماذا قال: قال: «فاصبروا حتى تلقوني» قال فاصبر. قال: إذن نصبر. فقال عبد الرحمن بن حسان:
أَلاَ أبْلِــغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْب ... أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَثَا كَلاَمِي
بِأَنّا صَابِرُونَ فَمُنْظِرُوكُم ... إلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَالْخِصَامِ
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون ".

١١ سورة هود:

سورة هود:
عليه السلام وهي مائة وثلاث وعشرون آية

١ - (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

{أُحْكِمَتْ ءاياته} نظمت نظما رصينا محكماً لا يقع في نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف. ويجوز أن يكون نقلا بالهمزة، من «حكم» بضم الكاف، إذا صار حكيماً: أي جعلت حكيمة، كقوله تعالى: {آيات الكتاب الحكيم} [يونس: ١] وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح. قال جرير:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُم ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أنْ أغْضَبَا

وعن قتادة: أحكمت من الباطل {ثُمَّ فُصّلَتْ} كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو جعلت فصولاً، سورة سورة، وآية آية. وفرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة. أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد: أي بين ولخص. وقرئ: «أحكمت آياته ثم فصلت» أي أحكمتها أنا ثم فصلتها. وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت، أي فرّقت بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب: خبر مبتدأ محذوف وأحكمت: صفة له. وقوله: {مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن؛ لأنّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها: أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

٢ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

{أَلاَّ تَعْبُدُواْ} مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا. أو تكون «أن» مفسرة؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

٣ - (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

{وَأَنِ استغفروا} أي أمركم بالتوحيد والاستغفار. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة. ويدل عليه قوله: {إِنَّنِى لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم منه نذير، كقوله تعالى: {فَضَرْبَ الرقاب} [محمد: ٤] والضمير في {مّنْهُ} لله عز وجل، أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته، كقوله: {رَسُولٌ مّنَ الله} [البينة: ٢] أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم. فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ}؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا، والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، كقوله: {ثُمَّ استقاموا} [الأحقاف: ١٣]. {يُمَتّعْكُمْ} يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة {إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى} إلى أن يتوفاكم، كقوله: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيّبَةً} [النحل: ٩٧] {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه. أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات {وَإِن تَوَلَّوْاْ} وإن تتولوا {عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل.

٤ - (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه. وقرئ: «وإن تولوا» من ولي.

٥ - (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

{يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره

وطوى عنه كشحه {لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ} يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم. ونظير إضمار يريدون - لقود المعنى إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى: {اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق} [الشعراء: ٦٣] معناه فضرب فانفلق. ومعنى {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} ويزيدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضاً، كراهة لاستماع كلام الله تعالى: كقول نوح عليه السلام: {جَعَلُواْ أصابعهم فِى ءاذانهم واستغشوا ثِيَابَهُمْ} [نوح: ٧] ثم قال: {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} يعني أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده. روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالسته ومحادثته، وهو يضمر خلاف ما يظهر. وقيل: نزلت في المنافقين. وقرئ: «تثنوني صدورهم»، «واثنونى» من الثني، كاحلولى من الحلاوة، وهو بناء مبالغة، قرئ بالتاء والياء. وعن ابن عباس لتثنوني. وقرئ تثنونّ وأصله تثنونن «تفعوعل» من الثن وهو ما هش وضعف من الكلأ، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات. أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم. وقرئ: «تثنئن» من اثنأن «افعال» منه، ثم همز كما قيل: ابيأضت، وادهأمت وقرئ: «تثنوي» بوزن ترعوي.

٦ - (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

فإن قلت: كيف قال: {عَلَى الله رِزْقُهَا} بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل؟ قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كنذور العباد. والمتستقرّ: مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان موعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة {وَمُسْتَوْدَعَهَا} كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها في اللوح، يعني ذكرها مكتوب فيه مبين.

٧ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء} أي ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض. وارتفاعه فوقها إلا الماء. وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض. وقيل: وكان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه {لِيَبْلُوَكُمْ} متعلق بخلق، أي خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم. يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون. فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم. فإن قلت كيف قيل: {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قلت: الذين هم أحسن عملا هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

" ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله " قرئ: «ولئن قلت إنكم مبعوثون» بفتح الهمزة. ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشتري لنا لحماً، وأنك تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: {إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} باتين القول ببطلانه. ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم: {إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أنّ السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به. أو أشاروا بهذا إلى القرآن لأن القرآن

هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. وقرئ: «إن هذا إلا ساحر»، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.
٨ - (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
{العذاب} عذاب الآخرة. وقيل عذاب يوم بدر. وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين {إلى أُمَّةٍ} إلى جماعة من الأوقات {مَا يَحْبِسُهُ} ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء. و {يَوْمَ يَأْتِيهِمْ} منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها؛ إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل {وَحَاقَ بِهِم} وأحاط بهم {مَّا كَانُواْ بِهِ يستهزئون} العذاب الذي كانوا به يستعجلون. وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.
٩ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)
{الإنسان} للجنس {رَحْمَةً} نعمة من صحة وأمن وجدة {ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} ثم سلبنا تلك النعمة {إنه ليؤوس} شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة. قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع {كَفُورٌ} عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نَسَّاءٌ له.
١٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)
{ذَهَبَ السيئات عَنّي} أي المصائب التي ساءتني {إِنَّهُ لَفَرِحٌ} أشر بطر {فَخُورٌ} على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.
١١ - (إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
{إلاَّ الذين} آمنوا، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.
١٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)
كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ} وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ} أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} بأن تتلوه عليهم {أَن يَقُولُواْ} مخافة أن يقولوا: {لَوْلاَ أُنُزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ} أي هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه، ثم قال: {إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ} أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا {والله على كُلّ شَىْء وَكِيلٌ} يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم. فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه كانوا قوماً عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي:
بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِن ... بِهَا وَكِرَامُ النّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا

١٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{أَمْ} منقطعة. والضمير في {افتراه} لما يوحى إليك. تحداهم أوّلا بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد {مِّثْلِهِ} بمعنى أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له {مُفْتَرَيَاتٍ} صفة لعشر سور لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم على دعواهم وأرخى معهم العنان وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي وأنّ الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام. فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.
١٤ - (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: {لَكُمْ فاعلموا} بعد قوله: {قُلْ}؟ قلت: معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدّونهم، وقد قال في موضع آخر: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم} [القصص: ٥٠] ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله:
فَإنْ شَئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ ...
وووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في {لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ} لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه {فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ الله} أي أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه {و} اعلموا عند ذلك {و أَن لاَّ إله إِلاَّ} الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم {فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ} مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد. ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد. ومعنى {فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ} فهل أنتم مخلصون؟
١٥ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)
{نُوَفِّ إِلَيْهِمْ} نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء. يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدّق: فعلت حتى يقال، فقيل ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن. وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم في الغنائم. وقرئ: «يوفّ» بالياء على أن الفعل لله عز وجل. وتوفَّ إليهم أعمالهم بالتاء، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن: «نوفي»، بالتخفيف وإثبات الياء، لأنّ الشرط وقع ماضياً، كقوله:
يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرِمُ ...
١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا} وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا {وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. وقرئ: «وبطل» على الفعل. وعن عاصم: وباطلا بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه:

وباطلاً، أيّ باطل كانوا يعملون. وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

١٧ - (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)

{أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ} معناه: أمّن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة {مّن رَّبّهِ} أي على برهان من الله وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل {وَيَتْلُوهُ} ويتبع ذلك البرهان {شَاهِدٌ مّنْهُ} أي شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن {مِنْهُ} من الله، أو شاهد من للقرآن، فقد تقدّم ذكره آنفاً {وَمِن قَبْلِهِ} ومن قبل القرآن {كِتَابُ موسى} وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى. وقرئ: «كتاب موسى» بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أنّ القرآن حق، {وَيَتْلُوهُ}: ويقرأ القرآن {شَاهِدٌ مّنْهُ} شاهد ممن كان على بينة. كقوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسرائيل على مِثْلِهِ} [الأحقاف: ١٠]، {قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب} [الرعد: ٤٣]، {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى} ويتلو من قبل القرآن والتوراة {إِمَاماً} كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه {وَرَحْمَةً} ونعمة عظيمة على المنزل إليهم {أولئك} يعني من كان على بينة {يُؤْمِنُونَ بِهِ} يؤمنون بالقرآن {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب} يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزّبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم {فالنار مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ} وقرئ: «مُرية» بالضم وهما الشك {مّنْهُ} من القرآن أو من الموعد.

١٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

{يُعْرَضُونَ على رَبّهِمْ} يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم {الأشهاد} من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ويقال {أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين} فواخزياه ووافضيحتاه. والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشراف.

١٩ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

{وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به.

٢٠ - (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض} أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد {يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب} وقرئ: «يضعف» {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع} أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي. ويحتمل أن يريد بقوله: {وَمَا كَانَ لَهُم مّنْ دون الله أَوْلِيَاء} أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} فكيف يصلحون للولاية. وقوله: {يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب} اعتراض بوعيد.

٢١ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم

{وَضَلَّ عَنْهُم} وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} من الآلهة وشفاعتها.

٢٢ - (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ)

{لاَ جَرَمَ} فسر في مكان آخر {هُمُ الأخسرون} لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ} واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة. ومنه قولهم للشيء: الدنيء الخبيت. قال:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ ... قِ وَلاَ يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيتُ

وقيل: التاء فيه بدل من الثاء.

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق. وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع. على أن تكون الواو في {والأصم} وفي {والسميع} لعطف الصفة على الصفة، كقوله:

الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ ...

{هَلْ يَسْتَوِيَانِ} يعني الفريقين {مَثَلاً} تشبيهاً.

٢٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

أي أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير. ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: {إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} بالكسر، فلما اتصل به الجارّ فتح كما فتح في {كَأَنَّ} والمعنى على الكسر، وهو قولك: إنّ زيداً كالأسد. وقرئ بالكسر على إرادة القول.

٢٦ - (أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

{أَن لاَّ تَعْبُدُواْ} بدل من {إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ} أي أرسلناه بأن لا تعبدوا {إِلاَّ اللَّهَ} أو تكون «أن» مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير ووصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه. فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟ قلت: مجازي مثله، لأنّ الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

٢٧ - (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

{الملا} الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملئوا بالأمر؛ لأنهم ملؤا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها. أو لأنهم يتمالؤن أي يتظاهرون ويتساندون أو لأنهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مّثْلَنَا} تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: {وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}. أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشر. والأراذل جمع الأرذل كقوله: {أكابر مُجْرِمِيهَا} [الأنعام: ١٢٣] «أحاسنكم أخلاقاً» وقرئ: «بادي الرأي» بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أوّل الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أوّل رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن

التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله {مِن فَضْلٍ} من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، {بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين} فيما تدّعونه.

٢٨ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

{أَرَءيْتُمْ} أخبروني {إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ} على برهان {مّن رَّبّى} وشاهد منه يشهد بصحة دعواي {وءاتاني رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ} بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة. فإن قلت: فقوله: {فَعُمّيَتْ} ظاهر على الوجه الأوّل، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت: الوجه أن يقدّر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة: ومعنى عميت خفيت. وقرئ: «فعميت» بمعنى أخفيت. وفي قراءة أبي «فعماها عليكم» فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كارهون} يعني أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً. ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقولك: أنلزمكم إياها. ونحوه {فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله} [البقرة: ١٣٧] ويجوز: فسيكفيك إياهم. وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم. ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً. والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

٢٩ - (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

والضمير في قوله: {لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ} راجع إلى قوله لهم: {إِنّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله} [هود: ٢٥]. وقرئ: «وما أنا بطارد الذين آمنوا» بالتنوين على الأصل. فإن قلت: ما معنى قوله: {إنهم ملاقو رَّبُّهُمْ}؟ قلت: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم. أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكر. وما علي أن أشق عن قلوبهم وأتعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون. ونحوه {وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} الآية [الأنعام: ٥٢]، أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة {تَجْهَلُونَ} تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل: من قوله:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ...

أو تجهلون بلقاء ربكم. أو تجهلون أنهم خير منكم.

٣٠ - (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

{مَن يَنصُرُنِى مِنَ الله} من يمنعني من انتقامه {إِن طَرَدتُّهُمْ} وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء.

٣١ - (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

{أَعْلَمُ الغيب} معطوف على {عِندِى خَزَائِنُ الله} أي لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب.

ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلا عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم {وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}

[هود: ٢٧] ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم {وَلا أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ} حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم {إِنّى إِذًا لَّمِنَ الظالمين} إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زري عليه إذا عابه. وأزرى به: قصر به، يقال ازدرته عينه، واقتحمته عينه.

٣٢ - (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} من العذاب المعجل.

٣٣ - (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

{إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله} أي ليس الإتيان بالعذاب إليّ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه {إِن شَاء} يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه. «فأكثرت جدلنا» فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ قلت: قوله: {إِن كَانَ الله يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}.

٣٤ - (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{إِن كَانَ الله يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} جزاؤه ما دلّ عليه قوله: {لاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى} وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني. فإن قلت: فما معنى قوله: {إِن كَانَ الله يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}؟ قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمى ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به: سمي إرشاداً وهداية. وقيل: {أَن يُغْوِيَكُمْ} أن يهلككم من غوى الفصيل غوي، إذا بشم فهلك، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟

٣٥ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

{فَعَلَيَّ إِجْرَامِى} وإجرامي بلفظ المصدر والجمع. كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم. ونحو: جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامي والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته، فعلي عقوبة إجرامي أي افترائي. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا عليّ {وَأَنَاْ بَرِئ} يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى {مّمَّا تُجْرَمُونَ} من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

٣٦ - (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

{لَن يُؤْمِنَ} إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع {إِلاَّ مَنْ قَدْ ءامَنَ} إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها {فَلاَ تَبْتَئِسْ} فلا تحزن حزن بائس مستكين، قال:

مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِس ... مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَال

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

٣٧ - (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

{بِأَعْيُنِنَا} في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن لله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه. ووحينا: وأنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر {وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ} ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع

العذاب عنهم بشفاعتك {إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ} إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضي به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: {يإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبّكَ وَإِنَّهُمْ اتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: ٧٦].

٣٨ - (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

{وَيَصْنَعُ الفلك} حكاية حال ماضية {سَخِرُواْ مِنْهُ} ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً {فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ} يعني في المستقبل {كَمَا تَسْخَرُونَ} منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق. وروي أنّ نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة. وقيل: إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال: فضرب الكثيب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكت؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال: له عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً.

٣٩ - (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

{مَن يَأْتِيهِ} في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ} حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه {عَذَابٌ مُّقِيمٌ} وهو عذاب الآخرة.

٤٠ - (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ)

{حتى} هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله ويصنع الفلك، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، فإن قلت: فإذا اتصلت «حتى» بيصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام؟ قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه. فإن قلت: فما جواب كلما؟ قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل «سخروا» جواباً و «قال» استئنافاً، على تقدير سؤال سائل، أو تجعل «سخروا» بدلاً من «مرّ» أو صفة «لملأ» و «قال» جواباً. {وَأَهْلَكَ} عطف على اثنين، وكذلك {وَمَنْ ءامَنَ} يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه وإرادته به - تعالى الله عن ذلك - قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته {إِلاَّ قَلِيلٌ} روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم " وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام وحام ويافث، ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء.

٤١ - (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل {بِسْمِ اللَّهِ} ب (اركبوا) حالا من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم خفوق النجم، ومقدم الحاج. ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في {بِسْمِ اللَّهِ} من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون {بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} جملة من مبتدأ وخبر مقتضبه، أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها. يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم، كقوله:

ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا ...

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي بقدرته وأمره. وقرئ: {مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين. وقرأ مجاهد {مجريها ومرسيها} بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله. فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضبة؟ قلت: معناه أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته. ويحتمل أن تكون غير مقتضيه بأن تكون في موضع الحال كقوله:

وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا ...

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير، كقوله تعالى: {فادخلوها خالدين} [الزمر: ٧٣]. {إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

٤٢ - (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)

فإن قلت: بم اتصل قوله: {وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ}؟ قلت: بمحذوف دل عليه {اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله} [هود: ٤١] كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، {وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ} أي تجري وهم فيها {فِى مَوْجٍ كالجبال} يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها. فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟ قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه: سآوى إلى جبل يعصمني من الماء. قيل: كان اسم ابنه: كنعان. وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن. قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه إن ابني من أهلي، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: {مِّنْ أَهْلِى} [هود: ٤٥] ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمّه وجهان، أحدهما: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام. وقرأ السدي «ونادى نوح ابناه» على الندبة والترثي. أي: قال: يا ابناه. والمعزل: مفعل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين. وقيل: كان في معزل عن دين أبيه {يابنى} قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك «يا بنيا» أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين، لأنّ الراء بعدهما ساكنة.

٤٣ - (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

{إلاَّ مَن رَّحِمَ} إلا الراحم وهو الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: {إِنَّ رَبّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [هود: ٤١] وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة. وقيل لا عاصم، بمعنى: لاذا عصمة إلا من رحمه الله، كقوله: {مَّاء دَافِقٍ} [الطارق: ٦] و {عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} [الحاقة: ٢١] وقيل: «إلا من رحم» استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن} [النساء: ١٥٧] وقرئ «إلا من رُحِم» على البناء للمفعول.

٤٤ - (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

نداء الأرض والسماء بما ينادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: «يا أرض»، «ويا سماء» ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: «ابلعي ماءك» و «أقلعي» من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلع: عبارة عن النشف. والإقلاع: الإمساك. يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى {وَغِيضَ الماء} من غاضه إذا نقصه {وَقُضِىَ الأمر} وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه {واستوت} واستقرّت السفينة {عَلَى الجودي} وهو جبل بالموصل {وَقِيلَ بُعْدًا} يقال بعد بعدا وبعدا، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: «ابلعي» و «أقلعي» وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور. وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء. وروي أنها مرت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق. وروي أنّ نوحاً صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

٤٥ - (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: {رَبّ} مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله. فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: «رب» فكيف عطف «قال رب» على «نادى» بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله: {إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً قَالَ رَبّ} [مريم: ٣] بغير فاء {إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى} أي بعض أهلي، لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله {وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق} وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ {وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين} أي أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل.

٤٦ - (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

{إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح} تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأنّ نسيبك في دينك ومعتقدك

من الأباعد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمّه، كقولها:

فَإنَّمَا هي إقْبَالٌ وَإدْبَارُ ...

وقيل: الضمير لنداء نوح، أي: إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك - فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك. وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك، كقوله: {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين نَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِينَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً} [التحريم: ١٠] وقرئ: «عمل غير صالح» أي عمل عملا غير صالح. وقرئ: «فلا تسئلنّ» بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني فلا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه. وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه. فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟ قلت: إن الله عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه.

٤٧ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

{أَنْ أَسْأَلَكَ} من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك {وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى} ما فرط مني من ذلك {وَتَرْحَمْنِى} بالتوبة عليّ {أَكُن مّنَ الخاسرين} أعمالاً.

٤٨ - (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وقرئ: «يا نوح اهبط» بضم الباء {بسلام مّنَّا} مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرّماً {وبركات عَلَيْكَ} ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية. وقرئ: «وبركة» على التوحيد {وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ} يحتمل أن تكون من للبيان. فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات. أو قيل لهم أمم، لأنّ الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لإبتداء الغاية أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه. وقوله: {وَأُمَمٌ} رفع بالابتداء. و {سَنُمَتّعُهُمْ} صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف لأنّ قوله: {مّمَّن مَّعَكَ} يدل عليه والمعنى: أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة. وعن محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا، منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

٤٩ - (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

{تِلْكَ} إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة

إليك، مجهولة عندك وعند قومك {مِّن قَبْلِ هذا} من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي. أو من قبل هذا الوقت {فاصبر} على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه {إِنَّ العاقبة} في الفوز والنصر والغلبة {لّلْمُتَّقِينَ} وقوله: {وَلاَ قَوْمُكَ} معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

٥٠ - (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ)

{أخاهم} واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا، و {هُودًا} عطف بيان. و {غَيْرُهُ} بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور. وقرئ: «غيره»، بالجرّ صفة على اللفظ {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ} تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول، لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع.

٥١ - (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله. وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك.

٥٢ - (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

قيل {استغفروا رَبَّكُمْ} آمنوا به {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، والمدرار: الكثير الدرور، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوّة، لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدّة القوّة والبطش والبأس والنجدة، مستحرزين بها من العدوّ، مهيبين في كل ناحية. وقيل: أراد القوّة في المال وقيل: القوّة على النكاح وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية فقال: هلا سألته ممَّ قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ} وقول نوح عليه السلام: {وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ} [نوح: ١٢] {وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ} ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه {مُّجْرِمِينَ} مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

٥٣ - (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

{مَا جِئْتَنَا بِبيِّنَةٍ} كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا أُنزل عليه آية من ربه، مع فوت آياته الحصر {عَن قَوْلِكَ} حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك: {وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطاً له من الإجابة.

٥٤ - (إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

{اعتراك} مفعول نقول، وإلا لغو. والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدّك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين. وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلا وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك. وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً والمنيب إلى ربه مخبلا، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادّة وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد أن يطلع رأسه وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله

متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشا إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: {ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ} [يونس: ٧١] أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أني لا أفعل كذا ويقول لقومه كونوا شهداء على أني لا أفعله. فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد علي أني لا أحبك، تهكما به واستهانة بحاله.

٥٥ - (مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ)

{مِّمَّا تُشْرِكُونَ به مِن دُونِهِ} من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء. ولم ينزل بذلك سلطاناً {فَكِيدُونِى جَمِيعًا} أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار، فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليّ وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي.

٥٦ - (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم. من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك {إِنَّ رَبّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ} يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

٥٧ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

{فَإِن تَوَلَّوْاْ} فإن تتولوا. فإن قلت: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلت: معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول {وَيَسْتَخْلِفُ} كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم {وَلاَ تَضُرُّونَهُ} بتوليكم {شَيْئاً} من ضرر قط، لأنه لا يجوز عليه المضارّ والمنافع، وإنما تضرون أنفسكم. وفي قراءة عبد الله {وَيَسْتَخْلِفُ} بالجزم وكذلك: ولا تضروه، عطفاً على محل {فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ} والمعنى: إن يتولوا يعذرني ويستخلف قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم {على كُلّ شَىْء حَفِيظٌ} أي رقيب عليه مهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضارّ، لم يضر مثله مثلكم.

٥٨ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

{والذين ءامَنُواْ مَعَهُ} قيل: كانوا أربعة آلاف. فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟ قلت: ذكر أولا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال: {وَنَجَّيْنَاهُمْ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أنّ الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً. وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ. وقوله: برحمة منا، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

٥٩ - (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

{وَتِلْكَ عَادٌ} إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال:

{جَحَدُواْ بآيات رَبّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ} لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله، {لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥] قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده {كُلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل. ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم. ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله.

٦٠ - (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

و {ألا} وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم، تهويل لأمرهم وتفظيع له، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم. فإن قلت: {بُعْدًا} دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت: معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له: ألا ترى إلى قوله:

إِخْوَتِي لاَ تَبْعَدُوا أبدَا ... وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا

{قَوْمِ هُودٍ} عطف بيان لعاد: فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه؟ قلت: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسما، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأنّ عاداً عادان: الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

٦١ - (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

{هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض} لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره. وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب {واستعمركم فِيهَا} وأمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي. وعن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

لَيْسَ الفَتَى بِفتيَ لاَيُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَلاَ تَكُونُ لَهُ في الأَرْضِ آثَارُ

وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون استعمر في معنى أعمر، كقولك استهلكه في معنى أهلكه. ومعناه: أعمركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم. والثاني أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها، لأنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده فكأنما أعمره إياها، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره {قَرِيبٌ} داني الرحمة سهل المطلب {مُّجِيبٌ} لمن دعاه وسأله.

٦٢ - (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

{فِينَا} فيما بيننا {مَرْجُوّاً} كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك. وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدّمك على جميعنا. وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه {يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا} حكاية حال ماضية {مُرِيبٍ} من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين. أو من «أراب الرجل» إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

٦٣ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

قيل: {إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى} بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة، لأنّ خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدّروا أني على بينة من ربي، وأني نبيّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ {فَمَا تَزِيدُونَنِى} إذن حينئذ {غَيْرَ تَخْسِيرٍ} يعني تخسرون أعمالي وتبطلونها. أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخسركم، أي أنسبكم إلى الخسران

وأقول لكم إنكم خاسرون.

٦٤ - (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

{ءَايَةً} نصب على الحال قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. فإن قلت: فبم يتعلق {لَكُمْ} قلت بآية حالاً منها متقدّمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال {عَذَابٌ قَرِيبٌ} عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم.

٦٥ - (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)

{تَمَتَّعُواْ} استمتعوا بالعيش {فِى دَارِكُمْ} في بلدكم. وتسمى البلاد الديار، لأنه يدار فيه أي يتصرف. يقال: ديار بكر، لبلادهم. وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد. وقيل: في دار الدنيا. وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت {غَيْرُ مَكْذُوبٍ} غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود، من قوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ. . . . .

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفي بك، فإذا وفى به فقد صدق ولم يكذب. أو وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة بمعنى الصدق.

٦٦ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

{وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ} قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن، كقوله:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ...

فإن قلت: علام عطف؟ قلت: على نجينا، لأنّ تقديره ونجيناهم من خزي يومئذ، كما قال {وَنَجَّيْنَاهُمْ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [هود: ٥٨] على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي من ذله ومهانته وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه. ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة.

٦٨ - (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ)

وقرئ: «ألا إن ثمود» و «لثمود» كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحيّ أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى القبيلة.

٦٩ - (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

{أَرْسَلْنَا} يريد الملائكة. عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه. وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة. وعن السدي: أحد عشر {بالبشرى} هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد {سلاما} سلمنا عليك سلاماً {سلاما} أمركم سلام. وقرئ: «فقالوا سلما قال سلم» بمعنى السلام. وقيل: سلم وسلام، كحرم وحرام، وأنشد:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَت ... كَمَا اكْتَلَّ بِالبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ

{فَمَا لَبِثَ أَن جَاء} فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة، ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر {حنيذ} مشويّ بالرضف في أخدود. وقيل {حَنِيذٍ} يقطر دسمه، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً، ويدل عليه {بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [الذاريات: ٢٦].

٧٠ - (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)

يقال: نكره وأنكره واستنكره، ومنكور قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرك، ولكن منكر ومستنكر، وأنكرك. قال الأعشى:

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَت .... مِنَ الْحَوَادِثِ إلاّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قيل: كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهاً. وقيل: كانت عادتهم أنه إذامسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحسّ بأنهم ملائكة، ونكرهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه، ألا ترى إلى قولهم: {لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط} وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا {فَأَوْجَسَ} فأضمر. وإنما قالوا: {لاَ تَخَفْ} لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه. أو عرفوه بتعريف الله. أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب.

٧١ - (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

{وامرأته قَآئِمَةٌ} قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم. وقيل: كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد الله: وامرأته قائمة وهو قاعد {فَضَحِكَتْ} سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث. أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلهم العذاب. وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت. وقيل ضحكت لحاضت. وقرأ محمد بن زياد الأعرابي «فضحكت» بفتح الحاء {يَعْقُوبَ} رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي من بعده. وقيل الوراء: ولد الولد. وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال نعم، من الوراء، وكان ولد ولده. وقرئ: «يعقوب» بالنصب، كأنه قيل. ووهبنا لها إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، على طريقة قوله:

. . . . . . لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلاَ نَاعِبٍ. . . . .

٧٢ - (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

الألف في {يا ويلتا} مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في «يالهفاً» و «ياعجباً» وقرأ الحسن: «يا ويلتي» بالياء على الأصل.

و {شَيْخًا} نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة. وقرئ: «شيخ» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ. أو بعلي: بدل من المبتدأ، وشيخ: خبر، أو يكونان معاً خبرين. قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، ولإبراهيم مائة وعشرون سنة {إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ} أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله. وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ف.

٧٣ - (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

{قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها ما يزدهي النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: {رَحْمَتُ الله وبركاته عَلَيْكُمْ} أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب. وأمر الله: قدرته وحكمته: وقوله: {رَحْمَتُ الله وبركاته عَلَيْكُمْ} كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل، لأنّ الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم {حَمِيدٌ} فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده {مَّجِيدٌ} كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص لأن {أَهْلَ البيت} مدح لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

٧٤ - (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

{الروع} ما أوجس من الخيفة. حين نكر أضيافه. والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة، فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف كما حذف قوله: {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ} [يوسف: ١٥] وقوله: {يجادلنا} كلام مستأنف دال على الجواب. وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت: ثم ابتدأ فقال: {يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ}

وقيل في {يجادلنا}: هو جواب لما، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال: وقيل إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا. والمعنى: يجادل رسلنا. ومجادلته إياهم أنهم قالوا: {إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذه القرية} [العنكبوت: ٣١] فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا حتى بلغ العشرة. قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: {إِنَّ فِيهَا لُوطاً} [العنكبوت: ٣٢] {قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [العنكبوت: ٣٢]. {فِى قَوْمِ لُوطٍ} في معناهم. وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير. وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان.

٧٥ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

{إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ} غير عجول على كل من أساء إليه {أواه} كثير التأوّه من الذنوب {مُّنِيبٌ} تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى. وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب. ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

٧٦ - (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

{ياإبراهيم} على إرادة القول: أي قالت له الملائكة {أَعْرِضْ عَنْ هاذآ} الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه {إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ} وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مردّ له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

٧٧ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم. روي أنّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرقرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها. يقال: يوم عصيب، وعصوصب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شدّه.

٧٨ - (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

{يُهْرَعُونَ} يسرعون كأنما يدفعون دفعاً {وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات} ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء. وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك {هؤلاءآء بَنَاتِى} أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوّجوهنّ وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه وقرأ ابن مروان «هنّ أطهر لكم» بالنصب، وضعفه سيبويه وقال: احتبى ابن مروان في لحنه. وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ {هُنَّ أَطْهَرُ} بالنصب فقد تربع في لحنه، وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: {هذا بَعْلِى شَيْخًا} [هود: ٧٢] أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و «هنّ» فصل، وهذا لا يجوز لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذي الحال، وقد خرّج له وجه لا يكون {هؤلاء} فيه فصلا، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ و {بَنَاتِى هُنَّ} جملة في موضع خبر المبتدأ، كقولك: هذا أخي هو، ويكون {أَطْهَرُ} حالاً {فاتقوا الله} بإيثارهن عليهم {وَلاَ تخزوني} ولا تهينوني ولا

تفضحوني، من الخزي، أو ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء {فِى ضَيْفِى} في حق ضيوفي فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة {أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء. وقرئ: «ولا تخزون» بطرح الياء. ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدّة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم.

٧٩ - (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

ومن ثمّ {قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ} مستشهدين بعلمه {مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ} لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابري. وقيل: لما تخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأنّ نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط، لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه. ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة {لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

٨٠ - (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

جواب «لو» محذوف، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال} [الرعد: ٣١] يعني لو أنّ لي بكم قوّة لفعلت بكم وصنعت. يقال: ما لي به قوّة، وما لي به طاقة. ونحوه {لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا} [النمل: ٢٧] وما لي به يدان، لأنه في معنى لا أضطلع به ولا أستقلّ به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قويّ أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم. فشبه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة - وقد وجدت عليه -: إنّ ركنك لشديد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " رحم الله أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد " وقرئ: «أو آوى» بالنصب بإضمار «أن» كأنه قيل لو أن لي بكم قوّة أو أويا، كقولها:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ...

وقرئ: «إلى ركن» بضمتين. وروي أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادّهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار.

٨١ - (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد {إِنَّا رُسُلُ رَبّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ} فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله تعالى: {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ} [القمر: ٣٧] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط قوماً سحرة {لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ} جملة موضحة للتي قبلها، لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. قرئ: {فَأَسْرِ} بالقطع والوصل. و {إِلاَّ امرأتك} بالرفع والنصب. وروي أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. فقال: أريد أسرع من ذلك. فقالوا: {أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ} وقرئ: {الصبح} بضمتين. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ {إِلاَّ امرأتك} بالنصب؟ قلت: استثناها من قوله: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ} والدليل عليه قراءة عبد الله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك». ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء وإن كان الفصيح هو البدل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها. وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين.

٨٢ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)
{جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا} جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السما نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم {مِّن سِجِّيلٍ} قيل هي كلمة معربة من سنككل، بدليل قوله: {حِجَارَةً} من طين وقيل: هي من أسجله، إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين. ويدل عليه قوله: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً} [الذاريات: ٣٣] وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان {مَّنْضُودٍ} نضد في السماء نضداً معدّاً للعذاب. وقيل يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً.
٨٣ - (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)
{مُّسَوَّمَةً} معلمة للعذاب وعن الحسن كانت معلمة ببياض وحمرة وقيل عليها سيماً يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمي به {وَمَا هِىَ} من كل ظالم ببعيد. وفيه وعيد لأهل مكة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه سأل جبريل عليه السلام؟ فقال: يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»، وقيل الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم {بِبَعِيدٍ} بشيء بعيد. ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى، فكأنها بمكان قريب منه.
٨٤ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)
{إِنّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} يريد: بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف. أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون. أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه، كقول مؤمن آل فرعون: {يَا ياقوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين فِى الأرض فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَاءنَا} [غافر: ٢٩] {يَوْمٍ مُّحِيطٍ} مهلك من قوله: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} [الكهف: ٤٢] وأصله من إحاطة العدوّ. فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟ قلت: بل وصف اليوم بها، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.
٨٥ - (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)
فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: أوفوا؟ قلت: نهوا أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأنّ في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي. وتعييراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط: أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه. وفيه توقيف على أنّ الموفى عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؛ لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد.
البخس: الهضم والنقص. ويقال للمكس: البخس. قال زهير:
وفى كُلِّ مَا بَاعَ آمْرؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ ...
وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة. أو كانوا يمكسون الناس. أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثي في الأرض نحو السرقه والغارة وقطع السبيل. ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثيا منهم في الأرض.
٨٦ - (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)
{بَقِيَّتُ الله} ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم {خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} بشرط أن تؤمنوا، وإنما خوطبوا بترك

التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان. فإن قلت: بقية الله خير للكفرة، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف، فلم شرط الإيمان؟ قلت لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده لانغماس صاحبها في غمرات الكفر. وفي ذلك استعظام للإيمان، وتنبيه على جلالة شأنه. ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم. ويجوز أن يراد. ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم، كقوله: {والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ} [الكهف: ٤٦] وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه. وأمّا الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً، وإذا أريد به الطاعة فكما تقول: طاعة الله. وقرئ: «تقية الله» بالتاء وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

٨٧ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: {أصلواتك تَأْمُرُكَ} السخرية والهزء - والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: ٤٥] وأن يقال: إنَّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال. ومعنى تأمرك {أَن نَّتْرُكَ} تأمرك بتكليف أن نترك {مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا} لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. وقرئ {أصلاتك} بالتوحيد. وقرأ ابن أبي عبلة «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير. وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم والدنانير وتقطيمها، وأرادوا بقولهم: {إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد} نسبته إلى غاية السفه والغيّ، فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك. وقيل: معناه إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

٨٨ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

{وَرَزَقَنِى مِنْهُ} أي من لدنه {رِزْقًا حَسَنًا} وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة. وقيل {رِزْقًا حَسَنًا} حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف. فإن قلت: أين جواب {أَرَءيْتُمْ} وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه. والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً. ومنه قوله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أنهاكم عَنْهُ} يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها، لأستبد بها دونكم {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح} ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر {مَا استطعت} ظرف، أي: مدّة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً. أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت. أو مفعول له كقوله:

ضَعِيفُ النِّكَايةِ أَعْدَاءَهُ ...

أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم {وَمَا توفيقى إِلاَّ باللَّهِ} وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

٨٩ - (وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

«جرم» مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه، قال:

جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا ...

ومنه قوله تعالى: {لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم} أي لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب. وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال. وكما لا فرق بين كسبته ما لا وأكسبته إياه، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه. والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما. إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبته ما لا أفصح من أكسبته. والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً. وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: {مِّثْلُ مَا أَصَابَ}، بالفتح لإضافته إلى غير متمكن، كقوله:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبِ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ ...

{وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مّنكُم بِبَعِيدٍ} يعني أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم. أو لا يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك. فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه؟ قلت: إما أن يراد: وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد. ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما.

٩٠ - (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

{رَحِيمٌ وَدُودٌ} عظيم الرحمة للتائبين، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه، من الإحسان والإجمال.

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

{مَا نَفْقَهُ} ما نفهم {كَثِيرًا مّمَّا تَقُولُ} لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له، كقوله: {وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} [الأنعام: ٢٥]. أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ {فِينَا ضَعِيفًا} لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً. وعن الحسن {ضَعِيفاً} مهيناً. وقيل: {ضَعِيفاً} أعمى. وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد؛ لأنّ {فِينَا} يأباه. ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطاً. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة. وإنما قالوا: ولولاهم، احتراماً لهم واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفا من شوكتهم وعزتهم {لرجمناك} لقتلناك شرّ قتلة {وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} أي لا تعزّ علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعزّ علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا.

٩٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

ولذلك قال في جوابهم: {أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ} ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب. فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: {أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ} قلت: تهاونهم به - وهو نبيّ الله - تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} [النساء: ٨٠]، {واتخذتموه وَرَاءَ كُمْ ظِهْرِيّاً} ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به، والظهريّ: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب. ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي {بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها.

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

{على مَكَانَتِكُمْ} لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة. أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين. والمعنى: اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي. أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها {إِنّى عامل} على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني {مَن يَأْتِيهِ} يجوز أن تكون {مَن} استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه، وأينا هو كاذب، وأن تكون موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في {سَوْفَ تَعْلَمُونَ}؟ قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إن عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه {وارتقبوا} وانتظروا العاقبة وما أقول لكم {إِنّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ} أي منتظر. والرقيب بمعنى الراقب، من رقبه، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم. أو بمعنى المراقب، كالعشير والنديم، أو بمعنى المرتقب، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع. فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق. حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم، قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: {وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ} يعني في زعمكم ودعواكم، تجهيلا لهم. فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد، وذلك قوله: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح} [هود: ٨١]، {ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [هود: ٦٥] فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت. وأما الأخريان فلم تقعا بتلك المثابة. وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة.

٩٤ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد يعني أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا.

٩٥ - (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ} كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد: بمعنى البعد وهو الهلاك، كالرشد بمعنى الرشد. ألا ترى إلى قوله: {كَمَا بَعِدَتْ}؟ وقرأ السلمي «بعدت» بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت. وقيل: معناه بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

٩٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

{بآياتنا وسلطان مُّبِينٍ} فيه وجهان: أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها.

٩٧ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

{وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادّعى الإلهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد: الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غيّ صريح وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام، وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط.

٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

{يَقْدُمُ قَوْمَهُ} أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ} تفسيراً لذلك وإيضاحاً. أيّ: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغيّ في كل ما يذم ويتسخط. ويقال: قدمه بمعنى تقدّمه. ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدّمه، ومنه مقدّمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدّم. ومنه مقدّم العين. فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة. و {الورد} المورود. و {المورود} الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار؛ لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضدّه.

٩٩ - (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

{وَأُتْبِعُواْ فِى هذه} في هذه الدنيا {لَّعْنَةً} أي يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة {بِئْسَ الرفد المرفود} رفدهم. أي: بئس العون المعان. وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى.

١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

{ذلك} مبتدأ {مِنْ أَنْبَاء القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ} خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك {مِنْهَا} الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد. فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها.

١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

{وَمَا ظلمناهم} بإهلاكنا إياهم {ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} بارتكاب ما به أهلكوا {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ} فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله {يَدْعُونَ} يعبدون وهي حكاية حال ماضية. و {لَّمَّا} منصوب بما أغنت {أَمْرُ رَبّكَ} عذابه ونقمته {تَتْبِيبٍ} تخسير. يقال تبّ إذا خسر. وتببه غيره، إذا أوقعه في الخسران.

١٠٢ - (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

محل الكاف الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ {أَخْذُ رَبّكَ} والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك، بلفظ الفعل. وقرئ: «إذ أخذ القرى» {وَهِىَ ظالمة} حال من القرى {أَلِيمٌ شَدِيدٌ} وجيع صعب على المأخوذ. وهذا تحذير من وخامة عاقبه الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه. فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر

التوبة ولا يغتر بالإمهال.

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

{ذلك} إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم {لآيَةً لِّمَنْ خَافَ} لعبرة له، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى. ونحوه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى} [النازعات: ٢٦] {ذلك} إشارة إلى يوم القيامة، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه. و {الناس} رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس. فإن قلت لأي فائدة أوأثر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع} [التغابن: ٩] تعثر على صحة ما قلت لك. ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب {يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} مشهود فيه، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، كقوله:

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعامِراً ...

أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد. والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهدوه ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور. قال:

فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ ...

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥]؟ قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه، لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده، وكذلك قوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥] الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولا به، وكذلك الضمير في {فَلْيَصُمْهُ} والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر.

١٠٤ - (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ)

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ} [الأعراف: ٣٤] يراد آخر مدة التأجيل، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف. وقرئ: «وما يؤخره» بالياء.

١٠٥ - (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

قرئ: «يوم يأت» بغير ياء. ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟ قلت: الله عز وجل، كقوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله} [البقرة: ٢١٠]، {أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، {وَجَاء رَبُّكَ} [الفجر: ٢٢] وتعضده قراءة: «وما يؤخر» بالياء. وقوله: {بِإِذْنِهِ} ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم، كقوله تعالى: {أو تَأْتِيَهُمُ الساعة} [يوسف: ١٠٧]. فإن قلت: بما انتصب الظرف؟ قلت: إمّا أن ينتصب بلا تكلم. وإما بإضمار «اذكر» وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله: {إلا لأجل معدود} [هود: ١٠٤] أي ينتهي الأجل يوم يأتي، فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم،

فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه قلت: المراد إتيان هوله وشدائده {لاَ تَكَلَّمُ} لا نتكلم، وهو نظير قوله: {لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن} [النبأ: ٣٨]. فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: {يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا} [النحل: ١١١] وقوله تعالى: {هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٦]، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم {فَمِنْهُمْ} الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا، لأنّ ذلك معلوم، ولأنّ قوله: {لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ} يدل عليه، وقد مرّ ذكر الناس في قوله: {مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس} [هود: ١٠٣] والشقى الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

قراءة العامّة بفتح الشين. وعن الحسن «شقوا» بالضم، كما قرئ: «سعدوا» والزفير: إخراج النفس. والشهيق: ردّه. قال الشماخ:

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ ... زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ

١٠٧ - (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

{مَا دَامَتِ السماوات والأرض} فيه وجهان، أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض} [إبراهيم: ٤٨] وقوله: {وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء} [الزمر: ٧٤] ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم: إمّا سماء يخلقها الله، أو يظلهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء. والثاني أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع. كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد.

فإن قلت: فما معنى الاستثناء في قوله: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} وقدثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة: وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم. وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: {وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانهار خالدين فِيهَا ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ورضوان مّنَ الله} [التوبة: ٧٢] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء. والدليل عليه قوله: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨] ومعنى قوله في مقابلته: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لّمَا يُرِيدُ} أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة. إنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإنّ الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم. وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين، زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه، وتنبيهاً على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ما يشغله عن تسيير هذا الحديث.

١٠٨ - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

{غَيْرَ مَجْذُوذٍ} غير مقطوع، ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية، كقوله: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت: ٨] لما قصّ قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه، وما أعدّ لهم من عذابه.

١٠٩ - (فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

قال: {فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء} أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذ القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: {مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءاباؤُهُم} يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية. و «ما» في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدرية وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم. أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ} أي حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم. فإن قلت: كيف نصب {غَيْرَ مَنقُوصٍ} حالاً عن النصيب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول. وفيته شطر حقه، وثلث حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

١١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

{فاختلف فِيهِ} آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ} يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة {لَّقُضِىَ بِيْنَهُمْ} بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسلية أيضاً.

١١١ - (وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

{وَإِنَّ كُلاًّ} التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنّ كلهم، وإنَّ جميع المختلفين فيه {لَيُوَفّيَنَّهُمْ} جواب قسم محذوف. واللام في {لَّمَّا} موطئة للقسم، و {مَا} مزيدة والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم {رَبُّكَ أعمالهم} من حسن وقبيح وإيمان وجحود. وقرئ: «وإن كلا» بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل. وقرأ أبيّ: «وإن كل لما ليوفينهم» على أنّ إن نافية. ولما بمعنى إلا. وقراءة عبد الله مفسرة لها. وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم «وإن كلا لما ليوفينهم» بالتنوين، كقوله: {أَكْلاً لَّمّاً} [الفجر: ١٩] والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى مجموعين، كأنه قيل: وإنّ كلا جميعاً، كقوله: {فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: ٣٠].

١١٢ - (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ} فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق، غير عادل عنها {وَمَن تَابَ مَعَكَ} معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك {وَلاَ تَطْغَوْاْ} ولا تخرجوا عن حدود الله {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه. وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال: «شيبتني هود والواقعة وأخواتها» وروي أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب. فقال: «شيبتني هود» وعن بعضهم: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود. فقال: نعم. فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: {فاستقم كَمَا أُمِرْتَ}. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه {فاستقم كَمَا أُمِرْتَ} قال: افتقرْ إلى الله بصحة العزم.

١١٣ - (وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)

قرئ: «ولا تركنوا»، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء. وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم. ونحوه قراءة من قرأ {فَتَمَسَّكُمُ النار} بكسر التاء. وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا تُركنوا»، على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم

ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومدّ العين إلى زهرتهم. وذكرهم بما فيه تعظيم لهم. وتأمّل قوله: {وَلاَ تركنوا} فإن الركون هو الميل اليسير. وقوله: {إِلَى الذين ظَلَمُواْ} أي إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل إلى الظالمين. وحكي أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم. وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاءين: {وَلاَ تَطْغَوْاْ} [هود: ١١٢]، {وَلاَ تَرْكَنُواْ} ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه {لَتُبَيّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧] واعلم أنّ أيسر ما ارتكب وأخفّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوّك ممن لم يؤدّ حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فيما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً} [مريم: ٥٩] فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه "

ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت. {وَمَا لَكُمْ مّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء} حال من قوله: {فَتَمَسَّكُمُ} أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال. ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم من غيره {ثُمَّ لا تُنصَرُونَ} ثم لا ينصركم هو، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: معناها الاستبعاد، لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

١١٤ - (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)

{طَرَفَيِ النهار} غدوة وعشية {وَزُلَفاً مّنَ اليل} وساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأنّ ما بعد الزوال عشيّ. وصلاة الزلف: المغرب والعشاء. وانتصاب طرفي النهار على الظرف، لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ونحوه {وَأَطْرَافَ النهار} [طه: ١٣٠] وقرئ: «وزُلُفا»، بضمتين. وزلفا، بسكون اللام. وزلفى: بوزن قربى. فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة. والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر. والزلف بضمتين نحو بسر في بسر. والزلفى بمعنى الزلفة، كما أن القربى بمعنى القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل. وقيل: وزلفا من الليل: وقربا من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفا من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرّب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل {إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات} فيه وجهان، أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: " إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر " والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات، بأن يكن لطفاً في تركها، كقوله: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: ٤٥] وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر. فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل، فقال صلى الله عليه وسلم: " أنتظر أمر ربي، فلما صلى صلاة العصر نزلت، فقال: نعم، اذهب فإنها كفارة لما عملت " وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " توضأ وضوءاً حسناً وصل ركعتين {إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات} " {ذلك} إشارة إلى قوله {فاستقم} فما بعده {ذكرى لِلذكِرِينَ} عظة للمتعظين.

١١٥ - (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله، كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به {فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين} جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

١١٦ - (فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون} فهلا كان وقد حكوا عن الخليل: كل «لولا» في القرآن فمعناها «هلا» إلا التي في الصافات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات {لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مّن رَّبّهِ لَنُبِذَ بالعراء} [القلم: ٤٩]، {وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ} [الفتح: ٢٥]، {وَلَوْلاَ أَن ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ} [الإسراء: ٧٤]، {أُوْلُواْ بَقِيَّتُ} أولو فضل وخير. وسمى الفضل والجودة بقية لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم. وبه فسر بيت الحماسة:

إنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بَقِيَّتُكُمْ ...

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا. ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية»، بوزن لقية، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه: «بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم» والبقية المرّة من مصدره. والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم {إِلاَّ قَلِيلاً} استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و {مِنْ} في {مِّمَّنْ أَنجَيْنَا} حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض، لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم، بدليل قوله تعالى: {أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ} [الأعراف: ١٦٥]. فإن قلت: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه يحمل عليه؟ قلت: إن جعلته متصلا على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً، لأنه يكون تخصيصاً لأولى البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنه قيل: ماكان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلا ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل {واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ} أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء. ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم. وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، «واتبع الذين ظلموا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه. ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم. وهذا معنى قويّ لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: {واتبع الذين ظَلَمُواْ}؟ قلت: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات، كان معطوفاً على مضمر، لأنّ المعنى إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا. وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم. فإن قلت: فقوله {وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ}؟ قلت: على أترفوا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام. أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر. أو على اتبعوا، أي اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

{كَانَ} بمعنى صح واستقام. واللام لتأكيد النفي. و {بِظُلْمٍ} حال من الفاعل. والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها {وَأَهْلُهَا} قوم {مُصْلِحُونَ} تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل: الظلم الشرك، ومعناه أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

١١٨ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمّة واحدة أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام، كقوله: {إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الأنبياء: ٩٢] وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا، فلذلك قال: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}.

١١٩ - (إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

{إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه {ولذلك خَلَقَهُمْ} ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} وهي قوله للملائكة {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ} لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

١٢٠ - (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

{وَكُلاًّ} التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل. وكل نبأ {نَّقُصُّ عَلَيْكَ} و {مِنْ أَنْبَاء الرسل} بيان لكل. {وَمَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} بدل من كلا. ويجوز أن يكون المعنى: [و] كل واقتصاص نقصّ عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، و {مَا نُثَبِّتُ بِهِ} مفعول نقصّ. ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم {وَجَاءكَ فِى هذه الحق} أي في هذه السورة. أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق {وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُل لّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}

١٢١ - (وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

{وَقُل لّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} من أهل مكة وغيرهم {اعملوا} على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها {إِنَّا عَامِلُونَ وانتظروا}

١٢٢ - (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

{وانتظروا} بنا الدوائر {إِنَّا مُنتَظِرُونَ} أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

١٢٣ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

{وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض} لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ} فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم {فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} فإنه كافيك وكافلك {وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ} وقرئ: «تعملون» بالتاء: أي أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوحٍ ومَن كَذَّبَ به، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك "

١٢ سورة يوسف:

سورة يوسف:

سورة يوسف مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

{تِلْكَ} إشارة إلى آيات السورة. و {الكتاب المبين} السورة، أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم. أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر. أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم. أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف. فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف.

٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

{أنزلناه} أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه {قُرْءاناً عَرَبِيّاً} وسمى بعض القرآن قرآناً، لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم {وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصّلَتْ ءاياته} [فصلت: ٤٤].

٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

{القصص} على وجهين: يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص، تقول: قصّ الحديث يقصه قصصاً، كقولك: شله يشله شللاً، إذا طرده. ويكون «فعلا» بمعنى «مفعول» كالنفض والحسب. ونحوه النبأ والخبر: في معنى المنبأ به والمخبر به. ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد. وإن أريد المصدر، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن القصص {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان} أي بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفاً، لأنّ قوله: {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان} مغن عنه. ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقصّ، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، وألا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص. فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد في فنه. فإن قلت: ممّ اشتقاق القصص؟ قلت: من قصّ أثره إذا اتبعه، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه، لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية {وَإِن كُنتُ} إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في {قَبْلِهِ} راجع إلى قوله: ما أوحينا والمعنى: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه، أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه.

٤ - (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ} بدل من أحسن القصص، وهو من بدل الاشتمال، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص، فإذا قصّ وقته فقد قص. أو بإضمار «اذكر» ويوسف اسم عبراني، وقيل عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف. فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ: «يوسِف» بكسر السين، أو «يوسَف» بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال «هو عربي» لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من آسف. وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت: لا، لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربي لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " {يا أبت} قرئ بالحركات الثلاث. فإن قلت: ما هذه التاء؟ قلت: تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف. فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟ قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر وشاة ذكر، ورجل ربعة، وغلام يفعة. فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟ قلت: لأنّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره. فإن قلت فما هذه الكسرة؟ قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي، قد زحلقت إلى التاء، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً. فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قلت: امتنع ذلك فيها، لأنها اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرّك تخفيفاً، لأنها حرف لين. وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فلزم تحريكها. فإن قلت: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوّض منه، لأنها في حكم الياء، إذا قلت: يا غلام، فكما لا يجوز «يا أبتي» لا يجوز «يا أبتِ». قلت الياء والكسرة قبلها شيآن والتاء عوض من أحد الشيئين، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير. ألا ترى إلى قولهم «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلا من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قلت: فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها. فإن دلت على مثل ذلك في «يا أبت» فالتاء المعوّضة لغو: وجودها كعدمها. قلت: بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبي. فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ قلت: أما من فتح فقد حذف الألف من «يا أبتا» واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في «يا غلام» ويجوز أن يقال: حركها بحركة الياء المعوض منها في قولك «يا أبي». وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: «يا أبت» كما تقول «ياتبة» من غير اعتبار لكونها عوضاً من ياء الإضافة، وقرئ: «إني رأيت» بتحريك الياء. «وأحد عشر» بسكون العين، تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد، وكذا إلى تسعة عشر، إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا، لا من الرؤية، لأنَّ ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام، ولما خفيت عليه وعلى الناس. فإن قلت: ما أسماء تلك الكواكب؟ قلت:

روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم: فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي «إن أخبرتك هل تسلم»؟ قال: نعم. قال: «جريان، والطارق، والذيال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها.

وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها

عليهم، فيبغوا لك الغوائل. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون. فإن قلت لم أخر الشمس والقمر؟ قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل، وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. فإن قلت: ما معنى تكرار رأيت قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: {إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: {رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ} فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود. أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة.

٥ - (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم، والرؤيا بمعنى الرؤية، إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينهما بحرفي التأنيث كما قيل: القربة والقربى. وقرئ: «روياك» بقلب الهمزة واواً. وسمع الكسائي: «رُيَّاك» و «رِيَّاك» بالإدغام وضم الراء وكسرها، وهي ضعيفة؛ لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم «اتزر» من الإزار، و «اتجر» من الأجر {فَيَكِيدُواْ} منصوب بإضمار «أن» والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك: فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: فكيدوني؟ قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون آكد وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر {عَدُوٌّ مُّبِينٌ} ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء، ولقوله {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم} [الأعراف: ١٦] فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شرّ، ليورّط من يحمله، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله.

٦ - (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{وكذلك} ومثل ذلك الأجتباء {يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} يعني وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام. وقوله {وَيُعَلّمُكَ} كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه، كأنه قيل: وهو يعلمك ويتمّ نعمته عليك. والاجتباء، الاصطفاء، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته. والأحاديث: الرؤيا: لأنّ الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها. ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها. وسميت أحاديث؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله. فيقال: قال الله وقال الرسول كذا وكذا. ألا ترى إلى قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥]، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث} [الزمر: ٢٣] وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً. ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة. وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة، والإنجاء من النار، ومن ذبح الولد. وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. وقيل: علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب، فلذلك قال {وعلى ءالِ يَعْقُوبَ} وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه.

وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل وكان إخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له

المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه، فتبالغ فيهم الحسد. وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل. وآل يعقوب. أهله وهم نسله وغيرهم. وأصل آل: أهل، بدليل تصغيره على أُهَيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر. يقال: آل النبي، وآل الملك. ولا يقال: آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلهما. وأراد بالأبوين: الجد، وأبا الجد؛ لأنهما في حكم الأب في الأصالة. ومن ثم يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدّة. و {إبراهيم وإسحاق} عطف بيان لأبويك {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ} يعلم من يحق له الاجتباء {حَكِيمٌ} لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

٧ - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)

{فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ} أي في قصتهم وحديثهم {ءايات} علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء {لِّلسَّائِلِينَ} لمن سأل عن قصتهم وعرفها. وقيل آيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: «آية»، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه، لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به. وقيل أساميهم: يهوذا: وروبيل، وشمعون، ولاوي، وربالون، ويشجر، ودينة، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر: السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين: زلفة، وبلهة. فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت له بنيامين ويوسف.

٨ - (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

{لِيُوسُفَ} اللام للابتداء. وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه {وَأَخُوهُ} هو بنيامين. وإنما قالوا أخوه وهم جيمعاً إخوته، لأنّ أمّهما كانت واحدة. وقيل {أَحَبُّ} في الاثنين، لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه «من» ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} واو الحال. يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما {إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضلال مُّبِينٍ} أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً. وقيل: إلى الأربعين، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب. وروى النزال بن سبرة عن عليّ رضي الله عنه: «ونحن عصبة»، بالنصب. وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبة. وعن ابن الأنباري هذا كما تقول العرب: إنما العامري عمته، أي يتعهد عمته.

٩ - (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

{اقتلوا يُوسُفَ} من جملة ما حكى بعد قوله: إذ قالوا: كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال {لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ} وقيل: الآمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقين كانوا راضين، فجعلوا آمرين {أَرْضًا} أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة {يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز أن يراد بالوجه الذات، كما قال تعالى: {ويبقى وَجْهُ رَبّكَ} [الرحمن: ٢٧] وقيل {يَخْلُ لَكُمْ} يفرغ لكم من الشغل بيوسف {مِن بَعْدِهِ} من بعد يوسف، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا {قَوْمًا صالحين} تائبين إلى الله مما جنيتم عليه. أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه. أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم. و {تكُونُواْ} إمّا مجزوم عطفاً على {يَخْلُ لَكُمْ} أو منصوب بإضمار أن والواو بمعنى مع، كقوله: {وَتَكْتُمُواْ الحق} [البقرة: ٤٢].

١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

{قَائِلٌ مِّنْهُمْ} هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأيا. وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض. قال لهم: القتل عظيم {وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب} وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. قال المنخل:

وَإِنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي ... فَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ والأَهْلِ

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها. وقرئ: «غيابات» على الجمع. و «غيابات» بالتشديد. وقرأ الجحدري «غيبة» والجب: البئر لم تطو، لأن الأرض تجبّ جباً لا غير {يَلْتَقِطْهُ} يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق. وقرئ: «تلتقطه» بالتاء على المعنى؛ لأنّ بعض السيارة سيارة، كقوله:

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ ...

ومنه: ذهبت بعض أصابعه {إِن كُنتُمْ فاعلين} إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم، فهذا هو الرأي.

١١ - (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

{مالك لاَ تَأْمَنَّا} قريء بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام. و «تيمنا» بكسر التاء مع الإدغام. والمعنى: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم. وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه.

١٢ - (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

{نرتع} نتسع في أكل الفواكه وغيرها. وأصل الرتعة: الخصب والسعة. وقرئ: «نرتع» من ارتعى يرتعي. وقرئ: «يرتع ويلعب» بالياء، ويرتع، من أرتع ماشيته. وقرأ العلاء بن سيابة: يرتع بكسر العين، ويلعب، بالرفع على الابتداء. فإن قلت: كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب؟ قلت: كان لعبهم الاستباق والانتضال. ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو، بدليل قوله {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} [يوسف: ١٧] وإنما سموه لعباً لأنه في صورته.

١٣ - (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

{لَيَحْزُنُنِى} اللام لام الابتداء، كقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [النحل: ١٢٤] ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سبي المضارعة. اعتذر إليهم بشيئين، أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أوقلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم. وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقرئ: «الذئب» بالهمزة على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا أتت من كل جهة.

١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

القسم محذوف تقديره: والله {لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب} واللام موطئة للقسم. وقوله: {إِنَّا إِذَا لخاسرون} جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط، والواو في {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} واو الحال: حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال، بمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب - إنهم إذاً لقوم خاسرون، أي هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً. أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم. أو مستحقون لأن يدعي عليهم بالخسارة والدّمار، وأن يقال: خسرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشنا إذاً وخسرناها فإن قلت: قد اعتذر إليهم بعذرين، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قلت: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمّرين فأعاروه آذاناً صما ولم يعبؤوا به.

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

{أَن يَجْعَلُوهُ} مفعول {أَجْمَعُواْ} من قولك: أجمع الأمر وأزمعه {فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ} [يونس: ٧١]. وقرئ: «في غيابات» الجب: وقيل هو بئر بيت المقدس. وقيل: بأرض الأردنّ وقيل: بين مصر ومدين. وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب. وجواب «لما» محذوف. ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العدواة وأخذوا يهنونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، ودلوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ} قيل أُوحي إليه في الصغر كما أُوحي إلى يحيى وعيسى: وقيل كان إذا ذاك مدركاً. وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا} وإنما أُوحي إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة، ويبشر بما يؤول إليه أمره. ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} أنك يوسف لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس. ويجوز أن يتعلق {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} بقوله {وَأَوْحَيْنَا} على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له وقرئ: «لننبئنهم» بالنون على أنه وعيد لهم. وقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} متعلق بأوحينا لا غير.

١٦ - (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

وعن الحسن «عشيا» على تصغير عشيّ يقال: لقيته عشيا وعشياناً، وأصيلا وأصيلاناً ورواه ابن جني: عشى، بضم العين والقصر. وقال عشوا من البكاء. وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية. وروي أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بنيّ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما لكم وأين يوسف؟

١٧ - (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

{قَالُواْ يأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل: والارتماء والترامي، وغير ذلك. والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي. وجاء في التفسير: ننتضل {بِمُؤْمِنٍ لَّنَا} بمصدّق لنا {وَلَوْ كُنَّا صادقين} ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، لشدّة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا، غير واثق بقولنا.

١٨ - (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

{بِدَمٍ كَذِبٍ} ذي كذب. أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته. ونحوه.

فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ ...

وقرئ: «كذباً» نصباً على الحال، بمعنى جاءوا به كاذبين، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وقرأت عائشة رضي الله عنها: كدب، بالدال غير

المعجمة، أي كدر. وقيل: طري، وقال ابن جني: أصله من الكذب وهو الفوف: البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث. كأنه دم قد أثر في قميصه. روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها، وزلّ عنهم أن يمزقوه. وروي أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه. وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلا على براءة يوسف حين قدّ من دبر. فإن قلت: {على قَمِيصِهِ} ما محله؟ قلت: محله النصب على الظرف، كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال. فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالا متقدمة؟ قلت: لا، لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه {سَوَّلَتْ} سهلت من السول وهو الاسترخاء، أي: سهلت {لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهوّنته في أعينكم: استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص. أو أُوحي إليه بأنهم قصدوه {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبيّ: «فصبراً جميلاً» والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع: [«أنه الذي لا شكوى فيه» ومعناه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق.] ألا ترى إلى قوله: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦] وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب. خطيئة فاغفرها لي {والله المستعان} أي أستعينه {على} احتمال {مَا تَصِفُونَ} من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

١٩ - (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

{وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ} رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة. وقيل: كان ماؤها ملحاً. فعذب حين ألقي فيه يوسف {فَأَرْسَلُواْ} رجلا يقال له مالك ابن ذعر الخزاعي، ليطلب لهم الماء. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم {يا بشرى} نادى البشرى، كأنه يقول: تعالى، فهذا من آونتك وقرئ: «يا بشراي» على إضافتها إلى نفسه. وفي قراءة الحسن وغيره: «يا بشري» بالياء مكان الألف، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي وموليّ. وعن نافع: يا بشراي بالسكون، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه، إلا أن يقصد الوقف. وقيل: لما أدلى دلوه أي أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي {هذا غُلَامٌ} وقيل: ذهب به، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به {وَأَسَرُّوهُ} الضمير للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة. وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. و {بضاعة} نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة أي قطع {والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أو: والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

٢٠ - (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

{وَشَرَوْهُ} وباعوه {بِثَمَنٍ بَخْسٍ} مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار {دراهم} لا دنانير {مَّعْدُودَةً} قليلة تعدّ عدّاً ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون، ويعدّون ما دونها. وقيل للقليلة معدودة، لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها. وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً. وعن السدي: اثنين وعشرين {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين} ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن. ويجوز أن يكون معنى {وَشَرَوْهُ} واشتروه، يعني الرفقة من إخوته {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزهدين}

لأنهم اعتقدوا أنه آن نخافوا أن يخطروا بما لهم فيه. ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق. وقوله: {فِيهِ} ليس من صلة {الزاهدين} لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زيداً من الضاربين، وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

٢١ - (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{الذى اشتراه} قيل هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، والملك يؤمئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات} [غافر: ٣٤] وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف. وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين. وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ {أَكْرِمِى مَثْوَاهُ} اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي حسناً مرضياً، بدليل قوله {إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ} [يوسف: ٢٣] والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا. ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده، وهل يراعى حق نزولك به. واللام في {لاِمْرَأَتِهِ} متعلقة بقال، لا باشتراه {عسى أَن يَنفَعَنَا} لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته. أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيماً لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته {أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا} والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها {يا أبت استجره} [القصص: ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه {وكذلك} الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف {مَكَّنَّا} له، أي: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه {وَلِنُعَلّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث} كان ذلك الإنجاء والتمكين لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل {والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ} على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي. أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره {ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ} أن الأمر كله بيد الله.

٢٢ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قيل في الأشدّ: ثماني عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون. وقيل: أقصاه ثنتان وستون {حُكْمًا} حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه. وقيل: حكماً بين الناس وفقها {وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين} تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

٢٣ - (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

المراودة: مفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها {وَغَلَّقَتِ الأبواب} قيل: كانت سبعة. وقرئ: «هَيت» بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبناؤها كبناء أين، وعيط. وهيت كجير وهيت كحيث. وهئت بمعنى تهيأت يقال: هاء يهيء، كجاء يجيء: إذا تهيأ. وهيئت لك واللام من صلة الفعل وأما في الأصوات فللبيان كأنه قيل: لك أقول هذا، كما

تقول: هلم لك {مَعَاذَ اللهِ} أعوذ بالله معاذاً {إِنَّهُ} إن الشأن والحديث {ربى} سيدي ومالكي، يريد قطفير {أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ} حين قال لك أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون} الذين يجازون الحسن بالسيئ. وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم. وقيل: أراد الله تعالى، لأنه مسبب الأسباب.

٢٤ - (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه، قال:

هَمَمْتُ وَلَمْ أفعل وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمانَ تَبْكِي حَلاَئِلُهْ

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هماً. أي ولا أكاد أن أفعله كيداً، ولا أهم بفعله هماً، حكاه سيبويه، ومنه: الهمام وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه. وقوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} معناه. ولقد همت بمخالطته {وَهَمَّ بِهَا} وهمّ بمخالطتها {لَوْلا أَن رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ} جوابه محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها، فحذف، لأنّ قوله: {وَهَمَّ بِهَا} يدل عليه، كقولك: هممت بقتله لولا أني خفت الله، معناه لولا أني خفت الله [لقتلته]. فإن قلت: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصدٌ إليها؟ قلت المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم. وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدّته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته. ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين. ويجوز أن يريد بقوله: {وَهَمَّ بِهَا} وشارف أن يهم بها، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته. كأنه شرع فيه فإن قلت: قوله {وَهَمَّ بِهَا} داخل تحت حكم القسم في قوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} أم هو خارج منه؟ قلت: الأمران جائزان. ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} ويبتدئ قوله: {وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ} وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين. فإن قلت: لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقدماً فإن قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها، من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض. وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز، فإن قلت: فلم جعلت «لولا» متعلقة بهمّ بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا} لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني. فلا بدّ من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً، فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قلت: نعم ما قلت، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا} فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير، ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أنّ المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها {لَوْلا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ} فترك التوصل إلى حظه من الشهوة؛ فلذلك كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده، وقد فسرهمّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: إياك وإياها، فلم يكترث له، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته.

وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ، وقيل: صيح به: يا يوسف، لا تكن كالطائر: كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاماً كاتبين} [الانفطار: ١١] فلم

ينصرف، ثم رأى فيها {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [الإسراء: ٣٢] فلم ينته، ثم رأى فيها {واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة: ٢٨١] فلم ينجع فيه، فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز. وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا. فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحي من السميع البصير، العليم بذوات الصدور. وهذا ونحوه. مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وُجِدَت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنُعِيت عليه وذُكِرَت توبته واستغفاره، كما نُعِيَت على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذُكِرَت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسمي مخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أُولي القوّة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أُنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب صورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه، حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك. فيا له من مذهب ما أفحشه، ومن ضلال ما أبينه {كذلك} الكاف منصوب المحل، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه. أو مرفوعه، أي الأمر مثل ذلك {لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء} من خيانة السيد {والفحشاء} من الزنا {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين} الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم. ويجوز أن يريد بالسوء. مقدّمات الفاحشة، من القبلة والنظر بشهوة، ونحو ذلك. وقوله: {مِّنْ عِبَادِنَا} معناه بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين. أو هو ناشئ منهم، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم {إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ} [ص: ٤٦].

٢٥ - (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{واستبقا الباب} وتسابقا إلى الباب على حذف الجارّ وإيصال الفعل، كقوله {واختار موسى قَوْمَهُ} [الأعراف: ١٥٥] [أو] على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا» نفر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. فإن قلت: كيف وجد الباب، وقد جمعه في قوله {وَغَلَّقَتِ الأبواب} [يوسف: ٢٣] قلت: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب {وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ} اجتذبته من خلفه فانقد، أي انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا} وصادفا بعلها وهو قطفير، تقول المرأة لبعلها: سيدي. وقيل: إنما لم يقل سيدهما، لأنّ ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيداً له على الحقيقة. قيل: ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل. وقيل جالساً مع ابن عمّ للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعاً. ألا ترى إلى قولها: {وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ} [يوسف: ٣٢] و «ما» نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن.

ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: مَنْ في الدار إلا زيد. فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف، وإنه أراد بها سوءاً؟ قلت: قصدت العموم، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً لحقه أن يسجن أو يعذب، لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط.

٢٦ - (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: {هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى} ولولا ذلك لكتم عليها {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ أَهْلِهَا} قيل كان ابن عمّ لها، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؛ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه. وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق. وقيل: كان ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى " فإن قلت: لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ قلت: لما أدّى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة: فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد فقال إن كان قميصه. لت: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين، أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع. والثاني: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه. وقرئ: «من قبل» ومن دبر، بالضم على مذهب الغايات. والمعنى: من قبل القميص ومن دبره. وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «من قبل» و «من دبر» بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث. وقرئا بسكون العين. فإن قلت: كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين « كان»؟ قلت: لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ، ونحوه كقولك: إن أحسنت إليّ فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه، تريد: إن تمتن عليَّ أمتنَّ عليك.

٢٧ - (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: {هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى} ولولا ذلك لكتم عليها {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ أَهْلِهَا} قيل كان ابن عمّ لها، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؛ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه. وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق. وقيل: كان ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى " فإن قلت: لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ قلت: لما أدّى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة: فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد فقال إن كان قميصه. لت: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين، أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع. والثاني: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه. وقرئ: «من قبل» ومن دبر، بالضم على مذهب الغايات. والمعنى: من قبل القميص ومن دبره. وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «من قبل» و «من دبر» بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث. وقرئا بسكون

العين. فإن قلت: كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان»؟ قلت: لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ، ونحوه كقولك: إن أحسنت إليّ فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه، تريد: إن تمتن عليَّ أمتنَّ عليك.

٢٨ - (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

{فَلَماَّ رَّءَا} يعني قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها {قَالَ إِنَّهُ} إن قولك {مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءا} أو إنّ الأمر وهو طمعها في يوسف {مِن كَيْدِكُنَّ} الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال، إلا أنّ النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة. ولهنّ في ذلك نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: {وَمِن شَرّ النفاثات فِى العقد} [الفلق: ٤] والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنّ الله تعالى يقول: {إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً} [النساء: ٧٦] وقال للنساء: {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}.

٢٩ - (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

{يُوسُفَ} حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله {أَعْرِضْ عَنْ هذا} الأمر واكتمه ولا تحدّث به {واستغفرى} أنت {لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين} من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال: خطئ، إذا أذنب متعمداً، وإنما قال: {مِنَ الخاطئين} بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً. وروي أنه كان قليل الغيرة.

٣٠ - (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

{وَقَالَ نِسْوَةٌ} وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث. وفيه لغتان: كسر النون وضمها {فِى المدينة} في مصر {امرأت العزيز} يردن قطفير، والعزيز: الملك بلسان العرب {فتاها} غلامها. يقال: فتاي وفتاتي، أي غلامي وجاريتي {شَغَفَهَا} خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب. قال النابغة:

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجٌ ... مَكَانَ الشّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ

وقرئ: «شعفها» بالعين، من شعف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران، قال:

كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطّالي ...

و {حَبّاً} نصب على التمييز {فِى ضلال مُّبِينٍ} في خطأ وبُعد عن طريق الصواب.

٣١ - (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

{بِمَكْرِهِنَّ} باغتيابهنّ وسوء قالتهن، وقولهنّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ} دعتهنّ. قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً} ما يتكئن عليه من نمارق، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ: أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها، لأن المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ، فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ، فتبكتهنّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر، وتوهمه أنهنّ يثبن عليه. وقيل: متكأ: مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك. " نهى أن يأكل الرجل متكئاً " وأتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل: {مُتَّكَأً} طعاماً، من قولك اتكأنا عند فلان: طعمنا، على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكئ عليها. قال جميل:

فَظَلْنَا بِنِعْمَةٍ واتَّكَأْنَا ... وَشَرِبْنَا الحَلاَلَ مِنْ قُلَلِهْ

وعن مجاهد {مُتَّكَأً} طعاماً يحزّ حزّا، كأن المعنى يعتمد بالسكين؛ لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين. وقرئ: «متكا» بغير همز. وعن الحسن: «متكاء» بالمدّ، كأنه مفتعال، وذلك لإشباع فتحة الكاف، كقوله «بمُنْتزاح» بمعنى بمنتزح. ونحوه «يَنْبَاعُ» بمعنى ينبع. وقرئ: «متكأ» وهو الأترج، وأنشد:

فَأَهْدَتْ مَتْكَةً لِبَنِي أَبِيهَا ... تَخُبُّ بِهَا العَثَمْثَمَةُ الْوِقَاحُ

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين، وحملا كالعدلين على جمل. وقيل: الزماورد وعن وهب: أترجا وموزاً وبطيخاً.

وقيل: أعتدت لهنَّ ما يقطع، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه. وقرأ الأعرج: {مُتَّكَأً} مفعلاً، من تكئ يتكأ، إذا اتكأ {أَكْبَرْنَهُ} أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق. قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء، فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال يوسف، فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال « كالقمر ليلة البدر "

وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها. وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف. وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وقيل: ورث الجمال من جدّته سارة. وقيل: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته: دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خَفِ اللَّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقَعٍ ... فَإنْ لُحْتَ حَاضَتْ في الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

{قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها {حاشا} كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول: أساء القوم حاشا زيد. قال:

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إنَّ بِهِ ... ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ

وهي حرف من حروف الجر، فوضعت موضع التنزيه والبراءة، فمعنى «حاشا الله» براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة. ومن قرأ: حاشا لله، فنحو قولك: سقيا لك؛ كأنه قال: براءة، ثم قال: لله، لبيان من يبرأ وينزه. والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر: قراءة أبي السمال: {حاشا لله} بالتنوين. وقراءة أبي عمرو «{حَاشَ لِلَّهِ}» بحذف الألف الآخرة. وقراءة الأعمش «{حشا لله}» بحذف الألف الأولى. وقرئ: «حاش لله» بسكون الشين، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حدّه. وقرئ: «حاشا الإله»، فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينوّن بعد إجرائه مجرى: براءة لله؟ قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية. ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا «عن» غير معرب على أصله؟ وعلى قوله «غدت من عليه» منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟ والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله. وأما قوله: {حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ} [يوسف: ٥١] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله {مَا هذا بَشَرًا} نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه، لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب، وإعمال «ما» عمل «ليس» هي اللغة القدمى الحجازية وبها ورد القرآن.

ومنها قوله تعالى: {مَّا هُنَّ أمهاتهم} [المجادلة: ٢] ومن قرأ على سليقته من بني تميم، قرأ: «بشر» بالرفع. وهي في قراءة ابن مسعود.

وقرئ: «ما هذا بشرى» أي ما هو بعبد مملوك لئيم {إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} تقول هذا بشرى، أي حاصل بشرى، بمعنى: هذا بشرى. وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى، لموافقتها المصحف، ومطابقة بشر لملك.

٣٢ - (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

{قَالَتْ فذلكن} ولم يقل فهذا وهو حاضر، رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاق أن يحب ويفتتن به، وربئاً بحاله واستبعاداً لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهنّ: عشقت عبدها الكنعاني. تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكنّ، ثم لمتنني فيه. تعني: أنكن لم تصوّرنه بحق صورته، ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به. الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان. فإن قلت: الضمير في {ءَامُرُهُ} راجع إلى الموصول، أم إلى يوسف؟ قلت: بل إلى الموصول. والمعنى: ما آمر به، فحذف الجار كما في قولك: أمرتك الخير، ويجوز أن تجعل «ما» مصدرية، فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه، أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ: «وليكونا» بالتشديد والتخفيف. والتخفيف أولى، لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف، وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

٣٣ - (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

وقرئ: «{السجن}» بالفتح على المصدر. وقال {يَدْعُونَنِى} على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً، لأنهنّ تنصحن له وزيّنّ له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربِّ نزولُ السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية. فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ} فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه {أَصْبُ إِلَيْهِنَّ} أمل إليهنّ. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنها: الصبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ: «أصب إليهنّ» من الصبابة {مِنَ الجاهلين} من الذين لا يعملون بما يعلمون. لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

٣٤ - (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء، لأنّ قوله {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنّى} فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف {السميع} لدعوات الملتجئين إليه {العليم} بأحوالهم وما يصلحهم.

٣٥ - (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

{بَدَا لَهُمْ} فاعله مضمر، لدلالة ما يفسره عليه وهو: ليسجننه، والمعنى: بداهم بداء، أي: ظهر لهم رأي ليسجننه، والضمير في {لَهُمْ} للعزيز وأهله {مّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات} وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها. وفي قراءة الحسن: «لتسجننه» بالتاء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم {حتى حِينٍ} إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه. وفي قراءة ابن مسعود «عتى حين» وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: «عتى حين» فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا

تقرئهم بلغة هذيل، والسلام.

٣٦ - (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

{مَعَ} يدل على معنى الصحبة واستحداثها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له {فَتَيَانَ} عبدان للملك: خبازه وشرابيه: رقي إليه أنهما يسمانه، فأمر بهما إلى السجن، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام {إِنِّى أَرَانِى} يعني في المنام، وهي حكاية حال ماضية {أَعْصِرُ خَمْرًا} يعني عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه. وقيل: الخمر - بلغة عمان -: اسم للعنب. وفي قراءة ابن مسعود «أعصر عنباً» {مِّنَ المحسنين} من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أي: يجيدونها، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها له، فقالا له ذلك. أو من العلماء، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم. أو من المحسنين إلى أهل السجن. فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له. وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا اصبروا تؤجروا، إنّ لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خليت سبيلك، ولكني أحسن جوارك، فكن في أي بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيين قالا له إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء، فلا تحباني - بارك الله فيكما - وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي: إني أراني في بستان، فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها في كأس الملك، وسقيته. وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}؟ قلت: إلى ما قصا عليه. والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

٣٧ - (قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية {بِتَأْوِيلِهِ} ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه {ذلكما} إشارة لهما إلى التأويل، أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات {مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى} وأوحي به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم {إِنّى تَرَكْتُ} يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله. أي علمني ذلك وأوحي إليّ؛ لأني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون: أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء.

٣٨ - (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)

وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبيّ يوحى إليه، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: {مَا كَانَ لَنَا} ما صحّ لنا معشر الأنبياء {أَن نُّشْرِكَ باللهِ} أي شيء كان من ملك أو جنيّ أو إنسيّ، فضلاً [عن] أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر، ثم قال {ذلك} التوحيد {مِن فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى الناس} أي على الرسل وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه {ولكن أَكْثَرَ الناس} المبعوث إليهم {لاَ يَشْكُرُونَ} فضل الله فيشركون ولا ينتبهون وقيل: إنَّ ذلك من فضل الله علينا لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها. وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم، فيبقون كافرين غير شاكرين.

٣٩ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

{يا صاحبي السجن} يريد يا صاحبيَّ في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول رجلا صدق، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك. ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: {أصحاب النار وأصحاب الجنة} [الحشر: ٢٠] {ءَأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ} يريد التفرّق في العدد والتكاثر. يقول أأن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا {خَيْرٌ} لكما {أَمِ} أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو {القهار} الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

٤٠ - (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{مَا تَعْبُدُونَ} خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر {إِلاَّ أَسْمَاء} يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة، ثم طفقتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها. ومعنى {سَمَّيْتُمُوهَا} سميتم بها. يقال: سميته بزيد، وسميته زيداً {مَّا أَنزَلَ الله بِهَا} أي بتسميتها {مّن سلطان} من حجة {إِنِ الحكم} في أمر العبادة والدين {أَلاَ لِلَّهِ} ثم بين ما حكم به فقال {أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذلك الدين القيم} الثابت الذي دلت عليه البراهين.

٤١ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

{أَمَّا أَحَدُكُمَا} يريد الشرابي {فَيَسْقِى رَبَّهُ} سيده. وقرأ عكرمة «فيسقي ربه» أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول. روي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده؛ وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل {قُضِىَ الأمر} قطع وتم ما {تَسْتَفْتِيَانِ} فيه من أمركما وشأنكما. فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟ قلت: المراد بالأمر ما اتهما به من سمّ الملك وما سجنا من أجله، وظناً أنّ ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك، فقال لهما: قُضِي الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر. وقيل: جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً، على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

٤٢ - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

{ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ} الظانّ هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، ويكون الظنّ بمعنى

اليقين {اذكرني عِندَ رَبّكَ} صفني عند الملك بصفتي، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة {فَأَنْسَاهُ الشيطان} فأنسى الشرابي {ذِكْرَ رَبّهِ} أن يذكره لربه. وقيل فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره {بِضْعَ سِنِينَ} البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين. فإن قلت: كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟ قلت: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل {مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [البقرة: ١٠٦]. فإن قلت: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قلت: قد لابسه في قولك: فأنساه الشيطان ذكر ربه، أو عند ربه فجازت إضافته إليه، لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة. أو على تقدير: فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه، فحذف المضاف الذي هو الإخبار. فإن قلت: لم أنكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه، وقد قال الله تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى} [المائدة: ٢] وقال حكاية عن عيسى عليه السلام {مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله} [آل عمران: ٥٢] وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». (٥٤٥) «من فرّج عن مؤمن كربة فرّج الله عنه كربة من كربات الآخرة» وعن عائشة رضي الله عنها: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه» وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية والتقوّي بالأشربة والأطعمة. وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافراً، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضارّ؟ قلت: كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه، ولا يعتضد إلا به، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا. وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

٤٣ - (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

لما دنا فرج يوسف، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته: رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس. وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان. ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها {سِمَانٍ} جمع سمين وسمينة، وكذلك رجال ونسوة كرام. فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع {سِمَانٍ} صفة للمميز وهو {بقرات} دون المميز وهو {سَبْعَ} وأن يقال: سبع بقرات سمانا؟ قلت: إذا أوقعتها صفة لبقرات. فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ. ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن. فإن قلت: هلا قيل: سبع عجاف على الإضافة؟ قلت، التمييز موضوع لبيان الجنس، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده. فإن قلت: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ قلت: الفارس والصاحب والراكب ونحوها: صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها. ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ. فإن قلت: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه. ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف، لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات؟ قلت: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك {سَبْعٌ عِجَافٌ} عما تقترحه من التمييز بالوصف. والعجف: الهزال الذي ليس بعده، والسبب في وقوع «عجاف» جمعا «لعجفاء» وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال: حمله على سمان، لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض. فإن قلت: هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؟ قلت: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع، ويكون قوله: {وَأُخَرَ يابسات} بمعنى وسبعاً أخر. فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله {وَأُخَرَ يابسات} على {سنبلات خُضْرٍ} فيكون مجرور المحل؟ قلت: يؤدي إلى تدافع، وهو أن

عطفها على {سنبلات خُضْرٍ} يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضي أن تكون غير السبع، بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود، بالجرّ، فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود، تدافع ففسد {يا أيها الملأ} كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله {لِلرُّؤْيَا} إما أن تكون للبيان، كقوله {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين} [يوسف: ٢٠] وإما أن تدخل؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل، إذا قلت: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القوة. ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان، كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه. و {تَعْبُرُونَ} خبر آخر، أو حال، وأن يضمن {تَعْبُرُونَ} معنى فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا. وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره. ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا - بالتخفيف، هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون «عبرت» بالتشديد والتعبير والمعبر. وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب:

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا ... وَكُنْتُ للأَحْلاَمِ عَبَّارَا

٤٤ - (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ)

{أضغاث أَحْلاَمٍ} تخاليطها وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد: ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى «من» أي أضغاث من أحلام والمعنى: هي أضغاث أحلام. فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيدا في الوصف، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام. ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعالمين} إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

٤٥ - (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)

قرئ: «وادكر» بالدال وهو الفصيح. وعن الحسن: «واذكر»، بالذال المعجمة. والأصل تذكر، أي تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه {بَعْدَ أُمَّةٍ} بعد مدّة طويلة، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلي «بعد إمّة» بكسر الهمزة، والإمّة النعمة. قال عدي:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاَحِ وَالْمُلْكِ وَالإِمَّ ... ةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ القُبُورُ

أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ: «بعد أمه» بعد نسيان. يقال: أمه يأمه أمها، إذا نسي. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ {أَنَاْ أُنَبّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} أنا أخبركم به عمن عنده علمه. وفي قراءة الحسن: «أنا آتيكم بتأويله» {فَأَرْسِلُونِ} فابعثوني إليه لأسأله، ومروني باستعباره وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

٤٦ - (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

المعنى فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال {يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق} أيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل، ولذلك كلمه كلام محترز فقال {لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} لأنه ليس

على يقين من الرجوع، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى {لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

٤٧ - (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

{تَزْرَعُونَ} خبر في معنى الأمر، كقوله: {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وتجاهدون} [الصف: ١١] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه. والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: {فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ}. {دَأَباً} بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي دائبين: إمّا على تدأبون دأباً، وإمّا على إيقاع المصدر حالاً، بمعنى: ذوي دأب {فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ} لئلا يتسوس.

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ)

و {يَأْكُلْنَ} من الإسناد المجازي: جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ {تحصنون} تحرزون وتخبؤن {فِيهِ يُغَاثُ الناس} من الغوث أو من الغيث. يقال: غيثت البلاد، إذا مطرت. ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا.

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

{يَعْصِرُونَ} بالياء والتاء: يعصرون العنب والزيتون والسمسم. وقيل: يحلبون الضروع. وقرئ: «يعصرون»، على البناء للمفعول، من عصره إذا أنجاه، وهو مطابق للإغاثة ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً وقيل {يَعْصِرُونَ} يمطرون، من أعصرت السحابة. وفيه وجهان: إمّا أن يضمن أعصرت معنى مطرت، فيعدّى تعديته. وإمّا أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم، وذلك من جهة الوحي. وعن قتادة: زاده الله علم سنة. فإن قلت: معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب، وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إنّ علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً. وقوله {فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} تفصيل لحال العام، وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

٥٠ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه. وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها، قال عليه [الصلاة و] السلام: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم " ومنه. " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه - «هي فلانة» اتقاء للتهمة "، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - والله يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليماً ذا أناة " وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن، لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: «النُسوة» بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ {إِنَّ رَبّى} إنّ الله تعالى: {بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره. أو استشهد بعلم الله على أنهنّ كدنه، وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهنّ، أي: هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه.

٥١ - (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

{مَا خَطْبُكُنَّ} ما شأنكنّ {إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ} هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ {قُلْنَ حاش لِلَّهِ} تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها {قَالَتِ امرأت العزيز الأن حصحص الحق} أي ثبت واستقرّ وقرئ: «حُصْحِص» على البناء للمفعول، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للإناخة. قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفَنَاتِهِ ... وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به، لأنهنّ خصومه. وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال. وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

٥٢ - (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

{ذلك لِيَعْلَمَ} من كلام يوسف، أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز {أَنّى لَمْ أَخُنْهُ} بظهر الغيب في حرمته. ومحل {بالغيب} الحال من الفاعل أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه خفي عن عينه أو وهو غائب عني خفي عن عيني. ويجوز أن يكون ظرفاً، أي بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة {و} ليعلم {إِنَّ الله لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين} لا ينفذه ولا يسدّده، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدّده.

٥٣ - (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وليبين أنّ ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال {وَمَا أُبَرّىءُ نَفْسِى} من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها. ولا يخلو، إمّا أن يريد في هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم. وإمّا أن يريد به عموم الأحوال {إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء} أراد الجنس، أي إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات {إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّى} إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون {مَا رَحِمَ} في معنى الزمن، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني أنها أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، كقوله: {وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ إِلاَّ رَحْمَةً} [يس: ٤٣] وقيل معناه: ذلك ليعلم أني لم أخنه لأنّ المعصية خيانة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبريء نفسي مع ذلك من الخيانة، فإني قد خنته حين قرفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي: إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف {إِنَّ رَبّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ} استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت. فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: {قَالَ الملا مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ} [الشعراء: ٣٥] ثم قال: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [الشعراء: ٣٥] وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم. وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيره، ذهب إلى أن {ذلك لِيَعْلَمَ} [يوسف: ٥٢] متصل بقوله: {فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن} [يوسف: ٥٠] ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة، فزعموا أن يوسف حين قال: {أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب} [يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممت بها، وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة

سراويلك يا يوسف، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.
٥٤ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)
يقال استخلصه واستخصه، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به {فَلَمَّا كَلَّمَهُ} وشاهد منه ما لم يحتسب {قَالَ} أيها الصديق {إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مكِينٌ} ذو مكانة ومنزلة {أَمِينٌ} مؤتمن على كل شيء. روي أنّ الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال: اللهمّ إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصدّيق، إني أحب أن أسمع رؤياي منك. فقال: رأيت بقرات، فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.
٥٥ - (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)
{اجعلني على خَزَائِنِ الأرض} ولني خزائن أرضك {إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ} أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة» فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟ قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم: وعن قتادة. هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه. وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق. فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.
٥٦ - (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
{وكذلك} ومثل ذلك التمكين الظاهر {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ} في أرض مصر. روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء} قرئ بالنون والياء، أي: كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوّأ له، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه. روي: أنّ الملك توّجه، وختمه بخاتمه، ورداه بسيفه. ووضع له سريراً من ذهب مكللا بالدرّ والياقوت. روي أنه قال له: أمّا السرير فأشدّ به ملكك. وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك، وأمّا التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فقال: قد وضعته إجلالا لك وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير ودانت له الملوك، وفوّض الملك إليه أمره وعزل قطفير، ثم مات بعده، فزوّجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفراثيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله ما رأينا كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم منه فقال الملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خوّلني فما ترى؟ قال الرأي رأيك: قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. وأصاب

أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين {بِرَحْمَتِنَا} بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم {مَّن نَّشَاء} من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك {وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين} أن نأجرهم في الدنيا.

٥٧ - (وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

{ولأَجْرُ الأخرة خَيْرٌ} لهم. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية.

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

لم يعرفوه لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأنّ الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف. وقيل: رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو. وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمّل ويتفطن. وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرّفوا له.

٥٩ - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

{وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ} أي أصلحهم بعدّتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤوا له من الميرة. وقرئ: «بجهازهم» بكسر الجيم {قَالَ ائتونى بِأَخٍ لَّكُمْ مّنْ أَبِيكُمْ} لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجتر القول هذه المسألة. روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم؟ فإني أنكركم. قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق نبي من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد. قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون - وكان أحسنهم رأيا في يوسف - فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم.

٦٠ - (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ)

{وَلاَ تَقْرَبُونِ} فيه وجهان، أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً، عطفاً على محل قوله: {فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ} كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن يكون بمعنى النهي.

٦١ - (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

{سنراود عَنْهُ أَبَاهُ} سنخادعه عنه، وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده {وَإِنَّا لفاعلون} وإنا لقادرون على ذلك لا نتعانى به، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{لِفِتْيَانِهِ} وقرئ: «لفتيانه» وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، و «فعلة» للقلة. و «فعلان» للكثرة، أي لغلمانه الكيالين {لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا} لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرم بإعطاء البدلين {إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ} وفرغوا ظروفهم {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل: تخوّف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به. وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها.

وقيل: معنى {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعلهم يردّونها.

٦٣ - (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

{مُنِعَ مِنَّا الكيل} يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل {نَكْتَلْ} نرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه. وقرئ: «يكتل» بمعنى يكتل أخونا، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

٦٤ - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

{هَلْ امَنُكُمْ عَلَيْهِ} يريد أنكم قلتم في يوسف {وَإِنَّا لَهُ لحافظون} [يوسف: ١٢ ٦٣] كما تقولونه في أخيه، ثم خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك. ثم قال {فالله خَيْرٌ حافظا} فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم. و {حافظا} تمييز، كقولك: هو خيرهم رجلاً، ولله درّه فارساً. ويجوز أن يكون حالاً وقرئ: «حفظاً» وقرأ الأعمش: «فالله خير حافظ». وقرأ أبو هريرة: «خير الحافظين» {وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين} فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

٦٥ - (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

وقرئ: «ردت إلينا» بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما في: قيل وبيع، وحكى قطرب ضرب زيد. على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد {مَا نَّبْغِى} للنفي، أي: ما نبغي في القول، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبتغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان. أو على الاستفهام، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود «ما تبغي»، بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل: معناه ما نريد منك بضاعة أخرى. وقوله {هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا} جملة مستأنفة موضحة لقوله: {مَا نَّبْغِى} والجمل بعدها معطوفة عليها، على معنى: إن بضاعتنا ردّت إلينا، فنستظهر بها {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} في رجوعنا إلى الملك {وَنَحْفَظُ أَخَانَا} فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا: وإنما قالوا: {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط فإن قلت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول، كانت الجملة الأولى وهي قوله: {هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا} بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم، فما تصنع بالجمل البواقي؟ قلت: أعطفها على قوله: {مَا نَّبْغِى} على معنى: لا نبغي فيما نقول {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} ونفعل كيت وكيت. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا، كما تقول: سعيت في حاجة فلان، واجتهدت في تحصيل غرضه. ويجب أن أسعى، وينبغي لي أن لا أقصر. ويجوز أن يراد: ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع. بياناً لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه، وهو وجه حسن واضح {ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا، يعنون: ما يكال لهم. فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أي ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه. ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد، كقوله {ذلك لِيَعْلَمَ} [يوسف: ٥٢].

٦٦ - (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

{لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ} مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم {حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مّنَ الله} حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله: وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد. وقد أذن الله في ذلك فهو إذن

منه {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ} جواب اليمين، لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتنني به {إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ} إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به. أو إلا أن تهلكوا. فإن قلت: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟ قلت: {أَن يُحَاطَ بِكُمْ} مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ} في تأويل النفي. معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي: لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة: وهي أن يحاط بكم، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بد من تأويله بالنفي. ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت، تريد: ما أطلب منك إلا الفعل {على مَا نَقُولُ} من طلب الموثق وإعطائه {وَكِيلٌ} رقيب مطلع.

٦٧ - (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر مّا أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟ قلت: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللا من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوي: هو أثر العين، كما قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} [المدثر: ٣١] الآية. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامّة، من كل عين لامّة، ومن كل شيطان وهّامة» {وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ} يعني إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة {إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ}.

٦٨ - (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

ثم قال: {وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم} أي متفرقين {مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ} رأي يعقوب ودخولهم متفرّقين شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم {إِلاَّ حَاجَةً} استثناء منقطع. على معنى: ولكن حاجة {فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ} يعني قوله: {وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ} وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

٦٩ - (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ} ضم إليه بنيامين. وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله، قال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخا مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له {إِنّى أَنَاْ أَخُوكَ} يوسف {فَلاَ تَبْتَئِسْ} فلا تحزن {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} بنا فيما مضى، فإن الله قد

أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرّف إليه وعن وهب: إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم. وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك. قال: قد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك. قال: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

{السقاية} مشربة يسقى بها وهي الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به. وقيل: كانت الدواب تسقي بها ويكال بها. وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم. وقيل: كانت من فضة مموّهة بالذهب، وقيل كانت من ذهب. وقيل: كانت مرصعة بالجواهر {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ} ثم نادى مناد. يقال: آذنه أعلمه. وأذن: أكثر الإعلام. ومنه المؤذن، لكثرة ذلك منه. روي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك. والعير: الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير: أي تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير، كأنها جمع عير، وأصلها فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل ببيض وعيد، والمراد أصحاب العير كقوله: «يا خيل الله اركبي». وقرأ ابن مسعود: «وجعل السقاية»، على حذف جواب لما، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن.

٧١ - (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «تفقدون» من أفقدته إذا وجدته فقيداً.

٧٢ - (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

وقرئ: «صواع»، «وصاع»، «وصوع»، «وصُوع» بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة {وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ} يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل، أُؤدّيه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله.

٧٣ - (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

{تالله} قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم، وإنما قالوا {لَقَدْ عَلِمْتُمْ} فاستشهدوا بعلمهم. لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتي مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق. ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم {وَمَا كُنَّا سارقين} وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا.

٧٤ - (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

{فَمَا جَزَاؤُهُ} الضمير للصواع، أي فما جزاء سرقته {إِن كُنتُمْ كاذبين} في جحودكم وادّعائكم البراءة منه.

٧٥ - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

{قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ} أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوا في جزائه. وقولهم {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير، كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أي: فهو حقه لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه ويجوز أن يكون {جَزَاؤُهُ} مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر. والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد فيقول لك أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأول إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيماً للمظهر مقام المضمر. ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، أي: المسؤل عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو

جزاؤه، كما يقول: من يستفتى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: {وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم} [المائدة: ٩٥].

٧٦ - (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

{فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ} قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه وقرأ الحسن: «وُعاء أخيه»، بضم الواو، وهي لغة. وقرأ سعيد ابن جبير: «إعاء أخيه»، بقلب الواو همزة. فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ قلت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعاً {كذلك كِدْنَا} مثل ذلك الكيد العظيم كدنا {لِيُوسُفَ} يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الملك} تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد {إِلاَّ أَن يَشَاء الله} أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه {نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء} في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه. وقرئ: «يرفع» بالياء. ودرجات بالتنوين {وَفَوْقَ كُلّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ} فوقه أرفع درجة منه في علمه، أو [و] فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وعلا.

فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: ٧٠]، {فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كاذبين} [يوسف: ٧٤]؟

قلت: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: ٧٠] تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: {إِن كُنتُمْ كاذبين} [يوسف: ٧٤] فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً، على أنه لو صرَّح لهم بالتكذيب، كما صرّح لهم بالتسريق. لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: {وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ متاعنا فَأَكَلَهُ الذئب} [يوسف: ١٧] هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً} [ص: ٤٤] ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

٧٧ - (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

{أَخٌ لَّهُ} أرادوا يوسف. روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسوّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة، فقيل: كان أخذ في صباه صنماً لجدّه أبي أمّه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق. وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه. وقيل: كان في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف - وهي عمته - بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت.

{فَأَسَرَّهَا} إضمار على شريطة التفسير، تفسيره {أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً} وإنما أنث لأنّ قوله: {أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً} جملة أو كلمة، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً} والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً، لأنّ قوله: {قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً} بدل من أسرَّها. وفي قراءة ابن مسعود: «فأسرَّه»، على التذكير، يريد القول أو الكلام. ومعنى {أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً} أنتم شر منزلة في السرق، لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أخاكم من أبيكم {واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

٧٨ - (قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر، وأنّ بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان، وأنه مستأنس بأخيه {فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ} نخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين} إلينا فأتمم إحسانك. أو من عادتك الإحسان فاجْرِ على عادتك ولا تغيرها.

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ)

{مَعَاذَ اللهِ} هو كلام موجه، ظاهره: أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه: إنّ الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي. ومعنى {مَعَاذَ الله أَن نَّأْخُذَ} نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من. و {إِذاً} جواب لهم وجزاء، لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

{استيأسوا} يئسوا. وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مرّ في استعصم. و النجي على معنيين: يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى: المعاشر والمسامر، ومنه قوله تعالى {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً} [مريم: ٥٢] وبمعنى المصدر الذي هو التناجي، كما قيل النجوى بمعناه. ومنه قيل: قوم نجي، كما قيل {وَإِذْ هُمْ نجوى} [الإسراء: ٤٧] تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف. ويجوز أن يقال: هم نجي، كما قيل: هم صديق، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية. قال:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ ...

ومعنى {خَلَصُواْ} اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم {نَجِيّاً} ذوي نجوى أو فوجا نجياً، أي مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً. وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً، لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، على أيّ صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور {كَبِيرُهُمْ} في السنّ وهو روبيل. وقيل: رئيسهم وهو شمعون: وقيل كبيرهم في العقل والرأي وهو يهوذا {مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ} فيه وجوه: أن تكون «ما» صلة، أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم. وأن تكون مصدرية، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو {مِن قَبْلُ} ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف. أو النصب عطفاً على مفعول {أَلَمْ تَعْلَمُواْ} وهو {أَنَّ أَبَاكُمْ} كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة بمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه، أي قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة، ومحله الرفع أو النصب على الوجهين {فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض} فلن أفارق أرض مصر {حتى يَأْذَنَ لِى أَبِى} في الانصراف إليه {أَوْ يَحْكُمَ الله لِى} بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب {وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين} لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

٨١ - (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

وقرئ: «سرِّق» أي نسب إلى السرقة {وَمَا شَهِدْنَا} عليه بالسرقة {إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا} من سرقته وتيقناه، لأنّ الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافظين} وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق. أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف. ومن قرأ: «سرِّق» فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي حافظين، أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر.

٨٢ - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

{القرية التى كُنَّا فِيهَا} هي مصر، أي أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة {والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا} وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ف.

٨٣ - (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} أردتموه وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم {بِهِمْ جَمِيعًا} بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره {إِنَّهُ هُوَ العليم} بحالي في الحزن والأسف {الحكيم} الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

٨٤ - (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

{وتولى عَنْهُمْ} وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به {يا أسفى} أضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع، ونحوه {اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُم} [التوبة: ٣٨]، {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٦]. {يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ} [الكهف: ١٠٤]، {مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ} [النمل: ٢٢] وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع. وإنما قال يا أسفى "

فإن قلت: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً؟ قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طريا.

وَلَمْ تُنْسِنِي أَوْفَى الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ ...

ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به {وابيضت عَيْنَاهُ} إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. قرئ: «من الحزن» ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض، فكأنه حدث من الحزن. قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سأل جبريل عليه السلام: " ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلى. قال: «فما كان له من الأجر»؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط " فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال: " القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون " وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: " ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح " وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك، فقال: ما رأيت

الله جعل الحزن عاراً على يعقوب {فَهُوَ كَظِيمٌ} فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم، فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله {وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم: ٤٨] من كظم السقاء إذا شدّه على ملئه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس. يقال: أخذ بأكظامه.

٨٥ - (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)

{تفتؤا} أراد: لا تفتؤ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون ونحوه:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً ...

ومعنى لا تفتأ: لا تزال. وعن مجاهد: لا تفتر من حبه، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين يقال: ما فتئ يفعل. قال أوس:

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي ... وَيَلْحَقُ مِنهَا لاَحِقٌ وتَقَطَّعُ

{تَكُونَ حَرَضاً} مشفياً على الهلاك مرضاً، وأحرضه المرض، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه مصدر. والصفة: حَرِض، بكسر الراء، ونحوهما: دنف ودنف، وجاءت القراءة بهما جميعاً. وقرأ الحسن: «حُرُضاً»، بضمتين، ونحوه في الصفات: رجل جنب وغرب.

٨٦ - (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

البث: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبثه إلى الناس أي ينشره. ومنه: باثه أمره، وأبثه إياه. ومعنى {إِنَّمَا أَشْكُو} إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي. وهذا معنى توليه عنهم، أي فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه. وقيل: دخل على يعقوب جارٌ له فقال: يا يعقوب، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك! فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. وروي أنه أوحي إلى يعقوب: إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها فبكت حتى عميت {وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب. وروي أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حيّ فاطلبه. وقرأ الحسن: «وحزَنِي» بفتحتين «وحزُنِي» بضمتين: قتادة.

٨٧ - (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

{فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ} فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما. وقرئ بالجيم، كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة {فَلَمَّا أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر} [آل عمران: ٥٢] ومن الجس، وهو الطلب. ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الحواس، والجواس {مِن رَّوْحِ الله} من فرجه وتنفيسه. وقرأ الحسن وقتادة: «من رُوح الله»، بالضم: أي من رحمته التي يحيا بها العباد.

٨٨ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

{الضر} الهزال من الشدّة والجوع {مُّزْجَاةٍ} مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب، قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء، وقيل: سويق المقل والأقط. وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة {فَأَوْفِ لَنَا الكيل} الذي هو حقنا {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة، لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل كانت تحل لغير نبينا. وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} أراد أنها كانت حلالاً لهم. والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا إليه أن يتصدّق عليهم، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه. وقوله: {إِنَّ الله يَجْزِى المتصدقين} شاهد لذلك

لذكر الله وجزائه، والصدقة العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله ومنه قول: الحسن لمن سمعه يقول اللهم تصدق عليّ: - إن الله تعالى لا يتصدق، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم أعطني، أو تفضل عليّ، أو ارحمني.

٨٩ - (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

{قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ} أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح {مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جاهلون} لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه، يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً، إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ولله حصاً عقولهم ما أرزنها وأرجحها.

وقيل لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل، سماهم جاهلين. وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة.

روي أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول. وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء: أما جدّي فشدّت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله. وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمّه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم والثكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

٩٠ - (قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

قرئ: «أئنك» على الاستفهام. وأنك، على الإيجاب وفي قراءة أبيّ: «أئنك أو أنت يوسف»، على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في روائه وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأنّ ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر. وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم. وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء. فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ عن أن أخاه كان معلوماً لهم. قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه {مَن يَتَّقِ} من يخف الله وعقابه {وَيِصْبِرْ} عن المعاصي وعلى الطاعات {فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ} أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين.

٩١ - (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

{لَقَدْ ءاثَرَكَ الله عَلَيْنَا} أي فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

٩٢ - (قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

{لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} لا تأنيب عليكم ولا عتب. وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه: إزالة الثرب،

كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلا للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه. فإن قلت بم تعلق اليوم؟ قلت: بالتثريب، أو بالمقدر في {عَلَيْكُمْ} من معنى الاستقرار. أو بيغفر. والمعنى: لا أثر بكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال {يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ} فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت «يهديكم الله ويصلح بالكم» و {اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ} بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش: ما ترونني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم؛ وقد قدرت فقال: أقول ما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. وروي: أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ} ففعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«غفر الله لك ولمن علمك» ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه: إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم، فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي. وأني من حفدة إبراهيم.

٩٣ - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

{اذهبوا بِقَمِيصِى هذا} قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي {يَأْتِ بَصِيرًا} يصر بصيراً، كقولك: جاء البناء محكماً، بمعنى صار. ويشهد له {فارتد بَصِيرًا} [يوسف: ٩٦] أو يأت إليّ وهو بصير. وينصره قوله {وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} أي يأتني أبي، ويأتني آله جميعاً وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه، فأفرّحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

٩٤ - (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

{فَصَلَتِ العير} خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولاً، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. وقرأ ابن عباس: «فلما انفصل العير» {قَالَ} لولد ولده ومن حوله من قومه: {إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم. يقال: شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها. والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني.

٩٥ - (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ)

{لَفِى ضلالك القديم} لفي ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات.

٩٦ - (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

{ألقاه} طرح البشير القميص على وجه يعقوب. أو ألقاه يعقوب {فارتد بَصِيرًا} فرجع بصيراً. يقال: ردّه فارتد، وارتده إذا ارتجعه {أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ} يعني قوله {إِنّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} أو قوله: {وَلاَ تيأَسُواْ مِن رَّوْحِ الله} [يوسف: ٨٧] وقوله: {إِنِي أَعْلَمُ} كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٨٦] وروي: أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر: فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.

٩٨ - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

{سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ} قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرّف حالهم. في

صدق التوبة وإخلاصها. وقيل أراد الدوام على الاستغفار لهم. فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين. وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبداً، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة. حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة، وقد اختلف في استنبائهم.

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

{فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ} قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه. وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعون مصر؟ قال لا، هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحزان. وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت، بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف {أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحاق: كانت أمّه تحيي، وقيل: هما أبوه وخالته. ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين؛ لأنّ الرابة تدعى أمّاً، لقيامها مقام الأمّ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب. ومنه قوله: {وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} [البقرة: ١٣٣] فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت ثم، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم {ادخلوا مِصْرَ إِن شَآءَ الله ءَامِنِينَ}.

١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير {وَخَرُّواْ لَهُ} يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين {سُجَّدًا} ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة. فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر. فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟ قلت: بالدخول مكيفاً بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفاً بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال. ومن بدع التفاسير أن قوله {إِن شَاء الله} من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى} [يوسف: ٩٨] في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره. فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة وتقبيل اليد.

ونحوها مما جرت عليه عادة الناس، من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجداً يأباه. وقيل: معناه وخرّوا لأجل يوسف سجداً لله شكراً. وهذا أيضاً فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه قال:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً ...

{مِّنَ البدو} من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع {نَّزَغَ} أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس

الرائض الدابة وحمله على الجري. يقال: نزغه ونسغه، إذا نخسه {لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء} لطيف التدبير لأجله، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب. وروي أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بنيّ، ما أعقك: عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل. قال أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله. قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب} [يوسف: ١٣] قال: فهلا خفتني؟ وروي أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات. وأوصى أن يدفه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً، وولد له: إفراثيم وميشاً، وولد لإفراثيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه. إلى أن بعث الله موسى صلى الله عليه وسلم.

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

«من» في {مِنَ الملك} و {مِن تَأْوِيلِ الأحاديث} للتبعيض، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل {أَنتَ وَلِيِّ} أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي {تَوَفَّنِى مُسْلِمًا} طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى، كما قال يعقوب لولده {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢] ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل {وَأَلْحِقْنِى بالصالحين} من آبائي أو على العموم. وعن عمر ابن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يديك خيراً كثيراً: أحييت سنناً وأمت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله {رَبِّ} كقولك: أخا زيد حسن الوجه. أو على النداء.

١٠٢ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

{ذلك} إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله الابتداء. وقوله: {مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ} خبر إنّ. ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، و {مِنْ أنبآءالغيب} صلته و {نُوحِيهِ} الخبر. والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي، لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر، كقوله: {وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب} [يوسف: ١٥]؛ وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية: ونحوه: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر} [القصص: ٤٤]، {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} بيوسف ويبغون له الغوائل.

١٠٣ - (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

{وَمَآ أَكْثَرُ الناس} يريد العموم، كقوله: {ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ} [هود: ١٧] وعن ابن عباس رضي الله عنهما. أراد أهل

مكة، أي وما هم بمؤمنين {وَلَوْ حَرَصْتَ} وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.
١٠٤ - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
{وَمَا تَسْئَلُهُمْ} على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ} عظة من الله {للعالمين} عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.
١٠٥ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)
{مِّنْ ءَايَةٍ} من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده {يَمُرُّونَ عَلَيْهَا} ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ: «والأرضُ» بالرفع على الابتداء، ويمرون عليها: خبره، وقرأ السدّي «والأرضَ» بالنصب على: ويطأون الأرض يمرّون عليها. وفي مصحف عبد الله: والأرض يمشون عليها، برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.
١٠٦ - (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)
{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم} في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.
١٠٧ - (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
{غاشية} نقمة تغشاهم. وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم وقيل: الصواعق.
١٠٨ - (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
{هذه سبيلى} هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي. والسبيل والطريق: يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: {ادعوا إِلَى الله على بَصِيرَةٍ} أي أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. و {أَنَاْ} تأكيد للمستتر في {أدعوا}. {وَمَنِ اتبعنى} عطف عليه. يريد: أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعني ويجوز أن يكون {أَنَاْ} مبتدأ، و {على بَصِيرَةٍ} خبراً مقدّماً، {وَمَنِ اتبعنى} عطفاً على {أَنَاْ} إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان، لا على هوى، ويجوز أن يكون {على بَصِيرَةٍ} حالاً من {أَدْعُو} عاملة الرفع في {أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى}، {وسبحان الله} وأنزهه من الشركاء.
١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{إِلاَّ رِجَالاً} لا ملائكة، لأنهم كانوا يقولون {لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة} [فصلت: ١٤] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة. وقيل: في سجاح المتنبئة.
وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا ...
وقرئ: «نوحي إليهم»، بالنون. {مِّنْ أَهْلِ القرى} لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة {وَلَدَارُ الآخرة} ولدار الساعة، أو الحال الآخرة {خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا} للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ: «أفلا تعقلون»، بالتاء والياء.
١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)
{حتى} متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً} فتراخى نصرهم حتى [إذا] استيأسوا عن النصر {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ} أي كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق، ورجاء كاذب. والمعنى أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد

أخلفوا ما وعدهم الله من النصر وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله: {وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين ءامَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله} [البقرة: ٢١٤] فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظنّ: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، منزه عن كل قبيح؟ وقيل: وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، أي: أخلفوا. أو: وظنّ المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل، أيّ: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه. وقرئ: «كذبوا» بالتشديد على وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم. وقرأ مجاهد «كذبوا» بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إمّا على تأويل ابن عباس، وإمّا على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم. أو وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا. ولو قرئ بهذا مشدّداً لكان معناه؛ وظنّ الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم. وقرئ: «فننجى» بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه. وفنجى، على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن «فنجا» والمراد ب {مَّن نَّشَاء} المؤمنون، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله {وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القوم المجرمين}.

١١١ - (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الضمير في {قَصَصِهِمْ} للرسل، وينصره قراءة من قرأ: «في قصصهم» بكسر القاف. وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته. فإن قلت: فالإم يرجع الضمير في {مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى} فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى {ولكن} كان {تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ} أي قبله من الكتب السماوية {وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْء} يحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل. وانتصاب ما نصب بعد {لَكِن} للعطف على خبر كان. وقرئ: ذلك بالرفع على «ولكن هو تصديق الذي بين يديه».

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً "

١٣ سورة الرعد:

سورة الرعد:
قيل مكية وقيل مدنية

١ - (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)

{تِلْكَ} إشارة إلى آيات السورة. والمراد بالكتاب السورة، أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال: {والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ} من القرآن كله هو {الحق} الذي لا مزيد عليه، لا هذه السور وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية: هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها؟ تريد الكملة.

٢ - (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

{الله} مبتدأ، و {الذي} خبره، بدليل قوله: {وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض} ويجوز أن يكون صفة. وقوله: {يُدَبّرُ الأمر يُفَصّلُ الآيات} خبر بعد خبر. وينصره ما تقدّمه من ذكر الآيات {رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك. وقيل: هي

صفة لعمد. ويعضده قراءة أبي «ترونه». وقرئ: «عُمُد»، بضمتين {يُدَبِّرُ الأمر} يدبر أمر ملكوته وربوبيته {يُفَصِّلُ} آياته في كتبه المنزلة {لَعَلَّكُمْ بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه. وقرأ الحسن: «ندبر»، بالنون.

٣ - (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

{جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين} خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت. وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة {يغشى الليل النهار} يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. وقرئ: «يغشّى» بالتشديد.

٤ - (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

{قِطَعٌ متجاورات} بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة: طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها. وفي بعض المصاحف: قطعاً متجاورات على: وجعل وقرئ: «وجناتٍ»، بالنصب للعطف على زوجين. أو بالجرّ على كل الثمرات. وقرئ: «وزرعٍ ونخيلٍ»، بالجرّ عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلها واحد. وقرئ بالضم. والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس {تَسْقِى} بالتاء والياء {وَنُفَضّلُ} بالنون وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً {في الأكل} بضم الكاف وسكونها.

٥ - (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

{وَإِن تَعْجَبْ} يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهنّ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب {أَءِذَا كُنَّا} إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون في محل الرفع بدلا من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول. وإذا نصب بما دل عليه قوله: {إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ}، {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ} أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم {وَأُوْلَئِكَ الأغلال فِى أعناقهم} وصف بالإصرار، كقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا} [يس: ٨] ونحوه:

لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلاَلٌ وَأَقْيَادُ ...

أو هو من جملة الوعيد.

٦ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

{بالسيئة قَبْلَ الحسنة} بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره {وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات} أي عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا والمثلة: العقوبة، بوزن السمرة. والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، {وَجَزَاء سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مّثْلُهَا} [الشورى: ٤٠] ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال: القصاص. وقرئ: «المُثُلات» بضمتين لإتباع الفاء العين. و «المثْلات»، بفتح

الميم وسكون الثاء، كما يقال: السمرة. و «المُثْلات» بضم الميم وسكون الثاء، تخفيف «المُثُلات» بضمتين. والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات {لَذُو مَغْفِرَةٍ لّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ} أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال، بمعنى ظالمين لأنفسهم وفيه أوجه. أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال. وروي أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام: " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد ".

٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

{لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ} لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوّفاً لهم من سوء العاقبة. وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها {وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ} من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية، وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً في آيات مخصوصة. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك، إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء، وهو الله تعالى. ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيراً ومصلحة، لأجابهم إليه. وأما على الوجه الثاني، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأي طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

٨ - (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

{الله يَعْلَمُ} يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً، وأن يكون المعنى: هو الله، تفسيراً لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل: {يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى} «وما» في {مَا تَحْمِلُ}، {وَمَا تَغِيضُ}، {وَمَا تَزْدَادُ} إما موصولة، وإما مصدرية. فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو. من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة، ويعلم ما تغيضه الأرحام: أي تنقصه. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى: {وَغِيضَ الماء} [هود: ٤٤] وما تزداده: أي تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقي، وازددت منه كذا ومنه قوله تعالى: {وازدادوا تِسْعًا} [الكهف: ٢٥] ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة. ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه. ومنه جسد الولد، فإنه يكون تاما ومخدجاً. ومنه مدة ولادته، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك، وقيل: إنّ الضحاك ولد لسنتين، وهرم ابن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين، ولذلك سمي هرماً. ومنه الدم، فإنه يقل ويكثر. وإن كانت مصدرية، فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله. ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، على أنّ الفعلين غير متعدّيين، ويعضده قول الحسن: الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر. وعنه الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام {بِمِقْدَارٍ} بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله {إِنَّا كُلَّ شَىْء خلقناه بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩].

٩ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

{الكبير} العظيم الشأن الذي كل شيء دونه {المتعال} المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

١٠ - (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

{سارب} ذاهب في سربه - بالفتح - أي في طريقه ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروباً. والمعنى: سواء عنده من استخفى: أي طلب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد. فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب قلت: فيه وجهان: أحدهما أنّ قوله {وَسَارِبٌ} عطف على من هو مستخف، لا على مستخف، والثاني أنه عطف على مستخف، إلا أن {مِنْ} في معنى الاثنين، كقوله:

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ ...

كأنه قيل: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار. والضمير في {لَهُ} مردود على {مِنْ} كأنه قيل: لمن أسرّ ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب.

١١ - (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

{معقبات} جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء في القاف، كقوله {وَجَاء المعذرون} [التوبة: ٩٠] بمعنى المعتذرون. ويجوز معقبات، بكسر العين ولم يقرأ به. أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه، كما يقال: قفاه، لأنّ بعضهم يعقب بعضاً أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله} هما صفتان جميعاً وليس {مِنْ أَمْرِ الله} بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله. أو يحفظونه من أجل أمر الله أي من أجل أنّ الله أمرهم بحفظه. والدليل عليه قراءة علي رضي الله عنه وابن عباس وزيد بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة: «يحفظونه بأمر الله». أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب، كقوله: {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار مِنَ الرحمن} [الأنبياء: ٤٢] وقيل: المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ: «له معاقيب» جمع معقب أو معقبة. والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ} من العافية والنعمة {حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} من الحال الجميلة بكثرة المعاصي {مِن وَالٍ} ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

١٢ - (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

{خَوْفًا وَطَمَعًا} لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وطمع. أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع. أو على: ذا خوف وذا طمع. أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين. ومعنى الخوف والطمع: أنّ وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فَتًى كالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى ... يُرْجَى الْحَيَاءُ مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالمسافر، ومن له في جرينه التمر والزبيب، ومن له بيت يكف، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به {السحاب} اسم الجنس، والواحدة سحابة. و {الثقال} جمع ثقيلة؛ لأنك تقول سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهي الثقال بالماء.

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

{وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ} ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له. أي يضجون بسبحان الله والحمد لله. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده» وعن علي رضي الله عنه: سبحان من سبحت له. وإذا اشتدّ الرعد قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» وعن ابن عباس.
أنّ اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب» وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك. ومن بدع المتصوّفة. الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم {والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ} ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيته ثم قال {وَهُمْ} يعني الذين كفروا وكذّبوا رسول الله وأنكروا آياته {يجادلون فِى الله} حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعاد، الخلائق بقولهم {مِنْ يحيي العظام وَهِىَ رَمِيمٌ} [يس: ٧٨] ويردّون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم {الملائكة * بَنَات الله} فهذا جدالهم بالباطل، كقولهم {وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق} [غافر: ٥] وقيل: الواو للحال. أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم. وذلك أنّ أربد أخا لبيد ابن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته - أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ {المحال} المماحلة، وهي شدّة المماكرة والمكايدة.
ومنه: تمحل لكذا، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان. ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ما حلا مصدّقاً» وقال الأعشى:
فَرْعُ نَبْعٍ يَهَشُّ فِي غُصُنِ الْمَجْ ... دِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ
والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون. وقرأ الأعرج بفتح الميم، على أنه مفعل، من حال يحول محالا إذا احتال. ومنه: أحول من ذئب، أي أشدّ حيلة. ويجوز أن يكون المعنى: شديد الفقار، ويكون مثلا في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشدّ، وموساه أحدّ؛ لأن الحيوان إذا اشتدّ محاله، كان منعوتاً بشدّة القوّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه.
١٤ - (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)
{دَعْوَةُ الحق} فيه وجهان أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق، لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء، لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا، على معنى: دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب. وعن الحسن: الحق هو الله، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله؟ قلت أما على قصة أربد فظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكرٌ به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله: (اللهمّ اخسفهما بما شئت)، فأجيب فيهما، فكانت الدعوة دعوة حق. وأما على الأوّل فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعا عليهم فيهم. {والذين يَدْعُونَ} والآلهة الذين يدعوهم الكفار {مِنْ} دون الله {لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْء} من طلباتهم {إِلاَّ كباسط كَفَّيْهِ} إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، أي كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم. وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه. وقرئ: «تدعون» بالتاء. كباسط

كفيه، بالتنوين. {إِلاَّ فِى ضلال} إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.
١٥ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)
{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ} أي ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله، شاءوا أو أبوا. لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له {ظلالهم} أيضاً حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص، والفيء والزوال. وقرئ: «بالغدو والإيصال»، من آصلوا: إذا دخلوا في الأصيل.
١٦ - (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)
{قُلِ الله} حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا الله. كقوله: {قُلْ مَن رَّبُّ السموات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٦] وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك فإذا قال: هذا قولي قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقيناً، أي: إن كعوا عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه {أفاتخذتم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاء} أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك {لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّا} لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب، فما أبين ضلالتكم {أَمْ جَعَلُواْ} بل أجعلوا. ومعنى الهمزة الإنكار و {خَلَقُواْ} صفة لشركاء، يعني أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله {فَتَشَابَهَ} عليهم خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق {قُلِ الله خالق كُلّ شَىْء} لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة {وَهُوَ الواحد} المتوحد بالربوبية {القهار} لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور.
١٧ - (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ)
هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفي به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.
فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.
فإن قلت: فما معنى قوله: {بِقَدَرِهَا}؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ. ألا ترى إلى قوله: {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس} لأنه ضرب المطر مثلا للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف. فإن قلت: فما فائدة قوله: {ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ متاع}؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: {بِقَدَرِهَا} لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس} لأنّ المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب، وهو الحلية والمتاع. وقوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النار ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ متاع} عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك، نحو ما جاء في ذكر الآجر {أَوْقِدْ لِى ياهامان عَلَى الطين} [القصص: ٣٨] و «من» لابتداء الغاية. أي:

ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبداً رابياً منفخاً مرتفعاً على وجه السيل [{جُفَآءً} يجفؤه السيل:]، أي يرمي به. وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤبة ابن العجاج: جفالا وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة، لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ: «يوقدون»، بالياء: أي يوقد الناس.

١٨ - (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

{لِلَّذِينَ استجابوا} اللام متعلقة بيضرب، أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا، وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أي: هما مثلا الفريقين. و {الحسنى} صفة لمصدر استجابوا، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى. وقوله {لَوْ أَنَّ لَهُمْ} كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: {كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال} [الرعد: ١٧] وما بعده كلام مستأنف. والحسنى: مبتدأ، خبره {لِلَّذِينَ استجابوا} والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة {والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ} مبتدأ خبره، «لو» مع ما في حيزه و {سُوء الحِسَابِ} المناقشة فيه. وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

١٩ - (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله {أَفَمَن يَعْلَمُ} لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم {أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ الحق} فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب: كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألباب} أي الذين عملوا على قضيات عقولهم، فنظروا واستبصروا.

٢٠ - (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

{والذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله} مبتدأ. و {أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار} خبره كقوله: والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة. ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب، والأوّل أوجه. وعهد الله: ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى} [الأعراف: ١٧٢] {وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق} ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه: من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، تعميم بعد تخصيص.

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

{مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ} من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان {إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم. ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر، وكل ما تعلق منهم بسبب، حتى الهرة والدجاجة. وعن الفضيل بن عياض أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي يخشون وعيده كله {وَيَخَافُونَ} خصوصاً {سُوء الحِسَابِ} فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

٢٢ - (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

{صَبَرُواْ} مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف {ابتغاء وَجْهِ} الله، لا ليقال: ما أصبره وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ...
ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مردّ فيه للفائت، كقوله:
مَا أنْ جَزِعْتُ وَلاَ هَلَعْ ... تُ وَلاَ يَرُدُّ بُكَاي زَنْدَا

وكل عمل له وجوه يعمل عليها، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً، وكان فعل كل فعل {مِّمَّا رزقناهم} من الحلال، لأنّ الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله {سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} يتناول النوافل، لأنها في السر أفضل والفرائض، لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة {وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة} ويدفعونها عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم. وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. وعن ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا. وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره {عقبى الدار} عاقبة الدنيا وهي الجنة، لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها.

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

و {جنات عَدْنٍ} بدل من عقبى الدار. وقرئ «فنعم» بفتح النون. والأصل: نعم فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرئ: «يدخلونها» على البناء للمفعول.

وقرأ ابن أبي عبلة «صلُح» بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أنّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم.

٢٤ - (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

{سلام عَلَيْكُمْ} في موضع الحال، لأنّ المعنى: قائلين سلام عليكم أو مسلمين، فإن قلت: بم تعلق قوله {بِمَا صَبَرْتُمْ}؟ قلت: بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم والمعنى: لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة، كقوله:

بِمَا قَدْ أَرَى فِيهَا أَوَانِسَ بُدَّنَا ... وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " ويجوز أن يتعلق بسلام، أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم.

٢٥ - (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

{مِن بَعْدِ ميثاقه} من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول {سُوء الدار} يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا، لأنه في مقابلة عقبى الدار، ويجوز أن يراد بالدار جهنم، وبسوئها عذابها.

٢٦ - (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

{الله يَبْسُطُ الرزق} أي الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم {وَفَرِحُواْ} بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لافرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

٢٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

فإن قلت: كيف طابق قولهم {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبّهِ} قوله: {قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء}؟ قلت: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبيّ قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء

كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدّوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم: إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدّة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية {وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ} كان على خلاف صفتكم {أَنَابَ} أقبل إلى الحق، وحقيقته دخل في نوبة الخير، و {الذين ءَامَنُواْ} بدل من {مَنْ أَنَابَ}.

٢٨ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

{وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله} بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، كقوله: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله} [الزمر: ٢٣] أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها.

٢٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

{الذين ءَامَنُواْ} مبتدأ، و {طوبى لَهُمْ} خبره. ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب، على تقدير حذف المضاف، أي: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى «طوبى لك» أصبت خيراً وطيباً، ومحلها النصب أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك، والقراءة في قوله «وحسن مآب» بالرفع والنصب، تدلك على محليها. واللام في {لَهُمْ} للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها، كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعرابي: «طيبى لهم»، فكسر الطاء لتسلم الياء، كما قيل: بيض ومعيشة.

٣٠ - (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ} مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: {فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ} أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء {لّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك {وَهُمْ يَكْفُرُونَ} وحال هؤلاء أنهم يكفرون {بالرحمن} بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم {قُلْ هُوَ رَبّى} الواحد المتعالي عن الشركاء {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} في نصرتي عليكم {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا} جوابه محذوف، كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب والمعنى: ولو أن قرآنا {سُيّرَتْ بِهِ الجبال} عن مقارّها، وزعزعت عن مضاجعها {أَوْ قُطّعَتْ بِهِ الأرض} حتى تتصدع وتتزايل قطعاً {أَوْ كُلّمَ بِهِ الموتى} فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف، كما قال: {لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله} [الحشر: ٢١] هذا يعضد ما فسرت به قوله: {لّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الرعد: ٣٠] من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن. وقيل: معناه ولو أن قرآناً وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة} [الأنعام: ١١١] الآية. وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سيِّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود. وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما

سخرت لسليمان عليه السلام. أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصي بن كلاب فنزلت ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاوزتها. وعن الفراء: هو متعلق بما قبله. والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال} وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد. وقيل {قُطِّعَتْ بِهِ الأرض} شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً {بَل لِلَّهِ الأمر جَمِيعًا} على معنيين، أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها، إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه. والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الالجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار. ويعضده قوله: {أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذين ءامَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ} يعني مشيئة الإلجاء والقسر {لَهَدَى الناس جَمِيعًا} ومعنى {أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ} أفلم يعلم. قيل: هي لغة قوم من النخع. وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه؛ لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك. قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: «أفلم يتبين» وهو تفسير (أفلم ييئس) وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام.

وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية. ويجوز أن يتعلق {أَن لَّوْ يَشَاءُ} بآمنوا، على أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم {تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ} من كفرهم وسوء أعمالهم {قَارِعَةٌ} داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم {أَوْ تَحُلُّ} القارعة {قَرِيبًا} منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها {حتى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ} وهو موتهم، أو القيامة. وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم، وتصيب من مواشيهم. أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك، كما حل بالحديبية، حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

٣٢ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

الإملاء: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن، كالبهيمة يملي لها في المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به وتسلية له.

٣٣ - (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ} احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني أفا الله الذي هو قائم رقيب {على كُلّ نَفْسٍ} صالحة أو طالحة {بِمَا كَسَبَتْ} يعلم خيره وشره، ويعدّ لكل جزاءه، كمن ليس كذلك. ويجوز أن يقدّر ما يقع خبراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا، وتمثيله: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه {وَجَعَلُواْ} له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده {شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ} أي جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم، ثم قال: {أَمْ تُنَبّئُونَهُ} على أم المنقطعة، كقولك للرجل: قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف، ومعناه: بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد نفي أن يكون له شركاء. ونحو: {قُلْ أَتُنَبّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض} [يونس: ١٨]، {أَم بظاهر مّنَ القول} بل

أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، {ذلك قَوْلُهُم بأفواههم} [التوبة: ٣٠]، {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا} [يوسف: ٤٠] وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقرئ: «أتنبئونه» بالتخفيف {مَكْرِهِمْ} كيدهم للإسلام بشركهم {وَصُدُّواْ} قرئ بالحركات الثلاث. وقرأ ابن أبي إسحاق: «وصدٌّ» بالتنوين {وَمَن يُضْلِلِ اللهُ} ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدي {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} فما له من أحد يقدر على هدايته.

٣٤ - (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

{لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا} وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر، ولذلك سماه عذاباً {وَمَا لَهُم مّنَ الله مِن وَاقٍ} وما لهم من حافظ من عذابه. أو ما لهم من جهته واق من رحمته.

٣٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

{مَّثَلُ الجنة} صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه، أي فيما قصصناه عليكم مثل الجنة. وقال غيره: الخبر {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار} كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد. وقرأ علي رضي الله عنه «أمثال الجنة» على الجمع أي صفاتها {أُكُلُهَا دَائِمٌ} كقوله {لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٣] {وِظِلُّهَا} دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

٣٦ - (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ)

{والذين ءاتيناهم الكتاب} يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء {يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأحزاب} يعني ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما {مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني [مما] هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما حرّفوه وبدّلوه من الشرائع. فإن قلت: كيف اتصل قوله: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ} بما قبله؟ قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به {قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَن لا نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً} [آل عمران: ٦٤] وقرأ نافع في رواية أبي خليد: «ولا أشرك» بالرفع على الاستئناف كأنه قال: وأنا [لا] أشرك به ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى: أمرت أن أعبد الله غير مشرك به {إِلَيْهِ أَدْعُو} خصوصاً لا أدعو إلى غيره {وَإِلَيْهِ} لا إلى غيره مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

٣٧ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ)

{وكذلك أنزلناه} ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء {حُكْمًا عَرَبِيًّا} حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوّله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتهييج، والبعث للسامعين على الثبات

في الدين والتصلب فيه، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدّة الشكيمة بمكان.

٣٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ فقيل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية. وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم.

٣٩ - (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

{يَمْحُواْ الله مَا يَشَاء} ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل {وَيُثّبِّتْ} غيره. وقيل يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، ويثبت إيمانهم وطاعتهم. وقيل: يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسي وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال {وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب} أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ، لأنّ كل كائن مكتوب فيه. وقرئ: «ويثبت».

٤٠ - (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

{وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ} وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

٤١ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأرض} أرض الكفر {نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصرة والغلبة ونحوه {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الأنبياء: ٤٤]، {أَفَهُمُ الغالبون} [الأنبياء: ٤٤]، {سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الافاق} [فصلت: ٥٣] والمعنى: عليك بالبلاغ الذي حملته، ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره، فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها، ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر.

وقرئ «ننقصها» بالتشديد {لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ} لا رادّ لحكمه. والمعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته: الذي يعقبه أي يقفيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب. قال لبيد:

طَلَبُ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ ...

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس {وَهُوَ سَرِيعُ الحساب} فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا. فإن قلت: ما محل قوله لا معقب لحكمه؟ قلت: هو جملة محلها النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد حاسراً.

٤٢ - (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

{وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ} وصفهم بالمكر، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال {فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا} ثم فسر ذلك بقوله: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الكافر لِمَنْ عُقْبَى الدار} لأنّ من علم ما تكسب كل نفس، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون. وهم في غفلة مما يراد بهم. وقرئ: «الكفار»، و «الكافرون». و «الذين كفروا». والكفر: أي أهله. والمراد بالكافر الجنس: وقرأ جناح بن حبيش، و «سَيُعلم الكافر»، من أعلمه أي سيخبر.

٤٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)
{كفى بالله شَهِيدًا} لما أظهر من الأدلة على رسالتي {وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب} والذي عنده علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا. لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم: وقيل: هو الله عز وعلا والكتاب: اللوح المحفوظ وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله. والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ: «ومن عنده علم الكتاب» على من الجارّة، أي ومن لدنه علم الكتاب، لأن علم من علمه من فضله ولطفه. وقرئ: «ومن عنده علم الكتاب» على من الجارّة، وعلم، على البناء للمفعول وقرئ: «وبمن عنده علم الكتاب».
فإن قلت: بم ارتفع علم الكتاب؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً؛ لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل، كقولك، مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقرّ في الدار أخوه.
وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالإبتداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:
" من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله "

١٤ سورة إبراهيم:

سورة إبراهيم:
مكية وآياتها ٥٢
١ - (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
{كتاب} هو كتاب، يعني السورة. وقرئ: «ليخرج الناس». والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى {بِإِذْنِ رَبّهِمْ} بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق {إلى صراطِ العزيز الحميد} بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل، كقوله: {لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ} [الأعراف: ٧٥] ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد.
٢ - (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)
وقوله: {الله} عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا. وقرئ بالرفع على: «هو الله». الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كالهلاك؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل، إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له، كقوله سلام عليك. ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: {مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} بالويل؟ قلت: لأنّ المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضجون منه، ويقولون: يا ويلاه، كقوله: {دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً} [الفرقان: ١٣].
٣ - (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)
{الذين يَسْتَحِبُّونَ} مبتدأ خبره: أولئك في ضلال بعيد ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذمّ، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليه وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن «ويصِدّون»، بضم الياء وكسر الصاد. يقال: صدّه عن كذا، وأصدّه، قال:

أُنَاسٌ اصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيفِ عَنْهُمُ ...

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً، لتنقله من غير التعدّي إلى التعدّي. وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه، لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل {فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ} أي ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل. فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد. قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد. أو فيه بعد: لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به، كما قال: {وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصّلَتْ ءاياته} [فصلت: ٤٤] فإن قلت: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً {قل يا أَيُّهَا النَّاس إِنّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة أيضاً. قلت: لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء. ومعنى {بِلِسَانِ قَوْمِهِ} بلغة قومه. وقرئ: «بلسن قومه». واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى اللغة. وقرئ: «بلُسن قومه» بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف. وقيل: الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم، ورووه عن الضحاك. وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أدّاها كل نبيّ بلغة قومه، وليس بصحيح، لأنّ قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد {فَيُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} كقوله {فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ} [التغابن: ٢] لأنّ الله لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية: التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان {وَهُوَ العزيز} فلا يغلب على مشيئته {الحكيم} فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

{أَنْ أَخْرِجْ} بمعنى أي أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له أخرج. ويجوز أن تكون الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية. والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن أفعل، فأدخلوا عليها حرف الجر. وكذلك التقدير بأن أخرج قومك {وَذَكِّرْهُمْ بأيام الله} وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح وعاد وثمود. ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نعماؤه وبلاؤه. فأمّا نعماؤه، فإنه ظلل

عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى. وفلق لهم البحر. وأمّا بلاؤه فإهلاك القرون {لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر وقيل: أراد لكل مؤمن، لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم، تنبيهاً عليهم.

٦ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

{إِذْ أَنجَاكُمْ} ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي إنعامه عليكم ذلك الوقت. فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعليكم؟ قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة الله مستقرّة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون «إذ» بدلا من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بدل الاشتمال. فإن قلت: في سورة البقرة {يُذَبِّحُونَ} وفي الأعراف {يُقَتِّلُونَ} وههنا {وَيُذَبِّحُونَ} مع الواو، فما الفرق؟ قلت: الفرق أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر. فإن قلت: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله. ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى {وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥] وقال زهير:

فَأَبْلاهُمَا خَيرَ البَلاَءِ الذي يَبْلُوا ...

٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: {نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ} [البقرة: ٢٣١] كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم. ونظير تأذن وأذن: توعد وأوعد، تفضل وأفضل. ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: {لَئِن شَكَرْتُمْ} أو أجرى {تَأَذَّنَ} مجرى، قال: لأنه ضرب من القول. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أي لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح {لأَزِيدَنَّكُمْ} نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم {وَلَئِن كَفَرْتُمْ} وغمطتم ما أنعمت به عليكم {إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ} لمن كفر نعمتي.

٨ - (وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

{وَقَالَ موسى} إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج، والله غني عن شكركم {حَمِيدٌ} مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمده الحامدون.

٩ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

{والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله} جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. و {لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله} اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن

العباد {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ} فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله: {عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الانامل مِنَ الغيظ} [آل عمران: ١١٩] أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم {إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله: {فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} وهذا قول قوي. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون. وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيادي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها [إلى حيثُ جاءت] منه على طريق المثل {مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ} من الإيمان بالله. وقرئ: «تدعونا» بإدغام النون {مُرِيبٍ} موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب الرجل، وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

١٠ - (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

{أَفِى الله شَكٌّ} أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ} أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي، وقال:

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مِسْوَرا ... فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَيْ مِسْوَرِ

فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: من ذنوبكم؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: {واتقوه وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ} [نوح: ٣ - ٤]، {يا قومنا أَجِيبُواْ دَاعِىَ الله وَءامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذنوبكم} [الأحقاف: ٣١] وقال في خطاب المؤمنين: {هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠] إلى أن قال {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [الصف: ١٢] وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها {وَيُؤَخّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى} إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن آمنتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت {إِنْ أَنتُمْ} ما أنتم {إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا} لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوّة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة {بسلطان مُّبِينٍ} بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

١١ - (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

{إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ} تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، واقتصروا على قولهم {ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} بالنبوّة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استؤثروا بها على أبناء جنسهم {إِلاَّ بِإِذْنِ الله} أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون} أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم.

١٢ - (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

ألا ترى إلى قوله: {وَمَا لَنَا أَن لا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله} ومعناه: وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه {وَقَدْ هَدَانَا} وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين، فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل؟ قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: {فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون} معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

{لَنُخْرِجَنَّكُمْ}، {أَوْ لَتَعُودُنَّ} ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم إما عودكم حالفين على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد {لَنُهْلِكَنَّ الظالمين} حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه. وقرأ أبو حيوة: «ليهلكنّ» «وليسكننكم» بالياء اعتباراً لأوحى.

١٤ - (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

«وليسكننكم» بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة، ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن. والمراد بالأرض. أرض الظالمين وديارهم، ونحوه {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها} [الأعراف: ١٢٧]، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم} [الأحزاب: ٢٧]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " من آذى جاره ورثه الله داره " ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يتردّدون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحدّثتهم به، وسجدنا شكراً لله {ذلك} إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك الأمر حق {لِمَنْ خَافَ مَقَامِى} موقفي وهو موقف الحساب، لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام. وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى أنّ ذلك حق للمتقين، كقوله: {والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨].

١٥ - (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

{واستفتحوا} واستنصروا الله على أعدائهم {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح} [الأنفال: ١٩] أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة، كقوله تعالى: {رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق} [الأعراف: ٨٩] وهو معطوف على {أوحي إليهم} وقرئ: «واستفتحوا» بلفظ الأمر. وعطفه على {لنهلكنّ} أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكنّ وقال لهم استفتحوا {وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم. وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه.

١٦ - (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)

{مّن وَرَآئِهِ} من بين يديه. قال:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا، لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف، فإن قلت: علام عطف {ويسقى}؟ قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقي من ماء صديد، كأنه أشد

عذابها نخصص بالذكر مع قوله: {وَيأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ}. فإن قلت: ما وجه قوله تعالى {مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ}؟ قلت: صديد عطف بيان لماء، قال: {ويسقى مِن مَّآءٍ} فأبهمه إبهاماً ثم بينه بقوله {صَدِيدٍ} وهو ما يسيل من جلود أهل النار.

١٧ - (يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

{يَتَجَرَّعُهُ} يتكلف جرعه {وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ} دخل كاد للمبالغة. يعني: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة، كقوله: {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [النور: ٤٠] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها {وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ} كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات، تفظيعاً لما يصيبه من الآلام. وقيل: {مِّن كُلِّ مَكَانٍ} من جسده حتى من إبهام رجله. وقيل: من أصل كل شعرة {وَمِن وَرَآئِهِ} ومن بين يديه {عَذَابٌ غَلِيظٌ} أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشدّ مما قبله وأغلظ. وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد. ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي استمطروا - والفتح المطر - في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا، فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار. واستفتحوا - على هذا التفسير -: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك {مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ} والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: {أعمالهم كَرَمَادٍ} جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم. أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون وما له مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من {مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ} على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر وقرئ: «الرياح» {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة. وإنما السكور لريحها وقرئ: «في يوم عاصف»، بالإضافة وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجهه: برماد طيرته الريح العاصف {لاَّ يَقْدِرُونَ} يوم القيامة {مِّمَّا كَسَبُواْ} من أعمالهم {على شَىْءٍ} أي لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء {ذلك هُوَ الضلال البعيد} إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب {بالحق} بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

١٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

وقرئ: «خالق السموات والأرض» {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاماً منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده.

٢٠ - (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

{وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ} بمتعذر، بل هو هين عليه يسير، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكوّن من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

٢١ - (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

{وَبَرَزُواْ للَّهِ} ويبرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي، لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: {وَنَادَى أصحاب الجنة} [الأعراف: ٤٤]، {ونادى أصحاب النار} [الأعراف: ٥٠] ونظائر له. ومعنى بروزهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له - أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية. أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه. فإن قلت: لما كتب {الضعفؤا} بواو قبل الهمزة؟ قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ونظيره {علمؤا بَنِى إسرائيل} [الشعراء: ١٩٧] والضعفاء: الأتباع والعوام والذين استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم {تَبَعًا} تابعين: جمع تابع على تبع، كقولهم: خادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع. والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً. فإن قلت: أي فرق بين من في {مّنْ عَذَابِ الله} وبينه في {مِن شَىْء}؟ قلت: الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً، بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله فإن قلت: فما معنى قوله: {لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ}؟ قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم. وقولهم: {فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا} من باب التبكيت، لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم، إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا {لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا} [الأنعام: ١٤٨]، {لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء} [النحل: ٣٥] يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا. ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْء} [المجادلة: ١٨]. وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة {سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا} مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. ونحوه: {فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم} [الطور: ١٦] وروي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا.

فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟ اتصاله من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ. أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا: {مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} أي منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا جميعاً سواء علينا، كقوله: {ذلك لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أخنه} [يوسف: ٥٢] والمحيص يكون مصدراً كالمغيب والمشيب. ومكاناً كالمبيت والمصيف. ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

٢٢ - (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{لَمَّا قُضِىَ الأمر} لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار. وروي أنّ

الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في الأشقياء من الجنّ والإنس فيقول ذلك {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق} وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم {وَوَعَدتُّكُمْ} خلاف ذلك {فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان} من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها {إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ} إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب. {فَلاَ تَلُومُونِى وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ} حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين. ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به. قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام: ألا ترى إلى قوله: {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: {وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان} وهو مثل قول الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين} [الحجر: ٤٢]، {مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ} لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة. وقرئ: «بمصرخي» بكسر الياء وهي ضعيفة، واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَاتَا فِي ... قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالمَرْضِي

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأنَّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة، حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟ فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل. قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. «ما» في {بِمَا أشركتموني} مصدرية، و {مِن قَبْلُ} متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا، كقوله تعالى: {وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤] ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: {إِنَّا بُرَءاء مّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ} [الممتحنة: ٤] وقيل: {مِن قَبْلُ} يتعلق بكفرت. وما موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل، تقول: شركت زيداً، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً. ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: {إِنَّ الظالمين} قول الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ: «فلا يلوموني»»، بالياء على طريقة الالتفات، كقوله تعالى: {حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم} [يونس: ٢٢].

٢٣ - (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا» على فعل المتكلم، بمعنى: وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول الله، لا من قول إبليس {بِإِذْنِ رَبّهِمْ} متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره. فإن قلت: فبم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم، كلام غير ملتئم؟ قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: {بِإِذْنِ رَبّهِمْ} بما بعده، أي {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام} بإذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

٢٤ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

قرئ: «ألم تر» ساكنة الراء، كما قرئ: «من يتق»»، وفيه ضعف {ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً} اعتمد مثلاً ووضعه. و {كَلِمَةً طَيّبَةً} نصب بمضمر،

أي: جعل كلمة طيبة {كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ} وهو تفسير لقوله: {ضَرَبَ الله مَثَلاً} كقولك: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس. ويجوز أن ينتصب {مثل الذين} و {كَلِمةً} بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى جعلها مثلاً ثم قال: {كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ} على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى هي كشجرة طيبة {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} يعني في الأرض ضارب بعروقه فيها {وَفَرْعُهَا} وأعلاها ورأسها {فِى السماء} ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس. وقرأ أنس بن مالك «كشجرة طيبة ثابت» أصلها فإن قلت: أيّ فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل. والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد. وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان وغير ذلك وعن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: " إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي " فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم. وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بنيّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا إنها النخلة "

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة وقوله: {فِى السماء} معناه في جهة العلوّ والصعود، ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه.

٢٥ - (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

{تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ} تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها {بِإِذْنِ رَبّهَا} بتيسير خالقها وتكوينه {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

٢٦ - (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

{كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها. وقرئ: «ومثل كلمة» بالنصب، عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة. وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث ونحو ذلك. وقوله: {اجتثت مِن فَوْقِ الأرض} في مقابلة قوله: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} [إبراهيم: ٢٤] ومعنى {اجتثت} استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها {مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي استقرار. يقال: قرّ الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لجلج. وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

٢٧ - (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

{القول الثابت} الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما. وتثبيتهم في الآخرة. أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر. وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر. وعن البراء ابن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذكر قبض روح المؤمن فقال «ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله:» يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت «{وَيُضِلُّ الله الظالمين} الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: {إِنَّا وَجَدْنَآ ءابَآءَنَا} [الزخرف: ٢٢ - ٢٣] وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في

الآخرة أضل وأذل {وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَآء} أي ما توجبه الحكمة، لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

٢٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

{بَدَّلُوْاْ نِعْمَتَ اللهِ} أي شكر نعمة الله {كُفْراً} لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً، ونحوه: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: ٨٢] أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه. ووجه آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة. وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمه، وجعلهم قوّام بيته، وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم. أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر. وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين. وقيل: هم متنصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه {وَأَحَلُّوْاْ قَوْمَهُمْ} ممن تابعهم على الكفر {دَارَ البوار} دار الهلاك.

٢٩ - (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

وعطف {جَهَنَّمَ} على دار البوار عطف بيان قرئ: «ليضلوا» بفتح الياء وضمها. فإن قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد فما معنى اللام قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد، كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني، نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب.

٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

{تَمَتَّعُواْ} إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة. والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار} ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أصحاب النار} [الزمر: ٨].

٣١ - (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ)

المقول محذوف، لأن جواب {قُل} يدل عليه، وتقديره {قُل لّعِبَادِىَ الذين ءامَنُواْ} أقيموا الصلاة وأنفقوا {يُقِيمُواْ الصلاوة وَيُنْفِقُواْ} وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليقيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام، لأنّ الأمر الذي هو {قُل} عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز فإن قلت: علام انتصب {سِرّا وَعَلاَنِيَةً}؟ قلت: على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين. أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، [و] المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب. والخلال: المخالة. فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خلال} قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها. وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله تعالى: {وَمَا لأحَدٍ عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الأعلى} [الليل: ١٩ - ٢٠] فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: «لا بيع فيه ولا خلالُ» بالرفع.

٣٢ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ)

{الله} مبتدأ، و {الذى خَلَقَ} خبره، و {مِنَ الثمرات} بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. ويجوز أن يكون {مِنَ الثمرات} مفعول أخرج، و {رِزْقاً} حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج، لأنه في معنى رزق {بِأَمْرِهِ} بقوله كن.

٣٣ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

{دآئِبَينَ} يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات {وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ والنَّهَارَ} يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم.

٣٤ - (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

{وءاتاكم مِّن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ} من للتبعيض، أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه، نظراً في مصالحكم. وقرئ: «من كلّ» بالتنوين، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون {مَا} موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال {لاَ تُحْصُوهَا} لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله {لَظَلُومٌ} يظلم النعمة بإغفال شكرها {كَفَّارٌ} شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

٣٥ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)

{هذا البلد} يعني البلد الحرام، زاده الله أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام {ءَامِناً} ذا أمن. فإن قلت: أي فرق بين قوله: {اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا} [البقرة: ١٢٦] وبين قوله: {اجعل هذا البلد ءَامِنًا}؟ قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً {واجنبنى} وقرئ: «وأجنبني»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد جنبني وأجنبني، والمعنى: ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها {وَبَنِيَّ} أراد بنيه من صلبه وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، واحتج بقوله: {واجنبني وبني} {أَن نَّعْبُدَ الأصنام} إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت.

٣٦ - (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ الناس} فأعوذ بك أن تعصمني وبنيَّ من ذلك، وإنما جعلن مضلات، لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ، فكأنهنّ أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها {فَمَن تَبِعَنِى} على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي {فَإِنَّهُ مِنِّى} أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: " من غشنا فليس منا " أي ليس بعض المؤمنين، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم {وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي. وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

٣٧ - (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

{مِن ذُرِّيَّتِى} بعض أولادي وهم إسماعيل ومن ولد منه {بِوَادٍ} هو وادي مكة {غَيْرِ ذِى زَرْعٍ} لا يكون فيه شيء من زرع قط،

كقوله: {قُرْءَاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ} [الزمر: ٢٨] بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرّم على الطوفان أي منع منه، كما سُمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستول عليه {لِيُقِيمُواْ الصلاة} اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك {أَفْئِدَةً مّنَ الناس} أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض، ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل {مّنَ} لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند ويجوز أن يكون {مّنَ} للابتداء، كقولك: القلب مني سقيم، تريد قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس، وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة، لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة. وقرئ: «آفدة»، بوزن عاقدة. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدؤر. والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم. وقرئ: «أفدة»، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين. وأن يكون من أفد {تَهْوِى إِلَيْهِمْ} تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً من قوله:

يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الأَجْدَلِ ...

وقرئ: «تُهْوَى إليهم»، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره. وتهوى إليهم، من هوى يهوي إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدّى تعديته {وارزقهم مّنَ الثمرات} مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد {لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء لا جرم أن الله عز وجلّ أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجبى إليه. ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

٣٨ - (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)

النداء المكرر دليل التضرع والجأ إلى الله تعالى {إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ} تعلم السرَّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه، لأنّ غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. وقيل: ما تخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم. قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف {وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَىْءٍ} من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله: {وكذلك يَفْعَلُونَ} [النمل: ٣٤] أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. «ومن» للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

٣٩ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)
{عَلَى} في قوله: {عَلَى الكبر} بمعنى مع كقوله:
إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي ... أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ
وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روي أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين. وإسحاق لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم {إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعاء} كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه. قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه: سمع الله لمن حمده وفي الحديث. " ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن " فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء. وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا ضروب زيداً، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي. والمراد سماع الله.

٤٠ - (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)
{وَمِن ذُرّيَّتِى} وبعض ذرّيتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار، وذلك قوله: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين} [البقرة: ١٢٤]. {وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} أي عبادتي {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله} [مريم: ٤٨].

٤١ - (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)
في قراءة أبيّ «ولأبويّ». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»، على الإفراد، يعني أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: «ولولديّ» يعني إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لولدي» بضم الواو. والولد بمعنى الولد، كالعدم والعدم. وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد. وفي بعض المصاحف: ولذرّيتي. فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: هو من مجوّزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء وقيل: بشرط الإسلام. ويأباه قوله {إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لاِبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} [الممتحنة: ٤] لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثني الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم {يَوْمَ يَقُومُ الحساب} أي يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوؤها، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل {واسأل القرية} [يوسف: ٨٢] وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم {ربنا إني أسكنت} الآية [إبراهيم: ٣٧]، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم.

٤٢ - (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)
فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا}؟ قلت: إن كان خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان. أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب

الله غافلاً، كقوله: {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين} [الأنعام: ١٤]، {وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ} [الشعراء: ٢١٣]، كما جاء في الأمر {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله} [النساء: ١٣٦] والثاني: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: {والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٣] يريد الوعيد. ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه وقرئ: «يؤخرهم» بالنون والياء {تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار} أي أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى.

٤٣ - (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

{مُهْطِعِينَ} مسرعين إلى الداعي. وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف {مُقْنِعِى رُؤُوسِهِمْ} رافعيها {لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوّة في قلبه ولا جرأة. ويقال للأحمق أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ ...

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق. وقال حسان:

فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ ...

وعن ابن جريج {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ} صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

٤٤ - (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

{يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب} مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة. ومعنى {أَخّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ} ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك. أو أريد باليوم: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب، كقوله: {لَوْلا أَخَّرْتَنِى إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ} [المنافقون: ١٠] {أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ} على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطرا وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديداً وأمّلوا بعيداً و {مَا لَكُمْ} جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله {أَقْسَمْتُمْ} ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا {مّن زَوَالٍ} والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرهم بالبعث، كقوله: {وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ} [النحل: ٣٨].

٤٥ - (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ)

يقال: سكن الدار وسكن فيها. ومنه قوله تعالى: {وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} لأنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل تعدّيه بفي، كقولك: قرّ في الدار وغنى فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها. ويجوز أن يكون: سكنوا من السكون، أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ} بالإخبار والمشاهدة {كَيْفَ} أهلكناهم وانتقمنا منهم. وقرئ: «ونبين لكم»، بالنون {وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال} أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في

الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.
٤٦ - (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)
{وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ} أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم {وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ} لا يخلو إمّا أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأوّل، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: {وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ} الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال} وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها، كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إيمانكم} [البقرة: ١٤٣] والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً.
وتنصره قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم». وقرئ: «لتزول»، بلام الابتداء، على: {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ} من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها. وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: «وإن كاد مكرهم» {مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} يعني قوله: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} [غافر: ٥١]، {كَتَبَ الله لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١].
٤٧ - (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)
فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المعفول الثاني على الأول؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، كقوله: {إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد} [آل عمران: ٩] ثم قال: {رُسُلَهُ} ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: «مخلف وعدَه رسلِه»، بجرّ الرسل ونصب الوعد. وهذه في الضعف كمن قرأ {قَتْلَ أولادهم شُرَكَائِهِمْ} [الأنعام: ١٣٧]. {العزيز} غالب لا يماكر {ذُو انتقام} لأوليائه من أعدائه.
٤٨ - (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)
{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض} انتصابه على البدل من يوم يأتيهم. أو على الظرف للانتقام. والمعنى: يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة، وكذلك السموات. والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات كقولك: بدّلت الدراهم دنانير ومنه {بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا} [النساء: ٥٦] و {بدّلناهم بجنتيهم جنتين} [سبأ: ١٦] وفي الأوصاف، كقولك: بذلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: {فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات} [الفرقان: ٧٠] واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها. وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير، وأنشد:
وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ عَهِدْتَهُم ... وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الّتِي كُنْتَ تَعْلَم
وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً. وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن علي رضي الله عنه تبدّل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب. وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ: «يوم نبدّل الأرض»، بالنون. فإن قلت: كيف قال {الواحد القهار}؟ قلت: هو كقوله {لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار} [غافر: ١٦] لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة.
٤٩ - (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)
{مُقْرِنِينَ} قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين. أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين. وقوله: {فِى الأصفاد} إمّا أن يتعلق بمقرّنين،

أي: يقرنون في الأصفاد. وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرّنين مصفدين. والأصفاد: القيود وقيل الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:
وَزَيْدُ الخَيْلِ قَدْ لاَقَى صِفَادا ... يَعَضُّ بِسَاعِد وَبِعَظْمِ سَاقِ
٥٠ - (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)
القطران: فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران وقطران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع في اشتغال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: «من قطران» والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. والآني: المتناهي حرّه {وتغشى وُجُوهَهُمْ النار} كقوله تعالى: {أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوء العذاب} [الزمر: ٢٤]، {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ} [القمر: ٤٨] لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال: {تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة} [الهمزة: ٧] وقرئ: «وتغشى وجوههم»، بمعنى تتغشى: أي يفعل بالمجرمين ما يفعل.
٥١ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)
{لِيَجْزِىَ الله كُلَّ نَفْسٍ} مجرمة {مَّا كَسَبَتْ} أو كل نفس من مجرمة ومطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.
٥٢ - (هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)
{هذا بلاغ لّلنَّاسِ} كفاية في التذكير والموعظة، يعني بهذا ما وصفه من قوله {وَلاَ تَحْسَبَنَّ} إلى قوله: {سَرِيعُ الحساب} [آل عمران: ١٦٩]. {وَلِيُنذَرُواْ} معطوف على محذوف، أي لينصحوا ولينذروا {بِهِ} بهذا البلاغ. وقرئ: «ولينذروا» بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعدّ له {وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ} لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد، لأنّ الخشية أمّ الخير كله.
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة إبراهيم أُعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد ".

١٥ سورة الحجر:

سورة الحجر:
مكية وهي تسع وتسعون آية
١ - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ)
{تِلْكَ} إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب، والقرآن المبين: السورة وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين؟ كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.
٢ - (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)
قرئ: «ربّما» و «ربّتما» بالتشديد. و «ربما»، «وربَما» بالضم والفتح مع التخفيف. فإن قلت: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قلت: لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه قيل: ربما ودّ. فإن قلت: متى تكون

ودادتهم؟ قلت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين. وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضاً باب من الودادة. فإن قلت: فما معنى التقليل؟ قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: ولو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لاتفعل هذا الفعل، لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون، كما يتحرّزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودّون الإسلام مرة واحدة، فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودّونه في كل ساعة {لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ} حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلنّ. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن ولو كنا مسلمين لكان حسناً سديداً وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا، فلذلك قلل.

٣ - (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

{ذَرْهُمْ} يعني اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم {يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ} بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيراً {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدّي إليه طول الأمل. وهذه هجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

{وَلَهَا كِتَابٌ} جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرِينَ} [الشعراء: ٢٠٨] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب. كتاب {مَّعْلُومٌ} مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين.

٥ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

ألا ترى إلى قوله {مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا} في موضع كتابها، وأنث الأمة أوّلا ثم ذكرها آخراً حملا على اللفظ والمعنى وقال: {وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} بحذف «عنه» لأنه معلوم.

٦ - (وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

قرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقي عليه الذكر»، وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون {إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء: ٢٧] وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها {فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]، {إِنَّكَ لأَنت الحليم الرشيد} [هود: ٨٧] وقد يوجد كثيراً في كلام العجم، والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أنّ الله نزل عليك الذكر.

٧ - (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{لَّوْ} ركبت مع «لا» و «ما» لمعنيين: معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، وأما «هل» فلم تركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض: قال ابن مقبل:

لَوْمَا الْحَيَاءُ وَلَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا ... بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك، كقوله تعالى {لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً} [الفرقان: ٧] أو: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كانت تاتي الأمم المكذبة برسلها؟

٨ - (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)

قرئ: «تنزل»، بمعنى تتنزل «وتنزل» على البناء للمفعول من نزل، و {نُنَزِّلُ الملائكة}: بالنون ونصب الملائكة {إِلاَّ بالحق} إلا تنزلا ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، لأنكم حينئذ مصدّقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق} [الحجر: ٨٥] وقيل: الحق الوحي أو العذاب. و {إِذَا} جواب وجزاء، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر} رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: {يأَيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر} [الحجر: ٦] ولذلك قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غيره حفظه. فإن قلت: فحين كان قوله {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر} رداً لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله {وَإِنَّا لَهُ لحافظون}؟ قلت: قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه. وقيل: الضمير في {لَهُ} لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى {والله يَعْصِمُكَ} [المائدة: ٦٧].

١٠ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ)

{فِى شِيَعِ الأولين} في فرقهم وطوائفهم. والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة. ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم.

١١ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

{وَمَا يَأْتِيهِم} حكاية حال ماضية، لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

١٢ - (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته. وقرئ: «نسلكه»، [والضمير] للذكر، أي: مثل ذلك السلك، ونحوه: نسلك الذكر في {قُلُوبِ المجرمين} على معنى أنه يلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزءا به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام، تعني مثل هذا الإنزال أنزلناها بهم مردودة غير مقضية.

١٣ - (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ)

ومحل قوله {لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} النصب على الحال، أي غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ}. {سُنَّةُ الأوّلِينَ} طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

١٤ - (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

قرئ: «يعرجون» بالضم والكسر.

١٥ - (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

و {سُكِّرَتْ} حيرت أو حبست من الإبصار، من السكر أو السكر. وقرئ: «سُكِرَت» بالتخفيف أي حبست كما يحبس النهر من الجري.

وقرئ: «سَكِرَت» من السكر، أي حارت كما يحار السكران. والمعنى أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك. وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: إنما، ليدل على أنهم يبتون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

١٨ - (إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

{مَنِ استرق} في محل النصب على الاستثناء. وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها {شِهَابٌ مُّبِينٌ} ظاهر للمبصرين.

١٩ - (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

{مَّوْزُونٍ} وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.

٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

{معايش} بياء صريحة، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بين بين. وقد قرئ: «معائش» بالهمزة على التشبيه {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين} عطف على معايش، أو على محل لكم، كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنّ الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرزاقون. ولا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في {لَكُمْ} لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

٢١ - (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

٢٢ - (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

{لَوَاقِحَ} فيه قولان، أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير: ريح عقيم. والثاني: أن اللواقح بمعنى الملاقح، كما قال:

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ وتبدبل

يريد المطاوح جمع مطيحة. وقرئ: «وأرسلنا الريح»، على تأويل الجنس {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} فجعلناه لكم سقيا {وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بخازنين} نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

٢٣ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

{وَنَحْنُ الوارثون} أي الباقون بعد هلاك الخلق كله. وقيل للباقي «وارث» استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه: " اجعله الوارث منا "

٢٤ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

{وَلَقَدْ عَلِمْنَا} من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأوّلين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر. وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمتسأخرين. وروي أن امرأة حسناء كانت في

المصليات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها فنزلت.

٢٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

{هُوَ يَحْشُرُهُمْ} أي هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم {إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

٢٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

الصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت في صوته مدّا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف «صل» إذا أنتن. والحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها. وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتنا {مِّنْ حَمَإٍ} صفة لصلصال، أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق {مَّسْنُونٍ} بمعنى مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر.

٢٧ - (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

{والجآن} للجن كآدم للناس. وقيل: هو إبليس. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «والجأن»، بالهمزة {مِن نَّارِ السموم} من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق الله منها الجانّ.

٢٨ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ} واذكر وقت قوله {سَوَّيْتُهُ}.

٢٩ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

{سَوَّيْتُهُ} عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها. ومعنى {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى} وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه.

٣٠ - (فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتهم إلا هنداً.

٣١ - (إِلا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

و {أبى} استئناف على تقدير قول قائل بقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه ولكن إبليس أبى. حرف الجر مع «أن» محذوف.

٣٢ - (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

وتقديره {مَا لَكَ} في {أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين} بمعنى أيّ غرض لك في إبائك السجود. وأي داع لك إليه.

٣٣ - (قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

اللام في {لأَسْجُدَ} لتأكيد النفي. ومعناه: لا يصحّ مني وينافي حالي. ويستحيل أن أسجد لبشر.

٣٤ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

{رَّجِيمٍ} شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة.

٣٥ - (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في {مِنْهَا} راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حداً للعنة، إما لأنه [أبعد] غاية يضربها الناس في كلامهم، كقوله {مَا دَامَتِ السموات والأرض} [هود: ١٠٧] في التأبيد. وإما أن يراد أنك مذموم مدعوٌّ عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما يُنسى اللعن معه.

و {يَوْمِ الدين} و {يَوْمِ يُبْعَثُونَ} و {يَوْمِ الوقت المعلوم} [الحجر: ٣٨] في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة.

٣٦ - (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٥ إظهار

وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف.

٣٧ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٥ إظهار

وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف.

٣٨ - (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٥ إظهار

وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف.

٣٩ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

{بِمَا أغويتني} الباء للقسم. و «ما» مصدرية وجواب القسم {لأُزَيِّنَنَّ} المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم. ومعنى إغوائه إياه: تسبيبه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فأفضى ذلك إلى غيه. وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به، ونحو قوله {بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ} قوله: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢] في أنه إقسام، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما. ويجوز أن لا يكون قسماً، ويقدر قسم محذوف، ويكون المعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم {فِى الأرض} في الدنيا التي هي دار الغرور، كقوله تعالى {أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٦] أو أراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. أو أراد: لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزييني فيها، أي: لأزيننها في أعينهم ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها.

٤٠ - (إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

ونحوه:

يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي ...

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه.

٤١ - (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

أي {هذا} طريق حق {عَلَيَّ} أن أراعيه.

٤٢ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته: وقرئ: «عليّ» وهو من علو الشرف والفضل.

٤٣ - (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

{لَمَوْعِدُهُمْ} الضمير للغاوين.

٤٤ - (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)

وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: «جزء»، بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الزهري: «جزّ»، بالتشديد، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خبّ في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد، كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

٤٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

المتقي على الإطلاق: من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها.

٤٦ - (ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ)

{ادخلوها} على إرادة القول. وقرأ الحسن: «أدخلوها» {بِسَلامٍ} سالمين أو مسلماً عليكم: تسلم عليكم الملائكة.

٤٧ - (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

الغل: الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه وتغلغل، أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر. نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم. وعن عليّ رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. وعن الحرث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له عليّ: مرحباً بك يا ابن أخي. أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مّنْ غِلّ} فقال له قائل: كلا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أمّ لك؟ وقيل: معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غل، وألقى فيها التوادّ والتحاب. و {إِخْوَانًا} نصب على الحال. و {على سُرُرٍ متقابلين} كذلك. وعن مجاهد. تدور بهم الأسرة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

٤٩ - (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه {نَبّىء عِبَادِى} تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب.

٥٠ - (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ)

٥١ - (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

وعطف {وَنَبِّئْهُمْ} على نبئ عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب يوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

٥٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

{سَلَامَاً} أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً {وَجِلُونَ} خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت.

٥٣ - (قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)

وقرأ الحسن: «لا توجل» بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ: «لا تأجل». «ولا تواجل»، من واجله بمعنى أوجله. وقرئ: «نبشرك» بفتح النون والتخفيف {إِنَّا نُبَشِّرُكَ} استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل: أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل.

٥٤ - (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

يعني {أَبَشَّرْتُمُونِى} مع مس الكبر، بأن يولد لي. أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشرونني أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير مقصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة لا طريقة لها في العادة.

٥٥ - (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)

وقوله {بشرناك بالحق} يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أي: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر. وقرئ: «تبشرونَ»، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل تبشرونن، «وتبشرونِّ» بإدغام نون الجمع في نون العماد.

٥٦ - (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ)

وقرئ: «من القنطين» من قنط يقنط، وقرئ: و «من يقنط»، بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله: {لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون} [يوسف: ٨٧] يعني: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

٥٨ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)

فإن قلت قوله تعالى: {إِلا ءالَ لُوطٍ} استثناء متصل أو منقطع؟ قلت، لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم، فيكون منقطعاً، لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين، فيكون متصلاً، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مّنَ المسلمين} [الذاريات: ٣٦]. فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت: نعم، وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرميّ. في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأمّا في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل. فإن قلت: فقوله {إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ} بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكنّ» في الاتصال بآل لوط، لأنّ المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم.

٥٩ - (إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٨]
فإن قلت قوله تعالى: {إلا ءالَ لُوطٍ} استثناء متصل أو منقطع؟ قلت، لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم، فيكون منقطعاً، لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين، فيكون متصلاً، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مّنَ المسلمين} [الذاريات: ٣٦]. فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت: نعم، وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرميّ. في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأمّا في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل. فإن قلت: فقوله {إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ} بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكنّ» في الاتصال بآل لوط، لأنّ المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم.
٦٠ - (إلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)
فإن قلت: فقوله: {إلاَّ امرأته} ممّ استثني، وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثنى من الضمير المجرور في قوله {لَمُنَجُّوهُمْ} وليس من الاستثناء في شيء، لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً، إلا اثنتين، إلا واحدة. وفي قول المقرّ: لفلان عليّ عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهما. فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان، لأنّ {إلا ءالَ لُوطٍ} متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين، و {إلاَّ امرأته} قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون استثناء من استثناء. وقرئ: «لمنجوهم» بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت: لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله {قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين} والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم. فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير- وهو لله وحده - إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدّر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه. وقرئ: «قدرنا»، بالتخفيف.
٦٢ - (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)
{مُّنكَرُونَ} أي تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشرّ، بدليل قوله: {بَلْ جئناك بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ}.
٦٣ - (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)
{بَلْ جئناك بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه ويكذبونك.
٦٤ - (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)
{بالحق} باليقين من عذابهم {وِإِنَّا لصادقون} في الإخبار بنزوله بهم.
٦٥ - (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)
وقرئ: «فأسر» بقطع الهمزة ووصلها، من أسرى وسرى. وروى صاحب الإقليد: فسر، من السير والقطع في آخر الليل. قال:
افْتَحِى الْبَابَ وانظُرِي فِي النُّجُوم ... كَمْ عَلَيْنَا من قِطع لَيْلٍ بَهِيم
وقيل: هو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل. فإن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك،

فأمر بأن يقدّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدّم سربه ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أخادعه، كما قال:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ حَيِّ حتى وَجَدتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة {حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} قيل هو مصر وعدي {وامضوا} الى {حيث} تعديته الى الظرف المبهم لأن {حَيْثُ} مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في {تُؤْمَرُونَ} وعدي.

٦٦ - (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

{قَضَيْنَا} بإلى لأنه ضمن معنى: أوحينا، كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً. وفسر {ذَلِكَ الأمر} بقوله {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ} وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرأ الأعمش: «إن»، بالكسر على الاستئناف كأن قائلاً قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إنّ دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود: «وقلنا إنّ دابر هؤلاء». ودابرهم: آخرهم، يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

٦٧ - (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

{أَهْلِ المدينة} أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة.

٦٨ - (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

{فلا تَفْضَحُونِ} بفضيحة ضيفي، لأنّ من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أُكرم من يتصل به فقد أُكرم.

٦٩ - (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

{وَلاَ تُخْزُونِ} ولا تذلون بإذلال ضيفي، من الخزي وهو الهوان. أو ولا تشوّروا بي، من الخزاية وهي الحياء.

٧٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)

{عَنِ العالمين} عن أن تجير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين. وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط.

٧١ - (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

{هؤلاء بَنَاتِى} إشارة إلى النساء، لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهنّ، وخلوا بنيّ فلا تتعرضوا لهم {إِن كُنتُمْ فاعلين} شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم.

٧٢ - (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

{لَعَمْرُكَ} على إرادة القول، أي قالت الملائكة للوط عليه السلام: لعمرك {إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ} أي غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات {يَعْمَهُونَ} يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر،

وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله. وقرئ: «في سكرهم وفي سكراتهم».
٧٣ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)
{الصيحة} صيحة جبريل عليه السلام {مُشْرِقِينَ} داخلين في الشروق وهو بزوع الشمس.
٧٤ - (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)
{مّن سِجّيلٍ} قيل: من طين، عليه كتاب من السجل، ودليله قوله تعالى: {حِجَارَةً مّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبّكَ} [الذاريات: ٣٣ - ٣٤] أي معلمة بكتاب.
٧٥ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)
{لِلْمُتَوَسّمِينَ} للمتفرّسين المتأملين. وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. يقال: توسمت في فلان كذا، أي عرفت وسمه فيه. والضمير في {عاليها سَافِلَهَا} لقرى قوم لوط.
٧٦ - (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ)
{وَإِنَّهَا} وإنّ هذه القرى يعني آثارها {لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ} ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: {وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ} [الصافات: ١٣٧].
٧٨ - (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)
{أصحاب الأيكة} قوم شعيب.
٧٩ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)
{وَإِنَّهُمَا} يعني قرى قوم لوط والأيكة. وقيل: الضمير للأيكة ومدين، لأنّ شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما {لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به، فسمي به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه، لأنها مما يؤتم به.
٨٠ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)
{أصحاب الحجر} ثمود، والحجر واديهم، وهو بين المدينة والشأم {المرسلين} يعني بتكذيبهم صالحاً، لأنّ من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه. وعن جابر: (مررنا مع النبي صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا " «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء " ثم زجر النبي صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها).
٨٢ - (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)
{ءامِنِينَ} لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر. أو آمنين من عذاب الله يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه.
٨٤ - (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
{مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.
٨٥ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)
{إِلاَّ بالحق} إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة، لا باطلا وعبثاً. أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال {وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ}

وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم؛ فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك {فاصفح} فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء. وقيل: هو منسوخ بآية السيف. ويجوز أن يراد به المخالقة فلا يكون منسوخاً.

٨٦ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق} الذي خلقك وخلقهم، وهو {العليم} بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم. أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أنَّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح. وفي مصحف أُبيّ وعثمان: إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب. وقطع الثوب والثياب.

٨٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ)

{سَبْعاً} سبع آيات وهي الفاتحة. أو سبع سور وهي الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة، لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية. وقيل سورة يونس. وقيل: هي آل حم، أو سبع صحائف وهي الأسباع. و {المثاني} من التثنية وهي التكرير، لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية. وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء، كأنها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى. و «من» إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الأسباع. ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني، لأنها تثني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة، ويكون القرآن بعضها، فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت: إذا عنى بالسبع الفاتحة أو الطوال، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل. ألا ترى إلى قوله: {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان} يعني سورة يوسف: وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، وهو الثناء أو التثنية والعظم.

٨٨ - (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له {إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مّنْهُمْ} أصنافاً من الكفار. فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟ قلت: يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي القرآن العظيم؛ فعليك أن تستغني به، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا. ومنه الحديث: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»، وحديث أبي بكر «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً» وقيل: وافت من بصرى وأذرعات: سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أي لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

٨٩ - (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

{وَقُلْ} لهم {إِنّى أَنَا النذير المبين} أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم.

٩٠ - (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

فإن قلت: بم تعلق قوله: {كَمَا أَنزَلْنَا}؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما، أن يتعلق بقوله: {وَلَقَدْ ءاتيناك} [الحجر: ٨٧] أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون.

٩١ - (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

{الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ} حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل، وعضوه. وقيل: كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم. والثاني أن يتعلق بقوله: {وَقُلْ إِنّى أَنَا النذير المبين} [الحجر: ٨٩] أي: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير، أي: أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا في كل مدخل متفرّقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر. ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بآفات، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام، والاقتسام بمعنى التقاسم. فإن قلت: إذا علقت قوله: {كَمَآ أَنْزَلْنَا} بقوله: {وَلَقَدْ ءاتيناك} [الحجر: ٨٧] فما معنى توسط {لاَ تَمُدَّنَّ} [الحجر: ٨٨] إلى آخره بينهما؟ قلت: لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين {عِضِينَ} أجزاء، جمع عضة، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وَلَيْسَ دِينُ اللَّهِ بِالْمُعَضِّي ...

وقيل: هي فعلة، من عضهته إذا بهته. وعن عكرمة: العضة السحر، بلغة قريش، يقولون للساحر عاضهة.

ولعن النبي صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة، نقصانها على الأوّل واو، وعلى الثاني هاء.

٩٢ - (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِينَ)

{لَنَسْئَلَنَّهُمْ} عبارة عن الوعيد. وقيل يسألهم سؤال تقريع.

٩٣ - (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين: عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين.

٩٤ - (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

{فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ} فاجهر به وأظهره. يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها، من الصديع وهو الفجر، والصدع في الزجاجة: الإبانة. وقيل: {فاصدع} فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر، والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجارّ، كقوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ...

ويجوز أن تكون (ما) مصدرية، أي بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

٩٥ - (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلاطلة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف تعظّماً لأخذه، فأصاب عرقاً

في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل، فدخلت فيها شوكة، فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله، حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب، فعمى وأشار إلى أنف الحرث بن قيس، فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات.

٩٧ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

{بِمَا يَقُولُونَ} من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن.

٩٨ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

{فَسَبِّحْ} فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم.

٩٩ - (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

ودم على عبادة ربك {حتى يَأْتِيَكَ اليقين} أي الموت، أي ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار، والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم»

١٦ سورة النحل:

سورة النحل:

مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

١ - (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم {أتى أَمْرُ الله} الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه {فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} روي أنه لما نزلت {اقتربت الساعة} [القمر: ١] قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت {اقترب لِلنَّاسِ حسابهم} [الأنبياء: ١] فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزلت {أتى أَمْرُ الله} فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت {فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} فاطمأنوا وقرئ: «تستعجلوه» بالتاء والياء {سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ} تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم. على أنّ «ما» موصولة أو مصدرية، فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلت: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك. وقرئ: «تشركون»، بالتاء والياء.

٢ - (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ)

قرئ: «ينزل» بالتخفيف والتشديد وقرئ: «تنزل الملائكة» أي تتنزل {بالروح مِنْ أَمْرِهِ} بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، و {أَنْ أَنْذِرُواْ} بدل من الروح، أي ينزلهم بأن أنذروا. وتقديره: بأنه أنذروا، أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا. أو تكون «أن» مفسرة، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى أنذروا {أَنَّهُ لا إله إِلا أَنَاْ} أعلموا بأنّ الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته. والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا {فاتقون}.

٣ - (خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. وقرئ: «تشركون»، بالتاء والياء.

٤ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)
{فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} فيه معنيان، أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منيّ جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة. وقيل نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ؟
٥ - (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)
{الأنعام} الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر، كقوله: {والقمر قدرناه} [يس: ٣٩] ويجوز أن يعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال: {خَلَقَهَا لَكُمْ} أي ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان والدفء: اسم ما يدفأ به، كما أنّ الملء اسم ما يملأ به، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر. وقرئ: «دفّ»، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء {ومنافع} هي نسلها ودرّها وغير ذلك. فإن قلت: تقديم الظرف في قوله {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها. قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها، لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.
٦ - (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)
منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة - فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء - أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل: ٨]، {يُوارِي سَوآتِكُمْ وَرِيشًا} [الأعراف: ٢٦]. فإن قلت: لم قدّمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: «حينا تريحون وحينا تسرحون» على أن {تُرِيحُونَ وتسرحون} وصف للحين. والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه، كقوله تعالى: {واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ} [لقمان: ٣٣].
٧ - (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)
قرئ: «بشق الأنفس»، بكسر الشين وفتحها. وقيل: هما لغتان في معنى المشقة، وبينهما فرق: وهي أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع. وأما الشق فالنصف، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد. فإن قلت: ما معنى قوله: {لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه} كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم. قلت: معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة. فإن قلت: كيف طابق قوله: {لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه} قوله: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ} وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه؟ قلت: طباقه من حيث أن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم. ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس. وقيل: أثقالكم أجرامكم. وعن عكرمة البلد مكة {لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.
٨ - (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)
{والخيل والبغال والحمير} عطف على الأنعام، أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام. فإن قلت: لم انتصب {وَزِينَةً}؟ قلت: لأنه مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها. فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قلت: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل

الزائن وهو الخالق. وقرئ: «لتركبوها زينة»، بغير واو، أي: وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالا منها، أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمنّ علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار، مما لم يبلغه وهم أحد، ولا خطر على قلبه.

٩ - (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

المراد بالسبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليها القصد وقال {وَمِنْهَا جَائِرٌ} والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه. ومعنى قوله {وَعَلَى الله قَصْدُ السبيل} أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه، كقوله: {إِنَّ عَلَيْنَا للهدى} [الليل: ١٢]. فإن قلت: لم غير أسلوب الكلام في قوله {وَمِنْهَا جَائِرٌ}؟ قلت: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر. وقرأ عبد الله: «ومنكم جائر» يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه {وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} قسراً وإلجاء.

١٠ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

{لَّكُم} متعلق بأنزل، أو بشراب، خبراً له. والشراب ما يشرب {شَجَرٌ} يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وفي حديث عكرمة: <p (٥٨٥) > لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت. يعني الكلأ {تُسِيمُونَ} من سامت الماشية إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

١١ - (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وقرئ: ««ينبت»»، بالياء والنون. فإن قلت: لم قيل {وَمِن كُلِّ الثمرات}؟ قلت: لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة {يَتَفَكَّرُونَ} ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة. وعن بعضهم: ينبت بالتشديد. وقرأ أبيّ بن كعب: «ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب»، بالرفع.

١٢ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم، حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم. فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره. ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر، بمعنى تسخير، من قولك: سخره الله مسخراً، كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره. وقرئ بنصب «الليل والنهار» وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر. وقرئ: «والنجوم مسخرات»، بالرفع، وما قبله بالنصب، وقال {إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} فجمع الآية. وذكر العقل؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

١٣ - (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ} معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيآت والمناظر.

١٤ - (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{لَّحْماً طَرِيّاً} هو السمك، ووصفه بالطراوة؛ لأنّ الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً، فأكل سمكاً، لم يحنث. والله تعالى سماه لحماً كما ترى؟ قلت: مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا

ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار. ومثاله أن الله تعالى سمى الكافر دابة في قوله: إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث. {حِلْيَةً} هي اللؤلؤ والمرجان. والمراد بلبسهم: لبس نسائهم، لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزينّ بها من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها. وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل: التجارة.

١٥ - (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

{أَن تَمِيدَ بِكُمْ} كراهة أن يميل بكم وتضطرب والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر. قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة ممّ خلقت {وأنهارا} وجعل فيها أنهاراً، لأن {وألقى} فيه معنى: جعل ألا ترى إلى قوله {أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا والجبال أَوْتَاداً} [النبأ: ٦].

١٦ - (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

{وعلامات} هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس، كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس. وعن السديّ: هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي. وقرأ الحسن: «وبالنجم»، بضمتين، وبضمة وسكون، وهو جمع نجم، كرهن ورهن، والسكون تخفيف. وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفاً. فإن قلت: قوله {وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ} مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه «النجم»، مقحم فيه «هم»، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد ب {هُمْ}؟ قلت: كأنه أراد قريشاً: كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

١٧ - (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

فإن قلت: {مَّن لاَّ يَخْلُقُ} أريد به الأصنام، فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه، أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم. ألا ترى إلى قوله على أثره {والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [النحل: ٢٠] والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق. والثالث: أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥] يعني أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأنّ هؤلاء أَحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا. فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ}.

١٨ - (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

{لاَ تُحْصُوهَا} لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ {إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

١٩ - (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

{والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} من أعمالكم، وهو وعيد.

٢٠ - (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

{والذين يَدْعُونَ} والآلهة الذين يدعوهم الكفار {مِن دُونِ اللهِ} وقرئ بالتاء. وقرئ: «يُدْعَون»، على البناء للمفعول، نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب.

٢١ - (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

ومعنى: {أموات غَيْرُ أَحْيَاء} أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحيّ الذي لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك. والضمير في {يُبْعَثُونَ} للداعين، أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم. وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها، غير أحياء يعني أنَّ من الأموات ما يعقب موته حياة، كالنطف التي ينشئها الله حيواناً وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها. وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكم بحالها، لأنّ شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحيّ القيوم سبحانه. ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات: أي لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم. وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم. وقرئ: «إيان»، بكسر الهمزة.

٢٢ - (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

{إلهكم إله واحد} يعني أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها.

٢٣ - (لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

{لاَ جَرَمَ} حقاً {أَنَّ الله يَعْلَمُ} سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد {أَنَّهُ لا يُحِبُّ ١٦٤٩؛ لْمُسْتَكْبِرِينَ} يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني المشركين. ويجوز أن يعمّ كل مستكبر. ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

٢٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

{مَّاذَآ} منصوب بأنزل، بمعنى: أي شيء {أَنزَلَ رَبُّكُمْ} أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أي شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى {أساطير الأولين} ما يدّعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين، كقوله: {مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو} [البقرة: ٢١٩] فيمن رفع. فإن قلت: هو كلام متناقض، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟ قلت: هو على السخرية كقوله: {إِنَّ رَسُولَكُمُ} [الشعراء: ٢٧] وهو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين: الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

٢٥ - (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

{لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ} أي قالوا ذلك إضلالا للناس وصدّاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحملوا أو زاد ضلالهم {كَامِلَةً} وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال، لأن المضلّ والضال شريكان: هذا يضله، وهذا يطاوعه على إضلاله، فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضاً، كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر {بِغَيْرِ عِلْمٍ} حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز المحق والمبطل.

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)

القواعد: أساطين البناء التي تعمده. وقيل: الأساس وهذا تمثيل، يعني: أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم

في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقيل: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره {مِّنَ القواعد} من جهة القواعد {مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: «فأتى الله بيتهم». «فخرّ عليهم السقُفُ»، بضمتين.

٢٧ - (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

{يُخْزِيهِمْ} يذلهم بعذاب الخزي {رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} [آل عمران: ١٩٢] يعني هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة {شُرَكَائِىَ} على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم {تشاقون فِيهِمْ} تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم. وقرئ: «تشاقونِ»، بكسر النون، بمعنى: تشاقونني، لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله {قَالَ الذين أُوتُواْ العلم} هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه. وقيل: هم الملائكة قرئ: «تتوفاهم»، بالتاء والياء.

٢٨ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وقرئ: «الذين توفاهم»، بإدغام التاء في التاء {فَأَلْقَوُاْ السلم} فسالموا وأخبتوا، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء} وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولو العلم {إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك {فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}.

٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]

وقرئ: «الذين توفاهم»، بإدغام التاء في التاء {فَأَلْقَوُاْ السلم} فسالموا وأخبتوا، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء} وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولو العلم {إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك {فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}.

٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

{خَيْرًا} أنزل خيراً فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء. وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه، وأنه نبيّ مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً. وقوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} وما بعده بدل من خيراً، حكاية لقوله: {لِلَّذِينَ اتقوا} أي: قالوا هذا القول، فقدّم عليه تسميته خيراً ثم حكاه. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوه عليه {حَسَنَةً} مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها، كقوله {فاتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة} [آل عمران: ١٤٨] {وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين} دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره.

٣١ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

و {جنات عَدْنٍ} خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح.

٣٢ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
{طَيِّبِينَ} طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي. لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم {يَقُولُونَ سلام عَلَيْكُمُ} قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.
٣٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
{تَأْتِيَهُمُ الملائكة} قرئ بالتاء والياء، يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح. و {أَمْرُ رَبّكَ} العذاب المستأصل، أو القيامة {كذلك} أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب {فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله} بتدميرهم {ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير.
٣٤ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
{سَيّئَاتُ مَا عَمِلُواْ} جزاء سيئات أعمالهم. أو هم كقوله {وَجَزَاء سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مّثْلُهَا} [الشورى: ٤٠].
٣٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)
هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله، من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه {كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ} أي أشركوا وحرموا حلال الله فلما نبهوا على قبح فعلهم وركّوه على ربهم {فَهَلْ عَلَى الرسل} إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.
٣٦ - (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)
ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله} أي لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف {وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة} أي ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف، لأنه عرفه مصمما على الكفر لا يأتي منه خير {فَسِيرُواْ فِى الأرض فانظروا} ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدّر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.
٣٧ - (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم، وعرّفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه {لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ} أي لا يلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرئ: «لا يُهدَى» أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله. وقوله {وَمَا لَهُم مّن ناصرين} دليل على أنّ المراد بالإضلال الخذلان الذي هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون {لاَّ يَهِدّى} بمعنى لا يهتدي. يقال: هداه الله فهدى. وفي قراءة أبيّ «فإنّ الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضلّ»، وهي معاضدة لمن قرأ «لا يهدي» على البناء للمفعول. وفي قراءة عبد الله: «يهدي»، بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ «يضل» بالفتح. وقرأ النخعي: «إن تحرص»، بفتح الراء، وهي لغية.
٣٨ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{وَأَقْسَمُواْ بالله} معطوف على {وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ} [النحل: ٣٥] إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا: توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه. و {بلى} إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم. ووعد الله: مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى، لأن يبعث موعد من الله، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة {ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ} أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب على الله؛ لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة.

٣٩ - (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

{لِيُبَيّنَ لَهُمُ} متعلق بما دل عليه «بلى» أي يبعثهم ليبين لهم. والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق {وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ} كذبوا في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت. وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلّ أُمَّةٍ رَّسُولاً} [النحل: ٣٦] أي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب.

٤٠ - (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

{قَوْلُنَا} مبتدأ، و {إِن نَّقُولُ} خبره. {كُنْ فَيَكُونُ} من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل، ولا قول ثم. والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات. وقرئ: «فيكون»، عطفاً على {نَّقُولَ}.

٤١ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{والذين هاجروا} هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين. ومنهم من هاجر إلى المدينة. وقيل: هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلما خرجوا تبعوهم فردّوهم: منهم بلال، وصهيب، وخباب، وعمار. وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضرّكم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب. وقال له عمر: نعم الرجل صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم: يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه، فكيف {فِى الله} في حقه ولوجهه {حَسَنَةً} صفة للمصدر، أي لنبوأنهم تبوئة حسنة. وفي قراءة علي رضي الله عنه. «لنثوينهم» ومعناه: أثوأة حسنة. وقيل: لننزلهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذاً أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا. وما ذخر لك في الآخرة أكثر وقيل: لنبوّأنهم مباءة حسنة وهي المدينة، حيث آواهم أهلها ونصروهم {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} الضمير للكفار، أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

٤٢ - (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

{الذين صَبَرُواْ} على هم الذين صبروا. أو أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

٤٣ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فقيل {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ} على ألسنة الملائكة {فَاسْئَلُواْ أَهْلَ

الذكر} وهم أهل الكتاب، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً. فإن قلت: بم تعلق قوله {بالبينات}؟ قلت: له متعلقات شتى، فأما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط، لأن أصله: ضربت زيداً بالسوط وإما برجالا، صفة له: أي رجالاً ملتبسين بالبينات. وإما بأرسلنا مضمراً، كأنما قيل: بما أرسلوا؟ فقلت بالبينات، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحي، أي: يوحي إليهم بالبينات. وإما بلا تعلمون، على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي. وقوله: {فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذكر} اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر: أهل الكتاب. وقيل للكتاب الذكر، لأنه موعظة وتنبيه للغافلين.

٤٤ - (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

{مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} يعني ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

٤٥ - (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)

{مَكَرُواْ السيئات} أي المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤٦ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

{فِى تَقَلُّبِهِمْ} متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم.

٤٧ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

{على تَخَوُّفٍ} متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله {مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} وقيل: هو من قولك: تخوفنه وتخونته، إذا تنقصته قال زهير:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ

أي يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا. وعن عمر رضي الله عنه. أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوّف التنقص. قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا. وأنشد البيت. فقال عمر: أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم {فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ} حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

٤٨ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

قرئ: «أو لم يروا» و «يتفيؤا» بالياء والتاء. و {مَا} موصولة بخلق الله، وهو مبهم بيانه {مِن شَىْء يَتَفَيَّأُ ظلاله} واليمين، بمعنى الأيمان. و {سُجَّدًا} حال من الظلال. {وَهُمْ داخرون} حال من الضمير في ظلاله، لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو، لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن إيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها. وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، لا تمتنع.

٤٩ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

{مِن دَابَّةٍ} يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أنّ في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض

وحده، ويراد بما في السموات: الملائكة وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين، لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم. ويجوز أن يراد بما في السموات: ملائكتهنّ. وبقوله والملائكة: ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم، فإن قلت: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟ قلت: المراد بسجود المكلفين: طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد. فإن قلت: فهلا جيء بمن دون «ما» تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم، إرادة العموم.

٥٠ - (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

{يَخَافُونَ} يجوز أن يكون حالاً من الضمير في {لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} أي: لا يستكبرون خائفين، وأن يكون بياناً لنفي الاستكبار وتأكيداً له، لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته {مّن فَوْقِهِمْ} إن علقته بيخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه: يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً، كقوله {وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨، ٦١]، {وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون} [الأعراف: ١٢٧] وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

٥١ - (وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص. وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله إلهين اثنين؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنيّ به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به. ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله، ولم تؤكده بواحد: لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية {فإياي فارهبون} نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

٥٢ - (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

{الدين}: الطاعة. {وَاصِباً}: حال عمل فيه الظرف. والواصب: الواجب الثابت، لأنّ كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفاً. أو: وله الجزاء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول، يعني الثواب والعقاب.

٥٣ - (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

{وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ} وأيّ شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله {فإلَيْهِ تَجْئَرُونَ} فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. قال الأعشى يصف راهبا:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِي ... كِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا

وقرئ: «تجرون»، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم. وقرأ قتادة «كاشف الضر» على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف، لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة.

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

فإن قلت: فما معنى قوله: {إِذَا فَرِيقٌ مّنْكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ}؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: {وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ فَمِنَ الله} عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين. و " منكم " للبيان، لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافر، وهم أنتم.

ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله {فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ} [لقمان: ٣٢].
٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)
{لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم} من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة. {فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}: تخلية ووعيد. وقرئ: «فَيُمَتَّعوا»، بالياء مبنيا للمفعول، عطفا على {لِيَكْفُرُواْ}. ويجوز أن يكون: ليكفروا فيمتعوا، من الأمر الوارد في معنى الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.
٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)
{لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ}، أي: لآلهتهم. ومعنى لا يعلمونها: أنه يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك. وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذاً جاهلون بها، وقيل: الضمير في {لاَّ يَعْلَمُونَ}، للآلهة. أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم. {لَتُسْئَلُنَّ}، وعيد. {عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ}، من الإفك، في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.
٥٧ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)
كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. {سبحانه}، تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه. أو تعجب من قولهم: {وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ}، يعني البنين. ويجوز في {مَّا يَشْتَهُونَ}، الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.
٥٨ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)
و {ظَلَّ}، بمعنى: صار، كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة. ويجوز أن يجيء ظل؛ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتما، مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس. {وَهُوَ كَظِيمٌ}، مملوء حنقاً على المرأة.
٥٩ - (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)
{يتوارى مِنَ القوم}، يستخفي منهم، {مِنْ}، أجل، {سُوءِ}، المبشر به، ومن أجل تعييرهم، ويحدث نفسه، وينظر أيمسك ما بشر به {على هُونٍ}، على هوان وذل، {أَمْ يَدُسُّهُ فِى التراب}، أم يئده. وقرئ: «أيمسكها على هون أم يدسها»، على التأنيث. وقرئ: «على هوان». {أَلاَ سَآء مَا يَحْكُمُونَ}، حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.
٦٠ - (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
{مَثَلُ السوء}، صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور، وكرهة الإناث، ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ، {وَلِلَّهِ المثل الأعلى} وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.
٦١ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)
{بِظُلْمِهِمْ}، بكفرهم ومعاصيهم. {مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا}، أي: على الأرض، {مِن دَابَّةٍ}، قط، ولأهلكها كلها، بشؤم ظلم الظالمين. وعن أبي هريرة: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى أنّ الحباري لتموت في وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في جحره، بذنب ابن آدم. أو من دابة ظالمة. وعن ابن عباس {مِن دَابَّةٍ}، من مشرك يدب عليها. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم، لم تكن الأبناء.
٦٢ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ}، لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم والتهاون برسالاتهم. ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها. {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ}، مع ذلك {أَنَّ لَهُمُ الحسنى}، عند الله، كقوله {وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبّى إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى} [فصلت: ٥٠]. وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة. وإذا قال: هاتوا ما دفع إليّ، فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية وعن مجاهد: «أنّ لهم الحسنى»، هو قول قريش: لنا البنون، وأن لهم الحسنى: بدل من الكذب. وقرئ «الكذب»، جمع كذوب، صفة للألسنة. {مُّفْرَطُونَ}، قرئ مفتوح الراء ومكسورها، مخففاً ومشدّداً، فالمفتوح بمعنى: مقدّمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطت فلاناً، وفرّطته في طلب الماء، إذا قدمته. وقيل منسيون متروكون، من أفرطت فلاناً خلفي، إذا خلفته ونسيته. والمكسور المخفف: من الإفراط في المعاصي. والمشدّد: من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

٦٣ - (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم}، حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها. أو فهو وليهم في الدنيا، فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. ومعنى {وَلِيُّهُمُ}: قرينهم وبئس القرين. أو يجعل {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم}، حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش، [و] أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولي هؤلاء: لأنهم منهم. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

٦٤ - (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{وَهُدًى و رَحْمَةً}، معطوفان على محل {لِتُبَيّنَ}، إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على " لتبين "؛ لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل. وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعل. والذي اختلفوا فيه: البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به، ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والإنكار والإقرار.

٦٥ - (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

{لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}، سماع إنصاف وتدبر؛ لأنّ من لم يسمع بقلبه، فكأنه أصم لا يسمع.

٦٦ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً. وأمّا {فِي بُطُونِهَا} [المؤمنون: ٢١] في سورة المؤمنين: فلأنّ معناه الجمع. ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكسير نعم كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر، فكما يذكر «نعم» في قوله:

في كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ ... يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهْ

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم. وأنه في معنى الجمع. وقرئ: «نَسقيكم» بالفتح والضم، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة، فقيل نسقيكم {مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ}، أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً. والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقى الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم. {سَآئِغًا}: سهل المرور في الحلق، ويقال: لم يغص أحد باللبن قط. وقرئ: «سيغاً»، بالتشديد. و «سيغاً»، بالتخفيف. كهين ولين. فإن قلت: أي فرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض؛ لأن

اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوباً. والثانية: لابتداء الغاية؛ لأنّ بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالا من قوله: {لَّبَنًا} مقدماً عليه، فيتعلق بمحذوف، أي: كائناً من بين فرث ودم. ألا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبناً من بين فرث ودم كان صفة له، وإنما قدم؛ لأنه موضع العبرة، فهو قمن بالتقديم. وقد احتج بعض من يرى أن المني طاهر على من جعله نجساً، لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً.

٦٧ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

فإن قلت: بم تعلق قوله: {وَمِن ثمرات النخيل والأعناب}؟ قلت: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرها، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو يتعلق بتتخذون، و " منه " من تكرير الظرف للتوكيد، كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون {تَتَّخِذُونَ} صفة موصوف محذوف، كقوله:

جادت بِكَفّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ ...

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في " منه " إذا جعلته ظرفاً مكرّراً؟ قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير، كما رجع في قوله تعالى: {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} [الأعراف: ٤]، إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً. نحو رشد رشداً ورشداً. قال:

وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا ... فَأَجْلَى اليَوْمُ والسَّكْرَانُ صَاحِي

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعي. والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة. وقيل: السكر: النبيذ. وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حدّ السكر، ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»، وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدّس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت في تحليله، فقال: تناولته الدعارة فسمج في المروءة. وقيل: السكر الطُعم وأنشد:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَراً ... أي تنقلت بأعراضهم. وقيل هو من الخمر، وإنه إذا ابترك في أعراض الناس، فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن: الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

٦٨ - (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

الإيحاء إلى النحل: إلهامها، والقذف في قلوبها، وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنيقّتها في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علماً بذلك وفطنها، كما أولى أولي العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب: {إلى النحل}، بفتحتين. وهو مذكر كالنحل، وتأنيثه على المعنى. {أَنِ اتخذي}، هي أن المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. وقرئ: «بيوتاً»، بكسر الباء، لأجل الياء. و {يَعْرِشُونَ}، بكسر الراء وضمها: يرفعون من سقوف البيوت. وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تتعسل فيها. والضمير في {يعرشون}، للناس فإن قلت: ما معنى «من» في قوله: {أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتًا وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، وهلا قيل: في الجبال، وفي الشجر؟ قلت: أريد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش، ولا في كل مكان منها.

٦٩ - (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

{مِن كُلّ الثمرات}، إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل، وتعتاد أكلها، أي: ابني البيوت، ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها، فإذا أكلتها

{فاسلكى سُبُلَ رَبّكِ}، أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلا، من أجوافك ومنافذ مآكلك. أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة. أو أراد بقوله: {ثُمَّ كُلِي}، ثم اقصدي أكل الثمرات، فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك، {ذُلُلاً}، جمع ذلول، وهي حال من السبل؛ لأنّ الله ذللها لها ووطأها وسهلها، كقوله: {هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً} [الملك: ١٥] أو من الضمير في {فاسلكي} أي: وأنت ذلل، منقادة لما أمرت به غير ممتنعة، {شَرَابٌ}، يريد العسل؛ لأنه مما يشرب. {مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ}، منه أبيض، وأسود، وأصفر، وأحمر. {فِيهِ شِفَآء لِلنَّاسِ}؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك. وتنكيره: إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال: " اذهب واسقه العسل " فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: " اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله، وكذب بطن أخيك. "، فسقاه فشفاه الله فبرأ، كأنما أنشط من عقال " وعن عبد الله بن مسعود: " العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل " ومن بدع التأويلات الرافضة: أن المراد بالنحل علي وقومه: وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم، يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم. فضحك المهدي، وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم.

٧٠ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

{إلى أَرْذَلِ العمر}، إلى أخسه وأحقره: وهو خمس وسبعون سنة عن عليّ رضي الله عنه، وتسعون سنة عن قتادة؛ لأنه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم. {لِكَيْلاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً}، ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه، فلا يعلمه إن سئل عنه. وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً. وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه.

٧١ - (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذرّ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إنما هم إخوانكم، فاكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تطعمون ". فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه، وإزاره إزاره، من غير تفاوت. {أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ}، فجعل ذلك من جملة جحود النعمة. وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟!. وقيل: المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق. فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم. وقرئ: «يجحدون»، بالتاء والياء.

٧٢ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

{مّنْ أَنفُسِكُمْ}، من جنسكم. وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة: جمع حافد، وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة والخدمة. ومنه قول القانت: " وإليك نسعى ونحفد " وقال:

حَفَدَ الْوَلاَئِدَ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَت ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةَ الأَجْمَالِ
واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأوّل، وقيل: المعنى: وجعل لكم حفدة، أي: خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: {سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل: ٦٧]، كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً، هم بنون، وهم حافدون، أي: جامعون بين الأمرين {مّنَ الطيبات}، يريد بعضها، لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها. {أفبالباطل يُؤْمِنُونَ}، وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها. وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز، هم كافرون بها منكرون لها، كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول. وقيل: الباطل: يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما. ونعمة الله: ما أحل لهم.

٧٣ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ)

الرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق، فإن أردت المصدر نصبت به {شَيْئاً}، كقوله: {أَوْ إِطْعَامٌ. . . . يَتِيماً} [البلد: ١٤]، على لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان " شيئاً " بدلاً منه، بمعنى: قليلاً. ويجوز أن يكون تأكيداً ل " لا يملك "، أي: لا يملك شيئاً من الملك. و {مّنَ السماوات والأرض}، صلة للرزق إن كان مصدراً، بمعنى: لا يرزق من السماوات مطراً، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسماً لما يرزق. والضمير في {وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ} لما، لأنه في معنى الآلهة، بعد ما قيل {لاَ يَمْلِكُ} على اللفظ. ويجوز أن يكون للكفار، يعني: ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب - من ذلك شيئاً، فكيف بالجماد الذي لا حس به؟. فإن قلت: ما معنى قوله: (ولا يستطيعون)، بعد قوله: {لاَ يَمْلِكُ}؟ وهل هما إلا شيء واحد؟ قلت: ليس في {لاَ يَسْتَطِيعُونَ} تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلا، لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

٧٤ - (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

{فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال}، تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به، لأنّ من يضرب الأمثال مشبه حالا بحال وقصة بقصة. {أَنَّ الله يَعْلَمُ} كنه ما تفعلون وعظمه، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم، لأنّ العقاب على مقدار الإثم، {وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرأكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك. ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون.

٧٥ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء. فإن قلت: لم قال: {مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ على شَيْء}، وكل عبد مملوك، وغير قادر على التصرف؟ قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحرّ، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً، لأنهما من عباد الله. وأما: {لاَّ يَقْدِرُ على شَيْء}، فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له، لأنهما يقدران على التصرف. واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له. فإن قلت: {من}، في قوله: {وَمَن رزقناه}، ما هي؟ قلت: الظاهر أنها موصوفة، كأنه قيل: وحراً رزقناه، ليطابق عبداً. ولا يمتنع أن تكون موصولة. فإن قلت: لم قيل: {يَسْتَوُونَ}، على الجمع؟ قلت: معناه: هل يستوي الأحرار والعبيد؟.

٧٦ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الأبكم الذي ولد أخرس، فلا يَفهم ولا يُفهم. {وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ}، أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله. {أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ} حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لم ينفع ولم يأت بنجح. {هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن} هو سليم الحواس نفاعاً ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو {يَأْمُرُ} الناس {بالعدل} والخير، {وَهُوَ} في نفسه {على صراط مُّسْتَقِيمٍ}، على سيرة صالحة ودين قويم. وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: «أينما يوجه»، بمعنى: أينما يتوجه، من قولهم: أينما أوجه ألق سعداً. وقرأ ابن مسعود: «أينما يُوَجَّهَ»، على البناء للمفعول.

٧٧ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض}، أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه. أو أراد بغيب السموات والأرض: يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض، لم يطلع عليه أحد منهم، {إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}، أي: هو عند الله وإن تراخى، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، إذا بالغتم في استقرابه. ونحوه قوله: {ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون} [الحج: ٤٧]، أي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد. وقيل: المعنى أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه، {إِنَّ الله على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ}، فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق؛ لأنه بعض المقدورات. ثم دل على قدرته بما بعده.

٧٨ - (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

قرئ: «أمهاتكم»، بضم الهمزة وكسرها، والهاء مزيدة في أمات، كما زيدت في أراق، فقيل: أهراق. وشذت زيادتها في الواحدة قال:
أُمَّهَتِي خِنْدِفُ وَالْيَاسُ أَبِي ...

{لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا}، في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسوّاكم وصوّركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة. وقوله: {وَجَعَلَ لَكُمُ}، معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم، وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير، فجرت ذلك المجرى.

٧٩ - (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قرئ: «ألم يروا»، بالتاء، والياء. {مسخرات}، مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك. والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ، والسكاك أبعد منه، واللوح مثله. {مَا يُمْسِكُهُنَّ}، في قبضهن وبسطهن ووقوفهن، {إِلاَّ الله}، بقدرته.

٨٠ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

{مِن بُيُوتِكُمْ}، التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن: فعل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف، {بُيُوتًا}، هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع، {تَسْتَخِفُّونَهَا}، ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل. {يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامتكم}، أي: يوم ترحلون، خف عليكم حملها وثقلها، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان، لم يثقل عليكم ضربها. أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً، على أنّ اليوم بمعنى الوقت، {ومتاعا}، وشيئاً ينتفع به، {إلى حِينٍ}، إلى أن تقضوا منه أوطاركم. أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: «يوم ظعنكم»، بالسكون.

٨١ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

{مِّمَّا خَلَقَ}، من الشجر وسائر المستظلات، {أكنانا}، جمع كنّ، وهو ما يستكنّ به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف. {سَرَابِيلَ}، هي القمصان والثياب من الصوف والكتّان والقطن وغيرها، {تَقِيكُمُ الحر}، لم يذكر البرد، لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً. وقيل: ما يقي من الحرّ يقي من البرد فدل ذكر الحرّ على البرد. {وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ}، يريد الدروع والجواشن، والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره. {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}، أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له. وقرئ: «تسلمون»، من السلامة: أي: تشكرون فتسلمون من العذاب. أو تسلم قلوبكم من الشرك. وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

٨٢ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

{فَإِن تَوَلَّوْاْ}، فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عذرك بعدما أدّيت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ، ليدل على المسبب.

٨٣ - (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله}، التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله، {ثُمَّ يُنكِرُونَهَا}، بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا، لبعض نعم الله. وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله، وأنه أجراها على يد فلان، وجعله سبباً في نيلها، {وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون}، أي: الجاحدون غير المعترفين. وقيل: «نعمة الله»، نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

٨٤ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

{شَهِيداً}، نبياً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب، {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل. فإن قلت: فما معنى " ثم " هذه؟ قلت: معناها أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره: واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث، وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم.

٨٥ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

{فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}، كقوله: {بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ} [الأنبياء: ٤٠] الآية.

٨٦ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم، فمعنى {شُرَكَاؤُنَا}: آلهتنا التي دعوناها شركاء. وإن أرادوا الشياطين، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغيّ: و {ندعو} بمعنى: نعبد. فإن قلت: لم قالوا: {إِنَّكُمْ لكاذبون}، وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة. والدليل عليه قول الملائكة: {كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن} [سبأ: ٤١]، يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا. أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة، تنزيها لله من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم {إِنَّكُمْ لكاذبون}، كما يقول الشيطان: إني كفرت بما أشركتموني من قبل.

٨٧ - (وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

{وَأَلْقَوْا}، يعني: الذين ظلموا. وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا. {وَضَلَّ عَنْهُم}: وبطل عنهم. {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}، من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

٨٨ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

{الذين كَفَرُواْ}، في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال، تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار، {بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل الله.

٨٩ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

{شَهِيدًا عَلَيْهِم مّنْ أَنفُسِهِمْ}، يعني نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم. {وَجِئْنَا بِكَ} يا محمد {شَهِيدًا على هَؤُلآءِ}، على أمتك. {تِبْيَانًا}، بياناً بليغاً، ونظير «تبيان»: «تلقاء» في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً {لّكُلّ شَيْء}؟ قلت: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين، حيث كان نصاً على بعضها، وإحالة على السنة، حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته. وقيل: وما ينطق عن الهوى. وحثاً على الإجماع في قوله: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين} [النساء: ١١٥]، وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم في قوله صلى الله عليه وسلم: " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم ". وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثمّ كان تبياناً لكل شيء.

٩٠ - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

العدل هو الواجب؛ لأن الله تعالى عدل فيه على عباده، فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاقتهم. {والإحسان}: الندب؛ وإنما علق أمره بهما جميعاً؛ لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لمن علمه الفرائض فقال: والله لازدت فيها ولا نقصت -: " أفلح إن صدق "، فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط. وقال صلى الله عليه وسلم: " استقيموا ولن تحصوا "، فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. والفواحش: ما جاوز حدود الله. {والمنكر}: ما تنكره العقول. {والبغي}: طلب التطاول بالظلم، وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، أقيمت هذه الآية مقامها. ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالاً وخزياً، إجابة لدعوة نبيه: «وعاد من عاداه»، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

عهد الله: هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام. {إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله} [الفتح: ١٠]. {وَلاَ تَنقُضُواْ} أيمان البيعة {بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، أي: بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل الواو، والهمزة بدل. {كَفِيلاً}: شاهداً ورقيباً؛ لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه.

٩٢ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

{وَلاَ تَكُونُواْ}، في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته: {أنكاثا}، جمع نكث، وهو ما ينكث فتله. قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء، اتخذت مغزلاً قدر ذراع، وصنارة مثل أصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت

تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن. {تَتَّخِذُونَ}، حال، و {دَخَلاً}، أحد مفعولي اتخذ. يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً، {بَيْنَكُمْ}، أي: مفسدة ودغلا، {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ} بسبب أن تكون أمة، يعني: جماعة قريش، {هِي أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، هي أزيد عدداً وأوفر مالاً. من أمة، من جماعة المؤمنين، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ}، الضمير لقوله: أن تكون أمة؛ لأنه في معنى المصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم؟ {وَلَيُبَيّنَنَّ لَكُمْ}، إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

٩٣ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة}، حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار، وهو قادر على ذلك، {ولكن} الحكمة اقتضت أن يضلّ {مَن يَشَآء}، وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه. {وَيَهْدِي مَن يَشَاء}، وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان. يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار، الذي لا يستحق به شيء من ذلك، وحققه بقوله: {وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال والاهتداء، لما أثبت لهم عملا يسئلون عنه.

٩٤ - (وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلا بينهم، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها، {وَتَذُوقُواْ السوء} في الدنيا بصدودكم {عَن سَبِيلِ الله}، وخروجكم من الدين. أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا، لا تخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها، {وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} في الآخرة.

٩٥ - (وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

كان قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان - لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله، {وَلاَ تَشْتَرُواْ}: ولا تستبدلوا {بِعَهْدِ الله} وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، {ثَمَناً قَلِيلاً}: عرضاً من الدنيا يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا. {إِنَّمَا عِنْدَ الله} من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة، {خَيْرٌ لَّكُمْ}.

٩٦ - (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{مَا عِندَكُمْ} من أعراض الدنيا {يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله} من خزائن رحمته {بَاقٍ} لا ينفد. وقرئ: «لنجزين»، بالنون والياء، {الذين صَبَرُواْ}، على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام. فإن قلت: لم وحدت القدم ونكرت؟ قلت: لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فإن قلت: {مِنْ}، متناول في نفسه للذكر والأنثى، فما معنى تبيينه بهما؟ قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور، فقيل: {مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى}، على التبيين، ليعمّ الموعد النوعين جميعاً. {حياوة طَيّبَةً}، يعني: في الدنيا، وهو الظاهر، لقوله: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ}، وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله: {فأتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الأخرة} [آل عمران: ١٤٨]، وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً، يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً، فلا مقال فيه. وإن كان معسراً، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله. وأمّا الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، وإن كان موسراً

فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة: الرزق الحلال. وعن الحسن: القناعة. وعن قتادة: يعني في الجنة. وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

٩٨ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه، وصل به قوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله}، إيذاناً بأن الاستعاذة من جمله الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب. والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم} [المائدة: ٦]، وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله. فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن أمّ عبد، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ».

٩٩ - (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

{لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ}، أي: تسلط وولاية على أولياء الله، يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته.

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

{إِنَّمَا سلطانه}، على من يتولاه ويطيعه. {بِهِ مُشْرِكُونَ}، الضمير يرجع إلى ربهم. ويجوز أن يرجع إلى الشيطان، على معنى: بسببه وغروره ووسوسته.

١٠١ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

تبديل الآية مكان الآية: هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته. وهذا معنى قوله: {والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ}، وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ، وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق؛ لأنّ الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة. فإن قلت: هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قلت: فيه أن قرآناً ينسخ بمثله، وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها.

١٠٢ - (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

في {يُنَزِّل} و {نَزَّلَهُ} وما فيهما من التنزيل شيئاً على حسب الحوادث والمصالح: إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة. و {رُوحُ القدس}: جبريل عليه السلام، أضيف إلى القدس: وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجواد، وزيد الخير. والمقدّس: المطهر من المآثم. وقرئ: بضم الدال وسكونها. {بالحق} في موضع الحال، أي: نزله ملتبساً بالحكمة، يعني أن النسخ من جملة الحق. {لِيُثَبِّتَ الذين ءَامَنُواْ}، ليبلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب. {وَهدىً وبشرى}، مفعول لهما، معطوفان على محل " ليثبت ". والتقدير: تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. وقرئ: «ليثبت»، بالتخفيف.

١٠٣ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

أرادوا بالبشر: غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى، قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب. وقيل: هو جبر، غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي. وقيل عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني. وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان: اللغة. ويقال: ألحد القبر ولحده، وهو ملحد وملحود، إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه. ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان {أَعْجَمِىٌّ} غير بين، {وهذا} القرآن {لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ}، ذو بيان وفصاحة، رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وقرئ: «يلحدون»، بفتح الياء والحاء. وفي قراءة الحسن: «اللسان الذي يلحدون إليه»، بتعريف اللسان. فإن قلت: الجملة التي هي قوله: {لّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ}، ما محلها؟ قلت: لا محل لها؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم. ومثله قوله: {الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]، بعد قوله: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ الله} [الأنعام: ١٢٤].

١٠٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَات الله}، أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون، {لاَ يهديهم الله}، لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب.

١٠٥ - (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

{إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ}، ردّ لقولهم {إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ} [النحل: ١٠١]، يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه، {وَأُوْلئِكَ} إشارة إلى قريش، {هُمُ الكاذبون}، أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون. أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب: أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون في قولهم: {إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ} [النحل: ١٠١].

١٠٦ - (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{مَن كَفَرَ}، بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكاذبون} [النحل: ١٠٥]، اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: {ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا}، أي: طاب به نفساً واعتقده، {فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مّنَ الله}، ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: {أولئك}، على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون. أو من الخبر الذي هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه. ويجوز أن ينتصب على الذمّ. وقد جوّزوا أن يكون: {مَن كَفَرَ بالله}، شرطاً مبتدأ، ويحذف جوابه؛ لأن جواب: {مَّن شَرَحَ} دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، روي أنّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجئ في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً. فقيل: يا رسول الله، إن عماراً كفر، فقال: «كلا، إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال: «ما لك! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». ومنهم جبر مولى الحضرمي. أكرهه سيده فكفر، ثم أسلم مولاه وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا فإن قلت: أي الأمرين أفضل، أفعل عمار أم فعل أبويه؟ قلت: بل فعل أبويه، لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام. وقد روي: أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيّ؟ قال أنت أيضاً، فخلاه. وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيّ؟ قال أنا أصمّ. فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أما الأوّل فقد أخذ برخصة الله. وأمّا الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له ".

١٠٧ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

{ذلك}، إشارة إلى الوعيد، وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم.

١٠٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

{وأولئك هُمُ الغافلون}، الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم، لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

١١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ}، دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه. ومعنى: إنّ ربك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوّهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محمياً منفوعاً غير مضرور، {مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ}، بالعذاب والإكراه على الكفر. وقرئ: «فتنوا» على البناء للفاعل، أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه، {مِن بَعْدِهَا}، من بعد هذه الأفعال، وهي الهجرة والجهاد والصبر.

١١١ - (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{يَوْمَ تَأْتِي}، منصوب برحيم. أو بإضمار " اذكر ". فإن قلت: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ قلت: يقال لعين الشيء وذاته نفسه، وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى هي الجملة، والثانية عينها وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي. ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها كقوله: {هَؤُلاء أَضَلُّونَا} [الأعراف: ٣٨]، {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣] ونحو ذلك.

١١٢ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

{وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً}، أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته. فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها، {مُّطْمَئِنَّةً}، لا يزعجها خوف، لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف، {رَغَدًا}، واسعاً. والأنعم: جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع. أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس. وفي الحديث: نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم بالموسم بمنى: " إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا "، فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان، فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ قلت: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع. وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث. وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في

نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما، أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له، كما نظر إليه ههنا. ونحوه قول كثير:
غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكا ... غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ
استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه. ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال، لا صفة الرداء، نظر إلى المستعار له. والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار، كقوله:
يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرو ... رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ
لِيَ الشطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي ... وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ
أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكاً.

١١٣ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

{وَهُمْ ظالمون}، في حال التباسهم بالظلم، كقوله: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم)، نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ: «والخوف»، عطفاً على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أصله: ولباس الخوف. وقرئ: «لباس الخوف والجوع».

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها، وصل بذلك بالفاء في قوله: {فَكُلُواْ}، صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال: {إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، يعني: تطيعون. أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنها شفعاؤكم عنده.

١١٥ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

١١٦ - (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)

وانتصاب {الكذب} ب " لا تقولوا "، على: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم: {مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا} [الأنعام: ١٣٩]، من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله أو إلى قياس مستند إليه، واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام. وقوله: {هذا حلال وهذا حَرَامٌ}، بدل من الكذب. ويجوز أن يتعلق ب " تصف " على إرادة القول، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام. ولك أن تنصب الكذب ب " تصف "، وتجعل «ما» مصدرية، وتعلق {هذا حلال وهذا حَرَامٌ}، بلا تقولوا: على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب، أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينة، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة. فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصوّرته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال. وعينها تصف السحر. وقرئ: «الكذب» بالجرّ صفة لما المصدرية، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى الكاذب، كقوله تعالى: {بِدَمٍ كَذِبٍ} [يوسف: ١٨]، والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة. وقرئ: «الكذب»، جمع كذوب بالرفع، صفة للألسنة، وبالنصب على الشتم. أو بمعنى: الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذاباً، ذكره ابن جني. واللام في: {لِّتَفْتَرُواْ}، من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{متاع قَلِيلٌ}، خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة، وعقابها عظيم.

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ}، يعني: في سورة الأنعام.

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

{بِجَهَالَةٍ} في موضع الحال، أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم. {مِن بَعْدِهَا}، من بعد التوبة.

١٢٠ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{كَانَ أُمَّةً}، فيه وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم؛ لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله: {قَالَ إِنِّي جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة: ١٢٤]، وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله، فقلت: غلطت، إنما هو إبراهيم. فقال: الأمّة الذي يعلم الخير. والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال - حين قيل له: ألا تستخلف؟ -: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته: ولو كان معاذ حياً لاستخلفته. ولو كان سالم حياً لاستخلفته فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة، ومعاذ أمّة قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله لم يعصه»»، وهو ذلك المعنى، أي: كان إماماً في الدين؛ لأنّ الأئمة معلموا الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم.

١٢١ - (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{شَاكِراً لأَنْعُمِهِ}، روي أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم. {اجتباه}، اختصه واصطفاه للنبوّة، {وَهَدَاهُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ}، إلى ملة الإسلام.

١٢٢ - (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

{حَسَنَةً}، عن قتادة: هي تنويه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم {لَمِنَ الصالحين}، لمن أهل الجنة.

١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، في «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولي من النعمة: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته. من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{السبت}، مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها. إنما جعل وبال السبت وهو المسخ {على الذين اختلفوا فِيهِ}، واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فية تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة، بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. والمعنى في ذكر ذلك، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما ذكر، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته. فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت: معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى ووجه آخر: وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم {بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة}، فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى جعل السبت: فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه. وقرئ: «إنما جعل السبت»، على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: «إنا أنزلنا السبت».

١٢٥ - (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

{إلى سَبِيلِ رَبّكَ}، إلى الإسلام، {بالحكمة}، بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، {والموعظة الحسنة}، وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوزأن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة، {وجادلهم بالتي هِىَ أَحْسَنُ}، بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف، {إِنَّ رَّبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ} بهم؛ فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

١٢٦ - (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة. والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: «وإن عقبتم فعقبوا»، أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: " أما والذي أحلف به، لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك "، فنزلت، فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة. وقد وردت الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور. إما أن يرجع الضمير في: {لَهُوَ}، إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم. ويراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة. وإما أن يرجع إلى جنس الصبر - وقد دل عليه صبرتم - ويراد بالصابرين جنسهم، كأنه قيل: وللصبر خير وللصابرين ونحوه قوله تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله} [الشورى: ٤٠]. {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى} [البقرة: ٢٣٧]، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

١٢٧ - (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)

{واصبر} أنت، فعزم عليه بالصبر، {وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله}، أي: بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك، {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}، أي: على الكافرين، كقوله: {فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين} [المائدة: ٦٨]، أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون، {وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ}، وقرئ: «ولا تكن في ضيق»، أي: ولا يضيقن صدرك من مكرهم والضيق: تخفيف الضيق، أي: في أمر ضيق. ويجوز أن يكون الضيق والضيق

مصدرين، كالقيل والقول.
١٢٨ - (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)
{إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا}، أي: هو وليّ الذين اجتنبوا المعاصي، {و} ولي {الذين هُمْ مُّحْسِنُونَ} في أعمالهم. وعن هرم ابن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص. فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته، كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية ".

١٧ سورة الإسراء:

سورة الإسراء:
مكية، وآياتها ١١١.
١ - (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
{سُبْحَانَ} علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله. و {أسرى} وسرى لغتان. و {لَيْلاً} نصب على الظرف فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله {لَيْلاً} بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: «من الليل»، أي بعض الليل، كقوله {وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً} [الإسراء: ٧٩] يعني الأمر بالقيام في بعض الليل. واختلف في المكان الذي أسرى منه فقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق " وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام: الحرم، لإحاطته بالمسجد والتباسه به. وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد وروي: (أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانيء. وقال: مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال: مالك؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبوني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلم فحدّثهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً. وارتد ناس ممن كان قد آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي الصدّيق. وفيهم من سافر إلى مائمّ، فاستنعتوه المسجد فجلي له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد).
ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا في وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة.
وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت «والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه» وعن معاوية: إنما عرج بروحه. وعن الحسن. كان في المنام رؤيا رآها. وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد {بَارَكْنَا حَوْلَهُ} يريد بركات الدين

والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: «ليريه» بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى به ثم باركنا ليريه، على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة {إِنَّهُ هُوَ السميع} لأقوال محمد {البصير} بأفعاله، العالم بتهذبها وخلوصها، فيكرمه ويقرّبه على حسب ذلك.

٢ - (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

{أَلاَّ تَتَّخِذُواْ} قرئ بالياء على: «لئلا يتخذوا»، وبالتاء على: أي «لا تتخذوا» كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا {وَكِيلاً} ربا تكلون إليه أموركم.

٣ - (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا} نصب على الاختصاص. وقيل: على النداء فيمن قرأ «لا تتخذوا» بالتاء على النهي، يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلا يا ذرية من حملنا {مَعَ نُوحٍ} وقد يجعل {وَكِيلاً ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا} مفعولي تتخذوا، أي لا تجعلوهم أرباباً كقوله {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَاباً} ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام وقرئ: «ذرية من حملنا» بالرفع بدلا من واو {تَتَّخِذُواْ} وقرأ زيد بن ثابت: «ذِرية»، بكسر الذال. وروي عنه أنه قد فسرها بولد الولد، ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق {إِنَّهُ} إن نوحاً {كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني. وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني. وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني. وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء أحفاني. وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه. وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجاً آثره به. فإن قلت: قوله إنه كان عبداً شكوراً ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي، لأنّ نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم. ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متصلون به، فاستأهلوا لذلك الاختصاص. ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

٤ - (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

{وَقَضَيْنَآ إلى بنى إسراءيل} وأوحينا إليهم وحياً مقضيا، أي مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلون، أي: يتعظمون ويبغون {فِى الكتاب} في التوراة، و {لَتُفْسِدُنَّ} جواب قسم محذوف. ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون {لَتُفْسِدُنَّ} جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن. وقرئ: «لتفسدّن»، على البناء للمفعول. «ولتفسدن» بفتح التاء من فسد {مَّرَّتَيْنِ} أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحي بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم.

٥ - (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا)

{عِبَادًا لَّنَآ} وقرئ: «عبيداً لنا» وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر. وعن ابن عباس: جالوت. قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة، وخربوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً. فإن قلت: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه، قلت: معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم، على أنّ الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه، فهو كقوله تعالى {وكذلك نُوَلّى بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩] وكقول الداعي. وخالف بين كلمهم. وأسند الجوس وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة «فحاسوا» بالحاء. وقرئ: «فجوّسو»، و «خلل الديار». فإن قلت: ما معنى {وَعْدُ أولاهما}؟ قلت: معناه وعد عقاب أولاهما {وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً} يعني: وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل.

٦ - (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة} أي الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو. قيل: هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: هي قتل داود جالوت {أَكْثَرَ نَفِيرًا} مما كنتم. والنفير، من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعبيد والمعيز.

٧ - (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

أي الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن عليّ رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها {فَإِذَا جَآء وَعْدُ} المرّة {الأخرة} بعثناهم {ليسائوا وُجُوهَكُمْ} حذف لدلالة ذكره أوّلا عليه. ومعنى {ليسائوا وُجُوهَكُمْ} ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها، كقوله: {سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ} [الملك: ٢٧] وقرئ: «ليسوء» والضمير لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث «ولنسوء» بالنون. وفي قراءة عليّ: «لنسوأنّ» «وليسوأنّ» وقرئ: «لنسوأن»، بالنون الخفيفة. واللام في {ليدخلوا} على هذا متعلق بمحذوف وهو: وبعثناهم ليدخلوا ولنسو أن: جواب إذا جاء {مَا عَلَوْاْ} مفعول ليتبروا، أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه. أو بمعنى: مدة علوّهم.

٨ - (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

{عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ} بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي {وَإِنْ عُدتُّمْ} مرة ثالثة {عُدْنَا} إلى عقوبتكم وقد عادوا، فأعاد الله إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم وعن الحسن: عادوا فبعث الله محمداً، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة {حَصِيرًا} محبساً يقال للسجن محصر وحصير. وعن الحسن: بساطاً كما يبسط الحصير المرمول.

٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

{لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ} للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها. أو للملة. أو للطريقة. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: «ويبشر»، بالتخفيف، فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟ قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.

١٠ - (وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

فإن قلت: علام عطف {وَأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ}؟ قلت: على {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

١١ - (وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولا)

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، كما يدعوه لهم بالخير، كقوله: {وَلَوْ يُعَجّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير} [يونس: ١١]. {وَكَانَ الإنسان عَجُولاً} يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأني المتبصر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يئن بالليل، فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم القدّ، فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه، فقال صلى الله عليه وسلم «اللهم اقطع يديها» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر فلتردّ سودة يديها " ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وأنه يدعو بالعذاب

استهزاء ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة. {وكان الإنسان عجولاً}: يعني أن العذاب آتيه لا محالة، فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، فأجيب له، فضربت عنقه صبراً.

١٢ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا)

فيه وجهان، أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود، أي: فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. والثاني: أن يراد: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر. {فمحونا آية الليل}: أي جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموسه مظلماً، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحوّ، وجعلنا النهار مبصراً أي تبصر فيه الأشياء وتستبان. أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعاً كشعاع الشمس، فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء {لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم {وَلِتَعْلَمُواْ} باختلاف الجديدين {عَدَدَ السنين و} جنس {الحساب} وما يحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات، ولتعطلت الأمور {وَكُلَّ شىْءٍ} مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم {فصلناه} بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا.

١٣ - (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا)

{طائره} عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل. وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعني: ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة. وقولهم: الموت في الرقاب. وهذا وبقة في رقبته. عن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك. وقرئ: «في عنقه» بسكون النون. وقرئ: «نخرج» بالنون. «ويخرج» بالياء، والضمير لله عز وجل «ويخرج»، على البناء للمفعول. ويخرج من خرج، والضمير للطائر. أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب {كتابا} على الحال. وقرئ: «يلقَّاه»، بالتشديد مبنيا للمفعول. و {يلقاه مَنْشُوراً} صفتان للكتاب. أو {يلقاه} صفة و {مَنْشُوراً} حالٌ من يلقاه.

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

{اقرأ} على إرادة القول. وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً. و {بِنَفْسِكَ} فاعل كفى. و {حَسِيباً} تمييز وهو بمعنى حاسب كضريب القداح بمعنى ضاربها وصريم بمعنى صارم ذكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا. ويجوز أن يكون بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد فعدّي بعلى لأنّ الشاهد يكفي المدعي ما أهمه. فإن قلت: لم ذكر حسيباً؟ قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير، لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً. ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك.

١٥ - (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا)

أي: كل نفس حاملة وزراً، فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى {وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ} وما صحّ منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً إلا بعد أن {نَّبْعَثَ} إليهم {رَسُولاً} فتلزمهم الحجة. فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا: كنا غافلين فلو لا بعث إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

١٦ - (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

{وَإِذَا أَرَدْنَا} وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل، أمرناهم {فَفَسَقُواْ} أي أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز: لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء، وأقدرهم على الخير والشرّ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمّرهم. فإن قلت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة، ولو ذهبت تقدّر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني، أو فلم يمتثل أمري. لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به، وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول. فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير، دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قلت: لا يصحّ ذلك؛ لأن قوله {فَفَسَقُواْ} يدافعه، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير {أَمْرٍ} شاء: في أن مفعوله استفاض فيه الحذف، لدلالة ما بعده عليه، تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك. تريد: لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة - لم تكن على سداد. وقد فسر بعضهم {أَمْرُنَا} بكثرنا، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته ففعل. كثبرته فثبر. وفي الحديث: «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة» أي كثيرة النتاج وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أرى أمرك هذا حقيراً فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيأمر. أي سيكثر وسيكبر.

١٧ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

وقرئ: «آمرنا» من أمر وأمره غيره. «وأمّرنا» بمعنى أمرنا. أو من أمر إمارة، وأمره الله. أي: جعلناهم أمراء وسلطناهم {كَمْ} مفعول {أَهْلَكْنَا} و {مّنَ القرون} بيان لكم وتمييز له، كما يميز العدد بالجنس. يعني عادا وثموداً وقرونا بين ذلك كثيراً. ونبه بقوله {وكفى بِرَبّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَا بَصِيراً} على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

١٨ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال: ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأمّا المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظاً من الدنيا أو لم يؤت فإن أوتي فبها وإلا فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده. وقوله {لِمَن نُّرِيدُ} بدل من له، وهو بدل البعض من الكل: لأن الضمير يرجع إلى «من» وهو في معنى الكثرة. وقرئ: «يشاء» وقيل: الضمير لله تعالى، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى ويجوز أن يكون للعبد، على أنّ للعبد ما يشاء من الدنيا. وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك. وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة، كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال صلى الله عليه وسلم: " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه "

{مَّدْحُورًا} مطروداً من رحمة الله.
١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)
{سَعْيَهَا} حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً: إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك. والإيمان الصحيح الثابت. وعن بعض المتقدّمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب. وتلا هذه الآية. وشكر الله: الثواب على الطاعة.
٢٠ - (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)
{كُلاًّ} كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه {نُّمِدُّ} هم: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه. فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ} وفضله {مَحْظُورًا} أي ممنوعاً، لا يمنعه من عاص لعصيانه.
٢١ - (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا)
{انظر} بعين الاعتبار {كَيْفَ} جعلناهم متفاوتين في التفضل. وفي الآخرة التفاوت أكبر، لأنها ثواب وأعواض وتفضل، وكلها متفاوتة. وروي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة. ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: «وأكثر تفضيلاً»، وعن بعضهم: «أيها المباهي» بالرفع منك في مجالس الدنيا «أما ترغب في المباهاة» بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟
٢٢ - (لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا)
{فَتَقْعُدَ} من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.
٢٣ - (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا)
{وقضى رَبُّكَ} وأمر أمراً مقطوعاً به {أَلاَّ تَعْبُدُواْ} أن مفسرة ولا تعبدوا نهي. أو بأن لا تعبدوا {وبالوالدين إحسانا} وأحسنوا بالوالدين إحساناً. أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً وقرئ: «وأوصى» وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ووصى». وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك. ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان: لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته {إِمَّا} هي «إن» الشرطية زيدت عليها «ما» تأكيداً لها، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت «إن» لم يصح دخولها، لا تقول: إن تكرمن زيداً يكرمك، ولكن إما تكرمنه. و {أَحَدُهُمَا} فاعل يبلغنّ، وهو فيمن قرأ «يبلغان» بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و {كِلاَهُمَا} عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً. فإن قلت: لو قيل إما يبلغان كلاهما، كان كلاهما توكيداً لا بدلا، فمالك زعمت أنه بدل؟ قلت: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله. فإن قلت: ما ضرّك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ قلت: لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما، فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما، علم أنّ التوكيد غير مراد، فكان بدلاً مثل الأول {أُفٍّ} صوت يدل على تضجر. وقرئ: «أف» بالحركات الثلاث منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم إتباع كمنذ. فإن قلت: ما معنى عندك؟ قلت: هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالاً وصبراً، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول لهما إذا

أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما: أف، فضلاً عما يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهي والنهر والنهم: أخوات {وَقُل لَّهُمَا} بدل التأفيف والنهر {قَوْلاً كَرِيمًا} جميلاً، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة. وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه، يا أماه، كما قال إبراهيم لأبيه: ياأبت، مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفا وسوء الأدب وعادة الدعار. قالوا: ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر كذا.

٢٤ - (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

وقرئ: «جناح الذل»، الذل: بالضم والكسر فإن قلت: ما معنى قوله {جَنَاحَ الذل}؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك كما قال {واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨] فأضافه إلى الذل أو الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول. والثاني: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحاً خفيضاً، كما جعل لبيد للشمال يداً، وللقوة زماماً، مبالغة في التذلل والتواضع لهما {مِنَ الرحمة} من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهم التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك. فإن قلت: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين. قلت: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والارشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ. وسئل ابن عيينة، عن الصدقة عن الميت فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين. ولقد كرّر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما " وروي: «يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة» وروي سعيد بن المسيب: إنّ البارّ لا يموت ميتة سوء. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أبويّ بلغا من الكبر أني ألي منهما ماولياً مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما. وشكا رجل إلى رسول الله أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غنيّ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غنيّ، ويبخل علي بماله، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك " وشكا إليه آخر سوء خلق أمّه فقال: لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال: إنها سيئة الخلق. قال: لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين؟ قال: إنها سيئة الخلق. قال: لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟ قال: لقد جازيتها. قال: ما فعلت؟ قال: حججت بها على عاتقي. قال: ما جزيتها ولو طلقة وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمّه ويقول:

إِنِّي لَهَا مَطِيَّةٌ لاَ تُذْعَر ... إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لاَ تَنْفِر

مَا حَمَلَتْ وَأَرْضَعَتْنِي أَكْثَر ... اللَّهُ رَبِّي ذُو الْجَلاَلِ الأَكْبَرُ

ثم قال تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء، إنّ الكبرياء لله رب العالمين»

وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر. ويأخذ الإناء منه إذا شربها وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد. وعن حذيفة: أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين، فقال: دعه يليه غيرك. وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل. وسئل

بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزراً إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما. فعن النبيّ صلى الله عليه وسلم. «إنّ من أبر البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه».

٢٥ - (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا)

{بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ} بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير {إِن تَكُونُواْ صالحين} قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم - في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام - هنة تؤدّي إلى أذاهما، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها، فإن الله غفور {لِلأَوَّابِينَ} للتوّابين. وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير. وعن سعيد بن المسيب: الأوّاب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة. ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته، لوروده على أثره.

٢٦ - (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)

{وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ} وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم: وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل موسراً: أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة. والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب. وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم: كأبناء العمّ، فحقهم صلتهم بالمودّة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك {والمساكين وابن السبيل} يعني وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق: هو تعهدهم بالمال. وقيل: أراد بذي القربى أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي. وإنفاقه على وجه الإسراف. وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرّب منه ويزلف. وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه. وعن مجاهد: لو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لاسرف في الخير. وعن عبد الله بن عمرو: مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال: [ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أوف] الوضوء سرف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار).

٢٧ - (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

{إخوان الشياطين} أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة؛ لأنه لا شرّ من الشيطان. أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف. أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد {وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُورًا} فما ينبغي أن يطاع، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله. وقرأ الحسن «إخوان الشيطان».

٢٨ - (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا)

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الردّ {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء. قوله {ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ} إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّماً عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً، رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم، ابتغاء رحمة من ربك، أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم. وإما أن يتعلق بالشرط، أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردّهم ردّاً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأنّ فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب. ويجوز أن يكون معنى {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ} وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي: أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر، مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول. وقيل معناه: فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كأن معناه: قولاً

ذا ميسور، وهو اليسر، أي: دعاء فيه يسر.
٢٩ - (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)
هذا تمثيلٌ لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمرٌ بالاقتصاد الذي هو بين الاسراف والتقتير {فَتَقْعُدَ مَلُومًا} فتصير ملوماً عند الله، لأنّ المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلاناً وحرمني. ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة. وعند نفسك: إذا احتجت فندمت على ما فعلت {مَّحْسُوراً} منقطعاً بك لا شيء عندك، من حسره السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة. وعن جابر: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال: إنّ أمي تستكسيك درعاً، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر، فعد إلينا، فذهب إلى أمّه فقالت له قل له: إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة. وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس، وأنشأ يقول:
أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ العَبِيدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلاَ حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ جَدِّيَ فِي مَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِيءٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْم لاَ يُرْفَعِ
فقال: يا أبا بكر، اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل فنزلت.
٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)
ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة. ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا. ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض، فإنه يراعي أوسط الحالين، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه، فاستنوا بسنته.
٣١ - (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا)
قتلهم أولادهم: هو وأدهم بناتهم، كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الإملاق، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ «خشية» بكسر الخاء. وقرئ: «خطأ» وهو الإثم. يقال: خطيء خطأ، كاثم إثماً، وخطأ وهو ضدّ الصواب، اسم من أخطأ. وقيل والخطأ كالحذر والحذر، وخطاء بالكسر والمدّ. وخطاء بالفتح والمد. وخطا بالفتح والسكون. وعن الحسن: خطأ بالفتح وحذف الهمزة كالخب. وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز.
٣٢ - (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا)
{فاحشة} قبيحة زائدة على حد القبح {وَسَاء سَبِيلاً} وبئس طريقاً طريقة، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.
٣٣ - (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)
{إِلاَّ بالحق} إلا بإحدى ثلاث: إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان. {مَظْلُومًا} غير راكب واحدة منهنّ {لِوَلِيِّهِ} الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه {سلطانا} تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يثب بها عليه {فَلاَ يُسْرِف} الضمير للولي. أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية: كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة، حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد: بؤبشسع نعل كليب وقال:
كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلَيْبٍ غُرَّهْ ... حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ
وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء. وقيل: الإسراف المثلة. وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: «فلا يسرف»، بالرفع على أنه خبر

في معنى الأمر. وفيه مبالغة ليست في الأمر. وعن مجاهد: أنّ الضمير للقاتل الأوّل. وقرئ: «فلا تسرف» على خطاب الولي أو قاتل المظلوم. وفي قراءة أبيّ «فلا تسرفوا» ردّه على: ولا تقتلوا {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} الضمير إمّا للولي، يعني حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأنّ الله قد نصره بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق، فلا يبغ ما وراء حقه. وإمّا للمظلوم، لأنّ الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب. وإما الذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف.

٣٤ - (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا)

{بالتى هِىَ أَحْسَنُ} بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتثميره {إِنَّ العهد كَانَ مَسْئُولاً} أي مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلا، كأنه يقال للعهد: لم نكثت؟ وهلا وفي بك؟ تبكيتاً للناكث، كما يقال للموؤدة: بأي ذنب قتلت؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسئولاً.

٣٥ - (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا)

وقرئ «بالقسطاس» بالضم والكسر، وهو القرسطون. وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} وأحسن عاقبة، وهو تفعيل، من آل إذا رجع، وهو ما يؤول إليه.

٣٦ - (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا)

{وَلاَ تَقْفُ} ولا تتبع. وقرئ «ولا تقف». يقال: قفا أثره وقافه، ومنه: القافة، يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال. والمراد: النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً. لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده. وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مرّ بك، فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل، وسمعته، ولم تر ولم تسمع. وقيل: القفو شبيه بالعضيهة ومنه الحديث: " من قفى مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج " وأنشد:

وَمِثْلُ الدُّمَى شم الْعَرَانِينِ سَاكِن ... بِهِنَّ الحَيَاءُ لاَ يُشِعْنَ التَّقَافِيَا

أي التقاذف. وقال الكميت:

وَلاَ أَرْمِي البَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْب ... وَلاَ أَقْفُو الحَوَاصِنَ إنْ قُفِينَا

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح، لأنّ ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به {أولئك} إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، كقوله:

وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ ...

و {عَنْهُ} في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كل واحد منها كان مسؤلاً عنه، فمسئول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله {غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؛ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ «والفواد» بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد، ثم استصحب القلب مع الفتح.

٣٧ - (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا)

{مَرَحاً} حال، أي: ذا مرح. وقرئ «مرحا» وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد {لَن تَخْرِقَ الأرض} لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدّة وطأتك. وقرئ «لن تخرُق»، بضم الراء {وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً} بتطاولك. وهو تهكم بالمختال.

٣٨ - (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

قرئ «سيئة» و «سيئه» على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيئاً في بعض المصاحف، وسيئات. وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كان شأنه. فإن قلت: كيف قيل سيئه مع قوله مكروهاً؟ قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه. ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئاً. ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث. فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ «سيئه» بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئة؟ قلت: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

٣٩ - (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)

{ذلك} إشارة إلى ما تقدم من قوله {لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها ءاخَرَ} [الإسراء: ٢٢] إلى هذه الغاية. وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه. وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى، أوّلها: لا تجعل مع الله إلها آخر، قال الله تعالى {وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الألواح مِن كُلّ شَىْء مَّوْعِظَةً} [الأعراف: ١٤٥] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء. وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

٤٠ - (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا)

{أفأصفاكم} خطاب للذين قالوا {الملائكة بَنَات الله} والهمزة للإنكار. يعني: أنخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه. واتخذ أدونهم وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويكون أردؤها وأدونها للسادات {إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا} بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم الإناث.

٤١ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا نُفُورًا)

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءان} يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى. أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانا للتكرير. ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد. ولقد صرفناه. يعني «هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: «صرفنا» بالتخفيف وكذلك {لّيَذْكُرُواْ} قرئ «مشدّداً ومخففاً»، أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم {وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا} عن الحق وقلة طمأنينة إليه. وعن سفيان: كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

٤٢ - (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا)

قرئ «كما تقولون» بالتاء والياء. و {إِذَا} دالة على أن ما بعدها وهو {لاَّبْتَغَوْاْ} جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل (لو) ومعنى {لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِى العرش سَبِيلاً} لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا الِهَةٌ إِلاَّ الله لفسدتا} [الأنبياء: ٢٢] وقيل: لتقرّبوا إليه، كقوله {أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة} [الإسراء: ٥٧].

٤٣ - (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

{عَلَوْاْ} في معنى تعالياً. والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلوّ بالكبر: المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به.

٤٤ - (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها. فإن قلت: فما تصنع بقوله {ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله؛ إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم، فكأنهم لم ينظروا

ولم يقرّوا، لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق. فإن قلت: من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة والثقلان، وقد عطفوا على السموات والأرض، فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة عل الحقيقة والمجاز {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً} حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشركم.

٤٥ - (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)

{حِجَابًا مَّسْتُوراً} ذا ستر كقولهم. سيل مفعم ذو إفعام. وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور. ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره. أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [فصلت: ٥] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم.

٤٦ - (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)

{أَن يَفْقَهُوهُ} كراهة أن يفقهوه. أو لأنّ قوله {وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحداً وحدة، نحو وعد يعد وعداً وعدة، و {وَحْدَهُ} من باب رجع عوده على بدئه، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال، أصله: يحد وحده بمعنى واحداً، وحده. والنفور: مصدر بمعنى التولية. أو جمع نافر كقاعد وقعود، أي: يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

٤٧ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا)

{بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ} من الهزؤ بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار.

٤٨ - (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا)

و {بِهِ} في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزؤ أي هازئين. و {إِذْ يَسْتَمِعُونَ} نصب بأعلم، أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون {وَإِذْ هُمْ نجوى} وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نجوى {إِذْ يَقُولُ} بدل من إذ هم {مَّسْحُوراً} سحر فجنّ. وقيل: هو من السحر وهو الرئة، أي: هو بشر مثلكم {ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال} مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون {فَضَلُّواْ} في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

٤٩ - (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

لما قالوا: أئذا كنا عظاماً قيل لهم {كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً}.

٥٠ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

{كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً} فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحيّ وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردّها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحيّ ومن جنس ما ركب منه البشر - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة - لكان قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة.

٥١ - (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)

{أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ} يعني أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه. وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت. وقيل: السموات والأرض {فَسَيُنْغِضُونَ} فسيحرّكونها نحوك تعجباً واستهزاء.

٥٢ - (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا)

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز. والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون. وقوله {بِحَمْدِهِ} حال منهم، أي حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر، يعني: أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك {وَتَظُنُّونَ} وترون الهول، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم. وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

٥٣ - (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا)

{وَقُل لّعِبَادِى} وقل للمؤمنين {يَقُولُواْ} للمشركين الكلمة {التى هِىَ أَحْسَنُ} وألين ولا يخاشنوهم، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن. وفسر التي هي أحسن بقوله {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ}.

٥٤ - (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلا)

{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ} يعني يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله {إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ} اعتراض، يعني يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة والمشاقة {وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} أي رباً موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف. وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله. وقرأ طلحة: «ينزغ» بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون.

٥٥ - (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ} إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله {وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً} دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمته. فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور} [الأنبياء: ١٠٥] قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزُبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور، فسمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً.

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلا)

[{قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ}] هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل نفر من الجن، عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا، أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد

إلى آخر أو يبدلوه.
٥٧ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)
و {أولئك} مبتدأ، و {الذين يَدْعُونَ} صفته، و {يَبْتَغُونَ} خبره، يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله تعالى. و {أَيُّهُم} بدل من واو يبتغون، وأي موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون، ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ {إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ} حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرّب ونبيّ مرسل، فضلاً عن غيرهم.
٥٨ - (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)
{نَحْنُ مُهْلِكُوهَا} بالموت والاستئصال {أَوْ مُعَذّبُوهَا} بالقتل وأنواع العذاب. وقيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة. وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلداً بلداً {فِى الكتاب} في اللوح المحفوظ.
٥٩ - (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا)
استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. و «أن» الأولى منصوبة والثانية مرفوعة، تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك: وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات - التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا - واحدة: وهي ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم {مُبْصِرَةً} بينة. وقرئ «مبصرة» بفتح الميم {فَظَلَمُواْ بِهَا} فكفروا بها {وَمَا نُرْسِلُ بالأيات} إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها {إِلاَّ تَخْوِيفًا} من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.
٦٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا)
{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس} واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم. وذلك قوله {سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر} [القمر: ٤٥]، {قُلْ لّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ} [آل عمران: ١٢] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره. وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: " اللهم إني أسألك عهدك ووعدك " ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: {سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر} ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه. فقد كان يقول حين ورد ماء بدر " والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم " وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أري» في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله: {إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم} [الدخان: ٤٣] جعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر. وما قدر الله حق

قدره من قال ذلك، وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر. فما كان ما {أريناك} منه في منامك بعد الوحي إليك {إِلاَّ فِتْنَةً} لهم حيث اتخذوه سخريا وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم {وَنُخَوّفُهُمْ} أي نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة {فَمَا يَزِيدُهُمْ} التخويف {إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا} فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات. وقيل: الرؤيا هي الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها، وخيال خيل إليك، استبعاداً منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة، نحو قوله: {فَرَاغَ إِلى ءالِهَتِهِمْ} [الصافات: ٩١]، {أَيْنَ شُرَكَائِىَ} [النحل: ٢٧]، {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم} [الدخان: ٤٩] وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة.

وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القشب الممحوق. وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. [وقيل: هي الشيطان] وقيل: أبو جهل. وقرئ «والشجرةُ الملعونةُ» بالرفع، على أنها مبتدأ محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

٦١ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)

{طِينًا} حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد، على: أأسجد له وهو طين، أي أصله طين. أو من الراجع إليه من الصلة على: أأسجد لمن كان في وقت خلقه طيناً.

٦٢ - (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا)

{أَرَءيْتَكَ} الكاف للخطاب، و {هذا} مفعول به. والمعنى: أخبرني عن هذا {الذى كَرَّمْتَ} ه {عَلَىَّ} أي فضلته، لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ} واللام موطئة للقسم المحذوف {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيَّتَهُ} لأستأصلنهم بالإغواء، من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا، وهو من الحنك. ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أي أكلهما. فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني. وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

٦٣ - (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً)

{اذهب} ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء، إنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية، وعقبه بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ} كما قال موسى عليه السلام للسامري {فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ} [طه: ٩٧]. فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب {جَزَاءً مَّوفُورًا} بما في {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ} من معنى تجازون. أو بإضمار تجازون. أو على الحال؛ لأنّ الجزاء موصوف

بالموفور، والموفور الموفر. يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.
٦٤ - (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا)
استفزّه: استخفه. والفز: الخفيف {وَأَجْلِبْ} من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " يا خيل الله اركبي " والرجل اسم جمع للراجل. ونظيره: الركب والصحب. وقرئ: «ورجلك»، على أن فعلا بمعنى فاعل، نحو: تعب وتاعب. ومعناه: وجمعك الرجل، وتضم جيمه أيضاً فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس، وأخوات لهما. يقال: رجل رجل. وقرئ «ورجالك ورجالك» فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم. وقيل: بصوته، بدعائه إلى الشر.
وخيله ورجله: كلّ راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال. وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما، كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف. ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة، وغير ذلك {وَعِدْهُمْ} المواعيد الكاذبة. من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة، وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً، وإيثار العاجل على الآجل.
٦٥ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا)
{إِنَّ عِبَادِي} يريد الصالحين {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان} أي لا تقدر أن تغويهم {وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً} لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك، ونحوه قوله: {إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين} فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغوياً مضلاً، داعياً إلى الشر، صادّاً عن الخير؟ قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ما شئتم.
٦٦ - (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)
{يُزْجِى} يجري ويسير.
٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا)
والضرّ: خوف الغرق {ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ} ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين. ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه وحده على الاستثناء المنقطع.
٦٨ - (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا)
{أَفَأَمِنتُمْ} الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم، فحملكم ذلك على الإعراض. فإن قلت: بم انتصب {جَانِبَ البر}؟ قلت: بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض} [القصص: ٨١]. و {بِكُمْ} حال. والمعنى: أن يخسف جانب البر، أي يقلبه وأنتم عليه. فإن قلت فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه أنّ الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق تغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده

سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً} وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر {وَكِيلاً} من يتوكل بصرف ذلك عنكم.

٦٩ - (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)

{أَمْ أَمِنتُمْ} أن يقوّي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل {عَلَيْكُمْ قَاصِفًا} وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد، كأنها تتقصف أي تتكسر. وقيل: التي لا تمرّ بشيء إلا قصفته {فَيُغْرِقَكُم} وقرئ «بالتاء» أي الريح «وبالنون» وكذلك: نخسف، ونرسل، ونعيدكم، قرئت بالياء والنون. التبيع: المطالب، من قوله {فاتباع بالمعروف} [البقرة: ١٧٨] أي مطالبة. قال الشماخ:

كَمَا لاَذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ ...

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي مصيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله {وَلاَ يَخَافُ عقباها} [الشمس: ١٥]. {بِمَا كَفَرْتُمْ} بكفرانكم النعمة، يريد: إعراضهم حين نجاهم.

٧٠ - (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا)

قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم. وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد: أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ} جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه {على كثير ممن خلقنا} هو ما سوى الملائكة وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم. والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأنى قربهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منها: قالت الملائكة: (ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة. فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان). ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده. ومن ارتكابهم أنهم فسروا {كثيراً} بمعنى «جميع» في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع ممن خلقنا، على أن معنى قولهم {على جَمِيعٌ مِّمَّنْ خَلَقْنَا} أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون. فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأنّ جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم.

٧١ - (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا)

قرئ: «يدعو»، بالياء والنون. ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول. وقرأ الحسن «يدعوا كل أناس»، على قلب الألف واواً في لغة من يقول: افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر. ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع، كما في {وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ} [الأنبياء: ٣] والرفع مقدّر كما في يدعى، ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها، لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة {بإمامهم} بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدّم في الدين، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشرّ. وفي قراءة الحسن «بكتابهم» ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أمّ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح

أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟ {فَمَنْ أُوتِيَ} من هؤلاء المدعوّين {كتابه بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءونَ كتابهم} قيل أولئك، لأن من أوتي في معنى الجمع. فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرأون كتابهم؟ قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أمام التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة. وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: {هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه} [الحاقة: ١٩]. {وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، كقوله {وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً} [مريم: ٦٠]، {فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} [طه: ١١٢].

٧٢ - (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا)

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك {وَأَضَلُّ سَبِيلاً} من الأعمى: والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فلفقد النظر. وأما في الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل. ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل ممالا، والثاني مفخماً، لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام، كقولك: أعمالكم وأما الأوّل فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

٧٣ - (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا)

روي أنّ ثقيفاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبي في صلاتنا، وكل ربا لنا فهو لنا، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره، فإذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني به، وجاؤا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكاتب: اكتب: ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسل سيفه وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسنا نكلم إياك، إنما نكلم محمداً. فنزلت. وروي أنّ قريشاً قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك. فنزلت {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ} إن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين {عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا {لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا} لتقول علينا ما لم نقل، يعني ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه {وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ} أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك {خَلِيلاً} ولكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي.

٧٤ - (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا)

{وَلَوْلاَ أَن ثبتناك} ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا {لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ} لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت، وفي ذلك لطف للمؤمنين.

٧٥ - (إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

{إِذَا} لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة {لأذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات} أي لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين. فإن قلت: كيف حقيقة هذا الكلام؟ قلت: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات، لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات وهو عذاب القبر، وعذاب في الحياة الآخرة وهو عذاب النار. والضعف يوصف به، نحو قوله {فآتهم عذاباً ضعفاً من النار} [الأعراف: ٣٨] بمعنى مضاعفاً، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات. ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم

الممات. ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت، وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين - دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله.

فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

٧٦ - (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا)

{وَإِن كَادُواْ} وإن كاد أهل مكة {لَيَسْتَفِزُّونَكَ} ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم {مِّنَ الأرض} من أرض مكة {وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ} لا يبقون بعد إخراجك {إِلا} زماناً {قَلِيلاً} فإن الله مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. وقيل: معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم. ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه. وقيل: من أرض العرب. وقيل: من أرض المدينة، وذلك.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة، حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله، فنزلت، فرجع وقرئ «لا يلبثون» وفي قراءة أبيّ «لا يلبثوا» على إعمال «إذا». فإن قلت: ما وجه القراءتين؟ قلت: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل. وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم. وأما قراءة أبيّ ففيها الجملة برأسها التي هي إذاً لا يلبثوا، عطف على جملة قوله {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ} وقرئ «خلافك» قال:

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلاَفَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيراً

أي بعدهم.

٧٧ - (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا)

{سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا} يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة.

٧٨ - (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

دلكت الشمس: غربت. وقيل: زالت. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس. فصلى بي الظهر» واشتقاقه من الدلك، لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء {وَقُرْءَانَ الفجر} صلاة الفجر، سميت قرآناً وهو القراءة، لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً. وهي حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن {مَشْهُوداً} يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة. أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. ويجوز أن يكون {وَقُرْءَانَ الفجر} حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر، لكونها مكثوراً عليها، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

٧٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

{وَمِنَ الیل} وعليك بعض الليل {فَتَهَجَّدْ بِهِ} والتهجد ترك الهجود للصلاة، ونحو التأثم والتحرّج. ويقال أيضاً في النوم: تهجد {نَافِلَةً لَّكَ} عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجداً، لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك، لأنه تطوع لهم {مَقَاماً مَّحْمُودًا} نصب على الظرف، أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً. أو ضمن يبعثك معنى يقيمك. ويجوز أن يكون حالا بمعنى أن يبعثك ذا مقام محمود. ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق: تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمّتي» وعن حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأوّل مدعوّ محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: «لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهديّ من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت» قال: فهذا قوله {عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا}.

٨٠ - (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

قرئ «مدخل ومخرج» بالضم والفتح: بمعنى المصدر. ومعنى الفتح: أدخلني فأدخل مدخل صدق، أي: أدخلني القبر مدخل صدق: إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، آمنا من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً. وقيل إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوّة - وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط. وقيل: الطاعة. وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان {سلطانا} حجة تنصرني على من خالفني. أو ملكاً وعزا قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه، فأجيب دعوته بقوله: {والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس} [المائدة: ٦٧]. {فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون} [المائدة: ٥٦]، {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ} [التوبة: ٣٣]، {ليستخلفنهم فِى الأرض} [النور: ٥٥] ووعده لينزعنّ ملك فارس والروم، فيجعله له. وعنه صلى الله عليه وسلم: أنه استعمل عتاب بن أُسيد على أهل مكة وقال " انطلق فقد استعملتك على أهل الله " فكان شديداً على المريب، ليناً على المؤمن وقال: لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق. فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال صلى الله عليه وسلم: " إني رأيت فيما يرى النائم كأنّ عتاب بن أسيد أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير ".

٨١ - (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ضم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت: إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملأك خدوداً سجداً، يدفون إليك دفيف النسور، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها. لهم عجيج حولك بالتلبية. . ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنماً صنماً وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: يا علي، ارم به، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد صلى الله عليه وسلم.

وشكاية البيت والوحي إليه: تمثيل وتخييل {وَزَهَقَ الباطل} ذهب وهلك، من قولهم: زهقت نفسه، إذا خرجت. والحق: الإسلام. والباطل: الشرك {كَانَ زَهُوقًا} كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

٨٢ - (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا)

{وَنُنَزِّلُ} قرئ «بالتخفيف والتشديد» {مِن القرءان} من للتبيين، كقوله: {مِنَ الأوثان} أو للتبعيض، أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيماناً، ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله " ولا يزداد به الكافرون {إِلاَّ خَسَارًا} أي نقصاناً لتكذيبهم به وكفرهم، كقوله تعالى: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥].

٨٣ - (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان} بالصحة والسعة {أَعْرَضَ} عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبدّ بنفسه {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} تأكيد للإعراض: لأنَّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين {وَإِذَا مَسَّهُ الشر} من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل {كَانَ يَئُوساً} شديد اليأس من روح الله {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} وقرئ «وناء بجانبه» بتقديم اللام على العين، كقوله «راء» في «رأى» ويجوز أن يكون من «ناء» بمعنى «نهض».

٨٤ - (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا)

{قُلْ كُلٌّ} أحد {يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ} أي على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، من قولهم «طريق ذو شواكل» وهي الطرق التي تتشعب منه، والدليل عليه قوله: {فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً} أي أسدّ مذهباً وطريقة.

٨٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله، أي مما استأثر بعلمه. وعن عبد الله بن بريدة. لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح. وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك. وقيل: جبريل عليه السلام. وقيل: القرآن و {مِنْ أَمْرِ رَبّى} أي من وحيه وكلامه، ليس من كلام البشر. بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيّ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم {وَمَا أُوتِيتُم} الخطاب عام.

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك: ساعة تقول {وَمَن يُؤْتَ الحكمة فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩] وساعة تقول هذا، فنزلت: {وَلَوْ أَنَّ مَّا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ} [لقمان: ٢٧] وليس ما قالوه بلازم؛ لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها؛ إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة. وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة، وقد تلوت {وَمَن يُؤْتَ الحكمة فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩] فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

٨٦ - (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا)

{لَنَذْهَبَنَّ} جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم. والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن

ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب {ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ} بعد الذهاب {بِهِ} من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً.

٨٧ - (إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

{إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، كأن رحمته نتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء. فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب.

٨٨ - (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

{لاَ يَأْتُونَ} جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة، لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله:

يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَا لِي وَلاَ حَرِمُ ...

أن الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه. وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة، ولا مدخل لها فيه كثاني القديم، فلا يقال للفاعل. قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز. لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

٨٩ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} ردّدنا وكرّرنا {مِن كُلِّ مَثَلٍ} من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور: الجحود. فإن قلت: كيف جاز {فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً} ولم يجز ضربت إلا زيداً؟ قلت: لأن أبى متأوّل بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورا.

٩٠ - (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا)

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فقالوا: لن نؤمن لك حتى. . . وحتى {تَفْجُرَ} تفتح. وقرئ «تفجر» بالتخفيف {مِّنَ الأرض} يعنون أرض مكة {يَنْبُوعًا} عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع: «يفعول» من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء.

٩٢ - (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا)

{كَمَا زَعَمْتَ} يعنون قول الله تعالى {إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السماء} [سبأ: ٩] وقرئ (كسفاً)، بسكون السين جمع كسفة، كسدرة وسدر وبفتحة {قَبِيلاً} كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته. والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قبيلاً، كقوله:

. . . . كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي ... بَرِيًّا. . . . .

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ ...

أو مقابلاً، كالعشير بمعنى المعاشر، ونحوه {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة أَوْ نرى رَبَّنَا} [الفرقان: ٢١] أو جماعة حالاً من الملائكة.

٩٣ - (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا

بَشَرًا رَسُولا)
{مّن زُخْرُفٍ} من ذهب {فِى السماء} في معارج السماء، فحذف المضاف. يقال: رقى في السلم وفي الدرجة {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ} ولن نؤمن لأجل رقيك {حَتَّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا} من السماء فيه تصديقك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر، كما قال عز وجل {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابا فِى قِرْطَاس} [الأنعام: ٧]، {ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون} [الحجر: ١٤] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هي أعظم - لم يكن إلى تبصرتهم سبيل {قُلْ سبحان رَبّى} وقرئ: «قال سبحان ربي» أي قال الرسول. و «سبحان ربي» تعجب من اقتراحاتهم عليه {هَلْ كُنتُ إَلاَّ} رسولاً كسائر الرسل {بَشَرًا} مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ، إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها عليّ.

٩٤ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا)
{أن} الأولى نصب مفعول ثان لمنع. والثانية رفع فاعل له. و {الهدى} الوحي. أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في {أَبَعَثَ الله} للإنكار، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه.

٩٥ - (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا)
{لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ} على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه {مُطْمَئِنّينَ} ساكنين في الأرض قارّين {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً} يعلمهم الخير ويهديهم المراشد. فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم. فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشراً وملكاً، منصوبين على الحال من رسولاً؟ قلت: وجه حسن والمعنى له أجوب.

٩٦ - (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)
{شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ} على أني بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتم وعاندتم {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ} المنذرين والمنذرين {خَبِيراً} عالماً بأحوالهم، فهو مجازيهم. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفرة. وشهيداً: تمييز أو حال.

٩٧ - (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)
{وَمَن يَهْدِ الله} ومن يوفقه ويلطف به {فَهُوَ المهتدى} لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه {وَمَن يُضْلِلِ} ومن يخذل {فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء} أنصاراً {على وُجُوهِهِمْ} كقوله: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ} [القمر: ٤٨]. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يمشون على وجوههم قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم» {عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّاً} كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق، ويتصامّون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك: لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون {كُلَّمَا خَبَتْ} كما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها، بدلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، ولا يزالون على الإفناء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث؛ ولأنه أدخل في الانتقام

من الجاحد، وقد دل على ذلك بقوله {ذَلِكَ جَزَاؤُهُم} إلى قوله {أَءِنَّا لَمَبْعوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً قُلْ{.
٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجعَلَ لَهُمْ أَجَلا لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلا كُفُورًا)
فإن قلت: علام عطف قوله {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً}؟ قلت: على قوله {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ} لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهن كما قال: أأنتم أشد خلقاً أم السماء {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} وهو الموت أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً.
١٠٠ - (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا)
{لَوْ} حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بد من فعل بعدها في {لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ} وتقديره لو تملكون تملكون، فأضمر تملك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم، لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم: فاعل الفعل المضمر، وتملكون: تفسيره! وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب. فأمّا ما يقتضيه علم البيان، فهو: أنّ أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص، وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ونحوه قول حاتم:
لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي ...
وقول المتلمس:
وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي ...
وذلك لأنّ الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر، برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم. وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا، خزائن الأرزاق لبخلوا بها {قَتُورًا} ضيقاً بخيلاً. فإن قلت: هل يقدر {لأَمْسَكْتُمْ} مفعول؟ قلت: لا، لأن معناه: لبخلتم، من قولك للبخيل ممسك.
١٠١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا)
عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل. وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات: مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا، أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه، فإذا بيض مكسور بنصفين، وجوز مكسور، وفوم وحمص وعدس، كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال: أنّ بعض اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: «أوحى الله إلى موسى: أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزحف، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت» {فَسْئَلْ بَنِى إسراءيل} فقلنا له: سل بني إسرائيل، أي: سلهم من فرعون وقل له: أرسل معي بني إسرائيل. أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم. أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك. وتدلّ عليه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: فسال بني إسرائيل، على لفظ الماضي بغير همز، وهي لغة قريش وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقيناً وطمأنينة قلب؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت، كقول إبراهيم {ولكن لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى{. فإن قلت: بم تعلق {إِذْ جَاءهُمُ}؟ قلت: أمّا على الوجه الأول فبالقول المحذوف، أي فقلنا لهم سلهم حين جاءهم، أو ب (اسأل) في القراءة الثانية. وأمّا على الأخير فبآتينا. أو بإضمار اذكر، أو يخبروك. ومعنى {إِذْ جَاءهُمُ} إذ جاء آباءهم {مَّسْحُورًا} سحرت فخولط عقلك.

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

{لَقَدْ عَلِمْتَ} يا فرعون {مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ} الآيات إلا الله عز وجل {بَصَائِرَ} بينات مكشوفات، ولكنك معاند ماكبر: ونحوه: {وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [النمل: ١٤] وقرئ «علمت» بالضم، على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر. وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك {مَثْبُورًا} هالكاً، وظني أصح من ظنك؛ لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها. وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري، إني لأظنك مسحوراً قول كذاب. وقال الفرّاء: {مَثْبُورًا} مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك؟ وقرأ أبيّ بن كعب «وإن إخالك يا فرعون لمثبوراً» على إن المخففة واللام الفارقة.

١٠٣ - (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)

{فَأَرَادَ} فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه.

١٠٤ - (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

{اسكنوا الأرض} التي أراد فرعون أن يستفزكم منها {فَإِذَا جَاء وَعْدُ الأخرة} يعني قيام الساعة {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم: واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

{وبالحق أَنزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ} وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين {وَمَا أرسلناك} إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

١٠٦ - (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا)

{وَقُرْءانًا} منصوب بفعل يفسره {فرقناه} وقرأ أبيّ «فرّقناه» بالتشديد، أي: جعلنا نزوله مفرّقاً منجماً وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ مشدّداً وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة، يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب {على مُكْثٍ} بالفتح والضم: على مهل وتؤدة وتثبت {ونزلناه تَنْزِيلاً} على حسب الحوادث.

١٠٧ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)

{قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: {إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً . . . وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} أي يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين - فإن قلت: {إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ} تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله {ءَامِنواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييب نفسه، كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم. فإن قلت: ما معنى الخرور للذقن؟ قلت: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين، لأنّ الساجد أول ما يلقى

به الأرض من وجهه الذقن، فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال:

فخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ ...

قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به، لأن اللام للاختصاص. فإن قلت: لم كرّر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

١٠٨ - (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٧]

{قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: {إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً. . . . وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} أي يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين - فإن قلت: {إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ} تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله {ءَامِنواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييب نفسه، كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم. فإن قلت: ما معنى الخرور للذقن؟ قلت: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين، لأنّ الساجد أول ما يلقى

به الأرض من وجهه الذقن، فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال:

فخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ ...

قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به، لأن اللام للاختصاص. فإن قلت: لم كرّر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٧]

{قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: {إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً. . . . وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} أي يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين - فإن قلت: {إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ} تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله {ءَامِنواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييب نفسه، كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم. فإن قلت: ما معنى الخرور للذقن؟ قلت: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين، لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن، فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال:

فخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ ...

قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص. فإن قلت: لم كرّر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

١١٠ - (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا أَلله يا رحمن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت. والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء، وهو يتعدّى إلى مفعولين، تقول: دعوته زيداً، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيداً. والله والرحمن، المراد بهما الاسم لا المسمى. وأو للتخيير، فمعنى {ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن} سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكروا إما هذا وإما هذا. والتنوين في {أَيّاً} عوض من المضاف إليه. و {مَا} صلة للإبهام المؤكد لما في أيّ، أي: أيّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم {فَلَهُ الأسماء الحسنى} والضمير في {فَلَهُ} ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأن التسمية للذات لا للاسم. والمعنى: أياما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: {فَلَهُ الأسماء الحسنى} لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان: لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء. أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم. بصلاتك بقراءة صلاتك على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين {وَلاَ تُخَافِتْ} حتى لا تسمع من خلفك {وابتغ بَيْنَ} الجهر [و] المخافتة {سَبِيلاً} وسطاً. وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً. وقيل: معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار، وقيل {بِصَلاتِكَ} بدعائك. وذهب قوم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله: {ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥٥] وابتغاء السبيل: مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة {وَلِيٌّ مِّنَ الذل} ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد؟ قلت: لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

١٨ سورة الكهف:

سورة الكهف:
مكية وآياتها ١١٠

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} ولم يجعل له شيئاً من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه.

٢ - (قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
فإن قلت: بم انتصب {قَيِّماً}؟ قلت: الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالاً من الكتاب، لأنّ قوله {وَلَمْ يَجْعَل} معطوف على أنزل، فهو داخل في حيز الصلة، فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجا جعله قيماً، لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة. فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قلت: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح. وقيل: قيما على سائر الكتب مصدقاً لها، شاهداً بصحتها. وقيل: قيماً بمصالح العباد وما لا بدّ لهم منه من الشرائع وقرئ «قيماً» «أنذر» متعدّ إلى مفعولين، كقوله {إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً} [النبأ: ٤٠] فاقتصر على أحدهما، وأصله {لِّيُنذِرَ} الذين كفروا {بَأْسًا شَدِيدًا} والبأس من قوله {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} [الأعراف: ١٦٥] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبآسة {مِّن لَّدُنْهُ} صادراً من عنده. وقرئ «من لدنه» بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون {وَيُبَشِّرُ} بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت: لم اقتصر على أحد مفعولى أنذر؟ قلت: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجب الاقتصار عليه. والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله {وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا (٤)} متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به، كما ذكر المبشر به في قوله: {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} استغناء بتقدّم ذكره. والأجر الحسن: الجنة
٥ - (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا)
{مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} أي بالولد أو باتخاذه، يعني أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته آباؤهم من الشيطان وتسويله. فإن قلت: اتخاذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلت: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ «كبرت كلمة»، وكلمة: بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة. و {تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} صفة للكلمة تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدّثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوّرا من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ «كبْرت» بسكون الباء مع إشمام الضمة. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في كبرت؟ قلت: إلى قولهم {اتخذ الله وَلَدًا} وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.
٦ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)
شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم. وقرئ «باخع نفسك»، على الأصل، وعلى الإضافة: أي قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ «إن لم يؤمنوا» وللمضي فيمن قرأ «أن لم يؤمنوا» بمعنى: لأن لم يؤمنوا {بهذا الحديث} بالقرآن {أَسَفاً} مفعول له، أي: لفرط الحزن. ويجوز أن يكون حالا والأسف: المبالغة في الحزن والغضب. يقال: رجل أسف وأسيف.
٧ - (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)
{مَا عَلَى الأرض} يعني ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها {لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً} وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا}.
٨ - (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)
وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا} من هذه الزينة {صَعِيداً جُرُزاً} يعني مثل أرض بيضاء لانبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة

بهجته، وإماطه حسنه، وإبطال ما به كان زينة: من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن.

٩ - (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)

ثم قال {أَمْ حَسِبْتَ} يعني أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدّة طويلة. والكهف: الغار الواسع في الجبل {والرقيم} اسم كلبهم. قال أمية ابن أبي الصلت:

وَلَيْسَ بِهَا إلاَّ الرَّقِيمِ مُجَاوِراً ... وَصِيدَهُمُ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمَّدُ

وقيل: هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. وقيل: إن الناس رقموا حديثهم نقراً في الجبل. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين {كَانُواْ} آية {عَجَباً} من آياتنا وصفاً بالمصدر، أو على: ذات عجب.

١٠ - (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

{مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} أي رحمة من خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء {وَهَيِّئ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا} الذي نحن عليه من مفارقة الكفار {رَشَدًا} حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله، كقولك: رأيت منك أسداً.

١١ - (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

{فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ} أي ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع، يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته، يريدون: بنى عليها القبة {سِنِينَ عَدَدًا} ذوات عدد، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده، كقوله: {لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مّن نَّهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥] وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعدّ، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

١٢ - (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

{أَيُّ} يتضمن معنى الاستفهام، فعلق عنه {لِنَعْلَمَ} فلم يعمل فيه. وقرئ «ليعلم» وهو معلق عنه أيضاً؛ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه وفاعل «يعلم» مضمون الجملة كما أنه مفعول «نعلم» {أَيُّ الحِزْبَيْنِ} المختلفين منهم في مدّة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك، وذلك قوله {قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} [الكهف: ١٩] وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم: هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم، و {أحصى} فعل ماض أي أيهم ضبط {أَمَدًا} لأوقات لبثهم. فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت: ليس بالوجه السديد، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس. ونحو «أعدى من الجرب»، و «أفلس من ابن المذلق» شاذ. والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن {أَمَدًا} لا يخلو: إما أن ينتصب بأفعل فأفعل لا يعمل. وإما أن ينصب بلبثوا، فلا يسدّ عليه المعنى. فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى، كما أضمر في قوله:

وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا ...

على: نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره. فإن قلت: كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدّة غرضاً في الضرب على آذانهم؟ قلت: الله عز وجل لم يزل عالماً بذلك، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم، ليزدادوا إيماناً واعتباراً، ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفاره.

١٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

{وزدناهم هُدًى} بالتوفيق والتثبيت.
١٤ - (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)
{وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ} وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام {إِذْ قَامُواْ} بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم {فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض. . . . . شَطَطًا} قولا ذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد. ومنه أشط في السوم وفي غيره.
١٥ - (هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)
{هَؤُلاء} مبتدأ، و {قَوْمُنَا} عطف بيان {واتخذوا} خبر وهو إخبار في معنى إنكار {لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم} هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف {بسلطان بَيّنٍ} وهو تبكيت، لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت {افترى عَلَى الله كَذِبًا} بنسبة الشريك إليه.
١٦ - (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)
{وَإِذِ اعتزلتموهم} خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم {وَمَا يَعْبُدُونَ} نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم {إِلاَّ الله} يجوز أن يكون استثناء متصلاً، على ما روي: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة. وأن يكون منقطعاً. وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله {مّرْفَقًا} قرئ «بفتح الميم وكسرها» وهو ما يرتفق به: أي ينتفع، إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوّة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم. وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً.
١٧ - (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)
{تَّزَاوَرُ} أي تمايل، أصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها. وقد قرئ «بهما». وقرئ «تزورّ وتزوارّ» بوزن تحمرّ وتحمارّ، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور: الميل عن الصدق {ذَاتَ اليمين} جهة اليمين وحقيقتها. الجهة المسماة باليمين {تَّقْرِضُهُمْ} تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة:
إِلَى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَقْوَازَ مُشْرِف ... شِمالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ
{وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ} وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ الله يحجبها عنهم. وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار {ذلك منئايات الله} أي ما صنعه الله بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة - آية من آياته، يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم، اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقنأة أبداً ومعنى (ذلك من آيات الله) أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله {مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد} ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة، ومن تعرّض للخذلان، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.
١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)
{وَتَحْسَبُهُمْ} بكسر السين وفتحها: خطاب لكل أحد والأيقاظ: جمع يقظ، كأنكاد في نكد. قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً وقيل: لكثرة تقلبهم وقيل: لهم تقلبتان في السنة وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ «ويقلبهم» بالياء والضمير لله تعالى. وقرئ «وتقلبهم» على المصدر منصوباً، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا} كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصادق «وكالبهم» أي وصاحب كلبهم {باسط ذِرَاعَيْهِ} حكاية حال ماضية؛ لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة، كغلام زيد، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة. وقيل: الباب. وأنشد:
بِأَرْضٍ فَضَاء لاَ يُسَدُّ وَصِيدُهَا ... عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرِ
وقرئ «ولملئت» بتشديد اللام للمبالغة. وقرئ «بتخفيف الهمزة وقلبها ياء»». و {رُعْبًا} بالتخفيف والتثقيل، وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة. وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم. وقيل: لوحشة مكانهم. وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال: {لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا} فقال معاوية، لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم. وقرئ: «لوُ اطلعت»، بضم الواو.
١٩ - (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)
{وكذلك بعثناهم} وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم، إدكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به {قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} جواب مبني على غالب الظن. وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ {قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدّة لبثهم، كأنّ هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أنّ المدة متطاولة، وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروي أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. فإن قلت: كيف وصلوا قولهم {فابعثوا} بتذاكر حديث المدة؟ قلت: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك، لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم. والورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة. ومنه الحديث. " أنّ عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفاً من ورق فأنتن، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب " وقرئ: «بورْقكم» بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة. وقرأ ابن كثير «بورِقكم»، بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف. وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حده. وقيل: المدينة طرسوس. قالوا: وتزوّدهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم: دليل على أنّ حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله، دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات. ومنه قول عائشة رضي الله عنها - لمن سألها عن محرم يشدّ عليه هميانه -: أوثق عليك نفقتك. وما حكي عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله، وتعولم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيئان: شدّ الهميان، والتوكل على الرحمن {بَيْنَهُمْ} أيّ أهلها، فحذف الأهل كما في قوله {واسئل القرية} [يوسف: ٨٢]، {أزكى طَعَامًا} أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص {وَلْيَتَلَطَّفْ} وليتكلف اللطف والنيقة فيما يباشره من أمر المبايعة حتى

لا يغبن. أو في أمر التخفي حتى لا يعرف {وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} يعني: ولا يفعلنّ ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعاراً منه بهم، لأنه سبب فيه الضمير في {إِنَّهُمْ}.

٢٠ - (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)

{إِنَّهُمْ} راجع إلى الأهل المقدر في {أَيُّهَا}. {يَرْجُمُوكُمْ} يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم، وكانت عادتهم {أَوْ يُعِيدُوكُمْ} أو يدخلوكم {فِي مِلَّتِهِمْ} بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها. والعود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم، يقولون: ما عدت أفعل كذا، يريدون ابتداء الفعل {وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا} إذ دخلتم في دينهم.

٢١ - (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)

{وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} وكما أنمناهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم {أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ} وهو البعث، لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث. و {إِذْ يتنازعون} متعلق بأعثرنا. أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد. وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف، وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت {فَقَالُواْ} حين توفى الله أصحاب الكهف {ابنوا عَلَيْهِمْ بنيانا} أي على باب كهفهم. لئلا يتطرّق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة {قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ} من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم {لَنَتَّخِذَنَّ} على باب الكهف {مَّسْجِدًا} يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. وقيل: إذ يتنازعون بينهم أمرهم أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم. أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنيانا، روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها، وممن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني، أنا أحبّ أحباء الله، فناموا وأنا أحرسكم. وقيل: مرّوا براع معه كلب فتبعهم على دينهم، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون الله فيه، ثم ضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن. وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد، وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً {رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم. أو هو من كلام الله عز وجل ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب.

٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

{سَيَقُولُونَ} الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من أولئك القليل. وروي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين. وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام. وعن عليّ رضي الله عنه: هم سبعة نفر أسماؤهم: يمليخا، ومكشليتيا، ومشلينيا: هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشادنوش. وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم: أفسوس. واسم كلبهم: قطمير. فإن قلت: لم جاء بسين الاستقبال في الأوّل دون الآخرين؟ قلت: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين، كما تقول: قد أكرم وأنعم، تريد معنى التوقع في الفعلين جميعاً، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له {رَجْماً بالغيب} رمياً بالخبر الخفي وإتياناً به كقوله {وَيَقْذِفُونَ بالغيب} [سبأ: ٥٣] أي يأتون به. أو وضع الرجم موضع الظنّ، فكأنه قيل: ظناً بالغيب، لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظنّ مكان قولهم ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قول زهير:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ ...

أي المظنون. وقرئ «ثلاثٌ رابعهم» بإدغام الثاء في تاء التأنيث. و {ثلاثة} خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة. وكذلك {خَمْسَةٌ} و {سَبْعَةٌ} و {رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك {سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ}، {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}. فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوّلين؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى: {وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ} [الحجر: ٤] وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم.

والدليل عليه أنّ الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله {رَجْماً بالغيب} وأتبع القول الثالث قوله {مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ} وقال ابن عباس رضي الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدّة، أي: لم يبق بعدها عدّة عادّ يلتفت إليها. وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات. وقيل: إلا قليل من أهل الكتاب. والضمير في {سَيَقُولُونَ} على هذا لأهل الكتاب خاصة، أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظنّ وتخمين {فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ} فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم، كما قال {وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]. {وَلاَ تَسْتَفْتِ} ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فتردّه عليه وتزيف ما عنده، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

٢٣ - (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا)

{وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ} ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه {إِنّى فَاعِلٌ ذلك} الشيء {غَداً} أي فيما يستقبل من الزمان. ولم يرد الغد خاصة.

٢٤ - (إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)

{إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله} متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل لأنه لو قال إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة

الله دون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين، أحدهما: ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله، بأن يأذن لك فيه. والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال. يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله وفيه وجه ثالث، وهو: أن يكون {أن يشاء الله} في معنى كلمة تأبيد، كأنه قيل ولا تقولنه أبداً. ونحوه قوله {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء الله} [الأعراف: ٨٩] لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله. وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين. فسألوه فقال: ائتوني غداً أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش {واذكر رَّبَّكَ} أي مشيئة ربك وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم تحنث. وعن سعيد بن جبير: ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة. وعن طاوس: هو على ثنياه ما دام في مجلسه. وعن الحسن نحوه. وعن عطاء: يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً. ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه: فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه ورضي عنه. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديداً في البعث على الاهتمام بها. وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به. وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. و {هذا} إشارة إلى نبإ أصحاب الكهف. ومعناه: لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أني نبيّ صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدلّ، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك. وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه {رَشَدًا} وأدنى خيراً ومنفعة. ولعل النسيان كان خيرة، كقوله {أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا} [البقرة: ١٠٦].

٢٥ - (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)

{وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثلاث مِاْئَةٍ سِنِينَ} يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدّة، وهو بيان لما أجمل في قوله {فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا} ومعنى قوله: {قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ} أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به. وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب.

٢٦ - (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

و {قُلِ الله أَعْلَمُ} رد عليهم. وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا. وسنين: عطف بيان لثلثمائة. وقرئ «ثلثمائة سنين»، بالإضافة، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله {بالاخسرين أعمالا} [الكهف: ١٠٣] وفي قراءة أبيّ «ثلثمائة سنة» {تِسْعًا} تسع سنين، لأن ما قبله يدل عليه. وقرأ الحسن «تسعاً» بالفتح، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به، وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر {مَّا لَهُم} الضمير لأهل السموات والأرض {مِن وَلِيٍّ} من متول لأمورهم {وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ} في قضائه {أَحَدًا} منهم. وقرأ الحسن: ولا تشرك، بالتاء والجزم على النهي.

٢٧ - (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له {واتل مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ} من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل،

فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها، وإنما يقدر على ذلك هو وحده {وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ} [النحل: ١٠١]. {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

٢٨ - (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نحّ هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن، وهم: صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك كما قال نوح: {أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون} [الشعراء: ١١١] فنزلت: {واصبر نَفْسَكَ} وأحبسها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُوا إذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

{بالغداة والعشى} دائبين على الدعاء في كل وقت. وقيل: المراد صلاة الفجر والعصر. وقرئ: «بالغدوة» وبالغداة أجود؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال. وإدخال اللام على تأويل التنكير كما قال:

. . . . وَالزَّيْدُ زَيْدُ المَعَارِكِ ...

ونحوه قليل في كلامهم، يقال: عداه إذا جاوزه ومنه قولهم. عدا طوره. وجاءني القوم عدا زيداً. وإنماعدي بعن، لتضمين عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه: إذا اقتحمته ولم تعلق به. فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعل عيناك عنهم؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟ ونحوه قوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالهم إلى أموالكم} [النساء: ٢] أي ولا تضموها إليها آكلين لها. وقرئ «ولا تعد عينيك، ولا تعدّ عينيك» من أعداه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو. ومنه قوله:

فَعُدْ عَمَّا تَرَى إذْ لاَ ارْتِجَاعَ لَهُ ...

لأن معناه: فعد همك عما ترى. نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدرى بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحاً إلى زيّ الأغنياء وحسن شارتهم {تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا} في موضع الحال {مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ} من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان. أو وجدناه غافلاً عنه، كقولك: أجبنته وأفحمته وأبخلته، إذا وجدته كذلك. أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة، أي: لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله {واتبع هواه} وقرئ «أغفلنا قلبه» بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه غافلين، من أغفلته إذا وجدته غافلاً {فُرُطًا} متقدّماً للحق والصواب نابذاً له وراء ظهره من قولهم «فرس فرط» متقدّم للخيل.

٢٩ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)

{وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ} الحق خبر مبتدأ محذوف. والمعنى: جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين. شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وبيت مسردق: ذو سرادق وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار. وقيل: حائط من نار يطيف بهم {يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل} كقوله:

. . . . فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ ...

وفيه تهكم. والمهل: ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل: درديّ الزيت {يَشْوِى الوجوه} إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته. عن النبي صلى الله عليه وسلم: «هو كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه» {بِئْسَ الشراب} ذلك {وَسَاءتْ} النار {مُرْتَفَقًا}

متكأ من المرفق، وهذا لمشاكلة قوله {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً} [الكهف: ٣١] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، إلا أن يكون من قوله:
إنّي أرِقْتُ فَبِتُّ اللّيْلَ مُرْتَفِقا ... كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَذبُوح
٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا)
{أولئك} خبر إن و {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} اعتراض، ولك أن تجعل {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} و {أولئك} خبرين معاً. أو تجعل {أولئك} كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: {مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} و {الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات} ينتظمهما معنى واحد، فقام: {مَنْ أَحْسَنَ} مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملا منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء. والثانية للتبيين وتنكير {أَسَاوِرَ} لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو مارقّ من الديباج، وبين الإستبرق: وهو الغليظ منه، جمعاً بين النوعين وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.
٣١ - (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{أولئك} خبر إن و {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} اعتراض، ولك أن تجعل {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} و {أولئك} خبرين معاً. أو تجعل {أولئك} كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت {إِنَّا لاَ نُضِيعُ} خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: {مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} و {الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات} ينتظمهما معنى واحد، فقام: {مَنْ أَحْسَنَ} مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملا منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء. والثانية للتبيين وتنكير {أَسَاوِرَ} لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو مارقّ من الديباج، وبين الإستبرق: وهو الغليظ منه، جمعاً بين النوعين وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.
٣٢ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)
{واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ} أي ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله {قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ} [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها. فاشترى الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدّق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدّق به. ثم تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحور. ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدّق به ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به في حشمه، فتعرّض له، فطرده ووبخه على التصدّق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد {جَنَّتَيْنِ مِنْ أعناب} بستانين من كروم {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ} وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفوه، إذا أطافوا به: وحففته بهم. أي جعلتهم حافين حوله، وهو متعدّ إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانياً، كقولك: غشيه، وغشيته به {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا} جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بماء وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السيح بالنهر الجاري فيها.
٣٣ - (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا)

والأكل: الثمر. وقرئ «بضم الكاف» {وَلَمْ تَظْلِمِ} ولم تنقص. وآتت: حمل على اللفظ، لأنّ {كِلْتَا} لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتتا على المعنى: لجاز وقرئ «وفجرنا» على التخفيف وقرأ عبد الله «كل الجنتين آتى أكله» بردّ الضمير على كل.

٣٤ - (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} أي أنواع من المال، من ثمر ماله إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة، أي: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء {وَأَعَزُّ نَفَراً} يعني أنصاراً وحشماً. وقيل: أولاداً ذكوراً، لأنهم ينفرون معه دون الإناث، يحاوره: يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحار كلمة.

٣٥ - (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)

يعني قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه. فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت: معناه ودخل ما هو جنته ماله جنة غيرها، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما {وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} وهو معجب بما أوتي مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرّض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته: لطول أمله واستيلاء الحرص عليه وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه.

٣٦ - (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى} إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تطمعاً وتمنياً على الله، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله {إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى} [فصلت: ٥٠]، {لأوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً} [مريم: ٧٧]. وقرئ: «خيراً منهما» ردّا على الجنتين {مُنقَلَباً} مرجعاً وعاقبة. وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه، لأنها فانية وتلك باقية.

٣٧ - (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا)

{خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ} أي خلق أصلك، لأنّ خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له {سَوَّاكَ} عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث، كما يكون المكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم كافراً.

٣٨ - (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)

{لَّكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّى} أصله لكن أنا، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان فكان الإدغام. ونحوه قول القائل:

وَتَرْمِينَنِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِب ... وَتَقْلِينَنِي لَكِنَّ إِيَّاكِ لاَ أَقْلِي

أي: لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربي، والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه ياء الضمير. وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعاً، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة. وغيره لا يثبتها إلا في الوقف. وعن أبي عمرو أنه وقف بالهاء: لكنه. وقرئ «لكن هو الله ربي»، بسكون النون وطرح أنا. وقرأ أبيّ بن كعب: «لكن أنا» على الأصل. وفي قراءة عبد الله «لكن أنا لا إله إلا هو ربي». فإن قلت: هو استدراك لماذا؟ قلت: لقوله {أَكَفَرْتَ} قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر.

٣٩ - (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا)

{مَا شَاء اللهُ} يجوز أن تكون {مَا} موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما شاء الله. أو شرطية منصوبة

الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أي شيء شاء الله كان. ونظيرها في حذف الجواب {لَوْ} في قوله: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال} [الرعد: ٣١] والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله، اعترافاً بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده: إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها، وقلت {لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله} إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى. وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب، فيدخل من شاء. وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ {أَقَلَّ} بالنصب فقد جعل أنا فصلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّ خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لترني. وفي قوله {وَوَلَدًا} نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله {وَأَعَزُّ نَفَراً} [الكهف: ٣٤] والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة.

٤٠ - (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

{خَيْرًا مّن جَنَّتِكَ} ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك. والحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، بمعنى الحساب، أي: مقداراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج: عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك. وقيل حسباناً مرامي الواحدة حسبانة وهي الصواعق {صَعِيدًا زَلَقًا} أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقاً.

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)

و {غَوْرًا} كلاهما وصف بالمصدر.

٤٢ - (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

{وَأُحِيطَ} به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدوّ؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله تعالى {إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦] ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدوّ: إذا جاءهم مستعلياً عليهم. وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأنّ النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدّى تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم {عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} أي أنفق في عمارتها {وَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا} يعني أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم. قيل: أرسل الله عليها ناراً فأكلتها {ياويلتا لَيْتَنِى} تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان.

٤٣ - (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا)

وقرئ: «ولم يكن» بالياء والتاء، وحمل {يَنصُرُونَهُ} على المعنى دون اللفظ، كقوله {فِئَةٌ تقاتل فِى سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ} [آل عمران: ١٣]. فإن قلت: ما معنى قوله: {يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله}؟ قلت: معناه يقدرون على نصرته من دون الله، أي: هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل {وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً} وما كان ممتنعاً بقوّته عن انتقام الله.

٤٤ - (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

{الولاية} بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، تقريراً لقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله} [الكهف: ٤٣] أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطرّ. يعني أنّ قوله {ياليتنى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّى أَحَدًا} [الكهف: ٤٢] كلمة ألجيء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى:

هالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدّق قوله: {عسى رَبّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السماء} [الكهف: ٤٠] ويعضده قوله {خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْباً} أي لأوليائه وقيل {هُنَالِكَ} إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله، كقوله {لّمَنِ الملك اليوم} [غافر: ١٦] وقرئ: «الحق» بالرفع والجرّ صفة للولاية والله. وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد، كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم. وقرئ «عقباً» بضم القاف وسكونها، وعقبى على فعلى، وكلها بمعنى العاقبة.

٤٥ - (وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

{فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض} فالتفّ بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً. وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روي ورف رفيفاً، وكان حق اللفظ على هذا التفسير: فاختلط بنبات الأرض. ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه. والهشيم: ما تهشم وتحطم، الواحدة هشيمة. وقرئ «تذروه الريح» وعن ابن عباس: تذريه الرياح، من أذرى: شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء، بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن {وَكَانَ الله على كُلّ شَىْء} من الإنشاء والإفناء {مُّقْتَدِراً}.

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا)

{والباقيات، الصالحات} أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا. وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر. وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله {خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ثَوَابًا} أي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

قرئ: «تسير» من سيرت، ونسير من سيرنا «وتسير» من سارت، أي: تسير في الجو. أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثاً. وقرئ: «وترَى الأرض» على البناء للمفعول {بَارِزَةً} ليس عليها ما يسيرها مما كان عليها {وحشرناهم} وجمعناهم إلى الموقف. وقرئ: «فلم نغادر» بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره إذا تركه. ومنه الغدر. ترك الوفاء. والغدير: ما غادره السيل. وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان.

٤٨ - (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا)

{صَفَّا} مصطفين ظاهرين، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا} أي قلنا لهم: لقد جئتمونا. وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير. ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر. والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم {أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أوّلاً، كقوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى} [الأنعام: ٩٤]. فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك {مَّوْعِدًا} وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

٤٩ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

{الكتاب} للجنس وهو صحف الأعمال {يا ويلتنا} ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات {صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً} هنة صغيرة ولا كبيرة، وهي عبارة عن الإحاطة، يعني: لا يترك شيئاً من المعاصي إلاّ أحصاه، أي: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلاً

ولا كثيراً، لأن الأشياء إمّا صغار وإمّا كبار. ويجوز أن يريد: وإمّا كان عندهم صغائر وكبائر. وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة. وعن ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة القهقهة. وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس، والكبيرة الزنا. وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر {إِلاَّ أَحْصَاهَا} إلاّ ضبطها وحصرها {وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا} في الصحف عتيداً. أو جزاء ما عملوا {وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} فيكتب عليه ما لم يعمل. أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظُلْم الله في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

٥٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا)

{كَانَ مِنَ الجن} كلام مستأنف جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبّهِ} والفاء للتسبيب أيضاً، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه، لأنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله، لأنّ الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس، كما قال: {لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٧] وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم. فما أبعد البون بين ما تعمده الله، وبين قول من ضادّه وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة، فعصى، فلعن ومسخ شيطاناً، ثم ورّكه على ابن عباس. ومعنى {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبّهِ} خرج عما أمره به ربه من السجود. قال:

فَوَاسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا ...

أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله: {اسجدوا لآدَمَ}. {أَفَتَتَّخِذُونَهُ} الهمزة للإنكار والتعجيب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه {وَذُرّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِى} وتستبدلونهم بي، بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعته.

٥١ - (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

{مَّا أَشْهَدتُّهُمْ} وقرئ: «ما أشهدناهم»، يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: {مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض} لأعتضد بهم في خلقها {وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ} أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين} بمعنى وما كنت متخذهم {عَضُداً} أي أعواناً، فوضع المضلين موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟ وقرئ: «وما كُنْتَ» بالفتح: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنى: وما صحّ لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم. وقرأ علي رضي الله عنه: «وما كنت متخذاً المضلين» بالتنوين على الأصل. وقرأ الحسن: «عضدا» بسكون الضاد، ونقل ضمتها إلى العين. وقرئ: «عُضْداً» بالفتح وسكون الضاد. و «عُضُدا» بضمتين و «عَضَداً» بفتحتين: جمع عاضد، كخادم وخدم، وراصد ورصد، ومن عضده: إذا قواه وأعانه.

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا)

{يِقُولُ} بالياء والنون. وإضافة الشركاء إليه على زعمهم: توبيخاً لهم وأراد الجنّ والموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقاً، ووبق يوبق وبقاً: إذا هلك. وأوبقه غيره. ويجوز أن يكون مصدراً كالمورد والموعد، يعني: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً. وعن الحسن {مَّوْبِقاً} عداوة. والمعنى: عداوة هي في شدتها هلاك، كقوله لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً. وقال الفراء: البين الوصل أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة. ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم، وبالموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الأشواط لفرط بعده، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)
{فَظَنُّواْ} فأيقنوا {مُّوَاقِعُوهَا} مخالطوها واقعون فيها {مَصْرِفًا} معدلاً. قال:
أَزُهَيْرَ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ ...
٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا)
{أَكْثَرَ شَئ جَدَلاً} أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد، خصومة ومماراة بالباطل. وانتصاب {جَدَلاً} على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه: {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [النحل: ٤].
٥٥ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا)
{أن} الأولى نصب. والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره {وَمَا مَنَعَ الناس} الإيمان والاستغفار {إِلا} انتظار {أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين} وهي الإهلاك {أَوْ} انتظار أن {يَأْتِيَهُمُ العذاب} يعني عذاب الآخرة {قُبُلاً} عياناً. وقرئ: «قِبَلا» أنواعاً: جمع قبيل. و «قَبَلا»، بفتحتين: مستقبلاً.
٥٦ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا)
{لِيُدْحِضُواْ} ليزيلوا ويبطلوا، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن موطئها {وَمَا أُنْذِرُواْ} يجوز أن تكون {مَا} موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: «هزأ»، بالسكون، أي: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم: قولهم للرسل: {مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَلَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة} [المؤمنون: ٢٤] وما أشبه ذلك.
٥٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)
{بأيات رَبِّهِ} بالقرآن، ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً في قوله: {أَن يَفْقَهُوهُ}. {فَأَعْرَضَ عَنْهَا} فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر {وَنَسِىَ} عاقبة {مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} من الكفر والمعاصي، غير متفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بدّ لهما من جزاء. ثم علّل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ من ومعناه {فَلَنْ يَهْتَدُواْ} فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدّة تصميمهم {أَبَدًا} مدّة التكليف كلها. و {إِذًا} جزاء وجواب، فدلّ على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.
٥٨ - (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلا)
{الغفور} البليغ المغفرة {ذُو الرحمة} الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال مع إفراطهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ} وهو يوم بدر {لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} منجى ولا ملجأ. يقال: «وأل» إذا نجا، و «وأل إليه» إذا لجأ إليه.
٥٩ - (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)
{وَتِلْكَ القرى} يريد قرى الأوّلين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا. {تِلْكَ} مبتدأ، و {القرى} صفة: لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، و {أهلكناهم} خبر. ويجوز أن يكون {تِلْكَ القرى} نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير. والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم {لَمَّا ظَلَمُواْ} مثل ظلم أهل مكة {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته. وقرئ: «لَمَهلكهم» بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أي: لهلاكهم

أو وقت هلاكهم. والموعد: وقت، أو مصدر.
٦٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)
{لفتاه} لعبده. وفي الحديث: " ليقل أحدكم فتاي وفتاتي "، ولا يقل: عبدي وأمتي. وقيل: هو يوشع بن نون. وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه. وقيل: كان يأخذ منه العلم. فإن قلت: {لا أَبْرَحُ} إن كان بمعنى لا أزول - من برح المكان - فقد دلّ على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بدّ من الخبر، قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر، لأنّ الحال والكلام معاً يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فلأن قوله: {حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين} غاية مضروبة وتستدعي ما هي غاية له، فلا بدّ أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف. ويجوز أن يكون. المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان. ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق. وقيل: طنجة. وقيل: أفريقية. ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر، لأنهما كانا بحرين في العلم. وقرئ: «مجمع» بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل {أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً} أو أسير زماناً طويلاً. والحقب ثمانون سنة. وروي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه. فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى. وقيل: إنّ موسى سأل ربه: أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى، أو تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة.
قال: يا ربِ، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأني بأرضنا السلام، فعرّفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله [إلا] مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر {نَسِيَا حُوتَهُمَا} أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة. وقيل: نسي يوشع أن يقدّمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلا منها. وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء {سَرَباً} أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر.
٦١ - (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]
{لفتاه} لعبده. وفي الحديث: " ليقل أحدكم فتاي وفتاتي "، ولا يقل: عبدي وأمتي. وقيل: هو يوشع بن نون. وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه. وقيل: كان يأخذ منه العلم. فإن قلت: {لا أَبْرَحُ} إن كان بمعنى لا أزول - من برح المكان - فقد دلّ على الإقامة

لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بدّ من الخبر، قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر، لأنّ الحال والكلام معاً يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فلأن قوله: {حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين} غاية مضروبة وتستدعي ما هي غاية له، فلا بدّ أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف. ويجوز أن يكون. المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان. ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق. وقيل: طنجة. وقيل: أفريقية. ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر، لأنهما كانا بحرين في العلم. وقرئ: «مجمع» بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل {أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً} أو أسير زماناً طويلاً. والحقب ثمانون سنة. وروي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه. فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى. وقيل: إنّ موسى سأل ربه: أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى، أو تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة.

قال: يا ربِ، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأني بأرضنا السلام، فعرّفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله [إلا] مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر {نَسِيَا حُوتَهُمَا} أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة. وقيل: نسي يوشع أن يقدّمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلا منها. وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء {سَرَباً} أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر.

٦٢ - (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً)

{فَلَمَّا جَاوَزَا} الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه. ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله: {مِن سَفَرِنَا هذا} إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك، ومثله لا ينسى لكونه أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها لكونه معجزتين ثنتين: وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها - وقيل: ما كانت إلاّ شق سمكة - وقياء الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه؟ ثم كيف استمرّ به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضري بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب، واستأنس بإخوانه فأعان الإلف على قلة الاهتمام.

٦٣ - (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

{أَرَأَيْتَ} بمعنى أخبرني. فإن قلت: ما وجه التئام هذا الكلام، فإن كل واحد من {أَرَأَيْتَ} و {إِذْ أَوَيْنَا} و {فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت} لا متعلق له؟ قلت: لما طلب موسى عليه السلام الحوت، ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإني نسيت الحوت، فحذف ذلك.

وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت. و {أَنْ أَذْكُرَهُ} بدل من الهاء في {أَنْسَانِيهُ} أي: وما أنساني ذكره إلاّ الشيطان. وفي قراءة عبد الله: «أن اذكركه» و {عَجَباً} ثاني مفعولي اتخذ، مثل {سَرَباً} يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجباً، وهو كونه شبيه السرب. أو قال: عجباً في آخر كلامه، تعجباً من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: {أنسانيه إلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ} اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقيل: إن {عَجَباً} حكاية لتعجب موسى عليه السلام، وليس بذاك.

٦٥ - (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

{ذلك} إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ذلك الذي كنا نطلب، لأنه أمارة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام. وقرئ: «نبغ» لغير ياء في الوصل، وإثباتها أحسن، وهي قراءة أبي عمرو، وأمّا الوقف، فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لخط المصحف {فارتدا} فرجعا في أدراجهما {قَصَصًا} يقصان قصصاً، أي: يتبعان آثارهما اتباعاً. أو فارتدّا مقتصين {رَحْمَةً مّنْ عِندِنَا} هي الوحي والنبوة {مّن لَّدُنَّا} مما يختص بنا من العلم، وهو الإخبار عن الغيوب.

٦٦ - (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

{رَشَدًا} قرئ: «بفتحتين» و «بضمة وسكون» أي: علما ذا رشد، أرشد به في ديني. فإن قلت: أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه - كما قيل - موسى بن ميشا، لا موسى بن عمران لأنّ النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟ قلت: لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبيّ مثله: وإنما يغض منه أن يأخذه ممن دونه. وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر ليس بصاحب موسى، وأنّ موسى هو موسى بن ميشا، فقال: كذب عدوّ الله.

٦٧ - (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

نفي استطاعة الصبر على وجه التأكيد، كأنهما مما لا يصحّ ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح فكيف إذا كان نبياً لا يتمالك أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار.

٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

و {خُبْراً} تمييز، أي: لم يحط به خبرك [أو لأن لم تحط به] بمعنى لم تخبره، فنصبه نصب المصدر.

٦٩ - (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

{وَلاَ أَعْصِى} في محل النصب عطفاً على {صَابِراً} أي: ستجدني صابراً وغير عاص. أو لا في محل، عطفاً على ستجدني. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدّة الأمر وصعوبته، وإن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبيّ المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، بريء من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين، وأنه لا بدّ لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم.

٧٠ - (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

قرئ: «فلا تسئلني» بالنون الثقيلة، يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً - وقد علمت أنه صحيح إلاّ أنه غبي عليك وجه صحته فحميت وأنكرت في نفسك - أن لا تفاتحني بالسؤال، ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من آداب المتعلم مع

العالم والمتبوع مع التابع.
٧١ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)
{فانطلقا} على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبا قال أهلها: هما من اللصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء. وقيل: عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلما لجوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسدّ الخرق بثيابه ويقول: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} وقرئ: «لتغرّق» بالتشديد و «ليغرق أهلها» من غرق وأهلها مرفوع {جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا} أتيت شيئاً عظيماً، من أمر الأمر: إذا عظم، قال:
دَاهِيةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْراً ...
٧٣ - (قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)
{بِمَا نَسِيتُ} بالذي نسيته، أو بشيء نسيته، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته و لا مؤاخذة على الناسي. أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب، مع التوصل إلى الغرض، كقول إبراهيم: هذه أختي، وإني سقيم. أو أراد بالنسيان: الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة. يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه. أي: ولا تغشني {عُسْراً} من أمري، وهو اتباعه إياه، يعني: ولا تعسر عليَّ متابعتك، ويسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة. وقرئ: «عُسُراً»، بضمتين.
٧٤ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)
{فَقَتَلَهُ} قيل: كان قتله فتل عنقه. وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين. فإن قلت: لم قيل {حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السفينة خَرَقَهَا} بغير فاء و {حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ} قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه، والجزاء {قَالَ أَقَتَلْتَ}. فإن قلت: فلم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام. وقرئ: «زاكية» و «زكية»، وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها ظاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث {بِغَيْرِ نَفْسٍ} يعني لم تقتل نفساً فيقتص منها. وعن ابن عباس: أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل {نُّكْراً}. وقرئ: «بضمتين» وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. وقيل: معناه جئت شيئاً أنكر من الأوّل، لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا سبيل إلى تداركه.
٧٥ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)
فإن قلت: ما معنى زيادة {لَكَ}؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.
٧٦ - (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)
{بَعْدَهَا} بعد هذه الكرة أو المسألة {فَلاَ تُصَاحِبْنِى} فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرئ: «فلا تصحبني» فلا تكن صاحبي. وقرئ: «فلا تصحبني» أي فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك {مِن لَّدُنّى عُذْراً} قد أعذرت. وقرئ: «لدني»، بتخفيف النون «ولدْني» بسكون الدال وكسر النون، كقولهم في عضد: عضد. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك "، وقال: " رحمة الله علينا وعلى أخي موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب ".
٧٧ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
{أَهْلَ قَرْيَةٍ} هي إنطاكية. وقيل: الأبلة، وهي أبعد أرض الله من السماء {أَن يُضَيّفُوهُمَا}. وقرئ: «يضيفوهما» يقال: ضافه إذا كان

له ضيفاً. وحقيقته: مال إليه، من ضاف السهم عن الغرض، ونظيره: زاره من الازورار. وأضافه وضيفه: أنزله وجعله ضيفه وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " كانوا أهل قرية لئاماً " وقيل: شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه {يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ} استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهمّ والعزم لذلك. قال الراعي:

فِي مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا ... قَلَقَ الْفُئُوسِ إِذَا أَرَدْنَ نُصُولاَ

وقال:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاء ... وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَارِ بَنِي عَقِيلِ

وقال حسان:

إنَّ دَهْراً يَلِفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ. وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعار للجماد ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال:

إِذَا قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ ...

تَقُولُ سِنّي لِلنَّوَاةِ طِنّي ...

لاَ يَنطِقُ اللَّهوُ حَتَّى يَنطِقَ العُودُ ...

وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ ...

فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقاً وَهْوَ صَادِقِي ...

{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب} [الأعراف: ١٥٤]:

تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الأَبْلَقُ ...

ولبعضهم:

يَأْبَى عَلَى أَجْفَانِهِ إِغْفَاءَهُ ... هَمٌّ إِذَا انْقَادَ الْهُمُومُ تَمَرَّدَا

أَبَت الرَّوَادِفُ وَالثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ... مَسَّ الْبُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورَا

{قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١] ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخضر؛ لأنّ ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتمحل ليردّه إلى ما هو عنده أصحّ وأفصح، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز. وانقض: إذا أسرع سقوطه، من انقضاض الطائر وهو انفعل، مطاوع قضضته. وقيل: افعلّ من النقض، كاحمرّ من الحمرة. وقرئ: «أن ينقض» من النقض، «وأن ينقاص» من انقاصت السن إذا انشقت طولاً، قال ذو الرمّة:

. . . . مِنْقَاصٌ وَمُنْكَثِبُ ...

بالصاد غير معجمة {فَأَقَامَهُ} قيل: أقامه بيده. وقيل: مسحه بيده فقام واستوى. وقيل: أقامه بعمود عمده به. وقيل: نقضه وبناه. وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، ولقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن {قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} وطلبت على عملك جعلاً حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة وقرئ: «لتخذت»، والتاء في تخذ، أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه، كاتبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

٧٨ - (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

فإن قلت: {هذا} إشارة إلى ماذا؟ قلت: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام: إن سألتك عن

شيء بعدها فلا تصاحبني، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه، كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون «هذا» إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: هذا فراق بيني وبينك. وقد قرأ به ابن أبي عبلة، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

٧٩ - (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

{لمساكين} قيل كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر {وَرَاءهُم} أمامهم، كقوله تعالى: {مّن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ} [المؤمنون: ١٠٠] وقيل: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو «جلندي»». فإن قلت: قوله: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب، فلم قدّم عليه؟ قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل في قراءة أبيّ وعبد الله: كل سفينة صالحة.

٨٠ - (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)

وقرأ الجحدري: «وكان أبواه مؤمنان» على أن «كان» فيه ضمير الشأن {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا وَكُفْراً} فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما، وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدّا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سرّ أمره. وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبيّ: «نخاف ربك» والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله {فَخَشِينَا} حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا، كقوله {لأهَبَ لَكِ} [مريم: ١٩].

٨١ - (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

وقرئ: «يبدّلهما» بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف. وروي أنه ولدت لهما جارية تزوّجها نبيّ، فولدت نبياً هدى الله على يديه أمّة من الأمم. وقيل ولدت سبعين نبياً. وقيل: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما. قيل اسما الغلامين: أصرم، وصريم. والغلام المقتول: اسمه الحسين. واختلف في الكنز، فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة. وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه: (عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل. وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله). وقيل: صحف فيها علم. والظاهر لإطلاقه: أنه مال. وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة عليهم وأحلّت لنا: أراد قوله تعالى: {والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة} [التوبة: ٣٤].

٨٢ - (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

{وَكَانَ أَبُوهُمَا صالحا} اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما. وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء. وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدّي خير منه. فقال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون {رَحْمَةً} مفعول له. أو مصدر منصوب بأراد ربك، لأنه في معنى رحمهما {وَمَا فَعَلْتُهُ} وما فعلت ما رأيت {عَنْ أَمْرِى} عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله.

٨٣ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

ذو القرنين: هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. وكافران: نمروذ، وبختنصر، وكان بعد نمرود.

واختلف فيه فقيل: كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل: نبياً. وقيل: ملكاً من الملائكة. وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللّهم غفراً ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة؛ وعن علي رضي الله عنه. سخر له السحاب، ومدّت له الأسباب، وبسط له النور وسئل عنه فقال: أحبه الله فأحبه. وسأله ابن الكوّا: ما ذو القرنين أملك أم نبيّ؟ فقال: ليس بملك ولا نبيّ، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذو القرنين وفيكم مثله. قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها " وقيل: كان له قرنان، أي ضفيرتان. وقيل: انقرض في وقته قرنان من الناس. وعن وهب: لأنه ملك الروم وفارس. وروي: الروم والترك. وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس. وقيل: كان لتاجه قرنان. وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين. ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره. والسائلون: هم اليهود سألوه على جهة الامتحان. وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه، والخطاب في {عَلَيْكُمْ} لأحد الفريقين.

٨٤ - (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

{مِن كُلِّ شَىْء} أي من أسباب كل شيء، أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه {سَبَباً} طريقاً موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب.

٨٥ - (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

{فَأَتْبَعَ سَبَباً} يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق، فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السدّين فاتبع سبباً.

٨٦ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

وقرئ: «فأتبع» قرئ: «حمئة»، من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة. وحامية بمعنى حارّة. وعن أبي ذرّ: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجمل، فرأى الشمس حين غابت فقال: (يا أبا ذرّ، أتدري أين تغرب هذه؟) فقلت: الله ورسوله أعلم. قال (فإنها تغرب في عين حامية)، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عمر وابن عمرو والحسن. وقرأ ابن عباس: حمئة. وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية فقال ابن عباس: حمئة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار.

كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة. وروي: في ثأط، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع:

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِهَا ... فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَاطٍ حَرْمَدِ

أي في عين ماء ذي طين وحمإ أسود، ولا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعه للوصفين جميعاً.

٨٧ - (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا)

كانوا كفرة فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال: أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك: فذلك هو المعذب في الدارين.

٨٨ - (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

{وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ} ما يقتضيه الإيمان {فَلَهُ جَزَآءً الحسنى} وقيل: خيّره بين القتل والأسر، وسماه إحساناً في مقابلة القتل {فَلَهُ جَزَآءً

الحسنى} فله أن يجازي المثوبة الحسنى. أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة. وقرئ: «فله جزاء الحسنى» أي: فله الفعلة الحسنى جزاء. وعن قتادة: كان يطبخ من كفر في القدور، وهو العذاب النكر. ومن آمن أعطاه وكساه {مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً} أي لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك، وتقديره: ذا يسر، كقوله: {قَوْلاً مَّيْسُوراً} [الإسراء: ٢٨] وقرئ: «يُسُراً»، بضمتين.

٨٩ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً)

وقرئ: «مطلع» فتح اللام وهو مصدر. والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس، كقوله:

كَأَنَّ مَجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَهَا ...

يريد: كأن آثار مجرّ الرامسات {على قَوْمٍ} قيل: هم الزنج.

٩٠ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا)

والستر: الأبنية، وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم، وعن بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فسألت عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى، ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصة فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلوها سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم. وقيل: الستر اللباس. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

٩١ - (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

{كذلك} أي أمر ذي القرنين كذلك، أي كما وصفناه تعظيماً لأمره {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} من الجنود والآلات وأسباب الملك {خُبْراً} تكثيراً لذلك. وقيل: لم نجعل لهم من دونها ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف. وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها. وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

٩٣ - (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

{بَيْنَ السَّدَّيْنِ} بين الجبلين وهما جبلان سدّ ذو القرنين مما بينهما. قرئ: «بالضم والفتح». وقيل: ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأنّ السدّ بالضم فعل بمعنى مفعول، أي: هو مما فعله الله تعالى وخلقه. والسدّ - بالفتح -: مصدر حدث يحدثه الناس. وانتصب {بَيْنَ} على أنه مفعول به مبلوغ، كما انجر على الإضافة في قوله: {هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ} [الكهف: ٧٨] وكما ارتفع في قوله: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: ٩٤] لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق {مِن دُونِهِمَا قَوْماً} هم الترك {لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً} لا يكادون يفهمونه إلاّ بجهد ومشقّة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم وقرئ: «يفقهون» أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه، لأنّ لغتهم غريبة مجهولة.

٩٤ - (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

{يأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ} اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقرئ: «مهموزين». وقرأ رؤبة: «آجوج وماجوج»، وهما من ولد يافث. وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل والديلم. {مُفْسِدُونَ فِى الأرض} قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلاّ أكلوه، ولا يابساً إلاّ احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديداً. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم في صفتهم: " لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح " وقيل: هم على صنفين، طوال مفرطو

الطول، وقصار مفرطو القصر. وقرئ: «خرجاً» و «خراجا»، أي جعلاً نخرجه من أموالنا: ونظيرهما: النول والنوال. وقرئ: «سدا» و «سدا»، بالفتح والضم.

٩٥ - (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

{مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ} ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار، خير مما تبذلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، كما قال سليمان صلوات الله عليه: {فَمَا ءاتانى الله خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم} [النمل: ٣٦]. قرئ: بالإدغام وبفكه. {فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ} بفعله وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات {رَدْمًا} حاجزاً حصيناً موثقاً. والردم أكبر من السدّ، من قولهم: ثوب مردم، رقاع فوق رقاع. وقيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب والفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً. وقيل: بعد ما بين السدّين مائة فرسخ.

٩٦ - (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

وقرئ: «سوّى»، و «سووى». وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنّ رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته» والصدفان - بفتحتين -: جانبا الجبلين، لأنهما يتصادقان أي: يتقابلان، وقرئ: «الصدفين» بضمتين. و «الصدفين» بضمة وسكون. «الصدفين» بفتحة وضمة. والقطر، النحاس المذاب لأنه يقطر و {قِطراً} منصوب بأفرغ وتقديره آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ: «قال ائتوني»، أي جيئوني.

٩٧ - (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)

{فَمَا اسطاعوا} بحذف التاء للخفة؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء. وقرئ: «فما اصطاعوا»، بقلب السين صادا. وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء، فملاق بين ساكنين على غير الحدّ {أَن يَظْهَرُوهُ} أي يعلوه، أي: لا حيلة لهم فيه من صعود. لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلابته وثخانته.

٩٨ - (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

{هذا} إشارة إلى السدّ أي: هذا السد نعمة من الله و {رَحْمَةً} على عباده. أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّى} يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد {دَكَّاً} أي مدكوكاً مبسوطاً مستوي بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك. ومنه: الجمل الأدك: المنبسط السنام. وقرئ: «دكاء» بالمد: أي أرضاً مستوية {وَكَانَ وَعْدُ رَبّى حَقّاً} آخر حكاية قول ذي القرنين.

٩٩ - (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)

{وَتَرَكْنَا} وجعلنا {بَعْضُهُمْ} بعض الخلق {يَمُوجُ فِى بَعْضٍ} أي يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون من وراء السدّ مزدحمين في البلاد. وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون.

١٠٠ - (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} وبرّزناها لهم فرأوها وشاهدوها.

١٠١ - (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

{عَن ذِكْرِى} عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ} [البقرة: ١٨].

{وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً} يعني وكانوا صماً عنه، إلاّ أنه أبلغ؛ لأنّ الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصمت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

١٠٢ - (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا)

{عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاء} هم الملائكة، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكى عنهم {سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ} [سبأ: ٤١]. وقرأ ابن مسعود: «أفظن الذين كفروا»، وقراءة علي رضي الله عنه أفحسب الذين كفروا، أي: أفا كافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر. أو على الفعل والفاعل؛ لأنّ اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل، كقولك: أقائم الزيدان. والمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا. وهي قراءة محكمة جيدة النزل: ما يقام للنزيل وهو الضيف، ونحوه {فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١].

١٠٤ - (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

{ضَلَّ سَعْيُهُمْ} ضاع وبطل وهم الرهبان. عن علي رضي الله عنه، كقوله: {عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ} [الغاشية: ٣] وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن علي رضي الله عنه: أنّ ابن الكوّا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً.

١٠٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

{فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً} فنزدري بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأنّ الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين. وقرئ: «فلا يقيم»، بالياء. فإن قلت: الذين ضلّ سعيهم في أي محلّ هو؟ قلت: الأوجه أن يكون في محل الرفع، على: هم الذين ضلّ سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال. ويجوز أن يكون نصباً على الذمّ، أو جرّ على البدل.

١٠٦ - (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)

{جَهَنَّمَ} عطف بيان لقوله: {جَزَآؤُهُمْ}.

١٠٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

الحول: التحوّل. يقال: حال من مكانه حولاً، كقولك: عادني حبها عوداً، يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم. وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أيّ نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه. ويجوز أن يراد نفي التحوّل وتأكيد الخلود.

١٠٩ - (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

المداد: اسم ما تمدّ به الدواة من الحبر وما يمدّ به السراج من السليط. ويقال: السماد مداد الأرض. والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها، والمراد بالبحر الجنس {لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ} الكلمات {وَلَوْ جِئْنَا} بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً. والكلمات غير نافدة. و {مِدَاداً} تمييز، كقولك: لي مثله رجلاً. والمدد مثل المداد، وهو ما يمدّ به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مداداً. وقرأ الأعرج: مدداً، بكسر الميم جمع مدّة، وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به. وقرئ: «ينفد» بالياء. وقيل: قال حييّ بن أخطب: في كتابكم {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرءون: {وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً} [الإسراء: ٨٥] فنزلت، يعني: أنّ ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

١١٠ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبّهِ} فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول. وقد فسرنا اللقاء. أو: أفمن كان يخاف سوء

لقائه. والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة: أن لا يرائي بعمله، وأن لا يبتغي به إلاّ وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره. وقيل: نزلت في جندب بن زهير، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إني أعمل العمل لله، فإذا اطلع عليه سرّني، فقال: (إنّ الله لا يقبل ما شورك فيه). وروي أنه قال: " لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية " وذلك إذا قصد أن يقتدى به. وعنه صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء».

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء " وعنه صلى الله عليه وسلم: " من قرأ عند مضجعه: {قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ " والله أعلم.

١٩ سورة مريم:

سورة مريم:
مكية
وآياتها ثمان وتسعون
كلماتها: ٩٦٢؛ حروفها: ٣٨٠٢
١ - (كهيعص)
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}

{كهيعص} ١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله؛ وربما تكون اسما للسورة؛ أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب القوي والقدر،، وأورد المفسرون أقوالا أخرى؛ {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام؛ وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده؛ {إذ نادى ربه نداء خفيا}؛ لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفي دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد. . ٥.

{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع؛ [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ٦؛ وانتشر البياض في شعر رأسي؛ وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ٧؛ {ولم أكن بدعائك رب شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه؛ أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي؛ يقول الشاعر ٨:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.
{من ورائي} من بعدي في الزمن؛ نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة؛ ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. . ا ه {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم؛ قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى؛ {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا؛ دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا؛ وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ٩.
{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة؛ [وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات؛. . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين؛ و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ١٠؛ وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي؛ لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم؛ هذا وجه؛ الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا؛ الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "؛ وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "؛ وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.
{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا؛ والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا؛ وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.
٢ - (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ
{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}
{كهيعص} ١١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما تكون اسما للسورة؛ أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب القوي والقدر،، وأورد المفسرون أقوالا أخرى؛ {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ١٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ١٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام؛ وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده؛ {إذ نادى ربه نداء خفيا}؛ لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ١٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفى دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص

عن لائمة الناس على طلب الولد. . ١٥.
{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع؛ [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ١٦؛ وانتشر البياض في شعر رأسي؛ وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ١٧؛ {ولم أكن بدعائك رب شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه؛ أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي؛ يقول الشاعر ١٨:
مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.
{من ورائي} من بعدي في الزمن؛ نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة؛ ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. . ا ه {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم؛ قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى؛ {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا؛ دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا؛ وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ١٩.
{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة؛ [وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات؛. . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين؛ و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ٢٠؛ وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي؛ لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم؛ هذا وجه؛ الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا؛ الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "؛ وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "؛ وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.
{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا؛ والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا؛ وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.
٣ - (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{نداء} دعاء. {خفيا} لم يرفع به صوته، أو دعا سرا.
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ
{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا

وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}

{كهيعص} ٢١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما تكون اسما للسورة، أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب القوي والقدر.، وأورد المفسرون أقوالا أخرى، {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ٢٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ٢٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام، وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده، {إذ نادى ربه نداء خفيا}، لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ٢٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفي دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد. . ٢٥.

{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع، [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ٢٦، وانتشر البياض في شعر رأسي، وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ٢٧، {ولم أكن بدعائك رب شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه، أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي، يقول الشاعر ٢٨:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.

{من ورائي} من بعدي في الزمن، نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. . ا ه {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم، قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى، {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا، دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا، وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ٢٩.

{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة، [وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات،. . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين، و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ٣٠، وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي، لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، هذا وجه، الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا، الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "، وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "، وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.

{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا، والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا، وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.
٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{وهن} ضعف. {اشتعل الرأس شيبا} انتشر البياض في شعر رأسي.
{لم أكن بدعائك رب شقيا} لم أكن لأخيب وأنا أدعوك.
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ
{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}
{كهيعص} ٣١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما تكون اسما للسورة، أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب القوي والقدر،، وأورد المفسرون أقوالا أخرى، {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ٣٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ٣٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام، وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده، {إذ نادى ربه نداء خفيا} لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ٣٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفي دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد. . ٣٥.
{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع، [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ٣٦، وانتشر البياض في شعر رأسي، وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ٣٧، {ولم أكن بدعائك رب شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه، أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي، يقول الشاعر ٣٨:
مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.
{من ورائي} من بعدي في الزمن، نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. . ا ه {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم، قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى، {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا، دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا، وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ٣٩.
{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة،

[وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات؛. . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين؛ و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ٤٠؛ وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي، لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم؛ هذا وجه، الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا؛ الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "، وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "، وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.

{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا؛ والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا؛ وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.

٥ - (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{الموالي} القرابة. {من ورائي} من خلفي ومن بعد موتي. {عاقرا} عقيما لا تلد.

{فهب لي} فأعطني تفضلا منك. {من لدنك} من عندك. {وليا} تابعا ومحبا ومعينا.

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}

{كهيعص} ٤١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما تكون اسما للسورة؛ أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب القوي والقدر،، وأورد المفسرون أقوالا أخرى؛ {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ٤٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ٤٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام؛ وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده؛ {إذ نادى ربه نداء خفيا}؛ لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ٤٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفى دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد. . ٤٥.

{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع؛ [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ٤٦؛ وانتشر البياض في شعر رأسي؛ وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ٤٧؛ {ولم أكن بدعائك رب

شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه، أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي، يقول الشاعر ٤٨:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.

{من ورائي} من بعدي في الزمن، نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. . ا ه {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم، قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى، {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا، دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا، وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ٤٩.

{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة، [وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات، . . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين، و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ٥٠، وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي، لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، هذا وجه، الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا، الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "، وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "، وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.

{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا، والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا، وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.

٦ - (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا. {ويرث من آل يعقوب} يخلف بني يعقوب في علمهم وحكمتهم. {رضيا} راضيا ومرضيا عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{كهيعص {١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {٦)}

{كهيعص} ٥١ قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما تكون اسما للسورة، أو كباقي فواتح السور، يمكن أن يراد بها التحدي، على معنى: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد حروف تنطقون بها، والقرآن حروفه كتلك التي بها تتكلمون، لكنكم عجزتم وأنتم العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل هذا الفرقان الذي أنزلناه بلسان عربي مبين، فعلم بذلك أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام

رب القوي والقدر.، وأورد المفسرون أقوالا أخرى؛ {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} لعل المعنى: هذا الذي نوحيه إليك فيه ذكر ٥٢ رحمة مولاك التي نالت عبد الله ونبيه زكريا ٥٣ عليه السلام وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ومن نسل سليمان عليه السلام، وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده؛ {إذ نادى ربه نداء خفيا}؛ لكأن المعنى: اذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ دعاه دعاء يسر ٥٤ به، أو يستره عن الناس وإنما أخفي دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد. . ٥٥.

{قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} كان من دعاء زكريا عليه السلام أن تضرع إلى ربه بتذلل وخضوع؛ [وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، ووحده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن] ٥٦؛ وانتشر البياض في شعر رأسي؛ وأورد علماء المعاني أن في الآية لطائف ٥٧؛ {ولم أكن بدعائك رب شقيا} كأنما يتوسل عليه السلام إلى ربنا ومولانا بما من عليه من قبل وأنه بفضله يحقق سؤله، ولا يخيب رجاءه؛ أي لم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي. {وإني خفت الموالي من ورائي}: {الموالي} القرابة والعصبة وأبناء العم، والعرب تسمي بني العم: موالي؛ يقول الشاعر ٥٨:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا.

{من ورائي} من بعدي في الزمن؛ نقل عن مجاهد وقتادة وغيرهما: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. ٠ ا ٥ {وكانت امرأتي عاقرا} وقد كانت زوجتي لا تلد، من حيث شبابها إلى مشيبها وهي عقيم؛ قالوا: والعاقر وصف يستوي فيه الذكر والأنثى؛ {فهب لي من لدنك وليا} فأعطني اللهم تفضلا من عندك تابعا ومحبا ومعينا؛ دعا ربه أن يمنحه ولدا بارا؛ وفي سورة آل عمران حكى الله دعاء زكريا عليه السلام بما في الآية الكريمة: {. . دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ٥٩.

{يرثني ويرث من آل يعقوب} ينال هذا الولي الذي سألتك أن تمنحنيه ينال مما آتيتني من العلم، وما آتيت أبناء لإسرائيل من النبوة؛ [وقوله: {يرثني ويرث من آل يعقوب} صفة لوليا كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات؛. . . وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين؛ و {يعقوب} على ما روى عن السدي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. . . والمراد من الوراثة في الموضعين العلم على ما قيل] ٦٠؛ وذهب بعض إلى أن {يرثني} يراد به يرث مالي؛ لكن صاحب تفسير القرآن العظيم رد هذا الرأي بما حاصله: النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم؛ هذا وجه؛ الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا؛ الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة "؛ وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: " نحن معشر الأنبياء لا نورث "؛ وعلى هذا فتعين حمل قوله: {فهب لنا من لدنك وليا. يرثني} على ميراث النبوة، ولهذا قال: {ويرث من آل يعقوب} كقوله: {وورث سليمان داود) أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة ما أخبر بها.

{واجعله رب رضيا} يدعوا أن يكون هذا الذي سيرزقه الله إياه من أهل محبة الله أي: مرضيا عندك قولا وفعلا، وقيل راضيا؛ والأول أنسب. . وعلى ما قلنا يكون دعا بتوفيقه للعمل، كما أن الأول متضمن للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنه طلب أن يكون ولده عالما عاملا؛ وقيل: اجعله مرضيا بين عبادك أي متبعا.

٧ - (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الْكِبَرِ عِتِيًّا {٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا {٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا {١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا {١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا {١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا {١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا {١٥)}

{نبشرك} نخبرك الخبر الذي يسرك وتنبسط به بشرة وجهك. {غلام} ولد ذكر. {سميا} شريكا في الاسم، أو مساويا في الدرجة.

استجاب ربنا السميع لدعاء عبده ونبيه زكريا، فنودي أن حققنا سؤلك، فطب نفسا بما آتاك مولاك، وسيولد لك غلام ليس مثله غلام، فنحن الذين سميناه، ولن يطاول أحد ما منحناه، والقرآن الكريم يبين في آية مباركة ثانية أن الملائكة حملت الوحي وبلغته عن الله عز وجل: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) ٦١، وفي سورة كريمة أخرى يقول الحق جل علاه: {وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ٦٢

مما نقل صاحب روح المعاني: {يا زكريا} على إرادة القول. . أي:. . قال الله تعالى:. . . لكن لا بأن يخاطبه سبحانه وتعالى بذلك بالذات بل بواسطة الملك. . . . . وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب في قوله تعالى: {فاستجبنا له) الآية، لأنه تعقيب عرفي، كما في: تزوج فولد له؛. . . وفي تعيين اسمه. . تأكيد للوعد وتشريف. . . وفي تخصيصه به. . . . مزيد من تشريف وتفخيم له عليه السلام. ا هـ. [ومنّ عليه تعالى بأن لم يكل تسميته إلى الأبوين؛. . {سميا} معناه: مثلا ونظيرا، وهو مثل قوله تعالى: {هل تعلم له سميا} معناه مثلا ونظيرا؛ وهذا كأنه من المساماة والسمو؛ وهذا فيه بعد؛ لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى؛ اللهم إلا أن يفضل في خاص كالسؤدد ٦٣ والحصر. . .] ٦٤.

{قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا} يتعجب عليه السلام ويسأل عن الكيفية التي سيأتي بها الولد من أم ٦٥ لم تلد من أول عمرها، فكيف إذا صارت عجوزا، ومن أب عسا عظمه وتيبس؟!. - قال زكريا لما بشره الله بيحيى: رب. . . من أي وجه يكون لي ذلك وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعفت من الكبر عن مباضعة النساء؟! أبأن تقويني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولودا، فإنك القادر على ذلك و على ما تشاء؟! أم بأن أنكح زوجة غير زوجتي العاقر؟! يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون من قبله الولد الذي بشره الله به، لا إنكارا منه صلى الله عليه وسلم حقيقة كون ما وعده الله من الولد! وكيف يكون ذلك منه إنكارا لأن يرزقه الولد الذي بشره؟! ٦٦.

{قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا} قال الملك الذي جاء بالوحي إلى زكريا مجيبا على استخباره: الأمر كما ذكرت من أنك صرت بسبب الكبر ناحل القوة، وأن امرأتك ليست ولودا؛ ولكن ربك يقول: خلق ما بشرتك به فعل هين علي ليس عسيرا ـ وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك وعقم زوجك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك فأنشأتك بشرا سويا، من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهبه لك من الولد، ولم تك شيئا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عتيك، ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك- ٦٧.

{قال رب اجعل لي آية}، سأل ربه أن يسوق له علامة على تحقق البشرى ليطمئن إلى ذلك قلبه؛ قال الزجاج: وكان هذا السؤال لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه، وهو أمر خفي لا يوقف عليه، لاسيما إذا كانت زوجته ممن انقطع حيضها لكبرها، وأراد أن يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حيث حدوثها، ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهورا معتادا. ا هـ.

{قال آيتك ألا تكلم الناس} قال الله تعالى له ـ محققا ما طلبه ـ العلامة التي سألتنيها هي عجزك عن تكليم الناس، مع قدرتك على ترديد كلامي وذكري؛ {ثلاث ليال} [مع أيامهن، للتصريح بالأيام في سورة آل عمران. . والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهما عن الآخر. . .؛ {سويا} حال. . مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض] ٦٨.

{فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا} فحين حبس لسان زكريا عن القدرة على مكالمة البشر علم أن هذه هي العلامة التي وعد، فخرج من مصلاه على جمع كانوا خارجا فأشار إليهم أن نزهوا الله تعالى واذكروه كثيرا، وقدسوه أول النهار وآخره؛ مما نقل عن صاحب التحرير والتحبير: إنما خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمرا عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة، أو غريب حكمة، يقول: سبحان الله تعالى. . فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك، فسبح وأمر بالتسبيح. ا هـ؛ وعن قتادة: أومى إليهم أن صلوا بكرة وعشيا.

{يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا} ههنا إضمار، ولعل التقدير: فلما ولد له، وبلغ المولود سنا يؤمر مثله فيه، قلنا له: يا يحيى خذ التوراة بجد وعزيمة في قراءتها والعمل بها، وقد أعطيناه الحكمة ونفاذ البصيرة، ورجاحة العقل منذ صباه.

{وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا} وأعطيناه رحمة وعطفا وحبا، يتراحم مع الخلق ويتعاطف، ويوادّهم ويوادّونه؛ وطهرا من الدنس والآثام، وعملا على مرضاة الملك العلام؛ يقول بعضهم: التقدير: وآتيناه الحكم وحنانا، وجعلناه ذا حنان وزكاة.

{وبرا بوالديه} أي: وكان كثير البر بوالديه والإحسان إليهما؛ {ولم يكن جبارا} لم يكن متعاليا عن قبول الحق، ولا متطاولا على الخلق؛ وعن ابن عباس: أنه الذي يقتل ويضرب عن الغضب؛ وقال الراغب: هو في صفة الإنسان، يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها {عصيا} مخالفا أمر مولاه عز وجل، فذلك هو العصي، أو: هو العاق لوالديه؛ وقد حما الله تعالى نبيه يحيى عليه السلام من كل تلك المساوئ.

{وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا} بشرى من الحق تبارك اسمه لعبد الله ورسوله يحيى، أن مولاه أمّنه منذ ولد، فلا يمسه شيطان، وأمّنه يوم موته فلا يستوحش لفراق الدنيا، ولا يذوق عذاب القبر، وأمّنه يوم البعث من الأهوال والعذاب والخزي والنكال؛ - وجيء، بالحال للتأكيد، وقيل: للإشارة إلى أن البعث جسماني لا روحاني - ٦٩

٨ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا)

{أنى} كيف ومن أين؟ {عتيا}، تيبسا، وحالا لم تجر العادة بالفكاك منها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

٩ - (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

{هين} ليس عسيرا ولا صعبا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٠ - (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

{آية} علامة على تحقق سؤلي. {سويا} معافى ما به من علة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١١ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

{المحراب} مقدمة المسجد، مكان الصلاة. {فأوحى} فأومأ وأشار. {بكرة} من أول النهار إلى وسطه. {وعشيا} من وسط النهار إلى آخره.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٢ - (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)

{الكتاب} الذي أنزل من ربك. {بقوة} بجد وقراءة وعمل.

{الحكم} الحكمة ونفاذ البصيرة. {صبيا} قبل بلوغه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٣ - (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا)

{حنانا} رحمة وعطفا وحبا. {من لدنا} من عندنا. {وزكاة} وطهرا {تقيا} مستديما تقوى الله، وملتزما ما يبلغ رضاه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
١٤ - (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)
{برا} عظيم البر. {جبارا} مستكبرا، أو باغيا متطاولا. {عصيا} مخالفا أمر الله عز وجل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
١٥ - (وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)
{سلام} أمان من ربه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
١٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)
{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا {١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا {١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا {١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا {١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا {٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا {٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا {٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا {٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا {٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا {٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا {٢٦)}
{انتبذت} اعتزلت، وتنحت، واطرحت.
الحكيم العليم - جل علاه - يقص علينا من أنباء زكريا ويحيى، ثم من أنباء مريم وعيسى - عليهم السلام - فإن القصتين مناسبة ومشابهة، وليدل عباده على قدرته، وهيمنته وعظمته، وتدبيره ٧٠ وحكمته، ولقد جاءتا مقترنتين في سور مباركة كثيرة؛ فحين حدثنا الكتاب العزيز عن ولادة مريم ونذر أمها أن تجعلها في خدمة البيت المقدس جاء قول الله تبارك وتعالى: {هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) ٧١؛ وبعد تمام القصة جاء قول الحق تبارك اسمه: {إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) ٧٢؛ وفي سورة كريمة أخرى جاء الحديث عن زكريا ويحيى، وتلاه على الأثر نبأ عيسى وأمه، يقول المولى جل ثناؤه: {وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين. والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) ٧٣.
{واذكر في الكتاب مريم} أمر من الله تعالى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أن اذكر في الكتاب الذي أوحيته إليك - وهو القرآن - نبأ مريم؛ وقال بعض المحققين: ليس المراد كل الكتاب، وإنما هذه السورة منه؛ - وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك؛ {فتقبلها ربها بقبول حين وأنبتها نباتا حسنا.) ٧٤ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة، والتبتل الدؤوب؛ وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره {. . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاق بغير حساب) ٧٥ - فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء. . . فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة- أن يوجد منها عبده

ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام {انتبذت من أهلها مكانا شرقيا}، أي اعتزلتهم، وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس. . . . . . . {فاتخذت من دونهم حجابا} أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ـ ٧٦: وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة، ويسمى روح القدس لأنه يحمل الوحي المقدس من الله سبحانه إلى رسله عليهم السلام، فتصور لها الملك جبريل بصورة بشر إنسان سوي الخلقة، [لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته، ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء] ٧٧، فقالت: {إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا} أي: إن كنت ممن يرجى منك أن تتقي الله فإني عائذة به منك، {قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا} فأجابها الملك عليه السلام مزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها: - لست مما تظنين، ولكني رسول ربك. . بعثني الله إليك ـ ٧٨ لأكون سببا في أن يهبك غلاما طاهرا، ولقد جاءت البشرى إليها مفصلة في آيات أخر: {إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) ٧٩. {قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} فتعجبت مريم إذ بشرت بأنها ستلد، واستخبرت كيف يأتيها هذا الغلام وترزقه؟ أمن زوج تتزوجه فيما بعد؟ أم يبدئ الله خلقه فيها؟!، ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا، لكنها تسأل، والحال أنها لم تتزوج فما مسها مستمتعا بها آدمي، وليست من البغايا الزواني حاشا! [وذكرت هذا تأكيدا، لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام] ٨٠. [قال كذلك قال ربك هو علي هين}، قال الملك قال ربك: {كذلك} خلقه دون أن يكون لك بعل ليس بالأمر العسير علينا، {ولنجعله آية للناس} علامة ودلالة على قدرتنا أن نخلق مولودا دون أب، {رحمة منا} إذ هو مبعوث الحق إلى الخلق، فمن تبع دعوته دخل في رحمة مولاه، وكان ذلك أمرا مقدرا وواقعا لابد منه، وفي آيات كريمة جاء البيان مفصلا: {قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من

الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية إن كنتم مؤمنين) ٨١

{فحملته فانتبذت به مكانا قصيا}، فاستسلمت مريم لأمر الله العلي الكبير، واعتزلت وهو في بطنها وابتعدت إلى مكان ناء ـ قيل هو وادي بيت لحم ٨٢، بينه وبين إيلياء أربعة أميال ٨٣ ـ وصحح القرطبي عن ابن عباس ما يفيد أن الحمل، والانتباذ، والطلق وآلام الوضع، تعاقبت دون طويل فاصل، ولعل مما يستشهد به لهذا الرأي أن الآيات جاءت تعطف بالفاء -وهي للترتيب باتصال ـ: {فحملته فانتبذت به مكانا قصيا. فأجاءها المخاض} اضطرها وجع الولادة والطلق الذي يشتد ليحرك الجنين إلى خارج الرحم ـ اضطرها هذا إلى الالتجاء إلى ساق نخلة، ربما لتستند إليه وتتعلق به حين تلد، {قالت يا ليتني مت قبل هذا} قالوا: تمنت مريم عليها السلام الموت إما لأنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير، فيفتنها ذلك، وإما لخوف أن يقع بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك،وعلى هذا الحد يكون تمني الموت جائزا، {وكنت نسيا منسيا} شيئا شأنه أن ينسى، ولا يخطر ببال أحد.

{فناداها من تحتها} لما حضرها ألم الوضع، وشدة الحزن، وتمنت الموت خوف الفتنة ناداها جبريل ٨٤ عليه السلام من مكان أسفل من الذي آوت إليه واستندت إلى النخلة فيه: {ألا تحزني} وكان نداؤه إياها: أن طيبي نفسا، واتركي عنك الحزن، {قد جعل ربك تحتك سريا} قد يسر الله لك ورود الماء، ففي هذا المنخفض يجري جدول ونهر بماء عذب، فكفيت السقيا والطهور.

{وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا} وادفعي النخلة وحركي ساقها ولو بأدنى حركة تميل نحوك ويتحدر منها الرطب الشهي النافع الذي اكتمل نضجه.

{فكلي واشربي وقري عينا} رعاك المولى، وأمدك بالطعام والماء ـ وبهما قيام الحياة ـ فاقتاتي وانشرحي صدرا، {فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا}، وأما أمر الناس فلا عليك منهم، فكفّي عن مكالمتهم، ومن سألك فأشيري

إليه أنك أوجبت على نفسك الصمت تقربا إلى البر الرحيم، وسيجيب عنك الروح القدس، ووحي الله العظيم
١٧ - (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)
{اتخذت من دونهم حجابا} استترت منهم. {روحنا} روح القدس جبريل عليه السلام. {فتمثل} فتصور {سويا} مستوي الخلقة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١٨ - (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)
{إن كنت تقيا} إن كان يرجى منك أن تتقي الله فإني عائذة به منك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١٩ - (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا)
{لأهب لك غلاما} بعثني الله إليك لأكون سببا في هبة غلام لك. {زكيا} طاهرا من العيوب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٠ - (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)
{أنى يكون} كيف يكون؟!. {لم يمسسني بشر} لست بمتزوجة. {بغيا} زانية.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢١ - (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)
{ولنجعله آية للناس} علامة ودلالة على قدرتنا. {ورحمة} لمن يؤمن به. {مقضيا} مقدرا، وواقعا لابد منه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)
{فانتبذت به} فابتعدت به وهو في بطنها. {قصيا} بعيدا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٣ - (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)
{فأجاءها المخاض} فألجأها وجع الولادة وتحرك الولد للخروج إلى جذع النخلة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٤ - (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)
{فناداها من تحتها} فناداها الملك جبريل من تحت النخلة، أو من تحت المكان الذي لجأت إليه. {سريا} نهرا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٥ - (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)
{وهزي إليك} حركي إلى جهتك. {رطبا} نضيج البسر والبلح. {جنيا} تم نضجه وحان جنيه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٦ - (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)
{وقري عينا} وطيبي نفسا. {فإما ترين من البشر أحدا} مهما رأيت من أحد. {فقولي} فأشيري. {صوما} صمتا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)
{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا {٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا {٢٨)

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا {٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا {٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا {٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا {٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا {٣٣)}

{فريا} عظيما عجيبا، والفرى: القطع، والجديد من الأسقية، والمفتري: المختلق المفتعل.

نقل عن وهب بن منبه قال: أنساها ـ يعني مريم ـ كرب البلاء، وخوف الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى، حتى إذا كلمها ـ يعني عيسى ـ وجاءها مصداق ما كان الله وعدها ـ كأنما يشير إلى وعده تعالى إياها إذ بشرتها الملائكة الكرام بقوله تبارك اسمه: {. . يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين)، سورة آل عمران. من الآية ٤٥، والآية ٤٦.

-لما اطمأنت إلى أن الله تعالى سيدفع عنها وعن ولدها حملته ثم أقبلت يصاحبها وليدها، والباء في {به} للمصاحبة، يقول ابن جرير ما حاصله: لما قال عيسى لأمه ما قال اطمأنت نفسها، وسلمت لأمر الله، وحملته حتى أتت به قومها. ا هـ {قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا}، لما رأوها ومعها الصبي حزنوا وأنكروا عليها أن تجيء بطفل وليست بذات زوج، فمن كان منهم يقول ذلك متعجبا فهو يعني بالفري الأمر الجديد القاطع للعادة، والمتطاولون يريدون التعيير والذم، ويقصدون بالافتراء الزنى، إذ ولد الزنى كالشيء المفترى، قال الله تعالى: {. . ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن. .) ٨٥: أي بولد يقصد إلحاقه بمن ليس منه.

مما أورد النيسابوري: ويحتمل أن يراد أنه أمر منكر خارج عن طريق العفة والصلاح فيكون توبيخا، ويؤكده قوله: {يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا} اهـ. نقل عن السدي ووهب بن منبه قولهما: لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدت امرأة يدها إليها لتضربها، فأجف الله شطرها، فحملت كذلك، وقال آخر: ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى، فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون، فقالوا: {. . يا مريم لقد جئت شيئا فريا} أي عظيما، ـ واختلف الناس في معنى الأخوة ومن هارون؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، والمراد: من كنا نظنها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا؟!. . كانت مريم من ولد هارون أخي موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم. . . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: " إن أخا صداء ٨٦ قد أذن فمن أذن فهو يقيم " ـ ٨٧، وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون: {يا أخت هارون} وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلما قدمت على رسول الله سألته عن ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: " إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم "، وعلى هذا فقد يكون في زمن مريم من تسمى بهذا الاسم، بل نقل عن الكلبي ٨٨: هو أخ لها من أبيها.

{فأشارت إليه} التزمت مريم عليها السلام ما وصاها به المولى سبحانه، فلم تكلم أحدا، وأشارت إليه أن كلموه، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ {إني نذرت للرحمن صوما} وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال إن أمرها بـ {قولي} إنما أريد به الإشارة، ويروى أنها لما أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من زناها، ثم قالوا على جهة التقرير: {كيف نكلم من كان في المهد صبيا}، فكأن المعنى: من يكن في المهد صبيا فكيف نكلمه!! و {كان} في هذه الآية الكريمة قد تعني التمام فليست تحتاج إلى خبر، كالتي في قول الله تعالى: {. . هل كنت إلا بشرا رسولا) ٨٩، أي: هل أنا إلا بشر رسول؟! وهل وجدت وبعثت إلا وأنا بشر رسول؟! والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء، كقوله تعالى: {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار. .) ٩٠، أي: إن شاء يجعل.

{قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا} تكلم عيسى عليه السلام بمنهاج صدق اليقين، واستقامة الشرعة، فبدأ بالإقرار بالعبودية، وتمجيد وتوحيد مقام الألوهية، وبشر بما سيمنحه مولاه من الحكمة والنبوة، ومن الخير الكثير ومداومة

العبادة، والبر وحسن الخلق، والأمان يفيضه عليه حين يولد، وحين يموت، وحين يبعث، ومن أمنه الله تعالى في هذه المواطن فلا يخاف ولا يحزن؛ - وفيه رد على من يزعم ربوبيته، وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء، والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إحلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة؛ واختلف في أنه بعد أن تكلم بما ذكر هل بقي يتكلم كعادة الرجال، أو لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان؟؛ وعده عليه السلام في عداد الذين تكلموا في المهد ثم لم يتكلموا إلى وقت العادة ظاهر في الثاني - ٩١. [وعن اليهود والنصارى أنهم أنكروا تكلم عيسى في المهد قائلين: إن هذه الواقعة مما يتوفر الدواعي على نقلها، فلو وجدت لاشتهرت وتواترت، مع شدة غلو النصارى فيه وفي مناقبه، وأيضا اليهود مع شدة عداوتهم له لو سمعوا كلامه في المهد بالغوا في قتله ودفعه في طفوليته؛ وأجاب المسلمون من حيث العقل أنه لولا كلامه الذي دلهم على براءتها من الذي قذفوها به لأقاموا عليها الحد ولم يتركوها، ولعل حاضري كلامه قليلون فلذلك لم يبلغ مبلغ التواتر، ولعل اليهود لم يحضروا هناك فلذلك لم يشتغلوا وقتئذ بدفعه؛ والله أعلم] ٩٢.
عن عكرمة في قول الله: {. . إني عبد الله آتاني الكتاب} قال: قضى أن يؤتيني الكتاب؛ وعن مجاهد: قوله: {وجعلني مباركا أينما كنت} قال: معلما للخير حيثما كنت؛ وعن بعض أهل العلم قال: لا تجد عاقا إلا وجدته جبارا شقيا، ثم قرأ: {وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا} قال: ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخورا، ثم قرأ: {. . وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) ٩٣؛ مما يقول علماء الأحكام؛ ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ في شريعة أمره
٢٨ - (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)
{أخت هارون} ليس هارون شقيق موسى عليهما السلام؛ أو يراد بالأخت الشبيهة في العبادة. {ما كان أبوك امرأ سوء} لم يكن أبوك رجل فجور، ولا أهل فحش. {وما كانت أمك بغيا} لم تقترف أمك الزنى.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٢٩ - (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)
{المهد} فراش الطفل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٠ - (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣١ - (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٢ - (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٣ - (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٤ - (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)
{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ {٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

{٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ {٤٠)}

{يمترون} يتجادلون ويشكون.

الذي قدمت إليكم نبأه هو عيسى ابن مريم، وليس ابنا لله كما يفترى أهل البهتان المبطلون، وقصصت عليكم من أمره قول الحق الذي تجادلوا فيه، وشكوا وتماروا، وتخاصموا وتحاجوا، فمن قائل: عبد الله ورسوله؛ ومن قائل على مريم بهتانا وإثما عظيما؛ ومن زاعم أنه ابن الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ {ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه} ما صح وما استقام أن يكون لله الأحد الصمد ولد، فإنه جل وتقدس منزه عن مشابهة الخلق {لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفؤا أحد) ٩٤؛ وولادة عيسى من غير أب ليست بالأمر العسير على المولى القوي القدير، فكل أمر يريده فتحقيقه عليه هين، {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}؛ نقل عن ابن عطية: {قضى} معناه قدر، وقد يجيء بمعنى أمضى؛ {أمرا} ليس بمصدر أمر يأمر، وإنما هو واحد الأمور؛ ومما نقل عن أبي الحسن الماوردي: ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كان، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله، وإنما هو قضاء يريده، فعبر عنه بالقول و إن لم يكن قولا. . اهـ ٩٥.

مما أورد الطبري: فقولوا في عيسى أيها الناس هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود الذين زعموا أنه لغير رشدة ٩٦، وأنه كان ساحرا كذابا، ولا ما قالته النصارى من أنه كان لله ولدا، وإن الله لم يتخذ ولدا ولا ينبغي ذلك له،. . . لقد كفرت ٩٧ الذين قالوا إن عيسى ابن الله وأعظموا الفرية عليه، فما ينبغي لله أن يتخذ ولدا ولا يصلح ذلك له ولا يكون، بل كل شيء دونه خلقه،. . . قال له {كن فيكون} لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها، إنما يقول إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه كن فيكون موجودا حادثا لا يعظم عليه خلقه، لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة، ولا ينشئه بمعالجة وشدة اهـ.

{وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} [أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته سبحانه. . . هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى] ٩٨.

قال الواحدي وغيره: {وإن الله ربي وربكم} الآية عطف على قوله: {إني عبد الله}، فهو من تمام قول عيسى عليه السلام تقريرا لمعنى العبودية، والآيتان معترضتان؛ وأبو جعفر وابن كثير وغيرهما يرون هذا، فيكون الخطاب في الآيتين: [قل] أمرا لخاتم النبيين بالتبليغ؛ ويكون الخطاب فيهما لمعاصري نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة. {فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم} عن قتادة: قوله: {فاختلف الأحزاب من بينهم} ذكر لنا أنه لما رفع ابن مريم انتخبت بنو إسرائيل أربعة من فقهائهم، فقالوا للأول:ما تقول في عيسى؟ قال: هو الله هبط إلى الأرض فخلق ما خلق وأحيا ما أحيا ثم صعد إلى السماء؛ فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت اليعقوبية من النصارى؛ وقال الثلاثة الآخرون: نشهد أنك كاذب؛ فقالوا للثاني: ما تقول في عيسى؟ قال: هو ابن الله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت النسطورية من النصارى؛ وقال الاثنان الآخران: نشهد أنك كاذب؛ فقالوا للثالث: ما تقول في عيسى؟ قال: هو إله، وأمه إله، والله إله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت الإسرائيلية من النصارى؛ فقال الرابع: أشهد أنك كاذب، ولكنه عبد الله ورسوله، هو كلمة الله وروحه، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم الله ما تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام؟ وأن الله تبارك وتعالى لا يطعم الطعام؟ قالوا: اللهم نعم! قال: هل تعلمون أن عيسى كان ينام؟ قالوا: اللهم نعم! فخصمهم المسلم، قال: فاقتتل القوم، قال: فذكر لنا اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون، فأنزل الله في ذلك القرآن: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) ٩٩،. . . {فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم} شهدوا هولا إذا عظيما. اهـ.

وقوله: {فاختلف الأحزاب من بينهم} أي: اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله،

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روى نحو هذا عن ابن جريج. . وغير واحد من السلف والخلف، وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن [قسطنطين] جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفا، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافا متباينا جدا، فقالت كل شرذمة فيه قولا، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصمموا عليه، فمال إليهم الملك، وكان فيلسوفا، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة و الروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: {فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم} تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى، وزعم أن له ولدا، ولكن أنظرهم الله إلى يوم القيامة، وأجلهم حلما إنه لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم. . "؛ جاء في الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ".

{أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين} تعس من عمى عن نور الهدى، وأصم أذنه عن سماع الحق، وضل سعيه في الحياة الدنيا، واختار طريق الخسران التي تنزل بسالكها إلى أسفل من درك الحيوان، ولقد بين القرآن حالهم بالقول الحكيم: {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) ١٠٠، لكن حين يشهدون أهوال الآخرة يقرون بأن حجب الغفلة قد زالت {. . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) ١٠١، وهيهات أن يرجعوا، وهكذا يغلق الشقي عينه ويصم أذنه هنا في هذه العاجلة، فإذا حشر للاقاة جزائه فتح عينه على الرشد الذي تنكب طريقه، {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ١٠٢.

{وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون} حذر الناس يا محمد، وليحذر كل من يأتي منه التحذير، أهوال يوم الخلود، فالذين شقوا في النار خالدين فيها، وأكثر ما يورد الناس السعير الغفلة عن العاقبة والمصير، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ١٠٣ فيوقف بين الجنة والنار فيقال يأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ـ قال ـ ثم يقال يأهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت-قال- فيؤمر به فيذبح ثم يقال ياأهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النار خلود فلا موت ـ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون} " أخرجه البخاري ١٠٤ بمعناه عن ابن عمر. {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون} نتوفى الأرض ومن عليها، ولا يبقى أحد له ملك أو ملك إلا الله جل علاه، ويرد المكلفون إلينا لنحاسبهم ونجازيهم

٣٥ - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار

٣٦ - (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

{صراط مستقيم} طريق معتدلة، ودين لا عوج فيه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار

٣٧ - (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
{مشهد} شهود وحضور.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٨ - (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
{أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} لا أحد أسمع ولا أبصر أي أشد سمعا وبصرا منهم يوم القيامة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٩ - (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٤٠ - (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)
{نرث الأرض ومن عليها} لا يبقى لأحد غيره تعالى ملك ولا ملك. {يرجعون} يبعثون ويردون إلى الحساب والجزاء.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٤١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)
{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)}
{صديقا} ملازم الصدق.

إن الذين أثبتوا معبودا سوى الله منهم من أثبت معبودا حيا عاقلا كالنصارى، ومنهم من عبد معبودا جمادا كعبدة الأوثان، وكلا الفريقين ضال،. . . وحين بين ضلال الفريق الأول شرع في بيان ضلال الفريق الثاني،. . . وإنما بدأ بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه كان أبا العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وكمال دينه، فكأنه قال لهم: إن كنتم مقلدين فقلدوه في ترك عبدة الأوثان وعبادتها، وإن كنتم مستدلين فانظروا في الدلائل التي ذكرها على أبيه، والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: {واتل عليهم نبأ إبراهيم) ١٠٥، وإلا فهو سبحانه هو الذي يذكره في تنزيله - ١٠٦، فكأن المعنى: اقرأ عليهم يا محمد من القرآن قصة أبيكم إبراهيم خليل الرحمن فإنه كان كثير التصديق فصدق بكل ما أنزل الله من كتاب وبكل ما أرسل من رسول، وثبت وتحقق أنه ملازم للصدق، وثبت أنه كان يتلقى وحي الله تعالى، فهو نبي كريم - أي كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء. . . وقيل: إن {كان} بمعنى: صار، والأصح أنه بمعنى الثبوت والاستمرار. . - ١٠٧، {إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} [سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتج عليه أبدع احتجاج، بحسن أدب وخلق ليس له من هاج، لئلا يركب متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكلية عن سبيل الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل، من عالم وجاهل. .] ١٠٨ روي أن اسم أبي إبراهيم آزر، وكان يعبد الأصنام ويقوم بنحتها - على ما قيل - فأنكر على أبيه وقومه عبادة أحجار وأوثان ونصب لا حس بها ولا حركة، ولا حياة ولا تمييز ولا إدراك؛ جاء في آية كريمة أخرى: {إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) ١٠٩ استفهام يراد به الإنكار، فهي في ذاتها ليست إلا جمادا، وهي بالنسبة لعابديها لا تجر لهم نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا، وكل ما عجز

عن جلب النفع لنفسه، فهو عن تقديم النفع لغيره أعجز؛ ولقد شهد القوم على أنفسهم أنهم ما يعبدون من دون الله إلا إفكا، وأوثانا خرسا، {قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) ١١٠.

{يأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا}، يقول بعض علماء اللغة: {يأبت} أصلها: يا أبي، فعوضت التاء من ياء الإضافة، ولذلك لا يجمع بينهما ـ إلا شذوذا ـ أعاد إبراهيم عليه السلام النداء على أبيه يدعوه إلى الرشد، ونبذ الغواية والشرك، واختار صلوات الله عليه سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، فلم يشنع على أبيه هنا بالجهل والضلال المبين، ولكنه دعاه إلى اتباع من يعرف الطريق الموصلة إلى النجاة وإن كان أحدث سنا ممن حار في مسعاه ـ يقول: وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك، لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك. . ـ ١١١.

{يأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا} وإنما نهى أباه عن عبادة إبليس مع أنه عابد أوثان لأن إبليس هو الذي دعا إلى عبادتها، وزين للناس المفتونين الوثنيين العكوف على تقديسها وتأليهها؛ ومن يطع الشيطان فقد غوى وضل ضلالا بعيدا؛ {. . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ١١٢؛ والعصي: الممعن في الكفر والفسوق، المخالف المعاند، المستكبر عن طاعة لربه.

{يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا} قال الراغب: الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة فهو غير مقطوع فيه بما يخاف؛ فإن قيل: كيف تكون العاقبة مما يتردد فيه بين الظن والعلم، مع أنه تحذير من سوء عاقبة اتخاذ الأوثان أربابا؛ قيل: لعل في اختياره مجاملة؛ وإلا فقد جاء في آية كريمة أخرى: {. . . أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) ١١٣؛ وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن جازما بموت أبيه على الكفر، وإلا لم يشتغل بنصحه: [وذكروا في الولي وجوها: منها ـ أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار، والمعية سبب الولاية؛ أو مسببها غالبا. . . . ومنها أن الولي بمعنى التالي والتابع. . . . ثم إن الشيخ قابل ملاطفات إبراهيم بالفظاظة والغلظة قائلا: {أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم}] ١١٤؛ لم يخاطبه بما يتناسب مع نداء التكريم الذي نودي به: {يأبت}، بل عجب من دعوته، وأنكر عليه الميل والإعراض والصد عن آلهة أبيه وقومه، ولم يقل يا بني؛ {لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا} لئن لم تكف عن عيب آلهتنا لأقتلنك رميا، فاحذرني، ولا أرينك، بل فارقني مدة وزمنا.

{قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا}؛ فلكأن إبراهيم عليه السلام عد هذا القول من أبيه طلبا للإمهال، وفي حكم الوعد بأن يخلع من ذاك الضلال، فقال عليه السلام ما قال؛ وربما يشهد لذلك قول ربنا ذي الجلال: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) ١١٥؛ {سلام عليك}. . ـ فلا ينالك مني مكروه ولا أذى. . وذلك لحرمة الأبوة؛ {سأستغفر لك ربي} ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك؛ {إنه كان بي حفيا} ـ ١١٦،قال قتادة ومجاهد: عوده الإجابة؛ {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعائي ربي شقيا} سأجتنبكم، وأهجركم أنتم وأصنامكم، وأتبرأ من شرككم، وأعبد ربي وحده، وأتضرع إليه دون سواه، وأطمع أن أفلح بدعاء مولاي البر الرحيم؛ وفيه تعريض بشقوة الوثنيين، الذين يدعون ما لا يملك لهم من السماوات والأرض شيئا، ولا يملك لنفسه حياة ولا موتا، ولا يدفع عن نفسه ولا عن غيره ضرا؛ ومما نقل الألوسي ـ رحمه الله ـ: وجوز أن يراد بذلك الدعاء مطلقا، أو ما حكاه سبحانه في سورة الشعراء، وهو قوله: {رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين) ١١٧؛ وقيل: لا يبعد أن يراد استدعاء الولد أيضا بقوله: {رب هب لي من الصالحين) ١١٨؛ ونقل غيره: قال العلماء: ما خسر على الله أحد، فإن إبراهيم لما ترك أباه الكافر وقومه فرارا بدينه، عوضه الله أولادا مؤمنين أنبياء، وذلك قوله: {ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا}؛ والمشهور أن أول ما وهب له عليه السلام من الأولاد إسماعيل عليه السلام، لقوله تعالى: {فبشرناه بغلام حليم) ١١٩؛ إثر دعائه بقوله: {رب هب لي من الصالحين)؛ وكان من هاجر، فغارت سارة، فحملت بإسحاق، ولما تزوج إسحاق ولد له يعقوب؛ فهو ابن ابن إبراهيم وكلهم من أنبياء الله - عليهم الصلوات والتسليم ـ وأعطاهم الله تعالى فيضا من رحمته، وجعل لهم الثناء الحسن الجميل الذي يكرمون به في الدنيا والآخرة.

[تبرأ إبراهيم من أبيه ابتغاء مرضاة الله فسماه الله أبا المؤمنين: {. . ملة أبيكم إبراهيم. .) ١٢٠؛ وتل ولده للجبين، ففداه الله بذبح

عظيم، وأسلم نفسه لله رب العالمين فجعل النار عليه بردا وسلاما، وأشفق على هذه الأمة فقال: {. . . وابعث فيهم رسولا. .) ١٢١، فأشركه الله في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس، ووفى في حق سارة كما قال تعالى: {وإبراهيم الذي وفى) ١٢٢، فجعل موطئ قدميه مباركا: {. . . واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. .) ١٢٣، وعادى كل الخلق في الله حين قال: {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) ١٢٤، فلا جرم اتخذه الله خليلا] ١٢٥

٤٢ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٣ - (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)

{صراطا سويا} طريقا مستقيما معتدلا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٤ - (يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)

{عصيا} شنيع العصيان.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٥ - (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)

{للشيطان وليا} لإبليس ومن على شاكلته صديقا ومتابعا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٦ - (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)

{أراغب أنت عن آلهتي} أمائل أنت منصرف معرض عن أصنامي؟! {لئن لم تنته} لئن لم تكف عن الاستخفاف بآلهتي. {لأرجمنك} لأقتلنك قذفا بالحجارة ورميا بها حتى تموت. {مليا} دهرا طويلا، وزمنا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٧ - (قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)

{حفيا} عظيم الفضل كثير الإنعام علي.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٨ - (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)

{شقيا} خائب السعي.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٥٠ - (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

{لسان صدق عليا} ثناء ومدحا صادقا مشرفا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٥١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا)

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا {٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا {٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا {٥٣)}

{الكتاب} القرآن. {مخلصا} مختارا مصطفى.

واقرأ على قومك مما أنزلنا عليك من الذكر الحكيم قصة موسى ونبأه، إنه تحقق اصطفاؤنا له واختيارنا، ولقد جاء في آية محكمة: {. . يا موسى إني اصطفيتك على الناس. .) ١٢٦؛ قيل -: قدم ذكره على إسماعيل عليهما السلام لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام، وقيل تعجيلا لاستجلاب أهل الكتاب بعد ما فيه استجلاب العرب. . . واختار بعضهم أن المراد من كلا اللفظين معناهما اللغوي، وأن ذكر النبي بعد الرسول لما أنه ليس كل مرسل نبيا، لأنه قد يرسل بعطية. . . {وقربناه نجيا} تقريب تشريف. . - ١٢٧؛ ومنه قولهم للعبادة: تقرب، وللملائكة: إنهم مقربون، والمناجاة: المسارة بالكلام،؛ يقول القرطبي: {وقربناه نجيبا} نصب على الحال، أي كلمناه من غير وحي. . {ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا} واستجبنا دعاء موسى الذي تضرع به إلى ربه، وهو ما بينته الآيات المباركات: {واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري) ١٢٨؛ فأعطينا كليمنا سؤله، وحمل معه أمانات الرسالة: {اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري) ١٢٩

٥٢ - (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)

{الطور} جبل بين وادي النيل، ومدين. {الأيمن} الواقع في الجهة اليمنى، مقابل اليسرى؛ أو الميمون المبارك. {نجيا} كلمته تكليما خصصته به.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥١ إظهار

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)

٥٤ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا)

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)}

واتل على الناس مما أوحى إليك من القرآن نبأ إسماعيل بن إبراهيم ١٣٠ عليهما السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم. . قال ابن جرير: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط. . إلا قام بها، ووفاها حقها. . فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة ١٣٠، قال الله تعالى: {يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) ١٣١؛ وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان "؛ وفي الصحيح يثني صلوات الله عليه على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فيقول: " حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي "؛ {إنه كان رسولا نبيا} في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل " وذكر تمام الحديث. . . كان صابرا على طاعة ربه عز وجل، آمرا بها لأهله ١٣٢، كما قال تعالى لرسوله: {وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها. .) ١٣٣ ١٣٤؛ مما أورد المفسرون: كل الأنبياء إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشريفا له، والله أعلم.

٥٥ - (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)}

واتل على الناس مما أوحى إليك من القرآن نبأ إسماعيل بن إبراهيم ١٣٥ عليهما السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم. . قال ابن جرير: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط. . إلا قام بها، ووفاها حقها. . فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة ١٣٥، قال الله تعالى: {يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) ١٣٦؛ وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان "؛ وفي الصحيح يثني صلوات الله عليه على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فيقول: " حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي "؛ {إنه كان رسولا نبيا} في هذا دلالة على

شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل " وذكر تمام الحديث. . . كان صابرا على طاعة ربه عز وجل، آمرا بها لأهله ١٣٧، كما قال تعالى لرسوله: {وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها. ٠) ١٣٨ ١٣٩؛ مما أورد المفسرون: كل الأنبياء إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشريفا له، والله أعلم.

٥٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا {٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا {٥٧)}

أمر خاتم النبيين محمد عليه الصلوات والتسليم أن يبلغنا في القرآن من أنباء إدريس عليه السلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بأنه من الأنبياء المصدقين بكل ما أنزل الله من وحي، وبكل من أرسل من رسول؛ ورفعه المولى سبحانه مكانا عليا؛ مما أخرج مسلم وغيره عن مالك بن صعصعة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لما عرج بي إلى السماء أتيت إدريس ١٤٠ في السماء الرابعة "، قال مجاهد في قوله جل ثناؤه: {ورفعناه مكانا عليا} قال: إدريس رفع و لم يمت كما رفع عيسى؛ وقال الحسن: {مكانا عليا} الجنة.

٥٧ - (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا {٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا {٥٧)}

أمر خاتم النبيين محمد عليه الصلوات والتسليم أن يبلغنا في القرآن من أنباء إدريس عليه السلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بأنه من الأنبياء المصدقين بكل ما أنزل الله من وحي، وبكل من أرسل من رسول؛ ورفعه المولى سبحانه مكانا عليا؛ مما أخرج مسلم وغيره عن مالك بن صعصعة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لما عرج بي إلى السماء أتيت إدريس ١٤١ في السماء الرابعة "، قال مجاهد في قوله جل ثناؤه: {ورفعناه مكانا عليا} قال: إدريس رفع و لم يمت كما رفع عيسى؛ وقال الحسن: {مكانا عليا} الجنة.

٥٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا {٥٨)}

{اجتبينا} اخترنا واصطفينا. {بكيا} باكين.

قص الله تعالى علينا من أنباء زكريا ويحيى وعيسى، ومن نبأ إبراهيم وموسى وهارون، وإسماعيل وإدريس صلوات الله عليهم، ثم أشار إليهم وذكرهم قريب بما يشار إليه بالبعيد {أولئك} ربما للتنبيه على بعد درجاتهم، وارتفاع قدرهم؛ وربما يراد الإشارة إلى جميع النبيين سلام ربنا عليهم أجمعين [وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس. . . قال السدي وابن جرير: فالذي عني به {من ذرية آدم}: إدريس؛ والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم؛ والذي عني به {من ذرية إبراهيم}: إسحق ويعقوب وإسماعيل؛ والذي عني به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم؛ قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم. . {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا}؛ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا. ٠] ١٤٢؛ ولعل المراد ب {آيات الرحمن} ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة، لأن القرآن حينئذ لم يكن منزلا.

٥٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا {٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا {٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا {٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا {٦٣)}.

{خلف} عقب سوء، وخلف: عقب وأولاد صالحون.

{غيا} غواية، أو هو واد في جهنم.

فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرت من الأنبياء الذين أنعمت عليهم ووصفت صفتهم في هذه السورة خلف سوء، خلفوهم في الأرض، والمشهور عن ابن عباس ومقاتل أنها في اليهود، وعن السدي أنها فيهم وفي النصارى، واختير كونها في الكفرة مطلقا لأن الآية الكريمة التالية بدأت بقول الحق سبحانه: {إلا من تاب وآمن} ولا يقال: إلا من آمن إلا لمن كان كافرا، إلا أن يراد بذلك التغليظ، وقال عطاء وغيره: هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان، أي: يكون في هذه الأمة من هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية، {أضاعوا الصلاة}، عن عبد الله بن مسعود وغيره: هي إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم للمسيء في صلاته " ارجع فصل فإنك لم تصل "، ثلاث مرات، خرّجه مسلم، وما أخرج البخاري والنسائي واللفظ له، عن حذيفة قال: إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن، ومما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: وجملة القول في هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، ولا دين لمن لا صلاة له، وقال الحسن: عطلوا المساجد، واشتغلوا بالصنائع والأسباب، {واتبعوا الشهوات} أي اللذات والمعاصي. . . {فسوف يلقون غيا}، قال ابن زيد: شرا أو ضلالة أو خيبة، . . . وقال عبد الله بن مسعود: هو واد في جهنم. . {إلا من تاب وآمن وعمل صالحا} يرى صاحب تفسير البحر المحيط أن الاستثناء ظاهرة الاتصال، وأيد بذكر الإيمان كون الآية في الكفرة، أو عامة لهم ولغيرهم، وعند الزجاج: الاستثناء منقطع، [{فأولئك} المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح {يدخلون الجنة} بموجب الوعد المحتوم. . . {ولا يظلمون شيئا} أي: لا ينقصون من جزاء أعمالهم. . . وفيه تنبيه أن فعلهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم، . . . {جنات عدن} بدل من {الجنة} بدل البعض. . .] ١٤٣، {التي وعد الرحمن عباده بالغيب} وعد الله تعالى المتقين جنات عدن، وهم مستيقنون بصدق وعد ربهم وإن غاب عنهم، وعدها إياهم غائبة عنهم غير حاضرة، أو غائبين عنها لم يكونوا عاينوها إذ وعدوها، [والتعرض لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدها وإنجازه لكمال سعة رحمته سبحانه وتعالى، . . . {لا يسمعون فيها لغوا} فضول كلام لا طائل تحته. . . . . {إلا سلاما}، استثناء منقطع، والسلام إما بمعناه المعروف، أي: لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم السلام أو تسليم بعضهم على بعض، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص، أي لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص. . .] ١٤٤ {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا}، وليس هناك نهار ولا ليل، وإنما هي مقادير يعرفون بها انقضاء وقت ومجيء وقت، {تلك الجنة} هذه الجنة العالية بعيدة الشأن {نورث من عبادنا من كان تقيا} نسكنها عبادنا الأتقياء، ونخلد فيها الذين أحسنوا في دنياهم، ونحلهم منازلها خالدين

٦٠ - (إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦١ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)

{عدن} علم على جنة من أعالي الجنات. {بالغيب} وعدوا بها في الدنيا إذ كانت غائبة عنهم. {مأتيا} آتيا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٢ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

{لغوا} كلاما لا جدوى منه.

{سلاما} من الله عز وجل، أو سلاما من المؤمنين، أو سلاما من الملائكة، أو كلاما سلم من النقص والعيب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار
٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار
٦٤ - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

{وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا {٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا {٦٥)}

في صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا "؟ فنزلت: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم، سئل هاهنا: إن قوله تعالى: {تلك الجنة التي نورث} كلام الله، وقوله بعده: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} خطاب ليس من كلام الله، فما وجب العطف بينهما؟ وأجيب بأنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح، فظاهر قوله: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} خطاب جماعة لواحد، وأنه لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ١٤٥، قال قتادة وعكرمة وغيرهما: احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه، قال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوما، وقال مجاهد: اثنتي عشر ليلة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك " فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، فنزلت الآية: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} وأنزل: {والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى) ١٤٦، نقله كثير من المفسرين، فكأن المعنى: إذا أمرنا ربنا نزلنا، أو: إذا أمرك ربك نزلنا بأمره إليك.

{له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك} أي: لله علم ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمر الدنيا والآخرة، وأحوال البرزخ الذي هو بين الدنيا والآخرة وقال الأخفش: {ما بين أيدينا} ما كان قبل أن نخلق، {وما خلفنا} ما يكون بعد أن نموت، {وما بين ذلك} وما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت، {وما كان ربك نسيا} لا ينسى ربك شيئا، ومن جملة ذلك أنه لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي. {رب السماوات والأرض وما بينهما} خالق السماوات والأرض وما ومن فيهما، وخالق ما بينهما. ومالك ذلك كله، ومدبره، {فاعبده} لأن الذي يستحق الطاعة والخضوع دون سواه هو الله الخالق البارئ الملك القدوس المهيمن، {واصطبر لعبادته} واصبر صبرا جميلا لما تلاقي في سبيل الدعوة إلى الحق، والوفاء بأمانات الشرع، {هل تعلم له سميا}، لكأن المعنى: هل تعلم له شبيها أو نظيرا؟! حاشا. والاستفهام يراد به النفي والإنكار، وإنكار العلم ونفيه إنكار للمعلوم ونفي له، مما قال ابن عطية: السمي: بمعنى المسامي والمضاهي.

٦٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٤]

{وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا {٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا {٦٥)}

في صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا "؟ فنزلت: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم، سئل هاهنا: إن قوله تعالى: {تلك الجنة التي نورث} كلام الله، وقوله بعده: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} خطاب ليس من كلام الله، فما وجب العطف بينهما؟ وأجيب بأنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح، فظاهر قوله: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} خطاب جماعة لواحد، وأنه لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ١٤٧، قال قتادة وعكرمة وغيرهما: احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه، قال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوما، وقال مجاهد: اثنتي عشر ليلة،

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك " فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، فنزلت الآية: {وما نتنزل إلا بأمر ربك} وأنزل: {والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى) ١٤٨؛ نقله كثير من المفسرين؛ فكأن المعنى: إذا أمرنا ربنا نزلنا؛ أو: إذا أمرك ربك نزلنا بأمره إليك.

{له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك} أي: لله علم ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمر الدنيا والآخرة، وأحوال البرزخ الذي هو بين الدنيا والآخرة وقال الأخفش: {ما بين أيدينا} ما كان قبل أن نخلق؛ {وما خلفنا} ما يكون بعد أن نموت؛ {وما بين ذلك} وما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت؛ {وما كان ربك نسيا} لا ينسى ربك شيئا، ومن جملة ذلك أنه لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي. {رب السماوات والأرض وما بينهما} خالق السماوات والأرض وما ومن فيهما، وخالق ما بينهما. ومالك ذلك كله، ومدبره؛ {فاعبده} لأن الذي يستحق الطاعة والخضوع دون سواه هو الله الخالق البارئ الملك القدوس المهيمن؛ {واصطبر لعبادته} واصبر صبرا جميلا لما تلاقي في سبيل الدعوة إلى الحق، والوفاء بأمانات الشرع؛ {هل تعلم له سميا}؛ لكأن المعنى: هل تعلم له شبيها أو نظيرا؟! حاشا. والاستفهام يراد به النفي والإنكار؛ وإنكار العلم ونفيه إنكار للمعلوم ونفي له؛ مما قال ابن عطية: السمي: بمعنى المسامي والمضاهي.

٦٦ - (وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢)}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله؛ وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.) ١٤٩؛ أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث؛ {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ١٥٠؛ {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ١٥١؛ وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ١٥٢؛ وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار،. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف الخ؛ واللام هنا لمجرد التوكيد،. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا؛ والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ١٥٣.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}؛ [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا؛ كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.) ١٥٤؛ وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ١٥٥.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته؛ والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}؛ ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم

الكتاب: {. ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ١٥٦؛ عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام؛ وقيل: جثيا على الركب للتخاصم؛ و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها، ويجوز أن يكون قبل الدخول؛ {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه؛ حكى الكسائي أن التشايع التعاون؛ ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}. . وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}، قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ١٥٧؛. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين؛. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ١٥٨ فيها.] ١٥٩.

٦٧ - (أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢)}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ١٦٠؛ أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث؛ {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ١٦١؛ {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ١٦٢؛ وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ١٦٣؛ وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف اهـ؛ واللام هنا لمجرد التوكيد. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا؛ والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ١٦٤.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}؛ [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا؛ كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ١٦٥؛ وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول

الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ١٦٦.
{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته؛ والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.
{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}؛ ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ١٦٧؛ عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام؛ وقيل: جثيا على الركب للتخاصم؛ و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها؛ ويجوز أن يكون قبل الدخول؛ {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه؛ حكى الكسائي أن التشايع التعاون؛ ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها؛ ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .
{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}؛ . وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب،. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}؛ قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ١٦٨؛. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين؛. . .
{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.
[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث؛ وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ١٦٩ فيها.] ١٧٠.
٦٨ - (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]
{جثيا} باركين على الركب.
{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦} أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧} فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨} ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩} ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠} وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١} ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢}}
صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله؛ وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ١٧١؛ أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث؛ {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ١٧٢؛ {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ١٧٣؛ وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم

في شك منها بل هم منها عمون) ١٧٤؛ وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار،. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف الخ؛ واللام هنا لمجرد التوكيد،. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا، والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ١٧٥.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}؛ [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا؛ كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ١٧٦؛ وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ١٧٧.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته؛ والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}؛ ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ١٧٨؛ عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام؛ وقيل: جثيا على الركب للتخاصم؛ و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها؛ ويجوز أن يكون قبل الدخول؛ {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه؛ حكى الكسائي أن التشايع التعاون؛ ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}؛. وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب،. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}؛ قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ١٧٩؛. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين؛. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا نخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث؛ وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ١٨٠ فيها.] ١٨١.

٦٩ - (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{شيعة} جماعة شايعت منهاجا.

{عتيا} عصيانا وفسوقا وكفرا.

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ

وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢)}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ١٨٢، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث، {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ١٨٣، {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ١٨٤، وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ١٨٥، وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار،. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف اخ، واللام هنا لمجرد التوكيد،. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا، والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ١٨٦.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}، [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ١٨٧، وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ١٨٨.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته، والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}، ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ١٨٩، عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام، وقيل: جثيا على الركب للتخاصم، و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها، ويجوز أن يكون قبل الدخول، {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه، حكى الكسائي أن التشايع التعاون، ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}. . وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب،. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}، قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ١٩٠،. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين،. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: "

دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ١٩١ فيها.] ١٩٢.

٧٠ - (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{صليا} لصوقا ومكثا.

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢)}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ١٩٣، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث، {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ١٩٤، {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ١٩٥، وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ١٩٦، وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار،. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف الخ، واللام هنا لمجرد التوكيد،. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا، والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ١٩٧.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}، [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ١٩٨، وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ١٩٩.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته، والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}، ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ٢٠٠، عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام، وقيل: جثيا على الركب للتخاصم، و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها، ويجوز أن يكون قبل الدخول، {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه، حكى الكسائي أن التشايع التعاون، ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}،. وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب،. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}، قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ٢٠١،. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين،. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ٢٠٢ فيها.] ٢٠٣.

٧١ - (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{واردها} مار بها {حتما مقضيا} أمرا واجبا قضى بوقوعه البتة.

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦} أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧} فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨} ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩} ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠} وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١} ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢}}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ٢٠٤، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث، {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ٢٠٥، {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ٢٠٦، وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ٢٠٧، وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار،. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف الخ، واللام هنا لمجرد التوكيد،. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا، والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ٢٠٨.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}، [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ٢٠٩، وفي الصحيح: " يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ٢١٠.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته، والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}، ثم

لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ٢١١؛ عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام؛ وقيل: جثيا على الركب للتخاصم؛ و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها؛ ويجوز أن يكون قبل الدخول؛ {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه؛ حكى الكسائي أن التشايع التعاون؛ ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}. . وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}، قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ٢١٢. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ٢١٣ فيها.] ٢١٤.

٧٢ - (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا {٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا {٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا {٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا {٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا {٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {٧٢)}

صدق اليقين والوفاء بأمانات الدين يسيرة على المصدقين بلقاء الله، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. .) ٢١٥، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكرة، ولقد سخروا حين ذكروا بالبعث، {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ٢١٦؛ {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) ٢١٧، وفي هذه الآية السادسة والستين من سورة مريم يخبر المولى سبحانه عن جنس الإنسان وطائفة من هذا الجنس الذين استبعدوا الإحياء بعد الإماتة بأنهم يتعجبون مما أخبرتهم به من أمر الساعة {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) ٢١٨، وعبر بالمضارع [{يقول}] إما استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة، وإما لإفادة الاستمرار التجددي، فإن هذا القول لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، والهمزة للإنكار. . . وفي الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما مت وصرت رميما لسوف الخ، واللام هنا لمجرد التوكيد. . . وما في {إذا ما} للتوكيد أيضا، والمراد من الإخراج: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء. . ٢١٩.

{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}؛ [يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا؟ أفلا يعيده؟ وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. .) ٢٢٠، وفي الصحيح: " يقول الله تعالى

كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولد وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد "] ٢٢١.

{فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا} أقسم الرب جل ثناؤه بأن حشر المنكرين للآخرة واقع لا محالة، وسيقترنون في محشرهم بشياطينهم التي أطاعوها في معصية الله تعالى وجحود كلماته، والفاء للاستئناف والواو للقسم، وشرف المقسم به دليل على كمال العناية بالمقسم عليه، وإضافة القسم إلى المخاطب وهو رسول الله بإجماع المفسرين تفخيم لشأنه ورفع من مقداره.

{ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا. ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا}، ثم لنسوقن المحشورين من هؤلاء المجرمين إلى جهنم مدفوعين دفعا وهم على ركبهم كما كانوا في موقف الحساب، وإلى ذلك تشير آيات محكم الكتاب: {. . ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ٢٢٢، عن قتادة وغيره: لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام، وقيل: جثيا على الركب للتخاصم، و {حول جهنم} يجوز أن يكون داخلها، ويجوز أن يكون قبل الدخول، {ثم لننزعن} لعل المعنى: ثم لنبدأن بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه، حكى الكسائي أن التشايع التعاون، ثم الله تبارك وتعالى عليم غاية العلم بمن هو أحق بدخول النار والاحتراق بسعيرها، والخلود في لهبها وعذابها، ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعة أولاهم بشدة العذاب، وألحقهم بعظيم العقوبة. . .

{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}. . وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها. . قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب. . عن ابن عباس في قوله: {وإن منكم إلا واردها}، قال: يدخلها. . . وقال آخرون: بل هو المر عليها ٢٢٣. . . . وقال آخرون: بل الورود هو الدخول، ولكنه عني الكفار دون المؤمنين. . .

{ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}. . ننجي من النار بعد ورود جميعهم إياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. . وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه في النار. . بروكا على ركبهم. قال ابن زيد. . الجثي شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به.

[قلت: وفي صحيح مسلم: " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم " قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: " دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم " الحديث، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول ٢٢٤ فيها.] ٢٢٥.

٧٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا {٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا {٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا {٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا {٧٦)}

{مقاما} منزلا. {نديا} مجلسا.

{بينات} ظاهرات الإعجاز واضحات.

وإذا تتلى على المنكرين للآخرة آيات ربنا المؤكدة حقيقة البعث، المبينة مآل الجاحدين من شياطين الجن والإنس، جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٢٢٦، {وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه. .) ٢٢٧، كأنهم قالوا: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل كان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل، وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة. . ٢٢٨ -، [وغرضهم إدخال الشبهة

على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه المحق في دينه] ٢٢٩، ونسوا أن ذلك من الله تعالى ابتلاء: {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ٢٣٠.

نخروا على المسلمين بطيب منازلهم ومساكنهم، وزخرف نواديهم ومجالسهم، فرد الله الحكيم فريتهم، وأبطل مقالتهم بقوله العزيز: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا} كثير هم البطرون الجاحدون الذين أهلكناهم ودمرنا عليهم قبل هؤلاء، وكانوا أكثر أموالا وأولادا، فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يستكبرون؛ فأين هم من فرعون وقومه؟ وقد ذكر الكتاب المجيد بما مكنوا فيه، فلما حل بهم بأس الله هلكوا غير مأسوف عليهم: {كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) ٢٣١؛ كما قال عز شأنه: {فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك أورثناها بني إسرائيل) ٢٣٢.

{قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا}؛ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب على هؤلاء المتمادين في الغي بإنذارهم عاقبة طغيانهم، وأن مآل الضال إلى الخزي والنكال - وإن طالت مدته، وكثرت عدته؛ وقوله: {فليمدد له الرحمن مدا}، خبر مخرج على لفظ الأمر. . . لتنقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: {. . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. .) ٢٣٣، أو ليزدادوا إثما كقوله: {. . إنما نملي ليزدادوا إثما. .) ٢٣٤، أو هو في معنى الدعاء بأن يمهله الله عز وجل وينفس في مدة حياته؛ والغاية أحد الأمرين المذكورين: أي انقطاع العذر، أو ازدياد الإثم - ٢٣٥.

{حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة} طائفة من اللغويين والمفسرين قالوا: إما بعذاب نجريه على أيدي عبادنا المؤمنين فيخذل أهل الباطل وتقطع رقابهم ويؤسرون، وبهذا بشر الله من جاهد أعداء الدين: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) ٢٣٦؛ وإما أن تقوم الساعة فيصار بهم إلى النار؛ {فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا}؛ وفي السعير يسوء مصيرهم، ويكفر بعضهم ببعض ويهلك سلطانهم؛ وهذا في مقابلة ما تعاظموا به على المسلمين من قولهم الذي حكاه القرآن: {أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا}. {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} وبينما يمد للزائغين في زيغهم حتى يوافيهم الخزي في أولاهم وآخرتهم، ويزيد المولى بفضله أهل الإيمان رشدا وهداية إلى مدارج السعادة، قيل: ويزيد الله الذي اهتدوا إلى الطاعة هدى إلى الجنة؛ {والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوبا وخير أملا} العبادات والطاعات والقربات التي هدى إليها أهل الإيمان، وأتموها بإحسان وإخلاص هي عند مولانا الغفور الشكور أعظم أجرا، وأبرك مآلا ومرجعا؛ واختار القرطبي أن تكون: أفضل في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا، وخير ردا على عاملها بالثواب؛ لكن نقل النيسابوري زيادة: ويكون وجه التفضيل في الخير ما قيل في قولهم: الصيف أحرمن الشتاء، أي: هو أبلغ في حره من الشتاء في برده

٧٤ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا)

{قرن} أمة. {أثاثا} متاعا. {ورئيا} منظرا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٣ إظهار

٧٥ - (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٣ إظهار

٧٦ - (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)

{الباقيات الصالحات} الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها. {مردا} مرجعا وعاقبة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٣ إظهار

٧٧ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا)

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا {٨٠)}

في صحيح الإمام مسلم عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت له: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد ٢٣٧. . فنزلت الآية: {أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا} إلى قوله: {ويأتينا فردا}، في رواية قال: كنت قينا ٢٣٨ في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه، أخرجه البخاري، لم يستيقن بالآخرة ولا صدق بآيات الله المتلوة ولا بحجج ربنا الشاهدة بأن البعث حق، وكلما ذكر بما هو آت لا محالة استهزأ وسخر، وزعم أنه على فرض مجيء الساعة سيكون هو صاحب حظوة حين مجيئها؛ كصاحب الجنتين إذ دخل جنته وهو ظالم لنفسه {. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٢٣٩، وربنا سبحانه يقيم على هذا وأمثاله الحجة: {أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا} استفهام للنفي والإنكار، ينفي الله تعالى عن هؤلاء المفترين البطرين أن يكونوا علموا مصيرهم وما ينتظرهم يوم القيامة، ونفى أن يكون لهم عند ربنا موثق ينجيهم.

{كلا} ٢٤٠ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، روي عن الكلبي في قوله تعالى: {لأوتين مالا وولدا}: أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته، ونقل القرطبي في معنى قوله تعالى {أطلع}، أصله أأطلع ذكرت ألف الاستفهام، وحذفت ألف الوصل فإن قيل فهلا أتوا بمدة بعد الألف؟!. . لم يحتاجوا إلى هذه المدة في {أطلع} لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة. . . تقول في الخبر: اطلع. . بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر، {سنكتب ما يقول} سنأمر ملائكتنا باستنساخ قوله هذا ليكون حجة دامغة عليه، وفي ذلك وعيد ونذير، [وفي قوله {سنكتب} بسين التسويف مع أن الحفظة يكتبون ما قاله في الحال لأن المولى سبحانه يقول: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ٢٤١ دليل على أن السين جرد ههنا لمعنى الوعيد، أو أراد: سيظهر له نبأ الكتابة بالتعذيب والانتصار، يؤيده قوله: {ونمد له} أي نطول له {من العذاب} ما يستأهله أمثاله من المستهزئين، أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد. . . ثم عكس استهزاءه بقوله: {ونرثه ما يقول} أي: نمنع عنه منتهى ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد، لأنه تألى على الله في قوله: {لأوتين}، ومن يتأل على الله يكذبه، لأن ذلك غاية الجراءة. . . والمراد: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه في العاقبة] ٢٤٢، {ويأتينا فردا}: فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير من مال ولا ولد.

٧٨ - (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا {٨٠)}

في صحيح الإمام مسلم عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت له: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد ٢٤٣. . فنزلت الآية: {أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا} إلى قوله: {ويأتينا فردا}، في رواية قال: كنت قينا ٢٤٤ في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه، أخرجه البخاري، لم يستيقن بالآخرة ولا صدق بآيات الله المتلوة ولا بحجج ربنا الشاهدة بأن البعث حق، وكلما ذكر بما هو آت لا محالة استهزأ وسخر، وزعم أنه على فرض مجيء الساعة سيكون هو صاحب حظوة حين مجيئها؛ كصاحب الجنتين إذ دخل جنته وهو ظالم لنفسه {. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٢٤٥، وربنا سبحانه يقيم على هذا وأمثاله الحجة: {أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا} استفهام للنفي والإنكار، ينفي الله تعالى عن هؤلاء المفترين البطرين أن يكونوا علموا مصيرهم وما ينتظرهم يوم القيامة، ونفى أن يكون لهم عند ربنا موثق ينجيهم.

{كلا} ٢٤٦ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها؛ روي عن الكلبي في قوله تعالى: {لأوتين مالا وولدا}: أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ ونقل القرطبي في معنى قوله تعالى {أطلع}، أصله أأطلع ذكرت ألف الاستفهام، وحذفت ألف الوصل فإن قيل فهلا أتوا بمدة بعد الألف؟!. . لم يحتاجوا إلى هذه المدة في {أطلع} لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة. . . تقول في الخبر: اطلع. . بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر؛ {سنكتب ما يقول} سنأمر ملائكتنا باستنساخ قوله هذا ليكون حجة دامغة عليه، وفي ذلك وعيد ونذير؛ [وفي قوله {سنكتب} بسين التسويف مع أن الحفظة يكتبون ما قاله في الحال لأن المولى سبحانه يقول: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ٢٤٧ دليل على أن السين جرد ههنا لمعنى الوعيد، أو أراد: سيظهر له نبأ الكتابة بالتعذيب والانتصار، يؤيده قوله: {ونمد له} أي نطول له {من العذاب} ما يستأهله أمثاله من المستهزئين، أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد. . . ثم عكس استهزاءه بقوله: {ونرثه ما يقول} أي: نمنع عنه منتهى ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد، لأنه تألى على الله في قوله: {لأوتين}، ومن يتأل على الله يكذبه، لأن ذلك غاية الجراءة. . . والمراد: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه في العاقبة] ٢٤٨، {ويأتينا فردا}: فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير من مال ولا ولد.

٧٩ - (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا {٨٠)}

في صحيح الإمام مسلم عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت له: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد ٢٤٩. . فنزلت الآية: {أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا} إلى قوله: {ويأتينا فردا}، في رواية قال: كنت قينا ٢٥٠ في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه، أخرجه البخاري؛ لم يستيقن بالآخرة ولا صدق بآيات الله المتلوة ولا بحجج ربنا الشاهدة بأن البعث حق، وكلما ذكر بما هو آت لا محالة استهزأ وسخر، وزعم أنه على فرض مجيء الساعة سيكون هو صاحب حظوة حين مجيئها، كصاحب الجنتين إذ دخل جنته وهو ظالم لنفسه {. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٢٥١، وربنا سبحانه يقيم على هذا وأمثاله الحجة: {أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا} استفهام للنفي والإنكار، ينفي الله تعالى عن هؤلاء المفترين البطرين أن يكونوا علموا مصيرهم وما ينتظرهم يوم القيامة، ونفى أن يكون لهم عند ربنا موثق ينجيهم.

{كلا} ٢٥٢ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها؛ روي عن الكلبي في قوله تعالى: {لأوتين مالا وولدا}: أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ ونقل القرطبي في معنى قوله تعالى {أطلع}، أصله أأطلع ذكرت ألف الاستفهام، وحذفت ألف الوصل فإن قيل فهلا أتوا بمدة بعد الألف؟!. . لم يحتاجوا إلى هذه المدة في {أطلع} لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة. . . تقول في الخبر: اطلع. . بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر؛ {سنكتب ما يقول} سنأمر ملائكتنا باستنساخ قوله هذا ليكون حجة دامغة عليه، وفي ذلك وعيد ونذير؛ [وفي قوله {سنكتب} بسين التسويف مع أن الحفظة يكتبون ما قاله في الحال لأن المولى سبحانه يقول: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ٢٥٣ دليل على أن السين جرد ههنا لمعنى الوعيد، أو أراد: سيظهر له نبأ الكتابة بالتعذيب والانتصار، يؤيده قوله: {ونمد له} أي نطول له {من العذاب} ما يستأهله أمثاله من المستهزئين، أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد. . . ثم عكس استهزاءه بقوله: {ونرثه ما يقول} أي: نمنع عنه منتهى ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد، لأنه تألى على الله في قوله: {لأوتين}، ومن يتأل على الله يكذبه، لأن ذلك غاية الجراءة. . . والمراد: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه في العاقبة] ٢٥٤، {ويأتينا فردا}: فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير من مال ولا ولد.

٨٠ - (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]
{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا {٨٠)}
في صحيح الإمام مسلم عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت له: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد ٢٥٥. . فنزلت الآية: {أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا} إلى قوله: {ويأتينا فردا}، في رواية قال: كنت قينا ٢٥٦ في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه، أخرجه البخاري، لم يستيقن بالآخرة ولا صدق بآيات الله المتلوة ولا بحجج ربنا الشاهدة بأن البعث حق، وكلما ذكر بما هو آت لا محالة استهزأ وسخر، وزعم أنه على فرض مجيء الساعة سيكون هو صاحب حظوة حين مجيئها، كصاحب الجنتين إذ دخل جنته وهو ظالم لنفسه {. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٢٥٧، وربنا سبحانه يقيم على هذا وأمثاله الحجة: {أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا} استفهام للنفي والإنكار، ينفي الله تعالى عن هؤلاء المفترين البطرين أن يكونوا علموا مصيرهم وما ينتظرهم يوم القيامة، ونفى أن يكون لهم عند ربنا موثق ينجيهم.
{كلا} ٢٥٨ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، روي عن الكلبي في قوله تعالى: {لأوتين مالا وولدا}: أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته، ونقل القرطبي في معنى قوله تعالى {أطلع}، أصله أأطلع ذكرت ألف الاستفهام، وحذفت ألف الوصل فإن قيل فهلا أتوا بمدة بعد الألف؟!. . لم يحتاجوا إلى هذه المدة في {أطلع} لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة. . . تقول في الخبر: اطلع. . بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر، {سنكتب ما يقول} سنأمر ملائكتنا باستنساخ قوله هذا ليكون حجة دامغة عليه، وفي ذلك وعيد ونذير، [وفي قوله {سنكتب} بسين التسويف مع أن الحفظة يكتبون ما قاله في الحال لأن المولى سبحانه يقول: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ٢٥٩ دليل على أن السين جرد ههنا لمعنى الوعيد، أو أراد: سيظهر له نبأ الكتابة بالتعذيب والانتصار، يؤيده قوله: {ونمد له} أي نطول له {من العذاب} ما يستأهله أمثاله من المستهزئين، أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد. . . ثم عكس استهزاءه بقوله: {ونرثه ما يقول} أي: نمنع عنه منتهى ما زعم أنه يناله في الآخرة من المال والولد، لأنه تألى على الله في قوله: {لأوتين}، ومن يتأل على الله يكذبه، لأن ذلك غاية الجراءة. . . والمراد: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه في العاقبة] ٢٦٠، {ويأتينا فردا}: فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير من مال ولا ولد.
٨١ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)
{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا {٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا {٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا {٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا {٨٤)}
{عزا} أعوانا ومنعة.
الكافرون ضلوا وخسروا، وكل زيغ يسلمهم إلى زيغ، فحين يكذبون بآيات ربنا تضيق صدورهم بالحق، ولا تطمئن قلوبهم إلى رشد: {. . وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) ٢٦١، وحين يرتابون في الآخرة يتأنفون عن الخضوع لله العظيم الواحد: {. . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) ٢٦٢، لكنهم بسفاهتهم وشقوتهم يذعنون لأوهام، وتنشرح صدورهم لتأليه مخلوق أو تقديس أوثان وأصنام: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) ٢٦٣، فبينما هم يسخرون من حقيقة البعث والحساب والجزاء، يدعون لله تعالى شركاء، ويزعمون أنها لهم شفعاء، {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا}، ما ألهوه متجاوزين به المعبود بحق ـ سبحانه ـ زعموا أنها تنيلهم العز، وتنصرهم من البأس، {كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا}، نفي لما ادعوه وظنوه من التعزز بتلك الآلهة المفتراة، وتحقيق لما سيكون من تبرئها منهم ولعنهم يوم

يلقون الله، قال ابن زيد ما حاصله: تكون الآلهة تلك عليهم بلاء فتحشر معهم، وتركب لها عقول فتقول: يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك، وكأنه يشير إلى معنى قول الحق جل ذكره: {. . تبرأنا إليك وما كانوا إيانا يعبدون) ٢٦٤، وذلك أن الأصنام جمادات لا تعي العبادة، ومما نقل الألوسي: وينطق الله تعالى من لم يكن ناطقا منها فتقول جميعا: ما عبدتمونا، كما قال سبحانه: {وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ٢٦٥. ا هـ.

وأما من اتخذ معبودا من العقلاء فإنه يكون أشد عليهم عداوة وأكثر لهؤلاء المفتونين لعنا: {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ٢٦٦، وعبدة إبليس أشد تخسيرا وتحسيرا، {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل.) ٢٦٧، وهكذا يكونون عليهم ذلا لا لهم عزا، والضد في كلام العرب هو الخلاف، يقال: فلان يضاد فلانا في كذا إذا كان يخالفه في صنيعه، فيفسد ما أصلحه ويصلح ما أفسده.

{ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا}، نقل عن ابن عباس: تؤز الكافرين إغراء ٢٦٨ في الشرك: امض امض في هذا الأمر! حتى توقعهم في النار، وامضوا في الغي امضوا، ا هـ.

{فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا} يسلي الله تعالى النبي والأمة لكيلا نعجل على الكفار الفجار الأشرار ـ بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم، ويبيدوا عن آخرهم، وتطهر الأرض من خباثاتهم ـ ٢٦٩، قال الكلبي: آجالهم، يعني الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب، ابن عباس: أي: نعد أنفاسهم في الدنيا كما نعد سنيهم، وعنه رضي الله تعالى عنه أنه إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، وعن ابن السماك أن المأمون قرأ هذه السورة ٢٧٠ فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفذ، ولله تعالى در من قال:

إن الحبيب من الأحباب مختلس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس

وكيف يفرح بالدنيا ولذتها ... فتى يعد عليه اللفظ والنفس؟!

٨٢ - (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

{ضدا} عدوا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨١ إظهار

٨٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

{تؤزهم أزا} تغويهم إغواء، وتستعجلهم استعجالا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨١ إظهار

٨٤ - (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨١ إظهار

٨٥ - (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)

{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا {٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا {٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {٨٧)}

{نحشر} نجمع ونيسر. {المتقين} الذين آمنوا، وعملوا الخير، وانتهوا عن الشر. {وفدا} وافدين، راكبين، طامعين في العطاء.

يذكر الكتاب الحكيم بأحوال الآخرة وأهوالها، والفصل بين الخلائق وتباين مآلها ومصيرها، فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإنه في زمرة السعداء الصائرين إلى جنة المأوى، وقدومهم على ربهم وانصرافهم إلى مستقر نعيمهم يكون على حال يمتعهم

ويؤمنهم ويزيد في تكريمهم، فهم يساقون إلى الجنة زمرا، ويركبون مراكب الأعزة ولا يمشون، يقول أبو عبد الله القرطبي: في قوله تعالى: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا}: في الكلام حذف، أي إلى جنة الرحمن، ودار كرامته، كقوله: {. . إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ٢٧١، وكما في الخبر: " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. . "؛ [عن النعمان بن سعد عن علي في قوله: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا} قال: أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ولا يساقون سوقا، ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة] ٢٧٢.
{ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا} الفجار الكفار يدفعون إلى جهنم دفعا، كما تساق الدواب والعطاش وتتراكض لترد الماء، والسوق: الحث على السير، أهانهم الله تعالى وأذلهم بسبب تأبيهم عن الحق وصدهم، كما بين المولى جل ذكره صغارهم بقوله الحكيم: {وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي. .) ٢٧٣.
{لا يملكون الشفاعة}، لا يظفرون إذ هم محزونون معذبون بمن يشفع لهم أو يجادل عنهم، ولا تنفعهم شفاعة، مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد {إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا} وهم المسلمون فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه، أي: لكن {من اتخذ عند الرحمن عهدا} يشفع ف {من} في موضع نصب على هذا، وقيل: هو في موضع رفع البدل من الواو في {يملكون}، أي: لا يملك أحد عند الله شفاعة، {إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا} فإنه يملك، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا، و {المجرمين} في قوله: {ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا} يعم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة، إلا العصاة المؤمنون، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي " أخرجه مسلم بمعناه. . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون. . ا هـ[. . لا يملك العباد أن يشفعوا إلا من أذن الله عز وجل له بالشفاعة وأمره بها فإنه يملك ذلك. . والمراد بالشفاعة. . ما يعم الشفاعة في دخول الجنة وغيره. . فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل من أمتي ليشفع للفئام ٢٧٤ من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته "] ٢٧٥

٨٦ - (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا)

{ونسوق} ندفع. {المجرمين} المرتكبين الآثام والمظالم. {جهنم} النار، دار العذاب. {وردا} كالدواب العطاش.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٥ إظهار

٨٧ - (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

{لا يملكون الشفاعة} ما لهم مني شافعين، ولا يجدون من يجادل عنهم. {عهدا} موثقا.

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}

وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب، ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٢٧٦، {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.

{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٢٧٧؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٢٧٨ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . اهـ.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٢٧٩ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٢٨٠.
٨٩ - (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{إدا} منكرا شديدا.
{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}
وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٢٨١؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم

المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.
{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٢٨٢؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٢٨٣ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة، ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال، {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا، قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا ه.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٢٨٤ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٢٨٥.
٩٠ - (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{تكاد} تقارب، أو تريد.
{يتفطرن} يتشققن. {وتنشق} تنصدع.
{تخر} تسقط. {هدا} مهدودة.
{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}
وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب

القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٢٨٦؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.
{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٢٨٧؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٢٨٨ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة، ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا هـ.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٢٨٩ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٢٩٠.
٩١ - (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{دعوا} سموا ونسبوا.
{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}

وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٢٩١؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.

{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .

{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٢٩٢؛

{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٢٩٣ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . اهـ.

{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".

روى ابن جرير ٢٩٤ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٢٩٥.

٩٢ - (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]

{ما ينبغي} لا يصلح، ولا يليق

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}
وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٢٩٦؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.
{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٢٩٧؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٢٩٨ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا هـ.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٢٩٩ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٣٠٠.
٩٣ - (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}
وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٣٠١؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.
{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٣٠٢؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٣٠٣ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا ه.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٣٠٤ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٣٠٥.
٩٤ - (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}

وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٣٠٦؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.

{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .

{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٣٠٧؛

{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٣٠٨ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا هـ.

{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".

روى ابن جرير ٣٠٩ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٣١٠.

٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا {٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {٨٩) تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {٩٣) لَقَدْ

أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {٩٥)}
وحين رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا من اليهود والنصارى والعرب؛ ومنهم من خص الآية بالرد على العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة ٣١١؛ {وقالوا} قال المجرمون وفيه إسناد ما للبعض إلى الكل {اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا} في الآية الثانية رد لمقالتهم التي بينتها الآية قبلها، [وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب. . وقيل لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم لقد جئتم. . والإد. . العجب. . وقيل العظيم المنكر. . وقال الطبري: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيء إد.
{تكاد السماوات يتفطرن منه}. . الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إناء مفطور ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق. .
{وتنشق الأرض}. . وجه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأن التكثير في الفعل بأن السماوات لكونها مقدسة لم يعص الله تعالى فيها أصلا نوعا ما من العصيان لم يكن لها إلف ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض؛ فهي تتأثر من عظم المعصية ما لا تتأثر الأرض. .] ٣١٢؛
{وتخر الجبال هدا} وتقارب أو كأنما تريد ٣١٣ الجبال أن تسقط مهدودة مهدمة؛ ف {هدا} إما فعل مطلق، لأن {تخر} في معنى تنهد، أو منصوبة على الحال؛ {أن دعوا للرحمن ولدا} لكأن المعنى: لأنهم نسبوا إلى الله البر الرحيم العلي العظيم ولدا؛ قال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا} قال ابن العربي: وصدق، فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون. . ا ه.
{وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} لا يصلح له سبحانه ولا يليق بجلاله وعظمته أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه أباه، وربنا لا كفء له ولا شبيه ولا نظير؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو مقر لله تعالى بالعبودية، والذين يتأبون عن الخضوع والانقياد في الدنيا يأتون يوم القيامة صاغرين أذلاء، فكيف يكون من هو عبد ابنا للمعبود جل وعز؟!.
روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ".
روى ابن جرير ٣١٤ عن ابن عباس قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم " أخرجاه في الصحيحين؛ وفي لفظ: " إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم " [{لقد أحصاهم وعدهم عدا}. . حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج أحد منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جل جلاله؛. . عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار. {وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} أي: منفردا من الأنصار والأتباع، منقطعا إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجا إلى إعانته ورحمته عز وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولدا وليشرك به سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. .] ٣١٥.
٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا {٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا {٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا {٩٨)}.
{ودا} مودة ومحبة.

حذر الله تعالى المستكبرين المجرمين المستهزئين من الهوان والذل والخذلان الذي سينالهم، ثم وعد أهل الإيمان والعمل الصالح بود ومحبة تحيط بهم وتسرهم؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا، ولا يرضى إلا خالصا نقيا؛ في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل عليه السلام فقال إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء - قال - ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه - قال - فيبغضه جبريل ثم ينادي أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه - قال - فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض ".

مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: ثم أجمل حال المؤمنين بما لا مزيد عليه في باب الكرامة قائلا: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا} أي: سيحدث لهم في القلوب مودة من غير ما سبب من الأسباب المعهودة، كقرابة أو اصطناع، وذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب؛ والسين إما لأن السورة مكية، وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة، فوعدهم الله المودة بين الناس عند إظهار الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم،. . وعن أبي مسلم أن المراد أنه سيهب لهم في الجنة ما يحبون؛ واستعمال المصدر بمعنى المفعول كثير، وإنما صار إلى هذا القول لأن المسلم التقي يبغضه الكفار، وقد يبغضه الكفار، وقد يبغضهم المسلمون أكثرهم، وقد يحصل مثل هذه المحبة للكفار والفساق فيكونون مرزوقين بميل الناس إلى اختلاطهم وصحبتهم، فكيف يمكن جعله إنعاما في حق المؤمنين، وأيضا إن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا من فعل الله، فجعل الكلام على إعطاء المنافع به أولى؛ وأجيب بأن المراد محبة الملائكة والأنبياء والصالحين، ومثل هذه لا تحصل للكافر والفاسق؛ وبأنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامهم في قلوبهم اهـ.

{فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا} فإنما أنزلنا القرآن عربيا بلغتك ويسرنا قراءته ليكون بشرى للذين آمنوا وأطاعوا الله البر الرحيم الشكور الكريم سيؤتيهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة؛ وليكون تحذيرا وتخويفا للذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، واستحبوا العمى على الهدى، وصدوا عن سبيل الرشاد بأن الخزي والسوء عليهم، في عاجلهم وآجلهم.

{وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا} كثير من دمرناهم من الأمم التي سلفت: {وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) ٣١٦؛ {وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا) ٣١٧؛ {هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا} استفهام إنكاري فكأن المعنى: ما تحس من المهلكين ولا ترى منهم من أحد، ولا تسمع لهم صوتا خفيا فضلا عن الصوت الظاهر؛ والخطاب: إما لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح للخطاب؛ فكذلك كل جاحد معاند، يصير إلى ما صار إليه الذين عموا وصموا، وطغوا واستكبروا، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك؛ فحذار أن تصرف الهمم إلى ما هو بصدد الزوال والنفاذ، ولنسارع إلى الاجتهاد في تحصيل الزاد للمعاد؛ وربنا الهادي إلى سبيل الرشاد

٩٧ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)

{لدا} فجارا ظلاما.

{بلسانك} بلغتك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٦ إظهار

٩٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

{ركزا} صوتا. {قرن} جيل وأمة وقوم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٦ إظهار

٢٠ سورة طه:

سورة طه:
مكية
وآياتها خمس وثلاثون ومائة
كلماتها: ١٣٤١؛ حروفها: ٥٢٤٢
١ - (طه)
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ
{طه {١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى {٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا {٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى {٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى {٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى {٨)}.

{طه}، عن ابن عباس: قسم أقسم الله به، نقل عن الصديق رضي الله تعالى عنه: هو سر من الأسرار، وقيل: هو اسم للنبي ١ صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا. . . . . . وقيل هو اسم للسورة، ومفتاح لها. . ٢، وقيل غير ذلك ٣.

٢ - (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى)
{ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى} لم ننزل عليك كتابنا المجيد هذا إلا لتذكر ٤ به من يخاف وعيد، وما أنزلته عليك لتشقى بحزنك على المكذبين الضالين، وقالوا في إعراب هذه الآيات الثلاث: إن جعلت {طه} اسما للسورة فمبتدأ، وما بعده خبر، وقد أقيم الظاهر وهو {القرآن} مقام الضمير الرابط، وإن جعلته قسما فما يتلوه جواب، وكل واحد من {لتشقى} و {تذكرة} علة للفعل {أنزلنا}، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس فعلا لفاعل الفعل المعلل، وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب،. . فمعنى {لتشقى}: لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم. . . أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر. . ٥.

٣ - (إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]
{ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى} لم ننزل عليك كتابنا المجيد هذا إلا لتذكر ٦ به من يخاف وعيد، وما أنزلته عليك لتشقى بحزنك على المكذبين الضالين، وقالوا في إعراب هذه الآيات الثلاث: إن جعلت {طه} اسما للسورة فمبتدأ، وما بعده خبر، وقد أقيم الظاهر وهو {القرآن} مقام الضمير الرابط، وإن جعلته قسما فما يتلوه جواب، وكل واحد من {لتشقى} و {تذكرة} علة للفعل {أنزلنا}، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس فعلا لفاعل الفعل المعلل، وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب،. . فمعنى {لتشقى}: لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم. . . أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر. ..

٤ - (تَنْزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى)
{تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى} نزلنا إليك الذكر تنزيلا، فهو مفعول مطلق منصوب على المصدرية، وموحيه إليك هو خالق الأرض ومقدر أقواتها، ورافع السماوات بغير عمد، ومسخر ما فيها من كواكب، ورب الملائكة والروح والخلائق أجمعين، والذي خلق يعلم من خلق، فلهذا كان الكتاب حكيما.

٥ - (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)
{الرحمن على العرش استوى} [المسلك الأسلم طريقة السلف، وهو إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل] ٨، و {العرش} في اللغة: سرير الملك، وفي الشرع سرير ذو قوائم له حملة من الملائكة عليهم السلام، فوق السماوات. . . ويدل على أن له قوائم ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه فقال: يا محمد! رجل من أصحابك قد لطم وجهي، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " ادعوه " فقال: " لم

لطمت وجهه "؟ فقال: يا رسول الله! إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر! فقلت: يا خبيث، وعلى محمد؟! صلى الله عليه وسلم فأخذتني غضبة فلطمته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون وأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور "، وعلى أن له حملة من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به.) ٩،. . . . . . . عن أم سلمة أنها قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان والجحود به كفر،. . . وقد صح عن بعض السلف أنهم فسروا، ففي صحيح البخاري قال مجاهد: استوى على العرش علا على العرش،. . . . . . قال اللقاني: أجمع الخلف ويعبر عنهم بالمؤولة، والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذي دل عليه الظاهر، وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال، وعلى الإيمان به بأنه من عند الله تعالى جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما اختلفوا في تعيين محمل له معنى صحيح وعدم تعيينه. . . . . . ويقال لتأويل السلف إجمالي، ولتأويل الخلف تفصيلي، انتهى ملخصا ١٠.

٦ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

{له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى} ربنا الكبير المتعال وهو خالق الأرض ورافع السماوات يملك ما خلق، فهو مالك السماوات وما فيها والأرض وما عليها، وما تحت الأرض وما هو مركوز تحت سطحها وفي أعماقها، وهو المهيمن على كل ذلك، المدبر لكل شأن، علوي العالم وسماواته بملكها وكواكبها وفلكها، وما دون ذلك من فضاء وهواء، وسفلي العالم جامده ومائه، وإنسه وجنه، ودوابه ونباته، وخيره وكنزه، لله دون سواه ملك ذلك وتدبيره عن قتادة {الثرى} كل شيء مبتل، وعن الضحاك: ما حفر من التراب مبتلا، وإنما عني بذلك: وما تحت الأرضين السبع.

٧ - (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

{وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} الخالق البارئ المصور الملك المدبر لا يخفى عليه شيء وإن دق وكان يسيرا، فعلمه محيط بكل خلقه، ومهما تجهر أيها القائل بقول، أو تسر من حديث، أو توسوس نفسك بخاطر فإن الله يعلمه، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، أو هو عام لكل مخاطب وقائل، والأصل عند البعض: وإن تجهر بالقول فاعلم أن الله تعالى يعلمه فإنه يعلم السر وأخفى فضلا عنه، وعند الجماعة: وإن تجهر فاعلم أن الله تعالى غني عن جهرك فإنه. . . إلخ، وهذا على ما قيل إرشاد للعباد إلى التحري والاحتياط حين الجهر، فإن من علم أن الله تعالى يعلم جهره لم يجهر بسوء، وخص الجهر بالذكر لأن أكثر المحاورات ومخاطبات الناس به، وقيل: إرشاد للعباد إلى أن الجهر بذكر الله تعالى ودعائه ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة، وغير ذلك ١١.

ويمكن أن يفهم من الآية أن هذا القرآن شفاء للصدور، وهدى للقلوب وما بطن، كما هو تقويم لكل شأن، فإن الذي أنزله يعلم ما يبدي الخلق وما يكتمون، ويشهد لذلك قول ربنا الحكيم الخبير: {قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما) ١٢.

٨ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

{الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى} الذي يستحق العبادة هو الله وحده لا شريك له ولا معبود سواه، وإن تعددت أسماؤه المباركة التي سمى بها نفسه فإنه سبحانه لا يتعدد، كما قال جل ثناؤه وقوله الحق: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ١٣، [وحد نفسه سبحانه، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة: محمد ينهانا أن ندعوا مع الله إلها آخر وهو يدعوا الله والرحمن، فأنزل الله تعالى: {الرحمن على العرش استوى}، وأنزل: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى.) ١٤، وهو واحد وأسماؤه كثيرة، ثم قال: {الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى}] ١٥، يقول اللغويون: {الحسنى} نعت إفراد، وصفت به {الأسماء} ولم يقل الأحاسن،

لأن {الأسماء} يشار إليها بهذه فيقال: هذه الأسماء، و [هذه] في لفظها: واحدة، وذلك كقوله تعالى: {. . . فأنبتنا به حدائق ذات بهجة. .) ١٦، ولم يقل: ذوات بهجة، ومنه قوله جل ثناؤه: {. . ولي فيها مآرب أخرى} ولم يقل: مآرب أخر، لما ذكرنا من أن الجمع الذي تقع عليه [هذه] يمكن أن ينعت بالإفراد، وروى الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كما ذكر ابن إسحاق أن هذه الآيات المباركات كانت سببا في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ١٧.

٩ - (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

{وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى {١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى {١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى {١٦)}.

{هل} لاستفهام الإثبات، أو بمعنى: قد. {حديث موسى} نبؤه وقصته.

تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد عراهم من أممهم ما عراهم، وكانت العاقبة لهم. . وقيل: مسوق لترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة، والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة. . ـ ١٨، قال الراغب، الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته ومنامه، ويكون مصدرا بمعنى: التكلم اهـ. قال أهل المعاني: هو استفهام إثبات وإيجاب، معناه: أليس قد أتاك؟! قال الكلبي: لم يكن أتاه حديثه بعد، ثم أخبره، {إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى}.

قال ابن عباس: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا امرأته، فأخطأ الرفقة. لما سبق في علم الله تعالى ـ وكانت ليلة مظلمة، وعن وهب بن منبه: استأذن موسى شعيبا في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله وغنمه، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم توره المقدحة شيئا، إذ أبصر بنار من بعيد على يسار الطريق، فقال لأهله: أقيموا بمكانكم وانتظروا، إني أبصرت نارا.

قال ابن عباس: فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عناب، فتوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار.

وقال {امكثوا} ولم يقل: أقيموا، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك، [وقوله: {لعلي آتيكم منها بقبس}: لعلي أجيئكم من النار التي آنست ـ وجدت وأبصرت وظهرت لي ـ بشعلة، والقبس: هو النار في طرف العود أو القصبة،. . وإنما أراد موسى بقوله لأهله: {لعلي آتيكم منها بقبس}: لعلي آتيكم بذلك لتصطلوا به ـ ليدفئكم ـ. . وقوله: {أو أجد على النار هدى}: دلالة تدل على الطريق الذي أضللناه، إما من خبر هاد يهدينا إليه، وإما من بيان وعلم نتبينه به ونعرفه. . لعلي أجد من يدلني على الطريق، أو آتيكم بقبس لعلكم تصطلون] ١٩.

{فلما أتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى} قال موسى لأهله ما علمنا، ثم اتجه نحو النار التي تراءت له وأنس بها فلما اقترب منها سمع النداء الإلهي يقول: يا موسى إني ربك فأفض بقدميك إلى الأرض لتباشر بهما بركة الوادي إذ كان مقدسا مطهرا، فخلعهما فألقاهما، وفي الآية الأخرى: {. . نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) ٢٠، ومما يقول الألوسي ـ رحمه الله ـ: فلما أتاها أسمع النداء: أن يا موسى إني أنا ربك. . اهـ.

{وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري} أسمع موسى النداء: أنا ربك! وأنا اخترتك ـ رسول ـ كما جاء في الآية الكريمة الأخرى: {. . يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي. .) ٢١، وأمر أن يرهف سمعه

لأنه سيلقى إليه بأمانات أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وأثقل ذلك تلقي وحي الله العظيم، إنني أنا المستحق للعبادة دون سواي، فداوم على عبادتي وأكمل أداء الصلاة على أتم وجه عند ذكرك لي؛ وهكذا علم عليه السلام مقام الربوبية، والألوهية، والنبوة، ولب التكاليف الشرعية.

في الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك "، قيل في معنى قول الله ـ تبارك اسمه ـ: {فاعبدني}: وحدني وقم بعبادتي من غير شريك؛ ويشهد لهذا القول ما جاء في الآية الكريمة: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا.) ٢٢؛ وكذا ما جاء في آية مباركة: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء.) ٢٣؛ قال وهب: أدب الاستماع: سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهكذا قرنت الصلاة باليقين في مقام الربوبية والألوهية، وأفردت بالذكر مع اندراجها في العبادة المأمور بها في قول الحق جل ذكره: {فاعبدني} للتنبيه على عظم قدر الصلاة ٢٤، وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا في قوله جل وعلا: {. . فاسعوا إلى ذكر الله.) ٢٥؛ بل وسماها إيمانا في محكم قرآنه: {. . وما كان الله ليضيع إيمانكم.) ٢٦: أي صلاتكم إلى جهة بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى بيت الله الحرام.

{إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى} إن انتهاء هذه الحياة الدنيا، وبعث الخلائق في حياة أخرى، كائن لابد من وقوعه وتحققه، وآت لا شك فيه، {أكاد} أي أريد ٢٧؛ قال ابن عباس: لا أطلع عليها أحدا غيري؛ وقال السدي: ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة؛ وقال قتادة: لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين، [وهذا كقوله تعالى: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله.) ٢٨ وقال - سبحانه -: {. . ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة.) ٢٩؛ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، وقوله سبحانه وتعالى: {لتجزى كل نفس بما تسعى} أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ٣٠؛ و {. . إنما تجزون ما كنتم تعملون) ٣١.

وقوله: {فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها} الآية: المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ٣٢، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فتردى} أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وما يغني عنه ماله إذا تردى) ٣٣] ٣٤.

واختار أبو جعفر ٣٥ أن تأويل الآية: أكاد أخفيها من نفسي. . وأما وجه صحة القول في ذلك فهو أن الله تعالى ذكره خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم، فلما كان معروفا في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئا هو له مسر: قد كدت أن أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلام بينهم. . ا هـ

١٠ - (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

{رأى نارا} أبصر نارا في ليلة وهو مرتحل بأهله في صحراء سيناء في ظلمة وشتاء. {امكثوا} أقيموا بهذا المكان وانتظروا. {آنست} أبصرت. {بقبس} بشعلة وجذوة وقطعة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار

١١ - (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار

١٢ - (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

{المقدس} المطهر. {طوى} اسم للوادي. {فتردى} فتهلك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار

١٣ - (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار
١٤ - (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار
١٥ - (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار
١٦ - (فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)
{المقدس} المطهر. {طوى} اسم للوادي. {فتردى} فتهلك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩ إظهار
١٧ - (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى {٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي {٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي {٢٩) هَارُونَ أَخِي {٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا {٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا {٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {٣٥)}

نبأ الله تعالى كليمه موسى في الآيات المباركات السابقات على هذه بأنه الرب الولي، والإله الواحد العلي، والمعبود بحق ما له سبحانه من ند ولا شريك ولا سمي، وشرفه بالتكليم والوحي، ورسخ في يقينه التصديق بالحساب والجزاء بعد البعث، ثم أراد أن يبشر رسوله بما سيجريه له من خوارق العادات، وما يؤيده به على من يدعوهم، ويمكنه من تحديهم بالمعجزات؛ قال بعض المفسرين: إنما قال له: {وما تلك بيمينك} على سبيل الإيناس له؛ وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يدك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؛ {وما تلك بيمينك يا موسى} استفهام تقرير، {قال هي عصاي أتوكأ عليها} أي أعتمد عليها في حال المشي، {وأهش بها على غنمي} أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، {. . . ولي فيها مآرب أخرى} أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ٣٦.
مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: في هذه الآية دليل على جواب المسئول بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: {وما تلك بيمينك يا موسى} ذكر معاني أربعة: وهي: إضافة العصا ٣٧ إليه، وكان حقه أن يقول عصا؛ والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة،. . وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: " هو الطهور ماؤه الحل ميتته "، وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: " نعم ولك أجر " اهـ.
١٨ - (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]
{أتوكأ} أستند وأعتمد. {أهش} أهز بها الشجر ليتساقط ورقه فتأكله غنمي. {مآرب} مصالح وحاجات.

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى {٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥)

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي {٢٧} يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨} وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي {٢٩} هَارُونَ أَخِي {٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا {٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا {٣٤} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {٣٥}}

نبأ الله تعالى كليمه موسى في الآيات المباركات السابقات على هذه بأنه الرب الولي، والإله الواحد العلي، والمعبود بحق ما له سبحانه من ند ولا شريك ولا سمي، وشرفه بالتكليم والوحي، ورسخ في يقينه التصديق بالحساب والجزاء بعد البعث، ثم أراد أن يبشر رسوله بما سيجريه له من خوارق العادات، وما يؤيده به على من يدعوهم، ويمكنه من تحديهم بالمعجزات؛ قال بعض المفسرين: إنما قال له: {وما تلك بيمينك} على سبيل الإيناس له؛ وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يدك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؛ {وما تلك بيمينك يا موسى} استفهام تقرير، {قال هي عصاي أتوكأ عليها} أي أعتمد عليها في حال المشي، {وأهش بها على غنمي} أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، {. . . ولي فيها مآرب أخرى} أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ٣٨.

مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: في هذه الآية دليل على جواب المسئول بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: {وما تلك بيمينك يا موسى} ذكر معاني أربعة: وهي: إضافة العصا ٣٩ إليه، وكان حقه أن يقول عصا؛ والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة،. . وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: " هو الطهور ماؤه الحل ميتته "، وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: " نعم ولك أجر " اه.

١٩ - (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى)

{قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} أمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يطرح العصا ويرمي بها، فاستجاب لأمر ربنا ورمى بها من يده، فأحالها المولى عز وجل بقدرته من جماد إلى حيوان، ومن همود إلى حركة، وصارت لتوها ثعبانا يتحرك مسرعا، ويتلوى مهتزا، كما جاء في آية أخرى: {. . فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف. . ")؛ ثم أذهب الله تعالى الخوف الذي وقع في نفس موسى، وناداه مولاه جل علاه أن أقبل ولا تفزع، فإني مرجعها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تنقلب حية؛ قيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له مدخل في خروج أبيه آدم من الجنة؛ فأخذها عليه السلام عصا كعهده بها؛ إذ ردها الله القدير إلى حالتها الأولى؛ قوله: {فإذا هي حية تسعى} وفي موضع آخر: {. . فإذا هي ثعبان. .) ٤٠؛ وفي آخر: {. . كأنها جان. .) ٤١، عبارات عن معبر واحد، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والعظيم، وأما الثعبان: وهو العظيم من الحيات، والجان: وهو الدقيق منها فبينهما تناف في الظاهر لا في التحقيق، لأنهما حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعبانا آخر الأمر، أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة الجان. . عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها، حتى لا يخافها عند عدوه ٤٢. ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال: {واضمم يدك إلى جناحك} في القاموس: الجناح: اليد والعضد والإبط والجانب؛ وفي البحر: الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل؛ {تخرج بيضاء من غير سوء} الفعل مجزوم في جواب الأمر {اضمم}؛ وفي آية كريمة ثانية كان أمر الله تعالى إلى موسى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. .) ٤٣. .

كان عليه إذا أدخل يده من فتحة ثوبه التي حول عنقه ثم نزعها خرجت تتلألأ كأنها فلقة قمر، لا عيب بها ولا شين ولا برص؛ إذ المرض الجلدي قد يبيض البشرة لكنه بياض قبيح منفر عافانا الله {لنريك من آياتنا الكبرى} لنريك بهاتين المعجزتين ٤٤ بعض آياتنا الكبرى؛ ولقد وحد وصف الآيات وهي جمع لأن لفظ [هذه] يقع عليها، كما أسلفنا القول عند تفسير قول الله سبحانه: {له الأسماء الحسنى} ولم يقل الأحاسن؛ ولقد أوتي موسى تسع آيات بينات، كما بشره بذلك ربنا جل ذكره بقوله: {. . في تسع آيات إلى فرعون وقومه. .) ٤٥.

٢٠ - (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{تسعى} تمشي وتحرك.
{قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} أمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يطرح العصا ويرمي بها، فاستجاب لأمر ربنا ورمى بها من يده، فأحالها المولى عز وجل بقدرته من جماد إلى حيوان، ومن همود إلى حركة، وصارت لتوها ثعبانا يتحرك مسرعا، ويتلوى مهتزا، كما جاء في آية أخرى: {. . فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف. . ")؛ ثم أذهب الله تعالى الخوف الذي وقع في نفس موسى، وناداه مولاه جل علاه أن أقبل ولا تفزع، فإني مرجعها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تنقلب حية؛ قيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له مدخل في خروج أبيه آدم من الجنة؛ فأخذها عليه السلام عصا كعهده بها؛ إذ ردها الله القدير إلى حالتها الأولى؛ قوله: {فإذا هي حية تسعى} وفي موضع آخر: {. . فإذا هي ثعبان. .) ٤٦؛ وفي آخر: {. . كأنها جان. .) ٤٧، عبارات عن معبر واحد، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والعظيم، وأما الثعبان: وهو العظيم من الحيات، والجان: وهو الدقيق منها فبينهما تناف في الظاهر لا في التحقيق، لأنهما حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعبانا آخر الأمر، أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة الجان. . عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها، حتى لا يخافها عند عدوه ٤٨. ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال: {واضمم يدك إلى جناحك} في القاموس: الجناح: اليد والعضد والإبط والجانب؛ وفي البحر: الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل؛ {تخرج بيضاء من غير سوء} الفعل مجزوم في جواب الأمر {اضمم}؛ وفي آية كريمة ثانية كان أمر الله تعالى إلى موسى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. .) ٤٩. .
كان عليه إذا أدخل يده من فتحة ثوبه التي حول عنقه ثم نزعها خرجت تتلألأ كأنها فلقة قمر، لا عيب بها ولا شين ولا برص؛ إذ المرض الجلدي قد يبيض البشرة لكنه بياض قبيح منفر عافانا الله {لنريك من آياتنا الكبرى} لنريك بهاتين المعجزتين ٥٠ بعض آياتنا الكبرى؛ ولقد وحد وصف الآيات وهي جمع لأن لفظ [هذه] يقع عليها، كما أسلفنا القول عند تفسير قول الله سبحانه: {له الأسماء الحسنى} ولم يقل الأحاسن؛ ولقد أوتي موسى تسع آيات بينات، كما بشره بذلك ربنا جل ذكره بقوله: {. . في تسع آيات إلى فرعون وقومه. .) ٥١.
٢١ - (قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{سيرتها} حالها.
{قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} أمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يطرح العصا ويرمي بها، فاستجاب لأمر ربنا ورمى بها من يده، فأحالها المولى عز وجل بقدرته من جماد إلى حيوان، ومن همود إلى حركة، وصارت لتوها ثعبانا يتحرك مسرعا، ويتلوى مهتزا، كما جاء في آية أخرى: {. . فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف. . ")؛ ثم أذهب الله تعالى الخوف الذي وقع في نفس موسى، وناداه مولاه جل علاه أن أقبل ولا تفزع، فإني مرجعها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تنقلب حية؛ قيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له مدخل في خروج أبيه آدم من الجنة؛ فأخذها عليه السلام عصا كعهده بها؛ إذ ردها الله القدير إلى حالتها الأولى؛ قوله: {فإذا هي حية تسعى} وفي موضع آخر: {. . فإذا هي ثعبان. .) ٥٢؛ وفي آخر: {. . كأنها جان. .) ٥٣، عبارات عن معبر واحد، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والعظيم، وأما الثعبان: وهو العظيم من الحيات، والجان: وهو الدقيق منها فبينهما تناف في الظاهر لا في التحقيق، لأنهما حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعبانا آخر الأمر، أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة الجان. . عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها، حتى لا يخافها عند عدوه ٥٤. ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال: {واضمم يدك إلى جناحك} في القاموس: الجناح: اليد والعضد والإبط والجانب؛ وفي البحر: الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل؛ {تخرج بيضاء من غير سوء} الفعل مجزوم في جواب

الأمر {اضمم}، وفي آية كريمة ثانية كان أمر الله تعالى إلى موسى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. .) ٥٥. .
كان عليه إذا أدخل يده من فتحة ثوبه التي حول عنقه ثم نزعها خرجت تتلألأ كأنها فلقة قمر، لا عيب بها ولا شين ولا برص؛ إذ المرض الجلدي قد يبيض البشرة لكنه بياض قبيح منفر عافانا الله {لنريك من آياتنا الكبرى} لنريك بهاتين المعجزتين ٥٦ بعض آياتنا الكبرى، ولقد وحد وصف الآيات وهي جمع لأن لفظ [هذه] يقع عليها، كما أسلفنا القول عند تفسير قول الله سبحانه: {له الأسماء الحسنى} ولم يقل الأحاسن؛ ولقد أوتي موسى تسع آيات بينات، كما بشره بذلك ربنا جل ذكره بقوله: {. . في تسع آيات إلى فرعون وقومه. .) ٥٧.

٢٢ - (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{واضمم يدك إلى جناحك} ضع كفك تحت عضدك. {من غير سوء} من غير برص ولا أذى ولا شين. {آية} حجة وعلامة ومعجزة. {قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} أمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يطرح العصا ويرمي بها، فاستجاب لأمر ربنا ورمى بها من يده، فأحالها المولى عز وجل بقدرته من جماد إلى حيوان، ومن همود إلى حركة، وصارت لتوها ثعبانا يتحرك مسرعا، ويتلوى مهتزا، كما جاء في آية أخرى: {. . فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف. . ")؛ ثم أذهب الله تعالى الخوف الذي وقع في نفس موسى، وناداه مولاه جل علاه أن أقبل ولا تفزع، فإني مرجعها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تنقلب حية؛ قيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له مدخل في خروج أبيه آدم من الجنة؛ فأخذها عليه السلام عصا كعهده بها، إذ ردها الله القدير إلى حالتها الأولى؛ قوله: {فإذا هي حية تسعى} وفي موضع آخر: {. . فإذا هي ثعبان. .) ٥٨؛ وفي آخر: {. . كأنها جان. .) ٥٩، عبارات عن معبر واحد، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والعظيم، وأما الثعبان: وهو العظيم من الحيات، والجان: وهو الدقيق منها فبينهما تناف في الظاهر لا في التحقيق، لأنهما حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعبانا آخر الأمر، أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة الجان. . عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها، حتى لا يخافها عند عدوه ٦٠. ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال: {واضمم يدك إلى جناحك} في القاموس: الجناح: اليد والعضد والإبط والجانب؛ وفي البحر: الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل؛ {تخرج بيضاء من غير سوء} الفعل مجزوم في جواب الأمر {اضمم}، وفي آية كريمة ثانية كان أمر الله تعالى إلى موسى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. .) ٦١. .
كان عليه إذا أدخل يده من فتحة ثوبه التي حول عنقه ثم نزعها خرجت تتلألأ كأنها فلقة قمر، لا عيب بها ولا شين ولا برص؛ إذ المرض الجلدي قد يبيض البشرة لكنه بياض قبيح منفر عافانا الله {لنريك من آياتنا الكبرى} لنريك بهاتين المعجزتين ٦٢ بعض آياتنا الكبرى، ولقد وحد وصف الآيات وهي جمع لأن لفظ [هذه] يقع عليها، كما أسلفنا القول عند تفسير قول الله سبحانه: {له الأسماء الحسنى} ولم يقل الأحاسن؛ ولقد أوتي موسى تسع آيات بينات، كما بشره بذلك ربنا جل ذكره بقوله: {. . في تسع آيات إلى فرعون وقومه. .) ٦٣.

٢٣ - (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى} أمر من الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يطرح العصا ويرمي بها، فاستجاب لأمر ربنا ورمى بها من يده، فأحالها المولى عز وجل بقدرته من جماد إلى حيوان، ومن همود إلى حركة، وصارت لتوها ثعبانا يتحرك مسرعا، ويتلوى مهتزا، كما جاء في آية أخرى: {. . فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف. . ")؛ ثم أذهب الله تعالى الخوف الذي وقع في نفس موسى، وناداه مولاه جل علاه أن أقبل ولا تفزع، فإني مرجعها إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تنقلب حية؛ قيل: إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك الجنس حيث كان له

مدخل في خروج أبيه آدم من الجنة، فأخذها عليه السلام عصا كعهده بها، إذ ردها الله القدير إلى حالتها الأولى، قوله: {فإذا هي حية تسعى} وفي موضع آخر: {. . فإذا هي ثعبان. .) ٦٤، وفي آخر: {. . كأنها جان. .) ٦٥، عبارات عن معبر واحد، لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والعظيم، وأما الثعبان: وهو العظيم من الحيات، والجان: وهو الدقيق منها فبينهما تناف في الظاهر لا في التحقيق، لأنهما حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعبانا آخر الأمر، أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة الجان. . عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها، حتى لا يخافها عند عدوه ٦٦. ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال: {واضمم يدك إلى جناحك} في القاموس: الجناح: اليد والعضد والإبط والجانب، وفي البحر: الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل، {تخرج بيضاء من غير سوء} الفعل مجزوم في جواب الأمر {اضمم}، وفي آية كريمة ثانية كان أمر الله تعالى إلى موسى: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. .) ٦٧. .

كان عليه إذا أدخل يده من فتحة ثوبه التي حول عنقه ثم نزعها خرجت تتلألأ كأنها فلقة قمر، لا عيب بها ولا شين ولا برص، إذ المرض الجلدي قد يبيض البشرة لكنه بياض قبيح منفر عافانا الله {لنريك من آياتنا الكبرى} لنريك بهاتين المعجزتين ٦٨ بعض آياتنا الكبرى، ولقد وحد وصف الآيات وهي جمع لأن لفظ [هذه] يقع عليها، كما أسلفنا القول عند تفسير قول الله سبحانه: {له الأسماء الحسنى} ولم يقل الأحاسن، ولقد أوتي موسى تسع آيات بينات، كما بشره بذلك ربنا جل ذكره بقوله: {. . في تسع آيات إلى فرعون وقومه. .) ٦٩.

٢٤ - (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

{اذهب إلى فرعون إنه طغى}

{طغى} ظلم وتعدى وجاوز الحد.

حمل موسى عليه السلام أول ما أرسل دعوة فرعون ملك مصر الذي خرج منه فارا هاربا، ومعلوم أنه صلوات الله عليه قد أرسل بعد ذلك إلى بني إسرائيل، {إنه طغى} ظلم وتجاوز الحد، وتجبر واستكبر، استكبر في الأرض بغير الحق فزعم أنه الرب الأعلى، وبغى على الخلق فاستضعف الإسرائيليين يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فكان أول ما دعى إليه أن يقر بأنه لا إله إلا الله: {فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى) ٧٠، وأن يخلي سبيل المظلومين المستضعفين: {ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين) ٧١، كما جاء في آيات مباركات أخر: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) ٧٢، وفي كلام محذوف استغنى بفهم السامع بما ذكر منه، وهو قوله: {اذهب إلى فرعون إنه طغى) فادعه إلى توحيد الله وطاعته، وإرسال بني إسرائيل معك ٧٣.

٢٥ - (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

{قال رب اشرح لي صدري. ويسر لي أمري)

دعا موسى ربه أن يوسع له ما كان يحس في قلبه ضيق، ويشهد لذلك ما جاء في آية كريمة: {ويضيق صدري. .) ٧٤، فسأل الله أن يمنحه سعة بدلا من هذا الضيق ٧٥، وأن ييسر له دعوة هذا المتكبر الجبار، وكل أمر، فاستوهب ربه تعالى أن يشرح صدره ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها، بتوفيق الأسباب ورفع الموانع، فالمراد من شرح الصدر جعله بحيث لا يضجر ولا يقلق مما يقتضي بحسب البشرية الضجر والقلق من الشدائد، وفي طلب ذلك إظهار لكمال الافتقار إليه عز وجل. . وذكر الراغب أن أصل الشرح البسط ونحوه، وشرح الصدر: بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى، وروح منه عز وجل.

٢٦ - (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]

{قال رب اشرح لي صدري. ويسر لي أمري}
دعا موسى ربه أن يوسع له ما كان يحس في قلبه ضيق، ويشهد لذلك ما جاء في آية كريمة: {ويضيق صدري. .} ٧٦؛ فسأل الله أن يمنحه سعة بدلا من هذا الضيق ٧٧؛ وأن ييسر له دعوة هذا المتكبر الجبار، وكل أمر؛ فاستوهب ربه تعالى أن يشرح صدره ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها، بتوفيق الأسباب ورفع الموانع، فالمراد من شرح الصدر جعله بحيث لا يضجر ولا يقلق مما يقتضي بحسب البشرية الضجر والقلق من الشدائد؛ وفي طلب ذلك إظهار لكمال الافتقار إليه عز وجل. . وذكر الراغب أن أصل الشرح البسط ونحوه، وشرح الصدر: بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى، وروح منه عز وجل.
٢٧ - (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي)
{واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي}
{واحلل عقدة من لساني} أذهب عني عي الكلام.
قال الحسن البصري: سأل حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي؛ وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير الكلام. . فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه؛ [وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته. . فتطير، فدعا بالسياف، فقالت آسية بنت مزاحم امرأته - وكانت تحب موسى عليه السلام -: إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر، فأحضروا، وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه. .] ٧٨
٢٨ - (يَفْقَهُوا قَوْلِي)
{يفقهوا} يفهموا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٢٩ - (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي)
{وزيرا} عونا ومساعدا.
{واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا} وتابع موسى التضرع إلى ربه سائلا أسباب العون على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة فسأل مولاه عز وجل علاه أن يمنح هارون شرف الرسالة ليكون ظهيرا له، وقسيما في حمل أعباء الدعوة، كما جاء ذلك في آية مباركة أخرى: {وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} ٧٩؛ ومع مقاسمته إياه حمل التذكير بالحق فإنه سيكون عونا على الاستكثار من الطاعات، والتبتل والقربات؛ {كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا}؛ وهكذا ما يبلغ المؤمن منازل الأجر العظيم والرضوان حتى ينزه المولى كثيرا، ويذكر كثيرا، وصدق الله العظيم: {. . والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٨٠، وعهد ربنا إلى عبده ونبيه زكريا عليه السلام: {. . واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار} ٨١؛ وبهذا وصى أتباعه: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا} ٨٢: وعهد الله جل ذكره إلى خاتم النبيين بهذا، فقال تباركت أسماؤه: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود} ٨٣؛ وقال عز من قائل: {. . وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٨٤؛ وعهده سبحانه إلينا: {يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا} ٨٥.
{إنك كنت بنا بصيرا} قال الخطاب: البصير المبصر، والبصير: العالم بخفيات الأمور، فالمعنى: أي عالما بنا. . فأحسنت إلينا كذلك يا رب؛ - {إنك كنت بنا بصيرا} في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك- ٨٦
٣٠ - (هَارُونَ أَخِي)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣١ - (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٢ - (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٣ - (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٤ - (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٥ - (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٦ - (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)}.

{أوتيت سؤلك} أعطيت ما سألت، وأجبتك إلى ما دعوت.

[حين راعى من دقائق الأدب وأنواع حسن الطلب ما يجب رعايته فلا جرم أجاب الله تعالى مطالبه، وأنجح مآربه قائلا: {قد أوتيت سؤلك}، والسؤل بمعنى المسؤول كالخبز بمعنى المخبوز، والأكل بمعنى المأكول. . . {مننا عليك}: من عليه منا: أنعم، ومن عليه منة: امتن عليه، كأن الله سبحانه قال لموسى: إني راعيت صلاحك قبل سؤالك، فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال؟! أو: كنت ربيتك من غير سابقة حق فلو منعتك الحال مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول، وحرمانا بعد الإحسان،. . . .، وإنما قال: {مرة أخرى} لأن الجملة قصة واحدة، وإن كانت مشتملة على منن كثيرة، والوحي إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبي في عصرها كشعيب مثلا أو عن لسان ملك لا على طريق النبوة،. . . أو أراها المنام. . . أو ألهمها بذلك. . . . {أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له}، {أن} هي المفسرة، لأن الإيحاء في معنى القول، والقذف يستعمل بمعنى الوضع، أي: ضعيه في التابوت ٨٧. . . . الضميران الباقيان في قوله: {فاقذفيه في اليم فليلقه}: عائدان إلى موسى. . فإن المقذوف والملقى إذا كان موسى وهو في جوف التابوت لزم أن يكون التابوت أيضا مقذوفا وملقى، ويؤيده أن الضمير في قوله: {عدو له} لموسى بالضرورة، لأن عداوة التابوت غير معقولة، وإذا كان الضمير الأول والضمير الأخير لموسى فالأنسب بإعجاز القرآن أن يكون الضمير المتوسط أيضا له،. . . واليم هو البحر، والمراد هنا: نيل مصر، والساحل: شاطئ البحر] ٨٨، {فليلقه} - المراد من الأمر الخبر. . . وقال غير واحد: إنه لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر. . . . .

{وألقيت عليك محبة مني}. . أي: محبة عظيمة كائنة مني قد زرعتها في القلوب، فكل من رآك أحبك. . . {ولتصنع على عيني}. . .: وليفعل بك الصنيعة والإحسان وتربى بالحنو والشفقة وأنا مراعيك ومراقبك. . . وقال قتادة: المعنى: لتغذى على محبتي وإرادتي؛ وهو اختيار أبي عبيدة، وابن الأنباري، وزعم الواحدي أنه الصحيح ـ ٨٩.

{إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن} يذكر المولى سبحانه بأنعمه، ويقص علينا من أنباء المرسلين ما يثبت الفؤاد ويقوي اليقين، فإنه عز وجل إذ أراد أن يرعى موسى كان ما أراد، ولم يقف أمام مراده كيد فرعون الذي ضيق حول الإسرائيلين ـ قوم موسى ـ الخناق، وأمعن في أبنائهم ذبحا، وأشاع في نسائهم الاسترقاق، لكن يأبى الله إلا أن يتم مراده، وينجي صفيه وكليمه؛ ومثلما أنجاه وليدا، رعاه وأقر عين أمه به رضيعا، فقد ربط الله تعالى على قلب أم موسى، فألقت وليدها في الصندوق المغلق الذي جرت العادة أن يقتل من بداخله خنقا، ثم قذفت به في اليم مطمئنة إلى أنه لن يموت غرقا، كيف لا وقد ألهمها الله الملك الحق المبين {. . لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) ٩٠؛ وأنجز الله تعالى ما وعد؛ فأخذه فرعون ـ عدو الله وعدو موسى ـ وكان الصندوق قد التقط أمام دار ذاك الطاغية، فلما فتح ألقى الله تعالى محبته في قلب امرأة فرعون، وكأنما هم الذباحون بقتله، فقالت ما بينه كتاب الله: {. . قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. .) ٩١؛ فوهبها إياه، ونجا من الذباحين، وفرحت بمتبناها، وطلبت المراضع ليرضعنه، فما أقبل على ثدي من ثديهن أبدا، حتى خافت عليه الهلاك؛ بينما جاءت أخته تعرض عليها أن تدلها على أهل بيت يرضعونه ويحفظونه؛ فرضيت امرأة فرعون بما عرض عليها، وأسلمته إلى التي طلبته فعادت به إلى أمه ـ وهم لا يعرفون أنه ابنها ـ يريد الله البر الرحيم أن تقر عين أمه ولا تحزن؛ وللسرور دمعة باردة تقر بها العين فلا تسخن، وللحزن دمعة حارة.

ورعا الله تعالى كليمه شابا يافعا، ونجاه من بطش الجبارين، وثأر الموتورين، وذلك أنه عليه السلام حين كان فتى سار في المدينة التي يسكنها فرعون فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والثاني قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فبينما هو يحجز القبطي عنه إذ أصابته وكزة من موسى فقضت عليه، فاستغفر ربه لتلك الفعلة فغفر الله له، أما أهل القتيل فاشتد غيظهم وانطلقوا يبحثون عن القاتل فلم يعرفوا أول الأمر من الذي قتل، وفي اليوم الثاني مر موسى فإذا بالذي استنصره بالأمس يستصرخه {. . قال له موسى إنك لغوي مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس. .) ٩٢، فذهب القبطي يحدث قومه بما سمع فعرفوا أن موسى هو قاتل القبطي الذي لم يكن قد علم بعد قاتله، فتحرك القبط ليثأروا لكن الله اللطيف الخبير قيض لموسى من يسرع في إبلاغه بما اعتزم القوم، {فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. قال يا بني إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) ٩٣.

وإلى هذا جاءت الإشارة في الآية الكريمة: {وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين}؛ وهكذا، لما وفى موسى بالمدة استأذن صهره نبي الله شعيبا في الرجوع إلى أمه، فأذن له، وخرج ومعه أهله وغنمه، وفي رحلة العودة نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة: {. . أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) ٩٤؛ فأتى إلى الطور في الوادي المقدس في الوقت الذي شاء الله؛ وصدق مولانا الحكيم القائل: {ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي}.

{اذهب أنت وأخوك بآياتي}: التي أريتك من معجزات ـ العصا واليد وسائر المعجزات التسع ـ أو عبر عن العصا واليد بالآيات على أن

الجمع يكون لما فرق الواحد، لكن آية مباركة بينت أن العصا واليد على عظمهما ما كانتا إلا بعض ما أوتي موسى من علامات وحجج وبراهين بعث بها إلى فرعون وملئه، وذلك قول الله جل ذكره: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين) ٩٥؛ {ولا تنيا في ذكري} ولا تفترا عن ذكر ربكما، فإن من يذكر الله تعالى يذكره، ومن ينسه ينسه نفسه - وحاشا للرسولين الكريمين أن ينسيا أو يفترا - قال ابن عباس: لا تضعفا في أمر الرسالة ولا تبطئا. {اذهب إلى فرعون إنه طغى} [ما الفائدة في تكرير. . {اذهبا إلى فرعون}؟.
والجواب: بعد التقرير والتأكيد أمرهما أن يشتغلا بأداء الرسالة معا لا أن ينفرد به موسى، أو الأول أمر بالذهاب إلى القبط. والثاني مخصوص بفرعون الطاغي، ثم إنه خوطب كلاهما وموسى حاضر فقط لأنه الأصل] ٩٦ {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى} عن الحسن البصري: أعذرا إليه، قولا له: إن لك ربا ولك معادا، وإن بينك جنة ونارا، وقال: يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه، - هذه الآية فيها عبرة عظيمة. . فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع أن هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين. . . والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق، لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع. . . لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو {يخشى} أي يوجد طاعة من خشية ربه،. . . فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة - ٩٧؛ [ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال: {فقولا له قولا لينا}، وقال: {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى، فكيف بنا؟ فنحن أولى بذلك!. . . واختلف الناس في معنى قوله: {لينا}، فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة: معناه: كنياه،. . . فعلى هذا القول تكون تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف، وطمع بإسلامه، وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه ٩٨. . . . . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا. فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال الله تعالى: {. . وقولوا للناس حسنا.) ٩٩. قوله تعالى: {لعله يتذكر أو يخشى} معناه: على رجائكما وطمعكما، فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر، قاله كبراء النحويين: سيبويه وغيره. . . . وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع، وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي، فقال: {. . آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) ١٠٠، ولكن لم ينفعه ذلك، قاله أبو بكر الوراق وغيره، وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية: هذا رفقك بمن يقول أنا الله، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله؟! وقد قيل: إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه، وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان، فقال: لا تفعل، بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا] ١٠١

٣٧ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)
{مننا} أنعمنا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار

٣٨ - (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)
{أوحينا إلى أمك} ألهمناها، أو أريناها مناما، أو ملك لكن لا على وجه النبوة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار

٣٩ - (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)
{التابوت} الصندوق. {اليم} النهر، والبحر العذب الماء. {بالساحل} بالشاطئ. {ولتصنع على عيني} تربى بالحنو، وأنا أرعاك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار

٤٠ - (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)
{يكفله} يحفظه ويتولى أموره. {تقر عينها} تهدأ، وتطيب نفسا. {فتناك} ابتليناك واختبرنا ومحصنا. {فتونا} ابتلاء واختبارا وتمحيصا.

{على قدر} على تقدير، وفي الوقت المعين المقدر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٤١ - (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)
{اصطنعتك} جعلتك محل إحساني.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٤٢ - (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)
{ولا تنيا} ولا تفترا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٤٣ - (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٤٤ - (فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٤٥ - (قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)
{قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى}
{يفرط} يعجل بالبطش.
قال موسى وهارون: يا إلهنا ومولانا: إن هذا الجبار قد يبادرنا بالبطش، ولا يمهل حتى نبلغ ما أرسلنا به إليه؛ - لا منافاة بين الخوف من شيء والصبر عليه وعدم الضجر منه إذا وقع؛ ألا ترى كثيرا من الكاملين يخافون من البلاء ويسألون الله الحفظ منه وإذا نزل بهم استقبلوه بصدر واسع وصبروا عليه ولم يضجروا منه؛. . . . . فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه سبحانه؟ فقيل: قال أي لهما: {لا تخافا} مما ذكرتما؛. . . . {إنني معكما} تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما، والمراد بمعيته سبحانه: كمال الحفظ والنصرة. . . فأفعل في كل حال ما يليق بها من دفع شر وجلب خير. . .
{فأتياه} أمرا بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعدما أمر بالذهاب إليه. . . {فقولا إنا رسولا ربك} أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما. . . {فأرسل معنا بني إسرائيل. . . الفاء في {فأرسل} لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن كونهما عليهما السلام رسولي ربه تعالى مما يوجب إرسالهم معهما، والمراد بالإرسال إطلاقهم من الأسر وإخراجهم من تحت يده. . {ولا تعذبهم} أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمون، وكانوا يقتلون أبناءهم. . ويستخدمون نساءهم. . . {قد جئناك بآية من ربك} استئناف بياني. . . قد جئناك بما يثبت مدعانا. . . {والسلام على من اتبع الهدى} أي السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع ذلك. . . و {على} بمعنى اللام، كما ورد عكسه في قوله تعالى: {. . لهم اللعنة) ١٠٢؛ وحروف الجر كثيرا ما تتقارض. .
{إنا قد أوحي إلينا} من جهة ربنا {أن العذاب} الدنيوي والأخروي {على من كذب} بآياته عز وجل {وتولى} أي أعرض عن قبولها-١٠٣ وهذا وعيد الله لمن كذب بقلبه وأعرض بفعله، قال عز من قائل: {أنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى) ١٠٤؛ قال ابن عباس: هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا؛ مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: وهذه الآية ترد على من قال: إنه لا يخاف؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم؛. . . . ومنه حفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد، ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة في الحبشة، ومرة إلى المدينة؛ تخوفا على أنفسهم من مشركي مكة، وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم. ا هـ
٤٦ - (قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٧ - (فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)
{فأرسل} فأطلق. {والسلام} والسلامة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٨ - (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)
{تولى} أعرض.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٩ - (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)
{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)}

-هذا الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر عليه عنه وهو قوله: فأتياه، فقالا له ما أمرهما به ربهما، وأبلغاه رسالته، فقال فرعون لهما: {فمن ربكما يا موسى} ١٠٥ وربما يكون قصد بسؤاله الإنكار، فهو يجحد وجود الصانع جل وعلا، ويقول ما حكاه عنه القرآن: {. . ما علمت لكم من إله غيري. .) ١٠٦، وفي آية ثانية: {قال فرعون وما رب العالمين) ١٠٧.

يقول بعض المفسرين: سأل ههنا ب {من} طالبا للكيفية، وفي {الشعراء) ب {ما) طالبا للماهية، فكأن موسى لما أقام الدلالة على الوجود ترك المناظرة والمنازعة معه في هذا المقام لظهوره، وشرع في مقام أصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر، كما قال البعض: خاطب الاثنين ووجه النداء إلى موسى لأنه الأصل. . ويجوز أنه خص موسى عليه السلام بالنداء لما عرف من فصاحة هارون والرتة التي كانت في لسان موسى فأراد أن يعجز عن الجواب.

قال أهل الأدب: إن فرعون كان شديد البطش جبارا، ومع ذلك لم يبدأ بالسفاهة والشغب بل شرع في المناظرة وطلب الحجة، فدل على أن الشغب من غير حجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره، فكيف يليق ذلك بمن يدعي الإسلام والعلم؟! وفي اشتغال موسى بإقامة الدلالة على المطلوب دليل على فساد التقليد. . . وفيه جواز حكاية كلام المبطل مقرونا بالجواب لئلا يبقى الشك، وفيه أن المحق يجب عليه استماع شبهة المبطل حتى يمكنه الاشتغال بحلها. اه.

٥٠ - (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)
{قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}
{أعطى كل شيء خلقه} خص كل مخلوق بهيئة وصورة. {هدى} هداه لما يصلحه.

أراد موسى أن يدله على الله تعالى بصفاته، فبين أن المولى المطاع هو البارئ المصور، الحكيم المدبر، الذي خص كل مخلوق بهيئة وصورة، وهداه لما يصلحه؛ أو يكون المعنى: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به.

{قال فما بال القرون الأولى}؟! كأن فرعون شرع يحتج بالأمم الماضية، ما حالهم إذ لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟!؛ والألوسي - رحمه الله تعالى - ذهب إلى معنى آخر فقال: كأن الفاء لتفريع ما بعدها على دعوى الرسالة، أي: إذا كنت رسولا فأخبرني ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟!. اهـ

٥١ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى)
{بال} حال وشأن.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٠ إظهار
٥٢ - (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى)
{لا يضل ربي ولا ينسى} لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء.
{قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}
.. . يجوز أن يكون الكلام قد انجر ضمنا أو صريحا إلى إحاطة الله سبحانه بكل شيء، فنازعه الكافر قائلا: ما بال سوالف القرون في تمادي كثرتهم وتباعد أطرافهم، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟ فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان. . . وقوله: {علمها عند ربي} مع قوله: {في كتاب} لا يتنافيان، بل المراد أنه تعالى عالم بجميع المغيبات مطلع على الكليات والجزئيات من أحوال الموجودات والمعدومات، ومع ذلك فإن جميع الأحوال ثابتة في اللوح المحفوظ. . {لا يضل ربي ولا ينسى} قال مجاهد: هما واحد. . . والأكثرون على الفرق، فقال القفال: الأول إشارة إلى كونه عالما بالكل، والثاني إشارة إلى بقاء ذلك العلم، أي: لا يضل عن معرفة الأشياء، وما علم من ذلك لا ينساه، ولا يتغير علمه، يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له - ١٠٨. {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى}؛ تابع موسى عليه السلام سوق البرهان على جلال ربنا الوهاب المنان، وذكر جانبا من سلطان الاقتدار، وهي مع كونها حججا فإنها نعم من الكريم ذي الفضل العظيم؛ الذي مهد لكم الأرض وأقرها لتسكنوا أو تعيشوا عليها، وخط لكم فيها طرقا، وحصلها وذللها ونهجها لكم بين الجبال والأودية تسلكونها من مكان إلى مكان لتتقلبوا في البلاد، وتسعوا على الأرزاق، [وللدلالة على أن الانتفاع مخصوص بالإنسان كرر {لكم}، وذكره أولا لبيان أن المقصود بالذات من ذلك الإنسان] ١٠٩.
{وأنزل من السماء ماء} من السحاب الذي هو معلق جهة السماء أنزل ربنا مطرا، {فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى} فبسبب هذا المطر الذي باركناه نخرج أصنافا من النبات مختلفات النفع والطبع، والطعم واللون، والرائحة والشكل، منها عشب، ومنها زرع، ومنها شجر، متفاوت الأثر والثمر؛ {كلوا وارعوا أنعامكم} - ههنا إضمار، والتقدير: قلنا؛ أو: قائلين. . . وذلك أن بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم، وإباحة الأكل تتضمن سائر وجوه الانتفاع [من شرب ولبس وبيع وتملك]- ١١٠؛ {إن في ذلك لآيات لأولي النهى}، [إن فيما وصفت. . من قدرة ربكم وعظيم سلطانه. . لدلالات وعلامات تدل على وحدانية ربكم وأن لا إله لكم غيره؛ {أولي النهى} أهل الحجى والعقول. . . لأنهم أهل التفكر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ] ١١١.
{منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} من الأرض خلقناكم إذ بدأنا خلق أبيكم آدم من ترابها وطينها، وفي الأرض نعيدكم وتقبرون تحت طياتها وثراها وأديمها، ومنها نخرجكم مرة أخرى {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) ١١٢؛ يوم نبعثر ما في القبور فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، {يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له} ١١٣؛ {. . وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) ١١٤
٥٣ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)
{مهدا} تستقرون عليها كما يستقر الطفل على مهاده وفراشه. {سبلا} طرقا. {أزواجا} ضروبا وأشباها وأصنافا. {شتى} متفرقة
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٢ إظهار
٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى)
{النهى} العقول.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٢ إظهار
٥٥ - (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)
{منها خلقناكم} من تراب الأرض خلقت أباكم آدم عليه السلام. {وفيها نعيدكم} بعد الموت تقبرون في الأرض. {ومنها نخرجكم تارة أخرى} يوم البعث يوم تخرج الأرض أثقالها نخرجكم مرة أخرى للحساب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٢ إظهار
٥٦ - (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)
{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى {٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى {٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى {٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى {٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى {٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى {٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى {٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى {٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى {٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى {٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى {٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى {٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {٦٨)}
{أبى} امتنع.
اللام للقسم، وقد للتحقيق في {ولقد}، فكأن المعنى: وقسما قد أرينا فرعون من حججنا وبراهين اقتدارنا ما يكفي للبرهان، ويثبت به الدليل والسلطان، فلم يصدق بمدلولها، ولم يذعن بل عامد في الإقرار بها؛ سؤال: الجمع المضاف يفيد العموم ولاسيما إذا أكد بالكل [يقصد قول الحق سبحانه: {آياتنا كلها}] لكنه تعالى ما أراه جميع الآيات، لأن من جملتها ما أظهرها على الأنبياء الأقدمين، ولم يتفق لموسى مثلها؟؛ الجواب: هذا التعريف الإضافي محذو به حذو التعريف العهدي لو قيل: الآيات كلها هي التي ذكرت في قوله: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات.) ١١٥؛ ولو سلم العموم فالمراد أنه أراه الآيات الدالة على التوحيد في قوله: {ربنا أعطى كل شيء خلقه} وعلى النبوة بإظهار المعجزات القاهرة، وعلى المعاد لأن تسليم القدرة على الإنشاء يستلزم تسليم القدرة على الإعادة بالطريق الأولى؛ أو أراد أنه أراه آياته المختصة به وعدد عليه سائر آيات الأنبياء وإخبار النبي الصادق جار مجرى العيان، أو إراءة بعض الآيات كإراءة الكل، كما أن تكذيب بعض الآيات يستلزم تكذيب الكل ١١٦.
٥٧ - (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)
{قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى}
وكان من تكذيب فرعون لما جاءه من برهان بعث الله به موسى وهارون إليه وإلى قومه أن سمى ذلك سحرا، واستعدى ملأه وقومه على موسى إذ زعم أن موسى لم يجيء لتخليص الإسرائيليين، وإنما جاء لإخراج القبط من ديارهم وأموالهم؛ وفي آيات كريمات أخر بين الكتاب المجيد أن فرعون اللعين بدأ باستعداء رؤساء القوم وكبرائهم: {قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) ١١٧؛ [حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة: إذ الإخراج من الوطن أخو القتل، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: {ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم.) ١١٨] ١١٩.
٥٨ - (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى)
{فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى}
{سوى} مستويا يتبين للناس ما فيه، أو نصفا بيننا وبينك. {يوم الزينة} يوم عيد لهم يتزينون فيه.
ألمح فرعون في مقاله إلى أن ما جاء به موسى لا يعدو أن يكون تخييلا يمكن مقابلته بمثله، وكأنما يريد أن يوثق ذلك بما هو كالقسم، وأنه يملك آلات المغالبة طال الأمد أم قصر، فليختر موسى إذن مكان وزمان لقاء المعارضة، واشترط عدم الإخلاف، ونفى أن يكون من جانبه هو رجعة عن هذا الموعد؛ {مكانا سوى} قال ابن زيد: مكانا مستويا من الأرض لا وعر فيه ولا جبل، ولا أكمة ولا مطمأن بحيث يستر الحاضرين فيه بعضهم عن بعض مكانا يتبين الواقفون فيه، ولا يكون فيه ما يستر أحدا منهم، ليرى كل ما يصدر منك ومن السحرة.

٥٩ - (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)
{قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى}
{يحشر الناس} يساقون من كل ناحية.
فحدد موسى عليه السلام زمان لقاء المغالبة واختار أن يكون يوم عيدهم، ليحتشد له جملة قومهم.
٦٠ - (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)
{فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى}
{كيده} مكره، وما يكاد به، أو: ذوي كيده.
انصرف الطاغية إلى مقام تهيئة الأسباب المعارضة فحشد أسباب كيده، وأدوات تخييله وحيله، وأصحاب الكيد من مهرة سحرته، ثم أتى الموعد؛ وكانت مشورة الملأ من قوم فرعون أن {. . أرسل في المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم) ١٢٠؛ هكذا حكى الكتاب الحق تواصي هؤلاء الخاطئين، كما جاء في سورة كريمة أخرى: {قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين. يأتوك بكل سحار عليم. فجمع السحرة لميقات يوم معلوم. وقيل للناس هل أنتم مجتمعون. لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) ١٢١
٦١ - (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)
{قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى}
{ويلكم} دعاء عليهم بالويل، أو نداء لهم. {لا تفتروا} لا تدعوا ادعاء باطلا. {فيسحتكم} يستأصلكم بالإهلاك.
بين الله تعالى أن موسى قد قبل كل شيء: الوعيد والتحذير على عادة الصالحين من أهل النصح والإشفاق، ولاسيما الأنبياء المبعوثين رحمة للأمم؛ {ويلكم} نصب على المصدر الذي لا فعل له، أو على النداء؛ {لا تفتروا على الله كذبا} بأن تدعوا آياته ومعجزاته سحرا؛ {فيسحتكم} السحت. . . . معناه الاستئصال؛ حذرهم أمرين: أحدهما عذاب الدارين، والتنوين للتعظيم؛ والآخر الخيبة والحرمان عن المقصود فإن التمويه لا بقاء له ١٢٢.
٦٢ - (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)
{فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى}
المتنازعون المتناجون هم: إما فرعون والملأ من قومه، وإما جماعة السحرة؛ عن ابن عباس: أن نجواهم: إن غلبنا موسى اتبعناه؛ وعن قتادة: إن كان ساحرا فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر؛ [السحرة حين سمعوا كلامه عليه السلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا {أمرهم} الذي أريد منهم من مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا {بينهم} في كيفية المعارضة] ١٢٣؛ وأخفوا نزاعهم، وأسروا جدالهم.
٦٣ - (قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)
{قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى}
{بطريقتكم المثلى} بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب؛ أو بالقائمين على هذا المذهب.
قيل: هذا من قول فرعون للسحرة؛ يستفزهم لمغالبة ما جاء به موسى وهارون، ويهون من شأن الآيات التي جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ويستميل ذوي الكيد بتحريضهم قبل أن تؤخذ بلادهم، وتسلب أموالهم، ويسقط رؤساؤهم وكبراؤهم، القائمون على طريقتهم الفضلى؛ وإن الفضل منهم لبعيد؛ وقيل: هذا من تتمة قول السحرة.
٦٤ - (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)
{فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى}
{أجمعوا} أحكموا.

}وقد أفلح اليوم من استعلى{ ربح اليوم من طلب العلو وأدركه، وغلب.
تواصى المأجورون فيما بينهم أن يحكموا كيدهم وأن يعزموا عليه؛ واحضروا وائتوا صفوفا، فإن الرابح اليوم من قهر خصمه، [}فأجمعوا كيدكم{. . . . . . ارموا عن قوس واحدة؛ . . . }ثم ائتوا صفا{. . مصطفين، أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين، وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين. .] ١٢٤؛ وقال الراغب: الاستعلاء قد يكون لطلب العلو المذموم، وقد يكون لغيره. . . اه.
٦٥ - (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)
}قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى{ عرضوا على موسى إما أن يكون إلقاؤه أولا، أو يكون إلقاؤهم أولا؛ اختر أحد الأمرين؛ }قال بل ألقوا{ قال موسى: بل ألقوا أنتم أولا؛ }فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ١٢٥؛ }. . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ١٢٦؛ }فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى{ أي: فألقوا فإذا الحبال والعصي التي اصطحبوها تخدع الناس حتى ظنوا أنها استحالت إلى حيات وثعابين؛ وخيل إلى موسى عليه السلام أن بها حركة وقيل: أراد أنه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى، فيكون تمثيلا. . . وذلك الخوف إما جبلة بشرية حين ذهل عن الدليل، وهو قول الحسن، وإما لأنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، قاله مقاتل؛ أو خاف أن يتأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت، أو خاف أن يتفرق بعض القوم قبل أن يشاهدوا غلبته. . فأزال الله تعالى خوفه ١٢٧.
}قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى{ جاءته البشرى من ربنا، فلا مجال للخوف، وختمت الآية بأنواع كثيرة من التوكيد }إن{ وتوسيط الضمير المنفصل }أنت{، وكون الخبر معرفا، ولفظ العلو ومعناه الغلبة، وصورة التفضيل ولا فضل لهم.
٦٦ - (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]
}قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى{ عرضوا على موسى إما أن يكون إلقاؤه أولا، أو يكون إلقاؤهم أولا؛ اختر أحد الأمرين؛ }قال بل ألقوا{ قال موسى: بل ألقوا أنتم أولا؛ }فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ١٢٨؛ }. . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ١٢٩؛ }فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى{ أي: فألقوا فإذا الحبال والعصي التي اصطحبوها تخدع الناس حتى ظنوا أنها استحالت إلى حيات وثعابين؛ وخيل إلى موسى عليه السلام أن بها حركة وقيل: أراد أنه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى، فيكون تمثيلا. . . وذلك الخوف إما جبلة بشرية حين ذهل عن الدليل، وهو قول الحسن، وإما لأنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، قاله مقاتل؛ أو خاف أن يتأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت، أو خاف أن يتفرق بعض القوم قبل أن يشاهدوا غلبته. . فأزال الله تعالى خوفه ١٣٠.
}قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى{ جاءته البشرى من ربنا، فلا مجال للخوف، وختمت الآية بأنواع كثيرة من التوكيد }إن{ وتوسيط الضمير المنفصل }أنت{، وكون الخبر معرفا، ولفظ العلو ومعناه الغلبة، وصورة التفضيل ولا فضل لهم.
٦٧ - (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]
}أوجس{ أحس وأضمر.
}قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى{ عرضوا على موسى إما أن يكون إلقاؤه أولا، أو يكون إلقاؤهم أولا؛ اختر أحد الأمرين؛ }قال بل ألقوا{ قال موسى: بل ألقوا أنتم أولا؛ }فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ١٣١؛ }. . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ١٣٢؛ }فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى{ أي: فألقوا فإذا الحبال والعصي التي اصطحبوها تخدع الناس حتى ظنوا أنها استحالت إلى حيات

وثعابين؛ وخيل إلى موسى عليه السلام أن بها حركة وقيل: أراد أنه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى، فيكون تمثيلا. . . وذلك الخوف إما جبلة بشرية حين ذهل عن الدليل، وهو قول الحسن، وإما لأنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، قاله مقاتل؛ أو خاف أن يتأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت، أو خاف أن يتفرق بعض القوم قبل أن يشاهدوا غلبته. . فأزال الله تعالى خوفه ١٣٣.

{قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى} جاءته البشرى من ربنا، فلا مجال للخوف، وختمت الآية بأنواع كثيرة من التوكيد {إن} وتوسيط الضمير المنفصل {أنت}، وكون الخبر معرفا، ولفظ العلو ومعناه الغلبة، وصورة التفضيل ولا فضل لهم.

٦٨ - (قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

{قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى} عرضوا على موسى إما أن يكون إلقاؤه أولا، أو يكون إلقاؤهم أولا، اختر أحد الأمرين؛ {قال بل ألقوا} قال موسى: بل ألقوا أنتم أولا، {فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ١٣٤؛ {. . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ١٣٥؛ {فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى} أي: فألقوا فإذا الحبال والعصي التي اصطحبوها تخدع الناس حتى ظنوا أنها استحالت إلى حيات وثعابين؛ وخيل إلى موسى عليه السلام أن بها حركة وقيل: أراد أنه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى، فيكون تمثيلا. . . وذلك الخوف إما جبلة بشرية حين ذهل عن الدليل، وهو قول الحسن، وإما لأنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، قاله مقاتل؛ أو خاف أن يتأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت، أو خاف أن يتفرق بعض القوم قبل أن يشاهدوا غلبته. . فأزال الله تعالى خوفه ١٣٦.

{قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى} جاءته البشرى من ربنا، فلا مجال للخوف، وختمت الآية بأنواع كثيرة من التوكيد {إن} وتوسيط الضمير المنفصل {أنت}، وكون الخبر معرفا، ولفظ العلو ومعناه الغلبة، وصورة التفضيل ولا فضل لهم.

٦٩ - (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى {٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى {٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى {٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا {٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا {٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى {٧٦)}

{تلقف} تبتلع.

في الآيات السابقات أذهب الله جل ثناؤه الخوف عن موسى وبشره بأنه الظافر الرابح الغالب، وفي قوله سبحانه: {وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا} بيان لما يفعل موسى ليكون سببا في إبطال السحر والساحر، وأمره أن يقذف العصا التي كانت بيمينه، فإنه قد رأى إذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن ماذا صنع الله تعالى له بتلك العصا؛ وذكره مولانا بأنها ستبتلع كل ما حشده المبطلون، فإن الباطل زاهق لا محالة، {ولا يفلح الساحر حيث أتى} جنس المضللين خائب خاسر، وحيثما سار فكره بائر؛ [فحيث ظرف مكان أريد به التعميم] ١٣٧. {فألقي السحرة سجدا} فهووا وسقطوا مسارعين بالسجود خضوعا وانقيادا لله الحق؛ وفي الكلام مقدر محذوف، التقدير: فزال الخوف عن موسى وألقى ما في يمينه فصارت حية وتلقفت حبالهم وعصيهم وعلموا أن ذلك معجز فسجدوا تائبين مؤمنين بالله مصدقين برسالة موسى وهارون؛ ـ وفيه إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله من شاء من عباده من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية

الإيمان والسداد - ١٣٨. {قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} قال فرعون للسحرة إذ خذلوه وهم أداة كيده، وآمنوا بمحضر جمع كبير من قومه، مما يحذر معه أن يزول ملكه وقد انكشف ضلال سعيه، وظهر الحق الذي بعث الله به رسوليه موسى وهارون، فتوجه للسحرة بالاستفهام الذي يحمل الإنكار والوعيد: أآمنتم لرب موسى، أو آمنتم بالله لأجل موسى وما شاهدتم منه؟! إنه إمامكم في السحر، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق، وقد صدقوا أو أقروا، وإذا ضمن الإيمان معنى الانقياد تعدى باللام، وقيل إذا كان متعلقه الله عز وجل يوصل بالباء، وباللام إن كان متعلقه غيره تعالى - في الأكثر - نحو: {. . يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين. .) ١٣٩، ولقد جاء في سورة الأعراف: {قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ١٤٠، {قبل أن آذن لكم} آمنتم على الرغم مني فتعديتم وتجاوزتم أمري، {فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل} يتوعدهم ليس فقط بالتقتيل وإنما بالصلب والتنكيل، يقطع أطرافهم من جهات متخالفة، اليد من جهة والرجل من الجهة التي تقابلها وتخالفها، وقسما لأصلبنكم وأشد رباطكم ووثاقكم إلى أصول النخل أو سوقه، أو أغور لكم في الجذوع لتستقروا فيها، أميتكم موتا بطيئا صبرا، ووعيدا مؤكدا، إن قسوة ما أحل بكم وتماديه ستعرفكم أأنا أشد تعذيبا وأطول أم موسى ورب موسى! - {. . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) ١٤١ -

٧٠ - (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

{ألقى السحرة} سقطوا وهرعوا مسرعين.

{سجدا} ساجدين.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار

٧١ - (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

{من خلاف} اليد اليمنى والرجل اليسرى.

{في جذوع النخل} على أصول شجر النخل، الواحد جذع، وهو ساقها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار

٧٢ - (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

{قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا}

{لن نؤثرك} لن نختارك. {فطرنا} أبدعنا وأوجدنا. {فاقض} فاصنع.

قال المؤمنون الذين كانوا سحرة وقد زادهم وعيده استمساكا بالحق الذي هدوا إليه: لن نختارك على الهدى والرشد الذي تبين، وحب الله الذي خلقنا في أحسن تقويم، فاصنع ما أنت صانع مما توعدت به من البلاء وما تقدر عليه، إنما صنيعك لا يتجاوز هذه العاجلة الزائلة، أو إنما هذه الحياة دنية عاجلة تنقضي سريعا وتذهب {. . وإن الآخرة هي دار القرار) ١٤٢.

٧٣ - (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

{إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى}

قال الحسن: سبحان الله! قوم كفار ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا في ذات الله تعالى: {فاقض ما أنت قاض}!، والله إن أحدهم ليصحب القرآن ستين عاما ثم ليبيع دينه بثمن غبن، قالوا أولا: {آمنا برب هارون وموسى}، ثم قالوا: {لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا}، وحاصله أنا اخترنا الله وهداه، ولن نختارك، ثم أكدوا أنهم آمنوا بربهم يرجون رحمته، ويطمعون أن يغفر لهم ما فرط من ذنوب وآثام، وأفردوا طلب غفران ما صنعوا من السحر بالذكر لأنه أفحش، فهو ضلال وإضلال معا، وهم يعتذرون من الفعلة النكراء بأنهم استكرهوا عليها ١٤٣. إذ حشرهم لمغالبة موسى بسحرهم من المدائن القاصية، {والله خير

وأبقى} حب الله تعالى وطلب رضوانه هو الخير على الحقيقة، وثواب الله البر الرحيم لا يفنى ولا يبيد، ولهذا آثرنا طاعة مولانا على طاعتك، ودينه الذي بعث به رسله على بهتانك ونحلتك؛ وقال محمد بن كعب: {والله خير} لنا منك إن أطيع، {وأبقى}: أي: منك عذابا إن عصي؛ واختار الألوسي: {والله خير} في حد ذاته تعالى {وأبقى} أي: وأدوم جزاء، ثوابا كان أو عقابا؛ أو: خير ثوابا، وأبقى عذابا.

٧٤ - (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى)

{إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى}

يربط الله تعالى على قلوب حديثي العهد بالإيمان هؤلاء ويزيدهم هدى، فيتابعون وعظ فرعون، ينذرونه سوء المستقر، إذا هو مات على الفجور والكفر والشر، {إنه} الشأن الخطير هذا أن من مات ولقي الله يوم القيامة وهو مجرم فبئس مثوى له النار، {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ١٤٤.

{ولا يحيى} حياة ينتفع بها؛ قال الشاعر:

ألا من لنفس لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعم.

٧٥ - (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)

{ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى}

{الدرجات العلى} المنازل الرفيعة العالية.

ويصلح أن يكون هذا من تتمة وعظ السحرة فرعون، فبعد أن أنذروه سوء المصير أعذروا فيه فرغبوه في الإيمان الذي يعقب المؤمنين النعيم الدائم والملك الكبير؛ فمن يواف الله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقد فارق الدنيا على الإيمان، وعمرها بالطاعات والقربات، والرشد والعمل الصالح، فإن الفتاح العليم يثيبه بالخلد والنعيم والتكريم، ويرفع درجته لقاء ما أصلح في الدنيا وهدى إلى الصراط المستقيم؛ وفي الصحيحين: " إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم " - قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين "

٧٦ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)

{تزكى} طهر نفسه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٥ إظهار

٧٧ - (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى)

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين؛ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ١٤٥؛ فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ١٤٦؛ {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ١٤٧؛ فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة، {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد

عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ١٤٨؛ وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: }وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ١٤٩.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك ينحسر عن طريق صلبة لا تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدرككم فيها عدوكم؛ وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: }وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ١٥٠؛ فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: }فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ١٥١؛ فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ١٥٢ يطلب أعداءهم، }فأتبعه فرعون بجنوده{: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: }وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ١٥٣؛ لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: }فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ١٥٤.

}فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى{ فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا؛ }مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ١٥٥؛ وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة؛ ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: }يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم{ اذكروا إذا خلصتكم ١٥٦ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم؛ }وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى{ وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس؛ و }الأيمن{ صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام؛ ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ١٥٧؛ [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء؛ والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ١٥٨، }كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى{ }ولا تطغوا فيه{ أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ١٥٩، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.

}وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى{ جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب }إن{، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها }. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ١٦٠؛ مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: }ثم اهتدى{ بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور؛ ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله

يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:

لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

٧٨ - (فَأَتْبَعهم فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين؛ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ١٦١، فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ١٦٢، {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ١٦٣، فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة، {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ١٦٤، وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ١٦٥.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك ينحسر عن طريق صلبة لا تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدرككم فيها عدوكم، وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ١٦٦، فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ١٦٧، فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ١٦٨ يطلب أعداءهم، {فأتبعه فرعون بجنوده}: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ١٦٩، لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ١٧٠.

{فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى} فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا، {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ١٧١، وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة، ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} اذكروا إذا خلصتكم ١٧٢ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم؛ {وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى} وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند

طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس، و {الأيمن} صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام؛ ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ١٧٣؛ [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ١٧٤، {كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} {ولا تطغوا فيه} أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ١٧٥، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.

{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب {إن}، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ١٧٦؛ مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: {ثم اهتدى} بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور؛ ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:

لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

٧٩ - (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين؛ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ١٧٧؛ فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ١٧٨؛ {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ١٧٩؛ فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة، {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ١٨٠؛ وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ١٨١.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك يحسر عن طريق صلبة لا

تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدرككم فيها عدوكم، وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ١٨٢، فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ١٨٣، فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ١٨٤ يطلب أعداءهم، {فأتبعه فرعون بجنوده}: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ١٨٥، لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ١٨٦.

{فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى} فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا، {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ١٨٧، وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة، ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} اذكروا إذا خلصتكم ١٨٨ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم، {وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى} وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس، و {الأيمن} صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام، ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ١٨٩، [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ١٩٠، {كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} {ولا تطغوا فيه} أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ١٩١، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.

{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب {إن}، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ١٩٢، مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: {ثم اهتدى} بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور، ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:

لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

٨٠ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]
{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين؛ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ١٩٣؛ فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ١٩٤؛ {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ١٩٥؛ فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة، {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ١٩٦؛ وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ١٩٧.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك ينحسر عن طريق صلبة لا تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدرككم فيها عدوكم؛ وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ١٩٨؛ فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ١٩٩؛ فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ٢٠٠ يطلب أعداءهم، {فأتبعه فرعون بجنوده}: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ٢٠١؛ لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٢٠٢.

{فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى} فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا؛ {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ٢٠٣؛ وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة؛ ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} اذكروا إذا خلصتكم ٢٠٤ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم؛ {وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى} وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس؛ و {الأيمن} صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام؛ ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ٢٠٥؛ [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله

تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ٢٠٦، {كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} {ولا تطغوا فيه} أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ٢٠٧، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.

{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب {إن}، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ٢٠٨، مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: {ثم اهتدى} بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور، ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:

لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

٨١ - (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين، {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ٢٠٩، فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ٢١٠، {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ٢١١، فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة، {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ٢١٢، وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ٢١٣.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك ينحسر عن طريق صلبة لا تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدرككم فيها عدوكم، وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ٢١٤، فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح

فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ٢١٥؛ فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ٢١٦ يطلب أعداءهم، {فأتبعه فرعون بجنوده}: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ٢١٧؛ لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٢١٨.

{فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى} فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا، {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ٢١٩؛ وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة، ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} اذكروا إذا خلصتكم ٢٢٠ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم، {وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى} وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس، و {الأيمن} صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام، ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ٢٢١؛ [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ٢٢٢، {كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} {ولا تطغوا فيه} أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ٢٢٣، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.

{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب {إن}، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ٢٢٤؛ مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: {ثم اهتدى} بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور؛ ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:

لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

٨٢ - (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى {٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ

فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى {٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {٨٢)}

لم يؤمن فرعون، ولم يرسل بني إسرائيل، ودخل ناس في الدين الحق، فهدى الله تعالى به كثيرا، كما أضل به سبحانه كثيرا، فاستعدى كبراء القبط فرعون على المؤمنين؛ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ٢٢٥؛ فأرسل الله العزيز على القوم المجرمين البلاء المبين: {. . الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. .) ٢٢٦؛ {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ٢٢٧؛ فلما وقع عليهم السخط والنقمة جاءوا إلى موسى يطلبون كشف الغمة ويعاهدون على التوبة؛ {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) ٢٢٨؛ وما جاءوا على الحقيقة متضرعين مخبتين، ولكن كانوا مخادعين مستهزئين، ولقد هتك القرآن سترهم، وبين سفههم، وحلم الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، قال ربنا عز من قائل: {وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ٢٢٩.

فأوحى ربنا إلى كليمه ورسوله أن سر ليلا بأخيك وبمن معكما واتجهوا نحو البحر فإذا بلغتموه فاضربه بعصاك يحسر عن طريق صلبة لا تسوخ فيها أقدامكم، ولا يدركم فيها عدوكم؛ وكان ما أراد الله، وتحقق سؤال موسى وهارون إذ دعوا ربهما: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ٢٣٠؛ فخرج موسى بمن اتبعه ليلا، فأصبح فرعون يتميز غيظا، فسارع إلى تعبئة جنده، وأرسل في المدائن يحشد جمعه ويستنفرهم، كما حكى كتاب الله العزيز: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون) ٢٣١؛ فاجتمع له من استفزهم فقادهم مشرقا ٢٣٢ يطلب أعداءهم، {فأتبعه فرعون بجنوده}: أشرف المسرف العاتي بجنده على جموع المسلمين، وقد انفلق لهم البحر، فلم يزدجر ولا ازدجروا بتلك الآية الربانية الباهرة، ولا ادكروا بنصيحة موسى المنصفة إذ كان قد قال لهم ما بين وحي الله: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ٢٣٣؛ لكن غلبت عليهم الشقوة، وحقت عليهم الكلمة، فمضوا يسيرون في آثار المؤمنين، فلما جاوز المؤمنون البحر حتى انطبق على الخاطئين المتجبرين: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٢٣٤.

{فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى} فغطاهم من أهوال الغرق والخنق والاستئصال بلاء عظيم، وتلك مما أعد الله من عاقبة للضالين ومن تابعهم في ضلالهم، فسلك بهم مسلكا أفضى إلى خسرانهم عاجلا وآجلا؛ {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) ٢٣٥؛ وما أرشدهم إلى سبيل السلامة في الدنيا ويوم القيامة؛ ثم امتن الله تعالى على بني إسرائيل ليذكروا فيشكروا ولا يكفروا، وعدد سبحانه جوانب من نعمه وآلائه ليحرصوا على دوامها بالقيام بحقها: {يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم} اذكروا إذا خلصتكم ٢٣٦ من فرعون وقومه الذين أذاقوكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ويستعبدون رجالكم، وها قد رأيتم بأعينكم ما صنع لكم ربكم؛ {وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى} وواعدت رسولي إليكم موسى ليتلقى وحيي وكلماتي عند طور سنين الجبل المبارك في الوادي المقدس؛ و {الأيمن} صفة للجانب، ربما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام؛ ووعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون ٢٣٧؛ [وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن فقد تقدم. .، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء؛ والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد. .] ٢٣٨، {كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} {ولا تطغوا فيه} أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع

الحقوق الواجبة فيه ٢٣٩، فمن لم ينهج هذا النهج حاق به غضبي وأحاطه، ومن أغضب عليه يهلك.
{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} جاءهم في الآية السابقة من الله نذير، ثم جاءت في هذه البشرى بواسع المغفرة لأهل التوبة والتصديق، والطاعة والاستقامة، وسيقت مؤكدة ب {إن}، مضافة إلى غافر الذنب وقابل التوب جل علاه، مقسما عليها باللام الممهدة للقسم وعد الله لا يخلف الله وعده لكن الرحمة على عظيم سعتها لا تكون في الآخرة إلا لأهلها {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول. .) ٢٤٠، مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: سؤال! كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب؟ وأيضا: ما معنى قوله: {ثم اهتدى} بعد الأمور المذكورة والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها؟ الجواب: أراد: وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحا وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور؛ ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه. . . وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة. . . فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها، كما قيل:
لكل إلى شأو العلى حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات
٨٣ - (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)
{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}

طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك؛ فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . والاستفهام للإنكار. . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة؛. . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٤١.
والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة؛ وقيل كان من عباد البقر؛ ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:
إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل
فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم؛ {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!

{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم نتمالك أنفسنا؛ {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا؛ فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٤٢؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٤٣، وقال: كن عجلا جسدا له خوار، فصار كذلك؛ وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه؛ {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.

٨٤ - (قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}

طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك؛ فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . . والاستفهام للإنكار. . . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة؛ . . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٤٤.

والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة؛ وقيل كان من عباد البقر؛ ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:
إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل
فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل
{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم؛ {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!
{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم نتمالك أنفسنا؛ {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا؛ فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٤٥؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٤٦، وقال: كن عجلا جسدا له خوار؛ فصار كذلك؛ وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه؛ {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.
٨٥ - (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]
{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}
طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك؛ فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . والاستفهام للإنكار. . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم

بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة؛. . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٤٧.

والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة؛ وقيل كان من عباد البقر؛ ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم؛ {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!

{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم نتمالك أنفسنا؛ {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا؛ فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٤٨؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٤٩، وقال: كن عجلا جسدا له خوار؛ فصار كذلك؛ وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه؛ {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.

٨٦ - (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}

طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك؛ فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . والاستفهام للإنكار. . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة؛. . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٥٠.

والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة؛ وقيل كان من عباد البقر؛ ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم؛ {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!

{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم نتمالك أنفسنا؛ {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا؛ فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٥١؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٥٢، وقال: كن عجلا جسدا له خوار؛ فصار كذلك؛ وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه؛ {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.

٨٧ - (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]

{بملكنا} بطاقتنا. {أوزارا} أثقالا وأحمالا.

{فقذفناها} فرمينا بها.

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}

طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك؛ فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . والاستفهام للإنكار. . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة؛. . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٥٣.

والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة؛ وقيل كان من عباد البقر؛ ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم؛ {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!

{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم نتمالك أنفسنا؛ {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا؛ فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٥٤؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه

لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٥٥، وقال: كن عجلا جسدا له خوار، فصار كذلك، وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه، {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.

٨٨ - (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]

{عجلا} يطلق على ولد البقرة. {خوار} صوت البقر. {فنسي} فضل.

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {٨٩)}

طوي في هذه السورة ما فصل من خروج موسى عليه السلام للميقات بعد أربعين ليلة تمت منذ وعده الله العلي الكبير بالمناجاة وتلقي التوراة، وفي سورة الأعراف تفصيل ذلك، فلما ذهب لميقات ربه كان النقباء قد أبطئوا، أو سارع هو عليه السلام شوقا إلى سماع كلام العلي الأعلى، فعوتب إذ لم يمكث مع قومه وهم حديثو عهد بإسلام، ولا تؤمن عليهم الفتنة حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة. . . أي وقلنا له: أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم، والمراد بهم هنا عند كثير. . . النقباء السبعون. . والاستفهام للإنكار. . {قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى} متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة، وظني أن مثل ذلك لا ينكر. . ونحو هذا: الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلبا لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة،. . . {قال فإنا قد فتنا قومك} أي اختبرناهم بما فعل السامري. . {من بعدك} من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم، {وأضلهم السامري}. . . قيل: قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة: إنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين مع أيامها أربعين. . وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم. . . وكان من أمر العجل ما كان، والمراد ب {قومك} هنا: الذين خلفهم مع هارون عليه السلام. . فالمراد به غير المراد ب {قومك} فيما تقدم ٢٥٦.

والسامري كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة، وقيل كان من عباد البقر، ونقل ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل يأتيه فيغذوه، ولم يزل يغذوه حتى نشأ، وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيرت ... عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

{فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا} بعد المناجاة وتلقى التوراة عاد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل حيث استخلف عليهم هارون عليه السلام، لكنه رجع متغيظا مغضبا حزينا على ما كان من ضلال المفتونين، فعاتبهم وهو يكظم غيظه: {قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} استمالهم لكيلا ينفروا، وذكرهم بما يجمع بينهم وبينه، وأنهم حظه من الأمم: أما وعدكم مولانا على لساني بالخير الكثير والعاقبة الحسنة؟! لقد أراكم ربكم من إنجاز وعده الكريم النصر العظيم والبر العميم، {أفطال عليكم العهد} هل تباعدت المدة فقست قلوبكم أم استبطأتم حلول الإنجاز؟! {أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي} أم زين لكم أن تفعلوا ما يكون سببا في حلول غضب ربكم عليكم، وأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الدين الذي أنزل على نبيكم؟!

{قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا} وعدنا إياك بالثبات على الدين لم نخلفه ونحن نطيق الوفاء به، ولكن خدعنا فيما سول لنا السامري فلم

نتمالك أنفسنا، {ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها} جاءنا تغرير السامري من جهة ما حملنا من حلي وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط. . . وقيل هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا، فمثل الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا قال لهم: إنما تأخر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها أو نقذف فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالب عجل ٢٥٧؛ {فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} أخرج جسدا من ذهب لا روح فيه؛ عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثموا من حلي آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه ألقى السامري القبضة ٢٥٨، وقال: كن عجلا جسدا له خوار، فصار كذلك، وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت. اه؛ {فنسي} عن مكحول: الضمير للسامري، والنسيان مجاز عن الترك، أي: فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من إسرار الكفر. ا ه.

٨٩ - (أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا)

{أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا} أفلم يعقل هؤلاء أن جسدا خامدا لا يلقي لهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا ولا أن يجلب إليهم خيرا يستحيل أن يكون إلها؟!

٩٠ - (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي {٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى {٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي {٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي {٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ {٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي {٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا {٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا {٩٨)}

{ولقد قال لهم هارون من قبل} تحقيق وقسم، لتقرير وتوكيد أن هارون عليه السلام قد قاوم الضلالة فور ظهورها: {يا قوم إنما فتنتم به} ونبههم إلى أنهم خدعوا قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون من قبل رجوع موسى إليهم:. . . إنما اختبر الله إيمانكم، ومحافظتكم على دينكم، بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب الشاك في دينه- ٢٥٩؛ زجرهم عن الباطل ثم ذكرهم بالرشد وناداهم إليه: {وإن ربكم الرحمن فاتبعوني} تذكروا واستيقنوا أن معبودكم وخالقكم ووليكم ليس العجل بل هو الله الرحمن الذي رحمكم وكشف عنكم الضر وأنجاكم من عدوكم [ومن فوائد تخصيص هذا الاسم بالمقام أنهم إن تابوا. . فإن الله يرحمهم ويقبل توبتهم] ٢٦٠، فاعبدوا الله الذي أعبد، ولا تتبعوا سبيل المفسدين، بل اتبعوا نبيكم، فإني رسول رب العالمين الملك الحق المبين، {وأطيعوا أمري} ولا تطيعوا أمر الفتانين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم، لكن النبي لا يأمر إلا بالقسط، وطاعته من طاعة الله فأطيعون، وهيهات أن يرجع المفتون: {. . . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك لم يرد الله أن يطهر قلوبهم. . .) ٢٦١ فأصروا واستكبروا استكبارا.

٩١ - (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)

{قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى} رد عبدة العجل على نبيهم هارون قائلين: لن نزال على عبادة العجل مقيمين؛ ولا يخفى ما في هذا الكلام من أنواع التوكيد من جهة النفي بلن، ومن لفظ البراح والعكوف، ومن صيغة اسم الفاعل، ومن تقديم الخبر ٢٦٢؛ ومما جاء في روح المعاني: الظاهر من حالهم أنهم لم يجعلوا رجوعه عليه السلام [الضمير عائد على موسى صلوات ربنا عليه] غاية للعكوف على عبادة العجل على طريق الوعد بتركها لا محالة عند رجوعه، بل ليروا ماذا يكون منه عليه السلام، وماذا يقول فيه. اه.

٩٢ - (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)
}قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. ألا تتبعن أفعصيت أمري{؟!
قال موسى لهارون - عليهما السلام -: ألم آمرك أن تخلفني في القوم مصلحا؟ فهل من صلاحهم أن تعايش الضالين بعد ضلالهم؟ وما الذي حملك على عدم اتباعي في تأديبهم أو فراقهم؟ قال ابن عباس: يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي. اه؛ فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم، والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره؛ وقال مقاتل: أراد الاتباع في وصيته كأنه قال: هلا قاتلت من كفر بمن آمن! وما لك لا تباشر الأمر كما كنت أباشره!. }قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بني إسرائيل ولم ترقب قولي{؛ وبينت آية كريمة أخرى أن هارون عليه السلام إنما قال ما قال لشقيقه عليهما السلام إذ أمسك بشعره يجذبه: {. . قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. .) ٢٦٣؛ [}يا ابن أم{ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف] ٢٦٤؛ }لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي{ لا تجذب شعر لحيتي ورأسي، فإني لم أرد خلافك؛ }إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي{، لكأن المعنى: إني ما قصرت في إنكار المنكر، ولكن خفت إن اعتزلت الفرقة المفتونة أن تلومني على تلك التفرقة، وحذرت أن أقاتلهم فتكون فرقة لا اجتماع بعدها؛ مما أورد الألوسي: وحاصل اعتذاره عليه السلام: إني رأيت الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم، وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم، ولا يكون سببا للومك إياي، إلى أن ترجع إليهم فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لاسيما والقوم قد استضعفوني وقربوا أن يقتلوني. ا ه.
٩٣ - (أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]
}قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. ألا تتبعن أفعصيت أمري{؟!
قال موسى لهارون - عليهما السلام -: ألم آمرك أن تخلفني في القوم مصلحا؟ فهل من صلاحهم أن تعايش الضالين بعد ضلالهم؟ وما الذي حملك على عدم اتباعي في تأديبهم أو فراقهم؟ قال ابن عباس: يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي. اه؛ فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم، والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره؛ وقال مقاتل: أراد الاتباع في وصيته كأنه قال: هلا قاتلت من كفر بمن آمن! وما لك لا تباشر الأمر كما كنت أباشره!. }قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بني إسرائيل ولم ترقب قولي{؛ وبينت آية كريمة أخرى أن هارون عليه السلام إنما قال ما قال لشقيقه عليهما السلام إذ أمسك بشعره يجذبه: {. . قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. .) ٢٦٥؛ [}يا ابن أم{ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف] ٢٦٦؛ }لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي{ لا تجذب شعر لحيتي ورأسي، فإني لم أرد خلافك؛ }إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي{، لكأن المعنى: إني ما قصرت في إنكار المنكر، ولكن خفت إن اعتزلت الفرقة المفتونة أن تلومني على تلك التفرقة، وحذرت أن أقاتلهم فتكون فرقة لا اجتماع بعدها؛ مما أورد الألوسي: وحاصل اعتذاره عليه السلام: إني رأيت الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم، وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم، ولا يكون سببا للومك إياي، إلى أن ترجع إليهم فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لاسيما والقوم قد استضعفوني وقربوا أن يقتلوني. ا ه.
٩٤ - (قَالَ يَابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]
}قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. ألا تتبعن أفعصيت أمري{؟!
قال موسى لهارون - عليهما السلام -: ألم آمرك أن تخلفني في القوم مصلحا؟ فهل من صلاحهم أن تعايش الضالين بعد ضلالهم؟ وما

الذي حملك على عدم اتباعي في تأديبهم أو فراقهم؟ قال ابن عباس: يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي. اه، فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم، والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره، وقال مقاتل: أراد الاتباع في وصيته كأنه قال: هلا قاتلت من كفر بمن آمن! وما لك لا تباشر الأمر كما كنت أباشره!. {قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بني إسرائيل ولم ترقب قولي}، وبينت آية كريمة أخرى أن هارون عليه السلام إنما قال ما قال لشقيقه عليهما السلام إذ أمسك بشعره يجذبه: {. . قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. .) ٢٦٧؛ [{يا ابن أم} ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف] ٢٦٨؛ {لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي} لا تجذب شعر لحيتي ورأسي، فإني لم أرد خلافك؛ {إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي}، لكأن المعنى: إني ما قصرت في إنكار المنكر، ولكن خفت إن اعتزلت الفرقة المفتونة أن تلومني على تلك التفرقة، وحذرت أن أقاتلهم فتكون فرقة لا اجتماع بعدها، مما أورد الألوسي: وحاصل اعتذاره عليه السلام: إني رأيت الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم، وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم، ولا يكون سببا للومك إياي، إلى أن ترجع إليهم فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لاسيما والقوم قد استضعفوني وقربوا أن يقتلوني. ا ه.

٩٥ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

{قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي}؛ قبل موسى عذر هارون عليهما السلام وسأل الله الغفران، {قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) ٢٦٩؛ ثم توجه إلى تقريع السامري والإنكار عليه قائلا: فما سر هذا الضلال الذي أحدثت؟! في الصحاح: الخطب: سبب الأمر وما حملك على ما صنعت؟! فقال السامري: علمت ما لم يعلمه القوم، ورأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، {فقبضت قبضة من أثر الرسول} [أي من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. . . والقبضة ملء الكف. . قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل. . . {وكذلك سولت لي نفسي}: أي حسنته وأعجبها إذ ذاك.

٩٦ - (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٥]

{قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي}؛ قبل موسى عذر هارون عليهما السلام وسأل الله الغفران، {قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) ٢٧٠؛ ثم توجه إلى تقريع السامري والإنكار عليه قائلا: فما سر هذا الضلال الذي أحدثت؟! في الصحاح: الخطب: سبب الأمر وما حملك على ما صنعت؟! فقال السامري: علمت ما لم يعلمه القوم، ورأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، {فقبضت قبضة من أثر الرسول} [أي من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. . . والقبضة ملء الكف. . قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل. . . {وكذلك سولت لي نفسي}: أي حسنته وأعجبها إذ ذاك.

٩٧ - (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)

{قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس}:

أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك] ٢٧١؛ أما الجزاء في الآخرة فإن لك موعدا لعذابك، وعقوبتك على عظيم جنايتك، وإضلالك وضلالتك، لن يخلفكه الله، ولا أنت بمفلت منه أو متخلف عنه، وانظر إلى معبودك الذي بقيت على عبادته لنهلكنه ونفرق ذراته تفريقا، ولنذرينه في البحر تذرية، وإثر إبطال الباطل عمد موسى إلى إحقاق الحق فقال: {إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما} إنما يستحق

العبادة والطاعة الله الذي لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، فهو العليم وغيره لا يعلم، وعلم ربنا محيط بكل شيء.
٩٨ - (إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]
{قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس}:
أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك] ٢٧٢، أما الجزاء في الآخرة فإن لك موعدا لعذابك، وعقوبتك على عظيم جنايتك، وإضلالك وضلالتك، لن يخلفكه الله، ولا أنت بمفلت منه أو متخلف عنه، وانظر إلى معبودك الذي بقيت على عبادته لنهلكنه ونفرق ذراته تفريقا، ولنذرينه في البحر تذرية، وإثر إبطال الباطل عمد موسى إلى إحقاق الحق فقال: {إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما} إنما يستحق العبادة والطاعة الله الذي لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، فهو العليم وغيره لا يعلم، وعلم ربنا محيط بكل شيء.
٩٩ - (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)
{كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا {١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {١٠٤)}
كذلك نحدثك ونبين لك من أنباء وأخبار وأحوال أشياء قد سبقت من قبلك فلم تشاهدها ولم تعاينها، وفائدة هذا القص: توفير علمه عليه الصلاة والسلام، وتكثير معجزاته، وتسليته، وتذكرة المستبصرين من أمته صلى الله عليه وسلم ٢٧٣.
وذكر المولى الحكيم بعظمة القرآن فقال ممتنا: {وقد آتيناك من لدنا ذكرا} أعطيناك وأوحينا إليك من عندنا كتابا حقيقا بالتذكر، والتفكر فيه، والاعتبار به، وذكر فيه كل ما يحتاج إليه المكلفون في عاجلهم وآجلهم، وتلاوة آياته خير ذكر يذكر به الله تعالى، {من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا} من ابتغى الهدى من غيره، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه فإنه مجرم يأتي يوم العرض على الواحد القهار يحمل ذنبه هذا الثقيل القبيح، فيخلد بجرمه هذا في دركات الجحيم، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: {لأنذركم به ومن بلغ.} ٢٧٤، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة ٢٧٥.
١٠٠ - (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]
{كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا {١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {١٠٤)}
كذلك نحدثك ونبين لك من أنباء وأخبار وأحوال أشياء قد سبقت من قبلك فلم تشاهدها ولم تعاينها، وفائدة هذا القص: توفير علمه عليه الصلاة والسلام، وتكثير معجزاته، وتسليته، وتذكرة المستبصرين من أمته صلى الله عليه وسلم ٢٧٦.
وذكر المولى الحكيم بعظمة القرآن فقال ممتنا: {وقد آتيناك من لدنا ذكرا} أعطيناك وأوحينا إليك من عندنا كتابا حقيقا بالتذكر، والتفكر فيه، والاعتبار به، وذكر فيه كل ما يحتاج إليه المكلفون في عاجلهم وآجلهم، وتلاوة آياته خير ذكر يذكر به الله تعالى، {من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا} من ابتغى الهدى من غيره، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه فإنه مجرم يأتي يوم العرض على الواحد القهار يحمل ذنبه هذا الثقيل القبيح، فيخلد بجرمه هذا في دركات الجحيم، وهذا عام في كل من بلغه

القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: {لأنذركم به ومن بلغ. .) ٢٧٧، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة ٢٧٨.

١٠١ - (خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا {١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {١٠٤)}

كذلك نحدثك ونبين لك من أنباء وأخبار وأحوال أشياء قد سبقت من قبلك فلم تشاهدها ولم تعاينها، وفائدة هذا القص: توفير علمه عليه الصلاة والسلام، وتكثير معجزاته، وتسليته، وتذكرة المستبصرين من أمته صلى الله عليه وسلم ٢٧٩.

وذكر المولى الحكيم بعظمة القرآن فقال ممتنا: {وقد آتيناك من لدنا ذكرا} أعطيناك وأوحينا إليك من عندنا كتابا حقيقا بالتذكر، والتفكر فيه، والاعتبار به، وذكر فيه كل ما يحتاج إليه المكلفون في عاجلهم وآجلهم، وتلاوة آياته خير ذكر يذكر به الله تعالى، {من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا} من ابتغى الهدى من غيره، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه فإنه مجرم يأتي يوم العرض على الواحد القهار يحمل ذنبه هذا الثقيل القبيح، فيخلد بجرمه هذا في دركات الجحيم، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: {لأنذركم به ومن بلغ. .) ٢٨٠، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة ٢٨١.

١٠٢ - (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

{يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ٢٨٢. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما}.

يخوف الله تعالى عباده أهوال البعث والحشر، وينذرهم حتى لا يقولوا ما جاءنا من نذير، فحين يأمر الواحد القهار ملك الصور أن ينفخ في القرن الذي أوتي ينفخ الأولى فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، ويساق الفجار إلى جهنم زمرا، وقد علتهم الزرقة من هول ما يشهدون، أو عميت عيونهم وقد كانوا من قبل يبصرون، ثم يصغر عندهم ما متعوا به في حياتهم الدنيا حين يطلعون على العذاب المهين المعد لهم، ويستقصرون الأمد الذي أترفوا فيه حتى كأنه لم يكن شيئا: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة. .) ٢٨٣ فيتهامسون متحسرين، يقول بعضهم لبعض سرا ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال، والله عليم بما يسرونه، وعليم سبحانه بكل الشؤون، فيقول أعقلهم ما لبثتم في دنياكم إلا يوما، وإذا سألهم المولى جل ذكره: {. . كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ٢٨٤، ولو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف ٢٨٥.

١٠٣ - (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٢]

{يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ٢٨٦. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما}.

يخوف الله تعالى عباده أهوال البعث والحشر، وينذرهم حتى لا يقولوا ما جاءنا من نذير، فحين يأمر الواحد القهار ملك الصور أن ينفخ في القرن الذي أوتي ينفخ الأولى فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم من

الأجداث إلى ربهم ينسلون، ويساق الفجار إلى جهنم زمرا، وقد علتهم الزرقة من هول ما يشهدون، أو عميت عيونهم وقد كانوا من قبل يبصرون، ثم يصغر عندهم ما متعوا به في حياتهم الدنيا حين يطلعون على العذاب المهين المعد لهم، ويستقصرون الأمد الذي أترفوا فيه حتى كأنه لم يكن شيئا: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة. .) ٢٨٧ فيتهامسون متحسرين، يقول بعضهم لبعض سرا ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال، والله عليم بما يسرونه، وعليم سبحانه بكل الشؤون، فيقول أعقلهم ما لبثتم في دنيا كم إلا يوما، وإذا سألهم المولى جل ذكره: {. . كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ٢٨٨، ولو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف ٢٨٩.

١٠٤ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٢]

{يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ٢٩٠. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما}.

يخوف الله تعالى عباده أهوال البعث والحشر، وينذرهم حتى لا يقولوا ما جاءنا من نذير، فحين يأمر الواحد القهار ملك الصور أن ينفخ في القرن الذي أوتي ينفخ الأولى فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، ويساق الفجار إلى جهنم زمرا، وقد علتهم الزرقة من هول ما يشهدون، أو عميت عيونهم وقد كانوا من قبل يبصرون، ثم يصغر عندهم ما متعوا به في حياتهم الدنيا حين يطلعون على العذاب المهين المعد لهم، ويستقصرون الأمد الذي أترفوا فيه حتى كأنه لم يكن شيئا: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة. .) ٢٩١ فيتهامسون متحسرين، يقول بعضهم لبعض سرا ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال، والله عليم بما يسرونه، وعليم سبحانه بكل الشؤون، فيقول أعقلهم ما لبثتم في دنيا كم إلا يوما، وإذا سألهم المولى جل ذكره: {. . كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ٢٩٢، ولو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف ٢٩٣.

١٠٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا {١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا {١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا {١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا {١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا {١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {١١٢)}

{ينسفها} يقلعها ويذريها ويطيرها.

ترسيخ لليقين بالآخرة، وأن ذهاب الدنيا وزوال ما فيها وإن رآه الناس عجيبا عظيما أمر محقق {. . . وإنا على ذهاب به لقادرون) ٢٩٤، فالصخر الصلد الأصم يفتته القوي القادر {. . . وكانت الجبال كثيبا مهيلا) ٢٩٥، ويطير حجرها وصخرها فيصير هباء كالصوف المندوف، أو كالسراب يتراءى كأنه شيء والحق أنه لم يبق له وجود، {وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ٢٩٦، وهل تشقق السماء، وتكور الشمس، وتناثر الكواكب يبقى على سطح الأرض شيء؟! فإذا صعق من في السماوات ومن في الأرض بالنفخة الأولى في الصور، وأذن ربنا ببعث من في القبور نفخت النفخة الثانية في الصور، فيخرج المقبورون من قبورهم سراعا، {وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ٢٩٧ فلا يفلت أحد من هذا الجمع، {لقد أحصاهم وعدهم عدا) ٢٩٨، {يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) ٢٩٩، وتذل الرقاب والوجوه وتخضع لجلال الحي الذي لا يموت، القائم على كل نفس بما كسبت، فلا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى الملك الديان، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ٣٠٠، وربنا جل ذكره يعلم ما يقدم الناس من أحوال وما يستقبلون من نعيم وأهوال، {ولا يحيطون

به علما} - الهاء في {به} لله تعالى، فإن أي أحد سواه لا يحيط به علما، إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد، وقيل: تعود على العلم، أي أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله. . . {وقد خاب من حمل ظلما}، أي: خسر من حمل شركا- ٣٠١

١٠٦ - (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

{فيذرها} فيترك الأماكن التي كانت بها. {قاعا} مكانا مطمئنا كالمستنقع. {صفصفا} الأرض الملساء المستوية.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١٠٧ - (لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا)

{أمتا} نتوا يسيرا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١٠٨ - (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا)

{الداعي} النافخ في الصور. {لا عوج له} لا يعدل عن أحد بدعائه، أو: يتبعون صوته من غير انحراف.

{همسا} صوتا خفيا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١٠٩ - (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١١٠ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)

{ما بين أيديهم وما خلفهم} ما يقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١١١ - (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)

{وعنت} ذلت وخضعت. {القيوم} الحافظ، القائم على كل نفس بما كسبت. {ظلما} نقصا من ثواب طاعاته، أو زيادة عليه في سيئاته.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٥ إظهار

١١٢ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا)

{ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن}

{هضما} نيلا من كرامته.

بما يجب الإيمان به، لأن العمل لا يكون صالحا إلا بإيمان ولا يقبل من غير إيمان، {فلا يخاف} فإنه لا يخاف، أو: فهو لا يخاف {ظلما} نقصا من ثواب طاعاته، أو زيادة عليه في سيئاته؛ {ولا هضما} ولا انتقاصا من كرامته، بل يسلم عليهم الكبير المتعال {تحيتهم يوم يلقونه سلام. .) ٣٠٢، وتتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا؛ {. . سلام عليكم طبتم. .) ٣٠٣؛ ويحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعد ذلك أبدا؛ {. . ورضوان من الله أكبر. .) ٣٠٤.

{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا {١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا {١١٤)}

{صرفنا} بينا وكررنا وفصلنا. {الوعيد} التخويف من سخط الله.

{ذكرا} تذكرا واعتبارا.

[وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات. . . أنزلنا القرآن كله عربيا، لأن العرب أصل وغيرهم تبع، لأن النبي عربي؛ {وصرفنا فيه من الوعيد} كررناه وفصلناه، ويدخل في ضمنه الفرائض والمحارم، لأن الوعيد يتعلق بترك أحدهما وبفعل الآخر؛ {لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا} حمل. . الأول على إرادة ترك المعاصي، والثاني على فعل الخير والطاعة، لأن الذكر قد يطلق على العبادة والطاعة، قلت: لا

ريب أن القرآن ينفر عن السيئات ويبعث على الطاعات من حيث إن فهم معانيه يؤدي إلى ذلك، وإنما قدم الأول على الثاني لأن التخلية مقدمة على التحلية] ٣٠٥.

ثم نبهت الآية الثانية على عظم الكتاب ٣٠٦ المجيد من وجه آخر وهو جلال منزله وموحيه تبارك اسمه: {فتعالى الله الملك الحق} فتنزه وتقدس المعبود الحق المالك لكل شيء، وارتفعت صفاته عن صفات المخلوقين، وهو مبرأ عن الانتفاع والتضرر بطاعاتهم ومعاصيهم، وما أعظم ربي وأحكمه فقد أنزل إلينا ذكرا حكيما، تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة، وشفاء وموعظة؛ وقوله سبحانه: {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه} كقوله تعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه) ٣٠٧؛ مما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما. . قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة،. . . فأنزل الله عز وجل {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه) قال جمعه لك في صدرك وتقرأه {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) ٣٠٨، قال فاستمع له وأنصت {ثم إن علينا بيانه) ٣٠٩. . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه. ـ يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل و الأخف لئلا يشق عليه. . فإذا فرغ الملك من قراءته فاقرأ بعده، {وقل رب زدني علما} أي زدني منك علما، ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ـ ٣١٠

١١٤ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تعجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

{يقضي} يتم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٣ إظهار

١١٥ - (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا {١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى {١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى {١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى {١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى {١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى {١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {١٢٢)}.

[كأنه لما مدح سبحانه القرآن وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه، وعهد على العزيمة بأمره، وترك النسيان فيه، ضرب حديث آدم مثلا للنسيان وترك العزيمة] ٣١١؛ والعهد ها هنا في معنى الوصية؛ و {نسي} معناه: ترك؛ والعزم: المضي على المعتقد في أي شيء كان؛ والشيء الذي عهد إلى آدم: هو أن لا يأكل من الشجرة؛ وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له؛ {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى} واذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا، وتذكر هذه القصة وذكر بها؛ والملائكة عليهم السلام لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فحين أمروا سجدوا، ومعلوم أنه سجود تكريم وليس للعبادة، فإن سجود التعبد إنما يكون للمعبود سبحانه، لكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وفسق عن أمر الله رب العالمين؛ وقيل في معنى {أبى} فعل الإباء وأظهره، والفعل هنا منزل منزلة اللازم؛ والإباء: شدة الامتناع.

١١٦ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٥]

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا {١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى {١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى {١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى {١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى {١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى {١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {١٢١} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {١٢٢}}.
[كأنه لما مدح سبحانه القرآن وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه، وعهد على العزيمة بأمره، وترك النسيان فيه، ضرب حديث آدم مثلا للنسيان وترك العزيمة] ٣١٢؛ والعهد ها هنا في معنى الوصية؛ و {نسي} معناه: ترك؛ والعزم: المضي على المعتقد في أي شيء كان؛ والشيء الذي عهد إلى آدم: هو أن لا يأكل من الشجرة؛ وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له؛ {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى} واذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا، وتذكر هذه القصة وذكر بها؛ والملائكة عليهم السلام لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فحين أمروا سجدوا، ومعلوم أنه سجود تكريم وليس للعبادة، فإن سجود التعبد إنما يكون للمعبود سبحانه، لكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وفسق عن أمر الله رب العالمين؛ وقيل في معنى {أبى} فعل الإباء وأظهره، والفعل هنا منزل منزلة اللازم؛ والإباء: شدة الامتناع.
١١٧ - (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)
{فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك} حذر الله تعالى آدم من كيد إبليس، وأنبأه بما يبيت اللعين للآدميين أجمعين، فقد حسد أبا البشر عليه السلام أن أسجد ربنا له الملائكة، فقال ما حكاه الكتاب العزيز: {. . أأسجد لمن خلقت طينا) ٣١٣: قال: {. . . أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) ٣١٤؛ وأعيدت اللام في {ولزوجك} لأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار، عند الجمهور؛ {فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى}، نهى الله تعالى آدم وحواء أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان في إخراجهما من الجنة، فإن خروجه سيتبع العناء والمكابدة والتعب وإنما خص بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية ٣١٥
١١٨ - (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى)
{إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى} علم الله أبانا آدم أن مطالب حياته مكفولة في الجنة، فطعامه وشرابه وكساؤه ومسكنه ووقايته كلها موفورة: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما. .) ٣١٦؛ {وأنك لا تظمأ فيها) أي لا تعطش؛ {ولا تضحى} أي لا تبرز للشمس فتجد حرها، إذ ليس في الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ يقول علماء الأحكام: أعلمنا الله تعالى في هذه الآية أن النفقة التي يجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور.
١١٩ - (وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٨]
{إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى} علم الله أبانا آدم أن مطالب حياته مكفولة في الجنة، فطعامه وشرابه وكساؤه ومسكنه ووقايته كلها موفورة: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما. .) ٣١٧؛ {وأنك لا تظمأ فيها) أي لا تعطش؛ {ولا تضحى} أي لا تبرز للشمس فتجد حرها، إذ ليس في الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ يقول علماء الأحكام: أعلمنا الله تعالى في هذه الآية أن النفقة التي يجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور.
١٢٠ - (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)
{فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى} كان المولى سبحانه قد أذن لآدم وحواء عليهما السلام أن يأكلا من الجنة من حيث شاءا إلا شجرة واحدة، نهاهما عن قربانها، فزين لهما إبليس أن يأكلا منها، وقال ما بينه كتاب ربنا ذي الجلال: {. . ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور. .) ٣١٨.

١٢١ - (فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)
{فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكان هذا مما قصد إليه إبليس، كما جاء في آية كريمة: {. . كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما. .) ٣١٩، فسارع آدم وحواء يطلبان ما يواري سوآتهما، فجعلا يلصقان عليهما ورق التين كما ورد؛ {. . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا. .) ٣٢٠.
{وعصى آدم ربه فغوى} أفسدت المعصية ٣٢١ عليه عيشه، {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى}، وقال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى ما حاصله: كان العصيان من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. اه.
١٢٢ - (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢١]
{فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكان هذا مما قصد إليه إبليس، كما جاء في آية كريمة: {. . كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما. .) ٣٢٢، فسارع آدم وحواء يطلبان ما يواري سوآتهما، فجعلا يلصقان عليهما ورق التين كما ورد؛ {. . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا. .) ٣٢٣.
{وعصى آدم ربه فغوى} أفسدت المعصية ٣٢٤ عليه عيشه، {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى}، وقال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى ما حاصله: كان العصيان من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. اه.
١٢٣ - (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)
{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)}.
من قبل أهبط إبليس من السماء إذ تأبى السجود فأبعده الله جل ذكره: {قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين} ٣٢٥، فلما وسوس الشيطان لأبوينا وذاقا الشجرة التي نهيا عن الاقتراب من ذواقها، حان ميقات إهباطهما من الجنة، فأهبطهما ربنا سبحانه، وحذرهما أو حذرنا في شخصيهما من مطاوعة إبليس وذريته، {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) ٣٢٦؛ {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو. . .) ٣٢٧؛ {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ٣٢٨، فالضمير في قوله تبارك اسمه: {بعضكم} يتوجه إلى أن يكون لآدم وذريته ٣٢٩ وإبليس وذريته؛ {فإما يأتينكم مني هدى} فإذا بعثت رسلي، وأرسلت كتبي، وجاءكم من ربكم المنهاج {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} فالذي يستقيم ممن حملوا الأمانة، ويتابع رسلي، ويستمسك بشرائعي فلا يحار في العاجلة ولا يغيب عنه الرشد، ولا يعوج عن الطريق المستقيم، ولا يتعس في الآخرة ولا يهلك؛ عن ابن عباس قال: تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى}.
١٢٤ - (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

{ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى}، من اختار عموم {هداي} فله أن يقول: الذكر يقع على القرآن وعلى سائر الكتب الإلهية، وكذا الآيات في قول المولى عز وجل: {آياتنا} تكون بمعنى الأدلة والحجج والبرهان مطلقا، فمن خالف هدى الله وما أنزل على رسله، وتركه وتناساه فلا طمأنينة له في الدنيا، ولا ينشرح صدره فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به. . اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك ٣٣٠، {ونحشره يوم القيامة أعمى} هو كقوله تعالى: {. . ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم. .) ٣٣١.

١٢٥ - (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا)

{قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها} يتناسى ما كان منه من نأى عن آيات الله ونهى وصد، يظن أنه لم يذنب ذنبا يستحق عليه العمى؛ فيرد المولى عليه بأنه جوزي من جنس عمله، فقد جاءته حجج ربنا وبرهانه وكلماته، فعميت عنها بصيرته، وتركها ترك المنسي الذي لا يذكر؛ {وكذلك اليوم تنسى} نعاملك اليوم كأنك من النسي المنسي؛ {. . . فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا. .) ٣٣٢.

١٢٦ - (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٥]

{قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها} يتناسى ما كان منه من نأى عن آيات الله ونهى وصد، يظن أنه لم يذنب ذنبا يستحق عليه العمى؛ فيرد المولى عليه بأنه جوزي من جنس عمله، فقد جاءته حجج ربنا وبرهانه وكلماته، فعميت عنها بصيرته، وتركها ترك المنسي الذي لا يذكر؛ {وكذلك اليوم تنسى} نعاملك اليوم كأنك من النسي المنسي؛ {. . . فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا. .) ٣٣٣.

١٢٧ - (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

{وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى} عدل المولى سبحانه وما ظلم، فعاقبة المسرفين المتجاوزين حدود الملك القوي المتين المكذبين بآيات ربنا القرآنية، وآياته الكونية الأنفسية والآفاقية جزاء أولئك وعقابهم في العاجل والآجل هو كما وعد الله الحق: {لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق) ٣٣٤، ومهما كان عقاب الأولى بئيسا فإن المصير في العقبى أقسى، والمآل لا خروج منه ولا محيد عنه.

١٢٨ - (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى)

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى {١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى {١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى {١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى {١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى {١٣٢)}

بعد أن قدمنا من وعيد، وما أنذرنا أن نحله بالآخرين، كالذي أصبنا به الأولين من بأس شديد، ما زال كثير من قومك يؤثرون الضلال، فهل عموا فلم يروا آثار الغابرين من المهلكين؟! [يريد أن قريشا يتقلبون في بلاد عاد وثمود. . ويعاينون آثار هلاكهم] ٣٣٥، {إن في ذلك لآيات لأولي النهى}! في تدبر مآل الكافرين، وآثار بطشة القوي المتين، لمعتبرا لمن له عقل.

١٢٩ - (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

{ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} لكأن التقدير: ولولا كلمة سبقت من ربنا أن يعمر الناس ما يتذكر فيه من يتذكر، وأن يؤخرهم إلى وقت قضاه سبحانه لولا هذا لعاجل الفجار الكفار بعذاب لازم لا يتأخر عنهم، كلزومه لأسلافهم الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله، وما دامت على هذا اليقين وهو كذلك صلى الله عليه وسلم {فاصبر على ما يقولون} ولا تستعجل لهم، ولا يحزنك

قولهم من الافتراء على الله تعالى، وقولهم لنبيه: ساحر، شاعر، كذاب، مجنون، {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} نزه ربك العظيم وقدسه فجرا وعصرا، أو: حافظ وليحافظ المؤمنون على صلاتي الفجر والعصر.

{ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى} ومن ساعات الليل والنهار برئ الملك القدوس عما يقول الظالمون المفترون، أو صلّ ولتصلّ أمتك من الليل والنهار ما استطعتم، ليظفركم الولي الشكور الحميد بما يرضيكم في أولاكم وأخراكم؛ في الصحيحين: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبيل غروبها فافعلوا " ثم قرأ الآية؛ {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه} الخطاب للنبي والمراد أمته؛ فكأن المعنى: لا تطيلوا النظر إلى ما لهؤلاء المترفين من زخارف متعوا بها، وما جعلناه لأصناف منهم من النعيم الزائل، فإني ما أعطيتهم لكرامتهم؛ وإنما أخبرتهم بهذا العطاء: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) ٣٣٦؛ {. . ورحمة ربك خير مما يجمعون) ٣٣٧؛ {أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) ٣٣٨؛ {ورزق ربك خير وأبقى} يمكن أن يراد: وما ادخر لكم ربكم من نعيم الجنة أفضل من هذا وأدوم؛ وإلى هذا يشير قول الحق تبارك اسمه {. . وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا. .) ٣٣٩ وقيل: أراد به الحلال الطيب. . خير من أموالهم التي غلب عليها الغصب والسرقة وسائر وجوه الخيانة، وأبقى بركة ونماء وحسن عاقبة.

١٣٠ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٩]

{ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} لكأن التقدير: ولولا كلمة سبقت من ربنا أن يعمر الناس ما يتذكر فيه من يتذكر، وأن يؤخرهم إلى وقت قضاه سبحانه لولا هذا لعاجل الفجار الكفار بعذاب لازم لا يتأخر عنهم، كلزومه لأسلافهم الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله؛ وما دامت على هذا اليقين وهو كذلك صلى الله عليه وسلم {فاصبر على ما يقولون} ولا تستعجل لهم، ولا يحزنك قولهم من الافتراء على الله تعالى، وقولهم لنبيه: ساحر، شاعر، كذاب، مجنون، {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} نزه ربك العظيم وقدسه فجرا وعصرا، أو: حافظ وليحافظ المؤمنون على صلاتي الفجر والعصر.

{ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى} ومن ساعات الليل والنهار برئ الملك القدوس عما يقول الظالمون المفترون، أو صلّ ولتصلّ أمتك من الليل والنهار ما استطعتم، ليظفركم الولي الشكور الحميد بما يرضيكم في أولاكم وأخراكم؛ في الصحيحين: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبيل غروبها فافعلوا " ثم قرأ الآية؛ {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه} الخطاب للنبي والمراد أمته؛ فكأن المعنى: لا تطيلوا النظر إلى ما لهؤلاء المترفين من زخارف متعوا بها، وما جعلناه لأصناف منهم من النعيم الزائل، فإني ما أعطيتهم لكرامتهم؛ وإنما أخبرتهم بهذا العطاء: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) ٣٤٠؛ {. . ورحمة ربك خير مما يجمعون) ٣٤١؛ {أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) ٣٤٢؛ {ورزق ربك خير وأبقى} يمكن أن يراد: وما ادخر لكم ربكم من نعيم الجنة أفضل من هذا وأدوم؛ وإلى هذا يشير قول الحق تبارك اسمه {. . وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا. .) ٣٤٣ وقيل: أراد به الحلال الطيب. . خير من أموالهم التي غلب عليها الغصب والسرقة وسائر وجوه الخيانة، وأبقى بركة ونماء وحسن عاقبة.

١٣١ - (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٩]

{ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى} لكأن التقدير: ولولا كلمة سبقت من ربنا أن يعمر الناس ما يتذكر فيه من يتذكر، وأن يؤخرهم إلى وقت قضاه سبحانه لولا هذا لعاجل الفجار الكفار بعذاب لازم لا يتأخر عنهم، كلزومه لأسلافهم الذين عتوا

عن أمر ربهم ورسله، وما دامت على هذا اليقين وهو كذلك صلى الله عليه وسلم {فاصبر على ما يقولون} ولا تستعجل لهم، ولا يحزنك قولهم من الافتراء على الله تعالى، وقولهم لنبيه: ساحر، شاعر، كذاب، مجنون، {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} نزه ربك العظيم وقدسه فجرا وعصرا، أو: حافظ وليحافظ المؤمنون على صلاتي الفجر والعصر.
{ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى} ومن ساعات الليل والنهار برئ الملك القدوس عما يقول الظالمون المفترون، أو صلّ ولتصلّ أمتك من الليل والنهار ما استطعتم، ليظفركم الولي الشكور الحميد بما يرضيكم في أولاكم وأخراكم، في الصحيحين: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبيل غروبها فافعلوا " ثم قرأ الآية، {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه} الخطاب للنبي والمراد أمته، فكأن المعنى: لا تطيلوا النظر إلى ما لهؤلاء المترفين من زخارف متعوا بها، وما جعلناه لأصناف منهم من النعيم الزائل، فإني ما أعطيتهم لكرامتهم، وإنما أخبرتهم بهذا العطاء: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) ٣٤٤، {. . ورحمة ربك خير مما يجمعون) ٣٤٥، {أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) ٣٤٦، {ورزق ربك خير وأبقى} يمكن أن يراد: وما ادخر لكم ربكم من نعيم الجنة أفضل من هذا وأدوم، وإلى هذا يشير قول الحق تبارك اسمه {. . وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا. .) ٣٤٧ وقيل: أراد به الحلال الطيب. . خير من أموالهم التي غلب عليها الغصب والسرقة وسائر وجوه الخيانة، وأبقى بركة ونماء وحسن عاقبة.
١٣٢ - (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)
{وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى} أقبل أنت مع أهلك على عبادة الله واصبروا على الطاعة دون ملل فبذلك تدرك السعة وحسن العاقبة عاجلا وآجلا، كما جاءت البشرى: {من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ٣٤٨ [وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رأيت الليلة كأنا في دار عقبة ابن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب ".
١٣٣ - (وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)
{وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى {١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى {١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى {١٣٥)}
كأن هذه الآيات الكريمة حكاية لجانب من قول الكفار المعاندين، ومن شبهاتهم التي تذرعوا بها، فتعللوا بأنه صلى الله عليه وسلم لو كان مرسلا لجاءهم بخوارق العادات التي جاء بها من سبق من الأنبياء، كناقة صالح، ومائدة عيسى ومعجزاته الأخر من إحياء الموتى وإبراء المرضى، وهلا أتانا محمد بعلامة على صدقه في دعوى الرسالة كتلك العلامات، فرد الله تعالى دعواهم تلك بقوله الحكيم: {أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى}؟! أو لم ننزل عليك قرآنا وأنت ما قرأت من قبله من كتاب ولا خططت مكتوبا بيمينك؟ وقريب من هذا قول ربنا العلي العظيم: {أولم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ٣٤٩، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، ومع هذا الكتاب العزيز فإن الله العليم القدير أجرى على يدي خاتم النبيين من المعجزات الحسية ما لو كانوا من السعداء لكفاهم اليسير منه ليكون برهانا على صدق ما جاءهم به البشير النذير صلوات ربنا عليه وسلامه، أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات، فكفروا بها لما أتتهم، كيف عجلنا لهم العذاب، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها يقول فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك ٣٥٠.

١٣٤ - (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

{ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله} لو أننا انتقمنا من هؤلاء المكذبين وبطشنا بهم قبل أن نبعث داعيا يدعوهم وينذرهم، وقبل أن ننزل عليهم كتابا يبصرهم ويحذرهم، لاحتجوا، وقالوا: {ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك}، ومن قبل طلبوا ذلك وحلفوا لئن جاءهم الهدى ليتبعنه: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها.) ٣٥١، فلما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون، {من قبل أن نذل ونخزى} قبل أن تذلنا بعذابك وتخزينا به، وهكذا غلبت عليهم الشقوة {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا) ٣٥٢.

١٣٥ - (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

{قل كل متربص فتربصوا}، قال أكابر المجرمين المشركين: ما محمد إلا شاعر نتربص به الموت والمنون، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المتمردين: أنتم تنتظرون بنا دوائر الزمان، ونحن ننتظر ما وعدنا مولانا في القرآن، فانتظروا ما ينزل الله بأهل الجحود والنكران والكفر والطغيان، فستعلمون حين ينجز الله وعده أينا محق وأينا مبطل، وذلك كقوله عز من قائل، {. . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) ٣٥٣، {فستعلمون من أصحاب الصراط السوي} سيتبين لكم من منا على الطريق المستقيم {صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.) ٣٥٤، {ومن اهتدى} إلى الحق وسبيل الرشاد، والله يعلم المفسد من المصلح، وولينا يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطا مستقيما.

٢١ سورة الأنبياء:

سورة الأنبياء:
مكية
وآياتها اثنتا عشر ومائة
كلماتها: ١١٧٨، حروفها: ٤٨٩٠
١ - (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ {١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ {٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ {٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ {٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ {٦)}

دنا للناس وقت بعثهم من قبورهم، وسوقهم إلى ربهم، وسؤالهم عن أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، ومجازاتهم بما قدموا في حياتهم، وهم في سهو وجهالة عما يفعل بهم، وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له ١ والتزود بما ينجي من أحواله وأهواله إن شاء الله، [فإن قيل: كيف وصف بالاقتراب وقد مضى دون هذا القول مئات من الأعوام؟ فالجواب: أن كل ما هو آت قريب. . . ومما يدل على أن الباقي. . . أقل من الماضي قوله صلى الله عليه وسلم: " بعثت أنا والساعة كهاتين " - وأشار بالسبابة والتي تليها، وفي ذكر هذا الاقتراب تنبيه للغافلين، وزجر للمذنبين، فالمراد بالناس: كل من له مدخل في الحساب وهم جميع المكلفين، وما روى ابن عباس أن المراد بالناس: المشركون، فمن باب إطلاق اسم الجنس على بعضه بالدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين من الغفلة والإعراض وغيرهما] ٢. {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم] مما أورد صاحب الجامع

لأحكام القرآن: {محدث} نعت ل {ذكر}. . . يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما ينزله الله تعالى في وقت بعد وقت؛ لا أن القرآن مخلوق؛ وقيل: الذكر: ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظهم به؛ وقال: {من ربهم} لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر، وهو محدث؛ قال الله تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر) ٣. . . {إلا استمعوه} يعني محمد صلى الله عليه وسلم، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته {وهم يلعبون} الواو: واو الحال يدل عليه {لاهية قلوبهم} ومعنى: {يلعبون} أي يلهون. . فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين: أحدهما بلذاتهم؛ الثاني بسماع ما يتلى عليهم؛ وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال تعالى. {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو.) ٤؛ الثاني يتشاغلون بالقدح فيه، والاعتراض عليه. . . اه

٢ - (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ {١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ {٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ {٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ {٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ {٦)}

دنا للناس وقت بعثهم من قبورهم، وسوقهم إلى ربهم، وسؤالهم عن أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، ومجازاتهم بما قدموا في حياتهم، وهم في سهو وجهالة عما يفعل بهم، وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له ٥ والتزود بما ينجي من أحواله وأهواله إن شاء الله؛ [فإن قيل: كيف وصف بالاقتراب وقد مضى دون هذا القول مئات من الأعوام؟ فالجواب: أن كل ما هو آت قريب. . . ومما يدل على أن الباقي. . . أقل من الماضي قوله صلى الله عليه وسلم: " بعثت أنا والساعة كهاتين " - وأشار بالسبابة والتي تليها؛ وفي ذكر هذا الاقتراب تنبيه للغافلين، وزجر للمذنبين، فالمراد بالناس: كل من له مدخل في الحساب وهم جميع المكلفين؛ وما روى ابن عباس أن المراد بالناس: المشركون، فمن باب إطلاق اسم الجنس على بعضه بالدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين من الغفلة والإعراض وغيرهما] ٦. {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم] مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: {محدث} نعت ل {ذكر}. . . يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما ينزله الله تعالى في وقت بعد وقت؛ لا أن القرآن مخلوق؛ وقيل: الذكر: ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظهم به؛ وقال: {من ربهم} لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر، وهو محدث؛ قال الله تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر) ٧. . . {إلا استمعوه} يعني محمد صلى الله عليه وسلم، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته {وهم يلعبون} الواو: واو الحال يدل عليه {لاهية قلوبهم} ومعنى: {يلعبون} أي يلهون. . فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين: أحدهما بلذاتهم؛ الثاني بسماع ما يتلى عليهم؛ وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال تعالى. {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو.) ٨؛ الثاني يتشاغلون بالقدح فيه، والاعتراض عليه. . . اه

٣ - (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

{لاهية قلوبهم} ذهلت قلوبهم فهي لا تفقه مما سمعت شيئا، لا يتدبرون حكمه، ولا يتفكرون في برهانه ولا في سلطانه، ولا في حججه وبيناته؛ [{أسروا النجوى} كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى من جناياتهم، و {النجوى} اسم من التناجي، ولا تكون إلا سرا،

فمعنى إسرارها: المبالغة في إخفائها. . . . {الذين ظلموا} بدل من ضمير {أسروا}. . . . وفيه إشعار بكونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به {هل هذا إلا بشر مثلكم}. . . كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا هذا. . . {أفتأتون السحر} للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله سبحانه: {وأنتم تبصرون} حال من فاعل {تأتون} مقررة للإنكار، ومؤكدة للاستبعاد. . . قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر هاهنا القرآن] ٩.

٤ - (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم} قال لهم نبينا بعدما أوحي إليه من إسرارهم وافترائهم، ونجواهم وإفكهم، قال: ربي أحاط بكل شيء علما، يعلم سركم ونجواكم، ومهما استخفيتم أو أعلنتم! فأمركم معلوم لمولاي ومعبودي وخالقي ومالك أمري؛ {وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) ١٠، {. . . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه.) ١١ وربي سميع لكل مسموع، عليم بكل معلوم. . .

٥ - (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ)

{بل قالوا أضغاث أحلام} إضراب وانتقال من بيان افترائهم السابق إلى بيان افتراء آخر، فلم يكتفوا باستنكار أن يرسل برسالة من الله مع أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولكن أضافوا إلى هذا زعما باطلا أن القرآن تخاليط أحلام؛ ثم أضربوا البهتان الذي ادعوه، وقالوا: {بل افتراه} بل اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه؛ ثم اضطربوا فقالوا: {بل هو شاعر} يقص علينا أخيلة وأوهاما ليست من الحقيقة في شيء، {فليأتنا بآية كما أرسل الأولون} ليطالعنا بمعجزة إن كان صادقا في ادعاء النبوة حتى نعلم أنه نبي، كما كان الأنبياء السابقون يجيئون أقوامهم بخوارق العادات إثباتا لصحة نبوتهم، كما جاء صالح قومه بالناقة، وجاء موسى بتسع معجزات، وجاء عيسى بإبراء الأكمة والأبرص وغيرهما؛ {فليأتنا بآية} جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله عز وجل كما يقول {فليأتنا بآية} {ما آمنت قبلهم من قرية} كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان عند إتيان الآية المقترحة، وبيان أنهم في اقتراح ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه، وأن في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم، كيف لا! ولو أعطوا ما اقترحوه مع عدم إيمانهم قطعا لاستأصلوا، لجريان سنة الله تعالى شأنه في الأمم السالفة على استئصال المقترحين منهم إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا، وقد سبقت كلمته سبحانه أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال. . . {من قرية} على حذف المضاف، أي: من أهل قرية و {من} مزيدة لتأكيد العموم، وما بعدها في محل رفع على الفاعلية؛ وقوله سبحانه: {أهلكناها} في محل جر أو رفع صفة {قرية} والمراد: أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه. . . . والهمزة في قوله سبحانه: {أفهم يؤمنون} لإنكار الوقوع، والفاء للعطف. . . على {ما آمنت} على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار، مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين. ١٢

٦ - (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{بل قالوا أضغاث أحلام} إضراب وانتقال من بيان افترائهم السابق إلى بيان افتراء آخر، فلم يكتفوا باستنكار أن يرسل برسالة من الله مع أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولكن أضافوا إلى هذا زعما باطلا أن القرآن تخاليط أحلام؛ ثم أضربوا البهتان الذي ادعوه، وقالوا: {بل افتراه} بل اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه؛ ثم اضطربوا فقالوا: {بل هو شاعر} يقص علينا أخيلة وأوهاما ليست من الحقيقة في شيء، {فليأتنا بآية كما أرسل الأولون} ليطالعنا بمعجزة إن كان صادقا في ادعاء النبوة حتى نعلم أنه نبي، كما كان الأنبياء السابقون يجيئون أقوامهم بخوارق العادات إثباتا لصحة نبوتهم، كما جاء صالح قومه بالناقة، وجاء موسى بتسع معجزات، وجاء عيسى بإبراء الأكمة والأبرص وغيرهما؛ {فليأتنا بآية} جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا

من الله عز وجل كما يقول {فليأتنا بآية} {ما آمنت قبلهم من قرية} كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان عند إتيان الآية المقترحة، وبيان أنهم في اقتراح ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه، وأن في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم، كيف لا! ولو أعطوا ما اقترحوه مع عدم إيمانهم قطعا لاستأصلوا، لجريان سنة الله تعالى شأنه في الأمم السالفة على استئصال المقترحين منهم إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا، وقد سبقت كلمته سبحانه أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال. . . {من قرية} على حذف المضاف، أي: من أهل قرية و {من} مزيدة لتأكيد العموم، وما بعدها في محل رفع على الفاعلية، وقوله سبحانه: {أهلكناها} في محل جر أو رفع صفة {قرية} والمراد: أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه. . . . والهمزة في قوله سبحانه: {أفهم يؤمنون} لإنكار الوقوع، والفاء للعطف. . . على {ما آمنت} على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار، مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين. ١٣

٧ - (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ {٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ {٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ {١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ {١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ {١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ {١٣) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ {١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ {١٥)}.

{رجالا} ذكورا من بني آدم، بلغوا سن الاكتهال.

{أهل الذكر} أهل العلم، قال ابن زيد: أهل العلم بالقرآن.

يقول تعالى ذكره لنبيه: وما أرسلناك يا محمد قبلك رسولا إلى أمة من الأمم التي خلت قبل أمتك إلا رجالا مثلهم نوحي إليهم ما نريد أن نوحيه إليهم من أمرنا ونهينا لا ملائكة؛ فماذا أنكروا من إرسالنا إليهم؟ وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم، وقوله: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} ١٤. . . عن قتادة: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل قال أبو جعفر: أراه أنا قال: يخبركم أن الرسل كانوا رجالا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. . . قال ابن زيد في قوله: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} قال: أهل القرآن، والذكر: القرآن، وقرأ: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ١٥. {وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين} وما جعلنا الأنبياء قبلك لا يأكلون ولا يشربون بل كانوا كسائر البشر يأكلون ويموتون؛ [فلعلهم اعتقدوا خلود الملائكة لا أقل من العمر الطويل؛ ولابد من تقدير مضاف محذوف، أي: وما جعلنا الأنبياء قبلك ذوي جسد غير طاعمين، وإلا قيل: وما جعلنا لهم جسداء، ووحد الجسد لإرادة الجنس. .] ١٦.

٨ - (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

{جسدا} لا يأكلون ولا يشربون. {خالدين} لا يموتون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

٩ - (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

{ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين}

{صدقناهم الوعد} آتيناهم ما وعدناهم، من الاستجابة لهديهم، والنصر على عدوهم. {المسرفين} المتجاوزين الحد عدوانا وكفرا.

ثم صدقنا رسلنا في وعدنا الذي وعدناهم بالتأييد على عدوهم، وحين جاء موعد انتقامنا من المكذبين أنجينا الرسل وأتباعهم المؤمنين، ودمرنا الطاغين الكافرين، ونصرنا أهل الحق فكانوا هم الغالبين.

١٠ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون}
{كتابا فيه ذكركم} قرآنا فيه شرفكم.
حق يقسم عليه أن الكتاب العزيز، العربي المبين، فيه حديثكم كما روي عن مجاهد، قال: فيه حديثكم أفلا تعقلون؟ قال في {قد أفلح) ١٧: {. . بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) ١٨؛ وعن سفيان: نزل القرآن بمكارم الأخلاق. .؛ أو المراد الشرف، كما جاء في قول الحق سبحانه: {وإنه لذكر لك ولقومك. .) ١٩؛ نقل ابن جرير: . . لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه شرفكم. وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه. ا هـ.
١١ - (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)
{وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون}
{قصمنا} كسرنا. {وأنشأنا} أوجدنا.
وكثير من المدن الظالمة كسرنا أهلها، وفرقناهم بددا، واستخلفنا من بعدهم ناسا غيرهم، فلما أدرك أهل تلك المدن الذين طغوا وأفسدوا ـ لما أدركوا حلول النقمة إذا هم من النقمة يفرون ويولون هاربين
١٢ - (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)
{أحسوا} خافوا وتوقعوا. {يركضون} يهربون ويفرون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
١٣ - (لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)
{لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون}
{أترفتم} وسع عليكم حتى بطرتم.
فتقول لهم الملائكة العذاب أو من كان قريبا من مساكنهم من المؤمنين: لا تفروا ولا تولوا يقولون ذلك استهزاء بهم وعودوا إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، وإلى مساكنكم التي كنتم تتطاولون في بنائها، وتفتخرون بتشييدها وملكها! فربما يغشاكم من يسألكم، أو يلقاكم من يستعلم عن أحوالكم ومآلكم.
١٤ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)
{قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين}
{يا ويلنا} نادوا الويل والعذاب أن هذا أوانك ووقتك.
ـ لما قالت لهم الملائكة {لا تركضوا} ونادت: يا لثارات الأنبياء، ولم يروا شخصا يكلمهم، عرفوا أن الله عز وجل هو الذي سلط عليهم عدوهم فعند ذلك قالوا: {يا ويلنا إنا كنا ظالمين} فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف {فما زالت تلك دعواهم} أي: لم يزالوا يقولون: {يا ويلنا إنا كنا ظالمين} {حتى جعلناهم حصيدا} كما يحصد الزرع. . بالعذاب {خامدين} ميتين ـ ٢٠
١٥ - (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ)
{حصيدا خامدين} محصودين هامدين، ميتين هالكين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٦ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)
{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ {١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ {١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ {١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ {١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ {٢٠)}.

ما خلق الله تعالى السماوات والأرضين وما فيهن ومن فيهن عبثا أو مجازفة، لكنه سبحانه خلق ذلك بالقسط عدلا ومجازاة، كما بين الحكمة في قوله الكريم: {. . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٢١؛ وحاش لله أن يكون فعله لهوا، وتبارك مولانا القائل في محكم التنزيل: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ٢٢.

١٧ - (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

{لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين} نقل صاحب روح المعاني عن صاحب الكشف ما حاصله: لو أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا حكمة اتخذتموها لهوا من جهتكم، وهذا عين الجد والحكمة، فهو في معنى: لو أردناه لامتنع. . . والممتنع لا يصلح متعلقا للقدرة، ورجح أن تكون {إن} في قول الحق سبحانه {إن كنا فاعلين} نافية، وقال: كما عليه جمهور المفسرين وحسنه بالغ الحسن. . اه؛ فكأن المعنى: ما كنا لنفعل ذلك؛ ولهذا جاء بعدها: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه} لكنا لا نريد لهوا ولا عبثا بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو، وتخصيص هذا الشأن من بين شؤونه تعالى بالذكر للتخلص لما سيأتي إنشاء الله تعالى من الوعيد ٢٣. قال مجاهد: الحق هنا القرآن، والباطل: الشيطان، وقيل: الحق: المواعظ؛ والباطل: المعاصي؛ والقرآن يتضمن الحجة والموعظة؛ ولله من في السماوات والأرض ملكا وخلقا وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصريفا، وإحياء وإماتة، وتعذيبا وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالا واستتباعا. . . وفي الإتقان: حيث يراد العدد يؤتى بالسماء مجموعة، وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة، {من عنده} وهم الملائكة مطلقا عليهم السلام. . . والمراد بالعندية: عندية الشرف لا عندية المكان، وقد شبه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة. . ٢٤.

{لا يستكبرون عن عبادته} أي لا يعدون أنفسهم كبراء، ولا يتعظمون عن العبادة، ولا يأنفون عن التخشع والخضوع لجلاله سبحانه؛ {ولا يستحسرون} لا يتعبون ولا يعيون ولا يملون.

١٨ - (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{فيدمغه} فيهلكه ويقهره. {زاهق} هالك تالف.

{الويل} العذاب.

{لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين} نقل صاحب روح المعاني عن صاحب الكشف ما حاصله: لو أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا حكمة اتخذتموها لهوا من جهتكم، وهذا عين الجد والحكمة، فهو في معنى: لو أردناه لامتنع. . . والممتنع لا يصلح متعلقا للقدرة، ورجح أن تكون {إن} في قول الحق سبحانه {إن كنا فاعلين} نافية، وقال: كما عليه جمهور المفسرين وحسنه بالغ الحسن. . اه؛ فكأن المعنى: ما كنا لنفعل ذلك؛ ولهذا جاء بعدها: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه} لكنا لا نريد لهوا ولا عبثا بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو، وتخصيص هذا الشأن من بين شؤونه تعالى بالذكر للتخلص لما سيأتي إنشاء الله تعالى من الوعيد ٢٥. قال مجاهد: الحق هنا القرآن، والباطل: الشيطان، وقيل: الحق: المواعظ؛ والباطل: المعاصي؛ والقرآن يتضمن الحجة والموعظة؛ ولله من في السماوات والأرض ملكا وخلقا وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصريفا، وإحياء وإماتة، وتعذيبا وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالا واستتباعا. . . وفي الإتقان: حيث يراد العدد يؤتى بالسماء مجموعة، وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة، {من عنده} وهم الملائكة مطلقا عليهم السلام. . . والمراد بالعندية: عندية الشرف لا عندية المكان، وقد شبه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة. . ٢٦.

{لا يستكبرون عن عبادته} أي لا يعدون أنفسهم كبراء، ولا يتعظمون عن العبادة، ولا يأنفون عن التخشع والخضوع لجلاله سبحانه؛ {ولا يستحسرون} لا يتعبون ولا يعيون ولا يملون.

١٩ - (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{يستحسرون} يعيون ويتعبون ويميلون.

{لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين} نقل صاحب روح المعاني عن صاحب الكشف ما حاصله: لو أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا حكمة اتخذتموها لهوا من جهتكم، وهذا عين الجد والحكمة، فهو في معنى: لو أردناه لامتنع. . . والممتنع لا يصلح متعلقا للقدرة، ورجح أن تكون {إن} في قول الحق سبحانه {إن كنا فاعلين} نافية، وقال: كما عليه جمهور المفسرين وحسنه بالغ الحسن. . اه، فكأن المعنى: ما كنا لنفعل ذلك، ولهذا جاء بعدها: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه} لكنا لا نريد لهوا ولا عبثا بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو، وتخصيص هذا الشأن من بين شؤونه تعالى بالذكر للتخلص لما سيأتي إنشاء الله تعالى من الوعيد ٢٧. قال مجاهد: الحق هنا القرآن، والباطل: الشيطان، وقيل: الحق: المواعظ، والباطل: المعاصي، والقرآن يتضمن الحجة والموعظة، ولله من في السماوات والأرض ملكا وخلقا وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصريفا، وإحياء وإماتة، وتعذيبا وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالا واستتباعا. . . وفي الإتقان: حيث يراد العدد يؤتى بالسماء مجموعة، وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة، {من عنده} وهم الملائكة مطلقا عليهم السلام. . . والمراد بالعندية: عندية الشرف لا عندية المكان، وقد شبه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة. . ٢٨.

{لا يستكبرون عن عبادته} أي لا يعدون أنفسهم كبراء، ولا يتعظمون عن العبادة، ولا يأنفون عن التخشع والخضوع لجلاله سبحانه، {ولا يستحسرون} لا يتعبون ولا يعيون ولا يملون.

٢٠ - (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)

{يسبحون الليل والنهار لا يفترون}

{لا يفترون} لا يضعفون ولا ينقطعون.

يصلون ويذكرون وينزهون المولى تبارك وتعالى كل وقتهم دون ضعف أو انقطاع أو سأم، يقول المفسرون: ثم إن كون الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يستلزم أن يكون عندهم في السماء ليل ونهار، لأن المراد: إفادة دوامهم التسبيح على وجه المتعارف نقل عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله تعالى للملائكة: {يسبحون الليل والنهار لا يفترون} أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال: يا بني! إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟ ٢٩.

٢١ - (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

{أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ {٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ {٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ {٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ {٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {٢٥)}

{ينشرون} يحيون الموتى.

بدأت السورة الكريمة بالدعوة إلى الإيمان بالآخرة، ثم ثنت بالدعوة إلى الإيمان بالرسالة، وهذه الآيات فيها دعوة إلى الإيمان بالله الواحد ونفي الأنداد والأضداد، والأعوان والشركاء، {أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون} قال المفضل: مفهوم هذا الاستفهام الجحد، أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على إحياء الموتى!، يقول صاحب روح المعاني: {أم اتخذوا آلهة} حكاية لجناية أخرى من جنايات أولئك الكفرة هي أعظم من جناية طعنهم في النبوة، {أم} هي المنقطعة، تقدر ببل الإضرابية، والهمزة الإنكارية، وهي لإنكار الوقوع لا إنكار الواقع، وقوله تعالى {من الأرض} متعلق باتخذوا، و {من} ابتدائية، على معنى: أن اتخاذهم إياها مبتدأ من أجزاء الأرض كالحجارة وأنواع المعادن، ويجوز كونها تبعيضية. . . {هم ينشرون} أي: يبعثون الموتى صفة لآلهة.

٢٢ - (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

{لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} إبطال لتعدد الآلهة، وضمير {فيهما} للسماء والأرض، والمراد بهما: العالم كله علويه وسفليه. . . ٣٠ اه، قال الكسائي وسيبويه: {إلا} بمعنى غير. . وحكى سيبويه: لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكنا، وقال الفراء: {إلا} هنا في موضع: سوى، والمعنى: لو كان فيها آلهة سوى الله لفسد أهلهما، أي: لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئا

والآخر ضده كان أحدهما عاجزا، - وقد يقال: إن {إلا} في هذه المادة لا يمكن أن تكون للاستثناء، لأنا لو حملناها على الاستثناء لصار المعنى: لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله. . . وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله لم يحصل الفساد، وللمفسرين في تفسير الآية طريقان: أحدهما -حمل الغائب على الشاهد، المعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة غير الواحد الذي الذي هو فاطرهما {لفسدتا} وفيه دلالة على أمرين: الأول وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا، والثاني أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه. . . وإنما وجب الأمران لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، وثانيهما طريق التمانع. . {فسبحان الله رب العرش عما يصفون} من الأنداد والشركاء، فتكون هذه الآية نظيرة قوله: {ضرب ا الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا. . .) ٣١، وفيه قول زيد ابن عمرو بن نفيل:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير ٣٢

٢٣ - (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

{لا يسأل عما يفعل وهم يسألون}

{لا يسأل عما يفعل} لا يعترض فعله أحد.

{يسألون} يحاسبهم الله تعالى على ماعملوه.

قال ابن جريج: المعنى: لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم، لأنهم عبيد، بين هذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية، وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا قال له: يا أمير المؤمنين! أيحب ربنا أن يعصى؟ قال: أفيعصى ربنا قهرا؟ قال: أرأيت إن منعني الهدى ومنحني الردى، أأحسن إلي أم أساء؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضله يؤتيه من يشاء، ثم تلا الآية: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون}.

٢٤ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

{أم اتخذوا من دونه آلهة}

{برهانكم} حجتكم ودليلكم. {هذا ذكر من معي} تذكرتهم وموعظتهم، أو الكتاب المنزل لهم.

أعاد التعجب في اتخاذ الآلهة من دون الله في التوبيخ. . . وقيل: الأول احتجاج من حيث المعقول، لأنه قال: {هم ينشرون} ويحيون الموتى؟ هيهات ٣٣، {قل هاتوا برهانكم} احتجاج بالمنقول، أي: في أي كتاب قرأتم أن مع الله تعالى آلهة أخرى؟! وهذا الإبطال لما ادعوه من جهة العقل والنقل جاء مثله في قول الحق جل علاه: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ٣٤.

{هذا ذكر من معي وذكر من قبلي} هذا الوحي فيه تذكرة وموعظة للذين بعثت فيهم، وذكر من كانوا قبلي، أو: هذا الذكر الحكيم الذي أنزل للأمة الخاتمة، وهذا ما أنزل الله تعالى على الأمم السالفة، ففي أي أحد منها وجدتم ما يسوغ لكم مجرد شبهة في تفرد الخلاق العليم بالألوهة؟! قال قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: {هذا ذكر من معي} بما يلزمهم من الحلال والحرام {وذكر من قبلي} من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك.

{بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون} فيه تنبيه على أن وقوعهم في هذا الزيغ ليس لأجل دليل ساقهم إليه، بل لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد، وهو عدم العلم وفقد التمييز بين الحق والباطل، فلذلك أعرضوا عن سماع الحق وطلبه، وفي لفظ الأكثر إشارة إلى أن فيهم من يعلم ولكنه يعاند. ٣٥

٢٥ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} ما بعث الله تعالى نبيا إلا بالتوحيد، وهو لب الأمر وذروة سنامه، كما شهد الحديث الشريف: " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله " [وقد يقال: إن فيه تعميما بعد تخصيص إذا

أريد من {ذكر من قبلي} الكتب الثلاثة، ولما كان {من رسول} عاما معنى فكان هناك لفظ ومعنى أفرد على اللفظ في {نوحي إليه} ثم جمع على المعنى في {فاعبدون}. . . وأيا ما كان فصيغة المضارع {نوحي} لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحي] ٣٦، وقال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد.

٢٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ {٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ {٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ {٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {٢٩)}

{سبحانه} تنزيها له وتقديسا وتبرئة مما يفترون، وينسبونه إلى الله تعالى عما يقولون

حكاية لجناية فريق المشركين، لإظهار بطلانها، وبيان تنزهه سبحانه عن ذلك إثر بيان تنزهه جل وعلا عن الشركاء على الإطلاق. . .

{سبحانه} تنزهه بالذات تنزهه اللائق به. . . أو سبحوه تسبيحه، وقوله تعالى: {بل عباد} إضراب وإبطال لما قالوا، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون له تعالى، فهم ملكه سبحانه، والولد لا يصح تملكه، وفي قوله تعالى: {مكرمون} أي مقربون عنده تعالى. . . {لا يسبقونه بالقول} أي لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به، كما هو ديدن العبيد المؤدبين. . والأصل: لا يسبق قولهم قوله تعالى. . . {وهم بأمره يعملون} بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له سبحانه في الأقوال. ٣٧ .

٢٧ - (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٦ إظهار

٢٨ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

{يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم}

{ما بين أيديهم} ما أمامهم. {وما خلفهم} ما وراءهم.

{يشفعون} يتضرعون إلى ربهم ويسألونه العفو عن المذنب، والتجاوز عن المؤاخذة.

عن ابن عباس: يعلم ما عملوا وما هم عاملون، وعنه: {ما بين أيديهم} الآخرة، {وما خلفهم} الدنيا، {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} هو كقول الحق سبحانه: {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن. .) ٣٨ وكذا ما في الآية الكريمة: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له. .) ٣٩، عن ابن عباس: من قال لا إله إلا الله، شفاعتهم الاستغفار، وهي تكون في الدنيا والآخرة، ومصداق ذلك في كتاب الله: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا. .) ٤٠، {. . والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) ٤١.

{وهم من خشيته مشفقون} والملائكة الكرام عليهم السلام من خشية الله الكبير المتعال وخوف غضبه على حذر ورقبة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقيل: يحتمل أن يكون المعنى، أنهم يخشون الله تعالى، ومع ذلك يحذرون من وقوع تقصير في خشيتهم. . . وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول: خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. . إنما يخشى الله من عباده العلماء. .) ٤٢، والثاني: خوف مع اعتناء، ويعدى بمن [فيقال: أشفقت من كذا]. . وقد يعدى بعلى [كما يقال: أشفق على ولده] بملاحظة الحنو والعطف ٤٣.

٢٩ - (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

{مشفقون} خائفون، أو: على حذر ورقبة.

{ومن يقل منهم} ومن يقل من الملائكة على سبيل الفرض {إني إله من دونه} فيدعي الألوهية متجاوزا مقام المعبود بحق جل ثناؤه {فذلك نجزيه جهنم} فذلك الذي فرض قول ما ذكر فرض محال نجعل جزاءه عذاب النار وحر السعير {كذلك نجزي الظالمين} مثل

ذلك الجزاء الوبيل نجزي كل متجاوز حده متعد طوره وليس أنقص من هذا الجزاء. [وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) ٤٤] ٤٥.
{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ {٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ {٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ {٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ {٣٣)}.
{أو لم ير} أو لم يعلم؟! {رتقا} ملتصقتين. {ففتقناهما} ففصلناهما. {من الماء كل شيء حي} أصل الأحياء الماء.
الاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر، والرؤية قلبية بصيرية أي: ألم يتفكروا ويعلموا؟! يقبح الله تعالى غفلة الغافلين، وإعراض الناس عن التدبر في بديع صنع رب العالمين، وفي حكمة واقتدار الملك ذي القوة المتين، تجهيل لهم بتقصيرهم عن التدبر في الآيات التكوينية الدالة على عظيم قدرته وتصرفه وكون جميع ما سواه مقهورا تحت ملكوته على وجه ينتفعون به، ويعلمون أن من كان كذلك لا ينبغي أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه. . ٤٦؛ ولو تدبروا لأيقنوا أن الذي خلق الأرض وفصل عنها السماء وباعد بينهما هو وحده صاحب الخلق والأمر، وبديع السماوات والأرض، فلا تليق العبادة إلا له دون سواه، قال الأخفش: {كانتا} لأنهما صنفان، كما قال الله تعالى، {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا.) ٤٧ {رتقا} مصدر، والمعنى: كانتا ذواتي رتق التصاق، {وجعلنا من الماء كل شيء حي} أي أصل الأحياء الماء، أو: كل شيء من الأحياء له اتصال بالماء، {أفلا يؤمنون} أيعلمون ذلك فلا يؤمنون؟!.
٣١ - (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)
{وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم}
{رواسي} جبالا ثوابت. {تميد بكم} تميل وتضطرب. {فجاجا} طرقا ودروب ومسالك، وأصل الفج: الثغرة والفجوة والفتحة.
وخلق الله تعالى في الأرض جبالا ثوابت لئلا تميل الأرض أو تضطرب، أو: وخلقنا في الأرض رواسي أن تميد بهم فنثبتها، ثم حذف فتثبتها لأمن الإلباس إيجازا. {وجعلنا فيها فجاجا سبلاْ} أي: جعلنا في الأرض فجوات لتكون لكم سبلا وطرقات، أو جعلنا في الجبال ثغرات وفتحات لتتخذوها دروبا ومسالك، وفي المأثور " يا عمر! ما رآك إبليس سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك "، {لعلهم يهتدون} ليهتدوا بها ويستدلوا على كمال القدرة والحكمة، وليعتبروا بها فيستيقنوا بالتوحيد، أو ليهتدوا إلى السير وقضاء المهمات والمصالح.
٣٢ - (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)
{وجعلنا السماء سقفا محفوظا}
{محفوظا} مصونا عن السقوط والهدم والنقص، وعن الشياطين بحرس النجوم والشهب.
صير ربنا الحكيم السماء كالقبة فوق الأرض ومن عليها، وامتن سبحانه علينا بهذه التي تظلنا، ونبه إلى الاعتبار بعظيم خلقها وبالغ إبداعها، فقال جل ثناؤه: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها.) ٤٨ وحفظها أن تقع على الأرض، ورفعها بدون عمد، من آيات ربنا الكبرى، كما أن حراستها بالنجوم والشهب أن تغشاها الشياطين من إتقان صنع رب العالمين {. . فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) ٤٩
{إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب) ٥٠؛ {وهم عن آياتها معرضون} والكفار والفجار عن عجائب صنع الله في السماء، ودلائل وحدانيته وقدرته التي ترى فيها من شمس وقمر وكواكب، هم عن تلك الدلائل مدبرون، وفي نور هدايتها إلى عظمة خالقها لا يتفكرون، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك ٥١.
٣٣ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)
{وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون}

{كل في فلك يسبحون} كل من آيات السماء من الشمس والقمر والنجوم في حيز ومدار يسبحون ويجرون مسرعين.
ومن آيات وعلامات وحدانيته وقدرته، وسلطانه وحكمته، أن خلق الليل والنهار، هذا بظلمته وسكونه، وهذا بضيائه ونمائه، وأوجد الشمس بعظمها وبركة إشعاعها، والقمر بنوره وبهائه، وكل منها مسخر على سنن لا يتجاوزه ولا يقصر عنه {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) ٥٢ كل مخلوق من هذه المخلوقات منطلق بتقدير العزيز العليم إلى مداه الذي ألزمه الله تعالى إياه، لا يستقدم ولا يستأخر، {. . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) ٥٣.
٣٤ - (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)
{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ {٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {٣٥)}.
{الخلد} دوام البقاء في الدنيا.
بعد أن هدت الآيات السابقات إلى العلامات والدلالات الكونية، بينت هاتان الآيتان بعض الحجج الأنفسية، {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد} قضينا أن كل من عليها فان {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ٥٤ ـ نزلت حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته، ويقولون: {شاعر نتربص به ريب المنون) ٥٥ ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك. ٥٦
[{وما جعلنا لبشر} كائنا من كان {من قبلك الخلد} أي الخلود والبقاء في الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية] ٥٧ {أفإن مت فهم الخالدون} أفإن مت أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟! ولهذا جاء بعدها {كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون} نعمركم في هذه الحياة الدنيا إلى أجل مسمى ثم نذيقكم الموت، وقد اختبرتم في حياتكم العاجلة بالشدة والرخاء والعسر واليسر، كما قال سبحانه: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) ٥٨، وقال تبارك اسمه: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. .) ٥٩؛ فيرى كيف الشكر والصبر؛ {وإلينا ترجعون} [نعاملكم معاملة من يختبركم. . {فتنة} أي ابتلاء، فهو مصدر مؤكد لنبلوكم على غير لفظه. . {وإلينا ترجعون} لا إلى غيرنا، لا استقلالا ولا اشتراكا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال] ٦٠؛ وهكذا يموت الأبرار ويموت الفجار، ولكن هل يستويان؟ كلا! هيهات! يقول ربنا تبارك وتعالى: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون. وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) ٦١
٣٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)
{نبلوكم} نختبركم.
{فتنة} ابتلاء وامتحانا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٦ - (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)
{وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ {٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ {٣٧)}
الخطاب هنا كما كان في قول الله سبحانه: {وما جعلنا لبشر من قبلك} للنبي صلى الله عليه وسلم، والمولى الخبير ينبئه بجريمة من جرائمهم فوق ما أجرموه فإذا رأوا النبي ما يتخذونه إلا هزوا وسخرية قائلين تنقيصا واستخفافا أهذا الذي يعيب آلهتكم ويسفه أحلامكم؟! كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لآلهية الرحمن، أو ذكره، وهو كتابه العزيز: القرآن، ومثلها الآية الكريمة الأخرى: {وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا. إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) ٦٢.

٣٧ - (خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ)

{خلق الإنسان من عجل} ركب الإنسان على التسرع، وفي طبعه استعجال الأمور [والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك؛ فقال الله تعالى: {خلق الإنسان من عجل} لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: {سأريكم آياتي}، أي نقمي، وحكمي واقتداري على من عصاني. ٠] ٦٣؛ أما صاحب الجامع لأحكام القرآن فما قاله: والمراد بالآيات: ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة؛ وقيل: ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال. . اه.

والخطاب للكفرة المستعجلين، والمراد بآياته تعالى: نقماته عز وجل، والمراد بإراءتهم إياها: إصابة تعالى إياهم بها. ٠ والنهي عن استعجالهم إياه تعالى بالإتيان بها مع أن نفوسهم جبلت على العجلة، ليمنعوها عما تريده. ٦٤.

٣٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ {٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ {٤٠)}

{الوعد} الموعود، أو، الوعيد والعذاب.

ويقول الكافرون مستهزئين: متى يكون هذا الذي تخوفوننا من بطش الدنيا أو عذاب في الآخرة؟ إن كنتم صادقين في أننا سنبعث يا معشر المؤمنين! وربنا الخبير البصير ينبئنا بحال المنكرين للقيامة فيقول عز من قائل: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. ٠) ٦٥؛ فكأنهم قالوا: إن كنتم صادقين أيها المؤمنون في أن يوم البعث آت فليأتنا بسرعة.

{لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم} أي: لو علم الذين كفروا ماذا سينالهم من العذاب الشديد الذي يشوي أبدانهم ووجوههم وأدبارهم - لو علموا ذلك لما استعجلوا مستهزئين، أو: ظلوا كافرين معاندين؛ {ولا هم ينصرون} مثلما عجزوا عن دفع لهب السعير عن وجوههم وظهورهم فلن يجدوا من يمنعهم من هذا العذاب أو يدفعه عنهم أو يستنقذهم من لظاه.

{بل تأتيهم بغتة} إضراب عن جهالتهم، واستخفافهم وجحودهم، وانتقال إلى تقرير مصيرهم، وأن الساعة ستحل بهم فجأة؛ {فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون} فحين تباغتهم بمجيئها تحيرهم فلا يقدرون على دفعها، ولا يمهلون فلا يؤجلون ولو قليلا عند حلولها؛ وصدق الله العظيم: {قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) ٦٦

٣٩ - (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٠ - (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)

{بغتة}. . فجأة.

{فتبهتهم} فتذعرهم وتحيرهم {ينظرون} يمهلون ويؤخرون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤١ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ {٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ {٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ {٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ {٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ {٤٦)}

{حاق} فأحاط.
تذكير بسنة الله تعالى التي لا تتبدل، أمضاها في الأولين، وتمضي دون تحول إلى يوم الدين، وبشرى لسيدنا رسول الله خاتم النبيين، والداعين بدعوته، القائمين بالحق؛ كما هي وعيد لكل متكبر جبار، جاحد كفار، وكأن الأمر مع قد التي للتحقيق أضيف إليه اللام الموطئة للقسم، ومهما سخر الساخرون من الحق وأهله فإنهم سيخزون في العاجلة ويوم يبعثون؛ {قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن} ذكرهم وعظهم، وأقم عليهم حجة الله البالغة، وقل لهم: من يحرسكم ويحفظكم في يقظتكم ومنامكم، وليلكم ونهاركم من عذاب الله تعالى وبأسه؟، أفأمنتم أن يأتيكم البأس ضحى وأنتم تلعبون؟ أم أمنتم أن تحل بكم نقمة وأنتم نائمون؟!؛ {بل هم عن ذكر ربهم معرضون} عن القرآن كتاب الله أدبروا، وعن مواعظ الله تعالى غفلوا، وعن معرفة المعبود بحق تلهوا - وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى، فيه من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلال والغي ما لا يخفى - ٦٧ {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا} بل ألهم آلهة تمنعهم وتحميهم من عذابنا، فهم يعولون عليها؟! {لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون} وهؤلاء الذين زعموهم آلهة لا يستطيع أحدهم بل ولا يقدرون مجتمعين على نصر أنفسهم وحمايتها والدفع عنها، فكيف ينصرون غيرهم مهما عبدوهم؟! {ولا هم منا يصحبون} لا يصحبهم الله بخير. {بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر} قال ابن عباس: يريد أهل مكة، أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها، وطال أمد تنعمهم فظنوا أنهم لن يحرموها، فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله الكبير المتعال، واتبعوا ما أترفوا فيه، كالذي قال: {. . ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٦٨؛ {أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون} ألا ينظرون، فلا يرون أنا نؤيد المؤمنين فنستخلفهم في الأرض ونمكن لهم، ونورثهم مشارق البلاد ومغاربها؟ أبعد رؤيتهم لما فتحنا به على نبينا والذين آمنوا معه يتوهمون أنهم ستقوم لهم قائمة؟! كلا! -. . تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها - ٦٩
٤٢ - (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)
{يكلؤكم} يحفظكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار
٤٣ - (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار
٤٤ - (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار
٤٥ - (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)
{قل إنما أنذركم بالوحي}
{أنذركم} أحذركم وأخوفكم. {الصم} الذين لا يسمعون.
ذكرهم وأقم عليهم الحجة بأنك لا تحذرهم ولا تنذرهم وتخوفهم سوء العاقبة من عند نفسك وإنما بما يتنزل عليك من تنزيل العليم الخبير القوي القدير، ولكن لا يزدجر بهذا من ختم الله على قلبه وسمعه.
٤٦ - (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)
{ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين}
{نفحة} قدر قليل.
إذا أدركهم طرف وقليل من العذاب، بل وأقل وأدنى شيء منه، ليقرن بالحق حين لا ينفع الإقرار، ويدعون على أنفسهم بالويل والهلاك والدمار، {. . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) ٧٠.

٤٧ - (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)
{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ {٤٧)}
{نضع} نحضر. {القسط} العدل.
{أتينا بها} أحضرناها، أو: أعطيناها وجازينا بها عند من قرأ {آتينا} بالمدة.
من كان يرجو لقاء الله فإنه آت لا ريب فيه {والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) ٧١، إذا جمع الله تعالى الناس ليوم الحساب أحضر الميزان الذي توزن به أعمال العباد {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ٧٢ ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع ٧٣ [وقد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع للتعظيم، كقوله تعالى: {. . رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا. .) ٧٤. . {ليوم القيامة} بمعنى في. . أي: نضع الموازين في يوم القيامة التي كانوا يستعجلونها: وقال غير واحد: هي للتعليل أي: لأجل حساب يوم القيامة، أو: لأجل أهله. .
{فلا تظلم نفس} من النفوس {شيئا} من الظلم فلا ينقص ثوابها الموعود، ولا يزاد عذابها المعهود. . وقال القرطبي: الميزان حق، ولا يكون في حق كل أحد، بدليل الحديث الصحيح، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن. .
الحديث، وأحرى الأنبياء عليهم السلام، وقوله تعالى: {يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) ٧٥، وقوله تعالى: {. . فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ٧٦، وقوله سبحانه: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٧٧. . . حبة الخردل مثل في الصغر. . {وكفى بنا حاسبين} قيل: أي عادين ومحصين أعمالهم. . ولا يخفى أن في الآية إشارة ما إلى أن الحساب المذكور فيها بعد وضع الموازين. .] ٧٨.
٤٨ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ)
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ {٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ {٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ {٥٠)}
{الفرقان} التوراة لأنه فرق بين الحق والباطل، أو النصر على الأعداء.
{ولقد} توكيد وتحقيق قسمي لإظهار كمال الحرص على ترسيخ اليقين بمضمونه، أعطينا كليمنا موسى بن عمران، وأخاه هارون النبوة والتوراة التي فرقت أحكامها بين الحق والباطل، وضياء يبصر بمسالكه السلامة والنجاة، وتذكرة لمن أطاع ربه، واجتنب معصيته، والمراد بالفرقان التوراة، وكذا بالضياء والذكر، والعطف كما في قوله:
إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وعن ابن زيد ورجحه الطبري: الفرقان: الحق آتاه الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق. . اه {وضياء وذكرا للمتقين} التوراة نورت قلوب من صدق في الإيمان بها، وذكرت من اتقى بطاعة الله وأداء فرائضه واجتناب معاصيه، {وذكرا للمتقين} أي شرفا وموعظة، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ٧٩.
٤٩ - (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)
{الذين يخشون ربهم بالغيب}
{بالغيب} أي غائبين عن رؤية الله جل علاه، أو غائبين عن أعين الناس.
{مشفقون} خائفون.
وصف الله تعالى المتقين بأنهم يخشون ربهم، ويتهيبون مقامه، ويحذرون غضبه وعذابه حال كونهم غائبين عن أعين الناس، أو يعظمون مولاهم سبحانه ويخشون أن يراهم على صفة لا يرضاها، مع أنهم لا يرونه جل علاه، وكيف لا؟! وهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، {وهم من الساعة مشفقون} خائفون وجلون مما يكون يوم النبأ العظيم، ويوم الفزع الأكبر، [حذرون أن تقوم عليهم فيردوا على ربهم قد فرطوا. .] ٨٠.

٥٠ - (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)
{وهذا ذكر مبارك أنزلناه}
{ذكر} يتذكر به أصحاب العقول.
{مبارك} كثير الخير.
وهذا كتاب العزيز شرف وموعظة، وأفضل ما تذكرون به ربكم، وكثيرة خيراته التي منها الهداية والموعظة، والشفاء والرحمة والنور والروح. وثواب قارئه وسامعه، فإن الله تعالى يأجر على الحرف الواحد بعشر حسنات، وبحسبه أنه تنزيل الحكيم الحميد؛ {أفأنتم له منكرون} أي أنتم دون سائر الناس مع علمكم بفصاحته وإعجازه تخصونه بالإنكار؟!.
٥١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)
{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ {٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ {٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ {٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {٥٤} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ {٥٥} قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {٥٦}}.
{آتينا} أعطينا. {رشده} هدايته وحجته.
توكيد وتحقيق قسمي أن المولى منّ على خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام فأعطاه الهداية الراشدة، والحجة البالغة من قبل أن يمنح النبوة والخلة، أو من قبل بعثه موسى وهارون؛ {وكنا به عالمين} ربنا أعلم حيث يجعل رسالته، فهو يصطفي من الناس رسله الذين يفضلهم على العالمين؛ {إذ قال لأبيه وقومه} أي اذكر إذ قال لقومه مبتدئا بأبيه، مستفهما بقصد الإنكار عليهم، والتحقير لمعبودات صوّروها، ثم عظموها ولازموها، ما هذه الأصنام التي جعلتم صورها على مثل وشبه مخلوقات، ثم ضللتم فقدستموها؟! {قال وجدنا آباءنا لها عابدين} لم يكن لهم حجة في عبادتها إلا تقليد الآباء في جهالتهم، وإفكهم وغوايتهم؛ {قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين} قال فتحققوا أنكم ومن قلدتموهم من آبائكم في بعد عن الحق، وجور عن القصد، وذهاب عن سبيل الرشد، إذ عبدتم أحجارا وأوثانا لا تعقل
٥٢ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)
{عاكفون} مقيمون على عبادتها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥١ إظهار
٥٣ - (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥١ إظهار
٥٤ - (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)
{ضلال} حيرة وخسران.
٥٥ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)
{قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين}
أأنت محق يا إبراهيم فيما تدعونا إليه أم أنت هازل لاعب؟! {قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين} لما أبطل إبراهيم عليه السلام بالبرهان ما عكف عليه القوم من عبادة الأصنام والأوثان، انتقل إلى إحقاق الحق، والنداء على دعوة الصدق، وساق الحجة والسلطان على أن الولي المستحق للعبادة هو الخالق المنعم المنان؛ فأضرب عن تساؤلهم أجاد هو أم هازل، وأنبأهم أن ربهم رب العالمين هو مبدع السماوات والأرضين، ومنشئهما على غير مثال سبق، وإني على يقين وتحقيق من أن هذا هو الحق المبين.
{إن أبانا إبراهيم عليه السلام كان أمة، وداعيا إلى الله قوي الحجة، فقد أتاهم بالبرهان على زيف عبادة الأوثان، ثم فصل من آيات ودلائل إتقان الصنعة ما يشهد بحكمة الصانع جل علاه: {إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل

يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بلى وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ويحيين. والذي أطمع أن يغفر لي. خطيئتي يوم الدين) ٨١.

٥٦ - (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

{قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين}

أأنت محق يا إبراهيم فيما تدعونا إليه أم أنت هازل لاعب؟! {قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين} لما أبطل إبراهيم عليه السلام بالبرهان ما عكف عليه القوم من عبادة الأصنام والأوثان، انتقل إلى إحقاق الحق، والنداء على دعوة الصدق، وساق الحجة والسلطان على أن الولي المستحق للعبادة هو الخالق المنعم المنان، فأضرب عن تساؤلهم أجاد هو أم هازل، وأنبأهم أن ربهم رب العالمين هو مبدع السماوات والأرضين، ومنشئهما على غير مثال سبق، وإني على يقين وتحقيق من أن هذا هو الحق المبين.

{إن أبانا إبراهيم عليه السلام كان أمة، وداعيا إلى الله قوي الحجة، فقد أتاهم بالبرهان على زيف عبادة الأوثان، ثم فصل من آيات ودلائل إتقان الصنعة ما يشهد بحكمة الصانع جل علاه: {إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بلى وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ويحيين. والذي أطمع أن يغفر لي. خطيئتي يوم الدين) ٨٢.

٥٧ - (وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)

{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)}.

{لأكيدن} لأجتهدن، ولأدبرن ما أحقق به مطلبي.

{تالله} حلف بالله سبحانه. {تولوا مدبرين} تنطلقوا ذاهبين.

بعد البرهان المبين الذي بينه إبراهيم عليه الصلوات والتسليم، وبعد أن جاهد قومه بالحجة والسلطان، توجه إلى جهادهم بالقوة وتحطيم الأوثان، فحلف بالله تعالى ليدبرن ما يغيظ عبدة الأصنام، وليجتهدن في إنفاذ ذلك حين يتفرق عنها عبدتها؛ أورد ابن جرير عن مجاهد في معنى قول الله جل ثناؤه: {وتالله لأكيدن أصنامكم} قول إبراهيم حين استتبعه قومه إلى عيد لهم فأبى، وقال: إني سقيم؛ فسمع منه وعيد أصنامهم رجل منهم استأخر، وهو الذي يقول: {سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم}.

وقال ابن إسحاق: عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم؛ وقد كان بالأمس قال: {وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين} فسمعه ناس منهم. اهـ.

ونقل الطبري عن السدي أن إبراهيم قال له أبوه: يا إبراهيم إن لنا عيدا لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال إني سقيم، يقول أشتكي رجلي. . . فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفي الناس: وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين: فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا هن في بهو عظيم، مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض. . . وإذا هم جعلوا طعاما فوضعوه بين يدي الآلهة قالوا: إذ كنا حين نرجع رجعنا وقد بركت الآلهة في طعامنا فأكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ألا

تأكلون؟! فلما لم تجبه قال: مالكم لا تنطقون؟! فراغ عليهم ضربا باليمين، فأخذ فأس حديد فنقر كل صنم في حافتيه ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر، ثم خرج فلما جاء القوم إلى طعامهم نظروا إلى آلهتهم {قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} وروى الكلبي أن إبراهيم كان من أهل بيت ينظرون في النجوم، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضا، فلما همّ إبراهيم بالذي همّ به من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء، فقال لأصحابه: إني أراني أشتكي غدا؛ فذلك قوله: {فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم) ٨٣؛ وأصبح من الغد معصوبا رأسه، فخرج القوم لعيدهم. . فقال. .: أما والله لأكيدن أصنامكم؛ فسمعه رجل واحد، وأخبر به غيره وانتشر الخبر. {فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون} كسر إبراهيم عليه السلام أصنام القوم وحطمها، وتركها قطعا، لكن ترك كبير الأوثان حجما، أو أكثرها تقديسا عند عابديها، لم يفتت الصنم الأكبر بل علق الفأس بعنقه، أو وضع القدوم بيده؛ لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها؛ أو: لعلهم إلى دعوة إبراهيم وسبيله يرجعون حين يرون أن أصنامهم لم تدفع عن نفسها ضرا فهي أن تدفع عن غيرها من أراده بسوء أعجز، فيرجعوا عما هم عليه من عبادتها؛ عن قتادة: كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون. اهـ

٥٨ - (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

{جذاذا} قطعا، وفتاتا وحطاما.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٧ إظهار

٥٩ - (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قال القوم حين رجعوا إلى طعامهم الذي كانوا تركوه عند أصنامهم، وأبصروا ما حل بأوثانهم قالوا: إن الذي فعل هذا بآلهتنا لم يكن له أن يفعل بها ذلك، ولقد تجاوز حده إذ صنع بها ما صنع، فقد حطمها واستخف بها! واستهان بأقدارها بدلا من تعظيمها! فقال بعض منهم: كان الفتى إبراهيم يتوعد آلهتنا بسوء، أو كان يعيبها فهو الذي يظن به أن يكون قد كسرها.

{قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال كبراؤهم فأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ومرأى ليحضروا عقوبتنا، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه؛ أو لعل قوما يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام؛ قال قتادة: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ٨٤ اهـ.

{قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} كأن في الكلام حذفا، تقديره: فلما أتوا به قالوا؛ لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموا هل فعل أم لا؟. . فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: {بل فعله كبيرهم هذا}. . . . . وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. . . لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله. . . . لكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة: " إنما اتخذت خليلا من وراء وراء ". . على البناء كخمسة عشر ٨٥.

[وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: {. . . أيتها العير إنكم لسارقون) ٨٦؛ ولم يكونوا سرقوا شيئا].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ٨٧ قوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقوله {إني سقيم} قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ

فذكر مثل المرتين الأوليين فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت لما حس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم أي ما الخبر وماذا حدث لك؟! قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر ".

٦٠ - (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]

{يذكرهم} يعيبهم ويسبهم، أو: يحلف ليكيدنهم. {فتى} شابا.

{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قال القوم حين رجعوا إلى طعامهم الذي كانوا تركوه عند أصنامهم، وأبصروا ما حل بأوثانهم قالوا: إن الذي فعل هذا بآلهتنا لم يكن له أن يفعل بها ذلك، ولقد تجاوز حده إذ صنع بها ما صنع، فقد حطمها واستخف بها! واستهان بأقدارها بدلا من تعظيمها! فقال بعض منهم: كان الفتى إبراهيم يتوعد آلهتنا بسوء، أو كان يعيبها فهو الذي يظن به أن يكون قد كسرها.

{قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال كبراؤهم فأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ومرأى ليحضروا عقوبتنا، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه؛ أو لعل قوما يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام؛ قال قتادة: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ٨٨ اهـ.

{قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} كأن في الكلام حذفا، تقديره: فلما أتوا به قالوا؛ لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموا هل فعل أم لا؟. . فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: {بل فعله كبيرهم هذا}. . . . . وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. . . لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله. . . . لكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة: " إنما اتخذت خليلا من وراء وراء ". . على البناء كخمسة عشر ٨٩.

[وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: {. . . أيتها العير إنكم لسارقون) ٩٠؛ ولم يكونوا سرقوا شيئا].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ٩١ قوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقوله {إني سقيم} قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت لما حس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم أي ما الخبر وماذا حدث لك؟! قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر ".

٦١ - (قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]

{أعين الناس} رءوس الأشهاد، وحضرة الناس ومحفلهم.

{يشهدون} يشاهدون ويبصرون، أو يحققون، أو يقرون عليه بما فعل.

{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قال القوم حين رجعوا إلى طعامهم الذي كانوا

تركوه عند أصنامهم، وأبصروا ما حل بأوثانهم قالوا: إن الذي فعل هذا بآلهتنا لم يكن له أن يفعل بها ذلك، ولقد تجاوز حده إذ صنع بها ما صنع، فقد حطمها واستخف بها! واستهان بأقدارها بدلا من تعظيمها! فقال بعض منهم: كان الفتى إبراهيم يتوعد آلهتنا بسوء، أو كان يعيبها فهو الذي يظن به أن يكون قد كسرها.

{قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال كبراؤهم فأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ومرأى ليحضروا عقوبتنا، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه؛ أو لعل قوما يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام؛ قال قتادة: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ٩٢ اه.

{قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} كأن في الكلام حذفا، تقديره: فلما أتوا به قالوا؛ لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموا هل فعل أم لا؟. . فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: {بل فعله كبيرهم هذا}. . . . . وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. . . لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله. . . . لكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة: " إنما اتخذت خليلا من وراء وراء ". . على البناء كخمسة عشر ٩٣.

[وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: {. . . أيتها العير إنكم لسارقون) ٩٤؛ ولم يكونوا سرقوا شيئا].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ٩٥ قوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقوله {إني سقيم} قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت لما حس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم أي ما الخبر وماذا حدث لك؟! قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر ".

٦٢ - (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]

{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قال القوم حين رجعوا إلى طعامهم الذي كانوا تركوه عند أصنامهم، وأبصروا ما حل بأوثانهم قالوا: إن الذي فعل هذا بآلهتنا لم يكن له أن يفعل بها ذلك، ولقد تجاوز حده إذ صنع بها ما صنع، فقد حطمها واستخف بها! واستهان بأقدارها بدلا من تعظيمها! فقال بعض منهم: كان الفتى إبراهيم يتوعد آلهتنا بسوء، أو كان يعيبها فهو الذي يظن به أن يكون قد كسرها.

{قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال كبراؤهم فأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ومرأى ليحضروا عقوبتنا، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه؛ أو لعل قوما يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام؛ قال قتادة: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ٩٦ اه.

{قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} كأن في الكلام حذفا، تقديره: فلما أتوا به قالوا؛ لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموا هل فعل أم لا؟. . فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: {بل فعله كبيرهم هذا}. . . . . وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. . . لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله. . . . لكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما

كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة: " إنما اتخذت خليلا من وراء وراء ". . على البناء كخمسة عشر ٩٧.
[وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: {. . . أيتها العير إنكم لسارقون) ٩٨، ولم يكونوا سرقوا شيئا].
وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ٩٩ قوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقوله {إني سقيم} قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت لما حس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم أي ما الخبر وماذا حدث لك؟! قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر ".
٦٣ - (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]
{قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} قال القوم حين رجعوا إلى طعامهم الذي كانوا تركوه عند أصنامهم، وأبصروا ما حل بأوثانهم قالوا: إن الذي فعل هذا بآلهتنا لم يكن له أن يفعل بها ذلك، ولقد تجاوز حده إذ صنع بها ما صنع، فقد حطمها واستخف بها! واستهان بأقدارها بدلا من تعظيمها! فقال بعض منهم: كان الفتى إبراهيم يتوعد آلهتنا بسوء، أو كان يعيبها فهو الذي يظن به أن يكون قد كسرها.
{قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون} قال كبراؤهم فأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ومرأى ليحضروا عقوبتنا، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه، أو لعل قوما يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام، قال قتادة: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ١٠٠ اهـ.
{قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} كأن في الكلام حذفا، تقديره: فلما أتوا به قالوا، لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموا هل فعل أم لا؟. . فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: {بل فعله كبيرهم هذا}. . . . . وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. . . لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة، فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله. . . . لكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة: " إنما اتخذت خليلا من وراء وراء ". . على البناء كخمسة عشر ١٠١.
[وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: {. . . أيتها العير إنكم لسارقون) ١٠٢، ولم يكونوا سرقوا شيئا].
وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ١٠٣ قوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقوله {إني سقيم} قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك

الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال: ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت لما حس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم أي ما الخبر وماذا حدث لك؟! قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر ".

٦٤ - (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

{فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ {٦٤} ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ {٦٥} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ {٦٦} أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٦٧} قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ {٦٩} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ {٧٠}}.

{فرجعوا إلى أنفسهم} رجعوا على أنفسهم بالملامة.

{فقالوا} قال بعضهم لبعض.

فلما سمع القوم ما قال إبراهيم رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، ورجعوا إلى عقولهم، ونظر بعضهم إلى بعض فقالوا إنكم معشر القوم لمتجاوزون الحد - بعبادة ما لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه ويرد عنهم البأس، من لا يرد عن رأسه الفأس - ١٠٤ {ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون}؛ [والمراد أنهم استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة. . ثم انقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة. .] ١٠٥، قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون؛ ورجح الطبري ما حاصله: نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم، وإذ كان ذلك كذلك فنكس الحجة لا شك إنما هو احتجاج على خصمه بما هو حجة الخصم. اهـ.

ثم زاد إبراهيم في زجرهم فقال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم أي نفع، وإذ كانت لا تنطق ولا تنفع فلم تعبدونها؟! وكأن في الكلام حذفا تقديره: أتعلمون ذلك فتعبدون متجاوزين عبادته تعالى،، وتضجر عليه السلام من إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق؛ قال الراغب: وأصل {أف} صوت المتضجر من استقذار شيء؛ ثم صار اسم فعل بمعنى أتضجر، واللام لبيان المتأفف له، {أفلا تعقلون} ألا تتفكرون فلا تعقلون سفه ما أنتم عليه من تأليه أحجار وأوثان؟!. {قال حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين} قال بعضهم لبعض لما بهتوا ودحضت فريتهم: حرقوا إبراهيم انتقاما لآلهتكم! وجاء في آيات أخر: {قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم) ١٠٦. - لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم، وانصرفوا إلى الغشم والغلبة. . . . . وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، قال: ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل فاسأل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: {يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم}. . جعل الله فيها بردا يرفع حرها، وحرا يرفع بردها، فصارت سلاما عليه. . - ١٠٧؛ {وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين} تنوين {كيدا} قد يراد به التعظيم، فكأن المعنى: أراد الوثنيون قوم إبراهيم بإبراهيم عليه السلام مكرا عظيما، وأن يقتلوه قتلا أليما بتحريقه في نار أججوها فكر الله تعالى بهم، ورد كيدهم إلى نحورهم، وأبدل نبيه دارا خيرا من دارهم

٦٥ - (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

{نكسوا على رءوسهم} عادوا إلى جهلهم وعنادهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار

٦٦ - (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار

٦٧ - (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{أف لكم} النتن لكم، وتضجرا لحالكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار
٦٨ - (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار
٦٩ - (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)
{بردا وسلاما}. {كيدا} مكرا، وإضرارا، وغلبا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار
٧٠ - (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ)
{الأخسرين} الأخسر من كل خاسر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٤ إظهار
٧١ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)
{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ {٧١} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ {٧٢} وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ {٧٣} وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ {٧٤} وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {٧٥}}.
فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام، وهذه القصة التي قص الله من نبأ إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد صلى الله عليه وسلم من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها ودعائهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين مسلك أعداء أبيهم إبراهيم ومخالفتهم دينه، وأن محمدا في براءته من عبادتها وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقى منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مخرجه من بين أظهرهم كما خرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم إلى مهاجره من أرض الشام، ومسل بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عما يلقى من قومه من المكروه والأذى، ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفرة قومه ١٠٨، ونجى الله تعالى مع إبراهيم ابن أخيه لوطا؛ {باركنا فيها} أي كثرت خيراتها، ففيها الخصب وسعة الرزق، بل وأبرك من ذلك أن أكثر الأنبياء بعثوا فيها.
٧٢ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)
{ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة}
{نافلة} زيادة.
وزدنا في عطاء إبراهيم فرزقناه بابن كريم هو إسحاق، وابن ابن هو يعقوب؛ {وكلا جعلنا صالحين} كلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلنا عاملين بطاعتنا، مجتنبين محارمنا، فجميعهم أهل خير وصلاح؛ {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} جعلناهم أسوة يقتدي الناس بهم، ويهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق، والدعوة إلى الحق؛ {أوحينا إليهم فعل الخيرات} وأوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات والطاعات {وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة} وكذا أوحينا إليهم أن يقيموا الصلاة ففيها تعظيم أمر الله، وأن يؤتوا الزكاة فهي أصل الشفقة على خلق الله؛ {كانوا لنا عابدين} [فيه أنه سبحانه لما وفى بعهد الربوبية فآتاهم النبوة والدرجات العالية، فهم أيضا وفوا بعهد العبودية فلم يغفلوا عنها طرفة عين] ١٠٩، ولا خلاف في أن الهادي إذا كان مهتديا بنفسه كان الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء به أميل
٧٣ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٢ إظهار

٧٤ - (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

{ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث}

{حكما} حكمة، ونبوة.

{الخبائث} إتيان الذكور. {فاسقين} خارجين عن الطاعة.

منّ الله تعالى على لوط عليه السلام وأعطاه النبوة والعلم، ونجاة من القرية التي أهلكها وقلبها ودمر أهلها وأمطر عليها حجارة محماة لأنهم كانوا يأتون الذكران، ويركبون في ناديهم المنكر، فخرجوا بفواحشهم عن طاعة الله، وفسقوا عن أمره، إنهم كانوا يعملون أسوأ السوء، ويستحدثون من الخنا والخبث ما لم يسبقهم إليه أحد.

٧٥ - (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

{وأدخلناه في رحمتنا} وأدخلنا لوطا في زمرة من اصطفينا من رسلنا، وجعلناه في جملة أهل رحمتنا فالظرفية مجازية، أو في جنتنا، فالظرفية حقيقية، والرحمة مجاز كما في حديث الصحيحين: قال الله عز وجل للجنة: " أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي " ١١٠، {إنه من الصالحين} إن لوطا كان من الذين يطيعون الله ولا يعصونه.

٧٦ - (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٧٧)}.

كما نجى الله تعالى إبراهيم ولوطا من عتو المشركين، وكيد الوثنيين، نجى رسوله نوحا عليه السلام من مكر الأعداء الكافرين، ونجى معه أهل الإيمان المستضعفين، واستجاب دعاء نبيه وضراعته لربنا القوي المتين، وشفى صدور الموحدين، وطهر الأرض بإغراق كافة الضالين المضلين؛ وفي هذا بشرى لأهل الحق الصادقين بأن الله مؤيدهم على الباغين المفسدين، {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر) ١١١؛ {وأهله} أهل دينه وملته؛ {من الكرب العظيم} من الشدة والأذى والتكذيب، فقد لبث قومه ألف سنة إلا خمسين، فما آمن معه إلا قليل، سخر منهم الملأ من قومهم، وقالوا لنبيهم {. . ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبع إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي. .) ١١٢، وقالوا: {. . لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) ١١٣، وقالوا: {إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) ١١٤، {أجمعين} أهلكهم بعامة، ولم يترك على وجه الأرض أحدا منهم، استجابة لدعوة أول أولي العزم من الرسل نوح عليه السلام {. . رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ١١٥

٧٧ - (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٦]

{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٧٧)}.

كما نجى الله تعالى إبراهيم ولوطا من عتو المشركين، وكيد الوثنيين، نجى رسوله نوحا عليه السلام من مكر الأعداء الكافرين، ونجى معه أهل الإيمان المستضعفين، واستجاب دعاء نبيه وضراعته لربنا القوي المتين، وشفى صدور الموحدين، وطهر الأرض بإغراق كافة الضالين المضلين؛ وفي هذا بشرى لأهل الحق الصادقين بأن الله مؤيدهم على الباغين المفسدين، {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد

قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر) ١١٦؛ {وأهله} أهل دينه وملته، {من الكرب العظيم} من الشدة والأذى والتكذيب، فقد لبث قومه ألف سنة إلا خمسين، فما آمن معه إلا قليل، سخر منهم الملأ من قومهم، وقالوا لنبيهم {. . ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبع إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي. .) ١١٧، وقالوا: {. . لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) ١١٨، وقالوا: {إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) ١١٩، {أجمعين} أهلكهم بعامة، ولم يترك على وجه الأرض أحدا منهم، استجابة لدعوة أول أولي العزم من الرسل نوح عليه السلام {. . رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ١٢٠

٧٨ - (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

{وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ {٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ {٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ {٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ {٨٢)}

{الحرث} الزرع. {نفشت} رعت ليلا.

واذكر داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ إذ يحكمان في قضية الزرع التي رفعت إلى داود عليه السلام أولا فحكم فيها، فلما علم ابنه سليمان عليه السلام بقضائه فيها دخل إلى مجلس أبيه فاقترح عليه أن يعدل الحكم على نحو آخر، فقضى بما قضى به سليمان، يقول اللغويون: جائز أن يكون {داود وسليمان}، في موضع المفعول لفعل مضمر وبتقدير مضاف، أي: واذكر نبأ داود وسليمان، و {إذ يحكمان} ظرف لذلك المقدر، المراد: إذ حكما، إلا أن جيء بصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها.

روى ابن جرير ـ بسنده ـ عن ابن عباس: رجلان دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي فلم يبقي من حرثي شيئا، فقال داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومر صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود، فقال: يا نبي الله! إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كل عام، فقال داود: قد أصبت، القضاء كما قضيت، ففهمها الله سليمان، وروى عن قتادة: النفش بالليل، والهمل بالنهار، وذكر لنا أن غنم القوم وقعت في زرع ليلا، فرفع ذلك إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الزرع، فقال سليمان: ليس كذلك، ولكن نسلها ورسلها ـ لبنها ـ وعوارضها وجزازها، حتى إذا كان من العام المقبل كهيئته يوم أكل، دفعت الغنم إلى ربها ـ صاحبها ـ وقبض صاحب الزرع زرعه، فقال الله: {ففهمناها سليمان}.

أما ابن زيد فقد نقل عنه: انفلتت غنم رجل على حرث رجل فأكلته، فجاء إلى داود فقضى فيها بالغنم لصاحب الحرث بما أكلت، وكأنه رأى أنه وجه ذلك، فمروا بسليمان، فقال: ما قضى بينكم نبي الله؟ فأخبروه، فقال: ألا أقضي بينكما عسى أن ترضيا به؟! فقالا نعم، فقال: أما أنت يا صاحب الحرث فخذ غنم هذا الرجل، فكن فيها كما كان صاحبها، أصب من لبنها وعارضتها وكذا وكذا ما كان يصيب، واحرث أنت يا صاحب الغنم حرث هذا الرجل، حتى إذا كان حرثه مثله نفشت فيه غنمك فأعطه حرثه وخذ غنمك، فذلك قول الله تبارك وتعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم} وقرأ حتى بلغ قوله: {وكلا آتينا حكما وعلما} ـ لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا قد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت، فأجابه الوليد: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما}. . . قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده،

روى مسلم وغيره عن عمروا ابن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر ". . . وإنما معنى الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ. .) ١٢١. . . . . فإذا فرط صاحب الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها على الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك. . . قال أصبغ في المدينة: ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد ١٢٢؛فركب العلماء على أن هذه البقعة لا يخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تحتاج، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا، وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب حرثه فيها حفظه ولا شيء على أرباب المواشي.

ومع أن سليمان عليه السلام كان أقضى من أبيه داود - سلام الله عليه - فإن المولى سبحانه قد أعطى كلا من داود وسليمان نبوة وعلما، وقضاء وحكما، {وسخرنا مع داود الجبال يسبحن} ذلل الله تعالى الجبال، وأقدرها - جل وتقدس - بقدرته على التسبيح تجاوب نبيه داود في تسبيحه، كما أنطق الطير بهذا التقديس والتنزيه، وهكذا كان أمره إليهما، {. . يا جبال أوبي معه والطير. .) ١٢٣؛ {وكنا فاعلين} - وذلك فعل الله تعالى بها، ذلك لأن الجبال لا تعقل، فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين - ١٢٤

٧٩ - (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

{ففهمناها} علمناها. {سخرنا} ذللنا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٨ إظهار

٨٠ - (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

{وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم}

{صنعة لبوس} صناعة السلاح وعدة الحرب. {لتحصنهم} لتحرزكم وتقيكم. {بأسكم} حربكم.

وعلمنا داود صنعة السلاح لكم، لتقيكم مكن حربكم مع عدوكم إذ لاقيتموه ودافعتموه، {فهل أنتم شاكرون} تذكير بأثر تلك النعمة، نعمة العلم بصنعة السلاح، وحض على الثناء على المنعم بها وبسائر النعم تبارك وتقدس.

٨١ - (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)

{ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها}

{عاصفة} شديد الهبوب.

ومثلما أنطقنا الجبال والطير بالتسبيح مع داود {. . وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا. .) ١٢٥، وسخرنا لسليمان الريح {. . تجري بأمره رخاء حيث أصاب) ١٢٦، وتسرع في هبوبها وتشتد حتى تعصف حين يبتغيها مسرعة، فهي لينة، وحينا لينة وحينا مسرعة حسبما يأمرها ١٢٧ عبدنا ونبينا سليمان، فقد ذللناها له وطوّعناها؛ يقول الله جل ثناؤه: {ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر. .) ١٢٨ والأرض المباركة: أرض الشام؛ تجري به الريح وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم ترده إلى الشام، {وكنا بكل شيء عالمين} أحاط علمنا بكل شيء، فأوجدناه على علم، ودبرناه بحكمة، وسخرناه باقتدار.

٨٢ - (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)

{ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين}

{يغوصون} ينزلون تحت الماء.

وسخرنا له من الجن من يغوصون تحت الماء، ويستخرجون له من البحر الجواهر وما يريد؛ ولهم أعمال سوى الغوص بينتها مفصلة آية كريمة، {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. .) ١٢٩، وإنا لحافظون لهم من أن يفسدوا أعمالهم، أو يخرجوا عم أمره عليه السلام؛ وهكذا سخر الله تعالى لداود فيما سخر أكثف الأشياء وانقادت له وذلت: الجبال والحديد؛ وسخر لسليمان ألطف الأشياء الريح رقت وعصفت؛ فسبحان الذي لا يخرج عن قبضته شيء.

٨٣ - (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)
{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ {٨٤)}
أيوب عليه السلام رسول من رسل الله إلى بني إسرائيل ابتلاه الله تعالى بشيء من الضر، فصبر على البلاء، ثم توجه إلى الله تعالى بالضراعة والدعاء، وأثنى على ربنا بأنه البر الذي يجزل العطاء ويكشف الضراء، فاستجاب الولي القريب جل ثناؤه لنبيه أيوب فأذهب عنه الضر، وأفاض عليه الخير، وأخلف له أعظم مما فاته، وأعطاه ضعف ما كان فيه من قبل الضر الذي مسه، عطاء من لدن الرحمن الرحيم، مع ما ادخره من أجر جزيل وثواب جميل {. . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ١٣٠، فعظم الأجر على قدر جميل الصبر، {وذكرى للعابدين} وتذكيرا للعباد، بسبيل الرشاد، وبشرى بأن الفرج يأتي بعد الكرب، وبعد العسر يجيء اليسر {. . سيجعل الله بعد عسر يسرا) ١٣١
{وأيوب إذ نادى ربه} كأن التقدير: واذكر نبأ نبينا أيوب حين دعا مولاه، كما جاء في آية كريمة: {واذكر عبدنا أيوب. .) ١٣٢، ولقد أورد المفسرون كلاما طويلا ١٣٣ في سبب بلائه، وبماذا ابتلي، وكم سنة قضاها مبتلى، لكن جانبا مما نقلوه لا يتناسب وعصمة الأنبياء، وكرامتهم على الله عز ثناؤه، بل لا يتوافق وما جاء صريحا في كتاب الله ثناء على النبي العظيم: {. . إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) ١٣٤، فلا ندع هدى الذكر الحكيم إلى قول ما نزل به من سلطان وما لهم به من علم.
٨٤ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٣]
{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ {٨٤)}
أيوب عليه السلام رسول من رسل الله إلى بني إسرائيل ابتلاه الله تعالى بشيء من الضر، فصبر على البلاء، ثم توجه إلى الله تعالى بالضراعة والدعاء، وأثنى على ربنا بأنه البر الذي يجزل العطاء ويكشف الضراء، فاستجاب الولي القريب جل ثناؤه لنبيه أيوب فأذهب عنه الضر، وأفاض عليه الخير، وأخلف له أعظم مما فاته، وأعطاه ضعف ما كان فيه من قبل الضر الذي مسه، عطاء من لدن الرحمن الرحيم، مع ما ادخره من أجر جزيل وثواب جميل {. . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ١٣٥، فعظم الأجر على قدر جميل الصبر، {وذكرى للعابدين} وتذكيرا للعباد، بسبيل الرشاد، وبشرى بأن الفرج يأتي بعد الكرب، وبعد العسر يجيء اليسر {. . سيجعل الله بعد عسر يسرا) ١٣٦
{وأيوب إذ نادى ربه} كأن التقدير: واذكر نبأ نبينا أيوب حين دعا مولاه، كما جاء في آية كريمة: {واذكر عبدنا أيوب. .) ١٣٧، ولقد أورد المفسرون كلاما طويلا ١٣٨ في سبب بلائه، وبماذا ابتلي، وكم سنة قضاها مبتلى، لكن جانبا مما نقلوه لا يتناسب وعصمة الأنبياء، وكرامتهم على الله عز ثناؤه، بل لا يتوافق وما جاء صريحا في كتاب الله ثناء على النبي العظيم: {. . إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) ١٣٩، فلا ندع هدى الذكر الحكيم إلى قول ما نزل به من سلطان وما لهم به من علم.
٨٥ - (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ)
{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ {٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ {٨٦)}
لما ذكرت الآيات السابقات نبأ نبيين ملكين شاكرين، ونبأ نبي أنعم به صابرا على البلاء، بينت هاتان الآيتان فضل ثلاثة من الأخيار الأبرار: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإدريس، والثالث ذي الكفل عليهم السلام، وظاهر نظم ذو الكفل في سلك الأنبياء عليهم السلام أنه منهم، وهو الذي ذهب إليه الأكثر. . . . {كل} أي كل واحد من هؤلاء {من الصابرين} أي: على مشاق التكاليف،

وشدائد النوب،. . . {إنهم من الصالحين} أي الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب ١٤٠
٨٦ - (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٥]
{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ {٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ {٨٦)}
لما ذكرت الآيات السابقات نبأ نبيين ملكين شاكرين، ونبأ نبي أنعم به صابرا على البلاء، بينت هاتان الآيتان فضل ثلاثة من الأخيار الأبرار: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإدريس، والثالث ذي الكفل عليهم السلام، وظاهر نظم ذو الكفل في سلك الأنبياء عليهم السلام أنه منهم، وهو الذي ذهب إليه الأكثر. . . . {كل} أي كل واحد من هؤلاء {من الصابرين} أي: على مشاق التكاليف، وشدائد النوب،. . . {إنهم من الصالحين} أي الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب ١٤١
٨٧ - (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)
{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ {٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ {٨٨)}.
واذكر صاحب الحوت يونس عليه السلام، و {النون} الحوت، {إذ ذهب مغاضبا} هاجر حال كونه غضبان على قومه، إذ دعاهم إلى دين الحق فلم يستجيبوا والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصي لكنه ربما يكون خالف الأولى إذ لم يصابر، ولعل هذا مما يشير إليه قول الحق سبحانه مخاطبا خاتم النبيين {. . ولا تكن كصاحب الحوت. .) ١٤٢، وجاء في سورة كريمة أخرى بيان ما أصابه بعد ركوب السفينة: {فالتقمه الحوت ١٤٣ وهو مليم) ١٤٤ والمليم: من فعل ما يلام عليه، {فظن أن لن نقدر عليه} كان مطمئنا إلى أنا لن نضيق عليه، قال الحسن: وهو من قوله تعالى: {الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره. .) ١٤٥ أي يضيق، وقوله: {. . ومن قدر عليه رزقه. .) ١٤٦ أي: ضيق، {فنادى في الظلمات} ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، {أن لا إله إلا أنت. . . {سبحانك}. . أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شيء. . {إني كنت من الظالمين} لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت بالمهاجرة من غير أمر. . . {فاستجبنا له} أي دعاءه الذي دعاه ضمن الاعتراف وإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه. . ١٤٧ ١٤٨، {وكذلك ننجي المؤمنين} [أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم، وذلك قوله: {فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) ١٤٩، وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس، رعى له حتى تعبده، وحفظ ذمام ما سلف له من الطاعة، وقال الأستاذ أبو إسحاق: صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة! يبطل هذا عنده! لا يظن به ذلك] ١٥٠.
٨٨ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٧]
{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ {٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ {٨٨)}.
واذكر صاحب الحوت يونس عليه السلام، و {النون} الحوت، {إذ ذهب مغاضبا} هاجر حال كونه غضبان على قومه، إذ دعاهم إلى دين الحق فلم يستجيبوا والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصي لكنه ربما يكون خالف الأولى إذ لم يصابر، ولعل هذا مما يشير إليه قول الحق سبحانه مخاطبا خاتم النبيين {. . ولا تكن كصاحب الحوت. .) ١٥١، وجاء في سورة كريمة أخرى بيان ما أصابه بعد ركوب السفينة: {فالتقمه الحوت ١٥٢ وهو مليم) ١٥٣ والمليم: من فعل ما يلام عليه، {فظن أن لن نقدر عليه} كان مطمئنا إلى أنا لن نضيق عليه، قال الحسن: وهو من قوله تعالى: {الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره. .) ١٥٤ أي يضيق، وقوله: {. . ومن قدر عليه رزقه. .) ١٥٥ أي: ضيق، {فنادى في الظلمات} ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، {أن لا إله إلا أنت. .

. {سبحانك}. . أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شيء. . {إني كنت من الظالمين} لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت بالمهاجرة من غير أمر. . . {فاستجبنا له} أي دعاءه الذي دعاه ضمن الاعتراف وإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه. . ١٥٦ ١٥٧؛ {وكذلك ننجي المؤمنين} [أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم، وذلك قوله: {فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) ١٥٨؛ وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس، رعى له حتى تعبده، وحفظ ذمام ما سلف له من الطاعة؛ وقال الأستاذ أبو إسحاق: صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة! يبطل هذا عنده! لا يظن به ذلك] ١٥٩.

٨٩ - (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ {٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ {٩٠)}.

معطوف على ذكر قبل من أنباء الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين، فكأن التقدير: واذكر خبر زكريا عليه السلام حين دعا ربه قائلا: يا رب لا تتركني وحيدا دون ذرية؛ كما جاء في آية أخرى {. . فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب. . .) ١٦٠؛ {وأنت خير الوارثين} إقرار بالحق، وبما ينتهي إليه الأمر، وأن المردّ إلى الحي الذي لا يموت، ومهما تعاقبت الأخلاف بعد الأسلاف، فإن الكل مرتحل عن هذه الدار، ولا يبقى إلا الله الواحد القهار؛ وإنها لمن النعم التي يتضرع بها إلى المولى العلي القدير، أن يرزق عبده خلفا صالحا، وبهذا امتنّ سبحانه على عباده، {. . وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة. .) ١٦١، وكانت ضراعة زكريا: {. . رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) ١٦٢.

٩٠ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)

{فاستجبنا له} فأجبنا دعاء زكريا وحققنا له سؤله؛ {ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه} رزقناه ولدا ذكرا نبيا سميناه يحيى، وحملته ووضعته زوجة زكريا التي كانت لا تلد حتى في مقتبل حياتها؛ وسبحان من لا يعجزه شيء؛ {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين. قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) ١٦٣ ولقد كان يحيى عليه السلام سيدا رزق الحكمة منذ كان صغيرا {. . وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا. وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا. وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) ١٦٤.

{إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين} جائز أن يكون الضمير عائدا على جملة من سبق ذكرهم من الأنبياء في تلك السورة: إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى، وجاز أن يكون على أقرب مذكور، زكريا ويحيى، وأم يحيى؛ وأثنى الله تعالى عليهم بمسارعتهم إلى الإيمان والعبادة والعمل الصالح، وعطف على ذلك الدعاء رجاء رحمته وخشية غضبه لأهمية الدعاء، إذ هو مخ العبادة؛ {وكانوا لنا خاشعين} كانوا خاضعين لجلال ربهم مخبتين منقادين، متضرعين.

٩١ - (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ {٩١)}.

أي واذكر يا محمد نبأ التي عفت وطهرت وحفظت أمانة الله، وعكفت على العبادة، وعمرت مسجد الله، فنفخ ملك الوحي فيها ١٦٥ بأمرنا فحملت بابنها المسيح عيسى عليه السلام، وهي بتول لم تتزوج، ولم تدنس بفحش ولا بغي، فكانت وكان ابنها النبي الرسول آية من آيات قدرتنا، وعلامة من علامات نفاذ أمرنا، بسبب وبلا سبب: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ١٦٦.

٩٢ - (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ {٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ {٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ {٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ {٩٥)}.

بينت الآيات المباركات السابقات جانبا من نبأ المرسلين، وفي هذه الآية خطاب لكافة المكلفين، أن الله ارتضى لهم ملة واحدة هي الإسلام، {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.) ١٦٧، والأمة: القوم يجتمعون على دين واحد، فكل الأنبياء دعوا إلى الإسلام لما ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: فأما المشركون فقد خالفوا الكل ١٦٨ [وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد " ١٦٩، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة. .] ١٧٠، {وأنا ربكم} أنا مولاكم وخالقكم ورازقكم دون سواي، {فاعبدون} فاعبدوني وحدي.

٩٣ - (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

{وتقطعوا أمرهم بينهم} وجعل المكلفون أمر دينهم فيما بينهم قطعا، فذهب فريق إلى الوثنية، ومضى آخرون إلى اليهودية، وتواصى غيرهم بالصليبية، {كل إلينا راجعون} كل هؤلاء مردودون إلينا، وموقوفون بين يدينا، وسنجزيهم الجزاء الأوفى، وفي هذا بشرى للمؤمنين، ونذير للغاوين الضالين، {فمن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} وتفضيل الجزاء أن من صلح عمله، وصدق يقينه، فلا حرمان لثواب عمله، وعدت الآية من آمن وعمل من الأعمال الصالحة فلن يضيع أجر سعيه الذي سعاه للبر والخير، [و {من} للتبعيض لا للجنس، إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلها فرضا أو نفلا، وهو موحد مسلم] ١٧١، وإن الكتبة الحفظة ملائكتنا لسعيه مثبتون في صحائف أعماله، لا تغادر حفظتها صغيرة ولا كبيرة مما قدم في دنياه إلا أحصتها، {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} عن ابن عباس ما حاصله: وحرام على قرية ختمنا على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل، لأن الله لا يتقبل إلا من المؤمنين، أو: حرام على قرية حكمنا باستئصالها أن يقبل إيمانهم حين يحل بهم العذاب، وذلك قوله تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا.) ١٧٢، أي لا يكون هذا أبدا.

٩٤ - (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٣]

{وتقطعوا أمرهم بينهم} وجعل المكلفون أمر دينهم فيما بينهم قطعا، فذهب فريق إلى الوثنية، ومضى آخرون إلى اليهودية، وتواصى غيرهم بالصليبية، {كل إلينا راجعون} كل هؤلاء مردودون إلينا، وموقوفون بين يدينا، وسنجزيهم الجزاء الأوفى، وفي هذا بشرى للمؤمنين، ونذير للغاوين الضالين، {فمن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} وتفضيل الجزاء أن من صلح عمله، وصدق يقينه، فلا حرمان لثواب عمله، وعدت الآية من آمن وعمل من الأعمال الصالحة فلن يضيع أجر سعيه الذي سعاه للبر والخير، [و {من} للتبعيض لا للجنس، إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلها فرضا أو نفلا، وهو موحد مسلم] ١٧٣، وإن الكتبة الحفظة ملائكتنا لسعيه مثبتون في صحائف أعماله، لا تغادر حفظتها صغيرة ولا كبيرة مما قدم في دنياه إلا أحصتها، {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} عن ابن عباس ما حاصله: وحرام على قرية ختمنا على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل، لأن الله لا يتقبل إلا من المؤمنين، أو: حرام على قرية حكمنا باستئصالها أن يقبل إيمانهم حين يحل بهم العذاب، وذلك قوله تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا.) ١٧٤، أي لا يكون هذا أبدا.

٩٥ - (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٣]

{وتقطعوا أمرهم بينهم} وجعل المكلفون أمر دينهم فيما بينهم قطعا، فذهب فريق إلى الوثنية، ومضى آخرون إلى اليهودية، وتواصى غيرهم بالصليبية، {كل إلينا راجعون} كل هؤلاء مردودون إلينا، وموقوفون بين يدينا، وسنجزيهم الجزاء الأوفى، وفي هذا بشرى للمؤمنين، ونذير للغاوين الضالين، {فمن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} وتفضيل الجزاء أن من صلح

عمله، وصدق يقينه، فلا حرمان لثواب عمله، وعدت الآية من آمن وعمل من الأعمال الصالحة فلن يضيع أجر سعيه الذي سعاه للبر والخير، [و {من} للتبعيض لا للجنس، إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلها فرضا أو نفلا، وهو موحد مسلم] ١٧٥، وإن الكتبة الحفظة ملائكتنا لسعيه مثبتون في صحائف أعماله، لا تغادر حفظتها صغيرة ولا كبيرة مما قدم في دنياه إلا أحصتها؛ {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} عن ابن عباس ما حاصله: وحرام على قرية ختمنا على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل، لأن الله لا يتقبل إلا من المؤمنين، أو: حرام على قرية حكمنا باستئصالها أن يقبل إيمانهم حين يحل بهم العذاب، وذلك قوله تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا. .) ١٧٦، أي لا يكون هذا أبدا.

٩٦ - (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

{حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ {٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ {٩٧)}.

{حتى} ابتدائية، تقدمها ما بينت الآية السابقة من أن الباغين المهلكين لا يهديهم الله، ثم تكون غاية إمهالهم أن تقوم القيامة ويحين المرجع إلى دار الجزاء؛ أو غاية لعدم الرجوع عن الكفر، أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه، وهو حين لا ينفعهم ذلك؛ وقال ابن عطية: {حتى} متعلقة بقوله تعالى: {تقطعوا} وحاصله أنهم لا يزالون مختلفين غير مجتمعين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة، فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك الاختلاف وعلم الجميع أن مولاهم الحق، وأن الدين المنجي كان دين التوحيد {فتحت} ونسبة الفتح إلى يأجوج ومأجوج مجاز، وهي حقيقة إلى السد فكأن التقدير: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج؛ وهما والله تعالى أعلم. . قبيلتان من ولد يافت بن نوح عليه السلام {وهم من كل حدب ينسلون} أي يأجوج ومأجوج من كل مرتفع يهبطون، أو من كل صوب وناحية يسرعون.

٩٧ - (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

{واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا} " وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم؛ ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، وبقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دما للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل، فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فنادى: يا معشر المسلمين ألا أبشروا! إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط " ١٧٧. وفي حديث الدجال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عبادا من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال الله تعالى: {وهم من كل حدب ينسلون} فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نغفا في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتا إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. . . . قال: " ويرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض أنبتي ثمرك ودري بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة، فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل ١٧٨ حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما

هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم أو كما قال مؤمن ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة " ١٧٩، وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وعن أبي سعيد قال: قال صلى الله عليه وسلم: " ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج ".

وقوله: {واقترب الوعد الحق} يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: {. . هذا يوم عسر. .) ١٨٠، ولهذا قال الله تعالى: {فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا} أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام {يا ويلنا} أي: يقولون يا ويلنا {قد كنا في غفلة من هذا} أي في الدنيا، {بل كنا ظالمين} يعترفون بظلمهم. . حيث لا ينفعهم ذلك ١٨١

٩٨ - (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ١٨٢ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ١٨٣، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ١٨٤، أي: يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ١٨٥ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان، {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها، {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يتمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

٩٩ - (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٨]

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ١٨٦ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ١٨٧، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ١٨٨، أي:

يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ١٨٩ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان، {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها، {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يتمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

١٠٠ - (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٨]

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ١٩٠ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ١٩١، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ١٩٢، أي: يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ١٩٣ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان، {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها، {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يتمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

١٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٨]

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ١٩٤ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ١٩٥، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ١٩٦، أي:

يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ١٩٧ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان، {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها، {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

١٠٢ - (لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٨]

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؛ فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ١٩٨ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ١٩٩، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ٢٠٠، أي: يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ٢٠١ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان، {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها، {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

١٠٣ - (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٨]

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ {٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ {٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ {١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ {١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ {١٠٣)}

قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؛ فقيل: وما هي؟ قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} لما أنزلت شق على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري ٢٠٢ وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمدا قد خصم ٢٠٣، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} وفيه نزل: {ولما ضرب ابن مريم مثلا) يعني يابن الزبعري {إذ قومك منه يصدون) ٢٠٤، أي:

يضجون، ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون ٢٠٥ من الأصنام حطب لجهنم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {. . وقودها الناس والحجارة. .) لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار، ولا وردها ما عبدوه من الأوثان؛ {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها} أماالذين سعدوا فيباعد بينهم وبين جهنم، ولا يسمعون حسها ولا حركتها ولا صوت لهيبها؛ {وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون} ماكثون أبدا في نعيم دار الكرامة ومقعد الصدق يمتعون بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، {لا يحزنهم الفزع الأكبر} أهوال يوم القيامة والبعث، {وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: هذا هو يوم الوعد بالكرامة، وحلولكم دار المقامة والسلامة.

١٠٤ - (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ {١٠٤)}.

واذكر يوم يطوي الله الواحد القهار يطوي السماء كطي الصحيفة على ما فيها؛ والسجل: الصك، وهو اسم مشتق من السجالة وهي الكتابة؛ وأصلها من السجل وهو الدلو؛ تقول: ساجلت الرجل إذ نزعت دلوا ونزع دلوا، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة والطي في هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما الدرج الذي هو ضد النشر، قال الله تعالى: {. . والسماوات مطويات بيمينه. .) ٢٠٦؛ والثاني الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأن الله تعالى يمحوا ويطمس رسومها، ويكدر نجومها؛ قال الله تعالى: {إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت) ٢٠٧؛ {وإذا السماء كشطت) ٢٠٨ ٢٠٩.

روى مسلم عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا {. . كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين}. . " وذكر الحديث؛ {وعدا} نصب على المصدر؛ أي: وعدنا وعدا {علينا} إنجازه والوفاء به، أي من البعث والإعادة، ففي الكلام حذف؛ ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه: {إنا كنا فاعلين}. . . . . أي ما وعدناكم، وهو كما قال: {. . كان وعد الله مفعولا) ٢١٠.

١٠٥ - (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ {١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ {١٠٦)}

عن مجاهد وابن زيد: {الزبور} كتب الأنبياء عليهم السلام؛ و {الذكر} أم الكتاب الذي عند الله في السماء؛ وعن الشعبي: {الزبور} زبور داود، و {الذكر} توراة موسى عليه السلام؛ وقال سعيد بن جبير: {الزبور} التوراة والإنجيل والقرآن؛ {من بعد الذكر} الذي في السماء {أن الأرض} أرض الجنة {يرثها عبادي الصالحون} وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين: أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ وعن ابن عباس أن الأرض هي أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح؛ أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها " [هذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله، واستيلائهم على أكثر المعمورة. .] ٢١١؛ {إن في هذا لبلاغا} أي فيما يتلى عليكم من هذا الكتاب وآياته وسوره كفاية وسبب بلوغ إلى ما تطلبون من رضوان الله تعالى ونعيمه {لقوم عابدين} للذين يداومون على العبادة ويؤدونها على أطيب حال.

١٠٦ - (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٥]

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ {١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ {١٠٦)}

عن مجاهد وابن زيد: {الزبور} كتب الأنبياء عليهم السلام؛ و {الذكر} أم الكتاب الذي عند الله في السماء؛ وعن الشعبي: {الزبور} زبور داود، و {الذكر} توراة موسى عليه السلام؛ وقال سعيد بن جبير: {الزبور} التوراة والإنجيل والقرآن؛ {من بعد الذكر} الذي في

السماء {أن الأرض} أرض الجنة {يرثها عبادي الصالحون} وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس أن الأرض هي أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح، أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها " [هذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله، واستيلائهم على أكثر المعمورة.] ٢١٢، {إن في هذا لبلاغا} أي فيما يتلى عليكم من هذا الكتاب وآياته وسوره كفاية وسبب بلوغ إلى ما تطلبون من رضوان الله تعالى ونعيمه {لقوم عابدين} للذين يداومون على العبادة ويؤدونها على أطيب حال.

١٠٧ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ {١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ {١٠٩)}.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس، فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق، وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع على المشركين، قال: " إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة ".

١٠٨ - (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

{قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد} ما يوحى إلي إلا اختصاص الله تعالى بالوحدانية، ومعنى القصر في الوحي، أن الأصل فيه تقرير التوحيد، وما عداه راجع إليه، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ٢١٣، {فهل أنتم مسلمون) أي منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: {. . فهل أنتم منتهون) ٢١٤ أي انتهوا، . . {فإن تولوا} أي إن أعرضوا عن الإسلام، {فقل آذنتكم على سواء} أي أعلمتكم على بيان، وأنا وإياكم حرب لا صلح بيننا، كقوله تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء.) ٢١٥ أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا، أي استويت أنت وهم، فليس لفريق عهد ملتزم في حق الفريق الآخر، وقال الزجاج: المعنى: أعلمتكم بما يوحى إلي على استواء في العلم به، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره، {وإن أدري}. . أي: وما أدري {أقريب أم بعيد ما توعدون} يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحد، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، قال ابن عباس، وقيل: آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم ٢١٦.

١٠٩ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٨]

{قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد} ما يوحى إلي إلا اختصاص الله تعالى بالوحدانية، ومعنى القصر في الوحي، أن الأصل فيه تقرير التوحيد، وما عداه راجع إليه، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ٢١٧، {فهل أنتم مسلمون) أي منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: {. . فهل أنتم منتهون) ٢١٨ أي انتهوا، . . {فإن تولوا} أي إن أعرضوا عن الإسلام، {فقل آذنتكم على سواء} أي أعلمتكم على بيان، وأنا وإياكم حرب لا صلح بيننا، كقوله تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء.) ٢١٩ أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا، أي استويت أنت وهم، فليس لفريق عهد ملتزم في حق الفريق الآخر، وقال الزجاج: المعنى: أعلمتكم بما يوحى إلي على استواء في العلم به، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره، {وإن أدري}. . أي: وما أدري {أقريب أم بعيد ما توعدون} يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحد، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، قال ابن عباس، وقيل: آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم ٢٢٠.

١١٠ - (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ {١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ {١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {١١٢)}.

رسخوا التصديق استيقنوا أن المعبود بحق يعلم ما تعلنون وما تسرون قولا أو فعلا أو حديث نفس {. . ونعلم ما توسوس به نفسه. .) ٢٢١، وهو مجازيكم على ما تخفون وما تعلنون، وما أدري فربما تكون حكمة الحليم في إمهالكم وعدم التعجيل بمؤاخذتكم أن يختبركم لكي يقطع معاذيركم، ونحو هذا المعنى جاءت الإشارة إليه في قول المولى تبارك اسمه: {. . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. .) ٢٢٢، ويتركم في متعكم إلى أن تحين آجالكم، {. . قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ٢٢٣.

{قال رب احكم بالحق} كما قال من قبله إخوانه من الأنبياء: {. . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ٢٢٤؛ {وربنا الرحمن} عظيم الرحمة مولانا تبارك وتعالى، {المستعان على ما تصفون} نسأله العون ويسأله كل مؤمن أن يعيننا على الوفاء بأمانات ديننا، وكبت عدونا الذي ضل وأضل، وافترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، فهم يتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله حسبنا.

١١١ - (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٠]

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ {١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ {١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {١١٢)}.

رسخوا التصديق استيقنوا أن المعبود بحق يعلم ما تعلنون وما تسرون قولا أو فعلا أو حديث نفس {. . ونعلم ما توسوس به نفسه. .) ٢٢٥، وهو مجازيكم على ما تخفون وما تعلنون، وما أدري فربما تكون حكمة الحليم في إمهالكم وعدم التعجيل بمؤاخذتكم أن يختبركم لكي يقطع معاذيركم، ونحو هذا المعنى جاءت الإشارة إليه في قول المولى تبارك اسمه: {. . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. .) ٢٢٦، ويتركم في متعكم إلى أن تحين آجالكم، {. . قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ٢٢٧.

{قال رب احكم بالحق} كما قال من قبله إخوانه من الأنبياء: {. . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ٢٢٨؛ {وربنا الرحمن} عظيم الرحمة مولانا تبارك وتعالى، {المستعان على ما تصفون} نسأله العون ويسأله كل مؤمن أن يعيننا على الوفاء بأمانات ديننا، وكبت عدونا الذي ضل وأضل، وافترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، فهم يتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله حسبنا.

١١٢ - (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٠]

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ {١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ {١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {١١٢)}.

رسخوا التصديق استيقنوا أن المعبود بحق يعلم ما تعلنون وما تسرون قولا أو فعلا أو حديث نفس {. . ونعلم ما توسوس به نفسه. .) ٢٢٩، وهو مجازيكم على ما تخفون وما تعلنون، وما أدري فربما تكون حكمة الحليم في إمهالكم وعدم التعجيل بمؤاخذتكم أن يختبركم لكي يقطع معاذيركم، ونحو هذا المعنى جاءت الإشارة إليه في قول المولى تبارك اسمه: {. . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. .) ٢٣٠، ويتركم في متعكم إلى أن تحين آجالكم، {. . قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ٢٣١.

{قال رب احكم بالحق} كما قال من قبله إخوانه من الأنبياء: {. . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ٢٣٢؛ {وربنا الرحمن} عظيم الرحمة مولانا تبارك وتعالى، {المستعان على ما تصفون} نسأله العون ويسأله كل مؤمن أن يعيننا على الوفاء بأمانات ديننا، وكبت عدونا الذي ضل وأضل، وافترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، فهم يتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله

حسبنا.

٢٢ سورة الحج:

سورة الحج:
مدنية
وآياتها ثمان وسبعون
كلماتها ١٢٩١؛ حروفها: ٥١٧٥
١ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ {١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ {٢)}

{اتقوا ربكم} احذروا سخط مولاكم وخالقكم، وأدوا فرائضه، واتركوا محارمه.

{زلزلة} شدة الحركة والاضطراب.

ينادي الله تعالى الناس أن يجتنبوا كل ما يؤثم من فعل وترك، ويدخل فيه الإيمان بكل ما يجب الإيمان به دخولا أوليا؛ ومعلوم أن التقوى هي المنجاة من الأهوال، كما وعد ربنا ذو الجلال: {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) ١؛ {إن زلزلة الساعة شيء عظيم} إن الاضطراب والحركة الشديدة التي تكون عند مجيء القيامة شيء بالغ الهول.

٢ - (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

{يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد}

{تذهل} تنسى وتشغل محزونة.

{تضع كل ذات حمل حملها} تلقي جنينها لغير تمام.

الهاء في {ترونها} عائدة عند الجمهور على الزلزلة، ويقوي هذا قوله عز وجل: {تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها} والرضاع والحمل إنما هو في الدنيا. . . . . وفائدة ذكر الرسول ذلك اليوم التحريض على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح ٢.

أورد البخاري عند تفسير الآية حديث بعث النار، عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك ربنا وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار قال يا رب وما بعث النار قال من كل ألف أراه قال تسعمائة وتسعة وتسعون حينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد {وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} ".

وعن الحسن قال: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام؛ يقول ابن كثير: والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: {هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ٣؛. . . . . من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى. . اهـ.

٣ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ {٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ

{٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ {٧)}.

{يجادل} يخاصم ويقارع بما يعده حجة. {مريد} متمرد، متجرد للفساد، عاق.

بعد ترسيخ اليقين بالآخرة كأنما سيقت هذه الآيات الحكيمة لبيان حال الشاكين في وقوعها، وذكر البرهان على قدرة الله العظيم على الإتيان بها؛ أراد أن يحتج على منكري البعث، فقدم لذلك مقدمة تشمل أهل الجدال كلهم. . . ومعنى {في الله}: في شأن الله وفيما يجوز وما لا يجوز. . . ويفهم من قوله {بغير علم} أن المعارف كلها ليست ضرورية وأن المذموم من الجدال هو هذا القسم، وأما الجدال الصادر عن العلم والتحقيق فمحمود مأمور به في قوله: {. . وجادلهم بالتي هي أحسن.) ٤ ٥، {ويتبع كل شيطان مريد} ويطاوع كل غاو مفسد، عات عن الاستجابة للحق، عاق لأمانات الخالق سبحانه وأمانات الخلق، فهو مقيم على الجحود والكفور [يخاصم في الله فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار ترابا {بغير علم} يعلمه، بل ويجهل منه بما يقول، ويتبع في قيله ذلك وجداله في الله بغير علم كل شيطان مريد] ٠٦.

٤ - (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

{كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله} قال مجاهد ما حاصله: كتب على الشيطان كتابة قدرية أنه من قلده واتبعه؛ أي: شأن الشيطان أن من تابعه فإنه يضيعه في الدنيا فلا يسلك طريق الرشد والفلاح، {ويهديه إلى عذاب السعير} ويقوده في الآخرة إلى عذاب حار مزعج؛ وطرائق الشيطان من الإنس أو الجان لا تفضي أبدا إلا إلى الذل والهلاك والخسران؛ وإنما يكون العياذ منهم بصدق اليقين، وإخلاص العبودية، لتحقق لنا البشرى القرآنية: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان.) ٠٧ {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه.) ٨؛ ثم بينت الآية الكريمة الخامسة من هذه السورة أن الريب في مجيء الساعة والبعث يبطله تدبر النشأة وأطوار الحمل، فإن القادر على البدء يبقى أبدا على الإعادة أقدر {. . . . وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ٩؛ {فإنا خلقناكم من تراب} فتحققوا أنا بدأنا خلق أبيكم آدم من تراب الأرض وطينها، فأصلكم معاشر البشر من هذا التراب، وعنصر متواضع جامد كهذا يتخلق منه أكرم الخلائق برهان على عظمة الخلاق سبحانه وقدرته وحكمته؛ {ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم} [وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم اتباعا للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله وإنكار ما أنكر من قدرة ربه؛ قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاما منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب، ثم إنشائناكم من نطفة آدم ثم تصريفناكم أحوالا حالا بعد حال من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء،. . . عن قتادة في قول الله: {مخلقة وغير مخلقة} قال تامة وغير تامة. . . جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ومنها السقط غير التام لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم ابتداءنا خلقكم. . . {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}: يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها فلا تسقطه ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها فيخرج] ١٠؛ {ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم} ثم بعد تمام حملكم في الأرحام تولدون أطفالا لا تعلمون شيئا ولا تقدرون على شيء، {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.) ١١؛ ثم لتصلوا إلى كمال عقولكم ونهاية قواكم؛ {ومنكم من يتوفى} في حال شبابه وقوته؛ {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} اللام

في {لكيلا} هي لام العاقبة؛ أي: منكم من نطيل في عمره فينكس في خلقه، كما قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا. .) ١٢ فإذا طعن في المشيب ردا إلى أسوأ العمر وأرداه. فيخرف، وتوشك العلوم أن تنفلت من ذاكرته ورأسه، {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: {فإنا خلقناكم} فخاطب جمعا، وقال في الثاني: {وترى الأرض هامدة} فخاطب واحدا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث؛ {هامدة} يابسة لا تنبت شيئا ١٣ جافة ذات تراب، هالكة ميتة، فينزل

المولى بقدرته الغيث على تلك الأرض الجرداء، فيكون هذا الماء سببا في حياتها وحركتها، وارتفاعها وزيادتها، وتنبت بإذن الله من كل صنف ولون من النبات عشبه وزرعه وشجره ما هو حسن يبهج كل من رآه. {ذلك بأن الله هو الحق} قال الزجاج: {ذلك} في محل رفع، أي الأمر ما وصف لكم وبين، {بأن} أي لأن الله هو الحق، قال: ويجوز أن يكون {ذلك} نصبا، أي: فعل الله ذلك بأنه هو الحق. فنبه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه حقيقة له من نفسه، لأنه مسخر مصرف، والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده. . والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى؛ وقيل: ذو الحق على عباده ١٤؛ {وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} هكذا تعرض البرهان لأطوار خلق الإنسان؛ ثم لما يتوقف عليه نماؤه وبقاؤه إلى حين انقضاء أجله؛ ثم إلى بعثه لينال جزاء ما كان من سعيه وعمله؛ فلا تشكوا في ذلك ولا تمتروا فيه.

٥ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{ريب} شك. {خلقناكم من تراب} خلقنا آدم وهو أصل البشر من تراب. {ثم من نطفة} ثم خلقنا ذريته من نطفة من ماء قليل من مني. {علقة} الدم العالق، أي على هيئة دودة صغيرة. {مضغة} قطعة لحم قدر ما يمضغ ملأ الفم. {مخلقة} تامة الخلقة. {نقر} نسكن. {الأرحام} واحدها رحم، وهو مكان الولد في جوف المرأة. {أجل مسمى} وقت نعلمه. {طفلا} أي أطفالا. {أرذل العمر} أسوؤه وأهونه. {هامدة} دارسة يابسة جف ترابها. {اهتزت} تحركت. {وربت} علت وزادت.

{زوج} لون وصنف {بهيج} حسن، يبهج.

{كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله} قال مجاهد ما حاصله: كتب على الشيطان كتابة قدرية أنه من قلده واتبعه؛ أي: شأن الشيطان أن من تابعه فإنه يضيعه في الدنيا فلا يسلك طريق الرشد والفلاح، {ويهديه إلى عذاب السعير} ويقوده في الآخرة إلى عذاب حار مزعج؛ وطرائق الشيطان من الإنس أو الجان لا تفضي أبدا إلا إلى الذل والهلاك والخسران؛ وإنما يكون العياذ منهم بصدق اليقين، وإخلاص العبودية، لتحقق لنا البشرى القرآنية: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. .) ١٥. {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه. .) ١٦؛ ثم بينت الآية الكريمة الخامسة من هذه السورة أن الريب في مجيء الساعة والبعث يبطله تدبر النشأة وأطوار الحمل، فإن القادر على البدء يبقى أبدا على الإعادة أقدر {. . . . وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ١٧؛ {فإنا خلقناكم من تراب} فتحققوا أنا بدأنا خلق أبيكم آدم من تراب الأرض وطينها، فأصلكم معاشر البشر من هذا التراب، وعنصر متواضع جامد كهذا يتخلق منه أكرم الخلائق برهان على عظمة الخلاق سبحانه وقدرته وحكمته؛ {ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم} [وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم اتباعا للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله وإنكار ما أنكر من قدرة ربه؛ قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاما منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم

من تراب، ثم إنشائنا كم من نطفة آدم ثم تصريفنا كم أحوالا حالا بعد حال من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء،. . . عن قتادة في قول الله: {مخلقة وغير مخلقة} قال تامة وغير تامة. . . جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ومنها السقط غير التام لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم ابتداءنا خلقكم. . . {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}: يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها فلا تسقطه ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها فيخرج] ١٨؛ {ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم} ثم بعد تمام حملكم في الأرحام تولدون أطفالا لا تعلمون شيئا ولا تقدرون على شيء، {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. .) ١٩؛ ثم لتصلوا إلى كمال عقولكم ونهاية قواكم؛ {ومنكم من يتوفى} في حال شبابه وقوته؛ {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} اللام في {لكيلا} هي لام العاقبة؛ أي: منكم من نطيل في عمره فينكس في خلقه، كما قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا. .) ٢٠ فإذا طعن في المشيب ردا إلى أسوأ العمر وأرداه. فيخرف، وتوشك العلوم أن تنفلت من ذاكرته ورأسه، {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: {فإنا خلقناكم} نخاطب جمعا، وقال في الثاني: {وترى الأرض هامدة} نخاطب واحدا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث؛ {هامدة} يابسة لا تنبت شيئا ٢١ جافة ذات تراب، هالكة ميتة،

فينزل المولى بقدرته الغيث على تلك الأرض الجرداء، فيكون هذا الماء سببا في حياتها وحركتها، وارتفاعها وزيادتها، وتنبت بإذن الله من كل صنف ولون من النبات عشبه وزرعه وشجره ما هو حسن يبهج كل من رآه. {ذلك بأن الله هو الحق} قال الزجاج: {ذلك} في محل رفع، أي الأمر ما وصف لكم وبين، {بأن} أي لأن الله هو الحق، قال: ويجوز أن يكون {ذلك} نصبا، أي: فعل الله ذلك بأنه هو الحق. فنبه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه حقيقة له من نفسه، لأنه مسخر مصرف، والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده. . والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى؛ وقيل: ذو الحق على عباده ٢٢؛ {وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} هكذا تعرض البرهان لأطوار خلق الإنسان؛ ثم لما يتوقف عليه نماؤه وبقاؤه إلى حين انقضاء أجله؛ ثم إلى بعثه لينال جزاء ما كان من سعيه وعمله؛ فلا تشكوا في ذلك ولا تمتروا فيه.

٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله} قال مجاهد ما حاصله: كتب على الشيطان كتابة قدرية أنه من قلده واتبعه، أي: شأن الشيطان أن من تابعه فإنه يضيعه في الدنيا فلا يسلك طريق الرشد والفلاح، {ويهديه إلى عذاب السعير} ويقوده في الآخرة إلى عذاب حار مزعج، وطرائق الشيطان من الإنس أو الجان لا تفضي أبدا إلا إلى الذل والهلاك والخسران، وإنما يكون العياذ منهم بصدق اليقين، وإخلاص العبودية، لتحقق لنا البشرى القرآنية: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. .) ٢٣. {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه. .) ٢٤؛ ثم بينت الآية الكريمة الخامسة من هذه السورة أن الريب في مجيء الساعة والبعث يبطله تدبر النشأة وأطوار الحمل، فإن القادر على البدء يبقى أبدا على الإعادة أقدر {. . . . وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ٢٥؛ {فإنا خلقناكم من تراب} فتحققوا أنا بدأنا خلق أبيكم آدم من تراب الأرض وطينها، فأصلكم معاشر البشر من هذا التراب، وعنصر متواضع جامد كهذا يتخلق منه أكرم الخلائق برهان على عظمة الخلاق سبحانه وقدرته وحكمته، {ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم} [وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم اتباعا للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله وإنكار ما أنكر من قدرة ربه، قال: يا أيها الناس إن

كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاما منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب، ثم إنشائنا كم من نطفة آدم ثم تصريفنا كم أحوالا حالا بعد حال من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء،. . . عن قتادة في قول الله: {مخلقة وغير مخلقة} قال تامة وغير تامة. . . جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ومنها السقط غير التام لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم ابتداءنا خلقكم. . . {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}: يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها فلا تسقطه ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها فيخرج] ٢٦، {ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم} ثم بعد تمام حملكم في الأرحام تولدون أطفالا لا تعلمون شيئا ولا تقدرون على شيء، {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.) ٢٧، ثم لتصلوا إلى كمال عقولكم ونهاية قوا كم، {ومنكم من يتوفى} في حال شبابه وقوته، {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} اللام في {لكيلا} هي لام العاقبة، أي: منكم من نطيل في عمره فينكس في خلقه، كما قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا.) ٢٨ فإذا طعن في المشيب ردا إلى أسوأ العمر وأرداه. فيخرف، وتوشك العلوم أن تنفلت من ذاكرته ورأسه، {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: {فإنا خلقناكم} نخاطب جمعا، وقال في الثاني: {وترى الأرض هامدة} نخاطب واحدا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث، {هامدة} يابسة لا تنبت شيئا ٢٩ جافة ذات تراب، هالكة ميتة،

فينزل المولى بقدرته الغيث على تلك الأرض الجرداء، فيكون هذا الماء سببا في حياتها وحركتها، وارتفاعها وزيادتها، وتنبت بإذن الله من كل صنف ولون من النبات عشبه وزرعه وشجره ما هو حسن يبهج كل من رآه. {ذلك بأن الله هو الحق} قال الزجاج: {ذلك} في محل رفع، أي الأمر ما وصف لكم وبين، {بأن} أي لأن الله هو الحق، قال: ويجوز أن يكون {ذلك} نصبا، أي: فعل الله ذلك بأنه هو الحق. فنبه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه حقيقة له من نفسه، لأنه مسخر مصرف، والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده. . والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى، وقيل: ذو الحق على عباده ٣٠، {وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} هكذا تعرض البرهان لأطوار خلق الإنسان، ثم لما يتوقف عليه نماؤه وبقاؤه إلى حين انقضاء أجله، ثم إلى بعثه لينال جزاء ما كان من سعيه وعمله، فلا تشكوا في ذلك ولا تمتروا فيه.

٧ - (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{يبعث} يعيد إليهم الحياة.

{كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله} قال مجاهد ما حاصله: كتب على الشيطان كتابة قدرية أنه من قلده واتبعه، أي: شأن الشيطان أن من تابعه فإنه يضيعه في الدنيا فلا يسلك طريق الرشد والفلاح، {ويهديه إلى عذاب السعير} ويقوده في الآخرة إلى عذاب حار مزعج، وطرائق الشيطان من الإنس أو الجان لا تفضي أبدا إلا إلى الذل والهلاك والخسران، وإنما يكون العياذ منهم بصدق اليقين، وإخلاص العبودية، لتحقق لنا البشرى القرآنية: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان.) ٣١. {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه.) ٣٢، ثم بينت الآية الكريمة الخامسة من هذه السورة أن الريب في مجيء الساعة والبعث يبطله تدبر النشأة وأطوار الحمل، فإن القادر على البدء يبقى أبدا على الإعادة أقدر {. . . . وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ٣٣، {فإنا خلقناكم من تراب} فتحققوا أنا بدأنا خلق أبيكم آدم من تراب الأرض وطينها، فأصلكم معاشر البشر من هذا التراب، وعنصر متواضع جامد كهذا يتخلق منه أكرم الخلائق برهان على عظمة الخلاق سبحانه وقدرته

وحكمته، {ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم} [وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم اتباعا للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله وإنكار ما أنكر من قدرة ربه، قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاما منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب، ثم إنشائناكم من نطفة آدم ثم تصريفناكم أحوالا حالا بعد حال من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء،. . . عن قتادة في قول الله: {مخلقة وغير مخلقة} قال تامة وغير تامة. . . جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ومنها السقط غير التام لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم ابتداءنا خلقكم. . . {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}: يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها فلا تسقطه ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها فيخرج] ٣٤، {ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم} ثم بعد تمام حملكم في الأرحام تولدون أطفالا لا تعلمون شيئا ولا تقدرون على شيء، {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. .) ٣٥، ثم لتصلوا إلى كمال عقولكم ونهاية قواكم، {ومنكم من يتوفى} في حال شبابه وقوته، {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} اللام في {لكيلا} هي لام العاقبة، أي: منكم من نطيل في عمره فينكس في خلقه، كما قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا. .) ٣٦ فإذا طعن في المشيب ردا إلى أسوأ العمر وأرداه. فيخرف، وتوشك العلوم أن تنفلت من ذاكرته ورأسه، {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: {فإنا خلقناكم} فخاطب جمعا، وقال في الثاني: {وترى الأرض هامدة} فخاطب واحدا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث، {هامدة} يابسة لا تنبت شيئا ٣٧ جافة ذات تراب، هالكة ميتة،

فينزل المولى بقدرته الغيث على تلك الأرض الجرداء، فيكون هذا الماء سببا في حياتها وحركتها، وارتفاعها وزيادتها، وتنبت بإذن الله من كل صنف ولون من النبات عشبه وزرعه وشجره ما هو حسن يبهج كل من رآه. {ذلك بأن الله هو الحق} قال الزجاج: {ذلك} في محل رفع، أي الأمر ما وصف لكم وبين، {بأن} أي لأن الله هو الحق، قال: ويجوز أن يكون {ذلك} نصبا، أي: فعل الله ذلك بأنه هو الحق. فنبه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه حقيقة له من نفسه، لأنه مسخر مصرف، والحق الحقيقي: هو الموجود المطلق الغني المطلق، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده. . والحق الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، وهو الله تعالى، وقيل: ذو الحق على عباده ٣٨، {وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} هكذا تعرض البرهان لأطوار خلق الإنسان، ثم لما يتوقف عليه نماؤه وبقاؤه إلى حين انقضاء أجله، ثم إلى بعثه لينال جزاء ما كان من سعيه وعمله، فلا تشكوا في ذلك ولا تمتروا فيه.

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)}.

{بغير علم} بجهل وحسبان وتقليد وهوى.

{ولا هدى} ولا بيان ولا برهان.

{ولا كتاب منير} وبغير كتاب من الله ينير الحجة.

وفريق من الناس يماري في جلال الله تعالى ووحدانيته وقدرته، وناره وجنته، ويقول هذا الإفك من غير أن تكون له مقدمة ضرورية تشهد لباطله، بل بجهل وحسبان، وتقليد وهوى، وليس عنده من بيان أو برهان، ولا يستطيع النظر الصحيح، ولا الاستدلال على ما يفتريه، وما جاء من ربنا من كتاب ولا وحي ينير الحجة، وذلك هو السلطان والدليل السمعي، [فكأنه قيل: هذه الأمثال في غاية

الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك من يجادل إلى آخره. . وفي الكشف أن الأظهر في النظم والأوفق للمقام كون هذه الآية في المقلدين - بفتح اللام - وتلك في المقلدين بكسر اللام] ٣٩، {ثاني عطفه} لا وليا جنبه، قال الجوهري: عطفا الرجل جانباه، من لدن رأسه إلى وركه، قال ابن زيد: لاويا ورأسه معرضا موليا، لا يريد أن يسمع ما قيل له، وقرأ: {وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) ٤٠، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا.) ٤١، {ليضل عن سبيل الله} يماري بالباطل ليرد الناس عن الهدى إذ تبين لهم، أو ليثبت الهلكى على الغي والكفر والردى.

{له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق} جزاء الممارين في الحق الصادين عن البر والرشد أن يهينهم الله تعالى في العاجل بالهزيمة والقتل والأسر، وشتات الأمر، وفي الآجل يخلدون في حر جهنم ولفحها، ثم يحسرون، فينادي كل أفاك أثيم: ذلك الذي تجرعت من هوان في الأولى وخسران في العقبى بما سعيت في التكفير والإغواء والظلم، وبسبب ما عملت من فساد مجرم {ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد} - وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي. . ومرجع ذلك في الآخرة إلى تقريع الكفرة وتبكيتهم بأنه لا سبب للعذاب إلا من قبلهم، كأنه قيل: إن ذلك العذاب إنما نشأ من ذنوبكم التي اكتسبتموها لا من شيء آخر - ٤٢

٩ - (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

{عطفه} جانبه. {ليضل} ليصد. {سبيل الله} طريقه ودينه الذي ارتضاه.

{خزي} مهانة وذل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٠ - (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

{قدمت} اكتسبت في الدنيا وعملت.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١١ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ {١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ {١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ {١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ {١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ {١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ {١٦)}.

{حرف} طرف. . {فتنة} بلاء. {انقلب على وجهه} ارتد كافرا.

{خسر} غبن وهلك.

الآيات الثلاث: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة بينت جانبا من شقاق أهل النفاق الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فهم يتعبدون كائنين على طرف من الدين لا ثبات لهم فيه - كالذي يكون في طرف الجيش فإن أحس بظفر وإلا فر. . والمراد من الخير الخير الدنيوي كالرخاء والعافية والولد، إن أصابه ما يشتهي. . ثبت على ما كان عليه ظاهرا، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين. . {وإن أصابته فتنة} أي شيء يفتن به من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله {انقلب على وجهه}. . . ارتد ورجع عن دينه إلى الكفر - ٤٣، في الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان الرجل يقدم المدينة فإذا ولدت امرأته غلاما، ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء، {خسر الدنيا والآخرة} وهذا المفتون الراجع إلى

الكفر البواح ضل وهلك بترديه في النفاق والردة [أما خسران الدنيا بعد أن أصابه ما أصاب ففقدان العزة والكرامة، والغنيمة، وأهلية الشهادة، والإمامة والقضاء، وكون عرضه وماله ودمه مصونة؛ وأما الآخرة فحرمان الثواب وحصول العقاب أبد الآباد، ولا خسران أبين من هذا، نعوذ بالله منه] ٤٤

١٢ - (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٣ - (يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

{المولى} الذي يعبدونه من دون الله.

{العشير} الخليط المعاشر والصاحب.

{يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد. يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير} هذا الذي هجر الصراط المستقيم، وعاد إلى ضلاله القديم، وإنما يعبد متجاوزا ربه، ويؤله معبودات لا تسمع، وإذا سمعت فهي لا تملك أن تضر أو تنفع، وذلك الضياع المبعد في الخسران والهلكة؛ بل دعاؤه إياها يورده النكال والخبال، ويفوت عليه ثواب الدنيا وحسن المآل، فما أقبح هذه المولاة، وما أتعسه بمصاحبة ما اتخذ من دون الله.

مما يقول الطبري: لا تضره إن لم يعبدها ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها. . ارتداده ذلك داعيا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة، والذهاب عن دين الله ذهابا بعيدا؛ وحكى عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذف؛ والمعنى: يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه إلها؛ ونقل القشيري عن الزجاج: {يدعوا} بمعنى: يقول، و {من} مبتدأ، {ضره} مبتدأ ثان، و {أقرب} خبره، والجملة صلة {من}؛ وخبر {من}؛ محذوف، والتقدير: يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه.

١٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

{إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار}

بعد بيان حال الجاحدين وحال الشياطين، وحال المذبذبين، وما إليه يصيرون، بين ما أعد الشكور الغفور للمؤمنين يوم يبعثون، فمنازلهم مساكن طيبة، في بساتين نضرة، تجري من تحت أشجارها الأنهار؛ {إن الله يفعل ما يريد}؛ يثيب من يشاء ويعذب من يشاء؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق، وبفضله؛ وللكافرين النار بما سبق من عدله، لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد ٤٥

١٥ - (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

{من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع}

{بسبب} بحبل

قال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل فيها: أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه، فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء، ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، {فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ} هل كيده وحيلته تلك تذهب ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم؟!.

١٦ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

{وكذلك أنزلناه} أنزلنا ملائكة الوحي بهذا الذكر الحكيم {آيات بينات} توضح آياته سبل الهداية، وتقيم الحجة على الجاحدين والمشركين وأهل الغواية؛ {وأن الله يهدي من يريد} وكذلك أن المولى سبحانه هو الهادي لا هادي سواه؛ نقل عن بعضهم: يهدي به الذين يعلم منهم الإيمان، أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى، وإلى هذين الوجهين أشار الحسن بقوله: إن الله يهدي من قبل لا من لم يقبل اه؛ واختار الطبري نحو هذا فقال: إن الله يوفق للصواب ولسبيل الحق من أراد أنزل هذا القرآن آيات بينات، ف {أن} في موضع نصب. اه

١٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ)
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {١٨)}.

{الذين هادوا} اليهود المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام. {الصابئين} القوم الذين يعبدون النجوم، والذين يعبدون الملائكة.
{النصارى} المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام.
{المجوس} عبدة النار والثانوية الذين يدعون للعالم أصلين: نور وظلمة.
{الذين أشركوا} الذين ادعوا أن لله تعالى شركاء، وعبدوا من دونه الأصنام ونحوها.
{يفصل} يقضي ويحكم، أو يصير هؤلاء إلى مستقر غير مستقر أولئك.

- إن الفصل بين هؤلاء المنافقين الذين يعبدون الله على حرف، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام، والذين هادوا وهم اليهود، والصابئين والنصارى، والمجوس الذين عظموا النار وخدموها، وبين الذين آمنوا بالله ورسله إلى الله، وسيفصل بينهم يوم القيامة بعدل من القضاء، وفصله بينهم: إدخاله النار الأحزاب كلهم، والجنة المؤمنين به وبرسله. . إن الله على كل شيء من أعمال هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله جل ثناؤه وغير ذلك من الأشياء كلها شهيد لا يخفى عنه شيء من ذلك - ٤٦؛ قال قتادة: الصابئون: قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور، والمجوس: يعبدون الشمس والقمر والنيران، والذين أشركوا يعبدون الأوثان؛ والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن؛ {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} في مفردات الراغب: السجود في الأصل: التطامن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته، وهو عام في الإنسان والحيوان والجماد، وذلك ضربان: سجود بتسخير يكون للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات، وسجود باختيار يكون للإنسان وبه يستحق الثواب، وخص في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما جرى مجراه من سجود التلاوة وسجود الشكر. اهـ؛ ألم تعلم - إذ الرؤية ها هنا بصيرية علمية، وليست بصرية - والخطاب لكل من هو أهل لأن يخاطب؛ ألم تعلم أن الله يخضع لسلطانه وتدبيره كل من في السماوات وكل من في الأرض؛ و {من} تعم العقلاء وغيرهم، وإنما أفرد الشمس والقمر والنجوم والحجر والشجر والبهائم مع أنها مندرجة فيما تقدم: {من في السماوات ومن في الأرض} لشهرتها، أو لأنها عبدت من دون الله تعالى؛ ورفع {كثير من الناس} بفعل مضمر يدل عليه المذكور، أي: ويسجد له كثير من الناس سجود الطاعة المعروف؛ {وكثير حق عليه العذاب} وكثير آخرون تأبوا عن السجود لله وعبادته فتقرر لهم استحقاق العذاب؛ ومن يستكبر يذله الله فلا يجد من يسعده إذ قد أشقاه وأتعسه وأخزاه استكباره عن الخضوع لمولاه؛ إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته وإكرام من أراد إكرامه.

١٨ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

١٩ - (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)

{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ {١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ {٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ {٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ {٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ {٢٤)}.

{اختصموا في ربهم} خاصم بعضهم بعضا في دين الله تعالى.
{الحميم} الماء الحار.
في صحيح مسلم أن أبا ذر كان يقسم قسما: إن {هذان خصمان اختصموا في ربهم} إنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد ابن عتبة؛ وفي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إني لأول من يجثوا للخصومة بين يدي الله يوم القيامة؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛ وقال عكرمة: المراد بالخصمين الجنة والنار؛ اختصمتا فقالت النار: خلقني لعقوبته؛ وقالت الجنة: خلقني لرحمته؛ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " احتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها " {فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار}، والفعل جاء بصيغة الماضي لأنه كالواقع المحقق، فكأن المعنى: تقطع لهم ثياب من نار المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب؛ مثل: {وجعلنا الليل لباسا) ٤٧؛ {يصب من فوق رءوسهم الحميم} أي الماء الحار المغلى بنار جهنم.
٢٠ - (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)
{يصهر به ما في بطونهم والجلود}
{يصهر} يذاب.
يذاب بالحميم أجوافهم، وتشوى جلودهم؛ {ولهم مقامع من حديد} مطارق يضربون بها ويدفعون؛ {كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها}؛ نقل عن الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يدفعهم لهبها وتردهم مقامعها؛ فمن خلص منهم إلى شفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع، {وذوقوا عذاب الحريق} ويقولون لهم: ذوقوا العذاب المحرق، أي: أدركوه والزموه؛ وفي ذلك من التحسير ما فيه؛ نسأل الله الوقاية من سخطه وعذابه؛ {إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار} لما ذكر مصير أحد الخصمين وهو الجاحد المارد الكافر، ذكر حال الخصم الثاني وهو المؤمن الصالح الشاكر؛ {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} وحلية المؤمنين في الجنة تكون من {أساور} والأساور جمع أسورة، وأسورة واحدة سوار؛ قال المفسرون: لما كانت تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ٤٨؛ ويحلون لؤلؤا؛ {ولباسهم فيها حرير} ثياب السعداء المؤمنين في الجنة حرير؛ مما نقل الألوسي: لم يقل ويلبسون فيها حريرا للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا؟ بخلاف التحلية فإنها ليست من لوازمهم الضرورية، فلذا جعل بيانها مقصودا بالذات، ولعل هذا هو السر في تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس اهـ؛ {وهدوا إلى الطيب من القول} والفائزون المنعمون هداهم ربهم إلى الكلم الطيب، والقول الكريم النافع، ففي الدنيا يتلون كتاب الله تعالى، ويذكرون ربهم ويهللون ويسبحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الرشد؛ وفي الآخرة يثنون على البر الرحيم سبحانه، ويقولون {الحمد لله الذي صدقنا وعده. ٠) ٤٩ {. . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. ٠) ٥٠؛ {وهدوا إلى صراط الحميد} وهدوا في أولاهم إلى طريق الله المستقيم، ودينه المرتضى؛ وفي الآخرة هدوا إلى الطريق المحمودة الموصلة إلى الجنة، وهدوا إلى ما يحب الله تعالى من أخوة في الجنة [ولا يبعد أن يقال: إن الهداية في الجملتين في الآخرة بعد دخول الجنة وإن الإضافة هنا بيانية وإن المراد بالقول الطيب: القول الذي تستلذه النفوس الواقع في محاورة أهل الجنة بعضهم لبعض؛ والصراط الحميد: ما يسلكه أهل الجنة في معاملة بعضهم بعضا من الأفعال، التي يحمدون عليها، أو بما هو أعم من ذلك، فحاصل الجملة الأولى وصف أهل الجنة بحسن الأقوال، وحاصل الثانية وصفهم بحسن الأفعال، أو بما هو أعم منها ومن الأقوال؛ وكأنه تعالى بعد أن ذكر حسن مسكنهم وحليهم ولباسهم ذيل ذلك بحسن معاملة بعضهم بعضا في الأقوال والأفعال إيماء إلى أن ما هم فيه لا يخرجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعال المشينتين لحسن ما هم فيه

والمنغصتين للذة الاجتماع، ووجه التقديم والتأخير على هذا غير خفي على الفطن، والذي أختاره أن القول الطيب قولهم بعد دخول الجنة: {. . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ٥١ لقوله تعالى في سورة فاطر بعد قوله سبحانه: {. . يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. .) ٥٢؛. . والقرآن يفسر بعضه بعضا، وأن المراد بالصراط الحميد ما يعم الأقوال والأفعال الجارية بين أهل الجنة مما يحمد سلوكه في المعاشرة والاجتماع في هاتيك البقاع. .] ٥٣

٢١ - (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)

{مقامع} مطارق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٢ - (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٣ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٤ - (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)

{صراط} طريق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ {٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ {٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ {٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ {٢٩)}

{ويصدون} ويمنعون. {العاكف فيه والباد} المقيم حوله، والقادم إليه.

{بإلحاد بظلم} بميل إلى البغي، وعزم على الجور.

توعد الله تعالى الكافرين الصادين عن دين الله، المانعين الناس بيت الله أن يدخلوه، بأن يذيقهم عذابا موجعا، وقد أراد الله تعالى أن لا يمنع عن هذا البيت من أراده من المقيمين حوله أو القادمين إليه من الآفاق، ومن يمل في الحرم عن الحق إلى الباطل فإن الله تعالى معذب هذا الملحد المائل؛ عن ابن مسعود وعكرمة وغيرهما: من أراد سيئة في مكة ولم يعملها يحاسب؛ وقال الخفاجي: الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل لا مجرد الإرادة، لكن في التعبير بها إشارة إلى مضاعفة السيئات هناك، والإرادة المصممة مما يؤاخذ عليها أيضا، وإن قيل إنها ليست كبيرة.

٢٦ - (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

{وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود}

{بوأنا} أرشدنا وسلمنا وأرينا. {البيت} الكعبة. {الطائفين} المتعبدين بالدوران حول الكعبة {والقائمين والركع السجود} المصلين. واذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، أرشدناه إليه وأريناه إياه، وأمرناه أن يجعله من أول يوم خالصا لوجه الله يتعبد حول الكعبة للواحد الفرد الصمد دون سواه؛ {وطهر بيتي للطائفين}؛ ونظف البيت من الأقذار والأوثان، حتى لا يدور حول الكعبة طائف إلا وقد تطهر من القذى والأصنام، وطاف في اللغة تعني فيما تعني: المشي مستديرا حول الشيء، وفي الشرع: الطواف: هو الدوران حول الكعبة جاعلا إياها عن يساره بكيفية وشروط مخصوصة منها الطهارة وستر العورة إلى غير ذلك؛ {والقائمين والركع السجود} ونزه البيت الحرام أن يصلى فيه لصنم؛ - والقائمون: هم المصلون، وذكر الله تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود - ٥٤. {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق} الأذان: الإعلام، والأمر لإبراهيم عليه السلام؛ {يأتوك} يجيئوا إلى الكعبة التي بنيت {رجالا} جمع راجل وهو الماشي على رجليه، أي راجلين؛ {وعلى كل ضامر} أو راكبين على كل بعير مهزول أضناه السفر؛ {يأتين} هذه الإبل المهازيل والأبعرة الضوامر يجئن ويقبلن من كل ناحية بعيدة ومن كل طريق طويلة؛ {ليشهدوا منافع لهم} دعوتنا إياهم لحج البيت لكي يحضروا منافع تجر لهم الخير الكثير، ونقل عن مجاهد وعطاء: ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ واختار ابن العربي هذا التفسير فإنه يجمع النسك والتجارة والمغفرة، ومنفعة الدنيا والآخرة؛ {ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} - والمراد بذكر الله: ذكر التسمية عند الذبح والنحر، مثل قولك: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك، ومثل قولك عند الذبح: {إن صلاتي ونسكي. .) ٥٥ الآية؛ وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبين الرب أن الواجب الذبح على اسم الله». . . واختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضي الله عنه: بعد صلاة الإمام وذبحه. . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح؛ والشافعي دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين فاعتبر الوقت دون الصلاة. . . وقال أحمد: إذا انصرف الإمام فاذبح. . . وأصح هذه الأقوال قول مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة؛ فتقدم رجال ونحروا وظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نحر، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحر آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبي صلى الله عليه وسلم؛ أخرجه مسلم. . . واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك: ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده؛. . . وقال الشافعي: أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده. . . وعن الحسن البصري. . ثلاث روايات إحداها كما قال مالك، والثانية كما قال الشافعي، والثالثة إلى آخر يوم من ذي الحجة، فإذا أهل هلال المحرم فلا أضحى - ٥٦.

{فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير} ندبنا الله تعالى إلى أن نأكل من لحوم هدينا وأضاحينا وأن نطعم منها المحتاج؛ وجائز أن يكون {الفقير} من صفة البائس، أي: الذي ناله البؤس وشدة الفقر، وقد يقال بائس لمن نزلت به نازلة وإن لم يكن فقيرا.

{ثم ليقضوا تفثهم} أي ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج؛ كالحلق ورمي الجمار وإزالة شعث ونحوه. . وهذا عند الخروج من الإحرام {وليوفوا نذورهم} هذا أمر بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية ٥٧؛ {وليطوفوا بالبيت العتيق} وهذا الطواف الذي بعد النحر ركن من أركان الحج وهو المسمى: طواف الإفاضة لأنه يكون بعد الإفاضة من عرفات، ومما قال إسماعيل ابن اسحق: فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل، وهو الذي يحل به الحاج من إحرامه كله. اهـ؛ وجائز أن يكون: {وليطوفوا} فيه إشارة إلى ما يحب مولانا سبحانه من حشد الناس لتلك العبادة فإن [طواف الناس] في اللغة تعني: ملؤوا الأرض كالطوفان؛ {بالبيت العتيق} بهذه الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس.

٢٧ - (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

{رجالا} ماشين على أرجلهم. {ضامر} بعير مهزول أضناه السفر. {فج} ناحية وطريق. {عميق} بعيد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٦ إظهار

٢٨ - (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

{بهيمة الأنعام} الإبل والبقر والغنم.
{البائس} الذي ناله الاحتياج وشدة الفقر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٦ إظهار
٢٩ - (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)
{تفثهم} تحللهم من إحرامهم. {العتيق} القديم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٦ إظهار
٣٠ - (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)
{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ {٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {٣١)}. امتثلوا ذلك الذي شرعت لكم، وأمرت بأدائه، ومن يعظم أوامر الله ويحرص على إتمام العبادة والمناسك فهو خير ثوابا لمن أتم ووفى، وأجره عند الكريم الشكور الذي يقبل القليل، ويهب عليه الأجر الجزيل والثواب الجميل؛ {وأحلت لكم الأنعام} أحلت لكم لحوم الأنعام وهي ثمانية: الإبل والبقر والضأن والمعز، الذكور من هذه الأربعة والإناث منها {إلا ما يتلى عليكم} لكن ما يتلى عليكم في كتاب الله من المحرمات فلا يحل لكم تناول لحمه، ولقد بين الكتاب العزيز ما حرم حتى من هذه الثمانية، وذلك كالميتة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب؛ {فاجتنبوا الرجس من الأوثان} فلا تقربوا قذرا، ولا تعبدوا وثنا؛ {من} قيل: إنها لبيان الجنس، فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نهيها في غير هذا الموضع؛ وقيل: {من} لابتداء الغاية، نهاهم عن الرجس عاما ثم عين لهم مبدأه الذي منه يلحقهم، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس؛ الرجس: الشيء القذر؛ والوثن: التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضا؛ وقال عدي بن حاتم: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: " ألق هذا الوثن عنك " أي الصليب؛. . . . وقيل وصفها بالرجس، والرجس النجس في نجسة حكما؛ وليست النجاسة وصفا ذاتيا للأعيان وإنما هي وصف شرعي من أحكام الإيمان، فلا تزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء. . .؛ {واجتنبوا قول الزور}. . والزور: الباطل والكذب،. . وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وفي الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال: " عدلت شهادة الزور الشرك بالله ". . يعني أنها جمعت مع عبادة الأوثان في النهي عنها ٥٨.
٣١ - (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)
{حنفاء لله غير مشركين به} مستقيمين ومسلمين إلى المولى المعبود بحق، أو مائلين عن سبل العوج إلى سبيل الله وصراطه المستقيم؛ غير متخذين لله أندادا أو زاعمين له شركاء؛ {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} ولعل هذا من ضرب المثل لهلاك المشرك وأنه كالذي سقط من مرتفع شاهق فمزقته جوارح الطير ونهشته، أو طرحت به العاصفة في مهوى عميق، ودرك غائر بعيد.
٣٢ - (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)
{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ {٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ {٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ {٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {٣٦)

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ {٣٧)}
{شعائر} أوامر، والبدن الهدايا، لأنها تشعر أي تعلم وتدمى بشعيرة أي حديدة.
أي اتبعوا ذلك، أو ذلك أمر الله {ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب} ومن يعظم أوامر الله تعالى وعباداته ومناسكه ومنها: البدن الهدايا [وتعظيمها: استسمانها فإن تعظيمها من فعل ذوي القلوب التقية. {من} في ذلك للتبعيض، وما يقتضيه السياق من تعظيم أمر التعظيم يفهم من جعله بعض تقوى القلوب، بناء على أن تقييد التقوى بالقلوب للإشارة إلى أن التقوى قسمان: تقوى القلوب والمراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق، وتقوى الأعضاء والمراد بها التقوى الصورية.] ٥٩.
٣٣ - (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)
{لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق}
{منافع} درها ونسلها وركوبها وصوفها. {إلى أجل مسمى} إلى حين تنحر. {محلها} ظرف وجوب نحرها.
لكم في البدن والهدايا منافع: من درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها إلى وقت نحرها، ثم وجوب نحرها حين وصولها إلى بيت الله وفي حرمه الآمن ٦٠ بشرائطه الشرعية.
٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)
{ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}
{منسكا} ذبحا، ومناسك موضع الذبح أو العبادة.
{المخبتين} المطمئنين المتواضعين المجتهدين في العبادة.
فسره مجاهد بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى، فجعله مصدرا وحمل المنسك على عبادة خاصة، والنسك في الأصل بمعنى العبادة مطلقا، وشاع في أعمال الحج. لكن قول المولى سبحانه: {ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} يرجح ما ذهب إليه مجاهد في تفسير ما يراد بالمنسك، ومعلوم أن الذكر إنما يكون ذكرا عند مواطأة القلب للسان، فإن ذبحوا وسموا الله عند الذبح شاكرين لما أنعم به عليهم فقد تنسكوا، واستمسكوا بمناسك الله التي شرعها؛ {فإلهكم إله واحد فله أسلموا} فأخلصوا له تعالى الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما خالصا لا تشوبوه بإشراك؛ {فله أسلموا} معناه: لحقه ولوجهه وإنعامه آمنوا وأسلموا، ويحتمل أن يريد الاستسلام؛ أي له أطيعوا وانقادوا ٦١؛ {وبشر المخبتين} أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبشر المتواضعين الخاشعين المتعبدين بجزيل الثواب.
٣٥ - (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)
{الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}
{وجلت} خافت.
وأهل البشرى موصوفون بالخشية من الله تبارك وتعالى، فقلوبهم في إشفاق من هيبة الملك المتعال، وأثنى المولى على المؤمنين الخاشعين بصبرهم على كل ما يصيبهم، من تكاليف قد تشق، ونوائب قد تنزل، فالصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وبحسب الصابرين أن المولى سبحانه يرحمهم ويصلي عليهم، مصداقا لوعده الحق: {. . وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة. .) ٦٢؛ الحسنات تضاعف أجورها إلى سبعين ضعفا أو إلى سبعمائة أما الصبر فإن جزاءه فوق أن يعد أو يحصر: {. . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٦٣؛ {والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} فأهل الإخبات تخف عليهم الطاعات، وتحبب إليهم العبادات، يداومون عليها ويسارعون فيها بأبدانهم وأموالهم، يحافظون على الصلوات، ويبذلون في القربات.
٣٦ - (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير}
{البدن} الإبل، {صواف} قائمات معقولة إحدى أيديهن. {وجبت} سقطت. {القانع} الراضي بما عنده وبما أعطي من غير مسألة. {المعتر} المعترض للسؤال.
البدن: الإبل التي تنحر بمكة، وسميت بذلك لعظم بدنها؛ {لكم فيها خير} نفع في الدنيا وأجر في الآخرة؛ {فاذكروا اسم الله عليها صواف} أي اذبحوها وسموا الله عند ذبحها حالة كونها صافة أي قائمة وقد عقلت واحدة من يديها؛ {فإذا وجبت جنوبها} فإذا ذبحتموها وسقطت لجنبها وعلى شقها فهيئوها وأعدوها، {فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر} كلوا منها وأطعموا الفقير المتعفف، وكذا المتعرض للسؤال؛ {كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون} مثل ذلك التسخير ذللناها لكم مع كمال عظمها ونهاية قوتها. . . ولولا تسخير الله تعالى لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما وأقل قوة. . لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص ٦٤.
٣٧ - (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)
{لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم} ما يريد ربنا القدوس من عباده رزقا فهو الرزاق، ولا يبتغي منهم طعاما فهو سبحانه يطعم ولا يطعم، ولا ينظر إلى الصور التي كان يفعل المشركون من تلطيخ الكعبة بدماء الذبائح، وتشريح اللحم ونصبه حولها؛ {ولكنه يناله التقوى منكم} فربنا جل علاه يرفع العمل الصالح ٦٥؛ وفي الحديث الصحيح: " إن الله لا ينظر إلى صوركم وإلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "؛ فلن يصيب رضا الله أصحاب اللحوم والدماء المهراقة بمجرد الذبح والتصدق، إنما يحب الله مع ذلك أن يكون القربان حلالا مجزيا. ثم صرف فيما أمر سبحانه؛ والنيل لا يتعلق بالبارئ تعالى، ولكنه عبر عنه تعبيرا مجازيا عن القبول.. . . ابن عيسى: لن يقبل لحومها ولا دماءها، ولكن يصل إليه التقوى منكم؛ أي ما أريد به وجهه، فذلك الذي يقبله ويرفع إليه، ويسمعه ويثيب عليه. . . {كذلك سخرها لكم} من سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهي أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما يظهر إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسب ما يريدها العزيز القدير، فيغلب الصغير الكبير، ليعلم الخلق أن الغالب هو الله القهار فوق عباده.. . . . . . . {لتكبروا الله على ما هداكم} شرع سبحانه ذكر اسمه عليها في الآية قبلها فقال عز من قائل: {فاذكروا اسم الله عليها} وذكر هنا التكبير. . وفي الصحيح عن أنس قال: ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين ٦٦ أقرنين؛ قال: ورأيته يذبحهما بيده. . . وسمى وكبر. . . ذهب الجمهور إلى قول المضحي: اللهم تقبل مني؛ جائز؛ وكره ذلك أبو حنيفة؛ والحجة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: ثم قال: " باسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد " ثم ضحى به. . ٦٧؛ {وبشر المحسنين} بشرى للمحسنين بطيب المآب وحسن الثواب، جاءتنا من الكريم الوهاب، وبلغها من أنزل عليه الكتاب، صلى عليه ربنا وسلم؛ ولقد علمنا أن الإحسان أن نعبد الله تعالى كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا، ويسمع سرنا ونجوانا، فبشرى لمن صدق بالحسنى، وأعطى ابتغاء وجه ربه الأعلى، وأتم ما أمر به على خير ما يحب المولى ويرضى.
٣٨ - (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)
{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)}.
{خوّان} كثير الخيانة مضيع للأمانة، ناقض للعهد.
{كفور} شديد الجحود والنكران والكفران لجلال الله وفضله.
- حين فرغ من تعداد بعض مناسك الحج ومنافعها، وكان الكلام قد انجر إلى ذكر الكفار وصدهم عن المسجد الحرام، أتبعه بيان ما

يزيل ذلك الصد، ويمكن من الحج وزيارة البيت ـ ٦٨، {إن الله يدافع عن الذين آمنوا} الله الملك الحق المبين يحفظ المؤمنين من تبييت أعداء الدين؛ {إن الله لا يحب كل خوان كفور} قال مقاتل: أقروا بالصانع وعبدوا غيره، فأي خيانة أعظم من هذا؟! [وقيل: المعنى: يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم؛ وإن جرى إكراههم فيعصمهم حتى لا يرتدوا بقلوبهم؛ وقيل: يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة؛ ثم قتل كافر مؤمنا نادر، وإن ٦٩ فيدفع الله عن ذلك المؤمن بأن يقبضه إلى رحمته؛ {أذن للذين يقاتلون}. . . أي يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال. . ٧٠]؛ قال ابن العربي: قال علماؤنا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل. . لإقامة حجة الله تعالى عليهم، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله في قوله: {. . . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ٧١؛ فاستمر الناس في الطغيان، وما استدلوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم عن بلادهم؛ فمنهم من فر إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة؛ ومنهم من صبر على الأذى؛ فلما عتت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحده وعبده، وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم؛ وأنزل: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ـ إلى قوله الأمور}؛ [والمأذون فيه القتال بدليل قوله {للذين يقاتلون} فكأن التقدير: أذن للذين يقاتلون أن يقاتلوا من قاتلهم. . . {بأنهم ظلموا} أي بسبب كونهم مظلومين؛ وهي أول مرة آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية] ٧٢؛ ومما جاء في تفسير القرآن العظيم: قوله: {وإن الله على نصرهم لقدير} أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: {. . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ٧٣؛ وقال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) ٧٤؛ وقال: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ٧٥؛ وقال: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) ٧٦؛. . . ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وإن الله على نصرهم لقدير} وقد فعل، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددا، فلو أمر المسلمون وهو أقل بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفا وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى، نقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لم أومر بهذا "، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم، وهموا بقتله وشردوا أصحابه، ولما استقروا بالمدينة وصارت لهم دار إسلام، ومعقلا يلجأون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك. . قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدا

وأصحابه، {إلا أن يقولوا ربنا الله} أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، كما قال تعالى: {. . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم. .) ٧٧؛ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ٧٨؛ {وإن الله على نصرهم لقدير} عدة كاملة بإعلاء هذا الدين وإظهار أهله، كما قال سبحانه: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم. .) ٧٩؛ ثم وصف الموعودين بالنصر، فقال جل ثناؤه: {الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله} الذين أخرجهم أعدائي من ديارهم بقولهم ربنا الله، فما يحق لهم أن يطردوهم، ولكن لقولهم ربنا الله دون سواه طردوهم؛ {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا}، والصوامع: معابد النصارى؛ والبيع كنائس اليهود أو النصارى؛ والصلوات: الكنائس؛ والمساجد أماكن صلاة المسلمين؛ ـ أخبر أنه لولا دفعه ـ الناس بعضهم ببعض لهدم ما ذكر؛ ومن دفعه ـ تعالى ذكره ـ بعضهم ببعض: كفه المشركين بالمسلمين عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالم كالسلطان الذي كف به رعيته عن التظالم بينهم. . . . . .

وذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض، لولا ذلك لتظالموا فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم وما سمى جل ثناؤه، ولم يضع الله تعالى دلالة في عقل على أنه عنى من ذلك بعضا دون بعض ولا جاء بأن ذلك خبر يجب التسليم له، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بينته قبل، لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا ـ ٨٠، وذهب خصيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم، فالصوامع للرهبان، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين، قال ابن عطية: والأظهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات، وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها، إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب، ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك، لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته. . .

وقال النحاس: {يذكر فيها اسم الله} الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون: {يذكر فيها اسم الله} عائدا على المساجد لا على غيرها، لأن الضمير يليها، ويجوز أن يعود على {صوامع} وما بعدها، ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق، [فإن قيل: لم قدمت المساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدم بناء، وقيل: لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر، كما أخبر السابق في قوله: {. . فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ٨١. .} {ولينصرن الله من ينصره} من ينصر دين الله تعالى ورسوله، فإن له وعدا من الله الحق مقسما عليه مؤكدا أن ينصره مولانا القادر على ما يشاء، العزيز، الجليل، والممتنع الذي لا يرام، يغلب ولا يغلب] ٨٢، ومن أوصاف الذين أقسم الملك الكبير المتعال أن ينصرهم أنهم إذا وطنهم ربهم وأظهرهم، ونصرهم على عدوهم، وأيدهم بالسلطنة ونفاذ أمرهم، فإنهم يقيمون فرائض الدين من صلاة ٨٣ وزكاة وأمر بالمعروف ٨٤ ونهي عن المنكر، لا يلهيهم عن ذلك ما فتح عليهم من أمر الدنيا، ولا يطغيهم ما مكنوا فيه، {ولله عاقبة الأمور} مرجعها مصيرها إلى حكمه وتقديره، وقد أراد تمكين أهل هذا الدين في كل حين فيقع لا محالة

٣٩ - (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

{أذن} أبيح وأحل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٠ - (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

. {صوامع} معابد النصارى.

{بيع} كنائس اليهود أو النصارى. {صلوات} كنائس.

{مساجد} أماكن صلاة المسلمين. {ينصره} ينصر دينه ورسوله

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤١ - (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)

{مكناهم} وطناهم ونصرناهم وأظهرناهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٢ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ)

{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ {٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ {٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ {٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ {٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ

لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ {٤٨)}
{عاد} قوم هود عليه السلام. {ثمود} قوم صالح عليه السلام.
في هذه الآيات الكريمات ما يثبت الله تعالى به فؤاد النبي الأمين، ومن اتبعه من المؤمنين، على منهاج الحق والدين القويم، فإنه مهما جحد الجاحدون، وصد الجبارون المتكبرون، فقد سبقهم في هذا البغي والعتو كثيرون، فأمهلهم القوي العزيز، وكلما جاء حين البطشة بأمة من تلك الأمم الفاجرة الكافرة أهلكها القهار، وأحل بديارها البوار، فكيف نكست أحوالهم فانقلبوا بعد ما مكنوا فيه إلى هوان وذلة ودمار؛ وكثير من القرى التي كذبت رسلي، لحلمت عليهم ليتذكروا من يتذكر، ثم لما جاء أجلهم خربت ديارهم، وغورت ماءهم، وهدمت قصورهم؛ أفعموا فلم يمشوا في نواحي وجهات الأرض ويعتبروا بآثار الأمم التي سادت ثم بادت، وملكت ثم هلكت، أم أن عيون الأبصار مفتوحة، وعيون البصيرة والاعتبار مغلقة، فإن عمى البصائر هو العمى الذي يردي، مصداقا لوعد المولى الحق: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ٨٥؛ ولو لم تطمس بصائرهم لكان في مشاهدتهم لأثار من دمروا أبلغ معتبر ومزدجر أن يصيبهم ما أصاب الفجار قبلهم؛ يقول الحق جل علاه: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) ٨٦؛ ولو كانوا يزدجرون، لما استعجلوا نزول العذاب استبعادا لحصوله ووقوعه ونزوله، كالذين رموا رسول الله إليهم بالسفاهة والذب وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٨٧؛ فوقع عليهم من ربهم الرجس والغضب، وقطع الله دابر هؤلاء المكذبين من قوم هود - عليه وعلى نبينا وسائر الأنبياء أزكى صلاة وأفضل تسليم - ومن بعدهم قوم صالح عليه السلام، إذ جاءهم بالناقة آية على صدقه في دعوى الرسالة وناداهم وقال: {. . يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ٨٨؛ لكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستعجلوا البطشة الكبرى: {فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ٨٩؛ ومن قبلهما قوم نوح عليه السلام إذ حلم عليهم وصبر على تكذيبهم وأذاهم ألف سنة إلا خمسين عاما فما ازدادوا من الحق والرشد إلا فرارا؛ وتلطف في ترغيبهم وترهيبهم فمكروا مكرا كبارا؛ ومضوا يتواصون بالكفران والفجور والطغيان، وضاقوا بأول أولي العزم من الرسل عليه الصلاة السلام، وتحدوه أن ينزل بهم ما توعدهم الله من بأس فاستعجلوا بما يقطع دابرهم: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٩٠؛ وأكابر المجرمين من المشركين أكثروا طلب حلول العذاب الذي أنذروه على لسان خاتم النبيين، واستبعدوا أن يحل بهم بلاء في الدنيا أو في يوم الدين، ولقد حكى عنهم في ست سور مباركات هذا الاستخفاف بقول لم يتبدل: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ٩١؛ كما دعا شقي من أشقيائهم وكانوا على آثاره مقتدين، فكأنهم جميعا كانوا لذلك راجين: {وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٩٢.

{ولن يخلف الله وعده} فإنه سبحانه يحقق ما وعد، وهو على ذلك وعلى كل شيء قدير؛ {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} ومهما أذقناهم من العذاب فإن العذاب الذي ينتظرهم يوم يقوم الناس لرب العالمين أشد وأبقى، واليوم الواحد من أيام خزيهم وحسراتهم وآلامهم في دركات دار ندامتهم وحريقهم لهو في ثقله وطول بلائه كألف سنة من سني الدنيا
٤٣ - (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٤ - (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)
{أصحاب مدين} قوم شعيب عليه السلام.
{أمليت} أخرت عنهم العقاب. {أخذتهم} عاقبتهم وأهلكتهم.
{نكير} إنكاري عليهم، وتغييري ما كانوا فيه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٥ - (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)
{فكأين} فكثير.
{خاوية} ساقطة، أو خالية. {عروشها} سقوفها. {معطلة} متروكة.
{مشيد} رفيع طويل، أو حصين، أو معمول بالجص والبلاط.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٦ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٧ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٨ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)
{وكأي من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير}
{المصير} المرجع والمآب.

وكثير هم أهل القرى التي عتت عن أمر ربها ورسله، وكانوا أشد قوة من قريتك التي أخرجتك، وكانوا أكثر من مشركي قريش أموالا وأولادا، ومع استحلالهم الحرمات وتكذيبهم الرسل والرسالات، أمهلت كل قوم من أولئك الأقوام الفجرة الظلام، حتى إذا جاء وقت إحلال بأسي بهم أهلكتهم فإني عزيز ذو انتقام، ومردهم بعد ذلك إلي فأصليهم حر السعير وسوء المستقر والمقام.

مما يقول صاحب جامع البيان أبو جعفر بن جرير الطبري " وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحق والبرهان وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية. . ومنهاجهم من قبلهم فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم، ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم، بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال. . . {فكيف كان نكير} يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمة، وتنكيري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم؟!، ألم أبدلهم بالكثرة قلة؟! وبالحياة موتا وهلاكا؟! وبالعمارة خرابا؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذبيك من قريش وإن أمليت لهم إلى آجالهم فإني منجزك وعدي فيهم كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أممهم. . فكأين من قرية أهلكناها ومن بئر عطلناها بإفناء أهلها، وإهلاك وارديها، فاندفنت وتعطلت فلا واردة لها ولا شاربة منها، ومن قصر مشيد رفيع بالصخور والجص قد خلا من سكانه بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم، فبادوا وبقيت قصورهم المشيدة خالية منهم. . . أفلم يسيروا هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبي رسل الله الذين خلوا من قبل. . . فينيبوا من عتوهم وكفرهم ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحق {قلوب يعقلون بها} حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيناه {أو آذان يسمعون بها}. . تصغي لسماع الحق فتعي ذلك وتميز بينه وبين الباطل. . {ولن يخلف الله وعده} الذي وعدك فيهم من إحلال عذابه ونقمته بهم في عاجل الدنيا، ففعل ذلك ووفى لهم بما وعدهم، فقتلهم يوم بدر. . . عني بقوله: {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} نفي العجلة عن نفسه، ووصفها بالأناة والانتظار. . . {وكأين من قرية أمليت لها}. . أمهلتهم وأخرت عذابهم وهم بالله مشركون، ولأمره مخالفون. . . ثم أخذتها بالعذاب فعذبتها في الدنيا بإحلال عقوبتنا بهم. . . وإلى مصيرهم أيضا بعد هلاكهم، فيلقون من العذاب حينئذ مالا انقطاع له اه.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا

مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ {٥١)}
{نذير} مخوف من مصير من فسق وكفر. {مبين} موضح ومظهر.
سنة الله تعالى أن يبعث في كل أمة من يخوفها ويحذرها مصير فسق وكفر {. . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ٩٣؛ والرسل لا يملكون من أمر الناس إلا أن يبلغوهم، ويبينوا لهم ما جاءهم من ربهم؛ ولعل مناسبة الآية لما قبلها أنهم حين يتحدون الرسول أن ينزل بهم العذاب الموعود إنما يطالبونه بشيء لا يملكه، والذي يملك إنزال العذاب بهم إنما هو الله تعالى وعده؛ وكذلك نوح عليه السلام على قومه! إذ قالوا: {. . يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٩٤؛ فأجابهم بما نطقت به الآية الكريمة: {قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) ٩٥؛ وكذلك ها هنا. أمر خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم أن يقول للمتعنتين الداعين بالشر المستعجلين: لست إلا منذرا، مبينا وموضحا، ومحذرا مخوفا، ـ من غير أن يكون لي دخل في إتيان ما تستعجلون،.
. . وأما وجه ذكر المؤمنين وثوابهم في قوله تعالى: {فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم} فالزيادة في إغاظة المشركين، فهو بحسب المآل إنذار؛ ويجوز أن يقال: إن قوله سبحانه: {فالذين آمنوا} الآية، تفصيل لمن نجع فيه الإنذار من الناس المشركين، ومن بقي منهم على كفره. . فمن آمن ورجع عما هو عليه فله كذا، ومن داوم على كفره واستمر على ما هو عليه فله كذا. . . والمراد بالرزق الكريم هنا الجنة. . وكذلك في جميع القرآن. .، ومعنى الكريم ـ في صفات غير الآدميين ـ: الفائق

٥٠ - (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
{مغفرة} صفح عن الزلات وستر للسيئات. {ورزق كريم} عطاء واسع.

٥١ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)
{والذين سعوا في آياتنا}
{سعوا في آياتنا} بذلوا الجهد في إبطالها. {معاجزين} مسابقين للمؤمنين.
أي بذلوا الجهد في إبطالها، فسموه تارة سحرا، وتارة شعرا، وتارة أساطير الأولين؛ وأصل السعي: الإسراع في المشي، ويطلق على الإصلاح والإفساد، يقال: سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه؛ {معاجزين} أي مسابقين المؤمنين؛ والمراد بمسابقتهم: مشاقتهم لهم ومعارضتهم، فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله. . {أولئك} الموصوفون بما ذكر {أصحاب الجحيم} أي ملازموا النار الشديدة التأجج، وقيل: هو اسم دركة من دركات النار ٩٦

٥٢ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)
{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ {٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ {٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ {٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ {٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ {٦٠)}

{رسول} إنسان رجل أوحى الله تعالى إليه بشرع يعمل به ويبلغه للناس.
{نبي} إنسان رجل أوحى الله تعالى إليه بشرع يعمل به.
{تمنى} قال، أو: حدث، أو: قرأ وتلا.
{فينسخ} فيزيل ويمحي ويبطل.
يذكر الله تعالى بسنته في من قد أرسل قبل خاتم النبيين، وسنته سبحانه لا تتبدل ولا تحول، بل تمضي على سننها إلى يوم الدين، فما أرسل المولى سبحانه من رسول ولا نبي إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ألقى الشيطان الشبه والتخيلات ٩٧ فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به، كما قال تعالى: {. . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم. .) ٩٨، وقال سبحانه: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. .) ٩٩: وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم: {. . حرم عليكم الميتة. .) ١٠٠، إنه يحل ذبيحة نفسه ويحرم ذبح الله تعالى، وقولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة والسلام: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} إن عيسى عبد من دون الله تعالى، والملائكة - عليهم السلام عبدوا من دون الله تعالى {فينسخ الله ما يلقي الشيطان} أي فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه ويذهب به بتوفيق النبي صلى الله عليه وسلم لرده، أو بإنزال ما يرده، {ثم يحكم الله آياته} يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه، و {ثم} للتراخي الرتبي فإن الإحكام أعلا رتبة من النسخ، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي. .، {والله عليم} مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم، ومن جملته ما يصدر من الشيطان وأوليائه {حكيم} في كل ما يفعل، ومن جملته تمكين الشيطان من إلقاء الشبه، وأوليائه من المجادلة بها، وإبداؤه تعالى ردها ١٠١.
٥٣ - (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)
{ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم}
{شقاق بعيد} مخالفة تامة، وعداوة شديدة.
{فتنة} عذابا، أو: بلاء واختبارا.
وربنا القوي القدير لا يعجزه أن يحول بين الشيطان الإنسي أو الجني وبين السعي في آيات الله وبذل الجهد في إبطالها، كما قال سبحانه {. . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) ١٠٢، لكنه جلت حكمته جعل ذلك ابتلاء واختبارا، كما بين جل ثناؤه في آية كريمة: {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) ١٠٣، وبذلك كانوا يتواصون ويقولون ما حكاه الكتاب المجيد: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ١٠٤، والمفتونون بتلك الشبه إما أن يكونوا منافقين، {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا. .) ١٠٥، أي شك ونفاق، وهو المناسب. . وتخصيص المرض بالقلب مؤيد له لعدم إظهار كفرهم. . {والقاسية قلوبهم} أي الكفار المجاهرين. . . ورجح ما قاله ابن عطية بأن أمر التعليل عليه أظهر، أي: فينسخ الله تعالى ما يلقيه الشيطان ويرده ليجعله بسبب الرد وظهور فساد التمسك به عذابا للمنافقين، أي سببا لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهور فساده. . ١٠٦، وهذا على أن معنى: {فتنة} عذابا، {وإن الظالمين لفي شقاق بعيد} وإن المتجاوزين الحد، منافقين أو مجاهرين بالكفر لفي مخالفة عن الحق تامة، وعداوة للمهتدين شديدة، {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ١٠٧.
٥٤ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
{فتخبت} فتخضع وتنقاد.
{وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك} وضمير {أنه} لتمكين الشيطان من الإلقاء، أي: وليعلم أن ذلك التمكين هو الحق المتضمن للحكمة البالغة ١٠٨، {فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم} فيثبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيمانا فتخضع لمنهاج الله تعالى وتنقاد قلوبهم، {وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم} وإن المعبود بحق جل ذكره وتبارك اسمه لمثبت الذين آمنوا على الطريق الموصلة إلى رضاه،

وسعادة المؤمن في أولاه وأخراه، وإنها لسبيل قويمة لا زيغ فيها ولا عوج.
٥٥ - (وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)
{ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم}
{مرية} شك. {الساعة} القيامة.
{بغتة} فجأة. {يوم عقيم} منفرد عن سائر الأيام لا مثل له ولا يوم بعده.
قال ابن زيد: {منه} أي: مما ألقى الشيطان، فيكون المعنى: وسيبقى أهل الشك والريب وقسوة القلب من الكافرين مخدوعين بوساوس وشبهات الشياطين، حتى تفجأهم القيامة وهم في طغيانهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، ويوم الحساب والجزاء الذي لا ليل له لا ينصرون، بل هم في عذاب جهنم خالدون، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيما، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضا، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل والتخويف، و {أو} في محلها لتغاير الساعة وعذابها، وهي لمنع الخلو، وكأن المراد المبالغة في استمرارهم على المرية- ١٠٩.
٥٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)
{الملك يومئذ لله يحكم بينهم} يوم تقوم الساعة، ويشاهد عذابها وكربها لا يملك أحد شيئا، وحتى ما كان من الملك الصوري في الدنيا ينقطع، وليس لأحد تصرف في أمر من الأمور لا صورة ولا معنى، وإنما ينفرد بالملك والسلطان والقهر والحكم والاستيلاء الله وحده لا شريك له: {. . لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ١١٠؛ فيقضي الله تعالى ويفصل، ويحكم لا معقب لحكمه، ويأمر بمجازاة كل بما عمل، {فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم} فأما أهل التصديق واليقين، والذين استقاموا على منهاج رب العامين، وقدموا أعمال البر والطاعة والخير، فأولئك في غرفات الجنة آمنون، وفي النعيم والرضوان خالدون.
٥٧ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)
{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا} ومن لم يؤمن بالله ورسوله وبكل ما يجب الإيمان به بل شك ولم يستيقن، وجحد ولم يذعن، وكذب بالقرآن والبرهان كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، {فأولئك لهم عذاب مهين} أي مقابل استكبارهم وإبائهم عن الحق، كقوله تعالى: {. . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ١١١ أي صاغرين ١١٢.
٥٨ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
{والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مدخلا يرضونه}
{رزقا حسنا} في البرزخ، أو بعد البعث.
ومن يحتمل الأذى من أجل الوصول إلى مرضاة الله تعالى ونصرة دينه، ولا تقعده عن حماية دعوة الحق، ونشر لواء الهداية أموال ولا أوطان، ولا أهل ولا خلان، ثم قتل فمات شهيدا، أو فارق الحياة من غير قتال ١١٣، فإن المولى الشكور الغفور يعظم أجره، ويعلي درجته وقدره، ويغدق عليه فضلا كثيرا، ويلقى نضرة وسرورا، وجنة وحريرا؛ {وإن الله لعليم حليم} أحاط علمه سبحانه بمن أخلص الهجرة والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا؛ ويحلم جل ذكره ويصفح عن سيئة يكون قد ألم بها؛ وحديث أم حرام في الصحيح؛ وفيه نام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عند خالته أم حرام بنت ملحان فاستيقظ وهو يضحك فقالت ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: " ناس من أمتي يعرضون علي يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة " قالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: " أنت منهم " ثم نام صلى الله عليه وسلم فاستيقظ وهو يضحك: فقالت ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: " ناس من أمتي يعرضون علي يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة " قالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني من الأولين، قال: " أنت من الأولين "، ومعلوم أن أم حرام رضي الله عنها خرجت مع المجاهدين في البحر حتى دخلوا وهي معهم جزيرة

قبرص، فصرعت عن دابتها فماتت ولم تقتل، فعلم أن الميت في سبيل الله والمقتول في سبيل الله كلاهما شهيد، هذا وقد بقي مسجد في قبرص يحمل اسمها رضي الله عنها
٥٩ - (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)
{مدخلا يرضونه} درجات في الجنة ترضيهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٨ إظهار
٦٠ - (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)
{ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله}
بين أنه مع إكرامه لهم في الآخرة لا يدع نصرهم في الدنيا. . فقال: {ذلك} قال الزجاج: أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد. . ١١٤؛ {ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله} والذي يدفع عن نفسه وعمن وعما شرع له أن يدفع عنه، ويجازي الجاني بمثل ما جنى به عليه، أذن له من الله تعالى أن يدافع فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، سمى الابتداء باسم الجزاء للطباق والملابسة من حيث إن ذلك سبب وهذا مسبب عنه؛ {ثم بغي عليه} أي ثم كان المجازي مبغيا عليه، أي مظلوما، ومعنى {ثم} تفاوت الرتبة، لأن كونه مبدوءا بالقتال معه نوع ظلم، كما قيل: البادئ أظلم، وهو موجب لنصرته ظاهرا، إلا أن كونه في نفس الأمر مظلوما هو السبب الأصلي في النصرة ١١٥ [يقول تعالى ذكره: إن الله لذو عفو وصفح لمن انتصر ممن ظلمه من بعد ما ظلمه الظالم بحق، غفور لما فعل ببادئه بالظلم مثل الذي فعل به، غير معاقبه عليه] ١١٦.
ربنا خير الناصرين، وولي المتقين، لا يفوته ولا يعجزه أن يخذل الباغين، لأنه سبحانه قادر على تغليب بعض المخلوقات على بعض، ويدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل؛ وفعل ذلك أيضا بأنه وعى سمعه كل ما يقولون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه جل ذكره وتبارك اسمه يرى كل شيء، ومنه ما يعملونه، لا يغيب عن بصره مرئي ولا عمل؛ {ذلك} ـ أي الوصف بخلق الملوين وبالإحاطة بما يجري فيهما بسبب أن الحقيقة منحصرة في ذاته، وأن وجود غيره ولاسيما الأوثان موسوم بالبطلان. . ويعلم مما ذكر أنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا؛. . . . .
ثم ذكر أنواعا أخر من دلائل قدرته ونعمته فقال: {ألم تر} قيل: هي رؤية البصر لأن نزول الماء من جهة السماء أو اخضرار النبات من المبصرات؛ وقيل: بمعنى العلم، لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم لم يعتد بها؛ وفي قوله: {فتصبح} دون أن يقول: فأصبحت مناسبا لـ {أنزل} إشارة إلى بقاء أثر المطر زمانا طويلا. . . .
ولا يبعد أن تكون هذه الآية إشارة إلى دليل الإعادة كما في أول السورة؛ وهذا قول أبي مسلم {إن الله لطيف خبير} قال الكلبي: لطيف في أفعاله خبير بأعمال خلقه؛ وقال مقاتل: {لطيف} باستخراج النبت؛ {خبير} بكيفية خلقه؛ وقال ابن عباس: {لطيف} بأرزاق عباده {خبير} بما في قلوبهم من القنوط. . . ثم بين أن كل ما في السماوات والأرض مِلكه ومُلكه لا يمتنع شيء من تصرفاته وهو غني عن كل ذلك، وإنما خلقها لحاجة المكلفين إليها، ومنها ومن جملتها المطر والنبات خلقها رحمة للحيوانات وإنعاما عليها، وإذا كان إنعامه خاليا عن عرض عائد إليه كان مستحقا للحمد، بل هو حميد في ذاته وإن لم يحمده الحامدون؛ من جملة نعم الله تعالى على عباده تسخير الأرضيات وتذليلها لهم فلا أصلب من الحديد والحجر، ولا أشد نكاية من النار، وقد سخرها للإنسان، وسخر لهم الأنعام أيضا ينتفعون بها بالأكل والركوب والحمل عليها. . . وسخر لهم الدواب وغيرها، وسخر لهم الفلك حال كونها جارية بأمره، وهو تهيئة الأسباب المعاونة ودفع الأشياء المضادة لسهولة جريها، ولا ريب أن الانتفاع بالأرضيات لا يتأتى إلا بعد الأمن من وقوع السماء على الأرض، فمنّ الله تعالى. . بأن حفظها كيلا تقع. . وذلك بمحض الاقتدار،. . . وفي قوله: {إلا بإذنه} إشارة إلى أن الأفلاك ستنخرق وتنشق فتقع على الأرض؛. . . ثم ذكر الإنسان، مبدأه ومعاده فقال: {وهو الذي أحياكم{؛ نظيره قوله: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم. .) ١١٧ ـ ١١٨؛ أحيانا الله تعالى بعد موات، ونفخ فيمن شاء أن يحييه الروح؛ ثم يميت الحي الذي لا يموت ـ يميت

كل مخلوق عند انقضاء أجله الذي قدره سبحانه له، ثم يحيي الموتى يوم البعث؛ {إن الإنسان لكفور} جنس الإنسان مبالغ في الجحود والكفران، لآلاء وجلال ووحدانية الملك الديان؛ وهذا وصف لبعض أفراد البشر؛ {لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه} هو كقول المولى تبارك اسمه: {. . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. .) ١١٩؛ وكقوله جل وعز: {لكم دينكم ولي دين) ١٢٠؛ {فلا ينازعنك في الأمر} النهي للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته، أي:. . لا يغالبنكم في أمر ملتكم فيزيلوكم عنها، فمن يزحزح عن صراط الإسلام السوي، ويميل إلى غير سبيل المؤمنين فليس من الله في شيء، ولقد جاء الذي ها هنا مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة ١٢١، بينما وصف القرآن أولياء الشيطان المفتونين عن الرشد المرتدين عن الحق بأنهم خسروا الدنيا والآخرة بسبب مطاوعتهم لأعداء الدين في شيء من ضلالهم المبين؛ جاء في التحذير والتنفير قول الله العلي الكبير: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) ١٢٢

{وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم. وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون} إلى مثل هذا نودي النبي صلى الله عليه وسلم ونودي كل فرد من أمته: {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم. .) ١٢٣؛ وجاء القول الحق من الله الحق: {. . لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير. والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد. الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان. .) ١٢٤؛ وهكذا فالهدى القرآني السوي يحملنا أمانة الدعوة إلى الله جل ذكره، مع اليقين بأنها أقوم سبيل، ويعهد إلينا بترك الانشغال بمراء السفهاء والجهال، مع إنذارهم ساعة الحساب والسؤال، ثم الجزاء الذي يخلد المبطل في سوء المآل وعذاب النكال؛ وسنن الكتاب المجيد أن يمسكنا بالدعوة إلى الرشد، دون أن يعوقنا لغو أو تثبيط أهل الكيد؛ كما قال ربنا تبارك اسمه {ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك. .) ١٢٥

٦١ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

{يولج} يدخل، ويزيد في هذا بمقدار ما ينقص من ذاك.

٦٢ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار

٦٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

{من السماء} من جهة السماء. {ماء} مطرا.

{لطيف} يوصل للخلق منافعهم برفق ويسر

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار

٦٤ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

{الغني} الذي لا يفتقر إلى شيء أصلا.

{الحميد} المحمود من الخلق قالا، أو حالا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار

٦٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

{سخر} ذلل ويسر.

{الفلك} السفن. {بإذنه} بمشيئته.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار

٦٦ - (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

{أحياكم} أول ما نفخت فيكم الروح.
{يميتكم} يقبض أرواحكم عند مجيء آجالكم. {يحييكم} عند البعث.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار
٦٧ - (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)
{منسكا} شرعة. {ناسكوه} متعبدون به. {ينازعنك} يزيلنك عما أنت عليه.
{مستقيم} مستو معتدل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار
٦٨ - (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار
٦٩ - (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)
{الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون}، مما ذكر أبو عبد الله القرطبي: نازعوه، فكيف يقال: {فلا ينازعنك}؟ الجواب: أن المعنى: فلا تنازعهم أنت؛ أمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم؛ ولا جواب لصاحب العناد؛ {الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون} في خلافكم آياتي، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل؛. . . . في هذه الآية أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتا ومراء ألا يجاب ولا يناظر ويدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم. ا هـ.
٧٠ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)
{ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماوات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير}
{كتاب} اللوح المحفوظ، أو صحائف الأعمال.
خطاب لكل عالم، أو للرسول صلى الله عليه وسلم [والاستفهام للتقرير] والمراد تقوية قلبه، وإلا فالرسالة لا تكون إلا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات، وإلا اشتبه عليه الصادق بالكاذب؛ {إن ذلك} الذي ذكر وهو ما في السماء والأرض {في كتاب}. . . أراد به الحفظ والضبط والجمهور على أنه حقيقة، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه ١٢٦، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء "؛ {على الله يسير} كتب ما يكون من شأن الخلق الشامل لكل ما سيجري في ملكوت السماء والأرض، ومنه ما سيقول المكلفون وما يعملون، وما توسوس به أنفسهم وما يسرونه أو به يجهرون، ذلك الأمر وكل أمر على الله تعالى القوي هين لا يعجزه ولا يؤوده؛ هذا تصوير لضده، وهو صعوبة مثل ذلك على غيره؛ وإلا فلا مدخل لليسر والصعوبة في كمال قدرته ١٢٧.
٧١ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)
{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)}.
{سلطانا} دليلا وبرهانا، وحجة ووحيا.

ويعبد المجادلون بغير الحق، الممارون بالباطل من المشركين يعبدون متجاوزين الله تعالى ما لم يشهد به علم، ولا تنزل به وحي، فلا دليل عليه ولا برهان يعبدون من دون الله ما لا دليل من جهة السمع ولا من جهة العقل على جواز عبادته، وتقديم الدليل السمعي لأن الاستناد في أكثر العبادات إليه، مع أن التمسك به في هذا المقام أرجى في الخلاص إن حصل لوم من التمسك بالدليل العقلي ١٢٨؛. . . . . . وقال العلامة الطيبي: في اختصاص الدليل السمعي بالسلطان والتنزيل، ومقابله بالعلم، دليل واضح على أن الدليل السمعي هو الحجة القاطعة، وله القهر والغلبة، وعند ظهوره تضمحل الآراء وتتلاشى الأقيسة، ومن عكس ضل الطريق، وحرم التوفيق؛. . . وذكر الفاضل الرومي ١٢٩ بعد بحث أن الحق أنه يفيد اليقين في العقليات أيضا، وأما أنه مقدم على الدليل العقلي فالذي عليه علماؤنا خلافه، وأنه متى عارض الدليل العقلي الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي ١٣٠ إلى ما لا يعارضه الدليل العقلي. . }وما للظالمين{ أي: وما لهم؛ إلا أنه عدل إلى الظاهر تسجيلا عليهم بالظلم مع تعليل الحكم به. . . والمراد نفي أن يكون بسبب ظلمهم من يساعدهم في الدنيا بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم ودفع ما يخالفه، وفي الآخرة بدفع العذاب عنهم ١٣١.

٧٢ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

}وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا{

}تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر{ ترى في وجوههم العبوس وعلامات الغيظ. }يسطون{ يبطشون.

عباد الأوثان، وأهل الكفر والطغيان إذا سمعوا آيات الله الواضحات المبينات للحق والرشد وسبل السعادة الموصلة إلى الرضوان والجنات، زادوا بسماعها نفورا عن الإيمان والهدى، مصداقا لما أنبأنا به الخلاق العليم: {. . ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) ١٣٢؛ }وإنه لحسرة على الكافرين) ١٣٣؛ {. . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى. .) ١٣٤؛ فإذا قرئت عليهم كلمات الله تعالى وكلها صدق وعدل ظهر الغيظ والعبوس على وجوههم، وأوشك الحقد أن يحملهم على البطش بمن يقرأ كتاب العزيز سبحانه، وقد حملهم على البطش فعلا بكثير ممن قرأوا من هذا الذكر الحكيم؛ وقاربوا بل آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطوا إليه أيديهم وألسنتهم بالسوء حين قرأ عليهم القرآن؛ يقول مولانا جل وعز: }وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون) ١٣٥؛ }قل{ على وجه الوعيد والتقريع }أفأنبئكم{ أي:. . . أتسمعون فأخبركم }بشر من ذلكم{ الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم، أو: مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلي عليكم؟! }النار{ أي: هو أو هي النار؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف. . . وقيل: هو مبتدأ خبره قوله تعالى }وعدها الله الذين كفروا{. . وجوز أن يكون خبرا بعد خبر. . . }وبئس المصير{ النار ١٣٦.

٧٣ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

}يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له{

}ذبابا{ اسم واحد للذكر والأنثى من الهوام المعروفة. }لا يستنقذوه{ لا يستخلصوه.

[ضرب للأصنام مثلا. . . بلفظ الماضي لأنه معلوم من قبل لكل ذي عقل؛ والمثل بمعنى: المثل، استعاروه لجملة من الكلام مستغربة مستفصحة، متلقاة بالرضا والقبول، أهل للتسيير والإرسال، وذلك أنهم جعلوا مضربها مثلا لموردها، ثم استعاروا هذا المستعار للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لتماثلهما في الغرابة، وهذا هو الذي قصد في الآية }فاستمعوا له{ أي: تدبروه وحق له ذلك فإن السماع المجرد لا نفع له. . . }ولو اجتمعوا له{ نصب على الحال كأنه قيل: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا، فكيف لو انفردوا؟ وأقول: الظاهر أن }لو{ هذه للمبالغة، وجوابه محذوف لدلالة ما تقدم عليه، تقديره: ولو اجتمعوا لخلق الذباب لن يخلقوه أيضا. . . ثم زاد لعجزهم وضعفهم تأكيدا بقوله: }وإن يسلبهم الذباب{ الآية؛ بمعنى: اترك أمر الخلق والإيجاد وتكلم فيما هو أسهل من ذلك؛ إن هذا الحيوان الضعيف الذي لا قدرة لهم على خلقه لو سلب منهم شيئا لم يقدروا أيضا على استخلاص ذلك

الشيء منه. . . ثم عجب من ضعف الأصنام والذباب بقوله: {ضعف الطالب والمطلوب} فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه] ١٣٧.

٧٤ - (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

{ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز}

{إن الله لقوي عزيز} إن المعبود بحق الذي لا إله إلا هو لقادر غالب.

قال الحسن والفراء: ما عظموه سبحانه حق تعظيمه ١٣٨. اهـ. ولو عظموه ما اتخذوا شركاء لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإنما رب العزة والجلال، والعظمة والكبرياء، هو الخالق البارئ المصور القادر الغالب.

٧٥ - (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

{الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور}

{يصطفي} يختار.

ربنا المعبود بحق لا إله سواه يختار من الملائكة من يرسلهم بالوحي إلى أنبيائه ومن شاء من خلقه؛ ويختار من الناس رسلا مبشرين ومنذرين، وهو سبحانه قد وسع سمعه ووعى كل شيء، ويرى جل علاه كل موجود، ومن هذه الموجودات أولياء الحق وأعداؤه، وهو بهؤلاء وبكل شيء خبير.

٧٦ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

{ما بين أيديهم} ما قدموا. {ما خلفهم} ما تركوا.

{يعلم ما بين أيديهم} عن الحسن: أول أعمالهم {وما خلفهم} وآخر أعمالهم يعني المكلفين {وإلى الله} لا إلى غيره {ترجع الأمور} تنتهي إليه المصائر، وترد إليه الخلائق، فيجازي كلا حسبما علم من أعماله؛ وفي كل ذلك زجر عن الإقدام على المعصية، وبعث على الجد في الطاعة ١٣٩.

٧٧ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {٧٨)}

عهد الله تعالى إلى المؤمنين أن يحافظوا على الصلاة ويتموها، وسمى الصلاة باسم بعض أركانها لفضل هذين الركنين، والركوع لغة الانحناء، وشرعا: أن يحني المصلي صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم ليطمئن راكعا؛ مما روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم: وكان إذا ركع لم يشخص رأسه أي يرفعها ولم يصوبه يعني يخفضها ولكن بين ذلك؛ والسجود لغة: السقوط؛ وشرعا: وضع المصلي جبهته وكفيه وركبتيه وأصابه قدميه على الأرض، ومن تمام تمكين الأنف من الأرض، وتنحية اليدين عن الجنبين ووضع الكفين حذو المنكبين، ورفع المرفقين بالنسبة للرجل؛ وبعد الأمر بالركوع والسجود ويراد بهما الصلاة أمر سبحانه بأن نعبده دون سواه، فهذا أعم من الصلاة، ثم أمرنا أن نفعل الخير الذي هو مرضاة لله الحق، مع ما فيه من الشفقة على الخلق، فمن وفى بهذا العهد فيرجى أن يكون من الفائزين الرابحين.

٧٨ - (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى

وَنِعْمَ النَّصِيرُ)
{اجتباكم} اختاركم. {جاهدوا في الله} جاهدوا من أجل نصرة دين الله. {حرج} ضيق ومشقة. {تفلحون} ترجون وتفوزون. {واعتصموا} ثقوا واعتضدوا واستعينوا وتأيدوا. {مولاكم} حافظكم.
{وجاهدوا في الله حق جهاده} جاهدوا من أجل نصرة دين الله، أو قاتلوا وليس في نيتكم إلا إعلاء كلمة الله، واصدقوه في حملتكم على الكافرين، ولا تتولوا مدبرين {هو اجتباكم} الله العلي العظيم الذي يختص برحمته وفضله من يشاء هو الذي اختاركم أيتها الأمة الخاتمة وكرمكم وشرفكم على سائر الأمم، وخصكم بصفوة الرسل وخاتم النبيين، وبالإسلام الذي هيمن على كل شرع سبقه، ولا ينسخه دين، {وما جعل عليكم في الدين من حرج}} لم يشرع لكم في هذه الملة المرتضاة ما فيه عنت أو مشقة، وإنما أراد سبحانه بكم اليسر ولم يرد بكم العسر؛ في صحيحي البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: " بشرا ولا تنفروا ويسرا ولا تعسرا "؛ وفي البخاري وغيره عن النبي صلوات ربنا عليه وسلامه قال: " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة " ١٤٠؛ {ملة أبيكم إبراهيم} قدر ابن جرير محذوفا، فيكون التقدير: ما جعل عليكم في الدين من ضيق بل وسعة عليكم كملة أبيكم ١٤١ إبراهيم؛ فكأن {ملة} منصوب بنزع الخافض؛ {هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا} يمكن أن يكون المعنى: الله الذي اجتباكم ولم يجعل عليكم في تكاليف دينكم ما لا تطيقون هو الذي سماكم بالمسلمين، في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن العزيز؛ وعلى هذا الرأي مجاهد ١٤٢ وغيره.
{ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس} - أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا، عدولا خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس، لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها. . ١٤٣.
{فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} إذ خصكم بهذا الفضل وتلك الخيرية، فاعبدوه بما يصلكم بعروته الوثقى جل علاه، وتقربوا إليه بالفريضة التي فيها الشفقة على خلق الله؛ قال قتادة: أعطيت هذه الأمة ما لم يعطه إلا نبي: كان يقال للنبي: اذهب فليس عليك حرج، وقال الله: {وما جعل عليكم في الدين من حرج} وكان يقال للنبي: أنت شهيد على قومك، وقال الله: {لتكونوا شهداء على الناس} وكان يقال للنبي صلى الله عليه وسلم: سل تعطه، وقال الله: {. . ادعوني استجب لكم. .) ١٤٤.
{واعتصموا بالله هو مولاكم} اعتصموا بحجج الله تعالى وآياته القرآنية، ودلائل قدرته الآفاقية والأنفسية، وآمنوا بربكم وتقربوا إليه بما علمكم من طاعاته، وتوكلوا عليه في أموركم، فإنه يتولى المستيقنين المقيمي الصلاة المؤتين الزكاة المجاهدين في سبيل الله ما وسعهم الجهاد، المعتصمين بحبل ربنا المتين؛ قال ابن عباس: سلوا الله العصمة عن كل المحرمات.
{فنعم المولى ونعم النصير} ربنا أكرم ولي، {وهو يتولى الصالحين) ١٤٥
، فاجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، لوذوا بخير ناصر لمن استيقن واتقى، وخير معين له على من بغاه بسوء، فالله ولي المتقين، والمتفضل بتأييد أهل الصدق الصالحين، مصداقا لوعده في الكتاب الحكيم: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ١٤٦.

٢٣ سورة المؤمنون:

سورة المؤمنون:
مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة
كلماتها: ١٨٤٠؛ حروفها: ٤٨٤٠
١ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)
بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {٣)}

{أفلح} فاز ونجا وبقي في النعيم.

{المؤمنون} المصدقون بالله وملائكته وكتبه ورسله والآخرة والعاملون بمقتضى التصديق.

يبشر الله تعالى من رسخ يقينه بالله تعالى وكتبه وملائكته ورسله والآخرة بأنهم متحقق لهم الفوز والرضوان، والنجاة من المقت والنيران، والخلود في النعيم والجنان.

[والمراد بالمؤمنين قيل: إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والحشر الجسماني والجزاء ونظائرها، فقوله تعالى: {الذين هم في صلاتهم خاشعون} وما عطف عليه صفات مخصصة لهم؛ وإما الآتون بفروعه أيضا. . فهي صفات موضحة أو قادحة لهم. . {خاشعون} خائفون ساكنون. . وعن أبي الدرداء: إعظام المقام، وإخلاص المقال، واليقين التام، وجمع الاهتمام، ويتبع ذلك ترك الالتفات وهو من الشيطان، فقد روى البخاري. . عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد "] ١؛ ومن خصال المؤمنين: ترك مالا نفع فيه، ولا فائدة منه، من قول أو عمل؛ وقيل {اللغو} المعاصي كلها.

ومما نقل النيسابوري: وأما الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة؛ ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون، وترك الالتفات، والنظر إلى موضع السجود، والتوقي عن كف الثوب - أي جمعه - والعبث بجسده وثيابه، والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم. . والاحتراز عن الفرقعة والتشبيك وتقليب الحصا، والاختصار - وهو أن يمسك بيده عصا أو سوطا ونحوهما، أو يضع يده على خاصرته -. . وهذا الخشوع واجب عند المحققين،. . . وأما الفقهاء فالأكثرون منهم لا يوجبون ذلك؛ فيقال لهم: هبوا أنه ليس من شرط الإجزاء - وهو عدم وجوب القضاء - أليس هو من شرط القبول الذي يترتب عليه الثواب. . . اهـ

٢ - (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{خاشعون} خاضعون ساكنون.

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {٣)}

{أفلح} فاز ونجا وبقي في النعيم.

{المؤمنون} المصدقون بالله وملائكته وكتبه ورسله والآخرة والعاملون بمقتضى التصديق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{اللغو} السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا نفع منه ولا فائدة فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {٣)}

{أفلح} فاز ونجا وبقي في النعيم.

{المؤمنون} المصدقون بالله وملائكته وكتبه ورسله والآخرة والعاملون بمقتضى التصديق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ {٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ {٧)}

واختص الله تعالى المؤمنين بأنهم يتزكون ويتطهرون، أو يؤدون حقا في أموالهم يؤتونه الفقراء ومما رزقهم الله ينفقون؛

٥ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

والذين يعفون أنفسهم عن الفاحشة، ويحمون فروجهم عن الحرام ويتحفظون،

٦ - (إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

ولا يستمتعون ويقضون شهواتهم إلا مع زوجاتهم أو الجواري اللائي هن من ملكهم، فهم بذلك غير مؤاخذين، بل هم فيه من المأجورين؛

٧ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

فمن تجاوز ما أحل الله من ذلك إلى ما حرم فقد عدا وجار {. . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. .) ٢.

٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

{وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ {٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ {١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١١)}

والصفة الخامسة للمؤمنين: رعايتهم لما ائتمنوا فيه وتعاهدوا عليه من ميثاق الله تعالى ومطالب دينه، وحقوق العباد كافة، فهم بحقوق ربهم قائمون، ولحقوق الخلق يصونون ويؤدون، ويوفون ولا يخسون؛

٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

والصفة السادسة أنهم على الصلوات المكتوبات يداومون، ولأركانها وشروطها مقيمون، وعلى أدائها في أوقاتها يحرصون؛

١٠ - (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)

أولئك هم المنعمون المكرمون، وإلى دار السلام ومقاعد الصدق وضيافة الملك مدعوون، وفي الدرجات العلا والنعيم الأوفى الأبدي باقون.

وعلماء المعاني يلفتون إلى وجوه من البلاغة متتابعة في هذه الآيات المباركات؛ فقد جاءت جملا اسمية دالة على الثبات والدوام؛ وتقدم الضمير المفيد لتقوي الحكم بتكريره؛ والتعبير في المسند بالاسم الدال كما شاع على الثبات؛ وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر.

فلينظر طلاب الفوز والسعادة، كم حققوا من هذه الصفات؟ وليسأل العاقل نفسه أين هو من تلك العلامات، فإن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، وليسأله سبحانه الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد، وإن وجد غير ذلك فليوف بعهد ربه، يوف إليه ربه بعهده؛ ربنا تقبل عنا أحسن ما عملنا وتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

١١ - (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

أولئك هم المنعمون المكرمون، وإلى دار السلام ومقاعد الصدق وضيافة الملك مدعوون، وفي الدرجات العلا والنعيم الأوفى الأبدي باقون.

وعلماء المعاني يلفتون إلى وجوه من البلاغة متتابعة في هذه الآيات المباركات؛ فقد جاءت جملا اسمية دالة على الثبات والدوام؛ وتقدم الضمير المفيد لتقوي الحكم بتكريره؛ والتعبير في المسند بالاسم الدال كما شاع على الثبات؛ وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر.

فلينظر طلاب الفوز والسعادة، كم حققوا من هذه الصفات؟ وليسأل العاقل نفسه أين هو من تلك العلامات، فإن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، وليسأله سبحانه الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد، وإن وجد غير ذلك فليوف بعهد ربه، يوف إليه ربه بعهده؛ ربنا

تقبل عنا أحسن ما عملنا وتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.
١٢ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ)
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ {١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ {١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ {١٤)}.
{خلقنا} أبدعنا وصورنا وأوجدناه بعد أن كان معدوما.
{الإنسان} أول الأناسي، والذي منه تناسل الجنس البشري؛ آدم عليه السلام.
{سلالة} ما يستل ويستخرج ويستخلص.
كما ذكر المولى الحكيم بحسن الجزاء، ومصير السعداء، الذين يخلدون في دار النعيم، بينت هذه الآيات بدء خلق الإنسان، وعظيم فضل المولى عليه في كل طور وآن؛ فكأن اللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق، أي تحققوا واستيقنوا أنا أبدعنا وأنشأنا آدم، وصورناه على غير مثال سبق، وأوجدناه بعد أن كان معدوما، وأردنا أن يكون في مادته مستخلصا من طين الأرض وترابها، وتنبث الروح في جوانب مادته بإشراقها وأسرارها؛ ثم جعلنا توال ذريته وتكاثرهم من ماء ضعيف هين، يمنيه الرجل، فيقر الله تعالى منه ما يشاء في رحم الأم داخل ظلمات ثلاث، وقد شئنا أن نحكم خلقة الرحم فجعلناه مكينا لا ينفصل حين يثقل حمله، ولا يلقي ما فيه إلا بأمرنا، وبهذا امتن الله تعالى على البشر: {ألم نخلقهم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون) ٣، وتنفذ مشيئتنا ولطفنا إلى ما بداخل هذه الظلمات الثلاث فنخلق من النطفة بعد حين قطعة من الدم منعقدة غير يابسة، أو كالدودة المسودة إلى حمرة، تعلق بجدار الرحم فتمتص منه ما نريد أن يتغذى به هذا الكائن الضعيف وينمو؛ ثم نخلق من العلقة قطعة لحم صغيرة، ثم ينقضي وقت على هذين الطورين العلقة والمضغة فنخلق من المضغة عظاما؛ وبعدها نكسو هذه العظام لحما، وبعد حين نركبه في أحسن تقويم، ونصورهم فنحسن صورته، فما أعظم قوة واقتدار البارئ المصور الذي أتقن كل شيء صنعا
١٣ - (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
{نطفة} الماء الدافق الذي يمنيه الرجل.
{قرار مكين} رحم الأم؛ وتمكنها عدم انفصالها حين يثقل حملها؛ ولا تمج ما فيها.
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ {١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ {١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ {١٤)}.
{خلقنا} أبدعنا وصورنا وأوجدناه بعد أن كان معدوما.
{الإنسان} أول الأناسي، والذي منه تناسل الجنس البشري؛ آدم عليه السلام.
{سلالة} ما يستل ويستخرج ويستخلص.
كما ذكر المولى الحكيم بحسن الجزاء، ومصير السعداء، الذين يخلدون في دار النعيم، بينت هذه الآيات بدء خلق الإنسان، وعظيم فضل المولى عليه في كل طور وآن؛ فكأن اللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق، أي تحققوا واستيقنوا أنا أبدعنا وأنشأنا آدم، وصورناه على غير مثال سبق، وأوجدناه بعد أن كان معدوما، وأردنا أن يكون في مادته مستخلصا من طين الأرض وترابها، وتنبث الروح في جوانب مادته بإشراقها وأسرارها؛ ثم جعلنا توال ذريته وتكاثرهم من ماء ضعيف هين، يمنيه الرجل، فيقر الله تعالى منه ما يشاء في رحم الأم داخل ظلمات ثلاث، وقد شئنا أن نحكم خلقة الرحم فجعلناه مكينا لا ينفصل حين يثقل حمله، ولا يلقي ما فيه إلا بأمرنا، وبهذا امتن الله تعالى على البشر: {ألم نخلقهم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون) ٤، وتنفذ مشيئتنا ولطفنا إلى ما بداخل هذه الظلمات الثلاث فنخلق من النطفة بعد حين قطعة من الدم منعقدة غير يابسة، أو كالدودة المسودة إلى

حمرة، تعلق بجدار الرحم فتمتص منه ما نريد أن يتغذى به هذا الكائن الضعيف وينمو؛ ثم نخلق من العلقة قطعة لحم صغيرة، ثم ينقضي وقت على هذين الطورين العلقة والمضغة فنخلق من المضغة عظاما؛ وبعدها نكسو هذه العظام لحما، وبعد حين نركبه في أحسن تقويم، ونصورهم فنحسن صورته، فما أعظم قوة واقتدار البارئ المصور الذي أتقن كل شيء صنعا

١٤ - (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{علقة} قطعة من دم متجمدة غير يابسة، أو كالدودة المسودة إلى حمرة تسمى علقة.

{مضغة} قطعة لحم قدر ما يلقي الإنسان في فيه.

{فتبارك} كثر خيره، وعظمت بركاته.

{أحسن الخالقين} أتقن الصانعين.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ {١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ {١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ {١٤)}.

{خلقنا} أبدعنا وصورنا وأوجدناه بعد أن كان معدوما.

{الإنسان} أول الأناسي، والذي منه تناسل الجنس البشري، آدم عليه السلام.

{سلالة} ما يستل ويستخرج ويستخلص.

كما ذكر المولى الحكيم بحسن الجزاء، ومصير السعداء، الذين يخلدون في دار النعيم، بينت هذه الآيات بدء خلق الإنسان، وعظيم فضل المولى عليه في كل طور وآن، فكأن اللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق، أي تحققوا واستيقنوا أنا أبدعنا وأنشأنا آدم، وصورناه على غير مثال سبق، وأوجدناه بعد أن كان معدوما، وأردنا أن يكون في مادته مستخلصا من طين الأرض وترابها، وتنبث الروح في جوانب مادته بإشراقها وأسرارها؛ ثم جعلنا توال ذريته وتكاثرهم من ماء ضعيف هين، يمنيه الرجل، فيقر الله تعالى منه ما يشاء في رحم الأم داخل ظلمات ثلاث، وقد شئنا أن نحكم خلقة الرحم فجعلناه مكينا لا ينفصل حين يثقل حمله، ولا يلقي ما فيه إلا بأمرنا، وبهذا امتن الله تعالى على البشر: {ألم نخلقهم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون) ٥، وتنفذ مشيئتنا ولطفنا إلى ما بداخل هذه الظلمات الثلاث فنخلق من النطفة بعد حين قطعة من الدم منعقدة غير يابسة، أو كالدودة المسودة إلى حمرة، تعلق بجدار الرحم فتمتص منه ما نريد أن يتغذى به هذا الكائن الضعيف وينمو؛ ثم نخلق من العلقة قطعة لحم صغيرة، ثم ينقضي وقت على هذين الطورين العلقة والمضغة فنخلق من المضغة عظاما؛ وبعدها نكسو هذه العظام لحما، وبعد حين نركبه في أحسن تقويم، ونصورهم فنحسن صورته، فما أعظم قوة واقتدار البارئ المصور الذي أتقن كل شيء صنعا

١٥ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ {١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ {١٦)}

بعد المبدأ جاء ذكر المعاد وأول مراحل الآخرة الموت؛ ثم إنكم أيها الذين سويت أباكم بيدي، وكرمتكم على سائر خلقي، وخلقتكم أطوارا، ووهبتكم السمع والأبصار، والنطق والعقل، وسخرت لكم ما في الكون إنكم لمرتحلون عن هذه الدنيا وتاركوها؛ فاللهم كما رعيتنا أجنة في بطون أمهاتنا، أسبغ علينا واسع رحمتك، وعظيم رضوانك، حين تبلغ الروح الحلقوم، وحين نقبر وحين نقوم، وعلى كل أحوالنا يا حي يا قيوم، يا بر يا رحيم؛ ثم إذا نفخ في الصور بأمرنا نفخة ثانية نحيي الموتى ونخرجهم من الأجداث سراعا، ثم يساقون ويحشرون إلى حيث يحاسبون ويسألون، ويقضى بينهم، فمعذبون ومنعمون؛ وفي كلتا الآيتين تأكيد بإن واسمية الجملة، أي صائر ذلك لا محالة؛ لكن في الأولى جاء النعت الذي هو للثبوت، ربما لأن كراهية الموت لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه؛ أو لأن برهان البعث تردد كثيرا في طائفة من الآيات كثيرة.

١٦ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ {١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ {١٦)}
بعد المبدأ جاء ذكر المعاد وأول مراحل الآخرة الموت، ثم إنكم أيها الذين سويت أباكم بيدي، وكرمتكم على سائر خلقي، وخلقتكم أطوارا، ووهبتكم السمع والأبصار، والنطق والعقل، وسخرت لكم ما في الكون إنكم لمرتحلون عن هذه الدنيا وتاركوها، فاللهم كما رعيتنا أجنة في بطون أمهاتنا، أسبغ علينا واسع رحمتك، وعظيم رضوانك، حين تبلغ الروح الحلقوم، وحين نقبر وحين نقوم، وعلى كل أحوالنا يا حي يا قيوم، يا بر يا رحيم؛ ثم إذا نفخ في الصور بأمرنا نفخة ثانية نحيي الموتى ونخرجهم من الأجداث سراعا، ثم يساقون ويحشرون إلى حيث يحاسبون ويسألون، ويقضى بينهم، فمعذبون ومنعمون، وفي كلتا الآيتين تأكيد بإن واسمية الجملة، أي صائر ذلك لا محالة، لكن في الأولى جاء النعت الذي هو للثبوت، ربما لأن كراهية الموت لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه، أو لأن برهان البعث تردد كثيرا في طائفة من الآيات كثيرة.
١٧ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ {١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ {١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ {٢٠)}
هذه الآيات المباركات فيها بيان لشيء من النعم والآلاء، وربما تكون كالبرهان على قدرة الحي القيوم على الإماتة والإحياء، إذ من رفع السماء، وأجرى الماء، وأحيا الأرض اليابسة الجرداء، فاهتزت وأنبتت صنوف الفاكهة والغذاء، لا يعجزه أن يبعث من في القبور للسؤال والحساب والجزاء؛ فتحققوا أنا خلقنا للأرض التي تسكنونها بناء وسقفا يعلوها، ذلك هو السماوات السبع، وسميت {طرائق{ لأنه يعلو بعضها بعضا، أو لأنها طرائق الملائكة عليهم السلام في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد، أو لأنها طرائق الكواكب في مسيرها، أو لأن كل سماء طريقة، واستودع الله تعالى في كل سماء ما لم يودعه في الأخرى والله تعالى أعلم وما نغفل عن شأن كائنا ما كان من أمر الخلق، ومن جملة الخلق السماوات؛
١٨ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)
وأنزلنا من جهة العلو من السحاب الذي يرتفع نحو السماء أنزلنا منه ماء بمقدار لا يعدوه ولا يتجاوزه ولا يقصر عنه، فأجرينا منه الأنهار والأودية، وأقررنا منه ما نريد في العيون وباطن الأرض، وإنا لقادرون على تغويره بحيث يتعذر استخراجه، كما توعد الله الناس، وخوفهم بأسه واقتداره، فقال تقدست أسماؤه: {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) ٦، كما أنه قادر عز وجل على إزالته، وتغيير مزيته، وإبطال فائدته وأهميته؛
١٩ - (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)
وبسبب الماء المبارك الذي ننزله من السحاب نوجد لكم الحدائق والبساتين الحافلة بأشجار النخيل وصنوف الأعناب والثمار والحبوب تتفكهون مما تجنون منها وتقتاتون؛
٢٠ - (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)
وأوجدنا لكم بسبب الماء النازل من الغيث والمطر شجرة تخرج من الوادي المقدس ومن البقعة المباركة عند جبل طور سيناء، شجرة مباركة تجود وتثمر الدهن والإدام، تلك هي شجرة الزيتون، يدهن بزيتها، ويؤتدم بزيتونها؛ [وهو جبل موسى عليه السلام الذي ناجى ربه سبحانه عنده، وهو بين مصر وأيلة، ويقال لها اليوم: العقبة. . . تنبت ملتبسة بالدهن وهو عصارة كل ما فيه دسم. . تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا، وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أي يغمس للائتدام] " ٧.

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ {٢٢)}

وفوق نعمة السقيا والماء الطهور المبارك العذب، وما منح الكريم الوهاب من خيرات الشجر والزرع و [الثروة النباتية] تفضل الرزاق المنعم بتسخير الرزاق المنعم بتسخير الأنعام لخيرنا، نشرب من لبنها أبرك طعام وأمرأه وأهنأه وأضوأه مع أنه خارج من بين فرث ودم فسبحان من لا يعجزه شيء ونلبس ونؤثث من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ونغتني ونقتني من حملانها وثمنها، ونأكل من لحومها، ونركب ظهورها، وتحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن لنبلغه دونها إلا بشق الأنفس، فتلك مراكب البر و [الثروة الحيوانية] كما سخر لنا الفلك تحملنا وأمتعتنا فوق ثبج البحر، فما أكرم المنعم، وما أبرك النعم!

٢٢ - (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ {٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ {٢٢)}

وفوق نعمة السقيا والماء الطهور المبارك العذب، وما منح الكريم الوهاب من خيرات الشجر والزرع و [الثروة النباتية] تفضل الرزاق المنعم بتسخير الرزاق المنعم بتسخير الأنعام لخيرنا، نشرب من لبنها أبرك طعام وأمرأه وأهنأه وأضوأه مع أنه خارج من بين فرث ودم فسبحان من لا يعجزه شيء ونلبس ونؤثث من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ونغتني ونقتني من حملانها وثمنها، ونأكل من لحومها، ونركب ظهورها، وتحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن لنبلغه دونها إلا بشق الأنفس، فتلك مراكب البر و [الثروة الحيوانية] كما سخر لنا الفلك تحملنا وأمتعتنا فوق ثبج البحر، فما أكرم المنعم، وما أبرك النعم!

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٢٣)}

اللام في {ولقد} موطئة للقسم، وقد للتحقيق؛ وكأن المعنى: وقسما لقد أرسلنا وبعثنا نوحا نذيرا إلى قومه فناداهم بما يرقق قلوبهم ويستميلهم إلى إجابة النداء إذ هو منهم ورائدهم، والرائد لا يكذب أهله، وإنما يحرص على خيرهم وعزهم: وحدوا الله تعالى، فما يستحق العبادة إلا هو، أفلا تدركون، فتتوقون نقمته، وسخطه وبطشته؟! أفلا تخشون بعبادتكم الأصنام عقابه أن يحل بكم؟! ٨ والآيات الكريمة التي بينت جانبا من قصة نوح عليه السلام ههنا أوجزت سبيل الدعوة، بينما الآيات المباركات في سورة نوح صلى الله عليه وسلم قد أفاضت في سبلها، وتعدد أوقاتها، وطرائق إعراض القوم عنها وردها، بل والتواصي بمناوأتها والصبر على تقديس الأوثان التي دعا الله إلى التبرؤ منها والكفر بها: {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) ٩.

ومن هنا نتبين أن قصص الأنبياء في القرآن حين يتعدد إنما يعلم في كل مرة علما نافعا هاديا، يثبت القلب، وينفي الريب، وليس تكرارا وترديدا لمعنى واحد، كما يفتري بعض السفهاء من أعداء الدين، فيفتن بزيفهم من حرم تدبر آي الكتاب المبين؛ نسأل الله تعالى الهداية للحق، والعصمة من الزيغ.

٢٤ - (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ {٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ {٢٥)}.

فسارع كبراء قومه الذين يجحدون الحق، ويضلون الخلق، إلى النهي عنه، والنأي عنه، يتباعدون عن الاستجابة للهدى الذي جاءهم به رسولهم من ربهم، ويصدون ويمنعون غيرهم أن يستجيبوا له؛ واحتجوا بحجج داحضة منها: إنكار مجيء رسول إنسي: {ما هذا إلا

بشر مثلكم} [أو إنكار كونه مثلهم في الأسباب الدنيوية من المال والجاه والجمال كأنهم ظنوا أن القرب من الله يوجب المزية في هذه الأمور] ١٠، وحجة باطلة ثانية أوردوها يشير إليها قول الحق سبحانه: حكاية عن قيلهم. . {يريد أن يتفضل عليكم} رموه عليه السلام بهتانا بأنه يقصد بدعوته أن يكون متبوعا ونحن له تبع، وكذبوا! فقد عرضوا عليه أن يجلسوا إليه إن هو تخلى عمن اتبعوه من الضعاف والفقراء فاستعصم، وقال ما بينه تبارك اسمه: {. . وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون) ١١ {وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلا نذير مبين) ١٢، وضلالة ثالثة افتروها وقالوا: لو أراد الله أن يبعث رسولا لأنزل ملكا يبلغ عنه، وقد أبطل المولى الحكيم ما اقترحوا فقال عز من قائل: {. . ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) ١٣ وأمر خاتم النبيين عليه من الله الصلاة والتسليم أن يبين للناس أن هذا ليس من سنة الحكيم الخبير: {قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ١٤، ورابعة ضلالاتهم: إصرارهم على اتباع أسلافهم في غيهم، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، وإلى هذا أشار القول الرباني الحكيم: {ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} كالذي قال كبراء قريش لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبينه الفرقان في سورة {ص) في آيات كريمات: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) ١٥ {ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) ١٦؛

٢٥ - (إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)

وخامسة الفري: رميهم إياه بالجنون وذهاب العقل، وأنه قد مسته الجن وأصابته نخبلوا عقله، وتواصوا أن ينتظروا ويترقبوا ما يكون من أمره بعد ذلك كأنهم على ترقب أن يفيق مما هو فيه، أو يموت.

٢٦ - (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ {٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ {٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ {٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ {٣٠)}.

حين ضل قوم نوح ضلالهم البعيد، وتتابعت القرون يدعوهم نبيهم وهم يسبونه ويتهددونه بأقبح الوعيد، حتى أنذروه قائلين: {. . لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) ١٧، {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) ١٨ أي: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، ففي هزيمتهم إزهاق الباطل والشرك، ونصرة للحق وأهل الحق، هذا والتضرع قد يكون أرجى للقبول حين نتخشع به لربنا الولي أكرم مسئول وأفضل مأمول، ولعل أكثر سياق آيات الدعاء تحبب إليك أن تلظ ب {يا رب) فإنه نعم المولى مجيب النداء، يقول تبارك اسمه: {ادعوا ربكم تضرعا وخفية.) ١٩ {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة.) ٢٠ {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم.) ٢١ وكذلك دعا الرسل الكرام ربهم: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.) ٢٢، وموسى حين هم به الفراعنة الطغاة، واستعاذ منهم بالله، لجأ إليه سبحانه وناداه: {وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون) ٢٣ {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) ٢٤، وسليمان حين سأل الكريم الوهاب جزيل العطاء قال ما بينه الكتاب المبين! {. . رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) ٢٥ وحين استعان به عز وجل على شكر النعماء قال: {. . . رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) ٢٦ والذين يحملون العرش ومن حوله من كرام الملائكة عليهم السلام يدعون للمؤمنين: {. . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم

وأزواجهم وذرياتهم. .) ٢٧ وكذلك علمتنا آيات القرآن الحكيم: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ٢٨ {. . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ٢٩ {. . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) ٣٠.

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

فاستجاب الله لعبده نوح عليه السلام إذ أمره سبحانه أن يصنع سفينة سيهدى بعناية الله إلى إعدادها، ويوحي إليه سبيل إتقانها، وميعاد إبحارها، وما سيحمل فيها، ومن أذن له بركوبها؛ فلتشحن حين يتفجر الماء من مكان يخبزون وينضجون فيه عجينهم وخبزهم، وليحملوا فيها من كل صنف من الأحياء طيرها ووحشها ودوابها، وربما نبتها زوجين اثنين ذكرا وأنثى؛ وأن يحمل فيها أهله؛ ولعل المراد: أهلية الدين، لكن من سبق عليه القول منهم كامرأته وابنه لا يؤذن له في حمل أي منهم؛ ولن يرد بأس الله عن المجرمين، ولن تنفعهم شفاعة الشافعين، فقد قضى ربنا أن يغرق كافة الظالمين؛

٢٨ - (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

{فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين} وحين يتم لكم ركوب السفينة وتعلونها احمدوا الله الذي فصل بينكم وبين الطاغين الباغين، وأنقذكم من مصير المهلكين، وشفي صدور المؤمنين، وقطع دابر المفسدين؛

٢٩ - (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

{وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين} ادعني، وليدعني من معك أن أنزلكم من السفينة أرضا مباركة؛ فإني خير من يختار المنازل المباركة الجامعة لخيري الدين والدنيا؛

٣٠ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

{إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين} إن في الذي صنعت بالرسول نوح والمؤمنين معه فأنجيتهم وباركتهم، وفي صنعي ونكالي بالذين كفروا وطغوا فاستأصلتهم وأغرقتهم لعبرا وعلامات على ولاية الله للمؤمنين، والخزي والسوء الذي يصيب به العالين المسرفين، ولنمضين ابتلاءنا واختبارنا في الآخرين كما أمضيناه في الأولين: {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ٣١ أي لنعاملنهم معاملة المختبرين. . ليظهر المطيع والعاصي فيتبين للملائكة حالهم؛ لا أن يستجد الرب علما ٣٢.

٣١ - (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٣٢)}

ثم خلقنا من بعد قوم نوح أهل قوم وزمان آخرين قيل هم عاد إذ هم الذين جاءوا بعد قوم نوح؛ وقيل: ثمود، إذ قد بين القرآن العظيم في أكثر من آية أنهم أهلكوا بالصيحة، هذا وممن أهلك بالصيحة أصحاب مدين، وأصحاب القرية التي أرسل إليها رسل عيسى عليه السلام، فقتلوا الثالث [حبيبا النجار] فبعث الله تعالى فيهم نبيا من قرابتهم أو محلتهم، وناداهم: أن أخلصوا لله العبادة، فما يستحق العبادة إلا الله؛ أجهلتم سلطان الملك المهيمن فلا تتقون سخطه وعقابه؟! فإن كانوا عادا فالمبعوث إليهم هو هود عليه السلام؛ وإن كانت ثمود فالمرسل إليهم نبي الله صالح عليه السلام وإن كانوا أصحاب مدين، فالمبعوث إليهم شعيب عليه السلام ٣٣.

٣٢ - (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٣٢)}

ثم خلقنا من بعد قوم نوح أهل قوم وزمان آخرين قيل هم عاد إذ هم الذين جاءوا بعد قوم نوح؛ وقيل: ثمود، إذ قد بين القرآن

العظيم في أكثر من آية أنهم أهلكوا بالصيحة، هذا وممن أهلك بالصيحة أصحاب مدين، وأصحاب القرية التي أرسل إليها رسل عيسى عليه السلام، فقتلوا الثالث [حبيبا النجار] فبعث الله تعالى فيهم نبيا من قرابتهم أو محلتهم، وناداهم: أن أخلصوا لله العبادة، فما يستحق العبادة إلا الله، أجهلتم سلطان الملك المهيمن فلا تتقون سخطه وعقابه؟! فإن كانوا عادا فالمبعوث إليهم هو هود عليه السلام، وإن كانت ثمود فالمرسل إليهم نبي الله صالح عليه السلام وإن كانوا أصحاب مدين، فالمبعوث إليهم شعيب عليه السلام ٣٤.

٣٣ - (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ {٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ {٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ {٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ {٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ {٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ {٣٨)}

وانبعث رؤساء قومه بكفرهم بالله ورسالاته، وإنكارهم البعث والحياة الآخرة، وبطرهم بما أوتوا، وفرحهم بالعاجلة ونسيان وترك الآجلة انبعثوا يصدون عن الرسول الذي يدعوهم، متذرعين في تكذيبه بأنه ليس إلا بشرا يطعم كطعامهم ويشرب كشربهم، وإن أطاعوا من يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فقد خسروا عقولهم،

٣٤ - (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ {٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ {٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ {٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ {٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ {٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ {٣٨)}

وانبعث رؤساء قومه بكفرهم بالله ورسالاته، وإنكارهم البعث والحياة الآخرة، وبطرهم بما أوتوا، وفرحهم بالعاجلة ونسيان وترك الآجلة انبعثوا يصدون عن الرسول الذي يدعوهم، متذرعين في تكذيبه بأنه ليس إلا بشرا يطعم كطعامهم ويشرب كشربهم، وإن أطاعوا من يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فقد خسروا عقولهم،

٣٥ - (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)

ثم طعنوا في الرسالة بعد نيلهم من الرسول، وعجبوا من وعده بالنشور، وإحياء من في القبور، واستبعدوا تحقق هذا الوعد، وأكدوا بعده قائلين: {هيهات هيهات} ما الأمر إلا بموت الأوائل ويولد الأواخر، ولن تجيء بعد الموت حياة، ثم عادوا إلى الطعن في الرسول ورميه بالافتراء، وتوكيد بقائهم على الكفر بالداعي ودعوته. ونقل عن الفراء والمبرد وغيرهما من النحاة: قوله تعالى: {أنكم مخرجون}: {أنكم} تأكيد ل {أنكم} الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: {مخرجون} و {إذا} ظرف متعلق به، أي: أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا؟! ولا يلزم من ذلك كون الإخراج وقت الموت، كما لا يخفى.

نقل الألوسي: وقوله سبحانه: {لما توعدون} بيان لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلقة بمقدر، كما في: سقيا له: أي: التصديق، أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون.

أورد القرطبي: يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يقرون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة، منها: أن يكون المعنى: نكون مواتا أي نطفا ثم نحيا في الدنيا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: {. . . واسجدي واركعي. . .)

٣٥؛ وقيل {نموت} يعني الآباء، {ونحيا} يعني الأولاد. . اه.
٣٦ - (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]
ثم طعنوا في الرسالة بعد نيلهم من الرسول، وعجبوا من وعده بالنشور، وإحياء من في القبور، واستبعدوا تحقق هذا الوعد، وأكدوا بعده قائلين: {هيهات هيهات} ما الأمر إلا بموت الأوائل ويولد الأواخر، ولن تجيء بعد الموت حياة، ثم عادوا إلى الطعن في الرسول ورميه بالافتراء، وتوكيد بقائهم على الكفر بالداعي ودعوته. ونقل عن الفراء والمبرد وغيرهما من النحاة: قوله تعالى: {أنكم مخرجون}: {أنكم} تأكيد ل {أنكم} الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: {مخرجون} و {إذا} ظرف متعلق به، أي: أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا؟! ولا يلزم من ذلك كون الإخراج وقت الموت، كما لا يخفى.
نقل الألوسي: وقوله سبحانه: {لما توعدون} بيان لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلقة بمقدر، كما في: سقيا له: أي: التصديق، أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون.
أورد القرطبي: يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يقرون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة، منها: أن يكون المعنى: نكون مواتا أي نطفا ثم نحيا في الدنيا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: {. . . واسجدي واركعي. . .)
٣٦؛ وقيل {نموت} يعني الآباء، {ونحيا} يعني الأولاد. . اه.
٣٧ - (إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]
ثم طعنوا في الرسالة بعد نيلهم من الرسول، وعجبوا من وعده بالنشور، وإحياء من في القبور، واستبعدوا تحقق هذا الوعد، وأكدوا بعده قائلين: {هيهات هيهات} ما الأمر إلا بموت الأوائل ويولد الأواخر، ولن تجيء بعد الموت حياة، ثم عادوا إلى الطعن في الرسول ورميه بالافتراء، وتوكيد بقائهم على الكفر بالداعي ودعوته. ونقل عن الفراء والمبرد وغيرهما من النحاة: قوله تعالى: {أنكم مخرجون}: {أنكم} تأكيد ل {أنكم} الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: {مخرجون} و {إذا} ظرف متعلق به، أي: أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا؟! ولا يلزم من ذلك كون الإخراج وقت الموت، كما لا يخفى.
نقل الألوسي: وقوله سبحانه: {لما توعدون} بيان لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلقة بمقدر، كما في: سقيا له: أي: التصديق، أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون.
أورد القرطبي: يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يقرون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة، منها: أن يكون المعنى: نكون مواتا أي نطفا ثم نحيا في الدنيا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: {. . . واسجدي واركعي. . .)
٣٧؛ وقيل {نموت} يعني الآباء، {ونحيا} يعني الأولاد. . اه.
٣٨ - (إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]
ثم طعنوا في الرسالة بعد نيلهم من الرسول، وعجبوا من وعده بالنشور، وإحياء من في القبور، واستبعدوا تحقق هذا الوعد، وأكدوا بعده قائلين: {هيهات هيهات} ما الأمر إلا بموت الأوائل ويولد الأواخر، ولن تجيء بعد الموت حياة، ثم عادوا إلى الطعن في الرسول ورميه بالافتراء، وتوكيد بقائهم على الكفر بالداعي ودعوته. ونقل عن الفراء والمبرد وغيرهما من النحاة: قوله تعالى: {أنكم مخرجون}: {أنكم} تأكيد ل {أنكم} الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: {مخرجون} و {إذا} ظرف متعلق به، أي: أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا؟! ولا يلزم من ذلك كون الإخراج وقت الموت، كما لا يخفى.
نقل الألوسي: وقوله سبحانه: {لما توعدون} بيان لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلقة بمقدر، كما في: سقيا له: أي: التصديق، أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون.

أورد القرطبي: يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يقرون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة، منها: أن يكون المعنى: نكون مواتا أي نطفا ثم نحيا في الدنيا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: {. . . واسجدي واركعي. . .) ٣٨، وقيل {نموت} يعني الآباء، {ونحيا} يعني الأولاد. . اهـ.

٣٩ - (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ {٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ {٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤١)}

ما تغني الآيات والنذر شيئا عن قوم أبطرهم الترف، وغرتهم الحياة الدنيا، وألهتهم عن الآخرة، وشهدوا على أنفسهم أنهم استحبوا الكفر على الإيمان، فلا عجب أن قال رسولهم داعيا مولاه متضرعا: رب أزهق الباطل، وامحق هذا الفساد، الذي تمادى فيه هؤلاء، فكفروا بالله ورسله، وأنكروا يوم المعاد، ودعوا إلى الجحود والكفران، نخير للعباد أن تطهر الأرض من الصادين عن الهدى والإيمان؛ كالذي جاء في دعاء نوح عليه السلام على طغاة قومه: {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) ٣٩ فاستجاب الله تعالى دعوة ذلك الرسول سلام الله عليه وعلى سائر المرسلين ونودي: بالله تعالى ليصيرن نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمان قليل، وجائز أن يكون القوم هم ثمود كما أشرنا من قبل وأن يكون نبيهم صالح عليه السلام قد أنذرهم بما بين الكتاب الحكيم: {. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) ٤٠ وهكذا أخذتهم صيحة جبريل عليه السلام، صاح بهم فدمرهم؛ {بالحق} بالأمر الذي يتحقق لا محالة؛ أو بالعدل من الله عز وجل، من قولك: فلان يقضي بالحق، إذ كان عادلا في قضياه؛ أو بالوعد الصدق الذي وعده الرسول في ضمن قوله تعالى: {. . عما قليل ليصبحن نادمين) ٤١ فجعلناهم هباء كالأوراق والعيدان البالية التي يحملها الماء المندفع في الوديان حين ينهمر المطر، وهو الذي يقال عنه: غثاء السيل؛ فبعدوا بعدا من رحمة الله، أو أبعدهم الله تعالى من رحمته بعدا كبيرا، لجحودهم، وتكذيبهم، وبطرهم، وصدهم عن الهدى بعد أن تبين لهم.

٤٠ - (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ {٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ {٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤١)}

ما تغني الآيات والنذر شيئا عن قوم أبطرهم الترف، وغرتهم الحياة الدنيا، وألهتهم عن الآخرة، وشهدوا على أنفسهم أنهم استحبوا الكفر على الإيمان، فلا عجب أن قال رسولهم داعيا مولاه متضرعا: رب أزهق الباطل، وامحق هذا الفساد، الذي تمادى فيه هؤلاء، فكفروا بالله ورسله، وأنكروا يوم المعاد، ودعوا إلى الجحود والكفران، نخير للعباد أن تطهر الأرض من الصادين عن الهدى والإيمان؛ كالذي جاء في دعاء نوح عليه السلام على طغاة قومه: {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) ٤٢ فاستجاب الله تعالى دعوة ذلك الرسول سلام الله عليه وعلى سائر المرسلين ونودي: بالله تعالى ليصيرن نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمان قليل، وجائز أن يكون القوم هم ثمود كما أشرنا من قبل وأن يكون نبيهم صالح عليه السلام قد أنذرهم بما بين الكتاب الحكيم: {. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) ٤٣ وهكذا أخذتهم صيحة جبريل عليه السلام، صاح بهم فدمرهم؛ {بالحق} بالأمر الذي يتحقق لا محالة؛ أو بالعدل من الله

عز وجل، من قولك: فلان يقضي بالحق، إذ كان عادلا في قضيه؛ أو بالوعد الصدق الذي وعده الرسول في ضمن قوله تعالى: {. . عما قليل ليصبحن نادمين) ٤٤ فجعلناهم هباء كالأوراق والعيدان البالية التي يحملها الماء المندفع في الوديان حين ينهمر المطر؛ وهو الذي يقال عنه: غثاء السيل؛ فبعدوا بعدا من رحمة الله، أو أبعدهم الله تعالى من رحمته بعدا كبيرا، لجحودهم، وتكذيبهم، وبطرهم، وصدهم عن الهدى بعد أن تبين لهم.

٤١ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ {٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ {٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤١)}

ما تغني الآيات والنذر شيئا عن قوم أبطرهم الترف، وغرتهم الحياة الدنيا، وألهتهم عن الآخرة، وشهدوا على أنفسهم أنهم استحبوا الكفر على الإيمان، فلا عجب أن قال رسولهم داعيا مولاه متضرعا: رب أزهق الباطل، وامحق هذا الفساد، الذي تمادى فيه هؤلاء، فكفروا بالله ورسله، وأنكروا يوم المعاد، ودعوا إلى الجحود والكفران، فخير للعباد أن تطهر الأرض من الصادين عن الهدى والإيمان؛ كالذي جاء في دعاء نوح عليه السلام على طغاة قومه: {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) ٤٥ فاستجاب الله تعالى دعوة ذلك الرسول سلام الله عليه وعلى سائر المرسلين ونودي: بالله تعالى ليصيرن نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمان قليل؛ وجائز أن يكون القوم هم ثمود كما أشرنا من قبل وأن يكون نبيهم صالح عليه السلام قد أنذرهم بما بين الكتاب الحكيم: {. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) ٤٦ وهكذا أخذتهم صيحة جبريل عليه السلام، صاح بهم فدمرهم؛ {بالحق} بالأمر الذي يتحقق لا محالة؛ أو بالعدل من الله عز وجل، من قولك: فلان يقضي بالحق، إذ كان عادلا في قضيه؛ أو بالوعد الصدق الذي وعده الرسول في ضمن قوله تعالى: {. . عما قليل ليصبحن نادمين) ٤٧ فجعلناهم هباء كالأوراق والعيدان البالية التي يحملها الماء المندفع في الوديان حين ينهمر المطر؛ وهو الذي يقال عنه: غثاء السيل؛ فبعدوا بعدا من رحمة الله، أو أبعدهم الله تعالى من رحمته بعدا كبيرا، لجحودهم، وتكذيبهم، وبطرهم، وصدهم عن الهدى بعد أن تبين لهم.

٤٢ - (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)

{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ {٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ {٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ {٤٤)}

{قرونا} أهل قرون وأزمان، وكل جماعة عاشوا مقترنين في زمن فهم قرن.

ثم أوجدنا وخلقنا بعد المهلكين من قوم نوح والذين من بعدهم أهل قرون غيرهم، أهل أزمان وفترات، وفي كل فترة وإلى كل أمة كنا نرسل رسولا؛ وصدق الله العظيم: {. . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ٤٨؛ {. . وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) ٤٩؛ {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ٥٠ ما يتقدمون على الموعد الذي قضى الله أن يهلكهم فيه، ولا يتأخرون عنه قليلا ولا كثيرا؛ ولكل قوم نبيهم، ليكون عالما بأحوالهم، وبلسانهم ليبين لهم؛ ولكن قليلا من المنذرين يؤمنون، وأكثرهم يكذبون. وأولئك هم المهلكون، ويرون النذر فيمن تقدموا فلا يعتبرون، فيبطش الله القوي الجبار بهم ليكونوا مثلا ومزدجرا لمن بعدهم يجيئون، هذا عذابهم العاجل، ويوم القيامة لا ينصرون، لأنهم من رحمة الله تعالى مبعدون.

{قرونا آخرين} هم عند أكثر المفسرين قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب وغير ذلك. . . {ثم أرسلنا رسلنا} عطف على {أنشأنا} لكن لا معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا، بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إرسال قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل فريق منهم رسولا خاصا به. . . وفي الصحاح: المواترة المتابعة، ولا تكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينهما فترة. . ٥١.

نقل النيسابوري: ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لا يزدادون إلا عنادا، وأنهم لا يلدون مؤمنا، وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم، ولا ضرر على أحد في هلاكهم. اه.

ومما أورد الطبري:. . ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي أجلنا لهلاكها، والوقت الذي وقتنا لفنائها، ولكنها تهلك لمجيئه؛ وهذا وعيد من الله لمشركي قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلام منه لهم أن تأخره في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله ليبلغوا الأجل الذي أجل لهم، فيحل بهم نقمته كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة

٤٣ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٢]

{أجلها} الوقت الذي قضى لهلاكها.

{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)}

{قرونا} أهل قرون وأزمان، وكل جماعة عاشوا مقترنين في زمن فهم قرن.

ثم أوجدنا وخلقنا بعد المهلكين من قوم نوح والذين من بعدهم أهل قرون غيرهم، أهل أزمان وفترات، وفي كل فترة وإلى كل أمة كنا نرسل رسولا؛ وصدق الله العظيم: {. . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ٥٢؛ {. . وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) ٥٣؛ {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ٥٤ ما يتقدمون على الموعد الذي قضى الله أن يهلكهم فيه، ولا يتأخرون عنه قليلا ولا كثيرا؛ ولكل قوم نبيهم، ليكون عالما بأحوالهم، وبلسانهم ليبين لهم؛ ولكن قليلا من المنذرين يؤمنون، وأكثرهم يكذبون. وأولئك هم المهلكون، ويرون النذر فيمن تقدموا فلا يعتبرون، فيبطش الله القوي الجبار بهم ليكونوا مثلا ومزدجرا لمن بعدهم يجيئون، هذا عذابهم العاجل، ويوم القيامة لا ينصرون، لأنهم من رحمة الله تعالى مبعدون.

{قرونا آخرين} هم عند أكثر المفسرين قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب وغير ذلك. . . {ثم أرسلنا رسلنا} عطف على {أنشأنا} لكن لا معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا، بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إرسال قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل فريق منهم رسولا خاصا به. . . وفي الصحاح: المواترة المتابعة، ولا تكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينهما فترة. . ٥٥.

نقل النيسابوري: ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لا يزدادون إلا عنادا، وأنهم لا يلدون مؤمنا، وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم، ولا ضرر على أحد في هلاكهم. اه.

ومما أورد الطبري:. . ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي أجلنا لهلاكها، والوقت الذي وقتنا لفنائها، ولكنها تهلك لمجيئه؛ وهذا وعيد من الله لمشركي قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلام منه لهم أن تأخره في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله ليبلغوا الأجل الذي أجل لهم، فيحل بهم نقمته كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة

٤٤ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٢]

{تترى} متتابعين.
{أحاديث} يحدث بهم على سبيل التعجب والتلهي، وأكثر ما يكون ذلك في الشر.
{فبعدا} أبعدهم الله من رحمته
{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ {٤٢} مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ {٤٣} ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ {٤٤}}
{قرونا} أهل قرون وأزمان، وكل جماعة عاشوا مقترنين في زمن فهم قرن.
ثم أوجدنا وخلقنا بعد المهلكين من قوم نوح والذين من بعدهم أهل قرون غيرهم، أهل أزمان وفترات، وفي كل فترة وإلى كل أمة كنا نرسل رسولا، وصدق الله العظيم: {. . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ٥٦؛ {. . وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) ٥٧؛ {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ٥٨ ما يتقدمون على الموعد الذي قضى الله أن يهلكهم فيه، ولا يتأخرون عنه قليلا ولا كثيرا؛ ولكل قوم نبيهم، ليكون عالما بأحوالهم، وبلسانهم ليبين لهم؛ ولكن قليلا من المنذرين يؤمنون، وأكثرهم يكذبون. وأولئك هم المهلكون، ويرون النذر فيمن تقدموا فلا يعتبرون، فيبطش الله القوي الجبار بهم ليكونوا مثلا ومزدجرا لمن بعدهم يجيئون، هذا عذابهم العاجل، ويوم القيامة لا ينصرون، لأنهم من رحمة الله تعالى مبعدون.
{قرونا آخرين} هم عند أكثر المفسرين قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب وغير ذلك. . . {ثم أرسلنا رسلنا} عطف على {أنشأنا} لكن لا معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا، بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إرسال قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل فريق منهم رسولا خاصا به. . . وفي الصحاح: المواترة المتابعة، ولا تكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينهما فترة. . ٥٩.
نقل النيسابوري: ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لا يزدادون إلا عنادا، وأنهم لا يلدون مؤمنا، وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم، ولا ضرر على أحد في هلاكهم. اهـ.
ومما أورد الطبري:. . ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي أجلنا لهلاكها، والوقت الذي وقتنا لفنائها، ولكنها تهلك لمجيئه؛ وهذا وعيد من الله لمشركي قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلام منه لهم أن تأخره في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله ليبلغوا الأجل الذي أجل لهم، فيحل بهم نقمته كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة
٤٥ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ {٤٥} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ {٤٦} فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ {٤٧} فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ {٤٨}}
{بآياتنا} بعلامات دالة على اقتدارنا، ومعجزات تثبت صدق رسولنا.
{وسلطان مبين} وبرهان واضح، وحجة بالغة، ودليل قاطع.
بعث الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بعد ذهاب الغابرين بحجج تؤكد صدقهما، وتشهد من قبل ومن بعد بقدرة وحكمة من أرسلهما، ولعل المراد بها الآيات التسع ومنها العصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، ونقص الثمرات؛ وربما يراد ب {سلطان مبين} قوة موسى عليه السلام في الاستدلال والمحاورة، وقد يشير إلى هذا ويشهد له ما تضمنته آيات محكمات من الذكر الحكيم بينت كيف حاج فرعون رسول الله موسى، فدحض موسى كليم الله حجة العاتي الطاغية؛ فما إن بلغه موسى وهارون بعض أمانات الرسالة: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) ٦٠ حتى أخذ يجادل موسى، فأقام عليه موسى حجة الله البالغة: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها

إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) ٦١؛ وكانت رسالتهما أولا إلى فرعون وكبراء ورؤساء قومه وإنما خص الكبراء ورسالتهما إلى القوم جميعا لأن الضعاف والعامة يتبعون الكبراء والرؤساء فتكلفوا التكبر، وتمادوا في العتو والتجبر، وسارعوا برد الدعوة متذرعين بأن الرسولين من جنس الآدميين، بل ومن الإسرائليين المستعبدين للفرعونيين، فكبر عليهم أن يتبعوا بعد أن كانوا متبوعين؛ وحكى الكتاب الحق بعض قيلهم، فجاء في الذكر الحكيم: {قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض. .) ٦٢؛ وشارك الضعفاء الكبراء في التكذيب والعناد والإعراض والإباء، فأغرق الله الأتباع والرؤساء: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٦٣

٤٦ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{ملئه} كبراء قومه والرؤساء فيهم.

{عالين} متكبرين متعاظمين، متسلطين على غيرهم.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ {٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ {٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ {٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ {٤٨)}

{بآياتنا} بعلامات دالة على اقتدارنا، ومعجزات تثبت صدق رسولنا.

{وسلطان مبين} وبرهان واضح، وحجة بالغة، ودليل قاطع.

بعث الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بعد ذهاب الغابرين بحجج تؤكد صدقهما، وتشهد من قبل ومن بعد بقدرة وحكمة من أرسلهما، ولعل المراد بها الآيات التسع ومنها العصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، ونقص الثمرات؛ وربما يراد ب {سلطان مبين} قوة موسى عليه السلام في الاستدلال والمحاورة، وقد يشير إلى هذا ويشهد له ما تضمنته آيات محكمات من الذكر الحكيم بينت كيف حاج فرعون رسول الله موسى، فدحض موسى كليم الله حجة العاتي الطاغية؛ فما إن بلغه موسى وهارون بعض أمانات الرسالة: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) ٦٤ حتى أخذ يجادل موسى، فأقام عليه موسى حجة الله البالغة: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) ٦٥؛ وكانت رسالتهما أولا إلى فرعون وكبراء ورؤساء قومه وإنما خص الكبراء ورسالتهما إلى القوم جميعا لأن الضعاف والعامة يتبعون الكبراء والرؤساء فتكلفوا التكبر، وتمادوا في العتو والتجبر، وسارعوا برد الدعوة متذرعين بأن الرسولين من جنس الآدميين، بل ومن الإسرائليين المستعبدين للفرعونيين، فكبر عليهم أن يتبعوا بعد أن كانوا متبوعين؛ وحكى الكتاب الحق بعض قيلهم، فجاء في الذكر الحكيم: {قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض. .) ٦٦؛ وشارك الضعفاء الكبراء في التكذيب والعناد والإعراض والإباء، فأغرق الله الأتباع والرؤساء: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٦٧

٤٧ - (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{عابدون} خاضعون، مستعبدون.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ {٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ {٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ {٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ {٤٨)}

{بآياتنا} بعلامات دالة على اقتدارنا، ومعجزات تثبت صدق رسولنا.

{وسلطان مبين} وبرهان واضح، وحجة بالغة، ودليل قاطع.

بعث الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بعد ذهاب الغابرين بحجج تؤكد صدقهما، وتشهد من قبل ومن بعد بقدرة وحكمة من أرسلهما، ولعل المراد بها الآيات التسع ومنها العصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، ونقص الثمرات؛ وربما يراد ب {سلطان مبين} قوة موسى عليه السلام في الاستدلال والمحاورة، وقد يشير إلى هذا ويشهد له ما تضمنته آيات محكمات من الذكر الحكيم بينت كيف حاج فرعون رسول الله موسى، فدحض موسى كليم الله حجة العاتي الطاغية؛ فما إن بلغه موسى وهارون بعض أمانات الرسالة: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) ٦٨ حتى أخذ يجادل موسى، فأقام عليه موسى حجة الله البالغة: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) ٦٩؛ وكانت رسالتهما أولا إلى فرعون وكبراء ورؤساء قومه وإنما خص الكبراء ورسالتهما إلى القوم جميعا لأن الضعاف والعامة يتبعون الكبراء والرؤساء فتكلفوا التكبر، وتمادوا في العتو والتجبر، وسارعوا برد الدعوة متذرعين بأن الرسولين من جنس الآدميين، بل ومن الإسرائليين المستعبدين للفرعونيين، فكبر عليهم أن يتبعوا بعد أن كانوا متبوعين؛ وحكى الكتاب الحق بعض قيلهم، فجاء في الذكر الحكيم: {قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض. ٠) ٧٠؛ وشارك الضعفاء الكبراء في التكذيب والعناد والإعراض والإباء، فأغرق الله الأتباع والرؤساء: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٧١

٤٨ - (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ {٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ {٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ {٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ {٤٨)}

{بآياتنا} بعلامات دالة على اقتدارنا، ومعجزات تثبت صدق رسولنا.

{وسلطان مبين} وبرهان واضح، وحجة بالغة، ودليل قاطع.

بعث الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بعد ذهاب الغابرين بحجج تؤكد صدقهما، وتشهد من قبل ومن بعد بقدرة وحكمة من أرسلهما، ولعل المراد بها الآيات التسع ومنها العصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، ونقص الثمرات؛ وربما يراد ب {سلطان مبين} قوة موسى عليه السلام في الاستدلال والمحاورة، وقد يشير إلى هذا ويشهد له ما تضمنته آيات محكمات من الذكر الحكيم بينت كيف حاج فرعون رسول الله موسى، فدحض موسى كليم الله حجة العاتي الطاغية؛ فما إن بلغه موسى وهارون بعض أمانات الرسالة: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل) ٧٢ حتى أخذ يجادل موسى، فأقام عليه موسى حجة الله البالغة: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) ٧٣؛ وكانت رسالتهما أولا إلى فرعون وكبراء ورؤساء قومه وإنما خص الكبراء ورسالتهما إلى القوم جميعا لأن الضعاف والعامة يتبعون الكبراء والرؤساء فتكلفوا التكبر، وتمادوا في العتو والتجبر، وسارعوا برد الدعوة متذرعين بأن الرسولين من جنس الآدميين، بل ومن الإسرائليين المستعبدين للفرعونيين، فكبر عليهم أن يتبعوا بعد أن كانوا متبوعين؛ وحكى الكتاب الحق بعض قيلهم، فجاء في الذكر الحكيم: {قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض. ٠) ٧٤؛ وشارك الضعفاء الكبراء في التكذيب والعناد والإعراض والإباء، فأغرق الله الأتباع والرؤساء: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) ٧٥

٤٩ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

{ولقد آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ {٤٩)}

بعد أن بينت الآيات السابقات بعض أنباء رسالة موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملائه، بينت هذه الآية نبأ من رسالتهما ٧٦ إلى بني إسرائيل؛ وقسما لقد أعطينا كتابنا التوراة موسى ليكون هاديا لقومه، ضياء للعقول والبصائر، وذكرى لمن كان له قلب {. . وضياء وذكرا للمتقين) ٧٧ وفضلا ورأفة من رب العالمين {. . نورا وهدى للناس. .) ٧٨ {. . هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) ٧٩؛ أما الذين قست قلوبهم فهيهات أن يهتدوا: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ٨٠.

فهم كالدواب لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، وفيهم أنزل الله تعالى قوله الحكيم: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) ٨١ {وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهو يعلمون) ٨٢ والضمير في {لعلهم} يعود على بني إسرائيل، وإن لم يتقدم لهم في هذه السورة ذكر لأن الكلام يقتضيه، كما عاد الضمير في قوله سبحانه: {إنا أنزلناه في ليلة القدر) على القرآن وإن لم يجر له هناك ذكر.

٥٠ - (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ {٥٠)}

كما أوجدنا عيسى ابن مريم دون أب، وحملت به أمه الطاهرة بأمرنا من غير أن تكون ذات زوج لنجعلهما علامة على قدرتنا وأنا نخلق من نشاء بأب وبغير أب، وبأم ودون أم، فقد خلقنا حواء من ضلع آدم، وخلقنا آدم من تراب فلا تمتروا في عيسى، إذ ليس يعجزنا فعل شيء: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ٨٣ وصيرهما الله تعالى وضمهما إلى مكان مرتفع وهو أفضل المساكن ٨٤ جعلهما الله تعالى يأويان إليه ويسكنانه، وكانت بقعة طيبة يستقر فيها من يعمرها لأنها كثيرة الزروع والثمار، وذات ماء جار يعاين؛ واختلف أين كانت تلك الربوة؟ فقيل: بيت المقدس، وقيل: دمشق، وقيل: مصر؛ وذكروا أن سبب هجرة أمه به ما كان به ما كان من عزم الملك ذلك الزمان على قتله، فخرجت به أمه مهاجرة، ولم يرجعا إلا بعد موت ذلك الملك الطاغية.

٥١ - (يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {٥١)}

{الطيبات} جمع طيب، وهو ما يستطاب ويستلذ؛ أو: الحلال؛ وقيل: حلال لا يعصى الله فيه، وصاف لا ينسى الله فيه، وقوام يمسك النفس ويحفظ العقل.

جائز أن يكون في الكلام مقدرا، أي: وقلنا: يا أيها الرسل كلوا مما يطيب ويستلذ من رزق الله تعالى ونعمته والأمر عليه للإباحة والترفيه، وفيه إبطال للرهبانية التي ابتدعها النصارى ٨٥ خوطب كل واحد منهم عليهم السلام في عصره؛ أو الأمر هنا مراد به تحري الحلال، فيكون الأمر تكليفيا، ويشهد لهذا المعنى أن الآية عقبت بالقول الرباني الكريم: {. . . واعملوا صالحا}.

كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم} وقال: {يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم. .) ٨٦ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك "؟ ٨٧ كما جاء الأمر بوجوب العمل الصالح وتقديم الأمر بأكل الحلال لأن أكل الحلال معين على العمل الصالح و. . {إني بما تعملون} من الأعمال الظاهرة والباطنة {عليم} فأجازيكم عليه؛ وفي البحر: أن هذا تحذير للرسل عليهم السلام، في الظاهر، والمراد أتباعهم ٨٨ [إني بأعمالكم ذو علم لا يخفى علي منها شيء، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا في صالحات الأعمال واجتهدوا] ٨٩.

٥٢ - (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

{وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {٥٢)}
والحالة التي بعثتكم بها أيها الرسل متفقة، والدين والشرع الذي أوحيت إليكم متحد في أصوله التي لا تتبدل، فكلكم أرسلتم بأنه لا إله إلا الله، وبوجوب توحيده وطاعته، وعبادته وتقواه، ورعاية حقوق خلق الله، وما تختلف شريعة نبي عن نبي آخر إلا في نهج اقتضته حكمة الله، وأنا وليكم ومصلحكم، ومعبودكم لا شريك لي يستحق عبادة، فإن إلهكم وربكم واحد، فأطيعوه، ولا تخالفوا عن أمره فتغضبوه، فلا تنالوا ولايته، ومن اتقاه تولاه وفي إرشاد العقل السليم أن ضمير الخطاب في قوله تعالى {ربكم} وفي قوله سبحانه: {فاتقون} للرسل والأمم جميعا، على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حق الأمة للتحذير والإيجاب. . . والمعنى: فاتقون في شق العصا، والمخالفة بالإخلال بموجب ما ذكر ٩٠ ويقول النيسابوري: المشار إليه ملة الإسلام.
٥٣ - (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)
{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {٥٣)}
{فتقطعوا} فتفرقوا.
{أمرهم} دينهم.
{زبرا} كتبا.
ربنا الكبير المتعال دعا الناس إلى دين بعث به رسله لا تختلف أصوله باختلاف الأزمان: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه. .) ٩١ فافترقت الأمم وقد أمروا بالاجتماع وجعلوا دينهم أديانا [فتفرق الذين أمرهم الله بلزوم دينه من الأمم دينهم بينهم كتبا، كل فريق بما اختاروه لأنفسهم من الدين والكتب فرحون معجبون به لا يرون أن الحق سواه] ٩٢.
يقول القرطبي: هذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة ". . الحديث. أخرجه أبو داود. ورواه الترمذي وزاد: قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: " ما أنا عليه وأصحابي " أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو، وهذا يبين أن الافتراق المحذر منه في الآية والحديث إنما هو في أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مللا، وأخبر أن التمسك بشيء من تلك الملل موجب لدخول النار، ومثل هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار، قال الله تعالى: {. . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. .) ٩٣، {زبرا} يعني كتبا وضعوها وضلالات ألفوها، قال ابن زيد، وقيل: إنهم فرقوا الكتب فاتبعت فرقة الصحف وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل، ثم حرف الكل وبدل، قاله قتادة. . اه.
٥٤ - (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ)
{فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ {٥٤)}
كأن الخطاب في هذه الآية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في شأن قريش، فقد دعوا إلى الإيمان بإله واحد هو ربهم ورب آبائهم رب السماوات والأرض، رب العالمين، رب البيت والبلد الأمين، الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فتركوا عبادة الله الواحد، واتخذت كل قبيلة إلها من دون الله سبحانه، ولو عقلوا لآمنوا بالخلاق العليم. الرزاق الكريم، العزيز الحكيم، الحي القيوم الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، فهل من يخلق كمن لا يخلق؟ وهل يعبد من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟ فكيف إذا كانت أصنامهم لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تعقل، ولا تتحرك ولا على أي شيء تقدر؟! لكن ضلال المشركين أعماهم عن الحق، وفرحوا بما هم فيه من الغي والزيغ، وتأبوا عن الاستجابة لنداء الهدى والرشد، فتوعدهم الله بأنه ممهلهم إلى حين، ووقت يحل بمجيئه عليهم الخزي والعذاب المهين، في هذه الحياة الدنيا وفي يوم الدين، مما أورد القرطبي: قوله تعالى: {حتى حين} قال مجاهد: حتى الموت، فهو تهديد لا توقيت، كما يقال: سيأتي لك يوم. اه. ونقل النيسابوري: أي إلى أن يقتلوا أو يموتوا، والتحقيق: أنه الحالة

التي يظهر عندها الحسرة والندامة، وذلك إذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه، وعرفهم سوء منقلبهم، فيشمل الموت والقبر والمحاسبة والنار، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهي عن الجزع من تأخير عقابهم. اه.

٥٥ - (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)

{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ {٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ {٥٦)}

أيظن الذين اقتسموا وتوزعوا ما أمرهم الله أن يقيموه ويجتمعوا عليه من الدين، وفرحوا بما أملته عليهم أهواؤهم وزينته لهم الشياطين، فأشركوا برب العالمين، أيظن هؤلاء الضالون أن ما متعهم الله تعالى به من ثراء وأبناء يعني أنهم عند ربهم كرماء وإليه أحباء؟! كلا بل ذلك قول السفهاء؛ فإن المولى الحكيم يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وذلك منه سبحانه اختبار وابتلاء ٩٤، ولقد حكى القرآن الكريم في موطن آخر قيلهم، ثم أبطل إفكهم وافتراءهم: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين. قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثرهم لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون} ٩٥ وجاء في موطن ثالث: {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها الحياة الدنيا} ٩٦ وفي سورة كريمة أخرى: {فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم} ٩٧ ومن هنا قيل: من يعص الله تعالى ولم ير نقصانا فيما أعطاه سبحانه من الدنيا فليعلم أنه مستدرج قد مكر به؛ وقال قتادة: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم؛ يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح. اه.

وكيف لا! وقد بين الحق جل علاه هوان الدنيا وزينتها، حتى لو اختص بها الكفار دون غيرهم لم يهون ذلك من عظيم خسرانهم: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) ٩٨.

٥٦ - (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ {٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ {٥٦)}

أيظن الذين اقتسموا وتوزعوا ما أمرهم الله أن يقيموه ويجتمعوا عليه من الدين، وفرحوا بما أملته عليهم أهواؤهم وزينته لهم الشياطين، فأشركوا برب العالمين، أيظن هؤلاء الضالون أن ما متعهم الله تعالى به من ثراء وأبناء يعني أنهم عند ربهم كرماء وإليه أحباء؟! كلا بل ذلك قول السفهاء؛ فإن المولى الحكيم يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وذلك منه سبحانه اختبار وابتلاء ٩٩، ولقد حكى القرآن الكريم في موطن آخر قيلهم، ثم أبطل إفكهم وافتراءهم: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين. قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثرهم لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون} ١٠٠ وجاء في موطن ثالث: {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها الحياة الدنيا} ١٠١ وفي سورة كريمة أخرى: {فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم} ١٠٢ ومن هنا قيل: من يعص الله تعالى ولم ير نقصانا فيما أعطاه سبحانه من الدنيا فليعلم أنه مستدرج قد مكر به؛ وقال قتادة: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم؛ يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح. اه.

وكيف لا! وقد بين الحق جل علاه هوان الدنيا وزينتها، حتى لو اختص بها الكفار دون غيرهم لم يهون ذلك من عظيم خسرانهم: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) ١٠٣.

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ {٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ {٦١)}

لما بينت الآيات الكريمة السابقة ضلال رأي الكفار، وبطلان حسبانهم الكاذب أن ما هم فيه من ترف يعني أنهم أعز وأكرم ممن سواهم، بينت هذه الآيات المباركة أن أهل الخشية من الملك الديان، وأهل الصدق والإيمان، وتوحيد المعبود ذي الجلال والإكرام،. ويعملون الصالحات وهو في وجل وخوف أن لا يثقل بها الميزان؛ هؤلاء المكرمون خاصة يسارعون في نيل الخيرات وهم سابقون الناس إليها؛ إذ قد وعد الغني الوهاب عباده الصالحين بخيري العاجلة والآجلة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ١٠٤ وامتن الله سبحانه بجزيل ما وهبهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. ٠) ١٠٥ أثنى عليهم ربهم بأنهم يهيبون سخطه وعذابه، فهم كانوا على حذر لا يأمنون مكر الله ف {من} تعليلية وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. ٠ إنما يخشى الله من عباده العلماء. ٠) ١٠٦ والثاني خوف مع اعتناء ١٠٧ وأثنى عليهم ثانيا بأنهم مصدقون بالآيات القرآنية والمعجزات الكونية، وعلامات الاقتدار الآفاقية والأنفسية.

[وليس المراد التصديق بوجودها فقط، فإن المعلوم بالضرورة فلا يوجب المدح، بل التصديق بكونها دلائل موصلة إلى العرفان، ويتبعه الإقرار اللساني ظاهرا] ١٠٨، ثم هم بمعزل دائما عن الشرك الظاهر والخفي؛ ورابع ما أنعم الله به على هؤلاء المكرمين الفائزين: أنهم يعطون ما يعطون وقلوبهم خائفة من عدم القبول ١٠٩، لأنهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ثم إن الموصولات الأربع. ٠ عبارة عن طائفة واحدة

متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة...وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ١١٠ أولئك الذين بعدت منازلهم في الفضل يسابقون إلى نيل الفيض العاجل والآجل وهم سابقون إليه، ظافرون به، مدركونه تفضلا من ربنا الغني الكريم، الشكور الحليم.

٥٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٧]

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ {٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ {٦١)}

لما بينت الآيات الكريمة السابقة ضلال رأي الكفار، وبطلان حسبانهم الكاذب أن ما هم فيه من ترف يعني أنهم أعز وأكرم ممن سواهم، بينت هذه الآيات المباركة أن أهل الخشية من الملك الديان، وأهل الصدق والإيمان، وتوحيد المعبود ذي الجلال والإكرام،. ويعملون الصالحات وهو في وجل وخوف أن لا يثقل بها الميزان؛ هؤلاء المكرمون خاصة يسارعون في نيل الخيرات وهم سابقون الناس إليها؛ إذ قد وعد الغني الوهاب عباده الصالحين بخيري العاجلة والآجلة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ١١١ وامتن الله سبحانه بجزيل ما وهبهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. ٠) ١١٢ أثنى عليهم ربهم بأنهم يهيبون سخطه وعذابه، فهم كانوا على حذر لا يأمنون مكر الله ف {من} تعليلية وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. ٠ إنما يخشى الله من عباده العلماء. ٠) ١١٣ والثاني خوف مع اعتناء ١١٤ وأثنى عليهم ثانيا بأنهم مصدقون بالآيات القرآنية والمعجزات الكونية، وعلامات الاقتدار الآفاقية والأنفسية.

[وليس المراد التصديق بوجودها فقط، فإن المعلوم بالضرورة فلا يوجب المدح، بل التصديق بكونها دلائل موصلة إلى العرفان، ويتبعه

الإقرار اللساني ظاهرا] ١١٥، ثم هم بمعزل دائما عن الشرك الظاهر والخفي؛ ورابع ما أنعم الله به على هؤلاء المكرمين الفائزين: أنهم يعطون ما يعطون وقلوبهم خائفة من عدم القبول ١١٦، لأنهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ثم إن الموصولات الأربع. . عبارة عن طائفة واحدة

متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة...وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ١١٧ أولئك الذين بعدت منازلهم في الفضل يسابقون إلى نيل الفيض العاجل والآجل وهم سابقون إليه، ظافرون به، مدركونه تفضلا من ربنا الغني الكريم، الشكور الحليم.

٥٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٧]

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ {٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ {٦١)}

لما بينت الآيات الكريمة السابقة ضلال رأي الكفار، وبطلان حسبانهم الكاذب أن ما هم فيه من ترف يعني أنهم أعز وأكرم ممن سواهم، بينت هذه الآيات المباركة أن أهل الخشية من الملك الديان، وأهل الصدق والإيمان، وتوحيد المعبود ذي الجلال والإكرام،. ويعملون الصالحات وهو في وجل وخوف أن لا يثقل بها الميزان؛ هؤلاء المكرمون خاصة يسارعون في نيل الخيرات وهم سابقون الناس إليها؛ إذ قد وعد الغني الوهاب عباده الصالحين بخيري العاجلة والآجلة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ١١٨ وامتن الله سبحانه بجزيل ما وهبهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. .) ١١٩ أثنى عليهم ربهم بأنهم يتهيبون سخطه وعذابه، فهم كانوا على حذر لا يأمنون مكر الله ف {من} تعليلية وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. . إنما يخشى الله من عباده العلماء. .) ١٢٠ والثاني خوف مع اعتناء ١٢١ وأثنى عليهم ثانيا بأنهم مصدقون بالآيات القرآنية والمعجزات الكونية، وعلامات الاقتدار الآفاقية والأنفسية.

[وليس المراد التصديق بوجودها فقط، فإن المعلوم بالضرورة فلا يوجب المدح، بل التصديق بكونها دلائل موصلة إلى العرفان، ويتبعه الإقرار اللساني ظاهرا] ١٢٢، ثم هم بمعزل دائما عن الشرك الظاهر والخفي؛ ورابع ما أنعم الله به على هؤلاء المكرمين الفائزين: أنهم يعطون ما يعطون وقلوبهم خائفة من عدم القبول ١٢٣، لأنهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ثم إن الموصولات الأربع. . عبارة عن طائفة واحدة

متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة...وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ١٢٤ أولئك الذين بعدت منازلهم في الفضل يسابقون إلى نيل الفيض العاجل والآجل وهم سابقون إليه، ظافرون به، مدركونه تفضلا من ربنا الغني الكريم، الشكور الحليم.

٦٠ - (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٧]

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ {٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ {٦١)}

لما بينت الآيات الكريمة السابقة ضلال رأي الكفار، وبطلان حسبانهم الكاذب أن ما هم فيه من ترف يعني أنهم أعز وأكرم ممن

سواهم، بينت هذه الآيات المباركة أن أهل الخشية من الملك الديان، وأهل الصدق والإيمان، وتوحيد المعبود ذي الجلال والإكرام،. ويعملون الصالحات وهو في وجل وخوف أن لا يثقل بها الميزان؛ هؤلاء المكرمون خاصة يسارعون في نيل الخيرات وهم سابقون الناس إليها؛ إذ قد وعد الغني الوهاب عباده الصالحين بخيري العاجلة والآجلة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ١٢٥ وامتن الله سبحانه بجزيل ما وهبهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. .) ١٢٦ أثنى عليهم ربهم بأنهم يتهيبون سخطه وعذابه، فهم كانوا على حذر لا يأمنون مكر الله ف {من} تعليلية وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. . إنما يخشى الله من عباده العلماء. .) ١٢٧ والثاني خوف مع اعتناء ١٢٨ وأثنى عليهم ثانيا بأنهم مصدقون بالآيات القرآنية والمعجزات الكونية، وعلامات الاقتدار الآفاقية والأنفسية.

[وليس المراد التصديق بوجودها فقط، فإن المعلوم بالضرورة فلا يوجب المدح، بل التصديق بكونها دلائل موصلة إلى العرفان، ويتبعه الإقرار اللساني ظاهرا] ١٢٩؛ ثم هم بمعزل دائما عن الشرك الظاهر والخفي؛ ورابع ما أنعم الله به على هؤلاء المكرمين الفائزين: أنهم يعطون ما يعطون وقلوبهم خائفة من عدم القبول ١٣٠، لأنهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ثم إن الموصولات الأربع. . عبارة عن طائفة واحدة

متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة...وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ١٣١ أولئك الذين بعدت منازلهم في الفضل يسابقون إلى نيل الفيض العاجل والآجل وهم سابقون إليه، ظافرون به، مدركونه تفضلا من ربنا الغني الكريم، الشكور الحليم.

٦١ - (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٧]

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ {٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ {٦١)}

لما بينت الآيات الكريمة السابقة ضلال رأي الكفار، وبطلان حسبانهم الكاذب أن ما هم فيه من ترف يعني أنهم أعز وأكرم ممن سواهم، بينت هذه الآيات المباركة أن أهل الخشية من الملك الديان، وأهل الصدق والإيمان، وتوحيد المعبود ذي الجلال والإكرام،. ويعملون الصالحات وهو في وجل وخوف أن لا يثقل بها الميزان؛ هؤلاء المكرمون خاصة يسارعون في نيل الخيرات وهم سابقون الناس إليها؛ إذ قد وعد الغني الوهاب عباده الصالحين بخيري العاجلة والآجلة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ١٣٢ وامتن الله سبحانه بجزيل ما وهبهم: {فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. .) ١٣٣ أثنى عليهم ربهم بأنهم يتهيبون سخطه وعذابه، فهم كانوا على حذر لا يأمنون مكر الله ف {من} تعليلية وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: {. . إنما يخشى الله من عباده العلماء. .) ١٣٤ والثاني خوف مع اعتناء ١٣٥ وأثنى عليهم ثانيا بأنهم مصدقون بالآيات القرآنية والمعجزات الكونية، وعلامات الاقتدار الآفاقية والأنفسية.

[وليس المراد التصديق بوجودها فقط، فإن المعلوم بالضرورة فلا يوجب المدح، بل التصديق بكونها دلائل موصلة إلى العرفان، ويتبعه الإقرار اللساني ظاهرا] ١٣٦؛ ثم هم بمعزل دائما عن الشرك الظاهر والخفي؛ ورابع ما أنعم الله به على هؤلاء المكرمين الفائزين: أنهم يعطون ما يعطون وقلوبهم خائفة من عدم القبول ١٣٧، لأنهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ثم إن الموصولات الأربع. . عبارة عن طائفة واحدة

متصفة بما ذكر في حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة...وإنما

كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ١٣٨ أولئك الذين بعدت منازلهم في الفضل يسابقون إلى نيل الفيض العاجل والآجل وهم سابقون إليه، ظافرون به، مدركونه تفضلا من ربنا الغني الكريم، الشكور الحليم.

٦٢ - (وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

{وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {٦٢)}

لما كانت الآية السابقة على هذه قد بينت حال المتقين الصادقين المحسنين، فكأنما بينت الآية الكريمة الثانية والستون يسر الوصول إلى هذه الدرجات العالية من الإحسان، فإن البر الرحيم لا يكلف نفسا إلا قدر طاقتها، ولا يشرع لعباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في عمل البر وفعل الطاعات مبلغ السابقين فلا عليهم بعد أن يفعلوا المستطاع، ولهذا كان من هدى الإسلام: سددوا وقاربوا، {ولدينا كتاب ينطق بالحق} وعندنا كتاب استنسخناه مما قال المكلفون وعملوا، يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه، ينطق الله الصحائف، أو ينطق الأنبياء والملائكة بما في صحائف أعمال العباد، أو ينطق كل واحد بما في كتابه، مصداقا لوعده الذي لا يخلف: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ١٣٩، {وهم لا يظلمون} في الجزاء بنقص ثواب أو زيادة عذاب، بل يجزون بقدر ما عملوا وشهدوا على أنفسهم لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفوا ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ١٤٠

٦٣ - (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ {٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ {٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ {٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧)}

{غمرة} غطاء وغفلة وعمى.

عادت الآيات الكريمة تبين حال الكفرة، فقلوبهم في غطاء وعمى عن بيان القرآن لمصير أهل الإيمان، وشهادة صحائف الأعمال يوم القيامة على كل إنسان، ولهم أعمال كثيرة سيئة، فشركهم وجحودهم بالخالق وعهده أكبر الكبائر، ومن دون ذلك بغيهم وظلمهم الخلائق، وهم مستمرئون المعاصي، مقيمون على الكفر والفجور والشرور، حتى إذا أنزل الله تعالى العذاب بأكابر مجرميهم إذا هم يصيحون ويستغيثون وهم كفار أهل مكة، لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. . لأنهم ناحوا واستغاثوا. . ناحوا على قتلاهم في بدر شهرا. .

وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف " فاستجيب له عليه الصلاة والسلام، فأصابهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة. . . وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة. .

لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر. . . ١٤١ فيقنطهم الله تعالى من الاستجابة لصياحهم واستغاثتهم وتضرعهم بأنهم لن ينتفعوا بدعائهم حينئذ، ولا يمنعون من بأس الله إذا أنزله بهم؛ وهو نهي يراد به الإخبار، سبب هذا الإقناط أنكم كنتم تسمعون آياتي، وتقرأ عليكم كلماتي، فكنتم عنها تعرضون، وإلى ضلالكم القديم تعودون، مستكبرين بالبيت الحرام.

[والباء للسببية، وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوّامه، وهذا ما عليه جمهور المفسرين] ١٤٢، تحدثون ليلا في سمر القمر، وكانت قريش تسمر حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، وفي الافتراء على القرآن ومن أنزل عليه، فيقولون: سحر، وأساطير الأولين، ويهذون في شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وينطقون بهجر الكلام وقبيحه ويفحشون كثيرا.

[يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير طاعة الله، إما في هذيان، وإما في إذاية. . وأما كراهية الحديث بعدها يعني صلاة العشاء فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتّاب يعني الملائكة الكتبة صحيفته بالعبادة؛ فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين؛ وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل، فينام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح؛ وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل نوما آخره!. . . هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك. . . وقد قال البخاري: [باب الفقه والخير بعد العشاء]. . . قال: [باب السمر مع أهل الضيف والأهل]. . . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار] ١٤٣

٦٤ - (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]

{مترفيهم} كبراءهم الذين أبطرتهم النعم.

{يجأرون} يصيحون ويضجون ويستغيثون.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ {٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ {٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ {٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧)}

{غمرة} غطاء وغفلة وعمى.

عادت الآيات الكريمة تبين حال الكفرة، فقلوبهم في غطاء وعمى عن بيان القرآن لمصير أهل الإيمان، وشهادة صحائف الأعمال يوم القيامة على كل إنسان، ولهم أعمال كثيرة سيئة، فشركهم وجحودهم بالخالق وعهده أكبر الكبائر، ومن دون ذلك بغيهم وظلمهم الخلائق؛ وهم مستمرئون المعاصي، مقيمون على الكفر والفجور والشرور؛ حتى إذا أنزل الله تعالى العذاب بأكابر مجرميهم إذا هم يصيحون ويستغيثون وهم كفار أهل مكة، لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. . لأنهم ناحوا واستغاثوا. . ناحوا على قتلاهم في بدر شهرا. .

وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف " فاستجيب له عليه الصلاة والسلام، فأصابهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة. . . وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة. .

لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر. . . ١٤٤ فيقنطهم الله تعالى من الاستجابة لصياحهم واستغاثتهم وتضرعهم بأنهم لن ينتفعوا بدعائهم حينئذ، ولا يمنعون من بأس الله إذا أنزله بهم؛ وهو نهي يراد به الإخبار؛ سبب هذا الإقناط أنكم كنتم تسمعون آياتي، وتقرأ عليكم كلماتي، فكنتم عنها تعرضون، وإلى ضلالكم القديم تعودون؛ مستكبرين بالبيت الحرام.

[والباء للسببية، وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوّامه؛ وهذا ما عليه جمهور المفسرين] ١٤٥؛ تحدثون ليلا في سمر القمر؛ وكانت قريش تسمر حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، وفي الافتراء على القرآن ومن أنزل عليه، فيقولون: سحر، وأساطير الأولين، ويهذون في شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وينطقون بهجر الكلام وقبيحه ويفحشون كثيرا.

[يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير طاعة الله، إما في هذيان، وإما في إذاية. . وأما كراهية الحديث بعدها يعني صلاة العشاء فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتّاب يعني الملائكة الكتبة صحيفته بالعبادة؛ فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين؛ وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل،

فينام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح؛ وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل نوما آخره!. . . هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك. . . وقد قال البخاري: [باب الفقه والخير بعد العشاء]. . . قال: [باب السمر مع أهل الضيف والأهل]. . . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار] ١٤٦

٦٥ - (لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]

{لا تنصرون} لا تمنعون ولا تنتفعون.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ {٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ {٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ {٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧)}

{غمرة} غطاء وغفلة وعمى.

عادت الآيات الكريمة تبين حال الكفرة، فقلوبهم في غطاء وعمى عن بيان القرآن لمصير أهل الإيمان، وشهادة صحائف الأعمال يوم القيامة على كل إنسان، ولهم أعمال كثيرة سيئة، فشركهم وجحودهم بالخالق وعهده أكبر الكبائر، ومن دون ذلك بغيهم وظلمهم الخلائق؛ وهم مستمرئون المعاصي، مقيمون على الكفر والفجور والشرور؛ حتى إذا أنزل الله تعالى العذاب بأكابر مجرميهم إذا هم يصيحون ويستغيثون وهم كفار أهل مكة، لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. . لأنهم ناحوا واستغاثوا. . ناحوا على قتلاهم في بدر شهراء .

وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف " فاستجيب له عليه الصلاة والسلام، فأصابهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة. . . وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة. .

لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر. . . ١٤٧ فيقنطهم الله تعالى من الاستجابة لصياحهم واستغاثتهم وتضرعهم بأنهم لن ينتفعوا بدعائهم حينئذ، ولا يمنعون من بأس الله إذا أنزله بهم؛ وهو نهي يراد به الإخبار؛ سبب هذا الإقناط أنكم كنتم تسمعون آياتي، وتقرأ عليكم كلماتي، فكنتم عنها تعرضون، وإلى ضلالكم القديم تعودون؛ مستكبرين بالبيت الحرام.

[والباء للسببية، وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوّامه، وهذا ما عليه جمهور المفسرين] ١٤٨، تحدثون ليلا في سمر القمر، وكانت قريش تسمر حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، وفي الافتراء على القرآن ومن أنزل عليه، فيقولون: سحر، وأساطير الأولين، ويهذون في شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وينطقون بهجر الكلام وقبيحه ويفحشون كثيرا.

[يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير طاعة الله، إما في هذيان، وإما في إذاية. . وأما كراهية الحديث بعدها يعني صلاة العشاء فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتاب يعني الملائكة الكتبة صحيفته بالعبادة؛ فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين؛ وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل، فينام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح؛ وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل نوما آخره!. . . هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك. . . وقد قال البخاري: [باب الفقه والخير بعد العشاء]. . . قال: [باب السمر مع أهل الضيف والأهل]. . . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار] ١٤٩

٦٦ - (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]
{تتلى} تقرأ.
{على أعقابكم تنكصون} ترجعون وراءكم.
{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ {٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ {٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ {٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧)}
{غمرة} غطاء وغفلة وعمى.
عادت الآيات الكريمة تبين حال الكفرة، فقلوبهم في غطاء وعمى عن بيان القرآن لمصير أهل الإيمان، وشهادة صحائف الأعمال يوم القيامة على كل إنسان، ولهم أعمال كثيرة سيئة، فشركهم وجحودهم بالخالق وعهده أكبر الكبائر، ومن دون ذلك بغيهم وظلمهم الخلائق؛ وهم مستمرئون المعاصي، مقيمون على الكفر والفجور والشرور؛ حتى إذا أنزل الله تعالى العذاب بأكابر مجرميهم إذا هم يصيحون ويستغيثون وهم كفار أهل مكة، لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. . لأنهم ناحوا واستغاثوا. . ناحوا على قتلاهم في بدر شهرا. .
وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف " فاستجيب له عليه الصلاة والسلام، فأصابهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة. . . وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة. .
لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر. . . ١٥٠ فيقنطهم الله تعالى من الاستجابة لصياحهم واستغاثتهم وتضرعهم بأنهم لن ينتفعوا بدعائهم حينئذ، ولا يمنعون من بأس الله إذا أنزله بهم؛ وهو نهي يراد به الإخبار؛ سبب هذا الإقناط أنكم كنتم تسمعون آياتي، وتقرأ عليكم كلماتي، فكنتم عنها تعرضون، وإلى ضلالكم القديم تعودون؛ مستكبرين بالبيت الحرام.
[والباء للسببية؛ وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوّامه؛ وهذا ما عليه جمهور المفسرين] ١٥١؛ تحدثون ليلا في سمر القمر؛ وكانت قريش تسمر حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، وفي الافتراء على القرآن ومن أنزل عليه، فيقولون: سحر، وأساطير الأولين، ويهذون في شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وينطقون بهجر الكلام وقبيحه ويفحشون كثيرا.
[يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير طاعة الله، إما في هذيان، وإما في إذاية. . وأما كراهية الحديث بعدها يعني صلاة العشاء فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتّاب يعني الملائكة الكتبة صحيفته بالعبادة؛ فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين؛ وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل، فينام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح؛ وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل نوما آخره!. . . هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك. . . وقد قال البخاري: [باب الفقه والخير بعد العشاء]. . . قال: [باب السمر مع أهل الضيف والأهل]. . . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار] ١٥٢
٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]
{سامرا} سمارا تتحدثون ليلا.
{تهجرون} تتركون، أو تهذون.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ {٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ {٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ {٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧)}

{غمرة} غطاء وغفلة وعمى.

عادت الآيات الكريمة تبين حال الكفرة، فقلوبهم في غطاء وعمى عن بيان القرآن لمصير أهل الإيمان، وشهادة صحائف الأعمال يوم القيامة على كل إنسان، ولهم أعمال كثيرة سيئة، فشركهم وجحودهم بالخالق وعهده أكبر الكبائر، ومن دون ذلك بغيهم وظلمهم الخلائق؛ وهم مستمرئون المعاصي، مقيمون على الكفر والفجور والشرور؛ حتى إذا أنزل الله تعالى العذاب بأكابر مجرميهم إذا هم يصيحون ويستغيثون وهم كفار أهل مكة، لكن بإرادة من بقي منهم بعد أخذ المترفين بالقتل. . لأنهم ناحوا واستغاثوا. . ناحوا على قتلاهم في بدر شهراء .

وعن الضحاك أن المراد بالعذاب عذاب الجوع، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف " فاستجيب له عليه الصلاة والسلام، فأصابهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة. . . وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة. .

لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط من النصر. . . ١٥٣ فيقنطهم الله تعالى من الاستجابة لصياحهم واستغاثتهم وتضرعهم بأنهم لن ينتفعوا بدعائهم حينئذ، ولا يمنعون من بأس الله إذا أنزله بهم؛ وهو نهي يراد به الإخبار؛ سبب هذا الإقناط أنكم كنتم تسمعون آياتي، وتقرأ عليكم كلماتي، فكنتم عنها تعرضون، وإلى ضلالكم القديم تعودون؛ مستكبرين بالبيت الحرام.

[والباء للسببية؛ وسوغ هذا الإضمار مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوّامه؛ وهذا ما عليه جمهور المفسرين] ١٥٤؛ تحدثون ليلا في سمر القمر؛ وكانت قريش تسمر حول الكعبة مجالس في أباطيلها وكفرها، وفي الافتراء على القرآن ومن أنزل عليه، فيقولون: سحر، وأساطير الأولين، ويهذون في شأن النبي عليه الصلاة والسلام، وينطقون بهجر الكلام وقبيحه ويفحشون كثيرا.

[يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير طاعة الله، إما في هذيان، وإما في إذاية. . وأما كراهية الحديث بعدها يعني صلاة العشاء فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتاب يعني الملائكة الكتبة صحيفته بالعبادة؛ فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين؛ وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل، فينام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح؛ وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل نوما آخره!. . . هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك. . . وقد قال البخاري: [باب الفقه والخير بعد العشاء]. . . قال: [باب السمر مع أهل الضيف والأهل]. . . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار] ١٥٥

٦٨ - (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ {٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ {٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ {٧٠)}

{يدبروا} يتدبروا ويتفهموا ويتعقلوا.

{القول} القرآن الكريم.

أفحملهم الاستكبار والنكوص والهجر على إغلاق قلوبهم من دون هذا القرآن الحق العربي المبين فلم يتفهموه ولا تعقلوه ليتبين لهم أنه الصدق والهدى والرشد فيستيقنوا به ويستقيموا على منهاجه؟ بل أجاءهم هذا الكتاب بدعا من الكتب السابقة المنزلة على سابقيهم فهم

في مرية منه؟! وقيل المعنى: أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عن تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين؟ أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ فالمراد بآبائهم المؤمنون كإسماعيل عليه السلام ١٥٦ وأنكر عليهم ربهم وقبحهم في الآية الثانية، إذ قد يكون المعنى: بل ألم يعرفوا النبي المبعوث إليهم بأنه الصادق الأمين؟ فلماذا أنكروه وكذبوه؟! واللام للتقوية، وتقديم المعمول للتخصيص. . والكلام على تقدير مضاف أي منكرون لدعواه أو لرسالته عليه الصلاة والسلام ثم أنكر القرآن عليهم ووبخهم إذ تمادوا في السفاهة فقالوا على النبي المصطفى المختار إنه مجنون، وكذبوا، فقد جاءهم بالصدق والدين المرتضى والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه {. . تنزيل من حكيم حميد) ١٥٧، وأكثر قريش للحق كارهون حسدا وبغيا، وعنادا وعناقا وتقليدا.

وقال قتادة: {أفلم يدبروا القول} إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم. . ١٥٨ [وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة، ففي اتباعه النجاة والخير لولا العنت، قال سفيان، بلى؟ قد عرفوه ولكنهم حسدوه] ١٥٩

٦٩ - (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ {٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ {٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ {٧٠)}

{يدبروا} يتدبروا ويتفهموا ويتعقلوا.

{القول} القرآن الكريم.

أفحملهم الاستكبار والنكوص والهجر على إغلاق قلوبهم من دون هذا القرآن الحق العربي المبين فلم يتفهموه ولا تعقلوه ليتبين لهم أنه الصدق والهدى والرشد فيستيقنوا به ويستقيموا على منهاجه؟ بل أجاءهم هذا الكتاب بدعا من الكتب السابقة المنزلة على سابقيهم فهم في مرية منه؟! وقيل المعنى: أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عن تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين؟ أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ فالمراد بآبائهم المؤمنون كإسماعيل عليه السلام ١٦٠ وأنكر عليهم ربهم وقبحهم في الآية الثانية، إذ قد يكون المعنى: بل ألم يعرفوا النبي المبعوث إليهم بأنه الصادق الأمين؟ فلماذا أنكروه وكذبوه؟! واللام للتقوية، وتقديم المعمول للتخصيص. . والكلام على تقدير مضاف أي منكرون لدعواه أو لرسالته عليه الصلاة والسلام ثم أنكر القرآن عليهم ووبخهم إذ تمادوا في السفاهة فقالوا على النبي المصطفى المختار إنه مجنون، وكذبوا، فقد جاءهم بالصدق والدين المرتضى والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه {. . تنزيل من حكيم حميد) ١٦١، وأكثر قريش للحق كارهون حسدا وبغيا، وعنادا وعناقا وتقليدا.

وقال قتادة: {أفلم يدبروا القول} إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم. . ١٦٢ [وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة، ففي اتباعه النجاة والخير لولا العنت، قال سفيان، بلى؟ قد عرفوه ولكنهم حسدوه] ١٦٣

٧٠ - (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{جنة} جنون.

{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ {٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ {٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ {٧٠)}

{يدبروا} يتدبروا ويتفهموا ويتعقلوا.

{القول} القرآن الكريم.

أفحملهم الاستكبار والنكوص والهجر على إغلاق قلوبهم من دون هذا القرآن الحق العربي المبين فلم يتفهموه ولا تعقلوه ليتبين لهم أنه

الصدق والهدى والرشد فيستيقنوا به ويستقيموا على منهاجه؟ بل أجاءهم هذا الكتاب بدعا من الكتب السابقة المنزلة على سابقيهم فهم في مرية منه؟! وقيل المعنى: أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عن تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين؟ أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ فالمراد بآبائهم المؤمنون كإسماعيل عليه السلام ١٦٤ وأنكر عليهم ربهم وقبحهم في الآية الثانية، إذ قد يكون المعنى: بل ألم يعرفوا النبي المبعوث إليهم بأنه الصادق الأمين؟ فلماذا أنكروه وكذبوه؟! واللام للتقوية، وتقديم المعمول للتخصيص. . والكلام على تقدير مضاف أي منكرون لدعواه أو لرسالته عليه الصلاة والسلام ثم أنكر القرآن عليهم ووبخهم إذ تمادوا في السفاهة فقالوا على النبي المصطفى المختار إنه مجنون، وكذبوا؛ فقد جاءهم بالصدق والدين المرتضى والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه {. . تنزيل من حكيم حميد) ١٦٥، وأكثر قريش للحق كارهون حسدا وبغيا، وعنادا وعناقا وتقليدا.

وقال قتادة: {أفلم يدبروا القول} إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم. . ١٦٦ [وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة، ففي اتباعه النجاة والخير لولا العنت، قال سفيان، بلى؟ قد عرفوه ولكنهم حسدوه] ١٦٧

٧١ - (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

{لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ {٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ {٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {٧٥)}

{بذكرهم} بشرفهم وعزهم.

شهد الله تعالى أن نبيه بنعمة ربه ليس إلا هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وما أرسله مولاه الحكيم إلا بالحق {بل جاءهم الحق} وإنما كرهوا ما أنزل الله لأنه لا يوافق أهواءهم، ولو وافق أهواءهم لهلك الكون بمن فيه.

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن النحاس: وتقديره في العربية: ولو اتبع صاحب الحق، وقد قيل: هو مجاز، أي لو وافق الحق أهواءهم؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا، أي لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يجازون على ذلك. . . لفسدت السماوات والأرض، وقيل: المعنى: ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. . . وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محملا على فساد ما يعقل من الحيوان، لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مربوبة، وعبدت وهي مستعبدة، وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما باتباع الهوى، وذلك مهلك، والثاني بعبادة غير الله، وذلك كفر. . . اه ١٦٨، بل جئناهم بالقرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم كما امتن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تبارك اسمه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك. .) ١٦٩، فأعرضوا عن الكتاب الذي ترفع به أقدارهم، [وقيل! المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: {لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين) ١٧٠ فكأنه قيل: بل أتيناهم بالكتاب الذي تمنوه] ١٧١ وما دمت تدعو إلى الحق، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وفي الحق الذي جئت به صيتهم وعزهم فلماذا التكذيب؟ بل أنكصوا على أعقابهم إذ ناديتم إلى الخير والرشد لأنك تطالبهم بأجر على هدايتك إياهم؟ كلا! فإنما أجرك الأوفى تناله من ربك العلي الأعلى، فأنت لا تسألهم شيئا، فإن ما آتاك الله في الأولى والأخرى خير مما يجمعون، وأوسع وأدوم مما هم فيه ممتعون، وربك خير الرازقين، فرزقه أبرك رزق وأخلد، ولا يصدنك والمؤمنين عما هداكم إليه رب العالمين ما ترون من نكوص هؤلاء المستكبرين، فإنك لا تسمع الموتى {. . ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا. .) ١٧٢ فأنت على الحق المبين ١٧٣، ومن استقام على المنهاج الذي بعثت

به أدرك رضوان رب العالمين: {. . إن ربي على صراط مستقيم) ١٧٤، وقد كفر كثير ممن دعوت بالله الواحد، وكفروا بالحق الذي جاءهم، والرسول الذي دعاهم ونصح لهم، وكذبوا بما ينتظرهم من الجزاء يوم يلقون ربهم، فمالوا عن الخير والرشد ميلا عظيما، فاستوجبوا بكفرهم وتكذيبهم عذابا أليما مقيما، {ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر} بعد أن عاينوا النار وسوء المستقر، فرددناهم إلى الدنيا لعاودوا الطغيان والشر، والصدود والكفر، وبهذا شهد كتاب ربنا الحكيم الخبير: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ١٧٥ فهذا من علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه [لو] فهو مما لا يكون أبدا ١٧٦

٧٢ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

{خرجا} أجرا ورزقا.

{فخراج ربك} فعطاء ربك وإنعامه.

{لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ {٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ {٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {٧٥)}

{بذكرهم} بشرفهم وعزهم.

شهد الله تعالى أن نبيه بنعمة ربه ليس إلا هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وما أرسله مولاه الحكيم إلا بالحق {بل جاءهم الحق} وإنما كرهوا ما أنزل الله لأنه لا يوافق أهواءهم، ولو وافق أهواءهم لهلك الكون بمن فيه.

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن النحاس: وتقديره في العربية: ولو اتبع صاحب الحق، وقد قيل: هو مجاز، أي لو وافق الحق أهواءهم، فجعل موافقته اتباعا مجازا، أي لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يجازون على ذلك. . . لفسدت السماوات والأرض، وقيل: المعنى: ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. . . وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محملا على فساد ما يعقل من الحيوان، لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مربوبة، وعبدت وهي مستعبدة، وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما باتباع الهوى، وذلك مهلك، والثاني بعبادة غير الله، وذلك كفر. . . اه ١٧٧، بل جئناهم بالقرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم كما امتن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تبارك اسمه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك. .) ١٧٨، فأعرضوا عن الكتاب الذي ترفع به أقدارهم، [وقيل! المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: {لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين) ١٧٩ فكأنه قيل: بل أتيناهم بالكتاب الذي تمنوه] ١٨٠ وما دمت تدعو إلى الحق، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وفي الحق الذي جئت به صيتهم وعزهم فلماذا التكذيب؟ بل أنكصوا على أعقابهم إذ ناديتم إلى الخير والرشد لأنك تطالبهم بأجر على هدايتك إياهم؟ كلا! فإنما أجرك الأوفى تناله من ربك العلي الأعلى، فأنت لا تسألهم شيئا، فإن ما آتاك الله في الأولى والأخرى خير مما يجمعون، وأوسع وأدوم مما هم فيه ممتعون، وربك خير الرازقين، فرزقه أبرك رزق وأخلد، ولا يصدنك والمؤمنين عما هداكم إليه رب العالمين ما ترون من نكوص هؤلاء المستكبرين، فإنك لا تسمع الموتى {. . ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا. .) ١٨١ فأنت على الحق المبين ١٨٢، ومن استقام على المنهاج الذي بعثت به أدرك رضوان رب العالمين: {. . إن ربي على صراط مستقيم) ١٨٣، وقد كفر كثير ممن دعوت بالله الواحد، وكفروا بالحق

الذي جاءهم، والرسول الذي دعاهم ونصح لهم؛ وكذبوا بما ينتظرهم من الجزاء يوم يلقون ربهم، فمالوا عن الخير والرشد ميلا عظيما، فاستوجبوا بكفرهم وتكذيبهم عذابا أليما مقيما؛ {ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر} بعد أن عاينوا النار وسوء المستقر، فرددناهم إلى الدنيا لعاودوا الطغيان والشر، والصدود والكفر؛ وبهذا شهد كتاب ربنا الحكيم الخبير: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ١٨٤ فهذا من علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون؛ قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه [لو] فهو مما لا يكون أبدا ١٨٥

٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

{صراط} طرق.

{لِوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ {٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ {٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {٧٥)}

{بذكرهم} بشرفهم وعزهم.

شهد الله تعالى أن نبيه بنعمة ربه ليس إلا هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وما أرسله مولاه الحكيم إلا بالحق {بل جاءهم الحق} وإنما كرهوا ما أنزل الله لأنه لا يوافق أهواءهم؛ ولو وافق أهواءهم لهلك الكون بمن فيه.

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن النحاس: وتقديره في العربية: ولو اتبع صاحب الحق؛ وقد قيل: هو مجاز، أي لو وافق الحق أهواءهم؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا؛ أي لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يجازون على ذلك. . . لفسدت السماوات والأرض؛ وقيل: المعنى: ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. . . وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محملا على فساد ما يعقل من الحيوان؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مربوبة، وعبدت وهي مستعبدة؛ وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما باتباع الهوى، وذلك مهلك؛ والثاني بعبادة غير الله، وذلك كفر. . . اه ١٨٦؛ بل جئناهم بالقرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم كما امتن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تبارك اسمه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك. .) ١٨٧، فأعرضوا عن الكتاب الذي ترفع به أقدارهم؛ [وقيل! المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: {لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين) ١٨٨ فكأنه قيل: بل أتيناهم بالكتاب الذي تمنوه] ١٨٩ وما دمت تدعو إلى الحق، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وفي الحق الذي جئت به صيتهم وعزهم فلماذا التكذيب؟ بل أنكصوا على أعقابهم إذ ناديتم إلى الخير والرشد لأنك تطالبهم بأجر على هدايتك إياهم؟ كلا! فإنما أجرك الأوفى تناله من ربك العلي الأعلى، فأنت لا تسألهم شيئا، فإن ما آتاك الله في الأولى والأخرى خير مما يجمعون، وأوسع وأدوم مما هم فيه ممتعون، وربك خير الرازقين، فرزقه أبرك رزق وأخلد؛ ولا يصدنك والمؤمنين عما هداكم إليه رب العالمين ما ترون من نكوص هؤلاء المستكبرين، فإنك لا تسمع الموتى {. . ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا. .) ١٩٠ فأنت على الحق المبين ١٩١، ومن استقام على المنهاج الذي بعثت به أدرك رضوان رب العالمين: {. . إن ربي على صراط مستقيم) ١٩٢؛ وقد كفر كثير ممن دعوت بالله الواحد، وكفروا بالحق الذي جاءهم، والرسول الذي دعاهم ونصح لهم؛ وكذبوا بما ينتظرهم من الجزاء يوم يلقون ربهم، فمالوا عن الخير والرشد ميلا عظيما، فاستوجبوا بكفرهم وتكذيبهم عذابا أليما مقيما؛ {ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر} بعد أن عاينوا النار وسوء المستقر، فرددناهم إلى

الدنيا لعاودوا الطغيان والشر، والصدود والكفر، وبهذا شهد كتاب ربنا الحكيم الخبير: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ١٩٣ فهذا من علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه [لو] فهو مما لا يكون أبدا ١٩٤

٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

{عن الصراط لناكبون} عن الطريق إلى الجنة لمائلون، يعدلون عنه إلى غيره.

{لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ {٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ {٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {٧٥)}

{بذكرهم} بشرفهم وعزهم.

شهد الله تعالى أن نبيه بنعمة ربه ليس إلا هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وما أرسله مولاه الحكيم إلا بالحق {بل جاءهم الحق} وإنما كرهوا ما أنزل الله لأنه لا يوافق أهواءهم، ولو وافق أهواءهم لهلك الكون بمن فيه.

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن النحاس: وتقديره في العربية: ولو اتبع صاحب الحق، وقد قيل: هو مجاز، أي لو وافق الحق أهواءهم، فجعل موافقته اتباعا مجازا، أي لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يجازون على ذلك. . . لفسدت السماوات والأرض، وقيل: المعنى: ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. . . وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محملا على فساد ما يعقل من الحيوان، لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مربوبة، وعبدت وهي مستعبدة، وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما باتباع الهوى، وذلك مهلك، والثاني بعبادة غير الله، وذلك كفر. . . اه ١٩٥، بل جئناهم بالقرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم كما امتن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تبارك اسمه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك. .) ١٩٦، فأعرضوا عن الكتاب الذي ترفع به أقدارهم، [وقيل! المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: {لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين) ١٩٧ فكأنه قيل: بل أتيناهم بالكتاب الذي تمنوه] ١٩٨ وما دمت تدعو إلى الحق، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وفي الحق الذي جئت به صيتهم وعزهم فلماذا التكذيب؟ بل أنكصوا على أعقابهم إذ ناديتم إلى الخير والرشد لأنك تطالبهم بأجر على هدايتك إياهم؟ كلا! فإنما أجرك الأوفى تناله من ربك العلي الأعلى، فأنت لا تسألهم شيئا، فإن ما آتاك الله في الأولى والأخرى خير مما يجمعون، وأوسع وأدوم مما هم فيه ممتعون، وربك خير الرازقين، فرزقه أبرك رزق وأخلد، ولا يصدنك والمؤمنين عما هداكم إليه رب العالمين ما ترون من نكوص هؤلاء المستكبرين، فإنك لا تسمع الموتى {. . ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا. .) ١٩٩ فأنت على الحق المبين ٢٠٠، ومن استقام على المنهاج الذي بعثت به أدرك رضوان رب العالمين: {. . إن ربي على صراط مستقيم) ٢٠١، وقد كفر كثير ممن دعوت بالله الواحد، وكفروا بالحق الذي جاءهم، والرسول الذي دعاهم ونصح لهم، وكذبوا بما ينتظرهم من الجزاء يوم يلقون ربهم، فمالوا عن الخير والرشد ميلا عظيما، فاستوجبوا بكفرهم وتكذيبهم عذابا أليما مقيما، {ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر} بعد أن عاينوا النار وسوء المستقر، فرددناهم إلى الدنيا لعاودوا الطغيان والشر، والصدود والكفر، وبهذا شهد كتاب ربنا الحكيم الخبير: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا

إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ٢٠٢ فهذا من علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه [لو] فهو مما لا يكون أبدا ٢٠٣

٧٥ - (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

{للجو} لتمادوا، وأصروا، واستمروا.

{طغيانهم} بغيهم وضلالهم وتجاوزهم الحد.

{يعمهون} يتذبذبون ويخبطون ويترددون.

{لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ {٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ {٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {٧٥)}

{بذكرهم} بشرفهم وعزهم.

شهد الله تعالى أن نبيه بنعمة ربه ليس إلا هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وما أرسله مولاه الحكيم إلا بالحق {بل جاءهم الحق} وإنما كرهوا ما أنزل الله لأنه لا يوافق أهواءهم، ولو وافق أهواءهم لهلك الكون بمن فيه.

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن النحاس: وتقديره في العربية: ولو اتبع صاحب الحق، وقد قيل: هو مجاز، أي لو وافق الحق أهواءهم، فجعل موافقته اتباعا مجازا، أي لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يجازون على ذلك. . . لفسدت السماوات والأرض، وقيل: المعنى: ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. . . وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محملا على فساد ما يعقل من الحيوان، لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السماوات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مربوبة، وعبدت وهي مستعبدة، وفساد الإنس يكون على وجهين: أحدهما باتباع الهوى، وذلك مهلك، والثاني بعبادة غير الله، وذلك كفر. . . اه ٢٠٤، بل جئناهم بالقرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم كما امتن الله تعالى عليهم بذلك في قوله تبارك اسمه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك. .) ٢٠٥، فأعرضوا عن الكتاب الذي ترفع به أقدارهم، [وقيل! المراد بذكرهم ما تمنوه بقولهم: {لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين) ٢٠٦ فكأنه قيل: بل أتيناهم بالكتاب الذي تمنوه] ٢٠٧ وما دمت تدعو إلى الحق، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وفي الحق الذي جئت به صيتهم وعزهم فلماذا التكذيب؟ بل أنكصوا على أعقابهم إذ ناديتم إلى الخير والرشد لأنك تطالبهم بأجر على هدايتك إياهم؟ كلا! فإنما أجرك الأوفى تناله من ربك العلي الأعلى، فأنت لا تسألهم شيئا، فإن ما آتاك الله في الأولى والأخرى خير مما يجمعون، وأوسع وأدوم مما هم فيه ممتعون، وربك خير الرازقين، فرزقه أبرك رزق وأخلد، ولا يصدنك والمؤمنين عما هداكم إليه رب العالمين ما ترون من نكوص هؤلاء المستكبرين، فإنك لا تسمع الموتى {. . ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا. .) ٢٠٨ فأنت على الحق المبين ٢٠٩، ومن استقام على المنهاج الذي بعثت به أدرك رضوان رب العالمين: {. . إن ربي على صراط مستقيم) ٢١٠، وقد كفر كثير ممن دعوت بالله الواحد، وكفروا بالحق الذي جاءهم، والرسول الذي دعاهم ونصح لهم، وكذبوا بما ينتظرهم من الجزاء يوم يلقون ربهم، فمالوا عن الخير والرشد ميلا عظيما، فاستوجبوا بكفرهم وتكذيبهم عذابا أليما مقيما، {ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر} بعد أن عاينوا النار وسوء المستقر، فرددناهم إلى الدنيا لعاودوا الطغيان والشر، والصدود والكفر، وبهذا شهد كتاب ربنا الحكيم الخبير: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ٢١١ فهذا من علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس:

كل ما فيه [لو] فهو مما لا يكون أبدا ٢١٢
٧٦ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)
{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ {٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ {٧٧)}
{استكانوا} خضعوا.
{يتضرعون} يدعون من صميم فؤادهم.
{مبلسون} محزونون متحيرون آيسون.
في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال: " اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " أي بسبع سنوات مجدبات كسني يوسف التي قحط الناس فيها، ومن سنة الله تعالى أنه قد يضيق على قوم عصوا لعلهم يزدجرون ويقلعون عن غوايتهم، كالذي وعده سبحانه في كتابه: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) ٢١٣ {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ٢١٤ وكما فعل سبحانه بقوم فرعون مما بينه قوله تبارك اسمه: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) ٢١٥ وقوله: {وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ٢١٦ واستنفر الذين كذبوا النبي الخاتم ليلجأوا إليه جل ثناؤه فأعرضوا، يقول المولى تبارك اسمه: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) ٢١٧، أخذهم الله تعالى بالشدائد والبلايا فما ردهم ذلك عن غيهم، ولا أنابوا إلى ربهم، بل استمروا على حالهم حتى إذا فتح الله عليهم في الآخرة الباب الذي يطلع عليهم منه العذاب إذا هم في ذلك العذاب قانطون حائرون محزونون.
أخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس ما هو نص في أن قصة ثمامة سبب لنزول قوله تعالى: {ولقد أخذناهم بالعذاب} إلى آخره، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها صلى الله عليه وسلم إلى بني بكر بن كلاب، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام، ثم خرج معتمرا، فلما قدم بطن مكة لبى؛ وهو أول من دخلها ملبيا؛ ومن هنا قال الحنفي:
ومنا الذي لبى بمكة معلنا برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم.
فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا وقد صبوت يا ثمامة! قال: أسلمت واتبعت خير دين دين محمد صلى الله عليه وسلم، والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة وكانت ريفا لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا، حتى أضر بهم الجوع، وأكلت قريش العلهز وهو ما كانوا يأخذونه من الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين. . إنك تأمر بصلة الرحم وأنت قد قطعت أرحامنا، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضي الله عنه: " خل بين قومي وبين ميرتهم " ففعل ٢١٨، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا، وهيهات أن يستجيبوا حتى يطالعوا جهنم ويعاينوها: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ٢١٩ عندها يصرخون: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٢٢٠ فيجابون: {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} ٢٢١ فاللهم لا تخزنا يوم يبعثون
٧٧ - (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٦]
{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ {٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ {٧٧)}
{استكانوا} خضعوا.
{يتضرعون} يدعون من صميم فؤادهم.
{مبلسون} محزونون متحيرون آيسون.
في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال: " اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " أي

بسبع سنوات مجدبات كسني يوسف التي قحط الناس فيها، ومن سنة الله تعالى أنه قد يضيق على قوم عصوا لعلهم يزدجرون ويقلعون عن غوايتهم، كالذي وعده سبحانه في كتابه: }ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) ٢٢٢ {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ٢٢٣ وكما فعل سبحانه بقوم فرعون مما بينه قوله تبارك اسمه: }ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) ٢٢٤ وقوله: }وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ٢٢٥ واستنفر الذين كذبوا النبي الخاتم ليلجأوا إليه جل ثناؤه فأعرضوا، يقول المولى تبارك اسمه: }فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) ٢٢٦، أخذهم الله تعالى بالشدائد والبلايا فما ردهم ذلك عن غيهم، ولا أنابوا إلى ربهم، بل استمروا على حالهم حتى إذا فتح الله عليهم في الآخرة الباب الذي يطلع عليهم منه العذاب إذا هم في ذلك العذاب قانطون حائرون محزونون.

أخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس ما هو نص في أن قصة ثمامة سبب لنزول قوله تعالى: }ولقد أخذناهم بالعذاب{ إلى آخره، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها صلى الله عليه وسلم إلى بني بكر بن كلاب، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام، ثم خرج معتمرا، فلما قدم بطن مكة لبى، وهو أول من دخلها ملبيا، ومن هنا قال الحنفي:

ومنا الذي لبى بمكة معلنا برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم.

فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا وقد صبوت يا ثمامة! قال: أسلمت واتبعت خير دين دين محمد صلى الله عليه وسلم، والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة وكانت ريفا لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا، حتى أضر بهم الجوع، وأكلت قريش العلهز وهو ما كانوا يأخذونه من الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين. . إنك تأمر بصلة الرحم وأنت قد قطعت أرحامنا، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضي الله عنه: " خل بين قومي وبين ميرتهم " ففعل ٢٢٧، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا، وهيهات أن يستجيبوا حتى يطالعوا جهنم ويعاينوها: }إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ٢٢٨ عندها يصرخون: }ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون{ ٢٢٩ فيجابون: {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} ٢٣٠ فاللهم لا تخزنا يوم يبعثون

٧٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)

}وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ {٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٨٠)}

}ذرأكم{ خلقكم وبثكم، وفرقكم ونشركم.

}الأفئدة{ العقول والقلوب.

تذكر الآيات بكمال القدرة، وتمتن بكثرة النعمة وتنبه على أن أسباب التأمل في الدلائل موجودة، وأبواب الأعذار بالكلية مسدودة ٢٣١ فربكم هو واهب السمع والأبصار وهما من أهم الحواس، وبهما تصان وتتحقق مطالب حياة الناس، ومن أقدسها الإحساس بالآيات التنزيلية والتكوينية، وهو سبحانه دون سواه واهب العقول والقلوب التي تكمن فيها قوة الإدراك والفهم والوجدان، وبها يتميز الإنسان، مما يقول الألوسي: وقدم السمع لكثرة منافعه، وأفرد لأنه يدرك به نوع واحد، بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال، وفي الآية إشارة إلى الدليل الحسي والعقلي. . اه.

تشكرون شكرا قليلا لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي نعم باهرة إلى ما خلقت هي له. . }وما} للتوكيد ٢٣٢ ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا غيره هو الذي خلق وأنشأ وبرأ وذرأ، وبث وفرق ونشر البشر في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ومهما تقلبوا في الأمصار، أو غيبوا في الغيابات والقبور والأغوار، وبليت العظام وتمزقت الجلود وتفرقت الشعور

والأبشار، فإنهم إلى ربهم راجعون، وإليه مسوقون، وبين يديه موقوفون، وهو لا شريك له له المحيا والممات وقد خلقهما للابتلاء، ثم يكون الحساب والفصل والجزاء يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفا بنفخ الروح، ويميتهم بعد أن أحياهم ٢٣٣ أو بمعنى أنه يحيي الرمم، ويميت الأمم كما قال ابن كثير وله خاصة وعن أمره التخالف بين الليل والنهار زيادة ونقصانا، وظلمة وضياء، وسعيا وسكونا، أو تعاقبهما، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، أفليس لكم عقول تدلكم على أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه أول مرة؟! ٢٣٤

٧٩ - (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٨]

{تحشرون} تساقون بجمعكم، لسؤالكم وحسابكم، والفصل في مصيركم.

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ {٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٨٠)}

{ذرأكم} خلقكم وبثكم، وفرقكم ونشركم.

{الأفئدة} العقول والقلوب.

تذكر الآيات بكمال القدرة، وتمتن بكثرة النعمة وتنبه على أن أسباب التأمل في الدلائل موجودة، وأبواب الأعذار بالكلية مسدودة ٢٣٥ فربكم هو واهب السمع والأبصار وهما من أهم الحواس، وبهما تصان وتحقق مطالب حياة الناس، ومن أقدسها الإحساس بالآيات التنزيلية والتكوينية، وهو سبحانه دون سواه واهب العقول والقلوب التي تكمن فيها قوة الإدراك والفهم والوجدان، وبها يتميز الإنسان، مما يقول الألوسي: وقدم السمع لكثرة منافعه، وأفرد لأنه يدرك به نوع واحد، بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال، وفي الآية إشارة إلى الدليل الحسي والعقلي. . اهـ.

تشكرون شكرا قليلا لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي نعم باهرة إلى ما خلقت هي له. . {وما} للتوكيد ٢٣٦ ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا غيره هو الذي خلق وأنشأ وبرأ وذرأ، وبث وفرق ونشر البشر في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ومهما تقلبوا في الأمصار، أو غيبوا في الغيابات والقبور والأغوار، وبليت العظام وتمزقت الجلود وتفرقت الشعور والأبشار، فإنهم إلى ربهم راجعون، وإليه مسوقون، وبين يديه موقوفون، وهو لا شريك له له المحيا والممات وقد خلقهما للابتلاء، ثم يكون الحساب والفصل والجزاء يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفا بنفخ الروح، ويميتهم بعد أن أحياهم ٢٣٧ أو بمعنى أنه يحيي الرمم، ويميت الأمم كما قال ابن كثير وله خاصة وعن أمره التخالف بين الليل والنهار زيادة ونقصانا، وظلمة وضياء، وسعيا وسكونا، أو تعاقبهما، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، أفليس لكم عقول تدلكم على أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه أول مرة؟! ٢٣٨

٨٠ - (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٨]

{اختلاف الليل والنهار} تخالفهما وتعاقبهما.

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ {٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٨٠)}

{ذرأكم} خلقكم وبثكم، وفرقكم ونشركم.

{الأفئدة} العقول والقلوب.

تذكر الآيات بكمال القدرة، وتمتن بكثرة النعمة وتنبه على أن أسباب التأمل في الدلائل موجودة، وأبواب الأعذار بالكلية مسدودة

٢٣٩ فربكم هو واهب السمع والأبصار وهما من أهم الحواس، وبهما تصان وتحقق مطالب حياة الناس، ومن أقدسها الإحساس بالآيات التنزيلية والتكوينية، وهو سبحانه دون سواه واهب العقول والقلوب التي تكمن فيها قوة الإدراك والفهم والوجدان، وبها يتميز الإنسان، مما يقول الألوسي: وقدم السمع لكثرة منافعه، وأفرد لأنه يدرك به نوع واحد، بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال، وفي الآية إشارة إلى الدليل الحسي والعقلي. . اهـ.
تشكرون شكرا قليلا لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي نعم باهرة إلى ما خلقت هي له. . {وما} للتوكيد ٢٤٠ ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا غيره هو الذي خلق وأنشأ وبرأ وذرأ، وبث وفرق ونشر البشر في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ومهما تقلبوا في الأمصار، أو غيبوا في الغيابات والقبور والأغوار، وبليت العظام وتمزقت الجلود وتفرقت الشعور والأبشار، فإنهم إلى ربهم راجعون، وإليه مسوقون، وبين يديه موقوفون، وهو لا شريك له له المحيا والممات وقد خلقهما للابتلاء، ثم يكون الحساب والفصل والجزاء يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفا بنفخ الروح، ويميتهم بعد أن أحياهم ٢٤١ أو بمعنى أنه يحيي الرمم، ويميت الأمم كما قال ابن كثير وله خاصة وعن أمره التخالف بين الليل والنهار زيادة ونقصانا، وظلمة وضياء، وسعيا وسكونا، أو تعاقبهما، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، أفليس لكم عقول تدلكم على أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه أول مرة؟! ٢٤٢

٨١ - (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا، بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد، قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل) فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اهـ

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٤٣ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٤٤ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٤٥ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن

يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله، قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٢ - (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا، بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد، قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل} فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٤٦ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. ٠) ٢٤٧ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٤٨ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله، قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٣ - (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{أساطير} أباطيل وأكاذيب، وترهات وأعاجيب.

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ

السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد؛ قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل) فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٤٩ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٥٠ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٥١ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه؛ ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله؛ قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه؛ فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٤ - (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد؛ قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل) فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب

الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٥٢ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٥٣ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٥٤ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله؛ قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه؛ فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٥ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{تذكرون} أصله: تتذكرون، أي تتعظون.

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد، قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل} فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٥٥ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٥٦ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش

العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٥٧ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه؛ ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله؛ قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه؛ فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٦ - (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{رب} مالك، مصلح، ولي، مطاع، خالق.

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد؛ قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل} فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا} والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اهـ

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٥٨ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٥٩ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٦٠ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه؛ ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله؛ قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه؛ فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٧ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]
{تتقون} تتوقون ما يوقع في عذابه وسخطه، وتخافونه.
{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا، بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين، مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد، قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل} فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٦١ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله.) ٢٦٢ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٦٣ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله، قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٨ - (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]
{ملكوت} ملك شامل، وتدبير نافذ، وتسخير حكيم.
{يجير} يمنع من شاء ممن يشاء، ويغيث.
{لا يجار عليه} لا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه، ولا يغاث.
{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين؛ مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد؛ قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما في سورة {النمل} فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا} والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه

وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٦٤ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٦٥ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٦٦ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله، قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل؟!

٨٩ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨١]

{تسحرون} تصرفون عن توحيده وطاعته، وتخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع، ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل.

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ {٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ {٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩)}

هذه الآيات الثلاث الأول تبين فرط سفههم، إذ كانت قد سبقت بما يفيد الحض على التعقل {أفلا تعقبون} مع إفادة التقريع والوعيد، بمعنى: أفليس لكم عقول تدلكم على أن قدرتنا لا يعجزها البعث، فلم يعقلوا؛ بل قالوا كقول السفهاء من قبلهم، ومنكري البعث من أسلافهم ولآبائهم مستبعدين ومستنكرين أن قالوا: ما هذه إلا ترهات وأباطيل، وأكاذيب وأعاجيب نقلت عن الأقدمين، ووعدنا بها كما وعد من سبقنا من الأولين؛ مما أورد النيسابوري: لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد، والاستبعاد؛ قال علماء المعاني: قوله: {لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا} وارد على الأصل، لأن التأكيد مذكور عقيب المؤكد، وبعده المفعول الثاني أما

في سورة {النمل) فسبب تقديم المفعول الثاني على الضمير وعلى المعطوف هو أنه اقتصر هناك على قوله: {ترابا) والتراب أبعد في باب الإعادة من العظام، فقدم ليدل على مزيد الاعتناء به في شأن الاستنكار. اه
وجاءت الآيات الست احتجاجا على المقرين بالصانع وهم مع ذلك يشركون معه غيره في العبادة، والعقل يقضي بأنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا من يملك ويسخر ويدبر، ويبدع ويصور، ويغيث ويهيمن، وهو العزيز الجبار المتكبر ودلت هذه الآية على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ٢٦٧ قل يا محمد لمنكري البعث والمشركين: لمن ملك الأرض، ومن فيها وما فيها من الخلق؟ إن كنتم تعلمون مالكها ومليكها! وكان الكثيرون منهم يقرون بأن خالقهم هو الله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. .) ٢٦٨ فسيقرون إذا بأنها لله دون سواه مملوكة، ومادام هذا جوابهم فقل لهم: أفلا تتذكرون أن المتفرد بإيجاد الأرض وعمارها، ومودعها أقواتها وبركاتها حقه أن يفرد بالتقديس والطاعة؟ أفلا يكفيكم هذا واعظا؟! قل لهم كذلك من مصلح وولي وبديع السماوات السبع وبارؤها ورب العرش العظيم، والمهيمن على الكون والخلق وسائر العوالم سفلية وعلوية؟ ولن يملكوا إلا الإقرار بأنه الواحد الفاعل المختار: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٢٦٩ فذكرهم بأن من هذا ملكه يجب أن يتقي ويحذر، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى؛ سلهم يا محمد من له الملك والسلطان، القاهر فوق الأكوان، العزيز الذي يغيث ولا يغاث عليه، ويمنع من يشاء ممن يشاء، ولا يمنع أحد منه، ولا ينصر عليه؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، سيقولون: الحول والطول لله؛ قل لهم: فكيف تصرفون إذا عن توحيده وطاعته؟ ومن أي وجه تخدعون ويخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع؟! ويزين لكم أن تشاقوه، فعل المسحور مختل العقل؟!

٩٠ - (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ {٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {٩٢)}

ما توحيد الله ولا اليقين في لقائه بالخفاء الذين يزعمون، ولكنهم فتنوا أنفسهم وظنوا بالله الظنون، وحين يسألون عن الآخرة يترددون ويرتابون، فيقولون: تكون أو لا تكون؛ فأبطل الله تعالى تغافلهم، وهتك تجاهلهم، كما قال سبحانه في آية كريمة أخرى مخاطبا نبيه: {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ٢٧٠ وقال تبارك اسمه في شأن أمثالهم: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ٢٧١ وقال جل ثناؤه: {يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها. .) ٢٧٢ فقد تبين لهم الرشد من الغي وجاءتهم رسلهم بالبينات، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا حين يدعون عدم العلم بالله العظيم {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن. .) ٢٧٣ ومن قبلهم قالها الطاغية المتجبر فرعون {. . وما رب العالمين) ٢٧٤ فأكذبهم الله تعالى من قيلهم؛ ومحال أن يتخذ ربنا تبارك وتعالى ولدا من البنين أو البنات، وما صاحبه ولا شاركه أحد في خلق الكائنات، إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بموجوداته التي أوجدها، يريد أن يهيمن عليها، ولتنازع الآلهة، إذ القوي لا يعبأ بالضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها؛ تنزه الله تعالى مقامه عما يصفه به هؤلاء المشركون معه غيره؛ لقد حاجهم القرآن الكريم فدحض افتراءهم؛ ومن حجة ربنا البالغة قوله تبارك اسمه: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ٢٧٥، سبحان الله عالم ما غاب وما ظهر، عالم ما يرى وما لا يرى؛ ف {عالم} [بكسر الميم] نعت للاسم الجليل، أو بدل منه؛ تقدس المعبود بحق وترفع أن يكون له شريك.

٩١ - (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٠]

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ {٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {٩٢)}

ما توحيد الله ولا اليقين في لقائه بالخفاء الذين يزعمون، ولكنهم فتنوا أنفسهم وظنوا بالله الظنون، وحين يسألون عن الآخرة يترددون ويرتابون، فيقولون: تكون أو لا تكون؛ فأبطل الله تعالى تغافلهم، وهتك تجاهلهم، كما قال سبحانه في آية كريمة أخرى مخاطبا نبيه: {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ٢٧٦ وقال تبارك اسمه في شأن أمثالهم: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ٢٧٧ وقال جل ثناؤه: {يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها. .) ٢٧٨ فقد تبين لهم الرشد من الغي وجاءتهم رسلهم بالبينات، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا حين يدعون عدم العلم بالله العظيم {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن. .) ٢٧٩ ومن قبلهم قالها الطاغية المتجبر فرعون {. . وما رب العالمين) ٢٨٠ فأكذبهم الله تعالى من قيلهم؛ ومحال أن يتخذ ربنا تبارك وتعالى ولدا من البنين أو البنات، وما صاحبه ولا شاركه أحد في خلق الكائنات، إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بموجوداته التي أوجدها، يريد أن يهيمن عليها، ولتنازع الآلهة، إذ القوي لا يعبأ بالضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها، تنزه الله تعالى مقامه عما يصفه به هؤلاء المشركون معه غيره؛ لقد حاجهم القرآن الكريم فدحض افتراءهم؛ ومن حجة ربنا البالغة قوله تبارك اسمه: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ٢٨١، سبحان الله عالم ما غاب وما ظهر، عالم ما يرى وما لا يرى؛ ف {عالم} [بكسر الميم] نعت للاسم الجليل، أو بدل منه؛ تقدس المعبود بحق وترفع أن يكون له شريك.

٩٢ - (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٠]

{بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ {٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {٩٢)}

ما توحيد الله ولا اليقين في لقائه بالخفاء الذين يزعمون، ولكنهم فتنوا أنفسهم وظنوا بالله الظنون، وحين يسألون عن الآخرة يترددون ويرتابون، فيقولون: تكون أو لا تكون؛ فأبطل الله تعالى تغافلهم، وهتك تجاهلهم، كما قال سبحانه في آية كريمة أخرى مخاطبا نبيه: {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ٢٨٢ وقال تبارك اسمه في شأن أمثالهم: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ٢٨٣ وقال جل ثناؤه: {يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها. .) ٢٨٤ فقد تبين لهم الرشد من الغي وجاءتهم رسلهم بالبينات، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا حين يدعون عدم العلم بالله العظيم {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن. .) ٢٨٥ ومن قبلهم قالها الطاغية المتجبر فرعون {. . وما رب العالمين) ٢٨٦ فأكذبهم الله تعالى من قيلهم؛ ومحال أن يتخذ ربنا تبارك وتعالى ولدا من البنين أو البنات، وما صاحبه ولا شاركه أحد في خلق الكائنات، إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بموجوداته التي أوجدها، يريد أن يهيمن عليها، ولتنازع الآلهة، إذ القوي لا يعبأ بالضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها، تنزه الله تعالى مقامه عما يصفه به هؤلاء المشركون معه غيره؛ لقد حاجهم القرآن الكريم فدحض افتراءهم؛ ومن حجة ربنا البالغة قوله تبارك اسمه: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ٢٨٧، سبحان الله عالم ما غاب وما ظهر، عالم ما يرى وما لا يرى؛ ف {عالم} [بكسر الميم] نعت للاسم الجليل، أو بدل منه؛ تقدس المعبود بحق وترفع أن يكون له شريك.

٩٣ - (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

{قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ {٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ {٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ {٩٦)}

علم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعوه بهذه الدعوة: رب إن أريتني في هؤلاء المشركين الجاحدين المعاندين ما وعدتهم من عذابك ونكالك فلا تجعلني يا مولاي مع المهلكين، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني في المفتونين، ولكن اجعلني فيمن رضيت عنهم من أوليائك وأنصارك، الفائزين الناجين في الدنيا والآخرة والمنصورين؛ جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: " وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون " ٢٨٨ وقد يجوز أن يستعيذ العبد مما علم أنه لا يفعله ونقل الألوسي: وفي أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم إيذان بكمال فظاعة العذاب الموعود وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به. . . وقيل: لأن شؤم الكفرية قد يحيق بمن سواهم، كقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. .) وإنا لقادرون على أن نريك يا محمد ما وعدناهم من العذاب ولكنا نؤخره ليبلغ الكتاب أجله لعلمنا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ٢٨٩ وأمر المولى الكريم نبيه بالصفح والإحسان إلى من أساء ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة ٢٩٠ وبهذا أوصانا ربنا في محكم كتابه فقال تبارك اسمه: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ٢٩١ وهذا خلق رضي دعينا إليه ونودينا للاستقامة عليه ما لم يؤد إلى ثلم الدين والمروءة ٢٩٢؛ وكأن الصفح مطلوب، والإحسان حسن، وبذل لاستطاعة فيه أحسن، يقول صاحب [الجامع لأحكام القرآن]: قوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن السيئة} أمر بالصفح ومكارم الأخلاق؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق في الأمة أبدا، وما كان فيها من معنى موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال اه. لكن الاتجاه إلى أن الآية محكمة أمثل، فإن المداراة مستحبة ما لم تؤد إلى محذور؛ نحن أعلم بما يفترونه على الله تعالى من كذب، وبالذي يصفونك به من الباطل والسوء، وسنجازيهم على جميع ذلك، فلا يحزنك قولهم، {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ٢٩٣.

٩٤ - (رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٣]

{قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ {٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ {٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ {٩٦)}

علم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعوه بهذه الدعوة: رب إن أريتني في هؤلاء المشركين الجاحدين المعاندين ما وعدتهم من عذابك ونكالك فلا تجعلني يا مولاي مع المهلكين، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني في المفتونين، ولكن اجعلني فيمن رضيت عنهم من أوليائك وأنصارك، الفائزين الناجين في الدنيا والآخرة والمنصورين؛ جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: " وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون " ٢٩٤ وقد يجوز أن يستعيذ العبد مما علم أنه لا يفعله ونقل الألوسي: وفي أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم إيذان بكمال فظاعة العذاب الموعود وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به. . . وقيل: لأن شؤم الكفرية قد يحيق بمن سواهم، كقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. .) وإنا لقادرون على أن نريك يا محمد ما وعدناهم من العذاب ولكنا نؤخره ليبلغ الكتاب أجله لعلمنا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ٢٩٥ وأمر المولى الكريم نبيه بالصفح والإحسان إلى من أساء ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة ٢٩٦ وبهذا أوصانا ربنا في محكم كتابه فقال تبارك اسمه: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ٢٩٧ وهذا خلق رضي دعينا إليه ونودينا للاستقامة عليه ما لم يؤد إلى ثلم الدين والمروءة ٢٩٨؛ وكأن الصفح مطلوب، والإحسان حسن، وبذل لاستطاعة فيه أحسن، يقول صاحب [الجامع لأحكام القرآن]: قوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن السيئة} أمر بالصفح ومكارم الأخلاق؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق في الأمة أبدا، وما كان فيها من معنى موادعة الكفار

وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال اهـ. لكن الاتجاه إلى أن الآية محكمة أمثل، فإن المداراة مستحبة ما لم تؤد إلى محذور؛ نحن أعلم بما يفترونه على الله تعالى من كذب، وبالذي يصفونك به من الباطل والسوء، وسنجازيهم على جميع ذلك، فلا يحزنك قولهم، {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ٢٩٩.

٩٥ - (وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٣]

{قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ {٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ {٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ {٩٦)}

علم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعوه بهذه الدعوة: رب إن أريتني في هؤلاء المشركين الجاحدين المعاندين ما وعدتهم من عذابك ونكالك فلا تجعلني يا مولاي مع المهلكين، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني في المفتونين، ولكن اجعلني فيمن رضيت عنهم من أوليائك وأنصارك، الفائزين الناجين في الدنيا والآخرة والمنصورين؛ جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: " وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون " ٣٠٠ وقد يجوز أن يستعيذ العبد مما علم أنه لا يفعله ونقل الألوسي: وفي أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم إيذان بكمال فظاعة العذاب الموعود وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به. . . وقيل: لأن شؤم الكفرية قد يحيق بمن سواهم، كقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة.) وإنا لقادرون على أن نريك يا محمد ما وعدناهم من العذاب ولكنا نؤخره ليبلغ الكتاب أجله لعلمنا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ٣٠١ وأمر المولى الكريم نبيه بالصفح والإحسان إلى من أساء ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة ٣٠٢ وبهذا أوصانا ربنا في محكم كتابه فقال تبارك اسمه: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ٣٠٣ وهذا خلق رضي دعينا إليه ونودينا للاستقامة عليه ما لم يؤد إلى ثلم الدين والمروءة ٣٠٤؛ وكأن الصفح مطلوب، والإحسان حسن، وبذل لاستطاعة فيه أحسن، يقول صاحب [الجامع لأحكام القرآن]: قوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن السيئة} أمر بالصفح ومكارم الأخلاق؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق في الأمة أبدا، وما كان فيها من معنى موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال اهـ. لكن الاتجاه إلى أن الآية محكمة أمثل، فإن المداراة مستحبة ما لم تؤد إلى محذور؛ نحن أعلم بما يفترونه على الله تعالى من كذب، وبالذي يصفونك به من الباطل والسوء، وسنجازيهم على جميع ذلك، فلا يحزنك قولهم، {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ٣٠٥.

٩٦ - (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٣]

{قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ {٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ {٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ {٩٦)}

علم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعوه بهذه الدعوة: رب إن أريتني في هؤلاء المشركين الجاحدين المعاندين ما وعدتهم من عذابك ونكالك فلا تجعلني يا مولاي مع المهلكين، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني في المفتونين، ولكن اجعلني فيمن رضيت عنهم من أوليائك وأنصارك، الفائزين الناجين في الدنيا والآخرة والمنصورين؛ جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: " وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون " ٣٠٦ وقد يجوز أن يستعيذ العبد مما علم أنه لا يفعله ونقل الألوسي: وفي أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم إيذان بكمال فظاعة العذاب الموعود

وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به. . . وقيل: لأن شؤم الكفرية قد يحيق بمن سواهم، كقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة.) وإنا لقادرون على أن نريك يا محمد ما وعدناهم من العذاب ولكنا نؤخره ليبلغ الكتاب أجله لعلمنا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ٣٠٧ وأمر المولى الكريم نبيه بالصفح والإحسان إلى من أساء ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة ٣٠٨ وبهذا أوصانا ربنا في محكم كتابه فقال تبارك اسمه: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ٣٠٩ وهذا خلق رضي دعينا إليه ونودينا للاستقامة عليه ما لم يؤد إلى ثلم الدين والمروءة ٣١٠؛ وكأن الصفح مطلوب، والإحسان حسن، وبذل لاستطاعة فيه أحسن، يقول صاحب [الجامع لأحكام القرآن]: قوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن السيئة} أمر بالصفح ومكارم الأخلاق؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق في الأمة أبدا، وما كان فيها من معنى موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال اه. لكن الاتجاه إلى أن الآية محكمة أمثل، فإن المداراة مستحبة ما لم تؤد إلى محذور؛ نحن أعلم بما يفترونه على الله تعالى من كذب، وبالذي يصفونك به من الباطل والسوء، وسنجازيهم على جميع ذلك، فلا يحزنك قولهم، {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ٣١١.

٩٧ - (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

{وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ {٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ {٩٨)}

{أعوذ} ألجأ وأحتمي وأستجير.

{همزات} وساوس، والهمز: النخس والدفع؛ ومنه مهماز الرائض: حديدة أوعود ينخس به الدابة لتسرع أو تثب.

وصانا ربنا أن نطلب منه الحماية من همز الشيطان ونفخه ونفثه ٣١٢ فهمزه الجنون، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر إلا ما كان منه صدقا ودعوة إلى بر: مما جاء في صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضر عند طعامه. . "؛ مما أورد الألوسي: وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن. . . وحال حلول الأجل. . لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها لا سيما الحال الأخيرة. . وإلى العموم ٣١٣ ذهب ابن زيد. . . ويسن التعوذ من همزات الشياطين وحضورهم عند إرادة النوم ٣١٤، والجمع {همزات} للمرات أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد الشياطين. اهـ

٩٨ - (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٧]

{يحضرون} يحضرونني، أو يلتفون حولي.

{وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ {٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ {٩٨)}

{أعوذ} ألجأ وأحتمي وأستجير.

{همزات} وساوس، والهمز: النخس والدفع؛ ومنه مهماز الرائض: حديدة أوعود ينخس به الدابة لتسرع أو تثب.

وصانا ربنا أن نطلب منه الحماية من همز الشيطان ونفخه ونفثه ٣١٥ فهمزه الجنون، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر إلا ما كان منه صدقا ودعوة إلى بر: مما جاء في صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضر عند طعامه. . "؛ مما أورد الألوسي: وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن. . . وحال حلول الأجل. . لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها لا سيما الحال الأخيرة. . وإلى العموم ٣١٦ ذهب ابن زيد. . . ويسن التعوذ من همزات الشياطين وحضورهم عند إرادة النوم ٣١٧، والجمع {همزات} للمرات أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد الشياطين. اهـ

٩٩ - (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى

يَوْمِ يُبْعَثُونَ {١٠٠)}

تبين الآيات الكريمتان حال من يحضره الموت من الكافرين، بل ومن المسلمين المفرطين، كما يشهد لذلك قول رب العالمين: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها. .) ٣١٨ يسأل ربه أن يرجعه إلى الدنيا ليتدارك ما فات، ويعمل صالحا فيما ضيع؛ ف {رب} منادى، وحرف النداء مقدر؛ و {ارجعون} يراد به التعظيم والله أعلم بالمراد و {لعلي} أي رجاء؛ فيجاب هذا المترجي: {كلا} لن ترجع! فليس الأمر على هواك ليس الأمر على ما يظنه من أن يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يطيح في أدراج الريح؛ وقيل: لو أجيب إلى ما طلب لما وفى بما يقول؛ كما قال المولى تبارك وتعالى: {. . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ٣١٩؛ قيل: {كلا إنها كلمة هو قائلها} ترجع إلى الله تعالى؛ أي: لا خلف في خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} من أمام النادمين المتحسرين وبين أيديهم حاجز بين الدنيا والآخرة؛ فالمقبور ليس من أهل الدنيا إذ قد فارقها بالموت وليس بعد من أهل الآخرة لأنها لما تجيء، فيعرض على النار غدوا وعشيا حتى يجيء يوم البعث فيجازى الجزاء الأوفى، وإذا كان من الذين سعدوا وآمنوا واتقوا وعملوا الصالحات فإنه في برزخه يبقى راضيا مرضيا حتى يبعث فيجزى كذلك الجزاء الأوفى، ويخلد في النعيم الأبقى وأضيف {يوم} إلى {يبعثون} لأنه ظرف زمان، والمراد بالإضافة المصدر ٣٢٠

١٠٠ - (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ {١٠٠)}

تبين الآيات الكريمتان حال من يحضره الموت من الكافرين، بل ومن المسلمين المفرطين، كما يشهد لذلك قول رب العالمين: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها. .) ٣٢١ يسأل ربه أن يرجعه إلى الدنيا ليتدارك ما فات، ويعمل صالحا فيما ضيع؛ ف {رب} منادى، وحرف النداء مقدر؛ و {ارجعون} يراد به التعظيم والله أعلم بالمراد و {لعلي} أي رجاء؛ فيجاب هذا المترجي: {كلا} لن ترجع! فليس الأمر على هواك ليس الأمر على ما يظنه من أن يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يطيح في أدراج الريح؛ وقيل: لو أجيب إلى ما طلب لما وفى بما يقول؛ كما قال المولى تبارك وتعالى: {. . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ٣٢٢؛ قيل: {كلا إنها كلمة هو قائلها} ترجع إلى الله تعالى؛ أي: لا خلف في خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} من أمام النادمين المتحسرين وبين أيديهم حاجز بين الدنيا والآخرة؛ فالمقبور ليس من أهل الدنيا إذ قد فارقها بالموت وليس بعد من أهل الآخرة لأنها لما تجيء، فيعرض على النار غدوا وعشيا حتى يجيء يوم البعث فيجازى الجزاء الأوفى، وإذا كان من الذين سعدوا وآمنوا واتقوا وعملوا الصالحات فإنه في برزخه يبقى راضيا مرضيا حتى يبعث فيجزى كذلك الجزاء الأوفى، ويخلد في النعيم الأبقى وأضيف {يوم} إلى {يبعثون} لأنه ظرف زمان، والمراد بالإضافة المصدر ٣٢٣

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ {١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {١٠٥)}

{الصور} قرن [بوق] يأمر الله تعالى ملكا أن ينفخ فيه فيموت كل حي إلا الله سبحانه، ثم يأمره الله أن ينفخ فيه أخرى فإذا الأموات يبعثون.

حال من أحوال القيامة وهول من أهوالها، ذلك يوم النشور يوم يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ فينفخ في قرن من نور كما ورد فإذا الموتى يخرجون من الأجداث سراعا، تشققت الأرض عنهم، وجمع الله ما تحلل منهم، وعادت الأرواح إلى الأجسام، وأنشأهم كما خلقهم أول مرة {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} لا يفتخرون بالأنساب هناك مثلما كانوا يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتعارفون لعظم ما دهاهم فألهاهم؛ بل لو رأى أحدهم أقرب الناس كانوا إليه في الدنيا لم يسأله عونا، ولا قر به عينا: {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ٣٢٤ وأورد المفسرون والمحدثون في هذا المقام آثارا ترقق القلوب ٣٢٥ فمن رجحت كفة حسناته فقد فاز وأفلح ونجح وربح، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خرج من الدنيا ولا حسنة له، أو عمل ولم يكن قد آمن فلا وزن له، مصداق قوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٣٢٦ {. . أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٣٢٧ فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأشقوها. وغبنوها حظوظها من رحمة الله، فلا مأوى لهؤلاء إلا دار العذاب مخلدين فيها {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ٣٢٨ والنار تشوي وجوههم وتحرقها، كما تحرق سائر الأعضاء، ولهم مع السعير والحريق الحسي، تحسير وغم نفسي، حتى ليعلوهم العبوس والكشرة، وتغشاهم الغبرة والقترة؛ وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا يحسرهم ويبكتهم: ألم يكن كتابي يقرأ عليكم، وعهدي يبلغ إليكم، فأبيتم إلا الجحود والنكران، وأقمتم على الكفر والعصيان؟ فاستوجبتم بذلك النكال والخسران؟! فاللهم حبب إلينا القرآن، وثبتنا على منهاج الفرقان، وقنا سخطك وأجزل لنا العطاء والرضوان

١٠٢ - (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠١]

{ثقلت موازينه} رجحت موزونات حسناته، ومن ثقلت موازينه بالحسنات.

{المفلحون} الرابحون الفائزون.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ {١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {١٠٥)}

{الصور} قرن [بوق] يأمر الله تعالى ملكا أن ينفخ فيه فيموت كل حي إلا الله سبحانه، ثم يأمره الله أن ينفخ فيه أخرى فإذا الأموات يبعثون.

حال من أحوال القيامة وهول من أهوالها، ذلك يوم النشور يوم يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ فينفخ في قرن من نور كما ورد فإذا الموتى يخرجون من الأجداث سراعا، تشققت الأرض عنهم، وجمع الله ما تحلل منهم، وعادت الأرواح إلى الأجسام، وأنشأهم كما خلقهم أول مرة {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} لا يفتخرون بالأنساب هناك مثلما كانوا يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتعارفون لعظم ما دهاهم فألهاهم؛ بل لو رأى أحدهم أقرب الناس كانوا إليه في الدنيا لم يسأله عونا، ولا قر به عينا: {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ٣٢٩ وأورد المفسرون والمحدثون في هذا المقام آثارا ترقق القلوب ٣٣٠ فمن رجحت كفة حسناته فقد فاز وأفلح ونجح وربح، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خرج من الدنيا ولا حسنة له، أو عمل ولم يكن قد آمن فلا وزن له، مصداق قوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٣٣١ {. . أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٣٣٢ فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأشقوها. وغبنوها حظوظها من رحمة الله، فلا مأوى لهؤلاء إلا دار العذاب مخلدين فيها {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ٣٣٣ والنار تشوي وجوههم وتحرقها، كما تحرق سائر الأعضاء، ولهم مع السعير والحريق الحسي، تحسير وغم نفسي، حتى ليعلوهم العبوس والكشرة، وتغشاهم الغبرة والقترة؛ وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا يحسرهم ويبكتهم: ألم يكن كتابي يقرأ عليكم، وعهدي

يبلغ إليكم، فأبيتم إلا الجحود والنكران، وأقمتم على الكفر والعصيان؟ فاستوجبتم بذلك النكال والخسران؟! فاللهم حبب إلينا القرآن، وثبتنا على منهاج الفرقان، وقنا سخطك وأجزل لنا العطاء والرضوان

١٠٣ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠١]

{خفت موازينه} لم ترجح موزونات حسناته، أو كانت أعماله سيئة فلا وزن لها ولا اعتداد بها.

{خسروا أنفسهم} ضيعوها، وأشقوها، وغبنوا أنفسهم حظوظا من رحمة الله.

{خالدون} ماكثون أبدا.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ {١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {١٠٥)}

{الصور} قرن [بوق] يأمر الله تعالى ملكا أن ينفخ فيه فيموت كل حي إلا الله سبحانه، ثم يأمره الله أن ينفخ فيه أخرى فإذا الأموات يبعثون.

حال من أحوال القيامة وهول من أهوالها، ذلك يوم النشور يوم يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ فينفخ في قرن من نور كما ورد فإذا الموتى يخرجون من الأجداث سراعا، تشققت الأرض عنهم، وجمع الله ما تحلل منهم، وعادت الأرواح إلى الأجسام، وأنشأهم كما خلقهم أول مرة {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} لا يفتخرون بالأنساب هناك مثلما كانوا يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتعارفون لعظم ما دهاهم فألهاهم؛ بل لو رأى أحدهم أقرب الناس كانوا إليه في الدنيا لم يسأله عونا، ولا قر به عينا: {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ٣٣٤ وأورد المفسرون والمحدثون في هذا المقام آثارا ترقق القلوب ٣٣٥ فمن رجحت كفة حسناته فقد فاز وأفلح ونجح وربح، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خرج من الدنيا ولا حسنة له، أو عمل ولم يكن قد آمن فلا وزن له، مصداق قوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٣٣٦ {. . أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٣٣٧ فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأشقوها. وغبنوها حظوظها من رحمة الله، فلا مأوى لهؤلاء إلا دار العذاب مخلدين فيها {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ٣٣٨ والنار تشوي وجوههم وتحرقها، كما تحرق سائر الأعضاء، ولهم مع السعير والحريق الحسي، تحسير وغم نفسي، حتى ليعلوهم العبوس والكشرة، وتغشاهم الغبرة والقترة؛ وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا يحسرهم ويبكتهم: ألم يكن كتابي يقرأ عليكم، وعهدي يبلغ إليكم، فأبيتم إلا الجحود والنكران، وأقمتم على الكفر والعصيان؟ فاستوجبتم بذلك النكال والخسران؟! فاللهم حبب إلينا القرآن، وثبتنا على منهاج الفرقان، وقنا سخطك وأجزل لنا العطاء والرضوان

١٠٤ - (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠١]

{تلفح} تحرق.

{ كالحون} مكشرون عابسون مقطبون.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ {١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {١٠٥)}

{الصور} قرن [بوق] يأمر الله تعالى ملكا أن ينفخ فيه فيموت كل حي إلا الله سبحانه، ثم يأمره الله أن ينفخ فيه أخرى فإذا الأموات

يبعثون.
حال من أحوال القيامة وهول من أهوالها، ذلك يوم النشور يوم يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ فينفخ في قرن من نور كما ورد فإذا الموتى يخرجون من الأجداث سراعا، تشققت الأرض عنهم، وجمع الله ما تحلل منهم، وعادت الأرواح إلى الأجسام، وأنشأهم كما خلقهم أول مرة {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} لا يفتخرون بالأنساب هناك مثلما كانوا يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتعارفون لعظم ما دهاهم فألهاهم؛ بل لو رأى أحدهم أقرب الناس كانوا إليه في الدنيا لم يسأله عونا، ولا قر به عينا: {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ٣٣٩ وأورد المفسرون والمحدثون في هذا المقام آثارا ترقق القلوب ٣٤٠ فمن رجحت كفة حسناته فقد فاز وأفلح ونجح وربح، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خرج من الدنيا ولا حسنة له، أو عمل ولم يكن قد آمن فلا وزن له، مصداق قوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٣٤١ {. . أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٣٤٢ فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأشقوها. وغبنوها حظوظها من رحمة الله، فلا مأوى لهؤلاء إلا دار العذاب مخلدين فيها {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ٣٤٣ والنار تشوي وجوههم وتحرقها، كما تحرق سائر الأعضاء، ولهم مع السعير والحريق الحسي، تحسير وغم نفسي، حتى ليعلوهم العبوس والكشرة، وتغشاهم الغبرة والقترة؛ وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا يحسرهم ويبكتهم: ألم يكن كتابي يقرأ عليكم، وعهدي يبلغ إليكم، فأبيتم إلا الجحود والنكران، وأقمتم على الكفر والعصيان؟ فاستوجبتم بذلك النكال والخسران؟! فاللهم حبب إلينا القرآن، وثبتنا على منهاج الفرقان، وقنا سخطك وأجزل لنا العطاء والرضوان
١٠٥ - (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠١]
{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ {١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ {١٠٥)}
{الصور} قرن [بوق] يأمر الله تعالى ملكا أن ينفخ فيه فيموت كل حي إلا الله سبحانه، ثم يأمره الله أن ينفخ فيه أخرى فإذا الأموات يبعثون.
حال من أحوال القيامة وهول من أهوالها، ذلك يوم النشور يوم يأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ فينفخ في قرن من نور كما ورد فإذا الموتى يخرجون من الأجداث سراعا، تشققت الأرض عنهم، وجمع الله ما تحلل منهم، وعادت الأرواح إلى الأجسام، وأنشأهم كما خلقهم أول مرة {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} لا يفتخرون بالأنساب هناك مثلما كانوا يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتعارفون لعظم ما دهاهم فألهاهم؛ بل لو رأى أحدهم أقرب الناس كانوا إليه في الدنيا لم يسأله عونا، ولا قر به عينا: {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ٣٤٤ وأورد المفسرون والمحدثون في هذا المقام آثارا ترقق القلوب ٣٤٥ فمن رجحت كفة حسناته فقد فاز وأفلح ونجح وربح، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خرج من الدنيا ولا حسنة له، أو عمل ولم يكن قد آمن فلا وزن له، مصداق قوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٣٤٦ {. . أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٣٤٧ فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأشقوها. وغبنوها حظوظها من رحمة الله، فلا مأوى لهؤلاء إلا دار العذاب مخلدين فيها {. . لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. .) ٣٤٨ والنار تشوي وجوههم وتحرقها، كما تحرق سائر الأعضاء، ولهم مع السعير والحريق الحسي، تحسير وغم نفسي، حتى ليعلوهم العبوس والكشرة، وتغشاهم الغبرة والقترة؛ وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا يحسرهم ويبكتهم: ألم يكن كتابي يقرأ عليكم، وعهدي يبلغ إليكم، فأبيتم إلا الجحود والنكران، وأقمتم على الكفر والعصيان؟ فاستوجبتم بذلك النكال والخسران؟! فاللهم حبب إلينا القرآن، وثبتنا

على منهاج الفرقان، وقنا سخطك وأجزل لنا العطاء والرضوان
١٠٦ - (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)
{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور؛ وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق؛ واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٤٩ ليس الحين حين خلاص؛ ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٥٠ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٥١ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٥٢ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) ٣٥٣؛ وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.

١٠٧ - (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٦]
{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور؛ وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق؛ واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٥٤ ليس الحين حين خلاص؛ ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٥٥ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٥٦ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن

نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٥٧ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) ٣٥٨؛ وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.

١٠٨ - (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٦]

{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور؛ وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق؛ واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٥٩ ليس الحين حين خلاص؛ ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٦٠ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٦١ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٦٢ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) ٣٦٣؛ وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.

١٠٩ - (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٦]

{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم

بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور، وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق، واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٦٤ ليس الحين حين خلاص، ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٦٥ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٦٦ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٦٧ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) ٣٦٨، وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.

١١٠ - (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٦]

{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور، وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق، واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٦٩ ليس الحين حين خلاص، ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٧٠ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٧١ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٧٢ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين) ٣٧٣، وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.
١١١ - (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٦]
{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ {١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ {١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ {١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١)}

إذا أخزاهم الواحد القهار، واستنطقهم: ألم تكذبوا بآياتي وقد جاءتكم رسلي يتلونها عليكم، ويبلغها أولو العلم، فعندئذ يشهدون على أنفسهم بالكفر والفجور، ويقرون أن طاعة الشهوات والهوى هونت عليهم اجتراح المفاسد والشرور، وحملتهم على الطغيان والغرور؛ وسمى ذلك شقوة لأنه يؤدي إليها، وقيل [الشقوة]: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق؛ واعترفوا بزيغهم وضلالهم عن الهدى، لكن بعد فوات الأوان {فنادوا ولات حين مناص) ٣٧٤ ليس الحين حين خلاص؛ ومثلما قال الواحد منهم عندما حضره الموت ما بينه القرآن {رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} يقولون عند معاينة النار: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} كالذي تمنوه مما بينته آية أخرى كريمة: {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ٣٧٥ لكن دعوتهم لا يتقبلها الحكيم الخبير {. . . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ٣٧٦ وتعظم في نفوسهم الحسرة حين يجابون {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} أي انزجروا زجر الكلاب وذلوا، وابعدوا في جهنم وامكثوا صاغرين، فطالما حاددتم الله ورسوله فكان حقا علينا أن نجعلكم في الأذلين، وعملتم على إطفاء نوري وفتنة عبادي، وأمعنتم فيهم نكالا، وسعيتم تبغون لهم خبالا، وأوسعتموهم سخرية واستهزاء {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ٣٧٧ وشغلهم الإزراء على المؤمنين برب العالمين، الضارعين الطامعين في عفو ورضوان من البر الرحيم، شغلكم هذا عن تذكر مقامي، وإجابة دعوتي، فأقمتم على الغي والباطل، فكانت عاقبة المفرطين الساخرين الخزي والعذاب المهين، وقد قدمت إليكم بالوعيد: {. . من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) ٣٧٨، وجزيت من هزئتم بهم وسخرتم منهم بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والرضوان من المولى الكريم.

١١٢ - (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)
{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة.) ٣٧٩ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى.) ٣٨٠ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٣٨١ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم

تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٣٨٢، أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٣٨٣، ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا، وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٣٨٤ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٣٨٥ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٣٨٦ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٣٨٧، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا وولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٣ - (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٣٨٨ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٣٨٩ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٣٩٠ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٣٩١، أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٣٩٢، ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا، وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٣٩٣ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٣٩٤ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٣٩٥ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٣٩٦، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر

النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا ولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٤ - (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٣٩٧ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٣٩٨ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٣٩٩ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٤٠٠، أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٤٠١، ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا؛ وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤٠٢ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤٠٣ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٤٠٤ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٤٠٥، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا ولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٤٠٦ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٤٠٧ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٤٠٨ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٤٠٩؛ أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٤١٠؛ ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا؛ وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤١١ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤١٢ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٤١٣ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٤١٤، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا ولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٦ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٤١٥ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم

يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٤١٦ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٤١٧ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٤١٨؛ أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٤١٩؛ ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا؛ وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤٢٠ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤٢١ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٤٢٢ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٤٢٣، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا وولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٧ - (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك، وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٤٢٤ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٤٢٥ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٤٢٦ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٤٢٧؛ أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٤٢٨؛ ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا؛ وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤٢٩ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤٣٠ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي

بين المسلمين والمجرمين ٤٣١ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٤٣٢، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا ولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا، اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

١١٨ - (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٢]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ {١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١١٨)}

يحسر الله تعالى المهلكين، وينذر سائر المكلفين، بهوان متاع الدنيا وسرعة تقضي حياة الغافلين، مهما عاشوا ممتعين، فحين يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، يدركون كم كان عمر الحياة قصيرا، وكم كان الحساب عليها عسيرا، حتى كأن ما عاشوا لا يساوي إذا قيس بما تجرعوا أياما أو دون ذلك؛ وبهذا شهد الكتاب العزيز: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا فيها غير ساعة. .) ٤٣٣ وهنا حين يسألون: كم من السنين مكثتم في الأرض؟ يجيبون عشنا يوما أو جزءا من يوم فاسأل الحسابين الذين يعدون، أو اسأل الملائكة فإنهم يعرفون، فتقوم عليهم حجة الله تعالى التي كانوا بها يجحدون، ويذكرون فلا يتذكرون {. . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. .) ٤٣٤ {. . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) ٤٣٥ ولو أنكم عقلتم لاستيقنتم أن الدنيا لهو ولعب، وأنها إلى زوال، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فكان ذلك مما يحمل العاقل على إيثار الباقي على الفاني، لكنكم زين لكم أن لا حساب ولا عقاب: {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ٤٣٦؛ أفظننتم أنما وجدناكم بغير حكمة؟ إن ذلك لا يكون: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) ٤٣٧؛ ولا ينبغي أن نخلقكم لغير فائدة أو لتعبثوا؛ وزعمتم أنكم لن ترجعوا لملاقاتنا، كالذي ظنه المفتون صاحب الحديقتين {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤٣٨ وهكذا حسب المترفون {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤٣٩ فتنزه الله العلي الحكيم، أن يسوي بين المسلمين والمجرمين ٤٤٠ فإنه جل ثناؤه هو الحق المبين وله ملكوت كل شيء فيجازي الذين أساءوا بما عملوا {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ٤٤١، ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الذي كرم وسما على سائر ما خلق؛ ومن يعبد غير الله تعالى، أو يشرك معه سبحانه في عبادته والإيمان به وطاعته معبودا آخر فإن مرجعه إلى ربه وجزاءه على شركه سيوفاه من لدن القهار الجبار جل علاه، ولن يلقى إلا سعيرا يصلاه وما له من برهان على مدعاه، ولن يربح من كفر بالله أو عبد سواه؛ وختمت السورة الكريمة بأمر النبي ومن اتبعه أن تكون ضراعتنا إلى الله: ربنا ولينا، ومليكنا ومطاعنا، وخالقنا ومعبودنا؛ اصفح اللهم عنا، واستر آثامنا، وآتنا من لدنك رحمة تزكي بها أعمالنا، وتعظم بها أجرنا، وأنت أكرم المسئولين، وأرحم الراحمين.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ".

٢٤ سورة النور:

سورة النور:
مدنية
وآياتها أربع وستون
كلماتها: ١٣١٦؛ حروفها: ٥٣٣٠
١ - (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ

{سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {١)}

{سورة} يوصف بها في اللغة ما ارتفع وأحاط، وهي في القرآن الكريم: جملة من كلام الله تعالى، وطائفة من آياته الحكيمة المتلوة.

{فرضناها} أصل الفرض: القطع والتقدير، وقد يراد بها هنا: فصلناها ونزلنا فيها فرائض، وأمرنا فيها بالحلال، ونهينا عن الحرام، وألزمناكم ذلك.

{آيات} علامات على الحق ودلالات على الهدى والرشد.
{بينات} واضحات ومبينات.
{لعلكم تذكرون} لتتذكروا بهذه الآيات.

هذه السورة المباركة أنزلناها كما أنزلنا سائر سور القرآن العزيز فتلقوها بالتقديس واستقيموا على شرعتنا ومنهاجنا الذي ارتضيناه لكم ولمن يجيء بعدكم إلى يوم الدين.

مما يقول صاحب تفسير القرآن العظيم في معنى: {سورة أنزلناها} فيه تنبيه على الاعتناء بها، ولا ينفي ما عداها. اهـ.

كما أورد الألوسي: {سورة} خبر مبتدأ محذوف، أي هذه السورة. . وقوله تعالى: {أنزلناها} مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة. . وقوله تعالى: {وفرضناها إما على تقدير مضاف، أي فرضنا أحكامها، وإما على اعتبار المجاز في إسناد ما للمدلول للدال لملابسة بينهما تشبه الظرفية. ا هـ.

ومما قال أبو جعفر الطبري: يعني بقوله تعالى ذكره: {سورة أنزلناها}: وهذه السورة أنزلناها، وإنما قلنا معنى ذلك كذلك لأن العرب لا تكاد تبتدئ بالنكرات قبل أخبارها إذ لم تكن جوابا. . . وأما قوله: {وفرضناها}. . عن مجاهد في قوله: {وفرضناها} قال: الأمر بالحلال والنهي عن الحرام،. . . وقد يحتمل ذلك إذا قرئ بالتشديد وجها غير الذي ذكرنا عن مجاهد، وهو أن يوجه إلى معناه: وفرضناها عليكم وعلى من بعدكم من الناس إلى قيام الساعة. . {وفرضناها} بتخفيف الراء بمعنى: أوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم وألزمناكموه وبينا ذلك لكم. اهـ.

{وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون} وأنزلنا في هذه السورة علامات على الحق، ودلالات على الهدى والرشد موضحات مفسرات مبينات لتتذكروا بها، وتستقيموا على طريقها، وربما يكون تكرار الفعل {أنزلنا} لإبراز كمال العناية بشأنها.

مما نقل صاحب روح المعاني: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله تعالى: {فرضناها} إشارة إلى الأحكام المبينة أولا، وقوله سبحانه {وأنزلنا فيها آيات بينات} إشارة إلى ما في وسطها وآخرها من دلائل التوحيد، ويؤيده قوله عز وجل {لعلكم تذكرون} فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكرونها. . اهـ.

ومما قال صاحب جامع البيان: {بينات} يعني واضحات لمن تأملها وفكر فيها بعقل أنها من عند الله، فإنها الحق المبين، وإنها تهدي إلى الصراط المستقيم اهـ.

٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {٢)}

{الزانية والزاني} المرأة تمكن من ليس زوجا لها ولا مالكا من الاستمتاع بها في قبلها، والرجل يطأ المرأة في قبلها في غير زوجية ولا ملك، أو يمكنها من ذلك.

{فاجلدوا} فاضربوا جلد كل واحد منهما بسوط أو نحوه.

{رأفة} رقة وشدة عطف.

{في دين الله} في إنفاذ شرع الله وحكمه الذي قضى فيهما، وهو إقامة الحد.

{طائفة} جماعة، أو واحد فصاعدا.

التي تزني من النساء، والذي يزني من الرجال حد كل واحد منهما كما شرع الله سبحانه أن يضرب ويجلد مائة جلدة عقوبة له على ما فعل وارتكب من معصية مولانا عز وجل، هذا إذا كانت الزانية والزاني غير محصنين أي لم يسبق لهما أن استمتعا بوطء في نكاح صحيح وأما المملوكات فحد من تزني منهن خمسون جلدة، بدليل ما جاء في الآية الكريمة: {. . فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات ١ من العذاب. .) ٢. ويقاس العبد على الجارية فحكمه كحكمها؛ ولا تمتنعوا معاشر المؤمنين بالله واليوم الآخر عن إقامة الحدود على مستحقيها شفقة عليهم، فإن الحكيم الذي شرع أولى بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من أمهاتهم، وإنما فرض ما فرض من عقوبة إصلاحا لهم ولغيرهم.

{وليشد عذابهما طائفة من المؤمنين} وليحضر إقامة الحد على كل من الزاني والزانية جماعة من أهل التصديق بالله تعالى ورسوله وما يجب اليقين والتصديق به، وقد يدعى لها بالمغفرة والتوبة فيستجيب العفو الكريم، ويغفر لهما هذا الذنب العظيم.

مما أورد صاحب تفسير ٣ القرآن العظيم: الزاني لا يخلو، إما أن يكون بكرا، وهو الذي لم يتزوج، أو محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفا يعني أجيرا على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابني بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام واغد يا أنيس لرجل من أسلم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها " فغدا عليها فاعترفت فرجمها. . فأما إذا كان محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم. . وأورد عن الإمام مالك بسنده. . أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن، من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا. . اهـ.

ومما قال صاحب الجامع لأحكام القرآن ٤: قوله تعالى: {الزانية ٥ والزاني} كان الزنى في اللغة معروفا قبل الشرع، مثل اسم السرقة والقتل، وهو اسم لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح، بمطاوعتها. . . قوله تعالى {فاجلدوا} دخلت الفاء لأنه موضع أمر، والأمر مضارع للشرط، وقال المبرد: فيه معنى الجزاء، أي إن زنى زان فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت الفاء، وهكذا: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. .) ٦ الحد الذي أوجب الله في الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغي أن تقام بين أيدي الحكام،

ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم يختارهم الإمام لذلك، وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شيء من ذلك، رضي الله عنهم، وسبب ذلك أنه قيام بقاعدة شرعية وقربة تعبدية، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالها، بحيث لا يتعدى شيء من شروطها ولا أحكامها، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة، فتجب مراعاته بكل ما أمكن، روي في الصحيح عن حصين بن النذر أبي ساسان قال: شهدت عثمان بن عفان وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا علي قم فاجلده. فقال علي: قم يا حسن فاجلده فقال الحسن: ولّ حارها من تولى قارها فكأنه وجد عليه فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده، فجلده وعلي يعد. . . الحديث. . . فانظر قول عثمان للإمام علي: قم فاجلده. . فلا يجوز أن يتعدى الحد في ذلك. . قال ابن العربي: وهذا ما لم يتتابع الناس في الشر ولا احلولت لهم المعاصي، حتى يتخذوها ضراوة ٧ ويعطفون عليها بالهوادة فلا يتناهوا عن منكر فعلوه، فحينئذ تتعين الشدة ويزاد الحد [وفي نسخ: الجلد] لأجل زيادة الذنب، وقد أتى عمر بسكران في رمضان فضربه مائة، ثمانين حد الخمر، وعشرين لهتك حرمة الشهر، فهكذا يجب أن تركب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحرمات. وقد لعب رجل بصبي فضربه الوالي ثلاثمائة سوط فلم يغير ذلك مالك حين بلغه، فكيف لو رأى زماننا هذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصي، والتظاهر بالمناكر وبيع الحدود واستيفاء العبيد لها في منصب القضاة، لمات كمدا ولم يجالس أحدا، وحسبنا الله ونعم الوكيل. اهـ. في روح المعاني ص ٧٩ زيادة مفيدة.

٣ - (الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

{الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {٣)}

المفحش حين يقترف خطيئته إنما يطأ زانية من المسلمين أو أخس منها زانية من المشركين والزانية ٨ يجامعها حين زناها زان من المسلمين أو أدون منه وهو المشرك. وحرم الله تعالى الزنى على المؤمنين.

وقيل ٩: النكاح بمعنى التزوج، والنفي بمعنى النهي، وعبر به عنه للمبالغة.

قال ابن المسيب: وكان الحكم عاما في الزناة أن لا يتزوج أحدهم إلا زانية، ثم جاءت الرخصة ١٠. ونسخ ذلك بقوله تعالى: {وأنكحوا الأيامى منكم.) ١١ وقوله سبحانه: {. . فانكحوا ما طاب لكم من النساء.) ١٢. وورد القول بالنسخ عن مجاهد ١٣.

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٥)}

{يرمون} يقذفون ويشتمون، ويتهمون بالزنى ويسبون.

{المحصنات} العفيفات.

ومن رمى محصنة حرة عفيفة، واتهمها بالزنى ولم يشهد على قذفه هذا وسبه أربعة شهود فإن حكم الله تعالى فيه أن يجلد ثمانين جلدة، وأن ترد شهادته إذ لم يعد من عدول المسلمين، وهو قد أبعد في الخروج على طاعة الله تعالى، وغدا من زمرة العاصين، إلا من تاب واستغفر وأقلع عن ذنبه الذي ارتكب، فإن الله المعبود بحق، الرحيم بالخلق يتجاوز عن إساءته، ولا يفضحه بخطيئته.

واتهام الرجال المسلمين الأعفاء بالزنى داخل في هذا الحكم بالمعنى، فإن فريقا من علماء القرآن: المراد ب {المحصنات} ها هنا: النفوس المحصنات فشملت أهل العفة المؤمنين والمؤمنات، والإجماع على ذلك. مما ذكر علماء الأحكام: وخص النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن في الحكم لأن القذف فيهن أبشع وأنكر للنفوس، ومن حيث هن هوى الرجال، فذكرهن الله تعالى في الآية من حيث هن أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأئمة على ذلك. .

والجمهور على أنه لا حد على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم. . وإذا قذف النصراني المسلم الحر فعليه ما على المسلم ثمانون جلدة. . والعبد إذا قذف حرا يجلد أربعين. . وأجمع العلماء على أن الحر لا يجلد للعبد إذا افترى عليه، لتباين مرتبتهما، لقوله

عليه السلام: " من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال "، أخرجه البخاري ومسلم. قال العلماء: وإنما كان ذلك في الآخرة لارتفاع الملك واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى

٥ - (إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٥)}

{يرمون} يقذفون ويشتمون، ويتهمون بالزنى ويسبون.

{المحصنات} العفيفات.

ومن رمى محصنة حرة عفيفة، واتهمها بالزنى ولم يشهد على قذفه هذا وسبه أربعة شهود فإن حكم الله تعالى فيه أن يجلد ثمانين جلدة، وأن ترد شهادته إذ لم يعد من عدول المسلمين، وهو قد أبعد في الخروج على طاعة الله تعالى، وغدا من زمرة العاصين، إلا من تاب واستغفر وأقلع عن ذنبه الذي ارتكب، فإن الله المعبود بحق، الرحيم بالخلق يتجاوز عن إساءته، ولا يفضحه بخطيئته.

واتهام الرجال المسلمين الأعفاء بالزنى داخل في هذا الحكم بالمعنى، فإن فريقا من علماء القرآن: المراد ب {المحصنات} ها هنا: النفوس المحصنات فشملت أهل العفة المؤمنين والمؤمنات، والإجماع على ذلك. مما ذكر علماء الأحكام: وخص النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن في الحكم لأن القذف فيهن أبشع وأنكر للنفوس، ومن حيث هن هوى الرجال، فذكرهن الله تعالى في الآية من حيث هن أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأئمة على ذلك. .

والجمهور على أنه لا حد على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم. . وإذا قذف النصراني المسلم الحر فعليه ما على المسلم ثمانون جلدة. . والعبد إذا قذف حرا يجلد أربعين. . وأجمع العلماء على أن الحر لا يجلد للعبد إذا افترى عليه، لتباين مرتبتهما، لقوله عليه السلام: " من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال "، أخرجه البخاري ومسلم. قال العلماء: وإنما كان ذلك في الآخرة لارتفاع الملك واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى

٦ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ {٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ {١٠)}

{يرمون} يقذفون زوجاتهم ويتهمونهن بالزنى.

{فشهادة أحدهم أربع شهادات} فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات.

{إنه لمن الصادقين} فيما رمى به زوجته من الزنى.

روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " البينة أو حد في ظهرك " فقال: يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " البينة أو حد في ظهرك " فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرك من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: {والذين يرمون أزواجهم} فقرأ حتى بلغ: {. . إن كان من الصادقين} والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب "؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء " فجاءت به كذلك، فقال النبي

صلى الله عليه وسلم: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن ".

وهكذا فمن يتهم زوجته بارتكاب الفاحشة ولا شهود معه يؤذن له أن يلاعنها على النحو الذي جاء في كتاب الله، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهذه الأيمان الخمسة يسقط عنه حد القذف، ويقام على التي لاعنها حد الزنى إلا أن تشهد خمس شهادات تكذبه فيما ادعاه، ورماه وسبها به من الفسق والسفاح والعهر.

٧ - (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{والخامسة} وتكون شهادته الخامسة أن يقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ {٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ {١٠)}

{يرمون} يقذفون زوجاتهم ويتهمونهن بالزنى.

{فشهادة أحدهم أربع شهادات} فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات.

{إنه لمن الصادقين} فيما رمى به زوجته من الزنى.

روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " البينة أو حد في ظهرك " فقال: يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " البينة أو حد في ظهرك " فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرك من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: {والذين يرمون أزواجهم} فقرأ حتى بلغ: {. . إن كان من الصادقين} والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب "؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء " فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن ".

وهكذا فمن يتهم زوجته بارتكاب الفاحشة ولا شهود معه يؤذن له أن يلاعنها على النحو الذي جاء في كتاب الله، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهذه الأيمان الخمسة يسقط عنه حد القذف، ويقام على التي لاعنها حد الزنى إلا أن تشهد خمس شهادات تكذبه فيما ادعاه، ورماه وسبها به من الفسق والسفاح والعهر.

٨ - (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{ويدرأ عنها العذاب} ويدفع عنها الحد.

{إنه لمن الكاذبين} إن زوجها لكاذب فيما رماها به من الزنى.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ {٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ {١٠)}

{يرمون} يقذفون زوجاتهم ويتهمونهن بالزنى.

{فشهادة أحدهم أربع شهادات} فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات.

{إنه لمن الصادقين} فيما رمى به زوجته من الزنى.

روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " البينة أو حد في ظهرك " فقال: يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " البينة أو حد في ظهرك " فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرك من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: {والذين يرمون أزواجهم} فقرأ حتى بلغ: {. . إن كان من الصادقين} والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب "؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء " فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن ".

وهكذا فمن يتهم زوجته بارتكاب الفاحشة ولا شهود معه يؤذن له أن يلاعنها على النحو الذي جاء في كتاب الله، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهذه الأيمان الخمسة يسقط عنه حد القذف، ويقام على التي لاعنها حد الزنى إلا أن تشهد خمس شهادات تكذبه فيما ادعاه، ورماه وسبها به من الفسق والسفاح والعهر.

٩ - (وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} فيما اتهمها به

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {٦} وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {٧} وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {٨} وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ {٩} وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ {١٠}}

{يرمون} يقذفون زوجاتهم ويتهمونهن بالزنى.

{فشهادة أحدهم أربع شهادات} فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات.

{إنه لمن الصادقين} فيما رمى به زوجته من الزنى.

روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " البينة أو حد في ظهرك " فقال: يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " البينة أو حد في ظهرك " فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرك من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: {والذين يرمون أزواجهم} فقرأ حتى بلغ: {. . إن كان من الصادقين} والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب "؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء " فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن ".

وهكذا فمن يتهم زوجته بارتكاب الفاحشة ولا شهود معه يؤذن له أن يلاعنها على النحو الذي جاء في كتاب الله، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهذه الأيمان الخمسة يسقط عنه حد القذف، ويقام على التي لاعنها حد الزنى إلا أن تشهد خمس شهادات تكذبه فيما ادعاه، ورماه وسبها به من الفسق والسفاح والعهر.

١٠ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

{ولولا فضل الله عليكم ورحمته}: جواب لولا محذوف، وتقديره: لأحرجكم أو لفضحكم أو نحو ذلك.

[ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم وسياسته لهم لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلا رحمة منه بكم وتفضلا عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدم عما عنه نهاكم من معاصيه، وترك الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه] ١٤.

{ولولا فضل الله عليكم ورحمته} أي فيما بين من هذه الأحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة، وجواب لولا محذوف، أي لهلكتم أو فضحتم، أو لكان ما كان من أنواع المفاسد وإنما حسن حذفه ليذهب الوهم كل مذهب فيكون أبلغ في البيان، فرب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به ١٥

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١} لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢} لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣} وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤} إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥} وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦} يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧} وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨} إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩} وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠}.}

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ١٦، وأنزل فيه مسيرنا ١٧ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ١٨، ودنونا ١٩ من المدينة آذن ٢٠ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٢١ ظفار ٢٢ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٢٣. وأقبل الرهط ٢٤ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٢٥ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٢٦ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٢٧ فجئت منازلهم ٢٨، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٢٩ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٣٠ فيرجعون إلي، فبينا ٣١ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٣٢ من وراء الجيش، فأدلج ٣٣، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان

نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٣٤ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٣٥، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٣٦ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٣٧ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٣٨ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٣٩ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٤٠ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٤١ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٤٢ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٤٣، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٤٤ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٤٥ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٤٦ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا

بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٤٧ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٤٨ إلا أكثرن ٤٩ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٥٠ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٥١ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٥٢ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٥٣، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى

رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {. . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٥٤ قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله

حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٥٥ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٥٦ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٥٧ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.
تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٥٨

١٢ - (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{إفك مبين} زور وافتراء واضح ظاهر مكشوف.
{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).{
{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.
{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.
{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.
هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٥٩، وأنزل فيه مسيرنا ٦٠ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٦١، ودنونا ٦٢ من المدينة آذن ٦٣ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٦٤ ظفار ٦٥ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٦٦. وأقبل الرهط ٦٧ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٦٨ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٦٩ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٧٠ فجئت منازلهم ٧١، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٧٢ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٧٣ فيرجعون إلي، فبينا ٧٤ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٧٥ من وراء الجيش، فأدلج ٧٦، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٧٧ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٧٨، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٧٩ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٨٠ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٨١ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٨٢ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٨٣ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٨٤ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٨٥ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٨٦، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب

بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٨٧ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٨٨ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٨٩ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا

بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٩٠ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٩١ إلا أكثرن ٩٢ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٩٣ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٩٤ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٩٥ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٩٦، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {. . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٩٧ قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله

حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من

أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٩٨ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٩٩ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ١٠٠ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ١٠١

١٣ - (لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ {١٧} وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨} إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩} وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠}.

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ١٠٢، وأنزل فيه مسيرنا ١٠٣ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ١٠٤، ودنونا ١٠٥ من المدينة آذن ١٠٦ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ١٠٧ ظفار ١٠٨ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ١٠٩. وأقبل الرهط ١١٠ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ١١١ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ١١٢ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ١١٣ فجئت منازلهم ١١٤، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ١١٥ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ١١٦ فيرجعون إلي، فبينا ١١٧ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ١١٨ من وراء الجيش، فأدلج ١١٩، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ١٢٠ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ١٢١، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ١٢٢ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ١٢٣ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ١٢٤ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ١٢٥ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ١٢٦ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ١٢٧ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ١٢٨ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ١٢٩، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ١٣٠ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ١٣١ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ١٣٢ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ١٣٣ عند رجل يحبها ولها ضرائر ١٣٤ إلا أكثرن ١٣٥ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ١٣٦ لي دمع،

ولا أكتحل بنوم ١٣٧ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ١٣٨ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ١٣٩، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {.
. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ١٤٠ قالت ثم تحولت

فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ١٤١ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ١٤٢ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ١٤٣ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق

عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.
{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.
{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .
{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ١٤٤
١٤ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{أفضتم فيه} اندفعتم في ترديده.
{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠)}.
{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.
{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.
{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.
هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده

بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ١٤٥، وأنزل فيه مسيرنا ١٤٦ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ١٤٧، ودنونا ١٤٨ من المدينة آذن ١٤٩ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ١٥٠ ظفار ١٥١ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ١٥٢. وأقبل الرهط ١٥٣ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ١٥٤ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ١٥٥ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ١٥٦ فجئت منازلهم ١٥٧، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ١٥٨ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ١٥٩ فيرجعون إلي، فبينا ١٦٠ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ١٦١ من وراء الجيش، فأدلج ١٦٢، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ١٦٣ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ١٦٤، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ١٦٥ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ١٦٦ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ١٦٧ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ١٦٨ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ١٦٩ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ١٧٠ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ١٧١ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ١٧٢، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ١٧٣ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ١٧٤ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ١٧٥ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ١٧٦ عند رجل يحبها ولها ضرائر ١٧٧ إلا أكثرن ١٧٨ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ١٧٩ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ١٨٠ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ١٨١ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ١٨٢، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن

سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {.
. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ١٨٣ قالت ثم تحولت
فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ١٨٤ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ١٨٥ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ١٨٦ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.
تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.
{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.
{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر

بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

}ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ١٨٧

١٥ - (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{تلقونه} تتلقونه وتتلقفونه وتتهافتون على سماعه وتسرعون، وتتصيدون ما حبك من باطل هذا القول.

{هينا} سهلا لا تبعة فيه.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).{

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ١٨٨، وأنزل فيه مسيرنا ١٨٩ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ١٩٠، ودنونا ١٩١ من المدينة آذن ١٩٢ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ١٩٣ ظفار ١٩٤ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ١٩٥. وأقبل الرهط ١٩٦ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت:

وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ١٩٧ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ١٩٨ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ١٩٩ فجئت منازلهم ٢٠٠، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٢٠١ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٢٠٢ فيرجعون إلي، فبينا ٢٠٣ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٢٠٤ من وراء الجيش، فأدلج ٢٠٥، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٢٠٦ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٢٠٧، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٢٠٨ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٢٠٩ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٢١٠ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٢١١ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٢١٢ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٢١٣ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٢١٤ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٢١٥، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٢١٦ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٢١٧ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٢١٨ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٢١٩ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٢٢٠ إلا أكثرن ٢٢١ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٢٢٢ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٢٢٣ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٢٢٤ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٢٢٥، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا

أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {. . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٢٢٦ قالت ثم تحولت

فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٢٢٧ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٢٢٨ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٢٢٩ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين

الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٢٣٠

١٦ - (وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{بهتان} كذب يحير سامعه.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).}

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٢٣١، وأنزل فيه مسيرنا ٢٣٢ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٢٣٣، ودنونا ٢٣٤ من المدينة آذن ٢٣٥ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٢٣٦ ظفار ٢٣٧ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٢٣٨. وأقبل الرهط ٢٣٩ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٢٤٠ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٢٤١ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٢٤٢ فجئت منازلهم ٢٤٣، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٢٤٤ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٢٤٥ فيرجعون إلي، فبينا ٢٤٦ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٢٤٧ من وراء الجيش، فأدلج ٢٤٨، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٢٤٩ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٢٥٠، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٢٥١ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك

ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٢٥٢ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٢٥٣ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٢٥٤ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٢٥٥ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٢٥٦ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٢٥٧ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٢٥٨، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٢٥٩ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٢٦٠ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٢٦١ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٢٦٢ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٢٦٣ إلا أكثرن ٢٦٤ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٢٦٥ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٢٦٦ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٢٦٧ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٢٦٨، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ

كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {. . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٢٦٩ قالت ثم تحولت

فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٢٧٠ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٢٧١ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٢٧٢ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اهـ.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٢٧٣

١٧ - (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{يعظكم} ينصحكم ويذكركم.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ

مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١} لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢} لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣} وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤} إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥} وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦} يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧} وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨} إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ {١٩} وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠}.{

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٢٧٤، وأنزل فيه مسيرنا ٢٧٥ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٢٧٦، ودنونا ٢٧٧ من المدينة آذن ٢٧٨ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٢٧٩ ظفار ٢٨٠ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٢٨١. وأقبل الرهط ٢٨٢ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٢٨٣ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٢٨٤ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٢٨٥ فجئت منازلهم ٢٨٦، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٢٨٧ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٢٨٨ فيرجعون إلي، فبينا ٢٨٩ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٢٩٠ من وراء الجيش، فأدلج ٢٩١، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٢٩٢ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٢٩٣، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٢٩٤ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٢٩٥ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٢٩٦ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٢٩٧ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٢٩٨ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٢٩٩ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٣٠٠ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٣٠١، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٣٠٢ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٣٠٣ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٣٠٤ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت:

فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٣٠٥ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٣٠٦ إلا أكثرن ٣٠٧ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٣٠٨ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٣٠٩ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٣١٠ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٣١١، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {.

. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٣١٢ قالت ثم تحولت

فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٣١٣ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى

أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٣١٤ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٣١٥ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٣١٦

١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).}

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.
{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.
{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٣١٧، وأنزل فيه مسيرنا ٣١٨ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٣١٩، ودنونا ٣٢٠ من المدينة آذن ٣٢١ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٣٢٢ ظفار ٣٢٣ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٣٢٤. وأقبل الرهط ٣٢٥ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٣٢٦ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٣٢٧ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٣٢٨ فجئت منازلهم ٣٢٩، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٣٣٠ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٣٣١ فيرجعون إلي، فبينا ٣٣٢ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٣٣٣ من وراء الجيش، فأدلج ٣٣٤، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٣٣٥ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٣٣٦، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٣٣٧ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٣٣٨ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٣٣٩ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٣٤٠ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٣٤١ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٣٤٢ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٣٤٣ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٣٤٤، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٣٤٥ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٣٤٦ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٣٤٧ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٣٤٨ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٣٤٩ إلا أكثرن ٣٥٠ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٣٥١ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٣٥٢ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في

نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٣٥٣ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٣٥٤، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {. . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٣٥٥ قالت ثم تحولت

فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٣٥٦ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٣٥٧ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٣٥٨ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.

تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.

{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي

الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.

{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٣٥٩

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{تشيع} تنتشر وتفشو، وتتفرق وتظهر.

{الفاحشة} الخطيئة القبيحة، المفرطة السوء.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).{

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله

صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٣٦٠، وأنزل فيه مسيرنا ٣٦١ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٣٦٢، ودنونا ٣٦٣ من المدينة آذن ٣٦٤ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٣٦٥ ظفار ٣٦٦ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٣٦٧. وأقبل الرهط ٣٦٨ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٣٦٩ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٣٧٠ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٣٧١ فجئت منازلهم ٣٧٢، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٣٧٣ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٣٧٤ فيرجعون إلي، فبينا ٣٧٥ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٣٧٦ من وراء الجيش، فأدلج ٣٧٧، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٣٧٨ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٣٧٩، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٣٨٠ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٣٨١ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٣٨٢ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٣٨٣ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٣٨٤ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٣٨٥ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٣٨٦ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٣٨٧، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٣٨٨ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٣٨٩ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٣٩٠ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٣٩١ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٣٩٢ إلا أكثرن ٣٩٣ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٣٩٤ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٣٩٥ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٣٩٦ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٣٩٧، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ

الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {.
. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٣٩٨ قالت ثم تحولت
فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٣٩٩ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٤٠٠ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٤٠١ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.
تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.
{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.
{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى

قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .

{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٤٠٢

٢٠ - (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{رءوف} عظيم الرفق.

{رحيم} واسع الرحمة.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ {١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {٢٠).{

{بالإفك} بأبلغ الكذب، وأقبح الافتراء، الذي لا تشعر إلا وقد فجأك.

{عصبة} جماعة. {منكم} من جملة من حكم لهم بالإيمان ظاهرا.

{الإثم} الذنب والخطيئة والسيئة {تولى كبره} تحمل معظمه.

هذه الآيات العشر المباركات نزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رماها به زعيم المنفقين، وأخذ في ترديده بعض المسلمين، وورد في بيان ذلك أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة منها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه: قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي ٤٠٣، وأنزل فيه مسيرنا ٤٠٤ حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وقفل ٤٠٥، ودنونا ٤٠٦ من المدينة آذن ٤٠٧ ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ٤٠٨ ظفار ٤٠٩ قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ٤١٠. وأقبل الرهط ٤١١ الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفاف لم يهبلن ٤١٢ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة ٤١٣ من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ٤١٤ فجئت منازلهم ٤١٥،

وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت ٤١٦ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ٤١٧ فيرجعون إلي، فبينا ٤١٨ أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ٤١٩ من وراء الجيش، فأدلج ٤٢٠، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه ٤٢١ حين عرفني، فسترت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهر ٤٢٢، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن ٤٢٣ سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني ٤٢٤ وفي وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف ٤٢٥ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم " ٤٢٦ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت ٤٢٧ وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ٤٢٨ وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف ٤٢٩ قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ٤٣٠، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل ٤٣١ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ٤٣٢ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلا قد شهد بدرا قالت: أي هنتاه ٤٣٣ أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: " كيف تيكم "؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه

ما يتحدث به الناس؟ فقالت يا بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة ٤٣٤ عند رجل يحبها ولها ضرائر ٤٣٥ إلا أكثرن ٤٣٦ عليها قالت، قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ ٤٣٧ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ٤٣٨ ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله: هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما عن علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: " أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة "؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ٤٣٩ أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ٤٤٠، قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه أهل بيتي فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها

فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: " أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه " قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: {.
. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ٤٤١ قالت ثم تحولت
فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فو الله ما رام ٤٤٢ رسول الله صلى الله عليه مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه الجمان من العرق ٤٤٣ في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: لما سري ٤٤٤ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال " أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك " قالت: فأنزل الله عز وجل: {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم}، عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ببراءتي.
تؤكد الآية الكريمة الأولى أن الذين رددوا هذا الافتراء وأذاعوا به قلة قليلة هم كما عدهم العلماء: مسطح وحمنة وحسان، أما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي تولى كبره. وفي رواية لمسلم في صحيحه: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره اه.
{لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم} لا تظنوا أن ضرر هذا الإفك أكثر بل غلب نفعه ضرره، ومن ثمراته ما أشارت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها في الحديث السابق الصحيح الذي كانت تستكثر فيه أن يتكلم الله عز وجل فيها بأمر يتلى، وما كانت تظن أن ينزل الكبير المتعال في شأنها وحيا يتلى، كما أن الذين تأذوا به نالهم أجر عظيم بقدر صبرهم على هذا البلاء العظيم إلى غير ذلك من المنافع.
{لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم} المشهور من الأخبار والمعروف من العلماء أن الذي حد: حسان ومسطح وحمنة روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. قال علماؤنا: وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما فلو حد في الدنيا لكان نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: {فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} وإنما حد هؤلاء المسلمين ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود: " إنها كفارة لمن أقيمت عليه " كما في حديث عبادة بن الصامت. .
{ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم} عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية

والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و {أن} مفعول أجله، بتقدير كراهية أن، ونحوه،. . {إن كنتم مؤمنين} توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا ٤٤٥

٢١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٢٢)}

{خطوات الشيطان} نزغه ووسوسته ومسلكه.

{يأمر بالفحشاء} يأمر بما فحش قبحه وأفرط في الزنى والرمي به.

{والمنكر} ما ينكره الشرع.

{زكي} طاهر.

نادى الله تبارك اسمه عباده المؤمنين أن يجتنبوا مسالك الشيطان، فإنه لهم عدو مبين، ومن يقتف أثره، أو يذهب مذهبه فإنه داعية إلى أفجر الفجور وأسوأ الشرور وأقبح القبائح، ولولا فضل الله تعالى علينا بالحلم والتوبة، وتكفير الذنب والرحمة، ما تطهر أحد من الدنس ـ والله لولا الله ما اهتدينا ـ ولكن مولانا بمنه وكرمه يطهر من يشاء، والله سميع لمن دعاه أن يزكيه، عليم بالأطهار والأخيار الأبرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

[روي في الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم} العشر آيات، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة} إلى قوله: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}. فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا. . قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ، وقيل أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: {وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) ٤٤٦ وقد قال تعالى في آية أخرى {. والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) ٤٤٧ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك، ومن آيات الرجاء في قوله: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. .) ٤٤٨ وقوله تعالى: {الله لطيف بعباده. .) ٤٤٩؛ وقال بعضهم: أرجى آية في كتاب الله عز وجل: {ولسوف يعطيك ربك فترضى) ٤٥٠ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار. قوله تعالى {أن يؤتوا} أي: ألا يؤتوا، فحذف ـ لا ـ. .] ٤٥١

٢٢ - (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{يأتل} يحلف. {أولي القربى} أصحاب القرابة.

{المساكين} المحتاجين.

{وليعفوا} وليتجاوزوا عن أخطائهم.

{وليصفحوا} وليعرضوا عن إساءاتهم.

{يغفر} يستر الذنب.

{رحيم} واسع الرحمة.

{ولا يأتل} الفعل قبل دخول الجازم عليه [يأتلي} من الألي وهو الحلف، فهو منته بالياء مثل يهتدي ويعتدي، فلما سبقته [لا] النهاية جزمته، فحذف من آخره حرف العلة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)
{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ {٢٥)}
{الغافلات} لم يخطر ببالهن أبدا مقارفة الفاحشة أو دنس
{لعنوا} طردوا وأبعدوا من رحمة الله سبحانه.
إن من يتهم عفيفة طاهرة كاملة النزاهة عن الفحش حتى ما يخطر لها شيء من ذلك على بال وهي مصدقة مستيقنة بما يجب الإيمان به، من يتهم واحدة من هؤلاء بالزنى فإنه مبعد عن رحمة ربنا في الدنيا والآخرة، وله النكال والجحيم والعذاب الأليم، يوم ينطق الواحد القهار جوارحه فيشهد عليه لسانه بما نهش من أعراض، وبما عاب وانتقص من صالحات قانتات، وصالحين قانتين، وينطق الكبير المتعال أيديهم وأرجلهم لتشهد على الفجار الأشرار بما جرحت أيديهم من فساد، وما سعوا إليه من خبال وضلال وظلم للعباد، فيومئذ يجزون الجزاء الأوفى {. . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) ٤٥٢ {تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) ٤٥٣، ويبدو لهم من الله تعالى ما لم يكونوا يحتسبون، ويظهر لهم أن مولانا لا يضل ولا ينسى ما كانوا يفترون، ويريهم أعمالهم حسرات عليهم، فهو سبحانه شهيد على الذين كانوا يفعلون. قال العلماء: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة: الإبعاد، وضرب الحد، واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين. وعلى قول من قال: هي خاصة لعائشة تترتب هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه. وعلى قول من قال: نزلت في مشركي مكة فلا كلام، فإنهم مبعدون ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ومن أسلم فالإسلام يجب ما قبله. وقال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية: إنه عام لجميع الناس من القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: [إن الذين يرمون الأنفس المحصنات فدخل في هذا المذكر والمؤنث، وكذا في الذين يرمون، إلا أنه غلب المذكر على المؤنث] ٤٥٤
٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم} ينطقها الله تعالى يوم القيامة بما كان من أصحابها من خطايا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار
٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)
{دينهم الحق} حسابهم وجزاءهم الذين يستحقون، لا يظلمون.
{ويعلمون أن الله هو الحق المبين} يعلمون يوم الحساب عيانا كيف ينتقم الله تعالى من الظالم للمظلوم بالعدل والحق، ويبدو لهم من الواحد القهار ما لم يكونوا يحتسبون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار
٢٦ - (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {٢٦)}
{الخبيثات للخبيثين} الزوجات أو الكلمات السيئات للسيئين
{والطيبون للطيبات} الأزواج أو المتكلمون الخيرون للزوجات أو الكلمات الصالحات.
{أولئك مبرءون مما يقولون} الذين عفوا منزهون عن الدنس الذي يرميهم به الخبثاء.

{ورزق كريم} لهم مع النجاة من العقاب أكرم المآب وعظيم الثواب في الجنة، يرزقون فيها بغير حساب.

من زاغ عن الحق والرشد والبر أزاغ الله قلبه، ومن نسي مولاه أنساه ربنا نفسه، ومن خبث لا يخرج إلا سوءا ونكدا، ومن فسد باطنه ترجم لسانه عن طويته، كما قال الشاعر:

ومهما تكن امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم.

فالكلمات والنعوت القبيحة ملازمة للخبثاء من الناس ذكورهم وإناثهم؛ يقول حكيم: إنك لا تجني من الشوك العنب؛ ويقول آخر: وكل إناء بالذي فيه ينضح؛ وأما من حسنت سريرته من الناس من رجل أو امرأة فإنه مهدي إلى الطيب من القول والفعل، وليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء، إذ قد جاءته من ربه الموعظة: {. . وقولوا للناس حسنا. .) ٤٥٥ وضرب الله تعالى الأمثال لقوم يتفكرون: {ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) ٤٥٦ {أولئك مبرءون مما يقولون} أولئك المصطفون الأخيار منزهون عما يقول المجرمون والمفترون، وهم بحسن المآب وعظيم الثواب فائزون {يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) ٤٥٧ مما قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء. . قال ابن زيد في قوله: {الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات} قال: نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك، وكان عبد الله بن أبي هو خبيث وكان أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبا وكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة وكان أولى أن يكون لها الطيب {أولئك مبرءون مما يقولون} قال: ههنا برئت عائشة {لهم مغفرة ورزق كريم} وأولى هذه الأقوال في تأويل الآية قول من قال: عني بالخبيثات: الخبيثات من القول وذلك قبيحه وسيئه للخبيثين من الرجال والنساء، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول هم بها أولى، لأنهم أهلها، والطيبات من القول وذلك حسنه وجميله للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول، لأنهم أهلها وأحق بها؛ وإنما قلنا: هذا القول أولى بتأويل الآية لأن الآيات قبل ذلك إنما جاءت بتوبيخ الله القائلين في عائشة الإفك، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خصهم به على إفكهم فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامي والمرمي به أشبه من الخبر عن غيرهم،. . وقد قيل: عني بقوله: {أولئك مبرءون مما يقولون} عائشة وصفوان بن المعطل الذي رميت به، فعلى هذا القول قيل: {أولئك} فجمع، والمراد ذانك، كما قيل، {. . فإن كان له إخوة. .) ٤٥٨. . اهـ.

٢٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بيوتًا غَيْرَ بيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {٢٧)}

{بيوتكم} بيوت سكنكم.

{تستأنسوا} تطلبوا علم من في الدار بوجودكم، وطلب الإذن لكم.

{وتسلموا} تقولوا: السلام عليكم.

{خير} هو الخير.

{تذكرون} تتذكرون به وتتعظون فتعملوا بمقتضاه.

نهى الله تعالى المؤمنين عن دخول بيوت يسكنها غيرهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو أمهاتهم إلا بعد أن يعلموا ساكنيها ويطلبوا إذنهم، ويسلموا عليهم، فإن ذلك الاستئناس والسلام وطلب الإذن قبل الدخول خير، يحفظ على الزائر والمزور حياءهما وقدرهما، وصفاء ود كل منهما لصاحبه؛ وتبارك الحكيم العليم الذي شرع ما به تمام النعمة.

وقيل: الاستئناس خلاف الاستيحاش فهو من الأنس [بالضم] خلاف الوحشة، والمراد به المأذونية فكأنه قيل: حتى يؤذن لكم، فإن من يطرق بيت غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش. فإذا أذن له استأنس. . {وتسلموا على أهلها} أي الساكنين فيها، وظاهر الآية أن الاستئذان قبل التسليم وبه قال بعضهم؛ وقال النووي: الصحيح المختار تقديم التسليم على الاستئذان.

{خير لكم} من الدخول بغتة، والدخول على تحية الجاهلية، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول: حييتم صباحا، حييتم مساء فيدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. . . وجوز أن يكون {خير} صفة. . وقوله تعالى: {لعلكم تذكرون} تعليل على ما اختاره جمع لمحذوف، أي: أرشدتم إلى ذلك، أو قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه.

وجاء في تفسير القرآن العظيم: هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين. . أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف " فقال عمر: لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا، فذهب إلى ملأ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق. . وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح " وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر " قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: " من ذا "؟ فقلت: أنا، قال: " أنا أنا " كأنه كرهه، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس ٤٥٩ المأمور به في الآية ٤٦٠ اهـ.

٢٨ - (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {٢٨} لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ {٢٩)}

في الآية الكريمة السابقة وصانا ربنا تبارك وتعالى بالاستئناس والسلام قبل دخول بيوت ليست لنا، وكأنما جاءت الآية على أثرها لتؤكد أنه إذا لم يؤذن لنا فلا حق للمستأذن في الدخول، وإن طلب إليه أصحاب الدار أن يرجع فليرجع، فذلك أطهر وأقوم سبيلا، وأعون على ستر العورات وصون الحرمات؛ ومولانا المعبود بحق يعلم المفسد من المصلح، فلا يسترقن أحد السمع، أو يختلس النظرة، فإن الله يعلم خائنة الأعين.

{ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم} يدفع الله تعالى الحرج ولم يحرم على عباده أن يدخلوا بيوتا ليست للسكنى فإن كانت خربة وأووا إليها في سفرهم، أو لقضاء الحاجة، فما هم بحاجة إلى الاستئذان قبل دخولها، أما إذا كانت لغير السكنى كحوانيت التجار جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس هلم، فقد ذهب الطبري والقرطبي إلى أنها محظورة بأموال الناس غير مباحة لكل من أراد دخولها. . ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكلون بدفع الناس، وخالفهما ابن زيد والشعبي، وكذا القاضي أبو بكر بن العربي فقال: أما من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع، الطالب يدخل في الخانكان وهي المدارس لطلب العلم، والساكن يدخل الخانات وهي الفنانق، أي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة، وكل يؤتى على وجهه من بابه. اهـ.

{والله يعلم ما تبدون وما تكتمون} وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات.

٢٩ - (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]

{جناح} حرج.

{ما تبدون} الذي تظهرونه.

{وما تكتمون} والذي تخفونه وتسترونه.

{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)}

في الآية الكريمة السابقة وصانا ربنا تبارك وتعالى بالاستئناس والسلام قبل دخول بيوت ليست لنا، وكأنما جاءت الآية على أثرها لتؤكد أنه إذا لم يؤذن لنا فلا حق للمستأذن في الدخول، وإن طلب إليه أصحاب الدار أن يرجع فليرجع، فذلك أطهر وأقوم سبيلا، وأعون على ستر العورات وصون الحرمات؛ ومولانا المعبود بحق يعلم المفسد من المصلح، فلا يسترقن أحد السمع، أو يختلس النظرة، فإن الله يعلم خائنة الأعين.

{ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم} يدفع الله تعالى الحرج ولم يحرم على عباده أن يدخلوا بيوتا ليست للسكنى فإن كانت خربة وأووا إليها في سفرهم، أو لقضاء الحاجة، فما هم بحاجة إلى الاستئذان قبل دخولها، أما إذا كانت لغير السكنى كحوانيت التجار جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس هلم، فقد ذهب الطبري والقرطبي إلى أنها محظورة بأموال الناس غير مباحة لكل من أراد دخولها. . ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكلون بدفع الناس، وخالفهما ابن زيد والشعبي، وكذا القاضي أبو بكر بن العربي فقال: أما من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع، الطالب يدخل في الخانكان وهي المدارس لطلب العلم، والساكن يدخل الخانات وهي الفنانق، أي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة، وكل يؤتى على وجهه من بابه. اهـ.

{والله يعلم ما تبدون وما تكتمون} وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات.

٣٠ - (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)}

{يغضوا} ٤٦١ يطبقوا أجفان أعينهم على بعض، ويغمضوها.

{ويحفظوا فروجهم} ويصونوها عما حرم الله.

بعد أن زجرت الآيات المباركات السابقات عن الزنى، وفرض الله تعالى الحد على من ارتكب تلك الفاحشة، أو اتهم غيره بهتانا بها، وشرع الاستئذان حتى لا يطلع أحد على عورة أحد، ولا تسبق عينه أو أذنه إلى ما لا يحل، قطعا لدابر الفتنة وسدا لأسباب المفسدة جاءت هذه الآية الكريمة لتؤدب المؤمنين عامة بأحكام شاملة يدخل فيها حكم المستأذنين دخولا أوليا، ووصل تعالى بذكر الستر ما يتعلق به من أمر النظر؛ وفي البخاري: قال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن؟ قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالى: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم}، روي في الصحيحين صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إياكم والجلوس على الطرقات " فقالوا: يا رسول الله: ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال " فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه " قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: " غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ".

{يحفظوا فروجهم} ويصونوا فروجهم عما حرم الله تعالى، فلا تنكشف السوءات، ولا يتمتع بالفرج إلا فيما أحل ربنا سبحانه، و {يغضوا}، {ويحفظوا} مجزومان إما بلام أمر مقدرة، أي قل لهم ليغضوا. . وليحفظوا، والجملة نصب على المفعولية للقول، و {من} للتبعيض، وكأن المراد: غضوا البصر عما يحرم واقتصروا به على ما يحل ٤٦٢، {ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون} ذلك الذي شرعته لكم من غض البصر وحفظ الفرج أطهر لكم وأبعد عن الفتن، وأنفع من الزنى والنظرة الحرام، فإني خبير بعمل كل عامل، وما تصنع كل جارحة من جوارحه، بل وبما توسوس به نفسه، فليحذر العاقل أن يرى الله تعالى منه ما يغضبه، فإنه سبحانه على كل

شيء رقيب: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب مبين) ٤٦٣.

٣١ - (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٣١)}

{خمرهن} بأقنعتهن وأغطية رءوسهن.

{جيوبهن} موضع القطع من الدرع والقميص، الفتحة حول العنق.

{يبدين} يظهرن

{لبعولتهن} لأزواجهن.

{بني إخوانهن} أبناء إخوانهن.

{نسائهن} يعني المسلمات المختصات بهن بالصحبة والخدمة.

{الإربة} الحاجة.

{الطفل} اسم جنس يراد به الأطفال.

{تفلحون} تفوزون، وتدركون نجحكم.

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم ذلك. جاء أمره سبحانه المؤمنات أن يغضضن من أبصارهن فلا ينظرن إلا إلى ما أحل المولى لهن، وأن يحفظن فروجهن عما لا يحل لهن من كشف أو زنى أو نحوه، ولا يؤذن لهن أن يظهرن زينتهن ومواطنها من أبدانهن إلا لأزواجهن، بل عليها أن تتزين لزوجها؛ وأحد عشر صنفا بينتهم الآية الكريمة، لو أن أحدا منهم اطلع على زينة المرأة أو على مواطنها من بدنها ما دامت قد سترت ما بين سرتها وركبتها فلا وزر عليها في ذلك، وهو: الأب، وأبو الزوج، والابن، وابن الزوج، والأخ، وابن الأخ، وابن الأخت، والصاحبة المسلمة، والمملوكة؛ ولو شاهد التابع الذي يصاحب لينال فضل الطعام، وليست له إلى النساء رغبة، ولا له بذلك طاقة، وكذا الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم لو شاهد واحد من هؤلاء شعر المرأة أو جزءا من صدرها أو ساقها أو ذراعها، فلا وزر عليها.

{ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن} نهي عن إسماع صوت زينتها، بعد النهي عن كشفها، إذ قد تعشق الأذن قبل العين.

{وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون}. . . ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة، وأنها فرض متعين. . والمعنى: توبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى فلا تتركوا التوبة في كل حال ٤٦٤.

روى أحمد ومسلم والبخاري في الأدب المفرد عن الأغر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة ".

وليعد كل مؤمن ومؤمنة إلى صراط ربنا العزيز الحميد، ليدرك الفوز والمآل السعيد، وليكون مرجوا له النجح والفوز والسعادة.

ومما أورد الحافظ ابن كثير: قال البخاري:. . . عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل: {وليضربن بخمرهن على جيوبهن. } شققن مروطهن فاختمرن بها. . وقوله: {أو نسائهن} يعني تظهر بزينتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل

الذمة لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك وإن كان محذورا في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها " أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود. . . . . . . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إياكم والدخول على النساء " قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: " الحمو الموت ". . . . . . ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها. . . . ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. اهـ.

يقول الفقهاء: العورات على أربعة أقسام: عورة الرجل مع الرجل، وعورة المرأة مع المرأة، وعورة المرأة مع الرجل، وبالعكس، أما الرجل مع الرجل فيجوز أن ينظر إلى جميع بدنه إلا إلى عورته، وعورته ما بين السرة والركبة، ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وإن كان واحد منهما في جانب الفراش لرواية أبي سعيد الخذري أنه صلى الله عليه وسلم قال: " لا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد لا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد "، والمرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل، فلها النظر إلى جميع بدنها إلا ما بين السرة والركبة، ولا يجوز عند خوف الفتنة. ولا يجوز أن تنظر الذمية إلى بدن المسلمة لأنها أجنبية في الدين. والله تعالى يقول: {أو نسائهن}: أما عورة المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبية حرة فجميع بدنها عورة لا يجوز له أن ينظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين، قال العلماء: لا يجوز أن يعمد النظر إلى وجه الأجنبية بغير غرض فإن وقع بصره عليها بغتة غض بصره، فإن كان هناك غرض ولا شهوة ولا فتنة فذاك؛ والغرض أمور منها: أن يريد نكاح امرأة فينظر إلى وجهها وكفها، ومنها إذا أراد شراء جارية فله أن ينظر إلى ما ليس بعورة منها، ومنها أنه عند المبايعة ينظر إلى وجهها حتى يعرفها عند الحاجة، ومنها: يجوز للطبيب الأمين أن ينظر إلى بدن الأجنبية للمعالجة؛ وإن كانت الأجنبية أمة فالأصح أن عورتها ما بين السرة والركبة؛ وأما إن كانت المرأة ذات محرم بنسب أو رضاع أو صهرية، فعورتها ما بين السرة والركبة، وأما عورة الرجل مع المرأة فإن كان أجنبيا منها فعورته معها ما بين السرة والركبة ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة، وإن كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة، وإن كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر إلى جميع بدنه، ولا يجوز للرجل أن يجلس عاريا في بيت خال وله ما يستر عورته، لأنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال: " الله أحق أن يستحيا منه ".

٣٢ - (وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٣٢)}

{أنكحوا} زوجوا.

{الأيامي} من لا أزواج لهم.

{عبادكم} عبيدكم ومماليككم.

{إمائكم} جواريكم ومملوكاتكم.

{واسع} عظيم فضله، ذو سعة، وخزائنه مملوءة بالعطاء.

{عليم} محيط علمه.

تتابعت الآيات المباركات في الزجر عن الزنى وعما يوصل إليه، فجاءت هذه الآية الكريمة تأمر بالتزويج الذي هو سبيل العفاف، مع ما فيه من حفظ النوع، وأن الله الحكيم جعله من أسباب عمران الكون.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ".

{والأيامي}. . . جمع أيم. . والأيم قال النضر بن شميل: كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها، بكرا أو ثيبا. .، أي زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر {والصالحين من عبادكم وإمائكم} على أن الخطاب للأولياء والسادات والمراد بالصلاح: معناه الشرعي،

واعتباره في الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتني مولاه بشأنه، ويشفق عليه، ويتكلف في نظم مصالحه بما لابد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع، بل ربما يحصل له ضرر منه بتزويجه فحقه أن يستبقيه عنده، ولما لم يكن من لا صلاح له من الأحرار والحرائر بهذه المثابة لم يعتبر صلاحهم. . . والأمر هنا للوجوب، وإليه ذهب أهل الظاهر، وقيل للندب، وإليه ذهب الجمهور. . {إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله} الظاهر أنه وعد من الله بالإغناء. . وفي الآية شرط مضمر، وهو المشيئة. . ودليل الإضمار قوله تعالى: {. . فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء. .) ٤٦٥ وكونه واردا في منع الكفار عن الحرم لا يأبى الدلالة. . {والله واسع} أي غني ذو سعة لا يرزأه إغناء الخلائق، إذ لا نفاذ لنعمته، ولا غاية لقدرته {عليم} يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن مآل هذا إلى المشيئة. .] ٤٦٦.

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال، فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت، ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه، وإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حتم، وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي: النكاح مباح، وقال مالك وأبو حنيفة: هو مستحب؛ تعلق الشافعي بأنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب، وتعلق علماؤنا بالحديث الصحيح: " من رغب عن سنتي فليس مني ". اهـ. ٤٦٧

٣٣ - (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)}.

{وليستعفف} وليطلب أن يكون عفيفا.

{الذين لا يجدون نكاحا} الذين لا تتوفر لهم نفقات النكاح.

{يبتغون الكتاب} يطلبون المكاتبة توصلا إلى العتق والحرية.

{إن علمتم فيهم خيرا} دينا وأمانة وقدرة على الاكتساب.

{وآتوهم} وأعطوهم.

{البغاء} الزنى.

{تحصنا} تعففا عن الفحش والحرام.

{عرض الحياة} متاعها ومالها.

{يكرههن} يقهرهن.

بعد أن توجه الأمر إلى مستطيع النكاح أن يتزوج إذ قد طولب الأولياء والسادات بعونهم على تحقيق ذلك جاءت الوصية من الله العليم الحكيم لمن لا يقدرون على نفقات النكاح أن يستمسكوا بالعفة والطهارة حتى يجعل الله تعالى لهم بعد العسر يسرا؛ والعبد المملوك إذا طلب من مالكه أن يعتقه مقابل مال يدفعه المملوك فيندب لسيده أن يقبل منه هذا إن علم منه الدين والأمانة والقدرة على الاكتساب، بل ويعينه على التحرر بقدر مما أعطاه المولى الغني الوهاب؛ ثم جاء النهي عن استكراه الإماء والجواري على البغي والمعاهرة لتحصيل مال لقاء الفجور بهن، ومن يقهرهن على الزنى فإن الله الغفار لا يؤاخذهن على ارتكاب وزر قهرن عليه.

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله تعالى عنه أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال له مسيكة، وأخرى يقال لها أمية كان يكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت؛ - وقوله عز وجل: {إن أردن تحصنا} ليس لتخصيص النهي

بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا وإخراج ما عداها عن حكمه. . بل هو للمحافظة على عادة من نزلت فيهم الآية حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، وقصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن، الزاجرة عن تعاطي القبائح، وفيه من الزيادة لتقبيح حالهم، وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه بيته من إماء فضلا عن أمرهن به أو إكراههن عليه، لاسيما عند إرادة التعفف وتوفر الرغبة فيها كما يشعر به التعبير بـ {أردن} بلفظ الماضي، وإيثار كلمة {إن} على [إذا] لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر،أو للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصين في حيز التردد والشك، فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو في الواقع ٤٦٨ - .

{ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات} وتحققوا أن القرآن المجيد قد أنزلنا آياته إليكم واضحات مفسرات تبين لكم شرع ربكم الذي تكفل بإسعادكم ما استقمتم على منهاجه، {ومثلا من الذين خلوا من قبلكم} وخبرا عجيبا ومعتبرا من أنباء أسلافكم ومن سبقكم، {وموعظة للمتقين} ونصحا ومزدجرا لمن خاف مقام ربه وخاف وعيده

٣٤ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

{خلوا} مضوا.

{ومثلا} خبرا ومعتبرا.

{وموعظة} نصحا ومزدجرا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار

٣٥ - (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٣٥)}

{كمشكاة} ككوة في الحائط، وأصلها الوعاء يوضع فيه الشيء، أو عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، أو القنديل.

{مصباح} فتيل بناره.

{كوكب دري} نجم أضوأ منير متلألئ.

في الآية السابقة يمتن الله تبارك اسمه على عباده بما أنزله إليهم من آيات مبينات، ومن أنباء ومثل الذين خلوا من قبل، وجعل هذا الذكر الحكيم هدى وموعظة لمن اتقى، ونورا وضياء لذوي العقول والبصائر، والقلوب والألباب؛ ثم علمنا جل وعلا في هذه الآية المباركة أن نوره سبحانه ملء السماوات والأرض {. . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ٤٦٩.

مما يقول صاحب ٤٧٠ جامع البيان: يعني تعالى ذكره بقوله: {الله نور السماوات والأرض} هادي من في السماوات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلال يعتصمون. . . عن ابن عباس: قوله: {الله نور السماوات والأرض} الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض. . . عن أنس بن مالك قال: إن إلهي يقول: نوري هداي. . اهـ.

ومما أورد صاحب ٤٧١ الجامع لأحكام القرآن: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى أي به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها. . وهو في صفة الله حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نورا هاديا، لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات، تبارك الله تعالى لا رب غيره: قال معناه مجاهد والزهري وغيرهما. . . . . ثم ذكر أقوالا أخرى ثم قال: الأول أعم المعاني وأصح مع التأويل. قوله تعالى: {مثل نوره}، أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى نورا، وقد سمى الله تعالى كتابه نورا فقال: {. . وأنزلنا إليكم نورا مبينا) ٤٧٢، وسمى نبيه نورا

فقال {. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) ٤٧٣، وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول، ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها، وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أن يريد: مثل نور الله الذي هو هداه، وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس، فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتها كم أيها البشر، ثم يقول: ٤٧٤ هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده. اه.
{كمشكاة فيها مصباح} ككوة في حائط، أو عمود قنديل، في الكوة أو العمود فتيل مضاء وهو المصباح المتوهج، هكذا تكون الكوة أجمع للضوء والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، {المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري} السراج المتوهج، ضوؤه في المشكاة أجمع، ونوره أبهى، فإذا وضع في زجاجة تتلألأ كالدراري والنجوم اللوامع كان أعظم وأجل، {يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية} والفتيل يوجد من شجرة كثر الله تعالى خيرها، وعظم النفع بها، تلك هي الزيتونة، وقد جمع الحكيم العليم لها كريم الصفات فهي ليست إلى الشرق ولا إلى الغرب فيحتجب عنها الضوء، بل لا تغيب عنها الشمس، فيجود ثمرها، ويصفو دهنها وزيتها {يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار} ولشدة صفاء الزيت وتألقه يوشك أن ينبعث منه الضياء حتى دون أن يشتعل الفتيل، {نور على نور} يجمع الله تعالى نورا إلى نور، فكأن المعنى: القرآن نور من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نورا على نور {يهدي الله لنوره من يشاء} يشرح ربنا صدر من يريد للحق والهدى والبرهان العقلي والسمعي والآيات الكونية والقرآنية فينشرح وينفسخ القلب، ويستقيم المهتدي على طريق الرشد، {ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم} ما يعقل الأمثال إلا العالمون، والمولى الحكيم يسوقها للعباد لعلهم يتفكرون، فإن لضرب المثل دخلا عظيما في باب الإرشاد، لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس. فأما الذين آمنوا فتزيدهم إيمانا، والله بهم وبكل شيء ذو علم محيط، وقيل: جيء بها لوعد من تدبر الأمثال، ووعيد من لم يكترث بها.
٣٦ - (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)
{فِي بُيُوتٍ ٤٧٥ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ {٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ٤٧٦ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يوما تَتَقَلَّبُ ٤٧٧ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ {٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {٣٨)}
{في بيوت} في مساجد.
{أذن الله} أمر الله.
{ترفع} تبنى وتطهر وتصان
{يسبح له فيها} يصلى له في المساجد
{بالغدو} وقت الغداة وهو الصبح وأول النهار إلى زوال الشمس عند الظهيرة.
{الآصال} وقت الآصال جمع أصيل وهو من زوال الشمس حتى الصباح.
المهتدون المستنيرون بنور الله العلي الأعلى يذكرون الولي الحميد ويتلون كتابه، ويقيمون الصلاة بكرة وعشيا في بيوت أمر الله تعالى أن تبنى، ومساجد فضلها على سائر البقاع، والأكثرون على أن {في بيوت} راجع إلى المشكاة أو المصباح متعلق بهما أو بإحداهما قال ابن زيد: المصابيح في بيوت أذن الله أن ترفع اهـ. إذ المشكاة غالبا تكون في بيوت العبادة ٤٧٨ أو المشكاة التي فيها مصباح إذا كانت في مثل هذه البيوت الرفيعة كانت أعظم، {أذن الله أن ترفع} أمر المعبود بحق سبحانه أن تبنى المساجد وتطهر، وإن الذكر فيها لأعظم أجرا، ٤٧٩ وأن الصلاة فيها لتعدل عشرات أو مئات أو ألوفا في غيرها من الأماكن {ويذكر فيها اسمه} يحب ربنا أن نذكره في

مساجده وأن نعمرها ذاكرين بأي من صيغ الذكر: تهليل أو تحميد أو استغفار أو دعاء أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأفضل الذكر تلاوة القرآن الكريم، {يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة} يصلي لله تعالى في هذه المساجد بكرة وعشيا ففي الغداة يصلون الصبح، وحين يظهرون يصلون الظهر، فإذا دخل الأصيل صلوا العصر، ثم المغرب ثم العشاء، هؤلاء المصلون لا تشغلهم التجارة ولا البيع ولا يلهيانهم ولا يثنيانهم عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.
قال جمع من المفسرين: قال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن صلاة، ويدل عليه قوله: {بالغدو والآصال} أي بالغداة والعشي، وقال أكثر المفسرين: أراد الصلاة المفروضة، فالغدو: صلاة الصبح، والآصال: صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم {الآصال} يجمعهما، كما قالوا. خص الرجال بالذكر في قوله تبارك اسمه: {رجال} لأن النساء لا جمعة عليهن ولا جماعة، أو لأن الأصل في ذلك الرجال، والنساء لهم تبع، وفرقوا بين التجارة والبيع بما حاصله: أن التجارة فيها جلب وارتحال وضرب في الأرض، بينما البيع مقابلة شيء بشيء، أو يراد بالتجارة المعاوضة الرابحة، وبالبيع المعاوضة مطلقا، وفي مثل هذا المعنى جاءت الآية الكريمة: {يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع. .) ٤٨٠ وقوله سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. .) ٤٨١. {يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار} يسبحون ويذكرون ويصلون ويزكون، يخشون يوم الحساب، يوم تضطرب الأفئدة وتفزع، وتزيغ الأبصار وتشخص، وتتبدل أحوال القلوب فتتنبه بعد سكرة {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك. .) ٤٨٢ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا. .) ٤٨٣ {. . هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ٤٨٤ {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ٤٨٥. لكن الذاكرين المصلين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون {الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله. .) ٤٨٦ {ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله} هؤلاء الذين لا تشغلهم شواغل، ولا تثنيهم ولا تلهيهم مباهج عن ذكر مولاهم وعبادته يسبحون ويعبدون ليجزيهم الله الغفور الشكور أحسن الذي عملوه مصداقا لوعده الكريم {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. .) ٤٨٧ {وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) ٤٨٨، [فاللام في {ليجزهم} للتعليل: {والله يرزق من يشاء بغير حساب{. . تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب، والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة، كأنه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى، لا أعمالكم المحكية، كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره عز وجل، وللإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم، كما أنهم ممن شاء سبحانه أن يهديهم لنوره، حسبما يعرب مما فصل من أعمالهم الحسنة فإن جميعها من آثار تلك الهداية] ٤٨٩

٣٧ - (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)

{تلهيهم} تشغلهم وترفهم وتثنيهم.

{تجارة} جلب أقوات ونحوها، وارتحال وضرب في الأرض ابتغاء معاوضتها.

{بيع} مقابله متمول بغيره، وأخذ شيء لقاء آخر طلبا للربح.

{وإقام الصلاة} إقامتها وأدائها لمواقيتها.

{وإيتاء الزكاة} إعطاء المال الذي فرض الله إخراجه للمستحقين.

{تتقلب فيه القلوب والأبصار} تضطرب وتفزع وتتغير أحوالها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار

٣٨ - (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

{ويزيدهم من فضله} يعطيهم فوق ما يستحقونه عدلا، فيضاعف لهم ويجزل لهم ثوابهم، فضلا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ {٤٠)}

{أعمالهم} التي يعدونها برا وخيرا.

{كسراب} كبخار رقيق يرتفع من القيعان، فإذا انعكس عليه ضوء الشمس أشبه - من بعيد - الماء السارب، أي الجاري.

{بقيعة} بأرض منبسطة

{يحسبه} يعده ويحكم عليه.

في الآيات السابقة المباركة ضرب الله تعالى مثلا للمؤمن، وفي هذه الآيات ضرب مثلا للكافر وحاله وأعماله، فمهما عمل مما يظنه برا وخيرا: ككرم، وإطعام طعام، وصلة أرحام، فإن أحكم الحاكمين يحبط أعمالهم، كما جاء في القرآن العزيز {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ٤٩٠ {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) ٤٩١. وما ظلمهم الله تعالى، فهم ما عملوا له ولا ابتغوا بها رضاه، وهو سبحانه لا يتقبل من العمل إلا ما كان لوجهه خالصا من شوائب الزيغ والشك والرياء والشرك {. . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ٤٩٢ والشيطان يسول للكافرين ويملي لهم فيحسبون أنهم على شيء، ويتراءى لهم أنهم بما أوتوا من عرض الحياة، وما متعوا به من جاه، ستكون لهم الزلفى يوم لقاء الله، إن كان ثم لقاء، كالذي شهد به الكتاب المجيد على البطر العنيد، وحكى على لسانه: {وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) ٤٩٣ وآخرون كانوا على شاكلته، {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ٤٩٤ وهم في هذا الزعم كالذي يسير في الصحراء المترامية وكلما توهجت الشمس، وافتقد الري، وآذاه الظمأ، التمع السراب في عينيه من بعيد فحسبه الماء الذي سيروي غلته، حتى إذا جاء المكان الذي تراءى له من قبل، حان موعد هلاكه، ثم هو ملاق حسابه وجزاءه؛ ومثل ثان لهذا الضال عن الهدى، الخائض في المهالك والردى: كمثل مبحر في لجج عميقة يغطيه موج، ومن فوق الموج موج، ومن فوق الموج الثاني سحاب، فهي ظلمات متراكمة متراكبة، حتى إذا أراد أن يبصر كفه لم يقارب رؤيتها، وأنى له الإبصار والضياء؟ وقد استحب العمى، ونودي إلى الرشد فأعرض وتولى، وهكذا {. . . من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) ٤٩٥ {. . ونحشره يوم القيامة أعمى) ٤٩٦.

{ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور} {. . فمن يهديه من بعد الله.) ٤٩٧. هدى الله الذين آمنوا وآتاهم أجرهم ونورهم، والكافرون لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم؛ فاللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وأتمم لنا نورنا.

[{والذين كفروا} إلى آخره، عطف على ما قبله عطف القصة على القصة، أو على مقدر ينساق إليه ما قبله، كأنه قيل: الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف، والذين كفروا {أعمالهم كسراب} أي أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين. . والسراب: بخار رقيق يرتفع من قعور القيعان، فإذا اتصل به ضوء الشمس أشبه –من بعيد- الماء السارب- أي الجاري-. . وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كان من كان من العطشان والريان، لتكميل الشبه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه، الذي هو: المطلع المطمع، والمقطع المؤيس. .

{ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور}. . ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره. . وقيل معنى الآية: من لم يكن له نور في الدنيا فلا نور له في الآخرة، وقيل: كلا الأمرين في الآخرة، والمعنى: من لم ينوره الله تعالى بعفوه ويرحمه برحمته يوم القيامة فلا رحمة له من أحد فيها. . والظاهر أن المراد تشبيه أعمال الكفرة بالظلمات المتكاثفة من غير اعتبار أجزاء في طرفي التشبيه يعتبر تشبيه بعضها ببعض ٤٩٨]

٤٠ - (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

{لجي} عميق عظيم العمق.

{يغشاه} يغطيه ويستره.

{لم يكد يراها} لم يقترب من رؤيتها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٩ إظهار

٤١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ {٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ {٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ {٤٤)}.

{ألم تر} ألم تر ببصيرتك وتعلم؟ والهمزة للتقرير، أي أبصرت وعلمت.

{يسبح له} ينزهه ويقدسه عما لا يليق به.

{من في السماوات والأرض} من ملك، وإنس، وجن، وغير ذلك.

{صافات} مصطفات الأجنحة في الهواء.

{الأبصار} التي تدرك المرئيات، أو البصائر التي تدرك المعقولات.

- لما وصف أنوار المؤمنين وظلمات الكافرين، صرح بدلائل التوحيد، فقال مستفهما على سبيل التقرير - ٤٩٩: ألم تعلم وتدرك؟ بمعنى علمت وأدركت أن الله المعبود بحق ينزهه ويقدسه الذين هم في السماوات والذين هم في الأرض فمخلوقات علوي الكون كالملائكة ومخلوقات سفليه كالإنس والجن وغير ذلك يبرءون المولى المتعال عن كل ما لا يليق بجلاله؛ وما نراه معلقا بين السماء والأرض صافا أجنحته في الهواء من الطير هو كذلك يبرئ الله سبحانه عن كل نقص وباطل، كل من هؤلاء قد علم صلاته لمولاه وتسبيحه إياه جل علاه، والله واسع علمه، محيط بذكر الذاكرين وغفلة الغافلين {. وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء} ٥٠٠.

مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبينات، وبين أن مصنوعاته تدل بتغييرها على أن لها صانعا. . والخطاب في {ألم تر} للنبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه: ألم تعلم؟ والمراد الكل. . قال مجاهد وغيره: الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق. . {كل قد علم صلاته وتسبيحه} يجوز أن يكون المعنى: كل قد علم صلاته وتسبيحه. . وقد قيل: المعنى: قد علم كل مصل ومسبح صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلفه. . اهـ.

[. . الله تعالى ينزهه آنا فآنا في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة جميع من في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم كائنا ما كان. . . . عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال.

{والطير} بالرفع على {من} وتخصيصا بالذكر. . . مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها.

{صافات} أي تسبحه الطير حال كونها صافات أجنحتها، فإن إعطاء الله للأجرام الثقيلة ما يتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف شاء، من الأجنحة والأذناب الخفيفة، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يمينا وشمالا ونحو ذلك، حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

{ولله ملك السماوات والأرض} لا لغيره تعالى استقلالا أو إشراكا لأنه سبحانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات، وهو

المتصرف في جميعها إيجادا وإعداما، إبداء وإعادة ٥٠١]. ومما يقول صاحب جامع البيان: ولله سلطان السماوات والأرض وملكها دون كل من هو دونه من سلطان وملك، فإياه فارهبوا أيها الناس وإليه فارغبوا لا إلى غيره، فإن خزائن السماوات والأرض لا يخشى بعطاياكم منها فقرا، {وإليه المصير} يقول: وأنتم إليه بعد وفاتكم مصيركم ومعادكم، فيوفيكم أجور أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادته واجتهدوا في طاعته، وقدموا لأنفسكم الصالحات من الأعمال. اهـ.

{ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله} علمتنا هذه الآية الكريمة برهانا علويا على حكمة البارئ سبحانه واقتداره، وعلى إتقان صنعته، وفيض رحمته، فكل من يتأتى منه العلم، وكل من أوتي بصيرة مستيقن بأن الله دون سواه يسوق جنس السحاب برفق، ويسيره بإرادته، ويدفعه إلى حيث شاء، ثم يصل بعضه ببعض ويؤلف بين أجزائه وقطعه التي تبدو متناثرة، ثم يجعله القوي القدير متراكما طبقات منه تركب طبقات أخرى وتعلوها ٥٠٢، فيتراءى لكل ذي عينين أن القطر والمطر يخرج من خلال السحاب وفتوقه، ولهذا قالوا: السحاب غربال المطر، وقد ينزل الغيث بردا - ماء متجمدا - ويتتابع سقوطه حتى يعلو ويتعاظم كالجبال، ثم قد يتحدر على خلق مهدما مغرقا مدمرا، وقد يتنزل على آخرين رحمة وسقيا، وغياثا وحياة ٥٠٣. ومع ما يحمل السحاب من ماء وبرد فإن البرق الذي يتوهج من بينه شديد لمعانه، قوي ضوؤه، حتى ليقارب أن يخطف أبصار من يشاهدونه، وهذا من أقوى الدلائل على كمال قدرة الله من حيث إنه توليد للضد من الضد.

وبرهان في علوي الكون كذلك، أو بين علويه وسفليه، ترشد إليه الآية المباركة {يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} مولانا المعبود بحق يمحو آية الليل ويجعل آية النهار مبصرة {وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون} ٥٠٤ {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} ٥٠٥.

{إن في ذلك} - إشارة إلى ما فصل آنفا وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته.

{لعبرة} لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء، ونفاذ مشيئته، وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي.

- {لأولي الأبصار} أي لكل من له بصيرة يراجعها ويعملها، فالأبصار هنا: جمع بصر، بمعنى البصيرة، بخلافها فيما سبق، وقيل: هو بمعنى البصر الظاهر كما هو المتبادر منه، والتعبير بذلك دون البصائر للإيذان بوضوح الدلالة - ٥٠٦.

[وفي كل معتبر لذوي الأبصار، والذين يترقون من المصنوع إلى الصانع، ويستدلون بالمحسوس على الغائب، منتقلين من ظلمة التقليد إلى نور البرهان ٥٠٧]

٤٢ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

{المصير} المرجع.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ)

{يزجي} يسوق برفق.

{يؤلف بينه} يوصل بين أجزائه وقطعه.

{ركاما} متراكما بعضه فوق بعض.

{الودق} المطر.

{من خلاله} وفتوقه.

{من جبال} من قطع سحاب عظيمة كالجبال.

{برد} ماء متجمد.

{سنا برقه} ضوء برق السحاب.

{يذهب} يخطف.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار
٤٤ - (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ)
{يقلب} يغير.
{لعبرة} لدلالة واضحة يعتبر بها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار
٤٥ - (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٤٥) لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٤٦)}
{دابة} حيوان يدب على وجه الأرض، أو: كل ما دب وتحرك.
آية كونية حسية تشهد أن ربنا الخلاق العليم لا شريك له: مخلوقات تدب وتتحرك على الأرض، تفوق الحصر والعد، تشترك في أنها على اختلاف أجناسها مخلوقة من ماء جعله الله جزءا من كيانها، وسببا من أسباب وجودها، فهي إما متولدة من نطفة، وإما بحيث لا تعيش إلا بالماء، ومع اشتراكها في هذا الأصل فهي مختلفة الخلقة: فمنها ما يمشي على بطنه يزحف، أو يسبح، ومن الخلائق من يمشي على رجلين، ومن المخلوقات ما يمشي على أربع.
مما يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: وقيل: إنما قيل: {فمنهم من يمشي على بطنه} والمشي لا يكون على البطن لأن المشي إنما يكون لما له قوائم - على التشبيه - وأنه لما خالط ما له قوائم ما لا قوائم له جاز، كما قال: {ومنهم من يمشي على رجلين} كالطير، {ومنهم من يمشي على أربع} كالبهائم، فإن قال قائل: فكيف قيل: {فمنهم من يمشي} و {من} للناس؟ وكل هذه الأجناس أو أكثرها لغيرهم؟ قيل: لأنه تفريق ما هو داخل في قوله: {والله خلق كل دابة} وكان داخلا في ذلك الناس وغيرهم، ثم قال: {فمنهم} لاجتماع الناس والبهائم وغيرهم في ذلك واختلاطهم، فكنى عن جميعهم كناية عن بني آدم ثم فسرهم بـ {من} إذ كان قد كنى عنهم كناية بني آدم خاصة، {يخلق الله ما يشاء} يقول: يحدث الله ما يشاء من الخلق {إن الله على كل شيء قدير} يقول: إن الله على إحداث ذلك وخلقه، وخلق ما يشاء من الأشياء غيره، ذو قدرة لا يتعذر عليه شيء أراده. . {لقد أنزلنا آيات مبينات} يقول تعالى ذكره: لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد {والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه فيهديه إلى دين الإسلام وهو الصراط المستقيم، والطريق القاصد الذي لا اعوجاج فيه اهـ.
{لقد أنزلنا آيات مبينات} [أي لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية. . {والله يهدي من يشاء} هدايته بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، والتدبر لمعانيها ٥٠٨]
٤٦ - (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
{مبينات} موضحات.
{صراط مستقيم} طريق لا عوج فيه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٧ - (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)
{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ {٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ {٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ {٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ {٥٢)}.
{آمنا} صدقنا واستيقنا.
{يتولى} يعرض.
تتابعت آيات مباركات تبين نور وهدى المؤمنين، ثم آيات كريمات بينت ظلمات وضلال الكافرين، وسيق بعد ذلك البرهان على جلال رب العالمين؛ ثم جاءت الآيات هذه تفرق بين خلق المنافقين، وبين يقين وسبيل المتقين المخلصين، فأما أهل الفتنة والزيغ فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يؤمنون بأفواههم وتأبى قلوبهم، وعلامة نفاقهم أن أفعالهم تكذب أقوالهم، فهم عن نهج الله ورسوله وسننهما مبتعدون، {. . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا} ٥٠٩، وحين يدعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم بما أراه الله، يفاجئون بالإعراض والصدود عن الاحتكام إلى خير الأنام، وخاتم رسل الملك العلام؛ فهل الذي حملهم على ذلك مرض النفاق، واستصحاب المخادعة والاستهزاء. أم داخلهم ريب وشك في أنه مبلغ ربه، مأمور بالعدل بين الخلق؟ أم يخافون جور الله ورسوله في الحكم عليهم ـ وحاشا ـ فالله يقضي بالحق {. . ولا يظلم ربك أحدا} ٥١٠ {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} ٥١١ {. . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم. .) ٥١٢، بل هم الذين جاروا وفجروا وظلموا وضلوا ضلالا بعيدا.
ولا يستوي أهل الخداع، والصادقون في الطاعة والاتباع، لا يستويان، فالذين استيقنوا وصدقوا إذا ما دعوا إلى حكم الله ورسوله سارعوا إلى الرضا والقبول، وقالوا سمعا وطاعة ٥١٣، هؤلاء أعلى المولى سبحانه قدرهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وطيب عاجلهم قبل النعيم الذي ادخر لهم، {ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه} ومن يستجب لأمر ربه، ويهتد بهدي نبيه، ويجتنب مناهي الله، ويراه مولاه في مواطن رضاه، فهذا فائز بكل محبوب، ناج من كل مرهوب.
ـ وقال: {أن يحيف الله عليهم ورسوله} والمعنى: يحيف رسول الله عليهم فبدأ بالله تعالى تعظيما لله. . ومما يدل على أن معنى ذلك كذلك قوله: {وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم}: فأفرد الرسول بالحكم، ولم يقل ليحكما ٥١٤ ـ.
وحين فرغ من إثبات هذه الدلائل أراد أن يبين أحوال المكلفين وأن فيهم منافقين، فقدم لذلك مقدمة وهي قوله: {لقد أنزلنا آيات مبينات}. . [الغرض ها هنا توطئة مقدمة لما يجيء عقيبه من حال أهل النفاق والوفاق. . والحاصل أنه حكم أولا على بعضهم بالتولي، ثم صرح آخرا بأن الإيمان منتف عن جميعهم، ويجوز أن يراد بالفريق المتولي: رؤساء النفاق. . {بل أولئك هم الظالمون}. . . لا يستطيعون الظلم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذلك يأبون المحاكمة إليه إذا كان الحق عليهم] ٥١٥ ولما حكى سيرة المنافقين وما فعلوه أتبعه ذكر ما كان يجب أن يفعلوه ومعنى {كان}: صح واستقام، أي لا ينبغي أن يكون قولهم إلا السمع والطاعة، عن ابن عباس: {ومن يطع الله} في فرائضه، {ورسوله} في سننه {ويخش الله} على ما مضى من ذنوبه، {ويتقه} فيما يستقبل من عمره {فأولئك هم الفائزون} وهذه آية جامعة لأسباب الفوز، وفقنا الله تعالى للعمل بها
٤٨ - (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار
٤٩ - (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)
{مذعنين} خاضعين مستسلمين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار
٥٠ - (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
{يحيف} يجور ويظلم ويبغي
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
{المفلحون} الفائزون، المدركون لما طلبوا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار
٥٢ - (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار
٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)
{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {٥٤)}.
{وأقسموا} وحلفوا.
{جهد أيمانهم} مشددين مغلظين بالغين الغاية بأيمانهم التي حلفوها.
{ليخرجن} للجهاد.
الآية الأولى معطوفة على ما سبق من بيان حال أهل الشك والزيغ ومرضى القلوب الذين يريدون أن يثبتوا نسبتهم إلى الإيمان بالأيمان الكاذبة، وكانوا يقولون ـ كما روى أصحاب التفسير بالمأثور ـ: والله إن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فنهوا عن هذه الأقسام ـ جمع قسم أي يمين وحلف ـ لما علم من نفاقهم وشقاقهم وإضمارهم الغدر والخديعة، وإلا فمن حلف على فعل البر لا ينهى عنه، ـ قوله: {طاعة معروفة} قيل: معناه: طاعتكم معروفة، أي قد علم طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال الله تعالى: {يحلفون لكم لترضوا عنهم.) ٥١٦ الآية ٥١٧ ـ.
مما يقول صاحب روح المعاني: {وأقسموا بالله} حكاية لبعض آخر من أكاذيب الكفرة المنافقين مؤكدا بالأيمان الفاجرة، فهو عود على بدء. . وقوله سبحانه: {جهد أيمانهم} نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المحذوف، وجملة ذلك الفعل مع فاعله في موضع الحال. . اهـ.
{إن الله خبير بما تعملون} [يقول: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم لله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ وهو مجازيكم بكل ذلك ٥١٨].
{قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} أمر الله تعالى نبيه أن يدعوهم وسائر الناس إلى طاعة المولى سبحانه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن طاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ طاعة لله عز شأنه، ويشهد لذلك ما جاء في الذكر الحكيم: {من يطع الرسول فقد أطاع الله.) ٥١٩ واتباعه ـ صلوات ربنا عليه وسلامه ـ مرضاة للكبير المتعال جل وعز يدرك بها حبه تبارك اسمه: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.) ٥٢٠، {فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم} فإن تعرضوا أو تتولوا ـ أيها الناس ـ وتدبروا عما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نهاكم عنه، وتأبوا أن تذعنوا لحكمه لكم وعليكم ـ فإنما عليه فعل ما أمر بفعله من تبليغ رسالة الله إليكم، على ما كلفه من التبليغ. . وعليكم أيها الناس أن تفعلوا ما ألزمكم وأوجب عليكم من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم ـ ٥٢١، وهكذا جاء التثبيت للبشير النذير صلى الله عليه وسلم، وقامت الحجة على الناس، يقول الحق جل علاه: {فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ.) ٥٢٢ {. . فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ٥٢٣ {. . ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل.) ٥٢٤ {. . فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) ٥٢٥ {. . الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) ٥٢٦، {وإن تطيعوه تهتدوا} وإن تتابعوا الاستجابة لما يدعوكم إليه نبينا وخاتم رسلنا ترشدوا وتصيبوا الحق وتدركوا سبيل المهتدين، فإنه صلوات الله عليه وسلامه مبعوث ربنا إلى خلقه بالرشد والنور: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.) ٥٢٧ {. . وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) ٥٢٨ {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) ٥٢٩ فقوله وفعله

عليه الصلاة والسلام وسنته المطهرة بيان للكتاب العزيز الذي جاء به: {. . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. .) ٥٣٠ {وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى) ٥٣١ ويشهد الذكر أن خاتم النبيين مرسل بالتزكية والتعليم: {. . يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة. .) ٥٣٢ {. . يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) ٥٣٣ {وما على الرسول إلا البلاغ المبين} ٥٣٤ لم يكلف الله تعالى رسولا من رسله أن يكره الناس على الإيمان، ولن يحاسبه على ضلال الضالين، لكن عهد الله تعالى إليهم وإلى خاتم المرسلين أن يبلغوا كلمات رب العالمين، ويبينوا منهاجه القويم، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) ٥٣٥ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر) ٥٣٦. والأمة مطالبة باتباعه في البيان والدعوة ٥٣٧ مصداقا لقول ربنا الحق: {قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة وأنا ومن اتبعني. .) ٥٣٨
مما أورد صاحب روح المعاني ٥٣٩: وقوله تعالى: {وما على الرسول إلا البلاغ المبين} اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الطاعة مقصورتان على المخاطبين، وأل إما للجنس المنتظم له صلى الله عليه وسلم انتظاما أوليا، أو للعهد أي: ما على جنس الرسول كائنا من كان، أو ما على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج الإيضاح، أو الواضح في نفسه، على أن {المبين} من أبان المتعدي لا بمعنى بان اللازم، وقد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقي ما عليكم. . اهـ
٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)
{تولوا} تتولوا وتعرضوا.
{حمل} عهدنا إليه به من التبليغ.
{حملتم} أمرتم به من الطاعة.
{البلاغ المبين} التبليغ الواضح، أو الموضح لكل ما بالناس إليه حاجة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٣ إظهار
٥٥ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٥٥)}.
{ليستخلفنهم} ليجعلنهم خلفاء.
{وليمكنن} وليثبتن، وليعلين.
بشرى من ربنا الذي لا يخلف الميعاد للذين صدقوا واستيقنوا ما يجب الاستيقان به، ثم استقاموا على مرضاة الله، واستداموا الرشد والبر والخير، ليجعلنهم الفعال لما يريد خلفاء يهدون بأمره، ويحكمون بشرعه، ويلون أمر الخلق على نهج كتابه وسنة رسوله ليديلن لهم من عدو الله وعدوهم، فيخلفونهم ويرثون أرضهم من بعدهم، كالذي جاء في قول الحق جل علاه: {قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) ٥٤٠ وقوله تبارك اسمه: {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) ٥٤١ {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} وليثبتن الله تعالى للمؤمنين الصالحين الدين الذي ارتضاه ولم يرتض دينا سواه: {إن الدين عند الله الإسلام. .) ٥٤٢ {. . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا. .) ٥٤٣، {وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} قسم حق من الله الحق أن يمن على الذين استضعفوا وهم ممن آمن وعمل صالحا أن يؤمن خوفهم ويعلي

شأنهم، ويظهرهم على عدوهم، ولقد صدق الله تعالى وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف {في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم. وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) ٥٤٤.
وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وهكذا كتب ربنا على نفسه تفضلا منه وكرما أن يتولى أهل اليقين المتقين بالعون والمدد، والتأييد والنصر والظفر: {. . وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ٥٤٥ {. . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) ٥٤٦.
{فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) ٥٤٧ {. . ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ٥٤٨، فليستبشر أهل الصدق من المجاهدين بأن العاقبة للمتقين، وأن الله القوي المتين يقذف بالحق على الباطل فيدمغه {. . . ولله جنود السماوات والأرض. .) ٥٤٩ {إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون) ٥٥٠ ومهما تقلبوا في البلاد، وتواصوا بالعدوان والفساد، فإن ربنا بهم محيط، {. . والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) ٥٥١. {يعبدونني لا يشركون بي شيئا} فالمؤمنون الصالحون عابدون لربنا وحامدون، سواء في ضرائهم أو حين يغلبون وينتصرون، وهم على كل حال لربهم يرهبون، وله يوحدون ويخلصون، وإياه دون سواه يعبدون.
[. . لما أفاد الكلام السابق أنه ينبغي أن يأمرهم بالطاعة كفاحا ولا يخاف مضرتهم أكد بأنه عليه الصلاة والسلام هو الغالب ومن معه فأنى للخوف مجال؟! و {من} بيانية. . {وليمكنن لهم دينهم} عطف على {ليستخلفنهم} والكلام فيه كالكلام فيه، وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أنه كالأثر للاستخلاف المذكور، وقيل: لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل، فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل. . .] ٥٥٢ بلى ومنذ يوم الفرقان يوم بدر امتن الله تعالى على المؤمنين بما أفاء عليهم من مدد وعز ونصر، فقال تبارك اسمه: {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) ٥٥٣، وستبقى هذه النصرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مصداقا لوعد خاتم النبيين محمد الصادق الأمين. " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " أو كما قال. صلى الله عليه وسلم.
ومما روى جعفر الطبري بسنده عن أبي العالية:. . {فمن كفر بعد ذلك} يقول من كفر بهذه النعمة {فأولئك هم الفاسقون} وليس يعني الكفر بالله، قال: فأظهره الله على جزيرة العرب فآمنوا، ثم تجبروا فغير الله ما بهم، وكفروا بهذه النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم اه.
٥٦ - (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)
{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ {٥٧)}.
{وأقيموا} وأدوا أداء قيما، وأتموا.
{وآتوا} وأعطوا.
{لعلكم ترحمون} رجاء أن ترحموا.
أداء الصلاة على وجهها، وفي مواقيتها، وبخشوعها وتمام أركانها، وإعطاء الزكاة مستحقيها بسخاء نفس، ودون أذى أو رياء أو من، وطاعة نبينا محمد خاتم المرسلين، واتباع سبيله والاقتداء والتأسي به ـ الوفاء بهذه العهود الثلاثة يرجى به الدخول في رحمة الله.
{لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض} نهي لكل من يتأتى منه الظن والحسبان أن في مقدور الكفار الأشرار أن يفوتوا الله ـ تعالى وتقدس ـ أو يفلتوا منه أو يهربوا، هيهات هيهات، فإن الأرض جميعا قبضته، والسماوات مطويات بيمينه، كما نهى الكفار عن مثل هذا الحسبان في قول المولى تبارك اسمه: {ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون) ٥٥٤ فهم مخزون في الدنيا بالقهر والهزيمة، وفي الآخرة بالعذاب المهين: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) ٥٥٥ فساء المصير مصيرهم {.

والنار مثوى لهم) ٥٥٦
٥٧ - (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
{ولا تحسبن} لا تظنن.
{معجزين} مفلتين.
{ومأواهم} مسكنهم ومستقرهم ومكان إقامتهم.
{ولبئس} تأكيد للذم.
{المصير} المرجع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٦ إظهار
٥٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٦٠)}.

{ليستأذنكم} ليطلب إذنكم.
{الذين ملكت أيمانكم} العبيد الذين تملكونهم، ويلحق بهن الإماء.
{لم يبلغوا الحلم} لم يروا جماعا في نوم تنقضي برؤيته شهوتهم.
{منكم} من الأحرار.
{ثلاث مرات} في كل وقت من الأوقات الثلاثة في كل يوم وليلة.
{الظهيرة} منتصف النهار.
{عورات} سوءات، تسوء صاحبها إذا انكشفت، وتلحق به المذمة والعار.
{جناح} ضيق وحرج وإثم وذنب.

في آيات كريمات سابقات من هذه السورة المباركة بين الله سبحانه أدب الاستئذان لعامة من يريد دخول دار غير داره، وهنا جاء الأمر بالاستئذان خاصا بالعبيد والغلمان - وكذا الصبيان - وهناك طلب إلى كل من قصد الدخول على أحد أن يستأذن في كل الأوقات، أما في هذه الآية فقد خص بأوقات ثلاثة هي مظنة التكشف، وسائر الأوقات بعد لا يطلب فيها من المملوكين ولا من المراهقين أن يستأذنوا قبل الدخول، تيسيرا على الناس، وتسهيلا لتلاقيهم وتزاورهم ولقاء بعضهم البعض؛ يبين الله تعالى لنا الآيات بيانا واضحا فإنه سبحانه عليم بما فيه صلاحنا، حكيم فيما يشرع لنا؛ وإذا بلغ الصغار مبلغ الرجال والنساء، وأدركوا وأدركن حد التكليف الشرعي، فعليهم أن يستأذنوا في كل الأوقات، ولينتهوا عما نهى المولى - تبارك اسمه - عنه في الآيات المتقدمات: {لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها} واستثنى من العهد بالستر السابغ الوافي صنفا من النساء هن اللائي قعدن عن المحيض، وصارت الواحدة منهن عجوزا لا مطمع لها في الرجال ولا مطمع للرجال فيها، فهذه ومن على شاكلتها لا ذنب عليهن إن تخففن من بعض أثوابهن، من غير أن يعمدن إلى الكشف عن زينتهن، وإبراز ما لا يحل لهن أن يكشفنه، وخير لهن وأزكى وأطهر أن يتنزهن عن وضع ثيابهن عنهن. مما يقول صاحب جامع البيان. . . . . عن ليث عن نافع عن ابن عمر. قوله: {ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم}

قال: هي على الذكور دون الإناث، وقال آخرون: بل عني به الرجال والنساء. . عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن في قوله: {يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم} قال: هي في الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار، وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني به الذكور والإناث، لأن الله عم بقوله: {الذين ملكت أيمانكم} جميع أملاك أيماننا ولم يخصص منهم ذكرا ولا أنثى فذلك على جميع من عمه ظاهر التنزيل، فتأويل الكلام: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم، فلا يدخلوا عليكم إلا بإذن منكم لهم، {والذين لم يبلغوا الحلم منكم} يقول: والذين لم يحتلموا من أحراركم ثلاث مرات، يعني: ثلاث مرات، يعني: ثلاث مرات في ثلاث أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم. . {والله عليم}. . ذو علم بما يصلح عباده. {حكيم} في تدبيره إياهم وغير ذلك من أموره. . اهـ.

[الأمر في قوله سبحانه: {ليستأذن الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم} وإن كان في الظاهر للمملوكين والصبيان لكنه في الحقيقة للمخاطبين؛ فكأنهم أمروا أن يأمروا المذكورين بالاستئذان. . والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم الصبيان ذكورا وإناثا. . . . والحلم بالضم والاحتلام: الجماع في النوم. . والحلم بالكسر: الأناة والعقل. . والظاهر أن ما نحن فيه بمعنى الجماع في النوم {ثلاث عورات} خبر مبتدأ محذوف، وقوله سبحانه: {لكم} متعلق بمحذوف وقع صفة له أي: هن ثلاث عورات كائنة لكم، والعورة: الخلل. . . وعورة الإنسان: سوأته، وأصلها كما قال الراغب ـ من العار ـ وذلك لما يلحق في ظهورها من العار أي المذمة. . .] ٥٥٧

٥٩ - (وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٨ إظهار

٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

{القواعد} النساء اللائي أقعدهن الكبر.

{لا يرجون نكاحا} لا يتشوفون لزواج ولا يتشوف إليهن راغب.

{يضعن ثيابهن} يتخلين عن بعض ما يسترن به.

{متبرجات} عامدات إلى التكشف، وإبراز ما لا يحل.

{يستعففن} يتنزهن عن وضع بعض الثياب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٨ إظهار

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)}.

{حرج} ضيق وإثم.

{ملكتم مفاتحه} الخازن، يدفع إليهم مفاتح لم ما يستأمنون عليه من مستودعات.

{صديقكم} صاحبكم الذي يصدقكم الود والحب.

{أشتاتا} متفرقين.
روى عن ابن عباس:. . لما أنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل. .) ٥٥٨ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل. والطعام هو من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: {ليس على الأعمى حرج} إلى قوله: {أو صديقكم}.
. قال عطاء الخرساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يقال: إنها نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة، أي أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون) ٥٥٩ [وعن سعيد بن جبير. .: كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك.] ٥٦٠
ومما نقل عن ابن العربي: أن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به المشي، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك، ثم قال بعد ذلك مبينا: وليس عليكم حرج في أن تأكلوا من بيوتكم، فهذا معنى صحيح، وتفسير مبين مفيد، يعضده الشرع والعقل، ولا يحتاج في تفسير الآية إلى نقل ا ه.
{ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم} قد يكون المعنى: وليس عليكم أيها المؤمنون والمخاطبون حرج أو ضيق أو إثم في أن تأكلوا من بيوتكم ولو كان ما فيها من كسب أولادكم أو من مال زوجاتكم، ففي الصحيحين: " إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه "
{أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم} والإثم والضيق مرفوع عنكم إن أكلتم من بيت من تلك البيوت التي ذكر الله، يقول ابن العربي: أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولا، فإذا كان محرزا دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار، ولا إلى ما ليس بمأكول، وإن كان غير محرز إلا بإذن منهم. اه.
{أو ما ملكتم مفاتحه} وليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيت ملكتم مفاتحه باستخلاف واستئمان أصحابه لكم، أو كان عبدا لمالك الدار، أو أجيرا عنده، فلكل واحد من هؤلاء أن يأكل من البيت الذي أعطي مفاتيحه، واشترط بعض الفقهاء في الخازن المباح له شرعا أن يأكل مما يخزن أن لا تكون له أجرة، فأما إن كانت له أجرة حرم عليه الأكل مما يخزن، قال ابن عباس: عني وكيل الرجل على ضيعته، وخازنه على ماله، فيجوز أن يأكل مما هو عليه. اه.
{أو صديقكم} ولا حرج عليكم كذلك أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم؛ فالمراد هنا الجمع، والصديق من يصدق في وده وأخوته لك، وتصدق في أخوتك له وودك.
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: قرن الله عز وجل في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لصيق. قال ابن عباس في كتاب النقاش: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين: {فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم) ٥٦١، قلت: ولهذا لا يجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه. . اه.
{ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا}، لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، مما قال ابن عطية: وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت الآية مبينة سنة الأكل، ومذهبة كل ما خالفها من سيرة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وأن إحضار الأكيل لحسن، ولكن بألا يحرم الانفراد. اه.

{فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة} كلما دخلتم بيتا من تلك البيوت المشار إليها في الآية أو من غيرها تملكونه أو يملكه من سواكم فسلموا فإن كان لسواكم فالاستئناس والسلام، وإن كانت بيوتكم وفيها أهلكم وخدمكم فقولوا السلام عليكم، فإن لم يكن فيها أحد ودخلتموها فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين {تحية} يمكن أن يكون نصبا على المفعول المطلق، لأن معنى {فسلموا} فحيوا، {مباركة} كثيرة الخير {طيبة} يطيب حالها ومآلها.

{كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون} كما بين المولى الحكيم شرعته ومنهاجه لكم في هذه الأشياء يبين لكم سائر ما بكم من حاجة إليه لتعقلوا عن ربكم ما فيه خيركم وفلاحكم وفوزكم.

٦٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٦٢)}

{إنما} للحصر، فكأن المعنى: اليقين الكامل والتصديق التام بالله ورسوله لا يكتمل إلا للذين يخلصون في طاعة ربهم ونبيهم، وإذا كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جمع لأمر يعود عليهم نفعه، أو يُخشى أن ينزل بهم ضره، من نحو تشاور، أو خروج لجهاد، لم ينصرفوا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه إلا أن يأذن لأصحاب الأعذار منهم أن يمضوا إلى ما اعتذروا من أجله، فهؤلاء-مادام قد أذن لهم لم ينتقص إيمانهم بسبب عدم استمرار حضورهم، ودعا ربنا نبيه صلى الله عليه وسلم ليسأل الله أن يعفو عما قد يكون بينهم وبين مولاهم من شيء يؤاخذون عليه، إن الله كثير الغفران والتجاوز عن خطايا المخطئين، واسع الرحمة فلا يعاقبهم على ما فرط منهم إن تابوا عليهم.

٦٣ - (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٦٣)}

{يتسللون} يخرجون خفية

لواذا} يلوذ أحدهم بالشيء يختفي به.

نهى الله تعالى أن يدعى النبي صلى الله عليه وسلم كما يدعى الواحد منهم، عن ابن عباس وغيره: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبيه. . وقال مقاتل:. . لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه: يا نبي الله، يا رسول الله. وقيل: المعنى: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا حكاه ابن أبي حاتم.

{قد يعلم الله الذين يتسللون منك لواذا} و {قد} هنا: تفيد التحقيق والثبوت، فاستيقنوا أن الله الرقيب الخبير السميع البصير علمه محيط بكل شيء ومنه حال الذين ينصرفون عن رسول الله ومجلسه في استخفاء يلوذ أحدهم بالشيء يختفي به حتى لا يرى حال انصرافه، وفيه مع التذكير بعلم لربنا المحيط تهديد ووعيد للمتفلتين من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم دون إذن منه لهم.

{فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة} إنذار من الله الواحد القهار لكل من عصى النبي المختار، أن الخروج على طاعته صلى الله عليه وسلم يعقب نفاقا وكفرا، فهذه شر الفتن، مصداقا لوعد ربنا تبارك اسمه: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى. .) ٥٦٢ كما هو تحذير للذين يردون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: حسبنا

ما في كتاب الله، ولو كانوا صادقين لما ساغ لهم مخالفة أقواله ولا أفعاله ولا شيء من سنته المطهرة، فإن الكبير المتعال يقول: {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها. . ٥٦٣، وينادي جل وعز: {. . استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) ٥٦٤، والله أرسله هاديا ومبشرا ونذيرا {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) ٥٦٥ وشهد سبحانه أنه أرسله {. . يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) ٥٦٦ فأولى لهم وقول معروف.

{أو يصيبهم عذاب أليم} سيصيب الذين أجرموا وشاقوا الرسول، وصدوا عن سنته وشريعته ومنهاجه وسبيله صغار عند الله وعذاب موجع بما كانوا يكفرون، ويضلون الناس عن الحق ويضلون، فأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون.

٦٤ - (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٦٤}}.

{يرجعون إليه} يبعثون ويحشرون بين يديه، ويوقفون ليحاسبهم ويقضي بجزائهم ويوفيهم ثواب أعمالهم.

{فينبئكم} فيخبرهم ويوافيهم، ويعلمهم علم اليقين.

تنبيه وتذكير بأن السماوات والأرض وما فيهن لله تعالى دون سواه ملكا وسلطانا وتدبيرا، والخلق كله منقاد لأمره {. . والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه. .) ٥٦٧ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ٥٦٨.

{قد يعلم ما أنتم عليه} استيقنوا أنه عالم الغيب والشهادة يعلم سركم ونجواكم يعلم السر وأخفى، فلا يعزب ولا يغيب عنه ما يعمل العاملون، أو يبيت المبيتون، و {قد} هنا كالتي في قوله عز شأنه: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ٥٦٩ {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) ٥٧٠ {قد نرى تقلب وجهك في السماء. .) ٥٧١ كلها تفيد التحقيق وفي هذه الجملة وما بعدها تحذير وتخويف ووعيد، كما يمكن أن تتضمن بشرى لمن اتقوا الحميد المجيد.

{ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا} وربنا لا يضل ولا ينسى، وكل شيء أحصاه في كتاب حفيظ، وملائكته تنسخ وتكتب ما يقولون وما يعملون، ثم تجد كل نفس ما عملت في مجموع صحائف علقت بالرقاب ولزقت بالأيمان والشمائل، ثم ينادى كل منا: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ٥٧٢ {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ٥٧٣.

والجملة السابقة في الآية الكريمة {يعلم ما أنتم عليه} جاءت بالخطاب وهذه: {يرجعون إليه فينبئهم} بالغيبة التفاتا وتلوينا.

{والله بكل شيء عليم} والمعبود بحق محيط علمه بكل الأشياء {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. .) ٥٧٤، فأروا الله تعالى من أنفسكم خيرا.

وبعد:

فإن السورة المباركة شرعت لنا من الدين ما يرسخ اليقين. فالمهتدي بموعظة ربه على نور، لا تضله فتنة، ولا يعوج به صراط، ولهذا جاء في مفتتحها {. . . وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون} وفي أواسطها: {ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين} {لقد أنزلنا آيات مبينات} وجاء في خواتمها: {. . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون}.

ودلنا الله ذو الجلال في محكمها على ما تنال به الرفعة والتزكي في الأقوال والأعمال، فما تكرر القول الرباني {أزكى} إلا في هذه السورة، ونودي الرجال والنساء إلى رعاية العفة {وليستعفف}، {وأن يستعففن خير لهن}، كما وضحت السبل إلى ذلك، فلا تسبق عين إلى موطن قد تطلع منه على عورة، وليسبق الإذن البصر، حتى لم ترد الكلمات الربانية الكريمة: {. . تستأنسوا}، {استأذن}، {. . ليستأذنكم}. {فليستأذنوا} لم ترد في غير هذه السورة.

والغض عن المحارم، وستر الزينة والمفاتن، عهد وثقة المولى جل وعز في هذه السورة: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم} {وقل

للمؤمنات يغضضن من أبصارهن} والنهي عن إظهار النساء زينتهن لترى أو يسمع رنينها مؤكد في مواطن ثلاث من السورة المباركة: {ولا يبدين زينتهم إلا لبعولتهن} {ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهم}.

وصيانة الأعراض من دنس الفاحشة وقالة السوء، وصانا الله تعالى به في آيات متتابعات، وحد حدودا تزجر وتطهر من زنى أو اتهم غيره بهتانا بالزنى، وتكرر قول الله الحكيم: {يرمون} ثلاث مرات في السورة ولم يرد في غيرها.

ولأن مولانا البر الرحيم يريد أن يطهرها ويتم نعمته علينا أمر بالنكاح وقبح السفاح، ومقته ولو كان مع الإماء: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء} ونادى الأولياء أن يعملوا على تزويج إخوانهم ومواليهم ذكرانا وإناثا: {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله}.

وزادت آياتها المباركات أهل الإيمان إيمانا، فالكبير المتعال لقاؤه حق وجزاؤه حق، وهو المحيط بكل شيء علما، ولقد تكرر الاسم الكريم {عليم} في هذه السورة عشر مرات.

كما علمت الأمة كيف توقر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم في محادثته ومجالسته ومصاحبته، والاقتداء به والتأسي بهديه: {وإن تطيعوه تهتدوا} {. . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}.

وفوق ما ذكرتنا به آياتها مما أعد الله الغفور الشكور للذين أحسنوا {ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} وما ينتظر الزائغين من خزي وحسرة وبوار: {. . حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب}.

ساقت البشرى بالخلافة والتمكين والأمن للذين أخلصوا دينهم واتقوا ربهم: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا}.

فاستبشروا أهل الصدق بالوعد الذي لا يخلف، وأوفوا بعهد الله يوف بعهدكم، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون.

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

٢٥ سورة الفرقان:

سورة الفرقان:
سورة الفرقان مكية
وآياتها سبع وسبعون
كلماتها ٨٧٢ - حروفها ٣٧٨٠
١ - (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ١}
تقدس منزل القرآن، وكثر خيره، وزاد عطاؤه، ودام وثبت إنعامه.
قال النحاس: من برك الجمل إذا دام وثبت، وسمى محبس الماء بركة، لثبوت الماء فيه.

وإنما سمى القرآن فرقانا ربما لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، أو لأنه نزل مفرقا، أو لأن فيه ما شرع من حلال وحرام، والنذير: المنذر المحذر. والعالمين: عالم الإنس وعالم الجن، جمع باعتبار أن الجمع يكون لما فوق الواحد، مما قال صاحب الجامع لأحكام القرآن: ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عم رسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق. اه ومحمد ختم به.

واسم [يكون] مضمر يعود على {عبده} وهو أولى لأنه أقرب إليه، ويجوز أن يعود على {الفرقان}.

وأقول: فكأن المعنى على الأول ليكون محمد عبد الله ورسوله منذرا المكلفين، وعلى الثاني ليكون القرآن المبين منذرا الثقلين الجن والإنس.

٢ - (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)

{الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ٢}.

ربنا منزل القرآن، مرسل المصطفى من ولد عدنان، لينذر به الإنس والجان، هو سبحانه مالك الأكوان، المهيمن عليها وحده دون أعوان، وتعالى مقام المولى الكبير عن اتخاد البنات أو الولدان، وجل عما يفتريه المجوس والثنوية وعبدة الأوثان، بل هو المتفرد بإحداث كل شيء وإيجاده، وتهيئته ليمضي وفق حكيم مراده.

- قوله تعالى: {الذي له ملك السماوات والأرض} عظم تعالى نفسه، {ولم يتخذ ولدا} نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله، يعني بنات الله سبحانه وتعالى، وعما قالت اليهود: عزير ابن الله، جل الله تعالى، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله، تعالى الله عن ذلك، {ولم يكن له شريك في الملك} كما قال عبدة الأوثان، {وخلق كل شيء} لا كما قال المجوس والثنوية ١ إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء، ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد، فالآية رد على هؤلاء، {فقدره تقديرا}. . . بحكمته. . . لا عن سهوة وغفلة. . . فهو الخالق المقتدر فإياه فاعبدوا ٢ - .

٣ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا)

{نشورا} إحياء بعد الموت.

{واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ٣}.

- بعدما تبين أن الله هو الحق، وبارئ الخلق، والقائم على كل شأن، والمتعالي عن كل نقص وعجز، جحده الجاحدون، وأشرك به الضالون المشركون، وما الذين عبدوهم من دونه بالقادرين على خلق شيء، بل هم شيء مما خلق، ومن عجزهم عدم اقتدارهم على دفع الضر أو جلب النفع لأشخاصهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم، ولا يملكون إماتة ولا إحياء ولا بعثا.

-[{لا يخلقون شيئا} يعني الآلهة {وهم يخلقون} لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع، عبر عنها كما يعبر عما يعقل] ٣.

٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

{إفك} كذب.

{افتراه} اختلقه

{وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ٤ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ٥ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ٦}

بعد جدالهم في الله الكبير المتعال، جادل المشركون في الذكر الحكيم مراء وتماديا في الضلال، فقالوا:ما القرآن إلا كذب ابتدعه محمد ونسبه إلى الله، وساعده في هذا الإدعاء الاختلاق ناس ممن عندهم علم من [تراث] السابقين، فبئسما قالوا (. . . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٤، كما افتروا أنه يتلقى بعض علوم الأولين، ويتلقن صباح مساء فأبطل الله تعالى زورهم وبهتانهم، وأمر نبيه أن يبطل زعمهم، وأمره أن يقول لهم: أنزل القرآن الملك الديان، عالم ما خفي واستتر - فضلا عما انكشف وظهر - في علوي الكون وسفليه، إنه الساتر ذنوب التائبين، الرحيم بالعباد المؤمنين.

[أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع في الخارج ماضيا ومستقبلا. . الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، وقوله تعالى: {إنه كان غفورا رحيما} دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه. . . يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٥ وقال تعالى: (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) ٦ قال الحسن البصري:انظروا إلى هذا الكرم والجود! قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة] ٧.

٥ - (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

{أساطير الأولين} حكايات الأوائل وكهانتهم وأقاصيصهم وخرافاتهم، أو ما سطروه.
{اكتتبها} استنسخها.
{بكرة} أول النهار.
{أصيلا} آخره، وقبيل غروب شمسه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤ إظهار
٦ - (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤ إظهار
٧ - (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)
{وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ٧ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ٨ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ٩ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ١٠}
ولما تمادوا في آيات الله وسقط مراؤهم، شرعوا في المراء فيمن أنزلت عليه الآيات فقالوا: عجبا لهذا الذي يدعي الرسالة كيف يمكن أن نصدق أنه مبعوث ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة، فرد الله تعالى إفكهم بما أرشد إليه القرآن العظيم:) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام. .) ٨.
{وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام} ٩ ثم عابوه صلى الله عليه وسلم بأنه يتردد في الأسواق وإليها يتجر ويرتزق، وتحدوه ١٠ أن يستنزل ملكا من السماء يصحبه حتى يعرفوا صدقه، أو تجيئه الكنوز وتهبط عليه الأموال، أو توهب له جنة يطعم من ثمرها، بل ما هو إلا رجل ذو سحر، غلب على عقله، فدحض الله مراءهم، وسفه أحلامهم، وضلل سعيهم، إذ بين عز وجل أن الذي قالوه عجيب غريب غرابة الأمثال، ينم عن التيه والضلال، والبعد عن مناهج الحق الكبير المتعال، وربك كثير خيره، واسع فضله، لو أراد أن يجعلك من أصحاب الزخرف والمتاع لمنحك بدلا من الجنة التي اقترحوها جنات، وأسكنك القصور المشيدات، لكن سبقت مشيئته وقضت حكمته أن يجعلك وسطا، لست من المقنطرين و لا من المحرومين.
[و {ما} استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه في محل رفع على الابتداء، والجار والمجرور بعدها متعلق بمحذوف خبر لها. . . . . والزمخشري ذكر أنهم عنوا بقولهم {ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} ١١ أنه كان يجب أن يكون ملكا، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك له يعينه، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه ويرتزق. . .
٨ - (أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا)
{وقال الظالمون} هم القائلون الأولون، وإنما وضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه. . .
٩ - (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا)
{فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} فبقوا متحيرين ضلالا لا يجدون في القدح في نبوتك قولا يستقرون عليه، وإن كان باطلا في نفسه، فالفاء الأولى سببية، ومتعلق {ضلوا} غير منوي، والفاء الثانية تفسيرية. . . .
١٠ - (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا)
والظاهر أن {يجعل} مجزوم فيكون عطفا على محل الجزاء الذي هو {جعل} وهو جزاء أيضا. .] ١٢.
١١ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا)
{بالساعة} بالقيامة وأحوالها وأهوالها من بعث وحشر وحساب وجزاء.
{سعيرا} نارا متهيجة اللهب، متوقدة.
{بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ١١ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ١٢ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ١٣ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ١٤}

مما يقول الألوسي: وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر، وكذا نسبة التغيظ والزفير. . كقوله تعالى: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ١٣.

الضالون الخاسرون كفروا بالله العظيم، اتخذوا من دونه آلهة، وجحدوا بالكتاب الكريم وقالوا إفك مفترى، وسخروا ممن أنزل عليه الكتاب وقالوا: {إن تتبعون إلا رجلا مسحورا}،وأنكروا لقاء الواحد القهار فاستوجبوا بذلك المصير إلى النار، وقد هيأها لهم المنتقم الجبار، ومنذ يبعثهم الله تسود وجوههم، وتعلوهم سمة الذل والصغار، ولكأنما توهب جهنم إدراكا فتعرف المجرمين، وتتلمظ وتتغيظ من قبل أن يتهاووا في دركاتها، من حين يحشرون، وفي يوم مقداره ألف سنة مما تعدون، تهددهم ألسنة اللهب، وترميهم بشرر كالقصر، فإذا سحبوا في الحميم، وسلكوا في السلاسل والأغلال، وزج بهم في الحطمة، وأوصدت عليهم، دعوا على أنفسهم بالهلاك، أو أيقنوا أن هذا السعير هو المستقر والمصير، فيناديهم خزنة النار سخرية منهم وتحسيرا لهم: ليس الذي حل بكم مجرد خسار، وإنما هو عذاب مقيم، ومهانة وبوار، ولعنة وسخط، نعوذ بالله من النار وغضب الجبار.

١٢ - (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)

{زفيرا} أصله إخراج النفس بعد مدة. . وشاع استعماله في نفس صوت ذلك النفس.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٣ - (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)

{مقرنين} مقيدين مكبلين.

{ثبورا} هلاكا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٤ - (لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٥ - (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا)

{قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ١٥ لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعدا مسؤولا ١٦}

بعد الوعيد والتحذير بينت هاتان الآيتان الوعد والتبشير، والكلام استفهام، وربما يكون إنكاريا، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيم الحجة على المشركين المنكرين للآخرة المستوجبين لدخول النار: أذلك العذاب المهين الذي وعدتهم خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون؟! قال ابن عطية! حيث كان الكلام استفهاما جاز فيه مجئ لفظة التفضيل بين الجنة والسعير في الخير، لأن الموقف جائز له أن يوقف محاوره على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ، وقال أبو حيان إن {خير} هنا ليس للدلالة على الأفضلية – يعني أنهما اشتركا في الفضل وزادت إحداهما فيه على الأخرى فصارت أفضل – بل هو على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابلة. {كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤون خالدين} تكون لهم جنة المكث الطويل والبقاء السرمدي جزاء ومتبوأ يصيرون إليه ينعمهم المولى البر الرحيم فيها بكل ما شاءوا من ألوان النعيم وصنوفه – مادية أو معنوية- {كان على ربك وعدا مسؤولا} والوعد المذكور تضمن المولى به ١٤ وبإنجازه مصداقا لقوله الحق: (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك. .) ١٥) وعد الله لا يخلف الله وعده. . (١٦.

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٧ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

{ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ١٧ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا

أن تتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ١٨ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ١٩}

واذكر يوم يحشرهم الله هم وما كانوا يعبدون من دونه إذ يكون من الأهوال والأحوال ما لا يفي ببيانه المقال، فيقول عز مقامه لما اتخذوهم لله شركاء: أأنتم الذين أضللتهم هؤلاء فدعوتموهم إلى عبادتكم أم هم حادوا عن الطريق السوي، ووقعوا في الحيرة لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن وحيي ورسالاتي؟!

فيقول الشركاء: تنزهت يامالك الأمر كله! ما يليق لنا أن نتخذ وليا من دونك. ويقول صاحب غرائب القرآن: وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله؛ والولاية المبنية على ميل النفس وشهوة الطبع مذمومة شرعا، ولكن أبطرتهم المتع والزخارف، وغرهم بالله الغرور، وألهاهم التفاخر بالآباء، والتكاثر بالأموال والأبناء، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك، والإيمان بك، والاستجابة لك، وكانوا بما أساءوا قوما هلكى، فيبكت ربنا أهل الشرك ويخزيهم بأن معبوداتهم قد تبرأت منهم وكذبت مزاعمهم، فما تملكون يا من عبدتم غير الله دفعا للعذاب عن أنفسكم، ولا عونا من عندكم أو من عند أربابكم الذين زعمتم، ولا من عند أحد أبدا، ومن يكفر من المكلفين ويستدم الكفر، نذقه ونجرعه عذابا كبيرا في كيفيته، متماديا في مدته.

وهذه المقاولة قد تكون مع من عبدوا من دون الله من العقلاء كالملائكة وعيسى وعزير، ويشهد لهذا ما جاء في قول الحق - تبارك اسمه-:) ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك. .) ١٧ وقوله سبحانك:). . أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك. .) ١٨، وينطق الله تعالى الأصنام، وقيل تتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال.

١٨ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ١٧ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا
أن تتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ١٨ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ١٩}

واذكر يوم يحشرهم الله هم وما كانوا يعبدون من دونه إذ يكون من الأهوال والأحوال ما لا يفي ببيانه المقال، فيقول عز مقامه لما اتخذوهم لله شركاء: أأنتم الذين أضللتهم هؤلاء فدعوتموهم إلى عبادتكم أم هم حادوا عن الطريق السوي، ووقعوا في الحيرة لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن وحيي ورسالاتي؟!

فيقول الشركاء: تنزهت يامالك الأمر كله! ما يليق لنا أن نتخذ وليا من دونك. ويقول صاحب غرائب القرآن: وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله؛ والولاية المبنية على ميل النفس وشهوة الطبع مذمومة شرعا، ولكن أبطرتهم المتع والزخارف، وغرهم بالله الغرور، وألهاهم التفاخر بالآباء، والتكاثر بالأموال والأبناء، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك، والإيمان بك، والاستجابة لك، وكانوا بما أساءوا قوما هلكى، فيبكت ربنا أهل الشرك ويخزيهم بأن معبوداتهم قد تبرأت منهم وكذبت مزاعمهم، فما تملكون يا من عبدتم غير الله دفعا للعذاب عن أنفسكم، ولا عونا من عندكم أو من عند أربابكم الذين زعمتم، ولا من عند أحد أبدا، ومن يكفر من المكلفين ويستدم الكفر، نذقه ونجرعه عذابا كبيرا في كيفيته، متماديا في مدته.

وهذه المقاولة قد تكون مع من عبدوا من دون الله من العقلاء كالملائكة وعيسى وعزير، ويشهد لهذا ما جاء في قول الحق - تبارك اسمه-:) ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك. .) ١٩ وقوله سبحانك:). . أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك. .) ٢٠، وينطق الله تعالى الأصنام، وقيل تتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال.

١٩ - (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]
{ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ١٧ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ١٨ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ١٩}
واذكر يوم يحشرهم الله هم وما كانوا يعبدون من دونه إذ يكون من الأهوال والأحوال ما لا يفي ببيانه المقال، فيقول عز مقامه لما اتخذوهم لله شركاء: أأنتم الذين أضللتم هؤلاء فدعوتموهم إلى عبادتكم أم هم حادوا عن الطريق السوي، ووقعوا في الحيرة لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن وحيي ورسالاتي؟!
فيقول الشركاء: تنزهت يامالك الأمر كله! ما يليق لنا أن نتخذ وليا من دونك. ويقول صاحب غرائب القرآن: وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله، والولاية المبنية على ميل النفس وشهوة الطبع مذمومة شرعا، ولكن أبطرتهم المتع والزخارف، وغرهم بالله الغرور، وألهاهم التفاخر بالآباء، والتكاثر بالأموال والأبناء، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك، والإيمان بك، والاستجابة لك، وكانوا بما أساءوا قوما هلكى، فيبكت ربنا أهل الشرك ويخزيهم بأن معبوداتهم قد تبرأت منهم وكذبت مزاعمهم، فما تملكون يا من عبدتم غير الله دفعا للعذاب عن أنفسكم، ولا عونا من عندكم أو من عند أربابكم الذين زعمتم، ولا من عند أحد أبدا، ومن يكفر من المكلفين ويستدم الكفر، نذقه ونجرعه عذابا كبيرا في كيفيته، متماديا في مدته.
وهذه المقاولة قد تكون مع من عبدوا من دون الله من العقلاء كالملائكة وعيسى وعزير، ويشهد لهذا ما جاء في قول الحق - تبارك اسمه-:) ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك. .) ٢١ وقوله سبحانك:). . أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك. .) ٢٢، وينطق الله تعالى الأصنام، وقيل تتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال.
٢٠ - (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)
{وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ٢٠}
وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا رجالا، إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وقال أهل المعاني: المعنى: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون، دليله قوله تعالى: (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك. .) ٢٣
يرد الله تعالى على المفترين الذين نالوا من الرسول وعجبوا من شأنه يريدون الغض من قدره وقالوا {ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} وليزداد النبي والمؤمنون يقينا أن سنة الحكيم العليم أن يبعث الرسل بشرا يجري عليهم ما يجري على سائر البشر إلا أن الله تعالى اصطفاهم وطهرهم، يقول مولانا الحق جل علاه:) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام. .) ٢٤) ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. .) ٢٥.
فإن قال قائل: فإن [من] ليست في التلاوة فكيف قلت: معنى الكلام: إلا من إنهم ليأكلون الطعام؟ قيل قلنا في ذلك معناه أن الهاء والميم في {إنهم} كناية أسماء لم تذكر ولا بد لها من أن تعود على من كنى عنه بها، وإنما ترك ذكره [من] وإظهاره في الكلام اكتفاء بدلالة قوله {من المرسلين} عليه، كما اكتفى في قوله:) وما منا إلا له مقام معلوم) من إظهار [من] ولا شك أن معنى ذلك: ومامنا إلا من له مقام معلوم. -
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. . . {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق} قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون. . . قال بعض مشايخ هذا الزمان: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء فأما في حق أنفسهم فلا، وبيان ذلك أصحاب الصفة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان، كما ثبت في القرآن:). . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. . . (٢٦. . . وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام عن ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويستقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذا وصفهم البخاري وغيره. . . ثبت في البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى:). . وتزودوا. . (٢٧، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقا، والتوكل: اعتماد القلب على الرب أن يلم شعثه، ويجمع عليه أربه، ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر، وهذا هو الحق.
}وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا{ يكاد يكون الاختبار، وامتحان المولى للعباد-يفعل معهم فعل الممتحن يكاد يكون هذا سر الوجود، وغاية الحياة) تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. . (٢٨ - فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني عليه ألا يحسده، فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر، وذاك عن الضجر، وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " ويل للعالم ٢٩ من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله: }وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون{ أسنده الثعلبي تغمده الله برحمته. . .
}وكان ربك بصيرا{ أي بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع. . . وقيل: }أتصبرون{ أي اصبروا، مثل). . فهل أنتم منتهون (٣٠ أي انتهوا- ٣١
٢١ - (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)
}لا يرجون لقاءنا{ لا يتمنون البعث أولا يؤمنون بالحساب.
}لولا{ هلا.
}عتوا{ ظلما فاحشا وكفرا مبينا.
}*وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا ٢١ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ٢٢ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ٢٣ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ٢٤{
ومن جدال الكافرين ومراء المنكرين الجاحدين المكذبين بالآخرة أن قالوا:هلا أنزل علينا الملائكة لتخبرنا بصدق محمد، وذلك كالذي حكاه القرآن قيلا لهم (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٣٢ أو نعاين الله جل علاه- جهرة، مثل ما اقترحوا عليه صلى الله عليه وسلم:). . أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) ٣٣، وقال أشباههم لنبيهم:). . لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. . (٣٤ لقد أعماهم الاستكبار عن التفكر والاعتبار والتصديق والإقرار، وأمعنوا في الغي وأفحشوا في النكر والكفر، فليعلموا أنهم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يرونهم ساعة خروج أرواحهم- وما أشدها من ساعة-: (ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم.) ٣٥ وبشراهم للفجار يومئذ بالنار وغضب الجبار:). . (ولو ترى إذ الظالمون في غَمَرات الموتِ والملائكةُ باسِطوا أيديهم أَخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون. . (٣٦ ويوم القيامة إذ يعاينون الملائكة يقولون لهم (. . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ٣٧، وتقول الملائكة لهم: حرام محرم عليكم أن تدخلوا الجنة، ولعل مما هو قريب من هذا المعنى ما بين القرآن في نداء أصحاب النار لأصحاب الجنة مستغيثين: (. . أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) ٣٨، وإن كانت لهم أعمال في الدنيا مثل إكرام الضيف ونصرة الحليف وصلة الرحم فإن الله تعالى يأتي عليها فيحبطها فتغدو كأنها نسفت، ولا أجر لفاعليها في الآخرة لأنهم لم يبتغوا بها وجهه، ولا امتثلوا بها شرعه، فكان من عدله ألا يظفرهم منها شيء:

(مثلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يوم عاصفٍ لا يَقدِرون مما كسَبوا على شيء. .) ٣٩ (. . كالذي ينفق ماله رِآء الناس ولا يؤمن بالله واليومِ الآخِرِ فمثلُه كمَثَلِ صَفوانٍ عليه تُراب فأصابه وابِلٌ فتركه صَلدا لا يَقدرون على شيء مما كسبوا. .) ٤٠ (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. .) ٤١ أما الذين أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها وقد آمنوا فأولئك ينجيهم الله بمفازتهم وتبشرهم الملائكة في أولاهم وفي آخرتهم ويصار بهم في دار النعيم إلى غرف من فوقها غرف في جنات ونهر، (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) ٤٢ فهم في مستقر أكرم وأدوم مما أدرك المكذبون في عاجلهم وآجلهم، ومجالسهم (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين). ويرجعون إلى أهليهم مسرورين، فلا يستوي أصحاب النار وأولياء العزيز الغفار. أصحاب الجنة هم الفائزون (٤٣،هذا - وإذا كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون: فلان لا يرجو ربه سبحانه يريدون: لا يخاف ربه سبحانه، ومن ذلك:) ما لكم لا ترجون لله وقارا) ٤٤ أي لا تخافون لله تعالى عظمة - ٤٥ مما أورد القرطبي: قال قتادة: {وأحسن مقيلا} نزلا ومأوى، وقيل هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار، ومنه الحديث المرفوع: " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار " ذكره المهدوي. . . وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت ما أطول هذا اليوم! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا " اهـ.

٢٢ - (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا)

{يوم يرون الملائكة} يوم يموتون، أو يوم يحشرون.

{حجرا محجورا} حرما محرما.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار

٢٣ - (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

{هباء منثورا} غبارا أو ذرا مبعثرا.

{قدمنا إلى ما عملوا} أتينا عليه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار

٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا)

{مقيلا} منزلا وسط النهار.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار

٢٥ - (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا)

{ويوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا ٢٥ الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوما على الكافرين عسيرا ٢٦ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٧ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ٢٨ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ٢٩ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ٣٠}

واذكر يوم تتشقق السماء بالغمام والسحاب الرفيق مثل الضباب، ينزل أهل الملإ الأعلى إلى الموقف ليفصل الكبير المتعال بين العباد، كالذي أشار إليه قول ربنا جل علاه (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَل من الغَمَام والملائكةُ. . . .) ٤٦ وقوله تبارك اسمه: (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يؤمئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) ٤٧

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: " ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه، لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال، يومئذ تنقطع دعاوى المالكين، ويبقى الملك الحق لله وحده. "

٢٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)

}وكان يوما على الكافرين عسيرا{. ومن شدة عسره يتمنى الكفار أن لو كانوا عدما:). . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) ٤٨ وعندها تشتد حسرة الضالين وندمهم فيعض الواحد منهم على كلتي يديه لا على بنانه وكفى، ويقر بما كان من غيه وبغيه، وبصدق الرسول وما جاء به، ويلقي بالملامة على قرين السوء إذ زين له الغرور وهون عليه الفجور وأغواه فأرداه (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) ٤٩.

٢٧ - (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

}وكان يوما على الكافرين عسيرا{. ومن شدة عسره يتمنى الكفار أن لو كانوا عدما:). . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) ٥٠ وعندها تشتد حسرة الضالين وندمهم فيعض الواحد منهم على كلتي يديه لا على بنانه وكفى، ويقر بما كان من غيه وبغيه، وبصدق الرسول وما جاء به، ويلقي بالملامة على قرين السوء إذ زين له الغرور وهون عليه الفجور وأغواه فأرداه (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) ٥١.

٢٨ - (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

}وكان يوما على الكافرين عسيرا{. ومن شدة عسره يتمنى الكفار أن لو كانوا عدما:). . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) ٥٢ وعندها تشتد حسرة الضالين وندمهم فيعض الواحد منهم على كلتي يديه لا على بنانه وكفى، ويقر بما كان من غيه وبغيه، وبصدق الرسول وما جاء به، ويلقي بالملامة على قرين السوء إذ زين له الغرور وهون عليه الفجور وأغواه فأرداه (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) ٥٣.

٣٠ - (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا)

وكأن الآية الكريمة: }وقال الرسول يارب إن قومي اتخدوا هذا القرآن مهجورا{ تبيين لشكاية النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه من قومه الطاعنين في الكتاب العزيز الصادين أنفسهم وغيرهم عن تقديسه واتباع منهاجه (وهم ينهون عنه وينأون عنه.) ٥٤.

يقول النيسابوري: سؤال: هذا النداء بمنزلة قول نوح: ". . رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرار " ٥٥ فكيف صارت شكاية نوح سببا لحلول العذاب بأمته، ولم تصر شكاية نبينا- صلى الله عليه وسلم سببا لذلك؟ الجواب لأن الكلام بالتمام وكان من تمام كلام نوح: " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " ٥٦، ولم يكن كلام رسولنا إلا مجرد الشكاية ولم يقتض الدعاء عليهم، وذلك من غاية شفقته على الأمة وإن بلغ إيذاؤهم إياه الغاية.

٣١ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

}وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ٣١{

الذين يجادلون في آيات الله ويكذبون بالكتاب وبمن أنزل عليه الكتاب قالوا في القرآن منكرا من القول وزورا، فمن قولهم: إنه افتراه إلى قولهم: أساطير الأولين اكتتبها إلى قولهم: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، إلى قولهم: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا فكان ذلك مما قد يحزن النبي صلى الله عليه وسلم فساق الله تعالى له من الأنباء ما يثبت فؤاده، وأن هذا سنة أهل الحق، منذ بدء الخلق، فما من نبي إلا نبعث له ونابذه العداء طائفة من المجرمين: (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ٥٧ (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف

القول غرورا. ٠) ٥٨، وحسب النبي والمؤمنين أن مالك أمرهم ومصلحهم يتولى هدايتهم، وعدوهم أولياء الشيطان يضلهم ويسول لهم، وكفى النبي والمؤمنين القوي القدير يؤيدهم ويظهرهم على عدوهم، والمجرمون يتولون الشيطان وهو خاذلهم مصداقا لوعد الله العليم الخبير:) إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (٥٩.

٣٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا)

}وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ٣٢ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ٣٣{

ولج الكافرون في مناوأتهم للقرآن ومن أنزل عليه فقالوا: هلا أنزل عليه الكتاب الذي يقول إنه وحي الله إليه - مرة واحدة بجملته كما أنزلت الكتب السابقة على رسل تقدموه مرة واحدة دون تفريق مثلما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عسي، والزبور على داود؟ فرد الله تعالى باطلهم ببيان جانب من حكمته سبحانه في تنزيل الذكر الحكيم متفرقا وليس جملة واحدة، إنما أنزلناه هكذا لنثبت به فؤادك لتزداد يقينا أنك على الحق، وتزداد صبرا على احتمال أذى الخلق، وليكون أيسر عليك أن ينتقش في قلبك ورأسك آيات هذا الفرقان وبيانه، وأيسر على أمتك أن يحفظوها ويكتبوها ويعوها وينفذوها، ولو نزلت الآيات كلها جملة لشق عليهم أن ينهضوا بكل هذه الأمانات جملة واحدة، وتبارك الحكيم العليم الرؤف الرحيم، القائل وقوله الحق الكريم: " وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا " ٦٠ ويقرؤه ويرتله عليك أمين وحينا جبريل ترتيلا محكما- {ورتلناه ترتيلا}، يقول شيئا بعد شيء ٦١.

ولايردون عليك الأقوال العجيبة التي هي كأمثال الجهال إلا نبأناك بما هو الحق المبين للرشد، الكاشف للعمى والضلالة والغي، كالذي حكاه القرآن من قبل منكر البعث وكيف تقوم عليه الحجة والبرهان: " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نار فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ". ٦٢.

وهكذا شاء الله أن ينزل القرآن نجوما متفرقا ٦٣ حتى لا يوردوا زورا إلا أوحى تعالى إلى نبيه من الآيات ما يبطله، وتتم كلمات ربنا صدقا وعدلا، هذا يسير من كثير من حكم نزول الكتاب العزيز متفرقا وليس جملة واحدة.

مما نقل القرطبي: ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل بها اه.

٣٣ - (وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]

}وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ٣٢ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ٣٣{

ولج الكافرون في مناوأتهم للقرآن ومن أنزل عليه فقالوا: هلا أنزل عليه الكتاب الذي يقول إنه وحي الله إليه - مرة واحدة بجملته كما أنزلت الكتب السابقة على رسل تقدموه مرة واحدة دون تفريق مثلما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عسي، والزبور على داود؟ فرد الله تعالى باطلهم ببيان جانب من حكمته سبحانه في تنزيل الذكر الحكيم متفرقا وليس جملة واحدة، إنما أنزلناه هكذا لنثبت به فؤادك لتزداد يقينا أنك على الحق، وتزداد صبرا على احتمال أذى الخلق، وليكون أيسر عليك أن ينتقش في قلبك ورأسك آيات هذا الفرقان وبيانه، وأيسر على أمتك أن يحفظوها ويكتبوها ويعوها وينفذوها، ولو نزلت الآيات كلها جملة لشق عليهم أن ينهضوا بكل هذه الأمانات جملة واحدة، وتبارك الحكيم العليم الرؤف الرحيم، القائل وقوله الحق الكريم: " وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا " ٦٤ ويقرؤه ويرتله عليك أمين وحينا جبريل ترتيلا محكما- {ورتلناه ترتيلا}، يقول شيئا بعد شيء ٦٥.

ولايردون عليك الأقوال العجيبة التي هي كأمثال الجهال إلا نبأناك بما هو الحق المبين للرشد، الكاشف للعمى والضلالة والغي، كالذي

حكاه القرآن من قبل منكر البعث وكيف تقوم عليه الحجة والبرهان: " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نار فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ". ٦٦.

وهكذا شاء الله أن ينزل القرآن نجوما متفرقا ٦٧ حتى لا يوردوا زورا إلا أوحى تعالى إلى نبيه من الآيات ما يبطله، وتتم كلمات ربنا صدقا وعدلا، هذا يسير من كثير من حكم نزول الكتاب العزيز متفرقا وليس جملة واحدة.

مما نقل القرطبي: ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل بها اه.

٣٤ - (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلا)

{الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ٣٤}.

كأن هذه الآية الكريمة من تمة معنى الآية المباركة الحادية والثلاثين، فمن عاداك من المجرمين مجزى بما جوزي به أعداء إخوانك المرسلين، يغلب المجرمون في الدنيا ويحق الله تعالى الحق بكلماته فينصر رسله والمؤمنين، ويرد أعداء الله إلى النار في الآخرة، فيسحبون ويجرون إليها على وجوههم، ويلقون فيها مكبلين مقيدين بالأغلال والسلاسل، وما أتعسه من مكان، وما أشد الحيرة والضلال والخسران، وذلك جزاء المكذبين:) قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد (٦٨، يقول القرطبي: ونظم الآية: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم، وعن ابن جرير-بسنده – عن قتادة: قوله: {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم} قال: حدثنا أنس بن مالك أن رجلا قال: يا رسول الله؟ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: " الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه ".

٣٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)

{ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠}.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: {وكفى بربك هاديا ونصيرا}، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ٦٩ - ، و {وزيرا} أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٧٠، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ٧١، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (٧٢ - ويجوز أن يراد: إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ٧٣ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٧٤، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما

يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (٧٥، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ٧٦.

٣٦ - (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

}ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠{.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: }وكفى بربك هاديا ونصيرا{، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ٧٧ - ، و }وزيرا{ أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٧٨، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ٧٩، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (٨٠ - ويجوز أن يراد: إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ٨١ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٨٢، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في

يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (٨٣، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ٨٤.

٣٧ - (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

{ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠}.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: {وكفى بربك هاديا ونصيرا}، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ٨٥ - ، و {وزيرا} أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٨٦، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ٨٧، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (٨٨ - ويجوز أن يراد: إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ٨٩ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٩٠، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (٩١، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ٩٢.

٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

}ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠{.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: }وكفى بربك هاديا ونصيرا{، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ٩٣ - ، و }وزيرا{ أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٩٤، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ٩٥، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (٩٦ - ويجوز أن يراد: إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ٩٧ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٩٨، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (٩٩، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ١٠٠.

٣٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

}ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠{.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: }وكفى بربك هاديا ونصيرا{، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه

قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ١٠١ - ، و {وزيرا} أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (١٠٢، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ١٠٣، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (١٠٤ - ويجوز أن يراد: إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ١٠٥ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (١٠٦، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (١٠٧، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ١٠٨.

٤٠ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

{ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٤٠}.

في هذه الآيات المحكمات بشرى وتسلية للنبي والمؤمنين، فكأنهما لتثبيت مزيد من اليقين بالوعد بالهداية والنصر في آية كريمة سبقت: {وكفى بربك هاديا ونصيرا}، كما أن فيها الوعيد والإنذار للمشركين المكذبين أن يحل المنتقم الجبار بهم ما أحله بالطاغين الأولين- كأنه قال: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب، وآتيناه الآيات فرد، بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب، ورد ١٠٩ - ، و {وزيرا} أي معينا، أرسل الله مع موسى أخاه هارون استجابة للدعوة التي تضرع بها إلى ربه:) واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (١١٠، أمرهما الله تعالى أن يدعوا فرعون وقومه إلى الهدى ودين الحق، والكف عن استعباد الخلق، وهل كان القوم قد كذبوا بالآيات قبل مجيئها؟ والجواب: نعم إن أريد تكذيب الآيات الإلهية، إذ حشر فنادى) فقال أنا ربكم الأعلى) ١١١، وإن أريد تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماض والمعنى على الاستقبال، كما في قوله تعالى:) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (١١٢ - ويجوز أن يراد: إلى

القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم. . - ١١٣ فأهلكهم الله تعالى وأغرقهم، وجعلهم الله نكال الآخرة والأولى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (١١٤، ودمرنا قبل هؤلاء قوم نوح جزاء لهم على تكذيبهم رسالة نبيهم من ربهم إليهم، والقوم وإن لم يكذبوا إلا نوحا لكن تكذيبه عليه السلام كالتكذيب لكل المرسلين لاتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد، وجعلنا هلكتهم موعظة للناس وعلامة على اقتدارنا، وبطشنا بالمعاندين للرشد، والمناوئين لرسلنا، وهيأنا لهم مع ما أذقناهم من الخزي والبأس العاجل- عذابا موجعا أقصى ما يكون من الوجع، وذلك مصير كل باغ ظالم، وكذلك تبرنا أقواما ظلاما غير هؤلاء وأولئك: عادا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر بعث إليهم شعيب عليه السلام- والرس: البئر غير المطوية، فهي محفورة ليست مبنية- وأهل قرون غير هؤلاء كثير- والقرن: الزمان، وكل جماعة اقترنوا في زمن واحد فهم قرن- ذكرنا كلا من هؤلاء المهلكين بعاقبة المكذبين، ومآل الطاغين، وسقناهم على لسان رسلهم ما فيه العظة والذكرى والاعتبار، فأعرضوا فحق عليهم التدمير والهلاك والتبار والخسار، ولقد مر قومك يامحمد في رحلاتهم وتجاراتهم على القرية التي أمطرنا أهلها بالحجارة- قرية لوط عليه السلام التي كذبه أهلها وأتوا الرجال شهوة وفحشا من دون النساء، وكانت خمس قرى فاقتلعها الملك بأمر الله وقلبها وأمطر من كان خارجا من أهلها بالحجارة- أفلم يزجرهم ما شاهدوا من آثار تلك القرى، بل كانوا في يأس من مجيء الآخرة، والدمار: استئصال الهلاك، والتتبير: التكسير والإهلاك، وكل شيء كسرته وفتتته، فقد تبرته، فكأن إهلاك الفراعنة لما كان إغراقا استأصلهم وكذا قوم نوح، لكن المهلكين من غيرهم بقيت آثارهم) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. . (١١٥، فالمرتابون في لقاء الله وجزائه لا يتذكرون، إنما يتذكر من يخشى، وصدق العليم الحكيم القائل في الكتاب الحكيم المجيد: " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " ١١٦.

٤١ - (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا)

}وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ٤١ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ٤٢{

}إذا{ أداة شرط، }رأوك{ فعل الشرط، }إن يتخذونك{ جواب الشرط وجزاؤه، يقول اللغويون: [إذا] تنفرد بوقوع جوابها المنفي بإن، ولا، وما، بدون فاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط.

وحين يراك الكفار ما يرضى أهواءهم إلا أن يجعلوك محل استهزاء وسخرية حال كونهم قائلين استخفافا واستنكارا: أهذا الذي بعثه الله مرسلا- كما يزعم- من بين خلقه؟!

قد كاد وقارب إضلالنا عن أصنامنا وصرفنا عنها- لا عن عبادتها فقط- لولا ثباتهم واستمساكهم بهذا الباطل، وقريب من هذا ما تواصلوا به حين نفذ التوحيد إلى قلوب من سبقت لهم السعادة إذ غلبت على هؤلاء الشقوة، فتداعوا إلى العكوف على إفك وشرك الآباء والأجداد، وحكى الكتاب العزيز تآمرهم:) وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. أأنزل عليه الذكر من بيننا. .) ١١٧؟! وهكذا يزين للكافرين سفه رأيهم وسوء عملهم فيرونه حسنا، ويعدون من دعاهم إلى الحق مضلا مفسدا، مثلما استنفر فرعون قومه لمناوأة موسى صلى الله عليه وسلم وبين القرآن الحكيم مقالته:). . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (١١٨ ومالأه قومه على طغيانه فقالوا ما أشارت إليه الآية الكريمة:) وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك. . (١١٩، وهنا لما رموا النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بأنه أوشك أن يضلهم، سفه الله تعالى عقولهم، ورد افتراءهم، وتوعدهم بأنهم حين يرون عذابهم- ما يجعل لهم من بطش ونقمة، وما يدخر لهم- سيعلمون أنهم أضل الخلق طريقا ودينا، وأن محمدا أهدى وأقوم من دعا إلى حق، وما بعث إلا شاهدا ومبشرا ونذيرا، ومبينا لمنهاج الرشد وسراجا منيرا.

وفي تقييد العلم بوقت رؤية العذاب وعيد لهم، وتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم-، [ومن جملة كفرهم وعنادهم أنهم }إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا{ محل هزؤ، ثم فسر ذلك الاستهزاء بأنهم يقولون مشيرين إليه على سبيل الاستحقار }أهذا الذي بعث الله رسولا{ هذا: الذي بعثه الله حال كونه رسولا-بزعمه- ويجوز أن يكون تسميته رسولا استهزاء آخر منهم من حيث إنه تسليم وإقرار في

معرض الجحود والإنكار، وفي هذا جهل عظيم، لأنهم إن استحقروا صورته فإنه أحسنهم خلقا وأعدلهم مزاجا، مع أنه لم يكن يدعي التميز بالصورة، وإن استهزءوا بالمعنى فيه وقع التحدي بظهور المعجزة عليه، وقامت الحجة عليهم، فهم أحق بالاستهزاء منه حين أصروا على الباطل بعد وضوح البرهان على الحق، ولقد شهد عليهم بمضمون هذا التقرير ابن ١٢٠ أخت خالتهم،
٤٢ - (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا)
إذ قالوا: {إن كان} هي مخففة من الثقيلة:، واللام في {ليضلنا} هي الفارقة، كأنهم سلموا أنه لقوة العقل، وسطوع الحجة، شارف أن يغلبهم على دينهم، ويقلبهم عن طريقتهم {عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا}، لولا فرط لجاجهم، وصبرهم على عبادة آلهتهم، أطلقوا المقاربة أولا ثم قيدوها بلولا الامتناعية ثانيا، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم بذل قصارى مجهوده في دعوتهم حتى شارفوا على الإيمان -بزعمهم-] ١٢١ وعند معاينتهم لسوء مصيرهم سيقرون بأن الحق هو ما سمعوه من رسلهم، وأن حيرتهم أضلتهم عن طريق مرضاة ربهم.
٤٣ - (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا)
{أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ٤٣ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ٤٤}
أرأيت يا محمد، أو الخطاب لكل من هو أهل له- وهي إما من الرؤية البصرية أو الرؤية البصيرية-والاستفهام تعجيبي، أأبصرت الذين عبدوا أهواءهم وأطاعوها، وما لهم سوى ما تهوى أنفسهم من إفك وباطل، وما أشربته قلوبهم، من اتباع ١٢٢ ما تزخرفه لهم شياطينهم. فتحبب إليهم الجبت والطاغوت، وتضيق صدورهم إذا دعوا إلى البر الرحيم، الحي الذي لا يموت، وهكذا يبين القرآن الكريم مبلغ شقوتهم، فجاء في آية كريمة:) وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) ١٢٣ (. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (١٢٤ أبعد ما شاهدت غلو هذا المفتون في طاعة الهوى ويجبره على الانقياد للرشد به شاء أو أبى أفأنت تملك أن تزجره عن الغي وترشده إلى الحق طوعا أو كرها؟! فكأن الاستفهام يراد به الاستبعاد والإنكار، ثم أضرب عن الإنكار هذا وانتقل إلى إنكار حسبانه صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم ممن يسمع أو يعقل ينبئ عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة، واهتمامه بالإرشاد والتذكير، على معنى أنه لا ينبغي أن يقع، أي!
بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما نتلو عليهم من الآيات القرآنية، أو يعقلون ما أظهر لهم من الآيات الأفاقية والأنفسية فتعتني في شأنهم، وتطمع في إيمانهم؟. . وتخصيص الأكثر لأن منهم من سبقت له العناية الأزلية بالإيمان بعد الاتخاذ المذكور. .
وقوله تعالى {إن هم إلا كالأنعام}. . لتكرير النكير وتأكيده، وحسم مادة الحسبان بالمرة، والضمير [للأكثر] {من} في الآية السابقة- واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات،! وانتفاء التدبر بما يشاهدونه من الدلائل البينات إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة: وعلم في الضلالة {بل هم أضل} منها {سبيلا} لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها. . وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى معاطنها ومرابضها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم. . ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك. . . . ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد، وصد الناس عن سنن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد- ١٢٥.
٤٤ - (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
{أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ٤٣ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ٤٤}
أرأيت يا محمد، أو الخطاب لكل من هو أهل له- وهي إما من الرؤية البصرية أو الرؤية البصيرية-والاستفهام تعجيبي، أأبصرت الذين

عبدوا أهواءهم وأطاعوها، وما لهم سوى ما تهوى أنفسهم من إفك وباطل، وما أشربته قلوبهم، من اتباع ١٢٦ ما تزخرفه لهم شياطينهم. فتحبب إليهم الجبت والطاغوت، وتضيق صدورهم إذا دعوا إلى البر الرحيم، الحي الذي لا يموت، وهكذا يبين القرآن الكريم مبلغ شقوتهم، فجاء في آية كريمة:) وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) ١٢٧ (. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (١٢٨ أبعد ما شاهدت غلو هذا المفتون في طاعة الهوى ويجبره على الانقياد للرشد به شاء أو أبى أفأنت تملك أن تزجره عن الغي وترشده إلى الحق طوعا أو كرها؟! فكأن الاستفهام يراد به الاستبعاد والإنكار، ثم أضرب عن الإنكار هذا وانتقل إلى إنكار حسبانه صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم ممن يسمع أو يعقل ينبئ عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة، واهتمامه بالإرشاد والتذكير، على معنى أنه لا ينبغي أن يقع، أي!

بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما نتلو عليهم من الآيات القرآنية، أو يعقلون ما أظهر لهم من الآيات الأفاقية والأنفسية فتعتني في شأنهم، وتطمع في إيمانهم؟. . وتخصيص الأكثر لأن منهم من سبقت له العناية الأزلية بالإيمان بعد الاتخاذ المذكور. . وقوله تعالى {إن هم إلا كالأنعام}. . لتكرير النكير وتأكيده، وحسم مادة الحسبان بالمرة، والضمير [للأكثر] {من} في الآية السابقة- واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات،! وانتفاء التدبر بما يشاهدونه من الدلائل البينات إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة: وعلم في الضلالة {بل هم أضل} منها {سبيلا} لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها. . وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى معاطنها ومرابضها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم. . ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك. . . . ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد، وصد الناس عن سنن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد- ١٢٩.

٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا)

{مد} بسط.

{الظل} ما نسخته الشمس، أو كل ما لم تطلع عليه الشمس، وفي أكثر من اثنتى عشرة آية في القرآن الكريم ذكر الظل وما تصرف منه حيث لا شمس تطلع.

{ساكنا} ثابتا على حاله.

{جعلنا الشمس عليه دليلا} جعلنا طلوع الشمس دليلا على أن الظل كيفية موجودة

{ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ٤٥ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ٤٦}

ألم تنظر إلى بعض آثار قدرة ربك كيف بسط الظل فطابت به النفوس، وانشرحت به الصدور، ثم يتبعه الشمس فنعرف عند طلوعها ووقوع شعاعها على الأجسام أن الظل كان شيئا زائدا على الأجسام وألوانها، ثم أزلناه بعد ما بسطناه شيئا فشيئا، ومحوناه على مهل قليلا قليلا، أو: ألم تر ذلك ببصرك؟ فتزداد يقينا باقتدار وحكمة ربك؟! والخطاب لكل من هو أهل للرؤية العلمية والبصرية، أكثر من عشرة من أئمة التفسير بالمأثور من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم قالوا: الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

[ثم جعلنا الشمس عليه دليلا] عطف على {مد} داخل في حكمه،أي: ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره للحس، فإن الناظر إلى الجسم الملون حال قيام الظل عليه لا يظهر له شيء سوى الجسم ولونه، ثم إذا طلعت الشمس ووقع لونها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه. . .،و {ثم} إما للتراخي الرتبي. . . وإما للتراخي الزماني كما هو حقيقة معناها، بناء على طول الزمان بين ابتداء الفجر وطلوع الشمس، وقوله سبحانه: {ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا} عطف على {مد} داخل في حكمه أيضا. . فزوال الظل بعد عمومه تدريجي. .، وكأن التعبير عن تلك الإزالة بالقبض وهو: جمع الأجزاء المنبسطة، لما أنه قد عبر عن الإحداث بالمد] ١٣٠

مما يقول ابن كثير: من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة. . . وقوله تعالى: {ثم جعلنا الشمس عليه دليلا} أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده،. . {ثم قبضناه إلينا قبضا} أي الظل، وقيل: الشمس، {يسيرا} أي سهلا. . وقال السدي: قبضا خفيا حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت

سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. اهـ.
مما نقل صاحب غرائب القرآن: ثم ذكر طرفا من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام، فأولها الاستدلال من أحوال الظل. . . وذلك أن الظل متغير، ولكل متغير موجد وصانع. . . . الظل أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، كالكيفيات الحاصلة داخل السقوف الكاملة وأفنية الجدران، وهو أعدل الأحوال،لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصري، ويؤذي بالتسخين، وكذلك وصف الجنة به في قوله: {وظل ممدود}. اهـ.
- فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها- ١٣١ وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر ١٣٢ اهـ.
٤٦ - (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)
{قبضناه} أنزلناه.
{إلينا} مد الظل وقبضه موكول إلينا دون سوانا.
{يسيرا} هينا متدرجا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٧ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)
{لباسا} يستر الأشياء بظلامه ويستركم كما يستر اللباس ويغطي لابسه.
{سباتا} عميقا، أو راحة، أو سكونا، أو انقطاعا عن الحركة.
{نشورا} تنتشر فيه الخلائق للسعي في أداء ما طلب منها.
{وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ٤٧}
برهان ثان على بديع صنع الله تعالى ومزيد فضله على الخلق، بعد البرهان السابق الذي أحسن فيه الخلاق العليم إلينا بمد الظل ثم قبضه، فمن رحمته- تبارك اسمه- أن جعل الليل لراحتنا ونومنا، كما امتن بذلك سبحانه بقوله:) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله (١٣٣ وقوله جل ثناؤه:) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. . (١٣٤ يقول الألوسي: وكأنه جعل الليل لباسا، والنوم فيه سباتا بمجموعه مقابل جعل النهار نشورا، ولهذا كرر {جعل} فيه لما في النشور من معنى الظهور والحركة الناصبة. . اهـ.
٤٨ - (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)
{وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ٤٨ لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ٤٩}
علامة ثالثة على بالغ إتقان الحكيم سبحانه وسابغ إنعامه، فهو-دون سواه- يسخر الرياح ويسيرها كما يشاء، فتحمل السحاب المحمل بالغيث والمطر، ثم يعقبها أن ينشر الله تعالى ما به تستنقذ الخلائق وتصان حياتها، بالماء الذي ينزله الله من جهة السماء رزقا مباركا، فيكون مطهرة للحس والنفس، يحيي به ربنا موات الأرض، وما قضى من جنباتها وأرجائها، وصدق الله العظيم:). . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت. . (١٣٥). . وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب. . . (١٣٦). . وأنبتت من كل زوج بهيج (١٣٧، فم ما يتحقق لنا بسبب المطر من متع مادية ومعنوية فإن فيه حياة الهامد الجامد، والنبات المبهج النافع، {ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا} وفيه السقيا للحيوان والإنسان، مما قال ابن عطية: الريح متى وردت في القرآن مفردة فهي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعة. . اه.
يقول الألوسي: وما ذكر في التفرقة بين المفرد والمجموع أكثري. . اه أقول: امتن القرآن الكريم على المؤمنين بأن الله بعث طائفة من جنده، وريحا جعلها الله تعالى سببا لنصرهم وهزيمة عدوهم، جاء في سورة الأحزاب:) يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ

جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها. . (١٣٨، - {بشرا}. . أي أرسل الرياح مبشرات. . {بين يدي رحمته} أي قدام المطر. . . .

٤٩ - (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا)

{ونسقيه} أي ذلك الماء الطهور وعند جريانه في الأودية، أو اجتماعه في الحياض والمناقع والآبار {مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا} أي أهل البوادي الذين يعيشون بالحياء-المطر-ولذلك نكر الأنعام والأناسي، فالتنكير للتنويع، وتخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمنابع، فبهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقي السماء. . . ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة، كذلك هو لتعداد أنواع النعمة، فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض، فإنه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات. . {وأناسي} جمع إنسان عند سيبويه. . - ١٣٩ مما أورد الطبري: وقال: {بلدة ميتا} ولم يقل ميتة لأنه أريد بذلك: لنحيي به موضعا ومكانا ميتا. اه.

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)

{ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ٥٠}

واستيقنوا وتحققوا أنا صرفنا المطر الطهور المبارك بين العباد). . فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء. . (١٤٠). . فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين (١٤١) وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته. . . (١٤٢ فقليل من يشكر وأكثر الناس يجحد ويكفر، قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر ها هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وأن نظيره: فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر ١٤٣. اه.

أقول: والزعم أن الأسباب تؤثر بذواتها دون جاعلها ومسببها-تبارك وتعالى- إنما هو من اتخاذ الأنداد، بل بجحود بالله الفعال لما أراد.

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى لنا- أي صلى إماما لنا- رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء- في أعقاب مطر، ويسمى سماء لنزوله من جهتها- كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: " هل تدرون ماذا قال ربكم "؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء ١٤٤ كذا وكذا فذلك كافر مؤمن بالكوكب "، صحيح أن الله سبحانه جعل نزول المطر مترتبا- في أكثر الأحيان- على تقلبات فلكية. وتأثيرات كوكبية، لكن خلقه ونزوله بقدرة الله تعالى ومشيئته، والأنواء وتأثيرها في حصول الأمطار لا يعدو أن يكون سببا يعمله الله جل جلاله متى شاء، ويبطل عمله حيث يشاء، والله الفعال لما يريد قادر على إنشاء الأشياء بلا أسباب بل وبلا مواد، كما أنشأ النفوس والأسباب والمواد.

وأعاد بعضهم الضمير في قوله تعالى {صرفناه} على القرآن الكريم، فيكون المعنى عندهم: ولقد بينا آيات القرآن بينهم ليتدبروا ويعتبروا ويزدجروا بما فيها من هدى ورشد ووعد ووعيد فامتنعوا، ولم يكن منهم إلا الإعراض والكفران، والتكذيب والنكران.

٥١ - (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

{ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ٥١}

ولو أردنا إرسال نبي في كل حاضرة لفعلنا وما أعجزنا ذلك- لكن لم نشأ ذلك وقصرنا الأمر عليك إجلالا لك وتعظيما- ١٤٥) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا. . (١٤٦) وما أرسلناك إلا كافة للناس. . (١٤٧ {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}.

٥٢ - (فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

{فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ٥٢}

كأنما أراد المولى سبحانه-وهو أعلم بالمراد- تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على عدم مطاوعة الكافرين- وربما كان يكفر في مداهنتهم استدعاء لهم إلى الإسلام- وذهب إلى نحو ذلك النحاس، وقل لهم ما أمرتك بقوله:) لكم دينكم ولي دين (١٤٨ وجاهدهم

بالقرآن وسلطانه، وحجته وبرهانه جهادا صابرا لا فتور معه، [فإن دعوة كل العالمين على وجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره. . . بعثناك نذيرا لجميع القرى، وفضلناك وعظمناك ولم نبعث في كل قرية نذيرا، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق. . . لما ذكر ما يدل على حرصه صلى الله عليه وسلم على طلب هداهم وتمارضهم في ذلك في قوله سبحانه: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا} وذنب ١٤٩ بدلائل القدرة والنعمة والرحمة دلالة على أنهم لا ينفع فيهم الاحتشاد، وأنهم يغمطون مثل هذه النعم، ويغفلون عن عظمة موجدها- سبحانه- وجعلوا كالأنعام وأضل، وختم بأنه ليس لهم مراد إلا كفور نعمته قيل: {ولو شئنا} على معنى: أنا عظمناك بهذا الأمر لتستقل بأعبائه، وتحوز ما دخر لك من جنس جزائه، فعليك بالمجاهدة والمصابرة، ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإباء والمشاجرة، وبولغ فيه فجعل حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان هؤلاء المطبوع على قلوبهم طاعة لهم. وقيل: فلا تطعهم. . . ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة، وأوفر حظا المجاهدون بالقرآن منهم]. ١٥٠

٥٣ - (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

{وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ٥٣}

{مرج} أرسل وخلى، وخلط.

{فرات} شديد العذوبة، من [فرت] وأصله [رفت] إذا كسر، لأنه يكسر سورة العطش ويقمع حدة الظمأ، ويطفئها.

{أجاج} شديد الملوحة،، لأنه يؤجج العطش، أو من أجيج النار.

{برزخا} حاجزا من قدرته تعالى.

{وحجرا محجورا} وحائلا منعيا، وتنافرا مفرطا، يمنع تمازجهما وإن اختلطا واتصلا.

والله دون سواه هو الذي أجرى عذب البحار وملحها، ومع تلاقيهما يبقى النهر طيب المذاق، سائغا للشاربين، يحيا به النبات والحيوان والإنسان، بل والأرض الهامدة الجامدة، ويبقى الملح أجاجا زعاقا، ومع أنهما ماءان يتصلان ويختلطان، إلا أن سلطان الله وهيمنته وحكمته لا تدعهما يمزجان أبدا، فلا يغلب هذا على عذوبة ذاك ١٥١، ولا يغلب ذاك على ملوحة هذا، فسبحان من أنشأ وقدر، وهدى وسخر.

٥٤ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)

{الماء} الذي يكون سبب النسل.

{نسبا وصهرا} يكون ولدا نسيبا في ابتداء أمره، ثم يتزوج فيصير صهرا.

{وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ٥٤ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا ٥٥}

كانت خامسة علامات اقتدار الله تعالى ودليل حكمته وواسع رحمته وعظيم منته التي بينها في آيات متتابعات من هذه السورة الكريمة أن أجرى الأنهار والبحار، وحفظ على كل منهما ما اختصه به رزقا للعباد ونفعا، وبلاغا وبرهانا، ثم ذكرنا بديع صنعه في أن جعل تناسل البشر من ماء ضعيف قليل، فسواه وعدله، وأحسن صورته، وكمل خلقته، وجعل الزوجين الذكر والأنثى، فكان نسيبا ثم مصاهرا، كل ذلك من ماء مهين،). . فتبارك الله أحسن الخالقين (١٥٢ وربنا كان ولا يزال بالغ القدرة، لا يقف أمام قدرته كائن، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم الذين عميت بصائرهم بربهم يشركون، يشركون مالا يخلق ولا يرزق، ولا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا عن نفسه أو عابديه السفاء يدفع، وهم-بشركهم – لربهم محادون، وللشيطان موالون، فهم بالباطل يؤمنون، وبنعمة الله وحقه يكفرون، قال مجاهد: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه، وقال سعيد بن جبير، {ظهير} عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. اهـ. وقال الألوسي: {وكان ربك قديرا} مبالغا في القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين. اهـ.

٥٥ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا)

{على ربه ظهيرا} عونا على معصية ربه، عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٤ إظهار
٥٦ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)
{مبشرا} تعد المؤمنين المهتدين بكريم الثواب العاجل والآجل.
{نذيرا} تنذر وتحذر المكذبين الضالين سوء المصير في أولاهم وعقباهم.
{وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ٥٦ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ٥٧ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ٥٨}
بدأت الآيات الكريمة بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره بأنه لن يسأل عن ذنوب المجرمين. فإنه لم يبعث وكيلا ولا مسيطرا عليهم، إنما بعث داعيا إلى الله تعالى بإذنه وسراجا منيرا، وحاملا الخبر السار والوعد الحق- لمن آمن واتقى- بالحياة الطيبة والنعيم الأوفى، ومحذرا المكذبين والضالين سوء العاقبة في الأولى والأخرى، وذكر المنذرين بأنك لا تطالبهم بأجر لقاء ما تدعوهم، حتى لا يثقل عليهم ما تطالبهم به، كالذي بكتهم به القرآن في الآية الكريمة:) أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (١٥٣، لكن من شاء أن يسلك طريق رضوان ربه فأنفق ماله في سبيل الله فهو في تجارة لن تبور- ويجوز أن يكون متصلا ويقدر حذف مضاف، التقدير: إلا أجر {من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا} باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة- ١٥٤، واتخذ الحي القيوم الذي لا ينام ولا يموت اتخذه وكيلا، واعتمد عليه في كل الأمور، وما الأسباب إلا وسائط أمر بها من غير اتكال عليها، ونزه مولاك وقدسه، وبرئه من العيب والنقص والسوء، واحمده على نعمته السابغة التي لا تحصى، واقرن بين التسبيح والشكر، وداوم على الثناء والحمد، وبحسبك أن مولاك يعلم كيد المجرمين، وفسوق المفسدين فيجازيهم به، - {وتوكل على الحي الذي لا يموت} في الإغناء عن أجورهم والاستكفاء عن شرورهم- ١٥٥.
٥٧ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)
{ما أسألكم عليه من أجر} لا أطالبكم على ما جئتكم به من القرآن والوحي أجرا ولا عوضا ولا مقابلا.
{سبيلا} طريقا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٦ إظهار
٥٨ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)
{سبح بحمده} نزه ربك عن النقص، وقدسه عن السوء والشرك، شاكرا حامدا له على نعمه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٦ إظهار
٥٩ - (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)
{استوى} علا.
{العرش} أعظم مخلوقات الله تعالى.
{الرحمن} مفيض الرحمة على أبلغ وجه وأشمله.
{خبيرا} عالما بما كان وما يكون، علما على الحقيقة.
{الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ٥٩ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ٦٠}
سابعة علامات الإقتدار للواحد القهار في سياق هذه الآيات الكريمة أنه خالق الكون والمهيمن عليه، فهو الذي أبدع وأنشأ السماوات والأرض وأوجدهماوفطرهما على غير نظام سبق، فخلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها وأرزاق عمارها، وأسباب معايشهم في يومين تاليين، وفي ذلك يقول المولى تقدست أسماؤه:) قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها

وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين. . (١٥٦ فتلك ستة أيام- أي نقدرها بستة أيام، أو فيما مدته وتقديره ستة أيام- أربعة أيام لخلق الأرض وتقدير أقواتها، ويومان لخلق السماء، ثم علا على العرش الكريم-سبحانه- ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة- وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته ١٥٧، إنه مفيض الرحمة والإحسان والرزق والرفق على أبلغ وجه وأشمله، حتى ليشمل سبحانه برحمته في الدنيا من كفر به وعاداه وعصاه وحاده، والرحمن بناء من أبنية المبالغة، وهو مقصور على الله عز وجل، واسم ممتنع لا يسمى غير الله به ولا يوصف، فاسأل إن شئت تحقيق ما ذكر وتفصيله معتنيا به خبيرا عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها، وهو الله عز وجل يطلعك على جلية الأمر ١٥٨ فالضمير في {به} راجع إلى ما ذكر إجمالا من الخلق والاستواء، وإذا بلغهم النبي صلى الله عليه وسلم ما أمروا به وقال لهم اسجدوا لربكم الذي وسع كل شيء رحمة، وهو خالقكم ورازقكم الذي لا رفق ولا إحسان يبلغ رفقه وإحسانه إذ هو وحده {الرحمن} ردوا- توقحا وتجاهلا، وتساءلوا عن المسمى بهذا الإسم {وما الرحمن} كما قال فرعون لموسى ما بينه كتاب الله:) وما رب العالمين (١٥٩، ثم استنكروا ما دعاهم إليه رسول الله من السجود للملك الديان خالق الأكوان، الرحيم الرحمن، ونفوا أن يستجيبوا له قائلين: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه- فما موصولة، والعائد محذوف، اشتملت عليه الجملة التي سبقت وأشرنا إليها. . {وزادهم} الأمر بالسجود للرحمن- والإسناد مجازي والجملة معطوفة على {قالو} أي قالوا ذلك {وزادهم نفورا} عن الإيمان- ١٦٠ وتفرقا عن دعوته، وشرودا وذهابا وفرارا، كان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعا ما زاد أعداك نفورا، ونقل ابن كثير: وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في {الفرقان} مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها. . والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

{نفورا} تفرقا وجزعا، وشرودا من الحق، وفرارا وذهابا.

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)

{تبارك} علا على كل شيء، وتنزه وتقدس، لا يوصف بها غير الله.

{بروجا} كواكب، أو نجوما، أو منازل فلكية.

{سراجا} مصباحا زاهرا، والشمس سراج النهار.

{تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل سراجا وقمرا منيرا ٦١ وهو الذي جعل اليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ٦٢}

تعالى الذي خلق الكواكب والنجوم العظام، وسخر كلا في فلكه، وخلق النيرين الشمس والقمر وأجرى كلا منهما على سننه ونسقه،) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (١٦١ وقيل: {تبارك} بمعنى: دام وثبت إنعامه، ومن رحمته وحكمته أن جعل الليل والنهار يتعاقبان، يجيء هذا حين يذهب ذاك، هذا مضيء وذلك مظلم، فمن شاء أن يتقرب إلى الله تعالى في جنح الظلام والناس نيام، فما أسعده، فإن التهجد والاستغفار بالأسحار مما يكفر الخطايا ويرفع الدرجات ويتوصل به إلى مرضاة العزيز الغفار، وبهذا وصف الله المحسنين:) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون (١٦٢، والسعي إلى ذكر الله والصلاة والجهاد، وإيثار ذلك على البيع والتجارة سبيل الفوز بعظيم الأجر ومزيد الفضل:). . يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله. . (١٦٣). . هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات

عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب. . (١٦٤، أورد صاحب [الجامع لأحكام القرآن. .]: وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه: من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل، وفي الصحيح: " ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فيغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة "، وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل ".

٦٢ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

{خلفة} كل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه، أو ذوي اختلاف.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦١ إظهار

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)

{وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالو سلاما ٦٣}

والذين يقبلهم الرحمن- تبارك اسمه- عبادا له هم الذين طابت هيئتهم وسيرتهم ومقالتهم، فيتواضعون في مشيتهم لا يتبخترون ولا يسرعون، بل يقتصدون، وإذا أساء إليهم السفهاء لم يجاروهم في إساءتهم وسفههم، لكن قالوا: - تسلما منكم ومتاركة، لا خير بيننا وبينكم ولا شر- أو قالوا سدادا وكلاما صوابا، ويشير إلى هذا معنى الآية الكريمة:) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (١٦٥.

٦٤ - (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)

{والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ٦٤}

وأهل العبودية الصادقة لربنا الرحمن يقضون معظم ليلهم يصلون، ويتلون آيات الله آناء الليل قياما، ويعبدون ربهم ركعا سجدا) تتجافى جنوبهم عن المضاجع. . (١٦٦ وشهد الله تعالى وكفى به شهيدا أن نبينا صلى الله عليه وسلم وصفوة الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم كانوا يصلون بالليل أوقاتا طويلة:) إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. . (١٦٧) أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. . (١٦٨.

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

{غراما} لازما دائما غير مفارق. أو شديدا.

والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ٦٥ إنها ساءت مستقرا ومقاما ٦٦}.

والعباد الصادقون مع إحسانهم في تعاملهم مع الخلق ومع الخالق العظيم جل ثناؤه يدعون باريهم ووليهم أن يصرف عنهم عذاب النار ويتضرعون إليه خوفا من عقابه وطمعا في رضاه وثوابه، ويعوذون به سبحانه من السعير، فإنها بئست المأوى وما أتعس وأخزى من بها يستقر وإلى دركاتها يصير، فقنا يا ربنا عذاب النار.

٦٦ - (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

{غراما} لازما دائما غير مفارق. أو شديدا.

والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ٦٥ إنها ساءت مستقرا ومقاما ٦٦}.

والعباد الصادقون مع إحسانهم في تعاملهم مع الخلق ومع الخالق العظيم جل ثناؤه يدعون باريهم ووليهم أن يصرف عنهم عذاب النار ويتضرعون إليه خوفا من عقابه وطمعا في رضاه وثوابه، ويعوذون به سبحانه من السعير، فإنها بئست المأوى وما أتعس وأخزى من بها يستقر وإلى دركاتها يصير، فقنا يا ربنا عذاب النار.

٦٧ - (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)

{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ٦٧}.
وربنا المعبود يرضى عن المعتدلين في حالهم مع أموالهم، فلا هم يبسطون أيديهم فوق المألوف حتى يصيروا مبذرين، ولا يقبضون أكفهم فيشحون ويبخلون ويمنعون، ولقد حذر القرآن الكريم من الشططين كليهما، وذلك قوله:) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (١٦٩، إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وهو أجود الناس، وأجود بالخير من الريح المرسلة، أثر عنه صلوات الله عليه وسلامه أنه كان يوصي بالنفقة المتوازنة، وتناول الأقوات بحساب، وفيما روى عنه: " كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه ".
قال النحاس:. . . من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام، وقال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر، وقال عون بن عبد الله: الإسراف أن تنفق مال غيرك، قال ابن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا، وألا يضيق أيضا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح ١٧٠.
٦٨ - (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)
{والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٨ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٦٩ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ٧٠}.
لكأن ما سبق من آيات في وصف عباد الرحمن كانت للتحلية، آداب يتحلون بها، وهذه الآيات الكريمات للتخلي عن خصال تناقض تلك، فالمؤمنون حقا هم الذين لا يزعمون أن مع الله آلهة أخرى ولا يجعلون له ندا ولا ضدا، وهم لا يزهقون روحا حرم الله إزهاقها إلا بالحق من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان، أوفى قصاص. وهم لا يستحلون الفروج بغير نكاح أو ملك يمين، ومن يقترف كبيرة من تلك الكبائر يجز بها، ويؤاخذ بإثمها ووزرها، فيعذب عذابا مضاعفا يوم القيامة ويبق ذليلا في النكال حسيرا، إلا من أقلع من هؤلاء عن ذنبه، ورجع إلى منهاج ربه، وصدق بكلماته ورسله وكتبه، واستكثر من الطاعات، والأفعال الصالحات، والبر والقربات، فأولئك يتفضل المولى البر الرحيم عليهم فيضع لهم مكان كل سيئة حسنة.
مما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة. . ".
وربنا كان وما يزال واسع الغفر والستر، والصفح والعفو:). . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (١٧١). . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما (١٧٢.
روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت يارسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تزاني حليلة جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما}.
وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما ١٧٣ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه، أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون

مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ونزل:) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. . (١٧٤.

٦٩ - (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٨ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٦٩ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ٧٠}.

لكأن ما سبق من آيات في وصف عباد الرحمن كانت للتحلية، آداب يتحلون بها، وهذه الآيات الكريمات للتخلي عن خصال تناقض تلك، فالمؤمنون حقا هم الذين لا يزعمون أن مع الله آلهة أخرى ولا يجعلون له ندا ولا ضدا، وهم لا يزهقون روحا حرم الله إزهاقها إلا بالحق من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان، أوفى قصاص. وهم لا يستحلون الفروج بغير نكاح أو ملك يمين، ومن يقترف كبيرة من تلك الكبائر يجز بها، ويؤاخذ بإثمها ووزرها، فيعذب عذابا مضاعفا يوم القيامة ويبق ذليلا في النكال حسيرا، إلا من أقلع من هؤلاء عن ذنبه، ورجع إلى منهاج ربه، وصدق بكلماته ورسله وكتبه، واستكثر من الطاعات، والأفعال الصالحات، والبر والقربات، فأولئك يتفضل المولى البر الرحيم عليهم فيضع لهم مكان كل سيئة حسنة.

مما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة. . ".

وربنا كان وما يزال واسع الغفر والستر، والصفح والعفو:). . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (١٧٥). . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما (١٧٦.

روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت يارسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تزاني حليلة جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما}.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما ١٧٧ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه، أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ونزل:) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. . (١٧٨.

٧٠ - (إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٨ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٦٩ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ٧٠}.

لكأن ما سبق من آيات في وصف عباد الرحمن كانت للتحلية، آداب يتحلون بها، وهذه الآيات الكريمات للتخلي عن خصال تناقض تلك، فالمؤمنون حقا هم الذين لا يزعمون أن مع الله آلهة أخرى ولا يجعلون له ندا ولا ضدا، وهم لا يزهقون روحا حرم الله إزهاقها

إلا بالحق من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان، أوفى قصاص. وهم لا يستحلون الفروج بغير نكاح أو ملك يمين، ومن يقترف كبيرة من تلك الكبائر يجز بها، ويؤاخذ بإثمها ووزرها، فيعذب عذابا مضاعفا يوم القيامة ويبق ذليلا في النكال حسيرا، إلا من أقلع من هؤلاء عن ذنبه، ورجع إلى منهاج ربه، وصدق بكلماته ورسله وكتبه، واستكثر من الطاعات، والأفعال الصالحات، والبر والقربات، فأولئك يتفضل المولى البر الرحيم عليهم فيضع لهم مكان كل سيئة حسنة.

مما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة. . ".

وربنا كان وما يزال واسع الغفر والستر، والصفح والعفو:). . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (١٧٩). . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما (١٨٠.

روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت يارسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال: ثم أي؟ قال: " أن تزاني حليلة جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما}.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما ١٨١ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه، أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ونزل:) قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. . (١٨٢.

٧١ - (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا)

{ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ٧١ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ٧٢ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ٧٣}.

كأن الآية السبعين كانت في التوبة على الكافرين، وهذه في التوبة على العاصين من المسلمين، فمن أذنب ثم رجع عن ذنبه وأتبع السيئة الحسنة فإن الحسنات يذهبن بفضل الله السيآت، وهكذا بين القرآن في آية كريمة أخرى أن ربنا يتوب على من أقلع عن العصيان، وسلك سبيل الإحسان:) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينو فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم (١٨٣ والذين لا يحضرون الكذب والباطل، ولا يقولونه، ولا يشاهدونه، ولا يشهدون به، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا رأوا مجالس عصيان أعرضوا عنها منكرين، لا يرضون صنيعهم، ولا يجالسونهم، ومن باب أولى لا يماثلونهم، فهذا مرور الكرام، وعباد الرحمن إذا قرئ عليهم القرآن لم يتغافلوا عنه حتى يكونوا بمنزلة من صمت أذنه وعميت بصيرته) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها. . (١٨٤ ولقد جاء في الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . وإن شر الناس من يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوي بشيء منه ". قال الفراء: لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر "، ثلاثا! قلنا: بلى يا رسول الله قال: " الشرك بالله وعقوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقال: " ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور " فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

٧٢ - (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

{ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ٧١ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ٧٢ والذين إذا ذكروا بآيات

ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ٧٣}.
كأن الآية السبعين كانت في التوبة على الكافرين، وهذه في التوبة على العاصين من المسلمين، فمن أذنب ثم رجع عن ذنبه وأتبع السيئة الحسنة فإن الحسنات يذهبن بفضل الله السيآت، وهكذا بين القرآن في آية كريمة أخرى أن ربنا يتوب على من أقلع عن العصيان، وسلك سبيل الإحسان:) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينو فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم (١٨٥ والذين لا يحضرون الكذب والباطل، ولا يقولونه، ولا يشاهدونه، ولا يشهدون به، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا رأوا مجالس عصيان أعرضوا عنها منكرين، لا يرضون صنيعهم، ولا يجالسونهم، ومن باب أولى لا يماثلونهم، فهذا مرور الكرام، وعباد الرحمن إذا قرئ عليهم القرآن لم يتغافلوا عنه حتى يكونوا بمنزلة من صمت أذنه وعميت بصيرته) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها. . (١٨٦ ولقد جاء في الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . وإن شر الناس من يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوي بشيء منه ". قال الفراء: لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.
وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر "، ثلاثا! قلنا: بلى يا رسول الله قال: " الشرك بالله وعقوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقال: " ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور " فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.
٧٣ - (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]
{ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ٧١ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ٧٢ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ٧٣}.
كأن الآية السبعين كانت في التوبة على الكافرين، وهذه في التوبة على العاصين من المسلمين، فمن أذنب ثم رجع عن ذنبه وأتبع السيئة الحسنة فإن الحسنات يذهبن بفضل الله السيآت، وهكذا بين القرآن في آية كريمة أخرى أن ربنا يتوب على من أقلع عن العصيان، وسلك سبيل الإحسان:) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينو فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم (١٨٧ والذين لا يحضرون الكذب والباطل، ولا يقولونه، ولا يشاهدونه، ولا يشهدون به، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا رأوا مجالس عصيان أعرضوا عنها منكرين، لا يرضون صنيعهم، ولا يجالسونهم، ومن باب أولى لا يماثلونهم، فهذا مرور الكرام، وعباد الرحمن إذا قرئ عليهم القرآن لم يتغافلوا عنه حتى يكونوا بمنزلة من صمت أذنه وعميت بصيرته) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها. . (١٨٨ ولقد جاء في الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . وإن شر الناس من يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوي بشيء منه ". قال الفراء: لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.
وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر "، ثلاثا! قلنا: بلى يا رسول الله قال: " الشرك بالله وعقوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقال: " ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور " فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.
٧٤ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)
{هب لنا} أعطنا هبة، وتفضل علينا. .
{ذريتنا} أولادنا ونسلنا.
{قرة أعين} ما تقر به الأعين وتسكن فلا تمتد إلى ما عند الغير، أو يبرد دمعها سرورا.
{إمام} يتبع ويقتدى به.
{والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ٧٤ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ٧٥ خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ٧٦ قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ٧٧}.
الآية الرابعة والسبعون بينت الوصف الحادي عشر لعباد الرحمن، وقد وصفوا في الآيات السابقات، وأخبر عنهم من أول قوله تعالى: {وعباد الرحمن} بعشر صفات: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبراءة من الشرك والزنى والقتل،

والتوبة، وتجنب الباطل والزور والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، وهذه ضراعة إلى الله تعالى أن يهبنا الأزواج الصالحات، والأولاد الطائعين الصالحين، ليكونوا بركة علينا في الدنيا والدين، وتنشرح بهم صدورنا، وتهنأ أعيننا فلا تمتد إلى ما عند الآخرين- وقد يراد بقرة العين بردها وبرد دمعها وذلك لا يكون إلا عند السرور- واجعلنا ياربنا ممن يقتدى بهم في الدين، كما دعاك بهذا خليلك إبراهيم:). . قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي. . (١٨٩.

{أولئك} خبر {عباد الرحمن} - على ما ذهب إليه الزجاج- يجزيهم الله تعالى مبوأ صدق، ويسكنهم المساكن الطيبة في دار الخلد والكرامة، ويؤتيهم سبحانه ما وعدهم:) لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد (١٩٠). . إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون (١٩١) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين (١٩٢، جزاء لهم على صبرهم على طاعات الله تعالى وأداء أمانته، وصبرهم عن معاصي الله، وصبرهم على الوفاء بعهد ربهم والجهاد في سبيله وعلى السراء والضراء وحين البأس، ونتلقاهم الملائكة بالسلام، ويحيينا ربنا بالسلام) تحيتهم يوم يلقونه سلام. . (١٩٣، ويخلدون في هذا النعيم، ويمكثون أبدا في هذا التكريم، وأنعم بهذا الجوار وهذا القرار، قل يامحمد للناس جميعا: لولا ضراعتكم لربكم لم يبال بكم، ولم يعبأ بشأنكم، ولم يكن لكم عنده شأن ولا وزن، وما قدركم لو لم تدعوه؟! فقد كذبتم معاشر الجاحدين، فسوف يلازمكم جزاء المستكبرين المنكرين، ويحل بكم ما أعد لكم في هذه الدنيا وفي يوم الدين،- وقيل {ما يعبأ بكم} أي بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم {لولا دعاؤكم} معه الآلهة والشركاء. . . وقال الطبري: {لزاما} يعني عذابا دائما لازما، وهلاكا مضنيا يلحق بعضكم ببعض- ١٩٤.

[قوله: {من أزواجنا} {من} للبيان، وتسمى في علم البيان تجريدية، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين! ثم فسرت القرة بالأزواج والذرية. . . ويجوز أن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا. . . عن محمد بن كعب: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. . . وقيل: سألوا أن يلحق الله عز وجل بهم أولادهم وأزواجهم في الجنة ليتم لهم سرورهم، وتنكير {أعين}. . . لأجل تنكير القرة فإن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا تنكير المضاف إليه، أي: هب لنا منهم سرورا وفرحا. . وقال المفضل: في قرة العين ثلاثة أقوال: أحدها- برد دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، كما أن حره دليل الحزن والغم، الثاني- قرتها أن تكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن، الثالث- حصول الرضا وقوله: {إماما} في معنى الجمع. . . كما قال:) يخرجكم طفلا. . (١٩٥. . . . . . {بما صبروا}. . . أطلق إطلاقا ليشمل كل مصبور عليه. . . وقال الزجاج: {ما يعبأ بكم ربي} يريد أي وزن يكون لكم عنده؟. . . و {ما} استفهامية أو نافية، والدعاء إما مضاف إلى المفعول، أي لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة-). . لئلا يكون للناس على الله حجة (١٩٦ وإما إلى الفاعل، أي لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كقوله:) فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله. . (١٩٧ أو: لولا شكركم على إحسانه، كقوله:) ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم. . (١٩٨] ١٩٩

نقل ابن كثير عن الإمام أحمد- بسنده- عن ابن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم، مصدقين بما جاء نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء، في فترة جاهلية مما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان! فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه. اهـ

٧٥ - (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا)
{الغرفة} الجنة، أودرجة عالية في دار النعيم، أو القصر المشيد في الجنة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٤ إظهار
٧٦ - (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٤ إظهار
٧٧ - (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)
{ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم} ما وزنكم عند ربكم لولا أنكم تدعون إليه؟ أو مالكم عند الله من قدر لولا أنكم تدعونه!
{يكون لزاما} يكون التكذيب وجزاؤه ملازمين للمكذبين.
وهكذا علمتنا هذه السورة المباركة جوانب الإيمان، الإيمان بالله تعالى وبكتابه، وتنزيه ربنا المعبود عن الشريك، أو أن يكون له مولود، أو أن يماثله أو يضاده ٢٠٠ شيء في الوجود، كما رسخت التصديق بالرسول وبالحق الذي جاءه، وبالملائكة وبالوحي، وبالرسل وما وعدوه من تأييد ونصر، وختمت بما يرسخ اليقين في لقاء رب العالمين، وماذا على المتقين من أمانات للملك المتين، وللخلق أجمعين، وثواب الله تعالى لعباده المخلصين، وبينها وبين السورة الكريمة التي سبقتها تناسب، ففي تلك تمجيد الله تعالى). . نور السموات والأرض. . (٢٠١ وفي هذه بيان لكثير من بديع صنعه، وتنزيه له سبحانه عن كل سوء، وإفراد لصمديته بخلق الكون ورزق الكائنات، ولما ختمت سورة النور بتوقير الرسول ووجوب طاعته، ومدح المتابعين، وتحذير المخالفين، بينت هذه السورة المباركة مقام النبي الأمين، وأن الله تعالى اصطفاه مبعوثا لكافة العالمين.
فاللهم ثبتنا على الهدى واليقين، واقبلنا في جندك الغالبين، وحزبك المفلحين، والمجاهدين بالقرآن الحكيم، والفائزين وأهلنا بالدرجات العلا، والنعيم المقيم. آمين.
خاتمة تفسير [سورة الفرقان]
في السورة آيات مباركات يزيد بها الإيمان بجليل أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وتصرف البرهان على ضلال الذين أشركوا.
) الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن لهم شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ٢ واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ٣)) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ١٧ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ١٨ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا. . ١٩)) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ٤٣)) ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ٤٥ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ٤٦ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ٤٧ وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ٤٨ لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ٤٩)) وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ٥٣ وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ٥٤ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم. . ٥٥)) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ٥٨ الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ٥٩)) تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ٦١ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ٦٢ (، ثمان عشرة آية.
وفي تثبيت اليقين بالقرآن المبين: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ١)) وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ٤ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ٥ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ٦)) ولقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ٢٩

وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ٣٠)) وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ٣٢ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ٣٣، ثمان آيات.

وفي الإيمان بالمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

) وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ٧ أو يلقى إليه كنزا أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ٨) تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ١٠)) وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. . ٢٠)) وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين. . ٣١)) ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ٣٥ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ٣٦ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية، وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ٣٧ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ٣٨ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ٣٩ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء. . ٤٠)) وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ٤١ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها. . ٤٢)) وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ٥٦ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ٥٧ خمس عشرة آية.

وفي تثبيت اليقين بالملائكة:). . لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ٧)) وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا ٢١ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين. . ٢٢)

وفي أحوال الآخرة، وأهوالها، وثوابها تقرأ: (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ١١ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ١٢ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ١٣ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ١٤ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ١٥ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ١٦ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ١٧ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ١٨ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ١٩)) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ٢٣ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ٢٤ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ٢٥ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٧ يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ٢٨ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ٢٩)) الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ٣٤)) وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٦٣ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ٦٤ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ٦٥ إنها ساءت مستقرا ومقاما ٦٦ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ٦٧ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٨ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٦٩ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ٧٠ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ٧١ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ٧٢ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ٧٣ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ٧٤ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ٧٥ خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ٧٦) إحدى وثلاثون آية.

٢٦ سورة الشعراء:

سورة الشعراء:
سورة الشعراء مكية
وآياتها سبع وعشرون ومائتان
كلمها: ١٢٩٩ - حروفها: ٤٥٤٢

١ - (طسم)
{طسم ١ تلك آيات الكتاب المبين ٢}
{طسم} ١ ربما تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله). . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. . (٢ وقد تكون من المحكم الذي يمكن فهم معناه، فجائز أن تكون بدء أسماء، وفواتح سور، وجائز أن تكون للتحدي بمعنى أن القرآن الكريم مكونة كلماته من الطاء والسين والميم وهي من الحروف التي تنطقون بها، ومنها يتكون كلامكم، ومع أن الكتاب الكريم مكون من حروف كالتي تتكلمون بها فإنكم عجزتم وستظلون عاجزين عن الإتيان بمثله، أو بشيء من مثله، فاعلموا إذا أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الله العزيز الحكيم.
٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)
{تلك آيات الكتاب المبين} تلك الآيات التي نتلى عليكم آيات الكتاب الذي هو كتاب على الحقيقة، لا يشبهه كتاب ولا يدانيه، وهو المبين لكل حجة، الموضح لكل رشد وسبيل هداية- فتأويل الكلام على قول ابن عباس: والجميع إن هذه الآيات التي أنزلتها على محمد صلى الله عليه وسلم في هذه السورة لآيات الكتاب الذي أنزلته إليه من قبلها، الذي بين لمن تدبره بفهم، وفكر فيه بعقل، أنه من عند الله جل جلاله، لم يتخرصه محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يتقوله من عنده، بل أوحاه إليه ربه.
٣ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)
{باخع نفسك} قاتل نفسك حزنا على عدم إيمانهم.
{لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٣ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ٤ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ٥ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون ٦ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ٧ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ٨ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ٩}
يسلي الله تعالى نبيه الرءوف الرحيم وقد عز عليه ما يتعرض له المنكرون المكذبون من مقت ربهم وسخطه، وما ينتظرهم من بطشه وشديد عقابه، وهكذا كان الرسول الأمين المبعوث رحمة للعالمين يدعو الناس صادقا في حب الخير لهم، ينشرح صدره بإقبالهم على الهدى، حتى امتن الله تعالى عليه بأن طائفة من الذين سعدوا قد اتبعوا ما أوحى إليه من الحق والرشد، ففارقه الكثير من الغم الذي أثقل ظهره، فقال ربنا تبارك اسمه:) ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك (٣، وكلما تمادى القوم في إيذائه والإعراض عنه لم يضق بهم، ولم يسع في إهلاكهم، بل حزن على شقوتهم وضلالهم، ولكن المولى اللطيف الخبير يسري عنه ويقول:). . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. . (٤ ويقول سبحانه:) ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٥). . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. . (٦ لأني لا أريد أن يؤمنوا كرها، وإنما سر الابتلاء والاختبار أن نبين لهم الحق:). . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. . (٧، فمن أراد أن يدعو إلى البر والخير فليدع على هدى وبصيرة، فإنها سبيل خاتم النبيين، أن نتلطف في الدلالة على الهدى، ورد الناس عن الغواية والردى، ونحلم عليهم، ونحرص- ما استطعنا- على استنقاذهم من الظلمات إلى النور، نحب لهم ما نحب لأنفسنا من الرضا بالحق، والغيرة عليه، والصبر على من انحرف عنه حتى يفيء إلى أمر الله، وكأن المعنى لا تقتل نفسك لأنهم لم يؤمنوا، فلو شئنا لأنزلنا من السماء ما يقهرهم ويأطرهم على الدخول في ديننا أطرا، ولكنا آتيناك نورا للناس وموعظة لمن شاء منهم أن يوعظ أو يستقيم:) فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٨.
[فكأنه قيل:أشفق على نفسك أن تقتلها وجدا وحسرة على ما فاتك من إسلام قومك، وقال العسكري: هي في مثل هذا الموضع موضوعة موضع النبي، والمعنى: لا تبخع نفسك. .
{ألا يكونوا مؤمنين} تعليل للبخع. . . قدروا- خيفة- فقالوا: أن لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين. .

٤ - (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)
{آية} معجزة، وعلامة على قرب حلول بأسنا بمن كذب.
{فظلت} فاستمرت.
{خاضعين} خاضعة أعناقهم، مذللة منقادة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
{إن نشأ}. . استئناف لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه صلى الله عليه وسلم. . . أي إن نشأ إيمانهم {ننزل عليهم من السماء آية} ملجئة لهم إلى الإيمان، قاسرة عليه، كما نتق الجبل فوق بني إسرائيل. . {فظلت أعناقهم لها خاضعين} منقادين. .، وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد والأخفش: الأعناق: الجماعات، يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة، والمعنى: ظلت جماعتهم أي جملتهم] ٩ -
وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلت سادتهم وكبراؤهم للآية خاضعين. . . وقال أحب إلي. . أن يقال: إن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، فجعل الفعل أولا للأعناق، ثم جعلت خاضعين للرجال. . - ١٠ أو يكون ما ههنا على شاكلة ما جاء في الآية الكريمة:). . والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين (١١ فحين جاء بعد الكواكب والشمس والقمر ضمير العقلاء [هم] قيل:) ساجدين (، وهنا لما وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: {خاضعين}
٥ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
{وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين} وكلما جاء الناس من مولانا الرحيم بالمؤمنين في أولاهم وأخراهم، الرحمن مفيض الرحمة في الدنيا على من يحب ومن لا يحب- كلما أعطى الناس كتابا وأتاهم منه وحي جددوا هجر الوحي، وإنكار الكتب والتكذيب بالأنبياء:) كلما جاء أمة رسولها كذبوه. . (، فقد استخف قومك بالوحي ومن أنزل عليه، وقالوا). . إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون (١٢). . وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى. . (١٣) وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (١٤ فسيعلمون حين يرون العذاب جزاء تكذيبهم واستهزائهم:). . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (١٥
٦ - (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
{أنباء} أخبار وعواقب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)
{زوج} صنف.
{كريم} نفيس، حسن، فاضل، مرضي.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
{أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} أعموا ولم يروا آثار قدرة منزل هذا الكتاب وموحيه؟ ولو نظروا إلى بديع صنعنا لاستيقنوا بآياتنا، وصدقوا برسولنا، فبماء واحد نسقطه على ثرى واحد نخرج به زرعا ونباتا من صنوف شتى،). . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. . (١٦) وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم (١٧.
٨ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
{إن في ذلك لآية} في إحكام أمرنا، وإتقان صنعنا آية وعلامة على عظيم إحساننا، وبالغ فضلنا، يؤمن على مثلها كل ذي عقل.
٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار

{وما كان أكثرهم مؤمنين} ما آمن إلا قليل منهم، وأكثرهم كذب وأنكر، وجحد واستكبر). . ولا تجد أكثرهم شاكرين (١٨). . وقليل من عبادي الشكور (١٩.

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم} واثبتوا على يقينكم، وليرسخ التصديق في قلوبكم بأن مولاكم وناصركم على عدوكم هو {العزيز} الذي هيمن على كل شيء، وقهر كل مخلوق، {الرحيم} - أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله وينظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال أبو العالية. . . {العزيز} في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره، وعبد غيره،. . {الرحيم} بمن تاب إليه وأناب ٢٠ - و {كان} هنا صلة في قول سيبويه، تقديره: وما أكثرهم مؤنين.

١٠ - (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ١٠ قوم فرعون ألا يتقون ١١ قال رب إني أخاف أن يكذبون ١٢ ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ١٣ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ١٤ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ١٥ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ١٦ أن أرسل معنا بني إسرائيل ١٧}

واذكر إذ كلم ربك نبيه موسى أن اذهب إلى القوم الظالمين، المتجاوزين الحد مع الخالق جل علاه، فادعى فرعون الألوهية مع الله، وأطاعه قومه وأعانه أكابرهم الطغاة، وبغوا على العباد، واستضعفوا طائفة منهم، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

١١ - (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ)

{ألا يتقون} ألا يخافون الملك المهيمن، القدوس الجبار؟ ألا يحذرون عاقبة البغي والعتو وهي النكال في الآخرة والأولى؟ - والتقدير عند بعض: واذكر في نفسك وقت ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام، وماجرى له مع قومه من التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات، لتعلم أن تكذيب الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورة كسرت، ولا بأول صحيفة نشرت، فيهون عليك الحال، وتستريح نفسك مما أنت فيه من البلبال. . . {ألا يتقون} حال بتقدير القول، أي ائتهم قائلا لهم، {ألا يتقون}! - ٢١.

١٢ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

{قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطق لساني} قال موسى مناجيا مولاه- يارب إنهم قوم فيهم تكبر واستعلاء وغرور سيسارع بهم إلى رد ما أدعوهم إليه من الحذر والتوقي، فإذا كان منهم الجحود اشتد همي، وضاق صدري، وعيي لساني لاغتمام قلبي، أو لما تعلم يامولاي فيه من قيد وتلجلج وعلة، ولعلها التي تضرع إلى ربه ليبرئه منها فيما بينته آيات كريمات:) واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي (٢٢، {فأرسل إلى هارون} فأتمم نعمتك علي ونبئ أخي، وابعثه معي، حتى يشاركني حمل أمانات الرسالة، ويؤازرني على الوفاء بعهدها، وفصلت ذلك آيات مباركات:) وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني. . (٢٣ واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٢٤.

١٣ - (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطق لساني} قال موسى مناجيا مولاه- يارب إنهم قوم فيهم تكبر واستعلاء وغرور سيسارع بهم إلى رد ما أدعوهم إليه من الحذر والتوقي، فإذا كان منهم الجحود اشتد همي، وضاق صدري، وعيي لساني لاغتمام قلبي، أو لما تعلم يامولاي فيه من قيد وتلجلج وعلة، ولعلها التي تضرع إلى ربه ليبرئه منها فيما بينته آيات كريمات:) واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي (٢٥، {فأرسل إلى هارون} فأتمم نعمتك علي ونبئ أخي، وابعثه معي، حتى يشاركني حمل أمانات الرسالة، ويؤازرني على الوفاء بعهدها، وفصلت ذلك آيات مباركات:) وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني. . (٢٦ واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا

بصيرا. قال قد أوتيت سؤلك ياموسى (٢٧.
١٤ - (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)
{ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون} يتابع موسى عليه السلام ضراعته إلى مولانا البر الرحيم، فيقول: إن لهم علي تبعة ذنب القبطي الذي كنت وكزته يوم استغاث بي الإسرائيلي، فمات القبطي من أثر الوكزة، فإذا ذهب إلى قوم فرعون سيهبون لقتلي ثأرا لقتله: - وإنما سمى ذنبا بحسب زعمهم- مما جاء في روح المعاني: ومراده عليه السلام بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة، وانتشار أمرها، كما هو اللائق بمقام أولي العزم من الرسل عليهم السلام، فإنهم يتوقون لذلك، كما كان يفعل- صلى الله عليه وسلم- حتى نزل:). . والله يعصمك من الناس. . (٢٨، ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافي مقامهم. اه
[ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء] ٢٩.
١٥ - (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)
{قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون} طمأن الله الحق رسوليه موسى وهارون إلى أنه سبحانه يرعاهما، ويحفظهما ممن يمكر بهما، ويحوط وينجي رسله ومن يؤمن، وبهذا جاءت البشرى صريحة في آية مباركة:) قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (٣٠.
١٦ - (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل} اذهبا إلى القوم الطاغين، وادعواهم إلى الإذعان للذي خلق العوالم كلها، ودبرها وتولى أمرها، وملكها وهو أحق من تذعن لطاعته وتسلم له زمامها، وادعواه أن يفك إسار الإسرائيليين، ويتركهم أحرارا، مثلما أشار إليه قول العزيز الحكيم:). . . وجاءهم رسول كريم. أن أدوا إلي عباد الله. . (٣١.
هكذا جاءت الدعوة من رب العالمين لإنقاذ المستضعفين، وتحرير المستذلين، وتخليص البشر من قهر الجبارين، واستعلاء المتكبرين، بل كانت في أول ما دعا إليه الرسول الكريم الكليم، موسى عليه الصلوات والتسليم، وأول عهد الله إليه وإلى أخيه هارون: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل}) وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل (٣٢، فهل يشكر الإسرائيليون نعمة الله؟ وهل يقدس اليهود الوحي الرباني الذي جعل لهم ذكرا على تعاقب أعصار الحياة؟ وهل يزدجرون وقد ذاق أوائلهم والأواخر مرارة البغي والقهر-فيقلعون عن إشاعة السفك والفحش والشر وتوسيع مداه؟!.
ألم يأن للمستشرفين للحرية والحقوق الإنسانية، والداعين إليها، أن يدخلوا في دين الإسلام الذي يهدي من آمن به إلى سنن المرسلين، ويستحفظهم كرامة وحق البشر، ويؤاخي على الإيمان بين الناس، ويلزمهم المودة والتناصر، مهما اختلفت الشعوب والأجناس! [و {معكم} و {مستمعون} خبران لإن. . ولا يخفى ما في المعية من المجاز. . فالمراد معية النصر والمعونة. . فحاصل الآية إنا لكما ولعدوكما كالناصر والظهير لكما عليه إذا حضر واستمع. . وإنما وحد الرسول في قوله: {إنا رسول رب العالمين} لأنه أراد كل واحد، أو أراد الرسول بمعنى المصدر، أي ذو رسالة. .] ٣٣.
١٧ - (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]
{فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل} اذهبا إلى القوم الطاغين، وادعواهم إلى الإذعان للذي خلق العوالم كلها، ودبرها وتولى أمرها، وملكها وهو أحق من تذعن لطاعته وتسلم له زمامها، وادعواه أن يفك إسار الإسرائيليين، ويتركهم أحرارا، مثلما أشار إليه قول العزيز الحكيم:). . . وجاءهم رسول كريم. أن أدوا إلي عباد الله. . (٣٤.
هكذا جاءت الدعوة من رب العالمين لإنقاذ المستضعفين، وتحرير المستذلين، وتخليص البشر من قهر الجبارين، واستعلاء المتكبرين، بل

كانت في أول ما دعا إليه الرسول الكريم الكليم، موسى عليه الصلوات والتسليم، وأول عهد الله إليه وإلى أخيه هارون: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل{} وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل (٣٥، فهل يشكر الإسرائيليون نعمة الله؟ وهل يقدس اليهود الوحي الرباني الذي جعل لهم ذكرا على تعاقب أعصار الحياة؟ وهل يزدجرون وقد ذاق أوائلهم والأواخر مرارة البغي والقهر-فيقلعون عن إشاعة السفك والفحش والشر وتوسيع مداه؟!.

ألم يأن للمستشرفين للحرية والحقوق الإنسانية، والداعين إليها، أن يدخلوا في دين الإسلام الذي يهدي من آمن به إلى سنن المرسلين، ويستحفظهم كرامة وحق البشر، ويؤاخي على الإيمان بين الناس، ويلزمهم المودة والتناصر، مهما اختلفت الشعوب والأجناس! [و {معكم} و {مستمعون} خبران لإن. . ولا يخفى ما في المعية من المجاز. . فالمراد معية النصر والمعونة. . فحاصل الآية إنا لكما ولعدوكما كالناصر والظهير لكما عليه إذا حضر واستمع. . وإنما وحد الرسول في قوله: {إنا رسول رب العالمين} لأنه أراد كل واحد، أو أراد الرسول بمعنى المصدر، أي ذو رسالة. .] ٣٦.

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ١٩ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ٢٠ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ٢١ وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل ٢٢}.

كأن في الكلام حذفا تقديره: قلنا: فأتيا فرعون فقولا له إنا رسول رب العالمين، وقولا له أرسل معنا بني إسرائيل، وخل سبيلهم، واتركهم أحرارا، فذهبا إلى فرعون، ليبلغاه ما أمر الله تعالى به، فلما دخلا عليه قال: ألست موسى الذي ربيتك في بيتي ونشأت فيه من بدء طفولتك حتى صرت يافعا؟ ولم نقتلك كما قتلنا بقية أبناء الإسرائيليين؟! ألست قاتل القبطي؟! فكفرت بنعمة من عشت بينهم فقتلت أحدهم، وكفرت بنعمة من رباك صغيرا! قال فعلتها إذا وأنا من الحائرين، فتركت دياركم وبغيكم فأنعم علي ربي بالعلم بالحق، ونور العقل والقلب، ومن علي فشرفني بالرسالة، {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} أتتفضل علي بأنك ربيتني؟ إن الذي رباني أهلي، وما وصلت إلى دارك إلا فرارا من بغيك على الآخرين، وبطشك بالإسرائيليين، فهل استبعاد الأحرار مما يتفضل به- أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا؟! لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي. . قيل: وفيه تقدير استفهام أي: أو تلك نعمة؟

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ١٩ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ٢٠ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ٢١ وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل ٢٢}.

كأن في الكلام حذفا تقديره: قلنا: فأتيا فرعون فقولا له إنا رسول رب العالمين، وقولا له أرسل معنا بني إسرائيل، وخل سبيلهم، واتركهم أحرارا، فذهبا إلى فرعون، ليبلغاه ما أمر الله تعالى به، فلما دخلا عليه قال: ألست موسى الذي ربيتك في بيتي ونشأت فيه من بدء طفولتك حتى صرت يافعا؟ ولم نقتلك كما قتلنا بقية أبناء الإسرائيليين؟! ألست قاتل القبطي؟! فكفرت بنعمة من عشت بينهم فقتلت أحدهم، وكفرت بنعمة من رباك صغيرا! قال فعلتها إذا وأنا من الحائرين، فتركت دياركم وبغيكم فأنعم علي ربي بالعلم بالحق، ونور العقل والقلب، ومن علي فشرفني بالرسالة، {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} أتتفضل علي بأنك ربيتني؟ إن الذي رباني أهلي، وما وصلت إلى دارك إلا فرارا من بغيك على الآخرين، وبطشك بالإسرائيليين، فهل استبعاد الأحرار مما يتفضل به- أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا؟! لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي. . قيل: وفيه تقدير استفهام أي: أو تلك نعمة؟

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ١٩ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ٢٠ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ٢١ وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل ٢٢}. كأن في الكلام حذفا تقديره: قلنا: فأتيا فرعون فقولا له إنا رسول رب العالمين، وقولا له أرسل معنا بني إسرائيل، وخل سبيلهم، واتركهم أحرارا، فذهبا إلى فرعون، ليبلغاه ما أمر الله تعالى به، فلما دخلا عليه قال: ألست موسى الذي ربيتك في بيتي ونشأت فيه من بدء طفولتك حتى صرت يافعا؟ ولم نقتلك كما قتلنا بقية أبناء الإسرائيليين؟! ألست قاتل القبطي؟! فكفرت بنعمة من عشت بينهم فقتلت أحدهم، وكفرت بنعمة من رباك صغيرا! قال فعلتها إذا وأنا من الحائرين، فتركت دياركم وبغيكم فأنعم علي ربي بالعلم بالحق، ونور العقل والقلب، ومن علي فشرفني بالرسالة، {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} أتتفضل علي بأنك ربيتني؟ إن الذي رباني أهلي، وما وصلت إلى دارك إلا فرارا من بغيك على الآخرين، وبطشك بالإسرائيليين، فهل استبعاد الأحرار مما يتفضل به- أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا؟! لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي. . قيل: وفيه تقدير استفهام أي: أو تلك نعمة؟

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ١٩ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ٢٠ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ٢١ وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل ٢٢}. كأن في الكلام حذفا تقديره: قلنا: فأتيا فرعون فقولا له إنا رسول رب العالمين، وقولا له أرسل معنا بني إسرائيل، وخل سبيلهم، واتركهم أحرارا، فذهبا إلى فرعون، ليبلغاه ما أمر الله تعالى به، فلما دخلا عليه قال: ألست موسى الذي ربيتك في بيتي ونشأت فيه من بدء طفولتك حتى صرت يافعا؟ ولم نقتلك كما قتلنا بقية أبناء الإسرائيليين؟! ألست قاتل القبطي؟! فكفرت بنعمة من عشت بينهم فقتلت أحدهم، وكفرت بنعمة من رباك صغيرا! قال فعلتها إذا وأنا من الحائرين، فتركت دياركم وبغيكم فأنعم علي ربي بالعلم بالحق، ونور العقل والقلب، ومن علي فشرفني بالرسالة، {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} أتتفضل علي بأنك ربيتني؟ إن الذي رباني أهلي، وما وصلت إلى دارك إلا فرارا من بغيك على الآخرين، وبطشك بالإسرائيليين، فهل استبعاد الأحرار مما يتفضل به- أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا؟! لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي. . قيل: وفيه تقدير استفهام أي: أو تلك نعمة؟

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ١٩ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ٢٠ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ٢١ وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل ٢٢}. كأن في الكلام حذفا تقديره: قلنا: فأتيا فرعون فقولا له إنا رسول رب العالمين، وقولا له أرسل معنا بني إسرائيل، وخل سبيلهم، واتركهم أحرارا، فذهبا إلى فرعون، ليبلغاه ما أمر الله تعالى به، فلما دخلا عليه قال: ألست موسى الذي ربيتك في بيتي ونشأت فيه من بدء طفولتك حتى صرت يافعا؟ ولم نقتلك كما قتلنا بقية أبناء الإسرائيليين؟! ألست قاتل القبطي؟! فكفرت بنعمة من عشت بينهم فقتلت أحدهم، وكفرت بنعمة من رباك صغيرا! قال فعلتها إذا وأنا من الحائرين، فتركت دياركم وبغيكم فأنعم علي ربي بالعلم بالحق، ونور العقل والقلب، ومن علي فشرفني بالرسالة، {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} أتتفضل علي بأنك ربيتني؟ إن الذي رباني أهلي، وما وصلت إلى دارك إلا فرارا من بغيك على الآخرين، وبطشك بالإسرائيليين، فهل استبعاد الأحرار مما يتفضل به- أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا؟! لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي. . قيل: وفيه تقدير استفهام أي: أو تلك نعمة؟

٢٣ - (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

{قال فرعون وما رب العالمين ٢٣ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ٢٤ قال لمن حوله ألا تستمعون ٢٥ قال

ربكم ورب آبائكم الأولين ٢٦ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ٢٧ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ٢٨ قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ٢٩ قال أولو جئتك بشيء مبين ٣٠ قال فأت به إن كنت من الصادقين ٣١ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ٣٢ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ٣٣ قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم ٣٤ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ٣٥ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ٣٦ يأتوك بكل سحار عليم ٣٧ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ٣٨ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ٣٩ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ٤٠{

لما جادل فرعون في أمر الرسول موسى عليه السلام، ودمغ كليم الله فرية عدو الله، تحول فرعون عن التشكيك في أمر رسالته إلى محاولة التشكيك في شأن من أرسله، فقال: {وما رب العالمين} كأنه يستعلم عن حقيقته جل علاه، وفي آية أخرى كان سؤاله للنبيين الكريميين موسى وهارون:). . فمن ربكما ياموسى (؟ وفي كلتا الحالتين ٣٧ أجابه بذكر بعض صفات العلي الأعلى، فحين سأله:). . من ربكما. . (قال:). . ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٣٨، وهنا أجابه بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ومصلح ذلك كله ووليه، ومطاعه {إن كنتم مؤمنين} إن كنتم تستيقنون بشيء فاستيقنوا بالحق الذي ليس من بعده إلا الضلال، {قال لمن حوله ألا تستمعون} قال فرعون لجلسائه أسمعتم ما يقول؟! - يريد التعجيب منه والإزراء بقائله. . حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها. . . . وقد بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله- ٣٩

٢٤ - (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{قال فرعون وما رب العالمين ٢٣ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ٢٤ قال لمن حوله ألا تستمعون ٢٥ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ٢٦ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ٢٧ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ٢٨ قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ٢٩ قال أولو جئتك بشيء مبين ٣٠ قال فأت به إن كنت من الصادقين ٣١ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ٣٢ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ٣٣ قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم ٣٤ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ٣٥ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ٣٦ يأتوك بكل سحار عليم ٣٧ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ٣٨ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ٣٩ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ٤٠{

لما جادل فرعون في أمر الرسول موسى عليه السلام، ودمغ كليم الله فرية عدو الله، تحول فرعون عن التشكيك في أمر رسالته إلى محاولة التشكيك في شأن من أرسله، فقال: {وما رب العالمين} كأنه يستعلم عن حقيقته جل علاه، وفي آية أخرى كان سؤاله للنبيين الكريميين موسى وهارون:). . فمن ربكما ياموسى (؟ وفي كلتا الحالتين ٤٠ أجابه بذكر بعض صفات العلي الأعلى، فحين سأله:). . من ربكما. . (قال:). . ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٤١، وهنا أجابه بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ومصلح ذلك كله ووليه، ومطاعه {إن كنتم مؤمنين} إن كنتم تستيقنون بشيء فاستيقنوا بالحق الذي ليس من بعده إلا الضلال، {قال لمن حوله ألا تستمعون} قال فرعون لجلسائه أسمعتم ما يقول؟! - يريد التعجيب منه والإزراء بقائله. . حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها. . . . وقد بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله- ٤٢

٢٥ - (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{قال فرعون وما رب العالمين ٢٣ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ٢٤ قال لمن حوله ألا تستمعون ٢٥ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ٢٦ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ٢٧ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ٢٨ قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ٢٩ قال أولو جئتك بشيء مبين ٣٠ قال فأت به إن كنت من الصادقين ٣١

فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ٣٢ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ٣٣ قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم ٣٤ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ٣٥ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ٣٦ يأتوك بكل سحار عليم ٣٧ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ٣٨ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ٣٩ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ٤٠ {

لما جادل فرعون في أمر الرسول موسى عليه السلام، ودمغ كليم الله فرية عدو الله، تحول فرعون عن التشكيك في أمر رسالته إلى محاولة التشكيك في شأن من أرسله، فقال: {وما رب العالمين} كأنه يستعلم عن حقيقته جل علاه، وفي آية أخرى كان سؤاله للنبيين الكريميين موسى وهارون:). . فمن ربكما ياموسى (؟ وفي كلتا الحالتين ٤٣ أجابه بذكر بعض صفات العلي الأعلى، فحين سأله:). . من ربكما. . (قال:). . ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٤٤، وهنا أجابه بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ومصلح ذلك كله ووليه، ومطاعه {إن كنتم مؤمنين} إن كنتم تستيقنون بشيء فاستيقنوا بالحق الذي ليس من بعده إلا الضلال، {قال لمن حوله ألا تستمعون} قال فرعون لجلسائه أسمعتم ما يقول؟! - يريد التعجيب منه والإزراء بقائله. . حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها. . . . وقد بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله- ٤٥

٢٦ - (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)

{قال ربكم ورب آبائكم الأولين} قال موسى مذكرا بصفات المولى الكبير المتعال وجلاله وأنه هو خالقكم وخالق الجبلة الأقدمين [فجاء بدليل يفهمونه عنه، لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء، وأنهم قد فنوا، وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن] ٤٦، فرد فرعون منفرا عن القول ومن قاله، متهما موسى عليه السلام بالجنون، والقرآن الكريم يبين كيف كانت المحاجة بين موسى وفرعون فاصلة) ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبورا (٤٧

٢٧ - (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{قال ربكم ورب آبائكم الأولين} قال موسى مذكرا بصفات المولى الكبير المتعال وجلاله وأنه هو خالقكم وخالق الجبلة الأقدمين [فجاء بدليل يفهمونه عنه، لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء، وأنهم قد فنوا، وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن] ٤٨، فرد فرعون منفرا عن القول ومن قاله، متهما موسى عليه السلام بالجنون، والقرآن الكريم يبين كيف كانت المحاجة بين موسى وفرعون فاصلة) ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبورا (٤٩

٢٨ - (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

{قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون} الذي أرسلني وتسألونني عنه هو مسير الكواكب، ومسخر ما في السماوات والأرض، وملزم كل مخلوق سننه الذي أراد، وهو الذي أجرى الشمس في فلكها، تشرق من حيث أريد لها، وتغرب حيث أريد لها، وفيما بين هذا وذلك الكل مملوك لربي مطيع له، إن كنتم ممن تعملون عقولكم، وكأن فرعون أحس بأن حجته داحضة، وأن شدة حزم موسى، وقوة عزمه، ستبلغ به ما يريد من هداية الناس إلى الحق، وصرفهم عما يزعم فرعون من الزور والإفك، فقال ما بينه الكتاب العزيز:). . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٥٠.

٢٩ - (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

{قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين} انقطع به البرهان، فلجأ إلى التهديد بالبغي والعدوان، وتوعد موسى إن بقي على إيمانه ودعوته إلى إله غير فرعون أن يلقيه في غيابات السجن، فعاد موسى عليه السلام إلى القول اللين لعله يتذكر أو يخشى، وعرض

عليه أن يريه بعض العلامات الهاديات، والخوارق التي بمثلها تصدق النبوات، ومعجزات يجريها الله تعالى على يد من يبعثه إلى عباده عسى أن يؤمنوا

٣٠ - (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين} انقطع به البرهان، فلجأ إلى التهديد بالبغي والعدوان، وتوعد موسى إن بقي على إيمانه ودعوته إلى إله غير فرعون أن يلقيه في غيابات السجن، فعاد موسى عليه السلام إلى القول اللين لعله يتذكر أو يخشى، وعرض عليه أن يريه بعض العلامات الهاديات، والخوارق التي بمثلها تصدق النبوات، ومعجزات يجريها الله تعالى على يد من يبعثه إلى عباده عسى أن يؤمنوا

٣١ - (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{قال فأت به إن كنت من الصادقين} قال فرعون لموسى: فهات بالشيء المبين الذي تقول إنه يوضح صدق دعواك، يقول اللغويون: وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، والتقدير: إن كنت من الصادقين فأت به

٣٢ - (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

{فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} رمى الرسول الكريم موسى عليه الصلوات والتسليم عصاه فانقلبت ثعبانا ظاهرا متحركا، ليس من التخييل ولا من السحر، وإنما بفعل ربنا الذي لا يعجزه شيء، وأدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها، فإذا بياضها يجتمع عليه النظارة لنورانيته حتى روي - كان لها شعاع يكاد يسد الأفق- ٥١، عندها قال فرعون لجلسائه: إن هذا لمتمكن في السحر محيط بعلومه، وفي سورة طه حكى القرآن ما قاله وقومه في آيات كريمة:) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) ٥٢، وما قاله الملأ من قومه:) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٥٣

٣٣ - (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]

{فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} رمى الرسول الكريم موسى عليه الصلوات والتسليم عصاه فانقلبت ثعبانا ظاهرا متحركا، ليس من التخييل ولا من السحر، وإنما بفعل ربنا الذي لا يعجزه شيء، وأدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها، فإذا بياضها يجتمع عليه النظارة لنورانيته حتى روي - كان لها شعاع يكاد يسد الأفق- ٥٤، عندها قال فرعون لجلسائه: إن هذا لمتمكن في السحر محيط بعلومه، وفي سورة طه حكى القرآن ما قاله وقومه في آيات كريمة:) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) ٥٥، وما قاله الملأ من قومه:) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٥٦

٣٤ - (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]

{فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} رمى الرسول الكريم موسى عليه الصلوات والتسليم عصاه فانقلبت ثعبانا ظاهرا متحركا، ليس من التخييل ولا من السحر، وإنما بفعل ربنا الذي لا يعجزه شيء، وأدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها، فإذا بياضها يجتمع عليه النظارة لنورانيته حتى روي - كان لها شعاع يكاد يسد الأفق- ٥٧، عندها قال فرعون لجلسائه: إن هذا لمتمكن في السحر محيط بعلومه، وفي سورة طه حكى القرآن ما قاله وقومه في آيات كريمة:) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) ٥٨، وما قاله الملأ من قومه:) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٥٩

٣٥ - (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

{فماذا تأمرون} أي: فأي أمر تأمروني، أوأي مشورة تشيرون بها علي [وفي جعله عبيده بزعمه آمرين له مع ما كان يظهره لهم من دعوى الألوهية والربوبية ما يدل على أن سلطان المعجزة بهره وحيره. . . فزل عن ذكر دعوى الألوهية، وحط عن منكبيه كبرياء

الربوبية، وانحط عن ذروة الفرعنة إلى حضيض المسكنة، ولهذا أظهر استشعار الخوف من استيلائه عليه السلام على ملكه] ٦٠، قال جلساء فرعون -مشيرين عليه-: أخر أمر موسى وهارون، وابعث في مدائن ملكك شرطاء يجمعون لك السحرة

٣٦ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

{فماذا تأمرون} أي: فأي أمر تأمروني، أوأي مشورة تشيرون بها علي [وفي جعله عبيده بزعمه آمرين له مع ما كان يظهره لهم من دعوى الألوهية والربوبية ما يدل على أن سلطان المعجزة بهره وحيره. . . فزل عن ذكر دعوى الألوهية، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وانحط عن ذروة الفرعنة إلى حضيض المسكنة، ولهذا أظهر استشعار الخوف من استيلائه عليه السلام على ملكه] ٦١، قال جلساء فرعون -مشيرين عليه-: أخر أمر موسى وهارون، وابعث في مدائن ملكك شرطاء يجمعون لك السحرة

٣٧ - (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)

فإنك إن تبعثهم {يأتوك بكل سحار عليم} فأنفذ فرعون مشورتهم وأرسل في طلب السحرة، فجاءوا جميعا أو جاء منهم كل مبدع في السحر كثير العمل به، عليم بحيله وتخييله وتضليله

٣٨ - (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

{لميقات يوم معلوم} - لما وقت به. . . . . . وفي الكشاف: هو ما وقت به، أي حدد من زمان أو مكان، ومنه مواقيت الإحرام

٣٩ - (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

{وقيل للناس} استبطاء لهم في الاجتماع، وحثا على التبادر إليه: {هل أنتم مجتمعون} في ذلك الميقات، فالاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال. . .

٤٠ - (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

{لعلنا نتبع السحرة} أي دينهم {إن كانوا هم الغالبين} لا موسى عليه السلام، وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى عليه السلام في دينه، لكن ساقوا كلامهم مساق الكناية- ٦٢.

٤١ - (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ٤١ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ٤٢ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ٤٣ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ٤٤ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ٤٥ فألقي السحرة ساجدين ٤٦ قالوا آمنا برب العالمين ٤٧ رب موسى وهارون ٤٨}

و لم يبق السحرة على الحال التي كان عليها قوم فرعون في مطاوعته على ادعاء الألوهية، بل شارطوه، وساوموه، وأرادوا أن يأخذوا لأنفسهم ما تبتغي قبل أن ينفذ أمر هذا المفتون، فاستوثقوا من التزامه بدفع أجر كبير لهم مقابل مغالبتهم لما جاء به موسى

٤٢ - (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

{قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين} يعدهم ويمنيهم بأجر مادي، وآخر-معه- معنوي، فيه ما يعده المفتونون مفخرة: أن يكونوا أول من يدخل على الملك المتأله، وآخر من يخرج عنه، واليوم يوم زينة، والساعة ضحى، وكيد الكافرين مجتمع، وموسى عليه السلام يخوفهم عاقبة الكذب والافتراء:) قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (٦٣ وأئمة الضلال يتواصون بالإثم والعدوان، والتمادي في البهتان:) فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) قال السحرة لموسى: أتلقي أنت أم نلقي نحن أولا؟

٤٣ - (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

{قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} ٦٤.). فلما ألقوا سحروا أعين

الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (٦٥، وتنزلت البشرى على موسى زيادة في تثبيته، وتطمينا إلى أن الله تعالى لن يخذله، ولن يتركه إلى حوله، بل سيمده بحوله العظيم وقوته، ويعزه بعزته.). . إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٦٦، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك. . (٦٧

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} ٦٨.). . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (٦٩، وتنزلت البشرى على موسى زيادة في تثبيته، وتطمينا إلى أن الله تعالى لن يخذله، ولن يتركه إلى حوله، بل سيمده بحوله العظيم وقوته، ويعزه بعزته.). . إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٧٠، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك. . (٧١

٤٥ - (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

{تلقف} تبتلع بسرعة.

{يأفكون} يقلبون.

{فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون} ما إن ألقاها حتى ابتلعت بسرعة ما قلبوه من الحبال والعصى، فغدا بتمويه وتزوير وتخييل يحسبه الجاهل حيات تسعى

٤٦ - (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

{فألقي السحرة ساجدين} فسارع السحرة إلى السقوط على الأرض ساجدين مؤمنين بأن الذي بعث موسى أقدره على الحق الذي يزهق التخييل والباطل

٤٧ - (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

{قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون} غلب ملأ فرعون، وأخزى الله فرعون، وانقلب جميعهم أذلاء صاغرين، خزايا مهزومين، وشرح الله صدور الذين حشدهم فرعون ليجيئوا بالسحر، الذي يصد الناس عن الداعين إلى الخير، والحق والبر، وأذعنوا لله القوي المتين، وأعلنوا أنهم بالله الخالق الرازق مصدقين مستيقنين، ولرسالة موسى وهارون متبعين.

رب إن الهدى هداك وآ ... ياتك تهدي بها من تشاء

استيقنا أن للعالمين ربا، هو الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمد موسى وهارون بالحق الذي لا يخفى، وقد أفلح اليوم من استعلى.

٤٨ - (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون} غلب ملأ فرعون، وأخزى الله فرعون، وانقلب جميعهم أذلاء صاغرين، خزايا مهزومين، وشرح الله صدور الذين حشدهم فرعون ليجيئوا بالسحر، الذي يصد الناس عن الداعين إلى الخير، والحق والبر، وأذعنوا لله القوي المتين، وأعلنوا أنهم بالله الخالق الرازق مصدقين مستيقنين، ولرسالة موسى وهارون متبعين.

رب إن الهدى هداك وآ ... ياتك تهدي بها من تشاء

استيقنا أن للعالمين ربا، هو الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمد موسى وهارون بالحق الذي لا يخفى، وقد أفلح اليوم من استعلى.

٤٩ - (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

{قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين

٤٩ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ٥٠ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ٥١ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ٥٢ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ٥٣ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ٥٤ وإنهم لنا لغائظون ٥٥ وإنا لجميع حادرون ٥٦ فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٧ وكنوز ومقام كريم ٥٨ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ٥٩ فأتبعوهم مشرقين ٦٠}.

قال فرعون للسحرة وقد شرح الله صدورهم للرشد والإسلام: آمنتم للذي ساقه إليكم موسى، وخرجتم على طاعتي، ولم تنتظروا إذني مع أنكم عبيدي؟! إن موسى الذي صدقتموه واتبعتموه ليس إلا خبيرا بالسحر، علمكم كيف تنهزمون أمامه). . إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها. . (٧٢ تواطأتم وإياه على ما فعلتم-وأراد اللعين بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق- ٧٣ {فلسوف تعلمون} ما أفعل بكم، توعد السحرة بالنكال وقال: {. . ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى} ٧٤ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين} كان وعيدهم أن يمثل بهم، ولا يكتفي بإزهاق أرواحهم، فأتى في إنذاره بتوكيد أنه لا بد أن يقطع أوصالهم، ويبتر أطرافهم، ويقص يدا من ناحية ورجلا من الناحية المقابلة، وليتركنهم مصلبين على جذوع النخل ليموتوا صبرا، أو لتبقى أشلاؤهم عبرا، قال السحرة-غير مبالين بويله وثبوره-

٥٠ - (قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (٧٥، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ٧٦ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ٧٧ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٨ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليهه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {. . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (٧٩، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٥١ - (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (٨٠، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ٨١ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ٨٢ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٨٣ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليهه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم

أنه ربهم، فقالوا: {٠ . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (٨٤، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٥٢ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا) . . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (٨٥، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ٨٦ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ٨٧ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٨٨ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليهه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {٠ . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (٨٩، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٥٤ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

{لشرذمة} وهم مع هذا قلة لايؤبه بهم

٥٥ - (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

{وإنهم لنا لغائظون} فموسى وهارون يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) . . ويذهبا بطريقتكم المثلى (٩٠) . . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٩١.

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)

{وإنا لجميع حاذرون} أي أنا لجمع من عاداتنا الحذر والاحتراز واستعمال الحزم في الأمور، أشار أولا إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم، ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم- ٩٢، وشاء الخبير البصير الحكيم القدير أن يستخرج فرعون وهامان وجنودهما ليطهر الأرض من بطشهم وكيدهما، وأن يهلكوا بعيدا عن الكنوز والقصور، والحدائق والدور، لأنهم قد سبق في علم المولى سبحانه

أن يرث هذه النعمة من كانوا مستضعفين من قبل، وجمهور علماء القرآن على أن ميراث بني إسرائيل لهذه الأرض وما حوت من أموال على ظاهرها وفي باطنها كان بعد إغراق فرعون وقومه، لكن عبر عن المستقبل حينذاك بالماضي لأنه واقع لا محالة، ولتحقق وقوعه كأنه قد وقع وانقضى، وحين بدأ شروق الشمس كان جند الكفر يتحرك يتابع المسلمين، موسى وهارون ومن آمن بهما.

٥٧ - (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (٩٣، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ٩٤ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ٩٥ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٩٦ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {. . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (٩٧، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٥٨ - (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (٩٨، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ٩٩ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ١٠٠ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (١٠١ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {. . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (١٠٢، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر

ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٥٩ - (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (١٠٣، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ١٠٤ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ١٠٥ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (١٠٦ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليهه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {. . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (١٠٧، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس

٦٠ - (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لا ضير} لن يضرنا ما تفعل بنا، فإنا). . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. . (١٠٨، {إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع ١٠٩ أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول ١١٠ المؤمنين}، علم الله تعالى المؤمنين لتوهم حقائق الدنيا ويوم الدين، وعلموا أن إلى ربنا الرجعى، ولا يفلح إلا من تزكى، وصدق بالحسنى، آثروا ما يبقى على ما يفنى، (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (١١١ فلتسمع الدنيا هذا الرشد الذي يضيء جوانب القلب والعقل، واليسير من نوره يرد عن الضلالة والغي، طائفة عاشوا للباطل والتخييل، والتمويه والتضليل، وساوموا فرعون ليطفئوا نور الله بأفواههم، وصاحوا بتأليهه في بداية سحرهم، ومالئوا الطاغية الذي خدعهم وزعم أنه ربهم، فقالوا: {. . بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} تنشرح صدورهم للإسلام طرفة عين فإذا هم الحكماء العلماء، الخشع الأتقياء، الصابرون الأوفياء، يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويعرضون عن ذهب فرعون، وعما سيصب عليهم مستخفين بما يلقون، لأنه لا يملك إلا النيل من أجسادهم، لكن لله تعالى السرائر والعقول، فمن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، فلن يزيده البلاء وإيذاء الأعداء إلا إيمانا وتسليما) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (١١٢، وفي هذه السورة لم يرد بيان ماذا كان بين إيمان الذين سبقت لهم الحسنى وبين الأمر بالهجرة، لكن أشير إلى عبر مما جرى في آيات من سورة الأعراف، وقليل من آيات سورة الزخرف، أوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه موسى أن يخرج ويسير ليلا هو ومن آمن معه، فإن عدوهم متبعهم، فاستجاب موسى لأمر ربه، وخرج ومن معه إلى حيث هدوا، فلما علم فرعون برحيلهم سارع في حشد جنده من كافة المدائن والأقاليم، وحرضهم ليكونوا

أشد فتكا بالمسلمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا إلا بقية شيء خسيس
٦١ - (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)
{فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ٦١ قال كلا إن معي ربي سيهدين ٦٢ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ٦٣ وأزلفنا ثم الآخرين ٦٤ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ٦٥ ثم أغرقنا الآخرين ٦٦ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ٦٧ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ٦٨}
وانتهى المسير في مرحلته الأولى بموسى والمؤمنين حين بلغوا البحر- والأرجح كما أسلفنا أنه البحر الأحمر-واقترب منهم جند فرعون حتى أصبح كل من الجمعين يرى الجمع الآخر، عندها قال أصحاب موسى لموسى-متحزنين شاكين-: إنا لها لكون! إذ قد أدركنا العدو بجنوده التي لا قبل لنا بها، لكن المصطفين الأخيار على يقين راسخ بقدرة العزيز الجبار، وحين تتقطع أسباب الأرض يبقى تدبير وتأييد رب الأرض والسماء، فقال موسى ردعا لهم، وتذكيرا بأن الله وليه ووليهم: {كلا}!
٦٢ - (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)
{كلا}! لن يدركونا فقد جاءنا الوعد الصدق من ربنا:). . إنني معكما أسمع وأرى (١١٣.
). . فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (١١٤ لكن كيف نكون لنا الغلبة؟ وكيف يأتينا النصر؟ فهذا من تدبير وتقرير العزيز العليم، {إن معي ربي سيهدين}. سيهدين- قريبا إلى ما فيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم، ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية إخراجا للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم: {إنا لمدركون} من طلب التدبير منه عليه السلام. . . . . . . وقيل: قدم المعية هنا وأخرت في قوله تعالى:). . إن الله معنا. . . (١١٥ لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل وهم أنبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء، ولاختلاف المقام نظم نبينا صلى الله عليه وسلم صاحبه معه في المعية. . - ١١٦
٦٣ - (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)
{فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} هدى الله نبيه وكليمه وأمره أن يضرب البحر بعصاه فانحسر الماء إلى فلقتين، وافترق على فرقتين عاليتين كالجبلين الأشمين، وبينهما فرجة جافة يسيرعليها من يعبر لا يعوقه شيء كأنها درب على اليابسة، هكذا جاء البيان في آيات كريمة:). . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (١١٧ وجاوز الله تعالى ببني إسرئيل البحر، ونجوا مع رسولي ربنا موسى وهارون عليهما الصلوات والتسليم، فأتبعهم فرعون بجنوده، فهم موسى – على ما قال المفسدون- أن يضرب البحر مرة أخرى لتلتحم الفرقتان، وينطبق البحر كما كان، فيحول بينهم وبين ملاحقة فرعون وجنوده لهم، فنودي من لدن ربه (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (١١٨.
وظلت جنود فرعون تتابع زحفها، وما علم ولا علمت الجنود أنها بزحفها ستلقى حتفها، حتى إذا صاروا في البحر جميعا أمر الله البحر أن ينطبق عليهم فانطبق فغرقوا لم يفلت منهم أحد). . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (١١٩، ولكن هذا المتأله الذي طغى وعتا حين أدركه الموت قال: آمنت، لكن حيث لا ينفع نفسا إيمانها). . . لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (١٢٠ فخسرهم الكبير المتعال بقدسي المقال:) آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. .) ١٢١ وابتلع البحر سائر المجرمين) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (١٢٢ وجعلهم ربنا سلفا ومثلا للآخرين، لعل في هذا مزدجرا للبغاة المعاندين، والكفرة الفجرة الجاحدين.
٦٤ - (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]
{فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} هدى الله نبيه وكليمه وأمره أن يضرب البحر

بعصاه فانحسر الماء إلى فلقتين، وافترق على فرقتين عاليتين كالجبلين الأشمين، وبينهما فرجة جافة يسيرعليها من يعبر لا يعوقه شيء كأنها درب على اليابسة، هكذا جاء البيان في آيات كريمة:). . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (١٢٣ وجاوز الله تعالى ببني إسرئيل البحر، ونجوا مع رسولي ربنا موسى وهارون عليهما الصلوات والتسليم، فأتبعهم فرعون بجنوده، فهم موسى - على ما قال المفسدون- أن يضرب البحر مرة أخرى لتلتحم الفرقتان، وينطبق البحر كما كان، فيحول بينهم وبين ملاحقة فرعون وجنوده لهم، فنودي من لدن ربه (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (١٢٤.

وظلت جنود فرعون تتابع زحفها، وما علم ولا علمت الجنود أنها بزحفها ستلقى حتفها، حتى إذا صاروا في البحر جميعا أمر الله البحر أن ينطبق عليهم فانطبق فغرقوا لم يفلت منهم أحد). . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (١٢٥، ولكن هذا المتأله الذي طغى وعتا حين أدركه الموت قال: آمنت، لكن حيث لا ينفع نفسا إيمانها). . . لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (١٢٦ فحسرهم الكبير المتعال بقدسي المقال:) آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. .) ١٢٧ وابتلع البحر سائر المجرمين) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (١٢٨ وجعلهم ربنا سلفا ومثلا للآخرين، لعل في هذا مزدجرا للبغاة المعاندين، والكفرة الفجرة الجاحدين.

٦٥ - (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]

}فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم{ هدى الله نبيه وكليمه وأمره أن يضرب البحر بعصاه فانحسر الماء إلى فلقتين، وافترق على فرقتين عاليتين كالجبلين الأشمين، وبينهما فرجة جافة يسيرعليها من يعبر لا يعوقه شيء كأنها درب على اليابسة، هكذا جاء البيان في آيات كريمة:). . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (١٢٩ وجاوز الله تعالى ببني إسرئيل البحر، ونجوا مع رسولي ربنا موسى وهارون عليهما الصلوات والتسليم، فأتبعهم فرعون بجنوده، فهم موسى - على ما قال المفسدون- أن يضرب البحر مرة أخرى لتلتحم الفرقتان، وينطبق البحر كما كان، فيحول بينهم وبين ملاحقة فرعون وجنوده لهم، فنودي من لدن ربه (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (١٣٠.

وظلت جنود فرعون تتابع زحفها، وما علم ولا علمت الجنود أنها بزحفها ستلقى حتفها، حتى إذا صاروا في البحر جميعا أمر الله البحر أن ينطبق عليهم فانطبق فغرقوا لم يفلت منهم أحد). . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (١٣١، ولكن هذا المتأله الذي طغى وعتا حين أدركه الموت قال: آمنت، لكن حيث لا ينفع نفسا إيمانها). . . لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (١٣٢ فحسرهم الكبير المتعال بقدسي المقال:) آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. .) ١٣٣ وابتلع البحر سائر المجرمين) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (١٣٤ وجعلهم ربنا سلفا ومثلا للآخرين، لعل في هذا مزدجرا للبغاة المعاندين، والكفرة الفجرة الجاحدين.

٦٦ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]

}فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم{ هدى الله نبيه وكليمه وأمره أن يضرب البحر بعصاه فانحسر الماء إلى فلقتين، وافترق على فرقتين عاليتين كالجبلين الأشمين، وبينهما فرجة جافة يسيرعليها من يعبر لا يعوقه شيء كأنها درب على اليابسة، هكذا جاء البيان في آيات كريمة:). . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (١٣٥ وجاوز الله تعالى ببني إسرئيل البحر، ونجوا مع رسولي ربنا موسى وهارون عليهما الصلوات والتسليم، فأتبعهم فرعون بجنوده، فهم موسى - على ما قال المفسدون- أن يضرب البحر مرة أخرى لتلتحم الفرقتان، وينطبق البحر كما كان، فيحول بينهم وبين ملاحقة فرعون وجنوده لهم، فنودي من لدن ربه (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (١٣٦.

وظلت جنود فرعون تتابع زحفها، وما علم ولا علمت الجنود أنها بزحفها ستلقى حتفها، حتى إذا صاروا في البحر جميعا أمر الله البحر

أن ينطبق عليهم فانطبق فغرقوا لم يفلت منهم أحد). . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (١٣٧، ولكن هذا المتأله الذي طغى وعتا حين أدركه الموت قال: آمنت، لكن حيث لا ينفع نفسا إيمانها). . . لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (١٣٨ فحسرهم الكبير المتعال بقدسي المقال:) آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. .) ١٣٩ وابتلع البحر سائر المجرمين) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (١٤٠ وجعلهم ربنا سلفا ومثلا للآخرين، لعل في هذا مزدجرا للبغاة المعاندين، والكفرة الفجرة الجاحدين.

٦٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم} إن في الذي يقصه علينا الكتاب المبين، من أنباء المرسلين، لعلامة على اقتدار الملك المتين، وغيرته على حرمات الدين، وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وإنجائه لرسله والمؤمنين، ومع وضوح الآيات، وسبق المثلات، فقليل من العباد من يشرك، ويتدبر ويستيقن ويذكر، وأكثرهم كفور بحود، بطر عنيد، {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} فاثبت ومن معك على اليقين الراسخ في أن مولاكم عزيز يغلب ولا يغلب، قهر كل شيء وعز عليه، وهو بكم رءوف رحيم، فهما كثر عدوكم، وجمع وأعد لكم، فإن الله معكم ولن يتركم أعمالكم، وقلتكم لن تذهب ريحكم، {. . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (١٤١، [فمن عزته قدر على عقوبتهم، ومن رحمته بين لهم الدلائل ليتفكروا ويعتبروا] ١٤٢.

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٧]

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم} إن في الذي يقصه علينا الكتاب المبين، من أنباء المرسلين، لعلامة على اقتدار الملك المتين، وغيرته على حرمات الدين، وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وإنجائه لرسله والمؤمنين، ومع وضوح الآيات، وسبق المثلات، فقليل من العباد من يشرك، ويتدبر ويستيقن ويذكر، وأكثرهم كفور بحود، بطر عنيد، {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} فاثبت ومن معك على اليقين الراسخ في أن مولاكم عزيز يغلب ولا يغلب، قهر كل شيء وعز عليه، وهو بكم رءوف رحيم، فهما كثر عدوكم، وجمع وأعد لكم، فإن الله معكم ولن يتركم أعمالكم، وقلتكم لن تذهب ريحكم، {. . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (١٤٣، [فمن عزته قدر على عقوبتهم، ومن رحمته بين لهم الدلائل ليتفكروا ويعتبروا] ١٤٤.

٦٩ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

{واتل عليهم نبأ إبراهيم ٦٩ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ٧٠ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ٧١ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ٧٢ أو ينفعونكم أو يضرون ٧٣ قالوا بل وجدنا آباءنا كذالك يفعلون ٧٤ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٧٥ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٧٦ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ٧٧ الذي خلقني فهو يهدين ٧٨ والذي هو يطعمني ويسقين ٧٩ وإذا مرضت فهو يشفين ٨٠ والذي يميتني ثم يحيين ٨١ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ٧٢}

أمر من الله تعالى إلى خاتم النبيين أن يتلو آيات بينت من أنباء وأخبار أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلوات والتسليم ويذكر كيف كان حاله ومقاله، إذ نصح أباه وقومه فسألهم- ربما ليبني على جوابهم بطلان عملهم وفساد رأيهم-: {ماذا تعبدون}

٧٠ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

{ماذا تعبدون} ما معبودكم الذي تعبدونه؟

٧١ - (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)

{قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين} زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا،) واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (١٤٥، فأقروا وشهدوا على أنفسهم أنهم إنما يعبدون جمادا لا حس به ولا حركة، وأوثانا وخشبا وحجارة، ثم تمادوا في العته والسفه فأخبروا أنهم يستديمون عبادتها، فظل قد تكون تامة بمعنى بقي واستمر، وقد يراد بها وقت النهار، أما في الليل فيعبدون الكواكب.

٧٢ - (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

قال لهم نبي الله وخليله: {هل يسمعونكم إذ تدعون}؟ هل تستجيب الأصنام أو الكواكب دعاء كم، أو إن دعوتموهم وناديتموهم سمعوا نداء كم؟!

٧٣ - (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

{أو ينفعونكم أو يضرون} هل يملكون لكم نفعا أو ضرا أو موتا أو حياة؟ هل يجلبون لكم رزقا وخيرا؟ وينصرونكم ويدفعون عنكم شرا؟

٧٤ - (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

{قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} فاعترفوا بسفههم وضلالهم، وأنهم ما رجوا خيرا من آلهتهم، ولا ربحوا من تعظيمهم، وإنما هو التقليد لآبائهم، فرد إبراهيم بحجة الله العليم الحكيم، وبقلبه النقي الطاهر السليم معلنا ولاية الله ومن والاه، وعداوة الشرك والوثن والكوكب ومن تولاه: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي}

٧٥ - (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

{أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي} أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته؟ أو أي شيء تعبدونه؟! {أنتم وآباؤكم الأقدمين} والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها، وأن عبادتها، ضلال قديم، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين، وقوله تعالى: {فإنهم عدو لي} قيل: تعليل لما يفهم من ذلك، من أني لا أعبدهم، أولا تصح عبادتهم. . . وقال النسفي العدو اسم للمعادي والمعادى جميعا. . . وضمير {إنهم} عائد على {ما}، وجمع مراعاة لمعناها، وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إلا لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد، المذكر وغيره، أو لاتحاد الكل في معنى العداوة- ١٤٦.

{إلا رب العالمين} لكن رب العالمين وليي، ويسمع من ناداه، ويستجيب لمن دعاه، وهو الضار المدافع، وهو الخلاق العليم، الرزاق ذو القوة المتين، فهو خالقي والخلق كافة، وهو الهادي إلى الحق والطريق المستقيم). . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١٤٧، وهو الذي قدر الأقوات، وقسم الأرزاق، وأمدنا بالماء والسقيا، ولقد بين القرآن الحجة البالغة في الخلق والرزق في آيات مباركة كثيرة منها قول الله تبارك اسمه:) أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (١٤٨) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (١٤٩) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (١٥٠.

٧٦ - (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي} أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته؟ أو أي شيء تعبدونه؟! {أنتم وآباؤكم الأقدمين} والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها، وأن عبادتها، ضلال قديم، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين، وقوله تعالى: {فإنهم عدو لي} قيل: تعليل لما يفهم من ذلك، من أني لا أعبدهم، أولا تصح عبادتهم. . . وقال النسفي العدو اسم للمعادي والمعادى جميعا. . . وضمير {إنهم} عائد على {ما}، وجمع مراعاة لمعناها، وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إلا لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد، المذكر وغيره، أو لاتحاد الكل في معنى العداوة- ١٥١.

{إلا رب العالمين} لكن رب العالمين وليي، ويسمع من ناداه، ويستجيب لمن دعاه، وهو الضار المدافع، وهو الخلاق العليم، الرزاق ذو القوة المتين، فهو خالقي والخلق كافة، وهو الهادي إلى الحق والطريق المستقيم). . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١٥٢، وهو الذي قدر الأقوات، وقسم الأرزاق، وأمدنا بالماء والسقيا، ولقد بين القرآن الحجة

البالغة في الخلق والرزق في آيات مباركة كثيرة منها قول الله تبارك اسمه:) أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (١٥٣) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (١٥٤) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (١٥٥.

٧٧ - (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي} أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته؟ أو أي شيء تعبدونه؟! {أنتم وآباؤكم الأقدمين} والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها، وأن عبادتها، ضلال قديم، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين، وقوله تعالى: {فإنهم عدو لي} قيل: تعليل لما يفهم من ذلك، من أني لا أعبدهم، أولا تصح عبادتهم. . . وقال النسفي العدو اسم للمعادي والمعادى جميعا. . . وضمير {إنهم} عائد على {ما}، وجمع مراعاة لمعناها، وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إلا لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد، المذكر وغيره، أو لاتحاد الكل في معنى العداوة- ١٥٦.

{إلا رب العالمين} لكن رب العالمين وليي، ويسمع من ناداه، ويستجيب لمن دعاه، وهو الضار المدافع، وهو الخلاق العليم، الرزاق ذو القوة المتين، فهو خالقي والخلق كافة، وهو الهادي إلى الحق والطريق المستقيم). . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١٥٧، وهو الذي قدر الأقوات، وقسم الأرزاق، وأمدنا بالماء والسقيا، ولقد بين القرآن الحجة البالغة في الخلق والرزق في آيات مباركة كثيرة منها قول الله تبارك اسمه:) أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (١٥٨) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (١٥٩) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (١٦٠.

٧٨ - (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي} أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته؟ أو أي شيء تعبدونه؟! {أنتم وآباؤكم الأقدمين} والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها، وأن عبادتها، ضلال قديم، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين، وقوله تعالى: {فإنهم عدو لي} قيل: تعليل لما يفهم من ذلك، من أني لا أعبدهم، أولا تصح عبادتهم. . . وقال النسفي العدو اسم للمعادي والمعادى جميعا. . . وضمير {إنهم} عائد على {ما}، وجمع مراعاة لمعناها، وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إلا لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد، المذكر وغيره، أو لاتحاد الكل في معنى العداوة- ١٦١.

{إلا رب العالمين} لكن رب العالمين وليي، ويسمع من ناداه، ويستجيب لمن دعاه، وهو الضار المدافع، وهو الخلاق العليم، الرزاق ذو القوة المتين، فهو خالقي والخلق كافة، وهو الهادي إلى الحق والطريق المستقيم). . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١٦٢، وهو الذي قدر الأقوات، وقسم الأرزاق، وأمدنا بالماء والسقيا، ولقد بين القرآن الحجة البالغة في الخلق والرزق في آيات مباركة كثيرة منها قول الله تبارك اسمه:) أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (١٦٣) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (١٦٤) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (١٦٥.

٧٩ - (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي} أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته؟ أو أي شيء تعبدونه؟! {أنتم وآباؤكم الأقدمين} والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها، وأن عبادتها، ضلال قديم، لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه، كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين، وقوله تعالى: {فإنهم عدو لي} قيل: تعليل لما يفهم من ذلك، من أني لا أعبدهم، أولا تصح عبادتهم. . . وقال النسفي العدو اسم للمعادي والمعادى جميعا. . . وضمير {إنهم} عائد على {ما}، وجمع مراعاة لمعناها، وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إلا لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد، المذكر وغيره، أو لاتحاد الكل في معنى العداوة- ١٦٦.
{إلا رب العالمين} لكن رب العالمين وليي، ويسمع من ناداه، ويستجيب لمن دعاه، وهو الضار المدافع، وهو الخلاق العليم، الرزاق ذو القوة المتين، فهو خالقي والخلق كافة، وهو الهادي إلى الحق والطريق المستقيم). . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١٦٧، وهو الذي قدر الأقوات، وقسم الأرزاق، وأمدنا بالماء والسقيا، ولقد بين القرآن الحجة البالغة في الخلق والرزق في آيات مباركة كثيرة منها قول الله تبارك اسمه:) أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (١٦٨) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (١٦٩) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (١٧٠.
٨٠ - (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)
{وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين} يثني إبراهيم على ربه ويتابع إظهار حجته على أبيه وقومه، ويسوق البرهان على جلال الملك الديان الرحيم الرحمن، فإنه سبحانه يجيب المضطر ويكشف الضر، ويعافي المبتلى، لاشفاء إلا شفاؤه شفاء لا يغادر سقما، إلى أجل قضاه، - ونسبة المرض الذي هو نقمة إلى نفسه، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام:). . فأردت أن أعيبها. . (١٧١ وقال:). . فأراد ربك أن يبلغا أشدهما. . (١٧٢. . - ١٧٣ {والذي يميتني ثم يحيين} ربي حي لا يموت، وهو الذي بيده الموت والحياة، و {ثم} للعطف مع التراخي، إذ ليس إحياء الموتى عقب الوفاة وإنما ذلك يوم البعث والعرض على الله، [ولا يرد- على ما سبق سوقه علة لإسناد إبراهيم المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى من أن ذلك رعاية لحسن الأدب، لايرد- إسناده الإماتة وهي أشد من المرض إليه عز وجل في قوله: {والذي يميتني ثم يحيين} لإنكار الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله عز وجل. . . على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه السلام للحياة الأبدية. . . . قيل: إن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقردونها الحياة الدنيوية، وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي] ١٧٤
٨١ - (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٠]
{وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين} يثني إبراهيم على ربه ويتابع إظهار حجته على أبيه وقومه، ويسوق البرهان على جلال الملك الديان الرحيم الرحمن، فإنه سبحانه يجيب المضطر ويكشف الضر، ويعافي المبتلى، لاشفاء إلا شفاؤه شفاء لا يغادر سقما، إلى أجل قضاه، - ونسبة المرض الذي هو نقمة إلى نفسه، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام:). . فأردت أن أعيبها. . (١٧٥ وقال:). . فأراد ربك أن يبلغا أشدهما. . (١٧٦. . - ١٧٧ {والذي يميتني ثم يحيين} ربي حي لا يموت، وهو الذي بيده الموت والحياة، و {ثم} للعطف مع التراخي، إذ ليس إحياء الموتى عقب الوفاة وإنما ذلك يوم البعث والعرض على الله، [ولا يرد- على ما سبق سوقه علة لإسناد إبراهيم المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى من أن ذلك

رعاية لحسن الأدب، لايرد- إسناده الإماتة وهي أشد من المرض إليه عز وجل في قوله: {والذي يميتني ثم يحيين} لإنكار الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله عز وجل. . . على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه السلام للحياة الأبدية. . . قيل: إن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقردونها الحياة الدنيوية، وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي] ١٧٨

٨٢ - (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

{والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} يرجو رحمة ربنا، فإن إبراهيم عليه السلام أواه منيب كثير التأسف على ضلال الضالين، كثير الرجوع والإنابة إلى التواب الرحيم.

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

{حكما} علما كاملا يصح به إيماني وتستقيم به شرعتي.

{رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ٨٣ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ٨٤ واجعلني من ورثة جنة النعيم ٨٥ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ٨٦ ولا تخزني يوم يبعثون ٨٧ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٨ إلا من أتى الله بقلب سليم ٨٩}

بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى الإله المستحق للعبادة، ونابذهم العداوة وما يدعونه من دون الله، وأثنى على ربنا بما هو أهله، وأنه المولى الخلاق الرزاق الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه، ويتولى أحبابه فيفرج عنهم الكربات، ويتجاوز لهم عن السيآت، ويعظم لهم الدرجات، ثم تضرع إلى ربه أن يهبه علما به وبما ارتضاه من شرعة ومنهاج، حتى تصلح أعمال قلبه وأعمال جوارحه بهذا الفهم والعلم، وبالنبوة والرسالة إلى الخلق، {وألحقني بالصالحين} - أي بالنبيين من قبلي في الدرجة، وقال ابن عباس: بأهل الجنة، وهو تأكيد لقوله: {هب لي حكما} - ١٧٩.

ونقل عن ابن عباس في قوله تعالى: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}

٨٤ - (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

{واجعل لي لسان صدق في الآخرين} هو: اجتماع الأمم عليه، وعن مجاهد: الثناء الحسن، وعن ابن عطية: الثناء وخلود المكانة، بإجماع المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تتمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وليس أحد يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، روى أشهب عن مالك قال: قال الله عز وجل: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} لا بأس أن يحب الرجل أن يثني عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى، وقد قال الله تعالى:). . وألقيت عليك محبة مني. . (١٨٠ وقال:) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (١٨١ أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا، فنبه بقوله: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. أهـ.

٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)

{من ورثة جنة النعيم} ممن تبوئهم قصور الجنة.

ودعا الله تعالى أن يجعله من أصحاب الجنة وأهل الدرجات فيها، أليس من فضل إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا بدعوته أن جعلهم المولى سبحانه قدوة صالحة للصادقين في إيمانهم إلى يوم الدين؟ يقول ربنا في كتابه المبين:) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده. . (١٨٢ إلى قوله تبارك اسمه:) لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. (١٨٣ حتى ليجادل القرآن العظيم عن إبراهيم الخليل عليه الصلوات والتسليم فيما يبدو وكأنه رقة على أبيه الذي لم يستعلن بتوحيد ربنا الرحمن الرحيم فجاءت الآية المباركة تبين حقيقة أمره:) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم

١٨٤).
٨٦ - (وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)
{من الضالين} من الحائرين عن الحق، لعدم إقراره بالوحدانية.
{واغفر لأبي إنه كان من الضالين} طلب الغفران لأبيه لحيرته وبعده عن الاهتداء حين قال له ما حكاه عنه القرآن في قوله:). . واهجرني مليا (١٨٥، فظن إبراهيم أن هذه عدة أن يعلن إسلامه عما قليل، لهذا استغفر له أول الأمر، فلما علم أن أباه قد أصر على الشرك والوثنية نابذه وقومه العداء إلا أن يؤمنوا بالله الواحد رب الأرض والسماء، وتابع إبراهيم التضرع إلى ربه أن يكرمه يوم يلقاه وأن لا ينقص درجته عن إخوانه النبيين والمرسلين، يوم لا تنفع الأقوال ولا الأرحام، ولا تغني الآباء عن الأبناء). . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. . (١٨٦، لكن من جاء ربه سبحانه وقد سلم باطنه من المروق والفسوق والشك والشرك، ومن الأوصاف الذميمة فإن ربه يكرم مآبه ويجزل ثوابه، فاللهم صل وسلم، واجعل رحمتك وبركاتك على رسولك وخليلك أبينا إبراهيم الذي وفى، ودعاك أن تجعلنا مسلمين، وتبعث فينا خاتم النبيين، يتلو علينا الآيات والحكمة ويزكينا بالكتاب المبين، اللهم آمين.
٨٧ - (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{من الضالين} من الحائرين عن الحق، لعدم إقراره بالوحدانية.
{واغفر لأبي إنه كان من الضالين} طلب الغفران لأبيه لحيرته وبعده عن الاهتداء حين قال له ما حكاه عنه القرآن في قوله:). . واهجرني مليا (١٨٧، فظن إبراهيم أن هذه عدة أن يعلن إسلامه عما قليل، لهذا استغفر له أول الأمر، فلما علم أن أباه قد أصر على الشرك والوثنية نابذه وقومه العداء إلا أن يؤمنوا بالله الواحد رب الأرض والسماء، وتابع إبراهيم التضرع إلى ربه أن يكرمه يوم يلقاه وأن لا ينقص درجته عن إخوانه النبيين والمرسلين، يوم لا تنفع الأقوال ولا الأرحام، ولا تغني الآباء عن الأبناء). . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. . (١٨٨، لكن من جاء ربه سبحانه وقد سلم باطنه من المروق والفسوق والشك والشرك، ومن الأوصاف الذميمة فإن ربه يكرم مآبه ويجزل ثوابه، فاللهم صل وسلم، واجعل رحمتك وبركاتك على رسولك وخليلك أبينا إبراهيم الذي وفى، ودعاك أن تجعلنا مسلمين، وتبعث فينا خاتم النبيين، يتلو علينا الآيات والحكمة ويزكينا بالكتاب المبين، اللهم آمين.
٨٨ - (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{بنون} أبناء ذكور.
{من الضالين} من الحائرين عن الحق، لعدم إقراره بالوحدانية.
{واغفر لأبي إنه كان من الضالين} طلب الغفران لأبيه لحيرته وبعده عن الاهتداء حين قال له ما حكاه عنه القرآن في قوله:). . واهجرني مليا (١٨٩، فظن إبراهيم أن هذه عدة أن يعلن إسلامه عما قليل، لهذا استغفر له أول الأمر، فلما علم أن أباه قد أصر على الشرك والوثنية نابذه وقومه العداء إلا أن يؤمنوا بالله الواحد رب الأرض والسماء، وتابع إبراهيم التضرع إلى ربه أن يكرمه يوم يلقاه وأن لا ينقص درجته عن إخوانه النبيين والمرسلين، يوم لا تنفع الأقوال ولا الأرحام، ولا تغني الآباء عن الأبناء). . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. . (١٩٠، لكن من جاء ربه سبحانه وقد سلم باطنه من المروق والفسوق والشك والشرك، ومن الأوصاف الذميمة فإن ربه يكرم مآبه ويجزل ثوابه، فاللهم صل وسلم، واجعل رحمتك وبركاتك على رسولك وخليلك أبينا إبراهيم الذي وفى، ودعاك أن تجعلنا مسلمين، وتبعث فينا خاتم النبيين، يتلو علينا الآيات والحكمة ويزكينا بالكتاب المبين، اللهم آمين.
٨٩ - (إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{بقلب سليم} معافى من الشرك والنفاق.

{من الضالين} من الحائرين عن الحق، لعدم إقراره بالوحدانية.
{واغفر لأبي إنه كان من الضالين} طلب الغفران لأبيه لحيرته وبعده عن الاهتداء حين قال له ما حكاه عنه القرآن في قوله:) . . واهجرني مليا (١٩١، فظن إبراهيم أن هذه عدة أن يعلن إسلامه عما قليل، لهذا استغفر له أول الأمر، فلما علم أن أباه قد أصر على الشرك والوثنية نابذه وقومه العداء إلا أن يؤمنوا بالله الواحد رب الأرض والسماء، وتابع إبراهيم التضرع إلى ربه أن يكرمه يوم يلقاه وأن لا ينقص درجته عن إخوانه النبيين والمرسلين، يوم لا تنفع الأقوال ولا الأرحام، ولا تغني الآباء عن الأبناء) . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. . (١٩٢، لكن من جاء ربه سبحانه وقد سلم باطنه من المروق والفسوق والشك والشرك، ومن الأوصاف الذميمة فإن ربه يكرم مآبه ويجزل ثوابه، فاللهم صل وسلم، واجعل رحمتك وبركاتك على رسولك وخليلك أبينا إبراهيم الذي وفى، ودعاك أن تجعلنا مسلمين، وتبعث فينا خاتم النبيين، يتلو علينا الآيات والحكمة ويزكينا بالكتاب المبين، اللهم آمين.
٩٠ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)
{وأزلفت} وقربت وأدنيت ليدخلوها.
{وأزلفت الجنة للمتقين ٩٠ وبرزت الجحيم للغاوين ٩١ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ٩٢ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ٩٣ فكبكبوا فيها هم والغاوون ٩٤ وجنود إبليس أجمعون ٩٥ قالوا وهم فيها يختصمون ٩٦ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ٩٧ إذ نسويكم برب العالمين ٩٨ وما أضلنا إلا المجرمون ٩٩ فما لنا من شافعين ١٠٠ ولا صديق حميم ١٠١ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ١٠٢ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤنين ١٠٣ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٠٤}
من بقية أحوال يوم الدين وأهواله يوم لا ينفع مال ولا بنون أن تقرب الجنة وتدنو من أهل التقوى ليدخلوها، أو يقرب دخولهم إياها، حتى ليبشر الواحد منهم بقصره ومنزله الذي يتراءى لأهل الموقف كما تتراءى الكواكب الدرية، بينما تدنو جهنم من الخاطئين وتتلمظ لهم ويخالطهم حسيسها وسعيرها، كما أنبأ مولانا البر الرحيم:) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا (١٩٣) إنها ترمي بشرر كالقصر (١٩٤.
٩١ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)
{وبرزت} وأظهرت.
{الجحيم} جهنم.
{للغاوين} للمقيمين على الغواية والضلالة والعمى.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٠ إظهار
٩٢ - (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)
{وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون} زيادة في التحسير يقال للضالين والمضلين: أين ما كنتم عبدتم من دون الله المستحق للعبادة وحده؟ هل يستطيعون لكم نصرا أو عنكم دفعا، أو يحمونكم ويحولون بينكم وبين ما أنتم فيه فيمنعونكم منه منعا؟! أو هل يملكون حتى أن يمنعوا أنفسهم مما حل بهم من البأس والنقمة؟! وقد حكى القرآن الكريم إجابتهم في آية أخرى فقال:) . . قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٩٥.
٩٣ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)
{هل ينصرونكم} هل تدفع عنكم أصنامكم وما اتخذتموه من دون الله تعالى من الأنداد؟!
{أو ينتصرون} أو هل يدفع من عبدتموهم من دون المولى سبحانه عن أنفسهم ما أنزل بهم؟!.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار
٩٤ - (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

{فكبكبوا} كبوا على وجوههم وتدهوروا وألقى بعضهم على بعض، أو قلبوا على رؤوسهم.
{الغاوون} المغوون لغيرهم، أو المتابعون لغيرهم في الغواية والضلال.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار
{فكبكبوا فيها هم والغاوون. وجنود إبليس أجمعون} فكبوا على وجوههم في النار، وتدهوروا، وألقى بعضهم على بعض، وقلبوا على رؤوسهم فيها حتى يكدسوا في دركاتها هم ومن أغووهم، وأئمة الضلال ودعاة الكفر والخبال، وهل يريد الأبالسة إلا الغواية للخلق أجمعين، إلا من عصم مولانا البر الرحيم، ولقد حذرنا من عدونا الشيطان الرجيم فقال سبحانه وهو أصدق القائلين:) إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (١٩٦).. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون (١٩٧ ثم يتلاومون ويتحاورون ويتلاعنون).. كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١٩٨) وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (١٩٩،) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل.. (٢٠٠، فيقول الأتباع الذين استضعفوا للذين استكبروا).. لولا أنتم لكنا مؤمنين (٢٠١).. بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب.. (٢٠٢) قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار (٢٠٣ فيرد المستكبرون:).. إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (- ٢٠٤ نسأل الله تعالى أن يقينا العذاب- ندموا حيث لا ينفع الندم، واعتذروا).. ولات حين مناص (٢٠٥ وتنبهوا بعد طول الغفلة: {فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم} وفي آيات أخر يحكي القرآن قيلهم:).. فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢٠٦.

٩٥ - (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

٩٦ - (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)
{يختصمون} يخاصم بعضهم بعضا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

٩٧ - (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
{ضلال مبين} حيرة عن الحق وخسارة واضحة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

٩٨ - (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

٩٩ - (وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

١٠٠ - (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)
{شافعين} يشفعون لنا، وأصل الشفاعة في اللغة أن ينضم رجاء الشافع إلى من يشفع له فيصير رأي الشخص مشفوعا برأي ثان، يصبحان معا شفعا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار

١٠١ - (وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

{حميم} مشفق، وحامة الرجل: الذين يحرقهم ما أحرقه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار
١٠٢ - (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
{كرة} رجعة إلى الدنيا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٢ إظهار
{فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين} يتمنون أن يردوا إلى الدنيا ويرجعوا إليها ثانية ليعملوا عملا صالحا ولا يخدعوا بإضلال المضلين، فيجابون:). . اخسئوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون (٢٠٧
١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} إن في الذي نسوقه إليكم ونخبركم به لعلامة على اقتدارنا، وبرهانا على القضاء الحق بين خلقنا، يوم نبعثهم ونجمعهم للقائنا، وحسابنا وجزائنا، لكن أكثرهم يعمهون عن الحق، ويرتابون فيما هو صدق، بل ويكذبون بيوم واقع لا محالة
١٠٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
{وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وازدد يقينا أيها المكلف أن مولاك عزيز يغلب ولا يغلب، وهو القاهر فوق عباده، ولن يفلت منه مكذب أو جاحد،، أو مفسد أو معاند، وهو بالمؤمنين رحيم، تحيتهم يوم يلقونه سلام، وبشراهم بالنعيم المقيم.
١٠٥ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)
{كذبت قوم نوح المرسلين ١٠٥ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ١٠٦ إني لكم رسول أمين ١٠٧ فاتقوا الله وأطيعون ١٠٨ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ١٠٩ فاتقوا الله وأطيعون ١١٠ * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ١١١ قال وما علمي بما كانوا يعملون ١١٢ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ١١٣ وما أنا بطارد المؤمنين ١١٤ إن أنا إلا نذير مبين ١١٥ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ١١٦ قال رب إن قومي كذبون ١١٧ فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين ١١٨ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ١١٩ ثم أغرقنا بعد الباقين ١٢٠ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤنين ١٢١ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٢٢}
يقص الله تعالى علينا من أنباء ما قد سبق لتكون لنا موعظة وعبرة، فتقتدي بأهل الحق المهتدين، ونحذر الزيغ حتى لا يحل بنا ما حل بالمجرمين، ويعلمنا ربنا من سيرة المرسلين- عليهم صلوات رب العالمين- ليثبت بذلك أفئدتنا ويقوي اليقين.
{كذبت قوم نوح} أي كذبت جماعة قوم نوح، جاء في المصباح: القوم يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو: رهط، ونفر. اه {المرسلين} لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار.
١٠٦ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)
{إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون} {إذ} للظرفية، أو للتعليل، قال لهم أخوهم في النسب لا في الدين، أو باعتباره واحدا من القبيلة، كما يقال: يا أخا قريش، ويا أخا العرب، {ألا تتقون} الله تعالى وتخافون بأسه وغضبه إذ عبدتم الأصنام وألهتموها؟!
١٠٧ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
{أمين} يرعى حقوق الأمانات ويصونها، وكانوا يعرفون أمانته وصدقه من قبل.
{إني لكم رسول} بعثني ربكم وأرسلني إليكم بما فيه الخير لكم، {أمين} أرعى الأمانات وأصونها، وأنتم تعرفون أمانتي وصدقي، وإني لأمين على أداء ما بعثت به وتبليغه.

١٠٨ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
{وأطيعون} واتبعوني فيما آمركم به عن ربي سبحانه.
{فاتقوا الله وأطيعون} فاحذروا عقاب الله وعذابه، واجتنبوا ما يوقعكم في سخطه، وما يوردكم ناره، واستجيبوا لما أدعوكم إليه من الإيمان والصلاح
١٠٩ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{إن أجري} ما جزائي
{وما أسألكم عليه من أجر} ولا أطالبكم بمال على دعوتي وبلاغي ونصحي، ولا أطمع في أجر كائنا ما كان- مالا أو جاها أو غيرهما-
{إن أجري إلا على رب العالمين} ما جزائي على أداء رسالتي إلا تفضلا من الله الذي له الخلق والأمر، وبيده الفضل، وإليه يرجع الأمر كله، فهو ولي العوالم كلها ومليكها
١١٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
{وأطيعون} واتبعوني فيما آمركم به عن ربي سبحانه.
{فاتقوا الله وأطيعون} توكيد وتقرير لأن الدعوة المتجردة من المطامع، الخالصة من الشوائب، أحق أن تتبع، وإنما هي دعوة إلى تقوى الله، وهكذا جاءت الوصية في كتاب الله:) اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٢٠٨
١١١ - (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)
{واتبعك الأرذلون} والحال قد اتبعك كل أرذل، أي خسيس دنيء.
{قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون}، فرد قومه يمارون في الحق وقد تبين: أتريد أن نتابعك يا نوح على ما أنت عليه من الدين وقد آمن بك الضعفاء الذين لا رأي لهم ولا حسب، كما حكى القرآن عنهم في آية كريمة أخرى: (. . وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي. .) ٢٠٩، أي إن اتبعناك فسنسوى بهؤلاء الأخساء الأدنياء، فلا يجمعنا وإياهم مجلس، وكأنهم طالبوا بطرد هؤلاء المؤمنين المتواضعين، لكنه عليه الصلوات والتسليم أيأسهم من تنحية هؤلاء المصدقين: (. . ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني لمن الظالمين) ٢١٠.
حتى ليتراءى للمتدبر أن إفك المشركين ومراء المستكبرين يكاد لا يختلف:
(أتواصوا به بل هم قوم طاغون) ٢١١، لقد قال كبراء مكة لخاتم النبيين في ضعاف المؤمنين قريبا مما قال هؤلاء لنوح عليه الصلوات والتسليم، فثبت الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على الحق المبين، وناداه: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا. .) ٢١٢.
١١٢ - (قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{قال وما علمي بما كانوا يعملون} فرد عليهم نوح بأن العليم الخبير بأفعال العباد واحد، والمجازي عليها هو الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يظلم مثقال ذرة (. . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) ٢١٣ وأنا لست إلا بشرا لا أملك السيطرة على أحد، ولا أتصرف في عاقبة أحد، قال أهل اللغة: {ما} نافية، أو استفهامية
١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)
{إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون} لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم أن الله تعالى لا يحاسب على الأموال ولا على الأشكال، ولكن يحاسب على الأحوال والقلوب والأعمال،). . وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون. ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٢١٤

١١٤ - (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١٣]
{إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون} لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم أن الله تعالى لا يحاسب على الأموال ولا على الأشكال، ولكن يحاسب على الأحوال والقلوب والأعمال،). . وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون. ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٢١٥
١١٥ - (إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)
{نذير مبين} أزجر المكلفين عما لا يرضى المولى سبحانه بالبرهان الواضح المظهر للحق.
{إن أنا إلا نذير مبين} ما أنا إلا مخوف من عاقبة الشرك، موضح، - ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد وإن كان فقيرا- ٢١٦
١١٦ - (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)
{تنته} تسكت وترجع وتكف عن عيب ديننا وسب آلهتنا.
{المرجومين} المرميين بالحجارة.
{قالوا لئن لم تنته يا نوح} لئن لم تسكت وتكف وترجع عن عيب ديننا وسب آلهتنا {لتكونن من المرجومين} لتكونن من المرميين بالحجارة- هددوه بالقتل رجما إذا هو لم ينته عن الطعن في الأصنام وعابديها-
١١٧ - (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ)
{ كذبون} استمروا على تكذيبي وأصروا عليه.
{قال رب إن قومي كذبون} لما يئس من إيمانهم بعد تواصيهم مع ذرياتهم بالصبر على تقديس أصنامهم: (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) ٢١٧ تضرع إلى ربه-وهو العليم الخبير- وأظهر في ضراعته ما يدعو عليهم لأجله، كما شهدت بذلك آية كريمة: (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ٢١٨ فسأل الله تعالى النصرة، وأن ينفذ فيهم أمره
١١٨ - (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
{فافتح} فاحكم.
{فافتح بيني وبينهم فتحا} فاحكم بيني وبينهم حكما تهلك به الكافرين، وتشفي به صدور قوم مؤمنين، وتنقذ الناس من فتنة هؤلاء الباغين العادين، {ونجني ومن معي من المؤمنين} واكتب لنا السلامة والنجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة
١١٩ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)
{الفلك المشحون} السفينة المملوءة.
{فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون} ففتح الله تعالى السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيونا حتى التقى الماءان، وعلا الموج كأنه الجبال، وحمل الله تعالى نوحا وسط هذا الطوفان على فلك ذات ألواح ومسامير، حشد فيها مع الرسول والمؤمنين به من كل زوجين اثنين، لكنها كانت في رعاية الفعال لما يريد، فلم ينلها- على ثقل حملها، وبساطة صنعها- ما يضر، وكيف لا! وهي تجري بأمر الله (تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدكر) ٢١٩
١٢٠ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)
{ثم أغرقنا بعد الباقين} [أي بعد إنجائهم، و {ثم} للتفاوت الرتبي]
١٢١ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} إن في إهلاك الطاغين الذين هو أظلم وأطغى، وإغراقهم بطوفان ما غادر شيئا ولا أبقى،

وانجاء الله تعالى المؤمنين وما كانوا إلا فئة قليلة، إن في تدبيرنا هذا لعلامة على حكمتنا واقتدارنا مهما كثر أعداء الدين وقل أهل اليقين الصادقين
١٢٢ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
{وإن ربك} أيها النبي أو كل من هو أهل للخطاب {لهو العزيز} القوي الذي يقهر ولا يقهر ولا يغلب على فعل شيء أراده أبدا {الرحيم} الذي وسعت رحمته المؤمنين فهو ينعمهم في الآخرة بعدما أعزهم ونصرهم على عدوه وعدوهم في الدنيا: (. . نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) ٢٢٠.
١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ)
{عاد} قبيلة عاشت بعد الطوفان، وكانت تسكن في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية بين حضر موت وعمان.
{كذبت عاد المرسلين ١٢٣ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ١٢٤ إني لكم رسول أمين ١٢٥ فاتقوا الله وأطيعون ١٢٦ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ١٢٧ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ١٢٨ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ١٢٩ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ١٣٠ فاتقوا الله وأطيعون ١٣١ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ١٣٢ أمدكم بأنعام وبنين ١٣٣ وجنات وعيون ١٣٤ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ١٣٥ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ١٣٦ إن هذا إلا خلق الأولين ١٣٧ وما نحن بمعذبين ١٣٨ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٣٩ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٤٠}.
{يوم عظيم} اليوم الآخر.
{عاد} جماعة وقوم وقبيلة كذبوا رسول الله إليهم- إلا قليلا منهم- وقد عاشوا بعد الطوفان الذي أغرق الدنيا إبان رسالة نوح عليه السلام، وكانت تسكن في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، بين حضرموت وعمان- على مشارف اليمن- و {عاد} تصرف وتنون باعتبارها اسما للحي الذي كان يسكنه القوم، ومع أنهم لم يكذبوا إلا هودا- عليه سلام الله- وصفهم القرآن الكريم بأنهم كذبوا المرسلين، كأن تكذيب رسول واحد تكذيب لكل الرسل
١٢٤ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ)
{ألا تتقون} ألا تخافون الله تعالى، وتتقون سخطه وبأسه أن ينزل بكم لعصيانكم واستكباركم وإفسادكم؟!
{إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون} نبيهم هود عليه السلام كان من القوم، بعثه الله تعالى إليهم ينبههم من غفلتهم، ويردهم عن غوايتهم، قائلا ما علمنا كتاب الله: ألا تحذرون غضب الله وبأسه أن يحل بكم لعصيانكم واستكباركم وإفسادكم؟!، ألا تخافون جلال ربنا العظيم وتهابونه؟
١٢٥ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
{أمين} يرعى الأمانات ويصونها- وكانوا يعرفون أمانته وصدقه- وإني لأمين على أداء ما بعثت إليكم به، وتبليغكم إياه.
{وأطيعون} واتبعوني فيما آمركم به عن ربي سبحانه.
{إني لكم رسول أمين} إني أمين على وحي الله الذي حملته إليكم، فلا أقول على ربي إلا الحق، ولا أزيد على ما جاءني من عنده ولا أنقص منه، فاخشوا جلال باريكم وهيبته ونقمته، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما تمحض النصيحة وتستوجب القبول إذا تجرد الناصح ولم يطلب من المنصوحين مثوبة على نصحه، وهكذا دعا هود إلى الهدى محتسبا أجره، ومدخرا مثوبة ذلك وجزاءه عند الله رب العالمين، الشكور الوهاب الكريم
١٢٦ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٥]
{أمين} يرعى الأمانات ويصونها- وكانوا يعرفون أمانته وصدقه- وإني لأمين على أداء ما بعثت إليكم به، وتبليغكم إياه.
{وأطيعون} واتبعوني فيما آمركم به عن ربي سبحانه.

{إني لكم رسول أمين} إني أمين على وحي الله الذي حملته إليكم، فلا أقول على ربي إلا الحق، ولا أزيد على ما جاءني من عنده ولا أنقص منه، فاخشوا جلال باريكم وهيبته ونقمته، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما تمحض النصيحة وتستوجب القبول إذا تجرد الناصح ولم يطلب من المنصوحين مثوبة على نصحه، وهكذا دعا هود إلى الهدى محتسبا أجره، ومدخرا مثوبة ذلك وجزاءه عند الله رب العالمين، الشكور الوهاب الكريم

١٢٧ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٥]

{وما أسألكم عليه من أجر} ولا أطالبكم على دعوتي وبلاغي ونصحي بعوض ولا مقابل.

{إن أجري إلا على رب العالمين} ما جزائي على أداء رسالتي إلا تفضلا من الله الذي له الخلق والأمر وبيده الفضل.

{أمين} يرعى الأمانات ويصونها- وكانوا يعرفون أمانته وصدقه- وإني لأمين على أداء ما بعثت إليكم به، وتبليغكم إياه.

{وأطيعون} واتبعوني فيما آمركم به عن ربي سبحانه.

{إني لكم رسول أمين} إني أمين على وحي الله الذي حملته إليكم، فلا أقول على ربي إلا الحق، ولا أزيد على ما جاءني من عنده ولا أنقص منه، فاخشوا جلال باريكم وهيبته ونقمته، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما تمحض النصيحة وتستوجب القبول إذا تجرد الناصح ولم يطلب من المنصوحين مثوبة على نصحه، وهكذا دعا هود إلى الهدى محتسبا أجره، ومدخرا مثوبة ذلك وجزاءه عند الله رب العالمين، الشكور الوهاب الكريم

١٢٨ - (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

{ريع} فج بين جبلين، ومنظرة، وتل عال.

{آية} قصرا، وعلما، وبرجا.

{تعبثون} تلعبون، وتفسدون.

{أتبنون بكل ريع آية تعبثون} استكثرتم من الأبنية العالية الشاهقة كالجبال، وأقمتموها على كل طريق وواد، للعب والعبث والسطو والفساد؟! وجاء الكلام على صورة الاستفهام، والمراد به الإنكار، بنوا في الوديان والفجاج، وعلى المناظر والتلال والجبال قصورا وأبراجا وعلامات، روي أنهم يبنون البروج في كل ريع ليلعبوا بالحمام ويلهوا به [وقيل بيت العشار يبنونه بكل رأس طريق فيجلسون فيه ليعشّروا مال من يمر بهم ٢٢١ - وله نظير في بلادنا اليوم- ولا مستعان إلا بالله العلي العظيم، والجملة، في موضع الحال] ٢٢٢

١٢٩ - (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

{وتتخذون} وتعملون.

{مصانع} بنايات، ومستودعات.

{تخلدون} تبقون في الدنيا لا تفارقونها.

{وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون} وتشيدون المصانع ومآخذ الماء والحصون، كأنكم ٢٢٣ مخلدون لا تموتون، أو لعلكم تحيون أبدا حين تبنون هذه الأشياء، وعن قتادة: مآجل الماء تحت الأرض، وعن الزجاج: مصانع الماء.

١٣٠ - (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

{بطشتم} سطوتم، وعسفتم، وظلمتم.

{جبارين} قتالين بغير حق، غاشمين بلا رأفة.

{وإذا بطشتم بطشتم جبارين} وإذا غضبتم قتلتم وأسرفتم في إزهاق الأرواح، وإسالة الدماء، واستكبرتم عن الحق، واستعليتم على الخلق، وإذا أردتم السطوة عسفتم وظلمتم، قتالين بغير حق، غاشمين بلا رأفة، نقل عن الحسن: أنه القتل من غير تثبت- والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكل مذموم إلا بحق، والآية نزلت خبرا عمن تقدم من الأمم، ووعظا من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم، قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه

الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك يكون، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا و كذا " - ٢٢٤.

١٣١ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{فاتقوا الله وأطيعون} توقوا عقاب الله وسخطه، وانتهوا عن مناهيه، وذروا اللهو واللعب، واحذروا قسوة القلب وطول الأمل وظلم الناس وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واستجيبوا لي فيما أمرتكم به عن ربي وربكم

١٣٢ - (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

{أمدكم} ملككم وأعطاكم، ورزقكم وسخر لكم.

{بما تعلمون} من خيرات تتقلبون فيها.

{واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون} الذي ملككم وأعطاكم، ورزقكم وسخر لكم ما تقرنون ٢٢٥، ووهبكم من الخيرات ما فيه تتقلبون، حقه أن يشكر فلا يكفر، وأن يطاع فلا يعصى، فهو الذي أعطى وأجزل، وأنعم وتفضل!

١٣٣ - (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)

{بأنعام} ببهائم، وهي ما يعبر عنه بالثروة الحيوانية- ويراد بها الإبل والبقر والغنم غالبا- ويلحق بها الخيل.

{وبنين} وأبناء ذكور.

{وجنات} وبساتين وحدائق كثير شجرها، وافر خضرها.

{وعيون} ومياه متفجرة تتدفق بالماء العذب.

{أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون} آتاكم الله إبلا وبقرا وغنما عليها تدور معايشكم، وبها تقر نواظركم وتبتهج خواطركم، وهكذا جعل الله تعالى في الأنعام متاعا حسيا، ومتاعا نفسيا، وبها امتن عز وجل في الآيات الكريمة: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) ٢٢٦: كما وهبكم الأبناء منعة وعزا، ورزقكم ربكم البساتين والحدائق والزروع تطالعون بهاءها، وتقطفون ثمارها، وتغنمون خيرها، وأجرى لكم ماء الأنهار والعيون، و {أمدكم} الثانية بدل من الأولى، وتفسير لها

١٣٤ - (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣٣]

{بأنعام} ببهائم، وهي ما يعبر عنه بالثروة الحيوانية- ويراد بها الإبل والبقر والغنم غالبا- ويلحق بها الخيل.

{وبنين} وأبناء ذكور.

{وجنات} وبساتين وحدائق كثير شجرها، وافر خضرها.

{وعيون} ومياه متفجرة تتدفق بالماء العذب.

{أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون} آتاكم الله إبلا وبقرا وغنما عليها تدور معايشكم، وبها تقر نواظركم وتبتهج خواطركم، وهكذا جعل الله تعالى في الأنعام متاعا حسيا، ومتاعا نفسيا، وبها امتن عز وجل في الآيات الكريمة: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) ٢٢٧: كما وهبكم الأبناء منعة وعزا، ورزقكم ربكم البساتين والحدائق والزروع تطالعون بهاءها، وتقطفون ثمارها، وتغنمون خيرها، وأجرى لكم ماء الأنهار والعيون، و {أمدكم} الثانية بدل من الأولى، وتفسير لها

١٣٥ - (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

}يوم عظيم{ اليوم الآخر.
إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم{ إن العذاب الذي ينتظر من كفر واستكبر، عذاب لا يكتنه كنهه فأنا أخاف عليكم أن يوردكم العناد والإفساد موارد لا تقوون عليها، إنكم إن كذبتم الدعوة وخالفتم الرسالة، وبدلتم النعمة جبروتا واستكبرتم فإني أخاف عليكم حلول نقمة العزيز وبطشه، فإن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين، وسنته في كل عات تمضي كما مضت في الأولين- وما قوم نوح منكم ببعيد-:
}وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما (٢٢٨.
١٣٦ - (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)
}قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين{ قال القوم المكذبون- مصرين على كبريائهم وضلالهم: إنذارك وعدم إنذارك سواء، لن نستجيب لما دعوت إليه: (. . وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء. .)
٢٢٩ - وعدلوا عن: أم لم تعظ، الذي يقتضيه الظاهر، للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام لما في كلامهم على ما في النظم الجليل من استواء وعظه ولعدم الصرف البليغ، وهو عدم كونه من عداد الواعظين و جنسهم- ٢٣٠.
١٣٧ - (إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ)
}خلق الأولين{ اختلاقهم وافتراؤهم، أو عادتهم وديدنهم.
}إن هذا إلا خلق الأولين{ ما هذا الذي تنكر منا إلا إلف وعادة من سبقونا فهم على أثارهم مقتدون، أو: ما هذا الذي تدعونا إليه إلا اختلاق وخرافات وأساطير الأولين وديدنهم، ونفوا أن ينالهم عذاب عاجل أو آجل، وكأنهم أمنوا مكر الله، وجحدوا لقاءه، أو ظنوا أن ما أوتوا يحول بينهم وبين الدمار والنكال.
١٣٨ - (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣٧]
}خلق الأولين{ اختلاقهم وافتراؤهم، أو عادتهم وديدنهم.
}إن هذا إلا خلق الأولين{ ما هذا الذي تنكر منا إلا إلف وعادة من سبقونا فهم على أثارهم مقتدون، أو: ما هذا الذي تدعونا إليه إلا اختلاق وخرافات وأساطير الأولين وديدنهم، ونفوا أن ينالهم عذاب عاجل أو آجل، وكأنهم أمنوا مكر الله، وجحدوا لقاءه، أو ظنوا أن ما أوتوا يحول بينهم وبين الدمار والنكال.
١٣٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
}فأهلكناهم{ دمرناهم وقتلناهم.
}فكذبوه{ أصروا على التكذيب بالحق، والتطاول على الخلق، كما شهد عليهم الذكر الحكيم: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) ٢٣١، لقد كانوا يعرفون الرشد وأنعم الله ثم ينكرونها، كما وصفهم الله تعالى وقرناءهم بقوله الكريم: (. . وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) ٢٣٢.
}فأهلكناهم{ فمحوناهم ودمرناهم، (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) ٢٣٣ وأنزلنا البأس والعاصفة العقيم، (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) ٢٣٤، وفي ذلك البطش الشديد يقول ربنا الفعال لما يريد: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية) ٢٣٥.
إن في انتقامنا من كل باغ عات لعلامة على اقتدارنا، وعبرة لخلقنا، ولم يصدق بدعوة التوحيد من قوم هود إلا قلة تداركهم الله تعالى فأنقذهم من البلاء الذي حل بقومهم، يقول ربنا سبحانه: (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين{ ٢٣٦.

١٤٠ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

{وإن ربك} الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، أو كل من هو أهل للخطاب. {لهو العزيز} الغالب على أمره. {الرحيم} بمن آمن به يوم لقائه، وهكذا يشير القرآن الكريم إلى أنه في الآخرة يختص برحمته أهل الإيمان،). . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام. . (٢٣٧، وقال تبارك اسمه-: (. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) ٢٣٨، وهو جل علاه رحمان الدنيا، فنعمه ورزقه، وجوده وعطاؤه ينال من آمن ومن كفر: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون. وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) ٢٣٩.

١٤١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

{ثمود} قبيلة، كانوا يسكنون الحجر، والمدائن المسماة بمدائن صالح في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية معروفة.

الآيات الخمس الأولى من هذه القصة الكريمة من ١٤١: ١٤٥ معناها يقال فيه كالذي قيل في مثيلاتها مما تقدم

{كذبت ثمود المرسلين ١٤١ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ١٤٢ إني لكم رسول أمين ١٤٣ فاتقوا الله وأطيعون ١٤٤ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ١٤٥ أتتركون فيما ها هنا آمنين ١٤٦ في جنات وعيون ١٤٧ وزروع ونخل طلعها هضيم ١٤٨ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ١٤٩ فاتقوا الله وأطيعون ١٥٠ ولا تطيعوا أمر المسرفين ١٥١ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ١٥٢ قالوا إنما أنت من المسحرين ١٥٣ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ١٥٤ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ١٥٥ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ١٥٦ فعقروها فأصبحوا نادمين ١٥٧ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٥٨ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٥٩}

الآيات الخمس الأولى من هذه القصة الكريمة من ١٤١: ١٤٥ معناها يقال فيه كالذي قيل في مثيلاتها مما تقدم

١٤٢ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤١ إظهار

١٤٣ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤١ إظهار

١٤٤ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤١ إظهار

١٤٥ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤١ إظهار

١٤٦ - (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ)

{أتتركون فيما ها هنا آمين} - إنكار لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة آمنين من عذاب يوم عظيم، فالاستفهام مثله في قوله تعالى السابق: {أتبنون} وقوله تعالى اللاحق: {أتأتون} وكأن القوم اعتقدوا ذلك فأنكره- عليه السلام- عليهم، وجوز أن يكون الاستفهام للتقرير تذكيرا للنعمة في تخليته تعالى إياها وأسباب نفعهم آمنين من العدو ونحوه، واستدعاء لشكر ذلك بالإيمان- ٢٤٠.

و {ما} موصولة، و {هاهنا} إشارة إلى المكان الحاضر القريب

١٤٧ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

{طلعها هضيم} رطبها لين، يانع نضيج، هاضم للطعام، وأصلها: الطلعة التي تطلع من النخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخ القنو، فهو لطيف دقيق.

{في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم} قرعهم نبيهم صالح عليه السلام، وقصد إلى إيقاظهم من غفلتهم، فكأنه قال: أتظنون

أنكم باقون في الدنيا، مخلدون في هذا الأمن وهذه السعة، والعيش الهنيء لن يفارقكم ولن تفارقوه؟! هيهات! أورد الزمخشري سؤالا: فإن قلت لم قال: {ونخل} بعد قوله. {وجنات} والجنات تتناول النخل أول شيء، كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم ليذكرون الجنة- الحديقة- ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل؟ وأجاب. . .: فيه وجهان، أحدهما -أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها، والثاني- أن يريد بالجنات غيرها من الشجر، لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، والنخل اسم جنس جمعي، يذكر كما في قوله تعالى: (. . كأنهم أعجاز نخل منقعر) ٢٤١، ويؤنث كما في قوله تعالى: (. . . . كأنهم أعجاز نخل خاوية) ٢٤٢ وكما ها هنا: {ونخل طلعها هضيم} أي رطبها لين، يانع نضيج، هاضم للطعام، وأصل ثمرة النخل طلعة تطلع من رأس النخلة- كنصل السيف، في جوفه شماريخ القنو، ينشق عنها لطيفة دقيقة، فإذا لقح، وذر عليه من لقاح النخل انعقد فصار بسرا ثم بلحا ثم تمرا.

١٤٨ - (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

{طلعها هضيم} رطبها لين، يانع نضيج، هاضم للطعام، وأصلها: الطلعة التي تطلع من النخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخ القنو، فهو لطيف دقيق.

{في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم} قرعهم نبيهم صالح عليه السلام، وقصد إلى إيقاظهم من غفلتهم، فكأنه قال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا، مخلدون في هذا الأمن وهذه السعة، والعيش الهنيء لن يفارقكم ولن تفارقوه؟! هيهات! أورد الزمخشري سؤالا: فإن قلت لم قال: {ونخل} بعد قوله. {وجنات} والجنات تتناول النخل أول شيء، كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم ليذكرون الجنة- الحديقة- ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل؟ وأجاب. . .: فيه وجهان، أحدهما -أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها، والثاني- أن يريد بالجنات غيرها من الشجر، لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، والنخل اسم جنس جمعي، يذكر كما في قوله تعالى: (. . كأنهم أعجاز نخل منقعر) ٢٤٣، ويؤنث كما في قوله تعالى: (. . . . كأنهم أعجاز نخل خاوية) ٢٤٤ وكما ها هنا: {ونخل طلعها هضيم} أي رطبها لين، يانع نضيج، هاضم للطعام، وأصل ثمرة النخل طلعة تطلع من رأس النخلة- كنصل السيف، في جوفه شماريخ القنو، ينشق عنها لطيفة دقيقة، فإذا لقح، وذر عليه من لقاح النخل انعقد فصار بسرا ثم بلحا ثم تمرا.

١٤٩ - (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)

{تنحتون} تبرون وتنجرون.

{فارهين} حاذقين بنحتها، نشطين، أو متجبرين أشرين بطرين.

{وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين} وتبرون وتنجرون من صخور الجبال مساكن ودورا، حاذقين بنحتها نشطين، أو متجبرين أشرين بطرين

١٥٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

{المسرفين} المتجاوزين الحد.

{فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} دعاهم نبيهم إلى الرشد وتوحيد الله الصمد الفرد، مناديا: (. يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.) ٢٤٥، (. . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ٢٤٦، (. . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) ٢٤٧ (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) ٢٤٨ (. . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ٢٤٩، هكذا وعظهم نبيهم عليه السلام بما يرقق القلوب، ويدل العقول والأفئدة على مولانا الحق علام الغيوب، وصرف الحجة والبرهان على جلال الملك الديان ٢٥٠، لكنهم أعرضوا عن نداء الحق، واستجابوا لدعاة الضلال والزيغ، وهم يعرفون في نبيهم الأمانة والصدق، لكن غلبت عليهم الشقوة،

فاستبصروا الرشد وكتموه، وأدركوا طريق الفلاح والنجاة وجحدوه، (. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، وبهذا شهد الكتاب المبين: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى. .) ٢٥١.

١٥١ - (وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)

{المسرفين} المتجاوزين الحد.

{فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} دعاهم نبيهم إلى الرشد وتوحيد الله الصمد الفرد، مناديا: (. . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. .) ٢٥٢، (. . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ٢٥٣، (. . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) ٢٥٤ (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) ٢٥٥ (. . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ٢٥٦، هكذا وعظهم نبيهم عليه السلام بما يرقق القلوب، ويدل العقول والأفئدة على مولانا الحق علام الغيوب، وصرف الحجة والبرهان على جلال الملك الديان ٢٥٧، لكنهم أعرضوا عن نداء الحق، واستجابوا لدعاة الضلال والزيغ، وهم يعرفون في نبيهم الأمانة والصدق، لكن غلبت عليهم الشقوة، فاستبصروا الرشد وكتموه، وأدركوا طريق الفلاح والنجاة وجحدوه، (. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، وبهذا شهد الكتاب المبين: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى. .) ٢٥٨.

١٥٢ - (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥١]

{المسرفين} المتجاوزين الحد.

{فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} دعاهم نبيهم إلى الرشد وتوحيد الله الصمد الفرد، مناديا: (. . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. .) ٢٥٩، (. . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ٢٦٠، (. . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) ٢٦١ (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) ٢٦٢ (. . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ٢٦٣، هكذا وعظهم نبيهم عليه السلام بما يرقق القلوب، ويدل العقول والأفئدة على مولانا الحق علام الغيوب، وصرف الحجة والبرهان على جلال الملك الديان ٢٦٤، لكنهم أعرضوا عن نداء الحق، واستجابوا لدعاة الضلال والزيغ، وهم يعرفون في نبيهم الأمانة والصدق، لكن غلبت عليهم الشقوة، فاستبصروا الرشد وكتموه، وأدركوا طريق الفلاح والنجاة وجحدوه، (. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، وبهذا شهد الكتاب المبين: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى. .) ٢٦٥.

١٥٣ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

{المسحرين} المصابين بالسحر، المختلة عقولهم من أثره، أو: المعللين بالطعام والشراب.

{قالوا إنما أنت من المسحرين} أي الذين أصيبوا بسحر محبوك فاختلت عقولهم من أثره، هكذا يرمونه- عليه السلام- بالخبل والجنون مرة، ويرمونه بالكذب الملفق الذي يموه به على قومه ليستعلي عليهم، كما حكى الله تعالى قيلهم في آيات سورة القمر: (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) ٢٦٦

١٥٤ - (مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

}ما أنت إلا بشر مثلنا{ لا تليق للنبوة، كما قال أمثالهم فيما جاءت به آيات كريمات: (. . ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) ٢٦٧.
}فأت بآية{ - بعلامة على صحة دعواك }إن كنت من الصادقين{ في ادعائك الرسالة،
١٥٥ - (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)
}قال هذه ناقة{ - أي بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه ٢٦٨
}شرب{ حظ من الماء ونصيب تشربه.
}لها شرب ولكم شرب يوم معلوم{ أي لها حظ من الماء ونصيب تشربه في يوم ولكم نصيب شرب يوم [فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئا] ٢٦٩.
١٥٦ - (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
}ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم{ نهاهم أن يؤذوا الناقة بضرب أو تعد أو ذبح فإن فعلوا فسينزل بهم عذاب يوم هائل يعظم بلاؤه
١٥٧ - (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)
}فعقروها{ فذبحوها.
}فعقروها{ فذبحوا الناقة واستعلنوا بعصيان أمر الله تعالى وعناد نبيه ونقض عهده، في هذه الآية نسب ذبحها إلى القوم الظالمين جميعا، وفي آيات أخر نسب الذبح إلى واحد منهم كما جاء في قول المولى- تبارك اسمه-: (كذبت ثمود بطغواها. إذا انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) ٢٧٠، لكن لما رضوا بفعله بل انتدبوه له شاركوه جميعا البغي والفجور، وقاسموه العاقبة العاجلة للعتو والفجور، وسيقاسمونه العذاب البئيس الغليظ المقيم يوم البعث والنشور، فقد شهد القرآن الكريم أنهم استنفروه لذبحها، قال الله سبحانه: (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) ٢٧١ وقال عز من قائل: (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر) ٢٧٢.
}فأصبحوا نادمين{ - أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب. . . وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحا عليه السلام ليقتلوه. . - ٢٧٣ أقول: ولعل مما يشير إلى هذا المعنى ما بينته الآيات التي في سورة النمل: (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) ٢٧٤.
١٥٨ - (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
}فأخذهم العذاب{ فأحل الله القوي المتين بهم بأسه العاجل الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وكتب السلامة والفوز لرسوله صالح ومن معه من المؤمنين، وجعل الخزي والسوء على الكافرين، يقول الحق سبحانه: (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة. .) ٢٧٥.
}إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين{ إن في إهلاك العالين المسرفين، الذين كانوا من أكثر الناس أموالا وأولادا، وأترفوا في هذه الحياة الدنيا، واستعمرهم الله تعالى ومكن لهم ما لم يمكن لغيرهم، فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يستكبرون، وفي تدميرهم، وترك مساكنهم ودورهم لتبقى عبرة لغيرهم، وفي رعايته سبحانه لعباده الذين ينهون عن السوء، ويهدون بالحق وبه يعدلون، إن في ذلك لعظة للمتعظين، وعلامة للمتفكرين، وصدق الله العظيم: (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) ٢٧٦، ومهما قل عدد المصدقين، وكثر عدد الفاجرين الهالكين فلن يسوي الله تعالى بين الخبيث والطيب، ولو كثر الخبيث، ولن تغني عن الكافرين فئتهم شيئا ولو كثرت، (. . وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ٢٧٧ (. . وقليل من عبادي الشكور)

.٢٧٨
١٦٠ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)
{كذبت قوم لوط المرسلين ١٦٠ إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ١٦١ إني لكم رسول أمين ١٦٢ فاتقوا الله وأطيعون ١٦٣ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ١٦٣ أتأتون الذكران من العالمين ١٦٥ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ١٦٦ قالوا لئن تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ١٦٧ قال إني لعملكم من القالين ١٦٨ رب نجني وأهلي مما يعملون ١٦٩ فنجيناه وأهله أجمعين ١٧٠ إلا عجوزا في الغابرين ١٧١ ثم دمرنا الآخرين ١٧٢ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ١٧٣ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٧٤ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٧٥}

لوط عليه السلام كان قريبا لرسول الله تعالى وخليله إبراهيم عليه السلام، كان ابن عمه أو ابن أخيه- كما روى المؤرخون والمفسرون- وهو الذي استجاب لدعوة التوحيد والإسلام التي بعث بها إبراهيم عليه السلام، وبعد إلقاء الوثنيين لإبراهيم في النار وتسليمه بأمر الله منها أمر بالهجرة فهاجر ومعه زوجته التي آمنت به، ومعهما لوط عليه السلام، يقول الحق- تبارك اسمه-: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) ٢٧٩ ويقول سبحانه: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) ٢٨٠، وبعد الهجرة أرسل إلى قوم كانت لهم مدائن- قيل موضعها الآن هو المكان الذي فيه البحر الميت بالأردن- هذا والآيات المباركات الخمس من رقم ١٦٠ إلى رقم ١٦٤ الكلام في تفسيرها مثله في تفسير مثيلاتها مما تقدم في هذه السورة الكريمة

١٦١ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦٠ إظهار
١٦٢ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦٠ إظهار
١٦٣ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦٠ إظهار
١٦٤ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦٠ إظهار
١٦٥ - (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)
{أتأتون} أتنكحون؟
{الذكران} جمع ذكر.
{وتذرون} وتتركون.
{عادون} متعدون متجاوزون الحدود.

{أتأتون الذكران من العالمين} يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكهم الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك. . اهـ. حضهم نبيهم على عبادة الله وتوحيده، وطاعته واتباع ملته، والتصديق بما اؤتمن عليه لوط من كلمات الله تعالى ورسالته، فاحذروا أن تشركوا بالله شيئا، أو تخالفوا عن أمره، واستجيبوا لي فيما أبلغكم عن ربي، وأنكر عليهم رسولهم إليهم ما ابتدعوا من فاحشة- فالاستفهام إنكاري- ولم يسبقهم أحد في إتيان الرجال، وغشيان الذكور ونكاحهم، وقضاء الشهوة البهيمية في أدبار الرجال دون أقبال الأزواج وفروجهن، زين لهم سوء عملهم فأتوا الذكور من الأناسي، وقطعوا السبيل، وترصدوا لمن يمر على الطريق، وارتكبوا في نواديهم المنكر والفحش الخبيث، وتجاوزوا ما أحل الله لهم من الفروج إلى ما حرم عليهم منها، فكانوا بذلك باغين عادين متجاوزين حدود الله، مقيمين على هذا التعدي والفجور، مستعلنين بذلك غير مستخفين

١٦٦ - (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٥]
{أتأتون} أتنكحون؟
{الذكران} جمع ذكر.
{وتذرون} وتتركون.
{عادون} متعدون متجاوزون الحدود.
{أتأتون الذكران من العالمين} يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكهم الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك. . اهـ. حضهم نبيهم على عبادة الله وتوحيده، وطاعته واتباع ملته، والتصديق بما اؤتمن عليه لوط من كلمات الله تعالى ورسالته، فاحذروا أن تشركوا بالله شيئا، أو تخالفوا عن أمره، واستجيبوا لي فيما أبلغكم عن ربي، وأنكر عليهم رسولهم إليهم ما ابتدعوا من فاحشة- فالاستفهام إنكاري- ولم يسبقهم أحد في إتيان الرجال، وغشيان الذكور ونكاحهم، وقضاء الشهوة البهيمية في أدبار الرجال دون أقبال الأزواج وفروجهن، زين لهم سوء عملهم فأتوا الذكور من الأناسي، وقطعوا السبيل، وترصدوا لمن يمر على الطريق، وارتكبوا في نواديهم المنكر والفحش الخبيث، وتجاوزوا ما أحل الله لهم من الفروج إلى ما حرم عليهم منها، فكانوا بذلك باغين عادين متجاوزين حدود الله، مقيمين على هذا التعدي والفجور، مستعلنين بذلك غير مستخفين
١٦٧ - (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)
{المخرجين} المنفيين.
{قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ضاقوا بنهي نبيهم عن الفاحشة والمنكر، وأنذروه بالطرد من أرضهم ما لم يكف عن زجرهم، وتقبيح صنيعهم في الاستمتاع بأدبار ذكرانهم، وفي آية أخرى كريمة لم يكتفوا بإنذاره عليه السلام بل عزموا على إقصائه وأهله عن مدنهم، وكان ذلك ردهم على هدايته وموعظته لهم، يقول المولى تبارك اسمه: (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) ٢٨١، وفي آية مباركة ثالثة: (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) ٢٨٢
١٦٨ - (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)
{القالين} الكارهين المبغضين.
{قال إني لعملكم من القالين} مع أنه – صلى الله عليه وسلم- كان حديث عهد بهجرة، وقد ترك ملة قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام من دون الله، ومع أنه لم تكن له عصبة يؤازرونه، وما آمن معه إلا قليل، كل هذا لم يرد نبي الله عن البراءة من جرمهم، وإعلان السخط على ذميم فعلهم، وواجههم بأنه من الكارهين لإثمهم، والقالي: المبغض- كما قدمنا-.
١٦٩ - (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)
{رب نجني وأهلي مما يعملون} دعا ربه العصمة من السوء والفحشاء، وسأله ضارعا أن يحميه وأهله من أوزارهم، وينجيه من عاقبة فجورهم
١٧٠ - (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)
{فنجيناه وأهله أجمعين} استجاب الله تعالى دعوته، وحماه وعشيرته المتقين من خزي الفسوق، وبطشه الكبير المتعال بأهل العقوق والمروق.
وقد حكى القرآن الكريم ما حملته الملائكة وأنفذته من أمر الله في لوط وفي أتباعه، وفي العاصين لربهم ونبيهم: (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين. فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين. وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ٢٨٣

١٧١ - (إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)
{عجوزا} طاعنة متقدمة كبيرة في السن.
{الغابرين} الباقين بعد مضي من معهم.
{إلا عجوزا في الغابرين} إلا امرأته شاء الله أن يجعلها في الهالكين، بما رضيت من طغيان المفسدين، فبقيت لتنال جزاء الظالمين، قال النحاس: يقال للذاهب: غابر، والباقي: غابر. اه.
١٧٢ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ)
{دمرنا} أهلكنا.
وحين جاء أمر الله إلى لوط ليبدأ رحلة النجاة، علم أن امرأته لن تسعد برفقة الفائزين: (. . فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم. .) ٢٨٤، {ثم دمرنا الآخرين} ما إن ابتعد لوط ومن معه عن القرى التي كانت تعمل الخبائث، حتى فاجأت المجرمين صيحة من ملائكة الله المكرمين، صبيحة نجاة المؤمنين، وأعقبتها نقمة بئيسة، فاقتلعت تلك المدائن ثم رفعت وقلبت منكسة، كما بينت الآية هذا العذاب الوبيل: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها. .) ٢٨٥.
١٧٣ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)
{دمرنا} أهلكنا.
{فساء} فبئس.
{وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين} صب الله تعالى على مكذبي لوط مطرا سيئا ببغيهم، وما كان ماء منهمرا، وإنما كان صخرا ونارا، وفي ذلك يقول الله الحق: (. . وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) ٢٨٦
١٧٤ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} إن في إنجائنا للمتقين، وإهلاك الباغين الفاجرين، لعلامات على نصرتنا للمؤمنين، وقدرتنا على محق الطاغين، وإن قل عدد المصدقين، وكثرت جموع المبطلين
١٧٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
{وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وإن مولانا وخالقنا ومصلح شأننا لقوي لا يغالب، رحيم بالقائمين على الحق، والحافظين لحدود الله.
١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)
{الأيكة} الغيضة التي تنتج الشجر الناعم، أو واحدة الأيك، الشجر الملتف.
{كذب أصحاب الأيكة المرسلين ١٧٦ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ١٧٧ إني لكم رسول أمين ١٧٨ فاتقوا الله وأطيعون ١٧٩ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ١٨٠ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ١٨١ وزنوا بالقسطاس المستقيم ١٨٢ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ١٨٣ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ١٨٤ قالوا إنما أنت من المسحّرين ١٨٥ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ١٨٦ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ١٨٧ قال ربي أعلم بما تعملون ١٨٨ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ١٨٩ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٩٠ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٩١}
كذب القوم الذين رزقوا الواحة الخصبة المخضرة، والتي كثر شجرها والتف، وتشابكت أغصانه، قيل: كان شجرا ناعما ينبت في غيضة ممتدة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام- وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل: {إذ قال لهم شعيب ألا تتقون} ولم يقل: أخوهم، وقيل {الأيكة} الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين {أصحاب الأيكة} غير أهل مدين. . - ٢٨٧، ومع أنهم لم يكذبوا إلا شعيبا، لكن جعل تكذيبهم لرسول من رسل الله كأنه تكذيب لكافة المرسلين.
نقل القرطبي عن عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين،

وإلى أصحاب الأيكة،. . ثم قال: وقال الخليل: {الأيكة} غيضة: تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. . .
١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)
وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام- وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل: {إذ قال لهم شعيب ألا تتقون} ولم يقل: أخوهم، وقيل {الأيكة} الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين {أصحاب الأيكة} غير أهل مدين. . - ٢٨٨، ومع أنهم لم يكذبوا إلا شعيبا، لكن جعل تكذيبهم لرسول من رسل الله كأنه تكذيب لكافة المرسلين.
نقل القرطبي عن عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة،. . ثم قال: وقال الخليل: {الأيكة} غيضة: تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. . . ثم قال: ولم يقل: أخوهم شعيب، لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال:). . أخاهم شعيبا. .) لأنه كان منهم. . قال ابن زيد: أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة، وقاله قتادة:. . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة، لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. اهـ.
١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧٧]
وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام- وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل: {إذ قال لهم شعيب ألا تتقون} ولم يقل: أخوهم، وقيل {الأيكة} الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين {أصحاب الأيكة} غير أهل مدين. . - ٢٨٩، ومع أنهم لم يكذبوا إلا شعيبا، لكن جعل تكذيبهم لرسول من رسل الله كأنه تكذيب لكافة المرسلين.
نقل القرطبي عن عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة،. . ثم قال: وقال الخليل: {الأيكة} غيضة: تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. . . ثم قال: ولم يقل: أخوهم شعيب، لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال:). . أخاهم شعيبا. .) لأنه كان منهم. . قال ابن زيد: أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة، وقاله قتادة:. . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة، لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. اهـ.
١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧٧]
وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام- وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل: {إذ قال لهم شعيب ألا تتقون} ولم يقل: أخوهم، وقيل {الأيكة} الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين {أصحاب الأيكة} غير أهل مدين. . - ٢٩٠، ومع أنهم لم يكذبوا إلا شعيبا، لكن جعل تكذيبهم لرسول من رسل الله كأنه تكذيب لكافة المرسلين.
نقل القرطبي عن عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة،. . ثم قال: وقال الخليل: {الأيكة} غيضة: تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. . . ثم قال: ولم يقل: أخوهم شعيب، لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال:). . أخاهم شعيبا. .) لأنه كان منهم. . قال ابن زيد: أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة، وقاله قتادة:. . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة، لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. اهـ.

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧٧]
وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام- وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل: {إذ قال لهم شعيب ألا تتقون} ولم يقل: أخوهم، وقيل {الأيكة} الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين {أصحاب الأيكة} غير أهل مدين. . - ٢٩١، ومع أنهم لم يكذبوا إلا شعيبا، لكن جعل تكذيبهم لرسول من رسل الله كأنه تكذيب لكافة المرسلين.
نقل القرطبي عن عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة،. . ثم قال: وقال الخليل: {الأيكة} غيضة: تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. . . ثم قال: ولم يقل: أخوهم شعيب، لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال:). . أخاهم شعيبا. .) لأنه كان منهم. . قال ابن زيد: أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة، وقاله قتادة:. . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة، لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. اه.
١٨١ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)
{المخسرين} الناقصين للكيل والوزن، والعادين على حقوق الناس بالتطفيف.
{بالقسطاس المستقيم} بالميزان السوي، والنصفة في الحقوق.
{ولا تبخسوا} ولا تنقصوا.
{تعثوا} تهبوا للفساد الشديد.
{أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين} أتموا الكيل ولا تنقصوا منه شيئا، وزنوا بالميزان السوي، وأنصفوا، ولا تغمطوا حقوق الناس ولا تطففوا، وهكذا وصت الآيات المباركات بإعطاء كل ذي حق حقه، مكيلا كان الحق أو موزونا، أو محمدة أو فضلا، أو مكرمة أو بلاء، أو منحة أو عطاء، فكل منها يصح أن يسمى شيئا، وويل للذين يلبسون ثوب الزور، ويدعون ما ليس لهم، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فويل لهم، وختمت الآيات الكريمة بعد النهي عن التطفيف والتخسير، والسطو على ما أفاء الله به على الغير، ختمت بالتحذير من السعي بالإفساد المهلك المدمر، ليتذكر أولو الألباب أن ركوب هذه الموبقات والأوزار والسيآت يختل به عمران الكون، ويضطرب سنن الحياة السوية على الأرض، فيسوء عاجل الناس، ثم لهم في آجلهم أخرى مما هم ملاقوه في الأولى، وصدق الله العظيم: (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين) ٢٩٢.
١٨٢ - (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)
{المخسرين} الناقصين للكيل والوزن، والعادين على حقوق الناس بالتطفيف.
{بالقسطاس المستقيم} بالميزان السوي، والنصفة في الحقوق.
{ولا تبخسوا} ولا تنقصوا.
{تعثوا} تهبوا للفساد الشديد.
{أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين} أتموا الكيل ولا تنقصوا منه شيئا، وزنوا بالميزان السوي، وأنصفوا، ولا تغمطوا حقوق الناس ولا تطففوا، وهكذا وصت الآيات المباركات بإعطاء كل ذي حق حقه، مكيلا كان الحق أو موزونا، أو محمدة أو فضلا، أو مكرمة أو بلاء، أو منحة أو عطاء، فكل منها يصح أن يسمى شيئا، وويل للذين يلبسون ثوب الزور، ويدعون ما ليس لهم، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فويل لهم، وختمت الآيات الكريمة بعد النهي عن التطفيف والتخسير، والسطو على ما أفاء الله به على الغير، ختمت بالتحذير من السعي بالإفساد المهلك المدمر، ليتذكر أولو الألباب أن ركوب هذه الموبقات والأوزار والسيآت يختل به عمران الكون، ويضطرب سنن الحياة السوية على الأرض،

فيسوء عاجل الناس، ثم لهم في آجلهم أخرى مما هم ملاقوه في الأولى، وصدق الله العظيم: (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين) ٢٩٣.

١٨٣ - (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

{المخسرين} الناقصين للكيل والوزن، والعادين على حقوق الناس بالتطفيف.

{بالقسطاس المستقيم} بالميزان السوي، والنصفة في الحقوق.

{ولا تبخسوا} ولا تنقصوا.

{تعثوا} تهبوا للفساد الشديد.

{أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين} أتموا الكيل ولا تنقصوا منه شيئا، وزنوا بالميزان السوي، وأنصفوا، ولا تغمطوا حقوق الناس ولا تطففوا، وهكذا وصت الآيات المباركات بإعطاء كل ذي حق حقه، مكيلا كان الحق أو موزونا، أو محمدة أو فضلا، أو مكرمة أو بلاء، أو منحة أو عطاء، فكل منها يصح أن يسمى شيئا، وويل للذين يلبسون ثوب الزور، ويدعون ما ليس لهم، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فويل لهم، وختمت الآيات الكريمة بعد النهي عن التطفيف والتخسير، والسطو على ما أفاء الله به على الغير، ختمت بالتحذير من السعي بالإفساد المهلك المدمر، ليتذكر أولو الألباب أن ركوب هذه الموبقات والأوزار والسيآت يختل به عمران الكون، ويضطرب سنن الحياة السوية على الأرض، فيسوء عاجل الناس، ثم لهم في آجلهم أخرى مما هم ملاقوه في الأولى، وصدق الله العظيم: (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين) ٢٩٤.

١٨٤ - (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ)

{الجبلة} الخليقة.

{واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين} وخافوا الذي أنشأكم، وأوجد الخلائق الذين عاشوا قبلكم، فإنه جامع الناس ليوم يجدون فيه ما كانوا قد عملوه، وتجدون عملكم، ثم توفون وإياهم جزاءكم

١٨٥ - (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

{المسحرين} الذين خبلهم السحر، أو من الخلق ذوي السحر أي الرئة، أي: تأكل الطعام، وتحتاج إلى الشراب.

{كسفا} قطعا، وجوانب.

{قالوا إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين} فردوا على دعوة الهدى، والتحذير من الخسران والردى، بتكذيب نبيهم، وإنكار أن يكون مرسلا، وآذوه واتهموه- بهتانا- بأنه من الذين خبلهم السحر، وأذهب عقلهم مس الشيطان، أو من الخلق ذوي السحر الذي هو الرئة، يعنون أنه صاحب جوف وأحشاء، يحتاج إلى الشراب والطعام والغذاء، وذلك- في زعمهم- مما لا يتفق ودعوى الرسالة، فكأنهم قالوا ما حكاه القرآن عن المكذبين: (. . ولو شاء الله لأنزل ملائكة. .) ٢٩٥ (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) ٢٩٦، ثم استعجلوا العذاب، إذ غلبت عليهم الشقوة، كالذي أملاه البطر والعتو والغرور على من كذبوا النبي الخاتم محمدا صلى الله عليه وسلم: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٢٩٧. وكما قال قوم نوح لنوح: (. . قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٢٩٨.

١٨٦ - (وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨٥]

{المسحرين} الذين خبلهم السحر، أو من الخلق ذوي السحر أي الرئة، أي: تأكل الطعام، وتحتاج إلى الشراب.

{كسفا} قطعا، وجوانب.

{قالوا إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين}

فردوا على دعوة الهدى، والتحذير من الخسران والردى، بتكذيب نبيهم، وإنكار أن يكون مرسلا، وآذوه واتهموه- بهتانا- بأنه من الذين خبلهم السحر، وأذهب عقلهم مس الشيطان، أو من الخلق ذوي السحر الذي هو الرئة، يعنون أنه صاحب جوف وأحشاء، يحتاج إلى الشراب والطعام والغذاء، وذلك- في زعمهم- مما لا يتفق ودعوى الرسالة، فكأنهم قالوا ما حكاه القرآن عن المكذبين: (. . ولو شاء الله لأنزل ملائكة.) ٢٩٩ (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) ٣٠٠، ثم استعجلوا العذاب، إذ غلبت عليهم الشقوة، كالذي أملاه البطر والعتو والغرور على من كذبوا النبي الخاتم محمدا صلى الله عليه وسلم: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٣٠١. وكما قال قوم نوح لنوح: (. . قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٠٢.

١٨٧ - (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{كسفا} قطعا، وجوانب.

{قالوا إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين}

فردوا على دعوة الهدى، والتحذير من الخسران والردى، بتكذيب نبيهم، وإنكار أن يكون مرسلا، وآذوه واتهموه- بهتانا- بأنه من الذين خبلهم السحر، وأذهب عقلهم مس الشيطان، أو من الخلق ذوي السحر الذي هو الرئة، يعنون أنه صاحب جوف وأحشاء، يحتاج إلى الشراب والطعام والغذاء، وذلك- في زعمهم- مما لا يتفق ودعوى الرسالة، فكأنهم قالوا ما حكاه القرآن عن المكذبين: (. . ولو شاء الله لأنزل ملائكة.) ٣٠٣ (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) ٣٠٤، ثم استعجلوا العذاب، إذ غلبت عليهم الشقوة، كالذي أملاه البطر والعتو والغرور على من كذبوا النبي الخاتم محمدا صلى الله عليه وسلم: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٣٠٥. وكما قال قوم نوح لنوح: (. . قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٠٦.

١٨٨ - (قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{قال ربي أعلم بما تعملون} فوض شعيب الأمر إلى من بيده الأمر- جل ثناؤه، وتباركت أسماؤه- وذكرهم بأن المولى المعبود، والمنعم المحمود، أحاط بكل شيء علما، ومنه ما تعملون من كفر وتطفيف، وسفاهة وتكذيب، واستعجال بالهلاك والتتبيب، وإليه جزاؤكم العاجل منه والآجل، يأتيكم به إن شاء متى يشاء، وليس ذلك إلي، إنما أنا مبلغ ما يوحى إلي

١٨٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

{يوم الظلة} يوم اشتد بهم الحر فالتمسوا ما يستظلون به، فأحرقوا.

{فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم} فأمعنوا في تكذيب نبيهم، وحل موعد إهلاكهم، فسلط الله عليهم حرا شديدا لم يطفئه عنهم شيء، حتى إذا رأوا غمامة آووا إليها، فلما اجتمعوا تحتها يستظلون بها أسقطها الله تعالى عليهم، فدكتهم وأحرقتهم (. . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) ٣٠٧.

قال قتادة: بعث الله شعيبا إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. اه

١٩٠ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

{إن في ذلك لآية} إن في الذي فعلنا بالمكذبين لعلامة على إمهالنا المجرمين، وبطشنا بالمفسدين، وإن متعناهم إلى حين، {وما كان أكثرهم مؤمنين} قليل من العباد من يصدق بالحق ولا تجد أكثرهم مستيقنين، ولا لأنعم الكريم الوهاب شاكرين

١٩١ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم} ويقينا مؤكدا أن وليك ومعبودك ومصلحك لهو الذي يغلب ولا يغلب، وإنه لهو الرحيم بأحبابه وأنصار

دينه، يؤيدهم في العاجلة على من عاداهم، وينعمهم في الآخرة ويكرم مثواهم، - يقول تعالى ذكره: إن في تعذيبنا قوم شعيب عذاب يوم الظلة بتكذيبهم نبيهم شعيب لآية لقومك يا محمد، وعبرة لمن اعتبر أن اعتبروا أن سنتنا فيهم بتكذيبهم إياك سنتنا في أصحاب الأيكة {وما كان أكثرهم مؤمنين} في سابق علمنا فيهم، {وإن ربك} يا محمد {لهو العزيز} في نقمته ممن انتقم منه من أعدائه، {الرحيم} بمن تاب من خلقه وأناب إلى طاعته- ٣٠٨.

وهكذا قص الله تعالى علينا من أنباء الرسل في هذه السورة المباركة سبع قصص: قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه، حتى الآية الكريمة الثامنة والستين، وقصة إبراهيم عليه السلام وما تبعها حتى الآية المباركة الرابعة بعد المائة، ثم قصة نوح عليه السلام حتى الثانية والعشرين بعد المائة، ثم قصة هود عليه السلام مع قومه حتى الآية الأربعين بعد المائة، ثم قصة صالح عليه السلام مع قومه حتى الآية التاسعة والخمسين بعد المائة، ثم قصة لوط عليه السلام مع قومه حتى الآية الخامسة والسبعين بعد المائة، ثم ختمت بقصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة حتى الآية الحادية والتسعين بعد المائة، [ولعل الاقتصار على هذا العدد- على ما قيل- لأنه عدد تام، وأنا أفوض العلم بسر ذلك، وكذا العلم بسر ترتيب القصص على هذا الوجه لحضرة علام الغيوب جل شأنه] ٣٠٩.

مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن. .: واعلم أنه سبحانه كرر بعض الآيات في هذه السورة لأجل التأكيد والتقرير، فمن ذلك أنه كرر قوله: {إن في ذلك لآية} إلى قوله: {الرحيم} في ثمانية مواضع: أولها- في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، والثانية- في قصة موسى، ثم إبراهيم، ثم نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب، ومن ذلك قوله: {ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} وهو مذكور في خمسة مواضع: في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ومن ذلك أنه كرر {فاتقوا الله وأطيعون} في قصة نوح وهود وصالح، ليس في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، لذكرها في مواضع من غير هذه السورة، وليس في قصة موسى لأنه رباه فرعون حيث قال: {ألم نربك فينا وليدا} ولا في قصة إبراهيم، لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: {إذ قال لأبيه وقومه} وهو قد رباه فاستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا: وما أسألكم عليه من أجر، وإن كانا منزهين من طلب الأجر، ثم إنه تعالى أعاد في هذه السورة قصص الأنبياء المشهورين مع أممهم اعتبارا لهذه الأمة، وبدأ بقصة موسى لما فيها من غرائب الأحوال، وعجائب الأمور، والنداء المسموع عند الأشعري: هو الكلام القديم الذي لا يشبه الحروف والأصوات، وعند المعتزلة –وإليه ميل أبي منصور الماتريدي- أنه من جنس الحروف والأصوات، وأنه وقع على وجه علم به موسى أنه من قبل الله تعالى، وقد عرفه أنه سيظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك. . أه.

١٩٢ - (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{رب العالمين} ولي العوالم كلها، ومصلحها، ومالكها، ومطاعها.

{الروح الأمين} روح القدس، جبريل عليه السلام، أمين الوحي.

{وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٤ بلسان عربي مبين ١٩٥ وإنه لفي زبر الأولين ١٩٦ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ١٩٧ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ١٩٨ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ١٩٩ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ٢٠٠ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ١٠١ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ٢٠٢ فيقولوا هل نحن منظرون ٢٠٣ أفبعذابنا يستعجلون ٢٠٤}

يشهد ربنا الحق أن القرآن المجيد تنزيل من مصلح ومالك وولي الكون كله، ومن هذا شأنه لا يصدر عنه إلا كل حكيم وحق، وحامل هذا الوحي من الله إليك هو جبريل-عليه السلام- وإنه المفضل على سائر الملائكة، وبحسبه شرفا بين الملأ الأعلى- ورفعتهم وعلو منزلتهم بالغة- أن كرمه الله تعالى فجعله الأمين على تبليغ رسالات الملك الكبير المتعال ذي الجلال- سبحانه- إلى رسله، وإلى ذلك يشير قول الله- تبارك اسمه-: (. . فإنه نزله على قلبك بإذن الله. .) ٣١٠ وقوله عز شأنه: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق. .) ٣١١، وتأتي آيات متتابعات في سورة التكوير يثني الله تعالى فيها على الروح الأمين، المنزل من الله بالقرآن العظيم: (إنه لقول رسول كريم.

ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين) ٣١٢، له مكان عند الله ومنزلة رفيعة، مسموع القول مطاع هناك في السماوات، مزكى من الله تعالى بالأمانة: {على قلبك لتكون من المنذرين}

١٩٣ - (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩٢]

{رب العالمين} ولي العوالم كلها، ومصلحها، ومالكها، ومطاعها.

{الروح الأمين} روح القدس، جبريل عليه السلام، أمين الوحي.

{وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٤ بلسان عربي مبين ١٩٥ وإنه لفي زبر الأولين ١٩٦ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ١٩٧ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ١٩٨ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ١٩٩ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ٢٠٠ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ١٠١ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ٢٠٢ فيقولوا هل نحن منظرون ٢٠٣ أفبعذابنا يستعجلون ٢٠٤}

يشهد ربنا الحق أن القرآن المجيد تنزيل من مصلح ومالك وولي الكون كله، ومن هذا شأنه لا يصدر عنه إلا كل حكيم وحق، وحامل هذا الوحي من الله إليك هو جبريل-عليه السلام- وإنه المفضل على سائر الملائكة، وبحسبه شرفا بين الملأ الأعلى- ورفعتهم وعلو منزلتهم بالغة- أن كرمه الله تعالى فجعله الأمين على تبليغ رسالات الملك الكبير المتعال ذي الجلال- سبحانه- إلى رسله، وإلى ذلك يشير قول الله- تبارك اسمه-: (. . فإنه نزله على قلبك بإذن الله. .) ٣١٣ وقوله عز شأنه: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق. .) ٣١٤، وتأتي آيات متتابعات في سورة التكوير يثني الله تعالى فيها على الروح الأمين، المنزل من الله بالقرآن العظيم: (إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين) ٣١٥، له مكان عند الله ومنزلة رفيعة، مسموع القول مطاع هناك في السماوات، مزكى من الله تعالى بالأمانة: {على قلبك لتكون من المنذرين}

١٩٤ - (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

{المنذرين} المخوفين النَاس، المحذرينَ العباد من عصيان المعبود سبحانه.

{على قلبك لتكون من المنذرين} يتلوه جبريل فينتقش على قلبك، وليس أثر تلاوته مقتصرا على مجرد إسماعك إياه، وإلى ذلك يشير قول الله سبحانه (سنقرئك فلا تنسى) ٣١٦، أو ينزل به برد اليقين على قلبك فتزداد في الحق مضاء، وبه صرح القرآن: (. . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) ٣١٧، {لتكون من المنذرين} لتنذر بالقرآن، وتحذر من خالفه، وتخوف الناس عاقبة الكفر والطغيان والعصيان

١٩٥ - (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

{مبين} واضح موضح، ظاهر مظهر للحق.

{بلسان عربي مبين} مثلما أرسلنا كل رسول ممن سبق بلسان قومه ليبين لهم، أرسلناك بهذا القرآن العربي الفصيح المعجز المتسامي في بلاغته إلى حد لا يستطيع الإنس والجن- ولو اجتمعوا- أن يبلغوه أو يضاهوه، أو يأتوا بكلام يماثله أو يقاربه

١٩٦ - (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ)

{زبر الأولين} كتب السابقين من الأنبياء.

{وإنه لفي زبر الأولين} وإن ذكر القرآن وخبره لمثبت في الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسل سابقين، يقول أبو الفدا إسماعيل بن كثير: أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا في ملئه بالبشارة بأحمد- خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم-: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. .) ٣١٨ والزبر هاهنا: هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور: وهو كتاب داود، قال الله تعالى: (وكل شيء فعلوه في الزبر) ٣١٩ أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة. اه.

١٩٧ - (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)
{آية} علامة على صدقه.
{بني إسرائيل} أبناء إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام.
{أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}؟! أو لم يكن لهم علامة على صدق القرآن ومن أنزل عليه أن شهد العلماء بالتوراة والإنجيل- وهم من ذرية إسرائيل يعقوب عليه السلام- شهدوا للقرآن بالصدق، ولمن أوحي إليه بالرسالة، ومن هؤلاء العلماء: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي وأمثاله يلحقون به.
[قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود- وهم بالمدينة- يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته، فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم، أسلم أو لم يسلم- على هذا القول- وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب، لأنهم مظنون بهم علم
١٩٨ - (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)
{الأعجمين} العاجزين عن التكلم باللسان العربي.
{ولو نزلناه على بعض الأعجمين} ولو نزل الوحي بالقرآن على بعض من لا يقدرون على التكلم بالعربية، وعلى رجل ليس بعربي اللسان
١٩٩ - (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)
{فقرأه عليهم} بلسانهم أو بغيره {ما كانوا به مؤمنين} ما كانوا ولا صاروا بقراءة الأعجمي عليهم بمصدقين، إما لعدم فهمهم لما يتلوه، كما قال المولى الحكيم العليم: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي. ٠) ٣٢٠، أو تأنفوا واستكبروا لأنه قد بعث إليهم من ليس من العرب
٢٠٠ - (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)
{سلكناه} أدخلناه.
{المجرمين} المقترفين للجرائم، المرتكبين الذنوب والخطايا والسيآت.
{كذلك سلكناه في قلوب المجرمين} لذلك أدخلنا القرآن وأوصلناه إلى عقول المجرمين، فعرفوا فصاحته، وفهموا معانيه، وأذعنوا لبلاغته، وخضعت أعناقهم لقدسيته وأنه خارج عن القوى البشرية، - وقد انضم إليه علم أهل الكتابين بشأنه وبشارة الكتب المنزلة بإنزاله، فقوله تعالى: {لا يؤمنون به}
٢٠١ - (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)
فقوله تعالى {لا يؤمنون به} جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يتأثرون بامتثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على ما هم عليه {حتى يروا العذاب الأليم} الملجئ إلى الإيمان به، وحينئذ لا ينفعهم ذلك- ٣٢١.
٢٠٢ - (فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)
{فيأتيهم} فيجيئهم.
{بغتة} فجأة، ومباغتة.
{منظرون} مؤجلون، مؤخرون.
{يستعجلون} يطلبونه عاجلا سريعا قبل أوانه.
{فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن منظرون. أفبعذابنا يستعجلون} فيجيئ العذاب الموجع القوم المشركين المنكرين المكذبين فجأة، ولم تنتبه مشاعرهم إلى مجيئه وإتيانه، من قسوة قلوبهم، وغفلة عقولهم، وحين يحل بهم النكال والوبال يقولون متحسرين على ما فات من الإيمان، وتمنيا للإمهال لتدارك ما فرطوا فيه: هل نؤخر ونؤجل، أو نرجع فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل؟! وقد كانوا من قبل يطلبون العذاب قبل حلول أوانه، ويستعجلونه- عنادا وجحدا- كما جاء في الآية الكريمة: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. ٠)

٣٢٢، وكما قال قوم نوح لنوح: (. . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٢٣ وكما قال المشركون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. .) ٣٢٤، بل وقست قلوبهم فسألوا الله العلي الأعلى أن يمطرهم حجارة، واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٣٢٥.

٢٠٣ - (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٢]

{فيأتيهم} فيجيئهم.

{بغتة} فجأة، ومباغتة.

{منظرون} مؤجلون، مؤخرون.

{يستعجلون} يطلبونه عاجلا سريعا قبل أوانه.

{فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن منظرون. أفبعذابنا يستعجلون} فيجئ العذاب الموجع القوم المشركين المنكرين المكذبين فجأة، ولم تنتبه مشاعرهم إلى مجيئه وإتيانه، من قسوة قلوبهم، وغفلة عقولهم، وحين يحل بهم النكال والوبال يقولون متحسرين على ما فات من الإيمان، وتمنيا للإمهال لتدارك ما فرطوا فيه: هل نؤخر ونؤجل، أو نرجع فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل؟! وقد كانوا من قبل يطلبون العذاب قبل حلول أوانه، ويستعجلونه- عنادا وجحدا- كما جاء في الآية الكريمة: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. .) ٣٢٦، وكما قال قوم نوح لنوح: (. . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٢٧ وكما قال المشركون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. .) ٣٢٨، بل وقست قلوبهم فسألوا الله العلي الأعلى أن يمطرهم حجارة، واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٣٢٩.

٢٠٤ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٢]

{فيأتيهم} فيجيئهم.

{بغتة} فجأة، ومباغتة.

{منظرون} مؤجلون، مؤخرون.

{يستعجلون} يطلبونه عاجلا سريعا قبل أوانه.

{فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن منظرون. أفبعذابنا يستعجلون} فيجئ العذاب الموجع القوم المشركين المنكرين المكذبين فجأة، ولم تنتبه مشاعرهم إلى مجيئه وإتيانه، من قسوة قلوبهم، وغفلة عقولهم، وحين يحل بهم النكال والوبال يقولون متحسرين على ما فات من الإيمان، وتمنيا للإمهال لتدارك ما فرطوا فيه: هل نؤخر ونؤجل، أو نرجع فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل؟! وقد كانوا من قبل يطلبون العذاب قبل حلول أوانه، ويستعجلونه- عنادا وجحدا- كما جاء في الآية الكريمة: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. .) ٣٣٠، وكما قال قوم نوح لنوح: (. . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٣١ وكما قال المشركون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. .) ٣٣٢، بل وقست قلوبهم فسألوا الله العلي الأعلى أن يمطرهم حجارة، واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ٣٣٣.

٢٠٥ - (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

{أفرأيت} أفعلمت فتخبر؟! استفهام يراد به التقرير أو النفي كأنه: علمت فأخبر.

{أفرأيت إن متعناهم سنين ٢٠٥ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ٢٠٦ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ٢٠٧ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ٢٠٨ ذكرى وما كنا ظالمين ٢٠٩}

الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم هو لكل من هو أهل للخطاب، أي قد علمت فأخبر حتى يعجب الناس ويتذكروا ويعتبروا

أن المجرمين المكذبين مهما متعوا من سنين، وطال تقلبهم في الشهوات، والزخارف والزينات، ثم حل بهم بأس القوي المتين، وبطش الجبار القهار، فلن يغني عنهم ما متعوا ٣٣٤ وأترفوا فيه، وإنما تكون الحسرات، ويود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، ولو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، وتتزايل عنهم الغفلة، ويشهد الواحد منهم على نفسه بالضلال والخبال، وقلة نفع ما كان ممتعا فيه من سطوة ومال: (ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه) ٣٣٥، ويشهد الله الحق أن هلكة هذا الفاجر لن يردها عنه ما كان لديه من عرض: (وما يغني عنه ماله إذا تردى) ٣٣٦.

٢٠٦ - (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٥]

{أفرأيت} أفعلمت فتخبر؟! استفهام يراد به التقرير أو النفي كأنه: علمت فأخبر.

{أفرأيت إن متعناهم سنين ٢٠٥ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ٢٠٦ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ٢٠٧ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ٢٠٨ ذكرى وما كنا ظالمين ٢٠٩}

الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم هو لكل من هو أهل للخطاب، أي قد علمت فأخبر حتى يعجب الناس ويتذكروا ويعتبروا أن المجرمين المكذبين مهما متعوا من سنين، وطال تقلبهم في الشهوات، والزخارف والزينات، ثم حل بهم بأس القوي المتين، وبطش الجبار القهار، فلن يغني عنهم ما متعوا ٣٣٧ وأترفوا فيه، وإنما تكون الحسرات، ويود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، ولو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، وتتزايل عنهم الغفلة، ويشهد الواحد منهم على نفسه بالضلال والخبال، وقلة نفع ما كان ممتعا فيه من سطوة ومال: (ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه) ٣٣٨، ويشهد الله الحق أن هلكة هذا الفاجر لن يردها عنه ما كان لديه من عرض: (وما يغني عنه ماله إذا تردى) ٣٣٩.

٢٠٧ - (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠٥]

{أفرأيت} أفعلمت فتخبر؟! استفهام يراد به التقرير أو النفي كأنه: علمت فأخبر.

{أفرأيت إن متعناهم سنين ٢٠٥ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ٢٠٦ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ٢٠٧ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ٢٠٨ ذكرى وما كنا ظالمين ٢٠٩}

الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم هو لكل من هو أهل للخطاب، أي قد علمت فأخبر حتى يعجب الناس ويتذكروا ويعتبروا أن المجرمين المكذبين مهما متعوا من سنين، وطال تقلبهم في الشهوات، والزخارف والزينات، ثم حل بهم بأس القوي المتين، وبطش الجبار القهار، فلن يغني عنهم ما متعوا ٣٤٠ وأترفوا فيه، وإنما تكون الحسرات، ويود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، ولو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، وتتزايل عنهم الغفلة، ويشهد الواحد منهم على نفسه بالضلال والخبال، وقلة نفع ما كان ممتعا فيه من سطوة ومال: (ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه) ٣٤١، ويشهد الله الحق أن هلكة هذا الفاجر لن يردها عنه ما كان لديه من عرض: (وما يغني عنه ماله إذا تردى) ٣٤٢.

٢٠٨ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ)

{منذرون} مبعوثون برسالات تحذر من عاقبة الكفر والفجور.

{وما أهلكنا من قرية} {ما} نافية، لم نهلك من أهل قرية من القرى، ولا بطشنا بأمة من الأمم {إلا لها منذرون}! إلا وقد أرسلنا إليهم رسلا ينذرونهم التمادي في غيهم، ويحذرونهم عاقبة عصيان ربهم، كما قال المولى سبحانه: (. . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ٣٤٣

٢٠٩ - (ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

{ذكرى} ليذكروا بالمصير.

{ذكرى وما كنا ظالمين} يعني - والله أعلم-: نرسل المنذرين رسلنا مذكرين، فكأنها منصوبة على المصدرية، ولا يظلم ربنا أحدا، ولا تبقى للناس حجة بعد إرسال الرسل، وقد جاء في آية مباركة (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) ٣٤٤، وفي آيات محكمات أخر: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاء كم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) ٣٤٥.

٢١٠ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

{الشياطين} الجن.

{وما ينبغي} وما يصح، وما يستقيم.

{وما تنزلت به الشياطين ٢١٠ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ٢١١ إنهم عن السمع لمعزولون ٢١٢}.

والقرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلبك إنما هو كلام رب العالمين، فهو مجيد لأنه قول الحكيم الحميد، حمله إليك رسول كريم، فليس بقول كاهن، كالذي يتلقاه بعضهم من خطف الشياطين، فإنه لا يصح لهم ولا يتسنى أن يسترقوا سماع شيء مما يدور على ألسنة الملائكة، بعد أن قضى الله أن يحال بينهم وبينها، كما شهد بذلك قول الحق جل علاه: (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) ٣٤٦.

وبينت آيات كريمات- حكاية عن الجن ماذا دهاهم حين رموا بالشهب، قال مولانا- تبارك اسمه-: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) ٣٤٧.

٢١١ - (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١٠]

{الشياطين} الجن.

{وما ينبغي} وما يصح، وما يستقيم.

{وما تنزلت به الشياطين ٢١٠ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ٢١١ إنهم عن السمع لمعزولون ٢١٢}.

والقرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلبك إنما هو كلام رب العالمين، فهو مجيد لأنه قول الحكيم الحميد، حمله إليك رسول كريم، فليس بقول كاهن، كالذي يتلقاه بعضهم من خطف الشياطين، فإنه لا يصح لهم ولا يتسنى أن يسترقوا سماع شيء مما يدور على ألسنة الملائكة، بعد أن قضى الله أن يحال بينهم وبينها، كما شهد بذلك قول الحق جل علاه: (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) ٣٤٨.

وبينت آيات كريمات- حكاية عن الجن ماذا دهاهم حين رموا بالشهب، قال مولانا- تبارك اسمه-: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) ٣٤٩.

٢١٢ - (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

{السمع} سماع ما تقوله الملائكة في السماء.

{لمعزولون} لممنوعون.

{إنهم عن السمع لمعزولون} حجبوا ومنعوا، وطردوا فلم يعد في طاقتهم أن يقتربوا من السماء ليسمعوا منها، فأنى لهم أن يتنزلوا بكلام الملك الكبير المتعال؟! وفي هذا توكيد ثبوت القرآن وصدقه، وأنه حق من الله الحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢١٣ - (فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

{فلا تدع مع الله إله آخر فتكون من المعذبين ٢١٣ وأنذر عشيرتك الأقربين ٢١٤ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ٢١٥

فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ٢١٦ وتوكل على العزيز الرحيم ٢١٧ الذي يراك حين تقوم ٢١٨ وتقلبك في الساجدين ٢١٩ إنه هو السميع العليم ٢٢٠}.

-خوطب به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع استحالة صدور المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا لازدياد الإخلاص، فهو كناية عن: أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه، وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه، فكيف بمن عداه، وكأن الفاء فصيحة، أي: إذا علمت ما ذكر فلا تدع مع الله إله آخر- ٣٥٠ [يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فلا تدع يا محمد مع الله إلها آخر، أي تعبد معه معبودا غيره فتكون من المعذبين، فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا] ٣٥١.

وأورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: قيل: المعنى: قل لمن كفر هذا، وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا، لأنه معصوم مختار، ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره، ودل على هذا قوله: {وأنذر عشيرتك الأقربين}

٢١٤ - (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

{وأنذر عشيرتك الأقربين} أي: لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم. اه.

{وأنذر} وحذر عاقبة كفر الكافرين، وسوء مصير المشركين والمنافقين والجاحدين، وخوف {عشيرتك الأقربين} ذوي القرابة الأقربين إليك، يقول الجوهري: هم أهل الرجل الأدنون، وطبقات الأنساب ست: الشعب- النسب الأبعد كعدنان-، الثانية القبيلة، وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، الثالثة العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش وكنانة، الرابعة البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، الخامسة الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية، السادسة الفصيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ كبني العباس وبني عبد المطلب، وليس دون الفصيلة إلا الرجل وولده، يقول الألوسي: ووجه تخصيص عشيرته صلى الله عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دفع توهم المحاباة، وأن الاهتمام بشأنهم أهم، وأن البداءة تكون بمن يلي ثم من بعده. . وفي كيفية الإنذار أخبار كثيرة، منها ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت: {وأنذر عشيرتك الأقربين} صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: " يا بني فهر يا بني عدي " لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي "؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: (تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب) ٣٥٢. . ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه في أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع. . اه

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين} دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا، فاجتمعوا فعم وخص فقال: " يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها " ٣٥٣.

٢١٥ - (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} أمر الله تعالى نبيه أن يتواضع للمؤمنين- على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية أو المجاز المرسل، وعلاقته اللزوم- ٣٥٤ يعني: ألن جانبك وكلامك لأتباعك في الدين [. . في آخر) الحجر (، وفي (سبحان) وزاد ههنا: {لمن اتبعك} كيلا يذهب الوهم إلى أن خفض الجناح وهو التواضع ولين الجانب مختص بالمؤمنين من عشيرته، وإنما لم يقتصر على قوله: {لمن اتبعك} لأن كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين. .] ٣٥٥

٢١٦ - (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

{فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون} - فإن عصتك يا محمد عشيرتك. . الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان، والإشراك بالرحمن، فقل لهم: إني بريء مما تعملون من عبادة الأصنام ومعصية بارئ الأنام- ٣٥٦، يقول الألوسي: وقيل: هو عائد على من اتبع من المؤمنين أي: فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك، والإيمان بك، وتواضعك لهم، فقل: إني بريء مما تعملون من المعاصي، أي أظهر عدم رضاك بذلك وإنكاره عليهم، وذكر على هذا أنه صلى الله عليه وسلم لو أمر بالبراءة منهم ما بقي شفيعا للعصاة يوم القيامة. اه

٢١٧ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

{وتوكل على العزيز الرحيم} واتخذ الله تعالى وكيلا، فوض أمرك إليه، مع معاطاة الأسباب، فهو سبحانه يغلب ويخذل من يناوئك منهم ومن غيرهم، وهو- دون سواه- ينصرك والمؤمنين برحمته، قالوا في معنى التوكل: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله تعالى، ولو وقع في محنة واستعان في دفعها ببعض المخلوقين لم يخرج من حد المتوكلين.

٢١٨ - (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

{الذي يراك حين تقوم} حيثما كنت حين تقوم فالله تعالى يراك، قال ابن عباس وغيره: حين تقوم إلى الصلاة

٢١٩ - (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

{وتقلبك في الساجدين} ويراك سبحانه حين تتنقل في الصلاة من حال إلى حال من قراءة إلى ركوع إلى سجود، أو يرى أحوالك هذه عندما تكون بين المصلين إذ أممتهم- وعبر عنهم بالساجدين لأن السجود حالة مزيد قرب العبد من ربه عز وجل، وهو أفضل الأركان. . . وقيل: المعنى يراك حين تقوم للتهجد، ويرى تقلبك أي ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجدين لتتصفح أحوالهم. . وكيف يعملون لآخرتهم. . . في صحيح البخاري عن أنس قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: " أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري ". . . وقيل: المراد بالساجدين: المؤمنون، والمعنى: يراك حين تقوم لأداء الرسالة، ويرى تقلبك وترددك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلان أمر الله تعالى، وإعلاء كلمته سبحانه. . . ما ذكر لا يخلو عن خفاء. . عن ابن عباس رضي الله عنه فسر التقلب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أمه عليه الصلاة والسلام. . - ٣٥٧ قال أبو جعفر ٣٥٨ وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قول من قال: تأويله: ويرى تقلبك في الساجدين في صلاتهم معك حين تقوم معهم وتركع وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه. . . اه

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{إنه هو السميع العليم} إن ربك بالغ سمعه كل مسموع، محيط علمه بكل شيء، ومنه قراءتكم وأحوالكم، وعبادتكم وصلاتكم.

٢٢١ - (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ)

{أنبئكم} أخبركم.

{الشياطين} جمع شيطان وهو الواحد من الجن.

{أفاك} كثير الإفك، وهو الكذب.

{أثيم} مبالغ في الإثم والذنب.

{يلقون السمع} يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ليتلقوا منهم.

{هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ٢٢١ تنزل على كل أفاك أثيم ٢٢٢ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ٢٢٣ والشعراء يتبعهم الغاوون ٢٢٤ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ٢٢٥ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ٢٢٦ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ٢٢٧}

{وانتصروا من بعد ما ظلموا} جاهدوا بقولهم وألسنتهم أهل البغي المعتدين.

{منقلب ينقلبون} مصير يصيرون، أو مرجع يرجعون.

بدأت هذه الآيات الكريمة بتقرير وتوكيد أن القرآن الكريم هو كلام الله العظيم (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين) ٣٥٩، وإنما تتنزل الشياطين على الكهنة الكذابين، والمجرمين المزورين، يتلقفون من الجن، ويصغون إليهم أشد الإصغاء ليسمعوا منهم الكلمة فضيفون إليها مائة كلمة، يزعمون ويدعون بذلك معرفة الغيب، ويحترفون الكهانة ٣٦٠.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال: " إنهم ليسوا بشيء " فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا، قال: " تلك الكلمة من الحق- وفي رواية " من الجن " بدلا من الحق- يحفظها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".

٢٢٢ - (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢١]

{أنبئكم} أخبركم.

{الشياطين} جمع شيطان وهو الواحد من الجن.

{أفاك} كثير الإفك، وهو الكذب.

{أثيم} مبالغ في الإثم والذنب.

{يلقون السمع} يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ليتلقوا منهم.

{هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ٢٢١ تنزل على كل أفاك أثيم ٢٢٢ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ٢٢٣ والشعراء يتبعهم الغاوون ٢٢٤ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ٢٢٥ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ٢٢٦ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ٢٢٧}

{وانتصروا من بعد ما ظلموا} جاهدوا بقولهم وألسنتهم أهل البغي المعتدين.

{منقلب ينقلبون} مصير يصيرون، أو مرجع يرجعون.

بدأت هذه الآيات الكريمة بتقرير وتوكيد أن القرآن الكريم هو كلام الله العظيم (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين) ٣٦١، وإنما تتنزل الشياطين على الكهنة الكذابين، والمجرمين المزورين، يتلقفون من الجن، ويصغون إليهم أشد الإصغاء ليسمعوا منهم الكلمة فضيفون إليها مائة كلمة، يزعمون ويدعون بذلك معرفة الغيب، ويحترفون الكهانة ٣٦٢.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال: " إنهم ليسوا بشيء " فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا، قال: " تلك الكلمة من الحق- وفي رواية " من الجن " بدلا من الحق- يحفظها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".

٢٢٣ - (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢١]

{أنبئكم} أخبركم.

{الشياطين} جمع شيطان وهو الواحد من الجن.

{أفاك} كثير الإفك، وهو الكذب.

{أثيم} مبالغ في الإثم والذنب.

{يلقون السمع} يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ليتلقوا منهم.

}هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ٢٢١ تنزل على كل أفاك أثيم ٢٢٢ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ٢٢٣ والشعراء يتبعهم الغاوون ٢٢٤ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ٢٢٥ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ٢٢٦ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ٢٢٧{

}وانتصروا من بعد ما ظلموا{ جاهدوا بقولهم وألسنتهم أهل البغي المعتدين.

}منقلب ينقلبون{ مصير يصيرون، أو مرجع يرجعون.

بدأت هذه الآيات الكريمة بتقرير وتوكيد أن القرآن الكريم هو كلام الله العظيم (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين) ٣٦٣، وإنما تتنزل الشياطين على الكهنة الكذابين، والمجرمين المزورين، يتلقفون من الجن، ويصغون إليهم أشد الإصغاء ليسمعوا منهم الكلمة فضيفون إليها مائة كلمة، يزعمون ويدعون بذلك معرفة الغيب، ويحترفون الكهانة ٣٦٤.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال: " إنهم ليسوا بشيء " فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا، قال: " تلك الكلمة من الحق- وفي رواية " من الجن " بدلا من الحق- يحفظها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".

٢٢٤ - (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

}الشعراء{ جمع شاعر، وهو الذي يقول الشعر- الكلام المنظوم المقفى- }الغاوون{ الضالون عن الحق، الجائرون عن الهدى.

}والشعراء يتبعهم الغاوون{ فكما أن الشياطين لا تتولى إلا الفسقة الفجرة الكذابين، ومحمد هو الذي عرفتموه الصادق الأمين، فيستحيل أن تتولاه المردة الكذبة من الجن، ويستحيل أن تتنزل عليه بالقرآن الذي هو حق وصدق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ٣٦٥ كذلك ليس الفرقان شعرا، وما محمد الذي جاءكم بالذكر العزيز بشاعر، لأن الشعر- كما تعلمون- أعذبه أكذبه، والله أصدق القائلين يقول الحق ويهدي السبيل: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) ٣٦٦، أما الذين ينظمون الشعر- الكلام الموزون المقفى- فأتباعهم من أهل الغواية، الذين يتبعون الهوى، ويستحبون الضلالة، ويؤثرون العمى على الهداية، - لتنزيه عليه الصلاة والسلام أيضا عن أن يكون- وحاشاه- من الشعراء، وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر- ٣٦٧.

٢٢٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

}واد{ طريق وجانب.

}يهيمون{ يتخبطون ويخوضون.

}ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون{ يمدحون قوما بباطل، ويشتمون قوما آخرين بالكذب والبهتان، وفي كل لغو يخوضون، بل ويمدحون إنسانا بعينه حينا، ثم يعودون لذمه وسبه ٣٦٨.

٢٢٦ - (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢٥]

}واد{ طريق وجانب.

}يهيمون{ يتخبطون ويخوضون.

}ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون{ يمدحون قوما بباطل، ويشتمون قوما آخرين بالكذب والبهتان، وفي كل لغو يخوضون، بل ويمدحون إنسانا بعينه حينا، ثم يعودون لذمه وسبه ٣٧٠.

روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحد، فقال يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: }وأنهم يقولون ما لا يفعلون{] ٣٦٩.

٢٢٧ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

{إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثير وانتصروا من بعد ما ظلموا} استثنت هذه الآية من الشعراء المبطلين، وأتباعهم المقبوحين، وشعرهم المموه المزور الذي قد يبهتون به البريء النقي، ويفسقون به البر التقي- استثنت الشعراء المؤمنين الصالحين، الذاكرين الله تعالى كثيرا، والمنافحين عن الحق والدين، والمجاهدين بألسنتهم وشعرهم أهل الكفر والفاجرين، يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت، وعبد الله ابن رواحة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، ومن كان على طريقهم من القول الحق. اه

روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: " هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء "! قلت: نعم، قال: " هيه " فأنشدته بيتا، فقال: " هيه " ثم أنشدته بيتا: فقال: " هيه " حتى أنشدته مائة بيت، وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعا وطبعا، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية، لأنه كان حكيما. . . وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خذوا الشيطان- أو أمسكوا الشيطان- لأن يمتلئ جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا " قال علماؤنا: وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله، فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب، فيفرط في المدح إذا أعطي، وفي الهجو والذم إذ منع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم، ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه، فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه-قطعا- تعين عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحل له أن يعطي شيئا ابتداء، لأن ذلك عون على المعصية، فإن لم يجد من ذلك بدا أعطاه بنية وقاية العرض، فما وقي به المرء عرضه كتب له به صدقة.

قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام، حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام. . . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين: " إنه لأسرع فيهم من رشق النبل " أخرجه مسلم، وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يابن رواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى عليه وسلم: " خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل ". .

مما قال ابن العربي. . . وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح، وأنشد أبو بكر رضي الله عنه:

فقدنا الوحي إذ وليت عنا ... وودعنا من الله الكلام

سوى ما قد تركت لنا رهينا ... توارثه القراطيس الكرام

فقد أورثتنا ميراث صدق ... عليك به التحية والسلام

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه، وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا، قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر،

أو تمثل به، أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خنا، ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء، لا يحل سماعه ولا قوله،. . وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم. . . روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحد، فقال يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: {وأنهم يقولون ما لا يفعلون}] ٣٧١.

{وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} تحذير من بطش ربنا الشديد، ووعيد لكل جبار عنيد، أن عقبى الكافرين النار، ومصيرهم الخسار والبوار، في هذه الحياة الدنيا، وفي دار القرار، [والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع: العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها. .] ٣٧٢ فإن كان المفسد يطمع في أنه سيفلت من عذاب الله، فسيعلم أنه ليس له قبل بوجه من وجوه الانفلات ولا النجاة، وآخر دعوانا أن الحمد لله.

خاتمة تفسير [سورة الشعراء]

تبين آيات من السورة بعض أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة، وأفعاله الحكيمة، وما يدحض باطل الكافرين.

فربنا الرحمن العزيز الرحيم، رب العالمين، رب السماوات والأرض وما بينهما، رب المشرق والمغرب وما بينهما، وإليه المآب وهو الغفور التواب.

وآيات ترسخ اليقين بالقرآن المبين: (طسم ١ تلك آيات الكتاب المبين ٢)) وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٤ بلسان عربي مبين ١٩٥ وإنه لفي زبر الأولين ١٩٦ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ١٩٧ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ١٩٨ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ١٩٩ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ٢٠٠ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ٢٠١) (وما تنزلت به الشياطين ٢١٠ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ٢١١ إنهم عن السمع لمعزولون ٢١٢ خمس عشرة آية.

ومن الآية رقم ١٠ (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) إلى القول الكريم: (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ٦٥ ثم أغرقنا الآخرين ٦٦ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ٦٧ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ٦٨ في بعثة موسى وهارون إلى فرعون وقومه، وتكذيبهم بالحق، وإيمان السحرة وانفلاق البحر، وتجاوز بني إسرائيل، ثم انطباق على الملأ والجند الخاطئين أجمعين.

وفي نبأ خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام: (واتل عليهم نبأ إبراهيم ٦٩ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ٧٠ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ٧١ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ٧٢ أو ينفعونكم أو يضرون ٧٣ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ٧٤ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٧٥ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٧٦ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ٧٧ الذي خلقني فهو يهدين ٧٨ والذي هو يطعمني ويسقين ٧٩ وإذا مرضت فهو يشفين ٨٠ والذي يميتني ثم يحيين ٨١ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ٨٢ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ٨٣ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ٨٤ واجعلني من ورثة جنة النعيم ٨٥ إلى آيات بعد هذا.

ومن الآية رقم ١٠٥ إلى رقم ١١٥ في دعوة نوح لقومه، وبعدها (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ١١٦ قال رب إن قومي كذبون ١١٧ فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين ١١٨ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ١١٩ ثم أغرقنا بعد الباقين ١٢٠.

ومن الآية رقم ١٢٣ في دعوة هود قومه، وفيها: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ١٢٨ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ١٢٩ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ١٣٠ فاتقوا الله وأطيعون ١٣١ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ١٣٢ أمدكم بأنعام وبنين ١٣٣ وجنات وعيون ١٣٤ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ١٣٥ قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين ١٣٦ إن هذا إلا خلق الأولين ١٣٧ وما نحن بمعذبين ١٣٨ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٣٩ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١٤٠، ثم عشر في دعوة صالح عليه السلام لقومه، وبعدها: (ولا تطيعوا أمر المسرفين ١٥١ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ١٥٢ قالوا إنما

أنت من المسحرين ١٥٣ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ١٥٤ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ١٥٥ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ١٥٦ فعقروها فأصبحوا نادمين ١٥٧ فأخذهم العذاب. . ١٥٨).
ثم عشر تقص علينا من نبأ لوط- عليه السلام- مع قومه، وبعدها: (فنجيناه وأهله أجمعين ١٧٠ إلا عجوزا في الغابرين ١٧١ ثم دمرنا الآخرين ١٧٢ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ١٧٣، ثم خمس في دعوة شعيب أصحاب الأيكة، تليها: (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ١٨١ وزنوا بالقسطاس المستقيم ١٨٢ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ١٨٣ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ١٨٤ قالوا إنما أنت من المسحرين ١٨٥ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ١٨٦ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ١٨٧ قال رب أعلم بما تعملون ١٨٨ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ١٨٩ (.
وفي اليقين بالآخرة وأحوالها وأهوالها وثوابها: (يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٨ إلا من أتى بقلب سليم ٨٩ وأزلفت الجنة للمتقين ٩٠ وبرزت الجحيم للغاوين ٩١ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ٩٢ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ٣٩ فكبكبوا فيها هم والغوون ٩٤ وجنود إبليس أجمعون ٩٥ قالوا وهم فيها يختصمون ٩٦ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ٩٧ إذ نسويكم برب العالمين ٩٨ وما أضلنا إلا المجرمون ٩٩ فما لنا من شافعين ١٠٠ ولا صديق حميم ١٠١)) فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ٢٠٢ فيقولوا هل نحن منظرون ٢٠٣ أفبعذابنا يستعجلون ٢٠٤ أفرأيت إن متعناهم سنين ٢٠٥ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ٢٠٦ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ٢٠٧)
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٧ سورة النمل:

سورة النمل:
سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون
كلماتها: ١١٠٩. حروفها ٤٦٩٩
١ - (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ١{
}طس{ يقول جماعة من العلماء: هي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقال آخرون: بل نلتمس منها ما يتعظ به، فمنهم من رأى أن كل حرف من الحروف المقطعة التي جاءت في أوائل السور مثل (حم)، (ألم)، تشير إلى اسم من أسماء الله الحسنى، فالطاء من (لطيف) والسين من (سميع)، ومنهم من يرى أنها إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب إذ تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عن مضاهاته أبلغ في البرهان على أنه كلام اللطيف الخبير السميع البصير، تلك الآيات التي نوحيها إليك حكيمة نزلت من حكيم، وينتظمها والسور التي تضمها فرقان يتلى ويقرأ، وكتاب مدون مسطر، وهو المقروء على الحقيقة، والمبين المظهر لما جمع الله فيه من حكم وأحكام، وخبر ووعد، ويقين ومصير. [القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل منهما أن يجعل معرفة وأن يجعل صفة] ١.
مما كتب أبو جعفر الطبري:. . عن ابن عباس أن قوله }طس{ قسم أقسمه الله. . }كتاب مبين{ يقول يبين لمن تدبره وفكر فيه بفهم أنه من عند الله أنزله إليك لم تتخرصه أنت ولم تتقوله ولا أحد سواك من خلق الله. . اه
٢ - (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)
}هدى وبشرى للمؤمنين ٢ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة يوقنون ٣{.

الآيات هادية تدل على الرشد، ويزرع الله بها النور في القلب ويشرح بها الصدر، وتبشر بكريم الثواب للمصدقين بما يجب التصديق به، المتمين للصلاة المؤدين لها على وجهها، ويعطون الزكاة لأربابها المستحقين لها، وهم الذين رسخ يقينهم بلقاء ربنا وجزائه، [وفيه أن المهتدي بالقرآن حقيقة هو الذي يكون موقنا بأحوال المعاد] ٢.

٣ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]

}هدى وبشرى للمؤمنين ٢ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة يوقنون ٣{.

الآيات هادية تدل على الرشد، ويزرع الله بها النور في القلب ويشرح بها الصدر، وتبشر بكريم الثواب للمصدقين بما يجب التصديق به، المتمين للصلاة المؤدين لها على وجهها، ويعطون الزكاة لأربابها المستحقين لها، وهم الذين رسخ يقينهم بلقاء ربنا وجزائه، [وفيه أن المهتدي بالقرآن حقيقة هو الذي يكون موقنا بأحوال المعاد] ٣.

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

}إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ٤ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ٥{

يبين الذكر الحكيم أن المكذب بالبعث يعيش للخوض والمتاع، ولا ينشرح صدرا بالحق ولا بالرشاد، ولا يتعظ بما في كلمات الله التامات (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) ٤ هؤلاء زينت لهم أعمالهم، وزين لهم الشيطان قبائحهم، فهم يتحدرون في الغي والشطط، وربما يكون المعنى: زينا لهم طريق الاستقامة وبينا لهم حسنه وثوابه فأبوا إلا العمى والعكوف على العوج والكفر، هؤلاء الذين أبعدوا في الزيغ والضلال يعملون في عاجلهم ما يسوؤهم، ويوم الجزاء لا أحد أشد منهم خسرانا لأنفسهم وأهليهم، ذلك وعد الله الذي لا يخلف: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ٥ (وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ٦.

٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

}إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ٤ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ٥{

يبين الذكر الحكيم أن المكذب بالبعث يعيش للخوض والمتاع، ولا ينشرح صدرا بالحق ولا بالرشاد، ولا يتعظ بما في كلمات الله التامات (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) ٧ هؤلاء زينت لهم أعمالهم، وزين لهم الشيطان قبائحهم، فهم يتحدرون في الغي والشطط، وربما يكون المعنى: زينا لهم طريق الاستقامة وبينا لهم حسنه وثوابه فأبوا إلا العمى والعكوف على العوج والكفر، هؤلاء الذين أبعدوا في الزيغ والضلال يعملون في عاجلهم ما يسوؤهم، ويوم الجزاء لا أحد أشد منهم خسرانا لأنفسهم وأهليهم، ذلك وعد الله الذي لا يخلف: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ٨ (وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ٩.

٦ - (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

}وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ٦{

توكيد لصدق الفرقان وعزة شأنه وأنه وحي يعلمك إياه موحيه- تبارك اسمه- ويلقنك آياته ويلقيها عليك من لا تفوته الحكمة في أمر من الأمور، فقوله فصل وحكمه عدل، والله يقول الحق.

[وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن، وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق،

والحكمة- كما قال الراغب-: من الله عز وجل معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات، وفعل الخيرات. . .] ١٠
٧ - (إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)
}إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ٧{
شروع في التذكير بجانب من قصة موسى عليه السلام، وفيها تسلية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم- كما صبر إخوانه من أولي العزم- على تكذيب قومه، وليعلم أن الذين يكذبون الوحي والرسل يعلمون أنه الحق من ربهم، ولكن ينكرون الحق بغيا واستكبارا، كما أن في القصة تخويفا ونذيرا للمفسدين من مشركي مكة أن يحل بهم ما أنزله الله بالمفسدين من قبلهم- فرعون وملئه- إذ جاءهم موسى بالعلامات والمعجزات، والدلائل الواضحات، فقالوا هذا سحر مبين فأغرقهم الله أجمعين، وبدأت أنباء موسى كليم الله- عليه الصلوات والتسليم- في هذه السورة بالحديث عن كلام الله تعالى لرسوله موسى ليلة أن كان يسير بأهله خارجا من مدين فلما شارف وادي طوى في ليلة باردة مظلمة، فكأنه خاف الحيدة عن الطريق، فتراءت له نار بجانب جبل الطور، فقال عليه السلام لزوجته: إني أبصرت نارا وإني ذاهب لأستعلم من المستوقدين حال الطريق، أو أجيء لك منها }بشهاب{ يستضاء به- والشهاب كل ذي نور، نحو الكوكب، والعود الموقد- }قبس{ ما يقتبس من النار من نحو جمر وما أشبه لكي تستدفئوا بها، والصلاة الدنو من النار لتسخين البدن وتدفئته، والسين تدخل في الوعد لتأكيده وبيان أنه كائن لا محالة.
[وإذا أريد بالشهاب أنه هو القبس أو أنه نعت له فالصواب في الشهاب التنوين، لأن الصحيح في كلام العرب ترك إضافة الاسم إلى نعته وإلى نفسه. .] ١١.
٨ - (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
}فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ٨{
فلما اقترب موسى من النار نودي: البركات الكثيرة والخير العظيم لمن في النار ومن حول النار، وتنزه المعبود بحق ولي الخلائق ومصلحها.
[ذهب جماعة إلى أن في الكلام مضافا مقدرا في الموضعين أي من في مكان النار ومن حول مكانها. . . واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازا عن القرب التام. .] ١٢ نقل ابن كثير عن ابن عباس وغيره: لم تكن نارا وإنما كانت نورا، تتوهج اه.
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن:. . وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير: قدس من في النار وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسه تقدس وتعالى. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النار نور الله عز وجل، نادى الله موسى وهو في النور، وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنه نارا، وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله. .) ١٣ لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل. . قلت: ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجة في سننه واللفظ له عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره " ثم قرأ أبو عبيدة }أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين{. . . قال أبو عبيد: يقال السبحات إنها جلال وجهه. . وقوله: " لو كشفها " يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبتهم لرؤيته لاحترقوا. . اه ١٤
٩ - (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
}يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ٩ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ١٠ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ١١{
وكلم المولى- سبحانه- عبده موسى، وناداه: يا موسى إن الحال والشأن- كما قال القرطبي: والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن- أنا المعبود بحق، القاهر فوق الخلق، الفعال لكل ما أريده بإحسان وإتقان، وكان أول أمر الله تعالى إليه أن يرمي العصا التي كانت بيده

ويطرحها، فما إن سقطت من يمينه حتى قلبها ربنا القدير حية تحرك، فلما أبصرها موسى تحرك بشدة اضطراب تراجع وفر موليها ظهره، ولم يرجع على عقبه بعد نفوره وفراره منها، فنودي: يا موسى! لا تخف مطلقا- على تنزيل الفعل منزلة اللازم- أو: لا تخف من غيري- حية أو غيرها- فإن الشأن أنه لا ينبغي للرسل أن يخافوا حين يتنزل عليهم وحي القوي القدير، [وهذا إما لمجرد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي، وإما للنهي عن منشأ الخوف وهو الظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به] ١٥ لكن من أذنب من غير الأنبياء ثم أناب إلي فإني عظيم الغفران والستر والصفح عمن أقلع عن ذنبه ورجع إلى ما فيه مرضاة ربه، وإني واسع الرحمة، فلا أعذب المستغفرين ولا أدع التوابين بل أرضى عن الذين حسنت توبتهم (. . فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات. .) ١٦ (. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ١٧.

١٠ - (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

}يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ٩ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ١٠ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ١١{

وكلم المولى- سبحانه- عبده موسى، وناداه: يا موسى إن الحال والشأن- كما قال القرطبي: والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن- أنا المعبود بحق، القاهر فوق الخلق، الفعال لكل ما أريده بإحسان وإتقان، وكان أول أمر الله تعالى إليه أن يرمي العصا التي كانت بيده ويطرحها، فما إن سقطت من يمينه حتى قلبها ربنا القدير حية تحرك، فلما أبصرها موسى تحرك بشدة اضطراب تراجع وفر موليها ظهره، ولم يرجع على عقبه بعد نفوره وفراره منها، فنودي: يا موسى! لا تخف مطلقا- على تنزيل الفعل منزلة اللازم- أو: لا تخف من غيري- حية أو غيرها- فإن الشأن أنه لا ينبغي للرسل أن يخافوا حين يتنزل عليهم وحي القوي القدير، [وهذا إما لمجرد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي، وإما للنهي عن منشأ الخوف وهو الظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به] ١٨ لكن من أذنب من غير الأنبياء ثم أناب إلي فإني عظيم الغفران والستر والصفح عمن أقلع عن ذنبه ورجع إلى ما فيه مرضاة ربه، وإني واسع الرحمة، فلا أعذب المستغفرين ولا أدع التوابين بل أرضى عن الذين حسنت توبتهم (. . فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات. .) ١٩ (. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ٢٠.

١١ - (إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

}يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ٩ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ١٠ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ١١{

وكلم المولى- سبحانه- عبده موسى، وناداه: يا موسى إن الحال والشأن- كما قال القرطبي: والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن- أنا المعبود بحق، القاهر فوق الخلق، الفعال لكل ما أريده بإحسان وإتقان، وكان أول أمر الله تعالى إليه أن يرمي العصا التي كانت بيده ويطرحها، فما إن سقطت من يمينه حتى قلبها ربنا القدير حية تحرك، فلما أبصرها موسى تحرك بشدة اضطراب تراجع وفر موليها ظهره، ولم يرجع على عقبه بعد نفوره وفراره منها، فنودي: يا موسى! لا تخف مطلقا- على تنزيل الفعل منزلة اللازم- أو: لا تخف من غيري- حية أو غيرها- فإن الشأن أنه لا ينبغي للرسل أن يخافوا حين يتنزل عليهم وحي القوي القدير، [وهذا إما لمجرد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي، وإما للنهي عن منشأ الخوف وهو الظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به] ٢١ لكن من أذنب من غير الأنبياء ثم أناب إلي فإني عظيم الغفران والستر والصفح عمن أقلع عن ذنبه ورجع إلى ما فيه مرضاة ربه، وإني واسع الرحمة، فلا أعذب المستغفرين ولا أدع التوابين بل أرضى عن الذين حسنت توبتهم (. . فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات. .) ٢٢ (. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ٢٣.

١٢ - (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

}وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ١٢ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ١٣ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ١٤{.

وكأن الواو عطفت على محذوف تقديره: فعاد موسى، وعادت العصا سيرتها الأولى، وأمر أن يأخذها، وأمر أن يدخل يده في جيب قميصه- فتحة الثوب مما حول العنق، ومدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر- فخرجت بيضاء دون علة برص أو نحوه، لتكون معجزة من تسع معجزات أوتيها: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الأموال، ونقص الثمرات، فهذه مع العصا واليد مكملات للتسع لتكون برهان صدق موسى في أنه رسول الله إلى فرعون وقومه، إنهم جمع خارج عن سنن الحق والهدى، فلما ظهرت لهم حجج الله على يد موسى بينة واضحة يبصرها كل ذي عينين قالوا: إن الذي نراه سحر واضح، وتخييل ليست له من حقيقة، وأظهروا تكذيبهم بها مع علمهم اليقيني أنها حق من عند الله، فكان المراء والجحود ظلما للبرهان، واستكبارا عن الإيمان، فحل بهم عاجل الخسران، وكذلك ننزله بأهل البهتان والفساد والطغيان، في كل زمان ومكان، ويوم القيامة يردون إلى أقبح العذاب وأشد الهوان. [انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه، الخطاب له والمراد غيره] ٢٤.

١٣ - (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

}وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ١٢ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ١٣ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ١٤{.

وكأن الواو عطفت على محذوف تقديره: فعاد موسى، وعادت العصا سيرتها الأولى، وأمر أن يأخذها، وأمر أن يدخل يده في جيب قميصه- فتحة الثوب مما حول العنق، ومدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر- فخرجت بيضاء دون علة برص أو نحوه، لتكون معجزة من تسع معجزات أوتيها: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الأموال، ونقص الثمرات، فهذه مع العصا واليد مكملات للتسع لتكون برهان صدق موسى في أنه رسول الله إلى فرعون وقومه، إنهم جمع خارج عن سنن الحق والهدى، فلما ظهرت لهم حجج الله على يد موسى بينة واضحة يبصرها كل ذي عينين قالوا: إن الذي نراه سحر واضح، وتخييل ليست له من حقيقة، وأظهروا تكذيبهم بها مع علمهم اليقيني أنها حق من عند الله، فكان المراء والجحود ظلما للبرهان، واستكبارا عن الإيمان، فحل بهم عاجل الخسران، وكذلك ننزله بأهل البهتان والفساد والطغيان، في كل زمان ومكان، ويوم القيامة يردون إلى أقبح العذاب وأشد الهوان. [انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه، الخطاب له والمراد غيره] ٢٥.

١٤ - (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

}وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ١٢ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ١٣ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ١٤{.

وكأن الواو عطفت على محذوف تقديره: فعاد موسى، وعادت العصا سيرتها الأولى، وأمر أن يأخذها، وأمر أن يدخل يده في جيب قميصه- فتحة الثوب مما حول العنق، ومدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر- فخرجت بيضاء دون علة برص أو نحوه، لتكون معجزة من تسع معجزات أوتيها: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الأموال، ونقص الثمرات، فهذه مع العصا واليد مكملات للتسع لتكون برهان صدق موسى في أنه رسول الله إلى فرعون وقومه، إنهم جمع خارج عن سنن الحق والهدى، فلما ظهرت لهم حجج الله على يد موسى بينة واضحة يبصرها كل ذي عينين قالوا: إن الذي نراه سحر واضح، وتخييل ليست له من حقيقة، وأظهروا تكذيبهم بها مع علمهم اليقيني أنها حق من عند الله، فكان المراء والجحود ظلما للبرهان، واستكبارا عن الإيمان، فحل بهم عاجل الخسران، وكذلك ننزله بأهل البهتان والفساد والطغيان، في كل زمان ومكان، ويوم القيامة يردون إلى أقبح العذاب وأشد الهوان. [انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه، الخطاب له والمراد غيره] ٢٦.

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

}ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ١٨ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ١٩{

أعطى المولى الكريم الوهاب داود وسليمان- عبديه ورسوليه- علما كثيرا عظيما، علم السماء فيما تنزل عليهما من وحي الله العليم وكلماته- وما أقدس هذا العلم وأصدقه- وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكم والسلطان والملك كالذي امتن الله تعالى عليهما به في قوله- تبارك اسمه-:). . وكلا آتينا حكما وعلما. . (٢٧، كما علم- سبحانه- داود الصناعة الثقيلة والحربية:) وعلمناه صنعة لبوس ٢٨ لكم لتحصنكم ٢٩ من بأسكم ٣٠. . (٣١) أن اعمل سابغات وقدر في السرد. . (٣٢، وحمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما بما آتاهما ٣٣ على كثير من العباد المؤمنين، وإنها لعبرة ألا يشغل العطاء مهما تعاظم عن الثناء على الوهاب- جل ثناؤه- فهذان الرسولان الملكان العالمان الحكيمان لم يزدهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال، شديد المحال، ذي العزة والجلال، وأورث الله تعالى سليمان النبوة بعد أبيه) ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٤ وتحدث بآلاء الله عليه، وما علمه مع علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن، كما منحه العزيز الوهاب ملكا لا يناله أحد من العالمين، أليس فضلا مبينا أن يملكه القوي القدير عتاة الجن ومردتهم؟:). . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. . (٣٥) والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد (٣٦) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٣٧ وجمع لسليمان جنوده من كل قبيل: الإنس والجن والطير- فهم يكفون ٣٨ عن الشرود أو يرد أولهم على آخرهم، حتى إذا مروا على واد فيه نمل نادت نملة- بلغة فهمها الله سبحانه سليمان وصاحت في طائفتها وقبيلها من النمل أن ادخلوا إلى سكنكم حتى لا يكسركم ويطأكم سليمان وجنود سليمان على غير شعور منهم ولا قصد إلى تحطيمكم، فسر سليمان عليه السلام من اشتهار أمر عدله ورأفته بين الخلائق، فهذه النملة تقر أن سليمان وجنده لا يروعون آمنا، ولا يؤذون مخلوقا بغير ما اكتسب، ولا يعمدون إلى بريء بمهلكة، إلا أن يقع ذلك منهم عفوا ودون شعور، وتبسم ضاحكا من قول النملة هذا، وسأل الله أن يعينه على شكر ما أنعم به عليه وعلى أبويه، وأن يلهمه ذلك، ويكفه عن البطر الذي يصرف عن شكر المنعم، ودعا مولاه أن يدخله برحمته مع العباد الصالحين، المكرمين في الدنيا ويوم الدين.

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ". يقول القرطبي: وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. اه ٣٩.

١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

}ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ١٨ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين

١٩}
أعطى المولى الكريم الوهاب داود وسليمان- عبديه ورسوليه- علما كثيرا عظيما، علم السماء فيما تنزل عليهما من وحي الله العليم وكلماته- وما أقدس هذا العلم وأصدقه- وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكم والسلطان والملك كالذي امتن الله تعالى عليهما به في قوله- تبارك اسمه-:). . وكلا آتينا حكما وعلما. . (٤٠، كما علم- سبحانه- داود الصناعة الثقيلة والحربية:) وعلمناه صنعة لبوس ٤١ لكم لتحصنكم ٤٢ من بأسكم ٤٣. . (٤٤) أن اعمل سابغات وقدر في السرد. . (٤٥، وحمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما بما آتاهما ٤٦ على كثير من العباد المؤمنين، وإنها لعبرة ألا يشغل العطاء مهما تعاظم عن الثناء على الوهاب- جل ثناؤه- فهذان الرسولان الملكان العالمان الحكيمان لم يزدهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال، شديد المحال، ذي العزة والجلال، وأورث الله تعالى سليمان النبوة بعد أبيه) ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٤٧ وتحدث بآلاء الله عليه، وما علمه مع علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن، كما منحه العزيز الوهاب ملكا لا يناله أحد من العالمين، أليس فضلا مبينا أن يملكه القوي القدير عتاة الجن ومردتهم؟:). . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. . (٤٨) والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد (٤٩) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٥٠ وجمع لسليمان جنوده من كل قبيل: الإنس والجن والطير- فهم يكفون ٥١ عن الشرود أو يرد أولهم على آخرهم، حتى إذا مروا على واد فيه نمل نادت نملة- بلغة فهمها الله سبحانه سليمان وصاحت في طائفتها وقبيلها من النمل أن ادخلوا إلى سكنكم حتى لا يكسركم ويطأكم سليمان وجنود سليمان على غير شعور منهم ولا قصد إلى تحطيمكم، فسر سليمان عليه السلام من اشتهار أمر عدله ورأفته بين الخلائق، فهذه النملة تقر أن سليمان وجنده لا يروعون آمنا، ولا يؤذون مخلوقا بغير ما اكتسب، ولا يعمدون إلى بريء بمهلكة، إلا أن يقع ذلك منهم عفوا ودون شعور، وتبسم ضاحكا من قول النملة هذا، وسأل الله أن يعينه على شكر ما أنعم به عليه وعلى أبويه، وأن يلهمه ذلك، ويكفه عن البطر الذي يصرف عن شكر المنعم، ودعا مولاه أن يدخله برحمته مع العباد الصالحين، المكرمين في الدنيا ويوم الدين.
روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ". يقول القرطبي: وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. اه ٥٢.
١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
}ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ١٨ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ١٩}
أعطى المولى الكريم الوهاب داود وسليمان- عبديه ورسوليه- علما كثيرا عظيما، علم السماء فيما تنزل عليهما من وحي الله العليم وكلماته- وما أقدس هذا العلم وأصدقه- وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكم والسلطان والملك كالذي امتن الله تعالى عليهما به في قوله- تبارك اسمه-:). . وكلا آتينا حكما وعلما. . (٥٣، كما علم- سبحانه- داود الصناعة الثقيلة والحربية:) وعلمناه صنعة لبوس ٥٤ لكم لتحصنكم ٥٥ من بأسكم ٥٦. . (٥٧) أن اعمل سابغات وقدر في السرد. . (٥٨، وحمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما بما آتاهما ٥٩ على

كثير من العباد المؤمنين، وإنها لعبرة ألا يشغل العطاء مهما تعاظم عن الثناء على الوهاب- جل ثناؤه- فهذان الرسولان الملكان العالمان الحكيمان لم يزدهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال، شديد المحال، ذي العزة والجلال، وأورث الله تعالى سليمان النبوة بعد أبيه) ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٦٠ وتحدث بآلاء الله عليه، وما علمه مع علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن، كما منحه العزيز الوهاب ملكا لا يناله أحد من العالمين، أليس فضلا مبينا أن يملكه القوي القدير عتاة الجن ومردتهم؟:). . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. . (٦١) والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد (٦٢) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٦٣ وجمع لسليمان جنوده من كل قبيل: الإنس والجن والطير- فهم يكفون ٦٤ عن الشرود أو يرد أولهم على آخرهم، حتى إذا مروا على واد فيه نمل نادت نملة- بلغة فهمها الله سبحانه سليمان وصاحت في طائفتها وقبيلها من النمل أن ادخلوا إلى سكنكم حتى لا يكسركم ويطأكم سليمان وجنود سليمان على غير شعور منهم ولا قصد إلى تحطيمكم، فسر سليمان عليه السلام من اشتهار أمر عدله ورأفته بين الخلائق، فهذه النملة تقر أن سليمان وجنده لا يروعون آمنا، ولا يؤذون مخلوقا بغير ما اكتسب، ولا يعمدون إلى بريء بمهلكة، إلا أن يقع ذلك منهم عفوا ودون شعور، وتبسم ضاحكا من قول النملة هذا، وسأل الله أن يعينه على شكر ما أنعم به عليه وعلى أبويه، وأن يلهمه ذلك، ويكفه عن البطر الذي يصرف عن شكر المنعم، ودعا مولاه أن يدخله برحمته مع العباد الصالحين، المكرمين في الدنيا ويوم الدين.

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ". يقول القرطبي: وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. اه ٦٥.

١٨ - (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

}ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ١٨ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ١٩{

أعطى المولى الكريم الوهاب داود وسليمان- عبديه ورسوليه- علما كثيرا عظيما، علم السماء فيما تنزل عليهما من وحي الله العليم وكلماته- وما أقدس هذا العلم وأصدقه- وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكم والسلطان والملك كالذي امتن الله تعالى عليهما به في قوله- تبارك اسمه-:). . وكلا آتينا حكما وعلما. . (٦٦، كما علم- سبحانه- داود الصناعة الثقيلة والحربية:) وعلمناه صنعة لبوس ٦٧ لكم لتحصنكم ٦٨ من بأسكم ٦٩. . (٧٠) أن اعمل سابغات وقدر في السرد. . (٧١، وحمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما بما آتاهما ٧٢ على كثير من العباد المؤمنين، وإنها لعبرة ألا يشغل العطاء مهما تعاظم عن الثناء على الوهاب- جل ثناؤه- فهذان الرسولان الملكان العالمان الحكيمان لم يزدهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال، شديد المحال، ذي العزة والجلال، وأورث الله تعالى سليمان النبوة بعد أبيه) ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٧٣ وتحدث بآلاء الله عليه، وما علمه مع علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن، كما منحه العزيز الوهاب ملكا لا يناله أحد من العالمين، أليس فضلا مبينا أن يملكه القوي القدير عتاة الجن ومردتهم؟:). . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل

وجفان كالجواب وقدور راسيات. . (٧٤) والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد (٧٥) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٧٦ وجمع لسليمان جنوده من كل قبيل: الإنس والجن والطير- فهم يكفون ٧٧ عن الشرود أو يرد أولهم على آخرهم، حتى إذا مروا على واد فيه نمل نادت نملة- بلغة فهمها الله سبحانه سليمان وصاحت في طائفتها وقبيلها من النمل أن ادخلوا إلى سكنكم حتى لا يكسركم ويطأكم سليمان وجنود سليمان على غير شعور منهم ولا قصد إلى تحطيمكم، فسر سليمان عليه السلام من اشتهار أمر عدله ورأفته بين الخلائق، فهذه النملة تقر أن سليمان وجنده لا يروعون آمنا، ولا يؤذون مخلوقا بغير ما اكتسب، ولا يعمدون إلى بريء بمهلكة، إلا أن يقع ذلك منهم عفوا ودون شعور، وتبسم ضاحكا من قول النملة هذا، وسأل الله أن يعينه على شكر ما أنعم به عليه وعلى أبويه، وأن يلهمه ذلك، ويكفه عن البطر الذي يصرف عن شكر المنعم، ودعا مولاه أن يدخله برحمته مع العباد الصالحين، المكرمين في الدنيا ويوم الدين.

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ". يقول القرطبي: وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. اه ٧٨.

١٩ - (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ١٨ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ١٩}

أعطى المولى الكريم الوهاب داود وسليمان- عبديه ورسوليه- علما كثيرا عظيما، علم السماء فيما تنزل عليهما من وحي الله العليم وكلماته- وما أقدس هذا العلم وأصدقه- وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكم والسلطان والملك كالذي امتن الله تعالى عليهما به في قوله- تبارك اسمه-:). . وكلا آتينا حكما وعلما. . (٧٩، كما علم- سبحانه- داود الصناعة الثقيلة والحربية:) وعلمناه صنعة لبوس ٨٠ لكم لتحصنكم ٨١ من بأسكم ٨٢. . (٨٣) أن اعمل سابغات وقدر في السرد. . (٨٤، وحمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما بما آتاهما ٨٥ على كثير من العباد المؤمنين، وإنها لعبرة ألا يشغل العطاء مهما تعاظم عن الثناء على الوهاب- جل ثناؤه- فهذان الرسولان الملكان العالمان الحكيمان لم يزدهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال، شديد المحال، ذي العزة والجلال، وأورث الله تعالى سليمان النبوة بعد أبيه) ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٨٦ وتحدث بآلاء الله عليه، وما علمه مع علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن، كما منحه العزيز الوهاب ملكا لا يناله أحد من العالمين، أليس فضلا مبينا أن يملكه القوي القدير عتاة الجن ومردتهم؟:). . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. . (٨٧) والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد (٨٨) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٨٩ وجمع لسليمان جنوده من كل قبيل: الإنس والجن والطير- فهم يكفون ٩٠ عن الشرود أو يرد أولهم على آخرهم، حتى إذا مروا على واد فيه نمل نادت نملة- بلغة فهمها الله سبحانه سليمان وصاحت في طائفتها وقبيلها من النمل أن ادخلوا إلى سكنكم حتى لا يكسركم ويطأكم سليمان وجنود سليمان على غير شعور منهم ولا قصد إلى

تحطيمكم، فسر سليمان عليه السلام من اشتهار أمر عدله ورأفته بين الخلائق، فهذه النملة تقر أن سليمان وجنده لا يروعون آمنا، ولا يؤذون مخلوقا بغير ما اكتسب، ولا يعمدون إلى بريء بمهلكة، إلا أن يقع ذلك منهم عفوا ودون شعور، وتبسم ضاحكا من قول النملة هذا، وسأل الله أن يعينه على شكر ما أنعم به عليه وعلى أبويه، وأن يلهمه ذلك، ويكفه عن البطر الذي يصرف عن شكر المنعم، ودعا مولاه أن يدخله برحمته مع العباد الصالحين، المكرمين في الدنيا ويوم الدين.

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ". يقول القرطبي: وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. اه ٩١.

٢٠ - (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

}وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٢٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ٢١ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ٢٢ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٢٣ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٤{

وسط هذا الحشد من أصناف الجند، توجه سليمان لتعرف أحوال الطير، أو لمح نقصان بعضها، فراح يتطلب حقيقة ما غاب عنه، فقال: هل حال بيني وبين رؤية الهدهد حائل- اتهم نفسه هضما لها وتواضعا، ومبالغة في النصفة- أم هو قد تغيب؟ فإذا كان كذلك فلا منجا له من العقوبة الشديدة أو الذبح إلا بأن يجيئني بحجة بينة على عذره في غيبته، [ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة، وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. . . ومآل كلامه عليه السلام! ليكونن أحد الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، ف }أو{ في الموضعين للترديد] ٩٢.

مما نقل ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. . فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره }فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين{، حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج. . فقال له: قف يا ابن عباس! غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي. . . قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. . اه. [الثانية: - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله؟؟ فكيف بعظام الملك؟!. . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان؟!] ٩٣، فلم يتأخر الهدهد إلا زمنا قريبا غير بعيد ثم مثل بين يدي سليمان عليه السلام فقال له: علمت ما لم تعلم من الأمر، وأتيتك من بلاد سبأ باليمن بخبر عظيم، صادق ويقين، إني وجدتهم ملكوا امرأة منهم، أعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم، ووجدتها وقومها يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس بدلا من سجودهم لله الحق، مبدع الخلق، وحسن لهم الشيطان ما هم فيه من الوثنية والخبال، فردهم عن طريق توحيد المولى ذي الجلال، فهم لا تنشرح صدورهم لتقديس الكبير المتعال!

[وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك: إذا تحقق ذلك وتيقنه. . . العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن

تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك كسبيل التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير] ٩٤

يقول الألوسي: وفي قوله تعالى: {أحطت} الخ ٩٥ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالما على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، وأن يكون مستحضرا الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه، فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال الإمام علي كرم الله تعالى وجهه: بلى والله! هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له! يعني به الله عز وجل. . اه.

٢١ - (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

{وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٢٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ٢١ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ٢٢ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٢٣ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٤}

وسط هذا الحشد من أصناف الجند، توجه سليمان لتعرف أحوال الطير، أو لمح نقصان بعضها، فراح يتطلب حقيقة ما غاب عنه، فقال: هل حال بيني وبين رؤية الهدهد حائل- اتهم نفسه هضما لها وتواضعا، ومبالغة في النصفة- أم هو قد تغيب؟ فإذا كان كذلك فلا منجا له من العقوبة الشديدة أو الذبح إلا بأن يجيئني بحجة بينة على عذره في غيبته، [ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة، وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. . . ومآل كلامه عليه السلام! ليكونن أحد الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، ف {أو} في الموضعين للترديد] ٩٦.

مما نقل ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. . فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره {فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين}، حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج. . فقال له: قف يا ابن عباس! غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي. . . قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. . اه. [الثانية: - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله؟؟ فكيف بعظام الملك؟!. . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان؟!] ٩٧، فلم يتأخر الهدهد إلا زمنا قريبا غير بعيد ثم مثل بين يدي سليمان عليه السلام فقال له: علمت ما لم تعلم من الأمر، وأتيتك من بلاد سبأ باليمن بخبر عظيم، صادق ويقين، إني وجدتهم ملكوا امرأة منهم، أعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم، ووجدتها وقومها يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس بدلا من سجودهم لله الحق، مبدع الخلق، وحسن لهم الشيطان ما هم فيه من الوثنية والخبال، فردهم عن طريق توحيد المولى ذي الجلال، فهم لا تنشرح صدورهم لتقديس الكبير المتعال!

[وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك: إذا تحقق ذلك وتيقنه. . . العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن

تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك كسبيل التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير.] ٩٨
يقول الألوسي: وفي قوله تعالى: {أحطت} الخ ٩٩ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالما على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، وأن يكون مستحضرا الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه، فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال الإمام علي كرم الله تعالى وجهه: بلى والله! هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له! يعني به الله عز وجل. . اه.
٢٢ - (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]
{وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٢٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ٢١ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ٢٢ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٢٣ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٤{
وسط هذا الحشد من أصناف الجند، توجه سليمان لتعرف أحوال الطير، أو لمح نقصان بعضها، فراح يتطلب حقيقة ما غاب عنه، فقال: هل حال بيني وبين رؤية الهدهد حائل- اتهم نفسه هضما لها وتواضعا، ومبالغة في النصفة- أم هو قد تغيب؟ فإذا كان كذلك فلا منجا له من العقوبة الشديدة أو الذبح إلا بأن يجيئني بحجة بينة على عذره في غيبته، [ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة، وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. . . ومآل كلامه عليه السلام! ليكونن أحد الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، ف {أو} في الموضعين للترديد] ١٠٠.
مما نقل ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. . فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره {فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين}، حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج. . فقال له: قف يا ابن عباس! غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي. . . قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. . اه. [الثانية: - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله؟؟ فكيف بعظام الملك؟!. . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان؟!] ١٠١، فلم يتأخر الهدهد إلا زمنا قريبا غير بعيد ثم مثل بين يدي سليمان عليه السلام فقال له: علمت ما لم تعلم من الأمر، وأتيتك من بلاد سبأ باليمن بخبر عظيم، صادق ويقين، إني وجدتهم ملكوا امرأة منهم، أعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم، ووجدتها وقومها يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس بدلا من سجودهم لله الحق، مبدع الخلق، وحسن لهم الشيطان ما هم فيه من الوثنية والخبال، فردهم عن طريق توحيد المولى ذي الجلال، فهم لا تنشرح صدورهم لتقديس الكبير المتعال!
[وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك: إذا تحقق ذلك وتيقنه. . . العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن

تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك كسبيل التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير.] ١٠٢

يقول الألوسي: وفي قوله تعالى: {أحطت} الخ ١٠٣ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالما على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، وأن يكون مستحضرا الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه، فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال الإمام علي كرم الله تعالى وجهه: بلى والله! هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له! يعني به الله عز وجل. . اه.

٢٣ - (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

}وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٢٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ٢١ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ٢٢ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٢٣ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٤{

وسط هذا الحشد من أصناف الجند، توجه سليمان لتعرف أحوال الطير، أو لمح نقصان بعضها، فراح يتطلب حقيقة ما غاب عنه، فقال: هل حال بيني وبين رؤية الهدهد حائل- اتهم نفسه هضما لها وتواضعا، ومبالغة في النصفة- أم هو قد تغيب؟ فإذا كان كذلك فلا منجا له من العقوبة الشديدة أو الذبح إلا بأن يجيئني بحجة بينة على عذره في غيبته، [ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة، وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. . . ومآل كلامه عليه السلام! ليكونن أحد الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، ف {أو} في الموضعين للترديد] ١٠٤.

مما نقل ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. . فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره {فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين}، حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج. . فقال له: قف يا ابن عباس! غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي. . . قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. . اه. [الثانية: - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله؟؟ فكيف بعظام الملك؟!. . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان؟!] ١٠٥، فلم يتأخر الهدهد إلا زمنا قريبا غير بعيد ثم مثل بين يدي سليمان عليه السلام فقال له: علمت ما لم تعلم من الأمر، وأتيتك من بلاد سبأ باليمن بخبر عظيم، صادق ويقين، إني وجدتهم ملكوا امرأة منهم، أعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم، ووجدتها وقومها يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس بدلا من سجودهم لله الحق، مبدع الخلق، وحسن لهم الشيطان ما هم فيه من الوثنية والخبال، فردهم عن طريق توحيد المولى ذي الجلال، فهم لا تنشرح صدورهم لتقديس الكبير المتعال!

[وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك: إذا تحقق ذلك وتيقنه. . . العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن

تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك كسبيل التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير] ١٠٦
يقول الألوسي: وفي قوله تعالى: {أحطت} الخ ١٠٧ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالما على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، وأن يكون مستحضرا الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه، فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال الإمام علي كرم الله تعالى وجهه: بلى والله! هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له! يعني به الله عز وجل. . اه.
٢٤ - (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]
}وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٢٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ٢١ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ٢٢ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٢٣ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٤{
وسط هذا الحشد من أصناف الجند، توجه سليمان لتعرف أحوال الطير، أو لمح نقصان بعضها، فراح يتطلب حقيقة ما غاب عنه، فقال: هل حال بيني وبين رؤية الهدهد حائل- اتهم نفسه هضما لها وتواضعا، ومبالغة في النصفة- أم هو قد تغيب؟ فإذا كان كذلك فلا منجا له من العقوبة الشديدة أو الذبح إلا بأن يجيئني بحجة بينة على عذره في غيبته، [ثم إن هذا الشق وإن قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة، وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل. . . ومآل كلامه عليه السلام! ليكونن أحد الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، ف {أو} في الموضعين للترديد] ١٠٨.
مما نقل ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. . فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره {فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين}، حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج. . فقال له: قف يا ابن عباس! غلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي. . . قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر. . اه. [الثانية: - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله؟؟ فكيف بعظام الملك؟!. . فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان؟!] ١٠٩، فلم يتأخر الهدهد إلا زمنا قريبا غير بعيد ثم مثل بين يدي سليمان عليه السلام فقال له: علمت ما لم تعلم من الأمر، وأتيتك من بلاد سبأ باليمن بخبر عظيم، صادق ويقين، إني وجدتهم ملكوا امرأة منهم، أعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم، ووجدتها وقومها يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس بدلا من سجودهم لله الحق، مبدع الخلق، وحسن لهم الشيطان ما هم فيه من الوثنية والخبال، فردهم عن طريق توحيد المولى ذي الجلال، فهم لا تنشرح صدورهم لتقديس الكبير المتعال!
[وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك: إذا تحقق ذلك وتيقنه. . . العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن

تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك كسبيل التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير.] ١١٠
يقول الألوسي: وفي قوله تعالى: {أحطت} الخ ١١١ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالما على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، وأن يكون مستحضرا الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه، فبطلان كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال الإمام علي كرم الله تعالى وجهه: بلى والله! هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له! يعني به الله عز وجل. . اه.
٢٥ - (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
{ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٢٥ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ٢٦ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٢٧ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون ٢٨}
كأن هذه الآية الكريمة الخامسة والعشرين تتمة- ما حكاه القرآن عن الهدهد، وربما يكون المعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن طريق الحق والهدى والتوحيد، لئلا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء من السماء من قطرها وأرزاقها وخزائن علمها، ويخرج خبء الأرض من نحو نبتها وكنوزها وأقواتها، ويعلم- وهو الخبير- ما يخفي الخلائق، وما يظهرون، وما يستسرون به وما يجهرون، هو المعبود بحق لا يستحق سواه أن يعبد فهو مالك العرش العظيم، الذي أحاط سلطانه بكل العوالم، وهو- جل علاه- الموجد لها، المدبر لأمرها، قبل سليمان عليه السلام عذر الهدهد، لكنه أراد أن يمتحن ويطلب الانتهاء إلى ما أخبر، والاطمئنان إلى جلية الأمر، [دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم،. . . وفي الصحيح: " ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل "، فقال للهدهد ليحصل علم ما غاب عنه من ذلك: سنتأمل ونتفكر ونستوثق بالتجربة ثبوت صدق ما قلت، أو عدم صدقه، احمل كتابي هذا، وطر به إلى بلقيس وقومها، فألق الكتاب إلى ملكتهم، وتنح عنها قليلا لكن لتكن على مقربة منهم لتعرف رجع القول فيهم، وكيف يرد بعضهم على بعض في هذا الشأن، وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ ما فيه للقوم- وقال الزمخشري: فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأن مواضع السجدة: إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك
٢٦ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]
{ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٢٥ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ٢٦ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٢٧ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون ٢٨}
كأن هذه الآية الكريمة الخامسة والعشرين تتمة- ما حكاه القرآن عن الهدهد، وربما يكون المعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن طريق الحق والهدى والتوحيد، لئلا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء من السماء من قطرها وأرزاقها وخزائن علمها، ويخرج خبء الأرض من نحو نبتها وكنوزها وأقواتها، ويعلم- وهو الخبير- ما يخفي الخلائق، وما يظهرون، وما يستسرون به وما يجهرون، هو المعبود بحق لا يستحق سواه أن يعبد فهو مالك العرش العظيم، الذي أحاط سلطانه بكل العوالم، وهو- جل علاه- الموجد لها، المدبر لأمرها، قبل سليمان عليه السلام عذر الهدهد، لكنه أراد أن يمتحن ويطلب الانتهاء إلى ما أخبر، والاطمئنان إلى جلية الأمر، [دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم،. . . وفي الصحيح: " ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل "، فقال للهدهد ليحصل علم ما غاب عنه من ذلك: سنتأمل ونتفكر ونستوثق بالتجربة ثبوت صدق ما قلت، أو عدم صدقه، احمل كتابي هذا، وطر به إلى بلقيس وقومها، فألق الكتاب إلى ملكتهم،

وتنح عنها قليلا لكن لتكن على مقربة منهم لتعرف رجع القول فيهم، وكيف يرد بعضهم على بعض في هذا الشأن، وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ ما فيه للقوم- وقال الزمخشري: فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأن مواضع السجدة: إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك

٢٧ - (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]

{ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٢٥ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ٢٦ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٢٧ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون ٢٨}

كأن هذه الآية الكريمة الخامسة والعشرين تتمة- ما حكاه القرآن عن الهدهد، وربما يكون المعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن طريق الحق والهدى والتوحيد، لئلا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء من السماء من قطرها وأرزاقها وخزائن علمها، ويخرج خبء الأرض من نحو نبتها وكنوزها وأقواتها، ويعلم- وهو الخبير- ما يخفي الخلائق، وما يظهرون، وما يستسرون به وما يجهرون، هو المعبود بحق لا يستحق سواه أن يعبد فهو مالك العرش العظيم، الذي أحاط سلطانه بكل العوالم، وهو- جل علاه- الموجد لها، المدبر لأمرها، قبل سليمان عليه السلام عذر الهدهد، لكنه أراد أن يمتحن ويطلب الانتهاء إلى ما أخبر، والاطمئنان إلى جلية الأمر، [دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم،. . . وفي الصحيح: " ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل "، فقال للهدهد ليحصل علم ما غاب عنه من ذلك: سنتأمل ونتفكر ونستوثق بالتجربة ثبوت صدق ما قلت، أو عدم صدقه، احمل كتابي هذا، وطر به إلى بلقيس وقومها، فألق الكتاب إلى ملكتهم، وتنح عنها قليلا لكن لتكن على مقربة منهم لتعرف رجع القول فيهم، وكيف يرد بعضهم على بعض في هذا الشأن، وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ ما فيه للقوم- وقال الزمخشري: فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأن مواضع السجدة: إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك

٢٨ - (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

{ثم تول عنهم} أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبا. . . فاعلم ماذا يرجعون أي يجيبون. .] ١١٢.

٢٩ - (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ)

{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}

فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١١٣، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل

بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١١٤.

٣٠ - (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}

فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١١٥، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١١٦.

٣١ - (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}

فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما

لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١١٧، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١١٨.

٣٢ - (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}

فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١١٩، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١٢٠.

٣٣ - (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]
{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}
فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١٢١، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١٢٢.
٣٤ - (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]
{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}
فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١٢٣، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري

ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١٢٤.

٣٥ - (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ٢٩ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ٣١ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٣٢ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ٣٣ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٣٤ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ٣٥}

فاستجاب الهدهد لأمر مولاه سليمان، وحمل الكتاب إلى بلقيس وقومها، فلما وصلها ألقاه إليها ففتحته وقرأت ما فيه فأكبرته، إما لإحساسها أنه من ملك، أو لكرمه وحسن ما فيه، أو لأنه كان مختوما، إنه من سليمان، وإن ما فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أي لا تتكبروا علي كما فعل المكابرون المغترون، وتعالوا إلي منقادين لما جاء من ربنا من وحي، [وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله {بسم الله الرحمن الرحيم} مشتمل على إثبات الصانع وصفاته، والباقي نهى عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف، كل ذلك بعد إظهار المعجزة برسالة الهدهد] ١٢٥، وأتبعت حديثها عن الكتاب بطلب الرأي والمشورة من أشراف قومها ورؤسائهم، والإفتاء بالإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وقد تكون جوابا في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل، ولعلها أرادت باستشارتهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوا ويقوموا معها، وأكدت أنها لن تقطع أمرا يتصل بالملك إلا بحضورهم، ووفق آرائهم، فأجابوها: نحن رجال حرب ونزال، ولسنا بأصحاب فكر وجدال، ومنك نتلقى الأوامر فقرري ما ترين، ووجهي إلينا ما شئت من أمر، قال الحسن البصري- رحمه الله- فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. اه، ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت: وإني سأرسل إلى سليمان بهدية حتى أتبين أملك هو؟ أم رسول؟ قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس. . قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه ١٢٦.

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

{فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ٣٦ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ٣٧ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ٣٨ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ٣٩ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ٤٠}.

وأقبل وفد بلقيس على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يحمل نفائس الهدايا وطرائفها، فلما وصلوا إليه أنكر عليهم تكلف الإهداء، والمصانعة بالمال بدلا من الاهتداء- إذ كان كتابه عليه السلام إليها وإلى قومها: {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} فكأنها عمدت إلى بذل

المال طمعا في أن يتركها نبي الله على العلو والملك والشرك والضلال، ولهذا قالت لقومها ما حكاه القرآن من قيلها: {وإني مرسلة إليهم بهدية} نكرت الهدية لبيان أنها عظيمة، وهيهات! فإن الداعي إلى الله لا يشغله عرض الحياة، وهل مثل سليمان في حاجة إلى من يزيده مالا على ما أوتي؟ كلا! فإن الغني الوهاب قد أعطاه من خيري الدين والدنيا، فليرجع المعجبون بزخارف باطلة بزخرفهم وباطلهم، وليفرحوا بتفاخرهم وتكاثرهم، ثم رد رسولها ومن معه وما كان يحمل معه لينذرهم عاقبة الركون إلى السلطان، والنكوص عن الإيمان، فنغزوهم بجنود لا يستطيعون دفعها، ولا الوقوف لها، ولنطردنهم من أرض أبطرتهم، ولنسلبنهم أنفة غرتهم، حتى لا يدركوا إلا الذل والانكسار، فلما ارتد رسلها إليها بهديتها، وإنذار سليمان بخزيها وهزيمتها، لم تجد إلا السمع والطاعة، واستنفرت قومها وجندها لتسير إلى سليمان مسلمة مستسلمة، فلما علم سليمان بمسيرها قال لكبراء جنده: أيكم يحضر لي عرش بلقيس قبل أن تجيء وقومها طائعين منقادين، أو داخلين في الإسلام؟ قال مارد من الجن أنا أحضره إليك قبل أن تنتهي جلستك هذه، وقبل أن ينفض جمعك الذي يقاعدك الساعة، ولن يعجزني استحضاره، ولن ينقص منه شيء، فكأنه عليه السلام أراد أعجل من ذلك- ربما لأنه يريد أن تكون حجة وآية من الله وبرهانا على صدق نبوته، فتزداد بلقيس وقومها حين وصولها ثقة في رسالته عليه السلام بما تشاهد من آيات الإعجاز والإكرام لهذا النبي الملك عليه الصلاة والسلام- فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أستحضره قبل أن تغمض عينك، وحضر عرش بلقيس بتيسير ربنا الذي إذا شاء جعل الصعب سهلا.

٣٧ - (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ٣٦ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ٣٧ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ٣٨ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ٣٩ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ٤٠}.

وأقبل وفد بلقيس على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يحمل نفائس الهدايا وطرائفها، فلما وصلوا إليه أنكر عليهم تكلف الإهداء، والمصانعة بالمال بدلا من الاهتداء- إذ كان كتابه عليه السلام إليها وإلى قومها: {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} فكأنها عمدت إلى بذل المال طمعا في أن يتركها نبي الله على العلو والملك والشرك والضلال، ولهذا قالت لقومها ما حكاه القرآن من قيلها: {وإني مرسلة إليهم بهدية} نكرت الهدية لبيان أنها عظيمة، وهيهات! فإن الداعي إلى الله لا يشغله عرض الحياة، وهل مثل سليمان في حاجة إلى من يزيده مالا على ما أوتي؟ كلا! فإن الغني الوهاب قد أعطاه من خيري الدين والدنيا، فليرجع المعجبون بزخارف باطلة بزخرفهم وباطلهم، وليفرحوا بتفاخرهم وتكاثرهم، ثم رد رسولها ومن معه وما كان يحمل معه لينذرهم عاقبة الركون إلى السلطان، والنكوص عن الإيمان، فنغزوهم بجنود لا يستطيعون دفعها، ولا الوقوف لها، ولنطردنهم من أرض أبطرتهم، ولنسلبنهم أنفة غرتهم، حتى لا يدركوا إلا الذل والانكسار، فلما ارتد رسلها إليها بهديتها، وإنذار سليمان بخزيها وهزيمتها، لم تجد إلا السمع والطاعة، واستنفرت قومها وجندها لتسير إلى سليمان مسلمة مستسلمة، فلما علم سليمان بمسيرها قال لكبراء جنده: أيكم يحضر لي عرش بلقيس قبل أن تجيء وقومها طائعين منقادين، أو داخلين في الإسلام؟ قال مارد من الجن أنا أحضره إليك قبل أن تنتهي جلستك هذه، وقبل أن ينفض جمعك الذي يقاعدك الساعة، ولن يعجزني استحضاره، ولن ينقص منه شيء، فكأنه عليه السلام أراد أعجل من ذلك- ربما لأنه يريد أن تكون حجة وآية من الله وبرهانا على صدق نبوته، فتزداد بلقيس وقومها حين وصولها ثقة في رسالته عليه السلام بما تشاهد من آيات الإعجاز والإكرام لهذا النبي الملك عليه الصلاة والسلام- فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أستحضره قبل أن تغمض عينك، وحضر عرش بلقيس بتيسير ربنا الذي إذا شاء جعل الصعب سهلا.

٣٨ - (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ٣٦ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ٣٧ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ٣٨ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ٣٩ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ٤٠}.

وأقبل وفد بلقيس على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يحمل نفائس الهدايا وطرائفها، فلما وصلوا إليه أنكر عليهم تكلف الإهداء، والمصانعة بالمال بدلا من الاهتداء- إذ كان كتابه عليه السلام إليها وإلى قومها: {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} فكأنها عمدت إلى بذل المال طمعا في أن يتركها نبي الله على العلو والملك والشرك والضلال، ولهذا قالت لقومها ما حكاه القرآن من قيلها: {وإني مرسلة إليهم بهدية} نكرت الهدية لبيان أنها عظيمة، وهيهات! فإن الداعي إلى الله لا يشغله عرض الحياة، وهل مثل سليمان في حاجة إلى من يزيده مالا على ما أوتي؟ كلا! فإن الغني الوهاب قد أعطاه من خيري الدين والدنيا، فليرجع المعجبون بزخارف باطلة بزخرفهم وباطلهم، وليفرحوا بتفاخرهم وتكاثرهم، ثم رد رسولها ومن معه وما كان يحمل معه لينذرهم عاقبة الركون إلى السلطان، والنكوص عن الإيمان، فنغزوهم بجنود لا يستطيعون دفعها، ولا الوقوف لها، ولنطردنهم من أرض أبطرتهم، ولنسلبنهم أنفة غرتهم، حتى لا يدركوا إلا الذل والانكسار، فلما ارتد رسلها إليها بهديتها، وإنذار سليمان بخزيها وهزيمتها، لم تجد إلا السمع والطاعة، واستنفرت قومها وجندها لتسير إلى سليمان مسلمة مستسلمة، فلما علم سليمان بمسيرها قال لكبراء جنده: أيكم يحضر لي عرش بلقيس قبل أن تجيء وقومها طائعين منقادين، أو داخلين في الإسلام؟ قال مارد من الجن أنا أحضره إليك قبل أن تنتهي جلستك هذه، وقبل أن ينفض جمعك الذي يقاعدك الساعة، ولن يعجزني استحضاره، ولن ينقص منه شيء، فكأنه عليه السلام أراد أعجل من ذلك- ربما لأنه يريد أن تكون حجة وآية من الله وبرهانا على صدق نبوته، فتزداد بلقيس وقومها حين وصولها ثقة في رسالته عليه السلام بما تشاهد من آيات الإعجاز والإكرام لهذا النبي الملك عليه الصلاة والسلام- فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أستحضره قبل أن تغمض عينك، وحضر عرش بلقيس بتيسير ربنا الذي إذا شاء جعل الصعب سهلا.

٣٩ - (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ٣٦ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ٣٧ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ٣٨ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ٣٩ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ٤٠}.

وأقبل وفد بلقيس على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يحمل نفائس الهدايا وطرائفها، فلما وصلوا إليه أنكر عليهم تكلف الإهداء، والمصانعة بالمال بدلا من الاهتداء- إذ كان كتابه عليه السلام إليها وإلى قومها: {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} فكأنها عمدت إلى بذل المال طمعا في أن يتركها نبي الله على العلو والملك والشرك والضلال، ولهذا قالت لقومها ما حكاه القرآن من قيلها: {وإني مرسلة إليهم بهدية} نكرت الهدية لبيان أنها عظيمة، وهيهات! فإن الداعي إلى الله لا يشغله عرض الحياة، وهل مثل سليمان في حاجة إلى من يزيده مالا على ما أوتي؟ كلا! فإن الغني الوهاب قد أعطاه من خيري الدين والدنيا، فليرجع المعجبون بزخارف باطلة بزخرفهم وباطلهم، وليفرحوا بتفاخرهم وتكاثرهم، ثم رد رسولها ومن معه وما كان يحمل معه لينذرهم عاقبة الركون إلى السلطان، والنكوص عن الإيمان، فنغزوهم بجنود لا يستطيعون دفعها، ولا الوقوف لها، ولنطردنهم من أرض أبطرتهم، ولنسلبنهم أنفة غرتهم، حتى لا يدركوا إلا الذل والانكسار، فلما ارتد رسلها إليها بهديتها، وإنذار سليمان بخزيها وهزيمتها، لم تجد إلا السمع والطاعة، واستنفرت قومها وجندها لتسير إلى سليمان مسلمة مستسلمة، فلما علم سليمان بمسيرها قال لكبراء جنده: أيكم يحضر لي عرش بلقيس قبل أن تجيء

وقومها طائعين منقادين، أو داخلين في الإسلام؟ قال مارد من الجن أنا أحضره إليك قبل أن تنتهي جلستك هذه، وقبل أن ينفض جمعك الذي يقاعدك الساعة، ولن يعجزني استحضاره، ولن ينقص منه شيء، فكأنه عليه السلام أراد أعجل من ذلك- ربما لأنه يريد أن تكون حجة وآية من الله وبرهانا على صدق نبوته، فتزداد بلقيس وقومها حين وصولها ثقة في رسالته عليه السلام بما تشاهد من آيات الإعجاز والإكرام لهذا النبي الملك عليه الصلاة والسلام- فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أستحضره قبل أن تغمض عينك، وحضر عرش بلقيس بتيسير ربنا الذي إذا شاء جعل الصعب سهلا.

٤٠ - (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ٣٦ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ٣٧ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ٣٨ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ٣٩ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ٤٠}.

وأقبل وفد بلقيس على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يحمل نفائس الهدايا وطرائفها، فلما وصلوا إليه أنكر عليهم تكلف الإهداء، والمصانعة بالمال بدلا من الاهتداء- إذ كان كتابه عليه السلام إليها وإلى قومها: {ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} فكأنها عمدت إلى بذل المال طمعا في أن يتركها نبي الله على العلو والملك والشرك والضلال، ولهذا قالت لقومها ما حكاه القرآن من قيلها: {وإني مرسلة إليهم بهدية} نكرت الهدية لبيان أنها عظيمة، وهيهات! فإن الداعي إلى الله لا يشغله عرض الحياة، وهل مثل سليمان في حاجة إلى من يزيده مالا على ما أوتي؟ كلا! فإن الغني الوهاب قد أعطاه من خيري الدين والدنيا، فليرجع المعجبون بزخارف باطلة بزخرفهم وباطلهم، وليفرحوا بتفاخرهم وتكاثرهم، ثم رد رسولها ومن معه وما كان يحمل معه لينذرهم عاقبة الركون إلى السلطان، والنكوص عن الإيمان، فنغزوهم بجنود لا يستطيعون دفعها، ولا الوقوف لها، ولنطردنهم من أرض أبطرتهم، ولنسلبنهم أنفة غرتهم، حتى لا يدركوا إلا الذل والانكسار، فلما ارتد رسلها إليها بهديتها، وإنذار سليمان بخزيها وهزيمتها، لم تجد إلا السمع والطاعة، واستنفرت قومها وجندها لتسير إلى سليمان مسلمة مستسلمة، فلما علم سليمان بمسيرها قال لكبراء جنده: أيكم يحضر لي عرش بلقيس قبل أن تجيء وقومها طائعين منقادين، أو داخلين في الإسلام؟ قال مارد من الجن أنا أحضره إليك قبل أن تنتهي جلستك هذه، وقبل أن ينفض جمعك الذي يقاعدك الساعة، ولن يعجزني استحضاره، ولن ينقص منه شيء، فكأنه عليه السلام أراد أعجل من ذلك- ربما لأنه يريد أن تكون حجة وآية من الله وبرهانا على صدق نبوته، فتزداد بلقيس وقومها حين وصولها ثقة في رسالته عليه السلام بما تشاهد من آيات الإعجاز والإكرام لهذا النبي الملك عليه الصلاة والسلام- فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أستحضره قبل أن تغمض عينك، وحضر عرش بلقيس بتيسير ربنا الذي إذا شاء جعل الصعب سهلا.

٤١ - (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ)

{قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ٤١ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ٤٢ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ٤٣}

فلما رأى سليمان عرش الملكة بلقيس بين يديه لم يستخفه حول، ولا ركن إلى شيء مما أوتي، ولكن كان العبد الشكور الذكور، فأقر بالنعمة للمنعم جل علاه، وذكر وذكّر بسنن الله، وأنه يبتلي بالشر والخير فتنة {ليبلوني أأشكر أم أكفر} والمولى الغني الحميد لن يزيد ملكه شكر الشاكرين، بل الربح والمزيد للحامدين، مصداقا لوعد رب العالمين). . لئن شكرتم لأزيدنكم. . (، ثم أمر سليمان من عنده من الجند أن يغيروا شيئا من صفات عرش بلقيس حتى إذا ما جاءت جربنا مدى استنارة عقلها، واهتداء قلبها، وأقبلت بلقيس بأتباعها،

فلما مرت بهذا العرش الذي بدلت أشكاله وأحواله سئلت: أهذا يشبه عرشك؟ فأجابت: كأنه عرشي، فأناب سليمان العبد الأواب- كثير الرجوع إلى ربه عز وجل موصول القلب به- وأثنى على الله تعالى شاكرا أنعمه، غير آمن مكره، مستيقنا من حكمة مولاه) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. . (١٢٧ معتزا بما هدي إليه من الدين الحق وعلم اليقين

٤٢ - (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

{وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين} وهكذا! ليس في العطايا أتم من عطية الإيمان ونوره،) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (١٢٨) والسابقون السابقون. أولئك المقربون (١٢٩ أما بلقيس فمع ما وهبت من ملك وحسن تدبير فقد صرفها عن سبيل المؤمنين ما توارثته من ضلالات الأقدمين ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، فقد تتابع في أسلافها عبادة أشتات من المعبودين من دون رب العالمين.
١٣٠

٤٣ - (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

{قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ٤١ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ٤٢ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ٤٣}

فلما رأى سليمان عرش الملكة بلقيس بين يديه لم يستخفه حول، ولا ركن إلى شيء مما أوتي، ولكن كان العبد الشكور الذكور، فأقر بالنعمة للمنعم جل علاه، وذكر وذكّر بسنن الله، وأنه يبتلي بالشر والخير فتنة {ليبلوني أأشكر أم أكفر} والمولى الغني الحميد لن يزيد ملكه شكر الشاكرين، بل الربح والمزيد للحامدين، مصداقا لوعد رب العالمين). . لئن شكرتم لأزيدنكم. . (، ثم أمر سليمان من عنده من الجند أن يغيروا شيئا من صفات عرش بلقيس حتى إذا ما جاءت جربنا مدى استنارة عقلها، واهتداء قلبها، وأقبلت بلقيس بأتباعها، فلما مرت بهذا العرش الذي بدلت أشكاله وأحواله سئلت: أهذا يشبه عرشك؟ فأجابت: كأنه عرشي، فأناب سليمان العبد الأواب- كثير الرجوع إلى ربه عز وجل موصول القلب به- وأثنى على الله تعالى شاكرا أنعمه، غير آمن مكره، مستيقنا من حكمة مولاه) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. . (١٣١ معتزا بما هدي إليه من الدين الحق وعلم اليقين

٤٤ - (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

{قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ٤٤}

وكان لسليمان قصر أجرى الماء تحته وجعل أرضه من زجاج، فأمر بوضع كرسيه في هذا القصر، وجلس على الكرسي، وقيل لبلقيس: ادخلي الصرح [ليريها ملكا هو أعز من ملكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها] ١٣٢ فظنت أن سليمان يريد أن يقتلها غرقا، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقال لها سليمان: {إنه صرح ممرد من قوارير} بناء ومنزل رصفت أرضه وفرشت بألواح تشف عما تحتها، فاعترفت بخطئها، ورجعت عن غيها، وأنابت إلى ربها، وأعلنت إسلامها، وأقرت باتباع نبيها، والدخول في دين الله الذي بعثه ربه وارتضاه.

نقل كثير من المفسرين غرائب حول هذه القصة الكريمة، وأطالوا في سرد عجائب لا برهان على ثبوتها، أفاضوا في الحديث عن النملة، عن اسمها، وحجمها، وجنسها، حتى أوردوا أنها كانت عرجاء! وبعضهم قال: كانت في حجم الذناب، ولعل من الطريف ما نقله القرطبي عن حجاج النملة لسليمان، وحملها إليه نبقة هدية، وتقديمها إليه مع أبيات شعرية، وكذا الحال بالنسبة إلى الهدهد، وشاركه كثير من أصحاب التفاسير المشهورة، بل نقل أنها توجهت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت كل قيل مائة ألف [ص ٢٠٢ ج ١٣ الجامع لأحكام القرآن] ثم أورد ذلك مرة أخرى في ص ٢١٢ ١٣٣، وبعضهم أورد خلافا: هل حج سليمان عليه السلام؟ وكم من الشياه والبقر والإبل كان يقرب كل يوم؟! وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح وأنفع وأبلغ ولله الحمد والمنة

.١٣٤
{ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ٣٥ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ٣٦}.

بعث الله تعالى إلى قبيلة ثمود نبيا منهم هو صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى- وما زالت مدائن صالح خاوية البيوت المنحوتة في الجبال إلى يومنا هذا- دعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما بينت ذلك آية أخرى:). . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. . (١٣٥ فآمنت طائفة، وسرعان ما انبرى لهم الكبراء المكابرون الكافرون يخاصمونهم) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون (١٣٦، وكان من استعجالهم السيئة بدلا من طلب الحسنة أن تحدوا نبيهم). . وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (١٣٧، فاستنكر عليهم رسولهم أن يتعجلوا البلاء، ويستحبوا العمى على الهدى، ويطيعوا دعاة الفساد والبغي، ويبطروا بما أوتوا، بدلا من تقوى الله وشكر نعمته وطلب عافيته، فهلا طلبتم إلى الله القوي القدير الغفور الشكور أن يستر عليكم ذنوبكم، وأن يعفو عن آثامكم، رجاء الصفح عن أوزاركم، لينجيكم من خزي الدنيا، ويعظم ثوابكم في الآخرة؟!

٤٧ - (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)

{قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ٤٧}

من جهلهم ظنوا السوء بنبيهم وبربهم، وتطيروا من دعوة نبيهم لهم، وقالوا:. . ما نرى في وجهك ولا في وجوه أتباعك بشرى بخير يصيبنا، وأصل الطيرة: أن يزجر المتطير طيرا، فإن أخذت يمينا تفاءل، وإن اتجهت في طيرانها ناحية الشمال تطير وتوقع النحس والشؤم. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن الطيرة، والتنفير من الركون إليها، أو التسليم بصحتها فضلا عن التأثر بها ١٣٨، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا طيرة وخيرها الفأل " قالوا: وما الفأل؟ قال: " الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم ". .

فرد صالح على قومه مقالتهم المتطيرة به وبمن معه قائلا: كل ما ينتظركم ويحل بكم وتترقبون يأتيكم به الله وحده، والذي أدعوكم إليه ليس مما تسوء عاقبته، وإنما أنتم الذين فتنكم الشيطان من توحيد ربكم وطاعته، وزين لكم سوء عملكم فرأيتموه حسنا، وحسبتم أن ما متعتم به سيخلدكم، ولكن هيهات!) أتتركون في ما هاهنا آمنين. في جنات وعيون. وزرع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (١٣٩.

٤٨ - (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)

{وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ٤٨}

كان في مدينة صالح تسعة من أكابر مجرميها وطغاتها، أمعنوا في الإفساد وتمحضوا له، ولم يسلكوا طريق عمل خير أبدا، انبعث هؤلاء الأشقياء يواثقون على العدوان، ويتعاونون على الإثم، ويتواصون بالغدر.

٤٩ - (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

{قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ٤٩ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ٥٠}

قال بعضهم لبعض: أعطوا العهد والميثاق واحلفوا بالله لنهاجمن صالحا وأتباعه- خفية- نقتلهم تحت جنح الظلام، فإذا أصبحوا مقتولين قلنا لرهط صالح وعصبته- الذين لهم ولاية دمه، والذين قد يأخذوننا بالثأر- ما حضرنا ولا ندري من قتله وقتل أصحابه.

والأهلية: أهلية الدين، والبيات: مباغتة العدو ليلا، والمهلك: الهلاك، كقوله تعالى:) إليه مرجعكم (١٤٠ أي رجوعكم.

ودبروا أمرهم، وأحكموا وأبرموا كيدهم واحتيالهم في خفاء، ولكن كادهم الله وخيب ظنهم فما نالوا من صالح نبيهم- عليه السلام- والذين معه منالا، بل نجى الله برحمته صالحا والذين آمنوا معه، وحاق المكر السيء بأهل الكيد.

٥٠ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]

{قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ٤٩ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ٥٠}

قال بعضهم لبعض: أعطوا العهد والميثاق واحلفوا بالله لنهاجمن صالحا وأتباعه- خفية- نقتلهم تحت جنح الظلام، فإذا أصبحوا مقتولين قلنا لرهط صالح وعصبته- الذين لهم ولاية دمه، والذين قد يأخذوننا بالثأر- ما حضرنا ولا ندري من قتله وقتل أصحابه.

والأهلية: أهلية الدين، والبيات: مباغتة العدو ليلا، والمهلك: الهلاك، كقوله تعالى:) إليه مرجعكم (١٤١ أي رجوعكم.

ودبروا أمرهم، وأحكموا وأبرموا كيدهم واحتيالهم في خفاء، ولكن كادهم الله وخيب ظنهم فما نالوا من صالح نبيهم- عليه السلام- والذين معه منالا، بل نجى الله برحمته صالحا والذين آمنوا معه، وحاق المكر السيء بأهل الكيد.

٥١ - (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

{فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ٥١ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ٥٢ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ٥٣}

تأمل وتدبر يا من يتأتى منك التدبر كيف جازاهم الله تعالى على مكرهم واحتيالهم وتدبيرهم، وعلى غدرهم وهمهم بقتل نبيهم وأخيارهم، فكان عاقبة الذين أساءوا السوآى، وأهلك الله التسعة الأشقياء وأهلك سائر قومهم الكافرين، وخرب القوي العزيز بيوت الظالمين، إحقاقا للحق ونصرة للموقنين، وعلامة على قدرته وبأسه وبطشته، يذكر بها ويعتبر أهل الفهم والعلم، وصدق الله العظيم:) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (١٤٢، حل بهم بلاء، وداهمتهم صيحة فقتلوا جميعا، وخلت منهم مساكنهم، وأقفرت دورهم، وأنجى ربنا البر الرحيم عباده المؤمنين المتقين، فلم يهلكهم مع المهلكين، رأفة منه سبحانه بالمصدقين المطيعين، جاء في آية أخرى:) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (١٤٣.

٥٢ - (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ٥١ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ٥٢ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ٥٣}

تأمل وتدبر يا من يتأتى منك التدبر كيف جازاهم الله تعالى على مكرهم واحتيالهم وتدبيرهم، وعلى غدرهم وهمهم بقتل نبيهم وأخيارهم، فكان عاقبة الذين أساءوا السوآى، وأهلك الله التسعة الأشقياء وأهلك سائر قومهم الكافرين، وخرب القوي العزيز بيوت الظالمين، إحقاقا للحق ونصرة للموقنين، وعلامة على قدرته وبأسه وبطشته، يذكر بها ويعتبر أهل الفهم والعلم، وصدق الله العظيم:) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (١٤٤، حل بهم بلاء، وداهمتهم صيحة فقتلوا جميعا، وخلت منهم مساكنهم، وأقفرت دورهم، وأنجى ربنا البر الرحيم عباده المؤمنين المتقين، فلم يهلكهم مع المهلكين، رأفة منه سبحانه بالمصدقين المطيعين، جاء في آية أخرى:) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (١٤٥.

٥٣ - (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ٥١ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ٥٢ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ٥٣}

تأمل وتدبر يا من يتأتى منك التدبر كيف جازاهم الله تعالى على مكرهم واحتيالهم وتدبيرهم، وعلى غدرهم وهمهم بقتل نبيهم وأخيارهم،

فكان عاقبة الذين أساءوا السوآى، وأهلك الله التسعة الأشقياء وأهلك سائر قومهم الكافرين، وخرب القوي العزيز بيوت الظالمين، إحقاقا للحق ونصرة للموقنين، وعلامة على قدرته وبأسه وبطشته، يذكر بها ويعتبر أهل الفهم والعلم، وصدق الله العظيم:) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (١٤٦، حل بهم بلاء، وداهمتهم صيحة فقتلوا جميعا، وخلت منهم مساكنهم، وأقفرت دورهم، وأنجى ربنا البر الرحيم عباده المؤمنين المتقين، فلم يهلكهم مع المهلكين، رأفة منه سبحانه بالمصدقين المطيعين، جاء في آية أخرى:) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (١٤٧.

٥٤ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

{الفاحشة} الخطيئة الكبيرة، والفعلة البالغة القبح، وأكثر استعمالها في القرآن بمعنى الزنا، وقضاء الشهوة مع الرجال أشد فحشا.

{ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ٥٤ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ٥٥ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ٥٦ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ٥٧ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ٥٨}

في قصص المرسلين عبرة، وفي بيان عاقبة المجرمين مثل وذكرى، فكل عاقل متدبر ألقى السمع إلى كتاب الله تعالى وتدبر آياته يتعلم من أنباء النبيين ما يقوي يقينه، ويثبته على ما جاء من ربه، ويحبب إليه أن يقتدي بالمهتدين ليفوز بمرضاة رب العالمين، كما يعينه العلم بمصير الفاسقين على نهي النفس عن هواها، وزجرها عن الفسوق و العصيان من قبل أن يريدها ويهلكها، فكأن المولى سبحانه ينادي نبيه صلى الله عليه وسلم أن اذكر لوطا إذ وعظ قومه، وأنكر عليهم فسادهم، واستعلانهم بأخس أنواع الفحش والنكر، وأن يتراءوا على هذا الجرم الذي ينزل بهم إلى أسفل الدركات ثم لا يستترون بخطئهم الكبير الذي ما سبقهم به أحد من العالمين، ولكن يقترفونه جهارا ينظر بعضهم إلى بعض، وقد بين القرآن الكريم في سورة أخرى أن هذا الاستعلان يزيد فاحشتهم مقتا وسوءا:) أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر. (١٤٨.

ولوط عليه السلام قريب لنبي الله تعالى وخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا والمرسلين أفضل الصلوات والتسليم، قالوا كان ابن عمه أو ابن أخيه، وهو الرجل الذي آمن بإبراهيم قبل أن يرتحل من محلة قومه بالعراق إلى البلاد المباركة حول بيت المقدس، يقول الله سبحانه) فآمن له لوط. (١٤٩ ويقول تبارك اسمه: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين (١٥٠ وفي حياة إبراهيم عليه السلام وبعد هجرتهما أرسل المولى سبحانه نبيه لوطا عليه السلام إلى قوم كانوا يسكنون مدينة سدوم وأعمالها وهي بأرض الغور على مشارف الجبال المحيطة بالقدس، وبعد تدمير تلك القرى وهاتيك المدن صارت بحيرة منتنة ولعلها المعروفة الآن بالبحر الميت

٥٥ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

{تأتون الرجال} تجامعونهم لقضاء الشهوة.

{من دون النساء} بدلا من الاستمتاع بما أحل الله لكم من النساء.

{تجهلون} ترتكبون الجهالة والسفاهة.

{أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون} نفرهم رسول الله تعالى إليهم من هذه الفاحشة الشنعاء المتراكب قبحها فعلا وتركا، فإتيان الرجال قبيح عقلا وشرعا وطبعا، وترك الاستمتاع بالمرأة الحلال قبيح كذلك عقلا وشرعا وطبعا، ولعل هذا من حكمة الله تعالى في إفراد كل جانب من هذين الجانبين بالذكر في آيتين كريمتين متتابعتين، يقول الله تبارك وتعالى:) أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (١٥١، حتى لقد قال بعض المفسرين: فسدت طباعهم وانتكست فطرهم حتى كان الواحد منهم لا يشتهي امرأته إلا أن يستمتع بها في دبرها دون قبلها الذي هو محل المتعة التي أذن الله للأزواج بها، يقول صاحب روح المعاني: ثنية للإنكار وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحلية الجملة بحرفي

التوكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال شناعته، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربية التقبيح أو بيان اختصاصه ببني آدم، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح لما أنها ليست في محلها. . {بل أنتم قوم تجهلون}. . الجهل بمعنى السفاهة والمجون، بل أنتم قوم سفهاء وماجنون. .

٥٦ - (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

{الغابرين} الباقين بعد مضي من كانوا معهم.

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} قال: مجاهد يقولون ذلك استهزاء، وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء، وكانت لهم ردود ردوا بها دعوة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فمرة يقولون وقد هبوا سراعا يريدون فعل الفاحشة بأضيافه في بيته:). . أولم ننهك عن العالمين (١٥٢، ومرة يقولون:). . لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين (١٥٣ وثالثة يقولون:). . ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (١٥٤،) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (١٥٥، لكن لما كانت القصة قد جاءت موجزة هاهنا كما أوردت في سورة الأعراف بينت الآيات الكريمة ردا واحدا مما ردوا به- والظاهر أن هذا الجواب صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره

٥٧ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

{فأنجيناه وأهله} أي بعد إهلاك القوم فالفاء فصيحة {إلا امرأته قدرناها} أي قدرنا كونها {من الغابرين} أي الباقين في العذاب، وقدر المضاف لأن التقدير يتعلق بالفعل لا بالذات، وجاء في آية أخرى ما يقتضي ذلك وهو قوله تعالى:). . قدرنا إنها لمن الغابرين) ١٥٦ - ١٥٧.

٥٨ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

{فساء مطر المنذرين} بئس المطر مطر الذين أنذرهم وحذرهم ربهم فلم يحذروا فأمطرهم الله حجارة محماة.

{وأمطرنا عليهم مطرا} جمهور المفسرين على أن الله تعالى أمطر من كان خارج مدن قوم لوط مطرا غير معهود، وإلى ذلك يشير قول الحق سبحانه:) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (١٥٨ فجمع لهم المنتقم الجبار بين تنكيس مدنهم، ورميهم بالحجارة المحماة، {فساء مطر المنذرين} فبئس المطر مطر الذين أنذرهم وحذرهم ربهم فلم يحذروا فأخذهم الله نكال الآخرة والأولى، يقول الحق سبحانه:) فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (١٥٩، ويقول تبارك اسمه:) فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد (١٦٠.

٥٩ - (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

{اصطفى} اختار.

{قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ٥٩ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ٦٠ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ٦١ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ٦٢ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ٦٣ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ٦٤}

لكأن هذا الأمر من الله العلي الحكيم للنبي الكريم- وهو القدوة والأسوة الحسنة- تقدمة لما سيسوقه من السلطان والبرهان والحجة على أن مولانا هو المعبود بحق دون سواه، ليكون في ذلك البيان لأهل الإيمان أن كل أمر ذي بال يبدأ بحمد الله والسلام والصلاة على رسل الله والصفوة المختارة من خلقه- ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة، وفي مفتتح كل خطبة. . - ١٦١، وقد جاء هذا البيان في آيات أخرى

كريمة:) سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين (١٦٢ {آلله خير أم ما يشركون} استفهام بالهمزة كأنه: أألله، ثم قلبت همزة الاستفهام مدا و {خير} قد لا يراد بها التفضيل، وإنما إثبات الخيرية في الله تبارك وتعالى وتثبيت هذا اليقين، وإبطال ما يخالفه، [ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عز وجل، وتسفيه آرائهم، والتهكم بهم، إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض. . .، وقيل: الخيرية فيما يتعلق بها، وفي الكلام حذف في موضعين والتقدير: أعبادة الله تعالى خير أم عبادة ما يشركون. . . وأيا ما كان فضمير الغائب لقريش ونحوهم من المشركين. . . وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم] ١٦٣.

٦٠ - (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

{من السماء} من السحاب الذي هو جهة السماء.

{حدائق} بساتين أحطتموها، وأحدقت بها الأسوار.

{ذات بهجة} صاحبة منظر حسن، يبهج من رآه، فيسر نفسه وخاطره.

{يعدلون} يميلون عن الحق والقصد، أو يعدلون بالله تعالى غيره. .

{أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله} أمن فطر السموات ورفع سمكها وأغطش ليلها، وسخر شمسها وقمرها ونجومها، وبسط الأرض وقدر فيها أقواتها، وبث فيها من كل دابة، وأنزل من السحاب الذي يكون جهة السماء مطرا وغوثا ورحمة وماء مباركا يسقيكم منه وأنعامكم، ويروي بلادكم، فتنفلق الحبة والنواة عن بساتين تسر أعين الناظرين، وتحف بالأسوار فينتفع بها ويتفكه بثمرها- أمن خلق ذلك الخلق العظيم كمن لم يخلق؟! أإله معه فعل ذلك؟! أيحق لعاقل أن يعبد سواه؟! قال أبو حاتم، تقديره: آلهتكم خير أم من خلق السماوات والأرض؟! - وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم- ١٦٤.

) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (١٦٥،) ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله. . (١٦٦، يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق. . اه قال الفراء: الحديقة: البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان. . اه وقال الراغب: هي قطعة من الأرض ذات ماء سميت حديقة تشبيها بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها. اه وفي البحر: البستان سواء أحاط به جدار أم لا، {ما كان لكم أن تنبتوا شجرها} أي: ما صح وما أمكن أن توجدوا شجرها فضلا عن خلق ثمرها، - إذ هم عجزة عن مثلها، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، قلت: وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن، وهو قول مجاهد، ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم: " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله عز وجل " فذكره، فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح، وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به، وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له، أخرجه مسلم أيضا. . - ١٦٧.

{بل هم قوم يعدلون} يعدلون ويميلون عن الحق فيجحدون ويشركون، ويعدلون عن طريق الرشد وينحرفون عنه إلى سبل الغنى، ونسب إلى ابن زيد: من العدل بمعنى المساواة، أي يساوون به غيره تعالى من آلهتهم

٦١ - (أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)
{قرارا} مستقرا.
{خلالها} وسطها وبين جنباتها.
{رواسي} جبالا ثوابت راسية ومرسية.
{حاجزا} مانعا، فلا هذا يغير ذاك، ولا ذاك يغير هذا.
{أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا} استفهام يراد به الإنكار [وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر داخل في الإلزام بجهة من الجهات. ٠] ١٦٨، الله تعالى بحكمته جعل الأرض مستقرا بحيث يستقر عليها ما شاء ربنا من خلق، يقول العلماء: والجعل إن كان تصييرا فالمنصوبان مفعولان، وإلا فالثاني حال مقدرة، وجعل سبحانه أواسط الأرض أنهارا تجري بالماء العذب فيحيا بسببه الإنسان والحيوان والنبات، بل وتهتز به الأرض وتربو، وجعل لصلاح أمر أرضكم التي تسكنونها وتستقرون عليها وتنتفعون بها جبالا ترسيها لئلا تضطرب بمن عليها وتميل، بل ومن أعالي الجبال يبدأ جريان الأنهار، وفي أصولها يختزن ماء العيون، وعلى سفوحها يحتشد النبات والمرعى، أو يستودع بين الصخور ما شاء الله تعالى من كنوز ومعادن.
{وجعل بين البحرين حاجزا} مانعا من الممازجة، عن الضحاك: العذب والملح، فلا هذا يغير ذاك، ولا ذاك يغير هذا- أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا مانعا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا يسقي الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحا أجاجا لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى:) وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا (١٦٩ - ١٧٠ - {أإله مع الله} أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع؟ {بل أكثرهم لا يعلمون} يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية- ١٧١.
٦٢ - (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)
{المضطر} صاحب الضرورة المكروب والذي لا حول له ولا قوة.
{يكشف السوء} يزيل الضر والجور.
{تذكرون} تتذكرون.
{أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله} أمن يستجيب دعوة المكروب ويفرج ضيقه وهمه، ويكشف الضر، ويدفع البلاء كمن عبدهم المشركون من دون ربنا القريب المجيب، ولقد ساق القرآن البرهان على ضلال وسفاهة عباد الأوثان، ومما جاء في ذلك قول الحق سبحانه:) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم. ٠ (١٧٢،) وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه. ٠ (١٧٣، و {المضطر} صاحب الضرورة المكروب، والذي لا حول له ولا قوة، {ويكشف السوء} ويذهب الضر، ويرفع الجور، {ويجعلكم خلفاء الأرض} - أي يخلف قرنا بقرن قبلهم، وخلفا لسلف، كما قال تعالى:) إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية يوم آخرين} ١٧٤ وقال تعالى: (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض. ٠ (١٧٥. . . أي أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل وقوما بعد قوم، ولو يشاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد. . . لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم. . . أإله مع الله يقدر على ذلك، أو: أإله مع الله بعد هذا؟! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك، وحده لا شريك له؟! {قليلا ما تذكرون} أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم- ١٧٦
٦٣ - (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
{يهديكم} يرشدكم ويدلكم.
{بشرا بين يدي رحمته} مبشرات قدام المطر وقبيل نزوله.

{أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر} أمن جعل لنا سبلا وطرقا، وجعل لنا عليها معالم برا وبحرا كمن ليس كذلك؟ لا يستويان، بل الله الهادي إلى سواء الطريق) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر. . (١٧٧ ولقد امتن سبحانه علينا بما وضع لنا مما يرشدنا إلى طريقنا الذي نسلكه إذا داهمتنا الظلمات، فيقول سبحانه:). . . وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون (١٧٨، وجاء في آية كريمة أخرى:) وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. . (١٧٩.

{ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} ومن غير الله تعالى يجري الرياح قدام المطر، [{أإله مع الله} يفعل ذلك ويعينه عليه، {تعالى الله عما يشركون} من دونه] ١٨٠، مما جاء في جامع البيان: لله العلو والرفعة عن شرككم الذي تشركون وعبادتكم معه ما تعبدون اه.

٦٤ - (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{برهانكم} حجتكم.

{أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض} من الذي أنشأ الخلق وفطرهم فسيجيبون بأنه الله، وقد شهدت بذلك آيات الكتاب الحق) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (١٨١، {ثم يعيده} الله دون سواه ينشئ النشأة الآخرة). . كما بدأكم تعودون (١٨٢، ولقد أقام القرآن الحجة البالغة على المرتابين في البعث إذ جاء شقي منهم يجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنزل الوحي يبطل فريته، ويدفع مريته:) وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون} ١٨٣، {ومن يرزقكم من السماء والأرض} من الذي جعل لأرزاق العباد أسبابا علوية وأخرى سفلية؟ السماء والشمس والهواء والرياح والمطر، والجبال والعيون والأنهار والزروع والثمار والمعادن والحيوان كل ذلك سخره المولى لنا تفضلا منه وكرما، والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير). . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له. . (١٨٤، {أإله مع الله} فعل هذا؟ هل هناك إله آخر موجود معه يعاونه في الخلق والرزق والبدء والإعادة؟! حاشا! {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالإتيان بسلطان أو دليل أو حجة على أن لله شريكا، أو أن أحدا صنع شيئا من هذه الأشياء غير الله جل علاه! مما أورد صاحب جامع البيان: {من} التي في {أمن}. . . بمعنى الذي لا بمعنى الاستفهام، وذلك لأن الاستفهام لا يدخل على الاستفهام. اه.

٦٥ - (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

{قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ٦٥ بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ٦٦ وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ٦٧ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ٦٨}

الآيات الكريمة من أول الآية ٥٩: {قل الحمد لله} وحتى القول الحكيم: {هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} بينت الدليل بعد الدليل، والحجة تلو الحجة على عظيم قدرة الله تعالى، وتوحيده بالخلق والرزق، والولاية والتدبير، وهذه بينت ما استأثر الخبير البصير بعلمه مما يغيب عن المخلوقين، وسفهت ضلال المرتابين في البعث، المكذبين بالآخرة، أمر الله تعالى نبيه أن يقول لجاحدي اليوم الآخر، أومن يسألون: متى الساعة؟ يقول لهؤلاء وهؤلاء لا يعلم أحد ممن في السموات وفي الأرض من ملك مقرب أو نبي مرسل أو من سائر ما عداهما الغيب ١٨٥، لكن المولى المعبود بحق سبحانه وحده يعلم الغيب والشهادة، ما يغيب وما يشاهد، {وما يشعرون أيان يبعثون} وما يدري أحد سوى الله متى يكون البعث وتكون القيامة وأحوالها وأهوالها.

[واعترض حديث الاتصال بأنه يلزم عليه التسوية بينه تعالى وبين غيره في إطلاق لفظ واحد وهو أمر مذموم، فقد أخرج مسلم، وأبو

داود، والنسائي عن عدي بن حاتم أن رجلا خطب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله "، وأجيب بأن ذلك مما يذم إذا صدر من البشر، أما إذا صدر منه تعالى فلا يذم، على أن كونه مما يذم إذا صدر من البشر مطلقا ممنوع، فقد روى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان من كان الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما " الحديث. . . والغيب في الأصل مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، واستعمل في الشيء الغائب الذي لم تنصب له قرينة، وكون ذلك غيبا باعتباره بالناس ونحوهم، لا بالله عز وجل، فإنه سبحانه لا يغيب عنه تعالى شيء. . . واختار بعضهم الاستغراق، أي: لا يعلم من في السموات والأرض كل غيب إلا الله، فإنه سبحانه يعلم كل غيب. . . واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السموات والأرض من يعلم بعض الغيوب، وظاهر كلام كثير من الأجلة يأبى ذلك، ويؤيده ما أخرجه الشيخان. . من حديث مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم يخبر الناس بما يكون في غد- وفي بعض الروايات- يعلم ما غد فقد أعظم على الله تعالى الفرية، والله تعالى يقول: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله}، وجوز بعضهم أن يكون منهم من يعلم بعض الغيوب. . . . ولعل الحق أن يقال: إن علم الغيب المنفي عن غيره جل وعلا هو ما كان للشخص لذاته أي بلا واسطة في ثبوته له. . . . لم يجيء في القرآن الكريم نسبة علم الغيوب إلى غيره تعالى أصلا، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسول. .] ١٨٦
٦٦ - (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)
{ادارك} تدارك، تساقط وفنى وتتابع في ذلك، وغاب.
{عمون} عمى البصائر عن إدراك الحق واليقين.
{بل ادارك علمهم في الآخرة} إضراب عن عدم شعورهم بموعد بعثهم إلى أنهم تدارك وتساقط وفنى وتتابع اضمحلال علمهم بمجيء الآخرة حتى غاب عنهم التصديق بمجيئها- فهو ترق عن وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش- ١٨٧ [وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ثم أضرب عن ذلك قائلا: إنهم لا يعلمون القيامة فضلا عن وقتها] ١٨٨، {بل هم في شك منها} ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون، فمرة يقولون: تكون، ومرة يقولون: لا تكون! عاشوا دنياهم لا يستيقنون بأنهم مبعوثون، ولهذا يقال لهم يوم الحسرة:) هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (١٨٩). . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا (١٩٠) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم. . (١٩١، {بل هم منها عمون}) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا. . (١٩٢) وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (١٩٣ فهم في عماية من حلولها، و {عمون} واحدها: عمو، فهم من العلم بقيامها والبرهان على ذلك عمون، عمى المدارك والبصائر،
٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)
{كنا} صرنا.
{مخرجون} مبعوثون من القبور أحياء، تشقق الأرض عنا سراعا؟!
{أساطير} خرافات وحكايات مختلفة:
{وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} وما كان حجة هؤلاء الذين لو لم يكن لهم من غي إلا إنكار القيامة لاستوجبوا بذلك الكفر، لم تكن لهم حجة في التكذيب بالبعث إلا قولهم: أليس من المستبعد ومن المستحيل أن تعود العظام النخرة والأجسام البالية واللحوم التي تحللت حتى عادت ترابا أليس بعيدا أن تحيا هذه الرمم، وتخرج من أجداثها وحفرها وقبورها! هذا كلام قيل لنا، وقيل لآبائنا من قبلنا، وما هو إلا خرافات الأولين، وقصصهم الوهمي سطر ودون يتناقله خلف عن سلف- لعنوا بما قالوا:) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن. . (١٩٤) أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. . (١٩٥). . فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون

متى هو قل عسى أن يكون قريبا (١٩٦.
٦٨ - (لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٧]
{كنا} صرنا.
{مخرجون} مبعوثون من القبور أحياء، تشقق الأرض عنا سراعا؟!
{أساطير} خرافات وحكايات مختلفة:
{وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} وما كان حجة هؤلاء الذين لو لم يكن لهم من غي إلا إنكار القيامة لاستوجبوا بذلك الكفر، لم تكن لهم حجة في التكذيب بالبعث إلا قولهم: أليس من المستبعد ومن المستحيل أن تعود العظام النخرة والأجسام البالية واللحوم التي تحللت حتى عادت ترابا أليس بعيدا أن تحيا هذه الرمم، وتخرج من أجداثها وحفرها وقبورها! هذا كلام قيل لنا، وقيل لآبائنا من قبلنا، وما هو إلا خرافات الأولين، وقصصهم الوهمي سطر ودون يتناقله خلف عن سلف- لعنوا بما قالوا:) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن. . (١٩٧) أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. . (١٩٨). . فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (١٩٩.
٦٩ - (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)
{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ٦٩ ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ٧٠ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٧١ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ٧٢ وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ٧٣ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ٧٤ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ٧٥}
المنكرون للآخرة، المكذبون بالبعث، استبعدوا الإحياء بعد الإماتة، وجحدوا القيامة، ووصفوا ما جاء من حقيقة إتيانها، ووجوب الإيمان بها بأنه خرافات الأولين، فهم بذلك قد كذبوا المرسلين، فما من نبي بعث إلا بالدعوة إلى اليقين في الله تعالى والحذر من بئيس جزائه لمن كذب بلقائه،) لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢٠٠) وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط (٢٠١، فأمر الله تعالى خاتم أنبيائه أن يأمر هؤلاء بالسير في الأرض والتنقل في أرجائها ومناكبها ليطالعوا آثار الذين أعرضوا عما جاءتهم به رسلهم من الصدق والوعد الحق، فأحل الله تعالى بهم نكالا عاجلا، وبأسا ما يزال أثره ماثلا،) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر. . (٢٠٢
٧٠ - (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)
{ضيق} حرج صدر، وغم.
{مما يمكرون} من مكرهم وكيدهم.
{ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون} سلى الله تعالى نبيه إذ اشتد أسفه على ضلالهم وكفرهم حتى كاد الهم يقضي عليه، فناداه مولاه:) لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين (٢٠٣، وكرر نداءه الكريم:) فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٢٠٤). . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. . (٢٠٥، ولا تكن في حرج صدر مما يحتالون ويدبرون في خبث من رد ما جئت به والصد عنه- فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب- ٢٠٦.
[يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين ما جئتهم به من الأنباء من عند ربك: سيروا في الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين رسل الله ومساكنهم كيف هي؟ ألم يخربها الله ويهلك أهلها تكذيبهم رسلهم، وردهم عليهم نصائحهم، فخلت منهم الديار، وتعفت منهم الرسوم والآثار، فإن ذلك كان عاقبة إجرامهم، وذلك سنة ربكم في كل من

سلك سبيلهم في تكذيب رسل ربهم، والله فاعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا والإنابة من كفركم وتكذيبكم رسول ربكم] ٢٠٧
٧١ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
}هذا الوعد{ هذا الوعد الذي تعدنا من العذاب.
}إن كنتم صادقين{ يريدون النبي والمؤمنين.
}ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين{ ويقولون مستهزئين بك وبمن معك، طاعنين في صدقكم، مستعجلين ما خوفتهم به من حلول مقت الله ونقمته بهم: في أي وقت يأتي ما وعدتمونا به من نزول البأس والبطشة، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله:) ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين (٢٠٨ ومن قبلهم قال قوم شعيب لنبيهم:) فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين (٢٠٩ وقال قوم نوح لرسولهم:). . يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٢١٠
٧٢ - (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)
}ردف{ تبع، ولحق، ووصل، ودنا.
}قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون{ قل لهم قد يكون لحقكم ووصل إليكم بعض الذي تطلبونه من العذاب، واقترب لكم ودنا منكم، وأزف، كما قال الله تعالى:) يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٢١١ وقال تبارك اسمه:) اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (٢١٢، }وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون{ إن مولاك لصاحب أفضال وإنعام على الناس). . وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم. . (٢١٣ إنهم يخالفون عن أمره، ويستهزئون برسله، ويكذبون بوعده، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم، ويحلم عليهم ويمهلهم ويؤخر عقوبتهم، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه الآلاء الفاضلة والنعم السابغة التي لا يعدها عاد، ولا يحدها حاد
٧٣ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ)
}لذو فضل{ لصاحب إفضال وإنعام.
}لا يشكرون{ لا يشكرونه سبحانه على إفضاله وإنعامه عليهم.
٧٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)
}تكن{ تخفي.
}وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون{ إن ربك لمحيط علمه بكل ما يسرون، وما يبدونه ويظهرون، فمهما عملوا في خلوة أو جلوة، ومهما قالوا في إعلان أو إسرار، فإن ربك يرى ويسمع ويكتب ما يقولون وما يفعلون وما يبيتون) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (٢١٤ وهو مجازيهم على كل ذلك
٧٥ - (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)
}غائبة{ شيء خفي غائب مستتر.
}كتاب مبين{ كتاب موضح، وهو اللوح المحفوظ.
}وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين{ كل ما يكون- ومن جملته فسوق هؤلاء ومروقهم، وشرورهم وفجورهم- مسطور في لوح محفوظ، وما عملوه من عمل فإن ملائكتنا تسطره وتكتبه وتنسخه) أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٢١٥) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (٢١٦ - على أن }غائبة{ صفة غلبت في هذا المعنى، فكثر عدم إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تنقل إلى الاسمية. . فتاؤها ليست للتأنيث، إذ لم يلاحظ لها موصوف تجري عليه. . فهي تاء مبالغة. . وعن ابن عباس. . ما من شيء في السماء والأرض سرا وعلانية إلا يعلمه سبحانه وتعالى. . وذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله تعالى عنه اعتبر في الآية حذف أحد المتقابلين اكتفاء بالآخر، وكلامه رضي الله تعالى عنه محتمل لذلك، ويحتمل أن ذكر العلانية في بيان المعنى لأن من علم السر علم العلانية من باب أولى- ٢١٧.

٧٦ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
{بني إسرائيل} أبناء إسرائيل وذريته، وهو يعقوب عليه السلام.
{إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ٧٦ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ٧٧ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ٧٨ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ٧٩ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ٨٠ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ٨١}
الآيات المباركات التي سبقت بينت البرهان على جلال الله، وعلى المبدأ والمعاد، وهذه بينت هداية الكتاب المجيد إلى سنن الرشاد والدلالة على الحق الذي كتمه وحرفه الإسرائيليون مما جاءت به رسلهم، فهذا القرآن الحكيم يسجل على بني إسرائيل أكثر ما اختلفوا فيه، ويبين وجه الصدق فيما بدلوه من التوراة والإنجيل، وما أخفوه منهما ليقطع عذرهم، ويكشف زورهم، فهو يعلمنا الكثير مما خالفوا فيه الوحي الإلهي، ودلنا على القول الفصل، والحكم العدل- {أكثر الذي هم فيه يختلفون} أكثر ما تجدد واستمر اختلافهم فيه- ٢١٨ لقد افتروا على ربنا الكبير المتعال أعظم الفرى) وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. . (٢١٩) وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون.
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (٢٢٠، واختلفوا في المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام، فمن قائل: هو الله-). . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا (٢٢١ ومن قائل: ثالث ثلاثة، وقد أكذبهم القرآن العظيم فقال- وقوله الحق-:) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. . (٢٢٢ إلى أن يقول:). . أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا. . (٢٢٣) لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا. . (٢٢٤). . وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. . (٢٢٥) وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد. . (٢٢٦، كلما اختلفوا في مريم عليها السلام، فمن قائل صديقة، ومن قائل عليها بهتانا وإثما عظيما، فبين الكتاب الحكيم رفعة قدرها في آيات محكمات، منها:) وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٢٢٧ حتى اختلفوا في مآكلهم ومطاعمهم، ونزل الوحي بالحق فقال الله سبحانه:) كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. . (٢٢٨
٧٧ - (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)
{وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين} واستيقنوا أن الذكر الحكيم هدى يثبت في القلب الرشد والتقى والخير، وتتنزل به الرحمة على المصدقين به المستقيمين على منهاجه- وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أنه رحمة للعالمين لأنهم المنتفعون به- ٢٢٩
٧٨ - (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)
{العزيز} الغالب الذي لا يغلب.
{العليم} المحيط علما بكل شيء.
{إن ربك يقضي بينهم بحكمه} وسيفصل الله تعالى بين المؤمنين وبين الناس، وسيقضي بين الذين اهتدوا بالكتاب والذين اختلفوا فيه، وبين الإسرائيليين وبعضهم، وبينهم وبين غيرهم-[فيجازي المحق والمبطل، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه، {وهو العزيز} المنيع الغالب الذي لا يرد أمره {العليم} الذي لا يخفى عليه شيء] ٢٣٠، {بحكمه} قيل أي بحكمته جل شأنه. . . وقيل: المراد بالحكم المحكوم به إطلاقا للمصدر على اسم المفعول، والمراد بالمحكوم به الحق والعدل، وعلى الوجهين لم يبق المعنى المصدري والداعي لذلك

أن {يقضي} بمعنى: يحكم، فلو بقي الحكم على المعنى المصدري لصار الكلام نحو قولك: زيد يضرب بضربه، وهو لا يقال مثله في كلام عربي. . . وقيل عليه: ليس المانع لصحة مثل هذا القول إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل فإنه لا كلام في صحته، كإضافته إلى ضمير المفعول في:) . . وسعى لها سعيها. . (٢٣١ إنما المانع دخول الباء على المصدر المؤكد-، ٢٣٢

٨٠ - (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

{مدبرين} مولين ظهورهم وأدبارهم من يدعوهم.

{فتوكل} فاتخذ الله تعالى وكيلا، وفوض إليه الأمور.

{المبين} البين، أو الفاصل بين المحق والمبطل.

{فتوكل على الله} ففوض إلى المعبود بحق كل الأمور واتخذه وكيلا، واعتمد عليه فإنه مؤيدك، ومظهر دينك على الدين كله، كما هو سنن المرسلين عليهم صلوات رب العالمين:) وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين (٢٣٣ {إنك على الحق المبين} تثبيت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه،، وتوكيد لصدق ما جاءهم، ووضوح حجتهم، لحقهم بين ظاهر لا خفاء به، وهو مبين الرشد من الغي، والراشدين من الغاوين، {إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين} أي عدم استجابتهم لك ليس لخفاء البر فيما دعوتهم إليه، ولكن لهمود أرواحهم والوقر الذي ضرب على آذانهم، وتأبيهم عن إحياء أرواحهم بما أتيتهم به، وإغلاق مسامعهم نفورا عن الإصغاء إليه:) وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب. . (٢٣٤،) . . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٢٣٥) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي. . (٢٣٦) . . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. . (٢٣٧، مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: مسألة- وقد احتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية؛ فنظرت في الأمر بقياس عقلي، ووقفت مع هذه الآية، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " ما أنتم بأسمع منهم " قال ابن عطية: فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين، قلت: روى البخاري رضي الله عنه حدثني عبد الله بن محمد، سمع روح بن عبادة قال: حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث- وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال- فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى وتبعه أصحابه، قالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله رسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا، قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ". . اه.

٨١ - (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

{الصم} مرضى الآذان، فاقدي السمع.

{العمي} فاقدي الأبصار.

{ولوا} فروا، وأسرعوا.

{وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم} وما أنت بصارف من عميت بصائرهم عن ضلالتهم وحيرتهم وغوايتهم، كما قال الله تعالى له في آيات أخر:) أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٢٣٨) . . فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (٢٣٩، {إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم

مسلمون} ما تسمع إسماعا ينفع صاحبه إلا من بقي في قلوبهم أثر حياة، وفي بصائرهم قبس من إدراك:) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٢٤٠). . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٢٤١ فهؤلاء هم الذين سبقت لهم الحسنى، وتنفعهم الذكرى فإذا هم مبصرون، وبآيات ربهم يصدقون ويستيقنون، - وجوز أن يراد بالآيات: المعجزات التي أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام، الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط، والإيمان بها: التصديق بكونها آيات الله تعالى وليست من السحر، وإذا أريد بالإسماع النافع على هذا إسماع الآيات التنزيلية ليؤتى بما تضمنته من الاعتقادات والأعمال كان الكلام أبعد وأبعد من أن يكون فيه شبه تحصيل الحاصل. . - ٢٤٢ {فهم مسلمون} فهم منقادون لهدي آياته، مخلصون.

٨٢ - (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ)

{وقع القول} وجب الغضب، وحق العذاب، وأتى أمر الله بقيام الساعة وذهاب الكون.

{دابة} حيوان يدب على وجه الأرض من غير الإنسان.

{من الأرض} قد يكون المراد أنها تخلق بالتولد كالحشرات، لا بالتوالد كسائر الحيوانات.

{وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ٨٢ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ٨٣ حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أما ذا كنتم تعملون ٨٤ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ٨٥ ألم يروا أنا جعلنا اليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٨٦}

عندما يحين الوقت الذي علم الله أنه لن تتفتح قلوب بعده للإسلام والهدي، وقضى ربنا أنه لن تقبل بعد توبة ولا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وأزف واقترب موعد ذهاب الكون وقيام الساعة، تجيء أماراتها وعلاماتها، ومنها أن تنشق الأرض عن دابة وبهيمة ينطقها المولى القدير الذي أنطق كل شيء- بأمره وإرادته- وتخبر الناس أن الجاحدين في شك من اقتدار الملك المهيمن وصدق وعده، وتردد في قبول آياته وعلامات لقائه، فحقت كلمة ربنا أن لن يؤمن إلا من قد آمن، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:). . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (٢٤٣ وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام هذه الآية بما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها) لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض "، أورد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري- بسنده- من ثلاث طرق عن ابن عمر رضي الله عنهما: خروج هذه الدابة حين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، كما نقل عن ابن عطية: إذا لم يعرفوا معروفا ولم ينكروا منكرا. . اهـ.

ويقول الحسن النيسابوري: {وإذا وقع القول} أي دنا وشارف أن يحصل مؤداه ومفهومه {عليهم} وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب. . اهـ، نقل صاحب جامع البيان، وصاحب الجامع لأحكام القرآن وصاحب تفسير القرآن العظيم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة ٢٤٤، وقديما ذهب البعض إلى أن هذه الدابة ربما تكون إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر، ورد عليهم أبو العباس القرطبي بما حاصله: إن هذا يؤدي إلى أن الدابة ليست آية خاصة خارقة للعادة، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر، الفاضل العالم، الذي على أهل الأرض أن يسموه باسم الإنسان، أو بالعالم، أو بالإمام، إلى أن يسمى بدابة، وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء. . اهـ، أقول: وفي ذلك صرف للقرآن الكريم عن ظاهره، ومجافاة للحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذاكرون "؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات [فذكر] الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزل عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس من محشرهم ".

{تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون} تخبرهم أن الكافر والفاجر يجادل في الحق بعد ما تبين، ويرتاب ويشك فيما يصنع الله من دلائل عجيبة- منها خروج الدابة- وإنما جاء فيما حكاه القرآن: {بآياتنا} أي بآيات ربنا، فحذف المضاف، أو بسبب الإضافة اختصاصها بالله، كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلاده، ولله المثل الأعلى، وبعد أن نقل صاحب روح المعاني أخبارا في صفة الدابة ليس فيها خبر واحد يصلح للاعتضاد ولا للاستشهاد، وأفاض في ذلك بما يقارب ألف كلمة قال: وفي البحر أنهم اختلفوا في ماهيتها وشكلها ومحل خروجها، وعدد خروجها، ومقدار ما يخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به؟ اختلافا مضطربا، معارضا بعضه بعضا فطرحنا ذكره لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح، وتضييع لزمان نقله اه، وهو كلام حق، وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعا لشهوة من يحب الاطلاع على شيء من أخبارها صدقا كان أو كذبا. . ومن الأخبار في هذا الباب ما صححه الحاكم، وتصحيحه محكوم عليه بين المحدثين بعدم الاعتبار، وقصارى ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلا، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض. . اه.

٨٣ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

{نحشر} نجمع ونسوق للعرض والحساب، والحكم والجزاء.

{فوجا} جماعة.

{يوزعون} يدفعون ويساقون، أو يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا.

{ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون} أي: واذكر يا محمد للناس شيئا من أهوال اليوم الآخر وأحواله، فسنجمع يوم الفصل من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام ومن أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة ٢٤٥ مكذبة بآياتنا التنزيلية وآياتنا التكوينية، ويوقفون حتى يجمع أولهم على آخرهم، يحبسون حتى يوقفوا بين يدي الله كل طائفة بإمامها

٨٤ - (حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون} حتى إذا جاءوا إلى موقف السؤال والحساب قال لهم المولى جل وعلا- تحسيرا لهم وتخسيرا-: أأنكرتم صدق ما أنزلته من وحي ولم تفقهوا وعدي ووعيدي، ولم تستيقنوا بحقيقة ملاقاتي وجزائي؟ أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ - فدل على أنه لم يكن لهم عمل إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يخلقوا إلا لذلك فلأجله لم يعملوا غيره، وجعل سائر أعمالهم لاستمرار الكفر بهم نفس الكفر أو كلا عمل. . وهذا وجه وجيه بالغ، ومنه ظهر أن دخول {أم} على أسماء الاستفهام غير منكر إذا خرجت عن حقيقة الاستفهام. . . واختار أبو حيان كون {أم} منقطعة فتقدر ببل وحدها، وهي للانتقال من توبيخ إلى توبيخ. . - ٢٤٦.

٨٥ - (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ)

{ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون} ووجب الغضب، وحل العذاب عليهم بما كان من سيء أعمالهم وظلمهم، وكفرهم وبغيهم، فانعقدت ألسنتهم لشدة الهول الذي نزل بهم، ولما ختم الله تعالى على أفواههم، كما أشار إلى هذا المعنى قول الله جل علاه:) هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٢٤٧ وحين يؤذن لهم أن يقولوا لا يصدر عنهم إلا التحسر والندم، وتمنى ما لا ينال:) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (٢٤٨، وفي البحر أن انتفاء نطقهم يكون في موطن من مواطن القيامة، أو من فريق من الناس، لأن القرآن الكريم ناطق بأنهم ينطقون في بعض المواطن بأعذار، وما يرجون به النجاة من النار. اه.

٨٦ - (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{مبصرا} يبصر فيه.

{ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه} ألم يعلموا، ويروا بمداركهم وبصائرهم أن المولى البر الرحيم خلق الليل، وهيأ لنا في أسباب السكون والراحة والاستقرار والنوم، فيحملهم ذلك على شكر النعمة، وتقديس المنعم، والإذعان لجلاله، وإفراده بالتعظيم والتأليه دون سواه،

{والنهار مبصرا} ومن فضله ورحمته أن جعل النهار مضيئا، لنبصر بما فيه من ضياء طرق التقلب في المعاش، والسعي على الأرزاق، والنهوض بما عهد الله إلينا من أمانات، {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} إن في اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما، واختصاص كل منهما بما قضت به سنن المولى الحكيم لعلامات عظيمة ودلالات بينة، تزيد المؤمنين إيمانا، والمهتدين هدى، وتفتح بصائر المتدبرين على أن ربنا هو الحق المبين، وأننا إليه صائرون، وبين يديه موقوفون، وعلى أعمالنا محاسبون،، وبسعينا مجزيون.

٨٧ - (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

{الصور} قرن ينفخ فيه ملك بإذن الله يوم تقوم الساعة.

{ففزع} نخاف خوفا شديدا، أو: فأسرع وأجاب النداء.

{أتوه} جاءوه. {داخرين} أذلاء، صاغرين.

{ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ٨٧ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ٨٨ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ٨٩ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ٩٠}.

{ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض} قد تكون هذه الآية الكريمة معطوفة على قول الله سبحانه: {ويوم نحشر من كل أمة فوجا}، وقد تكون منصوبة بفعل محذوف تقديره: واذكر، أو: وذكرهم يوم ينفخ. .، والصور: قرن أو بوق- كالمزمار- ينفخ فيه ملك بإذن الله يوم تقوم الساعة، - والصحيح في الصور أنه قرن ٢٤٩ من نور ينفخ فيه إسرافيل، قال مجاهد: كهيئة البوق- ٢٥٠ [وقيل: في الكلام استعارة تمثيلية، شبه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نودي بالقيام بهيئة قيام جيش نفخ لهم في المزمار المعروف وسيرهم إلى محل عين لهم، والأول قول الأكثرين- وعليه المعول-. . . وارتكاب التأويل يجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقية، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحيحة، وقد قال أبو الهيثم. . . من أنكر أن يكون الصور قرنا فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان] ٢٥١.

قال مجاهد: هما صيحتان: أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله. . اه، مما أورد صاحب تفسير القرآن العظيم عن الإمام مسلم بن الحجاج بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا- قال- وأول من يسمعه رجل يلوط ٢٥٢ حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله- أو قال ينزل الله- مطرا كأنه الطل- أو قال الظل، شعبة الشاك- فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق " وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، الليت هو صفحة العنق، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا. . اه.

{إلا من شاء الله} يفزع الخلائق حتى لتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها،). . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (٢٥٣: إلا من رضي المولى عنهم، واصطفاهم لولايته ومحبته وكرامته، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فإنهم لا يخافون ولا يحزنون، وعد الله لا يخلف وعده، فقد جاءتهم من ربنا البشرى) لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (٢٥٤، وقد أطال ٢٥٥ كثير من المفسرين في ذكر الخلاف حول النفخ في الصور، كم عدده؟، وهل نفخة الصعق التي بينتها الآية الكريمة التي في سورة الزمر هي مكملة الثلاث؟ أم هي نفختان؟، وأيه واحدة منها هذه التي بينتها الآية التي نحن بصدد تفسيرها؟ ومن هم المستثنون؟ أهم الأنبياء؟ أم الملائكة؟ أم الشهداء، أم طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين؟ أم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت؟ - وقيل: الحور العين، وقيل: هم المؤمنون، لأن الله تعالى قال عقيب هذه: {من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون} ٢٥٦، {وكل أتوه داخرين} كل من قضى الله تعالى أن يبعثهم ويحشرهم

يجيئون إلى الموقف مطيعين، لا يتخلف عن ذلك أحد، كما قال المولى- تبارك اسمه-:) إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (٢٥٧

٨٨ - (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

}جامدة{ ثابتة في أماكنها.

}تمر مر السحاب{ تسير سيرا سريعا كأنها السحاب.

}أتقن{ أحسن، وأحكم.

}وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب{ - ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة ثم تصير كالعهن المنفوش وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما فقال: (يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن (٢٥٨، والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن، والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. . ترفعها على وجه الأرض فتظهر شعاعا في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة، وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح. . والحالة السادسة أن تكون سرابا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب- ٢٥٩.

}صنع الله الذي أتقن كل شيء{ هذا الإنشاء، وهذا الإفناء فعل الله الذي أحسن كل شيء، وأحكمه وأتقنه صنعا، والصنع: العمل المجود المحسن، والإتقان: الإحكام الذي لا تفاوت فيه ولا نقص ولا خلل، }إنه خبير بما تفعلون{ عليم بظواهر الأعمال وبواطنها، خبير بكل جلي وكل خفي، فمجازيكم على ما فعلتم إن خيرا، وإن شرا، [جعله بعض المحققين تعليلا لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعا محكما له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أحوال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أخيريتها عليها بعد بعثهم وحشرهم، وتسيير الجبال حسبما نطق به التنزيل] ٢٦٠.

٨٩ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)

}من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون{ من أتى بالخصلة الحسنة من الإيمان والطاعة فإنه يجزى خيرا يصل إليه من جانب أدائه لها في حياته، قال عكرمة وابن جريج: أما أن يكون له خير منها يعني من الإيمان فلا، فإنه ليس شيء خيرا ممن قال لا إله إلا الله، ولكن له منها خير، - وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف، فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشرا، وبالإيمان في مدة يسيرة الثواب الأبدي، قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد- ٢٦١، وقال صاحب روح المعاني: وقيل: إن خيرا ليس للتفضيل، و [من] لابتداء الغاية، أي فله خير من الخيور، مبدؤه ومنشؤه منها أي من جهة الحسنة، وروى ذلك عن ابن عباس والحسن،. . . اه.

}وهم من فزع يومئذ آمنون{ والذين أحسنوا واتقوا لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة). . لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٢٦٢

٩٠ - (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

}فكبت وجوههم{ فقلبوا على وجوههم منكوسين.

}ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون{ ومن يأت ربه مجرما فإنه يكب في جهنم ويقلب وينكس على وجهه، ثم تقول لهم الملائكة توبيخا لهم وتحسيرا: ما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم، وما تلاقون إنما هو جزاء ما كنتم تعملونه في دنياكم، فما أعدل ربي، وما أعظم فضله، يضاعف الحسنة عشرة أضعاف، إلى سبعمائة، إلى أضعاف لا يعلمها إلا هو)، . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (٢٦٣.

٩١ - (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

}إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ٩١ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما

يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ٩٢ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ٩٣}.
كأن قبل الآية الكريمة الأولى: {إنما أمرت} محذوفا، تقديره: قل، ولعل المعنى: قل- بعد أن بينت لهم أحوال المبدأ والمعاد، وشرح أحوال وأهوال السؤال والحساب، والجزاء والثواب-: إني أمرت أن أعبد الله. . فاعبدوه تهتدوا وتفلحوا، {. . أن أعبد رب هذه البلدة} أن أكون عبدا معظما لرب مكة أم القرى، مطيعا له، شاكرا لأنعمه، حفيظا على أماناته، مبلغا لرسالاته، معظما لشعائره وحرماته، {الذي حرمها وله كل شيء} فهو الذي جعل هذا البلد آمنا كل من دخله أو جاوره، وبهذا امتن على جيران بيته العتيق- زاده الله تشريفا وتكريما وعزا ومهابة-:) أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم. . (٢٦٤). . ومن دخله كان آمنا. . (٢٦٥) فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٢٦٦، ولربنا الذي جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس، وحرم مكة لا يصاد صيدها، ولا يقطع نبتها إلا لحاجة، في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: " إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه "، فبهذا أمن الإنسان والحيوان، بل والنبات في هذا البلد الأمين- لربنا كل شيء خلقا وملكا وتصرفا، من غير أن يشاركه سبحانه شيء في شيء من ذلك.
{وأمرت أن أكون من المسلمين} وأمرني ربي أن أثبت على ما كنت عليه- من كوني من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد، والذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصة- ٢٦٧.
٩٢ - (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)
{وأن أتلوا القرآن} وأمرت أن أتلو القرآن، وهو من عطف الخاص على العام، وقد يراد بالتلاوة القراءة على الناس إبلاغا وتبشيرا وتحذيرا- كقوله تعالى:) ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٢٦٨ وكقوله تعالى:) نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق. . (٢٦٩ أي أنا مبلغ ومنذر- ٢٧٠، وقد يراد بها: التلو والاتباع، كما جاء في الآية الكريمة:) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. . (٢٧١ أي يتبعونه حق الاتباع [وقيل: {أتلو} من تلاه إذا اتبعه، أي: وأن أتبع القرآن، وهو خلاف الظاهر] ٢٧٢، {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين} فمن اتبع النور والكتاب المبين، فقد هدي إلى الصراط المستقيم، ولنفسه بغى الفوز والنعيم المقيم، أعطاها حظها من العز والتكريم، ومن ضل عن الحق، وعمي عن الرشد، وصد عن البر فقل له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، فما أنا عليكم بوكيل، وإنما أنا بشير ونذير، وقد بلغت وخرجت عن عهدة الإنذار فليس علي من وبال ضلالكم وإجرامكم شيء). . ولا تسأل عن أصحاب الجحيم (٢٧٣ فمن عمي فعلى نفسه، ومن أعرض عن ذكر ربه ومنهاجه فإن له معيشة ضنكا، ويحشره الله يوم القيامة أعمى، وهو قريب من معنى قول المولى- تبارك اسمه-:) قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين. وأن أقم وجهك للدين حنيفا. . (٢٧٤.
٩٣ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
{وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها} أمر بحمد الله على ما أسبغ من نعم ظاهرة وباطنة ومن أجلها نعمة النبوة، وتمامها ببعثة خاتم النبيين، عليه الصلوات والتسليم، ولربنا الفضل والنعمة على ما هدانا:). . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا. . (٢٧٥، سيريكم علامات من علامات اقتداره سبحانه، فوق ما تبين من آيات، وحجج وبرهان وسلطان وعلامات، فتعرفونها حيث لا تنفع المعرفة- إذا كان الخطاب موجها للمنكرين الجاحدين-:). . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. . (٢٧٦، أو: ستقوم حجج لله تعالى بالغة، تلو البرهان القاطع، والنور الساطع، كما يشير إلى ذلك قول الحق- جل علاه-:) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٢٧٧.
{وما ربك بغافل عما تعملون} ربكم على كل شيء حفيظ، وشهيد ورقيب، وقائم على كل نفس وحسيب،) وأن ليس للإنسان إلا ما

سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى (٢٧٨ فاستقيموا إليه واستغفروه، واستجيبوا له قبل أن يأتي يوم لا مرد له، فلله الحمد الذي لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة تفسير [سورة النمل]

من آيات في هذه السورة نتعلم ما يزيد الإيمان بربنا وأسمائه وصفاته وأفعاله وسننه، والبرهان على أنه الحميد المجيد الذي لا ند له ولا مثل.) . سبحان الله رب العالمين ٨)) . الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٦٥ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ٢٦)) . ربي غني كريم ٤٠)) قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون ٥٩ أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ٦٠ أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ٦١ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ٦٢ أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ٦٣ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ٦٤ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ٦٥)) وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ٧٥)) إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ٧٨) (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٨٦)) إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء. ٩١)) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ٩٣ (.

وفي ترسيخ الإيمان بالقرآن:) طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين اهدى وبشرى للمؤمنين ٢) (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ٦)) إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ٧٦ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ٧٧)) . وأمرت أن أكون من المسلمين ٩١ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ٩٢ (.

ومن قصص النبيين ما علمنا من بدء الوحي للكليم:

) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ٩ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ١٠ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ١٢ (، وما أوتي داود وسليمان- عليهما السلام- من نبوة وملك:) ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ١٥ وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ١٦ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ١٧، وكيف دعا إلى الله الواحد حتى جاءته ملكة تجاور ملكه ليعرض عليها الدين الذي ارتضاه الله:) قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ٤١ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ٤٢ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ٤٣ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ٤٤ (، وكيف دعا صالح عليه السلام إلى الله وكيف صد عنه الطغاة:) وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ٤٨ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ٤٩ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ٥٠ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ٥١ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ٥٢ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ٥٣ (، ولوط عليه السلام دعا الى الطهر والعفة، وقبح الخبث والفاحشة:) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ٥٥ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ٥٦ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ٥٧ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ٥٨ (.

وعن اليقين بالآخرة وأماراتها، وأحوالها، وأهوالها، وثوابها:
) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ٤ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ٥)) بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ٦٦ وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ٦٧ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ٦٨)) وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ٨٢ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ٨٣ حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ٨٤ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ٨٥) (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ٨٧ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ٨٨ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ٧٩ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ٩٠ (.

٢٨ سورة القصص:

سورة القصص:
سورة القصص مكية
وآياتها ثمان وثمانون
كلماتها: ١٤٤١ - حروفها ٥٨٠٠
١ - (طسم)
بسم الله الرحمن الرحيم
}طسم ١ تلك آيات الكتاب المبين ٢{.
ربما تكون الطاء من }طسم{ إشارة إلى اسم الله (لطيف) والسين إلى اسمه الكريم) سميع) والميم إلى الاسم الجليل (مجيب (، أو سيقت للتحدي- كما سبق وأسلفنا- أو هي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، هذه الآيات المحكمات والسور المباركات والكلمات الصادقات التامات، آيات الكتاب الذي لا يعادله كتاب، الواضح، المظهر لحقائق الأمور، والمبدأ والمصير، المبين للحق من الباطل، المفصل لما نؤمن به، وما يقرب من رضوان الله عز وجل، [هذه آيات الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد، المبين أنه من عند الله، وأنك لم نتقوله ولم تتخرصه، وكان قتادة فيما ذكر عنه يقول:. . . مبين والله بركته ورشده وهداه] ١.
٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
}طسم ١ تلك آيات الكتاب المبين ٢{.
ربما تكون الطاء من }طسم{ إشارة إلى اسم الله (لطيف) والسين إلى اسمه الكريم) سميع) والميم إلى الاسم الجليل (مجيب (، أو سيقت للتحدي- كما سبق وأسلفنا- أو هي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، هذه الآيات المحكمات والسور المباركات والكلمات الصادقات التامات، آيات الكتاب الذي لا يعادله كتاب، الواضح، المظهر لحقائق الأمور، والمبدأ والمصير، المبين للحق من الباطل، المفصل لما نؤمن به، وما يقرب من رضوان الله عز وجل، [هذه آيات الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد، المبين أنه من عند الله، وأنك لم نتقوله ولم تتخرصه، وكان قتادة فيما ذكر عنه يقول:. . . مبين والله بركته ورشده وهداه] ٢.
٣ - (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
}نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ٣{

يقرأ عليك أمين وحينا جبريل عليه السلام بأمرنا بعض أخبار عظيمة عن حال موسى كليمنا- عليه صلاتنا وسلامنا- إذا أرسلناه إلى فرعون بالصدق الذي لا ريب فيه، لقوم يصدقون، [نتلو شيئا من نبئهما ملتبسا بالحق. . وقوله تعالى: {لقوم يؤمنون} متعلق ب {نتلو}، واللام للتعليل، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به، وقد تقدم الكلام في شمول {يؤمنون} للمؤمنين حالا واستقبالا] ٣.

٤ - (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

{إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ٤}

استكبر فرعون وتأله وتجبر في أرض مصر، وجعل ساكنيها فرقا وطوائف، ففرقة: تتابعه على الباطل) فاستخف قومه فأطاعوه (٤ وفرقة تملي له في الغي وتمده:). . . أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك. . (٥، وطائفة يستخدمها ويقهرها، وهم- والله أعلم- بنو إسرائيل، يقتل ولدانهم أطفالا صغارا، ويسترق نساءهم ويتركهن أحياء، إنه كان من الممعنين في الفساد، المتجبرين على العباد.

٥ - (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

{ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ٥ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ٦}

أراد فرعون بعتوه وعلوه أن يستديم تسلطه وقهره وتملكه، وأردنا أن نتفضل على من استضعفهم فرعون وأذلهم وذبح أبناءهم، نتفضل على من قهروا فنجعلهم قادة وملوكا يتسع سلطانهم حتى تصبح الأرض التي يحكمها فرعون ميراثا لهم، بعد أن نهلك الطاغية وكبار أعوانه وعامة جنده على أيدي الإسرائيليين الذين كانوا يحذرونهم أن يزيلوا ملكهم، وكان القبط- أهل مصر يومئذ- قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب- ٦ [أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل. . قال قتادة: كان حازيا لفرعون- والحازي: المنجم- قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك، فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة] ٧.

٦ - (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣]

{نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ٣}

يقرأ عليك أمين وحينا جبريل عليه السلام بأمرنا بعض أخبار عظيمة عن حال موسى كليمنا- عليه صلاتنا وسلامنا- إذا أرسلناه إلى فرعون بالصدق الذي لا ريب فيه، لقوم يصدقون، [نتلو شيئا من نبئهما ملتبسا بالحق. . وقوله تعالى: {لقوم يؤمنون} متعلق ب {نتلو}، واللام للتعليل، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به، وقد تقدم الكلام في شمول {يؤمنون} للمؤمنين حالا واستقبالا] ٨.

٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ٧}

ألهم الله تعالى أم موسى إذا وضعته أن ترضعه، فإذا خشيت عليه من هلاك يتهدده فلتقذف به في النهر- نهر النيل- ولا تخافي عليه البحر ولا تحزني لفراقه إنا سنعيده إليك عما قليل، وبعد حين نجعله رسولا، وفعل الله ذلك بها وبه عليه السلام.

أورد الطبري أقوالا في وقت إلقائه، وهل أمرت أن تلقيه في اليم بعد ولادتها إياه ثم إرضاعه؟ أم كان بعد مدة انقضت بين ولادته وبين صنع الصندوق قد تكون أربعة أشهر، ثم قال: وأولى قول- قيل في ذلك- بالصواب أن يقال: إن الله- تعالى ذكره- أمر أم موسى

أن ترضعه فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليم، فجائز أن تكون خافتهم عليه بعد ولادتها وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادتها إياه، وأي ذلك كان فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة، ولا في فطرة العقل بيان أي ذلك كان من أي، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه. . اه.

يقول اللغويون: جمع الله تعالى في هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. . .

جاء في [الجامع لأحكام القرآن]: واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى، فقالت فرقة: كان قولا في منامها، وقال قتادة: كان إلهاما، وقالت فرقة: كان بملك. . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية. . . قال مجاهد: وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة، وقال غيره: بعدها اه.

وسبحان القوي القادر الذي لا يعجزه شيء ولا يفوت مراده، أرأيت إلى إنجاء طفل رضيع رهين صندوق ملقى في نهر جار؟! فاعتبروا يا أولي الأبصار!:) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (٩.

وإنها لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أن تأتي البشرى بأنعم الله على موسى وأمه، وعلى المصريين والإسرائيليين بأن ربنا أراد أن يعز المستذلين ويسود المستعبدين، ويهلك الظالمين، وأن تقرن البشرى بمجيء موسى الذي يتحقق ببعثه مراد الله في إزهاق الباطل وتدمير المبطلين.

وليستبشر أهل الحق إلى يوم الدين، فإن سنة مولانا البر الرحيم تمضي في الآخرين كما مضت في الأولين:). . . ولا تجد لسنتنا تحويلا (١٠.

٨ - (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

{فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ٨}

بتقدير العزيز العليم رسا الصندوق الذي بداخله موسى على ساحل أمام دار فرعون، وحبب إليهم أن يلتقطوه، فلما رأوه راعوه وصانوه، ومكر الله بهم، فسخرهم للحفاظ على من سيطوح بسلطانهم جزاء لتجبرهم وبغيهم، فاللام في {ليكون} للعاقبة وليست للتعليل، إذ ما التقطوه لأجل معاداتهم وحزنهم، وإنما أعقبهم الله ذلك بجورهم وعدوانهم.

وفي الآية تحذير من التعاون على الإثم، وبيان أن مشير فرعون {هامان} وقوتهما الضاربة {جنودهما} شركاء في الطغيان، فلا جرم يقاسمونه الهزيمة والخسران.

يقول الألوسي: والفاء في قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون} فصيحة- أي فاء للإفصاح- والتقدير: ففعلت ما أمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليم لما خافت عليه، وحذف ما حذف تعويلا على دلالة الحال، وإيذانا بكمال سرعة الامتثال. اه.

٩ - (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

{وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ٩}

كأنما توجهت نفس فرعون إلى ذبح الوليد الصبوح، فناشدته امرأته أن يبقيه أملا في نفع ينالهم بسببه أو أن يتبنوه، وأخبرت زوجها بأن عينها تقر لمشهد هذا الغلام، وما نظن إلا أن زوجها كذلك.

وإنه لصنع الله الذي أتقن كل شيء أن يجعل لموسى هذا الود في القلوب، وينجيه وقد أحاطت به المهالك والخطوب، وبذلك يمتن عليه الولي الحميد سبحانه). . يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (١١، وما علموا أن المنتقم الجبار سيتبر به بنيانهم.

١٠ - (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ١٠}

بعد أن قذفت أم موسى وليدها داخل صندوق في النهر، وذهب به الماء إلى حيث لا تعلم، أو إلى حيث لا تأمن، لم يبق في قلبها شيء

إلا هم موسى، وملك الإشفاق عليه لبها حتى أوشكت أن تذيع خبره وتعلن أمره، لولا أن أفاض الله عليها صبرا لتبقى على يقينها في وعد الله أن يرده إليها.

١١ - (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

{وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ١١}

أمرت ابنتها- وكان اسمها مريم- أن تتبع أثره، وتتلمس مستقره، فعلمت ما كان من شأن التقاطه ونجاته، وكأنما لاحقت السعي حتى نظرت إليه من حيث لم يعلموا صلتها به.

١٢ - (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

{*وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ١٢}

حرمنا عليه- تحريم منع لا تحريم شرع- أن يمتص لبنا من ثدي مرضع غير أمه، فكان كلما قرب من ثدي لفظه، حتى قالت لهم أخته: ألا أعرفكم مرضعا يقبلها وليدكم هذا، ويعنون برعايته؟ لمنزلته عندكم وحرصكم على مسرة الملك! قالوا: هاتي.

١٣ - (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ١٣}.

فلما علموا أنه قبل ذلك الثدي رضوا أن يتركوه إلى صاحبته، وهكذا أعاده الله تعالى إلى أمه لتطمئن عليه وتهنأ بالا ولا تغتم، ولتستيقن بأن تحقق موعود الله واقع لا محالة- علمت من قبل علم اليقين، ثم عاينت فعلمت عين اليقين- ولكن أكثر الفرعونيين شأن كل الضالين غفلوا عن حكيم تدبير ذي القوة المتين.

نقل صاحب غرائب القرآن: وجوز في الكشاف أن يتعلق الاستدراك بقوله: {ولتعلم} المقصود أن الرد به إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو العلم بصدق وعد الله {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له، من قرة العين وذهاب الحزن.

ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أي حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى:). . . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. . . (١٢ وقال تعالى:). . . فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١٣. اه

١٤ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

{ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ١٤}

ولما اكتملت لموسى قواه البدنية والعقلية أعطيناه الحكمة العملية والحكمة النظرية، والله الولي الحميد يجزي من أحسن في عبادته وصبر على بليته الجزاء الأوفى.

عن ابن عباس: الأشد: ما بين الثمانية عشر إلى ثلاثين، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين.

وعن مجاهد: {آتيناه حكما وعلما} قال: الفقه والعمل قبل النبوة.

ونقل: آتيناه سيرة الحكماء والعلماء قبل البعث فكان لا يفعل فعلا يستجهل به.

أورد صاحب غرائب القرآن:. . . عن الكشاف {وكذلك نجزي المحسنين} فيه تنبيه على أنه كان محسنا في عمله، متقيا في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه، واعترض عليه: بأن النبوة غير مكتسبة، والحق أن الكل بفضل الله ورحمته، ولكن للوسائط والمعدات مدخل عظيم في كل ما يصل إلى الإنسان من الفيوض والآثار، فالأنوار السابقة تصير سببا للأضواء اللاحقة، وهلم جرا، عن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في كهالته. اه

أقول: والقرآن يشهد أن النقاء والصفاء يهيآن للمزيد من فيض السماء، وصدق المولى العلي الحكيم:). . الله أعلم حيث يجعل رسالته.

. (١٤). . فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا. . (١٥) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى. . (١٦ (. . وما يذكر إلا أولوا الألباب (١٧.
وجاء في جامع البيان: وقوله: {وكذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا، كذلك نجزي كل من أحسن من رسلنا وعبادنا فصبر على أمرنا، وأطاعنا، وانتهى عما نهيناه عنه. اه
١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)
{ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ١٥}
كأن موسى عليه السلام كان مطاردا ومطلوبا من قبل فرعون وملئه- ربما لفعلته التي شوهت وجه فرعون إذ باغته فغير مظهره، أو هوى بالعصا على رأسه، وربما لأنه ضاق بباطلهم فأنكر عليهم وعاب دينهم فتربصوا به وبيتوا له الشر، فتخفى منهم، وبقي لا يغشى مدنهم ولا مجامعهم إلا فلتة أو بغتة- فدخل يوما إلى المدينة التي فيها فرعون، والجمهور على أنها عن فرسخين من مصر- يومذاك- وقال الضحاك: هي عين شمس، وأهلها في غفلة عنه لا يشعرون به، وحين دخل أبصر تضاربا بين إسرائيلي وقبطي، فطلب الإسرائيلي معونة موسى، فدفع موسى بالقبطي فسقط ميتا، فسارع موسى إلى الندم على ما حدث، وأن الشيطان حين يثير في النفس الغضب يورد الغاضب موارد الضلال، فعل العدو المظهر عداوته.
مما روى مسلم في صحيحه عن سالم بن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عز وجل:). . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا (١٨ ".
١٦ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
{قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له- إنه هو الغفور الرحيم ١٦}
توجه موسى إلى ربه ضارعا أن يستر عليه خطيئته إذ خالف الأولى فقتل دون أن يؤمر، وقبل أن يؤذن له- وإن كان المقتول كافرا- فتقبل الله توبة موسى، وتجاوز عن مخالفته تلك، فإن المولى سبحانه واسع المغفرة والعفو والصفح والرحمة.
١٧ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)
{قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهير للمجرمين ١٧}
كأنما ذلك عهد عاهد به موسى ربه، بحق ما أنعم به عليه من الهداية والولاية -إذ النبوة لم تكن قد جاءته بعد – رب فلن أعين كافرا على كافر.
وسياق الآيات في موضع آخر يبين أن موسى لم يوح إليه إلا بعد ذلك، يقول الله سبحانه- حكاية على لسان موسى مخاطبا فرعون-:) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين (١٩ والفاء تفيد الترتيب بين ما قبلها وما بعدها، فالفرار من طلبهم له متقدم، والرسالة جاءت من بعد.
كما أن الآيات التي سنعرض لتفسيرها-إن شاء الله – من هذه السورة بينت أن الخروج من المدينة فالتوجه إلى مدين فقضاء السنين هناك فالعودة بالأهل جاء على أثرها النداء الإلهي: {. . يا موسى إني أنا الله رب العالمين} ٢٠.
قال الكسائي والفراء: إنه خبر ومعناه الدعاء، كأنه قال: فلا تجعلني ظهيرا. . وفي الآية دلالة على عدم جواز إعانة الظلمة ٢١.
١٨ - (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)
{فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين ١٨}
في اليوم التالي أو عقب مقتل القطبي الذي وكزه موسى غدا ابن عمران عليه السلام يتوجس ويستعلم عما هم صانعون به من أجل قتيله، وينتظر مكروها قد يحل به، فإذا الإسرائيلي الذي قتل القبطي بسببه يستغيث بموسى عليه السلام ويصيح طالبا عونه، فقال له موسى إنك لضال ظاهر الشطط، تسببت في قتل رجل بالأمس، واليوم تقاتل آخر، أو إنك الخائب مشاد من لا تطيق دفع شره عنك.

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن:. الخوف لا ينافي المعرفة بالله والتوكل عليه، والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه مع معرفتهم به وثقتهم. . ومنه: حفر النبي الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد، ثم كان من أصحابه مالا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة، تخوفا على أنفسهم من مشركي مكة وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم، وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر- لما قال لها سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم-: كذبت ٢٢ يا عمر، كلا والله! كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار- أو أرض- البعداء البغضاء ٢٣ في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم! ونحن كنا نؤذى ونخاف - الحديث بطوله أخرجه مسلم. اه

١٩ - (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

{فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ١٩}

بعد أن وصف موسى المتقاتل الإسرائيلي بأنه غاو أو مغوهم بتخليصه من الفرعوني الذي يشاكسه، ومعلوم أن الفرعونيين القبط كانوا يسخرون الإسرائيليين ويستبدون بهم، على طريقة ملكهم التي أشير إليها في الآية الكريمة: {إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين} وبهذا غدا كل فرعوني عدوا لكل إسرائيلي، وهكذا يمكن أن نفهم القول الكريم {عدو لهما} أي لموسى والذي {من شيعته} من قومه وعشيرته، وليس بلازم أن تعني {شيعته} أتباعه، وأنه وقتئذ كان قد نبئ، وكان هذا أحد المؤمنين به.

ظن الإسرائيلي – وقد عنفه موسى- أنه لن يدفع عنه الفرعوني، وخاف أن تدركه وكزة قاضية، فقال: يا موسى! أعزمت على قتلي مثلما قتلت واحدا قبل يومنا هذا؟ في اليوم الذي مضى؟! ما يطيب لك إلا أن توالي سفك الدماء، فتتبع القتيل بقتيل؟! وما تحب أن تكون مصلحا!

٢٠ - (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

{وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ٢٠}

كان جماعة من أهل القتيل قد ذهبوا- كما رووا- إلى فرعون، وطلبوا إليه أن يأخذ بحقهم من القاتل، لكنهم لم يكونوا قد عرفوه، فلما كان الغد وهاب الإسرائيلي غضبة موسى حين بدأ يستنقذه من عدوه، وقال: قتلت بالأمس رجلا وهممت اليوم بآخر، عندئذ تلقف القبطي الكلمة: وانصرف عن الإسرائيلي، وذهب بالخبر إلى باب فرعون، وانتهى ذلك إليه، فاشتد في طلب موسى، فلما أمر بقتله سبق رجل بالخبر وجاء من أبعد مسافات المدينة إليه، يجد السعي ويعجل، وأخبر موسى أن رؤساء قوم فرعون يتآمرون بك، ويتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس، فارتحل عن مدينة فرعون هذه قبل أن يدركك الطلب، إني في إشارتي عليك بالخروج منها لناصح لك، و {من} في قوله سبحانه: {من الناصحين} بيانية.

٢١ - (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

{فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ٢١}

فمضى موسى تاركا مدينة فرعون، وجلا أن يباغته الذباحون الذين استنفرهم فرعون للظفر به، ونادى موسى ربه سائلا النجاة والسلامة من فرعون وملائه.

يقول صاحب غرائب القرآن: وفيه دليل على أن قتله القبطي لم يكن ذنبا وإلا لم يكونوا ظالمين بطلب القصاص. ا ه

٢٢ - (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

{ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ٢٢}

ولما غادر موسى أرض الفراعنة جعل وجهه ناحية مدين، وهو ماض إليها و {تلقاء} بمعنى: قبل، يقال: دار تلقاء دار فلان إذا كانت تحاذيها وتقابلها.
مما أورد صاحب جامع البيان: ولم يصرف اسم {مدين} لأنها اسم بلدة معروفة، كذلك تفعل العرب بأسماء البلاد المعروفة. . اه
وسفره- عليه السلام- منفردا فارا من طلب الأعداء بلاء شديد.
عن ابن اسحق:. . نخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم ولا رغيف. . اه
وقلة الدراية بالدروب والمسالك تقطع الرجاء إلا من ربنا وهداه، وموسى- عليه السلام- يتضرع إلى مولاه، آملا أن يبصره أعدل طريق وأقومه.
٢٣ - (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)
{ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ٢٣}
تابع موسى رحلته تاركا مصر، قاصدا مدين- وكان ملكها لغير فرعون - فلما بلغ ماء تلك المحلة رأى جمعا كبيرا من الناس يسقون أنعامهم وبهائمهم، ورأى على مقربة من تلك الآبار امرأتين تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس، فسأل المرأتين عن سبب تخلفهما عن سقي دوابهما، فأخبرتاه أنهما ضعيفتان لا تقدران على ورود الحوض لسقي الغنم فإنا لا نطيق أن نسقي، وإنما مواشينا ما أفضلت مواشي الرعاء في الحوض، وليس لنا أن نزاحم الرجال ونختلط بهم، فلهذا نتأخر في السقي إلى أن يفرغوا، و {يصدر} بمعنى يرجع، أي حتى يرجع الناس مواشيهم عن الماء، و {الرعاء} جمع راع، كصحاب جمع صاحب.
قال ابن عطية: وكأن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في الشر. . اه
وأخبرتا موسى أن أباهما أضعفه المشيب، وأوهنته الشيخوخة، فهو لضعفه لا يقدر أن يباشر سقي ماشيته، وما لهما من رجل يتولى عنهما ذلك الأمر.
٢٤ - (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)
{فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ٢٤}
رفع موسى عن بئر حجرا كان يغطيها فسقى لهما [. . رق لهما موسى فعمد إلى بئر كانت مغطاة، والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد] أروى لهما بهائهما ثم آوى إلى ظل جلس فيه، فسارع داعيا ربه أن يرزقه القوت، وشكا إليه افتقاره إلى الطعام، وكأنه استعمل الفعل الماضي- وهو لما يزل يترقب ما يدنيه الله تعالى منه ويسوقه منه إليه- ثقة في أن هذا واقع بفضل الله كالمتحقق فعلا، إذ المعنى: رب! ما أشد احتياجي وافتقاري إلى ما تنزل إلي من زاد ومدد.
روى صاحب الجامع لأحكام القرآن: وكان لم يذق طعاما سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره، فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال ٢٤، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله ٢٥، فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال:). . . إن ترك خيرا. .) ٢٦.
وقوله:) وإنه لحب الخير لشديد (٢٧، ويكون بمعنى القوة كما قال:) أهم خير أم قوم تبع (٢٨ ويكون بمعنى العبادة، كقوله:) وأوحينا إليهم فعل الخيرات. . (٢٩. اه
٢٥ - (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)
{فجاءته إحداهما تمشي عن استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ٢٥}

فلما ذهبت المرأتان إلى أبيهما قبل موعدهما الذي اعتادتا العودة فيه، وحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذي سقى لهما، أمر واحدة منهما أن تدعوه له، فأتت إلى موسى، وقدمت مستورة.
روى صاحب جامع البيان:. . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {فجاءته إحداهما تمشي على استحياء} قال: لم تكن سلفعا ٣٠ من النساء خراجة ولاجة ٣١، جاءته قائلة ٣٢ بيدها على وجهها. . اهـ.
وبلغت موسى طلب أبيها إياه، والسبب الذي من أجله استدعاه. يقول ابن كثير: وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة. . اهـ.
وعرف موسى أنه مستدعي ليكافأ على سقيه غنم المرأتين- رحمة بهما- ويؤجر جزاء عودة الغنم مرتوية قبل سائر الرعاء، ولبى موسى الدعوة، ووصفت له داعيته الطريق حتى وصل إلى بيت أبيها، فلما لقيه وكرمه أنس إليه وأخبره، فطمأنه هذا الأب إلى أنه نزل منزلا لا يضام فيه، ولا سلطان للظالمين عليه.
٢٦ - (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ)
{قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ٢٦}.
قالت واحدة من المرأتين لأبيها- وأكثر علماء القرآن على أنه شعيب عليه السلام- استأجر يا أبت هذا الرجل فأنت في حاجة إلى من يلي لك الزرع والضرع، ونقل ابن جرير عن السدي أنها هي الجارية التي دعته، وإن أفضل من يرعى ويقوم على حفظ ما شيتك وما يصلحها الكيس الدين، الكفء الأمين.
روى صاحب جامع البيان عن ابن زيد في قوله: {قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين} فقال لها: وما علمك بقوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فإنه كشف الصخرة التي على بئر آل فلان، وكان لا يكشفها دون سبعة نفر، وأما أمانته فإني لما جئت أدعوه قال: كوني خلف ظهري وأشيري لي إلى منزلك، فعرفت أن ذلك منه أمنة.
٢٧ - (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)
{قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ٢٧}
عرض صالح مدين على موسى أن يزوجه بواحدة من ابنتيه هاتين- وربما كانت له بنات غيرهما- واشترط عليه لقاء تزويجه أن يعمل لديه مدة ثمان سنين.
مما أورد القرطبي في هذا الشأن: فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداء بالسلف الصالح، قال ابن عمر: لما تأيمت ٣٣ حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر، الحديث انفرد بإخراجه البخاري. . قوله تعالى: {إحدى ابنتي هاتين} يدل على أنه عرض لا عقد، لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له، لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبدي هذين بثمن كذا، فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح لأنه خيار، وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح. . وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما تحفظ من القرآن "؟ فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: " فعلمها عشرين آية وهي امرأتك " اهـ.
واشترط شعيب عليه السلام على موسى أن يعمل ثمانية أعوام، وزيادتها إلى عشرة موكولة إلى اختيار موسى عليه السلام وتطوعه- إن تطوع- فعله فيما بين السنة الثامنة والعاشرة تفضل وتبرع، وما أرغب ولا أحب أن ألزمك الوقت الأطول، ولا أن أكلفك من الأمر ما أجهد أو أثقل، ستجد تعاملي معك- بتيسير الله ومشيئته- على منهاج أهل الصلاح، فلن تكون مني مشاحة، ولكن دأبي المياسرة والسماح.
نقل عن أهل الاشتقاق: حقيقة قولهم: شققت عليه، وشق عليه الأمر: أنه إذا صعب الأمر فكأنه شق عليه ظنه باثنين، يقول تارة

أطيقه، وتارة لا أطيقه.
٢٨ - (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)
}قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل ٢٨{
رد موسى على ما عرضه شعيب من أنه سيزوجه إحدى ابنتيه على أن يستأجره ٣٤ ثماني سنين فقال هذا عهد بيني وبينك، على كل واحد منا الوفاء بما أوجب على نفسه، فإن قضيت القدر الواجب فلا أطالب بزيادة، وإذا أردفته بما تطوعت به لأكملها عشرا فداك مني تبرع، وأيهما أمضيت فلا أكون متعديا، وربنا شهيد على ميثاقنا، وحفيظ على عقدنا وعهدنا.
٢٩ - (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)
}فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ٢٩{
بعد تواثق موسى وشعيب على ما تواثقا عليه، أقام وزوجته مع ختنه وصهره يعمل في رعاية غنمه وما يحتاج إليه منه، حتى أتم موسى أكمل الأجلين وأوفاهما، وكأنه تشوق إلى زيارة أهله الذين تركهم بمصر منذ عشر سنين مضت، فلما ارتحل ومضى بزوجه وغنمه في الطريق إلى عشيرته، أحس في ليلة شاتية مظلمة أنه ربما تغير به الدرب، وحاول أن يوقد ما يستدفئ به وزوجه فما تيسر له إيقاد- وهكذا إذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه- فأبصر نارا تتوهج من بعيد على يمين المتجه نحو جبل الطور فتكون صوب الغرب، قال موسى لأهله: تمهلوا وانتظروا فقد أبصرت نارا، وابقوا هنا حتى أذهب إليها، وإني لراج أن أسأل من عند النار هذه عن الطريق فيدلنا، أو أعود إليكم بقطعة منها تستدفئون وتسخنون بها.
}جذوة{ قبسة من النار، وقطعة من الجمر، أو عود غليظ يؤخذ فيه نار، أو أحد رأسيه جمرة.
}تصطلون{ تسخنون صلاكم وجلدكم، أي تدفئون بدنكم، وتتخذون منها وقودا.
٣٠ - (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)
}فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ٣٠{.
فلما وصل موسى إلى تلك النار التي أبصرها وحدث أهله بأن عسى أن يجيء منها بخبر أو يقتبس منها قبسة، نودي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، وما أبركه من مكان:) هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (٣٥ وفي شأنه يقول الله تعالى مخاطبا نبيه محمدا: }وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر{ ٣٦ }وما كنت بجانب الطور إذ نادينا{ ٣٧.
نقل الحسن النيسابوري: }من{ الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، فالثانية بدل من الأولى بدل الاشتمال، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، ووصفت البقعة بالمباركة لأن فيها ابتداء الرسالة والتكليم. أه.
}أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين{ نادى الله تعالى عبده موسى: إن الذي يخاطبك ويكلمك هو المعبود بحق رب العالمين، لا إله غيره ولا رب سواه، تنزه سبحانه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.
٣١ - (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ)
}وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ٣١ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ٣٢{
ونادى الله تعالى موسى وأمره أن يلقي العصا التي كانت بيده، فألقاها فإذا هي حية تنطلق وتتلوى مسرعة كالجان، فأدار موسى ظهره وفر منها ممعنا في الهرب لا يلتفت، فأمر من لدن ربنا العلي الأعلى أن يعود إلى حيث كان، وألا يخشى مهلكة، فإن مولاه قد أمنه من كل محذور ومخوف
٣٢ - (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
{اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء} أدخل يدك في فتحة قميصك ثم أخرجها فسنمنحها بياضا ناصعا، صافيا متلألئا، في غير علة ولا برص، يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج كأنها قطعة قمر في لمعان البرق. اه، {واضمم إليك جناحك من الرهب} وضم ذراعك إلى صدرك يذهب عنك خوفك وفزعك، {فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه} فهذان الحدثان والأمران المعجزان اللذان أجريتهما على يديك- من تحول العصا حية، ويدك وهي سمراء إلى لون أبيض لامع من غير برص- هاتان آيتان وحجتان لك على فرعون، وعلى كبراء ورؤساء وعامة قومه، إن فرعون وجمعه قوم خارجون على أمرنا، فليكن ما أريتك، وما صنعت لك حجة عليهم، ودليلا على حقيقة وصدق نبوتك ورسالتك.
[والفاء في قوله تعالى: {فلما رآها تهتز} فصيحة مفصحة عن جمل حذفت، تعويلا على دلالة الحال عليها، وإشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها، أي فألقاها، فصارت حية، فاهتزت، فلما رآها تهتز وتتحرك. . والبرهان: الحجة النيرة. . وقال بعضهم: هو فعلان من البره بمعنى القطع، فيفسر بالحجة القاطعة. . و {من} في قوله تعالى: {من ربك} متعلق بمحذوف هو صفة لبرهان، أي كائنان من ربك، و {إلى} في قوله سبحانه: {إلى فرعون وملئه} متعلق بمحذوف أيضا. . صفة بعد صفة أي واصلان إليهم، وعلى ما يقتضيه ظاهر كلام آخرين حال منه، أي مرسل أنت بهما إليهم] ٣٨.
٣٣ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)
{قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ٣٣ وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ٣٤ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ٣٥}
لما علم موسى أن الله أرسله إلى فرعون وقومه شكا إلى ربه- وهو به وبكل الخلق عليم- وناجى مولاه بأنه مبعوث إلى قوم جبارين موتورين، ففرعون وهامان وجنودهما أكثروا في الأرض الفساد، فكيف إذا هم ظفروا بموسى وقد فر بعد أن قتل منهم واحدا؟! مما جاء في روح المعاني: ومراده عليه السلام بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها، كما هو اللائق بمقام أولي العزم من الرسل عليهم السلام، فإنهم يتوقون لذلك، كما كان يفعل- صلى الله عليه وسلم- حتى نزل:). . والله يعصمك من الناس. . (٣٩، ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافي مقامهم. اه [ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله. - تعالى- وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء] ٤٠، وأتمم نعمتك علي، ونبئ أخي، وابعثه معي، حتى يشاركني في حمل أمانات الرسالة، ويؤازرني على الوفاء بعهدها، رب! وفي لساني عقدة قد لا أستطيع معها الإبانة عن كل ما أريد من قول، وإني أخاف حين يسارعون إلى تكذيبي ورد ما أدعوهم إليه، أن يشتد همي، ويضيق صدري، فينعقد لساني، لاغتمام قلبي، وأخي هارون أحسن مني بيانا، فإذا قضت حكمتك أن تجعله لي وزيرا ومعينا يذب ويجادل عني، فاجعله اللهم لي نصيرا ومؤازرا، وفي سورة طه بينت آيات كريمات ضراعة موسى إلى مولاه في طلب شد الأزر:) قال رب اشرح لي صدري. ويسر لي أمري. واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي. واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا (٤١
٣٤ - (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)
{قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما} بشر الله تعالى موسى بأنه أجاب سؤله:) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (٤٢، سنقويك ونشد ساعدك بأخيك، فتزداد به عونا، كاليد تقوى بصلابة العضد، {ونجعل لكما سلطانا} نجعل لكما حجة، وتسلطا عظيما وغلبة، فلا يصل إليكم الفرعونيون بسوء ولا بمحاجة ولا باستيلاء، {بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} {بآياتنا} - متعلق بمحذوف قد صرح به في مواضع أخر، أي اذهبا بآياتنا، أو: [بنجعل]، أي نسلطكما بآياتنا، أو [بسلطانا]، لما فيه من معنى التسلط. . -
٤٣ بشرى من الله الحق لموسى وهارون وأتباعهما بحسن العاقبة، والنصر على العدو، وكأن التركيب هكذا: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، وصدق الله العظيم، فإن حزب الله هم الغالبون، وإن جند الله هم المنصورون، ولقد تمت كلمة ربنا الحسنى على المؤمنين بما

صبروا.
٣٥ - (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما} بشر الله تعالى موسى بأنه أجاب سؤله:) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (٤٤، سنقويك ونشد ساعدك بأخيك، فتزداد به عونا، كاليد تقوى بصلابة العضد، {ونجعل لكما سلطانا} نجعل لكما حجة، وتسلطا عظيما وغلبة، فلا يصل إليكم الفرعونيون بسوء ولا بمحاجة ولا باستيلاء، {بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} {بآياتنا} - متعلق بمحذوف قد صرح به في مواضع أخر، أي اذهبا بآياتنا، أو: [بنجعل]، أي نسلطكما بآياتنا، أو [بسلطانا]، لما فيه من معنى التسلط. . - ٤٥ بشرى من الله الحق لموسى وهارون وأتباعهما بحسن العاقبة، والنصر على العدو، وكأن التركيب هكذا: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، وصدق الله العظيم، فإن حزب الله هم الغالبون، وإن جند الله هم المنصورون، ولقد تمت كلمة ربنا الحسنى على المؤمنين بما صبروا.
٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)
{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ٣٦ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ٣٧ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ٣٨ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ٣٩ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٤٠ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ٤١ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ٤٢{
فلما ذهب موسى وهارون بما آتاهما الله تعالى من حجة إلى فرعون ورؤساء قومه وعامتهم سارعوا بإنكار ما دعوا إليه من الإيمان بالله دون سواه، ووصفوا الدلالة على الحق، والرجوع عن الشرك بأنه باطل مكذوب، وأن ما أراهم موسى من حجج ربنا وسلطانه- كالعصا واليد- قاوموا هذه الآيات ووصفوها- زورا وافتراء- بأنها سحر مختلق، وأنكروا أن يكون من أسلافهم وآبائهم من قد آمن بالإله الذي يدعو إليه موسى وهارون، فلم يرد موسى على سفههم، ورميهم إياه بالتمويه والاختلاق، ووصف ما جاءهم به بالسحر والافتراء، ولم يرد على هذا إلا بأن يذكرهم بجلال الله العلي الأعلى، وأنه الولي لمن اتقى، وعاقبة المؤمنين الحسنى، وقد خاب من حمل ظلما، ولا يربح من أفرط وطغى، هكذا كان جواب موسى للذي عتا وعلا وبغى، لأن المولى الحكيم قد أمر بهذا فقال تبارك اسمه:) اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى،. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٦، فعلى الداعين إلى الله أن يتذكروا ويعتبروا، ويؤثروا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، ومن قبل ذلك أن تمتلئ القلوب باليقين والخشية، ويترطب اللسان بالذكر والشكر، وتستقيم الجوارح على العبادة وفعل الخير والبر، ليكونوا دعاة إلى الرشد بأعمالهم وأخلاقهم، قبل أن يكونوا دعاة بألسنتهم وأقوالهم، وبدلا من أن نعلن الظلام نضيء شمعة، بل نحن على الحقيقة ندعوا إلى النور والحياة، والعلم والتزكية، والعدل والإحسان، لكن بالقول الطيب، واليقين الصادق، والنهج السوي، ولقد أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام في آيات كريمات أخر أن يعرض الحق والرشد على الطاغية المتأله فرعون في لين ورفق على الرغم من عتو هذا المستكبر، يقول ربنا تبارك اسمه:) اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى (٤٧
٣٧ - (وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]
{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ٣٦ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ٣٧ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ٣٨ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا

أنهم إلينا لا يرجعون ٣٩ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٤٠ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ٤١ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ٤٢{

فلما ذهب موسى وهارون بما آتاهما الله تعالى من حجة إلى فرعون ورؤساء قومه وعامتهم سارعوا بإنكار ما دعوا إليه من الإيمان بالله دون سواه، ووصفوا الدلالة على الحق، والرجوع عن الشرك بأنه باطل مكذوب، وأن ما أراهم موسى من حجج ربنا وسلطانه- كالعصا واليد- قاوموا هذه الآيات ووصفوها- زورا وافتراء- بأنها سحر مختلق، وأنكروا أن يكون من أسلافهم وآبائهم من قد آمن بالإله الذي يدعو إليه موسى وهارون، فلم يرد موسى على سفههم، ورميهم إياه بالتمويه والاختلاق، ووصف ما جاءهم به بالسحر والافتراء، ولم يرد على هذا إلا بأن يذكرهم بجلال الله العلي الأعلى، وأنه الولي لمن اتقى، وعاقبة المؤمنين الحسنى، وقد خاب من حمل ظلما، ولا يربح من أفرط وطغى، هكذا كان جواب موسى للذي عتا وعلا وبغى، لأن المولى الحكيم قد أمر بهذا فقال تبارك اسمه:) اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى،. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٨، فعلى الداعين إلى الله أن يتذكروا ويعتبروا، ويؤثروا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، ومن قبل ذلك أن تمتلئ القلوب باليقين والخشية، ويترطب اللسان بالذكر والشكر، وتستقيم الجوارح على العبادة وفعل الخير والبر، ليكونوا دعاة إلى الرشد بأعمالهم وأخلاقهم، قبل أن يكونوا دعاة بألسنتهم وأقوالهم، وبدلا من أن نعلن الظلام نضيء شمعة، بل نحن على الحقيقة ندعوا إلى النور والحياة، والعلم والتزكية، والعدل والإحسان، لكن بالقول الطيب، واليقين الصادق، والنهج السوي، ولقد أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام في آيات كريمات أخر أن يعرض الحق والرشد على الطاغية المتأله فرعون في لين ورفق على الرغم من عتو هذا المستكبر، يقول ربنا تبارك اسمه:) اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى (٤٩

٣٨ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري} كأنه أحس بنفاذ دعوة الرسولين الكريمين إلى القلوب، وأن الإيمان بإله واحد له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، هذا الإيمان يلمس الفطرة الإنسانية وتسكن إليه الجوانح، فسارع اللعين يذكر بفتونه وجنونه، ولكن في اضطراب من القول، فبينما كان يقول لهم ما حكاه القرآن عنه:). . أنا ربكم الأعلى (٥٠ عاد يقول:). . ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٥١ (. . يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٢، {فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين} فأعد ياهامان لبنات ثم أوقد عليها لتصبح آجرا- والطوب اللبن يصنع من الطين، فإذا أحرق واحمر لونه صار آجرّا- ثم ابن بهذا الطين المحترق- الآجر- بناء عاليا ظاهرا متضحا- من صرح الشيء إذ ظهر- لأصعد عليه لعلي أرى الإله الذي يذكر موسى أنه إلهه وإله العالمين، وذلك ما جاء بيانه في آيات أخرى كريمة:) وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى موسى وإني لأظنه كاذبا. . .) ٥٣؛ يعني أنه سيحاول الصعود والإطلاع ليس ليقينه في وجود إله العالمين، ولا لتصديقه دعوة موسى وهارون، [والظاهر أنه أراد حقيقة ما يدل عليه كلامه وهو نفي علمه بإله غيره دون وجوده، فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه، ولم يجزم بالعدم بأن يقول: ليس لكم إله غيري، مع أن كلا من هذا وما قاله كذب، لأن ظاهر قول موسى عليه السلام له:). . لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر. . (٥٤ يقتضي أنه كان عالما بأن إلههم غيره. . . فكأنه قال: ما علمت في الأزمنة الماضية لكم إلها غيري كما يقول موسى، والأمر محتمل وسأحقق لكم ذلك. . . والأمر بجعل الصرح وبنائه لا يدل على أنه بني، وقد اختلف في ذلك، فقيل: بناه. . . وقيل لم يبن، وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمره للتلبيس على قومه وإيهامه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر. . . وأيا ما كان فالقوم كانوا في غاية الغباوة والجهل وإفراط العماية والبلادة، وإلا لما نفق عليهم مثل هذا الهذيان. . . ولا يبعد أن يقال: كان فيهم من

ذوي العقول من يعلم تمويهه وتلبيسه، ويعتقد هذيانه فيما يقول، إلا أنه نظم نفسه في سلك الجهال، ولم يظهر خلافا لما عليه اللعين بحال من الأحوال، وذلك إما للرغبة فيما لديه، أو للرهبة من سطوته واعتدائه عليه، وكم رأينا عاقلا، وعالما فاضلا، يوافق لذلك الظلمة الجبابرة، ويصدقهم فيما يقولون وإن كان مستحيلا أو كفرا بالآخرة] ٥٥.

٣٩ - (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ)

{واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون} تبين لهم أن الهدي ليس في تأليه طاغيتهم، وأن نداء رسوليهم إلى الرشد حقيق أن يستجيبوا له بدلا من ضلالهم، لكن جادلوا بالباطل بعد ما تبين لهم الهدى، وازدادوا عمى بعد أن رأوا نفرا قد آمن واهتدى:) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم. . (٥٦ (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٥٧) وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون (٥٨، فهل بعد هذا يكون الغرور والاستكبار شيئا إذا قورن بما تمادى فيه هذا الطاغية الجبار؟! واستخف قومه فتابعوه، واستعدى جنده فأطاعوه، وأشاعوا القتل والسفك في المؤمنين، واستمرءوا الأذى والتنكيل بالمسلمين، ونسوا بطش الله تعالى بالباغين، في هذه الحياة الدنيا ويوم الدين، فعاجلهم القوي المتين ببأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فأغرقهم أجمعين، وأخزى التابعين والمتبوعين، ويوم القيامة يصيرون إلى دركات الجحيم، بل وهم بعد غرقهم يذوقون العذاب الأليم، مصداقا لقول ربنا الحكيم:) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٥٩

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[{فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم} أي ألقيناهم وأغرقناهم فيه. . . والظاهر أن الفاء الأولى سببية وليست لمجرد التعقيب، وأما الثانية فللتعقيب. . . أما إذا أريد به الإهلاك فهي للتفسير كما في:) فاستجبنا له فنجيناه. . (٦٠. . . {فانظر} يا محمد {كيف كان عاقبة الظالمين} وبينها للناس ليعتبروا بها

٤١ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ)

{وجعلناهم} أي خلقناهم {أئمة} قدوة للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال. . وعن أبي مسلم أن المراد: صيرناهم بتعجيل العذاب لهم {أئمة} أي متقدمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار. . {ويوم القيامة لا ينصرون} بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه

٤٢ - (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

{وأتبعناهم في هذه الدنيا} التي فتنتهم {لعنة} طردا وإبعادا. . . . {ويوم القيامة هم من المقبوحين} من المطرودين المبعدين. . . من المهلكين] ٦١.

مما جاء في الجامع لأحكام القرآن: {فنبذناهم في اليم} أي طرحناهم في البحر المالح، قال قتادة: بحر من وراء مصر. . وقال وهب والسدي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة، وهو إلى اليوم غضبان- أي ثائر عالي الموج-اه

٤٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ٤٣ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ٤٤ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ٤٥ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ٤٦}

أعطى الله تعالى موسى التوراة بعد ما أهلك فرعون وجنده وملأه وخسف بقارون، أو من بعد إهلاك قوم نوح، وعاد وثمود، وأودع الحكيم العليم كتابه هذا تفصيل الحلال من الحرام، وتبصرة ٦٢ للناس الذين طمست بصائرهم الأهواء، ودلالة على الهداية، ورحمة

للمستمسكين بشرعته ليتذكروا، ولقد بين القرآن المجيد ما أودع الله التوراة ٦٣ من نور وعلم وحكم:) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء. . (٦٤) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) ٦٥). . وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٦٦، ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم، فشهد سبحانه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن بالجانب الغربي من جيل الطور حيث نبئ موسى، وكلمه ربه عز وجل، ولا هو ممن شهد الوحي إلى كليم الله- عليه السلام-، ولكن خلف من بعد موسى خلف طال عليهم الأمد، وبعد ما بينهم وبين زمان نزول الوحي فقست قلوبهم، {وما كنت ثاويا} مقيما في أهل مدين {تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين} لم تصاحب موسى قبل تكليم الله إياه إذ هو في أهل مدين بعيش مع شعيب حيث أهله، كما لم تكن مرافقا لموسى بعد إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، لكنا أرسلناك، وأوحينا إليك من أنباء الرسل، وقصصنا عليك مما كان بينهم وبين أممهم، فعلمتك بهذا مالم تكن تعلم لنثبت به فؤادك، وليكون عبرة لأولي الألباب، {وما كنت بجانب الطور إذ نادينا} وكما لم تلق موسى قبل أن يوحى إليه، ولا عاشرته بعد أن قضينا إليه الأمر، لم تكن معه إذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ٦٧، ولكن جاءك الوحي لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، وتذكرهم فإن الذكرى تنفع المؤمنين). . إنما يتذكر أولو الألباب (٦٨.

قال قتادة: {الكتاب} التوراة، قيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمدا مجددا للدين وداعيا الخلق إليه.

٤٤ - (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ٤٣ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ٤٤ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ٤٥ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ٤٦}

أعطى الله تعالى موسى التوراة بعد ما أهلك فرعون وجنده وملأه وخسف بقارون، أو من بعد إهلاك قوم نوح، وعاد وثمود، وأودع الحكيم العليم كتابه هذا تفصيل الحلال من الحرام، وتبصرة ٦٩ للناس الذين طمست بصائرهم الأهواء، ودلالة على الهداية، ورحمة للمستمسكين بشرعته ليتذكروا، ولقد بين القرآن المجيد ما أودع الله التوراة ٧٠ من نور وعلم وحكم:) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء. . (٧١) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) ٧٢). . وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٧٣، ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم، فشهد سبحانه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن بالجانب الغربي من جيل الطور حيث نبئ موسى، وكلمه ربه عز وجل، ولا هو ممن شهد الوحي إلى كليم الله- عليه السلام-، ولكن خلف من بعد موسى خلف طال عليهم الأمد، وبعد ما بينهم وبين زمان نزول الوحي فقست قلوبهم، {وما كنت ثاويا} مقيما في أهل مدين {تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين} لم تصاحب موسى قبل تكليم الله إياه إذ هو في أهل مدين بعيش مع شعيب حيث أهله، كما لم تكن مرافقا لموسى بعد إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، لكنا أرسلناك، وأوحينا إليك من أنباء الرسل، وقصصنا عليك مما كان بينهم وبين أممهم، فعلمتك بهذا مالم تكن تعلم لنثبت به فؤادك، وليكون عبرة لأولي الألباب، {وما كنت بجانب الطور إذ نادينا} وكما لم تلق موسى قبل أن يوحى إليه، ولا عاشرته بعد أن قضينا إليه الأمر، لم تكن معه إذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ٧٤، ولكن جاءك الوحي لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، وتذكرهم فإن الذكرى تنفع المؤمنين). . إنما يتذكر أولو الألباب (٧٥.

قال قتادة: {الكتاب} التوراة، قيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمدا مجددا للدين وداعيا الخلق إليه.

٤٥ - (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ٤٣ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ٤٤ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ٤٥ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ٤٦}
أعطى الله تعالى موسى التوراة بعد ما أهلك فرعون وجنده وملأه وخسف بقارون، أو من بعد إهلاك قوم نوح، وعاد وثمود، وأودع الحكيم العليم كتابه هذا تفصيل الحلال من الحرام، وتبصرة ٧٦ للناس الذين طمست بصائرهم الأهواء، ودلالة على الهداية، ورحمة للمستمسكين بشرعته ليتذكروا، ولقد بين القرآن المجيد ما أودع الله التوراة ٧٧ من نور وعلم وحكم:) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء. . (٧٨) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) ٧٩). . وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٨٠، ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم، فشهد سبحانه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن بالجانب الغربي من جيل الطور حيث نبئ موسى، وكلمه ربه عز وجل، ولا هو ممن شهد الوحي إلى كليم الله- عليه السلام-، ولكن خلف من بعد موسى خلف طال عليهم الأمد، وبعد ما بينهم وبين زمان نزول الوحي فقست قلوبهم، {وما كنت ثاويا} مقيما في أهل مدين {تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين} لم تصاحب موسى قبل تكليم الله إياه إذ هو في أهل مدين يعيش مع شعيب حيث أهله، كما لم تكن مرافقا لموسى بعد إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، لكنا أرسلناك، وأوحينا إليك من أنباء الرسل، وقصصنا عليك مما كان بينهم وبين أممهم، فعلمتك بهذا مالم تكن تعلم لنثبت به فؤادك، وليكون عبرة لأولي الألباب، {وما كنت بجانب الطور إذ نادينا} وكما لم تلق موسى قبل أن يوحى إليه، ولا عاشرته بعد أن قضينا إليه الأمر، لم تكن معه إذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ٨١، ولكن جاءك الوحي لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، وتذكرهم فإن الذكرى تنفع المؤمنين). . إنما يتذكر أولو الألباب (٨٢.
قال قتادة: {الكتاب} التوراة، قيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمدا مجددا للدين وداعيا الخلق إليه.
٤٦ - (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ٤٣ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ٤٤ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ٤٥ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ٤٦}
أعطى الله تعالى موسى التوراة بعد ما أهلك فرعون وجنده وملأه وخسف بقارون، أو من بعد إهلاك قوم نوح، وعاد وثمود، وأودع الحكيم العليم كتابه هذا تفصيل الحلال من الحرام، وتبصرة ٨٣ للناس الذين طمست بصائرهم الأهواء، ودلالة على الهداية، ورحمة للمستمسكين بشرعته ليتذكروا، ولقد بين القرآن المجيد ما أودع الله التوراة ٨٤ من نور وعلم وحكم:) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء. . (٨٥) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) ٨٦). . وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٨٧، ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم، فشهد سبحانه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن بالجانب الغربي من جيل الطور حيث نبئ موسى، وكلمه ربه عز وجل، ولا هو ممن شهد الوحي إلى كليم الله- عليه السلام-، ولكن خلف من بعد موسى خلف طال عليهم الأمد، وبعد ما

بينهم وبين زمان نزول الوحي فقست قلوبهم، {وما كنت ثاويا} مقيما في أهل مدين {تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين} لم تصاحب موسى قبل تكليم الله إياه إذ هو في أهل مدين بعيش مع شعيب حيث أهله، كما لم تكن مرافقا لموسى بعد إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى، لكنا أرسلناك، وأوحينا إليك من أنباء الرسل، وقصصنا عليك مما كان بينهم وبين أممهم، فعلمتك بهذا مالم تكن تعلم لنثبت به فؤادك، وليكون عبرة لأولي الألباب، {وما كنت بجانب الطور إذ نادينا} وكما لم تلق موسى قبل أن يوحى إليه، ولا عاشرته بعد أن قضينا إليه الأمر، لم تكن معه إذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ٨٨، ولكن جاءك الوحي لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، وتذكرهم فإن الذكرى تنفع المؤمنين). . إنما يتذكر أولو الألباب (٨٩.

قال قتادة: {الكتاب} التوراة، قيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمدا مجددا للدين وداعيا الخلق إليه.

٤٧ - (وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ٤٧ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ٤٨ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ٤٩ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ٥٠}

ومن رحمتنا أنا حلمنا على المشركين المجرمين، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من عندنا جزاء لهم على كفرهم وإجرامهم- وما اقترفوه من أوزار- وإنما خص الأيدي مع إمكان ارتكاب الخطايا بجوارح غيرها لأن أكثر ما يكتسب من آثام يكون بالأيدي- لو بطشنا بهم قبل أن تجيئهم لاعتذروا بأنهم لم يأتهم من يدعوهم إلى الهدى، ويشرع لهم عن ربه ما ينجيهم من الردى، فأرسلتك إليهم بشيرا ونذيرا). . لئلا يكون للناس على الله حجة. . (٩٠، كما بينت هذا آية كريمة أخرى) ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ٩١.

٤٨ - (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى} فحين بعثتك بالحق إليهم قالوا- تمردا على الله تعالى وتماديا في الغي- هلا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى من المعجزات! ونزول التوراة عليه جملة! وكان بلغهم ذلك من أمر موسى ٩٢ عليه السلام، فأخزى الله المجادلين بالباطل، وأخزى معهم من حرضوهم على هذا المراء من اليهود {أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل} هل آمن اليهود بما جاءتهم به رسلهم من البينات؟! هل قدس المشركون ما أنزل على موسى؟! كلا! بل تمادت اليهود في قتل الأنبياء بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس! وقالوا- وقد أمعنوا تحريفا في التوراة وإخفاء لكثير من هداها). . قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. . (٩٣، والمشركون عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقالوا أبعث الله بشرا رسولا؟! فهم إذن لم يؤمنوا بموسى، ولا أقروا بالرسالة، فلما بهتوا بحجة الله هذه {قالوا ساحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} حين بطل ما كانوا يتعللون به آذوا موسى ومحمدا عليهما صلوات الله وسلامه، ووصفوا الكتابين المنزلين عليهما بالسحر، و {ساحران} خبر لمبتدأ محذوف أي: [هما] يعنون: التوراة والقرآن {تظاهرا} تعاونا وصدق كل منهما الآخر، ثم صرحوا بكفرهم بالكتابين.

٤٩ - (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: فهاتوا كتابا منزلا هو أكثر من التوراة والقرآن هداية لأتبعه، - أي إن تأتوا به أتبعه، فالفعل مجزوم بجواب الأمر ومثل هذا الشرط يأتي به من يدل بوضوح حجته، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام، للتبكيت والإلزام- ٩٤.

٥٠ - (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} فإن لم يأتوا بكتاب أهدى- ولن يأتوا به أبدا- أو: فإن لم يتقبلوا دعوتك إلى الإيمان- بعدما وضح لهم من المعجزات التي تضمنها كتابك الذي جاءهم- فاعلم وليستيقن كل من هو أهل للعلم أنما يطاوعون الأهواء المضلة، فلا أضل منهم أبدا [إن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثارا منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم] ٩٥.

٥١ - (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

{*ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ٥١ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ٥٢ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ٥٣ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ٥٤ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ٥٥}

وليتحققوا أنا وصلنا قولنا ووحينا لكل أمة). . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٩٦ فبعثنا رسولا بعد رسول ليتعظوا فيفلحوا، أو أتممنا لهم القول، أو الدلالة على كون هذا القرآن معجزا، نقل عن أهل المعاني: والينا وتابعنا وأنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضا: وعدا ووعيدا، وقصصا وعبرا، ونصائح ومواعظ، والضمير لقريش واليهود، والآية رد على من قال: هلا أوتي محمد القرآن جملة!، [{وصلنا لهم القول. } بأخبار الماضين، والنبأ عما أحللنا بهم من بأسنا إذ كذبوا رسلنا، وعما نحن فاعلون بمن اقتفى آثارهم، واحتذى في الكفر بالله وتكذيب رسله مثالهم، ليتذكروا فيعتبروا ويتعظوا] ٩٧

٥٢ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)

{الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} ولئن كان أهل الشرك وطائفة من بني إسرائيل- وكانوا أكثرهم- لئن كفر هؤلاء وأولئك ومن على شاكلتهم بالقرآن ومن أنزل عليه، فإن فريقا من أهل الكتاب الذين جاءهم من كلام الله تعالى ووحيه ما جاءهم قبل نزول هذا الكتاب الخاتم يؤمنون به ويقدسونه، وحين يتلى عليهم يزدادون يقينا وخشوعا). . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (٩٨ (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٩٩، {إنا كنا} قبل نزول القرآن منقادين لهدى ربنا وما جاءت به رسله

٥٣ - (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} ولئن كان أهل الشرك وطائفة من بني إسرائيل- وكانوا أكثرهم- لئن كفر هؤلاء وأولئك ومن على شاكلتهم بالقرآن ومن أنزل عليه، فإن فريقا من أهل الكتاب الذين جاءهم من كلام الله تعالى ووحيه ما جاءهم قبل نزول هذا الكتاب الخاتم يؤمنون به ويقدسونه، وحين يتلى عليهم يزدادون يقينا وخشوعا). . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٠ (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (١٠١، {إنا كنا} قبل نزول القرآن منقادين لهدى ربنا وما جاءت به رسله

{أولئك يجزون أجرهم مرتين بما صبروا} صبروا على أمانات دين سبق فلهم أجرهم، وصبروا على عهد الله تعالى وميثاقه في الملة الخاتمة فلهم أجر ثان، في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه،

ورجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها "، ومع الإيمان حسنت أخلاقهم، فلا يقابلون السيئة بالسيئة، ولكن يدفعونها بالتي هي أحسن، ووقاهم الله تعالى شح أنفسهم، فهم يبذلون مما آتاهم ربهم فيما أحل وشرع لهم، وإذا جهل عليهم السفهاء، أو خاض الغافلون في الأحاديث التي لا نفع منها، وإنما هي من لغو القول أعرضوا عن تلك الأقوال وعمن قالوها- متاركة وإنكارا وتعففا عن مضاهاة الساخرين الآثمين

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

{وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} لا نحب طريق الجاهلين، ولا نرضى السير فيها، ولا مخالطة سالكيها، مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: أي لنا ديننا ولكم دينكم، {سلام عليكم} أمنا لكم منا فإنا لا نحاوركم ولا نسابكم، وليس من التحية في شيء. . . {لا نبتغي الجاهلين} لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة. اه

٥٦ - (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

{إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ٥٦ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا. أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون ٥٧. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ٥٨. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا. وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ٥٩. وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها؛ وما عند الله خير وأبقى. أفلا تعقلون ٦٠} لما كانت الآيات السابقات قد بينت أن بعضا من اليهود والنصارى قد أسلموا وآمنوا؛ بينما كان حال كثير من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته حال الضالين المضلين، مع حرص النبي على استنقاذهم، وأسفه على غوايتهم؛ ذكّره الله تعالى بما قضاه وأمضاه، وأنه سبحانه هو الهادي دون سواه: {من يضلل الله فلا هادي له}. . (١٠٢). . {من يهد الله فهو المهتد} (١٠٣.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم. . . عن ابن عباس أنه قال: {إنك لا تهدي من أحببت}. . . نزلت في أبي طالب؛ ألح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسلم فأبى؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. أخرج عبد بن حميد ومسلم. . . عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: " ياعماه؛ قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة "؛ فقال: لولا أن يعيروني قريش - يقولون: ما حمله عليها إلا جزعه من الموت- لأقررت بها عينك؛ فأنزل الله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت} الآية- ١٠٤. ومهما حرص النبي وأحب لهم الهداية فلن يهتدي إلا من شاء ربنا الحكيم هدايته: {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل} (١٠٥ {وهو أعلم بالمهتدين} فيجازيهم بما هم أهل له.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه، ويحبه حبا شديدا؛ طبعيا لا شرعيا. فلما حضرت الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان، والدخول في الإسلام؛ فسبق القدر فيه، واختطف من يده؛ فاستمر على ما كان عليه من الكفر. وعن المسيب بن حزن المخزومي - رضي الله عنه – قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا عم؛ قل لا إله إلا الله؛ كلمة أحاج لك بها عند الله "؛ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب؛ أترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك "؛ فأنزل الله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى} (١٠٦ وأنزل في أبي طالب: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} أخرجاه من حديث الزهري. . اه

٥٧ - (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا} وقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: نخشى إن اتبعنا الذي جاءك من الرشد وخالفنا من حولنا من العرب المشركين أن يغيروا علينا، ويؤذوننا، ويتخطفوننا، - هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم، آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟، وقوله تعالى {يجبى إليه ثمرات كل شيء} أي من سائر الثمار. . وكذلك المتاجر والأمتعة {رزقا من لدنا} أي من عندنا- ١٠٧ {ولكن أكثرهم لا يعلمون} لغفلتهم، أو لعدم عملهم بمقتضى علمهم، فما غاب من أحد ممن له إدراك فيهم أن الله تعالى رب هذا البيت هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف:) أولم يروا أنا جعلنا حرمنا آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (١٠٨

٥٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

{وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها} أي كفرت نعمتها، أو بطرت في معيشتها، كثير من القرى أهلكنا أهلها بكفرهم،) وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون (١٠٩) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (١١٠) وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم (١١١، {فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا} تمرون على مساكن كثير من المهلكين، مثل قوم صالح- عليه السلام- فهل تجدون من يعمر بيوتهم بعد أن صار أصحابها كهشيم المحتظر؟! لا سكنها إلا مار بالطريق يوما أو ساعة، {وكنا نحن الوارثين} عاد ملكها خالصا لنا

٥٩ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

{وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا} ما يعذب الرحمن الرحيم قوما بفجورهم إلا بعد حلم منه عليهم وإعذار إليهم). . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١١٢). . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. . (١١٣، ويبعث المرسلون في أم مدنهم وعاصمتها وكبراها، يتلون ما أوحى إليهم من ربهم، ويبينون للناس الآيات والعلامات الدالة على صدقهم، {وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} - أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وفي هذا بيان لعدله وتقديسه عن الظلم، أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثه الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال عز من قائل:) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١٤ فنص في قوله:) بظلم) على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما لهم منه وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دل ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى:) وما كان الله ليضيع إيمانكم. . (١١٥ - ١١٦

٦٠ - (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

{وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها} لا تحسبوا معاشر من ضل سعيه- أعاذنا الله تعالى من الضلال- ولا تظنوا أن ما أمدكم به من مال وبنين مسارعة لكم في الخيرات، بل إنما أعطيتكم متاعا دنيويا، وعرضا ظاهريا، لا يلبث أن يفارقكم أو تفارقونه، ومهما كان مزدهرا مزخرفا فإنه عندي لا يساوي شيئا) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون. وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين (١١٧، {وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون} إن ما ادخر الله البر الرحيم لعباده المؤمنين الصالحين المصلحين هو العز المقيم، والنعيم العظيم، والمقام الكريم، مع ما يعجل لهم في الدنيا من الحياة الطيبة، والفتح والنصر المبين، أفلا أعملتم عقولكم لتدركوا أي الفريقين خير مقاما

وأحسن نديا؟ ومن تكون له عاقبة الدار؟!
٦١ - (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)
{أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ٦١ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ٦٢ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ٦٣ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم يهتدون ٦٤ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ٦٥ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ٦٦ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ٦٧}
أفمن جاءه من الله الوعد الحق بالخلد في دار النعيم والتكريم- وهو ملاق ذلك فربنا لا يخلف الميعاد- كمن نال شيئا من زهرة الدنيا ثم يستحضر في الآخرة للعذاب وشديد العقاب؟ هل يستويان؟ كلا!) لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون (١١٨
٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)
{ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون} وقبل أن يذهب بهم إلى دار الجحيم يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا). . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا. . (١١٩
٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)
{قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا} فكل من غلبت عليهم الشقوة، ومن اتبعوا الشيطان يحشرون معا مصداقا لوعد الله الذي لا يخلف:) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (١٢٠) إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (١٢١ يقول هؤلاء الأشقياء بشرا وجنا أنهم اشتركوا في الغواية) وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (١٢٢،). . وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض. . (١٢٣، {تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون} فالشيطان يتبرأ من كل من اتبعه). . فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها. . (١٢٤ والكبراء يتبرءون من الضعفاء
٦٤ - (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)
{وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم} يقال للخاسرين- تهكما- ادعوا واستنصروا من زعمتموهم شركاء الله ليصرفوا عنكم ما أنتم فيه! فدعوهم، فما أغاثوهم ولا نصروهم، إذ هم لا يقدرون على تخليص أنفسهم مما حل بهم من الخسار والبوار وحر النار، بل يقولون:). . لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل. . (١٢٥، {ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون} ويعاينون العذاب الذي أعد لهم، ويصلون العقاب جزاء لهم، ولو كانوا يهتدون في دنياهم إلى سبل السلام والرشد لوقاهم ربهم عذاب الجحيم
٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)
{ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين} يحسرهم الحكم سبحانه فيسألهم: هل صدقتم ما جاءتكم به رسلي؟! هل وجدتم ما وعدوكم به من سوء مصير المكذبين حقا؟! فيختم على أفواههم
٦٦ - (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ)
{فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون} فعموا عما سيكون إذ استولت الحيرة عليهم، وأذهب الفزع والهول والبلاء كل ما بقي

من مداركهم) ولا يسأل حميم حميما (١٢٦، في موطن آخر حين يتوافدون على النار يتحاجون ويتخاصمون:) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار. قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار. قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار (١٢٧). . حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١٢٨

٦٧ - (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

{فأما من تاب} رجع إلى الحق، ومقتضى العقل والعلم، {وآمن} وصدق بالله وكتبه ورسله ولقائه وكل ما أوجب الاستيقان به، {وعمل صالحا} فاستقامت على الأعمال الصالحة الجوارح والأركان، كما استنار القلب والوجدان بالإيمان، {فعسى أن يكون من المفلحين} فإنه من المنجحين المدركين ما طلبوا، الآمنين مما هربوا، وعسى من الله تعالى واجبة.

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

{وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ٦٨ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ٦٩ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ٧٠ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ٧١ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ٧٢ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ٧٣ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ٧٤ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ٧٥} وربك أيها النبي ورب كل قارئ ومتفكر، ومستمع ومتدبر، يخلق ما يشاء خلقه، ويختار ما يشاء ومن يشاء اختياره، فهو يصطفي من يشاء من الملائكة والناس رسلا {ما كان لهم الخيرة} توكيد لمعنى الجملة الأولى، ولهذا لم يتوسط بينهما حرف عطف، وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخيرة من خلقه، لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى {وربك يخلق ما يشاء ويختار} لهداية من سبقت له السعادة في علمه. . اهـ. قال الثعلبي: {ما} نفي، أي ليس لهم الاختيار على الله، قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك، بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة:) قل يا أيها الكافرون) وفي الركعة الثانية:) قل هو الله أحد (، روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: " إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال في عاجل أمري وآجله- فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به " قال: ويسمي حاجته "، {سبحان الله وتعالى عما يشركون} تنزه المولى العظيم وتقدس عما افتروا من ادعائهم أن لربنا شركاء، فسبحوا ربكم وأجلوه، وقدسوه ونزهوه عما يصفه به الوثنيون والملحدون والكافرون

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

{وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون} فهو أقرب إلى كل إنسان من حبل وريده، ويعلم ما توسوس به نفسه، وما انطوت عليه جوانحه وسريرته، وهو جل علاه مع علمه بذات الصدور لا يخفى عليه ما يظهرون) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (١٢٩). . وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. . (١٣٠.

٧٠ - (وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

}وهو الله لا إله إلا هو{ وربكم هو المعبود بحق، اختص باستحقاقها الله دون سواه- قوله سبحانه: }لا إله إلا هو{ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي- ١٣١ }له الحمد في الأولى والآخرة{ [جميع المحامد لا تجب إلا له] ١٣٢ فإن كان يحمد من يحمد لعزه). . فلله العزة جميعا. . . (١٣٣ وإن كان يحمد من يحمد بمعروفه، فكل خير وفضل هو لا غيره الذي أولاه). . وما بكم من نعمة فمن الله. . (١٣٤، والحامدون في الدنيا يقيمون بالحمد صلاتهم، فلا بد في كل ركعة أن يقرءوا:) الحمد لله. . (، كما يضاعفون بالحمد مثوبتهم وأجرهم: " والحمد لله تملأ الميزان " ١٣٥، وفي الآخرة نحمد الله صدقنا وعده وأورثنا الجنة، ونحمد الله الذي نجانا من العذاب وأذهب عنا الحزن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، }وله الحكم وإليه ترجعون{ الحكم لله العلي الكبير، يقضي فلا يرد قضاؤه، ويحكم فلا معقب لحكمه، ويفصل بين عباده يوم القيامة). . والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء. . (١٣٦، وإلى ربنا الرجعى) إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ١٣٧(

٧١ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ)

}قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء{ سلهم!: أي معبود مما زعموه من آلهة يقدر على إطلاع الشمس وإسطاع ضوئها وإخراج ضحاها؟! ولو أن الله تبارك وتعالى جعل الليل مستمرا إلى يوم القيامة لعجز المخلوقون جميعا- ومنهم ما اتخذوه من دون الله آلهة- لعجز هؤلاء جميعا عن تبديد ظلمة الليل والإتيان بضوء النهار، والسرمد: الدائم، ونصب على أنه مفعول ثان لجعل، أو على الحال، و }إلى{ متعلق ب }جعل{ أو }سرمدا{، }أفلا تسمعون{ أفلا تسمعون لله فاعل ذلك وتطيعون أمر الذي يقلب الليل والنهار الواحد الفاعل المختار؟!) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) ١٣٨). . يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار (١٣٩

٧٢ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ)

}قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه{ أخبروني: من يقدر على إذهاب ضوء الشمس، وإحلال ظلام الليل وهجعته، وسكونه وراحته إن قضى الله المعبود بحق أن يجعل النهار مستمرا متصلا إلى يوم القيامة؟! والنهار: مدة ظهور ضوء الشمس من حين تشرق حتى تغرب، وفي الشرع زيادة من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، والليل مدة ذهاب ضوء الشمس، وبنقصان الوقت من طلوع الفجر الصادق إلى الشروق، من حيث الشرع، }أفلا تبصرون{ أفلا تعملون بصائركم وتدركون مبلغ ضلال المنكرين لوجود الله والمشركين معه غيره؟ مما أورد ابن جرير الطبري: من معبود غير المعبود الذي له عبادة كل شيء يأتيكم بليل تسكنون به فتستقرون وتهدءون فيه؟! أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله لكم، وحجة منه عليكم، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك. اه، قال جار الله: وإنما لم يقل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل: }بليل تسكنون فيه{ لأن الضياء وهو ضوء الشمس تتعلق به المنافع المتكاثرة، وليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة. . اه، وقال أهل البرهان: قدم الليل على النهار لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل

٧٣ - (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

}ومن رحمته{ من رفق الله تعالى بعباده، ومن ترفقه بكم أيها الناس }جعل لكم الليل والنهار{ أوجد الله الليل مظلما ساكنا هادئا، والنهار مضيئا موقظا، وبحركة الخلق وسعيهم ونفعهم حافلا، ما إن ينشق نوره حتى تنتفض الطيور من أوكارها، ويتهيأ النبات والحيوان لاستقبال الشمس والاستفادة من إشعاعها وضيائها، }لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله{ لتستقروا في الليل وترقدوا وتسكنوا راحة لأبدانكم من عناء ما تكابد وتلاقي، ولتطلبوا في النهار رزقكم الذي قسم الله لكم تفضلا منه وكرما، وكأن التقدير: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضل الله في النهار، وبهذا جاء القرآن الكريم في آية كريمة أخرى:) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا

إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (١٤٠، قال صاحب جامع البيان: وفي الهاء التي في قوله: }لتسكنوا فيه{ وجهان: أحدهما- أن تكون من ذكر الليل خاصة، ويضمر للنهار مع الابتغاء هاء أخرى، والثاني- أن تكون من ذكر الليل والنهار، فيكون وجه توحيدها وهي لهما توحيد العرب في قولهم: إقبالك وإدبارك يؤذيني، لأن الإقبال والإدبار فعل، والفعل يوحد كثيره وقليله. اه، }ولعلكم تشكرون{ أنعم المولى الكريم الوهاب عليكم بهاتين النعمتين بين نعم أخرى لا تحصونها، رفقا بكم ولتشكروه على إنعامه عليكم بذلك، نقل ابن كثير: أن الحمد لله ثناء عليه بأسمائه وصفاته، وأن الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه. . . وأن الشكر على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، ولكن تقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلي. اه والشكر منهاج النبيين والمؤمنين، فالله سبحانه يثني على نوح عليه الصلاة والسلام بقوله الحكيم: (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا (١٤١، كما علمتنا آية كريمة بعض وصية لقمان لابنه وهو يعظه: (. . . أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤٢، ورسول الله سليمان عليه السلام يتوجه إلى ربه ضارعا أن يعينه على شكر النعمة، كما شهد بذلك قول الحق تبارك وتعالى:) فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (١٤٣، وربنا عز وجل يأمر موسى صلوات الله عليه أن يظل شاكرا:). . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين (١٤٤ كما بين الكتاب المجيد أن الشكر سبيل العفو والقبول:). . قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة. . (١٤٥، هذا! والإعراض عن الشكر يعقب الخسران، ويلحق المعرضين بحزب الشيطان، فإن إبليس لما تأبى عن أمر ربه وغوى، أقسم بين يدي الله- كما يحكي الذكر الحكيم- بأن يضم إليه أكثر ذرية آدم ليكونوا معه من أصحاب السعير، بما يقيمون عليه من الانصراف عن شكر العلي الكبير:) قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (١٤٦، فحق على من يبتغي ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة أن يديم شكر المنعم عرفانا بفضله، وإذعانا لأمره، وتعرضا للمزيد من فضله وخيره، فهو سبحانه القائل:). . لئن شكرتم لأزيدنكم. . (١٤٧، ولا يبطرن أهل النعيم نعيمهم، ولا يحملنهم على الكفور ترفهم، فكم من موسع لهم ثبتت على الحق قلوبهم، فسليمان الذي سخر الله له الجن والإنس والطير والريح وحقائق العلم، لما نقل إليه عرش المالكين لسبأ ما فتنه هذا الملك الذي لم ينبغ

لأحد من بعده، بل هتف مذعنا لله، حذرا من فتن الحياة:). . هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم (١٤٨، فاشكروا الله بألسنتكم وجوارحكم وقلوبكم، وسلوه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته

٧٤ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

}ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون. ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون{ واذكر يوم ينادي الواحد القهار أهل الشرك الفجار أين ما جعلتموه لي شريكا،). . وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (١٤٩ يحسرهم سبحانه على ما أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من نصير) ١٥٠، ويحقرهم الله وما كانوا يعبدون من دونه- تعالى وتقدس- ويثرب عليهم القرآن، كما جاء في آية كريمة سابقة: }وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم{

٧٥ - (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

}ونزعنا{ جئنا دون إهمال }من كل أمة شهيدا{ وأخذنا من كل أمة رسولها ليحضر سؤالها ويشهد عليها بما كانت قد قالت وعملت، كما جاء في قول الحق سبحانه:) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (١٥١، أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم). . وجيء بالنبيين والشهداء. . (١٥٢ من الملائكة: وصحائف الأعمال، والجوارح، وما شاء الله تعالى من بشر أو خلق من خلقه كالأرض التي عملوا فوقها:) يومئذ تحدث أخبارها (١٥٣، }فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله{ فقلنا هاتوا حجتكم إن كانت

لكم حجة على صدق مدّعاكم، فعلموا صدق الذي بلغتهم رسل ربهم، {وضل عنهم ما كانوا يفترون} وغاب عنهم - كالضائع- اختلاقهم وكذبهم وافتراؤهم وزعمهم الباطل في الدنيا أن الأصنام شفعاؤهم.

٧٦ - (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

{فبغى} فتجاوز الحد.

{أتيناه} أعطيناه.

{الكنوز} ما يكتنز ويدخر.

{لتنوء} لتثقل.

{العصبة} الجماعة الكثيرة.

{أولي} أصحاب.

{لا تفرح} لا تبطر.

{الفرحين} البطرين.

{*إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ٧٦ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ٧٧ قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ٧٨ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ٧٩ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ٨٠ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ٨١ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ٨٦}

القرآن العظيم يهدي ويثبت ويبشر، ويعذر ويحذر وينذر، ولقد مضت آيات كريمة في هذه السورة المباركة تذكر وتعظ، وتبين عاقبة المؤمنين، ومصير الطاغين، في العاجلة وفي يوم الدين، ففي فواتح السور: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون} ومن بعد ذلك جاءت آيات مباركة: {. . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} {واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} ثم جاء التذكير بأن تلك سنة الله تعالى ماضية لا تنحصر في مكان، ولا تتخلف في زمان: {وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين} {فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين}، ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين طغوا فأهلكوا، ولم تغن عنهم صلتهم بالرسولين الكريمين موسى وهارون، فاصبروا معاشر أهل الحق فإن كفار قريش وفجارها عما قليل مهزومون، واحذروا أهل النعمة أن يفتنكم المتاع ترفا وحيفا فيبطش بكم كما بطش بقارون، فمثلما لم تغن الجنود الكثيرة عن فرعون وهامان ولا عن أنفسها، لم تغن الكنوز الوفيرة عن قارون، وأنتم يا من تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا لن تكونوا أكثر من فرعون جندا وعددا، ولا أوفر من قارون مالا وكنزا، فاستجيبوا لربكم من قبل أن يبطش بكم، فلا تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم {إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم} ظاهر القرآن الكريم أنه كان من الإسرائيليين، فتجاوز الحد، وتطاول عليهم، بفسوق عن الملة، أو جور عن القصد، أو عدوان على الغير، {وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة} ولقد أعطيناه مالا نبتليه، ولا معقب لما نمضيه، فكانت خزائن الأموال يثقل حملها الرجال- ومن المفسرين من أول المفاتيح بأنها الخزائن- أو: مفاتيح خزائن الأموال يعيا بحملها العدد من أقوياء الرجال- ومعلوم أن المال اسم لكل ما يتمول فليس بلازم أن يكون نقدا-[{لتنوء بالعصبة} أحسن

ما قيل فيه: أن المعنى: لتنيء العصبة أي تميلهم بثقلها] ١٥٤ مما يقول الألوسي: {وآتيناه من الكنوز} أي من الأموال المدخرة، فهو مجاز يجعل المدخر كالمدفون إن كان الكنز مخصوصا به، وحكى في البحر أنه سميت أمواله كنوزا لأنها لم تؤد منها الزكاة، وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى وهو من أسباب عداوته إياه. . . . {إذ قال له قومه}. . . . تعلقه بمحذوف والتقدير: أظهر التفاخر والفرح بما أوتي إذ قال له قومه {لا تفرح} لا تبطر. . . وعلل سبحانه النهي ههنا بكون الفرح مانعا من محبته عز وجل، فقال تعالى: {إن الله لا يحب الفرحين} فهو دليل إني على كون الفرح بالدنيا مذموما شرعا. اه،

٧٧ - (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

{وابتغ} واطلب.

{ولا تنس} ولا تترك.

{نصيبك من الدنيا} ما أحل الله لك في هذه الحياة.

{الفساد} الشر والأذى، والظلم.

{وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة} وقال لقارون قومه: اطلب فيما أعطاك الله تعالى مثوبة الدار الآخرة، فأنفق ما يدخر لك أجره من زكاة وصدقات وقربات، {ولا تنس نصيبك من الدنيا} لا تنس أن مالك ما قدمت ومال مورثك ما أخرت، أو لا تترك حظك من هذه الحياة أن تقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه لك، أو لا تترك ترك الناس ما أحل الله لك من الزينة المباحة والطيبات من الرزق، فإن ذلك للذين آمنوا حظا خالصا لا يؤاخذون به يوم القيامة، مما نقل عن الحسن وقتادة وابن عطية:. . لا تضيع حظك في دنياك وتمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك، فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح أمره الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة. اه، ونقل عن ابن عمر قوله: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، وعن الحسن: قدم الفضل وأمسك ما يبلغ. اه، {وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} مما نقل عن ابن العربي: استعمال نعم الله في طاعة الله، قال مالك: الأكل والشرب من غير سرف، قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. اه

أقول: وكان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على النظافة والطيب، وكان يستعذب له الماء، ويحب من الشاة كتفها وكبدها. اه، {ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} لا تتماد في طلب الفساد وفعله، ودع عنك التفاخر والتكاثر، ولا يستخفنك المرح والخيلاء، فتزدري العباد وتطغى على الضعفاء، فإن الله الولي الحميد يمقت كل جبار عنيد، مناع للخير كنود

٧٨ - (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

{من القرون} من أهل القرون والأزمان السابقة.

{المجرمون} المرتكبون للجرائم والذنوب والخطايا.

{قال إنما أوتيته على علم عندي} رد على نصيحة قومه له، وكأنما يريد هذا الكفور المغرور ادعاء أهليته لما بيده، فساق بطريق الحصر أنه ما نال هذا المال إلا لعلة كائنة أنه على علم ١٥٥ دقيق لديه، أو أوتيه لعلمه، وما أحمقه! أيظن أن الله يعطي الدنيا من يحب؟ كلا فإنه بحكمته قد يعطيها من لا يحب، ولكن لا يعطي الدين إلا من أحبه، {أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا} لقد جهل أو تجاهل أن المعبود بحق قد عذب وبطش بكثير من أهل القرون الماضية كانوا أشد منه قوة وأكثر منه مالا- فالخلاق الرزاق هو القوي الغني- مما قال الألوسي: تقرير لعلمه ذلك، وتنبيه على خطئه في اغتراره، وعلمه بذلك من التوراة أو من موسى عليه السلام، أو من كتب التاريخ، أو من القصاص، والقوة تحتمل القوة الحسية والمعنوية، والجمع يحتمل جمع المال وجمع

الرجال، والمعنى: ألم يقف على ما يفيده العلم. . . ويحتمل أن تكون الهمزة للإنكار. . . والمراد: رد ادعائه العلم والتعظم به بنفي هذا العلم عنه، أي أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقي نفسه مصارع الهالكين؟! {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ولا يستخبر الآثمون الفاجرون ولا تستعلم الملائكة منهم عن ذنوبهم في الآخرة، [وفاعل السؤال إما الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام، والمراد بالسؤال المنفي هنا، وكذا في قوله تعالى:) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (١٥٦ - على ما قيل- سؤال الاستعلام، ونفي ذلك بالنسبة إليه عز وجل ظاهر، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطلعون على صحائفهم أو عارفون إياهم بسيماهم، كما قال سبحانه:) يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (١٥٧، والمراد بالسؤال المثبت في قوله عز وجل:) فوربك لنسألنهم أجمعين (١٥٨ سؤال التوبيخ والتقريع، فلا تناقض بين الآيتين، وجوز أن يكون السؤال في الموضعين بمعنى، والنفي والإثبات باعتبار موضعين أو زمانين، والمواقف يوم القيامة كثيرة واليوم طويل، فلا تناقض أيضا] ١٥٩

٧٩ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

{فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم} فخرج قارون يوما على قومه يرفل في كسوته، أو يختال في مشيته، أو يباهي بثروته، فقال الذين أكبر همهم الحياة العاجلة، ومن زين لهم حب الشهوات: ليتنا في مثل ما فيه قارون من قناطير الأموال، لقد نال الحظ الأوفر والنصيب الأكبر، لكن أهل العلم والبصر بحقيقة الحال، وما ينقلب إليه الناس في المآل، نبهوا هؤلاء الغافلين وحذروا الجهال من الركون إلى العاجلة ونسيان الآجلة، فقالوا: {ويلكم ١٦٠ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون}

٨٠ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ)

{ويلكم} دعاء بالهلاك، ويراد به الزجر، والنهي عن الفعل.

{يلقاها} يدركها ويفهمها، أو يوفق للعمل بها.

{ويلكم ١٦١ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون} نعيم الله وحسن العاقبة لديه سبحانه أبرك وأكرم وأدوم من ملك الأرض جميعا، والمؤمنون الصالحون المصلحون هم الموعودون بالخلد والعز والتكريم، ولا يوفق لهذه السبيل إلا من صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر في السراء والضراء وحين البأس فأولئك هم الفائزون، أما من نازع الله العظيم كبرياءه فإن حقا على الملك المهيمن أن يقصمه، ويأخذه أخذة أليمة شديدة، وليس من جزاء عاجل للمغرور المتكبر إلا أن يهينه العزيز الجبار ويذله، ويجعله عبرة ونكالا

٨١ - (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

{فخسفنا به وبداره} أذهبناهما وغيبناهما فيها.

{فئة} جماعة.

{فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} فأمر الكبير المتعال الأرض التي اختال قارون وهو يسير عليها، وتباهى بما اكتنز فيها أمرها الله أن تبتلعه وتبتلع مسكنه، ولئن كان المولى الحكيم قد أهلك قوم صالح وأبقى دورهم خاوية فإنه جلت حكمته قد شاء أن تبتلع الأرض مع قارون بيته، حتى لا يبقى من كنوزه عين ولا أثر، فما أغنى عنه صحب ولا مال، ولا استطاعوا أن يدفعوا عنه بأس ربنا شديد المحال، وأنى له أو للخلق جميعا أن يمتنعوا من مراد ربنا ذي الجلال؟!

٨٢ - (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

{وي} للتعجب أو للتندم.

{يبسط} يوسع.

{ويقدر} يضيق، ويرزق بقدر قليل.

{من} أنعم.
{وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} فلما حلت بقارون النازلة أفاق الغافلون، وعجبوا من نافذ مشيئه الله سبحانه، وأنه يوسع الرزق لمن يريد عز ثناؤه أن يوسع له، ويضيقه على من شاء أن يرزقه رزقا ضيقا، {لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون} لولا أن الله حلم وأمهل، واختار ما هو أدوم لنا وأفضل لولا هذه المنة لخسف بنا كما خسف بقارون الذي تمنينا أن ندرك ما أدركه، عجبا لمن غفل عن مصير الكافرين، وخيبة أمل العاتين المستكبرين؟
٨٣ - (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)
{تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ٨٣ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ٨٤ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ٨٥ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ٨٦ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ٨٧ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ٨٨}
تلك الدار التي هي دار القرار، نجعل النعيم فيها والكرامة لأهل الصلاح الأبرار، الذين خلصت نفوسهم من الكبر، وكفوا جوارحهم عن الشر والأوزار، وحسن المصير لا يدركه إلا الأخيار، مما نقل ابن كثير: وقال ابن جريج {لا يريدون علوا في الأرض} تعظما وتجبرا، {ولا فسادا} عملا بالمعاصي،. . . عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين} وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد " وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول الله! إني أحب أن يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: " لا إن الله جميل يحب الجمال ". أه.
٨٤ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيآت إلا ما كانوا يعملون} ولكأن مجرد الانتساب إلى الإيمان والدخول في الإسلام، وترك العلو والفساد ليست مما تدرك به الدرجات في الآخرة دون عمل، بل مع اليقين، والكف عن شدة المرح والسعي في الضرر، فإن على المؤمن أن يحسن العمل، فكل من فعل حسنة يجزى بها جزاء مضاعفا:) من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. . (١٦٢ إلى سبعمائة مثل:) مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. . (١٦٣ إلى أمثال لا تحصى:). . والله يضاعف لمن يشاء. . (١٦٤ (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة. . (١٦٥.
{ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيآت إلا ما كانوا يعملون} ومن يكسب خطيئة أو إثما فلا يجازى على أوزاره و سيآته إلا بما هو مشاكل لما كان يفعل من غي وشر
{إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} إن الذي أنزل عليك يا محمد وأوجب تلاوة القرآن وتدبره والتزكي به والدعوة إليه وانتهاج سبيله وشرعته وخلقه لمرجعك إلى معاد عظيم، وهل هو اليوم الآخر، والشفاعة العظمى، والمقام المحمود الذي وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم؟ أم العود إلى مكة بعد هجرته منها- كما ثبت عن ابن عباس- كما نقل عن القتيبي: معاد الرجل بلده، لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه: {قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين} تعلمنا الآية الكريمة كيف تكون الدعوة حكيمة، والعظة بالغة، والمجادلة لينة تحاشى الغلظة والفظاظة، كما جاء في آية كريمة أخرى). . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين (١٦٦ فربنا أعلم أي الفريقين أهدى، وهو الشهيد لي بأني جئتكم بالهدي، فما أنا بنعمة ربي من الضالين، ثم توجه الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه الأمي، الذي ما كان قبل نزول الوحي يعلم أنه قد اختير ليكون آخر نبي، ولا كان يدري أن قرآنا حكيما

سيتنزل عليه من لدن ربه) وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. . (١٦٧ لكن رحمة ربك سبقت ومشيئته أن يمنّ عليك وعلى المؤمنين فأنزل عليك الكتاب العظيم، داعيا إلى الصراط المستقيم، فاثبت ومن معك على منهاجه، واصبروا على أمانة تبليغه، واصدع بما جاءك من أمره، ولا تؤخر الإنذار بشيء منه تألفا للمشركين

٨٦ - (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ)

{وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين} فإن كتمان بعضه ولو كان قليلا فيه عون للضالين المجرمين، فأعرض عنهم وبلغ كل ما أوحي إليك من ربك). . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. . (١٦٨.

٨٧ - (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين} لقد جاءك الحق من ربك، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! أليسوا قد اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي بقرآن غير الذي بين يديه؟! وقالوا:). . ائت بقرآن غير هذا أو بدله. . (١٦٩ فألهمه الله تعالى حجته، وأنزل عليه:). . قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي. .) أليسوا قد عرضوا عليه أن يكف عن سب آلهتهم ويكفوا عن سب إلهه؟! فجاءه وحي ربه:) قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين) ألم يقترحوا أن يسكت عن تلاوة الآيات التي تسفه عقول المشركين وتبطل ضلالهم؟! فتكون بذلك مهادنة لهم، ولربما يخطر في البال أن يكون الإمهال مما يطمع في هدى بعد ضلال؟! فتأتيه الآيات الكريمة تترى) وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (١٧٠ ومن قبلها يعلمه ربه:) وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا (١٧١ فهو لا يزيد الظالمين إلا خسارا، بينما يهدي ويعظ ويشفي قلب من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فادع إلى الله وليدع من اتبعك على هدى وبصيرة، فلعل العليم الخبير يهدي بها ذرية هؤلاء المشركين، وبحسبكم أن تظلوا قرآنيين، وعلى الحق تنادون). . معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون (١٧٢ وما يرضى عنكم المشركون والكتابيون حتى تتبعوا ملتهم فاحذروا كيدهم). . قاتلهم الله أنى يؤفكون (١٧٣ وإذا كان هذا بلاغ الله العظيم إلى نبيه وهو إمام المتقين، فهل يرضى الملك القدوس المهيمن من بعض من ينتسبون إلى الإسلام أن يساوموا على ميثاق رب العالمين؟! حاشا! فقد أعذر الله تعالى إلى الناس وأنذرهم ونادى المؤمنين وحذرهم:). . لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. . (١٧٤). . لا تتولوا قوما غضب الله عليهم. . (١٧٥). . إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين (١٧٦). . إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين (١٧٧). . ومن يتولهم منكم فإنه منهم. . (١٧٨

٨٨ - (وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون} مما أورد ابن كثير:. هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة،. . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس. . . {له الحكم} أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه {وإليه ترجعون} أي يوم معادكم، فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. اه [الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أهل دينه. . . {كل شيء هالك إلا وجهه}. . . والظاهر أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط، فيؤول المعنى إلى قولنا: كل موجود في وقت من الأوقات سيهلك بعد وجوده إلا ذاته تعالى. . . . . وقال سفيان الثوري: وجهه تعالى العمل الصالح الذي توجه به إليه عز

وجل. . . وقال أبو عبيدة: المراد بالوجه جاهه تعالى الذي جعله في الناس. . والسلف يقولون: الوجه صفة نثبتها لله تعالى، ولا نشتغل بكيفيتها ولا بتأويلها، بعد تنزيهه عز وجل عن الجارحة. . . . . والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل، وهو جل وعلا حسبنا ونعم الوكيل.] ١٧٩.

٢٩ سورة العنكبوت:

سورة العنكبوت:
سورة العنكبوت مكية
وآياتها تسع وستون
كلماتها: ١٩٨١ - حروفها: ٤٥٩٥
١ - (الم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الم ١}
ربما تكون اسما للسورة، أو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما يراد بها التحدي، بمعنى أن الألف واللام والميم حروف تنطقون بها معاشر العرب الذين نزل القرآن والنبي الموحى إليه بين ظهرانيكم، ومن هذه الحروف وأخواتها يتكون كلامكم، ومع ذلك عجزتم- وأنتم أهل الفصاحة واللسن- أن تجيئوا بكلام يشبه القرآن أو يضاهيه، وسيبقى الخلق جميعا عاجزين عن الإتيان بمثله، فاستيقنوا إذا أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو قول رب القوي والقدر.
٢ - (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)
{أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ٢}
أيظن الناس لأنهم قالوا نحن قد آمنا أن يتركوا دون فتنة وابتلاء واختبار؟ فيتركون غير مبتلين من أجل قولهم آمنا؟ كلا! هذا حسبان باطل، فما خلقنا المكلفين إلا لنختبرهم:) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه. . (١ وتبارك ربنا) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا. . (٢ [والفتنة الامتحان بشدائد التكليف: من مفارقة الأوطان وكل ما يحب ويستلذ، ومن ملاقاة الأعداء والصبر على أذاهم، وسائر ما تكرهه النفس، والتحقيق أن المقصود من خلق البشر هو العبادة الخالصة لله، فإذا قال باللسان آمنت فقد ادعى طاعة الله بالجنان، فلا بد له من شهود وهو الإتيان بالأركان. .] ٣.
٣ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)
{ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ٣}
ولقد امتحنا واختبرنا من سبقوا، فتلك سنتنا في الذين خلوا من قبل). . ولا تجد لسنتنا تحويلا (٤، نختبر بالعسر واليسر، والسراء والضراء.) . ونبلوكم بالشر والخير فتنة. . (٥ فليظهرن الله من هو صادق في إيمانه ويقينه ودينه، ومن هو كاذب يناقض عمله قوله، يقول: هو من المسلمين، ويعمل عمل الفاسقين، فما آتى الله تعالى سليمان من ملك لم ينسه أنه فيه مختبر، وبه ممتحن، فقال:). . هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم (٦، وروى البخاري-بسنده- عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم- ولقد لقينا من المشركين شدة- فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟! فقال: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه " - فكأنه قيل: فوالله ليعلمن بما يشبه الامتحان والاختبار الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه، والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب فليجازين كلا بحسب عمله فيه- ٧.
مما يقول الطبري: ولقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم ممن أرسلنا إليهم رسلنا فقالوا مثل ما قالته أمتك يا محمد بأعدائهم وتمكيننا

إياهم من أذاهم، كموسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل فابتليناهم بفرعون وملئه، وكعيسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعك بمخالفيك من أعدائك فليعلمن الله الذين صدقوا منهم في قيلهم آمنا، وليعلمن الكافرين منهم في قيلهم ذلك، والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار وفي حال الاختبار وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قيله آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه، ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه. اه.

٤ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ٤}

أم ظن المشركون والمفسدون أن يفوتونا بأنفسهم ويعجزونا فلا نقدر على جمعهم فننتقم منهم؟ ساء ما ظنوه، وبئس حكما يحكمونه هذا، أو بئس من يحكم حكمهم، هل توهموا أن من كلف بشيء ولم يمتثل عذب في الحال؟ وأن يعذب في الاستقبال، نظير قوله:) ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون (٨ - والحاصل أن الإهمال لا يوجب الإهمال، والتعجيل في جزاء الأعمال إنما يوجد ممن يخاف الفوت لولا الاستعجال، ومعنى الإضراب {أم}: أن هذا الحسبان أشنع من الحسبان الأول، لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يجازي بمساوئه. . وفي الآية إبطال قول من ذهب إلى أن التكاليف إرشادات والإيعاد عليها ترغيب وترهيب، ولا يوجب من الله تعذيب- ٩.

٥ - (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

{من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ٥}

من خاف يوم الوعيد، وعمل صالحا يبتغي رحمة الحميد المجيد، فإنه مدرك رضوان الغفور الودود، وربنا وسع سمعه كل شيء وأحاط علمه بكل موجود، يقول القرطبي: {يرجو} بمعنى يخاف، ونقل الألوسي نحوه، إلا أنه زاد: واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهور، وأن لقاء الله تعالى مشاهدته سبحانه على الوجه اللائق به عز وجل كما يقوله أهل السنة والجماعة، بينما ذهب ابن كثير والنيسابوري إلى أن {يرجو} بمعنى يأمل، ومن قبلهما قال الطبري: من كان يرجو الله يوم لقائه، ويطمع في ثوابه، فإن أجل الله الذي أجله لبعث خلقه للجزاء والعقاب لآت قريب {وهو السميع} يقول: والله الذي يرجو هذا الراجي بلقائه ثوابه {السميع} لقوله: {آمنا بالله} {العليم} بصدق قيله أنه قد آمن من كذبه فيه، أقول: والإيمان خوف ورجاء، يملآن نفس المستيقن، فيدعو رغبا ورهبا، ويبتل وجلا وطمعا) أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب (١٠.

٦ - (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

{ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ٦}

ومن نافح عن الدين، وقاتل الكافرين، وصبر على التكاليف، وأدى أمانات رب العالمين، فإنما جزاء ذلك وثوابه له، ولا يرجع من ذلك نفع إلى الملك القوي المتين، فإنه – تبارك اسمه- ما به حاجة إلى الخلق، بل هو دون سواه الوهاب لكل خير وفضل ورزق.

٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ٧}

والذين صدقوا بما عهد الله تعالى إلى المكلفين أن يستيقنوا به، وبروا في أعمالهم فأتمروا بأمر الله ورسوله، وانتهوا عما نهوا عنه، فقسم من ربنا العلي العظيم ليغطين سيآتهم بستره وليعفون عن آثامهم وليصفحن- تفضلا منه وكرما- وليثيبنهم أعظم المثوبة، فلا يجزي الحسنة بالحسنة، ولكن بعشرة أمثالها، أو بأضعاف كثيرة، مما أورد صاحب [غرائب القرآن. .]: الإيمان في الشرع عبارة عن التصديق بجميع ما قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفصيلا فيما علم، وإجمالا فيما لم يعلم، والعمل الصالح هو الذي ندب الله ورسوله إليه. . . ثم إنه تعالى ذكر في مقابلة الإيمان والعمل الصالح أمرين: تكفير السيآت، والجزاء بالأحسن، فتكفير السيآت في

مقابلة الإيمان، والجزاء الأحسن في مقابلة العمل الصالح، ومنه يعلم أن الإيمان يقتضي عدم الخلود في النار لأن الذي كفرت سيآته يدخل الجنة لا محالة، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة، وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . . وههنا بحث، وهو أن قوله {لنكفرن} يستدعي وجود السيئات حتى تكفر، فالمراد ب {الذين آمنوا وعملوا} إما قوم مسلمون مذنبون، وإما قوم مشركون آمنوا لحط الإيمان ما قبله. . . . . . أو يقال: ما من مكلف إلا وله سيئة، حتى الأنبياء فإن ترك الأولى بالنسبة إليهم سيئة، بل حسنات الأبرار سيئات المقربين. اه، وأما صاحب [جامع البيان. .] فيقول: يقول تعالى ذكره: والذين آمنوا بالله ورسوله فصح إيمانهم عند ابتلائه إياهم، وفتنته لهم، ولم يرتدوا. . بأذى المشركين إياهم، وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم التي سلفت منهم في شركهم. . . ولنثيبنهم على صالحات أعمالهم في إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون. . اه.

٨ - (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ٨ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ٩}.

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت في آيات أربع فذكر قصة، فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا- فتحوا بقطعة أو عود -فاها، فنزلت هذه الآية: {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، يقول النحاة: {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا، فيقدر له فعل، أو انتصب {حسنا} على أنه وصف لمصدر محذوف أي إيصاء حسنا، وأوصيناه بإيلاء وإيتاء والديه حسنا، أمرنا الإنسان في حق والديه أمرا ذا حسن، وقلنا: {إن جاهداك} أو جاهدك أحدهما وبذل الجهد معك لحملك {على أن تشرك بي ما ليس لك به علم} وفيه إشارة إلى أن نفي الشرك من العلوم الضرورية، وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه. . - ١١ {فلا تطعهما} ١٢ فيما دعواك إليه من الشرك بالله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، مما أورد صاحب [غرائب القرآن. .]: {ما ليس لك به علم} أي: لا معلوم ليتعلق العلم به، وإذا كان التقليد في الإيمان قبيحا فكيف يكون حال التقليد في الكفر؟! وعلى وجوب ترك طاعة الوالدين إذا أرادا ولدهما على الإشراك دليل عقلي، وذلك أن طاعتهما وجبت بأمر الله، فإذا نفيا طاعة الله في الإشراك به فقد أبطلا طاعة الله مطلقا، ويلزم منه عدم لزوم طاعة الوالدين بأمر الله، وكل ما يفضي وجوده إلى عدمه فهو باطل، وفي قوله: {إلي مرجعكم} ترغيب في رعاية حقوق الوالدين وترهيب عن عقوقهما وإن كانا كافرين إلا في الدعاء إلى الشرك، وفيه أن المجازي للمؤمن والمشرك إذا كان هو الله وحده فلا ينبغي أن يعق الوالدين لأجل كفرهما، وفي قوله {فأنبئكم} دليل على أنه سبحانه عالم بالخفيات لا يعزب عنه شيء. . اه- فلا تطعهما فتشرك بي ما ليس لك به علم ابتغاء مرضاتهم، ولكن خالفهما في ذلك. . إلي معادكم ومصيركم يوم القيامة. . . فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيآتها، ثم أجازيكم عليها، المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله- ١٣.

والذين صدقوا في يقينهم وعملوا ما فيه مرضاة ربهم، لندخلنهم في مدخل وزمرة ومستقر من كمل صلاحهم، - وله مراتب غير متناهية، ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام، كما قال سليمان عليه السلام:). . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (١٤ . . في مدخل الصالحين وهي الجنة- ١٥.

٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ٨ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ٩}.

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت في آيات أربع فذكر قصة، فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا- فتحوا بقطعة أو عود -فاها، فنزلت هذه الآية:

{ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، يقول النحاة: {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا، فيقدر له فعل، أو انتصب {حسنا} على أنه وصف لمصدر محذوف أي إيصاء حسنا، وأوصيناه بإيلاء وإيتاء والديه حسنا، أمرنا الإنسان في حق والديه أمرا ذا حسن، وقلنا: {إن جاهداك} أو جاهدك أحدهما وبذل الجهد معك لحملك {على أن تشرك بي ما ليس لك به علم} وفيه إشارة إلى أن نفي الشرك من العلوم الضرورية، وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه. . -

١٦ {فلا تطعهما} ١٧ فيما دعواك إليه من الشرك بالله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، مما أورد صاحب [غرائب القرآن. .]: {ما ليس لك به علم} أي: لا معلوم ليتعلق العلم به، وإذا كان التقليد في الإيمان قبيحا فكيف يكون حال التقليد في الكفر؟! وعلى وجوب ترك طاعة الوالدين إذا أرادا ولدهما على الإشراك دليل عقلي، وذلك أن طاعتهما وجبت بأمر الله، فإذا نفيا طاعة الله في الإشراك به فقد أبطلا طاعة الله مطلقا، ويلزم منه عدم لزوم طاعة الوالدين بأمر الله، وكل ما يفضي وجوده إلى عدمه فهو باطل، وفي قوله: {إلي مرجعكم} ترغيب في رعاية حقوق الوالدين وترهيب عن عقوقهما وإن كانا كافرين إلا في الدعاء إلى الشرك، وفيه أن المجازي للمؤمن والمشرك إذا كان هو الله وحده فلا ينبغي أن يعق الوالدين لأجل كفرهما، وفي قوله {فأنبئكم} دليل على أنه سبحانه عالم بالخفيات لا يعزب عنه شيء. . اه- فلا تطعهما فتشرك بي ما ليس لك به علم ابتغاء مرضاتهم، ولكن خالفهما في ذلك. . إلي معادكم ومصيركم يوم القيامة. . . فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيآتها، ثم أجازيكم عليها، المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله- ١٨.

والذين صدقوا في يقينهم وعملوا ما فيه مرضاة ربهم، لندخلنهم في مدخل وزمرة ومستقر من كمل صلاحهم، - وله مراتب غير متناهية، ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام، كما قال سليمان عليه السلام:). . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (١٩ . . في مدخل الصالحين وهي الجنة- ٢٠.

١٠ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

{ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ١٠ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ١١}

بعض من الناس يؤمن بلسانه ولم يؤمن قلبه، ويحسب أن لن تكون فتنة، ولن يختبر فتظهر للخلق حقيقته، لكن هيهات أن يترك دون امتحان، فقد مضت سنة الله). . ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢١ أن يبتلي العباد حتى يظهر الصادق من المنافق، وبهذا أقسمت الآية الكريمة:) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم (٢٢ ولن يسوي الله بين الأتقياء والأدعياء:) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٢٣ فإذا أدرك أدعياء الإيمان ضررا أو أذى لإيمانهم بالله، ومن أجل استجابتهم لدعوة الحق، وعذبهم الكافرون المبطلون على اتباع سبيل الرشد، جزعوا وأطاعوا الناس خشية إيذائهم، ولم يثبتوا على الهدي حتى يسلموا من عذاب ربهم، ولو عقلوا لاحتملوا وكانوا من أهل اليقين البررة). . الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٢٤، ولا يمنعهم جزعهم ووهنهم وهوانهم من معاودة دعوى الإيمان ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فإذا نصركم الله أهل الصدق والجهاد والإيمان، قال المفتونون الخوارون الفرارون: لقد كنا معكم في ثباتكم، ومناوأة عدوكم، فدعونا ننل حظا مما غنمتم، أيخفى حالهم أوليس الله بمطلع على ما أضمرته قلوبهم؟ بلى! فإن المنافقين يحسبون أنهم) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢٥، والله خادعهم، وسيمكر بهم، فيهتك نفاقهم، ويغلظ العذاب لهم:) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (٢٦ ويوم تبلى السرائر فما لأحد منهم من قوة ولا حيلة ولا ناصر، وليظهرن الله تعالى في العاجل والآجل صدق المتقين، وزيغ المنافقين) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٢٧.

وذكر المنافقين في هذه السورة المكية- عند أكثر علماء القرآن- يكون من الإخبار بالغيب، والتبصرة بما سيلاقي أهل الإيمان بعد من

أدعياء الإيمان لا من أوليائه، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن هذه الآيات العشر مدنية، وسائر السورة من المكي الذي نزل قبل الهجرة.

١١ - (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ١٠ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ١١}

بعض من الناس يؤمن بلسانه ولم يؤمن قلبه، ويحسب أن لن تكون فتنة، ولن يختبر فتظهر للخلق حقيقته، لكن هيهات أن يترك دون امتحان، فقد مضت سنة الله). . ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٨ أن يبتلي العباد حتى يظهر الصادق من المنافق، وبهذا أقسمت الآية الكريمة:) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم (٢٩ ولن يسوي الله بين الأتقياء والأدعياء:) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٣٠ فإذا أدرك أدعياء الإيمان ضررا أو أذى لإيمانهم بالله، ومن أجل استجابتهم لدعوة الحق، وعذبهم الكافرون المبطلون على اتباع سبيل الرشد، جزعوا وأطاعوا الناس خشية إيذائهم، ولم يثبتوا على الهدي حتى يسلموا من عذاب ربهم، ولو عقلوا لاحتملوا وكانوا من أهل اليقين البررة). . الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٣١، ولا يمنعهم جزعهم ووهنهم وهوانهم من معاودة دعوى الإيمان ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فإذا نصركم الله أهل الصدق والجهاد والإيمان، قال المفتونون الخوارون الفرارون: لقد كنا معكم في ثباتكم، ومناوأة عدوكم، فدعونا ننل حظا مما غنمتم، أيخفى حالهم أوليس الله بمطلع على ما أضمرته قلوبهم؟ بلى! فإن المنافقين يحسبون أنهم) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٣٢، والله خادعهم، وسيمكر بهم، فيهتك نفاقهم، ويغلظ العذاب لهم:) إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (٣٣ ويوم تبلى السرائر فما لأحد منهم من قوة ولا حيلة ولا ناصر، وليظهرن الله تعالى في العاجل والآجل صدق المتقين، وزيغ المنافقين) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٣٤.

وذكر المنافقين في هذه السورة المكية- عند أكثر علماء القرآن- يكون من الإخبار بالغيب، والتبصرة بما سيلاقي أهل الإيمان بعد من أدعياء الإيمان لا من أوليائه، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن هذه الآيات العشر مدنية، وسائر السورة من المكي الذي نزل قبل الهجرة.

١٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ١٢ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ١٣}

ومن الفتن الضالة المضلة- نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن- ما يقول الكفار للمؤمنين: إن تتبعونا في طريقنا الذي نسلك - طريق الجحود والنكران- نحمل عنكم أوزاركم، ونتحمل عقاب ذنوبكم إن كان هناك حساب وعقاب! وكذبوا في مقالهم ككذبهم في كل أحوالهم- فلن تملك يوم القيامة نفس لنفس شيئا، ولا يجزي والد عن ولده)، . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. . (٣٥، ولا خلة ولا شفاعة) يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٦ وإنما يتخاصمون ويتلاعنون، ويتبرأ بعضهم من بعض). . حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (٣٧ وهكذا سيحملون الأوزار والآثام التي ارتكبوها، والتي تواصوا بها وأشاعوها، وذلك ما قضى به عدل الله) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم. . (٣٨، {وليسألن يوم القيامة} حين يرى المجرمون النار، وهم في موقف الحساب يعلمون أنهم مواقعوها ولن يجدوا عنها مصرفا، وتشتد عليهم أهوال الحشر، وخزي الكفر، فيهون عليهم أن ينصرفوا من موقفهم هذا ولو إلى السعير، لكن يأبى الله تعالى إلا أن يفضحهم على رءوس الخلائق قبل أن يأمر بهم إلى جهنم، وصدق

الله العظيم:) احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسؤولون (٣٩
- أما الجمع بين قوله: {وما هم بحاملين} وبين قوله: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم}
١٣ - (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
{وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم} فهو أن النفي راجع إلى الحمل الذي يخفف عن صاحبه بسببه، والإثبات يرجع إلى أنهم يحملون وزر الإضلال ووزر الضلال، مع أن أتباعهم حاملون وزر الضلال، كما قال عليه الصلاة والسلام: " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء " قال: {وليسألن} سؤال تقريع {يوم القيامة عما كانوا يفترون} من أنه لا حشر، وعلى تقدير وجوده يحملون خطايا التابعين ٤٠ [وقول الحسن: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا، ثم قرأ الحسن: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم}، قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة أخرجه مسلم، ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا وأيما داع دعا إلى هدى فاتبع فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئا " أخرجه ابن ماجة في السنن] ٤١.
١٤ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)
{ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ١٤ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ١٥}
بعث الله تعالى رسوله نوحا عليه السلام إلى قومه ليوحدوا ربنا الخلاق العليم ويعبدوه، ويدعوا أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة). . فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. . (٤٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى. . (٤٣، ومكث يدلهم على الهدى، ويحذرهم عاقبة الشرك:). . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٤٤) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٥، وصبر- عليه صلوات الله وسلامه- على تبليغ رسالة ربه، وتابع تبشير من يتقي ويوحد، وإنذار من يشرك ويجحد، ومرت قرون وهو دائب على الترغيب في عبادة الله وتقواه، والترهيب من عصيانه وتأليه ما سواه، فما زادهم التذكير بحق الله إلا بعدا، تسعمائة وخمسون سنة ونوح يبين الرشد لقومه، وما آمن معه إلا قليل، إنه لصبر أولي العزم من الرسل، فلما استحبوا العمى على الهدى، وأصروا على الغي، واستكبروا عن الحق، حانت ساعة الانتقام، وتأذن ربنا بإهلاك المجرمين، وإغراق الكافرين، والطوفان: كل ماء فاش طام، والقرآن الكريم يشير إلى عظمه وهوله في آيات كريمات:) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (٤٦، كما يبين مقدار طغيان الطوفان وبأسه في قول الحق الواحد القهار:) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٧، ولما جاء أمر الله، ورأى نوح ما جعله ربنا علامة على نزول البأس بساحة المجرمين، وفار التنور إيذانا برحيل النبي والمؤمنين، أوحى مولانا -الكبير المتعال- إلى نوح نبيه ورسوله أن يركب السفينة التي صنعها منذ عهد إليه مولاه:) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٤٨ كما نودي أن يجعل معه في السفينة من كل من نبات الأرض وحيوانها زوجين اثنين- ذكر وأنثى- وأن يركب معه أهل التصديق برسالته، وليطمئنوا بعد ذلك إلى أن سفينتهم- مهما اشتدت الأنواء- ناجية، وليستبشروا وإن علا الموج كالجبال، فإن وليهم الله رب العالمين، وهو سبحانه بالمؤمنين بر رحيم، وإن ربنا لمع المتوكلين المتضرعين المتقين، وإلى هذا أرشد الوحي الحكيم:) فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (٤٩، وجرت سفينتهم باسم الله الخبير البصير، القوي القدير، وسيرها- سبحانه- برعايته حتى أهلك الفجار،) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي

وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٥٠، وكان هلاك المجرمين، وإنجاء الله المؤمنين، علامة على صدق المرسلين، وعظة للمعتبرين، وإنفاذا لسنن المهيمن الذي لا تتبدل سنته ولا تحول:) إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين (٥١) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (٥٢، وجعلها الحميد المجيد نعمة أن نجى الأسلاف والآباء، يقول تبارك اسمه:) وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٥٣، ويقول- جل علاه-:) إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (٥٤ - مما أورد صاحب [روح المعاني. ٠]: للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، وحثا لهم على الصبر، فإن الأنبياء عليهم السلام. ٠ صبروا. ٠ فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى. ٠ وهو من عطف القصة على القصة. ٠ والنكتة في اختيار

السنة أولا: أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام، فناسب اختيار السنة لزمان الدعوى الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى. اه.

١٥ - (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

}ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ١٤ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ١٥{

بعث الله تعالى رسوله نوحا عليه السلام إلى قومه ليوحدوا ربنا الخلاق العليم ويعبدوه، ويدعوا أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة). ٠ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. ٠ (٥٥) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى. ٠ (٥٦، ومكث يدلهم على الهدى، ويحذرهم عاقبة الشرك:). ٠ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٧،) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٥٨، وصبر- عليه صلوات الله وسلامه- على تبليغ رسالة ربه، وتابع تبشير من يتقي ويوحد، وإنذار من يشرك ويجحد، ومرت قرون وهو دائب على الترغيب في عبادة الله وتقواه، والترهيب من عصيانه وتأليه ما سواه، فما زادهم التذكير بحق الله إلا بعدا، تسعمائة وخمسون سنة ونوح يبين الرشد لقومه، وما آمن معه إلا قليل، إنه لصبر أولي العزم من الرسل، فلما استحبوا العمى على الهدى، وأصروا على الغي، واستكبروا عن الحق، حانت ساعة الانتقام، وتأذن ربنا بإهلاك المجرمين، وإغراق الكافرين، والطوفان: كل ماء فاش طام، والقرآن الكريم يشير إلى عظمه وهوله في آيات كريمات:) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (٥٩، كما يبين مقدار طغيان الطوفان وبأسه في قول الحق الواحد القهار:) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٦٠، ولما جاء أمر الله، ورأى نوح ما جعله ربنا علامة على نزول البأس بساحة المجرمين، وفار التنور إيذانا برحيل النبي والمؤمنين، أوحى مولانا -الكبير المتعال- إلى نوح نبيه ورسوله أن يركب السفينة التي صنعها منذ عهد إليه مولاه:) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٦١ كما نودي أن يجعل معه في السفينة من كل من نبات الأرض وحيوانها زوجين اثنين- ذكر وأنثى- وأن يركب معه أهل التصديق برسالته، وليطمئنوا بعد ذلك إلى أن سفينتهم- مهما اشتدت الأنواء- ناجية، وليستبشروا وإن علا الموج كالجبال، فإن وليهم الله رب العالمين، وهو سبحانه بالمؤمنين بر رحيم، وإن ربنا لمع المتوكلين المتضرعين المتقين، وإلى هذا أرشد الوحي الحكيم:) فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (٦٢، وجرت سفينتهم باسم الله الخبير البصير، القوي القدير، وسيرها- سبحانه- برعايته حتى أهلك الفجار،) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٦٣، وكان هلاك المجرمين، وإنجاء الله المؤمنين، علامة على صدق المرسلين، وعظة للمعتبرين، وإنفاذا لسنن المهيمن الذي لا تتبدل سنته ولا تحول:) إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين (٦٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (٦٥، وجعلها الحميد المجيد نعمة أن نجى الأسلاف والآباء، يقول تبارك اسمه:) وآية لهم أنا حملنا ذريتهم

في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٦٦، ويقول- جل علاه-:) إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (٦٧ - مما أورد صاحب [روح المعاني. ٠]: للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، وحثا لهم على الصبر، فإن الأنبياء عليهم السلام. . صبروا. . فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى. . وهو من عطف القصة على القصة. . والنكتة في اختيار
السنة أولا: أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام، فناسب اختيار السنة لزمان الدعوى الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى. اه.
١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
{وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ١٦}
وأرسلنا إبراهيم، أو: واذكر إبراهيم حين أمر قومه بعبادة الله وتقواه، وصاهم أن خصوا الله بالعبادة، واجعلوها له سبحانه دون سواه، وخافوه ولا تخالفوه، فعبوديتكم للمعبود بحق- جل وتعالى- واتقاء عصيانه، خير لكم إن كنتم أهل علم، وتدركون ما هو بركة عليكم، مما هو مقت لكم، وأنتم تعون ما أمضى الله القدير في أسلافكم:) وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما. وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا. وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا (٦٨.
١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
{أوثانا} نصبا وأصناما.
{تخلقون إفكا} تنحتون صنما، أو تختلقون كذبا، فتجعلون المصنوع صانعا.
{فابتغوا} فاطلبوا أو التمسوا.
{إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وإليه ترجعون ١٧}
لما رغبتهم الآية السابقة في الدين الحق، حذرتهم هذه من الزعم الباطل، فما الأصنام التي عبدوها إلا حجارة أو جمادا لا تسمع ولا تعي ولا تعقل، فكيف تجلب لنفسها خيرا أو تدفع عنها ضرا، فضلا عن أن تهب شيئا من ذلك لغيرها، فتأليهها افتراء وكذب وزور، إذ كيف يكون المربوب ربا، والمصنوع صانعا؟! وليس لهذه الحجارة نصيب من الخلق أو الرزق، فالتمسوا واطلبوا الخير والرزق والعطاء من بارئ الأرض والسماء، وواهب النعم والآلاء، واستقيموا إليه وأطيعوه، واعبدوه واشكروه، وخافوه ولا تخالفوه، حتى يرحمكم في الدنيا ويوم تلقونه وبين يديه تسألون وتحاسبون.
١٨ - (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)
{وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ١٨}
لعل العطف هنا على محذوف دل عليه المذكور، والتقدير: فإن استجبتم تفلحوا في العاجل والآجل، وإن تكذبوا ما دعوتكم إليه من التوحيد والجلال لله الكبير المتعال، وارتبتم في البعث والحساب والجزاء فلن تضروا إلا أنفسكم، كالذين سبقوكم ممن كذبوا رسل الله إليهم- وهم شيث، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئا، وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب، فكذا تكذيبكم إياي- ٦٩، وليس علي هداكم، إنما عهد الله إلي- كعهده سبحانه إلى كل رسول- أن أبلغكم بلاغا واضحا. يقول صاحب [روح المعاني. ٠]: وهذه الآية، أعني: {وإن تكذبوا} الخ على ما ذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام، وكذا ما بعد- على ما قيل- إلى قوله تعالى: {فما كان جواب قومه}، وجوز أن يكون ذلك اعتراضا بذكر شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش، وهدم مذهبهم، والوعيد على سوء صنيعهم، توسط بين طرفي القصة من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك القوم وتكذيبهم، وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة

والسلام. اه.

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

{أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ٢١ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ٢٢ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ٢٣}

أو عميت بصائرهم فلم يتدبروا وينظروا، فيقروا بأن الله هو المبدئ المعيد؟! كما أنه سبحانه لم يعي بخلق الكون وما فيه، فلن يعجزه أن يعيد الناس بعد موتهم أحياء). . وهو أهون عليه. . (٧٠ - وقوله تعالى: {ثم يعيده} عطف على {أولم يروا} لا على {يبدئ}، لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة، فلو عطف عليه لم يصح، وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل- ٧١ [وقيل: المعنى: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء فهو القادر على الإعادة {إن ذلك على الله يسير} لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون. . {فانظروا كيف بدأ الخلق} على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله] ٧٢ - امضوا في الأرض وسيحوا فيها {فانظروا كيف بدأ} الله تعالى {الخلق} أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة. . . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض يؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة، والكيفية في هذه الآية، لما أن الأولى- كما علمت- باعتبار المادة وعدمها، وهذه باعتبار تغاير الأحوال، ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع {يبدأ} دون الماضي- كما هنا- لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة، على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعلها أطوارا مختلفة. . - ٧٣، وربنا على كل شيء من البدء والإعادة وغيرهما تام القدرة، وبعد النشأة الآخرة وقبلها يعذب ربنا من شاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وإلى الله مردنا، ومرجعنا ومصيرنا، ولن يفلت أحد ولن يفوت ربه فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فأين المفر؟! لا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم من أحد يمنعهم من بأس الله تعالى، وما لهم من يتولاهم، وما لهم من يدفع عنهم أو يحول بينهم وبين ما أعد الله لهم، والذين جحدوا بدلائل جلال الله- التكوينية منها والتنزيلية- وأنكروا الحشر على الله ولقاءه وحسابه وجزاءه أولئك لا حظ لهم من رحمتي، وأولئك لهم عذاب موجع أبلغ ما يكون الوجع والألم.

٢٠ - (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ٢١ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ٢٢ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ٢٣}

أو عميت بصائرهم فلم يتدبروا وينظروا، فيقروا بأن الله هو المبدئ المعيد؟! كما أنه سبحانه لم يعي بخلق الكون وما فيه، فلن يعجزه أن يعيد الناس بعد موتهم أحياء). . وهو أهون عليه. . (٧٤ - وقوله تعالى: {ثم يعيده} عطف على {أولم يروا} لا على {يبدئ}، لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة، فلو عطف عليه لم يصح، وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل- ٧٥ [وقيل: المعنى: أولم يروا كيف يبدئ الله

الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء فهو القادر على الإعادة {إن ذلك على الله يسير} لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون. . {فانظروا كيف بدأ الخلق} على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله] ٧٦ - امضوا في الأرض وسيحوا فيها {فانظروا كيف بدأ} الله تعالى {الخلق} أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة. . . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض يؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة، والكيفية في هذه الآية، لما أن الأولى- كما علمت- باعتبار المادة وعدمها، وهذه باعتبار تغاير الأحوال، ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع {يبدأ} دون الماضي- كما هنا- لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة، على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعلها أطوارا مختلفة. . - ٧٧، وربنا على كل شيء من البدء والإعادة وغيرهما تام القدرة، وبعد النشأة الآخرة وقبلها يعذب ربنا من شاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وإلى الله مردنا، ومرجعنا ومصيرنا، ولن يفلت أحد ولن يفوت ربه فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فأين المفر؟! لا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم من أحد يمنعهم من بأس الله تعالى، وما لهم من يتولاهم، وما لهم من يدفع عنهم أو يحول بينهم وبين ما أعد الله لهم، والذين جحدوا بدلائل جلال الله- التكوينية منها والتنزيلية- وأنكروا الحشر على الله ولقاءه وحسابه وجزاءه أولئك لا حظ لهم من رحمتي، وأولئك لهم عذاب موجع أبلغ ما يكون الوجع والألم.

٢١ - (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ٢١ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ٢٢ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ٢٣}

أو عميت بصائرهم فلم يتدبروا وينظروا، فيقروا بأن الله هو المبدئ المعيد؟! كما أنه سبحانه لم يعي بخلق الكون وما فيه، فلن يعجزه أن يعيد الناس بعد موتهم أحياء). . وهو أهون عليه. . (٧٨ - وقوله تعالى: {ثم يعيده} عطف على {أولم يروا} لا على {يبدئ}، لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة، فلو عطف عليه لم يصح، وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل- ٧٩ [وقيل: المعنى: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء فهو القادر على الإعادة {إن ذلك على الله يسير} لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون. . {فانظروا كيف بدأ الخلق} على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله] ٨٠ - امضوا في الأرض وسيحوا فيها {فانظروا كيف بدأ} الله تعالى {الخلق} أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة. . . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض يؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة، والكيفية في هذه الآية، لما أن الأولى- كما علمت- باعتبار المادة وعدمها، وهذه باعتبار تغاير الأحوال، ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع {يبدأ} دون الماضي- كما هنا- لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة، على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعلها أطوارا مختلفة. . - ٨١، وربنا على كل شيء من البدء والإعادة وغيرهما تام القدرة، وبعد النشأة الآخرة وقبلها يعذب ربنا من شاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وإلى الله مردنا، ومرجعنا ومصيرنا، ولن يفلت أحد ولن يفوت ربه فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه،

فأين المفر؟! لا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم من أحد يمنعهم من بأس الله تعالى، وما لهم من يتولاهم، وما لهم من يدفع عنهم أو يحول بينهم وبين ما أعد الله لهم، والذين جحدوا بدلائل جلال الله- التكوينية منها والتنزيلية- وأنكروا الحشر على الله ولقاءه وحسابه وجزاءه أولئك لا حظ لهم من رحمتي، وأولئك لهم عذاب موجع أبلغ ما يكون الوجع والألم.

٢٢ - (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ٢١ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ٢٢ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ٢٣}

أو عميت بصائرهم فلم يتدبروا وينظروا، فيقروا بأن الله هو المبدئ المعيد؟! كما أنه سبحانه لم يعي بخلق الكون وما فيه، فلن يعجزه أن يعيد الناس بعد موتهم أحياء). . وهو أهون عليه. . (٨٢ - وقوله تعالى: {ثم يعيده} عطف على {أولم يروا} لا على {يبدئ}، لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة، فلو عطف عليه لم يصح، وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل- ٨٣ [وقيل: المعنى: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء فهو القادر على الإعادة {إن ذلك على الله يسير} لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون. . {فانظروا كيف بدأ الخلق} على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله] ٨٤ - امضوا في الأرض وسيحوا فيها {فانظروا كيف بدأ} الله تعالى {الخلق} أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة. . . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض يؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة، والكيفية في هذه الآية، لما أن الأولى- كما علمت- باعتبار المادة وعدمها، وهذه باعتبار تغاير الأحوال، ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع {يبدأ} دون الماضي- كما هنا- لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة، على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعلها أطوارا مختلفة. . - ٨٥، وربنا على كل شيء من البدء والإعادة وغيرهما تام القدرة، وبعد النشأة الآخرة وقبلها يعذب ربنا من شاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وإلى الله مردنا، ومرجعنا ومصيرنا، ولن يفلت أحد ولن يفوت ربه فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه،

فأين المفر؟! لا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم من أحد يمنعهم من بأس الله تعالى، وما لهم من يتولاهم، وما لهم من يدفع عنهم أو يحول بينهم وبين ما أعد الله لهم، والذين جحدوا بدلائل جلال الله- التكوينية منها والتنزيلية- وأنكروا الحشر على الله ولقاءه وحسابه وجزاءه أولئك لا حظ لهم من رحمتي، وأولئك لهم عذاب موجع أبلغ ما يكون الوجع والألم.

٢٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ٢١ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ٢٢ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ٢٣}

أو عميت بصائرهم فلم يتدبروا وينظروا، فيقروا بأن الله هو المبدئ المعيد؟! كما أنه سبحانه لم يعي بخلق الكون وما فيه، فلن يعجزه أن

يعيد الناس بعد موتهم أحياء). . وهو أهون عليه. . (٨٦ - وقوله تعالى: {ثم يعيده} عطف على {أولم يروا} لا على {يبدئ}، لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة، فلو عطف عليه لم يصح، وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل- ٨٧ [وقيل: المعنى: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء فهو القادر على الإعادة {إن ذلك على الله يسير} لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون. . {فانظروا كيف بدأ الخلق} على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله] ٨٨ - امضوا في الأرض وسيحوا فيها {فانظروا كيف بدأ} الله تعالى {الخلق} أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة. . . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض يؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة، والكيفية في هذه الآية، لما أن الأولى- كما علمت- باعتبار المادة وعدمها، وهذه باعتبار تغاير الأحوال، ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع {يبدأ} دون الماضي- كما هنا- لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة، على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعلها أطوارا مختلفة. . - ٨٩، وربنا على كل شيء من البدء والإعادة وغيرهما تام القدرة، وبعد النشأة الآخرة وقبلها يعذب ربنا من شاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وإلى الله مردنا، ومرجعنا ومصيرنا، ولن يفلت أحد ولن يفوت ربه فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فأين المفر؟! لا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم من أحد يمنعهم من بأس الله تعالى، وما لهم من يتولاهم، وما لهم من يدفع عنهم أو يحول بينهم وبين ما أعد الله لهم، والذين جحدوا بدلائل جلال الله- التكوينية منها والتنزيلية- وأنكروا الحشر على الله ولقاءه وحسابه وجزاءه أولئك لا حظ لهم من رحمتي، وأولئك لهم عذاب موجع أبلغ ما يكون الوجع والألم.

٢٤ - (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٢٤}

فلم يرد قوم إبراهيم على قوله لهم: {اعبدوا الله واتقوه} وهدايتهم إلى ما فيه الخير ودلالتهم عليه- لم يكن ردهم إلا بأن تواثقوا فيما بينهم أن يقتلوا إبراهيم عليه السلام ويحرقوه، وهكذا بدلا من الإذعان للحق، والاستجابة إلى نداء الخير تواصوا بإحراقه:) قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم (٩٠، وبنوا موقدا، وجمعوا حطبا، وأججوا نارا، وقذفوا به فيها، فأمرها الله الذي لا يرد أمره أن تكون عليه بردا وسلاما، فأنجاه الله من حرها وشرها، إن في خيبة أمل الباغين، وحسن عاقبة المتقين، لعلامات على اقتدار القوي المتين، تزيد في يقين المصدقين.

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

{وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ٢٥*}

وقال إبراهيم لقومه: إن ما عبدتم من دون الله ليست إلا أصناما جامدة، وحجارة هامدة، لا يستسيغ العاقل المتفكر أن يعظمها أو يخضع، كما حكى القرآن عنه في آيات أخر:) قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون (٩١) قال أتعبدون ما تنحتون (٩٢؟! اتخذتم الأوثان وعبادتها مذهبا تتحابون وتجتمعون وتتآلفون عليه، أو تخشعتم إليها وتقربتم، فعل المواد المحب، كأنكم تطمعون في خير تنيلكم، وهيهات:) فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٩٣، وأنتم وما عبدتم لن تكونوا يوم القيامة إلا أعداء، ويتعادى كذلك كل الذين تواصلوا على غير حب الله، فمن توادوا على تعظيم الأصنام وعبادتها يتبرأ بعضهم من بعض، ويدعوا كل منهم على

الآخر باللعنة وسوء الدار، والطرد والبعد من رحمة العزيز الغفار:) إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم. . (٩٤ ويتلاومون ويتخاصمون، وهم جميعا مخذولون، فلن يمنعهم من الله مانع، وما ينصرهم حين يقذف بهم جميعا في السعير من نصير، وما هم بخارجين من النار، وصدق الله العظيم:) واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٩٥.

٢٦ - (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

}فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ٢٦ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ٢٧{

فصدق لوط دعوة إبراهيم، وآمن بما جاء به عن ربه، هكذا صبر إبراهيم على تكذيب قومه، وما فتر عن تبليغ الرسالة، بل وفى عليه الصلاة والسلام وأقام على كل أصحاب الملل الزائغة من قومه الحجة، جادل المفتون المتأله -النمرود- إذ زعم الهالك أنه يحيي ويميت، فحاجه إبراهيم، وبهت الذي كفر، وجادل عباد الكواكب والقمر والشمس فأبطل زعمهم، وجادل عبدة الأصنام بدءا بأبيه ثم بسائر الوثنيين فأقام عليهم الحجة البالغة، فهموا بتحريقه خذلانا للحق وانتصارا للشرك والإفك، وما استجاب له بعد هذا الكيد كله إلا ابن أخيه أو ابن أخته- كما قال المفسرون- وآمنت به سارة وكانت بنت عمه، وهدى الله تعالى لوطا، وقال إبراهيم إني تارك أرض قومي- الكوفة- ومرتحل إلى حيث يحب ربي، إلى أرض الشام، ويشهد لذلك قول الحق تبارك وتعالى:) ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين (٩٦، وإن ربنا لهو القوي الذي لا يغلب، ولا يمانع مراده ووحيه، ولا يطفأ نوره، وهو الحكيم في فعله وقضائه، لا يفوته الصواب، بل يدبر ويصرف الأمر بتقدير وعلم تامين وحكمة.

وذكر البيهقي عن قتادة قال: أول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله- بعد لوط- عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال قتادة: سمعت النضر بن أنس يقول: سمعت أبا حمزة – يعني أنس بن مالك- يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد! رأيت ختنك ٩٧ ومعه امرأته، قال: " على أي حال رأيتهما "؟ قالت: رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ٩٨ وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط " قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى. . اه

ومن الله الشكور الودود، الولي الوهاب على إبراهيم فرزقه إسحق ولدا، ووهب إسحق يعقوب، وإنما وهب له إسحق من بعد إسماعيل عليهم صلاة الله وسلامه- وجعل سبحانه في ذرية إبراهيم النبوة فلم يبعث نبي من بعده إلا من ذريته، }والكتاب{ فالتوراة والإنجيل والقرآن نزلت على أنبياء من نسل إبراهيم- عليه الصلوات والتسليم- ومنحه الله ذكرا باقيا إلى يوم القيامة وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، فاتخذه خليلا، هذا من أجره في هذه الحياة، وأما في الأخرى فهو في عداد من كمل صلاحهم، وتم فوزهم وفلاحهم.

٢٧ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

}الفاحشة{ المعصية التي يفحش أثرها، والخطيئة التي يثقل وزرها، وأكثر استعمالها في القرآن الكريم للزنا، وإتيان الرجال.

}تأتون الرجال{ تجامعونهم.

}السبيل{ الطريق.

}المنكر{ ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع.

}ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ٢٨ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ٢٩ قال رب انصرني على القوم المفسدين ٣٠{

واذكر قصة لوط عليه السلام في دعوته قومه إلى الإيمان والعفاف، وتحذيره إياهم من الفحش والإسفاف، وزجرهم عن اشتهاء الرجال، والإعراض عن النساء، وابتداع هذا المنكر الذي لم يتقدمهم فيه أحد، كما أنذرهم مقت الله تعالى وسخطه على كل متعد

لحدوده، مبدل لسننه، وذلك شأنه سبحانه في كل من سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، ويظهر في حياة الناس ومسالكهم الخوف والخنا، ويهدد طرق العباد بما يخشون من النيل من الكرامة والعرض.

ولهذا جاء منذرا بذلك في آيات أخر:) أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (٩٩. وتمادوا في غيهم، ولم يبق للحياء أدنى أثر في نفوسهم، فصاروا يرتكبون تلك الفاحشة النكراء في ناديهم مستعلنين بها ينظر بعضهم إلى بعض، فانحطوا بذلك عن الحيوان الأعجم، وسلبوا شرف الإنسانية، كالذين جاء وصفهم في قول الحق تبارك وتعالى:). . إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (١٠٠.

ولما خوفهم نبيهم من عذاب يستأصلهم قالوا- مستهزئين- جئنا بعذاب الله الذي نتوعدنا به إن كنت صادقا فيما تقول، وبينت آيات أخرى كريمة أنهم نقموا من لوط ومن اتبعه أن يتركزوا عن هذا الخبث ويعفّوا، وقالوا:). . أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (١٠١ وعملوا على صده عن الدعوة إلى الحق والرشد والطهر، فقالوا:) لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (١٠٢ فتضرع لوط إلى ربه أن يعصمه ومن آمن به) رب نجني وأهلي مما يعملون (١٠٣ {رب انصرني} بخذلان هؤلاء السفهاء المبتدعين لأخبث فحشاء، فإنك يا مولانا لا تحب الفساد، وهؤلاء نكسوا، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وزين لهم سوء عملهم.

٢٩ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]

٣٠ - (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]

٣١ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

{ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ٣١ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ٣٢ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ٣٣ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ٣٤ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ٣٥}

شاء الله الحكيم أن يحقق البشرى لرسوليه الكريمين إبراهيم خليل الرحمن

ولوط عليهما الصلاة والسلام، فحين جاءت الملائكة إبراهيم على هيئة أضياف وسارع إلى إكرامهم بتقديم عجل سمين مشوي نزلا لهم:) فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (١٠٤ وصدق الله العظيم:) ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (١٠٥ إنهم تجاوزوا الحد في فحشهم، ومع أن الخليل- صلى الله عليه وسلم- يعلم عظم جرم قوم لوط، حاور الملائكة الكرام في شأن استئصالهم- ولعله عليه السلام كان يطمع في توبتهم وإيمانهم، وإقلاعهم عن غيهم- صحيح أن هذه الآية الكريمة بينت أن قوله للملائكة لم يتجاوز الحديث عن وجود لوط في القرية التي أرسلوا لإهلاكها، لكن ربما يقصد بهذا أنهم قد لا يعجل باستئصالهم ونبي الله تعالى مازال بينهم، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في آيات أخرى كريمة:) فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود (١٠٦ وكذلك شأن المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، ينكرون المنكر، وينهون عن السوء، لكنهم يحزنون على ضلال الضالين، فصالح عليه سلام الله- وقد انبعث تسعة من أشقياء قومه، وتقاسموا بالله ليقتلنه وأهل الإيمان به خفية وتحت جنح الظلام، لولا أن الله القوي القدير الخبير البصير مكر بهم، فلما أخذتهم الرجفة وهلكوا جميعا، أسف على شقوتهم وسوء مصيرهم) فتولى عنهم وقال يا

قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (١٠٧، وشعيب عليه الصلاة والسلام وقد نادى في مدين) . . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا. . (١٠٨ فلما أخذتهم الرجفة تولى عنهم) . . وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (١٠٩، وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم اشتد حزنه على غواية قومه حتى كاد يموت غما، فجاءته من الله تعالى السلوى:) وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١١٠) . . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ١١١) ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء. . (١١٢) لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (١١٣) فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (١١٤، فلما حاور إبراهيم الملائكة قالوا

٣٢ - (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

{الغابرين} تأتي بمعنى الماضين وبمعنى الباقين.

{سيء} اعتراه مساءة وغم.

{نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله} علمنا العليم الخبير من هم المهلكون، ومن هم الناجون، فلوط رسول الله، وقد كتب ربنا أن ينجي رسله، وأهل الإيمان بدعوة لوط مؤمنون، فلن يهلكوا، مصداقا لوعد ربنا الحق:) ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين (١١٥ {إلا امرأته كانت من الغابرين} فامرأة لوط مستثناة من الناجين، وستهلك مع الهالكين، - والغابر من باب الأضداد، تأتي بمعنى: الماضي، وتأتي بمعنى: الباقي، وهي هنا بمعنى: من الباقين، أي باقية من الإنجاء، ثم هي بعد مهلكة، ولما قدمت الملائكة على لوط كانوا في صورة رجال صباح الوجوه، فاستاء لوط واغتم، وأحس أنه لن يطيق حماية أضيافه من مجرمي قومه الذين كانوا قد حذروه أن يستضيف أحدا فإنهم لن يتركوا قادما دون الإفحاش به وانتهاك عرضه، وليست للوط من عصبة تمنعه وتدفع الأذى عمن آوى إليه ودخل داره، وضاق بشأنهم وصونهم ذرعه أي طاقته، - ويقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له قادرا عليه، وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع- ١١٦ حتى لم يطق أن يكتم حيرته عن أضيافه فقال:) . . لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد (١١٧ فقالت الملائكة: {لا تخف ولا تحزن}

٣٣ - (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

{لا تخف} من تمكنهم منا.

{ولا تحزن} على قصدهم إيانا، وعدم اكتراثهم بك.

{وضاق بهم ذرعا} ضاقت طاقته عن النهوض بحقهم من صون أعراضهم.

{لا تخف ولا تحزن} لا تتوقع ما يخيف من قدرتهم علينا أو تمكنهم منا، ولا تحزن على ما كان منهم من قصدهم إيانا، وعدم رعايتهم لحقك وحرمة بيتك وضيفك، إذ الخوف ينصرف إلى المتوقع، والحزن للواقع-غالبا- {إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك} ولا تخش ما ينتظرك وينتظر أهل دعوتك، ولا تأس على ما يصيب فجار قومك وزوجتك،) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (١١٨

٣٤ - (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

{رجزا} عذابا يزعجهم.

{يفسقون} يخرجون على حدود الله.
{آية بينة} علامة واضحة، وبرهانا ظاهرا، وعبرة لا تخفى على عاقل.
{إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء} إنا أرسلنا بعذاب آتيهم من السماء يذهلهم ويجعلهم نكالا ومثلا، فالمدن التي يسكنون ستغدو مع شروق الشمس منقلبات، وسنرسل على أهلها- من كان وقتئذ فيها ومن كان خارجها- بحجارة من طين) مسومة عند ربك للمسرفين (١١٩، وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟ وهل يحل العذاب البئيس المهين إلا بالقوم الفاسقين، الخارجين على حدود رب العالمين؟! ولقد تركنا من هذه البطشة الكبرى، ومن القرى التي أمطرت مطر السوء علامة واضحة، وعبرة بالغة لمن يعمل عقله، ويتفكر ويستبصر.
نقل عن ابن عباس: هي آثار ديارها الخربة، وعن مجاهد: هي الماء الأسود على وجه الأرض، لعل مما يشهد لهذا قول الله جل علاه:) وإنها لبسبيل مقيم (١٢٠ وقوله تبارك اسمه:) وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون (١٢١
٣٥ - (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{رجزا} عذابا يزعجهم.
{يفسقون} يخرجون على حدود الله.
{آية بينة} علامة واضحة، وبرهانا ظاهرا، وعبرة لا تخفى على عاقل.
{إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء} إنا أرسلنا بعذاب آتيهم من السماء يذهلهم ويجعلهم نكالا ومثلا، فالمدن التي يسكنون ستغدو مع شروق الشمس منقلبات، وسنرسل على أهلها- من كان وقتئذ فيها ومن كان خارجها- بحجارة من طين) مسومة عند ربك للمسرفين (١٢٢، وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟ وهل يحل العذاب البئيس المهين إلا بالقوم الفاسقين، الخارجين على حدود رب العالمين؟! ولقد تركنا من هذه البطشة الكبرى، ومن القرى التي أمطرت مطر السوء علامة واضحة، وعبرة بالغة لمن يعمل عقله، ويتفكر ويستبصر.
نقل عن ابن عباس: هي آثار ديارها الخربة، وعن مجاهد: هي الماء الأسود على وجه الأرض، لعل مما يشهد لهذا قول الله جل علاه:) وإنها لبسبيل مقيم (١٢٣ وقوله تبارك اسمه:) وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون (١٢٤
٣٦ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)
{ارجوا} ترقبوه وتوقعوه، فاعملوا له، واخشوا جزاء من تناساه.
{تعثوا} تغلظوا، وتمعنوا.
{وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ٣٦ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ٣٧}
وكما أرسلنا نوحا إلى قومه أرسلنا إبراهيم إلى قومه وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب- إذ هو منهم- نبينا شعيبا، والصحيح أنهم أصحاب الأيكة، {فقال} لهم {يا قوم اعبدوا الله} آمنوا به وحده، واعبدوه لا تشركوا به شيئا، وأطيعوه، فأتمروا بأوامره، وانتهوا عن نواهيه، {وارجوا اليوم الآخر} استيقنوا به وترقبوه، واعملوا له وافعلوا ما ترجون ثوابه في ذلك اليوم، واخشوا واحذروا جزاء من ترك هذا اليوم الثقيل العسير، كأنما نسي أحواله وأهواله، {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} ولا تغلظوا في الفساد، وتكثروا في الأرض إساءة وظلما للعباد، وأي فساد أشد من شكرهم وإفكهم، وتظالمهم فيما بينهم، وبغيهم على غيرهم؟ فناداهم نبيهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة:) وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره. . (١٢٥ وأمرهم بتوفية الكيل والميزان، ونهاهم عن الجور والبخس والطغيان، وبهذا جاءت آيات القرآن:) أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم. . (١٢٦ أي كملوا الكيل، ولا تزيدوا عليه ولا تنقصوا منه في أخذ أو عطاء، واعدلوا في الوزن ولا تطغوا فيه، وخذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون، ولا تجحدوا حق الناس، ولا تغمطوهم قدرهم، ولا تسلبوهم أمنهم، إذ جاء نهي نبيهم لهم عن قطع الطريق

صريحا في قول الحق جل علاه:) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن. . (١٢٧.
٣٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)
{الرجفة} الزلزلة الشديدة.
{جاثمين} لا بدين مكانهم، متلبدين بالأرض، لاصقين بها، وماتوا باركين.
{فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين} فعتوا عن أمر ربهم، وطففوا في كيلهم ووزنهم، وصدوا الناس عن الدين الحق، وأنكروا على أصحاب الفضل فضلهم، وحرموا العباد أمنهم، فأمر الله تعالى جبريل فصاح بهم صيحة رجفت منها أبدانهم، ووجفت قلوبهم، وأزهقت أرواحهم، فأصبحوا هامدين خامدين، وماتوا باركين، متلبدين بالأرض لاصقين.
٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)
{فصدهم} فمنعهم وردهم.
{مستبصرين} متبينين.
{وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ٣٨ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ٣٩ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٤٠}
وكما أهلكنا مدين وقوم لوط أهلكنا عادا وثمود، وإنكم لتطالعون مساكنهم، وتنظرون إليها في طريق تجارتكم وارتحالكم، ويظهر لكم من آثار الدمار في أطلال ديارهم وما بقي منها ما فيه مزدجر ومعتبر، وإنما نالهم ما نالهم بما زين وحسن الشيطان لهم من قبيح فعالهم، فمنعهم وردهم عن الداعي إلى الحق واتباعه، وجحدوا صدق الوحي وتأنفوا من الإذعان للهدي، مع تبينهم أنه الرشد، وأن العذاب على من كذب وتولى، ولكنهم لجوا في طغيانهم، وأهلكنا قارون، وفرعون وجنده وملأه، وهامان.
ولقد شهد الكتاب الكريم أن الغرق شمل كافة الجند والملأ الفرعونيين فقال أحكم الحاكمين:) واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (١٢٨ وقال تبارك اسمه:) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (١٢٩، فلعل تخصيص هامان وفرعون بالذكر لما أنهما أكابر المجرمين، وغيرهم تبع لهم، وأما قارون فلأنه ذاق وبالا ونكالا من جنس غير الإغراق أفردته الآيات هنا بالذكر، {ولقد جاءهم موسى بالبينات} وقسما تحققوا أن كليم الله ورسوله موسى صلى الله عليه وسلم قد أتى قومه بعلامات ومعجزات كونية وتنزيلية يتضح بها مزيد من نور اليقين بقدرة الله تعالى وحكمته، وصدق موسى في رسالته، لكن الكبر والغرور، والتجبر في الأرض، والبغي بغير الحق، حملهم على محادة الله تعالى ورسوليه موسى وهارون، ومع طول ما صبر الرسولان الكريمان ومن آمن بدعوتهما، وما كان عليه موسى من الحلم والمطاولة حتى لينزل البلاء والرجز بالفرعونيين فيتوسلون إلى النبي الكريم قائلين ما بينه الكتاب الحكيم:). . يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون (١٣٠ فيضرع الكليم إلى ربه سبحانه فيكشف عنهم العذاب فإذا هم ينكثون، ثم يتمادى الطاغية في عتوه وسفاهته على الرسول الأمين وإيذائه إياه بما يشير إليه قول الله جل علاه:) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (١٣١، فهل ظن المتأله المتكبر أنه يفوت الله القدوس المهيمن؟ وهل يحسب المفتونون البطرون بما أوتوا من جاه ومال أن سيتأتى لهم الإفلات من قبضته جل علاه؟ حاشا! إن الجن على بأسهم وقوتهم أقروا وأذعنوا بالسلطان المحيط لرب العرش المجيد:). . لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا (١٣٢، فلن يكون من مخلوق أن يعجز الله تعالى أو يسبقه أو يفوته {وما كانوا سابقين} بل هم في ملكي، والأرض جميعا قبضتي والسماوات مطويات بيميني، ونواصي العباد كلهم بيدي، فأخذت كل جبار عنيد وأهلكته بذنبه الذي اجترحه، {فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا} فمن هؤلاء الطاغين من قتلته بالريح العاصف المدمر) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (١٣٣ فسرعتها عاتية وتحمل الحصباء فتقتلع الثوابت وتنفذ في الأوصال) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (١٣٤ أولئك هم قوم عاد، عاقبهم الله تعالى من جنس عملهم، وجوزوا على الخيلاء والكبرياء بالمهانة والإذلال عاجلا وآجلا:) فأما عاد فاستكبروا

في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٣٥، {ومنهم من أخذته الصيحة} وهم ثمود ومدين، {ومنهم من خسفنا به الأرض} وهو قارون، المختال الفخور، البطر المغرور، الذي مشى في الأرض مرحا مزهوا بما يملك، فجازاه الحكم العدل بأن ابتلعه وما ملك الأديم الذي كان يضربه برجله يحسب أن سيخرقه- علوا وتجبرا-، {ومنهم من أغرقنا} فرعون وهامان وجنودهما،). . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (١٣٦، وربنا سبحانه ما ظلمهم). . ولا يظلم ربك أحدا (١٣٧ ولكن هم الذين حرموا أنفسهم حظها من الفوز في الأولى والآخرة بما صدوا عن الهدى، وسارعوا في البغي والفساد، فحق عليهم الهلاك والردى.

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

{سابقين} فائتين ومعجزين.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٠ - (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

{أخذنا} جازينا وعاقبنا، وقتلنا.

{حاصبا} ريحا تحمل الحصى وتعصف.

{الصيحة} زجرة ملك، وصرخة عذاب، وصوت مهلك. .

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤١ - (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{مثل} حال وهيئة وصفة، وقول حكيم يضرب تشبيها لمضربه بمورده، وشبه ونظير. .

{أولياء} أحباء، ومتكلا ومعتمدا، وأربابا مطاعين متبوعين.

{العنكبوت} دويبة [حشرة] تنسج نسيجا وخيطا رقيقا في الهواء.

{أوهن} أضعف.

{مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ٤١ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ٤٢ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ٤٣ خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ٤٤}

إنما هيئة من تولى غير الله سبحانه، واتخذ الأولياء متكلا ومعتمدا، وأربابا مطاعين متبوعين- حال هؤلاء كصفة العنكبوت تأوي إلى أضعف بيت لا يستر ولا يظل، ولا يقي بردا ولا حرا ولا ضرا، إنما هو خيط رقيق متهاو، فمن آوى إلى غير الله الملك الحق المبين فقد ضل ضلالا بعيدا، لو كانوا يعرفون هوان المتبوعين، وما نسجته أوهام الحمقى ثم زعموا أنه الدين! - ربما لو صح علمهم بهذا الضياع والخسران لأقلعوا عن الشرك واتخاذ الأوثان- ١٣٨ [ولكنهم يجهلون ذلك فيحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى] ١٣٩، إن ربنا يعلم أن ما دعوه من دونه سبحانه ليس بشيء يعبأ به). . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. . (١٤٠ ومولانا المعبود بحق هو صاحب العزة البالغة، يقهر ولا يقهر، وبالغ الحكمة لا يفوته حق ولا صواب، وكان أهل الزيغ والنفاق يسخرون من ضرب القرآن لأمثال فيها الذباب والبعوض والعنكبوت، فرد العليم الخبير على ارتيابهم واستهزائهم، فنزلت: {وتلك الأمثال نضربها للناس} وذلك لأن الأمثال والتشبيهات وسائل إلى معاني المحتجبة في الأستار. . قال الحكيم: العلم الحدسي يعرفه العاقل، وأما إذا كان فكريا دقيقا فإنه لا يعقله إلا العالم ١٤١، لافتقاره إلى مقدمات سابقة، والمثل مما يفتقر في إدراك صحته وحسن موقعه إلى أمور سابقة ولاحقة يعرف بها تناسب مورده ومضربه وفائدة إيراده، فلا يعقل صحتها إلا العلماء- أوجد الله تعالى السماوات والأرض إيجادا

محقا أراد بذلك سبحانه الحق والحكمة والعدل، وصدق الكتاب العزيز) وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت. . (١٤٢، [أو ملتبسة بالحق الذي لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية. . فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شئونه تعالى المتعلقة بذاته سبحانه وصفاته] ١٤٣، إن في هذا الإحكام وتلك الحكم لدلالة وعلامة وبرهانا، يزيد المؤمنين إيمانا، {وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكل، لأنهم المنتفعون بذلك] ١٤٤.

٤٢ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{يدعون} يعبدون، وإليه يضرعون، أو: يسمونه معبودا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٣ - (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

{بالحق} تدل على الله الحق وليفرق بابتلائها بين أهل الباطل وأهل الحق.

{لآية} علامة وبرهانا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار

٤٥ - (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

{اتل} أقرأ وتابع القراءة.

{الكتاب} القرآن الحكيم.

{أقم} تعاهد وحافظ وأصلح، وداوم عليها، واستمسك بها.

{الفحشاء} المعصية التي يفحش أثرها ويثقل وزرها، وأكثر ما يراد بها الزنى.

{المنكر} ما ينفر منه الطبع ويأباه الشرع.

{اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ٤٥*}

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن آمن به أن يتابع قراءة القرآن، وحي الملك الديان، ويتدبر ويتفكر، ففي ذلك نور العقول، وشفاء الصدور، وهدى القلوب، واستقامة السلوك، ومن قبل ذلك ومع ذلك مرضاة لمنزله وموحيه، وأجر للقارئ والسامع، وتعاهد الصلاة واستمسك بها، وحافظ عليها وداوم على أدائها في أوقاتها، مستكملة لأركانها وشروطها وسننها، وآدابها وخشوعها، فذلك من تمام صلاحها، إن الصلاة تزجر من عرف لها حقها وترده عن ارتكاب الفواحش، وإتيان المنكرات- وكيف لا تنهى ونحن نرى أن من لبس ثوبا فاخرا فإنه يتجنب مباشرة القاذورات؟ فمن لبس لباس التقوى كيف لا يتجنب الفواحش؟! وأيضا الصلاة توجب القرب من الله تعالى كما قال:). . واسجد واقترب (١٤٥ ومقرب الملك المجازي يجل منصبه أن يتعاطى الأشغال الخسيسة فكيف يكون مقرب الملك الحقيقي! - ١٤٦. {ولذكر الله} إياكم برحمته وبين ملائكته {أكبر} من ذكركم إياه بطاعته، والله عليم بالذي تصنعون، وبما تأتون وتذرون، فمجازيكم على ذلك، فإياه فاعبدوا، وعلى منهاجه فاسلكوه، وما نهاكم عنه فانتهوا.

٤٦ - (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

{ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ٤٦}

بعد الأمر بتلاوة القرآن، وإتمام الصلاة، وذكر الله، وتعاهد ذلك والثبات عليه ليكون أعون على الاستقامة على الهدي، والتنائي عن الفحشاء والعصيان والردى- وذلك مما بينته الآية السابقة الخامسة والأربعون- جاءت هذه الآية الكريمة تنهانا عن شيء وتأمرنا بآخر،

نهانا ربنا عن مناظرة ومغالبة اليهود والنصارى، مغالبة فيها مخاشنة، إلا من سفه منهم وتجاوز حده، فهذا نجادله بالحجة ونجادله بكل قوة وغلظة، ملحدا كان أو وثنيا، يهوديا أو نصرانيا، استجابة لأمر مولانا الحق:) قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (١٤٧، {وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم} ألزمهم الحجة، وأقيموا عليهم سلطان الله وبرهانه، وأسقطوا الباطل الذي يخوضون فيه، واكشفوا بخصامكم لهم زورهم الذي فضحهم به القرآن. .

). . ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافين عذابا مهينا (١٤٨ (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين (١٤٩ فأقيموا حجة الله البالغة وأشهدوا الدنيا على أن هذا الدين يعهد إلى المؤمنين به أن يؤمنوا بما أنزل الله إليهم من وحي وكتاب، وبما أنزل على الرسل السابقين من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل، ونؤمن بالله ربنا ورب اليهود والنصارى ورب العالمين أجمعين، ونحن لأمره مطيعون، وعلى مناهجه سالكون، فالإسلام يجمع ولا يفرق، وسبيله مستقيمة لا تقبل عوجا.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " {وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم}.

[وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل- وفي رواية- إما أن تكذبوا الحق وإما أن تصدقوا بالباطل "] ١٥٠.

[وروى البخاري عن حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب، يقول ابن كثير: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف يحسن الظن بها، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة، لأنهم لم يكن في أمتهم حفّاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل، ومن منحه الله تعالى علما بذلك، كل بحسبه- ولله الحمد والمنة.

وجمهور علماء القرآن على أن الآية محكمة، باق حكمها لم ينسخ، فمن أراد منهم الاستبصار في الدين دعوناه بالحكمة، وجادلناه بالحسنى ليكون أنفع له، وأرفق به، وأعون على هدايته، وأبلغ في الإعذار، كما قال تعالى لموسى وهارون:) اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (١٥١ [وقوله على هذا {إلا الذين ظلموا منهم} معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق. . . إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية] ١٥٢، وذهب قتادة إلى أنها منسوخة بآية القتال، لكن رد عليهم بأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول.

٤٧ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ)

{يجحد} ينفي ما في القلب ثباته، ويثبت ما في القلب نفيه.

{وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ٤٧}

ومثل إنزالنا الكتب على من سبقك من الرسل أنزلنا إليك القرآن، فالذين جاءتهم كتب قبلك، وأعطيناهم التوراة والإنجيل يصدقون بما أنزل إليك لأنهم علموا من الكتب السابقة صدق رسالتك- ف [أل] في {الكتاب} الذي جاء في أول الآية للعهد أي الكتاب المعهود وهو القرآن، و [أل] في {الكتاب} الذي ذكر ثانيا للجنس أي جنس الكتب المنزلة {ومن هؤلاء} الذين من حولك من يصدق بالقرآن ويستيقن، وما ينكر آيات الله بعد تبينها ووضوحها مع علمه بها، ويجحد ويكذب بها ظاهرا وقلبه مستيقن بصدقها وصدق من جاء بها، لكنه يكابر أنفة وحسدا، لأن الكفر تمكن منه فصرفه عن تقديس الآيات والإذعان لعهدها.

٤٨ - (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)
}وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ٤٨{
ولم تكن يا محمد تقرأ أو تتابع من قبل نزول القرآن عليك أي كتاب، ولم تكن تخط وتكتب شيئا بيمناك، فلو كنت من القارئين الكاتبين قبل أن يوحى إليك الذكر الحكيم لشك الشاكون في صدقك وصدق الكتاب، لأن اليهود والنصارى علموا من التوراة والإنجيل صفتك وأنك أمي لا تكتب ولا تقرأ، ولكان للمشركين شبهة فيما افتروه واختلقوه كذبا بقولهم الذي حكاه القرآن: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (١٥٣ [أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى:) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. . (١٥٤ الآية، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي ١٥٥ والرسائل إلى الأقاليم، ومن زعم من متأخري الفقهاء. . . أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: ثم أخذ فكتب، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب،. . . وما أورد بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له] ١٥٦.

٤٩ - (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ)
}بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ٤٩{
لكنا حفظنا القرآن من الارتياب، فليس مما يتطرق إليه شك، بل هو ذو آيات واضحات، موضحات تامات صادقات }في صدور الذين أوتوا العلم{ ممن آمن بالله وصدق بكتابه ورسوله- ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه، وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به، يحفظونه ويقرءونه، ووصفهم بالعلم، لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله، وكلام البشر والشياطين- ١٥٧.
}وما يجحد بآياتنا{ ما يعاند ويبخس آياتنا حقها، ويستنكف عنها ويرد عهدها }إلا الظالمون{ الباغون }آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا،. .
وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول الله تعالى: " إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء. . " أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل. . . ولأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظا ومعنى. .] ١٥٨.

٥٠ - (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)
}وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥{
بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات، وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو

تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٥٩، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (١٦٠، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى مناهجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (١٦١، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٦٢، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٦٣) في عمد ممدة (١٦٤) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (١٦٥، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (١٦٦.

٥١ - (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥{

بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات، وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا

من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٦٧، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (١٦٨، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى منهاجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (١٦٩، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٧٠، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٧١) في عمد ممدة (١٧٢) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (١٧٣، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (١٧٤.

٥٢ - (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥{

بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات،

وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٧٥، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (١٧٦، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى مناهجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (١٧٧، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٧٨، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٧٩) في عمد ممدة (١٨٠) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (١٨١، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (١٨٢.

٥٣ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥}

بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن

يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات، وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٨٣، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (١٨٤، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى مناهجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (١٨٥، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٨٦، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٨٧) في عمد ممدة (١٨٨) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (١٨٩، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (١٩٠.

٥٤ - (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥}

بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة

الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات، وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٩١، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (١٩٢، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى مناهجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (١٩٣، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٩٤، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٩٥) في عمد ممدة (١٩٦) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (١٩٧، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (١٩٨.

٥٥ - (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٥٠ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ٥١ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ٥٢ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ٥٣ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ٥٤ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ٥٥}

بعد أن ساقت الآيات البرهان على صدق القرآن ومن أنزل عليه القرآن بين العزيز العليم جانبا من تعنت المشركين، بيته معهم أئمة الحقد من اليهود والنصارى الضالين، فاقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم- بل اشترطوا لقبولهم ما يدعو إليه، وتصديقهم لرسالته أن يجيئهم بآيات كونية، ومعجزات حسية، تكون برهانا على صدق نبوته، كما أوتي صالح الناقة، وأوتي موسى العصا، في جملة تسع آيات، وأوتي عيسى معجزة إحياء الموتى بإذن الله- ولقد بين القرآن الكريم ما اشترطوه في آي كريمات:) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (١٩٩، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بقوله تبارك اسمه:) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها. . (٢٠٠، وقل لهم: الدلائل الحسية يرسلها الله تعالى متى شاء ويمسكها حين يشاء، ولا أملك إلا أن أنذر من كذب، وأبين ما أوحي إلي من الحق والرشد، وهل يبتغي عاقل برهانا على صدق الرسالة أقطع من سلطان القرآن وبرهانه؟! وإنه للمعجزة الخالدة، لا يخضع لسلطان حججه من عاصر نزوله وحسب، وإنما تبقى الحجة به قائمة، والتحدي بإعجازه ممتد إلى الأبد، أفلم يكفهم هذا وقد أردنا أن تكون أعظم المعجزات التي نجريها على يديك هي معجزة عقلية أبدية؟!

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر ولكن الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "، {إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} إن في ذلك الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم {لرحمة} في الدنيا والآخرة {وذكرى} يتذكر بها أصحاب العقول في الدنيا سبيل ربحهم وفوزهم العاجل والآجل، فيتحقق به الفلاح {لقوم يؤمنون} فإنهم الذين يصدقون، وعلى منهاجه يستقيمون، فإن صد عنك وعما جاءك المستكبرون، واتهمك المفترون، فكفى أن يشهد برسالتك من أحاط علمه بأرجاء السماء، وظلمات الأرض وآفاق الكون، يعلم أنك على الحق المبين، وأنه لن يتأتى لك أن تقول من عند نفسك فتكون من المهلكين:) ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين (٢٠١، ومن يصدق الشيطان ويعبد الأوثان، ويجحد جلال الملك الديان، فأولئك خسروا أعظم الخسران، ومهما تعجلوا نزول العذاب بساحتهم- يستبعدون ذلك، وينكرون ويسخرون- فلن يحل بهم إلا في الوقت الذي قضاه الله موعدا لإهلاكهم، وسنبطش بهم فجأة فلا يشعرون إلا ببأسنا قد باغتهم إذ لم يكونوا يتوقعون، كما قال الله سبحانه:) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٢٠٢، فإن كانوا يستعجلون نقمة الآخرة، ونكال الجحيم، فإن جهنم موعدهم، وموئلهم ومرجعهم، فهي كالمحيطة بهم لدنوها منهم، وسيطوقهم سرادقها ويحيط بهم يوم يلفهم اللهب والسعير من كل جوانبهم ونواحيهم،) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (٢٠٣) في عمد ممدة (٢٠٤) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. . (٢٠٥، وتحسرهم الملائكة فيقول خازن النار، بأمر الواحد القهار

{ذوقوا ما كنتم تعملون} تجرعوا جزاء ما عملتم، واصلوا ما كنتم قد كذبتم به واستعجلتم، {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} قد يراد من سائر الجهات وليس من أعلى وأسفل فقط، كما جاء في قول الله الحق.) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم. . (٢٠٦.

٥٦ - (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ٥٦ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ٥٧ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ٥٨ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٥٩}

شرف الله تعالى المؤمنين فنسبهم إليه، وناداهم {يا عبادي} وشهد لهم سبحانه أنهم أهل تصديق ويقين، ودعاهم إلى الثبات على عبادته ومداومتها، فمن لم يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من أعداء الله تعالى ومن والاهم، تلزمه النقلة الى حيث يتسنى

له الوفاء بعهد ربه، وأداء ما تعبده به، [المؤمن إذا لم يتسهل له عبادة الله في بلد على وجه الإخلاص ٢٠٧ فليهاجر عنه إلى بلد يكون فيه أفرغ بالا ٢٠٨، وأرفع حلا ٢٠٩، وأقل عوارض نفسية، وأكمل دواعي روحانية. . . والفاء في {فإياي} للدلالة على أنه جواب الشرط. . . . وجيء بالفاء الثانية الدالة على ترتيب المقتضى على المقتضى. . فصار حاصل المعنى: إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، والفائدة في الأمر بالعبادة بعد قوله: {يا عبادي}. . إما المداولة. . أو الإخلاص في العبادة] ٢١٠، فإن تهيب مخاطر السفر، ومهالك الارتحال والنقل، فإنه لن يموت إلا عند حلول الأجل، وبعده يكون العرض على الله، والجزاء بالعدل، ولقد أشير إلى معنى الآيتين في قول المولى تبارك وتعالى:) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. . (٢١١، وبشرى لكم أهل الإيمان والصلاح، والهجرة والجهاد، والثبات والنصرة، جنات عاليات مبنيات، وقصور ما بعدها من قصور، لكنها رفيعة مشيدة، تجري من تحت حدائقها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، تنعمون فيها أبدا، وأكرم بدار مقام، يعم فيها السلام، عند مليك مقتدر، يجزي على الإحسان بمزيد الإحسان، للذين صبروا في البأساء والضراء وحين يلتقي الجمعان، وهم يعتصمون على كل حال بحول الرحيم الرحمن، الملك الديان، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

في صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف ٢١٢ من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".

٥٧ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]

{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ٥٦ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ٥٧ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ٥٨ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٥٩}

شرف الله تعالى المؤمنين فنسبهم إليه، وناداهم {يا عبادي} وشهد لهم سبحانه أنهم أهل تصديق ويقين، ودعاهم إلى الثبات على عبادته ومداومتها، فمن لم يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من أعداء الله تعالى ومن والاهم، تلزمه النقلة الى حيث يتسنى له الوفاء بعهد ربه، وأداء ما تعبده به، [المؤمن إذا لم يتسهل له عبادة الله في بلد على وجه الإخلاص ٢١٣ فليهاجر عنه إلى بلد يكون فيه أفرغ بالا ٢١٤، وأرفع حلا ٢١٥، وأقل عوارض نفسية، وأكمل دواعي روحانية. . . والفاء في {فإياي} للدلالة على أنه جواب الشرط. . . . وجيء بالفاء الثانية الدالة على ترتيب المقتضى على المقتضى. . فصار حاصل المعنى: إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، والفائدة في الأمر بالعبادة بعد قوله: {يا عبادي}. . إما المداولة. . أو الإخلاص في العبادة] ٢١٦، فإن تهيب مخاطر السفر، ومهالك الارتحال والنقل، فإنه لن يموت إلا عند حلول الأجل، وبعده يكون العرض على الله، والجزاء بالعدل، ولقد أشير إلى معنى الآيتين في قول المولى تبارك وتعالى:) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. . (٢١٧، وبشرى لكم أهل الإيمان والصلاح، والهجرة والجهاد، والثبات والنصرة، جنات عاليات مبنيات، وقصور ما بعدها من قصور، لكنها رفيعة مشيدة، تجري من تحت حدائقها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، تنعمون فيها أبدا، وأكرم بدار مقام، يعم فيها السلام، عند مليك مقتدر، يجزي على الإحسان بمزيد الإحسان، للذين صبروا في البأساء والضراء وحين يلتقي الجمعان، وهم يعتصمون على كل حال بحول الرحيم الرحمن، الملك الديان، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

في صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف ٢١٨ من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".

٥٨ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]
{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ٥٦ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ٥٧ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ٥٨ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٥٩}
شرف الله تعالى المؤمنين فنسبهم إليه، وناداهم {يا عبادي} وشهد لهم سبحانه أنهم أهل تصديق ويقين، ودعاهم إلى الثبات على عبادته ومداومتها، فمن لم يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من أعداء الله تعالى ومن والاهم، تلزمه النقلة الى حيث يتسنى له الوفاء بعهد ربه، وأداء ما تعبده به، [المؤمن إذا لم يتسهل له عبادة الله في بلد على وجه الإخلاص ٢١٩ فليهاجر عنه إلى بلد يكون فيه أفرغ بالا ٢٢٠، وأرفع حلا ٢٢١، وأقل عوارض نفسية، وأكمل دواعي روحانية. . . والفاء في {فإياي} للدلالة على أنه جواب الشرط. . . . وجيء بالفاء الثانية الدالة على ترتيب المقتضى على المقتضى. . فصار حاصل المعنى: إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، والفائدة في الأمر بالعبادة بعد قوله: {يا عبادي}. . إما المداولة. . أو الإخلاص في العبادة] ٢٢٢، فإن تهيب مخاطر السفر، ومهالك الارتحال والنقل، فإنه لن يموت إلا عند حلول الأجل، وبعده يكون العرض على الله، والجزاء بالعدل، ولقد أشير إلى معنى الآيتين في قول المولى تبارك وتعالى:) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. . (٢٢٣، وبشرى لكم أهل الإيمان والصلاح، والهجرة والجهاد، والثبات والنصرة، جنات عاليات مبنيات، وقصور ما بعدها من قصور، لكنها رفيعة مشيدة، تجري من تحت حدائقها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، تنعمون فيها أبدا، وأكرم بدار مقام، يعم فيها السلام، عند مليك مقتدر، يجزي على الإحسان بمزيد الإحسان، للذين صبروا في البأساء والضراء وحين يلتقي الجمعان، وهم يعتصمون على كل حال بحول الرحيم الرحمن، الملك الديان، فهو حسبنا ونعم الوكيل.
في صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف ٢٢٤ من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".
٥٩ - (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]
{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ٥٦ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ٥٧ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ٥٨ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٥٩}
شرف الله تعالى المؤمنين فنسبهم إليه، وناداهم {يا عبادي} وشهد لهم سبحانه أنهم أهل تصديق ويقين، ودعاهم إلى الثبات على عبادته ومداومتها، فمن لم يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من أعداء الله تعالى ومن والاهم، تلزمه النقلة الى حيث يتسنى له الوفاء بعهد ربه، وأداء ما تعبده به، [المؤمن إذا لم يتسهل له عبادة الله في بلد على وجه الإخلاص ٢٢٥ فليهاجر عنه إلى بلد يكون فيه أفرغ بالا ٢٢٦، وأرفع حلا ٢٢٧، وأقل عوارض نفسية، وأكمل دواعي روحانية. . . والفاء في {فإياي} للدلالة على أنه جواب الشرط. . . . وجيء بالفاء الثانية الدالة على ترتيب المقتضى على المقتضى. . فصار حاصل المعنى: إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، والفائدة في الأمر بالعبادة بعد قوله: {يا عبادي}. . إما المداولة. . أو الإخلاص في العبادة] ٢٢٨، فإن تهيب مخاطر السفر، ومهالك الارتحال والنقل، فإنه لن يموت إلا عند حلول الأجل، وبعده يكون العرض على الله، والجزاء بالعدل، ولقد أشير إلى معنى الآيتين في قول المولى تبارك وتعالى:) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. . (٢٢٩، وبشرى لكم أهل الإيمان والصلاح، والهجرة والجهاد، والثبات والنصرة، جنات عاليات مبنيات، وقصور ما بعدها من قصور، لكنها رفيعة مشيدة، تجري من تحت حدائقها أنهار الماء واللبن

والخمر والعسل، تنعمون فيها أبدا، وأكرم بدار مقام، يعم فيها السلام، عند مليك مقتدر، يجزي على الإحسان بمزيد الإحسان، للذين صبروا في البأساء والضراء وحين يلتقي الجمعان، وهم يعتصمون على كل حال بحول الرحيم الرحمن، الملك الديان، فهو حسبنا ونعم الوكيل.
في صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف ٢٣٠ من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".
٦٠ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
{وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ٦٠}
وكم من عدد كثير، وكشيء كثير من العدد من دابة- طير وبهائم- تأكل لوقتها ولا تدخر لغد، ولا تقدر على حمل رزقها، أو على تحصيله إلا بإقدار الله، فالله يرزقها كما يرزقكم، فلا يجوع المتوكل، ولا يحرز - على الحقيقة- الحريص، والله هو الذي أحاط سمعه بكل مسموع وإن خفي أو دق- ومنه ما يقول القاعدون عن نصرة الحق وما به يعتذرون- وبالغ علمه كل ما يعلم- وإن كان حالا أو سرا أو حديث نفس- وهو مجاز بالحق على كل قول وفعل.
[{الله يرزقها وإياكم} يسوي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحيول والعاجز، حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا "] ٢٣١
أقول: وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المطلوب: [حق التوكل] وليس التواكل، فلنأخذ بالأسباب مع يقيننا بأن الله هو الرزاق، وله تبارك وتعالى عاقبة الأمور، فقد يتم المسعى على ساعيه، ويظفره بما كان يبتغيه، وقد لا يتم عليه مقصده، لأمر هو سبحانه يقضيه، وكما أمرنا سبحانه أن ننتشر في الأرض، ونبتغي من فضله (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه. . (٢٣٢). . فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. . (٢٣٣ علمنا في هذا الحديث الشريف أن الطير تغدو، وتخرج في طلب القوت فينجح الله مسعاها وترجع من سعيها شبعى.
٦١ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)
{سخر} ذلل، وقهر ودبر، وألزم الشيء سنته، ليحقق ما أريد له.
{يؤفكون} يصرفون، ويقلبون ويخدعون، وتضعف آراؤهم وعقولهم.
{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ٦١ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ٦٢ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ٦٣}
وما أعجب حال المشركين، فإن سألتهم عمن خلق السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما؟ أجابوا: إنه الله، وإن سألتهم من سخر وذلل الشمس والقمر، وألزم كلا منهما سننه لنفع العباد؟ ليجيبنك: إنه الله، وفي آية كريمة أخرى يقول ربنا جل علاه:) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. . (٢٣٤ ويقول تبارك اسمه:) ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٢٣٥ فكيف يقلبون عن الحق ويصرفون ويمنعون؟ وأين غابت عقولهم فتمادوا في غيهم يعمهون؟ والبارئ المصور، المبدع الخلاق، هو المدبر الرزاق، يوسع رزق من يشاء من عبيده، ويقتر ويضيق الرزق لمن يشاء، إنه المعبود بحق، المحيط علمه بكل شيء، فيعلم ماذا يصلح شأن الناس، فمن قضت الحكمة الإلهية بأن التوسعة له خير وهبه، ومن قضت الحكمة أن يعطي بقدر أعطاه ما قضاه له:) ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء. . (٢٣٦، وحين تسألهم عن مسير السحاب، ومنزل المطر، ومغيث

العباد والبلاد يجيبون: الله يصيب بالمطر من يشاء ويصرفه عمن يشاء فيحيي به البلدة الهامدة الميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج!) وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد (٢٣٧ فاحمد الله أن هداك إليه، ودلك عليه، وحبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، ولا تحزن على تكذيب هؤلاء المفتونين، فقد أفسد عقولهم الغرور وطاعة الشياطين.

٦٢ - (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{يبسط} يوسع.

{يقدر} يضيق، ويقتر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٠ إظهار

٦٣ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٠ إظهار

٦٤ - (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

{وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ٦٤{

ما ينبغي لمؤمن أن يخلد إلى تراب، ويأوي إلى بلدة أو دار، إذا صده ذاك المقام عن عبادة العزيز الغفار، وسحقا لغافل غره المتاع الزائل، وأبطره الزخرف الباطل فعاند الواحد القهار، أيحسبون أن ما أوتوا يغني عنهم؟ أو أن الدنيا دار قرار؟؟ كلا فإن الخبير البصير بيّن لنا حقيقة عاجلنا، وما إليه نصير، يقول المولى تبارك اسمه:) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ٢٣٨ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٣٩ ويقول عز شأنه:) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون (٢٤٠ وفي الآية الكريمة من هذه السورة يعلمنا العليم الحكيم أن هذه الحياة الدنية دان أجلها، قريب زوالها، وأكثر من يحيونها يقبلون على الباطل ويعرضون عن الحق، فإذا هم من اللاهين، وهذا ما فسر به العلماء [اللعب]-.

مما نقل النيسابوري: ويمكن أن يقال: المنشغل بها لا على وجه الاستغراق بل على وجه يفرغ لبعض أمور الآخرة: لاعب، والمشغول بها بحيث ينسى الآخرة بالكلية لاه. وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت. اهـ.

وفي أمثال هؤلاء يقول الكتاب الحكيم:) ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٢٤١، وإن الآخرة لهي الحياة الحقيقية لدوامها، وعظم نعيمها، {لو كانوا يعلمون} ذلك، وأن العاجلة فانية، والآجلة هي الباقية، لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

٦٥ - (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

{الفلك} السفينة.

{مخلصين} مريدين بها اللجوء إلى الله لجوءا خالصا له سبحانه دون سواه.

{يشركون} يتخذون مع الله تعالى شركاء.

{فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ٦٥ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ٦٦{

الفاء للتعقيب، أي هم مصروفون عن الحق والرشد، مائلون ومنقلبون عن توحيد الله تعالى مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق، لاهون عن الخير والمصير، لاعبون بأمانات القوي القدير، فإذا نزلت بهم الشدائد، وأحسوا بضيق وضر، توجهوا إلى رب العالمين، ولم يلجئوا إلى ما كانوا به مشركين، من أصنام أو كواكب أو شياطين، وحين ينجيهم ربهم يسارعون إلى الوثنية، ويعاودهم ضلالهم فيكفرون برب

البرية، فليتمتعوا بطاعة أهوائهم، فسوف يعلمون عاقبة غيهم وجزاء كفرهم وغدرهم واستهزائهم، وفي آيات كريمة أخرى تبيين لجحودهم، ووعيد على قبح مكرهم، ونقضهم عهد ربهم:) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٢٤٢

وآيات مباركات أخر يحذرهم الفعال لما يريد من نكال عاجل بهم قبل الذي ادخر لهم إلى يوم الوعيد:) قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون. قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض (٢٤٣) ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إن الله كان بكم رحيما. وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا. أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا.

أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا (٢٤٤.

[وقد ذكر محمد بن إسحق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فارا منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم! أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضا غيره! اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفا رحيما، فكان كذلك] ٢٤٥. أقول: ولعل مما يشير إلى أن البأس قد يرقق بعض القلوب فتنيب إلى علام الغيوب، ما يمكن أن يعني قوله تبارك وتعالى:) وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور (٢٤٦.

وذهب فريق من أصحاب الإعراب إلى أن اللام في {ليكفروا} و {ليتمتعوا} لام كي أو الأولى للتعليل، والثانية للأمر، وقيل: اللام فيهما لام الأمر، والأمر للتهديد، كالذي في قوله تعالى:). . . قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار (٢٤٧، {فسوف يعلمون} عاقبة ذلك حين يعاقبون عليه يوم القيامة، وفي ذلك من التهديد ما فيه.

٦٦ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

{يبسط} يوسع.

{يقدر} يضيق، ويقتر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٥ إظهار

٦٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

{حرما} يحرم فيه ما لا يحرم في غيره.

{أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ٦٧ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ٦٨}

أعلموا فلم ينظروا ولم يبصروا أنا جعلنا بلدهم مكة حرما يأمن أهله عما يسوءهم، بل ويأمن في الحرم أحياؤه من نبات وحيوان فلا يقطع شجره، ولا يصاد صيده، ومن سواهم من البلاد والشعوب يفزعون ويسلبون ويقتلون ويؤسرون، أفيكون الشكر على نعمة الأمن والرزق أن يعظموا الوثن، ويشاقوا الحكيم البارئ المصور، واهب الفضل مسبغ النعم؟! وأي الظلمة أشد ظلما من هؤلاء الذين زعموا لله شركاء، وادعوا لله تعالى بنات، وكذبوا بما جاءهم من الحق من ربهم؟ فما أقبح افتراءهم، وما أغلظ عذابهم، وما أسوأ مستقرهم، والعذاب الذي أعد لهم.

[ومن أظلم أيها الناس ممن اختلق على الله كذبا فقالوا إذا فعلوا فاحشة: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، والله لا يأمر بالفحشاء، {أو

كذب بالحق لما جاءه} يقول: أو كذب بما بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من توحيده والبراءة من الآلهة والأنداد، ولما جاءه هذا الحق من عند الله {أليس في جهنم مثوى للكافرين} يقول: أليس في النار مثوى ومسكن لمن كفر بالله وجحد توحيده وكذب رسوله صلى الله عليه وسلم! وهذا تقرير وليس باستفهام، إنما هو كقول جرير:
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح
إنما أخبر أن للكافرين بالله مسكنا في النار ومنزلا يثوون فيه] ٢٤٨.
٦٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)
{افترى على الله كذبا} ادعى له سبحانه شريكا، فوصفه بما ليس فيه
{مثوى} مكان إقامة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٧ إظهار
٦٩ - (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)
{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ٦٩}
وبعد تتابع الآيات السابقات في خذلان المبطلين الضالين، جاءت هذه في هداية وولاية المجاهدين المتقين، فالذين نصروا الدين، وردوا على المبطلين، وزجروا الظالمين، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، قسما مؤكدا لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير، ومنازل المثوبة، وفي ذلك يقول المولى الحق سبحانه:) والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٢٤٩ ويقول تبارك اسمه:) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى. . (٢٥٠.
نقل عن بعض علماء القرآن: هي في الذين يعملون بما يعلمون ٢٥١، {وإن الله لمع المحسنين} واستيقنوا يقينا لا ريب فيه ولا شك معه أن المعبود بحق لن يتخلى عمن أحسن- وما فقد شيئا من وجد الله.
وجاء التوكيد بأدواته المتتابعة {وإن} واللام، يقول اللغويون: لام التوكيد دخلت في {مع}. . وإن تكن حرفا، فتدخل عليها، لأن فيها معنى الاستقرار، وأل في {المحسنين} يحتمل أن تكون للعهد، فالمراد بالمحسنين الذين جاهدوا، ووجه إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهر. . ويحتمل أن يكون للجنس، فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالأفعال الحسنة، ويدخل أولئك دخولا أوليا برهانيا ٢٥٢ أقول: ولماذا لا يبقى اللفظ على عمومه في كل من بلغ بعمل خير نافع مبلغ الإتقان والإجادة، وأتمه على أكمل وجه مستطاع، فإذا عبد الله العظيم عبده وكأنه يراه، وإذا عمل لنفسه أو غيره طيب ما أدى وحسّنه غاية التحسين؟! يقول صاحب [الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان] ٢٥٣: وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة، فبين المعنيين بون. اه
وإنه لتنزيل العزيز الحكيم أن تختم السورة التي بدئت بالامتحان والابتلاء والفتنة، وعهدت إلى المؤمنين بالثبات والنصرة والهجرة، تختم بهذه البشرى وتلك المعية، فبشرى لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد بعلمه ليحق الحق،) إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٢٥٤) وإن ينصركم الله فلا غالب لكم. . . (٢٥٥ فاللهم نصرك الذي وعدت، اللهم آمين.

٣٠ سورة الروم:

سورة الروم:
سورة الروم مكية
وآياتها ستون
كلماتها ٨١٩ - حروفها ٣٥٣٤
١ - (الم)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم ١ غلبت الروم ٢ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ٣ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ٤ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ٥ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٦ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ٧}

{الم} قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وربما يراد بها التحدي، إذ الألف واللام والميم منها ومن الحروف التي على شاكلتها يتألف الكتاب العزيز، وبها ينطق العرب، ومنها يتكون كلامهم، ومع هذا عجزوا عن الإتيان بما يشبه القرآن الكريم، وسيظلون عاجزين، فثبت أن الذكر الحكيم ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام رب القوى والقدر.

٢ - (غُلِبَتِ الرُّومُ)

{الروم} هم الجنس المعروفون، وكانت لهم دولة شملت بقاعا من أوروبا وآسيا، وبقيت امبراطوريتهم إلى القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، وكانوا يدينون بالنصرانية.

{غلبت الروم} القوم المعروفون، أصحاب الامبراطورية التي تدين بالنصرانية، وتمتد دولتهم- حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم- إلى مشارف أرض الحجاز، غلبتهم دولة فارس المجاورة، وهزمتهم الملوك الأكاسرة.

٣ - (فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

{أدنى الأرض} أقربها إلى الحجاز أو الشام.

{غلبهم} هزيمتهم.

{في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون} وكانت هزيمتهم آنذاك في أرض أقرب ما تكون إلى الحجاز أو الشام أو إلى فارس، واعلموا أيها الناس أن الروم بعد تلك الهزيمة سيظفرون بعدوهم ويغلبونه.

٤ - (فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

{بضع سنين} من ثلاث إلى تسع.

{في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون} وسيتحقق ظفرهم بعدوهم في أمد أقل من عشر سنين، والله المعبود بحق يداول بين الناس، وهو المدبر المسيطر من قبل الغلب ومن بعده، له الحكم فيما مضى وفيما هو آت، وحين يظفر الروم بالفرس ستفرحون معاشر المؤمنين، فقد أنبأكم عالم الغيب بما غاب عن البشر، وحين يقع ما جاءكم من أنباء الغيب سيزداد المؤمنون إيمانا، ويستيقن الذين أوتوا الكتاب، ومن شرح الله صدره للحق أن القرآن وحي الله الحكيم، أو سيتوافق وقت ظفرهم مع يوم نصر لكم على عدوكم.

٥ - (بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

{بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم} يفرح المؤمنون بنصر المعبود لا إله سواه، وبإرادة الملك المهيمن جل علاه:) إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٢، وهو العزيز الذي يغلب ولا يغلب، الرحيم بأوليائه أن يخذلهم.

٦ - (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون} إن الذي أنبأكم به الوحي- من ظفر الروم بعدوهم، ونصركم على أعدائكم- وعد من الله تعالى وربكم لا يخلف الميعاد). . إن وعد الله حق. . (٣، ولكن أكثر الناس الذين لا يستيقنون بالله لا يعلمون أن الله منجز ما وعد.

وجمهور من المفسرين أطالوا القول في سبب نزول تلك الآيات، وأوردوا كثيرا من المأثور- يرفعونه- لكن ما ساقوه ليس فيه ما يبلغ

درجة الصحيح، بل أكثره محكوم عليه بالغرابة.
وقد يكون من حكمة المولى اللطيف الخبير في سوق تلك البشرى أن تطمئن القلوب إلى أن من حولهم من الجبارين المتكبرين سيغلبون، وما من يد إلا يد الله فوقها،) والله من ورائهم محيط (٤، وأن المولى سيمن على المستضعفين، ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، وفيه عبرة الله يداول الأيام بين الناس، وأن كتابه يعلم من أحوال الأمم فليكونوا من ذلك على بصيرة.
٧ - (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)
{يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} هؤلاء الأكثرون الضالون يعرفون من الدنيا ملاهيها وملاعبها، ويجهلون عواقبها ومتاعبها، قال الشاعر:
هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من سفكي وفتكي
ولا يغرركم طول ابتسامي ... فقولي مضحك والفعل مبكي
فهم لا يعلمون الحياة على حقيقتها، وأنها دار ممر، ليست دار مستقر، إذ هم في غفلة عما إليه يصيرون، فهم لهذا لم يتزودوا من دنياهم لأخراهم، بل أعرضوا عن العمل لها، فعل التارك الغافل الذي لا علم عنده.
٨ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)
{أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ٨ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٩ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ١٠ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ١١}
أتمادى الجاهلون بحقيقة الآخرة، التاركون لها المنصرفون عنها، ولم يتفكروا بأفئدتهم ونفوسهم في أن خلق السماوات والأرضين وما فيهما ومن عليهما ما هو إلا خلق ملتبس بالحق الذي لا جور فيه، ولا لهو ولا غيث؟ وأنه إلى حين ووقت علمه الله سبحانه، {وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون} فكأن الغفلة عن الآخرة تسلم إلى تكذيبها وإنكارها، كما جاء في قول ربنا الحق:) بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (٥.
٩ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
{أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} أقعدوا ولم يسيروا ويرتحلوا وينتقلوا في أقطار الأرض فينظروا آثار المهلكين من الأمم من قبلهم، كانت الأمم السابقة أشد بأسا من التي أنزل عليها القرآن) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة. . (٦، وكانوا أكثر أموالا وأولادا، وقلبوا الأرض وحرثوها للزراعة، وكان نبيهم يذكرهم منة الله تعالى عليهم بتلك النعمة، ويقول ما حكاه القرآن المجيد:) واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون (٧، وشادوا فيها البنيان:) إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (٩. وكان الرسول إلى الأمة ممن قبلكم يحذرها أن تبطر معيشتها فيقول ما بينته الآية الكريمة:) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا. . (١٠،) أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١١ ومع ما ذكروا به من بديع الآيات وقدسي العظات، كانوا يكذبون رسل الله إليهم، ويكفرون بما أنزل عليهم:) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذبين (١٢ فأهلكهم الله ببغيهم أجمعين، ونجى رسله والمؤمنين،) إن الله

لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ١٣، جازاهم بتكذيبهم وعتوهم، وجحودهم لقاء ربهم، جازاهم بالبطشة الكبرى في العاجل.

١٠ - (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)

{ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون}. يوم القيامة يخزيهم ويرديهم، ويصليهم العذاب السيء بما كسبت أيديهم، وبما كذبوا بالحق الذي جاءهم، والآيات الدالة على جلال الله الذي خلقهم، وكانوا بالآيات يستخفون، ومنها وممن آمن بها يسخرون.

١١ - (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون} ربنا المعبود بحق هو الذي أبدع كل شيء وأنشأه من العدم، ثم يبعث الموتى من قبورهم، ثم يجمعهم لسؤالهم وحسابهم واستيفاء جزائهم.

١٢ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

{يبلس} يسكتون، ويحزنون، وتنقطع حجتهم، وييأسون.

{ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ١٢ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ١٣ ويم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ١٤ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ١٥ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ١٦}

يوم يقوم الناس لرب العالمين، يذهل المجرمون،) هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون (١٤ (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (١٥، وهذا في حال من أحوال يوم التغابن والحسرة وأهواله، وفي حال أخرى يتركون ليشهدوا ويقروا بما كانوا قد عملوا، فإذا اعترفوا بذنوبهم فسحقا لهم.) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٦ وقد يستمرئون الزور والكذب حتى في اليوم الحق:) يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٧ وذلك إفكهم وما كانوا يفترون.

) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (١٨ فعند ذلك يخرس لسانه ويقال لأركانه وجوارحه انطقي فتنطق:) حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (١٩، وهكذا في حال يستطيعون أن يجادلوا عن أنفسهم، فإذا جادلوا بالباطل منعوا الكلام، واستنطقت جوارحهم، ونشرت صحائف أعمالهم، واستشهد الملائكة الكتبة الحفظة الذين كانوا ينسخون ويكتبون ما كان من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

١٣ - (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

{شفعاء} جمع شفيع، والأصل فيه من يضم رأيه إلى رأيك فيصيران شفعا، فالشفيع يسعى من تخليص من يشفع له.

{يتفرقون} يتفرق المحشورون يوم الجمع إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

{ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين} والمجرمون ليس لهم يوم الحساب من شافعين، ولا صديق حميم، فأما ما أشركوه بالله تعالى في العبادة فإنه خاذلهم يومئذ لا محالة:) واتخذوا من الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٢٠) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٢١.

وأما من شاركوهم في الضلال، ودعوهم إلى الغي والخبال، فإنهم لا عنوهم إذ يتخاصمون في النار). . كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٢٢، ويقر المضللون أنهم هلكوا بطاعة الكبراء

والمتسلطين) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٢٣، ولم يشفعوا لهم مع أنهم سبب كفرهم {وكانوا} الواو قد تكون حالية، والفعل ليس لما مضى بل للدلالة على الاستمرار، وفي الآخرة لن يقترن الصالحون والمجرمون في مستقر واحد أبدا) فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى (٢٤.

١٤ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

{شفعاء} جمع شفيع، والأصل فيه من يضم رأيه إلى رأيك فيصيران شفعا، فالشفيع يسعى من تخليص من يشفع له.

{يتفرقون} يتفرق المحشورون يوم الجمع إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

{ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين} والمجرمون ليس لهم يوم الحساب من شافعين، ولا صديق حميم، فأما ما أشركوه بالله تعالى في العبادة فإنه خاذلهم يومئذ لا محالة:) واتخذوا من الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٢٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٢٦.

وأما من شاركوهم في الضلال، ودعوهم إلى الغي والخبال، فإنهم لا عنوهم إذ يتخاصمون في النار). . كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٢٧، ويقر المضللون أنهم هلكوا بطاعة الكبراء والمتسلطين) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٢٨، ولم يشفعوا لهم مع أنهم سبب كفرهم {وكانوا} الواو قد تكون حالية، والفعل ليس لما مضى بل للدلالة على الاستمرار، وفي الآخرة لن يقترن الصالحون والمجرمون في مستقر واحد أبدا) فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى (٢٩.

١٥ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

{في روضة يحبرون} في جنة عالية مورقة ينعمون ويسرون.

{فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون} الذين صدق يقينهم، وصح إيمانهم، وصلحت أعمالهم، واستقامت على الدين حياتهم، يجزيهم ربهم بإيمانهم وصالح أعمالهم نعيم الجنات العاليات، ورياضها ذات الأنهار والبساتين المثمرات، وهم في هذا السلام والإكرام مسرورون خالدون، والعرب لا تعد المكان روضة إلا إذا جمع بين الماء والخضرة والنماء.

١٦ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

{محضرون} مقيمون، نازلون.

{وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون} ومهما اتسعت الرحمة في الآخرة فإنها يختص بها أهل الإيمان، وصدق الله العظيم). . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام. . (٣٠ فأما أهل الجحود وغمط النعمة، والمكذبون بالحق، ووعد الصدق، فما أبعدهم عن الرحمة، وليس لهم سوى نزل الحميم، ودركات الجحيم مستقرا وإقامة.

١٧ - (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٧ وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون ١٨ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ١٩ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ٢٠} سبحوا الله تعالى ونزهوه، وأجلوه عن كل نقص ومجدوه كلما أمسيتم، وكلما أصبحتم، فهو كإرشاده سبحانه:) وسبحوه بكرة وأصيلا (٣١ في البكور وفي الأصائل قدسوا ربكم المعبود بحق، وطهروه عما لا يليق به عز وجل، وأثنوا عليه واشكروا له مساء وصبحا كذلك، فإنه المحمود في الأرض وفي السماء، فإن ملأ السماء يسبحون بحمده ويقدسون له، والذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد

ربهم) تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم. . (٣٢) ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض. . (٣٣) تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده. . (٣٤.
{وعشيا} من الغروب إلى العتمة، وما بعد زوال الشفق الأحمر من الأفق الغربي، أو إلى طلوع الفجر، وهكذا يفرق بينه وبين المساء بأن المساء يكون من بعد الظهر إلى غروب الشمس، ونقلوا عن أمية بن أبي الصلت:
الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسانا
{وحين تظهرون} وقت الظهيرة، حالة زوال الشمس عن كبد السماء، {يخرج الحي من الميت} ربكم تقدس وتبارك يخرج النامي من الهامد، والمتحرك من الجامد الخامد، [فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والدجاج من البيض والإنسان من النطفة. . والمؤمن من الكافر] ٣٥.
{ويخرج الميت من الحي} وهو سبحانه بحكمته وقدرته قد يجعل الحي سببا يتولد عنه الميت، أعم من أن تكون الحياة حسية أو معنوية، فقد يلد المؤمن كافرا، والنابه خاملا، ونحن نشاهد أن الهشيم والحطام والحب يخرج من النبات الهائج الأخضر النضر، {ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون} وربنا الفعال لما يريد هو المبدئ المعيد، ولقد أرانا من آثار إبداعه، وعلمنا من محكم تنزيله ما يزيد اليقين في اقتدار مولانا الملك المتين،) فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٣٦) ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٣٧) والذي نزل من السماء ماء فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (٣٨.
١٨ - (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]
{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٧ وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون ١٨ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ١٩ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ٢٠} سبحوا الله تعالى ونزهوه، وأجلوه عن كل نقص ومجدوه كلما أمسيتم، وكلما أصبحتم، فهو كإرشاده سبحانه:) وسبحوه بكرة وأصيلا (٣٩ في البكور وفي الأصائل قدسوا ربكم المعبود بحق، وطهروه عما لا يليق به عز وجل، وأثنوا عليه واشكروا له مساء وصبحا كذلك، فإنه المحمود في الأرض وفي السماء، فإن ملأ السماء يسبحون بحمده ويقدسون له، والذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم. . (٤٠) ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض. . (٤١) تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده. . (٤٢.
{وعشيا} من الغروب إلى العتمة، وما بعد زوال الشفق الأحمر من الأفق الغربي، أو إلى طلوع الفجر، وهكذا يفرق بينه وبين المساء بأن المساء يكون من بعد الظهر إلى غروب الشمس، ونقلوا عن أمية بن أبي الصلت:
الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسانا
{وحين تظهرون} وقت الظهيرة، حالة زوال الشمس عن كبد السماء، {يخرج الحي من الميت} ربكم تقدس وتبارك يخرج النامي من الهامد، والمتحرك من الجامد الخامد، [فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والدجاج من البيض والإنسان من النطفة. . والمؤمن من الكافر] ٤٣.
{ويخرج الميت من الحي} وهو سبحانه بحكمته وقدرته قد يجعل الحي سببا يتولد عنه الميت، أعم من أن تكون الحياة حسية أو معنوية، فقد يلد المؤمن كافرا، والنابه خاملا، ونحن نشاهد أن الهشيم والحطام والحب يخرج من النبات الهائج الأخضر النضر، {ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون} وربنا الفعال لما يريد هو المبدئ المعيد، ولقد أرانا من آثار إبداعه، وعلمنا من محكم تنزيله ما يزيد اليقين في اقتدار مولانا الملك المتين،) فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٤٤) ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٤٥) والذي نزل من السماء ماء فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (٤٦.

١٩ - (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]
{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٧ وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون ١٨ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ١٩ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ٢٠} سبحوا الله تعالى ونزهوه، وأجلوه عن كل نقص ومجدوه كلما أمسيتم، وكلما أصبحتم، فهو كإرشاده سبحانه:) وسبحوه بكرة وأصيلا (٤٧ في البكور وفي الأصائل قدسوا ربكم المعبود بحق، وطهروه عما لا يليق به عز وجل، وأثنوا عليه واشكروا له مساء وصبحا كذلك، فإنه المحمود في الأرض وفي السماء، فإن ملأ السماء يسبحون بحمده ويقدسون له، والذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم. . (٤٨) ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض. . (٤٩) تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده. . (٥٠.
{وعشيا} من الغروب إلى العتمة، وما بعد زوال الشفق الأحمر من الأفق الغربي، أو إلى طلوع الفجر، وهكذا يفرق بينه وبين المساء بأن المساء يكون من بعد الظهر إلى غروب الشمس، ونقلوا عن أمية بن أبي الصلت:
الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسانا
{وحين تظهرون} وقت الظهيرة، حالة زوال الشمس عن كبد السماء، {يخرج الحي من الميت} ربكم تقدس وتبارك يخرج النامي من الهامد، والمتحرك من الجامد الخامد، [فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والدجاج من البيض والإنسان من النطفة. . والمؤمن من الكافر] ٥١.
{ويخرج الميت من الحي} وهو سبحانه بحكمته وقدرته قد يجعل الحي سببا يتولد عنه الميت، أعم من أن تكون الحياة حسية أو معنوية، فقد يلد المؤمن كافرا، والنابه خاملا، ونحن نشاهد أن الهشيم والحطام والحب يخرج من النبات الهائج الأخضر النضر، {ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون} وربنا الفعال لما يريد هو المبدئ المعيد، ولقد أرانا من آثار إبداعه، وعلمنا من محكم تنزيله ما يزيد اليقين في اقتدار مولانا الملك المتين،) فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥٢) ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٥٣) والذي نزل من السماء ماء فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (٥٤.
٢٠ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)
{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون} ومن دلائل قدرته وبرهان لطفه وحكمته وأحديته أن جعل أصلكم معاشر الإنس من تراب، فطين، فحمأ مسنون، صلصال كالفخار، ثم سوى الخلاق العليم أول الخليقة وأبا البشر آدم عليه السلام، ونفخ فيه من روحه، ثم خلق منه زوجه، ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء، فإذا أنتم أيها الأناسي- بما منحكم الله- تسمعون وتبصرون، وتدركون وتعقلون، وتتصرفون في الأمور وتحتالون، وتسخرون- بتسخير الله لكم - ما في السماوات وما في الأرض، فهلا تشكرون؟!.
[{ومن آياته أن خلقكم من تراب} أي من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب، أي خلق أباكم منه، والفرع كالأصل. . . و {أن} في موضع رفع بالابتداء ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح. .] ٥٥. وفي غرائب القرآن: والانتشار إما بمعنى التردد في الحوائج كقوله:) فانتشروا في الأرض. . (٥٦ وإما بمعنى البث والتفريق، كقوله:). . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. . (٥٧.
٢١ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
{ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٢١ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ٢٢ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ٢٣ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في

ذلك لآيات لقوم يعقلون ٢٤ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ٢٥ وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ٢٦}

ومن أنعم الكريم الوهاب، وبرهان اقتدار الحكيم الذي خلقنا من تراب، أن أنشأ لنا من جنسنا أزواجا نأنس إليهن، وتسكن النفوس وتستمتع إذ تقترن بهن، ويتراحم الأزواج بما أودع الله في قلوبهم وقلوبهن، ولقد علمنا الإسلام عظم مكانة الزوج من زوجته، والزوجة من زوجها ٥٨، إن في ذلك لعبرة يعتبر بها من يتفكر، وحجة تزيد اليقين، ودليلا على جلال ربنا البر الرحيم.

[وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة،. . . وللرجال خلق البضع منهن، قال الله تعالى:) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم. . (٥٩ فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها " وفي لفظ آخر: " إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح "] ٦٠} أورد الألوسي ما حاصله: خلق أصل أزواجكم من حواء، وهي من ضلع آدم عليه السلام، ف {من} على هذا تبعيضية، ويجوز أن تكون ابتدائية، والأنفس مجاز عن الجنس، أي خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر. . . {وجعل بينكم. } أي بين الأزواج، إما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور، أي جعل بينكم وبينهن، كما في قوله تعالى:). . لا نفرق بين أحد من رسله. . (٠٦١. {مودة ورحمة}. . أي جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا مرابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم. . اه

ولقد وصى نبينا صلى الله عليه وسلم كثيرا بالنساء لأنهن عندنا بأمانة الله، واستحللنا فروجهن بكلمة الله، ولأنهن الحفيظات على أزواجهن، كما أثنى على الخيرات منهن الكتاب العزيز:). . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. . (٦٢ وهن الحانيات على أولادنا ٦٣، في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: " نساء قريش خير نساء ركبن الإبل أحناه على طفل وأرعاه على زوج في ذات يده "

٢٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)

{ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم} من دلائل قدرة ربنا وبالغ حكمته خلق السماوات والأرض، وإبداعهما على غير مثال سبق، وإيداعهما ما شاء ربنا من مخلوقاته، وتسييرهما على سنن لا يتحول، إلا يوم يقضي الله في هذا الكون أن يزول ويتبدل، وخلق الناس مختلفة لغاتهم وهيئاتهم، برهانان على إحسان الصنعة وبالغ الإتقان، {وألوانكم} بياض الجلد وسواده وتوسط فيما بينهما، أو تصوير الأعضاء وهيآتها وحلاها بحيث وقع التمايز بين الأشخاص. . . فالألوان بمعنى الضروب والأنواع، كما يقال: ألوان الحديث، وألوان الطعام، وهذا تفسير أعم من الأول. . {لآيات} عظيمة كثيرة {للعالمين} المتصفين بالعلم، كما في قوله تعالى:). . وما يعقلها إلا العالمون (٦٤] ٦٥.

٢٣ - (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

{ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله} ومن نعم المولى سبحانه، وبرهان جلاله، أن من علينا بنعمة النوم، تسكن فيه الأبدان، وتنقطع عن المكابدة، وبنعمة الهداية إلى ما به قوام الحياة، وإلى ما يبلغنا رضاه، ويسر لنا السعي في طلب ذلك الذي به صلاح العاجل والآجل، وأقدرنا على تحصيله تفضلا منه ورحمة، ويمكن إدراك كليهما- النوم والسعي- ليلا ونهارا، يقول الزمخشري: وهذا من باب اللف، وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين- أعني {منامكم} و {ابتغاؤكم} - بالقرينين الأخيرين- أعني {بالليل} و {النهار} - لأنهما ظرفان، والظرف والواقع فيه كشيء واحد، مع إعانة اللف على الاتحاد وهو الوجه الظاهر، لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن. اه،

[قيل: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، فحذف حرف الجر لاتصاله {بالليل} وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة، فجعل النوم بالليل دليلا على الموت، والتصرف بالنهار دليلا على البعث] ٦٦، إن في صنع الله تعالى لعبرا لمن يسمع فيعي ويخشع، ويستيقن بالحق ويتبع، كما جاء في القرآن الكريم:) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا (٦٧

٢٤ - (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

{ومن آياته يريكم البرق} ومن حجج الله تعالى إراءتكم البرق- الضياء الذي يلمع في الفضاء ثم يخبو سريعا- إراءتكم إياه من خلال السحاب تخيفكم أن تحل بكم صاعقة، وتطمعكم أن يتنزل عليكم على أثره الغيث، نقل عن قتادة: {خوفا} للمسافر- لأنه علامة المطر وهو يضره لعدم ما يكنه، ولا نفع له فيه، {وطمعا} للمقيم. اهـ.

وعلماء الإعراب يقولون: التقدير: يريكم البرق فترونه خوفا وطمعا، ونقل عن ابن بحر: {خوفا} أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر- الذي لا غيث فيه كأنه خادع ٦٨ - وأنشد قول الشاعر:

لا يكن برقك برقا خلبا ... إن خير البرق ما الغيث معه

{وطمعا} أن يكون ممطرا، {وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} وينزل الله تعالى من السحاب الذي هو في جهة السماء مطرا مباركا فتهتز به الأرض التي كانت هامدة، وتنبت من كل صنف ما تسر العين والنفس لرؤيته، إن في ذلك الإتقان والفضل والإحسان، لبرهانا أي برهان، يستيقن به الفكر والوجدان، ويهتدي بدلالته من نظر بعقله، ولم يعمه الجحود والكفران.

٢٥ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)

{ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره} ومن آلائه، والحجج الشاهدات على سلطانه سبحانه وصمديته واستيلائه، قيام السماوات والأرض وبقاؤهما، كما بينت ذلك الآية الكريمة:) إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده. . (٦٩ وأمره عز وجل ماض فيهما وسننه وتسخيره، كما هو في سائر خلقه). . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (٧٠، ثم إذا نادانا بعد ذهاب هذا الكون، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ونحن حينئذ في أجداثنا وقبورنا، إذا نحن نستجيب بحمده، ونخرج وقد أحيانا بعد موتنا، ونسرع إلى حيث دعانا ربنا للعرض عليه، والوقوف بين يديه، ليرى كل منا ما كان قد عمل، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، والذين قدموا خيرا لا يحزنهم الفزع الأكبر). . وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (٧١، وأما الذين أساءوا فما أسوأ خروجهم، وقد أخبر الكتاب الحق بالذي ينتظرهم، يوم يخرجون من الأجداث سراعا:) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٧٢.

٢٦ - (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

[{وله من في السماوات والأرض كل له قانتون} وله عز وجل خاصة كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن خلقا وملكا وتصرفا وليس لغيره سبحانه شركة في ذلك بوجه من الوجوه، كل له لا لغيره جل وعلا، قانتون منقادون لفعله، لا يمتنعون عليه جل شأنه في شأن من الشؤون وإن لم ينقد بعضهم لأمره سبحانه، فالمراد طاعة الإرادة، لا طاعة الأمر بالعبادة، وهذا حاصل ما روي عن ابن عباس. .] ٧٣.

٢٧ - (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ٢٧}

وربكم الذي يملك الكون كله، ومن في الكون عبيده، هو- دون سواه- بادئ خلق المخلوقين، المنشئ المصور المبدع لكل المخلوقات، وهو معيدها جل شأنه حين يجيء أمره. لا نتأخر عن ذلك ولا نتوانى، كما أخبرنا الحق المبين:) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذاهم جميعا لدينا محضرون (٧٤، وبعثهم أحياء بعد موتهم يسير على المهيمن المقتدر هين، وما شيء عليه بعسير، قال أبو عبيدة: ومن جعل

{أهون} يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى: [] زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ٧٥] ٧٦. .، والعرب تحمل [أفعل] على [فاعل]. . .

وأنشد أحمد بن يحيى:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أراد بواحد، {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}

قال الخليل: المثل: الصفة، أي وله الوصف الأعلى. .، كما قال:) مثل الجنة التي وعد المتقون. . (٧٧ أي صفتها. . اه.

وهو الذي يقهر ولا يقهر، لا يدافع، ولا يغالب، ولا يمانع، والذي دبر كل شيء بلطف وخبرة، موافقا للصواب على سنن الحكمة.

[وروى البخاري. . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد "] ٧٨.

٢٨ - (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

{ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ٢٨ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ٢٩}

ساق الله تعالى للمكلفين مثلا منتزعا من أنفسهم، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله للمشركين، والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله؟! فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء؟! وجاء المثل في صورة استفهام إنكاري، كأنه قيل: هل شركاؤكم فيما رزقناكم من الأموال وغيرها كائنون من النوع الذي ملكته أيمانكم؟! ف {شركاء} مبتدأ مؤخر، و {لكم} خبر مقدم، و {من} الأولى لابتداء الغاية، و {من} الثانية للتبعيض، و {من} الثالثة للتوكيد، {فأنتم فيه سواء} في موضع الجواب للاستفهام الإنكاري، [تخافونهم أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم خيفة كائنة مثل خيفة من هو من نوعكم- يعني الأحرار. . . أي لا ترضون أن يشاركم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها مماليككم وهم أمثالكم في البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقه ٧٩ سبحانه، بل مصنوع مخلوقه جل وعلا حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه] ٨٠، وفي غرائب القرآن: وفي قوله: {في ما رزقناكم} إشارة إلى أن الذي هو لكم ليس في الحقيقة لكم، وإنما الله استخلفكم فيه ورزقكموه من فضله. اه مثل ذلك التبيين الواضح نبين الحجج بالغة قاطعة- إذ التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس- {لقوم يعقلون} يفكرون بعقولهم، ويتدبرون في أنفسهم وأحوالهم، وما جاءهم من ربهم - وخصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل- لأنهم المنتفعون بها.

٢٩ - (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

{بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم} ربنا جل وعلا هو الحق، لكن الأهواء تعمى عن الحق، وتصم عن سماع ندائه، فحين يتخذ الظالم إلهه هواه، لا يهتدي إلى طريق الله، ويدعي له سبحانه ما لا يرضاه، جهلوا حق الملك المهيمن عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا، فلا أحد يهديهم إذ كفروا بالآيات والحجج القرآنية والكونية:) إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله. . (٨١، وليس لهم من الجزاء الذي أعد لهم من ينقذهم أو يجيرهم). . قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ٨٢ (.

٣٠ - (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

{فأقم} فتوجه، وأقبل، وسدد، وعدل دون ميل أو التفات.

{وجهك} قصدك ووجهتك، وعزمك وقوتك- وخص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء.

{حنيفا} مخلصا، مقبلا على المنهاج، - وأصل الحنف: إقبال إحدى إبهامي الرجل على الأخرى- وكل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو فهو حنيف، أو الحنف: الاستقامة، وإنما قيل للمائل الرجل أحنف تفاؤلا بالاستقامة، ويقال للحنيف حنيف لعدوله عن الشرك.
{فطرة} ابتداء، وإنشاء، وخلقة، وإعدادا، وتهيئة.
{فطر الناس عليها} خلقهم قابلين لها.
{لا تبديل لخلق الله} سنة الله تعالى في خلقه الناس قابلين لمعرفة الحق لا تتبدل.
{القيم} الذي لا عوج فيه: وأمته قيمة بالحق، والذي يقومهم ويسوس أمرهم.
{فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٣٠ * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ٣١ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ٣٢} وبعد أن قامت حجة الله تعالى على المشركين، وأنهم يرفضون ويأبون أن يكون عبيدهم شركاء لهم- فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ٨٣ وشهد الحق سبحانه أنهم إنما يتبعون في شركهم أهواءهم، ويقلدون آباءهم، وأن ما عبدوه مما لا يعقل سيكون وإياهم من حصب جهنم، وإن كان ممن يعقل يكفر بشركهم، ويتبرأ من زيفهم وغيهم، بعد هذا نادى نبيه والمؤمنين الإقبال على الدين، والتوجه إليه، وعدم التلفت إلى سبيل غير سبيله، وقووا مقصدكم وقوتكم على الجد في العمل له، مخلصين في تسديدكم نحوه، راغبين عن الشرك وأهله، {فطرة الله التي فطر الناس عليها} والزموا فطرة الله التي أنشأ عليها خلقه ممن هم من أجناس المكلفين، فقد أنشأهم سبحانه قابلين لمعرفة الله الحق، وهيأهم وأعدهم بما ركب فيهم من قوى مدركة توصلهم إلى العلم بجلال الصانع حين يعاينون إبداع الصنع، وإتقان الخلق- وفسرها الكثير هنا بقابلية الحق والتهيىء لإدراكه، وقالوا: معنى لزومها: الجريان على موجبها، وعدم الإخلال به باتباع الهوى، وتسويل شياطين الإنس والجن ٨٤ - {لا تبديل لخلق الله} تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى- قال الإمام: ويحتمل أن يقال: إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده {لا تبديل لخلق الله} أي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره، ويخرج عن ملكه بالعتق، بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية ٨٥ - مما في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ٨٦ هل تحسون فيها من جدعاء ٨٧ " ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: {فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله}، وفي رواية: " حتى تكونوا أنتم تجدعونها " قالوا: يا رسول الله! أفرأيت من يموت صغيرا؟ قال: " الله أعلم بما كانوا عاملين " لفظ مسلم، نقل عن طائفة من أهل الفقه والنظر: أن الفطرة الخلقة، وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار، قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعا وبنية ليس معها إيمان ولا كفر، ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلهم، قالوا: ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبدا، وقد تجدهم يؤمنون ثم يكفرون، قالوا: ويستحيل- في المعقول- أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئا، قال الله تعالى:) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا. . (٨٨.
قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة: أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين فهم مع آبائهم في الجنة، وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا طويلا، وفيه قوله عليه السلام: " وأما الرجل الطويل فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة " قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وأولاد المشركين "، وروى مسلم في صحيحه- بسنده- عن عياض المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

خطب ذات يوم فقال في خطبته " إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا كل ما نحلته عبادي حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت ربي إذا يثلغ رأسي فيدعه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك- قال- وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف متعفف ذو عيال- قال- وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك " وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش. {ذلك الدين القيم} ذلك الذي وصيتكم بلزومه، والثبات عليه، والتوجه بكليتكم إليه هو الدين الذي لا عوج فيه، وأمته قيمة بالحق- كما يشهد لذلك قول الله سبحانه:). . وذلك دين القيمة (٨٩، وهو الذي يقوم نهج العباد، ويسوس أمرهم إلى ما يسعد عاجلهم ومصيرهم، {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} إذ لا يتفكرون، ولو تفكروا لعلموا ٩٠ أن هذا هو النور، وليس بعده إلا الظلمات

٣١ - (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

{منيبين} راجعين.

{منيبين إليه واتقوه} ومع الأمر بالتوجه إلى الدين الخالص من شوائب الغلو والتفريط، والعنت والحرج، والإقبال على مرضاة الرب المعبود، والوفاء بأمانات الإسلام الذي تهدي إليه الفطرة، وتشهد له مواطن العبرة، وما ينبو عن نوره إلا سيقيم الفكرة، وأكثر البشر أعرضوا عنه لسفه عقولهم، واتباع أهوائهم- بعد هذا عهد إلينا ربنا أن نتيب إليه، ونرجع إلى السبيل الموصلة إلى ثوابه ورضوانه، وأن نحذر ونتقي ما يسخطه، {وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين} وأن نتم عبادتنا وصلاتنا، ونتحاشى خطوات أعدائنا، ممن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم.

٣٢ - (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

{شيعا} فرقا.

{من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا} من أولئك الذين عبدوا أربابا شتى، ولكل وثن أو إفك من يتابعه ويشايعه، وكل شيعة من تلك الشيع تحسب أنها على شيء، وتظن أنها هديت إلى ما ضل عنه الغير- {وكانوا شيعا} أي فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذي مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله {كل حزب بما لديهم} من الدين المعوج المؤسس على الرأي الزائغ والزعم الباطل {فرحون} مسرورون ظنا منهم أنه حق- ٩١، يقول صاحب تفسير غرائب القرآن. . .: {لا تبديل لخلق الله} نفي في معنى النهي، ألا تبدلوا خلقه الذي فطركم عليه-. . . . وفيه فساد قول من زعم أن العبادة لتحصيل الكمال فإذا كمل العبد لم يبق عليه تكليف، وفساد الصابئة وبعض أهل الشك أن الناقص لا يصلح لعبادة الله وإنما الإنسان عبد الكوكب، والكواكب عبيد الله، وفساد قول النصارى والحلولية: إن الله يحل في بعض الأشخاص كعيسى وغيره فيصير إلها- ٩٢.

٣٣ - (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

{وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ٣٣ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ٣٤ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ٣٥ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ٣٦ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٣٧}

من الناس شكور ومنهم كفور، وأهل الكفران أهل جحود ونكران، فهم إذا لحقهم هزال أو سوء حال، أو أذى أو ضيق وشدة، أو نقص في الأموال دعوا الله مخلصين، وعاهدوه إن نعمهم أن يكونوا من الصالحين، فإذا رحمهم وكشف ضرهم سارعوا إلى ضلالهم

القديم، ونسبوا ما آتاهم الله من فضله إلى معبوداتهم الباطلة، من أصنام وكواكب وأنواء، أو وهم وغرور وأهواء، كالذين حدثنا القرآن الكريم عن مكرهم في حجج ربنا وبرهانه، ومسارعتهم في جحود ما آتاهم من فيضه وإحسانه، جاء في سورة يونس: (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون. هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق. . . .) ٩٣ مما أورد الألوسي: {منيبين إليه} راجعين إليه تعالى من دعاء غيره عز وجل من الأصنام وغيرها. . وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك، وتنكير: {ضر} و {رحمة} للتقليل، إشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة، ويطغون لأدنى نعمة. اه.

-لما بين التوحيد بالدلائل وبالمثل بين أنه أمر وجداني يعرفونه في حال الضر والبلاء وإن كانوا ينكرونه في حال الرحمة والرخاء. . وإنما قال: {إذا فريق منهم} ولم يقل:) إذا هم يشركون) كما في آخر العنكبوت، لأن الكلام هناك مع أهل الشرك، وههنا مع الناس كلهم، وليس كل الناس كذلك- ٩٤

٣٤ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

{ليكفروا بما آتيناهم} كأن اللام لام الأمر، والأمر هنا للوعيد، كما في قوله سبحانه:) ومن شاء فليكفر (٩٥ فإني معد للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا، ومن بدل نعمة الله كفرا فمصيره بئيس:) جهنم يصلونها وبئس القرار (٩٦ {فتمتعوا فسوف تعلمون} تهديد بعد تهديد ٩٧ أي تلذذوا بما أوتيتم من شهوات الدنيا وزينتها فسوف تعلمون عاقبة الاطمئنان إلى زخارف العاجلة، حين ترون ماذا ينتظر الكافرين و المشركين في الآجلة، وفي قول المولى تبارك اسمه: {فتمتعوا} التفات من الغيبة إلى الخطاب، كأن الذي سبقها في الآية الكريمة حكاية عن الغائبين {ليكفروا بما آتيناهم} ثم وجه الخطاب إليهم

٣٥ - (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)

{أم أنزلنا عليهم سلطانا} تحدث عنهم بالحكاية عن غائبين، بعد أن كان الخطاب في ختام الآية السابقة موجها إليهم، والسلطان: البرهان والحجة والدليل، والاستفهام إنكاري، فكأن المعنى: أأنزلنا عليهم حجة ودليلا يشهد لما ادعوه؟، وقيل: قد يراد: هل أنزلنا ملكا ذا سلطان وصاحب برهان فأوحى إلي أحد بما قالوه؟! حاشا {فهو يتكلم بما كانوا به يشركون} فهو يقول أو يقر بشركهم وشركائهم؟ معاذ الله، فلقد جاء الحق من ربنا الحق يتحدى أهل الباطل والإفك، ويقول:) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (٩٨ وقال تبارك اسمه:). . أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان. . (٩٩ وقال جل ثناؤه:). . إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون (١٠٠ وقال وهو أصدق القائلين:) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. . (١٠١ (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم. . (١٠٢.

٣٦ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

{وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها} وإذا أعطيت الناس نعمة فرحوا فرح المغرورين البطرين، كما فتن قارون بما رزق من مال وفير، يقول الله الحكيم العليم:). . وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا. . (١٠٣، وأما فرح الحمد والشكر فلا بأس على صاحبه، بل لقد نودوا إلى ذلك، كما جاء في الآية الكريمة:) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (١٠٤

{وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون} وإن أذاقهم الله شيئا مما يسوؤهم، جزاء أدنى استوجبه بغيهم وعصيانهم، يئسوا من الفرج، وانقطع رجاؤهم في مجيء يسر بعد هذا العسر

٣٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

{أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} أولم يدركوا أن ربنا يقضي ما يشاء، ويختار ما يريد، ويمنح من يريد، ويعطي بقدر من يشاء، ويوسع العطاء لمن شاء؟ فإذا كانوا قد شاهدوا ذلك ونظروا إليه فهلا صبروا في الضيق ١٠٥ والضراء ١٠٦، وشكروا في السعة والرخاء؟، {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} إن في إبداع صنعنا، ومحكم تنزيلنا، ونافذ أمرنا لعبرا وعلامات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإن كانت الحجج قد سيقت للجميع إلا أن المتذكر بها والمعتبر من صدق واستيقن.

٣٨ - (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ٣٨ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ٣٩}

فأعط أيها النبي، وكل مكلف، وكل سامع، وابذل حق ذوي قرابتك، وحق من ضاقت يده عما يحتاج إليه، وحق المسافر المنقطع عن أهله وماله، ذلك البذل والوفاء بهذا الحق خير لمن يقصد مثوبة الله ورضاه، وسلوك المنهاج الذي يبلغه السعادة في أولاه وأخراه- أو النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى- ١٠٧، والذين يوفون بعهد الله هذا هم الرابحون الناجحون في العاجل والآجل، [لما بيّن كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى الشفقة على خلق الله. . . وفيه أن الله إذا بسط الرزق فلا ينقص بالإنفاق، وإذا ضيق لم يزدد بالإمساك، فينبغي أن لا يتوقف الإنسان في الإحسان، وفي تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر دلالة على أنهم أولى بالإشفاق عليهم من سائر الأصناف. . . {للذين يريدون وجه الله} أي ذاته أو جهة قربته. .] ١٠٨، مما أورد صاحب [الجامع لأحكام القرآن. .]:. . أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغني، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد: هو وأمته. . وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: " أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك ". . قال مجاهد وقتادة: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة. . قال الحسن: {حقه} المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر، {والمسكين} قال ابن عباس: أي أطعم السائل الطواف، {وابن السبيل} الضيف، فجعل الضيافة فرضا، [. . لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، وحاصله. . أن امتثال أوامره تعالى مجلبة رضاه، والحياة الطيبة تتبعه، كما أن عصيانه سبحانه مجلبة سخطه، والجدب والضيق من روادفه، فإذا استبان ذلك فآت يا محمد ومن تبعه. . . .

إذا جاءت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طرا إنها تتقلب

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تدبر

. . . وحمل ذلك بعضهم على الزكاة المفروضة، وتعقب بأن السورة مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، واستثناء هذه الآية ودعوى أنها مدنية يحتاج إلى نقل صحيح. . والمراد بالحق المصرح به في ذي القربى: صلة الرحم بأنواعها، وبالحق المعتبر في جانب المسكين وابن السبيل: صدقة كانت مفروضة قبل الزكاة. .] ١٠٩

٣٩ - (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

{وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله} ما أعطيتم مما يتمول لتستردوه زائدا عما بذلتم ودفعتم، فإن هذا في حساب الله تعالى لن يزيد، بل قد يجر على المتعاملين به الضنك والعذاب الشديد، وهل هو القرض الذي يجر نفعا؟ أو الهدية يبذلها المهدي طامعا أن ترد له هدية أغلى من التي أهداها؟ بكل قيل!، {وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون} وما أعطيتم من صدقة تبتغون بها مرضاة الله تعالى دون سواه، فأصحاب هذا المعروف هم أهل الرفعة، وذوو الأضعاف الكثيرة من المثوبة، تضاعف

لهم الحسنة بعشر أمثالها أو بسبعمائة ضعف، أو بأضعاف لا يحصيها إلا واهبها ومعطيها- تبارك اسمه-[في الصحيح: " وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد "] ١١٠.

٤٠ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

{الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلك من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ٤٠ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ٤١ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ٤٢}

وعادت الآيات الكريمة تجادل المشركين، وتقيم الحجة على بطلان ما زعموه من إفك مبين، وتذكر بفضل الخلاق الرزاق ذي القوة المتين، الرب المعبود بحق هو الذي أنعم بالخلق، وأمد بالرزق، ويتوفى الأحياء إذا جاء أجلهم، ويحييكم جميعا بعد موتكم، والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لكم رزقا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا، فكيف عدلتموهم بالله العزيز الوهاب، المبدئ المعيد، الفعال لما يريد؟! تنزه ربنا وتعالى مقامه عن النظراء والأنداد، والشركاء، والأضداد ١١١، والصحابة والأولاد، نقل النيسابوري: {من} الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم: قلت: الأولى للتبعيض، كأنه أقام فعل البعض مقام فعل الكل. . والثالثة لتأكيد الاستفهام، والمتوسطة للابتداء. اه.

٤١ - (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس} بدا وفشا المحق، وذهاب البركة، وضنك المعايش، والتظالم في الماء واليابسة، بسبب شرك الناس وبغيهم، وعد الله لا يخلف الله وعده:) وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢، ولقد بين القرآن الكريم عظم ما يقترف المشركون، فجاء في آيات كريمة:) وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدّا. تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا (١١٣، ويقول ربنا العلي العظيم:) ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (١١٤، {ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} يمسهم منا عذاب يسير قبل عذاب السعير، عسى أن يزدجروا فيعودوا إلى الإيمان والطاعة من قبل أن يدركهم سوء المصير، وهي سنة الله التي لا تتبدل، يقول المولى- تبارك اسمه-:) وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون (١١٥، ووعد من الله تعالى لا يخلف:) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (١١٦.

٤٢ - (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ)

{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل} قل لهم: سافروا وتنقلوا في البلاد لتروا مصير المكذبين السابقين، وآثار المهلكين،). . فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (١١٧) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.) ١١٨) وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم المثال (١١٩، {كان أكثرهم مشركين} أهلكاهم بشرك أكثرهم ١٢٠) ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (١٢١.

٤٣ - (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

{فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ٤٣ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ٤٤ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ٤٥}

وبعد أن حصحص الحق، وظهرت الحجة، وأعذر الله تعالى إليهم، وحضهم على الاعتبار بما جرى لأسلافهم من المشركين والمفترين، وصى أهل الرشد بالثبات على الهدى ولزوم الصراط المستقيم، والدين العدل، الخالد، المهيمن الظاهر على الدين كله، القوام أهله- كما

شهد موحيه جل علاه-). . وذلك دين القيمة (١٢٢ - اثبتوا عليه من قبل أن يجيء يوم البعث والحساب والفصل، والجزاء بالعدل والفضل، يومئذ لا يرد بأسه عن المجرمين أحد، ولا يمسك فضله عن المتقين أحد، يومئذ يتفرقون، فأما الذين كفروا وأجرموا فأولئك في العذاب محضرون مقيمون نازلون، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، جزاء بما كانوا يعملون، إذ قدموا في دنياهم البر الذي بسببه ينعمون، ويتفضل عليهم المولى بما لا يعدون ولا يحصون، وتناديهم الملائكة الكرام عليهم السلام:). . هذا يومكم الذي كنتم توعدون (١٢٣ وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة). . أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون (١٢٤، وأصل {يصدعون} يتصدعون ١٢٥، بمعنى يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير

٤٤ - (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

{فعليه كفره} فعليه يعود جزاء كفره.

{ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون} الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنما يمهدون بعملهم ويهيئون به ويعدون ويوطئون لأنفسهم مصيرا حسنا ومستقرا كريما، وأصل المهاد: فراش الطفل، والتمهيد التوطئة والتسوية بحيث لا ينغص من رقد عليه وآوى إليه-

٤٥ - (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

{ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله} للدلالة على أن الإثابة تفضل محض- {إنه لا يحب الكافرين}. . فكأنه قيل: وليعاقب الكافرين.. . فإن عدم المحبة يقتضي حرمانهم من الفضل- ١٢٦.

٤٦ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

{ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ٤٦ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٤٧ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ٤٨ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ٤٩ فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ٥٠}

من دليل اقتداره، وعظيم جلاله، أنه عز وجل يرسل أنواعا من الرياح مباركة، تبشر بالخير، ويسوق الله معها النعم التي ينشرها على الماء واليابسة جميعا، فمنها اللواقح، ومنها ما يخزي الله به الكافرين، ويهزمهم بها ويشفي صدور قوم مؤمنين- كالتي أهلكت بها عاد، وهزم بها جمع المشركين يوم الأحزاب- ومنها ما يسير به المولى سبحانه السفن، فتبلغ بالناس وأثقالهم ما لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وينالون من فضل ربهم ورزقه ما هو مقدور، ليقروا بالآلاء للوهاب الشكور، {ومن آياته أن يرسل الرياح} ومن برهان التفرد باستحقاق الطاعة والشكر له دون سواه إرسال الرياح وتسييرها بمراده هو لا بمراد غيره.

[وحين ذكر ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح وبين أنه من دلائل الوحدانية. . . ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح لما مر من أن الكريم لا يذكر لإحسانه سببا. . أراد الجنوب والشمال والصبا، وهي رياح الرحمة، دون الدبور التي هي للعذاب. . {مبشرات} أي المطر لقوله:) بشرا بين يدي رحمته. . (١٢٧، وقيل: أي بتصحيح الأهوية وإصلاح الأبدان.] ١٢٨.

٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

{ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات} فإن أعرضوا عن تلك العلامات، وجحدوها وهي بالغات بينات، فذلك دأب وسبيل المجرمين، وأنت تعلم ما علمتك من نبأ العابرين، ولقد بعثنا فيمن سبقوا أنبياء، بعثنا كل نبي إلى قومه، وجاءت الأنبياء إلى أقوامهم بالآيات المتلوة المقروءة، والعلامات الكونية المحسوسة، وما من نبي إلا قد أوتي من الآيات وخوارق العادات ما على مثله آمن البشر، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فأخرجنا الجاحدين الباغين الكافرين، وأهلكناهم ونجينا المتقين، ورفعنا كلمة الحق والدين، وجعلنا العاقبة والتأييد والعزة للمؤمنين الصالحين المصدقين، أورد صاحب روح المعاني: {فانتقمنا من الذين أجرموا} الفاء فصيحة، أي:

فآمن بعض وكذب بعض {فانتقمنا}. . . وجوز أن تكون تفصيلا للعموم بأن فيهم مجرما مقهورا ومؤمنا منصورا {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم. . وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا ١٢٩. . اه

٤٨ - (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

{الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون} بعد بيان بعض آثار الرياح في البر والبحر جملة في الآية السادسة والأربعين من هذه السورة بينت هذه الآية المباركة كيف يسخر الله تعالى الرياح ويسير بها ما به حياة العباد والبلاد، ينشر به الأرض الهامدة الجامدة، فتهتز وتربو، وينبت الحب والنخيل والأعناب والزرع البهيج، ويسقي به سبحانه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا، إن في ذلك لعبرة، وطائفة من برهان القدرة، ذرات دقيقة يسيرة، يجمعها اللطيف الخبير، ثم يصرف السحاب المسخر بين السماء والأرض إلى حيث يريد، يملأ به الآفاق على سمت السماء، أو يجعله قطعا ١٣٠ هدي كل منها إلى ما تحقق به المشيئة المهيمنة، - والكسف: جمع كسفة أي قطعة- فترى قطرات الغيث تتحدر من هذا السحاب- والودق: القطر والمطر- فإذا ساق الله الحياة ونشر رحمته على بلد عمهم البشر، وانكشف عنهم القحط والجدب والضر

٤٩ - (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)

{وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين} وما كانوا قبل نزوله إلا حائرين، قانطين آيسين من نزول ما يغيثهم، ويرويهم وزرعهم وبهائمهم، وأكثر النحويين على أن قوله سبحانه: {من قبله} توكيد للقول الكريم: {من قبل أن ينزل عليهم}، - ومعناه الدلالة على أن عهدهم بالمطر تطاول، فاستحكم يأسهم، وتحقق إبلاسهم- ١٣١

٥٠ - (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{فانظر} يا من يتأتى منه النظر، بعين البصر، أو بعين البصيرة، وتطلع، ومد فكرك إلى آثار بر الله تعالى بالعباد، وكيف يحيي الله تعالى الجامد الهامد، فيهتز ويربو، وينبت من كل صنف ما تسر به الأعين، وتحيا به الأنفس، وتبتهج به الخواطر، إن ذلك الكبير المتعال، الكريم ذا الجلال، يحيي الخلائق بعد موتهم، كذلك النشور، إن في هذا لأبلغ حجة:) وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون (١٣٢،). . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (١٣٣) والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (١٣٤، وربنا المعبود بحق على كل شيء يريده مقتدر، وقد قضت حكمته أن يردنا إليه، ويوقفنا بين يديه: (. . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى (١٣٥، فليعلموا أن لقاء الله آت لا ريب فيه، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الفعال لما يريد.

٥١ - (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)

{ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ٥١ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ٥٢ وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ٥٣ *الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ٥٤}

ظلوم جهول جنس المكلفين، إلا من هدى الله البر الرحيم، فإن الكثيرين إن مسهم الشر قنطوا، وإذا جاءتهم الحسنة بطروا، يتزلزل الإنسان، ويقل ثباته، وقد ينعدم توكله، فلأدنى سبب يكفر بنعمة الله، ولئن صرفنا وسيرنا ريحا ضارة ١٣٦، باردة أو حارة، فرأوا

الذي أنبتناه- بسبب الودق والمطر- قد ذهبت حضرته، وزالت الريح بهجته ونضرته، لتمادوا - بعد استبشارهم- يكفرون بربهم، واللام في {لئن} موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط- إن-، والفاء في {فرأوه} هي فاء الفصيحة، واللام في قوله تعالى: {لظلوا} لام جواب القسم الساد مسد الجوابين- جواب القسم وجواب الشرط- نقل عن الخليل وغيره: {لظلوا} بمعنى ليظلن، وحسن وقوع الماضي في موقع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكون إلا في المستقبل. . اه.

ولو عقلوا الصبر في البأساء، وشكروا في النعمة والرخاء، وأيقنوا أن الله تعالى يفعل ما يشاء، وأن حرثهم فضل من العزيز الوهاب، يسبغه على من يشاء، وينزعه ممن يشاء:) أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون (١٣٧. ثم سلى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يحزن لعدم اهتدائهم بتذكيره، فإنه صلوات الله عليه وسلامه ليس مسؤولا عن أصحاب الجحيم، إنما هو مبلغ الحجة لمن يشاء منهم أن يستقيم، لكنهم أماتوا عقولهم، وأصموا آذانهم) إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (١٣٨ فهؤلاء كالموتى). . وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير (١٣٩، - لا نجعل لهم أسماعا يفهمون بها عنك ما تقول لهم ١٤٠، وإنما هذا مثل معناه: فإنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين قد سلب الله أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعا، وقوله: {ولا تسمع الصم الدعاء}

٥٢ - (فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

{ولا تسمع الصم الدعاء} يقول: وكما لا تقدر أن تسمع الصم الذين قد سلبوا السمع الدعاء إذا هم ولوا عنك مدبرين كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماع ذلك وفهمه، وقوله: {وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم}

٥٣ - (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

{وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم} يقول تعالى ذكره: وما أنت يا محمد بمسدد من أعماه الله عن الاستقامة، ومحجة الحق، فلم يوفقه لإصابة الرشد، فصارفه عن ضلالته التي هو عليها، وركوبه الجائر من الطرق إلى سبيل الرشاد، يقول: ليس ذلك بيدك ولا إليك، ولا يقدر على ذلك أحد غيري لأني القادر على كل شيء. . وما أنت بمانعهم من ضلالتهم، وقوله: {إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا} يقول- تعالى ذكره- لنبيه: ما تسمع السماع الذي ينتفع به سماعه فيعقله إلا من يؤمن بآياتنا، لأن الذي يؤمن بآياتنا إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه وعقله، وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدود الله الذي حد فيه، فهو الذي يسمع السماع النافع، وقوله: {فهم مسلمون} يقول: فهم خاضعون لله بطاعته، متدللون لمواعظ كتابه. اه، وبعد هذه الآيات الكونية والقرآنية التي تزيد اليقين في جلال المولى الكبير المتعال، وفي قدرته على إحياء من في القبور، وعلى البعث والنشور، وعلى الحساب و الثواب بينت هذه الآية الكريمة برهانا من الأنفس بعد براهين الكون والآفاق.

٥٤ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)

{الله الذي خلقكم من ضعف} {من} ابتدائية، والجملة قبلها مبتدأ وخبر، بدأ الله تعالى خلقنا ضعفاء، وجعل الضعف ١٤١ أساس كياننا، ويشهد لذلك قول المولى- تبارك اسمه-). . وخلق الإنسان ضعيفا (١٤٢، ثم بعد ضعف الطفولية، ينعم علينا بالفتوة والقوة وبلوغ الأشد، ثم يعقب ذلك الوهن والمشيب- فكأن الوهن والضعف بعد الفتوة يصيب القوى فيكون ضعفا، ويصيب الظواهر فيظهر شيبا، [وهذا الترديد في الأطوار المختلفة أظهر دليل على وجود الصانع العليم القدير، وقوله: [يخلق ما يشاء] كقوله في دليل الآفاق: {فيبسطه في السماء كيف يشاء} والكل إشارة إلى بطلان القول بالطبيعة المستقلة] ١٤٣ {وهو العليم القدير} مما أورد ابن جرير: {العليم} بتدبير خلقه {القدير} على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء أراده، فكما فعل هذه الأشياء، فكذلك يميت خلقه ويحييهم إذا شاء، يقول: واعلموا أن الذي فعل هذه الأفعال بقدرته يحيي الموتى إذا شاء. اه.

٥٥ - (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

{تقوم} تمثل، وتأتي، وتجيء.
{يقسم} يحلف.
{الساعة} القيامة، لأن من أحوالها قيام الموتى من قبورهم.
{المجرمون} المرتكبون الجرم العظيم.
{يؤفكون} يصرفون عن الحق، ويصدون عن الصدق، ويستديمون الكذب.
{ويوم تقوم الساعة يقسم- المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ٥٥ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ٥٦ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ٥٧}.
يوم القيامة يحلف الكافرون الظالمون أنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة، يتكشف عنهم غطاء الغفلة والغرور، فيدركون أن زخرف الحياة باطل، وزينتها ليست إلا حطاما، ومتاعها قليل سرعان ما ينقضي، والكثير الذي لا ينفع قليل، وذهب بعض المفسرين إلى أن المجرمين يحلفون ما لبثوا في قبورهم غير ساعة، كأنهم بالموت انكشف عنهم حجاب الجهالة والضلال، وعلموا سوء منقلبهم والمآل، فهم يتمنون طول الأمد حتى لا يساقوا إلى أليم العذاب والنكال، {كذلك كانوا يؤفكون} كذلك الفزع والندم كانوا يصرفون عن الحق في حياتهم الدنيا، ويصدون عن اليقين في الله العظيم ولقائه وحسابه وجزائه، [وقيل: يعنون ما لبثوا بين فناء الدنيا والبعث وهو ما بين النفختين، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما بين النفختين أربعون " قيل: أربعون يوما يا أبا هريرة قال: أبيت، قيل: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قيل أربعون سنة؟ قال: أبيت، وعنى بقوله رضي الله تعالى عنه: أبيت: أمتنع عن بيان ذلك لكم، أو أبيت أن أسأل النبي صلى الله عليه و سلم عن ذلك، والغرض من سوق الآية الإغراق في وصف المجرمين بالتمادي في التكذيب. . . والغرض أن يحقر عندهم ما فيه من التمتعات وزخارف الدنيا كي يقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبيل الرشاد. . . والصارف لهم هو الله أو الشيطان أو الهوى، وأيا ما كان فليس ذلك إلا لسوء اختيارهم، وخباثة استعدادهم.] ١٤٤، مما جاء في الجامع لأحكام القرآن: والقول الآخر أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى:) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (١٤٥ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون. . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه، والقرآن يدل على غير ذلك. . . قال الله جل وعز:) يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٤٦ وقال: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا (١٤٧. اه
٥٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)
{لبثتم} بقيتم.
{البعث} إحياء الموتى.
{وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث} يرد العلماء على هؤلاء الكذابين- مثلما كانوا يدعونهم إلى الهدى في الدنيا- ويقولون لهم: في علم الله تعالى الذي لا يعزب عنه ولا يغيب شيء، وفي أم الكتاب مسطور مدة مكثكم جميعا إلى يوم القيامة، أو تقول لهم الملائكة هذا القول، {فهذا يوم البعث} فإن كنتم ارتبتم وشككتم ولم تستيقنوا من قبل بمجيء يوم البعث ووقوعه، فهذا يومكم الذي كنتم توعدون، {ولكنكم كنتم لا تعلمون} أنه حق، فاستهزأتم به وقلتم:). . ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين (١٤٨
٥٧ - (فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)
{يستعتبون} يطلب إليهم إزالة عتب الله تعالى أي غضبه سبحانه عليهم.
{فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم} يوم إذ يعرضون على ربهم، ويستصغرون مدة مكثهم، لا يغني عنهم اعتذارهم، ولا يقبل منهم ندمهم، وإنما كما بين القرآن الحكيم لا يسمعون إلا ما يقطع به رجاؤهم:) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين

(١٤٩. ومهما أقروا واعترفوا بذنبهم، فلن يستجيب الله لدعائهم، وقد شهدت بذلك آيات محكمات، إذ يحسرون فيقولون:) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٥٠ فيزجرون من لدن رب العالمين:) اخسؤا فيها ولا تكلمون (١٥١ ثم يسألهم وهو أعلم بهم:) كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق. . (١٥٢، {ولا هم يستعتبون} لا يطلب إليهم أن يرضوا ربهم، بإزالة عتبه تعالى، والمراد: إزالة غضبه بالتوبة والطاعة، فقد حق عليهم العذاب، ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع.

٥٨ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ)

{ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ٥٨ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ٥٩ فاصبروا إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ٦٠}

ولقد بينا للناس في هذا القرآن من كل حال وصفة عجيبة، كالحديث عن البعث وما يكون فيه، وما يقول المرتابون، وما يقال لهم، واللام في {لقد} موطئة للقسم، وقيل: {من كل مثل} من كل دليل عجيب، {ولئن جئتهم بآية ليقولن الذي كفروا إن أنتم إلا مبطلون} وكلما جئتهم بآية قرآنية أو معجزة كونية لم يكن قول الكافرين إلا السفاهة عليك وعلى المسلمين، وبدلا من الإذعان للحق، وتصديق الآيات، يؤذون المؤمنين، ويرمونهم باتباع الباطل، كما وصف الكتاب الحكيم شطط الجاحدين، وافتراءهم الزور على النبي والمؤمنين، ومرائهم فيما آتى الله نبيه من المعجزات وخوارق العادات، يقول المولى- تبارك اسمه-:) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (١٥٣ كما قال سبحانه:) ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (١٥٤.

٥٩ - (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

{كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون} كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك يطبع على قلوب الذين لا يعلمون أدلة التوحيد- ١٥٥ [{يطبع} أي يختم {الله} الذي جلت عظمته وعظمت قدرته {على قلوب الذين لا يعلمون} أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق، بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها، فإن الجهل المركب ١٥٦ يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق، ومن هنا قالوا: هو شر من الجهل البسيط. . . ١٥٧]، فإذا علمت غاية حمقهم، وبالغ جهلهم، فلا يحزنك تكذيبهم وإعراضهم، ولتثبت ومن معك على الحق ودعوتهم إليه، حتى يهتدوا أو يحكم الله بينكم، فإن العاقبة لكم، ولا يستفزنكم عن دينكم، أو يزحزحكم عما جاءكم مكر عدوكم، [والخطاب للنبي والمراد أمته] ١٥٨

٦٠ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)

{ولا يستخفنك} لا يحملنك على الخفة والقلق- ١٥٩، مما أورد النيسابوري: أمر أن لا يضجر، ويشتغل بالدعاء إلى الحق حتى يأتي أوان النصر والظفر، والله المستعان.

٣١ سورة لقمان:

سورة لقمان:
سورة لقمان مكية
وآياتها أربع وثلاثون
كلماتها ٥٤٨ - حروفها ٢١١٠.
١ - (الم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الم ١}
قد تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله،) والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب (١

وقد تكون من المحكم الذي يتوصل إلى إدراك معناه، فيقال فيها ما قيل في مثيلاتها من أوائل السور التي تكون حروفا، إما أن تفهم على أنها بدء أسماء وفواتح سور، أو مما أقسم المولى سبحانه به، أو هي من إعجاز القرآن، إذ الألف واللام والميم حروف ينطق بها كل عربي، ومنها يتكون كلم القرآن العظيم، فمع تكونه من حروف كالتي ينطقون بها عجز فصحاؤهم وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله وسيظلون عاجزين، فثبت أن القرآن المجيد كلام رب العالمين.

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

{الحكيم} ذي الحكمة، والمحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض.

{تلك آيات الكتاب الحكيم ٢ هدى ورحمة للمحسنين ٣}

تلك الآيات التي جاءت في القرآن آيات كتاب لا تفوته الحكمة تباركت وتبارك هذا الذكر المجيد، كلها تامة صادقة عادلة ليس فيها اختلاف ولا تبديل، أو هي عالية القدر والشرف، والكتاب حاكم على كل الكتب، وكل المكلفين، [و {تلك} في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هذه تلك. . . و {الكتاب}: القرآن] ٢ والآيات تعقب هداية يشرح الله بها صدور المؤمنين، فتستنير وتنفسح، كما جاء في قول مولانا العزيز العليم:). . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. . (٣، ويدركون بتقديسها، والعمل بها، والثبات على منهاجها، ورحمة واسعة من ربنا، وبرا في العاجل والآجل {للمحسنين} للعاملين الحسنات، أو الذين يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه، أو للمحسنين دينا- فالإسلام أحسن الأديان، أو للمحسنين كل فعل وقول وعمل، يجيدونه ويتقنونه، كما أورد الألوسي: ويجوز أن يكون {الحكيم} من صفاته عز وجل، ووصف الكتاب به من باب الإسناد المجازي، فإنه منه سبحانه بدأ، وقد يوصف الشيء بصفة مبدئه. . . وأن يكون الأصل، الحكيم منزله أو قائله، فحذف المضاف إلى الضمير المجرور، وأقيم المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعا، ثم استكن في الصفة المشبهة. . .

٣ - (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

{للمحسنين} للعاملين الحسنات، الذين يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه، أو للمحسنين دينا- فالإسلام أحسن الأديان- أو للمحسنين كل فعل وقول وعمل يجيدون ويتقنون.

{هدى ورحمة} بالنصب على الحالية من {آيات}. اه [وحيث زاد ههنا- أي عن أوائل سورة البقرة حيث ذكر هناك {هدي} فحسب {ورحمة} قال: {للمحسنين} فإن الإحسان مرتبة فوق التقوى، لقول الله تعالى:) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (٤ ولقوله صلى الله عليه وسلم: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. . "] ٥.

٤ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

{يقيمون} يؤدون أداء تاما متقنا.

{ويؤتون} يعطون.

{الزكاة} حق في المال وكل ما يقوم بمال جعله الله تعالى للفقراء والمساكين والمستحقين.

{الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ٤ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٥}.

من أدوا الصلاة وأتموها، وداوموا عليها في أوقاتها وأتقنوها، وخشعوا فيها وتدبروها، وأعطوا حق الله تعالى في أموالهم للفقراء والمساكين، وذوي القربى وسائر المستحقين، وهم مع ذلك يصدقون بأحوال الآخرة من ذهاب الحياة على هذا الكون، وتبديل الأرض غير الأرض والسماء غير السماء، ثم بعث الناس بعد موتهم أحياء، ثم سوقهم وحشرهم للسؤال والحساب والفصل والجزاء، واستيقنوا بذلك دون شك أو ارتياب.

٥ - (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{أولئك على هدى من ربهم} مكنهم الله تعالى من هدايتهم إليه، ومكن الهداية من صدورهم، وكتب في قلوبهم الإيمان.

{وأولئك هم المفلحون} وأصحاب هذه الأقدار الرفيعة، والحظ العظيم، هم أصحاب الشرف العالي، والنجح والفوز والظفر بما رجوا في

أولاهم وعقباهم، فإن قيل: السورة مكية، وقد وصفت أهل الفوز بأنهم من يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهما مما فرض بالمدينة؟ قلنا: الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء قبل الهجرة، والزكاة كانت بمكة حقا للقريب واليتيم والمسكين، لكن الذي شرع بعد الهجرة هو نصابها، وتحديد مقاديرها.

٦ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{لهو الحديث} ما شغل من القول ونحوه وألهى، وتغافل به سامعه عن غيره.

{ليضل عن سبيل الله} ليوقع في الضلال والحيرة، يصد عن الطريق الموصلة إلى مرضاة الله.

{هزوا} استهزاء وسخرية

{ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ٦ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ٧}

لما تبين لنا من فواتح السورة وأوائلها أنوار آيات الكتاب الحكيم وثمراتها وبركاتها، بينت هاتان الآيتان أن من الناس من سفه نفسه، وأطاع شيطانه وهواه، وكره أن يسمع أو يسمع من عداه ما جاء من هدي الله، فراح يوفر لنفسه ولمن يستطيع ما يلهي ويشغل، ويغفل به عن غيره من غناء أو نحوه، يريد أن يركن الناس إلى الباطل والجهالة، ويسخروا من الحق والدين وطريق الاستقامة، فما أبعد ضلال هؤلاء، وما أشد ما أعد لهم من عذاب يخزيهم، وإذا قرئت على أحد أئمة الضلال آيات من آيات ربنا الكبير المتعال أعرض ومضى متعاظما لا يخشع لذكر الله وما أنزل من الحق، كأنه مصاب بالصمم الذي أفقده السمع، {فبشره بعذاب أليم} أمر من الله تعالى لنبيه أن يخبر هذا أو من على شاكلته من الصادين عن الرشد، العاكفين على اللهو، بعذاب يوجعهم أشد الوجع [واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، ففي رواية جويبر عن ابن عباس أنه اشترى قينة ٦ فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول لها: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم-. . فنزلت] ٧.

٧ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

{تتلى} تقرأ.

{ولى} أعرض وفر.

{وقرا} أصله الحمل الثقيل، لكن يراد به ثقل السمع والصمم- المرض الذي يفقد من أصابه حاسة السمع-

{فبشره} أخبره خبرا يظهر أثره على بشرة وجلدة وجهه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ٨ خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ٩}

لما تحدثت الآيتان السابقتان عن حال ومآل أعداء الحق، جاء في هاتين الآيتين عاقبة أهل الصلاح والصدق، فحق اليقين أن المؤمنين الصالحين، المستيقنين بآيات الكتاب المبين، المستقيمين على منهاج الدين، يورثهم ربنا جنات ذات درجات متفاوتات، ينعم من دخلها فلا ييأس، يشب فلا يهرم، ويصح فلا يسقم، ويحيا فلا يموت، وله فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين:) لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (٨) لا يذوقون فيها الموت. . (٩.

٩ - (خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{خالدين فيها وعد الله حقا} ما كثين في هذه الجنة أبدا، لا يتحولون عنها ولا يفارقونها، وعدا حقا من الله تعالى الحق، وربنا لا يخلف الميعاد.

{وهو العزيز} الذي لا يغلبه شيء على مراده، وتحقيق موعوده، {الحكيم} الذي لا تفوته الحكمة، بل يقضي كل أمر موافقا للعدل والصدق والصواب.

١٠ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

}عمد{ جمع عماد، ما يعتمد عليه السقف والحائط ويدعمه ويسنده.

}وألقى في الأرض رواسي{ جعل على الأرض جبالا ثوابت عاليات شامخات.

}أن تميد بكم{ لكيلا تضطرب وتميل بعمارها وساكنيها.

}وبث فيها من كل دابة{ أنشأ وفرق في جنبات الأرض ما يدب عليها ويسير من الأناسي والجن والبهائم والوحش وغير ذلك.

}وأنزلنا من السماء ماء{ وأنزلنا من السحاب الذي يكون جهة السماء مطرا.

}من كل زوج كريم{ من كل صنف ما هو حسن ونافع.

}خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ١٠ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ١١{

ربكم العزيز الحكيم هو الذي أبدع السماوات وبدأ نشأتها، وأقامها مرفوعة بلا عمد، كما قال عز من قائل:). . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. . (١٠، وجعل على الأرض جبالا ثوابت عاليات شامخات لكيلا تضطرب وتميل بعمارها وساكنيها، فكانت سبب استقرارها إلى أجل قضاه الله، وأنشأ المولى الخلاق العليم وفرق في جنبات الأرض ما يدب عليها ويسير من الأناسي والجن والبهائم والوحش وغير ذلك، وأنزل برحمته وعظمته من السحاب الذي يكون- بتكوين الله- جهة السماء، ينزل الرزاق الوهاب منه حين يشاء مطرا بقدر ما يشاء،). . فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء. . (١١، فينبت سبحانه- وهو الزارع على الحقيقة- بسبب هذا المطر المبارك أصنافا شتى مما هو حسن ونافع.

١١ - (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

}ضلال مبين{ حيرة واضحة لا خفاء بها، وعمى عن الحق.

}هذا خلق الله{ وكل عاقل يقر بأن كل ما أشارت إليه الآية الكريمة كغيره من المخلوقات إنما هو من صنع المعبود بحق- تبارك اسمه- فإذا كان كذلك فأروني ما الذي خلقته الأصنام والشركاء التي عبدها المشركون من دونه- جل علاه- والأمر للتعجيز، كما جاء في آية مباركة:) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات. . (١٢ وكما في آية كريمة:) الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون (١٣، ثم أضرب الله تعالى عن مخاطبتهم، وبل للإضراب عن مخاطبتهم، ثم ختمت الآية ببيان حال الكافرين المشركين الجاحدين، وأن صدودهم عن الإيمان والرشد إنما هو للحيرة، وعمي البصيرة والسفه البين الواضح الذي سيعترفون به حين تحق عليهم كلمة العذاب:) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير (١٤ والأفعال هنا للمستقبل: أي سيقولون، فيعترفون بذنوبهم، وإنما عبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه حتى كأنه وقع فعلا.

١٢ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

}الحكمة{ موافقة الصواب.

}حميد{ محمود تحمده الخلائق، وهو المستحق للحمد على الحقيقة.

}ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر- فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ١٢ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ١٣ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ١٤ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ١٥{

ولقد أعطينا لقمان ١٥ علما يهدي إلى الصواب، ونورا إلى نهج الرشد والخير، وعهدنا إليه أن يشكر لله تعالى أنعمه، فيقر بعطائه وجوده

ويستيقن بفضله، وتستقيم جوارحه على ما يرضي الكريم والوهاب، فهو تصديق بالعقل والوجدان والقلب، وإقرار باللسان الذاكر المسبح الحامد الشاكر، وعمل بالجوارح يبتغي به مرضاة الرزاق المتين، البر الرحيم.

{ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه} من أقر لمولاه بالفضل، وشكره على العطاء الجزل، وأطاعه خشية ورجاء فإنما يعود ثواب شكره إلى عاجله متاعا ورزقا مباركا وذكرا طيبا في الأرض وفي السماء، وإلى آجله جنة وحريرا، ونعيما وملكا كبيرا.

{ومن كفر فإن الله غني حميد} ومن جحد المنعم أو كذب بآياته ورغب عن الدين الخالص فلن يضر إلا نفسه والله غني عن طاعة المطيعين، محمود من خلقه في السماوات وفي الأرضين:). . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار. . (١٦) ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء (١٧) ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض. . (١٨.

[{أن اشكر الله} أي: أي اشكر، على أن {أن} تفسيرية، وما بعدها تفسير لإيتاء الحكمة، وفيه القول دون حروفه، سواء كان بإلهام أو وحي أو تعليم] ١٩.

١٣ - (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

{يعظه} يذكره بأمر ليس مما يجهل أصله، أو يزجره ويخوفه الغي.

{وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله} واذكر إذ تولى ابنه يزجره ويخوفه الغي، قائلا: يا ابني- مصغرا تصغير إشفاق ومحبة، ليكون أبلغ في استمالة قلبه، وأقرب إلى تحقق السماع والاتباع- {لاتشرك بالله} أي اثبت على تقديس المعبود بحق وعبادته وطاعته دون ما زعم المشركون من أنداد أو أضداد لربنا الكبير المتعال، {إن الشرك لظلم عظيم} - قال البخاري: حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن عبد الله قال: لما نزلت:) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم. . (٢٠ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان: {يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} "؟.

١٤ - (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

{وهنا} ضعفا.

{وفصاله} وفطامه بعد تمام رضاعه.

{المصير} المرجع.

{ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير} لكأن هذه الآية والتي بعدها وصية من الله تعالى لكل الأناسي جاءت بين قول لقمان لابنه ووعظه إياه، وصى ربنا سبحانه كل فرد من بني الإنسان ببر أبيه وأمه ٢١ والإحسان إليهما، وذكر بما تلاقيه الأم من أجل وليدها، فهي بحكم تكوينها ضعيفة يزيدها الحمل ضعفا على ضعفها، أو {حملته} فألحق بها إبان حمله ضعفا، تزايد خطره وتفاقم أمره يوما بعد يوم إلى أن بلغ المدى حين الولادة والنفاس {وهنا على وهن} ثم رعايته ورضاعه إلى أن يتم فطامه بإكمال سنتين، وأمرنا للإنسان برعاية أبويه يكون بإكرامهما وطاعتهما، وعرفان حقهما، والوفاء لهما، وذلك من شكر الله المنعم علينا وعلى والدينا وعلى الخلق كافة، ثم نرد إلى ربنا فيجزي الشاكرين ويسعد مصيرهم.

١٥ - (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{جاهداك} بذلا جهدهما قبلك.

{سبيل من أناب إلي} طريق من تاب من زلته، ورجع إلى طاعتي.

{فأنبئكم} فأخبركم خبرا تجازون بمقتضاه- خيرا أو شرا-.
{وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا} وإن بذل أبوك وأمك الجهد وحرصا على حملك على أن تدعي لله تعالى شريكا فلا تجبهما إلى ما دعواك إليه من الإشراك، ولا تطعهما في ذلك ٢٢، ولكن اصنع معهما ما تعارف عليه العقلاء مما هو حق وبر، {واتبع سبيل من أناب إلي} والزم طريق المنيبين إلى ربهم، المستقيمين على هداه وما يبلغ رضاه، {ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون} ثم بعد الحياة يكون رجوعكم إلي ووقوفكم للعرض والحساب بين يدي، فأخبر كل عامل بما كان يعمل، وأثيبه بما قدم، فليقدم كل منكم ما يجب أن يقدم عليه، [لما خص - تعالى- الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قوله حين قال له رجل: من أبر؟ قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أمك " قال: ثم من؟ قال: " أبوك " فجعل له الربع من المبرة. . {وصاحبهما في الدنيا معروفا} نعت لمصدر محذوف، أي مصاحبا معروفا. . . والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، والإنة القول، والدعاء إلى الإسلام برفق، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي عليه الصلاة والسلام- وقد قدمت عليها خالتها، وقيل أمها من الرضاعة- فقالت: يا رسول الله! إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: " نعم " وراغبة: قيل معناه: عن الإسلام، قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها. .] ٢٣
١٦ - (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)
{يابني} نداء [ابن] مع تصغير ترقيق وإشفاق.
{تك} مضارع من كان التامة، وأصلها: تكن، فحذفت النون للجزم، أي توجد.
{يأت بها} يحضرها.
{لطيف} يصل علمه إلى دقيق الأمور وخفيها.
{يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ١٦ يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ١٧ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ١٨ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ١٩}
يقص علينا الكتاب العظيم كيف تابع لقمان الحكيم عظة ولده، أو وعظ كل سامع عاقل في شخص ابنه، فيذكر بأنها- أي القصة أو الحقيقة، أو الفعلة حسنة أو سيئة إن توجد أو تقع أو تستكن في جوف صخرة، أو في آفاق وأرجاء السماء، أو في جنبات وأقطار الأرض فإن الله تعالى يحضرها للحساب عليها والجزاء بمقتضاها:) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢٤). . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (٢٥، ومع أنها في ثقل حبة الخردل، وهما غابت عن أعين المخلوقين، فإنها لا تخفى على الملك المتين، إنه الخبير البصير.
١٧ - (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)
{عزم الأمور} واجباتها.
{يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك} فإذا تم لك الإيمان، واجتنب الرجس من الأوثان، ولم تشرك بالواحد الديان، وهيبته وعظمت جلاله واستيقنت برقابته فأقم وجهك للدين، وحافظ على صلاتك تكن من العابدين، وادع إلى الرشد والهدي، وحذر من الغي والفحش، وازجر عن الردى، وكن صابرا في البأساء والضراء وحين البأس وعلى كل حال {إن ذلك من عزم الأمور} مما أوجبه الله تعالى، وعزمه، أي من الأمور المعزومة- والعزم بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى، ومنه ما ورد: من عزمات الله عز وجل- ٢٦.
١٨ - (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)
{ولا تصعر خدك} ولا تمل بوجهك استصغارا لمن يواجهك.

{مرحا} مبالغا في الفرح، بطرا.
{مختال} متبختر في مشيته، كبرا.
{فخور} متباه بما أوتي.
{ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا} لا تمل وجهك للناس حين يلقونك أو تلقاهم استصغار لشأنهم، وأصل [الصعر] داء يصيب الإبل فيلوي من أعناقها، ويميل بها عن رؤوسها، ولا تسر سير البطر المستكبر، فإن قارون حين خرج على قومه في زينته لم يلبث إلا يسيرا حتى خسف الله به وبداره الأرض). . فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٢٧، {إن الله لا يحب كل مختال فخور} فمن ملأه العجب ومشى مشية البطر، وعاش مزهوا بما أوتي، مفتخرا يحسب أن ما هو فيه يدل على فضله، أو يختال بما هو حسي، ويفتخر بما هو من قبيل التفوق العرقي والنسبي والطبقي.
١٩ - (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)
{واقصد في مشيك} توسط فيه بين التماوت وشدة الإسراع.
{واغضض من صوتك} انقص منه، وخفض، واقصر.
{صوت الحمير} النهاق الذي أوله زفير وآخره شهيق.
{واقصد في مشيك} بعد التخلية عن النقائص – تصعير الخد، ومشي المرح، الذي نهى الله تعالى عنه كذلك في سورة الإسراء فقال عز من قائل:) ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا (٢٨ - جاءت الآية الكريمة تدل على التحلية، وتهدي إلى الطريقة المرضية، ومنها المشي القصد الذي هو وسط بين التماوت وشدة الإسراع، {واغضض من صوتك} وانقص من صوتك وخفض منه واقصر، فإن ذلك أرفق بك وبالناس، {إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} أشد الأصوات قبحا ونكرا صوت منفر، من حيوان محقر،). . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٩، هذا وقصص الكتاب العزيز عبرة " والقرآن حجة لك أو عليك " - كما جاء في الحديث الصحيح- فهل نقتدي بهدي الذين آتاهم ربنا الحكمة؟ وهل يعظ الآباء الأبناء بمثل هذا الرشد والضياء؟!) يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا. . (٣٠ فإنه " ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن " إن خسار الناس وهلاكهم وبوارهم واقع ما لم يتدارسوا منهاجهم، ويلزموا ملتهم ودينهم:) والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣١ فالإيمان واليقين بالله الواحد نور القلوب وحياتها، والصلاة رأس العبادة وعمودها، والدعوة إلى الهدي طريق الأمة الخاتمة ومنهاجها:) قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني. . (٣٢، وحسن العشرة، وأدب الصحبة، تدرك بهما المودة والألفة) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. . (٣٣) إنما المؤمنون إخوة. . . (٣٤ ولقد وصف الحق سبحانه الذين يحبهم ويحبونه بأنهم أذلة على المؤمنين ٣٥، يقول ربنا الرحمن الرحيم:). . فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله. . (٣٦.
٢٠ - (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)
{ألم تروا} استفهام تقريري، والرؤية بصرية وبصيرية.
{سخر} ذلل وقهر.
{وأسبغ} وأوسع، وأتم.
{يجادل} ينازع.
{ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ٢٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ٢١ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ٢٢}
ينكر القرآن الكريم على الغافلين عن سلطان الله، والمرتابين في آياته ورسالاته وملاقاته، مع أنهم يرون بأبصارهم وبصائرهم وفكرهم أن

العزيز العليم ذلل وقهر لنا ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومنازل فهي منقادة له سبحانه جعلها في منافع العباد في عاجلهم وآجلهم، وملائكتها عليهم السلام كذلك، وسخر لنا ما في الأرض من يابسة وماء ونبات وحيوان وهواء، وما بين ذلك من سحاب ورياح، وأوسع علينا نعمه- جمع نعمة- وأتمها: ظاهرة كالمحسوسات، وباطنة كالمعقولات.
}ومن الناس من يجادل في الله{ يخاصم وينازع ويغالب في وحدانية المعبود بحق وقدسيته من غير أن تكون لديه حجة أو برهان على ما يدعيه، فانعدم السلطان والدليل من جهة العقل، }ولا كتاب منير{ لم يأته من وحي، ولا جاءه من السماء كتاب يوضح ما زعمه وينير ظلمات افترائه، كما تحدى الكتاب المبين ضلال هؤلاء المفترين فقال:). . أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شر في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (٣٧ وأبطل الحق سبحانه إفك الملحدين والمنكرين الجاحدين لجلال رب العالمين فقال تبارك اسمه:) أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٨ ثم جاء بعدها:) أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٩.
٢١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)
}وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا{ لما أزهقت حجة الله تعالى باطل المشركين والمنكرين، وسقط إفكهم، ونودوا ليؤمنوا بما جاءنا من الحق من ربنا، أعرضوا وعاندوا ولم يستجيبوا) بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون (٤٠، ومن قبل آتى الله تعالى خليله إبراهيم حجته على قومه، فجادلهم بما جاء في القرآن الحكيم:) قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعوكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٤١، ولقد عجب القرآن من ضلال هؤلاء وأولئك ومن على شاكلتهم فقال:). . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (٤٢، فكأنما تواصى الطاغون بهذا الزور والبهتان، فهم في كل عصر يعكفون على الشرك أو الجحود والنكران، ويقلدون في ذلك أبالستهم وأسلافهم ممن ضلوا وحق عليهم الخسران، ولهذا ختمت الآية الكريمة من هذه السورة المباركة بقول الله الحكيم: }أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير{ فكأن المعنى: أيصرون على متابعة الأقدمين من أولياء الشياطين، والشيطان إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والشرر المستطير، وعذاب النار والخزي والتحسير
٢٢ - (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)
}وجهه{ ذاته.
}بالعروة الوثقى{ كالذي تمسك بعقدة من حبل قوي مأمون انقطاعه.
}ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى{ بينت الآيتان السابقتان على هذه باطل الضالين، وخسار الكافرين، وسفه عقولهم، واقتدائهم في الهلاك بشياطينهم وآبائهم – وبشرت هذه الآية المباركة بما يدرك المؤمن بالحق، المستقيم على الرشد من سلامة وحسن مآل، فمن أسلم ذاته ووجهته إلى شرعة الله ومنهاجه، فصفا ورسخ يقينه، ووفى بعهد ربه وميثاقه، فعبد المولى الرقيب الحسيب كأنه يراه، فحقيق أن يكون هذا من الناجين من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، المفلحين في الأولى والعقبى، كما جاءت البشرى بذلك في قوله تعالى:). . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٤٣.
[}وهو محسن{ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة قلب لا تنفع. . فإن قلت: ماله عدي ب }إلى{، وقد عدي باللام في قوله عز وجل:) بلى من أسلم وجهه لله. . (٤٤؟ قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله- أي خالصا له-، ومعناه مع }إلى{ راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه، والمراد التوكل عليه، والتفويض إليه، }وإلى الله عاقبة الأمور{ أي مصيرها.] ٤٥ يقول ابن كثير: }فقد استمسك بالعروة الوثقى{ أي فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه. اه- والنعم الظاهرة: كل ما يوجد إلى الحس الظاهر إليه سبيل، ومن جملتها الحواس أنفسها، والباطنة: ما لا يدرك إلا بالحس الباطن، أو بالعقل، أو لا يعلم أصلا- ٤٦.
٢٣ - (وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

}ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ٢٣ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ٢٤ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ٢٥ لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد ٢٦{.

تسلية من الله تعالى لنبيه، ووعيد لمن خالفه وكذب بالحق لما جاءه، فإن من عمي عن الهدى يعود هلاكه على نفسه، وإليه يرجع وبال كفره، ولن تسأل أيها البشير النذير عن أصحاب الجحيم، فلا تأس ولا تحزن وتأسف على ما هم فيه من إصرار على الحنث العظيم، فهم راجعون إلينا، وموقوفون بين يدينا، نخبرهم بما كانوا قد أجرموا وعملوا، وما أسروا به، أو عنه غفلوا، فإنا نعلم سرهم ونجواهم، وما يمكرون ويبيتون، ومهما حلمنا عليهم وأمهلناهم، فإنا نعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، ونمتعهم استدراجا ثم نسوقهم إلى العذاب الشديد الأكبر، كما تهددهم القوي العزيز بقوله المجيد:). . قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار (٤٧ (. . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (٤٨). . قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٤٩.

٢٤ - (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

}ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ٢٣ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ٢٤ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ٢٥ لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد ٢٦{.

تسلية من الله تعالى لنبيه، ووعيد لمن خالفه وكذب بالحق لما جاءه، فإن من عمي عن الهدى يعود هلاكه على نفسه، وإليه يرجع وبال كفره، ولن تسأل أيها البشير النذير عن أصحاب الجحيم، فلا تأس ولا تحزن وتأسف على ما هم فيه من إصرار على الحنث العظيم، فهم راجعون إلينا، وموقوفون بين يدينا، نخبرهم بما كانوا قد أجرموا وعملوا، وما أسروا به، أو عنه غفلوا، فإنا نعلم سرهم ونجواهم، وما يمكرون ويبيتون، ومهما حلمنا عليهم وأمهلناهم، فإنا نعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، ونمتعهم استدراجا ثم نسوقهم إلى العذاب الشديد الأكبر، كما تهددهم القوي العزيز بقوله المجيد:). . قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار (٥٠ (. . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (٥١). . قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٥٢.

٢٥ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

}ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله{ كيف يعبدون مع الله تعالى غيره وهم يقرون بأن خالق السموات والأرض هو الله دون سواه؟! ويشهدون أنه لا يدانيه في عزه عز، ولا يماثله في علمه أحد:) ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ٥٣ فكيف يشركون معه ما لا يخلق شيئا، ولا يهدي إلى حق؟! {قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون} فأثن على المولى المعبود بحق العزيز العليم، واحمد الله الخالق الرزاق الكريم، واشكروه أن هداكم وعلمكم، وأنقذكم من جهالة المفتونين الغافلين.

٢٦ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

}لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد{ ولربكم دون سواه تلك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو وحده مدبر أمر الكون كله،) والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون (٥٤ (ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون (٥٥، وربنا هو الذي لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا يضره كفر الكافرين، وهو محمود في السماوات والأرضين) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٦.

٢٧ - (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

}ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ٢٧ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ٢٨ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ٢٩ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ٣٠{

لما بينت السورة المباركة أن ربنا الذي خلق السماء بغير عمد، وخلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وبث فيها من كل دابة، وأنبت بالمطر صنوف النبات، فأحيا به الجماد والحيوان والإنسان، وأن مولانا الذي وسع علمه كل شيء وإن دق- خردلة أو ذرة أو أصغر من ذلك أو أكبر- ونعمه الظاهرة والباطنة لا نحصيها، وهو الخالق والمدبر والمالك لكل ذلك ولما وراء ذلك- هذا الولي الكريم صاحب الفضل العظيم لا نحصي أفضاله، ولو كانت أغصان أشجار الأرض أقلاما ٥٧، وبحار الأرض مدادا، وكتب بهذه الأقلام آلاء الملك العلام لجفت البحار ونفد ماؤها ولم تنفد كلمات الله، ولو جيء بمثل الأبحر ومثلها كما جاء في آية كريمة أخرى:) قل لو كان البحر مدادا كلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) ٥٨ [وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور] ٥٩، }إن الله عزيز{ له العزة الغالبة على الكل }حكيم{ لا يفوته صواب، ولا يخفى عليه شيء، - أي عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه.

}حكيم{ في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه، وجميع شئونه- ٦٠.

٢٨ - (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

}ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة{ ما خلقكم معاشر الخلق جميعا ولا بعثكم إلا كخلق نفس واحدة أو كبعث نفس واحدة، وصدق الله العظيم:) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٦١) وإنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٦٢ فالبدء والإعادة للكافة هين على ربنا الذي لا يعجزه شيء ولا يشغله شيء عن شيء- ولا توقف لذلك على آلة ومباشرة تقتضي التعاقب ليختلف عنده تعالى الواحد والكثير كما يختلف ذلك عند العباد- ٦٣ }إن الله سميع بصير{ بالغ سمع ربي كل شيء) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (٦٤، ونافذ بصره إلى كل مبصر.

٢٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

}ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل{ ألم تر رؤيا بصيرية علمية؟! والخطاب لكل من يتأتى منه الإدراك- ألم تعلم أن الله المدبر المهيمن يدخل الليل في النهار). . يغشي الليل النهار. . (٦٥ أو ينقص من هذا فيزيد في ذاك، ويدخل النهار في الليل؟! يزيد من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار. .، يزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل- ٦٦ وهذا الإيلاج إنما هو في هذا العالم ليس عند ربك صباح ولا مساء، وقدم الشمس على القمر في قوله تعالى: }وسخر الشمس والقمر{ مع تقديم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لأنها كالمبدإ للقمر ولأن تسخيرها لغاية أعظم من تسخير القمر، وأيضا آثار ذلك التسخير أعظم من آثار تسخيره]، وتسخيرهما: تذليلهما وإلزامهما السنن المراد منفعة للعباد، }كل يجري إلى أجل مسمى{ كل ذلك يجري إلى وقت علمه الله تعالى، حين ينقضي أمد حياة هذا الكون، }وأن الله بما تعملون بصير{ واستيقنوا أن أعمالكم يراها الله، فأروا الخبير البصير من أنفسكم خيرا، واحذروا أن يراكم حيث نهاكم، فإنه مجازيكم بما كنتم تعملون، يقول صاحب جامع البيان: وخرج هذا الكلام خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعني به المشركون، وذلك أنه تعالى ذكره نبه بقوله أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل على موضع حجته من جهل عظمته، وأشرك في عبادته معه غيره، يدل على ذلك قوله: }ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل{

٣٠ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

}ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل{. اه هذا الذي أوحى إليك يا محمد من آثار قدرتي وحكمتي في إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر إنما يفعله الإله الذي يستحق العبادة، أما ما يعبدون من دون الله فهم أموات غير أحياء) ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها. . (٦٧.
}وأن الله هو العلي الكبير{ والله المعبود بحق علا على كل شيء فقهره، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو الذي ذلل وسخر، وهل بعد تسخير السماوات والأرض تسخير: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (٦٨ }الكبير{ الذي كل شيء دونه فله متصاغر.
٣١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)
}لآيات{ جمع آية، أي علامة ودليل، وحجة وبرهان.
}صبار{ مبالغ في الصبر، وقد تكون أبلغ من [صبور].
}شكور{ كثير الشكر.
}ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ٣١ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ٣٢{
ألم تعلم يا من يتأى منه العلم أن جنس السفن والجوار المنشآت تجري على سطح الماء في البحر بتسخير الله تعالى لها، وتذليله وما يمخر فيه لمنافع العباد من جلب أقوات، ونقل تجارة، وتيسير عمارة، وطلب علم، وصلة رحم، وقهر عدو، ومشاهدة واعتبار، وتبارك المنعم الوهاب الذي عمت آلاؤه). . وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٦٩ لتروا من علامات قدرته وتسخيره ما يزيد الذين اهتدوا هدى، }إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور{ إن في كل ما ذكرتم به من آثار الملك والخلق، والتدبير والرزق، لعلامات لأهل اليقين والصدق، والصبر على الوفاء بعهد الله وميثاقه، والشكر على ما أعطى ووهب، وما صرف من بلايا وكرب، وفي الآية التاسعة والعشرين تذكير بتسخيره سبحانه لكواكب السماء، وفي هذه الآية تذكير بتسخيره جل علاه لصفحة الماء، فهي على رقتها ولطافتها تحمل المنشآت في البحر كالأعلام، وتجري تمخر وتشق اللجج بقدرة الملك العلام- إن قال قائل: وكيف خص هذه الدلالة بأنها دلالة للصبار الشكور دون سائر الخلق؟ قيل: لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحجة والعقول، فأخبر أن في ذلك لآيات لكل ذي عقل، لأن الآيات جعلها الله عبرا لذوي العقول والتمييز ٧٠. مما قال أهل المعاني: والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن، إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء. اه ومما جاء في روح المعاني: }صبار شكور{ كناية عن المؤمن. . لأن هاتين الصفتين عمدتا الإيمان. . . وقيل المراد بالصبار كثير الصبر على التعب في كسب الأدلة من الأنفس والآفاق. . . وإنما اختير زيادة المبالغة في الصبر إيماء إلى أن قليله- لشدة مرارته وزيادة ثقله على النفس- كثير. اه.
٣٢ - (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)
}غشيهم{ غطاهم.
}كالظلل{ جمع ظلة، وهو ما يظل ويستر.
}مقتصد{ سالك القصد، وهو الطريق المستقيم، وأصله: استقامة الطريق.
}ختار{ غدار أشد الغدر.
}كفور{ ممعن في الكفر.
}وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين{ فإذا ركبوا البحر وجرت بهم السفينة هادئة فرحوا، فإذا فاجأتهم الريح العاصف وجاءهم الموج من كل مكان وغطاهم كأنه سحاب، وظنوا أنهم أحيط بهم). . دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٧١). . تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٧٢، }فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد{ فلما

كشف الله تعالى ضرهم، وأمن خوفهم، فرج كربهم، فمنهم سالك القصد، والطريق المستقيم، موف بعهد الله العلي العظيم،، ومنهم من ينقض وينكث، ويغدر بعهد عاهد عليه ربه حين مسه الضر، بدليل قول الله سبحانه: {وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور} هم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، فهم أشد الناس غدرا، وأقبحهم فجورا وكفورا، إذ بالغ في كفران نعم الله.

٣٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

{يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ٣٣ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ما ذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ٣٤}

أعذر الله تعالى إلى الناس فحذرهم نفسه وغضبه ونقمته، وأنذرهم لقاءه وحسابه وجزاءه، وأن يوم الفصل يعظم فيه الهول، ولا يغني أحد عن أحد، كما قال جل علاه:) لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم. . (٧٣ وقال تبارك اسمه:) ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا. . (٧٤) يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٧٥، {إن وعد الله حق} إن الساعة لآتية لا ريب فيها، فلا تشغلنكم زخارف الحياة الدنيا، ولا يلهينكم لعبها وتكاثرها وتفاخرها، ولا يحسبن أحد مهما جمع أن ماله سيخلده، أو أن سلطانه في الدنيا سينجده، كلا! سيعرف عجزه وانقطاعه يومئذ ويندم حين لا ينفعه الندم). . فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه (٧٦، {ولا يغرنكم بالله الغرور} ولا يخدعنكم الشيطان، فإنه لكم عدو فاتخذوه عدوا، وإنه لم يوالي حزبه إلا إلى حين يستحوذ عليهم ويغويهم، ثم يتبرأ منهم ويعاديهم) كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها. . (٧٧) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل. . (٧٨ وإنما، سمي غرورا لأنه يمني الخلق ويلهيهم عن الآخرة كما وصفه الله تعالى وكشف كيده:) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٧٩، نقل عن سعيد بن جبير: هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة. اه وعن الراغب: الغرور هو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان. اه والظاهر أن {بالله} صلة {يغرنكم} أي لا يخدعنكم بذكر شيء من شئونه تعالى يجسركم على معاصيه سبحانه ٨٠.

٣٤ - (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

{إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام} استيقنوا أن الله المعبود بحق يعلم ما لا تعلمون، فلا يعلم متى تنتهي الدنيا وتجيء الآخرة إلا الله عز وجل، وهو الذي ينزل المطر فيغيث به العباد والبلاد، ويسوقه سبحانه إلى حيث يشاء بقدر ما يشاء ويصرفه عمن يشاء، وهو تعالى شأنه يصورنا في الأرحام كيف يشاء، ويعطي كل جنين خلقه، وييسره لما خلق له، {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير} ومع أن الآدمي منساق بغريزته إلى الكسب والجمع والتملك، ومهما أوتي من حيلة، وأخذ بكل أسباب الوصول، فإن العاقبة تبقى بيد الفعال لما يريد:) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده. . (٨١، فما في مقدور إنسان أن يقرر ماذا هو فاعل غدا؟ وماذا هو مدرك مما يطلب؟ وماذا ينال من سراء أو ضراء، من نعمة أو بلاء، وليس في مقدور بشر أن يكون على دراية تامة بمصرعه أين يكون،، هل توافيه المنية حالا أم مرتحلا؟ هل يفارق الحياة في الدار أم في العمل؟ هل في مضجعه أم في مركبه أم في مستشفاه؟! إن الله أحاط بكل شيء علما، وهو

ذو الخبرة بما كان وما سيكون وما هو كائن، تعالى شأنه، - هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب:). . لا يجليها لوقتها إلا هو. . (٨٢ وكذلك إنزال الغيث. . وهذه شبيهة بقوله تعالى:) وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو. . (٨٣ الآية، وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب- ٨٤ في صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس إذ أتاه ٨٥ رجل يمشي فقال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ٨٦ ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر " قال: يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: " الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان " قال: يا رسول الله! ما الإحسان؟ قال " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " قال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت المرأة ٨٧ ربتها فذاك من أشراطها وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها في خمس ٨٨ لا يعلمهن إلا الله {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام} ثم انصرف الرجل فقال " ردوه علي " فأخذوا ليردوا فلم يردوا شيئا فقال: " هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم "، وروايته عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مفاتيح الغيب خمس ثم قرأ: {إن الله عنده علم الساعة} " " نقل صاحب تفسير غرائب القرآن عن التفسير الكبير: ليس مقصود الآية أنه تعالى مختص بمعرفة هذه الأمور فقط. . . وإنما المراد أنه وقد حذر الناس من يوم القيامة، كان لقائل أن يقول: متى الساعة؟ فذكر أن هذا العلم لا يحصل لغيره، ولكن هو كائن لدليلين ذكرهما مرارا، وهو إنزال الغيث المستلزم لإحياء الأرض، وخلق الأجنة في الأرحام، فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة بالأولى، ثم إنه كأنه قال: أيها السائل إن لك شيئا أهم منها لا تعلمه، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، فلا تعلم {ماذا تكسب غدا} مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت، مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة؟!. . . قال جار الله: جعل العلم لله والدراية للعبد لما في معنى الدراية من معنى الختل والحيلة، كأنه قال: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلها. اه مما جاء في الجامع لأحكام القرآن: والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء ٨٩ وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك. . وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم له تعالى وحده. اه.

٣٢ سورة السجدة:

سورة السجدة:
سورة السجدة مكية
وآياتها ثلاثون
كلماتها ٣٨٠ - حروفها ١٥١٨.
١ - (الم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الم ١}

ربما تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو تكون اسما للسورة، أو سيقت للتحدي بمعنى أن الألف واللام والميم حروف تنطقون بها، ومنها ومن مثيلاتها يتكون كلامكم، ومع أن القرآن الذي أنزلته على خاتم النبيين محمد مكون من مثل تلك الحروف، لكنكم عجزتم وسيظل الخلق جميعا عاجزين عن الإتيان بمثله، فاعلموا إذا أنه كلام الملك الحكيم، رب العرش العظيم.

٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٢}

{تنزيل} مرفوع، على أنه خبر للمبتدأ {الم}، أو على أنه مبتدأ، وخبره: {من رب العالمين}، و {لا ريب فيه} في موضع الحال، لا شك

في أن تنزيل الكتاب- الذي لا يعادله كتاب- تنزيل من خالق العوالم ومصلحها، ووليها ومدبرها، من الله الحق المبين، وما محمد إلا مبلغ كلمات ربكم الحكيم العليم.
مما أورد صاحب غرائب القرآن. .: ويمكن أن يقال في وجه النظم: لما عرف في أول السورة المتقدمة أن القرآن هدى ورحمة، قال ههنا: إنه من رب العالمين. . . ففي تخصيص رب العالمين بالمقام إشارة إلى أن كتاب رب العالمين لا بد أن يكون فيه عجائب للعالمين. . اه
٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)
{أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ٣}
كلمات ربنا صدق وعدل، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- أن القرآن تنزيله، وعجيب أن يستكبر المنكرون، ويتطاول الجاحدون، فيزعمون أن محمدا- صلى الله عليه وسلم- اختلقه وادعى أنه أوحي إليه به، كيف يستقيم زعمهم هذا وقد قامت الحجة تلو الحجة، والبرهان فوق البرهان على أنه كلام الملك الديان؟! بل هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، ومهما أراد الكافرون الكاذبون أن يطفئوا نور الله فإن الله متم نوره، وأوحينا إليك هذا القرآن لتحذر قومك، الذين لم أبعث فيهم رسولا قبلك، لتحذرهم بأسنا وبطشتنا لعل التحذير يستنقذهم من الإهلاك والتدمير، فإنهم إن تبينوا الهدي واتبعوه نجوا، وإن كذبوا بالكتاب وبما أرسلتك به حق عليهم العذاب- العاجل منه والآجل- وقريش لم يبعث فيها نبي قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والقول الرباني الكريم {لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك} لا ينافي أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث بالقرآن ووحي الله إلى العالمين كافة- جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، أولهم وآخرهم، من عاشوا معه وأدركوه حيا، أو من يجيء بعده إلى يوم القيامة- فإن الله تعالى يقول:) تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (١ ويقول- تبارك اسمه-:) وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا. . (٢ ويقول - عز مقامه-:) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا. . (٣ ويقول:). . ولكن رسول الله وخاتم النبيين. . (٤.
٤ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ)
{استوى} علا.
{العرش} أعظم مخلوقات الله تعالى.
{ولي} متول لأموركم.
{شفيع} من يعمل على نيلك الخير، وسلامتك من الشر.
{الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ٤ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ٥ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ٦ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ٧ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ٨ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ٩}
المعبود بحق، منزل الكتاب بالصدق، هو الذي خلق السماوات والأرض في مدة تقدرونها بستة أيام، أو فيما مدته وتقديره ستة أيام، ثم استوى على العرش، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، - وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته- وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته ٥، ليس لكم من دون الله من يتولى أمركم، ولا من يشفع لكم، أفلا تتفكرون في قدرته، فتذعنون لأمره، وتستجيبون لداعيه ورسالته؟! أتسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها؟!
٥ - (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)
{يعرج} يصعد.
{يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون} يمضي ما أراده سبحانه محكما متقنا منزلا له

بإنزال أسبابه من السماء إلى الأرض، ويسير شئون الدنيا في السماء إلى الأرض حتى تقوم الساعة ثم يصعد إليه تعالى ويصير الأمر كله ليحكم فيه في يوم القيامة الذي يقدر بألف سنة، بل وبخمسين ألف سنة.

يقول الألوسي: وأقول: إن الآية من المتشابه، وأعتقد أن الله تعالى يدبر أمور الدنيا وشؤونها، ويريدها متقنة، وهو سبحانه مستو على عرشه، وذلك هو التدبير من جهة العلو، ثم يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عز وجل إظهارا لمزيد عظمته- جلت عظمته- وعظيم سلطته- عظمت سلطنته- إلى حكم هو – جل وعلا- أعلم بها، وكل ذلك بمعنى لائق به تعالى، مجامع للتنزيه، مباين للتشبيه –حسبما يقوله السلف في أمثاله- اه.

يقول القرطبي: وقوله: {إليه} يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه، وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام:). . إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٦ أراد أرض الشام، وقال تعالى:). . ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله. . (٧ أي إلى المدينة. . ٨ اه

٦ - (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

{الغيب} ما غاب عن الخلق.

{والشهادة} ما حضر الخلق وما يشهدونه.

{ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم} العظيم البارئ المصور الخلاق المهيمن هو وحده المحيط علما بكل ما غاب وما حضر، وما نبصر وما لا نبصر، الذي يقهر ولا يقهر، وسعت رحمته في الدنيا من يؤمن ومن يكفر، ويختص بها يوم القيامة من آمن واتقى وبر.

٧ - (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

{أحسن} أتقن وأحكم.

{وبدأ خلق الإنسان} آدم، إذ هو أصل جنس الإنسان.

{الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين} ومولانا أتقن كل شيء صنعا وأحكم خلقته، وبدأ خلق آدم من تراب ٩ خالطه ماء فغدا طينا، وحين لزب ولصق وصلب أصبح صلصالا كالفخار، فهي إذا أطوار، تأتي الآية من القرآن مبينة حالا منها، يقول الله تبارك وتعالى). . كمثل آدم خلقه من تراب. . (١٠ ويقول سبحانه:) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (١١ ويقول عز شأنه:). . إنا خلقناهم من طين لازب (١٢ وقال- تبارك اسمه-:) قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون (١٣ وفي الآية الكريمة:) خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤.

٨ - (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

{نسله} ذريته.

{سلالة} تستخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وتنفصل في استخفاء.

{ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين} ثم صير سبحانه وأوجد أولاد آدم وذريته يلد بعضهم بعضا، ويخرج وينسل المولود من والديه بما يستل منهما ويستخرج في خفاء من ماء الذكر وماء الأنثى وكلاهما ماء ضعيف لا يعتد به بل يمتهن.

٩ - (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)

{روحه} خلق من خلق الله لم يعط أحدا علمه، به حياة النفس، ولا يعيش حي إلا به.

{الأفئدة} القلوب والقوى المدركة.

{ثم سواه} ولعل المراد هنا آدم، بدأ الله تعالى خلقه من الطين ثم سواه وعدله بتكميل خلقته، {ونفخ فيه من روحه} بعث الله تعالى الروح في بدنه فصار بها حيا ناطقا مدركا- وإضافة الروح إليه سبحانه للتشريف- {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} وهبكم يا معشر الأناسي ما تسمعون به وترون وتدركون {قليلا ما تشكرون} قليل شكر أكثركم لأنعم ربكم.

١٠ - (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

{وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ١٠*}

بعد ما بينت الآيات السابقات قيل الكفار الفجار: محمد افترى القرآن، واتخاذهم لله شركاء من الأوثان، زعموها تشفع لهم وتقربهم من الواحد الديان، قالوا هذا وقالوا: أنبعث خلقا جديدا بعد أن نغيب في الأرض وندفن فيها، ونضيع وتختلط بقايا أجسادنا بترابها؟! يؤكدون إنكارهم للحياة الأخرى، بل هم منكرون جاحدون لملاقاة الملائكة لهم حين توفيهم ساعة الاحتضار، وينشرون ويحشرون ويعرضون على النار.

١١ - (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

{قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ١١}

رد الله تعالى عليهم إنكارهم وأبطله، فالحق أن الله تعالى وكل من ملائكته الكرام- عليهم السلام- من يقبض روح الخلائق ١٥ إذا جاء أجلها، و {يتوفاكم} يستوفي نفوسكم لا يترك فيها شيئا، ولا يبقي على أحد منكم، ونسبة التوفي إلى ملك الموت باعتبار أنه- عليه السلام- يباشر قبض الأنفس بأمره عز وجل، {ثم إلى ربكم ترجعون} بالنشور، والخروج من القبور، والسوق إلى ساحة العرض والحساب، والفصل والجزاء والثواب، وكيف تستبعدون قدرة الله على جمع رفاتكم من التراب، وأنتم تشاهدون ملك الموت يستخرج الأرواح من الأشباح، وهي سارية في كل جنباتها، منبثة في شتى أجزائها؟! أليس الذي أقدر ملكا من ملائكته على هذا يملك أن يعيدكم وإن تمزقت جلودكم، وتفرقت لحومكم، وبليت عظامكم؟ بلى إنه بكل شيء بصير، وعلى كل أمر قدير.

١٢ - (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

{ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ١٢}

وحين يرد هؤلاء المجرمون ومن على شاكلتهم بعد موتهم أحياء ويوقفون بين يدي ربهم ليحاسبهم تراهم على حال عجيبة، ولو ترى يا محمد أو يا من له أهلية الخطاب لرأيتهم في هول شديد، وخزي يغشى وجوههم، قال الزجاج: والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأمته، والمعنى: لو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب. اه يقولون: يا ربنا أبصرنا الآيات الكونية، وسمعنا الآيات القرآنية، أبصرنا صدق وعيدك، وسمعنا تصديق رسلك، وصرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبل عميا صما لا ندرك، رجعوا على أنفسهم بالملامة وأقروا بالضلال والندامة، كما حكى الله عن إقرارهم بقوله الحق:) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٦) أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا. . (١٧، ويسألون الله أن يرجعهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويبروا، ولكن هيهات! يقول ربنا- تبارك اسمه-:) ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادون لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٨.

١٣ - (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

{ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ١٣}

رد الله تعالى دعاءهم، وخيب رجاءهم في طلب الرجوع إلى الابتلاء ليصرف عنهم شقاءهم، فبين سبحانه أنه لو شاء لهدى الناس جميعا- أي خلق في قلوبهم الهداية، وحبب إليهم الإيمان، ولكنه جل وعز قضى أن يملأ جهنم من صنفي الجن والإنس القاسطين الغاوين، وتلك سنة الحكيم العليم:) ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا. . (١٩.

١٤ - (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ١٤}.

ويقال للمجرمين المكذبين بالله وكتابه ورسوله ويوم الدين: لا محيص لكم عن الجحيم ولا مفر منها، فذوقوا حرها، واصلوا عذابها، بسبب نسيانكم يوم التلاق، وترككم الإعداد له، وإنما عكفتم الشهوات والضلالات، فجازيناكم من جنس عملكم وترككم في العذاب ترك المنسي، وذوقوا السعير والخزي والتحسير مخلدين في ذلك كله بسبب ما عملتم في حياتكم الدنيا من الكفران والعصيان والطغيان:) إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ٢٠ نسأل الله الوقاية من النار.

١٥ - (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)

{إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ١٥}

المستكبرون يحرمون بكبرهم وغرورهم من الهداية، مصداقا لوعد الله الخبير البصير:) سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (٢١، لكن أهل البشرى ينقادون لنداء ربهم، ويستمعون لحديثه ويتبعون، وهم من خشية الله مشفقون:) إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (٢٢) فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. (٢٣.

وهكذا بينت الآية الكريمة الخامسة عشرة من هذه السورة المباركة أن الذين سعدوا، وحبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم هم الذين إذا ذكروا بآيات ربنا وكلماته خشعوا ووعوا واتبعوا، ولجلال الملك القدوس المهيمن خضعوا.

١٦ - (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

{تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ١٦ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ١٧}

والمؤمنون المسبحون، الخاشعون الساجدون، لايشغلهم عن مناجاة ربهم شيء، فحين يرقد المفرطون، ويغفل الغافلون، ينهض المتقون الصادقون آناء الليل، يصلون ويدعون، يخافون العذاب، ورحمة ربهم يرجون، وفي رضوانه يطمعون، ومع وفائهم بعد الخلاق- سبحانه- فهم لخلقه راعون، ومما تفضل عليهم به المولى يجودون ويبذلون، فجزاهم الله على إحسانهم أحسن ما يكون، وادخر لهم من النعيم ما لايصفه الواصفون، وهي بشراه- عز ثناؤه- وعدها المتقون:) إن المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (٢٤.

أخرج أبو داود الطيالسي في مسنده، وأحمد، والنسائي- والحاكم وصححه- وابن جرير وغيرهم، والترمذي- وصححه- عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار! قال: " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " ثم قال: " ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} حتى بلغ {يعملون} " الحديث ٢٥.

قال ابن عطية: وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريبا شاقا، ومصلى الصبح في جماعة لا سيما في أول الوقت، كما كان عليه السلام يصليها، والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت يقوم سحرا يتوضأ ويصلي ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر، فقد حصل التجافي أول الليل وآخره.

روى مسلم- رحمه الله- في صحيحه من حديث عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من صل العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله ".

وهكذا يعظم مولانا الشكور الودود المثوبة للمتهجدين والمستغفرين بالأسحار، وشهدت بذلك الآثار ٢٦.

١٧ - (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} النعيم الذي لا يحيط به الوصف- إذ لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مقدار هذا الإنعام- تقر به أعين هؤلاء السعداء الأتقياء، وتطيب أنفسهم بما يحله المولى الكريم عليهم من رضوان.

في صحيح مسلم- رحمه الله- عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " سأل موسى عليه السلام ربه فقال يارب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أي ربي كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك

ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب. قال: فأعلاهم منزلة؟ قال أولئك الذين أردت غرست ٢٧ كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر- قال- ومصداقه من كتاب الله قوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}. وبحسب المتهجدين من الأجر والذكر ما شهد لهم به المولى في محكم التنزيل:) إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. . . (٢٨.

١٨ - (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

{أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ١٨ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ١٩ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ٢٠ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ٢١ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ٢٢} ربنا يقضي بالحق فلا يسوي بين المؤمنين والكفار، ولا بين المصلحين والمفسدين، ولا بين المتقين والفاسقين:) أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون (٢٩) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار (٣٠) أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون. وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (٣١ لا يستويان في أولاهم ولا في أخراهم

١٩ - (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون} يأوون إلى جنات أعدت لهم تكريما، فقد دعوا فأجابوا الداعي) والله يدعو إلى دار السلام. . (٣٢، وأما الذين خرجوا عن الصراط السوي، وانشقوا عن الهدي إلى الغي، فلهم النار معدة، كلما طمعوا في الخروج منها أعيدوا فيها، وحسرتهم الملائكة الخزنة قائلين: اصلوا ما أنتم فيه صابرين أو جزعين فما أنتم منها بمخرجين، فقد كنتم بهذا المصير مكذبين، وقسما لينالن عذابا عاجلا، ولنأخذنهم بالبأساء والضراء في الدنيا لعلهم يرجعون إلى طريق الفوز والنجاة، والاستقامة على منهاج الله، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قول الحق جل علاه:) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٣٣، ومضت سنة الله في الأولين وتمضي في الآخرين، وكذلك فعل- جلت حكمته- بالفرعونيين:). . وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٣٤، ومن أشد بغيا وأكثر ظلما ممن جاءه الهدى، والآيات البينات- القرآنية منها والكونية – فأعرض واستكبر، وصد عن الرشد والحق بعد ما تبين، لا يهلك على الله تعالى إلا هالك، ولن يفلت مجرم من بطشه القوي القهار،) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٣٥.

٢٠ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون} يأوون إلى جنات أعدت لهم تكريما، فقد دعوا فأجابوا الداعي) والله يدعو إلى دار السلام. . (٣٦، وأما الذين خرجوا عن الصراط السوي، وانشقوا عن الهدي إلى الغي، فلهم النار معدة، كلما طمعوا في الخروج منها أعيدوا فيها، وحسرتهم الملائكة الخزنة قائلين: اصلوا ما أنتم فيه صابرين أو جزعين فما أنتم منها بمخرجين، فقد كنتم بهذا المصير مكذبين، وقسما لينالن عذابا عاجلا، ولنأخذنهم بالبأساء والضراء في الدنيا لعلهم يرجعون إلى طريق الفوز والنجاة، والاستقامة على منهاج الله، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قول الحق جل علاه:) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٣٧، ومضت سنة الله في الأولين وتمضي في الآخرين، وكذلك فعل- جلت حكمته- بالفرعونيين:). . وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٣٨، ومن أشد بغيا وأكثر ظلما ممن جاءه الهدى،

والآيات البينات- القرآنية منها والكونية - فأعرض واستكبر، وصد عن الرشد والحق بعد ما تبين، لا يهلك على الله تعالى إلا هالك، ولن يفلت مجرم من بطشه القوي القهار،) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٣٩.

٢١ - (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون} يأوون إلى جنات أعدت لهم تكريما، فقد دعوا فأجابوا الداعي) والله يدعو إلى دار السلام. . (٤٠، وأما الذين خرجوا عن الصراط السوي، وانشقوا عن الهدي إلى الغي، فلهم النار معدة، كلما طمعوا في الخروج منها أعيدوا فيها، وحسرتهم الملائكة الخزنة قائلين: اصلوا ما أنتم فيه صابرين أو جزعين فما أنتم منها بمخرجين، فقد كنتم بهذا المصير مكذبين، وقسما لينالن عذابا عاجلا، ولنأخذنهم بالبأساء والضراء في الدنيا لعلهم يرجعون إلى طريق الفوز والنجاة، والاستقامة على منهاج الله، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قول الحق جل علاه:) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١، ومضت سنة الله في الأولين وتمضي في الآخرين، وكذلك فعل- جلت حكمته- بالفرعونيين:). . وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٢، ومن أشد بغيا وأكثر ظلما ممن جاءه الهدى، والآيات البينات- القرآنية منها والكونية - فأعرض واستكبر، وصد عن الرشد والحق بعد ما تبين، لا يهلك على الله تعالى إلا هالك، ولن يفلت مجرم من بطشه القوي القهار،) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٤٣.

٢٢ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون} يأوون إلى جنات أعدت لهم تكريما، فقد دعوا فأجابوا الداعي) والله يدعو إلى دار السلام. . (٤٤، وأما الذين خرجوا عن الصراط السوي، وانشقوا عن الهدي إلى الغي، فلهم النار معدة، كلما طمعوا في الخروج منها أعيدوا فيها، وحسرتهم الملائكة الخزنة قائلين: اصلوا ما أنتم فيه صابرين أو جزعين فما أنتم منها بمخرجين، فقد كنتم بهذا المصير مكذبين، وقسما لينالن عذابا عاجلا، ولنأخذنهم بالبأساء والضراء في الدنيا لعلهم يرجعون إلى طريق الفوز والنجاة، والاستقامة على منهاج الله، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قول الحق جل علاه:) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤٥، ومضت سنة الله في الأولين وتمضي في الآخرين، وكذلك فعل- جلت حكمته- بالفرعونيين:). . وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٦، ومن أشد بغيا وأكثر ظلما ممن جاءه الهدى، والآيات البينات- القرآنية منها والكونية - فأعرض واستكبر، وصد عن الرشد والحق بعد ما تبين، لا يهلك على الله تعالى إلا هالك، ولن يفلت مجرم من بطشه القوي القهار،) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٤٧.

٢٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

{ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ٢٣ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ٢٤ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ٢٥}

ولما تحدثت الآية الثانية والعشرون عن وعيد الله لمن كذب بآيات ربه بعد أن ذكر بها، بينت الآية الثالثة والعشرون وعد المولى سبحانه للذين يؤمنون بالآيات، ويستقيمون على هداها، وينهضون بأماناتها ويصبرون على الوفاء بعهدها، فقد أوحينا من قبلك إلى كليمنا موسى- عليه السلام- الكتاب السماوي الذي أودعناه ضياء وذكرا للمتقين، فآمنوا بوحينا إلى من سبق من رسلنا- والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته - ولا يشكن أحد في أن الله كلم موسى تكليما ٤٨، وأنزل عليه كتابا كريما:) إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. .

(٤٩) وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٥٠، فآمنت طائفة بصدق الكتاب، وقامت بحقه، فاختارهم الله تعالى علماء، يدعون إلى نوره، ويعملون بمنهاجه،) ومن قوم موسى أمه يهدون بالحق وبه يعدلون (٥١، وطائفة حملوا التوراة فلم يحملوها، وكتبوا بأيديهم ما شاء لهم الهوى ثم قالوا: هو من عند الله، وما هو من عند الله، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا منها، فأنذرهم الله بأنه سيفصل بين المصدقين والمكذبين، ويقضي بين المؤمنين والكافرين فيجازي كلا بما يستحق، وفي هذا بشارة لنا وإنذارا، فالبشرى للذين يبلغون رسالات الله، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتخذون القرآن شرعة ومنهاجا، والوعيد لمن هجروا القرآن، وصدوا عن سبيله، ولم يزدجروا بنذره، وهكذا شاء الله أن يرفع بهذا الفرقان أقواما ويضع به آخرين:) وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٥٢، وفي الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . والقرآن حجة لك أو عليك. . ".

٢٤ - (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

}ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ٢٣ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ٢٤ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ٢٥{

ولما تحدثت الآية الثانية والعشرون عن وعيد الله لمن كذب بآيات ربه بعد أن ذكر بها، بينت الآية الثالثة والعشرون وعد المولى سبحانه للذين يؤمنون بالآيات، ويستقيمون على هداها، وينهضون بأماناتها ويصبرون على الوفاء بعهدها، فقد أوحينا من قبلك إلى كليمنا موسى- عليه السلام- الكتاب السماوي الذي أودعناه ضياء وذكرا للمتقين، فآمنوا بوحينا إلى من سبق من رسلنا- والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته – ولا يشكن أحد في أن الله كلم موسى تكليما ٥٣، وأنزل عليه كتابا كريما:) إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. . (٥٤) وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٥٥، فآمنت طائفة بصدق الكتاب، وقامت بحقه، فاختارهم الله تعالى علماء، يدعون إلى نوره، ويعملون بمنهاجه،) ومن قوم موسى أمه يهدون بالحق وبه يعدلون (٥٦، وطائفة حملوا التوراة فلم يحملوها، وكتبوا بأيديهم ما شاء لهم الهوى ثم قالوا: هو من عند الله، وما هو من عند الله، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا منها، فأنذرهم الله بأنه سيفصل بين المصدقين والمكذبين، ويقضي بين المؤمنين والكافرين فيجازي كلا بما يستحق، وفي هذا بشارة لنا وإنذارا، فالبشرى للذين يبلغون رسالات الله، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتخذون القرآن شرعة ومنهاجا، والوعيد لمن هجروا القرآن، وصدوا عن سبيله، ولم يزدجروا بنذره، وهكذا شاء الله أن يرفع بهذا الفرقان أقواما ويضع به آخرين:) وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٥٧، وفي الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . والقرآن حجة لك أو عليك. . ".

٢٥ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

}ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ٢٣ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ٢٤ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ٢٥{

ولما تحدثت الآية الثانية والعشرون عن وعيد الله لمن كذب بآيات ربه بعد أن ذكر بها، بينت الآية الثالثة والعشرون وعد المولى سبحانه للذين يؤمنون بالآيات، ويستقيمون على هداها، وينهضون بأماناتها ويصبرون على الوفاء بعهدها، فقد أوحينا من قبلك إلى كليمنا موسى- عليه السلام- الكتاب السماوي الذي أودعناه ضياء وذكرا للمتقين، فآمنوا بوحينا إلى من سبق من رسلنا- والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته – ولا يشكن أحد في أن الله كلم موسى تكليما ٥٨، وأنزل عليه كتابا كريما:) إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. . (٥٩) وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٦٠، فآمنت طائفة بصدق الكتاب، وقامت بحقه،

فاختارهم الله تعالى علماء، يدعون إلى نوره، ويعملون بمنهاجه،) ومن قوم موسى أمه يهدون بالحق وبه يعدلون (٦١، وطائفة حملوا التوراة فلم يحملوها، وكتبوا بأيديهم ما شاء لهم الهوى ثم قالوا: هو من عند الله، وما هو من عند الله، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا منها، فأنذرهم الله بأنه سيفصل بين المصدقين والمكذبين، ويقضي بين المؤمنين والكافرين فيجازي كلا بما يستحق، وفي هذا بشارة لنا وإنذارا، فالبشرى للذين يبلغون رسالات الله، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتخذون القرآن شرعة ومنهاجا، والوعيد لمن هجروا القرآن، وصدوا عن سبيله، ولم يزدجروا بنذره، وهكذا شاء الله أن يرفع بهذا الفرقان أقواما ويضع به آخرين:) وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٦٢، وفي الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ". . والقرآن حجة لك أو عليك. . ".

٢٦ - (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ)

{أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ٢٦}

أغفل المكذبون بصدق رسالتك عن مصير من سبق من الجاحدين وعاقبة تكذيبهم، ولم يبين لهم طريق الحق ومآل الجحود كثرة من أهلكنا من الأمم الماضية مثل عاد وثمود وقوم لوط؟ والحال أنهم يمرون على دور المهلكين وبلادهم، ويشهدون آثار هلاكهم، إن في بطشنا بالمجرمين من السابقين لعلامات على قدرتنا أن نتبعهم الآخرين، ألم يحن الحين أن يسمعوا لما قصصنا سماع المتدبرين المعتبرين المتعظين؟!.

٢٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ)

{الجرز} الجرداء، المنقطع نبتها.

{أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ٢٧}.

أعموا ولم يشاهدوا أنا ننزل المطر، ونسير الري، ونوصله إلى الأرض الهامدة اليابسة، فيخرج اللطيف الخبير بقدرته من هذه الأرض المملحة زرعا يقوت البهائم والأنعام كالكلأ والحشيش وما يخصها من علف، وزرعا يقوت الآدميين، ويتداوون بصنوف منه ويتفكهون؟! إن في ذلك لعبرا لقوم يعتبرون، ويتعظون بما يرون ويشاهدون، فيستيقنون أنا إلى ربنا منقلبون، ومن قبورنا مبعوثون، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها لا يعجزه أن يجمع رفات الموتى، ويرد عليهم أرواحهم، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

٢٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

{الفتح} القضاء، والفصل، والحكم.

{ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ٢٨ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ٢٩ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ٣٠}

يستعجل الكفار يوم الحساب والجزاء، مستهزئين مستبعدين وقوعه، كما أخبر المولى العليم الحكيم:) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق. . (٦٣، إن كنتم صدقتم فيما أخبرتمونا به أن الله سيميز المحقين من المبطلين، أو إن صدقتم في أن الله سيفصل بيننا وبينكم فيحكم لكم بالنصر علينا، فعلم الله تعالى نبيه الرد عليهم بالقول الفصل: يوم يجيء الفتح وينزل بكم البأس، ستقرون بالحق، ولكن بعد فوات الوقت، كما قضى فيهم العليم الحكيم:) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٦٤ فعندئذ لا ينفعكم الإيمان إن آمنتم، ولن تمهلوا وقد أخذتم، فليثبت أهل اليقين على يقينهم، ولا يستخفنهم سخرية أعدائهم، بل ترقبوا بطشتنا بالمستهزئين، وانتقامنا من المجرمين). . . وكان حقا علينا نصر المؤمنين (٦٥، فاللهم فتحك المبين، ونصرك فأنت خير الناصرين.

في فضل هذه السورة المباركة صح ٦٦ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة {الم تنزيل} السجدة، و {هل أتى على الإنسان}، رواه البخاري ومسلم وابن ماجة وغيرهم عن أبي هريرة.

٢٩ - (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)
{الفتح} القضاء، والفصل، والحكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار
٣٠ - (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار
خاتمة
السور الخمس المحكمات هذه علمتنا الكثير المقدس من أسماء ربنا الحسنى وصفاته العلية، وأفعاله الحكيمة، وأقامت البرهان على جلال مولانا الرحمن، وجادلت الكفرة والمشركين عبدة الأوثان، كما هدت إلى اليقين بالملائكة والكتب والرسل، وعهد الله إلينا في آياتها أن نعبده، ونهى النفس عن الهوى، فمن أسمائه وصفاته سبحانه (. . إني أنا الله رب العالمين (٦٧) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون. وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون (٦٨،). . إن الله لا يحب الفرحين (٦٩،). . إن الله لا يحب المفسدين (٧٠). . قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين (٧١). . لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم و إليه ترجعون (٧٢). . وهو السميع العليم (٧٣،). . إن الله لغني عن العالمين (٧٤). . أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين. وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) ٧٥ (. . . إنه هو العزيز الحكيم (٧٦) إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم (٧٧). . والله يعلم ما تصنعون (٧٨). . وإن الله لمع المحسنين (٧٩، (. . لله الأمر من قبل ومن بعد. . (٨٠). . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده. . (٨١) فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون (٨٢) وله من في السماوات والأرض كل له قانتون. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٨٣) الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم. . (٨٤). . إنه لا يحب الكافرين (٨٥) الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير (٨٦، (. . وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم (٨٧). . فإن الله غني حميد (٨٨). . إن الله لطيف خبير (٨٩). . إن الله لا يحب كل مختال فخور (٩٠ (. . وإلى الله عاقبة الأمور (٩١). . إن الله عليم بذات الصدور (٩٢) لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد (٩٣). . إن الله عزيز حكيم (٩٤). . إن الله سميع بصير (٩٥،) الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٩٦،) الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (٩٧) يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (٩٨) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٩٩). . وكان حقا علينا نصر المؤمنين (١٠٠،) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير (١٠١.
ومن أفعاله الحكيمة- سبحانه-:) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض. . (١٠٢). . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين (١٠٣) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (١٠٤). . سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (١٠٥) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (١٠٦) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا

قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (١٠٧) ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (١٠٨)، . ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (١٠٩)، . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (١١٠) وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (١١١) إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد. . (١١٢. (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (١١٣.

ومن البرهان على جلال ربنا واقتداره، ورحمته ونعمته، ما جاء في سورة (القصص (:) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)) وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) الآيات: {١١ و ١٢ و ١٣{.) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) الآيات: {٧١ و ٧٢ و ٧٣{.

وفي سورة (العنكبوت):) وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم. ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم. ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون (الآيات: {٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣{، (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ({٦٧{.

وفي سورة (الروم (: (أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون.

أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) الآيات: من {٨ إلى ١٠{.) ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) الآيات: من {٢٠ إلى ٢٤{، (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ({٤٦{، (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) الآيتان: {٤٨ و ٤٩{.

ومن سورة لقمان: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله. .) من الآية {٢٥{، (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير {٢٩{. ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير {٣٠{. ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور {٣١{. وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا

إلا كل ختار كفور {٣٢}.
وفي سورة السجدة: (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) الآية {٢٧}.
وفي جدال من لم يؤمنوا بالله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وكذلك في إزهاق باطل غير المؤمنين، يصرف القرآن البرهان المبين، وبالغ الحجة على الجاحدين، ذلك بأن ربنا هو الحق ذو القوة المتين. . .:) إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تدعون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون (١١٤) أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (١١٥) وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (١١٦،) الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون (١١٧،) خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم. هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (١١٨،) ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (١١٩،) أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون. أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون (١٢٠.
وفي اليقين بالملائكة عليهم السلام نقرأ في سورة العنكبوت: (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين. قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين. إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) الآيات: من {٣١ إلى ٣٤}.
ونقرأ من آيات سورة السجدة (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون (١٢١.
ومن أنباء النبيين وما جرى للمكذبين ١٢٢ نقرأ في سورة القصص:) نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون. وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون. وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون (الآيات: من {٣ إلى ١٣}.
) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين {١٤} ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين {١٥} قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم {١٦} قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين {١٧} فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين {١٨} فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين {١٩} وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين {٢٠} فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين {٢١} ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن

يهديني سواء السبيل {٢٢} ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير {٢٣} فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير {٢٤} فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين {٢٥} قالت إحداهما يأبت استأجره إن خير من استأجرت القوم الأمين {٢٦} قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين {٢٧} قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل {٢٨} فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون {٢٩} فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين {٣٠} وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين {٣١} اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين {٣٢} قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون {٣٣} وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون {٣٤} قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون {٣٥} فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين {٣٦} وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون {٣٧} وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين {٣٨} واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون {٣٩} فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين {٤٠} وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون {٤١} وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين {٤٢} ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون {٤٣} (.

إحدى وأربعون آية متتابعة تقص علينا ما فيه العبرة من ميلاد موسى-عليه السلام- وإنجاء ربنا له من الذبح، ورضاعه، ولبثه في قصر فرعون، وهجرته من مصر إلى مدين بعد تآمر ملإ عليه، ثم زواجه من بنت شعيب- عليه السلام- ثم عودته بأهله، ونداؤه من لدن مولانا سبحانه، واصطفاؤه وهارون -عليه السلام- ليحملا رسالة الإيمان والإحسان، إلى فرعون وقومه، وعتوه وجنده عن أمر الله الذي جاء به موسى وهارون، ثم إنجاء المؤمنين، وإغراق فرعون وأعوانه ١٢٣ أجمعين.

كما تتابعت آيات في سورة القصص تبين فضل ربنا على خاتم النبيين وتشهد أنه علم من لدن حكيم عليم، وأن بعثته قطعت حجة الجاهلين، الذين كذبوا المرسلين، وأضلهم الجحود والمراء فكفروا بالتوراة وبالكتاب المبين:

) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. .

ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون. ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٢٤.

وفي سورة (العنكبوت) بعض نبأ نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى. الآيات من ١٤ - ٤٠، وبينها أربع قد تكون بلاغا لخاتم المرسلين) ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) ١٤ و ١٥.

) وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون.
إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تدعون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين. أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) الآيات: من ١٦ إلى ١٩.
) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون.
وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم (١٢٥.
) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون {٢٤} وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين {٢٥} فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم {٢٦} ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين {٢٧} ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين {٢٨} أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين {٢٩} قال رب انصرني على القوم المفسدين {٣٠} ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين {٣١} قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين {٣٢} ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين {٣٣} إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون {٣٤} ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون {٣٥} وإلى مدين آخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين {٣٦} فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين {٣٧} وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين {٣٨} وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين {٣٩} فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) {٤٠}.
وفي سورة (الروم) يعلم الله خاتم النبيين، ويعلمنا سبحانه- مخاطبا صفوة الخلق أجمعين- ومبينا سنته تعالى التي مضت في الأولين، ولا تحويل لها إلى يوم الدين، وأن البطشة الكبرى تنزل بالمفسدين، وتأييد الله وحسن عاقبته للموقنين: (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) الآية ٤٧،) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يقنون) الآيتان: ٥٩ و ٦٠، كما جاء في الآية الثلاثين والتي ختمت بها سورة السجدة:) فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون (.
وفي سورة (لقمان) آيات ثمان بين الحق – تبارك اسمه- فيها ما آتى عبده من حكمة:) ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) من ١٢ إلى ١٩.

واثنا عشر عهدا: أن نشكر المنعم الغني ليزيدنا من فضله، والذين يجحدون آلاءه لن يضروا الله شيئا، وأن نوحد المعبود بحق، والويل لمن عبد سواه، وأن نشكر للوالدين، ونبرهما برا لا يستتبع كفرا، وأن نسلك سبيل التائبين المنيبين، ونتزود لدار القرار، ونذكر إحاطة علم العزيز الغفار، ونقيم الصلاة، وندعوا إلى صراط الله، ونصبر على ما يلقى الدعاة، وعهد ألا يرى فينا الاستكبار، أو الغلطة والافتخار.
واليقين بالكتب المنزلة وصانا به مولانا: في سورة القصص:) طسم. تلك آيات الكتاب المبين) الآيتان: ١ و ٢،) ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (٤٣، (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) الآيتان: ٤٨، ٤٩.
إذ فيهما تعنت من بعث إليهم النبي الخاتم بالكتاب الخاتم) القرآن) وطلبهم أن يبدل حتى يماثل التوراة، فلما سقط في أيديهم كفروا بهما معا.
) ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون. الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين.
أولئك يؤتون أجرهم مرتين. .) الآيات: ٥١، ٥٢، ٥٣، ومن الآية ٥٤. ليتبين أثر القرآن في بعض الكتابيين [أهل الكتابين المنزلين من قبل: التوراة والإنجيل].
) إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين. وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين. ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين) الآيات: ٨٥ و ٨٦ و ٨٧.
ومن سورة العنكبوت:) اتل ما أوحي إليك من الكتاب. . . .) من آية ٤٥ (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون. وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) من الآية ٤٦ إلى الآية ٥١.
ومن سورة الروم) ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل. . .) من الآية ٥٨ ومن سورة (لقمان)) ألم. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) من الآية ١ إلى الآية ٧ (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) آية ٢١.
ومن سورة السجدة (ألم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) من آية ١ إلى الآية ٣ (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) آية ١٥ (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون. ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل. وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) من آية ٢٢ إلى الآية ٢٤.
وأما عن أحوال وأهوال الآخرة من موت وبرزخ وصعقة وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب. فمن سورة القصص (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) الآيتان ٤١، ٤٢). . . وكنا نحن الوارثين) من الآية ٥٨ (. . وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) من ٦٠ (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين. ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون. قال الذين حق عليهم القول

ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون. وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون. ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين. فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون. فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) من الآية ٦١ إلى الآية ٦٧. ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون. ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) الآيتان ٧٤، ٧٥. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) الآيتان ٨٣، ٨٤.

ومن سورة العنكبوت:) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) آية ٧ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) آية ٩ (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) آية ١٣ (أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون. وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي. وأولئك لهم عذاب أليم) من آية ١٩ إلى الآية ٢٣. (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون. يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوأنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) الآيات من ٥٣ إلى ٥٨ (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) آية ٦٤ (. . . . أليس في جهنم مثوى للكافرين) من الآية ٦٨.

ومن سورة الروم) الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون. ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون. ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين. ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) من آية ١١ إلى ١٦) ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السماوات والأرض كل له قانتون.

وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) من آية ٢٥ إلى ٢٧ (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين) الآية ٤٥ (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) الآية ٥٠ (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتو العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون. فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) الآيات: من ٥٥ إلى الآية ٥٧.

ومن سورة لقمان: (. . . ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) من الآية ١٥. (. . . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) من الآية ١٦). . . . إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) من آية ٢٣، (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير) الآية ٢٨ (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) الآية ٣٣.

ومن سورة السجدة:) وقالوا إذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوافكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين. فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم

وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) من الآية ١٠ إلى الآية ١٤.
) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) من الآية ١٧ إلى الآية ٢٠ (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) الآيتان ٢٨، ٢٩.
أما خلق المؤمنين فعنه من سورة القصص:). . يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) من الآية ٥٤، والآية ٥٥). . . إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) من الآية ٧٦، والآية ٧٧). . . ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) من الآية ٨٠.
ومن سورة العنكبوت:) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين) الآية ٦ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) الآية ٥٩ (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) الآية ٦٩.
ومن سورة الروم: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الآية ٣٠ (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون. وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) الآيتان: ٣٨ و ٣٩.
ومن سورة لقمان:) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الآيتان: ٤ و ٥ (يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) الآيات: ١٧ و ١٨ و ١٩،) ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) الآية ٢٢،) يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولد ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) الآية ٣٣.
ومن سورة السجدة:) إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) الآيتان: ١٥ و ١٦.
وفي تزكية النفوس ودنسها نقرأ من سورة القصص:). . . قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى. . (١٢٦ من الآية ٤٨، (. . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله. .) من الآية ٥٠، (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا. .) من الآية ٥٧،) وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها. .) من الآية ٥٨، (قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) الآية ٦٣.
ومن سورة (العنكبوت (: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون) الآيات: ٢ و ٣ و ٤، (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين. وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين. وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون. وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون (الآيات من ١٠ إلى ١٣،) وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربه. .) من الآية ٥٠، (ويستعجلونك بالعذاب. .) من الآية ٥٣، (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) الآية ٦٥.

ومن سورة (الروم (: (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم. .) من الآية ٢٩، (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) الآية ٣٣، (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) الآية ٣٦.

ومن سورة (لقمان (: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) الآيتان: ٦ و ٧ (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) الآية ٢١، (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) الآية ٣٢.

ومن سورة السجدة:) أم يقولون افتراه. .) من الآية ٣، (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد. .) من الآية ١٠.

فلنستيقن بما أوجب الله الإيمان به، ولنكن من العابدين، والخيبة لمن ساء خلقه وتدنست نفسه، وقد أفلح من تزكى.

٣٣ سورة الأحزاب:

سورة الأحزاب:
سورة الأحزاب مدنية
وآياتها ثلاث وسبعون
كلماتها ١٢٨٠ - حروفها ٥٧٩٦
١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ١ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ٢ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٣}

ينادي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - ليستديم التقوى ويثبت عليها، وينهاه عن مطاوعة الكافرين - المستعلنين بتكذيبهم وكفرهم - والمنافقين الذي يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، إن ربك المعبود بحق كان ولا يزال محيط العلم بكل معلوم، حكيم التدبير في كل شأن، ويأمره ربه بالتزام منهاج الوحي الذي أنزل إليه من لدن البر الرحيم، فإن المعبود بحق يعلم أعمالكم، وأعمال الكافرين والمنافقين مهما كبر مكرهم، وطم كيدهم). . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (١، واتخذ الله الكبير المتعال وكيلا في كافة شئونك، فحسبك هو، يكفيك ويحفظك، ويتولى كل أمر لمن توكل عليه [والإظهار في مقام الإضمار- ذكر الاسم الجليل ولم يذكر الضمير- للتعظيم، ولتستقل الجملة استقلال المثل] ٢.

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم- وفي رواية: ويزوجه شيبة بنته- وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت.

وذكر الثعلبي والواحدي -بغير إسناد- أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه- عليه الصلاة والسلام- في زمان الموادعة التي كانت بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي، ومعتب ابن قشير، والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت.

[وقيل: متعلق كل من التقوى والإطاعة مغاير للآخر على ما روى الواحدي والثعلبي، والمعنى: اتق الله تعالى في نقض العهد، لما أن

المؤمنين قد هموا بما يقتضيه، بخلاف الإطاعة المنهي عنها- إطاعة الكافرين والمنافقين- فإنها مما لم يهم بما يقتضيها أحد أصلا، فكان الاهتمام بالأمر أتم من الاهتمام بذلك النهي.] ٣.

يقول ابن كثير- في معنى قوله المولى تبارك اسمه- {يا أيها النبي اتق الله}: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. اه

مما أورد القرطبي: قوله تعالى: {يا أيها النبي اتق الله} ضمت [أي] لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها، و {النبي} نعت لأي عند النحويين. . . {ولا تطع الكافرين} من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور، وعكرمة، {والمنافقين} من أهل المدينة، يعني عبد الله بن أبي وطعمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه. . . {وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} أي كافيا لك ما تخافه منهم، و {بالله} في موضع رفع لأنه الفاعل، {وكيلا} نصب على البيان أو الحال.

يقول النحاس: ودل بقوله: {إن الله كان عليما حكيما} على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الاسلام، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه، لأنه حكيم، ثم قيل: الخطاب له ولأمته. اه

٢ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ١ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ٢ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٣}

ينادي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم – ليستديم التقوى ويثبت عليها، وينهاه عن مطاوعة الكافرين – المستعلنين بتكذيبهم وكفرهم – والمنافقين الذي يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، إن ربك المعبود بحق كان ولا يزال محيط العلم بكل معلوم، حكيم التدبير في كل شأن، ويأمره ربه بالتزام منهاج الوحي الذي أنزل إليه من لدن البر الرحيم، فإن المعبود بحق يعلم أعمالكم، وأعمال الكافرين والمنافقين مهما كبر مكرهم، وطم كيدهم). . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (٤، واتخذ الله الكبير المتعال وكيلا في كافة شئونك، فبحسبك هو، يكفيك ويحفظك، ويتولى كل أمر لمن توكل عليه [والإظهار في مقام الإضمار- ذكر الاسم الجليل ولم يذكر الضمير- للتعظيم، ولتستقل الجملة استقلال المثل] ٥.

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم- وفي رواية: ويزوجه شيبة بنته- وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت.

وذكر الثعلبي والواحدي -بغير إسناد- أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه- عليه الصلاة والسلام- في زمان الموادعة التي كانت بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي، ومعتب ابن قشير، والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت.

[وقيل: متعلق كل من التقوى والإطاعة مغاير للآخر على ما روى الواحدي والثعلبي، والمعنى: اتق الله تعالى في نقض العهد، لما أن المؤمنين قد هموا بما يقتضيه، بخلاف الإطاعة المنهي عنها- إطاعة الكافرين والمنافقين- فإنها مما لم يهم بما يقتضيها أحد أصلا، فكان الاهتمام بالأمر أتم من الاهتمام بذلك النهي.] ٦.

يقول ابن كثير- في معنى قوله المولى تبارك اسمه- {يا أيها النبي اتق الله}: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. اه

مما أورد القرطبي: قوله تعالى: {يا أيها النبي اتق الله} ضمت [أي] لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها، و {النبي} نعت لأي عند النحويين. . . {ولا تطع الكافرين} من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور، وعكرمة، {والمنافقين} من أهل المدينة، يعني عبد الله بن أبي وطعمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه. . . {وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} أي كافيا لك ما تخافه منهم، و {بالله} في موضع رفع لأنه الفاعل، {وكيلا} نصب على البيان أو الحال.

يقول النحاس: ودل بقوله: {إن الله كان عليما حكيما} على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الاسلام، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه، لأنه حكيم، ثم قيل: الخطاب له ولأمته. اه

٣ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ١ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ٢ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٣}

ينادي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - ليستديم التقوى ويثبت عليها، وينهاه عن مطاوعة الكافرين - المستعلنين بتكذيبهم وكفرهم - والمنافقين الذي يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، إن ربك المعبود بحق كان ولا يزال محيط العلم بكل معلوم، حكيم التدبير في كل شأن، ويأمره ربه بالتزام منهاج الوحي الذي أنزل إليه من لدن البر الرحيم، فإن المعبود بحق يعلم أعمالكم، وأعمال الكافرين والمنافقين مهما كبر مكرهم، وطم كيدهم). . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (٧، واتخذ الله الكبير المتعال وكيلا في كافة شئونك، فحسبك هو، يكفيك ويحفظك، ويتولى كل أمر لمن توكل عليه [والإظهار في مقام الإضمار- ذكر الاسم الجليل ولم يذكر الضمير- للتعظيم، ولتستقل الجملة استقلال المثل] ٨.

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم- وفي رواية: ويزوجه شيبة بنته- وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت.

وذكر الثعلبي والواحدي -بغير إسناد- أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه- عليه الصلاة والسلام- في زمان الموادعة التي كانت بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي، ومعتب ابن قشير، والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت.

[وقيل: متعلق كل من التقوى والإطاعة مغاير للآخر على ما روى الواحدي والثعلبي، والمعنى: اتق الله تعالى في نقض العهد، لما أن المؤمنين قد هموا بما يقتضيه، بخلاف الإطاعة المنهي عنها- إطاعة الكافرين والمنافقين- فإنها مما لم يهم بما يقتضيها أحد أصلا، فكان الاهتمام بالأمر أتم من الاهتمام بذلك النهي.] ٩.

يقول ابن كثير- في معنى قوله المولى تبارك اسمه- {يا أيها النبي اتق الله}: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. اه

مما أورد القرطبي: قوله تعالى: {يا أيها النبي اتق الله} ضمت [أي] لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها، و {النبي} نعت لأي عند النحويين. . . {ولا تطع الكافرين} من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور، وعكرمة، {والمنافقين} من أهل المدينة، يعني عبد الله بن أبي وطعمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه. . . {وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} أي كافيا لك ما تخافه منهم، و {بالله} في موضع رفع لأنه الفاعل، {وكيلا} نصب على البيان أو الحال.

يقول النحاس: ودل بقوله: {إن الله كان عليما حكيما} على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الاسلام، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه، لأنه حكيم، ثم قيل: الخطاب له ولأمته. اه

٤ - (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)

{تظاهرون} تقولون للزوجة: أنت علي كظهر أمي، والمعنى: أنت محرمة علي لا تركبين كما لا يركب ظهر الأم.

{أدعياءكم} جمع دعي، وهي الذي يدعي ابنا [يتبنى].

{ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواههم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ٤}

أبطلت الآية الكريمة مزاعم ثلاثة كان الناس يتعارفون عليها: فليس صحيحا ما يدعي من أن لرجل أكثر من قلب، ومنكر وزور أن يقول رجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، فما بهذا صارت الزوجة أما، وإنما الأم من ولدته، فألزمكم عقوبة لكم كفارة، كما لا يرضى ربكم أن تجعلوا من تبنيتم ابنا ينسب إليكم، إنما هو قول بالأفواه، [وعرف خاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية] ١٠ ولا يثبت بهذه الدعوى نسب الذي ادعيت بنوته، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها: أنت علي كظهر أمي، وما يقوله ربنا هو الصدق والعدل، وهو سبحانه يرشد ويدل على طريق الخير، ويحبب إلى السعداء الإيمان والقسط والبر. [ومعنى التنكير في {رجل} وزيادة {من} الاستغراقية: التأكيد، كأنه قيل: ما جعل الله لنوع الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة] ١١.

والمراد: ما خلق سبحانه لأحد أو لذي قلب من الحيوان مطلقا قلبين، فخصوص الرجل ليس بمقصود، وتخصيصه بالذكر لكمال لزوم الحياة فيه، فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث؟

قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد! وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف.

٥ - (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ٥}

قال النحاس: هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني، وهو من نسخ السنة بالقرآن، فأمر أن يدعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي، يعني في الدين، قال الله تعالى:) إنما المؤمنون إخوة. . (١٢.

وروى الأئمة أن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: {ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله}.

ويرفع الله تعالى الحرج والمؤاخذة عمن دعاه إلى غير أبيه خطأ، وإنما الإثم على من تعمد مخالفة ما شرع الله.

ومن المتفق عليه أن العبرة بعموم لفظ الوحي لا بخصوص السبب، فلعل الأولى أن يستشهد بهذا القول الرباني الكريم لكل أمر يفعل عن غير قصد وبطريق الخطأ، أما العمد فلا، وربنا كان وما يزال يستر ويصفح عمن يشاء، ويختص برحمته من يشاء.

أورد القرطبي: روي في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة كلاهما قال: سمعته أذناي ووعاه قلبي محمدا- نصب على البدل من الضمير المنصوب في قوله: سمعته أذناي- صلى الله عليه وسلم يقول: " من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام ".

٦ - (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

{النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا ٦}

رسول الله خاتم النبيين أولى بالمؤمنين وأحق وأرفق بهم من أنفسهم، لأن أنفسهم قد تدعوهم إلى الهلاك والسوء، وهو -صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى النجاة والفوز والرشد، وقيل: هو إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي أولى.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ١٣ وأنا آخذ بحجزكم ١٤ وأنتم تقحمون فيه: وفي رواية جابر: " وأنتم تفلتون من يدي:، ويروي: " أنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها تقحم الفراش ".

[قوله تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاما كانت في صدر الإسلام، منها: أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلي على ميت عليه دين، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته " أخرجه الصحيحان، وفيهما أيضا: " فأيكم ترك دينا أو ضياعا فأنا مولاه ". . . . . {وأزواجه أمهاتهم} شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال. . . . . . قوله تعالى: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين} أراد بالمؤمنين الأنصار وبالمهاجرين قريشا. . . . عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال:) والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. . (١٥ فتوارث المسلمون بالهجرة، فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض}. . . . {في كتاب الله} يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه أحوال خلقه. . و {من المؤمنين} متعلق ب {أولى}. . . قوله تعالى: {إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا} يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت، أي إن ذلك جائز. . . . {في الكتاب مسطورا}. . . قال قتادة: أي مكتوبا عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلما. .] ١٦.

٧ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

{وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ٧ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ٨}

واذكر وذكر إذ أخذت من الأنبياء العهد على الوفاء بما حملوا، وأن يبشر بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضا كالذي يشير إليه معنى قول الله سبحانه:) وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين (١٧ [أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبي بعده ١٨ وكذا معنى قول الحق - تبارك اسمه-: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما صينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه. . (١٩، وهؤلاء الرسل الكرام دخلوا في زمرة النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- لكن إفرادهم بالذكر -وهو من باب عطف الخاص على العام- لبيان فضلهم، ولأنهم من أولي العزم من الرسل، وأخذ الله تعالى منهم ميثاقهم الذي واثقهم به وإنه لعظيم، ليسأل الله المصدقين بالرسل عن وفائهم بحق الدعوة، وأما الذين كفروا فالنار مثواهم، وإن عذابها لشديد وجعه، وقوله تعالى: {ليسأل الصادقين عن صدقهم}

٨ - (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

{ليسأل الصادقين عن صدقهم} قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل. . . كما يقول أهل الجنة:). . لقد جاءت رسل ربنا بالحق (٢٠

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ٩ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ١٠ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ١١}

يمتن الله الوهاب خير الناصرين على نبيه والمؤمنين بما أولاهم من التأييد والنصر المبين على أحزاب الشرك وأوليائهم من اليهود الغادرين، فتذكروا واشكروا آلاء الله عليكم وآياته إليكم، حين حاصركم مشركو قريش ومن حالفهم - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فسلط الله عليهم ريحا شديدة وملائكة كراما، والله يرى ما عملتم، من صبر ومصابرة، فقد أجهدهم أولا حفر الخندق، في البخاري ومسلم عن البراء ابن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار عن جلدة بطنه. .، وكان من فزع من المسلمين من حصته عاد إلى غيره حتى كمل الخندق، وأجهدهم بعد طول الحصار، وتكاثر العدو، وقلة الزاد وشدة البرد، وغدر الحلفاء من اليهود، كل هذا وغيره لا يخفى على الله منه شيء يحصيه لهم ليجزيهم عليه، جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من قبل المغرب، ويحتمل أن يكون من [فوق] ومن {أسفل} كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب، كأنه قيل: إذ جاءوكم محيطين بكم، ومالت الأبصار حيرة ودهشة، واشتد الخوف فكأن القلوب تحركت عن مواضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج، وظن المؤمنون بالله وبأنفسهم خيرا، وظن المنافقون بالله ظن السوء، عند ذلك أو حينئذ عامل الله المؤمنين معاملة من يختبر عباده فظهر المخلص من المنافق، والراسخ من المتزلزل مصداقا لوعد ربنا الذي لا يخلف:) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٢١.

١٠ - (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ٩ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ١٠ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ١١}

يمتن الله الوهاب خير الناصرين على نبيه والمؤمنين بما أولاهم من التأييد والنصر المبين على أحزاب الشرك وأوليائهم من اليهود الغادرين، فتذكروا واشكروا آلاء الله عليكم وآياته إليكم، حين حاصركم مشركو قريش ومن حالفهم - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فسلط الله عليهم ريحا شديدة وملائكة كراما، والله يرى ما عملتم، من صبر ومصابرة، فقد أجهدهم أولا حفر الخندق، في البخاري ومسلم عن البراء ابن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار عن جلدة بطنه. .، وكان من فزع من المسلمين من حصته عاد إلى غيره حتى كمل الخندق، وأجهدهم بعد طول الحصار، وتكاثر العدو، وقلة الزاد وشدة البرد، وغدر الحلفاء من اليهود، كل هذا وغيره لا يخفى على الله منه شيء يحصيه لهم ليجزيهم عليه، جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من قبل المغرب، ويحتمل أن يكون من [فوق] ومن {أسفل} كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب، كأنه قيل: إذ جاءوكم محيطين بكم، ومالت الأبصار حيرة ودهشة، واشتد الخوف فكأن القلوب تحركت عن مواضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج، وظن المؤمنون بالله وبأنفسهم خيرا، وظن المنافقون بالله ظن السوء، عند ذلك أو حينئذ عامل الله المؤمنين معاملة من يختبر عباده فظهر المخلص من المنافق، والراسخ من المتزلزل مصداقا لوعد ربنا الذي لا يخلف:) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٢٢.

١١ - (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

}يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ٩ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ١٠ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ١١{
يمتن الله الوهاب خير الناصرين على نبيه والمؤمنين بما أولاهم من التأييد والنصر المبين على أحزاب الشرك وأوليائهم من اليهود الغادرين، فتذكروا واشكروا آلاء الله عليكم وآياته إليكم، حين حاصركم مشركو قريش ومن حالفهم - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فسلط الله عليهم ريحا شديدة وملائكة كراما، والله يرى ما عملتم، من صبر ومصابرة، فقد أجهدهم أولا حفر الخندق، في البخاري ومسلم عن البراء ابن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار عن جلدة بطنه. .، وكان من فزع من المسلمين من حصته عاد إلى غيره حتى كمل الخندق، وأجهدهم بعد طول الحصار، وتكاثر العدو، وقلة الزاد وشدة البرد، وغدر الحلفاء من اليهود، كل هذا وغيره لا يخفى على الله منه شيء يحصيه لهم ليجزيهم عليه، جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من قبل المغرب، ويحتمل أن يكون من [فوق] ومن }أسفل{ كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب، كأنه قيل: إذ جاءوكم محيطين بكم، ومالت الأبصار حيرة ودهشة، واشتد الخوف فكأن القلوب تحركت عن مواضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج، وظن المؤمنون بالله وبأنفسهم خيرا، وظن المنافقون بالله ظن السوء، عند ذلك أو حينئذ عامل الله المؤمنين معاملة من يختبر عباده فظهر المخلص من المنافق، والراسخ من المتزلزل مصداقا لوعد ربنا الذي لا يخلف:) ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب. . (٢٣.
١٢ - (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا)
وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ١٢ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ١٣ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ١٤{
استعلن المخادعون بإفكهم، وكشفوا عن أضغان قلوبهم، وقال واحد منهم: محمد يعدنا أن يفتح لنا مدائن اليمن، وبيض المدائن، وقصور الروم، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته، وطائفة دعت إلى العودة إلى الدور أو الرجعة إلى الشرك، فنادوا: يا أهل المدينة لا مكان لاقامتكم ههنا، أو: لا مقام لكم في دين محمد فارجعوا عنه، وقد استأذن فريق منهم ممتثلين بأمر أولئك القائلين: ارجعوا، يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم معتذرين بأن بيوتهم قاصية يخشى عليها العدو، والحال أنها ليست كذلك، وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار والتولي، ولو انتهكت بيوتهم من كل ناحية وهم فيها ثم جاءهم من يسألهم قتالك لخرجوا مسرعين وأجابوا السائلين، ولم يتوانوا إلا مقدار ما يحملون أسلحتهم، وتركوا بيوتهم التي تعللوا بالذهاب إليها، وسألوك الإذن لحمايتها، أو لو سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين وما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا.
١٣ - (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ١٢ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ١٣ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ١٤{
استعلن المخادعون بإفكهم، وكشفوا عن أضغان قلوبهم، وقال واحد منهم: محمد يعدنا أن يفتح لنا مدائن اليمن، وبيض المدائن، وقصور الروم، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته، وطائفة دعت إلى العودة إلى الدور أو الرجعة إلى الشرك، فنادوا: يا أهل المدينة لا مكان

لاقامتكم ههنا، أو: لا مقام لكم في دين محمد فارجعوا عنه، وقد استأذن فريق منهم ممتثلين بأمر أولئك القائلين: ارجعوا، يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم معتذرين بأن بيوتهم قاصية يخشى عليها العدو، والحال أنها ليست كذلك، وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار والتولي، ولو انتهكت بيوتهم من كل ناحية وهم فيها ثم جاءهم من يسألهم قتالك لخرجوا مسرعين وأجابوا السائلين، ولم يتوانوا إلا مقدار ما يحملون أسلحتهم، وتركوا بيوتهم التي تعللوا بالذهاب إليها، وسألوك الإذن لحمايتها، أو لو سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين وما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا.

١٤ - (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ١٢ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ١٣ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ١٤}

استعلن المخادعون بإفكهم، وكشفوا عن أضغان قلوبهم، وقال واحد منهم: محمد يعدنا أن يفتح لنا مدائن اليمن، وبيض المدائن، وقصور الروم، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته، وطائفة دعت إلى العودة إلى الدور أو الرجعة إلى الشرك، فنادوا: يا أهل المدينة لا مكان لاقامتكم ههنا، أو: لا مقام لكم في دين محمد فارجعوا عنه، وقد استأذن فريق منهم ممتثلين بأمر أولئك القائلين: ارجعوا، يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم معتذرين بأن بيوتهم قاصية يخشى عليها العدو، والحال أنها ليست كذلك، وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار والتولي، ولو انتهكت بيوتهم من كل ناحية وهم فيها ثم جاءهم من يسألهم قتالك لخرجوا مسرعين وأجابوا السائلين، ولم يتوانوا إلا مقدار ما يحملون أسلحتهم، وتركوا بيوتهم التي تعللوا بالذهاب إليها، وسألوك الإذن لحمايتها، أو لو سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين وما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا.

١٥ - (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا)

}ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ١٥ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ١٦ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ١٧ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ١٨}

ضم المنافقون إلى الفرار وتحمل الأعذار، نقضهم لعهد الله الواحد القهار، فقد كانوا عاهدوا الله يوم بيعة العقبة على الثبات وأن لا يولوا العدو الأدبار- فإن لم يكونوا بايعوا هم فقد بايع نقباؤهم ورضوا ببيعتهم، جعل إقرارهم عهد نقبائهم عهدا- والله سائلهم عن نكث العهود، وليعلموا أن فرارهم وتوليهم يوم الزحف لن يطيل أعمارهم). . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. . (٢٤ وإن عاشوا بعد التولي فمتاع قليل ثم مأواهم سقر، أمر النبي أن يبلغهم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا قضى الله أن يكبتهم ويشقيهم فلن ينجيهم من بأس الله أحد، وإن أراد سبحانه رحمة أحد فلا ممسك لها، ومن يخذله الله يخذل، والله مولى الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم، وتحققوا أن العليم الخبير اطلع على أفعال وأقوال وأحوال المخذلين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ورسوله، والصادين أصحابهم وجيرانهم وخلطاءهم عن الوقوف في وجه العدو، ينادونهم: تعالوا إلينا والحقوا بنا واتركوا مواقفكم في المعركة. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلا دون إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، غير الفريق الذي أخبر المولى سبحانه عنه بأنهم يتعللون- والله يشهد إنهم لكاذبون- ولم يجعل الله فيهم خيرا) ولو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٢٥، ولا يصلحون لحرب، ولا يكيدون عدوا، بل ذل من اعتز بهم، وإن أتوا مشهدا فإنما [إتيانا أو زمانا قليلا، فقد لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدا من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم] ٢٦.

١٦ - (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
}ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ١٥ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ١٦ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ١٧ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ١٨{
ضم المنافقون إلى الفرار وتحمل الأعذار، نقضهم لعهد الله الواحد القهار، فقد كانوا عاهدوا الله يوم بيعة العقبة على الثبات وأن لا يولوا العدو الأدبار- فإن لم يكونوا بايعوا هم فقد بايع نقباؤهم ورضوا ببيعتهم، جعل إقرارهم عهد نقبائهم عهدا- والله سائلهم عن نكث العهود، وليعلموا أن فرارهم وتوليهم يوم الزحف لن يطيل أعمارهم). . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. . (٢٧ وإن عاشوا بعد التولي فمتاع قليل ثم مأواهم سقر، أمر النبي أن يبلغهم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا قضى الله أن يكبتهم ويشقيهم فلن ينجيهم من بأس الله أحد، وإن أراد سبحانه رحمة أحد فلا ممسك لها، ومن يخذله الله يخذل، والله مولى الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم، وتحققوا أن العليم الخبير اطلع على أفعال وأقوال وأحوال المخذلين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ورسوله، والصادين أصحابهم وجيرانهم وخلطاءهم عن الوقوف في وجه العدو، ينادونهم: تعالوا إلينا والحقوا بنا واتركوا مواقفكم في المعركة. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلا دون إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، غير الفريق الذي أخبر المولى سبحانه عنه بأنهم يتعللون- والله يشهد إنهم لكاذبون- ولم يجعل الله فيهم خيرا) ولو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٢٨، ولا يصلحون لحرب، ولا يكيدون عدوا، بل ذل من اعتز بهم، وإن أتوا مشهدا فإنما [إتيانا أو زمانا قليلا، فقد لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدا من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم] ٢٩.
١٧ - (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
}ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ١٥ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ١٦ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ١٧ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ١٨{
ضم المنافقون إلى الفرار وتحمل الأعذار، نقضهم لعهد الله الواحد القهار، فقد كانوا عاهدوا الله يوم بيعة العقبة على الثبات وأن لا يولوا العدو الأدبار- فإن لم يكونوا بايعوا هم فقد بايع نقباؤهم ورضوا ببيعتهم، جعل إقرارهم عهد نقبائهم عهدا- والله سائلهم عن نكث العهود، وليعلموا أن فرارهم وتوليهم يوم الزحف لن يطيل أعمارهم). . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. . (٣٠ وإن عاشوا بعد التولي فمتاع قليل ثم مأواهم سقر، أمر النبي أن يبلغهم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا قضى الله أن يكبتهم ويشقيهم فلن ينجيهم من بأس الله أحد، وإن أراد سبحانه رحمة أحد فلا ممسك لها، ومن يخذله الله يخذل، والله مولى الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم، وتحققوا أن العليم الخبير اطلع على أفعال وأقوال وأحوال المخذلين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ورسوله، والصادين أصحابهم وجيرانهم وخلطاءهم عن الوقوف في وجه العدو، ينادونهم: تعالوا إلينا والحقوا بنا واتركوا مواقفكم في المعركة. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلا دون إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، غير الفريق الذي أخبر المولى سبحانه عنه بأنهم يتعللون- والله يشهد إنهم لكاذبون- ولم يجعل الله فيهم خيرا) ولو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٣١، ولا يصلحون لحرب، ولا يكيدون عدوا، بل ذل من اعتز بهم، وإن أتوا مشهدا فإنما [إتيانا أو زمانا قليلا، فقد لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدا من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم] ٣٢.
١٨ - (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ١٥ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ١٦ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ١٧ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ١٨}

ضم المنافقون إلى الفرار وتحمل الأعذار، نقضهم لعهد الله الواحد القهار، فقد كانوا عاهدوا الله يوم بيعة العقبة على الثبات وأن لا يولوا العدو الأدبار- فإن لم يكونوا بايعوا هم فقد بايع نقباؤهم ورضوا ببيعتهم، جعل إقرارهم عهد نقبائهم عهدا- والله سائلهم عن نكث العهود، وليعلموا أن فرارهم وتوليهم يوم الزحف لن يطيل أعمارهم). . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. . (٣٣ وإن عاشوا بعد التولي فمتاع قليل ثم مأواهم سقر، أمر النبي أن يبلغهم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا قضى الله أن يكبتهم ويشقيهم فلن ينجيهم من بأس الله أحد، وإن أراد سبحانه رحمة أحد فلا ممسك لها، ومن يخذله الله يخذل، والله مولى الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم، وتحققوا أن العليم الخبير اطلع على أفعال وأقوال وأحوال المخذلين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ورسوله، والصادين أصحابهم وجيرانهم وخلطاءهم عن الوقوف في وجه العدو، ينادونهم: تعالوا إلينا والحقوا بنا واتركوا مواقفكم في المعركة. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلا دون إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، غير الفريق الذي أخبر المولى سبحانه عنه بأنهم يتعللون- والله يشهد إنهم لكاذبون- ولم يجعل الله فيهم خيرا) ولو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٣٤، ولا يصلحون لحرب، ولا يكيدون عدوا، بل ذل من اعتز بهم، وإن أتوا مشهدا فإنما [إتيانا أو زمانا قليلا، فقد لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدا من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم] ٣٥.

١٩ - (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

{أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ١٩ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ٢٠}

من خصال المنافقين- مع كراهيتهم أن يجاهدوا بأنفسهم في سبيل الله- أنهم بخلاء عليكم، فما شاركوا في حفر الخندق، ولا أنفقوا وجاهدوا بأموالهم، فتولاهم الشيطان وخوفهم، ويجوز أن تنصب {أشحة} على الذم، ويجوز أن تنصبه على القطع من {المعوقين} كأنه قال: يعلم الله الذي يعوقون عن القتال ويشحون عن الإنفاق فإذا التقى الجمعان تلفت المنافق محددا بصره، كأن سكرات الموت تغشاه، قال ابن شجرة- في سبب ما غشيهم-: الخوف من النبي صلى الله عليه وسلم إذا غلب، فإذا انجلت المعركة آذوكم بألسنة نهاشة طعانة، قال قتادة: ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. وقيل: بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم، قال السدي: أشحة على المال أن ينفقوه في سبيل الله، [{أولئك لم يؤمنوا} يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان، والمنفق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر، {فأحبط الله أعمالهم}. . لم يثبهم عليها، إذ لم يقصدوا وجه الله تعالى بها، {وكان ذلك على الله يسيرا}. . وكان نفاقهم على الله هينا. . . وكان إحباط عملهم على الله هينا] ٣٦، ومن سوء ظنهم بربهم حسبوا أن جند الشرك لم ينهزم، وإن جاءت جنود الكفر لمهاجمة المدينة تمنوا أن يفروا إلى البادية ليكونوا بمأمن من القتال، يتربصون بكم، ويسألون من يمر بهم عما جرى لكم يترقبون أن يستأصلكم عدوكم، ولو انضموا إلى جمعكم لما أغنوا عنكم شيئا، فإن الله موهن كيد الكافرين، ولا يصلح عمل المفسدين.

إن القرآن حين يحدث عن أهل النفاق يهتك أستارهم، ويكشف كيدهم ومكرهم، يبين لكم لئلا يفتنوكم عن دينكم.

فبينما فواتح سورة البقرة تصف المؤمنين في آيات كريمات قليلات قصار، وتصف الكافرين في آيتين، تصف خداع المنافقين وضلالهم واحتيالهم في ثلاث عشرة آية، وكذا استفاض حديث القرآن عن المنافقين في سورتي النساء والتوبة وغيرهما من السور.
وههنا ثلاث آيات قصيرات- التاسعة والعاشرة والحادية عشرة- كان الحديث فيها للمؤمنين وعنهم، جاءت بعدها تسع آيات- من الثانية عشرة إلى العشرين- ينبئنا فيها العليم الخبير عن سفه هؤلاء وغدرهم، وحقدهم على المؤمنين والحرص على خذلانهم، والتربص بأهل الحق والمسارعة في تأييد عدوهم، إلى نكث العقود وإن كان عهدا مع ربهم،). . قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٧). . يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٣٨. فاحذروهم أيها المؤمنون.
٢٠ - (يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ١٩ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ٢٠}
من خصال المنافقين- مع كراهيتهم أن يجاهدوا بأنفسهم في سبيل الله- أنهم بخلاء عليكم، فما شاركوا في حفر الخندق، ولا أنفقوا وجاهدوا بأموالهم، فتولاهم الشيطان وخوفهم، ويجوز أن تنصب {أشحة} على الذم، ويجوز أن تنصبه على القطع من {المعوقين} كأنه قال: يعلم الله الذي يعوقون عن القتال ويشحون عن الإنفاق فإذا التقى الجمعان تلفت المنافق محددا بصره، كأن سكرات الموت تغشاه، قال ابن شجرة- في سبب ما غشيهم-: الخوف من النبي صلى الله عليه وسلم إذا غلب، فإذا انجلت المعركة آذوكم بألسنة نهاشة طعانة، قال قتادة: ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. وقيل: بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم، قال السدي: أشحة على المال أن ينفقوه في سبيل الله، [{أولئك لم يؤمنوا} يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان، والمنفق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر، {فأحبط الله أعمالهم}. . لم يثبهم عليها، إذ لم يقصدوا وجه الله تعالى بها، {وكان ذلك على الله يسيرا}. . وكان نفاقهم على الله هينا. . . وكان إحباط عملهم على الله هينا] ٣٩، ومن سوء ظنهم بربهم حسبوا أن جند الشرك لم ينهزم، وإن جاءت جنود الكفر لمهاجمة المدينة تمنوا أن يفروا إلى البادية ليكونوا بمأمن من القتال، يتربصون بكم، ويسألون من يمر بهم عما جرى لكم يترقبون أن يستأصلكم عدوكم، ولو انضموا إلى جمعكم لما أغنوا عنكم شيئا، فإن الله موهن كيد الكافرين، ولا يصلح عمل المفسدين.
إن القرآن حين يحدث عن أهل النفاق يهتك أستارهم، ويكشف كيدهم ومكرهم، يبين لكم لئلا يفتنوكم عن دينكم.
فبينما فواتح سورة البقرة تصف المؤمنين في آيات كريمات قليلات قصار، وتصف الكافرين في آيتين، تصف خداع المنافقين وضلالهم واحتيالهم في ثلاث عشرة آية، وكذا استفاض حديث القرآن عن المنافقين في سورتي النساء والتوبة وغيرهما من السور.
وههنا ثلاث آيات قصيرات- التاسعة والعاشرة والحادية عشرة- كان الحديث فيها للمؤمنين وعنهم، جاءت بعدها تسع آيات- من الثانية عشرة إلى العشرين- ينبئنا فيها العليم الخبير عن سفه هؤلاء وغدرهم، وحقدهم على المؤمنين والحرص على خذلانهم، والتربص بأهل الحق والمسارعة في تأييد عدوهم، إلى نكث العقود وإن كان عهدا مع ربهم،). . قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤٠). . يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٤١. فاحذروهم أيها المؤمنون.
٢١ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

}لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا ٢١ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ٢٢ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ٢٣{
لكأنه قسم من ربنا تبارك وتعالى وتحقيق أن خاتم النبيين يتؤسى به في فعله، ويقتدى به في خلقه وقوله، فهو نعم الهادي لكم يا من آمنتم وجاهدتم، وأكرم قدوة لمن يؤمل في رضوان الله، والفوز يوم يلقاه، ولمن ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا، فإن كثرة الذكر تعقب ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الاتساء بالبشير النذير -صلى الله تعالى عليه وسلم- وحين رأى المؤمنون أحزاب الشرك والكفر والنفاق الذين تواصوا بإهلاك النبي ومن معه - عندما رأوهم بخيلهم وخيلائهم لم يتنكروا لدينهم، ولا وهنوا في ملاقاة عدوهم، وما قنطوا من رحمة ونصر ربهم، وإنما أقروا أنها سنة الله في الذين خلوا من قبلهم). . مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٤٢ وقالوا: هذا الخطب والبلاء الذي نزل هو وعد الله الذي لا يخلف) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٤٣ وكلمات ربنا حق وصدق، ورسوله لا ينطق عن الهوى، وما زادكم البلاء إلا رسوخا وثباتا على الرشد، وتسليما لربنا المستحق للحمد، [واستدل بالآية على جواز زيادة الإيمان ونقصه، ومن أنكر قال: إن الزيادة فيما يؤمن به، لا في نفس الإيمان. . .] ٤٤ من هؤلاء المؤمنين المقتدين بخاتم النبيين، رجال على الحقيقة أوفياء بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والطاعة والجهاد والصبر، فمن هؤلاء من وفى بما التزم كما يوفي من نذر نذره، ومنهم من هو على عهده مع الله يترقب ساعة يدعى فيلبي، وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا مولاهم عليه أي تغيير، لا من حيث الأصل ولا من حيث الصفة.
وأي صدق ووفاء فوق ثبات الصحب الكرام- وقد كانوا يومئذ يقاربون ثلاثة آلاف - في وجه حصار خمسة عشر ألف مقاتل ٤٥، قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير رؤساؤهم: حيي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه بسعي حيي، ودام الحصار قرابة شهر، وليس يفصلهم عن المسلمين إلا الخندق الذي حفروه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم حين أشار بحفره سليمان رضي الله عنه أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة، وأمر النبي بالذراري والنساء فدفعوا في آطام الجبال وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة النبوية الكريمة.
مما نقل القرطبي عن أبي عيسى الترمذي، وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين. اه
[ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال: " من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة "؟ فلم يجبه أحد، وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: " من هذا "؟ فقال: حذيفة فقال: " ألم تسمع كلامي منذ الليلة "؟ قال حذيفة: فقلت يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر. قال: " انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني " ٤٦ فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله صلى الل عليه وسلم يده يقول: " يا صريخ المنكوبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي ": فنزل جبريل وقال: " إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك " فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: " شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي ". وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليها ريحا، فبشر أصحابه بذلك. قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها، ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء، وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس، وتفرقت الأحزاب،

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة بغسول، فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: " وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء- ثم قال- انهض إلى بني قريظة ". وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء] ٤٧.

٢٢ - (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا ٢١ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ٢٢ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ٢٣}

لكأنه قسم من ربنا تبارك وتعالى وتحقيق أن خاتم النبيين يتؤسى به في فعله، ويقتدى به في خلقه وقوله، فهو نعم الهادي لكم يا من آمنتم وجاهدتم، وأكرم قدوة لمن يؤمل في رضوان الله، والفوز يوم يلقاه، ولمن ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا، فإن كثرة الذكر تعقب ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الائتساء بالبشير النذير –صلى الله تعالى عليه وسلم- وحين رأى المؤمنون أحزاب الشرك والكفر والنفاق الذين تواصوا بإهلاك النبي ومن معه – عندما رأوهم بخيلهم وخيلائهم لم يتنكروا لدينهم، ولا وهنوا في ملاقاة عدوهم، وما قنطوا من رحمة ونصر ربهم، وإنما أقروا أنها سنة الله في الذين خلوا من قبلهم). . مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٤٨ وقالوا: هذا الخطب والبلاء الذي نزل هو وعد الله الذي لا يخلف) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٤٩ وكلمات ربنا حق وصدق، ورسوله لا ينطق عن الهوى، وما زادكم البلاء إلا رسوخا وثباتا على الرشد، وتسليما لربنا المستحق للحمد، [واستدل بالآية على جواز زيادة الإيمان ونقصه، ومن أنكر قال: إن الزيادة فيما يؤمن به، لا في نفس الإيمان. . .] ٥٠ من هؤلاء المؤمنين المقتدين بخاتم النبيين، رجال على الحقيقة أوفياء بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والطاعة والجهاد والصبر، فمن هؤلاء من وفى بما التزم كما يوفي من نذر نذره، ومنهم من هو على عهده مع الله يترقب ساعة يدعى فيلبي، وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا مولاهم عليه أي تغيير، لا من حيث الأصل ولا من حيث الصفة.

وأي صدق ووفاء فوق ثبات الصحب الكرام- وقد كانوا يومئذ يقاربون ثلاثة آلاف – في وجه حصار خمسة عشر ألف مقاتل ٥١، قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير رؤساؤهم: حيي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه بسعي حيي، ودام الحصار قرابة شهر، وليس يفصلهم عن المسلمين إلا الخندق الذي حفروه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم حين أشار بحفره سليمان رضي الله عنه أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة، وأمر النبي بالذراري والنساء فدفعوا في آطام الجبال وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة النبوية الكريمة.

مما نقل القرطبي عن أبي عيسى الترمذي، وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين. اه

[ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال: " من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة "؟ فلم يجبه أحد، وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: " من هذا "؟ فقال: حذيفة فقال: " ألم تسمع كلامي منذ الليلة "؟ قال حذيفة: فقلت يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر. قال: " انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني " ٥٢ فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله صلى الل عليه وسلم يده يقول: " يا صريخ المنكوبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي ": فنزل جبريل وقال: " إن الله قد سمع دعوتك

وكفاك هول عدوك " نخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: " شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي ". وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليها ريحا، فبشر أصحابه بذلك. قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها، ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء، وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس، وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة بغسول، فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: " وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء- ثم قال- انهض إلى بني قريظة ". وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء] ٥٣.

٢٣ - (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا ٢١ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ٢٢ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ٢٣}

لكأنه قسم من ربنا تبارك وتعالى وتحقيق أن خاتم النبيين يتؤسى به في فعله، ويقتدى به في خلقه وقوله، فهو نعم الهادي لكم يا من آمنتم وجاهدتم، وأكرم قدوة لمن يؤمل في رضوان الله، والفوز يوم يلقاه، ولمن ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا، فإن كثرة الذكر تعقب ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الائتساء بالبشير النذير –صلى الله تعالى عليه وسلم- وحين رأى المؤمنون أحزاب الشرك والكفر والنفاق الذين تواصوا بإهلاك النبي ومن معه – عندما رأوهم بخيلهم وخيلائهم لم يتنكروا لدينهم، ولا وهنوا في ملاقاة عدوهم، وما قنطوا من رحمة ونصر ربهم، وإنما أقروا أنها سنة الله في الذين خلوا من قبلهم). . مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٥٤ وقالوا: هذا الخطب والبلاء الذي نزل هو وعد الله الذي لا يخلف) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٥٥ وكلمات ربنا حق وصدق، ورسوله لا ينطق عن الهوى، وما زادكم البلاء إلا رسوخا وثباتا على الرشد، وتسليما لربنا المستحق للحمد، [واستدل بالآية على جواز زيادة الإيمان ونقصه، ومن أنكر قال: إن الزيادة فيما يؤمن به، لا في نفس الإيمان. . .] ٥٦ من هؤلاء المؤمنين المقتدين بخاتم النبيين، رجال على الحقيقة أوفياء بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والطاعة والجهاد والصبر، فمن هؤلاء من وفى بما التزم كما يوفي من نذر نذره، ومنهم من هو على عهده مع الله يترقب ساعة يدعى فيلبي، وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا مولاهم عليه أي تغيير، لا من حيث الأصل ولا من حيث الصفة.

وأي صدق ووفاء فوق ثبات الصحب الكرام- وقد كانوا يومئذ يقاربون ثلاثة آلاف – في وجه حصار خمسة عشر ألف مقاتل ٥٧، قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير رؤساؤهم: حيي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه بسعي حيي، ودام الحصار قرابة شهر، وليس يفصلهم عن المسلمين إلا الخندق الذي حفروه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم حين أشار بحفره سليمان رضي الله عنه أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة، وأمر النبي بالذراري والنساء فدفعوا في آطام الجبال وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة النبوية الكريمة.

مما نقل القرطبي عن أبي عيسى الترمذي، وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين. اه

[ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال: " من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة "؟ فلم يجبه أحد، وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال:

" من هذا "؟ فقال: حذيفة فقال: " ألم تسمع كلامي منذ الليلة "؟ قال حذيفة: فقلت يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر. قال: " انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني " ٥٨ فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله صلى الل عليه وسلم يده يقول: " يا صريخ المنكوبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي ": فنزل جبريل وقال: " إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك " نخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: " شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي ". وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليها ريحا، فبشر أصحابه بذلك. قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها، ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء، وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس، وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة بغسول، فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: " وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء- ثم قال- انهض إلى بني قريظة ". وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء] ٥٩.

٢٤ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

{ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ٢٤}

ما يصيب المؤمنين من بلاء، ولا ينتابهم من عسر في سبيل الوفاء بعهد الله وأداء أماناته، إلا ليميز الله الخبيث من الطيب). . . . ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون (٦٠). . وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا. . (٦١ فيجزي الصادقين في إيمانهم به، والجهاد في سبيله، بما وعد الذين رضي عنهم ورضوا عنه:) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب. . (٦٢ ويخزي المنافقين ويعذبهم إن شاء شقوتهم فلم يتوبوا، أو يهدون إلى التوبة قبل أن يموتوا إن شاء أن يتوب عليهم فيغفر لهم ويرحمهم.

٢٥ - (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

{وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ٢٥}

ومع ما وعد الله المتقين من جزاء الصادقين في مقعد صدق عند مليك مقتدر فقد عجل لهم أن كبت عدوهم، وأخزى من ناوأهم، وأرجع بقدرته وجلاله أهل الكفر وأحزاب الشرك متلبسين بأقصى غضب حيث انقلبوا على أعقابهم خاسرين، وأعز ربنا بفضله الجند المؤمنين، وأغناهم سبحانه عن بأس القتال، وتطاول النزال، وكفاهم كيد الحاقدين ببطش وجند من ملائكته المكرمين، ومولانا ذو القوة التي لا تحد، والعزة التي لا تقهر.

[{لم ينالوا خيرا} أي غير ظافرين بشيء من مطالبهم التي هي عندهم خير: من كسر، أو وأسر، أو غنيمة.] ٦٣

٢٦ - (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)

{ظاهروهم} عاونوهم.

{صياصيهم} حصونهم.

{وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ٢٦ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا ٢٧}

انهزم الأحزاب المشركون، وخسر الجند الذي طال حصاره للمدينة، وردهم الله على أعقابهم، وأتم نعمته على النبي والمؤمنين فأنزل أعوان الأحزاب من اليهود- الذين خانوا وغدروا ونقضوا العهد - من حصونهم وقلاعهم، وحكم المسلمين في رقابهم، فقتلوا مقاتلتهم وسبوا نساءهم وذرياتهم، وملك المسلمين أموالهم وأرضهم وديارهم، وربنا على نصره إياهم وعلى غير ذلك من الأمور صاحب قدرة

لا يقف لها شيء، ولا يمتنع على مولانا فعل شيء أراده.
عن ابن اسحق قال: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: " نعم " قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة وأنا عائد إلى بني قريظة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا فأذن في الناس: أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق، فقال: يا رسول الله! لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخباث، قال: " لم أظنك سمعت لي منهم أذى " قال: نعم يا رسول الله. قال: " لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا " فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال: " يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته " قالوا: يا أبا القاسم! ما كنت جهولا، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال: " مر بكم أحد "؟ فقالوا يا رسول الله! قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ذاك جبرائيل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم " فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم يقال لها بئر أنا، فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " فصلوا العصر فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسوله. . قال: وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب،. . قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبعث إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف- وكانوا من حلفاء الأوس- نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم – وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح – قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا، ولا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان قد استبطأه- قال: " أما إنه كان جاءني لاستغفرت له أما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ". . . فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت- وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له- فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا ترضون يا معشر بن معاذ ": فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قال: " قوموا إلى سيدكم " فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاك مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ - في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم " قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة " ثم استنزلوا فحبسهم رسوله الله صلى الله عليه وسلم في دار

ابنة الحارث- امرأة من بني النجار- ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى سوق المدينة- التي هي سوقها اليوم- نخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا. . وهم ستمائة. . حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٧ - (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٦ إظهار

٢٨ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)

{يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ٢٨ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ٢٩}

لكأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة كأنهن ظنن أنه اختص بنفائس اليهود وكنوزهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله! بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام، [وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أن عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من عرض الدنيا، إما زيادة في النفقة أو غير ذلك فاعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا فيما ذكر ثم أمره الله أن يخيرهن بين الصبر عليه والرضا بما قسم لهن والعمل بطاعة الله وبين أن يمتعهن ويفارقهن إن لم يرضين بالذي يقسم لهن. .] ٦٤.

روى البخاري ومسلم- واللفظ لمسلم- عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: - فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا- قال: - فقال والله لأقولن شيئا أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال، " هن حولي كما ترى يسألنني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده!! فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: {يا أيها النبي قل لأزواجك- حتى بلغ- للمحسنات منكن أجرا عظيما} قال: فبدأ بعائشة فقال: " ياعائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك " قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار والآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: " لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا ". . وفي الترمذي زيادة: وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت. قال: هذا حديث حسن صحيح.

٢٩ - (وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]

{يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ٢٨ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ٢٩}

لكأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة كأنهن ظنن أنه اختص بنفائس اليهود وكنوزهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله! بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام، [وذكر أن

هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أن عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من عرض الدنيا، إما زيادة في النفقة أو غير ذلك فاعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا فيما ذكر ثم أمره الله أن يخيرهن بين الصبر عليه والرضا بما قسم لهن والعمل بطاعة الله وبين أن يمتعهن ويفارقهن إن لم يرضين بالذي يقسم لهن. .] ٦٥.

روى البخاري ومسلم- واللفظ لمسلم- عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: - فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا- قال: - فقال والله لأقولن شيئا أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال، " هن حولي كما ترى يسألنني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده!! فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: {يا أيها النبي قل لأزواجك- حتى بلغ- للمحسنات منكن أجرا عظيما} قال: فبدأ بعائشة فقال: " ياعائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك " قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار والآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: " لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا ". . وفي الترمذي زيادة: وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت. قال: هذا حديث حسن صحيح.

٣٠ - (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

{يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ٣٠ *ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ٣١ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ٣٢}

الله تعالى يغار وغيرة الله أن يرتكب العبد ما حرم الله عليه، وشرع المولى الحكيم سبحانه شريعة لا يزيغ عنها إلا هالك، ولشرف منزلة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء جعلت من تخطئ منهن عقوبة أعلى من عقوبة غيرها، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد، والثيب على البكر، {ومن يقنت} لم يؤنث فعلها حملا على لفظ {من} يقول ابن كثير في هاتين الآيتين الكريمتين: يقول تعالى واعظا نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة -قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق- وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى:) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك. . (٦٦. . فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا صيانة لجنابهن. . اه

وهذا الجزاء هين على المولى سبحانه أن يحله بمن تفعل ما يوقع فيه، ومن تخضع لشرعة الله وتستقم على منهاجه، وتستجيب لأمر رسوله ونهيه، وتستدم العمل الصالح يضاعف ربنا لها مثوبتها، ويمنحها الرزق الكريم في جنات النعيم، في أعلى عليين، وعهد الله إليهن- وهن أمهات المؤمنين- أن فضلهن، ورفعة قدرهن بتقواهن لا تعفيهن - بل تفرض عليهن- رعاية جانب الحيطة في القول والفعل، فالله يرضى أن لا يلن القول كثيرا في خطابهن لمن ليسوا من محارمهن- وإن كن محرمات على المؤمنين إلا أنه كالخطاب لسائر المؤمنات في أشخاصهن - رضوان الله عليهن- فيطمع الذي في قلبه تشوف لفسق أو غزل [أمرهن أن يكون قولهن جزلا، وكلامهن فصلا. . . وعلى الجملة فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.] ٦٧.

٣١ - (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ٣٠ *ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ٣١ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ٣٢}
الله تعالى يغار وغيرة الله أن يرتكب العبد ما حرم الله عليه، وشرع المولى الحكيم سبحانه شريعة لا يزيغ عنها إلا هالك، ولشرف منزلة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء جعلت من تخطئ منهن عقوبة أعلى من عقوبة غيرها، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد، والثيب على البكر، {ومن يقنت} لم يؤنث فعلها حملا على لفظ {من} يقول ابن كثير في هاتين الآيتين الكريمتين: يقول تعالى واعظا نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة -قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق- وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى:) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك. . (٦٨. . فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا صيانة لجنابهن. . اه
وهذا الجزاء هين على المولى سبحانه أن يحله بمن تفعل ما يوقع فيه، ومن تخضع لشرعة الله وتستقم على منهاجه، وتستجيب لأمر رسوله ونهيه، وتستدم العمل الصالح يضاعف ربنا لها مثوبتها، ويمنحها الرزق الكريم في جنات النعيم، في أعلى عليين، وعهد الله إليهن- وهن أمهات المؤمنين- أن فضلهن، ورفعة قدرهن بتقواهن لا تعفيهن - بل تفرض عليهن- رعاية جانب الحيطة في القول والفعل، فالله يرضى أن لا يلن القول كثيرا في خطابهن لمن ليسوا من محارمهن- وإن كن محرمات على المؤمنين إلا أنه كالخطاب لسائر المؤمنات في أشخاصهن - رضوان الله عليهن- فيطمع الذي في قلبه تشوف لفسق أو غزل [أمرهن أن يكون قولهن جزلا، وكلامهن فصلا. . . وعلى الجملة فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.] ٦٩.
٣٢ - (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ٣٠ *ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ٣١ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ٣٢}
الله تعالى يغار وغيرة الله أن يرتكب العبد ما حرم الله عليه، وشرع المولى الحكيم سبحانه شريعة لا يزيغ عنها إلا هالك، ولشرف منزلة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء جعلت من تخطئ منهن عقوبة أعلى من عقوبة غيرها، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد، والثيب على البكر، {ومن يقنت} لم يؤنث فعلها حملا على لفظ {من} يقول ابن كثير في هاتين الآيتين الكريمتين: يقول تعالى واعظا نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة -قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق- وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى:) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك. . (٧٠. . فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا صيانة لجنابهن. . اه
وهذا الجزاء هين على المولى سبحانه أن يحله بمن تفعل ما يوقع فيه، ومن تخضع لشرعة الله وتستقم على منهاجه، وتستجيب لأمر رسوله ونهيه، وتستدم العمل الصالح يضاعف ربنا لها مثوبتها، ويمنحها الرزق الكريم في جنات النعيم، في أعلى عليين، وعهد الله إليهن- وهن أمهات المؤمنين- أن فضلهن، ورفعة قدرهن بتقواهن لا تعفيهن - بل تفرض عليهن- رعاية جانب الحيطة في القول والفعل، فالله يرضى

أن لا يلن القول كثيرا في خطابهن لمن ليسوا من محارمهن- وإن كن محرمات على المؤمنين إلا أنه كالخطاب لسائر المؤمنات في أشخاصهن – رضوان الله عليهن- فيطمع الذي في قلبه تشوف لفسق أو غزل [أمرهن أن يكون قولهن جزلا، وكلامهن فصلا. . . وعلى الجملة فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.] ٧١.

٣٣ - (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

}وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ٣٣ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ٣٤{

أمر بالاستقرار في البيوت، خوطبت به أمهات المؤمنين، وسائر النساء لهن تبع، ونهى عن التبرج الذي يتناول إظهار ما يقبح إظهاره ويجمل ستره- ولقد أورد المفسرون كلاما كثيرا في وصف ما كان عليه النساء في الجاهلية الأولى من تبرج – وبحسبنا أن نشير إلى قول مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذاك التبرج. اه

يقول القرطبي: فيلزمن البيوت فإن مست الحاجة – يعني إلى الخروج خارج البيوت- فليكن على تستر تام. اه

وليداومن على إقامة الصلاة وإتمامها، وعلى إعطاء الزكاة مستحقيها، وليثبتن على طاعة الله تعالى ورسوله في كل أمر ونهي، إنما يريد الله أن يخليهن عن النقائص، ويحليهن بالمكارم، فالرجس الذنب وإذهابه إزالة ما يوقع فيه.

يقول صاحب روح المعاني، وفسر بعض أهل السنة الإرادة ههنا بالمحبة قالوا: لأنه لو أريد بها الإرادة التي يتحقق عندها الفعل لكان كل من أهل البيت محفوظا من كل ذنب، والمشاهد خلافه. . . نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه- عز وجل- يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهركم إن انتهيتم وائتمرتم. . اه ٧٢.

وعظمن آيات الله، واذكرن حقها، واستدمن تقديرها قدرها، وتدبرنها لتتعظن بمواعظ الله تعالى فيها، وكذا ما ترينه وتسمعنه من أقوال وأفعال وتقريرات رسولنا المبعوث بالكتاب والحكمة، أو: أخبرن بما أنزل الله من قرآن في بيوتكن، وما ترين من النبي صلى الله عليه وسلم من أفعال وتسمعن منه من أقوال، وعليكن تبليغ ذلك للناس ليعملوا ويقتدوا، إن المعبود بحق يعلم دقائق الأمور وخفاياها، وخبير بما فيه خير السامعين والمبلغين، كما هو خبير بكل شأن.

مما يقول الطبري: حدثنا ابن حميد قال ثنا يحيى بن واضح قال ثنا الأصبغ عن علقمة قال: كان عكرمة ينادي في السوق }إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا{ قال: نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. اه

٣٤ - (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

}وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ٣٣ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ٣٤{

أمر بالاستقرار في البيوت، خوطبت به أمهات المؤمنين، وسائر النساء لهن تبع، ونهى عن التبرج الذي يتناول إظهار ما يقبح إظهاره ويجمل ستره- ولقد أورد المفسرون كلاما كثيرا في وصف ما كان عليه النساء في الجاهلية الأولى من تبرج – وبحسبنا أن نشير إلى قول مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذاك التبرج. اه

يقول القرطبي: فيلزمن البيوت فإن مست الحاجة – يعني إلى الخروج خارج البيوت- فليكن على تستر تام. اه

وليداومن على إقامة الصلاة وإتمامها، وعلى إعطاء الزكاة مستحقيها، وليثبتن على طاعة الله تعالى ورسوله في كل أمر ونهي، إنما يريد الله أن يخليهن عن النقائص، ويحليهن بالمكارم، فالرجس الذنب وإذهابه إزالة ما يوقع فيه.

يقول صاحب روح المعاني، وفسر بعض أهل السنة الإرادة ههنا بالمحبة قالوا: لأنه لو أريد بها الإرادة التي يتحقق عندها الفعل لكان

كل من أهل البيت محفوظا من كل ذنب، والمشاهد خلافه. . . نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه- عز وجل- يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهركم إن انتهيتم وائتمرتم. . اه ٧٣.

وعظمن آيات الله، واذكرن حقها، واستدمن تقديرها قدرها، وتدبرنها لتتعظن بمواعظ الله تعالى فيها، وكذا ما ترينه وتسمعنه من أقوال وأفعال وتقريرات رسولنا المبعوث بالكتاب والحكمة، أو: أخبرن بما أنزل الله من قرآن في بيوتكن، وما ترين من النبي صلى الله عليه وسلم من أفعال وتسمعن منه من أقوال، وعليكن تبليغ ذلك للناس ليعملوا ويقتدوا، إن المعبود بحق يعلم دقائق الأمور وخفاياها، وخبير بما فيه خير السامعين والمبلغين، كما هو خبير بكل شأن.

مما يقول الطبري: حدثنا ابن حميد قال ثنا يحيى بن واضح قال ثنا الأصبغ عن علقمة قال: كان عكرمة ينادي في السوق {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} قال: نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. اه

٣٥ - (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

{المسلمين} الرجال الذين دخلوا في الإسلام وانقادوا لشرعه.

{المسلمات} النساء اللائي دخلن في الإسلام وانقدن لشرعه.

{المؤمنين} المصدقين المستيقنين بما يجب اليقين والتصديق به.

{القانتين} الخاضعين لجلال الله، المداومين على طاعته.

{الصادقين} في أقوالهم التي يجب الصدق فيها، وفي أفعالهم.

{والصابرين} والراضين المستسلمين المحتملين للمكاره، وللنهوض بالطاعة، والكف عن المعصية.

{الخاشعين} المتواضعين لعظمة الله بجوارحهم وقلوبهم.

{المتصدقين} الباذلين ما يحسن البذل معه من فرض أو تطوع.

{والصائمين} المؤدين للصيام فرضا كان أو نفلا.

{والحافظين فروجهم} الكافين فروجهم عما لا يرضى به الله سبحانه.

{والذاكرين الله كثيرا} لا تزال ألسنتهم رطبة بحمد ربهم وتسبيحه واستغفاره ودعائه وتلاوة كتابه والثناء عليه، وما شرع من الصلاة والسلام على نبيه، وسائر أنواع الذكر، قياما وقعودا وعلى جنوبهم ما استطاعوا.

{مغفرة} سترا للعيوب وصفحا عن معاقبتهم على صغير الذنوب.

{وأجرا عظيما} ومثوبة وجزاء لا يحيطه الوصف، على ما عملوه من طاعات.

{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ٣٥}

لكأن مناسة هذه الآية الكريمة لما قبلها أن الله تعالى لما عرض أماناته على أهل بيت النبي، واستحفظهم رعايتها، ووعدهم على الوفاء بها الأجر الجزيل والثواب الجميل، شاء سبحانه أن يبشر كل مصدق ومصدقة بالحق، مستقيم على الهدى والبر والرشد ومستقيمة- يبشر هؤلاء برحمة منه ورضوان، وعفو وغفران ٧٤، و {إن} للتوكيد فكل داخل في الإسلام منقاد لشرعه وكل مسلمة تقية وكل مصدق مستيقن بما أوجب الله تعالى الاستيقان به، وكل مستيقنة راسخة التصديق بذلك، وكل خاضع لجلال الله سبحانه مداوم على طاعته، وكل عابدة خاضعة لعظمته وسلطانه، وكل صادق في القول الذي يجب الصدق فيه وفي أفعاله، وكل صادقة، وكل راض مستسلم محتمل للمكاره حين يقضي الله تعالى بلاء، وجلد على النهوض بالطاعة والكف عن المعصية، وكل صابرة في البأساء والضراء، وعلى طاعة ربها وعن معصيته، وكل متواضع لعزة المولى الكبير المتعال، ومخبت بقلبه وجوارحه، وكل متواضعة، وكل باذل في سبيل ما

يحسن البذل من فرض أو تطوع، وكل باذلة، وكل مؤد للصيام فرضا كان أو نفلا وكل صائمة، وكل كاف فرجه عما لا يرضى الله سبحانه وكل حافظة، وكل مرطب لسانه بحمد ربه وتسبيحه واستغفاره ودعائه وتلاوة كتابه والثناء عليه، وما شرع من الصلاة والسلام على نبيه وسائر أنواع الذكر قائما وقاعدا وعلى جنبه ما استطاع وكل ذاكرة، هيأ الله تعالى لهؤلاء وادخر سترا للعيوب وصفحا عن معاقبتهم على صغائر الذنوب، وادخر لهم مثوبة وجزاء لا يحيط به الوصف على ما عملوه من طاعات، مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: وإنما وصف الذكر بالكثرة في أكثر المواضع، فقال في أول السورة: {. . . لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} ٧٥ وقال في الآية: {والذاكرين الله كثيرا} ويجيئ بعد ذلك: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا} ٧٦ لأن الإكثار من الأفعال البدنية متعسر يمنع الاشتغال ببعضها من الاشتغال بغيرها بحسب الأغلب ولكن لا مانع من أن يذكر الله وهو آكل أو شارب أو ماش أو نائم أو مشغول ببعض الصنائع والحرف، على أن جميع الأعمال صحتها أو كمالها بذكر الله تعالى وهي النية. اه

٣٦ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا)

{وما كان} وما ينبغي ولا يصح، ولا يحل.

{الخيرة} الاختيار.

{يعص} يخالف.

{ضلالا مبينا} انحرافا عن الحق بينا واضحا.

{وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ٣٦}

وما يصح ولا يحل لرجل ولا امرأة من أهل الإيمان حين يقضي الله تعالى ويختار أمرا أو شيئا من الأشياء يوحيه إلى رسوله أن يختار المؤمن بعد اختيار الله ورسوله، فليس للعبد مشيئة بعد مشيئة مولاه، بل عليه أن يجعل رأيه تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام، فإنه لا ينطق عن الهوى) وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٧٧، - وجمع الضمير في {لهم} رعاية للمعنى، لوقوع مؤمن ومؤمنة في سياق النفي، والنكرة الواقعة في سياقه تعم،. . وجمعه في {أمرهم} مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم، أو له والله عز وجل للتعظيم على ما قيل. . ما كان للمؤمنين أن يكون لهم اختيار في شيء من أمورهم إذا قضى الله ورسوله لهم أمرا. . . كما لا يصح لكل فرد من المؤمنين أن يكون له الخيرة، كذلك لا يصح أن يجتمعوا ويتفقوا على كلمة واحدة لأن تأثير الجماعة واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد- ٧٨ [إذا كان ذلك سائقا إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله] ٧٩، {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا} ومن يخالف أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد اعوج عن الحق، وحار ومال عن الرشد، انحرافا وميلا ليس باليسير ولا بالقريب، وإنما هو مبعد في الجور والغواية.

وقد أورد المفسرون أكثر من سبب لنزول هذه الآية، مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: في هذه الآية دليل بل نص ٨٠ في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب، وإنما تعتبر في الأديان، خلافا لمالك والشافعي والمغيرة وسحنون، وذلك أن الموالي تزوجت في قريش: تزوج زيد زينب بنت جحش، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. اه

٣٧ - (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا)

{أنعم الله عليه} شرح صدره للإسلام

{وأنعمت عليه} ربيته وأعتقته وتبنيته وقربته.

{أمسك عليك} احبس واستدم.

{مبديه} مظهره.
{تخشاه} تخافه.
{وطرا} مقصدا وحاجة.
{حرج} ضيق أو إثم.
{أدعيائهم} الذين تبنوهم.
{مفعولا} متحققا.
{وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ٣٧} ٨١
الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكأن في الكلام فعلا محذوفا تقديره: واذكر إذ تقول لواحد ممن أكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة، فشرح صدره للإسلام، وأنعمت أنت عليه فتعهدته صغيرا بالتربية وأعتقته وفككت رقبته، فغدا حرا بعد أن كان عبدا، ثم تبنيته وقربته، حتى زوجته ابنة عمتك- تقول لهذا المنعم عليه وقد جاء يشكوا إليك نفور زوجته وتكبرها عليه، ويستأذنك في طلاقها، وأنت تعظه أن يحرص على الإمساك بزوجته، وعدم التفريط في صحبتها، وقد أعلمتك أنه مطلقها ومفارقها تقول ذلك ربما لخشية أن يقول الناس: تزوج من مطلقة ابنه، أو: رغبه في طلاقها ليتزوجها بعده، لكن الأحق بالخشية هو الله العليم الخبير، فلما فرغت حاجة زيد منها، وطلقها وانقضت عدتها منه زوجتكها، لئلا يتحرج مؤمن بعد ذلك من تزوج مطلقة متبناه إذا رغب في مثل الزواج.
كما شرعت لكم في كتابي {. . وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما} ٨٢ وإنما الذي حرمته عليكم أن يتزوج مسلم من مطلقة ابنه أو أرملته:). . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم. . (٨٣، {وكان أمر الله مفعولا} شرعتي نافذة، وأمري إذا أردت شيئا أن يقول له كن فيكون، مما أورد صاحب روح المعاني: والمراد بالموصول {ما الله مبديه} على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين رضي الله عنهما ما أوحى الله تعالى به إليه: أن زينب سيطلقها زيد ويتزوجها بعد عليه الصلاة والسلام، وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري وبكر بن العلاء، والقشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، {وتخشى الناس} تخاف من اعتراضهم، وقيل: أي تستحي من قولهم: إن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه، والمراد بالناس: الجنس أو المنافقون، وهذا عطف على ما تقدم أو حال. . . وحاصل العتاب: لم قلت: أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ وهو مطابق للتلاوة، لأن الله تعالى أعلم أنه مبدي ما أخفاه عليه الصلاة والسلام، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال سبحانه: {زوجناكها} فلو كان المضمر محبتها وإرادة طلاقها ونحو ذلك لأظهره جل وعلا، وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول. . اه
أقول: ونقل بعض المفسرين عن هؤلاء القصاص فرى على نسق بهتان الإسرائيليين، وقدحهم في عصمة الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وتلقف المستشرقون المتربصون بالإسلام مثل هذه الفرى، وكتبوا حولها الكثير من الزور، ابتغاء الفتنة، ومضاهاة لما هو مسطور عندهم في العهدين القديم والجديد، ولما تنضح به نفوسهم من العكوف على الشهوات، والضغن على الأطهار الداعين إلى الرشد، ألا إن محمدا الصادق الأمين طهره الله تعالى تطهيرا، ولبث قبل زواج زيد من زينب-أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها- عمرا هو إلى الشباب أقرب، ما كان همه إلا للمعالي، وكيف لا وهو المبعوث لهداية الإنس والجن، بل لقد كان إبان شبابه وقبل أن تأتيه الرسالة مثال السمو والعفة:
ألم ينعته أكبرهم عتيا ... أمينا صادقا قبل التنبي
طهور الذيل مسموع النداء
وكفى بالله تعالى شهيدا، فصريح الآية بين في أن المولى الحكيم إنما قضى هذا الأمر {لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم

إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا}، روى البخاري- بسنده - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن هذه الآية {. . وتخفي في نفسك ما الله مبديه} نزلت في شأن زينب ٨٤ بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما، مما أورد صاحب تفسير القرآن العظيم. . . الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال: " اتق الله وأمسك عليك زوجك " فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه. . . وكان الذي ولى تزويجها منه هو الله عز وجل، بمعنى أنه أوحى إليه أنه يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر. وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. اه.

أخرج أحمد ومسلم والنسائي، وغيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: " اذهب فاذكرها علي " فانطلق، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، فقلت: يازينب أبشري، أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليها بغير إذن، مما نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن - عن الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن علي بن الحسين- قوله: وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه، وقال النحاس: ليس هذا ٨٥ من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة، ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه، وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتن الناس، ثم أورد مزيدا من البيان نقله عن القاضي أبي بكر العربي، فقال: قال ابن العربي: فإن قيل: لأي معنى قال له: {أمسك عليك زوجك} وقد أخبره الله أنها زوجه؟ قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه من أمرها، فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه؟ وهذا تناقض، قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة، لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما، وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم، لأن الأولى ألا يطلق، وقيل: {اتق الله} فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. . ثم يتابع: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد: " ما أجد في نفسي أوثق منك فأخطب زينب علي " قال: فذهبت ووليتها ظهري توقيرا للنبي صلى الله عليه وسلم، وخطبتها ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر- أشاور، وأستخير ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بها، قلت: معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح وترجم له النسائي: [صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها] روى الأئمة - واللفظ لمسلم- عن أنس [وفيه زيادة - لما انقضت عدة زينب- وليس فيه: ففرحت]. . ويتابع القرطبي: لما وكلت أمرها إلى الله وصح تفويضها إليه تولى الله إنكاحها. . كان يقال زيد بن محمد حتى نزل {ادعوهم لآبائهم} فقال: أنا زيد بن حارثة وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نزع منه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أنه سماه في القرآن. . . ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب نوه به غاية التنويه. اه.

٣٨ - (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)

{حرج} ضيق، أو إثم.
{فرض} قسم وقدر.

{سنة الله} مناهجه الذي شرعه.
{خلوا} مضوا.
{قدرا} شيئا قدره ربنا الحكيم بقدر معلوم، ولعاقبة محمودة.

{مقدورا} ليس فيه تفاوت، ولا تفوته الحكمة.
{ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ٣٨ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ٣٩ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ٤٠}
نبأ من العليم الخبير أنه ليس على نبينا البشير النذير من ضيق ولا إثم في أن ينال ما قسم الله تعالى وقضى وأحل من توسعة في عدد الزوجات، فتلك شرعة ربنا، وسنته في الذين بعثهم قبل نبينا، والمولى بحكمته يشرع ما تحمد عاقبته، وإن خفي على بعض العقول سره، لكن ربي يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وما يأمر إلا بما أتقن وأحكم، ليس فيه تفاوت، ولا يفوته خير ولا بر ولا رشد ولا إتقان، [يروى أن اليهود- قاتلهم الله تعالى- عابوه وحاشاه من العيب صلى الله عليه وسلم- بكثرة النكاح وكثرة الأزواج، فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: {سنة الله} الآية] ٨٦، أقول: وقد انبعث أشقياؤهم وأولياؤهم من الملاحدة وأعداء الدين يفسرون تعدد زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكن إلا استجابة لدافع شهواني، وكذبوا، فأين كان الدافع الشهواني- الذي نسبوه زورا وبهتانا إلى النبي- أين كان يوم تزوج وهو في مقتبل عمره من امرأة ثيب تكبره سنا بخمسة عشر عاما؟ ولم يتزوج من أخرى حتى ماتت رضي الله تعالى عنها، وعمره -صلى الله عليه وسلم- إذ ذاك قرابة خمسين سنة، ولو أراد يومئذ أن يتزوج من أجمل فتيات قريش لما فاته ذلك، لكنه آثر الزوجة الحكيمة ذات العقل الراجح، ثم لم يتزوج بعدها بكرا إلا عائشة رضي الله تعالى عنها، ولقد دخل بها دون العاشرة من عمرها، وسائر نسائه- أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن جميعا- كن صواحب بلاء في سبيل هذا الدين، مثل أم حبيبة رضي الله تعالى عنها، وهي التي هاجرت إلى الحبشة فارة بدينها معرضة عن جاه أبيها أبي سفيان زعيم قريش يومذاك، ثم تضاعف بلاؤها فتنصر زوجها وهلك في مغتربه، ولم ينل هذا البلاء الشديد من إيمانها، فكرمها ربها وعوضها خير عوض، فرجعت من مهجرها زوجة لنبيها، وكذا أم سلمة التي ما كان لها بالرجال من حاجة وإنما هو التشرف بالمقام المقام في بيت النبوة، وطائفة منهن كان لآبائهن ما يذكر فيشكر من الوفاء بعهد الله، والصدق في العمل لإعلاء كلمته ونشر دعوته، كأم المؤمنين حفصة بنت عمر، أو كانت ذات حسب في قومها، يرجى به أن يكون سببا في كف الأذى عن المسلمين كأم المؤمنين صفية بنت حيي، وهل المبعوث إلى الناس كافة، بل إلى معشر الإنس والجن، والذي يقوم ذاكرا متهجدا تاليا راكعا ساجدا أدنى من ثلثي الليل، إلى غسق الليل وقرآن الفجر، و معظم نهاره معلما مزكيا، وداعيا وهاديا، ومعاهدا أو مصالحا أو محاربا، هل مثل هذا الذي حمل أمانة عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وأدى صلى الله عليه وسلم الأمانة على وجهها، وبلغ الرسالة ونصح للأمة، هل مثل هذا النبي السراج المنير يمكن أن يكون انبعاثه لأمر شهواني؟ حاشا! بل كان كل سعيه وهمه، ويقظته ومنامه ابتغاء مرضاة الله، ودعوة إلى حمله من لدن مولاه:) قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٨٧ - والمراد بالقدر عن جمع: المعنى المشهور للقضاء، وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه. . . والقضاء والقدر يستعمل كل منهما بمعنى الآخر. . . . وظاهر كلام الإمام اختيار أن الأمر واحد الأمور، وفرق بين القضاء والقدر بما لم نقف عليه لغيره فقال ما حاصله: القضاء ما يكون مقصودا له تعالى في الأصل، والقدر ما يكون تابعا، والخير كله بقضاء، وما في العالم من الضرر بقدر. . - ٨٨.
٣٩ - (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)
{يخشونه} يخافونه.
{حسيبا} كافيا للمخاوف، أو محاسبا على ما صغر أو كبر.
{الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا}
الذين مضوا موصوفون بأنهم الذين يبلغون ما أرسلهم به ربهم أو هم الذين يبلغون، أو أخص الذين يبلغون. .، ويخافون الله تعالى في كل ما يقولون ويفعلون، وفي كل ما يأتون، ويذرون، في خاصة أنفسهم أو فيما بينهم وبين الخلق، أو فيما بينهم وبين الله الملك

الكبير، ولا يخافون أحدا سوى الله، فهم يجهرون بالحق ويدعون إلى الخير ولو كره المبطلون والمشركون والمفسدون، ويحتملون في سبيل ذلك ولا يتوانون ولا يقصرون، وبحسبهم تأييد القوي القهار، الغالب على كل أمر، القائم على كل نفس، وأورد صاحب روح المعاني بحثا تنازل فيه التقية وحكمها ومذهب أهل السنة فيها، ومذهب الشيعة والخوارج والزيدية، ثم أورد حكم الهجرة، إذا خيف من عدو، ثم قسم الخوف والخشية قال: واستدل بالآية على عدم جواز التقية على الأنبياء عليهم السلام مطلقا، وخص ذلك بعض الشيعة في تبليغ الرسالة، وجعلوا ما وقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه القصة المشار إليها بقوله تعالى: {وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} بناء على أن الخشية فيه بمعنى الخوف، لا على أن المراد الاستحياء من قول الناس: تزوج زوجة ابنه- كما قال ابن فورك -من التقية الجائزة حيث لم تكن في تبليغ الرسالة، ولا فرق عندهم بين خوف المقالة القبيحة وإساءة الظن، وبين خوف المضار في أن كلا يبيح التقية فيما لا يتعلق بالتبليغ ولهم في التقية كلام طويل، ولأغراضهم ظل ظليل، والمتتبع لكتب الفرق يعرف أن قد وقع فيها إفراط وتفريط وصواب وتخليط وأن أهل السنة والجماعة قد سلكوا فيها الطريق الوسط، وهو الطريق الأسلم الأمين سالكه من الخطأ والغلط، أما الإفراط فللشيعة حيث جوزوا بل أوجبوا- على ما حكي عنهم- إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع، وأما التفريط فللخوارج والزيدية حيث لا يجوزون في مقابلة الدين مراعاة العرض وحفظ النفس والمال أصلا، وللخوارج تشديديات عجيبة في هذا الباب، وقد سبوا وطعنوا بريدة الأسلمي أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أنه رضي الله عنه كان يحافظ فرسه في صلاته خوفا من أن يهرب، ومذهب أهل السنة أن التقية وهي محافظة النفس أو العرض أو المال من نحو الأعداء بإظهار محظور ديني مشروعة في الجملة وقسموا العدو إلى قسمين: الأول- من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالمسلم والكافر، ويلحق به من كانت عداوته لاختلاف المذهب اختلافا يجر إلى تكفير أصحاب أحد المذهبين أصحاب المذهب الآخر كأهل السنة والشيعة. والثاني- من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمرأة، وعلى هذا تكون التقية أيضا قسمين: أما الأول فالتقية ممن كانت عداوته مبينة على اختلاف الدين حقيقة أو حكما، وقد ذكروا في ذلك أن من يدعي الإيمان إذا وقع في محل لا يمكن أن يظهر فيه ما هو عليه لتعرض المخالفين، وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على الإظهار، ولا يجوز له أن يسكن هنالك ويكتم دينه بعذر الاستضعاف فأرض الله تعالى واسعة، نعم، إن كان له عذر غير ذلك كالعمى والحبس وتخويف المخالف له بقتله أو قتل ولده أو أبيه أو أمه على أي وجه كان القتل، تخويفا يظن معه وقوع ما خوف به جاز له السكنى والموافقة بقدر الضرورة، ووجب عليه السعي في الحيلة للخروج، وإن لم يكن التخويف كذلك فالتخويف بفوات المنفعة أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها كالحبس مع القوت والضرب القليل غير المهلك لا يجوز له الموافقة وإن ترتب على ذلك موته كان شهيدا، وأما الثاني فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية، وقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه، فقال بعضهم: تجب الهجرة لوجوب حفظ المال والعرض، وقال جمع: لا
تجب، إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية، ولا يعود بتركها نقصان في الدين: إذ العدو المؤمن كيفما كان لا يتعرض لعدوه الضعيف المؤمن مثله بالسوء، من حيث هو مؤمن. . . بقي لنا فيما يتعلق بالآية شيء وهو ما قيل: إنه سبحانه وصف المرسلين الخالين عليهم الصلاة والسلام. . . بأنهم لا يخشون أحدا إلا الله وقد أخبر عز وجل عن موسى عليه السلام بأنه قال:).
. إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٨٩، وهل خوف ذلك إلا خشية غير الله تعالى، في وجه الجمع؟ قلت: أجيب بأن الخشية أخص من الخوف، قال الراغب الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وذكر عدة آيات منها هذه الآية، ونفي الخاص لا يستلزم نفي العام. . وقيل: إن موسى عليه السلام إنما خاف أن يجعل فرعون عليه بما يحول بينه وبين إتمام الدعوة وإظهار المعجزة فلا يحصل المقصود من البعض فهو خوف الله عز وجل. . اه.

٤٠ - (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

{رجالكم} ذكوركم الذين شبوا وبلغوا.

{خاتم النبيين} ختم الله تعالى به النبوة والرسالة فلا وحي بعده.

{ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما} لم يكن محمد أبا زيد بن حارثة ولا أبا أحد من ذكورهم البالغين- أي لم يلده، إذ كل أبنائه صلى الله عليه وسلم ماتوا صغارا قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال- فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، وإنما هو أب ٩٠ لأمته من حيث الشفقة والنصيحة ورعاية حقوق التعظيم معه، فهو مبعوث الله إلى كافة المكلفين، وبه ختم الله النبيين، ومجيء عيسى بعده لا ينافي كونه خاتم النبيين، فإنه عليه السلام سينزل يصلي إلى قبلة المسلمين، ويتعبد بعبادتهم كواحد من أمتهم، أخرج أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى دارا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".

[{وكان الله بكل شيء عليما} فيعلم سبحانه الأحكام والحكم التي بينت فيما سبق، والحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، في الصحيحين عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي "، قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا متلقاة على العموم التام، مقتضية نصا أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، وما ذكره القاضي أبو الطيب في كتابه المسمى بالهداية: من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية، وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاقتصاد، إلحاد عندي، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة، فالحذر الحذر منه! والله الهادي برحمته. اه

٤١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

{يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ٤١ وسبحوه بكرة وأصيلا ٤٢ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ٤٣ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ٤٤}

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا، فلا تخلوا أبدانكم من ذكره في حال من أحوال طاقتكم ذلك، ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله، وأصدق الحديث كتاب الله، فإن بيانه لمن هم (أولوا الألباب) يعلمنا ماذا على من أراد ينهض بأمانة الذكر الكثير:) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض. . (٩١ وفي المأثور: خيركم من طال عمره وحسن عمله، لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى.

٤٢ - (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

{وسبحوه بكرة وأصيلا} ونزهوا الله تعالى عن كل نقص وسوء، وعما لا يليق بجلاله، وقدسوه {بكرة} أول النهار {وأصيلا} آخره، والمراد آناء الليل وساعاته، وأطراف النهار، كما جاء في قوله الحق تبارك اسمه:) فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون (٩٢.

٤٣ - (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

{وهو الذي يصلي عليكم} الصلاة من الله تعالى: الرحمة والبركة، والثناء على عبده المؤمن، وذكره في الملأ الأعلى، ومن الملائكة الاستغفار، كما بينته آية كريمة:). . ويستغفرون للذين آمنوا. . (٩٣.

{ليخرجكم من الظلمات إلى النور} بهدايته ورحمته كره إليكم الكفر والفسوق، وحبب إليكم الإيمان والرشد، فتركتم ظلمات المعاصي إلى نور الصلاح والطاعة، {وكان بالمؤمنين رحيما} ورحمته الواسعة لا تنفك عن المؤمنين دنيا وآخرة، فإنه سبحانه كان وما يزال بالغ الرحمة، وهو أرحم الراحمين، وفي يوم الفزع الأكبر، يوم الحاقة والطامة والصاخة والقارعة ويوم الحسرة، يحييهم ربهم بالسلام، وتحييهم ملائكته بالسلام، ويدخلهم الجنة دار السلام، -وأحرى الأقوال بالقبول عندي أن الله تعالى يسلم عليهم يوم يلقونه إكراما لهم وتعظيما- ٩٤، وهيأ لهم ثوابا جزيلا، ونعيما جليلا جميلا.

٤٤ - (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)
[روي عن البراء بن عازب قال: {تحيتهم يوم يلقونه سلام} فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه] ٩٥، في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أترون هذه تلقي وليدها في النار وهي تقدر على ذلك "؟ قالوا: لا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فالله أرحم بعباده من هذه بولدها ".
٤٥ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)
{يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ٤٥ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ٤٦ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ٤٧ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٤٨}
تشريف للنبي الكريم عليه الصلوات والتسليم، وتكريم وتعظيم له وللمؤمنين، وتبين لما حمل صلى الله عليه وسلم من أمانات من لدن مولانا الكبير المتعال، فالله الحكيم بعث نبيه شاهدا على أمته، أو على الشهداء، كما تشير إلى ذلك آية مباركة:) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٩٦، [{شاهدا} على من بعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدي والضلال، وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم] ٩٧، ولقد شهد القرآن أن عيسى عليه السلام أقر- كما بين الكتاب العزيز- بأنه شاهد على أمته مدة إقامته بينهم:). وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (٩٨،) توفيتني) لعل معناها: رفعتني إلى سماواتك، {ومبشرا} تخبر أهل الإيمان والطاعة بثواب ربهم ونعيمه، فيسرون بذلك سرورا يظهر أثره على وجوههم وبشرتهم، {ونذيرا} تحذر وتخوف عاقبة الفسوق والعصيان والكفر والطغيان، من خزي في الدنيا، وفي الآخرة عذاب وهوان وخسران.
٤٦ - (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)
{وداعيا إلى الله بإذنه} تدعوا إلى اليقين في الله سبحانه، والتصديق الراسخ بجلاله، وكل ما يجب الإيمان به، والاستجابة له، والاستقامة على منهاجه، بتسهيله وتيسيره، [وقيدت الدعوة بذلك إيذانا بأنها أمر صعب المنال، وخطب في غاية الإعضال، لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه، كيف لا! وهو صرف الوجوه عن القبل المعبودة، وإدخال الأعناق في قلادة غير معهودة] ٩٩، {وسراجا منيرا} كالمصباح للقاطنين، والشمس للعالمين، يستضيء بها من يتلمس طريق السلامة والهداية، - هنا استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، وقيل: {وسراجا} أي هاديا من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضيء، ووصفه بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليطه ١٠٠ ورقت فتيلته، وفي كلام بعضهم، ثلاثة تضني: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء،. . . وقال الزجاج: {وسراجا} أي وسراج منير، أي كتاب منير، وأجاز أيضا أن يكون بمعنى: وتاليا كتاب الله.
٤٧ - (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا)
{وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا} قال ابن عطية: قال لنا أبيّ رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا، وقد تبين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى:) والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير (١٠١، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في (حم. عسق) تفسير لها
٤٨ - (وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)
{ولا تطع الكافرين والمنافقين} أي لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة في الدين ولا تمالئهم، {الكافرين}: أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور السلمي، قالوا: يا محمد، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك، {والمنافقين} عبد الله ابن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق، حثوا النبي صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعلة المصلحة- ١٠٢ وحمل غير واحد النهي على التهييج والإلهاب من حيث إنه صلى الله تعالى وسلم

لم يطعهم حتى ينهى، وجعله بعضهم من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة. . {ودع أذاهم} أي لا تبال بإيذائهم إياك بسبب إنذارك إياهم، واصبر على ما ينالك منهم، قاله قتادة. . . {وتوكل على الله} في كل ما تأتي وتذر من الشؤون التي من جملتها هذا الشأن، فإنه عز وجل يكفيكهم، {وكفى بالله وكيلا} موكولا إليه الأمور في كل الأحوال، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتعليل الحكم.

.، وروى البخاري والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للمؤمنين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.

٤٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)

{نكحتم} عقدتم عقد زواج.

{تمسوهن} تلامسوهن، وتدخلوا بهن، وتجامعونهم.

{عدة} أيام تنتظر بها المرأة، فإذا انقضت يحل لها التزويج.

{تعتدونها} تحصونها عليهن.

{متعوهن} أعطوهن ما يستمتعن به من مال أو ما يقوم بمال.

{وسرحوهن} خلوا سبيلهن، واتركوهن.

{يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ٤٩ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك التي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ٥٠ ترجي من تشاء منهن وتأوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما ٥١ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا ٥٢}

يا أيها الذين صدقتم بالله تعالى وبكتابه ورسوله وما يجب التصديق به، إذا عقد أحدكم عقد زواج مؤمنة ثم طلقها قبل أن يلامسها، ويدخل بها ويجامعها فليس له عليها من مدة يحبسها، وتنتظر بها المرأة دون زواج حتى تنقضي، ليس عليها إحصاء شيء من ذلك، بل بمجرد طلاقها قبل الدخول لها أن تتزوج إذا شاءت دون أن تقضي مدة بين طلاقها من ذاك وتزوجها من غيره، فأعطوهن ما يستمتعن به من مال أو عرض أو منفعة وما يقوم بمال، وهل هو نصف المهر المقدر، أو منحة أخرى ندبنا إليها تعويضا للمرأة عن فقدان نعمة السكن إلى زوج؟ بكل قيل!، وخلوا سبيلها واتركوها، وليكن الفراق بالمعروف، فذلك يجمل من أهل الإيمان أن يتعاملوا بالفضل.

ثم بينت الآيات بعدها ماذا أحل الله تعالى لنبيه من الأزواج، وماذا شرع له في التعامل معهن، وماذا أحل من الاستمتاع بجواريه وإمائه بملك اليمين، مما أغنمه الله تعالى به وأظفره عليه، وماذا أحل للمؤمنين من زوجات، لا يتجاوز أحدهم أربعا، وله أن يستمتع بجواريه وإمائه بملك اليمين دون تحديد، وأن الشارع الحكيم حبب إلينا أن نقر أعين الأزواج، ولا نحزنهن، بل نرضيهن بما أذن الله تعالى أن نرضيهن به من سكون إليهن ومودة ورحمة، وعدل وفضل.

٥٠ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
{آتيت} أعطيت.
{أجورهن} مهورهن.
{وما ملكت يمينك} الجارية المملوكة.
{مما أفاء الله عليك} من السبي.
{هاجرن معك} هاجرن الهجرة التي ألزمناها من كان معك من أصحابك.
{يستنكحها} أي يتملك المتعة بها، ويقبل هبتها.
{خالصة لك} أحللناها خالصة لك لا تحل لأحد غيرك.
{يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن} نساؤك اللاتي تزوجتهن- رضوان الله عليهن- وأعطيتهن مهورهن أحللناهن لك، وإن تجاوزن الأربع- خصصناك بذلك من دون المؤمنين، كسنتنا في إخوانك المرسلين السابقين-) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية. . (١٠٣.
{وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك} وأحللنا لك الاستمتاع بما ملكت يمينك من الجواري مما أغنمك الله تعالى وسبيتموه إذ تقاتلون عدوكم وتجاهدونه، وما في حكمه مما سبيله التملك المأذون به.
{وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك} ومن ترغب تزوجها من أقاربك- من غير المحارم- إذا كانت من أهل الإيمان والهجرة، إذ الدخول في الإسلام آنذاك دون هجرة من مكة إلى المدينة لم يكن يبلغ بصاحبه درجة أن يكون من أولياء الأمة المؤمنة، يقول الله جل علاه:). . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. . (١٠٤، فكيف تصلح واحدة لم تهاجر ولا ولاية لها مع أمة الإيمان كيف تصلح مثل هذه أن تكون زوجة للنبي وأما للمؤمنين؟.
{وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين} ولك - دون سائر المؤمنين- أن تقبل هبة امرأة نفسها لك إن أردت ذلك، وقبلت الموهوبة، ليس عليك مهر لها.
{قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم} شرعنا لك وللمؤمنين ما شرعناه في الزوجات، والجواري الإماء، وعلمنا أن في هذا التشريع الحكمة، {لكي لا يكون عليك حرج} ليس عليك من ضيق في ذلك، فلست تفرض من عندك، إنما هو الوحي أوحي إليك على علم تام، وبتقدير وإحكام، {وكان الله غفورا رحيما} والمعبود بحق كان وما يزال كثير الغفران لمن أساء ثم بدل حسنا بعد سوء، وكان ربنا ومولانا وما يزال رحيما بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.
٥١ - (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)
{ترجي} تؤخر، وتترك.
{وتؤوي} وتمسك وتضم.
{ابتغيت} طلبت.
{عزلت} تجنبت.
{أدنى} أقرب.
{تقر أعينهن} يبتهجن، وتسر خواطرهن.
{ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك} تؤخر من زوجاتك وإمائك من ترغب تأخيرها، وتضم إليك وتقرب من تريد تقريبها، ومن طلبت ممن أقصيت فلا إثم عليك في ذلك ولا تضييق، {ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن} ذلك الذي شرعته لك أقرب إلى سرورهن، ورضا خواطرهن جميعهن - ومن ابتغيت إصابته من نسائك

ممن عزلت عن ذلك منهن فلا جناح عليك، لدلالة قوله: {ذلك أدنى أن تقر أعينهن} على صحة ذلك، لأنه لا معنى لأن تقر أعينهن إذا هو صلى الله عليه وسلم استبدل بالميتة أو المطلقة منهن.

وقوله: {ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن} يقول: هذا الذي جعلته لك يا محمد من إذني لك أن ترجي من تشاء من النساء اللواتي جعلت لك إرجاءهن، وتؤوي من تشاء منهن، ووضعي عنك الحرج في ابتغائك إصابة من ابتغيت إصابته من نسائك، وعزلك عن ذلك من عزلت منهن، أقرب لنسائك أن تقر أعينهن به، ولا يحزن، ويرضين كلهن بما آتيتهن كلهن، من تفضيل من فضلت من قسم أو نفقة، وإيثار من آثرت منهن بذلك على غيره من نسائك، إذا هن علمن أنه من رضاي منك بذلك، وإذني لك به، وإطلاق مني لا من قبلك. . . والله يعلم ما في قلوب الرجال من ميلها إلى بعض من عنده من النساء دون بعض بالهوى والمحبة، يقول: فلذلك وضع عنك الحرج يا محمد فيما وضع عنك من ابتغاء من ابتغيت منهن ممن عزلت تفضلا منه عليك بذلك وتكرمة، {وكان الله عليما} وكان الله ذا علم بأعمال عباده وغير ذلك من الأشياء كلها، {حليما} يقول: ذا حلم عن عباده أن يعاجل أهل الذنوب منهم بالعقوبة، ولكنه ذو حلم وأناة عنهم ليتوب من تاب منهم، وينيب من ذنوبه من أناب منهم- ١٠٥.

٥٢ - (لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

{رَقيبا} حافظا ومطلعا.

{لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك} [{يحل} بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقي. . والمراد بالنساء: الجنس الشامل للواحدة، ولم يؤت بمفرده لأنه لا مفرد له من لفظه، والمرأة شاملة للجارية وليست بمرادة، واختصاص النساء بالحرائر بحكم العرف. . {من بعد} قيل: أي من بعد التسع اللاتي في عصمتك اليوم. . لما خيرهن فاخترن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره عليهن. . . وفي رواية أخرى عن عكرمة أن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء. . فلا يحل له صلى الله عليه وسلم ما وراء الأجناس الأربعة كالأعرابيات والغرائب] ١٠٦. {ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك} ولا يحل لك أن تطلق أزواجك فتستبدل بهن غيرهن أزواجا.

{وكان الله على كل شيء رقيبا} الله العليم الخبير القوي، القدير على كل شيء من الأشياء- ومنه ما أحل لك وحرم عليك- قائم وحفيظ، ومطلع لا يعزب عنه علم شيء من ذلك، ولا يؤوده حفظ كل ما يكون واستنساخه.

٥٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

{غير ناظرين إناه} غير منتظرين نضجه.

{فانتشروا} فانصرفوا وتفرقوا، ولا تلبثوا.

{فيستحيي منكم} فيستحيي من إخراجكم، وأمركم بالانصراف.

{متاعا} شيئا يتمتع به كالماعون مثلا.

{أن تؤذوا رسول الله} أن تفعلوا فعلا يكرهه ويتأذى به.

{تبدوا} تظهروا.

{يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذالكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب

ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما ٥٣ إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله بكل شيء عليما ٥٤ لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ٥٥}

أدب الله سبحانه المؤمنين بما يرضاه لنبيه الكريم في حياته وبعد مماته، فبين أنه- تبارك اسمه- لا يأذن لمؤمن أن يدخل بيتا من بيوت النبي إلا أن يدعى إلى طعام أو وليمة، فيدخل حين ينضج الطعام،، ولا يبادر قبل ذلك،، ولكن إذا دعي للدخول فليدخل، فإذا طعم انصرف وقام من مجلسه، ولم يمكث بعد تناول الطعام ليستأنس ويتحدث، فإن طول المكث في بيوت النبي يمنع النبي صلى الله عليه وسلم، ويمنع أهله راحتهم، وفي هذا ما يغضب الرسول- صلوات الله عليه- ويؤذيه، لكنه عليه السلام كان يستحيي أن يقول لضيفه بعد أن يطعم: قم وانصرف! لكن المولى الكبير المتعال يقول الحق ولا يتركه استحياء من أحد من المخلوقين ١٠٧.

{وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن} وأدب ثان المولى به أهل الإسلام، وكيف يتحدثون إلى زوجات النبي أمهات المؤمنين، وأن المحتاج إلى سؤالهن عن شيء لا يدخل عليهن، وإنما يكلمهن من وراء حجاب، وهن في سترهن وحجرهن، ولا يخرجن إليه، ولا يدخل إليهن، وفي ذلك تطهر أكثر لقلب الرجل وقلب المرأة، وما صح وما استقام لكم أن تفعلوا شيئا يكرهه النبي في حياته- كالذي نهيتم عنه من الدخول إلى بيوته، أو ملاقاة نسائه، إلا إذا دعيتم إلى وليمة فادخلوا بقدر ما تتناولون الطعام ثم انصرفوا، ومن بعد وفاته لا يحل لأحد منكم أن ينكح ويتزوج أية زوجة من أزواجه صلى الله عليه وسلم فإنهن أمهات لكل مؤمن، فكيف يستحل من جعلها الله تعالى بمنزلة أمه؟ {إن ذلكم كان عند الله عظيما} إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وفعل ما يكرهه حيا أو ميتا جرم عظيم عند الله وفي حكمه عز وجل، روى البخاري – بسنده – عن أنس رضي الله تعالى عنه قال! قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله تعالى آية الحجاب، وكان رضي الله تعالى عنه حريصا على حجابهن، وما كان ذاك إلا حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر.

{والله لا يستحيي من الحق} - أي لا يمتنع من إظهاره وبيانه، ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفي عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر، وفي الصحيح عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا رأت الماء "،. . . استدل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها، وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعي وغيرهما، قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب، وقال الشافعي: لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره. . قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس: وقول عمر، وكان يقول لسودة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة: قد رأيناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، ولا بعد في نزول الآية عند هذه الأسباب كلها- والله أعلم -. . .

٥٤ - (إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

{إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما} البارئ سبحانه عالم بما بدا، وما خفي، وما كان وما لم يكن، ولا يخفى عليه ماض تقضى، ولا مستقبل يأتي، وهذا على العموم تمدح به، وهو أهل المدح والحمد، والمراد به ها هنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: {ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن} ومن أشير إليه في قوله: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} فقيل لهم في هذه الآية: إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها، فصارت هذه الآية منعطفة على ما قبلها مبينة لها، والله أعلم.

٥٥ - (لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

قوله تعالى: {لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهم}.

{لا جناح عليهن في آبائهن} لا إثم على أزواج النبي في ترك الحجاب من آبائهن.

{ولا نسائهن} نساء المؤمنات.

{واتقين الله} أطعنه واستدمن العمل الذي يرضاه. {لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهم} لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية. . ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز له، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين، وقد يسمى العم أبا، قال الله تعالى:. .) نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل. . (١٠٨ وإسماعيل كان العم، قال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية، وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها. .

{واتقين الله}. . كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله في أن تتعدينه إلى غيره، وخص النساء بالذكر، وعينهن في هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن، والله أعلم- ١٠٩ {إن الله كان على كل شيء شهيدا} فليترسخ اليقين، وليتأكد التصديق بأن الله المعبود، السميع البصير حاضر لا يغيب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، فإنه سبحانه سيجازي على الأعمال بحسبها:) وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (١١٠ [واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد. . . فراقبن الرقيب] ١١١.

٥٦ - (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

{إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليما ٥٦ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا ٥٧ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ٥٨}

هذه الآية شرف الله تعالى بها رسوله عليه السلام، حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته، ونحو ذلك، والصلاة من الله: رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره- ١١٢ قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: {يصلون} يبركون، هكذا علقه البخاري عنهما ١١٣.

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا. هو الذي يصلي عليكم وملائكته} الآية، وقال تعالى:). . وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات ن ربهم (١١٤ الآية، وفي الحديث: " إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف " وفي الحديث الآخر: " اللهم صل على آل أبي أوفى " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة جابر وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها: " صلى الله عليك وعلى زوجك ".

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه. . . قال البخاري عند تفسير هذه الآية. . . عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله! أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: " قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ". . . . ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه: هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. . . . [فرع] قال النووي: إذا صلى أحد على النبي صلى الله عليه وسلم

فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول: صلى عليه فقط، ولا: عليه السلام، فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: {يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}. . - ١١٥.

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)

{إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} يتوعد المولى الكبير المتعال من آذاه بمخالفة أمره، أو تعدى حدوده بقول أو عمل، ينذره العلي الأعلى بالطرد من رحمته في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله عز وجل يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره ". كما جاء الوعيد للذين يؤذون رسول الله عليه الصلاة والسلام بمشاقة أو سفاهة بعيب أو نقص- عياذا بالله من ذلك – فالهوان والخزي على من لم يرع جلال الله، ولم يوقر وينصر ويطع ويتبع هدى رسول الله.

٥٨ - (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

{والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما كتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} والذين يذكرون المؤمن أو المؤمنة بما ليس فيهم، وينسبون إليهم ما هم منه براء، ويرمونهم بغير ما عملوه فقد استحقوا أن يبوءوا بسوء المصير، وعذاب السعير، اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر، ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود لعنهم الله:) وقالت اليهود يد الله مغلولة. . (١١٦، والنصارى:). . المسيح ابن الله. . (١١٧، والمشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، وفي صحيح البخاري: قال الله تعالى: " كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ".

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ". . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال الله تبارك وتعالى: " يؤذيني ابن آدم يقول ياخيبة الدهر فلا يقولن أحدكم ياخيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما ". . . . .

{والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا} أذية المؤمنين والمؤمنات هي أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلف، وهذه الآية نظير الآية التي في النساء ١١٨:) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٩ كما قال هنا، وقد قيل: إن من الأذية تعييره بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه، لأن أذاه في الجملة حرام، وقد ميز الله تعال بين أذاه وأذى الرسول، وأذى المؤمنين، فجعل الأول كفرا، والثاني كبيرة،. . . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبي بن كعب: قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا} الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم، فقال له أبي: يا أمير المؤمنين! لست منهم، إنما أنت معلم ومقوم، وقد قيل: إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: نزلت في علي، فإن المنافقين كانوا يؤذونه يكذبون عليه، رضي الله عنه- ١٢٠.

٥٩ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{يدنين} يقربن ويرخين ويسدلن.

{جلابيبهن} أثوابهن التي تستر من فوق إلى أسفل، ومقانعهن.

{أدنى} أقرب.

{يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ٥٩ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ٦٠ ملعونين أينما

ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ٦١ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة تبديلا ٦٢}
عهد من الله تعالى إلى نبيه أن يبلغ شرع ربنا الحكيم، في شأن تستر أمهات المؤمنين، وآل بيت الرسول الكريم، وسائر المسلمات الحرائر، فعلى هؤلاء أوجب المولى- تبارك اسمه- أن يقربن على وجوههن، ويرخين ويسدلن على أعناقهن خمرهن وأغطيتهن، ويتلفعن بما يستر سائر أجسادهن، فإن التستر أقرب إلى تعريف من يبصرهن أنهن حرائر عفيفات، فلا يطمع في النيل منهن، ولا يدركهن أذى من قول أو فعل، ومولانا كان وما يزال كثير المغفرة لمن استغفر، واستقام على الرشد وتطهر، واسع الرحمة أن يعذب من تاب بعد إنابته، [. . أراد أن يدفع عن أهل بيت نبيه وعن أمته المثالب التي هي مظان لصوق العار فقال: {يا أيها النبي قل لأزواجك ١٢١ وبناتك ١٢٢ ونساء المؤمنين يدنين عليهن} يرخين عليهن، يقال للمرأة إذا زل ثوبها عن وجهها: أدني ثوبك على وجهك، ومعنى التبعيض في {من جلابيبهن} أن يكون للمرأة جلابيب فتقتصر على واحد منها، أو أريد طرف من الجلباب الذي لها، وكانت النساء في أول الإسلام على عادتهن في الجاهلية متبذلات، يبرزن في درع وخمار من غير فصل بين الحرة والأمة، فأمرن بلبس الأردية والملاحف، وبستر الرأس والوجوه {ذلك} الإدناء {أدنى} وأقرب إلى {أن يعرفن} أنهن حرائر، أو أنهن لسن بزانيات، فإن التي سترت وجهها أولى بأن تستر عورتها {فلا يؤذين} لا هن ولا رجالهن وأقاربهن، لأن أكثر الإيذاء والطعن إنما يتفق من جهة نساء العشيرة إذا كن مرئيات فضلا عن كونهن مزينات، {وكان الله غفورا} لما قد سلف {رحيما} حين أرشدكم إلى هذا الأدب الجميل] ١٢٣. أخرج عبد الرزاق وجماعة عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: {يدنين عليهن من جلابيبهن} خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رحم الله تعالى نساء الأنصار، لما نزلت: {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك} الآية، شققن مروطهن فاعتجرن بها، فصلين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسهن الغربان.

٦٠ - (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا)

{ينته} يكف.

{المنافقون} الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر.

{في قلوبهم مرض} يحبون الكفر والفسوق.

{والمرجفون} الناشرون أخبار السوء، المروجون الأكاذيب المؤذية.

{لنغرينك بهم} لندعونك إلى قتالهم.

{لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} توعد الله تعالى الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالمقت والإبعاد من الرحمة، والمصير إلى العذاب العظيم، ثم توعدهم بالنكال في الدنيا إن لم يرجعوا عن غيهم وسفههم، وما لم يكفوا عن إيذاء المسلمين في أعراضهم، والافتراء عليهم وترويعهم، فهو تحذير وإنذار للمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ويقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وكذا الذين في قلوبهم زيغ أو ريب، أو يحبون الزنا وشيوع الفاحشة، والذين ينشرون أخبار السوء بين المؤمنين، ويروجون الأكاذيب المؤذية التي تروع المسلمين، وعن أبي رزين قال: {المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة} هم شيء واحد، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء، والواو مقحمة. اه.

{لنغرينك بهم} أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل. . . وقال محمد ابن يزيد: قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتصال الكلام بها، وهو قوله عز وجل: {أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا}

٦١ - (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا)

{ثقفوا} حصروا، وأمكن منهم، ووجدوا.

{وقتلوا} أبلغ تقتيل.

{أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم، أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. . .، ولام {لنغرينك} لام القسم، واليمين واقعة عليها، وأدخلت اللام في {لئن} توطئة لها. . . {ملعونين}. . منصوب على الحال. . .

٦٢ - (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا)
{خلوا} مضوا.
{لسنة الله} لعادته عز وجل المستمرة.
{سنة الله} نصب على المصدر، أي: سن الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل، {ولن تجد لسنة الله تبديلا} أي تحويلا أو تغييرا، حكاه النقاش،. . . المهدوي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات، والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم، وتأخير وعيدهم- ١٢٤.
٦٣ - (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)
{الساعة} القيامة، ومتى تكون؟
{يدريك} يعلمك.
{يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ٦٣ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ٦٤ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ٦٥ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ٦٦ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ٦٧ ربنا آتيهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ٦٨}
في السور المكية من أمثال سورتي الأعراف والنازعات بين القرآن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة، وأجاب بما أوحي إليه:) قل إنما علمها عند ربي. . (١٢٥، (إلى ربك منتهاها (١٢٦، وهنا في هذه السورة المدنية سئل عنها فأمر أن يجيب بما علمه الله- فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة- ١٢٧ والسائلون: المشركون، واليهود، والمنافقون، يسألون استهزاء بها، واستبعادا لوقوعها.
{الساعة} القيامة، قد يراد بها يوم موت الخلائق، وقد يراد بها يوم بعثهم، هذا في الشرع، أما في اللغة: فهي الجزء من الزمان، والقدر الذي ينقسم الليل والنهار إلى أربعة وعشرين قسما منه، كل قسم يعد ساعة، والله تبارك وتعالى استأثر بعلم وقت القيامة) لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة. . (١٢٨، وما يعلمك فقد تأتي القيامة عما قليل، وإنها لقريبة، وصدق الله العظيم:) اقتربت الساعة. . (١٢٩) اقترب للناس حسابهم. . (١٣٠) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (١٣١. [كان المشركون يسألونه صلى الله عليه وسلم عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء، والمنافقون تعنتا، واليهود امتحانا. .] ١٣٢، وهكذا فالذين يئسوا من الآخرة، وغرتهم الحياة الدنيا، وقست قلوبهم، وأبطرهم ترفهم يحسبون أن ما أوتوا من عرض زائل سيضمن الخلود لهم، كصاحب الجنتين الذي قص القرآن علينا فتنته:) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة. . (١٣٣، وذاك الهمزة اللمزة) الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده. كلا. . (١٣٤، ومهما متعوا فإن مصيرهم إلى النار، ومأواهم جهنم وبئس المهاد، وإن الله الحق المبين طردهم من رحمته، وهيأ لهم دار التحسير والسعير، واللهب والشرر المستطير، يخلدون في اللظى، مالهم من يمنعهم، ولا من ناصر يخلصهم ويدفع عنهم، وإنما لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش:) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٣٥) إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممدة (١٣٦ تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم). . كلما خبت زدناهم سعيرا (١٣٧.
٦٤ - (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]
{سعيرا} نارا متقدة شديدة.
{الساعة} القيامة، ومتى تكون؟
{يدريك} يعلمك.
{يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ٦٣ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ٦٤ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ٦٥ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ٦٦ وقالوا ربنا إنا

أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ٦٧ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ٦٨}
في السور المكية من أمثال سورتي الأعراف والنازعات بين القرآن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة، وأجاب بما أوحي إليه:) قل إنما علمها عند ربي. . (١٣٨، (إلى ربك منتهاها (١٣٩، وهنا في هذه السورة المدنية سئل عنها فأمر أن يجيب بما علمه الله- فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة- ١٤٠ والسائلون: المشركون، واليهود، والمنافقون، يسألون استهزاء بها، واستبعادا لوقوعها.
{الساعة} القيامة، قد يراد بها يوم موت الخلائق، وقد يراد بها يوم بعثهم، هذا في الشرع، أما في اللغة: فهي الجزء من الزمان، والقدر الذي ينقسم الليل والنهار إلى أربعة وعشرين قسما منه، كل قسم يعد ساعة، والله تبارك وتعالى استأثر بعلم وقت القيامة) لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة. . (١٤١، وما يعلمك فقد تأتي القيامة عما قليل، وإنها لقريبة، وصدق الله العظيم:) اقتربت الساعة. . (١٤٢) اقترب للناس حسابهم. . (١٤٣) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (١٤٤. [كان المشركون يسألونه صلى الله عليه وسلم عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء، والمنافقون تعنتا، واليهود امتحانا. .] ١٤٥، وهكذا فالذين يئسوا من الآخرة، وغرتهم الحياة الدنيا، وقست قلوبهم، وأبطرهم ترفهم يحسبون أن ما أوتوا من عرض زائل سيضمن الخلود لهم، كصاحب الجنتين الذي قص القرآن علينا فتنته:) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة. . (١٤٦، وذاك الهمزة اللمزة) الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده. كلا. . (١٤٧، ومهما متعوا فإن مصيرهم إلى النار، ومأواهم جهنم وبئس المهاد، وإن الله الحق المبين طردهم من رحمته، وهيأ لهم دار التحسير والسعير، واللهب والشرر المستطير، يخلدون في اللظى، مالهم من يمنعهم، ولا من ناصر يخلصهم ويدفع عنهم، وإنما لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش:) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٤٨) إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممدة (١٤٩ تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم). . كلما خبت زدناهم سعيرا (١٥٠.
٦٥ - (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]
{خالدين} ماكثين.
{وليا} متوليا يحفظهم.
{نصيرا} ناصرا يخلصهم.
{الساعة} القيامة، ومتى تكون؟
{يدريك} يعلمك.
{يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ٦٣ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ٦٤ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ٦٥ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ٦٦ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ٦٧ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ٦٨}
في السور المكية من أمثال سورتي الأعراف والنازعات بين القرآن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة، وأجاب بما أوحي إليه:) قل إنما علمها عند ربي. . (١٥١، (إلى ربك منتهاها (١٥٢، وهنا في هذه السورة المدنية سئل عنها فأمر أن يجيب بما علمه الله- فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة- ١٥٣ والسائلون: المشركون، واليهود، والمنافقون، يسألون استهزاء بها، واستبعادا لوقوعها.
{الساعة} القيامة، قد يراد بها يوم موت الخلائق، وقد يراد بها يوم بعثهم، هذا في الشرع، أما في اللغة: فهي الجزء من الزمان، والقدر الذي ينقسم الليل والنهار إلى أربعة وعشرين قسما منه، كل قسم يعد ساعة، والله تبارك وتعالى استأثر بعلم وقت القيامة) لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة. . (١٥٤، وما يعلمك فقد تأتي القيامة عما قليل، وإنها لقريبة، وصدق الله العظيم:) اقتربت الساعة. . (١٥٥) اقترب للناس حسابهم. . (١٥٦) أتى أمر الله فلا تستعجلوه. . (١٥٧. [كان المشركون

يسألونه صلى الله عليه وسلم عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء، والمنافقون تعنتا، واليهود امتحانا. .] ١٥٨، وهكذا فالذين يئسوا من الآخرة، وغرتهم الحياة الدنيا، وقست قلوبهم، وأبطرهم ترفهم يحسبون أن ما أوتوا من عرض زائل سيضمن الخلود لهم، كصاحب الجنتين الذي قص القرآن علينا فتنته:) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة. . (١٥٩، وذاك الهمزة اللمزة) الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده. كلا. . (١٦٠، ومهما متعوا فإن مصيرهم إلى النار، ومأواهم جهنم وبئس المهاد، وإن الله الحق المبين طردهم من رحمته، وهيأ لهم دار التحسير والسعير، واللهب والشرر المستطير، يخلدون في اللظى، مالهم من يمنعهم، ولا من ناصر يخلصهم ويدفع عنهم، وإنما لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش:) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. . (١٦١) إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممدة (١٦٢ تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم). . كلما خبت زدناهم سعيرا (١٦٣.

٦٦ - (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا)

{يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} يتمنون حين لا ينفع التمني، ويدعون ربهم قائلين:). . ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل. . (١٦٤) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٦٥ لكن سبق القول من ربنا أنهم إليها لا يرجعون). . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٦٦، ثم يحاج الأواخر الأوائل، ويلعن الأصاغر الأكابر {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا} وما هذا بمزحزحهم عن النار، أو ليس قد قال العزيز الغفار:) ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٦٧؟ بلى! وجاءهم النذير) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر (١٦٨ {ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} ويتابعون الدعاء،). . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١٦٩ أي في ذهاب وتبار، فلا يستجاب لهم، فالمستضعفون يطلبون مضاعفة العذاب للمستكبرين، وأن يعذبوا بمثلي ما عذب الأتباع، لأن المستكبرين ضلوا، وأضلوهم، وجاء في آية كريمة أخرى أن المولى الحكيم يرد عليهم بالقول الفصل:). . حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١٧٠، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

٦٧ - (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{سادتنا} ملوكنا وولاتنا.

{وكبراءنا} ورؤساءنا.

{فأضلونا} فصرفونا عن الحق، وأدخلونا متاهات الحيرة والغي.

{السبيلا} الطريق، طريق الرشد والهدى والبر، والألف للإطلاق.

{يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} يتمنون حين لا ينفع التمني، ويدعون ربهم قائلين:). . ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل. . (١٧١) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٧٢ لكن سبق القول من ربنا أنهم إليها لا يرجعون). . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٧٣، ثم يحاج الأواخر الأوائل، ويلعن الأصاغر الأكابر {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا} وما هذا بمزحزحهم عن النار، أو ليس قد قال العزيز الغفار:) ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٧٤؟ بلى! وجاءهم النذير) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر (١٧٥ {ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} ويتابعون الدعاء،). . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١٧٦ أي في ذهاب وتبار، فلا يستجاب لهم، فالمستضعفون يطلبون مضاعفة العذاب للمستكبرين، وأن يعذبوا بمثلي ما عذب الأتباع، لأن المستكبرين ضلوا، وأضلوهم، وجاء في آية كريمة أخرى أن المولى الحكيم يرد عليهم بالقول الفصل:). . حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١٧٧، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

٦٨ - (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]
{ضعفين} عذابين يضاعف كل واحد منهما الآخر، عذبهم مثلي ما تعذبنا، فإنهم ضلوا، وأضلوا.
{يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} يتمنون حين لا ينفع التمني، ويدعون ربهم قائلين:). . ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل. . (١٧٨) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٧٩ لكن سبق القول من ربنا أنهم إليها لا يرجعون). . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٨٠، ثم يحاج الأواخر الأوائل، ويلعن الأصاغر الأكابر {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا} وما هذا بمزحزحهم عن النار، أو ليس قد قال العزيز الغفار:) ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٨١؟ بلى! وجاءهم النذير) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر (١٨٢ {ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} ويتابعون الدعاء،). . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١٨٣ أي في ذهاب وتبار، فلا يستجاب لهم، فالمستضعفون يطلبون مضاعفة العذاب للمستكبرين، وأن يعذبوا بمثلي ما عذب الأتباع، لأن المستكبرين ضلوا، وأضلوهم، وجاء في آية كريمة أخرى أن المولى الحكيم يرد عليهم بالقول الفصل:). . حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١٨٤، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.
٦٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)
{يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ٦٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ٧٠ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ٧١}
نادى الله تعالى المؤمنين أن يعفوا عن الدنايا، ويكفوا عن الخطايا، ويحذروا إيذاء الخلق، وليس لهم أن يخوضوا فيما خاض فيه اليهود من إيذاء رسول الله وكليمه موسى صلى الله عليه وسلم، أخرج أحمد والبخاري- رحمهما الله- وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل وقالوا ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة ١٨٥ وإما آفة وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وإن موسى عليه السلام خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر غدا بثوبه فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله تعالى وبرأه مما يقولون وقام الحجرفأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فذلك قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا} "، [فإن قيل: كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل؟ قيل: لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل، و " حجر " منادى مفرد محذوف حرف النداء، كما قال تعالى:) يوسف أعرض عن هذا. . (١٨٦، و " ثوبي " منصوب بفعل مضمر، التقدير: أعطني ثوبي، أو اترك ثوبي، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه.] ١٨٧.
{وكان عند الله وجيها} وكان موسى عند ربه سبحانه صاحب قدر رفيع، ودرجة من التكريم عالية، وبحسبه أن سأل المولى البر الرحيم أن يمن على أخيه هارون بالرسالة، فحقق الله تعالى سؤله:) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (١٨٨
٧٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا)
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} يا أهل الكتاب استديموا تقوى الله تعالى في كل ما تأتون وما تذرون، واثبتوا على ذلك، ولا تتبعوا سبل المجرمين.
{وقولوا قولا سديدا} وقولوا الحق والصواب وما تبتغون به وجه الله تعالى دون سواه: {يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم}
٧١ - (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)
{يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم} يتقبل الله سبحانه عنكم أحسن ما عملتم وقلتم، ويتجاوز عن سيآتكم في أصحاب الجنة، باستقامة قولكم وفعلكم، {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما} والذي وفقناه لطاعتنا وطاعة رسولنا أدرك تمام النعمة وكمال الدين، وربح

وظفر بالعز والنعيم المقيم.
٧٢ - (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)
}إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ٧٢ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ٧٣{
مطالب الدين وتكاليفه، وعهد رب العالمين وميثاقه، وأمانات الله تعالى، من رعاها فله عند مولاه الحسنى وزيادة، ومن ضيعها فقد أضاع نفسه وأهلكها، مما أورد صاحب جامع البيان ١٨٩. . . عن ابن عباس: قوله: }إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال{ إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها. . . وفي رواية عنه. . . فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يارب! وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، و إن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها. . اهـ.
ومما كتب صاحب روح المعاني ١٩٠:. . . عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام. . . عبر عنها بالأمانة وهي في الأصل مصدر كالأمن والأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها، وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها. . . والمعنى: أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها، وكانت ذات شعور وإدراك، لأبين قبولها وخفن منها. . . .
}وحملها الإنسان{ أي هذا الجنس، نحو:) إن الإنسان لربه لكنود (١٩١) كلا إن الإنسان ليطغى (١٩٢. . . وقوله تعالى: }إنه كان ظلوما جهولا{ اعتراض وسط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما تحمل. . . . . ويكفي في صدق الحكم على الجنس بشيء وجوده في بعض أفراده، فضلا عن وجوده في غالبها.
وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى: }ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات{
٧٣ - (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)
}ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات{. . كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة، وخروجهم عن الطاعة بالكلية.
وإلى الفريق الثاني أشير بقوله سبحانه: }ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات{ أي كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده، أي: يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة، وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلوا عنها الإنسان بحكم جبلته، وتداركهم لها بالتوبة والإنابة، والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة، والإظهار في موضع الإضمار ثانيا لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين، توفية لكل من مقامي الوعد والوعيد حقه، كذا قال بعض الأجلة في تفسير الآية. . اهـ.
}وكان الله غفورا رحيما{ كان المعبود بحق ولا يزال عظيم المغفرة لمن استغفر وإن كثرت ذنوبه، مصداقا لوعده الكريم:) وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (١٩٣، }رحيما{ واسع الرحمة في الأولى والعقبى، فاللهم آتنا من لدنك رحمة تهدي بها قلوبنا، وتزكي بها أعمالنا، وتصلح بها أحوالنا، وتعصمنا بها من كل سوء، وامنن علينا بجنات النعيم، نضرع إليك وندعوك وأنت البر الرحيم.

٣٤ سورة سبأ:

سورة سبأ:
سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

كلماتها ٨٨٣ - حروفها ٣٥١٢
١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ١{
الشكر الجزيل، والمدح والثناء الحسن الجميل، مستحق للمعبود بحق، الذي يملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ومن فيهما، فهو رب العالمين، المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، والآلاء السابغة التي لا تحصى، محمودا على هدانا إليه من الرشد، محمود على تأييد المهتدين وقطع دابر الظالمين، ولله الكبير المتعال -دون سواه- الحمد في الآخرة أن صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء - إن شاء الله-). . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (١، محمود يقضي بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون). . لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون (٢، وهو الحكيم في تدبير أمره، أحكم تدبير الدارين، الخبير بشئون خلقه، ما ظهر منها وما بطن.
[وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك، وأصله: الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها، فأثبت في كل منهما ما حذف من الآخر. . . والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثاني على وجه التلذذ والاغتباط] ٣. (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب (٤.
٢ - (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)
}يلج{ يدخل، ويستتر، ويقال لما يستتر فيه: ولجة، والجمع أولاج، والوليجة: البطانة، ودخيلة الأمر.
}يعرج{ يقيم، أو يرقى ويصعد، أو يرتفع ويعلو، والعرج: غيبوبة الشمس.
}يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ٢{
ربنا المالك للسماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، والخالق لكل ذلك، والمدبر لكافة الأمور والمحمود أولى وعقبى، يعلم علما محيطا بسائر ما برأ وذرأ، وما خفي وما ظهر، ومن جملة ذلك ما يدخل في الأرض ويستكن ويتوارى فيها، وما يبرز أو يجتنى منها [يعلم سبحانه ما يدخل في الأرض من المطر }وما يخرج منها{ من النبات، قاله السدي. وقال الكلبي: ما يدخل فيها من الأموات، وما يخرج منها من جواهر المعادن. والأولى التعميم في الموصولين، فيشملان كل ما يلج في الأرض ولو بالوضع فيها، وكل ما يخرج منها حتى الحيوان فإنه كله مخلوق من التراب] ٥، ويعلم ما ينزل من السماء وما يقيم أو يرقى أو يصعد أو يرتفع إليها ويعلو فيها أو يغيب في طياتها وآفاقها- إذ من معاني العرج: غيبوبة الشمس- وهو سبحانه مع كامل ملكه ومحيط علمه، واسعة رحمته، عظيم غفرانه.
[}يعلم ما يلج في الأرض] أي يدخل فيها من المياه والحبات، والكنوز والأموات }وما يخرج منها{ من الشجر والنبات، ومياه الآبار، والجواهر، والمعدنيات }وما ينزل من السماء{ من الأمطار والأرزاق، وأنواع البركات والوحي }وما يعرج فيه{ من الملائكة وأعمال العباد، [وقد أشار قوله: }فيها{ دون أن يقول إليها إلى أن الأعمال الصالحة مقبولة، والنفوس الزكية واصلة، فقد ينتهي الشيء إلى الشيء ولا ينفذ فيه ولا يتصل به }وهو الرحيم{ حين الإنزال ٦ }الغفور{ وقت عروج الأعمال، للمفرطين في الأقوال و الأفعال] ٧.
٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)
}الساعة{ القيامة وأحوالها، ومنازلها وأهوالها.
}لا يعزب{ لا يبعد، ولا يغيب.
}وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٣{

ينكر الكافرون الإحياء بعد الإماتة، والبعث بعد البلى: (بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨ [أرادوا بضمير المتكلم - [نا] من {تأتينا} - جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط، وبنفي إتيانها نفى وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها. . . وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم:). . متى هذا الوعد (٠٩] ٠١٠. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم برد كلامهم وإبطاله، وأن يحلف على الحق الذي لا ريب فيه) وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (٠١١.

يقول ابن كثير- رحمه الله-: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام، وهي قوله تعالى:) ويستنبؤونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ١٢ والثانية هذه:) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم} والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى:) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (١٣. اهـ.

ولما كان من المنكرين للبعث من يستبعد جمع ما تفرق من الأجساد، وما تمزق من الجلود، ساق القرآن لهم حجة على اقتدار العليم أن يعيد ما تناثر من هذه الأجساد، وأن يرد عليها أرواحها يوم التناد) قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ (١٤. فهو سبحانه يعلم كل مشاهد وغائب، لا يبعد عن علمه المحيط شيء في الأرض ولا في السماء مهما دق أو عظم، وإن كان مثقال حبة من خردل، وإن كان ذرة أو فوق ذلك أو دون ذلك، بل وكل شيء من هذا مدون مسطور في كتاب ظاهر مظهر.

[وفي قوله: {لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) إشارة إلى أن الإنسان جسم أرضي وروح سماوي، فالعالم بما في العالمين القادر على تأليفهما قادر على إعادتهما على ما كانا عليه، وإنما ذكر الأكبر- يشير إلى قول الله تبارك وتعالى: {ولا أصغر من ذلك ولا أكبر} - مع أن الأصغر هو اللائق بالمبالغة لئلا يتوهم متوهم أن الصغار تثبت لكونها تنسى، أما الأكبر فلا ينسى، فلا حاجة إلى إثباته، بل المراد أن الصغير والكبير مثبت في الكتاب] ١٥.

٤ - (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

{ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ٤{

قضت حكمة الحق جل علاه أن تكون حياة آخرة). . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى (١٦ فثواب المصدقين الصالحين المصلحين أن يرفع الله أقدارهم، ويضع عنهم أوزارهم، ويجري عليهم في دار النعيم أرزاقهم.

٥ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

{والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ٥{

ومن حكم الله تعالى في مجيء الساعة أن ينزل عقابه الشديد بمن عملوا على التكذيب بآيات ربنا القرآنية والكونية، فقدحوا فيها، وصدوا الناس عن التصديق بها) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١٧ يحسبون أنهم سيغلبوننا، أو سيفوتوننا، فلن نقدر على بعثهم، ولن ندركهم بجزائهم، فسحقا لهم، وأشد العقاب ينتظرهم- والرجز: سيء العذاب وأشده- نسأل الله أن يقينا العذاب.

٦ - (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

{ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ٦{

ويعلم أصحاب العلم من أهل الإيمان عند مجيء الآخرة علما هو عين اليقين أن الوحي الذي جاءك صدق، ويدل على الرشد، ويوصل إلى مرضاة القوي القهار، المحمود بالعشي والإبكار، وآناء الليل وأطراف النهار. [والمراد بصراطه تعالى: التوحيد والتقوى] ١٨

[يهدي القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله. ودل بقوله: {العزيز} على أنه لا يغالب. وبقوله: {الحميد} على أنه لا يليق به صفة العجز] ١٩.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضا:). . لقد جاءت رسل ربنا بالحق. . (٢٠ ويقال أيضا (. . . هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٢١) وقال الذين أوتو العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث. . (٢٢. اهـ. بتصرف.

٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

{وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ٧ أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ٨}

سخر الكافرون من الرسالة والرسول، وقال بعضهم لبعض مستبعدين- البعث، مستهزئين بمن يدعوهم إلى الإيمان به-: هل نعرفكم بإنسان يخبركم يقول إنكم إذا متم وبليت أجسادكم وتفرقت أجزاؤها غاية التفرق إذا كان ذلك تبعثون أحياء في خلق جديد؟!

نقل عن الزمخشري ٢٣: فإن قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم، فما معنى قولهم: {. . هل ندلكم على رجل ينبئكم} فنكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يدل على مجهول في أمر مجهول؟. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز ٢٤ والهزء والسخرية، فأخرجوه مخرج التحكي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي، متجاهلين به وبأمره. اهـ.

٨ - (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ)

وهمزة {أفترى} مفتوحة مقطوعة يراد بها الاستفهام ولو كانت ألف وصل لم تفتح ولا جيء بهمزة القطع، ونظيره قوله تعالى:) أطلع الغيب. . . (٢٥ وقال المشركون: هل هذا المخبر بالبعث يدعي على الله كذبا وزورا أم انتابه جنون فهو لا يدري ولا يعقل ما يقول؟ فرد الله تعالى افتراءهم، ودمغهم باختلال عقولهم، وضلال أفهامهم، الذي سيهوي بهم إلى درك الشقاء وسوء مصيرهم {بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} فلا أحد أضل منهم ولا أشقى.

٩ - (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

{أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض و نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ٩}

الاستفهام إنكاري، يتضمن وعيدا، وكأن المعنى: أفعموا فلم يروا ما يحيط بهم من السماء والأرض، المخلوقين العظيمين المقهورين بقهرنا، ولو أردنا لانخسفت بهم الأرض، أو تساقطت عليهم قطع السماء، لعظم ما خاضوا فيه من جحود المعاد، والاستهزاء بالمبعوث رحمة للعباد- صلى الله عليه وسلم – [على أن فاعل ذلك لا يمتنع عليه فعل شيء أراد فعله ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه] ٢٦ إن في هذه الآيات، وما يشاهد من إتقان صنعه تلك المخلوقات، لعبرة لكل صاحب عقل هدي إلى عبادة ربه القوي القدير، وحببت إليه الإنابة إلى الله اللطيف الخبير.

١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

{*ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ١٠ إن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ١١}

يقص القرآن الحكيم من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويقوي اليقين، باقتدار مولانا الملك المتين، وسابغ نعمه على المقربين المكرمين، في هذه الدنيا ويوم الدين، فداود عليه السلام أعطاه الله من لدنه فضلا عظيما، فأمر الجبال أن ترجع معه التسبيح كلما سبح والطير

كذلك، كما جاء في قوله الله تبارك وتعالى:) . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين (٢٧.
وفي آية كريمة أخرى:) إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب (٢٨، ومع تسخير الطير والجماد علمه الله صنعة فيها نجاة للعباد، ومرتزق كريم لنبي ملك. عف عن مال الأمة فعمل حدادا. يرعاه ربه وييسر له صنعته، بل ويهديه إلى ما به يحسنها ويتقنها: {وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد} قال ابن عباس: صار عنده كالشمع، وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف يشاء من غير إدخال نار، ولا ضرب بمطرقة. قال قتادة: كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة، أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة، وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها، وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق، ولا غليظا فيفصم الحلق. و {السرد} نسج حلق الدروع.
[وسبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل لقي ملكا، وداود يظنه إنسانا، وداود خرج متنكرا يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثل له ": " وما قولك في هذا الملك داود؟ فقال له الملك: " نعم العبد لولا خلة فيه " قال داود: وما هي "؟ قال: " يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله " فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة لبوس كما قال جل وعز:) وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٢٩ فألان له الحديد فصنع الدروع. . . . . . في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع. وأن التحرف بها لا ينقصهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم. . . . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده "] ٣٠، واذكر داود وأهله. أو ذكر أهل داود أن يستصحبوا عمل الصالحين، ومنهاج الشاكرين، فإنهم تحت سمع الله تعالى وبصره، لا يخفى عليه شيء من الأقوال ولا من الأفعال ولا من الأحوال، ومن استصحب اليقين برؤية رب العالمين كان ذلك أحرى أن يحسن فلا يسيء، ولا يرتضي تفريطا ولا غفلة.
{ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر}
وكما سخر المنعم الوهاب لداود الجبال يسبحن والطير، سخر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث يريد، أو عاصفة حين يأمرها تعصف، تجري في الغداة حاملة ما يأمرها سليمان بحمله تقطع أول النهار مسيرة شهر، وجريها بالعشي- من وسط النهار إلى آخره- مسيرة شهر كذلك-[قال الحسن: كان يغدو عن دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للمسرع. قال السدي: كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين] ٣١. ووهبناه صناعة ثقيلة من النحاس المذاب- يذيبه سليمان- أو يخرج الله له المعدن سائلا.
١١ - (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]
{*ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ١٠ إن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ١١{
يقص القرآن الحكيم من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويقوي اليقين، باقتدار مولانا الملك المتين، وسابغ نعمه على المقربين المكرمين، في هذه الدنيا ويوم الدين، فداود عليه السلام أعطاه الله من لدنه فضلا عظيما، فأمر الجبال أن ترجع معه التسبيح كلما سبح والطير كذلك، كما جاء في قوله الله تبارك وتعالى:) . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين (٣٢.
وفي آية كريمة أخرى:) إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب (٣٣، ومع تسخير الطير والجماد علمه الله صنعة فيها نجاة للعباد، ومرتزق كريم لنبي ملك. عف عن مال الأمة فعمل حدادا. يرعاه ربه وييسر له صنعته، بل ويهديه إلى ما به يحسنها ويتقنها: {وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد} قال ابن عباس: صار عنده كالشمع، وقال السدي: كان

الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف يشاء من غير إدخال نار، ولا ضرب بمطرقة. قال قتادة: كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة، أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة، وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها، وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق، ولا غليظا فيفصم الحلق. و {السرد} نسج حلق الدروع.

[وسبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل لقي ملكا، وداود يظنه إنسانا، وداود خرج متنكرا يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثل له ": " وما قولك في هذا الملك داود؟ فقال له الملك: " نعم العبد لولا خلة فيه " قال داود: وما هي "؟ قال: " يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله " فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة لبوس كما قال جل وعز:) وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٣٤ فألان له الحديد فصنع الدروع. . . . . . في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع. وأن التحرف بها لا ينقصهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم. . . . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده "] ٣٥، واذكر داود وأهله. أو ذكر أهل داود أن يستصحبوا عمل الصالحين، ومناهج الشاكرين، فإنهم تحت سمع الله تعالى وبصره، لا يخفى عليه شيء من الأقوال ولا من الأفعال ولا من الأحوال، ومن استصحب اليقين برؤية رب العالمين كان ذلك أحرى أن يحسن فلا يسيء، ولا يرتضي تفريطا ولا غفلة.

{ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر}

وكما سخر المنعم الوهاب لداود الجبال يسبحن والطير، سخر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث يريد، أو عاصفة حين يأمرها تعصف، تجري في الغداة حاملة ما يأمرها سليمان بحمله تقطع أول النهار مسيرة شهر، وجريها بالعشي- من وسط النهار إلى آخره- مسيرة شهر كذلك-[قال الحسن: كان يغدو عن دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للمسرع. قال السدي: كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين] ٣٦. ووهبناه صناعة ثقيلة من النحاس المذاب- يذيبه سليمان- أو يخرج الله له المعدن سائلا.

١٢ - (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

{ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ١٢ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ١٣}

وذلل الله تعالى الجن، ومكن سليمان من التسلط عليهم وإخضاعهم بأمر العزيز الوهاب- تبارك اسمه- ومن يتمرد من الجن أو يخرج على ما كلف به من العمل فإن الله المهيمن يعذبه عذابا نكرا. ووجههم سليمان عليه السلام إلى التعمير في البر والبحر، كما تشير الآية الكريمة:) والشياطين كل بناء وغواص (٣٧ فهم يبنون المساجد، والمجالس المشرفة، والمساكن المشيدة، والتماثيل- ولم تكن حرمت في تلك الشريعة، أو كانت لما لا روح له أصلا-

وجفان وأوان للطعام، قال بعض اللغويين: الجفنة أعظم القصاع، ويليها القصعة وهي ما تشبع العشرة، ويليها الصحفة وهي ما تشبع الخمسة ويليها المنكلة وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة، ويليها الصحيفة وهي ما تشبع الواحد. {كالجواب} أي الحياض العظيمة- جمع جابية- {وقدور} آنية الطبخ {راسيات} ثابتات على الأثافي- حجارة الموقد- لا تنزل عنها لسعتها وثقلها، فاعملوا يا آل داود عمل الشاكرين.

[. . إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرا، قلت: وفي لفظ العمل إشارة إلى أن الشكر اللساني غير كاف، وإنما المعتبر الشكر الفعلي، أو هو مع القولي، يروى أن داود عليه السلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان قائم يصلي] ٣٨، وقليل من عباد الله من يتوفر على الشكر ويبذل فيه الوسع باللسان والقلب والجوارح في أكثر الأوقات.

١٣ - (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
{ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ١٢ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ١٣}
وذلل الله تعالى الجن، ومكن سليمان من التسلط عليهم وإخضاعهم بأمر العزيز الوهاب- تبارك اسمه- ومن يتمرد من الجن أو يخرج على ما كلف به من العمل فإن الله المهيمن يعذبه عذابا نكرا. ووجههم سليمان عليه السلام إلى التعمير في البر والبحر، كما تشير الآية الكريمة:) والشياطين كل بناء وغواص (٣٩ فهم يبنون المساجد، والمجالس المشرفة، والمساكن المشيدة، والتماثيل- ولم تكن حرمت في تلك الشريعة، أو كانت لما لا روح له أصلا-
وجفان وأوان للطعام، قال بعض اللغويين: الجفنة أعظم القصاع، ويليها القصعة وهي ما تشبع العشرة، ويليها الصحفة وهي ما تشبع الخمسة ويليها المنكلة وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة، ويليها الصحيفة وهي ما تشبع الواحد. {كالجواب} أي الحياض العظيمة- جمع جابية- {وقدور} آنية الطبخ {راسيات} ثابتات على الأثافي- حجارة الموقد- لا تنزل عنها لسعتها وثقلها، فاعملوا يا آل داود عمل الشاكرين.
[. إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرا، قلت: وفي لفظ العمل إشارة إلى أن الشكر اللساني غير كاف، وإنما المعتبر الشكر الفعلي، أو هو مع القولي، يروى أن داود عليه السلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان قائم يصلي] ٤٠، وقليل من عباد الله من يتوفر على الشكر ويبذل فيه الوسع باللسان والقلب والجوارح في أكثر الأوقات.
١٤ - (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)
{قضينا} أوقعنا.
{دابة الأرض} الأرضية [سوسة الخشب].
{منسأته} عصاه.
{خر} سقط ووقع.
{لبثوا} أقاموا وبقوا.
{فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ١٤}
فلما أمضينا الموت في سليمان- وهو قائم متكئ على عصاه- ظلت الجن تتابع أعمالها متهيبة سليمان يحسبونه ما زال حيا، حتى إذا أكل السوس العصا التي كان يتكئ عليها سقط، فظهر للجن حينئذ أنهم لا يعلمون غيبا فقد فارقت الروح سليمان منذ أمد وهم لا يدرون، ولو انكشف لهم الأمر في حينه لما داموا وبقوا مسخرين منذ ذلك الحين.
أخرج النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة حكما يصادف حكمه فأوتيته وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه ٤١ إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ".
١٥ - (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)
{لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ١٥}
لما بين القرآن في الآيات الأربع السابقة حال من شكر النعمة ومنهم داود وسليمان عليهما السلام بين في هذه الآية وما بعدها حال طائفة ممن كفر النعمة، وسبأ قبيلة كانت تسكن اليمن في منطقة مأرب عاشوا فيما بين بعثة عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وقد منحهم الله تعالى رزقا حسنا، وزرعا وحدائق ذات بهجة، يرى فيها المتدبر الشاكر آية من آيات اقتدار المولى، وبرهانا على جلاله

وواسع فضله، قال ابن عباس: العرم: السد، وكانوا قد أقاموا سدا بين جبلين ليحجز الماء فتروى الحدائق كلما احتاجت، فجاء فيضان المطر فهدمه، وقال عطاء: العرم اسم الوادي، وقال الزجاج: العرم: اسم الجرذ - الفأر- الذي نقب السكر عليهم، وقال الأعرابي: والعرم من أسماء الفأر، فالجنات والبساتين تحف بها وبالسائر منها وإليها عن يمينه حدائق، وعن شماله كذلك، ومكنوا من ثمرها وخيرها، فقيل لهم- أو كأنهم بتمكنهم قيل لهم-: كلوا مما رزقكم الله المنعم مولاكم، واشكروا له أنعمه يزدكم فتحيون الحياة الكريمة، ويغفر لكم في الآخرة، أو: اسكنوا هذه البلدة الطيبة، واعبدوا الله الغفور، فهو سبحانه يتجاوز عن تقصير من قصر شكره، لكنه لم يبطر ولا جحد.

١٦ - (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

{فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ١٦ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ١٧}

فبطروا، وتولوا عن أمرنا، وتأنفوا عن شكرنا فبعثنا عليهم سيلا ومطرا مدمرا يهدم ويغرق). . فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (٤٢، وأذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون، فالثمار الجنية، والفاكهة الشهية حرموها، ولم تبق في حدائقهم إلا أشجار الأثل، وقليل من شجر السدر، والخمط: كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، فكأن التقدير: - جنتين ذواتي أكل خمط- ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة، وقيل: الخمط الأراك، وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضال. والثاني- سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب. قال القشيري: وأشجار البوادي لا تسمى جنة ولابستانا، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى:) وجزاء سيئة سيئة مثلها. . . (٤٣. وهذا التبديل كان عقوبة عاجلة لهم على كفرهم بأنعم ربهم، وبسبب بطرهم وتأبيهم عن شكر المولى الوهاب، وهل يغير الله ما بقوم إلا إذا كفروا وبطروا) ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . . (٤٤،) وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا بصنعون (٤٥.

١٧ - (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]

{فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ١٦ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ١٧}

فبطروا، وتولوا عن أمرنا، وتأنفوا عن شكرنا فبعثنا عليهم سيلا ومطرا مدمرا يهدم ويغرق). . فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (٤٦، وأذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون، فالثمار الجنية، والفاكهة الشهية حرموها، ولم تبق في حدائقهم إلا أشجار الأثل، وقليل من شجر السدر، والخمط: كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، فكأن التقدير: - جنتين ذواتي أكل خمط- ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة، وقيل: الخمط الأراك، وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضال. والثاني- سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب. قال القشيري: وأشجار البوادي لا تسمى جنة ولابستانا، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى:) وجزاء سيئة سيئة مثلها. . . (٤٧. وهذا التبديل كان عقوبة عاجلة لهم على كفرهم بأنعم ربهم، وبسبب بطرهم وتأبيهم عن شكر المولى الوهاب، وهل يغير الله ما بقوم إلا إذا كفروا وبطروا) ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . . (٤٨،) وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا بصنعون (٤٩.

١٨ - (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

{وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ١٨ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا

وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ١٩{

ومما كان من نعم بطروها وما شكروها أن الله متعهم في نقلهم وارتحالهم، مثلما متعهم في مساكنهم ومحالهم، فكان المسافر من اليمن إلى الأرض المباركة- الشام- لا يقطع قفرا، ولا يجتاز بادية، إنما يعبر طريقا مأهولة تنتشر على امتدادها المدائن والقرى، متقاربة العمران، يغدو الغادي من محلته فيقيل في قرية، ويرتحل عشية فيمسي في أخرى، وقيل: إنما قيل لها ظاهرة لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول.

فلما بطروا، وسئموا الراحة، وغلبت عليهم شقوتهم، دعوا قائلين: يا ربنا باعد بين أسفارنا، كما قال بنو إسرائيل وقد سئموا ما رزقهم الله من المن والسلوى، وتمنوا البقل والفوم والعدس والبصل وسألوا نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو ربه ليحقق سؤلهم وقد ضاقوا بطيبات ما رزقهم ربهم: -). . فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله. . (٥٠، وكما قال مشركو قريش:). . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٥١ فأنزل الله تعالى بهم الخزي والهزيمة والبطشة الكبرى يوم بدر يوم الفرقان- فأجاب الله أهل سبأ إلى ما سألوا وشردهم في الآفاق، وجعل بينهم وبين الأرض التي باركها الله-الشام- مفاوز وبراري وفلوات، وبقيت بطشة الله بهم أحاديث يتمثل بها فيقال: تفرقوا أيدي سبأ، أي كأولاد سبأ، أو على طريق مجهزة كالطريق التي سلكتها سبأ، إن في ذلك الذي صنعنا لعبرا لكل عبد صابر على قسم الله، شكور لأنعمه ٥٢.

١٩ - (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ١٨ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ١٩{

ومما كان من نعم بطروها وما شكروها أن الله متعهم في نقلهم وارتحالهم، مثلما متعهم في مساكنهم ومحالهم، فكان المسافر من اليمن إلى الأرض المباركة- الشام- لا يقطع قفرا، ولا يجتاز بادية، إنما يعبر طريقا مأهولة تنتشر على امتدادها المدائن والقرى، متقاربة العمران، يغدو الغادي من محلته فيقيل في قرية، ويرتحل عشية فيمسي في أخرى، وقيل: إنما قيل لها ظاهرة لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول.

فلما بطروا، وسئموا الراحة، وغلبت عليهم شقوتهم، دعوا قائلين: يا ربنا باعد بين أسفارنا، كما قال بنو إسرائيل وقد سئموا ما رزقهم الله من المن والسلوى، وتمنوا البقل والفوم والعدس والبصل وسألوا نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو ربه ليحقق سؤلهم وقد ضاقوا بطيبات ما رزقهم ربهم: -). . فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله. . (٥٣، وكما قال مشركو قريش:). . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٥٤ فأنزل الله تعالى بهم الخزي والهزيمة والبطشة الكبرى يوم بدر يوم الفرقان- فأجاب الله أهل سبأ إلى ما سألوا وشردهم في الآفاق، وجعل بينهم وبين الأرض التي باركها الله-الشام- مفاوز وبراري وفلوات، وبقيت بطشة الله بهم أحاديث يتمثل بها فيقال: تفرقوا أيدي سبأ، أي كأولاد سبأ، أو على طريق مجهزة كالطريق التي سلكتها سبأ، إن في ذلك الذي صنعنا لعبرا لكل عبد صابر على قسم الله، شكور لأنعمه ٥٥.

٢٠ - (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

{ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ٢٠ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ٢١{

ظن إبليس أنه ما دام قد ضعف الوالد أمام وسوسته فسيكون الولد أضعف، فبان صدق ظنه، أو ظن أن الترف يحمل المترفين على

الفسوق والمروق، والأشر والبطر، فكان ما ظن، والضمير في {عليهم} إما لقوم سبأ، أو لعامة الآدميين، إلا الصفوة المخلصين، وما يملك الشيطان أن يستكرههم على الكفر والعصيان، وإنما هو تزيين وأماني، ووعد مكذوب، كما حكى الله تعالى عن إقراره يوم التغابن، بقوله جل علاه:) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي. . (٥٦ وما اختبرناهم إلا لنعلم علما يبنى عليه الثواب والعقاب ٥٧ من هم المصدقون بلقائنا وحسابنا وجزائنا ومن هم المرتابون المترددون في الإيمان بوعدنا، ومولانا حفيظ رقيب على كل شيء قائم على أحواله وشئونه [ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين. .] ٥٨ وقيل: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه به.

٢١ - (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

{ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ٢٠ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ٢١}

ظن إبليس أنه ما دام قد ضعف الوالد أمام وسوسته فسيكون الولد أضعف، فبان صدق ظنه، أو ظن أن الترف يحمل المترفين على الفسوق والمروق، والأشر والبطر، فكان ما ظن، والضمير في {عليهم} إما لقوم سبأ، أو لعامة الآدميين، إلا الصفوة المخلصين، وما يملك الشيطان أن يستكرههم على الكفر والعصيان، وإنما هو تزيين وأماني، ووعد مكذوب، كما حكى الله تعالى عن إقراره يوم التغابن، بقوله جل علاه:) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي. . (٥٩ وما اختبرناهم إلا لنعلم علما يبنى عليه الثواب والعقاب ٦٠ من هم المصدقون بلقائنا وحسابنا وجزائنا ومن هم المرتابون المترددون في الإيمان بوعدنا، ومولانا حفيظ رقيب على كل شيء قائم على أحواله وشئونه [ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين. .] ٦١ وقيل: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه به.

٢٢ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)

{قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع على قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ٢٣}

روي أن ذلك نزل عند الجوع والقحط والسنين العجاف السبع التي أصابت قريشا، فكأن القرآن الكريم يوبخ المشركين ويعجزهم، ويتحداهم أن يملك من زعموهم آلهة دفع ما نزل بهم من بلاء، ويتهكم بهم: أن ادعوهم لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم أنهم يقدرون على شيء، ومناسبة هذا لما قبله: أننا ضربنا لهم الأمثال بما نتفضل به على المخلصين الشاكرين المصطفين الأخيار- من أمثال داود وسليمان عليهما السلام- وضربنا لهم المثل ببأسنا الذي لا يرد عن القوم المجرمين من أمثال سبأ، فهل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك؟! كلا، ثم بين حال ما اتخذوه آلهة من دون الله وأنها إذا لم تملك وزن ذرة من خير أو شر أو نفع أو ضر فكيف تليق لها العبادة؟!

. . [وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفا، فيراد بهما جميع الموجودات. . . . ويجوز أن يقال: إن ذكرهما لأن بعض آلهة المخاطبين سماوية كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضية كالأصنام، فالمراد نفي قدرة السماوي منها على أمر سماوي، والأرضي على أمر أرضي، ويعلم نفي قدرته على غيره بطريق الأولى] ٦٢

{وما لهم فيهما من شرك} ما لمعبوداتهم الباطلة أي شركة ما لا في الأرض ولا في السماوات لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا، وما الله عز وجل ممن زعموهم شركاء من يعينه، بل الله وحده هو الخلاق والمدبر، الملك القدوس المهيمن، وهو- دون سواه- المستحق للعبادة،

وما لأحد عند المولى تبارك وتعالى شفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٦٣.

. . [إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله، كما قال:). . وهم من خشيته مشفقون (٦٤ والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف. . . فإذا سري عنهم قالوا للملائكة فوقهم- وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: {ماذا قال ربكم} أي ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: {قالوا الحق} وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين. {وهو العلي الكبير} فله أن يحكم في عباده بما يريد] ٦٥ وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوجل ثم انكشاف الفزع إنما يكون كلما سمعت الملائكة وحيا من وحي الله تعالى العلي الكبير واستشهدوا بأحاديث منها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عكرمة قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ". - هكذا نقله ابن كثير وأما الألوسي فبعد أن أورد أقوالا متعددة في تفسير تلك الآية الكريمة قال: وكأن الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث فنزلوا الآية على ذلك فوقعوا فيما وقعوا فيه. .

أقول: والذي أوردته أولا مطابق المقام ومتوافق مع السياق، ولا تنافي بينه وبين الحديث الشريف.

{*قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله}

في الآيتين الكريمتين السابقتين قامت حجة الله تعالى على المشركين، وأن ما عبدوه من دون الله لا يملك شيئا في السماوات ولا في الأرض، ولا يشارك في شيء منهما خلقا ولا ملكا ولا تصرفا، وفي الآخرة هم وما يعبدون من دون الله حطب جهنم، يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، وما لهم من شافعين ولا صديق حميم، وفي هذه الآية المباركة يأمر الله تعالى نبيه أن يبكتهم ويذكرهم ويقررهم بأن الرزاق هو الله الكبير المتعال ذو القوة المتين، إذ لا جواب سواه عندهم أيضا.

٢٣ - (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

{قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ٢٢ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع على قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ٢٣}

روي أن ذلك نزل عند الجوع والقحط والسنين العجاف السبع التي أصابت قريشا، فكأن القرآن الكريم يوبخ المشركين ويعجزهم، ويتحداهم أن يملك من زعموهم آلهة دفع ما نزل بهم من بلاء، ويتهكم بهم: أن ادعوهم لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم أنهم يقدرون على شيء، ومناسبة هذا لما قبله: أننا ضربنا لهم الأمثال بما نتفضل به على المخلصين الشاكرين المصطفين الأخيار- من أمثال داود وسليمان عليهما السلام- وضربنا لهم المثل ببأسنا الذي لا يرد عن القوم المجرمين من أمثال سبأ، فهل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك؟! كلا، ثم بين حال ما اتخذوه آلهة من دون الله وأنها إذا لم تملك وزن ذرة من خير أو شر أو نفع أو ضر فكيف تليق لها العبادة؟!

. . [وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفا، فيراد بهما جميع الموجودات. . . . ويجوز أن يقال: إن ذكرهما لأن بعض آلهة المخاطبين سماوية كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضية كالأصنام، فالمراد نفي قدرة السماوي منها على أمر سماوي، والأرضي على أمر أرضي،

ويعلم نفي قدرته على غيره بطريق الأولى] ٦٦
}وما لهم فيهما من شرك{ ما لمعبوداتهم الباطلة أي شركة ما لا في الأرض ولا في السماوات لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا، وما الله عز وجل ممن زعموهم شركاء من يعينه، بل الله وحده هو الخلاق والمدبر، الملك القدوس المهيمن، وهو- دون سواه- المستحق للعبادة، وما لأحد عند المولى تبارك وتعالى شفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٦٧.
. [إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله، كما قال:). . وهم من خشيته مشفقون (٦٨ والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف. . . فإذا سري عنهم قالوا للملائكة فوقهم- وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: {ماذا قال ربكم} أي ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: {قالوا الحق} وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين. }وهو العلي الكبير{ فله أن يحكم في عباده بما يريد] ٦٩ وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوجل ثم انكشاف الفزع إنما يكون كلما سمعت الملائكة وحيا من وحي الله تعالى العلي الكبير واستشهدوا بأحاديث منها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عكرمة قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ". - هكذا نقله ابن كثير وأما الألوسي فبعد أن أورد أقوالا متعددة في تفسير تلك الآية الكريمة قال: وكأن الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث فنزلوا الآية على ذلك فوقعوا فيما وقعوا فيه. .
أقول: والذي أوردته أولا مطابق المقام ومتوافق مع السياق، ولا تنافي بينه وبين الحديث الشريف.
}*قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله{
في الآيتين الكريمتين السابقتين قامت حجة الله تعالى على المشركين، وأن ما عبدوه من دون الله لا يملك شيئا في السماوات ولا في الأرض، ولا يشارك في شيء منهما خلقا ولا ملكا ولا تصرفا، وفي الآخرة هم وما يعبدون من دون الله حطب جهنم، يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، وما لهم من شافعين ولا صديق حميم، وفي هذه الآية المباركة يأمر الله تعالى نبيه أن يبكتهم ويذكرهم ويقررهم بأن الرزاق هو الله الكبير المتعال ذو القوة المتين، إذ لا جواب سواه عندهم أيضا.
٢٤ - (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
}وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ٢٤{
ويقينا يحلف عليه إن فريقا من الفريقين نحن وأنتم متصف بأحد أمرين: إما الاستقرار على الهدى، وإما التيه والدخول في الضلال الظاهر قبحه، الموضح سفاهة من يخوض في ظلماته ولجته.
[هذا من باب اللف والنشر أي واحد من الفريقين مبطل والآخر محق، ولا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى] ٧٠.
مما نقل الألوسي: وهذا من كلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على هدى ومن هو في ضلال، ولكن التعريض أبلغ من التصريح، وأوصل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم، وفل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه: قد علم

الله تعالى الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب. اه
[وفي تخالف حرف الجر في قوله {لعلى هدى أو في ضلال} إشارة إلى أن أهل الحق راكبون مطية الهدى، مستعلون على متنها، وأن أهل الباطل منغمسون في ظلمة الضلال لا يدرون أين يتوجهون، وإنما وصف الضلال ب {المبين} وأطلق ال {هدى} لأن الحق كالخط المستقيم واحد، والباطل كالخطوط المنحنية لا حصر لها فبعضها أدخل في الضلالة من بعض وأبين] ٧١.
٢٥ - (قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
{قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ٢٥}
وقل لهم: كل منا مجزي بعمله:) لكم دينكم ولي دين (٧٢، وإنها لحكمة بالغة أن يجادل أهل الكفر والطغيان بأحسن منهاج وأقوى برهان، فهو لا يبادئهم بالتسفيه حتى لا تزداد أحلامهم طيشا، بل يسند الإجرام - الذي قد يعني مقارفة الكبائر- إلى أهل الإيمان، بينما يسوق إجرام أهل الكفر بلفظ عام هو العمل إعذارا وبلاغا لئلا يكون للناس على الله حجة، وهو مع ذلك كالتبري من شركهم وإفكهم، كما جاء في آية كريمة:) وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون (٧٣.
٢٦ - (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)
{قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ٢٦}.
يوم الجمع آت لا ريب فيه، وسنلتقي بين يدي ربنا، ثم يقضي بالعدل بيننا وبينكم، فتعلمون عندئذ أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، ومولانا يقضي ويفصل بالقسط والحق، وهو العليم بكل شيء وبأحوال الخلق) ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون (٧٤.
[{وهو الفتاح} القاضي في القضايا المنغلقة فكيف بالواضحة كإبطال الشرك وإحقاق التوحيد] ٧٥.
٢٧ - (قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
{قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ٢٧}
قل أعلموني بالحجة والبرهان كيف وجه شركة ما زعمتم شركتهم، كلا! ليس لله نظير ولا شريك، ولا نديد ولا عديل، بل هو المولى المعبود بحق، الغالب على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وتدبيره.
٢٨ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)
{وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٢٨}
وما بعثناك إلا للناس عامة، فلست مبعوثا إلى قومك دون غيرهم، نقل عن ابن عباس: إلى العرب والعجم وسائر الأمم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن قتادة أنه قال في الآية: أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تعالى أطوعهم له، {بشيرا} بالرفعة والتمكين والنعيم لمن صدق واتقى، {ونذيرا} بالخزي والنكال والجحيم لمن كذب وعصى، ولكن الكثيرين يتعامون ويتصامون، أو يكابرون ويجحدون، وهي سنة الله تعالى أن يقل الطيب ويكثر الخبيث، يشهد لذلك قول المولى- تبارك اسمه-:) وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله. . (٧٦) وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٧٧، مما جاء في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى:) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا. . (٧٨) تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (٧٩.
ومما جاء في حديث جابر الوارد في الصحيحين قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة "، بل وهو مبعوث الله جل علاه إلى الجن كذلك، فسورة الجن برهان على ما نقول، وكفى بالله شهيدا (. . فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به. . (٨٠ (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (٨١) وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا (٨٢.

٢٩ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٢٩ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ٣٠}

ويقول المنكرون للبعث- يستهزئون- في أي وقت يحين الجمع والفصل الذي أخبرتمونا عنه أيها المؤمنون إن كنتم حدثتمونا عنه صادقين في إخباركم؟ وهكذا كانوا يستبعدون مجيء القيامة، بل يتعنتون في طلب الدليل على صدق مجيئها حتى قالوا:) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٨٣) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٤) أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (٨٥، فأعلم الله تعالى نبيه والمؤمنين وثبتهم بالقول الثابت، وأمرهم أن يبطلوا إنكار الجاحدين، واستهزاء الساخرين، وأن يقولوا لهؤلاء الضالين: لكم ميعاد قضاه الله الحق، وهو آت لا ريب فيه، فإذا جاء أجل هذا اليوم فلن يتفلت منه أحد، ولن يملك له أحد تأخيرا، كما أن أحدا لا يأتيكم به قبل موعده، [سألوا عن وقت إرساء الساعة وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسالها فإن كينونته لابد منه، بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيرين فيها من هول ما تشاهدون، فهذا أليق بحالكم. .] ٨٦.

ولا يغرنكم تأخيره، فقد جاءكم نذيره:) وما نؤخره إلا لأجل معدود. يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) ٨٧.

{وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه}

{بالذي بين يديه} بما سبقه من كتاب أو رسول، أو بما وعد بمجيئه بعد من الآخر.

عشرات الآيات المباركات في هذه السورة الكريمة تمت بها الحجة على الذين قالوا: لا تأتينا الساعة، وعلى المرتابين في صدق البشير النذير صلى الله عليه وسلم، فلما انقطعت حجتهم، وغلبتهم شقوتهم، أغلقوا قلوبهم وعقولهم وأسماعهم من دون هذا الكتاب العزيز، بل وبما أرسل الله من قبل من رسول، وما أنزل من كتاب، كالذين قالوا حين سمعوا الحق المبين، الموحى به إلى خاتم النبيين:). . لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون (٨٨ وفي هذه الآية نفوا على التأبيد أن يصدقوا بهذا القرآن أو بما سبقه، وهكذا كفروا بالله تعالى وبلقائه وبكتبه ورسله.

٣٠ - (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٢٩ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ٣٠}

ويقول المنكرون للبعث- يستهزئون- في أي وقت يحين الجمع والفصل الذي أخبرتمونا عنه أيها المؤمنون إن كنتم حدثتمونا عنه صادقين في إخباركم؟ وهكذا كانوا يستبعدون مجيء القيامة، بل يتعنتون في طلب الدليل على صدق مجيئها حتى قالوا:) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٨٩) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٩٠) أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (٩١، فأعلم الله تعالى نبيه والمؤمنين وثبتهم بالقول الثابت، وأمرهم أن يبطلوا إنكار الجاحدين، واستهزاء الساخرين، وأن يقولوا لهؤلاء الضالين: لكم ميعاد قضاه الله الحق، وهو آت لا ريب فيه، فإذا جاء أجل هذا اليوم فلن يتفلت منه أحد، ولن يملك له أحد تأخيرا، كما أن أحدا لا يأتيكم به قبل موعده، [سألوا عن وقت إرساء الساعة وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسالها فإن كينونته لابد منه، بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيرين فيها من هول ما تشاهدون، فهذا أليق بحالكم. .] ٩٢.

ولا يغرنكم تأخيره، فقد جاءكم نذيره:) وما نؤخره إلا لأجل معدود. يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) ٩٣.

{وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه}

{بالذي بين يديه} بما سبقه من كتاب أو رسول، أو بما وعد بمجيئه بعد من الآخر.

عشرات الآيات المباركات في هذه السورة الكريمة تمت بها الحجة على الذين قالوا: لا تأتينا الساعة، وعلى المرتابين في صدق البشير النذير

صلى الله عليه وسلم، فلما انقطعت حجتهم، وغلبتهم شقوتهم، أغلقوا قلوبهم وعقولهم وأسماعهم من دون هذا الكتاب العزيز، بل وبما أرسل الله من قبل من رسول، وما أنزل من كتاب، كالذين قالوا حين سمعوا الحق المبين، الموحى به إلى خاتم النبيين:). . لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون (٩٤ وفي هذه الآية نفوا على التأبيد أن يصدقوا بهذا القرآن أو بما سبقه، وهكذا كفروا بالله تعالى وبلقائه وبكتبه ورسله.

٣١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

}ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ٣١ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ٣٢ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ٣٣{

يتخاصم الفجار والكفار، إذ يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويوقفون بين يدي الواحد القهار، ويتحاورون ويتراجعون القول، فيقول الضعفاء الذي كانوا أتباعا لجبابرة الكفر: لولا أنتم لصدقنا مع المصدقين، فيرد عليهم أكابر فجارهم- مستنكرين لقيلهم: ما صددناكم عن الهدى وقد تبين لكم، لكنكم زينت لكم الشرور، وعبدتم أهواءكم، فيجيب الضعفاء: بل صدنا عن الهدى مكر الليل والنهار بنا، عن سعيد بن جبير }بل مكر الليل والنهار{ قال: مر الليل عليهم فغفلوا، وقيل طول السلامة فيهما كقوله تعالى:). . فطال عليهم الأمد. . (٩٥ وقيل بل مكركم في الليل والنهار أي مسارتكم إيانا، ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا، إذ تأمروننا أن نجحد ولا نستيقن بالله، وأغريتمونا أن نجعل لله أشباها ونظراء، وأضمروا الحسرة حين عاينوا سوء المصير، واستيقنوا أن لا ملجأ لهم بعدئذ ومالهم من نصير، وقيل }أسروا{ من باب الأضداد، تعني الإضمار، وتعني الإظهار، وربطت الملائكة الخزنة أعناق الكافرين بالسلاسل والقيود- وما ظلمهم الله وإنما جزاهم ببغيهم- فاللهم قنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

٣٢ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

}ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ٣١ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ٣٢ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ٣٣{

يتخاصم الفجار والكفار، إذ يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويوقفون بين يدي الواحد القهار، ويتحاورون ويتراجعون القول، فيقول الضعفاء الذي كانوا أتباعا لجبابرة الكفر: لولا أنتم لصدقنا مع المصدقين، فيرد عليهم أكابر فجارهم- مستنكرين لقيلهم: ما صددناكم عن الهدى وقد تبين لكم، لكنكم زينت لكم الشرور، وعبدتم أهواءكم، فيجيب الضعفاء: بل صدنا عن الهدى مكر الليل والنهار بنا، عن سعيد بن جبير }بل مكر الليل والنهار{ قال: مر الليل عليهم فغفلوا، وقيل طول السلامة فيهما كقوله تعالى:). . فطال عليهم الأمد. . (٩٦ وقيل بل مكركم في الليل والنهار أي مسارتكم إيانا، ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا، إذ تأمروننا أن نجحد ولا نستيقن بالله، وأغريتمونا أن نجعل لله أشباها ونظراء، وأضمروا الحسرة حين عاينوا سوء المصير، واستيقنوا أن لا ملجأ لهم بعدئذ ومالهم من نصير، وقيل }أسروا{ من باب الأضداد، تعني الإضمار، وتعني الإظهار، وربطت الملائكة الخزنة أعناق الكافرين بالسلاسل والقيود- وما ظلمهم الله وإنما جزاهم ببغيهم- فاللهم قنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

٣٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]
{ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ٣١ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ٣٢ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ٣٣}
يتخاصم الفجار والكفار، إذ يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويوقفون بين يدي الواحد القهار، ويتحاورون ويتراجعون القول، فيقول الضعفاء الذي كانوا أتباعا لجبابرة الكفر: لولا أنتم لصدقنا مع المصدقين، فيرد عليهم أكابر فجارهم- مستنكرين لقيلهم: ما صددناكم عن الهدى وقد تبين لكم، لكنكم زينت لكم الشرور، وعبدتم أهواءكم، فيجيب الضعفاء: بل صدنا عن الهدى مكر الليل والنهار بنا، عن سعيد بن جبير {بل مكر الليل والنهار} قال: مر الليل عليهم فغفلوا، وقيل طول السلامة فيهما كقوله تعالى:) . . فطال عليهم الأمد. . (٩٧ وقيل بل مكركم في الليل والنهار أي مسارتكم إيانا، ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا، إذ تأمروننا أن نجحد ولا نستيقن بالله، وأغريتمونا أن نجعل لله أشباها ونظراء، وأضمروا الحسرة حين عاينوا سوء المصير، واستيقنوا أن لا ملجأ لهم بعدئذ ومالهم من نصير، وقيل {أسروا} من باب الأضداد، تعني الإضمار، وتعني الإظهار، وربطت الملائكة الخزنة أعناق الكافرين بالسلاسل والقيود- وما ظلمهم الله وإنما جزاهم ببغيهم- فاللهم قنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.
٣٤ - (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)
{قرية} مصر جامع، وحاضرة جامعة: [تجمع سكاني] والمراد: أهلها.
{نذير} نبي ينذر من عاند أمر الله تعالى وأعرض عن هداه.
{مترفوها} أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها.
{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ٣٤ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ٣٥ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٣٦ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ٣٧}
في هذه الآيات تذكير ببعض سنن الله، وفيها –كذلك- تسلية وبشرى لرسول الله ومن والاه، فما بعث المولى الحكيم رسولا إلى قوم إلا قال الممتعون المنعمون من هؤلاء الأقوام لرسلهم: ما نحن لكم بمؤمنين، فهي سنة ربنا لا تحول ولا تتبدل:) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا. . (٩٨؟ (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. . (٩٩ وذلك شأن المترفين:) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرون على الحنث العظيم (١٠٠، وكان من فتنتهم أن غرتهم أنعم الله عليهم بالأموال والأولاد – فظنوا أن أموالهم تخلدهم، أو أن أولادهم تعصمهم) أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون (١٠١ فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم أن المولى سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويوسع الرزق على من سبقت مشيئته أن يوسعه له، ويضيق على الكثير ممن شاء له ذلك، [فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة] ١٠٢ ولكن الغفلة أعمت كثيرين فهم لا يعقلون، ولن تزيدكم الأموال التي ملكتموها، ولا الأولاد الذين رزقتموهم ما تزيدكم هذه الأنعم من الله تعالى قربا ومكانة، ولا رفعة ودرجة، إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويعلمون أولادهم الخير والفقه في الدين، فيثابون الثواب المضاعف، تضعف لهم الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة مثل إلى أضعاف كثيرة، فقد أخذوا أجور حسناتهم هم، وأخذوا مثل أجور من صلح من ذرياتهم، وهم في حجرات الجنة العالية منعمون، أمنوا سخط الله وعذابه، وأمنوا الموت والأسقام والأحزان.
٣٥ - (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٦ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)
{يبسط} يوسع.
{ويقدر} يضيق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٧ - (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)
{زلفى} زلافا واقترابا ومنزلة.
{جزاء الضعف} الجزاء المضاعف.
{الغرفات} الحجرات العالية.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٨ - (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)
{والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون ٣٨}
وأما من عملوا على إبطال حجج الله تعالى والتكذيب بكلماته ورسالاته، وحسبوا أن الله لن يدركهم، أولئك الذين أبعدوا في الغلط والشطط تأخذهم الزبانية وتغلهم وتسلكهم في السلاسل والأغلال يسحبون بها في النار على وجوههم، تحسرهم خزنة النار، وما هم منها بمخرجين.
٣٩ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)
{قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ٣٩}
لكأن الآية السادسة والثلاثين عامة - يبسط الله تعالى الرزق لطائفة ويقدره لطائفة - وقد تكون هذه الآية خاصة بعبد من عباده سبحانه: فقد يوسع عليه حينا ويضيق عليه حينا آخر، فأنفقوا ينفق الله عليكم، ويخلف لكم خيرا مما أنفقتم وهو أكرم وأغنى من يرزق. [فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتقربوا لديه عز وجل بأموالكم، وتعرضوا لنفحاته جل وعلا، فمساق الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا، والحض على التقرب إليه تعالى بالإنفاق، وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فإنه للرد على الكفرة كما سمعت، وأيضا ما سبق عام، وما ها هنا خاص في البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين، كما يشعر به قوله تعالى هنا: {له}، وعدم قوله هناك، والضمير وإن كان في موضع من المبهم إلا أن سبق النظير خاليا عن ذلك وذكر هذا بعده مشتملا عليه كالقرينة على إدارة ما ذكر.].
١٠٣. ومعنى {الرازقين} الموصلين للرزق والموهبين له فيطلق الرازق حقيقة على الله عز وجل ومجازا على غيره. ويشعر بذلك قول المولى سبحانه:). . فارزقوهم منه. . (١٠٤.
٤٠ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)
{ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ٤٠ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ٤١}
ولو ترى- يامن تتأتى منه الرؤية- إذ الظالمون موقوفون، ولو تراهم إذ هم مجموعون ليوم الحساب، نجمع الضعفاء والمستكبرين، والعابدين والمعبودين،) يوم يقوم الناس لرب العالمين (١٠٥ لرأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، والخزي والسوء يومئذ على الكافرين، ثم يسأل الله تعالى الملائكة ليكذبوا هؤلاء المشركين، فإذا هم من الندامى المقبوحين، كما جاء في قول المولى- تبارك اسمه-) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا. فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا. . (١٠٦، فتنزه الملائكة مولانا عن الشريك والند، ولا نوالي سواك، ونعادي من عاداك [أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه،

ونعبده ونخلص في العبادة له. {بل كانوا يعبدون الجن} أي يطيعون إبليس وأعوانه. وفي التفاسير: أن حيا يقال لهم بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، يزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وهو قوله:) وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. . (١٠٧] ١٠٨.

مما أورد الألوسي: وظاهر العطف بثم يقتضي أن القول للملائكة متراخ عن الحشر. . و {هؤلاء} مبتدأ و {كانوا يعبدون} خبره و {إياكم} مفعول {يعبدون} قدم للفاصلة مع أنه أهم لأمر التفريع. . {أكثرهم بهم مؤمنون} الضمير الثاني للجن والأول للمشركين. . اهـ.

٤١ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ٤٠ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ٤١}

ولو ترى- يامن تتأتى منه الرؤية- إذ الظالمون موقوفون، ولو تراهم إذ هم مجموعون ليوم الحساب، نجمع الضعفاء والمستكبرين، والعابدين والمعبودين،) يوم يقوم الناس لرب العالمين (١٠٩ لرأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، والخزي والسوء يومئذ على الكافرين، ثم يسأل الله تعالى الملائكة ليكذبوا هؤلاء المشركين، فإذا هم من الندامى المقبوحين، كما جاء في قول المولى- تبارك اسمه-) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا. فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا. . (١١٠، فتنزه الملائكة مولانا عن الشريك والند، ولا نوالي سواك، ونعادي من عاداك [أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه، ونعبده ونخلص في العبادة له. {بل كانوا يعبدون الجن} أي يطيعون إبليس وأعوانه. وفي التفاسير: أن حيا يقال لهم بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، يزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وهو قوله:) وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. . (١١١] ١١٢.

مما أورد الألوسي: وظاهر العطف بثم يقتضي أن القول للملائكة متراخ عن الحشر. . و {هؤلاء} مبتدأ و {كانوا يعبدون} خبره و {إياكم} مفعول {يعبدون} قدم للفاصلة مع أنه أهم لأمر التفريع. . {أكثرهم بهم مؤمنون} الضمير الثاني للجن والأول للمشركين. . اهـ.

٤٢ - (فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

{فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ٤٢}

عندئذ تتحققون البوار، وأن ليس للضالين من أنصار، ويؤمر بالمشركين وما عبدوا من دون الله إلى ما كانوا ينكرون من النار.

[ووقع الموصول هنا وصفا للمضاف إليه، وفي السجدة في قوله تعالى:). . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون (١١٣ صفة للمضاف، فقال أبو حيان: لأن ثمت كانوا ملابسين للعذاب. . فوصف لهم ثمت مالابسوه، وهنا لم يكونوا ملابسين له بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر فوصف ما عاينوه لهم.] ١١٤

٤٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ٤٣}

بينت السورة الكريمة في الآيات السابقات كثيرا من مرائهم في لقاء الله، بل وإنكارهم له، وجحودهم بالمنعم -جل علاه- وبنعمه، وجادلتهم الآيات ودحضت باطلهم، وهذه الآيات تبين كفرهم بالرسالة والرسول، بالقرآن ومن أنزل عليه، وتسوق البرهان والسلطان

لتدمغ إفك المفترين، فكلما أسمعهم النبي كلمات الله- وكلها صدق وعدل ما يجادل فيها إلا جاحد معاند- كلما تليت عليهم استهزءوا بالرسول صلى الله عليه وسلم- وكذبوا بصدق الوحي، ووصفوه بأنه زور مبتدع، ومع أنه الحق المبين زعموا أنه ليس إلا سحرا يخدع السامعين، [وجوز أن تكون كل جملة صدرت من قوم من الكفرة] ١١٥.

٤٤ - (وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

{وماآتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ٤٤}

ما أعطيناهم ولا أنزلنا إليهم كتبا تعلموها فعلموا منها أن ما جئتم به باطل،

وهذا قريب من معنى قول ربنا تبارك وتعالى:) أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون (١١٦ (أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون (١١٧، وما بعثنا إليهم رسولا من قبلك حتى يزعموا أنك لست على سنن المرسلين، فثبت بطلان ما ادعوه عقلا ونقلا، وإنما هو ضلال التقليد للآباء والأسلاف، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

٤٥ - (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

{معشار} عشر، ولا يقول العرب هذا في شيء سوى العشر. وقيل: المعشار: هو عشر العشير، والعشير: عشر العشر، فيكون جزءا من ألف جزء، ومال إلى هذا الماوردي.

{وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ٤٥*}

تحذير من الله القدير سبحانه، ووعيد للمشركين، فإن أقواما سبقوهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، بل لا يبلغ هؤلاء في النعمة والقوة جزءا قليلا مما أعطينا أولئك، فلما كذبوا الرسل حق وعيدي، وعقابي العاجل، وبطشتي الكبرى، وأنت تعلم وقومك يعلمون كيف أنكرت على المكذبين، وقطعت دابر الظالمين، فأنذرهم بطشتنا قبل أن أحل بهم الهلاك والعذاب الأليم.

٤٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

{قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ٤٦}

وجادلهم وادعهم إلى التبصر والاعتبار من قبل أن يأتيهم عذاب النار، وعظهم بوصية واحدة لو أنفذوها لكفتهم وأنقذتهم من سوء المصير، وحر السعير، تلك هي تحري الحق ليرضى عنهم الحق، وأن يجعلوا تفكرهم آحادا ومجتمعين بعيدا عن الهوى- فإن الهوى يضل ويعمي-: هل بمحمد مس من الجنون فهو يهرف بما لا يعرف؟ أم هو الصادق الأمين، وما جربتم عليه إلا الحكمة والعقل الراجح المكين! وإياكم والمراء، فإنه يعقب الدمار والشقاء.

مما أورد القرطبي: {بواحدة}. . قال مجاهد: هي لا إله إلا الله. . وقيل تقديره: بخصلة واحدة، ثم بينها بقوله: {أن تقوموا لله مثنى وفرادى}. . . وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذي هو ضد القعود، وهو كما يقال: قام فلان بأمر كذا، أي لوجه الله والتقرب إليه، وكما قال تعالى:. . .) وأن تقوموا لليتامى بالقسط. . (١١٨. . وقيل: إنما قال: {مثنى وفرادى} لأن الذهن حجة الله على العباد، وهو العقل، فأوفرهم عقلا أوفرهم حظا من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد، والله أعلم. . . مما في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت:) وأنذر عشيرتك الأقربين (١١٩. . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا يهتف: " ياصباحاه " فقالوا من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه فقال- أرأيت لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي "؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: " فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد ". . اه. فإذا كانوا قد أجمعوا على صدقه فما بال هذه المعاندة؟!.

٤٧ - (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

{قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ٤٧ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ٤٨ قل

جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ٤٩ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب ٥٠} برهان من الله تعالى إثر برهان، وحجة تلو حجة تبطل الزيغ والبهتان، فقد أمر البشير النذير صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكابرين: ما أسألكم على تبصرتكم بالرشد عوضا ومقابلا حتى تنفروا من الدعوة هربا من تبعاتها، إذ التجرد في الدلالة على الخير أرجى لاستجابة العقلاء، وإلى هذا المعنى يشير القول الرباني الكريم:) اتبعوا من لا يسألكم أجرا. . (١٢٠، فإن سألتكم المودة في القربى فقد ربحتم وغنمتم المقابل، وإن طلبت إليكم اتخاذ السبيل إلى الله عز وجل ففي ذلك نفعكم وفلاحكم، وربي شهيد على كل شيء وشهيد على دعوتي إياكم، وأنها خالصة لوجهه الكريم، كما أمر صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن المولى تبارك اسمه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ١٢١، وهو محيط العلم بكل شيء وإن غاب واختفى، وأن يبلغهم بتمام نور الله، وعلو كلمة الإيمان، وظهور هذا الدين على الدين كله، وما بقي للباطل شيء يعيده أو يبدئه، وعلم ربنا نبيه أن يقول لهم: إن بعدت عن الحق فحيرتي وضلالي على نفسي، وإن سلكت سبيل الرشد فبهداية ربي ووحيه وتوفيقه وحكمته، إن مولانا سميع لكل قول ودعوة، قريب من كل متكلم وداع، [ولا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما، فيجازي كلا بما يليق] ١٢٢. ومن حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: " إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا ".

٤٨ - (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ٤٧ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ٤٨ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ٤٩ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب ٥٠} برهان من الله تعالى إثر برهان، وحجة تلو حجة تبطل الزيغ والبهتان، فقد أمر البشير النذير صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكابرين: ما أسألكم على تبصرتكم بالرشد عوضا ومقابلا حتى تنفروا من الدعوة هربا من تبعاتها، إذ التجرد في الدلالة على الخير أرجى لاستجابة العقلاء، وإلى هذا المعنى يشير القول الرباني الكريم:) اتبعوا من لا يسألكم أجرا. . (١٢٣، فإن سألتكم المودة في القربى فقد ربحتم وغنمتم المقابل، وإن طلبت إليكم اتخاذ السبيل إلى الله عز وجل ففي ذلك نفعكم وفلاحكم، وربي شهيد على كل شيء وشهيد على دعوتي إياكم، وأنها خالصة لوجهه الكريم، كما أمر صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن المولى تبارك اسمه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ١٢٤، وهو محيط العلم بكل شيء وإن غاب واختفى، وأن يبلغهم بتمام نور الله، وعلو كلمة الإيمان، وظهور هذا الدين على الدين كله، وما بقي للباطل شيء يعيده أو يبدئه، وعلم ربنا نبيه أن يقول لهم: إن بعدت عن الحق فحيرتي وضلالي على نفسي، وإن سلكت سبيل الرشد فبهداية ربي ووحيه وتوفيقه وحكمته، إن مولانا سميع لكل قول ودعوة، قريب من كل متكلم وداع، [ولا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما، فيجازي كلا بما يليق] ١٢٥. ومن حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: " إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا ".

٤٩ - (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ٤٧ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ٤٨ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ٤٩ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب ٥٠} برهان من الله تعالى إثر برهان، وحجة تلو حجة تبطل الزيغ والبهتان، فقد أمر البشير النذير صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكابرين: ما أسألكم على تبصرتكم بالرشد عوضا ومقابلا حتى تنفروا من الدعوة هربا من تبعاتها، إذ التجرد في الدلالة على الخير أرجى لاستجابة العقلاء، وإلى هذا المعنى يشير القول الرباني الكريم:) اتبعوا من لا يسألكم أجرا. . (١٢٦، فإن سألتكم المودة في القربى فقد ربحتم وغنمتم المقابل، وإن طلبت إليكم اتخاذ السبيل إلى الله عز وجل ففي ذلك نفعكم وفلاحكم، وربي شهيد على كل شيء وشهيد على

دعوتي إياكم، وأنها خالصة لوجهه الكريم، كما أمر صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن المولى تبارك اسمه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ١٢٧، وهو محيط العلم بكل شيء وإن غاب واختفى، وأن يبلغهم بتمام نور الله، وعلو كلمة الإيمان، وظهور هذا الدين على الدين كله، وما بقي للباطل شيء يعيده أو يبدئه، وعلم ربنا نبيه أن يقول لهم: إن بعدت عن الحق فحيرتي وضلالي على نفسي، وإن سلكت سبيل الرشد فبهداية ربي ووحيه وتوفيقه وحكمته، إن مولانا سميع لكل قول ودعوة، قريب من كل متكلم وداع، [ولا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما، فيجازي كلا بما يليق] ١٢٨. ومن حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: " إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا ".

٥٠ - (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

}قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ٤٧ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ٤٨ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ٤٩ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب ٥٠{

برهان من الله تعالى إثر برهان، وحجة تلو حجة تبطل الزيغ والبهتان، فقد أمر البشير النذير صلى الله عليه وسلم أن يقول للمكابرين: ما أسألكم على تبصرتكم بالرشد عوضا ومقابلا حتى تنفروا من الدعوة هربا من تبعاتها، إذ التجرد في الدلالة على الخير أرجى لاستجابة العقلاء، وإلى هذا المعنى يشير القول الرباني الكريم:) اتبعوا من لا يسألكم أجرا . (١٢٩، فإن سألتكم المودة في القربى فقد ربحتم وغنمتم المقابل، وإن طلبت إليكم اتخاذ السبيل إلى الله عز وجل ففي ذلك نفعكم وفلاحكم، وربي شهيد على كل شيء وشهيد على دعوتي إياكم، وأنها خالصة لوجهه الكريم، كما أمر صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن المولى تبارك اسمه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ١٣٠، وهو محيط العلم بكل شيء وإن غاب واختفى، وأن يبلغهم بتمام نور الله، وعلو كلمة الإيمان، وظهور هذا الدين على الدين كله، وما بقي للباطل شيء يعيده أو يبدئه، وعلم ربنا نبيه أن يقول لهم: إن بعدت عن الحق فحيرتي وضلالي على نفسي، وإن سلكت سبيل الرشد فبهداية ربي ووحيه وتوفيقه وحكمته، إن مولانا سميع لكل قول ودعوة، قريب من كل متكلم وداع، [ولا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما، فيجازي كلا بما يليق] ١٣١. ومن حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: " إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا ".

٥١ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

}ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ٥١ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ٥٢ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ٥٣ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب ٥٤{

تثبيت لليقين بالآخرة، وتحذير من سوء المصير، وإنذار للمكذبين بالله ورسوله وبالبعث والنشور، وجاء البيان مهيبا رهيبا: ولو تعاين يا من تتأتى منه المعاينة حين يشتد الهول على الكافرين في يوم عسير فيشتد فزعهم إذا ألقوا من النار مكانا ضيقا مقرنين ومكبلين بالسلاسل والأصفاد، فلا يفوتون الواحد القهار، إذ تعرفهم النار وخزنتها بسيماهم) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٣٢ فالنار منهم قريبة لأن الله تعالى محيط بهم لا يعزبون عنه، وعندها يقرون بالإيمان لكن بعد فوات الأوان، فكيف يصلون إلى الدخول فيه ويناوشونه ويناولونه وقد انقضت دار العمل) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (١٣٣، وكيف يقبل منهم وقد قضوا حياتهم الدنيا جاحدين، بل مفترين، ويرجمون بالغيب، وظن السوء، ويرمون بالبهتان كالذي يرجم من بعيد فلا يصيب، يقولون: {لا تأتينا الساعة}، ويقولون: {وما نحن بمعذبين} ويقولون: {ما هذا إلا إفك مفترى} {ما هاذا إلا سحر مبين}، وحرموا رغائبهم فلا يصل إليهم ما لهم الذي كان لهم في الدنيا ولا يصلون إليه ولا إلى ما متعوا به من جاه، كما يحال بينهم وبين ما يتمنون من الرجوع إلى الدنيا للتوبة والاهتداء والاستقامة، كما أخبر الله العليم عنهم بقوله الحكيم:) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا

موقنون (١٣٤ ولكن هيهات فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، كما يفعل الحكم العدل بكل من سبقوهم ومن على شاكلتهم من أهل الجحود والفتون:) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٣٥، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، فقد عاشوا في شك أوقعهم في الحيرة وظنوا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (١٣٦ بل يشهد الله العليم الخبير أنهم بعد معاينتهم العذاب لو رجعوا إلى دار التكليف لظلوا في طغيانهم يعمهون، يقول الحق جل علاه:) ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٣٧.

وبعد: فاليقين بيوم الجزاء موصول بخلق الأرض والسماء) وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت. . (١٣٨ والتصديق بالله تعالى ورسله ورسالاته، وناره وجناته، إذا لم يكن جازما راسخا لم ينفع أصحابه (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (١٣٩ ومشيئة العليم الحكيم أن يبتلي العباد ليظهر أهل الزيغ من أهل الإيمان {. . لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ}.

٥٢ - (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

}ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ٥١ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ٥٢ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ٥٣ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب ٥٤{

تثبيت لليقين بالآخرة، وتحذير من سوء المصير، وإنذار للمكذبين بالله ورسوله وبالبعث والنشور، وجاء البيان مهيبا رهيبا: ولو تعاين يا من تتأتى منه المعاينة حين يشتد الهول على الكافرين في يوم عسير فيشتد فزعهم إذا ألقوا من النار مكانا ضيقا مقرنين ومكبلين بالسلاسل والأصفاد، فلا يفوتون الواحد القهار، إذ تعرفهم النار وخزنتها بسيماهم) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٤٠ فالنار منهم قريبة لأن الله تعالى محيط بهم لا يعزبون عنه، وعندها يقرون بالإيمان لكن بعد فوات الأوان، فكيف يصلون إلى الدخول فيه ويناوشونه ويناولونه وقد انقضت دار العمل) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (١٤١، وكيف يقبل منهم وقد قضوا حياتهم الدنيا جاحدين، بل مفترين، ويرجمون بالغيب، وظن السوء، ويرمون بالبهتان كالذي يرجم من بعيد فلا يصيب، يقولون: {لا تأتينا الساعة}، ويقولون: {وما نحن بمعذبين} ويقولون: {ما هذا إلا إفك مفترى} {ما هاذا إلا سحر مبين}، وحرموا رغائبهم فلا يصل إليهم ما لهم الذي كان لهم في الدنيا ولا يصلون إليه ولا إلى ما متعوا به من جاه، كما يحال بينهم وبين ما يتمنون من الرجوع إلى الدنيا للتوبة والاهتداء والاستقامة، كما أخبر الله العليم عنهم بقوله الحكيم:) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٤٢ ولكن هيهات فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، كما يفعل الحكم العدل بكل من سبقوهم ومن على شاكلتهم من أهل الجحود والفتون:) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٤٣، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، فقد عاشوا في شك أوقعهم في الحيرة وظنوا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (١٤٤ بل يشهد الله العليم الخبير أنهم بعد معاينتهم العذاب لو رجعوا إلى دار التكليف لظلوا في طغيانهم يعمهون، يقول الحق جل علاه:) ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٤٥.

وبعد: فاليقين بيوم الجزاء موصول بخلق الأرض والسماء) وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت. .

(١٤٦ والتصديق بالله تعالى ورسله ورسالاته، وناره وجناته، إذا لم يكن جازما راسخا لم ينفع أصحابه (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (١٤٧ ومشيئة العليم الحكيم أن يبتلي العباد ليظهر أهل الزيغ من أهل الإيمان {. لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ}.

٥٣ - (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

}ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ٥١ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ٥٢ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ٥٣ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب ٥٤{

ثبيت لليقين بالآخرة، وتحذير من سوء المصير، وإنذار للمكذبين بالله ورسوله وبالبعث والنشور، وجاء البيان مهيبا رهيبا: ولو تعاين يا من تتأتى منه المعاينة حين يشتد الهول على الكافرين في يوم عسير فيشتد فزعهم إذا ألقوا من النار مكانا ضيقا مقرنين ومكبلين بالسلاسل والأصفاد، فلا يفوتون الواحد القهار، إذ تعرفهم النار وخزنتها بسيماهم) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٤٨ فالنار منهم قريبة لأن الله تعالى محيط بهم لا يعزبون عنه، وعندها يقرون بالإيمان لكن بعد فوات الأوان، فكيف يصلون إلى الدخول فيه ويناوشونه ويناولونه وقد انقضت دار العمل) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (١٤٩، وكيف يقبل منهم وقد قضوا حياتهم الدنيا جاحدين، بل مفترين، ويرجمون بالغيب، وظن السوء، ويرمون بالبهتان كالذي يرجم من بعيد فلا يصيب، يقولون: {لا تأتينا الساعة}، ويقولون: {وما نحن بمعذبين} ويقولون: {ما هذا إلا إفك مفترى} {ما هاذا إلا سحر مبين}، وحرموا رغائبهم فلا يصل إليهم ما لهم الذي كان لهم في الدنيا ولا يصلون إليه ولا إلى ما متعوا به من جاه، كما يحال بينهم وبين ما يتمنون من الرجوع إلى الدنيا للتوبة والاهتداء والاستقامة، كما أخبر الله العليم عنهم بقوله الحكيم:) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٥٠ ولكن هيهات فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، كما يفعل الحكم العدل بكل من سبقوهم ومن على شاكلتهم من أهل الجحود والفتون:) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٥١، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، فقد عاشوا في شك أوقعهم في الحيرة وظنوا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (١٥٢ بل يشهد الله العليم الخبير أنهم بعد معاينتهم العذاب لو رجعوا إلى دار التكليف لظلوا في طغيانهم يعمهون، يقول الحق جل علاه:) ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٥٣.

وبعد: فاليقين بيوم الجزاء موصول بخلق الأرض والسماء) وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت. . (١٥٤ والتصديق بالله تعالى ورسله ورسالاته، وناره وجناته، إذا لم يكن جازما راسخا لم ينفع أصحابه (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (١٥٥ ومشيئة العليم الحكيم أن يبتلي العباد ليظهر أهل الزيغ من أهل الإيمان {. لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ}.

٥٤ - (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

}ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ٥١ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ٥٢ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ٥٣ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب ٥٤{

ثبيت لليقين بالآخرة، وتحذير من سوء المصير، وإنذار للمكذبين بالله ورسوله وبالبعث والنشور، وجاء البيان مهيبا رهيبا: ولو تعاين يا من

تتأتى منه المعاينة حين يشتد الهول على الكافرين في يوم عسير فيشتد فزعهم إذا ألقوا من النار مكانا ضيقا مقرنين ومكبلين بالسلاسل والأصفاد، فلا يفوتون الواحد القهار، إذ تعرفهم النار وخزنتها بسيماهم) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٥٦ فالنار منهم قريبة لأن الله تعالى محيط بهم لا يعزبون عنه، وعندها يقرون بالإيمان لكن بعد فوات الأوان، فكيف يصلون إلى الدخول فيه ويناوشونه ويناولونه وقد انقضت دار العمل) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (١٥٧، وكيف يقبل منهم وقد قضوا حياتهم الدنيا جاحدين، بل مفترين، ويرجمون بالغيب، وظن السوء، ويرمون بالبهتان كالذي يرجم من بعيد فلا يصيب، يقولون: {لا تأتينا الساعة}، ويقولون: {وما نحن بمعذبين} ويقولون: {ما هذا إلا إفك مفترى} {ما هاذا إلا سحر مبين}، وحرموا رغائبهم فلا يصل إليهم ما لهم الذي كان لهم في الدنيا ولا يصلون إليه ولا إلى ما متعوا به من جاه، كما يحال بينهم وبين ما يتمنون من الرجوع إلى الدنيا للتوبة والاهتداء والاستقامة، كما أخبر الله العليم عنهم بقوله الحكيم:) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٥٨ ولكن هيهات فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، كما يفعل الحكم العدل بكل من سبقوهم ومن على شاكلتهم من أهل الجحود والفتون:) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٥٩، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، فقد عاشوا في شك أوقعهم في الحيرة وظنوا أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (١٦٠ بل يشهد الله العليم الخبير أنهم بعد معاينتهم العذاب لو رجعوا إلى دار التكليف لظلوا في طغيانهم يعمهون، يقول الحق جل علاه:) ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١٦١.

وبعد: فاليقين بيوم الجزاء موصول بخلق الأرض والسماء) وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت. . (١٦٢ والتصديق بالله تعالى ورسله ورسالاته، وناره وجناته، إذا لم يكن جازما راسخا لم ينفع أصحابه (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (١٦٣ ومشيئة العليم الحكيم أن يبتلي العباد ليظهر أهل الزيغ من أهل الإيمان {. . لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ}.

٣٥ سورة فاطر:

سورة فاطر:
سورة فاطر مكية
وآياتها خمس وأربعون
كلماتها ٧٧٧ - حروفها ٣١٣٠.

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{فاطر} منشئ وموجد ومبدع.

{أولي} ذوي، وأصحاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ١}

الله تعالى المعبود بحق هو دون سواه المستحق للشكر على إنعامه، والحمد لجزيل فضله ورفيع مقامه، فهو- تبارك اسمه- شق السماوات

والأرض وابتدأهما، وأوجدهما على غير مثال سبق، وهو خالق الملائكة يرسل من شاء منهم إلى من يريد- سبحانه- من عباده يبلغون وحيه وينفذون أمره، ومن هؤلاء الملائكة الكرام ملائكة ذوو جناحين، منهم ذوو ثلاثة أجنحة، ومنهم ذوو أربعة أجنحة، ومنهم أصحاب أجنحة أكثر- {يزيد في الخلق ما يشاء} وذلك زيادته تبارك وتعالى في خلق هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء، ونقصانه عن الآخر ما أحب، وكذلك في جميع خلقه، يزيد ما يشاء في خلق ما يشاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر، وله القدرة والسلطان، {إن الله على كل شيء قدير} يقول: إن الله تعالى ذكره قدير على زيادة ما شاء من ذلك فيما شاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده سبحانه وتعالى- ١.

مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن في معنى قول المولى جل وعز: {يزيد في الخلق ما يشاء} والظاهر أنه عام يتناول كل زيادة في كل أمر يعتبر في الصورة كحسن الوجه والخط ونحوهما، أو في المعنى كحصانة العقل، وجزالة الرأي، وسماحة النفس، وذلاقة اللسان، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة. اه

٢ - (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{يفتح} يرسل.

{العزيز} الغالب على كل ما يشاء، المنيع جنابه، الذي لا نظير له.

{الحكيم} بالغ الحكمة، كل فعله موافق للحق والصواب.

{ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ٢}

الخالق المنشئ البارئ المصور، هو المالك لكل الخلق والمدبر أمر الكون، وهو الرب الذي يعطي ويمنع، ويقدر وييسر، وهو غالب على كل ما يشاء، لا يغلب على شيء أراده، فلا ند له ولا ضد، وكل فعله موافق للحكمة والصواب والحق.

[واختلاف الضميرين ٢ لما أن مرجع الأول مبين بالرحمة، ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها، وفي ذلك مع تقديم فتح الرحمة إشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عز وجل كما ورد في الحديث الصحيح] ٣.

وقريب من معنى هذه الآية قول العلي الكبير سبحانه:) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله. (٤ وقوله جل وعز:، (. . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (٥) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (٦، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: " سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شيء بعد اللهم أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ".

ومما أورد صاحب جامع البيان: وقوله: {وهو العزيز الحكيم} يقول: وهو العزيز في نقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة. اه.

٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

{فأنى} فكيف أو إلى أين أو: من أي وجه؟!

{تؤفكون} تصرفون.

{يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ٣}

نداء إلى الناس أن يذكروا النعمة فيشكروا المنعم، وما دام هو المتفرد بالإيجاد والتدبير، والمنع والمنح والعطاء، فليفرد بالتقديس والعباد والدعاء، وما ينبغي لعاقل أن ينصرف إلى عبادة ما يخلق من شركاء.

-ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفى سبحانه أن يكون في الوجود شيء غيره سبحانه يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق، وتكذيب الحكم، فقال عز وجل: {هل من خالق غير الله} -

٠٧
و {غير} مرفوعة على أنها نعت على موضع ما قبلها، لأن المعنى: هل خالق غير الله يرزقكم؟! وتكون {من} لتوكيد المعنى، أو تكون {هل} بمعنى: ما، فيصير التقدير: ما من خالق إلا الله، ما خالق غير الله. {يرزقكم من السماء والأرض} يأتينا رزقه سبحانه من أي صوب شاء، من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب، من فوقنا ومن تحت أرجلنا، [{يرزقكم من السماء} أي المطر، {والأرض} أي النبات.] ٠٨.

٤ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

{وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور ٤}

تثبيت لفؤاد النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم لكيلا يأسى على ضلال المشركين، وغواية المبطلين الكافرين، فهكذا مضى مثل الأولين:) ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله. . (٩ - وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم، فمحل بهم العقوبة إن لم ينيبوا إلى طاعتنا في اتباعك والإقرار بنبوتك، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة، نظير ما أحللنا بنظرائهم من الأمم المكذبة رسلها قبلك، ومنجيك وأتباعك من ذلك، سنتنا بمن قبلك في رسلنا وأوليائنا - ٠١٠.

٥ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

{يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ٥ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ٦ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ٧}

ختمت الآية السابقة بأن مرد الأمور ومصيرها، ونهايتها وعاقبتها لله الذي لا ينبغي أن يعبد سواه، ثم جاءت هذه الآية تنادي الناس إلى اليقين بهذا المآل، وأن ما وعد ربنا كائن لا محالة،). . له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك. . (١١ وعنده ثواب العاجلة والآجلة، فلا تخدعنكم المعيشة الدنيئة، ولا تلهينكم ولا تطغينكم الزهرة الفانية، ولا يفتنكم الشيطان عن الإذعان للملك الديان، إن إبليس لكم أنكى عدو معاند، يسعى في خبالكم، ومن قبل أقسم ليهلكنكم:). . لأحتنكن ذريته إلا قليلا (١٢ لم يكفه إخراج أبينا آدم عليه السلام من الجنة لكنه حلف ليقعدن لنا كل مرصد:) قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (٠١٣) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين (١٤) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٥. {فاتخذوه عدوا} بمخالفته، والحذر من وسوسته، ومن قبل ذلك عوذوا بالله من شره، واستديموا العبودية لله تعالى واستكثروا من ذكره، فإن هؤلاء- بعصمة المولى القدير- مصروف عنهم كيد إبليس،) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٦، أولئك:) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٧، فلن ينالوا باتباعه إلا الهوان والخسران، وحر السعير وحريق النيران، وهكذا مصير المجرمين والكافرين، أما الصالحون المؤمنون فإن التواب الرحيم يتوب عليهم، ويتجاوز عن سيآتهم، ويستر ما كان زللهم، ويتقبل عنهم صالح عملهم، ويزيدهم في الأجر إحسانا فوق إحسانهم.

يأيها الناس إن وعد الله إياكم على إصراركم على الكفر به وتكذيب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك حق، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلول عقوبته بكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله.

{فلا تغرنكم الحياة الدنيا} يقول: فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا. . .

٦ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

{إن الشيطان} الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم {لكم عدو فاتخذوه عدوا}. . . فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم. . . {إنما يدعو حزبه} يعني شيعته ومن أطاعه إلى طاعته والقبول منه. . . ليسوقهم إلى النار فهذه عداوته- ١٨

قال ابن السماك: ياعجبا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته، اه
٧ - (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ٥ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ٦ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ٧}
ختمت الآية السابقة بأن مرد الأمور ومصيرها، ونهايتها وعاقبتها لله الذي لا ينبغي أن يعبد سواه، ثم جاءت هذه الآية تنادي الناس إلى اليقين بهذا المآل، وأن ما وعد ربنا كائن لا محالة،). . له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك. . (١٩ وعنده ثواب العاجلة والآجلة، فلا تخدعنكم المعيشة الدنيئة، ولا تلهينكم ولا تطغينكم الزهرة الفانية، ولا يفتنكم الشيطان عن الإذعان للملك الديان، إن إبليس لكم أنكى عدو معاند، يسعى في خبالكم، ومن قبل أقسم ليهلكنكم:). . لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٢٠ لم يكفه إخراج أبينا آدم عليه السلام من الجنة لكنه حلف ليقعدن لنا كل مرصد:) قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (٢١.) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين (٢٢) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٢٣. {فاتخذوه عدوا} بمخالفته، والحذر من وسوسته، ومن قبل ذلك عوذوا بالله من شره، واستديموا العبودية لله تعالى واستكثروا من ذكره، فإن هؤلاء- بعصمة المولى القدير- مصروف عنهم كيد إبليس،) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (٢٤، أولئك:) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (٢٥، فلن ينالوا باتباعه إلا الهوان والخسران، وحر السعير وحريق النيران، وهكذا مصير المجرمين والكافرين، أما الصالحون المؤمنون فإن التواب الرحيم يتوب عليهم، ويتجاوز عن سيآتهم، ويستر ما كان زللهم، ويتقبل عنهم صالح عملهم، ويزيدهم في الأجر إحسانا فوق إحسانهم.
يأيها الناس إن وعد الله إياكم على إصراركم على الكفر به وتكذيب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك حق، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلول عقوبته بكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله.
{فلا تغرنكم الحياة الدنيا} يقول: فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا. . .
٨ - (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)
{أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ٨}
ربما يكون الاستفهام هنا بمعنى النفي فكأن التقدير: ليس من زين له عمله القبيح فرآه حسنا مثل من سرته حسنته وساءته سيئته، ورأى الحق حقا والباطل باطلا! لا يستويان! نقل عن الكسائي وغيره: {من} في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف، والذي يدل عليه قوله تعالى: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} أي لا تهلك نفسك وتقتلها تحسرا على ضلالهم، فكأن المعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهبت نفسك عليهم حسرات، ومما نقل عن النحاس: والمعنى أن الله عز وجل نهى نبيه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، وهم- كما قال الكلبي-: كفار قريش، ويكون {سوء عمله} الشرك.
مما أورد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره: أفمن حسن له الشيطان أعماله السيئة من معاصي الله والكفر به وعبادة مادونه من الآلهة والأوثان {فرآه حسنا} فحسب سيء ذلك حسنا، وظن أن قبحه جميل، لتزيين الشيطان ذلك له، ذهبت نفسك عليهم حسرات. وحذف من الكلام ذهبت نفسك عليهم حسرات اكتفاء بدلالة قوله: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات}

منه، قوله: {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} يقول: يحول من يشاء عن الإيمان به واتباعك وتصديقك فيضله عن الرشاد إلى الحق في ذلك، {ويهدي من يشاء} يقول: ويوفق من يشاء للإيمان به واتباعك والقبول منك فتهديه إلى سبيل الرشاد. . . {إن الله عليم بما يصنعون}. . إن الله يا محمد ذو علم بما يصنع هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وهو محصيه عليهم ومجازيهم به جزاءهم. اه

٩ - (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)

{والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ٩}

-أكد كونه فاعلا مختارا، قادرا قهارا، مبدئا معيدا- ٢٦ الله ذو الجلال المستحق للعبادة دون من سواه هو الذي يسير الرياح ويسخرها ويوجهها حيث يشاء فتحمل سحابا يحمل الغيث والسقيا، ينزل الله تعالى مطره ورحمته على البلد المجدب الأهل، الممحل الأرض، الداثر الذي لا نبت فيه ولا زرع، فيحيي بغيث ذلك السحاب الأرض التي أراد، فإذا هي بعد همودها تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، كذلك الإحياء بعد الإقواء ينشر الله تعالى الموتى بعد الفناء،) ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٢٧ (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) ٢٨،) ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (٢٩ [وصيغة المضارع في قوله تعالى: {فتثير سحابا} لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة] ٣٠.

١٠ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

{يمكرون السيآت} يحتالون في خبث، ويقترفون السوء بدهاء وخداع.
{يبور} يفسد ويهلك، أو يكسد.
{العزة} العلو والمنعة.

{من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيآت لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ١٠}

نسب إلى قتادة: الآية في الكافرين كانوا يتعززون بالأصنام، كما قال تعالى:) واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٣١، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين. كما قال سبحانه:) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة. . (٣٢. اه

وهكذا فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز. . .) وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٣٣) ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. .) ٣٤ وطريق تحصيل العزة وسلوك السبيل إلى نيلها هو الطاعة لله ولرسوله قولا وعملا.

-ثم إن الكفار كأنهم قالوا: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، فإن البعد من الملك ذلة فقال: {إليه يصعد} أي إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم، ويقبل الطيب. . وذلك آية العزة، وأما هذه الأصنام فلا يتبين عندها الذليل من العزيز، إذ لا حياة لها ولا شعور، وهكذا العمل الصالح لا تراه هذه الأصنام، فلا يمكن لها مجازاة الأنام، وفاعل قوله: {يرفعه} إن كان هو الله فظاهر، وإن كان الكلم، أعني قوله: لا إله إلا الله فمعناه أنه لا يقبل عمل إلا من موحد، وإن كان هو العمل فالمعنى: أن الكلم وهو كل كلام فيه ذكر أو رضاه يريد الصعود إلى الله إلا أنه لا يستطيع الصعود ولا يقع القبول إلا إذا كان مقرونا بالعمل الصالح. . . . وحين بين حال العمل الصالح ذكر أن المكرات السيئات بائرة كاسدة لا حقيقة لها، ولعله أشار بها إلى مكرات قريش المذكورات في قوله:) وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك. . (٣٥ جمع الله مكراتهم فقلبها عليهم حين أوقعهم في قليب بدر- ٣٦.

١١ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

{خلقكم من تراب} بدأ خلق أبيكم آدم من تراب.
{نطفة} الماء الدافق الذي يخرج عند قضاء الشهوة.
أزواجا} أصنافا ذكرانا وإناثا.
{تضع} تلد.
{كتاب} اللوح المحفوظ.
{والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ١١}
في الآية التاسعة: {والله الذي أرسل الرياح} بين الله الحكيم برهانا آفاقيا في آفاق الكون، وفي هذه الآية المباركة يعلمنا برهانا من أنفسنا نتأمله فنرى فيه آية من آيات قدرة ربنا وحكمته، ولطفه وعلمه ونافذ إرادته، فأبونا آدم عليه السلام أصل البشرية خلقه مولانا البارئ المصور من تراب، وخلق أبينا أبي الإنسانية سبب لخلق الناس جميعا، ثم جعل سبحانه نسل هذا الجنس الآدمي من نطفة، وخلق بني البشر أصنافا، ذكرانا وإناثا، وهيأهم ومنّ عليهم أن يتزوج رجالهم من نسائهم، فهي منة من ربنا وعلامة على بديع صنعه، وعزيز تدبيره، يقول الحق جل علاه:) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣٧، ويجعل من هذا التزاوج- إذا أراد – ذرية وعقبا ونسلا:). . يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما. . (٣٨، وما يبدأ حبل ولا يكون حمل المرأة إلا إذا كان قد سبق هذا في علم الله، وما يزاد في عمر معمر ولا ينتقص من عمر إلا كما سبق به مراد ربنا، وسطر في اللوح المحفوظ، وذلك على القوي القدير هين يسير، يقول مولانا العليم الخبير:) يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر. . (٣٩، والذي شهدت الدلائل وقام البرهان على تفرده بالخلق والإيجاد، وليس بعسير عليه إحياء الناس ونشرهم يوم التناد.
نقل عن سعيد بن جبير ما حاصله: ما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذي يعمره، فالهاء على هذا للمعمر، وعنه أيضا: يكتب عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب. . ذهب يوم، ذهب يومان. . اه.
ومما أورد القرطبي: وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو كتاب. وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام: " من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ٤٠ فليصل رحمه " أي أنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة. . . والكناية على هذا ترجع إلى العمر. اه
ومما نقل ابن جرير الطبري: عن ابن عباس. . يقول: ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر. . . وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر. . كل ذلك في كتاب عنده. . ثم أورد رأيا لآخرين، ثم قال: وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب التأويل الأول. . اه
١٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
{عذب} طيب.
{فرات} كاسر العطش مزيله.
{أجاج} شديد الملوحة والمرارة.
{لحما طريا} سمكا.
{حلية تلبسونها} لؤلؤا ومرجانا.
{الفلك} السفن.
{حواجز} جاريات تشق صفحة مائه.
{لتبتغوا} لتطلبوا.

{من فضله} مما يتفضل عليكم به من رزق.

{وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ١٢}

وحجة بالغة على بديع صنع ربنا، وعظيم فيضه، فما يعتدل البحران فيستويان، فهل النهر الذي طاب ماؤه وعذب، يروي عطش الإنسان ويزيله، ويحيا به النبات والحيوان، يستوي مع البحر الذي ملح ماؤه واشتدت مرارته؟ لا يستويان! فمن الذي أودع هذا عذوبته، وأعطى ذلك ملوحته؟ إنه الله جل علاه! ومع التضاد في مذاقهما، والتنافي في أثرهما، فمن كليهما نأخذ السمك الطري، ذا اللحم الشهي، ومن العذب والملح نستخرج اللؤلؤ والمرجان، وهما من أنفس الحلي، تلبس ويزدان بها، وعلى صفحة النهر وثبج البحر تحمل السفن، وتجري وتشق ماءهما، لنركبها فنطلب علما، أو نصل رحما، أو نهزم عدوا، أو نلتمس معايش وعملا، وتجارة ورزقا، ورجاء أن يعقبنا هذا إقرارا بنعمة ربنا وحمدا، وعرفانا بفضله وشكرا.

[وأفرد ضمير الخطاب- {وترى} - مع جمعه فيما سبق-: {تأكلون} - وما لحق-: {لتبتغوا} - لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحر فقط. . . {ولعلكم تشكرون} تعرفون حقوقه تعالى فتقومون بطاعته عز وجل، وتوحيده سبحانه، {لعل} للتعليل- على ما عليه جمع من الأجلة- وقال كثير: هي للترجي، ولما كان محالا عليه تعالى كان المراد اقتضاء ما ذكر من النعم للشكر حتى كأن كل أحد يترجاه من المنعم عليه بها، فهو تمثيل يئول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطبين] ٤١.

١٣ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

{يولج} يدخل.

{سخر} ذلل وسير، وطوع.

{لأجل مسمى} لوقت آت قدره الله تعالى.

{قطمير} لفافة نواة التمرة أو الرطبة.

{يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ١٣ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ١٤}

دليل على تفرد ربنا بالجلال، وقدرته على التدبير وتصريف الأحوال، يطالعنا هذا البرهان صباح مساء، فمولانا العلي الأعلى يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار فتذهبه وتغطيه، وبهذا أقسم سبحانه:) والليل إذا يغشى (٤٢، ويدخل ضوء النهار في الليل الساجي فيبدد ظلامه، وتبارك العزيز المقتدر:) وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب. . (٤٣: وذلل- عز وجل- وسخر وطوع وسير الشمس والقمر كل يسبح في فلكه، ويمضي على سننه ونسقه، يتعاقبان على مدى الأيام والأعوام، حتى تتجلى الواقعة للأنام، ويجمعهما ويذهبهما الملك العلام، هذا الذي علا مقامه، وعم فيضه وعظم إنعامه، هو مالك الكون كله والمهيمن عليه، ومليكه إيجادا وسلطانا وتدبيرا، {والذين تدعون من دونه} توجه الخطاب للمشركين،، الذين يدعون مع الله آلهة أخرى، وأزهق الحق سبحانه باطلهم بحجته البالغة {ما يملكون من قطمير} فما خلقوا خلقا، ولا ملكوا شيئا ولو كان تافها مثل اللفافة الرقيقة التي بين النواة والتمرة، أو بين الرطبة ونواتها، {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم} فإن الأصنام التي يعبدونها أحجار لا حياة بها، وإن عبدوا كوكبا أو نارا أو حيوانا فهيهات ومحال أن تستمع لمن ينعق بها، وإن عبدوا جنا أو ملكا أو نبيا فليس من هؤلاء من يملك لنفسه ضرا أو نفعا فضلا عن أن يهب شيئا من ذلك لغيره، وصدق الله العظيم: {ولو سمعوا ما استجابوا لكم} وهم براء ممن ألّهوهم واتخذوهم من دون الله أربابا:) ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٤٤) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما

بورا. فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا. . (٤٥) وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم. . (٤٦). . وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. . (٤٧، ولا يعلمك بعواقب الأمور ومآلها، إلا الخبير بكل الأشياء ومصيرها، وهو الله العظيم، مبدئ الخلائق ومالك أولاها وآخرتها- لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله في علمه- ٤٨.

١٤ - (إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

{ينبئك} يعلمك حقيقة الأمر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٥ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

{الحميد} المستحق للحمد.

{يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ١٥ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ١٦ وما ذلك على الله بعزيز ١٧}

{بعزيز} بشديد، أو بعسير، أو بممتنع.

ينادي ربنا الأناسي ويذكرهم أنهم أصحاب الاحتياج إلى المولى سبحانه:) وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه. . (٤٩) وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما. . (٥٠). . ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٥١، المخلوقات كلها مفتقرة إليه، متذللة بين يديه، لكن الإنسان أشدها إليه حاجة، أو لعله أكثرها جدلا وظلما ولجاجة [هم المحتجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عز وجل: {والله هو الغني الحميد} أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يقوله ويفعله، ويقدره ويشرعه] ٥٢.

مما جاء في الجامع لأحكام القرآن: وليس كل غني نافعا بغناه، إلا إذا كان الغني جوادا منعما، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم، واستحق عليهم الحمد- ذكر {الحميد} ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق إنعامه عليهم أن يحمدوه. اهـ ومما قال الطبري: {الحميد} يعني المحمود على نعمه، فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فلله الحمد والشكر بكل حال، {إن يشأ يذهبكم أيها الناس} يقول تعالى ذكره: إن يشأ يهلككم أيها الناس ربكم، لأنه أنشأكم من غير ما حاجة به إليكم، {ويأت بخلق جديد} يقول: ويأت بخلق سواكم، يطيعونه، ويأتمرون لأمره، وينتهون عما نهاهم عنه. . . وما ذهابكم والإتيان بخلق سواكم على الله بشديد. . . فاتقوا الله وأطيعوه قبل أن يفعل بكم ذلك. اهـ بتصرف.

وفي الكلام محذوف تقديره: إن يشأ أن يذهبكم أيها الناس يذهبكم.

١٦ - (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{الحميد} المستحق للحمد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٧ - (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{الحميد} المستحق للحمد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٨ - (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ

وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)
{لا تزر} لا تحمل وزر وإثم.
{وازرة} نفس خاطئة.
{وزر} جريمة وذنب.
{مثقلة} ثقلت أوزارها.
{تنذر} تخوف وتحذر.
{يخشون} يخافون، ويهابون مقام العلي الأعلى.
{أقاموا الصلاة} جعلوها منارا مقصودا، وأدوها تامة في مواقيتها وبآدابها.
{تزكى} تطهر.
{المصير} المرجع.

{ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ١٨ وما يستوي الأعمى والبصير ١٩ ولا الظلمات ولا النور ٢٠ ولا الظل ولا الحرور ٢١ وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ٢٢ إن أنت إلا نذير ٢٣ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ٢٤}

كثير من الآيات منذ مفتتح السورة الكريمة قررت البعث والنشور، ثم أقامت على إتيان هذا اليوم ووقوعه ومجيئه الحجة والدليل والبرهان، وجاءت الآية الثانية عشرة {ولا تزر وازرة وزر أخرى} لتبين الوزن الحق، والجزاء العدل في يوم الصاخة والطامة الكبرى:) يوم يفر المرء من أخيه. وأمه ٥٣ وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٥٤، فلا تحمل نفس إلا وزرها)٠ . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق. . (٥٥، وإن تستغث نفس أثقلتها ذنوبها بمن تؤمل منه الغياث ليحمل عنها بعض ذنوبها التي حملتها لا يحمل من خطاياها من شيء مهما كان من ذوي قرباها، من أب أو أخ أو ابن أو أم، بل يريد كل فاجر أن يفتدي نفسه ولو بأقرب الناس إليه فلا تقبل منه الفدية)٠ . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا. . (٥٦ - تحمل كل نفس وزرها ولا منافاة بين هذا وقوله تعالى في سورة العنكبوت: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم. . (٥٧؛ فإنه من الضالين المضلين، وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم، وكل ذلك آثامهم، ليس فيها شيء من آثام غيرهم، ولا ينافيه قوله سبحانه: (. . . مع أثقالهم. . .) لأن المراد بأثقالهم ما كان بمباشرتهم، وبما معها: ما كان بسوقهم وتسببهم، فهو للمضلين من وجه، وللآخرين من آخر- ٥٨.

{ونصب {ذا قربى} على تمام {كان} لأن معنى الكلام: ولو كان الذي تسأله أن يحمل عنها ذنوبها ذا قربى لها، وأنث {مثقلة} لأنه ذهب بالكلام إلى النفس. كأنه قيل: وإن تدع نفس مثقلة من الذنوب إلى حمل ذنوبها، وإنما قيل كذلك لأن النفس تؤدى عن الذكر والأنثى، كما قيل:) كل نفس ذائقة الموت. . (٥٩ يعني بذلك كل ذكر وأنثى] ٦٠.

{إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب} إنما ينفع إنذارك من خافوا مقام ربهم من غير معاينة منهم، هابوا جلاله، وهم لم يروه تعالى وتقدس، أو يخافون عقاب الله في الآخرة دون أن يشاهدوه {لكن لإيمانهم بما أتيتهم به وتصديقهم لك فيما أنبأتهم عن الله، فهؤلاء ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون] ٦١، {وأقاموا الصلاة} وجعلوا الصلاة منارا مقصودا، وأدوها تامة في مواقيتها، وبآدابها، {ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه} ومن تطهر عن دنس الشرك والمعاصي فإن ثواب ذلك راجع إليه هو، فكما أن كل نفس خاطئة تحمل جرمها، ووزرها عائد عليها، فكذلك كل مهتد فإنما يهتدي لنفسه.

ومع قرب معنى الخشية من معنى الخوف والإشفاق نلمح أكثر الآيات القرآنية تورد [الخشية] حين توردها على أنها المهابة والإجلال لمقام الله العلي الأعلى، بينما يذكر الإشفاق والخوف مقرونا بالحذر من البلاء، ومن ذلك قول الله الحكيم:)٠ . ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (٦٢ وقوله عز شأنه:) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٦٣ وقوله سبحانه:)٠ . وخشي الرحمن بالغيب. .

(٦٤) إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير (٦٥ بينما تأتي آيات الخوف مقرونة بالفزع من الأهوال- غالبا- ومن ذلك ما ختمت به سورة) ق (:). . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وما جاء في سورة الرعد:). . ويخافون سوء الحساب) وما جاء في سورة غافر:) وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٦٦) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٦٧، وكذا ما جاء في سورة) هل أتى على الإنسان (: (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا (٦٨، وما حكاه القرآن عن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٦٩.

عن قتادة: قوله: {ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه} أي من يعمل صالحا فإنما يعمله لنفسه، وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس مؤمنكم وكافركم وبركم وفاجركم، وهو مجاز جميعكم بما قدم من خير أو شر.

ولا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات مع النور، ولا يستوي ظل وحرور، ولا يستوي الحي والميت، فلا نسوي بين مسلم ومجرم:) أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون (٧٠) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار (٧١) أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون (٧٢) قل لا يستوي الخبيث والطيب. . (٧٣، مما قال قتادة: هذه كلها أمثال! أي كما لا تستوي هذه الأشياء كلها كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. اهـ

{ومايستوي الأحياء ولا الأموات} فبالإيمان تحيا القلوب، وبدونه تظل ميتة، ولقد بين القرآن الحكيم ما بين حاليهما من تخالف، فقال الله جل وعز:) أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. . (٧٤.

[كما لا يقدر- الرسول- أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه. . وقوله: {إن أنت إلا نذير} يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم، ولم يرسلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به فإن ذلك بيد الله لا بيد غيره من الناس فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك] ٧٥.

{إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا} شهد الله- وكفى به شهيدا- أن محمدا مبعوثه بالبر والرشد، واليسر والخير، والهدى ودين الحق، ليبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وينذر الجاحدين والمنكرين والمكذبين خزيا وتخسيرا، وسلاسل في الآخرة وأغلالا وسعيرا، {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} وما من أمة سبقت إلا مضى فيها وسلف نذير من الله لئلا يكون للناس على الله حجة، فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث على سنن إخوانه من النبيين الأولين) قل ما كنت بدعا من الرسل.) ٧٦، وقال تعالى:) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة (٧٧. . .

١٩ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٠ - (وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢١ - (وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٣ - (إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٤ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)
{بشيرا} تعد المتقين بالنعيم.
{{ونذيرا} توعد المجرمين بالعذاب الأليم.
{وإن من أمة} ما من أمة وجماعة.
{خلا فيها} مضى فيها، وسلف.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٥ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)
{بالبينات} بالآيات الواضحات، والعلامات والمعجزات.
{وبالزبر} الصحف المنزلة المكتوبة.
{وبالكتاب المنير} وبطائفة من الكتاب السماوي المخرج من الظلمات إلى النور /خ*
{وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ٢٥ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ٢٦{
.
يسلي الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتوعد الكافرين الصادين عن دينه أن يصيبهم القوي القدير بما أصاب به الجاحدين ممن سبقوهم ويحذرهم أن يحل بهم مثل ما حل بأسلافهم، فيا أيها الداعي إلينا: إن كذبك مكذب فلا تحزن، فما أنت بأول من صد عنه، وجحد بما جاءه من الحق، والويل لمن أعرض عن الهدى بعد أن تبين له). . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٧٨،) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (٧٩، ولقد جاء المرسلون من قبلك إلى أقوامهم بالآيات الواضحات، والعلامات على صدقهم والمعجزات، والصحف السماوية المكتوبة، وبطائفة من الكتاب المنزل، المخرج من الظلمات إلى النور، كالتوراة والإنجيل- فهما الكتابان اللذان أنزلا قبل نزول القرآن، - {جاءتهم رسلهم} في موضع الحال- على ما قال أبو البقاء- إما بدون تقدير [قد] أو بتقديرها، أي: كذب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم {بالبينات} أي بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدقهم فيما يدعون {بالزبر} كصحف إبراهيم عليه السلام {وبالكتاب المنير}. . على إرادة التفصيل، يعني أن بعضهم جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا، لا على إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب- وعدد الرسل أكثر بكثير من عدد الكتب كما هو معروف-. . ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد والعطف لتغاير العنوانين، لكن فيه بعد- ٨٠.
{ثم أخذت الذين كفروا} فلما كذب هؤلاء الذين عتوا ممن قبلكم جازيتهم وعاقبتهم – وضع الظاهر موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة، والإشعار بعلة الأخذ- ٨١. {فكيف كان نكير} الاستفهام يراد به التهويل [فانظر يا محمد كيف كان تغييري بهم، وحلول عقوبتي بهم.] ٨٢ لقد كان إنكاري عليهم عذابا بئيسا، ونكالا وبيلا.
٢٦ - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)
{أخذت} عاقبت وجازيت.
{نكير} إنكاري عليهم وتغييري ما بهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٥ إظهار
٢٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)
{جدد} طرائف{
{غرابيب} مبعدة في السواد.
{ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ٢٧ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ٢٨{

تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها. . والاستفهام للتقرير والرؤية قلبية. . والخطاب عام. - ٨٣.
[لما بين دلائل الوحدانية بطريق الأخبار، ذكر دليل آخر بطريق الاستخبار، لأن الشيء إذا كان خفيا ولا يراه من بحضرتك كان معذورا. أما إذا كان بارزا مكشوفا فإنك تقول: أما تراه؟!] ٨٤.
إنك تعلم أن الله المعبود بحق – دون سواه- هو الذي أنزل من جهة السماء ماء الغيث والسقيا والمطر، فجعله سببا في إنبات الزرع والشجر، ومنها نرزق القوت والثمر، ومع أن المطر النازل واحد فإن الثمرات التي سقيت به لا تكون متحدة بل مختلفة. {مختلف ألوانها} أي: متفاوتة الأنواع من تمر إلى عنب إلى تين ورمان، إلى غير ذلك مما لا نكاد نحصيه- وهذا كما يقال: فلان أتى بألوان من الأحاديث، قدم كذا لونا من الطعام. . . ويجوز أن يراد اختلاف كل نوع باختلاف أفراده. . . عن قتادة أنه حمل الألوان على معناها المعروف، واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها. وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وهو الأوفق لما في قوله تعالى: {ومن الجبال جدد بيض وحمر} - ٨٥.
نقل عن بعض المفسرين: هنا محذوف تقديره: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر مختلف ألوانها في البياض والحمرة، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون أدنى من ذلك، وكذلك الحمرة. اه
ومعلوم أن الجدد هي الطرائق والخطط، وإنك حين تعاين بعض الجبال تجد الواحد منها قد احتوى الحجارة البيضاء تلاحقها الصخور الحمراء وتختلف درجات ألوانها، بل وربما طبيعة تكوينها، وما استودعت من عناصر ومعادن تتفاوت في نفاستها وخواصها، فسبحان من برأ وذرأ! {وغرابيب سود} وجدد ممعنة في السواد، مما قال أبو عبيدة:. . ففي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ومن الجبال سود غرابيب، وقال غيره: صفة لمحذوف أقيم مقامه بعد حذفه، وقوله تعالى: {سود} بدل منه أو عطف بيان له، وهو مفسر للمحذوف، وفيه التفسير بعد الإبهام، ومزيد الاعتناء بوصف السواد حيث دل عليه من طريق الإضمار والإظهار، ويجوز أن يكون العطف على {جدد} على معنى: ومن الجبال ذو جدد مختلف اللون ومنها غرابيب متحدة اللون، وكأنه لما اعتنى بأمر السواد بإفادة أنه في غاية الشدة لم يذكر بعده الاختلاف بالشدة والضعف.
٢٨ - (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)
{ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك} بعد أن ساق القرآن البرهان بنعمة النبات وثمراته، وبهائه وسقياه، ثم بنعمة الجبال وبديع صنع صخرها وجدواه، بين لنا برهانا عقليا على إتقان صنع ربنا للإنسان والحيوان، واختلاف أنواع كل وأجناسه، وعظمة الصنع دليل على عظمة الصانع جل علاه، قال أبو بكر بن عياض: إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى [ما] مضمرة، مجازه: ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه، أي أبيض وأحمر وأسود اه
{كذلك} في محل نصب صفة لمصدر {مختلف} المؤكد، والتقدير: مختلف اختلافا كائنا كذلك، أي كاختلاف الثمرات والجبال، فهو من تمام الكلام قبله، والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء- ٨٦.
{إنما يخشى الله من عباده العلماء} هيبة الله العلي الأعلى وخوف غضبه ونقمته تكون على أكمل وجوهها في الذين يعبدون ربهم على علم بجلاله، وفضله وكماله. -وتقديم المفعول لأن المقصود بيان الخاشين، والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم. . .
{إن الله عزيز غفور} تعليل لوجوب الخشية، لأن العزة دالة على كمال القدرة على الانتقام، ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة- ٨٧ فالعزة توجب الخوف من أليم عقابه، والمغفرة توجب الطمع في نعيمه وثوابه.
٢٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)
{يتلون} يقرأون.
{تبور} تكسد وتهلك وتخسر.
{إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ٢٩ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ٣٠ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ٣١}
مع أفضلية أعمال القلب والعقل من اليقين والتصديق، والحب والرجاء والخوف، فإن أفعال الجوارح مما يعبد به الله سبحانه، ويبتغي

بأدائها رضاه، فمن الحتم المقضي- تفضلا من الله تعالى وكرما- أن من قرأ القرآن العزيز، وأتم صلاته وحافظ على أدائها معظما لها، وسعى يبتغي من رزق ربنا، وأنفق منه الواجب والمسنون، استخفى بصدقته، واستعلن بزكاته وسهم جهاده، أولئك لهم مع مولانا البر الرحيم تبايع رابح، وقرض يضاعف ولا يضيع، وهو سبحانه محقق رجاءهم، ومعظم مثوبتهم وجزاءهم على أعمالهم، ثم يفيض عليهم زيادة من لدنه فينعمون بالنظر إلى وجهه الكريم) وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة (٨٨ ويحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبدا) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم (٨٩.

إن ربنا واسع الرحمة كثير العفو، يحب الستر على من أساء ثم أناب واستغفر، {شكور} يشكر طاعات المطعين، فيتقبل منهم حتى اليسير، ويمنحهم عليه الثواب الجزيل، والأجر الكبير، وجاءت الآية الثالثة ها هنا {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق} ترسخ الإيمان بالكتاب العزيز، وتشهد أنه حق من الله الحق) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٩٠). . . ليزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون. . (٩١.

{مصدقا لما بين يديه} يوافق ما سبقه من كتب أنزلتها إلى رسل سبقوك زمانا، كالتوراة التي أنزلتها على موسى، والإنجيل الذي أنزلته على عيسى، وهو مؤيد ما فيها من حقيقة الإيمان، وأصول الأحكام، وإن زاد عليها في يسر التشريع، والحفظ دون نسخ ولا تبديل، إن المعبود بحق لذو خبرة بالغة بأحوال عباده وما يصلاهم، بصير بأعمالهم وبكل شيء، فلا تفوته الحكمة، وفي الآية مع هذا توكيد حجة الله على الكافرين، المكذبين بالكتاب الكريم، ووعيد على مكرهم في آيات ربهم، ولغوهم وصدهم عنها.

[قوله تعالى: {إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية} هذه آية القراء العاملين العالمين، الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق. . . {ويزيدهم من فضله} وقيل: الزيادة: الشفاعة في الآخرة. .] ٩٢.

مما يقول صاحب روح المعاني: {إن الذين يتلون كتاب الله} أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانا، كما يشعر به صيغة المضارع، ووقوعه صلة، واختلاف الفعلين. . . التالين:. . هم المؤمنون أي عامة وهو الأرجح، ويدخل الأصحاب دخولا أوليا، وقيل: معنى: {يتلون كتاب الله} يتبعونه فيعملون بما فيه، وكأنه جعل {يتلون} من تلاه إذا تبعه. . . . . . وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط، ومقام التمدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب.

وقيل جيء بـ {من} لذلك. . . . والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم. . . {ليوفيهم}. . . . لا مانع من جعلها لام العلة، كما هو الشائع الكثير ولا يظهر للعدول عنه وجه. . لأن صلة الموصول هنا علة وإيذان بتحقيق الحبر. . وإنما لم يذهب للعدول عنه وجه. . لأن صلة الموصول هنا علة وإيذان بتحقيق الحبر. . وإنما لم يذهب بعض الأجلة- إلى أن اللام للصيرورة – لأن هذه اللام لا توجد إلا فيما يترتب الثاني الذي هو مدخولها على الأول، ولا يكون مطلوبا، نحو قوله تعالى:) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. . (٩٣.

ومما جاء في تفسير غرائب القرآن. . .: {يرجون} - وهو خبر إن- إشارة إلى الإخلاص في العقائد و الأعمال، أي ينفقون من الأموال لا ليقال إنه كريم، أو لغرض آخر، بل لتجارة لا كساد فيها ولا بوار، وهي طلب مرضاة الله. . و {الكتاب} للجنس، ف {من} للتبعيض، أو: هو القرآن، و {من} للتبيين، أو: هو اللوح المحفوظ، و {من} للابتداء. . . {مصدقا} حال مؤكدة. . . {بصير} الذي يكون عالما بالبواطن والظواهر لم يمكن أن يكون في كلامه شوب باطل، وفيه: لم يختر محمدا للرسالة جزافا، ولا على سبيل الاتفاق، ولكنه أعلم حيث يجعل رسالته. اهـ

٣٠ - (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣١ - (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

{لما بين يديه} لما سبقه وتقدم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار
٣٢ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)
{أورثنا} أعطينا.
{الكتاب} القرآن.
{اصطفينا} اخترنا.
{ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ٣٢ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ٣٣ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ٣٤ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ٣٥}
تلقيت منا الكتاب الحق، ثم أعطينا أمتك هذا الميراث لأنا اخترناهم من بين خلقنا وعبيدنا، فمن هؤلاء من هو ظالم لنفسه ٩٤ بارتكاب المآثم، ومنهم من هو مقتصد، يعمل حينا، ويخالف حينا، ومنهم من هو مسارع في الطاعات كالذين وصفهم الكتاب الحكيم:) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٩٥، ذلك السبق وتلك المسارعة بتوفيق الله تعالى، وفي ذلك تمام النعمة، وأكبر الفيض) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (٩٦.
{ثم أورثنا الكتاب} أي القرآن- كما عليه الجمهور- والعطف قيل على {الذي أوحينا}. . أي ثم أعطيناه من غير كد وتعب في طلبه {الذين ٩٧ اصطفينا من عبادنا} وهم كما قال ابن عباس وغيره أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، وخصهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم، عليهم الصلاة والسلام، و {ثم} للتراخي الرتبي، فإن إيحاء الكتاب إليه صلى الله عليه وآله وسلم أشرف من الإيراث المذكور. . . وليست من التراخي الزماني إذ زمان إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمان إيراثه وإعطائه أمته، بمعنى تخصيصه بهم، وجعله كتابهم الذي إليه يرجعون، وبالعمل بما فيه ينتفعون. . . . {فمنهم ظالم لنفسه} الفاء للتفصيل لا للتعليل. . . والظالم لنفسه من قصر في العمل بالكتاب، وأسرف على نفسه. . . واللام للتقوية. . {ومنهم سابق} متقدم إلى ثواب الله تعالى وجنته {بالخيرات}. . . محرز الفضل بسببها. . - ٩٨.
و {الكتاب} هاهنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن- وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة – فكأنه ورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا. . . . {ذلك هو الفضل الكبير} يعني إتياننا الكتاب لهم، وقيل: ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير: وقيل: وعد الجنة لهؤلاء الثلاثة ٩٩ فضل كبير. . وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق، فقيل: التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفا، كقوله تعالى:) لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة. . (١٠٠ وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقل من القليل. .] ١٠١.
ومما جاء في تفسير غرائب القرآن. .: والإيراث: الحكم بالتوريث، أو هو على عادة إخبار الله في التعبير عن المستقبل بالماضي لتحققه، أي: نريد أن نورثه. . . وبعبارة أخرى: من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها {ظالم} ومن جاهد نفسه فغلبته تارة وغلب أخرى فهو المقتصد، ومن قهر نفسه فهو السابق. . اهـ
ويقول الطبري رحمه الله: فبين أمر المصطفين من عباده هم مؤمنو أمته، وأما الظالم لنفسه ١٠٢ فإنه لأن يكون من أهل الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك عندي أشبه بمعنى الآية من أن يكون المنافق أو الكافر، وذلك أن الله تعالى ذكره أتبع هذه الآية قوله: {جنات عدن يدخلونها} فعم بدخول الجنة جميع الأصناف الثلاثة، فإن قال قائل: فإن قوله: {يدخلونها} إنما عنى به المقتصد والسابق، قيل له: وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر عقل؟! فإن قال: قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار، ولو

لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد، قيل: إنه ليس في الآية خبر أنهم لا يدخلون النار، إنما فيها إخبار من الله تعالى ذكره أنهم يدخلون جنات عدن، وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التي أصابها في الدنيا وظلمه نفسه فيها بالنار، أو بما شاء من عقابه ثم يدخله الجنة، فيكون ممن عمه خبر الله جل ثناؤه بقوله: {جنات عدن يدخلونها}. اهـ

{جنات عدن يدخلونها} مبتدأ وخبره- وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى- ١٠٣، وأعربها بعضهم على أنها بدل من {ذلك هو الفضل الكبير} بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثهم الله تعالى يدخلونها يوم القيامة، {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} {من} الأولى قد تكون للتبعيض، و {من} الثانية بيانية-[كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " {ولباسهم فيها حرير} ولهذا كان محظورا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة "] ١٠٤ {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} ويقول الذين يدخلهم الله تعالى جنات عدن بعد أن يدخلوها- يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا ما كان يحزننا، ويثنون عليه وقد حمدوه، ويمجدونه مرددين ذاكرين أسماء من أسمائه الحسنى {إن ربنا لغفور شكور} إن مولانا البر الرحيم لعظيم الستر واسع الرحمة والمغفرة للذين تابوا، {شكور} يتقبل العمل ممن اتبع سبيله مهما كان يسيرا، ويثيبه عليه أجرا كثيرا، ونعيما كبيرا، {الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ولينا الكريم الوهاب أسكننا دار القرار لا ظعن معها، ولا تحول عنها، تفضلا منه وإحسانا، لا يدركنا فيها صخب ولا تعب، ولا ينالنا كدر ولا إعياء ولا ملل) خالدين فيها لا يبغون عنها حولا (١٠٥) لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (١٠٦.

[أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لن يدخل أحد منكم عمله الجنة " قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل "] ١٠٧ - وقال بعضهم: النصب: التعب الجسماني، واللغوب: التعب النفساني - ١٠٨.

٣٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

{عدن} خلود.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٢ إظهار

٣٤ - (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٢ إظهار

٣٥ - (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

{نصب} تعب.

{لغوب} إعياء وكلل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٢ إظهار

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)

{كفور} مبالغ في الكفر.

{والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ٣٦ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ٣٧}

بعد أن بينت الآيات التي سبقت وعد الله ونعيمه للمسلمين المصدقين جاءت هذه بوعيد الواحد القهار وشديد عقابه للمفسدين الجاحدين، فجزاؤهم في الآخرة أن يصاحبوا حر السعير ويستقروا في دار البوار) جهنم يصلونها فبئس المهاد (١٠٩ وبئس القرار، تلفحهم النار، ويتمنون الموت ليستريحوا من الحريق الذي يشويهم فلا يدركونه) ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كثون. لقد جئناكم

بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون (١١٠.
{ولا يخفف عنهم من عذابها} واللظى والعذاب الموجع دائم على شدته، لا ينقطع، ولا تنكسر حدته) لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون (١١١). . كلما خبت زدناهم سعيرا (١١٢) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (١١٣.
كذلك يكون جزاء الملك الحق لكل من صد عن الرشد، وكذب بدين الحق.
٣٧ - (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)
{يصطرخون} يشتد صياحهم مستغيثين.
{وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل} والمعذبون الهالكون يصيحون مستغيثين ويدعون ربهم نادمين- لكن حين لا ينفع الندم – يسألونه سبحانه أن يعيدهم إلى دار التكليف ليعملوا غير الذي كانوا عملوه (. . فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (١١٤ (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١١٥). . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (١١٦، فيوبخهم الواحد القهار، كما توبخهم الملائكة خزنة النار، فتقول لهم الملائكة ما أخبر به القرآن:). . أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١١٧ (. وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى. . (١١٨.
{أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير} - جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم. . . والهمزة للإنكار. . و {ما} موصولة أو موصوفة، أي ألم نمهلكم ونعمركم العمر، أو عمرا يتمكن فيه من أراد التذكر وتحققت منه الإرادة من التذكر والتفكر. . . .
{وجاءكم النذير} عطف على معنى الجملة الاستفهامية. . . والمراد بالنذير. . . رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: ما معه من القرآن. . . وقيل: كمال العقل- ١١٩ [فما للكافرين الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها غضب الله بكفرهم بالله في الدنيا من نصير ينصرهم من الله ليستنقذهم من عقابه] ١٢٠.
٣٨ - (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
{غيب} ما غاب
{ذات الصدور} مضمرات النفوس والقلوب.
{إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور ٣٨ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ٣٩ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتابا فهم على بينات منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ٤٠ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ٤١}
شهد الله- وكفى به شهيدا- أنه أحاط علما بما في السماوات والأرض ما تبصرون منه وما لا تبصرون، واستيقنوا وصدقوا تصديقا راسخا لا شك فيه أنه عليم بخفيات النوايا، وما انطوت عليه البواطن). . ونعلم ما توسوس به نفسه. . (١٢١، فلولا علمه سبحانه بخبث نوايا المجرمين، وبالغ عمى قلوب الكافرين لما خلدهم في عذاب الجحيم (ولوعلم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (١٢٢ - . . . مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلموا في أيام معدودة؟ فأجيب بأنه {عليم بذات الصدور} على معنى أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد- ١٢٣ [و {عالم} إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل، وإذا كان منونا لم يجز أن يكون للماضي] ١٢٤.
مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: وذات الصدور: صواحباتها من الظنون والعقائد، فذو موضوع لمعنى الصحبة، فالصدور ذات العقائد، والعقائد ذات الصدور، باعتبار أنها تصحبها، وحين ذكرهم بما مر من أنه سوف يوبخهم بالتعمير- أي بأنه عمرهم مدة تكفي

لتذكر من يريد تفكرا وشكورا وإتياء العقول، وإرسال من يؤيد المعقول بالمنقول، وعظهم بأنه {هو الذي جعلكم}. . للعدول عن خطاب أهل الآخرة إلى خطاب أهل الدنيا. . {خلائف في الأرض} كأنه قيل: أمهلتم، وعمرتم، وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم، وجعلتم خلفاء الهالكين الماضين، فأصبحتم بحالهم راضين {فمن كفر} بعد هذا كله {فعليه} وبال {كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا} لأن الكافر السابق ممقوت، واللاحق الذي انتظر الرسول ولم ينتبه أمقت، لأنه رأى عذاب من تقدمه ولم ينتبه. . اهـ. كلما استمروا على كفرهم من غير أن يزدجروا، أو يتنبهوا فيعتبروا، كلما مد الله تعالى لهم في العذاب مدا، وخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ولقد أعذر الله تعالى إلى خلقه، وأنذرهم على لسان أنبيائه ورسله، فهود عليه السلام وعظ عادا بما بينه الكتاب العزيز). . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١٢٥.

ومما جاء في الآيات المباركات:) أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون (١٢٦ أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) وصالح عليه السلام يعظ قومه يعدد آلاء الله الكريم الوهاب، عسى أن يردهم استحضار فضل المنعم إلى شكره واستدامة نعمه، كما في الآية الكريمة:) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١٢٧.

والذين كذبوا النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بكتهم الله وحذرهم مصير الذين بطروا معيشتهم، وكفروا بأنعم الله:) ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٢٨ وينذرهم أن كلمة العذاب حقت على الباغين، وحيط عملهم:) كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. . (١٢٩.

{قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله} أمر الله تعالى نبيه أن يسأل المشركون سؤال تقريع وتبكيت: أخبروني وأعلموني عما زعمتموهم آلهة فأشركتموهم مع الله تعالى في العبادة!

{أروني ماذا خلقوا من الأرض} أروني أي جزء من الأرض خلقوه حتى ساغ لكم أن تدعوا أنهم شركاء لله جل علاه؟! و {أروني} بدل اشتمال من {أرأيتم}، {أم لهم شرك في السماوات} بل ألهم مشاركة مع الله عز وجل في خلق السماوات أو ملكها أو تدبيرها، والسلطان عليها وعلى من فيها وما فيها؟ وحاشا! لقد ضل عنهم ما يفترون.

{أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه} بل أعطيناهم كتابا يشهد أنا اتخذنا هؤلاء لنا شركاء؟ فهم على حجة ظاهرة موضحة أن لهم شركة معنا؟! وذلك كالذي في سورة الأحقاف:) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (١٣٠.

{بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا} بل ما يعد المتبوعون من المشركين أتباعهم من الضالين إلا عدة تغرر بهم، وتخدعهم وتضلهم، وما يعدهم الشيطان إلا بزخرف القول وباطله، فقال المستكبرون للذين استضعفوا: (. . هؤلاء شفعاؤنا عند الله. . (١٣١، وقالوا (. . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. . (١٣٢.

{إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا} وبعد أن حصحص الحق في بطلان إفك المشركين، وتبين عجز ما سوى الله الملك المتين، ذكر سبحانه بأنه وحده حافظ السماوات والأرض والكون كله أن يميد أو يهلك ويبيد، و {أن تزولا} بمعنى: لئلا تزولا، {ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده} ولو جاء أجل زوالهما والخلق جميعا ما يحفظهما ولا يستبقيهما أحد من بعد نفاذ مراد الله تعالى، فإنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، {إنه كان حليما غفورا} - فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظيم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه ١٣٣، فلا يتوهم أن المقام يقتضي ذكر القدرة، لا

الحلم والمغفرة- ١٣٤.
٣٩ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا)
{خلائف} قلدكم التصرف والانتفاع، أو: خلفتم من كان قبلكم وورثتموهم.
{مقتا} بغضا شديدا، وصغارا وغضبا.
{خسارا} خسرانا وهلاكا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار
٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا)
{بينة} حجة ظاهرة موضحة.
{إن يعد} ما يعد.
{غرورا} خداعا وتضليلا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار
٤١ - (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)
{يمسك} يحفظ.
{إن أمسكهما} ما يحفظهما.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٨ إظهار
٤٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا)
{وأقسموا} وحلفوا.
{جهد أيمانهم} ما وسعهم الحلف.
{نفورا} فرارا عن الحق، وتباعدا عنه.
{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا ٤٢ استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا ٤٣ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا ٤٤}
أقسم العرب وأقسمت قريش، وحلفوا جاهدين ما وسعهم الحلف: لئن بعث الله فيهم نبيا كما بعث في غيرهم ليصيرن أتم هداية من أية أمة سواهم، كما جاء في الذكر الحكيم إعذارا فيهم وحجة عليهم:) أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءتكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها. . (١٣٥.
وكقوله تعالى:) وإن كانوا ليقولون. لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين. فكفروا به فسوف يعلمون (١٣٦، {فلما جاءهم نذير} وما أكرمه من نذير، فهو خير البرية وخاتم النبيين، حين أتاهم ما ترقبوه {مازادهم إلا نفورا} لم يهد لهم مجيئه، ولا انتفعوا ببشارته وإنذاره، وإنما ازدادوا هروبا من الرشد، وفرارا عن الحق والخير وتباعدا، وضموا أرجاسا إلى رجسهم) وهم ينهون عنه وينأون عنه. . ١٣٧ وضلوا وأضلوا كثيرا، {استكبارا في الأرض} وكان مما حملهم على الإبعاد في الغي والصد عن البر أن كبر عليهم الاستجابة لبشر يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها. . (١٣٨. (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم

(١٣٩) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) ١٤٠، {ومكر السيء} مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم أسوأ المكر ليقتلوه أو يحبسوه أو يطردوه، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات، (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١٤١ وزينوا لمن استضعف منهم أن يثبت على عبادة الأوثان، وتواصى الملأ الذين استكبروا بالاستمساك بتقديس أصنامهم (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد (١٤٢.

٤٣ - (اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا)

{ومكر السيء} والاحتيال بخبث، والمخادعة بدهاء للتوصل إلى السوء.

{يحيق} يحيط.

{فهل ينظرون} ما ينتظرون.

{سنة الأولين} سنة الله في إهلاك السابقين من المجرمين.

{تبديلا} فيعافي المفسدين.

{تحويلا} فيهلك غير الباغين

{ولايحيق المكر السيء إلا بأهله} لا تحيط عاقبة المكر السيء والإضلال عن الهدى إلا بالكافرين الماكرين، الصادين عن توحيد رب العالمين، فمن دعا إلى غي فهو أضل الضالين، وأولئك لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، فما ينتظرون إلا أن يبطش الله تعالى بهم كما مضت سنته فأهلك المكذبين الأولين- و {سنة الأولين} من إضافة المصدر إلى مفعوله- (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية. (١٤٣) وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين. وقارون وفرعون وهامان ولقد جاء موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين. فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٤٤

٤٤ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

{وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا} ومهما استكبر الطغاة وكثر جمعهم وطالت أعمارهم فإنهم لن يعجزوا الله ولن يسبقوه،، ولن يفلتوا أو يهربوا منه أو يغلبوه، فهو القاهر فوق عباده، وهو محيط العلم تام القدرة، عزيز مقتدر.

٤٥ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

{يؤاخذ} يعجل المؤاخذة بالعقوبة.

{بما كسبوا} بما عملوا من الذنوب.

{أجل مسمى} حين علمه الله تعالى، ووقت وقته.

{أجلهم} ميعاد لقائهم ربهم.

{ كان بعباده بصيرا} ولم يزل بهم وبكل شيء بصيرا.

{ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ٤٥}

لو يعجل الله بأسه الذي كان ينزل بالعصاة أولئك لأهلك كل الأحياء التي تعيش على الأرض، فحبس القطر والغيث، توعد به طائفة من العصاة، ولولا البهائم لم يمطروا، وإنه إن وقع فسيهلك الإنسان والحيوان والنبات، كما جاء في آية أخرى:) ولو يؤاخذ الله الناس

بظلمهم ما ترك عليها من دابة. . (١٤٥ - وقيل: المراد بالدابة الإنس وحدهم وأيد بقوله تعالى: {ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى} وهو يوم القيامة، فإن الضمير للناس، لأنه ضمير العقلاء، ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء نوعهم، وقيل: هو لجميع من ذكر تغليبا، ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء جنس المخلوقات {فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا} فيجازي المكلفين منهم عند ذلك بأعمالهم إن شرا فشر وإن خيرا فخير. . - ١٤٦.

هذا! ولما كانت سورة سبأ قد قدمت على هذه السورة في التذكير بالبعث، وختمت ببيان ما يحل بمنكريه يوم يأتيهم فلا يجدون عن أهواله مصرفا، صرف الله تعالى في آيات سورة {فاطر} البرهان تلو البرهان، على أن الناس سيلاقوا مولاهم الملك الديان {يا أيها الناس إن وعد الله حق} {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور} وختمت بقوله تبارك وتعالى: {. . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا} وبشرت بنعيم المؤمنين، المصدقين بيوم الدين {ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله} {جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذين أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} كما حذرت مصير المكذبين باللقاء والجزاء، وأنه حين يحل بهم يتقطع ما بين الأهل والأخلاء، وما بين المشركين وما اتخذوه من دون الله من أولياء {ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى} {وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير}، وإنه لعذاب أليم مقيم، يخلدون فيه فلا يتحولون عنه، ولا يخرجون منه. {والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور}، وإن للذين جحدوا وصدوا عذابا أدنى قبل العذاب الأكبر {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد} {ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا}

فمن أراد عز الدنيا فليستيقن بالعزيز، وليعتصم بكتابه المجيد، وليستقيم على هدى رسوله إلى العالمين، نبينا محمد خاتم النبيين، ومن أراد ثواب الآخرة فليصدق باللقاء، وليتهيأ للحساب والفصل والقضاء، فإن ألم بسيئة، وأسرف على نفسه أوزارا، فلينب إلى مولانا البر الرحيم، التواب العظيم، {إنه كان حليما غفورا} وما تكرر الاسمان الجليلان مقترنين في غير هذه السورة المباركة {غفور} {شكور}.

فاللهم غفرانك، وعفوك وإحسانك، إنك أنت الشكور، تتقبل العمل القليل، وتثيب عليه بالأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأنت أفضل مأمول، وأكرم مسئول. اللهم آمين.

خاتمة تفسير سورتي: (المؤمنون) والنور.

آيات السورتين الكريمتين فيها ما يعلمنا بعض أسماء ربنا الحسنى، وصفاته الجليلة، وأفعاله الحكيمة، ودحض باطل المجادلين في هذا الحق المبين.

فربنا أحسن الخالقين، وما من إله غيره، له الحمد، وهو الخبير العليم، خير الرازقين (وهو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع، والأبصار، والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي، ويميت وله اختلاف الليل، والنهار أفلا تعقلون (٨٠) (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم (١١٦)) وهو الغفور خير الراحمين، وفي سورة النور:). . فإن الله غفور رحيم (٥)) (. . وأن الله تواب حكيم (١٠)) (. . والله عليم حكيم ١٨) (. . والله يعلم، وأنتم لا تعلمون ١٩)). . وأن الله رءوف رحيم ٢٠)). . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ٢١) (. . والله بما تعملون عليم ٢٨)). . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ٢٩)). . إن الله خبير بما يصنعون ٣٠)) الله نور السماوات والأرض ٣٥)). . والله بكل شيء عليم ٣٥)). . والله يرزق من يشاء بغير حساب ٣٨) (. . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠) ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته، وتسبيحه. .

٤١)) والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ٤٥)) ألا إن لله ما في السماوات والأرض. . ٦٤ (.
ومن برهان العزة، والحكمة، وتمام القدرة. .) ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢ (، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ١٣، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر. . ١٤)) وأنزلنا من السماء ماء بقدر، فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون (١٨) فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة، ومنها تأكلون (١٩) وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ٢٠ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها، ولكم فيها منافع كثيرة، ومنها تأكلون ٢١ وعليها وعلى الفلك تحملون ٢٢ (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ٨٠) (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ٨٤ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ٨٥)) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ٨٨ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ٨٩)) ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ٩١)) ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ١١٧) أكثر من عشرين آية في سورة (المؤمنون (.
وفي سورة النور- وهي مدنية-: (ألم تر أن الله يزجي سحابا، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٤٣ يقلب الله الليل، والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ٤٤، فهذه مع آيات الأسماء، والصفات تقارب خمس عشرة آية.
ومن سنة الله التي لا تتبدل:) ما تسبق من أمة أجلها، وما يستأخرون ٤٣)). . كلما جاء أمة رسولها كذبوه، فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث. . ٤٤)) ولا نكلف نفسا إلا وسعها. . ٦٢)) حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ٦٤ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ٦٥)) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ٦٩ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون ٧٠ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات، والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ٧١ أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير. . ٧٢) (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ٧٥) عشر آيات في سورة (المؤمنون (.
أما في سورة النور فمن آيات السنة التي لا مبدل لها:
) إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة. . ١٩) (. . ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء، والمنكر. . ٢١)) وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله. . ٣٢) (ويقولون آمنا بالله وبالرسول، وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ٤٧)) إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله، ليحكم بينهم، أن يقولوا سمعنا، وأطعنا، وأولئك هم المفلحون ٥١) هذه آيات خمس.
وفي ترسيخ اليقين بكتب الله المنزلة:) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ٤٩)) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ٥٨) (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ٦٦ مستكبرين به سامرا تهجرون ٦٧ أفلم يدبروا القول. . ٦٨)) ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ١٠٥) أكثر من خمس آيات.
وفي سورة النور:) ويبين الله لكم الآيات. . ١٨)) ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم، وموعظة للمتقين ٣٤)) ولقد أنزلنا آيات مبينات. . ٤٦)). . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ٦١ (.
ومن نبأ المرسلين – عليهم الصلوات والتسليم-:
) ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ٢٣ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ٢٤ إن هو رجل به جنة فتربصوا به حتى

حين ٢٥ قال رب انصرني بما كذبون ٢٦ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور، فاسلك فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك، إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ٢٧ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ٢٨ وقل رب أنزلني منزلا مباركا، وأنت خير المنزلين ٢٩)) فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ٣٢ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم. . ٣٣)) ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين ٤٥ إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ٤٦ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون ٤٧ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ٤٨)) وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ٥٠)) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ٦٩ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ٧٠) (أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ٧٢ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ٧٣)) قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٣ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ٩٤ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ٩٥ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ٩٦ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ٩٧ وأعوذ بك رب أن يحضرون ٩٨)) وإذا دعوا إلى الله، ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ٤٨)) إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ٥١ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ٥٢) (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم، واستغفر لهم الله، إن الله غفور رحيم ٦٢)) لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم ٦٣ (.
والآيات الخمس الأخيرة من سورة النور:
وفي ترسيخ الإيمان بالآخرة، وأحوالها، وأهوالها، وثوابها تقرأ في سورة) المؤمنون (:) قد أفلح المؤمنون ١ الذين هم في صلاتهم خاشعون ٢ والذين هم عن اللغو معرضون ٣ والذين هم للزكاة فاعلون ٤ والذين هم لفروجهم حافظون ٥ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ٦ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ٧ والذين هم لأماناتهم، وعهدهم راعون ٨ والذين هم على صلواتهم يحافظون ٩ أولئك هم الوارثون ١٠ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ١١)) ثم إنكم بعد ذلك لميتون ١٥ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ١٦) أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما، أنكم مخرجون ٣٥ هيهات هيهات لما توعدون ٣٦ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت، ونحيا، وما نحن بمبعوثين ٣٧)) وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ٧٤)) وهو الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون ٧٩ وهو الذي يحيي ويميت، وله اختلاف الليل، والنهار أفلا تعقلون ٨٠ بل قالوا مثل ما قال الأولون ٨١ قالوا أئذا متنا وكنا ترابا، وعظاما أئنا لمبعوثون ٨٢ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ٨٣)) حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ٩٩ لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ١٠٠ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ١٠١ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ١٠٢ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ١٠٣ تفلح وجوههم النار وهم فيها كالحون ١٠٤ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ١٠٥ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ١٠٦ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ١٠٧ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ١٠٨ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ١٠٩ فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ١١٠ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ١١١ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ١١٢ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٣ قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ١١٤ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ١١٥ تسع وثلاثون آية. وفي سورة النور سبع آيات:) لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ١١)) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ٢٤ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ٢٥)) يخافون

يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ٣٧ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ٣٨ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ٣٩ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يعده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ٤٠) وعهد الله إلينا نتنافس في مطالب الرشد والهدى،، ونحذر مسالك الغي والردى، ومن آيات سورة (المؤمنون) في هذا الموثق:
) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ٥١ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ٥٢) (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين ٥٥ نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون ٥٦ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ٥٧ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ٥٨ والذين هم بربهم لا يشركون ٥٩ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ٦٠ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ٦١)) بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ٦٣) (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن. . ٧١)) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ١١٨ (.
وفي سورة النور:) الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤنين ٢) والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا. . ٤)) والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ٦ والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ٧ ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ٨ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ٩ (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ٢١ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم. . ٢٢)) يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. . ٢٧)). . وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم. . ٢٨) (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم. . ٣٠)) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن على جيوبهن. . ٣١)) وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله. . ٣٢)) قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول. . ٤٥)) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا. . ٥٥) (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ٥٦)) يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء. . ٥٨)) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم. . ٥٩)). . فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة. . ٢١ (

٣٦ سورة يس:

سورة يس:
مكية
وآياتها ثلاث وثمانون
كلماتها: ٧٢٧: حروفها: ٣٠٠٠.
١ - (يس)
بسم الله الرحمن الرحيم
{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم

فهم غافلون (٦)}.
يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج؛ مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم؛ فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر؛ وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ١؛ وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.
[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته؛ أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق؛ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له؛. . وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين؛ و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: (. . أحكمت آياته.) ٢، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ٣.
- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال؛ والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ٤
ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم؛ قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير.) ٥ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. ه. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير؛ وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل؛ ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ٦.
٢ - (وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{الحكيم} المحكم فلا يتناقض ولا يبطل ولا يختل.
بسم الله الرحمن الرحيم
{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)}.

يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج؛ مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم؛ فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر؛ وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ٧؛ وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.

[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته؛ أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق؛ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له؛. . وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين، و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض، كما قال: (. . أحكمت آياته.) ٨، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ٩.

- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال؛ والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ١٠

ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم؛ قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير.) ١١ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. ه. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير؛ وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل؛ ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ١٢.

٣ - (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)}.

يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج؛ مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها

التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم؛ فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر؛ وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ١٣؛ وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.

[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته؛ أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق؛ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له؛.

. وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين؛ و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: (. . أحكمت آياته. .) ١٤، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ١٥.

- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال، والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ١٦

ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم؛ قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير. .) ١٧ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. ه. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير؛ وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل؛ ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ١٨.

٤ - (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{صراط مستقيم} طريق معتدل، ودين لا عوج فيه، وهو الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)}.

يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج؛ مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها
التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع

تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم؛ فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر؛ وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ١٩؛ وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.

[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته؛ أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق؛ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له؛. . وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين؛ و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: (. . أحكمت آياته. .) ٢٠، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ٢١.

- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال؛ والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ٢٢

ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم؛ قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير. .) ٢٣ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. هـ. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير؛ وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل؛ ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ٢٤.

٥ - (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{العزيز} المنتقم ممن خالفه.

{الرحيم} واسع الرحمة لمن أطاعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)}.

يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج؛ مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع

تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم، فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر، وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ٢٥، وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.

[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته، أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق، قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له،. . وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين، و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض، كما قال: (. . أحكمت آياته. .) ٢٦، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ٢٧.

- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال، والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ٢٨

ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم، قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير. .) ٢٩ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. ه. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير، وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر، أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل، ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ٣٠.

٦ - (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{لتنذر} لتحذر وتخوف.

{ما أنذر آباؤهم} لم يرسل إلى آبائهم قبلك من نذير.

{غافلون} صاحبتهم الغفلة فلم يعلموا، أو علموا فأعرضوا وتغافلوا.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)}.

يمكن أن يقال في معنى قول المولى- تبارك اسمه-: {يس} ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور التي تكون حروف تهج، مثل (ص) و (ق) و (طس) و (حم) و (الم) و (الر) فهي إما من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اسم من أسماء السورة، أو أريد بها

التحدي، فكأنه قيل: الكلام الذي تنطقون به مؤلف من تلك الحروف وكلمات الكتاب الكريم مكونة من تلك الحروف، لكنكم - مع تكون كلمات القرآن من حروف كحروف نطقكم- عجزتم وسيظل الخلق عاجزين عن الإتيان بمثل آيات الذكر الحكيم؛ فثبت أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام ربّ القوى والقدر؛ وذهب مفسرون إلى أنه نداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام ٣١؛ وأقسم الله تعالى بالقرآن المحكم الذي لا تناقض فيه، ولا يلحقه بطلان ولا اختلال أن محمدا-صلى عليه ربنا وسلم- مبعوث من الله سبحانه إلى العباد.

[جاء قسم. . . لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته؛ أقسم الله تعالى. . أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق؛ قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له؛. . وحكى القشيري: قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست مرسلا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين؛ و {الحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: (. . أحكمت آياته. .) ٣٢، وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل.] ٣٣.

- وفي قوله: {على صراط مستقيم} وجهان- أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحق، فيكون حينئذ {على} من قوله: {على صراط مستقيم} من صلة الإرسال؛ والآخر: أن يكون خبر مبتدأ [أي إخبارا عن شأن ليس من جملة الأول] كأنه قيل: إنك لمن المرسلين؛ إنك على صراط مستقيم. . . ومعنى الكلام إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الربّ العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له- ٣٤

ومما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: وكثيرا ما يستعمل القسم بعد إفحام الخصم الألدّ كيلا يقول: إنك قد أفحمت بقوة جدالك، وأنت في نفسك خبير بضعف مقالك. . . وكانت العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها تدع الديار بلاقع. . . وقوله: {على صراط} كالتأكيد، لأن المرسلين لا يكونون إلا على المنهج القويم، وتنكير {صراط} للتعظيم؛ قيل: فيه دليل على فساد قول المباحية القائلين بأن المكلف إذا صار واصلا لم يبق عليه تكليف، فإن المرسلين لم يستغنوا عن رعاية الشريعة فكيف غيرهم؟! وقوله: {ما أنذر آباؤهم} كقوله في القصص: (. . لتنذر قوما ما أتاهم من نذير. .) ٣٥ وقد مرّ أنه يشمل اليهود والنصارى لأن آباءهم الأدنين لم ينذروا بعدما ضلوا {فهم غافلون (٦)} لهذا السبب ا. هـ. وعن قتادة وغيره: {ما} لا موضع لها من الإعراب لأنها نفي، والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير؛ وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، وقيل: إن {ما} والفعل مصدر؛ أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، ويجوز أن يكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى: لم ينذروا برسول من أنفسهم، {فهم غافلون} عن سوء مصير من ضل؛ ولقد قامت حجة الله، وحذر عز وجل: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ٣٦.

٧ - (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

{حق القول} وجب العذاب.

{لا يؤمنون} لا يصدقون بالحق، ولا يستيقنون بالذي تهدي إليه، ولا بالذي يجب الإيمان به، ولا يتبعون الرشد.

{أغلالا} قيودا.

{مقمحون} لا يستطيعون أن يثنوا أعناقهم.

{من بين أيديهم سدا} من أمامهم وقدامهم حاجزا.

{ومن خلفهم سدا} ومن ورائهم حاجزا.

{فأغشيناهم} فغطينا أبصارهم.

{لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (٧) إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون (٨) وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠)}.

لما ختمت الآية السادسة بقول الله سبحانه: {فهم غافلون} وبينت آية كريمة في سورة الأعراف أن الغافلين لا يتفقهون بقلوبهم، ولا يتبصرون بأعينهم، ولا يستمعون بآذانهم، جاءت هذه الآية تبين أنهم وقد استحبوا العمى على الهدى استوجبوا مقت الله وعذابه إلا قليلا منهم، ومن ختم الله على سمعه وقلبه هل تجد له وليا مرشدا؟ فهؤلاء لا يصدقون بالحق، ولا يستيقنون بالذي يهدي إليه رسول الله مما يوجب الإيمان والعمل به، ولا يتبعون برّا ولا رشدا، وكيف وأنّى لهم أن يؤمنوا وقد زاغوا عن الخير {. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا} ٣٧؟ لهذا أزاغ الله قلوبهم فلن يهتدوا إذن أبدا، إن القيد الذي غلت به أيديهم قد بلغ بها أعناقهم، ولزق بأذقانهم، فهم لا يحركون رقابهم لينظروا ما حولهم، بل ولا إلى ما تحت أقدامهم، نقل عن مجاهد: {مقمحون} مُغَلُّون عن كل خير، ومما نقل عن الأصمعي: قامحت إبلك إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد، يقال: أقمحه الغُلّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه، وشهرا إقماح: أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان، سميا بذلك لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها. اهـ.

[وقيل الآية إشارة إلى ما يفعل بأقوام غدا في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل، كما قال تعالى: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل} ٣٨.

وأخبر عنه بلفظ الماضي] ٣٩ - وكيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية؟ فيقول: المغلول الذي بلغ الغُلّ ذقنه، وبقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر الطريق، فضرب ذلك مثلا للذي يهديه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصراط المستقيم العقلي وهو لا يبصره بنظر بصيرته- ٤٠ {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا} وصيرنا من قدامهم حاجزا ومن ورائهم حاجزا، مما قال مجاهد وغيره: سدا: عن الحق، فهم يترددون، ومما قال قتادة وغيره: {سدا}: ضلالات.

ومما أورد صاحب روح المعاني: {لقد حق} جواب لقسم محذوف، أي: والله لقد ثبت ووجب {القول} الذي قلته لإبليس يوم قال: {. . لأغوينهم أجمعين} ٤١ وهو: {. . لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} ٤٢.

{على أكثرهم} متعلق بـ {حق}، والمراد: سبق في علمي دخول أكثرهم فيمن أملأ منهم جهنم، وهم تبعة إبليس. . . وظاهر كلام الراغب أن المراد بالقول علم الله تعالى بهم. . . {فهم} أي الأكثر {لا يؤمنون} بإنذارك إياهم، والفاء تفريعية داخلة على الحكم المسبب عما قبله، فيفيد أن ثبوت القول عليهم علة لتكذيبهم وكفرهم، وهو علة له باعتبار سبق العلم بسوء اختيارهم، وما هم عليه في نفس الأمر، فإن علمه تعالى لا يتعلق بالأشياء إلا على ما هي عليه في أنفسها، ومآله إلى أن سوء اختيارهم وما هم عليه في نفس الأمر علة لتكذيبهم وعدم إيمانهم بعد الإنذار، فليس هناك جبر محض، ولا أن المعلوم تابع للعلم. . .

{ومن خلفهم} من ورائهم {سدا} كذلك، والقدام والوراء كناية عن جميع الجهات. . . . . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة، فتأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه، فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ننشدك الله تعالى والرحم يا محمد! قال: ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت: {يس. والقرآن الحكيم} إلى قوله سبحانه: {. . أم لم تنذرهم لا يؤمنون} فلم يؤمن من ذلك النفر أحد. . . . {وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم} أي مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه. . . وانظر هل تجد مانعا من العطف على {لا يبصرون}؟ ليكون خبرا لهم أيضا داخلا في حيز الفاء والتفريع. . كأنه قيل: فهم سواء عليهم. . واختلاف الجملتين بالاسمية والفعلية لا أراك تعده مانعا، وقوله تعالى: {لا يؤمنون} استئناف مؤكد لما قبله، مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء، أو حال مؤكدة له، أو بدل منه. اهـ.

٨ - (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)

{أغلالا} قيودا.

{مقمحون} لا يستطيعون أن يثنوا أعناقهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
٩ - (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)
{من بين أيديهم سدا} من أمامهم وقدامهم حاجزا.
{ومن خلفهم سدا} ومن ورائهم حاجزا.
{فأغشيناهم} فغطينا أبصارهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
١٠ - (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]
{حق القول} وجب العذاب.
{لا يؤمنون} لا يصدقون بالحق، ولا يستيقنون بالذي تهدي إليه، ولا بالذي يجب الإيمان به، ولا يتبعون الرشد.
{أغلالا} قيودا.
{مقمحون} لا يستطيعون أن يثنوا أعناقهم.
{من بين أيديهم سدا} من أمامهم وقدامهم حاجزا.
{ومن خلفهم سدا} ومن ورائهم حاجزا.
{فأغشيناهم} فغطينا أبصارهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
١١ - (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)
{تنذر} تحذر وتخوف.
{الذكر} القرآن الحكيم.
{بالغيب} ملتبسا بالغيب أي غائبا عنه، أو غائبا عن أعين الناس.
{إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١) إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢)}.

الخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو له ولكل من هو أهل للخطاب، وكأن المعنى: ما ينفع إنذارك إلا من إذا سمع القول اتبع أحسنه وإذا تليت عليه آيات الله زادته إيمانا، وهو يخاف سخط الله تعالى حال كونه غائبا عنه، أو يراقب ربه غائبا عن أعين الناس منفردا بنفسه، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة {أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون} ٤٣، وثبتت الآية الثانية اليقين في النشور والحشر، والسؤال والحساب، ليزداد الذين آمنوا إيمانا بأنهم ملاقوا ربهم، وليفرحوا بما ينتظرهم من بياض وجوههم، وحسن عاقبتهم، {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا} ٤٤، وليحذر الذين قالوا لا تأتينا الساعة، وقالوا: {. . إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين} ٤٥ والذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا {. . . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون} ٤٦ فإن يوم التغابن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، وتوضع الصحائف التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، فاللبيب السعيد من قدم لنفسه وعمل عمل الأبرار، وترك من ورائه الذكر الطيب وأبرك الآثار، فأولئك ينادون: {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ٤٧.

في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، قال: والبقاع خالية، قال: فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: (يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم) فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا، [قال مجاهد وقتادة وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال.] ٤٨

ومما جاء في الجامع لأحكام القرآن:. . ثم توعدهم ٤٩ بذكره كتب الآثار. . فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها، من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه،. . أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك، أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين. . أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاه، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها. . اهـ.

١٢ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

{ما قدموا} ما أسلفوه.

{وآثارهم} ما أبقوه بعدهم.

{إمام} أصل عظيم.

{مبين} مظهر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٣ - (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

{واضرب لهم مثلا} واذكر لهم حالا عجيبة تطابق حالهم، وقولا غريبا حكيما، أو قصة فيها عبرة.

{واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧) قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم (١٨) قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون (١٩)}.

علّم الله تعالى نبيه وعلّمنا أن نقُصّ القصص الحق ليكون عبرة ومدّكرا، به يثبت مولانا قلوب المؤمنين فيزداد يقينهم في تأييد ربهم لهم، كما أيّد أهل الصدق من أسلافهم، وفيه تحذير ووعيد للمعاندين الباغين أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم، وجمهور المفسرين على أن القرية هي إنطاكية، وأن الرسل إليها كانوا من بعد عيسى عليه السلام، وهل كان إرسالهم من الله سبحانه مباشرة، أو كانوا رسلا لعيسى صلى الله عليه وسلم، دعا أهل القرية أول ما دعا رسولان، فسارع القوم إلى التكذيب، فقوّى الله القوي القدير رسولي عيسى إلى هذه المدينة برسول ثالث، فما ازداد القوم إلا تماديا في الإنكار، وإصرارا على التكذيب، واستبعادا على أن يبعث الله بشرا رسولا، فذكرتهم رسلهم بأن الرب العلي الأعلى يعلم أنهم دعاته إلى أهل هذه المدينة، ولو كانوا مفترين في دعوى الرسالة لأكذبهم أو لأهلكهم، ثم علموهم أنهم لا يملكون هدايتهم، وإنما عهد الله إليهم بتبليغهم ودعوتهم، قال أكثر أهل المدينة لرسلهم: إنا تشاءمنا بكم، لئن لم تسكتوا عما تقولون، ولئن لم ترجعوا عما إليه تدعون لنقتلنكم ولنعذبنكم عذابا موجعا، فكان رد رسلهم عليهم: سبب شؤمكم ملازمكم، فإن كفران النعم مجلبة للنقم، وفي مثل هذا المعنى يقول الحق جلّ علاه: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس} ٥٠. ويقول تبارك اسمه: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} ٥١ كما جاء في آية كريمة أخرى: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون} ٥٢ وفي آية: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} ٥٣ وفي آية: {والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا} ٥٤.

والكفر ملة واحدة، فكلما جاء أمة رسولها سارع الأكثرون إلى الصد عنه، ومضوا يسعون في الأرض فسادا، والله لا يحب المفسدين، ونسبوا ما يحلّ بهم من البلاء إلى نحس الرسول، وحاشا! وصلوات الله على كليم ربنا ورسوله موسى عليه السلام، فقد أبى الناس الذين أرسل إليهم أن يدخلوا في الملة التي جاء بها.

{. . وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه} ٥٥.

وضرب المثل يستعمل تارة في حالة غريبة بأخرى مثلها، كما في قوله تعالى: {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح} ٥٦ الآية،

وأخرى في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس، من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها، كما في قوله تعالى: {. . وضربنا لكم الأمثال} ٥٧ _في وجه_أي:بينا لكم أحوالا بديعة هي في الغرابة كالأمثال. . .

١٤ - (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ)

{فعززنا} فقوينا وشددنا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٥ - (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٦ - (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٧ - (وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٨ - (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{تطيرنا} تشاءمنا.

{تنتهوا} تسكتوا وترجعوا عما تقولون.

{لنرجمنكم} لنقتلنكم، أو لنقذفنكم بالحجارة، ولنعذبنكم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٩ - (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

{طائركم} حظكم من خير أو شر، أو شؤونكم.

{مسرفون} متجاوزون الحد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

٢٠ - (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

{أقصى المدينة} أبعد نواحيها.

{يسعى} يشتد ويسرع الجري.

{وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٢١) وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون (٢٣) إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤) إني آمنت بربكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٢٧) *وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين (٢٨) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩)}.

وبينما ينذر الرسل قومهم، ويهمّ القوم بقتل رسلهم، يأتي رجل من أطراف المدينة يحث الخطى، ويسرع نحو مجتمع قومه الذين كذبوا المرسلين وعزموا على الفتك بهم، وينادي داعيا إلى الحق، متلطفا مع من يدعوهم: يا قوم أطيعوا من بعثوا إليكم، واقتدوا بهم، وسيروا على منهاجهم، فهم أهل أن يطاعوا ويقتدى بهم، لأنهم ما ابتغوا ببلاغهم ونصحهم وإرشادهم لكم جزاء منكم، إنما يترقبون ثواب الله ورضاه، وهم لا يخالف فعلهم قولهم، بل هم أسوة حسنة، وشأن الدعاة أن يكونوا أئمة في الاستمساك بما إليه يرشدون، وأن يعفوا عن ترقب أجر ممن يدعون، إن أجرهم إلا على المولى الذي به يعتزون، ولقد علمنا الكتاب الحكيم من دعوة نوح عليه الصلوات والتسليم: {ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله} ٥٨ وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أمر أن يعذر إلى الله فيمن يدعوهم: {قل

ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله} ٥٩ {. . قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين} ٦٠، وبينهما عليهما الصلاة والسلام هود عليه السلام يقول لقومه: {يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني} ٦١ وصالح عليه السلام يقول: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} ٦٢ ولوط عليه السلام يقول: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} ٦٣ وشعيب عليه السلام يقول لأصحاب الأيكة: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} ٦٤.

مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: قال أهل البيان: يجب زيادة المؤكدات في الجملة الخبرية بحسب تزايد الإنكار من السامع، فلهذا قال الرسل أولا: {إنا إليكم مرسلون} مقتصرين على [إنّ] وثانيا: {ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون} مجموعا بين إن واللام، وما يجري مجرى القسم، ولا يخفى أن اليمين بعد إظهار البينة وإفحام الخصم مؤكد قوي. . وفي قولهم: {وما علينا إلا البلاغ المبين} تسلية لأنفسهم، أي: نحن خرجنا من عهدة ما علينا، ولم يبق إلا التفكر منكم والتذكر. . . {وجاء من أقصى المدينة رجل} هو حبيب النجار. . . وتنكير {رجل} للتعظيم،أي رجل كامل في الرجولية. . والسعي بمعنى المشي أو القيام في المهام، أي يهتم بشأن المؤمنين ويسعى في نصرتهم وهدايتهم ونصحهم، ثم حثهم على اتباع الرسل، ولم يقل (اتبعوني) كما قال مؤمن آل فرعون: {. . اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد} ٦٥ لأنه جاءهم فنصحهم في أول مجيئه وما رأوا سيرته بعد، فقال:اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل. . . ثم أراد كمال التوحيد فقال: {أأتخذ من دونه آلهة} فقوله: {. . ما لي لا أعبد الذي فطرني} فيه إقرار بوجود الصانع الفاطر، وقوله: {أأتخذ} على سبيل الإنكار نفي لغيره ممن يسمى إلها ٦٦. . ثم شبه هلاكهم بخمود النار، وهي صيرورتها رمادا. . . أ هـ.

وينقل ابن جرير-بسنده- عن عبد الله بن مسعود قال: غضب الله-يعني لهذا المؤمن لاستضعافهم إياه- غضبة لم تبق من القوم شيئا فعجل لهم النقمة بما استحلوا منه، وقال {وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين} يقول: ما كاثرناهم بالجموع، أي ٦٧: الأمر أيسر علينا من ذلك {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون} فأهلك الله ذلك الملك وأهل إنطاكية ٦٨ فبادوا عن وجه الأرض فلم تبق منهم باقية، وهذا القول الثاني أولى القولين بتأويل الآية. اهـ.

٢١ - (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٢ - (وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{فطرني} خلقني وأنشأني.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٣ - (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ)

{شفاعتهم} رجاؤهم، وعونهم لي في طلب الخلاص.

{ينقذون} يدركوني قبل هلاكي.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٤ - (إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٥ - (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٦ - (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار

٢٧ - (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار
٢٨ - (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار
٢٩ - (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)
{صيحة}: صوت شديد.
{خامدون}: ميتون، هامدون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٠ إظهار
٣٠ - (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
{يا حسرة}: يا ندم احضر.
{يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٣٠) ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١) وإن كل لما جميع لدينا محضرون (٣٢)}.
النداء لكل من تأتي منه الحسرة والندم على ما فات، فكأن الكلام: يا حسرة احضري فهذا هو أوان حضورك، وعما قليل سيعض الظالم على يديه {. يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا} ٦٩، والعباد الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ولو كانت عندهم بقية من عقل لاعتبروا بحال المستهزئين برسلهم من قبلهم، كيف كان عاقبة سخريتهم واستهزائهم، و {القرون}:جمع قرن، وهو الفترة من الزمان، وقد يراد به القوم الذين يعيشون في زمان واحد، فكأن المعنى: أهل قرون وأزمان كذبوا فأخذناهم بذنوبهم {. وما كان لهم من الله من واق} ٧٠.
{وإن كل لما جميع لدينا محضرون}: وما كل هؤلاء إلا مجموعون ٧١ عندنا، وموقوفون بين يدينا، لنحاسبهم على ما أسلفوا، ونجازيهم بالحق، قال قتادة: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله اهـ.
{وإن كل لما جميع} -ولتشديدهم ذلك عندنا وجهان: [أحدهما] أن يكون الكلام عندهم كان مرادا به: وإن كل لما جميع، ثم حذفت إحدى الميمات لما كثرت. . [والآخر] أن يكونوا أرادوا أن تكون {لما} بمعنى إلا مع إن خاصة، فتكون نظيرة إنما إذا وضعت موضع إلا، وقد كان بعض نحويي الكوفة يقول: كأنها لم، ضمت إليها ما، فصارتا جميعا استثناء، وخرجتا من حد الجحد ٧٢ -
٣١ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ)
{كم} بمعنى: كثير.
{القرون}: الأمم، جمع قرن أي: أهل قرن، وهم القوم الذين يعيشون في زمان واحد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٠ إظهار
٣٢ - (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار
٣٣ - (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)
{آية}: علامة.
{ميتة}: هامدة لا زرع بها.
{أحييناها}: أنبتنا زرعها.
{حبا}: جنس الحب الذي يقتات به.
{وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)}:

وعلامة لمن لم يستيقنوا بالبعث، لتكون حجة على اقتدارنا على إحياء الموتى، وبرهان وسلطان يرونه بأعينهم أن الأرض التي يعاينونها، حينا تكون صعيدا جرزا جرداء، ثم نحييها بأمرنا إذ نشاء، فتنبت بها ألوان الزرع وصنوف الحب مما به القوت والنماء، كالقمح والأرز والشعير وغيرها، ومن هذا المعنى ما جاء في قول الحق سبحانه: {. . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج}، ٧٣ -وقوله تبارك اسمه: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير} ٧٤- والنكرة قد تعم، كما إذا كانت في سياق الامتنان أو نحوه.

{فمنه} أي: من الحب بعد إخراجنا إياه، والفاء داخلة على المسبب، و [من] ابتدائية أو تبعيضية، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: {يأكلون} والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به، لما في ذلك من إيهام الحصر للاهتمام به،حتى كأنه لا مأكول غيره ٧٥ -

{وجعلنا}: وصيرنا {فيها}:في الأرض التي كانت ميتة فأحييناها {جنات}:أشجار ملتفة الأغصان، متشابكة الأوراق حتى تغطي الأرض التي تحتها {من نخيل}: من أنواع النخل-إذ النخيل، جمع نخل، كعبيد جمع عبد، أو النخيل والنخل بمعنى واحد، لكن الأول أولى، يقول الراغب: الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة، أهـ، {وأعناب}:وأصناف العنب-شجره أو ثمره-

{وفجرنا فيها من العيون}: وشققنا في الأرض من المنابع ما فيه النفع، {ليأكلوا من ثمره}: ليتفكهوا بالأكل من ثمار شجر هذه الجنات، وقد مننت عليهم بالحب الذي هو عماد الأقوات {وما عملته أيديهم}: وليأكلوا من الذي عملته أيديهم بالحرث والسقي، ولعل ذكر هذا في معرض الامتنان يشير إليه ما روي عن نبينا عليه الصلاة والسلام: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده). {أفلا يشكرون}: فهلا شكروا نعمة المنعم فأفردوه سبحانه بالطاعة والتقديس، ليزيدهم منها في عاجلهم، ويبدي لهم خيرا منها في آجلهم؟!

{سبحان الذي خلق الأزواج كلها}: تنزه وتقدس المبدع الوهاب الذي أوجد الأصناف كلها، و {الأزواج}:جمع زوج، ويقال لكل واحد من القرينين، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا، {مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون}: فمن نبات الأرض أزواج، ومن بني آدم أزواج، ومما لم نحط به علما أزواج، إلا المولى عز وجل، فإنه واحد أحد، فرد صمد، مما جاء في تفسير غرائب القرآن: قال المحققون: إنما قال {لهم}، لأن الأرض ليست آية ٧٦ للنبي ولغيره من أهل الإخلاص الذين هم بالله عرفوا الله قبل النظر إلى الأرض والسماء كقوله: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} ٧٧؟!. . فنفس الأرض آية، فإنها مهدهم الذي فيه تحريكهم واستكنانهم،. . وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم، ثم إحياؤها مخضرة نعمة ثانية، فإنها أحسن وأنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قوتهم إذا كان في مكانهم كان أجمع للقوة والفراغ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة، موجبة للتفكه وسعة العيش، ثم تفجير العيون فيها نعمة خامسة. . والضمير في قوله {من ثمره} يعود إلى الله، وفائدة الالتفات أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لا توجد إلا بتخليق الملك الجبار، ويحتمل أن يعود إلى المذكور وهو الجنات. . أ هـ.

٣٤ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)

{جنات}: جمع جنة، وهي الحديقة، وموطن الأشجار التي كثر ورقها، حتى غطت وسترت ما تحتها.

{نخيل}: جمع نخل، أو اسم جمع له.

{وأعناب}: وأشجار عنب، أو: ثمراته.

{وفجرنا}: وشققنا.

{العيون}: منابع الماء في الأرض.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار

٣٥ - (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ)

{وما عملته} والذي عملته.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار

٣٦ - (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ)
{سبحان}: تنزه وتقدس.
{الأزواج}: الأصناف.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٣٧ - (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)
{نسلخ}: نخرج، ونصرم.
{العرجون}:القنو من الأصل المتصل بجذع النخلة إلى الشماريخ.
{وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٤٠)}.
بعد أن بينت الآيات السابقات حجة لله تعالى وبرهان اقتدار في المكان، جاءت هذه اللاحقات لها تبين شيئا من عجيب صنعه وحكيم تدبيره في الزمان، فهي سلطان وعلامة لهم على تفرد الكبير المتعال بالعزة والجلال، أن الليل يخرج منه النهار، فإذا الظلام يغشاهم، وتلك العجيبة فوق كونها آية على السلطان والقهر. فإنها نعمة تستوجب الحمد والشكر {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون} ٧٨، والشمس التي هي سبب النهار ومصدر ضوئه تسير في فلك ومسار لا تتجاوزه ولا تتعداه {. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} ٧٩ كل هذا التسخير بتقدير مولانا الغالب على كل شيء، والعليم بكل معلوم، ومنه ما فيه صلاح العباد {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون} ٨٠ {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} ٨١
{والقمر قدرناه منازل} وصيرنا نور القمر منازل، أو صيرنا مسير القمر ومحله الذي يسير فيه منازل، وقدرناها لا يتجاوزها، ولا يتخلف عنها، حتى يعود في نهاية وأواخر مسيره-في رأي العين-منحنيا منعرجا، معوجا منعطفا، كالقنو العتيق الذي تقوس-ولا يرى معتدلا إذ ذاك أبدا، وهكذا كل مسخر وميسر لما خلق له، لا يتعداه ولا يقصر عنه حتى يأتي أمر الله، وتبارك الذي يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل {وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى} ٨٢ أليس في تسخير ربنا لما حولنا من مكان وزمان، وما قضت به حكمته سبحانه أن يتعاقب الجديدان ٨٣، ويتلاحق النيران ٨٤ أليس في ذلك ما يدل على عظمة الملك الديان؟ بلى!.
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد
ومما يقول ابن كثير-رحمه الله-:قال جل وعلا: {والقمر قدرناه منازل} أي:جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال عز وجل: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج} ٨٥ وقال تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياءا والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} ٨٦ وقال تبارك وتعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا} ٨٧ فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل: يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشر، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم، أ هـ،
وقال عكرمة في قوله عز وجل: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر} يعني أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل، وقوله تعالى: {ولا الليل سابق النهار} يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار،

وسلطان القمر بالليل.
وقال مجاهد: {ولا الليل سابق النهار} يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر، والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران، دائبين، يتطالبان طلبا حثيثا، وقوله تبارك وتعالى: {وكل في فلك يسبحون} يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون أي: يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس. . . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فلك بين السماء والأرض. . . أ هـ.
٣٨ - (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٧ إظهار
٣٩ - (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)
{العرجون} القنو من الأصل المتصل بجذع النخلة إلى الشماريخ.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٧ إظهار
٤٠ - (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)
{ينبغي} يتسخر ويتسهل.
{تدرك} تلحق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٧ إظهار
٤١ - (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)
{آية} دلالة على قدرتنا، وعلامة.
{ذريتهم} فرعهم ونسلهم، أو أصلهم وآباءهم.
{الفلك} السفينة.
{المشحون} المملوء.
{وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (٤٣) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤٤)}.
بينت الآيات السابقة من هذه السورة طائفة من برهان قدرة الله تعالى وعظيم امتنانه في الأنفس والآفاق، في الزمان والمكان، في الأرض وفي السماء، وفي هذه الآيات الأربع دليل من ربنا سبحانه وسلطان يتجلى في طائفة من أنعمه علينا بتيسير الرزق، وتسخير البحر {. . وما كنا له مقرنين} ٨٨ فسبحان من قدر ويسر وسخّر {وآية أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون} وعلامة على قدرتنا بيناها، ونعمة من أنعمنا وهبناها، وقوى من الكون سخرناها، ومن ذلك حملنا ذريتهم في السفينة المملوءة، يعني من نجا من ولد آدم في سفينة نوح ٨٩ - {وخلقنا لهم من مثله ما يركبون} وكما حملنا أسلافهم في مركب نوح عليه السلام وكانت علامة من علامات اقتدارنا، فكذا خلقنا لهم من مثل مركب نبينا نوح ما يركبونه من السفن والزوارق، {وإن نشأ نغرقهم} فالفلك تجري في البحر بأمر ربنا وتسخيره، وإن أراد إغراق الذين على ظهور السفن فلن يعجزه ذلك {هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم} ٩٠. {فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون} إذا أنزلنا بهم بأسنا فلن يجدوا مغيثا ينصرهم ولا يستطيعون النجاة من الهلاك الذي أحللناه بهم، {إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين} لكنا برحمة منا نجيهم ليتمتعوا إلى حين وقت آجالهم، والوقت الذي قدرناه لمماتهم، [قوله تعالى: {وآية لهم} يحتمل ثلاثة معان: أحدها عبرة لهم، لأن في الآيات اعتبارا، الثاني-نعمة عليهم، لأن في الآيات إنعاما، الثالث-إنذار لهم، لأن في الآيات إنذارا. {أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون} من أشكل ما في السورة، لأنهم هم المحمولون، فقيل: المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية {في الفلك المشحون} فالضميران مختلفان، ذكره المهدوي. . وقيل: الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم

وضعفاءهم، فالفلك على القول الأول سفينة نوح، وعلى الثاني يكون اسما للجنس، أخبر عز وجل بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء،. وقيل: الذرية الآباء والأجداد، حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام، فالآباء ذرية، والأبناء ذرية، بدليل هذه الآية، قاله أبو عثمان وسمى الآباء ذرية، لأن منهم ذرأ الأبناء. . .] ٩١.

٤٢ - (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٣ - (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ)

{فلا صريخ} فلا مغيث، فهو فعيل بمعنى فاعل، فكأنه في الأصل: مُصْرِخْ.

{ينقذون} ينجون من الهلاك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٤ - (إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

{حين}: مدة وزمان.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{اتقوا} احذروا، وخافوا وتوقوا، أي أقيموا بينكم وبين المهالك وقاية.

{ما بين أيديكم} ما سبقكم، وما تقدم.

{وما خلفكم} ما يأتي بعد.

{وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٦) وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين (٤٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨) ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٥٠) ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (٥١) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٥٢) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣) فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون (٥٤)}.

من الآية الواحدة والثلاثين إلى هذه الآيات في السورة يتبين البرهان تلو البرهان على أن الله تعالى حق، وأن لقاءه حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، ومهما رأى الكافرون من آيات، ومهما سمعوا من حجة بالغة ونذر وعظات، فإنهم عن كل شيء من هذا الهدى متولون، ولكل سبيل رشد تاركون، {وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون} وإذا نصح الجاحدون المكذبون بما يجب الإيمان والتصديق به، ونودوا أن احذروا وخافوا وتوقوا- أي أقيموا بينكم وبين المهالك وقاية- واجتنبوا أن تفعلوا ما فعل أسلافكم من المكذبين لكيلا ينالكم ما نالهم من التدمير، واعملوا ما ينجيكم من عذاب يأتي بعد يصلاه كل مرتاب في ملاقاة الملك الكبير، إذا ذكروا بذلك تولوا وأعرضوا، وكذبوا واستكبروا، نقل الثعلبي عن ابن عباس. {ما بين أيديكم} من أمر الآخرة وما عملوا لها- فإنهم قادمون عليه- {وما خلفكم} من أمر الدنيا- فإنهم تاركوها وراء ظهورهم-فاحذروها ولا تغتروا بها. أ هـ.

ومما جاء في تفسير غرائب القرآن: لا مثل الذين يبتغون البرهان، ولا كالعوام الذين يبنون أمورهم على الأحوط إذا أنذرهم منذر انتهوا عن ارتكاب المنهي -عنه-خوفا من تبعته. . . أ هـ.

{وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين} وما تجيئهم من آية من آيات ربنا المتلوة القرآنية، أو آية وعلامة من بدائع مخلوقاته الكونية إلا وكان شأن الكافرين الإعراض والتولي؛ [وما نافية، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي، و {من} الأولى. لتأكيد العموم، والثانية تبعيضية، متعلقة بمحذوف. . . . والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع

الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها، والإيمان، وإيتاؤها: نزول الوحي بها، أي: ما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء، وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا، وإيتاؤها: ظهورها لهم، أي: ما ظهرت لهم آية من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين، تاركين للنظر الصحيح فيها، المؤدي إلى الإيمان به عز وجل] ٩٢.

-فإن قال قائل: وأين جواب قوله: {وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم}؟ قيل: جوابه وجواب قوله: {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم} قوله: {إلا كانوا عنها معرضين} لأن الإعراض منهم كان عن كل آية لله، فاكتفى بالجواب عن قوله: {اتقوا ما بين أيديكم} وعن قوله: {وما تأتيهم من آية بالخبر عن إعراضهم عنها لذلك، لأن معنى الكلام: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا وإذا أتتهم آية أعرضوا. {وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله}. . . يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم فأدوا منه ما فرض الله عليكم فيه لأهل حاجتكم ومسكنتكم قال الذين أنكروا وحدانية الله وعبدوا من دونه للذين آمنوا بالله ورسوله: أنطعم أموالنا وطعامنا من لو يشاء الله أطعمه- ٩٣؟! مما أورد النيسابوري:ثم أشار إلى أنهم كما يخلون بجانب التعظيم لأمر الله حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا يخلون بجانب الشفقة على خلق الله، ولا ينفقون إذا أمروا بالإنفاق. . . . وقوله: {قال الذين كفروا} دون أن يقول: قالوا تسجيل عليهم بالكفر. . . وقوله: {أنطعم} دون أننفق إظهار لغاية خستهم، فإن الإطعام أدون من الإنفاق، ومن بخل بالأدون فهو أن يخل بالأكثر أولى، وقوله: {من لو يشاء الله أطعمه} كلام في نفسه حسن، لكنهم ذكروه في معرض الدفع، فلهذا استوجبوا الذم، وقد بين الله خطأهم بقوله: {مما رزقكم الله} فإن من في خزائنه مال، وله في يد الغير مال، فإنه مخير، إن أراد أعطى. . مما في خزائنه، وإن شاء أعطى مما في يد الغير، وليس لذلك الغير أن يقول لم أحلته عليّ؟. . اهـ.

ومما جاء في جامع البيان:وفي قوله: {إن أنتم إلا في ضلال مبين} وجهان: أحدهما أن يكون من قبل الكفار للمؤمنين، فيكون تأويل الكلام حينئذ: ما أنتم أيها القوم في قيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم إلا في ذهاب عن الحق، وجور عن الرشد، مبين لمن تأمله وتدبره أنه في ضلال، وهذا هو أولى وجهيه بتأويله. . . أ هـ.

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} ويقول الكافرون المكذبون بالبعث مستعجلين مجيء القيامة مستهزئين: متى يتحقق ما تعدوننا به من النشور والحساب والجزاء إن كنتم صدقتم فيما وعدتم؟! يقولون ذلك لرسول الله وللمؤمنين،-وكأنه لم يعتبر كونه شرا لهم، ولذا عبروا بالوعد دون الوعيد، وقيل إن ذاك لأنهم زعموا أن لهم الحسنى عند الله تعالى إن تحقق البعث. . . - ٩٤، والقرآن يشهد عليهم في مثل هذا الادعاء كما في قول الله سبحانه: {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} ٩٥ وكذا القول الرباني الكريم: {ولئن أذقناه رحمة منا بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} ٩٦، {ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون} وما ينتظر المستعجلون بالساعة إلا نفخة واحدة - وهي النفخة الأولى التي يهلك عندها كل حي إلا الله سبحانه- وتأتيهم بغتة وهم يتحاورون في أمورهم، تفجأهم وتسرع بفنائهم جميعا، فلا يقدرون على توصية بما يريدون قبل موتهم، ولا يملكون الرجوع إلى أهليهم-وعبر بالانتظار نظرا إلى ظاهر قولهم: {متى هذا الوعد} أولا لأن الصيحة لما كانت لابد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها- ٩٧.

[ومن جملة تعنتهم أنهم استبطؤا الموعود على الاتقاء والإنفاق، قائلين: إن كنتم أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون هذا الموعود به من الثواب والعقاب؟ فأجابهم الله تعالى بقوله: {ما ينظرون إلا صيحة واحدة} كأنهم بالاستبطاء كانوا منتظرين شيئا، وتنكير {صيحة} للتهويل، ووصفها بـ {واحدة} تعظيم للصيحة: وتقصير لشأنهم، أي: صيحة لا يحتاج معها إلى ثانية، وفي قوله: {تأخذهم} أي تعمهم بالأخذ مبالغة أخرى، وكذا في قوله: {وهم يخصمون} أي يشتغلون بمتاجرهم ومعاملاتهم، وسائر ما يتخاصمون فيه، ومع ذلك يصعقون،. . ثم بالغ في شدة الأخذ بقوله: {فلا يستطيعون توصية}. . من أداء الواجبات ورد المظالم، وقد تحصل التوصية بالإشارة،

لكنه يكون عند مجيئها في غاية العجز عنها وعن غيرها ٩٨].
روى الإمام مسلم-رحمه الله-في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ٩٩ ليتا ورفع ليتا ١٠٠ - قال: وأول من يسمعه رجل يلوط ١٠١ حوض إبله-قال: فيصعق ١٠٢ ويصعق الناس)، ومما جاء في الجامع لأحكام القرآن: وروى أبو نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ورجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يبتلعها حتى تقوم الساعة). اهـ.
{ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون} ويأمر الله تعالى الملك الموكل بالنفخ، فينفخ في الصور-وهو قرن من نور-فإذا الموتى قد أحياهم القوي القدير، فالنفخة الأولى كانت للإماتة، وهذه الثانية للإحياء، فإذا بالقبور تنشق عمن فيها تبعثرهم، يخرجون منها سراعا، يساقون ويحشرون، ويجمعون لملاقاة ربهم وبين يديه يوقفون، وعندها ينتبهون، ويشتد عليهم الهول ويتحسرون، وينادون: يا هلاكنا احضر، ثم يتساءلون: من بعثنا من مرقدنا، وأحيانا بعد مماتنا؟ ثم يجيبون أنفسهم شاهدين عليها بما كانت قد كذبت وجحدت: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} {ما} موصولة أي هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون، أي صدقوا فيه، قال ابن زيد: الجواب من قبل الكفار. . أ هـ.
ولعل مما يشهد لهذا المعنى قول الحق جل ثناؤه: {. . وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} ١٠٣ وكذا ما تشير إليه الآية الكريمة:. . {يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل} ١٠٤، ونقل عن الفراء أنه جواب من جهته عز وجل، ونقل عن قتادة ومجاهد: من قبل المؤمنين اهـ.
ما كانت النفخة الثانية-في الصور- إلا صرخة وصوتا- وقيل: هي قول إسرافيل عليه السلام: أيتها العظام النخرة والأوصال المتقطعة، والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ١٠٥ فإذا الكل مجتمع حاضر بين يدي خير الفاتحين، {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٠٦ فلا تظلم نفس من النفوس برة كانت أو فاجرة في هذا اليوم المعهود شيئا من الأشياء، ولا يلحقكم إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا.
٤٦ - (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
{آية} جملة من الكلمات المنزلة الربانية القرآنية، أو: علامة من بدائع مخلوقات الله التكوينية.
{معرضين} تاركين لها، متولين عنها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٧ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
{إن أنتم إلا في ضلال مبين}: ما أنتم إلا في حيرة واضحة، وحيدة عن الصواب ظاهرة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{متى هذا الوعد} أي: حين وزمان يأتي فيه ما وعدتم من البعث وإحياء الموتى؟
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٤٩ - (مَا يَنْظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)
{ينظرون}: ينتظرون.
{صيحة}: صوت مفزع.
{تأخذهم}: تهلكهم وتميتهم.
{يخصمون}: يختصمون ويتنازعون في معاملاتهم ومعايشهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥٠ - (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)
{توصية} عهدا بما يجب أن يكون، يوصى به قبل موته.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥١ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)
{الصور} قرن من نور ينفخ فيه ملك بإذن الله نفخة يبعث على أثرها الموتى.
{الأجداث}: جمع جدث وهو القبر.
{ينسلون}: يسرعون السير.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥٢ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)
{بعثنا من مرقدنا} أيقظنا وأهبنا من مضاجعنا وموطن وحال رقادنا ونومنا؟!
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥٣ - (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)
{إن كانت} ما كانت.
{لدينا محضرون} عندنا محشورون، وبين يدينا موقوفون أجمعون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥٤ - (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
{إلا ما كنتم تعملون} إلا جزاء ما كنتم تفعلون في الدنيا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار
٥٥ - (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ)
{شغل} شأن يشغله.
{فاكهون} فرحون مسرورون، طيبة نفوسهم منعمون.
{إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (٥٥) هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون (٥٦) لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون (٥٧) سلام قولا من رب رحيم (٥٨)}.

لما توعدت الآيات التي سبقت أهل الجحود والكفران، جاءت هذه ببشرى المؤمنين الموعودين بنعيم الجنان، فهم يوم الفصل قد فازوا في القضاء، وأدخلوا دار الخلد والكرامة ولزموه، فتراهم أصحابها لا يبغون عنها حولا، ولا يصادفون فيها مللا، بل شغلهم النعيم فهم بما آتاهم مولاهم فرحين، ولأنعم البر الرحيم شاكرين: {وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين} ١٠٧، ويدخل الله تعالى معهم من صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم {والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم} ١٠٨ وتلك كانت دعوات الملائكة لهم: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم} ١٠٩ ويزوجهم الله تعالى من نساء الجنة من الحور العين، فالمؤمن وأهله لا يضحون ولا يذوقون حر الشمس بل يتنسمون أطيب هواء، ويجلسون ويستقلون على الأسرة المفروشة تكتنفها وتحيط بها الستور، ويرزقون في الجنة فاكهة كثيرة، لا تنقطع ولا تمتنع، بل تتشابه ويتلاحق تقديمها {. كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا به متشابها} ١١٠، وتدنوا قطوفها وتقترب {قطوفها دانية} ١١١، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فكل ما يطلبونه يأتيهم، وفوق ذلك فلهم من الله تعالى البر الرحيم سلام {. . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما

صبرتم فنعم عقبى الدار} ١١٢ {. . وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} ١١٣ {. . وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام} ١١٤ وقوله تعالى: {قولا} مفعول مطلق لفعل محذوف، والجملة صفة {سلام} وقوله تعالى: {من رب رحيم} صفة {قولا} أي: سلاما يقال لهم من جهة رب رحيم، أي يسلم عليهم من جهته تعالى بلا واسطة تعظيما لهم.

٥٦ - (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)

{ظلال} جمع ظل.

{الأرائك} جمع أريكة، وهي السرير في الحجال، تحوطه الستور.

{متكئون} مستلقون عليه، يتحاملون على مرافق أيديهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٥ إظهار

٥٧ - (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

{لهم فيها فاكهة} لهم في الجنة فاكهة عظيمة الشأن.

{ولهم ما يدعون} ولهم ما يطلبونه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٥ إظهار

٥٨ - (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٥ إظهار

٥٩ - (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

{وامتازوا} وتميزوا وانفردوا.

{المجرمون} المرتكبون للجرائم.

{وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩) *ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين (٦٠) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (٦١) ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون (٦٢) هذه جهنم التي كنتم توعدون (٦٣) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤) اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥) ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٦٧) ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨)}.

وبعد بيان حسن مآب المؤمنين، جاءت هذه الآيات تخوف من مصير وعقاب الكافرين، ولن يكونوا سواء، بل يفرد المجرمون، بمعزل عن الذين كانوا لربهم يرهبون، ثم يحسرون على ما فرطوا في جنب الله، وما خالفوا عن أمره، ونقضوا من عهده، فيقال لهم من جهة الحق جل علاه: ألم أوصيكم أن لا تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه، وأن أدّوا العبادات التي شرعتها لكم تقربكم مني، وتدخلكم في رحمتي، وتبلغ بكم رضاي، هذا هو الطريق القويم، والدين الذي ارتضيت لكم، ولقد علمتم أن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء {. . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا} ١١٥ وأن إبليس اللعين إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، ووعدتكم وعد الحق، ووعدكم الشيطان غرورا، فاستجبتم له، فاستحوذ عليكم كما استحوذ على من أطاعوه قبلكم فحقت عليهم كلمة العذاب، فهلا أعملتم عقولكم، واعتبرتم بما أشقى به من كان قبلكم فاتخذتموه عدوا! ولقد أعذر الله تعالى وأنذر وحذر: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا} ١١٦ {وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} ١١٧.

{اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون} يؤمر بهم إلى السعير، ويقال لهم زيادة في التحسير: قاسوا حرها، وصيروا وقودها، وافترشوا لهيبها، وعيشوا تحته: {لهم من فوقهم ظلل من نار ومن تحتهم ظلل} ١١٨ ذلك جزيناكم بسبب كفركم بالحق، وصدكم عن الرشد.

مما جاء في روح المعاني: {وأن اعبدوني} عطف على {أن لا تعبدوا الشيطان} على أن {أَنْ} فيهما مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول دون حروفه، أو مصدرية حذف عنها الجار، أي: ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان، وفي عبادتي! وتقديم النهي على الأمر لما أن

حق التخلية التقدم على التحلية، قيل: وليتصل به قوله تعالى: {هذا صراط مستقيم} بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى، لأنه المعروف في الصراط المستقيم. . . والتنكير للمبالغة والتعظيم، أي: هذا صراط بليغ في استقامته، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه، وأصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف. . . وفيه أن المطلوب الاستقامة، والأمر دائر معها، وقليلها كثير. {ولقد أضل منكم جبلا كثيرا} استئناف مسوق لتشديد التوبيخ، وتأكيد التقريع، ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم، إثر بيان نقضهم العهد. . . وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء، والجبل-قال الراغب: الجماعة العظيمة، أطلق عليها تشبيها بالجبل في العظم. . . . {أفلم تكونوا تعقلون} عطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم. . . فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم؟! اهـ.

{اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون} ليوم الفصل أهوال نسأل الله أن ينجينا من الكرب، وله أحوال تختلف من موطن إلى موطن، فحين يأذن الفتاح العليم لكل محاسب أن يجادل عن نفسه {يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها} ١١٩، فإذا كذبوا أخرس الله تعالى ألسنتهم، {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون} ١٢٠ {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين} ١٢١، فهذا يوم لا ينطقون {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ١٢٢. وكذا ما أشار إليه قول الحق تبارك وتعالى: {. . ولا يكتمون الله حديثا} ١٢٣. وقوله تبارك اسمه: {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل} ١٢٤ وما جاء في الآية الكريمة: {. . . اخسئوا فيها ولا تكلمون} ١٢٥ فموطن يتكلمون فيه، وموطن لا يقدرون فيه على الكلام، في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال (هل تدرون مما أضحك؟) قلنا: الله ورسوله أعلم:قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل) خرّجه أيضا من حديث أبي هريرة، وفيه: (ثم يقال له الآن نبعث شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه)، جاء في آية كريمة: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} ١٢٦ وفي آيات أخر: {حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ١٢٧.

{ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون} ولو أردنا أن نمحو أبصارهم، ونزيل أثر أعينهم لفعلنا، وإذا لو حاولوا سلوك طريق غيهم الذي كانوا فيه لما أبصروه، وكيف لأعمى أن ينظر ويرى؟! مما جاء في الجامع لأحكام القرآن: وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة، وقال: إذا كان يوم القيامة، ومُدّ الصراط نادى مناد ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيقومون برّهم وفاجرهم، فاستبقوا الصراط. فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه. . . . اهـ.

{ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون} ولو أردنا أن نبدل خلقتهم ونقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة لفعلنا، قال الحسن:أي: لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. . وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. اهـ.

{ومن نعمره ننكسه في الخلق} من شاء الله تعالى له أن يمتد به العمر فإنه ينقص بعد زيادة، ويهن بعد جلادة، قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، وتبارك ربنا القائل: {. . ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة} ١٢٨، وقال مولانا جل ثناؤه: {. . ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} ١٢٩ مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: وهذا هو الغالب، وقد تعوذ صلى الله عليه وسلم من أن يرد إلى أرذل العمر. . اهـ.

مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن، وعن بعضهم:

طوى العصران ما نشراه مني ... فأبلى جدتي نشر وطيّ
أراني كل يوم في انتقاص ... وهل يبقى على النقصان شيّ
وقال آخر:
أرى الأيام تتركني وتمضي ... وأوشك أنها تبقى وأمضي
علامة ذاك شيب قد علاني ... وضعف عند إبرامي ونقضي
وما كذب الذي قد قال قبلي ... إذا ما مرّ يوم مرّ بعضي

{أفلا يعقلون} -أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم- ١٣٠ ومما جاء في تفسير القرآن العظيم: والمراد من هذا-والله أعلم-الإخبار عن هذه الدار، بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال عز وجل: {أفلا يعقلون} أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى سن الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة. . اهـ.

وذهب صاحب روح المعاني مذهبا في تفسير هذه الكلمات الكريمة فقال: أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما. اهـ.

٦٠ - (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

{أعهد} أوص.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦١ - (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٢ - (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)

{جبلا} خلقا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٣ - (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

{جهنم} اسم من أسماء نار الآخرة دار العذاب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٤ - (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

{اصلوها} الزموا العذاب بها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٥ - (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

{نختم على أفواههم} نمنع أفواههم عن التكلم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٦ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)

{لطمسنا} لمحونا الأثر وأزلناه.
{الصراط} الطريق.
{فأنى} فكيف؟.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار

٦٧ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ)

{لمسخناهم} لحولنا صورهم.
{مكانتهم} مكانهم.
{مضيا} ذهابا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار
٦٨ - (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ)
{نعمره} نطل عمره.
{ننكسه} نقلبه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٩ إظهار
٦٩ - (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ)
{وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين (٧٠)}.
وبعد أن تتابعت الآيات في ترسيخ اليقين بالمعاد، جاءت هاتان الآيتان تبينان حقيقة الرسالة، فالرسول لم يعلّم من ربه شعرا، ولا يسوغ عقلا أن يكون شاعرا، لأنه مبعوث بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة، وما هذا الذي يتلوه عليكم إلا عظة وذكرى، وكلام رباني حكيم {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ١٣١ وهذا الذكر والكتاب المجيد يبين الرشد من الغي، وينير مسالك الإحسان والبر، ومنهاج السعادة والفوز، {لينذر} القرآن، أو لينذر المبعوث به-عليه الصلاة والسلام- {من كان حيا} من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، من كان ذا عقل ولب، {. . إنما يتذكر أولوا الألباب} ١٣٢ قال قتادة: أي: حي القلب، [وقيل: المعنى: لتنذر من كان مؤمنا. .] ١٣٣ - وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع بذلك- ١٣٤ وتقوم الحجة به على الكافرين، فيستوجبون العذاب.
٧٠ - (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]
{وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين (٧٠)}.
وبعد أن تتابعت الآيات في ترسيخ اليقين بالمعاد، جاءت هاتان الآيتان تبينان حقيقة الرسالة، فالرسول لم يعلّم من ربه شعرا، ولا يسوغ عقلا أن يكون شاعرا، لأنه مبعوث بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة، وما هذا الذي يتلوه عليكم إلا عظة وذكرى، وكلام رباني حكيم {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ١٣٥ وهذا الذكر والكتاب المجيد يبين الرشد من الغي، وينير مسالك الإحسان والبر، ومنهاج السعادة والفوز، {لينذر} القرآن، أو لينذر المبعوث به-عليه الصلاة والسلام- {من كان حيا} من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، من كان ذا عقل ولب، {. . إنما يتذكر أولوا الألباب} ١٣٦ قال قتادة: أي: حي القلب، [وقيل: المعنى: لتنذر من كان مؤمنا. .] ١٣٧ - وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع بذلك- ١٣٨ وتقوم الحجة به على الكافرين، فيستوجبون العذاب.
٧١ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)
{أنعاما} حيوانات وبهائم، أبركها: الإبل والبقر والغنم.
{أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ٧٣ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥) فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون (٧٦)}.
-الهمزة للإنكار والتعجيب، والواو للعطف على جملة منفية مقدرة. . . زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى: {ألم يروا كم أهلكنا. } والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم، وهذا بالتذكير بالنعم المشار إليها بقوله تعالى: {أنا خلقنا لهم} أي: لأجلهم وانتفاعهم. . - ١٣٩.
[قوله تعالى: {أولم يروا أنا خلقنا لهم} هذه رؤية القلب، أي: أولم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا] ١٤٠.

مما أورد الألوسي-رحمه الله-: وأنت تعلم أن الآية من المتشابه عند السلف، وهم لا يجعلون اليد مضافة إليه تعالى بمعنى القدرة، أفردت {. . يد الله فوق أيديهم} ١٤١ أو ثنيت، كـ {. . خلقت بيدي} ١٤٢ أو جمعت كما هنا، بل يثبتون اليد له عز وجل كما أثبتها لنفسه، مع التنزيه الناطق به قوله سبحانه: {. . ليس كمثله شيء} ١٤٣. اهـ.
{أنعاما} مفعول {خلقنا}، مما نقل ابن جرير-رحمه الله- عم ابن زيد وقد سئل: أهي الإبل؟ فقال: نعم،قال: والبقر من الأنعام، وليس بداخلة في هذه الآية، قال: والإبل والبقر والغنم من الأنعام. اهـ.
{فهم لها مالكون} -أي ممتلكون لها بتمليكنا إياهم لها، والفاء، قيل: للتفريع على مقدر، أي خلقنا لهم أنعاما وملكناها لهم فهم بسبب ذلك مالكون لها. . وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها ١٤٤
{وذللناها لهم فمنها ركوبهم} وسخرناها وطوعناها لتنقاد لهم، فمنها يكون مركبهم الذي يركبون عليه تحملهم وتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، {ومنها يأكلون} ويأكلون من لحمها، وينحرون ويجزرون.
{ولهم فيها منافع} ويبيعونها ويقبضون ثمنها، ويأخذون نسلها، {. . . ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين} ١٤٥، ويجرون بها ويحرثون، ويستمتعون برؤيتها حين يمسون ويصبحون {ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون} ١٤٦، {ومشارب} يشربون من لبنها وسمنها، {أفلا يشكرون} الله تعالى على ما أولاهم؟! - {فهم لها مالكون} إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، وقوله: {وذللناها لهم} إشارة إلى ما فوق التمام، فقد يملك الشيء ولا يكون مسخرا، ومن الذي يقدر على تذليل الإبل لولا أمر الله بتسخيرها؟! حتى قال بعضهم:
[لقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير] ١٤٧
يصرفه الصبي بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير
والجرير: حبل يجعل للبعير بمنزلة العذار للدابة- ١٤٨ {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون} ضل سعي المشركين، إذ اتخذوا من دون المعبود بحق، ما ادعوه من أنداد وشركاء لله جل علاه، زاعمين أن هذه الأوثان والطواغيت تدفع عنهم ضرا، أو تقدم لهم خيرا،أو تقربهم من الله زلفى، وذلك هو الضلال المبين، {لا يستطيعون نصرهم} إن الذين يدعون من دون الله لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته. { ١٤٩ إنهم لا يملكون نصرة أنفسهم، فكيف يرتجى منهم أن ينصروا غيرهم؟! {وهم لهم جند محضرون} والمشركون لسفههم يدفعون عن معبوديهم، ويجندون أنفسهم لحماية أصنام لا تسمع ولا تعقل ولا تغني عنهم شيئا.
[{واتخذوا من دون الله} أي: متجاوزين الله تعالى الذي رأوا منه تلك القدرة الباهرة، والنعم الظاهرة، وعلموا أنه سبحانه المتفرد بها {آلهة} من الأصنام، وأشركوها به عز وجل في العبادة {لعلهم ينصرون} رجاء أن ينصروا، أو لأجل أن ينصروا من جهتهم فيما نزل بهم وأصابهم من الشدائد، أو يشفعوا لهم في الآخرة، وقوله تعالى: {لا يستطيعون نصرهم}. . استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم، وانعكاس تدبيرهم، أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم. . . . . {وهم} أي أولئك المتخذون المشركون {لهم} أي لآلهتهم {جند محضرون} أي معدون لحفظهم والذبّ عنهم في الدنيا] ١٥٠ -وقيل: الآلهة جند لهم محضرون لهم يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم، وفي الخبر: إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار فهم لهم جند محضرون، قلت: ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم ربّ العالمين فيقول ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون). . - ١٥١، {فلا يحزنك قولهم} فلا يسؤك يا محمد ما يقوله المبطلون، ولا تحزن لما رموك به من السحر والشعر والجنون، ولا تبتئس بتكذيبهم بآياتي، وجحودهم نبوتك، {إنا نعلم ما يسرون} من معرفتهم بحقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحود ذلك بألسنتهم علانية، ونعلم ما يسرون من النفاق والحسد والغيظ وسوء

الطوية، {وما يعلنون} من الشرك والتكذيب والبغي والإيذاء وسائر القبائح.
٧٢ - (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)
{وذللناها} وطوعناها وسخرناها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧١ إظهار
٧٣ - (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧١ إظهار
٧٤ - (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]
{أنعاما} حيوانات وبهائم، أبركها: الإبل والبقر والغنم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧١ إظهار
٧٥ - (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧١ إظهار
٧٦ - (فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧١ إظهار
٧٧ - (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)
{ير} يتفكر ويعلم.
{نطفة} أصلها في اللغة: القليل من الماء، ويراد بها الماء الدافق من كل رجل حين يقضي شهوته، ومنها يكون الولد.
{خصيم} مبالغ في الخصومة والجدال الباطل.
{مبين} ظاهر متجاهر.
{أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٧) وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠) أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٨٣)}.
الآيات الست السابقات من الآية ٧١ وحتى الآية السادسة والسبعين بينت بطلان إشراكهم بالله عز وجل، بعدما عاينوا ما يوجب التوحيد والإسلام: {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما} {ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون. واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم} الآيات، ثم جاءت هذه التي ختم الله تعالى بها السورة المباركة لبيان بطلان إنكارهم البعث بعدما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب اليقين الراسخ به، أي: أولم يتفكر الإنسان ويعلم أنا أوجدناه من شيء يسير مهين من ماء دافق، من مني يمنيه الرجل فيقر الله تعالى منه ما يشاء في رحم المرأة، ثم يطوره العليم القدير فيكون علقة ثم مضغة، ثم يكون عظما ثم يكسوا اللطيف الخبير العظم لحما، ثم يصوره سبحانه كيف يشاء، ثم يخرجه طفلا، ويهبه السمع والبصر والعقل، ويمنحه ما قسم له من عطاء. ورزق؟! أولم يتفكر هذا الإنسان في أحوال نفسه، فيتذكر نشأته لينقاد ويخضع؟! فالاستفهام هنا للإنكار والتعجيب، {فإذا هو خصيم} الفاء وإذا الفجائية تقوي التعجيب، و {خصيم} أي: مبالغ في الخصومة والجدال بالباطل {مبين} ظاهر متجاهر في ذلك،-أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة؟! فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين. .
. فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟! _ ١٥٢. {وضرب} وأورد وساق لنبينا {مثلا} شأنا عجيبا وقصة غريبة، هذا الإنسان الذي غفل عن بدايته استبعد البعث والإعادة والقضاء والجزاء حتى قال ما حكاه رب العزة والجلال:

{. . وما أظن الساعة قائمة} ١٥٣ {وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم} ١٥٤، {ونسي خلقه} وترك التذكر في نشأته، وصار كالناس لها لعدم جريه على ما يستوجبه التفكر والعلم، {قال من يحيي العظام وهي رميم}.

[{قال} استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل، كأنه قيل: أي مثل ضرب؟ أو: ماذا قال؟ فقيل: {قال من يحيي العظام وهي رميم} منكرا ذلك، ناكرا من أحوال العظام ما تبعد معه من الحياة غاية البعد، وهي كونها رميما، أي بالية أشد البلى، والظاهر أن {رميم} صفة لا اسم جامد، فإن كان من رمّ اللازم بمعنى: بلى فهو فعيل بمعنى فاعل، وإنما لم يؤنث لأنه غلب استعماله غير جار على موصوف فألحق بالأسماء الجامدة. . . لم يقل: رميمة، لأنه معدول عن فاعلة، فكل ما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن أخواته، ومثله {بغيا} في قوله تعالى: {. . وما كانت أمك بغيا} ١٥٥ أسقط الهاء منها لأنها مصروفة عن باغية. . . وإن كان من رم المتعدي بمعنى: أبلى. . وأصل معناه الأكل. . من رمت الإبل الحشيش فكأن ما بلى أكلته الأرض. . وتذكيره على هذا ظاهر، للإجماع على أن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. .] ١٥٦.

{قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} علم الله تعالى نبيه وعلمنا حجته على منكري الإحياء بعد الإماتة، وأن الذي خلق العظام والأجساد التي كانت فيها، هو الذي يخرجها من القبور بعد أن بليت ويحييها، وقد علم ما تنقص الأرض من الموتى، قال أهل البيان: سمى قولهم: {من يحيي العظام وهي رميم}: {مثلا} لأن إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى قصة عجيبة، وفيه تشبيه الخالق القادر العليم بالمخلوق العاجز عن خلق أدنى بعوضة، الجاهل بما يجري عليه من الأحوال. . .

واعلم أن المنكرين للحشر منهم من اكتفى في إنكاره بمجرد الاستبعاد كقوله: {من يحيي العظام وهي رميم} فأزال استبعادهم بتصوير الخلق الأول، فإن الذي قدر على جعل النطفة المتشابهة الأجزاء إنسانا مختلف الأبعاض والأعضاء، مودعا فيه: الفهم والعقل، وسائر أسباب المزيّة، فهو على إعادتها أقدر، ومنهم من ذكر شبهة كقولهم: إن الذي تفرقت أجزاؤه في أبدان السباع وجدران الرباع كيف يجمع ويعاد؟!. . فأجاب الله تعالى. . بقوله: {يحييها الذي أنشأها أول مرة} يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا فإنه يعيده وإن لم يكن شيئا. . . . {وهو بكل خلق عليم} فيجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع والسباع، وهكذا يعلم الأصلي من الفضلي. . - ١٥٧.

{الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون} {والذي} بدل من الموصول {الذي} الأول، صير الله تعالى-الذي أحياكم أول مرة-صير ويسر لكم من الشجر الندي الرطب المخضر المكتنز الماء نارا حارة، فأخرج المحرق من العود الغض الطري، [والمشهور أن المراد بهذا الشجر المرخ والعفار، يتخذ من المرخ. . الزند. . ومن العفار. . . . ويسحق الأول على الثاني وهما خضروان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله تعالى. . .

وعن ابن عباس والكلبي: في كل شجر نار إلا العناب. . . وأنشد الخفاجي لنفسه:

أيا شجر العناب نارك أوقدت ... بقلبي وما العناب من شجر النار

واشتهر العموم وعدم الاستثناء، ففي المثل: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، أي: استكثرا من النار. . . . واختار بعضهم حمل {الشجر الأخضر} على الجنس، وما يذكر من المرخ والعفار من باب التمثيل، وخصا لكونهما أسرع وريا، وأكثر نارا، كما يرشد إليه المثل، ومن إرسال المثل: المرخ والعفار لا يلدان غير النار. . وأشار سبحانه بقوله {الذي} الخ إلى أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته، فإن الماء بارد رطب، والنار حارة يابسة كان جل وعلا أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضا فيبس وبلى. . .] ١٥٨، {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم} أليس الذي أنشأ أول مرة أوليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، الذي خلق السماوات والأرض- وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس- أوليس ذلك بقادر على أن يخلق مثل هؤلاء المنكرين للحشر، ومثل الأناسي، ومثل سائر الخلق؟! {بلى} إنه على ذلك وعلى كل ما أراد لقدير، وهذه الآية كقوله تبارك اسمه: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ١٥٩.

{وهو الخلاق العليم} كثير خلقه، بديع صنعه، يخلق ما يشاء، وخلقه عجيب كما وكيفا فهو الفعال لما يريد وهو العليم بكل ما خلق ويخلق، لا تخفى عليه خافية،-ومثل لنا شبها بقوله: {من يحيي العظام وهي رميم} إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد- يقول فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق {ونسي خلقه} يقول: ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه، وأنه لم يكن إلا نطفة فجعلناها خلقا سويا ناطقا-يقول: فلم يفكر في خلقنا له فيعلم أن من خلقه من نطفة حتى صار بشرا سويا ناطقا متصرفا لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء، والعظام الرميم بشرا كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء- يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهذا المشرك القائل لك: {من يحيي العظام وهي رميم}! {يحييها الذي أنشأها أول مرة} يقول: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا {وهو بكل خلق عليم} يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم، كيف يميت وكيف يحيي، وكيف يبدئ وكيف يعيد، لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه- ١٦٠.
{إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} يأمر سبحانه بالشيء أمرا واحدا لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد، وهذه كالآية المباركة: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} ١٦١.
{فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء} فتنزه وتقدس الملك المهيمن الذي له السلطان والتدبير، وله مقاليد جميع الأمور.
{وإليه ترجعون} وإليه عز وجل تردون، تحيون بعد موتكم وعلى ربكم تعرضون، وعما عملتم تسألون وتحاسبون، وتجزون فمنكم معذب، وأهل اليقين لهم عند ربهم ما يشاءون، في الصحيحين (أن رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ-:أو: أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذرّوا نصفه في البر ونصفه في البحر في يوم رائح-أي كثير الهواء-ففعلوا ذلك فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له كن فإذا هو رجل قائم فقال له ما حملك على ما صنعت قال مخافتك وأنت تعلم فما تلافاه أن غفر له) ١٦٢. [والملكوت مبالغة في الملك. . فهو الملك التام ١٦٣. . وفسر الملكوت أيضا بعالم الأمر والغيب، فتخصيصه بالذكر قيل: لاختصاص التعرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة. . . {وإليه ترجعون} لا إلى غيره تعالى، وهذا وعد للمقربين، ووعيد للمنكرين، فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين. . .

٧٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

{ضرب} أورد، وساق.
{مثلا} شأنا عجيبا، وقصة غريبة.
{رميم} بليت أشد البلى.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار

٧٩ - (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

{خلق} مخلوق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار

٨٠ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار

٨١ - (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار

٨٢ - (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

{أمره} قوله تعالى النافذ، أو: شأنه سبحانه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار

٨٣ - (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{فسبحان} فنزه المولى الذي ليس كمثله شيء، وقدسه.

{ملكوت} ملك تام، وتدبير بإحكام.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧٧ إظهار
خاتمة تفسير سورة يس:
وقد اشتملت هذه السورة على تقرير مطالب علمية، وتضمنت أدلة جليلة جلية، ألا ترى أنه تعالى أقسم على كونه صلى الله عليه وسلم أكمل الرسل، وأن طريقه أوضح السبل؟! وأشار سبحانه إلى أن المقصود ما ذكر بقوله تعالى: {لتنذر} الخ ثم بينه إجمالا أنه اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب، وتممه بضرب المثل، مدمجا فيه التحريض على التمسك بحبل الكتاب والمنزل عليه، وتفضيلهما على الكتب والرسل، والتنبيه عليه ثانيا بأنه عبادة من إليه الرجعى وحده ثم أخذ في بيان المقدمات بذكر الآيات، وأوتر منها الواضحات، الدالة على العلم والقدرة، والحكمة والرحمة، وضمن فيه أن العبادة شكر المنعم وتلقي النعمة بالصرف في رضاه، والحذر من الركون إلى من سواه، ثم في بيان المتمم بذكر الوعد والوعيد بما ينال في المعاد، وأدرج فيه حديث من سلك ومن ترك، وذكر غايتها، ولخص فيه أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى بالإخلاص عن شائبتي الهوى والرياء، حيث قدم على الأمر بعبادته تعالى التجنب عن عبادة الشيطان، وضمن فيه أن أساسها التوحيد، وكما أنه ذكر الآيات لئلا يكون الكلام خطابيا في المقدمات ختم بالبرهان على الإعادة ١٦٤ ليكون على منواله المتميمات، وجعل سبحانه ختام الخاتمة أنه عز وجل لا يتعاظمه شيء، ولا ينقص خزائنه عطاء، وأنه لا يخرج عن ملكته من قربه قبول أو بعده إباء، تحقيقا لكل ما سلف على الوجه الأتم،. . . . كذا قرره صاحب الكشف، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل] ١٦٥.

٣٧ سورة الصافات:

سورة الصافات:
مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة
كلماتها: ٨٦٠، حروفها: ٣٨٢٦.
١ - (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)
{الصافات} القائمات صفوفا مستوية.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والصافات صفا (١) فالزاجرات زجرا (٢) فالتاليات ذكرا (٣) إن إلهكم لواحد (٤) رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق (٥)}.
{والصافات} الواو للقسم ١، والصف: ترتيب جماعة على خط، والجمهور من مفسري السلف-ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وسعيد ابن جبير، ومجاهد، وقتادة وغيرهم-على أن المراد الملائكة ٢ عليهم السلام، ينظمون أنفسهم في سلك الصفوف، كل في مقامه ورتبته وقربه، كما يشير إليه قول الحق سبحانه: {وما منا إلا له مقام معلوم. وإنا لنحن الصافون. وإنا لنحن المسبحون}، ويصفون أنفسهم في الصلاة والعبادة، كما شهد بذلك الحديث الصحيح، روى الإمام مسلم-رحمه الله- في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد فقال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟) فقلنا: يا رسول الله! كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: (يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف)، {صفا (١)} مصدر مؤكد.
٢ - (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا)
{الزاجرات} المانعات الدافعات بتسلط.
{فالزاجرات زجرا (٢)} فالمانعات الدافعات عن الوقوع في المعاصي، وتلك لمّة الملك: تصديق بالحق، ووعد بالخير، وتمنع وتدفع الشياطين أن تتسلط على المؤمنين المتقين، و {زجرا} مفعول مطلق ومصدر مؤكد،
٣ - (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

{التاليات} القارئات آيات الله.
{ذكرا} كتابا منزلا، فيه ثناء على الله تعالى وتسبيح له وتكبير وشكر.
{فالتاليات ذكرا (٣)} فالملائكة الذين يتلون آيات ربنا سبحانه على أنبيائه، ويبلغونهم كتب الله تعالى ورسالاته، ويوحون إليهم بما شاء المولى من ذكر وتسبيح، وتكبير وتحميد؛ -والفاء العاطفة للصفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفية في الوجود الخارجي إذا كانت الذات المتصفة بها واحدة، أو لترتيب معانيها في الرتبة. . . وكلاهما مع تعدد الموصوف والترتيب الرتبي إما باعتبار الترقي، أو باعتبار التدلي ٠٣
٤ - (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ)
{إلهكم} معبودكم المستحق للعبادة.
{إن إلهكم لواحد (٤)} هذا هو المقسم عليه، إن معبودكم الذي يستحق العبادة الدائمة الحسنة الخالصة من شوائب الرياء هو الله دون سواه، وفي الكلام الكريم من المؤكدات بعد القسم {إن} والجملة الاسمية، واللام،
٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)
{رب} خالق وملك، ومدبر وولي.
{المشارق} الجهات التي يرى شروق الشمس من ناحيتها.
{رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق (٥)} ملك السماوات والأرض وخالقهما ووليهما ومدبرهما، ومطاعهما ورب ما بينهما، ورب المخلوقات العلوية والسفلية، والكواكب ومداراتها الفلكية، ومطالع الشمس والنجوم والقمر، وما نرى وما لا نرى من الروائع الكونية، {ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل} ٠٤ {. . ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} ٠٥
و {رب} خبر ثان ل {إن} [على مذهب من يجوز تعدد الأخبار]، أو خبر مبتدأ محذوف- ٦ [ودل بذكر المطالع على المغارب، فلهذا لم يذكر المغارب، وهو كقوله: {سرابيل تقيكم الحر} ٠٧ . وقال في سورة الرحمن: {رب المشرقين ورب المغربين} ٨ أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار] ٩ مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن. .: بدأ في أول هذه السورة بالتوحيد. . . وأقسم على المطلوب بثلاثة أشياء. . . وأما الإقسام بغير الله وصفاته فلا نسلم أنه لا يجوز لله سبحانه. . . والمراد تعظيم هذه الأشياء وتشريفها، أو المراد: رب هذه الأشياء. . . أو أقسم بنفوس العلماء الصافات لأجل الدعوة إلى دين الله الزاجرات عن الشبهات والمنهيات بالمواعظ والنصائح، والدراسات شرائع الله وكتبه لوجه الله. . . الوجه الثالث أنها صفات آيات القرآن، وذلك أنها أنواع مختلفة: بعضها دلائل التوحيد وبعضها دلائل العلم والقدرة، وبعضها دلائل النبوة، وبعضها دلائل المعاد، وبعضها بيان التكاليف والأحكام، وبعضها تعليم الأخلاق الفاضلة، وكلها مرتبة ترتيبا لا يتغير ولا يتبدل. اه
لكن خالف في ذلك صاحب جامع البيان، وقال: والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا ما قال مجاهد ومن قال هم الملائكة، لأن الله تعالى ذكره ابتدأ القسم بنوع من الملائكة وهم الصافون بإجماع من أهل التأويل، فلأن يكون الذي بعده قسما بسائر أصنافهم أشبه. اه.
٦ - (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)
{إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠)}.
خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق كل شيء ومليكه ومدبره، وولي مطالع الكواكب من حيث يبدو رأي العين جهة ظهورها، هو الذي زين السماء الدنيا القريبة منا بالكواكب تستضيء الأرض بها وتزدان السماء، كما جاء في قوله تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} ١٠، وكذا الآيات الكريمة: {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم} ١١، وكأن التقدير وحفظناها حفظا من كل جني عات متمرد، بعد عن الحق، وتعرى عن

الخيرات، لئلا يصلوا إلى حيث قد يتسنى لأحدهم أن يستمع إلى حديث السماء ومن فيها من سكانها الملائكة، وهم الجمع العلوي من الخلق في مقابلة العالم السفلي سكان الأرض، ويرمون ويرجمون من أي صوب وناحية من السماء يتجهون حيالها ابتغاء استراق السمع، فيظلون ممنوعين منها مطرودين مدفوعين عنها، ولهم عذاب دائم مقيم، وهو كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير} ١٢، إلا من اختطف من الشياطين الكلمة يسمعها من السماء فإن لهبا من السماء ينقض عليه يتوقد فيحرقه. مما في صحيح مسلم-رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:. . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهووا بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. . {إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بعبادة بربنا أحدا) ١٣ فأنزل الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} ١٤ "، [وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها. . .

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه. . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع. . . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة.] ١٥.

٧ - (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{شيطان} جني خبيث بعد عن الحق والخير.

{مارد} خارج عن الطاعة، متمرد متعر عن الخيرات.

{إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠)}.

خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق كل شيء ومليكه ومدبره، وولي مطالع الكواكب من حيث يبدو رأي العين جهة ظهورها، هو الذي زين السماء الدنيا القريبة منا بالكواكب تستضيء الأرض بها وتزدان السماء، كما جاء في قوله تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} ١٦، وكذا الآيات الكريمة: {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم} ١٧، وكأن التقدير وحفظناها حفظا من كل جني عات متمرد، بعد عن الحق، وتعرى عن الخيرات، لئلا يصلوا إلى حيث قد يتسنى لأحدهم أن يستمع إلى حديث السماء ومن فيها من سكانها الملائكة، وهم الجمع العلوي من الخلق في مقابلة العالم السفلي سكان الأرض، ويرمون ويرجمون من أي صوب وناحية من السماء يتجهون حيالها ابتغاء استراق السمع، فيظلون ممنوعين منها مطرودين مدفوعين عنها، ولهم عذاب دائم مقيم، وهو كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير} ١٨، إلا من اختطف من الشياطين الكلمة يسمعها من السماء فإن لهبا من السماء ينقض عليه يتوقد فيحرقه. مما في صحيح مسلم-رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:. . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق

الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهووا بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. . {إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بعبادة بربنا أحدا) ١٩ فأنزل الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} ٢٠ "، [وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها. . .

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه. . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع. . . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة.] ٢١.

٨ - (لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{الملأ الأعلى} الملائكة سكان السماء.

{يقذفون} يرمون ويرجمون.

{جانب} صوب وناحية.

{إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠)}.

خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق كل شيء ومليكه ومدبره، وولي مطالع الكواكب من حيث يبدو رأي العين جهة ظهورها، هو الذي زين السماء الدنيا القريبة منا بالكواكب تستضيء الأرض بها وتزدان السماء، كما جاء في قوله تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} ٢٢، وكذا الآيات الكريمة: {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم} ٢٣، وكأن التقدير وحفظناها حفظا من كل جني عات متمرد، بعد عن الحق، وتعرى عن الخيرات؛ لئلا يصلوا إلى حيث قد يتسنى لأحدهم أن يستمع إلى حديث السماء ومن فيها من سكانها الملائكة، وهم الجمع العلوي من الخلق في مقابلة العالم السفلي سكان الأرض، ويرمون ويرجمون من أي صوب وناحية من السماء يتجهون حيالها ابتغاء استراق السمع، فيظلون ممنوعين منها مطرودين مدفوعين عنها، ولهم عذاب دائم مقيم؛ وهو كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير} ٢٤، إلا من اختطف من الشياطين الكلمة يسمعها من السماء فإن لهبا من السماء ينقض عليه يتوقد فيحرقه. مما في صحيح مسلم-رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:. . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهووا بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. . {إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بعبادة بربنا أحدا) ٢٥ فأنزل الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} ٢٦ "، [وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها. . .

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه. . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع. . . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة.] ٢٧.

٩ - (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
}دحورا{ مطرودين مبعدين.
}واصب{ دائم.

}إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠){.

خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق كل شيء ومليكه ومدبره، وولي مطالع الكواكب من حيث يبدو رأي العين جهة ظهورها، هو الذي زين السماء الدنيا القريبة منا بالكواكب تستضيء الأرض بها وتزدان السماء، كما جاء في قوله تعالى: }ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين{ ٢٨، وكذا الآيات الكريمة: }ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم{ ٢٩، وكأن التقدير وحفظناها حفظا من كل جني عات متمرد، بعد عن الحق، وتعرى عن الخيرات، لئلا يصلوا إلى حيث قد يتسنى لأحدهم أن يستمع إلى حديث السماء ومن فيها من سكانها الملائكة، وهم الجمع العلوي من الخلق في مقابلة العالم السفلي سكان الأرض، ويرمون ويرجمون من أي صوب وناحية من السماء يتجهون حيالها ابتغاء استراق السمع، فيظلون ممنوعين منها مطرودين مدفوعين عنها، ولهم عذاب دائم مقيم؛ وهو كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير{ ٣٠، إلا من اختطف من الشياطين الكلمة يسمعها من السماء فإن لهبا من السماء ينقض عليه يتوقد فيحرقه. مما في صحيح مسلم-رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:. . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهووا بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. . }إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بعبادة بربنا أحدا) ٣١ فأنزل الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن{ ٣٢ "، [وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها. . .

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه. . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع. . . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة.] ٣٣.

١٠ - (إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
}شهاب{ كوكب منقض يهوي من السماء؛ وهو في الأصل: الشعلة الساطعة من النار الموقدة.

{ثاقب} متوقد مضيء.
{إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠)}.
خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق كل شيء ومليكه ومدبره، وولي مطالع الكواكب من حيث يبدو رأي العين جهة ظهورها، هو الذي زين السماء الدنيا القريبة منا بالكواكب تستضيء الأرض بها وتزدان السماء، كما جاء في قوله تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} ٣٤، وكذا الآيات الكريمة: {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم} ٣٥، وكأن التقدير وحفظناها حفظا من كل جني عات متمرد، بعد عن الحق، وتعرى عن الخيرات، لئلا يصلوا إلى حيث قد يتسنى لأحدهم أن يستمع إلى حديث السماء ومن فيها من سكانها الملائكة، وهم الجمع العلوي من الخلق في مقابلة العالم السفلي سكان الأرض، ويرمون ويرجمون من أي صوب وناحية من السماء يتجهون حيالها ابتغاء استراق السمع، فيظلون ممنوعين منها مطرودين مدفوعين عنها، ولهم عذاب دائم مقيم، وهو كما قال ربنا جل ثناؤه: {. . وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير} ٣٦، إلا من اختطف من الشياطين الكلمة يسمعها من السماء فإن لهبا من السماء ينقض عليه يتوقد فيحرقه. مما في صحيح مسلم-رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:. . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهووا بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. . {إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بعبادة بربنا أحدا) ٣٧ فأنزل الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} ٣٨ "، [وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها. . .
وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه. . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع. . . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة.] ٣٩.
١١ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ)
{فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (١١) بل عجبت ويسخرون (١٢) وإذا ذكروا لا يذكرون (١٣) وإذا رأوا آية يستسخرون (١٤) وقالوا إن هذا إلا سحر مبين (١٥) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (١٦) أو آباؤنا الأولون (١٧) قل نعم وأنتم داخرون (١٨) فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون (١٩) وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين (٢٠) هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (٢١) *}.
{فاستفتهم} فاستخبرهم.
{لازب} ملتزق ملتصق.
هدت الآيات التي في أول السورة إلى بصائر فيها من برهان التوحيد، فإن رب الملائكة ومطاعها ومعبودها، ورب السماوات ورافعها، ومزينها وحافظها ومجري كواكبها، ورب الأرض وما فيها ومن فيها من جن وإنس وخلق إنه إله واحد لا يعبد بحق سواه، وهذه الآيات تسوق الحجة على منكري البعث، {فاستفتهم} استخبرهم وسلهم سؤال المنكر عليهم بجودهم {أهم أشد خلقا أم من خلقنا} أهم

أصعب تكوينا وإيجادا، وأعسر إنشاء وإبداعا ممن بدأناهم وخلقناهم من مخلوقاتنا العظيمة؟! كلا! فكم من خلق لله البارئ المصور، فاطر الكون لو تفكرنا في عجيب صنع الله فيه لتبين لنا أن أمر بني البشر بجانب ما برأ سبحانه وذرأ هين ويسير، وصدق الله العظيم: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون} ٤٠.

{إنا خلقناهم من طين لازب (١١)} إنا بدأنا خلق أبيهم آدم من طين متخمر لازب يلزق، فهل من هذا بدء خلقهم يستبعد جمع أجزاء أجسامهم يوم بعثهم؟ {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٤١، -والفاء فصيحة، أي: إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت. . فاستخبر مشركي مكة واسألهم على سبيل التبكيت: {أهم أشد خلقا} أي: أقوى خلقة، وأمتن بنية؟. . . {أم من خلقنا} من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب، والشياطين والشهب الثواقب. . . وغلب العقلاء على غيرهم. . . وأيا ما كان نخلقهم من طين لازب. . شهادة عليهم بالضعف والرخاوة، لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. . - ٤٢.

١٢ - (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

{بل عجبت} ٤٣ إضراب عن استفتائهم واستخبارهم، بسبب تأبيهم عن الحق ومكابرتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل، بل مثلك ممن يتعجب منها {ويسخرون (١٢)} أي وهم يسخرون منك، ومن تعجبك، ومما نريهم من الآيات-قال قتادة: عجب محمد صلى الله عليه وسلم، وسخر ضلال بني آدم، عجب محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين أعطيه، وسخر منه أهل الضلالة. اهـ.

١٣ - (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ)

{وإذا ذكروا لا يذكرون (١٣)} وإذا وعظوا بما هو معلوم من الحق لا يتعظون، لأنهم أصروا على التكذيب والحنث والشرك، واستكبروا عن الدخول في نور الهداية والرشد {وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون} ٤٤،

١٤ - (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

{وإذا رأوا آية يستسخرون (١٤)} وإذا أبصروا معجزة وعلامة خارقة للعادة تدل على صدق ما دعوتهم إلى الإيمان به تمادوا في الاستهزاء والسخرية، وطلب بعضهم من بعض أن يسخر من هذه المعجزة والعلامة، فلا الآيات الكونية تهديهم، ولا الآيات القرآنية تؤثر فيهم، ولا المعجزات المرئية ردتهم عن عتوهم وتماديهم، كما قال المولى سبحانه فيهم وفيمن يضاهيهم: {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} ٤٥

١٥ - (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{قالوا إن هذا إلا سحر مبين (١٥)} وبدلا من التصديق والإذعان، والإقرار بالحق الذي تدعوهم إليه، والإيمان، يقولون: ما هذا الذي تقول وتأتي به إلا تخييل وأوهام، وسحر وخداع ظاهر وَهْمِيَّتُهُ وسحره،

١٦ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

{أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (١٦). أو آباؤنا الأولون (١٧)} يكذبون بالبعث، ويستبعدون وقوعه، ويعدونه شيئا لا يمكن تحققه، ويقولون: أبعد موتنا وصيرورة أجزاء من أبداننا ترابا وصيرورة بعضها عظاما نبعث؟ وآباؤنا الأقدمون يبعثون؟! والفعل {وقالوا} يراد به: ويقولون، لكن عبر بالماضي لتحقق الوقوع كأنه قد وقع فعلا.

١٧ - (أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]

{أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (١٦). أو آباؤنا الأولون (١٧)} يكذبون بالبعث، ويستبعدون وقوعه، ويعدونه شيئا لا يمكن تحققه، ويقولون: أبعد موتنا وصيرورة أجزاء من أبداننا ترابا وصيرورة بعضها عظاما نبعث؟ وآباؤنا الأقدمون يبعثون؟! والفعل {وقالوا}

يراد به: ويقولون، لكن عبر بالماضي لتحقق الوقوع كأنه قد وقع فعلا.
١٨ - (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)
{داخرون} أذلاء صاغرون.
{قل نعم وأنتم داخرون (١٨)} أمر من الله تعالى لنبيه أن يرد على هؤلاء المتسائلين المستبعدين بعث الأجساد بعد صيرورتها ترابا أن يجيبهم بما يقرروا إتيان البعث لا محالة، قل لهم: نعم تبعثون ويبعث آباؤكم وتكونون على حال من الذلة والصغار حين تنشرون وتحشرون وتحاسبون، كما قال مولانا وهو أصدق القائلين: {وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل} ٤٦ وفي آية كريمة أخرى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم} ٤٧،
١٩ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)
{زجرة} صيحة، ولعل المراد بها النفخة الثانية.
{فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون (١٩)} ليست إعادة الأرواح إلى أجسادها، وجمعها بعد تفتتها وتفرق أجزائها، ليس ذلك بالأمر العسير علينا ولا مما يحتاج إلى وقت طويل، إنما هي نفخة في الصور ينفخها ملك بأمرنا فإذا الموتى قيام ينظرون إلى الهول المحيط بهم، ويعاينون ما كانوا يوعدون من قيام الساعة أو ينتظرون ما يقضى به في مصيرهم.
٢٠ - (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)
{يا ويلنا} يا هلاكنا احضر!
{يوم الدين} يوم الجزاء.
{وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين (٢٠)} أقر المنكرون إحياء الله الناس إذ عاينوا الآخرة بما كانوا يستبعدون وقوعه من قبل، ونادوا على أنفسهم بالهلاك، وشهدوا أن هذا هو يوم الجزاء.
عن قتادة: {هذا يوم الدين} قال: يدين الله فيه العباد بأعمالهم. اه.
٢١ - (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)
{الفصل} القضاء، والفرق بين المحسن والمسيء.
{هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ٢١} ويقال لهم هذا هو يوم يفصل الحق خير الحاكمين بين أهل الجنة، وأهل النار الهالكين، ولقد كنتم بكل هذا في دنياكم مكذبين، مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: {وقالوا يا ويلنا} الظاهر أن كلامهم يتم عند قوله: {تكذبون} يقوله الكفرة فيما بينهم، وقيل: إن كلامهم يتم عند قوله: {يا ويلنا} ثم قال الله، أو الملائكة: هذا يوم الجزاء والحساب {هذا يوم الفصل} القضاء والفرق بين المحسن والمسيء. اه.
٢٢ - (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)
{احشروا} اجمعوا، وسوقوا.
{ظلموا} أشركوا وأجرموا.
{وأزواجهم} أشباههم.
{احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم (٢٣) وقفوهم إنهم مسئولون (٢٤) مالكم لا تناصرون (٢٥) بل هم اليوم مستسلمون (٢٦) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٧) قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين (٢٨) قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٢٩) وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين (٣٠) فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (٣١) فأغويناكم إنا كنا غاوين (٣٢) فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون (٣٣) إنا كذلك نفعل بالمجرمين (٣٤) إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق وصدق المرسلين (٣٧)}.
يقول الواحد القهار، يوم تشخص الأبصار: اجمعوا المشركين ومن شايعهم ٤٨ وتابعهم، وسوقوا المجرمين ومن رضي بعدوانهم أو

وادعهم ومعهم آلهتهم التي زعموها، ليكونوا وإياهم حطبا للنار إذا وردوها، فأروهم الطريق إلى جهنم، واحبسوهم لنسألهم عما أجرموا. . . {ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون} ٤٩، كما قال الله عز وجل: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون} ٥٠.

ثم يقال لهم تحسيرا: {مالكم لا تناصرون} ما الذي دهاكم فلا ينصر بعضكم بعضا، وأصله: تتناصرون، حذفت إحدى التاءين، ولقد أعذر ربنا وأنذر: {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون} ٥١، {بل هم اليوم مستسلمون} كل أتوا الواحد القهار أذلة خاضعين {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} ٥٢، مما أورد صاحب روح المعاني: {وقفوهم} أي: احبسوهم في الموقف {إنهم مسئولون} عن عقائدهم وأعمالهم، وفي الحديث: (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله مما كسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به. . . والذي يترجح عندي أن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما هو بعد إقامة الحجة عليهم وقطع أعذارهم وذلك بعد محاسبتهم، وعطف {اهدوهم} على {احشروا} بالفاء إشارة إلى سرعة وقوع حسابهم، وسؤالهم: {ما لكم لا تناصرون؟} الأليق أن يكون بعد تحقق ما يقتضي التناصر، وليس ذلك إلا بعد الحساب والأمر بهم إلى النار، فلعل الوقف لهذا السؤال في ابتداء توجههم إلى النار، والله تعالى أعلم. اهـ.

{وأقبل بعضهم على بعض} اتجه بعض الكافرين والمجرمين إلى بعض اتجاه المتخاصم المتلاوم، والمتحسر النادم {يتساءلون} يسأل الأتباع كبراءهم، كما يشير إلى ذلك قول الله تبارك وتعالى: {فبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء} ٥٣.

وذهب الطبري إلى أن الإنس الكافرين يسألون الجن الشياطين المضلين، وكأنه أخذ ذلك من معنى قول الحق سبحانه: {ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها. } ٥٤.

{قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين} قال الضالون لمن أضلوهم إنما أتيتمونا وتوصلتم إلى إضلالنا بما كنتم تقسمون به من أيمان تحلفون زورا أنكم على الحق، وما كنتم إلا مبطلين كاذبين: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم} ٥٥، أو أتيتمونا من ناحية الخير، وزعمتم أن طريقكم أهدى مما دعانا إليه رسل الله، وزينتم لنا أن اليمن والبركة فيما تنتهجون، وحكى عن بعض أن من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبّس عليه الحق، ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة والثواب والعقاب، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة، وكأنهم جعلوا اليمين هنا يراد بها الصوب والناحية اليمنى، وجمعها: أيمان، وتأولوا ما جاء في الآية الكريمة {ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٥٦.

{قالوا بل لم تكونوا مؤمنين} قال قتادة: هذا قول الشياطين لهم، وقيل من قول الرؤساء، أي لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة {وما كان لنا عليكم من سلطان} أي من حجة في ترك الحق، {بل كنتم قوما طاغين} أي ضالين متجاوزين الحد.

{فحق علينا قول ربنا} هو أيضا من قول المتبوعين، أي وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل. . . هذه المحاجة والمجادلة بين الهالكين المعذبين آتية لا ريب فيها: {إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٥٧ فهو بلسان المقال، وليس مجازا ولا بلسان الحال، وصدق ربنا ذو الجلال: {. . . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا

الندامة لما رأوا العذاب} ٥٨.
}إنا لذائقون} [فكأنهم قالوا: ولأجل أنا جميعا في حد ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنا قوما طاغين لزمنا قول ربنا وخالقنا، العالم بما نحن عليه. . . وثبت علينا وعيده سبحانه بأنا ذائقون لا محالة لعذابه عز وجل. . . فلا يلومن بعضنا بعضا، ولكن لِيَلُم كل منا نفسه. . . }فأغويناكم} أي: فدعوناكم إلى الغي. . . }إنا كنا غاوين}. . . وملخص كلامهم: إنه ليس منا في حقكم على الحقيقة سوى حب أن تكونوا مثلنا، وهو غير ضار لكم، وإنما الضار سوء اختياركم وقبح استعدادكم فذلك الذي ترتب عليه حقية الوعد عليكم، وثبوت هذا العذاب لكم] ٥٩ وقريب من هذا ما جاء في آيات كريمة: }وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ٦٠ وقوله جل ثناؤه: }. . . كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون} ٦١.
}فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون} ومهما تلاعنوا وتخاصموا، وتبرأ بعضهم من بعض وتشاتموا، فالعذاب واقع على الفريقين كليهما }إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار} ٦٢ والشيطان يخذلهم ويزيدهم خبالا فيقول ما حكاه القرآن المجيد: }. . وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم} ٦٣، والشركة لا تقتضي المساواة فإن المغوين يؤخذون بذنوبهم وذنوب من فتنوهم عن الحق وكانوا سببا في إغوائهم مصداقا لوعيد الواحد القهار }وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ٦٤.
}إنا كذلك نفعل بالمجرمين} استيقنوا أنا نوقع هذا الوبال والنكال بكل أهل الكفر والضلال، }إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} هؤلاء الذين يحل بهم الخسار وعذاب النار كانوا إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله يأبون ويأنفون، ولا يقولون ولا يقبلون، فلا يقرون بوحدانية الله تعالى ٦٥. }ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} يكذبون بالرسل ويسخرون منه ويتهمونه بالسحر والشعر والجنون، فهم بهذا الإفك والافتراء ينكرون الوحي ويكفرون بما أنزل على النبي، مثلما شهد عليهم الكتاب الحق: }وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون} ٦٦.
}بل جاء بالحق وصدق المرسلين} فالذي أنزل إليه من ربه هو الحق، وليس بدعا من الرسل، بل دعا إلى مثل ما دعا إليه إخوانه الذين بعثهم الله تعالى بالهدى والرسالات من قبله، والله تعالى يشهد بذلك في قوله الحكيم: }ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} ٦٧.
٢٣ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)
}فاهدوهم} فدلوهم.
}صراط} طريق.
}الجحيم} النار المتأججة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٢٤ - (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٢٥ - (مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ)
}تناصرون} تتناصرون ينصر بعضكم بعضا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار

٢٦ - (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)
{مستسلمون} منقادون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٢٧ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٢٨ - (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)
{عن اليمين} عن الدين أو القسم أو التيامن.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٢٩ - (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٠ - (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)
{سلطان} تسلط وقهر.
{طاغين} متجاوزين الحد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣١ - (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)
{فحق} فوجب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٢ - (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)
{فأغويناكم} فأضللناكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٣ - (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٤ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٥ - (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)
{يستكبرون} يأبون وينفرون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٦ - (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٧ - (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)
{جاء بالحق} أتاه من ربه الدين الحق.
{وصدق المرسلين} جاء مصدقا لمن سبقه من رسل الله كافة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٢ إظهار
٣٨ - (إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ)

{إنكم لذائقو العذاب الأليم (٣٨) وما تجزون إلا ما كنتم تعملون (٣٩)}.
يقال لهم تحسيرا وتخسيرا: ستصلون لا محالة العذاب الدائم الذي لا ينقطع ولا يفتر ولا يخف، وهو بالغ أقصى الوجع وأخزاه، وما ظلمكم الله، وإنما تثابون على ما قدمتم في الحياة الدنيا: {وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين} ٦٨.
[{إنكم} بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار {لذائقو العذاب الأليم} والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد، وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين] ٦٩.
٣٩ - (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
{إنكم لذائقو العذاب الأليم (٣٨) وما تجزون إلا ما كنتم تعملون (٣٩)}.
يقال لهم تحسيرا وتخسيرا: ستصلون لا محالة العذاب الدائم الذي لا ينقطع ولا يفتر ولا يخف، وهو بالغ أقصى الوجع وأخزاه، وما ظلمكم الله، وإنما تثابون على ما قدمتم في الحياة الدنيا: {وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين} ٧٠.
[{إنكم} بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار {لذائقو العذاب الأليم} والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد، وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين] ٧١.
٤٠ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.
{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.
لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٧٢، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٧٣ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٧٤. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.
{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٧٥.
والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ٧٦، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في

أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤١ - (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.

{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٧٧، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٧٨ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٧٩. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٨٠.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ٨١، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤٢ - (فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]
{فواكه} ثمار رطبة ويابسة.
{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.
{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.
لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٨٢، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٨٣ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٨٤. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.
{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٨٥.
والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ٨٦، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.
{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.
٤٣ - (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]
{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.
{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٨٧، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٨٨ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٨٩. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٩٠.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ٩١، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤٤ - (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.

{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٩٢، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل

للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٩٣ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٩٤. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٩٥.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ٩٦، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤٥ - (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{بكأس} بإناء فيه شرابه.

{معين} شراب جار ظاهر.

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.

{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ٩٧، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٩٨ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ٩٩. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٠٠.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ١٠١، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤٦ - (بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.

{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ١٠٢، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٠٣ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ١٠٤. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٠٥.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ١٠٦، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في

أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

٤٧ - (لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]

{غول} فساد يلحق في خفاء، أو وجع، أو مغص، أو صداع، أو مرض.

{ينزفون} يسكرون وتذهب عقولهم.

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.

{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.

لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ١٠٧، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٠٨ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ١٠٩. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.

{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١١٠.

والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ١١١، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.

{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه

الأيدي، ولم يصبه الغبار.
٤٨ - (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]
{قاصرات الطرف} مقصورة أنظارهن على أزواجهن.
{عين} عظام العيون.
{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.
{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.
لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ١١٢، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١١٣ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ١١٤. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.
{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١١٥.
والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ١١٦، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.
{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.
٤٩ - (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]
{مكنون} مصون.

{المخلصين} أخلصهم الله تعالى لطاعته وولايته.
{إلا عباد الله المخلصين (٤٠) أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩)}.
لكن عباد الرحمن الذين أخلصهم الملك الديان لطاعته وولايته لا يذوقون العذاب، [وقيل استثناء منقطع من ضمير {تجزون} على أن المعنى: تجزون بمثل ما عملتم، لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. . . . {أولئك} العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى {لهم} إما خبر له، وقوله سبحانه: {رزق} مرتفع على الفاعلية للظرف، وإما خبر مقدم، و {رزق} مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدأ. . {معلوم} أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع، حسن المنظر، لذيذ الطعم، طيب الرائحة. .] ١١٧، {فواكه} بدل من رزق، بدل كل من كل، وقد تعني ما يؤكل للتلذذ دون الاقتيات، وقد تعني الثمار كلها رطبها ويابسها، {وهم مكرمون} والعباد المخلصون لا يلحقهم في الجنة هوان بل هم في ضيافة الكبير المتعال {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١١٨ موفورة كرامتهم، وهذا من نعيمهم المعنوي فوق ما ينالهم من النعيم الحسي، {في جنات النعيم. على سرر متقابلين} مستقرهم جنات ليس فيها كد ولا هم، ولا سقم ولا موت، وإنما هي للنعيم المقيم {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} ١١٩. ويجلسون على سرر مصفوفة، يتكئون عليها ووجوههم متقابلة، لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر.
{يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين} تدار عليهم الأشربة الشهية اللذيذة، تجري وتتدفق بها جداول وأفلاج في الجنة، كالذي بشر الله تعالى به في قوله الكريم: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٢٠.
والآنية التي يسقون بها منها ما هو كأس اتسع فمه وليس له مقبض، ويطاف عليهم بآنية أخرى، كما جاء في قول الحق تبارك اسمه: {يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين} ١٢١، فالأكواب أوان لها عرى وليس لها خراطيم، والأباريق أوان ذات عرى وخراطيم، والكأس بيضاء يستمتع الشارب برؤيتها ويتلذذ بشرب ما فيها، {لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ليس في أشربة الجنة ما يعقب شاربها وجعا أو مغصا أو مرضا، أو صداعا، ولا ما يدخل عليه فسادا يلحقه في خفاء وهو لا يدري، كما أنها لا تذهب العقل، ولا توهن البدن، وقيل عن للتعليل والسببية.
{وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون} ومع عباد الله المخلصين في جنات النعيم نساء قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا يمددن بصرا إلى غيرهم، واسعات أعينهن، بلغن الغاية في الجمال، والصون والعفاف، كالبيض الذي كنه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.
٥٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)
{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.
وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٢٢.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٢٣ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٢٤ - ١٢٥، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٢٦، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٢٧ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٢٨.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥١ - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{قرين} مقارن إنسي أو جني.

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٢٩.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٣٠

ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٣١ - ١٣٢، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٣٣، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٣٤ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٣٥.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٢ - (يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٣٦.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٣٧ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٣٨ - ١٣٩، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٤٠، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٤١ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٤٢.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٣ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لمدينون} لمحاسبون، أو: لمجزيون؟

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٤٣.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٤٤ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٤٥ - ١٤٦، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٤٧، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٤٨ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٤٩.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٤ - (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]
{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.
وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٥٠.
{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٥١ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٥٢ - ١٥٣، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٥٤، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٥٥ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٥٦.
{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.
٥٥ - (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]
{سواء} وسط.
{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.
وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف

على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٥٧.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٥٨ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٥٩ - ١٦٠، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٦١، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٦٢ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٦٣.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٦ - (قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{لتردين} لتهلكني.

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٦٤.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا!

فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٦٥ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٦٦ - ١٦٧، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٦٨، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٦٩ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٧٠.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٧ - (وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{المحضرين} الذين تستحضرهم ملائكة العذاب ليصلوهم النار.

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٧١.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٧٢ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٧٣ - ١٧٤، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٧٥، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار

السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٧٦ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٧٧.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٥٨ - (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٧٨.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٧٩ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٨٠ - ١٨١، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٨٢، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٨٣ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٨٤.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما

بعدها أن تكون متأخرة.
٥٩ - (إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]
{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.
وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٨٥.
{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٨٦ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٨٧ - ١٨٨، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٨٩، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٩٠ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٩١.
{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.
٦٠ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]
{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٩٢.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا! فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ١٩٣ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ١٩٤ - ١٩٥، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ١٩٦، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ١٩٧ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ١٩٨.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٦١ - (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أئنك لمن المصدقين (٥٢) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تا الله إن كدت لتردين (٥٦) ولول نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١)}.

وأهل الجنة يتساءلون، ويتحدث بعضهم مع بعض ويتفاوضون، ويتذاكرون ما كان منهم في حياتهم الدنيا، وما لاقوه، -وهو معطوف على معنى: {يطاف عليهم} المعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. . . فيقبل بعضهم يتساءلون. . . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره- ١٩٩.

{قال قائل منهم إني كان لي قرين} قال واحد من المنعمين لجلسائه في دار الخلد والتكريم: إني كان لي رفيق مقارن، وصاحب ملازم-من الإنس أو من الجن-صاحبني في الدنيا وكان يقول لي منكرا مستبعدا، ومكذبا بالقيامة جاحدا: {أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون} ويعجب مني ويسخر كيف استيقنت بالحساب والجزاء، وأنّى للأجسام بعد بلاها وتفتت أجزائها أن تعود كسابق عهدها؟! قال المتحدث لمن يحدثهم: أدعوكم لتطلعوا على رفيق السوء الذي حدثتكم عما كان منه؟ أشرفوا وانظروا!

فاطلع فأبصر به في وسط جهنم، وازداد المطلعون شكرا للبر الرحيم، أن وقاهم عذاب الجحيم، وقال متحدثا بفضل مولاه شاكرا لأنعمه: {تا الله إن كدت لتردين} قسما بالله لقد قاربت أن تهلكني بسوء وسواسك {. . يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ٢٠٠ ولو أطعتك لخسرت خسرانا مبينا {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ولولا أن الله تعالى منّ عليّ باليقين، وعصمني من تضليل الزائغين، لكان المصير إلى العذاب المهين، -ولكنه رحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ٢٠١ - ٢٠٢، فإياك أخي ترافق من يزين لك الغرور، ولا يزجرك عن مسالك الكفور والفجور، فإن المرء على دين خليله، وصدق الله العظيم، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٢٠٣، ويتابع المؤمن حديثه فرحا بما آتاه الله من فضله حيث أدخله دار السلام، ومنحه الخلد فيها دون موت ولا أسقام: {أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ٢٠٤ وما نحن بمعذبين}؟! [وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي، قوله تعالى: {أفما نحن بميتين}. . . معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟! وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. .] ٢٠٥.

{إن هذا لهو الفوز العظيم} عن قتادة: قوله {أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم} قال: هذا قول أهل الجنة، وقوله: {لمثل هذا فليعمل العاملون} يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم. النحاس: وتقدير الكلام- والله أعلم-: فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تفيد أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب: أن التقديم كمثل التأخير، لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

٦٢ - (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)

{نزلا} رزقا واسعا.

{الزقوم} ما يبلع بعسر لخبثه.

{أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم (٦٢) إنا جعلناها فتنة للظالمين (٦٣) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعها كأنه رؤوس الشياطين (٦٥) فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون (٦٦) ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم (٦٨)}.

هل الذي أعد لأهل النعيم من الرزق المعلوم والفواكه والمشارب والزوجات، والكرامة ورفعة الدرجات أفضل ضيافة وعطاء أم طعام أهل النار، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وإنما هو ثمرة شجرة خبيثة المنبت، كريهة المرأى، يعذبون بتجرعها، ولا يكفيهم منها القليل: {إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم} ٢٠٦، ثم إن غصت بها حلوقهم-وإنها لكذلك-فليس من غوث إلا أن يسقوا من الماء الحار {. . . وسقوا ماءا حميما فقطع أمعاءهم} ٢٠٧، ثم إن المسكن والمستقر لا يتجاوز السعير وسقر، كما قال تعالى: {يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٠٨.

{أذلك} الاستفهام هنا يراد به التوبيخ والتهكم، وأشير إلى ما ذكر من نزل أهل الجنة وهو قريب بما يشار به إلى البعيد {ذلك} لعلو منزلته، وبعد مكانته، -إنا جعلناها فتنة للظالمين} محنة وعذابا لهم في الآخرة وابتلاء في الدنيا، فإنهم سمعوا أنها في النار قالوا: كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر، وكذا قال أبو جهل، ثم قال استخفافا بأمرها لا إنكارا للمدلول اللغوي: والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق، فالنار لا تحرق إلا بإذنه. . . . {طلعها} أي حملها. . . {كأنه رؤوس الشياطين} أي في تناهي الكراهة وقبح المنظر، والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان. . وإن لم يروه، لما أنه مستقبح جدا في طباعهم لاعتقادهم أنه شر محض. . . . وبهذا يرد على بعض الملاحدة حيث طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف، وحاصله أنه لا يشترط أن يكون معروفا في الخارج، بل يكفي كونه مركوزا في الذهن والخيال- ٢٠٩.

[وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملاحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم وعقاب تتخلله الأرواح، وحملوا

وزن الأعمال، والصراط واللوح والقلم على معاني زوروها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء هو موهوم في العقل فالواجب تصديقه، وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن] ٢١٠، نقل عن القشيري: ولعل الحميم في موضع جهنم على طرف منها. اهـ.

٦٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)

{فتنة} ابتلاء وعذابا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٤ - (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)

{أصل} قاع.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٥ - (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٦ - (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٧ - (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

{شوبا} خلطا.

حميم} ماء حار.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٨ - (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٢ إظهار

٦٩ - (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

{ألفوا} وجدوا.

{إنهم ألفوا آباءهم ضالين (٦٩) فهم على آثارهم يهرعون (٧٠) ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين (٧١) ولقد أرسلنا فيهم منذرين (٧٢) فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) إلا عباد الله المخلصين (٧٤)}.

وما أوردهم موارد الخسار والبوار إلا المسارعة في اقتفاء آثار أسلافهم الكفرة الفجار {. . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} ٢١١، إنهم وجدوا وصادفوا آباءهم زاغوا وعموا عن الحق فكانوا سراعا في انتهاج طريقتهم وسبيلهم، والاقتداء بهم في غيهم، وما أكثر الهلكى في السابقين، بل ويمضي ذلك في الآخرين، وصدق الله العظيم: {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} ٢١٢، {. . ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٢١٣ {. . وقليل من عبادي الشكور} ٢١٤ وما للناس على الله تعالى حجة بعد أن بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، والمعرضون عن الهدى بعد أن تبين لهم سوء مصيرهم في العاجل والآجل: {وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا. أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا} ٢١٥، وعباد الله الذين استخلصهم ربنا لطاعته ومحبته وولايته لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة {. . . فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} ٢١٦.

٧٠ - (فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

{آثارهم} طريقتهم وسبيلهم.

{يهرعون} يستحثون ليسرعوا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار
٧١ - (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار
٧٢ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار
٧٣ - (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار
٧٤ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
{المخلصين} الذين استخلصهم الله تعالى من الضلال.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٩ إظهار
٧٥ - (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) *}.

بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢١٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢١٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢١٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٢٠.

{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٢١] ٢٢٢.

{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين . . . ٢٢٣-.

{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.

مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى

قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٢٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى. .) ٢٢٥.

{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٢٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.

٧٦ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢)}*.

بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، لحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٢٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٢٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٢٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٣٠.

{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٣١] ٢٣٢.

{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين ٢٣٣. . . -.

{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.

مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٣٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى. ٢٣٥).

{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٣٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.

٧٧ - (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) }*.

بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.

{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٣٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٣٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٣٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٤٠.

{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٤١] ٢٤٢.

{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين ٢٤٣. . . -.

{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه

ولا يخشى سواه.
مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٤٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى. .) ٢٤٥.
{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٤٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.
٧٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) }*.
بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٤٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٤٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٤٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٥٠.
{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٥١] ٢٥٢.
{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين . . .-٢٥٣.
{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية

الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.
مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٥٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى. ٠) ٢٥٥.
{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٥٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اهـ.
٧٩ - (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) }*.
بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، لحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٥٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٥٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٥٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٦٠.
{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٦١] ٢٦٢.
{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين ٢٦٣. . . -.

{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.
مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٦٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى.) ٢٦٥.
{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٦٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.
٨٠ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) }*.
بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٦٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٦٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٦٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٧٠.
{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٧١] ٢٧٢.
{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين

٠٢٧٣ . . . -٠
{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.
مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٧٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى. ٢٧٥).
{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٧٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.
٨١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢) *}.
بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٧٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٧٨، {. قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٧٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٨٠.
{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٨١] ٢٨٢.
{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة

الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين ٢٨٣. . . -.
{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.
مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٨٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى.) ٢٨٥.
{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٨٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.
٨٢ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢)}*.
بينت آيات كريمة سبقت أن كثيرا من الأمم السالفة ضلوا، وعتوا عن أمر الله ورسله ولم يزدجروا، فلينظر كل معتبر بعين بصيرته ليرى عاقبة الذين بغوا وجحدوا، فإن في هذا التثبيت والبشرى للذين اتقوا وأحسنوا، والحجة على الغاوين ومن كفروا.
{ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون} اللام في {لقد} وفي {فلنعم} كلتاهما وقعتا جواب قسم محذوف-أي وتالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ونفورا، فأجبناه أحسن الإجابة. فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه- ٢٨٧، لما أصر قوم نوح واستكبروا ونأوا عن توحيد الله الخلاق الرزاق ونهوا {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٢٨٨، {. . قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ٢٨٩ {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} ٢٩٠.
{ونجيناه وأهله من الكرب العظيم} حفظناه وأهل الإيمان به، وأنقذناهم وسلمناهم من البلاء الشديد، والغم الثقيل، والإهلاك بالطوفان، وسلمنا عقبه ومن تناسل ممن أنجيناهم في الفلك، ووهبناهم الذرية التي عمرت بها الأرض بعد إغراق الكافرين، {وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه في الباقين، يمتد إلى يوم الدين، قال ابن عباس: يذكر بخير. اه [وقيل: {في الآخرين} أي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الأنبياء، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ٢٩١] ٢٩٢.

{سلام على نوح في العالمين} -مبتدأ وخبر، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء. . . وقوله تعالى: {في العالمين}. . . من تتمة الجملة السابقة، وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث إنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين . . . ٢٩٣.-.

{إنا كذلك نجزي المحسنين} مثل ذلك الجزاء الكريم الذي يطيب به الذكر على ألسن الملائكة والإنس والجن، ويخلد الأثر بالذرية الطيبة، إلى ما وعدوا به من بعد من درجات عالية ونعيم مقيم، نجزي من صبر على الحق، وجاهد في سبيله، وبلغ رسالات ربه يخشاه ولا يخشى سواه.

مما جاء في جامع البيان: قوله: {إنا كذلك نجزي المحسنين} يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح مجازة له على طاعتنا، وصبره على أذى قومه في رضانا، فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وأبقينا عليه ثناء في الآخرين كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. فاستيقنوا معاشر الداعين إلى الله على هدى وبصيرة، واستبشروا بوعد الملك الحق الذي ينجز ما وعد: {. . . ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا} ٢٩٤، [وما فيه من معنى البعد- {كذلك} -للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها، أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: {إنه من عبادنا المؤمنين} تعليل لكونه عليه السلام مؤمنا، المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى.) ٢٩٥.

{ثم أغرقنا الآخرين} {ثم} ذهب الطبري إلى أنها قد تعني الاقتران، فيقول: ثم أغرقنا-حين نجينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه، ويرى الألوسي أنها للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق، بينما يقول القرطبي: و {ثم} ليست للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النعم، كقوله: {أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا} ٢٩٦ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. اه.

٨٣ - (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

{شيعته} أتباعه على منهاجه.

{وإن من شيعته لإبراهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أئفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة في النجوم (٨٨) فقال إني سقيم (٨٩) فتولوا عنه مدبرين (٩٠)}.

وإن من أتباع نوح فيما كان يدعوا إليه من توحيد الله، والكفر بالأوثان والأصنام التي عبدوها من دون الله لإبراهيم الذي أخلص قلبه لحب الله، والرأفة بالمخلوقين، ومن خلوص قلبه أن دعا أباه وقومه إلى المعبود بحق، وأبطل ما كانوا يفترون {إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون} استفهام للإنكار والتحقير، فإنه عليه صلوات الله كان على يقين من أن معبوداتهم ليست إلا مخلوقات عاجزة {وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا} ٢٩٧، {. . هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون} ٢٩٨، {يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} ٢٩٩، {إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون} ٣٠٠، و {إذا} الأولى منصوبة بفعل محذوف تقديره: واذكر،و {إذ} الثانية بدل من الأولى،- {أئفكا آلهة دون الله تريدون} أي أتريدون آلهة من دون الله تعالى إفكا، أي للإفك، فقدم المفعول به على الفعل للعناية، لأن إنكاره أو التقرير به هو المقصود. . . ثم المفعول لأجله لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. . أو الكلام على تقدير مضاف أي عبادة آلهة، وهي صرف للعبادة عن وجهها. . . {فما ظنكم برب العالمين} أي: أي شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين؟! أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية؟! أو أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى. . .

{فنظر نظرة في النجوم} أي: فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها، وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في خلق السماوات والأرض، وتفكرهم في ذلك، إذ هو اللائق به عليه السلام، لكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من

الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث، ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي يكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه- ٣٠١.
{فقال إني سقيم} ربما كان ذلك ردا على ما طلبوا إليه الخروج معهم يوم عيدهم-كما روي-، وقال الضحاك: معنى {سقيم} سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت ينسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض. . . اهـ.
روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث قوله: {إني سقيم} وقوله لسارة أختي وقوله: {بل فعله كبيرهم هذا} ٣٠٢) لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
مما يقول القاضي أبو بكر بن العربي: والمعاريض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه، كما قال: {. . . ألا لله الدين الخالص} ٣٠٣، وهذا لو صدر منا لكان لله، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا، والله أعلم، ومما جاء في تفسير القرآن العظيم: فأما قوله عليه السلام: (لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاثة كذبات ثنتين في ذات الله تعالى قوله: {إني سقيم} وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. .، وقوله في سارة: " هي أختي " فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن، ولكن ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) اهـ.
ومما جاء في روح المعاني:. . أراد شيئا وفهم السائل آخر ولا يعد ذلك كذبا في الحقيقة، وتسميته به في بعض الأحاديث الصحيحة بالنظر لما فهم الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم، وجعله ذنبا في أحاديث الشفاعة قيل لأنه ينكشف لإبراهيم عليه السلام أنه كان منه خلاف الأولى. . اهـ.
{فتولوا عنه مدبرين} فلما قال لهم ما قال أعرضوا عنه، وفروا، وهربوا-ربما لخوفهم أن تنالهم عدوى.
٨٤ - (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)
{سليم} مستيقن بالحق، قائم بالرفق بالخلق، خالص من شوائب الشرك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٨٥ - (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٨٦ - (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)
{إفكا} كذبا وافتراء.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٨٧ - (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٨٨ - (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٨٩ - (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار
٩٠ - (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)
{فتولوا} فأعرضوا.
{مدبرين} فارين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨٣ إظهار

٩١ - (فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)
{فراغ} فمال.
{فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون (٩١) مالكم لا تنطقون (٩٢) فراغ عليهم ضربا باليمين (٩٣) فأقبلوا إليه يزفون (٩٤) قال أتعبدون ما تنحتون (٩٥) والله خلقكم وما تعملون (٩٦)}.
فلما انصرف القوم عن إبراهيم، خرج فذهب إلى آلهتهم، فخاطبها خطاب من يعقل استهزاء بها وبعابديها، هلا أكلتم؟! فلم يجيبوا، فكرر سؤالها سخرية من الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تستطيع خلقا ولا رزقا: {مالكم لا تنطقون}؟ وأنى تجيب وهي الجماد الذي لا حس به! {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها} ٣٠٤، كلا! {فراغ عليهم ضربا باليمين} فمال إبراهيم عليها يضربها بيمينه، حتى تهشمت، وغدت قطعا حجرية صغيرة،- {فراغ عليهم} فمال مستعليا عليهم، وقوله تعالى: ضربا مصدر لراغ عليهم باعتبار المعنى، فإن المراد منه ضربهم. . . {باليمين} أي باليد اليمين-كما روي عن ابن عباس- وتقييد الضرب باليمين للدلالة على شدته وقوته، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وأشدهما في الغالب. . . وقيل: المراد باليمين الحلف،. . . وأريد باليمين قوله عليه السلام: {وتالله لأكيدن أصنامكم} ٣٠٥ والباء عليه للسببية أي ضربا بسبب اليمين الذي حلفه قبل، وهي على ما تقدم للاستعانة أو للملابسة- ٣٠٦، {فأقبلوا إليه يزفون} ٣٠٧ يمكن أن يكون عطفا على محذوف، والتقدير: فكسر الأصنام، وسمع قومه بذلك، فأقبلوا إليه يسعون، وحكى يحيى بن سلام: يرعدون غضبا، وقال مجاهد: يختالون، وهي مشي الخيلاء، ومنه أخذ زفاف العروس إلى زوجها.
({قال أتعبدون ما تنحتون} فيه حذف، أي قالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال محتجا: {أتعبدون ما تنحتون}؟ أي أتعبدون أصناما أنتم نحتموها بأيديكم تنجرونها؟!. . . {والله خلقكم وما تعملون} {ما} في موضع نصب، أي: وخلق ما تعملون من الأصنام، يعني: الخشب والحجارة وغيرهما، كقوله: {. . بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن} ٣٠٨. . والأحسن أن تكون {ما} مع الفعل مصدرا، والتقدير: والله خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خلق لله عز وجل، واكتساب للعباد. .] ٣٠٩.
٩٢ - (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩١ إظهار
٩٣ - (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)
{فراغ} فمال.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩١ إظهار
٩٤ - (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ)
{يزفون} يسعون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩١ إظهار
٩٥ - (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩١ إظهار
٩٦ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩١ إظهار
٩٧ - (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)
{ابنوا له بنيانا} ابنوا لأجله حائطا توقدون فيه النار.
{فألقوه في الجحيم} فارموا بإبراهيم في جحيم ذلك البنيان، وعند تأجج نار وشدة اتقادها.
{قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم (٩٧) فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين (٩٨)}.

مما أورد صاحب تفسير القرآن العظيم: يحتمل أن تكون {ما} مصدرية فيكون الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعا قال: (إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: {ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم}. اهـ تشاوروا في أمرهم حين سمعوا من إبراهيم عليه السلام ما سمعوا، فقال بعضهم لبعض: لقد ظلمنا بعبادة من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف يمنع عابديه ويمنع عنهم البأس، من لا يرد عن رأسه الفأس- ٣١٠.

والقرآن المجيد يبين ما تناجوا به، ثم ما تواصوا به: {فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون} ٣١١. وهكذا-لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم، وانصرفوا إلى طريق الغلبة والغشم، وقالوا: ابنوا لأجله حائطا توقدون فيه النار، وارموا بإبراهيم في بحمة ذلك البنيان، وعند تأجج ناره وشدة اتقادها، فأرادوا أن يهلكوه بحيلتهم وكيدهم فغلبهم كيد الله، ورفع شأن نبيه إبراهيم عليه السلام، وأنجاه من النار ٣١٢، وظهر الخزي والخذلان على الوثنيين الفجار، ثم يردون في أخراهم إلى أسوأ خسار وبوار.

٩٨ - (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)

{الأسفلين} الأذلين.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٩٧ إظهار

٩٩ - (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم (١٠١)}.

وعزم إبراهيم عليه السلام على اعتزال أبيه وقومه، وأن يتركهم إلى أرض تكون أعون له على طاعة مولاه، وأرجى لقبول دعوة الحق والتوحيد، وقال إني سأترك دار الشرك، {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا} ٣١٣ {. وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم} ٣١٤ - جعل المكان الذي أمره ربه تعالى بالذهاب إليه ذهابا إليه، وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه،. . . والمراد بذلك المكان الشام، وقيل: مصر. . {سيهدين} إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مقصدي- ٣١٥ وكيف لا! وقد وعد ربنا عز وجل عباده الذين يخرجون من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله- وعدهم حياة طيبة في العاجلة، ثم الجزاء الأوفى في الآجلة {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} ٣١٦، وشاء ربنا أن يبوئه ومن آمن معه دارا خيرا من دار قومه، وصدق الله العظيم: {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} ٣١٧.

{رب هب لي من الصالحين} وتضرع إلى ربه أن يهب له ذرية من الصالحين، ولعله أراد أن يستجيب لدعوته من يمنحه البر الرحيم من أولاد وذرية، ليكونوا له عونا على تبليغ رسالته، وأنسا له في مهجره وغربته، فاستجاب الله تعالى له وبشره بأنه سيرزقه غلاما وسيمنح هذا الغلام سعة صدر، وحسن صبر، واستقامة فكر.

١٠٠ - (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]

{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم (١٠١)}.

وعزم إبراهيم عليه السلام على اعتزال أبيه وقومه، وأن يتركهم إلى أرض تكون أعون له على طاعة مولاه، وأرجى لقبول دعوة الحق والتوحيد، وقال إني سأترك دار الشرك، {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا} ٣١٨ {. وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم} ٣١٩ - جعل المكان الذي أمره ربه تعالى بالذهاب إليه ذهابا إليه، وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه،. . . والمراد بذلك المكان الشام، وقيل: مصر. . {سيهدين} إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مقصدي- ٣٢٠ وكيف لا! وقد وعد ربنا عز وجل عباده الذين يخرجون من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله- وعدهم حياة طيبة في

العاجلة، ثم الجزاء الأوفى في الآجلة {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} ٣٢١، وشاء ربنا أن يبوئه ومن آمن معه دارا خيرا من دار قومه، وصدق الله العظيم: {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} ٣٢٢.

{رب هب لي من الصالحين} وتضرع إلى ربه أن يهب له ذرية من الصالحين، ولعله أراد أن يستجيب لدعوته من يمنحه البر الرحيم من أولاد وذرية، ليكونوا له عونا على تبليغ رسالته، وأنسا له في مهجره وغربته، فاستجاب الله تعالى له وبشره بأنه سيرزقه غلاما وسيمنح هذا الغلام سعة صدر، وحسن صبر، واستقامة فكر.

١٠١ - (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٩]

{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم (١٠١)}.

وعزم إبراهيم عليه السلام على اعتزال أبيه وقومه، وأن يتركهم إلى أرض تكون أعون له على طاعة مولاه، وأرجى لقبول دعوة الحق والتوحيد، وقال إني سأترك دار الشرك، {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا} ٣٢٣ {. وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم} ٣٢٤ - جعل المكان الذي أمره ربه تعالى بالذهاب إليه ذهابا إليه، وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه،. . والمراد بذلك المكان الشام، وقيل: مصر. {سيهدين} إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مقصدي- ٣٢٥ وكيف لا! وقد وعد ربنا عز وجل عباده الذين يخرجون من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله- وعدهم حياة طيبة في العاجلة، ثم الجزاء الأوفى في الآجلة {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} ٣٢٦، وشاء ربنا أن يبوئه ومن آمن معه دارا خيرا من دار قومه، وصدق الله العظيم: {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} ٣٢٧.

{رب هب لي من الصالحين} وتضرع إلى ربه أن يهب له ذرية من الصالحين، ولعله أراد أن يستجيب لدعوته من يمنحه البر الرحيم من أولاد وذرية، ليكونوا له عونا على تبليغ رسالته، وأنسا له في مهجره وغربته، فاستجاب الله تعالى له وبشره بأنه سيرزقه غلاما وسيمنح هذا الغلام سعة صدر، وحسن صبر، واستقامة فكر.

١٠٢ - (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

{بلغ معه السعي} بلغ الغلام السعي مع أبيه لمعاونته وقضاء مطالبه.

{ماذا ترى} ما رأيك؟ وما مشورتك؟

{فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلم وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣)}.

{فلما بلغ معه السعي} كأنما هو عطف على محذوف، تقديره: ووهبنا له الغلام طفلا حتى إذا تجاوز الطفولة غدا صبيا {فلما بلغ معه السعي} شب وأطاق ما يفعله أبوه، وتعاون معه على العمل وقضاء المطالب؛ قال له أبوه: يا بني-صغره للملاطفة والتدليل-إني قد رأيت في نومي أني أذبحك، فما رأيك في ذلك؟ -وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده، وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى، وطاعة أبيه {قال يا أبت افعل ما تؤمر} أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، {ستجدني إن شاء الله من الصابرين} أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه

كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا} ٣٢٨ - ٣٢٩ نقل عن مجاهد وعكرمة وغيرهما ما حاصله: فلما استسلما وانقادا: إبراهيم امتثل لأمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه. اهـ قال ابن عباس ٣٣٠: {وتله للجبين} أكبه على وجهه،- وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. . . وقوله تعالى {إنا كذلك نجزي المحسنين} أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب} ٣٣١ قال تعالى: {إن هذا لهو البلاء المبين} أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله تعالى، منقادا لطاعته، ولهذا قال تعالى: {وإبراهيم الذي وفى} ٣٣٢، وقوله تعالى: {وفديناه بذبح عظيم} عن علي رضي الله عنه، قال: بكبش أبيض أعين أقرن. . . ٣٣٣.

{وتركنا عليه في الآخرين} أبقينا ثناء عليه فيمن يأتي بعده، يمتد إلى يوم الدين؛ قال ابن عباس: يذكر بخير. اهـ {سلام على إبراهيم} يثنى عليه فيقال: سلام ورحمة من الشكور جل علاه على النبي إبراهيم خليل الله، وعلى آله ومن والاه، {كذلك نجزي المحسنين} مثل هذا الجزاء الجميل الجزيل نجزي من أحسن وأخلص دينه لله، وأسلم وجهه، وفوض أمره لمولاه، {إنه من عبادنا المؤمنين} إنه ممن صدقوا تصديقا راسخا بكل ما يجب الإيمان به، وعبدوا عبادة خالصة أتموها وأحسنوا أداءها-من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى- ٣٣٤.

{وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين} وبشرنا إبراهيم بإسحاق وجعلناه نبيا صلح له أمر العاجلة والآجلة، وباركنا وكثرنا الخير، وثنينا النعمة: إذ بشرناه من قبل بغلام حليم ومنحناه إياه، ثم بشرناه بإسحاق وجعلناه نبيا صالحا، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون؛ - وقد قيل إن الكناية في {عليه} تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح، قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل، وذلك أنه قص قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصة: {وفديناه بذبح عظيم} ثم قال: {سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين} قال: {وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه} أي: على إسماعيل {وعلى إسحاق} كني عنه، لأنه قد تقدم ذكره، ثم قال: {ومن ذريتهما} فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة- ٣٣٥.

ومما أورد صاحب تفسير القرآن العظيم: روى مجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه [إسماعيل] عليه الصلاة والسلام، وروى ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود؛ وروى مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل. . . وقال ابن إسحاق، عن محمد ابن كعب القرظي: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة وكان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم، يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل، وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله- سألت أبي عن الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال:إسماعيل. [احتج من قال إنه إسماعيل: بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين} ٣٣٦ وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: {. . إنه كان صادق الوعد} ٣٣٧ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، ولأن الله تعالى قال: {وبشرناه بإسحاق نبيا} فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، وأيضا فإن الله تعالى قال: {. . فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} ٣٣٨ فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب؛ وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس] ٣٣٩.

١٠٣ - (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)
{أسلما} انقادا واتفقا على التسليم لأمر الله، والتفويض إليه.
{وتله للجبين} وكبه على جانب من جبهته.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٤ - (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٥ - (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٦ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠٢]
{البلاء المبين} الاختبار الشديد، أو المحنة الواضحة.
{بلغ معه السعي} بلغ الغلام السعي مع أبيه لمعاونته وقضاء مطالبه.
{ماذا ترى} ما رأيك؟ وما مشورتك؟
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٧ - (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)
{وفديناه بذبح عظيم} جعلنا مكان ذبح ابنه أن يذبح كبشا عظيما أهبطناه عليه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١٠٩ - (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١١٠ - (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١١١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١١٢ - (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١١٣ - (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠٢ إظهار
١١٤ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)
{مننا} أنعمنا.
{ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨) وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢)}.

تتابع ذكر الذين أنعم الله عليهم من النبيين، نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم، ثم موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، {ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم} كانت بعثتهما بالدعوة إلى التوحيد، والعمل على تحرير المستضعفين الإسرائيليين الذين استبد بهم فرعون، {ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين} ٣٤٠، وبهذا أمرهما مولانا سبحانه في قوله: {فآتيا فرعون فقولا إنا رسولا رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل} ٣٤١ {فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى} ٣٤٢.

{ونصرناهم فكانوا هم الغالبين} بعد أن استحيا فرعون نساءهم، وذبح أبناءهم، أراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقه الله تعالى وأغرق من معه جميعا، وأنجى موسى والذين معه برحمة منه عز وجل، {. . وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا} ٣٤٣.

{وآتيناهما الكتاب المستبين} وأعطينا موسى وهارون الكتاب المبين الموضح للشرائع والأحكام، وهو التوراة، وأنزلنا عليهما وحينا بصائر للناس وهدى ورحمة وتفصيلا لكل ما هم بحاجة إليه من الحلال والحرام.

{وهديناهما الصراط المستقيم} ووفقناهما للطريق القويم، طريق الحق والعدل، وسبيل السعادة والفوز، الموصلة إلى الحياة الطيبة في العاجل والآجل والنعيم في جنة الخلد.

{وتركنا عليهما في الآخرين} وأبقينا لهما ثناء عليهما وذكرا بالخير يبقى على ألسن من يأتي بعدهما، ويسلم عليهما سائر المؤمنين، أو بشرى من ربنا الكريم أنه سلمهما من أن يذكرا بسوء، أو يحل بهم خزي أو عذاب، واستيقنوا أن مثل هذا الجزاء نجزي من آمن واتقى وأحسن، فننصره في أولاه وأخراه، مصداقا لوعد الله: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ٣٤٤ {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} ٣٤٥.

{إنهما من عبادنا المؤمنين} شهد الله تعالى أنهما أتما عبادتهما وأخلصا دينهما، ورسخ يقينهما بكل ما يجب الإيمان به.

١١٥ - (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

{الكرب العظيم} الضيق والأذى الشديد الذي أنزله بهم فرعون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١١٦ - (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١١٧ - (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

{وآتيناهما} أعطيناهما.

{الكتاب المستبين} البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١١٨ - (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

{الصراط المستقيم} الطريق التي لا عوج فيها، الموصلة إلى الحق والعدل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١١٩ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١٢٠ - (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار

١٢١ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار
١٢٢ - (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١٤ إظهار
١٢٣ - (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

{وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آباءكم الأولين (١٢٦) فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧) إلا عباد الله المخلصين (١٢٨) وتركنا عليه في الآخرين (١٢٩) سلام على آل ياسين (١٣٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٣١) إنه من عبادنا المؤمنين (١٣٢)}.

شهد الله تعالى أن {إلياس} من أنبيائه الأكرمين-صلوات الله عليهم أجمعين-وأنه مبعوث برسالة تهدي إلى الحق والرشد.

١٢٤ - (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ)

{إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤)} ذهب فريق من المفسرين إلى أن في الكلام محذوفا تقديره: واذكر إذ قال لقومه، والأكثرون ٣٤٦ على أنه-عليه السلام-من سلالة هارون بن عمران أخي موسى الكليم عليهما الصلوات والتسليم.

١٢٥ - (أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

{أتدعون} أتعبدون؟!

{بعلا} ربا، أو هو اسم لصنم.

{تذرون} تتركون.

نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو عم اليسع، وقال بعض المفسرين: ابن عم اليسع، ومما نقل عن ابن إسحق وغيره: لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث الله إليهم إلياس نبيا، وتبعه اليسع وآمن به. اه دعا قومه إلى تقوى الله سبحانه وتوحيده وحظهم على طاعته-تبارك اسمه-والخوف منه ومهابته؛ ثم أنكر عليهم اتخاذ رب صنم، وأن يعبدوا وثنا، ويتجهوا إليه بقربات أو دعاء {أتدعون بعلا} روي عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس: {أتدعون بعلا} قال: ربا، وعن الحكم عن عكرمة عن ابن عباس: {أتدعون بعلا}، قال صنما، نقل عن النحاس: والقولان صحيحان، أي: أتدعون صنما عملتموه ربا؟! ونسب إلى سيبويه: أتدعون ربا اختلقتموه و {أتدعون} بمعنى: أتسمون، {وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥)} وتتركون عبادة ودعاء أحسن من يقال له خالق، -وقيل: المعنى: أحسن الصانعين، لأن الناس يصنعون ولا يخلقون- ٣٤٧.

١٢٦ - (اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)

{الله ربكم ورب آبائكم الأولين (١٢٦)} الذي تركتم عبادته هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا سبب وجودكم والأسماء الحسنى الثلاثة بالنصب على البدلية بدل كل من كل.

١٢٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

{لمحضرون} لمستقدمون إلى العذاب، ومأتي بهم إليه، يحضرونه ولا يفارقونه.

{فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧)} فكذب القوم نبيهم إلياس، عليه السلام، فاستوجبوا سخط القيوم سبحانه وعقابه، فهم مسوقون إليه يشهدون العذاب لا يغيبون عنه، ولا يفلتون منه، إلا العباد الذين استخلصهم البر الرحيم لطاعته فإنهم لن يعذبوا، وأبقينا على إلياس ذكرا حسنا، وثناء طيبا يلهج به الصالحون إلى يوم يبعثون.

١٢٨ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٧]

{لمحضرون} لمستقدمون إلى العذاب، ومأتي بهم إليه، يحضرونه ولا يفارقونه.

{فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧)} فكذب القوم نبيهم إلياس، عليه السلام، فاستوجبوا سخط القيوم سبحانه وعقابه، فهم مسوقون إليه

يشهدون العذاب لا يغيبون عنه، ولا يفلتون منه، إلا العباد الذين استخلصهم البر الرحيم لطاعته فإنهم لن يعذبوا، وأبقينا على إلياس ذكرا حسنا، وثناء طيبا يلهج به الصالحون إلى يوم يبعثون.

١٢٩ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢٧]

{لمحضرون} لمستقدمون إلى العذاب، ومأتي بهم إليه، يحضرونه ولا يفارقونه.

{فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧)} فكذب القوم نبيهم إلياس، عليه السلام، فاستوجبوا سخط القيوم سبحانه وعقابه، فهم مسوقون إليه يشهدون العذاب لا يغيبون عنه، ولا يفلتون منه، إلا العباد الذين استخلصهم البر الرحيم لطاعته فإنهم لن يعذبوا، وأبقينا على إلياس ذكرا حسنا، وثناء طيبا يلهج به الصالحون إلى يوم يبعثون.

١٣٠ - (سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)

{سلام على آل ياسين (١٣٠)} سلام من الله تعالى وأمان على إلياس، نقل عن النحاس: واحتج أبو عبيد في قراءته {سلام على آل ياسين} وأنه اسمه، كما أن اسمه إلياس، لأنه ليس في السورة سلام على [آل] لغيره صلى الله عليه وسلم، فكما سمي الأنبياء كذا سمي هو.

١٣١ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

{إنا كذلك نجزي المحسنين (١٣١)} مثل هذا الجزاء من الفوز برضا بارئ الأرض والسماء، والنجاة من الخزي والشقاء نجزي كل من اتقى وآمن وأحسن.

١٣٢ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

{إنه من عبادنا المؤمنين (١٣٢)} تحققت فيه العبودية الكاملة، والإيمان الراسخ الصادق فهو من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه {. . . أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٣٤٨.

١٣٣ - (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

{وإن لوطا لمن المرسلين (١٣٣) إذ نجيناه وأهله أجمعين (١٣٤) إلا عجوزا في الغابرين (١٣٥) ثم دمرنا الآخرين (١٣٦) وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل أفلا تعقلون (١٣٨)}.

واستيقنوا بأن عبدنا لوط نبي مرسل، بعثناه إلى قومه، وآتيناه حكما وعلما، ودعا إلى تقوى الله تعالى، وطاعته والتصديق برسالته، وحذر من عمل الخبائث، وإتيان الذكران، والعكوف على الفحشاء والمنكر: {ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. قال رب انصرني على القوم المفسدين} ٣٤٩.

١٣٤ - (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

{إذ نجيناه وأهله أجمعين (١٣٤)} جاءته البشرى تحملها الملائكة: {. . . وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين} ٣٥٠ {. . فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون} ٣٥١.

١٣٥ - (إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

{الغابرين} الباقين.

{إلا عجوزا في الغابرين (١٣٥)} إلا امرأته قدر الله تعالى أن تكون من الباقين من الإنجاء ثم هي مهلكة بعد مع الهالكين، يقول ربنا وهو أصدق القائلين: {. . إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب} ٣٥٢.

١٣٦ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ)

{ثم دمرنا الآخرين} وقضى ربنا سبحانه أن يستأصل القوم الفاسقين، إثر نجاة لوط والمؤمنين، {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين} ٣٥٣، {إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم

بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٣٥٤.
١٣٧ - (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ)
{مصبحين} وقت الصباح.
{وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧). وبالليل أفلا تعقلون (١٣٨)} جعلهم الله تعالى معتبرا ومزدجرا {. . فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} ٣٥٥، لقد قلب الله تعالى تلك المدائن، لكن بقيت أطلالها {ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون} ٣٥٦، وانداحت بحيرة منتنة خبيثة مكان هذه القرى المؤتفكات المنقلبات ٣٥٧.
ولقد أعذر ربنا وأنذر {وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم} ٣٥٨ وشاء الحكيم جل ثناؤه أن يجعلها على طريق مسلوكة، يراها الذاهبون والقافلون وفي كل وقت إذ يمسون، أو يصبحون، أو يظهرون، {إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم ٣٥٩ فاعتبروا يا أولي الأبصار وفي ذلك تعريض بالكفار حيث يعرضون عن الآيات الدالة على قدرة الملك المهيمن وبأسه، وبطشه بالذين يحادون رسله، وأنهم لا يستفيدون من عقولهم، فكأنهم ومن لا يعقل سواء: {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون} ٣٦٠، بل هم أوكس حظا من البهائم: {. . أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا} ٣٦١.
١٣٨ - (وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)
{تعقلون} تعتبرون وتتدبرون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣٧ إظهار
١٣٩ - (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)
{وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤) *فنبذناه بالعراء وهو سقيم (١٤٥) وأنبتنا عليه شجرة من يقطين (١٤٦) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧) فآمنوا فمتعناهم إلى حين (١٤٨)}.
يونس عليه السلام رسول من رسل الله، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم ذي النون وصاحب الحوت-وهما بمعنى واحد-يقول ربنا تبارك اسمه: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} ٣٦٢، ويقول جل ثناؤه: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا} ٣٦٣.
١٤٠ - (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)
{أبق} هرب، وفر، وتباعد مستخفيا.
{الفلك} السفينة.
{المشحون} المملوء.
{إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠)} واذكر إذ فر وتباعد من قومه مستخفيا، وخرج إلى سفينة ممتلئة موقرة بحملها، قد تهيأت للإبحار.
١٤١ - (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)
{فساهم} جعل له سهم في القرعة.
{المدحضين} المغلوبين.
{فساهم فكان من المدحضين (١٤١)} فلما ركب السفينة ركدت، - فقال صاحبها: ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما، فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء، فوقعت على يونس، ثم أعادوا فوقعت عليه، ثم أعادوا فوقعت عليه، فلما رأى ذلك رمى بنفسه في الماء. . وفي خبر أخرجه أحمد، وغيره، عن ابن مسعود أنه أتى قوما في سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخلها ركدت، والسفن تسير يمينا وشمالا، فقال: ما بال سفينتكم؟ قالوا: ما ندري: قال: ولكني أدري إن فيها عبدا أبق من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تلقوه! قالوا: أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك! فقال لهم: اقترعوا، فمن قرع فليلق، فاقترعوا ثلاث مرات، وفي كل مرة تقع القرعة عليه، فرمى بنفسه، فكان ما قص الله تعالى. . اه. ٣٦٤

ومما أورد صاحب تفسير القرآن العظيم. . يونس بن متى عليه السلام بعثه الله تعالى إلى أهل نينوى-وهي قرية من أرض الموصل- فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم نخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا. } ٣٦٥. اهـ.

١٤٢ - (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

{فالتقمه} فابتلعه.

{مليم} أتى بما يلام عليه.

{فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢)} فابتلعه حوت، وربما دخلت عليه [ال] المعرفة، لأنه معلوم لله تعالى، سخر بأمره، ليلتقم عبد الله عليه السلام إلى حين، فلن يكون له رزقا ولا طعاما؛ ولعل ما يلام عليه أنه خرج قبل أن يؤذن له من ربه سبحانه في الخروج وذلك من نبي شيء يخالف ما هو الأولى بحقه عليه سلام الله.

١٤٣ - (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣٩]

{وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤) *فنبذناه بالعراء وهو سقيم (١٤٥) وأنبتنا عليه شجرة من يقطين (١٤٦) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧) فآمنوا فمتعناهم إلى حين (١٤٨)}.

يونس عليه السلام رسول من رسل الله، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم ذي النون وصاحب الحوت-وهما بمعنى واحد-يقول ربنا تبارك اسمه: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} ٣٦٧، ويقول جل ثناؤه: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا} ٣٦٨.

{فلولا أنه كان من المسبحين. (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤)} لما دخل بطن الحوت استدام ذكر مولانا العظيم وتقديسه: {. . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} ٣٦٦ فبهذا التسبيح نجاه الله تعالى من الهلاك والغم، وأخرجه من بطن الحوت، ومن ظلمات البحر، ولولا أنه كان من الذاكرين لغدا طعاما لهذا الوحش الذي ابتلعه، لكن تداركه فضل الله تعالى وحفظه.

١٤٤ - (لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣٩]

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤٣]

{للبث} لمكث وبقي.

{وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤) *فنبذناه بالعراء وهو سقيم (١٤٥) وأنبتنا عليه شجرة من يقطين (١٤٦) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧) فآمنوا فمتعناهم إلى حين (١٤٨)}.

يونس عليه السلام رسول من رسل الله، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم ذي النون وصاحب الحوت-وهما بمعنى واحد-يقول ربنا تبارك اسمه: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} ٣٧٠، ويقول جل ثناؤه: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا} ٣٧١.

{فلولا أنه كان من المسبحين. (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤)} لما دخل بطن الحوت استدام ذكر مولانا العظيم وتقديسه: {. . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} ٣٦٩ فبهذا التسبيح نجاه الله تعالى من الهلاك والغم، وأخرجه من بطن الحوت، ومن ظلمات البحر، ولولا أنه كان من الذاكرين لغدا طعاما لهذا الوحش الذي ابتلعه، لكن تداركه

فضل الله تعالى وحفظه.
١٤٥ - (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)
{فنبذناه}: طرحناه، وتركناه.
{بالعراء}: بالصحراء.
{فنبذناه بالعراء وهو سقيم}: فلفظه النون وطرحه، فخرج إلى العراء والخلاء والصحراء، وقد بلغ منه الجهد مبلغه، وعن ابن جبير أنه عليه السلام ألقي ولا شعر له ولا جلد. . . ولعل ذلك يستدعي بحكم العادة أن لمدة لبثه في بطن الحوت طولا ما.
وأورد ابن كثير: قال صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت. . لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له.
وعن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى) قلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: (هي ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عز وجل: {. . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجي المؤمنين} فهو شرط من الله لمن دعا به.
١٤٦ - (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ)
{يقطين}: قرع.
{وأنبتنا عليه شجرة من يقطين}: أظله البر المولى الرحيم بشجرة أنبتها في المكان الذي لفظه الحوت فيه.
وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره. . وأنه لا يقربه الذباب، وجودة تغذية ثمره. . . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشي الصفحة، واليقطين: الفرع، ويسمى كذلك: الدباء، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما ينبغي في لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى).
١٤٧ - (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)
{وأرسلناه إلى مائة ألف أويزيدون} وكأن المعنى- والله تعالى أعلم- فلما ذهب عنه سقمه اجتباه ربه وأرسله إلى قوم عددهم مائة ألف بل أزيد من هذا العدد، مما قال ابن كثير: وقد سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: {ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة}: المراد: ليس أنقص من ذلك بل أزيد.
١٤٨ - (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)
قوله تعالى: {فآمنوا}: أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم، {فمتعناهم إلى حين}: أي إلى وقت آجالهم. . اهـ.
١٤٩ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)
{فاستفتهم}: فاسألهم مستنكرا عليهم.
جاءت هذه الآيات تدفع باطل المفترين الذين ينسبون الولد إلى رب العالمين، وبدأت بتبكيتهم باستفهام إنكاري لما زعموه من أن الملائكة بنات الله -تعالى ربنا عما يقول المجرمون علوا كبيرا- {لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد}.
{فاستفتهم}: فسلهم سؤال المنكر عليهم {ألربك البنات ولهم البنون}؟ القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب-جهينة، وسليم وخزاعة، وبني مليح-: الملائكة بنات الله سبحانه، ثم بتبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثا.]. . . ووجه ترتب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه، فإن كونه تعالى رب السماوات والأرض وتلك الخلائق العظيمة كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال على تنزهه سبحانه عن الولد، ألا ترى إلى قوله جل شأنه: {بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد}.

*م/
١٥٠ - (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)
{شاهدون}: حاضرون.
{أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون} تقريع وتجهيل للأفاكين المفترين، وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا، أي: بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلق وأقواهم وأعظمهم تقدسا عن النقائص الطبيعية إناثا؟ والأنوثة من أخس صفات الحيوان]؟! والمفترون كانوا يتوارون من عشيرتهم إذا بشر واحد منهم بميلاد أنثى كما قال جل ثناؤه: {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} فهل كانوا شهودا حاضرين حين خلقنا الملائكة استهزاء بهم وتجهيل لهم. . فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة، إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريقة العقل، وانتفاء النقل مما لا ريب فيه، فلم يبقى إلا أن يكون القائل بأنوثتهم كان حاضرا عند خلقهم.
١٥١ - (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)
{إفكهم} كذبهم.
{ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ولد الله} استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء، مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم شبهة أو دليل {وإنهم لكاذبون} فيما يتدينون به مطلقا، وفي هذا القول، وفيه تأكيد لقوله تعالى: {من إفكهم}.
١٥٢ - (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥١]
{إفكهم} كذبهم.
{ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ولد الله} استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء، مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم شبهة أو دليل {وإنهم لكاذبون} فيما يتدينون به مطلقا، وفي هذا القول، وفيه تأكيد لقوله تعالى: {من إفكهم}.
١٥٣ - (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)
{أصطفى}: أختار؟!
{أصطفى البنات على البنين}: أيختار الخلاق الغني الوهاب لنفسه أدون الجنسين، ويخصكم بأفضلهما، وأصل التركيب: أأصطفى، دخلت همزة الاستفهام على أصطفى فحذفت همزة الوصل، والاستفهام للإنكار، وقد أنكر عليهم تعالى هذا الافتراء في آيات أخر، منها قوله سبحانه: {أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما} ٣٧٢، ويقول تبارك اسمه: {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين} ٣٧٣؛
١٥٤ - (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
وقد كان الحديث عنهم في الآيات التي سبقت بضمائر الغيبة، وفي هذه الآيات التفات إلى خطابهم للمبالغة في تسفيههم، وذهاب عقولهم: {مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكرون} هل يتمادى بكم الشطط، وتعمى البصائر، فلا تهدى قلوبكم إلى ما هو حق؟! وهلا تذكرتم ما هو مركوز في عقل كل ذي عقل؟!
١٥٥ - (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥٤]
وقد كان الحديث عنهم في الآيات التي سبقت بضمائر الغيبة، وفي هذه الآيات التفات إلى خطابهم للمبالغة في تسفيههم، وذهاب

عقولهم: {مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكرون} هل يتمادى بكم الشطط، وتعمى البصائر، فلا تهدى قلوبكم إلى ما هو حق؟! وهلا تذكرتم ما هو مركوز في عقل كل ذي عقل؟!

١٥٦ - (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ)

{سلطان مبين}: حجة موضحة، ودليل ظاهر.

{أم لكم سلطان مبين}: إضراب من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر، بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلا، أي: ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى؟! ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسي أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما-إذ لم تكونوا حاضرين مشاهدين خلق الملائكة، حتى تتأتى منكم رؤية خلقتهم، ولا سبيل إلى الدليل الحسي إلا هذا أو قد عجزتم عن الإتيان به، ويستحيل عقلا أن يصطفي الملك الذي أوجدكم من العدم، وأسبغ عليكم النعم، يستحيل أن يختار لنفسه الأدون، ويهبكم الجنس الأفضل، فلا بد من سند نقلي.

١٥٧ - (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{بكتابكم}: بكتاب نزل يشهد لكم.

{فأتوا بكتابكم} الناطق بصحة دعواكم، {إن كنتم صادقين} فيها، والأمر للتعجيز، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم.

١٥٨ - (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

{إنهم لمحضرون}: إن الذين قالوا على الله الإفك لمحضرون في العذاب يوم الجزاء.

{وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا}: عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله تعالى، فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه: -أي على سبيل التبكيت-: فمن أمهاتكم؟ فقالوا: بنات سرات الجن. اه، وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه، يقول القرطبي: قول الحسن في هذه أحسن، دليله قوله تعالى: {إذ نسويكم برب العالمين}: أي في العبادة. اه.

{ولقد علمت الجنة}: أي الشياطين، أو الخلق الذين استتروا عن أعين الناس، كما جاء في القرآن الكريم: {فلما جن عليه الليل}: أي غطى وستر، وبهذا المعنى يمكن إطلاقه على الملائكة عليهم السلام، فهم مستترون عن الأعين، {إنهم لمحضرون}: إن الجن لمحضرون في العذاب، أو من يقول: الملائكة بنات الله فإن الملائكة والجن يعلمون أنه معذب لا محالة، مطرود من رحمة ربنا جزاء له على كفره وبهتانه.

١٥٩ - (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

{سبحان الله عما يصفون}: تنزه وتقدس عن الذي وصفه به المبطلون الملحدون.

{سبحان الله}: تنزه مولانا المعبود بحق وتقدس وتبرأ، {عما يصفون}: عما يصفونه به عز وجل من نسبة الولد إليه: {وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} تعالى مقامه أن يتخذ زوجة أو ذرية: {لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد}.

١٦٠ - (إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

{إلا عباد الله المخلصين} من كفر فعليه كفره، ومأواه النار لكن الذين عبدوا مولاهم الحق، واستخلصهم تبارك اسمه لطاعته ومحبته لا يعذبون، بل هم في جنات مكرمون.

١٦١ - (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)

وبعد أن حكى القرآن ما سيصير إليه السفهاء المفترون بضمير الغيبة التفت إلى وعيدهم وتهديدهم، وتقنيطهم من إضلال أحد غير من كان على شاكلتهم {من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون}، فكأن المعنى: فإنكم مع ما تعبدون من دون الله لن تصرفوا أحدا عن الرشد، إلا من استحب العمى والبغي والغي، ولا يهلك على الله إلا هالك.

١٦٢ - (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ)

وضمير {عليه} لله عز وجل، والجار والمجرور متعلق {بفاتنين} وعدي بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء. من قولهم: فتن غلامه. . عليه إذا

أفسده. . . أي ما أنتم ومعبودوكم مفسدين أحدا على الله عز وجل بإغوائكم إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها ويدخلها لا محالة.
١٦٣ - (إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٢]
وضمير {عليه} لله عز وجل، والجار والمجرور متعلق {بفاتنين} وعدي بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء. من قولهم: فتن غلامه. . عليه إذا أفسده. . . أي ما أنتم ومعبودوكم مفسدين أحدا على الله عز وجل بإغوائكم إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها ويدخلها لا محالة.
١٦٤ - (وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)
ولما أبطل الكتاب العزيز ما يفتريه المبطلون من نسبة الولد إلى الله الأحد الفرد الصمد، ودمغ إفكهم في جعلهم الملائكة إناثا، حكى قول الملائكة وإقرارهم بأن لكل منهم موضعا في السماوات لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته تعالى، وخشوعا لهيبته سبحانه، وتواضعا لجلاله جل شأنه.
١٦٥ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ)
{وإنا لنحن الصافون}: نقف صفوفا في الطاعة، أو إنا لنحن الصافون أجنحتنا وقوفا ننتظر ما يأمرنا به ربنا، أو: نحن الصافون حول العرش، لكن صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وورد من هدي الخلفاء الراشدين ما يشير إلى القول الأول، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجدا وترابها طهورا)؛ وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد فقال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟) فقلنا يا رسول الله: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف).
١٦٦ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)
{وإنا لنحن المسبحون}: نصطف فنسبح الله ونحمده، ونقدسه ونمجده، وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه، وأورد الرازي: أن هاتين الجملتين تدلان على الحصر، وفيه إشارة إلى أن طاعة البشر كالعدم بالنسبة إلى طاعة الملك، فكيف يجوز أن يقال: البشر تقرب درجتهم من درجة الملائكة، فضلا عن دعوى الأفضلية؟! ورد عليه النيسابوري بأن هذا التركيب لا شك يفيد الحصر. . . إلا أن الذي يفيد مدعاه هو قصر الثاني على الأول، وليس قصر الأول على الثاني كما في الآيتين الكريمتين.
١٦٧ - (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ)
{وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن عندنا ذكرا من الأولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠)}: ثم التفتت الآيات إلى الحديث عن المشركين، الذين كانوا يقولون: لو بعث فينا من يعلمنا الشرائع كالذين سبقوا لاهتدينا إلى الرشاد، وصرنا من صفوة العباد، تمنوا هذا، فلما جاءهم ما رجوا جحدوا شريعته، وحاربوه وكذبوا رسالته، فويل لهم، وسيعلمون يوم الفصل ماذا أعد لهم من العذاب المقيم، وفي ذلك يقول مولانا في كتابه الحكيم: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وقال تبارك اسمه: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها}.
١٦٨ - (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

{وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن عندنا ذكرا من الأولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠)}: ثم التفتت الآيات إلى الحديث عن المشركين، الذين كانوا يقولون: لو بعث فينا من يعلمنا الشرائع كالذين سبقوا لاهتدينا إلى الرشاد، وصرنا من صفوة العباد، تمنوا هذا، فلما جاءهم ما رجوا جحدوا شريعته، وحاربوه وكذبوا رسالته، فويل لهم، وسيعلمون يوم الفصل ماذا أعد لهم من العذاب المقيم، وفي ذلك يقول مولانا في كتابه الحكيم: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وقال تبارك اسمه: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها}.

١٦٩ - (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

{وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن عندنا ذكرا من الأولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠)}: ثم التفتت الآيات إلى الحديث عن المشركين، الذين كانوا يقولون: لو بعث فينا من يعلمنا الشرائع كالذين سبقوا لاهتدينا إلى الرشاد، وصرنا من صفوة العباد، تمنوا هذا، فلما جاءهم ما رجوا جحدوا شريعته، وحاربوه وكذبوا رسالته، فويل لهم، وسيعلمون يوم الفصل ماذا أعد لهم من العذاب المقيم، وفي ذلك يقول مولانا في كتابه الحكيم: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وقال تبارك اسمه: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها}.

١٧٠ - (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦٧]

{وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن عندنا ذكرا من الأولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠)}: ثم التفتت الآيات إلى الحديث عن المشركين، الذين كانوا يقولون: لو بعث فينا من يعلمنا الشرائع كالذين سبقوا لاهتدينا إلى الرشاد، وصرنا من صفوة العباد، تمنوا هذا، فلما جاءهم ما رجوا جحدوا شريعته، وحاربوه وكذبوا رسالته، فويل لهم، وسيعلمون يوم الفصل ماذا أعد لهم من العذاب المقيم، وفي ذلك يقول مولانا في كتابه الحكيم: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وقال تبارك اسمه: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها}.

١٧١ - (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع

المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٢ - (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٣ - (وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٤ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

{فتول عنهم حتى حين}: أي فأعرض عنهم من واصبر إلى أن يحين الوقت الذي قدر المولى عز وجل أن يذيقهم البأس عند حلول هذا الميعاد.

١٧٥ - (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

{وأبصرهم} وهم حينئذ على أسوء حال وأفظع حال، قد حل بهم ما حل، من الأسر أو القتل، أو: أبصر بلاءهم-على أن الكلام على حذف مضاف- والأمر بمشاهدة ذلك وهو غير واقع للدلالة على أنه لشدة قربه كأنه حاضر قدامه، وبين يديه مشاهد، خصوصا إذا قيل: إن الأمر للحال أو الفوز {فسوف يبصرون (١٧٥)} ما يكون لك من التأييد والنصر. . . وسوف للوعيد، لا للتسويف والتبعيد. {أفبعذابنا يستعجلون (١٧٦)} استفهام توبيخ، أخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، وعجله لنا، فنزلت {فإذا نزل} أي العذاب الموعود {بساحتهم}، وهي العرصة الواسعة عند الدور. . . {فساء صباح المنذرين (١٧٧)} أي فبئس صباح المنذرين صباحهم. . . -.

في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا، وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) ومعنى: " محمد والخميس " محمد والجيش.

}وتول عنهم حتى حين. (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩)} تأكيد لما أعد الله تعالى للمؤمنين من نصر وفتح يأتيان عما قليل، ولما سيحله بالكافرين من هوان وخذلان-مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان ظاهرا، بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار، وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف. . . .

١٧٦ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٧ - (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٨ - (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]

في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.

ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.

١٧٩ - (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧١]
في هذه الآيات المباركات عظيم البشرى للمؤمنين، وشديد الوعيد والحسرة للكافرين، فبدأت بالقسم-لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وهو قوله تعالى: {إنهم لهم المنصورون (١٧٢). وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)} فيكون تفسيرا أو بدلا من {كلمتنا}. . . والمراد بالجند: أتباع المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم-.
ولقد أكد القرآن الكريم هذه البشرى في آيات أخر، منها قول الحق سبحانه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} وقوله تبارك اسمه: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير حرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له؛ - واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة، فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى، أو نحو ذلك.
١٨٠ - (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)
{سبحان ربك رب العزة عما يصفون}: تنزه مولاك ومليكك صاحب الملك والملكوت، والعزة والجبروت، وتقدس عما يصفه به المبطلون. من الأشياء التي منها ترك نصرتك عليهم.
١٨١ - (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)
وأمنة من الله تعالى على سائر رسله، أمنة لهم من الفزع الأكبر، ومن كل مخوف لا تحمد عاقبته، والثناء على المعبود بحق كل المحامد، والإقرار بالفضل، والعرفان بالمنة، وأداء جوانب الشكر لمولى الثقلين والعوالم كلها، ومدبر الكائنات والمهيمن عليها وقيومها، حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيد فضله، فله الحمد في الأولى والآخرة.
١٨٢ - (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨٠]
{سبحان ربك رب العزة عما يصفون}: تنزه مولاك ومليكك صاحب الملك والملكوت، والعزة والجبروت، وتقدس عما يصفه به المبطلون. من الأشياء التي منها ترك نصرتك عليهم.
خاتمة تفسير سورة الصافات:
في هذه السور الخمس المباركات تبيان للكثير المقدس من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلية، وأفعاله الحكيمة، فهو الله ربنا الرحمن الرحيم، العليم، الحكيم، الغفور الشكور، القوي الحفيظ، العزيز القدير، العلي الكبير، اللطيف الخبير، السميع البصير، الفتاح الوكيل الحسيب، الحميد القريب، لا يعجزه شيء، أمره مفعول، وما قدّره فهو مقدور، يمسك السماوات والأرض أن تزولا، لا تتبدل سنته ولا تحول، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، بيده الملك وإليه المصير، يقول الحق ويهدي السبيل.
ومما جاءت به الآيات: {وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} {. . إن الله كان لطيفا خبيرا}، {. . وهو خير الرازقين}، {. . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل}، {قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب}، {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم}، {. . وربك على كل شيء حفيظ}، {. . وكان الله قويا عزيزا}، {. . وكان الله على كل شيء رقيبا}، {. . إنه سميع قريب}، {. . إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد}، {. . وهو العلي الكبير}، {. . والله هو الغني الحميد}، {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور}، {هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور}.
وجاء من ربنا سلطان مبين، يشهد بجلال الملك المتين؛ ومن يتأمل فيما حوله، ويتفكر في نفسه، ويتدبر قرآن ربه، يستيقن ويزداد إيمانا بأن الله أحد صمد، خلاق عظيم، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده}.
فمن برهان الخلق والتدبير والإنعام تقرأ في سورة سبأ: {قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو

يخلفه وهو خير الرازقين} الآية ٣٩؛ وفي سورة فاطر: {والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير}. {وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون}، {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى} الآيتان: ١١، و ١٢؛ ومن الآية ١٣؛ {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد} الآية ١٥؛ {ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور} الآيتان: ٢٧ و ٢٨؛ وعشر متواليات في سورة يس: {وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون}. الآيات: من ٣٣ إلى ٤٢، {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون} الآيات: ٧١ و ٧٢ و ٧٣.

ومن برهان القوة والاقتدار قول الواحد القهار العزيز الغفار: {قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا}، {وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا}، {أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب. ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد}؛ {فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنا بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل} {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز}، {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا}؛ {وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون}. {وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون}، {ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون}.

ومن دحض حجة المشركين: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير} {. . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون}، {. . ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير} {قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا}، {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة}، {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون}.

وفي تثبيت الإيمان بالموت وزلزلة القارعة، وما بعد ذلك من بعث وحشر، وحساب ووزن، وشفاعة وحكم، وخسران وفوز؛ وفي إقامة الحجة على الذين يمارون في الساعة، نبأنا العليم الخبير، بما أعد لأهل الجنة ولأصحاب السعير. فقال سبحانه في التعجيب من المرتابين المكذبين بيوم الدين: {فاستفتهم أهم أشد خلقا أمن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب. بل عجبت ويسخرون. وإذا ذكروا لا يذكرون.

وإذا رأوا آية يستسخرون. وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. أو آباؤنا الأولون}؟! كما وصانا جل ثناؤه أن نعرض عن إفكهم: {قال قائل منهم إني كان لي قرين. يقول أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون}، وينجي الله الذين آمنوا، ويحمدون الله الذي أذهب عنهم خزي أهل الشك والإفك: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين}، وجادل القرآن أهل البهتان الذين أنكروا قدرة الله على إعادة ما بلى من الأبدان: {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور}، والذين لم يؤمنوا بالآخرة سألوا عن ميقاتها استخفافا بشأنها، وشكا في مجيئها: {يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا}، {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون}، {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون}، وفي خذلان الفجار وتخاصم أهل النار جاء التحذير من الواحد القهار: {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا}، {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك}، {. . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون}، {وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين. هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون. احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون. من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسئولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين. وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين. فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين. فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون. إنا كذلك نفعل بالمجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون}، {أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم. إنا جعلناها فتنة للظالمين. إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين. فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم. ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم. إنهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم على آثارهم يهرعون. ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين. ولقد أرسلنا فيهم منذرين. فانظر كيف كان عاقبة المنذرين. إلا عباد الله المخلصين}. {أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين. وتولى عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون. سبحان ربك رب العزة عما يصفون}، {والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم}، {. . . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد}، {فاليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون}، {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير}، {اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون}. {والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور. وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير}.

أما درجات الأخيار ونعيم الأبرار فقد بشرنا به العزيز الغفار: {ليجزي الله الصادقين بصدقهم}، {. . . أعد الله لهم مغفرة وأجرا

عظيما} {تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما}، {وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا}، {إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور}، {جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}، {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولا من رب رحيم}، {إلا عباد الله المخلصين. أولئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنات النعيم. على سرر متقابلين. يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون}.

وفي شأن الملائكة الكرام عليهم السلام نقرأ في السور الخمس ثلاثا وعشرين آية: ثنتان منها في سورة الأحزاب: {هو الذي يصلي عليكم وملائكته}، ومولانا تقدست أسماؤه يفيض من رحمته على المؤمنين، والملائكة يدعون لنا بالفوز العظيم، وفي الآية الثانية: {إن الله وملائكته يصلون على النبي}، وفي سورة سبأ: {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}، وفي سورة فاطر: {الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير}، وفي مفتتح سورة الصافات: {والصافات صفا. فالزاجرات زجرا. فالتاليات ذكرا}، ثم نقرأ: {فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون. ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أم لكم سلطان مبين. فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون}، وبعدها: {وما منا إلا له مقام معلوم. وإنا لنحن الصافون. وإنا لنحن المسبحون}.

وفي السور الأربع [٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦] نتلوا ما أنزل الله من تمجيد القرآن الكريم: {واذكرن ما يتلى في بيتوكن من آيات الله والحكمة}. {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد}، {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير. ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير}. {والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم}، {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب}، ونقرأ جحود المكذبين والصادين عنه، وحجة الله تعالى عليهم: {وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه}، {والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون}، {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير}، {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين}، وفي خامسة السور المحكمات ذكر للتوراة {ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين}.

وفي شأن النبيين-عليهم الصلوات والتسليم- نقرأ في هذه السور الكثير من الآيات في فضل النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم}، {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر}، {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين. }، {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا}، {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}، {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا}، وآيات أزهقت باطل الذين آذوه ورموه بما هو منه براء، فهو صلوات الله عليه ليس بدعا من الرسل: {بل جاء بالحق وصدق المرسلين}، {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم}، {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد}، {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد}، {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت

فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب}، }والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم}، وعشرات الآيات تتابعت في سورة الصافات تقص علينا من أنباء نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وهارون وإلياس ولوطا ويونس، ومنها: }ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم}، }إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين. وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون} }فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حليم} }وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين. ولقد مننا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم} }وإن إلياس لمن المرسلين}. }وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا في الغابرين. ثم دمرنا الآخرين}، وفي سورة أخرى: }ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير}، وفي بشرى الله تعالى للنبيين المصطفين: }ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون}، }وسلام على المرسلين}.

وفي البر والطاعات، والعمل الصالح والقربات جاء عهد الله إلينا في كثير من الآيات، وإنّ حَمْدَ المولى- تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه بدئت به سورتان في النصف الأول من القرآن تضافان إلى سورة الفاتحة، كما بدئت به سورتان في النصف الثاني، كلتاهما من هذه السور الخمس، حتى لقد تكرر الحمد في أول آية من إحداها: }الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير}. }الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء}، وثانية في نفس السورة: }وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور}، وخامسة ختمت بها آخر السور الخمس: }الحمد لله رب العالمين}، وأمرنا بالذكر الموفور المبرور، والتسبيح ما استطعنا-دون فتور: ف (ذكر) و (ذكرا) و (الذاكرين) و (الذاكرات) جاءت في سورة واحدة، وثلاثتها عهدت إلينا بالإكثار منه: }لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}، }. . . والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}. }يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا}، وأخبر العليم الحكيم عن ملائكته أنهم ينزهونه ويبرءونه ويقدسونه: }وإنا لنحن المسبحون}، وأنه بالتسبيح فرج الكرب العظيم عن نبي كريم: }فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون}، وهذه الثلاثة (سبحوه) و (المسبحين) (المسبحون) لم تأت في القرآن إلا في هذه الآيات الثلاث، }سبحان الله عما يصفون}، }سبحان ربك رب العزة عما يصفون}، }سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون}، }فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون}، وفي الآيات تفضيل من أدى المكتوبات، وخاف مقام ربه في الغدوات والروحات، والخلوات والجلوات وصلحت منه الأفعال والكلمات، وبذل وأعطى ولم يقبض يده عن القربات: }يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا} }وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله}، }. . إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة}، }إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور}، وفضل سبحانه أهل الإيمان الصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، وحرّض على الجهاد الثابت، ورضي عن الذين لا يرهبون في الله عدوا: }ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا}، واشتد غضب ربنا على مرضى القلوب المترددين المعوقين، المتخاذلين عن نصرة الحق والدين: }. . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا}. وشرع الله للنساء أن يتسترن }يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين}، وعلّم الداعين إليه أنهم يقتدى بهم، ما تجردوا وابتغوا بدعوتهم وجه ربهم، ثم لم يخالفوا بين قولهم وفعلهم: }اتبعوا من لا يسألكم

أجرا وهم مهتدون{.
وحذر ربنا ونهى عن موالاة الشيطان ومتابعته، ووصى بمعاداته والاستعاذة من نزغه ووسوسته، فإنه بئس القرين: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير}، ويوم يقرن الضال والمضل في السلاسل والأغلال يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ويقولون: {وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين. فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين. فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون}، {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وما كان عليهم من سلطان}؛ ويُحَشَّرُون من لدن الواحد القهار، بغفلتهم وإجرامهم في هذه الدار: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون}؟!.
فالعاقل من قدس الله وأناب إليه، وآمن به وتوكل عليه، واستيقن بالكتاب والملائكة المكرمين، وتأسى بالنبيين- صلوات ربنا وسلامه عليهم أجمعين- وصدّق بيوم الدين، وصبر على البر والدعوة إليه، وجاهد في سبيل الحق واستقام عليه، وشكر أنعم خير الرازقين، وتبرأ من الزيغ ونزغ الشياطين.
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٣٨ سورة ص:

سورة ص:
سورة ص مكية، وآياتها ثمان وثمانون، كلماتها. . .، حروفها: ١١١١
١ - (ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ)
بسم الله الرحمن الرحيم: {ص والقرآن ذي الذكر (١)}.
{ص} قد تكون مما استأثر الله تعالى بعلمه {. . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا}، وقد تكون مفتاح اسم ربنا الملك الكبير {الصمد}، أو كسائر فواتح السور التي بدأت بحروف تهج مثل: {ألم} {طس} {ق} ولذلك ننطق بأسماء تلك الحروف، وربما يراد بها التحدي، بمعنى أن هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل مكون من حروف الألف واللام والميم والطاء والسين، والتي يتكون منها كلامكم وتنطقون بها، ومع ذلك عجزتم وستظلون عاجزين عن الإتيان بمثل هذا القرآن الذي سيقت كلماته بلسان عربي وحروف من جنس ما تلفظون به، فهذا برهان على أنه تنزيل من حكيم حميد.
وقسما بالقرآن الذي جمعنا فيه الهدى، ووثقنا فيه البلاغ، ليذكر أولوا الألباب، أو به يرتفع قدر من استمسك به واستقام على منهاجه {وإنه لذكر لك ولقومك. } -وجواب القسم: {بل الذين كفروا في عزة وشقاق} - وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره: والقرآن ذي الذكر لتبعثن.
٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)
{بل الذين كفروا في عزة وشقاق (٢)}: ومع ما فيه من عظة وذكرى، وشرف ورحمة، ما تبعه المستكبرون، بل تمنعوا من الإذعان له، وشاقوه وخالفوه.
نقل الطبري عن قتادة: {بل الذين كفروا في عزة} قال ههنا واقع القسم ثم قال-بعد إيراده أقوالا أخرى. والصواب من القول في ذلك-عندي-القول الذي قاله قتادة، وأن قوله {بل} لما دلت على التكذيب وحلت محل الجواب استغنى بها من الجواب إذ عرف المعنى، فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: {ص والقرآن ذي الذكر} ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرين بل هم في عزة وشقاق. . اه.
٣ - (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ)
{كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص}:
{قرن}: وقت من الزمان، والأكثرون على أنه مائة سنة، أو أهل كل مدة مقترنين فيها، والذين يأتون من بعدهم ذووا اقتران آخر.
{لات حين}: ليس الحين.

}مناص{: التأخر والفرار والخلاص.
ينذر الله تعالى الكافرين ويتوعدهم أن ينزل بهم سخطه كما أحله بكثير من الأمم السابقة التي عتت عن أمر ربها ورسله، فلما أحسوا بأس ربهم نادوا مستغيثين، ليصرف عنهم ما نزل بساحتهم من البطش الرباني والنقمة، ولك هيهات أن يرد عنهم أمر الله تعالى أو يدفع، أو يتأتى منه إفلات أو مهرب، وهي سنة الله تعالى التي لا تتحول ولا تتبدل أن يرد التوبة على الذين يقيمون حياتهم على الغرور والفجور }. . . حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما{. وفرعون الذي طغى، وزعم- عليه اللعنة - أنه الرب الأعلى، لم يرجع عن عتوه إلا حين أدركه الغرق. . }قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين{ فبهته المولى الخبير البصير بقوله الحق }الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين{؟!. وقضى المولى -تبارك اسمه- أن لا يرد بأسه عن القوم المجرمين }فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون{.
٤ - (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)
}وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤){: عدّوا مجيء رسول بشر مثلهم أمرا منكرا، والدعوة إلى الدين الحق كذبا وسحرا باطلا- والمراد أنهم عدّوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه.
٥ - (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)
}أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب{: أصير الآلهة-التي عددوها بزعمهم- إلها واحدا؟! عجبوا من دعوة محمد إلى التوحيد، أي إفراد الله العلي الكبير بالألوهية الحقة، ونبذ الأنداد ودعوى الشرك، وقد كبر على المشركين ما يدعوهم إليه النبي الهادي صلى الله عليه وسلم.
٦ - (وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)
}وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد{: ومضى الأشراف الرؤساء من المشركين يسارعون في الدعوة إلى عبادة الأصنام وتعظيمها دون توقف-يقال: تطلقت الخيل، إذا مضت طلقا لم تحتبس إلى الغاية، والانطلاق: سرعة الذهاب في أصل المحنة-وأمروا العوام والأتباع أن يسيروا في طريق الشرك الذي هم عليه، وأن يصبروا ويحبسوا أنفسهم على العكوف على أصنامهم، إن محمدا يريد نبذ الأوثان ليتفضل على العرب، ويحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد.
٧ - (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ)
}ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق{: حكاية بعض ما قال عبدة الأوثان، ليصرفوا الناس عن نور الإيمان: لم نسمع من أهل الدين الذي عليه آخر أمر البشر أن إلها واحدا يسع الخلق كلهم بسمعه وعلمه وقدرته فما هذا إلا افتراء، أو لم نسمع من أهل الكتاب والنصارى القول بالتوحيد، إن النصارى كانوا يثلثون.
٨ - (أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)
}أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب{: بعد إنكارهم وحدانية الله الأحد الفرد الصمد، أنكروا وحيه وصدق من أوحي إليه، والكلام سؤال أرادوا به النفي، نفوا-حسدا- أن ينزل الذكر الذي هو القرآن على محمد، ولو كان وحيا لأنزل على رجل عظيم من إحدى القريتين-مكة والطائف-وكأنهم يقسمون رحمة الله ولا يرون فضلا إلا لمن أوتي مالا وولدا، بل هم لم يستيقنوا بآياتي، بل لم ينزل بهم بلائي بعد، فإذا مسهم العذاب أذعنوا وصدقوا: }فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين{ وإذا سيقوا إلى الحساب أقروا واستيقنوا }. . هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون{.
٩ - (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ)

{أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب}: لو كانوا يعقلون لعلموا أن رب العالمين أعلم حيث يجعل رسالته، وأنه سبحانه يؤتي الحكمة من يشاء، ويختص برحمته وفضله واصطفائه من يختار، وليس لهم تصرف في أي أمر، ولا يقدرون على شيء من فضل الله، فإنه العزيز الذي يغلب ولا يغلب، وإنه كثير الهبات والعطايا والنعم، فليست النبوة نبوغا أو عبقرية ولكنها موهبة ربانية.

١٠ - (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ)

{أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب}: بل ألهم السلطان والتملك لجوانب الكون العلوية والسفلية؟! إن كان لهم سطوة ونفاذ أمر فيهما فليصعدوا في المعارج التي تبلغهم السماء ليدبروا ملكهم-إن كانوا يملكون-وليدبروا ويقسموا كما يشاءون! والكلام ليس أمرا يراد فعله، وإنما هو تهكم واستهزاء بهم.

١١ - (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ)

{جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب}: هم جند قليلون أذلاء أو كثيرون كبراء كائنون هنالك من الكفار المتحزبين على الرسل، مكسورون عن قريب، وفي ذلك بشرى للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن الله مؤيدهم على القوم الكافرين.

١٢ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ)

{الأوتاد}: جمع وتد-وهو في الأصل الخشبة أو الحديدة التي يثبت بها بيت الشعر.

كذب قوم نوح، وعاد، وفرعون صاحب الأوتاد، وثمود. . . . .

ووصفت الآية الكريمة فرعون بأنه {ذو الأوتاد} إما على المعنى القريب وأنه كان يعذب أسراه بشد وثاقهم إلى أوتاد يربطون بها، وإما على المعنى المجازي أي صاحب بنيان عال كالأوتاد، أو صاحب سلطان آخذ برقاب الناس لا يفلتون من سطوته وقهره.

وفي الآيات تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه ما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وأنه قد استهزئ بإخوانه النبيين فساء مصير المستهزئين، وأعز الله أنبياءه والمؤمنين.

يقول ابن جرير-رحمه الله-: واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله قيل لفرعون: {. . ذو الأوتاد}، فقال بعضهم: قيل له ذلك لأنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها. . . وقال آخرون: بل قيل له ذلك لتعذيبه الناس بالأوتاد. . وقال آخرون: معنى ذلك: قوي البنيان،. . الصيحة في موضع العذاب، ومعنى الكلام: ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا عذابا يهلكهم لا إفاقة منه اه.

وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث وذلك قوله سبحانه {كذبت قبلهم قوم نوح} الآية، واختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث. الثاني: أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه، كقوله تعالى: {كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره} ولم يقل ذكرها، لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث.

١٣ - (وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ)

{الأيكة}: الغيضة-وهي الأرض ذات الأشجار الكثيرة.

{الأحزاب}: الذين تحزبوا واجتمعوا على تكذيب رسلهم.

وقوم لوط، وأصحاب الغيضة ذات الشجر-الذين أرسل إليهم شعيب-كذبوا الرسل، وأولئك هم أصحاب التحزب والتجمع على تكذيب رسل الله إليهم، ما كل طائفة وقوم منهم إلا مكذب الرسل فاستوجبوا عقابي العاجل منه والآجل، وما ينتظر قومك المكذبون لك إلا زجرة من عندنا تحل وتنزل بهم عقابا وذلا وخزيا لا ينفك عنهم ولا يتأخر، ومثلما استهزؤوا بالرسول صلى الله عليه وسلم بما حكى القرآن عنهم {. . . وقالوا ساحر كذاب} وسخروا من الدعوة إلى الله الواحد: {أجعل الآلهة إلها واحدا}، ثم بينت الآية هذه سخريتهم من أمر البعث والحساب والثواب والعقاب إذ قالوا: {. . ربنا عجل لنا قطنا} دعوا الله الكبير المتعال أن يعجل لهم صحائفهم وصكاكهم قبل يوم الحساب-إن كان الأمر كما يقول محمد-ليطلعوا على ما أعد لهم، أو أن يعجل لهم حظهم ونصيبهم من نعيم الجنة-إذا صح أن هناك

جنة-أو نصيبهم من العذاب الذي وعدوه، وذلك كما بينت آية في سورة الأنفال: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم}.

١٤ - (إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

{فحق}: ثبت ووجب ووقع.

١٥ - (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)

{ينظر}: ينتظر.

{صيحة}: زجرة بعذاب.

{فواق}: تردد، أو رجعة، أو إفاقة وراحة.

١٦ - (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

{قطنا} كتابنا، وحظنا ونصيبنا.

١٧ - (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أمر الله نبيه محمدا أن يصبر على ما يقول المشركون من الاستهزاء به وتكذيبه فإن سنة المولى الحليم الحكيم أن يرفع قدر النبيين الصابرين، أن يكفيهم المستهزئين: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله}، ووصاه أن يتذكر ما كان من أمر داوود عليه السلام، ويذكر به {. . فإن الذكرى تنفع المؤمنين}، ولقد كرم الله تعالى رسوله داوود في هذه الآيات بتسع صفات: الأولى: ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إياه ليقتدي به في الصبر وسائر أصول الأخلاق، الثانية: وصف بالعبودية مضافة إلى صيغة المتكلم المعظم-والعبودية الصحيحة الجامعة للكمال الممكن- الثالثة: {ذا الأيد} صاحب القوة في الجهاد والطاعات والعبادة، كان يصوم يوما ويفطر يوما-وهو خير الصيام-الرابعة: {إنه أواب} رجاع إلى الله جل علاه، تواب، كثير الإنابة والاستغفار أو كثير الصلاة والتسبيح. الخامسة: {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن} تسبح الجبال-تسبيح مقال-تردد تسبيح داوود كما جاء في سورة سبأ: {. . يا جبال أوبي معه والطير}. قال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعا ذلك الوقت [العشي] فتحول الظل شرقيا، وتحولت الشمس غربية. قال الأزهري: وصلاتا العشي: هما الظهر والعصر. {والإشراق} وقت شروقها وحتى ترتفع عن الأفق الشرقي ويصفو شعاعها، السادسة: أن المولى بقدرته كان يجمع له الطير تسبح معه {والطير محشورة كل له أواب} أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة ومجموعة له تجاوبه في تسبيحه، كل من الجبال والطير رجاع إلى التسبيح، أو رجاع إلى الله الملك المهيمن، السابعة: قوّى الله تعالى سلطان نبيه داوود بهيبة ونصر وكثرة جند، الثامنة: منحه الله تعالى حكمة وعلما. التاسعة: آتاه ربه القول الفصل والكلام الجزل الذي تقل ألفاظه وتكثر معانيه-الفصل بمعنى المفصول ومعناه البين من الكلام، المخلص، الذي لا يلتبس ولا يختلط بغيره. . وجوز أن يراد بفصل الخطاب: الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل. . {وآتيناه الحكمة} النبوة وكمال العلم وإتقان العمل.

وقال قتادة: أعطي داوود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داوود وأحب صيام إلى الله عز وجل صيام داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أوابا). . وقوله جل وعلا: {وآتيناه الحكمة} قال مجاهد يعني الفهم، والعقل والفطنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

مما أورد القرطبي:. . الإشراق أيضا من الشمس بعد طلوعها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داوود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها. . روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: {بالعشي والإشراق} ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، قال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى). . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر-لفظ البخاري- وقال مسلم: وركعتي الضحى، وأخرجه من حديث أبي الدرداء كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. . وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار). . وقد أخرجه مسلم اهـ.

١٨ - (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

أمر الله نبيه محمدا أن يصبر على ما يقول المشركون من الاستهزاء به وتكذيبه فإن سنة المولى الحليم الحكيم أن يرفع قدر النبيين الصابرين، أن يكفيهم المستهزئين: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله}، ووصاه أن يتذكر ما كان من أمر داوود عليه السلام، ويذكر به {. . فإن الذكرى تنفع المؤمنين}، ولقد كرم الله تعالى رسوله داوود في هذه الآيات بتسع صفات: الأولى: ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إياه ليقتدي به في الصبر وسائر أصول الأخلاق، الثانية: وصف بالعبودية مضافة إلى صيغة المتكلم المعظم-والعبودية الصحيحة الجامعة للكمال الممكن- الثالثة: {ذا الأيد} صاحب القوة في الجهاد والطاعات والعبادة، كان يصوم يوما ويفطر يوما-وهو خير الصيام-الرابعة: {إنه أواب} رجاع إلى الله جل علاه، تواب، كثير الإنابة والاستغفار أو كثير الصلاة والتسبيح. الخامسة: {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن} تسبح الجبال-تسبيح مقال-تردد تسبيح داوود كما جاء في سورة سبأ: {. . يا جبال أوبي معه والطير}. قال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعا ذلك الوقت [العشي] فتحول الظل شرقيا، وتحولت الشمس غربية. قال الأزهري: وصلاتا العشي: هما الظهر والعصر. {والإشراق} وقت شروقها وحتى ترتفع عن الأفق الشرقي ويصفو شعاعها، السادسة: أن المولى بقدرته كان يجمع له الطير تسبح معه {والطير محشورة كل له أواب} أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة ومجموعة له تجاوبه في تسبيحه، كل من الجبال والطير رجاع إلى التسبيح، أو رجاع إلى الله الملك المهيمن، السابعة: قوّى الله تعالى سلطان نبيه داوود بهيبة ونصر وكثرة جند، الثامنة: منحه الله تعالى حكمة وعلما. التاسعة: آتاه ربه القول الفصل والكلام الجزل الذي تقل ألفاظه وتكثر معانيه-الفصل بمعنى المفصول ومعناه البين من الكلام، المخلص، الذي لا يلتبس ولا يختلط بغيره. . وجوز أن يراد بفصل الخطاب: الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل. . {وآتيناه الحكمة} النبوة وكمال العلم وإتقان العمل.

وقال قتادة: أعطي داوود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داوود وأحب صيام إلى الله عز وجل صيام داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أوابا). . وقوله جل وعلا: {وآتيناه الحكمة} قال مجاهد يعني الفهم، والعقل والفطنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

مما أورد القرطبي:. . الإشراق أيضا من الشمس بعد طلوعها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داوود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها. . روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: {بالعشي والإشراق} ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، قال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى). . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر-لفظ البخاري- وقال مسلم: وركعتي الضحى، وأخرجه من حديث أبي الدرداء كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. . وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار). . وقد أخرجه مسلم اهـ.

١٩ - (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

أمر الله نبيه محمدا أن يصبر على ما يقول المشركون من الاستهزاء به وتكذيبه فإن سنة المولى الحليم الحكيم أن يرفع قدر النبيين الصابرين، أن يكفيهم المستهزئين: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله}، ووصاه أن يتذكر ما كان من أمر داوود عليه السلام، ويذكر به {. . فإن الذكرى تنفع المؤمنين}، ولقد كرم الله تعالى رسوله داوود في هذه الآيات بتسع صفات: الأولى: ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إياه ليقتدي به في الصبر وسائر أصول الأخلاق، الثانية: وصف بالعبودية مضافة إلى صيغة المتكلم المعظم-والعبودية الصحيحة الجامعة للكمال الممكن- الثالثة: {ذا الأيد} صاحب القوة في الجهاد والطاعات والعبادة، كان يصوم يوما ويفطر يوما-وهو خير الصيام-الرابعة: {إنه أواب} رجاع إلى الله جل علاه، تواب، كثير الإنابة والاستغفار أو كثير الصلاة والتسبيح. الخامسة: {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن} تسبح الجبال-تسبيح مقال-تردد تسبيح داوود كما جاء في سورة سبأ: {. . يا جبال أوبي معه والطير}. قال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعا ذلك الوقت [العشي] فتحول الظل شرقيا، وتحولت الشمس غربية. قال الأزهري: وصلاتا العشي: هما الظهر والعصر. {والإشراق} وقت شروقها وحتى ترتفع عن الأفق الشرقي ويصفو شعاعها، السادسة: أن المولى بقدرته كان يجمع له الطير تسبح معه {والطير محشورة كل له أواب} أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة ومجموعة له تجاوبه في تسبيحه، كل من الجبال والطير رجاع إلى التسبيح، أو رجاع إلى الله الملك المهيمن، السابعة: قوّى الله تعالى سلطان نبيه داوود بهيبة ونصر وكثرة جند، الثامنة: منحه الله تعالى حكمة وعلما. التاسعة: آتاه ربه القول الفصل والكلام الجزل الذي تقل ألفاظه وتكثر معانيه-الفصل بمعنى المفصول ومعناه البين من الكلام، المخلص، الذي لا يلتبس ولا يختلط بغيره. . وجوز أن يراد بفصل الخطاب: الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل. . {وآتيناه الحكمة} النبوة وكمال العلم وإتقان العمل.

وقال قتادة: أعطي داوود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داوود وأحب صيام إلى الله عز وجل صيام داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أوابا). . وقوله جل وعلا: {وآتيناه الحكمة} قال مجاهد يعني الفهم، والعقل والفطنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

مما أورد القرطبي:. . الإشراق أيضا من الشمس بعد طلوعها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داوود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها. . روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: {بالعشي والإشراق} ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، قال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى). . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر-لفظ البخاري- وقال مسلم: وركعتي الضحى، وأخرجه من حديث أبي الدرداء كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. . وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار). . وقد أخرجه مسلم اهـ.

٢٠ - (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

أمر الله نبيه محمدا أن يصبر على ما يقول المشركون من الاستهزاء به وتكذيبه فإن سنة المولى الحليم الحكيم أن يرفع قدر النبيين الصابرين، أن يكفيهم المستهزئين: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله}، ووصاه أن يتذكر ما كان من أمر داوود عليه السلام، ويذكر به {. . فإن الذكرى تنفع المؤمنين}، ولقد كرم الله تعالى رسوله داوود في هذه الآيات بتسع صفات: الأولى: ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إياه ليقتدي به في الصبر وسائر أصول الأخلاق، الثانية: وصف بالعبودية مضافة إلى صيغة المتكلم المعظم-والعبودية الصحيحة الجامعة للكمال الممكن- الثالثة: {ذا الأيد} صاحب القوة في الجهاد والطاعات والعبادة، كان يصوم يوما ويفطر يوما-وهو خير الصيام-الرابعة: {إنه أواب} رجاع إلى الله جل علاه، تواب، كثير الإنابة والاستغفار أو كثير الصلاة والتسبيح. الخامسة: {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن} تسبح الجبال-تسبيح مقال-تردد تسبيح داوود كما جاء في سورة سبأ: {. . يا جبال أوبي معه والطير}. قال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعا ذلك الوقت [العشي] فتحول الظل شرقيا، وتحولت الشمس غربية. قال الأزهري: وصلاتا العشي: هما الظهر والعصر. {والإشراق} وقت شروقها وحتى ترتفع عن الأفق الشرقي ويصفو شعاعها، السادسة: أن المولى بقدرته كان يجمع له الطير تسبح معه {والطير محشورة كل له أواب} أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة ومجموعة له تجاوبه في تسبيحه، كل من الجبال والطير رجاع إلى التسبيح، أو رجاع إلى الله الملك المهيمن، السابعة: قوّى الله تعالى سلطان نبيه داوود بهيبة ونصر وكثرة جند، الثامنة: منحه الله تعالى حكمة وعلما. التاسعة: آتاه ربه القول الفصل والكلام الجزل الذي تقل ألفاظه وتكثر معانيه-الفصل بمعنى المفصول ومعناه البين من الكلام، المخلص، الذي لا يلتبس ولا يختلط بغيره. . وجوز أن يراد بفصل الخطاب: الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل. . {وآتيناه الحكمة} النبوة وكمال العلم وإتقان العمل.

وقال قتادة: أعطي داوود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داوود وأحب صيام إلى الله عز وجل صيام داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أوابا). . وقوله جل وعلا: {وآتيناه الحكمة} قال مجاهد يعني الفهم، والعقل والفطنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

مما أورد القرطبي:. . الإشراق أيضا من الشمس بعد طلوعها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داوود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها. . روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: {بالعشي والإشراق} ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، قال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى). . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر-لفظ البخاري- وقال مسلم: وركعتي الضحى، وأخرجه من حديث أبي الدرداء كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. . وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار). . وقد أخرجه مسلم اهـ.

٢١ - (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)

وقد جاءك من أخبار نبينا داوود خبر المتخاصمين وقت أن دخلوا عليه وهو في محل خلوته ومكان مناجاته وعبادته، وقد تسلقوا السور ولم يدخلوا من الباب، وحين دخلوا عليه على هذا الحال انقبض ونفر من فعلتهم، وكأنما ظهرت في وجهه كراهية ما أقدموا عليه؛ فقالوا لا تتوجس منا شرا فإنا قد تنازعنا في أمر فجئنا لتحكم بيننا بالعدل دون جور، ولترشدنا إلى الطريق القويم، وبدأ المظلوم يعرض ظلامته فقال: إن هذا الذي ظلمني أخي في النسب، أو في الخلطة، يملك تسعا وتسعين من أنثى الضأن {نعجة} ولا ملك لي أكثر من {نعجة واحدة} فقال: ملكني شاتك، وغلبني وقهرني بجاهه وبأسه، وقوة كلامه، فكأن داوود عليه السلام تعجل لحكم له، أو قطع تبتله وتلاوته وتسبيحه في وقت كان قد جعله لمناجاة ربه وليس الوقت الذي قد جعله للفصل بين المتنازعين، ومضى يبين أن الظلم من شيم أكثر النفوس، خصوصا إذا قرب المال من المنال {والله يعلم المفسد من المصلح}.

لكن الذين استيقنوا بالله واستقاموا على طاعته لا يبغون ولا يتظالمون-وقلما يوجدون-وأدرك داوود أن هذا الذي وقع قد كان ابتلاء من الله تعالى له واختبارا، فسقط خاضعا لله تعالى مستغفرا، وانحنى معظما، وسجد خاشعا، وإلى رضوان ربه راجعا، فغفر الله تعالى له ما كان منه من خلاف الأولى، وإن له عند ربه للحسنى، والدرجات العلى، والنعيم الأوفى.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى الاقتصار على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. . وقال البخاري عند تفسيرها. . {وخر راكعا} - فسجدها داوود عليه السلام، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع-وهو الدرجات العالية في الجنة-لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا) اهـ.

٢٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

وقد جاءك من أخبار نبينا داوود خبر المتخاصمين وقت أن دخلوا عليه وهو في محل خلوته ومكان مناجاته وعبادته، وقد تسلقوا السور ولم يدخلوا من الباب، وحين دخلوا عليه على هذا الحال انقبض ونفر من فعلتهم، وكأنما ظهرت في وجهه كراهية ما أقدموا عليه؛ فقالوا لا تتوجس منا شرا فإنا قد تنازعنا في أمر فجئنا لتحكم بيننا بالعدل دون جور، ولترشدنا إلى الطريق القويم، وبدأ المظلوم يعرض ظلامته فقال: إن هذا الذي ظلمني أخي في النسب، أو في الخلطة، يملك تسعا وتسعين من أنثى الضأن {نعجة} ولا ملك لي أكثر من

{نعجة واحدة} فقال: ملكني شاتك، وغلبني وقهرني بجاهه وبأسه، وقوة كلامه، فكأن داوود عليه السلام تعجل لحكم له، أو قطع تبتله وتلاوته وتسبيحه في وقت كان قد جعله لمناجاة ربه وليس الوقت الذي قد جعله للفصل بين المتنازعين، ومضى يبين أن الظلم من شيم أكثر النفوس، خصوصا إذا قرب المال من المنال {والله يعلم المفسد من المصلح}.

لكن الذين استيقنوا بالله واستقاموا على طاعته لا يبغون ولا يتظالمون-وقلما يوجدون-وأدرك داوود أن هذا الذي وقع قد كان ابتلاء من الله تعالى له واختبارا، فسقط خاضعا لله تعالى مستغفرا، وانحنى معظما، وسجد خاشعا، وإلى رضوان ربه راجعا، فغفر الله تعالى له ما كان منه من خلاف الأولى، وإن له عند ربه للحسنى، والدرجات العلى، والنعيم الأوفى.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى الاقتصار على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. . وقال البخاري عند تفسيرها. . {وخر راكعا} - فسجدها داوود عليه السلام، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع-وهو الدرجات العالية في الجنة-لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا) اه.

٢٣ - (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

وقد جاءك من أخبار نبينا داوود خبر المتخاصمين وقت أن دخلوا عليه وهو في محل خلوته ومكان مناجاته وعبادته، وقد تسلقوا السور ولم يدخلوا من الباب، وحين دخلوا عليه على هذا الحال انقبض ونفر من فعلتهم، وكأنما ظهرت في وجهه كراهية ما أقدموا عليه؛ فقالوا لا تتوجس منا شرا فإنا قد تنازعنا في أمر فجئنا لتحكم بيننا بالعدل دون جور، ولترشدنا إلى الطريق القويم، وبدأ المظلوم يعرض ظلامته فقال: إن هذا الذي ظلمني أخي في النسب، أو في الخلطة، يملك تسعا وتسعين من أنثى الضأن {نعجة} ولا ملك لي أكثر من

{نعجة واحدة} فقال: ملكني شاتك، وغلبني وقهرني بجاهه وبأسه، وقوة كلامه، فكأن داوود عليه السلام تعجل لحكم له، أو قطع تبتله وتلاوته وتسبيحه في وقت كان قد جعله لمناجاة ربه وليس الوقت الذي قد جعله للفصل بين المتنازعين، ومضى يبين أن الظلم من شيم أكثر النفوس، خصوصا إذا قرب المال من المنال {والله يعلم المفسد من المصلح}.

لكن الذين استيقنوا بالله واستقاموا على طاعته لا يبغون ولا يتظالمون-وقلما يوجدون-وأدرك داوود أن هذا الذي وقع قد كان ابتلاء من الله تعالى له واختبارا، فسقط خاضعا لله تعالى مستغفرا، وانحنى معظما، وسجد خاشعا، وإلى رضوان ربه راجعا، فغفر الله تعالى له ما كان منه من خلاف الأولى، وإن له عند ربه للحسنى، والدرجات العلى، والنعيم الأوفى.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى الاقتصار على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. . وقال البخاري عند تفسيرها. . {وخر راكعا} - فسجدها داوود عليه السلام، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع-وهو الدرجات العالية في الجنة-لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا) اه.

٢٤ - (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ

مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

وقد جاءك من أخبار نبينا داوود خبر المتخاصمين وقت أن دخلوا عليه وهو في محل خلوته ومكان مناجاته وعبادته، وقد تسلقوا السور ولم يدخلوا من الباب، وحين دخلوا عليه على هذا الحال انقبض ونفر من فعلتهم، وكأنما ظهرت في وجهه كراهية ما أقدموا عليه؛ فقالوا لا تتوجس منا شرا فإنا قد تنازعنا في أمر فجئنا لتحكم بيننا بالعدل دون جور، ولترشدنا إلى الطريق القويم، وبدأ المظلوم يعرض ظلامته فقال: إن هذا الذي ظلمني أخي في النسب، أو في الخلطة، يملك تسعا وتسعين من أنثى الضأن {نعجة} ولا ملك لي أكثر من {نعجة واحدة} فقال: ملكني شاتك، وغلبني وقهرني بجاهه وبأسه، وقوة كلامه، فكأن داوود عليه السلام تعجل لحكم له، أو قطع تبتله وتلاوته وتسبيحه في وقت كان قد جعله لمناجاة ربه وليس الوقت الذي قد جعله للفصل بين المتنازعين، ومضى يبين أن الظلم من شيم أكثر النفوس، خصوصا إذا قرب المال من المنال {والله يعلم المفسد من المصلح}.

لكن الذين استيقنوا بالله واستقاموا على طاعته لا يبغون ولا يتظالمون-وقلما يوجدون-وأدرك داوود أن هذا الذي وقع قد كان ابتلاء من الله تعالى له واختبارا، فسقط خاضعا لله تعالى مستغفرا، وانحنى معظما، وسجد خاشعا، وإلى رضوان ربه راجعا، فغفر الله تعالى له ما كان منه من خلاف الأولى، وإن له عند ربه للحسنى، والدرجات العلى، والنعيم الأوفى.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى الاقتصار على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. . وقال البخاري عند تفسيرها. . {وخر راكعا} - فسجدها داوود عليه السلام، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع-وهو الدرجات العالية في الجنة-لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا) اهـ.

٢٥ - (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

وقد جاءك من أخبار نبينا داوود خبر المتخاصمين وقت أن دخلوا عليه وهو في محل خلوته ومكان مناجاته وعبادته، وقد تسلقوا السور ولم يدخلوا من الباب، وحين دخلوا عليه على هذا الحال انقبض ونفر من فعلتهم، وكأنما ظهرت في وجهه كراهية ما أقدموا عليه؛ فقالوا لا تتوجس منا شرا فإنا قد تنازعنا في أمر فجئنا لتحكم بيننا بالعدل دون جور، ولترشدنا إلى الطريق القويم، وبدأ المظلوم يعرض ظلامته فقال: إن هذا الذي ظلمني أخي في النسب، أو في الخلطة، يملك تسعا وتسعين من أنثى الضأن {نعجة} ولا ملك لي أكثر من {نعجة واحدة} فقال: ملكني شاتك، وغلبني وقهرني بجاهه وبأسه، وقوة كلامه، فكأن داوود عليه السلام تعجل لحكم له، أو قطع تبتله وتلاوته وتسبيحه في وقت كان قد جعله لمناجاة ربه وليس الوقت الذي قد جعله للفصل بين المتنازعين، ومضى يبين أن الظلم من شيم أكثر النفوس، خصوصا إذا قرب المال من المنال {والله يعلم المفسد من المصلح}.

لكن الذين استيقنوا بالله واستقاموا على طاعته لا يبغون ولا يتظالمون-وقلما يوجدون-وأدرك داوود أن هذا الذي وقع قد كان ابتلاء من الله تعالى له واختبارا، فسقط خاضعا لله تعالى مستغفرا، وانحنى معظما، وسجد خاشعا، وإلى رضوان ربه راجعا، فغفر الله تعالى له ما كان منه من خلاف الأولى، وإن له عند ربه للحسنى، والدرجات العلى، والنعيم الأوفى.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن

كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى الاقتصار على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. . وقال البخاري عند تفسيرها. . {وخر راكعا} - فسجدها داوود عليه السلام، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع-وهو الدرجات العالية في الجنة-لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا) اه.

٢٦ - (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

{يا داوود إن جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦)}.

ينادي الله تعالى داود-ممتنا عليه-إني استخلفتك في الأرض لتصلح بين الخلق بالعدل، وجعلتك على آثار من سبقك من النبيين الذين بعثتهم رحمة للعباد وهداة ونذرا، فاستدم-ومن أراد رضاي- الحكم بالقسط، والفصل بين الناس دون ميل، فإن متابعة الهوى تصد عن اتباع الهدى، فالهوى يعمي ويصم فلا يرى صاحب الهوى دلائل الحق-عقلية أو نقلية-إما لعدم فهمها-كما جاء في الآية الكريمة: {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه} أو لا يعمل بما أوجبت؛ فمن صد عن الحق الذي جاءنا عن ربنا فله عذاب شديد بسبب نسيانه يوم الحساب إذ لو كان يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه لأحق الحقوق واستقام على مرضاة الرب.

نقل الألوسي عن ابن عطية: ولا يقال خليفة الله تعالى إلا لرسوله، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة من قبله، وما يجيء من الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوّز. . وقالت الصحابة لأبي بكر: خليفة رسول الله، وبذلك كان يدعى، إلى أن توفي، فلما ولي عمر قالوا: خليفة خليفة رسول الله، فعدل عنه اختصار إلى أمير المؤمنين.

واستدل بعضهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله عز وجل. . والإمامة. . من الفروع وإن ذكروها في كتب العقائد اه.

٢٧ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

{وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار}:

بالحق قامت السماوات والأرض وخلق الخلق، وما خلقت للباطل ولا للهوى واللهو والعبث، لكن يظن الكفار أن الأمر شهوات تقضى: {والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم} فويل لهم من غفلتهم وضلالتهم التي تؤهلهم لدخول النار: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}.

٢٨ - (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

{أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار}: بل هل نجعل من آمن وأصلح كمن أفسد وجحد، هل يستويان مصيرا وجزاء. .؟ بل أنجعل من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، كمن طغى وآثر الحياة الدنيا؟ لا يستويان أبدا، فأما من آمن واتقى وأصلح فإن الجنة مأواه، ومن كفر وفجر فالنار مثواه.

٢٩ - (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)

{كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب}: وهذا القرآن كتاب أوحيناه إليك يا محمد ليتعقلوا كلماته، وليتأملوا ويقدسوا أماناته. وليتعظوا ويعملوا بمناهجه وعظاته، إن كانوا من أصحاب العقول.

وهكذا فالتدبر والتذكر للكتاب العزيز تنال بهما بركاته وهداياته، ولهم بشراهم: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه}، {. . فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} ومن لا يتدبر فما استكمل حلية الإيمان، ولا سعد بالدخول في عباد الرحمن الذين أثنى عليهم الفرقان في آية من آياته {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا}.

ويحض القرآن الكريم على التدبر وفتح مغاليق القلوب لتلقي هدايته ونوره: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} وإن الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى-صلى الله عليه وسلم- ليعلم كل من يتعلم أن شر الناس من يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوي بشيء منه، أي لا يرتدع ولا يزدجر. يقول الحسن البصري-رحمة الله عليه- والله ما تدبره بحفظ حروفه وتضييع حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. اه.

يقول الألوسي:. . {وليتذكر أولوا الألباب} أي وليتعظ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم. . فإن إرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان ما لا نعرف إلا من جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس، والإرشاد إلى ما يستقل العقل بإدراكه كوجود الصانع القديم. اه

٣٠ - (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

{ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب}: وجعلنا في ذرية داود الملك والنبوة فمنحناه وأعطيناه لابن الملك الرسول العبد الممدوح من الله العليم الحكيم، إنه عبد رجاع إلى ربه، شاكر لما آتاه الله، لا تبطره النعمة مهما عظمت.

٣١ - (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

{إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد}:

{العشي} من زوال الشمس إلى آخر النهار.

{الصافنات} الواقفات ساكنة، أو على ثلاثة أرجل.

{الجياد} جمع جواد، وهو الفرس الجيد.

وقت أن عرض على سليمان عشية يوم خيل له من أجود ما عرف من خيل. تسكن إذا وقفت، وتسرع إذا ركضت.

٣٢ - (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

{فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب}: فأعجبه بهاؤها ورباطها وترويضها وطال به الوقت حتى لم يفرغ إلى ما كان يداوم عليه من تبتل وتنفل حتى احتجبت الشمس وواراها الغروب وحجبها الأفق من قبل أن يتذكر سليمان أن وقتا لأمر آخر قد أظله وأوشك أن يزايله، فقال معتذرا منيبا: إني أحببت حب الخيل وإعدادها قوة للجهاد في سبيل الله، وأنبت ذلك عن ذكر ربي!.

٣٣ - (رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ)

{ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق}: قال لرائضي الخيل: ردوا الخيل فقربوها مني، ففعلوا وأعادوها لتعرض عليه مرة ثانية، فأخذ يمسح بيده أرجلها وأعناقها، أو أمر بذبحها وتقسيم لحمها بين الفقراء تقربا إلى الله. ولم يكن في ذلك إضعاف لشوكة أهل الإيمان فإن الله القوي القدير قد سخر لسليمان الجن والإنس والطير والريح وقوى الطبيعة.

٣٤ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ)

{ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب}: اختبرنا سليمان عليه السلام إذ نذر أن يجعل من يولد له من بنين من كل زوجاته اللاتي ترقب حملهن أن يجعل مواليدهن الذكران فرسانا يجاهدون في سبيل الله، لكنه نسي أن يقول إن شاء الله.

فعاتب الله -جل علاه- نبيه سليمان، ولم تنجب من زوجاته إلا واحدة، ألقت بمولدها ميتا، فسارع سليمان بتدارك ما فاته من تقديم ذكر المشيئة الربانية.

مما روى الشيخان-البخاري ومسلم- في صحيحيهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (. . فو الذي نفس محمد بيده لو قال إنشاء الله لجاهدوا فرسانا).

٣٥ - (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

{قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب}: سأل سليمان ربه الغفران، فإن مخالفة الأولى في

حق الأنبياء مما يستغفر منه فنوح صلى الله عليه وسلم وهو أول أولي العزم من الرسل لما سأل المولى سبحانه: {رب إن ابني من أهلي} ونودي من الله جل علاه: {. . فلا تسألني ما ليس لك به علم} قال ما حكاه عنه الكتاب العزيز: {. . رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} ودعا سليمان أن يهبه ربنا الغني الوهاب ملكا عظيما لا يتاح لأحد ممن سيأتي إلى آخر الزمان.

يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا، مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟ فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى، وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه.

٣٦ - (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)

{فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب (٣٦)}.

ذلل الله القوي القدير الريح وطوعها لما يأمرها به سليمان عليه السلام، فإذا أرادها هينة لينة تمضي بيسر إلى حيث يحب سليمان عليه السلام وإلى أي ناحية يقصد، وإذا أمرها أن تعصف استجابت وعصفت: {ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره} ١ وتهب شديدة.

٣٧ - (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)

{والشياطين كل بناء وغواص}: وسخرنا لسليمان الشياطين تعمل بأمره، وتخضع لسلطانه، يصنعون له ما يشاء، ويعمرون في البر وفي أعماق البحار، ويقيد منهم في القيود والأغلال من يحاول الزيغ عما أمر به، ومكناه من السيطرة عليهم، يمنّ على فريق فيطلقه، أو يرى غير ذلك في فريق فيمسكه، ليس عليه في ذلك من حرج، وإنه عندنا لمن المقربين الفائزين بالخلد في جنات النعيم.

٣٨ - (وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{والشياطين كل بناء وغواص}: وسخرنا لسليمان الشياطين تعمل بأمره، وتخضع لسلطانه، يصنعون له ما يشاء، ويعمرون في البر وفي أعماق البحار، ويقيد منهم في القيود والأغلال من يحاول الزيغ عما أمر به، ومكناه من السيطرة عليهم، يمنّ على فريق فيطلقه، أو يرى غير ذلك في فريق فيمسكه، ليس عليه في ذلك من حرج، وإنه عندنا لمن المقربين الفائزين بالخلد في جنات النعيم.

٣٩ - (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{والشياطين كل بناء وغواص}: وسخرنا لسليمان الشياطين تعمل بأمره، وتخضع لسلطانه، يصنعون له ما يشاء، ويعمرون في البر وفي أعماق البحار، ويقيد منهم في القيود والأغلال من يحاول الزيغ عما أمر به، ومكناه من السيطرة عليهم، يمنّ على فريق فيطلقه، أو يرى غير ذلك في فريق فيمسكه، ليس عليه في ذلك من حرج، وإنه عندنا لمن المقربين الفائزين بالخلد في جنات النعيم.

٤٠ - (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{والشياطين كل بناء وغواص}: وسخرنا لسليمان الشياطين تعمل بأمره، وتخضع لسلطانه، يصنعون له ما يشاء، ويعمرون في البر وفي أعماق البحار، ويقيد منهم في القيود والأغلال من يحاول الزيغ عما أمر به، ومكناه من السيطرة عليهم، يمنّ على فريق فيطلقه، أو يرى غير ذلك في فريق فيمسكه، ليس عليه في ذلك من حرج، وإنه عندنا لمن المقربين الفائزين بالخلد في جنات النعيم.

٤١ - (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

بعد قصة داوود وسليمان عليهما السلام، أمر الله تعالى نبيه محمدا أن يذكر قصة أيوب نبي الله، والصحيح أنه من أنبياء بني إسرائيل، وقد شاء ربنا أن يبتليه بشيء من السقم في بدنه وطال به البلاء، فخاف أن يبلغ البلاء به أو بغيره ما لا يطيق فدعا ربه {. . أني

مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} وأمره الله تعالى أن يضرب الأرض برجله فضربها فتفجر منها ماء فنودي: هذا مغتسل بارد وشراب فاغتسل واشرب منه، ففعل فأذهب الله عنه ما كان به من سقم وألم، وعافا الله أهله، وجمع شملهم وباركهم وذريتهم، فعاد أهله ضعف ما كانوا قبل، فيضا من رحمة مولانا البر الرحمن. وعبرة لكل صاحب لب وبصيرة أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا، ولكأنما كان عليه الصلاة والسلام قد حلف ليضربن زوجته مائة، فأنزل الله له تحلة يمينه أن يضربها بحزمة من حشيش مختلفة تضم مائة عود فليضربها بالحزمة مرة واحدة فيكون تيسيرا على زوجته، ومنجاة له من الحنث في اليمين، وهكذا {. . من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} وسلاما على أيوب النبي الكريم، الذي رفع قدره رب العالمين فشرفه بأنه {نعم العبد} وفضله بأنه كثير الإنابة إلى مولاه.

٤٢ - (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

بعد قصة داوود وسليمان عليهما السلام، أمر الله تعالى نبيه محمدا أن يذكر قصة أيوب نبي الله، والصحيح أنه من أنبياء بني إسرائيل، وقد شاء ربنا أن يبتليه بشيء من السقم في بدنه وطال به البلاء، نخاف أن يبلغ البلاء به أو بغيره ما لا يطيق فدعا ربه {. . أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} وأمره الله تعالى أن يضرب الأرض برجله فضربها فتفجر منها ماء فنودي: هذا مغتسل بارد وشراب فاغتسل واشرب منه، ففعل فأذهب الله عنه ما كان به من سقم وألم، وعافا الله أهله، وجمع شملهم وباركهم وذريتهم، فعاد أهله ضعف ما كانوا قبل، فيضا من رحمة مولانا البر الرحمن. وعبرة لكل صاحب لب وبصيرة أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا، ولكأنما كان عليه الصلاة والسلام قد حلف ليضربن زوجته مائة، فأنزل الله له تحلة يمينه أن يضربها بحزمة من حشيش مختلفة تضم مائة عود فليضربها بالحزمة مرة واحدة فيكون تيسيرا على زوجته، ومنجاة له من الحنث في اليمين، وهكذا {. . من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} وسلاما على أيوب النبي الكريم، الذي رفع قدره رب العالمين فشرفه بأنه {نعم العبد} وفضله بأنه كثير الإنابة إلى مولاه.

٤٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

بعد قصة داوود وسليمان عليهما السلام، أمر الله تعالى نبيه محمدا أن يذكر قصة أيوب نبي الله، والصحيح أنه من أنبياء بني إسرائيل، وقد شاء ربنا أن يبتليه بشيء من السقم في بدنه وطال به البلاء، نخاف أن يبلغ البلاء به أو بغيره ما لا يطيق فدعا ربه {. . أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} وأمره الله تعالى أن يضرب الأرض برجله فضربها فتفجر منها ماء فنودي: هذا مغتسل بارد وشراب فاغتسل واشرب منه، ففعل فأذهب الله عنه ما كان به من سقم وألم، وعافا الله أهله، وجمع شملهم وباركهم وذريتهم، فعاد أهله ضعف ما كانوا قبل، فيضا من رحمة مولانا البر الرحمن. وعبرة لكل صاحب لب وبصيرة أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا، ولكأنما كان عليه الصلاة والسلام قد حلف ليضربن زوجته مائة، فأنزل الله له تحلة يمينه أن يضربها بحزمة من حشيش مختلفة تضم مائة عود فليضربها بالحزمة مرة واحدة فيكون تيسيرا على زوجته، ومنجاة له من الحنث في اليمين، وهكذا {. . من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} وسلاما على أيوب النبي الكريم، الذي رفع قدره رب العالمين فشرفه بأنه {نعم العبد} وفضله بأنه كثير الإنابة إلى مولاه.

٤٤ - (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

بعد قصة داوود وسليمان عليهما السلام، أمر الله تعالى نبيه محمدا أن يذكر قصة أيوب نبي الله، والصحيح أنه من أنبياء بني إسرائيل، وقد شاء ربنا أن يبتليه بشيء من السقم في بدنه وطال به البلاء، نخاف أن يبلغ البلاء به أو بغيره ما لا يطيق فدعا ربه {. . أني

مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} وأمره الله تعالى أن يضرب الأرض برجله فضربها فتفجر منها ماء فنودي: هذا مغتسل بارد وشراب فاغتسل واشرب منه، ففعل فأذهب الله عنه ما كان به من سقم وألم، وعافا الله أهله، وجمع شملهم وباركهم وذريتهم، فعاد أهله ضعف ما كانوا قبل، فيضا من رحمة مولانا البر الرحمن. وعبرة لكل صاحب لب وبصيرة أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا، ولكأنما كان عليه الصلاة والسلام قد حلف ليضربن زوجته مائة، فأنزل الله له تحلة يمينه أن يضربها بحزمة من حشيش مختلفة تضم مائة عود فليضربها بالحزمة مرة واحدة فيكون تيسيرا على زوجته، ومنجاة له من الحنث في اليمين، وهكذا {. . من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} وسلاما على أيوب النبي الكريم، الذي رفع قدره رب العالمين فشرفه بأنه {نعم العبد} وفضله بأنه كثير الإنابة إلى مولاه.

٤٥ - (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ)

{واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}: وليتصبر الناس وليشكروا النعمة، ولكي يصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، اتل عليهم نبأ المرسلين الصابرين الشاكرين: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب أصحاب القوة في الدين والبصيرة ورسوخ اليقين، إنا استخلصناهم لنا واختصهم الغفور الشكور بالذكر الجميل، والثناء الحسن في الدنيا، وإنهم عندنا لمن المجتبين، فهم أهل اصطفائنا وأفضل الخيرين، وذكرهم بمنهاج النبيين المباركين المفضلين إسماعيل واليسع وذي الكفل، وكلهم ممن تحققت فيهم الخيرية على أكمل ما تحقق في بشر.

٤٦ - (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}: وليتصبر الناس وليشكروا النعمة، ولكي يصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، اتل عليهم نبأ المرسلين الصابرين الشاكرين: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب أصحاب القوة في الدين والبصيرة ورسوخ اليقين، إنا استخلصناهم لنا واختصهم الغفور الشكور بالذكر الجميل، والثناء الحسن في الدنيا، وإنهم عندنا لمن المجتبين، فهم أهل اصطفائنا وأفضل الخيرين، وذكرهم بمنهاج النبيين المباركين المفضلين إسماعيل واليسع وذي الكفل، وكلهم ممن تحققت فيهم الخيرية على أكمل ما تحقق في بشر.

٤٧ - (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}: وليتصبر الناس وليشكروا النعمة، ولكي يصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، اتل عليهم نبأ المرسلين الصابرين الشاكرين: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب أصحاب القوة في الدين والبصيرة ورسوخ اليقين، إنا استخلصناهم لنا واختصهم الغفور الشكور بالذكر الجميل، والثناء الحسن في الدنيا، وإنهم عندنا لمن المجتبين، فهم أهل اصطفائنا وأفضل الخيرين، وذكرهم بمنهاج النبيين المباركين المفضلين إسماعيل واليسع وذي الكفل، وكلهم ممن تحققت فيهم الخيرية على أكمل ما تحقق في بشر.

٤٨ - (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}: وليتصبر الناس وليشكروا النعمة، ولكي يصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، اتل عليهم نبأ المرسلين الصابرين الشاكرين: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب أصحاب القوة في الدين والبصيرة ورسوخ اليقين، إنا استخلصناهم لنا واختصهم الغفور الشكور بالذكر الجميل، والثناء الحسن في الدنيا، وإنهم عندنا لمن المجتبين، فهم أهل اصطفائنا وأفضل الخيرين، وذكرهم بمنهاج النبيين المباركين المفضلين إسماعيل واليسع وذي الكفل، وكلهم ممن تحققت فيهم

الخيرية على أكمل ما تحقق في بشر.
٤٩ - (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)
هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب، لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.
٥٠ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب، لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.
٥١ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب، لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.
٥٢ - (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب،

لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.

٥٣ - (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]

هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب، لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.

٥٤ - (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]

هذا القرآن ذكر وعبادة يتقرب به إلى الله، أو هذا الثناء على المرسلين رفع لأقدارهم، وبيان لشرفهم وإنا لنثني على الراشدين من بعدهم، ونبشر المؤمنين الصالحين بطيب مآلهم ومصيرهم، بجنات الخلد يدخلونها مكرمين من أي باب شاءوا من أبوابها الثمانية، فهي مهيأة لاستقبالهم، وخزنة الجنة يلقونهم يرحبون بهم، ويحلون دار المقامة لا يمسهم فيها نصب، ولا ينتابهم لغوب، بل ولا يلحقهم مشيب، لا يطالبون بعمل، بل يتكئون على الفرش المرفوعة، وأسرة بطائن فرشها من استبرق، ولهم ما يطلبون من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وكأس كان مزاجها زنجبيلا {عينا فيها تسمى سلسبيلا} ومن أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، وزوجاتهم طاهرات عفيفات لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، وهن أتراب وأمثال للأزواج في سن واحدة، فاستبشروا أهل الإيمان بوعد ربكم الحق، وإن رزقكم هذا أو نعيمكم باق خالد، لا تتحولون عنه، ولا تخرجون منه.

٥٥ - (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٥٦ - (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ)

كالمهاد الذي يفرش للصبي {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش}، {إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممدة} هذا العذاب موئلهم فليذوقوه، وهو حميم: ماء شديد الحرارة، وغساق: صديد أهل النار، أو يجمع لهم في العذاب بين الزمهرير والحميم، والزقوم والسموم، والغسلين واليحموم، وأصناف أخر وأجناس من صفته وعلى شاكلته، ومع غلظ العذاب الحسي فإنهم يتجرعون حسرات وغصة نفسية، فيلعن بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم ببعض، ويتحاجون ويتخاصمون، فتقول لهم خزنة النار وملائكة العذاب تنغيصا لهم وسخرية: هذا جمع ممن أضللتم يسحبون معكم في سقر على وجوههم فلن يلقوا ترحيبا ولا تكريما، أو يرد الذين استكبروا داعين على من اتبعوهم ضائقين بهم: لا

وسع لهم، ولا كرموا، فإنهم سيصلون هذا السعير، فيرد الفوج المقتحم والذين كانوا أتباع هؤلاء الرؤساء-يدعون عليهم ويحقرونهم-: بل أنتم أحق أن يقال فيكم لا مرحبا بكم، فأنتم الذين قدمتم دخول النار بإغوائنا وإغرائنا بالمروق والفسوق و {. . لولا أنتم لكنا مؤمنين} فبئس ما أوردتمونا بإضلالكم، ثم تابعوا الدعاء على كبرائهم ضارعين: ربنا من ساقنا إلى هذا المصير وساقه لنا فضاعف له العذاب، أو قال بعض الخاسرين لبعض متحسرين: ماذا بنا؟ فنحن لا نبصر رجالا كنا نعدهم أراذل لفقرهم وضعفهم-كعمار وصهيب وسلمان وبلال رضي الله عنهم- أو ماذا اعترانا؟ فنحن لا نرى أكابر المشركين وصناديد الضلال والبغي كنا نعدهم من أصحاب البأس؟ هل ازدريناهم؟ أم لم يجيئوا معنا؟ أم زاغت أبصارنا فنحن لا نراهم؟ إن الذي جاء من هذا الوعيد والخزي الشديد لحق لا مرية فيه، ولا بد أن يتحاجوا كما أخبر الله الذي لا يخلف الميعاد- {ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين}.

٥٧ - (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٥٨ - (وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٥٩ - (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦٠ - (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦١ - (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦٢ - (وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦٣ - (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦٤ - (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٥]

بعد أن بشرت الآيات السابقات بوعد السعداء الفائزين، أنذرت هذه بوعيد الخاسرين، ومآل الجائرين الباغين الظالمين، و {هذا} للفصل بين وعد في تلك، ووعيد في هذه، وإنه لملاقيهم لا محالة، وإن مرجعهم ومصيرهم لإلى الجحيم شر مستقر، لهبها وسعيرها يشوي صلاهم وجلودهم، ويغشى وجوههم، ويلف جنوبهم.

٦٥ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

دعوة إلى اليقين بوحدانية الله تعالى وقهره، والتصديق برسوله؛ أمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منزلة المبعوث وأنه ليس ساحرا ولا كذابا، كما أنه ليس يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، إنما هو مبلغ ومنذر، والإنذار يقتضي التخويف والتحذير، وقد يطلق ويراد به ما يقابل البشارة، كما قال الله-تبارك اسمه-: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا} وقد يراد به الذكرى النافعة كما في الآية الكريمة: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم} وما من معبود بحق إلا الله الخلاق، الحي الرزاق، المتفرد بالملك والأمر والتدبير، الذي يقهر كل شيء ويهيمن عليه، وهو مصلح السماوات والأرض، وما ومن فيهما، وما بينهما، وولي ذلك كله، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب كثير الغفران لمن استغفر، واسع العفو وقابله عمن تاب؛ قل إن اصطفاء الله تعالى إياك واختيارك للرسالة خير عميم النفع، عظيم العاقبة، أنتم عنه مقيمون على الإعراض والصدود؛ ومن برهان نبوتي أن الوحي علمني الله به ما لم أكن أعلم، فما توفر لي سبب أعرف به ما كان بين الملأ الأعلى الذي يسكن السماء-الملائكة وآدم عليه السلام والشيطان-من محاورة واختصام-سيأتي تفصيله في الآيات بعد من رقم ٧١ - ؛ وما كنت أتلو من قبل الوحي من كتاب ولا أخط مكتوبا؛ لكن جاءني من ربي أني داع أبلغكم رسالات الله وأبين لكم منهاجه. وقيل: الملأ الأعلى: الملائكة؛ والضمير في {يختصمون} لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد.

٦٦ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

دعوة إلى اليقين بوحدانية الله تعالى وقهره، والتصديق برسوله؛ أمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منزلة المبعوث وأنه ليس ساحرا ولا كذابا، كما أنه ليس يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، إنما هو مبلغ ومنذر، والإنذار يقتضي التخويف والتحذير، وقد يطلق ويراد به ما يقابل البشارة، كما قال الله-تبارك اسمه-: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا} وقد يراد به الذكرى النافعة كما في الآية الكريمة: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم} وما من معبود بحق إلا الله الخلاق، الحي الرزاق، المتفرد بالملك والأمر والتدبير، الذي يقهر كل شيء ويهيمن عليه، وهو مصلح السماوات والأرض، وما ومن فيهما، وما بينهما، وولي ذلك كله، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب كثير الغفران لمن استغفر، واسع العفو وقابله عمن تاب؛ قل إن اصطفاء الله تعالى إياك واختيارك للرسالة خير عميم النفع، عظيم العاقبة، أنتم عنه مقيمون على الإعراض والصدود؛ ومن برهان نبوتي أن الوحي علمني الله

به ما لم أكن أعلم، فما توفر لي سبب أعرف به ما كان بين الملأ الأعلى الذي يسكن السماء-الملائكة وآدم عليه السلام والشيطان-من محاورة واختصام-سيأتي تفصيله في الآيات بعد من رقم ٧١ - ؛ وما كنت أتلو من قبل الوحي من كتاب ولا أخط مكتوبا؛ لكن جاءني من ربي أني داع أبلغكم رسالات الله وأبين لكم منهاجه. وقيل: الملأ الأعلى: الملائكة؛ والضمير في {يختصمون} لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد.

٦٧ - (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

دعوة إلى اليقين بوحدانية الله تعالى وقهره، والتصديق برسوله؛ أمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منزلة المبعوث وأنه ليس ساحرا ولا كذابا، كما أنه ليس يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، إنما هو مبلغ ومنذر، والإنذار يقتضي التخويف والتحذير، وقد يطلق ويراد به ما يقابل البشارة، كما قال الله-تبارك اسمه-: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا} وقد يراد به الذكرى النافعة كما في الآية الكريمة: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم} وما من معبود بحق إلا الله الخلاق، الحي الرزاق، المتفرد بالملك والأمر والتدبير، الذي يقهر كل شيء ويهيمن عليه، وهو مصلح السماوات والأرض، وما ومن فيهما، وما بينهما، وولي ذلك كله، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب كثير الغفران لمن استغفر، واسع العفو وقابله عمن تاب؛ قل إن اصطفاء الله تعالى إياك واختيارك للرسالة خير عميم النفع، عظيم العاقبة، أنتم عنه مقيمون على الإعراض والصدود؛ ومن برهان نبوتي أن الوحي علمني الله به ما لم أكن أعلم، فما توفر لي سبب أعرف به ما كان بين الملأ الأعلى الذي يسكن السماء-الملائكة وآدم عليه السلام والشيطان-من محاورة واختصام-سيأتي تفصيله في الآيات بعد من رقم ٧١ - ؛ وما كنت أتلو من قبل الوحي من كتاب ولا أخط مكتوبا؛ لكن جاءني من ربي أني داع أبلغكم رسالات الله وأبين لكم منهاجه. وقيل: الملأ الأعلى: الملائكة؛ والضمير في {يختصمون} لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد.

٦٨ - (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

دعوة إلى اليقين بوحدانية الله تعالى وقهره، والتصديق برسوله؛ أمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منزلة المبعوث وأنه ليس ساحرا ولا كذابا، كما أنه ليس يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، إنما هو مبلغ ومنذر، والإنذار يقتضي التخويف والتحذير، وقد يطلق ويراد به ما يقابل البشارة، كما قال الله-تبارك اسمه-: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا} وقد يراد به الذكرى النافعة كما في الآية الكريمة: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم} وما من معبود بحق إلا الله الخلاق، الحي الرزاق، المتفرد بالملك والأمر والتدبير، الذي يقهر كل شيء ويهيمن عليه، وهو مصلح السماوات والأرض، وما ومن فيهما، وما بينهما، وولي ذلك كله، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب كثير الغفران لمن استغفر، واسع العفو وقابله عمن تاب؛ قل إن اصطفاء الله تعالى إياك واختيارك للرسالة خير عميم النفع، عظيم العاقبة، أنتم عنه مقيمون على الإعراض والصدود؛ ومن برهان نبوتي أن الوحي علمني الله به ما لم أكن أعلم، فما توفر لي سبب أعرف به ما كان بين الملأ الأعلى الذي يسكن السماء-الملائكة وآدم عليه السلام والشيطان-من محاورة واختصام-سيأتي تفصيله في الآيات بعد من رقم ٧١ - ؛ وما كنت أتلو من قبل الوحي من كتاب ولا أخط مكتوبا؛ لكن جاءني من ربي أني داع أبلغكم رسالات الله وأبين لكم منهاجه. وقيل: الملأ الأعلى: الملائكة؛ والضمير في {يختصمون} لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد.

٦٩ - (مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٥]

دعوة إلى اليقين بوحدانية الله تعالى وقهره، والتصديق برسوله؛ أمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منزلة المبعوث وأنه ليس ساحرا ولا كذابا، كما أنه ليس يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، إنما هو مبلغ ومنذر، والإنذار يقتضي التخويف والتحذير، وقد يطلق ويراد به ما يقابل البشارة، كما قال الله-تبارك اسمه-: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا} وقد يراد به الذكرى النافعة كما في الآية الكريمة: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم} وما من معبود بحق إلا الله الخلاق، الحي الرزاق، المتفرد بالملك والأمر والتدبير، الذي يقهر كل شيء ويهيمن عليه، وهو مصلح السماوات والأرض، وما ومن فيهما، وما بينهما، وولي ذلك كله، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب كثير الغفران لمن استغفر، واسع العفو وقابله عمن تاب؛ قل إن اصطفاء الله تعالى إياك واختيارك للرسالة خير عميم النفع، عظيم العاقبة، أنتم عنه مقيمون على الإعراض والصدود؛ ومن برهان نبوتي أن الوحي علمني الله به ما لم أكن أعلم، فما توفر لي سبب أعرف به ما كان بين الملأ الأعلى الذي يسكن السماء-الملائكة وآدم عليه السلام والشيطان-من محاورة واختصام-سيأتي تفصيله في الآيات بعد من رقم ٧١ - ؛ وما كنت أتلو من قبل الوحي من كتاب ولا أخط مكتوبا؛ لكن جاءني من ربي أني داع أبلغكم رسالات الله وأبين لكم منهاجه. وقيل: الملأ الأعلى: الملائكة؛ والضمير في {يختصمون} لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد.

٧١ - (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ)

جملة {إذ قال} بدل من القول الكريم في الآية التاسعة والستين {إذ يختصمون} فكأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم، قال ربنا -جل علاه-للملائكة: إني خالق مخلوقا له مادة تُباشَر، وبدأت خلقه من طين، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، وأجريت فيه ما به يحيا من الروح التي لا يملكها غيري، فاسقطوا ساجدين تكريما له وتحية؛ فلما سواه-تبارك اسمه-ونفخ فيه الروح، سجد الملائكة جميعا، تقديسا لأمر الله، وتكرمة لآدم عليه السلام، وسارعوا إلى ذلك مجتمعين، لم يتخلف عن السجود أحد منهم، لكن إبليس الشيطان تأنّف وتعظّم وقال ما حكاه عنه القرآن في آية كريمة أخرى: {. . قال أأسجد لمن خلقت طينا}؟ وصار من الكافرين بفسوقه عن أمر ربه، وإصراره على التعاظم وعدم الإذعان.

٧٢ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

جملة {إذ قال} بدل من القول الكريم في الآية التاسعة والستين {إذ يختصمون} فكأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم، قال ربنا -جل علاه-للملائكة: إني خالق مخلوقا له مادة تُباشَر، وبدأت خلقه من طين، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، وأجريت فيه ما به يحيا من الروح التي لا يملكها غيري، فاسقطوا ساجدين تكريما له وتحية؛ فلما سواه-تبارك اسمه-ونفخ فيه الروح، سجد الملائكة جميعا، تقديسا لأمر الله، وتكرمة لآدم عليه السلام، وسارعوا إلى ذلك مجتمعين، لم يتخلف عن السجود أحد منهم، لكن إبليس الشيطان تأنّف وتعظّم وقال ما حكاه عنه القرآن في آية كريمة أخرى: {. . قال أأسجد لمن خلقت طينا}؟ وصار من الكافرين بفسوقه عن أمر ربه، وإصراره على التعاظم وعدم الإذعان.

٧٣ - (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

جملة {إذ قال} بدل من القول الكريم في الآية التاسعة والستين {إذ يختصمون} فكأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم، قال ربنا -جل علاه-للملائكة: إني خالق مخلوقا له مادة تُباشَر، وبدأت خلقه من طين، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، وأجريت فيه ما به يحيا من الروح التي لا يملكها غيري، فاسقطوا ساجدين تكريما له وتحية؛ فلما سواه-تبارك اسمه-ونفخ فيه الروح، سجد الملائكة جميعا، تقديسا لأمر الله، وتكرمة لآدم عليه السلام، وسارعوا إلى ذلك مجتمعين، لم يتخلف عن السجود أحد

منهم، لكن إبليس الشيطان تأنّف وتعظّم وقال ما حكاه عنه القرآن في آية كريمة أخرى: {. . قال أأسجد لمن خلقت طينا}؟ وصار من الكافرين بفسوقه عن أمر ربه، وإصراره على التعاظم وعدم الإذعان.

٧٤ - (إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧١]

جملة {إذ قال} بدل من القول الكريم في الآية التاسعة والستين {إذ يختصمون} فكأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم، قال ربنا -جل علاه-للملائكة: إني خالق مخلوقا له مادة تُبَاشَر، وبدأت خلقه من طين، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، وأجريت فيه ما به يحيا من الروح التي لا يملكها غيري، فاسقطوا ساجدين تكريما له وتحية، فلما سواه-تبارك اسمه-ونفخ فيه الروح، سجد الملائكة جميعا، تقديسا لأمر الله، وتكرمة لآدم عليه السلام، وسارعوا إلى ذلك مجتمعين، لم يتخلف عن السجود أحد منهم، لكن إبليس الشيطان تأنّف وتعظّم وقال ما حكاه عنه القرآن في آية كريمة أخرى: {. . قال أأسجد لمن خلقت طينا}؟ وصار من الكافرين بفسوقه عن أمر ربه، وإصراره على التعاظم وعدم الإذعان.

٧٥ - (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه؛ قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٢ ذريته إلا قليلا} ٣. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٤، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٥.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى

صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٧٦ - (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

}قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر، وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء، قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٦ ذريته إلا قليلا} ٧. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٨، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٩.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٧٧ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

}قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال

فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه؛ قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَوِن عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ١٠ ذريته إلا قليلا} ١١. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ١٢، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ١٣.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته؛ فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٧٨ - (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي

يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ١٤ ذريته إلا قليلا} ١٥. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ١٦، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ١٧.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٧٩ - (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر، وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَّهَمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء، قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ١٨ ذريته إلا قليلا} ١٩. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٢٠، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم

في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٢١.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٠ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر، وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء، قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٢٢ ذريته إلا قليلا} ٢٣ {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٢٤، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٢٥.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨١ - (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر، وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَّهَمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء، قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَوِن عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٢٦ ذريته إلا قليلا} ٢٧. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٢٨، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٢٩.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٢ - (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال

إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه؛ قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٣٠ ذريته إلا قليلا} ٣١. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٣٢، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٣٣.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته؛ فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٣ - (إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه؛ قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٣٤ ذريته إلا قليلا}

٣٥. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٣٦، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٣٧.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٤ - (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

{قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر؛ وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّمُ- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء؛ قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه؛ قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٣٨ ذريته إلا قليلا} ٣٩. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٤٠، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٤١.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم -تعالى

ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٥ - (لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٥]

}قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)}.

قال ربنا البارئ المهيمن: يا إبليس- من الإبلاس وهو الحزن أو القطيعة، أو لأنه أُبْلِس من رحمة الله أُو يئس منها وقطع رجاؤه-ما منعك من السجود لهذا المخلوق الذي سويته بيدي؟ هل بدا لك أن تتكبر أم أنت من المتعالين المتعاظمين، لم يفارقك التأنف؟ قال إبليس اللعين: هو لا يفضلني، بل لا يماثلني، فكيف يسجد من أصله النار لمن أصله الطين؟ فعجل المولى عذابا لإبليس دون العذاب الأكبر، وقال: فاخرج جزاء ما خالفت أمر خالقك، واترك سكنى الجنة فإنك ذليل مهما سوّل لك الغرور أن تتكبر، وإنك مطرود من رحمتي إلى يوم الدين والجزاء-لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما قد يُتَوَهَّم- قال إبليس رب فأمهلني إلى يوم تبعث خلقك، وتجمع آدم وذريته للحساب والجزاء، قال ربنا الكبير المتعال: فإني ممهلك حسبما اقتضت مشيئتي منذ الأزل، وستؤخر إلى يوم القيامة الذي يرد إليّ علمه، قال إبليس حاقدا حاسدا متوعدا- يتوعد أهل الغفلة عن الرشد-: فبقهرك يا رب وسلطانك، أقسم بعزتك وهيمنتك لأضلن أبناء الذي طردتني ولعنتني من أجله، ولأفتننهم وأزين لهم الشرور، وأُهَون عليهم الغواية والغرور، إلا من استخلصتهم لعبادتك، وأخلصوا دينهم لله وعصمتهم من الزيغ: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ٤٢ ذريته إلا قليلا} ٤٣. {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} ٤٤، قال الله عز من قائل: فالحق قسمي-ولا أقول إلا الحق- فكأن {الحق} الأول مرفوع على الابتداء، و {الحق} الثاني منصوب، مفعول به لما بعده {أقول} لأملن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من الآدميين لا أترك منكم أحدا: {قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا} ٤٥.

يقول ابن جرير: وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأَبَوْا الانقياد له واتباع ما جاءهم به من عند الله، استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أأنزل عليه الذكر من بيننا. } و {. . هل هذا إلا بشر مثلكم} فقص عليهم –تعالى ذكره- قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه- من أجل أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين-حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، فحذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله-حسدا وتعظما- من اللعن منه والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. أه.

٨٦ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

}قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين{: أعذر الله تعالى من خلقه، وأمر رسوله أن يذكرهم بأن دعوته إلى الناس وتبليغهم الوحي والآيات لا يطالبون مقابله بأجر قليل أو كثير، وما أنا ممن يتكلف ويدعي ما ليس له فأقول على الله ما لم يقل، وما القرآن إلا تذكرة لأكثر من عالم، فليس للإنس وكفى، وإنما هو لهم وللجن، بل وللملائكة معهم، ولَيُسْتَيْقَنَنَّ من أنباء هذا الذكر الحكيم بعد وقت

ينقضي عنده إعراضكم وتلهيكم وصدودكم.
٨٧ - (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين}: أعذر الله تعالى من خلقه، وأمر رسوله أن يذكرهم بأن دعوته إلى الناس وتبليغهم الوحي والآيات لا يطالبون مقابله بأجر قليل أو كثير، وما أنا ممن يتكلف ويدعي ما ليس له فأقول على الله ما لم يقل؛ وما القرآن إلا تذكرة لأكثر من عالم، فليس للإنس وكفى، وإنما هو لهم وللجن، بل وللملائكة معهم، ولَيُسْتَيْقَنَنَّ من أنباء هذا الذكر الحكيم بعد وقت ينقضي عنده إعراضكم وتلهيكم وصدودكم.
٨٨ - (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين}: أعذر الله تعالى من خلقه، وأمر رسوله أن يذكرهم بأن دعوته إلى الناس وتبليغهم الوحي والآيات لا يطالبون مقابله بأجر قليل أو كثير، وما أنا ممن يتكلف ويدعي ما ليس له فأقول على الله ما لم يقل؛ وما القرآن إلا تذكرة لأكثر من عالم، فليس للإنس وكفى، وإنما هو لهم وللجن، بل وللملائكة معهم، ولَيُسْتَيْقَنَنَّ من أنباء هذا الذكر الحكيم بعد وقت ينقضي عنده إعراضكم وتلهيكم وصدودكم.
وما أقدس هذا الفرقان المجيد وما أحكم موحيه-تبارك اسمه- فقد بدأت السورة بتمجيد الكتاب العزيز {. . . والقرآن ذي الذكر} وختمت بتعظيمه وتكريمه: {إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين}.
خاتمة تفسير سورة ص:
السور الخمس المباركات دعت إلى توحيد الله تعالى وتقديسه، وإلى اليقين بآياته ورسالاته، والتصديق بالرجوع إلى ربنا-جل وعز- وملاقاته، وتوفية كل محسن أو مسيء جزاء ما قدم في حياته؛ وبينت جحود أكثر بني الإنسان، وبصّرت بسبيل الدعوة إلى الإيمان، وهدت إلى صراط العدل والفضل والإحسان.
في تقديس المولى سبحانه تتابع في هذه السور المحكمات ثناء على ربنا الكبير المتعال المتفرد بالجلال بأنه {العزيز العليم} {العزيز الغفار} {الواحد القهار}؛ فتبارك عالم الغيب والشهادة. مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار، فاطر السماوات والأرض الولي الحميد، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.
كم فيها من برهان على أن الله أحد صمد: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون}؛ {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه} {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون}؛ {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا}، فادعوا الله مخلصين له الدين، وأنيبوا إلى رفيع الدرجات العلي الحكيم.
وعهد الله إلى العباد أن يستيقنوا بالفرقان المنزل من لدنه سبحانه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، فقد جعل موحيه-عز شأنه- نورا يهدي إلى السعادة وإلى دار السلام: {. . وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}. {. . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء}؛ ويظفر بهدايته وبركته من تفهمه وتعلمه واستقام منهاجه: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولو الألباب} {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب}.
والتدبر: يعني: النظر في عاقبة الآيات وما تؤول إليه، ويعني: إمعان الفكرة فيها، والتحدث بما هدت إليه، ومما قال أبو حنيفة: الدبرة: البقعة من الأرض تزرع، والدبر: المال الكثير الذي لا يحصى كثرة، فكأن عظم خيرات القرآن يدركها من تعقل آياته، وأكثر من النظر في عواقبها وما تؤول إليه، وحدّث بذلك ما استطاع.
كما أن من عهد الله في هذا الكتاب المجيد أن يتذكره العقلاء، وأن يحفظوه ويدرسوه ويقرءوه، قال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب والدراسة للحفظ.
وإلا كان الطبع على الفؤاد، كما قال الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. ومن حاد عن آيات ربنا التكوينية والتنزيلية، ومال عن القصد فيها، وماري وجادل، وشك وأزرى، فقد باء بغضب شديد، ووقع في ضلال بعيد: {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} من سورة غافر الآية ٣٥، غرهم بالله الغرور فاستكبروا عن آياته: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} من سورة غافر. الآية ٥٦، ومهما أسروا قولهم الآثم أو جهروا به فإن مكرهم عند ربهم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} من سورة (فصلت) من الآية ٤٠، و [ألحد] تعني: مال وجار، وعدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه، وأزرى به.
والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.
وجاءنا في هذه السور من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويهدي إلى الرشاد، فسلام على داود النبي الأوّاب، وعلى سليمان الذي أوتي ملكا لم ينله أحد من بعده، فسأل الله أن يعينه على شكر نعمة العزيز الوهاب، وأيوب الصابر نعم العبد إنه أواب، وإبراهيم وإسحق ويعقوب و {. . . إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار}، وموسى الذي أرسل بالبرهان والسلطان إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، فمن الله على موسى وهارون، وآتاهما الكتاب المستبين، وأغرق القوم المجرمين، ولا تحول سنة الله في الآخرين، ولن تتبدل إلى يوم الدين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، فاستكملوا الإيمان بدينكم يؤيدكم الله على عدوه وعدوكم، وينصركم في أولاكم وفي آخرتكم.
وعشرات من الآيات تترى في يوم التلاق: {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب}، {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب}، {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة واهم سوء الدار}، تحذر أهواله ونكاله، وخزيه ووباله، إذ تجمع الزبانية أوائل المجرمين على أواخرهم، وتتكلم بأوزارهم عظامهم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون}، حين يوقفون على شفير جهنم تتحدث أجزاؤهم بما قدموه من قول وعمل لا تكتم منه شيئا، فيلومون جلودهم وحواسهم وأوصالهم، إذ أقرت بما يحتم عذابهم {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} وترد عليهم الجلود بالحق، وتلومهم على غفلتهم عن سر الخلق.
وهناك لن يحتاج كل فاجر نفسه وكفى، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها، وإن للطاغين لشر مآب، {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} {ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون}.
فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد} {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب}، فاستيقنوا بالبعث والحساب، وتزوّدوا ليوم المآب، ولا تشغلنكم عنه زخارف العاجلة فإنها سراب،

وابتغوا عند الله الحياة الطيبة وعظيم الثواب، فقد وعد بذلك في محكم الكتاب: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب}.
وبصّرت هذه السور بنفس الإنسان:
فالظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وصدق الله العظيم: {. . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم}، وأكثر البشر كنود، ولنعمة ربه جحود {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل} {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة} {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض} {. . وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور}؛ لكن المفلح من تزكى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشكر أنعم الله، وإذا أصابته مصيبة صبر وقال: إنا لله، {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}؛ فلا تفتن بعلم ولا مال ولا جاه، وقل: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم تبطرني السعة فأنساه- {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه}.
والكتاب الحكيم بيّن في واحدة من هذه السور دعوة مؤمن حكيم يكتم إيمانه، أربع عشرة آية تتابعت تهدي للتي هي أقوم، تبشر من آمن واتقى بالثواب الأكرم، وتنذر المشركين بطش الجبار وحر جهنم؛ وتبليغ رسالات الله يتصدى له منه لا يخشى سواه؛ والمؤمن يُلْزِمُه الله تعالى بفضله كلمة التقوى، ويهديه إلى الطيب اللين من القول ليذكر من يخشى، وبالدعوة المستبصرة يتزكى من سبقت له الحسنى؛ فلندع إلى ربنا بالبينات والهدى، ولنترفق بمن ندعوهم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.
واستحفظنا ميثاق الحق في مواطن كثيرة من هذه السور، فالكتاب العزيز نزل بالحق، وربنا استخلفنا لنقيم الحق، وخلق الله السماوات والأرض بالحق، وربنا يفصل بين عباده بالحق؛ وأثنى مولانا على من أخذ بحقه ممن عدا عليه.
ومع تقديس العدل، فقد حبب إلينا أن لا نغلق باب العفو والصفح نبلغ منازل أهل الفضل.
والله يهدينا إلى صراطه المستقيم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٣٩ سورة الزمر:

سورة الزمر:
مكية وآياتها خمس وسبعو، كلماتها: ١١٧٠؛ حروفها: ٤٧٠٨
١ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
{تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم}: موحي هذا القرآن-وهو الكتاب المجيد- وملقيه عليك، ومعلمك إياه، وفرضُ تبليغه من المعبود بحق، المنيع الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، الذي أوجد كل شيء على وفق الحكمة والصواب.
٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)
عين اليقين أن نحن الذين أوحينا إليك هذا القرآن، وبعثناك به صدقا وحقا؛ أو هذا الفرقان والذكر العزيز ينطق بالحق، ويهدي إلى النور والرشد؛ فاعبد أيها المؤمن بهذا الهدى، وأطع ربك الهادي واستجب لأمره، وأد أماناته، وأوف بعهده، مبتغيا بذلك رضاه دون سواه؛ فإن الدينونة لا تنبغي إلا خضوعا للأحد الصمد، خالصة من كل شائبة: {. . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}؛ وربنا أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه؛ ولا تقولوا هذه لله ولأهوائكم

فإنها لأهوائكم وليس لله منها شيء، وقديما زعم المشركون أن شيئا ينصرف إلى معبوداتهم الباطلة وشيء يُبْتَغَى به رضوان المعبود بحق {. . . فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا} وطائفة مع إقرارها بأن خالقهم هو الله: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. . } ويشهدون أنه خالق كل شيء: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم}.

٣ - (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

سوّلت لهم شياطينهم أن يزعموا-افتراء على الحق-أن الشركاء وسطاء يُتَوصّل بهم إلى مرضاة الملك الكبير {. . ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله}، ويزعمون أن من تَوَلَّوْهُمْ من دون المتفرد بالإيجاد والرزق والإمداد، إنما يتوسلون بهم إلى العليّ الأعلى، ويوسطونهم للقرب منه-تعالى الله عما يقولون- {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} وسيجزيهم الله وصفهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، وهم ومن رضي أن يُعبد من دون الله حصب جهنم، ولن يهتدوا أبدا لا في عاجلهم ولا في آجلهم-بظلمهم أنفسهم- وما ظلمهم ربهم، فقد جاءهم الحق ودعاهم رسولهم: {. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الظالمين} وهؤلاء كذبوا على أنفسهم وكذبوا على رسولهم وكذبوا على ربهم، وجحدوا وجود الوهاب وفضله، فهل تعلم أكذب من هؤلاء أو أكفر منهم؟ {. . وإن تدعوهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا} {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا}.

يقول القرطبيّ: {إن الله يحكم بينهم} أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلا بما يستحق. أهـ.

مما قال الألوسي في معنى قول الله تبارك وتعالى: {إلا ليقربونا إلى الله زلفى}: والاستثناء مفرغ من أعم العلل، و {زلفى} مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر أي: والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره سبحانه قائلين: ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريبا. أهـ.

ورفع قوله {تنزيل} بقوله {من الله}، وتأويل الكلام: من الله العزيز الحكيم تنزيل الكتاب. . عن مجاهد في قوله: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير.

وفيه إبطال ما يقوله المشركون من أن محمدا يقوله من تلقاء نفسه، وفي قوله: {من الله} إشارة إلى الذات المستحق للعبادة والطاعة، كقولك، هذا كتاب من فلان-تعظم به شأن الكتاب- وفي قوله: {العزيز} إشارة إلى أن هذا الكتاب حق قبوله فكتاب العزيز عزيز، وفيه: أنه غني عن إرسال الكتاب والاستكمال به، وإنما ينتفع به المرسل إليهم.

٤ - (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

{لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه وهو الله الواحد القهار}: اتخاذ الفرد الصمد ولدا محال لاستلزامه ما ينافي الألوهية، ثم جاء اللفظ أبلغ من هذا المعنى فكأنه إشارة إلى أنه لو أراد الاتخاذ لامتنع، -إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له تعالى، والمباينة تامة بين المخلوق والخالق، والولدية تأبى تلك المباينة فالولد مماثل لأبيه. ومن يشابه أباه فما ظلم.

وتعالى مقام ربنا أن يتخذ ولدا، وأنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟! {لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد}، تنزه المولى وتقدس عما يقول المشركون والمدّعون له بنين أو بنات، وإنما هو-جل ثناؤه- يجتبي ويختار من عباده من يرتضيهم، ومهما آتاهم من الكرامات والمعجزات وخوارق العادات فليسوا إلا عبيدا للملك البارئ المهيمن، وهو المعبود بحق الذي ليس كمثله شيء، لا يماثله أحد في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو القيوم القائم على كل خلقه، القاهر فوق عباده-فحيث كان جل وعلا قهّارا كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عز وجل ولدا. . والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد.

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال عز وجل: {لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين} {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين}. كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على

المستحيل لمقصد المتكلم.
٥ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)
{يكور}: يغطي ويستر، أو يلف-من كورت المتاع إذا ألقيت بعضه على بعض-، أو يزيد هذا مما نقص من ذاك، ومنه المأثور: أعوذ بك من الحور بعد الكور-أي من الإدبار بعد الإقبال.
{لأجل مسمى}: لميقات علمه عند ربي.
{الغفار}: كثير الصفح والمغفرة والحلم.
بعد أن بين القرآن هدى الآيات المتلوة القرآنية، حرّض على التدبر والاعتبار والنظر في الآيات المحسوسة الكونية، فكلتاهما تُعَلِّمُ البرهان على عظمة وجلال الملك الديان، خلق الكون ومنه السماء والأرض وما فيهما ومن فيهما وما بينهما، كل ذلك أقامه-جل علاه-بالحق، وليس بالباطل ولا بالعبث ولا بالجور ولا باللعب، فمِن سنن الحكيم الكونية أن يغطي بالليل على النهار، ويغطي بالنهار على الليل، على حال متجددة وتسخير وتذليل لا يند عنه شيء منهما، وكذا الليل والنهار، ويبقى كل على فلكه وفي مساره ومداره حتى ينفخ في الصور، ويجيء اليوم الموعود، فتتكور الشمس، وتتناثر النجوم، ويجمع القمر والشمس ثم يذهبان، ألا فاستيقنوا أن من ساق البرهان من الآيات القرآنية والآيات الكونية عزيز منيع، وهو مع عظيم اقتداره يغفر لمن تاب وأناب، ويحلم على من جحد وفجر، فلا يعاجله بالعقوبة: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا}.
٦ - (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)
{خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون (٦)}:
من البرهان والسلطان والحجة على أنه-تبارك اسمه- الواحد القهار: أن خلقكم معاشر الناس من نفس واحدة هي نفس آدم-عليه السلام- ونفس زوجه حواء التي خلقها المولى سبحانه من ضلع من أضلاع آدم، وأنشأ لكم وخلق لمنافعكم ثمانية أصناف من البهائم الأنعام: من الإبل اثنين ذكر وأنثى، ومن البقر كذلك، ومن الضأن اثنين ذكر وأنثى، ومن المعز كذلك.
وإنما خصت الأنعام بالذكر ربما لأنها عظيمة فائدتها للآدميين، فمنها اللبن واللحم والجلد والشعر والوبر والركوب والحمل والحرث وغير ذلك. . ويحتمل أن يكون ذِكْرُ الأنعام اعتراضا حسّن موقعه ذكر الأزواج بعد قوله: {جعل منها زوجها} ليعلم أن كل حيوان زوج.
يخلقكم أطوارا في بطون أمهاتكم تكونون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم يكسى العظم لحما ثم يكمل جنينا، كل هذا التطور يصنعه بكم العليم القدير وأنتم في ظلمة المشيمة، تلفها ظلمة الرحم، وهذه تحيط بها ظلمة البطن، ذلك اللطيف الخبير هو مولاكم ومربيكم ومصلح شئونكم وهو-دون سواه- الملك المهيمن، ولا يستحق العبادة إلا هو، فكيف تُفْتَنُونَ عن عبادته وتُصْرَفُ عقولكم عن اليقين والإيمان بوحدانيته وجلاله؟!.
يقول أبو جعفر: فإن قال: وكيف قيل: {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها} وإنما خلق ولد آدم من آدم وزوجته، ولا شك أن الوالدين قبل الولد؟ فإن في ذلك أقوالا: أحدها أن يقال قيل ذلك لأنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج كل نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة ثم أسكنه بعد ذلك الجنة وخلق بعد ذلك حواء من ضلع من أضلاعه؛ فهذا قول، والآخر أن العرب ربما أخبر الرجل منهم عن رجل بفعلين فَيَرِدُ الأول منهما في المعنى بثم إذا كان من خبر المتكلم، كما يقال: قد بلغني ما كان منك اليوم، ثم ما كان منك بالأمس أعجب، فذلك نسق من خبر المتكلم. . والقول الذي يقوله أهل العلم أولى بالصواب وهو القول الأول الذي ذكرت: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه قبل أن يخلق حواء، وبذلك جاءت الرواية عن جماعة

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. . اهـ
ومعنى ثم ترتيب الأخبار لأن الأولى عادة مستمرة دون الثانية، إذ لم يخلق أنثى غير حواء من قصيريرجل، فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع، وقيل هو متعلق بواحدة في المعنى، كأنه قيل: خلقكم من نفس واحدة ثم شفعها الله بزوج منها. . . وقيل: ثم قد يأتي مع الجملة دالا على التقدم، كقوله: {. . ثم اهتدى} {ثم كان من الذين آمنوا} وكقوله صلى الله عليه وسلم: (. . فليكفر عن يمينه ثم ليفعل الذي هو خير).
٧ - (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
{إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور}:
والواحد القهار، الخلاق الرزاق، الولي الحميد، المستحق للعبادة، لا ينفعه اهتداء المهتدين، ولا يضره ضلال الضالين، فهو غني عما سواه، غني عن طاعة الطائعين، وعن شكر الشاكرين، وإيمان المؤمنين، ولا يضره انتفاء ذلك.
مما جاء في الصحيح: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا).
بل نطقت بذلك الآية الكريمة: {وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد}.
-إن تكفروا أيها المشركون بالله فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده المؤمنين الذين أخلصهم لعبادته وطاعته الكفر.
ومن يشكر يُثِبْه الله ويُثْنِي الله عليه لشكره ربه، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا يحمل أحد ذنب غيره-إلا أن يكون قد أغواه-ثم نرجع إلى الوقوف بين يدي ربنا يوم بعثنا-بل ومن حين نُدَلّى في حُفَرِنَا-فيجزى كل بما قال وبما عمل، بل وبما اعتزم؛ فإنه سبحانه محيط علما بوسوسة الصدور، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي الكافرين والمسيئين بما عملوا.
٨ - (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)
{وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار}: وإذا نزل بالإنسان ضر، أو ذاق ألم الأذى في بدنه أو ماله، وضاق بما حل به من مكروه، دعا ربه راجعا إلى تعظيمه وطلب العون منه، ثم إذا منّ عليه فكشف كربه، وأعطاه سؤله، وبسط له رزقه، ترك الدعاء الذي كان يدعو به؛ أو نسي ما كان فيه من سوء، واتخذ من دون الله أمثالا مضادين-كالأوثان والأصنام وسائر ما عبد من دون رب العالمين-وإن الكتاب الكريم ليُقَبّح صنع أولئك الجاحدين: {. . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} {وإذا مس الإنسان ضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون} وعاقبة هذا النكران والكفران أن يقتدي به قرناؤه في الخسران؛ فأنذر هؤلاء، وقل لمن يفعل ذلك: مهما أُمْهِلْتَ فلن تدرك إلا متاعا زائلا في هذه الحياة، وبكفرك سيؤول أمرك إلى أن تصبح من ملازمي النار والمعذبين فيها خالدين.
٩ - (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)
{أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب}:
{قانت} مطيع خاشع، داع في صلاته.

{آناء} ساعات وأوقات.
{أولوا الألباب} أصحاب العقول.
أمن هو مطيع وخاشع وضارع، وقائم في أوسط الليل وآخره يتلو القرآن في صلاته حذرا عذاب الآخرة. راجيا رحمة مولاه، ونعمته وجنته ورضاه، كمن كفر وأشرك بالله؟ لا يستويان، كما لا يستوي من علم الهدى فاستقام عليه، ومن جهل فضلّ ضلالا بعيدا. إنما يعتبر أصحاب العقول والبصائر التي تدرك الحق والرشد فتتخذه منهاجا.
١٠ - (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
{قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب (١٠)}: أمر من مولانا الحكيم، ونداء إلى أهل الإيمان أن استديموا طاعة الملك الكريم، وأتموها وأتقنوها تربحوا أجر المحسنين-العاجل منه والآجل-ولا تعتذروا عن ترك الإتقان بعدم التمكن في الأوطان، بل اجتنبوا الرجس والآثام، واعتزلوا أهل الكفر، وأعدوا للهجرة والجهاد، فإن أرضي لن تضيق بكم: {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} وكل ما تلاقون في سبيل الله وتصبرون عليه تؤجرون به أجرا لا يعده عادّ، أو يؤذن لكم بدخول الجنة دون أن تُنَاقَشُوا الحساب.
١١ - (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)
أمر إلى النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن يبلغ أقدس الأمانات، إذ عهد الله إليه أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يكون أول من أسلم وانقاد لشريعة ربه، وإنه لمبعوث المولى ومصطفاه، ومع ذلك فهو يتحاشى الذنوب والأوزار، ويخاف سخط الواحد القهار، المفضي إلى عذاب النار، فكيف بالطاغين الكفار؟ وأمر رابع حُمِّله الرسول الأمين: أن يبين مسارعة استجابته لميثاق الملك الكريم، وإفراده إياه بالعبادة والتعظيم، والويل والوعيد لمن أشركوا به غيره، فليعلموا أنهم ما ربحوا ولا أفلحوا بل خسروا وشَقُوا، وأهلكوا أنفسهم وضيعوا أهلهم، {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.
فإن كان أهله في النار فقد تقطّع بينهم، وإن كانوا في الجنة فهيهات أن يشهد جميعهم أو بعضهم، وما أبين هذا الخسار، وأتعس هذا البوار، نعوذ بالله من غضب الجبار.
١٢ - (وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
أمر إلى النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن يبلغ أقدس الأمانات، إذ عهد الله إليه أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يكون أول من أسلم وانقاد لشريعة ربه، وإنه لمبعوث المولى ومصطفاه، ومع ذلك فهو يتحاشى الذنوب والأوزار، ويخاف سخط الواحد القهار، المفضي إلى عذاب النار، فكيف بالطاغين الكفار؟ وأمر رابع حُمِّله الرسول الأمين: أن يبين مسارعة استجابته لميثاق الملك الكريم، وإفراده إياه بالعبادة والتعظيم، والويل والوعيد لمن أشركوا به غيره، فليعلموا أنهم ما ربحوا ولا أفلحوا بل خسروا وشَقُوا، وأهلكوا أنفسهم وضيعوا أهلهم، {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.
فإن كان أهله في النار فقد تقطّع بينهم، وإن كانوا في الجنة فهيهات أن يشهد جميعهم أو بعضهم، وما أبين هذا الخسار، وأتعس هذا البوار، نعوذ بالله من غضب الجبار.
١٣ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

أمر إلى النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن يبلغ أقدس الأمانات، إذ عهد الله إليه أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يكون أول من أسلم وانقاد لشريعة ربه؛ وإنه لمبعوث المولى ومصطفاه، ومع ذلك فهو يتحاشى الذنوب والأوزار، ويخاف سخط الواحد القهار، المفضي إلى عذاب النار، فكيف بالطاغين الكفار؟ وأمر رابع حُمِّله الرسول الأمين: أن يبين مسارعة استجابته لميثاق الملك الكريم، وإفراده إياه بالعبادة والتعظيم؛ والويل والوعيد لمن أشركوا به غيره، فليعلموا أنهم ما ربحوا ولا أفلحوا بل خسروا وشَقُوا، وأهلكوا أنفسهم وضيعوا أهلهم؛ {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.

فإن كان أهله في النار فقد تقطّع بينهم، وإن كانوا في الجنة فهيهات أن يشهد جميعهم أو بعضهم، وما أبين هذا الخسار، وأتعس هذا البوار، نعوذ بالله من غضب الجبار.

١٤ - (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

أمر إلى النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن يبلغ أقدس الأمانات، إذ عهد الله إليه أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يكون أول من أسلم وانقاد لشريعة ربه؛ وإنه لمبعوث المولى ومصطفاه، ومع ذلك فهو يتحاشى الذنوب والأوزار، ويخاف سخط الواحد القهار، المفضي إلى عذاب النار، فكيف بالطاغين الكفار؟ وأمر رابع حُمِّله الرسول الأمين: أن يبين مسارعة استجابته لميثاق الملك الكريم، وإفراده إياه بالعبادة والتعظيم؛ والويل والوعيد لمن أشركوا به غيره، فليعلموا أنهم ما ربحوا ولا أفلحوا بل خسروا وشَقُوا، وأهلكوا أنفسهم وضيعوا أهلهم؛ {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.

فإن كان أهله في النار فقد تقطّع بينهم، وإن كانوا في الجنة فهيهات أن يشهد جميعهم أو بعضهم، وما أبين هذا الخسار، وأتعس هذا البوار، نعوذ بالله من غضب الجبار.

١٥ - (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

أمر إلى النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن يبلغ أقدس الأمانات، إذ عهد الله إليه أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يكون أول من أسلم وانقاد لشريعة ربه؛ وإنه لمبعوث المولى ومصطفاه، ومع ذلك فهو يتحاشى الذنوب والأوزار، ويخاف سخط الواحد القهار، المفضي إلى عذاب النار، فكيف بالطاغين الكفار؟ وأمر رابع حُمِّله الرسول الأمين: أن يبين مسارعة استجابته لميثاق الملك الكريم، وإفراده إياه بالعبادة والتعظيم؛ والويل والوعيد لمن أشركوا به غيره، فليعلموا أنهم ما ربحوا ولا أفلحوا بل خسروا وشَقُوا، وأهلكوا أنفسهم وضيعوا أهلهم؛ {يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.

فإن كان أهله في النار فقد تقطّع بينهم، وإن كانوا في الجنة فهيهات أن يشهد جميعهم أو بعضهم، وما أبين هذا الخسار، وأتعس هذا البوار، نعوذ بالله من غضب الجبار.

١٦ - (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)

{لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون (١٦)}.

ليست الحسرة والبوار والقطيعة هي كل ما أعدّ لهم من المصير البئيس، ولكن ينتظرهم حريق ولظى لا يبتعدون عن مصدره، وإنما تمتد ألسنة لهبه فيفترشونها ويلتحفون بها، أعلاهم وأسفلهم قطع من الجحيم: {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش} وهذا إنذار من الله للعباد ليتّقوه ويَتَوَقّوا ما يحلهم دار البوار؛ وبهذا بعث المصطفى المختار: {. . إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد}.

١٧ - (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

{الطاغوت} الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، أو الطاغية، أو الصنم.

{والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد}: بعد الوعيد وإنذار الكافرين جاء الوعد، وسيقت البشرى للمؤمنين الذين تخلوا عن الشرك وعبادة الشيطان والهوى، ورجعوا إلى الإيمان بالله وطاعته، وتحلّوا بهذه الحلية، فبشرى لهؤلاء الذين وحّدوني وعبدوني، الذين يستمعون القول فيُعْرضون عن سيئه ويستقيمون على أحسنه؛ وقد يراد بالقول: القول الرباني والآي القرآني، ويكون الأحسن بمعنى الحسن-كما قال قطرب- وكله حسن.

وقيل: الحسن: يشمل الواجب والمندوب والمباح، والأحسن: الواجب والمندوب.

ويقول النيسابوري: تلك التكاليف منها ما هو حسن، ومنها ما هو أحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر. فليأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، فيكون كقوله: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} أولئك الذين منّ الله عليهم بالهداية إلى الحق والرشد والخير، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، المنتفعون بعقولهم.

١٨ - (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{الطاغوت} الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، أو الطاغية، أو الصنم.

{والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد}: بعد الوعيد وإنذار الكافرين جاء الوعد، وسيقت البشرى للمؤمنين الذين تخلوا عن الشرك وعبادة الشيطان والهوى، ورجعوا إلى الإيمان بالله وطاعته، وتحلّوا بهذه الحلية، فبشرى لهؤلاء الذين وحّدوني وعبدوني، الذين يستمعون القول فيُعْرضون عن سيئه ويستقيمون على أحسنه؛ وقد يراد بالقول: القول الرباني والآي القرآني، ويكون الأحسن بمعنى الحسن-كما قال قطرب- وكله حسن.

وقيل: الحسن: يشمل الواجب والمندوب والمباح، والأحسن: الواجب والمندوب.

ويقول النيسابوري: تلك التكاليف منها ما هو حسن، ومنها ما هو أحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر. فليأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، فيكون كقوله: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} أولئك الذين منّ الله عليهم بالهداية إلى الحق والرشد والخير، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، المنتفعون بعقولهم.

١٩ - (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

{أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار}:

بُعِثَ النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين أجمعين، فكان شديد الحرص على هداية الضالين؛ يكذبونه ويؤذونه ويسبونه، ويعذبون أصحابه ويقتلونهم، وهو يتمنى أن يُقْلِعُوا عن الغي، وأن يدخلوا في رحاب الإيمان؛ ويشتد حزنه كلما أمعنوا في الإعراض عن سبل السلام حتى كاد يموت هما فأنزل الله عليه: {لعلك باخع نفسك على أن لا يكونوا مؤمنين} {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} وعلّمه المولى العليم الحكيم أن من حقّ عليه قول العذاب ببغيه وجحوده وكفره لا يملك هو ولا غيره أن ينقذه من حر السعير وسوء المصير، كما جاء في آية أخرى: {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين}. {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر}.

٢٠ - (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)

{لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد}:

وعلى الضد من حال الخاسرين المضللين بلهب النار والمتوسدين شعبه {لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل} على النقيض من ذلك فإن حال الذين يخشون ربهم ويرعون أماناته حال ناعمة، ومساكنهم طيبة، ومنازلهم قصور إقامة، فهي غرفات بناها الله لهم في

الجنة، وطوابق بعضها فوق بعض تجري من تحت جناتها وحدائقها وبساتينها الأنهار، فزرعها نضر، وشجرها مبروك الثمر، ذلك وعد الله الذي هو كائن لا محالة لن يتخلف.

٢١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)

{ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب}:

ألم تر يا من تتأتى منه الرؤية البصرية والبصيرية التفكيرية أن الله-دون سواه-أنزل المطر من جهة السماء فأسكنه شقوق الأرض فمنه الآبار والعيون والأنهار، ثم ينبت بسبب هذا الماء زرعا متفاوت الألوان والأوصاف، والمنافع والآثار، فمن أخضر إلى أصفر إلى أحمر، ومن زهر إلى نور إلى ثمر وحب يقتات به أو يتفكه أو يتداوى أو يكتسى به، فإذا استوى ونضج تهيأ للذهاب فتراه يصفر ثم ييبس فيتقوض ويتحطم، ويتفتت ويتهشم، إن في ذلك لتذكيرا عظيما للمتبصرين، وعبرة للمستفيدين من إعمال عقولهم، والمعتبرين أن الدنيا مهما كثر زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فلا بد أن يأتيها أمر الله فتدمر كأن لم تغن بالأمس: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا} {. . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}.

٢٢ - (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

{أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلل مبين}: أفمن وسع الله قلبه للإيمان فثبت فيه، أو فتح صدره ففرح بالدين الحق واطمأن إليه، فهو على هدى من الله ونور، كمن قسا قلبه؟ لا يستويان! {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد في السماء}، فويل وحسرة وعذاب، ومقام في دركات النار. لمن قست قلوبهم عن قبول ذكر الله، أو لمن مرضت قلوبهم وزاغت عن الحق والهدى فإذا ذكر الله وحده {. . اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} {. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا} أولئك البعداء في الغي والشقوة في حيرة ظاهرة، وجور واضح عن القصد والصراط المستقيم.

٢٣ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

{الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد}:

ربنا اللطيف الخبير نزل القرآن أحسن كلام يسمع، وجعله كله يصدق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف، بل يدل بعضه على بعض، فهو متشابه من حيث هذا التوفيق، و {مثاني} جمع مثنى، بمعنى: مكرر لما ثني من قصصه وأحكامه ومواعظه، ليفهم الناس عن ربهم تبارك وتعالى، والله سبحانه سمى القرآن حديثا في آيات كثيرة منها قوله عز شأنه: {فبأي حديث بعده يؤمنون} وقوله-تبارك اسمه-: {فذرني ومن يكذب بهذا الحديث}.

نقل القرطبيّ عن القشيري، وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فيدل على أن كلامه محدث، وهو وهم، لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما في قوله: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث}. وقد قالوا: إن الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعالى اه.

كما أورد ابن كثير ما نصه: وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى: {متشابها مثاني}: أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما

أشبه هذا فهذا من المثاني، كقوله تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم}. وكقوله عز وجل: {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين} - إلى أن قال: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} وقوله: {هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب} إلى أن قال: {هذا وإن للطاغين لشر مآب} ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين؛ وأما إذا كان السياق في معنى واحد يشبه بعضه فهذا من المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى {. . منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} ذاك معنى آخر. اهـ.

{تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} عند سماع ما فيه من وعيد الله وتحذيره للمخالفين من العذاب الأليم تضطرب وتتقبض وتنتفض جلود المتقين وأبدانهم خوف وقوعهم في سخط ربهم {ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} وإذا وعد القرآن وبشّر سكنت قلوبهم، واطمأنت وأمّلت في عفو الله وفضله ورحمته، وانبسطت رجاء الفوز بالرضوان، وهذا أثر القرآن في أهل الإيمان والخشية وفي ذلك يقول الشاعر:

هو إن رق نسيم نافح ... بشذا الخلد وأنفاس النعيم

وإذا ثار بجمر لافح ... يستمد الوقد من نار الجحيم

وإذا زرع القرآن في القلب حذر الآخرة ورجاء الرحمة لانت القلوب، ومالت إلى العمل بكتاب الله ومنهاجه، وخف على الأبدان ما تلاقي في سبيل الوفاء بعهد الله.

وإذا حلت الهداية قلبا ... نشطت في العبادة الأعضاء

{ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد}: ذلك القرآن هدى الله يهدي به من يشاء هدايته، ومن يستحب العمى يخلق فيه الله الضلالة فلا يهتدي إذا أبدا.

٢٤ - (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

{أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون}: هل الذي يستقبل شديد العذاب ولفح النار بوجهه يوم القيامة وتقول له الخزنة-تحسيرا-ذق جزاء ما عملت، كمن يلقى نضرة وسرورا وجنة وحريرا، تكرمه الملائكة فيقولون: {. . سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين}؟ هل يستويان جزاء ومصيرا؟!.

وهكذا جاء ذكر الفريقين صريحا في آية كريمة أخرى: {. . أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة.} فاكتفى في الآية رقم ٢٤ هذه بذكر فريق لدلالة الآية الأخرى على الفريق الثاني-والقرآن يفسر بعضه بعضا- وذهب بعض المفسرين إلى أن من يتقي سوء العذاب يشار به إلى من صبر واستقام فنجا من لفح جهنم، لكن آية كريمة ثالثة تبين أن المجرمين يسحبون على وجوههم مكبلين: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر}.

٢٥ - (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)

{كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٥) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}:

وعيد بعذاب عاجل قبل العذاب الآجل لمن كذب وعصى، وسنة أمضاها الله في الطاغين الأولين، ولا تحول إلى يوم الدين: {قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم} تفجأهم نقمة الله تعالى ويأتيهم بأسه من حيث لم يحتسبوا، ويجيء لكل قوم نصيبهم من النكال والوبال-فيتجرعون العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، يُمسَخُونَ أو يُخسف بهم، أو يغرقون، أو يُهزمون. . ويؤسرون ويقتلون، ثم إلى جهنم يحشرون-ولو كانوا أهل عقل وسمع وعلم لاستيقنوا بصدق ما وُعدُوا، فازدجروا، وآمنوا وسعدوا.

٢٦ - (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]

{كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٥) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}:

وعيد بعذاب عاجل قبل العذاب الآجل لمن كذب وعصى، وسنة أمضاها الله في الطاغين الأولين، ولا تحول إلى يوم الدين: {قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم} تفجأهم نقمة الله تعالى ويأتيهم بأسه من حيث لم يحتسبوا، ويجيء لكل قوم نصيبهم من النكال والوبال-فيتجرعون العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، يُمْسَخُونَ أو يُخسف بهم، أو يُغرقون، أو يُهزمون. . ويؤسرون ويقتلون، ثم إلى جهنم يحشرون-ولو كانوا أهل عقل وسمع وعلم لاستيقنوا بصدق ما وُعدُوا، فازدجروا، وآمنوا وسعدوا.

٢٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

لقد أوردنا وسقنا للناس في هذا القرآن العظيم من كل حال وصفة ما يحتاجون إليه في الاتعاظ والاعتبار بتلك الأحوال رجاء أن يتفكروا فيقتدوا بهدى المهتدين، ويحذروا متابعة المجرمين، وأنزلنا قرآنا بيّنا واضحا وبليغا، وبلسان هو أقوم، وبحق لا يأتيه الباطل، وباستقامة لا يخالطها زيغ ولا عوج، وبحفظ لا تبديل فيه، رجاء أن يثبتوا على الإيمان والتقوى.

٢٨ - (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٧]

لقد أوردنا وسقنا للناس في هذا القرآن العظيم من كل حال وصفة ما يحتاجون إليه في الاتعاظ والاعتبار بتلك الأحوال رجاء أن يتفكروا فيقتدوا بهدى المهتدين، ويحذروا متابعة المجرمين، وأنزلنا قرآنا بيّنا واضحا وبليغا، وبلسان هو أقوم، وبحق لا يأتيه الباطل، وباستقامة لا يخالطها زيغ ولا عوج، وبحفظ لا تبديل فيه، رجاء أن يثبتوا على الإيمان والتقوى.

٢٩ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون}:

[المثل]: قول موجز حكيم يشبه مورده بمضربه؛ أو الحال والصفة العجيبة. {متشاكسون} مختلفون، شرسون، مماكسون، عسرون.

من الأمثال القرآنية المعقبة ذكرى وعبرة وتُقى ساق المولى الحكيم صفة عجيبة مقارنة بأخرى، و {مثلا} مفعول {ضرب} و {رجلا} بدل منه، بدل كل من كلّ؛ و {فيه} خبر مقدم؛ و {شركاء} مبتدأ، و {متشاكسون} صفته؛ هذا حال المشرك يخضع لمعبودات شتى يحار بينها، ويتوزع ولاؤه لها، وما هو ببالغ إرضاءها؛ وصفة المؤمن ولاء لإله واحد شكور حليم، برّ رحيم، يتقبل ممن أخلص دينه العمل القليل، ويمنحه عليه الأجر الجزيل والثواب الجميل، فهل يستويان حالا وصفة؟. . كلا! والحمد لله الذي هدانا إلى توحيده والانقياد له دون سواه، ولكن المشركين لا يعلمون أن الله هو الحق المبين، فيبقون في ضلالهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون؛ ولقد حكى القرآن عن يوسف عليه السلام ما أوتي من حجة وبرهان يبطل بهما ضلال الشرك والأوثان، ويرسخ اليقين بالفرد الصمد الملك الديان: {. . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار} بل الله خير وأبقى، وإلى هذا نادت الفطرة السليمة في جوانح الشاعر العربي إذ قال:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور؟

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير.

٣٠ - (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

{إنك ميت وإنهم ميتون}: إخبار بيقين تكثر فيه السلوى، وتقل فيه الحسرة، إذ سوّى الحق الحيّ الذي لا يموت بين خلقه في تجرع كأس المنيّة، وإن تفاضلوا في غيره، فخير خلقه ومصطفاه سيدركه الموت-وقد أدركه- كما يدرك سائر خلق الله، ثم يجمعنا ربنا ليوم لا شك فيه، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه من أمور الدين والدنيا: {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم}،

قال جمع: المراد بذلك الاختصام العام فيما جرى في الدنيا بين الأنام، لا خصوص الاختصام بينه صلى الله عليه وسلم وبين الكفرة الطغاة، وفي الآثار ما يأبى الخصوص المذكور.
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: يعني تخاصم الكافر والمؤمن، والظالم والمظلوم. اه.
في البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحمل عليه).
وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون من المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)!.
وأخرج الترمذي والحاكم-وصححاه- عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت {إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون} قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: (نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه) قال الزبير: فو الله إن الأمر لشديد. .
٣١ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{إنك ميت وإنهم ميتون}: إخبار بيقين تكثر فيه السلوى، وتقل فيه الحسرة، إذ سوّى الحق الحيّ الذي لا يموت بين خلقه في تجرع كأس المنيّة، وإن تفاضلوا في غيره، فخير خلقه ومصطفاه سيدركه الموت-وقد أدركه- كما يدرك سائر خلق الله، ثم يجمعنا ربنا ليوم لا شك فيه، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه من أمور الدين والدنيا: {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم}،
قال جمع: المراد بذلك الاختصام العام فيما جرى في الدنيا بين الأنام، لا خصوص الاختصام بينه صلى الله عليه وسلم وبين الكفرة الطغاة، وفي الآثار ما يأبى الخصوص المذكور.
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: يعني تخاصم الكافر والمؤمن، والظالم والمظلوم. اه.
في البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحمل عليه).
وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون من المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)!.
وأخرج الترمذي والحاكم-وصححاه- عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت {إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون} قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: (نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه) قال الزبير: فو الله إن الأمر لشديد. .
٣٢ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)
{فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (٣٢)}.

استفهام يراد به النفي، أي لا أحد أشنع ظلما وأكثر افتراء ممن كذب على الله تعالى فادعى له شريكا أو ولدا، وظلوم ذلك الذي كذب بما جاء به خاتم النبيين وهو الصدق الذي لم يخالطه زور ولا باطل، لكن الظلوم-ببغيه- سارع إلى التكذيب بالحق دون أن يتدبر، أليس في نار الجحيم المأوى والمسكن لمن كفر بالله وامتنع من تصديق نبيه واتباعه على ما أوحي إليه من الإيمان والقرآن؟ بلى.

٣٣ - (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

{والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٣٣) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون (٣٥)}.

في الآية السابقة كان التقبيح والتخسير والوعيد للظالمين الكذابين، وفي هذه الثناء والتكريم والبشرى لأهل الصدق والمصدقين بما أوحي إليهم من ربهم وهو الحق، جاءنا رسولنا خاتم النبيين بالهدى ودين الحق، فهو المبعوث لنا بالصدق، وصدقنا ما جاءنا من وحي ربنا-وهو أصدق الصدق-فاللهم اكتبنا في المتقين عذابك وسخطك، وقنا حر جهنم، ولا تخزنا يوم القيامة، واجعلنا من أهل الكرامة، وإن للمصدقين المتقين لحسن مآب، ولهم في دار النعيم ما يشاءون، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟. يتقبل الله عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، - وقيل: إن {أسوأ} بمعنى سيء صغيرا كان أو كبيرا.

٣٤ - (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٣٣) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون (٣٥)}.

في الآية السابقة كان التقبيح والتخسير والوعيد للظالمين الكذابين، وفي هذه الثناء والتكريم والبشرى لأهل الصدق والمصدقين بما أوحي إليهم من ربهم وهو الحق، جاءنا رسولنا خاتم النبيين بالهدى ودين الحق، فهو المبعوث لنا بالصدق، وصدقنا ما جاءنا من وحي ربنا-وهو أصدق الصدق-فاللهم اكتبنا في المتقين عذابك وسخطك، وقنا حر جهنم، ولا تخزنا يوم القيامة، واجعلنا من أهل الكرامة، وإن للمصدقين المتقين لحسن مآب، ولهم في دار النعيم ما يشاءون، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟. يتقبل الله عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، - وقيل: إن {أسوأ} بمعنى سيء صغيرا كان أو كبيرا.

٣٥ - (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٣٣) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون (٣٥)}.

في الآية السابقة كان التقبيح والتخسير والوعيد للظالمين الكذابين، وفي هذه الثناء والتكريم والبشرى لأهل الصدق والمصدقين بما أوحي إليهم من ربهم وهو الحق، جاءنا رسولنا خاتم النبيين بالهدى ودين الحق، فهو المبعوث لنا بالصدق، وصدقنا ما جاءنا من وحي ربنا-وهو أصدق الصدق-فاللهم اكتبنا في المتقين عذابك وسخطك، وقنا حر جهنم، ولا تخزنا يوم القيامة، واجعلنا من أهل الكرامة، وإن للمصدقين المتقين لحسن مآب، ولهم في دار النعيم ما يشاءون، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟. يتقبل الله عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، - وقيل: إن {أسوأ} بمعنى سيء صغيرا كان أو كبيرا.

٣٦ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

{أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٦) ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام (٣٧)}

استفهام يراد به إنكار ونفي عدم كفايته تعالى عباده، والمراد ب {عبده} إما النبي صلى الله عليه وسلم. يكفيه الله كيد الكافرين،

أو يراد به الجنس فالله تعالى يكفي أنبياءه وعباده كيد المعاندين؛ ولقد خوّف قوم إبراهيم نبيهم أن تصيبه آلهتهم فقال ما بيّنه الكتاب الحكيم: {وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} ١. وخوّف المشركون ٢ خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم، فزاده الله ثباتا في اليقين {. . . فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} ٣، ومن يزغ قلبه يتركه الله لزيغه: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٤ {. . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} ٥، ومن يحبب إليه ربه الإيمان فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وربنا منيع مقامه، غالب على أمره، شديد الانتقام والبطش بمن أراد أن يطفئ نوره.

٣٧ - (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٦) ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام (٣٧)}

استفهام يراد به إنكار ونفي عدم كفايته تعالى عباده، والمراد ب {عبده} إما النبي صلى الله عليه وسلم. يكفيه الله كيد الكافرين، أو يراد به الجنس فالله تعالى يكفي أنبياءه وعباده كيد المعاندين؛ ولقد خوّف قوم إبراهيم نبيهم أن تصيبه آلهتهم فقال ما بيّنه الكتاب الحكيم: {وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} ٦. وخوّف المشركون ٧ خاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم، فزاده الله ثباتا في اليقين {. . . فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} ٨، ومن يزغ قلبه يتركه الله لزيغه: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٩ {. . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} ١٠، ومن يحبب إليه ربه الإيمان فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وربنا منيع مقامه، غالب على أمره، شديد الانتقام والبطش بمن أراد أن يطفئ نوره.

٣٨ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (٣٨)}.

وإذا سألت المشركين من خلق السماوات والأرض أقرّوا بأن الله عز وجل خالقهم {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} ١١ وهم مع هذا الإقرار يشركون، ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ولا يملك لهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، لكن الله المعبود بحق يفعل ما يريد {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده} ١٢ فإن أرادني بضر أو أراد غيري فلا تملك شركاؤكم أن تمنع أو تدفع، وإن أرادني أو أراد غيري بنعمة وفضل ورحمة فأصنامكم أعجز عن حجب هذا الخير؛ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ١٣، قل: الله كافيّ، اتخذته وكيلا، وأتخذه ويتخذه أهل الإيمان وليا ووكيلا-نعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير-وصلوات الله على نوح الذي واجه قومه وهم أظلم وأطغى-فاعتصم بالوكيل-جل علاه-وتحدّى الفاسقين العتاة: {. . إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ١٤ وقال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: {. . إني أشهد الله وأشهد أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم} ١٥.

٣٩ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

{قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون (٣٩) من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٠)}.

نذير ووعيد للمشركين وأعداء الدين، وعهد وميثاق يُقِرّ به المؤمن اعتزازا بالإسلام، ووفاء بأمانات الخلاق العليم: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٦ فليتمتع الكافر بالحطام الذي أبطره، وليتميز غيظا من الحق وأهله {. . فالذين كفروا هم المكيدون} ١٧ وليثبت أهل الرشد على صراط الله المستقيم: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} ١٨ وسيعذب الله بأيديهم جند البغي والشياطين، ويجزي القوم المجرمين في عاجلهم، مع ما أعد لهم من الخلد في نار الجحيم.

٤٠ - (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون (٣٩) من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٠)}.

نذير ووعيد للمشركين وأعداء الدين، وعهد وميثاق يُقِرّ به المؤمن اعتزازا بالإسلام، ووفاء بأمانات الخلاق العليم: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٩ فليتمتع الكافر بالحطام الذي أبطره، وليتميز غيظا من الحق وأهله {. . فالذين كفروا هم المكيدون} ٢٠ وليثبت أهل الرشد على صراط الله المستقيم: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} ٢١ وسيعذب الله بأيديهم جند البغي والشياطين، ويجزي القوم المجرمين في عاجلهم، مع ما أعد لهم من الخلد في نار الجحيم.

٤١ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

{إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل (٤١)}.

إن أوحينا إليك القرآن الكتاب الكامل لخير الناس لتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فمن استجاب لدعوة الكتاب، واتخذه منهاجا لنفسه حقق الصلاح، والفوز والفلاح؛ ومن عمى عن هدى القرآن، وزاغ عن شرعته، فعلى نفسه جنى: {. . فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا. ونحشره يوم القيامة أعمى} ٢٢، وما أنت إلا مبلغ {لست عليهم بمسيطر} ٢٣.

٤٢ - (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

{الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤٢)}.

يغمر الله نفوس الأحياء عند النوم بما يحبسها عن التصرف فكأنها مقبوضة، وما قبضه الله من أرواحهم في حالة الموت فلا يعود إلى يوم القيامة بل يمسكه الله إلى اليوم الموعود، فإذا يقبض الله الروح في حالين، في حالة النوم وفي حالة الموت؛ مما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء. . اه. ومما أورد ابن كثير:. . المتصرف في الوجود بما يشاء. . يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} ٢٤.

أقول: وبهذا يمكن أن يفهم ما أشار إليه قول الحق-تبارك اسمه- {إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ} ٢٥ وأنها الوفاة الصغرى التي تعني النوم، وأنه عليه السلام لم يُقْتَلْ وما مات: {بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما}. ٢٦

والمتدبر لهدى النبي صلى الله عليه وسلم يستشعر أن النوم نوع من مفارقة الروح؛ أخرج البخاري عن حذيفة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده، ثم يقول: (اللهم باسمك أموت وأحيا) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)، وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أوى

أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسم الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها) -وقال البخاري وابن ماجه والترمذي " فارحمها " بدل " فاغفر لها " (وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين). إن في قبض الله الحي القيوم-نفس النائم والميت وحبسه نفس الميت لعبرا وبرهانا على اقتدار المولى الذي بيده الموت والحياة، ومذكرا لمن يتبصر ويتذكر.

٤٣ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ)

{أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون (٤٣) قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون (٤٤)}.

ومشركوا قومك لم يتفكروا بل اتخذوا من دون الله شفعاء-. . . يشفعون لهم بزعمهم- {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم} ٢٧ فكيف يشفع أو ينفع من لا يملك لغيره ولا لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يدفع نازلة ولا شرا؟ {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها} ٢٨ لا! بل {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون} ٢٩، ومن عبدوهم ممن يعقل كالملائكة وعيسى-عليهم السلام- منهم براء: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} ٣٠ {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} ٣١ {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم أضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا} ٣٢ فكيف بالأوثان وما لا يعقل؟ لا يشفع شافع إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، وربنا الملك المهيمن له السلطان والقهر على كل الخلق، وإليه يرجع العباد، في يوم المعاد، ثم يفتح ويقضي بينهم بالحق وهو الفتاح العليم.

٤٤ - (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون (٤٣) قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون (٤٤)}.

ومشركوا قومك لم يتفكروا بل اتخذوا من دون الله شفعاء-. . . يشفعون لهم بزعمهم- {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم} ٣٣ فكيف يشفع أو ينفع من لا يملك لغيره ولا لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يدفع نازلة ولا شرا؟ {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها} ٣٤ لا! بل {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون} ٣٥، ومن عبدوهم ممن يعقل كالملائكة وعيسى-عليهم السلام- منهم براء: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} ٣٦ {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} ٣٧ {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم أضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا} ٣٨ فكيف بالأوثان وما لا يعقل؟ لا يشفع شافع إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، وربنا الملك المهيمن له السلطان والقهر على كل الخلق، وإليه يرجع العباد، في يوم المعاد، ثم يفتح ويقضي بينهم بالحق وهو الفتاح العليم.

٤٥ - (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

{اشمأزت} انقبضت ونفرت، وامتلأت غيظا حتى يظهر الانقباض في وجوههم، كما يشاهد في وجه العابس المحزون.

{يستبشرون} تمتلئ قلوبهم سرورا حتى تنبسط بشرة الوجه.

{وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٤٥) قل اللهم فاطر

السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون (٤٦) ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤٧) وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٤٨)}.

غلبت الشقوة على المرتابين في الآخرة، واتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضاه، وضاقت صدورهم بذكر الوليّ الحميد، وانشرحت لما سواه: {. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا} ٣٩، فإذا سمعوا كلمة التوحيد تأنّفوا وتعاظموا أن يخضعوا لجلال العلي الأعلى: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} ٤٠ بينما يعكفون على أصنام لهم لا تسمع ولا تعقل، فأنّى لها أن تنفع أو تدفع؟، ومع ذلك زيّن لهم سوء عملهم، وتواصوا بالتمادي في ضلالهم، وعبادة أصنامهم: {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد} ٤١.

ومن قبل تمادي أسلافهم: {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} ٤٢، فالجأ إلى الله المعبود بحق، واضرع إلى مبدع السماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما على غير مثال سبق؛ واتخذ ومن معك من المؤمنين عالم ما غاب وما حضر وما ظهر وما بطن-اتخذوه وكيلا فإنه سيفتح بينكم وبين قومكم بالحق وهو خير الفاتحين {. . والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير} ٤٣، ولو أن الكافرين الباغين ملكوا ضعف ما في الدنيا مما يُتملك ليقدموه فدية لينفكوا به من الأغلال والسعير فلن يظفروا بفكاك، بل سيرون من فنون النكال، وصنوف الخبال، ما لم يكن يخطر لهم على بال {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} ٤٤ وظهر لهم قبح كسبهم وعملهم، وأحاط بهم جزاء تكذيبهم الرسالة والرسول واستهزائهم.

في صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل {فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون} اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

٤٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{فاطر} خالق ومنشئ على غير مثال سبق.

{الغيب} السر والوسوسة والنجوى؛ أو كل ما غاب.

{الشهادة} العلانية، وما يشاهد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار

٤٧ - (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

{لافتدوا} لجعلوه فداء لهم مما وقعوا فيه.

{وبدا} وظهر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار

٤٨ - (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

{كسبوا} عملوا.

{وحاق} وأحاط.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٥ إظهار

٤٩ - (فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

{الإنسان} كثير من جنس الإنسان.

}خولناه{ أعطيناه تفضلا لا أجرا.
}فتنة{ اختبار.
}فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون (٤٩) قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٥٠) فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين (٥١) أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٥٢) *{.
في بني الإنسان من يُزيّن له الجحود والكفران، فإذا نزل به ما يكره دعا ربه وتضرع إليه: {. . إذا مسكم الضر فإليه تجأرون. ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون} ٤٥ فإذا منّ الله تعالى عليه وبسط له الرزق طغى و {. . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} ٤٦؛ وقارون إذ قال له قومه ما حكاه القرآن العظيم: {. . لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ٤٧؛ {أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} ٤٨ إنه ابتلاء من الله الخبير البصير {. . ونبلوكم بالشر والخير فتنة} ٤٩. ولكن أكثرهم يجهلون؛ قد جحد قوم قبلهم كجحودهم، وقالوا مثل قولهم، فما أغنى عنهم ولا نفعهم بطرهم وغرورهم، بل أصابهم جزاء بغيهم فدمّر الله بنيانهم، وسيتبر ما متّع به من خلفهم، ممن قالوا قولهم، فيجزيهم في الدنيا مع ما ادخر من عذاب الآخرة لهم؛ أو لم يتحققوا ويستيقنوا أن الفعال لما يريد، والرزاق المجيد، يوسع الرزق لمن يشاء-دون استحقاق منه لذلك-ويضيق أو يحبس، أو يعطي بقدر ويقتر لمن سبقت مشيئة المولى فيه بذلك؟! إن في قسمنا بين العباد لعبرا، وبرهانا وعلامات للذين يصدقون ويعتبرون لأنهم الذين يتدبرون وينتفعون ويعلمون أن سعة الرزق قد يكون مكرا واستدراجا، وتقتيره رفعة وإعظاما.
٥٠ - (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٩ إظهار
٥١ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)
}بمعجزين{ بمفلتين ولا فائتين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٩ إظهار
٥٢ - (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
}يبسط{ يوسع.
}ويقدر{ يضيق، أو يعطي بقدر محدود، أو يحبس.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٩ إظهار
٥٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
}قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩){.
ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى-عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٥٠. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٥١.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمنهاجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع، كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه، من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٥٢، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها، أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات، وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٤ - (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.

ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى- عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٥٣. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٥٤.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمنهاجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع، كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه، من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٥٥، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب

الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها؛ أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات؛ وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور؛ ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٥ - (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.

ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى-عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؛ فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٥٦. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٥٧.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمنهاجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع؛ كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه؛ من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٥٨، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها؛ أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات؛ وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور؛ ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٦ - (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة

وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.

ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى- عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٥٩. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٦٠.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمنهاجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع، كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه، من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٦١، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها، أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات، وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٧ - (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.

ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى- عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٦٢. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٦٣.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمناهجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع؛ كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه؛ من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٦٤، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها؛ أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات؛ وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور؛ ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٨ - (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.

ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى- عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؛ فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٦٥. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٦٦.

نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمناهجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع؛ كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه؛ من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٦٧، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها؛ أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.

قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات؛ وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور؛ ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.

٥٩ - (بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]
{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣) وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون (٥٤) واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (٥٥) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٩)}.
ربنا العفو التوّاب يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وإن عظمت، ويدعوا العباد أن يستبشروا بتجاوز الحليم-تبارك وتعالى- عن أوزار الخطائين التائبين إليه، المقبلين عليه.
روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} ٦٨. فكل ذنب دون الشرك يرجى أن يتجاوز الله عن صاحبه إذا استغفر ربه لذلك الذنب مهما كبر أو كثر، فإن ربنا كثير الغفران، وسعت رحمته كل شيء، ومطلوب مع التوبة والاستغفار أن يستيقن بعظمة الله وينقاد لأمره ويستقيم على هداه {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ٦٩.
نادانا المولى سبحانه في الآيتين: الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين أن نعود إلى طريقه ونخضع لمناهجه وشرعه، قبل أن يحل بأس المنتقم الجبار بالفاسقين والفجار، فلا يرد عنهم رادّ ولا يدفعه دافع؛ كما وصّى باتباع وحيه الذي أوحى إلى نبيه فإنه أحسن الوحي يهيمن على ما سبقه، ولا ينزل بعده ما ينسخه؛ من قبل أن يبطش الله بالمخالفين عن أمره، والمعرضين عن قرآنه وذكره: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٧٠، كيلا تقولوا-حين لا ينفع القول: يا حسرتى على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله -سبحانه- وثوابه، وتقرون أنكم اتخذتم آياته استهزاء وسخرية، وسخرتم ممن آمن بها؛ أو تقولوا حين تشاهدون المصير والجزاء لو أننا نرجع إلى الدنيا لنؤمن ونحسن؟ فيرد المولى بما قضى، وأن ليست له حجة بين يدي ربه العلي الأعلى، وأنه ما تُرك في الحياة سدى، ولكن جاءته البينات فكذب وعصى، واستكبر وجحد وغوى.
قال ابن زيد في قوله تعالى: {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم}: يعني المحكمات، وكِلُوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل كتبا: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا حسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة.
٦٠ - (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ)
{ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين (٦٠) وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٦١)}.
والذين افتروا على الملك المهيمن ما لم ينزل به سلطانا، وقالوا: لن يقدر أن يعيدنا، ونسبوا إليه الولد، وأضافوا إليه الشريك، ترى كل هؤلاء الكاذبين ووجوههم مسودة يوم القيامة، أليس في الجحيم المأوى والمستقر لهؤلاء المغرورين المتأنفين؟! أما الذين خافوا الله وأطاعوه وصدقوا بكلماته ورسله فإن ربهم ينجيهم من لفح السعير ويسعدهم بفوزهم ودخولهم دار النعيم، لا ينال أجسامهم فيها تعب ولا نصب، ولا يخالط قلوبهم هم ولا كدر.
٦١ - (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

}ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين (٦٠) وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٦١)}.

والذين افتروا على الملك المهيمن ما لم ينزل به سلطانا، وقالوا: لن يقدر أن يعيدنا، ونسبوا إليه الولد، وأضافوا إليه الشريك، ترى كل هؤلاء الكاذبين ووجوههم مسودة يوم القيامة، أليس في الجحيم المأوى والمستقر لهؤلاء المغرورين المتأنفين؟! أما الذين خافوا الله وأطاعوه وصدقوا بكلماته ورسله فإن ربهم ينجيهم من لفح السعير ويسعدهم بفوزهم ودخولهم دار النعيم، لا ينال أجسامهم فيها تعب ولا نصب، ولا يخالط قلوبهم هم ولا كدر.

٦٢ - (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

}الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)}.

ربنا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو الخالق له، والحفيظ القائم على كل شأنه، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض ومفاتيح الغيب والخير، والذين لم يصدقوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية مبعدون في الهلاك والبوار والخسار، قل لهم مستنكرا نهجهم: أتأمروني بغير الله أن أعبد؟. . أتأمروني بعبادة غير الله؟ يا من ليس كجهلكم جهل!. . وجائز أن يكون الخطاب في الآيات الثلاث ٦٣، ٦٤، ٦٥، لكل أحد تثبيتا على الحق، وتسفيها لعبدة الطاغوت والأوثان؛ ومن يرى أن الخطاب للنبي فالأمر في الآية الرابعة والستين على سبيل الفرض، ويكون المعنى -والله أعلم-: أوحيت إليك إن أشركت حبط عملك وبطل ثوابك، وفات الربح، وحقّ الخسران، كما أوحيت إلى كل نبي قبلك لئن أشرك ليذهبن أجره وليحقّن خسره؛ وحاشا لك ولكل نبي أن يكون من أحد منكم شرك، بل أنتم الصفوة المختارون على علم على العالمين، فاستديموا عبادة المعبود بحق واشكروه، وكبروه على ما هداكم وهدى بكم.

٦٣ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

}الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)}.

ربنا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو الخالق له، والحفيظ القائم على كل شأنه، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض ومفاتيح الغيب والخير، والذين لم يصدقوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية مبعدون في الهلاك والبوار والخسار، قل لهم مستنكرا نهجهم: أتأمروني بغير الله أن أعبد؟. . أتأمروني بعبادة غير الله؟ يا من ليس كجهلكم جهل!. . وجائز أن يكون الخطاب في الآيات الثلاث ٦٣، ٦٤، ٦٥، لكل أحد تثبيتا على الحق، وتسفيها لعبدة الطاغوت والأوثان؛ ومن يرى أن الخطاب للنبي فالأمر في الآية الرابعة والستين على سبيل الفرض، ويكون المعنى -والله أعلم-: أوحيت إليك إن أشركت حبط عملك وبطل ثوابك، وفات الربح، وحقّ الخسران، كما أوحيت إلى كل نبي قبلك لئن أشرك ليذهبن أجره وليحقّن خسره؛ وحاشا لك ولكل نبي أن يكون من أحد منكم شرك، بل أنتم الصفوة المختارون على علم على العالمين، فاستديموا عبادة المعبود بحق واشكروه، وكبروه على ما هداكم وهدى بكم.

٦٤ - (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

}الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن

من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)}.
ربنا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو الخالق له، والحفيظ القائم على كل شأنه، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض ومفاتيح الغيب والخير، والذين لم يصدقوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية مبعدون في الهلاك والبوار والخسار، قل لهم مستنكرا نهجهم: أتأمروني بغير الله أن أعبد؟. . أتأمروني بعبادة غير الله؟ يا من ليس لجهلكم جهل!. . وجائز أن يكون الخطاب في الآيات الثلاث ٦٣، ٦٤، ٦٥، لكل أحد تثبيتا على الحق، وتسفيها لعبدة الطاغوت والأوثان؛ ومن يرى أن الخطاب للنبي فالأمر في الآية الرابعة والستين على سبيل الفرض، ويكون المعنى -والله أعلم-: أوحيت إليك إن أشركت حبط عملك وبطل ثوابك، وفات الربح، وحقّ الخسران، كما أوحيت إلى كل نبي قبلك لئن أشرك ليذهبن أجره وليحقّن خسره؛ وحاشا لك ولكل نبي أن يكون من أحد منكم شرك، بل أنتم الصفوة المختارون على علم على العالمين، فاستديموا عبادة المعبود بحق واشكروه، وكبروه على ما هداكم وهدى بكم.
٦٥ - (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]
{الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)}.
ربنا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو الخالق له، والحفيظ القائم على كل شأنه، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض ومفاتيح الغيب والخير، والذين لم يصدقوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية مبعدون في الهلاك والبوار والخسار، قل لهم مستنكرا نهجهم: أتأمروني بغير الله أن أعبد؟. . أتأمروني بعبادة غير الله؟ يا من ليس لجهلكم جهل!. . وجائز أن يكون الخطاب في الآيات الثلاث ٦٣، ٦٤، ٦٥، لكل أحد تثبيتا على الحق، وتسفيها لعبدة الطاغوت والأوثان؛ ومن يرى أن الخطاب للنبي فالأمر في الآية الرابعة والستين على سبيل الفرض، ويكون المعنى -والله أعلم-: أوحيت إليك إن أشركت حبط عملك وبطل ثوابك، وفات الربح، وحقّ الخسران، كما أوحيت إلى كل نبي قبلك لئن أشرك ليذهبن أجره وليحقّن خسره؛ وحاشا لك ولكل نبي أن يكون من أحد منكم شرك، بل أنتم الصفوة المختارون على علم على العالمين، فاستديموا عبادة المعبود بحق واشكروه، وكبروه على ما هداكم وهدى بكم.
٦٦ - (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]
{الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣) قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦)}.
ربنا أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو الخالق له، والحفيظ القائم على كل شأنه، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض ومفاتيح الغيب والخير، والذين لم يصدقوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية مبعدون في الهلاك والبوار والخسار، قل لهم مستنكرا نهجهم: أتأمروني بغير الله أن أعبد؟. . أتأمروني بعبادة غير الله؟ يا من ليس لجهلكم جهل!. . وجائز أن يكون الخطاب في الآيات الثلاث ٦٣، ٦٤، ٦٥، لكل أحد تثبيتا على الحق، وتسفيها لعبدة الطاغوت والأوثان؛ ومن يرى أن الخطاب للنبي فالأمر في الآية الرابعة والستين على سبيل الفرض، ويكون المعنى -والله أعلم-: أوحيت إليك إن أشركت حبط عملك وبطل ثوابك، وفات الربح، وحقّ الخسران، كما أوحيت إلى كل نبي قبلك لئن أشرك ليذهبن أجره وليحقّن خسره؛ وحاشا لك ولكل نبي أن يكون من أحد منكم شرك، بل أنتم الصفوة المختارون على علم على العالمين، فاستديموا عبادة المعبود بحق واشكروه، وكبروه على ما هداكم وهدى بكم.
٦٧ - (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

}وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون (٦٧)}.
والجاهلون المكذبون والمشركون ما عظموا الله-الكبير المتعال- التعظيم اللائق له، فعدلوا به الأصنام والشركاء التي لا تملك ولا تقدر على شيء، لكن المعبود بحق يتصرف في السماوات والأرض ومن فيهما ويهيمن عليهما، ويتجلى قهره يوم القيامة يوم ينادي: }لمن الملك اليوم} فلا يجيب الخلق، بل يقول الخلاق المسيطر: }لله الواحد القهار}، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض)؛ وأنزه المولى تقدس وعلا عن إشراكهم و }ما} تحتمل المصدرية والموصولية.
يقول الألوسي: وفيه رمز إلى أن ما يشركونه معه عز وجل أرضيا كان أم سماويا مقهور تحت سلطانه-جل شأنه وعز سلطانه. فالقبضة مجاز عن الملك أو التصرف كما يقال، بلد كذا في قبضة فلان، واليمين مجاز عن القدرة. . . والسلف يقولون أيضا: إن الكلام تنبيه على مزيد جلالته تعالى وعظمته سبحانه. . إلا أنهم يقولون القبضة مجاز عن الملك والتصرف، ولا اليمين مجاز عن القدرة بل ينزهون الله تعالى عن الأعضاء والجوارح، ويؤمنون بما نسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه، وكذلك يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام.
وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا، لأن الدعاوي تنقطع ذلك اليوم، كما قال: }. . والأمر يومئذ لله} ٧١ وقال: }مالك يوم الدين} ٧٢.
٦٨ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)
}ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠)}.
إذا جاء وعد الله الحق، وانقضى أجل الدنيا، وحانت ساعة ذهاب الكون كله، أمر الله الملك الموّكل بالصور أن ينفخ فيه فينفخ فيفنى كل شيء إلا الله، ويهلك كل حي إلا الباقي سبحانه.
والصور: قرن من نور فيه ثقب ينفخ فيه نفختان، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء.
روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (. . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ٧٣ ليتا ورفع ليتا ٧٤ - قال- وأول من يسمعه رجل يلوط ٧٥ حوض إبله -قال- فيصعق ٧٦ ويصعق الناس ثم يرسل الله-أو قال: ينزل الله مطرا كأنه الطل تنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وذكر الحديث.
يقول القرطبي: والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.
لكنه نقل أقوالا أخرى: أنه يكون معه جبريل، أو يكون معهما ميكائيل، أو ومعهم ملك الموت.
بالنفخة الأولى يميت الله كل حي إلا من شاء سبحانه أن يبقى بعد النفخة الأولى؛ ثم اختلف في هذا المستثنى، فقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء، وقيل: الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: الحور العين، وقيل بعض الملائكة.
أقول: أفليس الأوْلى أن نرجع إلى ما شهد به القرآن الكريم: }كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٧٧ ونقول في الاستثناء ما قاله الحسن: هو الله الواحد القهار، وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت؟. . أو ما قال قتادة: الله أعلم بثنياه. أو فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلا سبق موتهم لأنهم قد ماتوا. والله أعلم.
فإذا أزفت لحظة البعث والنشور والإعادة يأمر الله صاحب الصور فينفخ فيه الثانية فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء، تشققت عنهم القبور، وأعيدت إليهم الأبدان والأرواح، فقاموا ينظرون ماذا يراد بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم.
ويومئذ تشرق أرض المحشر التي ليست هي الأرض الأولى بل بدلها الله، فتضيء بنور ربنا الذي لا يخبو، فليس هناك شمسنا ولا

قمرنا اللذان عهدناهما، ووضعت صحائف الأعمال بأيدي العاملين، وجيء بالنبيين ليشهدوا على أممهم، وبالشهداء من الملائكة وغيرهم كالأمكنة والجوارح-الألسنة والأيدي والأرجل-ليشهدوا بما كان من المكلفين في حياتهم الدنيا، ويقضي الفتاح العليم، بالعدل فلا تظلم نفس شيئا لا بنقص ثواب ولا بزيادة عقاب، وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت، لا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم وإن دق أو أخفى {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ٧٨.

٦٩ - (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠)}.

إذا جاء وعد الله الحق، وانقضى أجل الدنيا، وحانت ساعة ذهاب الكون كله، أمر الله الملك الموّكل بالصور أن ينفخ فيه فينفخ فيفنى كل شيء إلا الله، ويهلك كل حي إلا الباقي سبحانه.

والصور: قرن من نور فيه ثقب ينفخ فيه نفختان، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء.

روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (. . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ٧٩ ليتا ورفع ليتا ٨٠ - قال- وأول من يسمعه رجل يلوط ٨١ حوض إبله -قال- فيصعق ٨٢ ويصعق الناس ثم يرسل الله-أو قال: ينزل الله مطرا كأنه الطل تنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وذكر الحديث.

يقول القرطبي: والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.

لكنه نقل أقوالا أخرى: أنه يكون معه جبريل، أو يكون معهما ميكائيل، أو ومعهم ملك الموت.

بالنفخة الأولى يميت الله كل حي إلا من شاء سبحانه أن يبقى بعد النفخة الأولى، ثم اختلف في هذا المستثنى، فقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء، وقيل: الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: الحور العين، وقيل بعض الملائكة.

أقول: أفليس الأوْلى أن نرجع إلى ما شهد به القرآن الكريم: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٨٣ ونقول في الاستثناء ما قاله الحسن: هو الله الواحد القهار، وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت؟. . أو ما قال قتادة: الله أعلم بثنياه. أو فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلا سبق موتهم لأنهم قد ماتوا. والله أعلم.

فإذا أزفت لحظة البعث والنشور والإعادة يأمر الله صاحب الصور فينفخ فيه الثانية فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء، تشققت عنهم القبور، وأعيدت إليهم الأبدان والأرواح، فقاموا ينظرون ماذا يراد بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

ويومئذ تشرق أرض المحشر التي ليست هي الأرض الأولى بل بدلها الله، فتضيء بنور ربنا الذي لا يخبو، فليس هناك شمسنا ولا قمرنا اللذان عهدناهما، ووضعت صحائف الأعمال بأيدي العاملين، وجيء بالنبيين ليشهدوا على أممهم، وبالشهداء من الملائكة وغيرهم كالأمكنة والجوارح-الألسنة والأيدي والأرجل-ليشهدوا بما كان من المكلفين في حياتهم الدنيا، ويقضي الفتاح العليم، بالعدل فلا تظلم نفس شيئا لا بنقص ثواب ولا بزيادة عقاب، وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت، لا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم وإن دق أو أخفى {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ٨٤.

٧٠ - (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٨]

{ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو

أعلم بما يفعلون (٧٠)}.
إذا جاء وعد الله الحق، وانقضى أجل الدنيا، وحانت ساعة ذهاب الكون كله، أمر الله الملك الموّكل بالصور أن ينفخ فيه فينفخ فيفنى كل شيء إلا الله، ويهلك كل حي إلا الباقي سبحانه.
والصور: قرن من نور فيه ثقب ينفخ فيه نفختان، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء.
روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (. . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ٨٥ ليتا ورفع ليتا ٨٦ - قال- وأول من يسمعه رجل يلوط ٨٧ حوض إبله -قال- فيصعق ٨٨ ويصعق الناس ثم يرسل الله-أو قال: ينزل الله مطرا كأنه الطل تنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وذكر الحديث.
يقول القرطبي: والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.
لكنه نقل أقوالا أخرى: أنه يكون معه جبريل، أو يكون معهما ميكائيل، أو ومعهم ملك الموت.
بالنفخة الأولى يميت الله كل حي إلا من شاء سبحانه أن يبقى بعد النفخة الأولى، ثم اختلف في هذا المستثنى، فقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء، وقيل: الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: الحور العين، وقيل بعض الملائكة.
أقول: أفليس الأوْلى أن نرجع إلى ما شهد به القرآن الكريم: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٨٩ ونقول في الاستثناء ما قاله الحسن: هو الله الواحد القهار، وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت؟. . أو ما قال قتادة: الله أعلم بثنياه. أو فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلا سبق موتهم لأنهم قد ماتوا. والله أعلم.
فإذا أزفت لحظة البعث والنشور والإعادة يأمر الله صاحب الصور فينفخ فيه الثانية فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء، تشققت عنهم القبور، وأعيدت إليهم الأبدان والأرواح، فقاموا ينظرون ماذا يراد بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم.
ويومئذ تشرق أرض المحشر التي ليست هي الأرض الأولى بل بدلها الله، فتضيء بنور ربنا الذي لا يخبو، فليس هناك شمسنا ولا قمرنا اللذان عهدناهما، ووضعت صحائف الأعمال بأيدي العاملين، وجيء بالنبيين ليشهدوا على أممهم، وبالشهداء من الملائكة وغيرهم كالأمكنة والجوارح-الألسنة والأيدي والأرجل-ليشهدوا بما كان من المكلفين في حياتهم الدنيا، ويقضي الفتاح العليم، بالعدل فلا تظلم نفس شيئا لا بنقص ثواب ولا بزيادة عقاب، وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت، لا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم وإن دق أو أخفى {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ٩٠.
٧١ - (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)
{وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١)}.
هذا بيان حال الأشقياء الكفار، يساقون جماعات إثر جماعات إلى النار- {زمرا} -جماعات متفرقة بعضها إثر بعض-وفور وصولهم إليها تفتح أبوابها لهم سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ويقول خزنة جهنم وهم الزبانية غلاظ الأخلاق شداد القوى -يوبخون الكفار ويقرعونهم، ويمعنون في النكال بهم-: ألم يبعث الله إليكم رسلا من جنسكم ويتكلمون بلسانكم، يبينون لكم سبيل فوزكم ونجاتكم، ويبلغونكم الهدى المنزل من ربكم ويخوفون ويُحَذِّرُون من هول هذا اليوم وشره؟ قال الكفار: بلى:. . قد جاءتنا رسلنا فأنذرتنا عبوس هذا اليوم وعسره. وشهدوا على أنفسهم بالجحود، ورجعوا عليها بالملامة والندامة، بما كذبوا المرسلين، وصدّوا عن الحق المبين {. . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار} ٩١ {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} ٩٢.
٧٢ - (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

{قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢)}.
فيقول خزنة جهنم للذين كفروا-بعد إقرار الكفار على أنفسهم بما كانوا يصرون عليه من الضلال-ادخلوا من أبواب جهنم السبعة-أجارنا الله منها-ويُزَجُّونَ فيها على قدر ما اقترف كل منهم من آثام، وما اجترح في دنياه من سيآت، مصداقا لقول سبحانه: {وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} ٩٣، وتملأ الزبانية قلوب المعذبين حسرات؛ فيخبرونهم أن منازلهم التي أنزلوها في السعير لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، بل هم فيها ماكثون، فبئس المقيل والمستقر؛ وأي مثوى أتعس من لهيب مسعر يحيط بأجسادهم {إنها عليهم موصدة. في عمد ممددة} ٩٤. ونزلهم شجرة الزقوم {كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم} ٩٥ جزاء وفاقا للتأبي على الحق في الدنيا، والصد عن سبيل الهدى، والتعالي عن الإذعان لأمر ربنا الكبير المتعال.
٧٣ - (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)
{وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (٧٣)}.
وتساق مراكب ٩٦ السعداء الأتقياء ونجبائهم - بعد الحساب- وفدا إلى الجنة، وجماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حتى إذا شارفوها وجدوها مهيأة كأنما تترقب قدومهم، مفتحة الأبواب تكريما لهم، كما قال تعالى: {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب} ٩٧.
وقيل في التعليل لزيادة الواو في قوله تبارك وتعالى في أهل الجنة: {. . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها} عنها في قوله سبحانه في أهل النار: {حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها} قالوا: إن هذا الواو واو الثمانية، وذلك من عادة قريش أنهم يعدون فيقولون. . خمسة ستة سبعة وثمانية؛ كما في قوله سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام} ٩٨ وقال: {التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر} ٩٩ وقال: {. . ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم} ١٠٠ وقال: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا} ١٠١.
واستدل بهذا من قال: إن أبواب الجنة ثمانية ١٠٢.
فإذا جاء المؤمنون إلى الجنة أفواجا: الأنبياء والشهداء والعلماء والقراء والأتقياء ووجدوا أبوابها مفتوحة- تعظيما لهم تلقتهم الملائكة خزنة الجنة-إذا كان هذا سعدوا وطابوا وفرحوا- فيكون هذا تقدير جواب {إذا} المحذوف، تحية الملائكة لهم: سلام لكم من أحوال الدنيا وأهوال الآخرة فبشرى لكم؛ أو دعاء لهم بدوام السلامة، طبتم نفسا بما نلتم من نعيم الجنة؛ أو طابت أعمالكم وأقوالكم وسعيكم في الدنيا فطاب اليوم مثواكم وجزاؤكم؛ أو طبتم من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا، فأكرمكم ربكم بدخول دار النعيم والمكث فيها، لأنها دار طهّرها الله من كل رجس فلا ينالها إلا من هو موصوف بصفتها؛ وابقوا فيها ممتّعين، وما أنتم منها بمخرجين.
٧٤ - (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)
{وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤)}.
وأثنى المنعمون على المنعم الوهاب، وشكروا فضل الكريم الذي لا يخلف الميعاد، أن أعطاهم سؤلهم، وحقق رجاءهم، وأنجز لهم ما وعدهم، وأحلهم دار المقامة يتقلب كل منهم حيث يحب في بيوته وحدائقه، فنعم هذا الأجر لمن عمل عملا طيبا.
٧٥ - (وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)}.
وترى يا من يتأتى منك النظر ترى الملائكة حال إحاطتهم وإحداقهم حول عرش ربنا العلي الأعلى مسبحين بحمده؛ وقضي بين العباد بالعدل والقسط لا بخس ولا جور، وقال المؤمنون: الحمد المستحَق للمعبود المستحِق للعبادة-دون سواه-وهو مالك العوالم كلها، ومصلحها ووليها.
وهكذا بينت آيات كريمات من السورة المباركة الكثير من أحوال العباد في يوم المعاد، والجزاء الحق من الله الحق؛ لا يستوي فيه

المتقون والفجار، بل لكل درجات مما عملوا، ونعم أجر الأبرار. ومن قبل ذلك جاءت البشرى في آيات كريمة أن الشكور الحليم الغفور الرحيم لا يقنط من أساء ثم أناب {. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} ١٠٣.

وفي مواطن كثيرة من السورة نادانا الحق للإيمان بكتابه الحق {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق} {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} {فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم} فاستجيبوا لله وآياته، وأوفوا بعهده وأماناته، فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن يعتصم بميثاقه فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم.

خاتمة تفسير سورة الزمر:

السور الخمس المباركات دعت إلى توحيد الله تعالى وتقديسه، وإلى اليقين بآياته ورسالاته، والتصديق بالرجوع إلى ربنا-جل وعز- وملاقاته، وتوفية كل محسن أو مسيء جزاء ما قدم في حياته، وبينت جحود أكثر بني الإنسان، وبصّرت بسبيل الدعوة إلى الإيمان، وهدت إلى صراط العدل والفضل والإحسان.

في تقديس المولى سبحانه تتابع في هذه السور المحكمات ثناء على ربنا الكبير المتعال المتفرد بالجلال بأنه {العزيز العليم} ١٠٤ {العزيز الغفار} ١٠٥ {الواحد القهار} ١٠٦، فتبارك عالم الغيب والشهادة. مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار، فاطر السماوات والأرض الولي الحميد، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ١٠٧.

كم فيها من برهان على أن الله أحد صمد.

{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} ١٠٨، {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} ١٠٩ {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه} ١١٠ {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} ١١١ {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} ١١٢، {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ١١٣، فادعوا الله مخلصين له الدين، وأنيبوا إلى رفيع الدرجات العلي الحكيم.

وعهد الله إلى العباد أن يستيقنوا بالفرقان المنزل من لدنه سبحانه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، فقد جعل موحيه-عز شأنه- نورا يهدي إلى السعادة وإلى دار السلام: {. . وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ١١٤. {. . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء} ١١٥، ويظفر بهدايته وبركته من تفهمه وتعلمه واستقام منهاجه: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} ١١٦ {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} ١١٧.

والتدبر: يعني: النظر في عاقبة الآيات وما تؤول إليه، ويعني: إمعان الفكرة فيها، والتحدث بما هدت إليه، ومما قال أبو حنيفة: الدبرة: البقعة من الأرض تزرع، والدبر: المال الكثير الذي لا يحصى كثرة، فكأن عظم خيرات القرآن يدركها من تعقل آياته، وأكثر من النظر في عواقبها وما تؤول إليه، وحدّث بذلك ما استطاع.

كما أن من عهد الله في هذا الكتاب المجيد أن يتذكره العقلاء، وأن يحفظوه ويدرسوه ويقرءوه، قال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب والدراسة للحفظ.

وإلا كان الطبع على الفؤاد، كما قال الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. ومن حاد عن آيات ربنا التكوينية والتنزيلية، ومال عن القصد فيها، ومارى وجادل، وشك وأزرى، فقد باء بغضب شديد، ووقع في

ضلال بعيد: {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} من سورة غافر الآية ٣٥، غرهم بالله الغرور فاستكبروا عن آياته: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} من سورة غافر. الآية ٥٦، ومهما أسروا قولهم الآثم أو جهروا به فإن مكرهم عند ربهم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} من سورة (فصلت) من الآية ٤٠، و [ألحد] تعني: مال وجار، وعدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه، وأزرى به.

والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ١١٨.

وجاءنا في هذه السور من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويهدي إلى الرشاد، فسلام على داود النبي الأوّاب، وعلى سليمان الذي أوتي ملكا لم ينله أحد من بعده، فسأل الله أن يعينه على شكر نعمة العزيز الوهاب، وأيوب الصابر نعم العبد إنه أواب، وإبراهيم وإسحق ويعقوب و {. . . إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} ١١٩، وموسى الذي أرسل بالبرهان والسلطان إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، فمن الله على موسى وهارون، وآتاهما الكتاب المستبين، وأغرق القوم المجرمين؛ ولا تحول سنة الله في الآخرين، ولن تتبدل إلى يوم الدين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ١٢٠، فاستكملوا الإيمان بدينكم يؤيدكم الله على عدوه وعدوكم، وينصركم في أولاكم وفي آخرتكم.

وعشرات من الآيات تترى في يوم التلاق {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} ١٢١، {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} ١٢٢، {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة واهم سوء الدار} ١٢٣، تحذر أهواله ونكاله، وخزيه ووباله، إذ تجمع الزبانية أوائل المجرمين على أواخرهم، وتتكلم بأوزارهم عظامهم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون}، حين يوقفون على شفير جهنم تتحدث أجزاؤهم بما قدموه من قول وعمل لا تكتم منه شيئا، فيلومون جلودهم وحواسهم وأوصالهم، إذ أقرت بما يحتم عذابهم {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ١٢٤ وترد عليهم الجلود بالحق، وتلومهم على غفلتهم عن سر الخلق.

وهناك لن يحتاج كل فاجر نفسه وكفى، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها، وإن للطاغين لشر مآب، {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ١٢٥ {ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون} ١٢٦.

فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد} ١٢٧ {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب} ١٢٨، فاستيقنوا بالبعث والحساب، وتزوّدوا ليوم المآب، ولا تشغلنكم عنه زخارف العاجلة فإنها سراب، وابتغوا عند الله الحياة الطيبة وعظيم الثواب، فقد وعد بذلك في محكم الكتاب: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} ١٢٩.

وبصّرت هذه السور بنفس الإنسان:

فالظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وصدق الله العظيم: {. . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم} ١٣٠؛ وأكثر البشر كنود، ولنعمة ربه جحود {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل} ١٣١ {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة} ١٣٢ {وإذا أنعمنا على الإنسان

أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض} ١٣٣ {. وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور} ١٣٤، لكن المفلح من تزكى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشكر أنعم الله، وإذا أصابته مصيبة صبر وقال: إنا لله، {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} ١٣٥، فلا تفتن بعلم ولا مال ولا جاه، وقل: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم تبطرني السعة فأنساه- {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه} ١٣٦.

والكتاب الحكيم بيّن في واحدة من هذه السور دعوة مؤمن حكيم يكتم إيمانه، أربع عشرة آية تتابعت تهدي للتي هي أقوم، تبشر من آمن واتقى بالثواب الأكرم، وتنذر المشركين بطش الجبار وحر جهنم، وتبليغ رسالات الله يتصدى له منه لا يخشى سواه، والمؤمن يُلْزِمُه الله تعالى بفضله كلمة التقوى، ويهديه إلى الطيب اللين من القول ليذكر من يخشى، وبالدعوة المستبصرة يتزكى من سبقت له الحسنى، فلندع إلى ربنا بالبينات والهدى، ولنترفق بمن ندعوهم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

واستحفظنا ميثاق الحق في مواطن كثيرة من هذه السور، فالكتاب العزيز نزل ١٣٧ بالحق، وربنا استخلفنا لنقيم الحق ١٣٨، وخلق الله السماوات والأرض بالحق ١٣٩، وربنا يفصل بين عباده بالحق ١٤٠، وأثنى مولانا على من أخذ بحقه ممن عدا عليه ١٤١.

ومع تقديس العدل، فقد حبب إلينا أن لا نغلق باب العفو والصفح نبلغ منازل أهل الفضل ١٤٢.

والله يهدينا إلى صراطه المستقيم

وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٤٠ سورة غافر:

سورة غافر:
سورة غافر
مكية
وآياتها خمس وثمانون
كلماتها: ١١٩٩؛ حروفها: ٤٩٧٠
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١)}

ربما تكون اسما للسورة ١، أو يقال فيها ما قيل في معنى فواتح السور التي تكون حروف تهج مثل (ألم) و (طس)، ومنه: لعل المراد بها التحدي، إذ الحاء والميم يتكون منها ومن غيرها الكلام الذي يتكلمونه ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم المكونة كلماته من هذه الحروف، فقامت بذلك حجة الله أن الكتاب العزيز ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الحكيم الحميد.

٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

{تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢)}.

إيحاء هذا القرآن من المعبود بحق الذي أعجز البلغاء كلامه، وعلا على كل سلطان سلطانه، وجعل الذكر الحكيم تبيانا لكل شيء فعلّم به وهدى، وموحيه-جل علاه- محيط بكل شيء علما.

٣ - (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)
{غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣)}.

ومع قهر الملك المهيمن فوق عباده، ومع إحاطته بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم -وكذا سائر ما برأ وذرأ- فإنه يستر الذنب ويقبل رجعة من أقلع عن الغواية، وأقبل على طريق الهداية، وتشتد ٢ بطشته ونكاله بمن طغى واستحب العمى على الهدى، وإن عطاءه ينال من يحب ومن لا يحب-ولا يعطي الدين إلا من أحب- وإنه الرب على الحقيقة ولا معبود بحق سواه، وكل من في السماوات والأرض راجع إليه، موقوف بين يديه، مجزي بما قدم في دنياه.

نقل القرطبي ٣ عن ابن عباس: {غافر الذنب} لمن قال لا إله إلا الله {وقابل التوب} ممن قال لا إله إلا الله {شديد العقاب} لمن لم يقل لا إله إلا الله. . {ذي الطول} ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله.

٤ - (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ)

{ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤) كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦)}.

ما يجادل جدال المماري في آيات ربنا، وما يصدّ عنها ويسعى لإطفاء نورها إلا الخاسر الفاجر المعاند الجاحد، ويشهد لهذا المعنى ما بينته الآية التالية: {. . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق}، أما الجدال لإقامة الحجة فهو منهاج القرآن: {. . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ٤ - لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل، إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وباهلهم ٥ بعد الحجة، وفي قول الله عز وجل: {. . فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم} ٦ دليل أن الاحتجاج بالعلم مباح سائغ لمن تدبر.

[فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله ٧]؛ فلا تلتفت لاستدراجهم مهما أمهلتهم ومهما يسرت لهم من تقلب في البلاد، وانتشار في أرجائها، وسعة في الرزق وزخرف الدنيا ومتاعها، فإني لن أمهلهم بل سأبطش بهم كما فعلت بالطاغين من قبلهم، قوم نوح ومن على شاكلتهم؛ كذبوا مثل تكذيبهم، وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وشرع كل قوم في التنكيل برسولهم، لكني عجلت في الدنيا النكال بهم، وقضيت أن يُرَدّوا في الآخرة إلى عذاب النار مخلدين في سوء مصيرهم.

٥ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤) كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦)}.

ما يجادل جدال المماري في آيات ربنا، وما يصدّ عنها ويسعى لإطفاء نورها إلا الخاسر الفاجر المعاند الجاحد، ويشهد لهذا المعنى ما بينته الآية التالية: {. . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق}، أما الجدال لإقامة الحجة فهو منهاج القرآن: {. . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ٨ - لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل، إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وباهلهم ٩ بعد الحجة، وفي قول الله عز وجل: {. . فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم} ١٠ دليل أن الاحتجاج بالعلم مباح سائغ لمن تدبر.

[فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله ١١]؛ فلا تلتفت لاستدراجهم مهما أمهلتهم ومهما يسرت لهم من تقلب في البلاد، وانتشار في أرجائها، وسعة في الرزق

وزخرف الدنيا ومتاعها، فإني لن أمهلهم بل سأبطش بهم كما فعلت بالطاغين من قبلهم، قوم نوح ومن على شاكلتهم؛ كذبوا مثل تكذيبهم، وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وشرع كل قوم في التنكيل برسولهم، لكني عجلت في الدنيا النكال بهم، وقضيت أن يُرَدّوا في الآخرة إلى عذاب النار مخلدين في سوء مصيرهم.

٦ - (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

}ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤) كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦){.

ما يجادل جدال المماري في آيات ربنا، وما يصدّ عنها ويسعى لإطفاء نورها إلا الخاسر الفاجر المعاند الجاحد، ويشهد لهذا المعنى ما بينته الآية التالية: {. . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق}، أما الجدال لإقامة الحجة فهو منهاج القرآن: {. . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ١٢ - لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل، إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وباهلهم ١٣ بعد الحجة؛ وفي قول الله عز وجل: {. . فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم} ١٤ دليل أن الاحتجاج بالعلم مباح سائغ لمن تدبر.

[فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله ١٥]؛ فلا تلتفت لاستدراجهم مهما أمهلتهم ومهما يسرت لهم من تقلب في البلاد، وانتشار في أرجائها، وسعة في الرزق وزخرف الدنيا ومتاعها، فإني لن أمهلهم بل سأبطش بهم كما فعلت بالطاغين من قبلهم، قوم نوح ومن على شاكلتهم؛ كذبوا مثل تكذيبهم، وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وشرع كل قوم في التنكيل برسولهم، لكني عجلت في الدنيا النكال بهم، وقضيت أن يُرَدّوا في الآخرة إلى عذاب النار مخلدين في سوء مصيرهم.

٧ - (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

}الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩){.

الملائكة المقربون حملة العرش ومن حول العرش-وهم أشراف الملائكة وأفضلهم- يقرنون بين تسبيح المولى تقديسا له عن النقائص، وبين التحميد المقتضى لإثبات الكمال والجلال، وصفات المدح للكبير المتعال، المحمود على كل حال؛ فهم ينزهون الله ويثنون عليه ويقرون بالله أنه لا إله سواه، ويسألون ربهم-واسع الرحمة والعلم- أن يغفر للذين أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه، وأن يحفظهم من حر السعير وسوء المصير.

(وقد روعي التناسب في قوله: {. . ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا}. . وفيه أنهم بعد التعظيم لأمر الله يقبلون على الشفقة على خلق الله ولا سيما المؤمنين، لأن الإيمان جامع لا أجمع منه، يجذب السماوي إلى الأرضي، والروحاني إلى العنصري] ١٦.

يا من ربيت وأصلحت! رحمتك التي وسعت كل شيء تتسع لذنوبهم وخطاياهم، وعلمك الذي أحاط بكل شيء نافذ إلى جميع أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم، وخوفهم ورجائهم- وفيه أن الحمد والثناء ينبغي أن يكون مقدما على الدعاء ١٧ - فاصفح اللهم عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك فرجع إلى توحيدك واتبع أمرك ونهيك، وأقلع عن العصيان وسلك منهاج القرآن، ودعوة ثالثة لأهل الإيمان بالله: يا ربنا أدخلهم بساتين الإقامة ١٨ التي وعدت أهل الإنابة إلى طاعتك أن تكون لهم مستقرا ومقاما، وأدخل

معهم من عمل صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم [قال أهل السنة: المراد بمن صلح: أهل الإيمان منهم وإن كانوا ذوي كبائر، ثم ختم الآية بقوله: {إنك أنت العزيز الحكيم} لأنه إن لم يكن غالبا على الكل لم يصح منه وقوع المطلوب كما يراد، وإن لم يكن حكيما أمكن منه وضع الشيء في غير موضعه [وحاشا] ١٩.

والقرآن يسوق في آيات أخرى بشرى الله للمتقين بتنعيم آباءهم وذرياتهم وأزواجهم معهم في دار الخلد والكرامة، وذلك قوله تبارك اسمه- {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٢٠. كما جاء الوعد من الله الذي لا يخلف الميعاد: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم} ٢١.

ورابعة دعوات الملائكة للمؤمنين ضراعة إلى الله أن يجنبهم ما يسوءهم من العقوبات وعذاب السيئات؛ ومن تصرف عنه يا ربنا عاقبة سيئاته يوم القيامة فقد رفقت به ولطفت، فنجيته من عذابك وأدخلته الجنة، فقد أفلح وربح وأدرك غاية الفوز، وهذه تشمل طلب الوقاية من عذاب الموقف، وعذاب الحساب، وعذاب السؤال.

أليس من سابغ فضل الله علينا وعظيم منته أن ألهم ملائكته الكرام الدعاء لنا، والمداومة على سؤال الله إمتاعنا وإسعادنا؟ يدعون للمؤمنين بظهر الغيب، فهل آن للذين آمنوا أن يُوَادُّوا أحبابهم من أهل الملأ الأعلى وأن يَتَوَلَّوْهم، بدلا من موالاة العدو المبين إبليس اللعين، ومن على شاكلته من أبالسة الجن والآدميين؟!

٨ - (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)}.

الملائكة المقربون حملة العرش ومن حول العرش-وهم أشراف الملائكة وأفضلهم- يقرنون بين تسبيح المولى تقديسا له عن النقائص، وبين التحميد المقتضى لإثبات الكمال والجلال، وصفات المدح للكبير المتعال، المحمود على كل حال؛ فهم ينزهون الله ويثنون عليه ويقرون بالله أنه لا إله سواه، ويسألون ربهم-واسع الرحمة والعلم- أن يغفر للذين أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه، وأن يحفظهم من حر السعير وسوء المصير.

(وقد روعي التناسب في قوله: {. . ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا}. . وفيه أنهم بعد التعظيم لأمر الله يقبلون على الشفقة على خلق الله ولا سيما المؤمنين، لأن الإيمان جامع لا أجمع منه، يجذب السماوي إلى الأرضي، والروحاني إلى العنصري] ٢٢.

يا من ربيت وأصلحت! رحمتك التي وسعت كل شيء تتسع لذنوبهم وخطاياهم، وعلمك الذي أحاط بكل شيء نافذ إلى جميع أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم، وخوفهم ورجائهم- وفيه أن الحمد والثناء ينبغي أن يكون مقدما على الدعاء ٢٣ - فاصفح اللهم عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك فرجع إلى توحيدك واتبع أمرك ونهيك، وأقلع عن العصيان وسلك منهاج القرآن، ودعوة ثالثة لأهل الإيمان بالله: يا ربنا أدخلهم بساتين الإقامة ٢٤ التي وعدت أهل الإنابة إلى طاعتك أن تكون لهم مستقرا ومقاما، وأدخل معهم من عمل صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم [قال أهل السنة: المراد بمن صلح: أهل الإيمان منهم وإن كانوا ذوي كبائر، ثم ختم الآية بقوله: {إنك أنت العزيز الحكيم} لأنه إن لم يكن غالبا على الكل لم يصح منه وقوع المطلوب كما يراد، وإن لم يكن حكيما أمكن منه وضع الشيء في غير موضعه [وحاشا] ٢٥.

والقرآن يسوق في آيات أخرى بشرى الله للمتقين بتنعيم آباءهم وذرياتهم وأزواجهم معهم في دار الخلد والكرامة، وذلك قوله تبارك اسمه- }أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار{ ٢٦. كما جاء الوعد من الله الذي لا يخلف الميعاد: }والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم{ ٢٧.

ورابعة دعوات الملائكة للمؤمنين ضراعة إلى الله أن يجنبهم ما يسوءهم من العقوبات وعذاب السيئات؛ ومن تصرف عنه يا ربنا عاقبة سيئاته يوم القيامة فقد رفقت به ولطفت، فنجيته من عذابك وأدخلته الجنة، فقد أفلح وربح وأدرك غاية الفوز، وهذه تشمل طلب الوقاية من عذاب الموقف، وعذاب الحساب، وعذاب السؤال.

أليس من سابغ فضل الله علينا وعظيم منته أن ألهم ملائكته الكرام الدعاء لنا، والمداومة على سؤال الله إمتاعنا وإسعادنا؟ يدعون للمؤمنين بظهر الغيب، فهل آن للذين آمنوا أن يُوَادُّوا أحبابهم من أهل الملأ الأعلى وأن يَتَوَلَّوْهم، بدلا من موالاة العدو المبين إبليس اللعين، ومن على شاكلته من أبالسة الجن والآدميين؟!

٩ - (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

}الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩){.

الملائكة المقربون حملة العرش ومن حول العرش-وهم أشراف الملائكة وأفضلهم- يقرنون بين تسبيح المولى تقديسا له عن النقائص، وبين التحميد المقتضى لإثبات الكمال والجلال، وصفات المدح للكبير المتعال، المحمود على كل حال؛ فهم ينزهون الله ويثنون عليه ويقرون بالله أنه لا إله سواه، ويسألون ربهم-واسع الرحمة والعلم- أن يغفر للذين أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه، وأن يحفظهم من حر السعير وسوء المصير.

(وقد روعي التناسب في قوله: }. . ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا{. . وفيه أنهم بعد التعظيم لأمر الله يقبلون على الشفقة على خلق الله ولا سيما المؤمنين، لأن الإيمان جامع لا أجمع منه، يجذب السماوي إلى الأرضي، والروحاني إلى العنصري] ٢٨.

يا من ربيت وأصلحت! رحمتك التي وسعت كل شيء تتسع لذنوبهم وخطاياهم، وعلمك الذي أحاط بكل شيء نافذ إلى جميع أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم، وخوفهم ورجائهم- وفيه أن الحمد والثناء ينبغي أن يكون مقدما على الدعاء ٢٩ - فاصفح اللهم عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك فرجع إلى توحيدك واتبع أمرك ونهيك، وأقلع عن العصيان وسلك منهاج القرآن، ودعوة ثالثة لأهل الإيمان بالله: يا ربنا أدخلهم بساتين الإقامة ٣٠ التي وعدت أهل الإنابة إلى طاعتك أن تكون لهم مستقرا ومقاما، وأدخل معهم من عمل صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم [قال أهل السنة: المراد بمن صلح: أهل الإيمان منهم وإن كانوا ذوي كبائر، ثم ختم الآية بقوله: }إنك أنت العزيز الحكيم{ لأنه إن لم يكن غالبا على الكل لم يصح منه وقوع المطلوب كما يراد، وإن لم يكن حكيما أمكن منه وضع الشيء في غير موضعه [وحاشا] ٣١.

والقرآن يسوق في آيات أخرى بشرى الله للمتقين بتنعيم آباءهم وذرياتهم وأزواجهم معهم في دار الخلد والكرامة، وذلك قوله تبارك اسمه- }أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا

مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٣٢. كما جاء الوعد من الله الذي لا يخلف الميعاد: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم} ٣٣.

ورابعة دعوات الملائكة للمؤمنين ضراعة إلى الله أن يجنبهم ما يسوءهم من العقوبات وعذاب السيئات، ومن تصرف عنه يا ربنا عاقبة سيئاته يوم القيامة فقد رفقت به ولطفت، فنجيته من عذابك وأدخلته الجنة، فقد أفلح وربح وأدرك غاية الفوز، وهذه تشمل طلب الوقاية من عذاب الموقف، وعذاب الحساب، وعذاب السؤال.

أليس من سابغ فضل الله علينا وعظيم منته أن ألهم ملائكته الكرام الدعاء لنا، والمداومة على سؤال الله إمتاعنا وإسعادنا؟ يدعون للمؤمنين بظهر الغيب، فهل آن للذين آمنوا أن يُوَادُّوا أحبابهم من أهل الملأ الأعلى وأن يَتَوَلَّوْهم، بدلا من موالاة العدو المبين إبليس اللعين، ومن على شاكلته من أبالسة الجن والآدميين؟!

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

{مقت} بغض وإنكار.

{إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣)}.

بعد آيات البشرى للمؤمنين بدعاء حملة العرش أن يغفر الله لهم ويقبل توبتهم، وينعمهم وأهلهم، ويصلح بالهم؛ جاءت هذه تفصل ما توعد الله به الكفار في الآية السادسة: {أنهم أصحاب النار}. وبينت أحوالهم حين يَلْقَوْنَ في جهنم خبالهم؛ فمع حر السعير يتجرعون النكال والتحسير، فينادون من الخزنة أو من المؤمنين مقولا لهم: لَكَراهية الله إياكم وسخطه عليكم أكبر من كراهيتكم لأنفسكم وعن مجاهد والحسن: {لمقت الله} إياكم في الدنيا {إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون} {أكبر من مقتكم أنفسكم} اليوم، وقال قتادة: المعنى: {لمقت الله} لكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون {أكبر من مقتكم أنفسكم} إذ عاينتم النار.

فإن قيل كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان: أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت، الثاني: أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى، علموا أن نفوسهم هي التي أبقتهم في المعاصي مقتوها ٣٤.

و {مقت} مصدر مضاف إلى الاسم الجليل إضافة المصدر لفاعله، وكذا إضافة المقت الثاني إلى ضمير الخطاب. . .

[وكان التعبير بالمضارع للإشارة إلى الاستمرار والتجدد. . لأنكم دعيتم مرة بعد مرة إلى الإيمان وفي كل مرة تأبون وتجحدون فتكرر منكم الكفر ٣٥] فصدقوا بما كانوا يُدْعَوْن إليه من أصول الإيمان، لكن بعد فوات الأوان، وأقروا لربهم بأنه المحيي والمميت؛ وشهدوا أن الله أماتهم إماتتين اثنتين، وأحياهم إحياءتين اثنتين ٣٦، خلقهم أمواتا، ثم أحياهم بنفخ الروح فيهم، ثم أماتهم عند انقضاء أعمارهم، ثم يعيد إليهم أرواحهم يوم بعثهم، فلم يبق إلا أن يشهدوا على أنفسهم بأنهم أمعنوا في الفساد، والبغي والعناد؛ فهل يأذن ربهم لهم بالعودة إلى الدنيا ليسلكوا سبيل الرشاد؟! [وليس المقصود به الاستفهام، وإنما قالوه من فرط قنوطهم تعللا أو تحيرا أو تمنيا ٣٧]؛ فأقنطهم الله تعالى من تحقيق ما تمنوا، كما بين ذلك في آيات أخر كريمات: {قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون} ٣٨ {. . . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون} ٣٩ وجازاهم الله بمثل ما اقترفوا، فكما استمروا على الشرك والإفك، يستمر عذابهم وخزيهم، {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} ٤٠ {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} ٤١ {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} ٤٢ {. . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا} ٤٣.

فاليوم يفصل ٤٤ في مصيركم المعبود بحق، العلي الأعلى، وهو الملك المهيمن، وله الكبرياء؛ ولقد أعذر إليكم فبث الآيات الأنفسية

والآفاقية الكونية، وأنزل الوحي والآيات المتلوة القرآنية، فما وعيتم ولا تدبرتم، ولكن صددتم وأعرضتم؛ وأفاض عليكم الرزق، وساق لكم الغيث، وما زادكم بيان الآيات إلا غيا وبغيا؛ واعتبر بها من كان قلبه حيا، واتخذ من دعوة الحق منهاجا وهديا.

١١ - (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

{سبيل} طريق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٢ - (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

{دعي} نودي، وعبد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٣ - (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ)

{آياته} برهان حكمته، وإتقان صنعته، وآثار قدرته.

{من السماء} من جهة السماء.

{رزقا} سببا للرزق.

{ينيب} يرجع إلى الحق والرشد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٤ - (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

{فادعوا} فاعبدوا.

{الروح} الوحي.

{التلاق} لقاء المولى عز وجل، أو لقاء آدم عليه السلام مع آخر ولده، أو التقاء كل امرئ وصحائف عمله.

{بارزون} ظاهرون غير مستترين.

{فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)}.

والمنيبون إلى ربهم، المشفقون من غضبه وعذابه، عليهم أن يخلصوا العبادة لله، وأن يحافظوا على تعظيم الشعائر مهما أغاظ ذلك الكفار؛ لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه ويعلمنا أن نمتثل القرآن الكريم قولا وعملا ونهجا. ففي صحيح مسلم عن أبي الزبير قال: كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلل بهن دبر كل صلاة.

مما أورد القرطبي: {رفيع الدرجات} أي رفيع الصفات. وقال ابن عباس. . .: رفيع السماوات السبع. وقال يحيى بن سلام: هو رفعة درجة أوليائه في الجنة {رفيع} على هذا بمعنى رافع- فعيل بمعنى فاعل- وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذي لا أرفع قدرا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره. . {ذو العرش} خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه. . . ٤٥ اهـ.

ويرسل ربنا سبحانه الوحي وينزله على من يشاء من عباده المصطفين بأمره-ف {من} بمعنى الباء، وقيل {من} سببية، أي: ينزل الوحي من أجل تبليغ أمره.

يقول الألوسي: وهو في حكم المتصل إلى قيام الساعة بإقامة من يقوم بالدعوة ٤٦. . اهـ.

ليحذر الناس ما ينتظر الكافرين من أهوال يوم يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ {ويوم يحشرهم جميعا

يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثوا كم} ٤٧.
يوم هم معرضون ظاهرون، بعد أن كانوا مغيبين في حفرهم وقبورهم؛ أو ظاهرة أعمالهم، مكشوفة سرائرهم، مشهود ما قدموا وآثارهم، شاهدة عليهم صحائفهم وجوارحهم {. . . ولا يكتمون الله حديثا} ٤٨.
ينادى في الخلائق: لمن الملك اليوم؟ فيجيبون: لله الواحد القهار، للملك الديان وحده الملك، فهو مالك يوم الدين، وملْكه لا يتحول ولا يبيد، وهو الذي قهر العباد والخلق جميعا {. . والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه. }، والأولى والآخرة تحت سلطانه، وهو المهيمن العزيز؛ روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض).
نقل عن النحاس:. . . عن ابن مسعود قال: يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عز وجل عليها، فيؤمر مناد ينادي: {لمن الملك اليوم}، فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: {لله الواحد القهار} فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا. . . أهـ.
فيقال لهم: هذا يوم الثواب والجزاء، يجازى الأبرار والفجار، والمؤمنون والكفار، كل بما عمل من خير أو شر، أو طاعة أو وزر، لا ينقص من عمل أحد شيئا، ولن يطول وقت القضاء بين المحشورين، فالله المعبود الحميد المجيد لا يعجزه حساب خلقه، ولن يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره.
يقول القرطبي: [لا يحتاج إلى تفكر وعقد كما يفعله الحُساب،لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء. . وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. . لا ينتصف النهار حتى يقيل ٤٩ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار].
١٥ - (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ)
{الروح} الوحي.
{التلاق} لقاء المولى عز وجل، أو لقاء آدم عليه السلام مع آخر ولده، أو التقاء كل امرئ وصحائف عمله.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٦ - (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)
{بارزون} ظاهرون غير مستترين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٧ - (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٨ - (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

{أنذرهم} حذرهم وخوفهم.
{الآزفة} القيامة القريبة-وكل آت قريب-
{كاظمين} حابسين أنفاسهم، أو مغتمين ومكروبين، أو عطاشا يابسة أجوافهم.
{حميم} قريب مشفق، وصديق يحتد حماية لك.
{شفيع يطاع} يسعى في خلاصك فيستجاب لرجائه.
{وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)}.
أمر الله تعالى نبيه أن ينذر يوم تقترب القيامة وتجيء، فإن القلوب يومئذ ستبلغ الحناجر، وتوشك أن تحتبس الأنفاس من هول ما

تلقى النفوس والأبدان، إذ هو يوم الحزن والفزع الأكبر، والناس فيه عطاش يابسة أجوافهم، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير، وما يزيدهم الذين زعموهم شفعاء غير التحسير، والتبري والتخسير، ذلك أن الحسيب الرقيب أحاط علما بكل ما ظهر وما بطن، مهما دق وكان يسيرا {. . ونعلم ما توسوس به نفسه} وسبحان عالم السر والنجوى، وهو-تبارك اسمه-يقضي ويحكم ويجازي بالحق، فما خفي عليه من الخلق مما أبدوه أو مما أخفوه شيء، وأما ما عبدوه من دون الله فلن يملك قضاء، بل هو مقتضى عليه، فأنّى يَقْضِي؟ إنما يملك الفصل والأمر الله الذي لا يغيب عن سمعه شيء، ولا يعزب عن بصره كائن.

[تقرير لعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقضاؤه سبحانه بالحق، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما يدعون من دونه عز وجل ٥٠].

يقول القرطبي: قوله تعالى: {يعلم خائنة الأعين} قال المؤرج. . فيه تقديم وتأخير، أي يعلم الأعين الخائنة. وقال ابن عباس، هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره،. . . . ٥١
وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضها فيما لا يحب الله تعالى.
وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى، أو: رأيت وما رأى. . وقال السدي: إنها الرمز بالعين. . {وما تخفي الصدور} ٥٢ النظرة الأولى.

١٩ - (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

{خائنة الأعين} النظرة الحرام يسترقها الناظر، والهمزة بالعين، أو الأعين الخائنة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٠ - (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢١ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

{*أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)}.

ثم حذرهم القرآن ما ينتظر المجرمين من عذاب عاجل قبل العذاب الدائم الآجل، استفهام إنكاري؛ إنكم لتمرون على أطلال وبقايا أقوام جاءوا قبل خلقكم، وعاشوا قبل زمانكم، وكانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا، وبنوا القصور، وشادوا الروائع يعبثون، واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون، ونحتوا من الجبال بيوتا يختالون بها ويستكبرون، فلما حان موعد انتقام القوي العزيز منهم لم يغن عنهم جمعهم ولا ما كانوا يشيدون: {فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون} ٥٣. {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون} ٥٤.

ولكل جاحد بالآيات، مكذب الرسل والرسالات أخذة ربانية، وبطشة قوية: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} ٥٥.

٢٢ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{*أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)}.

ثم حذرهم القرآن ما ينتظر المجرمين من عذاب عاجل قبل العذاب الدائم الآجل، استفهام إنكاري؛ إنكم لتمرون على أطلال وبقايا أقوام جاءوا قبل خلقكم، وعاشوا قبل زمانكم، وكانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا، وبنوا القصور، وشادوا الروائع يعبثون، واتخذوا

المصانع لعلهم يخلدون، ونحتوا من الجبال بيوتا يختالون بها ويستكبرون، فلما حان موعد انتقام القوي العزيز منهم لم يغن عنهم جمعهم ولا ما كانوا يشيدون: {فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون} ٥٦. {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون} ٥٧.

ولكل جاحد بالآيات، مكذب الرسل والرسالات أخذة ربانية، وبطشة قوية: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} ٥٨.

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

{بآياتنا} بالمعجزات وخوارق العادات، الدالة على صدقه في دعوى الرسالة.

{وسلطان مبين} وحجة واضحة على أنه مبلغ الحق عن الله الحق.

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧)}.

واستيقنوا أن بعثنا موسى بمعجزات منا، مثل العصا التي تنقلب حية، وسائر المعجزات التسع، وهي حجة تبين قدرتنا وصدق المرسل من لدنا-بعثناه إلى فرعون ملك مصر القبط، ووزيره هامان، وصاحب الخزائن والكنوز قارون- وجمعه الله معهما مع كونه من قوم موسى لأنهم في الكفر بالله ونعمه سواء-وقد كان موسى الكليم عليه الصلوات والتسليم مرسلا إلى آخرين مع هؤلاء، لكن ذكر هؤلاء ربما لأنهم أئمة العتو والبغي؛ فسارعوا حين دُعُوا إلى اتهام نبيهم بالسحر والافتراء، فلما ساق البرهان على أنه رسول الملك العلام، وشرح الله صدور طائفة للإسلام، قال أكابر المجرمين: اقتلوا أبناء المؤمنين مثلما كنتم تقتلون كل من يولد من الإسرائيليين، وعودوا إلى استرقاق نساء من اتبع موسى، وأَعْمِلُوهُنّ في خدمتكم تنكيلا بالمهتدين، وفتنة لهم، ليتطيروا بموسى ويضيقوا بمتابعته؛ وكذلك أوشكوا أن يجزعوا لولا أن ربط الله على قلوبهم {. . قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون. قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض} ٥٩ وانقلب كيد الكافرين باطلا، ولم ينالوا خيرا، فلم يهلك المسلمون، بل أغرق الله الكافرين، وورث جناتهم وكنوزهم أهل اليقين: {فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين} ٦٠. وجنّ جنون فرعون- وكأن أعوانه في الغي صرفوه عن قتل موسى لئلا يشتهر أمره- فقال اتركني أقتل موسى وليلجأ إلى ربه إن استطاع أن يمتنع مني، إني أخاف أن يفسد دينكم بالدين الذي جاء به، أو يفسد دنياكم بانقسام القوم إلى مُشايع له ومُناوئ؛ فآوى موسى إلى ربه القوي القدير، ونادى في الناس أن خير ملجأ هو الله الولي النصير، رب العوالم كلها- من آمن ومن كفر- ونعم المجير من كل باغ جاحد بالمآل والمصير.

[وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وأضافه إليه وإليهم حثّا لهم على موافقته في العياذ به سبحانه، والتوجه التام بالروح إليه جل شأنه، لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، وهذا هو الحكمة من مشروعية الجماعة في العبادات؛ و {من كل} على معنى: من شر كل. . .، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وتعسفه، وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ليكون أدل وأدل. .، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله تعالى وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها؛ واختير المنزل- {. . من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب} - دون {منه} سلوكا لطريق التعريض، لأنه كلام وارد في عرضهم فلا يلبسون جلد النمر إذا عرض عليهم، مع ما في ذلك من الدلالة على علة الاستعاذة، ورعاية حق تربية اللعين له عليه السلام في الجمل ٦١].

٢٤ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار

٢٥ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)
{واستحيوا} استبقوهن أحياء لخدمتكم.
{كيد} احتيال ومكر، وتدبير بباطل، وختل ومراوغة.
{ضلال} فساد وضياع، واختفاء وغياب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار
٢٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ)
{ذروني} اتركوني.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار
٢٧ - (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)
{عذت} لذت ولجأت، ولزمت واعتصمت.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٣ إظهار
٢٨ - (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)
{مسرف} مفرط متجاوز الحد، أو قصر بفعله عن حق الله، أو: مخطئ الفؤاد غافله.
{وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩) وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣)}.
حين استعلن فرعون بعزمه على قتل موسى تحدث الداعية الحكيم والمؤمن اللبيب بالعظة البالغة، وربط الله تعالى على قلبه فلم يزده عتوّ فرعون ووعيده إلا استمساكا بالحق، وإشفاقا عل الخلق، وحضّا لأصحاب العقول على التفكر والاعتبار، قبل أن يحل بهم نكال المنتقم الجبار؛ فعجّب من حال ضلال قومه وجهّالهم، وأنكر عليهم-في رفق- أن يتجهوا إلى قتل رجل ما نقموا منه إلا أنه يقول: الله ربه؛ وافرضوا-جدلا- أنه كذبكم فيما إليه دعاكم، فمآل كذبه وعاقبته راجعة إليه لا إليكم؛ وإذا كان صادقا فاحذروا أن تعرضوا أنفسكم ولو لشيء من الوعيد الذي أنذركم، فإنه لِهولِه لا قبل لكم بمواجهة بعضه، وأنتم عن ملاقاة جميعه أعجز؛ ولن يهدي الله من أفرط في البغي وتجاوز الحدّ، وتمادى في العتوّ، وقصر بفعله عن حق ربه، فهو مخطئ الفؤاد غافله؛ يا قوم لا يبطرنكم ما كنتم فيه من السلطان، فإنه مفارقكم، والكافرون بأنعم الله يُعجّل لهم خزي وحرمان؛ وكأن هذه العظة زادت فرعون فزعا ورهبا، فنزل من علياء تجبره وعتوه إلى محاولة الإعذار إلى قومه، فقال: ما أريكم في موسى إلا ما أراه، وما أدلكم إلا على سبيل وطريق تنقذكم من الحيرة؛ لكن المؤمن النقي اصطبر على متابعة الذكرى، فخوّف قومه عاقبة الفجور والكفور، في هذه الدنيا ويوم البعث والنشور؛ وأشفق عليهم أن يحل بهم ما حل بقوم نوح من الإغراق، وبعاد وثمود وقوم لوط من القلب والتدمير والإحراق؛ جازهم الله ببغيهم، وما كان لهم من الله من واق؛ والهول الأكبر، والعذاب الأخزى يوم ينادي المنادي من مكان قريب، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج، يوم تلتف الساق بالساق، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويتمنى الأشقياء التولي عما يلاقيهم، والخروج مما داهمهم، فما يستطيعون إفلاتا ولا فرارا، ومن ضل سعيه في الحياة الدنيا، وعاش مطموس البصيرة أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.
روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله

صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: {. . أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم} رواه مسلم بنحوه ٦٢.

٢٩ - (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

{الرشاد} الحق الخير.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار

٣٠ - (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ)

{الأحزاب} جمع حزب، وهو الجمع المؤتلف على أمر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار

٣١ - (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

{دأب} عادة، وسنن؛ أو حال.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار

٣٢ - (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

{يوم التناد} يوم القيامة، يوم ينادي الخلائق من لدن الخلاق الحي القيوم، وينادي الملائكة من شاء الله أن ينادي، وينادي العباد بعضهم بعضا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار

٣٣ - (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٨ إظهار

٣٤ - (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

{ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥)}.

وكأن الآيات مازالت تبين سبل دعوة المؤمن المبارك إلى قومه، وإقامة الحجة البالغة عليهم، وأنهم ورثوا الافتراء والمماراة عن أسلافهم؛ فقد بعث الله إلى آباءهم وأجدادهم رسوله يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام فضلوا في تردد من تصديقه، فلما أدركه الموت قالوا لن تجيء رسل بعده، ولن يكون بعد من يدعي رسالة؛ وهكذا لن يهدي الله من تمادى في الفسوق والمروق، وصدّه عن اليقين في الله وهم وشكوك؛ ويضل الله ولا يهدي كذلك الذين يجادلون في جلال الله وما جاءهم عنه سبحانه من آيات قولية، أو بينات كونية، ويصدون عن ذلك من غير حجة عقلية أو نقلية؛ كبر مقت من فعل ذلك، وعظم جرمه عند الله تعالى وعند المؤمنين؛ وكما طبع الله على قلوب هؤلاء الممارين الجاحدين يطبع كذلك على قلب كل معاند في تعظيم الله، متسلط على خلق ربنا-جل علاه-[والظاهر أن عموم {كل} منسحب على المتكبر والجبار أيضا، فكأنه اعتبر أولا إضافة {قلب} إلى ما بعده ثم اعتبرت إضافته إلى المجموع] ٦٣ (ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب] ٦٤ [وهكذا يعبد الله من أصابه الحق؛ ويصد عن السبيل من هو كافر به مرتاب شاك في حقيقة أخبار رسله. . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن

يوحده ويصدق رسله {جبار} ٦٥ يعني متعظم عن اتباع الحق.) ٦٦].
مما نقل صاحب غرائب القرآن: {وعند الذين آمنوا} إشارة إلى أن شهادة المؤمنين عند الله بمكان حتى قرنها إلى شهادة نفسه، والمقصود التعجب والاستعظام لجدالهم، وخروجه عن حد أشكاله من الكبائر. أه.
٣٥ - (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]

{ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥)}.
وكأن الآيات مازالت تبين سبل دعوة المؤمن المبارك إلى قومه، وإقامة الحجة البالغة عليهم، وأنهم ورثوا الافتراء والمماراة عن أسلافهم؛ فقد بعث الله إلى آباءهم وأجدادهم رسوله يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام فضلوا في تردد من تصديقه، فلما أدركه الموت قالوا لن تجيء رسل بعده، ولن يكون بعد من يدعي رسالة؛ وهكذا لن يهدي الله من تمادى في الفسوق والمروق، وصدّه عن اليقين في الله وهم وشكوك، ويضل الله ولا يهدي كذلك الذين يجادلون في جلال الله وما جاءهم عنه سبحانه من آيات قولية، أو بينات كونية، ويصدون عن ذلك من غير حجة عقلية أو نقلية، كبر مقت من فعل ذلك، وعظم جرمه عند الله تعالى وعند المؤمنين؛ وكما طبع الله على قلوب هؤلاء الممارين الجاحدين يطبع كذلك على قلب كل معاند في تعظيم الله، متسلط على خلق ربنا-جل علاه-[والظاهر أن عموم {كل} منسحب على المتكبر والجبار أيضا، فكأنه اعتبر أولا إضافة {قلب} إلى ما بعده ثم اعتبرت إضافته إلى المجموع] ٦٧ (ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب] ٦٨ [وهكذا يعبد الله من أصابه الحق؛ ويصد عن السبيل من هو كافر به مرتاب شاك في حقيقة أخبار رسله. . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده ويصدق رسله {جبار} ٦٩ يعني متعظم عن اتباع الحق.) ٧٠].
مما نقل صاحب غرائب القرآن: {وعند الذين آمنوا} إشارة إلى أن شهادة المؤمنين عند الله بمكان حتى قرنها إلى شهادة نفسه، والمقصود التعجب والاستعظام لجدالهم، وخروجه عن حد أشكاله من الكبائر. أه.
٣٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ)
{صرحا} بناء عاليا، منفردا ضخما، طويلا في السماء.
{الأسباب} الطرق والأبواب.
{وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧)}.
بعد وضوح الحق الذي ذكّر به الداعية المؤمن خاف فرعون أن يستجيب الناس لما سمعوا من الرشد، فقال لوزيره هامان: ابن لي ما يُرْتَقَى عليه من الأبنية العالية الظاهرة حتى أصعد، رجاء أن أبلغ طرق السماء وأبوابها فأنظر إلى إله موسى وأشرف عليه- توهم اللعين أنه جسم تحويه الأماكن- واسترسل الغاوي في شططه فأكد أن موسى ليس بصادق في أنه مبعوث،. . . ولا صادقا في أن له ربا غير فرعون-[وظن]: تأتي بمعنى العلم، كما في قول الله – تبارك اسمه: {. . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين}. أي يعلمون.
فرد المولى على بهتانه وافتنانه بأن هذا كان تزيينا من الشيطان له سوء العمل، حتى يرى الكفر والتكذيب والتأله أمورا حسنة، فلما زاغ أزاغ الله قلبه، وأبطل مكره وكيده، فهدّ صرحه، وأدال دولته، وأغرقه وشيعته.
٣٧ - (أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِـعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ)

{تباب} هلاك وضلال وخسار.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٣٨ - (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)
{وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.
تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية - ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه؛ ولكن نعيم الحياة الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنَّا أو ذكرانا؛ فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.
{ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . {وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٧١.
وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله - المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت؛ حقا لا كذب فيه، أن ما تريدونني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم} ٧٢ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده من المهالك.
٣٩ - (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
{وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.
تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية - ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه؛ ولكن نعيم الحياة

الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنا أو ذكرانا، فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

{ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . {وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٧٣.

وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله – المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت، حقا لا كذب فيه، أن ما تريدوني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم} ٧٤ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده من المهالك.

٤٠ - (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]

{وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.

تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية – ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه، ولكن نعيم الحياة الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنا أو ذكرانا، فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

{ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . {وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٧٥.

وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله – المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت، حقا لا كذب فيه، أن ما تريدوني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم} ٧٦ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده

من المهالك.
٤١ - (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
}وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.
تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية - ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه؛ ولكن نعيم الحياة الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنا أو ذكرانا؛ فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.
}ومن عمل صالحا{ قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . }وهو مؤمن{ مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٧٧.
وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله - المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت؛ حقا لا كذب فيه، أن ما تريدوني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: }إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم{ ٧٨ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده من المهالك.
٤٢ - (تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
}وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.
تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية - ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه؛ ولكن نعيم الحياة

الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنا أو ذكرانا، فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

{ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . {وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٧٩.

وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله – المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت؛ حقا لا كذب فيه، أن ما تريدونني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركِكم} ٨٠ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده من المهالك.

٤٣ - (لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]

{وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.

تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية – ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه؛ ولكن نعيم الحياة الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنا أو ذكرانا، فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

{ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . {وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٨١.

وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله – المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت؛ حقا لا كذب فيه، أن ما تريدونني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركِكم} ٨٢ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده

من المهالك.
٤٤ - (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
}وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) *ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)}.

تابع مؤمن آل فرعون نصيحة قومه وناداهم: يا قوم انهجوا نهجي، واقتدوا بي في الإذعان للحق، فإنكم إن اتبعتم ما دللتكم عليه سرتم على طريق الراشدين المهديين للخير- وكأنه تعريض بأن المخالفين يتخبطون في الحيرة والضلال والغواية – ثم مضى يذكرهم بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهوان شأن العاجلة، وعظم أمر الآجلة، فما التمتع بالحياة الأولى إلا يسير قصير ثم يترك الممتعين أو يتركونه، ولكن نعيم الحياة الأبدية تام خالد لا تحول عنه ولا خروج منه، من يعمل في أولاه سوءا يجز به، ومن يقترف حسنة يضاعف الله أجرهم الأخروي، ويزيدهم إحسانا، إناثا كنّا أو ذكرانا، فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

}ومن عمل صالحا} قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. . }وهو مؤمن} مصدق بقلبه لله وللأنبياء ٨٣.

وناداهم منكرا عليهم مسفها عقولهم- وكأنهم دعوه ليعود في ملتهم-: ماذا دهاكم ودهاني؟ إن شأننا لمختلف! أدعوكم إلى طريق السلامة والأمان والفوز بالجنان، والدخول في رضوان الملك الديان، إن تحققتم بالإيمان، وأنتم تدعونني إلى ما يوصل إلى عذاب النار، وغضب المنتقم الجبار!. . إن الذي تدعونني إلى تصديقه جحود بفضل المنعم وكفران بآلائه وإشراك فرعون مع الله – المعبود بحق دون سواه- وأما أنا فأدعوكم إلى اليقين بقوي لا يغلب، قاهر لا يدافع ولا يمانع، له العزة ولمن آوى إليه، وهو سبحانه مع قهره وسلطانه، وهيمنته وغيرته، يستر خطايا من رجع إليه، ويتجاوز عن ذنوب التائبين وإن عظمت، حقا لا كذب فيه، أن ما تريدوني أن أتبع ليس له استجابة دعوة تنفع: }إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم} ٨٤ وأن مرجعنا إلى الله الواحد القهار، فيُصَيرُ الباغين إلى عذاب النار، يلازمونه ويلازمهم وبئس القرار، وعندها ستتذكرون ما وعظتكم به ونصحتكم، لكن حين لا ينفع التذكر، وإني لمتوكل على الله، عائذ به ليعصمني من كل سوء، إنه سبحانه لا يغيب عن بصره شيء، وهو حافظ عباده من المهالك.
٤٥ - (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)
}فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦)}.

فحفظ الله المؤمن الداعية من شدائد كيدهم ومكرهم وتدبيرهم، وأحاط بآل فرعون وقومه أخزى العذاب، فهم في قبورهم يعذبون صباح مساء- أي فيما هو صباح ومساء بالنسبة إلينا- وحياة البرزخ ليست كالحياة الدنيا، وإنما هي الوصلة بين الدنيا والآخرة، ويوم القيامة يؤمر زبانية جهنم بأن يدخلوا فرعون ومن شايعه وتابعه أذل دار، يصلون فيها أوجع ألم ونكال وبئس القرار.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) ٨٥.
٤٦ - (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦)}.

فحفظ الله المؤمن الداعية من شدائد كيدهم ومكرهم وتدبيرهم، وأحاط بآل فرعون وقومه أخزى العذاب، فهم في قبورهم يعذبون صباح مساء- أي فيما هو صباح ومساء بالنسبة إلينا- وحياة البرزخ ليست كالحياة الدنيا، وإنما هي الوصلة بين الدنيا والآخرة؛ ويوم القيامة يؤمر زبانية جهنم بأن يدخلوا فرعون ومن شايعه وتابعه أذل دار، يصلون فيها أوجع ألم ونكال وبئس القرار.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) ٨٦.

٤٧ - (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ)

{وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلل (٥٠)}.

لما جاء ذكر النار ولظاها وحرها، حذر القرآن الكريم من حسراتها، وتخاصم أهلها، والاستغاثة بخزنتها وسجانيها وقُوّامها، وإقناط الخزنة أن يخفف عنهم من سعيرها؛ وذكر وقت محاجة أهل الجحيم، وخذلان ولعنة بعضهم بعضا، فيقول التابعون لأئمة الضلال الذين استكبروا عن الانقياد للرسل: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه ودللتمونا عليه فهل تحملون عنا جزءا من العذاب؟! و [التبع] يكون واحدا ويكون جمعا- فيقول الرؤساء للضعفاء نحن وأنتم في البلاء سواء، فكيف نغني عنكم؟ لو كان لنا حول لدفعنا عن أنفسنا ما نزل بنا! إن الله قد قضى وفصل بين العباد، وحكم في كل بنصيبه، فلكل منّا ومنكم قدرا من الجزاء لا يفرّ منه، ولا يحمله غيره؛ فيلوذ الأتباع والمتبوعون مستصرخين مستغيثين بملائكة النار مستشفعين: ادعوا ربكم يخفف عنا قدر يوم من العذاب الذي نتجرع. . فيقول الملائكة الخزنة: أولم يبعث الله إليكم في الدنيا رسلا، وينزل مع كل رسول الحجة والبرهان والسلطان على ملاقاة الملك الديان؟ وأنه بعدله لا يسوي بين المسلمين وأهل الطغيان؟! قال المعذبون: بلى جاءنا رسل من ربنا، وأنذرونا ما يكون من عاقبة أمرنا! قال حراس جهنم: فادعوا إذن فإنا لن ندعوا لكم، ومهما دعوتم فلن يستجاب دعاؤكم، لأن الله لا يرضى عن الكافرين الضالين المضلين، وإنما يتقبل من المتقين.

٤٨ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلل (٥٠)}.

لما جاء ذكر النار ولظاها وحرها، حذر القرآن الكريم من حسراتها، وتخاصم أهلها، والاستغاثة بخزنتها وسجانيها وقُوّامها، وإقناط الخزنة أن يخفف عنهم من سعيرها؛ وذكر وقت محاجة أهل الجحيم، وخذلان ولعنة بعضهم بعضا، فيقول التابعون لأئمة الضلال الذين استكبروا عن الانقياد للرسل: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه ودللتمونا عليه فهل تحملون عنا جزءا من العذاب؟! و [التبع] يكون واحدا ويكون جمعا- فيقول الرؤساء للضعفاء نحن وأنتم في البلاء سواء، فكيف نغني عنكم؟ لو كان لنا حول لدفعنا عن أنفسنا ما نزل بنا! إن الله قد قضى وفصل بين العباد، وحكم في كل بنصيبه، فلكل منّا ومنكم قدرا من الجزاء لا يفرّ منه، ولا يحمله غيره؛ فيلوذ الأتباع والمتبوعون مستصرخين مستغيثين بملائكة النار مستشفعين: ادعوا ربكم يخفف عنا قدر يوم من العذاب الذي نتجرع. . فيقول الملائكة الخزنة: أولم يبعث الله إليكم في الدنيا رسلا، وينزل مع كل رسول الحجة والبرهان والسلطان على ملاقاة الملك الديان؟ وأنه بعدله لا يسوي بين المسلمين وأهل الطغيان؟! قال المعذبون: بلى جاءنا رسل من ربنا، وأنذرونا ما يكون من عاقبة أمرنا! قال حراس جهنم: فادعوا إذن

فإنا لن ندعوا لكم، ومهما دعوتم فلن يستجاب دعاؤكم، لأن الله لا يرضى عن الكافرين الضالين المضلين، وإنما يتقبل من المتقين.
٤٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلل (٥٠)}.
لما جاء ذكر النار ولظاها وحرها، حذر القرآن الكريم من حسراتها، وتخاصم أهلها، والاستغاثة بخزنتها وسجانيها وقُوّامها، وإقناط الخزنة أن يخفف عنهم من سعيرها؛ وذكر وقت محاجة أهل الجحيم، وخذلان ولعنة بعضهم بعضا، فيقول التابعون لأئمة الضلال الذين استكبروا عن الانقياد للرسل: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه ودللتمونا عليه فهل تحملون عنا جزءا من العذاب؟! و [التبع] يكون واحدا ويكون جمعا- فيقول الرؤساء للضعفاء نحن وأنتم في البلاء سواء، فكيف نغني عنكم؟ لو كان لنا حول لدفعنا عن أنفسنا ما نزل بنا! إن الله قد قضى وفصل بين العباد، وحكم في كل بنصيبه، فلكل منّا ومنكم قدرا من الجزاء لا يفرّ منه، ولا يحمله غيره؛ فيلوذ الأتباع والمتبوعون مستصرخين مستغيثين بملائكة النار مستشفعين: ادعوا ربكم يخفف عنا قدر يوم من العذاب الذي نتجرع. . فيقول الملائكة الخزنة: أولم يبعث الله إليكم في الدنيا رسلا، وينزل مع كل رسول الحجة والبرهان والسلطان على ملاقاة الملك الديان؟ وأنه بعدله لا يسوي بين المسلمين وأهل الطغيان؟! قال المعذبون: بلى جاءنا رسل من ربنا، وأنذرونا ما يكون من عاقبة أمرنا! قال حراس جهنم: فادعوا إذن فإنا لن ندعوا لكم، ومهما دعوتم فلن يستجاب دعاؤكم، لأن الله لا يرضى عن الكافرين الضالين المضلين، وإنما يتقبل من المتقين.
٥٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلل (٥٠)}.
لما جاء ذكر النار ولظاها وحرها، حذر القرآن الكريم من حسراتها، وتخاصم أهلها، والاستغاثة بخزنتها وسجانيها وقُوّامها، وإقناط الخزنة أن يخفف عنهم من سعيرها؛ وذكر وقت محاجة أهل الجحيم، وخذلان ولعنة بعضهم بعضا، فيقول التابعون لأئمة الضلال الذين استكبروا عن الانقياد للرسل: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه ودللتمونا عليه فهل تحملون عنا جزءا من العذاب؟! و [التبع] يكون واحدا ويكون جمعا- فيقول الرؤساء للضعفاء نحن وأنتم في البلاء سواء، فكيف نغني عنكم؟ لو كان لنا حول لدفعنا عن أنفسنا ما نزل بنا! إن الله قد قضى وفصل بين العباد، وحكم في كل بنصيبه، فلكل منّا ومنكم قدرا من الجزاء لا يفرّ منه، ولا يحمله غيره؛ فيلوذ الأتباع والمتبوعون مستصرخين مستغيثين بملائكة النار مستشفعين: ادعوا ربكم يخفف عنا قدر يوم من العذاب الذي نتجرع. . فيقول الملائكة الخزنة: أولم يبعث الله إليكم في الدنيا رسلا، وينزل مع كل رسول الحجة والبرهان والسلطان على ملاقاة الملك الديان؟ وأنه بعدله لا يسوي بين المسلمين وأهل الطغيان؟! قال المعذبون: بلى جاءنا رسل من ربنا، وأنذرونا ما يكون من عاقبة أمرنا! قال حراس جهنم: فادعوا إذن فإنا لن ندعوا لكم، ومهما دعوتم فلن يستجاب دعاؤكم، لأن الله لا يرضى عن الكافرين الضالين المضلين، وإنما يتقبل من المتقين.
٥١ - (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)
{إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢)}.
بشرى للمؤمنين أن الله القوي المتين مؤيدهم على من ناوأهم، كما أيد المرسلين-ولو بعد حين- ومنتقم ممن آذاهم أجمعين؛ وقد جاء ذلك

مفصلا في قول المولى -تبارك اسمه-: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون} ٨٧.
يقول أبو جعفر محمد بن جرير: يقول القائل: وما معنى {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا} وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثلوا به كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههم؛ ومنهم همّ بقتله قومه فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله؛ فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا. ؟. . معناه. . بإعلائنا هم على من كذبنا، وإظفارنا هم بهم حتى يقهروهم غلبة ويذلوهم. . وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم. . أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم. . اه.
ونقل عن السدي: ما قتل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا.
روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب.) ٨٨.
هذا عن نصرة الرسل والمؤمنين في الدنيا، والنصر الأعز يوم يجاء بالأشهاد-جمع شهيد- من النبيين، والملائكة، والمؤمنين، والأجساد، فينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، ويُنادَوْنَ: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون} ويومئذ يخسر المبطلون، ويُعْرَفُ المجرمون بسيماهم، يومئذ لا تقبل منهم المعاذير، {. . ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} ٨٩ و {اللعنة}: البعد من رحمة الله، و {سوء الدار} ما يسوءهم في دار العذاب من أوجاع الحريق ولهيبه، والحميم والزقوم، وغليهما في البطون، مع ألم الحسرة والندامة، والذل والمهانة، أو أضيفت الصفة إلى الموصوف، أي: الدار السوآى وبئس القرار.
٥٢ - (يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]
{إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢)}.
بشرى للمؤمنين أن الله القوي المتين مؤيدهم على من ناوأهم، كما أيد المرسلين-ولو بعد حين- ومنتقم ممن آذاهم أجمعين؛ وقد جاء ذلك مفصلا في قول المولى -تبارك اسمه-: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون} ٩٠.
يقول أبو جعفر محمد بن جرير: يقول القائل: وما معنى {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا} وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثلوا به كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههم؛ ومنهم همّ بقتله قومه فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله؛ فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا. ؟. . معناه. . بإعلائنا هم على من كذبنا، وإظفارنا هم بهم حتى يقهروهم غلبة ويذلوهم. . وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم. . أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم. . اه.
ونقل عن السدي: ما قتل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا.
روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب.) ٩١.
هذا عن نصرة الرسل والمؤمنين في الدنيا، والنصر الأعز يوم يجاء بالأشهاد-جمع شهيد- من النبيين، والملائكة، والمؤمنين، والأجساد، فينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، ويُنادَوْنَ: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون} ويومئذ يخسر المبطلون، ويُعْرَفُ المجرمون بسيماهم، يومئذ لا تقبل منهم المعاذير، {. . ويقول الأشهاد

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} ٩٢ و {اللعنة}: البعد من رحمة الله، و {سوء الدار} ما يسوءهم في دار العذاب من أوجاع الحريق ولهيبه، والحميم والزقوم، وغليهما في البطون، مع ألم الحسرة والندامة، والذل والمهانة، أو أضيفت الصفة إلى الموصوف، أي: الدار السوآى وبئس القرار.

٥٣ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.

سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٣، فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٥٤ - (هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧)

وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.

سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٤، فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقليا يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٥٥ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧)

وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.

سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي

الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم؛ لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٥؛ فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون؛ لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان؛ كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس؛ فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.

سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم؛ وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم؛ ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين؛ فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين؛ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى؛ ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر؛ أو جعل عين الهدى مبالغة فيه؛ وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي

الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم؛ لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٦؛ فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم

به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٥٧ - (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]

{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.

سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تتحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته – صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٧، فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم

به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٥٨ - (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]
{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.
سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.
ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.
إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٨، فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.
وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.
٥٩ - (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٣]
{ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)}.
سنتي في الذين خلوا من قبل أن أخزي العاتين، وأشفي صدور المؤمنين، وأن أحسن إلى المحسنين، وأدخلهم جنات النعيم، وأعذب المنافقين والمشركين، وأخلد الكفار جميعا في نار الجحيم، ولا تحول سنة ربك إلى يوم الدين، فما أغنى عن فرعون وجنده جمعهم وما

كانوا يستكبرون، بل أغرقناهم أجمعين، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وجعلناهم أئمة يهدون بوحينا الذي آتيناه موسى، ولقد أنعمنا عليه بالمعجزات والصحف والتوراة، ف {الهدى} مصدر تجوز به عما ذكر، أو جعل عين الهدى مبالغة فيه، وبقيت التوراة ميراثا في قومه بعد موته - صلى الله عليه وسلم- {هدى وذكرى} مصدران في موضع الحال، أو بدل من {الكتاب}، {لأولي الألباب}، موعظة لأصحاب العقول السليمة التي لم يفسدها الوهم، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها، دون الواهمين والغافلين.

ثم وجه الخطاب إلى خاتم النبيين بعد ما قص عليه من نبأ الرسول موسى والمؤمنين، وإهلاك الله للطاغين المعاندين-أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر، والاستبشار بالنصر، والتسبيح في الغداة والعصر، والاستغفار ليزيدك الله به رفعة قدر- وربما كان الخطاب للنبي والمراد أمته.

إن الذين يمارون ويجادلون بالباطل في آيات الله الكونية، وخوارق العادات والمعجزات، ووحي ربنا وكتبه السماوية، ما يملكون من حجة على مدعاهم، إنما هو الكبر يغشاهم، فهم يأنفون أن يستجيبوا لله وللرسول، وما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من الرياسة، وتمني أن تكون فيهم النبوة، كما قالوا: {. . لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} ٩٩، فالجأ إلى الله تعالى، واعتصم به من كيد من يحسدك ويبغي عليك، {إنه هو السميع} الذي يسمع سرهم ونجواهم ويسمع كل شيء، {البصير} الذي يرى أعمالهم وأعمالكم، وهو حسبكم ووليكم، والكافرون لا مولى لهم.

وإن ارتابوا في أمر البعث فما خلقهم ولا بعثهم إلا كنفس واحدة، وأنا خالق السماوات والأرض- وقد أقر الكثيرون منهم بذلك- وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأ وإعادة، فلماذا يرتابون؟ بل أكثرهم لا يعلمون، لأنهم لو كانوا على نهج من يريد العلم لعلموا الحق، لكنهم في غفلة وإعراض، واستكبار وعناد، فأنّى لهم أن يعلموا؟! والغافل عن معرفة الحق، والبصير بخالق الخلق لا يستويان، كما لا يستوي الأبرار والفجار، فليسوا سواء، وقلما يتذكر الناس، فاستيقنوا أن الآخرة حق، وأنها ستأتي لا شك في مجيئها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها.

٦٠ - (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد، والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة، وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١٠٠، مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. . أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١٠١. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا، وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١٠٢.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته، وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم، تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١٠٣ - فأنى وكيف تتقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا

محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة؛ والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة؛ ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكِنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦١ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد؛ والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة؛ وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١٠٤؛ مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. . أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١٠٥. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا؛ وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١٠٦.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته؛ وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم، تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١٠٧ - فأنى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكَّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة؛ والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة؛ ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكِنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦٢ - (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد؛ والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة؛ وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١٠٨؛ مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. .

أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١٠٩. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا؛ وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١١٠.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته؛ وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم، تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١١١ - فأنى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكَّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة؛ والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة؛ ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكِنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦٣ - (كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد؛ والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة؛ وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١١٢، مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. .

أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١١٣. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا؛ وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١١٤.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته؛ وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم، تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١١٥ - فأنى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكَّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة؛ والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة؛ ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكِنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦٤ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]
{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد؛ والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة؛ وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١١٦؛ مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. . أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١١٧. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا؛ وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١١٨.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته؛ وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم، تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١١٩ - فأنى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة؛ والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة؛ ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكِنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦٥ - (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]
{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥)}.

بعد ترسيخ اليقين بالمعاد، بيّن لنا سبيل التزود بخير زاد؛ والدعاء قد يكون سؤال الله تعالى من فضله ورحمته، والضراعة إليه والاستغاثة به، وقد يراد بالدعاء العبادة؛ وبكلا المعنيين جاءت الآثار ١٢٠؛ مما نقل القرطبي: وكان خالد الربيعي، يقول، عجيب لهذه الأمة؟ قيل لها: {ادعوني أستجب لكم}، أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط. . وقد قيل: هذا من باب المطلق والمقيد. . أي: {أستجب لكم} إن شئت، كقوله: {. . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} ١٢١. . اه، ومن يستنكف عن الخضوع لجلال الله والتضرع إليه يدخله جهنم ذليلا صاغرا؛ وربكم هو وليكم الحق، فهو خير ثوابا وخير عقبا، وهو الذي خلق لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، وخلق لكم النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضل رازقكم، ولتتصرفوا في طلب معاشكم ١٢٢.

إن المعبود بحق أسبغ على الناس أنعمه وآلاءه، ولكن أكثرهم يجحدون نعمته؛ وصاحب هذا العطاء هو مولاكم ومربيكم ومصلحكم،

تفرد بالخلق والإيجاد، وهو المستحق للعبادة وحده، لا ما اتخذوهم من الأوثان والشركاء والأنداد، وتعالى الله عن الشبيه والنظير، وعن الند والضد ١٢٣ - فأنى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان، بعد أن علمتم الحجة والبرهان؟. . كذلك يصرف عن الحق أهل الجحود والنكران لآلاء الله وآياته، وحججه وبيناته.

الله الذي خلق المكان والزمان والسكَّان، فهو الذي جعل لنا الأرض مأوى ومستقرا في حياتنا وبعد مماتنا، وجعل السماء سقفا محفوظا، رفعها بغير عمد، وسواها محبوكة محكمة ليس فيها نقص ولا تصدع، وخلق الإنسان في أحسن صورة، والفاء في {فأحسن صوركم} فاء الفصيحة، ورزق الخلق مما به قوامهم، وسترهم، وكنَّهم ونعيمهم، فما أعظم بركات ربكم تعالى شأنه، رب العوالم كلها-عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان-.

٦٦ - (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

{قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨)}.

هو الحي على الحقيقة حياته أزلية أبدية {هو الأول والآخر} فادعوه واعبدوه مبتغين بدعائكم وعبادتكم وتوحيدكم رضوان الله دون سواه، واحمدوه ١٢٤.

ليس من كلام أفضل من كلمة التوحيد، والدعوة إلى الله الحميد المجيد، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين القويم {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٢٥ وهكذا أمر الله النبي وأمرنا في شخصه الكريم عليه الصلوات والتسليم، وقد قامت الحجة على أن الملة الحنيفية هي التي يقبلها الله: {ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} ١٢٦ فهي صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة}، والله رب العالمين هو الذي خلق آدم أبا البشر من تراب، وجعل ذريته تبدأ خلقتها من قدر يسير من مني الرجل وإفراز المرأة، ثم تتحول النطفة إلى علقة، وتمضي العلقة في أطوارها حتى تخرج من الرحم طفلا، ثم تصاحبه رعاية الله بالحفظ والنماء والبقاء حتى يبلغ تمام قوته، ثم يعمّر من يشاء الله حتى يصير شيخا، ومن البشر من يموت قبل أن يخرج طفلا، فيتوفى سقطا، أو يموت قبل أن يغدو شيخا، ومنهم من يبقى بعد فتكون عاقبته أن يمتد به العمر إلى حين انقضاء أجله، ولعلكم تعقلون ذلك فتستيقنوا من قدرة الله وتفرده بالجلال والتدبير، والمعبود بحق يقدر على الإحياء والإماتة، وإذا أراد شيئا فلا يعجزه تنفيذ مراده، ولا يؤخره، ولا يتوقف تمام فعله على شيء وإنما يقول له {كن فيكون} ١٢٧.

٦٧ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨)}.

هو الحي على الحقيقة حياته أزلية أبدية {هو الأول والآخر} فادعوه واعبدوه مبتغين بدعائكم وعبادتكم وتوحيدكم رضوان الله دون سواه، واحمدوه ١٢٨.

ليس من كلام أفضل من كلمة التوحيد، والدعوة إلى الله الحميد المجيد، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين القويم {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٢٩ وهكذا أمر الله النبي وأمرنا في شخصه الكريم عليه الصلوات والتسليم، وقد قامت الحجة على أن الملة الحنيفية هي التي يقبلها الله: {ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} ١٣٠ فهي صبغة الله ومن أحسن

من الله صبغة}، والله رب العالمين هو الذي خلق آدم أبا البشر من تراب، وجعل ذريته تبدأ خلقتها من قدر يسير من مني الرجل وإفراز المرأة، ثم تحول النطفة إلى علقة، وتمضي العلقة في أطوارها حتى تخرج من الرحم طفلا، ثم تصاحبه رعاية الله بالحفظ والنماء والبقاء حتى يبلغ تمام قوته، ثم يعمّر من يشاء الله حتى يصير شيخا، ومن البشر من يموت قبل أن يخرج طفلا، فيتوفى سقطا، أو يموت قبل أن يغدو شيخا، ومنهم من يبقى بعد فتكون عاقبته أن يمتد به العمر إلى حين انقضاء أجله، ولعلكم تعقلون ذلك فتستيقنوا من قدرة الله وتفرده بالجلال والتدبير، والمعبود بحق يقدر على الإحياء والإماتة، وإذا أراد شيئا فلا يعجزه تنفيذ مراده، ولا يؤخره، ولا يتوقف تمام فعله على شيء وإنما يقول له {كن فيكون} ١٣١.

٦٨ - (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٦]

{قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨)}.

هو الحي على الحقيقة حياته أزلية أبدية {هو الأول والآخر} فادعوه واعبدوه مبتغين بدعائكم وعبادتكم وتوحيدكم رضوان الله دون سواه، واحمدوه ١٣٢.

ليس من كلام أفضل من كلمة التوحيد، والدعوة إلى الله الحميد المجيد، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين القويم {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} ١٣٣ وهكذا أمر الله النبي وأمرنا في شخصه الكريم عليه الصلوات والتسليم، وقد قامت الحجة على أن الملة الحنيفية هي التي يقبلها الله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} ١٣٤ فهي صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة}، والله رب العالمين هو الذي خلق آدم أبا البشر من تراب، وجعل ذريته تبدأ خلقتها من قدر يسير من مني الرجل وإفراز المرأة، ثم تحول النطفة إلى علقة، وتمضي العلقة في أطوارها حتى تخرج من الرحم طفلا، ثم تصاحبه رعاية الله بالحفظ والنماء والبقاء حتى يبلغ تمام قوته، ثم يعمّر من يشاء الله حتى يصير شيخا، ومن البشر من يموت قبل أن يخرج طفلا، فيتوفى سقطا، أو يموت قبل أن يغدو شيخا، ومنهم من يبقى بعد فتكون عاقبته أن يمتد به العمر إلى حين انقضاء أجله، ولعلكم تعقلون ذلك فتستيقنوا من قدرة الله وتفرده بالجلال والتدبير، والمعبود بحق يقدر على الإحياء والإماتة، وإذا أراد شيئا فلا يعجزه تنفيذ مراده، ولا يؤخره، ولا يتوقف تمام فعله على شيء وإنما يقول له {كن فيكون} ١٣٥.

٦٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو

يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٣٦ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٣٧.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٣٨ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٣٩، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٠ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٤٠ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٤١.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا

بها} ١٤٢ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٤٣، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاوَوْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧١ - (إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٤٤ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٤٥.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٤٦ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٤٧، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاوَوْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٢ - (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع،

لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٤٨ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٤٩.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٥٠ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٥١، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٣ - (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٥٢ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب

عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٥٣.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٥٤ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٥٥، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٤ - (مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٥٦ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٥٧.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٥٨ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٥٩، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٥ - (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٦٠ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلي، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٦١.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٦٢ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٦٣، ويؤمر بهم أن يُزّجوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٦ - (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٩]

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)}.

ومع ظهور الحجة القرآنية، والحجة الآفاقية، والآيات والعلامات الأنفسية، فهم يمارون في الحق، ويذيعون الباطل، فأمرهم عجيب شنيع، لهذا بدأت الآيات الكريمة باستفهام إنكاري تعجيبا من ضلالهم، وتقبيحا لفساد رأيهم.

[وتكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل، بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين، أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب، ففيما مر في البعث، وهنا للتوحيد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يُصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية]؟!.

الذين يجادلون هم الذين كذبوا بالقرآن، وبما أنزل من وحي وتشريع-إذ الوحي أعم من أن يكون قرآنا لفظه ومعناه من عند الله، أو يوحى إلى النبي معناه ويبلغه الرسول بلفظ من عنده- وجاء الفعل في الآية الأولى مضارعا للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها، وبصيغة الماضي في هذه للدلالة على التحقيق؛ فيعلمون حين يرون العذاب كيف كان ضلالهم بعيدا، وكيف كان جرمهم عظيما؛ ذلك حال كون القيود في رقابهم والسلاسل ١٦٤ تشد وثاقهم، يسحبون بها في النار على وجوههم، ويجرون في السائل الحار المغلى، ثم يحشرون في جهنم ليكونوا وقودا لها وحطبا، ثم يُزادون فوق عذاب السعير التحسير، فيقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟! هل ينصرونكم أو لأنفسهم ينتصرون؟ فيقولون غابوا عنا، وإن حضروا تبرؤوا منا [بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئا يعتدّ به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئا يعتد به] ١٦٥.

ومثل ذلك الإضلال يضل الله كل من كفر وجحد وفسد، فالحيرة والحسرة، والسعير والتخسير لكل من تديّن بالكفر-ملحدا أو زنديقا أو جاحدا-ونقل عن الحسن:. . . إضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها والعواقب: من الأغلال والسحْب والحبال، والحيرة والضلال، وبطلان ثواب الأعمال بسبب الفرح بما كانوا قد أوتوا في الدنيا من متاع والركون إليه، والبطر به والخيلاء والتفاخر؛ أو تفرحون بما يصيب أحبابي من بلاء، كما شهد بذلك قول الحق -تبارك اسمه-: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} ١٦٦ {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون} ١٦٧، ويؤمر بهم أن يُزجّوا في أبواب النار المقسومة لكل منهم، ليتهاووْا ويستقروا خالدين في دركاتها؛ نسأل الله النجاة من النار.

٧٧ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

{فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨)}.

تثبيت وبشرى للنبي والمؤمنين، بأن الله ولي المتقين، وأنه سبحانه مخزي الكافرين، وهو خير الناصرين؛ ومهما أمهل المكذبين، فإن ذلك إلى حين؛ فاصبر وليصبر أهل الحق وليستمسكوا بالدين الذي ارتضاه لهم ربهم، ولا يحزنهم تجبر أعدائهم، فإن الله منزل بطشه بهم، إما في حياة من أوذوا أو بعد مماتهم؛ ثم إلى الله المآب فيقضي بينهم، ويوفيهم جزاءهم؛ وقريب من هذا ما جاء في آيات كريمات أخر: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينّك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ١٦٨.

ولقد بعثت قبلك رسلا، عددهم كثير، وشأنهم عظيم؛ من هؤلاء المرسلين من أوحينا إليك أخبارهم وآثارهم، وقصصنا عليك أنباءهم، كنوح وهود وصالح وإبراهيم ويوسف وموسى، وداود وسليمان وزكريا، ويحيى وعيسى- صلى الله وسلم على المرسلين-ومنهم من لم يأتك من أنبائهم ١٦٩؛ وما جعلنا لرسول من أولئك الرسل قدرة على الإتيان بمعجزة إلا بإقدار الله تعالى وإذنه، فإذا جاء قضاء الله ومراده من ظهور معجزة أو حلول أجل الانتقام، فصل المولى الحق بين الفريقين، فينجي الله الذين ينهون عن السوء، ويأخذ الظالمين بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وعندها يهلك المفترون، المقيمون على الباطل والمعاندون.

٧٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٧]

{فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨)}.

تثبيت وبشرى للنبي والمؤمنين، بأن الله ولي المتقين، وأنه سبحانه مخزي الكافرين، وهو خير الناصرين؛ ومهما أمهل المكذبين، فإن ذلك إلى حين؛ فاصبر وليصبر أهل الحق وليستمسكوا بالدين الذي ارتضاه لهم ربهم، ولا يحزنهم تجبر أعدائهم، فإن الله منزل بطشه بهم، إما في حياة من أوذوا أو بعد مماتهم؛ ثم إلى الله المآب فيقضي بينهم، ويوفيهم جزاءهم؛ وقريب من هذا ما جاء في آيات كريمات أخر: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينّك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ١٧٠.

ولقد بعثت قبلك رسلا، عددهم كثير، وشأنهم عظيم؛ من هؤلاء المرسلين من أوحينا إليك أخبارهم وآثارهم، وقصصنا عليك أنباءهم، كنوح وهود وصالح وإبراهيم ويوسف وموسى، وداود وسليمان وزكريا، ويحيى وعيسى- صلى الله وسلم على المرسلين-ومنهم من لم يأتك من أنبائهم ١٧١؛ وما جعلنا لرسول من أولئك الرسل قدرة على الإتيان بمعجزة إلا بإقدار الله تعالى وإذنه، فإذا جاء قضاء الله ومراده من ظهور معجزة أو حلول أجل الانتقام، فصل المولى الحق بين الفريقين، فينجي الله الذين ينهون عن السوء، ويأخذ الظالمين بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وعندها يهلك المفترون، المقيمون على الباطل والمعاندون.

٧٩ - (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

{الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩) ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١)}.

ربنا المعبود بحق هو وحده خالق الإبل والبقر والغنم، -ضأنه ومعزه- فمنها ما يُرْكَبُ ومنها ما يُؤْكَلُ، واللام في {لكم} للتعليل، أي لأجل مصلحتكم، وجملة {منها تركبون} معطوفة على جملة {لتركبوا منها} وكلتاهما تفصيل لما استفيد من قوله سبحانه: {لكم}.

[وليس المراد على إرادة التبعيض أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر. بل على أن كل منها صالح لكل منهما. .] ١٧٢.

قال أبو إسحق الزجاج: الأنعام هاهنا الإبل {لتركبوا منها ومنها تأكلون} فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن الله عز وجل قال في الأنعام {ومنها تأكلون} وقال في الخيل: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها} ولم يذكر إباحة أكلها. اه.

ولخيركم جعل الله في الأنعام منافع فوق ما بين لكم في الآية السابقة، فأنتم تنتفعون بوبرها وصوفها وشعرها، ولبنها وزبدها وسمنها وجبنها، وبأثمانها ونتاجها، بل وبعز اقتنائها، وجمال مشهدها وبهائها، وقضاء ما تنطوي عليه صدوركم من رغائب، فهي تحملكم وأمتعتكم، كما هي عدة لسفركم وحربكم، وتحملون عليها في البر كما تحملون على السفن والمراكب في البحر، وفي هذه كغيرها من علامات اقتدار الله تعالى برهان على تفرد الصانع بالإتقان، فأي حجة لله تنكرون؟. . استفهام للتسفيه فإنه لا يمارى في الدليل القاطع والبرهان الساطع إلا من سفه؛ ولربنا الحجة البالغة التي لا يكاد يجترئ على إنكارها من له بقية من عقل.

٨٠ - (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٩]

{الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩) ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١)}.

ربنا المعبود بحق هو وحده خالق الإبل والبقر والغنم، -ضأنه ومعزه- فمنها ما يُرْكَبُ ومنها ما يُؤْكَلُ، واللام في {لكم} للتعليل، أي لأجل مصلحتكم، وجملة {منها تركبون} معطوفة على جملة {لتركبوا منها} وكلتاهما تفصيل لما استفيد من قوله سبحانه: {لكم}.

[وليس المراد على إرادة التبعيض أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر. بل على أن كل منها صالح لكل منهما. .] ١٧٣.

قال أبو إسحق الزجاج: الأنعام هاهنا الإبل {لتركبوا منها ومنها تأكلون} فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن الله عز

وجل قال في الأنعام }ومنها تأكلون{ وقال في الخيل: }والخيل والبغال والحمير لتركبوها{ ولم يذكر إباحة أكلها. اهـ.

ولخيركم جعل الله في الأنعام منافع فوق ما بين لكم في الآية السابقة، فأنتم تنتفعون بوبرها وصوفها وشعرها، ولبنها وزبدها وسمنها وجبنها، وبأثمانها ونتاجها، بل وبعز اقتنائها، وجمال مشهدها وبهائها، وقضاء ما تنطوي عليه صدوركم من رغائب، فهي تحملكم وأمتعتكم، كما هي عدة لسفركم وحربكم، وتحملون عليها في البر كما تحملون على السفن والمراكب في البحر، وفي هذه كغيرها من علامات اقتدار الله تعالى برهان على تفرد الصانع بالإتقان، فأي حجة لله تنكرون؟. . استفهام للتسفيه فإنه لا يمارى في الدليل القاطع والبرهان الساطع إلا من سفه، ولربنا الحجة البالغة التي لا يكاد يجترئ على إنكارها من له بقية من عقل.

٨١ - (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٩]

}الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩) ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١){.

ربنا المعبود بحق هو وحده خالق الإبل والبقر والغنم، -ضأنه ومعزه- فمنها ما يُرْكَبُ ومنها ما يُؤْكَلُ، واللام في }لكم{ للتعليل، أي لأجل مصلحتكم، وجملة }منها تركبون{ معطوفة على جملة }لتركبوا منها{ وكلتاهما تفصيل لما استفيد من قوله سبحانه: }لكم{.

[وليس المراد على إرادة التبعيض أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر. بل على أن كل منها صالح لكل منهما. .] ١٧٤.

قال أبو إسحق الزجاج: الأنعام هاهنا الإبل }لتركبوا منها ومنها تأكلون{ فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن الله عز

وجل قال في الأنعام }ومنها تأكلون{ وقال في الخيل: }والخيل والبغال والحمير لتركبوها{ ولم يذكر إباحة أكلها. اهـ.

ولخيركم جعل الله في الأنعام منافع فوق ما بين لكم في الآية السابقة، فأنتم تنتفعون بوبرها وصوفها وشعرها، ولبنها وزبدها وسمنها وجبنها، وبأثمانها ونتاجها، بل وبعز اقتنائها، وجمال مشهدها وبهائها، وقضاء ما تنطوي عليه صدوركم من رغائب، فهي تحملكم وأمتعتكم، كما هي عدة لسفركم وحربكم، وتحملون عليها في البر كما تحملون على السفن والمراكب في البحر، وفي هذه كغيرها من علامات اقتدار الله تعالى برهان على تفرد الصانع بالإتقان، فأي حجة لله تنكرون؟. . استفهام للتسفيه فإنه لا يمارى في الدليل القاطع والبرهان الساطع إلا من سفه، ولربنا الحجة البالغة التي لا يكاد يجترئ على إنكارها من له بقية من عقل.

٨٢ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

}أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥){.

الاستفهام هنا قد يراد به التحريض والوعيد وتسفيه الذين عموا عن الاعتبار، والعظة والادّكار، فلو تأملوا إذ عاينوا آثار المُهْلَكِين من الأقوام الغابرين، لكان ذلك من أسباب رجوعهم عن تكذيب المرسلين، إذ من دُمروا كانوا أكثر عددا ممن كذبوا النبي الخاتم، وأشد منهم قوة، وأوسع تأثيرا-نحتوا من الجبال بيوتا، واتخذوا المصانع، واتخذوا بكل ريع آية، وشادوا القصور، فلم يغن عنهم ما كسبوه، أو: أي شيء أغنى عنهم كسبهم؟. . فحين جاء كل أمة رسولها بالمعجزات، والعظات الربانية الواضحات، فرح الكفار بما عندهم من علم بأمور تدبير معايش الدنيا، وسخروا بالهدى الذي دعت إليه رسلهم، واستصغروا العلم الموحى به غرورا بعلمهم- كما قال الله سبحانه في شأنهم: }يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون{ ١٧٥ - وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستخفّون بشأنه

ويستبعدون وقوعه، والفرح الذي يُعقِب دمارا هو الذي يملأ نفوس أصحابه بطرا، وهو المنهي عنه في قول الحق جل علاه: {. . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين} ١٧٦ وفي القول الرباني الحكيم {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ١٧٧. فلما عاينوا جانبا من بطشتنا وبئيس عذابنا وشديد انتقامنا بدا لهم أن يؤمنوا بنا، كالذي كان من المتأله المتجبر فرعون {. . حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} ١٧٨ فرد الله عليه إقراره، كما شهدت بذلك الآية الكريمة: {الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} ١٧٩؟! وكفروا بما اتخذوا من دون الله أربابا، فعند مشاهدة نقمة العزيز الجبار لا ينفع التصديق ولا الإقرار، فقد سنّ المولى الخبير البصير عدم نفع الإيمان عند معاينة بطشة الملك الديان.

[وجوز انتصاب {سنة الله} على التحذير، أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل ١٨٠].

وعند حلول البأس يخسر الكافر الفاجر، المعاند الجاحد.

وقد تقبل التوبة عند حلول الشدة والبلاء، وليس كذلك الإيمان، وربما يستشهد لهذا بما أشارت إليه الآية الكريمة: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} ١٨١ وكذا الآية المباركة: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون} ١٨٢. وقول المولى -تبارك اسمه-: {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} ١٨٣ وقوله عز وجل: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} ١٨٤ {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} ١٨٥ لكن تفضل ربنا وتكفل بالعفو والصفح عمن سارع إلى طلب المغفرة والرضوان {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما} ١٨٦.

فاللهم يا غافر الذنب يا قابل التوب اغفر زلتنا وتقبل توبتنا، إنك صاحب الطول والفضل العظيم.

٨٣ - (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٢]

{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)}.

الاستفهام هنا قد يراد به التحريض والوعيد وتسفيه الذين عموا عن الاعتبار، والعظة والادّكار، فلو تأملوا إذ عاينوا آثار المُهْلَكِين من الأقوام الغابرين، لكان ذلك من أسباب رجوعهم عن تكذيب المرسلين؛ إذ من دُمروا كانوا أكثر عددا ممن كذبوا النبي الخاتم، وأشد منهم قوة، وأوسع تأثيرا-نحتوا من الجبال بيوتا، واتخذوا المصانع، واتخذوا بكل ريع آية، وشادوا القصور، فلم يغن عنهم ما كسبوه، أو: أي شيء أغنى عنهم كسبهم؟. . فحين جاء كل أمة رسولها بالمعجزات، والعظات الربانية الواضحات، فرح الكفار بما عندهم من علم بأمور تدبير معايش الدنيا، وسخروا بالهدى الذي دعت إليه رسلهم، واستصغروا العلم الموحى به غرورا بعلمهم-كما قال الله سبحانه في شأنهم: {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} ١٨٧ - وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستخفّون بشأنه ويستبعدون وقوعه، والفرح الذي يُعقِب دمارا هو الذي يملأ نفوس أصحابه بطرا، وهو المنهي عنه في قول الحق جل علاه: {. . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين} ١٨٨ وفي القول الرباني الحكيم {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ١٨٩. فلما عاينوا جانبا من بطشتنا وبئيس عذابنا وشديد انتقامنا بدا لهم أن يؤمنوا بنا، كالذي كان من المتأله المتجبر فرعون {. . حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} ١٩٠ فرد الله عليه إقراره، كما شهدت بذلك الآية الكريمة: {الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}

١٩١؟! وكفروا بما اتخذوا من دون الله أربابا، فعند مشاهدة نقمة العزيز الجبار لا ينفع التصديق ولا الإقرار، فقد سنّ المولى الخبير البصير عدم نفع الإيمان عند معاينة بطشة الملك الديان.

[وجوز انتصاب {سنة الله} على التحذير، أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل ١٩٢].

وعند حلول البأس يخسر الكافر الفاجر، المعاند الجاحد.

وقد تقبل التوبة عند حلول الشدة والبلاء، وليس كذلك الإيمان، وربما يستشهد لهذا بما أشارت إليه الآية الكريمة: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} ١٩٣ وكذا الآية المباركة: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون} ١٩٤. وقول المولى -تبارك اسمه-: {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} ١٩٥ وقوله عز وجل: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} ١٩٦ {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} ١٩٧ لكن تفضل ربنا وتكفل بالعفو والصفح عمن سارع إلى طلب المغفرة والرضوان {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما} ١٩٨.

فاللهم يا غافر الذنب يا قابل التوب اغفر زلتنا وتقبل توبتنا، إنك صاحب الطول والفضل العظيم.

٨٤ - (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٢]

{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)}.

الاستفهام هنا قد يراد به التحريض والوعيد وتسفيه الذين عموا عن الاعتبار، والعظة والادّكار، فلو تأملوا إذ عاينوا آثار المُهْلَكِين من الأقوام الغابرين، لكان ذلك من أسباب رجوعهم عن تكذيب المرسلين؛ إذ من دُمروا كانوا أكثر عددا ممن كذبوا النبي الخاتم، وأشد منهم قوة، وأوسع تأثيرا-نحتوا من الجبال بيوتا، واتخذوا المصانع، واتخذوا بكل ريع آية، وشادوا القصور؛ فلم يغن عنهم ما كسبوه، أو: أي شيء أغنى عنهم كسبهم؟. . فحين جاء كل أمة رسولها بالمعجزات، والعظات الربانية الواضحات، فرح الكفار بما عندهم من علم بأمور تدبير معايش الدنيا، وسخروا بالهدى الذي دعت إليه رسلهم، واستصغروا العلم الموحى به غرورا بعلمهم-كما قال الله سبحانه في شأنهم: {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} ١٩٩ - وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستخفّون بشأنه ويستبعدون وقوعه؛ والفرح الذي يُعقِب دمارا هو الذي يملأ نفوس أصحابه بطرا، وهو المنهي عنه في قول الحق جل علاه: {. . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين} ٢٠٠ وفي القول الرباني الحكيم {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ٢٠١. فلما عاينوا جانبا من بطشتنا وبئيس عذابنا وشديد انتقامنا بدا لهم أن يؤمنوا بنا؛ كالذي كان من المتأله المتجبر فرعون {. . حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} ٢٠٢ فرد الله عليه إقراره، كما شهدت بذلك الآية الكريمة: {الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} ٢٠٣؟! وكفروا بما اتخذوا من دون الله أربابا، فعند مشاهدة نقمة العزيز الجبار لا ينفع التصديق ولا الإقرار، فقد سنّ المولى الخبير البصير عدم نفع الإيمان عند معاينة بطشة الملك الديان.

[وجوز انتصاب {سنة الله} على التحذير، أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل ٢٠٤].

وعند حلول البأس يخسر الكافر الفاجر، المعاند الجاحد.

وقد تقبل التوبة عند حلول الشدة والبلاء، وليس كذلك الإيمان، وربما يستشهد لهذا بما أشارت إليه الآية الكريمة: {فلولا إذ جاءهم

بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} ٢٠٥ وكذا الآية المباركة: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون} ٢٠٦. وقول المولى -تبارك اسمه-: {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} ٢٠٧ وقوله عز وجل: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} ٢٠٨ {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} ٢٠٩ لكن تفضل ربنا وتكفل بالعفو والصفح عمن سارع إلى طلب المغفرة والرضوان {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما} ٢١٠.

فاللهم يا غافر الذنب يا قابل التوب اغفر زلتنا وتقبل توبتنا، إنك صاحب الطول والفضل العظيم.

٨٥ - (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٢]

{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)}.

الاستفهام هنا قد يراد به التحريض والوعيد وتسفيه الذين عموا عن الاعتبار، والعظة والادّكار، فلو تأملوا إذ عاينوا آثار المُهْلَكِين من الأقوام الغابرين، لكان ذلك من أسباب رجوعهم عن تكذيب المرسلين؛ إذ من دُمروا كانوا أكثر عددا ممن كذبوا النبي الخاتم، وأشد منهم قوة، وأوسع تأثيرا-نحتوا من الجبال بيوتا، واتخذوا المصانع، واتخذوا بكل ريع آية، وشادوا القصور؛ فلم يغن عنهم ما كسبوه، أو: أي شيء أغنى عنهم كسبهم؟. . فحين جاء كل أمة رسولها بالمعجزات، والعظات الربانية الواضحات، فرح الكفار بما عندهم من علم بأمور تدبير معايش الدنيا، وسخروا بالهدى الذي دعت إليه رسلهم، واستصغروا العلم الموحى به غرورا بعلمهم-كما قال الله سبحانه في شأنهم: {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} ٢١١ - وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستخفّون بشأنه ويستبعدون وقوعه؛ والفرح الذي يُعقِب دمارا هو الذي يملأ نفوس أصحابه بطرا، وهو المنهي عنه في قول الحق جل علاه: {. . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين} ٢١٢ وفي القول الرباني الحكيم {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ٢١٣. فلما عاينوا جانبا من بطشتنا وبئيس عذابنا وشديد انتقامنا بدا لهم أن يؤمنوا بنا؛ كالذي كان من المتأله المتجبر فرعون {. . حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} ٢١٤ فرد الله عليه إقراره، كما شهدت بذلك الآية الكريمة: {الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} ٢١٥؟! وكفروا بما اتخذوا من دون الله أربابا، فعند مشاهدة نقمة العزيز الجبار لا ينفع التصديق ولا الإقرار، فقد سنّ المولى الخبير البصير عدم نفع الإيمان عند معاينة بطشة الملك الديان.

[وجوز انتصاب {سنة الله} على التحذير، أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل ٢١٦].

وعند حلول البأس يخسر الكافر الفاجر، المعاند الجاحد.

وقد تقبل التوبة عند حلول الشدة والبلاء، وليس كذلك الإيمان، وربما يستشهد لهذا بما أشارت إليه الآية الكريمة: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} ٢١٧ وكذا الآية المباركة: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون} ٢١٨. وقول المولى -تبارك اسمه-: {. . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} ٢١٩ وقوله عز وجل: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} ٢٢٠ {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} ٢٢١ لكن تفضل ربنا وتكفل بالعفو والصفح عمن سارع إلى طلب المغفرة والرضوان {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما} ٢٢٢.

فاللهم يا غافر الذنب يا قابل التوب اغفر زلتنا وتقبل توبتنا، إنك صاحب الطول والفضل العظيم.
خاتمة تفسير سور: ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى
السور الخمس المباركات دعت إلى توحيد الله تعالى وتقديسه، وإلى اليقين بآياته ورسالاته، والتصديق بالرجوع إلى ربنا-جل وعز- وملاقاته، وتوفية كل محسن أو مسيء جزاء ما قدم في حياته؛ وبينت جحود أكثر بني الإنسان، وبصّرت بسبيل الدعوة إلى الإيمان، وهدت إلى صراط العدل والفضل والإحسان.
في تقديس المولى سبحانه تتابع في هذه السور المحكمات ثناء على ربنا الكبير المتعال المتفرد بالجلال بأنه {العزيز العليم} ٢٢٣ {العزيز الغفار} ٢٢٤ {الواحد القهار} ٢٢٥، فتبارك عالم الغيب والشهادة. مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار، فاطر السماوات والأرض الولي الحميد، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ٢٢٦.
كم فيها من برهان على أن الله أحد صمد.
{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} ٢٢٧، {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} ٢٢٨ {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه} ٢٢٩ {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} ٢٣٠ {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} ٢٣١، {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ٢٣٢، فادعوا الله مخلصين له الدين، وأنيبوا إلى رفيع الدرجات العلي الحكيم.
وعهد الله إلى العباد أن يستيقنوا بالفرقان المنزل من لدنه سبحانه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، فقد جعل موحيه-عز شأنه- نورا يهدي إلى السعادة وإلى دار السلام: {. . وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ٢٣٣. {. . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء} ٢٣٤، ويظفر بهدايته وبركته من تفهمه وتعلمه واستقام منهاجه: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} ٢٣٥ {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} ٢٣٦.
والتدبر: يعني: النظر في عاقبة الآيات وما تؤول إليه، ويعني: إمعان الفكرة فيها، والتحدث بما هدت إليه؛ ومما قال أبو حنيفة: الدبرة: البقعة من الأرض تزرع؛ والدبر: المال الكثير الذي لا يحصى كثرة؛ فكأن عظم خيرات القرآن يدركها من تعقل آياته، وأكثر من النظر في عواقبها وما تؤول إليه، وحدّث بذلك ما استطاع.
كما أن من عهد الله في هذا الكتاب المجيد أن يتذكره العقلاء، وأن يحفظوه ويدرسوه ويقرءوه؛ قال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب والدراسة للحفظ.
وإلا كان الطبع على الفؤاد، كما قال الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. ومن حاد عن آيات ربنا التكوينية والتنزيلية، ومال عن القصد فيها، وماری وجادل، وشك وأزرى، فقد باء بغضب شديد، ووقع في ضلال بعيد: {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} من سورة غافر الآية ٣٥؛ غرهم بالله الغرور فاستكبروا عن آياته: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} من سورة غافر. الآية ٥٦؛ ومهما أسروا قولهم الآثم أو جهروا به فإن مكرهم عند ربهم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} من سورة (فصلت) من الآية ٤٠؛ و [ألحد] تعني: مال وجار، وعدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه، وأزرى به.

والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ٢٣٧.
وجاءنا في هذه السور من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويهدي إلى الرشاد، فسلام على داود النبي الأوّاب، وعلى سليمان الذي أوتي ملكا لم ينله أحد من بعده، فسأل الله أن يعينه على شكر نعمة العزيز الوهاب، وأيوب الصابر نعم العبد إنه أواب، وإبراهيم وإسحق ويعقوب و {. . . إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} ٢٣٨، وموسى الذي أرسل بالبرهان والسلطان إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، فمن الله على موسى وهارون، وآتاهما الكتاب المستبين، وأغرق القوم المجرمين؛ ولا تحول سنة الله في الآخرين، ولن تتبدل إلى يوم الدين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ٢٣٩، فاستكملوا الإيمان بدينكم يؤيدكم الله على عدوه وعدوكم، وينصركم في أولا كم وفي آخرتكم.
وعشرات من الآيات تترى في يوم التلاق {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} ٢٤٠، {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} ٢٤١، {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة واهم سوء الدار} ٢٤٢، تحذر أهواله ونكاله، وخزيه ووباله، إذ تجمع الزبانية أوائل المجرمين على أواخرهم، وتتكلم بأوزارهم عظامهم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون}، حين يوقفون على شفير جهنم تحدث أجزاؤهم بما قدموه من قول وعمل لا تكتم منه شيئا، فيلومون جلودهم وحواسهم وأوصالهم، إذ أقرت بما يحتم عذابهم {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ٢٤٣ وترد عليهم الجلود بالحق، وتلومهم على غفلتهم عن سر الخلق.
وهناك لن يحتاج كل فاجر نفسه وكفى، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها، وإن للطاغين لشر مآب، {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ٢٤٤ {ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون} ٢٤٥.
فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد} ٢٤٦ {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب} ٢٤٧، فاستيقنوا بالبعث والحساب، وتزوّدوا ليوم المآب، ولا تشغلنكم عنه زخارف العاجلة فإنها سراب، وابتغوا عند الله الحياة الطيبة وعظيم الثواب، فقد وعد بذلك في محكم الكتاب: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} ٢٤٨.
وبصّرت هذه السور بنفس الإنسان:
فالظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وصدق الله العظيم: {. . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم} ٢٤٩، وأكثر البشر كنود، ولنعمة ربه جحود {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل} ٢٥٠ {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة} ٢٥١ {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض} ٢٥٢ {. . وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور} ٢٥٣، لكن المفلح من تزكى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشكر أنعم الله، وإذا أصابته مصيبة صبر وقال: إنا لله، {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} ٢٥٤، فلا تفتن بعلم ولا مال ولا جاه، وقل: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم تبطرني السعة فأنساه- {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه} ٢٥٥.

والكتاب الحكيم بيّن في واحدة من هذه السور دعوة مؤمن حكيم يكتم إيمانه، أربع عشرة آية تتابعت تهدي للتي هي أقوم، تبشر من آمن واتقى بالثواب الأكرم، وتنذر المشركين بطش الجبار وحر جهنم؛ وتبليغ رسالات الله يتصدى له منه لا يخشى سواه؛ والمؤمن يلْزِمُه الله تعالى بفضله كلمة التقوى، ويهديه إلى الطيب اللين من القول ليذكر من يخشى، وبالدعوة المستبصرة يتزكى من سبقت له الحسنى؛ فلندع إلى ربنا بالبينات والهدى، ولنترفق بمن ندعوهم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.
واستحفظنا ميثاق الحق في مواطن كثيرة من هذه السور، فالكتاب العزيز نزل ٢٥٦ بالحق، وربنا استخلفنا لنقيم الحق ٢٥٧، وخلق الله السماوات والأرض بالحق ٢٥٨، وربنا يفصل بين عباده بالحق ٢٥٩؛ وأثنى مولانا على من أخذ بحقه ممن عدا عليه ٢٦٠.
ومع تقديس العدل، فقد حبب إلينا أن لا نغلق باب العفو والصفح نبلغ منازل أهل الفضل ٢٦١.
والله يهدينا إلى صراطه المستقيم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٤١ سورة فصلت:

سورة فصلت:
سورة فصلت
مكية
وآياتها ٥٤ نزلت بعد غافر
كلماتها: ٧٩٤؛ حروفها: ٣٣٥٠.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١)}
قد تكون اسما للسورة، فتكون خبرا لمبتدأ محذوف، والتقدير هذه السورة {حم}، وربما تكون من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله؛ عاملنا المولى الحكيم بها معاملة المختبر: {. . . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا} ١، أو لعلها وما شابهها من فواتح السور (ألم) {كهيعص} وغيرها جاءت للتحدي بمعنى أن القرآن الحكيم مكون من حروف كتلك التي تنطقون بها، ولكنكم عجزتم وستظلون عاجزين عن الإتيان بآية من مثل آياته فآمنوا بأنه كلام الملك الكبير اللطيف الخبير؛ ونقل غير ذلك ٢.
٢ - (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)
{تنزيل من الرحمن الرحيم (٢)}.
هذه السورة كبقية سور الكتاب المجيد تنزلت من رب العالمين الذي عم برحمته ونعمه في الدنيا من أطاع ومن فجر، واختص برحمته في الآخرة من اتقى وصدق وبرّ.
٣ - (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)
{كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (٣)}.
هذا الوحي والتنزيل كتاب عظيم بينت آياته، فتميزت في لفظها بفواصلها ومبادئ السور وخواتمها، ووضحت معنى؛ فمنها عهود الإيمان، ومنها سنن الله التي لا تتبدل بتبدل الأزمان، وأنباء ما قد سبق، وشرع الله الذي ارتضاه-وقال قتادة: {فصلت} ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته. . سفيان: بالثواب والعقاب. . حال كونها يسيرة القراءة فصيحة البيان-امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم، لقوم يعلمون منزلة القول البليغ، أو يعلمون معانيه.

٤ - (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)
}بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (٤)}.
أنزلناه قرآنا مبشرا المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وينذر من جحد وأنكر نكالا وجحيما وسعرا، ومع تبين آياته أمثالا ومواعظ، وإيمانا وأحكاما، ومع شموله لخيري العاجلة والآجلة، وتبشير المهتدين وتحذير المخالفين المعاندين، أدبر الكثير عنه فلم يتدبروه ولا اتبعوه، فبنهيهم ونأيهم عنه صاروا هم والذي لم يسمع سواء.
٥ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)
}وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون (٥)}.
وقال أكابر مجرميهم-يعاندون ويعلنون إصرارهم على هجر وحي الله ورسالته-: القلوب في أغطية مما يُنَادَوْنَ إليه من الخير والرشد، وفي الآذان صمم لا تسمع ما تُنذَر به، وحجاب غليظ يستوعب ما بينهم وبين الداعي الهادي صلى الله عليه وسلم لا يتأتى أن ينفذ منه شيء إلى رءوسهم أو نفوسهم، فلم يبق لديهم- وقد عمُوا وصمّوا واستكبروا-لم يعجبهم إذ ذاك إلا أن نابذوا الرسول الخلاف، وبارزوه بالمعاداة فقالوا: اعمل لدينك ما شئت واثبت عليه فإنهم لن يتركوا دينهم؛ أو اعمل على إبطال ديننا فإنا عاملون على إبطال دينك، أو: فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ٣.
يقول الطبري: وأدخلت {من} في قوله: {ومن بيننا وبينك حجاب}، والمعنى: وبيننا وبينك حجاب- توكيدا للكلام. اه.
٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)
}قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون (٧)}.
أمر الله تعالى نبيه أن ينذرهم بما تقوم به حجة الخالق على خلقه، فإن المولى العليم لم يرسله مَلَكا ولا جنيا يتعذر عليهم أو يتعسر التلقي عنه، إنما بعثه آدميا مثلهم وأوحى إليه أن المستحق للعبادة معبود واحد.
ولا أدعوكم إلى ما تنبوا عنه العقول، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع؛ وهذا جواب عن قولهم: {. . قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر} - فلا تعوجوا عن السبيل الموصلة إلى رضاه {. . إن ربي على صراط مستقيم} ٤. وعهد الله إليكم بالاستقامة والإقامة على التوحيد مخلصين ذلك له، وبطلب العفو والصفح وستر ما كان من فسوق أو مروق؛ والهلاك والثبور لمن أشركوا بربهم الواحد القهار، العزيز الغفار، والعذاب وأسفل دركات العقاب للذين يبخلون ويمنعون، ويشحون ولا ينفقون ٥، ثم هم في لقاء ربهم يرتابون ويشكّون، بل هم لأحوال الآخرة منكرون.
[وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم؛ وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة. . وهذه الآية مكية؛ اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: {. . وآتوا حقه يوم حصاده} ٦ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة؛ ويكون هذا جمعا بين القولين؛ كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس؛ وفصّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا، والله أعلم.] ٧.
٧ - (الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
}قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون (٧)}.

أمر الله تعالى نبيه أن ينذرهم بما تقوم به حجة الخالق على خلقه، فإن المولى العليم لم يرسله مَلَكا ولا جنيا يتعذر عليهم أو يتعسر التلقي عنه، إنما بعثه آدميا مثلهم وأوحى إليه أن المستحق للعبادة معبود واحد.

ولا أدعوكم إلى ما تنبوا عنه العقول، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع، وهذا جواب عن قولهم: {. . قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر} - فلا تعوجوا عن السبيل الموصلة إلى رضاه {. . إن ربي على صراط مستقيم} ٨. وعهد الله إليكم بالاستقامة والإقامة على التوحيد مخلصين ذلك له، وبطلب العفو والصفح وستر ما كان من فسوق أو مروق، والهلاك والثبور لمن أشركوا بربهم الواحد القهار، العزيز الغفار، والعذاب وأسفل دركات العقاب للذين يبخلون ويمنعون، ويشحون ولا ينفقون ٩، ثم هم في لقاء ربهم يرتابون ويشكّون، بل هم لأحوال الآخرة منكرون.

[وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة. . وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: {. . وآتوا حقه يوم حصاده} ١٠ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس، وفصّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا، والله أعلم.] ١١.

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٨)}.

بعد إنذار الفجار بالعذاب العظيم جاءت البشرى للمؤمنين المستقيمين الصالحين بأن لهم الثواب الكريم والنعيم المقيم الذي لا ينقطع.

نقل القرطبي عن السدي: نزلت في الزمْنى والمرْضى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون. اهـ.

وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، فرده عليه ابن كثير، ومما قال: فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تبارك وتعالى: {. . . بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان} ١٢ وقال أهل الجنة: {فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم} ١٣. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (. . إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل). اهـ.

٩ - (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

{*قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩)}.

يأمر الله تعالى نبيه أن يسوق دليلا على وحدانية البارئ المقتدر، وبدأ بتوبيخ المشركين والتعجيب من حالهم وإنكار ما ذهبوا إليه، فكأن المعنى: لما تكفرون بالله وهو خالق الأرض. . ومقدر أقواتها. . وخالق السماء وطباقها وهو المدبر لأمرها؟!

والكفر-أعاذنا الله منه- قد ينصرف إلى المعنى العام وهو الجحود، إذ هو من كفر بمعنى غطّى وستر، فالكافر يخفي حقيقة بين جوانحه تنادي أنه مخلوق والله خالقه: {. . فطرة الله التي فطر الناس عليها} ١٤.

وإن في الأرض لعبرا، وإنها لمملوءة خيرا، فمن التراب أنشأ الله أبو البشر آدم، وفي باطنها يُقْبرُ الأناسيّ، ثم منها يكون نشورهم: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} ١٥. وشاء البارئ-جل علاه- أن يجعلها في حيّز لا تصلح بعيدا عنه، وبحجم لو كان أكبر أو أصغر مما هو عليه لاستحالت الحياة فوقها، ولو كان سمك قشرة الأرض أكثر- ولو قليلا- من سمكها الحالي لما وجد الأكسجين في غلافها الجوي- وبدونه لا حياة- ولو قل سمك الغلاف الغازي لما أمكن حماية الحياة على الأرض من الأشعة الكونية، ولما أمكن الاحتفاظ للأرض بمتوسط حرارتها الثابت.

فكيف يجحد الجاحدون؟ وكيف تتراءى هذه الآيات ثم هم يصدفون؟!

وبعد أن أنكر على أهل الكفر في عمومهم، أبطل ما ذهب إليه المشركون من ادعائهم الأشباه والنظراء لله الخلاق-جل علاه-إذ هو رب

العوالم كلها إنسها وجنها ومَلَكِها، وكوكبها وفلكها، ونباتها وحيوانها، فهل المخلوق المحتاج في وجوده إلى من يوجده ويحفظه يستطيع أن يوجد شيئا أو يخلق حبة وذرة؟! العقل يحيل ذلك، والله يشهد، وأولوا العلم يشهدون أن الله هو الخلاق العليم، وكفى بالله شهيدا.

١٠ - (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

{وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠)}.

وأقرّ الله تعالى الأرض وأرساها بالجبال الثوابت المنتشرة على سطحها، وفي ذلك آية على وحدانيته، وبرهان على حكمته، كما هي من فيض آلائه ونعمته: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم} ١٦ إذ اضطراب حملها واختلاف أثقالها إنما يكون عند ذهاب الكون وانتهاء الحياة: {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش} ١٧ {يوم تمور السماء مورا. وتسير الجبال سيرا} ١٨، وجعل الله تعالى في الجبال بركة، أو جعل في الأرض بركة، والبركة كثرة الخير، فبركة الجبال- فوق ما ذكرنا- في سامق طولها، ومختلف ألوانها وحيوانها، ومعادنها ونبتها، وشجرها وحجرها.

[ومنها الأحجار المختلفة: بعضها للزينة، وبعضها للأبنية، فانظر إلى الحجر الذي تستخرج منه النار مع كثرته، وانظر إلى الياقوت الأحمر مع عزته وندرته- وانظر إلى النفع بذلك الحقير، وقلة النفع بهذا الخطير. . ولعل ما تركنا من منافع أكثر مما عددنا] ١٩.

وأودع الله-تعالى- الأرض ما به قوام من يعيشون فيها إنسا وجنا، وما يدب عليها، وما تتصدع به وتنشق عنه مما فيه قوت البشر والبهائم، والطعام والأدام، والدواء والفواكه، والكساء والزينة، والسكن والمأوى.

يقول صاحب جامع البيان- بعد أن أورد نقولا مأثورة-: إن [الأقوات] الأرزاق والمعايش، أو المطر، أو في كل أرض قوت لا يصلح بغيره. قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر أنه قدّر في الأرض أهلها وذلك ما يقوتهم من الغذاء ويصلحهم من المعاش، ولم يخصص جل ثناؤه. . قوتا دون قوت. . ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتصرف في البلاد لما خص الله به بعضا دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المآكل والحلي. . اه.

{في أربعة أيام} خلق الله الأرض ثم خلق الجبال والأقوات، فخلق الجبال والأقوات وما ينبغي لها في يومين تاليين لخلق الأرض في يومين.

نقل أبو جعفر عن بعض نحويي البصرة قال: خلق الأرض في يومين ثم قال: {في أربعة أيام} لأنه يعني أن هذا مع الأول أربعة أيام. . اه.

وأقول: أبدع المولى وأنشأ ذلك وأتمه في زمن ليس بمتباعد، بل فيما نقدره بأربعة أيام من أيامنا، فذلك تقريب لأفهام البشر المخاطبين، وذلك أولى أن نفسر الآية على نسقه-إذ لم يكن حين خلقت السماوات والأرضون ليل ولا نهار، وإنما كانا بعد خلق السماء والأرض والشمس والقمر-

ومن سأل عن مبلغ الأجل الذي خلق الله فيه الأرض والجبال والبركة والأقوات فجوابه-كما أخبر الله-أربعة أيام؛ نقل ذلك عن قتادة والسدّي؛ وعن ابن زيد: قدر ذلك على قدر مسائلهم، يعلم ذلك أنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا قد علمه قبل أن يكون-اه.

١١ - (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

{ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)}.

وبعد إنشائه -سبحانه- الأرض، وإتقانه صنعها اتجه مراده إلى السماء وهي هباء أو ظلام وقتار كالدخان- وذلك في طورها الأول- فأمر الله تعالى السماء والأرض أن تكونا على الحال الذي أراد والذي هو كائن؛ فكانتا؛ وذلك نحو قوله عز شأنه: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} ٢٠ فأحكمهن الخلاق- الذي أتقن كل شيء صنعا- وجعلهن سبعا شدادا في يومين غير الأربعة التي تم فيها إبداع الأرض بما حوت؛ وبهذا شهد الحق-جل علاه-: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} ٢١. وأودع كلا منها سننها الذي تقوم عليه، و {أوحى} تأتي في القرآن أحيانا بمعنى الإلهام والتسخير، كالذي في الآية الكريمة: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها

شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس} ٢٢ والسماء الدانية منا، وأقرب السبع الطباق إلى كوكبنا، بث الله تعالى فيها نجوما زاهرات، وكواكب مضيئة، فهي تنير جنبات الكون كما تضيء المصابيح جوانب الدار، وتنفصل عنها شهب يقذف الله تعالى بها من شاء، فكان من ذلك سبب حفظ السماء من شياطين تقترب منها لعلها تسمع ما يدور بين الملائكة من أمر الله. جاء في سورة الصافات: {إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد} ٢٣ {إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب} ٢٤. كل هذا الخلق والإبداع، والإحكام والإتقان، تفرّد به الملك العلام، الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، والذي أنشأ كل شيء على سننه وبقدره لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، إذ قد برأ سبحانه على علم محيط بالذي هو الأتمّ والأحكَم.

١٢ - (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

{ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)}.

وبعد إنشائه -سبحانه- الأرض، وإتقانه صنعها اتجه مراده إلى السماء وهي هباء أو ظلام وقتار كالدخان- وذلك في طورها الأول- فأمر الله تعالى السماء والأرض أن تكونا على الحال الذي أراد والذي هو كائن، فكانتا، وذلك نحو قوله عز شأنه: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} ٢٥ فأحكمهن الخلاق- الذي أتقن كل شيء صنعا- وجعلهن سبعا شدادا في يومين غير الأربعة التي تم فيها إبداع الأرض بما حوت، وبهذا شهد الحق-جل علاه-: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} ٢٦. وأودع كلا منها سننها الذي تقوم عليه، و {أوحى} تأتي في القرآن أحيانا بمعنى الإلهام والتسخير، كالذي في الآية الكريمة: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس} ٢٧ والسماء الدانية منا، وأقرب السبع الطباق إلى كوكبنا، بث الله تعالى فيها نجوما زاهرات، وكواكب مضيئة، فهي تنير جنبات الكون كما تضيء المصابيح جوانب الدار، وتنفصل عنها شهب يقذف الله تعالى بها من شاء، فكان من ذلك سبب حفظ السماء من شياطين تقترب منها لعلها تسمع ما يدور بين الملائكة من أمر الله. جاء في سورة الصافات: {إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد} ٢٨ {إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب} ٢٩. كل هذا الخلق والإبداع، والإحكام والإتقان، تفرّد به الملك العلام، الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، والذي أنشأ كل شيء على سننه وبقدره لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، إذ قد برأ سبحانه على علم محيط بالذي هو الأتمّ والأحكَم.

١٣ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

{فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١٣)}.

فمن أعرض بعد ما تبين له من الحجة والبرهان، والدليل والسلطان على أن المعبود بحق هو الله دون سواه-إذ هو سبحانه الخلاق الرزاق، العزيز الحكيم، الوليّ الكريم- فأنذر الصادين عن توحيده وعبادته بعذاب عاجل مهلك كالذي حل بعاد قوم هود، وبثمود قوم صالح.

مما قال اللغويون: صعق الإنسان: غشي عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدّة الشديدة؛ أو: مات؛ أو كل عذاب مهلك؛ ويقال للبرق إذا أحرق إنسانا أصابته صاعقة؛ والصاعقة: صيحة العذاب.

[أخرج البيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن جابر ٣٠ بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد صلى الله عليه وسلم فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره؟! فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما، وما يخفى عليّ إن كان كذلك، فأتاه فقال له: يا محمد! أنت خير أم هاشم؟! أنت خير أم عبد المطلب؟! فلم يجبه. قال: فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا؟! فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أيّ بنات قريش؛ ورسول الله

صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قال صلى الله عليه وسلم: {بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا} فقرأ حتى بلغ {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم فأنشده الرحم أن يكفّ عنه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قال أبو جهل: يا معشر قريش! ما أرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد-صلى الله عليه وسلم-وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انتقلوا بنا إليه!. . فأتوه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حَسِبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن [كنت] ٣١ بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد-صلى الله عليه وسلم- فغضب وأقسم بالله تعالى لا يكلم محمدا صلى الله عليه وسلم أبدا، وقال: لقد علمتم أني أكثر قريش مالا ولكني أتيته- فقص عليهم القصة- فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ {بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا} حتى {أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} فأمسكت بفيه وأنشدته الرحم فكف، وقد علمتم أن محمدا-صلى الله عليه وسلم- إذا قال شيئا لم يكذب، نخفت أن ينزل بكم العذاب.] ٣٢.

١٤ - (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

{إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦)}.

ربنا -تبارك اسمه- لا يظلم الناس شيئا، ولا يعاجل بالانتقام حتى يعذر إلى خلقه، فما أحل الصاعقة بعاد وثمود إلا بعد أن تمادوا في طغيانهم، وأمعنوا في بهتانهم، فقد جاءتهم رسل الله من كل جانب يتأتى منه البلاغ والإقناع؛ أو من أرسل إليهم ومن أرسل إلى من قبلهم، وجاءوهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي، وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة [وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما، ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر ٣٣].

وأنكرت عاد وثمود أن يرسل الله بشرا رسولا، وأنكرتا ما أرسلا به.

ثم بينت الآيتان التاليتان شيئا من نبأ عاد فإنهم أعمتهم الخيلاء، والفخر والكبرياء، حتى ألهاهم ذلك عن تذكر بأس الله الكبير المتعال، وسطوة القهار ذي الجلال؛ وإنما قالوا ذلك تغافلا عما يتراءى للأعين والبصائر، والواو من {وقالوا} اعتراضية لا عاطفة؛ إذ هم يعرفون قدرة الله ثم ينكرونها {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا} ٣٤ فبعث الله تعالى على هؤلاء الطاغين ريحا هائلة مدمرة-باردة أو مصوّتة- وظلت تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلم تبقى منهم من باقية، ونجى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه وفضل لم يمسسهم سوء، وعذبت عاد بهذا العذاب المذل في دنياهم، ولعل وصف أيامه بالنحسات لشؤمها عليهم، وقسما لينالنّ عذابا أشد إذلالا منه في أخراهم، ولن يُدْفَع عنهم شره ولا خزيه أبدا.

١٥ - (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦)}.

ربنا -تبارك اسمه- لا يظلم الناس شيئا، ولا يعاجل بالانتقام حتى يعذر إلى خلقه، فما أحل الصاعقة بعاد وثمود إلا بعد أن تمادوا في

طغيانهم، وأمعنوا في بهتانهم، فقد جاءتهم رسل الله من كل جانب يتأتى منه البلاغ والإقناع؛ أو من أرسل إليهم ومن أرسل إلى من قبلهم، وجاءوهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي، وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة [وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما، ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر ٣٥].

وأنكرت عاد وثمود أن يرسل الله بشرا رسولا، وأنكرتا ما أرسلا به.

ثم بينت الآيتان التاليتان شيئا من نبأ عاد فإنهم أعمتهم الخيلاء، والفخر والكبرياء، حتى ألهاهم ذلك عن تذكر بأس الله الكبير المتعال، وسطوة القهار ذي الجلال؛ وإنما قالوا ذلك تغافلا عما يتراءى للأعين والبصائر، والواو من {وقالوا} اعتراضية لا عاطفة؛ إذ هم يعرفون قدرة الله ثم ينكرونها {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا} ٣٦ فبعث الله تعالى على هؤلاء الطاغين ريحا هائلة مدمرة-باردة أو مصوّتة- وظلت تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلم تبق منهم من باقية؛ ونجى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه وفضل لم يمسسهم سوء؛ وعذبت عاد بهذا العذاب المذل في دنياهم؛ ولعل وصف أيامه بالنحسات لشؤمها عليهم؛ وقسما لينالنّ عذابا أشد إذلالا منه في أخراهم، ولن يُدْفَع عنهم شره ولا خزيه أبدا.

١٦ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦)}.

ربنا -تبارك اسمه- لا يظلم الناس شيئا، ولا يعاجل بالانتقام حتى يعذر إلى خلقه، فما أحل الصاعقة بعاد وثمود إلا بعد أن تمادوا في طغيانهم، وأمعنوا في بهتانهم، فقد جاءتهم رسل الله من كل جانب يتأتى منه البلاغ والإقناع؛ أو من أرسل إليهم ومن أرسل إلى من قبلهم، وجاءوهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي، وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة [وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما، ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر ٣٧].

وأنكرت عاد وثمود أن يرسل الله بشرا رسولا، وأنكرتا ما أرسلا به.

ثم بينت الآيتان التاليتان شيئا من نبأ عاد فإنهم أعمتهم الخيلاء، والفخر والكبرياء، حتى ألهاهم ذلك عن تذكر بأس الله الكبير المتعال، وسطوة القهار ذي الجلال؛ وإنما قالوا ذلك تغافلا عما يتراءى للأعين والبصائر، والواو من {وقالوا} اعتراضية لا عاطفة؛ إذ هم يعرفون قدرة الله ثم ينكرونها {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا} ٣٨ فبعث الله تعالى على هؤلاء الطاغين ريحا هائلة مدمرة-باردة أو مصوّتة- وظلت تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلم تبق منهم من باقية؛ ونجى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه وفضل لم يمسسهم سوء؛ وعذبت عاد بهذا العذاب المذل في دنياهم؛ ولعل وصف أيامه بالنحسات لشؤمها عليهم؛ وقسما لينالنّ عذابا أشد إذلالا منه في أخراهم، ولن يُدْفَع عنهم شره ولا خزيه أبدا.

١٧ - (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

{وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧) ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (١٨)}

ولما فصلت الآيتان قبل هاتين الآيتين شيئا من أنباء عاد لأنهم أسبق من ثمود زمانا بُين في هاتين بعض ما كان من قوم صالح، فقد بيّن لهم رسولهم من هدى الله الذي بُعث به، فاختاروا الضلالة وآثروها على اتباع الهدى.

و {الهدى} هديان: يأتي بمعنى الإرشاد والدلالة فيقولون: فلان يهديني الطريق، أي يدل عليه ويرشد إليه؛ ويأتي بمعنى شَرْحُ الصدر

للحق والخير، وذلك لا يملكه إلا الله وحده: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ٣٩، فكأن المعنى -والله أعلم- دلّلنا ثمود على الإيمان والإحسان، فآثروا الطغيان على الطاعة والإذعان. فداهمتهم هلكة العذاب المذل المخزي بسبب استكبارهم وتجبرهم وكفرهم بربهم واستهزائهم بنبيهم، وعقرهم الناقة التي جاءتهم لاختبارهم، ونجّى الله رسوله صالحا والذين آمنوا معه بتقواهم وصدق يقينهم.

١٨ - (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧) ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (١٨)}

ولما فصلت الآيتان قبل هاتين الآيتين شيئا من أنباء عاد لأنهم أسبق من ثمود زمانا بُين في هاتين بعض ما كان من قوم صالح، فقد بيّن لهم رسولهم من هدى الله الذي بُعث به، فاختاروا الضلالة وآثروها على اتباع الهدى.

و {الهدى} هديان: يأتي بمعنى الإرشاد والدلالة فيقولون: فلان يهديني الطريق، أي يدل عليه ويرشد إليه، ويأتي بمعنى شَرْحُ الصدر للحق والخير، وذلك لا يملكه إلا الله وحده: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ٤٠، فكأن المعنى -والله أعلم- دلّلنا ثمود على الإيمان والإحسان، فآثروا الطغيان على الطاعة والإذعان. فداهمتهم هلكة العذاب المذل المخزي بسبب استكبارهم وتجبرهم وكفرهم بربهم واستهزائهم بنبيهم، وعقرهم الناقة التي جاءتهم لاختبارهم، ونجّى الله رسوله صالحا والذين آمنوا معه بتقواهم وصدق يقينهم.

١٩ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

{ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون (١٩)}.

ويوم يجمع ويساق أعداء الله- وهم الكفار والفجار-إلى مستقرهم في جهنم فيُمنعون ويُحْبسون حتى يدرك آخرهم أولهم، فإذا تكاملت عدتهم بدئ بالأكابر فالأكابر جرما.

٢٠ - (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون (٢٠)}.

حتى إذا ما وصلوا إلى النار وعاينوها تكلمت أسماعهم بما كانوا يصغون بها في الدنيا ويستمعونه، وأبصارهم بما كانوا إليه ينظرون، وشهدت الجلود بما لامست وما اجترحت، وجاء في آية كريمة أخرى أن بقية الجوارح تشهد: {اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون} ٤١ كما بينت آية مباركة ثالثة أن جارحة أخرى تُحدث بما كان: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} ٤٢.

٢١ - (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

{وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون (٢١)}.

وقال المقبحون المفتونون-يلومون أعضاءهم وجلودهم إذ شهدت عليهم- لم شهدتم علينا؟! فتجيبهم الأعضاء والجلود قائلة: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء-مما ينطق-[وهو الذي ركّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا، فمن قدر عليه، قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء.] ٤٣.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مما أضحك)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي بأعماله قال ثم يخلى

بينه وبين الكلام قال فيقول بُعْداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) وفي حديث أبي هريرة ثم يقال: (الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ٤٤ وذلك الذي سخط الله عليه) أخرجه أيضا مسلم.

٢٢ - (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)

}وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤)}.

تقول الجوارح مخزية للكفار والفجار، أو هذا من قول الله عز وجل لهم، أو هو من قول الملائكة، وقد وردت آثار ٤٥ في سبب النزول.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: }وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم{ الآية. أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح والجلود عليكم، أو: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم الجلود في الآخرة فتتركوا المعاصي حذرا من هذه الشهادة، ولكن حسبتم أن قولكم وعملكم قد لا يعلم به ربكم، وذلك سبب خسرانكم، وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ: }وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين{. وقال الحسن البصري: إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: }وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين{.

فإن صبروا على ما يَلْقَونَ في جهنم أو جزعوا فالنار مرجعهم ومأواهم لا خروج لهم منها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب، والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، أو كأن المعنى: إن يستقيلوا ربهم ليقيلهم من أوزارهم فما هم من المُقالين.

٢٣ - (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

}وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤)}.

تقول الجوارح مخزية للكفار والفجار، أو هذا من قول الله عز وجل لهم، أو هو من قول الملائكة، وقد وردت آثار ٤٦ في سبب النزول.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: }وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم{ الآية. أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح والجلود عليكم، أو: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم الجلود في الآخرة فتتركوا المعاصي حذرا من هذه الشهادة، ولكن حسبتم أن قولكم وعملكم قد لا يعلم به ربكم، وذلك سبب خسرانكم، وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ: }وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين{. وقال الحسن البصري: إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: }وذلكم ظنكم الذي

ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين}.
فإن صبروا على ما يَلْقَونَ في جهنم أو جزعوا فالنار مرجعهم ومأواهم لا خروج لهم منها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب، والعتبي: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، أو كأن المعنى: إن يستقيلوا ربهم ليقيلهم من أوزارهم فما هم من المُقالين.
٢٤ - (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢) وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤)}.
تقول الجوارح مخزية للكفار والفجار، أو هذا من قول الله عز وجل لهم، أو هو من قول الملائكة، وقد وردت آثار ٤٧ في سبب النزول.
وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم} الآية. أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح والجلود عليكم، أو: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم الجلود في الآخرة فتتركوا المعاصي حذرا من هذه الشهادة، ولكن حسبتم أن قولكم وعملكم قد لا يعلم به ربكم، وذلك سبب خسرانكم، وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ: {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين}. وقال الحسن البصري: إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين}.
فإن صبروا على ما يَلْقَونَ في جهنم أو جزعوا فالنار مرجعهم ومأواهم لا خروج لهم منها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب، والعتبي: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، أو كأن المعنى: إن يستقيلوا ربهم ليقيلهم من أوزارهم فما هم من المُقالين.
٢٥ - (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)
{*وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (٢٥)}.
هُيأ لهم من يقارنهم من شياطين الإنس والجن لحسنوا لهم ما بين أيديهم من شهوات الدنيا وزخرفها وغرورها وشرورها، وما خلفهم من التكذيب بأمور الآخرة، والتسويف في التزود لها، ووجب عليهم بذلك من العذاب ما يسلكهم مع الأمم الكافرة التي سبقتهم من الأناسيّ والمردة، فليستيقنوا بلقاء الله.
٢٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)
{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآيتنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩)}.
تواصى رؤساء المشركين فيما بينه أن لا ينصتوا للكتاب العزيز، وأن يصرفوا الناس عن الإنصات له، وأن يعيبوا الذكر الحكيم ويوشوشوا عليه بما لا معنى له ولا أصل، كانوا عند قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن يأتون بالمكاء بالتصفيق والصفير والصياح وإنشاد الشعر

والأراجيز طمعا في أن يميتوا ذكر الكتاب الكريم ويغطوا نور هدايته، وهيهات، فقسما ليصلينهم مُنزلُ القرآن وموحيه أشد العذاب جزاء وفاقا لعظيم إفكهم وسوء صنيعهم، وقد عادوا ربهم فاستحقوا الخلود في دار الملامة والندامة، والحريق والسعير، إذ جحدوا البرهان، وأرادوا إطفاء نور القرآن، فأعقبتهم حسرات المصير، أن يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، ويتمنى الأتباع للمتبوعين أن يضاعف لهم العذاب، ويسخرون منهم: {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٤٨.

٢٧ - (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآيتنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩)}.

تواصى رؤساء المشركين فيما بينه أن لا ينصتوا للكتاب العزيز، وأن يصرفوا الناس عن الإنصات له، وأن يعيبوا الذكر الحكيم ويوشوشوا عليه بما لا معنى له ولا أصل، كانوا عند قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن يأتون بالمكاء بالتصفيق والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز طمعا في أن يميتوا ذكر الكتاب الكريم ويغطوا نور هدايته، وهيهات، فقسما ليصلينهم مُنزلُ القرآن وموحيه أشد العذاب جزاء وفاقا لعظيم إفكهم وسوء صنيعهم، وقد عادوا ربهم فاستحقوا الخلود في دار الملامة والندامة، والحريق والسعير، إذ جحدوا البرهان، وأرادوا إطفاء نور القرآن، فأعقبتهم حسرات المصير، أن يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، ويتمنى الأتباع للمتبوعين أن يضاعف لهم العذاب، ويسخرون منهم: {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٤٩.

٢٨ - (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآيتنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩)}.

تواصى رؤساء المشركين فيما بينه أن لا ينصتوا للكتاب العزيز، وأن يصرفوا الناس عن الإنصات له، وأن يعيبوا الذكر الحكيم ويوشوشوا عليه بما لا معنى له ولا أصل، كانوا عند قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن يأتون بالمكاء بالتصفيق والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز طمعا في أن يميتوا ذكر الكتاب الكريم ويغطوا نور هدايته، وهيهات، فقسما ليصلينهم مُنزلُ القرآن وموحيه أشد العذاب جزاء وفاقا لعظيم إفكهم وسوء صنيعهم، وقد عادوا ربهم فاستحقوا الخلود في دار الملامة والندامة، والحريق والسعير، إذ جحدوا البرهان، وأرادوا إطفاء نور القرآن، فأعقبتهم حسرات المصير، أن يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، ويتمنى الأتباع للمتبوعين أن يضاعف لهم العذاب، ويسخرون منهم: {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٥٠.

٢٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآيتنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا أرنا

الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩)}.
تواصى رؤساء المشركين فيما بينه أن لا ينصتوا للكتاب العزيز، وأن يصرفوا الناس عن الإنصات له، وأن يعيبوا الذكر الحكيم ويوشوشوا عليه بما لا معنى له ولا أصل؛ كانوا عند قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن يأتون بالمكاء بالتصفيق والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز طمعا في أن يميتوا ذكر الكتاب الكريم ويغطوا نور هدايته؛ وهيهات؛ فقسما ليصلينهم مُنزلُ القرآن وموحيه أشد العذاب جزاء وفاقا لعظيم إفكهم وسوء صنيعهم، وقد عادوا ربهم فاستحقوا الخلود في دار الملامة والندامة، والحريق والسعير، إذ جحدوا البرهان، وأرادوا إطفاء نور القرآن؛ فأعقبتهم حسرات المصير، أن يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، ويتمنى الأتباع للمتبوعين أن يضاعف لهم العذاب، ويسخرون منهم: {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٥١.

٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

{إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢)}.
بعد بيان خزي وخسران الكفار الفجار، بشّر الله الحق بربح وأمن وفوز المتقين الأبرار، من أقر بالتوحيد، وشهد أن لا إله إلا الله، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى؛ أو: {استقاموا} فلم يلتفتوا إلى غيره [وربما يكون {قالوا ربنا الله} إشارة إلى التصديقات والعلوم النظرية، وهذه رأسها وأصلها، وفي {ثم استقاموا} إشارة إلى الحكم العملية، وجملتها الاستقامة على الوسط دون ميل إلى أحد شقي الإفراط والتفريط]. ٥٢.
تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: لا تخافوا ما تُقْدمون عليه بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله، وأبشروا بالجنة التي وعدتموها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته؛ وهكذا باستقامة القول والفعل- فعل القلب والجوارح- يتحقق الإيمان.
روى مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك- وفي رواية غيرك- قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) ٥٣.
وصحح الحفاظ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قلنا يا رسول الله: كلنا نكره الموت؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه. .).
ومن جملة قول الملائكة الذين ينزلون على المؤمنين حالة اللحوق بربهم: نحن نتولاكم بالحفظ في الأولى وفي العقبى، كنا قرناءكم في الدنيا نسددكم ونوفقكم بأمر الله؛ وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى الجنات، فيؤمّن الله تعالى خوفه ويُقرّ عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين بما هداه ربه إليه من عمل في الدنيا.
[فللملائكة تأثيرات في الأرواح بالإلهامات الحسنة والخواطر الشريفة، كما للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس والهواجس. . وإذا كانت هذه الولاية ثابتة في الدنيا بحكم المناسبة النُورية- بين الملك وبين المؤمن رباط النورانية في كل منهما، فنور الإيمان في الآدمي يربطه بالملك الذي هو نورانيّ- كانت بعد الموت أقوى وأظهر لزوال العلائق الجسمانية؛ وقيل: في الحياة الدنيا بالاستغفار؛ وفي الآخرة بالشفاعة؛ وقيل: كنا نحفظكم في الدنيا، ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة، ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم من الحظوظ الجسمانية ولكم فيها ما تمنون من المواهب الروحية] ٥٤؛ ثوابا وإكراما من رب يستر زلات من استغفره- وإن كثرت- واسع الرحمة فلا يهلك عليه إلا هالك.

٣١ - (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
}إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢)}.

بعد بيان خزي وخسران الكفار الفجار، بشّر الله الحق بربح وأمن وفوز المتقين الأبرار، من أقر بالتوحيد، وشهد أن لا إله إلا الله، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى؛ أو: {استقاموا} فلم يلتفتوا إلى غيره [وربما يكون {قالوا ربنا الله} إشارة إلى التصديقات والعلوم النظرية، وهذه رأسها وأصلها، وفي {ثم استقاموا} إشارة إلى الحكم العملية، وجملتها الاستقامة على الوسط دون ميل إلى أحد شقي الإفراط والتفريط]. ٥٥.

تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: لا تخافوا ما تُقْدمون عليه بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله، وأبشروا بالجنة التي وعدتموها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته؛ وهكذا باستقامة القول والفعل- فعل القلب والجوارح- يتحقق الإيمان.

روى مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك- وفي رواية غيرك- قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) ٥٦.

وصحح الحفاظ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قلنا يا رسول الله: كلنا نكره الموت؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه. .).

ومن جملة قول الملائكة الذين ينزلون على المؤمنين حالة اللحوق بربهم: نحن نتولاكم بالحفظ في الأولى وفي العقبى، كنا قرناءكم في الدنيا نسددكم ونوفقكم بأمر الله؛ وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى الجنات، فيؤمّن الله تعالى خوفه ويُقرّ عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين بما هداه ربه إليه من عمل في الدنيا.

[فللملائكة تأثيرات في الأرواح بالإلهامات الحسنة والخواطر الشريفة، كما للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس والهواجس. . وإذا كانت هذه الولاية ثابتة في الدنيا بحكم المناسبة النُورية- بين الملك وبين المؤمن رباط النورانية في كل منهما، فنور الإيمان في الآدمي يربطه بالملك الذي هو نورانيّ- كانت بعد الموت أقوى وأظهر لزوال العلائق الجسمانية؛ وقيل: في الحياة الدنيا بالاستغفار، وفي الآخرة بالشفاعة؛ وقيل: كنا نحفظكم في الدنيا، ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة، ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم من الحظوظ الجسمانية ولكم فيها ما تمنون من المواهب الروحية] ٥٧؛ ثوابا وإكراما من رب يستر زلات من استغفره- وإن كثرت- واسع الرحمة فلا يهلك عليه إلا هالك.

٣٢ - (نُزُلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
}إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢)}.

بعد بيان خزي وخسران الكفار الفجار، بشّر الله الحق بربح وأمن وفوز المتقين الأبرار، من أقر بالتوحيد، وشهد أن لا إله إلا الله، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى؛ أو: {استقاموا} فلم يلتفتوا إلى غيره [وربما يكون {قالوا ربنا الله} إشارة إلى التصديقات والعلوم النظرية، وهذه رأسها وأصلها، وفي {ثم استقاموا} إشارة إلى الحكم العملية، وجملتها الاستقامة على الوسط دون ميل إلى أحد شقي

الإفراط والتفريط]. ٥٨.
تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: لا تخافوا ما تُقْدمون عليه بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله، وأبشروا بالجنة التي وعدتموها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته؛ وهكذا باستقامة القول والفعل- فعل القلب والجوارح- يتحقق الإيمان.
روى مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك- وفي رواية غيرك- قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) ٥٩.
وصحح الحفاظ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قلنا يا رسول الله: كلنا نكره الموت؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه. .).
ومن جملة قول الملائكة الذين ينزلون على المؤمنين حالة اللحوق بربهم: نحن نتولاكم بالحفظ في الأولى وفي العقبى، كنا قرناءكم في الدنيا نسددكم ونوفقكم بأمر الله؛ وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى الجنات، فيؤمّن الله تعالى خوفه ويُقرّ عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين بما هداه ربه إليه من عمل في الدنيا.
[فللملائكة تأثيرات في الأرواح بالإلهامات الحسنة والخواطر الشريفة، كما للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس والهواجس. . وإذا كانت هذه الولاية ثابتة في الدنيا بحكم المناسبة النُورية- بين الملك وبين المؤمن رباط النورانية في كل منهما، فنور الإيمان في الآدمي يربطه بالملك الذي هو نورانيّ- كانت بعد الموت أقوى وأظهر لزوال العلائق الجسمانية؛ وقيل: في الحياة الدنيا بالاستغفار؛ وفي الآخرة بالشفاعة؛ وقيل: كنا نحفظكم في الدنيا، ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة، ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم من الحظوظ الجسمانية ولكم فيها ما تمنون من المواهب الروحية] ٦٠؛ ثوابا وإكراما من رب يستر زلات من استغفره- وإن كثرت- واسع الرحمة فلا يهلك عليه إلا هالك.
٣٣ - (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
{ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣٤) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم (٣٦)}.
وليس من قول ولا قائل أكرم من الداعي إلى الله تعالى وإلى سبيله، والعامل بما يرضيه، والمعتز بانتسابه إلى الإسلام، فالاستفهام قد يراد به في هذه الآية: نفي أن يكون أحد أحسن قولا وفعلا من المذكر بالحق، الدال على الخير، المبتهج باتخاذ الإسلام دينا، وكأن الآية الثانية فصلت العمل الصالح مع المخلوقين، بعدما فصلت سابقتها العمل الصالح مع الخلاق العليم، ومقابلة الإساءة بالإساءة لا تقطع السوء بل قد تمادى به، لكن أن تعفو عمن أساء فهذا طيب، وأطيب منه أن تحسن إلى المسيء، فتُقْتَلَعَ العداوة وتُزرع في القلوب المودة، فيعود الذي عاداك مواليا مخلصا في حبه لك، وما يتلقى هذه الصفة المحمودة بالاتباع والاستمساك إلا من منحه الله صبرا على المكاره؛ وما يثبت عليها إلا صاحب حظ عظيم؛ ولهم البشرى من البَر الرحيم الذي لا يخلف الميعاد: جنات عرضها السماوات والأرض {. . أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} ٦١ {ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ٦٢.
وإما ينازعك الشيطان ويوسوس إليك بالرد على المسيء وعقوبته، ويزين لك أن تنصرف عما دعيت إليه من دفع إساءته بالإحسان فاحتم واستجر بالله من شره ووسواسه، فإنه عز وجل سميع لضراعتك، عليم بإنابتك، فسيعصمك من أذاه، ويثبتك على ما فيه رضاه،

واتباع هداه.

٣٤ - (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣٤) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم (٣٦)}.

وليس من قول ولا قائل أكرم من الداعي إلى الله تعالى وإلى سبيله، والعامل بما يرضيه، والمعتز بانتسابه إلى الإسلام، فالاستفهام قد يراد به في هذه الآية: نفي أن يكون أحد أحسن قولا وفعلا من المذكر بالحق، الدال على الخير، المبتهج باتخاذ الإسلام دينا، وكأن الآية الثانية فصلت العمل الصالح مع المخلوقين، بعدما فصلت سابقتها العمل الصالح مع الخلاق العليم، ومقابلة الإساءة بالإساءة لا تقطع السوء بل قد تمادى به، لكن أن تعفو عمن أساء فهذا طيب، وأطيب منه أن تحسن إلى المسيء، فتُقْتَلَعَ العداوة وتُزرع في القلوب المودة، فيعود الذي عاداك مواليا مخلصا في حبه لك، وما يتلقى هذه الصفة المحمودة بالاتباع والاستمساك إلا من منحه الله صبرا على المكاره؛ وما يثبت عليها إلا صاحب حظ عظيم؛ ولهم البشرى من البَر الرحيم الذي لا يخلف الميعاد: جنات عرضها السماوات والأرض {. أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} ٦٣ {ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ٦٤.

وإما ينازعك الشيطان ويوسوس إليك بالرد على المسيء وعقوبته، ويزين لك أن تنصرف عما دعيت إليه من دفع إساءته بالإحسان فاحتم واستجر بالله من شره ووسواسه، فإنه عز وجل سميع لضراعتك، عليم بإنابتك، فسيعصمك من أذاه، ويثبتك على ما فيه رضاه، واتباع هداه.

٣٥ - (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣٤) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم (٣٦)}.

وليس من قول ولا قائل أكرم من الداعي إلى الله تعالى وإلى سبيله، والعامل بما يرضيه، والمعتز بانتسابه إلى الإسلام، فالاستفهام قد يراد به في هذه الآية: نفي أن يكون أحد أحسن قولا وفعلا من المذكر بالحق، الدال على الخير، المبتهج باتخاذ الإسلام دينا، وكأن الآية الثانية فصلت العمل الصالح مع المخلوقين، بعدما فصلت سابقتها العمل الصالح مع الخلاق العليم، ومقابلة الإساءة بالإساءة لا تقطع السوء بل قد تمادى به، لكن أن تعفو عمن أساء فهذا طيب، وأطيب منه أن تحسن إلى المسيء، فتُقْتَلَعَ العداوة وتُزرع في القلوب المودة، فيعود الذي عاداك مواليا مخلصا في حبه لك، وما يتلقى هذه الصفة المحمودة بالاتباع والاستمساك إلا من منحه الله صبرا على المكاره؛ وما يثبت عليها إلا صاحب حظ عظيم؛ ولهم البشرى من البَر الرحيم الذي لا يخلف الميعاد: جنات عرضها السماوات والأرض {. أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} ٦٥ {ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ٦٦.

وإما ينازعك الشيطان ويوسوس إليك بالرد على المسيء وعقوبته، ويزين لك أن تنصرف عما دعيت إليه من دفع إساءته بالإحسان فاحتم واستجر بالله من شره ووسواسه، فإنه عز وجل سميع لضراعتك، عليم بإنابتك، فسيعصمك من أذاه، ويثبتك على ما فيه رضاه،

واتباع هداه.

٣٦ - (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

}ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣٤) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم (٣٦)}.

وليس من قول ولا قائل أكرم من الداعي إلى الله تعالى وإلى سبيله، والعامل بما يرضيه، والمعتز بانتسابه إلى الإسلام، فالاستفهام قد يراد به في هذه الآية: نفي أن يكون أحد أحسن قولا وفعلا من المذكر بالحق، الدال على الخير، المبتهج باتخاذ الإسلام دينا، وكأن الآية الثانية فصلت العمل الصالح مع المخلوقين، بعدما فصلت سابقتها العمل الصالح مع الخلاق العليم، ومقابلة الإساءة بالإساءة لا تقطع السوء بل قد تمادى به، لكن أن تعفو عمن أساء فهذا طيب، وأطيب منه أن تحسن إلى المسيء، فتُقْتَلَعَ العداوة وتُزرع في القلوب المودة، فيعود الذي عاداك مواليا مخلصا في حبه لك، وما يتلقى هذه الصفة المحمودة بالاتباع والاستمساك إلا من منحه الله صبرا على المكاره، وما يثبت عليها إلا صاحب حظ عظيم؛ ولهم البشرى من البَر الرحيم الذي لا يخلف الميعاد: جنات عرضها السماوات والأرض {. أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} ٦٧ {ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ٦٨.

وإما ينازعك الشيطان ويوسوس إليك بالرد على المسيء وعقوبته، ويزين لك أن تنصرف عما دعيت إليه من دفع إساءته بالإحسان فاحتم واستجر بالله من شره ووسواسه، فإنه عز وجل سميع لضراعتك، عليم بإنابتك، فسيعصمك من أذاه، ويثبتك على ما فيه رضاه، واتباع هداه.

٣٧ - (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

}ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (٣٧) فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون (٣٨)}.

عادت هاتان الآيتان تدعوان إلى الإيمان، وتسوق البرهان على جلال الملك الديان، وأن الخضوع والعبادة لا يلقيان إلا للخالق دون الخلق، ومن دلائل قدرته وأحديته خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وخلق الشمس والقمر ونورهما وسننهما، فتخلوا عن تأليه الخالق، ولا تعبدوا نجما ولا كوكبا، ولا شمسا ولا قمرا، فكلها مسخرة مقهورة؛ وليكن سجودكم وخضوعكم وتأليهكم للخالق المهيمن الواحد القهار؛ ولا تشركوا به شيئا، فإنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل إلا ما كان له خالصا؛ فإن تعاظموا عن اجتناب ما نُهوا عنه، أو تأنفوا عن إفراد الله بالتقديس والسجود فلن يُخِل ذلك بعظمة ربنا وكبريائه، فإن الملأ الأعلى لا يستنكفون عن عبادته ولا يكِلّون، ولا يَفْتَرون ولا يملّون.

٣٨ - (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

}ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (٣٧) فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون (٣٨)}.

عادت هاتان الآيتان تدعوان إلى الإيمان، وتسوق البرهان على جلال الملك الديان، وأن الخضوع والعبادة لا يلقيان إلا للخالق دون الخلق، ومن دلائل قدرته وأحديته خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وخلق الشمس والقمر ونورهما وسننهما، فتخلوا عن تأليه الخالق، ولا تعبدوا نجما ولا كوكبا، ولا شمسا ولا قمرا، فكلها مسخرة مقهورة؛ وليكن سجودكم وخضوعكم وتأليهكم للخالق المهيمن الواحد القهار؛ ولا تشركوا به شيئا، فإنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل إلا ما كان له خالصا؛ فإن تعاظموا عن اجتناب ما نُهوا عنه، أو تأنفوا عن

إفراد الله بالتقديس والسجود فلن يُخِل ذلك بعظمة ربنا وكبريائه، فإن الملأ الأعلى لا يستنكفون عن عبادته ولا يكِلّون، ولا يَفْتَرون ولا يملّون.

٣٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٣٩)}.

ومن دلائل عظمته وفيض آلائه، وبرهان القدرة على بعث كل مقبور ومحاسبته وجزائه، أن كل ذي عينين يرى الأرض مقفرة يابسة- كالخاضعة الذليلة- فإذا نشر الله عليها رحمته وأغاثها بالماء الذي يُمطرُ الخلق به تحركت الأرض الهامدة الغبراء الدارسة وعظمت وارتفعت، إن الذي حرّك الهامد، وفلق الحب والنوى، وأخرج منهما خضرا، يخرج منه الحب المتراكم، ومن النخل القنوان الدانية، ومن الحدائق البهيجة الأعناب والزيتون والرمان، لقادر على إعادة الحياة إلى الأموات؛ إنه عز شأنه- لا يقف أمام قدرته شيء.

[ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية، شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر وانقلابها من الجدوبة إلى الخصوبة وإنبات كل زوج بهيج بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه به، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيته زهوا، ويهتز بالأعطاف خيلاء وكبرا، فحذف المشبه واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه. .] ٦٩

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير (٤٠)}.

إن الذين يطعنون فيما نسوق من برهان، ويعرضون عن دلائل القدرة والسلطان، ويغفلون أو يتغافلون عن حجتنا البالغة في إتقان الصنعة وإعجاز آيات القرآن، لن يفوتهم علمنا، وإحاطتنا واقتدارنا وجزاؤنا، فهل يستوي من يسحب على وجهه في الجحيم، ومن تتلقاه الملائكة بالبشرى والتكريم، وتنطلق به إلى جنات النعيم؟! لا يستويان.

وإني أسمع وأرى عمل كل عامل، وقول كل قائل، فليعمل الجاحد والملحد ما تسول له نفسه، فإن هلاكه لن يتعداه؛ وعيد من الله القهار الجبار-وليس المقصود حقيقة الأمر- بل سيجازيهم من جنس كسبهم.

٤١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

{بالذكر} بالقرآن، وسمي بذلك لأن فيه ذكر ما يُحتاج إليه.

{عزيز} أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل، ممتنع عن الإنس والجن. أن يقولوا مثله.

{إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز (٤١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٤٢) ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم (٤٣) ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد (٤٤)}.

بلاغ للجاحدين وإنذار، وتثبيت للمؤمنين الأخيار، ليزدادوا إيمانا بأن الله متم نوره مهما تمادى الكفار، فالآية الأولى ترسخ أن الكافرين بالقرآن هلكى معذبون- واختار هذا القرطبي فقال: والخبر محذوف تقديره هالكون أو معذبون. . ثم قال: والأول الاختيار-أو الخبر: {أولئك ينادون من مكان بعيد} وجاء بين المبتدأ والخبر قوله سبحانه: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} ثم رجعت الآية بعدها إلى ما اختص الله تعالى به هذا الذكر: {ولو جعلناه قرآنا أعجميا}، ولقد تضمن المولى- تبارك اسمه- بحفظ القرآن وخلوده نقيا حقا، شرعة ومنهاجا، ما فرط في تبيان شيء مما يُحتاج إليه، معجزا لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله وإن تعاونوا وتظاهروا على ذلك، لا يبطله ما أوحي من قبله، ولا يُوحي بعده ما يبطله أو ينسخه، فهو مصون محفوظ بحفظ الحكيم الذي لا يفوته الحق والخير والصواب، والمحمود على تمام النعمة بتنزيل هذا الهدى والنور.

وتأتي الآية الثالثة تسرية عن قلب النبي والمؤمنين، ووعيدا للمكذبين المستهزئين {ما يقال لك} ما يقول الكفار لك من السخرية والأذى {إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} فقد كُذبت رسل سبقتك {. . فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا} ٧٠ فاصبر كما صبروا، إن ربك لصاحب غفران واسع لأوليائه، وصاحب عقاب بئيس وموجع دائم لأعدائه.

ولو أنزلنا القرآن بلغة غير لغة العرب لتعللوا في إعراضهم عنه بأنه ليس بلغتهم فهم لا يفهمونه، ولا استنكروا أن يُبعث نبي عربي بكتاب أعجمي، لكنا أنزلناه بلسان عربي مبين، فقطعنا به فرية المشككين في أنه من عند رب العالمين، فهو مكوّن من حروف كالتي يتكون منها كلامهم وبها ينطقون، وقد عجزوا عن معارضته فظهر أمر الله وهم كارهون، فذكر أن الله جعله موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين {. . ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} ٧١، وهكذا جعل الله القرآن هداية وشفاء من كل شك وريب وسقم لمن صدقه وقدّسه واتّبعه، ومن أعرض عنه فهو في الدنيا أعمى البصيرة وفي الآخرة أضل سبيلا، وأذنه ثقيلة عن سماع القرآن، صماء، كأنما ينادون من مكان ناء، فهم لا يسمعون ولا يفهمون: {. . كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون} ٧٢.

٤٢ - (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

{من بين يديه} مما أنزل الله من قبل.
{ولا من خلفه} لا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه.
{حميد} محمود.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٣ - (مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٤ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

{أعجميا} بلغة غير العرب.
{لولا فصلت آياته} هلا بينت آياته بلغتنا؟!
{أأعجمي وعربي} أقرآن أعجمي ونبي عربي؟!
{هدى وشفاء} من كل شك وريب وسقم.
{وقر} صمم.
{ينادون من مكان بعيد} فلا يسمعون ولا يفهمون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤١ إظهار

٤٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

{ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب (٤٥) من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٤٦)}.

وسنتنا أن نرسل الرسل وننزل الكتب، فمن المنذَرين مصدق ومكذب، فقد أنزلنا التوراة على موسى فاستيقنت به طائفة وكفرت طائفة، وهكذا حال قومك في شأن القرآن فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، ولولا أني قضيت أن أمهلهم لعاجلتهم بالهلاك كسابقهم، وإن قومك لفي شك مقلق من القرآن. ومن صدق وأبصر واستجاب فلنفسه كسب الخير والفوز، ومن كذب وجحد وعمي فعلى نفسه جر الخزي والعذاب، وربك لا يظلم العباد شيئا ولكن أنفسهم يظلمون.

[وروى العدول الثقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: (يا عبادي

إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) الحديث] ٧٣.

٤٦ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب (٤٥) من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٤٦)}.

وسنتنا أن نرسل الرسل وننزل الكتب، فمن المنذَرين مصدق ومكذب، فقد أنزلنا التوراة على موسى فاستيقنت به طائفة وكفرت طائفة، وهكذا حال قومك في شأن القرآن فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، ولولا أني قضيت أن أمهلهم لعاجلتهم بالهلاك كسابقهم، وإن قومك لفي شك مقلق من القرآن. ومن صدق وأبصر واستجاب فلنفسه كسب الخير والفوز، ومن كذب وجحد وعمي فعلى نفسه جر الخزي والعذاب، وربك لا يظلم العباد شيئا ولكن أنفسهم يظلمون.

[وروى العدول الثقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) الحديث] ٧٤.

٤٧ - (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)

{الساعة} القيامة.

{أكمامها} أوعيتها.

{أنثى} المراد به الجمع.

{آذنّاك} أسمعناك.

{*إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا أذنّاك ما منا من شهيد (٤٧) وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا مالهم من محيص (٤٨)}.

إلى الله دون سواه يرد علم الساعة، وعلم ما تنشق عنه الأكمام من ثمرات، وعلم ما تحمل الإناث وما يضعن ٧٥؛ ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ينادي سبحانه المشركين تحسيرا لهم واستهزاءً بهم- ويسألهم: أين من زعمتموهم شركاء لي؟ فيجيب الكفار {قالوا} يعني الأصنام، وقيل: المشركون؛ ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ٧٦ تجيبون: أسمعناك وأعلمناك ما منا أحد يشهد أن لك شريك؛ وغاب عنهم وانخذل الذي كانوا يدعونه في دنياهم من جِبْت أو طاغوت أو وثن أو نجم، وأيقنوا-إذ ألقوا من النار مكانا ضيقا مقرنين مقيدين-أن لا مهرب لهم منها، ولا متحول يصرفهم عنها.

٤٨ - (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)

{ضل} بطل.

{وظنوا} أيقنوا.

{محيص} مهرب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٧ إظهار

٤٩ - (لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)

{لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط (٤٩) ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ (٥٠) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض (٥١)}.

لا يملّ الإنسان ولا يفتر من تمني الزخارف والزينات والأعراض والأموال، وإن أصابه الشر أدنى إصابة انقطع أمله وخاب رجاؤه

وبدا الانكسار عليه فغدا قنوطا-واليئوس والقنوط من صيغ المبالغة، والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، وقدّم اليأس ربما لأنه صفة القلب وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من تضاءل وانكسار ولئن يسرنا عُسره وفرّجنا كربه ليقولن: أستحق هذا بتميزي، ولن يزول عني؛ ويتمادى به الغرور فيحسب أن نعمته باقية ولن تكون آخرة، وعلى تقدير مجيئها فلن أكون إلا في المحل الأرفع؛ هكذا حين يزيغ اليقين تزيغ العقول وتضطرب الموازين، وذلك شأن الكافرين المفتونين؛ يقول مولانا العليم الحكيم في شأن المتفاخرين المتكاثرين: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٧٧. وصاحب الجنتين إذا ذهبت زهرة الدنيا بلبه {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} ٧٨، وذاك الذي توعده الله بالويل: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٧٩ فالله يتوعدهم: {فلننبئن الذين كفروا بما عملوا} فلنعلمنهم ببوار أعمالهم، وخسار سعيهم {ولنذيقنهم من عذاب غليظ} كالقيد الثقيل لا يقدرون على الفكاك منه، ولا التزحزح عنه، وإذا بسطنا الرزق وأغنينا هذا الصنف من الخلق {أعرض} عن شكر المنعم وشكر النعمة برعاية حقها، {ونأى بجانبه} ترفع عن الانقياد إلى الحق واستطال على الناس، {وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض} وإذا أحللنا به المكروه وأنزلنا به الضيق والضر- مهما كان يسيرا- دعا كثيرا حتى أصبح صاحب دعاء عريض واستغاثة، والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.

[{ونأى بجانبه} تكبر واختال، على أن الجانب بمعنى الناحية. . ثم نزل جهة الشيء كناية منزلة الشيء نفسه،. . وقول الكُتّاب: كتبت إلى جانبه العزيز، يريدون نفسه. . وجوز أن يراد {بجانبه} عِطفه قال الطيبي: إن ما هنا وارد على التهكم {. . فذو دعاء عريض} أي كثير مستمر، مستعار مما له عرض متسع، وأصله مما يوصف به الأجسام، وهو أقصر الامتدادين، وأطولهما هو الطول. .] ٨٠.

[أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه. .] ٨١.

٥٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]

{لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط (٤٩) ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ (٥٠) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض (٥١)}.

لا يملّ الإنسان ولا يفتر من تمني الزخارف والزينات والأعراض والأموال، وإن أصابه الشر أدنى إصابة انقطع أمله وخاب رجاؤه وبدا الانكسار عليه فغدا قنوطا-واليئوس والقنوط من صيغ المبالغة، والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، وقدّم اليأس ربما لأنه صفة القلب وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من تضاءل وانكسار ولئن يسرنا عُسره وفرّجنا كربه ليقولن: أستحق هذا بتميزي، ولن يزول عني؛ ويتمادى به الغرور فيحسب أن نعمته باقية ولن تكون آخرة، وعلى تقدير مجيئها فلن أكون إلا في المحل الأرفع؛ هكذا حين يزيغ اليقين تزيغ العقول وتضطرب الموازين، وذلك شأن الكافرين المفتونين؛ يقول مولانا العليم الحكيم في شأن المتفاخرين المتكاثرين: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٨٢. وصاحب الجنتين إذا ذهبت زهرة الدنيا بلبه {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} ٨٣، وذاك الذي توعده الله بالويل: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٨٤ فالله يتوعدهم: {فلننبئن الذين كفروا بما عملوا} فلنعلمنهم ببوار أعمالهم، وخسار سعيهم {ولنذيقنهم من عذاب غليظ} كالقيد الثقيل لا يقدرون على الفكاك منه، ولا التزحزح عنه، وإذا بسطنا الرزق وأغنينا هذا الصنف من الخلق {أعرض} عن شكر المنعم وشكر النعمة برعاية حقها، {ونأى بجانبه} ترفع عن الانقياد إلى الحق واستطال على الناس، {وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض} وإذا أحللنا به المكروه وأنزلنا به الضيق والضر- مهما كان يسيرا- دعا كثيرا حتى أصبح صاحب دعاء عريض واستغاثة، والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.

[{ونأى بجانبه} تكبر واختال، على أن الجانب بمعنى الناحية. . ثم نزل جهة الشيء كناية منزلة الشيء نفسه،. . وقول الكُتّاب: كتبت إلى جانبه العزيز، يريدون نفسه. . وجوز أن يراد {بجانبه} عِطفه قال الطيبي: إن ما هنا وارد على التهكم {. . فذو دعاء عريض} أي كثير مستمر، مستعار مما له عرض متسع، وأصله مما يوصف به الأجسام، وهو أقصر الامتدادين، وأطولهما هو الطول. .] ٨٥.
[أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه. .] ٨٦.
٥١ - (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
{لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط (٤٩) ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ (٥٠) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض (٥١)}.
لا يملّ الإنسان ولا يفتر من تمني الزخارف والزينات والأعراض والأموال، وإن أصابه الشر أدنى إصابة انقطع أمله وخاب رجاؤه وبدا الانكسار عليه فغدا قنوطا-واليئوس والقنوط من صيغ المبالغة، والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، وقدّم اليأس ربما لأنه صفة القلب وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من تضاءل وانكسار ولئن يسرنا عُسره وفرّجنا كربه ليقولن: أستحق هذا بتميزي، ولن يزول عني، ويتمادى به الغرور فيحسب أن نعمته باقية ولن تكون آخرة، وعلى تقدير مجيئها فلن أكون إلا في المحل الأرفع، هكذا حين يزيغ اليقين تزيغ العقول وتضطرب الموازين، وذلك شأن الكافرين المفتونين، يقول مولانا العليم الحكيم في شأن المتفاخرين المتكاثرين: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٨٧. وصاحب الجنتين إذا ذهبت زهرة الدنيا بلبه {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} ٨٨، وذاك الذي توعده الله بالويل: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٨٩ فالله يتوعدهم: {فلننبئن الذين كفروا بما عملوا} فلنعلمنهم ببوار أعمالهم، وخسار سعيهم {ولنذيقنهم من عذاب غليظ} كالقيد الثقيل لا يقدرون على الفكاك منه، ولا التزحزح عنه، وإذا بسطنا الرزق وأغنينا هذا الصنف من الخلق {أعرض} عن شكر المنعم وشكر النعمة برعاية حقها، {ونأى بجانبه} ترفع عن الانقياد إلى الحق واستطال على الناس، {وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض} وإذا أحللنا به المكروه وأنزلنا به الضيق والضر- مهما كان يسيرا- دعا كثيرا حتى أصبح صاحب دعاء عريض واستغاثة، والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.
[{ونأى بجانبه} تكبر واختال، على أن الجانب بمعنى الناحية. . ثم نزل جهة الشيء كناية منزلة الشيء نفسه،. . وقول الكُتّاب: كتبت إلى جانبه العزيز، يريدون نفسه. . وجوز أن يراد {بجانبه} عِطفه قال الطيبي: إن ما هنا وارد على التهكم {. . فذو دعاء عريض} أي كثير مستمر، مستعار مما له عرض متسع، وأصله مما يوصف به الأجسام، وهو أقصر الامتدادين، وأطولهما هو الطول. .] ٩٠.
[أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه. .] ٩١.
٥٢ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)
{قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد (٥٢) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣) ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (٥٤)}.
قل لهم يا محمد أرأيتم إن كان القرآن من عند الله- وهو كذلك- ثم جحدتم بصدقه مع تعاضد موجبات الإيمان به فأخبروني من أضل منكم في خلافكم له خلافا غاية البعد عن الحق؟! [إن في قوله تعالى: {قل أرأيتم إن كان من عند الله} إشعار بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به، وأنهم مسلّمون ذلك، لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل. .] ٩٢.
سنريهم دلائل صدق آياتنا في جنبات الأرض أو آفاق السماء وفي أنفسهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، أوليس يكفي المكذبين به الجاحدين تنزيله أن ربك ورب العالمين موحيه، وهو على كل شيء مطّلع، وبأحواله عليم؟!.

ألا إنهم في شك عظيم من البعث والحشر والحساب والثواب والعقاب الذي وعد الله؛ ألا إنه يعلم ما تنقص الأرض منهم، وهو قادر على كل ما أراد، محيط بما ظهر وما بطن، وما يبصرون وما لا يبصرون. [المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته. . وهو المتصرف فيها كلها بحكمته] ٩٣.

[{سنريهم آياتنا في الآفاق} وهي الفتوح الواقعة على أيدي الخلفاء الراشدين والتي ستقع على أيدي أنصار دينه إلى يوم القيامة {وفي أنفسهم} وهي فتح مكة وسائر الفتوح التي وجدت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم {حتى يتبين لهم أنه} أي محمدا أو القرآن أو الدين {الحق} ووجه التبين أن هذا إخبار عن الغيب فإذا وقع مطابقا دل على صدق المخبر بل إعجازه؛ وواحد {الآفاق} أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض والسماء؛ وعند المحققين: الآيات الآفاقية هي الخارجة عن حقيقة الإنسان وبدنه كالأفلاك والكواكب، والظلم والأنوار؛. . ولا ريب أن العجائب المودعة في هذه الأشياء مما لا نهاية لها. . والآيات النفسية هي التي أودعها في تركيب الإنسان وفي ربط روحه العلوي ببدنه. .] ٩٤.

والله تعالى أعلم.

٥٣ - (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد (٥٢) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣) ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (٥٤)}.

قل لهم يا محمد أرأيتم إن كان القرآن من عند الله- وهو كذلك- ثم جحدتم بصدقه مع تعاضد موجبات الإيمان به فأخبروني من أضل منكم في خلافكم له خلافا غاية البعد عن الحق؟! [إن في قوله تعالى: {قل أرأيتم إن كان من عند الله} إشعار بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به، وأنهم مسلّمون ذلك، لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل. .] ٩٥.

سنريهم دلائل صدق آياتنا في جنبات الأرض أو آفاق السماء وفي أنفسهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، أوليس يكفي المكذبين به الجاحدين تنزيله أن ربك ورب العالمين موحيه، وهو على كل شيء مطّلع، وبأحواله عليم؟!.

ألا إنهم في شك عظيم من البعث والحشر والحساب والثواب والعقاب الذي وعد الله؛ ألا إنه يعلم ما تنقص الأرض منهم، وهو قادر على كل ما أراد، محيط بما ظهر وما بطن، وما يبصرون وما لا يبصرون. [المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته. . وهو المتصرف فيها كلها بحكمته] ٩٦.

[{سنريهم آياتنا في الآفاق} وهي الفتوح الواقعة على أيدي الخلفاء الراشدين والتي ستقع على أيدي أنصار دينه إلى يوم القيامة {وفي أنفسهم} وهي فتح مكة وسائر الفتوح التي وجدت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم {حتى يتبين لهم أنه} أي محمدا أو القرآن أو الدين {الحق} ووجه التبين أن هذا إخبار عن الغيب فإذا وقع مطابقا دل على صدق المخبر بل إعجازه؛ وواحد {الآفاق} أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض والسماء؛ وعند المحققين: الآيات الآفاقية هي الخارجة عن حقيقة الإنسان وبدنه كالأفلاك والكواكب، والظلم والأنوار؛. . ولا ريب أن العجائب المودعة في هذه الأشياء مما لا نهاية لها. . والآيات النفسية هي التي أودعها في تركيب الإنسان وفي ربط روحه العلوي ببدنه. .] ٩٧.

والله تعالى أعلم.

٥٤ - (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد (٥٢) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣) ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (٥٤)}.

قل لهم يا محمد أرأيتم إن كان القرآن من عند الله- وهو كذلك- ثم جحدتم بصدقه مع تعاضد موجبات الإيمان به فأخبروني من أضل منكم في خلافكم له خلافا غاية البعد عن الحق؟! [إن في قوله تعالى: {قل أرأيتم إن كان من عند الله} إشعار بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به، وأنهم مسلّمون ذلك، لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل. .] ٩٨.
سنريهم دلائل صدق آياتنا في جنبات الأرض أو آفاق السماء وفي أنفسهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، أوليس يكفي المكذبين به الجاحدين تنزيله أن ربك ورب العالمين موحيه، وهو على كل شيء مطّلع، وبأحواله عليم؟!.
ألا إنهم في شك عظيم من البعث والحشر والحساب والثواب والعقاب الذي وعد الله، ألا إنه يعلم ما تنقص الأرض منهم، وهو قادر على كل ما أراد، محيط بما ظهر وما بطن، وما يبصرون وما لا يبصرون. [المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته. . وهو المتصرف فيها كلها بحكمته] ٩٩.
[{سنريهم آياتنا في الآفاق} وهي الفتوح الواقعة على أيدي الخلفاء الراشدين والتي ستقع على أيدي أنصار دينه إلى يوم القيامة {وفي أنفسهم} وهي فتح مكة وسائر الفتوح التي وجدت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم {حتى يتبين لهم أنه} أي محمدا أو القرآن أو الدين {الحق} ووجه التبين أن هذا إخبار عن الغيب فإذا وقع مطابقا دل على صدق المخبر بل إعجازه، وواحد {الآفاق} أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض والسماء، وعند المحققين: الآيات الآفاقية هي الخارجة عن حقيقة الإنسان وبدنه كالأفلاك والكواكب، والظلم والأنوار، . ولا ريب أن العجائب المودعة في هذه الأشياء مما لا نهاية لها. . والآيات النفسية هي التي أودعها في تركيب الإنسان وفي ربط روحه العلوي ببدنه. .] ١٠٠.
والله تعالى أعلم.
خاتمة تفسير سورة فصلت:
السور الخمس المباركات دعت إلى توحيد الله تعالى وتقديسه، وإلى اليقين بآياته ورسالاته، والتصديق بالرجوع إلى ربنا-جل وعز- وملاقاته، وتوفية كل محسن أو مسيء جزاء ما قدم في حياته، وبينت جحود أكثر بني الإنسان، وبصّرت بسبيل الدعوة إلى الإيمان، وهدت إلى صراط العدل والفضل والإحسان.
في تقديس المولى سبحانه نتابع في هذه السور المحكمات ثناء على ربنا الكبير المتعال المتفرد بالجلال بأنه {العزيز العليم} ١٠١ {العزيز الغفار} ١٠٢ {الواحد القهار} ١٠٣، فتبارك عالم الغيب والشهادة. مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار، فاطر السماوات والأرض الولي الحميد، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ١٠٤.
كم فيها من برهان على أن الله أحد صمد.
{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} ١٠٥، {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} ١٠٦ {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه} ١٠٧ {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} ١٠٨ {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} ١٠٩، {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ١١٠، فادعوا الله مخلصين له الدين، وأنيبوا إلى رفيع الدرجات العلي الحكيم.
وعهد الله إلى العباد أن يستيقنوا بالفرقان المنزل من لدنه سبحانه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، فقد جعل موحيه-عز شأنه- نورا يهدي إلى السعادة وإلى دار السلام: {. . وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ١١١. {. . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء}

١١٢؛ ويظفر بهدايته وبركته من تفهمه وتعلمه واستقام منهاجه: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} ١١٣ {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} ١١٤.

والتدبر: يعني: النظر في عاقبة الآيات وما تؤول إليه، ويعني: إمعان الفكرة فيها، والتحدث بما هدت إليه، ومما قال أبو حنيفة: الدبرة: البقعة من الأرض تزرع؛ والدبر: المال الكثير الذي لا يحصى كثرة؛ فكأن عظم خيرات القرآن يدركها من تعقل آياته، وأكثر من النظر في عواقبها وما تؤول إليه، وحدّث بذلك ما استطاع.

كما أن من عهد الله في هذا الكتاب المجيد أن يتذكره العقلاء، وأن يحفظوه ويدرسوه ويقرءوه؛ قال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب والدراسة للحفظ.

وإلا كان الطبع على الفؤاد، كما قال الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. ومن حاد عن آيات ربنا التكوينية والتنزيلية، ومال عن القصد فيها، وماري وجادل، وشك وأزرى، فقد باء بغضب شديد، ووقع في ضلال بعيد: {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} من سورة غافر الآية ٣٥؛ غرهم بالله الغرور فاستكبروا عن آياته: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} من سورة غافر. الآية ٥٦؛ ومهما أسروا قولهم الآثم أو جهروا به فإن مكرهم عند ربهم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} من سورة (فصلت) من الآية ٤٠؛ و [ألحد] تعني: مال وجار، وعدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه، وأزرى به.

والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ١١٥.

وجاءنا في هذه السور من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويهدي إلى الرشاد، فسلام على داود النبي الأوّاب، وعلى سليمان الذي أوتي ملكا لم ينله أحد من بعده، فسأل الله أن يعينه على شكر نعمة العزيز الوهاب، وأيوب الصابر نعم العبد إنه أواب، وإبراهيم وإسحق ويعقوب و {. . . إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} ١١٦، وموسى الذي أرسل بالبرهان والسلطان إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، فمن الله على موسى وهارون، وآتاهما الكتاب المستبين، وأغرق القوم المجرمين؛ ولا تحول سنة الله في الآخرين، ولن تتبدل إلى يوم الدين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ١١٧، فاستكملوا الإيمان بدينكم يؤيدكم الله على عدوه وعدوكم، وينصركم في أولاكم وفي آخرتكم.

وعشرات من الآيات تترى في يوم التلاق {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} ١١٨، {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} ١١٩، {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة واهم سوء الدار} ١٢٠، تحذر أهواله ونكاله، وخزيه ووباله، إذ تجمع الزبانية أوائل المجرمين على أواخرهم، وتتكلم بأوزارهم عظامهم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون}، حين يوقفون على شفير جهنم تتحدث أجزاؤهم بما قدموه من قول وعمل لا تكتم منه شيئا، فيلومون جلودهم وحواسهم وأوصالهم، إذ أقرت بما يحتم عذابهم {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ١٢١ وترد عليهم الجلود بالحق، وتلومهم على غفلتهم عن سر الخلق.

وهناك لن يحتاج كل فاجر نفسه وكفى، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها، وإن للطاغين لشر مآب، {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ١٢٢ {ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون} ١٢٣.

فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري

من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد} ١٢٤ {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب} ١٢٥، فاستيقنوا بالبعث والحساب، وتزوّدوا ليوم المآب، ولا تشغلنكم عنه زخارف العاجلة فإنها سراب، وابتغوا عند الله الحياة الطيبة وعظيم الثواب، فقد وعد بذلك في محكم الكتاب: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} ١٢٦.
وبصّرت هذه السور بنفس الإنسان:
فالظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم
وصدق الله العظيم: {. . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم}ّ ١٢٧، وأكثر البشر كنود، ولنعمة ربه جحود {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل} ١٢٨ {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة} ١٢٩ {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض} ١٣٠ {. . وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور} ١٣١، لكن المفلح من تزكى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشكر أنعم الله، وإذا أصابته مصيبة صبر وقال: إنا لله، {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} ١٣٢، فلا تفتن بعلم ولا مال ولا جاه، وقل: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم تبطرني السعة فأنساه- {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه} ١٣٣.
والكتاب الحكيم بيّن في واحدة من هذه السور دعوة مؤمن حكيم يكتم إيمانه، أربع عشرة آية تتابعت تهدي للتي هي أقوم، تبشر من آمن واتقى بالثواب الأكرم، وتنذر المشركين بطش الجبار وحر جهنم؛ وتبليغ رسالات الله يتصدى له منه لا يخشى سواه؛ والمؤمن يُلْزِمُه الله تعالى بفضله كلمة التقوى، ويهديه إلى الطيب اللين من القول ليذكر من يخشى، وبالدعوة المستبصرة يتزكى من سبقت له الحسنى؛ فلندع إلى ربنا بالبينات والهدى، ولنترفق بمن ندعوهم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.
واستحفظنا ميثاق الحق في مواطن كثيرة من هذه السور، فالكتاب العزيز نزل ١٣٤ بالحق، وربنا استخلفنا لنقيم الحق ١٣٥، وخلق الله السماوات والأرض بالحق ١٣٦، وربنا يفصل بين عباده بالحق ١٣٧؛ وأثنى مولانا على من أخذ بحقه ممن عدا عليه ١٣٨.
ومع تقديس العدل، فقد حبب إلينا أن لا نغلق باب العفو والصفح نبلغ منازل أهل الفضل ١٣٩.
والله يهدينا إلى صراطه المستقيم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٤٢ سورة الشورى:

سورة الشورى:
سورة الشورى
مكية
وآياتها ثلاث وخمسون
كلماتها: ٨٦٦؛ حروفها: ٣٠٨٨.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١) عسق (٢)}
هما اسمان للسورة. أو يراد بهما التحدي، كأن المعنى: الحاء والميم والعين والسين والقاف أسماء حروف تنطقون بها. ومنها يتألف

كلامكم؛ والكتاب الحكيم الذي أنزلناه على نبينا مكون من مثل هذه الحروف، ولكنكم عجزتم عن الإتيان بمثله، فلتعلموا إذا أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام رب القوى والقدر، وربما يكون المعنى: الإشارة إلى جانب من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا والحلف بها.

يقول بعض المفسرين: {الحاء} من الرحمن، و {الميم} من المجيد، و {العين} من العليم، و {السين} من القدوس، و {القاف} من القاهر. أو {الحاء} حلمه، و {الميم} مجده، و {العين} علمه، و {السين} سناه، و {القاف} قدرته، أقسم الله بها.

٢ - (عسق)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{حم (١) عسق (٢)}

هما اسمان للسورة. أو يراد بهما التحدي، كأن المعنى: الحاء والميم والعين والسين والقاف أسماء حروف تنطقون بها. ومنها يتألف كلامكم؛ والكتاب الحكيم الذي أنزلناه على نبينا مكون من مثل هذه الحروف، ولكنكم عجزتم عن الإتيان بمثله، فلتعلموا إذا أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام رب القوى والقدر، وربما يكون المعنى: الإشارة إلى جانب من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا والحلف بها.

يقول بعض المفسرين: {الحاء} من الرحمن، و {الميم} من المجيد، و {العين} من العليم، و {السين} من القدوس، و {القاف} من القاهر. أو {الحاء} حلمه، و {الميم} مجده، و {العين} علمه، و {السين} سناه، و {القاف} قدرته، أقسم الله بها.

٣ - (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم (٣)}.

الذي أوحيناه إليك مثل الذي أوحينا إلى رسلنا السابقين، في الدعوة إلى الحق، وهداية الخلق.

والفعل: {يوحي} مضارع يراد به المضي؛ وهو وحي عزيز لا يُغالب ولا يُمانع، حكيم لا يفوته شيء، بل يقضي ويُدبر الأمر موافقا للحكمة، وهو المعبود ذو الجلال.

٤ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

{له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم (٤)}.

علّمنا مولانا ما يهدينا إلى جلاله وهيمنته، فهو المالك للسماوات وما فيها من ملَك وفلَك، ونجم وكوكب، وله السلطان والاقتدار، والملك والتدبير في الأرض وما عليها ومن عليها وما فيها {. . الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه} ١ وهو متعالي المقام، مسيطر على كل الخلق.

{العظيم} الذي جاوز قدره وجلّ عن حدود العقول، حتى لا تُتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته؛ وعظمة الله سبحانه لا تكيف ولا تُحد ولا تمثل بشيء؛ ويجب على العباد أن يعلموا أنه عظيم، وأن يستيقنوا بعظمته بلا كيفية ولا تحديد. وأما وصف عقاب أصحاب النار ب {عذاب عظيم} فهو بمعنى: مهول مستنكر؛ وكذا وصف مكر النساء واحتيالهن بالعظمة كما في الآية الكريمة: {. . إن كيدكن عظيم} ٢ فالمراد بعظمة الكيد: هولُه ونُكْره.

٥ - (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

{تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن}.

توشك السماوات أن تتشقق من عظمة الله وجلاله فوقهن؛ أو الانفطار يبتدئ من أعلى السماوات أو ما فوقها إلى أن ينتهي إلى السفلى.

يقول بعض المفسرين: وفي الابتداء من جهة الفوق تفظيع وتهويل.

{والملائكة يسبحون بحمد ربهم}.

عامة الملائكة يقرنون تنزيه المولى عما لا يليق بجلاله بمدحه والثناء عليه بكامل عليائه وسابغ أفضاله، وفي سورة أخرى بينت آيات كريمات أن أشراف الملأ الأعلى ينزهون الله العلي الكبير ويحمدونه {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم} ٣ وهذه الآية شملت كافة الملائكة.

{ويستغفرون لمن في الأرض}.

يسألون الله الغفران للناس. يقول بعض المفسرين: يحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا} ٤ إلى أن قال: {إنه كان حليما غفورا} ٥ وقوله تعالى: {. . وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} ٦ والمراد الحلم عنهم، وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاما.

أقول: معنى الغفران في اللغة والشرع ظاهر فهو الستر ومحو الذنوب، والله سبحانه علّم نبيه الكريم لمن تكون المغفرة فقال عز من قائل: {. . واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} ٧ كما بيّن ماذا على أهل الإيمان حيال الاستغفار للجاحدين بقول الله الحكيم: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه} ٨ وما يرضى القرآن الكريم بغير هذا: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} ٩. فاتضح بعد الذي قدمنا أن العموم المستفاد من قوله: {ويستغفرون لمن في الأرض} مخصوص بما مر. . أي يستغفرون للمؤمنين منهم.

{ألا إن الله هو الغفور الرحيم (٥)}.

الغفور لذنوب مؤمني عباده {الرحيم} بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

قال بعض العلماء: هيّب وعظم جل وعز في الابتداء وألطف وبشر في الانتهاء، يشيرون إلى قول الله الكريم في الآية السابقة: {وهو العلي العظيم} وبدء هذه الآية: {تكاد السماوات يتفطرن} ثم ختمت باللطف والبشرى: {. . ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم}.

٦ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

{والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم}.

والكفار الذين أشركوا بالله وجعلوا له أندادا، ونصبوا أصناما يعبدونها- وما يعبد بحق إلا العلي العظيم- هؤلاء يحصي المولى ويرقب أعمالهم وأحوالهم ويستنسخها، ليجازيهم.

{وما أنت عليهم بوكيل (٦)}.

لست يا محمد بموكول إليك أمرهم، إنما أنت منذر، وعليك البلاغ، وإلينا مرجعهم وعلينا الحساب.

٧ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

{وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا}.

مثلما ارتضيتك والرسل السابقين للدعوة إليّ، أنزلت على من شئت منهم كتبا من عندي، وأنزلت عليك كتابا جمع أصول الكتب السابقة، وصدقها وهيمن عليها، وجعلته بلسان عربي مبين لأن العرب قومك، ولأني أعلم من الحكمة في ذلك ما لا يعلم الخلق. وكأن العطف هنا على المعنى المشار إليه في الآية الثالثة من هذه السورة: {كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله} هذا والأصل اللغوي [القرآن] ربما يكون القرء والجمع، وسمي كتاب الله المجيد {قرآنا} لأنه جمع أصول الرسالات والشرائع التي أنزلها الله قبل هذا الذكر الحكيم.

{لتنذر أم القرى ومن حولها}.

أنزلنا إليك هذا القرآن لتنذر أهل مكة وتحذرهم عاقبة عبادة الأصنام والتمادي في البغي والعصيان، وسميت مكة {أم القرى} لأنها مركز دائرة المدائن- كما أن مركز الدائرة هو محورها الذي تدور من حوله، ولقد ثبت لمهندس متخصص في بحث له أن المسجد الحرام هو

قلب الدنيا ووسطها- {ومن حولها} العالم كله، فإن رسالة القرآن عامة وشاملة؛ وصدق الله موحيه: {وما أرسلناك إلا كافة للناس} ١٠ {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} ١١ وفي العبارة مجاز عقلي، فليس المراد أن يحذر بنيان مكة، وإنما إنسان مكة، فكأن المراد: لتنذر أهل أم القرى.

{وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه}

وتحذر من الشك في مجيء يوم القيامة - يوم يحشر الله الخلق جميعا-ومن الغفلة عن التزود له، ومما ينتظر المكلفين فيه من أهوال.

{فريق في الجنة وفريق في السعير (٧)}.

يوم الجمع يقضي الله بين العباد، ويجزي الذين آمنوا وأحسنوا فيأمر بهم إلى دار النعيم والثواب الكريم المقيم {الجنة} ويأمر سبحانه-أن يصار بأهل الفسوق والكفر إلى دار العذاب والخزي والحريق والذل {السعير}.

٨ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

{ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة}.

لو أراد المولى أن يجعل الفريقين- فريق الجنة وفريق في السعير- لو شاء سبحانه لجعلهم في الدنيا أهل دين واحد، أو أهل هداية.

{ولكن يدخل من يشاء في رحمته}.

يدخل الله في الإسلام من شمله بالرحمة التي تحوطه في أولاه وأخراه، فإن رحمته في الدنيا تشمل المؤمن والكافر، أما في الآخرة فمع سعتها لا ينالها إلا من آمن وعمل صالحا، كما شهد بذلك القرآن العزيز {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة {والذين هم بآياتنا يؤمنون} الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ} ١٢.

{والظالمون مالهم من ولي ولا نصير (٨)}.

لكن من أشرك فقد افترى إثما عظيما {إن الشرك لظلم عظيم} ١٣ {. . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم} ١٤ فهؤلاء بظلمهم يخذلهم الله فلا يدخلهم في ثوابه، ولن تجد لهم وليا ولن تجد لهم نصيرا؛ يقول بعض المفسرين:. . ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين. . وإنما قيل: {والظالمون مالهم من ولي ولا نصير} وكان الظاهر أن يقال: ويدخل من يشاء في عذابه ونقمته للإيذان بأن الإدخال في العذاب. . بموجب سوء اختيارهم لا من جهته عز وجل. . ولو شاء تعالى مشيئة قدرة لقسرهم- أجبرهم- على الإيمان؛ ولكنه سبحانه شاء مشيئة حكمة، وكلفهم، وبنى أمرهم على ما يختارون. . وترك الظالمين بغير ولي ولا نصير. . اه.

٩ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{أم اتخذوا من دونه أولياء}.

بل اتخذوا متجاوزين الله تعالى أولياء من الأصنام وغيرها فكان جزاؤهم من جنس عملهم أن قطعهم الله عن ولايته، فهم في الدنيا تستهويهم الشياطين فيعيشون حيارى مرتابين، وفي الآخرة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، فما لهم من شافعين، ولا صديق حميم {آية}، ولا نصير يخلصهم من عذاب السعير.

{فالله هو الولي}.

فما وجد شيئا من فقد الله، {. . وهو يتولى الصالحين} ١٥، وأولياؤه سبحانه هم أهل كرامته في الدنيا والآخرة. . يقول بعض المفسرين: هو جواب شرط مقدر، أي إن أرادوا وليا بحق فالله تعالى هو الولي بحق لا ولي سواه عز وجل. . اه.

{وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٩)}.

فهل الذين اتخذوهم أربابا من دون الله يملكون شيئا أو يقدرون على شيء؟! وهكذا جاء البرهان في القرآن: {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا} ١٦، وما دامت معبوداتهم بهذا العجز فلا ينبغي لعاقل أن يدع عبادة القوي القدير إلى ضعاف لا يملكون ولا يقدرون ولا ينفعون؛ بل إنما الرب المعبود هو المتفرد

بإحياء الموتى وإليه المصير.

١٠ - (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

}وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله{.

كأن في الكلام إضمار تقديره: قل يا محمد للمؤمنين: وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين كاتخاذ الله تعالى وحده وليا فاختلفتم أنتم وهم فالحكم فيه راجع إلى الله جل علاه، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره.

}ذلكم الله ربي{

الذي يملك البعث والنشور، والذي له الخلق والأمر والذي يحكم لا معقب لحكمه، هو الله ربي، معبودي ووليي ومالكي ومصلح أمري.

}عليه توكلت وإليه أنيب (١٠){.

اعتمادي في كل أموري ليس إلا عليه، وإقبالي ورجوعي ليس إلا إليه.

١١ - (فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

}فاطر السماوات والأرض{.

المنشئ والمبدع الخالق للسماوات والأرض هو الله ربي.

}جعل لكم من أنفسكم أزواجا{.

خلق لكم من جنسكم نساء يكُنّ لكم زوجات، أو خلق لكم من أنفسكم إناثا، لأنه خلق حواء من ضلع آدم.

}ومن الأنعام أزواجا{.

وخلق من البهائم التي نشرب من ألبانها، ونأكل لحمها ولحم نسلها-وهي الثمانية التي بينها القرآن في سورة الأنعام- ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز، وإناثها.

}يذرؤكم فيه{.

يكثركم الله تعالى ويكثر الأنعام بما جعل سبحانه للناس وللأنعام من أزواج يكون بينهم توالد؛ والذرء: البث والتكثير، و }فيه{ بمعنى به. يقول بعض المفسرين: وغلب في }يذرؤكم{ المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل. فلم يقل يذرؤكم ويذرؤهم ويذرؤها واكتفى بما هو للعقلاء المخاطبين تغليبا لهم على الأنعام التي لا تعقل.

}ليس كمثله شيء{.

الكاف للتوكيد، أي: ليس مثله شيء. . ومذهب أهل الحق والسنة والجماعة أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه وعلى جليل صفاته، لا يشبه شيئا من مخلوقاته. يقول بعض العلماء: التوحيد: إثبات ذات غير مشبهة للذوات. ولا معطلة من الصفات. . اه.

}وهو السميع البصير (١١){.

المدرك المحيط بجميع المسموعات، المحيط بجميع الموجودات، فلا يغيب عن سمعه سبحانه ولا عن بصره شيء.

١٢ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

}له مقاليد السماوات والأرض{.

لله مفاتيح خزائن السماوات والأرض؛ والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن. يقال للمفتاح إقليد، وجمعه على غير قياس.

}يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر{.

يوسع رزق من أراد- سبحانه- أن تتسع معايشه، ويعطي من يشاء رزقه بقدر ضيق، [وقدر] بهذا المعنى جاء مقابلا للسعة في آية كريمة: }لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا{ ١٧.

{إنه بكل شيء عليم (١٢)}.
تام الإحاطة بكل شيء، فيدبر كل أمر على مقتضى علمه الذي لا يغيب عنه ما قل ولا ما كثر.
١٣ - (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)
{*شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى}.
الله الولي، المبدئ المعيد، بديع السماوات والأرض. السميع البصير، الرزاق العليم، بيّن لنا وسنّ. وأوضح وشرع من العهد والميثاق ما عهد به إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى. يقول بعض المفسرين:. . . أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلف إليه بما يَرُدُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى، والأذية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله مشروع، دينا واحدا وملة متحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم. . اه.
{أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}
فليستقر هذا الدين بينكم وليستمر ولتصونوه وتقيموه فيكم من غير خلاف فيه ولا اضطراب، فتوحيد الله وطاعته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وبيوم الجزاء، وبسائر ما يكون به المكلف مسلما، هذا هو الدين الذي دعت إليه كل الرسل، لكن الشرائع تختلف فيما وراء هذا من معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة واتجهت الحكمة إلى تشريعه في كل زمن ولكل أمة حسب أحوالها.
{كبر على المشركين ما تدعوهم إليه}.
شقّ على الكفار وعظم ثقل ما تناديهم إليه من التوحيد وعهود الله ومطالب الدين ومواثيقه.
{الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب (١٣)}.
ومهما أعرضوا عن الحق، ومالوا عن الهدى، وعملوا على إطفاء نور الإسلام، فإن الله يأبى إلا أن يظهر دينه، ويُعزّ جنده، ويختار لدين الحق من يريد، ويشرح له صدر من يرجع إلى طريق مولاه.
١٤ - (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)
{وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم}.
لم تتفرق أمم الأنبياء منذ بعث نوح عليه السلام بسبب جهالة آثار الفرقة، لكن أنبياءهم حذروهم ضلال الفرقة وفساد الخلاف وعاقبة التنازع؛ أو لم يتفرق من دعوتهم يا محمد عن جهل منهم بصدق نبوتك، بل هم يعلمون أنك صادق؛ وهكذا شهد القرآن عليهم: {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} ١٨ والكتابيون والمشركون في ذلك سواء، فإن المولى العليم لم يعزب عن علمه ما قال زعماء الشرك منذ مبعث النبي الخاتم، بل حكى الكتاب الحكيم ما كان منهم قبل مبعثه وبعده: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ} ١٩. وبنو إسرائيل وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل كانوا يتوعدون المشركين بالهزيمة حالما يُبعث نبي آخر الزمان فيتبعونه ويكونون معه على عباد الأوثان والأصنام. {. . وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} ٢٠.
{بغيا بينهم}.
ظلما وتجاوزا للحق؛ فليس تفرقهم لقصور في البرهان، ولكن أعمى بصائرهم الجحود والمراء والكفران، يقول المولى تبارك اسمه: {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده} ٢١ ويقول سبحانه: {وما تفرق الذين

أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة}. ٢٢

}ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم{

ولولا وعد ربنا بتأخير عذاب المكذبين بالحق إلى حين يعلمه الله سبحانه- إما حين حلول هزيمتهم وخزيهم، أو انقضاء آجالهم، أو يوم لقاء ربهم- لولا هذه العدة لعجل الله بطشته بهم.

}وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب (١٤)}

إن الذين ورثوا كتابي التوراة والإنجيل بعد المختلفين فيهما من أسلافهم لفي ريبة وتهمة من صدق ما جاءهم مما أوحي من الله إلى أنبيائهم ومن جملته أن يتركوا الاختلاف والفرقة والتنازع في الدين.

١٥ - (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

}فلذلك فادع{

فإلى ما عهدت به إلى كل الأنبياء- من إقامة الدين وعدم الاختلاف والتنازع فيه- فادع الناس يا محمد.

}واستقم كما أمرت{

واستقم على دعوة العباد إلى القرآن، واستدم واثبت على تبليغ الرسالة.

}ولا تتبع أهواءهم{

لا تبال بالمخالفين، ولا تطع المكذبين، فبودهم لو لنت في دعوتك فيلينون،.

}وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب{

أعلمهم أن الدين الذي ارتضيته لا يقبل إلا ممن آمن بكل ما أنزل الله، وأنك مؤمن بها جميعا.

}وأمرت لأعدل بينكم{

في التبليغ والحكم. قال بعض المفسرين: لأسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعلمه، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أفرق بين أصاغركم وأكابركم في إجراء حكم الله عز وجل. . أ ه

}الله ربنا وربكم{.

الله خالقنا وخالقكم، ومالك الأمر جميعا؛ أو خالق الكل ومتولي أمره؛ فليس المراد خصوص المتكلم والمخاطب.

}لنا أعمالنا ولكم أعمالكم{.

جزاءنا على أعمالنا عاقبته تؤول إلينا وسنوفاه حسنا أو سوءا، وأعمالكم لن يتجاوزكم جزاؤها، فلن نُسأل عما أجرمتم ولن تسألوا عما فعلنا.

}لا حجة بيننا وبينكم{.

لم تعد تفيدكم الحجة، ولا ينفع البرهان، بعد أن خالفتم الحق مكابرة وعنادا، وجحودا وبغيا واستكبارا.

}الله يجمع بيننا وإليه المصير (١٥)}.

يوم النشور والحشر والحساب يقضي الله بيننا، ويحكم في مصيرنا، ويجازي كلا بما كان منه.

١٦ - (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

}والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له، حجتهم داحضة عند ربهم{.

من يجادل في الله ودينه بغير علم، ويخاصم في هداه بالهوى وقد دخل الناس في رحاب الرشد، واستجابوا لدعوة الحق، وأجابوا داعي الله؛ فمراؤهم زائغ وزائل وباطل، وربما تكون إشارة إلى ما كان يغالط به أهل الكتاب مما حكاه عنهم القرآن ورد إفكهم: }وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قولوا آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} ٢٣، وما مالئوا به أهل الشرك: {ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك لعنهم الله} ٢٤.

{وعليهم غضب ولهم عذاب شديد (١٦)}

يحل الله عليهم غضبه العظيم لمكابرتهم وتماديهم في الغواية بعد أن تبين الرشد وظهر، وأعد الله لهم عذابا لا يقادر قدره، ولا تحيط العقول بخطره ومبلغ شره.

١٧ - (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

{الله الذي أنزل الكتاب بالحق}.

وحي ربنا وكلماته، وكتبه ورسالاته، جاءت تبين الحق وتهدي إليه وتمسك به، وما تنزل من عند الله كتاب فيه باطل، أويستطيع جبار أن يبطله، وصدق الله العظيم: {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل} ٢٥.

{والميزان}

العدل والقسط، فالله لا يرضى للناس أن يتظالموا أو يبغي أحد على أحد، أو يبخس واحد حق آخر، ولقد جعل الله هذا الميثاق مطلب الرسالات جميعا: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} ٢٦

{وما يدريك لعل الساعة قريب (١٧)}.

لعل البعث والحساب والجزاء قريب منك وأنت لا تدري. وإن كان الخطاب للنبي محمد- صلى الله عليه وسلم- فإنه موجه إلى كل من يعقل- يحض على العمل بالكتاب، والعدل، والوفاء بعهود الشريعة، قبل أن يفاجأ اليوم الذي يكون فيه وزن الأعمال والجزاء عليها، فيوفّى لمن أوفى، ويأتي الجائر الفاجر فلا يجد شيئا إلا الجحيم والعذاب الأليم.

١٨ - (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)

{يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها}.

ومع أن يوم الفصل ليس ببعيد فإن المنكرين يستعجلون مجيء هذا اليوم، استهزاءا ويأسا من تحققه {قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين} ٢٧.

{والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق}.

والموقنون المصدقون خائفون منها وجلون، لأنهم مع جهدهم في الطاعة يستقصرون أمرهم: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} ٢٨، وهكذا جعل اليقين بالآخرة والخوف من أحوالها وأهوالها قرين الاهتداء بهدى الله والاستنارة بنوره: {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٢٩

{ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد (١٨)}.

إن الذين يشكون في الساعة ويترددون في التصديق بمجيئها ضلوا عن الحق، وحادوا عن طريق الرشاد {بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون} ٣٠ إذ لو بقيت فيهم آثار من نور البصيرة لعلموا أن الذي بدأ قادر على الإعادة وهو أهون عليه، وأن الذي يحيي الأرض بعد موتها يبعث الموتى من قبورهم، وأن الذي يتوفى الأنفس حين نومها بعد رقادها قادر على أن يحيي الموتى، وفي المأثور: والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون.

١٩ - (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

{الله لطيف بعباده يرزق من يشاء}

ربنا حفي بر بعباده المؤمنين، يتقبل القليل، ويعطينا عليه الأجر الجزيل، والثواب الجميل، ويمنحهم - تبارك اسمه- ويهب من جوده وعطائه، ويوسع لهم معيشتهم، مع ما أعد لهم من النعيم في آخرتهم-كما جاءت بذلك البشرى في الآية الكريمة {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} ٣١. وكذا الآية المباركة: {ليجزيهم الله أحسن

ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} ٣٢.
}وهو القوي العزيز (١٩)}.
وهو المقتدر الذي لا يغالب.
٢٠ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)
}من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه}.
الحرث في اللغة: إلقاء البذر في الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها، أي من كان يريد بعمله طاعة الله ورضوانه ندخله جنات النعيم في أخراه، مع ما نعجل له من خير في دنياه.
}ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب (٢٠)}
ومن ابتغى بعمله منافع الدنيا فليتمتع في هذه الدنيا الفانية، ولا حظ له في الدار الباقية.
٢١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
}أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}.
بل للمشركين شركاء من أوثانهم وأصنامهم، شرعت هذه الأصنام لعابديها، وزينت ما لم يرضى به الله من الشرك وإنكار البعث والنشور والعمل للدنيا.
}ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم}
ولولا ما وعدهم الله به من الحكم بين العباد يوم الفصل، وتأخير عذابهم إلى يوم يلقونه لقضي بينهم عاجلا، فانتقم من الفاجر من حين يتمادى في فجوره، وكفره وشروره، وعجل الفرج والنصر للمؤمنين.
}وإن الظالمين لهم عذاب أليم (٢١)}.
كل ما يشتهونه حاصل لهم عند ربهم.
٢٢ - (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)
}ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم}.
ترى - يا من يصح منه أن يرى - وتعاين الظُّلام الكافرين فزعين يوم القيامة، وقلوبهم لدى الحناجر كاظمين، ويتحسرون على ما عملوا، وهو حاضر معهم:
}. . قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم} ٣٣؛
}والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات}.
بينما يستقر أهل الإيمان والإصلاح في رياض الجنات. والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة.
}لهم ما يشاءون عند ربهم}.
في الدنيا بالقتل والأسر والبطش؛ وفي الآخرة بالنار.
}ذلك هو الفضل الكبير (٢٢)}.
ذلك المنزل الكريم، والمقام الدائم في النعيم؛ هو الفضل الذي لا يقدر قدره، ويصغر دونه كل ما لغيرهم في الدنيا.
٢٣ - (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)
}ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات}.
الإشارة ب }ذلك} قد تكون إلى ما وعد الله به عباده في الآية السابقة }. . في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم} أو: ذلك التبشير يبشره الله عباده، والبشرى تعجّل السرور، وتزيد الهمة.

}قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى{
أمر الله تعالى نبيه أن يقول لقومه قريش: قل ما أطلب منكم على الدعوة والتبليغ والبشارة والتبيين نفعا أو مالا، لكن أطلب مودتكم إياي بسبب قرابتي منكم.
يقول بعض المفسرين: والمعنى: إن لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة، ونعمة تامة، فلا أقل من مودتي لأجل حق القرابة وصلة الرحم التي تعنون بحفظها ورعايتها.
وفي الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا- يعني من السؤال والكلام- في هذه الآية: }قل لا أسألكم عليه أجرا{ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله، فكتب رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وسط النسب في قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولدوه، قال الله تعالى: }قل لا أسألكم عليه أجرا{ على ما أدعوكم إليه }إلا المودة في القربى{ تودوني لقرابتي منكم.
}ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا{
ومن يكتسب عملا صالحا نزد أجره الصالح: }من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها{ ٣٤.
}إن الله غفور شكور (٢٣){.
ساتر ذنوب عباده، متجاوز عن معاقبتهم عليها، إن استغفروا؛ شكور لطاعات المطيعين، فيجازيهم الجزاء الأوفى.
٢٤ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
}أم يقولون افترى على الله كذبا{.
هل تستسيغ العقول ادعاءهم أن محمدا الصادق الأمين مفتر، وافتراؤه على الله عز وجل-وذلك أعظم الفرى؟!
}فإن يشأ الله يختم على قلبك{.
فلو أن ما اختلقوه من نسبة الافتراء إليك وقعت لختمت على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب على الله إلا من طُبع على قلبه مثلهم؛ فهم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، وأنكروا لقاءه، وكبر عليهم أن يوحدوه ويطيعوه، وكذبوا بآياته ورسالاته؛ أما أنت فصادق فيما تبلغ عني، بعثتك بالحق بشيرا ونذيرا }وداعيا إلى الله بإذنه{ ٣٥.
}ويمح الله الباطل{.
فلولا أن ما جاءكم به هو الحق من عندي لزال ولمحوته. }بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون{ ٣٦.
}ويحق الحق بكلماته{.
ويثبت الله الحق بأمره وإرادته وآياته: }. . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض{ ٣٧ }إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون{ ٣٨.
}إنه عليم بذات الصدور (٢٤){.
علمه سبحانه محيط بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور؛ فمن جاء بالصدق وصدق به فأولئك هم المكرمون، ومن افترى على الله ورسوله الكذب فأولئك هم الظالمون الخاسرون: }ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون{ ٣٩.
٢٥ - (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)
}وهو الذي يقبل التوبة عن عباده{.
من عمل سوءا ثم أقلع عنه وتركه واستقبحه، ورجع إلى طريق الله تعالى وطاعته، فإن المولى الكريم يتقبل توبته.
}ويعفوا عن السيئات{.

يصفح سبحانه ويتجاوز عن سيئات المسيئين صغيرها وكبيرها ولا يعاقب عليها، فإنه عفو، ولا حرج على فضله {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ٤٠.
{ويعلم ما تفعلون (٢٥)}.
هو-تبارك اسمه- يعلم كل مل نأتي ونذر، وكل ما نعمل ونقول، فيقضي بحكمته فيمن يمنّ عليهم ويهبهم ذنوبهم فلا يؤاخذهم بها، {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما} ٤١.
٢٦ - (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)
{ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله}.
ويستجيب الله للذين آمنوا وأصلحوا، فيقبل دعاءهم، ويحقق سؤلهم، ويضاعف أجرهم على ما عملوا من طاعة، تفضلا منه وكرما، {ويستجيب} تتعدى بنفسها وباللام، مثل شكرته وشكرت له. أو: يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاعه ببدنه.
{والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦) *}
والمكذبون المنكرون الظالمون ليس لهم إلا العذاب الذي لا أشد منه.
٢٧ - (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)
{ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض}
البغي: تجاوز الحد: إما في القدر والكمية، وإما في الوصف والكيفية؛ فلو أن الله الحكيم منح العباد جميعا رزقا واسعا لكثر التباغي، وشاع التفاخر والتكاثر، وهو ابتلاء يُفْتَنُ به طائفة، ولقد بين القرآن حال بعضهم في آية كريمة: {إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة} ٤٢. وفي آيتين مباركتين أخريين: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون} ٤٣ وفي الحديث: (أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها) لكن المعصوم من عصمه الله.
{ولكن ينزل بقدر ما يشاء}.
ولكنه يقسم بتقدير تقتضيه حكمته جل شأنه، يجعل من يشاء غنيا ويجعل من يشاء فقيرا.
{إنه بعباده خبير بصير (٢٧)}.
فإحاطته- تبارك اسمه- لا يعزب عنها شأن من شؤون العباد-جليها وخفيها-فيهب لكل من يناسب حاله حسبما تقتضيه الحكمة العلية، ولو أغناهم جميعا لبغوا، ولو أفقرهم جميعا لهلكوا.
٢٨ - (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)
{وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا}
الله القدير الرزاق ينزل المطر فيغيث به الممحلين، ويتدارك به اليائسين لطول احتباسه عنهم.
روي أن رجلا من عمال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقل الغيث، وقنط الناس؛ فقال: مطرتم إن شاء الله، ثم قرأ: {وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا}. ورووا في سبب نزولها: أن أهل مكة حبس الله عنهم المطر سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر، ونزلت هذه الآية الكريمة.
{وينشر رحمته}.
منافع الغيث وآثاره في السهل والجبل والنبات والحيوان والإنسان.
{وهو الولي}
يتولى عباده بالرزق واللطف والخير والنصر.
{الحميد (٢٨)}
أهل الحمد والثناء لا يستحق الحمد سواه.

٢٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)
{ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة}.
من برهان جلاله، وعلامات هيمنته وواسع أفضاله، ما أبدع من إيجاد السماوات والأرض وما فيهما بإتقان لا نقص فيه؛ والدابة ما يدب على وجه الأرض، وتدخل الملائكة تبعا؛ أو يراد: ما بث في الأرض دون السماء، كقوله تعالى: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} ٤٤ وإنما يخرجان من الملح دون العذاب.
{وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٢٩)}.
والله تعالى حين يجيء الأجل الذي قضاه وشاءه قدير على جمع الناس وسوقهم بعد نشورهم للوقوف بين يديه، وحسابهم ومجازاتهم على ما كان من أفعالهم.
٣٠ - (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)
{وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم}.
كل ما ينزل بالناس من نقم فإنما هو بسبب معاصيهم {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس} ٤٥.
{ويعفوا عن كثير (٣٠)}.
يتجاوز بفضله عن كثير من المعاصي فلا يجازى بها في الدنيا ولا في الآخرة.
٣١ - (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)
{وما أنتم بمعجزين في الأرض}
لن يفلت أحد فيفوت المولى القدير أو لا يدركه سلطانه وأخذه، ومهما تقلب في جنبات الأرض فلن يغلب الله تعالى بالهرب مهما أوتي من قوة واحتيال؛ وبهذا أقرّ الجن على- بأسهم-: {. . لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا} ٤٦.
{ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير (٣١)}.
وليس لكم غير الله يرحمكم ويرزقكم ويحفظكم، ولا من يحميكم من المصائب-إن أرادها- ولا يدفعها عنكم من اتخذتموهم آلهة من دونه؛ وهكذا تتم كلمة الله وحجته صدقا وعدلا: {. . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته} ٤٧.
٣٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ)
{ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره}.
من دلائل قدرته وبرهان وحدانيته أنه – دون سواه- يجري السفن السابحة في البحر كأنها جبال أو قصور، فإذا أسكن الله الريح توقفن وبقين راكدات على ظهر الماء إذ كان تحركهن بالشراع والهواء.
{إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣٣)}.
إن في ذلك لبرهانا وعلامات لكل من حبس نفسه عن الزيغ، وتفكر في عظيم الصنع؛ أو كل صابر على الضراء شاكرا في السراء.
٣٣ - (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
{ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره}.
من دلائل قدرته وبرهان وحدانيته أنه – دون سواه- يجري السفن السابحة في البحر كأنها جبال أو قصور، فإذا أسكن الله الريح توقفن وبقين راكدات على ظهر الماء إذ كان تحركهن بالشراع والهواء.
{إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣٣)}.
إن في ذلك لبرهانا وعلامات لكل من حبس نفسه عن الزيغ، وتفكر في عظيم الصنع؛ أو كل صابر على الضراء شاكرا في السراء.

٣٤ - (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)
{أو يوبقهن بما كسبوا}.
أو يهلكهن بإرسال الريح العاصفة فتغرقهن وتقتل من فيهن بذنوبهم.
{ويعف عن كثير (٣٤)}.
٣٥ - (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)
وينج ناسا كثيرين من الهلاك والغرق بعفوه عنهم وصفحه وحلمه.
{ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص (٣٥)}.
{ويعلم} معطوف على مقدر، أي لينتقم منهم بما كسبوا وليعلم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به ما جاء من ربنا الحق- ليعلم هؤلاء أنه ليس من مهرب ولا منجي من البأس والهلاك إذا حلّ بهم البلاء.
٣٦ - (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)
{فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا}
كل ما أعطيتكم إياه من أسباب المعايش والزينة والزخرف فهو متاع هذه الدنيا تمتعون به مدة حياتكم فيها ثم يفارقكم وتفارقونه.
{وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦)}.
وما أعد الله من ثواب على الطاعات فهو خير في ذاته لخلوص نفعه لا يشوبه شر ولا ضير، وهو مع خيريته أبقى زمانا لعدم انقطاعه، ولدوامه للذين صدقوا بوعد الله ولقائه وجزائه، ويفوضون كل شأنهم لربهم الولي البر الرحيم، لا إلى غيره.
٣٧ - (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)
{والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش}
لا يقربون الذنوب الكبيرة التي توجب الحد في الدنيا، وتوعد الله مرتكبيها بوعيده؛ وكذا يبتعدون عن الخطايا التي يعظم قبحها.
{وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧)}.
ويحلمون على من أساء إليهم، ويتجاوزون عن ظلمهم.
٣٨ - (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)
{والذين استجابوا لربهم}.
اللفظ يعم كل من أجاب داعي الله، ولكن كثيرا من المفسرين يرون أنها نزلت في الأنصار-المؤمنين من أهل المدينة- فمن قال إن الآية نزلت بالمدينة فهو ثناء عليهم من ربهم لأنهم أجابوا دعوة النقباء الذين لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحج قبل الهجرة وبايعوه على الإيمان والنصرة عند العقبة- التي بين مكة ومنى- ومن قال إن الآية مكية فالمراد بهم أهل بيعة العقبة.
{وأقاموا الصلاة}.
وأدّوا الفريضة التي هي من أهم أركان الإسلام، وأتموها وحافظوا عليها وعظموها.
{وأمرهم شورى بينهم}.
وشئونهم يتشاورون فيها فيما بينهم لتصلح أمورهم، وتصفوا نفوسهم، وتأتلف على الخير والحق قلوبهم؛ والشورى تكون في ما لا نص فيه وإلا فالشورى لا معنى لها؛ وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال؟! والله سبحانه هو الحكيم الخبير.
قال العلماء: وينبغي أن يكون المستشار عاقلا، كما ينبغي أن يكون عابدا، وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفسادها للدين والدنيا أكثر من إصلاحها.
{ومما رزقناهم ينفقون (٣٨)}.
ويتصدقون وينفقون في الخير مما أعطاهم الله الرزاق.

٣٩ - (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)
{والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون (٣٩)}.
والذين إذا بغى عليهم باغ لم يستكينوا لتعديه وجوْره، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون حدود الله.
ويعظمون شعائره، ويكبتون ويدفعون من ناصبهم العداء، ولا تنافي بين ما وصفتهم به الآية السابقة، {وإذا ما غضبوا هم يغفرون} وبين ما أثنى الله عليهم به في هذه الآية الكريمة، فإن الانتصار يكون أفضل إذا كان الباغي معلنا بالفجور، مصرا على الفسوق، فما لم ينتقموا من أمثال هؤلاء يجترئ عليهم الفساق، والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كانت الفلتة، أو يقع البغي منه فيعترف بالزلة، ويسأل الصفح، فالعفو هاهنا أفضل، وفي مثله نزل قول الحق- تبارك اسمه-: {. . وأن تعفوا أقرب للتقوى} ٤٨ وقوله {. . فمن تصدق به فهو كفارة له} ٤٩ وقوله: {. . وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ٥٠.
٤٠ - (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)
{وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها}.
فعليكم إذا انتصرتم لأنفسكم ممن أساء إليكم أن لا تجاوزوا الحد {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} ٥١ وإنما سمى أخذ الحق من المسيء إساءة إما للمشاكلة، أو لأنه في مقابلتها، فالأول ساء هذا في ماله أو بدنه، وهذا الاقتصاص يسوؤه بمثل ذلك.
{فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠)}.
ربما تكون الآية الكريمة قد جمعت بين ما هو حسن وما هو أحسن، فالحسن أن يؤخذ المسيء بإساءته، والأحسن أن يعفو عنه-ما دام من أهل العفو، كما قدمت في معنى الآية السابقة- فتكون الإساءة منه فلتة، ويعترف بالزلة أو يسأل الصفح، وليس معلنا بالفجور مصرّا على الفسوق، يقول بعض المفسرين: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظلم بالعفو فإن الله يأجره على ذلك، والله لا يحب البادئ في الظلم، ولا المتجاوز الحد في الاقتصاص.
٤١ - (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)
{ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١)}.
اللام موطئة للقسم و {من} شرطية، و {ظلمه} بمعنى: بعد ما ظلم، فالذين يقتصون ممن اعتدى عليهم لا يُلامون، بل يُحمدون على ذلك مع الكافر، فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.
٤٢ - (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
{إنما السبيل على الذين يظلمون الناس}.
يعدون على الناس ويفعلون بهم ما لا يستحقونه.
{ويبغون في الأرض بغير الحق}.
ويدأبون على البغي، ويتمادون في الاستعلاء والتجبر.
{أولئك لهم عذاب أليم (٤٢)}.
فالظالمون العادون معذبون عذابا موجعا في عاجلهم وآجلهم، كفارا كانوا أو منتسبين إلى الإسلام.
٤٣ - (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)
{ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (٤٣)}.
ومن صبر على الأذى، وعفا عن المسيء وصفح، فإن عمله هذا برهان علوّ همته، وصدق عزيمته.
يقول بعض المفسرين: الرجل إذا غُلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تحلله، وإن كان ظالما فمن الحق ألا تتركه، لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا في أفعالهم القبيحة.

وفي صحيح مسلم حديث أبي اليسر. وفيه أنه قال لغريمه: اخرج إليّ، فقد علمت أين أنت، فخرج، فقال: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت والله معسرا. قال قلت: آلله؟ قال: الله، فآتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدت قضاء فاقض، وإلا فأنت في حل.

٤٤ - (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)

}ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل (٤٤)}.

من زاغ قلبه عن التصديق بمولاه ورسالاته ولقائه فإن الله يمد لهم في الضلالة، ولن يهتدوا إذا أبدا، ولا يجدون من دون الله من يتولى أمرهم، وحين يرى الكفار والفجار مراحل الآخرة وأهوالها ومصيرهم فيها يتمنون أن يُردّوا إلى الدنيا ليسلكوا سبيل الإيمان {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت} ٥٢.

}وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي}

أعد الله لهم عذابا معنويا فوق إيلامهم الجسمي، فحين تُعرض عليهم سقر تكون رؤوسهم منكسة، وأعينهم تتراءى وكأنها مغلقة، وهكذا مع لفح جهنم وشررها وسعيرها يُحقرون ويصغّرون {. . إن الخزي والسوء اليوم على الكافرين} ٥٣.

٤٥ - (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ)

}وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة}.

والمؤمنون ينعمون نعيما روحيا مع ما أفاض عليهم المولى من النعيم المادي، فتعظم آلاء الله عليهم ونعمه كلما رأوا أن الله منّ عليهم ووقاهم العذاب والبوار، وفازوا وربحوا بما أورثهم الله من دار القرار: {وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين} ٥٤ وينادون من لدن الملك الكريم {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون} ٥٥، وكلما رأوا قرينا باغيا فاجرا كافرا يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ثم يقيد هذا الباغي وأهله ويقرن بهم في المساق إلى النار: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون. من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم} ٥٦ عندها يزداد سرور المؤمن بنجاته، وهلاك أعداء الله، فيثنون على ربنا البر الرحيم بما هو أهله: {ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٥٧.

}ألا إن الظالمين في عذاب مقيم (٤٥)}.

فكيف إذا تذكروا أن الخزي والسوء لا يفارق هؤلاء الأشقياء ولا يفارقونه؟!

يقول بعض المفسرين: يجوز أن يكون هذا ابتداء من الله تعالى، أو من تتمة قول المؤمنين.

٤٦ - (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

}وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله}

ليس لهم من شافع ولا نافع، ولا أعوان ولا نصراء يرفعون البأس الذي غشيهم أو يدفعونه، وهل يُغالب الله مُغالب؟! حاشا، فإن مولانا غالب على أمره،

}ومن يضلل الله فما له من سبيل (٤٦)}.

من شرح بالكفر صدرا فإن الله يضله فلا يجد طريقا إلى الرشاد في الدنيا، ولا إلى الخلاص والنجاة في الآخرة.

٤٧ - (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ)

}استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله}

أجيبوا دعوة ربكم التي ناداكم إليها رسولكم، من قبل أن يفاجئكم يوم العذاب أو يوم الحساب ولن يرده أحد بعد ما حكم الله به، وقضى له وقتا وأجلا، أو: لا يرده الله تعالى بعد ما حكم به.

{ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير (٤٧)}.

لن تجدوا يوم يجيء الأجل ما تلوذون به أو إليه تفزعون، ولن يكون هناك من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، ف {نكير} بمعنى: منكر، كالأليم بمعنى المؤلم.

٤٨ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ)

{فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ}.

الخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم المنزّل عليه القرآن، بعد أن كان موجها إلى الكفار لتحذيرهم من الجحود والاستكبار، وما أعد للمكذبين من الصغار وعذاب النار، وفيه تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام حتى لا يشتد أسفه على إعراضهم عن دعوته دعوة الحق، فإن الله تعالى يذكره بأنه ليس له إكراههم على الإيمان، ولا هو موكل برقابتهم وحسابهم، فما عليك إلا التذكير والبلاغ،

{وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها}.

جنس الإنسان إذا رحمه ربه وأنعم عليه بما يشاء من عطائه تمادى في نشوته بما أُعْطِيَ، فافتخر، واختال، وبطر، إلا من شكر،

{وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور (٤٨)}.

وإن أصابهم ما يكرهون بسبب ما يؤذون ويفسدون اشتد بجحودهم بما تفضل الله عليهم به: {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير} ٥٨.

٤٩ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)

{لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء}.

لربنا وحده- دون سواه- ملك السماوات والأرض لا يقاسمه أحد ملكهما، ولا يشاركه أحد خلقهما وما فيهما، فهو البارئ المصور.

{يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩)}.

خلق آدم من طين، وخلق له حواء من ضلعه {. . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} ٥٩ وجعل نسل الآدميين من سلالة من ماء مهين، ومع أن سبب تكوين الجنين أخلاط من أبويه، فإن الله العلي الحكيم يُصوره في الرحم كيف يشاء، فإن أراده أنثى كان كما أراد سبحانه، أو أراد أن يكون ذكرا كانت مشيئة الله.

٥٠ - (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

{أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير (٥٠)}.

أو يمنح الله تعالى من يولد له ذرية مصنفة إلى ذكران وإناث، يجمع الله – حسب مشيئته- لبعض الناس أولادا من البنين والبنات. ويدع ربنا- من يشاء له ذلك- عقيما لا ينجب، والأنبياء عليهم صلوات الله - وهم صفوة الله تعالى من خلقه وأكرمهم عليه- كانت أحوالهم هكذا.

يقول بعض المفسرين: وهب سبحانه لشعيب ولوط-عليهما السلام- إناثا، ولإبراهيم عليه السلام ذكورا، وللنبي محمد صلى الله عليه وسلم ذكورا وإناثا، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين. اهـ.

ذلك يمضي بعلم الله وحكمته وعظيم قدرته.

٥١ - (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)

{*وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء}.
وما صح لأي فرد من الآدميين أن يتلقى كلام الملك الكبير- تبارك اسمه- إلا على هذا النهج الذي بينته الآية: فإما أن يكون إلقاء في القلب - وهو غير الإلهام، الذي منه ما ألهم الله أم موسى حين وضعته وأرضعته أن تلقيه في صندوق وتلقي الصندوق في النهر- وإما أن يكون كلاما من وراء حجاب كما كلم الله موسى-عليه السلام- {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني} ٦٠، أو يرسل المولى الكريم ملكا فيبلغ وحي الله إلى من شاء - سبحانه- من عباده.
{إنه علي حكيم (٥١)}.
ربنا العظيم متعال عن الاتصاف بصفات المخلوقين، حكيم يفعل ما يريد على ما تقتضيه الحكمة.
٥٢ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
{وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا}.
ومثلما أنزلنا من كلامنا على أنبيائنا الذين بعثوا من قبلك أنزلنا عليك وحيا من أمرنا فيه حياة القلوب والعقول فهو روحها.
{ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان}.
نعمة الله الكبرى أن هدانا للقرآن والإيمان، ومن عجيب صنع المولى القدير أن ينزل الذكر الحكيم على نبيّ أميّ، فتلك معجزة دامغة، وحجة بالغة: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} ٦١ ولئن كان محمد صلى الله عليه وسلم قد حفظه الله من الشرك قبل مبعثه، فهو بهذا مؤمن؛ لكن-كما قال المفسرون- لم يكن يعلم أنه سيكون رسولا، وبهذا يكون غير عالم- قبل البعثة- بكل مطالب الإيمان، فصدق فيه ما أشار إليه القول الرباني الحكيم {. . ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} ما كنت قبل نزول القرآن تعرف مناهجه ولا تعرف ما به تمام الإيمان، وما دريت ذلك إلا بالوحي.
{ولكن جعلناه نورا}.
وإنما أنزلنا إليك الكتاب المجيد ضياء للبصائر والقلوب: {. . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين} ٦٢ {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا} ٦٣، والضمير في {جعلناه} عائد على {روحا}.
{نهدي به من نشاء من عبادنا}.
نشرح به صدر من نحب من عبادنا ممن أحبوا الهداية: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٦٤؛
{وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم (٥٢)}.
وإنك يا محمد بتبليغ القرآن وتلاوته وتعليمه وتبيينه والتزكية به تدعو وتهدي إلى طريق تامة الاعتدال والاستقامة، محققة الخير والسعادة والكرامة، لكل من سار على نهجها دون عوج: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه} ٦٥ تدعو إلى دين قويم لا اعوجاج فيه.
٥٣ - (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)
{صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض}.
إن الذي رضي لكم الإسلام دينا هو الله الملك الخلاق العليم، وإن الذي شرعه منهاجا مستقيما جعله- دون سواه- سبيل الوصول إلى جنته والفوز برضاه: {. . إن ربي على صراط مستقيم}.
{ألا إلى الله تصير الأمور (٥٣)}.
كل من في السماوات والأرض مرده ومآله بيد الله جل علاه {. . وإليه يرجع الأمر كله} ٦٦ {. . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} ٦٧. وبشرى المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم.

خاتمة تفسير سورة: الشورى
السور الخمس المباركات دعت إلى توحيد الله تعالى وتقديسه، وإلى اليقين بآياته ورسالاته، والتصديق بالرجوع إلى ربنا-جل وعز- وملاقاته، وتوفية كل محسن أو مسيء جزاء ما قدم في حياته؛ وبينت جحود أكثر بني الإنسان، وبصّرت بسبيل الدعوة إلى الإيمان، وهدت إلى صراط العدل والفضل والإحسان.
في تقديس المولى سبحانه تتابع في هذه السور المحكمات ثناء على ربنا الكبير المتعال المتفرد بالجلال بأنه {العزيز العليم} ٦٨ {العزيز الغفار} ٦٩ {الواحد القهار} ٧٠، فتبارك عالم الغيب والشهادة. مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار، فاطر السماوات والأرض الولي الحميد، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ٧١.
كم فيها من برهان على أن الله أحد صمد.
{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} ٧٢؛ {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} ٧٣ {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه} ٧٤ {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} ٧٥ {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} ٧٦؛ {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ٧٧، فادعوا الله مخلصين له الدين، وأنيبوا إلى رفيع الدرجات العلي الحكيم.
وعهد الله إلى العباد أن يستيقنوا بالفرقان المنزل من لدنه سبحانه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، فقد جعل موحيه-عز شأنه- نورا يهدي إلى السعادة وإلى دار السلام: {. . وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} ٧٨. {. . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء} ٧٩؛ ويظفر بهدايته وبركته من تفهمه وتعلمه واستقام منهاجه: {. . فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} ٨٠ {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} ٨١.
والتدبر: يعني: النظر في عاقبة الآيات وما تؤول إليه، ويعني: إمعان الفكرة فيها، والتحدث بما هدت إليه؛ ومما قال أبو حنيفة: الدبرة: البقعة من الأرض تزرع؛ والدبر: المال الكثير الذي لا يحصى كثرة؛ فكأن عظم خيرات القرآن يدركها من تعقل آياته، وأكثر من النظر في عواقبها وما تؤول إليه، وحدّث بذلك ما استطاع.
كما أن من عهد الله في هذا الكتاب المجيد أن يتذكره العقلاء، وأن يحفظوه ويدرسوه ويقرءوه؛ قال الفراء: الذكر ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذكر بالقلب والدراسة للحفظ.
وإلا كان الطبع على الفؤاد، كما قال الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. ومن حاد عن آيات ربنا التكوينية والتنزيلية، ومال عن القصد فيها، وماري وجادل، وشك وأزرى، فقد باء بغضب شديد، ووقع في ضلال بعيد: {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} من سورة غافر الآية ٣٥؛ غرهم بالله الغرور فاستكبروا عن آياته: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} من سورة غافر. الآية ٥٦؛ ومهما أسروا قولهم الآثم أو جهروا به فإن مكرهم عند ربهم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} من سورة (فصلت) من الآية ٤٠؛ و [ألحد] تعني: مال وجار، وعدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه، وأزرى به.
والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ٨٢.
وجاءنا في هذه السور من نبأ المرسلين ما يثبت الفؤاد ويهدي إلى الرشاد، فسلام على داود النبي الأوّاب، وعلى سليمان الذي أوتي ملكا

لم ينله أحد من بعده، فسأل الله أن يعينه على شكر نعمة العزيز الوهاب، وأيوب الصابر نعم العبد إنه أواب، وإبراهيم وإسحق ويعقوب و {. . . إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} ٨٣، وموسى الذي أرسل بالبرهان والسلطان إلى فرعون وقارون وهامان، فقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، فمن الله على موسى وهارون، وآتاهما الكتاب المستبين، وأغرق القوم المجرمين؛ ولا تتحول سنة الله في الآخرين، ولن تتبدل إلى يوم الدين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ٨٤، فاستكملوا الإيمان بدينكم يؤيدكم الله على عدوه وعدوكم، وينصركم في أولاكم وفي آخرتكم.

وعشرات من الآيات تترى في يوم التلاق {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} ٨٥، {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} ٨٦، {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة واهم سوء الدار} ٨٧، تحذر أهواله ونكاله، وخزيه ووباله، إذ تجمع الزبانية أوائل المجرمين على أواخرهم، وتتكلم بأوزارهم عظامهم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم: {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون}، حين يوقفون على شفير جهنم تتحدث أجزاؤهم بما قدموه من قول وعمل لا تكتم منه شيئا، فيلومون جلودهم وحواسهم وأوصالهم، إذ أقرت بما يحتم عذابهم {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ٨٨ وترد عليهم الجلود بالحق، وتلومهم على غفلتهم عن سر الخلق.

وهناك لن يحتاج كل فاجر نفسه وكفى، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها، وإن للطاغين لشر مآب، {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ٨٩ {ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون} ٩٠.

فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد} ٩١ {جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب} ٩٢؛ فاستيقنوا بالبعث والحساب، وتزوّدوا ليوم المآب، ولا تشغلنكم عنه زخارف العاجلة فإنها سراب، وابتغوا عند الله الحياة الطيبة وعظيم الثواب، فقد وعد بذلك في محكم الكتاب: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} ٩٣.

وبصّرت هذه السور بنفس الإنسان:

فالظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وصدق الله العظيم: {. . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم} ٩٤؛ وأكثر البشر كنود، ولنعمة ربه جحود {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل} ٩٥ {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة} ٩٦ {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض} ٩٧ {. . وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور} ٩٨؛ لكن المفلح من تزكى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشكر أنعم الله، وإذا أصابته مصيبة صبر وقال: إنا لله، {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} ٩٩؛ فلا تفتن بعلم ولا مال ولا جاه، وقل: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم تبطرني السعة فأنساه- {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه} ١٠٠.

والكتاب الحكيم بيّن في واحدة من هذه السور دعوة مؤمن حكيم يكتم إيمانه، أربع عشرة آية تتابعت تهدي للتي هي أقوم، تبشر من آمن واتقى بالثواب الأكرم، وتنذر المشركين بطش الجبار وحر جهنم؛ وتبليغ رسالات الله يتصدى له منه لا يخشى سواه؛ والمؤمن يُلْزِمُه الله تعالى بفضله كلمة التقوى، ويهديه إلى الطيب اللين من القول ليذكر من يخشى، وبالدعوة المستبصرة يتزكى من سبقت له

الحسنى؛ فلندع إلى ربنا بالبينات والهدى، ولنترفق بمن ندعوهم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.
واستحفظنا ميثاق الحق في مواطن كثيرة من هذه السور، فالكتاب العزيز نزل ١٠١ بالحق، وربنا استخلفنا لنقيم الحق ١٠٢، وخلق الله السماوات والأرض بالحق ١٠٣، وربنا يفصل بين عباده بالحق ١٠٤؛ وأثنى مولانا على من أخذ بحقه ممن عدا عليه ١٠٥.
ومع تقديس العدل، فقد حبب إلينا أن لا نغلق باب العفو والصفح نبلغ منازل أهل الفضل ١٠٦.
والله يهدينا إلى صراطه المستقيم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٤٣ سورة الزخرف:

سورة الزخرف:
سورة الزخرف
مكية
وآياتها تسع وثمانون
كلماتها: ٨٣٣؛ حروفها: ٣٤٠٠.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم}.
شأنها شأن فواتح السور التي تتكون من حروف المعجم، تنطق أسماؤها، فكل حرف منها حين نقرأه ننطق باسمه كاملا [حاء] [ميم]، وهكذا، ويقال في معناها ما قيل في مثيلاتها: يمكن أن يكون مما استأثر الله تعالى بعلمه، أو يكون اسما للسورة، أو يكون للتحدي بمعنى أن القرآن الكريم مكون من الحاء والميم وما شابههما وهي حروف تتكلمون بها، ولكنكم عجزتم وسيضل الخلق جميعا عاجزين عن الإتيان بكلام مثل كلام الله الحكيم، وفي ذلك برهان على أنه ليس من كلام البشر وإنما هو وحي رب القوى والقدر.
٢ - (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)
{والكتاب المبين (٢)}.
يقسم المولى العليم- تبارك اسمه- بالكتاب الذي بيّن فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وكل ما لو استقام الناس عليه لهدوا وسعدوا.
٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)
{إنا جعلناه قرآنا عربيا}.
توكيد من الله الحق أنه سمى القرآن وصيّره ووصفه بأنه القرآن الذي جمع كل النور والموعظة، وأوحي بلسان عربي واضح مستقيم غير ذي عوج.
{لعلكم تعقلون (٣)}.
جاء هدي الكتاب العزيز موافقا لما يسيغه الفكر السليم، فإذا أعملتم فكركم زاد يقينكم فيما يتلوه عليكم نبيكم.
٤ - (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)
{وإنه في أم الكتاب لدينا}
وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا.
{لعلي حكيم (٤)}.
اللام موطئة للقسم، فهو رفيع القدر، محكم لا اختلاف فيه ولا تناقض.

٥ - (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ)

}أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين (٥)}.

أفنمسك عن إنزال القرآن لأنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم وننحيه ونبعده، ونترك تذكيركم لأنكم قوم أسرفتم في العناد، وأكثرتم من الفساد؟!.

و }صفحا} أي إعراضا؛ من لطفه ورحمته بعباده- تبارك اسمه- لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن مهما كانوا مسرفين معرضين، بل أمر به ليهتدي من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من غلبت عليه الشقوة.

٦ - (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ)

}وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦)}.

كثير رسلنا الذين أرسلناهم في الأمم الأولى السابقة لكم.

و }كم} هنا ليست للاستفهام، وإنما للإخبار، والمراد بها التكثير.

٧ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

}وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون (٧)}

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن الأمم السابقة استهزأت كل أمة منها برسولها: }ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون} ١.

٨ - (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ)

}فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين (٨)}.

فكان عاقبة المستهزئين- وهم أشد بأسا من المستهزئين بك من قومك- أن أهلكناهم وقومهم أجمعين، وجعلناهم عبرة للمعتبرين، وانتهى شأنهم ملعونين مقبوحين؛ و }مثل} قد تعني: الوصف والخبر، وقد يراد بها العقوبة. و }أشد} مفعول، أو: حال.

٩ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

}ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩)}.

ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون، فإن سألت عُبّاد الأصنام، والمكذبين بالقرآن، من خالق الأرض والسماوات؟ فإنهم يجيبون: إن خالقهن هو القوي الذي لا يُغلب، الخبير الذي لا يضل، لكن مع ذلك يعبدون معه غيره؛ وفتنة بعض الذين اتخذوا آلهة من دون ربنا

أن قالوا: }. . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} ٢.

١٠ - (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

}الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠)}.

هذا ابتداء إخبار من الله- تبارك اسمه- عن نفسه، فهو سبحانه الذي صير الأرض ممهدة، أو جعل مأوى من عليها وما عليها إليها كمهاد الصبي وفراشه، وصيّر الله ويسّر لنا فيها طرقا ومعايش، رجاء أن يدلنا إحكام الصنعة على حكمة الصانع القدير الخبير؛ أو جعل لكل طريق علامة لنهتدي بها في أسفارنا، ولا نضل السبيل.

١١ - (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

}والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا}.

الآيات الأولى من السورة الكريمة كانت لتثبيت الإيمان بالقرآن، وبعدها آيات في سنة الله العزيز في المكذبين للرسل من السابقين واللاحقين، ثم آيات في البرهان على قدرة الخلاق العليم، وهذه مع التذكير بنعم المولى فيها بحجة تزيد اليقين في البعث والآخرة، فربنا

بديع السماوات والأرض هو الذي ينزل مطرا من جهة السماء - وما ينزله إلا بقدر معلوم- فيحيل البلاد الهامدة بغيثه ورحمته إلى روضات يانعات وحدائق مثمرات، وزروع نافعات.

{كذلك تخرجون (١١)}.

ومثل هذا الذي نشاهد من حياة الأرض بعد موتها- بإذن الله- يكون إحياؤنا بعد موتنا، وإخراجنا من قبورنا، لنعرض على ربنا، فيجازينا ويقضي-عز مقامه- في مصيرنا.

١٢ - (وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ)

{والذي خلق الأزواج كلها}.

والله المعبود بحق هو - دون سواه- خالق الأصناف كلها، وما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، ونفع وضر.

{وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢)}.

وصير وسخر لنا من السفن والإبل ما نركبه في البر والبحر ٣.

١٣ - (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)

{لتستووا على ظهوره}.

لتستقروا على السفن والإبل.

{ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه}.

ثم تتفكروا في فضل الله عليكم أن هيأ لكم ويسر الاستقرار على مراكبكم برّا وبحرا. فتحمدوه.

{وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣)}.

تنزيها لربنا العظيم، وثناء على الوهاب الكريم، الذي ذلل لنا هذه المراكب والدواب، وما كنا لهذا الخلق- من سفن وإبل ونحوها- بمطيقين، ولا لتصريفه بضابطين، ولا على قوته بغالبين، لولا ما يسر ربنا رب العالمين ٤.

١٤ - (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)

{وإنا إلى ربنا لمنقلبون (١٤)}.

واليقين الذي لا شك فيه أننا جميعا إلى الله راجعون، إذ الراكب على خطر إلا ما وقى الله، فينبغي أن لا نغفل عن تذكر الآخرة.

أخرج أحمد، وأبو داوود، والترمذي وصححه، والنسائي وجماعة، عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه أُوتِيَ بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثلاثا، والله أكبر ثلاثا {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون} سبحانك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك فقيل له: مما ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله مما ضحكت؟ فقال: (يتعجب الرب من عبده إذا قال رب اغفر لي ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري).

وفي حديث أخرجه مسلم، والترمذي، وأبو داود، والدارمي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثا ثم قال: ({سبحان الذي سخر لنا هذا} إلى {لمنقلبون}).

١٥ - (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)

{وجعلوا له من عباده جزءا}.

يبهت القرآن أهل الضلالة والجهالة الذين زعموا للمتعالي ولدا-ذكرا أو أنثى—ويكشف عن سفههم وشططهم؛ فبعد أن ذكرهم بإقرارهم أن بارئ الكون هو الواحد ذو الجلال-كما شهد بذلك قول الحق جل وعلا. . {. . ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٥ بكتهم بمقالتهم التي حكتها الآية الكريمة: {وجعلوا له من عباده جزءا} يعني: إقرارهم بأن خالق السماوات والأرض ليس كمثله شيء يأبى أن تصفوه بصفات المخلوقين، ولا يليق أن تجعلوا العابد جزءا من المعبود وبعضا منه إذ هو سبحانه لا يتجزأ.

يقول بعض المفسرين: {جزءا} أي بضعا منه، كما يكون الولد بضعة من والده-أي قطعة منه- وفي الأمثال: أولادنا أكبادنا.
{إن الإنسان لكفور}.
يغطي أنعم الله التي جاءته ويخفيها- وأعلاها وأكملها الفطرة الإيمانية- {. . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} ٦ وفسرها بعضهم {إن الإنسان لكفور} بقوله: يعدّ المصائب وينسى النعم.
{مبين (١٥)}.
مظهر الكفر.
١٦ - (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)
{أم اتخذ مما يخلق بنات} الهمزة للاستفهام الإنكاري، والميم صلة، والتقدير: أتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله؟!
{وأصفاكم بالبنين (١٦)}.
واختصكم وآثركم.
ومما جاء في [الجامع لأحكام القرآن. .]: عجّب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين، وهو مقدس عن أن يكون له ولد، وإن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟! كقوله تعالى: {ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى} ٧.
١٧ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)
{وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم (١٧)}.
يأنفون من أن تصير لهم بنات، وإذا أُخبر واحد منهم بأن امرأته ولدت بنتا تعلوه الكآبة وكأنما سود الكدر وجهه فهو يخجل أن يلقى الناس من سوء ما بشر به،. . والحسرة تعلو جبينه وتعم جوانحه، والحيرة تملأ نفسه أيمسكها على مذلة أم يدفنها حية؟! فكيف ينفرون من ذلك وينسبونه إلى الله العلي الكبير؟!.
١٨ - (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)
{أومن ينشأ في الحلية}.
{ينشأ} بمعنى: يشب وينبت، ويكبر ويربى.
{الحلية} ما تحلى به المرأة وتتزين.
والمرأة لنقصانها عن الرجل تكمل بلبس الحلي، كما قال الشاعر:
وما الحلي إلا زينة لنقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
فأما إذا كان الجمال موفرا ... كحسنك لم يحتج إلى أن يُزوّرا
{وهو في الخصام غير مبين (١٨)}.
{الخصام} الجدال.
[والإبانة]: الإفصاح عن الشيء وإظهاره، يعني: إذا جادلت الأنثى فهي عاجزة عن تبيان حجتها عيية، لنقصان عقلها وضعف رأيها.
أورد الألوسي ما حاصله: فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، ومن نقص معناها: عجزها عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة ولا همة، حتى قال بعض العرب وقد بُشر ببنت: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء وبرها سرقة. اهـ.
أو من يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله العظيم؟!
١٩ - (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)
{وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا}.
اعتقدوا وزعموا، أو سمّوا وحكموا، أو قالوا فيهم ذلك، فأنكر الله عليهم قولهم ذلك.

{أشهدوا خلقهم}
هل حضروا واطلعوا وكانوا شهودا حضورا خلق الله الملائكة، فعرفوا أن طبيعة خلقتهم مؤنثة؟! ٨ وهذا كقوله تعالى: {أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون}. ٩
{ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩)}.
ستدون ملائكتنا من الكتبة والحفظة عليهم هذا البهتان والزور، ويسألون عنه يوم القيامة، ويجزون بما كانوا يقترفون؛ نختمت الآية بالوعيد على هذا الزيف والافتراء ١٠.
٢٠ - (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)
{وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم}.
عطف على ما بيّن القرآن من ضلال المشركين، فمن ضلالهم وجهلهم وغيهم أن ادّعوا لله تعالى أولادا، وأن وصفوا الملائكة بالأنوثة، وأن عبدوهم من دون الله، وأن قالوا- زورا وافتراء، أو سخرية واستهزاء- لو أراد الله أن لا نعبدهم لم نعبدهم.
{ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون (٢٠)}.
ليس لهم بهذه الأفعال والأقوال من علم، وما هو إلا الحرز والحدس والتخمين.
٢١ - (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)
{أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ٢١}
بل هل أنزلنا عليهم كتابا من قبل هذا- القرآن أو النبي-؟ يدل على صحة ما ادعوه فهم بالبرهان يتمسكون، وعليه يعولون.
٢٢ - (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)
{بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة}.
لا بل ليس عندهم برهان من عقل أو نقل، وإنما يريدون متابعة الآباء والأجداد على مذاهبهم الباطلة. و {أمة} أي طريقة وملة.
{وإنا على آثارهم مهتدون (٢٢)}.
ويؤكدون أنهم ليسوا إلا تابعين لمنهاج الآباء السفهاء؛ يهتدون إلى طريقهم؛ والهدى يأتي في القرآن بمعنى الدلالة ولو على ما يسوء الوصول إليه، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فاهدوهم إلى صراط الجحيم} ١١.
٢٣ - (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)
{وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة}.
وكما سقطت حجة المشركين من قومك في مزاعمهم الباطلة، كانت حجة كل المترفين المكذبين السابقين داحضة، إذ أصروا على تقليد الآباء في زيفهم وعوجهم؛ و {مترفوها} أي أغنياؤها البطرون المحبّون للبطالة، كأن تنعمهم وعكوفهم على الشهوات قصر هممهم عن تعرف طرق الحق والخير، وزيّن لهم التقليد؛ وفي الآية تسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه ليس أول من عانده وكذبه قومه، بل هي سنة الله في الذين خلوا من قبل: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك} ١٢.
{وإنا على آثارهم مقتدون (٢٣)}.
وأصروا على الاقتداء بأسلافهم في الغي والبغي ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.
٢٤ - (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)
{*قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم}.
قال كل رسول لمن ركن إلى تقليد الأسلاف: أتفضلون اتباعهم ولو دعوتكم إلى طريق أهدى وأقوم مما يدين به من تقدموكم؟! أو قال محمد لقومه: أو ليس قد جئتكم من عند الله بأرشد مما عرفتموه من حيرة آباءكم وضلالهم الذين لم يعرفوا الهدى قط؟!.

}قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون (٢٤)}.
قال المشركون المقلدون ردا على ما نادى إليه المرسلون: لن نؤمن بما جئتم به، من شقوتهم تمادوا في التكذيب والنكران والجحود.
٢٥ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)
}فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين (٢٥)}.
جازى الله- بقدرته- الجاحدين، فهزمهم وحرمهم وأذل شأنهم، فليتدبر كل عاقل وليُعمل بصيرته فيما يؤول إليه أمر الفاسقين الكافرين، كما حُرمت قريش المطر سبع سنين، ثم قتل كبراؤهم يوم بدر وانقلبوا صاغرين- وكذلك يجزي الله كل كفور.
٢٦ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)
}وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون (٢٦)}.
واذكر وقت قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الملوك والكواكب والأصنام- وقد أبطل إفكهم بالحجة والبرهان، فتمادوا في الضلال والبهتان- قال لهم: إنني بريء مما عبدتم، إذ ما عبدتم من دون الله إلا الخلق والأوثان.
٢٧ - (إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)
}إلا الذي فطرني فإنه سيهدين (٢٧)}.
لكن الذي يستحق العبادة وأدعوكم إلى تقديسه والإيمان به هو الخالق الذي خلقني وخلقكم، فاعبدوا الذي خلقكم: }أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون} ١٣ وهو- بفضله- يثّبت على الهداية، والسين للتوكيد لا للاستقبال.
٢٨ - (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
}وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون (٢٨)}.
جعل الله كلمة الإيمان والتوحيد والإسلام باقية بعد إبراهيم في ذريته وإلى يوم الدين استجابة لدعوته عليه الصلاة والتسليم: {. . واجنبني وبني أن نعبد الأصنام} ١٤ {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} ١٥ كي يرجع من اعوج أو غوى، فيعود إلى طريق الحق والهدى.
٢٩ - (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ)
}بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين (٢٩)}.
لكني متعت الكفار الذين دعوتهم يا محمد، كما متعت أسلافهم بطول العمر، وسعة الرزق، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وبغيهم، حتى جاءهم الكتاب الحق- القرآن الذي لا يأتيه الباطل- وبعث إليهم رسول يبين الرشد ويهدي للتي هي أقوم.
٣٠ - (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)
}ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون (٣٠)}.
وحين آتاهم رسولنا بكلامنا الحكيم الهادي إلى الطريق المستقيم، لم يكفهم إعراضهم عنه، بل سخروا من النبي ومن الوحي الذي أنزل عليه، فسمّوا الكتاب العزيز سحرا- تخييلا وأوهاما- واستعلنوا بجحودهم له.
٣١ - (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)
}وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١)}.
وكأنهم- وهم يجادلون بالباطل ليخفوا ويطمسوا به الحق- أضافوا إلى التطاول على الرسالة والرسول تطاولا على اصطفاء الله- تبارك اسمه- فقالوا: هلا ألقى هذا الوحي إلى عظيم من عظماء إحدى القريتين- مكة والطائف-؟
٣٢ - (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)
{أهم يقسمون رحمة ربك}.
تعجيب من حالهم، وتجهيل وإنكار لمقالهم، إذ تحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول من أصحاب الأموال والأولاد ومتع الدنيا، فهل هم المدبرون للأمر؟! كلا: {. . الله أعلم حيث يجعل رسالاته} ١٦.
{نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}.
إن أمور الدنيا ليس لهم من تدبيرها شيء، وإنما قضت حكمتي أن أقسم بينهم أسباب معاشهم وما به يحيون ويتمتعون، وأفضل بعضا على بعض في الرزق وما فيه يتقلبون، وأجعلهم في ذلك على درجات متفاوتة- في قوتهم وضعفهم، وغناهم وفقرهم، وسلطانهم وجاههم- ليسخر الأغنياء الفقراء، وليستعمل بعضهم بعضا في المهن والأعمال حتى يتعايشوا، لا لكمال فيمن وسعنا عليه، ولا لنقص في المُقتّر عليه.
{ورحمت ربك خير مما يجمعون (٣٢)}.
جنة الله ورضاه، وفضله وهداه، ونبوة من اصطفاه، أفضل من كل متع الحياة.
٣٣ - (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)
{ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (٣٣)}.
توكيد لهوان الدنيا- وحطامها وزينتها- على الله، إذ لولا كراهة أن يُفتن الناس بالعاجلة فيطلبوها ولو بالخروج من الإيمان، والاجتماع على الكفر- لولا هذا لأتم الله زهرة الدنيا لمن كفر فجعل سُقُفَ بيوتهم من الفضة، وجعل لهم مصاعد- يعلون بها السطوح- تكون من الفضة كذلك.
٣٤ - (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ)
{ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون (٣٤)}.
ولأعطيناهم لبيوتهم أبوابا وسررا من الفضة يتكئون- كالملوك- على سررهم لا يشغلهم عن ذلك شيء.
٣٥ - (وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)
{وزخرفا وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا}.
ولأعطيناهم وجعلنا لبيوتهم نقوشا وأثاثا وتجميلا مزخرفا، وما كل ما ذكر إلا شيء يتمتع به في حياة عاجلة زائلة باطلة، قد يشاركه أو يفضله في الاستمتاع بها الحيوان {. . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام} ١٧.
روى الترمذي-وصححه-وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء).
{والآخرة عند ربك للمتقين (٣٥)}.
وما في الحياة الآجلة الباقية من نعيم لا يبلى، وملك لا يفنى، وقرار لا يتحول، في ضيافة المولى الكريم، البر الرحيم لمن اتقى السوء والشرك.
٣٦ - (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)
{ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦)}.
ومن يعرض ويتعامى عن القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين به، بل وفيه الرحمة للعالمين- من يغلق بصره وبصيرته عن هذا الذكر نُتح له ونسبب شيطانا- وسمي هكذا لأنه شطن عن الحق والخير والطاعة وبعد- يقارنه ويلازمه زيغا على زيغه جزاء استكباره عن آيات ربه.
٣٧ - (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)
{وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧)}.

وإن الشياطين القرناء يزينون لقرنائهم الشرور والفجور، ويخلطون عليهم الأمور حتى يروا حسنا ما هو سيء، وفي أمثالهم يقول الله-تبارك اسمه-: {الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} ١٨ فهم يرجعونهم عن سلوك سبيل السعادة وطريقها، ويظنون أن ما اختاروه من الكفران والغرور هو الهدى.

٣٨ - (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

{حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين}.

يبقى العاشون يتولى بعضهم بعضا وهم عن الحق مفتونون، حتى إذا بعثوا لملاقاة ربهم قال كل واحد منهم لقرينه ليتني ما كنت لقيتك، وليتني أتباعد عنك بعد المشرق عن المغرب؛ يقول اللغويون: مثل هذه المثنيات يغلبُ فيها أحد اللفظين على الآخر ثم يثنيان، كالمغربين- يراد المشرق والمغرب- وكالموصلين- للموصل والجزيرة- وكالقمرين- للشمس والقمر- وكالأبوين-للأب والوالدة، والأب لم يلد إنما تلد الأم فغلب أحدهما على الآخر- وكالأبوين-للأب والأم.

{فبئس القرين (٣٨)}.

يتخاصم الكفار والفجار، ويتلاعنون في الآخرة ويتلاومون، ويكفر بعضهم ببعض ويندمون، لكن حين لا ينفع الندم، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

٣٩ - (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

{ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩)}.

ربما يكون هذا مما سيقال لهم يوم القيامة من الله تبارك وتعالى- توبيخا لهم وتحسيرا- لن ينفعكم قولكم وندمكم وتمنيكم البعد عن قرنائكم، إذ تبين ظلمكم في حياتكم الدنيا، وأنتم هنا في العذاب مشتركون، مستسلمون لا تتناصرون.

٤٠ - (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

{أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠)}.

استفهام قد يراد به النفي؛ والخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنه لتفريج همه وحزنه على غيهم. هؤلاء العاشون عمُوا عن سبيل الرشاد، وصمّوا عن نداء الحق، واختاروا الضلال البين منهاجا: {وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون}.

٤١ - (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)

{فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١)}.

{ما} للتوكيد. فأقسم لئن قبضناك وتوفيناك يا محمد قبل أن نُخْزِيَ الكافرين ونهزمهم ونخذلهم فإنا سننزل العذاب بهم في الدنيا قبل الآخرة.

٤٢ - (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ)

{أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢)}.

وإذا أحييناك حتى ترى خذلانهم ونصرة أهل الإيمان عليهم فذلك في مقدورنا، فإن سلطاننا وملكنا عليهم وعلى كل المخلوقين.

٤٣ - (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

{فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم (٤٣)}.

أمر لنا في شخص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن نداوم على تقديس ما أوحي إلينا من ربنا، نُحلّ حلاله، ونحرّم حرامه، وننفذ أحكامه، مع تلاوته وتدبره طرفي النهار وزلفا من الليل بل وساعات العمر ما وسعنا؛ إنه الطريق التي لا عوج فيها؛ وذلك عهد الله إلينا، نوقن به حين لا نرى انتقام الله العاجل من المجرمين، أو حين نشهده ويشفي الله بالنصر قلوب قوم مؤمنين.

٤٤ - (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)
}وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (٤٤)}.
وإن الكتاب العزيز لشرف لك ولقومك، وسوف تسألون عن الوفاء بأماناته، وتبليغ هداياته، وتقديس آياته، ". . والقرآن حجة لك أو عليك. . ".
٤٥ - (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)
}وسْئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥)}.
الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وسبب الأمر بالسؤال: أن اليهود والمشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك- ويشهد لهذا الرأي قوله تعالى: }قل ما كنت بدعا من الرسل} ١٩ ومثله في القرآن كثير- فأمر الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير، لا أنه كان في شك منه، رووا أنه سألهم – صلوات الله عليهم أجمعين- ليلة الإسراء به، فقالت الرسل: بعثنا بالتوحيد، فهل حكمنا بعبادة أحد غير الله سبحانه الخلاق العليم الرحمن الرحيم؟!
٤٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
}ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإيه فقال إني رسول رب العالمين (٤٦)}
[الملأ] الأكابر والكبراء والمتبوعون.
والحق أننا بعثنا موسى مؤيّدا بالكلام الرباني الحكيم، وبالمعجزات الحسية التسع: اليد، العصا، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الأموال والثمرات- بعثناه إلى فرعون ملك مصر الذي ادعى أنه الرب الأعلى، وإلى قوم فرعون- وإنما خص الملأ لأن غيرهم تبع لهم- فذكّرهم بأن الخلاق الوليّ مدبر الأمر هو الله المنفرد بالسلطان، والمستحق للعبادة.
٤٧ - (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ)
}فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون (٤٧)}.
فحين أراهم موسى آيات ربنا القوي القدير سخروا منها واستهزؤوا.
٤٨ - (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
}وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها}.
وما ساق إليهم موسى- بأمرنا- معجزة إلا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. و }أختها} بمعنى تناسبها وتشاكلها وتماثلها في الدلالة على النبوة الحقة.
}وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٨)}.
ضيقنا عليهم معايشهم، وسقنا بعضا من البلاء عسى أن يرجعوا عن الغواية، ويسلكوا طريق الإيمان والهداية، وتلك من سنن الله- تبارك اسمه- مضت في الأولين، وتمضي إلى يوم الدين: }ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} ٢٠ }ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} ٢١.
٤٩ - (وَقَالُوا يَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)
}وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون (٤٩)}.
سخروا من موسى صلى الله عليه وسلم، وأوهموا قومهم أن ما جاءهم به من معجزات إنما هو تخييل وسحر، فلما عاينوا العذاب قالوا يا أيها الساحر، نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل، أو أرادوا: يا أيها الذي غلبنا على سحرنا بسحره، ادع ربك الذي عهد إليك أنّا إن آمنا كشف عنّا، فسله يكشف ما حل بنا، إننا سنكون من المتبعين للهدى الذي ناديتنا إليه.
٥٠ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

}فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون (٥٠)}.
فدعانا موسى فاستجبنا له، فلما رفعنا ما حل بهم من البلاء، إذا هم ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه من الإيمان والاهتداء، وذلك شأن أهل الطغيان والخسران }وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} ٢٢ }. حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم} ٢٣.
٥١ - (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ)
}ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١)}.
وكان الطاغية فرعون خاف أن يفتتن أهل مصر بما يسوق الله على يد موسى-صلوات ربنا عليه وتسليمه- فنادى في زعمائهم أنه صاحب السلطان المسيطر على البلاد، والمتحكم في أنهارها- ومن مائها حياة الإنسان، والزرع والحيوان-أفلستم ترون ذلك، وعلى يقين منه؟!.
٥٢ - (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ)
}أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢)}.
بعد ما عدد فرعون ما يختال به من مفاخر، أراد أن يتحدث عن موسى بما افتراه عليه من المهانة والعيّ.
٥٣ - (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)
}فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب}.
تمادى اللعين يشك في صدق موسى- عليه صلوات الله وعلى سائر المرسلين- فقال ما حكاه الكتاب الحكيم: أي إن كان موسى صادقا في دعوى الرسالة فهلا ألقى ربه عليه أساور الذهب؛
}أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣)}.
أو بعث معه ملائكة يمشون معه ويعاونونه ويهيبونه.
أوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد. ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى- مع تفرده ووحدته- من فرعون مع كثرة أتباعه؛ وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا. . أو دليلا على صدقه. . لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم.
٥٤ - (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
}فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤)}.
فما أسرع انصياع قومه له، وانخداعهم بتضليله، لأنهم غواة، خفاف أحلامهم وعقولهم، ولذلك أعرضوا عن الحق الذي جاء به موسى، وأقبلوا على ما زينه فرعون لهم من شر وباطل.
٥٥ - (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)
}فلما ءاسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥)}.
فبتماديهم في الإفك استنزلوا غضب الله وبطشته العاجلة، فأغرقهم المولى القدير، لم يفلت منهم فاجر واحد.
٥٦ - (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ)
}فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٥٦)}.
فصيرناهم عبرة لمن يأتي بعدهم، أو كالقدوة للكفار الذين يأتون بعدهم يستوجبون مثل عقابهم إذا اقتدوا بهم، فينزل الله عليهم من بأسه مثل الذي أحل بسابقيهم وأسلافهم.

٥٧ - (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)
{ولما ضُرِبَ ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون (٥٧)}.
نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزبعري حالة كفره ٢٤ لما قالت قريش إن محمدا يتلو: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} ٢٥ فقال: لو حضرته رددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خصم؛ و {يصدون} يعني يعجبون ويضحكون ويضجون؛ أو يعرضون؛ أو: من أجل الميل يعدلون عن الحق وينحرفون. فأنزل الله تعالى في سورة الأنبياء: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} ٢٦.
روى ابن إسحاق في السيرة. . قال: وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاءه النضر بن الحارث حتى جلس معهم-وفي المجلس غير واحد من رجال قريش- فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون} ٢٧ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبعري التميمي حتى جلس، فقال الوليد ابن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؛ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ٢٨: (كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته) فأنزل الله عز وجل: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} أي عيسى والعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله، ونزل فيما يذكر أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين} ٢٩.
٥٨ - (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)
{وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (٥٨)}.
وقال المشركون- لجاجة ومراء- أآلهتنا أفضل أم عيسى؟ ما ضربوا لك هذا المثل وساقوه إلا للددهم في الخصومة، وتلمسهم للمماراة، محاولة منهم لطمس الحق {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} ٣٠.
مما نقل عن السدّي: خاصموه وقالوا: إن كل من عُبِدَ من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون}.
ونقل القرطبي عن قتادة: {أم هو} يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم. ثم قال: فهو استفهام تقرير في أن آلهتهم خير. و {جدلا} حال، أي جدلين. يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل، لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات: {بل هم قوم خصمون} مجادلون بالباطل.
وفي صحيح الترمذي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل- ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون}.
٥٩ - (إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

}إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل (٥٩)}.
ما عيسى بإله، وما خلقه من غير أب، وإحياؤه الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وذوي الأسقام إلا لأننا أنعمنا عليه وأردناه عبرة لبني إسرائيل؛ ففي كل ما رأيتم من شأن عيسى ابن مريم علامات بينات على قدرة الخالق - تبارك اسمه- وحجة على كل من اقترف زورا في أمر المسيح- عليه السلام- إفراطا أو تفريطا- }إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم} ٣١ }ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام} ٣٢ }وجعلنا ابن مريم وأمه آية} ٣٣ }إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} ٣٤.
٦٠ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ)
}ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون (٦٠)}.
ولو أردنا لجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها، ويكونون مكانكم بعد إذهابكم. ف [من] في }منكم} للبدل، وليست للابتداء ولا للتبعيض، أو }يخلفون} يخلف بعضهم بعضا.
٦١ - (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
}وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعوني هذا صراط مستقيم (٦١)}.
وإن نزول عيسى-عليه السلام- وخروجه لمن العلامات التي يُعلم بها اقتراب الساعة ومجيء القيامة، فلا تَشُكُّنَّ في وقوعها وإتيانها، واتبعوا ما جئت به، فإن الذي أدعوكم إليه هو الطريق المعتدل الموصل إلى الحق والنجاة.
يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: تقدم تفسير ابن إسحق أن المراد من ذلك ما بُعِثَ به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر؛ وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد ابن جبير أن الضمير في }وإنه} عائد على القرآن؛ بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذكره؛ ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: }وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} ٣٥ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام }ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا} ٣٦ . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا، وحكما مقسطا. اه.
وفي صحيح مسلم: (فبينما هو- يعني المسيح الدجال- إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق. بين مهرودتين ٣٧ واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونَفَسه- ينتهي- حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍّ ٣٨ فيقتله.).
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد).
٦٢ - (وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)
}ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين (٦٢)}
لا يردنكم الوسواس ولا يمنعنكم إبليس وأعوانه عن اتباع الحق ودعوة الرسل، فإنهم جميعا- صلوات الله وسلامه عليهم- لم تختلف شرائعهم في وجوب عبادة المولى سبحانه وطاعته، ولا فيما يكون من أمر الآخرة من موت وبعث وحساب وجزاء، أما نزغ الشيطان فاحذروه فإنه واضح العداوة لكم، حيث أبى السجود لأبيكم، وأقسم ليغوينكم، وحسدكم على ما كرمكم به ربكم.
٦٣ - (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)
}ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون (٦٣)}.
ولما آتاهم عيسى بالعلامات والمعجزات الدالة علة صدق نبوته وقدرة من أرسله سبحانه- أو بآيات الإنجيل وفيها الهدى والنور، قال:

قد جئتكم بما هو موافق للصواب، ولأوضح لكم وجه الحق في بعض ما اختلفتم فيه. فاحذروا الله أن يراكم على ميل عن الحق، وأطيعوا أمر ربكم الذي بعثني به.

[وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله]؟ ٣٩ {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله} ٤٠.

٦٤ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

{إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٦٤)}.

توكيد لأهم مطالب الإيمان {إن الله هو ربي وربكم}، وأمر جامع للعمل الصالح {فاعبدوه}، وهذا الإيمان والعمل الصالح طريق لا تلتوي، معتدلة توصل إلى رضوان الله تعالى وجنته، [وما سواه معوج لا يؤدي سالكه إلى الحق] ٤١.

يقول ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له.

٦٥ - (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

{فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم (٦٥)}.

فتفرقت الشيع والطوائف التي بعث إليها عيسى-عليه الصلاة والسلام- فمنهم ملكانية ومنهم يعقوبية ومنهم نسطورية. . فنكال مُعَدّ لمن لم يشهد أنه عبد الله ورسوله، والعذاب الموجع ينتظرهم يوم القيامة.

[منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا] ٤٢.

وعن السدّي فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله.

٦٦ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

{هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٦٦)}.

هل ينتظر المختلفون في أمر عيسى إلا أن تحل بهم القيامة فجأة وهم في غفلة لا يفطنون لها. أو لا ينتظروا مشركو العرب إلا الساعة، ويكون {الأحزاب} على هذا: الذين تحزبوا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه من الكافرين.

٦٧ - (الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ)

{الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (٦٧)}.

ويوم تقوم الساعة تنقطع كل خلة {. . من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} ٤٣ {وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} ٤٤ إلا المتصادقين في الله عز وجل.

٦٨ - (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

{يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون (٦٨)}.

ينادي المتقون المتحابون فيقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم من وقوع مكروه، ولا أنتم تحزنون لفوات محبوب.

٦٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)

{الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين (٦٩)}.

كل من في السماوات والأرض هم عبيد لله الكبير المتعال الملك القدوس، لكن الأمن وانصراف الحزن لا يكون إلا لأهل ولاية ربنا سبحانه، وهم المصدقون المستيقنون بمطالب الإيمان- آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله والآخرة- وكانوا منقادين لشرع الله، مستقيمين على منهاجه، مخلصين الدين له.

٧٠ - (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ)
{ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون (٧٠)}.
يا عبادي الذين آمنوا تبوؤا منازلكم في الجنة ومعكم نساؤكم المؤمنات أو زوجاتكم من الحور العين، وابقوا فيها مكرمين مسرورين، وما أنتم منها بمخرجين؛ وقد أذهبت عنكم الحزن والنصب، ولن تذوقوا الموت ولكن ستنعمون خالدين.
٧١ - (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
{يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون (٧١)}.
ومطاعم أهل الجنة ومشاربهم ميسورة موفورة، وآنيتهم الذهب، ويقوم على خدمتهم {. . ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا} ٤٥ وكل ما تتمناه الأنفس ويطيب مرآه للأعين فإنه مضمون لهم {. . ولهم ما يدعون} ٤٦، وهم ماكثون في الجنة لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم.
٧٢ - (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
{وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون (٧٢)}.
ثني عليهم ملائكة الله بما يشرح الصدور ويضاعف النعيم والتكريم {سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} ٤٧ {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٤٨.
٧٣ - (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)
{لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون (٧٣)}.
ومع ما يطاف به من طعام وشراب وما يشتهون، تدنو ثمار الجنة وتكثر: {. . كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا به متشابها} ٤٩.
[لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في أشجارها، فهي مزينة بالثمار أبدا موقرة بها، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها- كما في الدنيا-] ٥٠.
٧٤ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)
{إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤)}.
إن الكفار، وعشاق الجرائم الفجار ماكثون في النار، لا يخرجون منها.
٧٥ - (لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)
{لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون (٧٥)}.
ولا يضعف ولا يخفف ولا يسكن عنهم العذاب، بل يحيرهم ويسكتهم لشدة بأسه، وانقطاع حجتهم: {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٥١.
٧٦ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)
{وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين (٧٦)}.
ومهما طال العذاب واشتد فما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون، بتأبيهم عن الحق، وبغيهم على الخلق.
٧٧ - (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)
{ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون (٧٧)}.
يستشفعون بمالك-عليه السلام- خازن النار ويستغيثون به لهول ما يلاقون قائلين: ليمتنا ربك فنستريح مما نحن فيه.
مما أورد الألوسي: وهذا لا ينافي الإبلاس. . فإن أزمنة العذاب متطاولة وأحقابه ممتدة، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا خلاص لهم ولو بالموت. ويغوثون أوقاتا لشدة ما بهم. . اه.
فيجيبهم مالك: إنكم مقيمون في العذاب أبدا لا تخلصون منه بموت ولا بغيره.
٧٨ - (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

{لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون (٧٨)}.
وينادون من قبل المولى- تبارك اسمه- لقد بيّنا لكم الحجج وأرسلنا إليكم الرسل، ولكن الأكثرين منكم كانوا لا يقبلون الحق وينفرون منه ويشمئزون {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة} ٥٢.
٧٩ - (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)
{أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون (٧٩)}.
بل أحكموا حيلة ودبروا أمرا قبيحا منكرا يريدون به البطش برسول الله: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} ٥٣ {أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون} ٥٤.
٨٠ - (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)
{أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٨٠)}.
بل يظنون أنا لا نسمع ما يسرون به، وما يكون في خلواتهم من حديث خفي؟ بلى! إنا نسمع ذلك ونعلمه، وملائكتنا يدونونه ويدونون كل ما يقولون وما يفعلون، والملائكة الكتبة تلازمهم فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة من أفعالهم وأقوالهم إلا نسختها: {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ٥٥.
٨١ - (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)
{قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين (٨١)}.
نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: {إن} بمعنى [ما]. والمعنى ما كان للرحمن ولد، ولا وجدت له ذرية، وأنا أول الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له.
أو يكون المعنى: [قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد] ٥٦.
٨٢ - (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)
{سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون (٨٢)}.
تنزه بارئ السماوات والأرض ومالك العرش عن وصفهم الذي يصفونه به من كونه سبحانه له ولد.
٨٣ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)
{فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣)}.
دع يا محمد كفار مكة، واتركهم يخوضوا في لهوهم، ويتخبطوا في باطلهم حتى يتلقوا اليوم الذي وعدوا العذاب فيه في دنياهم وأخراهم.
٨٤ - (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)
{وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم (٨٤)}.
هو المعبود في السموات وفي الأرض، والقائم على أمرهما، وهو الذي يدبر الأمر موافقا للحكمة والصواب، ويقدره على علم فليس في فعله جهل ولا عبث.
٨٥ - (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
{وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون (٨٥)}.
وكثر خير الله الذي يملك السماء والأرض بما فيهما وما بينهما من هواء وسحاب وغيرها، ويعلم وقت قيام الساعة، وإليه يرجع الخلائق للحساب والثواب والعقاب.
٨٦ - (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
{ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٨٦)}.

ما للظالمين من شفيع ولا حميم يطاع، وما تغني عن المشركين آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل، لكن من شهد بالحق منهم على علم يؤذن له: {لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٥٧.

يقول القرطبي: أراد ب {الذين يدعون من دونه} عيسى وعزيرا والملائكة، والمعنى لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة. . وقيل إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفرا من قريش قالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه، فأنزل الله: {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق} أي: اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم، ولا شفاعة لأحد يوم القيامة. . قيل. . {إلا} بمعنى لكن، أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق، فهو استثناء منقطع. . قوله تعالى: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} يدل على معنيين: أحدهما-أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة؛ والثاني- أن شرط سائر الشهادات في الحقوق أن يكون الشاهد عالما بها؛ ونحوه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع). اه.

٨٧ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٨٧)}.

وإن سألت المشركين هل خلقتهم أصنامهم وما يشركون؟ فسيقرون بأن الله خالقهم، فكيف ينقلبون عن عبادة الخالق وينصرفون عنها ويدعون مع الله آلهة أخرى؟!.

[والمراد التعجب من إشراكهم مع ذلك؛ وقيل: المعنى: فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك، فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم] ٥٨.

٨٨ - (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ)

{وقيله يا ربِّ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون (٨٨)}.

نحن نعلم ما يسرون وما يعلنون، ونعلم قول الرسول يا رب إن هؤلاء قوم استحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان.

[والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد، والمنادى وما في خبره مقول القول، والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمان أولئك القوم، وفي الإشارة إليهم ب {هؤلاء} دون قومي ونحوه تحقير لهم، وتبرؤ منهم لسوء حالهم؛ والمراد من إخباره تعالى بعلمه ذلك وعيده سبحانه إياهم] ٥٩.

٨٩ - (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

{فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون (٨٩)}.

أمر الله تعالى نبيه أن يعرض عنهم ولا يحزن لتماديهم في ضلالهم، فليعرض عنهم وليتركهم، فإن لهم مع الله الواحد القهار موعدا سيعلمون حين يجيء كم كان ضلالهم وغيهم.

[وأصل الصفح ليِّ صفحة العنق فكني به عن الإعراض. {وقل} لهم {سلام} أي أمري سلام منكم ومتاركة، فليس أمرا بالسلام عليهم والتحية؛ وإنما هو أمر بالمتاركة. . . . وإن أريد بالآية الكف عن القتال فهي منسوخة، وإن أريد الكف عن مقابلتهم بالكلام فليست بمنسوخة. والله تعالى أعلم] ٦٠.

خاتمة تفسير سورة الزخرف:

هذه السور المحكمات كثير فيها السلطان المبين، والحجة على المجادلين في الله رب العالمين، وصُرفت فيها آيات تثبت اليقين في القرآن العظيم، وتقص من أنباء المرسلين الموعظة والذكرى للمتقين، وتنذر أهوال يوم الدين، وتُمسِّك بميثاق بر الوالدين والأولاد، وما كتب علينا من فريضة الجهاد.

كم حضتنا كلمات ربنا الصادقات العادلات التامات على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما لتهدينا إلى جلال مولانا الخلاق العليم: {إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار

وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون} ٦١ {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٦٢ {الله الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} ٦٣.

وكم جادل الكتاب الحكيم أهل الشرك والإفك: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} ٦٤ {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} ٦٥ {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ٦٦.

{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون} ٦٧ {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٦٨.

والكتاب العزيز نور للقلوب والألباب، وفرقان بين الجور والصواب، ومنّة وبرّ من المنعم الوهاب، هذا رشده ورفده للمصدقين المستيقنين: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون} منه سورة الجاثية، الآية ٢٠؛ لكن الناهين عنه والنائين عنه يزدادون به خسرانا: {ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} من سورة الجاثية. الآيات: ٧، ٨، ٩، والأفاك الذي يصرف الناس عن الحق بباطله.

والفرقان الهادي الشافي مجدته هذه السورة تمجيدا عزيزا فلم يوصف بأنه. (عليّ) عزيز الجناب إلا في سورة الزخرف، وصدق الله موحيه {وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} ٦٩ وسمي: ذكرا في مواطن ثلاثة منها؛ وشرفت الليلة التي نزل فيها وبوركت حتى لها أعظم خيرا وأجرا من ثمانين سنة ٧٠: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك} ٧١؛ وامتن الحميد المجيد على النبي والناس كافة بأن هذا الحديث الرباني المبارك قد خضعت أئمة الجن ورعوا أماناته: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} ٧٢؛ وإذ رفع الله درجاتكم بهذا القرآن فاستمسكوا بشرعته ومنهاجه، فإنه من يعرض عنه يخسر خسرانا لا ربح معه ويضل ضلالا بعيدا: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} ٧٣؛ ولا يفتننكم أعداء الحق ولو عن اليسير من مواثيقه فإن الشيطان سول وأملى لقوم أطاعوا المبطلين في شيء على غير سبيل القرآن المبين {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} ٧٤، {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}.

وآيات من هذه السور الكريمة دمغت باطل عبدة الملائكة وأزهقت فرية من نسبوهم إلى الأنوثة، يقول الحق جل علاه: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون} {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}.

سبحان الله وتعالى عما يصفون.

وسنة ربنا فيمن بعث إليهم أنبياءه إذا عصوهم أن يدمرهم، {وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين} ٧٥، وإذا استهزأ فرعون وملؤه بموسى وهارون أذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون {فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ٧٦ {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} ٧٧، {فما بكت عليهم السماء والأرض} ٧٨؛ {أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم} ٧٩ {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} ٨٠.

وفتنة كثير من المكذبين الكبر، فهم يقولون إذ بعث الله خاتم النبيين: {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}، والمفتون المتأله فرعون يقول ما بينه الذكر الحكيم: {. . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} ٨١.
فَلْيَدْعُ أهل الحق مستيقنين بأن العاقبة للمتقين، وليثبتوا على الرشد فإن الله مُظْهِر دينه على كل دين: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ٨٢.
ودعوتنا لا تقبل مُوادّة للضالين، لكن ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه} ٨٣.
وعن أحوال الآخرة وأهوالها صرف الله القول:
فقرين السوء مهما زوّر ودّا، فإنه يوم الفصل يكون لقرينه عدوّا وضدّا {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} ٨٤، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٨٥، فلا تصاحب إلا مؤمنا، ولا تأثم بمن تخالل أو تُؤثم عسى الله أن يجمعكما في دار الخلد والكرامة {إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم} ٨٦.
وجاءنا من ربنا برهان البعث: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق} ٨٧ {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} ٨٨ {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} ٨٩، {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ٩٠؛ وبينت الآيات مصير المسيئين والمحسنين، ولكل درجات مما عملوا، وليس لأحد إلا ما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، ويوم الحساب لا يغني ولي عن ولي، بل يتناكر الأصدقاء ويتنافرون، ويتخاصمون ويتلاعنون، إلا من اتقى فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون؛ فالسعيد من استيقن بالبعث، وعمل ما يرضي مولاه، وتحسن به عقباه، ولم يتول إلا من أحب الله.
وما فُصّل القول الكريم في شراب أهل النعيم مثل ما فُصل في آيات سورة [القتال]: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٩١، وجمعت آيات في سورة الزخرف أزواجا من الحبور النفسيّ والحسيّ، كما عظمت مُتع العباد المؤمنين المسلمين، وطعامهم وشرابهم وآنيتهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} ٩٢، كما هيئت مجالسهم وملابسهم {وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين} ٩٣.
فيا أيها العباد! استجيبوا لدعوة مولاكم إلى نعيم ماله من نفاد، واعملوا ما تبيض به الوجوه يوم التناد.
وإن أهوال الآخرة لتشيب منها الولدان، ويتعادى فيها الخلان، وتنشر صحائف البهتان، الإثم والعدوان، وتذل طوائف الكفر والعصيان: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ٩٤، {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٩٥.
وبئس قرار الفجار، لا ينفكون عن دار البوار {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون}.
وفي رعاية الوالدين والذرية، نُلقّى أكرم وصية {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} ٩٦، {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد

الله حق} ٩٧.
وللقرابة حق من يرعه فإن الله يرعاه، ومن يضيعه يخسر في أولاه وأخراه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} ٩٨.
وبالقتال يتمحص الرجال، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجاهد المؤمن بالنفس والمال، وأدعياء الأيمان ينقضون العهد من بعد ميثاقه، فإذا التقى الجمعان ولو الأدبار، وإذا دُعوا إلى النفقة غُلّت أيديهم شُحّا أن يبذلوا الأموال، فليتق الله من يبتغي حرث الآخرة، وليجاهد في سبيل الله ومن يرد للإسلام وأهله نصرا، يغفر الله خطاياه، ويعظم له أجرا.

٤٤ سورة الدخان:

سورة الدخان:
سورة الدخان
مكية
وآياتها تسع وخمسون
كلماتها: ٣٤٠؛ حروفها: ١٤٤٠
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١)}.
ربما يكون معناها: الحاء والميم حروف تتكون منها كلماتكم، ومنها تتكون كلمات القرآن الكريم، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بكلام مثل الكتاب الحكيم؛ فآمنوا بأنه وحي الله العليم.
أو تكون- كما جاء في الخبر- بدء أسماء وفواتح سور.
أو تكون بمعنى حُمّ- قُضِيَ ووقع- أي قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه، كيوم بدر.
أو قسم يحلف الله تعالى به- ولله أن يقسم بما شاء- أو [الحاء]: افتتاح اسمه العظيم (حكيم)، و [الميم] افتتاح اسمه الكريم (ملك)؛ والله تعالى أعلم.
٢ - (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)
{والكتاب المبين (٢)}.
وقسما بالكتاب الذي يبين غاية الإبانة، ويوضح لمن تدبره طرائق الفوز والفلاح.
٣ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)
{إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين (٣)}.
جواب القسم: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} اخترنا لنزول هذا الفرقان والنور ليلة ١ كثيرة الخيرات، لأن إنزال القرآن مستتبع لخيري الدين والدنيا، ولأن الملائكة الكرام ينزلون فيها، ويستجاب الدعاء: {إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر} ٢.
{إنا كنا منذرين} أردنا بإنزاله أن نبشر المتقين بالعز والنعيم، وننذر الفجار بطشتنا وعذاب الجحيم.
قال ابن كثير: أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعا لتقوم حجة الله على عباده.
قال ابن جرير: {إنا كنا منذرين} خلقنا بهذا الكتاب الذي أنزلناه في الليلة المباركة عقوبتنا أن تحل بمن كفر منهم فلم يُنِب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا.

٤ - (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)
{فيها يفرق كل أمر حكيم (٤)}.
يفصل المولى- تعالى شأنه- الأقضية، وكل أجل ورزق وأمر إلى السنة التالية {حكيم} محكم لا تبديل فيه- فإنه إن يكن مَحْو وإثبات ففي اللوح المحفوظ-[لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام، بخلافه قبله وهو في اللوح فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت] ٣.
٥ - (أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)
{أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك}.
أمرا موافقا لحكمتنا وتدبيرنا، وأرسلنا خاتم النبيين رحمة من ربك.
٦ - (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك}.
أمرا موافقا لحكمتنا وتدبيرنا، وأرسلنا خاتم النبيين رحمة من ربك.
{إنه هو السميع العليم (٦)}.
{إنه هو السميع العليم} فيسمع شكر الشاكرين فيزيدهم، ويسمع مكر الكافرين ويملي لهم.
[والجملة تحقيق لربوبيته عز وجل وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته] ٤.
٧ - (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)
{رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (٧)}.
إن كنتم ممن يستيقنون فاعلموا أنه رب السماوات والأرض.
[ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المُعْتَرِف بأن الله خلق السماوات والأرض، أي إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يُرسل الرسل وينزل الكتب؛ ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق، أي ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت؛ وقيل: الموقن هاهنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنْجِد، أي يريد نجدا. ويُتْهِم، أي يريد تهامة] ٥.
٨ - (لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ)
{لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آباءكم الأولين (٨)}.
هو سبحانه لا معبود بحق سواه، متفرد وحده بالإحياء والإماتة، وهو ولينا وولي آباءنا من قبلنا، ومالكنا ومالكهم.
٩ - (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)
{بل هم في شك يلعبون (٩)}.
لكن المشركين المستهزئين لا يريدون يقينا، ومهما قالوا – ظاهرا من القول- إنهم مقرون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض فليسوا على يقين مما يقولون بألسنتهم.
[يقولونه تقليدا لآبائهم من غير علم، فهم في شك. وإن توهموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعِنُّ لهم من غير حجة. . ويقال لمن أعرض عن المواعظ لاعب، وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته] ٦.
١٠ - (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)
{فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب أليم (١١)}.

قد يكون هذا وعيد بالقحط والجوع، ومن اشتد به الجوع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، من ظلمة تغشى البصر الكليل إذا أطال النظر إلى شيء.

ويشهد لهذا الفهم ما رواه ابن مسعود وقد جاءه رجل فقال: إني تركت رجلا في المسجد يقول في هذه الآية {. . . يوم تأتي السماء بدخان مبين} يغشى الناس قبل يوم القيامة دخان، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، فغضب- وكان متكئا فجلس- ثم قال: من علم منكم علما فليقل به، ومن لم يكن يعلم فليقل: الله تعالى أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله تعالى أعلم، وسأحدثكم عن الدخان: إن قريشا لما استصعبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبطأوا عن الإسلام قال: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم} فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله استسق الله تعالى لمضر فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام، فسقوا، فأنزل الله تعالى: {إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون} الخبر أخرجه البخاري وأحمد وجماعة.

هذا وفي صحيح مسلم بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي- صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذكرون؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات – فذكر- الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم).

١١ - (يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب أليم (١١)}.

قد يكون هذا وعيد بالقحط والجوع، ومن اشتد به الجوع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، من ظلمة تغشى البصر الكليل إذا أطال النظر إلى شيء.

ويشهد لهذا الفهم ما رواه ابن مسعود وقد جاءه رجل فقال: إني تركت رجلا في المسجد يقول في هذه الآية {. . . يوم تأتي السماء بدخان مبين} يغشى الناس قبل يوم القيامة دخان، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، فغضب- وكان متكئا فجلس- ثم قال: من علم منكم علما فليقل به، ومن لم يكن يعلم فليقل: الله تعالى أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله تعالى أعلم، وسأحدثكم عن الدخان: إن قريشا لما استصعبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبطأوا عن الإسلام قال: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم} فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله استسق الله تعالى لمضر فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام، فسقوا، فأنزل الله تعالى: {إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون} الخبر أخرجه البخاري وأحمد وجماعة.

هذا وفي صحيح مسلم بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي- صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذكرون؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات – فذكر- الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم).

١٢ - (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

{ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون (١٢)}.

يضرع الناس إلى الله تعالى مستغيثين به قائلين: ربنا ارفع واصرف عنا البلاء إنا سندخل في الإيمان ونتبع الرسول.

والناس هكذا إذا مسهم الضر جأروا إلى الله: {. . لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق} ٧ وكذلك فعل آل فرعون حين أُخذوا بذنوبهم {ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون} ٨.

١٣ - (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ)

{أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين (١٣) ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون (١٤)}.

بَعُدَ أن يوفوا بوعدهم، وهم عن التذكر والتبصر بمنأى {إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق} ٩ وكيف وقد بعثنا إليهم رسولنا المبين للحق فتولوا وأعرضوا عنه، ولم يتركوه، بل افتروا عليه وعابوه، واستهزؤوا به وكذبوه، فمرة يقولون: {. . إنما يعلمه بشر} ١٠ – عداس الرومي أو سلمان الفارسي- وثانية يقولون: {. . . يا أيها الذي نزل عليك الذكر إنك لمجنون} ١١.

١٤ - (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

{أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين (١٣) ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون (١٤)}.

بَعُدَ أن يوفوا بوعدهم، وهم عن التذكر والتبصر بمنأى {إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق} ١٢ وكيف وقد بعثنا إليهم رسولنا المبين للحق فتولوا وأعرضوا عنه، ولم يتركوه، بل افتروا عليه وعابوه، واستهزؤوا به وكذبوه، فمرة يقولون: {. . إنما يعلمه بشر} ١٣ – عداس الرومي أو سلمان الفارسي- وثانية يقولون: {. . . يا أيها الذي نزل عليك الذكر إنك لمجنون} ١٤.

١٥ - (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

{إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون (١٥)}.

لما تضرع المشركون وقالوا {ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون} واستسقى لهم النبي صلى الله عليه وسلم- كما جاء في الصحيح- كشف الله عنهم القحط والبلاء حين، لِما يعلم سبحانه من إصرارهم على الضلال، والثبات على الكفر.

[إن كشفنا عنكم العذاب كشفا قليلا أو زمانا قليلا عدتم. والمراد على ما قيل: عائدون إلى الكفر، وأنت تعلم أن عودهم إليه يقتضي إيمانهم وقد مرّ أنهم لم يؤمنوا، وإنما وعدوا الإيمان فإما أن يكون وعدهم منزّلا منزلة إيمانهم، أو المراد: عائدون إلى الثبات على الكفر أو على الإقرار والتصريح به] ١٥.

١٦ - (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)

{يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون (١٦) *}

فإن عدتم ونكثتم فارتقبوا يوم نبطش ونأخذ بشدة ونعاجل قتلكم بقوة بطشة كبرى تنال كبراءكم، إنا سنحل غضبنا ونجازي كل جبار عنيد، وذلك يوم بدر.

١٧ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

{ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم (١٧)}.

مدار معنى [فتن] الامتحان والاختبار والابتلاء، وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه.

ولقد اختبرنا قبل قومك يا محمد قوم فرعون- عاملناهم معاملة الممتحن ليظهر حالهم لغيرهم- فأرسلنا إليهم رسولا كريما الخُلق مكرما عند الله سبحانه، يكرم ربه به من حوله.

قال ابن منظور: . وأصلها [فتن] مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد. . ثم كثر حتى استعمل بمعنى الإثم والكفر والقتال والإحراق والإزالة والصرف عن الشيء.

أقول: ومن معانيها التي أوردها القرآن الكريم: الاصطفاء والاختيار، يقول المولى -تبارك اسمه- {. . . وفتناك فتونا فلبثت سنين في

أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى. واصطنعتك لنفسي} ١٦ أخلصناك إخلاصا، وقال ابن عباس: {واصطنعتك لنفسي} اخترتك لوحيي ورسالتي.

١٨ - (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

{أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين (١٨)}.

جاءهم موسى بدعوة: شطر منها أن يُطْلقوا الإسرائيليين الذين استعبدوهم، وهذا أمر الله إليكم أبلغكموه بصدق وأمانة.

نقل ابن جرير بسنده عن قتادة: قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم؟ قوما أحرارا اتخذتهم عبيدا! خل سبيلهم. اه.

وهكذا جاءت الدعوة من الله لإنقاذ المستضعفين، وتحرير المستذلين، وتخليص البشر من قهر الجبارين، واستعلاء المتكبرين، بل كانت في أول ما دعا إليه الرسول الكريم موسى عليه الصلاة والتسليم، وأول عهد الله إليه وإلى أخيه هارون عليه السلام: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل} ١٧ {وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل} ١٨.

فهل يشكر الإسرائيليون نعمة الله؟ وهل يقدس اليهود الوحي الرباني الذي جعل لهم ذكرا على تعاقب أزمان الحياة؟ وهل يزدجرون- وقد ذاق أوائلهم والأواخر مرارة البغي والقهر- فيقلعون عن إشاعة السفك والفحش والشر وتوسيع مداه؟!.

ألم يأن للمستشرفين للحرية، والحقوق الإنسانية، والداعين إليها، أن يدخلوا في دين الإسلام الذي يهدي من آمن به إلى سنن المرسلين، ويستحفظهم كرامة وحق البشر، ويؤاخي على الإيمان بين الناس، ويلزمهم المودة والتناصر مهما اختلفت الشعوب والأجناس؟!.

١٩ - (وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

{وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين (١٩)}.

ولا تنازعوا الكبير المتعال سلطانه باستعبادكم الخلق، وما العبودية إلا للخالق دون سواه، إني قد جئتكم بحجة واضحة وبرهان يبين صدق ما أدعوكم إليه وأنني مرسل من ربي.

[ولا تستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جل شأنه ورسوله عليه السلام، و {أن} كالتي قبلها، والمعنى على المصدرية: بكفكم عن العلو على الله تعالى. . . ولا يخفى حسن ذكر [الأمين] مع الأداء، [والسلطان] مع العلاء.] ١٩.

٢٠ - (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)

{وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون (٢٠)}.

عَلِمَ موسى -صلى الله عليه وسلم- أن الذي دعاهم إليه من تحرير المستعبدين، والخضوع لرب العالمين، كلام لا يطيقونه، وليس لقائله عندهم إلا القتل رجما بالحجارة، فأخبرهم أن الله تعالى مانعه منهم، ثقة بوعد الله الحق لموسى وهارون {قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} ٢٠ {وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد. وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب} ٢١. يخبرهم أنه لاذ بالله تعالى ولجأ إليه واعتصم به، فهو عاصمه.

٢١ - (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ)

{وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون (٢١)}.

وإن لم تصدقوا ما جئتكم به فاتركوني ولا تكونوا عليّ، ولا تتعرضوا لي بأذى، فإن من يدعو إلى الخير والحق إما أن يُتَّبع، أو يترك وشأنه.

٢٢ - (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ)

{فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون (٢٢)}.

وطال أمد تكذيب فرعون وملئه، {. . فقالوا ساحر كذاب. فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساء هم} ٢٢.

{وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما} ٢٣.

سأل موسى – ومعه هارون عليهما السلام- ربنا القريب المجيب أن يهلك هؤلاء الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فلا هم أدّوا حق الخالق فآمنوا به وأطاعوه، ولا حق الخلق فتركوهم أحرارا.

ونعم سلاح المؤمن الدعاء، {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر} ٢٤.

٢٣ - (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)

{فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون (٢٣)}.

فاستجبنا دعوة موسى وأخيه، وقضينا إليه أن يسير تاركا أرض مصر في جنح الليل وقطعة من آخره ٢٥، وأن يسير معه بنو إسرائيل ومن آمن من القبط، فإني أعلم أن فرعون وجنوده سيتبعونهم، فإذا سار موسى ومن معه ليلا فسيتأخر العلم برحيلهم فلا يُدْرَكُون.

٢٤ - (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)

{واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (٢٤)}.

أوجز القرآن الكريم في هذه السورة المباركة ما كان من نبأ موسى وأصحابه إذ لاحقهم فرعون وجنده، وأمر الله لنبيه أن يضرب بعصاه البحر، فإذا بالماء ينحسر عن طريق يبس يجتازه موسى والذين آمنوا معه، وجاء الأمر هنا لموسى أن يترك البحر منفرجا مفتوحا، فقد قضى الله أن يغرق فرعون وهامان وجنودهما.

بينما فصّلت قصة الإنجاء والإغراق في سورتي طه والشعراء، وذلك قوله تبارك اسمه {. . فاضرب لهم في البحر طريقا يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم} ٢٦ وقوله- سبحانه وتعالى-: {فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثمّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين} ٢٧.

قال قتادة: أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يلتئم كما ضربه أولا فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده، فأُمر بأن يتركه {رهوا} أي مفتوحا منفرجا ولا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم.

٢٥ - (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

{كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧)}.

أغرقهم الله وما أغنت عنهم ثروتهم من البساتين والحدائق البهيجة، والماء الوفير، والزرع النضير، والمساكن المترفة، والمجالس الفاخرة، والراحة وسعة الرزق الذي يُستمتع معه بالملاذ والشهوات، وما كان أكثر ذلك كله لديهم.

٢٦ - (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]

{كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧)}.

أغرقهم الله وما أغنت عنهم ثروتهم من البساتين والحدائق البهيجة، والماء الوفير، والزرع النضير، والمساكن المترفة، والمجالس الفاخرة، والراحة وسعة الرزق الذي يُستمتع معه بالملاذ والشهوات، وما كان أكثر ذلك كله لديهم.

٢٧ - (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]
{كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧)}.
أغرقهم الله وما أغنت عنهم ثروتهم من البساتين والحدائق البهيجة، والماء الوفير، والزرع النضير، والمساكن المترفة، والمجالس الفاخرة، والراحة وسعة الرزق الذي يُستمتع معه بالملاذ والشهوات، وما كان أكثر ذلك كله لديهم.
٢٨ - (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)
{كذلك وأورثناها قوما آخرين (٢٨)}.
كذلك نفعل بالمجرمين ونستأصلهم، واستخلفنا في النعمة من كانوا قبل مستبعدين {. . وأورثناها بني إسرائيل} ٢٨ {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها} ٢٩.
٢٩ - (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)
{فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (٢٩)}.
لما قُطِع دابر القوم الذين ظلموا استراحت الدنيا من بغيهم وظلمهم، وعندما حان أجلهم أُخِذوا دون إمهال {فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون} ٣٠، وأغرقوا {. . فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون} ٣١، هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد.
أورد القرطبي عن الحسن:. . في الكلام إضمار، أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة، كقوله تعالى: {واسأل القرية} ٣٢. . بل سروا بهلاكهم ٣٣ يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي ٣٤ فقد ذلك. . فما بكت ٣٥ عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.
٣٠ - (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)
{ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين (٣٠)}.
يذكر الله تعالى الإسرائيليين بنعمته ليشكروا ولا يكفروا، فيحل بهم ما حل بالفرعونيين، لقد نجاهم المولى الرحيم من الخزي والذل والمهانة التي ذاقوها، فوق ما فُعِل بهم من تذبيح أبنائهم واستحياء نساءهم.
٣١ - (مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)
{من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين (٣١)}.
من عذاب فرعون إنه-عليه اللعنة- كان متعاليا أعمى القلب حتى بلغ به العتو أن قال ما حكاه القرآن العظيم: {فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى} ٣٦، وتجاوز الحد في الشر، وأسرف في الفساد، فلم يشف غيظه أن ينكِّل بشعب، وأن يصرخ ليباشر قتل رسول كلّمه الله تعالى تكليما، وشهد الكتاب الحق بأضغان فرعون: {وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه} ٣٧. وحين آمن السحرة برب العالمين قال الطاغية ما سجلته الآيات الكريمة:. . {آمنتم له قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} ٣٨ {قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى} ٣٩.
٣٢ - (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)
{ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢)}.
اخترنا بني إسرائيل من بين أمم خلقناها، ومنحناهم ما قضيناه وفق علمنا، فأنجيناهم وأغرقنا عدوهم، وأورثناهم من المشارق والمغارب ما شئنا، وجعلنا فيهم أنبياء وملوكا.
٣٣ - (وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ)

{وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين (٣٣)}.
وأعطيناهم من المعجزات ما فيه اختبار يتميز به المؤمن من الكافر، والجاحد من الشاكر.
قال قتادة: إنجاؤهم من فرعون، وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى.
٣٤ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ)
{إن هؤلاء ليقولون (٣٤) إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين (٣٥) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٣٦)}.
وبعد أن قصّ القرآن الكريم في سبع عشرة آية- من ١٧ - ٣٣. من أنباء موسى عليه الصلاة والتسليم مع الفرعونيين والإسرائيليين بيّن في هذه الآيات الثلاث فرية من افتراءات المشركين، المنكرين للبعث ولقاء رب العرش العظيم، وأورد حجتهم الداحضة: يقولون: بعد الموت لا نشر ولا إعادة ولا إحياء للموتى، وإلا فأحيوا من مات من أجدادنا لنراهم بيننا فنصدق أن لنا إعادة بعد موتنا.
يقول ابن كثير: وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. اه.
٣٥ - (إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{إن هؤلاء ليقولون (٣٤) إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين (٣٥) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٣٦)}.
وبعد أن قصّ القرآن الكريم في سبع عشرة آية- من ١٧ - ٣٣. من أنباء موسى عليه الصلاة والتسليم مع الفرعونيين والإسرائيليين بيّن في هذه الآيات الثلاث فرية من افتراءات المشركين، المنكرين للبعث ولقاء رب العرش العظيم، وأورد حجتهم الداحضة: يقولون: بعد الموت لا نشر ولا إعادة ولا إحياء للموتى، وإلا فأحيوا من مات من أجدادنا لنراهم بيننا فنصدق أن لنا إعادة بعد موتنا.
يقول ابن كثير: وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. اه.
٣٦ - (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{إن هؤلاء ليقولون (٣٤) إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين (٣٥) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٣٦)}.
وبعد أن قصّ القرآن الكريم في سبع عشرة آية- من ١٧ - ٣٣. من أنباء موسى عليه الصلاة والتسليم مع الفرعونيين والإسرائيليين بيّن في هذه الآيات الثلاث فرية من افتراءات المشركين، المنكرين للبعث ولقاء رب العرش العظيم، وأورد حجتهم الداحضة: يقولون: بعد الموت لا نشر ولا إعادة ولا إحياء للموتى، وإلا فأحيوا من مات من أجدادنا لنراهم بيننا فنصدق أن لنا إعادة بعد موتنا.
يقول ابن كثير: وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. اه.
٣٧ - (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)
{أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين (٣٧)}.
توعد الله القوي القدير المكذبين بالآخرة أن يهلكهم كما أهلك من سبقوهم بإجرامهم وارتيابهم في لقاء ربهم. وبدأت الآية بالاستفهام الإنكاري: {أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم} أقومك الذين يقولون: {وما نحن بمنشرين} - بمبعوثين- أفضل وأشد وأكثر من قوم تبع-اليمنيين الذين ملكوهم التبابعة ٤٠ - ؟ وهل قومك أقوى من سابقيهم عاد وثمود؟ لا! بل الذين كانوا من قبلهم {. . كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها} ٤١ {. . كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا} ٤٢ {كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق} ٤٣ فالذي أهلك الأولين، قادر على أن يُتبعهم الآخرين،

كذلك يفعل ربنا بالمجرمين. {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} ٤٤.
٣٨ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)
{وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين (٣٨)}.
خلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت، فلو لم يكن بعث-وحاشا- لكان ذلك باطلا، بل هو مستحيل، ولقد أقام الله الحجة بالحق على الخلق فقال- تبارك اسمه- {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق} ٤٥.
٣٩ - (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)
{ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩)}.
لكن خلقنا السماوات والأرض وما بينهما خلقا ملتبسا بالحق الذي هو الإيمان والطاعة والجزاء- وإنما يتم الجزاء ويُستوفى في الآخرة- ولهذا قضى الخلاق العليم، أحكم الحاكمين، أن ملابسة خلقهما بالحق مقترنة بأن ينقضي خلقهما عندما يحين أجل معلوم، قدّره الحي القيوم: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى} ٤٦ وإنما يجهل المعرضون لعمى بصائرهم، وغلبة شقوتهم {. . والذين كفروا عما أنذروا معرضون} ٤٧.
٤٠ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)
{إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين (٤٠)}.
فليتحققوا أنهم مبعوثون ومحاسبون ومجزيون كلهم، وربنا يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، يفصل بين المتقين والفاسقين في حشرهم وسؤالهم ووقوفهم ومصيرهم، يفصل الواحد القهار بين الأقرباء والأحبّاء والأصدقاء إلا المتقين: {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم} ٤٨.
٤١ - (يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)
{يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون (٤١) إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم (٤٢)}.
يوم يفصل الواحد القهار بين العباد لا يدفع حبيب عن حبيبه ولا قريب عن قريبه أيّ دفع، ولا يغني عنه، ولا يعينه على تخطي الكربات وما هو ملاقيه، ولا ينصره مما هو فيه؛ ومهما كانت القرابات قريبة فإن أحدا لا ينفع، إلا من رحمه البر الرحيم العزيز الكريم. شهد الله أن الأب لا ينفع ابنه، ولا ينفع الابن أباه، إلا أهل ولاية الله: {. . واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٤٩ بل يتنافرون ويتناكرون
{يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه} ٥٠، {. . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا} ٥١
[ويعلم من نفي إغناء المولى نفي إغناء غيره من باب أولى] ٥٢.
[لا يُمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه]] ٥٣.
[. . لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.
{إنه هو العزيز الرحيم} أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: {. . شديد العقاب ذي الطول} ٥٤ فقرن الوعد بالوعيد] ٥٥.
٤٢ - (إِلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]
{يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون (٤١) إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم (٤٢)}.
يوم يفصل الواحد القهار بين العباد لا يدفع حبيب عن حبيبه ولا قريب عن قريبه أيّ دفع، ولا يغني عنه، ولا يعينه على تخطي الكربات وما هو ملاقيه، ولا ينصره مما هو فيه؛ ومهما كانت القرابات قريبة فإن أحدا لا ينفع، إلا من رحمه البر الرحيم العزيز الكريم.

شهد الله أن الأب لا ينفع ابنه، ولا ينفع الابن أباه، إلا أهل ولاية الله: {. واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٥٦ بل يتنافرون ويتناكرون

{يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه} ٥٧، {. . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا} ٥٨

[ويعلم من نفي إغناء المولى نفي إغناء غيره من باب أولى] ٥٩.

[لا يُمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه]] ٦٠.

[. لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

{إنه هو العزيز الرحيم} أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: {. . شديد العقاب ذي الطول} ٦١ فقرن الوعد بالوعيد] ٦٢.

٤٣ - (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ)

{إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦)}.

فليتحقق كل من هو أهل لذلك أن الشجرة الملعونة شجرة تخرج في قاع جهنم، طلعها قبيح المنظر كأنه رءوس الشياطين، ومنها غذاء الفجار الآثمين، فتنزل إلى بطونهم كعكر الزيت تغلي وتفور في أجوافهم كأشد ما يكون الفوران والغليان.

٤٤ - (طَعَامُ الأَثِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦)}.

فليتحقق كل من هو أهل لذلك أن الشجرة الملعونة شجرة تخرج في قاع جهنم، طلعها قبيح المنظر كأنه رءوس الشياطين، ومنها غذاء الفجار الآثمين، فتنزل إلى بطونهم كعكر الزيت تغلي وتفور في أجوافهم كأشد ما يكون الفوران والغليان.

٤٥ - (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦)}.

فليتحقق كل من هو أهل لذلك أن الشجرة الملعونة شجرة تخرج في قاع جهنم، طلعها قبيح المنظر كأنه رءوس الشياطين، ومنها غذاء الفجار الآثمين، فتنزل إلى بطونهم كعكر الزيت تغلي وتفور في أجوافهم كأشد ما يكون الفوران والغليان.

٤٦ - (كَغَلْيِ الْحَمِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦)}.

فليتحقق كل من هو أهل لذلك أن الشجرة الملعونة شجرة تخرج في قاع جهنم، طلعها قبيح المنظر كأنه رءوس الشياطين، ومنها غذاء الفجار الآثمين، فتنزل إلى بطونهم كعكر الزيت تغلي وتفور في أجوافهم كأشد ما يكون الفوران والغليان.

٤٧ - (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

{خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩)}.

يقال للزبانية خزنة النار من الملائكة: خذوا الأثيم الفاجر فسوقوه وجروه إلى وسط جهنم، ثم صبوا على قمة رأسه أشد السوائل حرارة ليعمه العذاب من أعلاه إلى أسفله، وتُحسره الملائكة وتسخر منه فيقولون له: ذق هذا العذاب إنك كنت تزعم أنك العزيز الذي لا يُغلب، الكريم الذي لا ينال.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل ٦٣ وكان قد قال: ما فيها أعز مني ولا أكرم، فلذلك قيل له: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}.
يقول الألوسي: وهذا ونحوه لا يدل أيضا على تخصيص حكم الآية به، فكل أثيم يدّعي دعواه يوم القيامة.
٤٨ - (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩)}.
يقال للزبانية خزنة النار من الملائكة: خذوا الأثيم الفاجر فسوقوه وجروه إلى وسط جهنم، ثم صبوا على قمة رأسه أشد السوائل حرارة ليعمه العذاب من أعلاه إلى أسفله، وتُحسرُه الملائكة وتسخر منه فيقولون له: ذق هذا العذاب إنك كنت تزعم أنك العزيز الذي لا يُغلب، الكريم الذي لا ينال.
قال قتادة: نزلت في أبي جهل ٦٤ وكان قد قال: ما فيها أعز مني ولا أكرم، فلذلك قيل له: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}.
يقول الألوسي: وهذا ونحوه لا يدل أيضا على تخصيص حكم الآية به، فكل أثيم يدّعي دعواه يوم القيامة.
٤٩ - (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩)}.
يقال للزبانية خزنة النار من الملائكة: خذوا الأثيم الفاجر فسوقوه وجروه إلى وسط جهنم، ثم صبوا على قمة رأسه أشد السوائل حرارة ليعمه العذاب من أعلاه إلى أسفله، وتُحسرُه الملائكة وتسخر منه فيقولون له: ذق هذا العذاب إنك كنت تزعم أنك العزيز الذي لا يُغلب، الكريم الذي لا ينال.
قال قتادة: نزلت في أبي جهل ٦٥ وكان قد قال: ما فيها أعز مني ولا أكرم، فلذلك قيل له: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}.
يقول الألوسي: وهذا ونحوه لا يدل أيضا على تخصيص حكم الآية به، فكل أثيم يدّعي دعواه يوم القيامة.
٥٠ - (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)
{إن هذا ما كنتم به تمترون (٥٠)}.
ثم تحسّرهم الملائكة الزبانية خزنة جهنم تحسر الأثيم ومن على شاكلته فيقولون لهم: هذا العذاب هو ما كنتم تشكون في وقوعه أيام حياتكم.
٥١ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)
{إن المتقين في مقام أمين (٥١) في جنات وعيون (٥٢) يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين (٥٣)}.
في الآيات التي سبقت أنذر الله الآثمين المكذبين، وفي هذه بشّر ربنا المؤمنين المتقين، فهم في إقامة لا ظعن معها، ولا ارتحال منها، والمولى- تبارك اسمه- يؤمنهم من كل مكروه، وينعمون في بساتين كثر شجرها، واتصل ظلها، حتى غُطِّيَ ترابها، والماء تتفجر به عيونها، وأثوابهم من رقيق الحرير ومن غليظه، وهم في مجالسهم ينظر بعضهم إلى وجه بعض ليزداد أنسهم.
٥٢ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]
{إن المتقين في مقام أمين (٥١) في جنات وعيون (٥٢) يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين (٥٣)}.
في الآيات التي سبقت أنذر الله الآثمين المكذبين، وفي هذه بشّر ربنا المؤمنين المتقين، فهم في إقامة لا ظعن معها، ولا ارتحال منها، والمولى- تبارك اسمه- يؤمنهم من كل مكروه، وينعمون في بساتين كثر شجرها، واتصل ظلها، حتى غُطِّيَ ترابها، والماء تتفجر به عيونها،

وأثوابهم من رقيق الحرير ومن غليظه، وهم في مجالسهم ينظر بعضهم إلى وجه بعض ليزداد أنسهم.
٥٣ - (يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]
}إن المتقين في مقام أمين (٥١) في جنات وعيون (٥٢) يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين (٥٣)}.
في الآيات التي سبقت أنذر الله الآثمين المكذبين؛ وفي هذه بشّر ربنا المؤمنين المتقين، فهم في إقامة لا ظعن معها، ولا ارتحال منها، والمولى- تبارك اسمه- يؤمنهم من كل مكروه، وينعمون في بساتين كثر شجرها، واتصل ظلها، حتى غُطِّيَ ترابها، والماء تتفجر به عيونها، وأثوابهم من رقيق الحرير ومن غليظه، وهم في مجالسهم ينظر بعضهم إلى وجه بعض ليزداد أنسهم.
٥٤ - (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)
{كذلك وزوجناهم بحور عين (٥٤)}.
النعيم للمتقين يكون هكذا، وتمتعهم بزوجات أنشأهن الخلاق العليم إنشاء هن الحور العين {كأنهن الياقوت والمرجان} ٦٦.
[والحور]-لغة- جمع حوراء، وهي البيضاء، أو: شديدة سواد العين وبياضها، أو ذات الحَوَر، وهو سواد المقلة كلها- كما في الضباء- فلا يكون في الإنسان إلا مجازا، والعين جمع عيناء فهن مع ذلك واسعات الأعين.
٥٥ - (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)
}يدعون فيها بكل فاكهة آمنين (٥٥)}.
يطالبون وينادون في الجنة بكل فاكهة، ويأمرون بإحضار ما شاؤوا منها، لأنها كما بشر الحق جل علاه {. . كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة} ٦٧ فهم في أمن من انقطاعها أو انعدامها، بل هم في أمن من كل مكروه وسوء.
٥٦ - (لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)
}لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى}.
يخلدون في نعيم الجنات، ولا يلحقهم موت فليس بعد الموتة الأولى التي تعقب حياتنا الدنيا موت.
قال الطبري: {إلا} بمعنى: بعد.
قال ابن كثير: هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع.
ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال: يأهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت). . عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا) رواه مسلم.
وقال الألوسي:. . وجاء في الحديث " النوم " لأنه أخو الموت، أخرج البزار والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قيل يا رسول الله: أينام أهل الجنة؟ قال: (لا! النوم أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون).
}ووقاهم عذاب الجحيم (٥٦)}
النعيم الذي يفوز به المتقون لا يقطعه موت، ولا يلحقه عذاب، فلهم من الله الكريم الوهاب أنهم لن يخرجوا من الجنة، ولن يذوقوا عذاب جهنم.
٥٧ - (فَضْلا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)
}فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧)}.

وكل ما نالوه إنما هو عطاء من الحميد المجيد، وفضل وتكرم من مولانا البر الرحيم، وليس أعلى من هذا الفوز فوز {. . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} ٦٨.
٥٨ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
{فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون (٥٨)}.
وعادت الآيات المباركات لتذكرنا بالنعمة الكبرى، نعمة نزول القرآن، وتوصينا بحقه أن نتدبره ونتذكره، ونقدسه ونتبع منهاجه ونستمسك بهداه، والخطاب للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: سهلناه بلسانك وأنزلناه سهلا واضحا، جليا بينا، عربيا، لأنها أفصح اللغات وأحلاها، وأجلاها وأعلاها، ليفهموا ويعلموا، وينزجروا ويتعظوا.
٥٩ - (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)
{فارتقب إنهم مرتقبون (٥٩)}.
فانتظر واصبر إن وعد الله حق {. . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} ٦٩، وترقب ما سأحله بهم من النقمة، وما أوتيك من الغلبة والنصر عليهم، [وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} ٧٠. وقال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ٧١].
{إنهم مرتقبون} ما يحل بك كما قالوا: {. . نتربص به ريب المنون} ٧٢.
[وقيل ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا كالمرتقبين؛ لأن عاقبتهم ذلك؛ والله تعالى أعلم ٧٣].
خاتمة تفسير سورة الدخان:
هذه السور المحكمات كثير فيها السلطان المبين، والحجة على المجادلين في الله رب العالمين، وصُرفت فيها آيات تثبت اليقين في القرآن العظيم، وتقص من أنباء المرسلين الموعظة والذكرى للمتقين، وتنذر أهوال يوم الدين، وتُمسّك بميثاق بر الوالدين والأولاد، وما كتب علينا من فريضة الجهاد.
كم حضتنا كلمات ربنا الصادقات العادلات التامات على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما لتهدينا إلى جلال مولانا الخلاق العليم: {إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون} ٧٤ {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٧٥ {الله الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} ٧٦.
وكم جادل الكتاب الحكيم أهل الشرك والإفك: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} ٧٧ {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} ٧٨ {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ٧٩.
{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون} ٨٠ {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٨١.
والكتاب العزيز نور للقلوب والألباب، وفرقان بين الجور والصواب، ومنّة وبرّ من المنعم الوهاب، هذا رشده ورفده للمصدقين المستيقنين: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون} منه سورة الجاثية، الآية ٢٠، لكن الناهين عنه والنائين عنه يزدادون به خسرانا: {ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} من سورة الجاثية. الآيات: ٧، ٨، ٩، والأفاك الذي يصرف الناس عن الحق بباطله.
والفرقان الهادي الشافي مجدته هذه السورة تمجيدا عزيزا فلم يوصف بأنه. (عليّ) عزيز الجناب إلا في سورة الزخرف، وصدق الله موحيه

}وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم{ ٨٢ وسمي: ذكرا في مواطن ثلاثة منها، وشرفت الليلة التي نزل فيها وبوركت حتى لها أعظم خيرا وأجرا من ثمانين سنة ٨٣: }إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك{ ٨٤، وامتن الحميد المجيد على النبي والناس كافة بأن هذا الحديث الرباني المبارك قد خضعت أئمة الجن ورعوا أماناته: }وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين{ ٨٥، وإذ رفع الله درجاتكم بهذا القرآن فاستمسكوا بشرعته ومنهاجه، فإنه من يعرض عنه يخسر خسرانا لا ربح معه ويضل ضلالا بعيدا: }ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون{ ٨٦، ولا يفتننكم أعداء الحق ولو عن اليسير من مواثيقه فإن الشيطان سول وأملى لقوم أطاعوا المبطلين في شيء على غير سبيل القرآن المبين }ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر{ ٨٧، }أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها{.

وآيات من هذه السور الكريمة دمغت باطل عبدة الملائكة وأزهقت فرية من نسبوهم إلى الأنوثة، يقول الحق جل علاه: }وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون{ }وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين{.

سبحان الله وتعالى عما يصفون.

وسنة ربنا فيمن بعث إليهم أنبياءه إذا عصوهم أن يدمرهم، }وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين{ ٨٨، وإذ استهزأ فرعون وملؤه بموسى وهارون أذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون }فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون{ ٨٩ }فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين{ ٩٠، }فما بكت عليهم السماء والأرض{ ٩١، }أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم{ ٩٢ }ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون{ ٩٣.

وفتنة كثير من المكذبين الكبر، فهم يقولون إذ بعث الله خاتم النبيين: }لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم{، والمفتون المتأله فرعون يقول ما بينه الذكر الحكيم: }. . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين{ ٩٤.

فَلْيَدَعُ أهل الحق مستيقنين بأن العاقبة للمتقين، وليثبتوا على الرشد فإن الله مُظْهِر دينه على كل دين: }فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم{ ٩٥.

ودعوتنا لا تقبل مُوادّة للضالين، لكن ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين }وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه{ ٩٦.

وعن أحوال الآخرة وأهوالها صرف الله القول:

فقرين السوء مهما زوّر ودّا، فإنه يوم الفصل يكون لقرينه عدوّا وضدّا }ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون{ ٩٧، }الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين{ ٩٨، فلا تصاحب إلا مؤمنا، ولا تأثم بمن تخالل أو تُؤثم عسى الله أن يجمعكما في دار الخلد والكرامة }إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم{ ٩٩.

وجاءنا من ربنا برهان البعث: }ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق{ ١٠٠ }وخلق الله السماوات والأرض بالحق

ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} ١٠١ {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} ١٠٢، {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ١٠٣، وبينت الآيات مصير المسيئين والمحسنين، ولكل درجات مما عملوا، وليس لأحد إلا ما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى؛ ويوم الحساب لا يغني ولي عن ولي، بل يتناكر الأصدقاء ويتنافرون، ويتخاصمون ويتلاعنون، إلا من اتقى فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون؛ فالسعيد من استيقن بالبعث، وعمل ما يرضي مولاه، وتحسن به عقباه، ولم يتول إلا من أحب الله.

وما فُصّل القول الكريم في شراب أهل النعيم مثل ما فُصل في آيات سورة [القتال]: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٠٤، وجمعت آيات في سورة الزخرف أزواجا من الحبور النفسيّ والحسيّ، كما عظمت مُتع العباد المؤمنين المسلمين، وطعامهم وشرابهم وآنيتهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} ١٠٥، كما هيئت مجالسهم وملابسهم {وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين} ١٠٦.

فيا أيها العباد! استجيبوا لدعوة مولاكم إلى نعيم ماله من نفاد، واعملوا ما تبيض به الوجوه يوم التناد.

وإن أهوال الآخرة لتشيب منها الولدان، ويتعادى فيها الخلان، وتنشر صحائف البهتان، الإثم والعدوان، وتذل طوائف الكفر والعصيان: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ١٠٧، {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٠٨.

وبئس قرار الفجار، لا ينفكون عن دار البوار {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون}.

وفي رعاية الوالدين والذرية، نُلقّى أكرم وصية {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} ١٠٩، {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق} ١١٠.

وللقرابة حق من يرعه فإن الله يرعاه، ومن يضيعه يخسر في أولاه وأخراه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} ١١١.

وبالقتال يتمحص الرجال، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجاهد المؤمن بالنفس والمال، وأدعياء الأيمان ينفضون العهد من بعد ميثاقه، فإذا التقى الجمعان ولوا الأدبار، وإذا دُعُوا إلى النفقة غُلّت أيديهم شُحّا أن يبذلوا الأموال، فليتق الله من يبتغي حرث الآخرة، وليجاهد في سبيل الله. ومن يرد للإسلام وأهله نصرا، يغفر الله خطاياه، ويعظم له أجرا.

٤٥ سورة الجاثية:

سورة الجاثية:
سورة الجاثية
مكية
إلا آية ١٤ فمدنية
وآياتها ٣٧ نزلت بعد الدخان
كلماتها: ٤٨٠؛ حروفها: ٣١٦١
١ - (حم)

بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١)}
شأنها شأن فواتح السور التي تكون حرفا أو حروفا من حروف المعجم، ننطق بأسمائها، فكل حرف منها حين نقرؤه ننطقه كاملا [حاء] [ميم]، وهكذا، ويقال في معناها ما قيل في معنى مثيلاتها: يمكن أن تكون مما استأثر الله تعالى بعلمه، أو تكون اسما للسورة، أو تكون للتحدي، بمعنى أن القرآن الكريم مكون من الحاء والميم، وما شابههما، وهي حروف تتكلمون بها، ولكنكم عجزتم- وسيظل الخلق عاجزين- عن الإتيان بكلام مثل كلام الله الحكيم، وفي ذلك برهان على أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو وحي رب القوى والقدر.
٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
{تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢)}.
هذا القرآن الذي تنزل على عبدنا ورسولنا محمد، جاءكم من ربكم المنيع الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَب، الحكيم في فعله وتدبيره.
٣ - (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)
{إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين (٣)}.
صنع السماوات ورفعها وحفظها، وإبداع الأرض وتذليلها واتساعها، برهان وحجة للمصدقين، وهداية إلى الخلاق العليم، فمن نظر في إتقانهما، وتفكر في تسخيرهما وتدبيرهما، زاده ذلك ركونا إلى من أنشأهما وطوّعهما.
٤ - (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)
{وفي خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون (٤)}.
فإذ تبصرنا العبرة في خلقنا، كيف كنا؟ وإلى أين صرنا؟ وبماذا فُضّلنا؟ وحين يتذكر أولوا الألباب كم أوجد الله تعالى من الدواب- ما يدب على الأرض- يستيقنون بقدرة الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وينزهون العظيم الذي برأ وذرأ- أنشأ وفرق- {. . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك} ١.
٥ - (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)
{واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥)}.
تعاقب الليل والنهار لا يسبق أحدهما الآخر، واختلافهما هذا نيّر وذاك مظلم، من نعم الله الكريم الوهاب: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} ٢ - أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالسعي على الرزق في النهار- ومع كونهما من آلاء المولى- تبارك اسمه- فهما برهانان على قوته- عز شأنه- واقتداره. والمطر الذي ينزله ربنا- الرزاق- من سحاب نراه جهة السماء يحيي به اللطيف الخبير ما كان هامدا من بقاع الأرض، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، بل ويحيي به سبحانه أحياء الأرض. . ويغيث دوابها، فمن ثمراته متاع الإنسان والحيوان من طعام وسقيا، ويرسل العليم الحكيم رياحا لواقح، وأخرى بشرى بين يدي رحمته: {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها} ٣، وثالثة يجري بها الفلك، ورابعة ينصر بها أنبياءه وأولياءه: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا} ٤. وخامسة عقيما صرصرا، عاصفة عاتية، يُدمر بها أعداءه {. . بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها} ٥ {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} ٦ أليس في ذلك ما تهتدي به العقول؟!
٦ - (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)
{تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق}.

الآيات المباركات الهاديات الشافيات للعقول والقلوب، هي من كلام علام الغيوب، يتلوها عليك عبدنا الملك جبريل أمين وحينا إلى من نشاء من عبادنا، وإنه لأمين على رسالاتنا، ما يتنزل إلا بالحق من عندنا.

{فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٦)}.

{حديث} يقصد به -أحيانا- القرآن، كما جاء في قول المولى- تبارك اسمه- {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} ٧؛ {وآياته} قد يراد بها المعجزات الحسية، فكأن المعنى: فإذا لم يؤمنوا بالفرقان- كلام الله- ولم يؤمنوا بما نادى إلى التفكر فيه من بديع الصنع وأحسن الخلق، فبأي شيء بعد هذا يؤمنون؟!.

٧ - (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

{ويل لكل أفاك أثيم (٧)}.

{ويل} عذاب شديد.

{أفاك} كذاب.

{أثيم} مجرم.

وعيد من الله العزيز أن يُسكِن الكافرين بآياته واديا في جهنم أُعِدّ لكل كذاب خائض في الإثم.

وأي الخلق أولى بالوبال والنكال، وسكنى دار الخبال، ممن كذب بالحق إذ جاءه؟ وليس من جرم أعظم من النأي عن القرآن والنهي عنه والصدّ عن هدايته!

٨ - (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

{يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨)}.

إن شر الناس من يسمع كتاب الله تعالى لا يرعوي ولا يزدجر ولا يعتبر بشيء منه، بل يقيم على كفره وذنبه، ويستكبر على ربه، ويتعظم عن الانقياد والاستجابة لأمره ونهيه، مثل غير سامع؛ فنبئه بالخبر الذي يظهر أثره على جلده وبشرته، وهو العذاب الموجع المهين.

والبشرى: الخبر المُغَير للبشرة خيرا كان أو شرا، وخصها العرف بالخبر السار، وجاء سوقها هنا باعتبار المعنى العام.

٩ - (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين (٩)}.

وحين تبلغه بعض الآيات يسارع إلى الاستهزاء بكل ما أوحينا؛ هذا ومن على شاكلته يصيّرهم الله القهار إلى عذاب النار، وما أقبحه وأخزاه من عذاب: {ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته} ٨ فاللهم أجرنا من الهوان {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه} ٩.

١٠ - (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

{من ورائهم جهنم}.

من بعد حياتهم هذه يصيرون إلى عذاب جهنم، وهي موئلهم ومستقرهم.

{ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا}.

ولا يحول بينهم وبينها، ولا يرد عنهم عذابها ما كانوا متعوا به في الدنيا من ثراء وأموال {أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} ١٠ فلن يدفع عنهم ذلك أي دفع.

{ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء}.

وأوثانهم ومعبوداتهم التي اتخذوها آلهة وأشركوها مع الله تعالى في الطاعة والتقديس لن تغني عنهم هي الأخرى أي غناء، بل يلقون الواحد القهار وما لهم من شافعين ولا صديق حميم: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما

نرى معكم شفعاء كم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} ١١.
{ولهم عذاب عظيم (١٠)}.
أعد الله لهم دار المهانة والسعير عذابا لا يكادون يحيطون بهوله، وهو عذاب عظيم في دوامه وإيلامه.
١١ - (هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)
{هذا هدى}.
هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبين الرشد من الغي، ويفصل عاقبة المؤمنين، ومصير الغاوين.
{والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم (١١)}.
والذين عميت بصائرهم وأغلقوا قلوبهم عما جاءهم من الحق من ربهم من آيات تتلى، وآيات أخرى تُدرك وتُرَى، لهؤلاء صنوف من أشد أنواع العذاب الموجع المؤلم.
١٢ - (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
{*الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره}.
ذلل الله الخلاق لكم مياه البحار فجعلها ملساء، ومع ملاستها فإنها تحمل الجواري المنشآت كالجبال، تطفوا على سطحها، وتجري فوق متنها.
{ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢)}.
تركبون السفن التي تسير على صفحة الماء لتحصلوا أرزاقكم، ولتنقلوا تجارتكم وأمتعتكم، ولتقهروا عدوكم، ولأجل أن تشكروا نعم الله -هذه- التي أسبغها عليكم.
١٣ - (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
{وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه}.
لم تُسخّر لنا البحار دون غيرها، ولكن ذلّل المولى البرّ الرحيم ويسّر لمنافعنا المخلوقات السماوية والأرضية، فالشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار، والسحب والهواء، والرياح والأمطار، وكذا الجبال والأنهار، والنبات والأشجار، والجماد والحيوان كل ذلك مذلل لنا.
{إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣)}.
في هذا التذليل عبرة تزيد من تفكر تعظيما لقوة الله، وحجة على سلطانه- تبارك اسمه- واقتداره، وبرهان على أنه وحده المتفرد بالقهر والتسخير، وتكريم- يدركه المتفكرون- للذين اعتزوا بربهم وعليه يتوكلون.
١٤ - (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
{قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله}.
أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن يحلموا ويصفحوا عن الذين لا يستيقنون بوعد الله إذا هم أصابوهم بأذى أو مكروه.
{ليجزي قوما بما كانوا يكسبون (١٤)}.
ليعظم الله أجر الصابرين بإعراضهم عن الجاهلين.
فإن أريد الصفح عن هفواتهم فهذا حكم باق لم ينسخ.
وإن كان المراد الكف عن قتالهم فهذه الآية مكية نُسخ حكمها بما نزل بعد ذلك من آيات القتال بعد الهجرة.
١٥ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)
{من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها}.

من صلحت أعمال قلبه وجوارحه فآمن، وأدى ما أُمِرَ به، وانتهى عما نُهِي عنه، فلنفسه طلب الخير، والله عن عمل كل عامل غنيّ؛ ومن قبُح عمله بباطنه أو ظاهره فعلى نفسه جنى، ولن يضر الله شيئا.

{ثم إلى ربكم ترجعون (١٥)}.

وبعد حياتكم ومماتكم تبعثون وتحاسبون بين يدي ربكم. فمن لقيه- سبحانه- وقد كان برا تقيا جزاه ببره نعيما وملكا كبيرا، ومن يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا.

١٦ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

{ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة}.

وتحقق وكن على يقين أنا أعطينا أبناء إسرائيل- ذرية يعقوب عليه السلام- أعطيناهم التوراة أنزلناها على موسى والإنجيل أوحيناه إلى عيسى، و {الحكم} الفصل بين الناس؛ لأنهم كان فيهم الكثير من الملوك، و {النبوة} فلم يكثر الأنبياء-عليهم سلام الله- في أمة كما كثروا في بني إسرائيل.

{ورزقناهم من الطيبات}.

وأي رزق أطيب من طعام يأتي من السماء كالمنّ والسلوى والمائدة؟ نزل المن- وهو سائل حلو كالعسل- والسلوى؛ طائر شهي لحمه كالسمان- نزلا على اليهود، ونزلت المائدة على النصارى إذ أكثروا على عيسى عليه السلام في طلبها {إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} ١٢.

{وفضلناهم على العالمين (١٦)}.

{وفضلناهم على العالمين} جعلناهم أفضل العالمين في زمانهم من أمثال فرعون وقومه، فقد فلق الله لهم البحر فأنجاهم وأغرق أعداءهم أجمعين، وظلل عليهم الغمام.

١٧ - (وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

{وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم}.

وأعطاهم الله الحكيم دلائل في الدين، وعلامات تبين صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم من صفته والذين معه، وسيرته: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} ١٣ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وجعلوا العلم بحقيقة الحال، وهو موجب لزوال الخلاف، موجبا لرسوخه.

{بغيا بينهم}

ظلما شاع فيهم وحسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

{إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١٧)}.

ربنا سيفصل بينهم يوم يعرضون عليه فيوفهم الله ما يستحقون، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويعلمون أنهم هم الكاذبون الجاحدون المفترون.

١٨ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

{ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها}

وبعد بني إسرائيل وما أنزل على رسل الله إليهم، ثبتّك وصيّرتك على منهاج واضح من الدين يشرع بسالكه إلى المقصد الحق، فاتبع هذه الملة ملة الإسلام.

{ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١٨)}.
إذا كان الخطاب-هنا- للنبي فالمراد أمته- أو كل من يعقل.
نهى الله -تبارك اسمه- أن نستجيب لأهواء الجاهلين.
١٩ - (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)
{إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا}.
لا تستجب لأهواء الضالين، لأنهم لن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما يحلّ الله بهم فضلا عن أن يدفعوا عن غيرهم.
{وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض}.
ولا يوالي الظالم ولا يتابعه إلا أمثاله من الظالمين، [شبيه الشيء منجذب إليه].
{والله ولي المتقين (١٩)}.
والله يحب من اتقى الشرك والفسق، يؤيدهم ربنا ويحفظهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
٢٠ - (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)
{هذا بصائر للناس ورحمة لقوم يوقنون (٢٠)}.
هذا الطريق والمنهاج الذي أوحيناه إليك ينير البصائر وتنشرح به الصدور، ويُستنقذ به من الضلال، ويُتوصل به إلى خير الدنيا ونعيم الآخرة للذين استيقنوا بأنه عهد الله الذي لا يُنقض، وسبيله التي لا عوج فيها. {. . إن ربي على صراط مستقيم} ١٤.
٢١ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)
{أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم}.
بل أحسب الذين اكتسبوا السيئات وعملوها أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا المؤمنين الصالحين ومماتهم؟ كلا لا يستويان. لا في المحيا ولا في الممات، يقول الله الحق: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} ١٥ فحياة المؤمن والمؤمنة في الدنيا عزيزة كريمة، وفي الآخرة ينالون النعيم الأوفى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وسحقا للفجار في العاجلة والآجلة {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ١٦.
{ساء ما يحكمون (٢١)}.
بئس حكمهم الذي زعموا فيه التساوي بينهم وبين المؤمنين، وهكذا حكى القرآن قيل بعضهم: {. . ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} ١٧.
٢٢ - (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
{وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت}.
بالحق قامت السماوات والأرض، وبالحق أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، ليقوم الناس بالقسط، والله يقضي بالحق، فلا بد من انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوت بين البر والفاجر، والمصلح والمفسد.
{وهم لا يظلمون (٢٢)}.
{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شر يره} ١٨، وحيثما كان عمله في سهل أو جبل، أو علو أو سفل، فإنه ملاقيه يوم الحساب: {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ١٩.
٢٣ - (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)
{أفرأيت من اتخذ إلهه هواه}

أتدرك بصيرتك أن من جعل هواه إلها هل يهتدي إلى الحق؟
{وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة}.
وخذله عن سبيل الرشاد لِمَا علم- سبحانه- بأنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية {. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} ٢٠ وطبع على سمعه، أي يسمع كلام الله فلا يتدبر ولا يتفكر ولا يعتبر، وعلى قلبه، فصدره ضيق بالدين، حرج بالرشاد؛ وعلى بصره، فلا ينظر في ملكوت السماوات والأرض ليرى برهان قدرة ربه ووحدانيته {. . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} ٢١.
{فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٢٣)}.
فمن غير الله يوفقه لانشراح الصدر بالإسلام، وانفتاح العين على بديع صنع الملك العلام، وسماع الموعظة التي تنزلت على خير الأنام؟.
فمن يوفقه إلى الرشد بعد أن قضى الله أن يضله؟ {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٢٢ أفلا تذكرتم أن من حق عليه القول لن يهتدي أبدا، ولن تجد له من دون ربه وليا مرشدا.
٢٤ - (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)
{وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر}.
قال الضالون الكافرون، المؤلهون لأهوائهم، العابدون لشهواتهم: ليس من حياة بعد هذه الدنيا التي نعيش فيها، تموت طائفة وتحيا طائفة- كالقائلين بالتناسخ- يموت الرجل فتجعل روحه في موات فيحيا بها، وما يهلكنا إلا مرّ السنين:
أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشي
و {الدهر} في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة؛ وهم يسندون الحوادث إلى الدهر، ولا يقرون بوجوده {سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا} ٢٣.
{وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون (٢٤)}.
واعتقادهم الباطل ليس إلا شكا، لا يملكون له برهانا عقليا أو نقليا.
٢٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كانت حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٢٥)}.
وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها، وقرئت عليهم الآيات المقررة ليوم البعث لم تكن لهم حجة في الإنكار إلا ما ليس بحجة، فعدم حصول ما طلبوه حالا من إعادة آبائهم لا يلزمه امتناع الإعادة إذا قامت القيامة.
٢٦ - (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)
{قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه}.
تقرير للإيمان المُرتضى: الله دون سواه هو الذي أنشأنا أول مرة، ثم يميتنا هو -وليس الدهر- حين انقضاء آجالنا التي أجلها الله لنا، ثم يجمعنا للفصل في يوم الحساب، لا شك في قدرته على ذلك، وفي تحقق وعده ولقائه وجزائه.
{ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢٦)}.
والكثير ممن جهلوا يرتابون، لقصورهم في النظر والتفكر.
٢٧ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)
{ولله ملك السماوات والأرض}.
والملك يتصرف في ملكه بما يريد من إحياء وإماتة وبعث وجمع للقضاء والجزاء.
{ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون (٢٧)}.
والخسار والبوار والهلاك يوم الفصل للمبطلين؛ وأبطل الباطل الكفر.

٢٨ - (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
{وترى كل أمة جاثية}.
كل طائفة من المكلفين تجتمع يوم الحشر، ويبْركون على رُكَبهم في انتظار ما يُقضى فيهم من ربهم؛ {كل أمة تدعى إلى كتابها}.
يُدعون إلى صحائف أعمالهم التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم إلا أحصتها.
{اليوم تجزون ما كنتم تعملون (٢٨)}.
ويقال لهم: كنتم في دنياكم تعملون، وهنا جزاؤكم على ما قدمتم.
٢٩ - (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
{هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق}.
هذا الذي كتبته الملائكة يشهد عليكم بما كان منكم، دون بخس أو ظلم.
{إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (٢٩)}.
فقد كنا نأمر الملائكة بتدوين وتسطير وتحرير ما تقولون وما تفعلون مما تخفون أو تبدون: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٢٤.
٣٠ - (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)
{فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته}.
فمن يأت ربه قد آمن وعمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا.
{ذلك هو الفوز المبين (٣٠)}.
وأيّ فوز أبين وأظهر وأوفر من فوز أهل رضوان الله وكرامته؟!
٣١ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ)
{وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم}.
لكن أهل الكفر يخسرون ولا يفلحون، بل يُقرّعون ويُذلّون، فيُنادون ألم تكونوا تسمعون كلامي وآياتي الدالة على طريق الفوز والفلاح؟!
{فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين (٣١)}.
فتعاظمتم عن الإيمان بها، والسير على منهاجها، وأصبتم طريق الغواية وكسب الخطيئة، والعكوف على الجريمة.
٣٢ - (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)
{وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة}.
وإذا ذُكرتم بأن ما وعد ربنا هو الصدق، وأنه واقع لا محالة، والقيامة لا شك آتية، قلتم معاندين جاحدين مستهزئين: أي شيء هي الساعة. .؟ تستغربون؛ {إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين (٣٢)} وقلتم ما نظن إلا ظنا ولسنا على يقين من صحة مجيء الآخرة، فهم مترددون بإمكانها الذاتي، جازمون بعدم وقوعها بالفعل.
٣٣ - (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
{وبدا لهم سيئات ما عملوا}.
وظهر لهم قبح ما فعلوه- وقد كانوا يرونه حسنا بتزيين الشيطان إياه-أو عقوبات الذي عملوه، فإن العقوبة تسوء صاحبها.
{وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٣٣)}.
وحل بهم وأحاط الذي كانوا يسخرون منه، وينكرون تحققه ومجيئه من الآخرة وجزائها.
٣٤ - (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

}وقيل اليوم ننساكم{.
ويقال لهم: نُعرض عنكم ونترككم في العذاب، لأن من نسي شيئا تركه، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى له.
}كما نسيتم لقاء يومكم هذا{ كما أعرضتم وتركتم في الدنيا أن تعملوا ما ينجيكم حين يلاقيكم هذا اليوم وتلاقونه، أو لم تبالوا بلقائه كالشيء المنسي.
}ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٣٤){.
والملجأ والمستقر في دار العذاب، ولن يجد أحد منكم من ينصره من هذا المصير أو ينقذه.
٣٥ - (ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)
}ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا{.
والجزاء من جنس العمل، فالله يسخر منهم، لأنهم سخروا من كلماته، وأعرضوا عن قرآنه.
}وغرتكم الحياة الدنيا{.
لهو الحياة ولعبها، وتكاثرها وتفاخرها، وزينتها وأموالها، ألهاهم وغرهم فركنوا إليه، وحسبوا أنه مخلدهم، كالذي حكى عنه القرآن: {.
. قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة{ ٢٥.
}فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون (٣٥){.
هذا التفات- كانت الجمل السابقة خطابا }ننساكم{ }مأواكم{ }وغرتكم{ وهنا إخبار عنهم- فهم في النار خالدون، ما لهم منها من مخرج ولا متحوّل، ولا يُسترضون، أو لا يقبل منهم أن يسترضوا ربهم أو يعتذروا.
٣٦ - (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
}فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين (٣٦){.
}رب{ بمعنى: مالك، وولي، ومصلح، ومطاع.
وقد عددت آيات السورة الكريمة نعم الله وأفضاله، وحجته والبرهان على جلاله وإبداعه ولقائه وجزائه، فله الحمد فهو وليّ السماوات ومنشئها ورافعها ومدبرها، وصانع ما فيها من أفلاك وكواكب ومسخرها، وهو مصلح الأرض وما فيها ومن فيها، وهو وليّ الخلائق جميعا ومطاعهم ومعبودهم بحق.
٣٧ - (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
}وله الكبرياء في السماوات والأرض{.
لله العزة والعظمة جميعا، وله الجلال كله.
}وهو العزيز الحكيم (٣٧){.
وهو القاهر الذي لا يُغْلَبُ، وكل ما يفعله – سبحانه- بتقدير حكيم، موافق للخير والحق والحكمة.
خاتمة تفسير سورة الجاثية:
هذه السور المحكمات كثير فيها السلطان المبين، والحجة على المجادلين في الله رب العالمين، وصُرفت فيها آيات تثبت اليقين في القرآن العظيم، وتقص من أنباء المرسلين الموعظة والذكرى للمتقين، وتنذر أهوال يوم الدين، وتُمسّك بميثاق بر الوالدين والأولاد، وما كتب علينا من فريضة الجهاد.
كم حضتنا كلمات ربنا الصادقات العادلات التامات على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما لتهدينا إلى جلال مولانا الخلاق العليم: }إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون{ ٢٦ }الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات

لقوم يتفكرون} ٢٧ {الله الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} ٢٨.
وكم جادل الكتاب الحكيم أهل الشرك والإفك: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} ٢٩ {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} ٣٠ {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ٣١.
{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون} ٣٢ {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٣٣.
والكتاب العزيز نور للقلوب والألباب، وفرقان بين الجور والصواب، ومنّة وبرّ من المنعم الوهاب، هذا رشده ورفده للمصدقين المستيقنين: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون} منه سورة الجاثية، الآية ٢٠، لكن الناهين عنه والنائين عنه يزدادون به خسرانا: {ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} من سورة الجاثية. الآيات: ٧، ٨، ٩، والأفاك الذي يصرف الناس عن الحق بباطله.
والفرقان الهادي الشافي مجدته هذه السورة تمجيدا عزيزا فلم يوصف بأنه. (عليّ) عزيز الجناب إلا في سورة الزخرف، وصدق الله موحيه {وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} ٣٤ وسمي: ذكرا في مواطن ثلاثة منها؛ وشرفت الليلة التي نزل فيها وبوركت حتى لها أعظم خيرا وأجرا من ثمانين سنة ٣٥: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك} ٣٦؛ وامتن الحميد المجيد على النبي والناس كافة بأن هذا الحديث الرباني المبارك قد خضعت أئمة الجن ورعوا أماناته: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} ٣٧، وإذ رفع الله درجاتكم بهذا القرآن فاستمسكوا بشرعته ومنهاجه، فإنه من يعرض عنه يخسر خسرانا لا ربح معه ويضل ضلالا بعيدا: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} ٣٨، ولا يفتننكم أعداء الحق ولو عن اليسير من مواثيقه فإن الشيطان سول وأملى لقوم أطاعوا المبطلين في شيء على غير سبيل القرآن المبين {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} ٣٩، {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}.
وآيات من هذه السور الكريمة دمغت باطل عبدة الملائكة وأزهقت فرية من نسبوهم إلى الأنوثة، يقول الحق جل علاه: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون} {وجعلوا له من عباده جزاءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}.
سبحان الله وتعالى عما يصفون.
وسنة ربنا فيمن بعث إليهم أنبياءه إذا عصوهم أن يدمرهم، {وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين} ٤٠، وإذا استهزأ فرعون وملؤه بموسى وهارون أذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون {فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ٤١ {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} ٤٢، {فما بكت عليهم السماء والأرض} ٤٣؛ {أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم} ٤٤ {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} ٤٥.
وفتنة كثير من المكذبين الكبر، فهم يقولون إذ بعث الله خاتم النبيين: {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}، والمفتون المتأله فرعون يقول ما بينه الذكر الحكيم: {. . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا

الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} ٤٦.
فَلْيَدَعُ أهل الحق مستيقنين بأن العاقبة للمتقين، وليثبتوا على الرشد فإن الله مُظْهِر دينه على كل دين: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ٤٧.
ودعوتنا لا تقبل مُوادّة للضالين، لكن ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه} ٤٨.
وعن أحوال الآخرة وأهوالها صرف الله القول:
فقرين السوء مهما زوّر ودّا، فإنه يوم الفصل يكون لقرينه عدوّا وضدّا {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} ٤٩، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٥٠، فلا تصاحب إلا مؤمنا، ولا تأثم بمن تخالل أو تُؤثم عسى الله أن يجمعكما في دار الخلد والكرامة {إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم} ٥١.
وجاءنا من ربنا برهان البعث: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق} ٥٢ {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} ٥٣ {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} ٥٤، {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ٥٥؛ وبينت الآيات مصير المسيئين والمحسنين، ولكل درجات مما عملوا، وليس لأحد إلا ما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى؛ ويوم الحساب لا يغني ولي عن ولي، بل يتناكر الأصدقاء ويتنافرون، ويتخاصمون ويتلاعنون، إلا من اتقى فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون؛ فالسعيد من استيقن بالبعث، وعمل ما يرضي مولاه، وتحسن به عقباه، ولم يتول إلا من أحب الله.
وما فُصّل القول الكريم في شراب أهل النعيم مثل ما فُصل في آيات سورة [القتال]: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٥٦، وجمعت آيات في سورة الزخرف أزواجا من الحبور النفسيّ والحسيّ، كما عظمت مُتع العباد المؤمنين المسلمين، وطعامهم وشرابهم وآنيتهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} ٥٧، كما هيبت مجالسهم وملابسهم {وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين} ٥٨.
فيا أيها العباد! استجيبوا لدعوة مولاكم إلى نعيم ماله من نفاد، واعملوا ما تبيض به الوجوه يوم التناد.
وإن أهوال الآخرة لتشيب منها الولدان، ويتعادى فيها الخلان، وتنشر صحائف البهتان، الإثم والعدوان، وتذل طوائف الكفر والعصيان: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ٥٩، {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٦٠.
وبئس قرار الفجار، لا ينفكون عن دار البوار {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون}.
وفي رعاية الوالدين والذرية، نُلقّى أكرم وصية {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} ٦١، {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق} ٦٢.
وللقرابة حق من يرعه فإن الله يرعاه، ومن يضيعه يخسر في أولاه وأخراه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا

أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} ٦٣.
وبالقتال يتمحص الرجال، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجاهد المؤمن بالنفس والمال، وأدعياء الإيمان ينقضون العهد من بعد ميثاقه، فإذا التقى الجمعان ولوا الأدبار، وإذا دُعُوا إلى النفقة غُلّت أيديهم شُحًّا أن يبذلوا الأموال، فليتق الله من يبتغي حرث الآخرة، وليجاهد في سبيل الله. ومن يرد للإسلام وأهله نصرا، يغفر الله خطاياه، ويعظم له أجرا.

٤٦ سورة الأحقاف:

سورة الأحقاف:
سورة الأحقاف
مكية
إلا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنية
وآياتها ٣٥ نزلت بعد الجاثية
كلماتها: ٣٤٤؛ حروفها: ٣٣٠٠.
١ - (حم)
بسم الله الرحمن الرحيم
{حم (١)}.
هي آخر الحواميم السبع، وأولها سورة غافر رقم: (٤٠)، والقول فيها كالقول في فواتح السور الثمانية التي تبدأ بحروف هجاء، ولهذا تقرأ - {حم} وأمثالها- ساكنة الحروف نخرجت مخرج التهجّي، وربما يقال: إنها حروف مقطعة للتنبيه، أو للتحدي والإعجاز ١.
٢ - (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)
{تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢)}.
القرآن - ومنه هذه السورة- منزل من المعبود بحق، العزيز الذي يَغْلِب ولا يُغْلب، الذي يقضي كل أمر وينفذه مطابقا للحكمة والصواب.
و {تنزيل} مرفوع بالابتداء وخبره الجملة المتممة للآية الكريمة.
فكأن المعنى: القرآن أنزله الله القوي القاهر الذي لا يمانع ولا يدافع ولا يصدر عنه- تبارك اسمه- إلا كل ما هو حق ومحكم. والله أعلم.
٣ - (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ)
{ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق}.
لم يكن خلقنا للسماوات السبع الطباق ورفعها وإبداعها بما فيها من شمس وقمر ونجوم وفلك وكواكب، وملائكة كرام، وما تعلمون وما لا تعلمون من خلق الملك العلام، وليس خلقنا للأرضين وبسطتها وسعتها، ويابسها ومائها، وسهلها وجباها، وما أودعناها من خيرات وكنوز، وما بين السماء والأرض من إنس وجن وخلاء وهواء، وعجائب صنعها بارئ الأرض والسماء- وما خلق الله ذلك إلا خلقا ملتبسا بالحق؛ موافقا للحكمة التي من أجلها كنا، والشرعة التي باتباعها أُمِرْنَا، هاديا الفطرة السليمة والفكرة المستقيمة إلى اليقين في ربنا الحق؛ فإن عظمة الخلق من برهان عظمة الخالق- تبارك وتعالى-.
أورد ابن جرير الطبري: ما أحدثنا السماوات والأرض فأوجدناهما خلقا مصنوعا وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحق يعني: إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق. اهـ.
{وأجل مسمى}
والسماوات والأرض وما بينهما خلقت- منذ أنشأها البارئ سبحانه- وقدّر لها مدة معلومة عنده-عز شأنه- فإن حان الأجل المعلوم وهو يوم القيامة بُدّلت الأرض غير الأرض والسماوات، {. . ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون} ٢.

أورد الألوسيّ: عطف على {بالحق} بتقدير مضاف أي وبتقدير أجل مسمى، وقدِّر لأن الخلق إنما يلتبس به بالأجل نفسه. اه.
{والذين كفروا عما أنذروا معرضون (٣)}.
والذين ستروا عقولهم عن التفكر يتمادون في الإعراض والصدود عن سماع النذر، والتهيؤ لتوقي المهالك والخطر.
٤ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات}.
بعد تثبيت اليقين بصدق القرآن، وبيان الحكمة في خلق الأكوان، والتخويف من شقوة الغافلين عن لقاء الملك الديان، أمر الله تعالى نبيه أن يقيم الحجة على أهل الشرك والأوثان، والاستفهام في {أرأيتم} بمعنى الطلب {ما تدعون من دون الله} أي شيء تعبدون غير الله من أصنام وأوثان، أو كواكب أو نبات أو حيوان، أو عنصر أو جن أو ملك أو إنسان فعبادته باطلة، {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم} ٣ {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} ٤. {أروني} أخبروني- تبكيتا لهم وتوبيخا- {ماذا خلقوا من الأرض} أي جانب أو مكان من أرضنا هذه المبسوطة وما فيها ومن فيها خلقوه؟ {أم لهم شرك في السماوات} بل ألهم شركة مع الله في خلق السماوات وما حولها من العلويات- ملائكة وشمس وقمر ونجوم، وفلك وسحب ورياح، وأبخرة وأشعة وهواء-؟، فيكون لكم بذلك في عبادة ما عبدتم من دون الله حجة؟! وهيهات!
{ائتوني بكتاب من قبل هذا}.
جيئوني بحجة سماوية ووحي منزل سبق هذا القرآن يشهد لآلهتكم أنها خلقت من الأرض بقعة أو شاركت البارئ المصور فاطر السماوات في إبداعها ورفعها فإنكم إن سقتهم مثل تلك الحجة [صحت لها الشركة في النعم التي أنتم فيها، ووجب عليكم الشكر، واستحقت منكم الخدمة، لأن ذلك لا يقدر أن يخلقه إلا إله] وما من خالق إلا الله.
{أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (٤)}.
أو هاتوا بقية مما يؤثر ويورث عن السابقين من علم يدل على صحة ما ادعيتم من تأليه مسميات سميتموها آلهة: {. . وما من إله إلا الله} ٥. إن كنتم صادقين في دعوى اتخاذ أنداد أو شركاء لبارئ الأرض والسماء {سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا} ٦.
{وهكذا أعجزهم الكتاب الحكيم فلم يستطيعوا الإتيان بشاهد حسي إذ تحداهم: {أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات} ولا أن يجيئوا بدليل نقلي إذا طلبوا به {ائتوني بكتاب من قبل هذا} ولا ببرهان عقلي {أو أثارة من علم} [فإن الدعوى إذا لم يكن معها حجة لم تغن عن المدعي شيئا. . وإن من حجتي على إفرادي العبادة لربي أنه لا شريك له في إبداعها وأنه المتفرد بخلقها دون سواه] ٧.
٥ - (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)
{ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥)}.
استفهام يراد به النفي، فليس من أحد يفوق المشركين أو يساويهم في ضلالهم إذ تركوا نداء السميع المجيب، ودعوا ما لا يسمع، وإن سمع لا ينفع ولا يدفع.
الآية الرابعة نفت عمن زعموهم شركاء القدرة على الخلق، وهذه الآية المباركة سلبتهم العلم والعمل: {. . لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون} وقريب منه قول الحق تبارك اسمه {إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم} ٨.
يقول أبو جعفر الطبري: وآلهتهم التي يدعونها ٩ عن دعائهم إياها ١٠ في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وإنما عنى بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له إذا كانت لا تفهم مما يقال شيئا كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئا ولا يفهم، وتركهم عبادة من وهبهم جميع ما

بهم من نعمة، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب، وقيل {من لا يستجيب} فأخرج ذكر الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم ومن له الاختيار والتمييز إذا كانت قد مثلتها عَبَدَتُهَا بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جاريا فيه عندهم اهـ.

٦ - (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

{وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦)}.

وحين تجيء القيامة وتعظم الطامّة، لا تخذلهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله-وكفى- وإنما يتبرءون منهم ويلعنونهم، كالذي حكاه القرآن عن قول إبراهيم عليه الصلوات والتسليم: {وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين} ١١ وبهذا شهد الله الحق {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} ١٢ {. . وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون} ١٣ {. . تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون} ١٤.

مما أورد الألوسي: والأمر ظاهر في ذوي العقول. وأما في الأصنام فقد روى أن الله تعالى يخلق لها إدراكا وينطقها فتتبرأ عن عبادتهم وكذا تكون أعداء لهم؛ وجوز كون تكذيب الأصنام بلسان الحال لظهور أنهم لا يصلحون للعبادة وأنهم لا نفع لهم كما توهموه أولا حيث قالوا: {. . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله} ١٥ ورجوا الشفاعة منهم؛ وفسرت العداوة بالضر على أنها مجاز مرسل عنه، فمعنى: {كانوا لهم أعداء} كانوا لهم ضارين. اهـ.

٧ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين (٧)}

ومن سمات وصفات المكذبين المعاندين- مع شركهم- أنهم إذا قرئت عليهم آيات القرآن- وهو المنزل بعلمنا وحكمتنا- وهي واضحة جلية يبادر الكفار فور سماعها مع أنها الحق الذي لا يخالطه باطل- لكنهم يصفون هذا الهدى والرشد بأنه خداع بيّن، يفعل في نفس من تدبّره فعل السحر.

٨ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

{أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا}.

بل أيقولون: محمد اختلق هذا القرآن ونسبه إلى الله كذبا؟! فإن وحي الله إليه أن يرد باطلهم بحقه {قل إن افتريته} إن صح ما ادعيتم من باطل وأني نسبته إلى الله زورا فإن الله لن يدع عقوبتي ولن تستطيعوا أن تدفعوا عني شيئا فلماذا أُعرِّض نفسي للسخط والمقت؟!.

{هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم (٨)}.

ربي أعلم بما تندفعون فيه من الطعن في هذا القرآن- من قولهم-: هذا سحر مبين وقولهم: إن محمدا افتراه- وكفى بالله شهيدا يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد على هؤلاء بالتكذيب والجحود، ومع ذلك فإنه عظيم الغفران والستر لذنوب من تاب وأناب، واسع الرحمة بمن صدّق بالحق واستقام عليه.

٩ - (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

{قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم}

حجة أتاها الله نبيه محمدا أن يقول: لست أول رسول بُعث للناس، وإنما بعث الله قبلي أنبياء كثيرين، فماذا تستغربون من أمري؟ وما أدري وما أعلم ماذا يحمل الغيب لي، هل سأقتل كما قتل نبيون من قبلي؟ أم أُخرج كما أُخرج كثير من إخواني المرسلين؟ ولا أعلم ماذا

يُمضي الله فيكم؟ أيخسف الأرض بكم أم يرميكم بالحجارة؟.
مما أورد أبو عبد الله القرطبي: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، لا يدري صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة، ورخص وغلاء، وغنى وفقر، ومثله: {. . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير} ١٦
واختار الطبري أن يكون المعنى: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تعاجَلون بالعقاب أم تُؤخرون اهـ.
وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} في الآخرة، ونقلوا: لما نزلت الآية فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا: كيف نتبع نبيا لا يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به، فنزلت: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} ١٧ فنسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف الكفار، وقالت الصحابة: هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا! ما هو فاعل بنا؟ فنزلت: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار} ١٨، كما نقلوا حديثا أورده الثعلبي عن أم العلاء امرأة من الأنصار قالت: اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون. . فأنزلناه أبياتنا فتوفي، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب إن الله أكرمك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما يدريك أن الله أكرمه؟ " فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن؟ قال: " أما هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي ولا بكم " قالت: فوالله: لا أزكي بعده أحدا أبدا. . قالوا: وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر له ذنبه في غزوة الحديبية قبل موته بأربع سنين.
ورد عليهم المحققون من علماء القرآن فقالوا: حديث أم العلاء أخرجه البخاري، والرواية صحيحة فيه: (وما أدري ما يفعل به) ليس فيه " بي ولا بكم " ومحال أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة.
أقول: سياق الآية يستشهد به لما اخترناه من أن المعنى: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، فإن الذي يأتي على سنن المرسلين {ما كنت بدعا من الرسل} على بينة من ربه، وكيف لا والله تعالى يقول: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ١٩. كما أن المتبع لوحي الله، والبشير والنذير بما جاءه من الحق يعلم علم اليقين ماذا أُعدّ للمتقين وما هو مصير الكافرين: {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا} ٢٠.
{إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين (٩)}.
ما أقول ولا أعمل إلا ما أمر به ربي الذي يعلم ما ظهر وما بطن، فلست أبتدع شيئا وإنما أستقيم على ما يوحيه إليّ الخبير البصير، ولست إلا منذرا ومحذرا أن يحملكم العناد على الوقوع في عذاب الله وسخطه، وإنذاري واضح صادق أيّدني فيه وليي سبحانه بالمعجزات.
١٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
{قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله}
أمر من الله تعالى لنبيه ليحاجّ المشركين: أخبروني أيّ رشد فيكم إذا كان هذا القرآن- الذي تصفونه بأنه سحر مبين- وهذا كتاب من عند الله وقد آمن موسى- وهو من بني إسرائيل- بكتاب سماوي مثل القرآن: ألا وهو التوراة فكيف تكفرون أنتم بما جاءكم من الحق؟ ٢١
نقل بعض المفسرين أن الشاهد ليس شخصا معينا، وتقدير الكلام: لو أن رجلا منصفا عارفا بالتوراة أقرّ بذلك واعترف به ثم آمن بمحمد واستكبرتم أنتم ألم تكونوا ظالمين ضالين؟! والمقصود أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب هو من عند الله، وثبت بشهادة الثقات أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ثبوت هذين الأمرين كيف يليق إنكار نبوته، ثم قالوا ما حاصله:

[الشاهد] اسم جنس، وذلك المعنى عام. كما في قوله تعالى: {وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} ٢٢ وكذا قوله تبارك اسمه: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا} ٢٣.

لكن طائفة منهم ذهبوا إلى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام- وكان من علماء اليهود-بدليل ما جاء في الصحيحين عن مالك عن أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وفيه نزلت {وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله}.

{فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٠)}.

فآمن بالهدى من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وكبر عليكم أن تذعنوا لآيات ربكم لما جاءتكم، وحملكم الكبر على العناد والفساد والكفر، ومن يكفر فهو أظلم الظالمين {. . إن الشرك لظلم عظيم} ٢٤.

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه}.

ومن استكبارهم عن الحق أن أبَوْ وتأنّفوا أن يستجيبوا له من أجل من آمن به ممن ليسوا على شاكلتهم في التكبر والتجبر والفخر والخيلاء، فقالوا: لو كان هذا القرآن خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وأشباههم- رضوان الله عليهم-

{وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم (١١)}.

وإذا حُرم الطغاة البغاة هداه بكبريائهم وغرورهم {. . كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار} ٢٥ فسيفترون عليه فوق ما افتروه ويقولون: هذا باطل نقله محمد عن الأوائل الأقدمين، وما هذا إلا أساطير الأولين، وكذبوا، فإنه تنزيل رب العالمين.

١٢ - (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ)

{ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة}.

وأوحى الله تعالى من قبل القرآن ما أوحاه إلى موسى من التوراة التي تهدي من اتبعها، ويرحم الله من عمل بها. و {إماما ورحمة} حال.

{وهذا كتاب مصدق}

وهذا القرآن مصدق للكتب التي أنزلها الله تعالى من قبله، ومنها التوراة المنزلة على موسى، لم يبطل الكتاب الخاتم أصول ما سبقه من كتب إلهية بل يوافقها، ولا يقبل من أتباعه إلا أن يؤمنوا بها جميعها {يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل} ٢٦

{لسانا عربيا}

منصوب على الحال. والمعنى: هذا القرآن مصدق لما أنزل قبله وحالته كونه فصيحا مبينا، واضحا بليغا، يقول اللغويون: و {لسانا} كالتوكيد ل {عربيا} كما تقول جاءني فلان رجلا صالحا.

{لينذر الذين ظلموا}

ليحذر الكتاب الذين ظلموا عاقبة بغيهم وتجاوزهم الحد، ومنع حق الله في الخضوع لسلطانه، وعبادته- سبحانه- ومنع حق العباد في موادعتهم والعمل على خيرهم.

{وبشرى للمحسنين (١٢)}

فالذكر الحكيم أنزل ليحذر المسيئين ويخوفهم سوء مصيرهم، وليبشر من اتقى وأحسن {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا} ٢٧.

١٣ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

{إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}

إن الذين آمنوا بالله الذي لا يعبد بحق سواه، وأقروا بأنه الخالق الرازق الولي الحميد الفعال لما يريد، ثم استقام عملهم وخلقهم على المنهاج القويم والصراط السوي والدين المرتضى-الإسلام-.
يقول المفسرون: {ثم} للتراخي الرتبي، فالعمل متراخي الرتبة عن الإيمان والتوحيد، وقد نصّوا على أنه لا يعتد بدونه.
أقول: وهكذا فعمل القلب والفكر أهم من عمل الجوارح ومقدم عليه، والله يشهد أنه من اعوج وعمي قلبه فعمله ساقط: {. . ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} ٢٨ {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا} ٢٩.
{فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣)}.
فأولئك الذين عقلوا فأقروا بالإيمان، وأسلموا قيادهم لما جاء به القرآن، لا يخافون أن يدركهم الخزي أو العذاب، ولا يحزنون على ما فاتهم من الزينات والشهوات.
١٤ - (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤)}.
المؤمنون المستقيمون يجزون بإيمانهم واستقامتهم خلودا في الجنة، وإقامة بها، فلا يخرجون منها ولا يذوقون موتا ولا نصبا، ولا مرضا ولا تعبا، ولا غمّا ولا كدرا، بل لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. و {جزاء} نصب على المصدر.
١٥ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
{ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا}
الآيات من أول السورة تبين حقيقة الإيمان، والحجة على الكافرين، وهذه وما بعدها تبين حق الوالدين؛ وشأن القرآن هكذا، كثيرا ما يأمر برعاية حق المولى- تبارك اسمه- ثم يُقفّي بإكرام الوالدين {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا} ٣٠ {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا. } ٣١ فالإحسان ضد الإساءة. والوصية: برهما في حياتهما وبعد مماتهما.
{حملته أمه كرها ووضعته كرها}
الكرْه: المشقة؛ وليس يخفى ما تقاسي الحامل من عناء ونصب، وما تلقى الوالدة في ولادتها من ألم وخطر. و [الكره] بضم الكاف ما يحمله الإنسان على نفسه، إما [الكره] بفتحها فهو ما يجبره عليه غيره.
{وحمله وفصاله ثلاثون شهرا}
ومدة الحمل والإرضاع الذي ينتهي بالفصال- وهو الفطام- ثلاثون شهرا فقد لا يتجاوز الحمل ستة أشهر؛ وأربعة وعشرون تعقبها يرضع فيها الوليد من لبن أمه، وفي هذه المدة المتطاولة من الألم المتلاحق ما يجعل للأم حقا مؤكدا على مولودها لقاء بعض حقها، وجزاء لبعض معروفها.
ولما كان حال الإنسان مع أبويه يختلف، فقد يطيعهما ويبرهما، وقد يخالفهما ويعقهما ختمت هذه الآية الكريمة ببيان شأن الأبناء البررة الأوفياء.
{حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه}.
فإذا عاش المولود حتى اكتمل عقله وبلغ سن الأربعين. قالوا: إنه بلوغ الرشد وإنما العطف للتوكيد- فإذا كان ذلك دعا ربه وسأله التوفيق والهداية إلى أن يشكر النعمة التي أسبغها الله عليه وعلى والديه، وتضرع إليه راغبا الثبات والعون على العمل الصالح الذي يحبه الله ويرضاه؛ و {أوزعني} أي رغبني ووفقني؛ من أوزعته بكذا- أي جعلته راغبا في تحصيله-
{وأصلح لي في ذريتي} ورسخ اللهم الصلاح في نسلي وعقبي.
عن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، أسلم أبواه جميعا، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وأجابه الله-إذ دعاه {وأن أعمل صالحا ترضاه} - فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، منهم: بلال،

وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه.
وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم اليوم صائما)؟ قال أبو بكر: أنا. قال: (فمن تبع منكم اليوم جنازة)؟ قال أبو بكر: أنا. قال: (فمن أطعم منكم اليوم مسكينا)؟ قال أبو بكر: أنا. قال: (فمن عاد منكم اليوم مريضا)؟ قال أبو بكر: أنا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة) ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده.
}إني تبت إليك وإني من المسلمين (١٥){.
إني رجعت إلى طريقك، وتركت طريق غيرك، ومِلت عنها، ونفرت منها. وأسلمت وجهي إليك، وجعلت انقيادي لملة الإسلام التي جمعت عليها من شرحت صدورهم للحق.
١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)
}أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا{.
الفريق المؤمن المحسن البار بوالديه الحافظ لأهله وذريته يتقبل الله السميع العليم عنهم أعمالهم الصالحة- الطاعات والقربات-
}ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة{.
ونترك مؤاخذتهم بإساءات غفرناها وسترناها، وعفونا عنهم مع أهل النعيم وأصحاب الجنة، فلله الحمد أن سبقت رحمته غضبه، وعفوه سبق مؤاخذته، وبشراه الحق: }إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نُكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما{. ٣٢
}وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (١٦){.
}وعد{ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله، وقريب منه قوله سبحانه: }. . حق اليقين{. أو التقدير: وعد الكتاب الصدق، فحذف الموصوف، ولا يخلف الله وعده. والآيتان الكريمتان السابقتان بشرتا أهل البر، ثم تليهما آيتان في أهل العقوق.
١٧ - (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)
}والذي قال لوالديه أف لكما{.
الكافر العاق لوالديه يصدر صوتا }أف{ يتضجر منهما ويتقزز، أو يعني: نتنا لكما.
}أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي{
أبواه يدعوانه إلى الإيمان بالبعث ولقاء الله وثوابه وعقابه، وهو ينكر ما دَعَواه إليه، ويستبعد أن يخرج من قبره حيا كما كان قبل موته، ويتحداهما متعنتا: مضت قبلي إلى القبور خلائق، فهاتوهم أحياء إن أردتما مني أن أصدق قولكما.
}وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق{
ووالداه يستغيثان بالله من ضلاله، أو يدعوان الله له بالهداية، ويحذرانه من الويل والعذاب له إن استحب الجحود.
[أصل [ويل] دعاء بالثبور يقام مقام الحث على الفعل أو تركه إشعارا بأن ما هو مرتكب له حقيق بأن يهلك مرتكبه، وأن يُطلب له الهلاك، فإذا أُسمع ذلك كان باعثا على ترك ما هو فيه والأخذ بما ينجيه ٣٣]. }آمن{ صدّق فإن وعد الله صدق، وربنا لا يخلف الميعاد.
}فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين (١٧){
يقول العاق الجاحد لوالديه: ما الذي تدعواني إليه إلا أباطيل الأقدمين سطروها وابتدعوها ولا أصل لها.
١٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)
}أولئك الذين حق عليهم القول{

أمثال هذا الجاحد الشقي وجب عليهم العذاب الذي بينه قول الله- تبارك اسمه-لإبليس: {. . لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين} ٣٤.
{في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (١٨)}
مع طوائف وأمم قد مضت وتقدمتهم في الهالكين الغابرين من الإنس والشياطين؛ إن تلك الأمم الكافرة ومن على شاكلتهم هي الطوائف الهالكة الخاسرة، نعوذ بالله من الخسران، ونسأله الفوز والرضوان.
١٩ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)
{ولكل درجات مما عملوا}
لكل من الفريقين-المؤمنين والكافرين إنسهم وجنهم- منازل من الذي عملوه، ومراتبهم عند الله بحسب أعمالهم.
قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفالا، ودرجات أهل الجنة علوا.
والدرجات: جمع درجة وهي نحو المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود، ودركا إذا اعتبرت بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة، ودركات النار، والتعبير بالدرجات على وجه التغليب، وإنما غلب أصحاب الدرجات لأنهم الأحقاء به.
{وليوفيهم أعمالهم}
ليعطيهم الله الشكور الودود جزاء أعمالهم وافيا.
{وهم لا يظلمون (١٩)}.
لا يبخسهم الله حقا، ولا ينقص مثوبتهم، ولا يضيع أجر من أحسن عملا؛ {. . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها} ٣٥
٢٠ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)
{ويوم يعرض الذين كفروا على النار}
ويوم القيامة يعرض الكافرون بالله- أو بملائكته أو كتبه أو رسله أو بالآخرة-يعرضون على عذاب النار، ويردونه ليصلوه.
{أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها}
يقال لهم للتحسير والتنكيل: أذهبتم نصيبكم من الحياة الطيبة واستوفيتموه في الحياة الدنية التي كنتم تحبونها، وقضيتموها في المتع والشهوات- من قناطير الذهب والفضة والزينات واللهو والزخرف والجاه والتفاخر والتكاثر- وزينت لكم السيئات وخرجتم من الدنيا ولا حسنة لكم. وقيل: أفنيتم شبابكم في الكفر والعصيان.
{فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (٢٠) *}
فجازاهم بما يستحقون- والجزاء من جنس العمل- وبسخريتهم من الرسل والمؤمنين سخر الله منهم وأذلهم وأخزاهم، إذ كانوا يتعاظمون على الخلق، ويخالفون عن أمر الخالق، ويخرجون عن طاعته، ويتأنفون عن عبادته.
في صحيح مسلم وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مشربته ٣٦ حين هجر نساءه قال: فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أهبا ٣٧ معطونة قد سطع ريحها، فقلت: أنت رسول الله وخيرته، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالسا وقال: (أفي شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا). فقلت: استغفر لي! فقال: " اللهم اغفر له ".
وقال قتادة: ذُكِر لنا أن عمر رضي الله عنه قال: لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة.
وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء- ما يشوى على النار- وصنابا [أصبغة تتخذ من الخردل والزبيب، تشّهي الأكل] وصلائق [الخبز الرقاق العريض] ولكني

أستبقي حسناتي، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال: {. . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها}.

مما نقل كثير من المفسرين عن حفص بن أبي العاص قال: كنت أتغذى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقديد، وأقل ذلك- وقوعا- اللحم العريض [الطري] وكان يقول لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله، فجيء بخبز متفلع [مشقق] غليظ، فجعل يأكل ويقول: كلوا، فجعلنا لا نأكل، فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا.

كما رووا: أنه لما قدم عمر الشام صُنع له طعام لم يُر قط مثله، قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير! فقال خالد ابن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال: لئن كان حضنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حضهم بالجنة فقد باينونا بونا بعيدا.

يقول علماء الأحكام: [تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع، وتستمرئها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء، فأخذ عمر -رضي الله عنه-الأمر من أوله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله، والذي يضبط هذا الباب. . على المرء أن يأكل ما وجد، طيبا كان أو قفارا- الطعام بلا أدم- ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلا، ولا يجعله ديدنا [دأبا وعادة لازمة]، وقيل إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة، وهو حسن، فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه، بل مأمور به في مثل قول المولى تبارك اسمه: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم} ٣٨ بل عهد به الله تعالى إلى رسله الكرام: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات} ٣٩ فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه] ٤٠ والله تعالى أعلم.

٢١ - (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

{واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف}

يأمر الله تعالى نبيه أن يقص على من يستطيع تبليغه ويذكر ويعظ بخبر هود عليه السلام، وكان أخا لهم في النسب لا في الدين-إذ حذر قومه وأنذرهم وخوفهم عذاب الله الذي يحل على المفسدين والمشركين والجاحدين، وكانت ديار عاد قوم هود بالأحقاف- جمع حقف وهو ما استطال من الرمال العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا- وهي بالشحر قرب عدن، وقيل: كانت منازل عاد في حضرموت بواد يقال له مهرة، أو واد بين عمان ومهرة.

{وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله}

وقد سبق النذير هود عليه السلام رسلنا إلى من قبله من الأمم، وكلهم صلوات الله عليهم وسلامه يدعون الناس إلى أصل الإيمان ألا تعبدوا إلا الله، وكذا من يبعث من المرسلين بعده.

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى: {من بين يديه ومن خلفه} يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين في زمانه، فمعنى {من خلفه} من بعد إنذاره ٤١.

أو يكون المعنى ٤٢: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله عز وجل: {فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها} ٤٣، وكقوله جل وعلا: {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله} ٤٤ قال المرسلون إلى أقوامهم: لا تعبدوا إلا الله.

{إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢١)}.

قال هود لقومه ما قاله إخوانه من الرسل، وخشي أن يغشاهم العذاب العاجل منه والآجل، وكلاهما بالغ الهول والشدة: {وكذلك

أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} ٤٥. فبشركهم تحق عليهم الأخذة: {إن بطش ربك لشديد} ٤٦.
مما أورد صاحب جامع البيان: واذكر يا محمد لقومك الرادّين عليك ما جئتهم به من الحق هودا أخا عاد، فإن الله بعثك إليهم كالذي بعثه إلى عاد، نخوفهم أن يحل بهم من نقمة الله على كفرهم ما حلّ بهم إذ كذبوا رسولنا هودا إليهم. . لا تشركوا مع الله شيئا في عبادتكم إياه، ولكن أخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة إنه لا إله غيره. . إني أخاف عليكم أيها القوم بعبادتكم غير الله عذاب الله في يوم عظيم. اهـ.

٢٢ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

{قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا}.
رد قوم هود عليه إذ أمرهم بعبادة الله وحده، وحذرهم أن يعبدوا غيره، قالوا: أتدعونا لتصرفنا بالإفك والكذب عن عبادة آلهتنا؟ والاستفهام إنكاري.
{فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٢٢)}.
استعجلوا سخط الله ومقته وبأسه، واستبعدوا صدق نبيهم- صلوات الله عليه وسلامه- فيما يُبلغ عن ربه، فقالوا لهود: إن كنت صادقا فيما تنذرنا فهات ما عندك، وقد كان حذرهم حلول العذاب {. . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}.

٢٣ - (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

{قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون (٢٣)}.
ذكرهم هود عليه السلام بضعف الخلَق وقوة الخالق فقال: علم كل شيء عند الله لا عندي؛ فوقت حلول ما تستعجلون به ونزوله معلوم لله وحده، الذي أحاط بكل شيء علما؛ فإن كنتم تستحقون تعجيل العذاب فسيعجله بحكمته وقدرته.
[والكلام كناية عن أنه لا يقدر عليه ولا على تعجيله، لأنه لو قدر عليه وأراده كان له به علم في الجملة، فنفيُ عِلمه به المدلول عليه بالحصر نفيٌ لمدخليته فيه حتى يطلب تعجيله من الله عز وجل ويدعو به] ٤٧.
وما أنا إلا مبلغ عن الله ما بعثني به إليكم، ولكني أراكم تجهلون مقام ربكم، وتجهلون عاقبة شركم واستكباركم، وتجهلون قدرة الله على تعذيبكم، ولهذا تستعجلون ساعة هلاككم وخسرانكم، [شأنكم الجهل، ومن آثار ذلك أنكم تقترحون عليّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب] ٤٨.
[وأي جهل من نسبة نبي الله إلى الكذب، ومن ترك طريقة الاحتياط ومن استعجال ما فيه هلاكهم؟] ٤٩.

٢٤ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا}.
الفاء للفصيحة أي فلما جاءهم ما كانوا يستعجلون رأوه عارضا مستقبل أوديتهم فقالوا هذا عارض يحمل إلينا المطر؛ رأوا سحابا وغيما فحسبوه بشير غوث وسقيا. و {عارضا} منصوب على التمييز أو الحال؛ والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء و {مستقبل أوديتهم} أي متوجه أوديتهم- والمطر إذا نزل الأودية كثر نفعه-.
نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: وكان قد جاءهم من واد جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا.
{بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٢٤)}.
قال هود لهم: ليس هذا سحابا ممطرا، بل هو ما كنتم تستعجلون من العذاب، إذ قلتم مستهزئين: {فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين}، ثم بيّن ما ينطوي عليه الوعد: ريح عاتية عقيم {تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٥٠؛ {إن عذاب ربك لواقع} ٥١؛ {فكيف- كان عذابي ونذر} ٥٢.
روى البخاري في صحيحه عن عائشة – رضي الله تعالى عنها- زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله

عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لهواته- جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم- قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه. قالت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِف في وجهك الكراهية؟ فقال: (يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا) وأخرجه مسلم.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور).

٢٥ - (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

{تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين (٢٥)}.

ولم تؤلمهم الريح وتوجعهم فحسب، بل سخرها الله القوي العزيز: {. . سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٥٣؛ وما أصابت الأنفس دون الأموال، بل مع إتيانها على كل نفس كافرة حتى لم تبق منهم أحدا، دمرت كل شيء مرت عليه من أموال عاد: {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} ٥٤ فلم يبق إلا طلل دورهم ليكون مزدجرا ومعتبرا لمن يأتي بعدهم: {إنا كذلك نفعل بالمجرمين} ٥٥.

عن ابن إسحق قال: اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما يُلِيّن أعلى ثيابهم، وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن – المسافر بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا؛ وحكى أن شاعرهم قال في ذلك:

فدعا هود عليهم ... دعوة أضحوا همودا

عصفت ريح عليهم ... تركت عادا خمودا

سخرت سبع ليال ... لم تدع في الأرض عودا

ونقل أن هودا عمّر في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة.

٢٦ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

{ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون (٢٦)}.

ولقد مكنا عادا في الذي مكناكم فيه، ووهبناهم نعمة الحواس التي بها يشعرون، ويرون ويسمعون، وقلوبا بها يدركون ويفهمون- لو كانوا يعقلون- لكنهم لم يستدلوا بها على منعمها- تبارك اسمه- ولم يشكروه على نعمائه، فلم تستنقذهم، ولا استخلصوا أنفسهم من الهلاك والدمار باستعمالها فيما خلقت من أجله.

إذ كفروا بأنعم الله تعالى وكلماته وحل بهم عاقبة نكرانهم، وسخريتهم من نبيهم وممن آمن من قومهم.

٢٧ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

{ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون (٢٧)}.

وبعد ذكر أنباء عاد قوم هود عليه السلام التفت القرآن الكريم إلى توجيه الخطاب لكفار مكة ومن على شاكلتهم فذكّر بسنة الله تعالى في إهلاك المشركين، وجاء التذكير مؤكدا بالواو واللام وقد: {ولقد أهلكنا ما حولكم} دمرنا ما حولكم، وما هو قريب منكم، ومحيط بدياركم {من القرى} كمدائن صالح، ومساكن سبأ، وحجر ثمود، وقرى قوم لوط -المؤتفكات- فهلا اعتبرتم بما فعلنا بالجاحدين، وبإهلاكنا المسرفين، فتوقيتم نقمة الله وبأسه، وآمنتم وصدقتم نبيه؟!

{وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} وبينا لهؤلاء المُهلكين، ووضحنا وكررنا العبر والعظات، وسقنا لهم الحجج وكلماتنا الصادقات، لكي يرجعوا عما كانوا عليه من الفسوق والكفر إلى الإيمان والرشد، فلم يرجعوا فأهلكناهم.

٢٨ - (فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
{فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ظلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون (٢٨)}.
فهل ردت عنهم الهلاك الذي أنزلناه بهم أوثانهم التي ألّهوها من دون الله- تبارك اسمه-؟ هل حين جاء بأسنا مَنْ قَبْلَكُمْ -بشركهم- أغنت عنهم شركاءهم التي أشركوها مع المولى الأحد الصمد؟! لا! {بل ضلوا عنهم} هلكوا عنهم، وتركوهم وبلاءهم، وغابوا وضاعوا {وذلك إفكهم} وهذا الخذلان هو كذبهم في وصف الأوثان والأصنام بأنها آلهة، أو تُقرب من الله، أو تشفع عنده؛ فهذا الذي حل بهم أثر انصرافهم عن الحق وافترائهم الكذب.
٢٩ - (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)
{وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن}.
{صرفنا} أمَلْنا ووجّهنا.
{نفرا} جماعة من الثلاثة إلى العشرة، وقد يطلق على الجماعة ولو وصل عددهم إلى الأربعين.
بعد أن سلّى الله تعالى نبيه محمدا- صلى الله عليه وسلم - بما جرى لإخوانه المرسلين من قبله، من تكذيب قومهم لهم، وجحودهم الحق الذي جاءهم، وكيف أهلك المهيمنُ الجبار الجاحدين ودمّر دورهم، سرّى عن خاتم النبيين بأن الجن-على بأسهم- سيقوا إلى المبعوث إلى الخلق كافة ليتعلموا مما أنزل الله عليه.
مما روى مسلم في صحيحه بسنده عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود-رضي الله عنه- شهد مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ٥٦؟ قال؛ فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: استطير؟ اغتيل؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم؛ فقال: (أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن).
{فلما حضروه قالوا أنصتوا}.
فحين رتّلت تواصوا بالإصغاء وقال بعضهم لبعض {أنصتوا} وفي هذا توجيه إلى السكوت وحسن الاستماع في مجالس تلاوة القرآن.
{فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين (٢٩)}.
(. . . فلما أتم النبي قراءته أسرعوا ٥٧ راجعين إلى قومهم من الجن ليعلموهم ويحذروهم ٥٨ ما حذرهم منه القرآن الذي سمعوه؛ وإلى هذا يستنفرنا الحق تبارك وتعالى: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون} ٥٩.
٣٠ - (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)
{قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه}.
نادوا جماعتهم- حين وصلوا إليهم- أن قد سمعنا وحيا من الله تعالى، وآيات بُعِث بها نبي أرسل بعد موسى؛ والقرآن الذي سمعنا منه يصدق ما قبله من الكتب السماوية.
ولعلهم علموا برسالة موسى ولم يعلموا برسالة عيسى، أو اعتبروا رسالة عيسى لتوكيد وتجديد ما أوتي موسى من قبل.
{يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم (٣٠)}.
يدل الكتاب – الذي سمعنا شيئا منه- ويبين كيفية الوصول إلى الحق والهدى والرشد؛ والثبات على ذلك.
يقول أبو الفداء إسماعيل بن كثير: {يهدي إلى الحق} أي في الاعتقاد والأخبار {وإلى طريق مستقيم} في الأعمال ٦٠؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} ٦١ وقال سبحانه: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} ٦٢. فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: {يهدي إلى

الحق} في الاعتقادات {وإلى طريق مستقيم} أي في العمليات. . اهـ.
٣١ - (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)
{يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به}.
لم يكتف رسل رسول الله إلى الجن من قومهم بمجرد معرفة فضل القرآن على ما سبقه، أو أثره فيمن تدبره وعقله، وإنما نادوْهم إلى تلبية دعوة الله والتصديق بكماله وعلاه، والدخول في دينه الذي ارتضاه.
يدل هذا على أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الجن والإنس ولم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبله. روى مسلم عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود: الأحمر والأسود: الجن والإنس-وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة وطهورا ومسجدا فأي رجل أدركته الصلاة صلى لله حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة).
{يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (٣١)}.
يكفر الله عنكم- إن آمنتم- ما كان من خطاياكم ويسترها، وينقذكم من الهوان والخسران.
ويفهم من ذلك أن مؤمنيهم يدخلون الجنة وينالون نعيمها، نص على ذلك النووي والحسن البصري ومالك بن أنس وغيرهم.
٣٢ - (وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)
{ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء}.
والمعرض عن دعوة الله لن يفوت ربه، ولن يُفلت من قبضته، بل قدرة الله شاملة له محيطة به، وما له من دافع يدفع عنه بأسنا حين ينزل به.
{أولئك في ضلال مبين (٣٢)}.
وهؤلاء المعرضون حادوا عن الصواب، واستوجبوا الحيرة والحسرة، والحرمان والعقاب.
وهكذا أبلغ الجن عن النبي، ودعوا إلى الله على بصيرة، وبهذا أُمِر أهل الإيمان، ففي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبلغوا عني ولو آية).
كما أن في الآيات تقريعا للضالين من الآدميين، فإن الجن على بأسهم سمعوا القرآن فآمنوا به وأذعنوا له، فأولى لكم أن تهتدوا بهداه. استجيبوا واسمعوا وبلّغوا ينضر الله وجوهكم، ويهدكم، ويهد بكم.
٣٣ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
{أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى}.
أولم يتفكر الشاكّون في حقيقة الإيمان ويعلموا أن الله الذي أوجد السماوات والأرض دون أن يمسه تعب أو نصب، أو يدركه قصور أو عجز، لا يعجزه إحياء الموتى؟!
{بلى إنه على كل شيء قدير (٣٣)}.
إن ربنا قوي مقتدر، فعال لما يريد، فالذي أنشأ أول مرة يسير عليه أن يعيد إلى الموتى أرواحهم، ويسوّي أجسادهم، كما بدأهم يعودون.
٣٤ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)
{ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا}.
وأنذرهم يوم يعرضون على النار ويقال لهم: أليس هذا الذي ترون وتصلون حقا؟ فيقولون: بلى وربنا، و {بلى} كنعم، لكن تأتي في جواب سؤال منفي كما هاهنا {أليس هذا بالحق}.
{قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤)}.

فيقال لهم من قبل الحق- تبارك اسمه- فاصلوا هذا اللظى والسعير، والحسرة والتخسير، بسبب كفركم وجحودكم بمقام العلي الكبير.
٣٥ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)
{فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم}.
وما دمت على يقين من عاقبة المؤمنين والكافرين، فلا يستخفنك الذين لا يوقنون، وارتقب ما نحن بك وبهم فاعلون، واصبر كصبر إخوانك أولي العزم المرسلين، والذين طال احتمالهم لاستهزاء المستهزئين، وأذى المعاندين، وتركوا العاقبة يقضي بها أحكم الحاكمين.
وأولوا العزم من الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين- خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
{كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار}
والذين يكذبون سيأتيهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب الطويل الذي يظهر لهم معه أن مكثهم في الدنيا لم يكن إلا ساعة من يوم.
{بلاغ}
هذا القرآن بلاغ، وهذا الذي وعظتكم به كفاية في الموعظة، وتبليغ من الرسول.
{فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥)}.
فهل يحل البوار والدمار إلا بالعصاة الكفار، الخارجين المخالفين عن أمر الواحد القهار؟ بلى! لا يهلك على الله إلا هالكا مشركا. وقيل هذه أقوى آية في الرجاء. والله أعلم.
خاتمة تفسير سورة الأحقاف:
هذه السور المحكمات كثير فيها السلطان المبين، والحجة على المجادلين في الله رب العالمين، وصُرفت فيها آيات تثبت اليقين في القرآن العظيم، وتقص من أنباء المرسلين الموعظة والذكرى للمتقين، وتنذر أهوال يوم الدين، وتُمسّك بميثاق بر الوالدين والأولاد، وما كتب علينا من فريضة الجهاد.
كم حضتنا كلمات ربنا الصادقات العادلات التامات على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما لتهدينا إلى جلال مولانا الخلاق العليم: {إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون} ٦٣ {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٦٤ {الله الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} ٦٥.
وكم جادل الكتاب الحكيم أهل الشرك والإفك: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} ٦٦ {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} ٦٧ {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ٦٨.
{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون} ٦٩ {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٧٠.
والكتاب العزيز نور للقلوب والألباب، وفرقان بين الجور والصواب، ومنّة وبرّ من المنعم الوهاب، هذا رشده ورفده للمصدقين المستيقنين: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون} منه سورة الجاثية، الآية ٢٠، لكن الناهين عنه والنائين عنه يزدادون به خسرانا: {ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} من سورة الجاثية. الآيات: ٧، ٨، ٩، والأفاك الذي يصرف الناس عن الحق بباطله.
والفرقان الهادي الشافي مجدته هذه السورة تمجيدا عزيزا فلم يوصف بأنه. (عليّ) عزيز الجناب إلا في سورة الزخرف، وصدق الله موحيه

{وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} ٧١ وسمي: ذكرا في مواطن ثلاثة منها؛ وشرفت الليلة التي نزل فيها وبوركت حتى لها أعظم خيرا وأجرا من ثمانين سنة ٧٢: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك} ٧٣؛ وامتن الحميد المجيد على النبي والناس كافة بأن هذا الحديث الرباني المبارك قد خضعت أئمة الجن ورعوا أماناته: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} ٧٤؛ وإذ رفع الله درجاتكم بهذا القرآن فاستمسكوا بشرعته ومنهاجه، فإنه من يعرض عنه يخسر خسرانا لا ربح معه ويضل ضلالا بعيدا: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} ٧٥؛ ولا يفتننكم أعداء الحق ولو عن اليسير من مواثيقه فإن الشيطان سول وأملى لقوم أطاعوا المبطلين في شيء على غير سبيل القرآن المبين {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} ٧٦، {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}.

وآيات من هذه السور الكريمة دمغت باطل عبدة الملائكة وأزهقت فرية من نسبوهم إلى الأنوثة، يقول الحق جل علاه: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون} {وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}.

سبحان الله وتعالى عما يصفون.

وسنة ربنا فيمن بعث إليهم أنبياءه إذا عصوهم أن يدمرهم، {وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين} ٧٧، وإذا استهزأ فرعون وملؤه بموسى وهارون أذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون {فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ٧٨ {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} ٧٩، {فما بكت عليهم السماء والأرض} ٨٠؛ {أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم} ٨١ {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} ٨٢.

وفتنة كثير من المكذبين الكبر، فهم يقولون إذ بعث الله خاتم النبيين: {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}، والمفتون المتأله فرعون يقول ما بينه الذكر الحكيم: {. . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} ٨٣.

فَلْيَدَعُ أهل الحق مستيقنين بأن العاقبة للمتقين، وليثبتوا على الرشد فإن الله مُظْهِر دينه على كل دين: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ٨٤.

ودعوتنا لا تقبل مُوادّة للضالين، لكن ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه} ٨٥.

وعن أحوال الآخرة وأهوالها صرف الله القول:

فقرين السوء مهما زوّر ودّا، فإنه يوم الفصل يكون لقرينه عدوّا وضدّا {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} ٨٦، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٨٧، فلا تصاحب إلا مؤمنا، ولا تأثم بمن تخالل أو تُؤثم عسى الله أن يجمعكما في دار الخلد والكرامة {إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم} ٨٨.

وجاءنا من ربنا برهان البعث: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق} ٨٩ {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى

كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} ٩٠ {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} ٩١، {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ٩٢؛ وبينت الآيات مصير المسيئين والمحسنين، ولكل درجات مما عملوا، وليس لأحد إلا ما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، ويوم الحساب لا يغني ولي عن ولي، بل يتناكر الأصدقاء ويتنافرون، ويتخاصمون ويتلاعنون، إلا من اتقى فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون؛ فالسعيد من استيقن بالبعث، وعمل ما يرضي مولاه، وتحسن به عقباه، ولم يتول إلا من أحب الله.

وما فُصّل القول الكريم في شراب أهل النعيم مثل ما فُصل في آيات سورة [القتال]: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ٩٣، وجمعت آيات في سورة الزخرف أزواجا من الحبور النفسيّ والحسيّ، كما عظمت مُتع العباد المؤمنين المسلمين، وطعامهم وشرابهم وآنيتهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} ٩٤، كما هيبت مجالسهم وملابسهم {وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين} ٩٥.

فيا أيها العباد! استجيبوا لدعوة مولاكم إلى نعيم ماله من نفاد، واعملوا ما تبيض به الوجوه يوم التناد.

وإن أهوال الآخرة لتشيب منها الولدان، ويتعادى فيها الخلان، وتنشر صحائف البهتان، الإثم والعدوان، وتذل طوائف الكفر والعصيان: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ٩٦، {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٩٧.

وبئس قرار الفجار، لا ينفكون عن دار البوار {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون}.

وفي رعاية الوالدين والذرية، نُلقّى أكرم وصية {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} ٩٨، {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق} ٩٩.

وللقرابة حق من يرعه فإن الله يرعاه، ومن يضيعه يخسر في أولاه وأخراه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} ١٠٠.

وبالقتال يتمحص الرجال، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجاهد المؤمن بالنفس والمال، وأدعياء الأيمان ينفضون العهد من بعد ميثاقه، فإذا التقى الجمعان ولو الأدبار، وإذا دُعُوا إلى النفقة غُلّت أيديهم شُحّا أن يبذلوا الأموال، فليتق الله من يبتغي حرث الآخرة، وليجاهد في سبيل الله ومن يرد للإسلام وأهله نصرا، يغفر الله خطاياه، ويعظم له أجرا.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٠١. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ١٠٢، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١٠٣، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١٠٤، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١٠٥، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١٠٦، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى.

من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١٠٧، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١٠٨، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١٠٩، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١١٠، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١١١، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١١٢، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ١١٣ الرحيم} ١١٤.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١١٥، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١١٦، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١١٧، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ١١٨، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ١١٩، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ١٢٠، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ١٢١، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ١٢٢.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ١٢٣، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ١٢٤، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٢٥ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ١٢٦، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ١٢٧، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ١٢٨، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ١٢٩، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ١٣٠، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ١٣١ {ولقد رآه نزلة أخرى} ١٣٢، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وماهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ١٣٣، {أم له البنات ولكم البنون} ١٣٤.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات

الله، فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ١٣٥.
ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.
فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق، والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.
ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير، ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.
{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ١٣٦.
ومن سنته تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ١٣٧، {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ١٣٨، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١٣٩، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ١٤٠، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ١٤١.
وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.
وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ١٤٢، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ١٤٣: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ١٤٤.
وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ١٤٥، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ١٤٦، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ١٤٧، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ١٤٨، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ١٤٩ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في

تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ١٥٠، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ١٥١، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ١٥٢، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ١٥٣، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ١٥٤، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ١٥٥.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ١٥٦؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ١٥٧، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ١٥٨ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ١٥٩ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ١٦٠؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ١٦١. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ١٦٢.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ١٦٣، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ١٦٤. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ١٦٥، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ١٦٦، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ١٦٧، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٦٨.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ١٦٩؛ وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١٧٠؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ١٧١؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ١٧٢.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ١٧٣، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ١٧٤، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١٧٥ {ذوتا أفنان} ١٧٦، {فيهما عينان تجريان} ١٧٧

}فيهما من كل فاكهة زوجان{ ١٧٨، }متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان{ ١٧٩، {}فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان{ ١٨٠، {كأنهن الياقوت والمرجان{ ١٨١، }ومن دونهما جنتان{ ١٨٢ }مدهامتان{ ١٨٣ }فيهما عينان نضاختان{ ١٨٤، }فيهما فاكهة ونخل ورمان{ ١٨٥، }فيهن خيرات حسان{ ١٨٦، }حور مقصورات في الخيام{ ١٨٧، }لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان{ ١٨٨، }متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان{ ١٨٩ في سورة الواقعة }على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما{ ١٩٠.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: }قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد{ ١٩١، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: }يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير{ ١٩٢.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: }وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير{ ١٩٣، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم{ ١٩٤ }إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم{ ١٩٥؛ }إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون{ ١٩٦.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات }هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد{ ١٩٧، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم{ ١٩٨.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا{ ١٩٩، }فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود{ ٢٠٠، }واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم{ ٢٠١، }فسبح باسم ربك العظيم{ ٢٠٢، }سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم{ ٢٠٣، ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: }اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. { ٢٠٤.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. }محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا

سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢٠٥، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان، {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢٠٦، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢٠٧ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢٠٨ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢٠٩، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢١٠.

٤٧ سورة محمد - صلى الله عليه وسلم -:

سورة محمد - صلى الله عليه وسلم -:
سورة محمد
مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون
كلماتها: ٥٤٠، حروفها: ٢٣٤٠.
١ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{الذين كفروا وضلوا عن سبيل الله أضل أعمالهم (١)}.

الذين جحدوا جلال الله تعالى وسلطانه وحديثه، وأعرضوا عن طريق الإسلام ومنعوا غيرهم أن يسلكوه هؤلاء يبطل الله تعالى أعمالهم، ولا يثيبهم على ما يفعلون من معروف كصلة الأرحام، وإكرام الضيف، وحماية الجار.

أو المعنى: [أبطل جل وعلا ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم -كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره- بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم وإظهار دينه على الدين كله]. ١

نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: إن أول هذه السورة مناسب لآخر السورة التي سبقتها- سورة الأحقاف: {. . . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون} - كأنه قيل: كيف يهلك الفاسق إذا كان له أعمال صالحة؟ فأجاب: {الذين كفروا وصدّوا} منعوا الناس عن الإيمان صدّا، أو امتنعوا عنه صدودا.

٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (٢)}.

والذين صدقوا بعقولهم واستيقنوا بقلوبهم واطمأنت صدورهم بجوانب الإيمان، ثم صدقت جوارحهم ما انطوت عليه جوانحهم فاستقاموا على الأعمال الصالحة التي ترضي المولى- تبارك اسمه- وصدّقوا ما أوحي إلى محمد- وهذا من عطف الخاص على العام- فإن الإيمان بأقدس الكتب السماوية وأبقاها مندرج في الإيمان المذكور أول الآية، لكن خصه بتكرار الإيمان به منفردا تنويها بشأنه، وتنبيها على سمو مقامه بين ما يجب الإيمان به، {وهو الحق من ربهم} فالقرآن حق نسخ ما قبله، ولا يأتي بعده ما ينسخه، بل هو خالد، تكفل

الله تعالى بحفظه.
{كفر عنهم سيئاتهم} أزالها عنهم وصفح وعفا، فلن يؤاخذهم بذنوب يسيرة ألموا بها {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما} ٢؛ {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم} ٣. {وأصلح بالهم} أصلح حالهم وشأنهم في الدين والدنيا؛ {. . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٤.
٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)
{ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم}.
ربنا يقضي بالحق ولا يظلم الناس شيئا، فهو -سبحانه- أضل أعمال الكافرين لأنها كانت بطرا ورئاء الناس وابتُغي بها العلوُّ والفساد، فلما كانت للباطل أبطلها الله {. . كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لُجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} ٥.
وأهل التصديق والإيمان، والطاعة والإسلام، يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة لأنهم استجابوا لدعوة ربهم إلى دار السلام فأدخلهم نعيمها بسلام.
{كذلك يضرب الله للناس أمثالهم (٣)}.
كما بينت لكم ما أقضيه في الكافر فأُضل عمله بسبب جحوده وإفساده، واستكباره وعناده؛ وما أقضيه في المؤمن فأطيب عاجله وآجله بحبه للخير، واستقامته على الرشد؛ ومثل ذلك البيان أُبين للناس فأضرب لهم أمثالهم، ونلحق بكل قوم من الأمثال أشكالهم، وقد أقمت الحجة فبصّرتهم حالهم ومآلهم، وعاقبة أمرهم، في معاشهم ومعادهم.
٤ - (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)
{فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب}
وما دام الكفار جند الباطل، وأحرص ما يكونون على إطفاء نور الله، وإضلال من آمن به؛ فإذا واجهناهم محاربين، فعهد ربنا إلينا أن نَعْمد إلى قتلهم وقطع رقابهم.
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والله العليم العظيم يأمرنا في شخص نبيه الكريم بأمره الحكيم: {فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون} ٦.
قال الزمخشري: {لقيتم} من اللقاء وهو الحرب، و {ضرب} نصب على المصدر لفعل محذوف [والأصل]: اضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل، وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول.
وقال الحمصي:. . و {ضرب الرقاب} مجاز مرسل عن القتل، عبر عنه إشعارا بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن، وتصويرا له بأشنع صورة، لأن ضرب الرقبة فيه إطارة الرأس الذي هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه. . وذكر أن في التعبير المذكور تشجيع المؤمنين وأنّهم منهم بحيث يتمكنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب.
وعلماء أحكام القرآن كالماوردي، وابن العربي، والقرطبي على أن هذا التشريع في كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة. . لعموم الآية فيه ٧.
{حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها}.
{أثخنتموهم} قهرتموهم وغلبتموهم، أو أكثرتم فيهم الجراح حتى أوهنتموهم وأضعفتموهم، أو تمكنتم وتسلطتم عليهم.

و {الوثاق} ما يحكم به القيد ويربط، أو الحبل ونحوه يشد به الأسير والدابة.
{منا} إحسانا وإنعاما، واستنقاذا من قتل وما أشبهه.
{فداء} شراء لأنفسهم واستنقاذا، وفكاك الأسير إذا أعطى مالا مقابل خلاصه، أو أعطى رجلا فداءه فأنقذه.
{أوزارها} أسلحتها وأُثقالها وعدّتها، أو آثامها وشرها حتى لا يبق إلا مسلم أو مسالم؛ و {. . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله} ٨.
بدأت الآية الكريمة- كما أسلفنا القول- ببيان أمر الله تعالى بضرب الرقاب حين لقاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم جعل أمد ذلك- في ثنايا الآية الكريمة- أن يضع الأعداء المحاربون سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة، فإذا قهرناهم وغلبناهم ومكّن الله لنا وسلّطنا عليهم أسرنا من بقي من جندهم؛ ولقائد المسلمين بعد ذلك أن يطلق أسرى الكفار إحسانا وإنعاما عليهم- دون مقابل- أو أن يُسرّحهم مقابل فدية من مال، أو رجال- كأن نفتدي بهم بعض أسارى المسلمين-.
مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: {فشدوا الوثاق} أي إذا أسرتموهم. . وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يُفلتوا. . و {منّا} و {فداء} نصب بإضمار فعل. . أي فإما أن تمنّوا عليهم منا، وإما أن تفادوهم فداء. . قدم رجل إلى الحجاج من كِندة وهو يقتل بعض من أسر في حرب مع مناوئين له فقال: يا حجاج! لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا. قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء} في حق الذين كفروا، فو الله ما مننت ولا فَدَيْت وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:
ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
فقال الحجاج: أفّ لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟! خلوا سبيل من بقي؛ فخلى يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.
ونقل عن قتادة ومجاهد: إذا أُسِر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه، ولا أن يُفادى به فيرد إلى المشركين؛ ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة، لأنها لا تقتل؛ والناسخ لهذه الآية الكريمة التي في سورة براءة:
{. . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} ٩.
إذا كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف، فوجب أن يُقتل كلّ مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان، ومن يؤخذ منه الجزية، وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة، خيفة أن يعود حربا للمسلمين. . أو أن الآية محكمة. والإمام مخير في كل حال.
وأورد صاحب روح المعاني ما حاصله: وفي حكم الأسارى خلاف، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا لأنه صلى الله عليه وسلم قتل صبرا عقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث لأن في قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية؛ وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فإن فعل بلا ملجئ كخوف شر الأسير كان للإمام أن يعزّره. . . وإن شاء استرقهم لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، وإن شاء تركهم ذمة أحرارا للمسلمين. . بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم؛ ولا يفادى بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لما في ذلك من معونة الكفر لأنه يعود الأسير الكافر حربا علينا، ودفع شر حرابته خير من استنقاذ المسلم لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاء في حقه فقط، والضرر بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين، والرواية الأخرى عنه أنه يفادى وهو قول محمد، وأبي يوسف، والإمام الشافعي، ومالك، وأحمد إلا بالنساء فإنه لا يجوز المفاداة بهن عندهم؛ ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية السير الكبير؛ قيل: وهو أظهر الروايتين عن الإمام أبي حنيفة، وقال أبو يوسف: تجوز المفاداة بالأسارى قبل القسمة لا بعدها؛ وعند محمد تجوز بكل حال. . ووجه ما ذكره الأئمة من جواز المفاداة أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر للانتفاع به ولأن حرمته عظيمة، وما ذكر من الضرر الذي يعود علينا بدفعه إليهم يدفعه ظاهرا المسلم الذي يتخلص منهم، لأنه ضرر شخص واحد مثله ظاهرا فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى فإن فيها زيادة ترجيح. ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم.
أخرج مسلم وأبو داود. . عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين.
ويحتج لمحمد بما أخرجه مسلم عن إياس ابن مسلمة عن أبيه مسلمة قال: خرجنا مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمّره علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال: فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق فقال: (يا مسلمة هب لي المرأة) يعني التي نفله أبو بكر إياها- فقلت: يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا، ثم لقيني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الغد في السوق فقال: (يا مسلمة هب لي المرأة لله أبوك) فقلت: هي لك يا رسول الله فو الله ما كشفت لها ثوبا، فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففدى بها ناسا من المسلمين أسروا بمكة؛ ولا يفادى بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يفيد، إلا إذا طابت نفسه وهو مأمون على إسلامه فيجوز لأنه يفيد تخليص مسلم من غير إضرار بمسلم آخر؛ وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لما بيّن في المفاداة بالمسلمين من ردهم حربا علينا.
وفي السير الكبير أنه لا بأس إذا كان بالمسلمين حاجة؛ قيل، استدلالا بأسارى بدر فإنه لا شك في احتياج المسلمين بل في شدة حاجتهم إذ ذاك فليكن محمل المفاداة الكائنة في بدر بالمال؛ وأما المن على الأسارى- وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة، ومالك، وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي لأنه صلى الله عليه وسلم منّ على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن أبي الربيع-على ما ذكره ابن إسحق بسنده، وأبو داود من طريقه إلى عائشة- لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بناءه عليها، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك رقّ لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها الذي لها) ففعلوا ذلك، مغتبطين به. ورواه الحاكم وصححه، وزاد: (وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يُخلّي زينب إليه ففعل). ومنّ صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال بن النعمان الحنفي سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن إسلامه، وحديثه في صحيح مسلم عن أبي هريرة. ويكفي ما ثبت في صحيح البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام: (لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى- يعني أسارى بدر- لتركتهم له)، فإنه أخبر- وهو الصادق المصدوق- بأنه يطلقهم لو سأله المطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعا لمكان العصمة، وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه جوازه شرعا.
}ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤) {.
الذي بُيِّنَ لكم هو حكم الكفار؛ ولو أراد الله القوي المتين لهزم الكفار ونصركم عليهم بدون قتال، لكنه- تبارك اسمه- أراد أن يعاملكم معاملة المختبر فيظهر منكم أهل الجهاد والصبر؛ والذين استشهدوا وماتوا من أجل أن تعلو كلمة الله فلن يضيع ربنا أعمالهم.
عن المقدم بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، [ويحلى حلة الإيمان ويزوج من الحور العين] ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتي وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه) وقد أخرجه الترمذي؛ وصححه؛ وابن ماجه.
روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة: ذكر لنا أنها نزلت في يوم أحد ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ: اعل هبل؛ ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ! فنادى المشركون: يوم بيوم، بدر، وإن الحرب سجال، لنا العزّى ولا عزّى لكم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلى مختلفة: أما قتلانا فأحياء عند ربهم يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون).
٥ - (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

{سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦)}.

الشهداء يأمنون أحوال الآخرة وأهوالها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا تُعمّى عليهم المسالك، وقد جاءت البشرى من الله – تبارك اسمه- بذلك: {. . . والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ١٠ فهم يعرفون طريقهم إلى الجنة وإلى مساكنهم فيها، أو {عرّفها} بمعنى: طيّبها بالعرف، وهو المسك.

[وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: {. . . فلن يضل أعمالهم. سيهديهم} ومنه قوله تعالى: {. . فاهدوهم إلى صراط الجحيم} ١١ معناه فاسلكوا بهم إليها].

روى الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار- فيقص لبعضهم من بعض مظالم ١٢ كانت بينهم في الدنيا- حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة- منه- بمنزله في الدنيا). فكيف بالشهداء؟!

[نقل عن ابن عباس: {عرفها لهم} أي طيبها لهم بأنواع الملاذ، مأخوذ من العَرف، وهو الرائحة الطيبة، وطعام معرف أي مطيب، تقول العرب: عرّفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبازير.

وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه:

عرفت كإتب ١٣ عرّفته اللطائم ١٤] ١٥

أي طابت ريحك، وعبق أثرك في الناس وانتشر كالثوب المطيب بالمسك.

٦ - (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦)}.

الشهداء يأمنون أحوال الآخرة وأهوالها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا تُعمّى عليهم المسالك، وقد جاءت البشرى من الله – تبارك اسمه- بذلك: {. . . والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ١٦ فهم يعرفون طريقهم إلى الجنة وإلى مساكنهم فيها، أو {عرّفها} بمعنى: طيّبها بالعرف، وهو المسك.

[وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: {. . . فلن يضل أعمالهم. سيهديهم} ومنه قوله تعالى: {. . فاهدوهم إلى صراط الجحيم} ١٧ معناه فاسلكوا بهم إليها].

روى الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار- فيقص لبعضهم من بعض مظالم ١٨ كانت بينهم في الدنيا- حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة- منه- بمنزله في الدنيا). فكيف بالشهداء؟!

[نقل عن ابن عباس: {عرفها لهم} أي طيبها لهم بأنواع الملاذ، مأخوذ من العَرف، وهو الرائحة الطيبة، وطعام معرف أي مطيب، تقول العرب: عرّفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبازير.

وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه:

عرفت كإتب ١٩ عرّفته اللطائم ٢٠] ٢١

أي طابت ريحك، وعبق أثرك في الناس وانتشر كالثوب المطيب بالمسك.

٧ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

{يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم (٧)}.

وعد من مولانا الحق لا يخلف، إذا نصر المؤمنون رسالة ربهم ورسوله أظهرهم الله- تبارك اسمه- على عدوهم، وثبّت أقدامهم على دينه القويم وصراطه المستقيم، فلا تضرهم فتنة، ولن يرتدوا على أدبارهم بعد أن تبين لهم الهدى.

يقول صاحب روح المعاني: {تنصروا الله} أي دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، لا على أن الكلام على تقدير مضاف، بل على أن

نصرة الله فيه تجوز في النسبة، فنصرته- سبحانه- نصرة رسوله ودينه، إذ هو – جلّ شأنه وعلا- المُعِين الناصر، وغيره- سبحانه- المعان المنصور.
مما أورد القرطبي: وقد مضى في (الأنفال) هذا المعنى، وقال هناك: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} ٢٢ فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: {قل يتوفاكم ملك الموت} ٢٣ ثم نفاها بقوله: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم} ٢٤ ومثله كثير، فلا فاعل إلا الله وحده.
أقول: ليس المراد التعارض، ولكن قد تصرح آية بذكر سبب لفعل ربنا- الواحد المختار، الفعال لما يريد- فيأتي الفعل منسوبا إلى سببه، كأمر الله تعالى للملائكة: {. . فثبتوا الذين آمنوا} بينما تأتي آية ثانية ليس فيها توسيط سبب، كما هاهنا: {. . ويثبت} وربنا هو القادر القاهر، يقضي ما يشاء بسبب وبغير سبب {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} ٢٥.
٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)
{والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم (٨)}.
فبينما يظفر الله تعالى أهل الغيرة على دينه بعِز الدنيا ونعيم الآخرة، يخيب المبطلين ويذلهم في العاجل والآجل، {فتعسا} أي هلاكا وخيبة، أو رغما وذلا، {وأضل أعمالهم} أبطلها فلا ثواب عليها لأنها كانت في طاعة الشيطان.
يقول اللغويون: {فتعسا لهم} أي شرّا لهم، أو شقوة، أو انحطاطا وعثارا.
[والتعس]-أن يخر على وجهه، والنكس أن يخر على رأسه.
ويقال: تعسا لفلان، أي ألزمه الله هلاكا.
وجوز قوم تعس- بكسر العين- قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: صلى الله عليه وسلم: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة ٢٦ والخميصة ٢٧ إن أُعطي رضي وإن لم يُعْطَ لم يرض). أخرجه البخاري. وفي بعض طرق هذا الحديث: (تعس وانتكس وإذا شيك ٢٨ فلا انتقش) ٢٩؛ أخرجه ابن ماجه.
٩ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)
{ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩)}.
وإنما أخزاهم الله تعالى في الدنيا والآخرة بسبب نفورهم من كلام ربنا الذي أوحاه، نخسروا كل شيء حتى ما عملوه من نحو إكرام ضيف وصلة رحم؛ ولو كانوا عملوها مع الإيمان لأثابهم المولى عليها.
١٠ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)
{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١٠)}.
ألم يسافر هؤلاء الغافلون الضالون فيروا مصير الذين سبقوهم بالجهالة والضلالة فأهلكهم الله وخرب بيوتهم ببغيهم وغيهم؛ ولهؤلاء المشركون المكذبين محمدا ودين الحق، لهؤلاء بكفرهم مصير كمصير أسلافهم.
يقال: دمر عليه أي أهلك ما يختص به- من آل ومال- فدمر عليه أبلغ من دمره.
[. . وإنما هذا توبيخ من الله لهم لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام فيرون نقمة الله التي أحلها ٣٠ بأهل حجر وثمود، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحل ٣١ الله بسبأ، فقال لنبيه- عليه السلام- وللمؤمنين به: أفلم يسر هؤلاء المشركون سفرا في البلاد فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها، الرادّة نصائحهم؟! ألم نهلكها فندمر عليها منازلها ونخربها؟ فيتعظوا بذلك ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياك فينيبوا إلى طاعة الله في تصديقك، ثم توعدهم- جل ثناؤه- وأخبرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله أنه محل بهم من العذاب ما أحل بالذين كانوا من قبلهم من الأمم. .] ٣٢.
١١ - (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ)

}ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم (١١)}.
نجاة المؤمنين وتدمير المكذبين حقت بموالاة ربنا القوي الولي الحميد لأهل الحق المصدقين بوعد الله رب العالمين، وخذلان الكفار وخسرانهم بضلال من اتخذوهم أولياء من دون الملك القوي المتين.
[من أجل أن الله وليّ من آمن به وأطاع رسوله. . وبأن الكافرين بالله لا ولي لهم ولا ناصر] ٣٣.
[. . }وأن الكافرين لا مولى لهم} بمعنى النصرة والعناية، وأما بمعنى الربوبية والمالكية فهو مولى الكل لقوله- تبارك اسمه-: }وردوا إلى الله مولاهم الحق} ٣٤] ٣٥.
قال قتادة: نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العزى ٣٦ ولا عزّى لكم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم).
}وأن الكافرين لا مولى لهم} لا ينصرهم أحد من الله.
١٢ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)
}إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار}.
تولى الله – تبارك اسمه- بالتأييد والتثبيت والإنجاء والإعزاز في الدنيا أهل الإيمان والصلاح، ويتولاهم في الآخرة فينزلهم مساكن طيبة في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.
}والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (١٢)}.
ولما كان المؤمنون قد صدّقوا بلقاء الواحد القهار، وتزودوا بخير زاد، أعرضوا عن الشهوات وأقبلوا على التنافس في الطاعات والمكرمات؛ أما الجاحدون اليائسون من الآخرة فلا هم لهم إلا اتباع الشهوات، والعكوف على الملذات، لا يشبعون من زاد، ولا يتفكرون في المعاد، ولهذا صح عن المبعوث بالهدى والرشاد: (المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء)؛ ثم مآله ومصيره الخلود في النار، وما أعد له من جزاء!.
[. . فشبه الكافرين بالأنعام من جهة أن الكافر غرضه من الحياة التنعم والأكل وسائر الملاذ، لا التقوّي والتوسل بالغذاء إلى الطاعة وعمل الآخرة؛ ومن جهة أنه لا يستدل بالنعم على خالقها، ومن جهة غفلتهم عن مآل حالهم وأن النار مثوى لهم.] ٣٧
[وقيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. }. . والنار مثوى لهم} أي مقام ومنزل.] ٣٨.
١٣ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ)
}وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم (١٣)}.
كم من أهل قرية، كثير من أقوام سكنوا مدائن لم يخلق مثلها في البلاد، وكانوا أشد بأسا وأكثر أموالا وأولادا من أهل مكة الذين أخرجوك، دمّرناهم وقتلناهم فلم يمنعهم منّا مانع، ولم يرد عنهم بطشتنا مدافع.
[صحح الحفاظ عن الثعلبي عن ابن عباس قال: لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: (اللهم أنتِ ٣٩ أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إليّ ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك). فنزلت الآية] ٤٠.
١٤ - (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)
}أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (١٤)}.
هل يستوي من يمشي على نور من ربه ومن يمشي مكبا على وجهه، يطيع هواه ويعادي مولاه، ويضل سعيه وهو يحسب أنه محسن؟ كلا! لا يستويان.
[أفمن كان على برهان وحجة وبيان من أمر ربه والعلم بوحدانيته، فهو يعبده على بصيرة منه بأن له ربا يجازيه على طاعته إياه الجنة، وعلى

إساءته ومعصيته إياه النار. . كمن حسّن له الشيطان قبيح عمله وسيئه فأراه جميلا، فهو على العمل به مقيم. . واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية الله وعبادة الأوثان من غير أن يكون عندهم بما يعملون من ذلك حجة وبرهان] ٤١.

١٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

{مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم}.

حال الجنة التي وعد الله المتقين وأعدها لهم وصفتها: فيها أنهار من ماء عذب المذاق لا يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه، وفيها أنهار من لبن لم يحمض، وأنهار من خمر لا تصدع ولا تغتال العقل ولا البدن، وأنهار من عسل لم تشبه شوائب، ولا تنقصهم من الفواكه فاكهة ولا من الثمرات ثمرة، وفوق ذلك كله يتجاوز المولى البرّ الرحيم عما يكون قد صدر عنهم من زلات وسيئات فيصفح ويستر.

[وقوله {. . ومغفرة من ربهم} إن قُدِّر: لهم مغفرة من الله قبل ذلك فلا إشكال، وإن قُدِّر: لهم فيها مغفرة، أمكن أن يقال: إنهم مغفورون قبل دخول الجنة، فما معنى الغفران بعد ذلك؟ والجواب: أن المراد رفع التكليف، يأكلون من غير حساب ولا تبعة ولا آفة، بخلاف الدنيا فإن حلالها حساب وحرامها عذاب] ٤٢.

[{ومغفرة} مبتدأ خبره محذوف، والجملة عطف على الجملة السابقة. . أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم، أو مجاز عن رضوان الله عز وجل، وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا: ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتنغص لذتهم، والمغفرة السابقة: ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها. . ولعله أولى مما قالوه.] ٤٣.

{كمن هو خالد في النار وسقوا ماءا حميما فقطع أمعاءهم (١٥)}.

أمثال أصحاب الجنة كمثل أصحاب النار المخلدين فيها؟ وسقوا ماء شديد الحرارة فقطع أحشاءهم وما تحوي بطونهم. [أمن هو في هذه الجنة التي صفتها ما وصفنا كمن هو خالد في النار؟] ٤٤.

١٦ - (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

{ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦)}.

ومن الكفار المتبعين أهواءهم من يبطن كفره ويظهر إسلامه، ويحضر مجلسك، فيستمع إلى ما تقول، فإذا فارق مجلسك سأل علماء أصحابك- وكلهم علّمهم الله: ماذا قال محمد الساعة- يقولها ساخرا أو مُنْكِرًا- هؤلاء المنافقون لما استحبت قلوبهم العمى ختم الله عليها بكفرهم، وتوجهوا نحو ما زينته لهم نفوسهم، وأقبلوا على ما فيه خسرانهم.

وهكذا يكون الذكر الحكيم، والوحي الرباني الكريم فرقانا يميز الله به الخبيث من الطيب: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} ٤٥.

١٧ - (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

{والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧)}.

القرآن العزيز يهدي للتي هي أقوم، ويزيد به الله الذين اهتدوا هدى فتحل التقوى في قلوبهم، فتعظم خشيتهم من ربهم، وينالون أجر المتقين في أولاهم وفي آخرتهم، فتنشرح بهذا النور صدورهم: {. . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء} ٤٦ {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين} ٤٧.

[الماوردي: ويحتمل. . أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم] ٤٨.
١٨ - (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ)
{فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (١٨)}.
فهل يرتقبون إلا القيامة تجيئهم على حين غفلة وهم ساهون؟ فقد جاءت علاماتها من انشقاق القمر، وبعثة خير البشر وخاتم الرسل.
روى مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت أنا والساعة كهاتين) وضم السبابة والوسطى. وأخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه.
فإذا جاءت الحاقة والطامة الكبرى، فعندها لن تنفعهم التوبة ولا الذكرى، كقوله -تبارك اسمه-: {. . يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى} ٤٩.
[وفي الذكرى وجهان: أحدهما تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر، الثاني هو دعاءهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا؛ روى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك) ذكره الماوردي] ٥٠.
١٩ - (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)
{فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم (١٩)}.
فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص، ولا تضق بجحود المنكرين وخبث المنافقين، فإنك على الحق المبين، واستغفر وسل ربك الصفح عن مخالفتك الأوْلى، والعفو عن ذنوب المؤمنين والمؤمنات، والله مطلع على أحوالكم في يقظتكم ونُقَلِكم، وفي مراقدكم ومضاجع نومكم.
[وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي). وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت). وفي الصحيح أنه قال: (يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة)] ٥١.
٢٠ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ)
{ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم (٢٠)}.
والمؤمنون يبتغون رضوان الله، وينصرونه ويعملون لتكون كلمة الحق هي العليا، فهم يتمنّون أن يأتي الوحي بالإذن لهم في قتال عدو الله وعدوهم، فإذا أنزلت سورة مبينة لا يلحقها نَسْخُ حكمها، وفُرض فيها الجهاد فرح بها الصادقون، واغتم لها المنافقون: {نظر المغشي عليه من الموت} إذ بذل المال والنفس ابتلاء يميز به الخبيث من الطيب- {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} ٥٢، وعاتب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أذن للمنافقين في التخلف عنه: {عفا الله عنك لما أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لا يستأذنك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون} ٥٣؛ {فأولى لهم} فالويل لهم، أو يؤول أمرهم إلى شر فليحذروا، أو وليَهُم شرٌ وقاربهم فليقلعُوا ولينتهوا.
٢١ - (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)
{طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم (٢١)}.

خير لهم- لو كانوا يعقلون- طاعة أمر الله تعالى ورسوله وأن يقولوا قولا معروفا ويمتثلوا، فإذا جد الجد وفرض القتال فلو وفّوا بعهد ربنا وصدقوا في تقديسهم لدينه لكان في ذلك خيرا لهم؛ ولكنهم بالباطل يؤمنون، ويفسدون- ما استطاعوا- ولا يصلحون.

٢٢ - (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

{فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم (٢٢)}.

فهل يكون حالكم إن أعرضتم عن أماناتي، وجحدتم الإيمان والجهاد أن تشيعوا الشر والبغي والشقاق بالقتل والعقوق ووأد البنات والتناهب؟ نعم! لن يكون حالهم إلا كما أخبر العليم الحكيم.

٢٣ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)

{أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم (٢٣)}.

كرهوا أن يجاهدوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمروا بصلته، فقطعهم المولى عن هدايته، وأبعدهم عن رحمته، فصموا عن سماع الحق والخير والهدى، وعموا عن النظر والتبصر والاعتبار؛ أو صموا عن نداء السلامة والسلام والإسلام، وحشرهم الله عميا يوم الجزاء، ويشهد لهذا قول الله تبارك اسمه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه} ٥٤.

وقال الراغب: الرحم رحم المرأة أي بيت منبت ولدها ووعاؤه ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة. ويقال للأقارب ذووا رحم كما يقال لهم أرحام، وقد صرح ابن الأثير بأن ذا الرحم يقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، والمذكور في كتبها: تفسيره بكل قريب ليس بذي سهم ولا عصبة، وعدوا من ذلك أولاد الأخوات لأبوين أو لأب وعمات الآباء، وظاهر كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام: (من ملك ذا رحم محرم فهو حر) دخول الأبوين والولد في ذي الرحم لغة حيث أجمعوا على أنهم يعتقون على من ملكهم لهذا الخبر وإن اختلفوا في عتق غيرهم، وصرح ابن حجر الهيثمي في الزواجر بأن الأولاد من الأرحام وظاهر عطف الأقربين على الوالدين في الآية يقتضي عدم دخولهما في الأقارب فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا: الأقارب، وكلام فقهائنا في عدم دخول الوالدين والولد في ذلك حيث قالوا: إذا أوصى لأقاربه أو لذوي قرابته أو لأرحامه فهي للأقرب فالأقرب من كل ذي رحم محرم ولا يدخل الوالدان والولد، وأما الجد وولد الولد فنقل أبو السعود عن العلامة قاسم عن البدائع أن الصحيح عدم دخولهما، واختاره في الاختيار وعلله بأن القريب من يتقرب إلى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما منعدمة؛ وفي شرح الحموي أن دخولهما هو الأصح. وفي متن المواهب وأدخل أي محمد الجد والحفدة وهو الظاهر عنهما، وذكر أن مثل الجد والجدة وقد يقال: إن عدم دخول الوالدين والولد في ذلك وكذا الجد والحفدة عند من يقول بعدم دخولهم ليس لأن اللفظ لا يصدق عليهم لغة بل لأنه لا يصدق عليهم عرفا وهم اعتبروا العرف كما قال الطحاوي في أكثر مسائل الوصية. وفي جامع الفصولين أن مطلق الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المتعارف، وما ذكره في المعراج من خبر: من سمى والده قريبا عقه، لا يدل على أنه ليس قريبا لغة بل بيان حكم شرعي مبناه أن في ذلك إيذاء للوالد وحطا من قدره عرفا، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك؛ وأمر العطف في الآية الكريمة سهل لجواز عطف العام على الخاص كعطف الخاص على العام، فالذي يترجح عندي أن الأرحام كما صرحوا به الأقارب بالقرابة غير السببية والمراد بهم ما يقابل الأجانب ويدخل فيهم الأصول والفروع والحواشي من قبل الأب أو من قبل الأم. وحرمة قطع كلّ لا شك فيها لأنه على ما قلنا رحم، والآية ظاهرة في حرمة قطع الرحم.

وحكى القرطبي في تفسيره اتفاق الأمة على حرمة قطعها ووجوب صلتها، ولا ينبغي التوقف في كون القطع كبيرة؛ والعجب من الرافعي عليه الرحمة كيف توقف في قول صاحب الشامل: إنه من الكبائر؛ وكذا تقرير النووي قدس سره على توقفه؛ واختلف في المراد بالقطيعة فقال أبو زرعة: ينبغي أن تختص بالإساءة، وقال غيره: هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطة بينهما.

والصلة: إيصال نوع من أنواع الإحسان كما فسرها بذلك غير واحد، فالقطيعة ضدها فهي ترك الإحسان. ونظر فيه الهيثمي بناء على تفسير العقوق بأن يفعل مع أحد أبويه ما لو فعله مع أجنبي كان محرّما صغيرة، فينتقل بالنسبة إلى أحدهما كبيرة، وأن الأبوين أعظم من بقية الأقارب، ثم قال: فالذي يتجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم: أن المراد بالأول أن يفعل مع أحد الأبوين ما يتأذى به، فإن كان التأذي ليس بالهين عرفا كان كبيرة، وإن لم يكن محرما لو فعله مع الغير؛ وبالثاني قطع ما ألف القريب منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عذر شرعي، لأن قطع ذلك يؤدي إلى إيحاش القلوب وتأذيها، فلو فرض أن قريبه لم يصل إليه إحسان ولا إساءة قط لم يفسق بذلك لأن الأبوين إذا فرض ذلك في حقهما من غير أن يفعل معهما ما يقتضي التأذي العظيم لغناهما مثلا لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب؛ ولو فرض أن الإنسان لم يقطع عن قريبه ما ألفه منه من الإحسان لكنه فعل معه محرما صغيرة، أو قطب في وجهه، أو لم يقم له في ملأ ولا عبأ به لم يكن ذلك فسقا بخلافه مع أحد الأبوين لأن تأكيد حقهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقارب بما لا يوجد نظيره فيهم، وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الإحسان الذي ألفه منه قريبه مالا أو مكاتبة أو مراسلة أو زيارة أو غير ذلك فقطع ذلك كله بعد فعله لغير عذر كبيرة؛ وينبغي أن يراد بالعذر في المال فقد ما كان يصله به أو تجدد احتياجه إليه أن يندبه الشارع إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوج أو أصلح، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديم الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه، وإن انقطع بسبب ذلك ما ألفه منه القريب، لأنه إنما راعى أمر الشارع بتقديم الأجنبي عليه؛ وواضح أن القريب لو ألف منه قدرا معينا من المال يعطيه إياه كل سنة مثلا فنقصه لا يفسق بذلك، بخلاف ما لو ما قطعه من أصله لغير عذر، وأما عذر الزيارة فينبغي ضبطه بعذر الجمعة، لجامع أن كلا فرض عين وتركه كبيرة، وأما عذر ترك المكاتبة والمراسلة فهو أن لا يجد من يثق به في أداء ما يرسله معه؛ والظاهر أنه إذا ترك الزيارة التي ألفت منه في وقت مخصوص لعذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت؛ والأولاد والأعمام من الأرحام وكذا الخالة فيأتي فيهم وفيها ما تقرر من الفرق بين قطعهم وعقوق الوالدين؛ وأما قول الزركشي: صح في الحديث أن الخالة بمنزلة الأم وأن عم الرجل صنو أبيه وقضيتهما أنهما مثل الأب والأم حتى في العقوق فبعيد جدا ويكفي مشابهتهما في أمر ما كالحضانة تثبت للخالة كما تثبت للأم وكذا المحرمية، وكالإكرام في العم والمحرمية وغيرهما مما ذكر، انتهى المراد منه؛ ولو قيل: إن الصغيرة تعد كبيرة لو فعلت مع القريب لكنها دون ما لو فعلت مع أحد الأبوين لم يبعد عندي لتفاوت قبح السيئات بحسب الإضافات، بل لا يبعد على هذا أن يكون قبح قطع الرحم متفاوتا باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع، ومتى سلم التفاوت فليُقَل به في العقوق ويكون عقوق الأم أقبح من عقوق الأب، وكذا عقوق الولد الذي لا يعبأ به أقبح من عقوق الولد الذي لا يعبأ به، ويتفرع من ذلك ما يتفرع مما لا يخفى على فقيه؛ واستدل بالآية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على منع بيع أم الولد. روى الحاكم في المستدرك وصححه.

وابن المنذر بن بريدة قال: كنت جالسا عند عمر إذ سمع صائحا فسأل فقيل: جارية من قريش تُباع أمّها، فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار، فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فهل تعلمونه كان مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم القطيعة: قالوا: لا. قال: فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ثم قرأ {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم} ثم قال: وأي قطيعة أقطع من أن تباع أم امرئ فيكم؛ قالوا: فاصنع ما بدا لك فكتب في الآفاق أم لا تباع أمّ حُر فإنها قطيعة رحم، وإنه لا يحل.

وهو مبني على جواز لعن العاصي المعين من جماعة لعنوا بالوصف، وفي ذلك خلاف فالجمهور، على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقا كان أو ذميا حيا كان أو ميتا ولم يعلم موته على الكفر لاحتمال أن يختم له أو ختم له بالإسلام بخلاف من علم موته على الكفر كأبي جهل. وذهب شيخ الإسلام السراج البلقيني إلى جواز لعن العاصي المعين لحديث الصحيحين: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح) وفي رواية (إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح) واحتمال أن يكون لعن الملائكة عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من باتت مهاجرة فراش زوجها بعيد. وفي الزواجر لو استدل لذلك بخبر مسلم (أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بحمار وسم في وجهه فقال: لعن الله من فعل هذا) لكان أظهر إذ

الإشارة بهذا صريحة في لعن معين إلا أن يؤول بأن المراد الجنس وفيه ما فيه ٥٥.

٢٤ - (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

{أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤)}.

أفلا يتأملون الكتاب العزيز ويتفكرون في حججه ليعلموا زيغ مناهجهم وسبيلهم، أم أُقْفِلَتْ مداركهم وأفئدتهم وصدورهم فلم يتعظوا ولا انزجروا ولا عقلوا؟!

[ما من الناس أحد إلا وله أربع أعين، عينان في وجهه لمعيشته، وعينان في قلبه، وما من أحد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره، عاطف عنقه على عنقه، فاغر فاه إلى ثمرة قلبه، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب فعمل به- وهما غيب فعمل بالغيب- وإذا أراد الله بعبد شرا تركه، ثم قرأ: {. . أم على قلوب أقفالها}] ٥٦.

[وعن بشر عن يزيد عن سعيد عن حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به] ٥٧.

والمسرف في الجحود والفساد، والمرتاب في يوم المعاد لا يصل نور القرآن إلى قلبيهما- ومن على شاكلتهما- {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} ٥٨ {وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب} ٥٩.

٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ)

{إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (٢٥)}.

إن الذين رجعوا على أعقابهم، وعادوا إلى غيهم وكفرهم، من بعد ما ظهر لهم الحق، ووضح أمامهم طريق الرشد، زيّن لهم الشيطان وسهّل العودة إلى الضلال والفسق، والفساد والشرك، ومدّ لهم في الأمل حتى قسّى قلوبهم، وأقعدهم عن طيب العمل.

[زين لهم خطاياهم. . {وأملى لهم} أي مدّ الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر؛ عن الحسن أيضا. وقال: إن الذي أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عز وجل؛ قاله الفراء والمفضل؛ وقال الكلبي ومقاتل: إن معنى {وأملى لهم} أمهلهم، فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال في عذابهم] ٦٠.

٢٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

{ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم (٢٦)}.

وإنما كان ارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم من أجل قولهم للكارهين نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم – حسدا- سنكون معكم ونتبعكم- يسرون بالتناجي بالإثم والعدوان ومناوأة الرسول- والله يعلم سرهم ونجواهم ويعلم كل معلوم سواء ظهر أو اختفى؛ ولقد عجّب الكتاب الكريم من غدر المنافقين وهتك تحالفهم خفية مع اليهود الغادرين: {ألم ترى إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون} ٦١.

٢٧ - (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

{فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم (٢٧)}.

هل تفكر المنافقون المرتدون، والقاعدون عن الجهاد الكافرون، في حيلتهم حين تأتي ملائكة الموت لقبض أرواحهم فتضرب وجوههم وأدبارهم؟!

نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يُتوفى أحد على معصية لا تضرب الملائكة في وجهه ودبره؛ والكلام على الحقيقة عنده،

ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ؛ بينما يتوفى الله أهل الإيمان وفاة طيبة سهلة، وبهذا جاءت البشرى في القرآن الحكيم: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} ٦٢.

٢٨ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

{ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم (٢٨)}.

يذيق الله المنافقين الخزي والهول من أجل اتباعهم سبل الكفر والعصيان، وكراهيتهم للحق والإيمان، فأبطل الله ثواب ما كانوا عملوه من بِرّ، وقدموا على ربهم ولا حسنة لهم.

[ولما كان اتباع ما أسخط الله مقتضيا للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضيا للإعراض ناسب ضرب الدبر؛ ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر] ٦٣.

٢٩ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

{أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم (٢٩)}.

هل يظن المنافقون أن الله لن يهتك أستارهم؟ وهل يحسبون أن المولى العليم لن يكشف خداعهم، وغشهم وحسدهم، وعداوتهم للنبي، وأحقادهم على أهل الإسلام؟ ذلك لن يكون أبدا!

٣٠ - (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

{ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم (٣٠)}.

ولو أردنا – يا محمد- إراءتك إياهم وإعلامك وإنباءك بأشخاص المنافقين لم يعينا هذا، فلعرفتهم بعلامات نَسِمُهم بها، وبِصَرْفِهم الكلام عما تواضع عليه الناس، وبميلهم عن الطريق المألوفة في تخاطبهم مما ظاهره حسن وباطنه قبيح؛ والله يعلم ما عملت ألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم، فيجازيهم عليها حسب نياتهم، وما انطوت عليه صدورهم- وفيه التفات- أو هو عام، ففيه الوعد بالثواب الحسن للمؤمنين، والوعيد بالعذاب الشديد للكافرين والمنافقين.

٣١ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)

{ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم (٣١)}

نختبر أعمالكم، ونعاملكم معاملة من يُمتَحَن، بما نعهد إليكم من طاعات وإيمان وجهاد، فمن صبر عليها ظهر علمنا السابق بسعادته، ومن كبرت عليه وضيّعها فلا عهد له عند ربه، وقد ظهر علم الحكيم سبحانه بشقاوته.

[لنعاملكم معاملة المختبرين. . {حتى نعلم} وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم؛ فتأويله: حتى نعلم المجاهدين على شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة؛ و {نبلو أخباركم} نختبرها ونظهرها. . كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا] ٦٤.

٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ)

{إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم (٣٢) *}.

إن الفجار الكفار، الصادين أنفسهم وغيرهم عن طريق العزيز الغفار، المعاندين المناوئين لصفوة الأبرار، من بعد ما قامت عليهم حجة الواحد القهار، لن يضروا ربهم بكفرهم، فالله غني عن إيمانهم، ولكن الخسار والهلاك واقع بهم، ولا أجر لهم على أعمال برّ عملوها من مثل ما كان من كرمهم، وصلة أرحامهم.

٣٣ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)

{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم (٣٣)}.
نداء للمؤمنين باستدامة طاعة ربنا وطاعة نبيه، وتحذير أن يقترفوا ما يضيع الأجر كالرياء والعجب، والمن والأذى، وكثرة الذنوب.
[قيل: إن بني أسد قد أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منّوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية، وقوله تعالى {يمنون عليك أن أسلموا}؛ ومن هنا قيل: المعنى لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام،. . عن قتادة أنه قال في هذه الآية: من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل، ولا قوة إلا بالله تعالى] ٦٥.
ويقول القرطبي ٦٦: احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع-صلاة كان أو صوما- بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه؛ وقال من أجاز ذلك- وهو الإمام الشافعي وغيره-: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلا فلا، لأنه ليس واجبا عليه؛ فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييرا.
٣٤ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)
{إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم (٣٤)}.
الكفار الضالون، والمضلون غيرهم عن طريق الإسلام، إذا ماتوا على كفرهم فلن يصفح الله عن ذنوبهم، بل سيعاقبهم عليها ويفضحهم بها على مشهد من أهل الموقف جميعا {. . ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم} ٦٧.
[واستدل بمفهوم الآية بعض القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه] ٦٨.
٣٥ - (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)
{فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (٣٥)}.
فلا تضعفوا أيها المؤمنون في طلب ملاقاة الكافرين الصادين عن الحق، فأنتم أعز لأنكم حزب الله وأولياؤه: {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} ٦٩؛ ولن ينقصكم من أجر أعمالكم شيئا، ولن يفردكم بغير ثواب.
[واختلف العلماء في حكمها، فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها} ٧٠، لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح؛ وقيل: منسوخة بقوله تعالى {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها} وقيل هي محكمة، والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال؛ وقيل: إن قوله: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها} مخصوص في أقوام بأعيانهم، والأخرى عامة، فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين] ٧١.
٣٦ - (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)
{إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم (٣٦)}.
يَغْفُلُ الغافلون فيقضون أعمارهم في المجون والفتون، وتلهيهم زخارفها عما هم إليه صائرون، فيخرجون من الدنيا وقد خسروا مصيرهم وما كانوا فيه يُمَتَّعون؛ لكن المؤمن التقي يحيا حياة طيبة ثم يُرَدّ إلى مولاه فيكرم مثواه، وربما لم يبذل في سبيل الله إلا اليسير.
[{ولا يسألكم أموالكم} لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة، بل يأمر بإخراج البعض؛ أو لا يسألكم أموالكم. . لحاجة منه إليها، وإنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم؛ وقيل: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله، لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها] ٧٢.
٣٧ - (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ)
إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم (٣٧)}.
لو طلب الله إليكم بذل كل أموالكم لبخلتم ومنعتم، وأخرج البخل أحقادكم، ولم تبلغوا بالأموال مصارفها الباقية.
٣٨ - (هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)
{ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل}.
وأنتم يا من تسمعون آياتي تدعون لإنفاق المال على أنفسكم وأزواجكم وعيالكم وأقاربكم وأضيافكم، وفي الزكاة وجهاد عدو الله وعدوكم، فمنكم ناس يضنون ويُقترون ويمنعون.
{ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء}.
ومن غل يده وكزّ فإنما يضيق على نفسه هو في العاجل- فإن الله يتلف مال البخلاء ومانعي الزكاة- وفي الآخرة تكوى بها جباههم وجنوبهم ويُطَوَّقُونَ ما بخلوا به يوم القيامة، وما ربنا في حاجة إلى شيء ولا إلى أحد، إنما أنتم المحتاجون إليه على كل أحوالكم.
{وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٣٨)}.
ومن يعرض عن منهاج ربه فقد أهلك نفسه وسيأتي الله بآخرين يُقبلون على طاعة ربهم ويبذلون في سبيله، ولا يكونون كحال البخلاء الأشحّاء، بل يتنافسون في المكرمات، ويسارعون في الخيرات؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.
خاتمة تفسير سورة محمد
هذه السور المحكمات كثير فيها السلطان المبين، والحجة على المجادلين في الله رب العالمين، وصُرفت فيها آيات تثبت اليقين في القرآن العظيم، وتقص من أنباء المرسلين الموعظة والذكرى للمتقين، وتنذر أهوال يوم الدين، وتُمسّك بميثاق بر الوالدين والأولاد، وما كتب علينا من فريضة الجهاد.
كم حضتنا كلمات ربنا الصادقات العادلات التامات على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما لتهدينا إلى جلال مولانا الخلاق العليم: {إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون} ٧٣ {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٧٤ {الله الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} ٧٥.
وكم جادل الكتاب الحكيم أهل الشرك والإفك: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} ٧٦ {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} ٧٧ {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ٧٨.
{ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون} ٧٩ {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ٨٠.
والكتاب العزيز نور للقلوب والألباب، وفرقان بين الجور والصواب، ومنّة وبرّ من المنعم الوهاب، هذا رشده ورفده للمصدقين المستيقنين: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون} منه سورة الجاثية، الآية ٢٠؛ لكن الناهين عنه والنائين عنه يزدادون به خسرانا: {ويل لكل أفاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين} من سورة الجاثية. الآيات: ٧، ٨، ٩، والأفاك الذي يصرف الناس عن الحق بباطله.
والفرقان الهادي الشافي مجدته هذه السورة تمجيدا عزيزا فلم يوصف بأنه. (عليّ) عزيز الجناب إلا في سورة الزخرف، وصدق الله موحيه {وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} ٨١ وسمي: ذكرا في مواطن ثلاثة منها؛ وشرفت الليلة التي نزل فيها وبوركت حتى لها أعظم خيرا وأجرا من ثمانين سنة ٨٢: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك} ٨٣؛ وامتن الحميد المجيد على النبي والناس كافة بأن هذا الحديث الرباني المبارك قد خضعت أئمة الجن ورعوا أماناته: {وإذ

صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} ٨٤؛ وإذ رفع الله درجاتكم بهذا القرآن فاستمسكوا بشرعته ومنهاجه، فإنه من يعرض عنه يخسر خسرانا لا ربح معه ويضل ضلالا بعيدا: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} ٨٥؛ ولا يفتننكم أعداء الحق ولو عن اليسير من مواثيقه فإن الشيطان سول وأملى لقوم أطاعوا المبطلين في شيء على غير سبيل القرآن المبين {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر} ٨٦، {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}.

وآيات من هذه السور الكريمة دمغت باطل عبدة الملائكة وأزهقت فرية من نسبوهم إلى الأنوثة، يقول الحق جل علاه: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون} {وجعلوا له من عباده جزاءا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}.

سبحان الله وتعالى عما يصفون.

وسنة ربنا فيمن بعث إليهم أنبياءه إذا عصوهم أن يدمرهم، {وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين} ٨٧، وإذا استهزأ فرعون وملؤه بموسى وهارون أذاقهم الله العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون {فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون} ٨٨ {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} ٨٩، {فما بكت عليهم السماء والأرض} ٩٠؛ {أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم} ٩١ {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون} ٩٢.

وفتنة كثير من المكذبين الكبر، فهم يقولون إذ بعث الله خاتم النبيين: {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}، والمفتون المتأله فرعون يقول ما بينه الذكر الحكيم: {. . أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} ٩٣.

فَلْيَدَعُ أهل الحق مستيقنين بأن العاقبة للمتقين، وليثبتوا على الرشد فإن الله مُظْهِر دينه على كل دين: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم} ٩٤.

ودعوتنا لا تقبل مُوادّة للضالين، لكن ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه} ٩٥.

وعن أحوال الآخرة وأهوالها صرف الله القول:

فقرين السوء مهما زوّر ودّا، فإنه يوم الفصل يكون لقرينه عدوّا وضدّا {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} ٩٦، {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٩٧، فلا تصاحب إلا مؤمنا، ولا تأثم بمن تخالل أو تُؤثم عسى الله أن يجمعكما في دار الخلد والكرامة {إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم} ٩٨.

وجاءنا من ربنا برهان البعث: {ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق} ٩٩ {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون} ١٠٠ {والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون} ١٠١، {وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ١٠٢؛ وبينت الآيات مصير المسيئين والمحسنين، ولكل درجات مما عملوا، وليس لأحد إلا ما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى؛ ويوم الحساب لا يغني ولي عن ولي، بل يتناكر الأصدقاء ويتنافرون، ويتخاصمون ويتلاعنون، إلا من اتقى فأولئك لهم جزاء

الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون؛ فالسعيد من استيقن بالبعث، وعمل ما يرضي مولاه، وتحسن به عقباه، ولم يتول إلا من أحب الله.

وما فُصّل القول الكريم في شراب أهل النعيم مثل ما فُصل في آيات سورة [القتال]: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٠٣، وجمعت آيات في سورة الزخرف أزواجا من الحبور النفسيّ والحسيّ، كما عظمت مُتع العباد المؤمنين المسلمين، وطعامهم وشرابهم وآنيتهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} ١٠٤، كما هيئت مجالسهم وملابسهم {وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين} ١٠٥.

فيا أيها العباد! استجيبوا لدعوة مولاكم إلى نعيم ماله من نفاد، واعملوا ما تبيض به الوجوه يوم التناد.

وإن أهوال الآخرة لتشيب منها الولدان، ويتعادى فيها الخلان، وتنشر صحائف البهتان، الإثم والعدوان، وتذل طوائف الكفر والعصيان: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ١٠٦، {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٠٧.

وبئس قرار الفجار، لا ينفكون عن دار البوار {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون}.

وفي رعاية الوالدين والذرية، نُلقّى أكرم وصية {ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي} ١٠٨، {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق} ١٠٩.

وللقرابة حق من يرعه فإن الله يرعاه، ومن يضيعه يخسر في أولاه وأخراه: {فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم} ١١٠.

وبالقتال يتمحص الرجال، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجاهد المؤمن بالنفس والمال، وأدعياء الأيمان ينفضون العهد من بعد ميثاقه، فإذا التقى الجمعان ولو الأدبار، وإذا دُعُوا إلى النفقة غُلّت أيديهم شُحّا أن يبذلوا الأموال، فليتق الله من يبتغي حرث الآخرة، وليجاهد في سبيل الله ومن يرد للإسلام وأهله نصرا، يغفر الله خطاياه، ويعظم له أجرا.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١١١. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ١١٢، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١١٣، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١١٤، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١١٥، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١١٦، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١١٧، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١١٨، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١١٩،

{ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١٢٠، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١٢١، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١٢٢، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ١٢٣ ١٢٤.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١٢٥، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١٢٦، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١٢٧، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ١٢٨، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ١٢٩، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ١٣٠، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ١٣١، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ١٣٢.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ١٣٣، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ١٣٤، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٣٥ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ١٣٦، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ١٣٧، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ١٣٨، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ١٣٩، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ١٤٠، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ١٤١ {ولقد رآه نزلة أخرى} ١٤٢، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ١٤٣، {أم له البنات ولكم البنون} ١٤٤.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ١٤٥.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ١٤٦.

ومن سنته تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ١٤٧؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ١٤٨، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١٤٩، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ١٥٠، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ١٥١.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ١٥٢، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ١٥٣: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ١٥٤.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ١٥٥، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ١٥٦، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ١٥٧، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ١٥٨، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ١٥٩ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ١٦٠، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ١٦١، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد

أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ١٦٢، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ١٦٣، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ١٦٤، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ١٦٥.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ١٦٦؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ١٦٧، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ١٦٨ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ١٦٩ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ١٧٠؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ١٧١. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ١٧٢.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ١٧٣، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ١٧٤. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ١٧٥، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ١٧٦، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ١٧٧، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٧٨.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ١٧٩؛ وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١٨٠؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ١٨١؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ١٨٢.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ١٨٣، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ١٨٤، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١٨٥ {ذوتا أفنان} ١٨٦، {فيهما عينان تجريان} ١٨٧ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ١٨٨، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ١٨٩، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١٩٠، {كأنهن الياقوت والمرجان} ١٩١، {ومن دونهما جنتان} ١٩٢ {مدهامتان} ١٩٣ {فيهما

عينان نضاختان} ١٩٤، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ١٩٥، {فيهن خيرات حسان} ١٩٦، {حور مقصورات في الخيام} ١٩٧، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١٩٨، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ١٩٩ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ٢٠٠.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا، ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٢٠١، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٢٠٢.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٢٠٣، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٢٠٤ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٢٠٥؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٢٠٦.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٢٠٧، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٢٠٨.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٠٩، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٢١٠، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٢١١، {فسبح باسم ربك العظيم} ٢١٢، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢١٣؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٢١٤.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه

فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢١٥، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان، {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢١٦، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢١٧ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢١٨ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢١٩، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢٢٠.

٤٨ سورة الفتح:

سورة الفتح:
سورة الفتح
مدنية
وآياتها تسع وعشرون
كلماتها: ٥٦٠، حروفها: ٢٤٣٨.
١ - (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إنا فتحنا لك فتحا مبينا (١)}.

نزلت هذه الآية الكريمة منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية في أواخر السنة السادسة من الهجرة النبوية، ومع أنهم صدّوا النبي ومن معه من المؤمنين عن أداء عمرتهم التي خرجوا لها فإنه كان فتحا ظاهرا بينا، أليس قد سألوا المسلمين أن يعتمروا في العام الثاني؟. . أو ليسوا قد رغبوا في الأمان؟. وما طلبوا الصلح إلا بعد أن ظهر المسلمون عليهم.

قال الزهري ما حاصله: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة، فلما اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم، تمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام. وما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه.

[وأصل الفتح إزالة الإغلاق، وفتح البلد:. . . الظفر به عنوة أو صلحا بحرب أو بغيره، لأنه منغلق ما لم يُظفر به وحصل في اليد فقد فتح. . ويجوز أن يكون ذلك إخبارا عن جعل المشركين في الحديبية مغلوبين خائفين طالبين للصلح، ويكون الفتح مجازا عن ذلك، وإسناده إليه تعالى حقيقة. . . والتأكيد بإنّ للاعتناء لا لرد الإنكار] ١.

نقل ابن كثير عن البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشر مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا.

أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو داوود والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أي عام ست بعد الهجرة، وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين هلال ذي القعدة، فأقام بها بضعة

عشر يوما، وقيل: عشرين يوما، ثم قفل عليه الصلاة والسلام، فبينما نحن نسير أتاه الوحي- وكان إذ أتاه اشتد عليه- فسري عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى، فأخبرنا أنه أنزل عليه: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يردّ عليّ، فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نشبت إذ سمعت صارخا يصرخ بي فوجفت وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة أحب إليّ من الدنيا وما فيها {إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}).

مما نقل النيسابوري: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة أحب أن يزور بيت الله الحرام بمكة فخرج قاصدا نحوه في سنة ست من الهجرة وخرج معه أولو البصيرة وتخلف من كان في قلبه مرض ظنا منه أنه لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا واصطحب سبعين بدنة لينحرها بمكة، ولما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأحرم بالعمرة لتعلم قريش أنه لم يأت لقتال، وكانوا ألفا وثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة. . . فجاءه عروة بن مسعود لإيقاع صلح، فلما رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: أي محمد!. رأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله؟. فلما عاد إلى قريش قال: لقد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من الملوك، وما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا. . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها منه؛ فلما اتفقوا على الصلح جاء سهيل بن عمرو المخزومي وتصالحوا على أن لا يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة سنته بل يعود في القابل ويقيم ثلاثة أيام ثم ينصرف. اه

٢ - (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

{ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢)}

والعاقبة: غفران الذنب ما سبق منه وما لحق، وتمام النعمة بانتشار الإسلام، وهدايتك في تبليغ الرسالة وإنفاذ الشريعة؛ يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: لكي يجمع لك مع الفتح المغفرة، فيجمع الله لك ما تقر به عينك في الدنيا والآخرة.

[{ليغفر لك الله} مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة، أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائية في ترتبه على متعلقها، وترتب المغفرة على الفتح من حيث إن فيه سَعْيًا منه صلى الله عليه وسلم في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب؛ والسلف- كما قال ابن القيم وغيره- يقولون بتعليل أفعاله عز وجل. . وأنا أقول بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث، والتزام تأويل جميعها خروج عن الإنصاف]. ٢

[وقال أبو علي الروذباري: يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه] ٣.

[والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأوْلى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قبيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين] ٤.

[{ويتم نعمته عليك}. . . وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبر] ٥.

٣ - (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

{وينصرك الله نصرا عزيزا (٣)}.

ويؤيدك الله ويظهرك على عدوك، ويخزيهم، ويرفع لواءك رفعة منيعة لا ذل بعدها؛ ولا يشبهه نصر.

٤ - (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

{هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما (٤)}.

الله الذي وعدك تمام النعمة وعزة النصر هو سبحانه الذي أحل السكون والوقار، واليقين والثبات في قلوب المؤمنين، والركون إلى تأييد الله تعالى ومدده ليزدادوا يقينا على يقينهم، وتعظم ثقتهم في رعاية ربهم لهم، ونصرهم على عدوهم؛ ولربنا الكبير المتعال، ذي

السلطان المحيط والجلال، جنود السماوات والأرض وما بين ذلك وما وراء ذلك {وما يعلم جنود ربك إلا هو} فكل قُوَى الكون يسلطها الله على من يشاء إذا يشاء، ويؤيد بها من يريد؛ وكان ربنا ولا يزال ولا يزال واسع العلم عظيم الحكمة.

وقال الراغب: إنزال الله تعالى نعمته على عبد إعطاؤه تعالى إياها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه.

[. . وذهب جمهور الأشاعرة. . والفقهاء والمحدثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص، ونُقل ذلك عن الشافعي ومالك. وقال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل، أما الأول فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسق والمعاصي مساويا لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلا، واللازم باطل فكذا الملزوم؛ وأما الثاني فلكثرة النصوص في هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قلنا: يا رسول الله؟ إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: (نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار)، ومنها ما روي عن عمر، وجابر رضي الله تعالى عنهما- مرفوعا-: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح). .

وقال النووي وجماعة محققون من علماء الكلام: إن الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضا بكثرة النظر ووضوح الأدلة، وعدم ذلك؛ ولهذا كان إيمان الصدّيقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه؛ ويؤيده أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا منه في بعضها، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها. . ومراتب اليقين متفاوتة: إلى علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، مع أنها لا شك معها. .] ٦.

٥ - (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما (٥)}.

فتحنا لك ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات دار النعيم المقيم والسرور الخالد، ويتجاوز عن خطاياهم فلا يؤاخذهم بها؛ ومضاعفة جزاء الحسنات، والعفو عن الأوزار والزلات فوز وفلاح عند ربنا المليك المقتدر الغفور الشكور.

أخرج ابن جرير عن أنس بن مالك في قوله: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا}، قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم مرجعه من الحديبية وقد حيل بينه وبين نسكه فنحر الهدي بالحديبية وأصحابه مخالطو الكآبة والحزن فقال: لقد أنزلت عليّ آية أحب إليّ من الدنيا جميعا فقرأ: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} إلى قوله {عزيزا} فقال له أصحابه هنيئا لك يا رسول الله قد بين الله لنا ماذا يفعل بك. فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله الآية بعدها: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار} إلى قوله: {وكان ذلك عند الله فوزا عظيما}.

لكن أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يردّ عليّ. فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ القرآن فما نشبت إذ سمعت صارخا يصرخ بي فوجفت وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة أحب إلي من الدنيا وما فيها: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}).

أقول: حديث عمر رضي الله تعالى عنه- وممن أخرجه البخاري وكفى به موثقا- يشهد بأن السورة نزلت جملة، بينما ما روي عن أنس قد يفهم منه أن الآيات الثلاث نزلت فلما قال الناس ما قالوا نزلت {ليدخل المؤمنين والمؤمنات} لكن الصحيح أولى؛ ويمكن حمل القول فيما نقل عن أنس على أنه كان بلسان الحال وليس بلسان المقال.

[وقال بعض العلماء: ضم المؤمنات هاهنا إلى المؤمنين بخلاف قوله: {قد أفلح المؤمنون} {وبشر المؤمنين} ونحو ذلك، والسر فيه: أن كل موضع يوهم اختصاص الرجال به مع كون النساء مشاركات لهم ذكرهن صريحا، نفيا لهذا التوّهم، وكل موضع لا يوهم ذلك

اكتفى فيه بذكر الرجال لأنهم الأصل في أكثر الأحكام والتكاليف، مثلا: من المعلوم أن البشارة والنذارة عامة للناس قاطبة فلم يحتج فيهما إلى ذكر النساء بخلاف هذه الآية فإن إدخال الجنة يوهم أنه لأجل الجهاد مع العدو والفتح على أيديهم، والمرأة لا جهاد عليها فكان يظن أنهن لا يدخلن الجنات، فنفى الله تعالى هذا الوهم، وكذا الكلام في تعذيب المشركين والمشركات].

٦ - (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

{ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا (٦)}.

قضى الله الحكيم ما قضى ليغفر لك ويتم نعمته ويهديك وينصرك، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، وليعذب المنافقين والمنافقات فهم أشد بلاء على المسلمين؛ وليعذب المشركين الذين ساء ظنهم بالله تعالى، فهم لا يوحدونه ولا يتّقونه، ولا يصدقون بكلماته ولا برسوله ولا بالآخرة، وعليهم تدور المساءة ويتنزل غضب الله، ومصيرهم أسوء مصير، فليس لهم في الآخرة إلا عذاب الخلود في السعير؛ نقل الألوسيّ: والكلام إما أخبار عن وقوع السوء بهم، أو دعاء عليهم.

وأورد القرطبي: {عليهم دائرة السوء} في الدنيا بالقتل والسبي والأسر، وفي الآخرة بجهنم.

[. . وليعذب كذلك أيضا المشركين والمشركات الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به؛ وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع] ٧.

٧ - (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

{ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما (٧)}.

ربنا القوي المتين له جند شداد، يؤيد بمن شاء منهم أهل الحق والإيمان، ويسلط من شاء منهم على أهل الكفر والنفاق ليهزمهم ويذيقهم العذاب والهوان، والله الملك المهيمن يَقْهَر ولا يُقْهر، ويدبر الأمر وفق حكمته، [ولم يزل الله ذا عزة لا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه مما أراده ممتنع لعظيم سلطانه وقدرته؛ حكيم في تدبيره خلقه] ٨.

نقل القرطبي:. . لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبيّ: أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ؟ فأين فارس والروم؟ فبيّن الله عز وجل أن جنود السماوات والأرض أكثر من فارس والروم.

٨ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

{إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨)}.

شهد الله الحق أنه بعث رسوله محمدا خاتم النبيين شاهدا على أمته، ومبشرا المتقين بأن لهم من الله فضلا كبيرا، ومنذرا المعاندين والمفسدين بأن لهم خزيا وسلاسل وأغلالا وسعيرا.

٩ - (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

{لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه}.

فلتؤمن ولتؤمن الأمة بالله ورسوله، ولتنصروا الله سبحانه بنصرة دينه ورسوله، ولتعظموه – تبارك اسمه- فهو أهل التعظيم والتكبير.

{وتسبحوه بكرة وأصيلا (٩)}.

أثنوا على الله تعالى ونزهوه عن الشبيه والنظير وما لا يليق بجلاله وقدسوه دائما، {بكرة} في البكور أول النهار {وأصيلا} في آخر النهار- وهي أخبار يراد بها الأمر-.

مما نقل القرطبي في معنى قوله – تبارك اسمه-: {وتعزروه}: وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف؛ وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه.

{وتوقروه} أي تسوّدوه. . وقيل تعظّموه. . والهاء فيهما للنبي صلى الله عليه وسلم. وهنا وقف تام ثم تبتدئ {وتسبحوه} أي تسبحوا الله {بكرة وأصيلا} أي عشيا، وقيل: الضمائر كلها لله تعالى: فعلى هذا يكون تأويل: {وتعزروه وتوقروه} أي تثبتوا له صحة الربوبية، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك.

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

{إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (١٠)}.

إن من بايع النبي صلى الله عليه وسلم فقد بايع ربه- تبارك اسمه- كما في الآية الكريمة: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} ٩. والله معكم يسمع ويرى ويشهد {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ١٠ {. . وهو معكم أين ما كنتم} ١١ فمن بدّل عهد الله من بعد ميثاقه فقد خسر، ومن أتم وصدق ما عاهد الله تعالى عليه ولم يهن ولا بدّل، ولا ضعف ولا استكان، فبشرى له بالنور والسرور في دار الحبور {. . والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ١٢.

عن ابن جرير قال: وفي قوله {يد الله فوق أيديهم} وجهان من التأويل: أحدهما- يد الله فوق أيديهم عند البيعة لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه صلى الله عليه وسلم، والآخر- قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعن القرطبي: {يد الله فوق أيديهم} قيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة، وقال الكلبي: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة، وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ١٣.

وصاحب روح المعاني- بعد أن ساق قريبا مما ساقه القرطبي في هذا المقام- قال: والسلف يُمِرُّون الآية كما جاءت مع تنزيه الله عز وجل عن الجوارح وصفات الأجسام، وكذلك يفعلون في جميع المتشابهات، ويقولون: إن معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذات، وأنّى لهم؟ وهيهات هيهات!.

١١ - (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

{سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا (١١)}.

[المخلف]: المتروك، ويقابله المقدم.

{الأعراب} سكان البادية من العرب، لا واحد له من لفظه.

استنفر النبي صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى العمرة التي صُدّ عنها وعقد مع كفار صلح الحديبية-استنفر الأعراب الذين كانوا حول المدينة ليخرجوا معه فتهابهم قريش لكثرة عددهم فلا يقع قتال في مكة، وأحرم النبي صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربا، لكن الأعراب جبنوا واعتذروا بانشغالهم برعاية أموالهم وأهلهم- وجاء قولهم في صيغة المضارع استحضارا للصورة والحال التي كانوا عليها- وسألوا النبي أن يستغفر لهم فبيّن العليم الخبير كذبهم ونفاقهم، وأنهم يبطنون غير ما يظهرون، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بسلطان ربنا القدير البصير، وأن الله حين يُنْزِلَ بهم نقمته فما لهم من ولي ولا نصير.

١٢ - (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

{بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزُيّنَ ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (١٢)}.

ما أقعدكم الشغل، ولكن حسبتم أن قريشا ومن شايعها ستقضي على الرسول ومن معه ويستأصلونهم، وحسّن الشيطان ذلك في قلوبكم.

[وظننتم أن الله لن ينصر محمدا- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدو سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم] ١٤؛ وكنتم قوما هلكى فاسدين لا تصلحون لخير.

١٣ - (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

{ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا (١٣)}.

بنفاقهم وقعودهم عن الجهاد، وتكذيبهم وعد الله بنصر النبي والمؤمنين: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ١٥، بارتيابهم في هذا الوعد الحق حرموا شرف الإيمان، وتوعدهم مولانا بالعذاب في دار الحريق والهوان.

١٤ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

{ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما (١٤)}.

ربنا مالك الكون وما فيه ومن فيه، فهو يصفح ويستر ويتجاوز عمن يريد -سبحانه- أن يرحمه، ويُذِل ويُخْزي ويعذب من شاء أن يعاقبه، والله لم يزل كثير الغفران عظيم الرحمة، ولقد شاء- تبارك اسمه- أن يغفر للمؤمنين، ويدخل في رحمته الواسعة أهل التقوى والإنابة {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي}، كما أراد - الذي لا مستكره له- أن يعذب المشركين والمشركات، والمنافقين والمنافقات، والذين كفروا من أهل الكتاب.

أي هو غني عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى ١٦.

[. . ومن لم يؤمن أيها الأعراب بالله ورسوله منكم ومن غيركم فيصدقه على ما أخبر به ويقر بما جاء به من الحق من عند ربه فإنا أعددنا لهم جميعا سعيرا من النار تسعر عليهم في جهنم إذا وردوها يوم القيامة. . ومنه قولهم: إنه لمسعر حرب؛ يراد به: موقدها ومهيجها؛ وقوله: {ولله ملك السماوات والأرض} يقول تعالى ذكره: ولله سلطان السماوات والأرض فلا أحد يقدر أيها المنافقون على دفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم، إن أصررتم عليه، أو مَنْعِهِ عن عفوه عنكم إن عفا إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم؛ وهذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله يغفر للتائبين؛ {وكان الله غفورا رحيما} يقول ولم يزل الله ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها] ١٧.

١٥ - (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا)

{سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذالكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا (١٥)}.

في الآيات الكريمات: ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨. بشريات بأن مولانا الحق سيهب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من أهل بيعة الرضوان مغانم كثيرة- وسيأتي تفسيرها-والجمهور على أن هذا ما وعدهم الله من النصر على يهود خيبر، وأخذ أرضهم وأموالهم؛ فلما أُذِنَ للنبي- عليه الصلوات والتسليم- أن يخرج لقتال اليهود كان ما أخبر به القرآن، وقال الذين تخلفوا عنه يوم الحديبية: دعونا يا معشر الجند المؤمن نخرج معكم لنشاركم حرب أعدائكم في خيبر؛ فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم حكم الله فيهم بأن غنائم خيبر لن تقسم إلا بين من خرجوا في غزوة الحديبية، فاغتاظ المنافقون لهتك أستارهم وحرمانهم، فدمغ الله أهل النفاق بأنهم عمى البصيرة، ولو عقلوا ما حرموا خيرا ولا غنيمة، وما كان فهمهم إلا للقليل من شئون الدنيا ومتعها.

قال ابن إسحق: وكان المتولي للقسمة بخيبر جبار بن صخر الأنصاري من بني سلمة، وزيد بن ثابت النجار، كانا حاسبين قاسمين.

١٦ - (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

{قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما (١٦)}.

أمر الله تعالى نبيه محمدا أن يبين للذين تخلفوا عن الخروج معه يوم الحديبية ما قضى الله في شأنهم، وأنهم سيدعون لملاقاة قوم أشداء في الحرب ليقاتلوهم حتى يهزموهم أو يدخلوا في الإسلام، فإن أطعتم أمري وخرجتم لجهاد عدوي فزتم بالنصر والغنيمة في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة، وإن أعرضتم أو فررتم أو قعدتم عن القتال كما فعلتم يوم الحديبية فلا عاقبة إلا الخزي والعذاب الموجع.

أورد ابن جرير نقولا كثيرة مختلفة في ذكر المعنيين بقوله - تبارك اسمه- {أولي بأس شديد} من هم، ثم قال: وأولي الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال ونجدة في الحروب، ولم يوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنى بذلك هوازن ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس وجائز أن يكون عنى به غيرهم، ولا أقول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جل ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد، وقوله: {تقاتلونهم أو يسلمون} يقول تعالى ذكره للمخلفين من الأعراب: تقاتلون هؤلاء الذين تُدْعَوْنَ إلى قتالهم أو يسلمون من غير حرب ولا قتال، وقوله: {فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا} يقول تعالى ذكره: فإن تطيعوا الله في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتال هؤلاء القوم الأولي البأس الشديد فتجيبوا إلى قتالهم والجهاد مع المؤمنين. . . يعطكم الله على إجابتكم إياه إلى حربهم الجنة وهي الأجر مع الحسن؛ {وإن تتولوا كما توليتم من قبل}. . وإن تعصوا ربكم فتُدبروا عن طاعته وتخالفوا أمره فتتركوا قتال الأولي البأس الشديد إذا دعيتم إلى قتالهم. . كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة من قبل أن تُدْعَوْا إلى قتال أولي البأس الشديد {يعذبكم عذابا أليما} يعني وجيعا، وذلك عذاب النار على عصيانكم إياه وترككم جهادهم وقتالهم مع المؤمنين.

١٧ - (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

{ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذابا أليما (١٧) *}.

ومن قعد عن الجهاد لعلة جسدية كالعمى والمرض والضعف الشديد فلا إثم عليه، ومن يستجيب لنداء الله تعالى ويتبع ما دعا إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ينعّمه ربنا في جنات نضرات موفورة الماء والنماء، ومن يفِر من تكاليف الدين، ويعرض عن هدى رب العالمين، فله الخزي والعذاب الموجع المهين.

١٨ - (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

{لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (١٨)}.

أسبغ المولى نعمه على المؤمنين الصادقين المجاهدين، فأحل رضوانه - الذي هو خير من كل متاع- أحله على الذين بايعوا النبي حين كانوا معه في طريقهم إلى مكة لأداء العمرة، وصدّتهم قريش فبعث الله إليهم عثمان رضي الله تعالى عنه ليطمئنهم أن المؤمنين لم يجيئوا لقتال، لكنهم أمسكوا به ولم يمكنوه من العودة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وطال احتباس عثمان حتى شاع بين الناس أنه قد قتل، فعرض النبي على من معه أن يبايعوه على الثبات للقاء الأعداء، وأن لا يفر منهم أحد، وكان ذلك تحت شجرة قريبة من بئر الحديبية فبايعوا على ذلك- وقيل بايعوا على الموت- وبعدها رجع عثمان وجاءت رسل قريش تعرض الصلح على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعقد معهم عهد المصالحة، ورجع المسلمون فائزين برضوان ربنا ووعده الذي لا يخلف- بالفتح القريب الذي لن يتأخر.

١٩ - (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

}ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما (١٩)}.
ووعد كريم صادق من الملك الحق أن يغنمهم نعما كثيرة وخيرات وفيرة- وتلك غنائم خيبر مما اكتنز اليهود فيها وجمعوا- وكان ربنا ولم يزل قويا قاهرا يَغْلِبْ ولا يُغْلَب، ويدبر كل أمر وفق الصواب والحكمة.
٢٠ - (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)
}وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما (٢٠)}.
كتب لكم الله الحياة الطيبة والنصر على الأعداء إلى يوم القيامة، وأن يورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأسرع ما تغنمون ما وعدتم به من عقار وأموال خيبر، ومع فوزكم بالغنائم لن ينال منكم الكفرة بل ستسْلَمون، لتكون نصرتكم علامة يزيد بها إيمان المتقين بأن الله مع الصادقين، وهو يتولى الصالحين، ويهديكم إلى الطريق المنيرة والمنهاج السوي المستقيم.
٢١ - (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)
}وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا (٢١)}.
ولكم من ربكم وعد حق أن يمكّن لكم في مواطن أخرى كثيرة، وأن تجبى لكم خيرات وثمرات وفيرة، لم تقدروا عليها الآن، ولكن المولى القدير مهيمن عليها حتى تظفروا بها- سنة ماضية إلى يوم القيامة- ولم يزل الله القوي مقتدرا لا يفوته ولا يتعذر عليه ولا يعجزه شيء.
وجائز أن يكون معنى }أحاط الله بها} أحاط بها علما، وأحاط بها قدرة فهو يحفظها لكم ويمنعها من غيركم.
نقل عن ابن عباس: هي الفتوح التي فتحت على المسلمين، وعن مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة؛ وعن القرطبي: ومعنى: }قد أحاط الله بها}: أي أعدها لكم، فهي كالشيء الذي أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم ولا تفوتكم.
٢٢ - (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)
}ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢)}.
}كتب الله لأغلبن أنا ورسلي} ١٨ فلو لم تقبل قريش مصالحة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين واختاروا الحرب، لجعل الله الخزي والسوء على الكافرين، ولفرّوا هاربين أمام جند الحق والدين: }ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم} ١٩.
٢٣ - (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا)
}سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣)}.
فعل الله تعالى بالمعاندين للحق المستكبرين عن الهدى أن يغلبهم ويعلي كلمته والداعين إليها، وهذا قضاء ربنا في الأولين، ولن يُردّ بأسه عن المجرمين؛ حتى يقوم الناس لرب العالمين، ولن يتغير هذا الوعد ولن يتحول.
و }سنة} نصب على المصدرية من معنى الكلام السابق لا من لفظه، أي: لو قاتلكم كفاركم لهزموا، وسننت فيهم أن يُغلبوا غلبة أمثالهم من الذين قاتلوا أهل الإيمان من الأمم من قبلهم.
[ولعل المراد أن سننه تعالى أن تكون العاقبة لأنبيائه عليهم السلام، لأنهم كلما قاتلوا الكفار غلبوهم وهزموهم] ٢٠.
٢٤ - (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)
}وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤)}.
نقل ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقهم، فأنزل الله: }وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم} إلى آخر الآية؛ وكان قتادة يقول في ذلك. . . قال: بطن مكة: الحديبية؛ وروى نحوه في صحيح مسلم.

كفّ الله تعالى - بقدرته- أيدي الكفار فلم ينالوا من المؤمنين شيئا، ولا أصابوا منهم، وشاء الله أن يجنح المؤمنون إلى السلم فلم يقتلوا من وقع في أيديهم من المشركين يوم الحديبية، وربنا بصير بأعمال العباد لا يغيب عن علمه ما خفي منها أو ظهر.

٢٥ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

{هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام}.

ذم الله الكفار الذين جحدوا نعمة الله إذ جعلهم جيران بيته العتيق فمنعوا نبيه وجنده الأكرمين أن يصلوا إلى الكعبة أو يطوفوا بالبيت العتيق.

{والهدي معكوفا أن يبلغ محله}.

ومنعوا الهدي وأبقوه محبوسا عن بلوغ الحرم- وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج في سفره هذا سبعين بدنة- ناقة-.

{ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء}.

ولولا كراهة أن تقتلوا مسلمين ومسلمات، يقيمون ويقمن مع المشركين فيلحقكم من أذى إخوانكم - دون علم منكم- ما تكرهون ويشق عليكم؛ لولا ذلك لما كف أيديكم عن الكفار، ولكن الله أراد أن يكفكم ثم يفتح لكم ليأمن إخوانكم، ويفرحوا بالنصر وتطيب نفوسهم.

{لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢٥)}.

لو افترق المؤمنون وتميزوا عن الكفار ولم يخالطوهم لعجلنا بطشتنا بمن كفروا، وأوجعناهم وأخزيناهم، وشفينا صدوركم منهم دون إمهال.

٢٦ - (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

{إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)}.

صيّر الكفار باعثَهم على عنادكم وصدكم الأنفة والاستكبار الجاهلي، فلا حجة لهم في الصدّ عن الهدى الذي جاءهم، وإنما هو التقليد الأعمى الذي حكاه عنهم الكتاب الحكيم: {. . إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} ٢١ ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؛ فأنزل ربنا الطمأنينة والصبر والوقار والحلم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جنده المباركين من صحبه الأكرمين، فثبتوا على الحق، ورضوا أن يعاهدوا على عدم الفرار، وباعوا ربهم أنفسهم وأموالهم يبتغون فضله ونصرة دينه، واختار لهم واختارهم لقول لا إله إلا الله [. . ولعل هذا من باب الاكتفاء، والمراد: لا إله إلا الله محمد رسول الله] ٢٢. وكان النبي والمؤمنين متصفون بكلمة التقوى بمزيد استحقاق، ومستأهلين لها، وكان ربنا ولم يزل محيط العلم بمن هو أولى بالفتح والسكينة والتقوى والصلح، كما هو سبحانه محيط علما بكل شيء؛ [ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخول مكة سفرتكم هذه] ٢٣.

٢٧ - (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

{لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧)}.

لقد حقق ربنا لرسوله ما أراه إياه في منامه- قبل أن يذهب إلى الحديبية أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا شعر

رؤوسهم، -فقصّ النبي الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم - ورؤيا النبي حق، فليست من أضغاث الأحلام وأخلاطها- وقد كانت الرؤيا بشرى وعِدَة أن يدخلوا البيت العتيق حال كونهم آمنين من عدوهم، ومحلقين أو مقصرين شعر رؤوسهم، ولن يخيفهم أحد؛ علم الله أن بمكة من المؤمنين والمؤمنات من لا يعرفهم المؤمنون، ولو فتحوا مكة يومئذ لقتلوا أو آذوا إخوانهم وأخواتهم في الإيمان- وهم لا يدرون- فيلحقهم من ذلك منقصة وحسرة، فيسّر لهم المولى- قبل أن يتمكنوا من دخول مكة-أن يتصالحوا مع قريش، وأن تُفْتَح عليهم خيبر.

روى ابن جرير بسنده عن الزهري: ما فتح الله في الإسلام فتحا كان أعظم منه- يعني صلح الحديبية- إنما كان القتال حين تلتقي الناس؛ فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضا، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

[يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة- أو ألفا وخمسمائة في رواية- وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف] ٢٤.

٢٨ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

{هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا (٢٨)}.

الله الخلاق العليم العزيز الحكيم هو الذي بعث خاتم أنبيائه محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسلام الذي ارتضاه سبحانه ولا يقبل سواه، ومراده جل علاه أن يعلو هذا الدين على كل دين، وكفى أن يشهد الله الحق أن الوحي وحيه وأن كلمته هي العليا، والله متم نوره.

و {الدين} اسم بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه:

[{بالهدى} أي ملتبسا به. . . . والتباسه بالهدى بمعنى أنه هاد. وقيل: أي مصاحبا للهدى، والمراد به: الدليل الواضح، والحجة الساطعة؛ أو القرآن. . {ودين الحق} وبدين الإسلام. . والظاهر أن المراد بالحق نقيض الباطل. . {ليظهره على الدين كله} ليعليَه على جنس الدين، فيشمل الحق والباطل. . وإظهاره على الحق بنسخ بعض أحكامه المتبدلة بتبدل الأعصار، وعلى الباطل ببيان بطلانه. .] ٢٥.

٢٩ - (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}.

محمد بن عبد الله مبعوث ربنا إلى المكلفين كافة- الجن والإنس- وأصحابه وأتباعه شداد على الأعداء؛ متآخون متحابون فيما بينهم، يرحم بعضهم بعضا.

[. . {محمد رسول الله} مبتدأ وخبر، والجملة. . مبنية للمشهود به ٢٦؛ أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقق الوعد ٢٧ فقيل: لأن كينونة ما وعده لازمة لكونه عليه الصلاة والسلام رسول الله، إذ هو لا يوعد إلا بما هو مُحقّق، ولا يخبر إلا عن كل صدق] ٢٨.

يقول الحافظ عماد الدين: وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين} ٢٩، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر). وقال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)، وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، كلا الحديثين في الصحيح.

[وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء، أخرج أبو داوود عن

البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما)، وفي رواية الترمذي: (ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا)؛ وفي الأذكار النووية أنها مستحبة عند كل لقاء، وأما ما اعتاده الناس بعد صلاتي الصبح والعصر فلا أصل له ولكن لا بأس به، فإن أصل المصافحة سنة، وكونهم محافظين عليها في بعض الأحوال ومفرطين في كثير منها لا يخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرع بأصلها، وجعل ذلك العز بن عبد السلام في قواعده من البدع المباحة. . . وأما المعانقة فقال الزمخشري: كرهها أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، وكذلك التقبيل، قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده، ورخص أبو يوسف-عليه الرحمة- المعانقة؛ ويؤيد ما روي عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: سمعت رجلا يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! الرجل منا يلاقي أخاه أيخني له؟ قال: " لا ". قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: " لا ". قال: أيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: " نعم " وفي الأذكار: التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروه كراهة تنزيه في غيره، وللأمرد الحسن حرام بكل حال؛ أخرج الترمذي - وحسنه- عن عائشة قالت: قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله في بيتي فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه فاعتنقه وقبله؛ وزاد رزين في حديث أنس-السابق- بعد قوله: ويقبله؟ قال: " لا. إلا أن يأتي من سفره ". وروى أبو داود: سأل أبو ذر: هل كان صلى الله عليه وسلم يصافحكم إذا لقيتموه؟ قال: ما لقيته قط إلا صافحني، وبعث إليّ ذات يوم ولم أكن في أهلي، فجئت فأُخْبِرْتُ أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليّ فأتيته وهو على سريره فالتزمني فكانت أجود أجود؛ وهذا يؤيد الإطلاق المحكي عن أبي يوسف، وينبغي التأسي بهم- رضي الله تعالى عنهم- في التشدد على أعداء الدين، والرحمة على المؤمنين؛ وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأبو داوود عن عبد الله بن عمر-مرفوعا-: (ومن لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا)، وأخرجاهما وأحمد وابن حبان والترمذي - وحسنه- عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)؛ ولا بأس بالبر والإحسان على عدو الدين إذا تضمن مصلحة شرعية كما أفاد ذلك ابن حجر في فتاويه الحديثية فليراجع] ٣٠.

{تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة}.

يحافظون على الصلاة ويستكثرون منها بركوعها وسجودها يرجون بذلك أن يتفضل المولى عليهم بثواب جزيل، ويهبهم فوق ذلك رضاه- تبارك اسمه- علاماتهم تبدو عليهم، فصلاتهم نهتهم عن الفحشاء والمنكر، وكساهم ربهم بخشوعهم مهابة ووقارا، هكذا أوحى الله مثل المؤمنين وصفتهم العجيبة في التوراة.

[وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة- وفيه- (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخْرِج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود). . وقال ابن عباس ومجاهد: السيما في الدنيا، وهو السمت الحسن؛ وعن مجاهد أيضا: هو الخشوع والتواضع؛ قال منصور: سألت مجاهدا عن قوله تعالى: {سيماهم في وجوههم} أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع؛ وقال ابن جرير: هو الوقار والبهاء] ٣١.

{ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}.

{شطأه} فراخه وأولاده.

{فآزره} فأعانه وقواه.

{فاستغلظ} مبالغة في الغلظ، كما في قوله سبحانه: {فاستعصم}.

مثلٌ ساقه الله تعالى لأهل الإيمان وأُوحِيَ إلى عيسى عليه السلام من قبل: أن أتباع هذا الدين يتكاثرون ويتناصرون؛ وقال قتادة: مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب: إنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

[وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا، فيقوى حالا بعد حال، حتى يغلظ نباته وأفراخه] ٣٢

أقول: ولعل الأولى أن يبقى اللفظ على عمومه، وأن صفة المؤمن أن يرعى الضعيف، ويأخذ بيد الفاقد حتى يقوى، فينضم العود إلى العود، فإذا هُم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، يفرح بهم المحبون، ويغتاظ لتآزرهم الكافرون؛ والأخوة أخو الإيمان، والتفرق أخو الكفر: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} ٣٣.

{وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما (٢٩)}.

إذا أريد بمن أشير إليهم في بداية هذه الآية الكريمة كل من آمن واتبع محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه تقرير لجزاء ومصير المؤمنين الصالحين، وبشرى لهم بالثواب الكريم والنعيم المقيم؛ وإن أريد بهم الصحب الكرام عليهم رضوان الله ف {منهم} لبيان الجنس وليست للتبعيض [كما في قول الله - تبارك اسمه-: {. . فاجتنبوا الرجس من الأوثان} ٣٤ . ويقصد به كل الرجس، إذا كان الرجس، يقع من أجناس شتى، منها الزنا، والربا، وشرب الخمر، والكذب، فأدخل - (من) - يفيد بها الجنس، وكذا {منهم} أي من هذا الجنس، يعني الصحابة؛ ويقال: أنفق نفقتك من الدراهم؛ أي اجعل نفقتك من هذا الجنس] ٣٥.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٣٦. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ٣٧، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ٣٨، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٣٩، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ٤٠، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ٤١، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ٤٢، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ٤٣، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ٤٤، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ٤٥، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ٤٦، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ٤٧، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ٤٨ الرحيم} ٤٩. بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ٥٠، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ٥١، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ٥٢، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ٥٣، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ٥٤، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ٥٥، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق

لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ٥٦، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ٥٧.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٥٨، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٥٩، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٦٠ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٦١، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ٦٢، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٦٣، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٦٤، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٦٥، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٦٦ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٦٧، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٦٨، {أم له البنات ولكم البنون} ٦٩.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله، فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٧٠.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٧١.

ومن سننه تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ٧٢؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٧٣، {كذبت

ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٧٤، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٧٥، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ٧٦.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٧٧، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٧٨: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٧٩.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٨٠، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٨١، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٨٢، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٨٣، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٨٤ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٨٥، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٨٦، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٨٧، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٨٨، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٨٩، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٩٠.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٩١؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٩٢، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٩٣ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٩٤ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٩٥؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٩٦. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٩٧.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة

من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٩٨، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٩٩. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ١٠٠، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ١٠١، {إن المجرمين في ضلال وسعر. يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ١٠٢، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٠٣.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ١٠٤؛ وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١٠٥؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ١٠٦؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ١٠٧.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ١٠٨، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ١٠٩، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١١٠ {ذوتا أفنان} ١١١، {فيهما عينان تجريان} ١١٢ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ١١٣، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ١١٤، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١١٥، {كأنهن الياقوت والمرجان} ١١٦، {ومن دونهما جنتان} ١١٧ {مدهامتان} ١١٨ {فيهما عينان نضاختان} ١١٩، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ١٢٠، {فيهن خيرات حسان} ١٢١، {حور مقصورات في الخيام} ١٢٢، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١٢٣، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ١٢٤ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ١٢٥.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ١٢٦، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله

الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ١٢٧.
والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ١٢٨، {. . وللّٰه ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ١٢٩ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ١٣٠، {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ١٣١.
إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ١٣٢، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ١٣٣.
ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ١٣٤، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ١٣٥، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ١٣٦، {فسبح باسم ربك العظيم} ١٣٧، {سبح للّٰه ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٣٨، ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ١٣٩.
والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٤٠، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.
وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان، {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ١٤١، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ١٤٢ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ١٤٣ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ١٤٤، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ١٤٥.

٤٩ سورة الحجرات:

سورة الحجرات:
سورة الحجرات
مدنية
وآياتها ثماني عشرة

كلماتها ٣٤٠، حروفها ١٤٧٦.
١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

}يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله{.

يا أهل التصديق والإيمان لا تسبقوا أمر الله تعالى وأمر رسوله، ولا تأتوا شيئا دون اتباع الكتاب والسنة، ولا تعجلوا قبل أن يقضي لكم ربكم ويعلمكم نبيكم.

[وقدّم] إما متعد وحذف المفعول للعموم حتى يتناول كل فعل وقول، أو تُرِك مفعوله -أقول: ومنه قول الله تبارك اسمه: }يحيي ويميت ١{ - كما في قوله: فلان يعطي ويمنع، لأن النظر إلى الفعل لا إلى المفعول، كأنه قيل: يجب أن لا يصدر منكم تقدم أصلا في أي فعل كان ٢.

مما روى البخاري في سبب نزول الآية عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أمّر القعقاع بن معبد؛ وقال عمر رضي الله تعالى عنه: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ما أردت إلا خلافي؛ فقال عمر رضي الله عنه: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى: }يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله. { حتى انقضت الآية.

[وقال بعضهم: إن الآية عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيها أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم لم يسبقوه في الجواب، وأن لا يُمْشَى بين يديه إلا لحاجة، وأن لا يُسْتأْنَى في الافتتاح بالطعام؛ ورجح بأنه الموافق للسياق، ولما عُرِف في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب] ٣.

[لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله وقول رسوله وفعله، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا، ومن قدّم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل] ٤.

}واتقوا الله إن الله سميع عليم (١){.

واحذروا غضب الله على من خالف نهيه- ومنه النهي عن التقدم بين يدي رسوله. إن الله سميع لكل قول، عليم بكل نية وفعل.

٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)

}يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض{.

يا من تستيقنون بما يتم به الإيمان! ليكن كلامكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت خفيض، وحديثكم إليه يزينه التكريم والتوقير.

[وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب. . عن رتبتها.

وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون] ٥.

[والجمهور على أن بين النهيين فرقا-النهي الأول }لا ترفعوا أصواتكم{ والثاني: }ولا تجهروا له بالقول{. . الأول فيما إذا نطق ونطقوا، أو أنصت ونطقوا، في أثناء كلامه فنهوا أن يكون جهرهم باهر الجهر، والثاني:. . أن لا ينادى وقت الخطاب باسمه أو كنيته كنداء بعضهم لبعض فلا يقال: يا أحمد يا محمد يا أبا القاسم، ولكن يا نبي الله، يا رسول الله] ٦.

مما روى البخاري عن ابن الزبير: كان عمر رضي الله تعالى عنه إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه.

وصحح الحاكم عن أبي هريرة قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى.
{أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون (٢)}.
روى البخاري ومسلم عن أنس: لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال: " يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى "؟ قال سعد: إنه جاري وما علمت له بشكوى، فأتاه سعد فقال: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل هو من أهل الجنة).
[. . قال بعض نحويي الكوفة: معناه لا تحبط أعمالكم، وفيه الجزم والرفع إذا وضعت {لا} مكان [أن]. . {لا تشعرون} وأنتم لا تعلمون ولا تدرون] ٧.
٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)
{إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم (٣)}.
يبشر الله تعالى المتقين الذين يخفضون أصواتهم عندما يحدثون الرسول أو يتحدثون عنده تكريما وتوقيرا له، فهؤلاء أخلص المولى- تبارك اسمه- قلوبهم فصفت من كل شائبة تتنافى مع التقوى، وثوابهم مغفرة واسعة ونعيم دائم كريم.
[وقال الأخفش: أي اختصها للتقوى. وقال ابن عباس: {امتحن الله قلوبهم للتقوى} طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أذهب عن قلوبهم الشهوات، والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى {امتحن الله قلوبهم للتقوى} وسعها وشرحها للتقوى. .] ٨.
٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)
{إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (٤)}.
{وراء} من المواراة والاستتار، فما استتر عنك فهو وراء، خلفا كان أو قداما إذا لم تره، فإذا رأيته لا يكون وراءك، فالوراء بالنسبة إلى من في الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمن فيها، وقال بعض أهل اللغة: إن وراء من الأضداد فهو مشترك لفظي.
{الحجرات} جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة: وقيل الحجرات جمع حُجَر، والحُجَر جمع حجرة، فهو جمع الجمع، والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها.
يبين الكتاب العزيز بيانا مؤكدا أن الذين يصيحون بالنبي وهم في خارج بيته والنبي صلى الله عليه وسلم في داخله ليخرج إليهم- دون رعاية لتوقير مقامه، واللطف في الاستئذان عليه-أكثرهم لا يفكرون ولا يستهدون عقولهم فيما يقولون أو يفعلون.
[وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن ملكا نعش في جنابه، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. . . وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقدا، فجعلوا ينادونه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا، فاستيقظ وخرج، ونزلت.] ٩.
٥ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
{ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم (٥)}.
وخير لمن يريد ملاقاة المختار وصفوة الأبرار أن يتأنى ولا يعجل حتى يجيء لأجلهم- فلو خرج لا لأجلهم فالأولى لهم أن يتمهلوا حتى يتوجه إليهم أو يفاتحهم بالكلام، ولكن من فاته هذا الأدب في تعظيم النبي فإن المولى بعفوه لن يحرمه المغفرة ولن تضيق به رحمته الواسعة.

[والله ذو عفو عمّن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصية الله بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره {رحيم} به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه] ١٠.

٦ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (٦)}.

أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يتثبتوا مما يرد إليهم من أنباء تأتيهم ممن يخل بشيء من أحكام الدين، حتى لا تُبنى أحكامُهم وأعمالُهم على ما ليس بحق، فيغتموا لذلك.

قال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

روى الطبري بسنده عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، قال فبلغ القوم رجوعه، قال: فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله ومن سخط رسوله، بعثت إلينا رجلا مصداقا ١١ فسررنا بذلك وقرّت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن بصلاة العصر قال: ونزلت: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين}.

[وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع؛ قال جار الله: في تنكير الفاسق والنبأ عموم، كأنه قيل: أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه واطلبوا البيان؛ والنبأ الخبر الذي يعظم وقعه، واختير لفظة {إن} التي هي للشك دون [إذا] تنبيها على أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه بمنزلة لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب إلا على سبيل الفرض والندرة. .

قال الأصوليون من الأشاعرة: إن خبر الواحد العدل يجب العمل به لأن الله تعالى أمر بالتبيّن في خبر الفاسق ولو تبيّنا في خبر العدل لسوّينا بينهما، وضعّف بأنه من باب التمسك بالمفهوم. . وقيل: إن الوليد لم يقصد الكذب، ولكنه ظن حين اجتمعوا لإكرامه أن يكونوا همّوا بقتله؛ ولقائل أن يقول: لفظ القرآن وسبب النزول يدل على خلافه، نعم لو قيل: إنه تاب بعد ذلك لكان له وجه] ١٢.

٧ - (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

{واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم}

لما كانت السورة من أولها تبين ما يحب الله من توقير نبيّه الكريم، وبيّنت الآية المباركة السابقة ما هو الأليق للمؤمنين من التثبت والأناة حين ترِدَهُم أنباء، وأوصت هذه الآية بأن يكونوا على ذُكْرٍ ويقين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم يأتيه الوحي ولا يأتيهم، وأمروا باتباعه ولم يؤمر باتباعهم، فليكونوا عند مقتضى هذا العلم، فلا يقولوا له إلا ما هو حقّ لا مرية فيه، ولا يطلبوا إليه أمرا قبل أن يندبهم إليه- مثلما فعل الوليد بن عقبة إذ قال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي- إذ لو أطاعكم الرسول في كثير من الأمور لوقعتم في الأذى والشرور.

والعنت: الإثم، أو: الوقوع في أمر شاق؛ وقد جاء في القرآن بمعنى الزنا: {. . ذلك لمن خشي العنت منكم} ١٣.

[. . فلا تكذبوا، فإن الله يُعْلِمُه أنباءكم فتفتضحون. . لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، ولعنت من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم] ١٤؛

{ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان}.

وليس كل المسلمين يُلِمّ بمثل تلك الخطيئة، بل السعداء يستمسكون بالمنهاج الذي وصاهم الله به فلا يعوجون عنه، ولقد شرح الله صدورهم لهذا وحسّنه في نفوسهم وأفئدتهم {صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة} ١٥ وبغض إليهم الجحود والخروج عن سبيل المؤمنين والوقوع في الأوزار والآثام.

{أولئك هم الراشدون (٧)}.

هؤلاء أعلى المولى قدرهم، وأدام رشدهم، وثبتهم على طريق الحق فعضوا عليه بالنواجذ.

٨ - (فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم (٨)}.

تفضل المولى فأتمّ النعمة بهذا الهدى والنور والحياة والروح {. . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} ١٦ والله عليم بما فيه الفلاح والصلاح، وحكيم في ما سنّ ودبّر.

[. . وجوز كونه مصدرا لغير فعله فهو منصوب إما بحبّب أو بالراشدين فإن التحبيب والرشد من فضل الله تعالى وإنعامه؛ وقيل: مفعول به لمحذوف أي: يبتغون فضلا. .] ١٧.

أخرج أحمد وغيره بسند جيد عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله؟ أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إليّ يا رسول الله رسولا لإبّان ١٨ وكذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة؛ فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة ١٩ من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فدعا سروات ٢٠ قومه فقال لهم: رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقّت لي وقتا يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة، وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط- وهو أخو عثمان رضي الله تعالى عنه لأمه- إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد إلى أن بلغ بعض الطريق فرق ٢١ فرجع، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي؛ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبله الحارث وقد فصل ٢٢ عن المدينة قالوا: هذا الحارث؟ فلما غشيهم ٢٣ قال لهم: إلى من بُعِثْتُم؟ قالوا: إليك؛ قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله؛ قال: لا! و والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بتّه ولا أتاني؛ فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟) قال: لا! والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني، ولا أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فنزل: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم} إلى قوله سبحانه: {حكيم}.

٩ - (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}.

الطائفة: تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين؛ والطائفة من الشيء: القطعة.

إن تقاتل فريقان من أهل الإيمان فعلى إخوانهم أن يزيلوا ما بينهم من خلاف، وأن ينصحوهم، ويدعوهم إلى الاحتكام إلى كتاب الله.

[. . والعدول إلى ضمير الجمع- {اقتتلوا} - لرعاية المعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة؛ فقد روعي في الطائفتين معناهما أولا ولفظا- {بينهما} - ثانيا. .] ٢٤.

{فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}.

{البغي}: التطاول والفساد، والتعدي وتجاوز الحد.

{تفيء}: ترجع وتعود.

فإن تمادت طائفة من الطائفتين المتحاربتين في عنادها، واستمرأت متابعة العدوان على الطائفة الأخرى، ولم تقبل الرجوع إلى ما دعيت إليه من التراضي والتقاضي، فواجب على الأمة أن تقاتل الفئة الباغية حتى ترجع إلى الإذعان لتحكيم كتاب الله؛ نقل عن ابن عباس:. . . فإن أجابوا حُكِمَ فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم؛ وقال ابن زيد: هذا أمر من الله أمر به الوالي قال: ولا يقاتل الفئة الباغية إلا الإمام.

{فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (٩)}.

فإن رجعت إلى القبول بحكم القرآن والسنة فاعدلوا بين الفريقين وطيبوا أنفسهما، وأنصفوا ولا تجوروا؛ إن الله يحب المحقين العادلين.

أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أتيت عبد الله بن أبيّ! فانطلق إليه وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون- وهي أرض سبخة- فلما انطلق إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ردع حمارك؛ فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك؛ فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل الله تعالى فيهم: {وإن طائفتان} الآية؛ وفي رواية أن النبي عليه الصلاة والسلام كان متوجها إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه فمر على عبد الله بن أبيّ بن سلول فقال ما قال، فرد عليه عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه، فغضب لكل أصحابه، فتقاتلوا، فنزلت، فقرأها صلى الله عليه وآله وسلم عليهم فاصطلحوا؛ وكان ابن رواحة خزرجيا وابن أبيّ أوسيا.

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين؛ وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليه السلام: (قتال المؤمن كفر)؛ ولو كان قتال المؤمن الباغي كفر لكان الله تعالى قد أمر بالكفر- تعالى الله عن ذلك- وقد قاتل الصديق رضي الله تعالى عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يتبع مُوَل، ولا يجهز على جريح، ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار؛ وقال الطبري: لو كان الواجب في اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه السلام: (خذوا على أيدي سفهائكم).

قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (تقتل عمارا الفئة الباغية) وقوله عليه السلام في شأن الخوارج: (يخرجون على خير فرقة). . أو. .: (تقتلهم أوْلى الطائفتين إلى الحق)؛ وكان الذي قاتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه؛ فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا رضي الله عنه كان إماما، وأن كل من خرج عليه باغ. وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح، لأن عثمان رضي الله تعالى عنه قُتِل والصحابة براء من دمه، لأنه مَنع من قتال من ثار عليه، وقال: لا أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالقتل، فصبر على البلاء واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة؛ ثم لم يكن ترك الناس سدى، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل، فربما تغير الدين وانقضى عمود الإسلام؛ فلما بويع

له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم؛ فقال لهم علي رضي الله عنه: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه؛ فقالوا: لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحا ومساء؛ فكان علي في ذلك أسدّ رأيا، وأصوب قيلا، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حربا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة؛ وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى. . وقوله تعالى: {. . فقاتلوا التي تبغي} أمر بالقتال وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، ومحمد بن مسلمة وغيرهم؛ وصوّب ذلك علي بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه؛ ويروى أن معاوية رضي الله تعالى عنه لما أفضى إليه الأمر عاتب سعدا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية؛ فقال له سعد: ندمت على تركي قتال الفئة الباغية؛ فتبين أنه ليس على الكل درك- تبعة- فيما فعل، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد، وإعمالا بمقتضى الشرع؛ والله أعلم. . وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به. . . والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم في حروبهم لم يتبعوا مُدبرا، ولا ذفّفُوا على جريح، ولا قتلوا أسيرا، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا، وهم القدوة؛ وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة)؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: (لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها). . وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا؛ قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه، ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز جل، إذ كانوا غير متهمين في الدين؛ ونسأل الله التوفيق ٢٥.

١٠ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠)}.

ما المؤمن للمؤمن إلا سند، يتكاتفان ويتعاضدان، ويقوى كل مؤمن بإخوانه، ويعتزون بترابطهم على الحق والهدى، وتعاونهم على البر والتقوى، فإن وقع تنازع أو تخاصم أو تقاتل فلنسارع إلى إصلاح هذا الفساد، وبهذا نتقي غضب الله تعالى وحلول بأسه، فإن التنازع فشل وذهاب ريح، والاعتصام بحبل الأخوة في دين الله منجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والتقوى سبيل الفوز والفلاح تستصحب في كل أمر- فعلا أو تركا -ومن جملة ذلك الإصلاح بين المتخاصمين أم المتحاربين.

[. . هذا الإصلاح من جملة التقوى، فإذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل، ويجوز أن يكون عطفا على {فأصلحوا} أي واصلوا بين أخويكم بالصلح، واحذروا الله تعالى من أن تتهاونوا فيه] ٢٦.

[أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب؛ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ٢٧ ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا). وفي رواية: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) لفظ مسلم؛ وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح

إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (احفظوا ولا يحفظ منكم إلا القليل). . وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم مؤمنين مع كونهم باغين؛ سئل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه- وهو القدوة - عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا! من الشرك فرّوا فقيل: أمنافقون؟ قال: لا! لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا] ٢٨.

١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

{يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن}.

السخرية: الاستهزاء أو التنقيص، أو الاستحقار والاستهانة، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل أو القول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه أو صنعته أو قبح صورته.

القوم: جماعة الرجال، وقد يراد به الرجال والنساء تغليبا، كما قيل في قوم فرعون وقوم عاد: إن المراد بهم الذكور والإناث.

{عسى}: يراد بها الترجي؛ وهي في نحو هذا التركيب من كل ما أسندت فيه إلى أن الفعل- قيل: تامة لا تحتاج إلى خبر، وأن ما بعدها في محل رفع على الفاعلية؛ وقيل: إنها ناقصة- لها اسم وخبر- وسد ما بعدها مسد الجزأين.

النساء: جمع المرأة من غير لفظها.

ينادي المولى سبحانه أهل الإيمان إلى الخُلُق العظيم، ومنه أن لا يستخف رجل برجل أو امرأة بامرأة، وأن لا يحقر رجال رجالا، ولا نساء نساءً، فلعل من استهزئ به خير ممّن نقّصوه وعابوه، وربما تكون النسوة اللاتي يستهان بهم ويضحك منهن أكرم منزلة ممن يسخرن منهن.

[وجيء بما يدل على الجمع في الموضوعين دون المفرد- كأن يقال: لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة، مع أنه الأصل الأشمل الأعم- قيل: جريا على الأغلب من وقوع السخرية في مجامع الناس. . فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه، وقيل: لأن النهي ورد على الحالة الواقعة بين الجماعة كقوله تعالى: {. . لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة} ٢٩ وعموم الحكم لعموم علته] ٣٠.

{ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان}.

ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة، فإنك إن احتقرت المسلم فكأنك حقرت نفسك، ولا يعير بعضكم بعضا بالألقاب، فتلك أفعال ذميمة قد تلحق فاعليها بالفاسقين بعد أن كانوا من المؤمنين.

[وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إن النساء يعيرنني، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد). فأنزل الله هذه الآية] ٣١.

{ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١)}.

ومن أقام على الوقوع فيما نهى عنه- ومنه المنهيات السابقة- ولم يرجع إلى ما فيه مرضاة الناس مما شرعه رب الناس، ولم يستغفر الله- جل علاه- مما اكتسب من الإثم، فهو من الظالمين لأنفسهم بارتكاب تلك المعاصي.

[{فأولئك هم الظالمون} بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب، والإفراد أولا: {. . ومن لم يتب} والجمع ثانيا: مراعاة للفظ، ومراعاة للمعنى] ٣٢

١٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

{يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم}.
اجتنب: أصبح على جانب منه، ثم شاع في التباعد اللازم له.
{الظن}: يكون معناه إدراك الطرف الراجح- يقابل الشك- ويأتي بمعنى التهمة التي لم تعرف لها علامة صحيحة ولا سبب ظاهر- ولعله المراد في هذه الآية الكريمة.
الإثم: الذنب المستوجب للعقوبة.
تتابع الآيات الكريمة توصية المؤمنين بالخلق الكريم، وأن تطهر بواطنهم وخواطرهم ومشاعرهم من أسباب التفرق والتنازع، والتباغض والفشل؛ كما بينت في الآيات السابقة ما يطهر ظواهرهم من الشقاق، وسيء المسالك والأخلاق؛ فأمرنا بالتباعد من سوء الظن فإنه يغضب الخالق- جل علاه- ويفسد أمر الخلائق.
ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) لفظ البخاري.
يقول علماء أحكام القرآن: للظن حالتان: حالة تُعرف وتَقْوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها. . كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنايات؛ والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون أولى من ضده، فهذا هو الشك فلا يجوز به، وهو المنهي عنه. . الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه؛ والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: {إن بعض الظن إثم} وقوله: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا} ٣٣ وقوله: {. . وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا} ٣٤.
إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. . أه.
{ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١٢)}.
ولا تترقب زلات العباد، ولا تفتش عن دخائلهم، ولا تتبع عوراتهم وتتلمس البحث عنها- وقد أشرنا قريبا إلى معنى التحسس والتجسس- ولا يذكر بعضكم بعضا بما يكرهه ويسوؤه فإن من فعل ذلك فقد وقع في جريمة شنيعة منفرة كأنما ينهش ويطعم لحم أخيه الميت، وهذا مما تشمئز منه النفوس لاقترافه، واحذروا غضب الله على الظانين ظن السوء والمتتبعين للعورات والمغتابين، إن الله – تبارك اسمه- كثيرة توبته وعظيمة رحمته لمن اتقى وتاب مما يكون قد ألم به.
يقول علماء القرآن: قيل إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما، فضُم سلمان إلى رجلين فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليه وسلم طعاما وإداما، فذهب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك).
وكان أسامة خازن النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل؛ ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا؛ فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة ٣٥ لغار ماؤها؛ ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء؛ فرآهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما)؟ فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره؛ فقال: (ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة)، فنزلت: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعد الظن إثم} ذكره الثعلبي؛ أي لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير ٣٦.
١٣ - (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)
{يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣) *}

نداء إلى البشر كافة أن يذكروا ولا ينسَوْا أنهم جميعا أبناء رجل واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء فهم إخوة في الإنسانية، وصيّر الله هذا الجنس البشري شعوبا وقبائل ليعرف بعضكم بعضا، أو لتعرفوا قرابة بعضكم من بعض فتصلوا الأرحام، وتَبَيَّنُوا الأنساب والتوارث، وليس ليتفاخر أحد على أحد أو شعب على شعب، ومهما تطاول الغافلون بأنسابهم فإن الأعلى منزلة عند الله- تبارك اسمه- والأرفع لديه سبحانه في الدنيا والآخرة هو الأتقى؛ إن الله محيط علمه بأحوالكم وأقوالكم، خبير ببواطن أموركم.

في رواية عن ابن مردويه من طريق الزهري عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال: (أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه): ونزلت: {يا أيها الناس} الآية في ذلك- وكان حجّام النبي صلى الله عليه وسلم-.

[والشعوب: جمع شعب وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل؛ والقبيلة تجمع العمائر؛ والعمارة تجمع البطون؛ والبطون تجمع الأفخاذ؛ والفخذ يجمع الفصائل؛ فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيّ بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. . وذكر بعضهم العشيرة بعد الفصيلة فقال:

أقصد الشعب فهو أكثر حي ... عددا في الحساب ثم القبيلة
ثم يتلوهما العمارة ثم البط ... ن ثم الفخذ بعد الفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكن ... هي في جنب ما ذكرنا قليلة] ٣٧

أخرج ابن مردويه والبيهقي والترمذي وغيرهم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرج لم يجد مناخا، فنزل على أيدي الرجال، فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: (الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية ٣٨ الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله الناس كلهم بنو آدم وخلق الله آدم من تراب. قال الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} إلى قوله تعالى: {خبير} ثم قال: (أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

[قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة. وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس. وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له: [ابن فلانة] فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من الذاكر فلانة؟) قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (انظر في وجوه القوم) فنظر، فقال: (ما رأيت؟) قال رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: (فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى) فنزلت في ثابت هذه الآية. ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له: {يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم} ٣٩ الآية.

[وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبَيْتُمْ إلا أن تقولوا فلان ابن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون). . وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول: (إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: من أكرم الناس فقال: (يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فأكرمهم عند الله أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: (عن معادن العرب خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)] ٤٠.

١٤ - (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم (١٤)}.

{آمنا}: صدقنا واستيقنت قلوبنا بالحق الذي أنزل عل خاتم النبيين.

{الأعراب}: سكان بادية العرب.
{أسلمنا}: أنقذنا ودخلنا في السلم.
{يلتكم} ينقصكم.
جاء بعض الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادّعوا الإيمان، وأرادوا أن يُعَدُّوا في المهاجرين، أو أن يُعْطَوْا من الصدقات، فأوحى الله إلى نبيه أنهم لم تطمئن بالإيمان قلوبهم بعد، وإنما أرادوا السلم وقبلوا ما أتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الظاهر، أو المعنى: قولوا أسلمنا خوف القتل والسبي، وإن تخلصوا الإيمان لا ينقصكم الله من أجور أعمالكم شيئا، ويتجاوز عما كان منكم ويستره عليكم ويدخلكم في رحمته.
١٥ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)
{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون (١٥)}.
المؤمنون على الحقيقة لا يتم لهم إيمانهم إلا بالتصديق واليقين بكل مطالب الإيمان، والثبات على هذا الإيمان الراسخ دون شك أو ارتياب، وحققوا ذلك بالجهاد والعمل الصالح، لكن من شك أو ابتغى بأقواله وأفعاله غير وجه الله فما أدرك شرف الإيمان.
١٦ - (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
{قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم (١٦)}.
قال علماء القرآن: لما نزلت الآية التي سبقت هذه حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية، والله يعلم أنهم كذبوا، فأنزل- تبارك اسمه- هذه الآية، فكأن المعنى: إنكار عليهم أن يزعموا أن ما قالوه خوف القتل ورجاء الكسب يعتبر دينا يقبله الله! وربنا أحاط بما في السماوات والأرض ومن في السماوات ومن في الأرض وبكل شيء علما فلا يخفى عليه حقيقة أمرهم.
١٧ - (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
{يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين (١٧)}.
مازالت الآيات الكريمة تبين حال هؤلاء الأعراب الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهرون الإسلام وقلوبهم هواء، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا، ويروى أنهم قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون بذكر ذلك الصدقة، ويمنون به على النبي عليه الصلاة والسلام.
يحملونك نعمة ثقيلة، ويعدون إسلامهم تفضلا عليك، فقل لهم: لا تعتدّوا عليّ إسلامكم، بل الفضل لله تعالى والمنة، أن يمدكم بالهداية والتوفيق، إن كنتم حقا من المصدقين الموقنين.
١٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)
{إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون (١٨)}.
إنا على يقين من أن الله يعلم ما غاب في السماوات والأرض- كما هو عليم بما ظهر-والله يسمع ويرى ما تقولون وما تعملون، وما تسرون وما تعلنون، بل يعلم السر وأخفى، وما توسوس به الأنفس، وما انطوت عليه الصدور، واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه. وبالله التوفيق.
خاتمة:
هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.
ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٤١. {هوالذي خلق السماوات

والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ٤٢، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ٤٣، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٤٤، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما
أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ٤٥، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ٤٦، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ٤٧، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ٤٨، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ٤٩، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ٥٠، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ٥١، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ٥٢، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ٥٣ الرحيم} ٥٤. بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.
وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:
{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ٥٥، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ٥٦، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ٥٧، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ٥٨، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ٥٩، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ٦٠، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ٦١، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ٦٢.
كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٦٣، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٦٤، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٦٥ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .
وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٦٦، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ٦٧، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٦٨، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٦٩، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٧٠، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٧١ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٧٢، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون

بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٧٣، {أم له البنات ولكم البنون} ٧٤.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٧٥.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٧٦.

ومن سننه تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ٧٧؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٧٨، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٧٩، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٨٠، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ٨١.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٨٢، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٨٣: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٨٤.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن

بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٨٥، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٨٦، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٨٧، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٨٨، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٨٩ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٩٠، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٩١، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٩٢، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٩٣، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٩٤، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٩٥.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٩٦؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٩٧، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٩٨ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٩٩ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ١٠٠؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ١٠١. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ١٠٢.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ١٠٣، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ١٠٤. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ١٠٥، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ١٠٦، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ١٠٧، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ١٠٨.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ١٠٩، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١١٠؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ١١١؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ١١٢.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ١١٣، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون.

متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ١١٤، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ١١٥ {ذوتا أفنان} ١١٦، {فيهما عينان تجريان} ١١٧ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ١١٨، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ١١٩، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١٢٠، {كأنهن الياقوت والمرجان} ١٢١، {ومن دونهما جنتان} ١٢٢ {مدهامتان} ١٢٣ {فيهما عينان نضاختان} ١٢٤، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ١٢٥، {فيهن خيرات حسان} ١٢٦، {حور مقصورات في الخيام} ١٢٧، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ١٢٨، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ١٢٩ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ١٣٠.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب، ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية، ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا، ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام، ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ١٣١، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ١٣٢.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ١٣٣، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ١٣٤ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ١٣٥؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ١٣٦.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ١٣٧، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ١٣٨.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ١٣٩، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ١٤٠، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ١٤١، {فسبح باسم ربك العظيم} ١٤٢، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٤٣؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار،

وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ١٤٤.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٤٥، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان، {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ١٤٦، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ١٤٧ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ١٤٨ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ١٤٩، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ١٥٠.

٥٠ سورة ق:

سورة ق:
مكية
وآياتها خمس وأربعون
كلماتها: ٣٧٥، حروفها: ١٤٧٧.
١ - (ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ق والقرآن المجيد (١)}.

أقسم الله تعالى باسمه-على أن {ق} تشير إلى اسمه سبحانه [قادر] أو [قاهر] وأقسم جل ثناؤه بالقرآن ذي المجد والشرف، ووصف القرآن بذلك لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية، وهو أمجد وأشرف من الكتب حقيقة، أو مجازا، باعتبار قارئه وعالمه والعامل به.

ويمكن أن يقال في تفسير {ق} ما قلناه في تفسير حروف المعجم التي في أوائل سور القرآن مثل {حم} و {طس} و {ص}.

٢ - (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

{بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢)}.

فلما أتيتهم بالقرآن المجيد كذبوا به وبما أنزل فيه من المعاد، وبمن أنزل عليه، وليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا مجد له، ولكن لجهلهم، ومعلوم أن إنذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول كل شيء بالبعث وما يتبعه، فلهذا استبعدوا أن يُرْسِل الله إليهم رسولا بشرا مثلهم ولم يُرْسِل رسولا من الملائكة، كما استبعدوا أن يحيي الله الموتى بعد أن تبلى أجسادهم.

٣ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

{أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (٣)}.

أبعد موتنا وتحلل أجسامنا وتفتت عظامنا تنشر أشباحنا وترد إلينا أرواحنا ونحيا حياة أخرى؟ {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ١ {يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة} ٢ يقررون عجبهم ويشددون إنكارهم لما جاءهم من ربهم من وعده الحق وحسابه وجزائه-أي: أحين نموت ونصير ترابا نرجع؟ - كما ينطق به النذير والمنذَر به- مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ؟ وقوله سبحانه {ذلك} إشارة إلى محل النزاع وهو الرجوع والبعث بعد الموت، أي ذلك الرجع {رجع بعيد} أي عن الأوهام والعادة أو الإمكان ٣ - ؛ يقول القرطبي: أي: وقالوا أنبعث إذا متنا؟، وذكر البعث منطو تحت قوله: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة أه.

٤ - (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)

{قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ (٤)}.

ما من حبة أو ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا مكتوبة محفوظة معلومة لله الذي أحاط بكل شيء علما، فمهما تحللت أجزاء الموتى وتآكلت لحومهم، وبليت وتفتت عظامهم، وتمزقت جلودهم، وتفرقت أشعارهم، فإنها لا تعزب عن الخبير البصير {. . وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} ٤ - وهي عندي مع علمي في كتاب حفيظ- ٥.

٥ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

{بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج (٥)}

أضرب القرآن عن تعجبهم من مجيء نذير من جنسهم ومن بينهم، وتعجبهم من إحياء الله إياهم بعد موتهم، إلى التصريح بتكذيبهم ما وعد الرحمن، وما تضمن القرآن، فهم في اضطراب وتردد، والأمر مختلط عليهم: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين} ٦

فهم من البعث في قلق، فمرة يقولون: سيكون: ومرة يقولون: لا يكون، فهم في ريبهم يترددون؛ ومن أمر الرسول والرسالة في حيرة وضلال، فبينما يسمونه الصادق الأمين، يقولون شاعر، ساحر، كاهن، مفتر، ما جاء إلا بأساطير الأولين! {. . . ألا لعنة الله على الظالمين} ٧.

٦ - (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

{بنيناها} أحكمناها ورفعناها بغير عمد.

{فروج} شقوق.

{أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج (٦) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) ونزلنا من السماء ماءا مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)}.

هذا برهان من الله المقتدر، الفعال لما يريد- الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء-على يسر البعث وإعادة الهلكى إلى حياة أخرى؛ فهلا نظروا إلى ما فوقهم مما يشاهدون من هذا السقف المرفوع على غير عمد، المحكم الذي لا خلل فيه ولا تصدع ولا تشقق، المزدان بالنجوم والكواكب، وبالشمس والقمر؟ وهلا تأملوا الأرض المترامية الأطراف، المثبتة بالجبال، المستودعة خيرا وركازا، المنبتة أقواتا وثمارا، وخضرا ومرعى؟ فإن في تأمل آثار الرحمة، وإتقان الصنعة، ما يرسخ اليقين باقتدار الصانع الحكيم على إحياء المقبورين؛ وما يُذَكِّرُ بقوة الله المتين على جمعنا ليوم الدين {. . إنما يتذكر أولو الألباب} ٨، وفي إنزال المطر من السحاب- وهو الذي نراه معلقا فوقنا جهة السماء- وجعله يحمل الحياة والنماء فيكون منه ذلك الزرع الذي فيه شجر الفاكهة، والنبات الذي يثمر الحبوب والأقوات، نحصده فنقتات به، والنخل العاليات جنية الثمار، بهية جميلة الصورة، تفضل المولى بذلك رزقا للعباد واستنقاذا لهم من الهلاك؛ من قَدَر على صنع ذلك فأحيا به موات الأرض والخَلْقِ، قادر على أن يبعث من في القبور.

مما أورد الألوسي: {والأرض مددناها} بسطناها، وهو لا ينافي كرويتها التامة أو الناقصة من جهة القطبين. . {تبصرة وذكرى لكل عبد منيب} راجع إلى ربه، وهو مجاز عن التفكر في بدائع صنعه سبحانه بتنزيل التفكير في المصنوعات منزلة الرجوع إلى صانعها، و {تبصرة وذكرى} علتان للأفعال السابقة معنى، وإن انتصبتا بالفعل الأخير، أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا. . {وحب الحصيد} حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما.

٧ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

{مددناها} بسطناها.

{رواسي} جبالا ثوابت.

{زوج} صنف.

{بهيج} يبهج ويُسِرّ.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

{تبصرة} ينير البصائر والعقول.

{وذكرى} وتذكيرا.

{منيب} رجاع إلى طريق الحق.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٩ - (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

{من السماء} من السحاب الذي نراه جهة السماء.

{ماء مباركا} مطرا كثير الخير [لعل من الخير إضافة آراء علماء النبات، وما اكتشفوا من وجود [النيتروجين] بنسبة عالية معلقا فوق الأراضي الزراعية فيما تقل نسبته فوق الأراضي الصحراوية، كتاب: العلم يدعو للإيمان].

{جنات} بساتين عظمت خضرة أشجارها حتى جنّت الأرض وغطتها.

{حب الحصيد} حب الزرع الذي يحصد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٠ - (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

{باسقات} عاليات طويلات.

{نضيد} منضد مصفف بعضه فوق بعض.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١١ - (رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)

{بلدة ميتا} أرضا يابسة هامدة مقفرة.

{كذلك الخروج} كذلك يخرج الله الموتى من قبورهم أحياء.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٢ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)

{كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)}.

يحذر الله منكري البعث والمرتابين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الذين لا يرجون لقاء ربهم: قوم نوح وأصحاب البئر الذين أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وثمود قوم صالح -عليه السلام- وعاد قوم هود -عليه السلام- وفرعون وقومه أرسل إليهم موسى وهارون

-عليهما السلام- وإخوان لوط -عليه السلام- وكذا أصحاب الغيطة أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وقوم تبع باليمن كل هؤلاء كبُر عليهم ما دعاهم إليه رسل الله فدمرهم ربنا عزيز الانتقام.

وفيما مر - مع ذلك- تسلية للنبي والمؤمنين، وبرهان اقتدار الواحد القهار مالك يوم الدين، جامع الناس ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويثيب المحسنين. وما مسنا من نصب ولا لغوب إذ أنشأناكم من العدم ولم تكونوا شيئا، فكيف يُشَكُّ في قدرتنا على إعادتكم أحياء بعد موتكم؟! {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ٩ {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} ١٠ {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} ١١.

بل اللبس والقلق والحيرة تأتي من الهول الذي أعيدوا لملاقاته، فهو هول جديد لا عهد لهم به من قبل {. . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون} ١٢.

وفي الصحيح: يقول الله تعالى: (يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته).

١٣ - (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)}.

يحذر الله منكري البعث والمرتابين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الذين لا يرجون لقاء ربهم: قوم نوح وأصحاب البئر الذين أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وثمود قوم صالح -عليه السلام- وعاد قوم هود -عليه السلام- وفرعون وقومه أرسل إليهم موسى وهارون -عليهما السلام- وإخوان لوط -عليه السلام- وكذا أصحاب الغيطة أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وقوم تبع باليمن كل هؤلاء كبُر عليهم ما دعاهم إليه رسل الله فدمرهم ربنا عزيز الانتقام.

وفيما مر - مع ذلك- تسلية للنبي والمؤمنين، وبرهان اقتدار الواحد القهار مالك يوم الدين، جامع الناس ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويثيب المحسنين. وما مسنا من نصب ولا لغوب إذ أنشأناكم من العدم ولم تكونوا شيئا، فكيف يُشَكُّ في قدرتنا على إعادتكم أحياء بعد موتكم؟! {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ١٣ {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} ١٤ {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} ١٥.

بل اللبس والقلق والحيرة تأتي من الهول الذي أعيدوا لملاقاته، فهو هول جديد لا عهد لهم به من قبل {. . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون} ١٦.

وفي الصحيح: يقول الله تعالى: (يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته).

١٤ - (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)}.

يحذر الله منكري البعث والمرتابين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الذين لا يرجون لقاء ربهم: قوم نوح وأصحاب البئر الذين أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وثمود قوم صالح -عليه السلام- وعاد قوم هود -عليه السلام- وفرعون وقومه أرسل إليهم موسى وهارون

-عليهما السلام- وإخوان لوط -عليه السلام- وكذا أصحاب الغيطة أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وقوم تبع باليمن كل هؤلاء كبُر عليهم ما دعاهم إليه رسل الله فدمرهم ربنا عزيز الانتقام.

وفيما مر - مع ذلك- تسلية للنبي والمؤمنين، وبرهان اقتدار الواحد القهار مالك يوم الدين، جامع الناس ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويثيب المحسنين. وما مسنا من نصب ولا لغوب إذ أنشأناكم من العدم ولم تكونوا شيئا، فكيف يُشَكُّ في قدرتنا على إعادتكم أحياء بعد موتكم؟! {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ١٧ {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} ١٨ {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} ١٩.

بل اللبس والقلق والحيرة تأتي من الهول الذي أعيدوا لملاقاته، فهو هول جديد لا عهد لهم به من قبل {. . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون} ٢٠.

وفي الصحيح: يقول الله تعالى: (يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته).

١٥ - (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)}.

يحذر الله منكري البعث والمرتابين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الذين لا يرجون لقاء ربهم: قوم نوح وأصحاب البئر الذين أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وثمود قوم صالح -عليه السلام- وعاد قوم هود -عليه السلام- وفرعون وقومه أرسل إليهم موسى وهارون -عليهما السلام- وإخوان لوط -عليه السلام- وكذا أصحاب الغيطة أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- وقوم تبع باليمن كل هؤلاء كبُر عليهم ما دعاهم إليه رسل الله فدمرهم ربنا عزيز الانتقام.

وفيما مر - مع ذلك- تسلية للنبي والمؤمنين، وبرهان اقتدار الواحد القهار مالك يوم الدين، جامع الناس ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويثيب المحسنين. وما مسنا من نصب ولا لغوب إذ أنشأناكم من العدم ولم تكونوا شيئا، فكيف يُشَكُّ في قدرتنا على إعادتكم أحياء بعد موتكم؟! {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} ٢١ {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} ٢٢ {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} ٢٣.

بل اللبس والقلق والحيرة تأتي من الهول الذي أعيدوا لملاقاته، فهو هول جديد لا عهد لهم به من قبل {. . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون} ٢٤.

وفي الصحيح: يقول الله تعالى: (يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته).

١٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)}.

برهان آخر على اقتدار الله الكبير المتعال المهيمن، وسلطانه سبحانه على الخلق، وعلمه وعظمة جنده؛ وتحققوا أني خلقت جنس الإنسان- كما أوجدت سائر ما في الكون- وأنا أعلم علانيته وسره وما هو أخفى من سره، أعلم حديث نفسه، وما أنا إلا قريب، أقرب من وريدَيْ العنق، على كل صفحة من صفحتي العنق ٢٥ عرق منهما، ونحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى الملكان الموكلان به عمله وقوله؛ والملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان اكتنفاه وأحاطا به من جانبيه، يكتبان أعماله من خير أو شر فيدونانها وينسخانها

ويسجلانها في صحائف، و [القعيد] ليس ضد القائم، ولكنه المقاعد المترصد المرافق الملازم - أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وُكِّلا به إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر عليه-، {المتلقيان} ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، قال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع كقوله تعالى: {إنا رسولا رب العالمين} ٢٦ وقوله {. . . والملائكة بعد ذلك ظهير} ٢٧، وما يتكلم الإنسان بشيء إلا تلقاه بالحفظ والكتابة {رقيب} يتابع الأحوال والأقوال، و {عتيد} حاضر ومهيأ معد للشهادة.

أورد صاحب روح المعاني نقولا ٢٨ فيها ذكر للملائكة الكتبة الحفظة وماذا يكتبون، نورد بعضها: واختلف فيما يكتبانه، فقال الإمام مالك، وجماعة: يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض، وفي شرح الجوهرة للقاني: مما يجب اعتقاده أن لله تعالى ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما، قولا كانت أو عملا أو اعتقادا، همّا كانت أو عزما أو تقريرا، اختارهم سبحانه لذلك فهم لا يهملون من شأنهم شيئا فعلوه قصدا وتعمدا، أو ذهولا ونسيانا، صدر منهم في الصحة أو في المرض. . . وذهب إلى أن المباح لا يكتبه أحد منهما لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب، والكتابة للجزاء، فيكون مستثنى حكما من عموم الآية، وروى ذلك عن عكرمة. . . . في شعب الإيمان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله فإذا مات قال الملكان اللذان وكلا به: قد مات فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان: أنقيم في الأرض فيقول الله تعالى: أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي يوم القيامة). وجاء أنه يكتب للمريض والمسافر ما كان يعمل في الصحة والإقامة من الحسنات. . أخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحا مقيما). . ثم إن الملائكة الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالملكين الكاتبين. . ملكان بالليل، وملكان بالنهار. . أه.

أقول: ومما يشهد لما أشار إليه أخيرا قول الله -تبارك وتعالى-: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} ٢٩ وما صح في الحديث: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار).

نقل الطبري بسنده عن قتادة قال: تلا الحسن {. . عن اليمين وعن الشمال قعيد} قال، فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} حتى بلغ {حسيبا} ٣٠ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك. أه،.

١٧ - (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]

{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)}.

برهان آخر على اقتدار الله الكبير المتعال المهيمن، وسلطانه سبحانه على الخلق، وعلمه وعظمة جنده، وتحققوا أني خلقت جنس الإنسان- كما أوجدت سائر ما في الكون- وأنا أعلم علانيته وسره وما هو أخفى من سره، أعلم حديث نفسه، وما أنا إلا قريب، أقرب من وريديْ العنق، على كل صفحة من صفحتي العنق ٣١ عرق منهما، ونحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى الملكان الموكلان به عمله وقوله، والملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان اكتنفاه وأحاطا به من جانبيه، يكتبان أعماله من خير أو شر فيدونانها وينسخانها ويسجلانها في صحائف، و [القعيد] ليس ضد القائم، ولكنه المقاعد المترصد المرافق الملازم - أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وُكِّلا به إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر عليه-، {المتلقيان} ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، قال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع كقوله تعالى: {إنا رسولا رب العالمين} ٣٢ وقوله {. . . والملائكة بعد ذلك ظهير} ٣٣، وما يتكلم الإنسان بشيء إلا تلقاه بالحفظ والكتابة {رقيب} يتابع الأحوال والأقوال،

و {عتيد} حاضر ومهيأ معد للشهادة.
أورد صاحب روح المعاني نقولا ٣٤ فيها ذكر للملائكة الكتبة الحفظة وماذا يكتبون، نورد بعضها: واختلف فيما يكتبانه، فقال الإمام مالك، وجماعة: يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض، وفي شرح الجوهرة للقاني: مما يجب اعتقاده أن لله تعالى ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما، قولا كانت أو عملا أو اعتقادا، همّا كانت أو عزما أو تقريرا، اختارهم سبحانه لذلك فهم لا يهملون من شأنهم شيئا فعلوه قصدا وتعمدا، أو ذهولا ونسيانا، صدر منهم في الصحة أو في المرض. . . وذهب إلى أن المباح لا يكتبه أحد منهما لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب، والكتابة للجزاء، فيكون مستثنى حكما من عموم الآية، وروى ذلك عن عكرمة. . . . في شعب الإيمان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله فإذا مات قال الملكان اللذان وكلا به: قد مات فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان: أنقيم في الأرض فيقول الله تعالى: أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي يوم القيامة). وجاء أنه يكتب للمريض والمسافر ما كان يعمل في الصحة والإقامة من الحسنات. . أخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحا مقيما). . ثم إن الملائكة الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالملكين الكاتبين. . ملكان بالليل، وملكان بالنهار. . أه.
أقول: ومما يشهد لما أشار إليه أخيرا قول الله -تبارك وتعالى-: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} ٣٥ وما صح في الحديث: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار).
نقل الطبري بسنده عن قتادة قال: تلا الحسن {. . عن اليمين وعن الشمال قعيد} قال، فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} حتى بلغ {حسيبا} ٣٦ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك. أه،.
١٨ - (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]
{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)}.
برهان آخر على اقتدار الله الكبير المتعال المهيمن، وسلطانه سبحانه على الخلق، وعلمه وعظمة جنده، وتحققوا أني خلقت جنس الإنسان- كما أوجدت سائر ما في الكون- وأنا أعلم علانيته وسره وما هو أخفى من سره، أعلم حديث نفسه، وما أنا إلا قريب، أقرب من وريديْ العنق، على كل صفحة من صفحتي العنق ٣٧ عرق منهما، ونحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى الملكان الموكلان به عمله وقوله، والملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان اكتنفاه وأحاطا به من جانبيه، يكتبان أعماله من خير أو شر فيدونانها وينسخانها ويسجلانها في صحائف، و [القعيد] ليس ضد القائم، ولكنه المقاعد المترصد المرافق الملازم - أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وُكّلا به إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر عليه-، {المتلقيان} ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، قال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع كقوله تعالى: {إنا رسولا رب العالمين} ٣٨ وقوله {. . . والملائكة بعد ذلك ظهير} ٣٩، وما يتكلم الإنسان بشيء إلا تلقاه بالحفظ والكتابة {رقيب} يتابع الأحوال والأقوال، و {عتيد} حاضر ومهيأ معد للشهادة.
أورد صاحب روح المعاني نقولا ٤٠ فيها ذكر للملائكة الكتبة الحفظة وماذا يكتبون، نورد بعضها: واختلف فيما يكتبانه، فقال الإمام مالك، وجماعة: يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض، وفي شرح الجوهرة للقاني: مما يجب اعتقاده أن لله تعالى ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما، قولا كانت أو عملا أو اعتقادا، همّا كانت أو عزما أو تقريرا، اختارهم سبحانه لذلك فهم لا

يهملون من شأنهم شيئا فعلوه قصدا وتعمدا، أو ذهولا ونسيانا، صدر منهم في الصحة أو في المرض. . . وذهب إلى أن المباح لا يكتبه أحد منهما لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب، والكتابة للجزاء، فيكون مستثنى حكما من عموم الآية، وروى ذلك عن عكرمة. . . . في شعب الإيمان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله فإذا مات قال الملكان اللذان وكلا به: قد مات فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان: أنقيم في الأرض فيقول الله تعالى: أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي يوم القيامة). وجاء أنه يكتب للمريض والمسافر ما كان يعمل في الصحة والإقامة من الحسنات. . أخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحا مقيما). . ثم إن الملائكة الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالملكين الكاتبين. . ملكان بالليل، وملكان بالنهار. . أه.

أقول: ومما يشهد لما أشار إليه أخيرا قول الله -تبارك وتعالى-: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} ٤١ وما صح في الحديث: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار).

نقل الطبري بسنده عن قتادة قال: تلا الحسن {. . عن اليمين وعن الشمال قعيد} قال، فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} حتى بلغ {حسيبا} ٤٢ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك. أه،.

١٩ - (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

{وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢)}.

وحين تجيء شدة الموت وسكرته، وتنزل غمرته وكربته، يستبين الحق-حق الرحيل عن هذه الحياة، حق رضوان الله عمن اهتدى بهداه، وسخطه على الفاسقين الطغاة-ذلك الموت الذي كنت عنه تميل ومنه تفر- والخطاب لجنس الإنسان من بر وفاجر-.

وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة-أو علبة- فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده) أخرجه البخاري.

ونفخ في الصور نفخة البعث- وكأنما جاء الحديث عن القيامتين الأولى الموت والثانية البعث جاء بلفظ الماضي لتحقق و قوعهما، وكأنهما أمران قد انقضيا وحدثا فعلا- ذلك اليوم الذي توعّد الله به الكفرة وإنه ليوم عسير إلا على المتقين فلهم البشرى {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٤٣، وتجيء كل نفس للحشر والعرض والسؤال والوزن والحساب يسوقها ملك ويشهد عليها ملك ٤٤.

ولدى شهوده الحشر يقال له لقد كنت في غفلة من هذا المآل والمصير فكشفنا عنك ما غطى بصرك وبصيرتك، فأنت اليوم ترى ما لم تكن تحتسب، ويُقر بذلك معتذرا ويتذكر، لكن حين لا تنفعهم الذكرى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا} ٤٥، وما أحدّ حواسهم ومداركهم يومئذ {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} ٤٦.

مما أورد الطبري:. . . اختلفوا في المقول ذلك له، فقال بعضهم: المقول له ذلك الكافر، وقال آخرون: هو نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: هو جميع الخلق من الجن والإنس. . . . ذكر من قال هو نبي الله صلى الله عليه وسلم: حدثني يوسف فقال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول: {لقد كنت في غفلة من هذا} فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد كنت مع القوم في جاهليتهم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به فكشف

عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية فنفذ بصره بالإيمان وتبينه حتى تقرر ذلك عنده فصار حادّ البصر به. أه.
أقول: والقرآن الكريم نطق بما هو قريب من ذلك في الآية الكريمة: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} ٤٧.
٢٠ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢)}.
وحين تجيء شدة الموت وسكرته، وتنزل غمرته وكربته، يستبين الحق-حق الرحيل عن هذه الحياة، حق رضوان الله عمن اهتدى بهداه، وسخطه على الفاسقين الطغاة-ذلك الموت الذي كنت عنه تميل ومنه تفر- والخطاب لجنس الإنسان من بر وفاجر-.
وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة-أو علبة- فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده) أخرجه البخاري.
ونفخ في الصور نفخة البعث- وكأنما جاء الحديث عن القيامتين الأولى الموت والثانية البعث جاء بلفظ الماضي لتحقق و قوعهما، وكأنهما أمران قد انقضيا وحدثا فعلا- ذلك اليوم الذي توعّد الله به الكفرة وإنه ليوم عسير إلا على المتقين فلهم البشرى {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٤٨، وتجيء كل نفس للحشر والعرض والسؤال والوزن والحساب يسوقها ملك ويشهد عليها ملك ٤٩.
ولدى شهوده الحشر يقال له لقد كنت في غفلة من هذا المآل والمصير فكشفنا عنك ما غطى بصرك وبصيرتك، فأنت اليوم ترى ما لم تكن تحتسب، ويُقر بذلك معتذرا ويتذكر، لكن حين لا تنفعهم الذكرى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا} ٥٠، وما أحدّ حواسهم ومداركهم يومئذ {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} ٥١.
مما أورد الطبري:. . . اختلفوا في المقول ذلك له، فقال بعضهم: المقول له ذلك الكافر، وقال آخرون: هو نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: هو جميع الخلق من الجن والإنس. . . . ذكر من قال هو نبي الله صلى الله عليه وسلم: حدثني يوسف فقال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول: {لقد كنت في غفلة من هذا} فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد كنت مع القوم في جاهليتهم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به فكشف عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية فنفذ بصره بالإيمان وتبينه حتى تقرر ذلك عنده فصار حادّ البصر به. أه.
أقول: والقرآن الكريم نطق بما هو قريب من ذلك في الآية الكريمة: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} ٥٢.
٢١ - (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢)}.
وحين تجيء شدة الموت وسكرته، وتنزل غمرته وكربته، يستبين الحق-حق الرحيل عن هذه الحياة، حق رضوان الله عمن اهتدى بهداه، وسخطه على الفاسقين الطغاة-ذلك الموت الذي كنت عنه تميل ومنه تفر- والخطاب لجنس الإنسان من بر وفاجر-.
وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة-أو علبة- فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده) أخرجه

البخاري.

ونفخ في الصور نفخة البعث- وكأنما جاء الحديث عن القيامتين الأولى الموت والثانية البعث جاء بلفظ الماضي لتحقق و قوعهما، وكأنهما أمران قد انقضيا وحدثا فعلا- ذلك اليوم الذي توعّد الله به الكفرة وإنه ليوم عسير إلا على المتقين فلهم البشرى {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٣، وتجيء كل نفس للحشر والعرض والسؤال والوزن والحساب يسوقها ملك ويشهد عليها ملك ٥٤.

ولدى شهوده الحشر يقال له لقد كنت في غفلة من هذا المآل والمصير فكشفنا عنك ما غطى بصرك وبصيرتك، فأنت اليوم ترى ما لم تكن تحتسب، ويُقر بذلك معتذرا ويتذكر، لكن حين لا تنفعهم الذكرى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا} ٥٥، وما أحدّ حواسهم ومداركهم يومئذ {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} ٥٦.

مما أورد الطبري:. . . اختلفوا في المقول ذلك له، فقال بعضهم: المقول له ذلك الكافر، وقال آخرون: هو نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: هو جميع الخلق من الجن والإنس. . . . ذكر من قال هو نبي الله صلى الله عليه وسلم: حدثني يوسف فقال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول: {لقد كنت في غفلة من هذا} فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد كنت مع القوم في جاهليتهم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به فكشف عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية فنفذ بصره بالإيمان وتبينه حتى تقرر ذلك عنده فصار حادّ البصر به. أه.

أقول: والقرآن الكريم نطق بما هو قريب من ذلك في الآية الكريمة: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} ٥٧.

٢٢ - (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢)}.

وحين تجيء شدة الموت وسكرته، وتنزل غمرته وكربته، يستبين الحق-حق الرحيل عن هذه الحياة، حق رضوان الله عمن اهتدى بهداه، وسخطه على الفاسقين الطغاة-ذلك الموت الذي كنت عنه تميل ومنه تفر- والخطاب لجنس الإنسان من بر وفاجر-.

وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة-أو علبة- فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده) أخرجه البخاري.

ونفخ في الصور نفخة البعث- وكأنما جاء الحديث عن القيامتين الأولى الموت والثانية البعث جاء بلفظ الماضي لتحقق و قوعهما، وكأنهما أمران قد انقضيا وحدثا فعلا- ذلك اليوم الذي توعّد الله به الكفرة وإنه ليوم عسير إلا على المتقين فلهم البشرى {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٨، وتجيء كل نفس للحشر والعرض والسؤال والوزن والحساب يسوقها ملك ويشهد عليها ملك ٥٩.

ولدى شهوده الحشر يقال له لقد كنت في غفلة من هذا المآل والمصير فكشفنا عنك ما غطى بصرك وبصيرتك، فأنت اليوم ترى ما لم تكن تحتسب، ويُقر بذلك معتذرا ويتذكر، لكن حين لا تنفعهم الذكرى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا} ٦٠، وما أحدّ حواسهم ومداركهم يومئذ {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} ٦١.

مما أورد الطبري:. . . اختلفوا في المقول ذلك له، فقال بعضهم: المقول له ذلك الكافر، وقال آخرون: هو نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: هو جميع الخلق من الجن والإنس. . . . ذكر من قال هو نبي الله صلى الله عليه وسلم: حدثني يوسف فقال أخبرنا ابن

وهب قال: قال ابن زيد في قول: {لقد كنت في غفلة من هذا} فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد كنت مع القوم في جاهليتهم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به فكشف عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية فنفذ بصره بالإيمان وتبينه حتى تقرر ذلك عنده فصار حادّ البصر به. أه.

أقول: والقرآن الكريم نطق بما هو قريب من ذلك في الآية الكريمة: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} ٦٢.

٢٣ - (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)

{وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٦٣ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره؛ فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٦٤ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ٦٥ {. . . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٦٦ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٦٧، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ٦٨ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ٦٩ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٤ - (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٧٠ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي

والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره؛ فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٧١ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ٧٢ {. . . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٧٣ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٧٤، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ٧٥ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ٧٦ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٥ - (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٧٧ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ؛ وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة؛ فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره؛ فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٧٨ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ٧٩ {. . . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٨٠ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٨١، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ٨٢ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ٨٣ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٦ - (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

}وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٨٤ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره، فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٨٥ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ٨٦ {. . . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٨٧ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٨٨، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ٨٩ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ٩٠ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٧ - (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

}وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٩١ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره، فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٩٢ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن

في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ٩٣ {. . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ٩٤ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ٩٥، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ٩٦ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ٩٧ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٨ - (قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ٩٨ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره، فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ٩٩ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ١٠٠ {. . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ١٠١ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ١٠٢، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ١٠٣ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ١٠٤ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٢٩ - (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد (٢٦) *قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)}.

ويقول قرين ١٠٥ الكافر حين يساق للعرض على الله: هذا ما كان عندي جئت به مُعَدًّا مهيأ، وقال قتادة وابن زيد: قرينه: الملك الموكل بسوقه يقول مشيرا إليه: هذا ما لديّ حاضر، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ويقول: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} كثير الكفر بالنعمة وبالمنعم، معاند للحق، مبالغ في المشاقة والتجافي والاستنكاف عن الرشد، ينأى عن الخير وينهى عنه، ولا يؤدي صدقة ولا صلة رحم ولا برا، متجاوز في قوله وفعله وأمره ظالم، يقيم على حال مريب، ويشك في صدق وحينا، ويزين لغيره الشك، هذا الذي طرح في الجحيم بفساده، وعناده وجحوده وصدوده، وبغيه وجوره، جعل لله شريكا فعبد معه غيره، فاطرحاه في أشد العذاب ليذوق وبال أمره؛ فيقول الضالون من الجن والإنس ما حكاه القرآن: {. . ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين} ١٠٦ فيقول قرينه من الهلكى المضلين، ورفيقه من الشياطين- شياطين الإنس والجن-: يا رب ما أفسدته ولا أغويته، ولكنه آثر الغواية، واستحب العمى على الهداية، وأمعن في الجهالة والسوء والضلالة، وذلك ما بيّنه الكتاب العزيز إذ يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ويكفر بعضهم ببعض: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} ١٠٧ {. . . . أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين} ١٠٨ {وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} ١٠٩، فلا يقبل الله منهم عذرا، وإنما يحسرهم بقوله الحق، ويقيم عليهم الحجة بوعده الصدق: ليس في هذه الدار يكون الجدال، والتبري من الإضلال، فقد بعثت إليكم بالحق رسلا مبشرين ومنذرين {. . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ١١٠ أنذروكم عذابي وخوفوكم وعيدي الذي تلاقونه اليوم وقد سبق القول مني: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} ١١١ وما أنا بمعذب أحدا لم يذنب، ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

٣٠ - (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقْرب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات دينه؛ من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.

قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٢.

يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو

منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١١٣: المسبح من قوله: {. . يا جبال أوّبي معه} ١١٤. . . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.

قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).

ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

٣١ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقَرب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات دينه؛ من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.

قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٥.

يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١١٦: المسبح من قوله: {. . يا جبال أوّبي معه} ١١٧. . . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.

قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).

ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

٣٢ - (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقْرب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات دينه؛ من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.

قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٨.

يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١١٩: المسبح من قوله: {. . يا جبال أوّبي معه} ١٢٠. . . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.

قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).

ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

٣٣ - (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقَرب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيِّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات دينه؛ من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.

قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١٢١.

يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١٢٢: المسبح من قوله: {. . يا جبال أوّبي معه} ١٢٣. . . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.

قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).

ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

٣٤ - (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو

من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقَرَّب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات دينه؛ من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.

قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١٢٤.

يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١٢٥: المسبح من قوله: {. . يا جبال أَوِّبي معه} ١٢٦. . . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.

قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).

ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

٣٥ - (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]

{يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد (٣٥)}

وأنذرهم يوم نقول للنار- بعد أن يُلْقَوْا فيها فوجا بعد فوج - هل امتلأت؟ فتقول هل من زيادة ممن يستحقون الدخول؟. والظاهر بقاء السؤال والجواب على حقيقتهما. . . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هاهنا، فإن القدرة صالحة، والعقل مجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا؛ ونقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن: هو من باب التمثيل، والمعنى أن مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ؛ فالاستفهام للإنكار، أي لا مزيد على امتلائها.

وبعد بيان مصير الفجار الكفار بينت الآيات مآل المحسنين الأبرار، وشوقت إلى نعيم العزيز الغفار، فالجنة التي وُعِدُوا قريبة من موقف العرض؛ يقول صاحب غرائب القرآن: {غير بعيد} نصب على الظرف أي مكانا غير بعيد. . معناه التوكيد. . وقال آخرون إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافا غير بعيد عن قدرتنا، وذلك أن المكان لا يقرب وإنما يُقَرَّب منه، فذكر الله سبحانه أن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك؛ ويقال لهم: هذا ما عد الله لكل رجّاع إلى طريقه ومنهاجه، حفيظ شديد الرعاية لأمانات

دينه، من خاف مقام ربه واسع الرحمة يقال له ولمن على شاكلته: ادخلوها سالمين من الآفات فلا موت ولا نصب، ولا مشيب ولا كدر، ولا تحول بل هو المستقر، وذلك أول يوم البقاء والخلود.
قال قتادة: {ذلك يوم الخلود} خلدوا والله فلا يموتون، ونعموا فلا ييأسون، واستقروا فلا يتحولون، ولكم ما تشتهون وتدعون، وتتمنون وتطلبون، بل يتفضل المولى بأكثر مما تستحقون {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١٢٧.
يقول القرطبي: {وتقول} جهنم {هل من مزيد} أي ما بقى فيّ موضع للزيادة كقوله عليه السلام: (وهل ترك لنا عقيل من رَبْع أو منزل) أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. . وقال: ابن عباس وعطاء: الأوّاب ١٢٨: المسبح من قوله: {. . يا جبال أوِّبي معه} . . ١٢٩. والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. . وقال الحسن إذا أرخى الستر وأغلق الباب. أه.
قال مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار فقالت النار فيّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها).
ومما روى مسلم وأحمد وغيرهما عن صهيب ما يشهد أن معنى المزيد والزيادة: النظر إلى وجه ربنا الكريم جل علاه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقد تلا: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).
٣٦ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ)
{كم} كثير.
{قرن} الوقت من الزمان، والأكثرون على أنه مائة سنة ١٣٠، أو أهل كل مدة كانوا مقترنين فيها، والذين يأتون من بعدهم ذوو اقتران آخر.
{بطشا} شدة سطوة، أو أخذا بعنف، أو نكالا في سرعة.
{فنقبوا} فأقبلوا أو أدبروا، أو خرقوا، أو ساروا حتى خرقت أخفاف إبلهم.
وهذا الباب كله أصله التأثير الذي له عمق ودخول، ومن ذلك يقال: نقبت الحائط أي بلغت في النقب آخره، وشاع التنقيب في العرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله.
{محيص} مخلص، أو مفر.
{وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص (٣٦) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٣٧) ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب (٣٨)}
عادت الآيات الكريمة تنذر بأس الله تعالى الذي يُعَجَّل للكفار الطاغين، ولقد أهلك الله ناسا كانوا أشد من كفار مكة قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، أمم كثيرة سبقتهم بنوا بيوتا بكل ريع آية يعبثون، واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون، ونحتوا من الجبال بيوتا فارهين، وبطشوا بطش الجبارين، وتكاثروا بالأموال والبنين، فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يستكبرون، ونجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فما استطاعوا من فرار ولا هم يُنصرون، إن في هذا لعظة للذين هم لربهم يرهبون، والذين إذا سمعوا الحق يعتبرون ١٣١، وهم شهداء الله على الناس يوم يبعثون، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولقد خلقناهما فيما تعدونه ستة أيام من أيامكم، وما أدركنا من خلقهما -على عظمهما- إعياء ولا نصب ولا تعب، فلن يعيينا أن نعيد خلقكم كما بدأناكم أول مرة، وأن نجزي الذين أساءوا بما عملوا ونجزي الذين أحسنوا بالحسنى.
يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: {فنقبوا في البلاد} قال ابن عباس رضي الله عنهما:أثروا فيها. . . قوله تعالى {هل من محيص} هل

من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره. . فأنتم أيضا لا مفر لكم. . . وقال قتادة: قالت اليهود -عليهم لعائن الله- خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت. . فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه. أهـ.
وفي الآية ترتيب حسن لأنه إن كان ذا قلب ذكي يستخرج المعاني بتدبره وفكره فذاك، وإلا فلابد أن يكون مستمعا مصغيا إلى كلام ليحصل له التذكر ١٣٢.
[والمراد أن فيما فُعِلَ بسوالف الأمم، أو في المذكور أماما من الآيات لذكرى لإحدى طائفتين: من له قلب يفقه عن الله عز وجل، ومن له سمع مصغ مع ذهن حاضر، أي لمن له استعداد القبول عن الفقيه إن لم يكن فقيها في نفسه؛ و {أو} لمنع الخلو من حيث إنه يجوز أن يكون الشخص فقيها ومستعدا للقبول من الفقيه، وذكر بعضهم أنها لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع، أو إلى فقيه ومتعلم، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده، وقاصر محتاج للتعليم فيتذكر إذا أقبل بكليته وأزال الموانع بأسرها فتأمل] ١٣٣.
٣٧ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٣٨ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)
{لغوب} تعب أواعياء.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٦ إظهار
٣٩ - (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)
{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.
أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٣٤ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٣٥. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده

وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٣٦ ذلك يوم البعث، إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتراكا- ١٣٧ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٣٨ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٣٩ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٤٠.

٤٠ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٤١ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٤٢. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٤٣ ذلك يوم البعث، إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتراكا- ١٤٤ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٤٥ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٤٦ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٤٧.

٤١ - (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٤٨ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٤٩. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٥٠ ذلك يوم البعث، إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتراكا- ١٥١ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٥٢ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٥٣ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٥٤.

٤٢ - (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم

بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٥٥ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٥٦. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٥٧ ذلك يوم البعث، إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتركا- ١٥٨ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٥٩ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٦٠ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٦١.

٤٣ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٦٢ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله

ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٦٣. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٦٤ ذلك يوم البعث؛ إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتراكا- ١٦٥ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٦٦ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٦٧ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٦٨.

٤٤ - (يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

{فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وإدبار السجود (٤٠) واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤)}.

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالإعراض عن الجاهلين ولغوهم، وألا نضيق بجحودهم وارتيابهم- فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم- ونزّه ربك شاكرا له أنعمه، وقدّسه ناهضا بالسجود والركوع والصلاة له قبل طلوع الشمس [صبحا] وقبل غروبها [عصرا] وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع. . . . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ: {. . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به؛ وقوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} أي فصلِّ له، لقوله: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٦٩ {. . وإدبار السجود} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ قال صلى الله عليه وسلم: (أفلا فعلتم شيئا إذا فعلتم تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) قال: فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ١٧٠. واستمع لما يوحى من أهوال يوم القيامة، يوم ينادي المنادي، يوم النفخة الثانية في الصور، فيخرج من في القبور، للحشر والنشور، ينادَوْن من قريب فلا يخفى النداء على أحد، يناديهم المولى فيلبّون النداء: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا} ١٧١ ذلك يوم البعث؛ إنا نحن نحيي ونميت في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد {. . وإلينا المصير} المرجع للجزاء في الآخرة إلينا لا إلى غيرنا- لا استقلالا ولا اشتراكا- ١٧٢ يوم يخرجون من الأجداث مسرعين يساقون إلى العرض على

مالك يوم الدين، لا يغيب منهم أحد، ولن يجدوا لهم من دونه موئلا، وذلك السوْق والجمع والنشور والحشر يسير علينا هين {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ١٧٣ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا} ١٧٤ {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} ١٧٥.

٤٥ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

{نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥)}

ربكم أعلم بما تفيضون فيه، ومهما أسررتم القول أو جهرتم به فإن الله سميع يعلم السر وأخفى {أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٧٦ {. . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٧٧ - وهذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم -وما أنت بمسيطر عليهم تقهرهم على الإيمان أو تملك لهم شيئا، إنما أنت منذر، وقيل أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم، فذكر بهذا الحق الذي جاءك والذكر العزيز، وأنذر الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فإنه لا ينتفع به غيرهم: {سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى} ١٧٨ أما القاسية قلوبهم والذين لا يرجون لقاء الله، ولا يستيقنون بالآخرة فلا تغني عنهم النذر {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا} ١٧٩ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب. } ١٨٠.

وهكذا بدأت آيات هذه السورة المباركة ببيان عظيم شأن القرآن ومجده {ق. والقرآن المجيد} وختمت بالتبصرة بشيء من أماناته وعهده: {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، فدوروا مع القرآن وكونوا معه، واستمسكوا بحبله، واعتصموا بعروته الوثقى، واتبعوه لعلكم تفلحون.

في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تنورنا ١٨١ وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا سنتين-أو سنة وبعض سنة- وما أخذت {ق. والقرآن المجيد} إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس ١٨٢. ربما لأن أكثر ما فيها ذكر للمبدأ والمعاد، وفي ذلك ترسيخ لليقين، وتقديس للعزيز الرحيم الخلاق العليم، وتثبيت على طاعة الله وصراطه المستقيم.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٨٣. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ١٨٤، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١٨٥، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١٨٦، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١٨٧، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١٨٨، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١٨٩، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١٩٠، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١٩١، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١٩٢، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١٩٣، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١٩٤، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ١٩٥

الرحيم} ١٩٦.
بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.
وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:
{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١٩٧، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١٩٨، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١٩٩، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ٢٠٠، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ٢٠١، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ٢٠٢، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ٢٠٣، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ٢٠٤.
كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٢٠٥، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٢٠٦، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٢٠٧ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .
وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٢٠٨، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ٢٠٩، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٢١٠، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٢١١، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٢١٢، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٢١٣ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٢١٤، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٢١٥، {أم له البنات ولكم البنون} ٢١٦.
قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٢١٧.
ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.
فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.
ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم

عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.
{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٢١٨.
ومن سنته تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ٢١٩، {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٢٢٠، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٢٢١، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٢٢٢، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ٢٢٣.
وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.
وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٢٢٤، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٢٢٥: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٢٢٦.
وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٢٢٧، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٢٢٨، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٢٢٩، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٣٠، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٢٣١ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٢٣٢، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٢٣٣، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٢٣٤، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٢٣٥، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٢٣٦، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٢٣٧.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٢٣٨، وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٢٣٩، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٢٤٠ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢٤١ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر، وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٢٤٢، وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٢٤٣. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٢٤٤.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢٤٥، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٤٦. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٤٧، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٤٨، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٤٩، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٢٥٠.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٥١، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٥٢، وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ٢٥٣، أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ٢٥٤.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ٢٥٥، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ٢٥٦، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٥٧ {ذوتا أفنان} ٢٥٨، {فيهما عينان تجريان} ٢٥٩ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ٢٦٠، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ٢٦١، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٦٢، {كأنهن الياقوت والمرجان} ٢٦٣، {ومن دونهما جنتان} ٢٦٤ {مدهامتان} ٢٦٥ {فيهما عينان نضاختان} ٢٦٦، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ٢٦٧، {فيهن خيرات حسان} ٢٦٨، {حور مقصورات في الخيام} ٢٦٩، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٧٠، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ٢٧١ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما

سلاما} ٢٧٢.
في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا، ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.
ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٢٧٣، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٢٧٤.
والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٢٧٥، {. . وولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٢٧٦ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٢٧٧، {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٢٧٨.
إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٢٧٩، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٢٨٠.
ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٨١، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٢٨٢، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٢٨٣، {فسبح باسم ربك العظيم} ٢٨٤، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢٨٥؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٢٨٦.
والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢٨٧، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.
وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى

أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢٨٨، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢٨٩ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢٩٠ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢٩١، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢٩٢.

٥١ سورة الذاريات:

سورة الذاريات:
سورة الذاريات
مكية
وآياتها ستون
كلماتها: ٣٧٠، حروفها: ١٢٨٦.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والذاريات ذروا (١)}
أقسم ربنا- تبارك اسمه- بالرياح يرسلها سبحانه فتبدِّد وتفرق ما ترفعه عن مكانه من ذرات تراب أو ماء أو ما شاء القوي القدير أن تذروه، من لقاح أو هشيم أو غيرهما، وإلى بعضها أشار القرآن الحكيم: {. . فأصبح هشيما تذروه الرياح} ١ {وأرسلنا الرياح لواقح} ٢.
٢ - (فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا)
{فالحاملات وقرا (٢)}.
وأقسم المولى عز شأنه بالسحب الحاملات للمطر الموقرات المثقلات به، وما أعجب شأنها: {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٣ ويغيث به مولانا العباد والبلاد {. . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} ٤، ويُسكن الحكيم الخبير قدرا منه فيسلكه ينابيع في الأرض.
٣ - (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا)
{فالجاريات يسرا (٣)}.
هي السفن تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته، يجريها القدير بتيسيره وتسخيره {. . وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره} ٥ {وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام} ٦.
٤ - (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا)
{فالمقسمات أمرا (٤)}
وأقسم جل وعز بالملائكة التي تأتي بأمر مقسوم من لدن الفعال لما يريد: خصب وجدب، ومطر وموت.
روى جمع من أئمة التفسير أن تفسير كل بما ذكر جاءت به الآثار ٧.
٥ - (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)
{إنما توعدون لصادق (٥) وإن الدين لواقع (٦)}
هذا هو المقسم عليه، و {ما} موصولة بمعنى الذي؛ إن الذي توعدونه أو توعدون به من الخير والشر والثواب والعقاب- ويحتمل أن تكون مصدرية- أي إن وعيدكم متحقق لا كذب فيه بل هو صدق- وقع الاسم موقع المصدر- وإن الجزاء لحاصل لن يخطئكم، يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

ولعل من حكمة المولى-عز شأنه- في الإقسام بهذه المذكورات أن يتذكر من له سمع وعقل أن الذي يُجري الرياح لا يُعجزه أن يجمع ما تناثر في الآفاق من أجسام الموتى، أو ما غاص في لجج البحار، أو تخلل ذرات القبور والأغوار: {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في السماوات أو في الأرض يأت بها الله} ٨ {قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ} ٩.

٦ - (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{إنما توعدون لصادق (٥) وإن الدين لواقع (٦)}

هذا هو المقسم عليه، و {ما} موصولة بمعنى الذي؛ إن الذي توعدونه أو توعدون به من الخير والشر والثواب والعقاب- ويحتمل أن تكون مصدرية- أي إن وعيدكم متحقق لا كذب فيه بل هو صدق- وقع الاسم موقع المصدر- وإن الجزاء لحاصل لن يخطئكم، يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

ولعل من حكمة المولى-عز شأنه- في الإقسام بهذه المذكورات أن يتذكر من له سمع وعقل أن الذي يُجري الرياح لا يُعجزه أن يجمع ما تناثر في الآفاق من أجسام الموتى، أو ما غاص في لجج البحار، أو تخلل ذرات القبور والأغوار: {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في السماوات أو في الأرض يأت بها الله} ١٠ {قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ} ١١.

٧ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

{والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)}

بعد أن أقسم ربنا سبحانه على مصيرهم ومآلهم، أقسم - جلت حكمته- على سوء حالهم وضلالهم، والقسم هنا بالسماء ذات الحسن والبهاء المرفوعة بلا عمد، المحكمة الشديدة غير المتهاوية؛ وجواب القسم: إنكم لتقولون قولا يكذب بعضه بعضا، يُخْدَع عنه من خُدِع، ويُؤفك ويفسد عقل المفتونين، فيسوء ظنهم برب العالمين، وباللقاء والجزاء يوم الدين؛ فبينما يقر المشركون بأنه خالق السماوات والأرض {ولئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ١٢ إذا هم يشركون به ما لا يخلق شيئا وهم يُخلقون؛ وعلى حين يقولون ما حكاه القرآن الحكيم: {إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ١٣ يطلبون الزلفى إلى أصنامهم ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فما يضل عن الكبير المتعال ولقائه إلا شقي ضال.

٨ - (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)}

بعد أن أقسم ربنا سبحانه على مصيرهم ومآلهم، أقسم - جلت حكمته- على سوء حالهم وضلالهم، والقسم هنا بالسماء ذات الحسن والبهاء المرفوعة بلا عمد، المحكمة الشديدة غير المتهاوية؛ وجواب القسم: إنكم لتقولون قولا يكذب بعضه بعضا، يُخْدَع عنه من خُدِع، ويُؤفك ويفسد عقل المفتونين، فيسوء ظنهم برب العالمين، وباللقاء والجزاء يوم الدين؛ فبينما يقر المشركون بأنه خالق السماوات والأرض {ولئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ١٤ إذا هم يشركون به ما لا يخلق شيئا وهم يُخلقون؛ وعلى حين يقولون ما حكاه القرآن الحكيم: {إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ١٥ يطلبون الزلفى إلى أصنامهم ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فما يضل عن الكبير المتعال ولقائه إلا شقي ضال.

٩ - (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)}

بعد أن أقسم ربنا سبحانه على مصيرهم ومآلهم، أقسم - جلت حكمته- على سوء حالهم وضلالهم، والقسم هنا بالسماء ذات الحسن والبهاء المرفوعة بلا عمد، المحكمة الشديدة غير المتهاوية؛ وجواب القسم: إنكم لتقولون قولا يكذب بعضه بعضا، يُخْدَع عنه من خُدِع، ويُؤفك ويفسد عقل المفتونين، فيسوء ظنهم برب العالمين، وباللقاء والجزاء يوم الدين؛ فبينما يقر المشركون بأنه خالق السماوات والأرض {ولئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} ١٦ إذا هم يشركون به ما لا يخلق شيئا وهم يُخلقون؛ وعلى حين يقولون ما حكاه القرآن الحكيم: {إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ١٧ يطلبون الزلفى إلى أصنامهم ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فما يضل عن الكبير المتعال ولقائه إلا شقي ضال.

١٠ - (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

{قتل} قُطِع وهَلك ولعِن.

{الخراصون} الكذابون، ومن يدعون الحدس والتخمين.

{قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسألون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤)}

أصحاب الريب والتردد في جلال الله تعالى ولقائه يتبعون الظن {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين} ١٨، فاستحقوا بهذا الغي أن يهلكهم الله، وأن يُدعى عليهم باللعنة والطرد من الرحمة؛ والغفلة تغطيهم فهم لا يرجون آخرة ولا يخافون حسابا، شغلتهم زخارف الدنيا، وغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور: {يستعجلون بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد} ١٩ يستهزئون بالآخرة ويستبعدون وقوعها، لكنها ستدهمهم، فتنكشف عنهم الغفلة، فلا ينتبهون إلا وقد أحاط بهم سرادق النار؛ وتقول لهم الملائكة - سخرية بهم-: ذوقوا نصيبكم من العذاب الذي كنتم تستعجلون وقوعه.

١١ - (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

{غمرة} جهالة غفلة.

{ساهون} تاركون لاهون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٢ - (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

{أيان} متى؟

{يوم الدين} يوم يدان الناس، يوم الحساب والجزاء.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٣ - (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

{يفتنون} يعذبون، وأصل الفتن: إذابة الجوهر ليظهر غشه، ثم استعمل في الإحراق والتعذيب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٤ - (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

{إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)}.

الآيات السابقات بينت سخط الله على كل مُفتر شقي، وهذه بينت رضوانه على كل بر تقي، فليرسخ اليقين بأن من أطاع ربه واتبع

هداه فإن مستقره الجنات العاليات، والبساتين النضرات، وتتخللها عيون بأعذب الماء متفجرات، والفرح والحبور يملأ نفوسهم، ويتلقون بغاية الرضا حظهم من النعيم وما أُعد لهم؛ ولقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم كانوا في دنياهم يُتقنون عبادتهم وأعمالهم، فطالما تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم، ويقضون ساعات الليل ٢٠ خاضعين خاشعين، قائمين ساجدين مصلين، ولآيات القرآن تالين، مسبحين وداعين ومستغفرين، وينفقون مما استخلفهم الله فيه، تفريجا لكرب السائلين والمتعففين عن السؤال.

[وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر). . . قال الزهري وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) ٢١ وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر] ٢٢.

[وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذكره الثعلبي] ٢٣.

١٦ - (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)}.

الآيات السابقات بينت سخط الله على كل مُفتر شقي، وهذه بينت رضوانه على كل بر تقي، فليرسخ اليقين بأن من أطاع ربه واتبع هداه فإن مستقره الجنات العاليات، والبساتين النضرات، وتتخللها عيون بأعذب الماء متفجرات، والفرح والحبور يملأ نفوسهم، ويتلقون بغاية الرضا حظهم من النعيم وما أُعد لهم؛ ولقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم كانوا في دنياهم يُتقنون عبادتهم وأعمالهم، فطالما تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم، ويقضون ساعات الليل ٢٤ خاضعين خاشعين، قائمين ساجدين مصلين، ولآيات القرآن تالين، مسبحين وداعين ومستغفرين، وينفقون مما استخلفهم الله فيه، تفريجا لكرب السائلين والمتعففين عن السؤال.

[وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر). . . قال الزهري وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) ٢٥ وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر] ٢٦.

[وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذكره الثعلبي] ٢٧.

١٧ - (كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)}.

الآيات السابقات بينت سخط الله على كل مُفتر شقي، وهذه بينت رضوانه على كل بر تقي، فليرسخ اليقين بأن من أطاع ربه واتبع هداه فإن مستقره الجنات العاليات، والبساتين النضرات، وتخللها عيون بأعذب الماء متفجرات، والفرح والحبور يملأ نفوسهم، ويتلقون بغاية الرضا حظهم من النعيم وما أُعد لهم؛ ولقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم كانوا في دنياهم يُتقنون عبادتهم وأعمالهم، فطالما تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم، ويقضون ساعات الليل ٢٨ خاضعين خاشعين، قائمين ساجدين مصلين، ولآيات القرآن تالين، مسبحين وداعين ومستغفرين، وينفقون مما استخلفهم الله فيه، تفريجا لكرب السائلين والمتعففين عن السؤال.

[وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر). . . قال الزهري وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) ٢٩ وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر] ٣٠.

[وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذكره الثعلبي] ٣١.

١٨ - (وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)}.

الآيات السابقات بينت سخط الله على كل مُفتر شقي، وهذه بينت رضوانه على كل بر تقي، فليرسخ اليقين بأن من أطاع ربه واتبع هداه فإن مستقره الجنات العاليات، والبساتين النضرات، وتخللها عيون بأعذب الماء متفجرات، والفرح والحبور يملأ نفوسهم، ويتلقون بغاية الرضا حظهم من النعيم وما أُعد لهم؛ ولقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم كانوا في دنياهم يُتقنون عبادتهم وأعمالهم، فطالما تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم، ويقضون ساعات الليل ٣٢ خاضعين خاشعين، قائمين ساجدين مصلين، ولآيات القرآن تالين، مسبحين وداعين ومستغفرين، وينفقون مما استخلفهم الله فيه، تفريجا لكرب السائلين والمتعففين عن السؤال.

[وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر). . . قال الزهري وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) ٣٣ وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر] ٣٤.

[وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذكره الثعلبي] ٣٥.

١٩ - (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧)

وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)}.

الآيات السابقات بينت سخط الله على كل مُفتر شقي، وهذه بينت رضوانه على كل بر تقي، فليرسخ اليقين بأن من أطاع ربه واتبع هداه فإن مستقره الجنات العاليات، والبساتين النضرات، وتتخللها عيون بأعذب الماء متفجرات، والفرح والحبور يملأ نفوسهم، ويتلقون بغاية الرضا حظهم من النعيم وما أُعد لهم؛ ولقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم كانوا في دنياهم يُتقنون عبادتهم وأعمالهم، فطالما تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم، ويقضون ساعات الليل ٣٦ خاضعين خاشعين، قائمين ساجدين مصلين، ولآيات القرآن تالين، مسبحين وداعين ومستغفرين، وينفقون مما استخلفهم الله فيه، تفريجا لكرب السائلين والمتعففين عن السؤال.

[وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر). . . قال الزهري وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) ٣٧ وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر] ٣٨.

[وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ذكره الثعلبي] ٣٩.

٢٠ - (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

{وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)}

حكمة الله تعالى تتجلى في كل ما يحيط بنا، ويعتبر ويتعظ بآياتها من تزيده الشواهد والعبر يقينا، أما الغافل، أو المماري المجادل بالباطل، أو الجاحد الضال الجاهل، فأولئك لا ينتفعون بآيات ولا ببرهان: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر} ٤٠.

أودع الله البارئ المصور أرضنا عجائب لا نحصيها، فطبيعة تكوينها ليست المتناهية الثقل، ولا بالبالغة نهاية الخفة والشفافية، وبذلك ثبتت في حيزها وتستفيد من الشمس والقمر حولها؛ ولم يجعلها في غاية الصلابة ولا في غاية اللين، وبهذا يمكن الاستقرار عليها، وشق الأنهار وحفر الآبار فيها، وإقامة الأبنية منها وعليها، وانصداعها بالنبات وانشقاقها عنه؛ ثم انظر إلى آثار رحمة الله في البركات التي تملأ جنباتها: بشر يخافون ربهم ويطيعونه، ويسبحونه ويقدسونه، يباهي الله بهم ملائكته، سخر لهم الأرض فمنها أصلهم، وفيها قبورهم ومنها بعثهم ونشورهم، ومن برها وبحرها ومختلف أقطارها أقواتهم وثيابهم وحليهم، وعلى سطحها ومن جوفها أرزاقهم، ومن أنعامها وزرعها غذاؤهم، وعلى دوابها وفلكها ومراكبها أثقالهم وارتحالهم، وفي حرها وقرّها وليلها ونهارها صلاح لهم؛ ثم يدلنا الكتاب الكريم على وحدانية العزيز الغفار، ويتجاوز بنا مجرد الأخبار- وإنها لحق من الله الحق الفاعل المختار-ويحضنا على النظر والاعتبار، والتدبر في الصنعة الربانية لتهدينا إلى الصانع الواحد القهار: {فلينظر الإنسان مم خلق} ٤١، وفينا معاشر الآدميين علامات ودلائل تشهد بأننا من خلق رب رحيم قادر عليم؛ فنحن- وقد فضلنا على سائر خلقه- لا نملك حتى بعد أن يمنحنا السمع والبصر والعقل والقوة أن نُحْدِث لأنفسنا خيرا أو ندفع عنها ضرا-إلا أن يشاء ربنا-فكيف نستطيع أن نوجد أنفسنا أو غيرنا؟!.

لقد أثبت العقل والنقل عجزنا عن مضاهاة خلق ربنا ولو في خلق حبة أو ذرة أو أهون دابة {. . . لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له. } ٤٢، وفي أصل نشأتنا آيات تدل على تفرد ربنا بالخلق والتدبير؛ فأبونا آدم من تراب خالطه ماء فإذا هو طين صلصال وحمأ مسنون، يسويه المولى سبحانه وينفخ فيه من روحه فيتناسل منه ومن زوجه بشر منبثون منتشرون متفرقون؛ وجعل تناسلنا من ماء مهين بين

رجل وامرأة يُقِرُّ الله تعالى منه ما يشاء في الأرحام، ويرعاه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث- ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة-: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} ٤٣. ويتولنا على امتداد حياتنا، فبعد تصوير الأجنة في الأرحام يتزايد الفضل والإنعام فنقوى بعد ضعف، ونوهب التمييز والإدراك: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون} ٤٤، ويمنحنا مولانا المظهر السويّ: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} ٤٥؛ وعلى ما أودع أجسامنا من أتقن التراكيب ٤٦، ففي الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، وفي الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، والقرآن يذكر بجانب من تلك النعم: {ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين} سورة البلد. الآيتان ٩، ٨.

{وفي السماء رزقكم} في جهة السماء السحاب الذي يحمل المطر وفيه حياة العباد والبلاد، -والنبات والحيوان-أو أسباب رزقكم من النيّرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادي الرزق. . أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبب- ٤٧.

[وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. . {وما توعدون} قال مجاهد يعني من خير وشر. . {فورب السماء والأرض إنه لحق} أكد ما أخبرهم به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحق، ثم أكده بقوله: {مثل ما أنكم تنطقون} وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه. . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره.] ٤٨

٢١ - (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

{وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)}

حكمة الله تعالى تتجلى في كل ما يحيط بنا، ويعتبر ويتعظ بآياتها من تزيده الشواهد والعبر يقينا، أما الغافل، أو المماري المجادل بالباطل، أو الجاحد الضال الجاهل، فأولئك لا ينتفعون بآيات ولا ببرهان: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر} ٤٩.

أودع الله البارئ المصور أرضنا عجائب لا نحصيها، فطبيعة تكوينها ليست المتناهية الثقل، ولا بالبالغة نهاية الخفة والشفافية، وبذلك ثبتت في حيزها وتستفيد من الشمس والقمر حولها، ولم يجعلها في غاية الصلابة ولا في غاية اللين، وبهذا يمكن الاستقرار عليها، وشق الأنهار وحفر الآبار فيها، وإقامة الأبنية منها وعليها، وانصداعها بالنبات وانشقاقها عنه؛ ثم انظر إلى آثار رحمة الله في البركات التي تملأ جنباتها: بشر يخافون ربهم ويطيعونه، ويسبحونه ويقدسونه، يباهي الله بهم ملائكته، سخر لهم الأرض فمنها أصلهم، وفيها قبورهم ومنها بعثهم ونشورهم، ومن برها وبحرها ومختلف أقطارها أقواتهم وثيابهم وحليهم، وعلى سطحها ومن جوفها أرزاقهم، ومن أنعامها وزرعها غذاؤهم، وعلى دوابها وفلكها ومراكبها أثقالهم وارتحالهم، وفي حرها وقرّها وليلها ونهارها صلاح لهم؛ ثم يدلنا الكتاب الكريم على وحدانية العزيز الغفار، ويتجاوز بنا مجرد الأخبار- وإنها لحق من الله الحق الفاعل المختار-ويحضنا على النظر والاعتبار، والتدبر في الصنعة الربانية لتهدينا إلى الصانع الواحد القهار: {فلينظر الإنسان مم خلق} ٥٠، وفينا معاشر الآدميين علامات ودلائل تشهد بأننا من خلق رب رحيم قادر عليم؛ فنحن- وقد فضلنا على سائر خلقه- لا نملك حتى بعد أن يمنحنا السمع والبصر والعقل والقوة أن نُحْدِث لأنفسنا خيرا أو ندفع عنها ضرا-إلا أن يشاء ربنا-فكيف نستطيع أن نوجد أنفسنا أو غيرنا؟!.

لقد أثبت العقل والنقل عجزنا عن مضاهاة خلق ربنا ولو في خلق حبة أو ذرة أو أهون دابة {. . . لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له. } ٥١، وفي أصل نشأتنا آيات تدل على تفرد ربنا بالخلق والتدبير؛ فأبونا آدم من تراب خالطه ماء فإذا هو طين صلصال وحمأ مسنون، يسويه المولى سبحانه وينفخ فيه من روحه فيتناسل منه ومن زوجه بشر منبثون منتشرون متفرقون؛ وجعل تناسلنا من ماء مهين بين

رجل وامرأة يُقِرُّ الله تعالى منه ما يشاء في الأرحام، ويرعاه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث- ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة-: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} ٥٢. ويتولنا على امتداد حياتنا، فبعد تصوير الأجنة في الأرحام يتزايد الفضل والإنعام فنقوى بعد ضعف، ونوهب التمييز والإدراك: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون} ٥٣، ويمنحنا مولانا المظهر السويّ: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} ٥٤؛ وعلى ما أودع أجسامنا من أتقن التراكيب ٥٥، ففي الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، وفي الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، والقرآن يذكر بجانب من تلك النعم: {ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين} سورة البلد. الآيتان ٩، ٨.

{وفي السماء رزقكم} في جهة السماء السحاب الذي يحمل المطر وفيه حياة العباد والبلاد، -والنبات والحيوان-أو أسباب رزقكم من النيّرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادي الرزق. . أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبب- ٥٦.

[وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. . {وما توعدون} قال مجاهد يعني من خير وشر. . {فورب السماء والأرض إنه لحق} أكد ما أخبرهم به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحق، ثم أكده بقوله: {مثل ما أنكم تنطقون} وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه. . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره.] ٥٧

٢٢ - (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

{وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)}

حكمة الله تعالى تتجلى في كل ما يحيط بنا، ويعتبر ويتعظ بآياتها من تزيده الشواهد والعبر يقينا، أما الغافل، أو المماري المجادل بالباطل، أو الجاحد الضال الجاهل، فأولئك لا ينتفعون بآيات ولا ببرهان: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر} ٥٨.

أودع الله البارئ المصور أرضنا عجائب لا نحصيها، فطبيعة تكوينها ليست المتناهية الثقل، ولا بالبالغة نهاية الخفة والشفافية، وبذلك ثبتت في حيزها وتستفيد من الشمس والقمر حولها، ولم يجعلها في غاية الصلابة ولا في غاية اللين، وبهذا يمكن الاستقرار عليها، وشق الأنهار وحفر الآبار فيها، وإقامة الأبنية منها وعليها، وانصداعها بالنبات وانشقاقها عنه؛ ثم انظر إلى آثار رحمة الله في البركات التي تملأ جنباتها: بشر يخافون ربهم ويطيعونه، ويسبحونه ويقدسونه، يباهي الله بهم ملائكته، سخر لهم الأرض فمنها أصلهم، وفيها قبورهم ومنها بعثهم ونشورهم، ومن برها وبحرها ومختلف أقطارها أقواتهم وثيابهم وحليهم، وعلى سطحها ومن جوفها أرزاقهم، ومن أنعامها وزرعها غذاؤهم، وعلى دوابها وفلكها ومراكبها أثقالهم وارتحالهم، وفي حرها وقرّها وليلها ونهارها صلاح لهم؛ ثم يدلنا الكتاب الكريم على وحدانية العزيز الغفار، ويتجاوز بنا مجرد الأخبار- وإنها لحق من الله الحق الفاعل المختار-ويحضنا على النظر والاعتبار، والتدبر في الصنعة الربانية لتهدينا إلى الصانع الواحد القهار: {فلينظر الإنسان مم خلق} ٥٩، وفينا معاشر الآدميين علامات ودلائل تشهد بأننا من خلق رب رحيم قادر عليم؛ فنحن- وقد فضلنا على سائر خلقه- لا نملك حتى بعد أن يمنحنا السمع والبصر والعقل والقوة أن نُحْدِث لأنفسنا خيرا أو ندفع عنها ضرا-إلا أن يشاء ربنا-فكيف نستطيع أن نوجد أنفسنا أو غيرنا؟!.

لقد أثبت العقل والنقل عجزنا عن مضاهاة خلق ربنا ولو في خلق حبة أو ذرة أو أهون دابة {. . . لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له. } ٦٠، وفي أصل نشأتنا آيات تدل على تفرد ربنا بالخلق والتدبير؛ فأبونا آدم من تراب خالطه ماء فإذا هو طين صلصال وحمأ مسنون، يسويه المولى سبحانه وينفخ فيه من روحه فيتناسل منه ومن زوجه بشر منبثون منتشرون متفرقون؛ وجعل تناسلنا من ماء مهين بين

رجل وامرأة يُقِرُّ الله تعالى منه ما يشاء في الأرحام، ويرعاه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث- ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة-: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} ٦١. ويتولنا على امتداد حياتنا، فبعد تصوير الأجنة في الأرحام يتزايد الفضل والإنعام فنقوى بعد ضعف، ونوهب التمييز والإدراك: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون} ٦٢، ويمنحنا مولانا المظهر السويّ: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} ٦٣؛ وعلى ما أودع أجسامنا من أتقن التراكيب ٦٤، ففي الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، وفي الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، والقرآن يذكر بجانب من تلك النعم: {ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين} سورة البلد. الآيتان ٩، ٨.

{وفي السماء رزقكم} في جهة السماء السحاب الذي يحمل المطر وفيه حياة العباد والبلاد، -والنبات والحيوان-أو أسباب رزقكم من النيّرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادي الرزق. . أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبب- ٦٥.

[وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. . {وما توعدون} قال مجاهد يعني من خير وشر. . {فورب السماء والأرض إنه لحق} أكد ما أخبرهم به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحق، ثم أكده بقوله: {مثل ما أنكم تنطقون} وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه. . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره.] ٦٦

٢٣ - (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٠]

{وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)}

حكمة الله تعالى تتجلى في كل ما يحيط بنا، ويعتبر ويتعظ بآياتها من تزيده الشواهد والعبر يقينا، أما الغافل، أو المماري المجادل بالباطل، أو الجاحد الضال الجاهل، فأولئك لا ينتفعون بآيات ولا ببرهان: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر} ٦٧.

أودع الله البارئ المصور أرضنا عجائب لا نحصيها، فطبيعة تكوينها ليست المتناهية الثقل، ولا بالبالغة نهاية الخفة والشفافية، وبذلك تثبت في حيزها وتستفيد من الشمس والقمر حولها؛ ولم يجعلها في غاية الصلابة ولا في غاية اللين، وبهذا يمكن الاستقرار عليها، وشق الأنهار وحفر الآبار فيها، وإقامة الأبنية منها وعليها، وانصداعها بالنبات وانشقاقها عنه؛ ثم انظر إلى آثار رحمة الله في البركات التي تملأ جنباتها: بشر يخافون ربهم ويطيعونه، ويسبحونه ويقدسونه، يباهي الله بهم ملائكته، سخر لهم الأرض فمنها أصلهم، وفيها قبورهم ومنها بعثهم ونشورهم، ومن برها وبحرها ومختلف أقطارها أقواتهم وثيابهم وحليهم، وعلى سطحها ومن جوفها أرزاقهم، ومن أنعامها وزرعها غذاؤهم، وعلى دوابها وفلكها ومراكبها أثقالهم وارتحالهم، وفي حرها وقرّها وليلها ونهارها صلاح لهم؛ ثم يدلنا الكتاب الكريم على وحدانية العزيز الغفار، ويتجاوز بنا مجرد الأخبار- وإنها لحق من الله الحق الفاعل المختار-ويحضنا على النظر والاعتبار، والتدبر في الصنعة الربانية لتهدينا إلى الصانع الواحد القهار: {فلينظر الإنسان مم خلق} ٦٨، وفينا معاشر الآدميين علامات ودلائل تشهد بأننا من خلق رب رحيم قادر عليم؛ فنحن- وقد فضلنا على سائر خلقه- لا نملك حتى بعد أن يمنحنا السمع والبصر والعقل والقوة أن نُحْدِث لأنفسنا خيرا أو ندفع عنها ضرا-إلا أن يشاء ربنا-فكيف نستطيع أن نوجد أنفسنا أو غيرنا؟!.

لقد أثبت العقل والنقل عجزنا عن مضاهاة خلق ربنا ولو في خلق حبة أو ذرة أو أهون دابة {. . . لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له. } ٦٩، وفي أصل نشأتنا آيات تدل على تفرد ربنا بالخلق والتدبير؛ فأبونا آدم من تراب خالطه ماء فإذا هو طين صلصال وحمأ مسنون، يسويه المولى سبحانه وينفخ فيه من روحه فيتناسل منه ومن زوجه بشر منبثون منتشرون متفرقون؛ وجعل تناسلنا من ماء مهين بين

رجل وامرأة يُقِرُّ الله تعالى منه ما يشاء في الأرحام، ويرعاه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث- ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة-: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} ٧٠. ويتولنا على امتداد حياتنا، فبعد تصوير الأجنة في الأرحام يتزايد الفضل والإنعام فنقوى بعد ضعف، ونوهب التمييز والإدراك: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون} ٧١، ويمنحنا مولانا المظهر السويّ: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} ٧٢؛ وعلى ما أودع أجسامنا من أتقن التراكيب ٧٣، ففي الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، وفي الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، والقرآن يذكر بجانب من تلك النعم: {ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين} سورة البلد. الآيتان ٩، ٨.

{وفي السماء رزقكم} في جهة السماء السحاب الذي يحمل المطر وفيه حياة العباد والبلاد، -والنبات والحيوان-أو أسباب رزقكم من النيّرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادي الرزق. . أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبب- ٧٤.

[وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. . {وما توعدون} قال مجاهد يعني من خير وشر. . {فورب السماء والأرض إنه لحق} أكد ما أخبرهم به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحق، ثم أكده بقوله: {مثل ما أنكم تنطقون} وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه. . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره.] ٧٥

٢٤ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

{هل} تأتي بمعنى قد، كما في قوله – تبارك اسمه- {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا} وقوله سبحانه: {هل أتاك حديث الغاشية}.

{هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠)}.

قد جاءك نبأ أضياف إبراهيم عليه السلام من الملائكة- وقد أتوا في صورة رجال- وإنهم لذوي قدر ومكانة، وكرامة على الله سبحانه؛ وحين دخلوا عليه حيوه بالسلام فرد عليهم وحياهم، لكنه لعله أراد أن يتعرف عليهم فأخبرهم أنه لا يعرفهم وسارع إلى حيث أهل داره فأعد لهم خير ما عنده من طعام، {عجل} ولد بقرة {سمين} ممتلئ شحما ولحما [مشوي] كما جاء في آية كريمة أخرى: {. . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ} ٧٦ فقدم لهم الطعام ووضعه بين أيديهم وتلطف في دعوتهم ليطعموا قائلا: {ألا تأكلون} فلم يتناولوا منه شيئا فخاف إبراهيم-عليه السلام- إذا أعرضوا عما كرّمهم به، فعلموا- بتعليم ربنا إياهم- أن إبراهيم خالطه خوف فطمأنوه قائلين {. . لا تخف} وحملوا إليه ما يشرح صدره، ويَسُرُّه وأهله، فبشروه بأنهم رسل الله إليه يبلغونه عن ربه أن ستلد له زوجته [سارة] ابنا ذكرا [هو إسحق] وسيؤتيه الله تعالى علما من علمه، وسيصطفيه نبيا من أنبيائه، وكأن امرأته أحست ومعها نسوة أن هؤلاء الأضياف من الملائكة فأقبلن يستمعن، ففاجأها إحساس بالمحيض فضربت فوق جبينها تعجبا وقالت ما بيّنه القرآن في آية كريمة أخرى {. . يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد} ٧٧ وكان الأمر على غير ما ألف الناس، فإنها قد بلغت وقتئذاك سن اليأس وانقطع عنها الحيض وعندما كانت تحيض كانت عقيما لا تحمل ولا تلد، لكن لا يُسْتكثَر على ربنا القوي فعل شيء، {. . إن ربك فعال لما يريد} ٧٨ وهكذا ذكّرت الملائكة الكرام بسنة ربنا الملك العلام، ونافذ مراده وبالغ حكمته.

[. . {المكرمين} أي عند الله عز وجل- كما قال الحسن- فهو كقوله تعالى في الملائكة عليهم السلام: {. . بل عباد مكرمون} ٧٩ أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجّل لهم القرى. . {. . فقالوا سلاما} أي نسلم عليك سلاما؛ وأوجب في البحر

حذف الفعل لأن المصدر سادّ مسدّه. . والأكثر على أن التقدير: أنتم قوم منكرون، وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف، كقولك لمن لقيته: أنا لا أعرفك، تريد: عرف لي نفسك وصفها، وذهب بعض المحققين إلى أن الذي يظهر أن التقدير: هؤلاء {قوم منكرون} وأنه عليه السلام قاله في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك] ٨٠.

[. . وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك مما هو ظاهر التنزيل. . . . . وفي الآية الأخرى: {. . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ} أي مشوي على الرضف. . وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة. . وأتى بأفضل ما وجد من ماله. .] ٨١.

٢٥ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

{منكرون} غرباء لا نعرفكم، أو مخيفون، ربما لأنهم دخلوا من غير استئذان، ولمجيئهم بغتة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٢٦ - (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

{فراغ} فعدل ومال وطلب إلى أهله، أو انسل خفية وبسرعة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٢٧ - (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٢٨ - (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)

{فأوجس} أحسّ الخوف حين لم يقبلوا على طعامه.

{بغلام} بابن يولد له من زوجته.

{عليم} يكون فيما بعد من أهل العلم بالله تعالى وبدينه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٢٩ - (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

{صرة} صوت وجلبة، أو جماعة.

{صكت} ضربت يدها على جبهتها.

{عقيم} لا تلد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٣٠ - (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٤ إظهار

٣١ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به – قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ٨٢ - ذهب

بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.
ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ٨٣. [وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ٨٤، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ٨٥؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة، والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٣٢ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به – قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ٨٦ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.
ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ٨٧. [وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ٨٨، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ٨٩؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة، والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٣٣ - (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك

للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به - قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ٩٠ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.

ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ٩١. [وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ٩٢، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ٩٣؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة؛ والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٣٤ - (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به - قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ٩٤ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.

ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ٩٥. [وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ٩٦، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ٩٧؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة؛ والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان،

فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٣٥ - (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به - قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ٩٨ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.

ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ٩٩. [وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ١٠٠، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ١٠١؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة، والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٣٦ - (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.

قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به - قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ١٠٢ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا

وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.
ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ١٠٣.
[وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ١٠٤، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ١٠٥؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة؛ والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.
٣٧ - (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]
{*قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)}.
قال إبراهيم لأضيافه- وقد تبين أنهم ملائكة، ربما لما بشروه به – قال مشفقا مما سيحل من أمر عظيم وخطب جسيم: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم به أيها الملائكة يا رسل الله وجند الملك القوي المتين؟! وفي آيات أخر كريمة بدا أن الخليل عليه الصلاة والسلام حاور الملائكة بإهلاك القوم طمعا في أن يصرف الله عنهم البأس والدمار، وفي ذلك يقول الله الحق- تبارك اسمه-: {. . يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} ١٠٦ - ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى (أوّاه) كثير التأوّه والحزن على ما أصاب المعاندين- فقالت الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم اقترفوا كبار الخطايا وعظائم الجرائم لنهلكهم بقذفهم بحجارة من طين محمى، كما جاء في آية أخرى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.
ولقد جاء ذكر ما حل بهم مفصلا في قوله تعالى: {فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} ١٠٧.
[وذلك أن جبريل عليه السلام- بعد أن صاح بهم، ربما صيحة اقتلاع المدن- أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ١٠٨، فرفعها من تخوم الأرض حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، ولم تتكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة] ١٠٩؛ أو ربما أمطروا من كان من أهلها خارجا منها بالحجارة؛ والحجارة قد مضى في علم الله تعالى أن تكون مهيأة لكل واحد من هؤلاء المهلكين الذين أمعنوا في تجاوز حدود الله وتعديها؛ لكن الخبير البصير نجّى من أهل هذه القرى أهل الإيمان، فأمرهم أن يخرجوا مع نبي الله لوط عليه السلام، ولم يكن أسلم إلا أهل دار واحدة، خرجوا ليلا قبل أن يطلع صباح اليوم الذي قضى الله فيه أن يهلك أهل هذه القرى، وجعل الله أطلال تلك المنقلبات المؤتفكات علامة على اقتداره، وعظمة لمن يتهيب بأس المولى القوي القهار، إذ يشاهد من آثار بطشه وانتقامه هناك؛ أما الذين قست قلوبهم فما تغني عنهم العبر ولا النذر، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.
٣٨ - (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
{وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠)}.

وفي نبأ موسى آية وعلامة على اقتدارنا، وإهلاكنا لمكذبي رسلنا، فقد بعثنا نبينا موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الهدى ودين الحق، ويرده إلى الله الحق، وآتينا رسولنا حجة تدمغ باطل هذا الطاغية المستكبر، وبرهانا بيّنا يوضح للمستيقنين به طريق الرشد، - فأعرض فرعون وانثنى بجانبه وعطفه، وقال قتادة: تولى بقومه، على أن الركن بمعنى القوم، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم، وقال الطاغية حين رأى البرهان والآيات البينات والعلامات الواضحات على قدرة الله القوي، وصدق مبعوثه موسى النبي، اتهم فرعون موسى بالسحر حينا، واتهمه بالجنون حينا آخر يقول اللغويون: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وقيل: السحر عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، كما قيل: السحر الخديعة، ونبت مسحور أي مفسود، والمُسَحَّر المجوف، ورجل مسحور: أي ذاهب العقل، فبطشنا به وبأعوانه فألقيناهم وأغرقناهم ورمينا بهم في البحر وطرحناهم، وهو ملوم على كفره وجحوده وعناده وطغيانه.

٣٩ - (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]

{وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠)}.

وفي نبأ موسى آية وعلامة على اقتدارنا، وإهلاكنا لمكذبي رسلنا، فقد بعثنا نبينا موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الهدى ودين الحق، ويرده إلى الله الحق، وآتينا رسولنا حجة تدمغ باطل هذا الطاغية المستكبر، وبرهانا بيّنا يوضح للمستيقنين به طريق الرشد، - فأعرض فرعون وانثنى بجانبه وعطفه، وقال قتادة: تولى بقومه، على أن الركن بمعنى القوم، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم، وقال الطاغية حين رأى البرهان والآيات البينات والعلامات الواضحات على قدرة الله القوي، وصدق مبعوثه موسى النبي، اتهم فرعون موسى بالسحر حينا، واتهمه بالجنون حينا آخر يقول اللغويون: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وقيل: السحر عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، كما قيل: السحر الخديعة، ونبت مسحور أي مفسود، والمُسَحَّر المجوف، ورجل مسحور: أي ذاهب العقل، فبطشنا به وبأعوانه فألقيناهم وأغرقناهم ورمينا بهم في البحر وطرحناهم، وهو ملوم على كفره وجحوده وعناده وطغيانه.

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]

{وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠)}.

وفي نبأ موسى آية وعلامة على اقتدارنا، وإهلاكنا لمكذبي رسلنا، فقد بعثنا نبينا موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الهدى ودين الحق، ويرده إلى الله الحق، وآتينا رسولنا حجة تدمغ باطل هذا الطاغية المستكبر، وبرهانا بيّنا يوضح للمستيقنين به طريق الرشد، - فأعرض فرعون وانثنى بجانبه وعطفه، وقال قتادة: تولى بقومه، على أن الركن بمعنى القوم، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم، وقال الطاغية حين رأى البرهان والآيات البينات والعلامات الواضحات على قدرة الله القوي، وصدق مبعوثه موسى النبي، اتهم فرعون موسى بالسحر حينا، واتهمه بالجنون حينا آخر يقول اللغويون: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وقيل: السحر عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، كما قيل: السحر الخديعة، ونبت مسحور أي مفسود، والمُسَحَّر المجوف، ورجل مسحور: أي ذاهب العقل، فبطشنا به وبأعوانه فألقيناهم وأغرقناهم ورمينا بهم في البحر وطرحناهم، وهو ملوم على كفره وجحوده وعناده وطغيانه.

٤١ - (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)

{وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢)}.

وفي إهلاكنا عاد بالريح المدمرة التي لا تلقح ولا تمطر ولا تجلب نفعا ولا خيرا، بل لا تترك شيئا تدركه إلا فرقته وأبلته وسحقته، والجملة بعد {إلا} حالية، والشيء هنا عام مخصوص، أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس أو ديار أو شجر أو غير ذلك، روى

أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه.
٤٢ - (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]
}وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢)}.
وفي إهلاكنا عاد بالريح المدمرة التي لا تلقح ولا تمطر ولا تجلب نفعا ولا خيرا، بل لا تترك شيئا تدركه إلا فرقته وأبلته وسحقته، والجملة بعد }إلا} حالية، والشيء هنا عام مخصوص، أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس أو ديار أو شجر أو غير ذلك، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه.
٤٣ - (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ)
}وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥)}.
وفي قبيلة ثمود قوم صالح وما أحل الله تعالى بهم من نقمته آية وعبرة ومزدجر لمن يتأمل ويتفكر، فقد ناداهم نبيهم: {. . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} ١١٠ فأمهلهم رسول الله إليهم {. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} ١١١ {قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه ١١٢ وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله} ١١٣ فأتتهم صيحة من السماء فيها كل مفزع ومهلك، أو نيران وشهب، فأهلكتهم وهم ينظرون إليها ويعاينونها- ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة. . وقال مجاهد: {ينظرون} بمعنى ينتظرون، أي وهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأوا فيها علاماته، وانتظار العذاب أشد من العذاب ١١٤ - فجثموا وقعدوا عاجزين عن دفع ما يحل بهم أو منعه أو حتى الإفلات والهروب منه، ولم ينتصروا بغيرهم وقد أعياهم أن ينتصروا بأنفسهم، وقد أنذر الله بهذا كل باغ مهما أوتي من بأس وقوة بطش: {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} ١١٥.
٤٤ - (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
}وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥)}.
وفي قبيلة ثمود قوم صالح وما أحل الله تعالى بهم من نقمته آية وعبرة ومزدجر لمن يتأمل ويتفكر، فقد ناداهم نبيهم: {. . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} ١١٦ فأمهلهم رسول الله إليهم {. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} ١١٧ {قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه ١١٨ وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله} ١١٩ فأتتهم صيحة من السماء فيها كل مفزع ومهلك، أو نيران وشهب، فأهلكتهم وهم ينظرون إليها ويعاينونها- ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة. . وقال مجاهد: {ينظرون} بمعنى ينتظرون، أي وهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأوا فيها علاماته، وانتظار العذاب أشد من العذاب ١٢٠ - فجثموا وقعدوا عاجزين عن دفع ما يحل بهم أو منعه أو حتى الإفلات والهروب منه، ولم ينتصروا بغيرهم وقد أعياهم أن ينتصروا بأنفسهم، وقد أنذر الله بهذا كل باغ مهما أوتي من بأس وقوة بطش: {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} ١٢١.
٤٥ - (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
}وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥)}.
وفي قبيلة ثمود قوم صالح وما أحل الله تعالى بهم من نقمته آية وعبرة ومزدجر لمن يتأمل ويتفكر، فقد ناداهم نبيهم: }. . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين{ ١٢٢ فأمهلهم رسول الله إليهم }. . فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب{ ١٢٣ }قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه ١٢٤ وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله{ ١٢٥ فأتتهم صيحة من السماء فيها كل مفزع ومهلك، أو نيران وشهب، فأهلكتهم وهم ينظرون إليها ويعاينونها- ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة. . وقال مجاهد: }ينظرون{ بمعنى ينتظرون، أي وهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأوا فيها علاماته، وانتظار العذاب أشد من العذاب ١٢٦ - فجثموا وقعدوا عاجزين عن دفع ما يحل بهم أو منعه أو حتى الإفلات والهروب منه، ولم ينتصروا بغيرهم وقد أعياهم أن ينتصروا بأنفسهم، وقد أنذر الله بهذا كل باغ مهما أوتي من بأس وقوة بطش: }ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون{ ١٢٧.
٤٦ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
}وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦)}
ومن قبل هؤلاء الذين جاءك من أنبائهم ما فيه معتبر، أهلكت قوم نوح الذين تمادوا في المروق عن التوحيد ألف سنة إلا خمسين، فبمثل هذا كانوا أظلم وأطغى فأغرقهم الله أجمعين، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين.
٤٧ - (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)
}والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون (٤٧)}.
}بنيناها{ رفعناها وجعلناها سقفا محفوظا حتى استقلت هكذا بدون أعمدة.
}بأيد{ بقوة وقدرة.
}لموسعون{ وسعنا أرجاءها، أو من الوسع بمعنى الطاقة.
رفعنا السماء فوقكم فأنتم لها وطاء وهي لكم غطاء، وأحكمنا تسويتها فجعلناه كالسقف محبوكة متقنة بقوتنا واقتدارنا، وإنا لمحسنون صنعها، وقد بسطنا آفاقها ١٢٨.
٤٨ - (وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)
}والأرض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨)}.
بسطنا الأرض، وذللناها لكم، تسكنونها وتعمرونها، وتشيدون عليها، وتزرعونها، وتنتشرون في مناكبها وتفترشونها، وتستقرون عليها بعد تقلبكم كما يأوي الطفل إلى مهده وفراشه، ومن رحمتنا أن أحطناكم بما تعظم به النعمة، وبما جعلناه سببا لدفع المهالك إلى حين، فالهواء الذي حولنا به قوام حياتنا، ومنه نستمد أنفاسنا، ولو زاد [أكسيجينه] لاشتعل الكون، ولو زاد [ثاني أكسيد كاربونه] لاختنق الأحياء، ولو انعدم لهلك النبات، والجاذبية الأرضية لولاها لما قام قائم على ساق، ولا استقر حيّ على وجه هذا الكوكب السابح الدوّار، ولولا الغلاف الغازي المحيط بالأرض لأحرقتها الشهب، وأهلكتها الأشعة الكونية القاتلة، أليست تلك العناية الحكيمة وهذا التدبير اللطيف من أحكم ما تُهيأ به الأرض لتكون مهادا لمن يعيشون عليها؟!
تبارك الذي جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا، وأسكنها ماءا معينا، وملأ بحارها ملحا أجاجا، ومن ترابها خلقنا، وفي طياتها تُوارَى أجسادنا، ثم يخرجنا منها يوم يأمرها أن تنشقق، فنخرج من الأجداث سراعا.
٤٩ - (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

}ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩)}
ومن كل أجناس الخليقة أنشأنا الشيء ومقابله، فربنا- تبارك اسمه- هو خالق الأصناف كلها: الذكر والأنثى، الليل والنهار، السعة والضيق، السراء والضراء، الهدى والضلال، الموت والحياة، الطول والعرض، يقول علماء الكلام:
الممكنات المتقابلات ... وجودنا والعدم الصفات ١٢٩
أزمنة ١٣٠ أمكنة ١٣١ جهات ١٣٢ ... كذا المقادير ١٣٣ روى الثقات.
ويقول العلماء التجريبيون: خلق الله السالب والموجب، والجاذب والمنجذب، والمؤثر والمتأثر.
}لعلكم تذكرون} فهل نتذكر أن الكامل هو الذي يخلق الشيء صنفين كلاهما مخالف للآخر، وهو سبحانه يفعل بكل ما يريد؟. . ولتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يُقَدَّر في صفته حركة ولا سكون، ولا قعود ولا قيام، ولا سنة ولا نوم، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ هو- جل علاه- وتر، صمد، {. . ليس كمثله شيء} وإنه إذا تدبرتم ما سبق هذا الثناء في الآية ذاتها ازددتم يقينا: {فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ١٣٤ فتعالى الله اللطيف الخبير.
٥٠ - (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)
}ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين (٥١)}.
سارعوا إلى طاعة ربكم والاعتصام به، فإنه من يعتصم بالله فقد هدي ونجا، وتسابقوا في الخيرات من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، ولا تتربصوا بالبر والقربات كالذين غشيتهم الغفلة، وغرتهم الأماني حتى جاء أمر الله، فإنما بُعِثْتُ محذرا التحذير البيّن الذي لا خفاء به، وأنهاكم عن الشرك فإني قد أرسلت نذيرا مبينا. [. . فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة: أنه تعالى أمر بها أولا وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له في الشرع وهو العذاب دون خلود، ونهى جل شأنه ثانيا أن يشرك بعبادته سبحانه غيره، وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين، وتكون الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظير قوله تعالى: {. . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} ١٣٥ وقوله سبحانه: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا} ١٣٦] ١٣٧.
٥١ - (وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]
}ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين (٥١)}.
سارعوا إلى طاعة ربكم والاعتصام به، فإنه من يعتصم بالله فقد هدي ونجا، وتسابقوا في الخيرات من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، ولا تتربصوا بالبر والقربات كالذين غشيتهم الغفلة، وغرتهم الأماني حتى جاء أمر الله، فإنما بُعِثْتُ محذرا التحذير البيّن الذي لا خفاء به، وأنهاكم عن الشرك فإني قد أرسلت نذيرا مبينا. [. . فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة: أنه تعالى أمر بها أولا وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له في الشرع وهو العذاب دون خلود، ونهى جل شأنه ثانيا أن يشرك بعبادته سبحانه غيره، وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين، وتكون الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظير قوله تعالى: {. . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} ١٣٨ وقوله سبحانه: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا} ١٣٩] ١٤٠.
٥٢ - (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)
}كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنت بملوم (٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)}.
مثلما كذبك كفار قومك وآذوْك وسبّوك كذب الأقوام السابقون رسلهم واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وسبوهم بمثل ما سبوك به، فكل رسول يُرْمَى منهم بأنه ساحر أو مجنون-والحكم باعتبار الغالب- فكأنه وصّى بعضهم بعضا بهذا القول يفترون على من جاءهم مبلغا

عن ربه، ولكن لم يجمعهم التواصي إنما جمعهم على ذلك الإفك اشتراكهم في البغي والعدوان، والجحود والطغيان؛ فأعرض عن أذاهم وتوكل على الله فما أنت بالذي قصّر في أداء الأمانة وإبلاغ الرسالة؛ وتابع التذكير، معذرة إلى ربك ولئلا يكون للناس على حجة؛ فإنه سيذكر من قدّر الله تعالى إيمانهم واعلم أن فيهم خيرا؛ أو سيتذكر المؤمنون وينتفعون بالذكرى فتزيدهم بصيرة وإيمانا على إيمانهم؛ ونقل بعض المفسرين بالمأثور أن لهذه الآية سبب نزول ١٤١.

٥٣ - (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنت بملوم (٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)}.

مثلما كذبك كفار قومك وآذوْك وسبّوك كذب الأقوام السابقون رسلهم واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وسبوهم بمثل ما سبوك به، فكل رسول يُرْمَى منهم بأنه ساحر أو مجنون -والحكم باعتبار الغالب- فكأنه وصّى بعضهم بعضا بهذا القول يفترونه على من جاءهم مبلغا عن ربه، ولكن لم يجمعهم التواصي إنما جمعهم على ذلك الإفك اشتراكهم في البغي والعدوان، والجحود والطغيان؛ فأعرض عن أذاهم وتوكل على الله فما أنت بالذي قصّر في أداء الأمانة وإبلاغ الرسالة؛ وتابع التذكير، معذرة إلى ربك ولئلا يكون للناس على حجة؛ فإنه سيذكر من قدّر الله تعالى إيمانهم واعلم أن فيهم خيرا؛ أو سيتذكر المؤمنون وينتفعون بالذكرى فتزيدهم بصيرة وإيمانا على إيمانهم؛ ونقل بعض المفسرين بالمأثور أن لهذه الآية سبب نزول ١٤٢.

٥٤ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنت بملوم (٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)}.

مثلما كذبك كفار قومك وآذوْك وسبّوك كذب الأقوام السابقون رسلهم واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وسبوهم بمثل ما سبوك به، فكل رسول يُرْمَى منهم بأنه ساحر أو مجنون -والحكم باعتبار الغالب- فكأنه وصّى بعضهم بعضا بهذا القول يفترونه على من جاءهم مبلغا عن ربه، ولكن لم يجمعهم التواصي إنما جمعهم على ذلك الإفك اشتراكهم في البغي والعدوان، والجحود والطغيان؛ فأعرض عن أذاهم وتوكل على الله فما أنت بالذي قصّر في أداء الأمانة وإبلاغ الرسالة؛ وتابع التذكير، معذرة إلى ربك ولئلا يكون للناس على حجة؛ فإنه سيذكر من قدّر الله تعالى إيمانهم واعلم أن فيهم خيرا؛ أو سيتذكر المؤمنون وينتفعون بالذكرى فتزيدهم بصيرة وإيمانا على إيمانهم؛ ونقل بعض المفسرين بالمأثور أن لهذه الآية سبب نزول ١٤٣.

٥٥ - (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٢]

{كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم فما أنت بملوم (٥٤) وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)}.

مثلما كذبك كفار قومك وآذوْك وسبّوك كذب الأقوام السابقون رسلهم واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وسبوهم بمثل ما سبوك به، فكل رسول يُرْمَى منهم بأنه ساحر أو مجنون -والحكم باعتبار الغالب- فكأنه وصّى بعضهم بعضا بهذا القول يفترونه على من جاءهم مبلغا عن ربه، ولكن لم يجمعهم التواصي إنما جمعهم على ذلك الإفك اشتراكهم في البغي والعدوان، والجحود والطغيان؛ فأعرض عن أذاهم وتوكل على الله فما أنت بالذي قصّر في أداء الأمانة وإبلاغ الرسالة؛ وتابع التذكير، معذرة إلى ربك ولئلا يكون للناس على حجة؛ فإنه سيذكر من قدّر الله تعالى إيمانهم واعلم أن فيهم خيرا؛ أو سيتذكر المؤمنون وينتفعون بالذكرى فتزيدهم بصيرة وإيمانا على إيمانهم؛ ونقل

بعض المفسرين بالمأثور أن لهذه الآية سبب نزول ١٤٤.
٥٦ - (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)
{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨)}.
ومتابعتك التذكير تؤدى بها أمانة المولى وتنفذ عهده، وتمضي بها سنته في عباده، فهو عز وجل خلق عالمي الجن والإنس لينهضوا بالعبادة دون ضدها، ودون افتقاري إلى شيء كائنا ما كان، فما أنا في حاجة إلى عبيد يتكسبون لي، أو أستعين بهم في تهيئة طعام أو ما فوق ذلك أو دونه من أمور: - فكأنه قيل: ما أريد منهم من عين ولا عمل- إني أنا الذي أجري الأرزاق- لا شريك لي في ذلك- أرزق ما تبصرون وما لا تبصرون، من حيث يعلم العباد ومن حيث لا يعلمون؛ وما فات دابة رزقها، ولا نفذت خزائن الخير والرحمة؛ وإن ربك لصاحب القوة الأبدية الأزلية، الذي له الاقتدار، الذي لا يفوته شيء ولا يعجزه شيء.
أورد المفسرون أقوالا كثيرة في معنى قول الله سبحانه: {. . ليعبدون} وبعد أن ذكر ابن جرير بعضها قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس وهو: ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا؛ فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟! قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم؛ وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه أه.
أما القرطبي فقد نقل عن علي وابن عباس، ومجاهد وزيد، والقشيري والضحاك والفراء والقتبي، آراء مختلفة. . وعن الكلبي. . إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، يدل عليه قوله تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} ١٤٥ وقوله -تبارك اسمه-: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} ١٤٦ وكذا ما جاء في سورة الأنعام: {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} ١٤٧؛ وفي سورة يونس: {. . حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق} ١٤٨.
٥٧ - (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]
{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨)}.
ومتابعتك التذكير تؤدى بها أمانة المولى وتنفذ عهده، وتمضي بها سنته في عباده، فهو عز وجل خلق عالمي الجن والإنس لينهضوا بالعبادة دون ضدها، ودون افتقاري إلى شيء كائنا ما كان، فما أنا في حاجة إلى عبيد يتكسبون لي، أو أستعين بهم في تهيئة طعام أو ما فوق ذلك أو دونه من أمور: - فكأنه قيل: ما أريد منهم من عين ولا عمل- إني أنا الذي أجري الأرزاق- لا شريك لي في ذلك- أرزق ما تبصرون وما لا تبصرون، من حيث يعلم العباد ومن حيث لا يعلمون؛ وما فات دابة رزقها، ولا نفذت خزائن الخير والرحمة؛ وإن ربك لصاحب القوة الأبدية الأزلية، الذي له الاقتدار، الذي لا يفوته شيء ولا يعجزه شيء.
أورد المفسرون أقوالا كثيرة في معنى قول الله سبحانه: {. . ليعبدون} وبعد أن ذكر ابن جرير بعضها قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس وهو: ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا؛ فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟! قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم؛ وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه أه.
أما القرطبي فقد نقل عن علي وابن عباس، ومجاهد وزيد، والقشيري والضحاك والفراء والقتبي، آراء مختلفة. . وعن الكلبي. . إلا

ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، يدل عليه قوله تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} ١٤٩ وقوله -تبارك اسمه-: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} ١٥٠ وكذا ما جاء في سورة الأنعام: {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} ١٥١؛ وفي سورة يونس: {. . حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق} ١٥٢.

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٦]

{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨)}.

ومتابعتك التذكير تؤدى بها أمانة المولى وتنفذ عهده، وتمضي بها سنته في عباده، فهو عز وجل خلق عالمي الجن والإنس لينهضوا بالعبادة دون ضدها، ودون افتقاري إلى شيء كائنا ما كان، فما أنا في حاجة إلى عبيد يتكسبون لي، أو أستعين بهم في تهيئة طعام أو ما فوق ذلك أو دونه من أمور: - فكأنه قيل: ما أريد منهم من عين ولا عمل- إني أنا الذي أجري الأرزاق- لا شريك لي في ذلك- أرزق ما تبصرون وما لا تبصرون، من حيث يعلم العباد ومن حيث لا يعلمون؛ وما فات دابة رزقها، ولا نفذت خزائن الخير والرحمة؛ وإن ربك لصاحب القوة الأبدية الأزلية، الذي له الاقتدار، الذي لا يفوته شيء ولا يعجزه شيء.

أورد المفسرون أقوالا كثيرة في معنى قول الله سبحانه: {. . ليعبدون} وبعد أن ذكر ابن جرير بعضها قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس وهو: ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا؛ فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟! قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم؛ وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه أه.

أما القرطبي فقد نقل عن علي وابن عباس، ومجاهد وزيد، والقشيري والضحاك والفراء والقتبي، آراء مختلفة. . وعن الكلبي. . إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، يدل عليه قوله تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} ١٥٣ وقوله -تبارك اسمه-: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} ١٥٤ وكذا ما جاء في سورة الأنعام: {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} ١٥٥؛ وفي سورة يونس: {. . حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق} ١٥٦.

٥٩ - (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ)

{ذنوبا} نصيبا، وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، أو الملآى ماء، أو فيها ماء قريب من الملء، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب.

{فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون (٦٠)}.

يثبت الله تعالى اليقين في مضيّ سنته وعدم تحولها، فمن ظلم فسيذيقه الله عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، ويناله بأس وانتقام من العزيز الجبار، يمسه في الدنيا قبل أن يحل به العذاب المقيم؛ كما أهلك الله الظالمين بعتوهم وبغيهم، ثم رُدوا إلى ربهم ليوفيهم جزاءهم؛ فليس لهم أن يستعجلوا الدمار والعقاب استهزاء وجحودا، فإنه آت لا ريب فيه؛ فالويل والثبور ينتظر الكافرين في يوم موعود لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون. والله تعالى أعلم.

٦٠ - (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]
{ذنوبا} نصيبا، وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، أو الملآى ماء، أو فيها ماء قريب من الملء، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب.
{فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون (٦٠)}.
يثبت الله تعالى اليقين في مضيّ سنته وعدم تحولها، فمن ظلم فسيذيقه الله عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، ويناله بأس وانتقام من العزيز الجبار، يمسه في الدنيا قبل أن يحل به العذاب المقيم؛ كما أهلك الله الظالمين بعتوهم وبغيهم، ثم رُدوا إلى ربهم ليوفيهم جزاءهم؛ فليس لهم أن يستعجلوا الدمار والعقاب استهزاء وجحودا، فإنه آت لا ريب فيه؛ فالويل والثبور ينتظر الكافرين في يوم موعود لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون. والله تعالى أعلم.
خاتمة:
هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.
ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٥٧. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ١٥٨، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١٥٩، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١٦٠، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما
أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١٦١، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١٦٢، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١٦٣، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١٦٤، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١٦٥، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١٦٦، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١٦٧، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١٦٨، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ١٦٩ الرحيم} ١٧٠.
بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.
وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:
{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١٧١، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١٧٢، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١٧٣، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ١٧٤، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ١٧٥، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ١٧٦، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ١٧٧، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات

لها طلع نضيد} ١٧٨.
كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ١٧٩، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ١٨٠، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٨١ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .
وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ١٨٢، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ١٨٣، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ١٨٤، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ١٨٥، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ١٨٦، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ١٨٧ {ولقد رآه نزلة أخرى} ١٨٨، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ١٨٩، {أم له البنات ولكم البنون} ١٩٠.
قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ١٩١.
ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.
فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.
ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.
{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ١٩٢.
ومن سننه تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل -ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ١٩٣؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ١٩٤، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم

فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١٩٥، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ١٩٦، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ١٩٧.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ١٩٨، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ١٩٩: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٢٠٠.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٢٠١، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٢٠٢، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٢٠٣، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٠٤، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٢٠٥ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٢٠٦، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٢٠٧، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٢٠٨، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٢٠٩، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٢١٠، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٢١١.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٢١٢، وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٢١٣، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٢١٤ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢١٥ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٢١٦، وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٢١٧. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٢١٨.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ

التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢١٩، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٢٠. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٢١، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٢٢، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٢٣، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٢٢٤.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٢٥، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٢٦، وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ٢٢٧، أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ٢٢٨.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ٢٢٩، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ٢٣٠، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٣١ {ذوتا أفنان} ٢٣٢، {فيهما عينان تجريان} ٢٣٣ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ٢٣٤، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ٢٣٥، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٣٦، {كأنهن الياقوت والمرجان} ٢٣٧، {ومن دونهما جنتان} ٢٣٨ {مدهامتان} ٢٣٩ {فيهما عينان نضاختان} ٢٤٠، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ٢٤١، {فيهن خيرات حسان} ٢٤٢، {حور مقصورات في الخيام} ٢٤٣، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٤٤، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ٢٤٥ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ٢٤٦.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٢٤٧، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٢٤٨.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٢٤٩، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٢٥٠ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٢٥١؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٢٥٢.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٢٥٣، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٢٥٤.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٥٥، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٢٥٦، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٢٥٧، {فسبح باسم ربك العظيم} ٢٥٨، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢٥٩؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٢٦٠.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢٦١، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢٦٢، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢٦٣ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢٦٤ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢٦٥، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢٦٦.

٥٢ سورة الطور:

سورة الطور:
مكية
وآياتها تسع وأربعون
كلماتها: ٣١٢، حروفها: ١٥٠٠

١ - (وَالطُّورِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{وَالطُّورِ (١)}
أقسم الله تعالى بالجبل الذي يدعى [الطور] وربما يكون المراد (طور سنين) الذي كلم الله عز وجل موسى عليه السلام عنده، أقسم سبحانه به لفضله على الجبال.
٢ - (وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ)
{وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢)}
السطر: ترتيب الحروف المكتوبة، ومنه قول المولى- تبارك اسمه: {. . . والقلم وما يسطرون}.
ولعل المراد بالكتاب المسطور-المكتوب على وجه الانتظام- صحائف الأعمال، التي بيّنها ربنا ذو الجلال في قوله الكريم: {ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} ١ وفي آية كريمة أخرى: {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ٢ وفي سورة الإسراء: {. . ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا} ٣
٣ - (فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ)
{فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣)}
في جلد رقيق مبسوط، في ورق منشور، يقول الطبري: وقوله: {في} من صلة {مسطور}، ومعنى الكلام: وكتاب سطر في رق منشور، أه، الكتاب المشار إليه في الآية السابقة يطوي صحف الأعمال حتى يوافى بها أصحابها يوم القيامة، فمن آخذ صحفه بيمينه، ومن آخذ صحفه بشماله: يقول الحق -جل علاه- {وإذا الصحف نشرت} ٤
٤ - (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)
{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)}.
بيت عظمة الله تعالى في السماء، سُمِّي معمورا لكثرة زواره من الملائكة. في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء: (ثم رفع إليّ البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم). وذكر الحديث.
وفي [الصحاح]: الضراح بيت في السماء وهو البيت المعمور. عن ابن عباس: وعِمْرانُه: كثرة غاشيته من الملائكة.
[وقال الحسن: البيت المعمور: هو الكعبة، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس. .] ٥.
٥ - (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)
{وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥)}
السماء كأنها سقف هذا الكون، كما بيّن الحق جل علاه وهو الخلاق العليم: {وجعلنا السماء سقفا محفوظا} ٦.
٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)
{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦)}
والبحر الذي يتقد نارا يوم يأتي أمر الله بذهاب هذا الكون تحقيقا لوعده -تبارك اسمه-: {وإذا البحار سجّرت} ٧.
يقول اللغويون: والسجر: إيقادك في التنور. تسجره بالوقود سجرا، والسجور: اسم الحطب، وما أوقد به، وسجّر التنور: أوقده وأحماه، وأشبع وقوده، وأسد أسجر: إما للونه وإما لحمرة عينيه.
[وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- وبه يقول السدي وغيره- وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده فإنه قال: حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان

مرابطا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل) وقال الحافظ أبو بكر الاسماعيلي. . . بعد أن أورد الحديث- فيه رجل مبهم لم يسم].

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧)}.

هذا هو جواب القسم، والآيات السابقة أقسام أقسم بها المولى سبحانه- تهديد ووعيد للكافرين والفاجرين أن العذاب الشديد نازل بهم في العاجلة أو في الآجلة لا محالة-[وفي إضافته إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمان له صلى الله تعالى عليه وسلم، وإشارة إلى أن العذاب واقع بمن كذبه] ٨.

٨ - (مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

{مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨)}

وحين يوقع الله تعالى عذابه بالمجرمين لا يرده عنهم راد، ولا ينقذهم منه منقذ، والجملة خبر ثان ل {إن}.

[وقد روى أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى، حتى عيد من وجعه- وكان عشرين يوما- وأخرج أحمد، وسعيد بن منصور، وابن سعد عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكلمه في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ: {والطور} إلى: إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} فكأنما صدع قلبي] ٩.

[قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا موسى بن داود عن صالح المزي عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائما يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ: {والطور} حتى بلغ {إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع} قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليّا ثم رجع إلى منزله فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه- رضي الله عنه- وقال الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن صالح حدثنا هشام بن الحسن أن عمر قرأ: {إن عذاب ربك لواقع. ما له من دافع} فربا لها ربوة عيد منها عشرين يوما.] ١٠.

٩ - (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)

{يَوْمَ تَمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ١١ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ١٢ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؛ ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود؛ سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه؛ وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٠ - (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{يَوْمَ تَمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ١٣ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ١٤ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؛ ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود؛ سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه؛ وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١١ - (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{يَوْمَ تَمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ١٥ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ١٦ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؛ ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود؛ سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه؛ وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٢ - (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{يَوْمَ تَمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ١٧ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ١٨ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا

كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون، ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود، سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه، وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٣ - (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{يوم تمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ١٩ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ٢٠ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون، ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود، سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه، وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٤ - (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{يَوْمَ تَمُورُالسماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ٢١ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ٢٢ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون، ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود، سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه، وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٥ - (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ٢٣ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ٢٤ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؛ ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود؛ سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه؛ وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٦ - (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُون (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)}

وأشد عذاب ينزله الله بالكافرين المكذبين يوم تشقق السماء وتتهاوى، وتضطرب أفلاكها وتتناثر: {إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت} ٢٥ وتزول الجبال عن أماكنها فتعود سرابا، أو: {. . كالعهن المنفوش} ٢٦ أي كالصوف المندوف المتطاير المنسوف، فإذا كان ذلك فهلاكا يومذاك للجاحدين والمنكرين واللاهين، الذين يخوضون في زخارف الدنيا ولا يخشون يوم الدين، يومذاك يدفعون إلى جهنم دفعا غليظا شديدا، فيقول لهم خزنة النار: - تحسيرا لهم- هذه سقر التي أنكرتموها في الدنيا ولم تصدقوا الوعيد بها، أفهذا الذي ترونه وتصلونه من السحر الذي افتريتموه على رسالاتنا ورسلنا- كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم سحرا أفهذا المصدق له سحر أيضا؟ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عميا عن الخبر- وقيل: {أم} بمعنى بل، أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؛ ويتابع الملائكة الخزنة- منكلين بالخاسرين محسرين لهم: لتخالط ألسنة اللهب الجلود؛ سواء عليكم الصبر والجزع فلا ينفعكم شيء لا الصبر ولا الجزع، فهما لا يدفعان عذابا ولا يخففانه؛ وما ظلمكم الله، وإنما هو جزاء من جنس ما عملتم.

١٧ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)}

ثبتت الآيات قبلا ما سيحل الله من العذاب بالمجرمين، ثم بينت هذه ما أعدّ الله من الثواب للمؤمنين المصلحين، والمؤتمرين بأمر ربهم والمنتهين عما نهى عنه، فهم مستقرون في جنات وبساتين كثيرة أشجارها، متشابكة أغصانها، دانية قطوفها؛ ونعيم لا يزول، بل هو مقيم

دائم، متلذذين بما منحهم مولاهم، فرحين بأن الولي الحميد قد نجاهم من سوء المصير وعذاب السعير، ومع هذا النعيم الحسن فإن الحميد المجيد قد متعهم بالنعيم الروحي، فصورهم منشرحة بما أوتوا، والملائكة تهنئهم بما نالوا: {كلوا واشربوا هنيئا} أكلا تهنأون به وشربا، جزاء ما عملتم من بر في حياتكم الأولى؛ وفي مقامهم هذا تراهم في جلسة المتنعم الذي لا يرتفق- يضع تحت مرفقه جسما صلدا- وإنما يستقلون ويرتفقون فرشا مرفوعة، على أسرة - جمع سرير- مسواة في صفوف وخطوط مستوية، ولعل في هذا ما يشير إلى استحباب حسن الهيئة حتى في الأمتعة، كما جاء في المأثور: وسوّوا رحالكم حتى تكونوا كالشامة بين الناس؛ ويقرن بأهل التقى زوجات من نساء الجنة حور عين {كأمثال اللؤلؤ المكنون} ٢٧.

{إن المتقين} شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هي عادة القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة القول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم. .

[والهنيّ كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يُعْقِبُ وخامة].

١٨ - (فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)}

ثبتت الآيات قبلا ما سيحل الله من العذاب بالمجرمين، ثم بينت هذه ما أعدّ الله من الثواب للمؤمنين المصلحين، والمؤتمرين بأمر ربهم والمنتهين عما نهى عنه، فهم مستقرون في جنات وبساتين كثيرة أشجارها، متشابكة أغصانها، دانية قطوفها؛ ونعيم لا يزول، بل هو مقيم دائم، متلذذين بما منحهم مولاهم، فرحين بأن الولي الحميد قد نجاهم من سوء المصير وعذاب السعير، ومع هذا النعيم الحسن فإن الحميد المجيد قد متعهم بالنعيم الروحي، فصورهم منشرحة بما أوتوا، والملائكة تهنئهم بما نالوا: {كلوا واشربوا هنيئا} أكلا تهنأون به وشربا، جزاء ما عملتم من بر في حياتكم الأولى؛ وفي مقامهم هذا تراهم في جلسة المتنعم الذي لا يرتفق- يضع تحت مرفقه جسما صلدا- وإنما يستقلون ويرتفقون فرشا مرفوعة، على أسرة - جمع سرير- مسواة في صفوف وخطوط مستوية، ولعل في هذا ما يشير إلى استحباب حسن الهيئة حتى في الأمتعة، كما جاء في المأثور: وسوّوا رحالكم حتى تكونوا كالشامة بين الناس؛ ويقرن بأهل التقى زوجات من نساء الجنة حور عين {كأمثال اللؤلؤ المكنون} ٢٨.

{إن المتقين} شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هي عادة القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة القول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم. .

[والهنيّ كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يُعْقِبُ وخامة].

١٩ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)}

ثبتت الآيات قبلا ما سيحل الله من العذاب بالمجرمين، ثم بينت هذه ما أعدّ الله من الثواب للمؤمنين المصلحين، والمؤتمرين بأمر ربهم والمنتهين عما نهى عنه، فهم مستقرون في جنات وبساتين كثيرة أشجارها، متشابكة أغصانها، دانية قطوفها؛ ونعيم لا يزول، بل هو مقيم دائم، متلذذين بما منحهم مولاهم، فرحين بأن الولي الحميد قد نجاهم من سوء المصير وعذاب السعير، ومع هذا النعيم الحسن فإن الحميد المجيد قد متعهم بالنعيم الروحي، فصورهم منشرحة بما أوتوا، والملائكة تهنئهم بما نالوا: {كلوا واشربوا هنيئا} أكلا تهنأون به وشربا،

جزاء ما عملتم من بر في حياتكم الأولى؛ وفي مقامهم هذا تراهم في جلسة المتنعم الذي لا يرتفق- يضع تحت مرفقه جسما صلدا- وإنما يستقلون ويرتفقون فرشا مرفوعة، على أسرة - جمع سرير- مسواة في صفوف وخطوط مستوية، ولعل في هذا ما يشير إلى استحباب حسن الهيئة حتى في الأمتعة، كما جاء في المأثور: وسوّوا رحالكم حتى تكونوا كالشامة بين الناس؛ ويقرن بأهل التقى زوجات من نساء الجنة حور عين {كأمثال اللؤلؤ المكنون} ٢٩.

{إن المتقين} شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هي عادة القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة القول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم. .

[والهنيّ كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يُعْقِبُ وخامة].

٢٠ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)}

ثبتت الآيات قبلا ما سيحل الله من العذاب بالمجرمين، ثم بينت هذه ما أعدّ الله من الثواب للمؤمنين المصلحين، والمؤتمرين بأمر ربهم والمنتهين عما نهى عنه، فهم مستقرون في جنات وبساتين كثيرة أشجارها، متشابكة أغصانها، دانية قطوفها؛ ونعيم لا يزول، بل هو مقيم دائم، متلذذين بما منحهم مولاهم، فرحين بأن الولي الحميد قد نجاهم من سوء المصير وعذاب السعير، ومع هذا النعيم الحسن فإن الحميد المجيد قد متعهم بالنعيم الروحي، فصورهم منشرحة بما أوتوا، والملائكة تهنئهم بما نالوا: {كلوا واشربوا هنيئا} أكلا تهنأون به وشربا، جزاء ما عملتم من بر في حياتكم الأولى؛ وفي مقامهم هذا تراهم في جلسة المتنعم الذي لا يرتفق- يضع تحت مرفقه جسما صلدا- وإنما يستقلون ويرتفقون فرشا مرفوعة، على أسرة - جمع سرير- مسواة في صفوف وخطوط مستوية، ولعل في هذا ما يشير إلى استحباب حسن الهيئة حتى في الأمتعة، كما جاء في المأثور: وسوّوا رحالكم حتى تكونوا كالشامة بين الناس؛ ويقرن بأهل التقى زوجات من نساء الجنة حور عين {كأمثال اللؤلؤ المكنون} ٣٠.

{إن المتقين} شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هي عادة القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة القول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم. .

[والهنيّ كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يُعْقِبُ وخامة].

٢١ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

{والذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل،

وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٣١ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٣٢.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.

[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٣٣.

[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٣٤ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٣٥] ٣٦.

{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٢ - (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{والذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يُؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٣٧ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه

من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٣٨.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار، ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.

[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٣٩.

[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٤٠ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٤١] ٤٢.

{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٣ - (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{والذينَ آمَنوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠، من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٤٣ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٤٤.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.

[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنّا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٤٥.

[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية؛ وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٤٦ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٤٧] ٤٨.

{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٤ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{والذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٤٩ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٥٠.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في

الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.

[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٥١.

[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٥٢ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٥٣] ٥٤.

{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٥ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{والذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٥٥ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٥٦.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي

الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.
[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٥٧.
[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٥٨ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٥٩] ٦٠.
{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).
٢٦ - (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]
{والذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}
من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يُؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٦١ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٦٢.
ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي
الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.
[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه}

أي نعبده] ٦٣.
[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٦٤ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} ٦٥] ٦٦.
{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).
٢٧ - (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]
{والذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}
من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٦٧ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٦٨.
ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.
[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٦٩.
[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع

البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٧٠ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} [٧١] ٧٢.

{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٨ - (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{والذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)}

من لقي الله تعالى تقيّا فله الجزاء الذي بشرت به الآيات من ١٧ إلى رقم ٢٠؛ من أول قوله-تبارك اسمه-: {إن المتقين} حتى قوله سبحانه: {. . وزوجناهم بحور عين} وهذه الآيات جاءت بعد تلك لتبين حال طائفة تبعتهم ذريتهم في الصلاح والإيمان، هؤلاء يقر الله تعالى أعينهم فيرفع ذريتهم إلى درجة آبائهم وإن لم يعملوا مثل أعمالهم تكريما لهم، ودون أن ينقص الله من أجر الآباء شيئا، إذ كل امرئ إنما جزاؤه بالذي قدم وعمل في حياته الأولى [وقيل: مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبد بمنزلة الرهن، ولا ينفك الرهن ما لم يُؤدّ الدين، فإن كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربنا سبحانه ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: {كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين} ٧٣ فإن المراد: كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم؛ ووجه الاتصال على هذا- أنه سبحانه- لما ذكر حال المتقين، وأنه عز وجل وفّر عليهم ما أعده من الثواب والتفضل عقّب بذلك الكلام على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها، وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته. . . .] ٧٤.

ونعيم هؤلاء فيه مزيد فاكهة ولحم يرادونه حين يشاؤون وكما يشتهون، ويتجاذبون في مجالسهم - تبسطا وملاعبة- كأس الشراب الأخروي الذي يبهج ولا يتلف عقلا ولا خلقا ولا جسما، فليس في مجالسهم ولا في مشاربهم ما يجر إلى سقط الكلام، ولا إلى الوقوع في الذنوب والآثام؛ ويطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون، كأنهم اللؤلؤ المكنون، المصون في الصدف لم تنله الأيدي، فهو مصون مخزون، وصاف لم تخالطه أكدار؛ ويتذاكرون نعمة الله عليهم ويسأل كل واحد رفيقه في الجنة عن أحواله ومآله، فيذكرون فضل الولي الحميد الذي أمّن خوفهم، وأعطاهم سؤلهم، وبلغهم آمالهم، وصانهم، وحال بينهم وبين حر النار.

[وقد تستعمل السموم في لفح البرد. . . {إنا كنا من قبل ندعوه} أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: {ندعوه} أي نعبده] ٧٥.

[. . {لا لغو فيها ولا تأثيم}. . فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وآذاها- كما تقدم- فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون} ٧٦ وقال: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} [٧٧]

٠٧٨
{والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان} الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

٢٩ - (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ)

{كاهن}: يخبر بالغيب بظنه، أو يخبر بالأخبار الماضية الخفية، والعرّاف من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك.
والمشهور في الكهانة: الاستمداد من الجن في الإخبار عن الغيب.
{مجنون}: ذهب عقله، يتخبطه الشيطان من المس.
{فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)}.

انبعث كثير من كبار المشركين من قريش فآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورموه بالسحر والجنون. والشعر والكهانة، فبرّأه الله مما قالوا، وثبته على الدعوة الراشدة التي يدعو إليها، وبشره بحسن عاقبته والمؤمنين، وبما أعد من خزي للمعاندين، كما تحداهم أن يجيئوا بمثل الكتاب الحق إن كانوا صادقين، فعجزوا وقامت حجة الله على المكابرين، فبنعمة الله عليك لست بكاهن ولا مجنون، فذكر بالحق وعظهم، بل وحين يتربصون بك الهلاك قل لهم- متوعدا إياهم-: انتظروا وترقبوا فإني مترقب أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا- عذابا عاجلا يسبق العذاب الآجل- بل إن كانوا ذوي عقل فهل أرْشَدَتْهُم عقولهم إلى ما فيه فوزهم وفلاحهم، فاتبعوا ما جاءهم من الرشد والهدى الذي بعثت به؟ بل حين يزعمون أنك افتريت القرآن فادمغهم وطالبهم أن يجيئوا بكلام من عندهم يشبهه أو يضاهيه، وهيهات فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فلن يستطيعوا ولو كان بعضهم معينا للآخرين.

وهكذا {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٧٩ مثلما قالت ثمود لرسولهم: {قالوا إنما أنت من المسحرين} ٨٠ وقال أصحاب الأيكة لرسول الله إليهم: {قالوا إنما أنت من المسحرين} ٨١ والمُسَحَّر: المخدوع المفسد، أو المجوف الفارغ، والفراعنة رموا موسى عليه السلام بالباطل وآذوه وجحدوا الحق الذي أنزل معه: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب} ٨٢، فهي عماية عن الحق وضلال عن الرشد يتخبط في ظلماته كل مستكبر جاحد، يقول الله جل علاه: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٨٣.

[. . والباء في {بكاهن} مزيدة للتأكيد أي: ما أنت كاهن. . واختلفت في باء {بنعمة} فقال أبو البقاء: للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال والعامل فيه كاهن، أو مجنون، والتقدير ما أنت كاهن ولا مجنون متلبسا بنعمة ربك عز وجل. . . والأقرب عندي أن الباء للسببية وهو متعلق بمضمون الكلام، والمعنى: انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك. . والمراد الرد على قائل ذلك وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام. . . والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنّى يؤفكون. .] ٨٤.

{نتربص به ريب المنون} قال قتادة: قال قوم من الكفار: تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بني فلان. قال الضحاك: هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر، أي يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء، وإن أباه مات شابا فربما يموت كما مات أبوه، وقال الأخفش نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر. . وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي لم يصحبها بالتوفيق وقيل: {أحلامهم} أي أذهانهم، لأن العقل لا يعطي للكافر ولو كان له عقل لآمن، وإنما يعطي الكافر الذهن فصار عليه حجة. . .

[وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال: يا رسول الله ما أعقل فلانا النصراني! فقال: (مه إن الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير})، وفي حديث ابن عمر: فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: (مه فإن العاقل من يعمل بطاعة الله) ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده] ٨٥.

٣٠ - (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)

{ريب}: مصدر رابه إذا أهلكه، أو أقلقه، أريد به حوادث الدهر وصروفه لأنها تقلق النفوس.

عن ابن عباس: {ريب} في القرآن: [شك] إلا مكانا واحدا في الطور {ريب المنون} يعني حوادث الأمور.

{المنون}: الدهر، أو الليل والنهار، لأنهما يُنقصان الأعمار ويقطعان الآجال، وقيل للدهر منون، لأنه يذهب بمنة الحيوان أي قوته وكذلك المنية، ولذا قيل: المنية تقطع الأمنية، وحبل منين أي ضعيف، والمنون واحد لا جماعة له.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣١ - (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

{تربصوا}: امكثوا وانتظروا، - وعيد لهم-.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣٢ - (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

{تأمرهم}: ترشدهم وتوجههم.

{أحلامهم}: عقولهم- كانت قريش يُدْعَوْنَ: [أهل الأحلام والنهى].

{طاغون}: متجاوزون الحدود.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣٣ - (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ)

{تقوّله}: افتراه واختلقه وادعاه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣٤ - (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٩ إظهار

٣٥ - (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)}.

يحرك القرآن المدارك، ويحضها على التفكر والتبصر، وينكر على الجاهلين غفلتهم وضلالهم، وبهذا الاستفهام الإنكاري تقوم لله تعالى حجة بالغة، فهل خلق الناس من غير خالق؟ كيف يقول عاقل بذلك؟! أهي صدفة أَوْجَدَتْهم؟ كلا؟ فإن الصدفة ليست قوة فاعلة، ولا مريدة ولا عاقلة ٨٦؛ لقد أقرّ كثير من العلماء التجريبيين ٨٧ هدتهم علومهم التطبيقية إلى أن الحكمة البالغة في إبداع الكائنات لا تدع مجالا للشك في أن مبدع الكون إله مريد مدبر – والحكماء الأقدمون ٨٨ أقروا باستحالة تصديق خلق الكون صدفة، كما نقل أحد علمائنا ٨٩ المعاصرين عن الحكماء المسلمين أكثر من برهان على بطلان الصدفة، ومنها: لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف متفرقة في صناديقها، فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف بعضها على بعض وبعثرتها وخلطتها، ثم جاءك منضّد الحروف يخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت-عند اختلاطها- بالمصادفة كتابا كاملا من خمسمائة صفحة، وينطوي الكتاب على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها، فهل تصدق ذلك؟!. أ.ه.

وأورد الشيخ النيسابوري ٩٠ عن علماء القرآن ما حاصله ٩١: قدّر في ذهنك بيتا منسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائما على جبل مرتفع، تكتنفه غابة كثيفة. . وقدّر أن رجلا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديّارا ولا نافخ نار، فحدثته نفسه بأنه عسى

أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ومقاصير وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحا وتركبت أبوابا وسررا ومقاعد ومناضد ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة ثم تقطعت طنافس وزرابي فانبثت في حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان فنشبت في سقفه زرافات ووحدانا. . ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط في عقله؟ فما ظنك بقصر السماء سقفه والأرض قراره، والجبال أوتاده والنبات زينته، والقمر والنجوم مصابيحه؟! أيكون في حكم العقل أهون شأنا من ذلك البيت الصغير؟ أو لا يكون أخلق بلفت النظر إلى بارئ مصور حي قيوم، خلق فسوى وقدر فهدى؟ أه.

{أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض} بل هم يكذبون أنفسهم، فقد أقرّوا بأن الله هو الخلاق، وصدق ربنا الذي يقول: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون} ٩٢.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ٩٣ رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب ٩٤ بالطور ٩٥ فلما بلغ هذه الآية ٩٦ {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} كاد قلبي أن يطير. ٩٧

{بل لا يوقنون} مع إقرارهم بأن المولى- سبحانه- هو خالق كل شيء فإن ترددهم وظهور أمارات الريب والشك منهم يُلْحِقُهم بالمنكرين، وهكذا فما لم يكن العلم بجلال الله وصدق وعده وكلماته علما يقينا فكأنه هو والجحود سواء.

ألم تر كيف وصف القرآن من نقص علمهم بالآخرة بأن هذا أسلمهم إلى الشك ثم إلى عمى القلوب؟!: {بل ادراك علمهم في الآخرة ٩٨ بل هم في شك منها ٩٩ بل هم منها عمون} ١٠٠ يعني: فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون، فهم في ريبهم يترددون، كما بين أن موجبات دخول النار النزول عن درجة اليقين، وأقام الحجة بذلك على الظانين المرتابين: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} ١٠١.

٣٦ - (أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)}.

يحرك القرآن المدارك، ويحضها على التفكر والتبصر، وينكر على الجاهلين غفلتهم وضلالهم، وبهذا الاستفهام الإنكاري تقوم لله تعالى حجة بالغة، فهل خلق الناس من غير خالق؟ كيف يقول عاقل بذلك؟! أهي صدفة أَوْجَدَتْهم؟ كلا؟ فإن الصدفة ليست قوة فاعلة، ولا مريدة ولا عاقلة ١٠٢؛ لقد أقرّ كثير من العلماء التجريبيين ١٠٣ هدتهم علومهم التطبيقية إلى أن الحكمة البالغة في إبداع الكائنات لا تدع مجالا للشك في أن مبدع الكون إله مريد مدبر - والحكماء الأقدمون ١٠٤ أقروا باستحالة تصديق خلق الكون صدفة، كما نقل أحد علمائنا ١٠٥ المعاصرين عن الحكماء المسلمين أكثر من برهان على بطلان الصدفة، ومنها: لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف متفرقة في صناديقها، فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف بعضها على بعض وبعثرتها وخلطتها، ثم جاءك منضّد الحروف يخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت-عند اختلاطها- بالمصادفة كتابا كاملا من خمسمائة صفحة، وينطوي الكتاب على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها، فهل تصدق ذلك؟!. أه.

وأورد الشيخ النيسابوري ١٠٦ عن علماء القرآن ما حاصله ١٠٧: قدّر في ذهنك بيتا منسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائما على جبل مرتفع، تكتنفه غابة كثيفة. . وقدّر أن رجلا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديّارا ولا نافخ نار، فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ومقاصير وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحا وتركبت أبوابا وسررا ومقاعد ومناضد ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون

خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة ثم تقطعت طنافس وزرابي فانبثت في حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان فنشبت في سقفه زرافات ووحدانا. . ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط في عقله؟ فما ظنك بقصر السماء سقفه والأرض قراره، والجبال أوتاده والنبات زينته، والقمر والنجوم مصابيحه؟! أيكون في حكم العقل أهون شأنا من ذلك البيت الصغير؟ أو لا يكون أخلق بلفت النظر إلى بارئ مصور حي قيوم، خلق فسوى وقدر فهدى؟ أه.

{أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض} بل هم يكذبون أنفسهم، فقد أقرّوا بأن الله هو الخلاق، وصدق ربنا الذي يقول: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون} ١٠٨.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ١٠٩ رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب ١١٠ بالطور ١١١ فلما بلغ هذه الآية ١١٢ {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} كاد قلبي أن يطير. ١١٣

{بل لا يوقنون} مع إقرارهم بأن المولى- سبحانه- هو خالق كل شيء فإن ترددهم وظهور أمارات الريب والشك منهم يُلْحِقُهم بالمنكرين؛ وهكذا فما لم يكن العلم بجلال الله وصدق وعده وكلماته علما يقينا فكأنه هو والجحود سواء.

ألم تر كيف وصف القرآن من نقص علمهم بالآخرة بأن هذا أسلمهم إلى الشك ثم إلى عمى القلوب؟!: {بل ادراك علمهم في الآخرة ١١٤ بل هم في شك منها ١١٥ بل هم منها عمون} ١١٦ يعني: فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون، فهم في ريبهم يترددون؛ كما بين أن موجبات دخول النار النزول عن درجة اليقين، وأقام الحجة بذلك على الظانين المرتابين: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} ١١٧.

٣٧ - (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ)

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.

بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.

قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه؛ ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها؛ وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١١٨ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١١٩؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٢٠ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.

وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.
قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.
٣٨ - (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]
{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.
بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.
قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه؛ ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها؛ وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٢١ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٢٢؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٢٣ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.
وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.
قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.
٣٩ - (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]
{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.
بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.
قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه؛ ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها؛ وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٢٤ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور،

ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٢٥؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٢٦ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.

وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.

قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.

٤٠ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.

بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.

قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه؛ ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها؛ وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٢٧ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٢٨؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٢٩ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.

وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.

قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.

٤١ - (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.

بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.

قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع

شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه، ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٣٠ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٣١؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٣٢ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.

وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.

قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.

٤٢ - (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.

بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.

قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه، ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٣٣ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٣٤؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٣٥ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.

وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.

قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ

الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)}.
بل أعندهم خزائن الرحمة والعطاء فهم يريدون أن يوزعوا النبوة كيف شاءوا، ويمسكوها عمن شاءوا؟ أم هم المالكون لتدبير الكون؟ بل أيملكون ما يتوصل به إلى العلياء والسماء ليسترقوا السمع ويخطفوا الأنباء؟!.
قال أبو حيان: أي يستمعون إليه ومنه- إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض- فليجئ من استمع منهم- إن كان فيهم من سمع شيئا- بحجة واضحة تصدق دعواه، ثم جاءت الآية التاسعة والثلاثون تخاطبهم- التفاتا- لتشديد الإنكار، وفيها تطيب لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ- من تطاول على مقام الملك الكبير المتعال فنسب له البنات لا يكون إلا سفيها، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلا عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت ١٣٦ - بل هل ضاقوا بك وبدعوتك لأنك تسألهم أجرا على تبليغ ما أوحي إليك فهم لا يتبعونك فرارا من ثقل ما حملتهم إياه؟! بل أعندهم الإحاطة بالغيوب ومصائر الأمور، ورعاية الحكمة وبالغ التدبير فهم يكتبون للناس ويشرعون بزعمهم، كعبادة الأصنام، وتحريم البحيرة والوصيلة، وتسييب السائبة ١٣٧؟ بل إنهم يريدون الكيد لك ولأتباعك ولما جئت به، ولكني أكيد لهم وأملي إن كيدي متين، فسيحيق بهم وبال مكرهم {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} ١٣٨ بل ألهم إله غير المعبود بحق- تنزه الله عما أشركوا، وتعالى أن يقاسمه الملك أحد، وأن يمانعه أو يدافعه أحد-.
وقد كررت {أم} في هذه السورة الكريمة خمس عشرة مرة.
قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر {أم} فكلمة استفهام وليس بعطف.
٤٤ - (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ)
{وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)}
من قسوة القلوب وعمى البصائر يجحدون كل ما يأتيهم ولو رأته العيون، كما أخبر عنهم المولى جل شأنه: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} ١٣٩، وفي هذه الآية بيان لاستكبارهم ومرائهم، وأنه لو أسقط الله عليهم السماء، كما اقترحوا على النبي ذلك وطلبوا الإتيان به كبرهان على صدقه في دعوى الرسالة، إذ قالوا ما حكاه القران: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} وبعدها: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. } ١٤٠ لو تساقطت على رءوسهم أجزاء السماء لضلوا في طغيانهم وقالوا إن هذا الذي يتهاوى إنما هو سحاب متراكم بعضه فوق بعض، فالله يتوعدهم ويتولى عن نبيه أمر إهلاكهم يوم يموتون، ويوم يخرجون من الأجداث يتخبطون، فما لهم من أخلاء ولا أعوان ولا شفعاء يشفعون، ولا يملكون حيلة ولا من بأس الله يمتنعون، وإنه لهم بظلمهم عذابا عاجلا قريبا قبل ذاك الشديد الأليم، ولكن هيهات أن يعلم المستكبرون {. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. } ١٤١ {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ١٤٢.
٤٥ - (فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]
{وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)}
من قسوة القلوب وعمى البصائر يجحدون كل ما يأتيهم ولو رأته العيون، كما أخبر عنهم المولى جل شأنه: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} ١٤٣، وفي هذه الآية بيان لاستكبارهم ومرائهم، وأنه لو

أسقط الله عليهم السماء، كما اقترحوا على النبي ذلك وطلبوا الإتيان به كبرهان على صدقه في دعوى الرسالة، إذ قالوا ما حكاه القران: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} وبعدها: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. { ١٤٤ لو تساقطت على رءوسهم أجزاء السماء لضلوا في طغيانهم وقالوا إن هذا الذي يتهاوى إنما هو سحاب متراكم بعضه فوق بعض؛ فالله يتوعدهم ويتولى عن نبيه أمر إهلاكهم يوم يموتون، ويوم يخرجون من الأجداث يتخبطون، فما لهم من أخلاء ولا أعوان ولا شفعاء يشفعون، ولا يملكون حيلة ولا من بأس الله يمتنعون، وإنه لهم بظلمهم عذابا عاجلا قريبا قبل ذاك الشديد الأليم، ولكن هيهات أن يعلم المستكبرون {. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. { ١٤٥ {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين{ ١٤٦.

٤٦ - (يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]

{وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)}

من قسوة القلوب وعمى البصائر يجحدون كل ما يأتيهم ولو رأته العيون، كما أخبر عنهم المولى جل شأنه: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون{ ١٤٧، وفي هذه الآية بيان لاستكبارهم ومرائهم، وأنه لو أسقط الله عليهم السماء، كما اقترحوا على النبي ذلك وطلبوا الإتيان به كبرهان على صدقه في دعوى الرسالة، إذ قالوا ما حكاه القران: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} وبعدها: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. { ١٤٨ لو تساقطت على رءوسهم أجزاء السماء لضلوا في طغيانهم وقالوا إن هذا الذي يتهاوى إنما هو سحاب متراكم بعضه فوق بعض؛ فالله يتوعدهم ويتولى عن نبيه أمر إهلاكهم يوم يموتون، ويوم يخرجون من الأجداث يتخبطون، فما لهم من أخلاء ولا أعوان ولا شفعاء يشفعون، ولا يملكون حيلة ولا من بأس الله يمتنعون، وإنه لهم بظلمهم عذابا عاجلا قريبا قبل ذاك الشديد الأليم، ولكن هيهات أن يعلم المستكبرون {. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. { ١٤٩ {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين{ ١٥٠.

٤٧ - (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]

{وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)}

من قسوة القلوب وعمى البصائر يجحدون كل ما يأتيهم ولو رأته العيون، كما أخبر عنهم المولى جل شأنه: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون{ ١٥١، وفي هذه الآية بيان لاستكبارهم ومرائهم، وأنه لو أسقط الله عليهم السماء، كما اقترحوا على النبي ذلك وطلبوا الإتيان به كبرهان على صدقه في دعوى الرسالة، إذ قالوا ما حكاه القران: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} وبعدها: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا. { ١٥٢ لو تساقطت على رءوسهم أجزاء السماء لضلوا في طغيانهم وقالوا إن هذا الذي يتهاوى إنما هو سحاب متراكم بعضه فوق بعض؛ فالله يتوعدهم ويتولى عن نبيه أمر إهلاكهم يوم يموتون، ويوم يخرجون من الأجداث يتخبطون، فما لهم من أخلاء ولا أعوان ولا شفعاء يشفعون، ولا يملكون حيلة ولا من بأس الله يمتنعون، وإنه لهم بظلمهم عذابا عاجلا قريبا قبل ذاك الشديد الأليم، ولكن هيهات أن يعلم المستكبرون {. . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا. { ١٥٣ {. . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا

هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ١٥٤.

٤٨ - (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)}.

ودم على احتمال ما تلاقي، وما ابتلاك الله به ممن تلاقى، فإنك بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك، ونزه واحْمَدْ مولاك على كل أحوالك: حين تقوم من مجلسك؛ ومن الليل فسبح وصل واذكر واحْمَدْ واحرص على صلاة في آخر الليل قبل الصبح وحين تتهيأ النجوم للغروب.

في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد معاهدة على ركعتين قبل الصبح.

خرّج البخاري عن عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تعارّ ١٥٥ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته).

وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد {وسبح} أي: صلّ والأمر للوجوب {حين تقوم} أي من نومك، وذلك التهجد؛ {ومن الليل} صلاة العشاءين: المغرب والعشاء، {وإدبار النجوم} صلاة الفجر، ورجح الطبري نحوه-؛ فكأنه أمر بالإقبال على طاعته، بعد الفراغ عن دعوة الأمة فليس له شغل إلا هذين ١٥٦ -

٤٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٨]

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)}.

ودم على احتمال ما تلاقي، وما ابتلاك الله به ممن تلاقى، فإنك بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك، ونزه واحْمَدْ مولاك على كل أحوالك: حين تقوم من مجلسك؛ ومن الليل فسبح وصل واذكر واحْمَدْ واحرص على صلاة في آخر الليل قبل الصبح وحين تتهيأ النجوم للغروب.

في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد معاهدة على ركعتين قبل الصبح.

خرّج البخاري عن عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تعارّ ١٥٧ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته).

وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد {وسبح} أي: صلّ والأمر للوجوب {حين تقوم} أي من نومك، وذلك التهجد؛ {ومن الليل} صلاة العشاءين: المغرب والعشاء، {وإدبار النجوم} صلاة الفجر، ورجح الطبري نحوه-؛ فكأنه أمر بالإقبال على طاعته، بعد الفراغ عن دعوة الأمة فليس له شغل إلا هذين ١٥٨ -

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٥٩. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما

كنتم والله بما تعملون بصير} ١٦٠، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١٦١، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١٦٢، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما
أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١٦٣، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١٦٤، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١٦٥، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١٦٦، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١٦٧، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١٦٨، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١٦٩، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١٧٠، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ١٧١ الرحيم} ١٧٢.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١٧٣، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١٧٤، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١٧٥، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ١٧٦، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ١٧٧، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ١٧٨، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ١٧٩، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ١٨٠.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ١٨١، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ١٨٢، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ١٨٣ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ١٨٤، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ١٨٥، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ١٨٦، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ١٨٧، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ١٨٨، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ١٨٩ {ولقد رآه نزلة أخرى} ١٩٠، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا

يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ١٩١، {أم له البنات ولكم البنون} ١٩٢.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ١٩٣.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ١٩٤.

ومن سنته تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ١٩٥؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ١٩٦، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١٩٧، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ١٩٨، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ١٩٩.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٢٠٠، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٢٠١: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٢٠٢.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من

استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٢٠٣، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٢٠٤، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٢٠٥، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٠٦، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٢٠٧ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٢٠٨، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٢٠٩، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٢١٠، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٢١١، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٢١٢، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٢١٣.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٢١٤؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٢١٥، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٢١٦ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢١٧ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٢١٨؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٢١٩. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٢٢٠.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢٢١، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٢٢. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٢٣، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٢٤، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٢٥، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٢٢٦.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٢٧، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٢٨؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ٢٢٩؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ٢٣٠.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ٢٣١، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون.

متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ٢٣٢، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٣٣ {ذوتا أفنان} ٢٣٤، {فيهما عينان تجريان} ٢٣٥ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ٢٣٦، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ٢٣٧، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٣٨، {كأنهن الياقوت والمرجان} ٢٣٩، {ومن دونهما جنتان} ٢٤٠ {مدهامتان} ٢٤١ {فيهما عينان نضاختان} ٢٤٢، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ٢٤٣، {فيهن خيرات حسان} ٢٤٤، {حور مقصورات في الخيام} ٢٤٥، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٤٦، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ٢٤٧ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ٢٤٨.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٢٤٩، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٢٥٠.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٢٥١، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٢٥٢ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٢٥٣؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٢٥٤.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٢٥٥، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٢٥٦.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٥٧، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٢٥٨، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٢٥٩، {فسبح باسم ربك العظيم} ٢٦٠، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢٦١؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار،

وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٢٦٢.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢٦٣، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله، والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢٦٤، كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢٦٥ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢٦٦ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢٦٧، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢٦٨.

٥٣ سورة النجم:

سورة النجم:
مكية
وآياتها ثنتان وستون
كلماتها: ٣٦٠، حروفها: ١٤٠٥
١ - (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)
بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}.

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها، أو هويها: اندثارها يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به الشياطين، وهويها: انقضاضها، أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض، ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه، وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل، ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠١

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله، وهو الصحيح. ٠] ٠٢

٢ - (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}.

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها، أو هويها: اندثارها يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به الشياطين، وهويها: انقضاضها، أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض، ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه، وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل، ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠٣

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله، وهو الصحيح. ٠] ٠٤

٣ - (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}.

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها، أو هويها: اندثارها يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به الشياطين، وهويها: انقضاضها، أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض، ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه، وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل

تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل؛ ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠٥

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله؛ وهو الصحيح. ٠] ٠٦

٤ - (إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}٠

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها؛ أو هويها: اندثارها يوم القيامة؛ أو النجم الذي يرجم به الشياطين؛ وهويها: انقضاضها؛ أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض؛ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه؛ وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل؛ ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠٧

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله؛ وهو الصحيح. ٠] ٠٨

٥ - (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}٠

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها؛ أو هويها: اندثارها يوم القيامة؛ أو النجم الذي يرجم به الشياطين؛ وهويها: انقضاضها؛ أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض؛ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه؛ وهذه الآية جواب القسم- والظاهر

أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل؛ ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠٩.

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله، وهو الصحيح. ٠] ٠١٠.

٦ - (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}.

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} للجنس، وهويها: غروبها؛ أو هويها: اندثارها يوم القيامة؛ أو النجم الذي يرجم به الشياطين؛ وهويها: انقضاضها؛ أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض؛ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه؛ وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل؛ ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ٠١١.

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله، وهو الصحيح. ٠] ٠١٢.

٧ - (وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)}.

أقسم الله تعالى بالثريا إذا سقطت مع الفجر- والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما، واللام فيه للعهد- وقد تكون {ال} لجنس، وهويها: غروبها؛ أو هويها: اندثارها يوم القيامة؛ أو النجم الذي يرجم به الشياطين؛ وهويها: انقضاضها؛ أو النجم: النبات {إذا هوى} سقط على الأرض؛ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ولا زال عنه، ولا اعوج في نهجه؛ وهذه الآية جواب القسم- والظاهر أن الضلال يعني أن لا يجد السالك إلى مقصده سبيلا أصلا، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم، ولهذا لا يقال للمؤمن ضال، ويقال: غويّ غير رشيد- وما ينطق محمد عن هواه، ولا يقول من عند نفسه، إنما يتلقى عن ربه من كلامه وعلمه، يوحيه إليه ويبلغه إياه جبريل عليه السلام الذي ائتمنه الله على وحيه ينزله به على من اجتبى من رسله ومن اصطفى من عباده، وجبريل على حمل تلك الأمانات قدير، وإنه لذو علم لما علمه الله فهو قوي البنيان والجنان، أوتي بأسا في الفعل، وسدادا وحكمة في العقل؛ ومن إقدار الله تعالى له على التشكل بأشكال مختلفة استطاع أن يظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مستويا على صورته وهيئته الحقيقية الأصلية التي خلق عليها- وذلك عند غار حراء في مبادئ النبوة- وهو بالجهة العليا من السماء المقابلة لمن ينظر نحوها.

[{ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال- وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم- ولا بغاوٍ وهو: العالم بالحق العادل عنه قصدا إلى غيره. ٠] ١٣.

[ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي، ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم، أي كان أبدا مُوَحِّدًا لله؛ وهو الصحيح. ٠] ١٤.

٨ - (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٥؛ ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه؛ وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين

أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ، وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ١٦.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ١٧.

٩ - (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٨، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام، أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل، أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء، وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه، وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ، وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو

بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ١٩.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٢٠.

١٠ - (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٢١، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام، أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل، أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء، وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه، وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ، وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان}

و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٢٢.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٢٣.

١١ - (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٢٤، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان}
و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى

فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٢٥.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٢٦.

١٢ - (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٢٧؛ ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بتزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ، وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٢٨.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٢٩.

١٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٣٠، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام، أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل، أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء، وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه، وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} - عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ، وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٣١.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٣٢.

١٤ - (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]
{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.
ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٣٣، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.
أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} – عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.
ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه؛ وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٣٤.
[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٣٥.
١٥ - (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٣٦، ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام، أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل، أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء، وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه، وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} - عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٣٧.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٣٨.

١٦ - (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.
ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٣٩؛ ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.
أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} - عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.
ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه؛ وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٤٠.
[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٤١.
١٧ - (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]
{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.
ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين

وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٤٢؛ ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام؛ أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} - عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه؛ وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٤٣.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٤٤.

١٨ - (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)}.

ثم اقترب جبريل من محمد، فكان من النبي الكريم مقدار قاب قوسين- قدر قوسين عربيتين- وقيل {أو} بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى، وقيل: بمعنى بل، أي بل أدنى، والقاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، فأخبر أن جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين، وقيل: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، فأوحى جبريل بأمر ربه إلى محمد عبد

الله ورسوله ما أوحاه- تفخيم للوحي الذي أوحي إليه- والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور، ومنه قول المولى تبارك اسمه {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٤٥؛ ما كذب فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما رآه من جلال ونور مولاه، أو ما شاهده من صورة جبريل عليه السلام، أفتجادلون محمد على ما رآه، أو ما يراه؟ ولقد رأى النبي ربه عز وجل؛ أو رأى جبريل في صورته مرة ثانية عند شجرة في السماء عظيمة إليها ينتهي علم العلماء ومنازل الشهداء، وعندها جنة المستقر، وما أعجب ما يغشى تلك الشجرة ويغطيها من البهاء؛ وما اعوج بصر النبي ولا مال عما رآه، ولا تجاوزه بل تحراه وما تعداه؛ وقسما قد رأى من دلائل قدرة ربه وبرهان حكمه علامات وآية كبرى.

أقول غير ما تقدم: فعن الحسن أن {شديد القوى} هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، ويفسر {ذو مرة} - عليه- بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: {فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} - عليه- له سبحانه أيضا، وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان، ولعل [الحسن] يجعل الضمائر في قوله سبحانه: {ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى} له عز وجل أيضا، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} فقد كان عليه رحمة الله تعالى يحلف بالله تعالى: لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته. . وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في {دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى} - على ما روي عن الحسن- للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: ثم دنا النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه فكان منه عز وجل {قاب قوسين أو أدنى}. . وأَمْرُ المتشابه قد عُلِمَ؛ وذهب غير واحد في قوله تعالى: {علمه شديد القوى} إلى قوله سبحانه: {وهو بالأفق الأعلى} إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام. . وفي قوله تعالى: {ثم دنا فتدلى} الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجانب الأقدس، ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا، فالضمائر في {دنا فتدلى} و {كان} و {أوحى} وكذا الضمير المنصوب في {رآه} الله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن البخاري من طريق شريك بن عبد الله: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى؛ ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر. . [. . أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنّى أراه "] ٤٦.

[قوله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى} أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. . . {أفتمارونه}. . أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؟] ٤٧.

١٩ - (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى)

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}

الآيات الكريمة السابقة تبين صدق الرسول ورسالته، وهذه تبين كذب الكافرين وافتراءهم فيما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات الله- والاستفهام إنكاري- أي: أفعلمتم أن أوثانكم- اللات والعزى ومناة- بنات الله؟ تعالى الله- ولقد جهلتم وضللتم إذا ادعيتم أن الملائكة- كذلك- بنات الله!، كيف يبلغ بكم الجور عن الحق، والميل عن العدل، والخروج عن الصواب أن تجعلوا لله البنات، وأنتم لا تحبون لأنفسكم إلا البنين؟ إنها لقسمة عوجاء باغية، وما الأصنام التي نحتّموها وادعيتم ألوهيتها إلا أسماء ليس لمسماها نصيب من الألوهية؛ وقد سبقكم آباؤكم في هذا الإفك فاقتديتم بهم، وما أنزل الله في شيء مما افترى آباؤكم وافتريتم من برهان؛ إنما يتبعون فيما يخرصون التوهم والأهواء الباطلة، وما تميل إليه النفوس الأمارة بالسوء؛ ولقد أتاهم من ربهم الحق الذي ينأى بهم عن الضلال

والحيرة، وجاءهم رسول الله يبين لهم الرشد من الغي.

٢٠ - (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}

الآيات الكريمة السابقة تبين صدق الرسول ورسالته، وهذه تبين كذب الكافرين وافتراءهم فيما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات الله- والاستفهام إنكاري- أي: أفعلمتم أن أوثانكم- اللات والعزى ومناة- بنات الله؟ تعالى الله- ولقد جهلتم وضللتم إذا ادعيتم أن الملائكة- كذلك- بنات الله!، كيف يبلغ بكم الجور عن الحق، والميل عن العدل، والخروج عن الصواب أن تجعلوا لله البنات، وأنتم لا تحبون لأنفسكم إلا البنين؟ إنها لقسمة عوجاء باغية، وما الأصنام التي نحتّموها وادعيتم ألوهيتها إلا أسماء ليس لمسماها نصيب من الألوهية، وقد سبقكم آباؤكم في هذا الإفك فاقتديتم بهم، وما أنزل الله في شيء مما افترى آباؤكم وافتريتم من برهان، إنما يتبعون فيما يخرصون التوهم والأهواء الباطلة، وما تميل إليه النفوس الأمارة بالسوء، ولقد أتاهم من ربهم الحق الذي ينأى بهم عن الضلال والحيرة، وجاءهم رسول الله يبين لهم الرشد من الغي.

٢١ - (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}

الآيات الكريمة السابقة تبين صدق الرسول ورسالته، وهذه تبين كذب الكافرين وافتراءهم فيما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات الله- والاستفهام إنكاري- أي: أفعلمتم أن أوثانكم- اللات والعزى ومناة- بنات الله؟ تعالى الله- ولقد جهلتم وضللتم إذا ادعيتم أن الملائكة- كذلك- بنات الله!، كيف يبلغ بكم الجور عن الحق، والميل عن العدل، والخروج عن الصواب أن تجعلوا لله البنات، وأنتم لا تحبون لأنفسكم إلا البنين؟ إنها لقسمة عوجاء باغية، وما الأصنام التي نحتّموها وادعيتم ألوهيتها إلا أسماء ليس لمسماها نصيب من الألوهية، وقد سبقكم آباؤكم في هذا الإفك فاقتديتم بهم، وما أنزل الله في شيء مما افترى آباؤكم وافتريتم من برهان، إنما يتبعون فيما يخرصون التوهم والأهواء الباطلة، وما تميل إليه النفوس الأمارة بالسوء، ولقد أتاهم من ربهم الحق الذي ينأى بهم عن الضلال والحيرة، وجاءهم رسول الله يبين لهم الرشد من الغي.

٢٢ - (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}

الآيات الكريمة السابقة تبين صدق الرسول ورسالته، وهذه تبين كذب الكافرين وافتراءهم فيما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات الله- والاستفهام إنكاري- أي: أفعلمتم أن أوثانكم- اللات والعزى ومناة- بنات الله؟ تعالى الله- ولقد جهلتم وضللتم إذا ادعيتم أن الملائكة- كذلك- بنات الله!، كيف يبلغ بكم الجور عن الحق، والميل عن العدل، والخروج عن الصواب أن تجعلوا لله البنات، وأنتم لا تحبون لأنفسكم إلا البنين؟ إنها لقسمة عوجاء باغية، وما الأصنام التي نحتّموها وادعيتم ألوهيتها إلا أسماء ليس لمسماها نصيب من

الألوهية؛ وقد سبقكم آباؤكم في هذا الإفك فاقتديتم بهم، وما أنزل الله في شيء مما افترى آباؤكم وافتريتم من برهان؛ إنما يتبعون فيما يخرصون التوهم والأهواء الباطلة، وما تميل إليه النفوس الأمارة بالسوء؛ ولقد أتاهم من ربهم الحق الذي ينأى بهم عن الضلال والحيرة؛ وجاءهم رسول الله يبين لهم الرشد من الغي.

٢٣ - (إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}

الآيات الكريمة السابقة تبين صدق الرسول ورسالته، وهذه تبين كذب الكافرين وافتراءهم فيما زعموه من أن الملائكة والأصنام بنات الله- والاستفهام إنكاري- أي: أفعلمتم أن أوثانكم- اللات والعزى ومناة- بنات الله؟ تعالى الله- ولقد جهلتم وضللتم إذا ادعيتم أن الملائكة- كذلك- بنات الله!، كيف يبلغ بكم الجور عن الحق، والميل عن العدل، والخروج عن الصواب أن تجعلوا لله البنات، وأنتم لا تحبون لأنفسكم إلا البنين؟ إنها لقسمة عوجاء باغية، وما الأصنام التي نحتّموها وادعيتم ألوهيتها إلا أسماء ليس لمسماها نصيب من الألوهية؛ وقد سبقكم آباؤكم في هذا الإفك فاقتديتم بهم، وما أنزل الله في شيء مما افترى آباؤكم وافتريتم من برهان؛ إنما يتبعون فيما يخرصون التوهم والأهواء الباطلة، وما تميل إليه النفوس الأمارة بالسوء؛ ولقد أتاهم من ربهم الحق الذي ينأى بهم عن الضلال والحيرة؛ وجاءهم رسول الله يبين لهم الرشد من الغي.

٢٤ - (أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)}.

بل ليس للإنسان ما يشتهيه، فالأمر على مراد من بيده الأمور، لا على هوى البشر-ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على أحد من إحدى القريتين عظيم ٤٨ - فإن المولى المعبود بحق يملك الآخرة ويملك الحياة الدنيا، فلا يشفع أحد من أهل الأرض ولا من أهل السماء إلا من شاء ربنا لمن سبقت له الحسنى- {وكم} للتكثير- {ويرضى} يراه ربنا أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل؛ وإذا كان حال الملائكة في الشفاعة هكذا فما يظنون بحال الأصنام؟ وهؤلاء الذين كفروا بالله ولقائه جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، فأكذبهم ربنا وأبطل زورهم {. أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} وليس لهم برهان على مدعاهم، إنما هي ظنون كاذبة، وأوهام خائبة، وجميعها عن الحق بمعزل.

٢٥ - (فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)}.

بل ليس للإنسان ما يشتهيه، فالأمر على مراد من بيده الأمور، لا على هوى البشر-ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على أحد من إحدى القريتين عظيم ٤٩ - فإن المولى المعبود بحق يملك الآخرة ويملك الحياة الدنيا، فلا يشفع أحد من أهل الأرض ولا من أهل السماء إلا من شاء ربنا لمن سبقت له الحسنى- {وكم} للتكثير- {ويرضى} يراه ربنا أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل، وإذا كان حال الملائكة في الشفاعة هكذا فما يظنون بحال الأصنام؟ وهؤلاء الذين كفروا بالله ولقائه جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، فأكذبهم ربنا وأبطل زورهم {. أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} وليس لهم برهان على مدعاهم، إنما هي ظنون كاذبة، وأوهام خائبة، وجميعها عن الحق بمعزل.

٢٦ - (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)}.

بل ليس للإنسان ما يشتهيه، فالأمر على مراد من بيده الأمور، لا على هوى البشر-ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على أحد من إحدى القريتين عظيم ٥٠ - فإن المولى المعبود بحق يملك الآخرة ويملك الحياة الدنيا، فلا يشفع أحد من أهل الأرض ولا من أهل السماء إلا من شاء ربنا لمن سبقت له الحسنى- {وكم} للتكثير- {ويرضى} يراه ربنا أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل، وإذا كان حال الملائكة في الشفاعة هكذا فما يظنون بحال الأصنام؟ وهؤلاء الذين كفروا بالله ولقائه جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، فأكذبهم ربنا وأبطل زورهم {. أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} وليس لهم برهان على مدعاهم، إنما هي ظنون كاذبة، وأوهام خائبة، وجميعها عن الحق بمعزل.

٢٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)}.

بل ليس للإنسان ما يشتهيه، فالأمر على مراد من بيده الأمور، لا على هوى البشر-ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على أحد من إحدى القريتين عظيم ٥١ - فإن المولى المعبود بحق يملك الآخرة ويملك الحياة الدنيا، فلا يشفع أحد من أهل الأرض ولا من أهل السماء إلا من شاء ربنا لمن سبقت له الحسنى- {وكم} للتكثير- {ويرضى} يراه ربنا أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل، وإذا كان حال الملائكة في الشفاعة هكذا فما يظنون بحال الأصنام؟ وهؤلاء الذين كفروا بالله ولقائه جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، فأكذبهم ربنا وأبطل زورهم {. أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} وليس لهم برهان على مدعاهم، إنما هي ظنون كاذبة، وأوهام خائبة، وجميعها عن الحق بمعزل.

٢٨ - (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]
{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)}.

بل ليس للإنسان ما يشتهيه، فالأمر على مراد من بيده الأمور، لا على هوى البشر-ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على أحد من إحدى القريتين عظيم ٥٢ - فإن المولى المعبود بحق يملك الآخرة ويملك الحياة الدنيا، فلا يشفع أحد من أهل الأرض ولا من أهل السماء إلا من شاء ربنا لمن سبقت له الحسنى- {وكم} للتكثير- {ويرضى} يراه ربنا أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل، وإذا كان حال الملائكة في الشفاعة هكذا فما يظنون بحال الأصنام؟ وهؤلاء الذين كفروا بالله ولقائه جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، فأكذبهم ربنا وأبطل زورهم {. أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون} وليس لهم برهان على مدعاهم، إنما هي ظنون كاذبة، وأوهام خائبة، وجميعها عن الحق بمعزل.

٢٩ - (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)
{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ٣٠)}

فمل واهجر واترك من تناءى عن ذكرنا- المفيد للعلم الحق- وهو القرآن الكريم، وليس له من تعلق إلا بالحياة الدنيا وزينتها- والمراد من الأمر المذكور النهي عن المبالغة في الحرص على هداهم، فإن الذي أدّاهم إلى ما هم فيه قصورهم عن إدراك ما يحقق الفوز والفلاح- صغّرهم وازدرى بهم، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ٥٣ - وربك بالغ علمه وواسع ومحيط بمن حاد عن طريقه القويم، ومن سار على الصراط المستقيم، فمن أصر على الجحود فلن ينشرح صدره بالإيمان {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا.} ٥٤ {. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} ٥٥، {إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله} ٥٦، ولن يسوي بين الضالين والمهتدين لا في العاجلة ولا في الآجلة، بل لكل درجات أو دركات مما عملوا، والله شهيد على ما يعملون

٣٠ - (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]
{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ٣٠)}

فمل واهجر واترك من تناءى عن ذكرنا- المفيد للعلم الحق- وهو القرآن الكريم، وليس له من تعلق إلا بالحياة الدنيا وزينتها- والمراد من الأمر المذكور النهي عن المبالغة في الحرص على هداهم، فإن الذي أدّاهم إلى ما هم فيه قصورهم عن إدراك ما يحقق الفوز والفلاح- صغّرهم وازدرى بهم، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ٥٧ - وربك بالغ علمه وواسع ومحيط بمن حاد عن طريقه القويم، ومن سار على الصراط المستقيم، فمن أصر على الجحود فلن ينشرح صدره بالإيمان {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا.} ٥٨ {. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} ٥٩، {إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله} ٦٠، ولن يسوي بين الضالين والمهتدين لا في العاجلة ولا في الآجلة، بل لكل درجات أو دركات مما عملوا، والله شهيد على ما يعملون

٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)
{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)}

ومقتضى علمه سبحانه وعدله في حكمه أن تكون عاقبة المكلفين متطابقة مع سعيهم، فمن ضل وأساء فله السوأى وهي جهنم- أعاذنا الله تعالى منها- ومن اهتدى وأحسن فله الحسنى وهي الجنة، والمهتدون المحسنون يجتنبون كبائر الذنوب، وما توعد الجبار على مقارفته، وكذا ما عظم قبحه وفحشه من السيئات إلا اليسير من الذنوب والصغير منها.

[{كبائر الإثم}. . الشرك، لأنه أكبر الآثام. . {والفواحش} الزنا. وقال مقاتل: {كبائر الإثم} كل ذنب ختم بالنار؛ {والفواحش} كل ذنب فيه الحد. . {إلا اللمم} وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس. .: {اللمم} كل ما دون الزنى. . وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)؛ والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيره له حظ من الإثم. . والله أعلم؛ وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) أخرجه مسلم. . وقال ابن عباس أيضا هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب. . . فعلى هذا التأويل يكون {إلا اللمم} استثناء متصل؛ قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم: ما دون الشرك] ٦١.

إن مولانا البر الرحيم التواب العظيم لا تضيق مغفرته، وهو أعلم بأحوالنا من كل أحد، فهو قد جعل أصل نشأة البشر من الأرض فبدأ خلق آدم أبي البشر من طينها، وهو العليم بتطورنا منذ كنا أجنة وحملا في بطون أمهاتنا، وهو خبير بضعفنا وما قد يكون من زلاتنا، وهو الذي يمن علينا فيحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، ويكره إلينا الكفر والفسوق عن هدى ديننا؛ فلنستيقن دائما أن ما بنا من نعمة فمن الله، حتى لا نعجب بطاعتنا، ولا نغتر بقرباتنا!

أخرج أحمد، ومسلم. وغيرهما عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب).

٣٢ - (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)}

ومقتضى علمه سبحانه وعدله في حكمه أن تكون عاقبة المكلفين متطابقة مع سعيهم، فمن ضل وأساء فله السوأى وهي جهنم- أعاذنا الله تعالى منها- ومن اهتدى وأحسن فله الحسنى وهي الجنة، والمهتدون المحسنون يجتنبون كبائر الذنوب، وما توعد الجبار على مقارفته، وكذا ما عظم قبحه وفحشه من السيئات إلا اليسير من الذنوب والصغير منها.

[{كبائر الإثم}. . الشرك، لأنه أكبر الآثام. . {والفواحش} الزنا. وقال مقاتل: {كبائر الإثم} كل ذنب ختم بالنار؛ {والفواحش} كل ذنب فيه الحد. . {إلا اللمم} وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه وقد اختلف في معناها، فقال

أبو هريرة وابن عباس. .: {اللمم} كل ما دون الزنى. . وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)، والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيره له حظ من الإثم. . والله أعلم؛ وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) أخرجه مسلم. . وقال ابن عباس أيضا هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب. . . فعلى هذا التأويل يكون {إلا اللمم} استثناء متصل؛ قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم: ما دون الشرك] ٦٢.

إن مولانا البر الرحيم التواب العظيم لا تضيق مغفرته، وهو أعلم بأحوالنا من كل أحد، فهو قد جعل أصل نشأة البشر من الأرض فبدأ خلق آدم أبي البشر من طينها، وهو العليم بتطورنا منذ كنا أجنة وحملا في بطون أمهاتنا، وهو خبير بضعفنا وما قد يكون من زلاتنا، وهو الذي يمن علينا فيحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، ويكره إلينا الكفر والفسوق عن هدى ديننا؛ فلنستيقن دائما أن ما بنا من نعمة فمن الله، حتى لا نعجب بطاعتنا، ولا نغتر بقرباتنا!

أخرج أحمد، ومسلم. وغيرهما عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب).

٣٣ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفّى بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ٦٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله

لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٦٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ٦٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ٦٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٠٦٧ . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ٦٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ٦٩.

[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ٧٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ٧١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ٧٢.

{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٣٤ - (وَأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفّي بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ٧٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٧٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ٧٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ٧٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٧٧. . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ٧٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ٧٩.

[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ٨٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي

ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ٨١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ٨٢.

{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٣٥ - (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفّي بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ٨٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٨٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ٨٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ٨٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة

وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٨٧ . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ٨٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ٨٩.

[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ٩٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ٩١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ٩٢.

{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٣٦ - (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض

المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.
أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفّي بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ٩٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ٩٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ٩٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ٩٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ٩٧. . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ٩٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ٩٩.
[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١٠٠.
ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".
{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم

مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ١٠١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١٠٢.
{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.
٣٧ - (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]
{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.
تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.
أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفيّ بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ١٠٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٠٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ١٠٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ١٠٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ١٠٧. . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ١٠٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ١٠٩.
[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم

إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١١٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ١١١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١١٢.

{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٣٨ - (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفيّ بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة

في سورة براءة: }إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين{ ١١٣ وعشرة في سورة الأحزاب: }إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما{ ١١٤ وست في (المؤمنون): }الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون{ ١١٥ وأربع في سورة (المعا رج): }والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون{ }والذين هم بشهادتهم قائمون{ ١١٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. }أن لا تزر وازرة وزر أخرى{ ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده }. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا{ ١١٧. بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: }وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون{ ١١٨ }ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم{ ١١٩.

[}وأن ليس للإنسان إلا ما سعى{ بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- }فأن{ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و }ما{ مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١٢٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

}وأن سعيه سوف يرى{ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه }. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون{ ١٢١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١٢٢.

}ثم يُجزاه الجزاء الأوفى{ وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٣٩ - (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]
{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.
تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.
أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفيّ بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ١٢٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٢٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ١٢٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ١٢٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ١٢٧. . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ١٢٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ١٢٩.
[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل

النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١٣٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

}وأن سعيه سوف يرى{ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون{ ١٣١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١٣٢.

}ثم يُجزاه الجزاء الأوفى{ وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٤٠ - (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

}أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفيّ بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: }إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين{ ١٣٣ وعشرة في سورة الأحزاب: }إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله

لهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٣٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ١٣٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ١٣٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ١٣٧. . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ١٣٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ١٣٩.

[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١٤٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

{وأن سعيه سوف يرى} يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ١٤١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١٤٢.

{ثم يُجزاه الجزاء الأوفى} وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٤١ - (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

تعجيب من أمر من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين {تولى} أعرض، {وأكدى} وقطع البذل والبر والعطاء- من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر- قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما همّ به من الإسلام، وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح.

أعنده علم الآخرة فهو يرى أن العذاب مصروف عنه، وذاهب إلى من ضمن حمل العذاب يومذاك؟ أعند هذا المكدى ما يرى به الغيب كما يرى المشاهَد فهو لذلك مطمئن إلى أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه؟ بل ألم تأته أخبار وأنباء صحف موسى وصحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ووفّر وأتمّ ما أُمر به-قال ابن عباس: وفّى بسهام الإسلام كلها. . . وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في سورة براءة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} ١٤٣ وعشرة في سورة الأحزاب: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} ١٤٤ وست في (المؤمنون): {الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون} ١٤٥ وأربع في سورة (المعا رج): {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون} {والذين هم بشهادتهم قائمون} ١٤٦ - ثم أليس قد وفى عليه الصلاة والسلام حين اختبره الله تعالى بذبح ولده؟ وما أعظمه من وفاء. {أن لا تزر وازرة وزر أخرى} ففي صحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام- أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى لتخلصها من العقاب، فلا يجزى والد عن ولده {. . . . ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} ١٤٧ . . بل كل نفس بما كسبت مرتهنة ومحبوسة ومؤاخذة، وما جاء في القرآن الحكيم من توكيد سؤال ناس عن خطايا آخرين وعقابهم بها فإنما يفعل بهم ذلك لأنهم تسببوا في إضلالهم: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} ١٤٨ {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم} ١٤٩.

[{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} بينت الآية الكريمة السابقة أنه لا يحمل أحد خطايا أحد-إلا دعاة الضلال- وهذه هدت إلى عدم إثابة أحد بعمل غيره- إلا بفضل الله- {فأن} مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها، و {ما} مصدرية أو موصولة [أي ليس له إلا سعيه أو إلا الذي سعى به، وفعله- واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت منها ما أخرجه مسلم، والبخاري. . عن عائشة: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي افتلتت نفسها وإني أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم " وكذا ينفع الحج، أخرج البخاري ومسلم. . عن ابن عباس قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ " قال: نعم. قال: " فحق الله أحق بالقضاء "] ١٥٠.

ورواية مسلم في- باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو الموت- عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فحجي عنه "، وفيه بسنده في باب قضاء الصوم عن الميت-عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي

ماتت وعليها صوم شهر، فقال: " أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه "؟ قالت: نعم قال: " فدين الله أحق بالقضاء " هذه رواية إسحق بن إبراهيم، ورواية إسحق بن منصور عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها "؟ قالت: نعم قال:: " فصومي عن أمك ".

}وأن سعيه سوف يرى{ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء، يعرض عليه ما اكتسب من البر والإثم مسجلا في صحائفه ماثلا في ميزانه {. . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} ١٥١ - وفي البحر: يراه حاضروا القيامة ويطلعون عليه، تشريفا للمحسن، وتوبيخا للمسيء- ١٥٢.

}ثم يُجزاه الجزاء الأوفى{ وبعد مشاهدة أهل الموقف عمل كل عامل يجزى العامل سعيه جزاء أوفى ما يكون، لا يبخس ولا ينقص شيئا-وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال. . . -.

٤٢ - (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)

}وأن إلى ربك المنتهى (٤٢){

إلى لقاء مولانا البر الرحيم المرجع والمآب، إلى عقابه مآل المجرمين وإلى ثوابه مصير المكرمين: {يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١٥٣.

٤٣ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

}وأنه هو أضحك وأبكى (٤٣){.

ربنا هو خالق كل شيء، ومما خلق: السرور والحزن، والضحك والبكاء، وما يسرّ من الأعمال الصالحة، وما يُحْزِن من الأعمال الطالحة، قال محمد بن علي الترمذي: أضحك المؤمن في الآخرة، وأبكاه في الدنيا.

٤٤ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

}وأنه هو أمات وأحيا (٤٤){

هو وحده لا سواه إليه المنتهى، وله العقبى من حسن وسوآى، ويملك الممات والمحيا، فلا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الله عز وجل- والقاتل إنما ينقض البنية الإنسانية، ويفرق أجزاءها، والموت الحاصل بذلك فعل الله تعالى على سبيل العادة في مثله فلا إشكال في الحصر ١٥٤ - .

٤٥ - (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)

}وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦){

وربنا خالق مما برأ وأنشأ الذكر زوج الأنثى؛ والأنثى له زوج؛ فهما زوجان، يكون كل واحد منهما زوجا للآخر، وكلا الزوجين مخلوق من القليل المهين من الماء الذي يمنيه الذكر وتمنيه الأنثى.

وجاءت الأفعال {أضحك وأبكى} و {أمات وأحيا} و {خلق} بصيغة الماضي لأنها شأن لله أمضاه ويمضيه، ولا تحول فيه- بيّن غاية قدرته وهي إيجاده الضحك والبكاء والإماتة والإحياء في شخص واحد، وكذا الذكورة والأنوثة في مادة واحدة هي النطفة. . . وفيه إبطال قول الطبيعيين: إن مبدأ الضحك قوة التعجب، ومبدأ البكاء رقة القلب، وأن الحياة مستندة إلى الطبيعة كالنبات، والموت أمر ضروري، وهو تداعي الأجزاء العنصرية إلى الانفكاك بعد اجتماعها على سبيل الاتفاق. . . وذلك أن انتهاء كل ممكن إلى الواجب واجب ١٥٥.

٤٦ - (مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

}وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦){

وربنا خالق مما برأ وأنشأ الذكر زوج الأنثى؛ والأنثى له زوج؛ فهما زوجان، يكون كل واحد منهما زوجا للآخر، وكلا الزوجين مخلوق

من القليل المهين من الماء الذي يمنيه الذكر وتمنيه الأنثى.
وجاءت الأفعال {أضحك وأبكى} و {أمات وأحيا} و {خلق} بصيغة الماضي لأنها شأن لله أمضاه ويمضيه، ولا تحول فيه- بيّن غاية قدرته وهي إيجاده الضحك والبكاء والإماتة والإحياء في شخص واحد، وكذا الذكورة والأنوثة في مادة واحدة هي النطفة. . . وفيه إبطال قول الطبيعيين: إن مبدأ الضحك قوة التعجب، ومبدأ البكاء رقة القلب، وأن الحياة مستندة إلى الطبيعة كالنبات، والموت أمر ضروري، وهو تداعي الأجزاء العنصرية إلى الانفكاك بعد اجتماعها على سبيل الاتفاق. . . وذلك أن انتهاء كل ممكن إلى الواجب واجب ١٥٦.
٤٧ - (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى)
{وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى (٤٨) وأنه هو رب الشعرى (٤٩)}.
كنا أمواتا فأحيانا الله القوي القدير، وبعد الحياة يكون الموت ثم يبعثنا الخبير وإليه نصير-وفاء بوعده جل شأنه- وفي البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى: {عليه} كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ١٥٧.
وربنا أعطانا وأرضانا {أغنى وأقنى} ليس لبشر ولا لمخلوق من كوكب أو طالع في ذلك مدخل نحس أو سعد- {وأنه هو أغنى وأقنى} أي ملّك عباده المال وجعله لهم قنية مقيما عندهم. . {وأنه هو رب الشعرى}. . هو هذا النجم الوقاد. . كانت طائفة من العرب يعبدونه ١٥٨ فأعلمهم الله جل وعز أن الشعرى مربوب وليس برب؛ وحين ذكر أنه أغنى وأقنى بين أن ذلك بفضل المولى لا بعطاء الشعرى.
{وأن عليه النشأة الأخرى} ظاهره وجوب وقوع الحشر في الحكمة الإلهية للمجازاة على الإحسان والإساءة، وقال في التفسير الكبير، هو كقوله: {ثم أنشأناه خلقا آخر} ١٥٩ أي بعد خلقه ذكرا وأنثى نفخ فيه الروح الإنساني، ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره، أي أعطاه القنية، وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك، وبالجملة فالإغناء بكل ما تدفع به الحاجة، والإقناء بما زاد عليه ١٦٠.
٤٨ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى (٤٨) وأنه هو رب الشعرى (٤٩)}.
كنا أمواتا فأحيانا الله القوي القدير، وبعد الحياة يكون الموت ثم يبعثنا الخبير وإليه نصير-وفاء بوعده جل شأنه- وفي البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى: {عليه} كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ١٦١.
وربنا أعطانا وأرضانا {أغنى وأقنى} ليس لبشر ولا لمخلوق من كوكب أو طالع في ذلك مدخل نحس أو سعد- {وأنه هو أغنى وأقنى} أي ملّك عباده المال وجعله لهم قنية مقيما عندهم. . {وأنه هو رب الشعرى}. . هو هذا النجم الوقاد. . كانت طائفة من العرب يعبدونه ١٦٢ فأعلمهم الله جل وعز أن الشعرى مربوب وليس برب؛ وحين ذكر أنه أغنى وأقنى بين أن ذلك بفضل المولى لا بعطاء الشعرى.
{وأن عليه النشأة الأخرى} ظاهره وجوب وقوع الحشر في الحكمة الإلهية للمجازاة على الإحسان والإساءة، وقال في التفسير الكبير، هو كقوله: {ثم أنشأناه خلقا آخر} ١٦٣ أي بعد خلقه ذكرا وأنثى نفخ فيه الروح الإنساني، ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره، أي أعطاه القنية، وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك، وبالجملة فالإغناء بكل ما تدفع به الحاجة، والإقناء بما زاد عليه ١٦٤.
٤٩ - (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى (٤٨) وأنه هو رب الشعرى (٤٩)}.
كنا أمواتا فأحيانا الله القوي القدير، وبعد الحياة يكون الموت ثم يبعثنا الخبير وإليه نصير-وفاء بوعده جل شأنه- وفي البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى: {عليه} كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ١٦٥.

وربنا أعطانا وأرضانا {أغنى وأقنى} ليس لبشر ولا لمخلوق من كوكب أو طالع في ذلك مدخل نحس أو سعد- {وأنه هو أغنى وأقنى} أي ملّك عباده المال وجعله لهم قنية مقيما عندهم. . {وأنه هو رب الشعرى}. . هو هذا النجم الوقاد. . كانت طائفة من العرب يعبدونه ١٦٦ فأعلمهم الله جل وعز أن الشعرى مربوب وليس برب، وحين ذكر أنه أغنى وأقنى بين أن ذلك بفضل المولى لا بعطاء الشعرى.

{وأن عليه النشأة الأخرى} ظاهره وجوب وقوع الحشر في الحكمة الإلهية للمجازاة على الإحسان والإساءة، وقال في التفسير الكبير، هو كقوله: {ثم أنشأناه خلقا آخر} ١٦٧ أي بعد خلقه ذكرا وأنثى نفخ فيه الروح الإنساني، ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره، أي أعطاه القنية، وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك؛ وبالجملة فالإغناء بكل ما تدفع به الحاجة، والإقناء بما زاد عليه ١٦٨.

٥٠ - (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى)

{وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اهـ، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا، وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} ١٦٩. {ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ١٧٠، وأهلك المنتقم -عز وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل؛ فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلى. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ {وإن إلى ربك المنتهى} بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله {فبأي آلاء ربك تتمارى} فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٧١ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك، وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على جحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين، أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٧٢، يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥١ - (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اهـ، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا، وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} ١٧٣. {ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ١٧٤، وأهلك المنتقم -عز وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل؛ فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين

ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلْيٌ. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ }وإن إلى ربك المنتهى{ بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله }فبأي آلاء ربك تتمارى{ فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٧٥ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك، وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على بجحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين، أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٧٦، يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥٢ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

}وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اه، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا، وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية }وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا{ ١٧٧. }ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا{ ١٧٨، وأهلك المنتقم -عز وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل، فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلْيٌ. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ }وإن إلى ربك المنتهى{ بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله }فبأي آلاء ربك تتمارى{ فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٧٩ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك، وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على بجحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين، أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٨٠، يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥٣ - (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

}وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اه، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا، وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية }وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا{ ١٨١. }ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا{ ١٨٢، وأهلك المنتقم -عز وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما

غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل؛ فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلىُ. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ {وإن إلى ربك المنتهى} بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله {فبأي آلاء ربك تتمارى} فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٨٣ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك؛ وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على جحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين؛ أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٨٤؛ يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥٤ - (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اه، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا؛ وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} ١٨٥. {ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ١٨٦، وأهلك المنتقم -عز وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل؛ فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلىُ. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ {وإن إلى ربك المنتهى} بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله {فبأي آلاء ربك تتمارى} فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٨٧ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك؛ وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على جحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين؛ أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٨٨؛ يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٠]

{وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمودا فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢) والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأي آلاء ربك تتمارى (٥٥)}.

وربكم شديد بطشه بالجاحدين المفسدين، فهو الذي أهلك أمة عاد، أولى الأمم هلاكا بعد الطوفان-قال الطبري: وصفت بالأولى لأن في القبائل [عادا] أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق. . اه، وأهلك الجبار -جل علاه- قوم ثمود فما أبقى من كفار هؤلاء وأولئك أحدا؛ وأهلك قبلهما قوم نوح كانوا أشد ظلما وطغيانا ممن بعدهما، فكان يوصي الآباء أبناءهم بالثبات على الوثنية {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} ١٨٩. {ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ١٩٠، وأهلك المنتقم -عز

وجل- قوم لوط سكان القريات التي رفعها جبريل بأمر ربه ثم أسقطها فانقلبت مساكنهم ودُمرت أماكنهم، فغطاها من العذاب ما غطاها، وأصابها هول شديد، فأمطر الله على من كان خارجا من أهلها حجارة من سجيل؛ فبأي أنعم الله وأفضاله وبطشه بالمفسدين ونكاله تتشكك أيها المدرك؟ والآلاء: النعم، واحدها ألىً وإلىً وإلْيٌ. . جزاءهاأ هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ {وإن إلى ربك المنتهى} بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده، أما قوله {فبأي آلاء ربك تتمارى} فقد قيل: هو أيضا مما في الصحف، وقيل: هو ابتداء كلام، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: {. . لئن أشركت ليحبطن عملك} ١٩١ والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك، وقد عدّ نعما ونقما وجعل كلها آلاء، لأن النقم أيضا نعم لمن أراد أن يعتبر؟ ويحتمل أن يقال: لما عدّ نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها، وبّخ الإنسان على جحد شيء من نعمه فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين، أو يقال: لما حكى الإهلاك قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك-وحلمه عليك-فبأي آلاء ربك تتمارى ١٩٢، يقول أبو جعفر: فبأي نعمات ربكم يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل؟

٥٦ - (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى)

{هذا نذير من النذر الأولى (٥٦)}.

هذا الذي نقصّه عليكم من أنباء ما قد سبق، وأخبار الأمم المهلكة؛ نذير ووعيد وتحذير لكم؛ أو هذا الرسول محمد نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، فإن عصيتموه حل بكم ما حل بمكذبي الرسل الأولين؛ أو هذا القرآن من جنس النذر الأولى، هذا إنذار؛ والنذير يجيء مصدرا وصفة، وجمعه في الحالين نذير.

٥٧ - (أَزِفَتِ الآزِفَةُ)

{أزفت الآزفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة (٥٨)}.

اقتربت القيامة ودنت؛ إنذار من الله تعالى ووعيد، مثلما جاء في قوله-تبارك اسمه-: {وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق} ١٩٣ وليس غير الله يكشف كربها، وليس لها كشف من دون الله تعالى، لا بتقديم ولا بتأخير ولا بدفع أو إزالة؛ ليس لها من دون الله تعالى نفس تكشف وقت وقوعها وتبيّنه، فإنه {. . لا يجليها لوقتها إلا هو} ١٩٤.

٥٨ - (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٧]

{أزفت الآزفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة (٥٨)}.

اقتربت القيامة ودنت؛ إنذار من الله تعالى ووعيد، مثلما جاء في قوله-تبارك اسمه-: {وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق} ١٩٥ وليس غير الله يكشف كربها، وليس لها كشف من دون الله تعالى، لا بتقديم ولا بتأخير ولا بدفع أو إزالة؛ ليس لها من دون الله تعالى نفس تكشف وقت وقوعها وتبيّنه، فإنه {. . لا يجليها لوقتها إلا هو} ١٩٦.

٥٩ - (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

{أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢)}.

أفتعجبون من حديثنا ووحينا الذي أنزلناه على رسولنا وتنكرون، وتكذبون به وتجحدون، فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟ توبيخ لهم وإنكار عليهم، فما خاتم الأنبياء من الرسل، ولا دُنو القيامة مما ينكر، ولا الذكر الحكيم يليق له أن يهجر؛ {وتضحكون} تتخذون كلماتنا هزوا ولعبا وسخرية وفيها تخوضون، {ولا تبكون} ندما على ما فرطتم في جنب الله وعهده، وخوفا من عاقبة هجرانه ونسيان حقه {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ١٩٧، وأنتم غافلون لاهون مستكبرون، و [السمود] رفع الرأس

تكبرا والجمود واللهو والغفلة والإعراض، فاخضعوا لجلال الله واعبدوه.
[أخرج الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة {والنجم} فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا. ١٩٨ . قوله تعالى: {فاسجدوا لله واعبدوا} قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون ١٩٩ وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود، وبه قال مالك. . والحمد لله رب العالمين] ٢٠٠.
٦٠ - (وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]
{أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢)}.
أفتعجبون من حديثنا ووحينا الذي أنزلناه على رسولنا وتنكرون، وتكذبون به وتجحدون، فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟ توبيخ لهم وإنكار عليهم، فما خاتم الأنبياء من الرسل، ولا دُنو القيامة مما ينكر، ولا الذكر الحكيم يليق له أن يهجر؛ {وتضحكون} تتخذون كلماتنا هزوا ولعبا وسخرية وفيها تخوضون، {ولا تبكون} ندما على ما فرطتم في جنب الله وعهده، وخوفا من عاقبة هجرانه ونسيان حقه {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٢٠١، وأنتم غافلون لاهون مستكبرون؛ و [السمود] رفع الرأس تكبرا والجمود واللهو والغفلة والإعراض، فاخضعوا لجلال الله واعبدوه.
[أخرج الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة {والنجم} فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا. ٢٠٢ . قوله تعالى: {فاسجدوا لله واعبدوا} قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون ٢٠٣ وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود، وبه قال مالك. . والحمد لله رب العالمين] ٢٠٤.
٦١ - (وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]
{أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢)}.
أفتعجبون من حديثنا ووحينا الذي أنزلناه على رسولنا وتنكرون، وتكذبون به وتجحدون، فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟ توبيخ لهم وإنكار عليهم، فما خاتم الأنبياء من الرسل، ولا دُنو القيامة مما ينكر، ولا الذكر الحكيم يليق له أن يهجر؛ {وتضحكون} تتخذون كلماتنا هزوا ولعبا وسخرية وفيها تخوضون، {ولا تبكون} ندما على ما فرطتم في جنب الله وعهده، وخوفا من عاقبة هجرانه ونسيان حقه {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٢٠٥، وأنتم غافلون لاهون مستكبرون؛ و [السمود] رفع الرأس تكبرا والجمود واللهو والغفلة والإعراض، فاخضعوا لجلال الله واعبدوه.
[أخرج الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة {والنجم} فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا. ٢٠٦ . قوله تعالى: {فاسجدوا لله واعبدوا} قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون ٢٠٧ وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود، وبه قال مالك. . والحمد لله رب العالمين] ٢٠٨.
٦٢ - (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٩]
{أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢)}.

أفتعجبون من حديثنا ووحينا الذي أنزلناه على رسولنا وتنكرون، وتكذبون به وتجحدون، فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟ توبيخ لهم وإنكار عليهم، فما خاتم الأنبياء من الرسل، ولا دُنو القيامة مما ينكر، ولا الذكر الحكيم يليق له أن يهجر؛ {وتضحكون} تتخذون كلماتنا هزوا ولعبا وسخرية وفيها تخوضون، {ولا تبكون} ندما على ما فرطتم في جنب الله وعهده، وخوفا من عاقبة هجرانه ونسيان حقه {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} ٢٠٩، وأنتم غافلون لاهون مستكبرون؛ و [السمود] رفع الرأس تكبرا والجمود واللهو والغفلة والإعراض؛ فاخضعوا لجلال الله واعبدوه.

[أخرج الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة {والنجم} فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا. . ٢١٠ قوله تعالى: {فاسجدوا لله واعبدوا} قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون ٢١١ وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود، وبه قال مالك. . والحمد لله رب العالمين] ٢١٢.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢١٣. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ٢١٤، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ٢١٥، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٢١٦، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ٢١٧، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ٢١٨، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ٢١٩، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ٢٢٠، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ٢٢١، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ٢٢٢، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ٢٢٣، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ٢٢٤، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ٢٢٥ الرحيم} ٢٢٦.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ٢٢٧، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ٢٢٨، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ٢٢٩، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ٢٣٠، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ٢٣١، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ٢٣٢، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا

قريبا} ٢٣٣، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ٢٣٤.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٢٣٥، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٢٣٦، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٢٣٧ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٢٣٨، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ٢٣٩، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٢٤٠، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٢٤١، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٢٤٢، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٢٤٣ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٢٤٤، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٢٤٥، {أم له البنات ولكم البنون} ٢٤٦.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٢٤٧.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٢٤٨.

ومن سننه تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ٢٤٩؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٢٥٠،

}كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر{ ٢٥١، }كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر{ ٢٥٢، }ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر{ ٢٥٣.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ }كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد{ ٢٥٤، }وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين{ ٢٥٥: }وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى{ ٢٥٦.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: }والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون{ ٢٥٧، }سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله{ ٢٥٨، }يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم{ ٢٥٩، }إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا{ ٢٦٠، }ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا{ ٢٦١ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: }فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون{ ٢٦٢، }أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون{ ٢٦٣، اتهم قوم لوط لوطا: }ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر{ ٢٦٤، واتهمت ثمود صالحا: }فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر{ ٢٦٥، وكذلك فعل أسلافهم: }كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر{ ٢٦٦، فهو ضلال قديم: }كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون{ ٢٦٧.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) }والقرآن المجيد{، وختمت بمن ينتفع به }فذكر بالقرآن من يخاف وعيد{، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: }فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين{ ٢٦٨، وفي خواتيم سورة النجم: }أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون{ ٢٦٩، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: }ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر{ ٢٧٠ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢٧١ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر، وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: }علم القرآن{ ٢٧٢، وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: }فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين{ ٢٧٣. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: }أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون{ ٢٧٤.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: }هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور{ من الآية ٩ وحض على

الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢٧٥، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٧٦. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٧٧، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٧٨، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٧٩، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٢٨٠.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٨١، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٨٢؛ وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ٢٨٣؛ أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ٢٨٤.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ٢٨٥، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ٢٨٦، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٨٧ {ذوتا أفنان} ٢٨٨، {فيهما عينان تجريان} ٢٨٩ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ٢٩٠، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ٢٩١، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٩٢، {كأنهن الياقوت والمرجان} ٢٩٣، {ومن دونهما جنتان} ٢٩٤ {مدهامتان} ٢٩٥ {فيهما عينان نضاختان} ٢٩٦، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ٢٩٧، {فيهن خيرات حسان} ٢٩٨، {حور مقصورات في الخيام} ٢٩٩، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٣٠٠، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ٣٠١ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ٣٠٢.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٣٠٣، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره

من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٣٠٤.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٣٠٥، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٣٠٦ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٣٠٧؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٣٠٨.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٣٠٩، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٣١٠.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٣١١، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٣١٢، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٣١٣، {فسبح باسم ربك العظيم} ٣١٤، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٣١٥؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. { ٣١٦.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٣١٧، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله؛ والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٣١٨؛ كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٣١٩ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٣٢٠ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٣٢١؛ وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٣٢٢.

٥٤ سورة القمر:

سورة القمر:
مكية

وآياتها خمس وخمسون
كلماتها: ٣٤٢؛ حروفها: ١٤٢٣.
١ - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
}اقتربت الساعة وانشق القمر (١)}
قربت الساعة التي ينتهي عندها عمران هذا الكون، وتدمر الحياة فيه، وانفلق القمر معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اشهدوا ".
[وقوله: }اقتربت} افتعلت من القرب، وهذا من الله تعالى ذكره- إنذار لعباده بدنو القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون] ١.
مما أورد النيسابوري: وإنما المراد قربها في العقول وفي الأذهان كأنه لم يبق بعد ظهور هذه الآية للمنكر مجال.
[والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة، واختلف في تواتره فقيل: هو غير متواتر؛ وفي شرح المواقف للشريفي أنه متواتر، وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي، قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، ومنصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ٢ بحيث لا يمترى في تواتره؛ انتهى باختصار ٣].
٢ - (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)
}وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢)}
وحين يرون الآية الحسية، والمعجزة الخارقة الدالة على صدق النبي في دعواه يغلقون قلوبهم وعقولهم عن تدبر هذا البرهان، بل ويرمون النبي بالسحر المطرود على مر الزمان.
[وقال أنس، ومجاهد، والكسائي، والفراء-واختاره النحاس- }مستمر} أي مار زائل عن قريب؛ عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأماني الفارغة.] ٤
[وفي حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبي كبشة، سحركم فاسألوا السفار، فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشق؛ فنزلت: }اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا} أي إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضوا عن الإيمان }ويقولوا سحر مستمر} أي ذاهب] ٥.
٣ - (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)
}وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣)}
وكذبوا بالإخبار عن اقتراب الساعة، وبما صنع الله تعالى من معجزة، وبما أنزل من وحي، وبما بعث من رسول، واتخذوا مُطَاعهم فضلّوا، ولن يستقر إلا الحق: }. . فأما الزبد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} ٦.
٤ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)
}ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥)}
ذكرناهم بمجيء الساعة وأنه قريب، وجاءهم البرهان على صدق من أنزل عليه القرآن، وأقل ذلك يُعْقِبُ الازدجار، والادكار، والإقلاع عن العناد والاستكبار؛ وحكمتنا فيما نبرم من أمر كاملة لا يفوتها حق، فلم تعظهم الأهوال التي زجرتهم بوقوعها، وحذرتهم من عاقبتها: }. . وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} ٧.
٥ - (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥)}

ذكرناهم بمجيء الساعة وأنه قريب، وجاءهم البرهان على صدق من أنزل عليه القرآن، وأقل ذلك يُعْقِبُ الازدجار، والادكار، والإقلاع عن العناد والاستكبار، وحكمتنا فيما نبرم من أمر كاملة لا يفوتها حق، فلم تعظهم الأهوال التي زجرتهم بوقوعها، وحذرتهم من عاقبتها:

{. . وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} ٨.

٦ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ)

{فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) *}

فأعرض عنهم فلن تقبل فيهم شفاعة يوم ينادي المنادي إلى شيء عظيم تنكره النفوس لشدة هوله وعدم عهدها بمثله، حالة يخرجون من القبور أذلة يموج بعضهم في بعض كثرة وحيرة، مادّي أعناقهم مسرعين؛ يقر الكفار بثقل البلاء وعظم الداهية الطامة في ذلك اليوم.

[{فتول عنهم} لعلمك أن الإنذار لا يفيد فيهم، ولا يظهر الحق لهم إلى يوم البعث والنشور] ٩.

[والداعي: إسرافيل عليه السلام، وقيل: جبرائيل عليه السلام، وقيل، ملك غيرهما موكل بذلك، وجوز أن يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في (. . كن فيكون) على القول بأنه تمثيل، فالداعي حينئذ هو الله عز وجل. . وفي إسناده القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك.] ١٠.

٧ - (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) *}

فأعرض عنهم فلن تقبل فيهم شفاعة يوم ينادي المنادي إلى شيء عظيم تنكره النفوس لشدة هوله وعدم عهدها بمثله، حالة يخرجون من القبور أذلة يموج بعضهم في بعض كثرة وحيرة، مادّي أعناقهم مسرعين؛ يقر الكفار بثقل البلاء وعظم الداهية الطامة في ذلك اليوم.

[{فتول عنهم} لعلمك أن الإنذار لا يفيد فيهم، ولا يظهر الحق لهم إلى يوم البعث والنشور] ١١.

[والداعي: إسرافيل عليه السلام، وقيل: جبرائيل عليه السلام، وقيل، ملك غيرهما موكل بذلك، وجوز أن يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في (. . كن فيكون) على القول بأنه تمثيل، فالداعي حينئذ هو الله عز وجل. . وفي إسناده القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك.] ١٢.

٨ - (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) *}

فأعرض عنهم فلن تقبل فيهم شفاعة يوم ينادي المنادي إلى شيء عظيم تنكره النفوس لشدة هوله وعدم عهدها بمثله، حالة يخرجون من القبور أذلة يموج بعضهم في بعض كثرة وحيرة، مادّي أعناقهم مسرعين؛ يقر الكفار بثقل البلاء وعظم الداهية الطامة في ذلك اليوم.

[{فتول عنهم} لعلمك أن الإنذار لا يفيد فيهم، ولا يظهر الحق لهم إلى يوم البعث والنشور] ١٣.

[والداعي: إسرافيل عليه السلام، وقيل: جبرائيل عليه السلام، وقيل، ملك غيرهما موكل بذلك، وجوز أن يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في (. . كن فيكون) على القول بأنه تمثيل، فالداعي حينئذ هو الله عز وجل. . وفي إسناده القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك.] ١٤.

٩ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ١٥.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

تجري ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ١٦.

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قِيّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ١٧.

وقد ثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ١٨.

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ١٩.

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١٠ - (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٢٠.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

جَرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو بجحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٢١.

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٢٢.

وقد نثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في

جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٣.

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٢٤.

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١١ - (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٢٥.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

تجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٢٦.

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهداياته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٢٧.

وقد تثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٨.

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٢٩.

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١٢ - (وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٣٠.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

فجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٣١.
ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.
ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٣٢.
وقد ثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٣.
بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٣٤.
وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.
١٣ - (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.
تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.
[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. .] ٣٥.
فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

فجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٣٦.

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٣٧.

وقد ثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٨.

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٣٩.

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١٤ - (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٤٠.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه

من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

تجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها، أو جحدت نبوته عليه السلام، ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٠٤١

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٠٤٢

وقد تثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٠٤٣

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٠٤٤

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١٥ - (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.

[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا

عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. .] ٤٥.
فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم
وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان
تجري ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!
[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٤٦.
ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.
ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٤٧.
وقد تثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٤٨.
بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٤٩.
وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.
١٦ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.
تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.
[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك

والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٥٠.

فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

تجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو بجحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!

[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٥١.

ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قِيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.

ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٥٢.

وقد تثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٥٣.

بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٥٤.

وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.

١٧ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]

{كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)}.

تقرير لسنة الله تعالى التي أمضاها في الأولين، ولا تتبدل في الآخرين، وبيان لما جاءهم من أنباء السابقين، التي يتعظ بها وينزجر كل ذي عقل سليم؛ وما أنت بأول رسول يكذبه قومه، بل كذبت قبل عشيرتك عشيرة نوح وقومه، إذ جحدوا الرسالات، وقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {. . ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة} فكذبوا عبدنا نوح ورمَوْه بالجنون، واتهموه بأن الجن زجرته وأذهبت عقله- أو هو

إخبار من الله عز وجل بأنه-عليه السلام-زُجِر عن التبليغ بالأذى الذي آذوه، فتضرع إلى ربه راجيا نصره.
[وهذا وعيد من الله-تعالى ذكره- وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه بأنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قص قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومُنْجٍ نبيه محمدا والمؤمنين به كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمته التي أحلها بأممهم؛ فقال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: كذبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك-الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر-قوم نوح فكذبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا. . .] ٥٥.
فاستجبنا دعاءه وفتحنا جهة العلو والسماء بماء منصب، وتفجرت عيون الأرض فكأن أديمها كله أصبح عيونا، حتى التقى الماء النازل، بالماء الصاعد، على قدر سبقت به مشيئة الله القوي القادر، وكان في هذا القدر إغراق الكافرين المكذبين؛ أما الرسول الكريم ومن معه من المؤمنين، وكذا الخلق الذي عهدنا إلى نوح أن يحمله في الفلك المشحون، فقد حملناهم على سفينة ليست من المنشآت المشرعات كالأعلام، وإنما هي ألواح ومسامير.
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم
وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان
فجرت ونحن نراها ونرعاها جزاء وثوابا لرسولنا الذي كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروا بها؛ أو جحدت نبوته عليه السلام؛ ولقد تركنا هذه القصة برهانا على اقتدارنا، وجعلنا إهلاك المفسدين وإنجاء المؤمنين عبرة للمعتبرين، فهل من متذكر ومتدبر؟!
[استفهام تعظيم وتعجيب، أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف] ٥٦.
ولقد سهلنا القرآن للتدبر وجعلناه يسيرا لمن تذكر في مثانيه، وتبصر في أنواره وهدايته ومعانيه، وجعلناه قيِّما لا عوج فيه، وحقا لا يشوبه باطل.
ولو تدبر الناس كتاب رب العالمين، واعتبروا بما في قصص المرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- لهُدوا إلى الحق المبين: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ٥٧.
وقد تثنى قصة منها في أكثر من سورة لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل؛ على أنها في كل سورة ذكرت فيها تُفيض في جانب من النبأ غير ما فُصِّل في السورة الأخرى؛ فنحن نقرأ من نبأ نوح في سورة نوح عليه السلام بيان سبل الدعوة -سرا وجهارا، ليلا ونهارا- وما وعدهم به من خيرات الدنيا إن هم استجابوا لمولاهم: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٥٨.
بينما تبين الآيات في سورة هود عليه السلام كيف سخر قوم نوح من نوح، وعيروه بفقر أتباعه، وفي سورة يونس تعلمنا آيات الله الحكيم كيف كان يقين نوح عليه السلام، واعتزازه بولاية ربنا-الملك العلام- دون سائر الأنام: {واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون} ٥٩.
وهكذا الشأن في قصص الأنبياء، فتبارك مُنْزِلُه الحكيم الحميد.
١٨ - (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)
{كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)}.
وبلاء مبين، أمضاه الحكم الحق في قوم آخرين، هم قوم هود عليه الصلوات والتسليم، كذبوا رسولهم فهل علمتم ما كان من بطش الله بأولئك المجرمين؟ وكيف جعلهم عبرة ونذرا للمعتبرين؟!.

لقد سلطنا عليهم ريحا شديدة البرد أو شديدة الصوت، بدأت تهب عليهم وتعصف بهم في يوم نحس وشؤم عليهم، واستمر دماره سبع ليال وثمانية أيام- وقد يراد باليوم مطلق الزمان-وتعاظم أثر العاصفة حتى كانت تقتلع القوم اقتلاع النخلة من أصلها، وتبقى آثارهم محفورة مثل مكان نخلة قلع جذعها، أو: تقتلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، فكم كان عذابي عظيما، وكم كان إنذاري بليغا! ولقد سهلت القرآن لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. .، ليستيقن أن الواحد القهار إذا أخذ القرى وهي ظالمة فإن أخذه أليم شديد.

قال النحويون: اسم الجنس الذي تُميِّز واحده بالتاء-كنخل، ونخلة-يجوز في وصفه التذكير-كما هنا- {. . أعجاز نخل منقعر} ويجوز التأنيث كما في قول المولى-تبارك اسمه-: {. . كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٦٠.

وفي قصة نوح عليه السلام ذكر قول الحق جل علاه: {فكيف كان عذابي ونذر} مرة واحدة، وكذا في قصة ثمود، أما في قصة عاد فقد كرر قوله سبحانه {فكيف كان عذابي ونذر} ربما لفرط عتوهم: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ٦١.

نقل صاحب روح المعاني: والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوال. . وأيّد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه، والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعا: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر، وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه. . وذلك مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه. . وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبراني: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر. . ثم أورد عن عائشة مرفوعا ما يقارب خبر الطبراني في معناه، وكذا عن ابن عباس من طريق أبي يعلى، وعن أبي سعيد من طريق ابن عدي، وعن ابن عمر من طريق ابن ماجة والحاكم-ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه، ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لا طير إلا ... على [متطير] وهو الثبور

وتابع فنقل آثارا في استنحاس يوم الأحد، وكذا يوم الثلاثاء، إلى أن قال: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} ٦٢ ويكفي في هذا الباب؛ لذلك فقل لي أي يوم الأسبوع خلا منها؟. . . وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما شاء لم يكن. .

[. . ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على المصلحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين، كما كانت الأيام المذكورة في القرآن نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم. .] ٦٣.

١٩ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)}.

وبلاء مبين، أمضاه الحكم الحق في قوم آخرين، هم قوم هود عليه الصلوات والتسليم، كذبوا رسولهم فهل علمتم ما كان من بطش الله بأولئك المجرمين؟ وكيف جعلهم عبرة ونذرا للمعتبرين؟!.

لقد سلطنا عليهم ريحا شديدة البرد أو شديدة الصوت، بدأت تهب عليهم وتعصف بهم في يوم نحس وشؤم عليهم، واستمر دماره سبع ليال وثمانية أيام- وقد يراد باليوم مطلق الزمان-وتعاظم أثر العاصفة حتى كانت تقتلع القوم اقتلاع النخلة من أصلها، وتبقى آثارهم محفورة مثل مكان نخلة قلع جذعها، أو: تقتلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، فكم كان عذابي عظيما، وكم كان إنذاري بليغا! ولقد سهلت القرآن لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. .، ليستيقن أن الواحد القهار إذا أخذ القرى وهي ظالمة

فإن أخذه أليم شديد.

قال النحويون: اسم الجنس الذي تُميِّز واحده بالتاء-كنخل، ونخلة-يجوز في وصفه التذكير-كما هنا- {. . أعجاز نخل منقعر} ويجوز التأنيث كما في قول المولى-تبارك اسمه-: {. . كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٦٤.

وفي قصة نوح عليه السلام ذكر قول الحق جل علاه: {فكيف كان عذابي ونذر} مرة واحدة، وكذا في قصة ثمود، أما في قصة عاد فقد كرر قوله سبحانه {فكيف كان عذابي ونذر} ربما لفرط عتوهم: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ٦٥.

نقل صاحب روح المعاني: والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوال. . وأيّد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه، والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعا: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر، وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه. . وذلك مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه. . وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبراني: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر. . ثم أورد عن عائشة مرفوعا ما يقارب خبر الطبراني في معناه، وكذا عن ابن عباس من طريق أبي يعلى، وعن أبي سعيد من طريق ابن عدي، وعن ابن عمر من طريق ابن ماجة والحاكم- ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه، ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لا طير إلا ... على [متطير] وهو الثبور

وتابع فنقل آثارا في استنحاس يوم الأحد، وكذا يوم الثلاثاء، إلى أن قال: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} ٦٦ ويكفي في هذا الباب؛ لذلك فقل لي أي يوم الأسبوع خلا منها؟. . . وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما شاء لم يكن. .

[. . ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على المصلحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين، كما كانت الأيام المذكورة في القرآن نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم. .] ٦٧.

٢٠ - (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)}.

وبلاء مبين، أمضاه الحكم الحق في قوم آخرين، هم قوم هود عليه الصلوات والتسليم، كذبوا رسولهم فهل علمتم ما كان من بطش الله بأولئك المجرمين؟ وكيف جعلهم عبرة ونذرا للمعتبرين؟!.

لقد سلطنا عليهم ريحا شديدة البرد أو شديدة الصوت، بدأت تهب عليهم وتعصف بهم في يوم نحس وشؤم عليهم، واستمر دماره سبع ليال وثمانية أيام- وقد يراد باليوم مطلق الزمان-وتعاظم أثر العاصفة حتى كانت تقتلع القوم اقتلاع النخلة من أصلها، وتبقى آثارهم محفورة مثل مكان نخلة قلع جذعها، أو: تقتلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، فكم كان عذابي عظيما، وكم كان إنذاري بليغا! ولقد سهلت القرآن لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. .، ليستيقن أن الواحد القهار إذا أخذ القرى وهي ظالمة فإن أخذه أليم شديد.

قال النحويون: اسم الجنس الذي تُميِّز واحده بالتاء-كنخل، ونخلة-يجوز في وصفه التذكير-كما هنا- {. . أعجاز نخل منقعر} ويجوز التأنيث كما في قول المولى-تبارك اسمه-: {. . كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٦٨.

وفي قصة نوح عليه السلام ذكر قول الحق جل علاه: {فكيف كان عذابي ونذر} مرة واحدة، وكذا في قصة ثمود، أما في قصة عاد

فقد كرر قوله سبحانه {فكيف كان عذابي ونذر} ربما لفرط عتوهم: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ٦٩.

نقل صاحب روح المعاني: والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوال. . وأيّد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه، والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعا: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر، وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه. . وذلك مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه. . وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبراني: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر. . ثم أورد عن عائشة مرفوعا ما يقارب خبر الطبراني في معناه، وكذا عن ابن عباس من طريق أبي يعلى، وعن أبي سعيد من طريق ابن عدي، وعن ابن عمر من طريق ابن ماجة والحاكم-ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه، ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لا طير إلا ... على [متطير] وهو الثبور

وتابع فنقل آثارا في استنحاس يوم الأحد، وكذا يوم الثلاثاء، إلى أن قال: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} ٧٠ ويكفي في هذا الباب، لذلك فقل لي أي يوم الأسبوع خلا منها؟.

. . وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما شاء لم يكن. .

[. . ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على المصلحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين، كما كانت الأيام المذكورة في القرآن نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم. .] ٧١.

٢١ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)}.

وبلاء مبين، أمضاه الحكم الحق في قوم آخرين، هم قوم هود عليه الصلوات والتسليم، كذبوا رسولهم فهل علمتم ما كان من بطش الله بأولئك المجرمين؟ وكيف جعلهم عبرة ونذرا للمعتبرين؟!.

لقد سلطنا عليهم ريحا شديدة البرد أو شديدة الصوت، بدأت تهب عليهم وتعصف بهم في يوم نحس وشؤم عليهم، واستمر دماره سبع ليال وثمانية أيام- وقد يراد باليوم مطلق الزمان-وتعاظم أثر العاصفة حتى كانت تقتلع القوم اقتلاع النخلة من أصلها، وتبقى آثارهم محفورة مثل مكان نخلة قلع جذعها، أو: تقتلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، فكم كان عذابي عظيما، وكم كان إنذاري بليغا! ولقد سهلت القرآن لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. .، ليستيقن أن الواحد القهار إذا أخذ القرى وهي ظالمة فإن أخذه أليم شديد.

قال النحويون: اسم الجنس الذي تُمّيِّز واحده بالتاء-كنخل، ونخلة-يجوز في وصفه التذكير-كما هنا- {. . أعجاز نخل منقعر} ويجوز التأنيث كما في قول المولى-تبارك اسمه-: {. . كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٧٢.

وفي قصة نوح عليه السلام ذكر قول الحق جل علاه: {فكيف كان عذابي ونذر} مرة واحدة، وكذا في قصة ثمود، أما في قصة عاد فقد كرر قوله سبحانه {فكيف كان عذابي ونذر} ربما لفرط عتوهم: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ٧٣.

نقل صاحب روح المعاني: والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوال. . وأيّد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه، والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعا: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر، وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه. . وذلك

مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه. . وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبراني: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر. . ثم أورد عن عائشة مرفوعا ما يقارب خبر الطبراني في معناه، وكذا عن ابن عباس من طريق أبي يعلى، وعن أبي سعيد من طريق ابن عدي، وعن ابن عمر من طريق ابن ماجة والحاكم- ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه، ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لا طير إلا ... على [متطير] وهو الثبور

وتابع فنقل آثارا في استنحاس يوم الأحد، وكذا يوم الثلاثاء، إلى أن قال: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} ٧٤ ويكفي في هذا الباب، لذلك فقل لي أي يوم الأسبوع خلا منها؟. . . وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما شاء لم يكن. .

[. . ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على المصلحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين، كما كانت الأيام المذكورة في القرآن نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم. .] ٧٥.

٢٢ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]

{كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)}.

وبلاء مبين، أمضاه الحكم الحق في قوم آخرين، هم قوم هود عليه الصلوات والتسليم، كذبوا رسولهم فهل علمتم ما كان من بطش الله بأولئك المجرمين؟ وكيف جعلهم عبرة ونذرا للمعتبرين؟!.

لقد سلطنا عليهم ريحا شديدة البرد أو شديدة الصوت، بدأت تهب عليهم وتعصف بهم في يوم نحس وشؤم عليهم، واستمر دماره سبع ليال وثمانية أيام- وقد يراد باليوم مطلق الزمان-وتعاظم أثر العاصفة حتى كانت تقتلع القوم اقتلاع النخلة من أصلها، وتبقى آثارهم محفورة مثل مكان نخلة قلع جذعها، أو: تقتلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، فكم كان عذابي عظيما، وكم كان إنذاري بليغا! ولقد سهلت القرآن لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. .، ليستيقن أن الواحد القهار إذا أخذ القرى وهي ظالمة فإن أخذه أليم شديد.

قال النحويون: اسم الجنس الذي تُميِّز واحده بالتاء-كنخل، ونخلة-يجوز في وصفه التذكير-كما هنا- {. . أعجاز نخل منقعر} ويجوز التأنيث كما في قول المولى-تبارك اسمه-: {. . كأنهم أعجاز نخل خاوية} ٧٦.

وفي قصة نوح عليه السلام ذكر قول الحق جل علاه: {فكيف كان عذابي ونذر} مرة واحدة، وكذا في قصة ثمود، أما في قصة عاد فقد كرر قوله سبحانه {فكيف كان عذابي ونذر} ربما لفرط عتوهم: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ٧٧.

نقل صاحب روح المعاني: والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوال. . وأيّد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه، والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعا: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر، وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه. . وذلك
مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت، قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه. . وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبراني: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر. . ثم أورد عن عائشة مرفوعا ما يقارب خبر الطبراني في معناه، وكذا عن ابن عباس من طريق أبي يعلى، وعن أبي سعيد من طريق ابن عدي، وعن ابن عمر من طريق ابن ماجة والحاكم- ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا

تنفع ولا تضر بذاتها، وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه، ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:
تعلم أنه لا طير إلا ... على [متطير] وهو الثبور
وتابع فنقل آثارا في استنحاس يوم الأحد، وكذا يوم الثلاثاء، إلى أن قال: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: {سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما} ٧٨ ويكفي في هذا الباب؛ لذلك فقل لي أي يوم الأسبوع خلا منها؟.
. . وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما شاء لم يكن. .
[. . ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على المصلحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين، كما كانت الأيام المذكورة في القرآن نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم. .] ٧٩.
٢٣ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)
{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.
كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون؛ أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها؛ فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ٨٠ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته؛ فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ٨١. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٨٢ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٨٣.
٢٤ - (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]
{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.
كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من

آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون، أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها، فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ٨٤ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ٨٥. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٨٦ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٨٧.

٢٥ - (أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون، أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها، فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ٨٨ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ٨٩. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٩٠ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٩١.

٢٦ - (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم

المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.
كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون، أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها، فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ٩٢ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ٩٣. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٩٤ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٩٥.
٢٧ - (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]
{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.
كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون، أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها، فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ٩٦ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ٩٧. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٩٨ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ٩٩.
٢٨ - (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون؛ أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها؛ فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ١٠٠ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته؛ فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٠١. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١٠٢ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١٠٣.

٢٩ - (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون؛ أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها؛ فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ١٠٤ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته؛ فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٠٥. ولقد سهلنا تدبر

القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١٠٦ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١٠٧.

٣٠ - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون؛ أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها؛ فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ١٠٨ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته؛ فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٠٩. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١١٠ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١١١.

٣١ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون؛ أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها؛ فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ١١٢ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم

يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١١٣. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١١٤ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١١٥.

٣٢ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر (٢٤) أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢)}.

كذبت قبيلة ثمود أخاهم صالحا رسول الله، ولم يزدجروا ولا ارعووا بما جاءهم به عن الله-سبحانه- من نذر وبرهان وعبر، فقالوا- مستبعدين صدق نبيهم-: أنتبع بشرا من جنسنا، منفردا ليس معه رهط من الأتباع، ونحن عصبة؟!. إنا إذا اتبعنا بشرا منا واحدا-من آحاد الناس وليس من علية القوم- لفي تيه عن الحق وحيرة وعذاب، أو: وجنون، أهبط عليه الوحي دون أن يلقى إلى أحد من عظمائنا؟! بل هو يدعي ويفتري، ويتجبر ويتجاوز إلى منزلة لا يستحقها، فوعد الله نبيه صالحا والمؤمنين بشفاء صدورهم وهلاك المفسدين، وعما قليل ليصبحن نادمين، ويظهر عندها من الذي كذب وافترى، وبطر وطغى؟ أصالح أم من كذبه؟! سيعلمون وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، أو حين يفصل الله بينهم-والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى ١١٦ - إنا مخرجوا الناقة المعجزة التي اقترحوها امتحانا لهم فانتظرهم يا صالح واصطبر على أذاهم، ولا تعجل، وأخبرهم يا صالح أن ماء البئر قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، يحظر كل صاحب نوبة في نوبته، فنادوا أشقاهم لعقرها وذبحها، فاجترأ على اقتراف هذا الذنب الخطير فعقرها وقتلها، فما أعظم ما عذبوا به جزاء على جرمهم، فقد صاح بهم جبريل عليه السلام فصعقوا وصاروا كالشجر اليابس يجمع في الحظيرة، تهشموا وتكسروا وبادوا: {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١١٧. ولقد سهلنا تدبر القرآن لمن لم يجحد عهد ربه ولقائه وجزاءه. . {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١١٨ {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١١٩.

٣٣ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٢٠ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٢١ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٢٢ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين،

وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٢٣. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٢٤؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٢٥. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٤ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٢٦ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٢٧ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٢٨ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٢٩. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٣٠؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٣١. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٥ - (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر

(٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.
وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٣٢ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٣٣ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٣٤ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٣٥. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٣٦؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٣٧. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٦ - (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.
وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٣٨ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٣٩ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٤٠ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٤١. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٤٢؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك

فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٤٣. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٧ - (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٤٤ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٤٥ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٤٦ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٤٧. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٤٨؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٤٩. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٨ - (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٥٠ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٥١ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر-

{فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٥٢ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٥٣. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٥٤، {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٥٥. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٣٩ - (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

{كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٥٦ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٥٧ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٥٨ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٥٩. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٦٠، {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٦١. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٤٠ - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

}كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠)}.

وقوم آخرون جاءهم رسولهم بالهدى فكذبوه، فكأن تكذيبهم له تكذيب لكل المنذرين صلوات الله عليهم أجمعين، كذبوا عبدنا لوطا إذ قال لهم: {. . إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ١٦٢ {أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} ١٦٣ فأمطر الله تعالى على المفسدين حجارة من سجيل، وقلب مدائنهم بعد أن أمر المولى نبيه لوطا أن يسري بأهله بقطع من الليل؛ -والسحر: آخر الليل إلى طلوع الفجر- {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ١٦٤ وقضى الله تعالى إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وشفى سبحانه صدور قوم مؤمنين؛ ولطالما حذرهم نبيهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فتوعدوه مستهزئين قائلين: {. . . لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} ١٦٥. وجاءت الملائكة عليهم السلام إلى لوط في صورة رجال صباح الوجوه، حسان الخلقة، نخاف عليهم لوط من عدوان قومه فقالوا ما بيّنه الكتاب العزيز {قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون} ١٦٦؛ {قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد} ١٦٧. وهكذا أعماهم ربهم قبل أن يذيقهم وبال أمرهم، فأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا ودمر عليهم، ولعذاب الآخرة أخزى، ولقد أعذر الخالق الحكيم إلى خلقه، وصرّف في كتابه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.

٤١ - (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

}ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر (٤٢)}.

ولقد جاءت بعد المُهْلَكِين الأولين أمة من الجاحدين المستكبرين، تلك هي أمة القبط والفراعين، أتتهم رسلهم-يوسف وبنوه، وموسى وأخوه-أجرى المولى على أيدي هؤلاء الرسل الكرام برهان صدقهم من المعجزات وخوارق العادات فجحدوا بما جاءهم من الحق والعلم-منها: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم- فبطش بهم الله بطشته الكبرى، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما، وهكذا بأس العزيز المنتقم الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب.

[وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية في زماننا أن المراد-بالآيات كلها- عليّ كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى: {. . وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} ١٦٨ وأنه كرم الله تعالى وجهه-ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا-وهذا من الهذيان بمكان نسأل الله تعالى العفو والعافية] ١٦٩.

٤٢ - (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

}ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر (٤٢)}.

ولقد جاءت بعد المُهْلَكِين الأولين أمة من الجاحدين المستكبرين، تلك هي أمة القبط والفراعين، أتتهم رسلهم-يوسف وبنوه، وموسى وأخوه-أجرى المولى على أيدي هؤلاء الرسل الكرام برهان صدقهم من المعجزات وخوارق العادات فجحدوا بما جاءهم من الحق والعلم-منها: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم- فبطش بهم الله بطشته الكبرى، وأغرق فرعون وهامان

وجنودهما، وهكذا بأس العزيز المنتقم الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب.
[وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية في زماننا أن المراد-بالآيات كلها- عليّ كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى: {. وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} ١٧٠ وأنه كرم الله تعالى وجهه-ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا-وهذا من الهذيان بمكان نسأل الله تعالى العفو والعافية] ١٧١.
٤٣ - (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)
{أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)}.
فهل من كفر بعد بعثة النبي الخاتم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ممن سبقهم من الكفار المهلكين، فهو يحسب أنه بمنجى من بأس ربنا القوي المتين؟! أم لهم من القوي الجبار عِدَةٌ نزلت في الكتب المنزلة بسلامتهم من الانتقام؟ أو هو استفهام إنكاري يراد به النفي، بمعنى: ليس كفاركم خيرا ممن تقدم من الأمم الذين أُهلكوا بكفرهم-والمراد بالخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المُحَدّث عنهم بالخيرية أقل عنادا وأقرب طاعة وانقيادا- ١٧٢ بل أيقولون نحن عصبة نَقْهَرُ ولا نُقْهَرُ؟! كلا! بل سيهزم كل جمع تلاقى على الكفر، ويفرون من وجه المؤمنين مولين أدبارهم وظهورهم ناحية جند الله المؤيدين، بل ينتظرهم ما هو أنكى من الهزيمة العاجلة، وأدهى وأشد نكرا حتى لا يُهْتَدى إلى الخلاص منه، يوم يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} ١٧٣. {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا أُلْقُوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ١٧٤.
٤٤ - (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
{أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)}.
فهل من كفر بعد بعثة النبي الخاتم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ممن سبقهم من الكفار المهلكين، فهو يحسب أنه بمنجى من بأس ربنا القوي المتين؟! أم لهم من القوي الجبار عِدَةٌ نزلت في الكتب المنزلة بسلامتهم من الانتقام؟ أو هو استفهام إنكاري يراد به النفي، بمعنى: ليس كفاركم خيرا ممن تقدم من الأمم الذين أُهلكوا بكفرهم-والمراد بالخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المُحَدّث عنهم بالخيرية أقل عنادا وأقرب طاعة وانقيادا- ١٧٥ بل أيقولون نحن عصبة نَقْهَرُ ولا نُقْهَرُ؟! كلا! بل سيهزم كل جمع تلاقى على الكفر، ويفرون من وجه المؤمنين مولين أدبارهم وظهورهم ناحية جند الله المؤيدين، بل ينتظرهم ما هو أنكى من الهزيمة العاجلة، وأدهى وأشد نكرا حتى لا يُهْتَدى إلى الخلاص منه، يوم يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} ١٧٦. {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا أُلْقُوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ١٧٧.
٤٥ - (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]
{أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة

موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)}.

فهل من كفر بعد بعثة النبي الخاتم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ممن سبقهم من الكفار المهلكين، فهو يحسب أنه بمنجى من بأس ربنا القوي المتين؟! أم لهم من القوي الجبار عِدَةٌ نزلت في الكتب المنزلة بسلامتهم من الانتقام؟ أو هو استفهام إنكاري يراد به النفي، بمعنى: ليس كفاركم خيرا ممن تقدم من الأمم الذين أُهلكوا بكفرهم-والمراد بالخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المُحَدّث عنهم بالخيرية أقل عنادا وأقرب طاعة وانقيادا- ١٧٨ بل أيقولون نحن عصبة نَقْهَرُ ولا نُقْهَرُ؟! كلا! بل سيهزم كل جمع تلاقى على الكفر، ويفرون من وجه المؤمنين مولين أدبارهم وظهورهم ناحية جند الله المؤيدين، بل ينتظرهم ما هو أنكى من الهزيمة العاجلة، وأدهى وأشد نكرا حتى لا يُهْتَدى إلى الخلاص منه، يوم يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} ١٧٩. {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا أُلْقُوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ١٨٠.

٤٦ - (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٣]

{أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)}.

فهل من كفر بعد بعثة النبي الخاتم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ممن سبقهم من الكفار المهلكين، فهو يحسب أنه بمنجى من بأس ربنا القوي المتين؟! أم لهم من القوي الجبار عِدَةٌ نزلت في الكتب المنزلة بسلامتهم من الانتقام؟ أو هو استفهام إنكاري يراد به النفي، بمعنى: ليس كفاركم خيرا ممن تقدم من الأمم الذين أُهلكوا بكفرهم-والمراد بالخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المُحَدّث عنهم بالخيرية أقل عنادا وأقرب طاعة وانقيادا- ١٨١ بل أيقولون نحن عصبة نَقْهَرُ ولا نُقْهَرُ؟! كلا! بل سيهزم كل جمع تلاقى على الكفر، ويفرون من وجه المؤمنين مولين أدبارهم وظهورهم ناحية جند الله المؤيدين، بل ينتظرهم ما هو أنكى من الهزيمة العاجلة، وأدهى وأشد نكرا حتى لا يُهْتَدى إلى الخلاص منه، يوم يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد} ١٨٢. {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا أُلْقُوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ١٨٣.

٤٧ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ)

{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.

إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ١٨٤، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ١٨٥ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ، وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ١٨٦ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحللت بالمهلكين؟!

وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ١٨٧ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.

روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

٤٨ - (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.

إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ١٨٨، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ١٨٩ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ١٩٠ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحللت بالمهلكين؟!

وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ١٩١ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.

روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

٤٩ - (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.

إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ١٩٢، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ١٩٣ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ١٩٤ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحللت بالمهلكين؟!

وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ١٩٥ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.

روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

٥٠ - (وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.

إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ١٩٦، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ١٩٧ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ١٩٨ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحلت بالمهلكين؟!

وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ١٩٩ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.

روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

٥١ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]

{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.

إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ٢٠٠، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٠١ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ٢٠٢ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحلت بالمهلكين؟!

وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ٢٠٣ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.

روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

٥٢ - (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.
إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ٢٠٤، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٠٥ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ٢٠٦ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحلت بالمهلكين؟!
وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ٢٠٧ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.
روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.
٥٣ - (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٧]
{إن المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)}.
إن من اقترف جرما، واكتسب خطيئة وإثما، من الأولين والآخرين، في حيرة وهلاك وخسار، ونيران مسعرة في الآخرة، أو جنون: {. . لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} ٢٠٨، يوم يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويعرفون بسيماهم وعلاماتهم: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٠٩ يجرون في جهنم على وجوههم، ويقال لهم ذوقوا حر اللظى والسعير-سقر: علم لجهنم-إن كل شيء من الأشياء خلقناه بقدر موافق للحكمة، أو: مُقَدّرا في سابق علمنا في اللوح المحفوظ؛ وما شأننا إذا أردنا شيئا إلا أن نقول كلمة واحدة (كن) فيكون، ولعل المراد هنا الإشارة إلى أمر بعينه: {. . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} ٢١٠ ولقد أهلكنا أشباهكم من الجاحدين والمعاندين، فهل تتعظون بما أحلت بالمهلكين؟!
وكل ما تأتي القلوب والجوارح أو تذر مكتوب مسطور، بأيدي ملائكة كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون وما تقولون وما تتركون {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}؟ ٢١١ وكل ما عظم أو دق مستنسخ لا يغادر شيء منه خطيرا كان أو يسيرا.
روى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر}.
٥٤ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)
{إن المتقين في جنات ونهر (٥٤) في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥)}.
إن الذين يتقون ما يُسْخِطُ الله ويُحِلُّ عقوبته، ويؤدون الطاعات ويجتنبون المحظورات، يسكنهم المولى البر الرحيم في مساكن طيبة، في حدائق وبساتين كثر شجرها وعظم خَضِرها حتى لا يبدو أديمها؛ وحولهم ومن تحت أفنيتهم تجري أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من

لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى- فنهر جمع أنهار [جمع الجمع]- وقيل نهر: أي نهار لا ظلمة معه فهم في نور وضياء، ومستقرهم في مقاعد ومواطن حق، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، ولهم منازل وأقدار كريمة فهم مقربون من ربهم المالك لكل شيء القدير على كل ما يريد؛ [ويحتمل أن يكون الظرف {عند} - صفة {مقعد صدق}، كما يقال: قليل عند أمين خير من كثير عند خائن؛ قال أهل اللغة: القعود يدل على المكث. . ومنه: قواعد البيت. . ويجوز أن يكون سبب الإضافة أن الصادق قد أخبر عنه وهو الله ورسوله؛ أو الصادق اعتقد فيه وهو المكلف، أو يراد: مقعد لا يوجد فيه كذب؛ فإن من وصل إلى الله استحال عليه إلا الصدق، وهو-تبارك وتعالى- أعلم، وأجل وأكرم.] ٢١٢.

[وقال نور بن يزيد عن خالد بن معدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله انطلقوا، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا، فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. .] ٢١٣.

وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم، وإفراد المقعد على إرادة الجنس {عند مليك} أي ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الإشباع. . ولهذين الاسمين الجليلين شأن في استجابة الدعاء على ما في بعض الآثار.

أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أني أصبحت، فإذا عليّ ليل طويل، وليس فيه أحد غيري، فنمت فسمعت حركة خلفي ففزعت، فقال: أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق-أو لا تفزع- وقل: اللهم إنك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون، ثم سل ما بدا لك. قال: فما سألت الله تعالى شيئا إلا استجاب لي، وأنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون، فأَسْعِدني في الدارين، وكن لي ولا تكن عليّ، وانصرني على من بغى عليّ؛ وأعذني من همّ الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء؛ وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين ٢١٤.

٥٥ - (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{إن المتقين في جنات ونهر (٥٤) في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥)}.

إن الذين يتقون ما يُسْخِطُ الله ويُحِلُّ عقوبته، ويؤدون الطاعات ويجتنبون المحظورات، يسكنهم المولى البر الرحيم في مساكن طيبة، في حدائق وبساتين كثر شجرها وعظم خَضِرها حتى لا يبدو أديمها؛ وحولهم ومن تحت أفنيتهم تجري أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى- فنهر جمع أنهار [جمع الجمع]- وقيل نهر: أي نهار لا ظلمة معه فهم في نور وضياء، ومستقرهم في مقاعد ومواطن حق، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، ولهم منازل وأقدار كريمة فهم مقربون من ربهم المالك لكل شيء القدير على كل ما يريد؛ [ويحتمل أن يكون الظرف {عند} - صفة {مقعد صدق}، كما يقال: قليل عند أمين خير من كثير عند خائن؛ قال أهل اللغة: القعود يدل على المكث. . ومنه: قواعد البيت. . ويجوز أن يكون سبب الإضافة أن الصادق قد أخبر عنه وهو الله ورسوله؛ أو الصادق اعتقد فيه وهو المكلف، أو يراد: مقعد لا يوجد فيه كذب؛ فإن من وصل إلى الله استحال عليه إلا الصدق، وهو-تبارك وتعالى- أعلم، وأجل وأكرم.] ٢١٥.

[وقال نور بن يزيد عن خالد بن معدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله انطلقوا، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا، فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. .] ٢١٦.

وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم، وإفراد المقعد على إرادة الجنس {عند مليك} أي ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الإشباع. . ولهذين الاسمين الجليلين شأن في استجابة الدعاء على ما في بعض الآثار.

أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أني أصبحت، فإذا عليّ ليل طويل، وليس فيه أحد غيري،

فنمت فسمعت حركة خلفي ففزعت، فقال: أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق-أو لا تفزع- وقل: اللهم إنك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون، ثم سل ما بدا لك. قال: فما سألت الله تعالى شيئا إلا استجاب لي، وأنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون، فأَسْعِدني في الدارين، وكن لي ولا تكن عليّ، وانصرني على من بغى عليّ، وأعذني من همّ الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين ٢١٧.

خاتمة:

هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢١٨. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ٢١٩، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ٢٢٠، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ٢٢١، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ٢٢٢، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ٢٢٣، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ٢٢٤، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ٢٢٥، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ٢٢٦، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ٢٢٧، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ٢٢٨، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ٢٢٩، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ٢٣٠ الرحيم} ٢٣١.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ٢٣٢، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ٢٣٣، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ٢٣٤، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ٢٣٥، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ٢٣٦، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ٢٣٧، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ٢٣٨، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ٢٣٩.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٢٤٠، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٢٤١، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٢٤٢ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٢٤٣، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} ٢٤٤، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٢٤٥، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٢٤٦، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٢٤٧، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٢٤٨ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٢٤٩، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٢٥٠، {أم له البنات ولكم البنون} ٢٥١.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله، فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٢٥٢.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٢٥٣.

ومن سنته تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر} ٢٥٤؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٢٥٥، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٢٥٦، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٢٥٧، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون

الدبر} ٢٥٨.
وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.
وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٢٥٩، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٢٦٠: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٢٦١.
وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٢٦٢، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٢٦٣، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٢٦٤، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٦٥، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٢٦٦ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٢٦٧، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٢٦٨، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٢٦٩، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٢٧٠، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٢٧١، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٢٧٢.
وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٢٧٣؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٢٧٤، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٢٧٥ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢٧٦ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٢٧٧؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٢٧٨. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٢٧٩.
وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢٨٠، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٨١. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٨٢، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٨٣، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٨٤،

}إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر{ ٢٨٥.
لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: }هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن{ ٢٨٦، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: }ولمن خاف مقام ربه جنتان{ ٢٨٧، وأصحاب منازل للنعيم أقل من سابقيهم: }ومن دونهما جنتان{ ٢٨٨، أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، }فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون{ ٢٨٩.
هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: }ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما{ ٢٩٠، }إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم{ ٢٩١، }ولمن خاف مقام ربه جنتان{ ٢٩٢ }ذوتا أفنان{ ٢٩٣، }فيهما عينان تجريان{ ٢٩٤ }فيهما من كل فاكهة زوجان{ ٢٩٥، }متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان{ ٢٩٦، }}فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان{ ٢٩٧، }كأنهن الياقوت والمرجان{ ٢٩٨، }ومن دونهما جنتان{ ٢٩٩ }مدهامتان{ ٣٠٠ }فيهما عينان نضاختان{ ٣٠١، }فيهما فاكهة ونخل ورمان{ ٣٠٢، }فيهن خيرات حسان{ ٣٠٣، }حور مقصورات في الخيام{ ٣٠٤، }لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان{ ٣٠٥، }متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان{ ٣٠٦ في سورة الواقعة }على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما{ ٣٠٧.
في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.
ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: }قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد{ ٣٠٨، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: }يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير{ ٣٠٩.
والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: }وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير{ ٣١٠، }. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم{ ٣١١ }إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا

يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٣١٢، {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٣١٣.
إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٣١٤، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٣١٥.
ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٣١٦، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٣١٧، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٣١٨، {فسبح باسم ربك العظيم} ٣١٩، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٣٢٠، ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٣٢١.
والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٣٢٢، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله؛ والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.
وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٣٢٣؛ كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٣٢٤ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٣٢٥ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٣٢٦، وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٣٢٧.

٥٥ سورة الرحمن:

سورة الرحمن:
مدنية
وآياتها ثمان وسبعون
كلماتها: ٣٥١؛ حروفها: ١٣٣٦.
١ - (الرَّحْمَنُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)}.
الرحمن ربنا علّم أمين وحيه جبريل القرآن، أو علّم من سبقت لهم الحسنى القرآن، الذي هو منهاج السعادة وسبيل الرشد والخير والحق؛ أنشأ الناس من العدم ولم يكونوا شيئا، ووهبهم السمع والبصر والنطق والفهم.

[. . برحمته إياكم علمكم القرآن فأنعم بذلك عليكم إذ بصّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. . . علّم الإنسان حلاله وحرامه، علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعايش والمنطق وغير ذلك. .] ١.

وجمهور اللغويين على أن كل اسم من فعل يفعل عدل به عن أصله تكون التسمية به مدحا، ويكون الموصوف به مفضلا على الموصوف بالاسم الذي صيغ على وزن [فاعل] إذ اسم الفاعل من رحم [راحم] لكن هذا مشتق من الرحمة على وجه المبالغة؛ وهو اسم لم يسم به إلا الله عز وجل؛ وربما يكون المراد به مفيض الرحمة في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه يمنح رحمته في الدنيا من يحب ومن لا يحب، يعم بها جميع خلقه، لكن رحمته في الآخرة يختص بها أهل الإيمان.

٢ - (عَلَّمَ الْقُرْءَانَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)}.

الرحمن ربنا علّم أمين وحيه جبريل القرآن، أو علّم من سبقت لهم الحسنى القرآن، الذي هو منهاج السعادة وسبيل الرشد والخير والحق؛ أنشأ الناس من العدم ولم يكونوا شيئا، ووهبهم السمع والبصر والنطق والفهم.

[. . برحمته إياكم علمكم القرآن فأنعم بذلك عليكم إذ بصّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. . . علّم الإنسان حلاله وحرامه، علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعايش والمنطق وغير ذلك. .] ٢.

وجمهور اللغويين على أن كل اسم من فعل يفعل عدل به عن أصله تكون التسمية به مدحا، ويكون الموصوف به مفضلا على الموصوف بالاسم الذي صيغ على وزن [فاعل] إذ اسم الفاعل من رحم [راحم] لكن هذا مشتق من الرحمة على وجه المبالغة؛ وهو اسم لم يسم به إلا الله عز وجل؛ وربما يكون المراد به مفيض الرحمة في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه يمنح رحمته في الدنيا من يحب ومن لا يحب، يعم بها جميع خلقه، لكن رحمته في الآخرة يختص بها أهل الإيمان.

٣ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)}.

الرحمن ربنا علّم أمين وحيه جبريل القرآن، أو علّم من سبقت لهم الحسنى القرآن، الذي هو منهاج السعادة وسبيل الرشد والخير والحق؛ أنشأ الناس من العدم ولم يكونوا شيئا، ووهبهم السمع والبصر والنطق والفهم.

[. . برحمته إياكم علمكم القرآن فأنعم بذلك عليكم إذ بصّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. . . علّم الإنسان حلاله وحرامه، علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعايش والمنطق وغير ذلك. .] ٣.

وجمهور اللغويين على أن كل اسم من فعل يفعل عدل به عن أصله تكون التسمية به مدحا، ويكون الموصوف به مفضلا على الموصوف بالاسم الذي صيغ على وزن [فاعل] إذ اسم الفاعل من رحم [راحم] لكن هذا مشتق من الرحمة على وجه المبالغة؛ وهو اسم لم يسم به إلا الله عز وجل؛ وربما يكون المراد به مفيض الرحمة في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه يمنح رحمته في الدنيا من يحب ومن لا يحب، يعم بها جميع خلقه، لكن رحمته في الآخرة يختص بها أهل الإيمان.

٤ - (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
{الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)}.
الرحمن ربنا علّم أمين وحيه جبريل القرآن، أو علّم من سبقت لهم الحسنى القرآن، الذي هو منهاج السعادة وسبيل الرشد والخير والحق؛ أنشأ الناس من العدم ولم يكونوا شيئا، ووهبهم السمع والبصر والنطق والفهم.
[. . برحمته إياكم علمكم القرآن فأنعم بذلك عليكم إذ بصّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. . . علّم الإنسان حلاله وحرامه، علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعايش والمنطق وغير ذلك. .] ٤.
وجمهور اللغويين على أن كل اسم من فعل يفعل عدل به عن أصله تكون التسمية به مدحا، ويكون الموصوف به مفضلا على الموصوف بالاسم الذي صيغ على وزن [فاعل] إذ اسم الفاعل من رحم [راحم] لكن هذا مشتق من الرحمة على وجه المبالغة؛ وهو اسم لم يسم به إلا الله عز وجل؛ وربما يكون المراد به مفيض الرحمة في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه يمنح رحمته في الدنيا من يحب ومن لا يحب، يعم بها جميع خلقه، لكن رحمته في الآخرة يختص بها أهل الإيمان.
٥ - (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)
{الشمس والقمر بحسبان (٥)}.
الشمس والقمر يجريان بحسابات شتى في بروجهما ومنازلهما، لا يعدوان ذلك ولا يحيدان عنه؛ قال ابن زيد وغيره: يعني أن بهما تحسب الأوقات. . ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرِ أحد شيئا لو كان الدهر كله ليلا أو نهارا.
٦ - (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)
{والنجم والشجر يسجدان (٦)}.
{النجم} من معانيه: النبت الذي لا ساق له؛ والشجر ما له ساق؛ وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس وغيره.
لما تحدثت الآية الكريمة السابقة عن جانب من سلطان الله القوي، وأنه سخر الشمس والقمر وأجراهما وفق حكمته ومراده، بيّن سبحانه أن المخلوقات الأرضية هي أيضا منقادة لله عز وجل، ولعل هذا مما أشير إليه في قول المولى تبارك اسمه: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} ٥.
[وقيل: إن جميع ذلك مسخر لله، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم، وعبد كثير من العجم الشجر؛ والسجود: الخضوع، والمعنى به آثار الحدوث؛ حكاه القشيري؛ النحاس: أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها له؛ ومن الحيوان كذلك. .] ٦.
٧ - (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)
{والسماء رفعها ووضع الميزان (٧)}.
خلق الله تعالى السماء مرفوعة بغير عمد، وأقامها سبحانه بالحق- وسيأتي في مقابل هذا صدر الآية العاشرة: {والأرض وضعها} لكن لعل من حكمته عز شأنه في ذكر أمر القسط والعدل بين المتقابلين الاهتمام بأمر العدل والتحريض عليه، كما أن رعاية الحق تقترن في كثير من الآيات بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ يقول ربنا الحكيم: {الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان. { ٧ ويقول جل وعلا: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} ٨؛ {ووضع الميزان} ورضي تعالى لعباده أن يتعاملوا بالعدل، وأمر به وشرّعه، وأعطى كل شيء خلقه، ووفى كل ذي حق حقّه.
٨ - (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

{ألا تطغوا في الميزان (٨)}.
شرع الله تعالى العدل كيلا تتجاوزوا ما ينبغي فيه، ولكيلا تجوروا وتعتدوا في حقه وشأنه.
وجوز ابن عطيه والزمخشري كون {أن} تفسيرية، و {لا} ناهية، فيكون المعنى: ووضع الميزان وشرع لكم العدل؛ أي لا تجوروا ولا تبخسوا، ولا تخونوا ولا تطففوا.
٩ - (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)
{وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (٩)}.
أوفوا الحقوق بأمانة. ولا تبخسوا شيئا ولا تنقصوه.
١٠ - (وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ)
{والأرض وضعها للأنام (١٠)}.
وخلق الله تعالى الأرض مخفوضة بينما السماء مرفوعة [حسبما يشاهد] ٩ وقال الراغب: الوضع هنا الإيجاد. . أه.
واللام إن كانت للانتفاع فالمراد الإنس لأن الله تعالى سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعا، وثمرة التسخير الانتفاع؛ أو المراد بالأنام كل ما دب على وجه الأرض.
١١ - (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ)
{فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١١)}
أوجد الله تعالى الكوكب الأرضي الذي نسكنه جاعلا سبحانه في أرضنا ما يتفكه به الإنسان من أطايب الثمار، ومن أبركها ثمرات النخيل ذات الأحمال من الثمر، أو ذات الأوعية التي تحفظ ما ينتفع به من ليف وسعف وطلع وجمار وحطب من جذوعها.
١٢ - (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)
{والحب ذو العصف والريحان (١٢)}.
وصنوف الحب مما يتغذى به قوتا وبقلا، وعصفها: ورقها-التبن وما شاكله-والنبات العطري وكل مشموم طيب الريح.
فالآية الحادية عشرة أشارت إلى نعمة الثمر والفاكهة، وهذه أشارت إلى القوت للخلق والبهائم، وإلى ما يُتَدَاوى به ويُتَرَفَّه.
١٣ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
{فبأي ءالاء ربكما تكذبان (١٣)}.
فبأي نعمة من نعم ربكما يا معشر المكلفين من الجن والإنس وبأي برهان حسي من علامات قدرته وحكمته ومنته تجحدان وتنكران وتكذبان؟!
{ءالاء} جمع إلي، كأمعاء جمع معي.
[ويندب أن يقول سامع هذه الآية: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد؛ فقد أخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة {الرحمن} على أصحابه فسكتوا فقال: (ما لي أسمع الجن أحسن جوابا لربكم منكم ما أتيت على قول الله تعالى: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد). وأخرج الترمذي وجماعة وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله نحوه] ١٠.
١٤ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)
{خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤)}.
خلق الله أول إنسان-آدم عليه السلام-من طين يابس، مُشْبِهٍ للفخار. أي ما أحرق من الطين حتى تحجر.
[وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا، فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين] ١١.

١٥ - (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)
}وخلق الجان من مارج من نار (١٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (١٦)}.
وأنشأ المولى الخلّاق العليم جنس الجن من لهب من النار، أو من لهب مختلط بالنار، فبأي نعم من ربّاكُما وأنشأكُما تجحدان وتنكران وتكفران أيها الأناسيّ ويا أيها الجان؟!.
١٦ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
}وخلق الجان من مارج من نار (١٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (١٦)}.
وأنشأ المولى الخلّاق العليم جنس الجن من لهب من النار، أو من لهب مختلط بالنار، فبأي نعم من ربّاكُما وأنشأكُما تجحدان وتنكران وتكفران أيها الأناسيّ ويا أيها الجان؟!.
١٧ - (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)
}رب المشرقين ورب المغربين (١٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (١٨)}.
وهو وليّ المشارق والمغارب ومالكهما ومليكهما، فبأي من هذه المنن الربانية -التي يعتدل بها الهواء وتختلف الفصول ويحدث ما يناسب كل فصل في وقته- تكفران وتنكران وتجحدان؟!.
فالذي له الرحمة البالغة على الحقيقة والذي علّم القرآن الهادي إلى الخير والرشد، وخلق الإنسان والجان، ورفع السماء، وبسط الأرض وأودع فيها أقواتها، وأنبت فيها أرزاقها، هو رب مشرقي الشمس صيفا وشتاء ومغربيها؛ [وقيل المشرقان مشرقا الشمس والقمر؛ والمغربان مغرباهما] ١٢.
١٨ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]
}رب المشرقين ورب المغربين (١٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (١٨)}.
وهو وليّ المشارق والمغارب ومالكهما ومليكهما، فبأي من هذه المنن الربانية -التي يعتدل بها الهواء وتختلف الفصول ويحدث ما يناسب كل فصل في وقته- تكفران وتنكران وتجحدان؟!.
فالذي له الرحمة البالغة على الحقيقة والذي علّم القرآن الهادي إلى الخير والرشد، وخلق الإنسان والجان، ورفع السماء، وبسط الأرض وأودع فيها أقواتها، وأنبت فيها أرزاقها، هو رب مشرقي الشمس صيفا وشتاء ومغربيها؛ [وقيل المشرقان مشرقا الشمس والقمر؛ والمغربان مغرباهما] ١٣.
١٩ - (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)
}مرج} خلّى وأرسل. يقال: مرجت الدابة إذا خلّيتها ترعى.
}البحرين} البحر الملح والنهر العذب.
}يلتقيان} يلتقي طرفهما، أو يتجاوران وتتماس سطوحهما.
}مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢١)}.
ربنا القوي القدير هو الذي أرسل البحر والنهر كليهما وخلّى بينهما، فهذا يصب في ذاك ولكن لا يستحيل النهر بحرا بما لاقاه من ملح أجاج، ولا يستحيل البحر نهرا بما صب فيه من عذب فرات؛ تلك قدرة الله الذي أتقن كل شيء صنعا، فتبارك اللطيف الخبير؛ وما يكذب بآيات ربنا وبرهان عظمته إلا كل ختار كفور.
[}لا يبغيان} لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة. . أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما. . . وقيل: المعنى:لا يطلبان حالا غير الحال التي خُلِقَا عليها وسُخِّرا لها] ١٤.

{البحرين} قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض: وقال مجاهد وسعيد بن جبير، {يلتقيان} في كل عام، وقيل:يلتقي طرفهما، وقال الحسن وقتادة: بحر فارس والروم. . . . . . . وقيل البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، أي بينهما مدة قدرها الله وهي مدة الدنيا فهما لا يبغيان، فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئا واحدا، وهو كقوله تعالى: {وإذا البحار فجرت} ١٥، وقال سهل بن عبد الله: البحران طريق الخير والشر والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة} ١٦. وعلى فرض صحة نسبة ما قيل إليهم أقول: ومع توقيرنا لسلفنا المكرمين فإنا على يقين من أن كتاب الله تعالى ينطق بالحق، والأولى أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، ففي سورة الفرقان يقول الحق جل جلاله: {وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا} ١٧، فكيف يقال بعد ذلك في {البحرين} بحر السماء وبحر الأرض؟ أو طريق الخير والشر؟! ١٨.

٢٠ - (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ)

{برزخ} حاجز.

{لا يبغيان} لا يبطل أحدهما خواص الآخر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار

٢١ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار

٢٢ - (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٣) وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٥)}.

شاء الحكيم بقدرته أن يخرج لنا من بين اللجج المظلمة، والأمواج المتلاطمة أنفس الدرر، وجواهر الحلي، فمن أصداف البحر يستخرج الحجر المتلألئ، ومن قاعه يُلتقط المرجان-وهو الخرز الأحمر، ويسمى [البسذ] وهو المشهور المتعارف، وكما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان يخرج بفضله وحوله من البحر اللؤلؤ والمرجان، فهل ينكر عاقل ذو قلب عظمة المنعم الذي أحسن كل شيء خلقه؟ ولله الكبير الحميد المجيد سلطان تسيير السفن الكبيرة ذات القلاع المشرعة وحَمَلها-مع ثقلها وما حوت-على سطح الماء مع رقته، فهل يماري إنسيّ أو جنيّ في أن المولى جلت قدرته هو الذي يسيرها ولو شاء سبحانه لأوبقها وأغرقها؟!.

وقال: {منهما} وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم} ١٩ وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الكلبي وغيره، قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما. . . وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله: {. . على رجل من القريتين} ٢٠.

[ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: {مرج البحرين يلتقيان} علي، وفاطمة. رضي الله تعالى عنهما، {بينهما برزخ لا يبغيان} النبي صلى الله عليه وسلم {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وأخرج عن أنس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسي من الإمامية في تفسيره [مجمع البيان] الأول بعينه عن سلمان الفارسي: والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء، بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان، بمراتب جاوزت حد الحسبان] ٢١.

[ذكر الأطباء أن {اللؤلؤ} يمنع الخفقان، وضعف الكبد، والكلي، والحصى، وحرقة البول، والسدود، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحش، والربو-شربا- والجذام، والبرص، والبهق، والآثار مطلقا بالطلي إلى غير ذلك، وأن {المرجان} أعني البسذ يفرح، ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا، ونفث الدم، والطحال-شربا-والدمعة، والبياض والسلاق، والجرب-كحلا- إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ٢٢].

٢٣ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٣) وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٥)}.

شاء الحكيم بقدرته أن يخرج لنا من بين اللجج المظلمة، والأمواج المتلاطمة أنفس الدرر؛ وجواهر الحلي، فمن أصداف البحر يستخرج الحجر المتلألئ، ومن قاعه يُلتقط المرجان-وهو الخرز الأحمر، ويسمى [البسذ] وهو المشهور المتعارف، وكما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان يخرج بفضله وحوله من البحر اللؤلؤ والمرجان؛ فهل ينكر عاقل ذو قلب عظمة المنعم الذي أحسن كل شيء خلقه؟ ولله الكبير الحميد المجيد سلطان تسيير السفن الكبيرة ذات القلاع المشرعة وحَمَلها-مع ثقلها وما حوت-على سطح الماء مع رقته، فهل يماري إنسيّ أو جنيّ في أن المولى جلت قدرته هو الذي يسيرها ولو شاء سبحانه لأوبقها وأغرقها؟!.

وقال: {منهما} وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم} ٢٣ وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الكلبي وغيره؛ قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما. . . وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله: {. . على رجل من القريتين} ٢٤.

[ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: {مرج البحرين يلتقيان} علي، وفاطمة. رضي الله تعالى عنهما؛ {بينهما برزخ لا يبغيان} النبي صلى الله عليه وسلم {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما؛ وأخرج عن أنس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسي من الإمامية في تفسيره [مجمع البيان] الأول بعينه عن سلمان الفارسي: والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء، بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات؛ وكل من علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان، بمراتب جاوزت حد الحسبان] ٢٥.

[ذكر الأطباء أن {اللؤلؤ} يمنع الخفقان، وضعف الكبد، والكلي، والحصى، وحرقة البول، والسدود، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحش، والربو-شربا- والجذام، والبرص، والبهق، والآثار مطلقا بالطلي إلى غير ذلك، وأن {المرجان} أعني البسذ يفرح، ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا، ونفث الدم، والطحال-شربا-والدمعة، والبياض والسلاق، والجرب-كحلا- إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ٢٦].

٢٤ - (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٣) وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٥)}.

شاء الحكيم بقدرته أن يخرج لنا من بين اللجج المظلمة، والأمواج المتلاطمة أنفس الدرر؛ وجواهر الحلي، فمن أصداف البحر يستخرج الحجر المتلألئ، ومن قاعه يُلتقط المرجان-وهو الخرز الأحمر، ويسمى [البسذ] وهو المشهور المتعارف، وكما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان يخرج بفضله وحوله من البحر اللؤلؤ والمرجان؛ فهل ينكر عاقل ذو قلب عظمة المنعم الذي أحسن كل شيء خلقه؟ ولله الكبير الحميد المجيد سلطان تسيير السفن الكبيرة ذات القلاع المشرعة وحَمَلها-مع ثقلها وما حوت-على سطح الماء مع رقته، فهل يماري إنسيّ أو جنيّ في أن المولى جلت قدرته هو الذي يسيرها ولو شاء سبحانه لأوبقها وأغرقها؟!.

وقال: {منهما} وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم} ٢٧ وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الكلبي وغيره؛ قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما. . . وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله: {. . على رجل من القريتين}

.٢٨
[ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: {مرج البحرين يلتقيان} علي، وفاطمة. رضي الله تعالى عنهما، {بينهما برزخ لا يبغيان} النبي صلى الله عليه وسلم {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وأخرج عن أنس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسي من الإمامية في تفسيره [مجمع البيان] الأول بعينه عن سلمان الفارسي: والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء، بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان، بمراتب جاوزت حد الحسبان] ٢٩.
[ذكر الأطباء أن {اللؤلؤ} يمنع الخفقان، وضعف الكبد، والكلي، والحصى، وحرقة البول، والسدود، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحش، والربو-شربا- والجذام، والبرص، والبهق، والآثار مطلقا بالطلي إلى غير ذلك، وأن {المرجان} أعني البسذ يفرح، ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا، ونفث الدم، والطحال-شربا-والدمعة، والبياض والسلاق، والجرب-كحلا- إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ٣٠].
٢٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٣) وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٥)}.
شاء الحكيم بقدرته أن يخرج لنا من بين اللجج المظلمة، والأمواج المتلاطمة أنفس الدرر، وجواهر الحلي، فمن أصداف البحر يستخرج الحجر المتلألئ، ومن قاعه يُلتقط المرجان-وهو الخرز الأحمر، ويسمى [البسذ] وهو المشهور المتعارف، وكما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان يخرج بفضله وحوله من البحر اللؤلؤ والمرجان، فهل ينكر عاقل ذو قلب عظمة المنعم الذي أحسن كل شيء خلقه؟ ولله الكبير الحميد المجيد سلطان تسيير السفن الكبيرة ذات القلاع المشرعة وحَمَلها-مع ثقلها وما حوت-على سطح الماء مع رقته، فهل يماري إنسيّ أو جنيّ في أن المولى جلت قدرته هو الذي يسيرها ولو شاء سبحانه لأوبقها وأغرقها؟!.
وقال: {منهما} وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم} ٣١ وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الكلبي وغيره، قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما. . . وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله: {. . على رجل من القريتين} ٣٢.
[ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: {مرج البحرين يلتقيان} علي، وفاطمة. رضي الله تعالى عنهما، {بينهما برزخ لا يبغيان} النبي صلى الله عليه وسلم {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وأخرج عن أنس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسي من الإمامية في تفسيره [مجمع البيان] الأول بعينه عن سلمان الفارسي: والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء، بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان، بمراتب جاوزت حد الحسبان] ٣٣.
[ذكر الأطباء أن {اللؤلؤ} يمنع الخفقان، وضعف الكبد، والكلي، والحصى، وحرقة البول، والسدود، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحش، والربو-شربا- والجذام، والبرص، والبهق، والآثار مطلقا بالطلي إلى غير ذلك، وأن {المرجان} أعني البسذ يفرح، ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا، ونفث الدم، والطحال-شربا-والدمعة، والبياض والسلاق، والجرب-كحلا- إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ٣٤].
٢٦ - (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)
{كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٨)}.

ومن آلائه-جل علاه- أنه قدّر على كل حي أن يموت إلا هو سبحانه فإنه حي دائم لا يموت، والضمير في عليها يعود إلى الأرض، وإنما عدّ موت الجن والإنس من النعم لأن به نتوصل إلى الخلد في جنات النعيم.

نقل عن ابن عباس، ومقاتل: لما نزلت الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: {. . كل شيء هالك إلا وجهه} ٣٥ فأيقنت الملائكة بالهلاك، ويبقى ربنا الملك الباقي الذي لا يزول،

[فالوجه عبارة عن وجود ذاته سبحانه، قال الشاعر:

قضى على خلقه المنايا ... فكل شيء سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا. . وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه] ٣٦.

والله الحي القيوم له الجلال والعظمة والسلطان، وهو أهل أن يكرّم عما لا يليق به من شرك أو غيره.

٢٧ - (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٨)}.

ومن آلائه-جل علاه- أنه قدّر على كل حي أن يموت إلا هو سبحانه فإنه حي دائم لا يموت، والضمير في عليها يعود إلى الأرض، وإنما عدّ موت الجن والإنس من النعم لأن به نتوصل إلى الخلد في جنات النعيم.

نقل عن ابن عباس، ومقاتل: لما نزلت الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: {. . كل شيء هالك إلا وجهه} ٣٧ فأيقنت الملائكة بالهلاك، ويبقى ربنا الملك الباقي الذي لا يزول،

[فالوجه عبارة عن وجود ذاته سبحانه، قال الشاعر:

قضى على خلقه المنايا ... فكل شيء سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا. . وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه] ٣٨.

والله الحي القيوم له الجلال والعظمة والسلطان، وهو أهل أن يكرّم عما لا يليق به من شرك أو غيره.

٢٨ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]

{كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٢٨)}.

ومن آلائه-جل علاه- أنه قدّر على كل حي أن يموت إلا هو سبحانه فإنه حي دائم لا يموت، والضمير في عليها يعود إلى الأرض، وإنما عدّ موت الجن والإنس من النعم لأن به نتوصل إلى الخلد في جنات النعيم.

نقل عن ابن عباس، ومقاتل: لما نزلت الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: {. . كل شيء هالك إلا وجهه} ٣٩ فأيقنت الملائكة بالهلاك، ويبقى ربنا الملك الباقي الذي لا يزول،

[فالوجه عبارة عن وجود ذاته سبحانه، قال الشاعر:

قضى على خلقه المنايا ... فكل شيء سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا. . وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه] ٤٠.

والله الحي القيوم له الجلال والعظمة والسلطان، وهو أهل أن يكرّم عما لا يليق به من شرك أو غيره.

٢٩ - (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

{يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن (٢٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٠)}.

الله رب كل شيء ومليكه، ووليه ومصلحه، فلا غنى بأحد عن مربيه ومالك أمره ومصلح شأنه، ومَن مِنه يستمد الحفظ والرزق والرشد لحظة بعد لحظة، وليس من ساعة إلا ولربنا فيها منح، وللمكلفين فيها من الله ابتلاء، وفي المأثور من دعاء السحر: ماذا أنزل ربنا الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن؟! فبأي آيات الله وأنعمه يجحد المبطلون؟.

[{يسأله من في السماوات الأرض} قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثا وبقاء، وفي سائر أحوالهم سواء، سؤالا مستمرا بلسان المقال أو بلسان الحال، فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا؛ فهم في كل آن سائلون] ٤١.

[قيل: المعنى: يسأله من في السماوات الرحمة، ومن في الأرض الرزق. . أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعا؛ وقال ابن جرير: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعا من أهل السماء والأرض لأهل الأرض. . . . {كل يوم هو في شأن} هذا كلام مبتدأ، وانتصب {كل يوم} ظرفا، لقوله {في شأن} أو ظرفا للسؤال، ثم يبتدئ {هو في شأن}؛ وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {كل يوم هو في شأن} قال: (من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين) وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل: {كل يوم هو في شأن} قال: " يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا ". . والشأن في اللغة: الخطب العظيم؛ والجمع الشئون؛ والمراد بالشأن هاهنا الجمع؛ كقوله تعالى: {. . ثم يخرجكم طفلا} ٤٢.] ٤٣.

وعن مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئا فردّ عزّ وجل عليهم بذلك؛ وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: شئون يبديها لا شئون يبتديها. . . {فبأي ءالاء ربكما تكذبان} مما يُسعف به سؤلكما، وما يُخرج لكما بيديه من مكمن العدم حينا فحينا.] ٤٤.

٣٠ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن (٢٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٠)}.

الله رب كل شيء ومليكه، ووليه ومصلحه، فلا غنى بأحد عن مربيه ومالك أمره ومصلح شأنه، ومَن مِنه يستمد الحفظ والرزق والرشد لحظة بعد لحظة، وليس من ساعة إلا ولربنا فيها منح، وللمكلفين فيها من الله ابتلاء؛ وفي المأثور من دعاء السحر: ماذا أنزل ربنا الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن؟! فبأي آيات الله وأنعمه يجحد المبطلون؟.

[{يسأله من في السماوات الأرض} قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثا وبقاء، وفي سائر أحوالهم سواء، سؤالا مستمرا بلسان المقال أو بلسان الحال، فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا؛ فهم في كل آن سائلون] ٤٥.

[قيل: المعنى: يسأله من في السماوات الرحمة، ومن في الأرض الرزق. . أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعا؛ وقال ابن جرير: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعا من أهل السماء والأرض لأهل الأرض. . . . {كل يوم هو في شأن} هذا كلام مبتدأ، وانتصب {كل يوم} ظرفا، لقوله {في شأن} أو ظرفا للسؤال، ثم يبتدئ {هو في شأن}؛ وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {كل يوم هو في شأن} قال: (من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين) وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل: {كل يوم هو في شأن} قال: " يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا ". . والشأن في اللغة: الخطب العظيم؛ والجمع الشئون؛ والمراد بالشأن هاهنا الجمع؛ كقوله تعالى: {. . ثم يخرجكم طفلا} ٤٦.] ٤٧.

وعن مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئا فردّ عزّ وجل عليهم بذلك؛ وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: شئون يبديها لا شئون يبتديها. . . {فبأي ءالاء ربكما تكذبان} مما يُسعف به سؤلكما، وما يُخرج لكما بيديه من مكمن العدم حينا فحينا.] ٤٨.

٣١ - (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ)

}سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٢){.

سنجزيكم يا معشر الجن والإنس جزاء كما يوم الحساب؛ فبأي برهان لاقتدارنا ترتبان؟!.

[. . والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فجعل انتهاء الشئون المشار إليها بقوله تعالى: {كل يوم هو في شأن} يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغا لهم على سبيل التمثيل. . ولله-تبارك وتقدّس-المثل الأعلى؛ فشبه حال هؤلاء-وأخذه تعالى في جزائهم فحسب-بحال من فُرِغ له. . {أيها الثقلان} هما الإنس والجن من ثقل الدابة وهو ما يحمل عليها، جعلت الأرض كالحمولة والإنس والجن ثقلاها، وما سواهما-على هذا- كالعلاوة. .، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما، ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه: ثقل، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي) وقيل: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب] ٤٩.

٣٢ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣١]

}سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٢){.

سنجزيكم يا معشر الجن والإنس جزاء كما يوم الحساب؛ فبأي برهان لاقتدارنا ترتبان؟!.

[. . والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فجعل انتهاء الشئون المشار إليها بقوله تعالى: {كل يوم هو في شأن} يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغا لهم على سبيل التمثيل. . ولله-تبارك وتقدّس-المثل الأعلى؛ فشبه حال هؤلاء-وأخذه تعالى في جزائهم فحسب-بحال من فُرِغ له. . {أيها الثقلان} هما الإنس والجن من ثقل الدابة وهو ما يحمل عليها، جعلت الأرض كالحمولة والإنس والجن ثقلاها، وما سواهما-على هذا- كالعلاوة. .، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما، ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه: ثقل، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي) وقيل: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب] ٥٠.

٣٣ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ)

}يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٦){.

بعد وعيد الواحد القهار للمكلفين بما ينتظرهم من أهوال يوم الوعيد، وما أعد للفجار من عذاب مقيم شديد، كأنما أراد سبحانه أن يبين عقب ذلك أنهم لن يفروا من جزائه إذا حان حينه، وأنذرهم أنهم ما يقدرون أبدا على الإفلات من قبضته جل علاه، فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فهيهات أن يبعد أحد عن ملك ربنا وملكوته، أو يُعْجِز ربّه هربا؛ فبأي من قهر الجبار بعد حلمه وإمهاله تجحدان؟!.

سرادق النار-لهبا وشررا ودخانا- محيط بالأشقياء يوم الجزاء منذ وقوفهم في موقف الحساب والقضاء، وكل نفس معها سائق وشهيد، فهل من أسوار اللهب يتسنى لمعذب أن يغادر؟ أم من أيدي ملائكة غلاظ شداد يتأتى له أن يفر؟ فاصبر أيها المؤمن على ما لا تقدر على دفعه من أذى الكافرين والفجار {. . ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} ٥١.

[{لا تنفذون} لا تقدرون على النفوذ {إلا بسلطان} أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل، وألف ألف منزل. . . . {شواظ}. . قال الضحاك: الدخان الذي يخرج من اللهب. . {من نار} متعلق ب {يرسل} أو بمضمر هو صفة {شواظ} و {من} ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم {ونحاس} هو الدخان الذي لا لهب فيه. . . والراغب فسّره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه في اللون بالنحاس. . . {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء.] ٥٢.

٣٤ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]
{يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٦)}.
بعد وعيد الواحد القهار للمكلفين بما ينتظرهم من أهوال يوم الوعيد، وما أعد للفجار من عذاب مقيم شديد، كأنما أراد سبحانه أن يبين عقب ذلك أنهم لن يفروا من جزائه إذا حان حينه، وأنذرهم أنهم ما يقدرون أبدا على الإفلات من قبضته جل علاه، فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فهيهات أن يبعد أحد عن ملك ربنا وملكوته، أو يُعْجِز ربّه هربا؛ فبأي من قهر الجبار بعد حلمه وإمهاله تجحدان؟!.
سرادق النار-لهبا وشررا ودخانا- محيط بالأشقياء يوم الجزاء منذ وقوفهم في موقف الحساب والقضاء، وكل نفس معها سائق وشهيد، فهل من أسوار اللهب يتسنى لمعذب أن يغادر؟ أم من أيدي ملائكة غلاظ شداد يتأتى له أن يفر؟ فاصبر أيها المؤمن على ما لا تقدر على دفعه من أذى الكافرين والفجار {. ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} ٥٣.
[{لا تنفذون} لا تقدرون على النفوذ {إلا بسلطان} أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل، وألف ألف منزل. . . . {شواظ}. . قال الضحاك: الدخان الذي يخرج من اللهب. . {من نار} متعلق ب {يرسل} أو بمضمر هو صفة {شواظ} و {من} ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم {ونحاس} هو الدخان الذي لا لهب فيه. . . والراغب فسّره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه في اللون بالنحاس. . . {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء.] ٥٤.
٣٥ - (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]
{يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٦)}.
بعد وعيد الواحد القهار للمكلفين بما ينتظرهم من أهوال يوم الوعيد، وما أعد للفجار من عذاب مقيم شديد، كأنما أراد سبحانه أن يبين عقب ذلك أنهم لن يفروا من جزائه إذا حان حينه، وأنذرهم أنهم ما يقدرون أبدا على الإفلات من قبضته جل علاه، فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فهيهات أن يبعد أحد عن ملك ربنا وملكوته، أو يُعْجِز ربّه هربا؛ فبأي من قهر الجبار بعد حلمه وإمهاله تجحدان؟!.
سرادق النار-لهبا وشررا ودخانا- محيط بالأشقياء يوم الجزاء منذ وقوفهم في موقف الحساب والقضاء، وكل نفس معها سائق وشهيد، فهل من أسوار اللهب يتسنى لمعذب أن يغادر؟ أم من أيدي ملائكة غلاظ شداد يتأتى له أن يفر؟ فاصبر أيها المؤمن على ما لا تقدر على دفعه من أذى الكافرين والفجار {. ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} ٥٥.
[{لا تنفذون} لا تقدرون على النفوذ {إلا بسلطان} أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل، وألف ألف منزل. . . . {شواظ}. . قال الضحاك: الدخان الذي يخرج من اللهب. . {من نار} متعلق ب {يرسل} أو بمضمر هو صفة {شواظ} و {من} ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم {ونحاس} هو الدخان الذي لا لهب فيه. . . والراغب فسّره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه في اللون بالنحاس. . . {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء.] ٥٦.
٣٦ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٣]

}يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٦)}.

بعد وعيد الواحد القهار للمكلفين بما ينتظرهم من أهوال يوم الوعيد، وما أعد للفجار من عذاب مقيم شديد، كأنما أراد سبحانه أن يبين عقب ذلك أنهم لن يفروا من جزائه إذا حان حينه، وأنذرهم أنهم ما يقدرون أبدا على الإفلات من قبضته جل علاه، فالأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه، فهيهات أن يبعد أحد عن ملك ربنا وملكوته، أو يُعْجِز ربّه هربا؛ فبأي من قهر الجبار بعد حلمه وإمهاله تجحدان؟!.

سرادق النار-لهبا وشررا ودخانا- محيط بالأشقياء يوم الجزاء منذ وقوفهم في موقف الحساب والقضاء، وكل نفس معها سائق وشهيد، فهل من أسوار اللهب يتسنى لمعذب أن يغادر؟ أم من أيدي ملائكة غلاظ شداد يتأتى له أن يفر؟ فاصبر أيها المؤمن على ما لا تقدر على دفعه من أذى الكافرين والفجار {. . ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} ٥٧.

[{لا تنفذون} لا تقدرون على النفوذ {إلا بسلطان} أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل، وألف ألف منزل. . . . {شواظ}. . قال الضحاك: الدخان الذي يخرج من اللهب. . {من نار} متعلق ب {يرسل} أو بمضمر هو صفة {شواظ} و {من} ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم {ونحاس} هو الدخان الذي لا لهب فيه. . . والراغب فسّره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه في اللون بالنحاس. . . {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء.] ٥٨.

٣٧ - (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

}فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (٣٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٨) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٠)}.

يوم إذ تجيء القارعة الحاقة الصاخة الطامة تنشقق السماء، وتتمزق وتسقط ويحمر لونها كدهن الزيت أو الأديم الأحمر، عندئذ يكون ما يكون، من الهول الذي لم تكونوا تحتسبون؛ فهل تزدجرون وتعتبرون بما جاء كم من النذر-وفي التحذير من الشر لطف كبير ونعمة-وحينئذ لا تكلم نفس إلا بإذن ربها {هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٥٩؛ أو لم يعمرهم الحكم العدل ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءتهم رسلهم بالبينات {. . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} ٦٠، فبأي نعم ربك تماري وتجادل؟!.

[وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق،. . قوله تعالى {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} هذا مثل قوله تعالى {. . ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ٦١ وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض. . . وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تَسْأَلُ الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. . وقاله مجاهد وابن عباس؛ وعنه أيضا في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين} ٦٢ وقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها؟ سؤال توبيخ. . . وقال قتادة: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم] ٦٣.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) أخرجه أيضا من حديث أبي هريرة. وفيه (ثم يقال الآن نبعث عليك شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ٦٤ وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه).

٣٨ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]
}فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (٣٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٨) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٠)}.
يوم إذ تجيء القارعة الحاقة الصاخة الطامة تنشق السماء، وتتمزق وتسقط ويحمر لونها كدهن الزيت أو الأديم الأحمر، عندئذ يكون ما يكون، من الهول الذي لم تكونوا تحتسبون؛ فهل تزدجرون وتعتبرون بما جاء كم من النذر-وفي التحذير من الشر لطف كبير ونعمة-وحينئذ لا تكلم نفس إلا بإذن ربها {هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٦٥؛ أو لم يعمرهم الحكم العدل ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءتهم رسلهم بالبينات {. . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} ٦٦، فبأي نعم ربك تماري وتجادل؟!.
[وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق،. . قوله تعالى {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} هذا مثل قوله تعالى {. . ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ٦٧ وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض. . . وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تَسْأَلُ الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. . وقاله مجاهد وابن عباس؛ وعنه أيضا في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين} ٦٨ وقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها؟ سؤال توبيخ. . . وقال قتادة: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم] ٦٩.
في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) أخرجه أيضا من حديث أبي هريرة. وفيه (ثم يقال الآن نبعث عليك شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ٧٠ وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه).
٣٩ - (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]
}فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (٣٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٨) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٠)}.
يوم إذ تجيء القارعة الحاقة الصاخة الطامة تنشق السماء، وتتمزق وتسقط ويحمر لونها كدهن الزيت أو الأديم الأحمر، عندئذ يكون ما يكون، من الهول الذي لم تكونوا تحتسبون؛ فهل تزدجرون وتعتبرون بما جاء كم من النذر-وفي التحذير من الشر لطف كبير ونعمة-وحينئذ لا تكلم نفس إلا بإذن ربها {هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٧١؛ أو لم يعمرهم الحكم العدل ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءتهم رسلهم بالبينات {. . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} ٧٢، فبأي نعم ربك تماري وتجادل؟!.
[وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق،. . قوله تعالى {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} هذا مثل قوله تعالى {. . ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ٧٣ وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض. . . وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تَسْأَلُ الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. . وقاله مجاهد وابن عباس؛ وعنه أيضا في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين} ٧٤ وقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها؟ سؤال توبيخ. . . وقال قتادة: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم] ٧٥.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) أخرجه أيضا من حديث أبي هريرة. وفيه (ثم يقال الآن نبعث عليك شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ٧٦ وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه).

٤٠ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (٣٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٨) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٠)}.

يوم إذ تجيء القارعة الحاقة الصاخة الطامة تتشقق السماء، وتتمزق وتسقط ويحمر لونها كدهن الزيت أو الأديم الأحمر، عندئذ يكون ما يكون، من الهول الذي لم تكونوا تحتسبون، فهل تزدجرون وتعتبرون بما جاء كم من النذر-وفي التحذير من الشر لطف كبير ونعمة-وحينئذ لا تكلم نفس إلا بإذن ربها {هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٧٧، أو لم يعمرهم الحكم العدل ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءتهم رسلهم بالبينات {. . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} ٧٨، فبأي نعم ربك تماري وتجادل؟!.

[وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق،. . قوله تعالى {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} هذا مثل قوله تعالى {. . ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} ٧٩ وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض. . . وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تَسْأَلُ الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. . وقاله مجاهد وابن عباس، وعنه أيضا في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين} ٨٠ وقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها؟ سؤال توبيخ. . . وقال قتادة: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم] ٨١.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل) أخرجه أيضا من حديث أبي هريرة. وفيه (ثم يقال الآن نبعث عليك شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ٨٢ وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه).

٤١ - (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

{ج

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٥)}.

وربنا يعلم البَرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر، والمسلم من المجرم، وهو سبحانه يُعلم الملائكة بما شاء من علمه، فيعرفون الأشقياء دون حاجة إلى سؤالهم عما كان من أعمالهم، وقد غشيت وجوه الخاسرين ذلة وغبرة وقترة، فلهم سماتهم وعلاماتهم التي بها يمتازون ويفترقون عن غيرهم، فتسارع الزبانية الملائكة خزنة النار بالقبض على مقدم رؤوسهم وعلى أقدامهم ليلقوا بهم في مستقر عذابهم ومقامهم، فحمدا

للبر الرحيم الذي ينجينا إن شاء الله بفضله مع المتقين، الذين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، ويحلنا بكرمه دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، ويقال تحسيرا للكافرين والخاسرين: هذه دار الجحيم التي كنتم توعدون، والعذاب فيها بين ألسنة اللهب وأشربة بالغة الحرارة تقطع أمعاء شاربيها، فاللهم امنن علينا بالوقاية من سخطك ونارك.

[وفي قوله تعالى: {آن} ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميمه. . . وعن كعب. . أنه الحاضر وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. . . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان} فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تشقق فيه السماء ويحي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك يا فتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك) ٨٣] ٨٤.

٤٢ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

{ج

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٥)}.

وربنا يعلم البَرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر، والمسلم من المجرم، وهو سبحانه يُعلم الملائكة بما شاء من علمه، فيعرفون الأشقياء دون حاجة إلى سؤالهم عما كان من أعمالهم، وقد غشيت وجوه الخاسرين ذلة وغبرة وقترة، فلهم سماتهم وعلاماتهم التي بها يمتازون ويفترقون عن غيرهم، فتسارع الزبانية الملائكة خزنة النار بالقبض على مقدم رؤوسهم وعلى أقدامهم ليلقوا بهم في مستقر عذابهم ومقامهم؛ فحمدا للبر الرحيم الذي ينجينا إن شاء الله بفضله مع المتقين، الذين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، ويحلنا بكرمه دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، ويقال تحسيرا للكافرين والخاسرين: هذه دار الجحيم التي كنتم توعدون، والعذاب فيها بين ألسنة اللهب وأشربة بالغة الحرارة تقطع أمعاء شاربيها، فاللهم امنن علينا بالوقاية من سخطك ونارك.

[وفي قوله تعالى: {آن} ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميمه. . . وعن كعب. . أنه الحاضر وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. . . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان} فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تشقق فيه السماء ويحي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك يا فتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك) ٨٥] ٨٦.

٤٣ - (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

{ج

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٥)}.

وربنا يعلم البَرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر، والمسلم من المجرم، وهو سبحانه يُعلم الملائكة بما شاء من علمه، فيعرفون الأشقياء دون حاجة إلى سؤالهم عما كان من أعمالهم، وقد غشيت وجوه الخاسرين ذلة وغبرة وقترة، فلهم سماتهم وعلاماتهم التي بها يمتازون ويفترقون عن غيرهم، فتسارع الزبانية الملائكة خزنة النار بالقبض على مقدم رؤوسهم وعلى أقدامهم ليلقوا بهم في مستقر عذابهم ومقامهم؛ فحمدا للبر الرحيم الذي ينجينا إن شاء الله بفضله مع المتقين، الذين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، ويحلنا بكرمه دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، ويقال تحسيرا للكافرين والخاسرين: هذه دار الجحيم التي كنتم توعدون، والعذاب فيها بين ألسنة اللهب وأشربة بالغة الحرارة تقطع أمعاء شاربيها، فاللهم امنن علينا بالوقاية من سخطك ونارك.

[وفي قوله تعالى: ﴿آن﴾ ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميمه. . . وعن كعب. . أنه الحاضر وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. . . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تشقق فيه السماء ويحي؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك يا فتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك) ٨٧] ٨٨.

٤٤ - (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

﴿ج

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٥)﴾.

وربنا يعلم البَرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر، والمسلم من المجرم، وهو سبحانه يُعلم الملائكة بما شاء من علمه، فيعرفون الأشقياء دون حاجة إلى سؤالهم عما كان من أعمالهم، وقد غشيت وجوه الخاسرين ذلة وغبرة وقترة، فلهم سماتهم وعلاماتهم التي بها يمتازون ويفترقون عن غيرهم، فتسارع الزبانية الملائكة خزنة النار بالقبض على مقدم رؤوسهم وعلى أقدامهم ليلقوا بهم في مستقر عذابهم ومقامهم؛ فحمدا للبر الرحيم الذي ينجينا إن شاء الله بفضله مع المتقين، الذين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، ويحلنا بكرمه دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب؛ ويقال تحسيرا للكافرين والخاسرين: هذه دار الجحيم التي كنتم توعدون، والعذاب فيها بين ألسنة اللهب وأشربة بالغة الحرارة تقطع أمعاء شاربيها؛ فاللهم امنن علينا بالوقاية من سخطك ونارك.

[وفي قوله تعالى: ﴿آن﴾ ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميمه. . . وعن كعب. . أنه الحاضر وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. . . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تشقق فيه السماء ويحي؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك يا فتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك) ٨٩] ٩٠.

٤٥ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

﴿ج

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٥)﴾.

وربنا يعلم البَرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر، والمسلم من المجرم، وهو سبحانه يُعلم الملائكة بما شاء من علمه، فيعرفون الأشقياء دون حاجة إلى سؤالهم عما كان من أعمالهم، وقد غشيت وجوه الخاسرين ذلة وغبرة وقترة، فلهم سماتهم وعلاماتهم التي بها يمتازون ويفترقون عن غيرهم، فتسارع الزبانية الملائكة خزنة النار بالقبض على مقدم رؤوسهم وعلى أقدامهم ليلقوا بهم في مستقر عذابهم ومقامهم؛ فحمدا للبر الرحيم الذي ينجينا إن شاء الله بفضله مع المتقين، الذين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، ويحلنا بكرمه دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب؛ ويقال تحسيرا للكافرين والخاسرين: هذه دار الجحيم التي كنتم توعدون، والعذاب فيها بين ألسنة اللهب وأشربة بالغة الحرارة تقطع أمعاء شاربيها؛ فاللهم امنن علينا بالوقاية من سخطك ونارك.

[وفي قوله تعالى: ﴿آن﴾ ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميمه. . . وعن كعب. . أنه الحاضر وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. . . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تشقق فيه السماء ويحي؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك

يا فتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك) ٩١] ٩٢.

٤٦ - (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

}ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.

وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.

[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ٩٣. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ٩٤.

٤٧ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]

}ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.

وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.

[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ٩٥. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ٩٦.

٤٨ - (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]

}ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.

وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.

[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ٩٧. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ٩٨.

٤٩ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
{ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.
وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.
[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ٩٩. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ١٠٠.
٥٠ - (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
{ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.
وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.
[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ١٠١. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ١٠٢.
٥١ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
{ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.
وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تماريان وتجحدان؟!.
[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ١٠٣. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ١٠٤.

٥٢ - (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
}ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.
وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تتماريان وتجحدان؟!.
[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ١٠٥. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ١٠٦.
٥٣ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٦]
}ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٧) ذواتا أفنان (٤٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٤٩) فيهما عينان تجريان (٥٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥١) فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٣)}.
وبعد الوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا، بينت الآيات وعد ربنا وبشراه لمن خافه واتقاه ونهى النفس عن الهوى؛ لكل من يرجو لقاء ربه ويستقيم على أمره جنتان- قيل إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه- صفة كل منهما أنها ذات أنواع من الأشجار والثمار وذات أغصان لينة قطوفها مزهرة مثمرة، فما أعظم المنعم وما أبرك النعم! وللجنتين صفة أخرى أن في كل منهما عين تجري بما لذ وطاب من الماء والعسل والشراب؛ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟ والله أصدق القائلين؛ وفيهما من كل ثمرة رطب ويابس لا يقصر عن رطبه في الفضل؛ أو صنفان: معروف، وغريب لم نكن نعرفه في الدنيا، فبأي إنعام وبرهان من ربكما تتماريان وتجحدان؟!.
[ف {مقام} مصدر بمعنى القيام؛ وقيل خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ١٠٧. . . وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته] ١٠٨.
٥٤ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
}متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.
والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١٠٩.
وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد؛ كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت

والمرجان.
أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء؛ وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٠ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٥٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.

والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١١١.

وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد؛ كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.

أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء؛ وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٢ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٥٦ - (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.

والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١١٣.

وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد، كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.

أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٤ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٥٧ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.

والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١١٥.

وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد، كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.

أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٦ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٥٨ - (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.

والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١١٧.

وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد، كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.

أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١١٨ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٥٩ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]

{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.

والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١١٩.

وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد، كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.

أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١٢٠ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!

٦٠ - (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]
{متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٥) فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٥٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٦) كأنهن الياقوت والمرجان (٥٧) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٥٩) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (٦٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦١)}.
والفراش الذي يتكئ عليه أهل الرضوان والنعيم بطائنه التي تلي الأرض من الحرير الغليظ [السميك]- فإذا كانت البطانة هكذا فما ظنك بالظهارة؟! وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١٢١.
وقطوف الثمر من الجنتين قريب يتناولونه قائمين أو قاعدين أو متكئين: فهل يكذب بأنعم الله ويجادل في برهان حوله وفضله عاقل؟ وفي الجنتين أو في الفرش الوثيرة هذه النساء قصرن أعينهن على أزواجهن لا تمتد أبصارهن إلى غيرهم-ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر-ولم يتمتع بهن قبل أزواجهن هؤلاء إنسي ولا جني، فبأي أنعم ربنا يكذب الإنس أو الجان؟ ولا بشيء من نعم ربنا نكذب، ربنا فلك الحمد، كأن هؤلاء الزوجات من الحور العين ونساء الجنة درر غوال كأنما أجسادهن من الجواهر الثمينة الياقوت والمرجان.
أخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {كأنهن الياقوت والمرجان} قال: (ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك). وعن الطبراني، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، وهل يُجزَى المحسنون بأقل من الإحسان؟ لا! بل إن مولانا البر الرحيم يتقبل القليل، ويعطي عليه الأجر الجميل، والثواب الجزيل: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. } ١٢٢ فبأي أفضال الكريم الوهاب يكذب المكذبون؟!
٦١ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤٥]
٦٢ - (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)
{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.
أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٢٣، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٢٤، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.
أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في

السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٢٥ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٢٦.

٦٣ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٢٧، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٢٨، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات

فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٢٩ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٣٠.

٦٤ - (مُدْهَامَّتَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٣١، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٣٢، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٣٣ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٣٤.

٦٥ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]
{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.
أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٣٥، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٣٦؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.
أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!
[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٣٧ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٣٨.
٦٧ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]
{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٣٩، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٤٠؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٤١ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٤٢.

٦٨ - (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٤٣، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء-

فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٤٤، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأولين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٤٥ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٤٦.

٦٩ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٤٧، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء-

فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٤٨، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته،

إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأولين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٤٩ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٥٠.

٧٠ - (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٥١، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٥٢، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأولين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن،

فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشاركم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٥٣ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٥٤.

٧١ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيِّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٥٥، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٥٦؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشاركم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٥٧ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٥٨.

٧٢ - (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان

(٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٥٩، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء-فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٦٠؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٦١ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٦٢.

٧٣ - (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

}ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان
(٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. .

وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٦٣، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء-فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٦٤؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)؛ لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن؛ فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٦٥ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٦٦.

٧٤ - (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول؛ سابق مقرب، وناج فائز؛ فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر؛ فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٦٧، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه؛ وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء-فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٦٨؛ فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق؛ سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في

السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٦٩ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٧٠.

٧٥ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٢]

{ومن دونهما جنتان (٦٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٣) مدهامتان (٦٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٥) فيهما عينان نضاختان (٦٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥)}.

أكثر ما يسوق القرآن في الجزاء يتناول عذاب الفاسقين ونعيم المتقين، لكن هذه السورة الكريمة والتي تليها تبيّنان أن المنعّمين: منهم فاضل، ومفضول، سابق مقرب، وناج فائز، فبعد أن تحدثت الآيات السابقات عن جنتي المقربين، تُبيّن هذه الآيات مصير أصحاب اليمين، لهما جنتين دون تينك في المنزلة والقدر، فبأي نعم الخبير البصير نكذب وهو الذي تفضل فجعل لكل درجات مما عملوا: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ١٧١، في كلتيهما فاكهة-والتنوين للتكثير- ونخل ورمان، بل وقبل ذلك فيهما عينان تفوران بالماء وتنضخانه، بينما وصفت جنات المقربين بأن الماء يتدفق جاريا من عينين فيهما، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما عطف النخل والرمان على الفاكهة لبيان فضلهما-وقيل إنهما في الدنيا لم يخلصا فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء- فما أبرك الدار والجوار {عند مليك مقتدر} ١٧٢، فيهن زوجات خيرات الخُلُق، حسان الوجوه والخلق، سوداوات الحدق في بياض شديد، رقيقات الجفون مع بياض وجوههن، ذوات خدور ملازمات لخدورهن وبيوتهن، لا يطفن ولا يتبذلن، مقصورات في سترهن وخيامهن.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن)، لم يمس هؤلاء الزوجات الحوراوات إنسي ولا جني قبل هذا المؤمن، فبأي آلاء قدرته وآيات عظمته يكذب المكذب؟!

[قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. . . الماوردي: ويحتمل أن يكون {ومن دونهما جنتان} لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. . وقال في الأوليين في صفة الحور: {كأنهن الياقوت والمرجان}، وفي الأخريين: {فيهن خيرات حسان} وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. . . وفي الحديث: (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات

فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام). أخرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه، وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله. . . وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله؟ إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا أحسنتن تبعل ١٧٣ أزواجكن وطلبتن مرضاتهم)] ١٧٤.

٧٦ - (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)

{متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان (٧٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٧)}.

ومع ما ينالون من النعيم والكرامة في الجنتين المباركتين فإنهم يتكئون على بسط خضر أو زرابي أو محابس-ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه-ومفارش منقوشة عتاق جميلة، فبأي نعماء المولى يكذب المبطلون؟!.

[والعبقري الطنافس الثخان منها، قاله الفراء. . . القتبي: كل ثوب وشي-عند العرب-: عبقري، قال أبو عثير: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وشي حُبك. . . . وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري. . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه: (فلم أر عبقريا من الناس يفري فريّه). وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم: (فلم أر عبقريا يفري فريّه) فقال: رئيس قوم وجليلهم. .] ١٧٥.

٧٧ - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧٦]

{متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان (٧٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٧)}.

ومع ما ينالون من النعيم والكرامة في الجنتين المباركتين فإنهم يتكئون على بسط خضر أو زرابي أو محابس-ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه-ومفارش منقوشة عتاق جميلة، فبأي نعماء المولى يكذب المبطلون؟!.

[والعبقري الطنافس الثخان منها، قاله الفراء. . . القتبي: كل ثوب وشي-عند العرب-: عبقري، قال أبو عثير: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وشي حُبك. . . . وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري. . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه: (فلم أر عبقريا من الناس يفري فريّه). وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم: (فلم أر عبقريا يفري فريّه) فقال: رئيس قوم وجليلهم. .] ١٧٦.

٧٨ - (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

{تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام (٧٨)}.

كثرت بركات ربنا، وزاد وعظم عطاؤه، وتنزه المولى وتقدس، ودام وثبت إنعامه، وجلّت أسماء ربنا وصفاته، وكرم مقام الله الكبير، وتعالى عن الشريك والشبيه والنظير.

[وكأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السورة فقال: {الرحمن} فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السماوات والأرض، وصنعه، وأنه {كل يوم هو في شأن} ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجنان، ثم قال في آخر السورة: {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة، والجنة والنار، فهذا كله لكم من اسم الرحمن، فمدح اسمه ثم قال: {ذي الجلال والإكرام} جليل في ذاته، كريم في أفعاله، ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أول السورة، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحسن الجزاء، وجميل

اللقاء، وحسن العطاء، والله أعلم]. ١٧٧
خاتمة:
هذه السور العشر المحكمات فيها الكثير المبارك من تقديس رب العالمين، ومن البرهان على أنه بديع السماوات والأرض الخلاق العليم، وأنه وحده الرزاق ذو القوة المتين، وأنه المحيي المميت العظيم الكريم، واسع الفضل الشكور الحليم.

ففي تقديسه تبارك وتعالى جاء قوله الحق: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١٧٨. {هوالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير} ١٧٩، {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ١٨٠، {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} ١٨١، {إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} ١٨٢، {فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} ١٨٣، {وأن إلى ربك المنتهى. وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى} ١٨٤، {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما} ١٨٥، {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما} ١٨٦، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ١٨٧، {. . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ١٨٨، {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ١٨٩، ومن تقديس المتقين لمولانا الملك الحق المبين، ما جاء في الكتاب العزيز: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر ١٩٠ الرحيم} ١٩١.

بضع وعشرون آية كريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى ومن صفاته العلا، ومن جلاله وكماله ما هو أهل له، فسبح بحمد ربك آناء الليل وأطراف النهار، وادعه بأسمائه الحسنى إنه هو العزيز الغفار.

وبضع وعشرون كذلك من الآيات المحكمات صرفت سلطان ربنا وبرهانه، وهدت ودلت على ما يرسخ اليقين بإتقان صنعته وسابغ نعمته لنوحده ونعظم شأنه:

{الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان} ١٩٢، {والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} ١٩٣، {مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان} ١٩٤، {خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار} ١٩٥، {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} ١٩٦، {وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون} ١٩٧، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ١٩٨، {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد} ١٩٩.

كما جادلت الجاحدين بالله الواحد: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} ٢٠٠، {ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر} ٢٠١، {فبأي آلاء ربكما تكذبان} ٢٠٢ - وقد تكررت في القرآن ثلاثين مرة بعد هذه. .

وعن الملائكة الكرام عليهم السلام جاء الحديث في آيات من هذه السور، يُصَرّح بذكرهم أو يشار إلى ما يفعلونه إنفاذا لأمر ربهم: {. . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما} ٢٠٣، {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها

سائق وشهيد} ٢٠٤، {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} ٢٠٥، {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا} ٢٠٦، {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة عند ربك للمسرفين} ٢٠٧، {علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى} ٢٠٨ {ولقد رآه نزلة أخرى} ٢٠٩، {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا} ٢١٠، {أم له البنات ولكم البنون} ٢١١.

قريبا من ثلاثين آية محكمة، في أربع متواليات من السور المباركات، تزيد الإيمان بأن الملائكة الكرام جند مولانا القدوس السلام، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ وثلاث من هذه الآيات تزهق باطل الأفاكين، الذين افتروا زورا وبهتانا أن الملائكة بنات الله؛ فأدمغوا إفكهم حجة الله البالغة، وتعالى الملك الأحد أن يلد بنات أو بنين {. . تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} ٢١٢.

ومن أنباء المرسلين جاءنا في هذه السور العشر ما به العظة والذكرى وترسيخ اليقين.

فمن سننه سبحانه في المصطفين الأخيار أن يبعثهم بالرشد المبين، وبموازين العدل، ليستقيم المهتدون على منهاج ينصف الخلق، ويرعوا أمانة الانتصار للحق؛ والله يؤيدهم بقوته، ويعزهم بعزته.

ونبيان كريمان من أولي العزم، جعل الله تعالى في عقبيهما حكمة ووحيا، فاستجاب القليل، وأعرض الكثير؛ ولم يفترق من بعث إليهم عيسى عن هؤلاء في عظيم أو يسير.

{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز. ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ٢١٣.

ومن سننه تبارك وتعالى في الذين خلوا من قبل-ولن تجد لسنته تحويلا- أن يمحق الفاسقين، وينجي المهتدين: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدكر} ٢١٤؛ {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر} ٢١٥، {كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٢١٦، {كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر} ٢١٧، {ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر} ٢١٨.

وهكذا! في سورة واحدة ثلاث وثلاثون آية تثبت اليقين في أن الله تعالى ولي المؤمنين، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وآيات في سورة (ق) و (الذاريات) و (النجم) أجملت ما فصلته آيات سورة (القمر)؛ {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس

وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد} ٢١٩، {وفي موسى إذ أرسلنا إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم. وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين} ٢٢٠: {وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشّى} ٢٢١.

وقضى ربنا في الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض أن يجعلهم في زمرة الهالكين، ولا يفلح إلا من استيقن بربه، وصدّق المرسلين: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} ٢٢٢، {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} ٢٢٣، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} ٢٢٤، {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٢٥، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا} ٢٢٦ ودأب الطاغين-الأولين منهم والآخرين-في تكذيب الداعين، لا ينفك عن جحود وبهتان مبين، فكما اتهم المبطلون خاتم النبيين بالتخييل والافتراء: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٢٢٧، {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون} ٢٢٨، اتهم قوم لوط لوطا: {ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر} ٢٢٩، واتهمت ثمود صالحا: {فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} ٢٣٠، وكذلك فعل أسلافهم: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر} ٢٣١، فهو ضلال قديم: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون} ٢٣٢.

وعن كتب الله تعالى المنزلة جاء ذكر التوراة والإنجيل في سورة الفتح، في آخر آية منها، وأقسم بالكتاب العزيز في مستهل سورة (ق) {والقرآن المجيد}، وختمت بمن ينتفع به {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}، وتحدى المكذبين به في سورة الطور: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ٢٣٣؛ وفي خواتيم سورة النجم: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون} ٢٣٤، أما في سورة القمر فقد حضت الآيات على النظر فيه، والتفكر في معانيه: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ٢٣٥ ولعل من الحكمة في تكرارها في سورة واحدة أربع مرات ٢٣٦ بيان ثمرات وبركات التذكر والتدبر؛ وفي سورة الرحمن افتتحت آلاء ربنا بما منّ علينا من تفهم هذا الفرقان: {علم القرآن} ٢٣٧؛ وفي سورة الواقعة: أقسم المولى على مجد الذكر الحكيم وعلوه: {فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين} ٢٣٨. ثم تحدى المرتابين فيه، فقال تقدست أسماؤه: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ٢٣٩.

وفي سورة الحديد توكيد لهدايته: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} من الآية ٩ وحض على الإذعان لما جاء فيه: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} من الآية ١٦ وعن اليقين بالآخرة: فكل واحدة من هذه السور العشر تُثبت الإيمان بحياة بعد هذه الأولى، وتعدنا الوعد الحق أنها دار خلود، عظيمة أحوالها، شديدة أهوالها، وترسخ التصديق بأن الواحد القهار لا يسوي بين المتقين والفجار: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ٢٤٠، {ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} ٢٤١. ويقسم المولى- تقدست أسماؤه- فيقول-جلّ وعزّ-: {والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع} ٢٤٢، {والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع} ٢٤٣، {إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر} ٢٤٤، {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر} ٢٤٥.

لكن آيات من سورة الرحمن يستنبط منها أن الثقلين صائرون إلى أصناف ثلاثة: أصحاب سقر: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن} ٢٤٦، وأصحاب درجات عاليات في دار المقامة: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٤٧؛ وأصحاب منازل

للنعيم أقل من سابقيهم: {ومن دونهما جنتان} ٢٤٨، أما سورة الواقعة فآياتها المحكمات شهدت أن المكلفين يبوئهم ربهم ما وعدهم من مأوى، وليسوا سواء، {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون} ٢٤٩.

هذا وقد شوق الفرقان إلى رحمة ربنا ورضوانه ومقاعد الصدق في الفردوس الأعلى، كما حذر من مقت الله وسخطه وأليم عذابه في الجحيم واللظى: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما} ٢٥٠، {إن المتقين في جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم} ٢٥١، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ٢٥٢ {ذوتا أفنان} ٢٥٣، {فيهما عينان تجريان} ٢٥٤ {فيهما من كل فاكهة زوجان} ٢٥٥، {متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنا الجنتين دان} ٢٥٦، {{فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٥٧، {كأنهن الياقوت والمرجان} ٢٥٨، {ومن دونهما جنتان} ٢٥٩ {مدهامتان} ٢٦٠ {فيهما عينان نضاختان} ٢٦١، {فيهما فاكهة ونخل ورمان} ٢٦٢، {فيهن خيرات حسان} ٢٦٣، {حور مقصورات في الخيام} ٢٦٤، {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٦٥، {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} ٢٦٦ في سورة الواقعة {على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. . جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما} ٢٦٧.

في كل سورة يشوّق القرآن الحكيم إلى نعيم فوق نعيم؛ ومن الحبور الذي بشرت به آيات سورة الطور: طيب النفوس برضوان الوهاب، والنجاة من العذاب، ببركة الدعاء المستجاب؛ ومزيد الفضل وقرة العين بإنجاء الأهل والذرية؛ ومن البُشْرَيات في سورة الواقعة: مجالس التوقير والتكريم، فالجلساء متواجهون، لا يلوي أحدهم صفحته، ولا يولي قفاه، ولا يُسمع جارٌ جاره هجرا؛ ولا هذرا ولا نكرا، وإنما طيب الكلام وتحية السلام؛ ومع أشهى المآكل تقدم ألذ المشارب يحملها غلمان إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا؛ وآنية الشراب أكواب من ذهب، وكأس من قوارير الفضة، وأباريق مدعاة للسرور من ظاهرها وباطنها.

ويخوف الله عباده عاقبة الركون إلى المفسدين المغوين: {قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ٢٦٨، كما يحذرهم مصير أهل الزيغ والريب: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية. ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير} ٢٦٩.

والملك المتعال، ذو العزة والجلال، يحبب إلينا الجهاد بالأنفس والأموال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} ٢٧٠، {. . ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} ٢٧١ {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} ٢٧٢؛ {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} ٢٧٣.

إن مولانا تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه-بيّن سبل الفوز بالجنات فقال في محكم الآيات {هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من

خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} ٢٧٤، وأثنى سبحانه على الذين أحسنوا في طلبها، فقال تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} ٢٧٥.

ومن عهد الله وميثاقه في هذه السور العشر المباركات ما واثق عليه عباده من ذكره وتسبيحه: {. . وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٢٧٦، {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وإدبار السجود} ٢٧٧، {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} ٢٧٨، {فسبح باسم ربك العظيم} ٢٧٩، {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٢٨٠؛ ووصانا جلّ ثناؤه بتفهم الغاية من هذه الدار، وأنها للاستخلاف والاختبار، وليست للافتتان بالزخرف بل للتزود إلى دار القرار: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة. } ٢٨١.

والله يرضى لكم التأسي برسوله الأمين، وبصحبه الأكرمين. {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} ٢٨٢، فكونوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مستكثرين من التبتل والبر والصلاة، متعاونين على إعزاز حزب الله؛ والتزموا كلمة التقوى تنزل عليكم السكينة، ويعجل لكم ربكم النصر.

وحسن الخُلُق حلية الأبرار، ومنهاج المصطفين الأخيار، فقد حدّث القرآن أن خليل الرحمن كان يسارع في تكريم الضيفان؛ {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ٢٨٣؛ كما نهانا الفرقان المبين عن سيء الفعل والقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} ٢٨٤ {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب} ٢٨٥ {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا} ٢٨٦؛ وأذهب عنا لوثة التفاخر القبائلية، وبين ما يبتغي به لديه الفضل، فقال سبحانه القول الفصل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} ٢٨٧.

٥٦ سورة الواقعة:

سورة الواقعة:
(٥٦) سورة الواقعة مكية
وآياتها ست وتسعون
كلماتها: ٣٩٨؛ حروفها: ١٧٠٣.
١ - (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا وقعت الواقعة (١)}
اذكر إذا حدثت القيامة كان ما علمتك من أحوالها وأهوالها؛ [وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب؛ وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد؛ و {إذا} للوقت؛ والجواب قوله: {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة}] ١.
و {الواقعة} اسم من أسماء اليوم الآخر، ولشدة كربه وعظم بلائه كثرت أسماؤه، فهو يوم الدين، ويوم الفصل، ويوم التغابن، والحاقة، والصاخة، والطامة الكبرى، والقارعة.
٢ - (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

{ليس لوقعتها كاذبة (٢)}.
وحين تقع تلك الداهية، وتجيء السقطة القوية، ويدمر الخلق، ويبعث من في القبور؛ لن تجد نفسها مكذبة بحدوثها- لأنها حدثت - ولن تلقى منكرا لوقوعها؛ أو يكون المعنى: ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة- كما يقال: حمل على الأعداء حملة صادقة-.
٣ - (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)
{خافضة رافعة (٣)}
الواقعة خافضة لأهل الكبرياء والغرور والاستعلاء، رافعة للمؤمنين الأتقياء الرحماء.
نقل عن عمر - رضي الله تعالى عنه-: خفضت أعداء الله تعالى إلى النار، ورفعت أولياءه إلى الجنة.
وقال ابن عطاء: خفضت أقواما بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل؛ والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة؛ ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسعا ومجازا على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل. . . والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده، فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات.
٤ - (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا)
{إذا رجت الأرض رجا (٤)}
إذا حركت الأرض وهزت وزلزلت زلزالا شديدا تهدم كل ما عليها وتفتت
[وجواب الشرط عندي ملفوظ به، وهو قوله تعالى: {فأصحاب الميمنة} والمعنى: إذا كان كذا وكذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم.]
.٢
[وقيل: أي اذكر {إذا رجت الأرض رجا} مصدر، وهو دليل على تكرير الزلزلة] ٣
٥ - (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)
{وبست الجبال بسا (٥)}
وقطعت الجبال، وفتت صخرها، وتناثرت أجزاؤها، ونسفت نسفا؛ أو: سيرت تسييرا، وإلى هذا يشير قول الحق جل علاه: {وسيرت الجبال فكانت سرابا} ٤
٦ - (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)
{فكانت هباء منبثا (٦)}
فاستحالت وصارت غبارا متفرقا منتشرا؛ نقل عن ابن عباس: وهو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كوة.
وفي آية كريمة في سورة القارعة ضرب الله تعالى مثلا للجبال يوم الوعيد فقال تبارك اسمه: {وتكون الجبال كالعهن المنفوش}.
٧ - (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)
{وكنتم أزواجا ثلاثة (٧)}
وصرتم يا معشر المكلفين أصنافا ثلاثة؛ فلن يسوي الحكم الحق الخبير بين المتقين والفجار، ولا بين المؤمنين والكفار، بل ولا بين مؤمن فاضل ومؤمن مفضول {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ٥.
قال الراغب: الزوج يكون لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة؛ ولكل قرينين فيها وفي غيرها، كالخف والنعل؛ ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا.
٨ - (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)
{فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة (٨)}
فما أعظم حال أصحاب اليمين، أو الميامين المباركين، {فأصحاب الميمنة} مبتدأ، و {ما} استفهامية مبتدأ ثان، و {أصحاب} خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول؛ والرابط الظاهر القائم مقام الضمير: أي: أي شيء هم في حالهم وصفتهم.
٩ - (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)
{وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة (٩)}

وما أتعس أصحاب الشمال المشائيم على أنفسهم بمعاصيهم وفجورهم، وترديهم في العذاب وخسارهم.
[أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية - وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية، أخذا من تيمنهم بالميامن، وتشؤمهم بالشمائل، كما نسمع في السانح والبارح وهو مجاز شائع] ٠٦.
قال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله، وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات، وقال الحسن والربيع: أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة ٠٧.
وفي صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة- قال- فإذا نظرنا قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى- قال- فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح- قال- قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار).
١٠ - (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)
{والسابقون السابقون (١٠)}
حدثت الآيتان السابقتان عن صنفي الأبرار والفجار، وأما هذه الآية المباركة فتحدث عن الصنف الثالث وهو أفضلهم.
ولعل المراد: السابقون إلى كل خير في الدنيا والآخرة.
[. الجملة مبتدأ أو خبر، والمعنى: {والسابقون} هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت فخامتهم، كقوله: أنا أبو النجم وشعرى شعري؛ وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم ما لا يخفى؛ وقيل: متعلق السبق مخالف لمتعلق السبق الثاني، أي: {السابقون} إلى طاعة الله تعالى {السابقون} إلى رحمته سبحانه؛ أو {السابقون} إلى الخير {السابقون} إلى الجنة] ٠٨.
١١ - (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)
{أولئك المقربون (١١)}
هؤلاء قريب إلى العرش العظيم درجاتهم
وربما تأخر ذكرهم وجاء بعد صنفي الأبرار والفجار مع أنهم أكرم الثلاثة ليتبعهم بأوصافهم الفاضلة.
١٢ - (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)
{في جنات النعيم (١٢)}
هم كائنون في جنات النعيم، وليست فحسب جنات الخلود؛ وهكذا بينت الآيات في سورة الرحمن علو درجة هؤلاء: {ولمن خاف مقام ربه جنتان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* ذواتا أفنان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* فيهما عينان تجريان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* فيهما من كل فاكهة زوجان*} إلى قوله سبحانه: {فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* كأنهن الياقوت والمرجان*}، بينما وصفت جنات المسلمين المفضولين بالقول الرباني الكريم: {ومن دونهما جنتان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* مدهامتان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* فيهما عينان نضاختان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* فيهما فاكهة ونخل ورمان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* فيهن خيرات حسان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* حور مقصورات في الخيام*}.
١٣ - (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ)
{ثلة من الأولين (١٣)}
هم جماعة من الأولين؛ أو: منهم جماعة من الأولين المتقدمين في وجودهم وأزمنتهم على أمة خاتم النبيين.
١٤ - (وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ)
{وقليل من الآخرين (١٤)}

ومن المقربين جماعة من خيار المؤمنين من لدن نبينا صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، وإنما هم قلة بالنسبة لمجموع أتباع الأنبياء قبل نبينا محمد - صلوات الله وسلامه على رسل الله أجمعين-[فتحصل أن سابقي الأمم السوالف أكفر من سابقي أمتنا، وتابعي أمتنا أكثر من تابعي الأمم. . .] ٩.

[. لأن الأنبياء السابقين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على من سبق إلى التصديق من أمتنا؛ وقيل: لما نزل هذا شق على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت {ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين} فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني) رواه أبو هريرة؛ ذكر الماوردي وغيره؛ ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.] ١٠.

١٥ - (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ)

{على سرر موضونة (١٥)}

مجالس المقربين على سرر- جمع سرير- {موضونة} منسوخة بالذهب- كما نقل عن ابن عباس- أو مشبكة بالدر والياقوت- كما جاء عن عكرمة- وقيل {موضونة} متصل بعضها ببعض كحلق الدرع، والمراد متقاربة.

والوضن: النسج المضاعف والنضد.

١٦ - (مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ)

{متكئين عليها متقابلين (١٦)}

وجلسة هؤلاء المكرمين على سررهم جلسة المنعم الهانئ المستريح، فهو وأحبابه على أسرة متضامة بعضهم قبالة بعض.

نقل عن مجاهد: لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه؛ وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق ورعاية الأدب وصفاء البواطن.

١٧ - (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

{يطوف عليهم ولدان مخلدون (١٧)}

وفي خدمة هؤلاء المقربين ولدان غلمان لا يشيبون ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وهل هم أبناء الكفار الذين ماتوا وهم صغار؟ أم أبناء المسلمين الذين فارقوا الدنيا قبل بلوغ سن التكليف؟ أم أنشأهم الله تعالى لأهل الجنة كما يشاء دون ولادة -يطوفون عليهم- بكل قيل.

١٨ - (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

{بأكواب وأباريق وكأس من معين (١٨)}

يطوف الولدان على السابقين- أهل السبق والقرب- بكيزان مستديرة حلوقها، وليست لها عرى ولا خراطيم، وأوان من الأقداح ذات العرى والخراطيم، وقدح يصب لهم فيه من خمر الجنة التي تجري كما تجري العيون على وجه الأرض.

نقل عن النحاس: ونقل من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة.

١٩ - (لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ)

{لا يصدعون عنها ولا ينزفون (١٩)}

لا يشكون صداعا بشربهم إياها، فهي لذة بلا أذى- بخلاف خمر الدنيا- ولا تسكرهم فتذهب عقولهم، فهي لا تضر الأجسام، ولا تسقم الأفهام.

٢٠ - (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

{وفاكهة مما يتخيرون (٢٠)}

وينعمون بما يطوف عليهم به الولدان- مع الأكواب والأباريق والكأس- من فاكهة متشابهة وثمرات جنية هنية مما يرتضونه ويختارونه. صحيح أن قطوف الجنة دانية، وثمارها مذللة، لكن الطواف بالفاكهة فيه مزيد محبة وتكريم وتعظيم.

٢١ - (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)
{ولحم طير مما يشتهون (٢١)}
كما يطاف عليهم بلحم طير- وهو أهنأ اللحم وألطفه وأيسره- يأخذون منه ما تطيب له نفوسهم.
٢٢ - (وَحُورٌ عِينٌ)
{وحور عين (٢٢)}
وفي الجنة التي وعد المقربون نساء أنشأهن الله الكريم ليكن زوجات لهم، فضلا عن نسائهم وزوجاتهم في الدنيا.
و {حور} جمع حوراء، وهي شديدة بياض العينين، مع شدة سواد حدقتيهما. و {عين} مفردها عيناء، وهي واسعة العينين.
وقد وصفهن القرآن الكريم في الآية الكريمة: {كأنهن الياقوت والمرجان} ١١ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفتهن: (. . . ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ١٢ ريحا ولطاب ما بينهما ٢ ولنصيفها ١٣ على رأسها خير من الدنيا وما فيها). رواه الشيخان عن أنس.
٢٣ - (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ)
{كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣)}
هن في جمال خلقتهن، وصفاء مظهرهن، وتشاكل أجسادهن، وحسنهن من كافة جوانبهن، كالجواهر المصونة، يشابهن اللؤلؤ الذي لم تمسه الأيدي، ولم يخالطه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء وتلألؤا.
٢٤ - (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
{جزاء بما كانوا يعملون (٢٤)}
يجزون كل هذا النعيم جزاء بالذي استداموا عمله في دنياهم؛ أو: يجزون جزاء -للتوكيد-.
٢٥ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا)
{لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥)}
ومما ينعم به المقربون أن خلطاءهم هدوا إلى الطيب من القول، فلا يتكلم أحد بلغو فضلا عن باطل أو كذب، ولا ينطق هنالك أحد بقبيح يأثم قائله أو سماعه.
قالوا: واللغو: ما لا يعتد به من الكلام، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا- وهو صوت العصافير ونحوها من الطير- وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا.
٢٦ - (إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا)
{إلا قيلا سلاما سلاما (٢٦)}
لكن قولهم فيما بينهم: سلام بعد سلام، سلام من إخوانهم، وسلام من الملائكة الكرام: {. . . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} وفوق ذلك سلام من ربهم الكبير المتعال: {تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما} ١٤
٢٧ - (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)
{وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين (٢٧)}
استفهام يراد به التفخيم والتعجيب، وتعظيم شأن ما نالوه.
بعد بيان جانب من نعيم السابقين المقربين، جاءت الآيات تبين بعض نعيم أهل اليمين.
٢٨ - (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ)
{في سدر مخضود (٢٨)}
السدر: شجر النبق.
المخضود: الذي خضد - أي قطع- شوكه.

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم- أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله؟ لقد ذكر الله تعالى في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، قال: " وما هي "؟ قال: السدر، فإن له شوكا: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أليس الله يقول في {في سدر مخضود} خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وإن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر).

٢٩ - (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ)

}وطلح منضود (٢٩){

موز مرصص.

[الطلح شجر الموز، واحده طلحة، قاله أكثر المفسرين علي وابن عباس وغيرهم. . . والمنضود: المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل، ليست له سوق بارزة بل هو مرصوص] ١٥.

وقال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل.

٣٠ - (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)

}وظل ممدود (٣٠){

والجنة كلها ظل لا شمس معه، فهو ظل دائم ممتد منبسط لا ينقطع ولا يتفاوت ولا يتقلص.

وليس يعني هذا أن الذين عاشوا يخشون الحرور هم - دون غيرهم- يحسون هذا النعيم بالبرد الكريم، لا! بل الذين قضوا حياتهم في الجليد والتجمد ولقوا ربهم على الإيمان لهم من مقامهم في الجنة النعيم العظيم المقيم: {. . لا يرون فيها شمسا ولا زمهرير} ١٦.

٣١ - (وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ)

}وماء مسكوب (٣١){

وينعمون بماء ينصب وينساب جاريا إلى حيث يشاءون، يجري الليل والنهار في غير أخاديد، لا ينقطع جريانه.

[وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشا، فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار اطرادها] ١٧.

٣٢ - (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

}وفاكهة كثيرة (٣٢){

التنوين للتعظيم، فهي عظيمة القدر، كثيرة الأنواع والأجناس، ليست بالقليلة النادرة.

٣٣ - (لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ)

}لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣){

ليست بمنقطعة في حين من الأحيان- كالذي يكون في فاكهة الدنيا ينقطع بعضها صيفا وينقطع بعضها شتاء- ولا تمنع عمن يريدها بل هي قريبة المنال يتناولها دون عناء ويجاء بها إليه متى يشاء {. . ولهم ما يدعون} ١٨.

٣٤ - (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ)

}وفرش مرفوعة (٣٤){

الفرش: واحدها فراش، كالكتب واحدها كتاب، أي: فرشهن على أسرة عالية مرتفعة؛ أو: كناية عن الزوجات، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش كما كني عنها باللباس في قول المولى تبارك اسمه: {. . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} ١٩

{مرفوعة} رفعهن في الأقدار والمنازل.

٣٥ - (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً)

}إنا أنشأناهن إنشاء (٣٥){

الضمير عائد على ما تقدم في الآية السابقة مما كنى به عن الزوجات، إنا ابتدأنا خلق زوجات لهم- لم يولدن- هن الحور العين.

٣٦ - (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)
{فجعلناهن أبكارا (٣٦)}
فصيرناهن عذارى {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} ٢٠.
٣٧ - (عُرُبًا أَتْرَابًا)
{عربا أترابا (٣٧)}
{عربا} جمع: كصبر جمع صبور، والعروب: حسنة التبعل والعشرة لزوجها.
{أترابا} متساويات في سن واحد.
[{أترابا} على ميلاد واحد في الاستواء وسن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، يقال في النساء أتراب، وفي الرجال أقران، وكانت العرب تميل إلى من جاوزت الصبا من النساء وانحطت عن الكبر، وقيل {أترابا} أمثالا وأشكالا، قاله مجاهد، السدي: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهم ولا تحاسد] ٢١.
٣٨ - (لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ)
{لأصحاب اليمين (٣٨)}
هؤلاء العرب الأتراب كائنات لأصحاب اليمين.
[وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير لطول العهد أو للتأكيد والتحقيق] ٢٢.
[الحور العين للسابقين، والعرب الأتراب لأصحاب اليمين] ٢٣
٣٩ - (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ)
{ثلة من الأولين (٣٩)}
هم ثلة من الأولين وأتباع الرسل السابقين، طائفة وجماعة من هؤلاء الأتباع المؤمنين يكونون أصحاب اليمين.
٤٠ - (وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ)
{وثلة من الآخرين (٤٠)}
وجماعة من أصحاب اليمين هم من أتباع خاتم النبيين- على رسل الله جميعا أفضل الصلوات وأتم التسليم-.
٤١ - (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)
{وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١)}
وهذه الآيات تبين مصير الصنف الأخير من الأصناف الثلاثة، بعد بيان مآل السابقين المقربين، وجزاء أصحاب اليمين.
{وأصحاب} مبتدأ، و {ما أصحاب} استفهام، يفيد التهويل والتعجيب، والجملة في محل الخبر، و {الشمال} إما أن يراد به الشؤم فقد كانوا شؤما على أنفسهم بعصيانهم، أو أن يشار إلى أن مصير هؤلاء: الذهاب إلى ناحية الشمال- وهي النار- وسكنى دار الخبال والنكال، أو لأنهم يأخذون كتبهم وصحائف أعمالهم بشمائلهم.
٤٢ - (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)
{في سموم وحميم (٤٢)}
{سموم} قد يراد به الريح الباردة الشديدة التي تؤثر تأثير السم، وتدخل في مسام البدن.
{وحميم} ماء حار غاية الحرارة، إذ حرقت أجسادهم وأكبادهم فزعوا إلى ما حسبوه يطفي ظمأهم، لكنه يزيد عذابهم: {وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ٢٤}
٤٣ - (وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ)
{وظل من يحموم (٤٣)}
{يحموم} في اللغة هو شديد السواد، وهو يفعول من الحم، وهو الشحم المسود باحتراق النار.

يقيم أصحاب الشمال في حرق لهيب جهنم ولفحها وسمومها، فإذا تلمسوا وقاية من هذا السعير لم يجدوا إلا ظلالا من السواد هي أشد حرا - وتسميته ظلا على التشبيه التهكمي-.
نقل عن ابن عباس أنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم. والجار والمجرور في موضع الصفة {ظل}.
٤٤ - (لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ)
{لا بارد ولا كريم (٤٤)}
ليس ظلا باردا كسائر الظلال، ولا يكرم من يأوي إليه مستجيرا من أذى الحر؛ فهما صفتان للظل؛ [والمعنى: أنه ظل حار ضار إلا أن للنفي شأنا ليس للإثبات، ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم، وأشد لتحسرهم] ٢٥.
٤٥ - (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)
{إنهم كانوا قبل ذلك مترفين (٤٥)}
عذاب أصحاب الشمال بهذا النكال لأنهم كانوا في الدنيا يحيون حياة الهوى الذي أضلهم عن طريق الحق واتباع أوامر الملك الكبير المتعال - سبحانه-.
وقيل في المترف: العاتي المستكبر، أو الذي أطغته النعمة وأبطرته.
٤٦ - (وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ)
{وكانوا يصرون على الحنث العظيم (٤٦)}
واستحقوا العذاب لأنهم كانوا يداومون على الذنب العظيم ويقيمون عليه ولا يقلعون عن ارتكابه والوقوع فيه.
وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه.
[وفي الخبر: كان يتحنث في حراء أي يفعل ما يسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب.] ٢٦.
٤٧ - (وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)
{وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (٤٧)}
واستأهلوا السعير وسوء المصير لأنهم أكدوا إنكارهم لإحياء الله الموتى وحشرهم وحسابهم وجزائهم بقولهم: أنبعث بعد أن تصير لحومنا ترابا وعظاما نخرة بالية! يستعبدون ذلك ويكذبونه.
٤٨ - (أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ)
{أو ءاباؤنا الأولون (٤٨)}
وآباؤنا الأوائل كذلك يبعثون؟ زيادة استبعاد [يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل] ٢٧
٤٩ - (قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ)
{قل إن الأولين والآخرين ٤٩ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (٥٠)}
أمر الله تعالى نبيه- كما أمرنا تبعا له- أن نرد باطل المفترين المكذبين بيوم الدين؛ فقال وهو أصدق القائلين -: {قل} إن الأقدمين والمستأخرين، الخلائق أجمعين- ومن جملتهم أنتم وآباؤكم- لمحشورون على ربكم لن يفلت منكم أحد، وذلك عقب دمار الدنيا وذهاب هذا الكون وخرابه، تنتهون إلى موقف بين يدي الجبار الواحد القهار، ليفصل بين المتقين والفجار، وبين المؤمنين الكفار.
٥٠ - (لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]
{ميقات} ما وقت به وحد، وإضافته إلى {يوم} بيانية.
[وكون يوم القيامة ميقاتا، لأنه وقتت به الدنيا] ٢٨.
{قل إن الأولين والآخرين ٤٩ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (٥٠)}

أمر الله تعالى نبيه- كما أمرنا تبعا له- أن نرد باطل المفترين المكذبين بيوم الدين، فقال وهو أصدق القائلين -: {قل} إن الأقدمين والمستأخرين، الخلائق أجمعين- ومن جملتهم أنتم وآباؤكم- لمحشورون على ربكم لن يفلت منكم أحد، وذلك عقب دمار الدنيا وذهاب هذا الكون وخرابه، تنتهون إلى موقف بين يدي الجبار الواحد القهار، ليفصل بين المتقين والفجار، وبين المؤمنين الكفار.

٥١ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)}.

وبعد النشور والحشر والسؤال والحساب والحكم يساق الخلق إلى الجزاء، وكونوا على يقين مؤكد- معشر الضالين عن الهدى المكذبين بكلمات الله ورسالاته- أن طعام أهل الجحيم: الأكل من شجر من الزقوم الذي ينبت في قاع جهنم، وثمره كريه، منظره قبيح يشبه رأس الشيطان، خبيث مذاقه: {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} ٢٩، ومن شدة الجوع يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم، فإذا غلت أجوافهم وأحشاؤهم من حر ما أكلوا فلا يجدون ما يحسبون فيه الغوث إلا المسارعة إلى شرب الماء الحار الذي يقطع أمعاء شاربه، ولا يزيدهم شربه إلا عطشا، فيتابعون الشرب كالإبل الهيم: المصابة بأشنع الأدواء لا تشبع من الشرب حتى تتلف-

[عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء] ٣٠.

٥٢ - (لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)}.

وبعد النشور والحشر والسؤال والحساب والحكم يساق الخلق إلى الجزاء، وكونوا على يقين مؤكد- معشر الضالين عن الهدى المكذبين بكلمات الله ورسالاته- أن طعام أهل الجحيم: الأكل من شجر من الزقوم الذي ينبت في قاع جهنم، وثمره كريه، منظره قبيح يشبه رأس الشيطان، خبيث مذاقه: {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} ٣١، ومن شدة الجوع يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم، فإذا غلت أجوافهم وأحشاؤهم من حر ما أكلوا فلا يجدون ما يحسبون فيه الغوث إلا المسارعة إلى شرب الماء الحار الذي يقطع أمعاء شاربه، ولا يزيدهم شربه إلا عطشا، فيتابعون الشرب كالإبل الهيم: المصابة بأشنع الأدواء لا تشبع من الشرب حتى تتلف-

[عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء] ٣٢.

٥٣ - (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)}.

وبعد النشور والحشر والسؤال والحساب والحكم يساق الخلق إلى الجزاء، وكونوا على يقين مؤكد- معشر الضالين عن الهدى المكذبين بكلمات الله ورسالاته- أن طعام أهل الجحيم: الأكل من شجر من الزقوم الذي ينبت في قاع جهنم، وثمره كريه، منظره قبيح يشبه رأس الشيطان، خبيث مذاقه: {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} ٣٣، ومن شدة الجوع يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم، فإذا غلت أجوافهم وأحشاؤهم من حر ما أكلوا فلا يجدون ما يحسبون فيه الغوث إلا المسارعة إلى شرب الماء الحار الذي يقطع أمعاء شاربه، ولا يزيدهم شربه إلا عطشا، فيتابعون الشرب كالإبل الهيم: المصابة بأشنع الأدواء لا تشبع من الشرب حتى تتلف-

[عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء] ٣٤.

٥٤ - (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)}.

وبعد النشور والحشر والسؤال والحساب والحكم يساق الخلق إلى الجزاء، وكونوا على يقين مؤكد- معشر الضالين عن الهدى المكذبين بكلمات الله ورسالاته- أن طعام أهل الجحيم: الأكل من شجر من الزقوم الذي ينبت في قاع جهنم، وثمره كريه، منظره قبيح يشبه رأس الشيطان، خبيث مذاقه: {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} ٣٥، ومن شدة الجوع يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم، فإذا غلت أجوافهم وأحشاؤهم من حر ما أكلوا فلا يجدون ما يحسبون فيه الغوث إلا المسارعة إلى شرب الماء الحار الذي يقطع أمعاء شاربه، ولا يزيدهم شربه إلا عطشا، فيتابعون الشرب كالإبل الهيم: المصابة بأشنع الأدواء لا تشبع من الشرب حتى تتلف-

[عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء] ٣٦.

٥٥ - (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥١]

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)}.

وبعد النشور والحشر والسؤال والحساب والحكم يساق الخلق إلى الجزاء، وكونوا على يقين مؤكد- معشر الضالين عن الهدى المكذبين بكلمات الله ورسالاته- أن طعام أهل الجحيم: الأكل من شجر من الزقوم الذي ينبت في قاع جهنم، وثمره كريه، منظره قبيح يشبه رأس الشيطان، خبيث مذاقه: {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم} ٣٧، ومن شدة الجوع يأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم، فإذا غلت أجوافهم وأحشاؤهم من حر ما أكلوا فلا يجدون ما يحسبون فيه الغوث إلا المسارعة إلى شرب الماء الحار الذي يقطع أمعاء شاربه، ولا يزيدهم شربه إلا عطشا، فيتابعون الشرب كالإبل الهيم: المصابة بأشنع الأدواء لا تشبع من الشرب حتى تتلف-

[عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء] ٣٨.

٥٦ - (هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

{هذا نزلهم يوم الدين (٥٦)}

هذا الذي تحدثت الآيات الكريمة السابقة عن شره وضره من طعام المجرمين وشرابهم هو ما أعد لهم يوم الجزاء.

[والنزل] ما يقدم للنازل مما حضر.

كالنزل الذي يعد للأضياف تكرمة لهم، كما في قوله تعالى: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٣٩.

[فما ظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار، واطمأنت لهم الدار في النار؟!] ٤٠.

٥٧ - (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ)

{نحن خلقناكم فلولا تصدقون (٥٧)}

الله- دون سواه- هو خالق الخلق جميعا فهلا تصدقون بأنه خالقكم؟ وحتى من أقر منهم بأن المولى سبحانه هو الخالق، لم يقترن إقراره بالطاعة والعمل الصالح فكأنه والمنكر سواء.

٥٨ - (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

الرؤية- المسؤول عنها في: {أفرأيتم} إما بصرية حسية، وإما بصيرية فكرية عقلية.

{ما تمنون} الذي تقذفونه من المني – وهو السائل الدافق اللزج الذي يخرج من الرجل حين انقضاء ٤١ شهوته، له رائحة كرائحة العجين والطلح مادام رطبا، فإذا جف أشبهت رائحته رائحة البيض.

{أفرأيتم ما تمنون ٥٨ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٥٩)}

والاستفهام يراد به التقرير، فكأن المعنى: أخبروا عما تبصرون بأنظاركم أو تدركون بعقولكم من عظم هذه النطف التي منها نسل الإنسان

والحيوان، هل هذه النطف من خلقكم وإنشائكم أنتم؟ أم ربكم الخلاق العليم هو الذي أنشأها وينشئ ما يشاء منها في أرحام هو صانعها ومتقن صنعتها؟ ويطورها خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث؟!

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن: ووجه الاستدلال أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع، وهو كالطل المنبث في جميع الأعضاء، ولهذا تشترك كل الأعضاء في لذة الوقاع، ويجب اغتسال كلها لحصول الانحلال عنها جميعا، فالذي قدر على جمع تلك الأغذية في بدن الإنسان ثم على جمع تلك الأجزاء الطلية في أوعيتها ثم على تمكينها في الرحم إلا أن تتكون إنسانا كاملا، يقدر على جمعها بعد تفريقها بالموت المقدر بينهم بحيث لا يفوته شيء منها، وإلى هذا أشار بقوله: {وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل}

٥٩ - (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥٨ إظهار

٦٠ - (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

{نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ٦٠ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١)}

نحن قضينا موت الأحياء، كل بوقت وأجل معين، وقسمناه عليكم، وسوينا فيه بين أهل السماء وأهل الأرض فلا حي يبقى إلا الله- عز وجل- ولا يغلبنا أحد على مرادنا أو يعجزنا عنه حين نريد إنفاذه، فلو شئنا أن نذهبكم ونجيء بخلق مثلكم لم يقف أحد لمشيئتنا، كما لو أردنا أن نبرأكم فيما لا تعرفون من الخلق والأطوار، وما لا علم لكم به لفعلنا.

وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمل المؤمن ببياض وجهه، ويقبح الكافر بسواد وجهه. .

٦١ - (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٠]

{نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ٦٠ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١)}

نحن قضينا موت الأحياء، كل بوقت وأجل معين، وقسمناه عليكم، وسوينا فيه بين أهل السماء وأهل الأرض فلا حي يبقى إلا الله- عز وجل- ولا يغلبنا أحد على مرادنا أو يعجزنا عنه حين نريد إنفاذه، فلو شئنا أن نذهبكم ونجيء بخلق مثلكم لم يقف أحد لمشيئتنا، كما لو أردنا أن نبرأكم فيما لا تعرفون من الخلق والأطوار، وما لا علم لكم به لفعلنا.

وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمل المؤمن ببياض وجهه، ويقبح الكافر بسواد وجهه. .

٦٢ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ)

{ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (٦٢)}

ولقد جاءكم من العلم ما تبينتم به كيف بدأ الله الخلق، وسوى آدم من طين ثم نفخ فيه من روحه، فهلا تتذكرون أن الخالق قادر لا يعجزه شيء؟!

٦٣ - (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

{أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤)}

يسوق الله تعالى حجة على الغافلين عن دقيق صنعه، ونافذ أمره، وبالغ لطفه، وينبه العقول إلى ما يدلها على الفاعل المختار، مما تقع عليه الأعين وتطالعه الأبصار.

الحرث وشق الأرض وبذرها تفعلونه معاشر المخلوقين، فهل أنتم تفلقون الحب أو تثبتون الجذر، أو تنبتون الزرع، أو تخرجون السنابل؟ أم الله يتولى إقراره وإنباته وإصلاحه وإنماءه، بعلمه وخبرته واختياره سبحانه؟!

[وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى، لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى، وينبت على اختياره لا على اختيارهم؛ وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فإن الزارع

هو الله) . قلت: فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب؛ قال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين: أحدهما- الامتنان عليهم بأن الله أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم؛ الثاني- البرهان الموجب للاعتبار، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة] ٤٢.

٦٤ - (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦٣]

{أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤)}

يسوق الله تعالى حجة على الغافلين عن دقيق صنعه، ونافذ أمره، وبالغ لطفه، وينبه العقول إلى ما يدلها على الفاعل المختار، مما تقع عليه الأعين وتطالعه الأبصار.

الحرث وشق الأرض وبذرها تفعلونه معاشر المخلوقين، فهل أنتم تفلقون الحب أو تثبتون الجذر، أو تنبتون الزرع، أو تخرجون السنابل؟ أم الله يتولى إقراره وإنباته وإصلاحه وإنماءه، بعلمه وخبرته واختياره سبحانه؟!

[وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى، لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى، وينبت على اختياره لا على اختيارهم؛ وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فإن الزارع هو الله) . قلت: فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب؛ قال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين: أحدهما- الامتنان عليهم بأن الله أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم؛ الثاني- البرهان الموجب للاعتبار، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة] ٤٣.

٦٥ - (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

{حطاما} هشيما مفتتا.

{فظلتم} أصله فظللتم، حذفت اللام الأولى تخفيفا.

{تفكهون} تعجبون وتندمون ٤٤.

{لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧)}

لو أردنا ألا يبقى الزرع، ولا يجتنى الثمر، لأيبسنا خضركم قبل استوائه واستحصاده، فغدا متكسرا هالكا لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، مهشما تذروه الرياح؛ وعند حلول نقمتنا تلك من إهلاك الحرث إن أهلكناه وحطمناه فسيطول تحسرهم على ما فاتكم.

قال الكسائي: [تفكه] من الأضداد؛ تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

تقولون إن تهشم حرثكم أو هلك: {إنا لمغرمون} لمعذبون؛ تارة تقولون هذا، وأخرى تقولون: {بل نحن محرومون} لا يثب لنا مال، ولا ينتج لنا ربح.

وإنه لبرهان يوجب الاعتبار أن ينبت الله تعالى من الحبة أو النواة بعد تعفنها وتحللها وتتريبها زرعا يعجبك بهاؤه ورواؤه، ثم يجعله قويا مشتدا، ثم يخرج منه الحب المتراكب، والطلع النضيد، والثمر المفيد. . والله وحده يقسم حظوظ الخلق منه، فيضاعف أكله لمن يشاء، ويحرم ريعه من يشاء.

نقل أبو عبد الله القرطبي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأرض الأنصار فقال: (ما يمنعكم من الحرث؟) قالوا: الجدوبة. فقال: (لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر) ثم تلا: {أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون} الجامع لأحكام القرآن. جـ ١٧. ص ٢٢.

٦٦ - (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

{مغرمون} معذبون مهلكون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٥ إظهار
٦٧ - (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)
{محرومون} ممنوعون من الرزق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦٥ إظهار
٦٨ - (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)
{أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨)}
الماء الذي نسقيكم إياه عذبا فراتا، تحيون به أنفسكم وتسكنون به عطشكم - وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد-
٦٩ - (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)
{أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩)}
هل أنتم أيها الناس أسقطتم ما تشربون من السحاب؟ لا! ولكن الله هو الذي أنشأ سحابه ثم جمعه ثم سيره ثم أنزل مطره حيث شاء ومتى شاء وبقدر ما يشاء.
٧٠ - (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ)
{لو نشاء جعلناه أجاجا}
لو سبقت مشيئتنا أن نصير الماء نسقطه ملحا شديد الملوحة والمرارة زعاقا لما أعجزنا ذلك، وإذا لهلكتم وهلكت زروعكم وبهائمكم.
{فلولا تشكرون (٧٠)}
فهلا شكرتم نعمة ربكم، وعرفتم له آلاءه، وأقررتم له بالألوهية؟! تحضيض وحث وتحريض.
[أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال: (الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا)] ٤٥.
٧١ - (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)
{أفرأيتم النار التي تورون (٧١)}
أخبروا أيها الناس عن ناركم التي تقدحونها وتستخرجونها من أصلها- وربما كان خضرا رطبا- وفي ذلك دليل على اقتدار الله: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون} ٤٦.
٧٢ - (أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)
{أأنتم أنشأتم شجرتها}
هل أنتم الذين خلقتم أعجب الشجر اتقادا؟ وهو المرخ والعفار؟
هل أنتم اخترعتم أصلها وأودعتموه خواصها؟ كلا!
{أم نحن المنشئون (٧٢)}
بل نحن أبدعنا ذلك وأتقنا صنعه، نحن الذين أودعنا قوة تلك الطاقة في موضعها.
نقل القرطبي: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، أي استكثرا منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما.
ونقل ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخ، والأخرى العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار.
٧٣ - (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ)

{نحن جعلناها تذكرة}
جعل الله تعالى- نار الدنيا موعظة تذكر بالنار الكبرى؛ يتذكر بها عذاب الجحيم، وحر السعير، فيستعاذ بالله منه؛ وتلك من أكبر منافعها وأهمها. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم). فقالوا يا رسول الله: إن كانت لكافية، قال: (فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها).
{ومتاعا للمقوين (٧٣)}
وينتفع بالنار النازلون القوي- وهو القفر-
وقال مجاهد: {للمقوين} المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء ٤٧ والاستضاءة.
٧٤ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)
{فسبح باسم ربك العظيم (٧٤)}
فجدد التسبيح بذكر اسم ربك ذي الكبرياء والعظمة، ونزه الله تعالى عما يفتري المشركون والمبطلون.
[أو الاسم مجاز عن الذكر فإن إطلاق الاسم للشيء ذكره، والباء للاستعانة أو الملابسة] ٤٨.
والأمر بالتسبيح في هذه الآية وغيرها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكافة المؤمنين.
وتنزيه الله الكبير المتعال مطلب يعده القرآن الحكيم من لب الرسالة وغايات الإنذار والبشارة؛ يقول المولى عز شأنه: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا} ٤٩. وإن من ثمرات التسبيح للمسبحين في الدنيا أن الله تعالى يفرج به همهم، ويكشف كربه؛ كما أخبر عن رسوله يونس عليه السلام: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجي المؤمنين} ٥٠. وبالتسبيح أخرجه المولى اللطيف الخبير من بطن الحوت الذي ابتلعه غريقا في لجة البحر {وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم. فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} ٥١.
٧٥ - (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)
{فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥)}
احتج الملك الحق عليهم بالقرآن بعد الحجة عليهم بالآيات الكونية المرئية، مع كونها نعما وأفضالا ربانية؛ و {لا} صلة في قول أكثر المفسرين؛ والمعنى: فأقسم، بدليل قوله: {وإنه لقسم. } وقال الفراء: هي نفي؛ والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف {أقسم}؛ وقال أبو مسلم، وجمع: إن الكلام على ظاهرة المتبادر منه؛ والمعنى: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أي لا يحتاج إلى قسم ما، فضلا عن هذا القسم العظيم.
ومواقع النجوم: مساقطها أو منازلها، أو انتثارها يوم القيامة، أو الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مطروا. . . مطرنا بنوء كذا. مما نقل عن القشيري:. . ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.
٧٦ - (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)
{وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦)}
تعظيم للقسم مقرر مؤكد له؛ و {لو تعلمون} معترض بين الصفة والموصوف؛ والآية جاءت بين القسم والمقسم عليه.
٧٧ - (إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)
{إنه لقرآن كريم (٧٧)}
جواب للقسم؛ والكرم كثرة النفع، وعلو القدر؛ فالقرآن عظيم البركة يشفي الصدور، ويهدي للتي هي أقوم، وهو عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس بالسحر ولا بالكهانة ولا بالتقول والافتراء حاشاه! بل هو تنزيل من حكيم حميد.

٧٨ - (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)
{في كتاب مكنون (٧٨)}
في مصحف مصون عن التبديل والتغيير، [ويتضمن ذلك الإخبار بالغيب لأنه لم يكن إذ ذاك مصحف] ٥٢.
وعن الربيع بن أنس وغيره: كائن في كتاب مصون عن غير المقربين من الملائكة عليهم السلام، لا يطلع عليه من سواهم، فالمراد به اللوح المحفوظ.
٧٩ - (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)
{لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)}
لا يمس ذلك الكتاب المحفوظ عند الله تعالى في السماء وهو اللوح إلا المنزهون وهم كرام الملائكة والسفر البررة، ونفي مسه كناية عن لازمه وهو نفي الاطلاع عليه وعلى ما فيه.
[وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. . . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: {لا يمسه إلا المطهرون} من الأحداث والأنجاس. . واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء، فالجمهور على المنع من مسه. . وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما- المنع اعتبارا بالبالغ، والثاني- الجواز، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن لأن حال تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة، لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثا.] ٥٣
٨٠ - (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
{تنزيل من رب العالمين (٨٠)}
وهذا الكتاب العزيز والذكر الحكيم هو تنزيل المولى المصلح المطاع خالق العوالم كلها ومربيها.
أو وصف بالمصدر لأنه ينزل منجما ٥٤ من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك أجرى مجرى بعض أسمائه فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل.
٨١ - (أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)
{أفبهذا الحديث أنتم مدهنون (٨١)}
أفتتهاونون بهذا الحديث الذي جاءكم من عند ربكم؟! أو مكذبون بذلك؟ لأن التكذيب من فروع التهاون.
[والمدهن] الذي ظاهره خلاف باطنه، والكافر المنافق الذي يلين جانبه ليخفي كفره.
وقال قوم: داهنت بمعنى داريت، وأدهنت بمعنى غششت؛ قال ابن كيسان: المدهن الذي لا يعقل ما حق الله عليه، ويدفعه بالعلل؛ وقال بعض اللغويين: {مدهنون}: تاركون للجزم في قبول القرآن.
٨٢ - (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)
{وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢)}.
وتجعلون شكر رزق الله إياكم التكذيب بالنعمة، أي تضعون الكذب مكان الشكر.
أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بالحديبية في إثر سماء ٥٥ كانت من الليل، فلما سلم أقبل علينا فقال: " هل تدرون ما قال ربكم في هذه الليلة "؟ قالوا الله ورسوله أعلم، فقال: (قال ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرون فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي) ومن رواية مالك عنه في الموطأ: (. . أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. . .)، وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله سبحانه: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما فإن المعتقد بأن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه، وقتله إن أبى لنبذه الإسلام ورده القرآن؛ والوجه الآخر أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء،

وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في علمه، وهذا وإن كان وجها مباحا، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل، وجهلا بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء. . اهـ.
[وهذا وقيل: معنى الآية: وتجعلون شكركم - لنعمة القرآن- أنكم تكذبون به. . .] ٥٦.
٨٣ - (فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)
{فولا إذا بلغت الحلقوم (٨٣)}
فهلا إذا بلغت النفس أو الروح أقصى الحلق ومجرى الهواء والطعام.
[ومذهب السلف أن النفس الناطقة وهي الروح المشار إليها بقوله تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي} ٥٧ جسم لطيف جدا سار في البدن سريان ماء الورد في الورد، وهو حي بنفسه يتصف بالدخول والخروج وغيرهما من صفات الأجسام. .] ٥٨
٨٤ - (وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ)
{وأنتم حينئذ تنظرون (٨٤)}
أنتم ذاك الوقت تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء.
[وقيل: المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده؟! مع حرصكم على امتداد عمره، وحبكم لبقائه. . .] ٥٩.
أو تنظرون إلى ما يقاسيه من الغمرات وشدة سكرات الموت.
٨٥ - (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ)
{ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون (٨٥)}
والله تعالى وتقدس أقرب إلى المحتضر منكم بقدرته وعلمه ورؤيته؛ أو رسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم أنكم لا ترونهم.
٨٦ - (فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)
{فلولا إن كنتم غير مدينين (٨٦) ترجعونها إن كنتم صادقين (٨٧)}
فهلا إن كنتم غير مربوبين ولا مملوكين ومقهورين، ترجعون الروح إلى الجسد إن كنتم صادقين في زعمكم عدم خالقية الله الخلاق العليم؛ ولن ترجعوها، فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين.
٨٧ - (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٦]
{فلولا إن كنتم غير مدينين (٨٦) ترجعونها إن كنتم صادقين (٨٧)}
فهلا إن كنتم غير مربوبين ولا مملوكين ومقهورين، ترجعون الروح إلى الجسد إن كنتم صادقين في زعمكم عدم خالقية الله الخلاق العليم؛ ولن ترجعوها، فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين.
٨٨ - (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)
{فأما إن كان من المقربين (٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم (٨٩)}
بعد أن أشارت الآيتان السابقتان إلى حال المحتضر ومن يحضره، جاءت هذه الآيات تبين حال المتوفى بعد الممات، فأما إن كان من أكرم الأصناف الثلاثة من السابقين إلى الخير والدرجات العلا، فجزاؤه استراحة من كرب الحياة الدنيا، ورزق من ربه: {. . أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله. } ٦٠ وجنة ينعم فيها فلا يبتئس، [وقال أبو العباس بن عطاء: الروح: النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه {وجنة نعيم} هو ألا يحجب فيها عن الله عز وجل.] ٦١.
٨٩ - (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨٨]
{فأما إن كان من المقربين (٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم (٨٩)}
بعد أن أشارت الآيتان السابقتان إلى حال المحتضر ومن يحضره، جاءت هذه الآيات تبين حال المتوفى بعد الممات، فأما إن كان من أكرم الأصناف الثلاثة من السابقين إلى الخير والدرجات العلا، فجزاؤه استراحة من كرب الحياة الدنيا، ورزق من ربه: {. . أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله. } ٦٢ وجنة ينعم فيها فلا يبتئس، [وقال أبو العباس بن عطاء: الروح: النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه {وجنة نعيم} هو ألا يحجب فيها عن الله عز وجل.] ٦٣.
٩٠ - (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)
{وأما إن كان من أصحاب اليمين ٩٠ فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١)}
وإذا كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين المهتدين الصالحين فالملائكة تسلم عليه حال توفيه {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة} ٦٤. وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.
٩١ - (فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٠]
{وأما إن كان من أصحاب اليمين ٩٠ فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١)}
وإذا كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين المهتدين الصالحين فالملائكة تسلم عليه حال توفيه {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة} ٦٥. وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.
٩٢ - (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)
{وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢) فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤)}.
وأما إن كان المتوفى من المكذبين بالرسالة الضالين عن الهدى بإصرارهم على الحنث العظيم والكفر فله جزاء من الشراب شديد الحرارة الذي يقطع أمعاء شاربه، وله جزاء إقامة في السعير ومقاساة ألوان العذاب؛ [والأنسب بذلك كون ما ذكر في البرزخ] ٦٦.
٩٣ - (فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]
{وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢) فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤)}.
وأما إن كان المتوفى من المكذبين بالرسالة الضالين عن الهدى بإصرارهم على الحنث العظيم والكفر فله جزاء من الشراب شديد الحرارة الذي يقطع أمعاء شاربه، وله جزاء إقامة في السعير ومقاساة ألوان العذاب؛ [والأنسب بذلك كون ما ذكر في البرزخ] ٦٧.
٩٤ - (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩٢]
{وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢) فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤)}.
وأما إن كان المتوفى من المكذبين بالرسالة الضالين عن الهدى بإصرارهم على الحنث العظيم والكفر فله جزاء من الشراب شديد الحرارة الذي يقطع أمعاء شاربه، وله جزاء إقامة في السعير ومقاساة ألوان العذاب؛ [والأنسب بذلك كون ما ذكر في البرزخ] ٦٨.
٩٥ - (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)
{إن هذا لهو حق اليقين (٩٥)}

إن هذا الذي أوحيناه إليك في هذه السورة هو محض اليقين وخالصه.
[وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما]. . وقال قتادة في هذه الآية: إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين ٦٩.
٩٦ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)
{فسبح باسم ربك العظيم (٩٦)}
نزه الله تعالى عن السوء، سبح اسم ربك، والاسم المسمى، أو: فاذكر اسم ربك العظيم وسبحه.
أخرج الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حيان، والحاكم وصححه، وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: {فسبح باسم ربك العظيم (٩٦)} قال: " اجعلوها في ركوعكم " ولما نزلت: {سبح اسم ربك الأعلى} قال: " اجعلوها في سجودكم ".
ولقد ذكرنا عند تفسير الآية الرابعة والسبعين من هذه السورة أن تنزيه الله الكبير المتعال من لب الرسالة، ومن غايات الإنذار والبشارة، وأشرنا إلى شيء من ثمرات التسبيح وجزاء المسبحين في العاجل. أما جزاء المسبحين في الآخرة فإن الله يملأ به موازين حسناتهم فترجح، يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) ٧٠. ومن حديث له صلوات ربنا عليه وسلامه: (. . وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض. . .) ٧١.
وفي صحيح البخاري بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يا رب يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك إلى أن يقول النبي الكريم: يقول الله: يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقول ملك منهم: يا رب إن فيهم فلانا ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول الله: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم).
فلنسبح مولانا بالعشي والإبكار، ولنسبحه من الليل وأدبار السجود، ولنكثر- ما استطعنا- تسبيحه آناء الليل وأطراف النهار، نكن على منهاج المرسلين والملائكة الأبرار.
وصلاة من الله على داود الذي كانت الجبال تسبح بتسبيحه {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق} ٧٢.
وتردد الطير ما ينزه به المولى الكبير المتعال: {يا جبال أوبي معه والطير} ٧٣.
وسلاما على الملأ الأعلى من جند السماء المسبحين دون انقطاع ولا فتور {. . فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون} ٧٤.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

٥٧ سورة الحديد:

سورة الحديد:
(٥٧) سورة الحديد مدنية
وآياتها تسع وعشرون
كلماتها: ٥٤٤؛ حروفها: ١٤٧٤
١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
بسم الله الرحمن الرحيم

{سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (١)}

مجد الله تعالى وقدسه ونزهه عن السوء ما دونه من خلقه: {. . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده} ١، وهو الغالب القاهر، الذي أحكم التدبير، فهو يصرف كل أمر وفق الصواب والحق والخير.

وقد بدئت سور كريمة بتسبيح الله تبارك وتعالى، في سورة الإسراء وهي المسماة [بني إسرائيل] جاء التسبيح مصدرا: {سبحان الذي أسرى بعبده} وفي هذه السورة وفي سورتي الحشر والصف جاء التسبيح بلفظ الماضي، وفي سورتي الجمعة والتغابن بلفظ المستقبل {يسبح لله} وفي سورة الأعلى بلفظ الأمر: {سبح اسم ربك الأعلى}.

٢ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (٢)}

لربنا وحده دون سواه ملك السماوات والأرض وما فيهما، فهو مالك ذلك كله ومليكه، فكل ما خلق مملوك له وخاضع لسلطانه، وهو يوجد ويذهب، يفعل الإحياء والإماتة، وهو على كل شيء يريده تام القدرة فعال لما يريد.

٣ - (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم (٣)}

ربنا قبل كل شيء بغير حد، كان ولا شيء معه، وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية، وهو كائن بعد الأشياء كلها، كما قال جل ثناؤه: {. . كل شيء هالك إلا وجهه} ٢ هو الظاهر على كل شيء دونه، ولا شيء أعلى منه، والباطن فلا شيء أقرب إلى شيء منه، وصدق الله العظيم: {. . ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} ٣ وعلم الله الكبير المتعال محيط بكل شيء: {. . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} ٤.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومنه: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر) عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم ٥.

٤ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٤) له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٥) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور (٦)}

ربنا جل علاه هو الذي أنشأ السماوات السبع، ومن الأرض مثلهن، في وقت مقداره ستة أيام- إذ اليوم يتحدد بدورة الأرض والشمس، وتعاقب الليل والنهار، وحينذاك لم يكن شمس ولا أرض-[وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها: كوني فتكون لكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور. . وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب، لأن لكل شيء عنده أجلا، وهذا كقوله: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ما مسنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون. { ٦ بعد أن قال: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا} ٧، قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}. . . [وقد كان السلف الأول رضى الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. . . وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال

عن هذا بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها.] ٨. وربنا يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وغيره، وما يخرج منها من نبات وغيره، وما ينزل من السماء من رزق وملك وغيرهما، وما يعرج فيها ويصعد من ملائكة، وصحف أعمال العباد {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. } ٩ {. . ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} ١٠ وقدرته وعلمه وسلطانه لا يبعد منها أحد: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} ١١ وهو يبصر الأعمال ويراها: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ١٢.

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم، وأخرج أيضا عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: عمله معكم.

يقول صاحب روح المعاني: وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل فإنه قول على الله تعالى من غير علم، ولا نؤول إلا ما أوله السلف، ونتبعهم فيما كانوا عليه، فإن أولوا أولنا، وإن فوضوا فوضنا، ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلما لتأويل غيره. . . اه ١٣، والله مالك السماوات والأرض ومليكهما وما فيهما، وما بينهما ومن فيهما، وحين تزول السماوات والأرض ترجع جميع الأمور إلى الله دون سواه، فهو مالك الأولى والعقبى {وإن لنا للآخرة والأولى} ١٤ {. . . له الحمد في الأولى والآخرة} ١٥ وإليه المرجع يوم القيامة، فيتولى سبحانه الحساب والثواب والعقاب ويقلب ربنا الليل ويكوره على النهار، ويكور النهار على الليل، ويقدرهما بحكمته، يطول الليل حينا، وكذا النهار، وهو ذو علم بضمائر عباده، فمكنونات الصدور، وأعمال القلوب، ووسواس النفوس كل ذلك ربنا بالغ علمه به {سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} ١٦ فيعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.

٥ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٤) له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٥) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور (٦)}

ربنا جل علاه هو الذي أنشأ السماوات السبع، ومن الأرض مثلهن، في وقت مقداره ستة أيام- إذ اليوم يتحدد بدورة الأرض والشمس، وتعاقب الليل والنهار، وحينذاك لم يكن شمس ولا أرض-[وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها: كوني فتكون لكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور. . وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب، لأن لكل شيء عنده أجلا، وهذا كقوله: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون. } ١٧ بعد أن قال: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا} ١٨، قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}. . . [وقد كان السلف الأول رضى الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. . . وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها.] ١٩. وربنا يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وغيره، وما يخرج منها من نبات وغيره، وما ينزل من السماء من رزق وملك وغيرهما، وما يعرج فيها ويصعد من ملائكة، وصحف أعمال العباد {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. } ٢٠ {. . ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} ٢١ وقدرته وعلمه وسلطانه لا يبعد منها أحد: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} ٢٢ وهو يبصر الأعمال ويراها: {وما تكون في شأن وما

تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ٢٣.
أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم، وأخرج أيضا عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: عمله معكم.
يقول صاحب روح المعاني: وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل فإنه قول على الله تعالى من غير علم، ولا نؤول إلا ما أوله السلف، ونتبعهم فيما كانوا عليه، فإن أولوا أولنا، وإن فوضوا فوضنا، ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلما لتأويل غيره. . . اه ٢٤، والله مالك السماوات والأرض ومليكهما وما فيهما، وما بينهما ومن فيهما، وحين تزول السماوات والأرض ترجع جميع الأمور إلى الله دون سواه، فهو مالك الأولى والعقبى {وإن لنا للآخرة والأولى} ٢٥ {. . . له الحمد في الأولى والآخرة} ٢٦ وإليه المرجع يوم القيامة، فيتولى سبحانه الحساب والثواب والعقاب ويقلب ربنا الليل ويكوره على النهار، ويكور النهار على الليل، ويقدرهما بحكمته، يطول الليل حينا، وكذا النهار، وهو ذو علم بضمائر عباده، فمكنونات الصدور، وأعمال القلوب، ووسواس النفوس كل ذلك ربنا بالغ علمه به {سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} ٢٧ فيعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.
٦ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]
{هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٤) له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٥) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور (٦)}
ربنا جل علاه هو الذي أنشأ السماوات السبع، ومن الأرض مثلهن، في وقت مقداره ستة أيام- إذ اليوم يتحدد بدورة الأرض والشمس، وتعاقب الليل والنهار، وحينذاك لم يكن شمس ولا أرض-[وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها: كوني فتكون لكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور. . وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلا، وهذا كقوله: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ما مسنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون. } ٢٨ بعد أن قال: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا} ٢٩، قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}. . . [وقد كان السلف الأول رضى الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. . . وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها.] ٣٠. وربنا يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وغيره، وما يخرج منها من نبات وغيره، وما ينزل من السماء من رزق وملك وغيرهما، وما يعرج فيها ويصعد من ملائكة، وصحف أعمال العباد {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. } ٣١ {. . ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} ٣٢ وقدرته وعلمه وسلطانه لا يبعد منها أحد: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} ٣٣ وهو يبصر الأعمال ويراها: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} ٣٤.
أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم، وأخرج أيضا عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: عمله معكم.
يقول صاحب روح المعاني: وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل فإنه قول على الله تعالى من غير علم، ولا نؤول إلا ما أوله السلف، ونتبعهم فيما كانوا عليه، فإن أولوا أولنا، وإن فوضوا فوضنا، ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلما لتأويل غيره. . . اه ٣٥، والله مالك

السماوات والأرض ومليكهما وما فيهما، وما بينهما ومن فيهما، وحين تزول السماوات والأرض ترجع جميع الأمور إلى الله دون سواه، فهو مالك الأولى والعقبى {وإن لنا للآخرة والأولى} ٣٦ {. . . له الحمد في الأولى والآخرة} ٣٧ وإليه المرجع يوم القيامة، فيتولى سبحانه الحساب والثواب والعقاب ويقلب ربنا الليل ويكوره على النهار، ويكور النهار على الليل، ويقدرهما بحكمته، يطول الليل حينا، وكذا النهار، وهو ذو علم بضمائر عباده، فمكنونات الصدور، وأعمال القلوب، ووسواس النفوس كل ذلك ربنا بالغ علمه به {سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} ٣٨ فيعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.

٧ - (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

{آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧) وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين (٨) هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم (٩)}.

والإله الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، والغالب على كل شيء، والمدبر وفق الحكمة، والمحيي المميت، والقديم الباقي، والحي القيوم، والخلاق العليم، ومن له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، هو- دون سواه- أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فآمنوا به وبرسوله، وصدقوا واستيقنوا واستديموا اليقين بجلال رب العالمين، وتصديق واتباع نبيه الكريم المبعوث بالدين القويم؛ وبعد أقدس أعمال القلوب- الإيمان واليقين – أمرنا بعبادة من أبر العبادات وأرضاها لله ولعباده، ننفق في كل ما أذن ربنا أن ننفق فيه، وفيما جعله تجارة معه سبحانه، ومع أن الأموال من جوده وفيضه فإنه جل علاه يمنح المنفقين المؤمنين أجرا عظيما: {درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما} ٣٩، وأيا ما كانت النفقة المشروعة فإنها مع الإيمان وصدق النية قربة تؤجر عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك- تنفق على نفسك أو على زوجتك أو على أولادك وخدمك، أو على والديك أو على أقاربك، ثم على أي مسلم، حتى لو أطعمت الحيوان الأعجم أو سقيته.

وكيف لا تستيقنون بالله وأي شيء يمنعكم من ذلك، وخاتم النبيين يبين لكم الحجة، ويسوق الدليل والبرهان على وجوب الإيمان؟ وقد أقررتم بعهد ربكم وميثاقه، ورضيتم بالله ربا وبالإسلام دينا، إن كنتم صادقين في الانتساب إلى أهل اليقين؛ هذا إذا كان الخطاب للمؤمنين- ويكون {آمنوا} في الآية الأولى أمرا بالثبات على الإيمان ودوامه، و {وما لكم لا تؤمنون} الآية على معنى: كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة؟ وقيل: عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعد الإيمان، ثم من آمن بعدم الإنفاق في سبيله؟. . قيل: لتوبيخهم على الكفر مع تحقيق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه. . . وأي عذر في ترك الإيمان {والرسول يدعوكم} إليه وينبهكم عليه. . . وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل،. . فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الأفاقية والأنفسية، والتمكين من النظر، فقوله تعالى: {والرسول يدعوكم} إشارة إلى الدليل السمعي، وهذه إشارة الدليل العقلي، وفي التقديم والتأخير ما يؤيد القول بشرف السمعي ٤٠ على العقل ٤١ - وربنا ينزل وحيه وآيات قرآنه على خاتم أنبيائه، وفيها البرهان والسلطان والحجة، ليخرجكم بهذا الدليل والهدى والمنهاج من ظلمات الكفر والحيرة والضلال إلى نور الحق والخير والرشد والإيمان، واستيقنوا أن الله يريد بكم اليسر، ويرضى لكم الاستقامة والبر، لتنالوا بذلك الفوز والعز: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} ٤٢ {. . وإن تشكروا يرضه. لكم. } ٤٣ {. . وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} ٤٤ وهو سبحانه بالمهتدين المستقيمين أرأف وأرحم.

٨ - (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧) وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين (٨) هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن

الله بكم لرؤوف رحيم (٩)}.

والإله الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، والغالب على كل شيء، والمدبر وفق الحكمة، والمحيي المميت، والقديم الباقي، والحي القيوم، والخلاق العليم، ومن له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، هو- دون سواه- أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فآمنوا به وبرسوله، وصدقوا واستيقنوا واستديموا اليقين بجلال رب العالمين، وتصديق واتباع نبيه الكريم المبعوث بالدين القويم؛ وبعد أقدس أعمال القلوب- الإيمان واليقين – أمرنا بعبادة من أبر العبادات وأرضاها لله ولعباده، ننفق في كل ما أذن ربنا أن ننفق فيه، وفيما جعله تجارة معه سبحانه، ومع أن الأموال من جوده وفيضه فإنه جل علاه يمنح المنفقين المؤمنين أجرا عظيما: {درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما} ٤٥، وأيا ما كانت النفقة المشروعة فإنها مع الإيمان وصدق النية قربة تؤجر عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك- تنفق على نفسك أو على زوجتك أو على أولادك وخدمك، أو على والديك أو على أقاربك، ثم على أي مسلم، حتى لو أطعمت الحيوان الأعجم أو سقيته.

وكيف لا تستيقنون بالله وأي شيء يمنعكم من ذلك، وخاتم النبيين يبين لكم الحجة، ويسوق الدليل والبرهان على وجوب الإيمان؟ وقد أقررتم بعهد ربكم وميثاقه، ورضيتم بالله ربا وبالإسلام دينا، إن كنتم صادقين في الانتساب إلى أهل اليقين؛ هذا إذا كان الخطاب للمؤمنين- ويكون {آمنوا} في الآية الأولى أمرا بالثبات على الإيمان ودوامه، و {وما لكم لا تؤمنون} الآية على معنى: كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة؟ وقيل: عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعد الإيمان، ثم من آمن بعدم الإنفاق في سبيله؟. . قيل: لتوبيخهم على الكفر مع تحقيق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه. . . وأي عذر في ترك الإيمان {والرسول يدعوكم} إليه وينبهكم عليه. . . وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل،. . فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الأفاقية والأنفسية، والتمكين من النظر، فقوله تعالى: {والرسول يدعوكم} إشارة إلى الدليل السمعي، وهذه إشارة الدليل العقلي، وفي التقديم والتأخير ما يؤيد القول بشرف السمعي ٤٦ على العقل ٤٧ - وربنا ينزل وحيه وآيات قرآنه على خاتم أنبيائه، وفيها البرهان والسلطان والحجة، ليخرجكم بهذا الدليل والهدى والمنهاج من ظلمات الكفر والحيرة والضلال إلى نور الحق والخير والرشد والإيمان، واستيقنوا أن الله يريد بكم اليسر، ويرضى لكم الاستقامة والبر، لتنالوا بذلك الفوز والعز: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} ٤٨ {. . وإن تشكروا يرضه. لكم. } ٤٩ {. . وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} ٥٠ وهو سبحانه بالمهتدين المستقيمين أرأف وأرحم.

٩ - (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧) وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين (٨) هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم (٩)}.

والإله الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، والغالب على كل شيء، والمدبر وفق الحكمة، والمحيي المميت، والقديم الباقي، والحي القيوم، والخلاق العليم، ومن له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، هو- دون سواه- أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فآمنوا به وبرسوله، وصدقوا واستيقنوا واستديموا اليقين بجلال رب العالمين، وتصديق واتباع نبيه الكريم المبعوث بالدين القويم؛ وبعد أقدس أعمال القلوب- الإيمان واليقين – أمرنا بعبادة من أبر العبادات وأرضاها لله ولعباده، ننفق في كل ما أذن ربنا أن ننفق فيه، وفيما جعله تجارة معه سبحانه، ومع أن الأموال من جوده وفيضه فإنه جل علاه يمنح المنفقين المؤمنين أجرا عظيما: {درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما} ٥١، وأيا ما كانت النفقة المشروعة فإنها مع الإيمان وصدق النية قربة تؤجر عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك- تنفق على نفسك أو على زوجتك أو على أولادك وخدمك، أو على والديك

أو على أقاربك، ثم على أي مسلم، حتى لو أطعمت الحيوان الأعجم أو سقيته.
وكيف لا تستيقنون بالله وأي شيء يمنعكم من ذلك، وخاتم النبيين يبين لكم الحجة، ويسوق الدليل والبرهان على وجوب الإيمان؟ وقد أقررتم بعهد ربكم وميثاقه، ورضيتم بالله ربا وبالإسلام دينا، إن كنتم صادقين في الانتساب إلى أهل اليقين، هذا إذا كان الخطاب للمؤمنين- ويكون {آمنوا} في الآية الأولى أمرا بالثبات على الإيمان ودوامه، و {وما لكم لا تؤمنون} الآية على معنى: كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة؟ وقيل: عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعد الإيمان، ثم من آمن بعدم الإنفاق في سبيله؟. . قيل: لتوبيخهم على الكفر مع تحقيق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه. . . وأي عذر في ترك الإيمان {والرسول يدعوكم} إليه وينبهكم عليه. . . وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل،. . فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الأفاقية والأنفسية، والتمكين من النظر، فقوله تعالى: {والرسول يدعوكم} إشارة إلى الدليل السمعي، وهذه إشارة الدليل العقلي، وفي التقديم والتأخير ما يؤيد القول بشرف السمعي ٥٢ على العقل ٥٣ - وربنا ينزل وحيه وآيات قرآنه على خاتم أنبيائه، وفيها البرهان والسلطان والحجة، ليخرجكم بهذا الدليل والهدى والمنهاج من ظلمات الكفر والحيرة والضلال إلى نور الحق والخير والرشد والإيمان، واستيقنوا أن الله يريد بكم اليسر، ويرضى لكم الاستقامة والبر، لتنالوا بذلك الفوز والعز: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} ٥٤ {. . وإن تشكروا يرضه. لكم. } ٥٥ {. . وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} ٥٦ وهو سبحانه بالمهتدين المستقيمين أرأف وأرحم.
١٠ - (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
{وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة. من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا}
يحرض الله المؤمنين على الإنفاق مما رزقهم ربهم في سبيل الخير ومرضاة الله، وفي ذلك حظهم إذ هم مهما طالت آجالهم ميتون وتاركون ما كانوا يملكونه يرثه مالك السماوات والأرض ومن إليه الملك صائر، وإليه يرجع الأمر كله؛ وفي الجملة الأولى {وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله} سؤال بمعنى الإنكار، وكأن المراد: أي شيء يمنعكم من النفقة في أنواع البر والقربات!! أو ما الذي يؤخركم عن الجهاد بالأموال؟! إذ سبيل الله قد يراد بها أنواع الإحسان، وقد يراد بها الجهاد.
وفي الجملة الثانية {ولله ميراث السموات والأرض} إشارة إلى أن الأرض والسماوات وما فيهن راجع إلى الله بعد انقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له؛ {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا} فضل الله من سبق الجهاد بذلا وفداء على من توانى أو تأخر، لا يستويان عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، و {الفتح} هو فصل ما بين المنزلتين، فمن بادر بالنفقة تمكينا للمؤمنين، وقاتل أعداء الدين، أكرم على الله تعالى منزلة ممن فعلوا ذلك بعد حين.
وطائفة من علماء القرآن على أن الفتح فتح مكة؛ لكن عمدة المفسرين بالمأثور أبا جعفر بن جرير الطبري نقل بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية: (يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم) فقلنا: يا رسول الله! أقريش؟ قال: (لا هم أرق أفئدة وألين قلوبا) فقلنا هم خير منا يا رسول الله؟ فقال: (لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس {. . لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير}؛ كما روى نحوه عن أبي سعيد التمار.
[أقول: وفي القرآن الكريم ما يدل على أن صلح الحديبية كان فتحا، فقد نزلت سورة الفتح بأكملها مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الغزوة. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت {إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما} - إلى قوله {فوزا عظيما} مرجعه من الحديبية وهم يخالطون

الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: (لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا)، كما نقل القرطبي عن موسى بن عقبة: قال رجل عند منصرفهم من الحديبية: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا "] ٥٧.

وفي الآية إيجاز بالحذف إذ تقدير الكلام لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف الجزء الثاني من الكلام لدلالة الكلام عليه.

وهكذا أشارت الآية إلى السابقين باسم الإشارة {أولئك} مع أنه للبعيد، إشارة إلى بعد منزلتهم وعلوها، كما دلنا القرآن هنا وفي آيات أخرى على أن منازل الناس المتقين وأقدارهم متفاضلة، وصدق الله العظيم: {. . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} ٥٨.

{وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير (١٠)}

أي وعد الله الحسنى كلا من المنفقين المقاتلين أول ما فرض الجهاد، ومن اللاحقين، وعدهم الله جميعا العاقبة الحسنة، والنعيم في الجنة، مع تفاضل الدرجات، والله بما تعملون من النفقة في سبيل الله وقتال أعدائه، وغير ذلك من أعمالكم التي تعملون خبير لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك يوم القيامة.

وفي هذا حض على نصرة الإسلام بالنفس والنفيس، بالروح والمال، وأن ذلك في حقيقته تعامل ومتاجرة مع ربنا ذي الجلال.

١١ - (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

{من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم (١١)}.

{يقرض} يصنع صنيعا نافعا، ويبذل طيبا يبتغي رضوانا ومثوبة، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا: قد أقرض، مما قال لبيد:
وإذا جوزيت قرضا فاجزه ٥٩.

وسمى قرضا لأن القرض أخرج لاسترداد البدل.

تفضل من المولى أن يقترض منا وهو الغني الوهاب، أنعم هو مسبغها، وأموال هو رازقها، ثم ينادينا لنضعها حيث يرضى وتحسن لنا بها العقبى في الأولى والأخرى! نبذل مما أوتينا، فيما ينفعنا وغيرنا، فيشكر الله سعينا، ويخلف لنا خير من عطائنا: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء} ٦٠ وفي الآخرة يجزى ببره جزاء لا ينقطع ولا يبيد {. . . وما كان عطاء ربك محظورا} ٦١ فأين من هذا كل نعيم الدنيا الزائل؟!

[. . . فالكلام إما على التجوز في الفعل فيكون استعارة تبعية تصريحية، أو التجوز في مجموع الجملة فيكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ؛ أي: من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى مخلصا متحريا أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله، كمن يقرضه {فيضاعفه له} فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفا أضعافا كثيرة من فضله. . ونصب [يضاعفه] على جواب الاستفهام بحسب المعنى. . وإنما أورد على هذا الأسلوب للمبالغة في الطلب حتى كأن الفعل لكثرة دواعيه قد وقع، وإنما يسأل عن فاعله ليجازى. .] ٦٢.

ونقل عن بعض العلماء أن القرض الحسن ما يجمع صفات منها: أن يكون من الحلال، وأن يكون من أكرم ما يملك المنفق، وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر، وأن يضعه في الأحوج الأولى، وأن يكتم ذلك، وأن لا يتبعه المن والأذى، وأن يقصد به وجه الله تعالى.

[القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية، طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسمعة، وأن يكون من الحلال؛ ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه، لقوله تعالى: {. . . ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون} ٦٣ وأن يتصدق في حال يأمل الحياة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال: " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا "، وأن يخفي صدقته؛ لقوله تعالى: {وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} ٦٤ وألا يمن؛ لقوله تعالى: {. . لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} ٦٥. . وأن يكون من أحب أمواله؛ لقوله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. . .) ٦٦} ٦٧.

فاستجيبوا لربكم وابتغوا بالبر والقربات والمكرمات تجارة لن تبور، وتأسوا بخاتم النبيين عليه الصلوات والتسليم فقد كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وكونوا كالذين سبقوا بالإيمان والإحسان وسارعوا إلى طلب المغفرة والرضوان ٦٨.

١٢ - (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

{يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم}

يوفي الله تعالى المؤمنين البررة أجرهم الدائم الذي لا يحول ولا يزول في يوم ترى فيه المؤمنين والمؤمنات يمضي ضياؤهم قدامهم وعن أيمانهم، وهم يجوزون الصراط ليتبوءوا مقاعد الصدق عن ربهم.

قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط.

وقال مقاتل: ليكون دليلا لهم إلى الجنة.

وعن ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله، فيطفأ مرة ويوقد أخرى.

[وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط، وقال بعضهم: يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط، وفي الأخبار ما يقتضيه. . . السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم. . ويشهد لهذا المعنى ما أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبر بن نضير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي بين الأمم)، فقيل: يا رسول الله! فكيف تعرفهم من بين الأمم ما بين نوح عليه السلام إلى أمتك؟ قال: (غر محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وظاهر هذا الخبر اختصاص النور بمؤمني هذه الأمة، وكذا إيتاء الكتب بالأيمان، وبعض الأخبار يقتضي كونه لكل مؤمن. . . ويمكن أن يقال: إن ما يكون من النور لهذه الأمة أجلى من النور الذي يكون لغيرها. . . وأما إيتاء الكتب بالأيمان فلعله لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الأمم تعرف به] ٦٩.

{بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم (١٢)}

وتسوق الملائكة يومئذ الخبر السار الذي تنبسط له أسارير الوجه، ويظهر أثره على بشرة المؤمنين والمؤمنات فيقولون لهم: بشراكم اليوم دخول جنات تجري من تحتكم- من تحت مساكنكم، أو من تحت حدائقكم فيها- أنهار الماء المبارك، وأنهار اللبن الطيب، وأنهار العسل المصفى، وأنهار الشراب الطهور؛ يجري كل هذا من تحت منازلكم في الجنة، وأبشروا بالمقام الدائم والمكث الأبدي في نعيمكم الذي أوتيتموه؛ ذلك ربح وفلاح لا ربح أعظم ولا غنم أدوم منه.

١٣ - (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

{يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم}.

يومئذ يغشى الناس- رجال ونساء- سواد الظلمات فوق ما هم فيه من الفزع والكربات، فينادي أهل النفاق أهل الإيمان قائلين: انتظرونا نلحق بكم لنأخذ ضوءا من نوركم؛ أو أمهلونا وأخرونا فنكون من خلفكم.

[والاقتباس]: أخذ القبس، أي الشعلة من النار.

{قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (١٣)}

حينئذ يقول الله جل علاه للمنافقين: ارجعوا إلى حيث كنتم فاطلبوا لأنفسكم هناك نورا.

مما نقل عن مقاتل: هذا من الاستهزاء بهم. . وذلك قوله تعالى: {الله يستهزئ بهم} ٧٠ أي حين يقال لهم: {ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا} وقال أبو أمامة ٧١: يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال سبحانه: {يخادعون الله وهو خادعهم} ٧٢.

أو هو من قول الملائكة لهم، أو من قول المؤمنين استهزاء بهم.

فيقيم المولى- تبارك وتعالى- بين الفريقين حاجزا يدخل المؤمنون والمؤمنات من أبوابه ثم تغلق دون المنافقين والمنافقات، وهذا الحجاب مما يلي المؤمنين فيه النعيم والتكريم- وهو حائط الجنة، أو الأعراف- وما يلي المنافقين من جهته العذاب وحر النار.

١٤ - (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

{ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور (١٤)}

{فتنتم أنفسكم} محنتموها وأهلكتموها.

{وتربصتم} تلبثتم وانتظرتم، وترقبتم بالمؤمنين الدوائر.

{وارتبتم} شككتم فيما جاءكم من الحق.

{وغرتكم الأماني} خدعكم التمني بكثرة الآمال، وطول الآجال.

{الغرور} الشيطان.

وعندما يقام السور حجابا بين المؤمنين والمنافقين ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نعاشركم في الحياة ونشاركم العبادة؟ فيقول لهم المؤمنون: بلى كنتم معنا، ولكن نافقتم فوقعتم في الهلاك والمحنة، وتباطأتم في تولي أهل الإيمان، والاستجابة لنداء القرآن، وإنما سارعتم في موادة الضلال وعبدة الأوثان، وظننتم أن لن تعلو كلمة الإسلام، ولم تصدقوا وحي الله الملك العلام، وعشتم على طمع ٧٣ النجاة من العقاب، والإفلات من العذاب، حتى باغتكم أمر الله فمتم على غير هدى، فوقعتم في لظى جهنم، وكذلك يفعل الشيطان بحزبه {. . . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} ٧٤ {استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون} ٧٥.

عن قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ونقل النيسابوري: {وغركم بالله} الشيطان {الغرور} فنفخ في خيشومكم أن الله غفور، وأن باب التوبة مفتح.

١٥ - (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

{فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير (١٥)}.

{فدية} بدل أو عوض أو فداء يبذل لحفظ النفس عن النائبة.

{مأواكم} منزلكم ومحل إيوائكم، وسكنكم.

{مولاكم} ناصركم- ولا ناصر لهم يومئذ، فهو استهزاء بهم.

{المصير} المآل والمرجع، وما يصير إليه الحال.

وبعد تقنيط المنافقين من الفوز بالنور، وتحسيرهم على زيغ القلوب وريب الصدور، يقنطهم من رفع العذاب أو صرفه عنهم، كما لا يصرف عن الذين كانوا على الكفر ظاهرا أو باطنا، وليس لهم من دار إلا النار، وبئس مثواهم جهنم.

مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: قال جار الله: حقيقته هي محراكم ومقمنكم. . قال في التفسير الكبير: هذا معنى، وليس بتفسير للفظ من حيث اللغة. . اهـ.

وأورد صاحب روح المعاني: والحق أنه ولو جعل المولى بمعنى الأولى، أو المكان الذي يقال فيه الأولى لا يتم الاستدلال بالخبر ٧٦ على الإمامة التي تدعيها الإمامية للأمير علي كرم الله وجهه، لما بين في موضعه، وفي التحفة الاثنى عشرية ما فيه كفاية لطالب الحق.

٥١.
١٦ - (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

{ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١٦)}

{ألم يأن} ألم يحن ويقرب؟!

{تخشع} تلين وتفهم، وتنقاد وتطيع

{كالذين أوتوا الكتاب من قبل} كاليهود والنصارى أنزل عليهم كتابان سماويان، التوراة والإنجيل.

{الأمد} الأجل، والوقت الذي يعد غاية.

{فقست} فصلبت كالحجارة أو أشد صلابة.

{فاسقون} خارجون على أمر الله وطاعته، ومرضاته وشريعته.

بعد أن بينت الآية السابقة خسار الكافرين والمنافقين حذرت هذه الآية الكريمة من الغفلة عن الذكر، والتلهي عن الحق، والقسوة عن الخير، والركون إلى المعاصي.

ألم يحن الوقت للمؤمنين أن يستديموا الانقياد التام لأوامر القرآن ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه، من غير توان ولا فتور؟!

[{لذكر الله} من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي ترق قلوبهم لمواعظ الله التي ذكرها في القرآن {وما نزل من الحق} وأراد أن القرآن جامع للوصفين: الذكر والموعظة، ولكونه حقا نازلا من السماء؛ ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول، أي لذكرهم الله والقرآن. . .] ٧٧.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم ٧٨ على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال سبحانه: {ألن يأن} الآية.

لكن في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} إلا أربع سنين.

أقول: وما دام الجمهور على أن السورة مدنية، فيمكن أن تكون هذه الآية قد نزلت أولا بمكة ٧٩، وأوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلها من آيات هذه السورة الكريمة التي نزلت بعد ذلك؛ أو يكون قد تكرر نزولها، فنزلت أولا بمكة ثم نزلت بالمدينة؛ والله أعلم.

والمعاتب- على ما قاله الزجاج- طائفة من المؤمنين، وإلا فمنهم من لم يزل خاشعا منذ أسلم إلى أن توفاه الله.

أورد صاحب غرائب القرآن: وفيه إشارة إلى أن عدم الخشوع ٨٠ في أول الأمر يفضي إلى الفسوق في آخر الأمر.

بعد أن عاتب الله تعالى المؤمنين نهاهم ٨١ أن يتشبهوا باليهود والنصارى الذين حملوا كتبا من كتب ربنا المنزلة، فلما طال بهم العهد بدلوا كلام الله ونبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنا قليلا، فعند ذلك زاغت قلوبهم عن الحق والهدى، واستحبوا الضلالة والعمى، فكثر فيهم الخروج على أمر الله، واتباع الهوى، وعبادة المال والشهوات والجاه؛ وصدق الله العليم الحكيم: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه} ٨٢.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع بن أبي عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثا ما سمعت أعجب منه إلا شيئا من كتاب الله، أو شيئا قاله النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتابا من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، فقالوا: تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تبعنا عليه تركناه، ومن كره أن يتابعنا قتلناه، ففعلوا ذلك؛ وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف، ثم أدرجه فجعله في قرن ثم علق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم

لبعض: يا هؤلاء! إنكم قد أفشيتم القتل في بني إسرائيل فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس، وإن أبى فاقتلوه، فدعوا فلانا -ذلك الفقيه- فقالوا: أتؤمن بما في كتابنا هذا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوه علي! فعرضوه عليه إلى آخره ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم آمنت بما في هذا وأشار بيده إلى القرن فتركوه، فلما مات فتشوه فوجدوه معلقا ذلك القرن فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله، فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة، فافترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وخير مللهم ملة أصحاب ذي القرن، قال ابن مسعود: وإنكم أوشك بكم إن بقيتم أو بقي منكم من بقي أن تروا أمورا تنكرونها لا تستطيعون لها غيرا، فبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره.

وروى أبو جعفر الطبري بسنده عن إبراهيم قال: جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال: يا أبا عبد الله! هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفا ولم ينكر قلبه منكرا، ثم ساق نحو ما ذكرناه.

١٧ - (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

{اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون (١٧)}.

استيقنوا أن الذي يهز الأرض بعد همودها، ويخرج زرعها وشجرها ومرعاها فتبتهج بنبتها، قادر على إحياء الخلائق بعد موتها، فتزودوا ليوم المعاد، وتعقلوا واعملوا ما به تسعدون وتفوزون يوم التناد.

[. وكذلك نهدي الإنسان الضال عن الحق إلى الحق فنوفقه ونسدده للإيمان حتى يصير مؤمنا من بعد كفره، ومهتديا من بعد ضلاله- أي كما علمتم أن الأرض الميتة نحييها فتعمر ونجعلها سببا لحياة حسية ونفسية، فصدقوا أنا نحيي القلوب الميتة الهامدة الجامدة، فتنشرح بالإسلام، وتستنير بنوره- وقوله: {قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون} يقول: قد بينا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا]. ٨٣

[ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حال. . . تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع، والتحذير عن القساوة. . .] ٨٤.

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال. .، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال. اهـ.

١٨ - (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

{إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم (١٨)}.

في آيات كريمة من هذه السورة عهد الله إلينا أن ننفق، - آية رقم ٧: {. . وأنفقوا} ورقم ١٠: {وما لكم ألا تنفقوا} ورقم ١١: {من ذا الذي يقرض الله} وفي هذه الآية المباركة بشر أهل البذل والسخاء بعظيم الجزاء، و [المصدق] معناه، المتصدق، وكذا [المصدقة] يراد بها المتصدقة، وكأن هذا وعد المولى الكريم لمن آتوا الزكاة، ويشهد له قول الحق سبحانه: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها} ٨٥ الآية. والإجماع على أنها في مصارف الزكاة، ويكون {. . وأقرضوا الله قرضا حسنا} قد أريد به نفقة التطوع – وأيضا ذكر الأول بلفظ اسم الفاعل الدال على الاستمرار ينبي عن الالتزام والوجوب ٨٦.

فالبشرى إذا لمن أدى الزكاة المفروضة، ولمن بذل النفقة المسنونة.
قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع.
وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبا صادقا.

يضاعف لهؤلاء وهؤلاء ثوابهم أضعافا كثيرة، ولهم جزاء دائم واف غير منقطع ولا منقوص.

١٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

{والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٩)}

{ءامنوا} صدقوا التصديق الكامل.

{الصديقون} الدائمو التصديق، لا يرتابون في شيء من وحي الله، ويصدقون قولهم بالعمل.

والذين استيقنوا بالله تعالى وجلاله، واطمأنت قلوبهم بتصديق المرسلين- صلوات الله عليهم أجمعين- وكمل لهم ذلك، وصدقت أعمالهم أقوالهم، فاطمأن بالحق والجنان -الفؤاد والقلب- وأقر بكلمة التوحيد اللسان، واستقامت على الشريعة الأركان- الجوارح- فهؤلاء ارتفعت عند الله تعالى منازلهم.

مما نقل عن الزجاج: الإيمان: الإظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقاده وتصديقه بالقلب؛ فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر؛ والأصل في الإيمان: الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله له عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن. اه.

وكل من صدق بكل جوانب الإيمان لا يتخالجه في جانب منه شك فهو تصديق.

[وينبغي أن يحمل {الذين ءامنوا} على من لهم كمال في ذلك يعتد به، ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتد بها، وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك في الشهوات، الغافل عن الطاعات صديقا. . .] ٨٧

يقول أصحاب الأعاريب: قوله تعالى: {الذين} مبتدأ أول، وقوله سبحانه: {أولئك} مبتدأ ثان، وقوله تبارك اسم: {هم} مبتدأ ثالث، أو ضمير فصل، و {الصديقون} خبر المبتدأ الأخير، والجملة خبر ما قبله.

أورد أبو جعفر الطبري في تأويل القرآن الرباني الكريم: {والذين ءامنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون} يقول تعالى ذكره. والذين أقروا بوحدانية الله وإرساله رسله فصدقوا الرسل وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربهم أولئك هم الصديقون؛ ثم أورد أقوالا غير ذلك، ثم قال: والذي هو أولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: الكلام والخبر عن الذين آمنوا متناه عند قوله: {أولئك هم الصديقون}. . . اه.

{والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} وبشرى لمن قضى نحبه وقدم حياته فداء لدينه ووفاء بعهد ربه أن له عند الله الولي الحميد منزلا كريما، ومقاما عاليا ونعيما، مصداقا لوعد الله الحق: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} ٨٨.

و {الشهداء} من قضوا نحبهم في سبيل مرضاة الله سبحانه؛ يقال للواحد منهم [شهيد]؛ نقل عن ابن الأنباري: سمى الشهيد شهيدا لأن الله وملائكته شهود له بالجنة؛ ونقل عن الكسائي: الشهيد في الأصل من قتل مجاهدا في سبيل الله، ثم اتسع فيه، فأطلق على من سماه النبي صلى الله عليه وسلم ٨٩ - المبطون والغرق والحرق وصاحب الهدم وذات الجنب وغيرهم- أي من ماتوا بعلة في بطونهم أو غرقى أو محروقين أو انهدم عليهم حائط أو حاجز، أو ماتوا بأمراض الأمعاء والكلي-.

{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم} وعيد ونذير للذين جحدوا ما أنزل الله، ولم يصدقوا بكلماته ورسالاته، ولم يعقلوا ما جاءهم من حججه وبرهانه، هؤلاء هم المبعدون في العناد والضلال، والغواية والعمى، يصاحبون جهنم بسعيرها وخزيها، فلا تفارقهم ولا يفارقونها.

يقول القرطبي: قوله تعالى: {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا} أي بالرسل والمعجزات {أولئك أصحاب الجحيم} فلا أجر لهم ولا نور. اه.

٢٠ - (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

{اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠)}

تثبيت للمهتدين على طريق اليقين، وتحذير للمفتونين من مآل ومصير الغافلين؛ فليعلم كل من يتأتى منه العلم أن الحياة الدنية ليست عند الجاهلين إلا [لعبا] يعقب تعبا، و [لهوا] يصرف عن المقصود، ويشغل عن حق المعبود؛ وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا؛ واللهو ما ألهى عن الآخرة؛ وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء؛ و [زينة] لا تعني إلا زخرفا ظاهرا [وتفاخرا] يتباهون بالمتع يفخر بعضهم على بعض بها.

في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد).

{وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما} يتكاثر الفرد والشعب والأمة بالمال والرجال، ويحسبون أن ما آتاهم الله من هذا العطاء إنما هو لفضلهم؛ لكن من اعتز بغير الله ذل، وربنا يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا. { ٩٠.

وإنما الدنيا سريعة التقضي والزوال كالنبات الذي يسقيه المطر فيخضر ثم يقوى حتى يبلغ مداه ثم سرعان ما يذبل ويصفر ثم يتيبس ويتكسر.

مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: والمعنى: أن الحياة كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن؛ وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن؛ وقيل: {الكفار} هنا: هم الكافرون بالله عز وجل، لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين. . . وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة.

{وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} وتنقضي الحياة الفانية، وينقضي معها حطامها، وتجيء الدار الباقية دار الخلود والقرار، فإما خزي وتحقير، ولظى وسعير، للكافرين والفجار، وإما روح وريحان، ونعيم ورضوان، للمتقين الأبرار؛ ومهما توفرت الأعراض الزائلة، والشهوات الباطلة، لذوي القلوب الغافلة، في هذه العاجلة، فستفجأهم الكربات والحسرات في الآجلة؛ وعندما ينكشف عنهم غطاء الغفلة، ويدركون كم غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، وأنساهم ذكره وحقه عدوهم الشيطان.

فليعمل العاقل بمقتضى علمه الذي علمناه، وإن العاجلة متاعها يسير، وعمرها قصير، والحساب من بعد على الجاحدين عسير.

عن سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك لطلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة. . . ٥.

٢١ - (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

{سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين ءامنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١)}

النفس مولعة بحب العاجل والإعراض من الآجال- إلا من سعدوا، وقليل ما هم- ولقد أعذر الخلاق العليم البر الرحيم {لئلا يكون للناس على الله حجة} ٩١ فدعاهم إلى دار السلام، وناداهم للتنافس في الخيرات، والتسابق إلى الأعمال الصالحة الموصلة إلى رضوانه والجنات وأعلى الدرجات {سابقوا} افعلوا فعل المتنافسين الحريصين على سبق أقرانهم {إلى مغفرة من ربكم} إلى أعمال تكون سببا لمغفرة ربكم وستره، وصفحه وعفوه؛ أو: سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن أسباب المغفرة ودخول الجنة. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التحريض على تعجل فعل البر قبل فوات الأوان؛ روى مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بادروا الصبح بالوتر) ٩٢؛ كما روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلوات الله تعالى عليه وسلامه قال: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا

يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل) ٩٣ وعظم المولى- سبحانه- ما في مقاعد الصدق من قرة عين وسعة، فبين - تبارك اسمه- أن عرض الجنة التي وعد المتقون كعرض السماء والأرض جميعا لو ألصق أحدهما بالآخر، فإذا كان العرض- وهو أقصر الامتدادين- يبلغ هذا المدى، دل على عظم الطول بالطريق الأولى؛ وقد هيأ الله البر الرحيم هذه الجنان الواسعة بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به أعين الذين صدقوا بالله ورسوله؛ وفي سورة آل عمران بشر الله المتقين الموقنين ودعاهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وحرضهم- جل علاه- على المبادرة فقال عز من قائل: {وسارعوا} يقول أصحاب الإشارات: في لفظ {سارعوا} إشارة إلى أن كلهم مستوون في القرب أو متقاربون؛ وفي لفظ {سابقوا} إشارة إلى أن مراتب هؤلاء مختلفة.

{ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} ذلك الوعد والإعداد لهذا النعيم والتكريم، تفضل من ربنا الوهاب الكريم، يتفضل بكرمه وعطائه على من شاء أن يكرم ويعطي ويهدي؛ والله صاحب الفضل الذي لا يحد، ولا ينتهي عند أمد.

٢٢ - (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

{ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢)}

{أصاب} وصل.

{مصيبة} نائبة، ونازلة.

{نبرأها} نخلقها.

ما وصل إلى مخلوق من نائبة وبلية أو حادث في نفسه أو فيمن له أو فيما له إلا مكتوبة في لوح محفوظ من قبل أن نخلق تلك المصيبة أو من قبل أن نخلق الأرض والأنفس، أو من قبل أن نخلق سائر المخلوقات؛ إن إثبات ذلك وإمضاءه على الله - دون سواه- هين يسير، فإنه سبحانه لا يحتاج إلى عدة ولا إلى مدة.

[و {أصاب} جار في الشر كما هنا، وفي الخير كقوله تعالى: {ولئن أصابكم فضل من الله. } ٩٤ وذكر بعضهم أنه يستعمل في الخير اعتبارا بالصوب أي بالمطر، وفي الشر اعتبارا بإصابة السهم. . . وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله تعالى عنها فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم، ما هكذا كان يقول، ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كان أهل الجاهلية يقولون إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار) ثم قرأت: {ما أصاب من مصيبة. } الآية] ٩٥.

٢٣ - (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

{لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (٢٣)}

بينا لكم سرعة نفاد متع العاجلة، وخلود نعيم الآجلة، وأن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم - من خير أو شر- لم يكن ليصيبكم لئلا تحزنوا على ما يفوتكم من حظ الدنيا حزنا يخرجكم عن الصبر ورجاء الثواب، ولئلا تفرحوا فرحا يطغي أو يلهي عن الشكر؛ والله لا يرضى عن البطرين المعجبين المزهوين، ولا عن المتعالين المحقرين للآخرين.

٢٤ - (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

{الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد (٢٤)}

والذين يكرههم الله تعالى لزهوهم وتحقيرهم لغيرهم يضنون ويشحون ويتواصون بالإقتار ويمنعون الماعون، كما فعل أصحاب الحديقة التي جاء ذكرها في سورة [القلم]: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين} ٩٦ {فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين} ٩٧، وتلك فتنة كل مفتون مأفون؛ ومن يعرض عن الإنفاق في سبيل مرضاة الله فإن الله غني عنه وعن إنفاقه، وتبارك المحمود في السماوات وفي الأرض.

وجائز أن يكون المراد التحذير من البخل بأي نعمة من نعم الكريم الوهاب- مالا كانت النعمة أو علما أو جاها أو ماعونا أو بذل نفس

في سبيل مرضاة مولانا-
٢٥ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)
{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز (٢٥)}.
تحققوا أنا بعثنا رسلنا إليكم بشرا منكم، أيدناهم بالعلامات الدالة على صدقهم، وآتيناهم الحجة والبرهان، والمعجزة وخوارق العادات، وأوحينا إليهم جنس الكتاب- يشمل كل ما أنزل الله سبحانه من كتبه- وأنزلنا معهم الأمر باتخاذ الميزان مع تعليم كيفيته- حسية كانت أم معنوية- ليتعامل الناس بالعدل والحق دون جور أو بغي، ومن غير تطفيف ولا بخس. {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس} وخلقنا الحديد وهيأناه لكم وأنعمنا به عليكم- فليس يلزم أن المراد هبوط الحديد من السماء، إذ قد جاء مثل هذا في قول المولى تبارك وتعالى: {. . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج} ٩٨ - وفي الحديد الذي أوتيتم عذاب وزجر إذ تتخذ منه آلات الحرب وعدته، وفيه منافع في معايشكم ومصالحكم، فما من صنعة إلا وآلتها الحديد أو ما يعمل به، فينفعهم الله بذلك، وليعلم سبحانه علما يجازى الناس بمقتضاه- إذ علمه الأزلي قديم- فينكشف ويرى من ينصر الله ورسله باستعمال عدة الحرب في مجاهدة أعداء الدين الحق، ينصرون دعوة الله غائبا منهم أو غائبين منه، وما الانتصار للحق وبذل الأنفس والأموال في سبيله لحاجته سبحانه في إظهار دينه إلى نصرتهم، بل إنما هو ليبليهم منه بلاء حسنا: {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا} ٩٩.
٢٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)
{ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون (٢٦)}.
اللام في {لقد} كسابقتها في الآية المتقدمة -موطئة للقسم.
بعث الله تعالى نوحا أول مبعوث بعد الطوفان- وكانت بعثته قبل إلى قوم مهلكين- وأرسل الله إبراهيم وجعله أبا للأنبياء من بعد، وترك كلا الرسولين- صلوات الله عليهما- في ذريته وحي الله تعالى وكلماته، أو اصطفى ربنا- تبارك اسمه- من ذريتهما أنبياء وأنزل عليهم كتبا، فمن الذرية من وفى بعهد المولى القدوس-، ومنهم من خرج عن السنن واعوج.
٢٧ - (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)
{ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون (٢٧)}
أرسلنا بعد نوح وإبراهيم- عليهما السلام- رسلا كراما منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وزكريا - سلام الله عليهم- ثم جاء يقفوهم ويتبعهم عيسى ابن مريم- عليه السلام- وأنزل الله عليه الكتاب السماوي {الإنجيل}.
وصير الله تعالى وخلق في قلوب أتباع عيسى رقة ورفقا، وهب الله أهل الإيمان الصادق بعيسى وأنصار دينه وحوارييه وأتباعهم بالهدى- رفقا وتوادا، والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة.
[وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه. . . وتم الكلام، ثم قال: {ورهبانية ابتدعوها} أي من قبل أنفسهم. . .، وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح، والتعلق بالكهوف والصوامع. . . وفي خبر مرفوع: " هي لحوقهم بالبراري والجبال "] ١٠٠.

{ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون} ما فرضنا عليهم ولا أمرناهم إلا بما فيه مرضاة لربهم المعبود، وقيل: الاستثناء منقطع، والتقرير: ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فما قاموا بها حق القيام، وبهذا شهد الله على طائفة منهم في قوله الحق: {يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. } ١٠١ فأثاب الله الأتقياء الصادقين منهم أكرم مثوبة، وأخزى الله من زاغ وغوى.

[وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية من سراياه فقال: (مر رجل بغار فيه شيء من ماء فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا قال لو أني أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل فأتاه فقال يا نبي الله إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لم ابعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاة ستين سنة)، وروى الكوفيون عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تدري أي الناس أعلم "؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصرا في العمل وإن كان يزحف على إسته هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاثا مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا لم يبق للدين أحد يدعوا إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمي الذي وعدنا عيسى- يعنون محمد صلى الله عليه وسلم- فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر- وتلا {ورهبانية. } الآية- أتدري ما رهبانية أمتي: الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع، يابن مسعود، اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف من كان قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى- عليه السلام- حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم {ورهبانية ابتدعوها} الآية فمن آمن بي واتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون) ١٠٢.

٢٨ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وءامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم (٢٨)}

[الكفل] الحظ والضعف من الأجر والإثم، والنصيب.

يأمر مولانا الخلاق العليم أهل الإيمان والتصديق واليقين أن يستديموا تقوى الله تعالى، ويثبتوا على التصديق برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليعطيكم ربكم الشكور جزاء على إيمانكم نصيبين من رحمته: رحمة عاجلة ورحمة آجلة، كالذي يتضرع به أهل السعادة الذين وعد البر الرحيم أن يستجيب لهم في قوله- تبارك اسمه-: {ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم نصيب مما كسبوا} ١٠٣.

ويثبت المتقين فيهبهم نورا يسيرون به لا يظل عليهم سبيل ١٠٤ ويستر عليهم ما قد يكون من إساءة ويعفو ويصفح، وهو سبحانه كثير الغفران لمن استغفره، واسعة رحمته لمن تاب وآمن وعمل صالحا واستقام على الهدى.

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قالا: إن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فشهدوا معه أحدا فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنا

أهل ميسرة فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين، فأنزل الله تعالى فيهم {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون} ١٠٥ إلى قوله سبحانه: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} ١٠ . فلما نزلت هذه الآية قال من لم يؤمن من أهل الكتاب: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى {يا أيها الذين ءامنوا. } الآية.

[وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبرا من أحبار يهود: أفضل ما ضعف لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة، قال: فحمد الله عمر على أن أعطانا كفلين، ثم ذكر سعيد قول الله عز وجل: {يؤتكم كفلين من رحمته. }] ١٠٦.

٢٩ - (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

{لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢٩)}.

جعلت أمة النبي الخاتم خير أمة، وضاعفت لهم أجر الحسنة إلى سبعمائة ضعف- إذ الكفل كما جاء في الأثر ثلاثمائة وخمسون حسنة- وأعطيتهم النور يضيء لهم في أولادهم وأخراهم، وغفرت لهم، ليعلم اليهود والنصارى- وفيهم أنزلت التوراة والإنجيل- أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله، وأن الفضل بيد الغني الوهاب- دون سواه- يمن به على من يشاء، ولا حرج على فضله تبارك وتعالى.

عن قتادة: قوله: {يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وءامنوا برسوله. } الآية قال: لما نزلت هذه الآية حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله عز وجل: {لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون. } الآية اه [لأنهم كانوا يرون أن الله قد فضلهم على جميع الخلق فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد أتى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم. .] ١٠٧.

و [لا] من {لئلا} صلة- ليست بنافية- ومثلها في القرآن كثير، في كل جملة دخل في أولها وآخرها جحد غير مصرح به، ففي الجحد السابق الذي لم يصرح به جاء قول الحق سبحانه {. . . ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. } ١٠٨ والمعنى والله تعالى أعلم-: ما الذي منعك من السجود. . وكذا قول المولى- تبارك اسمه-: {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون} ١٠٩ ومعنى ذلك: أهلكناها أنهم يرجعون.

وفي صحيح البخاري بسنده عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول- وهو قائم على المنبر (إن بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء).

٥٨ سورة المجادلة:

سورة المجادلة:
سورة المجادلة مدنية وآياتها ثنتان وعشرون
كلماتها: ٤٩٣، حروفها: ١٩٩٢.

١ - (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (١)}.

{تجادلك} تحاجك وتناظرك، وتقابل الحجة بالحجة.

{تحاوركما} ترادكما في الكلام، أو كلامكما المردد.

تحققوا أني سمعت قول المرأة التي كانت تحاجك يا محمد في شأن زوجها، وما كان بينه وبينها، وشكواها إليّ وجدها وبلاءها، وشدت

كربها إن فرق بينه وبينها؛ وربكم المعبود يسمع تراددكما في سؤالها وجوابك؛ إن الله ذا الجلال بالغ سمعه كل مسموع، وبصره جل وعلا لا يغيب عن مرئي.

[والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد الله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها}] ١.

وقال الماوردي: هي خولة بنت ثعلبة، وقيل: بنت خويلد، وليس هذا بمختلف، لأن أحدهما أبوها والآخر جدها فنسبت إلى كل واحد منهما، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت.

[وروى الحسن ٢: أنها قالت: يا رسول الله! قد نسخ الله سنن الجاهلة وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أوحى إلي في هذا شيء) فقالت: يا رسول الله! أوحى إليك في كل شيء وطوى عنك هذا؟ فقال: (هو ما قلت لك) فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله، فأنزل الله: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله} الآية.]

ألا ما أعظم فضل الله تعالى، وأجزل عطاءه، وما أحكم شرعه! امرأة تظهر بثها، وتذكر همها وغمها، وحزنها أن تفارق زوجها، من أجل كلمة قالها، فيستجيب الملك المهيمن ويفرج كربها، وتبقى آيات الله تعالى مسجلة شرفها، وسماحة الإسلام الذي صان حقها، ورفع ذكرها!.

فهل يعلم الذين يفترون على ديننا - سفها بغير علم- أن الله شرع لنا أقوم منهاج وأكرم سبيل؟ وهل تعتبر النساء اللائي يخدعن عن الحق، ويصرفن عن الرشد، ويزخرف لهن القول أن الانفلات من الدين تحرير للمرأة؟! ألا فليحذرن الأبالسة، وخداع المضلين، وليستقمن على صراط الله البر الرحيم، فإنه عز الدنيا وسعادة الآخرة {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} ٣.

مما أورد ابن حاتم ٤ - بسنده- عن جرير بن حازم قال: سمعت أبا زيد يحدث قال: لقيت امرأة عمر؛ يقال لها خولة بنت ثعلبة، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى ٥ إليها رأسه حتى قضت حاجتها وانصرفت؛ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين! حبست رجالات قريش على هذه العجوز! قال: ويحك! أو تدري من هذه؟ قال: لا! قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات! هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها.

وأورد القرطبي قريبا من هذا قال: وقد مر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته- والناس معه- على حمار، فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: يا عمر! قد كنت تدعى عميرا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين؛ فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب؛ وهو واقف يسمع كلامها؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟! فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زالت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!.

٢ - (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

{الذين يظاهرون منكم من نسائكم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور (٢)}.

{يظاهرون} يشبهون ظهر الزوجة وهو محلل بظهر الأم- مثلا- وهو محرم، يقول الواحد منهم لزوجته: أنت علي كظهر أمي.

{نسائهم} محللاتهم وزوجاتهم.

{منكرا} ينكره الشرع، وينفر منه الطبع.

{وزورا} كذبا مموها مزوقا.

{لعفو} لكثير الصفح وعدم العقوبة على الذنب.
{غفور} عظيم الستر لخطايا المستغفرين مهما كثرت.
كان الظهار معروفا في الجاهلية، فإذا أراد أحدهم أن يحرم زوجته على نفسه يقول لها: أنت علي كظهر أمي، فتصير عليه حراما، لا يستمتع بها ولا تستمتع به، بل ولا تعتبر خلية وغير ذات زوج حتى يمكن لغيره أن يتزوجها فتبقى هكذا معلقة لا هي مزوجة ولا مطلقة، فأبطل الله تعالى هذا السنن، وأكذب من قال به، إذ كيف تشبه الزوجة بالأم وأين من ولدته ممن لم تلده؟! إن هذا القول كذب مموه، ويسقطه الشرع، وتأباه سلامة الطبع، وإن الله المعبود، تقدست أسماؤه وعظمت نعمه وآلاؤه لكثير الصفح، واسع الحلم، يتجاوز عن المعاقبة على الذنب، وهو جل ثناؤه عظيم الستر لخطايا المستغفرين مهما كثرت.
يقول الألوسي: والآية نزلت في خولة وزوجها أوس، وذلك أن زوجها أوسا كان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، فدخل عليها يوما فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي- وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه، وكان هذا أول ظهار في الإسلام- فندم من ساعته فدعاها فأبت، وقال: والذي نفس خولة بيده لا تصل إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فينا، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثرت بطني- أي كثر ولدي- جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني بها وإياه فحدثني بها؟! فقال عليه الصلاة والسلام: (والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن)، وفي رواية (ما أراك إلا قد حرمت عليه). قالت: ما ذكر طلاقا! وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا ثم قالت: أشكو إلى الله تعالى فاقتي وشدة حالي، وإن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وما برحت حتى نزل القرآن فيها؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (يا خولة أبشري) قالت: خيرا؟ فقرأ عليه الصلاة والسلام: {قد سمع الله. } الآيات. اه.
ومما قال أصحاب الإعراب: {الذين} مبتدأ خبره محذوف، تقديره: مخطئون، أو {ما هن} خبره.
٣ - (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
{والذين يظاهرون من نسائكم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤)}.
ومن يظاهر من زوجته ٦، ثم يعزم على العود للاستمتاع بها، فليحرر عبدا مملوكا يعتقه ويطلقه ليصير حرا من قبل أن يستمتع بمن ظاهر منها أو تستمتع به، فإن عجز من الوفاء بتلك الكفارة – لعدم وجود عبيد، أو وجدوا ولكن لم يجد ثمن من يطلب إليه إعتاقه- فعليه أن يكفر بصيام شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع المظاهر بمن ظاهر منها أو تستمتع به، فإن لم يستطع الصوم فكفارته إطعام ستين مسكينا؛ ذلك الذي شرع الله لكم من الكفارة يراد به أن تتذكروا قبح الظهار ونكره، وزوره ووزره، فيكون معتبرا لكم ومزدجرا؛ وليكون التصديق بالله الحكيم ومنهاجه، والاتباع لوحيه وبيان رسوله، برهان يقينكم، وعلامة تقديس دينكم، وتمام إسلامكم؛ ولمن لم يؤمن بكلمات ربه، ولم يقف عند حدود دينه، ولم يذعن لشرع مولاه؛ لمن يجحد ذلك أو لم ينقد له عذاب موجع، وألم دائم.
يقول أصحاب الإعراب: {والذين}: مبتدأ، وجملة: {فتحرير رقبة} مبتدأ آخر خبره مقدر، أي فعليهم تحرير رقبة، أو خبر مبتدأ مقدر، أي: فالواجب عليهم تحرير رقبة؛ وعلى كل فالجملة خبر الموصول- {والذين} - ودخلت الفاء على قول الله سبحانه: {فتحرير} لتضمن المبتدأ معنى الشرط.
[نقل ابن كثير عن الإمام أحمد -بسنده- عن خويلة ٧ بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله سورة المجادلة. قالت: كنت عنده ٨ وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي،

قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي ٩، قالت: قلت كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص ١٠ إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: " فواثبني ١١ فامتنعت عليه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى ١٢ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: (يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا) ثم قرأ علي: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير} إلى قوله تعالى: {وللكافرين عذاب أليم} قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مريه فليعتق رقبة) قالت: فقلت يا رسول الله! ما عنده ما يعتق، قال: (فليصم شهرين متتابعين) قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكينا وسقا ١٣ من تمر)، قالت: فقلت: يا رسول الله! ماذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإنا سنعينه بفرق ١٤ من تمر) قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بفرق آخر، قال: (وقد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا). قالت: ففعلت].

مما أورد القرطبي في الجامع لأحكام القرآن- وقد أورد من آراء الفقهاء فيما استنبطوه من الآيات الأربع قريبا من عشرين صفحة- يقول: {وإن الله لعفو غفور} إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر. . . {ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله} أي: ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة ١٥ {لتؤمنوا} أي لتصدقوا أن الله أمر به. . . لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعوهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا. . . فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله، لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدونها، والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان. . . {وتلك حدود الله} بين معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة {وللكافرين عذاب أليم} أي لمن لم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم. اهـ.

جاء في [روح المعاني. .]: {والله بما تعملون} من الأعمال كالتكفير وما يوجبه من جناية الظهار {خبير} أي عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم، ولا تخلوا بشيء منها. . . {لتؤمنوا بالله ورسوله} وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم {وتلك} الأحكام المذكورة {حدود الله} لا يجوز تعديها، فالزموها وقفوا عندها {وللكافرين} الذي يتعدونها ولا يعملون بها {عذاب أليم} على كفرهم؛ وأطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظا لزجره؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {. . . ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} ١٦. اهـ

٤ - (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣]

{والذين يظاهرون من نسائكم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤)}.

ومن يظاهر من زوجته ١٧، ثم يعزم على العود للاستمتاع بها، فليحرر عبدا مملوكا يعتقه ويطلقه ليصير حرا من قبل أن يستمتع بمن ظاهر منها أو تستمتع به، فإن عجز من الوفاء بتلك الكفارة - لعدم وجود عبيد، أو وجدوا ولكن لم يجد ثمن من يطلب إليه إعتاقه- فعليه أن يكفر بصيام شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع المظاهر بمن ظاهر منها أو تستمتع به، فإن لم يستطع الصوم فكفارته إطعام ستين مسكينا؛ ذلك الذي شرع الله لكم من الكفارة يراد به أن تتذكروا قبح الظهار ونكره، وزوره ووزره، فيكون معتبرا لكم ومزدجرا؛

وليكون التصديق بالله الحكيم ومنهاجه، والاتباع لوحيه وبيان رسوله، برهان يقينكم، وعلامة تقديس دينكم، وتمام إسلامكم؛ ولمن لم يؤمن بكلمات ربه، ولم يقف عند حدود دينه، ولم يذعن لشرع مولاه؛ لمن جحد ذلك أو لم ينقد له عذاب موجع، وألم دائم.

يقول أصحاب الإعراب: {والذين}: مبتدأ، وجملة: {فتحرير رقبة} مبتدأ آخر خبره مقدر، أي فعليهم تحرير رقبة، أو خبر مبتدأ مقدر، أي: فالواجب عليهم تحرير رقبة؛ وعلى كل فالجملة خبر الموصول- {والذين} - ودخلت الفاء على قول الله سبحانه: {فتحرير} لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

[نقل ابن كثير عن الإمام أحمد -بسنده- عن خويلة ١٨ بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله سورة المجادلة. قالت: كنت عنده ١٩ وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي ٢٠، قالت: قلت كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص ٢١ إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: " فواثبني ٢٢ فامتنعت عليه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى ٢٣ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: (يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا) ثم قرأ علي: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير} إلى قوله تعالى: {وللكافرين عذاب أليم} قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مريه فليعتق رقبة) قالت: فقلت يا رسول الله! ما عنده ما يعتق؛ قال: (فليصم شهرين متتابعين) قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام؛ قال: (فليطعم ستين مسكينا وسقا ٢٤ من تمر)؛ قالت: فقلت: يا رسول الله! ماذاك عنده؛ قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإنا سنعينه بفرق ٢٥ من تمر) قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بفرق آخر؛ قال: (وقد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا). قالت: ففعلت].

مما أورد القرطبي في الجامع لأحكام القرآن- وقد أورد من آراء الفقهاء فيما استنبطوه من الآيات الأربع قريبا من عشرين صفحة- يقول: {وإن الله لعفو غفور} إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر. . . {ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله} أي: ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة ٢٦ {لتؤمنوا} أي لتصدقوا أن الله أمر به. . . لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعوهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا. . . فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله، لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدونها، والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان. . . {وتلك حدود الله} بين معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة {وللكافرين عذاب أليم} أي لمن لم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم. اه.

جاء في [روح المعاني. .]: {والله بما تعملون} من الأعمال كالتكفير وما يوجبه من جناية الظهار {خبير} أي عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم، ولا تخلوا بشيء منها. . . {لتؤمنوا بالله ورسوله} وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم {وتلك} الأحكام المذكورة {حدود الله} لا يجوز تعديها، فالزموها وقفوا عندها {وللكافرين} الذي يتعدونها ولا يعملون بها {عذاب أليم} على كفرهم؛ وأطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظا لزجره؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {. . . ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} ٢٧. اه

٥ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

{يحادون} يعادون ويخالفون في الحدود، ويمانعون، ويقفون في حد غير حد الله سبحانه.

{كبتوا} أخزوا- على معنى سيخزون-.

{إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين (٥) يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد (٦)}.

إن الذين يضعون ويختارون حدودا غير حدود الله تعالى ورسوله، ويعادون الله تعالى ورسوله ويخالفون في الحدود، ويمانعون، ويقفون في طرف غير الطرف الذي شرع المولى سبحانه سيخزيهم الله تعالى كما أخزي الذين من قبلهم ممن شاق الله ورسوله فاختار شقا غير شق هذا الدين ٢٨، وقد نزل وحينا على خاتم أنبيائنا- كما نزل على رسل سابقين- بآيات واضحات تبين ما فيه الرشد والنجاة، لمن اهتدى بهداه، وأما من جحد وأنكر، أو خالف واستكبر. فإن الله يعذبه بعذاب يذهب بكبره ويهينه، واذكر يا من يتأتى منه الذكر والتذكر يوم القيامة والبعث يوم الإحياء والإعادة والنشر والحشر، يوم يساق الخلق للوقوف بين يدي الله الحق فينبئهم بما كانوا قد عملوه أو قالوه في حياتهم الدنيا، صغر ذلك وكبر، وصدق الله العظيم: {. . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ٢٩. {. . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} ٣٠ {. . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} ٣١، ذلك أن الله القوي القدير أحصى كل شيء عددا- ومنه ما كتبته الملائكة الكتبة في صحائف أعمالهم- {ونسوه} هم حتى ذكرهم به الكتاب الذي يعرض عليهم فقالوا عندئذ ما شهد به القرآن الحكيم: {. . فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا} ٣٢. ليكون أبلغ في الحجة عليهم {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} ٣٣ {والله على كل شيء شهيد} مطلع ورقيب وناظر وسميع، لا يخفى عليه شيء.

٦ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

{شهيد} مطلع وناظر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار

٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

{ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم (٧)}.

{تر} تعلم، إذ العلم رؤية بصيرية. {نجوى} مسارة- وأصلها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض- فالمتناجون يخلون بسرهم كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به.

{أدنى} أقل، {أينما} في أي موضع.

ألم تعلم- يا من يتأتى منه العلم- وتدرك ببصيرتك أن المعبود بحق يعلم ما في السماوات وما في الأرض من أجزاء ومكونات، ومخلوقات وكائنات، ممن يعقل ومما لا يعقل، ويعلم ما بين السماء والأرض وما وراء ذلك كله؛ ما يتناجى ثلاثة ويتسارون إلا وربنا- جل وتعالى- معهم بعلمه فيصيرهم باطلاعه على نجواهم أربعة؛ وما يوجد ولا يتأتى من مسارة خمسة إلا سمع الله تعالى وعلمه محيطان بهم، وبصره- جل وتقدس- نافذ فيهم فصاروا ستة؛ ولا نجوى {أدنى} من الثلاثة والخمسة- كالإثنين والأربعة بل ولو كان الفرد وحده يحدث نفسه فإن الله اللطيف الخبير يعلم سر الواحد والإثنين وما فوقهما؛ {ولا أكثر} كالستة وما فوقها {إلا هو معهم} يعلم سرهم ونجواهم.

جاء في آية كريمة أخرى: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} ٣٤.

{أينما كانوا} في أي موضع ومكان وجدوا، {ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} يخبرهم سبحانه بالذي عملوه وقالوه-

إذ القول عمل اللسان وما جاوره من الأعضاء- ويجازيهم به، إن ربنا أحاط بكل شيء علما. [ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكنه سمعه أيضا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء. . قال الإمام أحمد: [افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم] ٣٥. ومما نقل القرطبي:
وقال الفراء في قوله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم} قال: المعنى غير مصمود، والعدد غير مقصود، لأنه تعالى إنما قصد- وهو أعلم- أنه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية؛ فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض؛ وقيل: معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال؛ ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قال ابن عباس. اه.
يقول صاحب روح المعاني ٣٦: ومن هنا قال معظم السلف فيما ذكر في البين ٣٧ من قوله عز وجل: {رابعهم} و {سادسهم} و {معهم} المراد به كونه تعالى كذلك بحسب العلم مع أنهم الذين لا يؤولون وكأنهم لم يعدوا ذلك تأويلا لغاية ظهوره واحتفافه بما يدل عليه دلالة لا خفاء فيها، ويعلم من هذا أن ما شاع من أن السلف لا يؤولون ليس على إطلاقه. اه.
٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
{بالإثم} بالسوء والذنب.
{والعدوان} التعدي على الحقوق.
{حسبهم} كافيهم.
{المصير} المرجع، وما إليه يصيرون.
{ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨) يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩) إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٠).}
ألم تر ببصيرتك إلى المنافقين الذي نهاهم ربهم وحذرهم رسوله عن المناجاة التي كانوا يغيظون بها المؤمنين،يتناجى المنافقون بعضهم مع بعض فيظن المؤمن الذي يراهم يتسارون أن شرا قد وقع،أو أن ضرا يوشك أن يدركه فيغتم، فأنذر النبي صلى الله عليه وسلم المتناجين، لكنهم عادوا لما أنذروه وحذروه؛ {. . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون} ٣٨.
وتمادوا في بغيهم فتواصوا بالإمعان في الكيد للدين وأهله {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون} ٣٩ وتناجى أهل الكيد والنفاق بالصد عن الدعوة والداعي صلى الله عليه وسلم: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا. { ٤٠،وظنوا أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم، لكن الله هتك سترهم وأخزاهم، {نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} ٤١.
وتبدوا أضغانهم وأحقادهم في لحن القول حين يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكون تحيتهم له عليه الصلاة والسلام تحية ملتوية،فبدلا مما شرع الله سبحانه من التحية التي تتضمن دعاء للمحيّا بالأمان والرحمة والبركة والخير الكثير، وبدلا من الدعاء للنبي بما نادى إليه المولى الحكيم في شرعه القويم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، كانوا- عليهم اللعنة- يلوون ألسنتهم فيقولون: السام عليكم – يعنون الموت؛ فيحلم الله تعالى عليهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، فيقول بعضهم لبعض: لو كان محمد يوحى إليه لأعلمه ربه بما نقول، ولآخذنا بما اجترحنا؛ لكن يكفيهم ما ينتظرهم جزاء بغيهم وسفههم من نكال أعد لهم، وسعير يصلى جلودهم، والنار مأوى لهم، وبئس المصير مصيرهم.

روي عن ابن عباس: (نزلت في المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك، فكثرت شكواهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت). وثبت عن عائشة أنها قالت: (جاء أناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك أبا القاسم، فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل، فقال عليه السلام: " مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش " فقلت: يا رسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال: " ألست ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم " فنزلت هذه الآية). . . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم). . . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلم ناس من يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك أبا القاسم، فقال: (وعليكم) فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: (بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا) أخرجه مسلم.

ونوع ثان من النجوى نهى أهل الإيمان عنه، هو أن تكون المسارة بذنب أو بغي أو عصيان ومشاقة للرسول صلى الله عليه وسلم؛ وأما التناجي بالقربات والطاعات، وما يتوقى به السخط، فإن التناجي والتواصي بمثله مطلب قرآني مادام في مرضاة الله، وابتغاء الفوز يوم نلقاه؛ وبشرتنا آية كريمة أخرى بالنعيم المقيم، والثواب الكريم للمتناجين بالحق والهدى والرشد: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما} ٤٢؛ وإن على أهل الإيمان أن يحذروا نزغات الشيطان، ويستيقنوا بولاية الله مدبر الأكوان،وأنه ما شاء ربنا- سبحانه- كان؛ فإذا توهموا من مسارة الأعداء نذيرا بضر فليستعيذوا بالله، وإذا أحزنهم تربص المجرمين بهم وكيدهم لهم فليتذكروا أنه لن يكون إلا ما أراد الله، وعليه دون سواه يكون الاعتماد، ومنه وحده العون، وإليه يفوض الأمر، وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ وهكذا فنجوى الكافرين والمنافقين وخلواتهم كلها بغض وكيد، أما من أسلم فقد تسوء نجواه وقد تحسن، لكن الألوسي يرى في معنى قول الله سبحانه: {فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول} ما نصه: كما يفعله المنافقون فالخطاب للخلص تعريضا بالمنافقين، وجوز جعله لهم وسموا مؤمنين باعتبار ظاهر أحوالهم. اهـ.

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد، وفيهما عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى ٤٣ اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه).

[وفيه أيضا التنبيه على التعليل بقوله: (من أجل ذلك يحزنه) أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله؛ وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس. . . وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداء. . . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور؛ وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به. . .] ٤٤.

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

{بالإثم} بالسوء والذنب.

{والعدوان} التعدي على الحقوق.

{البر} كل خير.

{التقوى} توقي ما يسخط الله سبحانه.

{تحشرون} تساقون إليه، وتوقفون جميعا بين يديه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٠ - (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

{فليتوكل} فليفوض إليه التدبير، فهو حسبنا ونعم المولى ونعم النصير.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار
١١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

}يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١)}.

}تفسحوا} توسعوا.

}انشزوا} انهضوا وقوموا.

وهذه تزكية أخرى يزكي الله بها أهل الإيمان، نهاهم قبل ذلك عن النجوى، أو أن يضيقوا بتناجي الأعداء ويغتموا له، فإن الله ولي المؤمنين، وفي هذه الآية الكريمة أرشدهم إلى ما به يتحابون، وأن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس -وكأنهم كانوا يضنون بمجالسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم- فأمروا أن يوسع بعضهم لبعض إذا قيل لهم توسعوا، وأن يقدم الواحد منهم أخاه على نفسه إذا أمر أن يترك مكانه لغيره، فإن لأهل السبق في الإيمان، ولأهل العلم الذي يرسخ اليقين بالحق فضل وتقدم، ورفعة مقام عند الله، فلنقدم ولنوقر من أعلى المولى أقدارهم؛ وربنا خبير بعمل كل عامل، ومجاز كل ساع بسعيه.

مما روى صاحب [الجامع لأحكام القرآن. . .]: وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب؛ قال الحسن. .: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فالأول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة، فنزلت. . . وقال مقاتل: كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصفة وكان في المكان ضيق يوم الجمعة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: (قم يا فلان وأنت يا فلان) بعدد القائمين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهية في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان، فأنزل الله عز وجل هذه الآية. .

قلت: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه. . لكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقيم الرجل الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه). . . روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فقعد فيه ولكن يقول افسحوا). . . يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به. . . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: (يا فلان خشيت أن يتعدى غناك إليه أو فقره إليك) وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولا ثم بعلمه ثانيا؛ وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير: }إذا جاء نصر الله والفتح{ فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه؛ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم؛ وفي البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بين قيس ابن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان أكثر أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا. . وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر

بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستعملت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين). . اهـ.

١٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

}يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم (١٢) أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون (١٣)}.

قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها.

يا أهل الإيمان إذا أردتم مساررة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر فابذلوا صدقة توسعون بها على الفقراء قبل أن تناجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي ذلك خير لكم وطهر، فإن البر والمرحمة مغنم في الدنيا {. . وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} ٤٥، والصدقة مطهرة للمال وأصحابه {. . تطهرهم وتزكيهم} ٤٦ هذا على القادر، فأما من لا يقدر فإن الله تعالى يتجاوز عنه ويدخله في رحمته،.

أخفتم من البذل وشق عليكم الإنفاق كلما عزمتم على مناجاة النبي إذ أمرتم أن تسبقوا تلك المسارة بالتصدق؟، }فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم} نسخ الله ذلك الحكم، [}فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي ٤٧ رضي الله عنه ضعيف، لأن الله تعالى قال: }فإذ لم تفعلوا} وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشيء والله أعلم] ٤٨.

مما أورد الألوسي: و }إذ} على بابها أعني أنها ظرف لما مضى، وقيل إنها بمعنى إذ الظرفية للمستقبل كما في قوله تعالى: }إذ الأغلال في أعناقهم. }، وقيل بمعنى إن الشرطية كأنه قيل: فإن لم تفعلوا }فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، والمعنى على الأول: إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واعتبرت المثابرة لأن المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة. . . }وأطيعوا الله ورسوله} أي في سائر الأوامر ومنها ما تقدم. . . }والله خبير بما تعملون} ظاهرا وباطنا. اهـ.

١٣ - (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

}أأشفقتم} أي أخفتم؟.

}يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم (١٢) أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون (١٣)}.

قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها.

يا أهل الإيمان إذا أردتم مساررة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر فابذلوا صدقة توسعون بها على الفقراء قبل أن تناجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي ذلك خير لكم وطهر، فإن البر والمرحمة مغنم في الدنيا {. . وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} ٤٩، والصدقة مطهرة للمال وأصحابه {. . تطهرهم وتزكيهم} ٥٠ هذا على القادر، فأما من لا يقدر فإن الله تعالى يتجاوز عنه ويدخله في رحمته،.

أخفتم من البذل وشق عليكم الإنفاق كلما عزمتم على مناجاة النبي إذ أمرتم أن تسبقوا تلك المسارة بالتصدق؟، }فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم{ نسخ الله ذلك الحكم، [}فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة{، فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي ٥١ رضي الله عنه ضعيف، لأن الله تعالى قال: }فإذ لم تفعلوا{ وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشيء والله أعلم] ٥٢.

مما أورد الألوسي: و }إذ{ على بابها أعني أنها ظرف لما مضى، وقيل إنها بمعنى إذ الظرفية للمستقبل كما في قوله تعالى: }إذ الأغلال في أعناقهم. {، وقيل بمعنى إن الشرطية كأنه قيل: فإن لم تفعلوا }فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة{، والمعنى على الأول: إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واعتبرت المثابرة لأن المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة. . . }وأطيعوا الله ورسوله{ أي في سائر الأوامر ومنها ما تقدم. . . }والله خبير بما تعملون{ ظاهرا وباطنا. اهـ.

١٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

}تولوا{ والوا وتابعوا وأحبوا.

}ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون (١٤) أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون (١٥) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين (١٦) لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١٧){.

ألم تر ببصيرتك إلى المنافقين الذي اتخذوا اليهود أولياء، فلا هم منكم أهل الإيمان ولا هم من اليهود المغضوب عليهم- إذ هم على الشرك - وقد وصفهم القرآن الحكيم بالتردد بين الفريقين فجاء في الآية الكريمة: }مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. { ٥٣ ويسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلوا إلى شياطينهم فإذا جاءوه حلفوا أنهم يشهدون برسالته، وقد أكذبهم الله العليم الخبير فقال سبحانه: }إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون{ ٥٤، وقال تبارك اسمه: }ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون{ ٥٥، فبمسارعتهم في المغضوب عليهم. وتوليهم لليهود، وكذبهم على الله ورسوله باتوا أهلا لنزول عذاب الله تعالى الشديد بهم، فبئس ما قالوه وما عملوه، وما افتروه وكذبوه، وجعلوا من ادعائهم الإيمان وحلفهم على هذا الادعاء الكاذب وقاية يستترون بها، فلا ينكشف كفرهم، ولا تزهق أرواحهم، بل ويعملون على تخذيل المسلمين، وفتنة ضعفائهم، فالعذاب المذل المخزي ينتظرهم، ولن يدفع عنهم بأس الله ولن ينصرهم منه أموال ولا أولاد، بل سيحشرون على ربهم فرادى حفاة عراة {. . لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. { ٥٦، و {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. { ٥٧ فكيف وقد هلكت عنهم أموالهم، وخذلتهم أولادهم وأولياؤهم؟ أولئك المبعدون في الضلال والإضلال يلازمون دار الخبال والنكال، لا يفارقون حريقها ولا يفارقهم، بل هم ماكثون فيه بغير نهاية.

مما أورد الطبري عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان قال فدخل رجل أزرق فقال له: علام تسبني أو تشتمني قال فجعل يحلف، قال فنزلت هذه الآية التي في المجادلة }ويحلفون على الكذب{ والآية الأخرى. . فصدوا بأيمانهم التي اتخذوها جنة المؤمنين عن سبيل الله فيهم. . . فالمنافقون يصدون المؤمنين عن سبيل الله فيهم بأيمانهم أنهم مؤمنون وأنهم منهم فيحولون بذلك بينه وبين قتلهم. . . اهـ.

ومما نقل النيسابوري: ومعنى الفاء في }فصدوا{ أنهم حين دخلوا في حماية الإيمان بالأيمان الكاذبة وأمنوا على النفس والمال اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات وتقبيح حال المسلمين. اهـ.

١٥ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٦ - (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)
{أيمانهم} حلفهم.
{جنة} وقاية يستترون بها.
{فصدوا} فمنعوا غيرهم، أو فأعرضوا.
{سبيل} طريق.
{مهين} مذل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٧ - (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
{تغني} تدفع.
{خالدون} ماكثون بغير نهاية.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار
١٨ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)
{يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٨) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩)}.

لما تقدم في الآيات السابقات وعيد الله تعالى للمنافقين الذين يتولون اليهود والكافرين، ويحلفون – زورا- أنهم مع المسلمين، توعدهم الله بالعذاب الشديد في الدنيا ثم بالعذاب المهين المذل المخزي، وذلك في يوم حشرهم على الله تعالى ووقوفهم بين يديه جميعا حين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا؛ وقيل {يوم} منصوب بفعل محذوف، تقديره: واذكر يوم يبعثهم الله؛ يحييهم سبحانه ليحاسبهم ويعذبهم بأجمعهم لا يغادر منهم أحدا فيحلفون بين يديه كاذبين ٥٨ قائلين ما شهد به القرآن الحكيم: {. . والله ربنا ما كنا مشركين} ٥٩، ومثلما حلفوا لكم- زورا- أنهم مع المسلمين، وأنهم يشهدون برسالة النبي الكريم، يشهدون زورا بين يدي أحكم الحاكمين {ألا إنهم هم الكاذبون} فلن يخدعوا العليم الحكيم، حاشا.

ومهما حسبوا أن هذا الحلف الباطل يوصلهم إلى شيء فلن يصلوا إلا إلى الدرك الأسفل من النار، كيف لا! وهم أكذب الكذابين، بلغوا في الإفك غاية ليس وراءها غاية، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب؛ وإنما أرداهم هذا الردى أنهم تولوا الشيطان؛ كما شهد القرآن ببراءته منهم يوم العرض على الملك الديان، في قوله تعالى: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم. } ٦٠.

فلما استجابوا له- عليه وعليهم اللعنة- استولى ٦١ عليهم وغلب، وجمعهم ليكونوا من أصحاب السعير، وساقهم إلى الشرور والغرور والفجور سوقا عنيفا، والأحوذي ٦٢: المشمر في الأمور القاهر لها لا يشذ عنه منها شيء؛ فزين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وأضلهم ضلالا بعيدا، وألهاهم التفاخر والتكاثر وحب الشهوات وعبادة الأهواء عن التصديق بالله ورسالاته، والاستجابة لعهده وأماناته وآياته، نسوا ذلك وتركوه {أولئك حزب الشيطان} هؤلاء الذين أبعدوا في الغفلة والغواية جند الشيطان وأعوانه {ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون} أنصار إبليس ودعاة فتنه، غبنوا وحق عليهم الخسار والهلاك والبوار.

١٩ - (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٨]
{استحوذ} استولى وغلب، وساقهم سوق عنيفا؛ وفي اللغة: الأحوذي: المشمر في الأمور القاهر لها لا يشذ عنه منها شيء.
{حزب الشيطان} جنده وأتباعه.
{يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٨) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم

ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩)}.
لما تقدم في الآيات السابقات وعيد الله تعالى للمنافقين الذين يتولون اليهود والكافرين، ويحلفون - زورا- أنهم مع المسلمين، توعدهم الله بالعذاب الشديد في الدنيا ثم بالعذاب المهين المذل المخزي، وذلك في يوم حشرهم على الله تعالى ووقوفهم بين يديه جميعا حين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وقيل {يوم} منصوب بفعل محذوف، تقديره: واذكر يوم يبعثهم الله، يحييهم سبحانه ليحاسبهم ويعذبهم بأجمعهم لا يغادر منهم أحدا فيحلفون بين يديه كاذبين ٦٣ قائلين ما شهد به القرآن الحكيم: {. . والله ربنا ما كنا مشركين} ٦٤، ومثلما حلفوا لكم- زورا- أنهم مع المسلمين، وأنهم يشهدون برسالة النبي الكريم، يشهدون زورا بين يدي أحكم الحاكمين {ألا إنهم هم الكاذبون} فلن يخدعوا العليم الحكيم، حاشا.
ومهما حسبوا أن هذا الحلف الباطل يوصلهم إلى شيء فلن يصلوا إلا إلى الدرك الأسفل من النار، كيف لا! وهم أكذب الكذابين، بلغوا في الإفك غاية ليس وراءها غاية، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب، وإنما أرداهم هذا الردى أنهم تولوا الشيطان، كما شهد القرآن ببراءته منهم يوم العرض على الملك الديان، في قوله تعالى: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم. } ٦٥.
فلما استجابوا له- عليه وعليهم اللعنة- استولى ٦٦ عليهم وغلب، وجمعهم ليكونوا من أصحاب السعير، وساقهم إلى الشرور والغرور والفجور سوقا عنيفا، والأحوذي ٦٧: المشمر في الأمور القاهر لها لا يشذ عنه منها شيء، فزين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وأضلهم ضلالا بعيدا، وألهاهم التفاخر والتكاثر وحب الشهوات وعبادة الأهواء عن التصديق بالله ورسالاته، والاستجابة لعهده وأماناته وآياته، نسوا ذلك وتركوه {أولئك حزب الشيطان} هؤلاء الذين أبعدوا في الغفلة والغواية جند الشيطان وأعوانه {ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون} أنصار إبليس ودعاة فتنه، غبنوا وحق عليهم الخسار والهلاك والبوار.
٢٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ)
{يحادون} يعادون ويخالفون في الحدود، ويمانعون، ويقفون في حد غير حد الله سبحانه.
{إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين (٢٠) كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢١) لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون (٢٢)}.
والمبعدون في الضلال والخبال، المعاندون المحاربون لدعوة الحق ذي الجلال، المناوئون لما جاءهم من الرشد، الذين يقفون في شق وطرف غير الطرف والطريق الذي عليه نبي الله ورسوله ومصطفاه. أولئك في جملة من هو أذل خلق الله عز وجل- وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية، كانت ذلة من حاده - سبحانه- غير متناهية، ومهما أرادوا أن يطفئوا نور ربنا القوي القاهر، فإن الهزيمة والخزي لاحق بهم، والعز والنصر قضى الله تعالى وحكم أن يكونا لله ولرسله وللمؤمنين به، إن الله تعالى قوي، وهؤلاء المبطلون ضعفاء، وربنا له العزة فهو يقهر ولا يقهر ويغلب ولا يغلب، يقول علماء القرآن: من بعث من الرسل بالحجة فإنه غالب بالحجة، ومن بعث بالحجة والسيف فإنه غالب بهما، ولم يقتل من أصحاب الشرائع قط أحد، أثبت وقضى وحكم جل علاه: لأغلبن ٦٨ بالحجة والسيف وما أجرى مجراهما، وهو جار مجرى القسم. اهـ.
ولا تجد قوما كمل إيمانهم بالله الواحد القهار ولقائه يحبون أو يوالون أو يظاهرون ويناصرون من عادى الله ورسوله، وخالف دينه الذي ارتضاه، ولو كان المحادون المخالفون المناوئون للرشد والخير والهدى آباءهم أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو أزواجهم أو عصبتهم أو أخلاءهم أو قرابتهم، وكيف لا وقد توعد الكبير المتعال من قدم محبوبا - كائنا ما كان- على حبه سبحانه وحب رسوله ودينه والجهاد في سبيله، فقال تبارك اسمه: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها

ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٦٩. فالمؤثرون حب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم على كل محبوب، المبغضون ٧٠ من عصى ربه وشاق رسوله، هؤلاء خلق الله اليقين والتصديق في قلوبهم، وجمع لهم الإيمان فلم يؤمنوا ببعض ما جاءهم ويكفروا ببعض، لكنهم آمنوا بالوحي جميعا- من الكتب وهو الجمع، ومنه الكتيبة- وقد يأتي بعض ما تصرف من {كتب} في القرآن الكريم بمعنى: جعل كما في قول المولى تبارك اسمه: {. . فاكتبنا مع الشاهدين} ٧١ أي اجعلنا؛ يقول المفسرون: و {في} قد تكون بمعنى على، كما في الآية الكريمة: {. . ولأصلبنكم في جذوع النخل} ٧٢: أو قضى لقلوبهم الإيمان أي قضاه لهم إذ معلوم بالخبر أن المراد بالقلوب أهلها؛ وهؤلاء الموالون لأولياء الله المعادون لأعدائه مع ما أسعدهم الله به من حيث الإيمان الجامع في صدورهم وقلوبهم وعقولهم وفي مسالكهم وخلقهم وعملهم يقويهم الله تعالى ويمدهم، ويشددهم وينصرهم برحمة منه، أو بنور وبرهان وهدى؛ و [من] في {منه} ابتدائية، وليست للتبعيض كما يزعم بعد المبطلين، وفي آيات الذكر الحكيم تستعمل [من] ابتدائية، يقول الله جل علاه: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه} ٧٣؛ وينعمهم البر الرحيم الشكور الحميد في جنات ومساكن طيبة، تجري من تحتها الأنهار، ماكثين مقيمين في دار الكرامة بغير نهاية {لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين} ٧٤، {لا يذوقون فيها الموت. } ٧٥؛ {رضي الله عنه} بما عملوا وصدقوا واتقوا، {ورضوا عنه} فرحوا بما أعطاهم من الفوز بالجنان، والسلامة من السخط والنيران؛ والسعادة بما يحله عليهم من رضوان؛ أولئك هم جند الله وأولياؤه؛ ألا فليعلم المكلفون، وليستبشر المجاهدون، فإن حزب الله هم الغالبون، وأولياؤه ٧٦ وأنصار دينه هم الرابحون الفائزون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

٢٢ - (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{يوادون} يحبون، ويوالون ويظاهرون، ويناصرون.

{كتب في قلوبهم الإيمان} خلق، وأثبت، وجعل، وجمع.

{وأيدهم} وقاهم، وقواهم، وشدهم، ونصرهم.

{خالدين} باقين بغير نهاية.

{حزب الله} جنده- سبحانه- وأولياؤه.

{المفلحون} الرابحون، الناجحون، الفائزون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٧٧ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٧٨؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٧٩.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله

بكل شيء عليم} ٨٠، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٨١، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٨٢ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٨٣. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٨٤؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٨٥.

ومن آيات المحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٨٦، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٨٧، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٨٨ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٨٩، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٩٠؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٩١.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٩٢، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٩٣، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٩٤، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٩٥، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٩٦؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٩٧ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٩٨ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٩٩، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ١٠٠، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ١٠١، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ١٠٢ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ١٠٣: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ١٠٤، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ١٠٥، {وإنه لتذكرة للمتقين} ١٠٦، {وإنه لحق اليقين} ١٠٧؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ١٠٨، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ١٠٩.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ١١٠ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ١١١ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ١١٢، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ١١٣، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ١١٤؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١١٥، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ١١٦، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ١١٧، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ١١٨، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ١١٩، {واتقوا الله ربكم} ١٢٠، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ١٢١، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ١٢٢،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ١٢٣، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٢٤، {أن اعبدوا الله واتقوه} ١٢٥. وحبب الفرقان إلينا أن نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ١٢٦؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ١٢٧، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ١٢٨. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ١٢٩، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ١٣٠؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٣١، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ١٣٢ وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ١٣٣، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ١٣٤، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ١٣٥.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون

من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ١٣٦.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ١٣٧ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ١٣٨.
وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ١٣٩، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٤٠، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٤١، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١٤٢، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١٤٣، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١٤٤، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١٤٥، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٤٦، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٤٧ {وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٤٨، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٤٩، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٥٠ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٥١.
وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٥٢، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٥٣، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٥٤.
وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٥٥، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٥٦، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٥٧ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٥٨ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٥٩، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٦٠، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٦١، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٦٢، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٦٣.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.
والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٥٩ سورة الحشر:

سورة الحشر:
(٥٩) سورة الحشر مدنية وآياتها أبرع وعشرون، كلماتها: ٤٤٥؛ حروفها: ٢١٥٣.
روى البخاري وغيره عن ابن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: قل: سورة بني النضير، قال ابن حجر: كأنه كره تسميتها بالحشر لئلا يظن أن المراد به يوم القيامة، وإنما المراد ههنا إخراج بني النضير.
١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
بسم الله الرحمن الرحيم:
{سبح لله ما في السماوات وما في الأرض}، نزه الله تعالى عن السوء ومجدته السماء بما فيها من ملك وفلك ونجوم وكواكب وشمس وقمر، والأرض وما فيها من إنس وجن ورطب ويابس؛ فكأن المعنى: [كل ما دونه من خلقه يسبحه تعظيما له وإقرارا بربوبيته وإذعانا لطاعته] ١. أو يكون [إعلاما بأن المكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته سبحانه وتعالى قولا وفعلا، طوعا وكرها] ٢: {. . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} ٣.
مما أورد صاحب الجامع لأحكام القرآن: {ما في السماوات} من الملائكة، {والأرض} من شيء فيه روح أو لا روح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجاج هذا وقال: لو كان تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة. . . وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله تعالى: {. . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن} فلو كان هذا تسبيح دلالة فأي تخضيض لداود؟.
أو هو تنزيه لله تعالى أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل.
{وهو العزيز الحكيم (١)}، ربنا الذي ننزهه ونقدسه، وتسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، هو الغالب الذي لا يمانع فعله ممانع ولا ينازعه التدبير منازع، {الحكيم} الذي يقضي كل أمر على ما تقتضيه الحكمة.
٢ - (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)
{هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله}.
الله الذي يسبح له ما في السماوات وما في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والجن والإنس والذي لا يعجز عن شيء ولا يعترض على فعله، هو الذي أخرج الكافرين من يهود بني النضير أخرجهم من مساكنهم المنيعة ليحشروا ويجمعوا أول تجمع في خيبر أو شمالي خيبر؛ ولقد كنتم يا معشر المؤمنين ترون خروجهم أمرا عسيرا لما شاهدتم من قوة بأسهم؛ وظنوا أن قلاعهم وبروجهم المشيدة المحصنة لن يقدر أحد على إنزالهم منها وتحويلهم عنها، وظنوا بالله العزيز غير الحق وغرهم به- تبارك اسمه - الغرور.
{فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢)}.
فكر الله تعالى بهم، وأحل الخذلان والهزيمة جوانب نفوسهم، فوهنت عزائمهم، وانكسرت شوكتهم، وأحسوا دنو الهزيمة، وأن قتالهم للمؤمنين لن يحقق لهم خيرا، ولن يعقب اليهود نصرا، فاتجهوا إلى بيوتهم وعمدوا إلى تخريبها حتى لا يسكنها المسلمون بعدهم؛ والمؤمنون يخربونها من خارجها ليخلصوا إلى هؤلاء الغادرين؛ فالسعيد الذي أوتي نورا في عقله وبصيرته ينبغي أن يتعظ بما يجريه المولى القدير في

الطاغين الباغين، فإنه مهلكهم ببأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما نقضوا من حلفهم مع خاتم النبيين، ولكل ناكث أمثالها. كما هي عبرة أن من ينصر الله ينصره مهما كثر عدد الباغين، وتحزبت أجنادهم الشياطين، فإن العاقبة للمتقين.
قال جمهور من العلماء: في الآية دليل على القياس.

٣ - (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

}ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار (٣){.

}الجلاء{: الإخراج والإبعاد.

ولولا أن الخبير القدير قضى أن يجلوا من مساكنهم ويصار بهم إلى مواطن أخرى لأمر النبي والمؤمنين أن يقطعوا رقابهم فيكون أنكى وأخزى لهم، لكنه سبحانه أخر عنهم القتل والنكال إلى حين، مع ما أعد لهم من حر السعير والخلود في الجحيم.

٤ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

}ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب (٤){.

وذاك الذي أذاقهم الله من الطرد من الدور، وما سيذيقهم من الويل والثبور بسبب معاندتهم لله ولرسوله، وعصيانه ومعاداة كتابه ونبيه، وحزبه وجنده، ومن يعاد ربه فهو مهزوم لا محالة، وملاق أشد الجزاء، وأوجع وأدوم عقوبة.

٥ - (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

}ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين (٥){.

كل شيء قطعتم من النخل، وكل شيء تركتم دون قطع فإن المولى العليم الحكيم قد أذن به ليذل الخارجين عن طاعة ربنا الكبير المتعال، وليحل نقمته بالمخالفين أمره ونهيه، ولم يكن فسادا وإنما نقمة منه عز شأنه.

ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع نخل بني النضير وحرق. قال ابن العربي: ليكون ذلك نكاية لهم ووهنا فيهم، حتى يخرجوا عنها. وإتلاف بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعا، مقصودة عقلا. . . وإنما يدل ذلك على اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه، أخذا بعموم الأذية للكفار، ودخولا في الإذن للكل بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار.

قال قتادة والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره؛ إما لإضعافهم بها وإما لسعة المكان بقطعها. . . ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا؛ فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله ٤.

٦ - (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

}وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير (٦){.

وما ساقه الله تعالى من مال بني النضير، وأظفر به نبيه صلى الله عليه وسلم إنما يسره ربكم له، فلم تحركوا إليه خيلكم ولا شددتم إليه رحالكم، بل مشيتم، ولكني ألقيت الرعب في قلوب الأعداء فنزلوا من حصونهم وأجلاهم النبي وأخذ أموالهم؛ وإن ربكم لمقتدر على كل أمر، ومنفذ كل ما شاء، ومحقق الغلبة لرسوله على من ناوأه؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما صار إليه أموال بني النضير بالصلح لا عنوة.

٧ - (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

{ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٧)}.

روى البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: {فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب} هي النضير لم يكن فيها خمس ولا يوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار. .

وقوله: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى} هي قريظة. . قال ابن العربي: قول مالك إن الآية الثانية في بني قريظة، إشارة إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ. وهذا أقوى من القول بالإحكام. ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبينا أن الآية الثانية لها معنى مجدد حسب ما دللنا عليه ٥. والله أعلم.

واختار الطبري هذا الرأي ٦ واستدل له بحديث رواه مسلم في صحيحه- ولفظ مسلم قريب من رواية البخاري التي أشرنا إليها آنفا لكن فيها زيادات كثيرة. وتقسم الأموال على نحو ما بينته الآية الكريمة، {فلله} أي في مرضاة الله تبارك وتعالى، {وللرسول} كان هذا السهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو خمس الخمس، {ولذي القربي} قرابته صلى الله عليه وسلم، والمراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب. {واليتامى} الصغار الذين فقد آباؤهم، ويشترط فيهم الإسلام والاحتياج. {والمساكين} أهل الاحتياج. {وابن السبيل} المسافر الذي انقطع عن ماله وعمله، وإن كان له مال في بلده. {كي لا يكون} الفيء متداولا بين الأغنياء فلا يصيب الفقراء منه شيء؛ من أجل ذلك أمر الله أن يقسم الفيء. {وما آتاكم الرسول} وما أعطاكم الرسول من هدى وحظ عاجل أو آجل {فخذوه} اقبلوه وارضوه {وما نهاكم عنه فانتهوا} وما زجركم عنه وحذركم منه فلا تقربوه، فإن النبي مبلغ عن ربه وما ينطق عن الهوى. {واتقوا الله} خافوه واحذروا غضبه {إن الله شديد العقاب} ينزل أعظم العقاب بمن خالفه نبيه وخرج على سننه.

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر- وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان لم يعلم به عمرو- فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد قتلت رجلين لأدينهما) وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين-وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها- قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه " السيرة ": ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين. . . قالوا: نعم يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه؛ ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه- ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم- فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش. . . أحدهم فقال: أنا لذلك؛ فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي.

٨ - (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

{للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون (٨)}.

الذين قسم الله تعالى لهم من الغنائم وأعطاهم الرسول ما قسم لهم كانوا على حال لا يليق لها إلا أن يمنحوا من فيض ربنا الكريم، فقد

ألجأتهم زعامات الشرك بمكة إلى ترك الديار والأموال، والأهل والعيال، والتجارة والأعمال، وخرجوا متوكلين على ربهم يرجون رزقه ورضوانه، وينصرون دينه ونبيه، وبهذا كمل إيمانهم، وصدق يقينهم.

قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبا لله ولرسوله، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها ٧.

٩ - (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٩)}.

{تبوؤوا}: سكنوا.

{الدار}: دار الهجرة والنصرة [المدينة المنورة].

{ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا}: ولا تنطوي صدورهم على حسد المهاجرين على ما أعطوا من مال الفيء وغيره.

{يؤثرون}: يقدمون غيرهم على أنفسهم في المتع الدنيوية.

{خصاصة}: الحاجة التي تختل بها الحال، وخصاصة البيت ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح.

{الشح}: بخل مع حرص.

أثنى الله تعالى على الأنصار الذي استوطنوا المدينة قبل هجرة النبي والمؤمنين إليها، واستيقنوا الإيمان وأخلصوه يحبون إخوانهم الذين وفدوا عليهم مؤمنين مهاجرين بدينهم من طغيان الكافرين، ولا تضيق نفوسهم بالبذل لإخوانهم من خير أموالهم، ولا يستكثرون عليهم ما يأتيهم من عطاء ربهم، بل يقدمونهم على أنفسهم ولو كانوا محتاجين إلى ما يبذلون، ومن يجنبه المولى الكريم كزازة النفس والضن بالمعروف فإنه فائز رابح.

[وكان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: (إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم). فقال سعد بن عبادة وسعد ابن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار). وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم. . . في الترمذي عن أبي هريرة أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته: نومي الصبية وأطفئ السراج وقربي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية. . . خرجه مسلم أيضا] ٨.

والذي خرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال عليه الصلاة والسلام: (ألا رجل يضيف ها الرجل الليلة رحمه الله)؟ فقام رجل من الأنصار- وفي رواية- فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فاطفئ السراج، ونطوى ٩ الليلة لضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ففعلت، ثم غدا الضيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة) وأنزل الله تعالى فيهما {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}.

قال ابن زيد في قوله: {ومن يق شح نفسه} قال من لم يأخذ شيئا لشيء نهاه الله عز وجل عنه، ولم يدعه الشح على أن يمنع شيئا من شيء أمره الله به فقد وقاه الله شح نفسه فهو من المفلحين.

١٠ - (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

{والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم (١٠)}.

والذين جاءوا إلى هدى الإيمان من بعد المهاجرين الأولين والأنصار يدعون لإخوانهم في الإيمان الذين سبقوهم بإحسان، ويسألون المولى لهم غفران السيئات ورفع الدرجات، ويضرعون إليه سبحانه أن يطهر قلوبهم حتى تظل نقية وفية لأسلافهم؛ فإنك يا ربنا بالغ الرأفة، واسع الرحمة، تستجيب الدعاء، وترحم الرحماء.

[وفي الحديث الصحيح: أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أن رأيت إخواننا) قالوا: يا رسول الله! ألسنا بإخوانك؟ فقال: (بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض)، فبين صلى الله عليه وسلم إن إخوانهم كل يأتي بعدهم. . . وقال العوام بن حوشب: أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتجسروا الناس عليهم. وقال الشعبي: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم، وإدحاض حجتهم، أعادنا الله وإياكم من الأهواء المضلة.] ١٠.

١١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

{ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون (١١)}.

تعجيب لكل من هو أهل للخطاب من أحوال المنافقين- كعبد الله بن أبي ووديعة بن مالك وغيرهما- بعثوا إلى بني النضير- وهم إخوان لهم في الكفر وادعاء الانتساب إلى الكتب المنزلة. وكتب الله منهم براء- وعدوهم النصرة طالما حوربوا، ومقاسمتهم المصير إذا غلبوا وطردوا، وربنا يعلم أنهم أولياء إبليس وما يعدهم إبليس وحزبه إلا غرورا.

١٢ - (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ)

{لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (١٢)}.

لما وعد المنافقون اليهود بالعون والتأييد تشبثوا بحصونه بعد أن كانوا يتجهزون للخروج، وطال تربصهم لما يأتيهم من مدد المنافقين فلم ينالوا مددا، فنزلوا من القلاع أذلة مخذولين، وأخزاهم الله وأخزى المنافقين، وازداد الناس إيمانا بوعد الحق، فلم ينصرهم أولياؤهم من الفاسقين، ولا صحبوهم حين طردوا مدحورين؛ وتمضي سنة الملك المهيمن لا تتبدل في الآخرين عما كانت عليه في الأولين المتقين: {ونصرناهم فكانوا هم الغالبين} ١١.

١٣ - (لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

{لأنتم أشد رهبة في صدروهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣)}.

اللام موطنة للقسم؛ استيقنوا يا أهل الإيمان أن اليهود والمنافقين يخافونكم أعظم من خوفهم من الله الكبير المتعال؛ لأنهم لا يعقلون جلال المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

١٤ - (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

{لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (١٤)}.

لا يقوى اليهود والمنافقون على قتال المؤمنين مجتمعين متفقين إلا أن يتترسوا بالبروج والقلاع المنيعة؛ لأن الله المجيد، الفعال لما يريد، كتب على نفسه أن يملأ نفوسهم هيبة لأهل الدين الحق، وفزعا ورعبا منهم: {. . . سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب. } ١٢ وعباد الطاغوت لا يكادون يقفون لشيء: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} ١٣ وهكذا كان شأنه معهم يوم الفرقان ١٤: {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب} ١٥. ومهما تراءوا متفقين متجمعين فإنهم دائما- في حقيقة أمرهم- متخالفين متنابذين: {. . . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين} ١٦؛ ومرد هذا الوهن راجع إلى ذهاب عقولهم إذ لو عقلوا لم يغالبوا الله القوي الغلاب؛ ولا ناؤوا جنده وحزبه. [وإنما قال ههنا: {ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} وفي الأول: {لا يفقهون} لأن الفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه، فنفى عنهم ذلك كما قلنا، وأراد ههنا أنهم لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا؛ فتشتتهم دليل عدم عقلهم، لأن العقل يحكم بأن الاجتماع معين على المطلوب، وأن التفرق يوهن القوى، ولا سيما إذا كانوا مبطلين]. ١٧.

١٥ - (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

{كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (١٥)}.

يحل بهؤلاء المعاندين من اليهود والمنافقين والمشركين ما حل بأمثالهم من سائر المكذبين السابقين ذاقوا شر عاقبة كفرهم وضلالهم في زمن قريب من فجورهم وعتوهم، وعجل لهم جانب من بأس الله القوي وبطشه ولم يتأخر إلى يوم الحساب، فإن لهم فيه عقابا بالغا، وعذاب موجعا شديدا ألمه.

١٦ - (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

{كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين (١٦)}.

كاختلاف أهل الشقاق والنفاق والشرك في الدنيا يكون اختلافهم وشياطينهم في العاجل والآجل؛ فإن زعيم الضالين إبليس اللعين يزين للواحد من الناس سبيل الشر والكفر، حتى إذا أغواه وأرداه تبرأ منه وزعم الخوف من الله الذي حقه أن يطاع دون سواه.

١٧ - (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

{فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين (١٧)}.

وما تغني عن إبليس كلماته الملفقة، ولا عن الإنسان حسراته المحققة، بل الفاتن والمفتون في عذاب جهنم خالدون، وإليها يصير القوم المجرمون الكافرون كلهم أجمعون؛ ولقد أعذر الله الحكيم إلى خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة، وأنذرهم عاقبة الاستجابة لغواية إبليس وجنده، وأنها لن تكون إلا التخاصم والخذلان، والتعادي واللعنة: {. . فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} ١٨. {. . كلما دخلت أمة لعنت أختها} ١٩. {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل} ٢٠.

١٨ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون (١٨)}.

استحضروا يا أهل الإيمان شهود الملك الديان، في كل زمان ومكان، حتى تتقوا غضب الجبار وتكونوا من أهل الإحسان، ولتتجه البصائر إلى ما هو صائر يوم تبلى السرائر، فأعدوا لذلك اليوم ما تستحق به البشائر {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة. { ٢١ وراقبوه في كل ما تذرون كما تراقبونه في كل ما تأتون، فكأن الأمر بالتقوى أول الآية في أداء الواجبات- كما يشعر بذلك ما بعده من الأمر بالعمل- والثاني في ترك المحارم- كما يشير إليه ختام الآية: {إن الله خبير بما تعملون}.

١٩ - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

{ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون (١٩)}.

واحذروا يا من تريدون الفوز والفلاح أن تضيعوا حقوق الله كالذين تركوها كما يفعل الناس ولم يقدروها حق قدرها، ولم يرعوا أماناتها، فجازاهم الله تعالى من جنس عملهم بغفلتهم عن حقوق نفوسهم وما ينجيها من عذاب ربهم، فأبعدوا خروجا من عهد الله وميثاقه.

٢٠ - (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

{لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون (٢٠)}.

حب الناس للعاجلة، وغفلتهم من المصير في الآجلة، ألهاهم عن العمل لما يسعدهم، والحذر مما يشقيهم يوم الفصل، فكان من فضل المولى البر الرحيم أن يبصرهم بذلك؛ [وهذا كما تقول لمن عق أباه: هو أبوك- تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف] ٢٢؛ فليس قدر المخلدين في السعير كقدر أصحاب النعيم المقيم في دار السلام والتكريم؛ بل ولا يبلغون شيئا من فضلهم في أولادهم أو في آخرتهم، مصداقا لوعد الله الحق: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} ٢٣ لا يستويان أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فإن أهل النعيم هم أهل الرضوان، وهم أهل القدر والتكريم، من لدن المولى البر الرحيم.

٢١ - (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

{لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٢١)}.

لو شاء الله تعالى للجبال أن تمنح قوة مدركة وعقلا تعي به ما حوى القرآن من زجر ووعيد لاندكت الجبال على صلابتها وقسوتها خيفة من بأس الواحد القهار؛ وأنتم يا معشر الناس المقهورين بإعجازه لا تخشعون لوعده ولا ترغبون، ولا تصدعون لوعيده ولا ترهبون؛ إنما يتذكر المؤمنون، ويتفكر المحسنون المباركون، ويعتبر المتدبرون، فيتزكون ويعلمون ويعملون، وهم من خشية موحية مشفقون: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} ٢٤ {. . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب} ٢٥.

٢٢ - (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

{هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم (٢٢)}.

ربنا الذي أنزل الذكر، وإليه يرجع كل الأمور، وهو صاحب الجلال والإفضال، والذي يسجد له من في السماوات والأرض والشمس والقمر والدواب والجبال، لا معبود بحق سواه، وهو المحيط الخطير بما لم يعلم العباد ولا عاينوه فهو غائب عنهم، {والشهادة} ما علمه العباد وشاهدوه؛ وهو عظيم الرحمة في الدنيا فهي تتسع لمن آمن ومن كفر، سابغ الرحمة في الآخرة فهي محيطة بالمؤمنين، تبلغ بهم الدرجات العلا والنعيم المقيم.

٢٣ - (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

{هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون (٢٣)}.

ربنا هو وحده المالك المتصرف في كل شيء يعز ويذل وهو المنفرد بالسلطان، وله بدين كل من منح شيئا من السلطان، وهو {القدوس}

الطاهر عن كل عيب، المنزه عن كل نقص. {السلام} الذي سلم العباد من ظلمه، ويسلم على المؤمنين في الجنة، والمسلم لعباده من المهالك.
{المؤمن} المصدق لرسله، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب. .
{المهيمن} الذي أحاط سلطانه بكل شيء لا يفوته من الأمور أمرا صغر أو كبر.
{العزيز} المنيع الذي لا يدافع، والذي يغلب ولا يُغلب.
{الجبار} الذي لا تطاق سطوته وبأسه وقهره؛ وهو يجبر الكسير ويغني الفقير وينصر القليل على الكثير.
{المتكبر} عن كل عيب، المتعظم عما لا يليق به من الصفات، وهو بمعنى الكبير. في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار)، {سبحان الله} تنزيها لمقام المولى وجلاله {عما يشركون} جل المعبود بحق أن يشاركه أحد في صفاته العلا أو في أسمائه الحسنى، أو يشابهه أحد في ذاته أو أفعاله.
٢٤ - (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
{هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٤)}.
الله وحده تفرد بتقدير الأشياء على مقتضى الحكمة وأوجدها من العدم.
{البارئ} بريئة صنعته من القصور عما تقتضيه الحكمة، أو أن يختلط بعضها ببعض فلا تمايز.
{المصور} الموجد للكيفية ومركبها على الهيآت التي أراد لها.
{له الأسماء الحسنة} الدالة على أحسن المعاني.
{يسبح له ما في السموات والأرض} كل الموجودات تنزه المولى الخلاق العليم وتسبحه بلسان المقال الذي أوتيته كل منها حسبما يليق به؛ أو بلسان الحال فهي شاهدة على إتقان الصانع الذي أحسن كل شيء خلقه.
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.
{وهو العزيز الحكيم} هو القاهر الغالب الذي لا يدافع ولا يمانع؛ العليم بمقتضى الحكمة فكل شيء قضاه موافق للصواب مطابق للعلم المحيط، واللطف والبر والتقدير؛ فتبارك الخبير البصير.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٢٦ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٢٧؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٢٨.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٢٩، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٣٠، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٣١ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٣٢. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٣؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا

أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٣٤.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٣٥، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٣٦، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٣٧ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٣٨، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٣٩؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٤٠.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٤١، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٤٢، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٤٣، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٤٤، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٤٥؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٤٦ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٤٧ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٤٨، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٤٩، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٥٠، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٥١ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.
وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٥٢: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٥٣، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٥٤، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٥٥، {وإنه لحق اليقين} ٥٦؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٥٧، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٥٨.
ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٥٩ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٦٠ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٦١، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات

وما في الأرض} ٦٢، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٦٣، فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.
وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٦٤، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٦٥، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٦٦، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٦٧، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٦٨، {واتقوا الله ربكم} ٦٩، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٧٠، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٧١،
{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٧٢، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٧٣، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٧٤.
وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٧٥، ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٧٦، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٧٧. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٧٨، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٧٩، ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٨٠، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٨١
وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٨٢، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٨٣، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٨٤.
ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٨٥.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٨٦ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى

تؤمنوا بالله وحده} ٨٧.
وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٨٨، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٨٩، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٩٠، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩١، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٩٢، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٩٣، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٩٤، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٩٥، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ٩٦ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ٩٧، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ٩٨، { كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٩٩ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٠٠. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٠١، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٠٢، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٠٣.
وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٠٤، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٠٥، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٠٦ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٠٧ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٠٨، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٠٩، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١١٠، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١١١، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١١٢.
فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٠ سورة الممتحنة:

سورة الممتحنة:
(٦٠) سورة الممتحنة مدنية وآياتها ثلاث عشرة، كلماتها: ٣٤٨؛ حروفها: ١٥١٠.
١ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)
بسم الله الرحمن الرحيم:
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل (١)}.
ينادي المولى- تبارك وتعالى- أهل التصديق به وبما عهد إليهم من أماناته أن احذروا موالاة أعدائي أعدائكم الكافرين، ولاتكن بينكم وبينهم رابطة حب ومودة أو نصرة، وكيف تحب من جحد الحق وناوأك فيه، وأخرج نبيك وأخرجك معه من بلد الله الأمين، وإنما كان إخراجكم بسبب إيمانكم بربكم؛ فمن كان منكم قد هاجر يبتغي نصرة الدين ومرضاة رب العالمين فليس له أن يوالي المشركين الفجار المجرمين، لا يستعلن بذلك ولا يستسر به، فإني أعلم ما ظهر وما بطن، وما تبدون وما تكتمون، ومن يتولهم منكم فقد حاد عن الطريق السوي، ووقع في التخبط والحيرة والضلال.
روى الإمام مسلم في صحيحه [باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر رضي الله عنهم]: حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن الحسن بن محمد أخبرني عبيد الله بن أبي رافع وهو كاتب علي قال: سمعت عليا رضي الله عنه وهو يقول: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: (ائتوا روضة خاخ ١ فإن بها ظعينة ٢ معها كتاب فخذوه منها) فانطلقنا تعادي ٣ بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا: أخرجي الكتاب؛ فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ٤ فأخرجته من عقاصها ٥ فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا)؟! قال: لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت أمرا ملصقا في قريش- قال سفيان: كان حليفا لهم ولم يكن من أنفسها- وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي؛ ولم أفعله كفرا، ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (صدق). فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال: (إنه شهيد بدرا وما يدرك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأنزل الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. }.
[السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار. . من ذلك قوله تعالى: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} ٦. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. } ٧.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولاهم منكم فإنه منهم. } ٨، من كثر تطلعه على

عورات المسلمين. . . ويعرف عدوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغرض دنيوي. . . ولم ينو الردة عن الدين. . وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قتل لأنه جاسوس، وقد قال مالك بقتل الجاسوس، وهو صحيح لإضراره بالمسلمين وسعيه في الأرض بالفساد. . وقال أصبغ: الجاسوس الحربي يقتل، والجاسوس المسلم والذمي يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان] ٩.

٢ - (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

{إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون (٢)}.

الكفار أعدائي وأعداؤكم- والذين يسر إليهم بعضهم بالمودة- إن ظفروا بكم وتمكنوا منكم ظهرت أضغان عداوتهم فامتدت أيديهم إليكم بكل ما يقدرون عليه من أذى، وتناولتكم ألسنتهم بالطعن والشتم والسفاهة، وهم من قبل ومن بعد يحبون ويتمنون كفركم، بل ويعملون على تكفيركم ما وجدوا إلى ذلك منفذا: {. . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم عن استطاعوا. } ١٠.

[المثاقفة: أي طلب مصادقة الغرة في المسايفة وشبهها. . .] ١١.

وأصل الثقف: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه رجل ثقف لقف وتجوز به عن الظفر والإدراك مطلقا.] ١٢.

٣ - (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير (٣)}.

{أرحامكم} قراباتكم.

{يفصل} يفرق، إما بالفزع الذي يحمل على فرار كل قريب من قريبه وكل حبيب من حبيبه {يوم يفر المرء من أخيه. . . وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٣، وإما بأن يدخل المولى أهل الإيمان الجنة، ويدخل الكافرين النار فيفترقان {. . . فريق في الجنة وفريق في السعير} ١٤.

بين الله الحكيم أن الأقارب والأولاد- وكذا الأهل والمال- لا ينبغي أن تكون سببا لموالاة الأعداء والتقرب إليهم، فإن القريب لا يغني عن قريبه، ولا تجزي نفس عن نفس شيئا، والله يرانا وما نعمل فيجازي كلا بعمله.

٤ - (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

{قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم مما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٤) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم (٥)}.

لتتخلقوا بخلق خليل الرحمن أبي الأنبياء وأبيكم إبراهيم عليه السلام والمؤمنين الذين اتبعوه، واقتدوا بهم وسيروا على نهجهم الذي لا يقبل موالاة الكافرين؛ بل يحتم البراءة منهم وإنكار ما هم عليه من الباطل والشكر، وتكذيب ما اقترفوه من اتخاذ الأصنام والأوثان والطاغوت؛ ولقد نابزوا قومهم العداء وكاشفوهم بالبغضاء حتى يستيقنوا بجلال الواحد الأحد الفرد، الصمد ويستجيبوا له، فينقلب التعادي إلى أخوة وتناصر، والبغضاء إلى مودة وتراحم.

{إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء} مستثنى من الأمر بالاقتداء بإبراهيم؛ فإنه ليس مما شرع الله- تبارك اسمه- لعباده أن يطلبوا الصفح والعفو عن الكافرين، إلا أن إبراهيم حسب أن أباه سيدخل في الإسلام إذ قال له: {. . واهجرني مليا} ١٥. وأنتم يا معشر المؤمنين لستم على رجاء إيمان هؤلاء المعاندين لله ولدينه ولرسوله، فلا يليق لكم أن تكونوا وإياهم على مودة. [وقيل: هو استثناء منقطع، أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، إنما جرى لأنه ظن أنه أسلم، فلما بان له أنه لم يسلم تبرأ منه.

وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يظن أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، فلم تولوهم؟!] ١٦. وإبراهيم عليه السلام يبين أنه لا يملك لأبيه من الله شيئا، ويضرع إلى مولانا البر الرحيم: يا معبودنا ويا مليكنا ويا ولينا أنت ولينا ووكيلنا، وإليك توبتنا ومردنا، ومرجعنا ومصيرنا؛ ربنا لا تمكن عدونا منا فيحسب أنه على حق، ولا تسلطهم علينا فيعذبوننا ويفتنوننا؛ واغفر اللهم ذنوبنا، حتى نكون أهلا لتأييدك وإعزازك، فقد كتبت على نفسك- تفضلا منك ورحمة- أن تنصر المؤمنين، وتعز الصالحين، وتحسن عاقبة المتقين.

والقرآن الحكيم يبين أمر استجابة الدعاء بالنصر على الأعداء مقرونة في أكثر من آية بطلب الغفران؛ ومن ذلك قول الحق- تبارك اسمه-: {. . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} ١٧، {وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} ١٨.

٥ - (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم مما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٤) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم (٥)}.

لتتخلقوا بخلق خليل الرحمن أبي الأنبياء وأبيكم إبراهيم عليه السلام والمؤمنين الذين اتبعوه، واقتدوا بهم وسيروا على نهجهم الذي لا يقبل موالاة الكافرين؛ بل يحتم البراءة منهم وإنكار ما هم عليه من الباطل والشكر، وتكذيب ما اقترفوه من اتخاذ الأصنام والأوثان والطاغوت؛ ولقد نابزوا قومهم العداء وكاشفوهم بالبغضاء حتى يستيقنوا بجلال الواحد الأحد الفرد، الصمد ويستجيبوا له، فينقلب التعادي إلى أخوة وتناصر، والبغضاء إلى مودة وتراحم.

{إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء} مستثنى من الأمر بالاقتداء بإبراهيم؛ فإنه ليس مما شرع الله- تبارك اسمه- لعباده أن يطلبوا الصفح والعفو عن الكافرين، إلا أن إبراهيم حسب أن أباه سيدخل في الإسلام إذ قال له: {. . واهجرني مليا} ١٩. وأنتم يا معشر المؤمنين لستم على رجاء إيمان هؤلاء المعاندين لله ولدينه ولرسوله، فلا يليق لكم أن تكونوا وإياهم على مودة. [وقيل: هو استثناء منقطع، أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، إنما جرى لأنه ظن أنه أسلم، فلما بان له أنه لم يسلم تبرأ منه. وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يظن أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، فلم تولوهم؟!] ٢٠. وإبراهيم عليه السلام يبين أنه لا يملك لأبيه من الله شيئا، ويضرع إلى مولانا البر الرحيم: يا معبودنا ويا مليكنا ويا ولينا أنت ولينا ووكيلنا، وإليك توبتنا ومردنا، ومرجعنا ومصيرنا؛ ربنا لا تمكن عدونا منا فيحسب أنه على حق، ولا تسلطهم علينا فيعذبوننا ويفتنوننا؛ واغفر اللهم ذنوبنا، حتى نكون أهلا لتأييدك وإعزازك، فقد كتبت على نفسك- تفضلا منك ورحمة- أن تنصر المؤمنين، وتعز الصالحين، وتحسن عاقبة المتقين.

والقرآن الحكيم يبين أمر استجابة الدعاء بالنصر على الأعداء مقرونة في أكثر من آية بطلب الغفران؛ ومن ذلك قول الحق- تبارك اسمه-: {. . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} ٢١، {وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} ٢٢.

٦ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

{لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد (٦)}.

تحققوا واستيقنوا أن الاقتداء بإبراهيم- عليه الصلاة والسلام- والتأسي به ومن سار على نهجه وملته من خير ما يحقق رجاءكم في نيل مرضاة الله تعالى وثوابه وجنته؛ ومن يعرض عن رسالات ربه، ويتبع غير طريق المرسلين والمؤمنين فعلى نفسه جنى ولن يضر الله شيئا فإنه- تبارك اسمه- لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين؛ إذ هو الغني الذي لا حاجة به إلى شيء، والمحمود في السموات

وفي الأرض {فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون} ٢٣.

[وفي قوله سبحانه: {لمن كان يرجو الله. } إشارة إلى أن من كان يرجو الله تعالى واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وأن تركه من مخايل عدم رجاء الله سبحانه واليوم الآخر الذي هو من شأن الكفرة، بل مما يؤذن بالكفر، كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى: {ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة.] ٢٤.

٧ - (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم (٧)}.

وعد من ربنا مقلب القلوب أن يهدي طائفة من هؤلاء الأعداء إلى الحق، فيقوم التحاب والتآخي مقام الهجران والتعادي؛ والله قادر على تصريف القلوب، وشرح الصدور، وجمع الناس على الهدى، فإذا هم بنعمة ربهم إخوة.

[وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى من التصلب في الدين والتشدد في معاداة أبنائهم وآبائهم وسائر قراباتهم من المشركين. . . ولقد أنجز الله سبحانه وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم] ٢٥.

٨ - (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

{لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨)}.

أذن ربكم وأحل لكم أن تبروا الكافرين الذين لم يحاربوكم ليردوكم عن دينكم، ولم يطردوكم من أموالكم ومنازلكم بين أهليكم، وأعمالكم، ووصاكم أن تعدلوا فيهم ولا تظلموهم إن الله يحب العادلين، ولو مع من خالفنا في الدين {. . . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى. } ٢٦.

وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا. وقيل: يعني به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقاتل. . . وقال أكثر أهل التأويل هي محكمة. . . {وتقسطوا إليهم} أي تعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي.] ٢٧.

أخرج البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: أتتني أمي راغبة ٢٨ وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أأصلها؟ فأنزل الله تعالى: {لا ينهاكم الله} إلى آخر الآية؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (نعم صل أمك).

٩ - (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

{إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٩)}.

لكن الله يحذركم موالاة ومودة الذين حاربوكم من أجل إسلامكم، وعملوا على طردكم من بلدكم، أو ساعدوا وأعانوا على إبعادكم وإقصائكم، فلا تحبوا هؤلاء ولا تركنوا إليهم، فمن وقع فيما حذرت فقد ظلم إذ وضع الحب موضع العداوة، أو ظلم نفسه حين عرضها لسخط الله وعذابه.

١٠ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

{يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا

هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم (١٠)}.

شرع الله تعالى أن من جاءت من النساء مؤمنة إلى دار الهجرة تاركة أهل الكفر فاستوثقوا من صدق إيمانها- ما استطعتم- فإذا ظهر منها ما يفيد العلم بإيمانها فلا آذن لكم أن تردوها إلى الكفار فإنها عليهم حرام، وهم عليها حرام، فإن المسلمة لا يحل لها أن تتزوج من كافر، وإن كانت زوجة له فبإسلامها-دونه- يجب فراقها له.

قال ابن عباس: كانت المحنة - الامتحان- أن تستخلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل منا، بل حبا لله ورسوله.

[والأكثر من أهل العلم على أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هربت من زوجها عمرو بن العاص، ومعها أخواها عمارة والوليد، فرد رسول الله أخويها وحبسها- أمسكها بالمدينة ولم يردها- فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ردها علينا للشرط، فقال صلى الله عليه وسلم: (كان الشرط في الرجال لا في النساء) فأنزل الله تعالى هذه الآية.] ٢٩.

وأعطوا أزواج المؤمنات اللاتي يهاجرن إليكم ما دفعوا إليهن من مهور؛ وقد أحل الله لكم أن يتزوج- من يرغب منكم- هذه المؤمنة التي جاءت مهاجرة- بعد أن تنقضي عدتها من زوجها الكافر- ولها- فوق مارد إلى زوجها الأول- صداق تعطاه؛ ولا يحل لمؤمن أن يبقى على زوجة مشركة؛ ومثلما شرعت لكم أن تردوا على الزوج الكافر ما دفع لامرأته التي آمنت وفارقته، شرعت لكم أن تستردوا ما دفع بعضكم إلى زوجته التي قد تختار الكفر؛ ذلك الذي بينت هو حكمي بينكم وبين أصهاركم؛ والله محيط علمه فلا يخفى عليه- تبارك اسمه- ما هو حق وخير لكم؛ وحكمته بالغة فلا يفوتها هدى ولا رشاد.

١١ - (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

{وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (١١)}.

وإن لحقت زوجة من زوجات أحدكم بالكفار أو تسللت إليهم ولم يردوا إلى زوجها المؤمن مهرها، فأعطوا الذي ذهبت زوجته إلى أعدائكم أعداء الله وردوا إليه مهرها إما من مهور شرعت أن تردوها إلى أزواج من جئن إليكم مؤمنات مهاجرات وإما مما يمنحكم الله تعالى من غنائم تظفرون بها من الكفار، واستديموا تقوى الله الحق الذي بدينه تدينون وبكتبه ورسله تصدقون. .

١٢ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم (١٢)}.

كان النساء إذا هاجرن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمتحن بهذه النواهي الستة قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انطلقن فقد بايعتكن).

مما رواه مسلم في صحيحه: {على أن لا يشركن بالله شيئا} من الإشراك، {ولا يسرقن} لا يأخذن من مال الغير ولو كان زوجا شيئا ذا قيمة خلسة أو بدون إذنه، إلا أن يكون الزوج شحيحا فتأخذ ما يكفيها وعيالها بالقدر الذي يرتضيه العرف الصحيح. {ولا يزنين} لا يرتكبن الفاحشة النكراء.

{ولا يقتلن أولادهن} لا يسقطن الأجنة ولا يئدن البنات خشية الفقر أو العار أو غير ذلك. {ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن} لا يلحقن بأزواجهن ولدا من غيرهم بالالتقاط أو الإلحاق، ولا يقدمن على خطيئة أو افتراء، ولا يرضين بسيئة تنال العفة والشرف ولو بما دون الجماع من نحو لمس أو تقبيل أو معانقة لغير الأزواج. {ولا يعصينك في معروف} لا يخالفنك في شيء مما حذر

الله ارتكابه، ولا في طاعة ومعروف مما وصاكم الله به.
{فبايعهن واستغفر لهن الله} فتضمن لهن الثواب الجزيل من الله ما وفين بذلك، كما شهد بذلك الحديث الصحيح، وفيه: (فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها).
وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب؛ فنزل نبي الله صلى الله عليه وسلم فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن. } - حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فزع-: أنتن على ذلك)؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله، لا يدري الحسن بن مسلم- راوي الحديث- من هي. قال: (فتصدقن) وبسط بلال ثوبه فجعلن بلقين الفتخ- حلق من فضة لا فص فيها- والخواتيم في ثوب بلال. لفظ البخاري. إن الله ذو ستر على ذنب من تاب أن يفضحه بما كان منه {رحيم} فلا يعذبه بعد أن استعتب وأناب.
١٣ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)
{يا أيها الذي آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور (١٣)}.
يحذر المولى الكريم في ختام السورة مما حذر منه في مفتتحها وينهى أهل الإيمان عن موالاة ومودة من غضب الله عليهم من كل جاحد ومعاند لا يرجو لقاء ربه فهو في قنوط من حسن عاقبته وطيب منقلبه، ويأسه من خير الآخرة كيأس من مات من الكفار، فرأى مصيره ونزله بين الفجار.
فاللهم يا عزيز يا غفار أدخلنا الجنة مع الأبرار.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٣٠ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٣١، وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٣٢.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٣٣، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٣٤، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٣٥ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٣٦. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٧؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٣٨.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٣٩، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

البصر خاسئا وهو حسير} ٤٠، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٤١ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٤٢، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٤٣؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٤٤.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٤٥، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٤٦، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٤٧، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٤٨، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٤٩؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٥٠ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٥١ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٥٢، واستصحب – عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٥٣، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٥٤، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٥٥ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٥٦: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٥٧، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٥٨، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٥٩، {وإنه لحق اليقين} ٦٠؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٦١، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٦٢.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٣ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٦٤ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٥، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٦٦، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٦٧؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٦٨، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٦٩، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٧٠، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}

٧١، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٧٢، {واتقوا الله ربكم} ٧٣، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٧٤، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٧٥،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٧٦، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٧٧، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٧٨.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٧٩؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٨٠، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٨١. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٨٢، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٨٣؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٨٤، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٨٥

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٨٦، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٨٧، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٨٨.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٨٩.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٩٠ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٩١.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٩٢، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٩٣، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول

حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٩٤، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٥، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٩٦، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٩٧، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٩٨، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٩٩، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٠٠ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٠١، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٠٢، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٣ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٠٤. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٠٥، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٠٦، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٠٧.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٠٨، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. { ١٠٩، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١٠ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١١١ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١١٢، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١١٣، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١١٤، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١١٥، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١١٦.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦١ سورة الصف:

سورة الصف:

(٦١) سورة الصف مدنية، وآياتها أربع عشرة، كلماتها: ٢١؛ حروفها: ٩٢٦.
١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
بسم الله الرحمن الرحيم:
{سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١)}.
نزه الله تعالى وقدسه، وبرأه من كل عيب، وشهد له بالجلال والحكمة والاقتدار، كل ما في السماوات والأرض من أجزائهما وما هو كائن عليهما وفيهما أو بينهما وسائر الموجودات، تسبيح مقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين، أو تسبيح حال، فحالها شاهد بأن لها صانعا مدبرا مهيمنا خبيرا حسيبا رقيبا، والله هو القادر القوي، الذي أحكم كل شيء.
٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)
{يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)}.
ينادي الله تعالى من انتسبوا إلى الإيمان ليظلوا ويثبتوا على القول الطيب والعمل به؛ أو يكون النداء للمؤمنين ويراد به إسماع أدعياء الإيمان من المنافقين الذين قالوا آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، كالذين عجبنا القرآن من شأنهم، فهم يتعجلون القتال، ويتلهفون على شهوده والمشاركة فيه، فإذا جاء حينه ودعوا إلى الوفاء بما عاهدوا عليه وتمنوه فروا!. يقول ربنا تبارك اسمه-: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين} ١، كما يقول- عز وجل-: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال. } ٢ و {لم} مكونة من [ما] الاستفهامية، ولام الجر؛ مما يقول النحاة: - وحذفت الألف من [ما] الاستفهامية للفرق بينها وبين الإخبارية. فكأن المعنى- والله تعالى أعلم بالمراد- لماذا قلتم ووعدتم ثم لم تعملوا ما قلتموه وأخلفتم؟ -[لأي شيء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟] على أن مدار التوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد أيضا، وقد كانوا يحسبونه معروفا، ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ٣. عظم بغض الله تعالى واشتد مقته على الذين يعدون ولا يوفون ٤؛ إن الله المولى المعبود يحب من اقتل في سبيل إعلاء كلمته وصيانة حرماته ودعوته، وكان من إخوته المجاهدين في صف ٥ محكم لا خلل فيه ولا فرجة، وإنما هو صف متماسك متلائم، مستو مترابط، حتى كأنه قطعة واحدة، وثبت فلم يتراجع ولم يول الدبر؛ مما نقل القرطبي: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم} ٦، {. . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. } ٧، {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون} اهـ.
وعن الكسائي: {أن} في موضع رفع- يريد {أن} وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع- لأن {كبر} فعل بمنزلة [بئس]؛ و {مقتا} نصب بالتمييز؛ المعنى: كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا.
٣ - (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]
{مقتا} منكرا شديدا بغيضا، وكراهية من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة.
{يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)}.
ينادي الله تعالى من انتسبوا إلى الإيمان ليظلوا ويثبتوا على القول الطيب والعمل به؛ أو يكون النداء للمؤمنين ويراد به إسماع أدعياء

الإيمان من المنافقين الذين قالوا آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، كالذين عجبنا القرآن من شأنهم، فهم يتعجلون القتال، ويتلهفون على شهوده والمشاركة فيه، فإذا جاء حينه ودعوا إلى الوفاء بما عاهدوا عليه وتمنوه فروا!. يقول ربنا تبارك اسمه-: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين} ٨؛ كما يقول- عز وجل-: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال. } ٩ و {لم} مكونة من [ما] الاستفهامية، ولام الجر، مما يقول النحاة: - وحذفت الألف من [ما] الاستفهامية للفرق بينها وبين الإخبارية. فكأن المعنى- والله تعالى أعلم بالمراد- لماذا قلتم ووعدتم ثم لم تعملوا ما قلتموه وأخلفتم؟ -[لأي شيء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟] على أن مدار التوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد أيضا، وقد كانوا يحسبونه معروفا، ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ١٠. عظم بغض الله تعالى واشتد مقته على الذين يعدون ولا يوفون ١١؛ إن الله المولى المعبود يحب من اقتل في سبيل إعلاء كلمته وصيانة حرماته ودعوته، وكان من إخوته المجاهدين في صف ١٢ محكم لا خلل فيه ولا فرجة، وإنما هو صف متماسك متلائم، مستو مترابط، حتى كأنه قطعة واحدة، وثبت فلم يتراجع ولم يول الدبر؛ مما نقل القرطبي: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم} ١٣، {. . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. } ١٤، {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون} اه.

وعن الكسائي: {أن} في موضع رفع- يريد {أن} وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع- لأن {كبر} فعل بمنزلة [بئس]؛ و {مقتا} نصب بالتمييز؛ المعنى: كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا.

٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]

{مرصوص} متلائم المكونات متقاربها كأنها قطعة واحدة.

{يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)}.

ينادي الله تعالى من انتسبوا إلى الإيمان ليظلوا ويثبتوا على القول الطيب والعمل به؛ أو يكون النداء للمؤمنين ويراد به إسماع أدعياء الإيمان من المنافقين الذين قالوا آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، كالذين عجبنا القرآن من شأنهم، فهم يتعجلون القتال، ويتلهفون على شهوده والمشاركة فيه، فإذا جاء حينه ودعوا إلى الوفاء بما عاهدوا عليه وتمنوه فروا!. يقول ربنا تبارك اسمه-: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين} ١٥؛ كما يقول- عز وجل-: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال. } ١٦ و {لم} مكونة من [ما] الاستفهامية، ولام الجر، مما يقول النحاة: - وحذفت الألف من [ما] الاستفهامية للفرق بينها وبين الإخبارية. فكأن المعنى- والله تعالى أعلم بالمراد- لماذا قلتم ووعدتم ثم لم تعملوا ما قلتموه وأخلفتم؟ -[لأي شيء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟] على أن مدار التوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد أيضا، وقد كانوا يحسبونه معروفا، ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ١٧. عظم بغض الله تعالى واشتد مقته على الذين يعدون ولا يوفون ١٨؛ إن الله المولى المعبود يحب من اقتل في سبيل إعلاء كلمته وصيانة حرماته ودعوته، وكان من إخوته المجاهدين في صف ١٩ محكم

لا خلل فيه ولا فرجة، وإنما هو صف متماسك متلائم، مستو مترابط، حتى كأنه قطعة واحدة، وثبت فلم يتراجع ولم يول الدبر، مما نقل القرطبي: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم} ٢٠، {. . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. } ٢١، {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون} اه.

وعن الكسائي: {أن} في موضع رفع- يريد {أن} وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع- لأن {كبر} فعل بمنزلة [بئس]؛ و {مقتا} نصب بالتمييز؛ المعنى: كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا.

٥ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

{زاغوا} مالوا عن الحق، وجاروا عن القصد.

{الفاسقين} الخارجين عن طريق الله، الفاجرين.

{وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)}.

مقت الله تعالى لمن يقول ولا يفعل، ويعاهد ولا يفي، ويتعجل الجهاد فإذا أوجبه الحق تفلت منه، ونكص على عقبيه- مقت ربنا لهؤلاء سنة ماضية، فقد ابتلى موسى بقوم كانت حالهم هكذا، دعاهم نبيهم إلى الإيمان، وخلصهم من الجور والطغيان، ونجاهم الله وأغرق عدوهم الذي طالما قتل أبناءهم واستحيا نساءهم؛ فلما ناداهم الرسولان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام {. . . ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} ٢٢ أجابوا إجابة القواعد الفرارين: {. . . إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون} ٢٣ فحرمهم الله تعالى نعمة الظفر والاستقرار وعذبهم بالتيه أربعين سنة؛ ولما بعث الله رسوله عيسى إلى بني إسرائيل ودعاهم إلى الإيمان والطاعة والجهاد ولم يستجب إلا القليل، فأخزى الله الفاسقين، ورضى عن المؤمنين الصادقين؛ {وإذ قال موسى} أي اذكر وقت قول موسى عليه السلام {لقومه} بني إسرائيل {يا قوم لم تؤذونني} لما تغضبونني يا قوم بالمخالفة والعصيان، والقعود عن النصرة، والنكوص على الأعقاب؟! أو: لم تعيبونني وتنقصونني؟ {وقد تعلمون أني رسول الله إليكم} {قد} لتحقيق العلم، لا للتقليل ولا للتقريب، ولا للتكثير وحسب؛ فأنتم متحققون وتعلمون علم اليقين أني مرسل من الله تعالى إليكم، بعثت بدعوة فرعون وقومه لتخليصكم من العبودية التي أذاقوكم ويلاتها؛ مع ما بعثت به إليهم من دعوتهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وبعثت إليكم بالتوراة والهدى؛ فآثروا الغواية، واختاروا الضلالة، فمد الله تعالى لهم فيها مدا؛ وهكذا يجزى الله كل ختار كفور: {إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله. } ٢٤.

٦ - (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

{بالبينات} الآيات والدلائل والحجج الواضحات الموضحات.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار

{وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل} نادى عيسى عليه السلام في هؤلاء القوم: يا أبناء يعقوب واسمه {إسرائيل} {إني رسول الله إليكم} بعثني ربي لأبلغك وحيه وأذكركم عهده، {مصدقا لما بين يدي من التوراة} أنزل علي كتابا يصدق الحق الذي بقى من الكتاب السماوي الذي أوحى إلى كليم الله ورسوله من قبلي، {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} ويمكن أن يكون العطف في هذه الجملة من عطف الخاص على العام، إذ التوراة قد جاءت فيها البشرى برسالة محمد النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام بل جاء فيها مثله ومثل أمته- صلوات الله تعالى عليه- ولهذا لما وعد القرآن المؤمنين من اليهود والنصارى الرحمة الواسعة بين لمن كتبت: {. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا

عندهم في التوراة والإنجيل.} ٢٥ وبينت آية كريمة حال النبي الخاتم وأمته كما بينتهما الكتب السماوية السابقة: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. } ٢٦؛ فلما أتاهم رسول الله عيسى عليه السلام بالبينات، والدلائل الواضحات على صدق رسالته، كإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وإحياء الموتى بإذن الله، وتسوية قطع من الطين ينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، إذا هم يكفرون، ويتهمونه بالتمويه والخداع، أو بالجنون؛ وأما تسميته النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم {أحمد} فثابتة؛ صح من رواية مالك، والبخاري، ومسلم، وغيرهم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب) -العاقب: الذي ليس بعده نبي- وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله يسمي لنا نفسه أسماء فيقول: (أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة)؛ مما أورد القرطبي: و {أحمد} اسم نبينا صلى الله عليه وسلم. . . أي أحمد الحامدين لربه؛ والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا. . . والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه. . . ثم إنه لم يكن محمد حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه. . اهـ.

٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)}.

دعا موسى كليمنا قومه إلى الإسلام فأبى أكثرهم إلا كفورا، ودعا عيسى – عبدنا ورسولنا- بني إسرائيل إلى الإسلام فقال أكثرهم: هذا سحر مبين؛ فإذا دعوت يا محمد إلى الإسلام فرماك الملأ من قومك بالسحر والجنون فلا تك في ضيق مما يمكرون، واصبر إن وعد الله حق {. . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} ٢٧ {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} ٢٨، ويشهد لما قلنا من أن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام كانت إلى الإسلام قول الله تعالى الحق: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} ٢٩؛ كما أن دعوة المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام كانت الإسلام: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون} ٣٠؛ فأي الناس أشد بغيا وجورا، وعدوانا وظلما، ممن يقابل الصدق بالزور والبهتان، وينادي لنيل السعادة فيصر على الجحود والنكران، بل يتقول على الله تعالى ما لم يقل، ويخفى من الإسلام ما لا يهوى من رشد وإيمان، وبر وإحسان؟! إن هؤلاء إلا أظلم الظلام، فكان حقا على الله سبحانه أن يخذلهم فيستحوذ عليهم الشيطان؛ - {لا يهدي. } من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة- ٣١.

٨ - (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)}.

دعا موسى كليمنا قومه إلى الإسلام فأبى أكثرهم إلا كفورا، ودعا عيسى – عبدنا ورسولنا- بني إسرائيل إلى الإسلام فقال أكثرهم: هذا سحر مبين؛ فإذا دعوت يا محمد إلى الإسلام فرماك الملأ من قومك بالسحر والجنون فلا تك في ضيق مما يمكرون، واصبر إن وعد الله حق {. . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} ٣٥ {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} ٣٦، ويشهد لما قلنا من أن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام كانت إلى الإسلام قول الله تعالى الحق: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} ٣٧؛ كما أن دعوة المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام كانت الإسلام: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري

إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون} ٣٨؛ فأي الناس أشد بغيا وجورا، وعدوانا وظلما، ممن يقابل الصدق بالزور والبهتان، وينادي لنيل السعادة فيصر على الجحود والنكران، بل يتقول على الله تعالى ما لم يقل، ويخفى من الإسلام ما لا يهوى من رشد وإيمان، وبر وإحسان؟! إن هؤلاء إلا أظلم الظلام، فكان حقا على الله سبحانه أن يخذلهم فيستحوذ عليهم الشيطان؛ - {لا يهدي. } من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة- ٣٩.

يريد الكافرون، المفترون على الحق، الكاذبون الضالون المضلون أن يخمدوا القرآن بإبطاله وتكذيبه بالقول، أو أن يدفعوا الإسلام بالمراء، أو ان يبطلوا حجج الله بتكذيبها وإنكارها؛ ولعل التعبير بالفعل المضارع {يريدون} لتفيد التجدد، وأنهم ما أرادوا فيما مضى، وانقضى مرادهم، وإنما سيظلون دائبين على محاولة إطفاء نور الله {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. } ٣٢ {. . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. } ٣٣ فلا تتخذوهم بطانة {. . لا يألونكم خبالا. } ٣٤؛ ومما ذهب إليه صاحب [الجامع لأحكام القرآن. . .] في معنى قول الله سبحانه {ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون}: أنه مثل مضروب، فمن أراد إطفاء نور الشمس بفيه يجده مستحيلا، فكذلك من أراد إبطال الحق. اه.

٩ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)}.

دعا موسى كليمنا قومه إلى الإسلام فأبى أكثرهم إلا كفورا، ودعا عيسى – عبدنا ورسولنا- بني إسرائيل إلى الإسلام فقال أكثرهم: هذا سحر مبين؛ فإذا دعوت يا محمد إلى الإسلام فرماك الملأ من قومك بالسحر والجنون فلا تك في ضيق مما يمكرون، واصبر إن وعد الله حق {. . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} ٤٤ {. . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} ٤٥، ويشهد لما قلنا من أن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام كانت إلى الإسلام قول الله تعالى الحق: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} ٤٦؛ كما أن دعوة المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام كانت الإسلام: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون} ٤٧؛ فأي الناس أشد بغيا وجورا، وعدوانا وظلما، ممن يقابل الصدق بالزور والبهتان، وينادي لنيل السعادة فيصر على الجحود والنكران، بل يتقول على الله تعالى ما لم يقل، ويخفى من الإسلام ما لا يهوى من رشد وإيمان، وبر وإحسان؟! إن هؤلاء إلا أظلم الظلام، فكان حقا على الله سبحانه أن يخذلهم فيستحوذ عليهم الشيطان؛ - {لا يهدي. } من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة- ٤٨.

والمعبود بحق هو- لا سواه- بعث نبيه محمدا بدعوة الهدى وسعادة الدارين، وأرسله بالحنيفية السمحة، والدين القويم الخاتم؛ {ليظهره على الدين كله} فهو مهيمن عليها، نسخ ما سبقه من دين؛ ولا يأتي بعده ما ينسخه، ولأن مولانا الحكيم أتم بما أوحى إلى خاتم رسله شرعته ومنهاجه، {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا. } ٤٠ {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه. } ٤١؛ [قوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله} أي محمدا بالحق والرشاد {ليظهره على الدين كله} أي بالحجج؛ ومن الظهور الغلبة باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد أن يكون أهل الإسلام عالين غالبين؛ ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان؛ قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام؛ وقال أبو هريرة: {ليظهره على الدين كله} بخروج عيسى؛ وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص ٤٢ فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد)] ٤٣؛ {ولو كره المشركون} ومهما تغيظ المشركون، واشمأزت قلوبهم من علو كلمة التوحيد، ومهما مكر وكاد عباد الأصنام الوثنيون، وظاهرهم من دعوا الله تعالى ولدا وزعموا أنهم كتابيون، فإن الله تعالى سيعلي لواء الإسلام إرغاما

لهم وهم كارهون.
١٠ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)
{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣)}.
ينادي الله تعالى أهل الإيمان إلى ما يظفرهم بأسعد مآب، وما يدركون به أجزل ثواب {والله يدعو إلى دار السلام} ٤٩ فمن ابتغى نعيمها، فليسع لها، وليبذل ثمنها الذي كتب الله لها! {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. } ٥٠ ولقد أقر أولو الألباب أنها تجارة رابحة لا يخالطها بوار ولا خسارة فقالوا: أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها، ثم يعطينا علينا أجراً الجنة، إنها لصفقة رابحة، وأية معاوضة أبرك من هذه المعاوضة؟! يدعونا ليغفر لنا ذنوبنا، ويحمينا من الخزي والتحسير، وحر السعير، ويسكننا قصورا أحكم بنيانها، وشرف مكانها، وكثرت بساتينها، وتدفقت أنهارها، لا ظعن من مقاعد الصدق هذه ولا تحول عنها، فما أعظم الجزاء، وأجزل العطاء، ويعجل ربنا للمجاهدين في سبيله عزا ونصرا، وتأييدا على العدو وظفرا، وفتحا قريبا لما استغلق، وبشرى للمؤمنين أن الله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين، وإنما وجه النداء في الآية الأولى إلى {الذين آمنوا} ثم بدئت الآية الثانية بقوله سبحانه: {تؤمنون} إما لأن المراد: تستمرون على الإيمان، وتثبتون مجاهدين، أو: يا من انتسبتم إلى الإيمان هذا سبيل الصدق في اليقين، والرسوخ في نصرة الدين، حتى يتبين الذين أخلصوا ووفوا بعهد رب العالمين، و {تؤمنون} و {تجاهدون} قد يكون المراد منهما التجدد والاستمرار، أو هما خبران بمعنى الأمر، أي آمنوا وجاهدوا، و {يغفر لكم} مجزوم في جواب الأمر الذي جاء بلفظ الخبر- آي آمنوا وجاهدوا- أو جواب لشرط دل عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم. مما أورد صاحب [جامع البيان. . .] {ذلكم خير لكم} يقول: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه {إن كنتم تعلمون} مضار الأشياء ومنافعها. . . ولكم أخرى تحبونها. . . ولكم خلة أخرى سوى ذلك تحبونها في الدنيا: نصر لكم على أعدائكم، وفتح قريب يعجل لكم. . . وبشر- يا محمد- المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم. اه.
١١ - (تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]
{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣)}.
ينادي الله تعالى أهل الإيمان إلى ما يظفرهم بأسعد مآب، وما يدركون به أجزل ثواب {والله يدعو إلى دار السلام} ٥١ فمن ابتغى نعيمها، فليسع لها، وليبذل ثمنها الذي كتب الله لها! {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. } ٥٢ ولقد أقر أولو الألباب أنها تجارة رابحة لا يخالطها بوار ولا خسارة فقالوا: أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها، ثم يعطينا علينا أجراً الجنة، إنها لصفقة رابحة، وأية معاوضة أبرك من هذه المعاوضة؟! يدعونا ليغفر لنا ذنوبنا، ويحمينا من الخزي والتحسير، وحر السعير، ويسكننا قصورا أحكم بنيانها، وشرف مكانها، وكثرت بساتينها، وتدفقت أنهارها، لا ظعن من مقاعد الصدق هذه ولا تحول عنها، فما أعظم الجزاء، وأجزل العطاء، ويعجل ربنا للمجاهدين في سبيله عزا ونصرا، وتأييدا على العدو وظفرا، وفتحا قريبا لما استغلق، وبشرى للمؤمنين أن الله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين، وإنما وجه النداء في الآية الأولى إلى {الذين آمنوا} ثم بدئت الآية الثانية بقوله سبحانه: {تؤمنون} إما لأن المراد: تستمرون على الإيمان، وتثبتون مجاهدين، أو: يا من انتسبتم إلى الإيمان هذا سبيل الصدق في اليقين، والرسوخ في نصرة الدين،

حتى يتبين الذين أخلصوا ووفوا بعهد رب العالمين؛ و {تؤمنون} و {تجاهدون} قد يكون المراد منهما التجدد والاستمرار، أو هما خبران بمعنى الآمر، أي آمنوا وجاهدوا؛ و {يغفر لكم} مجزوم في جواب الأمر الذي جاء بلفظ الخبر- آي آمنوا وجاهدوا- أو جواب لشرط دل عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم. مما أورد صاحب [جامع البيان. . .] {ذلكم خير لكم} يقول: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه {إن كنتم تعلمون} مضار الأشياء ومنافعها. . . ولكم أخرى تحبونها. . . ولكم خلة أخرى سوى ذلك تحبونها في الدنيا: نصر لكم على أعدائكم، وفتح قريب يعجل لكم. . . وبشر- يا محمد- المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم. اه.

١٢ - (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣)}.

ينادي الله تعالى أهل الإيمان إلى ما يظفرهم بأسعد مآب، وما يدركون به أجزل ثواب {والله يدعو إلى دار السلام} ٥٣ فمن ابتغى نعيمها، فليسع لها، وليبذل ثمنها الذي كتب الله لها! {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. } ٥٤ ولقد أقر أولو الألباب أنها تجارة رابحة لا يخالطها بوار ولا خسارة فقالوا: أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها، ثم يعطينا علينا أجراً الجنة، إنها لصفقة رابحة، وأية معاوضة أبرك من هذه المعاوضة؟! يدعونا ليغفر لنا ذنوبنا، ويحمينا من الخزي والتحسير، وحر السعير، ويسكننا قصورا أحكم بنيانها، وشرف مكانها، وكثرت بساتينها، وتدفقت أنهارها، لا ظعن من مقاعد الصدق هذه ولا تحول عنها؛ فما أعظم الجزاء، وأجزل العطاء، ويعجل ربنا للمجاهدين في سبيله عزا ونصرا، وتأييدا على العدو وظفرا، وفتحا قريبا لما استغلق، وبشرى للمؤمنين أن الله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين؛ وإنما وجه النداء في الآية الأولى إلى {الذين آمنوا} ثم بدئت الآية الثانية بقوله سبحانه: {تؤمنون} إما لأن المراد: تستمرون على الإيمان، وتثبتون مجاهدين؛ أو: يا من انتسبتم إلى الإيمان هذا سبيل الصدق في اليقين، والرسوخ في نصرة الدين، حتى يتبين الذين أخلصوا ووفوا بعهد رب العالمين؛ و {تؤمنون} و {تجاهدون} قد يكون المراد منهما التجدد والاستمرار، أو هما خبران بمعنى الآمر، أي آمنوا وجاهدوا؛ و {يغفر لكم} مجزوم في جواب الأمر الذي جاء بلفظ الخبر- آي آمنوا وجاهدوا- أو جواب لشرط دل عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم. مما أورد صاحب [جامع البيان. . .] {ذلكم خير لكم} يقول: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه {إن كنتم تعلمون} مضار الأشياء ومنافعها. . . ولكم أخرى تحبونها. . . ولكم خلة أخرى سوى ذلك تحبونها في الدنيا: نصر لكم على أعدائكم، وفتح قريب يعجل لكم. . . وبشر- يا محمد- المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم. اه.

١٣ - (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣)}.

ينادي الله تعالى أهل الإيمان إلى ما يظفرهم بأسعد مآب، وما يدركون به أجزل ثواب {والله يدعو إلى دار السلام} ٥٥ فمن ابتغى نعيمها، فليسع لها، وليبذل ثمنها الذي كتب الله لها! {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. } ٥٦ ولقد أقر أولو

الألباب أنها تجارة رابحة لا يخالطها بوار ولا خسارة فقالوا: أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها، ثم يعطينا علينا أجراً الجنة، إنها لصفقة رابحة، وأية معاوضة أبرك من هذه المعاوضة؟! يدعونا ليغفر لنا ذنوبنا، ويحمينا من الخزي والتحسير، وحر السعير، ويسكننا قصورا أحكم بنيانها، وشرف مكانها، وكثرت بساتينها، وتدفقت أنهارها، لا ظعن من مقاعد الصدق هذه ولا تحول عنها، فما أعظم الجزاء، وأجزل العطاء، ويعجل ربنا للمجاهدين في سبيله عزا ونصرا، وتأييدا على العدو وظفرا، وفتحا قريبا لما استغلق، وبشرى للمؤمنين أن الله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين، وإنما وجه النداء في الآية الأولى إلى {الذين آمنوا} ثم بدئت الآية الثانية بقوله سبحانه: {تؤمنون} إما لأن المراد: تستمرون على الإيمان، وتثبتون مجاهدين، أو: يا من انتسبتم إلى الإيمان هذا سبيل الصدق في اليقين، والرسوخ في نصرة الدين، حتى يتبين الذين أخلصوا ووفوا بعهد رب العالمين، و {تؤمنون} و {تجاهدون} قد يكون المراد منهما التجدد والاستمرار، أو هما خبران بمعنى الآمر، أي آمنوا وجاهدوا، و {يغفر لكم} مجزوم في جواب الأمر الذي جاء بلفظ الخبر- آي آمنوا وجاهدوا- أو جواب لشرط دل عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم. مما أورد صاحب [جامع البيان. . .] {ذلكم خير لكم} يقول: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه {إن كنتم تعلمون} مضار الأشياء ومنافعها. . . ولكم أخرى تحبونها. . . ولكم خلة أخرى سوى ذلك تحبونها في الدنيا: نصر لكم على أعدائكم، وفتح قريب يعجل لكم. . . وبشر- يا محمد- المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم. اه.

١٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

{يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)}.

عهد من الله تعالى أن ينتصر كل مؤمن لدينه، وأن يبلغ أمانة الله، ويدفع عن حرماته، كما سأل عيسى عليه السلام أصحابه المحبون له: أيكم يناصرني حتى أبلغ ما أوحى إلي؟ فقال أحباؤه: نحن نصراء دين الله، فدعوا بدعوة عيسى، فآمنت جماعة وكفرت أخرى، لكن سقط بهتان الكافرين، وعلت حجة المؤمنين، وأيد الله أهل الحق فظهر برهان صدقكم، وزهق باطل المفترين، والمشركين الضالين، مما نقل الطبري: عن قتادة:. . . قال: قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه، وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار ذكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟! إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يسلموا، ذكر لنا أن رجلا قال: يا نبي الله؟ اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناء كم) قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله؟ قال: (لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة) ففعلوا ففعل الله،. . . ولم يسم حي من السماء اسما لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم. . . عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا. . . قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ قال فقام شاب من أحدثهم سنا قال فقال: أنا. . . قال: فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى. . إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه. . فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، {فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة} يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} في إظهار محمد دينهم على دين الكفار. . . لما بعث الله محمدا ونزل تصديق من آمن بعيسى أصبحت حجة من آمن به ظاهرة ٥٧. . اه والله تعالى أعلم.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٥٨ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٥٩؛ وقد تتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٦٠.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٦١، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٦٢، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٦٣ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٦٤. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٦٥؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٦٦.

ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٦٧، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٦٨، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٦٩ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٧٠، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٧١؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٧٢.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٧٣، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٧٤، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٧٥، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٧٦، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٧٧؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٧٨ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٧٩ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٨٠، واستصحب – عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٨١، {ثم

إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٨٢، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٨٣ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٨٤: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٨٥، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٨٦، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٨٧، {وإنه لحق اليقين} ٨٨؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٨٩، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا} ٩٠.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٩١ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٩٢ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٩٣، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٩٤، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٩٥؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٦، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٩٧، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٩٨، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٩٩، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ١٠٠، {واتقوا الله ربكم} ١٠١، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ١٠٢، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ١٠٣،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ١٠٤، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٥، {أن اعبدوا الله واتقوه} ١٠٦. وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ١٠٧؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ١٠٨، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ١٠٩. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ١١٠، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ١١١؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١١٢، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل

نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ١١٣ وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ١١٤، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ١١٥، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ١١٦.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ١١٧. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ١١٨ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ١١٩.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ١٢٠، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٢١، {. ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٢٢، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١٢٣، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١٢٤، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١٢٥، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١٢٦، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٢٧، {. يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٢٨ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٢٩، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٣٠، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٣١ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٣٢. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٣٣، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٣٤، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٣٥.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٣٦، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٣٧، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح

منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون{ ١٣٨ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٣٩ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٤٠، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٤١، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٤٢، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٤٣، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٤٤.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٢ سورة الجمعة:

سورة الجمعة:
(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة
كلماتها: ١٨٠؛ وحروفها: ٧٨٠.

١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم (١)}

ينزه الله المعبود بحق كل مخلوق في علوي الكون أو سفليه، ويجل شأنه ومقامه عما لا يليق له؛ وهذا التمجيد والإجلال يتجدد ويتتابع دون انقطاع؛ تسبيحا بالمقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس، أو بلسان الحال فإنه ما من موجود لا ويحمل- بإتقان صنعه وحكيم تدبيره- برهان جلال ربنا وتفرده بالإنشاء. . . والإحياء، والسلطان والبقاء؛ واللام للتأكيد، كما في قوله -تبارك اسمه-: {أن اشكر لي. } ١؛ ومولانا - عز ثناؤه- يملك ويهيمن، وهو المبارك المطهر عن كل نقص، الغالب الذي لا يغلب، رفيع الدرجات، الفعال لكل ما يريد، موافقا للصواب والحق.

٢ - (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)

{هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٢)}

ربنا الحكيم ذو الفضل العظيم هو الذي منّ على الأمة العربية الأمية- التي لم تكن تكتب ولا تحسب- فأرسل رسولا منهم يقرأ عليهم ويتابع قراءة كلمات الله الهادية المباركة، ويطهرهم فيمسكهم بالحق والخير والرشد، وينأى بهم عن الجهالة والغي، ويعلمهم الفرقان الآخذ بالعقول والقوى إلى سبل الاستقامة والسلام، ويعلمهم ما آتاه ربه ومن فقه وسداد؛ ولم يكونوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام إلا حيارى فيما يعتقدون، وما به يتعاملون؛ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنا أمة

أمية لا نكتب ولا نحسب)؛ وأريد بذلك أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب- وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر كما قال تعالى في قوله: {وإنه لذكر لك ولقومك. { ٢ وهذا أو أمثاله لا ينافي قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا. { ٣. . . إلى غير ذلك من الآيات ٤ الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم- ٥.

[{يتلو عليهم آياته} مع كونه أميا مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم، {ويزكيهم}. . . أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين ٦ من خبائث العقائد والأعمال {ويعلمهم الكتابة والحكمة} صفة أيضا ل {رسولا} مترتبة في الجود ٧ على التلاوة، وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية، وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم، المترتب على التلاوة، للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر. .] ٨.

٣ - (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (٣) }

وبعثته صلى الله عليه وسلم كما كانت للأميين السابقين الأولين، فهي باقية ممتدة إلى آخرين لم يجيئوا بعد ولم يلقوا النبي حال حياته؛ والله الذي أرسل نبيه إلى الأولين والآخرين هو {العزيز} الذي لا يمانع ولا يدافع، بل هو غالب على أمره، ولا يرد مراده أحد، {الحكيم} الذي دبر كل شأن وفق الحكمة والصواب؛ مما يقول الطبري: عنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبي صلى الله عليه سلم في إسلامهم من أي الأجناس، لأن الله عز وجل عم بقوله: {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} كل لاحق بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعا دون نوع، فكل لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأولين، الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم آيات الله. . . اهـ.

٤ - (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

{ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) }

ذلك الإرسال إلى السابقين واللاحقين وتعليم العلوم الفطرية والحكمة العملية، والتزكية والتهذيب، وتلاوة آيات الله وتدبرها والاهتداء بهداها تفضل من الله- المعبود بحق- يمن به على من يريد، ممن اختصهم بهذا الفضل؛ وهو سبحانه صاحب الفضل ٩ الذي لا فضل فوقه، بل ولا يدانيه؛ وأي فضل أعظم من الهداية إلى صراط الله المستقيم، والاعتصام بمنهاج القرآن الحكيم؟

٥ - (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٥) }

{مثل} حال وصفة عجيبة، وقول حكيم يشبه مضربه بمورده.

{حملوا التوراة} كلفوا العمل بها.

{لم يحملوها} لم يعملوا بها.

{أسفارا} جمع سفر وهو الكتاب الكبير.

عجيب هو أمر اليهود، جاءهم من ربهم الهدى، وأنزل كتاب منير وضياء وذكر على رسول الله إليهم موسى- كليم المولى سبحانه- وكلفوا العمل بما في هذا الكتاب، وضمنوا رعاية تكاليفه، وإنفاذ أحكامه، فما رعوا الحمالة، ولا قاموا بحق الضمان والكفالة، وتركوا العمل بما استحفظوا عليه، بل سارعوا إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وأضافوا إليها ما ليس منها {. . يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا. { ١٠ {وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو

من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون} ١١؛ وأخفوا منها مالا يوافق هواهم، ولا يرضى شهواتهم؛ ثم غلبت عليهم الشقوة، وتمادوا في الغواية حتى جحدوا أن تكون قد جاءت كتب من السماء من قبل أو من بعد: {. . قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. . ١٢} فأكذبهم الله تعالى، وأخبر بسوء فعالهم، فقال عز وجل: {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا. } ١٣ بئس صنيعهم، وساء حالهم ومثالهم ومآلهم؛ والله لا يهدي الزائغين، بل يضل - بعدله- الباغين؛ وأي بغي وتجاوز للحد أشد من تجاوز حدود الله، واختلاق الكذب عليه -جل وعلا-؟! [وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء؛ وقال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر.

. . . شبههم - والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها- بالحمار يحمل كتب وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة؛ و {يحمل} في موضع نصب على الحال. .] ١٤.

٦ - (قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨)}.

ومع أن اليهود جاءهم من الله نور وضياء وهدى ورحمة. فأعرضوا وصدوا، وعموا وصموا، وكفروا وجحدوا، وحسبوا بعد كل هذا الضلال والإضلال أنهم أبناء الله وأحباؤه- وكذا قال النصارى-: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ١٥ {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} ١٦ فأمر الله تعالى نبيه محمدا أن يطالبهم بالبرهان على صحة دعواهم، فإن كان الأمر كما زعموا وأنهم أحب الناس إلى الله وأولاهم به فليطلبوا الموت وليسألوه، وليضرعوا إلى ربهم أن يعجل منيتهم ليلقوه، وليتبوؤا النعيم الذي أعد لأوليائه، وجاء به الوعد الحق في قول مولانا الحق: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} ١٧. ثم أخبر الله تعالى نبيه أن هؤلاء الزاعمين ولاية الله تعالى، ما هم بأوليائه، ولن يتمنوا الموت أبدا لأنهم خربوا آخرتهم واشتروا دنياهم، فهم لا يحبون أن ينتقلوا إلى الخراب، وهم يعرفون ما قدموه من افتراء وتغيير وتحريف وتزوير، وتكذيبهم الداعين إلى الله وقتلهم؛ والله محيط العلم بكل بغيهم وإفكهم؛ ومهما فروا من الموت فإنه لا حق بهم، ومن ورائه يصلون ما ينتظرهم من عذابهم، وسوء مصيرهم، وفي ذلك جاء قول الحق سبحانه: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون} ١٩؛ والذي يعلم ما يشاهد وما يغيب يجازى على ذلك، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فعلى نفسه جر العذاب البئيس، والمآل السيء التعيس؛ [والباء في قوله سبحانه: {بما قدمت أيديهم} سببية متعلقة بما يدل عليه النفي، أي: يأبون التمني بسبب ما قدمت. . . ولما كانت اليد من جوارح الإنسان مناط عامة أفعاله عبر بها تارة عن النفس، وأخرى عن القدرة] ٢٠؛ والمراد ب {الذين هادوا} اليهود: سموا بذلك منذ قال موسى عليه السلام ما بينه الكتاب الحكيم: {. . إنا هدنا إليك. } أي تبنا إليك؛ مما قال طرفة:

كل شيء سوف يلقى حتفه في مقام أو على ظهر سفر

والمنايا حوله ترصده ليس ينجيه من الموت حذر

يقول الألوسي ما حاصله: واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون. كابن خزيمة حيث اعتبره من الكبائر، وأورد حديث حسنا عن عائشة في هذا المعنى رواه أحمد، ومنهم من قال بكراهته. . ويفهم أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أن كل كائن مقدر. اه.

ج ٢٨ ص ٢٩٧.
٧ - (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
{قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨)}.
ومع أن اليهود جاءهم من الله نور وضياء وهدى ورحمة. فأعرضوا وصدوا، وعموا وصموا، وكفروا وجحدوا، وحسبوا بعد كل هذا الضلال والإضلال أنهم أبناء الله وأحباؤه- وكذا قال النصارى-: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ٢١ {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} ٢٢ فأمر الله تعالى نبيه محمدا أن يطالبهم بالبرهان على صحة دعواهم، فإن كان الأمر كما زعموا وأنهم أحب الناس إلى الله وأولاهم به فليطلبوا الموت وليسألوه، وليضرعوا إلى ربهم أن يعجل منيتهم ليلقوه، وليتبوؤا النعيم الذي أعد لأوليائه، وجاء به الوعد الحق في قول مولانا الحق: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} ٢٣. ثم أخبر الله تعالى نبيه أن هؤلاء الزاعمين ولاية الله تعالى، ما هم بأوليائه، ولن يتمنوا الموت أبدا لأنهم خربوا آخرتهم واشتروا دنياهم، فهم لا يحبون أن ينتقلوا إلى الخراب، وهم يعرفون ما قدموه من افتراء وتغيير وتحريف وتزوير، وتكذيبهم الداعين إلى الله وقتلهم؛ والله محيط العلم بكل بغيهم وإفكهم؛ ومهما فروا من الموت فإنه لا حق بهم، ومن ورائه يصلون ما ينتظرهم من عذابهم، وسوء مصيرهم، وفي ذلك جاء قول الحق سبحانه: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ٢٤ إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون} ٢٥، والذي يعلم ما يشاهد وما يغيب يجازى على ذلك، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فعلى نفسه جر العذاب البئيس، والمآل السيء التعيس؛ [والباء في قوله سبحانه: {بما قدمت أيديهم} سببية متعلقة بما يدل عليه النفي، أي: يأبون التمني بسبب ما قدمت. . . ولما كانت اليد من جوارح الإنسان مناط عامة أفعاله عبر بها تارة عن النفس، وأخرى عن القدرة] ٢٦، والمراد ب {الذين هادوا} اليهود: سموا بذلك منذ قال موسى عليه السلام ما بينه الكتاب الحكيم: {. . إنا هدنا إليك. } أي تبنا إليك؛ مما قال طرفة:
كل شيء سوف يلقى حتفه في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ليس ينجيه من الموت حذر
يقول الألوسي ما حاصله: واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون. كابن خزيمة حيث اعتبره من الكبائر، وأورد حديث حسنا عن عائشة في هذا المعنى رواه أحمد، ومنهم من قال بكراهته. . ويفهم أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أن كل كائن مقدر. اه. ج ٢٨ ص ٢٩٧.
٨ - (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
{قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨)}.
ومع أن اليهود جاءهم من الله نور وضياء وهدى ورحمة. فأعرضوا وصدوا، وعموا وصموا، وكفروا وجحدوا، وحسبوا بعد كل هذا الضلال والإضلال أنهم أبناء الله وأحباؤه- وكذا قال النصارى-: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} ٢٧ {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} ٢٨ فأمر الله تعالى نبيه محمدا أن يطالبهم

بالبرهان على صحة دعواهم، فإن كان الأمر كما زعموا وأنهم أحب الناس إلى الله وأولاهم به فليطلبوا الموت وليسألوه، وليضرعوا إلى ربهم أن يعجل منيتهم ليلقوه، وليتبوؤا النعيم الذي أعد لأوليائه، وجاء به الوعد الحق في قول مولانا الحق: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} ٢٩. ثم أخبر الله تعالى نبيه أن هؤلاء الزاعمين ولاية الله تعالى، ما هم بأوليائه، ولن يتمنوا الموت أبدا لأنهم خربوا آخرتهم واشتروا دنياهم، فهم لا يحبون أن ينتقلوا إلى الخراب، وهم يعرفون ما قدموه من افتراء وتغيير وتحريف وتزوير، وتكذيبهم الداعين إلى الله وقتلهم؛ والله محيط العلم بكل بغيهم وإفكهم؛ ومهما فروا من الموت فإنه لا حق بهم، ومن ورائه يصلون ما ينتظرهم من عذابهم، وسوء مصيرهم، وفي ذلك جاء قول الحق سبحانه: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون} ٣١؛ والذي يعلم ما يشاهد وما يغيب يجازى على ذلك، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فعلى نفسه جر العذاب البئيس، والمآل السيء التعيس؛ [والباء في قوله سبحانه: {بما قدمت أيديهم} سببية متعلقة بما يدل عليه النفي، أي: يأبون التمني بسبب ما قدمت. . . ولما كانت اليد من جوارح الإنسان مناط عامة أفعاله عبر بها تارة عن النفس، وأخرى عن القدرة] ٣٢؛ والمراد ب {الذين هادوا} اليهود: سموا بذلك منذ قال موسى عليه السلام ما بينه الكتاب الحكيم: {. . إنا هدنا إليك. } أي تبنا إليك؛ مما قال طرفة:

كل شيء سوف يلقى حتفه في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ليس ينجيه من الموت حذر

يقول الألوسي ما حاصله: واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون. كابن خزيمة حيث اعتبره من الكبائر، وأورد حديث حسنا عن عائشة في هذا المعنى رواه أحمد، ومنهم من قال بكراهته. . ويفهم أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أن كل كائن مقدر. اه. ج ٢٨ ص ٢٩٧.

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩)}

{نودي} أذن.

{فاسعوا} اعمدوا، واهتموا، واقصدوا، واتجهوا.

{ذكر الله} الموعظة والصلاة.

{وذروا} واتركوا.

عهد الله تعالى إلى أهل الإيمان إذا أذن المؤذن للصلاة التي تصل وسط النهار من يوم الجمعة بدلا من صلاة الظهر في سائر الأيام أن يهتموا بالتوجه إليها لسماع خطبتها، وصلاة ركعتيها- وليست أربع ركعات كالظهر- واتركوا الانشغال بالبيع والشراء. وسائر ما تبتغون به عرض الحياة، فإن التوجه إلى ذكر ربكم وأداء صلاتكم أبرك وأحسن عاقبة في العاجل والآجل لو كنتم تعلمون ما هو الأنفع مآلا، {إذا نودي للصلاة} وذلك حين يجلس الإمام على المنبر، ويؤذن المؤذن بين يديه، روى البخاري بسنده عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني. . اه أمر عثمان رضي الله عنه أن ينادي قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس، وكان ينادي به على الزوراء- يؤذن به على الزوراء وهي أرفع دار كانت بالمدينة قرب المسجد.

{وفي الحديث الصحيح: أن الأذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء، وسماه في الحديث ثالثا لأنه أضافه إلى الإقامة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (بين كل أذانين صلاة لمن شاء) يعني الأذان والإقامة؛ ويتوهم الناس أنه أذان أصلي، فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وهما، ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهما على وهم. } ٣٣.

{إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة} قال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة هاهنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ، لكن ابن العربي قال: وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهي قوله: {من يوم الجمعة} وذلك يفيده؛ لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة، فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام؛ ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة ٣٤. اه؛ {فاسعوا إلى ذكر الله} فامضوا واقصدوا واتجهوا إلى حيث يذكر الله في بيته بالموعظة في الخطبتين والصلاة؛ وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع بل الاهتمام بها. كقوله تعالى: {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها. } ٣٥ أي: عمل لها، وعنى بشأنها؛ فأما المشي السريع إلى الصلاة عامة فمخالف للهدى الإلهي؛ في الصحيحين- صحيحي البخاري ومسلم- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا) وفيهما عن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: (ما شأنكم)؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: (فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)؛ وأورد بعض المفسرين أحكام الجمعة وعلى من أوجبها الله سبحانه، وما يشترط في الخطبة والصلاة، وما يستحب قبل الحضور إلى الجمعة وحين أدائها، وكم العدد الذي لا بد منه لصحتها؛ كما ذكروا حكم البيع ساعة أداء الجمعة ومن حين يؤذن لها: هل يحرم ويمضي؟ أم يبطل ويفسخ؟ وهل ذلك مقصور على من تجب عليه أم على الكافة؛ كما نقلوا عن ابن سيرين وأهل السير والتاريخ روايات عن أول جمعة جمعت بالمدينة أصلاها أسعد بن زرارة أم مصعب ابن عمير؟ - وكان ذلك قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم-، ثم نقلوا عنهم حديث أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأول خطبة خطبها، وأول جمعة جمعت بعدها.

١٠ - (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

{فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثير لعلكم تفلحون (١٠)}.

لا يريد الله منكم أهل الإيمان إذا سعيتم إلى المساجد أن تظلوا بها ولا تبرحوا، كلا؟ فإن العمل النافع، والأخذ بأسباب العمر من لب رسالة الإنسان، بل هي مع سلامة القصد وخلوص النية مما يتعبد به إلى الملك الديان، ويتقرب به إلى ربنا ذي الجلال والإكرام؛ {فإذا قضيت الصلاة} أديت وفرغتم من أدائها فسارعوا إلى التفرق في جنبات الأرض، واخرجوا من المساجد لمتابعة إقامة مصالحكم، ورعاية شئونكم وأعمالكم؛ وهكذا عطفت الجملتان بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب باتصال- {فإذا قضيت} {فانتشروا} ومما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل يوما إلى المسجد فوجد رجلا يجلس وكأنه طال مجلسه- فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: (ما جلوسك وليس الوقت وقت صلاة)؟ فقال: ديون لزمتني وهموم يا رسول الله، فقال: (ألا أعلمك كلمات يذهب الله بهن عنك ما تجد قل اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) قالوا: فقالها فأذهب الله عنه همه وقضى دينه؛ {وابتغوا من فضل الله} وباشروا الأسباب لتنالوا من فيض وفضل الغني الوهاب؛ وأكثر العلماء على أن الأمر بالانتشار خارج المسجد، والسعي في طلب الرزق إثر الفراغ من الخطبة والصلاة- أمر للندب، وذهب فريق منهم إلى أنه للوجوب؛ {واذكروا الله كثيرا} أي لا تلهكم التجارة ولا البيع عن ذكر الله، فإن أحباب الله وأهل المزيد من فضله لا يشغلهم شيء عن استحضار جلال ربهم والثناء عليه، كما جاء في القرآن الكريم: {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} ٣٦. وأولئك هم السعداء العقلاء: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك. } ٣٧ واستديموا طاعته، وشكره ان هداكم لعبادته، والاستقامة على منهاجه وشريعته؛ قال سعيد ابن جبير: الذكر: طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح؛ {لعلكم تفلحون} لكي تدركوا ما تطلبون من حسنات الدنيا ويوم تبعثون، ورجاء أن تفوزوا وتربحوا في العاجلة والآجلة.

١١ - (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

{وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين (١١)}.

[عن مقاتل بن حيان يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، يعني: فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير] ٣٨ أخرجه أبو داود، وروى عنه نحوه القرطبي، وزاد: وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف، فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء، فأنزل الله عز وجل {وإذا رأوا تجارة أو لهو انفضوا إليها} فقدم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة، وكان لا يخرج أحد لرعاف أو أحداث بعد النهي حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم ثم يشير إليه بيده، فكان من المنافقين من ثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، وكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه مستترا به حتى يخرج، فأنزل الله تعالى: {. . . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا. } ٣٩ الآية. اه وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: قدمت عير مرة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا فنزلت: {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها}، {وتركوك قائما} ترك هؤلاء الذين استخفهم طلب الحاجات، واستعجلوا عقد الصفقات تركوا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائما؛ يقول العلماء، وفي هذا دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما، وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر ابن سمرة قال: كانت للنبي صلى الله عليه وسلم خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس؛ {قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة} وكأن بعض الذين انصرفوا عن خطبة النبي، ما خرجوا للشراء، وإنما للتلهي بمشاهدة الصفق في الأسواق، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر بأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، وما يبقى خير مما يفنى؛ والذي أعده المولى الشكور الودود لعمار المساجد، وأهل الاجتماع على الصلاة والذكر، ولكافة العابدين المحسنين خير من لهو اللاهين، وطلب ربح عاجل يذرون من أجله موعظة رب العالمين، [فيه وجهان: أحدهما- ما عند الله من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم، الثاني- ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم. . . {والله خير الرازقين} أي خير من رزق وأعطى، فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة] ٤٠. وقال ابن عطية: قدمت التجارة على اللهو ٤١ في الرؤية لأنها أهم، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس على الأبين- لأنه أقوى مذمة. {والله خير الرازقين} ربكم أكرم من يرزق. فاحرصوا على تقواه ييسر لكم أمركم ويرزقكم من حيث لا تحتسبون {إن الله هو الرازق ذو القوة المتين}. ٤٢

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٤٣ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٤٤؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٤٥.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٤٦، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٤٧، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٤٨ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٤٩. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٥٠، {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا

أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٥١.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٥٢، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٥٣، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٥٤ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٥٥، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٥٦؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٥٧.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥٨، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٥٩، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٦٠، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٦١، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٦٢؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٦٣ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٦٤ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٦٥، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٦٦، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٦٧، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٦٨ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.
وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٦٩: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٧٠، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٧١، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٧٢، {وإنه لحق اليقين} ٧٣؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٧٤، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٧٥.
ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٧٦ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٧٧ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٧٨، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات

وما في الأرض} ٧٩، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٨٠، فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.
وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٨١، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٨٢، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٨٣، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٨٤، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٨٥، {واتقوا الله ربكم} ٨٦، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٨٧، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٨٨،
{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٨٩، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٩٠، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٩١.
وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٩٢، ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٩٣، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٩٤. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٩٥، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٩٦، ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٩٧، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٩٨
وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٩٩، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ١٠٠، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ١٠١.
ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ١٠٢.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ١٠٣ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا

حتى تؤمنوا بالله وحده} ١٠٤.
وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ١٠٥، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٠٦، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٠٧، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١٠٨، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١٠٩، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١١٠، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١١١، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١١٢، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١١٣ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١١٤، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١١٥، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١١٦ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١١٧. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١١٨، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١١٩، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٢٠.
وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٢١، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٢٢، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٢٣ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٢٤ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٢٥، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٢٦، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٢٧، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٢٨، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٢٩.
فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٣ سورة المنافقون:

سورة المنافقون:
(٦٣) سورة المنافقون مدنية
وآياتها إحدى عشرة
كلماتها: ١٨٠، حروفها: ٧٧٦
١ - (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١)}

إذا أتى إلى مجلسك أهل النفاق الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم: نشهد ونقر ونؤكد أنك لمرسل من رب العالمين، وربك يعلم أنك رسوله حقا وصدقا، ويعلم أن المنافقين هم أكذب الخلق، إذ هم بنفاقهم {يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض} ١.

[قيل: معنى {نشهد} نحلف، فعبر عن الحلف بالشهادة. . {والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} أي فيما اظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم. . . وهذا يدل على أن الإيمان تصديق القلب، وعلى أن الكلام الحقيقي كلام القلب، ومن قال شيئا واعتقد خلافه فهو كاذب.] ٢.

٢ - (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

{اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢)}

جعلوا من حلفهم سترة يتسترون خلفها، وتقية يتقون بها ما يؤاخذ به الكافر وقال الضحاك: أي اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم جنة عن القتل أو السبي. . ومن هنا أخذ الشاعر قوله:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لصون دمائهم أن لاتسالا

فكرهوا الإسلام لمرض قلوبهم بالنفاق فزادهم الله مرضا {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} ٣، فإن هذا الزيغ والخداع أسوأ الأعمال، وجزاؤه أغلظ العقاب {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا} ٤.

يقول ابن كثير: أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الآثمة ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالا، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس. . . اهـ.

٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)

{ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣)}

إنما أركسهم الله وطبع على بصائرهم بسبب قولهم آمنا عند لقاء المؤمنين، {. . . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون} ٥، فنطقهم بالإيمان يعقبه أن ينشرحوا بالكفر صدرا {. . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. } ٦ فهم لا يعقلون عاقبة أمرهم، ولا يهتدون إلى ما فيه صلاح حالهم ومآلهم.

٤ - (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

}وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤)}.
وكل أهل الرؤية إذا أبصر هؤلاء المنافقين أعجبته صورهم وأشكالهم ولكنهم إذا نطقوا تبين للمصغى إليهم فراغهم كأنهم خشب مهملة لا نفع لها، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، ومن هلعهم وجبنهم وخبث ما في صدورهم يترقبون أن ينكشف زيفهم ويهتك سرهم ويفتضح أمرهم فكلما نزل الوحي ظنوا أنه أذن بإهلاكهم. هم الأعداء الألداء فأعدى أعدائك من يضحك لك فتظنه مصافيا، وتحت ضلوعه حقا دفين، لعنهم الله وخذلهم وأخزاهم، كيف يصرفون عن الحق وقد تبين لهم؟. .
ولأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن في بناء أو دعامة بشيء آخر، وجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم، وفي مثلهم قال الشاعر:
في شجر السر ومنهم شبه له رواء وما له ثمر
٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)
}وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥)}.
وحين يدعى الذي تولى كبر النفاق ليذهب إلى النبي ليسأل الله له الغفران يلوى رأسه استهزاء ويتمادى في الصدود عن الرشد ويقيم على غروره وخيلائه واستكباره. [فإن قيل: كيف أخبر عنه- عن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي- بفعل الجماعة؟ قلنا: العرب تفعل هذا إذا كانت عن الإنسان] ٧.
٦ - (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)
}سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٦)}.
الاستغفار وعدم الاستغفار لهم سواء، فإن الله يغفر لمن يشاء ممن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، لكن الذي يستحب العمى على الهدى، ويقيم على الضلالة أبدا، لن يتقبل منه ولا فيه استغفار مستغفر؛ ومن فسق عن أمر ربه، وسعى في إطفاء نوره والصد عن سبيله فالطاغوت وليه يخرج من النور إلى الظلمات.
٧ - (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ)
}هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧)}.
تواصى المنافقون ودعوا إلى التضييق على المسلمين، وسد طرق العيش على الفقراء والمهاجرين حتى يفتنوا ويتركوا هذا الدين.
فهل يتدبر أهل القرآن ما عملهم ربهم من وجوه مكر عدوهم بهم وإن حربهم في أرزاقهم، وحرمان بعضهم، أمر تواصى به أعداؤهم كيما يردوهم عن دينهم؟. . .
ولكن الله ولي الذين آمنوا ثم استقاموا، ومن يتول الله فإن له الحياة الطيبة، فإن مولاه غني له خزائن الخير في الأرض وفي السماء، ولكن أهل الزيغ والنفاق يمد الضلال على بصائرهم الجهالة والحيرة، فلا يدرون أن الله مع الذين اتقوا، {. . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب} ٨، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا} ٩.
٨ - (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)
}يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨)}
يقول زعيم النفاق- عبد الله بن أبي- محرضا ومتوعدا أو مستهزئا: ليطردن- وهو الأعز بزعمه- الأذل- يعني رسول الله ومن معه. . . لعن الله النفاق وأهله. وليعلم كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن العزة لله جل علاه، ورسوله عليه صلوات الله، وللمؤمنين جند الله وحزب الله. ولكن هيهات أن يعقل الضلال ويعلموا: {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون} ١٠.
}إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون} ١١.

في صحيح البخاري عن زيد بن أرقم أنه قال: كنت في غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولو رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمى، فذكره لنبي الله صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا أنهم ما قالوا، فكذبني رسول الله عليه الصلاة والسلام وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال عمى: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومقتك، فأنزل الله: {إذا جاءك المنافقون} فبعث إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأ فقال: (إن الله صدقك يا زيد).

وفي رواية لأحمد والشيخين- بزيادة: فدعاهم رسول الله ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم.

أخرج الترمذي وصححه، وجماعة عن زيد بن أرقم قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا ناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقونا إليه فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه، فأتى رجل من الأنصار أعرابيا فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجرا ففاض فرفع الأعرابي خشبة فضرب رأس الأنصاري فشجه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. . اهـ.

صح من رواية الشيخين وغيرهما عن جابر بن عبد الله أنه لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ابن أبي قام عمر رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (دعه حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه).

٩ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

{يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩)}

يحذر الله العباد أن تشغلهم رعاية مصالح العيال، وطرائق تثمير المال، والاستمتاع بالزخارف عن الوفاء بأمانات الله، وذكره وعبادته، فمن أنساه المتاع ما أوجب ربه عليه فقد أهلك نفسه، وكأنما وتر ماله وأهله، ولعل من حكمة المولى الخبير أن توعد بالخسران دون تقييد لكي يكون حجة على الغاوين قبل أن يحل بهم البوار في الدنيا ويوم الدين، وإنها لسنة رب العالمين: {كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون} ١٢.

١٠ - (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

{وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين (١٠)}

جودوا أهل اليقين بالله، وابذلوا مما أعطاكم ربكم في كل ما أذن به المولى ورضي، فإن النفقة في الطاعة والبر إنما هي تجارة مع الله لن تبور، وربحها عز ونصر وخلاف في العاجل، ومغفرة وأجر كبير في الأجل- وكأنما ترشد الآية الكريمة إلى البذل الذي لا إفراط فيه ولا تفريط حيث جاء الأمر بالإنفاق مما رزقنا، ومن للتبعيض أي بعض ما رزقتم، ولم يأت الأمر: أنفقوا ما رزقناكم، ويوضح هذا قول الحق- تبارك اسمه-: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} ١٣، وقوله عز وجل: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} ١٤؛ ومن قدم على الله ولا حسنة له، أو عاش كزا بخيلا مناعا للخير فسيطوق ما بخل به يوم القيامة، بل يعذب في دنياه قبل أخراه بهلاك ما جمع، أو ينزع الله تعالى البركة منه، فإذا أحس بدنو أجله وحضرته سكرات المنية تمنى أن يطول عمره ليتدارك ما فاته ويبسط يده بالمعروف وليوفي أصحاب الحقوق حقوقهم، وهيهات: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون}. ١٥

١١ - (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

{ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)}
ومحال إلى الأبد أن يتأخر عبد عن تلبية داعي الموت، ولن يمهله الملك الموكل به لحظة فوق ما قدر الله من عمره، والملك الكبير المتعال، والحي القيوم بالغة خبرته، نافذة إرادته، محيط علمه بكل أعمال العباد وأقوالهم وأحوالهم، عالم بكل معلوم صغر أو كبر، غاب أو شوهد، فمجازيهم-جل شأنه- بما هم له أهل، ويفيض على أحبابه المزيد من الفضل.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ١٦ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ١٧؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ١٨.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٩، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٢٠، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٢١ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٢٢. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٣؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٢٤.
ومن آيات المحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٢٥، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٢٦، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٢٧ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٢٨، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٢٩؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٣٠.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٣١، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٣٢، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٣٣، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلي ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٣٤، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٣٥؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو

الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣٦ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٣٧ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٣٨، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٣٩، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٤٠، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٤١ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٤٢: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٤٣، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٤٤، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٤٥، {وإنه لحق اليقين} ٤٦؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٤٧، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٤٨.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٤٩ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٥٠ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٥١، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٥٢، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٥٣؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٥٤، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥٥، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٥٦، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٥٧، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٥٨، {واتقوا الله ربكم} ٥٩، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٦٠، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٦١،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٦٢، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٦٣، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٦٤.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٦٥؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٦٦، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٦٧. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٦٨، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٦٩؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال:

}خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين{ ٧٠، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: }إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.{ ٧١

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: }يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير{ ٧٢، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: }إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون{ ٧٣، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: }يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين{ ٧٤.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: }لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه{ ٧٥.

}يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق{ ٧٦ }قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده{ ٧٧.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد نتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: }يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد{ ٧٨، }. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم{ ٧٩، }. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير{ ٨٠، }. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون{ ٨١، }فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد{ ٨٢، }قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون{ ٨٣، }زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير{ ٨٤، }يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير{ ٨٥، }. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير{ ٨٦ }والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير{ ٨٧، }إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير{ ٨٨، }كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم{ ٨٩ }يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون{ ٩٠. وما سمي اليوم الآخر }يوم التغابن{ و }الحاقة{ إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة }المعارج{: }سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة{ ٩١، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: }يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل

حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ٩٢، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ٩٣.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ٩٤، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ٩٥، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٩٦ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ٩٧ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ٩٨، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ٩٩، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٠٠، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٠١، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٠٢.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٤ سورة التغابن:

سورة التغابن:
(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشر
كلماتها: ٢٤٠؛ حروفها: ١٠٧٠.
١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (١)}

يتابع ويجدد التنزيه للمعبود بحق وتقديسه كل ما في السماوات وكل ما في الأرض، والسماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن وكل موجود، وله - تبارك اسمه- ملك كل شيء، والحمد على الحقيقة لربنا - دون سواه- إذ هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها، واقتداره -جل ثناؤه- تام لا يعجزه مراد ولا يتعذر عليه.

٢ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

{هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (٢)}

مولانا الكبير المتعال هو وحده -لا غيره- الخلاق الذي أوجدكم، فبعض منكم مقيم على جحود فضل الحميد المجيد، وبعض منكم مصدق مستيقن بربه وعهده وميثاقه ورسالاته وكل ما يجب الإيمان به وأداء أماناته، والله جل علاه يرى أعمال الكل، فليحرص العاقل على

أن يراه ربه على كل مرضية.
مما نقل عن الطيبي: الفاء. . . للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة، كاللام في قوله تعالى: {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. } ١، وهي كالفاء في قوله تعالى: {وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون} ٢.
مما نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن: وقال الزجاج- وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة-: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. اه ٣.
٣ - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)
{خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (٣)}
ربنا وخالقنا هو كذلك- وحده- الذي خلق السماوات بطباقها وملائكها وشموسها ونجومها وفلكها، وخلق الأرض بيابسها ومائها وسهلها وجبالها، ونبتها وحيوانها، وأقواتها وأرزاقها، وإنسها وجنها، وهوائها وما يحيط بها، خلق ذلك حقا دون شك ولا شراك، وبهذا الحق المطابق للصواب والحكمة؛ وميز الآدمي وكرمه: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} ٤، وسلطه على ما في الكون من عظيم ما برأ وذرا: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه. } ٥. كما حسن تقويمنا، وجمل أشكالنا على أحسن تصوير وأبدعه؛ وإليه المرجع والمآب. وحسبك من بديع صنع ربك أن جعلنا أبدع الحيوان وأبهاه صورة [بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور؛ ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب. .] ٦.
٤ - (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
{يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (٤)}.
علمنا مولانا الحق أن قدرته محيطة، وأن علمه شامل، {وهو على كل شيء قدير} {. . . والله بما تعملون بصير} ثم يبين لنا أن علمه أدق العلوم مع إحاطته: {يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون. } فما يكون من قول أو عمل في الخلوة أو الجلوة، نبديه أو نخفيه إلا والله يعلمه، بل ويصل علم البارئ جل وعلا إلى ما هو أخفى من السر إلى الوساوس والخواطر، وحديث النفس وطوايا الصدر.
٥ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
{ألم يأتيكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥)}.
{وبال} فساد، وثقل وشدة ومكروه.
ألم تعلموا خبر الكفار السابقين وكيف جازاهم الله بكفرهم بلاء شديدا، ونكالا بفسادهم ثقل عليهم- عجل لهم ذلك في حياتهم الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع يكوي ويشوي- والاستفهام تقريري، فهو وعد للمؤمنين بأن الله مخزي الكافرين، ووعيد للجاحدين لينذروا به من الوقوع في سخط الجبار الواحد القهار والتعرض لبأسه عاجلا وآجلا.
[وعبر عن كفرهم بالأمر للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ٧.
٦ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
{ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد (٦)}.
ذلك الجزاء الذي ينالونه دنيا وآخرة بسبب إعراضهم عن سبيل الله، وكفرهم برسالاته، وتكذيبهم رسله، وجحودهم أن يبعث الله بشرا رسولا، مع ما جاءت به الرسل من آيات ربنا ومعجزاته الواضحات الشاهدات بصدق المرسلين- أعم من أن تكون آيات متلوة، أو علامات في الآفاق وفي أنفسهم مرئية وحسية تشهد بأن ما يدعون إليه صلوات الله عليهم هو الحق- وربنا غني لن يضره إعراض الكافرين، ولن ينفعه انقياد الطائعين، فهو المحمود بلسان الحال مهما قل الحامدون بلسان المقال.
وقديما سارع رؤساء الكفر من قوم نوح إلى تكذيبه بالحجة الداحضة وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق {فقال الملأ الذين كفروا من

قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة} ٨، ومن بعدهم قال رؤساء الضلال لقومهم ما حكاه القرآن عن قيلهم: {ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون} ٩. ثم قال الملأ من قوم فرعون صدا عما جاء به موسى وهارون: {أنؤمن لبشرين مثلنا} ١٠. وقال كفار مكة- يشككون في صدق النبي الخاتم: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك} ١١، فأقام الله تعالى حجته وبين سنته- تبارك اسمه-: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق} ١٢. وما يجحد بصدق الرسل إلا كل ختال كفور.

[وارتفع {أبشر} على الابتداء. وقيل بإضمار فعل، والجمع على معنى بشر، ولهذا قال: {يهدوننا} ولم يقل يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس، وواحده إنسان لا واحد له من لفظه. . {فكفروا} أي بهذا القول. وقيل: كفروا بالرسل وتولوا عن البرهان، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. {واستغنى الله} أي بسلطانه عن طاعة عباده، قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية] ١٣.

٧ - (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

{زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧)}.

ادعى الكافرون زورا أنهم لن يعودوا أحياء بعد موتهم، فأبطل القرآن ادعاءهم وأزهق افتراءهم، وأمر الرسول الكريم أن يبلغهم ومن يسمع أو يجيء بعدهم أن الله يبعث من القبور، ويخرجهم يوم النشور، ويلقى كل مكلف كتابه المنشور {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ١٤، والذي فطرنا أول مرة لا يعجزه أن يعيدنا- وهو أهون عليه- إذ الإعادة أسهل من الابتداء [وله المثل الأعلى].

[الزعم ادعاء العلم، وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل. . . ولما فيه من معنى العلم يتعدى إلى مفعولين، وقد قام مقامهما هنا {أن} المخففة وما في حيزها] ١٥.

مما أورد ابن كثير:

وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: {ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين}، والثانية في سورة سبأ: {وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم}، والثالثة هي هذه {. . قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم} اهـ.

٨ - (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

{فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨)}

فاستيقنوا بجلال ربكم وبأنه حق وقوله حق ووعده حق ولقاؤه حق وجزاؤه حق، وأطيعوه، وصدقوا رسوله الذي يبلغ دعوته واتبعوه، وقدسوا قرآنه والتزموه، فإنه تنزيل الحكيم البصير، وربكم بعمل كل عامل وبسره خبير.

٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

{وم يجمعكم ليوم ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (٩)}.

{التغابن} التناقض، يغبن بعض الناس بعضا يوم القيامة بنزول الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء وعكسه. وفي الصحيح: (ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة)؛ وفيه تهكم بالأشقياء {. . . إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين} ١٦.

واذكر يوم يجمع الله الأولين والآخرين وسائر المكلفين- من الملائكة والجن والناس أجمعين- في يوم مجموع له الخلق ومشهود، ذلك هو يوم يظهر غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، ومن يلق ربه وقد كان في دنياه مؤمنا عمل الصالحات

يذهب الله عنه الفضيحة بستر عيوبه، والعفو عن ذنوبه، ويسكنه روضات الجنات ومساكن طيبات تجري من حولها أنهار مختلفات، وهم يمكثون في هذا النعيم لا يرتحلون عنه ولا يخرجون منه، وذلك أعظم الربح والفلاح.
مما قال الراغب: و {يوم التغابن} يوم القيامة لظهور الغبن في المبايعة المشار إليها بقوله تعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. } ١٧، وقوله سبحانه: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. } ١٨، وقوله عز وجل: {الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا} ١٩؛ فعلم أنهم قد غبنوا فيما تركوا من المبايعة، وفيما تعاطوه من ذلك جميعا. اهـ.
مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: ويجوز أن يفسر التغابن بأخذ المظلوم حسنات الظالم، وحمل الظالم خطايا المظلوم.
١٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير (١٠)}.
بعد أن بشرت الآية السابقة بثواب المؤمنين الصالحين، أنذرت هذه الآية الكريمة بعقاب المكذبين الكافرين، فمن كفر بالإيمان وكذب بالبرهان- من معجزات حسية أو آيات القرآن- فمصيرهم إلى النار، ويخلدون في الحسرات والبوار، وما أتعس مصير الفجار المفسدين الكفار!
١١ - (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
{ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (١١)}.
ما نزلت بلية وحلت بمن حلت به إلا بعلمه سبحانه وقضائه. [أي ما أصاب أحد مصيبة على أن المفعول محذوف، و {من} زائدة، و {مصبية} فاعل، وعدم إلحاق التاء في مثل ذلك فصيح. . وقد نصوا على أنها تستعمل فيما يصيب العبد من الخير وفيما يصيبه من الشر. .] ٢٠.
[وقيل: سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا، لصانهم الله عن المصائب في الدنيا، فبين الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أفعل، يقتضي هما أو يوجب عقابا عاجلا أو آجلا فبعلم الله وقضائه] ٢١.
{ومن يؤمن بالله} وكل مستيقن بسلطان ربنا وتدبيره وحده الأمر {يهد قلبه} ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فإذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، {والله بكل شيء عليم} وعلم ربنا محيط بكل شيء ظاهر أو باطن فلا يعزب ولا يغيب عنه حال من رضى، ولا حال من سخط.
قال جار الله: يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. اهـ.
١٢ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)
{وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢)}.
في الآية الثامنة من هذه السورة الكريمة أمر الله بالإيمان به وبرسوله وبكتابه، وفي هذه الآية أمر بطاعته سبحانه وطاعة رسوله، فكأن الأمر الأول للتصديق واليقين العقلي القلبي، وكأن هذه للانقياد الحسي العملي، فإن أعرضتم عن إجابة الدعوة واتباع الداعي فليس على مصطفانا ومبعوثنا إلا أن يبين للخلق ما نزل إليهم، ويبلغهم عهد ربكم وميثاقه، [فقد أعذر إليكم بالإبلاغ، والله ولي الانتقام ممن عصاه وخالف أمره وتولى عنه] ٢٢.
١٣ - (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
{الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل كل المؤمنون (١٣)}.
ربنا الخلاق الملك الحميد هو المعبود دون سواه، فليتخذه المؤمن وكيلا فإنه نعم المولى ونعم النصير، وحسبك هذا الوكيل، المتفرد بالصمدية الذي لا يستحق العبادة غيره. [وإظهار الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة التوكل أو الأمر به، فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية. .
ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمل في الحث على التوكل أعظم من هذه الآية، لإيمائها إلى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن. .] ٢٣.

١٤ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

{يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم (١٤)}.

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين يعلمهم أن بعض الأزواج وبعض الأولاد قد يفعلون فعل العدو، فرب زوج خاصمت زوجها ففجرت في خصومته، ورب رجل آذى امرأته وأهلكها، وقد يعق الأولاد ويخونون آباءهم، وربما كانت عداوتهم تحريض وليهم من زوج أو أب على المعاصي والردى، أو تعويقه وصده عن البر والهدى، فلنحذر هؤلاء أن يزينوا لنا سوء العمل، ولنحرص على أن نترك عقوبتهم على آثامهم إذا تابوا أو تسامحنا فيما يقبل المسامحة، ونصفح عنهم فنعرض عن تعبيرهم، ونغفر فنستر أوزارهم حتى لا يفضحوا بها أو يقيموا عليها- إذا فعلنا ما عرضته الآية الكريمة من عفو وصفح ومغفرة فإن ربنا يجازينا من جنس أعمالنا، ويتفضل علينا، إنه يغفر الذنوب جميعا، ورحمته وسعت كل شيء.

[وقال غير واحد: إن عداوتهم من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يحملونهم على السعي في الاكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم: (يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك)] ٢٤.

أخرج الترمذي والحاكم وصححاه، وابن جرير، وغيرهم عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية- قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى الآية.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له: أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه فآمن، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتترك مالك وأهلك؟ فخالفه فهاجر، ثم قعد على طريق الجهاد فقال له: أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك؟ فخالفه فجاهد فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة).

[كما أن الرجل يكون له ولده ٢٥ وزوجه عدوا، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوا بهذا المعنى بعينه، وعموم قوله: {من أزواجكم} يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. . . والله أعلم. . . والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم]} ٢٦.

١٥ - (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

{إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥)}.

ما الأموال والأولاد إلا اختبار، فمن لم يحمله حب ماله وزوجه وولده على الفسوق والكفر والعصيان فقد فاز، وله البشرى بما أعد الله لمن أحبه من نعيم يبقى وملك لا يبلى، في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ وأما من غلب حب هؤلاء وغيرهم على حب الله والوفاء بعهده فقد خسر في أولاه وأخراه، يقول الله جل علاه: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٢٧.

١٦ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

{فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١٦)}.

فاحرصوا على مرضاة ربكم قدر استطاعتكم، أطيعوه ولا تخالفوا عن أمره، واسمعوا ما وعظكم به، واستجيبوا لما دعاكم إليه، وابذلوا وتصدقوا وأنفقوا تنالوا خيرا لأنفسكم في العاجل والآجل، ويكن خير لكم- وإنما أفرد الإنفاق مع دخوله فيما سبق الأمر به من التقوى والسمع والطاعة للتخصيص بعد التعميم ولأهمية شأنه بدليل ما جاء بعد- ومن وقاه الله الشح والبخل فهو الرابح الفائز بأعظم فوز.

أقول: اختار أبو عبد الله القرطبي في الآية رأيا خاصا في فهم أولها بينما اختار في فهم آخرها رأيا معمما، يقول رحمه الله: فكذلك معنى

قوله: {فاتقوا الله ما استطعتم} في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. اه. ثم اتجه إلى التعميم في الإنفاق حيث نقل: وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه. قال ابن العربي: وإنما أوقع قائل هذا قوله: {لأنفسكم} وخفي عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة، هي نفقة الرجل على نفسه، قال الله تعالى: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها} ٢٨. وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه؛ والصحيح أنها عامة. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: عندي دينار. قال: (أنفقه على نفسك) قال: عندي آخر. قال: (أنفقه على عيالك) قال: عندي آخر. قال: (انفقه على ولدك) قال: عندي آخر. قال: (تصدق به) فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصل في الشرع.

١٧ - (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

{إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم (١٧)}.

رفع ربنا – تبارك اسمه- قدر المؤمنين البررة فجعل نفقتهم في أي شأن لله تعالى فيه رضا ولنا فيه خير كأنما هي قرض يضعه المنفق في يد مولاه ثم يرد إليه مزيدا إلى أضعاف كثيرة حين يكون أحوج إلى مثقال ذرة من خير {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم ٢٩.} وربنا يتقبل القليل ويعطينا عليه الأجر الجميل والثواب الجزيل، ومن يخطئ لا يعاجله البر الرحيم بالعقوبة لعله يتذكر أو يخشى فيتوب ويستعتب.

١٨ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

{عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم (١٨)}

ربنا محيط علمه بما حضر وما غاب. لا يخفى عليه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو سبحانه بالغ القدرة وله العزة يغلب ولا يُغلب، وكامل الحكمة يقضي ويدبرها ما هو خير وصواب وحق.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٣٠ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٣١؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٣٢.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٣٣، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٣٤، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٣٥ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٣٦. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٧؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٣٨.

ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٣٩، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

البصر خاسئا وهو حسير} ٤٠، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٤١ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٤٢، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٤٣؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٤٤.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٤٥، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٤٦، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٤٧، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٤٨، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٤٩؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٥٠ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٥١ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٥٢، واستصحب – عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٥٣، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٥٤، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٥٥ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٥٦: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٥٧، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٥٨، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٥٩، {وإنه لحق اليقين} ٦٠؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٦١، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٦٢.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٣ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٦٤ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٥، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٦٦، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٦٧؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٦٨، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٦٩، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٧٠، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}

٧١، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٧٢، {واتقوا الله ربكم} ٧٣، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٧٤، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٧٥،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٧٦، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٧٧، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٧٨.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٧٩؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٨٠، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٨١. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٨٢، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٨٣؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٨٤، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٨٥

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٨٦، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٨٧، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٨٨.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٨٩.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٩٠ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٩١.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد نتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٩٢، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٩٣، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول

حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٩٤، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٥، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٩٦، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٩٧، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٩٨، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٩٩، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٠٠ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٠١، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٠٢، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٣ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٠٤. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٠٥، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٠٦، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٠٧.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٠٨، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٠٩، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١٠ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١١١ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١١٢، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١١٣، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١١٤، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١١٥، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١١٦.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٥ سورة الطلاق:

سورة الطلاق:

(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة.
كلماتها: ١٤٧؛ حروفها: ١٠٧٠
١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

}يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١)}.

نادى الله الحكيم نبيه الكريم عليه الصلوات والتسليم ليعلم ويعلم الأمة شرع الله فيما يكون من خصومة بين المرء وزوجه، وحكم الطلاق وما يتصل به، فمن كان لا بد مطلقا فليجعل طلاقه في وقت يصلح بدءا للعدة- في طهر لم يجامعها فيه ولا في حيض قبله-

روى البخاري ومسلم ومالك والشافعي وغيرهم عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء). وأكملوا العدة ثلاثة قروء- أطهار من حيضات، أو حيضات- وراقبوا الله تعالى واحذروا غضبه على من تجاوز ما شرع له؛ ولا يحل للأزواج أن يخرجوا المطلقات قبل انقضاء عدتهن، كما لا يحل للمعتدة أن تخرج، ولا أن يأذن لها مطلقها في الخروج، لكن إذا كان خروجها لإقامة حد عليها فتخرج، أو لإفحاشها في القول والمعاشرة؛ أو ربما يكون المعنى: لكن خروجها أو إخراجها فحش واضح؛ هذه حدود الله التي حدها للناس ومن يتجاوزها فقد أضر بنفسه فأوقعها في بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، فإن المطلق ليعلم ماذا يكون؟ فربما صرف الله قلبه إلى حبها بعد بغض، وإلى ألفة بعد نفور؛ فإذا وقف عند حدود الله سهل عليه تدارك ما فات، أما إذا تجاوز فقد لا يستطيع تلافي الضرر لا برجعة ولا باستئناف نكاح.

٢ - (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

}فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢)}.

فإذا اقتربن من بلوغ نهاية العدة فإما أن تراجعوهن بإعادتهن إلى عصمتكم وعشرتكم الحسنة البرة المرضية، وإما أن تفارقوهن فراقا كريما ليس فيه ظلم ولا إضرار؛ واستشهدوا شهيدين من رجالكم إذا راجعتم أو طلقتم فإنه أنفى للريبة والتنازع [وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى: }وأشهدوا إذا تبايعتم{ ١ وقال الشافعي في القديم: أنه للوجوب في الرجعة؛ وزعم الطبرسي أن الظاهر إنه أمر بالإشهاد على الطلاق وأنه مروي عن أئمة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - وأنه للوجوب وشرط في صحة الطلاق] ٢.

وأدوا يا من استشهدتم شهادتكم بالحق خالصة لوجه الله الحق؛ وتلك الأحكام التي شرعت لكم- وتضمنتها الآيتان الكريمتان- يذكر بها ويستجيب لها من صدق يقينه بالله تعالى ولقائه وجزائه؛ ومن يراقب ربه السميع البصير الولي الشكور يذهب غمه ويفرج همه ويقه الكروب والذنوب، ويوفقه للطاعات وكل مرغوب.

٣ - (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

}ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسب- إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا (٣)}.

الله هو الرازق ذو القوة المتين، يعطي من يشاء بسبب وبدون سبب وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، فلا حرج على فضله سبحانه

أن يمنح التقى من باب لم يكن في تقدير العبد أو حسبانه، ومن يتخذ المولى القدير وكيلا فإنه تبارك اسمه نعم الوكيل يكفيه ويغنيه عمن سواه، فما فقد شيئا من وجد الله، وما وجد شيئا من فقده {. . . وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده} ٣ إن ربنا تبارك وتعالى يفعل ما يريد ولا يفوته مراد، وقد جعل سبحانه لكل شيء ميقاتا لا يستقدم عنه ولا يستأخر، ولا يتعجل- جل ثناؤه- بعجلة أحد.

[. . من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق). . وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات). . أسند جميعه الثعلبي رحمه الله في كتابه.

وروى الدارقطني - بسنده- عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ولا خلق الله شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا استثناء له وإذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه). . . . روى الدراقطني- بسنده- عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حالالان ووجهان حرامان، فأما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع، وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها، وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض أو يطلقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرحم على ولد أم لا. . {لعدتهن} يقتضي أنهن اللاتي دخلن ٤ بهن من الأزواج؛ لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها} ٥ وقوله تعالى: {وأحصوا العدة} يعني في المدخول بها، لأن غير المدخول بها لا عدة عليها، وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، ويكون بعدها كأحد الخطاب، ولا تحل له في الثلاث إلا بعد زوج. . . {لا تخرجوهن من بيوتهن} أي ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة ولا يجوز لها الخروج أيضا، لحق الزوج، إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء. وهذا لصيانة ماء الرجل. . . وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. . ٦} فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك. . . فبين أن الآية في تحريم الإخراج والخروج إنما هو في الرجعية. . لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأي في ارتجاعها مادامت في عدتها، فكأنها تحت تصرف الزوج في كل وقت. .] ٧.

أخرج أحمد والبيهقي وغيرهما والحاكم وصححه عن أبي ذر قال: جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتلو هذه الآية: {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب} ٨ فجعل يرددها حتى نعست ثم قال: (يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم).

٤ - (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

{واللائي يئسن منا لمحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٤)}.

بين الله تعالى عدة المطلقة التي تحيض فقال عز وجل: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء. } ٩، وبين - تبارك اسمه- في هذه الآية عدة من لا تحيض إما لصغرها وإما لكبرها فالتي لم تبلغ إذا طلقت وكذا التي بلغت سن اليأس وانقطع حيضها كلتاهما تعتد ثلاثة أشهر، وربما يكون معنى {إن ارتبتم} إن شككتم أو جهلتم وأما عدة المرأة الحامل فبوضع جنينها وولادته، ومن يتق ربه فينفذ شرعه، ويعظم أمره، ويرع أماناته ييسر الله تعالى له كل فوز وفلاح.

٥ - (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

{ذلك أمر الله أنزله- إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا (٥)}.

هذه أوامر الملك الكبير القوي القدير الذي لا يعصى أمره إلا سفيه شرير، وهي عهوده إليكم يا أهل الرشد والعقل البصير فمن وفى

بعهده ربه واستمسك بشرعه ستر الله عيبه وغفر ذنبه، وضاعف ثوابه وأجره.
٦ - (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

{أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتيضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له- أخرى (٦)}.

وصية من الله تعالى بمن كن زوجات أن يضمن لهن السكن والنفقة قدر الوسع والطاقة دون تكلف ما هو فوق المقدور والعرف الصحيح الذي تعارف عليه العقلاء والنظراء؛ ونهى المولى سبحانه أن تعامل بمضايقة ومضارة، وأمر أن تجرى عليها النفقة طالما هي حامل؛ وحين تلد إن أرضعت مولودها فلها أجر إرضاعه من غير غلو ولا بخس، فإن تشاححتم أو تغاليتم فستوجد مرضعة أخرى- وكأنه معاتبة للأم إن هي شحت بلبنها على ولدها-

[وقال نافع: قال مالك في قول الله تعالى: {أسكنوهن من حيث سكنتم} يعني المطلقات اللاتي بن من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهن وليست حاملا، فلها السكن ولا نفقة لها ولا كسوة، لأنها بائن منه لا يتوارثان ولا رجعة له عليها. وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تقضي عدتها. فأما من لم تبن منهن فإنهن نساؤهم يتوارثون، ولا يخرجن إلا أن يأذن لهن أزواجهن ما كن في عدتهن ولم يؤمروا بالسكنى لهن لأن ذلك لازم لأزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن، حوامل كن أو غير حوامل. وإنما أمر الله بالسكنى للاتي بن من أزواجهن مع نفقتهن، قال تعالى: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن} فجعل عز وجل للحوامل اللائي قد بن من أزواجهن السكنى والنفقة. قال ابن العربي: وبسط ذلك وتحقيقه أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها] ١٠.
٧ - (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

{لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسها إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا (٧)}.

أمر من المولى الحكيم بالإنفاق- في كل ما شرع الله، فلا إمساك ولا شح ولا بخل ولا كزازة- وليكن الإنفاق قدر ما يطبق المنفق، وما يتسع له حال، كما قال الله تعالى: {. . ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره} ١١ فمن وسع الله له رزقه فليوسع على نفسه وعلى من يعول ومن تلزمه نفقته- ومن بين هؤلاء المطلقات والمرضعات- ومن ضيق عليه الرزق فلينفق بقدر ماله القليل؛ لا يكلف الله أحدا من النفقة على نفسه وأهله والغير إلا ما أعطاه [لا يكلفه الله أن يتصدق وليس عنده ما يتصدق به، ولا يكلفه الله أن يزكي وليس عنده ما يزكي. . . لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني. .] ١٢. وليستبشر من ضيق عليه فإن الله سييسر الأمر ويجعل بعد الضيق سعة وبعد الفقر غنى. ولقد جاءت البشرى مؤكدة- والله يقول الحق- مكررة ليزداد اليقين: {فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا} ١٣. [وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم: (تقول لك المرأة أنفق علي وإلا فطلقني، ويقول لك العبد أنفق علي واستعملني- كلفني بما ترى من عمل- ويقول لك ولدك أنفق علي إلى من تلكني) فقد تعاضد القرآن والسنة وتواردا في شرعة واحد] ١٤.
٨ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

{وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساب شديدا وعذبناها عذابا نكرا (٨)}.

وكثير من البلاء تجبر أهلها وفسقوا عن أمر الله واستكبروا عن هدي رسله وسلكوا طريق الغي فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى؛ عذب أهل البلاد الطاغية في العاجل، وسيحل بهم الهوان يوم الحساب فذلك يومئذ يوم عسير.

مما نقل القرطبي: وقيل في الكلام تقديم وتأخير؛ فعذبناها عذابا نكرا في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف، والمسخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حسابا شديدا.
٩ - (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

{فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩)}.
فجنت جماعات العتو والاستكبار ثمار ما قدمت- وما أسوأها من ثمار- إذ الوبال قد يعني: وخم المرعى والمرتع، وقد يعني الثقيل الغليظ جدا، أو الفساد والشر والمضرة والشدة، وربما يعني الوجع المتتابع- وعاقبة هؤلاء الخسار والبوار والهلاك والدمار في الأولى والآخرة.
وجيء بلفظ الماضي {فذاقت} {وكان}، ومن قبل {فحاسبناها} {وعذبناها} لأن المنتظر من وعد الله ووعيده آت لا محالة، وما هو كائن فكأنه قد كان.
١٠ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)
{أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١)}.
مهما غلظ نكال الدنيا فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، فأطيعوا الله وخافوه واعبدوه يا أصحاب العقول الذين آمنتم وصدقتم بربكم وكلماته ورسالاته.
[{الذين آمنوا} منصوب بإضمار أعني بيانا للمنادي السابق أو نعت له أو عطف بيان.] ١٥
قد نزل عليكم ربكم كتابا فيه ذكركم، واتبعوا رسولا يتلو عليكم من كلمات الله وسور قرآنه وآياته ما يوضح لكم سبل السلام ومنهاج الرشاد فيهدي قلوب المؤمنين إلى الحق والخير، ويقيمهم على الطريق النيرة التي لا حيرة فيها ولا ضلال؛ ومن يستقم على هذا الصراط ويعمل البر والصالحات فإن مآواه أكرم الجنات، والخلود في أعلى الدرجات؛ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا.
روعي اللفظ أولا {ومن يؤمن} فجاء الجزاء {يدخله} ثم روعي المعنى فجاءت الحال {خالدين} ثم روعي اللفظ مرة ثانية {قد أحسن الله له}.
١١ - (رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]
{أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١)}.
مهما غلظ نكال الدنيا فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، فأطيعوا الله وخافوه واعبدوه يا أصحاب العقول الذين آمنتم وصدقتم بربكم وكلماته ورسالاته.
[{الذين آمنوا} منصوب بإضمار أعني بيانا للمنادي السابق أو نعت له أو عطف بيان.] ١٦
قد نزل عليكم ربكم كتابا فيه ذكركم، واتبعوا رسولا يتلو عليكم من كلمات الله وسور قرآنه وآياته ما يوضح لكم سبل السلام ومنهاج الرشاد فيهدي قلوب المؤمنين إلى الحق والخير، ويقيمهم على الطريق النيرة التي لا حيرة فيها ولا ضلال؛ ومن يستقم على هذا الصراط ويعمل البر والصالحات فإن مآواه أكرم الجنات، والخلود في أعلى الدرجات؛ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا.
روعي اللفظ أولا {ومن يؤمن} فجاء الجزاء {يدخله} ثم روعي المعنى فجاءت الحال {خالدين} ثم روعي اللفظ مرة ثانية {قد أحسن الله له}.
١٢ - (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)
{الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء

علما (١٢)}.
الله-دون سواه- هو الذي خلق السموات السبع. وخلق الأرضين مثلما خلق السماوات، فمن خلق يملك ما خلق، ومن ينفذ ملكه ومراده في هذه المخلوقات المرفوعات ذات الأقطار الشاسعات والفجاج المتراميات والعجائب المتقنات فخلق ما دون ذلك عليه أهون {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلف الناس. } ١٧ وتبارك الذي خلق وبرأ وذرأ وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعا؛ لتستيقنوا أن قدرة الله لا يعجزها شيء، فهو مثيب أحبابه لا محالة، مذل أعداءه؛ وعين اليقين كذلك أن علمه- تبارك اسمه- محيط بما ظهر وما بطن، وبكل مشهود وغائب، وبكل بر وفاجر، وبكل عات وخاشع، ليجزي الذين أشاءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ١٨ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ١٩؛ وقد تتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٢٠.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٢١، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٢٢، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٢٣ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٢٤. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٥؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٢٦.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٢٧، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٢٨، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٢٩ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٣٠، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٣١؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٣٢.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٣٣، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٣٤، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٣٥، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٣٦، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا

وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٣٧، وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣٨ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٣٩ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٤٠، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٤١، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٤٢، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٤٣ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٤٤: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٤٥، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٤٦، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٤٧، {وإنه لحق اليقين} ٤٨؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٤٩، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٥٠.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٥١ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٥٢ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٥٣، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٥٤، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٥٥؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٥٦، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥٧، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٥٨، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٥٩، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٦٠، {واتقوا الله ربكم} ٦١، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٦٢، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٦٣،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٦٤، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٦٥، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٦٦.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٦٧؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٦٨، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٦٩. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه-

{لينفق ذو سعة من سعته. } ٧٠، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٧١؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٧٢، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٧٣

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٧٤، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٧٥، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٧٦.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٧٧.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٧٨ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٧٩.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٨٠، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٨١، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٨٢، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٨٣، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٨٤، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٨٥، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٨٦، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٨٧، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ٨٨ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ٨٩، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ٩٠، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٩١ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ٩٢. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في

سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ٩٣، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ٩٤، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ٩٥.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ٩٦، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ٩٧، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٩٨ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ٩٩ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٠٠، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٠١، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٠٢، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٠٣، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٠٤.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٦ سورة التحريم:

سورة التحريم:
(٦٦) سورة التحريم مدينة
وآياتها اثنتا عشرة
كلماتها: ٢٤٩؛ حروفها: ١٠٦٠
١ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١)}

عتاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: إذ خالف الأولى وحرم على نفسه ما لم يحرمه المولى عليه من أجل أن يرضي بعض نسائه ولا يغضبهن؛ وربنا عظيم المغفرة والستر والصفح عمن ألم بشيء ثم استغفر منه وأناب، واسعة رحمته- تبارك وتعالى- فلن تضيق رحمة البر اللطيف الولي الشكور بعبد من عباد الرحمن.

روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب

عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلوات الله عليه وسلامه- فلتقل إني أجد منك ريح مغافير ١، أكلت مغافير؟، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: (لا بل شربت عسلا عند زينب ولن أعود).
[وقد زل الزمخشري ٢ ههنا كعادته فزعم أن ما وقع من تحريم الحلال المحظور، لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام، وقد شن ابن المنير في الانتصاف الغارة في التشنيع عليه فقال ما حاصله: إن ما أطلقه في حقه صلى الله عليه وسلم تقول وافتراء، والنبي صلى الله عليه وسلم منه براء، وذلك أن تحريم الحلال على وجهين: الأول اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل في الحرام، محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلا، والثاني- الامتناع من الحلال مطلقا أو مؤكدا باليمين، مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف وحلال محض، ولو كان ترك المباح والامتناع منه غير مباح لاستحالت حقيقة الحلال، وما وقع منه صلى الله عليه وسلم كان من هذا النوع، وإنما عاتبه الله تعلى عليه رفقا به وتنويها بقدره وإجلالا لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على إلف من لطف الله تعالى به. . .] ٣.
٢ - (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)
{قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم (٢)}
تحققوا واعلموا أن الله قد شرع لكم التحلل من الأيمان إن حلفتم ثم أردتم استباحة المحلوف عليه، فكأن اليمين عقد والكفارة حل، فإذا كان قد حلف فله أن يعود إلى ما حلف عليه إذا كفر، وإن لم يكن قد حلف فلا شيء عليه إذا أراد العود، والله سيدكم ومطاعكم ووليكم ويزيل الحظر فيما تحرمونه على أنفسكم، وهو المحيط علمه بكل الأمور، المدبر لكل شيء وفق الحكمة والإتقان.
٣ - (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)
{وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣)}
في رواية للبخاري عن عبيد بن عمير عن عائشة زيادة على الرواية التي أوردتها في تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وفيها: قال: صلى الله عليه وسلم- (لا ولكن شربت عسلا ولن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدا).
فكأن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لزوجته أم المؤمنين- رضي الله عنها- حديث شرب العسل استكتمها الخبر وأبلغها إياه سرا دون أن يعلم غيرها من سائر نسائه- ربما لأنه صلى الله عليه وسلم مع حرصه على مرضاة زوجاته لا يحب شيوع ذلك- لكنها أخبرت بما كان بينها وبين النبي صلوات الله عليه من حديث فأوحى إليه من ربه أن قد تحدثت التي استكتمها بما دار بينكما، فعاتب القائلة على بعض ما باحت به، ولم يعاتبها على البعض الآخر- تكرما منه عليه الصلاة والسلام- فكأنها تريد أن تستوثق هل فضحتها التي سمعت منها فقالت: من أخبرك؟ فعلمها أنه الله الذي لا تخفى عليه خافية، الخبير الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أمر في الأرض ولا في السماء.
يقول علماء اللغة: [نبأ] الأول تعدى إلى مفعول، و {نبأ} الثاني تعدى إلى مفعول واحد، لأن نبأ وأنبأ إذا لم يدخلا على المبتدأ والخبر جاز أن يكتفي فيهما بمفعول واحد وبمفعولين، فإذا دخلا على المبتدأ والخبر تعدى كل واحد منهما إلى ثلاثة مفعولين. ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث، لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل فلا يقتصر دونه، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر.
٤ - (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)
{إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤)}
التفات من الغيبة إلى الخطاب-ففي الآية الكريمة السابقة {. . إلى بعض أزواجه. } {فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا. } - يعاتب المولى جل ثناؤه زوجتي النبي اللتين أغضبتاه، ويعلمهما أنه سبحانه غفار لمن تاب، فإن تبتما إلى الله تقبل توبتكما فقد مالت عن الأليق

قلوبكما بحملكما النبي على أمر لا يحبه، وإن تتعاونا على ما يسوء رسولنا فإني أول نصير له، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة بعد نصرتي له كلهم ظهير معين؛ [فكأنه قيل: فإن تظاهرا عليه لا يضر ذلك في أمره فإن الله تعالى هو مولاه وناصره في أمر دينه وسائر شؤونه على كل من يتصدى لما يكرهه {وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك} مظاهرون له ومعينون إياه كذلك. . .] ٤.
في صحيح مسلم عن ابن عباس مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ٥، فما أستطيع أن أسأله هيبة له ٦، حتى خرج حاجا فخرجت معه، فلما رجع فكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين! من اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة. قال فقلت له: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك. قال فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فسلني عنه، فإن كنت أعلمه أخبرتك.
وفيه عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل نبي الله صلى الله عليه وسلم نساءه. قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون ٧ بالحصى ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه- وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب- فقال عمر: فقلت لأعلمن ذلك اليوم. قال فدخلت على عائشة فقلت: يا ابنة أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقالت مالي ومالك يا بن الخطاب! عليك بعيبتك ٨! قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم! والله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت هو في خزانته في المشربة ٩. فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله قاعدا على أسكفة المشربة ١٠ مدل رجليه على نقير من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر، فناديت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلي فلم يقل شيئا. ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي فأومأ إلي أن رقه ١١؛ فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره؛ وإذا الحصير قد أثر في جنبه فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بقبضة من شعير نحو الصاع ١٢، ومثلها قرظا ١٣ في ناحية الغرفة؛ وإذا أفيق ١٤؛ معلق- قال- فابتدرت عيناي. قال: (ما يبكيك يا ابن الخطاب)؟ قلت: يا نبي الله، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها: إلا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: (يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا)؟ قلت: بلى. قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت يا رسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت- وأحمد الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله عز وجل يصدق قول الذي أقول، ونزلت هذه الآية ١٥، آية التخيير {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن}، {. . . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرا} وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: يا رسول الله أطلقتهن؟ قال: " لا " قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: " نعم إن شئت ". فلم أزل أحدثه حتى تحسر ١٦ الغضب عن وجهه، وحتى كشر ١٧ فضحك، وكان من أحسن الناس ثغرا. ثم نزل نبي الله صلى الله عليه وسلم ونزلت؛ فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده. فقلت: يا رسول الله إنما كنت في الغرفة تسعا وعشرين قال: (إن الشهر يكون تسعا وعشرين) ١٨ فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. ونزلت هذه الآية: {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو

الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. { ١٩ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله آية التخير.

٥ - (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

{عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا (٥)}

اعلمن أنه لو طلقكن النبي فسيزوجه الله تعالى بأفضل منكن حيث لا يغضبنه، منقادات لأمر الله-تبارك اسمه - ورسوله، مصدقات بكل ما يوحى إليه مطيعات خاضعات لشرع ربهن، راجعات إلى هدى الله ونبيه، مقدسات لله ناهضات بعبادته متمات لها، كثيرات الصيام والقيام والاستغراق في عمل القربات والبر والصالحات، منهن ثيب ومنهم بكر.

٦ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

{يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦)}.

يحذر الله تعالى المؤمنين أن يغفلوا عن وقاية أنفسهم وأهلهم عذاب النار التي تتقد بالمعذبين وبالحجارة الصماء، ويحرسها خزنة من الملائكة الأقوياء الذين لا تأخذهم بالمجرمين رقة ولا هوادة، ولا يفرطون فيما يأتيهم من أمر ربهم، فمن قضى الله فيه أن يسعر في النار ويكوى ويشوى جلده فإن القوامين على جهنم ينفذون أمر ربنا كاملا غير منقوص.

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قو أنفسكم ومروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم. وقال علي رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قو أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهلكم بوصيتكم.

[. فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية. ففي صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم). . . فيعلمه الحلال والحرام، ويجنبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام. . . وقال عليه السلام: (ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن) وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم (مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع) خرجه جماعة من أهل الحديث. وهذا لفظ أبي داود. . . وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوتر يقول: (قومي فأوتري يا عائشة). وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فإن لم تقم رش وجهها بالماء رحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء). ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (أيقظوا صواحب الحجر). . . فعلينا أن نعلم أولادنا وأهلينا الدين والخير، وما لا يستغني عنه من الأدب.] ٢٠.

٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

{يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون (٧)}

وتشتد حسرات المعذبين حين يختم على أفواههم فلا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، فإذا أذن لهم في وقت وقالوا ما حكاه عنهم القرآن: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٢١ ترد عليهم الملائكة: {اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون. } ٢٢ فليس بعد العمر من مستعتب {. . أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير} ٢٣. كانت الدنيا دار عمل وامتحان وابتلاء، وهذه الآخرة دار الثواب والجزاء، وما ظلمكم ربكم ولكن كنتم أنفسكم تظلمون فمن الآن تحصدون ما زرعتم وتجنون ثمرة ما قدمتم، وكأن هذه الآية من جملة قول الملائكة لمن في النار.

٨ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا

يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

{يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير (٨)}

يا أهل التصديق واليقين بالله ووحيه ارجعوا إلى طريق ربكم إن مالت بكم عنه خطيئة أو سيئة ولتكن رجعتكم مصحوبة بالندم على ما فرط منكم وبالعزم على عدم التفريط في عهد الله وميثاقه، فإن لمن تاب منكم أن يستر الله ذنوبه فلا يفضحه بها ولا يؤاخذه عليها ويسكنه دار النعيم في جنات نضرات موفورات الماء {. . فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات} ٢٤ ويوم يؤذن بكم إلى هذا النعيم المقيم ستشهدون المزيد من التكريم فتسيرون في آثار موكب النبي العظيم، والنور يضيء بين أيديكم ويشع من أكفكم، وتضرعون إلى ربكم أن يتم نوركم، ويصفح ويستر مخالفاتكم، فإن قدرته لا يعجزها شيء.

[. . وقال الكلبي: التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود. . . وقال أبو بكر الدقاق المصري: التوبة النصوح هي: رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات. . . قال العلماء: الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو، إما أن يكون حقا لله أو للآدميين؛ فإن كان حقا لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها، وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطا في الزكاة؛ وإن كان ذلك قتل نفس بغير حق فأن يمكن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوبا به، وإن كان قذفا يوجب الحد فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوبا به، فإن عفى عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص؛ وكذلك إن عفى عنه في القتل بمال فعليه أن يؤديه إن كان واجدا له، قال تعالى: {. فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان. } ٢٥. وإن كان ذلك حدا من حدود الله – كائنا ما كان- فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. . . فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه والخروج عنه- عينا كان أو غيره إن كان قادرا عليه، فإن لم يكن قادرا عليه فالعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه، وإن كان أضر بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتي فإنه يزيل ذلك الضرر عنه ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب. . .] ٢٦.

٩ - (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

{يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير (٩)}

أمر النبي صلى الله عليه وسلم – وأمته تابعة له- ببذل الجهد ومقاومة الغي الذي ارتضاه الكفار فيجالدون بالسلاح، والغدر الذي ارتضاه المنافقون فيجادلون بالحجة، دون هوادة في معاملتهم مادام الرفق قد بلغ مداه، هذا جزاؤهم في الدنيا، ومصيرهم في الآخرة عذاب جهنم وبئس المرجع وما أسوأه من منقلب.

[وحكى الطبرسي عن الباقر أنه قرأ- جاهد الكفار بالمنافقين- وأظن ذلك من كذب الإمامية عاملهم الله تعالى بعدله.] ٢٧.

[. . فأمر أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله تعالى. . . والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة، وأن يعرفهم أحوالهم في الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين.] ٢٨.

١٠ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

{ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١٠)}

بين الله الحكيم أمرا عجيبا لتعرف به عجيبة وعجائب أخرى مشاكلة، فمن الكفار من خالط خواص الأبرار فلم يهتد بهداهم، ولا انتفع

بقرابته إياهم، بل ردوا إلى ربهم خزايا وفي جهنم مثواهم، ومن هؤلاء امرأة نبي الله نوح أول أولى العزم، الداعي إلى ربه ألف سنة إلا خمسين عاما، ولن يغني عنها زوجها من العذاب الذي ينتظرها أي غناء، وكذا امرأة لوط النبي الكريم أصابها في الدنيا ما أصاب قومها مثلما أصاب امرأة نوح الطوفان مع المغرقين، وفي الآخرة تحشران مع المشركات الهالكات.

والخيانة هنا لا يراد بها الزنى فما زنت امرأة نبي قط، وإنما ربما يكون المراد خيانتهما في الدين كانتا مشركتين، والله تعالى أعلم.

قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتبار بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان.

١١ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

{وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١)}

وجعل الله حال المؤمنة الكريمة الصابرة امرأة فرعون مثلا للمؤمنين والمؤمنات وأنهم لا يضرهم أذى أعدائهم، وحين يفرغ عليهم الصبر لا يبالون بما يلاقون في سبيل الاستمساك بدينهم، فهذه مع أنها المرأة الملكة المترفة لم تجزع من البلاء إذ آمنت بربها فأذاقها زوجها المتأله المتجبر المسرف في فساده ألوان النكال، لكنها فزعت إلى ذي العزة والجلال ان يبوئها مقعد صدق عند مليك مقتدر، طلبت القرب من ربها الكبير المتعال، والبعد عن عدوه الممعن في الضلال، وأن ينقذها من عذاب فرعونها ويعصمها أن تعمل عمله أو عمل القوم الكافرين ومصيرهم.

[. كان أعتى أهل الأرض على الله وأبعدهم من الله، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حكم عدل لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه.] ٢٩.

١٢ - (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)

{ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمة ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢)}

كما ضرب الله تعالى مثلا للمؤمنين والمؤمنات مريم أم عيسى عليه السلام وهي الطاهرة العفة النقية التي صانت عفتها، وحين أرسلنا إليها أمين وحينا جبريل وتمثل لها بشرا سويا استعاذت بالله وربما ضمت إليها أثوابها حتى ما يبقى فيها شيء ينفتح إذ الفرج أريد به هنا الجيب، وإلى هذا اتجه جمهور من المفسرين - وكل خرق في الثوب أو في شيء ما يسمى جيبا وفرجا، ومنه قوله تعالى: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج} ٣٠ ليس فيها شق ولا صداع ولا خرق، فنفخ الملك في جيب ثوبها- أي فتحته- كما في سورة النور: {ليضربن بخمرهن على جيوبهن} ٣١ وكانت مصدقة بوحي الله مؤمنة به وبما أنزل من كتب سماوية، وكانت من ذرية قوم خاضعين لله خاشعين عابدين، لأنها كانت من نسل هارون أخي موسى عليهما السلام، أو كانت من جملة المطيعين لربهم المتضرعين إليه.

وبعد: فهذه السورة لها اتصال مع التي قبلها، فكلتاهما افتتحت بخطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وتلك فيها خصام نساء الأمة. وهذه فيها خصام بعض نساء نبي الأمة، والله الموفق للصلاح، نسأله بفضله الفوز والفلاح.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله، وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم، وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٣٢ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام، بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٣٣، وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٣٤.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٣٥، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٣٦، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٣٧ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٣٨. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٩؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٤٠.

ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٤١، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٤٢، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٤٣ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٤٤، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٤٥، {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٤٦.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٤٧، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٤٨، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٤٩، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٥٠، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٥١؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٥٢ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٥٣ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٥٤، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٥٥، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٥٦، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٥٧ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٥٨: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما

تعملون خبير} ٥٩، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٦٠، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٦١، {وإنه لحق اليقين} ٦٢؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٦٣، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٦٤.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٥ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٦٦ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٧، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٦٨، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٦٩؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٧٠، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٧١، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٧٢، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٧٣، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٧٤، {واتقوا الله ربكم} ٧٥، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٧٦، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٧٧،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٧٨، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٧٩، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٨٠.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٨١؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٨٢، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٨٣. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٨٤، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٨٥؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٨٦، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٨٧

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٨٨، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٨٩، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٩٠.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٩١. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٩٢ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٩٣.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٩٤، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٩٥، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٩٦، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٧، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٩٨، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٩٩، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١٠٠، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٠١، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٠٢ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٠٣، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٠٤، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٥ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٠٦. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٠٧، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٠٨، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٠٩.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١١٠، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١١١، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١٢ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١١٣ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١١٤، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١١٥، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا

بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١١٦، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١١٧، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١١٨.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٧ سورة الملك:

سورة الملك:
(٦٧) سورة الملك مكية
وآياتها ثلاثون
كلماتها: ٣٣٥؛ حروفها ١٣١٣.

١ - (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير (١)}

البركة: النماء والزيادة حسية كانت أو عقلية. . . ونسبتها إلى الله عز وجل بصيغة [المفاعلة] للمبالغة. . . ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال. . لم يجز استعمالها في حق غيره سبحانه، وقيل:

{تبارك} بمعنى: تقدس، وقيل بمعنى: دام.

{الذي بيده الملك} المحيط سلطانه بالملك كله، الكامل الإحاطة والاستيلاء على كل موجود.

{وهو على كل شيء قدير} من إنعام وانتقام.

[يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله] ١.

يقول النيسابوري: كثر خير من تحت تصرفه وتسخيره الملك الحقيقي، وهو على إيجاد كل ممكن وإعدامه قدير.

٢ - (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

{الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور (٢)}

الذي قدر الموت، أو أنشأه وأثبته، أو خلق أسباب الموت. . .

{والحياة} صفة وجودية. . . وهي ما يصح بوجوده الإحساس.

. . . وقدم الموت لمزيد العظة والتذكر، والزجر عن ارتكاب المعاصي، والحث على حسن العمل.

[وأل في الموضعين عوض عن المضاف إليه. . أي موتكم. . وحياتكم أيها المكلفون] ٢.

{ليبلوكم} ليعاملكم معاملة من يختبركم.

{أيكم أحسن عملا} أي: أصوبه وأخلصه، فيجازيكم. . حسب تفاوت مراتب أعمالكم.

{وهو العزيز} الغالب لا يعجزه عقاب من أساء.

{الغفور} لمن شاء منهم، أو لمن تاب.

أوجد الخلائق من العدم ليختبرهم أيهم أحسن عملا، كما قال تعالى: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم} ٣.

فسمى الحال الأول وهو العدم موتا. . . وقال: {أيكم أحسن} أي خير عملا. . . ولم يقل أكثر عملا.
[الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن. . وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار، والحياة عكس ذلك] ٤.
٣ - (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)
{الذي خلق سبع سماوات طباقا}
الذي أنشأ سبع سماوات، طبقا فوق طبق بعضها فوق بعض.
أو طبقة بعد طبقة. وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهم على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان أصحهما الثاني.
[وصف بالمصدر مبالغة. قال سيبويه نصب {طباقا} لأنه مفعول ثان] ٥.
{ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت}
الخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب، وهو حجة لله تعالى على كل من يعقل. و {من} لتأكيد النفي، أي ما ترى شيئا من تفاوت، أي اختلاف وعدم تناسب. وقال السدي: أي من عيب.
{فارجع البصر هل ترى من فطور (٣)}
عاود النظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيبا أو خللا أو نقصا أو شقوقا؟!
وفي إتقان الصنعة برهان وحجة على إتقان الصانع {الذي أحسن كل شيء خلقه} ٦ {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٧.
٤ - (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)
{ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير (٤)}
ثم كرر النظر والتأمل في بديع خلق السماء مرتين أخريين- حتى لا تكون نظرة عجلى- ولا يبقى ريب أو شك في تناسب خلق الرحمن، وأنه لا يضاهيه صنع من دون الله؛ يعد إليك النظر محروما من إصابة ما التمسه من رؤية خلل- كأنه طرد صاغرا- وهو مجزوم في جواب الأمر.
{وهو حسير} أي وهو كليل ناله الإعياء.
٥ - (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)
{ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير (٥) وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير (٦)}
جعل الله تعالى النجوم والكواكب زينة للسماء وضياء، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج.
والدنيا: أي الدانية القريبة منا- رأي العين-
وجعلنا الكواكب والنجوم قذائف نرمي بها الشياطين باعتبار ما ينفصل عنها من شهب، ويشير إلى ذلك قوله الله- تبارك اسمه- {. . فأتبعه شهاب ثاقب} ٨.
والشياطين خلق لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة تدركها العين في أكثر الأحيان، وهم أشرار الجن ومردتهم.
وأعددنا للشياطين بعد إهلاكهم في العاجل بالشهب- أعددنا لهم في الآخرة أشد الحريق؛ وأعددنا للذين يجحدون وينكرون وجود الله وجلاله أو يكذبون بوعده ورسالاته- أعددنا لهم عذابا في جهنم وبئس المآل والمرجع والمستقر.
ويستوي في ذلك من كفر من الجن ومن كفر من الإنس.
٦ - (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير (٥) وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير (٦)}
جعل الله تعالى النجوم والكواكب زينة للسماء وضياء، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج.

والدنيا: أي الدانية القريبة منا- رأي العين-
وجعلنا الكواكب والنجوم قذائف نرمي بها الشياطين باعتبار ما ينفصل عنها من شهب، ويشير إلى ذلك قوله الله- تبارك اسمه- {. . فأتبعه شهاب ثاقب} ٩.
والشياطين خلق لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة تدركها العين في أكثر الأحيان، وهم أشرار الجن ومردتهم.
وأعددنا للشياطين بعد إهلاكهم في العاجل بالشهب- أعددنا لهم في الآخرة أشد الحريق؛ وأعددنا للذين يجحدون وينكرون وجود الله وجلاله أو يكذبون بوعده ورسالاته- أعددنا لهم عذابا في جهنم وبئس المآل والمرجع والمستقر.
ويستوي في ذلك من كفر من الجن ومن كفر من الإنس.
٧ - (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)
{إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور (٧)}
إذا طرح بهم في جهنم سمعوا لها صوتا مفزعا، وهي تغلي غليان المرجل؛ يقول ربنا تبارك اسمه: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا} ١٠ ويقول سبحانه: {إنها ترمي بشرر كالقصر} ١١.
٨ - (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)
{تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير (٨)}
يوشك أن ينفصل بعضها عن بعض، وتتمزق من شدة غيظها عليهم، ومقتها لهم.
كلما طرح في نار السعير طائفة وجماعة من الكفار والفجار، والجاحدين والمكذبين سألهم حراسها من الملائكة- سؤال توبيخ وتثريب، ولوم وتحسير-: ألم يأتكم رسول من الله ينذركم هذا العذاب ويخوفكم عاقبة الشر والفجور حتى تحذروا؟!
٩ - (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ)
{قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير (٩)}
أقر الكفار وهم يجيبون على سؤال الملائكة حراس النار، بأن الله قد أرسل إليهم من ينذرهم، ولم يكتفوا بقول {بلى} لكنهم ذكروا ما أتاهم تحسرا وندما على تفريطهم وإعراضهم؛ وشهدوا على أنفسهم بالعناد والإلحاد، حيث لم يصدقوا المنذرين ولم يطيعوهم، بل هزئوا منهم وخونوهم.
تطاولوا على من أنذروهم غضب الله وعقابه، ورموهم بالضلال البالغ الممعن في البعد عن الحق والصواب! وهكذا وصفت ثمود رسول الله إليهم بالشؤم إذ قال لهم: {لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطيرنا بك بمن معك} ١٢، كما آذى فرعون نبي الله وكليمه موسى عليه السلام بما حكاه عنه القرآن: {. . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد} ١٣.
١٠ - (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)
{وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٠)}
{وقالوا} معترفين بعظيم عقوقهم وجرمهم.
أدركوا الحقيقة بعد فوات الأوان، وأنهم أصموا آذانهم عن الحق الذي جاءهم، وعطلوا عقولهم أن تتبصر مآلهم، ولو سمعوا أو فهموا لآمنوا، وأمنوا ونجو من الحريق ونعموا.
١١ - (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ)
{فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير (١١)}
ندم الفجار والكفار، ولم يستطيعوا الهروب ولا الإنكار، بل أقروا بإساءاتهم وأوزارهم؛ والذنب يراد به الجمع حيث كذبوا رسلهم، ولم يطيعوا، ولم يعبدوا ربهم.

فبعدا لهؤلاء المصاحبين للسعير وعذاب الحريق، بعدا لهم من رحمة الله، وهو منصوب على المصدر - المفعول المطلق- أي أسحقهم الله سحقا، بمعنى: باعدهم من رحمته بعدا. وهو دعاء عليهم.
وهذا ربما يكون من دعاء الملائكة على الضالين، الذين استحقوا الجحيم بعنادهم وفجورهم، وغرورهم وكفرهم.
١٢ - (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
{إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير (١٢)}
إن الذين يخافون الله ويخافون عذابه- الذي هو غائب عنهم في الدنيا وغير مشاهد- أو يخافون الله حال كونهم غائبين عن أعين الناس.
لهم من الله ستر لا تنكشف معه آثامهم، والتنوين للتعظيم، يعني لا يفضحهم ربهم بما اجترحوا من سيئات.
جزاء عظيم، وثواب كريم، ونعيم مقيم في الجنة.
في الصحيحين- صحيحي الإمامين البخاري ومسلم- حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله) وذكر منهم رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.
١٣ - (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
{وأسروا قولكم أو اجهراو به إنه عليم بذات الصدور (١٣)}
أمر يراد به الخبر ويتناول كل مكلف عاقل، كأن المعنى: مهما أخفيتم كلامكم أيها المكلفون أو أعلنتموه، فإنه لن يخفى على الله الخبير، لأنه عليم بما في القلوب، والذي يعلم ما توسوس به الأنفس، يستوي أمام علمه الجهر والإسرار {إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ١٤.
و {عليم} صيغة مبالغة من [علم].
وإنما قدم {أسروا} على {اجهروا} لأنه ما من شيء يجهر به إلا وهو أو باعثه مضمر في القلب- غالبا- فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى، متقدم على تعلقه بالحالة الثانية.
١٤ - (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)
{ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١٤)}
الاستفهام إنكاري والمفعول به محذوف، و {من} فاعل يعلم، فكان التقدير: حاشا لمن خلق- سبحانه- أن يغيب عن علمه سر أو جهر، أو خاطرة أو وسوسة نفس. إذ كيف يغيب مخلوق عن الخلاق البصير، وهو العليم بخفيات الأمور لأنه اللطيف. بل ويعلم ما سيكون قبل أن يكون لأنه الخبير.
١٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)
{هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا}.
من سابغ نعمته وبرهان قدرته أن جعل الأرض مسخرة لنا، ف {ذلولا} أي منقادة لنا، لا تتأبى علينا إن بنينا أو زرعنا أو غرسنا على سطحها، أو شققنا العيون والأنهار وحفرنا الآبار في أعماقها.
{فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه}.
الأمر هنا للإباحة، أو خبر بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وأوديتها وجبالها. قال الحسن: {مناكبها} طرقها وفجاجها.
{وكلوا من رزقه} منة من الله تعالى على العباد أن يسر لهم معايشهم، وضمن لهم أرزاقهم، وأذن لهم أن يسعوا ليوافوا ما قسم لهم.
{وإليه النشور (١٥)}
وإلى الله ترجعون، عليه يوم الحشر تعرضون، وبين يديه تسألون، ثم تجزون ما كنتم تعملون.

والذي خلق السماوات لا نقص فيها ولا تفاوت، وسخر الأرض بأقواتها وأرزاقها، قادر على أن يبعثنا بعد موتنا، ويحاسبنا على ما قدمنا لحياتنا.

١٦ - (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

{أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور (١٦)}

أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه؟! أو من في السماء قدرته وسلطانه وعرشه؟ وخص السماء وإن عم ملكه، تنبيها على أن الإله الذي تنفذ قدرته هو الذي في السماء، لا ما اتخذوهم من دونه أولياء. و {تمور} تضطرب، وإذا خسف بإنسان دارت به الأرض فهو المور.

نقل عن إمام الحرمين: وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الله عز وجل، والذي نرتضيه رأينا وندين لله تعالى به. . اتباع سلف الأمة. . وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك هو الوجه المتبع.

١٧ - (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

{أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير (١٧)}

{أم} للإضراب للانتقال من الوعيد بما تقدم إلى الوعيد بأن يرسل الله على المكذبين حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، أو حجارة وحصباء تحملها الريح العاصفة العاتية، وعندها تعلمون عاقبة إنذاري ومن أنذرتهم. ولكن لات ساعة مندم، وليس الحين حين ينفعهم علمهم {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا. } ١٥ {. . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. } ١٦.

١٨ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

{ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير (١٨)}

لقد تحقق تكذيب أمم سابقة قبل قومك، كفر أكثرهم بنوح وهود وإخوانك من المرسلين- صلوات الله عليهم أجمعين- فكيف كان إنكاري على المكذبين الكافرين، وكيف كان عذابي؟! كان بطشي بهم شديدا.

وفي ذلك مبالغة في تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشديد في تهديد قومه.

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

{أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن}.

أعموا ولم يروا؟، وغفلوا ولم ينظروا إلى تسخير الله للطير وهدايته سبحانه لها، كيف تسبح في الهواء، وتطير في العلياء، فتبسط أجنحتها وتصف ما تقدم من ريشها، ويضممن أجنحتها للتقوي على التحرك ومتابعة الطيران؟!.

{ما يمسكهن إلا الرحمن}

ما يبقيها معلقة في الفضاء حين تصف أجنحتها أو تقبضها، إلا الذي وسعت رحمته كل شيء.

ومن رحمته أن ذلل الأرض للإنسان، كما ذلل الهواء للطير.

{إنه بكل شيء بصير (١٩)}

الكل تحت بصر الله تعالى، وهو بصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته. [دقيق العلم، فيعلم سبحانه وتعالى كيفية إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات، ومن هذا خلقه عز وجل للطير على وجه تأتى به جريه في الجو، مع قدرته تعالى أن يجريه فيه بدونه، إلا أن الحكمة اقتضت ربط المسببات بأسبابها] ١٧.

٢٠ - (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِي غُرُورٍ)

{أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن}

الاستفهام إنكاري، أي: لا جند لكم يدفع عنكم عذاب ربكم، فليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره. وكأن المعنى: [من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم، متجاوزا نصر الرحمن؛. . وينصركم من عذاب كائن من عند الله تبارك اسمه] ١؟!
و {جند} يراد به الجمع.
{إن الكافرين إلا في غرور (٢٠)}.
ما الكافرون إلا مغرورون، غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، وغرهم بالله الشيطان الغرور، وظنوا أن أصنامهم تحميهم من بأس الله؛ وقد نعى القرآن عليهم هذا الضلال المبين: {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون} ١٨.
٢١ - (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)
{أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه}
من الذي يسوق إليكم منافع الدنيا إن حبسها الله القوي العزيز؟ ليس إلا الله وحده يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء؛
{وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده. } ١٩.
ولذلك جاء في الحديث الصحيح فيما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة: {. . فأما من قال مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب}.
{بل لجوا في عتو ونفور (٢١)}
ولم يزدجروا بل تمادوا في عناد واستكبار وطغيان، ولم يذعنوا للحق، وإنما شردوا عن الحق لثقله عليهم.
مما نقل صاحب [روح المعاني. . .] عن صاحب الكشف ما حاصله. . . قوله تعالى: {أم من هذا الذي هو جند} متعلق بحديث الخسف؛ وقوله سبحانه: {أم من هذا الذي يرزقكم} ٢٠ متعلق بإرسال الحاصب.
٢٢ - (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
{أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم (٢٢)}
هل من يسير منكسا رأسه يأمن العثار والانكباب على وجهه والزيغ عن قصده أهدى أم الذي يسير معتدلا وطريقه لا عوج فيها؟!
مثل ضربه الله تعالى للكافر والمؤمن. فيه وصف لحاليهما، ففي الدنيا يتخبط الكافر والفاجر في ظلمات الغواية والشرور، بينما المؤمن على منهاج الحق وهو من ربه على نور.
وفي الآخرة ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، لكن المجرمين الفاسقين في ظلمات بعضها فوق بعض، يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويسحبون في النار على وجوههم. روى البخاري في صحيحه عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا قال: يا نبي الله! يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)؟ قال قتادة: بلى! وعزة ربنا.
٢٣ - (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)
{قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.}
يأمر الله تعالى نبيه أن يذكرهم بأن الله وحده هو الذي خلقهم ووهبهم السمع والأبصار والقلوب، وحقه أن يشكر فلا يجحد فضله، وأن يعبد ولا يشرك معه غيره.
{قليلا ما تشكرون (٢٣)}
قليل من العباد ممن يشكر، أو قليل شكركم لهذه النعم؛ فمن شكرها أن تسمعوا للحق وتستجيبوا لداعي الله، وأن تنظروا في ملكوت السماوات والأرض، وتتفكروا في المبدأ والمعاد، ولا تطيعوا الشيطان ومن اتخذ إلهه هواه. لكن قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم

الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره، وترك زواجره، ومن حال أمثال هؤلاء البطرين، يحذرنا ويعجبنا الكتاب المبين، يقول ربنا وهو أصدق القائلين: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار. وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار} ٢١، وقال عز وجل: {وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} ٢٢.

٢٤ - (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

{قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٢٤)}

قل لكل من يتأتى منه السمع: هو وحده الذي خلقكم وكثركم على سطح هذا الكوكب الأرضي، ونشركم في جوانبها وأقطارها، على اختلاف ألسنتكم وألوانكم، وشعوبكم وصوركم، وإليه- دون غيره- تجمعون بعد الشتات، وتبعثون بعد الممات، يعيدكم كما بدأكم؛ ومن قدر على تفريق هذا الجنس البشري في فجاج شتى، وتكثيرهم وقد خلقوا من ذكر وأنثى، قادر على أن يجمع ما تفرق من أجزاء الموتى، وينشئنا النشأة الأخرى.

٢٥ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٥)}

ويقولون- مستهزئين- متى هذا الذي تعدنا به من إحياء من في القبور؟ إن كنت صادقا فأخبرنا عن موعده! وإلى هذا يشير قول ربنا الحكيم العليم: {يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند ربي} ٢٣. {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي} ٢٤.

٢٦ - (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

{قل إنما العلم عند الله}

قل: {إن الله عنده علم الساعة} ٢٥ {إلى ربك منتهاها} ٢٦. فهذا مما اختص المولى سبحانه بعلمه. ولم يُعلمه أحدا من خلقه.

{وإنما أنا نذير مبين (٢٦)}

ومع أنني رسوله والمبلغ عنه، فلم يظهرني على علمها، ولكن أمرني أن أحذر من أهوالها ٢٧، وأبين لكم كيف تقتحمون عقباتها ٤.

٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ)

{فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا}

فحين يرون العذاب قريبا منهم، يتبين في وجوههم السوء؛ فكأن المعنى: فحين يرونه ويشاهدونه، لكن عبر عن المستقبل بالماضي لتأكيد وقوعه، ومثله قوله تبارك اسمه: {أتى أمر الله} أي سيأتي أمر الله – وهو القيامة- {. . فلا تستعجلوه} ٢٨

{وقيل هذا الذي كنتم به تدعون (٢٧)}

ويقال لهم – نكالا بهم- هذا الذي تشاهدون، ومنه تفزعون، هو الذي كنتم به تستعجلون، كنتم تطلبونه إنكارا واستهزاء، وكنتم تدعون الله بتعجيله، كما حكى القرآن الكريم عنهم: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} ٢٩ وحكى قريبا منه عن كفار في أمم من قبلهم: {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} ٣٠.

ويوم يعرضون على ربهم ينكشف لهم سوء صنيعهم، وعاقبة جحودهم وغفلتهم واستهزائهم، {. . . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيآت ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} ٣١.

٢٨ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

{قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا.}

أمر من الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه الذين كانوا يتمنون موته، كما قال المولى تبارك اسمه: {أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون} ٣٢: -أرأيتم إن مت ومات أصحابي، أو أدخلنا ربنا في رحمته فماذا ينقذكم من بأس الله وانتقامه؟!

{فمن يجير الكافرين من عذاب أليم (٢٨)}

لا يجيركم إلا الإيمان والتوبة. أما هلاكنا أو نصرنا عليكم فلن يخلصكم بطش ربنا. ولن يحول بينكم وبين عذابه؛ [ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص من العذاب بالإيمان] ٣٣.

ولن تغني عنكم أموالكم ولا أرحامكم ولا أولادكم ولا أصنامكم ولا شياطينكم.

ولقد أعذر الله تعالى إلى خلقه، وبين لهم كيف يتعادون ويتخاذلون يوم القيامة: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي.} ٣٤.

٢٩ - (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

{قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا}

أي قل لهم يا محمد: هو الله صاحب الرحمة الواسعة، آمنا به فسيدخلنا في رحمته -بفضله- ولن يهلكنا. وهو وكيلنا فسينصرنا بلجوئنا إليه وتوكلنا عليه.

{. . ونعم الوكيل} لا نتوكل على عدد ولا عدد، وإن كنا نأخذ بالأسباب، لكن حسبنا الله.

{فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩)}

فسيظهر لكم يوم القيامة من هو منا ومنكم، أوغل في الضلال المحض، الذي ليست فيه أثارة من هداية. وستعرفون لمن تكون العاقبة، ومن الذي ضل سعيه؟! {. . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى} ٣٥.

٣٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

{قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (٣٠)}

قل أرأيتم يا معشر قريش، إن غار الماء الذي منه تستقون، وذهب بعيدا في الأرض لا تناله الدلاء، فمن يمنحكم وييسر لكم ويظفركم بماء جار كثير عذب؟!

لا يقدر على ذلك إلا الله، فاستغفروه ثم توبوا إليه يمتعكم ويفتح عليكم بركات من السماء والأرض، ويسقكم ماء وفيرا كثيرا يسيرا.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٣٦ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٣٧؛ وقد تتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٣٨.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٣٩، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٤٠، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٤١ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٤٢. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٤٣؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا

أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٤٤.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٤٥، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٤٦، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٤٧ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٤٨، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٤٩؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٥٠.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥١، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٥٢، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٥٣، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٥٤، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٥٥؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٥٦ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٥٧ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٥٨، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٥٩، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٦٠، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٦١ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.
وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٦٢: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٦٣، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٦٤، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٦٥، {وإنه لحق اليقين} ٦٦؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٦٧، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٦٨.
ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٩ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٧٠ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٧١، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات

وما في الأرض} ٧٢، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٧٣؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.
وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٧٤، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٧٥، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٧٦، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٧٧، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٧٨، {واتقوا الله ربكم} ٧٩، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٨٠، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٨١،
{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. { ٨٢، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٨٣، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٨٤.
وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٨٥؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٨٦، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٨٧. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. { ٨٨، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٨٩؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٩٠، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٩١
وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٩٢، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٩٣، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٩٤.
ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٩٥.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٩٦ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى

تؤمنوا بالله وحده} ٩٧.
وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٩٨، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٩٩، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٠٠، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١٠١، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١٠٢، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١٠٣، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١٠٤، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٠٥، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٠٦ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٠٧، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٠٨، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٩ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١١٠. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١١١، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١١٢، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١١٣.
وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١١٤، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١١٥، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١٦ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١١٧ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١١٨، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١١٩، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٢٠، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٢١، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٢٢.
فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٨ سورة القلم:

سورة القلم:
(٦٨) سورة القلم مكية
وآياتها اثنتان وخمسون
كلماتها: ٣٠٠؛ حروفها: ١٤٥٦.
١ - (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

بسم الله الرحمن الرحيم
{ن والقلم وما يسطرون (١)}

{ن} مثلها مثل حروف المعجم التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم مثل {ص} و {ق} والكلام فيها كالكلام في تلك الحروف: إما أن تكون أسماء للسور، أو قد أراد الله بها تحدي العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلغتهم، إذ الكتاب العزيز مكونة كلماته من حروف كالتي ينطقون بها، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.

{والقلم} أقسم الله تعالى به لعظمته، كما امتن به على البشر فقال: {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١.

{وما يسطرون} ما يكتبونه ويتعلمونه.

وربما يراد به جنس القلم الذي تكتب به الملائكة، وما يسطرون ويكتبون من أفعال العباد.

وفي المعنى الأول عبرة تبصر بدرجة العلم ووسائله، وعظة أن نحرص على طلبه وتدارسه.

وفي المعنى الثاني عبرة تذكر بعظيم سلطان الله وجنده، وعظة أن نحذر اكتساب الآثام حتى لا نجزى بها يوم العرض على الملك العلام.

٢ - (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

{ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢)}

يشهد الله تعالى- وكفى به شهيدا- أن نبيه صلى الله عليه وسلم على الحق المبين، وليس بحمد الله من المجانين، كما افترى عليه أعداء الدين، وحكى القرآن بهتانهم هذا في الآية الكريمة: {وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون} ٢. والجملة جواب القسم، والباء الأولى للملابسة، والثانية لتوكيد النفي. ومعلوم أنهم رموه بالجنون حسدا وعداوة ومكابرة.

٣ - (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

{وإن لك لأجرا غير ممنون (٣)}

يعد الله تعالى نبيه وعدا مؤكدا- ووعد الله لا يخلف- يعد الثواب والجزاء الأوفى الذي لا يكدر بمن ولا يقطع ولا ينقص. وبقدر ما صبر الرسول الكريم على الأذى في سبيل دعوته إلى ربه، ولم يهن لما استهزئ به، فإن المولى تبارك اسمه يمنحه الدرجات والنعيم والكرامة، ويتفضل بالمزيد: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} ٣.

٤ - (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

{وإنك لعلى خلق عظيم (٤)}

كرم الله تعالى رسوله، تمت كلمة ربنا صدقا وعدلا.

إن خاتم النبيين على درجة من الخلق كمله ربه بها، فهو يحتمل ما لا يحتمله أولوا العزم في سبيل دعوة الحق وهداية الخلق، فوق ما جمله به مولاه من مكارم الأخلاق.

في صحيح الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها: إن خلقه كان القرآن. حتى صار امتثال القرآن- أمرا أو نهيا- سجية له، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه.
ومما في الصحيحين - صحيح البخاري ومسلم- عن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته؟ وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا؛ وبهذا أمرنا ٤.
٥ - (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)
{فستبصر ويبصرون (٥) بأييكم المفتون (٦)}
فستعلم ويعلمون، في الدنيا بأي الفريقين المجنون أو المخذول. . .؟ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى؟ وذلك بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيبا معظما في قلوب العالمين، وكونهم أذلة صاغرين.
أو ستعلم ويعلمون في الآخرة بأي الفريقين المجنون أو المخذول. . .؟ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى؟!
وعلى كلا المعنيين فهو وعيد للكافرين المستهزئين، كما هو بشرى للنبي والمؤمنين، كما قال الله تعالى: {. . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى} ٥ وقال تبارك اسمه: {سيعلمون غدا من الكذاب الأشر} ٦.
٦ - (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{فستبصر ويبصرون (٥) بأييكم المفتون (٦)}
فستعلم ويعلمون، في الدنيا بأي الفريقين المجنون أو المخذول. . .؟ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى؟ وذلك بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيبا معظما في قلوب العالمين، وكونهم أذلة صاغرين.
أو ستعلم ويعلمون في الآخرة بأي الفريقين المجنون أو المخذول. . .؟ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى؟!
وعلى كلا المعنيين فهو وعيد للكافرين المستهزئين، كما هو بشرى للنبي والمؤمنين، كما قال الله تعالى: {. . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى} ٧ وقال تبارك اسمه: {سيعلمون غدا من الكذاب الأشر} ٨.
٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)
{إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (٧)}
مولاك أعلم أي الفريقين منكم ومنهم هو الضال عن الحق، وأعلم أي الحزبين هو المهتدي.
فالذين ضلوا عن الطريق السوي، واستحبوا العمى واختاروا ما يعقب الشقوة والنكال في العاجل والمآل، هم الذين يليق لهم أن يدمغوا بالجنون.
وهو سبحانه يجازي كلا بما عمل.
٨ - (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)
{فلا تطع المكذبين (٨)}
دم على ما أنت عليه من المجاهرة بالحق، والتنفير من الحمق؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فنهي عن مطاوعتهم أو ملاينتهم، أو عدم الجهر بشططهم وزيغهم.
٩ - (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)
{ودوا لو تدهن فيدهنون (٩)}
أحبوا لو تلاينهم فيلاينونك؛ قيل: شبه التليين في القول بتليين الدهن.
نقل أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك. . . فيلينون لك في عبادتك إلهك. كما قال جل ثناؤه: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات} ٩.

١٠ - (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)
{ولا تطع كل حلاف مهين (١٠)}
دم على ما أنت عليه من عدم طاعة كل حلاف- كثير الحلف- في الحق والباطل، مما يهون الجرأة على اسم الله، ويصل إلى عدم استشعار عظمته جل وعز.
{مهين} حقير الرأي والتدبير، أو كذاب. أو وضيع جريء على الفحش والفجور.
١١ - (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ)
{هماز مشاء بنميم (١١)}
طعان في أعراض الناس مغتاب، ينقل الأحاديث ليفسد ما بين الناس. وفي الحديث الصحيح عن حذيفة عن رسول الله: (لا يدخل الجنة نمام) رواه الإمام مسلم. وقيل الهماز: الذي يعيب الناس مواجهة.
١٢ - (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)
{مناع للخير معتد أثيم (١٢)}
بخيل ممسك للمال، أو مناع الناس الخير الذي هو الإسلام، {معتد} متجاوز الحد بالظلم، {أثيم} كثير الآثام، مقبل على المعاصي والذنوب.
١٣ - (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)
{عتل بعد ذلك زنيم (١٣)}
فاحش لئيم، فاجر الخصومة، {بعد ذلك} بعد ما ذكر من سوئه وشره، فبعد هنا تفيد التفاوت الرتبي، فتدل على أن ما بعد، أعظم في الشر. و {زنيم} أي دعي ملحق بقوم ليس منهم- كما قال ابن عباس- والمراد به ولد الزنا. وأنشد لحسان.
زنيم تداعته الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع
وكذا جاء عن عكرمة وأنشد:
زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم.
يقول الألوسي: وإنما كان هذا أشد المعايب، لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها.
١٤ - (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
{أن كان ذا مال وبنين (١٤)}
هنا همزة استفهام مقدرة، والمراد التوبيخ، أو تقدر لام تعليل.
١٥ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
{إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٥)}
قابل ما أنعمت عليه به من المال والبنين، بالتكبر والجحود والاستهزاء بآياتي، فإذا سمعها قال: هي من اختلاق وخرافات الأولين، وأباطيل السابقين.
وكثير من المفسرين على أن الموصوف بهذه الصفات هو الوليد بن المغيرة، وفيه كذلك نزل قول الله تعالى: {فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٠. بعد قوله سبحانه: {وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا} ١١.
١٦ - (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)
{سنسمه على الخرطوم (١٦)}
سنطبع على أنفه سمة وكيا وعلامة إذلالا له ومهانة، وذلك وعيد الله للوليد بن المغيرة.

وهل هي علامة حسية أم مجاز؟ وهل يكون ذلك في الدنيا أم في يوم الحساب؟
نقل عن أبي العالية ومجاهد: {سنسمه على الخرطوم} أي على أنفه ونسود وجهه في الآخرة فيعرف بسواد وجهه.
١٧ - (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)
{إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧)}
إنا اختبرنا أهل مكة فيما أعطيناهم من أموال وبنين فلم يشكروا ولكن بطروا وتمادوا في عناد محمد صلى الله عليه وسلم، فأذقناهم الجوع والقحط كما بلونا واختبرنا أصحاب الجنة - الحديقة- وكانوا يعرفون ذاك الخبر؛ روي أنها كانت بأرض اليمن على مقربة من صنعاء، وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها، فلما مات صارت إلى ولده، فحلفوا ليقطفن ثمارها، وليحصدن زرعها في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ الفقراء الذين ألفوا أن يذهبوا إليها كل موسم ليأخذوا حقهم.
١٨ - (وَلا يَسْتَثْنُونَ)
{ولا يستثنون (١٨)}
ولم يقولوا إن شاء الله، أو لم يدعوا حق المساكين، بل تواصوا أن يأخذوا كل الثمار، دون استثناء لنصيب الفقراء، الذي كان يؤديه لأصحابه أبوهم.
١٩ - (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)
{فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩)}
فأنزل الله على الحديقة - {الجنة} - جائحة، وأحاط بها ليلا بلاء نزل من السماء، وهم بعد ما زالوا في غفلتهم ونومهم.
إنه الله العزيز العليم الذي لا يعجزه كيد الكائدين، ولا يفوته تمرد المفسدين:
{أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٢.
٢٠ - (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)
{فأصبحت كالصريم (٢٠)}
فما جاء الصبح إلا وقد غدت الحديقة محترقة مسودة كالليل المظلم- ويسمى الليل صريما لانصرامه وذهابه، وربما سمي النهار كذلك- أو أصبحت ولا ثمر فيها كالبستان المصروم الذي قطعت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء. أو مثل الزرع إذا حصد هشيما يبسا.
٢١ - (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)
{فتنادوا مصبحين (٢١)}
نادى بعضهم بعضا في الصباح ليسرعوا إلى الجذاذ، وقطع الثمر والحصاد.
٢٢ - (أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ)
{أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين (٢٢)}
بأن اخرجوا لزرعكم وبستانكم ما دمتم تقصدون قطع ثماره، وهيا مبكرين.
٢٣ - (فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ)
{فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣)}
فخرجوا مسرعين وهم يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد- يتسارون ويتحدثون سرا ويتناجون.
ومع تناجيهم وإسرارهم فإن الله الخبير أنبأنا بخفي همسهم: {. . فإنه يعلم السر وأخفى} ١٣.
وإنها لعبرة وعظة أنه مهما استخفى المفسد من الخلق فإن الخلاق به عليم: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا} ١٤.
٢٤ - (أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ)

{أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (٢٤)}.
وكان تناجيهم: أن لا يدخلنها عليهم محتاج. . تواصوا أن لا يمكنوا فقيرا ولا مستحقا من دخولها أو الظفر بشيء من خيرها.
٢٥ - (وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ)
{وغدوا على حرد قادرين (٢٥)}
وأصبحوا على قصد وجد، وقوة وشدة قادرين في زعمهم على أن يحولوا بين المستحقين وحقوقهم.
أو أصبحوا على منع وحرمان قادرين، أي لما عزموا على حرمان المساكين جازاهم الله من جنس عملهم، وهم غافلون، فأصبحوا بحنقهم وحماقتهم وبخلهم قادرين على حرمان أنفسهم، ولم يعودوا قادرين على إدراك ثمرها وخيرها.
٢٦ - (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)
{فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧)}.
لما رأوها محترقة لا شيء فيها صارت سوداء كالليل المظلم قال بعضهم لبعض: ضللنا الطريق إلى جنتنا.
أو ضللنا عن الحق حين عزمنا على حرمان ذوي الحقوق فلم يبق لنا شيء بل قد حرمنا ١٥ - هذا معنى قولهم- وحرموا خيرها بجناياتهم على أنفسهم.
٢٧ - (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]
{فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧)}.
لما رأوها محترقة لا شيء فيها صارت سوداء كالليل المظلم قال بعضهم لبعض: ضللنا الطريق إلى جنتنا.
أو ضللنا عن الحق حين عزمنا على حرمان ذوي الحقوق فلم يبق لنا شيء بل قد حرمنا ١٦ - هذا معنى قولهم- وحرموا خيرها بجناياتهم على أنفسهم.
٢٨ - (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)
{قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨)}
كان أحدهم يحاول أن يردهم عن بغيهم، ويستنقذهم من حلول غضب ربهم- وكان أرجحهم عقلا- ونصحهم أن يتذكروا جلال الله، ويقلعوا عن العزم على منع حقه، فلما أصروا، وذاقوا وبال أمرهم، ورأوا ما حل ببستانهم، عيرهم وذكرهم انتقام الله من المجرمين.
٢٩ - (قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)
{قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩)}
اعترفوا بذنبهم وتابوا وندموا، ولات ساعة مندم، وأتوا بالطاعة لكن بعد انقضاء وقتها، ونزهوا الله تعالى عن أن يكون ظالما فيما فعل، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بتعدي حدود ربهم، وظلموا المساكين بحرمانهم.
٣٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ)
{فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠)}
فاتجه كل أخ إلى أخيه يلومه على ما كان، يرميه بأنه أشار بهذا ورضي به.
٣١ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)
{قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين (٣١)}
إنما حل بنا الوبال ببغينا وطغياننا وتجاوزنا حدنا، ولم نشكر كما شكر آباؤنا.
٣٢ - (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)
{عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها}

رجاءنا أن يعوضنا الله أفضل من جنتنا في الدنيا، أو يثيبنا ببركة توبتنا واعترافنا بخطيئتنا.
{إنا إلى ربنا راغبون (٣٢)}
إنا إلى الله- دون سواه- لجأنا، وفي واسع عفوه طمعنا؛ وهل كان ذلك منهم ندما على الذنب، وصدقا مع الله في العهد؟ أم كان على حد ما يكون من المشركين حين ينزل بهم البأس والذين نعى عليهم القرآن الكريم: {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} ١٧؟
ليس عندنا ما يصلح برهانا لأي من الرأيين.
٣٣ - (كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)
{كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٣)}
هكذا نعذب في الدنيا من عتا عن أمر ربه، ونذيقه وبال أمره. فليحذر البخلاء والبطرون ومانعو الزكاة والسفهاء أن يحل بهم وبأموالهم ما حل بالبطرين من قبلهم.
ومهما عظمت القارعة التي ينزلها الله بالمجرمين والمسرفين في دنياهم فإن ما أعد لهم من نكال في الآخرة أشد وأبقى، وأدهى وأخزى، لكن حين غفلتهم لم يتدبروا مصيرهم، ولو تدبروه لتوقوه، وعملوا لما تحسن به عاقبتهم.
٣٤ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)
{إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم (٣٤)}
إن لمن توقى الكفر والشر، وراقب الله في السر والجهر – له عند ربه في الآخرة جنات ليس فيها إلا النعيم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا.
فتلك: {. . أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا} ١٨.
٣٥ - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)
{أفنجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥)}
أفيليق بحكمنا أن نحيف؟ حاشا – فإنا نقضي بالحق ولا نظلم الناس شيئا؛ فالهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء للعطف على مقدر: أي أنظلم فنجعل مصير المسلم مثل مصير الكافر المجرم؟ لا يستويان!
قيل: وفيه رد على افتراء المشركين حين سمعوا من النبي ما وعد الله من البعث فقالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا. . . وأقصى أمرهم أن يساوونا!
٣٦ - (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
{مالكم كيف تحكمون (٣٦)}
أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي حتى حكمتم بهذا الحكم الزائغ؟ وفيه تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وأنه لا يصدر من عاقل.
٣٧ - (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)
{أم لكم كتاب فيه تدرسون (٣٧)}
حكمكم الذي زعمتم من التساوي بينكم وبين المسلمين لا يستسيغه عقل، فهل صح به النقل؟ وهل جاءكم وحي من السماء يشهد لهذا الادعاء؟! وهل قرأتم فيه ذلك؟
٣٨ - (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)
{إن لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون (٣٩)}.
وهل قال لكم الكتاب، ووجدتم إذ تدارستموه: إن لكم للذي تختارونه؟ وفي ذلك تبكيت لهم وأشد تثريب؛ أم فوضناكم تحكموا بما

شئتم وأقسمنا لكم وعهدنا بذلك عهودا وأقسام قصوى متناهية في التوكيد ثابتة إلى يوم القيامة تبلغ ذلك اليوم، فنحكمكم ونعطيكم ما تحكمون؟!
٣٩ - (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
{إن لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون (٣٩)}.
وهل قال لكم الكتاب، ووجدتم إذ تدارستموه: إن لكم للذي تختارونه؟ وفي ذلك تبكيت لهم وأشد تثريب؛ أم فوضناكم تحكموا بما شئتم وأقسمنا لكم وعهدنا بذلك عهودا وأقساما قصوى متناهية في التوكيد ثابتة إلى يوم القيامة تبلغ ذلك اليوم، فنحكمكم ونعطيكم ما تحكمون؟!
٤٠ - (سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)
{سلهم أيهم بذلك زعيم (٤٠)}
وجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبكتهم على شططهم وسفههم وليسألهم سؤال تقريع: من منكم يتضمن بهذا ويتكفل؟ وأيكم يتصدى لتصحيح هذا الحكم الخارج عما تستسيغ الأفهام، وأن يتساوى الكفار مع أهل الإسلام؟!
٤١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)
{أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين (٤١)}
بل ألهم شركاء يشاركونهم هذا القول وادعاء تساوي المؤمنين والكافرين في الآخرة؟ فإن كانوا صادقين في دعواهم فليجيئوا بشركائهم. أو هل الذين جعلوهم لله شركاء بزعمهم يقدرون على أن يجعلوهم في الآخرة كالمسلمين؟! فهو أمر معناه التعجيز.
٤٢ - (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ)
{يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون (٤٢)}
فليجيئوا بأوثانهم وأصنامهم يوم الفزع الأكبر يوم الدين، يوم يولون مدبرين ما لهم من الله من عاصم، فإذا اشتد الهول شمروا عن سوقهم- جمع ساق وهو ما فوق القدم-.
يقول أهل اللغة: وأصله تشمير المخدرات- النساء المحجبات- عن سوقهن في الهرب فإنهن لا يفعلن ذلك إلا إذا عظم الخطب واشتد الأمر، فيذهلن عن الستر بذيل الصيانة.
وذهب بعض المفسرين إلى أن الآية من المتشابه – الذي نؤمن به كما نزل من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تنظير، وعليه فالساق قد يراد بها ساق الله تعالى، وبرهانهم ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا).
{ويدعون إلى السجود} توبيخا لهم على تركهم إياه في الدنيا (فلا يستطيعون) لزوال القدرة على ذلك.
وفيه ترهيب من تضييع الصلاة أو عدم الإخلاص في أدائها.
٤٣ - (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)
{خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون (٤٣)}.
يوم العرض على الله الواحد القهار تظهر الذلة على وجوه الكفرة الفجرة: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم} ١٩، {وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي} ٢٠.
فالذلة الشديدة تلحقهم وتغشاهم، والخزي يعظم أثره فيهم، والحسرة تملؤهم لتفريطهم، وقد كانوا في الدنيا ينادون إلى العبادة وهم على الوفاء بها قادرون.

٤٤ - (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)
{فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (٤٤)}
إنذار من العزيز القهار -جل علاه- ووعيد ببطش ربنا الشديد بكل مكذب بالقرآن المجيد؛ فسأنزلهم إلى العذاب درجة بعد درجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يدرون أنه استدراج، وتلك سنة الله في المعرضين عن الهدى: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون} ٢١. والاستدراج بترك المعاجلة.
٤٥ - (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)
{وأملي لهم إن كيدي متين (٤٥)}
أطيل لهم المدة وأمهلهم. والملوان: الليل والنهار. وهم يظنون أن ذلك لإرادة الخير لهم، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية المباركة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٢٢ وأعذر الله تبارك اسمه إليهم فقال: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا. } ٢٣.
{إن كيدي متين} إن عذابي قوي شديد محيط بهم لن يفوتني منهم أحد.
٤٦ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)
{أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (٤٦)}.
أتلتمس منهم ثوابا ومقابلا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشق عليهم من بذل المال؟ لا! ليس عليهم كلفة، بل لو اتبعوك لفتحت عليهم بركات السماء والأرض، وأدخلوا جنات النعيم.
٤٧ - (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)
{أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤٧)}
بل اطلعوا على اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يجادلونك به؟ وأنهم أفضل منكم ولا يعاقبون، ويحكمون لأنفسهم بما يشاءون؟!
٤٨ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)
{فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (٤٨)}
وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم؛ وفيه تسلية للنبي وتوكيد لنفاذ قضاء الله تعالى فيهم، كما جاء في قوله جل ثناؤه: {فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون} ٢٤.
{ولا تكن كصاحب الحوت} لا تكن كيونس عليه السلام فتستعجل قضاءنا قبل مجيء أوانه، إذ عجل يونس فضاق بتكذيب قومه له فتركهم ومضى غاضبا يريد فراقهم، وحين ركب السفينة توقفت فاقترعوا ليظهر أيهم هرب من سيده فخرجت القرعة على يونس عليه السلام فألقوه في الماء فابتلعه حوت فنادى ربه {. . أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين} ٢٥.
و {مكظوم} أي: مملوء غما.
٤٩ - (لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)
{لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم (٤٩)}
{تداركه نعمة} بدون تاء في الفعل لأن تأنيث نعمة غير حقيقي. تداركته رحمة من الله فتاب عليه ورعاه ونجاه، ولولا نعمة ربنا لبقي في بطن الحوت ثم بعث بعراء القيامة مذموما، يشير إلى ذلك ما في قوله تعالى: {فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} ٢٦.
وهكذا يعلمنا مولانا البر الرحيم في شخص النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم أن لا نتعجل قضاء الله في أعداء الدين، وإنما علينا أن نحمي

الحق ونحن على يقين من نصرة الله للمؤمنين، وانتقامه من المفسدين: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون} ٢٧.

٥٠ - (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

{فاجتباه ربه فجعله من الصالحين (٥٠)}

اصطفاه المولى واختاره، وشفّعه في نفسه وقومه.

{فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين} ٢٨ وأرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون.

والصلاح مطلب وضراعة تجأر بها الأنبياء، وسلام الله على يوسف نبي الله الذي كان من دعائه. . {. . فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين} ٢٩. وصلاة وسلاما على سليمان رسول الله الذي أورد القرآن من دعائه: {. . رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} ٣٠.

٥١ - (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

{وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥١)}.

وإنه يكاد الكافرون أن يقتلوك بأبصارهم، ينظرون إليك نظرة مغيظة حاقدة، لو كانت نظرة تردى وتهلك لكانت تلك النظرة.

وذهب جمع من المفسرين إلى أنهم كادوا يعاينونه أي تقتله أعين الحاسدين، لكن تولاه بالعصمة من أذاهم رب العالمين؛ كل ذلك لضيقهم بسماع ما أوحى إليه من الله العزيز الحكيم.

وزادوا على أضغانهم تلك رمي الرسول المصطفى بالجنون- لعنوا بما قالوا-

٥٢ - (وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

{وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢)}

وما القرآن إلا شرف للعالمين شرفوا بما شهد لهم من كرامتهم على الله القوي المتين.

أو: ما النبي إلا شرف للناس شرفوا باتباعه صلى الله عليه وسلم.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله، وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٣١ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٣٢، وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٣٣.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٣٤، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٣٥، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٣٦ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٣٧. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٣٨، {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٣٩.

ومن آيات المحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٤٠، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٤١، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٤٢ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٤٣، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٤٤، {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٤٥.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٤٦، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٤٧، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٤٨، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٤٩، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٥٠، وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٥١ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٥٢ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٥٣، واستصحب – عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٥٤، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٥٥، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٥٦ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٥٧: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٥٨، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٥٩، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٦٠، {وإنه لحق اليقين} ٦١، ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٦٢، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٦٣.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٤ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٦٥ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٦٦، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٦٧، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٦٨، فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل

شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.
وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٦٩، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٧٠، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٧١، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٧٢، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٧٣، {واتقوا الله ربكم} ٧٤، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٧٥، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٧٦،
{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٧٧، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٧٨، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٧٩.
وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٨٠؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٨١، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٨٢. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٨٣، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٨٤؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٨٥، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٨٦
وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٨٧، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٨٨، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٨٩.
ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٩٠.
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٩١ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٩٢.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٩٣، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٩٤، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٩٥، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٦، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٩٧، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٩٨، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٩٩، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٠٠، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٠١ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٠٢، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٠٣، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٤ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٠٥. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٠٦، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٠٧، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٠٨.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٠٩، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١١٠، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١١ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١١٢ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١١٣، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١١٤، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١١٥، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١١٦، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١١٧.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٦٩ سورة الحاقة:

سورة الحاقة:
(٦٩) سورة الحاقة مكية
وآياتها اثنتان وخمسون
كلماتها ٤٨٠؛ حروفها: ١٠٥٦
١ - (الْحَاقَّةُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{الحاقة (١) ما الحاقة (٢) وما أدراك ما الحاقة (٣)}
القيامة سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة، وأحقت لأقوام النار، ولأنها يوم الحق.

و {الحاقة} الأولى مبتدأ، والخبر: المبتدأ الثاني وخبره {ما الحاقة} لأن معناها: ما هي، واللفظ استفهام معناه التعظيم لشأنها.

{وما أدراك ما الحاقة} استفهام أيضا، أي: أي شيء أعلمك ما ذلك اليوم؛ والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة - دون المعاينة- كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها.

يقول علماء القرآن: كل شيء في القرآن: {وما أدراك} قد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال: [وما يدريك] فهو مما لم يعلمه.
٢ - (مَا الْحَاقَّةُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
{الحاقة (١) ما الحاقة (٢) وما أدراك ما الحاقة (٣)}
القيامة سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة، وأحقت لأقوام النار، ولأنها يوم الحق.

و {الحاقة} الأولى مبتدأ، والخبر: المبتدأ الثاني وخبره {ما الحاقة} لأن معناها: ما هي، واللفظ استفهام معناه التعظيم لشأنها.

{وما أدراك ما الحاقة} استفهام أيضا، أي: أي شيء أعلمك ما ذلك اليوم؛ والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة - دون المعاينة- كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها.

يقول علماء القرآن: كل شيء في القرآن: {وما أدراك} قد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال: [وما يدريك] فهو مما لم يعلمه.
٣ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
{الحاقة (١) ما الحاقة (٢) وما أدراك ما الحاقة (٣)}
القيامة سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة، وأحقت لأقوام النار، ولأنها يوم الحق.

و {الحاقة} الأولى مبتدأ، والخبر: المبتدأ الثاني وخبره {ما الحاقة} لأن معناها: ما هي، واللفظ استفهام معناه التعظيم لشأنها.

{وما أدراك ما الحاقة} استفهام أيضا، أي: أي شيء أعلمك ما ذلك اليوم؛ والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة - دون المعاينة- كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها.

يقول علماء القرآن: كل شيء في القرآن: {وما أدراك} قد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال: [وما يدريك] فهو مما لم يعلمه.
٤ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)
{كذبت ثمود وعاد بالقارعة (٤) فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (٥)}
كأن التقدير: كذبت بالحاقة ثمود وعاد فأهلكوا.

وفي هذا ما يفيد اليقين بأن المكذبين بالقيامة والحساب والجزاء يعذبهم الله بكفرهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة.
وثمود: قوم صالح، وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز. قال محمد بن إسحاق: وهو وادي القرى.
وأما عاد: فقوم هود، وكانت منازلهم بالأحقاف الرمل بين عمان إلى حضر موت واليمن كله.
والقارعة: القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس بشدائدها وأهوالها.
والطاغية: الصيحة المهولة المفزعة: {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١. أو يراد بالطاغية: أشقاهم عاقر الناقة، هلكوا لأنهم رضوا بفعله ومالئوه.

٥ - (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]
{كذبت ثمود وعاد بالقارعة (٤) فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (٥)}
كأن التقدير: كذبت بالحاقة ثمود وعاد فأهلكوا.
وفي هذا ما يفيد اليقين بأن المكذبين بالقيامة والحساب والجزاء يعذبهم الله بكفرهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة.
وثمود: قوم صالح، وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز. قال محمد بن إسحاق: وهو وادي القرى.
وأما عاد: فقوم هود، وكانت منازلهم بالأحقاف الرمل بين عمان إلى حضر موت واليمن كله.
والقارعة: القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس بشدائدها وأهوالها.
والطاغية: الصيحة المهولة المفزعة: {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ٢. أو يراد بالطاغية: أشقاهم عاقر الناقة، هلكوا لأنهم رضوا بفعله ومالئوه.

٦ - (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)
{وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية (٦)}
وعاد سلط الله عليهم ريحا باردة تحرق ببردها كإحراق النار، مأخوذة من الصر وهو البرد.
{عاتية} عتت على عاد فقهرتهم {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} ٣.

٧ - (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)
{سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧)}.
سلطها الله تعالى عليهم بقدرته سبع ليال وثمانية أيام متتابعة. أو {حسوما} بمعنى: مستأصلة.
{فترى القوم فيها صرعى} لو كنت شاهدا لرأي كيف صرعت القوم في تلك الليالي والأيام الثمانية.
{كأنهم أعجاز نخل خاوية} فصيرتهم مثل أصول النخل إذا خلت بليّ وفسادا.

٨ - (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)
{فهل ترى لهم من باقية (٨)}
فهل تشاهد لهم من بقية؟ وهل تبصر لهم من نفس باقية؟. وقال بعضهم المفسرين: بعد أن أهلكتهم الريح حملتهم فألقت بأجسادهم في البحر، فذلك قوله عز وجلك {فهل ترى لهم من باقية} وقوله تبارك اسمه {. فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. } ٤.
وهو أخبار على صورة الاستفهام الإنكاري.

٩ - (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)
{وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة (٩)}
تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بتذكيرهم بما كان من جحود الكثير من السابقين، وبطشة الله القوي المتين، وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ولم يستأصل الله عادا وثمود دون غيرهما، بل أهلك كذلك فرعون وجنده، ودمّر أمما من الأولين المكذبين بيوم

الدين، فأغرق قوم نوح ببغيهم، وقلب مدائن قوم لوط {المؤتفكات} بإسرافهم وفجورهم.
وما ظلمهم الله، وإنما جازاهم بعتوهم وإنكارهم البعث والنشور: {ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور} ٥.
{بالخاطئة} بالخطأ العظيم الذي اقترفوه، إذ لا يجعل الفعل خاطئا إلا إذا كان صاحبه بليغ الخطأ، والفعلة الخاطئة التي ارتكبوها: هي الفسوق والجحود والكفر.
١٠ - (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)
{فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية (١٠)}
فعصى كل قوم رسولهم الذي بعثه لهم ربهم، وكأن هذه الجملة بيان لل {الخاطئة} التي ذكرت في ختام الآية قبلها.
أو تكون {رسول} بمعنى: رسالة.
{فأخذهم} الله القوي العزيز.
{أخذة رابية} بطش بهم بطشة زائدة في الشدة. مهلكة.
١١ - (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)
{إنما لما طغا الماء حملناكم في الجارية (١١)}
منّة من الله تعالى على كل من عاش على الأرض بعد نوح عليه السلام؛ فالله برحمته لما فجر الأرض بالعيون وفتح السماء بالماء المنهمر أغرق المكذبين أجمعين، ونجّى نوحا والمؤمنين، وكل من بعدهم فمن نسلهم ف {حملناكم} يعني: حملنا آباءكم في {الجارية} في السفينة التي ركبها نوح عليه السلام.
١٢ - (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)
{لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (١٢)}.
لنجعل سنتنا في إهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين عظة تذكرهم بقوة المولى واقتداره وعزته، وبره ولطفه ورحمته، ولتعي الآذان وتعقل كلمات ربنا ووعده الذي لا يخلف؛ و {أذن واعية} أي من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه، ولا تضيعه بترك العمل به.
وعن قتادة: هي التي عقلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب ربنا تبارك اسمه.
ولعل إيراد {أذن واعية} مفردة منكرة مما يذكر بأن الوعاة قليل، فقليل من الناس من يعي: {. . . وقليل من عبادي الشكور} ٦ {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا} ٧.
ويوم القيامة يشهد أكثرهم على أنفسهم بالاعتلال والضلال: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} ٨.
١٣ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)
{فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة (١٣)}
وبعد بيان العذاب العاجل للمكذبين بالحاقة تبين الآيات الكريمة أهوال القارعة وأحوالها.
فإذا نفخ الملك الموكل من لدن الواحد القهار بالنفخ في الصور- وهو قرن يشبه البوق- فما هي إلا نفخة واحدة تنتهي بها الحياة في الكون سمائه وأرضه.
١٤ - (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)
{وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة (١٤)}
يرفع الله تعالى الأرض والجبال فإذا هما بعد أن صارتا هباء منبثا يدكهما ربنا سبحانه دكة واحدة فإذا الأرض منبسطة {. . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا}. ٩ مستوية، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: {يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ١٠
١٥ - (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)
{فيومئذ وقعت الواقعة (١٥)}

فحينئذ تحين القيامة. يقول بعض المفسرين: وقد يراد باليوم مطلق الوقت فيتسع للنفخة الأولى الثانية وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وصعق الخلائق ثم بعثهم ثم حشرهم وعرضهم وحسابهم.

١٦ - (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

{وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (١٦)}

تفطرت السماء وامّاعت، كما جاء في الآية الكريمة: {يوم تكون السماء كالمهل} ١١ فتهاوت وتداعت للسقوط، وليس يلزم من الإخبار عن السماء بأنها تنشق أو تذوب أنها من الأجسام الصلبة. فقد وصف الله تبارك اسمه البحر بالانفلاق مع أنه لم يخلق صلبا: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق. } ١٢.

١٧ - (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)

{والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١٧)}.

اسم جنس يراد به الجمع، أي: الملائكة على نواحي السماء وجوانبها وأطرافها التي تجاوزها التهاوي.

وثمانية من أجناس الملائكة أو من كرامهم يحملون عرش الله العلي العظيم فوق الخلائق.

فوقية تعلوهم، أو فوقية القهر والسلطان، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام {. . . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب} ١٣.

١٨ - (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

{يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية (١٨)}

في هذا اليوم تعرضون جميعا على الله، كما بينت الآية الكريمة: {وعرضوا على ربك صفا} ١٤ ليحاسبكم ويقرر أعمالكم عليكم لمجازاتكم، ولا يغيب عن العليم منكم خفي وإن دق: {يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} ١٥.

١٩ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

{فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه (١٩)}

الفاء للتفريع، تفصيل لأحوال العرض، و {كتابيه} ما كتبته الملائكة من أفعاله في الدنيا، يتعاقب على المكلف ملائكة بالليل وملائكة بالنار يكتبون أعمال كل يوم وليلة.

{فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه} فإذا أعطى كتابه بيمينه كان من الناجين الفائزين وربما ناداه أهله وأحبابه فيجيبهم: {هاؤم}: تعالوا لتقرؤوا كتابي.

يتملكه السرور بأن الله قد أمنه من العذاب.

٢٠ - (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ)

{إني ظننت أني ملاق حسابيه (٢٠)}

إني علمت أن لقاء الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

٢١ - (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

{فهو في عيشة راضية (٢١) في جنة عالية (٢٢)}

وأية عيشة أرضى من أن يحيا فلا يموت أبدا، ويصح فلا يمرض أبدا، وينعم فلا يبتئس أبدا، ويشب فلا يهرم أبدا، بهذه المعاني جاءت الأحاديث الصحيحة.

وقرارهم ومساكنهم في جنة عظيمة في النفوس، عالية المكانة والقدر، رفيعة قصورها، حسان حورها، واسعة دورها، دائم حبورها.

٢٢ - (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]
{فهو في عيشة راضية (٢١) في جنة عالية (٢٢)}
وأية عيشة أرضى من أن يحيا فلا يموت أبدا، ويصح فلا يمرض أبدا، وينعم فلا يبتئس أبدا، ويشب فلا يهرم أبدا، بهذه المعاني جاءت الأحاديث الصحيحة.
وقرارهم ومساكنهم في جنة عظيمة في النفوس، عالية المكانة والقدر، رفيعة قصورها، حسان حورها، واسعة دورها، دائم حبورها.
٢٣ - (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)
{قطوفها دانية (٢٣)}
قطوف الثمار في الجنة اقتربت من كل مشته قطفها، فلا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك، فهي سهلة التناول.
٢٤ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)
{كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية (٢٤)}
ويقال لأهل النعيم: كلوا واشربوا هنيئا غير منغصين؛ مطاعم الجنة ومشاربها أعدت لكم بمقابلة ما قدمتم من أعمال صالحة في حياتكم الدنيا، ويتفضل الله تعالى بإحلالهم في دار المقامة منة منة وإحسانا، إذ قد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا! إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).
٢٥ - (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)
{وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه (٢٥)}
وأما من شقى وساء عمله ومصيره وأعطى صحف أعماله بيده اليسرى فيتحسر على مآله، ويندم على فجوره وضلاله، ويتمنى لو لم يكن أعطى تلك الصحائف المخزية.
٢٦ - (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ)
{ولم أدر ما حسابيه (٢٦) يا ليتها كانت القاضية (٢٧)}
يتمنى لو أن هلك قبل أن يحاسب، ويتمنى لو أن الموتة التي ماتها انقطع بها أمره وانقضى ولم يبعث بعدها.
٢٧ - (يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]
{ولم أدر ما حسابيه (٢٦) يا ليتها كانت القاضية (٢٧)}
يتمنى لو أن هلك قبل أن يحاسب، ويتمنى لو أن الموتة التي ماتها انقطع بها أمره وانقضى ولم يبعث بعدها.
٢٨ - (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)
{ما أغنى عني ماليه (٢٨) هلك عني سلطانيه (٢٩)}
لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه.
وعن ابن عباس وغيره: هلكت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ١٦.
وفي ذلك تحذير من الله الخبير البصير للذين غرتهم الحياة الدنيا {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ١٧ وإعذار منه سبحانه إلى الذين أعرضوا وبطروا إذ بسط لهم في الرزق كالذي قال لصاحبه وهو يحاوره: {. . . أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٨.
والويل لمثله: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ١٩ {وما يغني عنه ماله إذا تردى} ٢٠.
٢٩ - (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٨]
{ما أغنى عني ماليه (٢٨) هلك عني سلطانيه (٢٩)}
لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه.
وعن ابن عباس وغيره: هلكت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} ٢١.
وفي ذلك تحذير من الله الخبير البصير للذين غرتهم الحياة الدنيا {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٢٢ وإعذار منه سبحانه إلى الذين أعرضوا وبطروا إذ بسط لهم في الرزق كالذي قال لصاحبه وهو يحاوره: {. . . أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذا أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ٢٣.
والويل لمثله: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٢٤ {وما يغني عنه ماله إذا تردى} ٢٥.
٣٠ - (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)
{خذوه فغلوه (٣٠) ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢)}
فيقول المولى آمرا ملائكته الزبانية- ملائكة العذاب وخزنة وحراس جهنم: خذوه فشدوه بالقيود والأغلال، ثم لا تصلوه ولا تذيقوه إلا الجحيم ذات الحر العظيم والعذاب الأليم المقيم، ثم أدخلوا جسده في سلسلة طولها سبعون ذراعا يوثق بها ويسحب في جهنم {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٦.
٣١ - (ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{خذوه فغلوه (٣٠) ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢)}
فيقول المولى آمرا ملائكته الزبانية- ملائكة العذاب وخزنة وحراس جهنم: خذوه فشدوه بالقيود والأغلال، ثم لا تصلوه ولا تذيقوه إلا الجحيم ذات الحر العظيم والعذاب الأليم المقيم، ثم أدخلوا جسده في سلسلة طولها سبعون ذراعا يوثق بها ويسحب في جهنم {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٧.
٣٢ - (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٠]
{خذوه فغلوه (٣٠) ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢)}
فيقول المولى آمرا ملائكته الزبانية- ملائكة العذاب وخزنة وحراس جهنم: خذوه فشدوه بالقيود والأغلال، ثم لا تصلوه ولا تذيقوه إلا الجحيم ذات الحر العظيم والعذاب الأليم المقيم، ثم أدخلوا جسده في سلسلة طولها سبعون ذراعا يوثق بها ويسحب في جهنم {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون} ٢٨.
٣٣ - (إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)
{إنه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٣)}
تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة كأنه قيل:. . . لأنه كان في الدنيا مستمرا على الكفر بالله العظيم.
٣٤ - (وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)
{ولا يحض على طعام المسكين (٣٤)}
فهو ما أدى حق الله أن يعبد ويوحد، ولا أدى حق العباد في الإحسان إليهم والتعاون معهم على البر.
والحض: التحريض والحث.
وفي ذلك عبرة لكل عاقل أن يحذر البخل بعد أن يحذر الكفر، بل ليس يكفيه لينجو ان يطعم هو، ولكن يفهم ضمنا أن المطلوب أن

يطعم المسكين ويأمر غيره بالإطعام ويحرض على ذلك تحريضا.
٣٥ - (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ)
}فليس له اليوم ههنا حميم (٣٥) ولا طعام إلا من غسلين (٣٦) لا يأكله إلا الخاطئون (٣٧){
ينذره الله بعذاب معنوي مع العذاب الحسي، فهو حين يُلقى في جهنم يصلاها مذموما مخذولا {. . . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا. { ٢٩ {. . . كلما دخلت أمة لعنت أختها} ٣٠ وليس لهم مع ذلك إلا طعام من شجرة في جهنم جعل الله ثمرها زاد الفاجرين.
٣٦ - (وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]
}فليس له اليوم ههنا حميم (٣٥) ولا طعام إلا من غسلين (٣٦) لا يأكله إلا الخاطئون (٣٧){
ينذره الله بعذاب معنوي مع العذاب الحسي، فهو حين يُلقى في جهنم يصلاها مذموما مخذولا {. . . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا. { ٣١ {. . . كلما دخلت أمة لعنت أختها} ٣٢ وليس لهم مع ذلك إلا طعام من شجرة في جهنم جعل الله ثمرها زاد الفاجرين.
٣٧ - (لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٥]
}فليس له اليوم ههنا حميم (٣٥) ولا طعام إلا من غسلين (٣٦) لا يأكله إلا الخاطئون (٣٧){
ينذره الله بعذاب معنوي مع العذاب الحسي، فهو حين يُلقى في جهنم يصلاها مذموما مخذولا {. . . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا. { ٣٣ {. . . كلما دخلت أمة لعنت أختها} ٣٤ وليس لهم مع ذلك إلا طعام من شجرة في جهنم جعل الله ثمرها زاد الفاجرين.
٣٨ - (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)
}فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠) "
أقسم بالأشياء كلها ما تبصرون وما لا تبصرون، المشاهدات والمغيبات أن القرآن وحينا إلى عبدنا ورسولنا ليتلوه ويبلغه، وإنما نسب القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه تاليه ومبلغه والعامل به. وغير مستساغ عقلا أن يكون المصطفى الذي وصفته الآية بأنه {. . رسول كريم} من غير المستساغ عقلا أن يقول على الله غير الحق.
٣٩ - (وَمَا لا تُبْصِرُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
}فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠) "
أقسم بالأشياء كلها ما تبصرون وما لا تبصرون، المشاهدات والمغيبات أن القرآن وحينا إلى عبدنا ورسولنا ليتلوه ويبلغه، وإنما نسب القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه تاليه ومبلغه والعامل به. وغير مستساغ عقلا أن يكون المصطفى الذي وصفته الآية بأنه {. . رسول كريم} من غير المستساغ عقلا أن يقول على الله غير الحق.
٤٠ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٨]
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]

}فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠) "
أقسم بالأشياء كلها ما تبصرون وما لا تبصرون، المشاهدات والمغيبات أن القرآن وحينا إلى عبدنا ورسولنا ليتلوه ويبلغه، وإنما نسب القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه تاليه ومبلغه والعامل به. وغير مستساغ عقلا أن يكون المصطفى الذي وصفته الآية بأنه {. . رسول كريم} من غير المستساغ عقلا أن يقول على الله غير الحق.

٤١ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ)

}وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢) تنزيل من رب العالمين (٤٣)}.
شهد الله أن الذي يبلغ قوله، ويتلو ما أنزل إليه من ربه، ليس بشاعر، لكن لا تصدقون إلا تصديقا قليلا، ومن ذلك ما صح عن أنيس أخي أبي ذر حين لقي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة. ثم عاد إلى أخيه أبي ذر يحدثه قائلا: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أنه نبي. قال: فماذا يقول الناس عنه؟ قال: يقولون: شاعر ساحر كاهن، ولقد سمعت قوله فما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. قال: فماذا تقول أنت فيه. قال: والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

فالقرآن تنزيل من الله العزيز العليم نزل به الروح الأمين على قلب النبي الأمين، ويسره الله تعالى بلسان نبيه ليبشر به المتقين، وينذر به المكذبين الظالمين.

٤٢ - (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

}وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢) تنزيل من رب العالمين (٤٣)}.
شهد الله أن الذي يبلغ قوله، ويتلو ما أنزل إليه من ربه، ليس بشاعر، لكن لا تصدقون إلا تصديقا قليلا، ومن ذلك ما صح عن أنيس أخي أبي ذر حين لقي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة. ثم عاد إلى أخيه أبي ذر يحدثه قائلا: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أنه نبي. قال: فماذا يقول الناس عنه؟ قال: يقولون: شاعر ساحر كاهن، ولقد سمعت قوله فما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. قال: فماذا تقول أنت فيه. قال: والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

فالقرآن تنزيل من الله العزيز العليم نزل به الروح الأمين على قلب النبي الأمين، ويسره الله تعالى بلسان نبيه ليبشر به المتقين، وينذر به المكذبين الظالمين.

٤٣ - (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]

}وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢) تنزيل من رب العالمين (٤٣)}.
شهد الله أن الذي يبلغ قوله، ويتلو ما أنزل إليه من ربه، ليس بشاعر، لكن لا تصدقون إلا تصديقا قليلا، ومن ذلك ما صح عن أنيس أخي أبي ذر حين لقي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة. ثم عاد إلى أخيه أبي ذر يحدثه قائلا: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أنه نبي. قال: فماذا يقول الناس عنه؟ قال: يقولون: شاعر ساحر كاهن، ولقد سمعت قوله فما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. قال: فماذا تقول أنت فيه. قال: والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

فالقرآن تنزيل من الله العزيز العليم نزل به الروح الأمين على قلب النبي الأمين، ويسره الله تعالى بلسان نبيه ليبشر به المتقين، وينذر به المكذبين الظالمين.

٤٤ - (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ)

}ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)}.
ولو أتى محمد بقول من عند نفسه، وافترى علينا ما ليس من قولنا لأمسكنا بيمينه فما يفلت من قبضتنا، ثم لقطعنا منه نياط قلبه فأهلكناه، فما منكم من يحجز عنه، ولا يحول بيني وبينه.

٤٥ - (لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]
}ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)}.
ولو أتى محمد بقول من عند نفسه، وافترى علينا ما ليس من قولنا لأمسكنا بيمينه فما يفلت من قبضتنا، ثم لقطعنا منه نياط قلبه فأهلكناه، فما منكم من يحجز عنه، ولا يحول بيني وبينه.
٤٦ - (ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]
}ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)}.
ولو أتى محمد بقول من عند نفسه، وافترى علينا ما ليس من قولنا لأمسكنا بيمينه فما يفلت من قبضتنا، ثم لقطعنا منه نياط قلبه فأهلكناه، فما منكم من يحجز عنه، ولا يحول بيني وبينه.
٤٧ - (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٤]
}ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)}.
ولو أتى محمد بقول من عند نفسه، وافترى علينا ما ليس من قولنا لأمسكنا بيمينه فما يفلت من قبضتنا، ثم لقطعنا منه نياط قلبه فأهلكناه، فما منكم من يحجز عنه، ولا يحول بيني وبينه.
٤٨ - (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)
}وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم (٥٢)}
وإن كتاب الله يبصر ويهدي من اتقوا، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٣٥ {سيذكر من يخشى} ٣٦ والله يعلم أن منهم من كذب بآيات الله وصدق عنها، وإن القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين حين يشاهدون ثواب المؤمنين به، وقيل: حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته، وإن القرآن لحق من اليقين، أو لليقين حق اليقين، لأنه كلام الله الحق المبين.
فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم. ونزه المولى تبارك اسمه عن السوء والنقائص.
وهو أمر للنبي وأمته، وتوجيه لنا في شخص الرسول الكريم عليه من الله الصلوات والتسليم.
٤٩ - (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٨]
}وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم (٥٢)}
وإن كتاب الله يبصر ويهدي من اتقوا، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٣٧ {سيذكر من يخشى} ٣٨ والله يعلم أن منهم من كذب بآيات الله وصدق عنها، وإن القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين حين يشاهدون ثواب المؤمنين به، وقيل: حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته، وإن القرآن لحق من اليقين، أو لليقين حق اليقين، لأنه كلام الله الحق المبين.
فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم. ونزه المولى تبارك اسمه عن السوء والنقائص.
وهو أمر للنبي وأمته، وتوجيه لنا في شخص الرسول الكريم عليه من الله الصلوات والتسليم.
٥٠ - (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٨]

}وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم (٥٢){

وإن كتاب الله يبصر ويهدي من اتقوا، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٣٩ {سيذكر من يخشى} ٤٠ والله يعلم أن منهم من كذب بآيات الله وصدق عنها، وإن القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين حين يشاهدون ثواب المؤمنين به، وقيل: حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته، وإن القرآن لحق من اليقين، أو لليقين حق اليقين، لأنه كلام الله الحق المبين.

فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم. ونزه المولى تبارك اسمه عن السوء والنقائص.

وهو أمر للنبي وأمته، وتوجيه لنا في شخص الرسول الكريم عليه من الله الصلوات والتسليم.

٥١ - (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٨]

}وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم (٥٢){

وإن كتاب الله يبصر ويهدي من اتقوا، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٤١ {سيذكر من يخشى} ٤٢ والله يعلم أن منهم من كذب بآيات الله وصدق عنها، وإن القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين حين يشاهدون ثواب المؤمنين به، وقيل: حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته، وإن القرآن لحق من اليقين، أو لليقين حق اليقين، لأنه كلام الله الحق المبين.

فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم. ونزه المولى تبارك اسمه عن السوء والنقائص.

وهو أمر للنبي وأمته، وتوجيه لنا في شخص الرسول الكريم عليه من الله الصلوات والتسليم.

٥٢ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٨]

}وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم (٥٢){

وإن كتاب الله يبصر ويهدي من اتقوا، كما جاء في الآية الكريمة: {. . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ٤٣ {سيذكر من يخشى} ٤٤ والله يعلم أن منهم من كذب بآيات الله وصدق عنها، وإن القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين حين يشاهدون ثواب المؤمنين به، وقيل: حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته، وإن القرآن لحق من اليقين، أو لليقين حق اليقين، لأنه كلام الله الحق المبين.

فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم. ونزه المولى تبارك اسمه عن السوء والنقائص.

وهو أمر للنبي وأمته، وتوجيه لنا في شخص الرسول الكريم عليه من الله الصلوات والتسليم.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٤٥ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ٤٦؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٤٧.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٤٨، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٤٩، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٥٠ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٥١. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٥٢؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٥٣.

ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٥٤، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٥٥، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٥٦ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٥٧، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٥٨؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٥٩.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٦٠، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٦١، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٦٢، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلي ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٦٣، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٦٤؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٦٥ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٦٦ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٦٧، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٦٨، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٦٩، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٧٠ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٧١: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما

تعملون خبير} ٧٢، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٧٣، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٧٤، {وإنه لحق اليقين} ٧٥؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٧٦، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٧٧.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٧٨ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٧٩ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٨٠، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٨١، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٨٢؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٨٣، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٨٤، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٨٥، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٨٦، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٨٧، {واتقوا الله ربكم} ٨٨، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٨٩، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٩٠،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٩١، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٩٢، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٩٣.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٩٤؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٩٥، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٩٦. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٩٧، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٩٨؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٩٩، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ١٠٠

وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ١٠١، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ١٠٢، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ١٠٣.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ١٠٤. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ١٠٥ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ١٠٦.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ١٠٧، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٠٨، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٠٩، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١١٠، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١١١، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١١٢، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١١٣، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١١٤، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١١٥ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١١٦، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١١٧، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١١٨ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١١٩. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٢٠، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٢١، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٢٢.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٢٣، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٢٤، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٢٥ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٢٦ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٢٧، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٢٨، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا

بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٢٩، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٣٠، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٣١.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٧٠ سورة المعارج:

سورة المعارج:
(٧٠) سورة المعارج مكية
وآياتها أربع وأربعون
كلماتها: ٢١٦؛ حروفها: ٨٦١
١ - (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣)}.
دعاء داع بعذاب ينزل ويقع للكافرين.

والداعي إما نوح عليه السلام دعا ربه به أن يعذب الكافرين، أو النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ دعا على أكابر مناوئيه، أو بعض قادة الكفار والضلال الذي داعوا على أنفسهم بالهلاك: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} ١. أو كان سؤال المستهزئ المستبعد لوقوع العذاب، الجاحد للبعث والحساب.

فشهدت آيات الله التي لا مبدل لها أن العذاب واصل لهم ومعد من الله العلي رفيع الدرجات، ولن يدفعه عنهم أحد.

٢ - (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
{سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣)}.
دعاء داع بعذاب ينزل ويقع للكافرين.

والداعي إما نوح عليه السلام دعا ربه به أن يعذب الكافرين، أو النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ دعا على أكابر مناوئيه، أو بعض قادة الكفار والضلال الذي داعوا على أنفسهم بالهلاك: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} ٢. أو كان سؤال المستهزئ المستبعد لوقوع العذاب، الجاحد للبعث والحساب.

فشهدت آيات الله التي لا مبدل لها أن العذاب واصل لهم ومعد من الله العلي رفيع الدرجات، ولن يدفعه عنهم أحد.

٣ - (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم

}سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣){.
دعاء داع بعذاب ينزل ويقع للكافرين.
والداعي إما نوح عليه السلام دعا ربه به أن يعذب الكافرين، أو النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ دعا على أكابر مناوئيه، أو بعض قادة الكفار والضلال الذي داعوا على أنفسهم بالهلاك: }وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم{ ٣. أو كان سؤال المستهزئ المستعبد لوقوع العذاب، الجاحد للبعث والحساب.
فشهدت آيات الله التي لا مبدل لها أن العذاب واصل لهم ومعد من الله العلي رفيع الدرجات، ولن يدفعه عنهم أحد.
٤ - (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)
}تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤){
تصعد الملائكة وجبريل إلى عرشه سبحانه أو إلى حيث يأمرهم ربهم. كما جاء في الآية الكريمة تحكي عن إبراهيم عليه السلام: }. . إني ذاهب إلى ربي{ ٤ أي على الموضع الذي أمرني به.
واليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة ربما أريد به يوم الفصل بين الناس يوم الحساب، يثقل ويطول على الكافرين وهو يسير وهين على المؤمنين، فربنا سريعا الحساب.
٥ - (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)
}فاصبر صبرا جميلا (٥){
تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يضيق صدره بما يقول المنكرون للبعث والمرتابون فيه؛ فدم على صبر تجمل عاقبته وتحسن: }. . . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون{ ٥.
٦ - (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا)
}إنهم يرونه بعيدا (٦) ونراه قريبا (٧){
إن الكفار يحسبون يوم الجزاء والعذاب بعيد الوقوع والتحقق، ونحن نعلم أنه قريب، إذ هو آت لا محالة، وكل آت فهو قريب. }زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم ذلك على الله يسير{ ٦. }يسألون أيان يوم الدين. يوم هم على النار يفتنون. ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون{ ٧.
٧ - (وَنَرَاهُ قَرِيبًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]
}إنهم يرونه بعيدا (٦) ونراه قريبا (٧){
إن الكفار يحسبون يوم الجزاء والعذاب بعيد الوقوع والتحقق، ونحن نعلم أنه قريب، إذ هو آت لا محالة، وكل آت فهو قريب. }زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم ذلك على الله يسير{ ٨. }يسألون أيان يوم الدين. يوم هم على النار يفتنون. ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون{ ٩.
٨ - (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)
}يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسأل حميم حميما (١٠){
واليوم الذي توعدون يوم فزع وهول تكون السماء فيه واهية متداعية كأنها رواسب زيت، أو ذوب معدان واستحال صخر الجبال إلى ما يشبه الغبار المتناثر أو الصوف المنفوش: }وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا{ ١٠ }وتكون الجبال كالعهن المنفوش{ ١١. ولا يسأل القريب قريبه ولا القرين قرينه ولا الحبيب حبيبه عما هو فيه من الكرب حين يغشاه من البلاء ما يذهله: }. . تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد{ ١٢ }ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه{ ١٣

٩ - (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]
{يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسأل حميم حميما (١٠)}
واليوم الذي توعدون يوم فزع وهول تكون السماء فيه واهية متداعية كأنها رواسب زيت، أو ذوب معدان واستحال صخر الجبال إلى ما يشبه الغبار المتناثر أو الصوف المنفوش: {وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا} ١٤ {وتكون الجبال كالعهن المنفوش} ١٥. ولا يسأل القريب قريبه ولا القرين قرينه ولا الحبيب حبيبه عما هو فيه من الكرب حين يغشاه من البلاء ما يذهله: {. . تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} ١٦ {ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٧
١٠ - (وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]
{يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسأل حميم حميما (١٠)}
واليوم الذي توعدون يوم فزع وهول تكون السماء فيه واهية متداعية كأنها رواسب زيت، أو ذوب معدان واستحال صخر الجبال إلى ما يشبه الغبار المتناثر أو الصوف المنفوش: {وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا} ١٨ {وتكون الجبال كالعهن المنفوش} ١٩. ولا يسأل القريب قريبه ولا القرين قرينه ولا الحبيب حبيبه عما هو فيه من الكرب حين يغشاه من البلاء ما يذهله: {. . تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} ٢٠ {ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٢١
١١ - (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)
{يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥)}
يعرف بعضهم بعضا لكن لا يتناصرون بلا يتنافرون ويتاخذلون ويتعادون ويتخاصمون: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٢٢. يحب الفاجر والكافر حين يرى عذابه أن يقدم أبناء فدية له- وهم حشاشة كبده في الدنيا- ولا يسوؤه أن تعذب زوجته ليخلص هو من العذاب، كما يتمنى أن يقدم أخاه أو كافة عشيرته وكل البشر والخلائق فكاكا له مما أحاط به ثم لا يقبل منه الفداء: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. } ٢٣ فهل يقبل منه الافتداء بمن في الأرض أو ما في الأرض لينجو؟ كلا ليس من سبيل إلى نجاته، وما له إلا جهنم و {لظى} ذات نار تتلظظ وتتأجج وتتلهب- نسأل الله أن يجيرنا منها- أو {لظى} اسم من أسماء نار الآخرة.
١٢ - (وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥)}
يعرف بعضهم بعضا لكن لا يتناصرون بلا يتنافرون ويتاخذلون ويتعادون ويتخاصمون: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٢٤. يحب الفاجر والكافر حين يرى عذابه أن يقدم أبناء فدية له- وهم حشاشة كبده في الدنيا- ولا يسوؤه أن تعذب زوجته ليخلص هو من العذاب، كما يتمنى أن يقدم أخاه أو كافة عشيرته وكل البشر والخلائق فكاكا له مما أحاط به ثم لا يقبل منه الفداء: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. } ٢٥ فهل يقبل منه الافتداء بمن في الأرض أو ما في الأرض لينجو؟ كلا ليس من سبيل إلى نجاته، وما له إلا جهنم و {لظى} ذات نار تتلظظ وتتأجج وتتلهب- نسأل

الله أن يجيرنا منها- أو {لظى} اسم من أسماء نار الآخرة.
١٣ - (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥)}
يعرف بعضهم بعضا لكن لا يتناصرون بلا يتنافرون ويتاخذلون ويتعادون ويتخاصمون: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٢٦. يحب الفاجر والكافر حين يرى عذابه أن يقدم أبناء فدية له- وهم حشاشة كبده في الدنيا- ولا يسوؤه أن تعذب زوجته ليخلص هو من العذاب، كما يتمنى أن يقدم أخاه أو كافة عشيرته وكل البشر والخلائق فكاكا له مما أحاط به ثم لا يقبل منه الفداء: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. } ٢٧ فهل يقبل منه الافتداء بمن في الأرض أو ما في الأرض لينجو؟ كلا ليس من سبيل إلى نجاته، وما له إلا جهنم و {لظى} ذات نار تتلظظ وتتأجج وتتلهب- نسأل الله أن يجيرنا منها- أو {لظى} اسم من أسماء نار الآخرة.
١٤ - (وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥)}
يعرف بعضهم بعضا لكن لا يتناصرون بلا يتنافرون ويتاخذلون ويتعادون ويتخاصمون: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٢٨. يحب الفاجر والكافر حين يرى عذابه أن يقدم أبناء فدية له- وهم حشاشة كبده في الدنيا- ولا يسوؤه أن تعذب زوجته ليخلص هو من العذاب، كما يتمنى أن يقدم أخاه أو كافة عشيرته وكل البشر والخلائق فكاكا له مما أحاط به ثم لا يقبل منه الفداء: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. } ٢٩ فهل يقبل منه الافتداء بمن في الأرض أو ما في الأرض لينجو؟ كلا ليس من سبيل إلى نجاته، وما له إلا جهنم و {لظى} ذات نار تتلظظ وتتأجج وتتلهب- نسأل الله أن يجيرنا منها- أو {لظى} اسم من أسماء نار الآخرة.
١٥ - (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]
{يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥)}
يعرف بعضهم بعضا لكن لا يتناصرون بلا يتنافرون ويتاخذلون ويتعادون ويتخاصمون: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} ٣٠. يحب الفاجر والكافر حين يرى عذابه أن يقدم أبناء فدية له- وهم حشاشة كبده في الدنيا- ولا يسوؤه أن تعذب زوجته ليخلص هو من العذاب، كما يتمنى أن يقدم أخاه أو كافة عشيرته وكل البشر والخلائق فكاكا له مما أحاط به ثم لا يقبل منه الفداء: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم. } ٣١ فهل يقبل منه الافتداء بمن في الأرض أو ما في الأرض لينجو؟ كلا ليس من سبيل إلى نجاته، وما له إلا جهنم و {لظى} ذات نار تتلظظ وتتأجج وتتلهب- نسأل الله أن يجيرنا منها- أو {لظى} اسم من أسماء نار الآخرة.
١٦ - (نَزَّاعَةً لِلشَّوَى)
{نزاعة للشوى (١٦) تدعوا من أدبر تولى (١٧)}
إن النار ذات اللهب المسعر شديدة النزع لجلود وأطراف المعذبين- أيديهم وأرجلهم- وتدعوا خزنتها وزبانيتها يدعون من أدبر عن الحق

في الدنيا وأعرض عن منهاج الله.
١٧ - (تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٦]
{نزاعة للشوى (١٦) تدعوا من أدبر تولى (١٧)}
إن النار ذات اللهب المسعر شديدة النزع لجلود وأطراف المعذبين- أيديهم وأرجلهم- وتدعوا خزنتها وزبانيتها يدعون من أدبر عن الحق في الدنيا وأعرض عن منهاج الله.
١٨ - (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)
{وجمع فأوعى (١٨)} *
وتنادي جهنم وينادي الملائكة الموكلون بها من جمع المال في دنياه بعضه على بعض ووضعه في أوعيته وأوكيته يكتنزه ويحبسه ويبخل به ويمنع حق الله منه في الواجب في النفقات وإخراج الزكاة.
١٩ - (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)
{إن الإنسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسه الشر جزوعا (٢٠) وإذا مسه الخير منوعا (٢١)}
في طبع الأناسي- إلا من رحم الله – شدة الحرص، وأفحش الجزع، ضجر بطر. إذا ناله شر تململ ويئس وجزع ولم يصبر، وإذا جاءه الخير شح وبخل وطغى ولم يشكر؛ و {جزوعا} أي مبالغا في الجزع مكثرا منه، و {منوعا} مبالغا في منعه البذل [البخل] مقيما عليه.
٢٠ - (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{إن الإنسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسه الشر جزوعا (٢٠) وإذا مسه الخير منوعا (٢١)}
في طبع الأناسي- إلا من رحم الله – شدة الحرص، وأفحش الجزع، ضجر بطر. إذا ناله شر تململ ويئس وجزع ولم يصبر، وإذا جاءه الخير شح وبخل وطغى ولم يشكر؛ و {جزوعا} أي مبالغا في الجزع مكثرا منه، و {منوعا} مبالغا في منعه البذل [البخل] مقيما عليه.
٢١ - (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{إن الإنسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسه الشر جزوعا (٢٠) وإذا مسه الخير منوعا (٢١)}
في طبع الأناسي- إلا من رحم الله – شدة الحرص، وأفحش الجزع، ضجر بطر. إذا ناله شر تململ ويئس وجزع ولم يصبر، وإذا جاءه الخير شح وبخل وطغى ولم يشكر؛ و {جزوعا} أي مبالغا في الجزع مكثرا منه، و {منوعا} مبالغا في منعه البذل [البخل] مقيما عليه.
٢٢ - (إِلا الْمُصَلِّينَ)
{إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥)}
ليس كل بني الإنسان ممن يستديمون الجوع والمنع، بل منهم من سعد فنهى النفس عن الهوى، وباعد بينها وبين المهالك والردى، فاعتصم بحبل الله وأطاعه، ونهته صلاته عن المنكر، واطمأن قلبه إلى ما عند ربه، ورق قلبه إلى الضعفاء من خلقه، فبذل لهم نصيبهم من ماله.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم: أن أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإذا عمل عملا داوم عليه، وإذا صلى صلاة دام عليها.
فهؤلاء غلبوا فرط الجزع بيقينهم في ربهم، وغلبوا الإمساك والطمع بحرصهم على إخراج صدقتهم وزكاتهم.
٢٣ - (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥)}

ليس كل بني الإنسان ممن يستديمون الجوع والمنع، بل منهم من سعد فنهى النفس عن الهوى، وباعد بينها وبين المهالك والردى، فاعتصم بحبل الله وأطاعه، ونهته صلاته عن المنكر، واطمأن قلبه إلى ما عند ربه، ورق قلبه إلى الضعفاء من خلقه، فبذل لهم نصيبهم من ماله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم: أن أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإذا عمل عملا داوم عليه، وإذا صلى صلاة دام عليها.

فهؤلاء غلبوا فرط الجزع بيقينهم في ربهم، وغلبوا الإمساك والطمع بحرصهم على إخراج صدقتهم وزكاتهم.

٢٤ - (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

{إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥)}

ليس كل بني الإنسان ممن يستديمون الجوع والمنع، بل منهم من سعد فنهى النفس عن الهوى، وباعد بينها وبين المهالك والردى، فاعتصم بحبل الله وأطاعه، ونهته صلاته عن المنكر، واطمأن قلبه إلى ما عند ربه، ورق قلبه إلى الضعفاء من خلقه، فبذل لهم نصيبهم من ماله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم: أن أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإذا عمل عملا داوم عليه، وإذا صلى صلاة دام عليها.

فهؤلاء غلبوا فرط الجزع بيقينهم في ربهم، وغلبوا الإمساك والطمع بحرصهم على إخراج صدقتهم وزكاتهم.

٢٥ - (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

{إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥)}

ليس كل بني الإنسان ممن يستديمون الجوع والمنع، بل منهم من سعد فنهى النفس عن الهوى، وباعد بينها وبين المهالك والردى، فاعتصم بحبل الله وأطاعه، ونهته صلاته عن المنكر، واطمأن قلبه إلى ما عند ربه، ورق قلبه إلى الضعفاء من خلقه، فبذل لهم نصيبهم من ماله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم: أن أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإذا عمل عملا داوم عليه، وإذا صلى صلاة دام عليها.

فهؤلاء غلبوا فرط الجزع بيقينهم في ربهم، وغلبوا الإمساك والطمع بحرصهم على إخراج صدقتهم وزكاتهم.

٢٦ - (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

{والذين يصدقون بيوم الدين (٢٦)}

وكذا من أيقنوا بيوم الحساب والجزاء، فهم يعملون للفوز والفلاح في هذا اليوم الموعود.

٢٧ - (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

{والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧) إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨)}

خائفون على أنفسهم من عذاب الله مع ما قدموا من عمل صالح خشية أن تقصر بهم دون النجاة، فإن أحد لا يملك المآل إلا الكبير المتعال: {. . ولله عاقبة الأمور} ٣٢.

والقرآن يلمح إلى أن الوصول إلى دار النعيم محض فضل من الله الكريم: {. . . الذي أحلنا دار المقام من فضله} ٣٣ والمؤمنون يعملون وهم على وجل: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} ٣٤: وكيف لا وقد قضى الله أن يرد الخلائق فوق جهنم، وينجو أهل التقوى دون من عداهم: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ٣٥.

٢٨ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٧]

{والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧) إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨)}

خائفون على أنفسهم من عذاب الله مع ما قدموا من عمل صالح خشية أن تقصر بهم دون النجاة، فإن أحد لا يملك المآل إلا الكبير المتعال: {. . ولله عاقبة الأمور} ٣٦.
والقرآن يلمح إلى أن الوصول إلى دار النعيم محض فضل من الله الكريم: {. . . الذي أحلنا دار المقام من فضله} ٣٧ والمؤمنون يعملون وهم على وجل: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} ٣٨: وكيف لا وقد قضى الله أن يرد الخلائق فوق جهنم، وينجو أهل التقوى دون من عداهم: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ٣٩.
٢٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)
{والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١)}.
يكفون فروجهم عن الحرام، ويصونونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، فهي محفوظة إلا من زوجاتهم اللاتي أحل الله لهم، أو جواريهم المملوكات لهم، فلا لوم عليهم في الاستمتاع به هؤلاء على نهج شرع الله؛ فمن تطلب سوى ذلك فهو متجاوز لحدود ربه، وهكذا فمن نكح ما لا يحل فقد سماه القرآن [عاديا] وأوجب عليه الحد لعدوانه، واللائط [عاد] قرآنا ولغة؛ بدليل قوله تعالى يقبح قوم لوط: {أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} ٤٠ فوجب أن يقام الحد عليهم.
٣٠ - (إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]
{والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١)}.
يكفون فروجهم عن الحرام، ويصونونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، فهي محفوظة إلا من زوجاتهم اللاتي أحل الله لهم، أو جواريهم المملوكات لهم، فلا لوم عليهم في الاستمتاع به هؤلاء على نهج شرع الله؛ فمن تطلب سوى ذلك فهو متجاوز لحدود ربه، وهكذا فمن نكح ما لا يحل فقد سماه القرآن [عاديا] وأوجب عليه الحد لعدوانه، واللائط [عاد] قرآنا ولغة؛ بدليل قوله تعالى يقبح قوم لوط: {أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} ٤١ فوجب أن يقام الحد عليهم.
٣١ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]
{والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١)}.
يكفون فروجهم عن الحرام، ويصونونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، فهي محفوظة إلا من زوجاتهم اللاتي أحل الله لهم، أو جواريهم المملوكات لهم، فلا لوم عليهم في الاستمتاع به هؤلاء على نهج شرع الله؛ فمن تطلب سوى ذلك فهو متجاوز لحدود ربه، وهكذا فمن نكح ما لا يحل فقد سماه القرآن [عاديا] وأوجب عليه الحد لعدوانه، واللائط [عاد] قرآنا ولغة؛ بدليل قوله تعالى يقبح قوم لوط: {أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} ٤٢ فوجب أن يقام الحد عليهم.
٣٢ - (وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)
{والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (٣٥)}
{لأماناتهم} جمع أمانة، ولله تعالى عندنا أمانات استحفظنا عليها؛ وأقدس الأمانات صيانة دينه وشرعه؛ وللعباد أمانات تجب رعايتها، وأشد ذلك الحديث، والكيل، والوزن، والودائع؛ والمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، فالأمانات والعهود تجمع كل ما

يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به.
والقيام بالشهادة: المحافظة عليها، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها {. . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه} ٤٣ يقومون بها على من كانت عليه من قريب أو بعيد ابتغاء رضوان الله ورعاية لحق عباده، وبهذا أمرنا: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. } ٤٤.
والمحافظة على الصلاة: رعاية ما يصححها ويكملها، فالدوام خلاف المحافظة، فدوامهم عليها أن يتابعوا أداءها لا يخلون بها ولا يؤخرونها ولا يتشاغلون عنها، ومحافظتهم عليها أن يراعوا شروطها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتراب المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها.
وجزاء هؤلاء الذين استقاموا على طريق الحق، وذكروا من أول قوله تعالى: {إلا المصلين} آية ٢٢ حتى الآية ٣٤ {والذين هم على صلاتهم يحافظون} جزاؤهم جنات يكرمهم الله تعالى فيها بما شاء من كرامات.
٣٣ - (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (٣٥)}
{لأماناتهم} جمع أمانة، ولله تعالى عندنا أمانات استحفظنا عليها، وأقدس الأمانات صيانة دينه وشرعه، وللعباد أمانات تجب رعايتها، وأشد ذلك الحديث، والكيل، والوزن، والودائع، والمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، فالأمانات والعهود تجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به.
والقيام بالشهادة: المحافظة عليها، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها {. . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه} ٤٥ يقومون بها على من كانت عليه من قريب أو بعيد ابتغاء رضوان الله ورعاية لحق عباده، وبهذا أمرنا: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. } ٤٦.
والمحافظة على الصلاة: رعاية ما يصححها ويكملها، فالدوام خلاف المحافظة، فدوامهم عليها أن يتابعوا أداءها لا يخلون بها ولا يؤخرونها ولا يتشاغلون عنها، ومحافظتهم عليها أن يراعوا شروطها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتراب المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها.
وجزاء هؤلاء الذين استقاموا على طريق الحق، وذكروا من أول قوله تعالى: {إلا المصلين} آية ٢٢ حتى الآية ٣٤ {والذين هم على صلاتهم يحافظون} جزاؤهم جنات يكرمهم الله تعالى فيها بما شاء من كرامات.
٣٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (٣٥)}
{لأماناتهم} جمع أمانة، ولله تعالى عندنا أمانات استحفظنا عليها، وأقدس الأمانات صيانة دينه وشرعه، وللعباد أمانات تجب رعايتها، وأشد ذلك الحديث، والكيل، والوزن، والودائع، والمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، فالأمانات والعهود تجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به.
والقيام بالشهادة: المحافظة عليها، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها {. . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه} ٤٧ يقومون بها على من كانت عليه من قريب أو بعيد ابتغاء رضوان الله ورعاية لحق عباده، وبهذا أمرنا: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. } ٤٨.

والمحافظة على الصلاة: رعاية ما يصححها ويكملها، فالدوام خلاف المحافظة؛ فدوامهم عليها أن يتابعوا أداءها لا يخلون بها ولا يؤخرونها ولا يتشاغلون عنها، ومحافظتهم عليها أن يراعوا شروطها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتراب المآثم؛ فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها.

وجزاء هؤلاء الذين استقاموا على طريق الحق، وذكروا من أول قوله تعالى: {إلا المصلين} آية ٢٢ حتى الآية ٣٤ {والذين هم على صلاتهم يحافظون} جزاؤهم جنات يكرمهم الله تعالى فيها بما شاء من كرامات.

٣٥ - (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]

{والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (٣٥)}

{لأماناتهم} جمع أمانة، ولله تعالى عندنا أمانات استحفظنا عليها، وأقدس الأمانات صيانة دينه وشرعه، وللعباد أمانات تجب رعايتها، وأشد ذلك الحديث، والكيل، والوزن، والودائع، والمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، فالأمانات والعهود تجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به.

والقيام بالشهادة: المحافظة عليها، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها {. . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه} ٤٩ يقومون بها على من كانت عليه من قريب أو بعيد ابتغاء رضوان الله ورعاية لحق عباده، وبهذا أمرنا: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. } ٥٠.

والمحافظة على الصلاة: رعاية ما يصححها ويكملها، فالدوام خلاف المحافظة؛ فدوامهم عليها أن يتابعوا أداءها لا يخلون بها ولا يؤخرونها ولا يتشاغلون عنها، ومحافظتهم عليها أن يراعوا شروطها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتراب المآثم؛ فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها.

وجزاء هؤلاء الذين استقاموا على طريق الحق، وذكروا من أول قوله تعالى: {إلا المصلين} آية ٢٢ حتى الآية ٣٤ {والذين هم على صلاتهم يحافظون} جزاؤهم جنات يكرمهم الله تعالى فيها بما شاء من كرامات.

٣٦ - (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

{فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)}

ينكر الله تعالى على الكفار الذي عاشوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يرونه ويرون ما أرسله الله به من الهدى والآيات وما أيده به من المعجزات، ثم هم مع هذا فارون منه متفرقون عنه شاردون يمينا وشمالا فرقا وشيعا، ما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مسرعين نافرين منك معرضين عنك، فرقا حولك لا يرغبون في كتاب الله ولا في هدي نبيه صلى الله عليه وسلم؟!

والمهطع: المسرع في نفوره وفراره.

و {عزين}: جمع عزة، أي فرقة، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم حلق فقال: (مالي أراكم عزين)؟ أي متفرقين، أيظنون بعد هذا الفرار عن الرسول والنفور عن الرسالة أن يكونوا من أهل الجنة والنعيم في الآخرة؟. .

كلا بل مأواهم جهنم ولن يعجزونا هربا فإنني القادر وهم الضعفاء وقد خلقتهم من ماء مهين: {فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر} ٥١.

٣٧ - (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)}

ينكر الله تعالى على الكفار الذي عاشوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يرونه ويرون ما أرسله الله به من الهدى والآيات وما أيده به من المعجزات، ثم هم مع هذا فارون منه متفرقون عنه شاردون يمينا وشمالا فرقا وشيعا، ما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مسرعين نافرين منك معرضين عنك، فرقا حولك لا يرغبون في كتاب الله ولا في هدي نبيه صلى الله عليه وسلم؟!

والمهطع: المسرع في نفوره وفراره.

و {عزين}: جمع عزة، أي فرقة، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم حلق فقال: (مالي أراكم عزين)؟ أي متفرقين، أيظنون بعد هذا الفرار عن الرسول والنفور عن الرسالة أن يكونوا من أهل الجنة والنعيم في الآخرة؟. .

كلا بل مأواهم جهنم ولن يعجزونا هربا فإنني القادر وهم الضعفاء وقد خلقتهم من ماء مهين: {فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر} ٥٢.

٣٨ - (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)}

ينكر الله تعالى على الكفار الذي عاشوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يرونه ويرون ما أرسله الله به من الهدى والآيات وما أيده به من المعجزات، ثم هم مع هذا فارون منه متفرقون عنه شاردون يمينا وشمالا فرقا وشيعا، ما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مسرعين نافرين منك معرضين عنك، فرقا حولك لا يرغبون في كتاب الله ولا في هدي نبيه صلى الله عليه وسلم؟!

والمهطع: المسرع في نفوره وفراره.

و {عزين}: جمع عزة، أي فرقة، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم حلق فقال: (مالي أراكم عزين)؟ أي متفرقين، أيظنون بعد هذا الفرار عن الرسول والنفور عن الرسالة أن يكونوا من أهل الجنة والنعيم في الآخرة؟. .

كلا بل مأواهم جهنم ولن يعجزونا هربا فإنني القادر وهم الضعفاء وقد خلقتهم من ماء مهين: {فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر} ٥٣.

٣٩ - (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٦]

{فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)}

ينكر الله تعالى على الكفار الذي عاشوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يرونه ويرون ما أرسله الله به من الهدى والآيات وما أيده به من المعجزات، ثم هم مع هذا فارون منه متفرقون عنه شاردون يمينا وشمالا فرقا وشيعا، ما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مسرعين نافرين منك معرضين عنك، فرقا حولك لا يرغبون في كتاب الله ولا في هدي نبيه صلى الله عليه وسلم؟!

والمهطع: المسرع في نفوره وفراره.

و {عزين}: جمع عزة، أي فرقة، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم حلق فقال: (مالي أراكم عزين)؟ أي متفرقين، أيظنون بعد هذا الفرار عن الرسول والنفور عن الرسالة أن يكونوا من أهل

الجنة والنعيم في الآخرة؟. .
كلا بل مأواهم جهنم ولن يعجزونا هربا فإنني القادر وهم الضعفاء وقد خلقتهم من ماء مهين: {فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر} ٥٤.
٤٠ - (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)
{فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)}
أقسم و [لا] صلة وليست بنافية. والمقسم به هو الله العظيم رب مشارق الكواكب ومغاربها؛ وجواب القسم: {إنا لقادرون} فربنا قادر على أن يهلكهم ويجيء بخير منهم كما جاء في قوله تعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} ٥٥ {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. } ٥٦ وما يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.
٤١ - (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٠]
{فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)}
أقسم و [لا] صلة وليست بنافية. والمقسم به هو الله العظيم رب مشارق الكواكب ومغاربها؛ وجواب القسم: {إنا لقادرون} فربنا قادر على أن يهلكهم ويجيء بخير منهم كما جاء في قوله تعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} ٥٧ {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. } ٥٨ وما يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.
٤٢ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)
{فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٤٢)}
إنذار لهم ووعيد وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، أي اتركهم في باطلهم ولهوهم وامض أنت مستقيما على ما به أرسلت، فإن لهم يوما يلقون فيه ما وعدوا.
٤٣ - (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ)
{يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون (٤٣)}
{الأجداث} القبور، وأحدها: جدث.
{نصب} الغاية أو العلم أو ما نصب فعبد من دون الله.
{يوفضون} يبتدرون ويسرعون.
حين يسمعون صيحة النشور وبعث من في القبور يقومون من حفرهم ويخرجون من قبورهم مسرعين.
٤٤ - (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)
{خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون (٤٤)}
تنكس رءوسهم. وتسود وجوههم، ويغشاهم الخزي والهوان، وذلك الذي وعدوه في الدنيا فهم ملاقوه لا محالة.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ٥٩ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا

٦٠، وقد تتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٦١.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٦٢، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٦٣، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٦٤ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٦٥. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٦٦، {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٦٧.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٦٨، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٦٩، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٧٠ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٧١، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٧٢، {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٧٣.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٧٤، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٧٥، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٧٦، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلي ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٧٧، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٧٨، وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٧٩ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٨٠ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٨١، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٨٢، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٨٣، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٨٤ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون، فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.
وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٨٥: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما

تعملون خبير} ٨٦، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٨٧، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٨٨، {وإنه لحق اليقين} ٨٩؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٩٠، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٩١.
ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٩٢ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٩٣ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٩٤، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٩٥، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٩٦؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.
وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٩٧، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٩٨، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٩٩، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ١٠٠، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ١٠١، {واتقوا الله ربكم} ١٠٢، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ١٠٣، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ١٠٤،
{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ١٠٥، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٠٦، {أن اعبدوا الله واتقوه} ١٠٧.
وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ١٠٨؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ١٠٩، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ١١٠. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ١١١، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ١١٢؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١١٣، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ١١٤
وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ١١٥، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ١١٦، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ١١٧.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ١١٨. {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ١١٩ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ١٢٠.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ١٢١، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٢٢، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ١٢٣، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ١٢٤، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ١٢٥، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ١٢٦، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ١٢٧، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ١٢٨، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ١٢٩ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ١٣٠، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ١٣١، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ١٣٢ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ١٣٣. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ١٣٤، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ١٣٥، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ١٣٦.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ١٣٧، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ١٣٨، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٣٩ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ١٤٠ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٤١، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٤٢، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا

بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٤٣، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٤٤، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٤٥.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٧١ سورة نوح:

سورة نوح:
(٧١) سورة نوح مكية
وآياتها ثمان وعشرون
كلماتها: ٢٢١؛ حروفها: ٧٥٠.
١ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١)}

تؤكد الآية الكريمة أن الله تعالى بعث نوحا رسولا إلى قومه لينذر ويحذر بأس ربنا وبطشه الأليم قبل أن ينزل بهم ويحل عليهم، إذ كبر عليهم أن يوحدوا الله ويعبدوه، بينما زين لهم تأليه أصنام عكفوا على تقديسها، فناداهم نبيهم إلى الحق، ودعاهم إلى هجر الغواية والشرك، لئلا يكون لهم على الله حجة أن يقولوا ما جاءهم من بشير ولا نذير، ومن عدل مولانا سبحانه وفضله أن لا يعذب حيث يبعث رسولا.

٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

{قال يا قوم إني لكم نذير مبين (٢)}

ناداهم مذكرا بأنه منهم، حريص عليهم، مؤكدا أنه نخيرهم وحسن عاقبتهم يخوفهم مآل شركهم، ويبين ويظهر ما أتاهم من هدى ربهم.

٣ - (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)

{أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣)}

{أن} تفسيرية و {اعبدوا الله} أفردوه بالتقديس والطاعة ولا تشركوا به شيئا {واتقوا} توقوا غضبه فاتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه {وأطيعون} فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فأني أبلغكم ما أرسلني به ربي وأنصح لكم.

٤ - (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

{يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤)}

{يغفر} مجزوم في جواب الأمر (اعبدوا) أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم فإن الله تعالى يغفر لكم من خطاياكم، فيستر عليكم من ذنوبكم ويمحو ما طلبتم غفره وستره مما لا عدوان فيه على حقوق المخلوقين.

ويطل أعماركم إذا وحدتم وآمنتم وأطعتم؛ وهو الأمد الأقصى الذي قدره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدره عز وجل لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان.

وبادروا بالإيمان والتقوى قبل حلول النقمة فإنه إذا أمر سبحانه بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، وأضيف الأجل إلى الله تعالى لأنه الذي أثبته.

{لو كنتم تعلمون} لو كنتم من أهل العلم الذي يتدبرون الأمور وينظرون في عواقبها لسارعتم إلى ما أمرتكم به، لكنكم لستم من أهله فلذا لم تسارعوا، ولو كنتم ممن يتبصرون لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

٥ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا)

{قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥)}

قال نوح متضرعا إلى مولاه: رب إني ناديت قومي إلى الهدى في سائر الأوقات، وتابعت نصحهم.

٦ - (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا)

{فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦)}

فلم يستجيبوا لندائي بل ازدادوا فرارا من الحق وانحرافا عن الرشد.

٧ - (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)

{وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧)}

وتمضي الآية الكريمة تبين شكوى نوح إلى ربه من عناد قومه المستكبرين عن الحق فيؤكد أنه كلما دعاهم إلى الإيمان ليفوزوا بالغفران سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة، وبالغوا في التغطي بالأثواب كراهة النظر إليه من فرط كراهيتهم للدعوة.

{وأصروا} واستمروا على شركهم وكفرهم.

{واستكبروا استكبارا} واستنكفوا عن اتباع الحق، وأنفوا وتأبوا الانقياد للهدى والرشاد، وقالوا: {. . إن لنراك في ضلال مبين} ١ وقالوا: {إن هو إلا رجل به جنة} ٢ ثم كان أن أكدوا له وعيدهم: {قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين} ٣.

٨ - (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

{ثم إني دعوتهم جهارا (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا (٩)

ويمضي نوح عليه السلام يشكوهم إلى ربهم- وهو أعلم بهم- فيؤكد أنه دعاهم مجاهرا وعلى ملأ، وأنه كان يدعوهم علانية، وأنه كان يسر إليهم القول؛ فلان صلوات الله عليه لهم، وسلك سبل الحكمة إذ وعظهم، فمع أنه ملأ الأوقات فدعاهم ليلا ونهارا، أعذر إلى الله فيهم فصاح فيهم وناجاهم. وذكرهم فرادى ومجتمعين.

٩ - (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٨]

{ثم إني دعوتهم جهارا (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا (٩)

ويمضي نوح عليه السلام يشكوهم إلى ربهم- وهو أعلم بهم- فيؤكد أنه دعاهم مجاهرا وعلى ملأ، وأنه كان يدعوهم علانية، وأنه كان يسر إليهم القول؛ فلان صلوات الله عليه لهم، وسلك سبل الحكمة إذ وعظهم، فمع أنه ملأ الأوقات فدعاهم ليلا ونهارا، أعذر إلى الله فيهم فصاح فيهم وناجاهم. وذكرهم فرادى ومجتمعين.

١٠ - (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)

{فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا (١٠)}

قلت: سلوا ربكم محو ما سلف ومضى من ذنوبكم فإنه يغفر ويمحو ذنوب من طلب غفرانه وإن كثرت خطاياه، وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب يتب عليكم إنه تواب.

١١ - (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)

}يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢){

رغبهم نبيهم في التوبة بذكر بركاتها في الدنيا حيث قست قلوبهم فهي لا ترقب آخرة.

يعدهم إذا هم آمنوا واستقاموا أن يرسل الله عليهم المطر ماء السماء سيالا- كثير الدرور-، متواصل النزول.

وأعطاكم ومنحكم الأموال الكثيرة، وذرية من الذكور، وأنبت لكم الزرع والحدائق ذات الثمار، وفجر خلالها الأنهار تجري بينها.

١٢ - (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١١]

}يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢){

رغبهم نبيهم في التوبة بذكر بركاتها في الدنيا حيث قست قلوبهم فهي لا ترقب آخرة.

يعدهم إذا هم آمنوا واستقاموا أن يرسل الله عليهم المطر ماء السماء سيالا- كثير الدرور-، متواصل النزول.

وأعطاكم ومنحكم الأموال الكثيرة، وذرية من الذكور، وأنبت لكم الزرع والحدائق ذات الثمار، وفجر خلالها الأنهار تجري بينها.

١٣ - (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

}ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤){

ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة؟، وأي عذر لكم في ترك الخوف من الله القدير؟

وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على جلاله واقتداره فانشأكم خلقا من بعد خلق، نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكمله الله ويصوره أحسن صورة }إن في ذلك لعبرة لمن يخشى{ ٤.

١٤ - (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٣]

}ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤){

ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة؟، وأي عذر لكم في ترك الخوف من الله القدير؟

وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على جلاله واقتداره فانشأكم خلقا من بعد خلق، نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكمله الله ويصوره أحسن صورة }إن في ذلك لعبرة لمن يخشى{ ٥.

١٥ - (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

}أو لم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦){

ألم تنظروا وتفكروا في دقة الصنع، وحسن الخلق، كيف سوى سبع سماوات متطابقة؛ ونور الأرض بالقمر- وليس القمر إلا واحدا من كواكب منبثة في السماوات- وجعل الشمس مصدرا للضياء كالسراج والمصباح يستضيء الناس بضيائها.

١٦ - (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

}أو لم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦){

ألم تنظروا وتفكروا في دقة الصنع، وحسن الخلق، كيف سوى سبع سماوات متطابقة؛ ونور الأرض بالقمر- وليس القمر إلا واحدا من كواكب منبثة في السماوات- وجعل الشمس مصدرا للضياء كالسراج والمصباح يستضيء الناس بضيائها.

١٧ - (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا)

}والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨){.

حجة لله تعالى على عباده، وبرهان على حكمته سبحانه واقتداره.

والله- دون سواه- أنبت وأنشأ أبا البشر آدم عليه السلام وبدأ خلقه من التراب والماء، ومن الطين الصلصال الحمأ المسنون، ثم سواه ونفخ فيه من روحه.

و {نباتا} اسم مصدر من: أنبت.

وكأن المعنى: ببديع صنع المولى- تبارك اسمه- كان أول طور لأبيكم قدر يسير من عناصر الكوكب الذي تسكنونه ثم أجرى الله تعالى فيه الحياة، قريبا مما ترون من تطور الزرع والنبات.

ونعيش على ظهر الأرض ما شاء الله لنا، فإذا حانت آجالنا. وقبضت أرواحنا، استودعنا باطن الأرض حتى يأتي ميعادنا.

فإذا جاء يوم الفصل تشققت الأرض، وجمع الله- القوي العزيز- الشعور المتفرقة، واللحوم المتمزقة والعظام النخرة البالية لمن في القبور، وأحياهم الذي أنشأهم أول مرة: {. . كما بدأكم تعودون} ٦.

وهكذا فمن الأرض بدأنا، وإلى حفرها وبطنها وقبورها مرقدنا، ومن أجداثها مخرجنا {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} ٧.

١٨ - (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٧]

{والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨)}.

حجة لله تعالى على عباده، وبرهان على حكمته سبحانه واقتداره.

والله- دون سواه- أنبت وأنشأ أبا البشر آدم عليه السلام وبدأ خلقه من التراب والماء، ومن الطين الصلصال الحمأ المسنون، ثم سواه ونفخ فيه من روحه.

و {نباتا} اسم مصدر من: أنبت.

وكأن المعنى: ببديع صنع المولى- تبارك اسمه- كان أول طور لأبيكم قدر يسير من عناصر الكوكب الذي تسكنونه ثم أجرى الله تعالى فيه الحياة، قريبا مما ترون من تطور الزرع والنبات.

ونعيش على ظهر الأرض ما شاء الله لنا، فإذا حانت آجالنا. وقبضت أرواحنا، استودعنا باطن الأرض حتى يأتي ميعادنا.

فإذا جاء يوم الفصل تشققت الأرض، وجمع الله- القوي العزيز- الشعور المتفرقة، واللحوم المتمزقة والعظام النخرة البالية لمن في القبور، وأحياهم الذي أنشأهم أول مرة: {. . كما بدأكم تعودون} ٨.

وهكذا فمن الأرض بدأنا، وإلى حفرها وبطنها وقبورها مرقدنا، ومن أجداثها مخرجنا {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} ٩.

١٩ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا)

{والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠)}

وفيما بين مبدئنا ولحدنا، ومحيانا ومماتنا، لنا في الأرض مستقر ومتاع.

ومن آيات ربنا أن بسط الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال لتستقروا عليها، وأجرى فيها الأنهار ومرج البحار وقدر الأقوات.

{لتسلكوا} لتسيروا في أي الطرق شئتم، وتتقلبوا في أرجائها ونواحيها.

{فجاجا} واسعة.

كل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض؛ ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد، ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند، ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

وهو كذلك برهان من ربنا إلى كل مكلف وحجة للخالق على الخلق لكيلا يتخذوا من دونه أولياء {. . فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو

على كل شيء قدير} ١٠. وهكذا أعجزت كلمات الله كل المشركين: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون} ١١.
٢٠ - (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٩]
{والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠)}
وفيما بين مبدئنا ولحدنا، ومحيانا ومماتنا، لنا في الأرض مستقر ومتاع.
ومن آيات ربنا أن بسط الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال لتستقروا عليها، وأجرى فيها الأنهار ومرج البحار وقدر الأقوات.
{لتسلكوا} لتسيروا في أي الطرق شئتم، وتتقلبوا في أرجائها ونواحيها.
{فجاجا} واسعة.
كل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض؛ ونعمه عليهم فيها جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد، ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند، ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.
وهو كذلك برهان من ربنا إلى كل مكلف وحجة للخالق على الخلق لكيلا يتخذوا من دونه أولياء {. . فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير} ١٢. وهكذا أعجزت كلمات الله كل المشركين: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون} ١٣.
٢١ - (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا)
{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١)}.
تخبرنا الآية الكريمة عن نوح عليه السلام أنه قال لربه – وهو العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء- إنه مع الدعوة المبينة الواضحة بالترغيب حينا وبالترهيب حينا وفي سائر الأوقات وفي الخلوات والجلوات، ومع ذلك داموا على عصيانه وتكذيبه، وخالفوه واتبعوا كبراءهم واستمروا على الانقياد للمستكبرين البطرين الذين غرتهم أموالهم، وأطغتهم أولادهم فلم تزدهم النعم إلا ضلالا في الدنيا وخسارا في الآخرة.
٢٢ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)
{ومكروا مكرا كبّارا (٢٢)}
كاد الذين استكبروا للذين استضعفوا فسولوا لهم أنهم على الحق كما يقولون لهم يوم القيامة: {. . بل مكر الليل والنهار إذا تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا} ١٤.
وكان كيدهم كبيرا إذ فتنوا الضعفاء عن الهدى بعد إذ تبين لهم: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} ١٥.
٢٣ - (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)
{وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣)}.
قال كبراء قوم نوح لضعفائهم لا تتركوا عبادة آلهتكم: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر- وكانت أصناما عظموها واتخذوها أربابا- واحذروا أن تفارقوها إلى عبادة إله نوح.
٢٤ - (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا)
{وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤)}

قوله تبارك اسمه: {وقد أضلوا} ربما يعود على ما تضمنه القول الرباني الكريم: {. . واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا} يعني: هؤلاء الذين اتبعوا أضلوا بكيدهم وتحريضهم الضعفاء على مداومة عبادة أصنامهم- أضلوا خلقا كثيرا-

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: {وقد أ ضلوا. } يعني الأصنام التي اتخذوها أَضلت خلقا كثيرا ضلوا بسببها- إذ قد روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. . اه وإنما أسند الفعل إلى واو الجماعة فلم يضف إلى التاء [أضلت] ربما لأنه أجرى عليهم وصف ما يعقل الاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

{ولا تزد الظالمين إلا ضلالا} دعاء من نوح عليه السلام أن يعاجل الله هؤلاء الغاوين بالعذاب- وللقرآن الكريم استعمال في هذا المعنى: {إن المجرمين في ضلال وسعر. يوم يسحبون في النار على وجوههم. } ١٦ وقيل: إلا خسرانا.

٢٥ - (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا)

{مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥)}.

{ما} صلة مؤكدة، أو مصدرية، أو بمعنى المجاز.

من أجل خطيئاتهم- جمع خطيئة – وبسببها- دون أن يظلمهم الله- أغرقهم القوي العزيز فذاقوا وبال أمرهم، وأعقبهم حر النار، فلم يمنعهم من الله تعالى مانع، ولم يجرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة مجير.

ويستشهد جمهور من العلماء بقوله سبحانه: {فادخلوا} على ثبوت عذاب القبر، إذ قد عطف بالفاء المقتضية للترتيب باتصال أي: عقب إغراقهم- دون فاصل- أدخلوا نارا، وبين الإغراق وتخليدهم في جهنم بعد حسابهم زمن.

٢٦ - (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

{وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦)}

{ديارا} أي ساكنا واحدا للديار.

دعوة نوح- عليه السلام- هذه معطوفة على دعوته التي بينتها الآية السابقة: {. . ولا تزد الظالمين إلا ضلالا} والآية بينهما كأنما هي معترضة لبيان سبب إهلاكهم وأنهم بخطيئاتهم حل بهم عذاب الغرق في الدنيا وأعدت لهم النار في الآخرة.

دعا عليهم النبي المرسل إليهم أن يستأصلهم الله جميعا فلا يبقى منهم كافرا.

٢٧ - (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا)

{إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٢٧)}.

من طول ما لاقى نوح من عنت الكافرين وإصرارهم على فجورهم، وفتنتهم لمن أراد أن يؤمن من إخوانهم وأبنائهم، تضرع إلى ربه أن يريح المؤمنين من شرهم وبلائهم فإنهم يوصون أولادهم بالعكوف على أصنامهم والحذر من اتباع ما جاءهم به نوح من ربهم؛ وإنما وصف الذرية التي تنبت منهم بإيقاع الفجور والكفر على معنى أنهم: سيفجرون ويكفرون.

ولا يدخل هذا في الاستعجال، ولا في استظهار الغيب وإنما لما كان يعلم نوح من عظيم جحودهم، كيف لا وقد أوحى الله تعالى إليه: {. . إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ١٧.

٢٨ - (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا)

{رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨)}.

{تبارا} هلاكا، أوخسارا ودمارا.

دعا الله تعالى أن يغفر له ولأبويه وللمؤمنين ودعا على الباغين الظالمين أن يزيدهم الله هلاكا ودمارا، كما خص بالدعاء من زاره ودخل بيته، وفي هذا ما يحبب إلى أهل الإيمان الكرم والسخاء.

خاتمة:

السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله، وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.

كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ١٨ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ١٩؛ وقد تتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ٢٠.

فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٢١، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ٢٢، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٢٣ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٢٤. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٥، {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٢٦.

ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٢٧، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٢٨، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٢٩ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٣٠، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٣١، {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٣٢.

وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين – يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٣٣، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٣٤، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٣٥، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه؛ ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه؛ وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٣٦، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٣٧؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣٨ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٣٩ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٤٠، واستصحب – عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٤١، {ثم

إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٤٢، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٤٣ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٤٤: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٤٥، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٤٦، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٤٧، {وإنه لحق اليقين} ٤٨؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٤٩، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٥٠.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٥١ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٥٢ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٥٣، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٥٤، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٥٥؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٥٦، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥٧، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٥٨، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٥٩، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٦٠، {واتقوا الله ربكم} ٦١، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٦٢، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٦٣،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٦٤، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٦٥، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٦٦.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٦٧؛ ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٦٨، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٦٩. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٧٠، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٧١؛ ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٧٢، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل

نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٧٣ وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٧٤، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٧٥، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٧٦.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٧٧.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٧٨ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٧٩.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد تتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٨٠، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٨١، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٨٢، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٨٣، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٨٤، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٨٥، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٨٦، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٨٧، {. . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ٨٨ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ٨٩، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ٩٠، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٩١ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ٩٢. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ٩٣، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ٩٤، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ٩٥.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ٩٦، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ٩٧، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح

منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٩٨ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ٩٩ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ١٠٠، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ١٠١، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ١٠٢، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٠٣، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٠٤.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٧٢ سورة الجن:

سورة الجن:
(٧٢) سورة الجن مكية
وآياتها ثمان وعشرون
كلماتها: ٢٨٥؛ حروفها: ٧٥٩
١ - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن}

يأمر الله تعالى نبيه أن يبلغ الناس أن ربه يسر لجماعة من الجن أن يستمعوا إلى شيء مما يقرؤه النبي من القرآن، بدليل قول الله تعالى في سورة الأحقاف: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن} ١ والجن خلق من خلق الله- سبحانه- أقدرهم سبحانه على التشكل بأشكال مختلفة.

{فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا (١)}.

فحين استمع الجن للقرآن عظموه وقدسوه وقالوا إنا سمعنا قرآنا عجيبا في فصاحة كلامه، ولا يوجد مثله.

٢ - (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

{يهدي إلى الرشد}.

يهدي إلى الحق ومراشد الأمور؛ و {يهدي} في موضع الصفة أي هاديا.

{فآمنا به}

فاهتدينا به وصدقنا أنه من عند الله، والفاء للترتيب باتصال، أي بمجرد السماع آمنا دون تأخر، والباء للسببية.

{ولن نشرك بربنا أحدا (٢)}

حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد؛ أو لن نرجع إلى إبليس ولن نطيعه، ولن نتخذ مع الله إلها آخر.

٣ - (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا)
}وأنه تعالى جد ربنا{
فتحت همزة }وأنه{ للعطف على محل الجار والمجرور في }آمنا به{ كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا.
والجد في اللغة: العظمة والجلال، أو الذكر والجاه؛ أي: تعالت عظمة الله ربنا وجلاله، وعظم مقامه.
}ما اتخذ صاحبة ولا ولدا (٣){.
تنزه الله وتقدس عن اتخاذ الزوجة والأولاد.
٤ - (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)
}وأنه كان يقول سفيهنا{
هو إبليس- عند الجمهور- وقيل مردة الجن- الشياطين- والإضافة للجنس، والمراد سفهاؤنا؛ وفتحت همزة }وأنه{ للعطف على محل الجار والمجرور في }آمنا به{ كما أسلفنا في تفسير الآية السابقة.
}على الله شططا (٤){
أي باطلا وزورا، وقولا ذا شطط أي بعد عن القصد، ومجاوزة للحد.
٥ - (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)
}وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥){.
اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم، أي كنا نظن أن لن يكذب على الله أحد فينسب إليه سبحانه الصاحبة والولد؛ و }كذبا{ مصدر مؤكد ل }تقول{ لأنه نوع من القول.
فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.
٦ - (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)
}وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن{
كان بعض الناس إذا نزل واديا قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه.
}فزادوهم رهقا (٦){
زاد الجن الإنس رهقا أي خطيئة وإثما حيث كان تجبر الجن سببا في تعوذ الناس بهم؛ أو حين رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ازدادوا عتوا وتكبرا وزادوهم خوفا ورعبا وإرهاقا.
٧ - (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)
}وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا (٧){
}وأنهم{ أي الجن حسبوا كما حسبتم أيها الناس أنه ليس بعد الموت من حياة، أو ظنوا كظنكم أن الله لن يرسل رسولا في تلك المدة؛ وتكون هذه الآية معطوفة قوله على سبحانه: }قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن{.
٨ - (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)
}وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا (٨){
هذا من قول الجن، أي طلبنا بلوغها لسماع كلام أهلها فصادفناها وقد أحاط بها حرس كثير من الملائكة.
و }حرسا{ اسم جمع- كخدم- كما رصدت الشهب تلاحق كل من يتسمع إلى الملأ الأعلى، كما قال المولى تبارك اسمه: }وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب{ ٢.
والشهب جمع شهاب كما يجمع كتاب على كتب.
٩ - (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)

{وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا (٩)}.

كنا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم نسترق السمع ونخطف بعض ما تتحدث به الملائكة في السماء وكنا نرمي بالشهب أحيانا، أما بعد إرسال هذا الرسول فمن يحاول الاقتراب للتسمع يُقذف ويُطرد أو يهلك؛ يقول المفسرون بالمأثور: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

و {رصدا} أي حفاظا من الملائكة وحراسا، تقذف من يتسلل نحوها من الشياطين {إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد} ٣.

١٠ - (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

{وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض}.

هل أراد الله بهذا التشديد في حفظ السماء وصونها عن أن يقترب منها شيطان- هل أراد بذلك الشر لسكان الأرض؟! أو أنه مقدمة لعذاب ينزله عليهم؟

{أم أراد بهم ربهم رشدا (١٠)}

أم: أن الله قضى لهم الخير فبعث إليهم رسولا.

أو: لا ندري أشر أريد بأهل الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؟!

١١ - (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا)

{وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك}

قال بعض الجن لبعض: كنا قبل استماع القرآن منا أهل صلاح ومنا دون الصالحين، كان فينا من يصلح شأنه وعمله ويميل إلى الخير بطبعه، وفينا من هو أقل من ذلك.

{كنا طرائق قدادا (١١)}

كنا فرقا شتى، وأهواء متباينة.

و {قدادا} جمع قدة، وأصلها من قد السيور.

١٢ - (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)

{وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا (١٢)}

الظن هنا بمعنى العلم واليقين، ومثل هذا جاء في قول الله تبارك اسمه: {إني ظننت أني ملاق حسابية} ٤ فهو مما يقول أهل السعادة حين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وحاشا أن ينجو من العذاب من لم يوقن بالبعث، وبهذا شهد القرآن الكريم على بعض أصحاب الجحيم: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا} ٥ فكأن المعنى: علمنا بالتفكر في آيات الله أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره.

و {هربا} مصدر في موضع الحال، أي هاربين.

مهما أمعنا في الهرب فإنه قادر علينا لا يعجزه أحد منا فأي أقطار الأرض نأوي إليه فإنه في قبضته، والسماوات مطويات بيمينه.

١٣ - (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا)

{وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به}

يشهدون الله أنهم حين سمعوا القرآن آمنوا به وصدقوا بكلماته واستيقنوا.

و {هدى} من أسماء القرآن الكريم، يقول المولى العليم الحكيم: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} ويقول سبحانه: {ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء}. ٦

{فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (١٣)}
من يستيقن بالله تعالى وكلماته ورسالاته فلا يخاف أن ينتقص من جزائه ولا أن يؤاخذ بما لم يفعل {. . ولا يظلم ربك أحدا} ٧ ولن تغشاه ذلة، كما شهد الكتاب العزيز: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة} ٨.
١٤ - (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)
{وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون}
من فعل القرآن الكريم في نفوس الجن بعد سماعه أن افترقوا فمنهم من أسلم وأذعن للحق واستقام، ومنهم من زاد عوجا وجار عن قصد السبيل، وهكذا يفعل: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} ٩.
{فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا (١٤)}
فالذين أسلموا قصدوا طريق السداد والتزموا منهاج السلامة والرشاد في الدنيا ويوم المعاد، واسم الإشارة: {فأولئك} للجماعة أشير به إلى الموصول قبله {فمن} وإنما جمع لأن المعنى: فأما المسلمون.
١٥ - (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)
{وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا (١٥)}
الجائرون عن الحق والعدل قاسطون مائلون عن الإيمان فجزاؤهم في الآخرة حريق النار، وهم وقودها.
هذا ومعنى [قسط] على العكس من معنى [أقسط] فبينما القاسطون يجعلهم الله وقود جهنم تسعر بهم، فإن المقسطين المنصفين يستأهلون النعيم، يقول الله سبحانه {. . وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} ١٠ فالقاسط عادل عن الحق، والمقسط عادل إلى الحق، إذ قسط بمعنى جار، وأقسط بمعنى عدل.
١٦ - (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)
{وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (١٦)}
هذا من قول الله تبارك اسمه، ووعد منه لا يخلف وكأنه معطوف على ما بعد {أوحى} فكأن التقدير: أوحى إلى أنه استمع نفر. . وأوحى إلى أن لو استقام الكفار الجائرون لوسعنا عليهم وبسطنا لهم في معايشهم، والغدق: الواسع الكثير- وكانوا قد منعوا المطر سبع سنين- وإذا سقاهم الله تعالى ماء السماء شربوا وحييت أنعامهم وأينعت زروعهم، ومثله بشرى القرآن الكريم: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} ١١.
١٧ - (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)
{لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا (١٧)}
لنختبرهم فيما وسعنا به عليهم هل سيشكرون الله المنعم؟ لنعاملهم معاملة المختبر، والذين يعرضون عن شكر الله وعبادته يدخلهم عذابا شاقا شديدا.
١٨ - (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)
{وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨)}
معطوف على قوله سبحانه: {قل أوحي إلى أنه. } وأوحى إلي أن المساجد لله بنيت لذكر ربنا العظيم وعبادته- والأرض كلها في الإسلام صالحة للصلاة، فأينما كنا صلينا، وأينما صلينا فهو مسجد- وفي الحديث الصحيح: (. . وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا. .) فلا تشركوا فيها صنما ولا غيره مما يعبد من دون الله.
وفي هذا توبيخ للمشركين في نصب الأصنام ودعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام، واليهود والنصارى الذي يدخلون بيعهم وكنائسهم فيشركون فيها بالله.
١٩ - (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

{وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١٩)}
معطوف على الآية الكريمة الأولى: {قل أوحي إلي أنه} أي: لما قام محمد يقرأ كتاب الله تزاحمت الجن وتجمعت حوله صلى الله عليه وسلم وكادوا وأوشكوا أن يسقطوا فوق بعضهم حرصا على سماع القرآن. و {لبدا} جماعات.
وروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: تلبّدت- تجمّعت- الإنس والجن على هذا الأمر - الإسلام- ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه.
٢٠ - (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)
{قل إنما ادعوا ربي ولا أشرك به أحدا (٢٠)}
أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر كل من يتذكر أنه ليس إلا عبدا لله القوي، يفرده وحده بالعبادة، لا يبتغي بها إلا وجهه ورضاه، وهذا هو لب دين الله، فربنا تبارك اسمه هو المعبود وهو الولي ونعم الوكيل.
٢١ - (قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا)
{قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (٢١)}
هذا بلاغ لكل من يعقل أن النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم لا يملك للخلق ضرا ولا نفعا، ولا غيا ولا رشدا، ولا شقاء ولا نعيما، إنما الأمر كله لله.
٢٢ - (قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)
{قل إني لن يجيرون من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٢٢)}
أخبر كل من تبلغه الدعوة أنك إن عصيت فلن ينقذك أحد مني ولن يحول بينك وبيني، ولن تجد لك نصيرا ولا ملجأ، ولا وليا ولا موئلا، ولا حرزا ولا مسلكا، ولا منحرفا أو معدلا.
٢٣ - (إِلا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)
{إلا بلاغا من الله ورسالته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا (٢٣)}
لكن إن بلغت أمانات ربي وكلماته ورسالاته أجارني ورحمني؛ ولن أجد شيئا أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع؛ ومن يعص الله ورسوله في الأمر بالتوحيد فإنه سيخلد في عذاب النار؛ و {خالدين} حال، وجمعها مع أن صاحب الحال {من} مفرد اللفظ لأن معناها الجمع، فكأن التقدير: والذين يعصون الله ورسوله لهم نار جهنم خالدين فيها. و {أبدا} أي: بلا نهاية. {. . وما هم منها بمخرجين} ١٢.
٢٤ - (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)
{حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا (٢٤)}.
كان الكفار يستضعفون النبي صلى الله عليه وسلم ويستقلون عدد من اتبعه و {حتى} ابتدائية، و {إذا} شرطية، فكأن المعنى: حين يرون ما وعدهم الله من العذاب يتبين لهم أن المستضعف من هو؟. أهم أم المؤمنون؟. بل المشركون لا ناصر لهم، والشيطان وليهم يخذلهم كما أخبر الله العليم: {. . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي} ١٣ لا أملك غوثكم، ولا تستطيعون غياثي وهم أقل عددا من جند الله العزيز: {. . ولله جنود السماوات والأرض} ١٤.
٢٥ - (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا)
{قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا (٢٥)}
{إن} نافية بمعنى ما، والذي وعدوه: العذاب عاجلا في الدنيا أو آجلا في الآخرة، و {أمدا} أي غاية وأجلا، وزمانا بعيدا؛ وفيه تأكيد أن وعد الله آت لا ريب فيه، لكن وقت حلوله ومجيئه لم يوح إلي به.
٢٦ - (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)

{عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦)}
أل في {الغيب} للاستغراق، فكأن المعنى: الله جل علاه يعلم كل ما غاب ولا يطلع أحدا على مكنون تلك الغيوب، والمراد بالإظهار المنفي: الاطلاع الكامل الذي تنكشف به جلية الحال على أتم وجه كما يرشد إليه حرف الاستعلاء {على}.
٢٧ - (إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)
{إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧)}
لكن الرسول المرتضى يظهره جل وعلا على بعض الغيوب المتصلة برسالته بما يأتيه من وحي الله تبارك اسمه، وعند إطلاعه على شيء من الغيب يحوطه سبحانه بحرس من ملائكته الكرام عليهم السلام يحرسونه من تعرض الشياطين لما أريد إطلاعه عليه.
٢٨ - (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)
{ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا (٢٨)}
يحفظ الله تعالى رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم - أي ليظهر أثر علمه- أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما عندهم وأحصاهم فردا فردا، وعد كل شيء عددا.
خاتمة:
السور الخمس عشرة (من المجادلة إلى الجن) هدت إلى تقديس مولانا الذي لا يعبد بحق سواه، وصرفت البرهان على أن الرب المبدئ المعيد، الغني الحميد، السميع البصير، العزيز الغفور، الحكيم القدير الشكور، الولي المنعم النصير، هو الله؛ وذكرت بجند ربنا المكرمين، ودعت إلى التأسي بالنبيين- عليهم الصلوات والتسليم- واتباع ما نزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وإلى اليقين بالآخرة وأحوالها، والعمل لما يؤمن من فزعها وينجي من أهوالها.
كل واحدة من هذه السورة الكريمة علمتنا من أسماء ربنا الحسنى وصفاته الجليلة، وقد يزيد ما يرد في السورة الواحدة على عشرين ١٥ اسما أو صفة لمولانا ذي الجلال والإكرام؛ بل في ثلاث أيام ختمت بهن سورة الحشر تقرأ عشرين من الأسماء الحسنى والصفات العلا ١٦؛ وقد نتلاحق الآيات وفي كل منها البرهان تلو البرهان على تفرد ربنا بالتدبير والتسخير والسلطان ١٧.
فمن آيات الأسماء والصفات قول ربنا- تقدست أسماؤه: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ١٨، {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم} ١٩، {خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير} ٢٠ {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} ٢١. {ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} ٢٢؛ {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} ٢٣.
ومن آيات الحجة قوله الحكيم: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٢٤، {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} ٢٥، {أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور. أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور} ٢٦ {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} ٢٧، {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين} ٢٨؛ {أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين} ٢٩.
وفي التأسي بالنبيين- صلوات ربنا عليهم أجمعين - يقول ربنا العلي العظيم: {. . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٣٠، {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه. } ٣١، {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان

يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ٣٢، فاليقين بالرسل لا ينفك عن اتباع سبيلهم ونصرة رسالاتهم، وإنه لصراط يبلغ جنة الله، وبر ينال به رضاه، ومن يشاقق الرسول فلن يضر ربه شيئا، وإنما جر الوبال على نفسه في أولاه وفي أخراه، وإذا ابتلى ورثة الأنبياء، وفتن الداعون إلى الحق فليأخذوا القدوة الصالحة من المصطفين الأخيار، فموسى كليم الله أوتي تسع آيات بينات، وأنجي به قومه من عدوهم، ولكن ما لبثوا أن كذبوا نبيهم وعصوه وعاندوه: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} ٣٣، والمسيح عليه السلام لاقى من بني إسرائيل جورا وطغيانا وتكذيبا وبهتانا (إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ٣٤؛ وامتن الله على الأمة الأمية ببعثة خاتم النبيين معلما تاليا مزكيا {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣٥ {رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله رزقا} ٣٦ وصلوات ربنا على نوح أول أولي العزم من الرسل. فقد أنذر قومه وأعذر فيهم، وبين الدعوى التي جاءتهم من خالقهم وباريهم: {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} ٣٧، واستصحب - عليه السلام- الحكمة والموعظة الحسنة، فهو يستخفي بالتبليغ أو يصدع به، ويتابعه ولا يفتر عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} ٣٨، {ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا} ٣٩، ولبث فيهم بضعة قرون، حتى أنبأه العليم الخبير: {. . . لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون} ٤٠ فقال رب انصرني بما كذبون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وأنجى الله نوحا ومن آمن معه في الفلك المشحون؛ فادعوا إلى ربكم على هدى وبصيرة وأنتم بحسن العاقبة موقنون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وفي تمجيد ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه يتتابع أمر الملك الكبير المتعال: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ٤١: {فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير} ٤٢، {وما هو إلا ذكر للعالمين} ٤٣، {وإنه لتذكرة للمتقين} ٤٤، {وإنه لحق اليقين} ٤٥؛ ولقد خشعت الجن لسماعه، وسارع سعداؤهم إلى التزكي بشرعته ومنهاجه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} ٤٦، {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأسا ولا رهقا} ٤٧.

ومما استحفظنا من شرعته ومنهاجه في هذه السور: أن نسبح الله تعالى كثيرا، فقد افتتحت سورتان منها بالقول الرباني الكريم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} ٤٨ كما اختتمت أولاهما بتسبيحه جل وعز: {. . سبحان الله عما يشركون} ٤٩ {. . يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} ٥٠، وبعدهما اثنتان افتتحتا بالذكر المبارك: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض} ٥١، ومسك ختام خامسة: {فسبح باسم ربك العظيم} ٥٢؛ فقدسوا البارئ المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتنزه ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وفي الذكر المبارك وصانا ربنا بالتقوى، {. . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٥٣، {. . واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٥٤، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون} ٥٥، {. . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} ٥٦، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا} ٥٧، {واتقوا الله ربكم} ٥٨، {. . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} ٥٩، {. . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} ٦٠،

{. . . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا. } ٦١، {إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٦٢، {أن اعبدوا الله واتقوه} ٦٣.

وحبب الفرقان إلينا ان نبذل ولا نبخل، وبشر أهل الجود والعطاء بإدراك ما طلبوا والنجاة مما منه هربوا {. . ولا يجدون في صدورهم

حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ٦٤، ورغب في بسط اليد بالمعروف والمسارعة إلى ذلك خشية الفوت بالموت: {وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين} ٦٥، {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم} ٦٦. رفع الشكور سبحانه ذكر أهل المعروف والبذل، حتى لكأنه لم يبسط يده بالتوسعة على الخلق وإنما أقرض الغني الذي له خزائن السماوات والأرض- تقدست أسماؤه- {لينفق ذو سعة من سعته. } ٦٧، {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} ٦٨، ولم يتوعد البخلاء وحسب، بل توعد من لم يتواص بحق الفقراء، حتى لقد استحق قوم في أخراهم أن يربطوا بالأغلال، ويجروا في طينة الخبال، لأنهم لم يترفقوا بأهل الإقلال: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٦٩، وأنذر من ضن وكز ولم يؤت حق الحرث يوم حصاده عذابا عاجلا قبل النكال الآجل، كالذين حرموا حصاد جنتهم إذ أقسموا أن لا يدخلن عليهم مسكين، مع ما ادخر لهم من حر نار الجحيم: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.} ٧٠ وحرض الكتاب المبين على قتال أعداء الدين: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} ٧١، وأنبأنا العليم الخبير بما انطووا عليه من حرص على إضلالنا، والكيد لنا والإمعان في إيذائنا: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} ٧٢، ووعدنا النصر في الدنيا، وأعظم الأجر في العقبى، لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين} ٧٣.

ونهانا عن الركون إلى الكفرة الفجرة، ومن يتابعهم أو يشايعهم فقد سلك سبيلا جائرة: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} ٧٤.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ٧٥ {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} ٧٦.

وأما عن اليقين بالآخرة وأحوالها، فقد نتوالى الآيات في السورة الواحدة تثبت الإيمان وترسخه بأن الجزاء حق، والقضاء حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور: {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد} ٧٧، {. . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} ٧٨، {. . ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} ٧٩، {. . . واتقوا الله الذي إليه تحشرون} ٨٠، {فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} ٨١، {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} ٨٢، {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} ٨٣، {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير} ٨٤، {. .

يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} ٨٥ {والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} ٨٦، {إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير} ٨٧، {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} ٨٨ {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون} ٨٩. وما سمي اليوم الآخر {يوم التغابن} و {الحاقة} إلا في سورتين من هذه الخمس عشرة سميت كل واحدة منهما باسم من هذين الاسمين وما وصف بالطول المذهل إلا في سورة {المعارج}: {سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} ٩٠، وتمضي الآيات تفصل عسر القيامة: {يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه. كلا} ٩١، {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} ٩٢.

وكم دعتنا الآيات المحكمات في هذه السور المباركات إلى ما ينجي من الكربات ويرفع الدرجات: {. . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون} ٩٣، {. . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. } ٩٤، {. . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٩٥ {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} ٩٦ {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} ٩٧، {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} ٩٨، {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ٩٩، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون} ١٠٠، {. . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ١٠١.

فاستجيبوا لربكم يمتعكم متاعا حسنا ويؤت كل ذي فضل فضله، وأدوا الأمانات وارعوا العهد، وحافظوا على الصلوات ولا تكتموا الشهادات، يمكن الله لكم دينكم ويبوئكم روضات الجنات، وانتصروا لأهل الإسلام واحفظوا عليهم حقوقهم، فإن مولانا يكره ظلمهم وإيذاءهم؛ واستقيموا على طريق البر والرشد يصلح الله أحوالكم، ويرض عنكم ويعظم أجركم.

والحمد لله الشكور الحليم، العزيز الحكيم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث بالدين القويم.

٧٣ سورة المزمل:

سورة المزمل:
(٧٣) سورة المزمل مكية
وآياتها عشرون
كلماتها: ٢٥٧؛ حروفها: ٨٨٨
١ - (يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{يا أيها المزمل (١)}

{المزمل}: أصله المتزمل، وهو المتحمل أو المتلفف. . أي: المتحمل بالنبوة والرسالة، أو: المتلفف في ثيابه أو بردته، وذلك لما اعترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة ورعدة إذ فاجأه الوحي أول ما جاء، وهو بغار حراء.

وإن كان الخطاب فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه يشترك فيه معه سائر المؤمنين.

٢ - (قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا)

{قم الليل}

صل معظم الليل، أو: صل خلال الليل، وحد الليل: غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

أوردت عائشة رضي الله عنها- كما جاء في صحيح مسلم- قال: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه الصورة فقام النبي وأصحابه حولا. . حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة. .

وقال سعيد بن جبير: مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل. } فخفف الله عنهم.

{إلا قليلا (٢)}

استثناء من الليل، أي صل الليل كله إلا يسيرا فيه لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن. نقل هذا عن علماء أحكام القرآن فاستثنى منه القليل لراحة الجسد، والقليل من الشيء ما دون النصف.

٣ - (نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا)

{نصفه}

بدل من الليل، أي: قم الليل نصفه. بمعنى قم نصف الليل.

{أو انقص منه قليلا (٣)}

المعنى: ثم قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث.

٤ - (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا)

{أو زد عليه}

كأن المعنى: أو زد على النصف حتى يصير إلى الثلثين. فكأنه قال: ثم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، وكان مخيرا بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه.

{ورتل القرآن ترتيلا (٤)}

تمهل في قراءة الكتاب العزيز، وتدبر ما تقرأ وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه.

٥ - (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا)

{إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥)}

إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده وهذا لا يتنافى مع قول المولى سبحانه: {. . وما جعل عليكم في الدين من حرج} ١، وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (بعثت بالحنيفية السمحة)، وقال محمد بن كعب: وقيل:. . . ثقيلا على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم، وسب آلهتهم. وقيل: ثقيلا ثابتا كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه: أي ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبدا.

وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا الله، إذ في الخبر: خفيفة على اللسان، ثقيلة في الميزان.

٦ - (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلا)

{إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا (٦)}

{ناشئة الليل} أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا، كما يقال نشأت السحابة: إذا بدأت وأنشأها الله. وقيل: الناشئة مصدر

بمعنى قيام الليل قالت عائشة وابن عباس ومجاهد:. . الناشئة القيام بالليل بعد النوم.
{هي أشد وطأ} أثقل على المصلي من ساعات النهار، لأن الليل وقت منام وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن قرأ: [وطاء أي أشد موافقة بين القلب والسمع والبصر واللسان لانقطاع الأصوات والحركات].
{وأقوم قيلا} أي أشد استقامة واستمرارا على الصواب لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه.
٧ - (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا)
{إن لك في النهار سبحا طويلا (٧)}
أي تصرفا في حوائجك، وإقبالا وإدبارا، وذهابا ومجيئا.
٨ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا)
{واذكر اسم ربك}
وادع الله مولاك بأسمائه الحسنى، وقال الكلبي: صل لربك بالنهار. وحسنه بعض علماء القرآن، فإنه لما ذكر صلاة الليل ذكر صلاة النهار، إذ هو قسيمه، وقد قال الله تعالى: {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا} ٢.
{وتبتل إليه تبتيلا (٨)}
أي انقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره، ومنه: مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى.
ولا يراد بالتبتل الانقطاع عن الناس، بدليل قوله تبارك اسمه: {يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم} ٣ قال ابن العربي: وأما اليوم قد حرجت عهود الناس، وخفت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام، فالعزلة خير من الخلطة، والغربة أفضل من التأهل. ولكن معنى الآية -هنا-: انقطع عن الأوثان والأصنام، وعن عبادة غير الله.
٩ - (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا)
{رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه كيلا (٩)}
ليس من يستحق العبادة إلا المالك الخالق المصلح للمشارق والمغارب. ومن علم أنه سيد المشرق والمغرب ووليهما فسيخلص له الطاعة ولا يشرك به أحدا، بل سينقطع بعمله وأمله إليه.
{فاتخذه وكيلا} ارض به قائما بأمورك، واستيقن بأنه كفيل بما وعدك.
١٠ - (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا)
{واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠)}
لا تضجر من سبهم وإيذائهم لك ولمن معك واستهزائهم، ولا تنقطع عن هدايتهم وإنذارهم
{واهجرهم هجرا جميلا} لا تشتغل بمكافأتهم على سوء صنيعهم- وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك- وقال أبو الدرداء: إنا لنكشر في وجوه ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم.
١١ - (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا)
{وذرني والمكذبين أولي النعمة}
ارض بي لعقابهم، خل بيني وبينهم، وكل أمرهم إلي، فإني على البطش بهم لقدير، وفي ذلك ما يفرغ بالك ويكشف همك.
{أولي النعمة} أصحاب التنعم والترف وكثرة المال والولد، فالنعمة: بفتح النون: التنعيم، وأما بالكسر فتعني الإنعام وما ينعم به، وأما بالضم فهي المسرة، وقد تقصر فيقال: النعمى.
{ومهلهم قليلا (١١)}
مهل: أي اترك لهم مدة وزمنا، وهي تفيد تكثير المفعول فوق ما تفيده أمهل قيل نزلت في صناديد مكة وكبار المشركين المستهزئين.
{قليلا} أي مدة وزمانا يسيرا- إما إلى أن تحين آجالهم، وإما إلى يوم تحين هزيمتهم وخزيهم-.

وهي إما منصوبة لأنها ظرف زمان، أو لأنها نعت لمصدر منصوب والتقدير: ومهلهم إمهالا قليلا.
١٢ - (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا)
{إن لدينا أنكالا وجحيما (١٢) وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٣)}
{إن لدينا أنكالا} إن عندنا قيودا، واحدها نكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة، أو ما ينكل به من العذاب الشديد.
{وجحيما} نارا مؤججة.
{وطعاما ذا غصة} ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ، كالضريع والزقوم والغسلين، وهو شوك كالعوسج يدخل حلق الإنسان فلا ينزل ولا يخرج.
{وعذابا أليما} ويعذبهم الله بصنوف أخر موجعة للحس والنفس.
١٣ - (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
{إن لدينا أنكالا وجحيما (١٢) وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٣)}
{إن لدينا أنكالا} إن عندنا قيودا، واحدها نكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة، أو ما ينكل به من العذاب الشديد.
{وجحيما} نارا مؤججة.
{وطعاما ذا غصة} ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ، كالضريع والزقوم والغسلين، وهو شوك كالعوسج يدخل حلق الإنسان فلا ينزل ولا يخرج.
{وعذابا أليما} ويعذبهم الله بصنوف أخر موجعة للحس والنفس.
١٤ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا)
{يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا (١٤)}
{يوم ترجف الأرض والجبال} ينكل بالمجرمين ويعذبون يوم تضطرب الأرض وتتحرك الجبال. وإن يكن هذا الذي أعد لهم مستقر عند خير الحاكمين، فإنه يظهر يوم تقوم الساعة وتتبدل الأرض غير الأرض ويبرزون لله الواحد القهار فيصيّر المذنبين إلى النار.
{وكانت الجبال كثيبا مهيلا} وتكون الجبال أكواما وكثبانا بعد أن كانت صخرا عنيدا عاتيا صلدا، ثم تنهال وتنثر، كما يشير إليه قول الله تبارك اسمه: {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا} ٤.
١٥ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا)
{إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم}
إن الله بعث خاتم أنبيائه محمدا صلى الله عليه وسلم- وأرسله ليقتدي بهديه، وسيشهد يوم القيامة بما كان من شأن من دعاهم.
وكأن في الكلام حذفا تقديره: يشهد لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه، ويشهد على من كذبه وخالف عن أمره.
وربما تتضمن الآية تحذيرا من العذاب العاجل لمن طغى واستكبر، حيث قد أشير في الآيات السابقة من هذه السورة، إلى أن المكذبين وعيدهم الجحيم جزاء ومصيرا: {. . وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال}.
{كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥)}
وذكرت هذه الآية الكريمة ما بعث به موسى إلى فرعون وقد حددته آيات أخر بأمر لا محيص عنه: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل} ٥، {فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم} ٦ كإرسال نبينا موسى – عليه السلام- إلى فرعون وملإه.
١٦ - (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا)
{فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا (١٦)}
{فعصى فرعون الرسول} فخالف فرعون ما جاءه به الرسول موسى صلى الله عليه وسلم.

وكأن هذا القول الرباني الكريم يشير إلى محذوف مما سبق، والتقدير: إنا أرسلنا إليكم النبي الشاهد الخاتم فعصيتموه، كما بعثنا إلى فرعون نبينا وكليمنا موسى فعصى فرعون ما وصاه به موسى ودعاه إليه.
{فأخذناه أخذا وبيلا} فبطشنا به بشطة ساءت عقباها، ودهمته داهية عظيمة، إذ أغرقنا وجنوده {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون} ٧.
١٧ - (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)
{فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا (١٧)}
{فكيف تتقون إن كفرتم يوما} كيف تتقون عذاب الآخرة وأهوالها إن كفرتم؟ فهو استفهام يراد به التسفيه. قال قتادة: والله ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء، نقل صاحب روح المعاني:. . فكأنه قيل: هبوا أنكم لا تؤخذون في الدنيا أخذة فرعون [وملائه] فكيف تقون أنفسكم هول القيامة وما أعد لكم من الأنكال إن دمتم على ما أنتم عليه، ومتم في الكفر؟
{يجعل الولدان شيبا} يشيب فيه الصغير من غير كبر، وذلك أن الهموم إذا عظمت على الإنسان أضعفت قواه وأسرعت فيه الشيب. وقد يكون المراد المعنى الحقيقي لهذا القول الكريم أي تبيض شعور الصبيان من هول يوم القيامة. أو يراد المعنى المجازي فهو مثل لشدة الهول من غير أن يكون هناك شيب بالفعل.
١٨ - (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا)
{السماء منفطر به كان وعده مفعولا (١٨)}
{السماء منفطر به} السماء منشقة بهول هذا اليوم، أو ترونها متشققة في ذلك اليوم العصيب، كما أشار قول المولى تبارك اسمه: {إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت. وإذا الأرض مدت. وألقت ما فيها وتخلت. وأذنت لربها وحقت. يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه} ٨.
قال الفراء: السماء يذكر ويؤنث.
{كان وعده مفعولا} أي: وعد الله بالقيامة والحساب والجزاء واقع وآت لا شك فيه ولا خلف، وأعيد الضمير على المولى تبارك اسمه- وإن لم يرد في هذه الآية، لأنه معلوم من السياق. أو يكون الضمير لليوم، أي الوعد بهذا اليوم كائن. وقد أضيف المصدر إلى مفعوله. قال بعض علماء القرآن: كان وعد الله بأن يظهر دينه على الدين كله واقعا وحقا لا مرية فيه.
١٩ - (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)
{إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (١٩)}
{إن هذه تذكرة} هذه السورة أو الآيات المقروءة والمنظورة عظة.
{فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} فمن أراد أن يؤمن ويتقرب إلى مرضاة ربه فليتخذ طريقا إلى حبه ورحمته، وقد أوضح له الطريق، وأظهر الحجج والبرهان.
ومفعول {شاء} محذوف، وتقديره: فمن شاء اتخاذ سبيل إلى ربه تعالى اتخذ الإيمان والطاعة منهاجا.
٢٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
{إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك}.
إن مولاكم- تبارك اسمه- يعلم أنكم تصلون أقل من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه- هكذا شهد الله للنبي والمؤمنين الأولين أنهم يتلون كتاب الله في نهارهم وساعات من ليلهم قد تصل إلى ما يقارب الثلثين منه، أو النصف أو الثلث. .

وربما يكون المعنى الأرجح: إنك تصلي زمانا أقل من ثلثي الليل وتصلي نصفه وثلثه، فيكون (نصفه وثلثه) قد عطفا على (أدنى).
{والله يقدر الليل والنهار}
والله يعلم مقادير الليل والنهار بل هو-تعالى شأنه- يعلم مقادير كل شيء.
{علم ألن تحصوه فتاب عليكم}
علم أن الشأن لن تقدروا على إحصاء المطلوب- وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه فربما يقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ - فانتفخت أقدامهم، وامتقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم {فتاب عليكم} لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، وإن نقصتم أحزنكم ذلك، فعاد عليكم بالعفو، فرجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ومن عسر إلى يسر.
{فاقرءوا ما تيسر من القرآن}
فاقرءوا فيما تصلونه بالليل ما خف عليكم. مما روى أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين).
{علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله}
من حكم تيسير الله على المؤمنين في أمر صلاة الليل أنه سبحانه يعلم أن منا من يكون مريضا فيشق عليه القيام والتهجد، ومنا من يرتحل في طلب الرزق والتجارة، ومنا من يغدو إلى الجهاد، فخفف ورفع الحرج.
{فاقرءوا ما تيسر منه}
إن كان الأمر للوجوب فقد أذهب به سبحانه ما كان عسيرا عليهم من قيام ثلثي الليل، ولم يعودوا مكلفين من صلاة الليل إلا بما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس. وإن كان الأمر للندب- وهو الأرجح- فلا نسخ فيه، ويشهد لذلك الكتاب والسنة.
{وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}
صلوا الصلاة المفروضة، وأدوها لوقتها، مستكملة لشروطها، وأعطوا المستحقين ما أوجب الله في أموالكم.
{وأقرضوا الله قرضا حسنا}
بالنفقة في سبيل الله، أو كل ما قصد به وجه الله تعالى- دون رياء- من المال الطيب، أو النفقة على النفس والأهل.
{وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا}
أي مما تركتم وخلفتم، ومن الشح والتقتير
{وأعظم أجرا}
لأن الله يعطينا بالحسنة عشرا، أو بالحسنة سبعمائة أو يضاعف لمن يشاء أضعافا لا يعلمها إلا هو-تبارك اسمه- أو المراد به منازل الجنة. و {خيرا} و {أعظم} نصبا على المفعول الثاني {تجدوه} و {أجرا} تمييز.
{واستغفروا الله}
سلوه المغفرة لذنوبكم، في كافة أحوالكم.
{إن الله غفور}
عظيم ستره وغفرانه لمن استغفره
{رحيم (٢٠)}
واسع الرحمة يكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله ويتبعون الرسول النبي الأمين، صلى عليه ربنا وسلم وبارك، وعلى آل وصحبه أجمعين.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه-

وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٩، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٠ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١١، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٢. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٣ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ١٤، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٥، {ملك الناس. إله الناس} ١٦.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٧ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٨ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٩، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٠. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٣، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٤، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٥، {والسماء ذات البروج} ٢٦، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٧، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٨ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٩، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٠، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣١، {والعصر} ٣٢؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٣، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٤. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٥، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٦.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٧، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٨. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٩، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٠ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٤١ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان

يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٣، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٤ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٥، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٦، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٧، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٨، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٩، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٠، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥١، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٢، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٣.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٤. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٥، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما

دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٦ بعد هذه السبع أكثرها ٥٧ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٩، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٠. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦١ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٢، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٣، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٤، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٥، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٦؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٨، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٩. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٠، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧١، {قد أفلح من تزكى} ٧٢، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٣، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٤؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٥؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧٦.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٧، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٨؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٩، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨١، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٣، {سندع الزبانية} ٨٤، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٥.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن

ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٦، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٧ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٨، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٩ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٠، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩١، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٢، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٣، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٤، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٥، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٦ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٧، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٨، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٩، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٠، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠١، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٢، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٣.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٤، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٥، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٦، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٧ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٨، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٩، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٠، {سنقرئك فلا تنسى} ١١١؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٢؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٣. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٤، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٥؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٦؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٧؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٨؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٩؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٠. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢١.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٢، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٣ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٤ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٥، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٦، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٧، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٨، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٩، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٠، {. . واسجد واقترب} ١٣١، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٢، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٣، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٤، {فصل لربك وانحر} ١٣٥، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٦، {قل هو الله أحد} ١٣٧، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٨، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٩؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٠، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤١ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٢؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين:

}وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا{ ١٤٣، }إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله{ ١٤٤، }إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر{ ١٤٥ }وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين{ ١٤٦ }كلا بل لا يخافون الآخرة{ ١٤٧، }أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة{ ١٤٨ }كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة{ ١٤٩، }فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى{ ١٥٠، }إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا{ ١٥١، }إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا{ ١٥٢ }كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون{ ١٥٣، }ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين{ ١٥٤، }إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين{ ١٥٥، }قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد{ ١٥٦، }بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط{ ١٥٧. }إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا{ ١٥٨، }قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى{ ١٥٩، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد{ ١٦٠ }قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها{ ١٦١ }كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى{ ١٦٢ }أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى{ ١٦٣، }إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد{ ١٦٤، }ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر{ ١٦٥، }أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين{ ١٦٦، }فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة{ ١٦٧.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٧٤ سورة المدثر:

سورة المدثر:
(٧٤) سورة المدثر مكية
وآياتها ست وخمسون
كلماتها: ٢٥٥؛ حروفها: ١٠١٠
١ - (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

}يا أيها المدثر (١)}

نداء للنبي صلى الله عليه وسلم وقد تدثر وتغطى بثيابه، واشتق له هذا الاسم من الصفة التي كان عليها ونودي به تلطفا وإيناسا. وقيل: أراد: يأيها المتدثر والمكسو بالنبوة وزينة الكمال النفسي، وحلية الخلق العظيم.

٢ - (قُمْ فَأَنْذِرْ)

}قم فأنذر (٢)}

لا ترقد فقد مضى زمن الراحة وحملت من التكاليف وهداية الناس ما لا يترك لك متسعا لطول الرقاد، نخوف أهل مكة، وأنذر عشيرتك الأقربين، وحذرهم أن يقع بهم العذاب إن لم يؤمنوا.

٣ - (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)
}وربك فكبر (٣)}
اخصص ربك بالتكبير فهو سيدك ومالكك ومصلح أمرك، فعظمه وصفه بصفات العز والكبرياء.
٤ - (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)
}وثيابك فطهر (٤)}
لعل المعنى كناية عن تطهير النفس عما لا يليق، وتزكيتها لترتفع إلى ما يراد لها من السمو، ومنه قول الشاعر:

ويحيى ما يلام لسوء خلق ويحيى طاهر الأثواب حر

٥ - (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)
}والرجز فاهجر (٥)}
واهجر الأصنام. أو اهجر المعاصي، وهو خطاب للناس. قال بعض المفسرين: هو من باب قولهم: إياك أعني واسمعني يا جارة.
٦ - (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)
}ولا تمنن تستكثر (٦)}

لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها، وسماه الفقهاء استفزازا، وهو من يهب شيئا وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهب. أو لا تمنن بحسناتك على الله تعالى مستكثرا لها. أو لا تعط رائيا لما تعطيه كثيرا، فالمبين للوجدان لا للطلب.

٧ - (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)
}ولربك فاصبر (٧)}
فاصبر على ما حملت فإن ما تلقاه - مهما ثقل- هين في سبيل مرضاة ربك.
٨ - (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)
}فإذا نقر في الناقور (٨)}

إذا نفخ في الصور يوم البعث والنشور- وتلك هي النفخة الثانية، أما الأولى فإنها نفخة الإماتة يموت عندها كل حي إلا الله الدائم- فسوف يلقون جزاء إعراضهم.
٩ - (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

{فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠)}
فيوم الحشر والفصل يوم شديد الهول ليس بهين على من كفر، لكن المؤمنين- حتى من أذنب منهم- تنكشف كرباتهم حالا بعد حال حتى يدخلوا الجنة برحمة الله وعفوه.
١٠ - (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٩]
{فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠)}
فيوم الحشر والفصل يوم شديد الهول ليس بهين على من كفر، لكن المؤمنين- حتى من أذنب منهم- تنكشف كرباتهم حالا بعد حال حتى يدخلوا الجنة برحمة الله وعفوه.
١١ - (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)
{ذرني ومن خلقت وحيدا (١١)}
وعيد وإنذار، دعني ومن خلقته وحيدا، خلقته لا مال له ولا ولد؛ والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، - وكل الناس يخلقون هكذا- لكن خص بالذكر لشقوته وانبعاثه لإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم. أي ذرني وحدي معه فإني أغنيك في الانتقام عن كل منتقم؛ خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه.
١٢ - (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا)
{وجعلت له مالا ممدودا (١٢)}
مبسوطا متسعا أعطيته هذا العطاء. يقول ابن عباس: وهو ما كان الوليد بين مكة والطائف من الإبل والمجور- الخيل- والنعم- البقر والمعز والغنم - والجنان والعبيد والجواري.
والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه بل يتوالى، كالزرع، والضرع، والتجارة.
١٣ - (وَبَنِينَ شُهُودًا)
{وبنين شهودا (١٣)}
حضوا لا يغيبون عنه في تصرف. روى أنهم كانوا سبعة رجال- وقيل عشرة أو أكثر- وقد أسلم منهم ثلاثة: الوليد بن الوليد، وخالد، وهشام.
١٤ - (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)
{ومهدت له تمهيدا (١٤)}
بسطت له في العيش بسطا، ومكنت له في الجاه والثروة.
١٥ - (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)
{ثم يطمع أن أزيد (١٥) كلا إنه كان لآياتنا عنيدا (١٦)}
يطمع بعد كل هذا أن أزيده في المال والولد، ولست أزيده كما يطمع، فإنه كفور بجود كنود، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك.
١٦ - (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{ثم يطمع أن أزيد (١٥) كلا إنه كان لآياتنا عنيدا (١٦)}
يطمع بعد كل هذا أن أزيده في المال والولد، ولست أزيده كما يطمع، فإنه كفور بجود كنود، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك.
١٧ - (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا)
{سأرهقه صعودا (١٧)}

سأغشيه عقبة يشق عليه أن يصعدها، وفي الكلام استعارة تمثيلية، شبه ما يسوقه الله تعالى له من المصائب وأنواع المشاق بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاقة وأطلق لفظه عليه. وقيل تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه.

١٨ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

{إنه فكر وقدر (١٨)}

فكر في شأن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن، وهيأ الكلام في نفسه.

١٩ - (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

{فقتل كيف قدر (١٩)}

فلعن، كيف هيأ في نفسه النيل من النبي والقرآن!

٢٠ - (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

{ثم قتل كيف قدر (٢٠)}

تكرار للدعاء عليه بالإبعاد من رحمة الله، جزاء ما دبر ومكر.

٢١ - (ثُمَّ نَظَرَ)

{ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقل إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥)}

ثم نظر: بأي شيء يرد الحق، ثم قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، وأظهر العبوس قبل أوانه- إذ البسر الاستعجال بالشيء - ثم أعرض عن النبي وعما أنزل عليه، وتعظم أن يؤمن، فقال ما هذا الذي يقول محمد إلا سحر باطل وخديعة، وزور يظهره في صورة الحق، وما تلقاه عن الله بل أثره عن غيره، وعلمه إياه سحرة الفرس، ما هذا الذي يقول إلا من كلام أهل الأرض وليس من وحي السماء.

٢٢ - (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقل إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥)}

ثم نظر: بأي شيء يرد الحق، ثم قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، وأظهر العبوس قبل أوانه- إذ البسر الاستعجال بالشيء - ثم أعرض عن النبي وعما أنزل عليه، وتعظم أن يؤمن، فقال ما هذا الذي يقول محمد إلا سحر باطل وخديعة، وزور يظهره في صورة الحق، وما تلقاه عن الله بل أثره عن غيره، وعلمه إياه سحرة الفرس، ما هذا الذي يقول إلا من كلام أهل الأرض وليس من وحي السماء.

٢٣ - (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقل إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥)}

ثم نظر: بأي شيء يرد الحق، ثم قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، وأظهر العبوس قبل أوانه- إذ البسر الاستعجال بالشيء - ثم أعرض عن النبي وعما أنزل عليه، وتعظم أن يؤمن، فقال ما هذا الذي يقول محمد إلا سحر باطل وخديعة، وزور يظهره في صورة الحق، وما تلقاه عن الله بل أثره عن غيره، وعلمه إياه سحرة الفرس، ما هذا الذي يقول إلا من كلام أهل الأرض وليس من وحي السماء.

٢٤ - (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]

{ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقل إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥)}

ثم نظر: بأي شيء يرد الحق، ثم قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، وأظهر العبوس قبل أوانه- إذ البسر الاستعجال بالشيء - ثم أعرض عن النبي وعما أنزل عليه، وتعظم أن يؤمن، فقال ما هذا الذي يقول محمد إلا سحر باطل وخديعة، وزور يظهره في صورة الحق، وما

تلقاه عن الله بل أثره عن غيره، وعلمه إياه سحرة الفرس، ما هذا الذي يقول إلا من كلام أهل الأرض وليس من وحي السماء.
٢٥ - (إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢١]
{ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقل إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥)}
ثم نظر: بأي شيء يرد الحق، ثم قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، وأظهر العبوس قبل أوانه- إذ البسر الاستعجال بالشيء - ثم أعرض عن النبي وعما أنزل عليه، وتعظم أن يؤمن، فقال ما هذا الذي يقول محمد إلا سحر باطل وخديعة، وزور يظهره في صورة الحق، وما تلقاه عن الله بل أثره عن غيره، وعلمه إياه سحرة الفرس، ما هذا الذي يقول إلا من كلام أهل الأرض وليس من وحي السماء.
٢٦ - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)
{سأصليه صقر (٢٦) وما أدراك ما سقر (٢٧)}
سأدخله جهنم ليصلى حرها، وسميت (سقر) لأنها تحرق الجلود. وما أعلمك أي شيء هي؟!
٢٧ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]
{سأصليه صقر (٢٦) وما أدراك ما سقر (٢٧)}
سأدخله جهنم ليصلى حرها، وسميت (سقر) لأنها تحرق الجلود. وما أعلمك أي شيء هي؟!
٢٨ - (لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ)
{لا تبقي ولا تذر (٢٨)}
ما تدع من شيء يلقي فيها إلا أهلكته وحمشته
٢٩ - (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ)
{لواحة للبشر (٢٩)}
تلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سوادا من الليل. وأصلها من لاح: إذا غير.
٣٠ - (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)
{عليها تسعة عشر (٣٠)}
يقوم على حراسة سقر تسعة عشر ملكا، مالك وثمانية عشر معه، هم خزنة النار، وذهب بعض المفسرين إلى أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها).
٣١ - (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)
{وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة}
روى علماء القرآن أنه لما نزل قول الله الحق: {عليها تسعة عشر} قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أي خسرتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة- يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكنيه بذلك تحقيرا له، لعنة الله على أبي جهل- يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم- أي العدد- والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟! فنزل قوله تعالى: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة} لم يجعلهم الله رجالا فيطمع أحد في مغالبتهم، بل هم أشد خلق الله بأسا، وأقواهم بطشا.
{وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفرو} ا

وأوحيا وأخبرنا بأن عددهم تسعة عشر لنختبر الكافرين، فقد استقلوا عددهم واستهزءوا، فكانت بلية لهم، زادتهم رجسا إلى رجسهم.
{ليستيقن الذين أوتوا الكتاب}
ليستيقن أهل الكتاب- المراد الذين أعطوا الكتابين التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى- فكان الإخبار بعدة الملائكة فتنة للكافرين ويقينا للكتابين، إذ هذا العدد موافق لما في كتابيهم.
{ويزداد الذين آمنوا إيمانا}
فإنهم كلما صدقوا بآيات من كلمات الله واستيقنوا بما فيها زادهم ذلك إيمانا.
{ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون}
ولا يشك الذين علموا من وحي الله الذي أوحى قبل القرآن، ولا يشك أهل التصديق بالقرآن؛ والتعبير عن المؤمنين باسم الفاعل للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازديادهم ورسوخهم فيه.
{وليقول الذي في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا}
وليقول من في صدورهم شك وزيغ وجحود، والمصرون على التكذيب: أي شيء أراد الله بهذا العدد، والمثل: الحديث والخبر، كما قال المولى تبارك اسمه: {مثل الجنة التي وعد المتقون} ١.
{كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء}
كضلال أبي جهل وأعوانه يخزي الله ويعمي من يشاء، فمهما رأى من الحق فهو مصر على غوايته، ويرشد الله إلى سبل السلام من انشرح صدره للإسلام.
{وما يعلم جنود ربك إلا هو}
الجنود: جمع جند، والجند واحده جندي، فهو إذا جمع الجمع. ولن يستطيع أحد أن يحصي جنوده إلا هو سبحانه- ولن يصل علم أحد إلى كنه هؤلاء ومبلغ بأسهم إلا الذي خلقهم وتولى أمرهم.
{وما هي إلا ذكرى للبشر (٣١)}
وما سقر إلا تذكرة للبشر، عظة للخلق، أو: وما الجنود إلا تذكرة ليعلم أصحاب العقول كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.
٣٢ - (كَلَّا وَالْقَمَرِ)
{كلا والقمر (٣٢) والليل إذا أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥)}
{كلا} رد الذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم؛ لن يطيق جبار مقاومة ملائكة النار وحرسها. ثم أقسم المولى- عز شأنه- على ذلك بالقمر وما بعده؛ {أدبر} ولى، وما أعظمه من قسم، فمن غير الله يذهب الليل بعد أن تغشى الناس ظلماته؟ إنه وحده على ذك قدير. {والصبح إذا أسفر} قسم ثان بالصبح إذا كشف عن نوره؛ وفي ذلك برهان على هيمنة الباري وسلطانه: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء} ٢. ليس إلا الله وحده.
٣٣ - (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
{كلا والقمر (٣٢) والليل إذا أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥)}
{كلا} رد الذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم؛ لن يطيق جبار مقاومة ملائكة النار وحرسها. ثم أقسم المولى- عز شأنه- على ذلك بالقمر وما بعده؛ {أدبر} ولى، وما أعظمه من قسم، فمن غير الله يذهب الليل بعد أن تغشى الناس ظلماته؟ إنه وحده على ذك قدير. {والصبح إذا أسفر} قسم ثان بالصبح إذا كشف عن نوره؛ وفي ذلك برهان على هيمنة الباري وسلطانه: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء} ٣. ليس إلا الله وحده.

٣٤ - (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٢]
{كلا والقمر (٣٢) والليل إذا أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥)}
{كلا} رد الذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم، لن يطيق جبار مقاومة ملائكة النار وحرسها. ثم أقسم المولى- عز شأنه- على ذلك بالقمر وما بعده، {أدبر} ولى، وما أعظمه من قسم، فمن غير الله يذهب الليل بعد أن تغشى الناس ظلماته؟ إنه وحده على ذك قدير. {والصبح إذا أسفر} قسم ثان بالصبح إذا كشف عن نوره، وفي ذلك برهان على هيمنة الباري وسلطانه: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء} ٤. ليس إلا الله وحده.
٣٥ - (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)
{إنها لإحدى الكبر (٣٥)} إن الدواهي التي وعد الكافرون كبيرة وكثيرة، وسقر واحدة منها، أو إن قيام الساعة لأحدى الكبر، والكبر: العظائم من الأمور.
٣٦ - (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ)
{نذيرا للبشر (٣٦)}
إنها لإحدى العظائم إنذارا للخلق وتحذيرا وتخويفا وإعذارا، وهكذا حكى القرآن تبكيت الملائكة للمعذبين في قوله الكريم: {.. كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا.} ٥.
٣٧ - (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)
{لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧)}
أي الإنذار والإعذاء لمن أراد منكم أن يتقدم إلى الحق والخير والطاعة، أو يتأخر عن الرشد والهدى. أو لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار، أو يتأخر عنها إلى الجنة.
٣٨ - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)
{كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨)}
كل مكلف مرتهن بسعيه، مأخوذ بعمله.
٣٩ - (إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)
{إلا أصحاب اليمين (٣٩)}
فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم. قال بعض المفسرين فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.
٤٠ - (فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ)
{في جنات}
هم في جنات لا يدرك وصفها
{يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١)}
يسألون المجرمون عن أحوالهم، كما جاء في قول الله سبحانه: {ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم.} ٦ والأصل في يتساءلون أن يكون من جانبين، لكن قد يراد به السؤال من جانب واحد، كما يقال: تراءينا الهلال أي رأيناه.
٤١ - (عَنِ الْمُجْرِمِينَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٠ إظهار
٤٢ - (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

{ما سلككم في سقر (٤٢)}
ما الذي أدخلكم النار؟، يسأل أصحاب اليمين وهم في جناتهم يسألون المجرمين عن الجرم الذي بسببه دخلوا جهنم؟. . . وهو سؤال تحسير وإلا فهم عالمون ما الذي صار بهم إلى السعير.
٤٣ - (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)
{قالوا لم نكن من المصلين (٤٣)}
أجاب المعذبون: أوردهم سقر ترك الصلاة.
٤٤ - (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ)
{ولو نك نطعم المسكين (٤٤)}
وكذا منعهم للزكاة، وترك رحمة الضعفاء من خلق الله. يقول بعض المفسرين: يستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع العبادات لأنهم جعلوا عذابهم لترك الصلاة ومنع الإنفاق والزكاة، وقال غيرهم: المؤاخذة على ترك الإيمان بها.
٤٥ - (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)
{وكنا نخوض مع الخائضين (٤٥)}
نشرع في الباطل مع السائرين فيه، والمتخبطين في ظلماته. ولا نبالي ولا يبالون بالبهتان والإثم المبين.
٤٦ - (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)
{وكنا نكذب بيوم الدين (٤٦)}
لم يكونوا يؤمنون ويصدقون بيوم الجزاء، ولا بالبعث والحساب.
٤٧ - (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)
{حتى أتانا اليقين (٤٧)}
حتى خرجنا من الدنيا فاستيقنا بالمصير، وسقطت غشاوة الغفلة، وغرور الجهالة والأماني والضلالة {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد} ٧.
٤٨ - (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)
{فما تنفعهم شفاعة الشافعين (٤٨)}
لن يشفع فيه أحد، وإن شفع- وهيهات - لا يشفع. من ذا الذي يؤذن له {يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه} ٨، فأما الملائكة فلا يشفعون إلا لمن ارتضى الواحد القهار. وأما صاحب الشفاعة العظمى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه سلم فإنه يتبرأ من المكذبين بالقرآن المعرضين عن هداه ولو كانوا من قومه، صلوات ربنا عليه وسلامه - {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا} ٩
٤٩ - (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)
{فما لهم عن التذكرة معرضين (٤٩)}
ما أشد شقوتهم؟ كيف لم يتعظوا بالقرآن مع وضوح بيانه، وضياء برهانه؟! وكيف أعرضوا عن تذكرة وهي تنير العقل والقلب والصدر؟!
٥٠ - (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)
{كأنهم حمر مستنفرة (٥٠)}
كانوا سراعا في النفار والفرار من سماع الحق والهدى {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدبارهم نفورا} ١٠ مثل حمر الوحش- وكانوا يعرفون كم هي شديدة النفار والفرار وسرعة العدة كأنها تطلب النفار من نفسها.
٥١ - (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)
{فرت من قسورة (٥١)}
فكيف إذا هاجمها وفزعها أسد يريد افتراسها؟! سيكون عدوها وجريها أشد وأسرع.

٥٢ - (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً)
{بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة (٥٢)}
لم تقنعهم تذكرة القرآن وموعظة وعبره التي تنير العقول وتشفى الصدور بل لا يقبل واحد منهم أن يؤمن حتى يجيئه صحائف وقراطيس منشورة تقرأ – كأية مكاتبة – يريدون أن تأتيهم مكاتبات من رب العالمين تحملها إليهم ملائكة السماء.
{. . . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاب نقرؤه. } ١١.
٥٣ - (كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ)
{كلا بل لا يخافون الآخرة (٥٣)}
إبطال لما اقترحوه، ودفع لما طلبوه، وتكذيب لهم فيما زعموه، فهم مقيمون على كفرهم بسبب ارتيابهم في الآخرة، وليس لقلة الآيات الحسية، والمعجزات المرئية.
٥٤ - (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)
{كلا إنه تذكرة (٥٤) فمن شاء ذكره (٥٥)}
زجر لهم عن نفورهم وصدودهم، ثم توكيد الهدى القرآن وشفائه لمن كان له قلب {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} ١٢.
٥٥ - (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥٤]
{كلا إنه تذكرة (٥٤) فمن شاء ذكره (٥٥)}
زجر لهم عن نفورهم وصدودهم، ثم توكيد الهدى القرآن وشفائه لمن كان له قلب {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} ١٣.
٥٦ - (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)
{وما يذكرون إلا أن يشاء الله}.
والله يعلم أنهم متمادون في الضلالة لا محالة كما بين سبحانه في كتابه الحكيم: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} ١٤، لكن من شاء الله هدايته تذكر، فالاستثناء مفرغ. .
{هو أهل التقوى}
هو -تبارك اسمه- أحق أن يتقى ويطاع ويحذر غضبه وجزاء عصيانه
{وأهل المغفرة (٥٦)}
كتب على نفسه- تفضلا منه وكرما- أن يغفر لمن رجع إليه وأناب، ورجا رحمته وعفوه وستره {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ١٥.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٦، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٧ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٨، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٩. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٠ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٢١، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٢، {ملك الناس. إله الناس} ٢٣.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٤ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٥ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٦، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٧. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٨، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٩.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٠، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣١، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٢، {والسماء ذات البروج} ٣٣، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٤، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٥ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٦، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٧، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٨، {والعصر} ٣٩، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٠، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤١. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٢، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٣.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٤، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٥. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٦، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٧ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٨ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٠، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥١ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٢، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٣، {متكئين فيها

على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٤، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٥، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٦، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٧، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٨، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٩، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٠.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦١. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٢؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٣ بعد هذه السبع أكثرها ٦٤ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير

{فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٦، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٧. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٨ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٩، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٠، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧١، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٢، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٣؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٥، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٦. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٧، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٨، {قد أفلح من تزكى} ٧٩، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٠، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨١؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٢؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨٣.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٤، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٥؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٦، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٨، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٠، {سندع الزبانية} ٩١، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٢.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٣، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٤ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٥، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٦ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٧، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٨، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٩، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٠، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠١، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٢، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون}

١٠٣ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٤، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٥، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٦، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٧، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٨، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٩، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٠.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١١، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٢، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٣، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٤ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٥، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٦، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٧، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٨؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٩؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٠. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢١، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٢؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٣؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٤؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٥؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٦؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٧. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٨.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٩، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٠ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣١ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٢، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٣، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٤، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٥، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٦، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٧، {. . واسجد واقترب} ١٣٨، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٩، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٠، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤١، {فصل لربك وانحر} ١٤٢، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٣، {قل هو الله أحد} ١٤٤، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٥، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٦؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٧، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٨ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٩؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٠، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥١، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٢ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن

التذكرة معرضين} ١٥٣ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٤، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٥ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٦، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٧، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٨، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٩ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٠، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦١، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٢، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٣، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٤. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٥، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٦، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٧ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٨ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٩ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٠، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧١، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٢، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٣، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٤.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٧٥ سورة القيامة:

سورة القيامة:
(٧٥) سورة القيامة مكية
وآياتها أربعون
كلماتها: ١٩٩؛ حروفها: ٥٢٩

١ - (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{لا أقسم بيوم القيامة (١)}
أقسم الله تعالى بيوم القيامة- ولربنا الحكيم أن يحلف بما شاء- و {لا} صلة لتوكيد القسم، مثلها في قوله تعالى: {لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله. } ١ أي ليعلم، وجيء ب {لا} لتوكيد العلم. و {يوم القيامة} يسمى به اليوم الذي تعود فيه الأرواح إلى الأجساد يوم البعث. وربما يطلق على كثير من أحوال الآخرة وأهوالها ومنازلها، كيوم انتهاء الحياة في هذا الكون، يوم تنشق السماء، وتنتثر الكواكب، وتنسف الجبال، أو يوم تشقق القبور وينشر الموتى، أو يوم تساق الخلائق ويجمع الناس، أو يوم يحشرون للقاء رب العالمين، أو يوم يحاسبون ويفصل بينهم أحكم الحاكمين، أو يوم يدخلون دار الجزاء- الجنة للمتقين والنار للغاوين- بل يطلق يوم القيامة ويراد به ما بين الدنيا والآخرة، فقد نقل عن السلف: من مات فقد قامت قيامته. ويقولون: من دفن فقد قامت قيامته.
٢ - (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)
{ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢)}
كان المولى جل شأنه يحلف بالنفس التي إذا ألمت بسيئة ندمت على خطئها، وسارعت بالعودة إلى مرضاة ربها، وإذا قصرت في طاعة استحت من تقصيرها، وأقلعت عن تفريطها؛ أصحاب هذه النفوس أهل لرضوان الله تعالى وحبه {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} ٢.
٣ - (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)
{أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه (٣)}
جاء في سبب نزولها أن عدي بن ربيعة سمع من النبي صلى الله عليه وسلم شيئا من أمر القيامة فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به؟ أو يجمع الله العظام؟!
أيظن الكافر المنكر للبعث أنا لن نجمع لحمه المتمزق، وشعره المتفرق، وعظامه النخرة البالية؟؟. بل وربي ليعيدن الله الخلق كما أنشأهم أول مرة. وذكر العظام هنا كجزء من أجزاء الجسد، والمراد به الجسم كله والروح معه.
٤ - (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)
{بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤)}
بلى نجمع العظام والأجسام قادرين على ذلك وعلى كل ما نريد. و {بنانه}: أصابعه أو أطراف أصابعه-الأنامل- نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: {قادرين} حال مؤكدة لأنه يستحيل جمع العظام بدون القدرة الكاملة التي نبه عليها بقوله: {. . أن نسوي بنانه} لأن من قدر على ضم سلاميات الإصبع مع صغرها ولطافتها كما كانت، كان على ضم العظام الكبار أقدر؛ وإنما خص البنان- وهو الأنملة- بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه، فذكره يدل على تمام الإصبع، وتمام الإصبع يدل على تمام سائر الأعضاء التي هي أطرافها، وقيل: معنى التسوية: جعلها شيئا واحدا كخف البعير، وحافر الحمار، بحيث لا يقدر على البطش؛ والمراد أنه قادر على رد العظام والمفاصل إلى هيئتها الأولى، وعلى ضد ذلك. اهـ.
٥ - (بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)
{بل يريد الإنسان ليفجر أمامه (٥)}
أكثر جنس الإنسان يحب الشهوات، ومقارفة العصيان، ويحب أن يمضي فيها حالا ومستقبلا، راكبا رأسه، ومطيعا أمله، ومسوفا لتوبته.
٦ - (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)

}يسأل أيان يوم القيامة (٦)}
}أيان} أي: متى: يستعجل بيوم القيامة- استهزاء به- المكذبون، ويستبعده الغافلون، الذين هم في غمرة ساهون، بل وينكره المترفون البطرون، ولقد شهد القرآن عليهم بما يقولون: }هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين} ٣.
٧ - (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)
}فإذا برق البصر (٧)}
كأنه جواب عما سأل عنه الذي يقول: متى يوم القيامة؟ أي: يكون حين تلمع الأعين من شدة شخوصها، وتفزع وتبهت حيرة فلا يرتد إليها طرفها، وتنبهر الأبصار، وتخشع وتحار، وتذل من شدة الأهوال- هول الموت وما بعدها من الأحوال-
٨ - (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)
}وخسف القمر (٨)}
ذهب ضوؤه. والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة فإن ضوءه لا يعود.
٩ - (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)
}وجمع الشمس والقمر (٩)}
يجمعهما الواحد القهار بقدرته ويكورهما ويذهبهما.
١٠ - (يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)
}يقول الإنسان يومئذ أين المفر (١٠)}
عند توارد هذه الشدائد يقول ابن آدم: أين الملجأ؟؟ أين الموئل؟! ربما يقولها كل إنسان لعظم الغاشية، أو يقولها الكافر، أما المؤمن فهو مستيقن بوعد الله }وينجي الله الذين اتقوا. } ٤، }. . تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} ٥.
١١ - (كَلَّا لا وَزَرَ)
}كلا لا وزر (١١)}
فيرد الواحد القهار، على أهل الحسرة والحيرة الكفار، أن لا حيلة لهم في الفرار، فلا محيص ولا منعة. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما.
١٢ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)
}إلى ربك يومئذ المستقر (١٢)}
المصير والمنتهى إلى رب العالمين مالك يوم الدين.
١٣ - (يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)
}ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (١٣)}
يخبر الإنسان يوم الحساب بما أنجزه من عمل، أو خلف من سنة وطريقة يستن الناس بها بعده- حسنة كانت أو سيئة-.
١٤ - (بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)
}بل الإنسان على نفسه بصيرة (١٤)}
فهو حين تعرض صحائفه، وتنطق جوارحه، شهيد على نفسه، بصير بما كان منها. قال بعض اللغويين: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك.
١٥ - (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)
}ولو ألقى معاذيره (١٥)}
ومهما حاول أن يجادل عن نفسه، ويأتي بالمعاذير فهو بما اقترف بصير، ولن تقبل منه يومئذ الأعذار }يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار} ٦.

١٦ - (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)
{لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦)}
الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، والضمير في {به} للقرآن الكريم. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم حفظ التنزيل، فكان إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبرائيل مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك اهـ.
١٧ - (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ)
{إنا علينا جمعه وقرآنه (١٧)}
تكفل الله- تباك اسمه- وتوكل أن يجمع القرآن في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يثبت قراءته في لسانه، فالقرآن هنا وفيما بعد مصدر يراد به القراءة.
١٨ - (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ)
{فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨)}
فحين يتم جبريل قراءته عليك بوحينا فاقرأ مثل ما قرأ، أو فإذا قرأه عليك فاتبع بفكرك قرآنه واستمع إليه وأنصت.
١٩ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)
{ثم إن علينا بيانه (١٩)}
وتوكل المولى الحكيم بتبيين معاني كتابه العزيز، فقد أنزله – سبحانه- ميسرا فهي نعم متممات: جمعه في صدره، وتيسير تلاوته، وبيان معانيه.
٢٠ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)
{كلا بل تحبون العاجلة (٢٠)}
لكن الناس- وقد خلقوا من عجل، في فطرتهم الميل إلى ما هو قريب منهم- تزين لهم متع الحياة التي يحيون وإن كانت دنيا زائلة.
٢١ - (وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ)
{وتذرون الآخرة (٢١)}
يمضي حب حطم الحياة الفانية بأصحابها، حتى يعرضوا عن الآخرة ويتركوا التزود لها، بل يصل بهم الغرور إلى جحودها: {إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرون على الحنث العظيم. وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون} ٧. وهكذا يحسب الذي جمع مالا وعدده أن ماله أخلده، ويظن صاحب الحديقتين أنه وقد أوتي الزرع البهيج والثمر الوفير لم يفارق النعمة ولن تفارقه {. . . قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ٨
٢٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ)
{وجوه يومئذ ناضرة (٢٢)}
{وجوه} مبتدأ وصح وقوع النكرة مبتدأ لأن الموضع موضع تفصيل. والتنوين للتكثير، أي وجوه كثيرة، و {يومئذ} ظرف زمان متعلق ب {ناضرة} و {ناضرة} خبر المبتدأ.
٢٣ - (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)
{إلى ربها ناظرة (٢٣)}
{إلى ربها} متعلق بناظرة، والجملة خبر ثان للمبتدأ، أو نعت لناضرة؛ ومعنى الآيتين الكريمتين: وجوه المؤمنين يوم القيامة تعلوها النضرة والصفاء والبشر، وتنظر إلى الباري – تبارك اسمه- والنظرة بالعينين وهما بالوجه. وقد ورد في صحيحي البخاري ومسلم أحاديث رؤية المؤمنين لله تبارك وتعالى في الآخرة، منها رواية أبي هريرة وأبي سعيد، وجرير، وأبي موسى، وصهيب، وجابر وغيرهم – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- وكذا تضافرت روايات أحاديث صحاح وحسان رواها النسائي والترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم- رحمهم الله

تعالى. يقول علماء أحكام القرآن وأئمة السنة:
وهذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة وهي قوله - تبارك اسمه-: {إلى ربها ناظرة}.
٢٤ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)
{ووجوه يومئذ باسرة (٢٤)}
إعرابها كإعراب الآية ٢٢ (وجوه) مبتدأ و {باسرة} الخبر، و {يومئذ} متعلق ب {باسرة}، والبسور: التغير، ووجه باسر: أي كالح ذليل.
٢٥ - (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)
{تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)}
تعلم وتستيقن أن ستبلى بداهية تكسر فقار الظهر. فوجوه الكفار- يوم القيامة - ذليلة كالحة {وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل}
٩
{وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا} ١٠ أي هلاكا وخسارا.
٢٦ - (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)
{كلا إذا بلغت التراقي (٢٦) وقيل من راق (٢٧)}
{كلا} أي من تتابع النذر لا يؤمنون بالآخرة، {إذا بلغت التراقي} إذا بلغت الروح الحلقوم، و {التراقي} جمع ترقوة وهي العظام المحيطة بنقرة النحر- وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر- يذكر الله القوي بشدة سكرات الموت والحشرجة، وحينئذ لا يملك من حوله أن يردوا عليه حياته، وإنما يتحاورون: هل من راق يشفى برقيته؟ وهل من طبيب يداوي بصنعته؟! وإنما هو قول المستعبد اليائس.
٢٧ - (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٦]
{كلا إذا بلغت التراقي (٢٦) وقيل من راق (٢٧)}
{كلا} أي من تتابع النذر لا يؤمنون بالآخرة، {إذا بلغت التراقي} إذا بلغت الروح الحلقوم، و {التراقي} جمع ترقوة وهي العظام المحيطة بنقرة النحر- وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر- يذكر الله القوي بشدة سكرات الموت والحشرجة، وحينئذ لا يملك من حوله أن يردوا عليه حياته، وإنما يتحاورون: هل من راق يشفى برقيته؟ وهل من طبيب يداوي بصنعته؟! وإنما هو قول المستعبد اليائس.
٢٨ - (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)
{وظن أنه الفراق (٢٨)}
وأيقن المحتضر أنه فراق هذه الحياة بأهلها وزينتها، وأحوالها وأموالها.
٢٩ - (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)
{والتفت الساق بالساق (٢٩)}
واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.
٣٠ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)
{إلى ربك يومئذ المساق (٣٠)}
إلى المعبود - سبحانه- يكون سوق الخلق يوم القيامة، و {الساق} مصدر ميمي. وإليه - تبارك اسمه- المرجع والمآب.
٣١ - (فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى)
{فلا صدق ولا صلى (٣١)}
فالكافر الخاسر لما يصدق بما أرسلت به الرسل، ولا صلى ما كتب الله عليه من الصلوات، فباطنه معاند لأمر الله، وظاهره كذلك.
٣٢ - (وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

{ولكن كذب وتولى (٣٢)}
لكن قلبه أعرض عن العهد الحق، عهد الله إلينا أن نؤمن؛ وقالبه أعرض عن عهد الله أن نؤدي ما افترض علينا.
٣٣ - (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى)
{ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣)}
ثم عاد إلى أهله مختالا مرحا متعاليا، وأصل التمطي: ليّ الظهر والتبختر وهكذا وصف الله المجرمين في سورة المطففين: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين} ١١.
٣٤ - (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)
{أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)}
تحذير من أربعة لأربعة، يحذر الله من: ترك التصديق، وترك الصلاة، ومن التكذيب، والإعراض وكأن المعنى: الويل له حيا، والويل له ميتا، والويل له يوم البعث، والويل له يوم يدخل النار.
أو: الوعيد أولى به، وأقرب إليه.
٣٥ - (ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)}
تحذير من أربعة لأربعة، يحذر الله من: ترك التصديق، وترك الصلاة، ومن التكذيب، والإعراض وكأن المعنى: الويل له حيا، والويل له ميتا، والويل له يوم البعث، والويل له يوم يدخل النار.
أو: الوعيد أولى به، وأقرب إليه.
٣٦ - (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)
{أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦)}
أيظن الآدمي أن يخلى متروكا مهملا لا يبعث؟! ويشير إلى هذا المعنى ما جاء في قوله سبحانه: {أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} ١٢.
٣٧ - (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)
{ألم يكن نطفة من مني يمنى (٣٧)}
ألم يك ماء قليلا في صلب رجل وترائب امرأة، فهو ليس إلا قطرة تراق في رحم.
٣٨ - (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى)
{ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨)}
ثم يصير دما منعقدا يعلق بغشاء مخاطي داخل ظلمات ثلاث، ثم يطورها ربنا الحكيم خلقا من بعد خلق حتى يسويه ويعدل بنيانه وصورته وينفخ فيه الروح.
٣٩ - (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)
{فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩)}
فجعل من الإنسان أولادا له ذكورا وإناثا. {الزوجين} الصنفين. فهي مفعول {فجعل}، و {الذكر والأنثى} بدل من {الزوجين}
٤٠ - (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)
{أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى (٤٠)}
أليس هذا الخلاق العليم الذي أنشأنا من العدم وجعل نسلنا من سلالة من ماء مهين، أليس هذا العظيم بقادر على أن يعيدنا بعد موتنا أحياء؟ بل إن الإعادة أهون من البدء في قياس العقل.

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (من قرأ منكم {والتين والزيتون} إلى آخرها {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل بلى! وأنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ {لا أقسم بيوم القيامة} فانتهى إلى {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} فليقل بلى، ومن قرأ {والمرسلات. } فبلغ {فبأي حديث بعده يؤمنون} فليقل آمنا بالله).

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٧ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٩، {ملك الناس. إله الناس} ٢٠.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٣؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٦.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٧، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٩، {والسماء ذات البروج} ٣٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٥، {والعصر} ٣٦؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٨. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٠.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى

النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٧.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٦٠ بعد هذه السبع أكثرها ٦١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاءهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٠؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٥، {قد أفلح من تزكى} ٧٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٨؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٩؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٠.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا

كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٢؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٧، {سندع الزبانية} ٨٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٩.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٥، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٧.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} ١٠٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٥؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٦؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٩؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٠؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢١؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٢؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٣؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٤. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٥.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٦، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٧ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٨ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند

الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٩، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٠، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣١، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٢، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٣، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٤، {. . واسجد واقترب} ١٣٥، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٦، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٧، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٨، {فصل لربك وانحر} ١٣٩، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٠، {قل هو الله أحد} ١٤١، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٢، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٣؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٤، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٥ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٦؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٧، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٨، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٩ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٠ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥١، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٢ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٣، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٤، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٥، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٦ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٧، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٨، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٩، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٠، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦١. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٢، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٣، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٤ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٥ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٦ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٧، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٨، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٩، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٠، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧١.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، ونتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٧٦ سورة الإنسان:

سورة الإنسان:
(٧٦) سورة الإنسان مدنية
وآياتها إحدى وثلاثون
كلماتها: ٢٤٠؛ حروفها: ١٠٥٣
١ - (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)}
{هل} للاستفهام أو للتحقيق.
{حين} مدة، ووقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها، طالت، أو قصرت.
{الدهر} الأمد الممدود، والزمان الطويل.
قد أتى على الإنسان قدر من الزمان كان فيه معدوما غير موجود؛ ومضت مدة من الدهر وآدم فيها لم يكن شيئا يذكر في الخليقة؛ وإن أريد ب {هل} الاستفهام فهو الاستفهام التقريري؛ أو تكون بمعنى [قد] التي يراد بها التحقيق؛ مما نقل الألوسي: أصله على ما قيل: [أهل] على أن الاستفهام للتقرير، أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرر به: من ينكر البعث؛ وقد علم أنهم يقولون: نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك، فيقال: فالذين أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته؟ وعن ابن عباس وقتادة: هي هنا بمعنى قد، وفسرها بها جماعة من النحاة. اه؛ و {الإنسان} ربما يكون المراد به آدم عليه السلام إذ هو أبو البشر وأصل الجنس الإنساني، أي: بقي آدم جسدا مصورا ترابا وطينا، لا يذكر ولا يعرف، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا؛ قال يحيى بن سلام: لم يكن شيئا مذكورا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا؛ ومما أورد القرطبي: أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدرة عند الخليقة، ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، ظهر فضله على الكل فصار مذكورا اه. قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثا، ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة كانت بعد الإنسان.
٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)
{إن خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا (٢)}
{نطفة} ماء قليل؛ والعرب تسمى كل ماء قليل في وعاء: نطفة.
{أمشاج} أخلاط.
{نبتليه} نختبره، ونعامله معاملة المختبر.
استيقنوا يا بني الإنسان بأن نسلكم من ماء قليل مختلط من ماء الرجل وماء المرأة ١؛ وقيل: يختلط بالعلقة والمضغة دم الحيض فيكون منه بناء وغذاء؛ ثم بعد أن يتم حمله ويولد، ويشب ويبلغ، نكلفه لنختبر طاعته، ونمتحن صدقه في العبودية على حاليه في العسر واليسر،

ولهذا خلقنا سبحانه: {. . . ونبلوكم بالشر والخير فتنة} يختبر شكرنا في السراء، وصبرنا في الضراء، وأعطيناه ما يسمع به الحق، ويبصره به الهدى، فكأن المعنى: خلقناه فجعلنا سميعا بصيرا لنبتليه بالدين ليكون مأمورا بالطاعة، منهيا عن المعصية، حاملا الأمانة.
٣ - (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)
{إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا (٣)}
الهدى هديان: هدى بمعنى إحلال اليقين في القلب، وتثبيت الجوارح على الخير والحق؛ وهدى بمعنى البيان والدلالة والإشارة؛ والمراد هنا الثاني، فقد بين الله تعالى للإنسان الرشد من الغي، والاستقامة من العوج، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.
٤ - (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا)
{إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا (٤)}
{أعتدنا} أعددنا، وهيأنا.
{أغلالا} جمع غل وهو القيد
{سعيرا} نارا مسعرة تحرقهم.
وعيد من الله تعالى الواحد القهار للكفار والفجار، بما هيأ لعذابهم المنتقم الجبار، فلهم في الآخرة سلاسل بها يجرون ويسحبون، وأغلال بها يكبلون ويقيدون، ونار ذات لهب ووقود يسعر، هم به يحرقون، وهكذا تكرر إنذارهم بما ينتظرهم؛ يقول المولى الحق سبحانه: {خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه} ٢ فمن خاف مقام الله العظيم ووعيده فليتق سخطه، وليتبع هداه، من قبل أن تصير جهنم مثواه.
٥ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)
{إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا (٥)}
{الأبرار ٣} الموحدون، الخيرون، المطيعون، المؤدون الحقوق.
{كأس} إناء فيه شراب، وزجاج به ما يشرب.
{مزاجها} خلطها، وطعمها، وما يخلط بها.
{كافورا} أخلاطا تجمع من الطيب، ونباتا له نور أبيض طيب الريح، وعين ماء في الجنة طيب الريح.
وعد من ربنا الحق لا يخلفه أن يسقي المتقين الصالحين المصلحين، المؤدين حق مولاهم وحق المخلوقين- يسقيهم بفضله كأسا حوت أطيب الشراب وأعطره، وألذه وأشهاه، مذاقا ورائحة؛ عن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم بالمسك [وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا؛ ولكن الله سمى ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب، وقوله: {كان مزاجها} {كان} زائدة، أي من كأس مزاجها كافور] ٤.
٦ - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)
{عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا (٦)}
{عينا} نصبت على البدل من {كافورا} التي ختمت بها الآية السابقة؛ ويكون المعنى بها- على ما قال الفراء- اسم عين ماء في الجنة؛ أو نصبت على نزع الخافض، والتقدير: من عين- كما جاء عن الزجاج - {يشرب بها} أي يشرب منها أولياء الله وأحبابه الذين عبدوه حق عبادته في الدنيا، يشققونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيث أرادوا، وتميل إلى حيث مالوا.
٧ - (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا)
{يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا (٧)}
{يوفون بالنذر} يتمون العهود؛ والنذر هو إيجاب المكلف على نفسه عن الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه.
{ويخافون} ويحذرون.
{شره مستطيرا} هوله فاشيا، وبلاؤه وفزعه منتشرا ممتدا.
ينال الأبرار ما أعد لهم من النعيم جزاء وفائهم بالعقود، وإتمام العهود، وخوفهم من اليوم الموعود، الذي تذهب فيه كل مرضعة عما

أرضعت }. . وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد{ ٥، }يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب{ ٦، }وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر{ ٧، وهكذا فمع أداء الطاعات واجتناب المنهيات يبقى المؤمن يحذر الآخرة، وبهذا أثنى القرآن المجيد على أهل الفضل والمزيد، ومما جاء في بيان حالهم: }والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون{ ٨ بل وهو السبيل إلى النصر على العدو، والظفر بالتمكين والعز، قال الله تبارك وتعالى: }. . لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد{ ٩، و }كان{ في هذه الآية قد تكون مسلوبة معنى المضى، كما في قوله تعالى: }. . وكان ربك قديرا{ ١٠ وقوله تبارك اسمه-: }. . إن الله كان توابا رحيما{ ١١، يقول القشيري: النذر يندرج فيه ما التزمه بإيمانه من امتثال أمر الله تعالى: قال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نسفت الجبال، وغارت المياه ١٢.

٨ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

}مسكينا{ محتاجا أخضعته الحاجة، أو ذليلا ضعيفا.

}يتيما{ صغيرا لا أب له.

}أسيرا{ مملوكا أو سجينا وحبيسا.

}ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٩) إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا (١٠) فوقاهم الله شرا ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا (١١){

والأبرار مع حرصهم على الوفاء بإتمام العبادات يستكثرون من القربات والصدقات، والمعروف والأعمال الصالحات، وتنفيس الكرب عن المؤمنين، رجاء أن ينفس الله عنهم كربات يوم الدين، فهم أسخياء كرماء، يبذلون ما يحبون، ولا يشحون به على ما يحتاجون، من فقير أو يتيم أو أسير، ويقولون حين يجودون بلسان الحال أو بلسان المقال- ما نبتغي بإنفاقنا رياء أو سمعة، ولا نطلب عليه مقابلا من ثناء أو محمدة، بل نرجو به رحمة الله ونتقي سخطه وعذابه، فإنا نحذر يوم الجمع يوم التغابن، إنه ليوم الفزع الأكبر، مقداره خمسون ألف سنة، }وجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة{ ١٣، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وفي الحديث: (ينظر أحدكم أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار فمن. استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل)، بشرى لهؤلاء المنفقين المحسنين بأن البر الرحيم سيقيهم عذاب الجحيم، ويبيض وجوههم، ويؤمن فزعهم، ويصلح بالهم }ويدخلهم الجنة عرفها لهم{، واختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآيات وأطالوا في ذلك ١٤.

٩ - (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٠ - (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)

}عبوسا{ ذا عبوس، تعبس فيه الوجوه من عظم كربه.

}قمطريرا{ متطاول البلاء شديد الهول.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١١ - (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)

}فوقاهم{ صانهم، ودفع عنهم.

}ولقاهم{ أعطاهم حين لقوه.

}نضرة{ بهاء وحسن.

}وسرورا{ بهجة وفرحا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٢ - (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا)

{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}

يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ١٥ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.

نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اهـ.

أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ١٦ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ١٧ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ١٨ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ١٩.

١٣ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{متكئين} متحاملين على مرافقهم، ومضجعين غير نائمين.

{الأرائك} الأسرة المزينة، تضرب عليها حجلة [كالقبة]، تزين للعروس.

{زمهريرا} بردا شديدا.

{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}

يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٢٠ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.

نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اهـ.

أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٢١ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٢٢ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٢٣ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٢٤.

١٤ - (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{دانية} قريبة.

{ذللت} سخرت ويسرت، وطوعت.

{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}

يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٢٥ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.

نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اهـ.

أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٢٦ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٢٧ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٢٨ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٢٩.

١٥ - (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{قوارير} صافية شفافة كالزجاج.

{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}

يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٣٠ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب

دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.
نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اه.
أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٣١ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٣٢ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٣٣ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٣٤.
١٦ - (قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}
يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٣٥ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.
نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اه.
أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٣٦ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٣٧ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٣٨ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٣٩.
١٧ - (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]
{كأسا} إناء فيه الشراب.
{زنجبيلا} الشراب الطيب الرائحة، أو اسم عين في الجنة.
{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}
يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء

صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٤٠ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.

نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اهـ.

أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٤١ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٤٢ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٤٣ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٤٤.

١٨ - (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)}

يجزي الله تعالى الأبرار فوق وقايتهم هول الحساب والعذاب، ونضرة الوجوه وبهجة الخواطر يلقونها، لهم من ربنا الغفور والودود لقاء صبرهم على الطاعة وفي السراء والضراء وحين البأس، لهم دخول الجنة، ولبس الحرير، والاتكاء على السرر المزدانة، والظل الظليل، والحياة الناعمة، التي لا حر فيها ولا قر، ليس فيها وهج الشمس، ولا برد الجليد؛ وقطوف الثمار دانية قريبة منهم، ينالونها قعودا أو قياما أو رقودا، ويطوف عليهم خدم يحملون آنية الشراب، وإنها لعجيبة، وعجيب ما فيها، فهي من فضة ليست كالتي نراها وإنما هي أبيض من الفضة وأصفى من الزجاج، تشف عما بداخلها، {. . صنع الله الذي أتقن كل شيء. } ٤٥ والشراب فيها على قدر حاجة الشارب دون زيادة أو نقصان، وأشربتهم مزاجها وخلطها كل ما لذ طعمه وطاب ريحه من أنهار الجنة وعيونها.

نقل القرطبي عن الترمذي الحكيم ما حاصله: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شرب لهم؛ يخرج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج، هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي له شرب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج؛ والأبرار هم الصادقون؛ والمقربون هم الصديقون. اهـ.

أقول: ويشهد لبعض ما ساق الترمذي قول الحق جل علاه: {ومزاجه من تسنيم} ٤٦ وقد جاءت متصلة بقوله سبحانه: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين} ٤٧ وقوله تبارك وتعالى: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم} ٤٨ ثم جاء عقب تلك الآية قوله الله تبارك اسمه: {عينا يشرب بها المقربون} ٤٩.

١٩ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا)

{حسبتهم} ظننتهم.

{*ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا (١٩) وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا (٢٠) عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا (٢١) إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا (٢٢)}

والذين يطوفون على أهل النعيم والتكريم خدم من الغلمان فإنهم أخف في الخدمة- {مخلدون} باقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة ٥٠ - وتظنهم حين تنظر إليهم لؤلؤا متفرقا في جوانب المكان، وهذا أبهى مما لو كان منظوما، وإنما جاء في وصف الحور العين {كأمثال اللؤلؤ المكنون} ٥١ لأنهم مقصورات في خدورهن وخيامهن وقصورهن لا يطفن للخدمة، وأما الولدان فإنهم سراع في الخدمة يتفرقون حول المخدوم وينبثون ويتناثرون هنا وهناك، وحين تبصر النعيم الذي هناك في الجنة تجده نعيما يفوق كل نعيم، وملكا لا يضاهيه ملك من الذي يعرف الناس، ولباس أهل الجنة حرير رقيق يلي الجسد، وغليظ يعلوه للزينة، كلاهما أخضر اللون، ويحلى أهل الجنة بأساور الذهب والجواهر وأساور الفضة، ذكرت الفضة في هذه الآية، وجاء ذكر الذهب في آية كريمة أخرى: {إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير} ٥٢.

وفي آية كريمة ثانية يقول الله جل علاه: {جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير} ٥٣ وآية مباركة ثالثة: {أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا} ٥٤.

{وسقاهم ربهم شرابا طهورا} ويسقي الله تعالى أهل النعيم والكرامة شرابا لا رجس فيه كشراب الدنيا بل تطهر به الأجساد والأرواح فلا قذر بعد ذلك، بل العرق الذي كرشح المسك، ولا غل ولا ضغن، بل الأخوة والألفة- وعد الله لا يخلف الله وعده- {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين} ٥٥ ثم يقال لهم تكريما، وتنعيما لأرواحهم- {إن هذا لكم جزاء} هذا ثواب ما عملتم وأجركم على ما قدمتم، تجاوز الغفور والشكور عن السيآت، وتقبل الطاعات والأعمال الصالحات، وضاعف الحسنات، وعد الصدق الذي كنتم توعدون.

يقول بعض اللغويين: {عاليهم} خبر مقدم، و {ثياب} مبتدأ مؤخر، و {خضر} صفة لثياب، كالذي وصفت به في قوله سبحانه {ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق}.

ومما قال الألوسي: ولا ينافي ما هنا قوله تعالى: {أساور من ذهب} لإمكان الجمع بتعدد الأساور لكل، والمعاقبة بلبس الذهب تارة والفضة أخرى، والتبعيض بأن يكون أساور بعض ذهبا وبعض فضة لاختلاف الأعمال. . استشكل بأنها لا تليق بالرجل وإنما تليق بالنساء والولدان، وأجيب بأن ذلك مما يختلف باختلاف العادات والطبائع، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة، ومن المشاهد في الدنيا أن بعض ملوكها يتحلون بأعضادهم وعلى تيجانهم وعلى صدورهم ببعض أنواع الحلي. . فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنة في الجنة الميل إلى الحلي: لا سيما وهم جرد مرد. . اهـ

٢٠ - (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

{ثم} هناك، في الجنة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار

٢١ - (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)

{سندس} الرقيق من الحرير.

{واستبرق} والغليظ من الحرير.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار

٢٢ - (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار

٢٣ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنْزِيلا)

{نزلنا عليك القرآن} أمرنا ملك الوحي فنزل عليك بالقرآن آيات آيات وليس جملة واحدة.

{إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (٢٥) ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦)}

بعد أن تضمنت الآية الرابعة وعيد الكافرين والآيات الثمان عشرة التالية لها وعد الله تعالى عباده الأخيار الأبرار. جاءت هذه الآيات تثبت فؤاد النبي المختار، وتعهد إلى أمة القرآن أن تستديم تقديس الفرقان، وتصبر على الوفاء بعهد الله، وتحذر طاعة الكفار والفساق العصاة، وتحافظ على إقامة الصلاة، وتحيي ليلها بالتهجد والاستغفار بالأسحار، وتلاوة الكتاب المجيد وتسبيح العزيز الغفار؛ {إنا نحن نزلنا عليك القرآن} حق اليقين أنا نحن لا سوانا أردنا أن يتنزل عليك الفرقان متفرقا آيات بعد آيات تيسيرا عليك وعلى أمتك في حفظه وتدبره والعمل به، وتقوية لحجتك: {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} ٥٦، وذكرى بأن العاقبة للمتقين، وعظة تتعاقب على مر السنين، ولقد جاءت هذه الشهادة من الله الحق بكلمات حكيمة {إنا} بالتوكيد؛ {ونحن} لتوكيد اسم إن؛ و {تنزيلا} الذي هو مصدر مؤكد لفعله؛ فاصبروا على الوفاء بعهد الله وأماناته، وما شرع لكم، وعلى ما تلاقونه في سبيل نصرة دينكم، ولا تستجيبوا لشيء مما يدعوكم إليه أهل الكفر وأهل الفسوق، فإنهم لا يألونكم خبالا {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء. } ٥٧. [قال الفراء: لا تطع واحدا منهما سواء كان آثما أو كفورا، ولو كان العطف بالواو كان نصا في النهي عن طاعتهما معا ولا يلزم منه النهي عن طاعة كل منهما على الانفراد] ٥٨؛ وأقيموا الصلاة التي في أول النهار- صلاة الصبح- والصلاتين اللتين أوجبهما الله تعالى وقت الأصيل- وهما الظهر والعصر- {ومن الليل فاسجد له} وصل صلاتي الليل – المغرب والعشاء- وقم الليل إلا قليلا، قارئا للقرآن، مسبحا الملك الديان {وسبحه ليلا طويلا} ولقد وفى النبي صلى الله عليه وسلم بعهد ربه، وشهد الله بفضله، وطائفة من صحبه الأكرمين، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك} ٥٩ ووعد المتقين المحسنين منازل عالية في جنات النعيم، بما ناجوا ربهم والخليون هجع، وبما قاموا والناس نيام، وبما أنابوا إلى ربهم آناء الليل: {إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} ٦٠؛ مما أورد ابن كثير: كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره. {ولا تطع منهم آثما أو كفورا} أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، وقال الطيبي: الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الآثم والكفور، وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص، وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين} ٦١.

٢٤ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{آثما} كثير الآثام والفجور، أو منافقا.

{كفورا} عاتي الكفر، مظهرا له.

{نزلنا عليك القرآن} أمرنا ملك الوحي فنزل عليك بالقرآن آيات آيات وليس جملة واحدة.

{إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (٢٥) ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦)}

بعد أن تضمنت الآية الرابعة وعيد الكافرين والآيات الثمان عشرة التالية لها وعد الله تعالى عباده الأخيار الأبرار. جاءت هذه الآيات تثبت فؤاد النبي المختار، وتعهد إلى أمة القرآن أن تستديم تقديس الفرقان، وتصبر على الوفاء بعهد الله، وتحذر طاعة الكفار والفساق العصاة، وتحافظ على إقامة الصلاة، وتحيي ليلها بالتهجد والاستغفار بالأسحار، وتلاوة الكتاب المجيد وتسبيح العزيز الغفار؛ {إنا نحن نزلنا عليك القرآن} حق اليقين أنا نحن لا سوانا أردنا أن يتنزل عليك الفرقان متفرقا آيات بعد آيات تيسيرا عليك وعلى أمتك في حفظه

وتدبره والعمل به، وتقوية لحجتك: {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} ٦٢، وذكرى بأن العاقبة للمتقين، وعظة تتعاقب على مر السنين، ولقد جاءت هذه الشهادة من الله الحق بكلمات حكيمة {إنا} بالتوكيد؛ {ونحن} لتوكيد اسم إن؛ و {تنزيلا} الذي هو مصدر مؤكد لفعله؛ فاصبروا على الوفاء بعهد الله وأماناته، وما شرع لكم، وعلى ما تلاقونه في سبيل نصرة دينكم، ولا تستجيبوا لشيء مما يدعوكم إليه أهل الكفر وأهل الفسوق، فإنهم لا يألونكم خبالا {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء. } ٦٣. [قال الفراء: لا تطع واحدا منهما سواء كان آثما أو كفورا، ولو كان العطف بالواو كان نصا في النهي عن طاعتهما معا ولا يلزم منه النهي عن طاعة كل منهما على الانفراد] ٦٤؛ وأقيموا الصلاة التي في أول النهار- صلاة الصبح- والصلاتين اللتين أوجبهما الله تعالى وقت الأصيل- وهما الظهر والعصر- {ومن الليل فاسجد له} وصل صلاتي الليل – المغرب والعشاء- وقم الليل إلا قليلا، قارئا للقرآن، مسبحا الملك الديان {وسبحه ليلا طويلا} ولقد وفى النبي صلى الله عليه وسلم بعهد ربه، وشهد الله بفضله، وطائفة من صحبه الأكرمين، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك} ٦٥ ووعد المتقين المحسنين منازل عالية في جنات النعيم، بما ناجوا ربهم والخليون هجع، وبما قاموا والناس نيام، وبما أنابوا إلى ربهم آناء الليل: {إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} ٦٦؛ مما أورد ابن كثير: كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره. {ولا تطع منهم آثما أو كفورا} أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، وقال الطيبي: الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الآثم والكفور، وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص، وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين} ٦٧.

٢٥ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{واذكر اسم ربك} من أفضل الذكر لله الصلاة.

{بكرة} أول النهار.

{أصيلا} من زوال الشمس عن وسط السماء- ظهرا- إلى آخر النهار.

{نزلنا عليك القرآن} أمرنا ملك الوحي فنزل عليك بالقرآن آيات آيات وليس بجملة واحدة.

{إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (٢٥) ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦)}

بعد أن تضمنت الآية الرابعة وعيد الكافرين والآيات الثمان عشرة التالية لها وعد الله تعالى عباده الأخيار الأبرار. جاءت هذه الآيات تثبت فؤاد النبي المختار، وتعهد إلى أمة القرآن أن تستديم تقديس الفرقان، وتصبر على الوفاء بعهد الله، وتحذر طاعة الكفار والفساق العصاة، وتحافظ على إقامة الصلاة، وتحيي ليلها بالتهجد والاستغفار بالأسحار، وتلاوة الكتاب المجيد وتسبيح العزيز الغفار؛ {إنا نحن نزلنا عليك القرآن} حق اليقين أنا نحن لا سوانا أردنا أن يتنزل عليك الفرقان متفرقا آيات بعد آيات تيسيرا عليك وعلى أمتك في حفظه وتدبره والعمل به، وتقوية لحجتك: {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} ٦٨، وذكرى بأن العاقبة للمتقين، وعظة تتعاقب على مر السنين، ولقد جاءت هذه الشهادة من الله الحق بكلمات حكيمة {إنا} بالتوكيد؛ {ونحن} لتوكيد اسم إن؛ و {تنزيلا} الذي هو مصدر مؤكد لفعله؛ فاصبروا على الوفاء بعهد الله وأماناته، وما شرع لكم، وعلى ما تلاقونه في سبيل نصرة دينكم، ولا تستجيبوا لشيء مما يدعوكم إليه أهل الكفر وأهل الفسوق، فإنهم لا يألونكم خبالا {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء. } ٦٩. [قال الفراء: لا تطع واحدا منهما سواء كان آثما أو كفورا، ولو كان العطف بالواو كان نصا في النهي عن طاعتهما معا ولا

يلزم منه النهي عن طاعة كل منهما على الانفراد] ٧٠، وأقيموا الصلاة التي في أول النهار- صلاة الصبح- والصلاتين اللتين أوجبهما الله تعالى وقت الأصيل- وهما الظهر والعصر- {ومن الليل فاسجد له} وصل صلاتي الليل – المغرب والعشاء- وقم الليل إلا قليلا، قارئا للقرآن، مسبحا الملك الديان {وسبحه ليلا طويلا} ولقد وفى النبي صلى الله عليه وسلم بعهد ربه، وشهد الله بفضله، وطائفة من صحبه الأكرمين، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك} ٧١ ووعد المتقين المحسنين منازل عالية في جنات النعيم، بما ناجوا ربهم والخليون هجع، وبما قاموا والناس نيام، وبما أنابوا إلى ربهم آناء الليل: {إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} ٧٢، مما أورد ابن كثير: كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره. {ولا تطع منهم آثما أو كفورا} أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، وقال الطيبي: الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الآثم والكفور، وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص، وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين} ٧٣.

٢٦ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{فاسجد} فصل.

{نزلنا عليك القرآن} أمرنا ملك الوحي فنزل عليك بالقرآن آيات آيات وليس جملة واحدة.

{إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (٢٥) ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦)}

بعد أن تضمنت الآية الرابعة وعيد الكافرين والآيات الثمان عشرة التالية لها وعد الله تعالى عباده الأخيار الأبرار. جاءت هذه الآيات تثبت فؤاد النبي المختار، وتعهد إلى أمة القرآن أن تستديم تقديس الفرقان، وتصبر على الوفاء بعهد الله، وتحذر طاعة الكفار والفساق العصاة، وتحافظ على إقامة الصلاة، وتحيي ليلها بالتهجد والاستغفار بالأسحار، وتلاوة الكتاب المجيد وتسبيح العزيز الغفار؛ {إنا نحن نزلنا عليك القرآن} حق اليقين أنا نحن لا سوانا أردنا أن يتنزل عليك الفرقان متفرقا آيات بعد آيات تيسيرا عليك وعلى أمتك في حفظه وتدبره والعمل به، وتقوية لحجتك: {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} ٧٤، وذكرى بأن العاقبة للمتقين، وعظة تتعاقب على مر السنين، ولقد جاءت هذه الشهادة من الله الحق بكلمات حكيمة {إنا} بالتوكيد؛ {ونحن} لتوكيد اسم إن؛ و {تنزيلا} الذي هو مصدر مؤكد لفعله؛ فاصبروا على الوفاء بعهد الله وأماناته، وما شرع لكم، وعلى ما تلاقونه في سبيل نصرة دينكم، ولا تستجيبوا لشيء مما يدعوكم إليه أهل الكفر وأهل الفسوق، فإنهم لا يألونكم خبالا {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء. } ٧٥. [قال الفراء: لا تطع واحدا منهما سواء كان آثما أو كفورا، ولو كان العطف بالواو كان نصا في النهي عن طاعتهما معا ولا يلزم منه النهي عن طاعة كل منهما على الانفراد] ٧٦، وأقيموا الصلاة التي في أول النهار- صلاة الصبح- والصلاتين اللتين أوجبهما الله تعالى وقت الأصيل- وهما الظهر والعصر- {ومن الليل فاسجد له} وصل صلاتي الليل – المغرب والعشاء- وقم الليل إلا قليلا، قارئا للقرآن، مسبحا الملك الديان {وسبحه ليلا طويلا} ولقد وفى النبي صلى الله عليه وسلم بعهد ربه، وشهد الله بفضله، وطائفة من صحبه الأكرمين، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك} ٧٧ ووعد المتقين المحسنين منازل عالية في جنات النعيم، بما ناجوا ربهم والخليون هجع، وبما قاموا والناس نيام، وبما أنابوا إلى ربهم آناء الليل: {إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} ٧٨، مما أورد ابن كثير: كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره. {ولا

تطع منهم آثما أو كفورا} أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، وقال الطيبي: الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الآثم والكفور، وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص، وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين} ٧٩.

٢٧ - (إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا)

{العاجلة} الحياة الدنيا، لسرعة تقضيها.

{ويذرون وراءهم} يتركون وراء ظهورهم.

{يوما ثقيلا} يوما شديد الهول، ثقيلة أحماله.

{إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٧) نحن خلقناكم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨) إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩) وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما (٣٠) يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما (٣١)}.

حتى يثبت الكتاب المجيد ضلال الآثمين والكافرين وفساد رأيهم، ووجوب الحذر من متابعتهم، أكدت الآية الكريمة أنهم يحبون العاجل الزائل، ويفتنهم العرض الحائل، والحطام الباطل، ويلهيهم اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر، كما وصفوا في آية كريمة أخرى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا. } ٨٠، والمولى الحكيم البر الرحيم يذكر بأن البسط في متاعها، وإسباغ أعراضها ليس يعني الخلود لعشاقها، بل ربما يكون إيذانا بزوالها، يقول ربنا- تبارك اسمه: {حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. } ٨١. {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون} ٨٢، وعكوفهم على الملذات والشهوات شغلهم عن العمل لما تنال به المغفرة وتدرك به روضات الجنات.

٢٨ - (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلا)

{وشددنا أسرهم} قوينا تركيبهم، وأحكمنا تكوينهم، وأبدعنا تصويرهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

{نحن} لا سوانا {خلقنا وشددنا أسرهم} أو جدناهم وقوينا تركيبهم وأحكمنا تكوينهم، وأبدعنا تصويرهم، فلو شكروا البارئ المصور لكان خيرا لهم، ولقد ضلوا إذ أشركوا بالله أصنامهم، فإنها ما خلقتهم ولا قدمت نفعا لهم، وحين نشاء أن نذهبهم ونأتي بخلق آخرين فما هم لنا بمعجزين، وفي القرآن الكريم كثير من هذا الوعيد كما جاء في قول الحميد المجيد: {. . . فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. } ٨٣، وقال سبحانه: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا} ٨٤، وقال جل ثناؤه: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} ٨٥.

٢٩ - (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا)

{اتخذ إلى ربه سبيلا} سلك طريقا في اليقين والعمل والخلق يصل به إلى مرضاة الله وثوابه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

{إن هذه تذكرة} إن هذه الآيات المحكمات البينات تذكر بالحق وتدل على ما ينبغي من الرشد {فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩)} فمن أراد أن يتخذ إلى مرضاة ربه طريقا فليتخذ، كما قال وقوله الحق: {. . . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} ٨٦.

٣٠ - (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

{وما تشاءون إلا أن يشاء الله} وما تحقق مشيئتكم إلا إن طابقت مراد الله، فلا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يريد، لكنه سبحانه رضي لعباده دين الإسلام وشكر الملك العلام {. . . ولا يرضى لعباده الكفر} ٨٧ {إن الله كان عليما حكيما (٣٠)} استيقنوا أن ربنا المعبود بحق يعلم المفسد من المصلح، وهو بكل شيء عليم؛ ودبر كل شأن بحكمة موافقة للعدل والخير، ولا يفوتها صواب؛.

٣١ - (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

{أعد} هيأ، وجهز، وادخر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

{يدخل من يشاء في رحمته} ممن هدى إلى الإيمان واستقام على منهاج القرآن، وذلك وعد الملك الديان: {. . . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} ٨٨، وأعد الرقيب الحسيب لكل متجاوز حده عذابا شديدا، مهينا موجعا، فاللهم قنا بفضلك عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

[مما أخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه. . والحاكم وصححه، وغيرهم عن أبي ذر قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {هل أتى على الإنسان} حتى ختمها، ثم قال: (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل) ٨٩.

مما أورد ابن كثير: في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم تنزيل السجدة و {هل أتى على الإنسان}.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٩٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٩١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٩٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٩٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٩٤ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٩٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٩٦، {ملك الناس. إله الناس} ٩٧.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٩٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٩٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٠٠؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٠١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها.

والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٠٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٠٣.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ١٠٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ١٠٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ١٠٦، {والسماء ذات البروج} ١٠٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ١٠٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ١٠٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ١١٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ١١١، {والضحى. والليل إذا سجى} ١١٢، {والعصر} ١١٣؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ١١٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين} ١١٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ١١٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ١١٧.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ١١٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ١١٩. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ١٢١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ١٢٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ١٢٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ١٢٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ١٢٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ١٢٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ١٢٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ١٢٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ١٢٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ١٣٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ١٣١، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض

مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات
ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ١٣٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ١٣٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ١٣٤.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ١٣٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ١٣٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى. وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ١٣٧ بعد هذه السبع أكثرها ١٣٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ١٣٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ١٤٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ١٤١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١٤٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ١٤٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ١٤٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ١٤٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ١٤٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٤٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ١٤٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ١٤٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب

بها المقربون} ١٥٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ١٥١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ١٥٢، {قد أفلح من تزكى} ١٥٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١٥٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١٥٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١٥٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ١٥٧. وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٥٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٥٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٦٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٦١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٦٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٦٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٦٤، {سندع الزبانية} ١٦٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٦٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٦٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٦٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٦٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٧٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٧١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٧٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٧٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٧٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٧٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٧٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٧٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٧٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٧٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٨٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٨١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٨٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٨٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٨٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٨٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٨٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٨٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت

من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٨٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٩٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٩١، {سنقرئك فلا تنسى} ١٩٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٩٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٩٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٩٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٩٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٩٧؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٩٨؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٩٩؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ٢٠٠؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ٢٠١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٢٠٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ٢٠٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ٢٠٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ٢٠٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٢٠٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٢٠٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ٢٠٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ٢٠٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ٢١٠، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ٢١١، {. . واسجد واقترب} ٢١٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ٢١٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ٢١٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ٢١٥، {فصل لربك وانحر} ٢١٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٢١٧، {قل هو الله أحد} ٢١٨، {قل أعوذ برب الفلق} ٢١٩، {قل أعوذ برب الناس} ٢٢٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ٢٢١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ٢٢٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ٢٢٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ٢٢٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ٢٢٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ٢٢٦ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ٢٢٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ٢٢٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ٢٢٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ٢٣٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ٢٣١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ٢٣٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ٢٣٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ٢٣٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ٢٣٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ٢٣٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ٢٣٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ٢٣٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا

فهل الكافرين أمهلهم رويدا} ٢٣٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٢٤٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٢٤١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٢٤٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٢٤٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٢٤٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٢٤٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٢٤٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٢٤٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٢٤٨.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٧٧ سورة المرسلات:

سورة المرسلات:
(٧٧) سورة المرسلات مكية
وآياتها خمسون
كلماتها: ١٨١؛ حروفها: ٨١٦
١ - (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا)
بسم الله الرحمن الرحيم
}والمرسلات عرفا (١) فالعاصفات عصفا (٢){
أقسم الله تعالى بالرياح المرسلات {عرفا ١} أي متتابعات أو تباعا فالشديدات الهبوب السريعات مرورا.

نقل عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ما حاصله: الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه، كما قال تعالى: {جاءتها ريح عاصف. }.

ويقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم.

٢ - (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم

}والمرسلات عرفا (١) فالعاصفات عصفا (٢)}
أقسم الله تعالى بالرياح المرسلات {عرفا ٢} أي متتابعات أو تباعا فالشديدات الهبوب السريعات مرورا.
نقل عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ما حاصله: الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه، كما قال تعالى: }جاءتها ريح عاصف. {.
ويقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم.
٣ - (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا)
}والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥)}
وأقسم سبحانه بالملائكة التي تنزل بوحيه- تبارك اسمه- ناشرة ٣ أجنحتها، فتأتي شرائع ربنا فارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، فتلقى في القلوب ذكرا لله تعالى، وخشية منه، وتذكر للقائه ووعيده، واستقامة على طاعته، وتسبيحه وتمجيده، وكل موعظة واعتبار ٤.
نقل عن علماء القرآن: وجمهور المفسرين على أن المرسلات: الرياح، لكن روى عن عبد الله: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله، قاله ابن عباس. وعن أبي صالح: هي الرسل ترسل بالمعروف.
يقول ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عرفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم -جل ثناؤه- بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كان صفته كذلك فداخل في قسمه ذلك، ملكا أو ريحا أو رسولا من بني آدم مرسلا.
٤ - (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣]
}والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥)}
وأقسم سبحانه بالملائكة التي تنزل بوحيه- تبارك اسمه- ناشرة ٥ أجنحتها، فتأتي شرائع ربنا فارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، فتلقى في القلوب ذكرا لله تعالى، وخشية منه، وتذكر للقائه ووعيده، واستقامة على طاعته، وتسبيحه وتمجيده، وكل موعظة واعتبار ٦.
نقل عن علماء القرآن: وجمهور المفسرين على أن المرسلات: الرياح، لكن روى عن عبد الله: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله، قاله ابن عباس. وعن أبي صالح: هي الرسل ترسل بالمعروف.
يقول ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عرفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم -جل ثناؤه- بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كان صفته كذلك فداخل في قسمه ذلك، ملكا أو ريحا أو رسولا من بني آدم مرسلا.
٥ - (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣]
}والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥)}
وأقسم سبحانه بالملائكة التي تنزل بوحيه- تبارك اسمه- ناشرة ٧ أجنحتها، فتأتي شرائع ربنا فارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، فتلقى في القلوب ذكرا لله تعالى، وخشية منه، وتذكر للقائه ووعيده، واستقامة على طاعته، وتسبيحه وتمجيده، وكل موعظة واعتبار ٨.
نقل عن علماء القرآن: وجمهور المفسرين على أن المرسلات: الرياح، لكن روى عن عبد الله: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله، قاله ابن عباس. وعن أبي صالح: هي الرسل ترسل بالمعروف.
يقول ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عرفا الملائكة،

وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم -جل ثناؤه- بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كان صفته كذلك فداخل في قسمه ذلك، ملكا أو ريحا أو رسولا من بني آدم مرسلا.
٦ - (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا)
{عذرا أو ذرا (٦)}
أرسل الله تعالى الرسل، وأنزل الملائكة بوحيه وكتبه، ليعذر سبحانه إليكم أيها الناس: {. . أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير} ٩ {. . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى} ١٠ {. . لئلا يكون للناس على الله حجة} ١١ و {أو} للتنويع لا للترديد فهي بمعنى الواو.
روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: {عذرا} ما يلقيه الله جل ثناءه من معاذير أوليائه وهي التوبة {أو نذر} ينذر أعداءه- يحذرهم ويخوفهم-.
٧ - (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)
{إنما توعدون لواقع (٧)}
إن الذي وعدكم الله تعالى لحاصل وآت، وسيجيء ويقع، لا شك في ذلك. واللفظ صالح لأن يراد كل موعود خيرا أو شرا عاجلا أو آجلا، لكن ربما يكون المراد به يوم القيامة، لأن الآيات التالية كلها تصف أهوال اليوم الآخر. وهذه الآية جواب ما تقدم من القسم.
يقول الألوسي: (ما) – من {إنما} – موصولة، و [إن] كتبت موصولة، والعائد محذوف، أي: إن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة.
٨ - (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)
{فإذا النجوم طمست (٨)}
هذا من أطوار انتهاء الحياة الدنيا، وخراب هذا الكون، فإذا انطفأ نور النجوم أو أذهبها الله تعالى، فذلك من يوم الصاخة يوم الطامة الكبرى.
يقال: طمس الشيء إذا درس وطمس فهو مطموس، والرياح تطمس الآثار فتكون الريح طامسة، والأثر طامسا بمعنى: مطموس.
٩ - (وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ)
{وإذا السماء فرجت (٩)}
تمزقت وفتحت وشقت وتهاوت فسقطت.
١٠ - (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)
{وإذا الجبال نسفت (١٠)}
تطايرت صخورها وبست، وتفرقت أجزاؤها كالكثيب المهيل تذروها الرياح حتى تصير كالصوف المتناثر المتفرق، فإذا بأماكنها مسواة.
١١ - (وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ)
{وإذا الرسل أقتت (١١)}
وافت للميقات الذي وعدت ووعدته أممهم وبلغته.
١٢ - (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ)
{لأي يوم أجلت (١٢)}
استفهام يراد به التعجيب، كأن المعنى: لأي يوم أخرت أهوال الآخرة، ونكال الله بالمكذبين؟! وفيه تهويل لعسر هذا اليوم وبلائه.
١٣ - (لِيَوْمِ الْفَصْلِ)
{ليوم الفصل (١٣)}

كأنه إجابة على ما تضمنته الآية السابقة من سؤال: أخرت الأهوال والنكال ليوم يقضي الله فيه بين العباد، ويفصل بينهم ١٢.
١٤ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ)
{وما أدراك ما يوم الفصل (١٤)}
تعظيم لأحوال اليوم وعسره بعد تعظيم. بمعنى: أي شيء أعلمك بيوم الحساب يوم نأخذ للمظلوم من ظالمه، وننجي المتقي بمفازته؟!
يقول اللغويون: {ما} الأولى: مبتدأ، و {أدراك} خبره، و {ما} الثانية خبر مقدم، و {يوم} مبتدأ مؤخر. بمعنى: يوم الفصل يوم عظيم عجيب لا يقادره قدره، ولا يكتنه كنهه، ووضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التفظيع والتهويل.
١٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
{ويل يومئذ للمكذبين (١٥)}
واد في جهنم لمن لم يؤمن بكلمات الله تعالى ورسالاته.
وكررت تسع مرات في هذه السورة للتوكيد والتقرير.
والويل في الأصل: مصدر الهلاك، وأريد به هنا الدعاء.
يقول أبو جعفر الطبري: الوادي الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها للمكذبين. . .
ويقول أبو عبد الله القرطبي: عذاب وخزي لمن كذب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل، فهو وعيد، وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشي آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه بغيره، لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه. ١٣
١٦ - (أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ)
{ألم نهلك الأولين (١٦)}
ألم نقتل الأقوام السابقين الأقدمين كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح؟
١٧ - (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ)
{ثم نتبعه الآخرين (١٧)}
ثم أهلكنا بعدهم أقواما جاءوا من بعدهم، وعتوا كعتوهم مثل قوم لوط وقوم شعيب وقوم موسى؟!
١٨ - (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)
{كذلك نفعل بالمجرمين (١٨)}
كالذي أنفذناه في أولئك نمضي بأسنا وبطشتنا وانتقامنا من كل مجرم مسيء مفسد. {سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا} ١٤.
ولعل المراد: سنتنا جارية على ذلك
١٩ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
{ويل يومئذ للمكذبين (١٩)}
العذاب الغليظ يوم الحسرة للمكذبين بالرسل، والآيات الثلاث السابقات لبيان ما يحل بالمجرمين السابقين واللاحقين من خزي الدنيا.
٢٠ - (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)
{ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠)}
أليس أصلك إذ كنت جنينا قدر يسير صغير ضعيف من ماء الأب والأم؟!
بلى!
٢١ - (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)
{جعلناه في قرار مكين (٢١)}

فأقررناه- إذ نشاء- في مكان حصين يحرزه ويقيه- على ما فيه من ضعف- أن يستكن ويتطور إلى الأمد الذي نريد، وذاك القرار الحريز يكون في رحم الأم.

٢٢ - (إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)

{إلى قدر معلوم (٢٢)}

إلى حين نخرجه طفلا، أو ننزله سقطا.

٢٣ - (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)

{فقدرنا فنعم القادرون (٢٣)}

فجعلنا كل طور من أطواره، وكل دور من أدوار حياته بمقدار تقتضيه الحكمة والرحمة، ودقة الصنع، وإتقانه وإبداعه، لا يساوينا في ذلك مساو.

نقل عن عكرمة: معناه: فملكنا فنعم المالكون.

وكل هذه من البرهان والعلامات على اقتدار الله تعالى وأفضاله الماثلة في الأنفس.

٢٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

{ويل يومئذ للمكذبين (٢٤)}

بالذي خلق فسوى وقدر فهدى، وبأن أصلهم من ماء مهين.

[توبيخ وتخويف من وجهين، أحدهما: أن النعمة كلما كانت أعظم كان نكرانها أفحش والثاني: أن القادر على الإبداء أقدر على الإعادة، فالمنكر لهذا الدليل الواضح يستحق غاية التوبيخ] ١٥.

٢٥ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا)

{ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥) أحياء وأمواتا (٢٦)}

يمكن أن يراد بالاستفهام هنا التقرير: ألسنا قد صيرنا الأرض كالوعاء تضمكم أحياء وأمواتا، في الحالين هي حاوية لكم، على ظهرها أو في بطنها؟! بلى.

[ألم نجعل الأرض كفات أحياءكم وأمواتكم؟، تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم، وأمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها. وجائز أن يكون عني بقوله: {. . كفاتا. أحياء وأمواتا} تكفت أذاهم في حال حياتهم، وجيفهم بعد مماتهم].

و {أحياء وأمواتا} ربما كان نصبهما على نزع الخافض، فكأن التركيب: ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأموات، فإذا نونت {كفاتا} نصبت ما بعدها.

٢٦ - (أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٥]

{ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥) أحياء وأمواتا (٢٦)}

يمكن أن يراد بالاستفهام هنا التقرير: ألسنا قد صيرنا الأرض كالوعاء تضمكم أحياء وأمواتا، في الحالين هي حاوية لكم، على ظهرها أو في بطنها؟! بلى.

[ألم نجعل الأرض كفات أحياءكم وأمواتكم؟، تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم، وأمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها. وجائز أن يكون عني بقوله: {. . كفاتا. أحياء وأمواتا} تكفت أذاهم في حال حياتهم، وجيفهم بعد مماتهم].

و {أحياء وأمواتا} ربما كان نصبهما على نزع الخافض، فكأن التركيب: ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأموات، فإذا نونت {كفاتا} نصبت ما بعدها.

٢٧ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)

{وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا (٢٧)}

وثبتنا في الأرض ما يرسيها من الجبال الطوال- حتى لا تميل وتهتز بكم- ومنحناكم السقيا ماء عذبا.

[خلقناه في أصولها، وأجريناه لكم منها في أنهار، وأنبعناه في منابع تستمد مما استودعناه فيها، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك، والماء المنزل من السماء] ١٦.

٢٨ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

{ويل يومئذ للمكذبين (٢٨)}

العذاب لمن كذب بنعم الله تعالى العظيمة المنبثة في آفاق الكون.

٢٩ - (انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

{انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩)}

ثم عادت الآيات إلى بيان أهوال الآخرة ونكالها، عندئذ يقال للجاحدين الكافرين ويصاح بهم: سيروا مسرعين إلى العذاب الذي كنتم تجحدون تحققه وحصوله إذ كنتم أحياء.

٣٠ - (انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ)

{انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠)}

سيروا مسرعين إلى دخان متشعب، والدخان إذا ارتفع تشعب.

مما أورد صاحب روح المعاني: وخصوصية الثلاث. . . لأن تكذيبهم بالعذاب يتضمن تكذيب الله تعالى وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهناك ثلاثة تكذيبات؛ واعتبر بعضهم التكذيب بالعذاب أصلا والشعب الثلاث: التكذيبان المذكوران وتكذيب العقل الصريح.

٣١ - (لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ)

{لا ظليل ولا يغني من اللهب (٣١)}

ليس بمظلل لكم هذا الظل- والناس يعرفون ظل الدنيا يقي الحر- فذلك كالتهكم بهم، وليس يمنع عنهم ألسنتهم اللهب ولا يدفعها ولا يبعدها.

٣٢ - (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ)

{إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢)}

إن النار المستعرة تقذف الكفار الفجار بقطع تتناثر منها وتتطاير، الشرارة الواحدة منها كالدار الكبيرة والبناء العالي ١٧.

٣٣ - (كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)

{كأنه جمالة صفر (٣٣)}

وليس الشرر عظيما وكبيرا فحسب بل مع ضخامته يسرع في الاندفاع والسقوط والتفرق كأنه الإبل المصفرة أو القاتمة الضارب لونها إلى السواد.

[وقرأ الجمهور ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه {جمالات} بكسر الجيم وبالألف والتاء: جمع جمال أو جمالة بكسر الجيم فيهما، فيكون جمع الجمع، أو جمع اسم الجمع، والمعنى على ما سمعت] ١٨.

٣٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

{ويل يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥)}

يوم يعرضون على النار ويلقون فيها لا يتكلمون. ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في سورة المجادلة: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم. } ١٩ وكذا ما جاء في سورة النحل من قوله - تبارك اسمه-: {يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها} ٢٠ فإن هذا وقت دخولهم النار، وما جاء في الآيتين المشار إليهما يكون في وقت آخر من يوم القيامة، ففي أوقات منه ينطقون، وفي أوقات أخر لا ينطقون. {. . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} ٢١.

٣٥ - (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٤]
{ويل يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥)}
يوم يعرضون على النار ويلقون فيها لا يتكلمون. ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في سورة المجادلة: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم. } ٢٢ وكذا ما جاء في سورة النحل من قوله - تبارك اسمه-: {يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها} ٢٣ فإن هذا وقت دخولهم النار، وما جاء في الآيتين المشار إليهما يكون في وقت آخر من يوم القيامة، ففي أوقات منه ينطقون، وفي أوقات أخر لا ينطقون. {. . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} ٢٤.
٣٦ - (وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)
{ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦)}
لا يأذن الله الواحد القهار للكفار الفجار بعد إذ صاروا في النار في الاعتذار، كما جاء في الآية الكريمة {. . اخسئوا فيها ولا تكلمون} ٢٥.
نقل عن الجنيد: أي عذر لمن أعرض عن منعمه وجحده، وكفر أياديه ونعمه؟!!
وقال الفراء في قوله تعالى: {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} الفاء نسق أي عطف على {يؤذن}، وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون. . . وقد قال: لا يقضي عليهم فيموتوا بالنصب وكله صواب، ومثله: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه} ٢٦ بالنصب والرفع.
٣٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
{ويل يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين (٣٨)}
ويوم الحساب يوم الحق يقال للمعاندين الجاحدين: هذا يوم القضاء والحاقة، والواقعة الخافضة الرافعة، يتمايز المكلفون بحسب ما قدموا في دنياهم، وكلهم مجموعون ليوم الدين، الأوائل والأواخر ٢٧.
{. . وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا} ٢٨
٣٨ - (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]
{ويل يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين (٣٨)}
ويوم الحساب يوم الحق يقال للمعاندين الجاحدين: هذا يوم القضاء والحاقة، والواقعة الخافضة الرافعة، يتمايز المكلفون بحسب ما قدموا في دنياهم، وكلهم مجموعون ليوم الدين، الأوائل والأواخر ٢٩.
{. . وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا} ٣٠
٣٩ - (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)
{فإن كان لكم كيد فكيدون (٣٩) ويل يومئذ للمكذبين (٤٠)}
فإن استطعتم أن تحتالوا وتمكروا لتخرجوا مما أنتم فيه [فاحتالوا لأنفسكم وقاووني ولن تجدوا ذلك. وقيل: {فإن كان لكم كيد} أي قدرتم على حرب {فكيدوني} أي حاربوني. كذا روى الضحاك عن ابن عباس] ٣١.
٤٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٩]
{فإن كان لكم كيد فكيدون (٣٩) ويل يومئذ للمكذبين (٤٠)}
فإن استطعتم أن تحتالوا وتمكروا لتخرجوا مما أنتم فيه [فاحتالوا لأنفسكم وقاووني ولن تجدوا ذلك. وقيل: {فإن كان لكم كيد} أي قدرتم على حرب {فكيدوني} أي حاربوني. كذا روى الضحاك عن ابن عباس] ٣٢.
٤١ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ)

{إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢) كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (٤٣)}
وهذه الآيات المباركة الثلاثة تبشر بما أعد الله- تبارك اسمه- للمؤمنين من عز وتكريم، وسلامة ونعيم، فجاء الوعد فيها من البر الرحيم مؤكدا- ووعده لا يخلف- إن الذين توقوا غضبه ومعاصيه يتبوؤن يوم الجزاء مقاعد الصدق في ظل ظليل، ومن حولهم تنفجر العيون بالماء العذب السلسبيل، ويطعمون أحب الطعام إليهم، ويتفكهون بما يحبون من فاكهة، ويكرمون بالتهنئة من لدن الملأ الأعلى، أو من المولى سبحانه: كلوا واشربوا هانئين خالدين جزاء بعملكم الصالح الذي قدمتموه {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٣٣.
٤٢ - (وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]
{إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢) كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (٤٣)}
وهذه الآيات المباركة الثلاثة تبشر بما أعد الله- تبارك اسمه- للمؤمنين من عز وتكريم، وسلامة ونعيم، فجاء الوعد فيها من البر الرحيم مؤكدا- ووعده لا يخلف- إن الذين توقوا غضبه ومعاصيه يتبوؤن يوم الجزاء مقاعد الصدق في ظل ظليل، ومن حولهم تنفجر العيون بالماء العذب السلسبيل، ويطعمون أحب الطعام إليهم، ويتفكهون بما يحبون من فاكهة، ويكرمون بالتهنئة من لدن الملأ الأعلى، أو من المولى سبحانه: كلوا واشربوا هانئين خالدين جزاء بعملكم الصالح الذي قدمتموه {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٣٤.
٤٣ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤١]
{إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢) كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (٤٣)}
وهذه الآيات المباركة الثلاثة تبشر بما أعد الله- تبارك اسمه- للمؤمنين من عز وتكريم، وسلامة ونعيم، فجاء الوعد فيها من البر الرحيم مؤكدا- ووعده لا يخلف- إن الذين توقوا غضبه ومعاصيه يتبوؤن يوم الجزاء مقاعد الصدق في ظل ظليل، ومن حولهم تنفجر العيون بالماء العذب السلسبيل، ويطعمون أحب الطعام إليهم، ويتفكهون بما يحبون من فاكهة، ويكرمون بالتهنئة من لدن الملأ الأعلى، أو من المولى سبحانه: كلوا واشربوا هانئين خالدين جزاء بعملكم الصالح الذي قدمتموه {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} ٣٥.
٤٤ - (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
{إنا كذلك نجزي المحسنين (٤٤)}
استيقنوا أننا نجزي من أحسن مثل ذلك الجزاء العظيم لا جزاء أقل منه.
٤٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)
{ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨)}
تشتد حسرات الخاسرين حيث نال أعداؤهم- أهل الإيمان- ذاك الثواب العظيم، وبقواهم في العذاب الأليم، وكان يقال للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: كلوا وتمتعوا فإن مصيركم إلى النار، ويذكرون اليوم للتحسير والتخسير، فليس لهم إلا الويل والسعير، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وإذا نودوا أن تواضعوا لله واخشعوا لعظمته يأنفون ويستنكفون فلا يسلمون، ولا لأمر ربنا ينقادون.
قال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.
وإنما يدعون إلى السجود- هناك- كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان لله يسجد تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا.
أو: إذا قيل لهم اخضعوا للحق لا يخضعون.
٤٦ - (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]
{ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨)}

تشتد حسرات الخاسرين حيث نال أعداؤهم- أهل الإيمان- ذاك الثواب العظيم، وبقواهم في العذاب الأليم، وكان يقال للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: كلوا وتمتعوا فإن مصيركم إلى النار، ويذكرون اليوم للتحسير والتخسير، فليس لهم إلا الويل والسعير، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وإذا نودوا أن تواضعوا لله واخشعوا لعظمته يأنفون ويستنكفون فلا يسلمون، ولا لأمر ربنا ينقادون.

قال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

وانما يدعون إلى السجود- هناك- كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان لله يسجد تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا.

أو: إذا قيل لهم اخضعوا للحق لا يخضعون.

٤٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨)}

تشتد حسرات الخاسرين حيث نال أعداؤهم- أهل الإيمان- ذاك الثواب العظيم، وبقواهم في العذاب الأليم، وكان يقال للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: كلوا وتمتعوا فإن مصيركم إلى النار، ويذكرون اليوم للتحسير والتخسير، فليس لهم إلا الويل والسعير، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وإذا نودوا أن تواضعوا لله واخشعوا لعظمته يأنفون ويستنكفون فلا يسلمون، ولا لأمر ربنا ينقادون.

قال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

وانما يدعون إلى السجود- هناك- كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان لله يسجد تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا.

أو: إذا قيل لهم اخضعوا للحق لا يخضعون.

٤٨ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٥]

{ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨)}

تشتد حسرات الخاسرين حيث نال أعداؤهم- أهل الإيمان- ذاك الثواب العظيم، وبقواهم في العذاب الأليم، وكان يقال للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: كلوا وتمتعوا فإن مصيركم إلى النار، ويذكرون اليوم للتحسير والتخسير، فليس لهم إلا الويل والسعير، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وإذا نودوا أن تواضعوا لله واخشعوا لعظمته يأنفون ويستنكفون فلا يسلمون، ولا لأمر ربنا ينقادون.

قال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

وانما يدعون إلى السجود- هناك- كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان لله يسجد تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا.

أو: إذا قيل لهم اخضعوا للحق لا يخضعون.

٤٩ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

{ويل يومئذ للمكذبين (٤٩) فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)}

يومذاك يشتد العذاب ويمتد ويخلد ويتأبد للذين كذبوا رسل الله، وأعرضوا وصدوا عما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم. فإذا لم يصدقوا بالقرآن الحكيم وما فيه مع صحة سلطانه، وقيام حجته وتمام برهانه، فبأي خبر يؤمنون؟!

يقول الطبري:. أعلمهم- تعالى ذكره- أنهم لم يصدقوا بهذه الأخبار التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحة حجته على حقيقته، لم

يمكنهم الإقرار بحقيقة شيء من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبر عنه ولم يعاينوه وأنهم إن صدقوا بشيء مما غاب عنهم لدليل قام عليهم لزمهم مثل ذلك في أخبار هذا القرآن، والله أعلم.

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ منكم {والتين والزيتون} إلى آخرها {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل بلى وإنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ {لا أقسم بيوم القيامة} فانتهى إلى {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموت} فليقل بلى، ومن قرأ {المرسلات} فبلغ {فبأي حديث بعده يؤمنون} فليقل آمنا بالله).

٥٠ - (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤٩]

{ويل يومئذ للمكذبين (٤٩) فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)}

يومذاك يشتد العذاب ويمتد ويخلد ويتأبد للذين كذبوا رسل الله، وأعرضوا وصدوا عما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم. فإذا لم يصدقوا بالقرآن الحكيم وما فيه مع صحة سلطانه، وقيام حجته وتمام برهانه، فبأي خبر يؤمنون؟!

يقول الطبري:. . أعلمهم- تعالى ذكره- أنهم لم يصدقوا بهذه الأخبار التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحة حجته على حقيقته، لم يمكنهم الإقرار بحقيقة شيء من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبر عنه ولم يعاينوه وأنهم إن صدقوا بشيء مما غاب عنهم لدليل قام عليهم لزمهم مثل ذلك في أخبار هذا القرآن، والله أعلم.

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ منكم {والتين والزيتون} إلى آخرها {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل بلى وإنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ {لا أقسم بيوم القيامة} فانتهى إلى {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموت} فليقل بلى، ومن قرأ {المرسلات} فبلغ {فبأي حديث بعده يؤمنون} فليقل آمنا بالله).

مما أورد صاحب روح المعاني: لما أوجز في سورة الإنسان في ذكر أحوال الكفار في الآخرة وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها عكس الأمر في هذه السورة. . . وتسمى سورة العرف، وهي مكية. فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة {المرسلات عرفا} فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ خرجت علينا حية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اقتلوها) فابتدرناها فسبقتنا فدخلت جحرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وقيت شركم كما وقيتم شرها). . . ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه لما قال فيما قبل: {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} افتتح هذه بالإقسام على ما يدل على تحقيقه وذكر وقته وأشراطه، وقيل إنه سبحانه أقسم على تحقيق جميع ما تضمنته السورة السابقة من وعيد الكافرين الفجار، ووعد المؤمنين الأبرار.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٣٦، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٣٧ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٣٨، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر

فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٣٩. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٤٠ {الذي علم بالقلم.
علم الإنسان ما لم يعلم} ٤١، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٤٢، {ملك الناس. إله الناس} ٤٣.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٤٤ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٤٥ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٤٦؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٤٧. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٨، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٩.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٥٠. {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٥١، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٥٢، {والسماء ذات البروج} ٥٣، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٥٤، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٥٥ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٥٦، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٥٧، {والضحى. والليل إذا سجى} ٥٨، {والعصر} ٥٩؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٦٠، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين} ٦١. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٦٢، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٦٣.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٦٤، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٦٥. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٦٦، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٦٧ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٦٨ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٦٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٧٠، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٧١ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} ٧٢، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل

وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٧٣، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٧٤، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٧٥، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٧٦، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٧٧، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٧٨، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٧٩، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٨٠.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٨١ {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٨٢؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٨٣ بعد هذه السبع أكثرها ٨٤ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم

بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٨٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٨٦، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٨٧. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٨٨ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٨٩، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٩٠، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٩١، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٩٢، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٩٣؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٩٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٩٥، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٩٦. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٩٧، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٩٨، {قد أفلح من تزكى} ٩٩، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١٠٠، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١٠١؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١٠٢؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ١٠٣.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٠٤، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٠٥؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٠٦، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٠٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٠٨، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٠٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١١٠، {سندع الزبانية} ١١١، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١١٢.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١١٣، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١١٤ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١١٥، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١١٦ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١١٧، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١١٨، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١١٩، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٢٠، {إنهم

كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٢١، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٢٢، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٢٣ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٢٤، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٢٥، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٢٦، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٢٧، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢٨، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٢٩، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٣٠.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٣١، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٣٢، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٣٣، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٣٤ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٣٥، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٣٦، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٣٧، {سنقرئك فلا تنسى} ١٣٨؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٣٩؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٤٠. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٤١، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٤٢؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٤٣؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٤٤؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٤٥؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٤٦؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٤٧. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٨.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٤٩، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٥٠ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٥١ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٥٢، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٥٣، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٥٤، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٥٥، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٥٦، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٥٧، {. . واسجد واقترب} ١٥٨، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٥٩، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٦٠، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٦١، {فصل لربك وانحر} ١٦٢، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٦٣، {قل هو الله أحد} ١٦٤، {قل أعوذ برب الفلق} ١٦٥، {قل أعوذ برب الناس} ١٦٦، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٦٧، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٦٨ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٦٩، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٧٠، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٧١، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٧٢ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين.

ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٧٣ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٧٤، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٧٥ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٧٦، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٧٧، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٧٨، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٧٩ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٨٠، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٨١، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٨٢، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٨٣، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٨٤. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٨٥، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٨٦، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٨٧ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٨٨ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٨٩ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٩٠، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٩١، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٩٢، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٩٣، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٩٤.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه، وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٧٨ سورة النبأ:

سورة النبأ:

(٧٨) سورة النبأ مكية

وآياتها أربعون

كلماتها: ١٧٣؛ حروفها: ٧٧٠
١ - (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣) كلا سيعلمون (٤) ثم كلا سيعلمون (٥) ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦)}.

يخدع الناس ويركن الكثير منهم إلى الحياة العاجلة، ويحسبون أنهم فيما أوتوا سيخلدون، كالذي آتاه الله تعالى حديقتين من نخيل وأعناب، وحين أبصر ينعهما وثمرهما قال ما بين كتاب الله الحق: {. . ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١؛ والقوم الذين بعث فيهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان منهم من يستبعد قيام الموتى من قبورهم، ومنهم من يشك في إمكان حصول ذلك؛ وقد أخبر القرآن عن طائفة منهم في آية كريمة: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين} ٢، يقولون مرة: تكون، ويقولون مرة: لا تكون، فهم في ريبهم يترددون؛ ومنهم من يسأل عنها سؤال المستعجل المستهزئ كما حكى القرآن عنهم: {. . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون}. ٣ {. . وقال الكافرون هذا شيء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} ٤ ومن قبلهم قال ملأ من الكفار لقومهم- ليردوهم عن الإيمان بلقاء ربهم-: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ٥، فأنكر الله تعالى على هؤلاء المتمارين في الحق المرتابين في البعث، فكأنه استفهام إنكاري، عن أي شيء يتساءلون؟ يسألون النبي والمؤمنين، أو يسأل بعضهم بعضا- عن الخبر الكبير الخطير، وعن يوم الفزع والهول العسير يتساءلون، وحول مجيئه يختلفون؟ ويخالفون عن اليقين ولا يصدقون؟ يقول اللغويون: حرف الجر إذا دخل على ما الاستفهامية تحذف ألفها، نحو: بم، ولم؟؛ وتقديم الضمير وبناء الكلام عليه- في قوله تعالى: {الذي هم فيه. { لتقوي الكلام لا للاختصاص، فإن غير قريش أيضا مختلفون.

[وقيل: {النبأ العظيم} القرآن. . . وقالت الشيعة: هو علي؛ قال القائل في حقه: هو النبأ العظيم وفلك نوح، وباب الله. . .] ٦. مما يقول أهل اللغة: و [ما] وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، فيقال: ما زيد؟ ويجاب بعالم أو طبيب. اهـ.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢ - (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{النبأ العظيم} الخبر الكبير الهائل.

بسم الله الرحمن الرحيم
{عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣) كلا سيعلمون (٤) ثم كلا سيعلمون (٥) ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦)}.

يخدع الناس ويركن الكثير منهم إلى الحياة العاجلة، ويحسبون أنهم فيما أوتوا سيخلدون، كالذي آتاه الله تعالى حديقتين من نخيل وأعناب، وحين أبصر ينعهما وثمرهما قال ما بين كتاب الله الحق: {. . ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ٧؛ والقوم

الذين بعث فيهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان منهم من يستبعد قيام الموتى من قبورهم، ومنهم من يشك في إمكان حصول ذلك؛ وقد أخبر القرآن عن طائفة منهم في آية كريمة: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين} ٨، يقولون مرة: تكون، ويقولون مرة: لا تكون، فهم في ريبهم يترددون؛ ومنهم من يسأل عنها سؤال المستعجل المستهزئ كما حكى القرآن عنهم: {. . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون}. ٩ {. . وقال الكافرون هذا شيء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} ١٠ ومن قبلهم قال ملأ من الكفار لقومهم- ليردوهم عن الإيمان بلقاء ربهم-: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ١١، فأنكر الله تعالى على هؤلاء المتمارين في الحق المرتابين في البعث، فكأنه استفهام إنكاري، عن أي شيء يتساءلون؟ يسألون النبي والمؤمنين، أو يسأل بعضهم بعضا- عن الخبر الكبير الخطير، وعن يوم الفزع والهول العسير يتساءلون، وحول مجيئه يختلفون؟ ويخالفون عن اليقين ولا يصدقون؟ يقول اللغويون: حرف الجر إذا دخل على ما الاستفهامية تحذف ألفها، نحو: بم، ولم؟، وتقديم الضمير وبناء الكلام عليه- في قوله تعالى: {الذي هم فيه. } لتقوي الكلام لا للاختصاص، فإن غير قريش أيضا مختلفون.

[وقيل: {النبأ العظيم} القرآن. . . وقالت الشيعة: هو علي؛ قال القائل في حقه: هو النبأ العظيم وفلك نوح، وباب الله. . .] ١٢.

مما يقول أهل اللغة: و [ما] وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، فيقال: ما زيد؟ ويجاب بعالم أو طبيب. اه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

٣ - (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

{عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣) كلا سيعلمون (٤) ثم كلا سيعلمون (٥) ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦)}.

يخدع الناس ويركن الكثير منهم إلى الحياة العاجلة، ويحسبون أنهم فيما أوتوا سيخلدون، كالذي آتاه الله تعالى حديقتين من نخيل وأعناب، وحين أبصر ينعهما وثمرهما قال ما بين كتاب الله الحق: {. . ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٣؛ والقوم الذين بعث فيهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان منهم من يستبعد قيام الموتى من قبورهم، ومنهم من يشك في إمكان حصول ذلك؛ وقد أخبر القرآن عن طائفة منهم في آية كريمة: {وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين} ١٤، يقولون مرة: تكون، ويقولون مرة: لا تكون، فهم في ريبهم يترددون؛ ومنهم من يسأل عنها سؤال المستعجل المستهزئ كما حكى القرآن عنهم: {. . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون}. ١٥ {. . وقال الكافرون هذا شيء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} ١٦ ومن قبلهم قال ملأ من الكفار لقومهم- ليردوهم عن الإيمان بلقاء ربهم-: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} ١٧، فأنكر الله تعالى على هؤلاء المتمارين في الحق المرتابين في البعث، فكأنه استفهام إنكاري، عن أي شيء يتساءلون؟ يسألون النبي والمؤمنين، أو يسأل بعضهم بعضا- عن الخبر الكبير الخطير، وعن يوم الفزع والهول العسير يتساءلون، وحول مجيئه يختلفون؟ ويخالفون عن اليقين ولا يصدقون؟ يقول اللغويون: حرف الجر إذا دخل على ما الاستفهامية تحذف ألفها، نحو: بم، ولم؟، وتقديم الضمير وبناء الكلام عليه- في قوله تعالى: {الذي هم فيه. } لتقوي الكلام لا للاختصاص، فإن غير قريش أيضا مختلفون.

[وقيل: {النبأ العظيم} القرآن. . . وقالت الشيعة: هو علي، قال القائل في حقه: هو النبأ العظيم وفلك نوح، وباب الله. . .] ١٨. مما يقول أهل اللغة: و [ما] وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، فيقال: ما زيد؟ ويجاب بعالم أو طبيب. اه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

٤ - (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

{كلا سيعلمون (٤)} ليس الأمر مما يختلف في مجيئه ووقوعه، بل الوعيد لهم، والجزاء الذي ينتظرهم سيظهر لهم عما قليل إذا نزل بساحتهم أول مراحله وهو الموت الذي يشدد على المنكرين الجاحدين الكافرين: {. . . والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون. } ١٩ {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} ٢٠ والويل لمن يتغافل عن الآخرة وأهوالها، يبدو له ويذوق وباله منذ أول حال من أحوالها؛ يقول الله جل علاه: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} ٢١ ثم ليرتدعوا وليزدجروا فسيعلمون عين اليقين حين يرون الجحيم {ثم كلا سيعلمون (٥)} فعلم ينكشف لهم بحقيقة البعث يوم يموتون، ثم علم أدهى وأمر من سابقه حين يرون العذاب ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويستغيثون فلا يغاثون، ويندمون ولكنهم يقنطون؛ ويدعون: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٢٢ فيزجرون ويحسرون بما يسمعون: {. . . اخسؤا فيها ولا تكلمون} {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا. هذه النار التي كنتم بها تكذبون} ٢٣؛ ثم يسوق القرآن البرهان تلو البرهان، على اقتدار الملك الديان، وأنعم الكريم المنان، وأن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأسبغ على المخلوقين نعمه، وأوجدنا وما حولنا من العدم ولم نك شيئا، قادر على أن يحيي الموتى، ويعيدنا بعد موتنا مرة أخرى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

٥ - (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]

{كلا سيعلمون (٤)} ليس الأمر مما يختلف في مجيئه ووقوعه، بل الوعيد لهم، والجزاء الذي ينتظرهم سيظهر لهم عما قليل إذا نزل بساحتهم أول مراحله وهو الموت الذي يشدد على المنكرين الجاحدين الكافرين: {. . . والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون. } ٢٤ {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} ٢٥ والويل لمن يتغافل عن الآخرة وأهوالها، يبدو له ويذوق وباله منذ أول حال من أحوالها؛ يقول الله جل علاه: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} ٢٦ ثم ليرتدعوا وليزدجروا فسيعلمون عين اليقين حين يرون الجحيم {ثم كلا سيعلمون (٥)} فعلم ينكشف لهم بحقيقة البعث يوم يموتون، ثم علم أدهى وأمر من سابقه حين يرون العذاب ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويستغيثون فلا يغاثون، ويندمون ولكنهم يقنطون؛ ويدعون: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٢٧ فيزجرون ويحسرون بما يسمعون: {. . . اخسؤا فيها ولا تكلمون} {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا. هذه النار التي كنتم بها تكذبون} ٢٨؛ ثم يسوق القرآن البرهان تلو البرهان، على اقتدار الملك الديان، وأنعم الكريم المنان، وأن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأسبغ على المخلوقين نعمه، وأوجدنا وما حولنا من العدم ولم نك شيئا، قادر على أن يحيي الموتى، ويعيدنا بعد موتنا مرة أخرى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

٦ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا)

{مهادا} ممهدة تصلح للتعمير، وأصل المهاد: الفراش المعد للطفل لينوم عليه.

{ألم نجعل الأرض مهادا} كأن الهمزة للاستفهام التقرير، يقررنا بما بعد النفي- ونحن نشهد أن الله خالق كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل أمر- بلى جعل الله تعالى الأرض مذللة مسخرة ميسرة صالحة لإيوائنا واستقرارنا واستيداعنا، وهي لا تتأبى

علينا حين نشقها للزرع أو للتشييد والتعمير.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٧ - (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)
{أوتادا} تثبت الأرض أن تميد وتمسكها، كالأوتاد تربط بها حبال بيوت الظعن والخيام والأخبية لتثبتها.
{والجبال أوتادا (٧)} خلق الله تعالى الأرض في يومين؛ {وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام. } ٢٩ أي في يومين تاليين لخلق الأرض فتم بذلك خلقها وخلق جبالها وأرزاق أهلها وبركاتها في أيام أربعة، يومين، فيومين؛ وهكذا لم تخلق الجبال عبثا، وإنما لتحمي الأرض أن ترتج أو تميد وتضطرب بما في جوفها أو على سطحها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٨ - (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)
{أزواجا} ذكرانا وإناثا، أو أصنافا متقابلة: أبيض وأسود، بدينا ونحيلا. .
{وخلقناكم أزواجا (٨)} أوجد الله تعالى الأناسي مزدوجين ذكرا و أنثى؛ وتلك نعمة من عظيم نعمه سبحانه جعلها سببا لعمران الكون؛ يقول تبارك اسمه: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٣٠ وامتن علينا- وله الفضل والمنة فقال: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة. } ٣١، وقيل {أزواجا} أي أصنافا متقابلة في اللون والصورة وغيرها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٩ - (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)
{سباتا} تمددا وراحة، وسكونا وانقطاعا، وهجعة كأنها الموت.
{وجعلنا نومكم سباتا (٩)} جعل الله تعالى نومنا راحة وتمددا وسكنا، أو من حكمته جعله كالموت، وسبحان الحي القيوم الذي قهر العباد، وهو سبحانه حي لا يموت، قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وقد جاء النوم مشبها بالموت في مثل قوله تعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} ٣٢.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١٠ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا)
{لباسا} سترا يغطيكم بظلامه.
{وجعلنا الليل لباسا} جعلنا الليل مظلما ليستركم بظلمته ويغطيكم بعتمته، لتستريحوا، وساترا لكم عن العيون إن أردتم تعبدا وتهجدا، أو بيتم لعدوكم بياتا مباغتا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١١ - (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)
{معاشا} للسعي على المعاش، أو: وقت معاش.
{وجعلنا النهار معاشا (١١)} وجعلنا النهار صحوة لكن، تهبون للسعي على معاشكم، والتقلب في أعمالكم، وابتغاء فضل ربكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١٢ - (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)
{بنينا} رفعنا فوق الأرض السماء فكأنها سقف لها.
{شدادا} متينة البنيان، محكمة، تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد.
{وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)} رفعنا فوق الأرض السماوات السبع فكأنها سقف لها، وأحكمنا خلقها، فهي متينة البنيان، محكمة تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد، ما ترى فيها من خلل ولا تهاو ولا تشقق؛ وشاء ربنا بحكمته: أن تجمع الشمس بين النور والحرارة فهي

مضيئة متوقدة، وفي ذلك ما فيه من فائدة الأحياء؛ وأنزل الله تعالى بقدرته المطر من السحاب، وما من أحد سواه يقدر على إحداث السحب أو تسييرها أو إسقاط مائها، وإلى ذلك يوجه القرآن العقول والأبصار والبصائر: {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} ٣٣، وينصب الغيث حين يريد الله تعالى إنزاله، ينصب بكثرة ويتحدر مدرارا، وينبت اللطيف الخبير بالماء المبارك نباتا نحصد منه حبا كالقمح والشعير والأرز ونحوها مما فيه أقوات العباد؛ {ونباتا} وخضروات وعشبا منه أنتم وأنعامكم تأكلون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

١٣ - (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{سراجا} تستضيئون بنورها.

{وهاجا} براقا متوقدا.

{بنينا} رفعنا فوق الأرض السماء فكأنها سقف لها.

{شدادا} متينة البنيان، محكمة، تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد.

{وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)} رفعنا فوق الأرض السماوات السبع فكأنها سقف لها، وأحكمنا خلقها، فهي متينة البنيان، محكمة تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد، ما ترى فيها من خلل ولا تهاو ولا تشقق؛ وشاء ربنا بحكمته: أن تجمع الشمس بين النور والحرارة فهي مضيئة متوقدة، وفي ذلك ما فيه من فائدة الأحياء؛ وأنزل الله تعالى بقدرته المطر من السحاب، وما من أحد سواه يقدر على إحداث السحب أو تسييرها أو إسقاط مائها، وإلى ذلك يوجه القرآن العقول والأبصار والبصائر: {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} ٣٤، وينصب الغيث حين يريد الله تعالى إنزاله، ينصب بكثرة ويتحدر مدرارا، وينبت اللطيف الخبير بالماء المبارك نباتا نحصد منه حبا كالقمح والشعير والأرز ونحوها مما فيه أقوات العباد؛ {ونباتا} وخضروات وعشبا منه أنتم وأنعامكم تأكلون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

١٤ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{المعصرات} السحب.

{ثجاجا} منصبا كثيرا. {لنخرج به} لننبت بسببه.

{بنينا} رفعنا فوق الأرض السماء فكأنها سقف لها.

{شدادا} متينة البنيان، محكمة، تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد.

{وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)} رفعنا فوق الأرض السماوات السبع فكأنها سقف لها، وأحكمنا خلقها، فهي متينة البنيان، محكمة تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد، ما ترى فيها من خلل ولا تهاو ولا تشقق؛ وشاء ربنا بحكمته: أن تجمع الشمس بين النور والحرارة فهي مضيئة متوقدة، وفي ذلك ما فيه من فائدة الأحياء؛ وأنزل الله تعالى بقدرته المطر من السحاب، وما من أحد سواه يقدر على إحداث السحب أو تسييرها أو إسقاط مائها، وإلى ذلك يوجه القرآن العقول والأبصار والبصائر: {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} ٣٥، وينصب الغيث حين يريد الله تعالى إنزاله، ينصب بكثرة ويتحدر مدرارا، وينبت اللطيف الخبير بالماء المبارك نباتا نحصد منه حبا كالقمح والشعير والأرز ونحوها مما فيه أقوات العباد؛ {ونباتا} وخضروات وعشبا منه أنتم وأنعامكم تأكلون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

١٥ - (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٢]

{حبا} به تقتاتون.
و {نباتا} خضرا وأبا، منه أنتم وأنعامكم تأكلون.
{بنينا} رفعنا فوق الأرض السماء فكأنها سقف لها.
{شدادا} متينة البنيان، محكمة، تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد.
{وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)} رفعنا فوق الأرض السماوات السبع فكأنها سقف لها، وأحكمنا خلقها، فهي متينة البنيان، محكمة تامة الإتقان، مرفوعة بلا عمد، ما ترى فيها من خلل ولا تهاو ولا تشقق؛ وشاء ربنا بحكمته: أن تجمع الشمس بين النور والحرارة فهي مضيئة متوقدة، وفي ذلك ما فيه من فائدة الأحياء؛ وأنزل الله تعالى بقدرته المطر من السحاب، وما من أحد سواه يقدر على إحداث السحب أو تسييرها أو إسقاط مائها، وإلى ذلك يوجه القرآن العقول والأبصار والبصائر: {ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} ٣٦، وينصب الغيث حين يريد الله تعالى إنزاله، ينصب بكثرة ويتحدر مدرارا، وينبت اللطيف الخبير بالماء المبارك نباتا نحصد منه حبا كالقمح والشعير والأرز ونحوها مما فيه أقوات العباد؛ {ونباتا} وخضروات وعشبا منه أنتم وأنعامكم تأكلون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
١٦ - (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)
{وجنات ألفافا} وثمرات بساتين متشابكة أغصانها مجتمعة أوراقها.
{وجنات ألفافا (١٦)} وبساتين نجني ثمارها للتفكه، متشابكة- أغصانها ملتفة، مجتمعة أوراقها ونضرة.
[وفيما ذكر من أفعاله تعالى شأنه دلالة على صحة البعث وحقيقته من أوجه ثلاثة على ما قيل-: الأول باعتبار قدرته عز وجل، فإن من قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدر وأقوى؛ والثاني باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة، ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل- حكمة- أن لا يجعل لها عاقبة، الثالث باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهده كل واحد، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض يعاين كل حين. ٠] ٣٧.
١٧ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)
{الفصل} القضاء، والجزاء.
{كان} ثبت في علمنا وقضائنا، أو {كان} بمعنى يكون، عبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.
{ميقاتا} وقتا للفصل، وميعادا لثواب المصدقين وعقاب المكذبين.
{إن يوم الفصل كان ميقاتا (١٧) يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا (١٨) وفتحت السماء فكانت أبوابا (١٩) وسيرت الجبال فكانت سرابا (٢٠) إن جهنم كانت مرصادا (٢١) للطاغين مآبا (٢٢) لابثين فيها أحقابا (٢٣) لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا (٢٤) إلا حميما وغساقا (٢٥) جزاء وفاقا (٢٦) إنهم كانوا لا يرجون حسابا (٢٧) وكذبوا بآياتنا كذابا (٢٨) وكل شيء أحصيناه كتابا (٢٩) فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (٣٠)}.
يوم حساب الله تعالى للعباد والفصل بينهم موعد: وربنا لا يخلف الميعاد؛ وذلك كائن لا محالة؛ وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، وقبل الحساب يأمر الملك الحق ملكا فينفخ في بوق فتنسف الجبال، وتزول عن أماكنها، وتتطاير كالصوف المنفوش، فلا يرى من آثارها إلا الهباء المنبث المتفرق؛ بل لكأنه السراب الذي يتراءى للسائر في الصحراء لامعا كالماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وتسقط السماء كسفا وقطعا، حتى تراها مشققة متفتحة ذات ثقوب، ولم تكن من قبل ذات فطور ولا فروج ولا صدوع؛ ثم ينفخ في الصور نفخة ثانية فإذا الموتى يخرجون من الأجداث والقبور أحياء، ويقومون من مراقدهم مسرعين، تسوقهم الملائكة إلى رب العالمين، ويحشرون جماعة جماعة: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا} ٣٨ {ونحشر المجرمين يومئذ زرقا} ٣٩ {. ٠ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا} ٤٠ {يوم ندعو كل أناس بإمامهم} ٤١ كل طائفة مع نبيها وإمامها.

١٨ - (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)
الصور} قرن ينفخ فيه ملك.
{{فتأتون} فتجيئون من قبوركم إلى حيث تحشرون وتحاسبون.
{أفواجا} جماعات جماعات، وزمرا زمرا، وأمما أمما، كل أمة مع إمامهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
١٩ - (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا)
{فكانت أبوابا} تشققت وانصدعت وانفطرت حتى كأنها كالأبواب مفتحة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٠ - (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)
{فكانت سرابا} فصارت الجبال بعد تسييرها كالسراب، ترى على شكل شيء وليست بشيء، أو ترى كالغبار المتراكم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢١ - (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)
{مرصادا} موضع رصد وترقب، فجهنم معدة مترقبة متطلعة لمن يأتي، وخزنتها- عليهم السلام- لا ينفكون عن ترقب المجرمين.
{إن جهنم كان مرصادا (٢١)} واستيقنوا أن دار العذاب وأليم العقاب {جهنم} معدة مترقبة متطلعة لمن يشهد الموقف من أهلها، فهي موضع رصد وترقب لهم: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا} ٤٢؛ وخزنتها -عليهم السلام- لا ينفكون عن ترقب المجرمين.
٢٢ - (لِلطَّاغِينَ مَآبًا)
{للطاغين} للمتجاوزين حدود الله.
{مآبا} مرجعا، ومأوى، ومنزلا.
{للطاغين مآبا (٢٢)} للمتجاوزين حدود الله، المعتدين على حقوق العباد مرجعا ومأوى ومنزلا في دار السعير تلك- أعاذنا الله تعالى منها-.
٢٣ - (لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا)
{لابثين} ماكثين، مقيمين.
{أحقابا} دهورا وأزمنة.
{لابثين فيها أحقابا (٢٣)} ماكثين مقيمين فيها دهورا وأزمنة متطاولة.
٢٤ - (لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا)
{بردا ولا شرابا} ما يبرد ظاهر الجسم، ولا ما يبرد داخله مما يشرب ليسكن العطش، ويطفئ حرارة البدن.
{لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا (٢٤)} لا يبرد لهيبها، ولا تخمد نيرانها، وليس لهم فيها ما يبرد ظاهر الجسم، ولا ما يبرد داخله مما يشرب ليسكن العطش ويطفئ حرارة البدن؛ {. . وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب} ٤٣.
٢٥ - (إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)
{حميما} ماء حارا.
{وغساقا} وصديدا.
{إلا حميما وغساقا (٢٥)} وإنما يشربون السائل الذي اشتدت حرارته أو اشتدت برودته وعفونته {. . . وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم} ٤٤؛
٢٦ - (جَزَاءً وِفَاقًا)
{وفاقا} موافقا.

{جزاء وفاقا (٢٦)} وما ظلمهم ربنا ولكن جازاهم جزاء موافقا لما اجترحوا من كفران وطغيان، وشرور وفجور، أفسدوا وآذوا في العاجلة، فحق عليهم النكال والحسرة والخبال في الآجلة؛

٢٧ - (إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا)

{إنهم كانوا لا يرجون حسابا (٢٧)} كانوا لا يصدقون بيوم الدين، وما طلبوا مثوبة رب العالمين، ولا توقوا ما يثقل حسابه ويطول عذابه، وما كان مرادهم إلا الشهوات العاجلة، والمتع النكراء الباطلة فمضى فيهم القضاء العدل: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا} ٤٥؛

٢٨ - (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا)

{كذابا} تكذيبا كبيرا.

{وكذبوا بآياتنا كذابا (٢٨)} بل كذبوا بالساعة وقد بدت علاماتها، وأكثروا التكذيب وجحدوا {وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم} ٤٦ {. . وقال الكافرون هذا شيء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} ٤٧؛ بل وأرادت طائفة منهم أن تفتن المؤمنين عن التصديق بالبعث الذي تتابعت به رسالات المرسلين فقالوا ما حكاه القرآن الحكيم: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين} ٤٨؛ {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٤٩؛ فهم لا يؤمنون بالآيات تتلى عليهم، ولا يعتبرون بالعلامات الماثلة لديهم، {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} ٥٠.

٢٩ - (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا)

{كتابا} نسخته وكتبته الملائكة في صحائف أعمال العباد. .

{وكل شيء أحصيناه كتابا (٢٩)} وكل حال وقول وفعل أحصته ملائكتنا ونسخته وسطرته في صحائف أعمال العباد وكتبهم، حتى إذا عرضوا علينا أعطوا كتبهم التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها؛ فمن آخذ كتابه بيمينه يومذاك، ومن آخذ كتابه بشماله.

٣٠ - (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا)

{فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (٣٠)} فإذا قضي بالحق خسر هنالك المبطلون، وكبكبوا في الجحيم هم والغاوون {وجنود إبليس أجمعون} ٥١ ونودوا تحسيرا وتقنيطا: اصلوا هذا العذب وتقلبوا فيه فلن تزدادوا إلا غصة وألما وحريقا وغما ٥٢.

٣١ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)

{للمتقين} للمؤمنين العاملين ما ينجيهم من غضب الله.

{مفازا} فوزا.

{إن للمتقين مفازا (٣١) حدائق وأعنابا (٣٢) وكواعب أترابا (٣٣) وكأسا دهاقا (٣٤) لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا (٣٥) جزاء من ربك عطاء حسابا (٣٦)}

المطيعون لربهم يفوزون يوم الحساب بجزيل الثواب، ويقضي الله تعالى لهم بأكرم مآب، تكون لهم بساتين تحدق بها الأسوار وتحوطها، وأشجار فاكهة وثمار، وكروم وأعناب، وزوجات من الحور العين ومن نسائهم الصالحات، أعمارهن كأعمارهم، ويشربون في كؤوس مملوءة ترويهم، فالشراب موفور هنيء؛ ولا يسمعون ما يكدرهم، كما بشرهم القرآن الحكيم: {لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما} ٥٣؛ والله يعطيهم ويكافيهم جزاء ما عملوا في الدنيا.

مما أورد الألوسي: {وكواعب} جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثدياها واستدارا مع ارتفاع يسير ويكون ذلك في سن البلوغ. . وفي بعض التفاسير: نساء الجنة كلهن بنات ست عشر سنة ورجالهن أبناء ثلاث وثلاثين. . . {جزاء} مصدر مؤكد منصوب بمعنى {إن للمتقين}. . فإنه في قوة أن يقال: جازى المتقين. . جزاء كائنا من ربك، والتعرض لعنوان الربوبية للإشارة إلى أن ذلك حصل بتربيته وإرشاده تعالى، وإضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه صلى الله عليه وسلم. . . وقوله تعالى {عطاء}

تفضلا وإحسانا منه عز وجل. . . اهـ

ومما نقل ابن كثير: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: {كواعب} أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين. . . {عطاء حسابا (٣٦)} أي كافيا وافيا سالما كثيرا، تقول العرب: أعطاني فأحسبني، أي كفاني، ومنه: حسبي الله، أي: الله كافي. اهـ.

٣٢ - (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا)

{حدائق} بساتين مسورة.

{وأعنابا} وأشجار عنب وكروم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار

٣٣ - (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا)

{وكواعب} وحورا وزوجات مستويات.

{أترابا} مماثلات في السن.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار

٣٤ - (وَكَأْسًا دِهَاقًا)

{دهاقا} ممتلئة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار

٣٥ - (لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا)

{لغوا} كلاما عديم الفائدة.

{كذابا} تكذيبا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار

٣٦ - (جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣١ إظهار

٣٧ - (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا)

{رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧) يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩) إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا (٤٠)}.

وبعد أن حذرت الآيات من مآل الباغين الطاغين. وبشرت بنعيم الصالحين المصلحين بينت هذه الآيات المحكمات أهوال يوم الدين، وتجلى القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن شاء استقام على نهج يبلغ به مرضاة رب العالمين، ومن أبى وكذب بالحق فهو من الخاسرين النادمين؛ ولا يؤذن للظالمين في الاعتذار بين يدي الرحمن القهار؛ حتى جبريل مقدم أهل السماء والملائكة يصطفون ساكتين إلى أن يأذن الله لهم في الكلام.

مما يقول الألوسي: {رب}. . يبدل من لفظ {ربك}. . . وقوله تعالى: {الرحمن} صفة ل {ربك}. . . والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم. . . وضمير {لا يملكون} لأهل السماوات والأرض؛ و {منه} بيان ل {خطابا} مقدم عليه، أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم. . اه. مما نقل الطبري عن الضحاك والشعبي: {الروح} جبريل عليه السلام. . اه ٥٤.

هذا يوم آت لا شك فيه، فالعاقل السعيد من آمن وعمل الصالحات ليفوز بالنعيم والكرامات؛ والله يحذر من عذاب ليس ببعيد، فكل ما هو آت قريب؛ يحل بالأشقياء حين يواجه المفسد إفساده، ويترك المعاند عناده، إذ وضع كتابه، وأفلس حسابه، وشد وثاقه، وعندئذ يتمنى لو كان أهون المخلوقات، لسوء ما يلاقي من الألم والنكال والهول والكربات.

فليتيقن اللبيب بالبعث والحساب، والنعيم والعذاب، ولنملأ حياتنا بتحقيق مطالب الدين في السعي لخيرنا وخير الناس أجمعين، عسى أن ينجينا ربنا من النار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

٣٨ - (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧) يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩) إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا (٤٠)}.

وبعد أن حذرت الآيات من مآل الباغين الطاغين. وبشرت بنعيم الصالحين المصلحين بينت هذه الآيات المحكمات أهوال يوم الدين، وتجلى القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن شاء استقام على نهج يبلغ به مرضاة رب العالمين، ومن أبى وكذب بالحق فهو من الخاسرين النادمين؛ ولا يؤذن للظالمين في الاعتذار بين يدي الرحمن القهار؛ حتى جبريل مقدم أهل السماء والملائكة يصطفون ساكتين إلى أن يأذن الله لهم في الكلام.

مما يقول الألوسي: {رب}. . يبدل من لفظ {ربك}. . . وقوله تعالى: {الرحمن} صفة ل {ربك}. . . والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم. . . وضمير {لا يملكون} لأهل السماوات والأرض؛ و {منه} بيان ل {خطابا} مقدم عليه، أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم. . اه. مما نقل الطبري عن الضحاك والشعبي: {الروح} جبريل عليه السلام. . اه ٥٥.

هذا يوم آت لا شك فيه، فالعاقل السعيد من آمن وعمل الصالحات ليفوز بالنعيم والكرامات؛ والله يحذر من عذاب ليس ببعيد، فكل ما هو آت قريب؛ يحل بالأشقياء حين يواجه المفسد إفساده، ويترك المعاند عناده، إذ وضع كتابه، وأفلس حسابه، وشد وثاقه، وعندئذ يتمنى لو كان أهون المخلوقات، لسوء ما يلاقي من الألم والنكال والهول والكربات.

فليتيقن اللبيب بالبعث والحساب، والنعيم والعذاب، ولنملأ حياتنا بتحقيق مطالب الدين في السعي لخيرنا وخير الناس أجمعين، عسى أن ينجينا ربنا من النار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

٣٩ - (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧) يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩) إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا (٤٠)}.

وبعد أن حذرت الآيات من مآل الباغين الطاغين. وبشرت بنعيم الصالحين المصلحين بينت هذه الآيات المحكمات أهوال يوم الدين، وتجلى القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن شاء استقام على نهج يبلغ به مرضاة رب العالمين، ومن أبى وكذب بالحق فهو من الخاسرين النادمين؛ ولا يؤذن للظالمين في الاعتذار بين يدي الرحمن القهار؛ حتى جبريل مقدم أهل السماء والملائكة يصطفون ساكتين إلى أن يأذن الله لهم في الكلام.

مما يقول الألوسي: {رب}. . يبدل من لفظ {ربك}. . . وقوله تعالى: {الرحمن} صفة ل {ربك}. . . والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم. . . وضمير {لا يملكون} لأهل السماوات والأرض؛ و {منه} بيان ل {خطابا} مقدم عليه، أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم. . اه. مما نقل الطبري عن الضحاك والشعبي: {الروح} جبريل عليه السلام. . اه ٥٦.

هذا يوم آت لا شك فيه، فالعاقل السعيد من آمن وعمل الصالحات ليفوز بالنعيم والكرامات؛ والله يحذر من عذاب ليس ببعيد، فكل

ما هو آت قريب؛ يحل بالأشقياء حين يواجه المفسد إفساده، ويترك المعاند عناده، إذ وضع كتابه، وأفلس حسابه، وشد وثاقه، وعندئذ يتمنى لو كان أهون المخلوقات، لسوء ما يلاقي من الألم والنكال والهول والكربات.

فليتيقن اللبيب بالبعث والحساب، والنعيم والعذاب، ولنملأ حياتنا بتحقيق مطالب الدين في السعي لخيرنا وخير الناس أجمعين، عسى أن ينجينا ربنا من النار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

٤٠ - (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣٧]

{رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧) يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩) إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت ويقول الكافر يا يليتني كنت ترابا (٤٠)}.

وبعد أن حذرت الآيات من مآل الباغين الطاغين. وبشرت بنعيم الصالحين المصلحين بينت هذه الآيات المحكمات أهوال يوم الدين، وتجلى القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن شاء استقام على نهج يبلغ به مرضاة رب العالمين، ومن أبى وكذب بالحق فهو من الخاسرين النادمين؛ ولا يؤذن للظالمين في الاعتذار بين يدي الرحمن القهار؛ حتى جبريل مقدم أهل السماء والملائكة يصطفون ساكتين إلى أن يأذن الله لهم في الكلام.

مما يقول الألوسي: {رب}. . يبدل من لفظ {ربك}. . . وقوله تعالى: {الرحمن} صفة ل {ربك}. . . والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم. . . وضمير {لا يملكون} لأهل السماوات والأرض؛ و {منه} بيان ل {خطابا} مقدم عليه، أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم. . اهـ. مما نقل الطبري عن الضحاك والشعبي: {الروح} جبريل عليه السلام. . اهـ ٥٧.

هذا يوم آت لا شك فيه، فالعاقل السعيد من آمن وعمل الصالحات ليفوز بالنعيم والكرامات؛ والله يحذر من عذاب ليس ببعيد، فكل ما هو آت قريب؛ يحل بالأشقياء حين يواجه المفسد إفساده، ويترك المعاند عناده، إذ وضع كتابه، وأفلس حسابه، وشد وثاقه، وعندئذ يتمنى لو كان أهون المخلوقات، لسوء ما يلاقي من الألم والنكال والهول والكربات.

فليتيقن اللبيب بالبعث والحساب، والنعيم والعذاب، ولنملأ حياتنا بتحقيق مطالب الدين في السعي لخيرنا وخير الناس أجمعين، عسى أن ينجينا ربنا من النار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٥٨، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٥٩ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٦٠، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٦١. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٦٢ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٦٣، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٦٤، {ملك الناس. إله الناس} ٦٥.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٦٦ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم

وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٦٧ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٦٨، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٦٩. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٧٠، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٧١.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٧٢، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٧٣، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٧٤، {والسماء ذات البروج} ٧٥، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٧٦، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٧٧ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٧٨، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٧٩، {والضحى. والليل إذا سجى} ٨٠، {والعصر} ٨١؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٨٢، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٨٣. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٨٤، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٨٥.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٨٦، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٨٧. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٨٨، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٨٩ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٩٠ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٩١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٩٢، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٩٣ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٩٤، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٩٥، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور

من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٩٦، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٩٧، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٩٨، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٩٩، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ١٠٠، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ١٠١، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ١٠٢.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ١٠٣. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ١٠٤؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ١٠٥ بعد هذه السبع أكثرها ١٠٦ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ١٠٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ١٠٨، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ١٠٩. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١١٠ {إن الذين فتنوا المؤمنين

والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ١١١، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ١١٢، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ١١٣، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ١١٤، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١١٥؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ١١٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ١١٧، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ١١٨. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ١١٩، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ١٢٠، {قد أفلح من تزكى} ١٢١، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١٢٢، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١٢٣؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يلُقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١٢٤؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ١٢٥. وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٢٦، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٢٧؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٢٨، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٢٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٣٠، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٣١، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٣٢، {سندع الزبانية} ١٣٣، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٣٤.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٣٥، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٣٦ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٣٧، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٣٨ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٣٩، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٤٠، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٤١، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٤٢، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٤٣، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٤٤، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٤٥ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٤٦، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٤٧، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٤٨، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٤٩، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان

من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٥٠، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٥١، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٥٢.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٣، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٥٤، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٥٥، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٥٦ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٥٧، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٥٨، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٥٩، {سنقرئك فلا تنسى} ١٦٠؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٦١؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٦٢. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٦٣، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٦٤؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٦٥؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٦٦؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٦٧؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٦٨؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٦٩. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٧٠.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٧١، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٧٢ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٧٣ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٧٤، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٧٥، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٧٦، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٧٧، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٧٨، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٧٩، {. . واسجد واقترب} ١٨٠، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٨١، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٨٢، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٨٣، {فصل لربك وانحر} ١٨٤، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٨٥، {قل هو الله أحد} ١٨٦، {قل أعوذ برب الفلق} ١٨٧، {قل أعوذ برب الناس} ١٨٨، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٨٩، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٩٠ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٩١، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٩٢، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٩٣، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٩٤ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٩٥ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٩٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٩٧ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٩٨، {فلا صدق ولا صلى.

ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٩٩، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ٢٠٠، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ٢٠١ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ٢٠٢، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ٢٠٣، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ٢٠٤، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ٢٠٥، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ٢٠٦. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ٢٠٧، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٢٠٨، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٢٠٩ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٢١٠ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٢١١ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٢١٢، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٢١٣، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٢١٤، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٢١٥، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٢١٦.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٧٩ سورة النازعات:

سورة النازعات:
(٧٩) سورة النازعات مكية
وآياتها ست وأربعون
كلماتها: ١٧٠؛ حروفها: ٧٣٠
١ - (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)
{والنازعات} وجماعات الملائكة القابضات أرواح الكافرين.
{غرقا} نزعا شديدا

بسم الله الرحمن الرحيم
{والنازعات غرقا (١) والناشطات نشطا (٢) والسابحات سبحا (٣) فالسابقات سبقا (٤) فالمدبرات أمرا (٥)}
أقسم الله تعالى بجنده من أهل الملأ الأعلى الذين يفعلون ما يؤمرون، وصاحب الخلق والأمر والملك عز وجل يأمر ملائكته عليهم السلام فيقبضون أرواح الكفار بشدة ومهانة وعسر {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون} ١ {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} ٢ {وإن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} ٣. ولربنا الكبير المتعال رحمة واسعة بعباده المؤمنين، فمن رحمته حين يبعث الملائكة لتوفيهم يتوفونهم وفاة طيبة سهلة: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم} ٤ وتبشرهم بطيب المآب وحسن الثواب: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة} ٥، وملائكة المليك المقتدر تسبح في ملك الله تعالى سماء وأرضا، صعودا وهبوطا، تسبق بأمر الله تعالى فتسارع إلى إنفاذه كسبب أراده الحكيم الخبير، القوي القدير ٦.
٢ - (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا)
{والناشطات} وطوائف الملائكة القابضات أرواح المؤمنين.
{نشطا} أخذا لطيفا هينا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا)
{والسابحات} والجماعات من الملائكة يتنقلون بين السماء والأرض.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)
{فالسابقات} فطوائف الملائكة المسرعين بإنفاذ ما يأتيهم من الله.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)
{فالمدبرات} فالجماعات من جند السماء يتولون ما يعهد به إليهم ربهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)
{ترجف الراجفة} تندك الأرض وتنسف الجبال وتسقط السماء ويموت الأحياء عند النفخة الأولى.
{يوم ترجف الراجفة (٦) تتبعها الرادفة (٧) قلوب يومئذ واجفة (٨) أبصارها خاشعة (٩) يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠) أئذا كنا عظاما نخرة (١١) قالوا تلك إذا كرة خاسرة (١٢) فإنما هي زجرة واحدة (١٣) فإذا هم بالساهرة (١٤)}.
هذا منصوب بجواب القسم، فكأن التقدير: والنازعات والناشطات لتبعثن؛ أقسم الله تعالى بملائكته- ولربنا جل ثناؤه أن يقسم بما شاء من خلق، لكن ليس لنا إلا نقسم به سبحانه وحده- ومن له هؤلاء الجند والعباد المكرمون قادر على أن يفعل ما يريد وأن يحيي الموتى، وذلك يوم تهتز الأرض وترج وتندك، وتنسف الجبال، وتسقط السماء، ويموت الأحياء، عندما يأمر الله الملك الموكل بالنفخ في الصور فينفخ النفخة الأولى فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله؛ ويجمع الله تعالى ما تفرق من أجساد الموتى ويأمر الملك أن ينفخ في الصور نفخة أخرى فإذا الخلق قيام ينظرون؛ عندئذ تشتد الأحوال، وتعظم الأهوال، ويشيع الذهول والفزع، فتضطرب القلوب وتخاف، وتنكس رؤوس الكفار، والفجار الأشرار، حيث بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون، وردوا إلى الله مولاهم

الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون، ورأوا كيف يحيي ربنا الرفات والعظام البالية في القبور كما بدأهم يعودون، فاستيقنوا أنهم بهذه الرجعة سيهلكون ويعذبون ويخسرون، وإذا هم بعد البعث يساقون، وإلى ساحة العرض على الملك الحق يحشرون، وبين يديه سبحانه يوقفون، ويسألون ويحاسبون، هكذا تضطرب يومئذ قلوب المكذبين بالدين ويغشاهم الذل لأنهم كانوا ينكرون قدرة الله على البعث ويقولون: أيعقل أن ترد لنا الحياة في قبورنا، وبعد بلى أجسادنا وخواء عظامنا؟ إنها إن حدثت فهي رجعة تجلب الخسران هكذا قالوا؛ فبين الكتاب الحكيم أن ليس بينهم وبين الخسران والعذاب والهوان إلا أن يصيح بهم ملك من ملائكة الله فإذا هم محضرون، وبين يدي الواحد القهار موقوفون.

٧ - (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)

{الرادفة} عند النفخة الثانية يحيي الله تعالى الموتى

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

{واجفة} خائفة

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٩ - (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)

{أبصارها خاشعة} أبصار أصحابها ذليلة وعيونهم منكسرة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٠ - (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

{الحافرة} الحفرة والقبر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١١ - (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً)

{نخرة} خاوية مفرغة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٢ - (قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

{كرة خاسرة} رجعة وعودة خاسر أصحابها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٣ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

{زجرة} نفخة وصيحة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٤ - (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

{بالساهرة} بأرض المحشر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي

أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

١٦ - (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{الوادي المقدس} الوادي المطهر.

{طوى} اسم الوادي في جبل طور سيناء بين المدينة ومصر.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

١٧ - (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{طغى} تجاوز الحد مع الخالق ومع الخلق.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من

الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

١٨ - (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{تزكى} تتطهر من الخطايا.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

١٩ - (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{فتخشى} فتخاف الله، وتترك الظلم.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن

الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢٠ - (فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

}الآية الكبرى{ انقلاب العصا حية، معجزة من ربنا سبحانه لإظهار صدق رسالة موسى عليه السلام.

}هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦){.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢١ - (فَكَذَّبَ وَعَصَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

}هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦){.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢٢ - (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{أدبر يسعى} أعرض وتولى يدبر الشر.
{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.
يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.
٢٣ - (فَحَشَرَ فَنَادَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{فحشر فنادى} فجمع السحرة والجنود، وقام فيهم خطيبا.
{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.
يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.
٢٤ - (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢٥ - (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{نكال الآخرة والأولى} عقاب الدنيا بإغراقه، الآخرة بإحراقه. جعله الله مثلا ومزدجرا لمن يتذكر.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢٦ - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{عبرة} اعتبار وموعظة للمعتبرين والمتفكرين.

{هل آتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكالا الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)}.

يسلي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، فأعلمنا الله تعالى وأعلم نبيه قبلنا خبر موسى الذي أوحى ربه إليه عندما كان بوادي طوى الطاهر المبارك، وأرسله مولاه إلى فرعون الذي ظلم الحقيقة فادعى أنه إله، وظلم الخليقة فاستبد بالضعفاء يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويحرمهم حقهم؛ وأمر الله العظيم نبيه موسى الكليم أن يعرض على فرعون التطهر من

الكفر، والتعرف إلى الله، والإقرار بالحق، والخوف من سلطان ربه وبأسه، والتصديق برسالته، والتدبر في معجزته الكبرى، وأن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى، فسارع فرعون إلى الجحود وجمع السحرة وحشد الجنود، وصرخ فيهم بباطله أنه الإله المعبود، فأخزاه الله وعاقبه في الدنيا بالإغراق، وأعد له في الآخرة السعير والإحراق، وفي هذا تحذير لكل مكذب بيوم القيامة ونذير لكل ظلوم جهول أن الله سيذيقه الوبال في عاجله وآجله؛ وفيها ما تطمئن به قلوب المؤمنين العاملين بما فيه الفوز في الأولى والآخرة، فإنها بشرى لهم بأن الله القوي القدير مهلك عدوهم كما أهلك الجبابرة قبلهم، وسيظهر دينهم على الدين كله؛ فليعتزوا بإسلامهم، وليحققوا عهود قرآنهم، وليستعدوا للقاء ربهم بالسعي فيما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم.

٢٧ - (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)

{أشد خلقا} أصعب إيجادا.

{أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧) رفع سمكها فسواها (٢٨) وأغطش ليلها وأخرج ضحاها (٢٩) والأرض بعد ذلك دحاها (٣٠) أخرج منها ماءها ومرعاها (٣١) والجبال أرساها (٣٢) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٣)}.

الله يبين الحجة على من أنكروا إعادة الخلق بعد موتهم بهذا الدليل: هل بعثكم بعد موتكم أصعب في تقديركم أم خلق السماوات بكواكبها، والأرض بمعايشها؟! الحق أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالله الذي جعل السماء كالسقف فوق أرضنا، وأعلاها من غير عمد، وأدار كواكبها وسيرها فكانت ظلمة الليل، وكان ضوء الشمس ووهجها، والخبير القدير الذي أودع الأرض ماء تتفجر به العيون وتجري به الأنهار، وتحتويه الآبار فنشرب منه ونسقي زرعنا وبهائمنا، ونروي أشجارنا ومراعينا، والقوي الذي أثبت الجبال في الأرض وأقرها بها لكيلا تميد وتضطرب بساكنيها، هذا الملك المقتدر لا يعجزه ولا يصعب عليه أن يعيد الموتى أحياء ٧.

مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: بعدية دحو الأرض لا تنافي تقدم خلق الأرض على السماء. وقد يروى عن ابن عباس أن قوله: {بعد ذلك} يعني مع ذلك؛ كقوله: {فك رقبة} ٨ إلى قوله: {ثم كان من الذين آمنوا} ٩ أي كان مع هذا من أهل الإيمان بالله. اهـ.

وأورد القرطبي: {متاعا} نصب على المصدر من غير اللفظ؛ لأن معنى {أخرج منها ماءها ومرعاها} أمتع بذلك؛ وقيل: نصب بإسقاط حرف الصفة، تقديره: لتتمتعوا به متاعا. اهـ

٢٨ - (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)

{رفع سمكها} جعلها مرتفعة.

{فسواها} فبسطها مستوية متماسكة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٧ إظهار

٢٩ - (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

{أغطش} أظلم.

{أخرج ضحاها} أطلع شمسها مضيئة وضاحة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٧ إظهار

٣٠ - (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

{دحاها} هيأها وأعدها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

٣١ - (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

{مرعاها} النبات الذي يرعى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

٣٢ - (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

{أرساها} أثبتها في أماكنها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٣ - (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)
{متاعا لكم ولأنعامكم} منفعة لكم وغذاء لبهائمكم من الإبل والبقر والغنم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار
٣٤ - (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)
{الطامة الكبرى} الداهية الهائلة- القيامة.
{فإذا جاءت الطامة الكبرى (٣٤) يوم يتذكر الإنسان ما سعى (٣٥) وبرزت الجحيم لمن يرى (٣٦) فأما من طغى (٣٧) وآثر الحياة الدنيا (٣٨) فإن الجحيم هي المأوى (٣٩) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) فإن الجنة هي المأوى (٤١)}.
حين يأتي يوم البعث يشتد الفزع، ويظهر الغم، وتعظم حسرة المجرمين والكافرين، فتهولهم الداهية ويغشاهم الذل؛ ويعلمون علم اليقين ما جهلوه وكانوا عنه غافلين: {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد} ١٠ ويطلع الناس على صحائف أعمالهم التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، فيتذكر كل منهم ما قدم من نية خير أو دلالة على شر، كما يواجه أقواله وأعماله مكتوبة، {. . ووجدوا ما عملوا حاضرا. } ١١ {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا} ١٢؛ وتظهر جهنم بحرها وزفيرها، يسمع الكفار والفجار لها تغيظا، وترميهم بشرر كالقصر، ويرى المفسدون والطغاة دركاتهم منها؛ فمن كان في دنياه باغيا عاتيا، يقدم متاع الدنيا على أمانات الدين، فإن جهنم منزله ومصيره، وأما من عاش يراقب ربه، ويحجز نفسه عما يشتهي من الحرام، ويلزمها الوفاء بعهد الله والاستقامة على منهاج الإسلام فإن منزله ومسكنه جنة الخلد ودار السلام.
مما أورد الألوسي: {فأما من طغى}. . . جواب {إذ} على أنها شرطية. {هي المأوى} أي مأواه على ما رآه الكوفيون من أن أل في مثله عوض عن المضاف إليه الضمير وبها يحصل الربط. . . {ونهى النفس عن الهوى} أي زجرها وكفها عن الهوى والردى وهو الميل إلى الشهوات، وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخيرات، ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها، ولم يغتر بزخارفها وزينتها، علما بوخامة عاقبتها. وقال أبو عمران الميرتلي:
نخالف هواها واعصها إن من يطع
هوى نفسه تنزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة ترده
وترم به في مصرع أي مصرع
٣٥ - (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى)
{سعى} قصد وطلب وعمل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٦ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)
{برزت الجحيم} ظهرت جهنم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٧ - (فَأَمَّا مَنْ طَغَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٣٨ - (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)
{آثر الحياة} فضلها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار

٣٩ - (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)
{المأوى} المرجع والمسكن.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٤٠ - (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)
{الهوى} الميل إلى العوج والشهوات والفساد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٤١ - (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)
{المأوى} المرجع والمسكن.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٤ إظهار
٤٢ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)
{الساعة} القيامة.
{أيان مرساها} متى قيامها؟
{يسألونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٤٦)}.

سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم: متى تكون القيامة؟ فكان الجواب من الله: في أي شيء أنت يا محمد من ذكرها والسؤال عنها؟ لا يوجد عند غير الله علم الساعة! مردها وموعدها إليه وحده سبحانه، لا تأتيكم إلا فجأة تباغتكم، وإنما أنت رسول بعثت لتخوف من يهاب عقاب الله يوم الجزاء على الأحوال والأعمال؛ والذين يكذبون بيوم الدين عندما يشاهدون العذاب المهين يستقصرون مدة الحياة الدنيا كأنهم لم يعيشوا فيها إلا نصف نهار.

[وخص الإنذار بمن يخشى لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذرا لكل مكلف، وهو كقوله تعالى: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} ١٣ وقال الفراء: يقول القائل: وهل للعشية ضحا؟ وإنما الضحا لصدر النهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار] ١٤.

٤٣ - (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)
{فيم أنت من ذكراها} أين أنت من موعدها؟ لا تعلم ذلك أنت ولا غيرك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٤ - (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)
{إلى ربك منتهاها} علمها الله وحده.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٥ - (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)
{منذر} محذر ومخوف.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
٤٦ - (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)
{لم يلبثوا} لم يبقوا ولم يمكثوا.
{عشية} من الظهر إلى الغروب أو إلى الليل.
{ضحاها} من طلوع نهار إلى ظهيرته.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤٢ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٥، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٦ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٧، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٨. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٩ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٠، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢١، {ملك الناس. إله الناس} ٢٢.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٣ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٤ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٥؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٦. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٧، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٨.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٩، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٠، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣١، {والسماء ذات البروج} ٣٢، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٣، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٤ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٥، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٦، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٧، {والعصر} ٣٨؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٩، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٠. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤١، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٢.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٣، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا

مهيلا} ٤٤، {٠ . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٥، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٦ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٧ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٩، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٠ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥١، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٢، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٣، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٤، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٥، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٦، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٧، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٨، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٩.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد

هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٠. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦١، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٦٢ بعد هذه السبع أكثرها ٦٣ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٥، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٦. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٧ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٨، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٩، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٠، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧١، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٢، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٤، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٥. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٦، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٧، {قد أفلح من تزكى} ٧٨، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٩، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٠، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨١، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٢.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٣، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٤، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي

سفرة. كرام بررة} ٨٥، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٧، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٩، {سندع الزبانية} ٩٠، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩١.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٢، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٣ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٤، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٥ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٦، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٧، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٨، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٩، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٠، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠١، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٢ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٣، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٤، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٥، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٦، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٧، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٨، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٩.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٠، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١١، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٢، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٣ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٤، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٥، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٦، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٧؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٨؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٩. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٠، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢١؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٢؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٣؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٤؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٥؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٦. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٧.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٨، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٩ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٠ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣١، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٢، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٣، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٤، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٥، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٦، {. . واسجد واقترب} ١٣٧، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا

الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٨، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٩، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٠، {فصل لربك وانحر} ١٤١، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٢، {قل هو الله أحد} ١٤٣، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٤، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٥؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٦، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٧ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٨؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٩، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٠، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥١ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٢ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٤ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٥، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٦، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٧، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٨ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٩، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٠، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦١، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٢، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٣. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٤، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٥، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٦ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٧ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٨ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٩، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٠، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧١، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٢، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٣.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٨٠ سورة عبس:

سورة عبس:
(٨٠) سورة عبس مكية
وآياتها اثنتان وأربعون
كلماتها: ١٣٣؛ حروفها: ٥٣٣
١ - (عَبَسَ وَتَوَلَّى)
{عبس} قبض وجهه وقطب جبينه.
{وتولى} وأعرض.
بسم الله الرحمن الرحيم
{عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)}.
جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن شريح وشهرته- ابن أم مكتوم- وكان النبي مشغولا بدعوة بعض عظماء قريش إلى الإسلام طمعا في هدايتهم، فظل عبد الله - وكان أعمى- ينادي النبي ولا يدري أنه مشتغل بغيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله لقطعه كلامه، فعاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم مبينا له أثر المسارعة إلى إجابة السائل وإرشاد الطالب، وخاطبه بما يفيد أنك لا تعلم، فربما يتطهر - عبد الله- عما لا يليق، ويتعظ بما يسمع منك فتنفعه الموعظة، ويزداد بها إيمانا وإحسانا؛ ومن عتاب الله سبحانه لنبيه- من أجل إعراضه عن ابن أم مكتوم لانشغاله بدعوة عظماء قريش- بيان أن الرسول أقبل على محادثة الأغنياء الزعماء- وكان النبي يطمع في إسلام قومهم تبعا لإسلامهم- وعلم ربنا رسوله أنه لن يحاسب على كفرهم، وليس بمسؤول عن تكذيبهم بالدين؛ والأولى له أن يهتم بالإقبال على من يعظمون الله ويرهبونه، ويسيرون في طلب العلم حرصا على طاعة ربهم، وخوفا من الجهل الذي يعقب سخط الله وعذابه؛ فلا تفعل بعد يا محمد مثلها، وبلغ آيات ربك إلى من يعقل، فمن أراد علما وفهما لما أوحى إليك فهو أحق بالمعونة على تدبر القرآن وتدارسه والعمل بما فيه وحفظه؛ وقد أنزلنا إليك الآيات من صحف عالية القدر والشرف، مصونة - بحفظ الله- عن التغيير والتزوير والباطل، نزل بها ملائكة أمناء على ما يبعثهم الله إلى أنبيائه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ مع السفرة الكرام ١ البررة ومثل الذي يقرؤه وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران)؛ قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سفر، وللكاتب سافر، لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه؛ يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها.
٢ - (أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى)
{الأعمى} عبد الله ابن أم مكتوم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)
{وما يدرك} وما يعلمك؟

{يزكي} يتطهر من الذنوب بما يسمع منك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)
{يذكر} يتعظ.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى)
{استغنى} ظهر غناه، وكثر ماله، أو استغنى عن اتباع الحق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)
{تصدى} تواجهه وتقبل على مخاطبته، تتصدى لحديثه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٧ - (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى)
{وما عليك} لا لوم عليك ولا تسأل.
{يزكي} يتطهر بالإسلام.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٨ - (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى)
{يسعى} يبحث ويطلب العلم، ويسير في طلبه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٩ - (وَهُوَ يَخْشَى)
{يخشى} يهاب ربه، ويخاف عذابه وغضبه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٠ - (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)
{تلهى} تتلهى وتتشاغل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١١ - (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)
{إنها} أن سور القرآن وآياته وهداياته.
{تذكرة} موعظة وتبصرة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٢ - (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ)
{ذكره} تذكر القرآن وعمل به، وتدبره وحفظه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٣ - (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ)
{مكرمة} عظيمة لأنها كلام الله الكريم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٤ - (مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)
{مرفوعة} عالية المنزلة.

{مطهرة} مصونة عن التبديل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٥ - (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)
{سفرة} ملائكة تنزل بوحي الله تعالى إلى رسله.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٦ - (كِرَامٍ بَرَرَةٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٧ - (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)
{قتل} لعن وأخزى.
{قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أي شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢) كلا لما يقض ما أمره (٢٣)}.
يحذر الله من لم يؤمن بالحياة بعد الموت ومن لم يصدق بالحساب والجزاء، ويخوفهم اللعنة والخزي والحرمان من الرحمة إذا أنكروا قدرة الله على إعادتهم أحياء؛ وكيف يستبعد هذا على الذي خلق الإنسان من ماء قليل، ثم سواه وشكله ورباه، ووضح له طريق السلامة والندامة، ومسالك العوج والاستقامة، وشرع لنا دينا سهلا ميسرا، ثم يميتنا ويستر جثتنا في قبورنا حتى يأتي ميعاد إحيائنا؛ وكان الكفار يتحدون النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون أن يحيي أجدادهم وآباءهم الذين ماتوا ليثقوا بصحة الإيمان بالآخرة؛ وبين الله الحكيم أن النشور وإحياء من في القبور إنما يأتي عندما يقضي الله بنفاذ أمره بانتهاء الدنيا وحلول يوم الحساب.
[{أكفره} تعجيب من إفراطه في الكفران، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه؛ والمراد به: إما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به، وإما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده؛ ورجح هذا. . . وقد قال جار الله: لا ترى أسلوبا أغلظ منه ولا أدل على سخط، ولا أبعد شوطا في المذمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه، حيث اشتمل على ما سمعت من الدعاء مرادا به إذ لا يتصور منه تعالى لازمه. . . وقال الإمام: إن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفا، والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعا؛ ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن؛ وما نسب إلى امرئ القيس من قوله:
يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره
فهو لا يرضى بحال واحد قتل الإنسان ما أكفره
لا أصل له، ومن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مولد أراد الاقتباس لا جاهلي. . وقوله تعالى: {من أي شيء خلقه} شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك.] ٢
١٨ - (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
١٩ - (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)
{نطفة} ماء قليل مهين.
{فقدره} فسواه وشكله.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٠ - (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)
{السبيل يسره} بين له طريق الخير والشر، وسهل أوامر الدين.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢١ - (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)
{فأقبره} جعل له قبرا يدفن فيه بعد موته.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٢ - (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)
{أنشره} أحياه وبعثه، وساقه إلى الحساب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٣ - (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)
{لما يقض ما أمره} لما يأت بعد وقت أمر الله في بعث الموتى ونشورهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٤ - (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)
{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.
الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ {أنا ٣ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٤ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق؛ وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٥؛ {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ {وعنبا وقضبا} وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها؛ وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة؛ وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} فحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة؛ قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ {غلبا} عظاما شجرها؛ وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع؛ وعن مجاهد: ملتفة؛ {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار؛ والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.
يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن

الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: }فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا{؛ }متاعا لكم ولأنعامكم{ أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٢٥ - (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

}فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢){.

الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ }أنا ٦ صببنا الماء صبا{ الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٧ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق؛ وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، }ثم شققنا الأرض شقا{ فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٨؛ }فأنبتنا فيها حبا{ زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ }وعنبا وقضبا{ وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة، وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: }فلينظر الإنسان إلى طعامه{ فحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ }وزيتونا ونخلا{ شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ }وحدائق غلبا{ بساتين، واحدها: حديقة؛ قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ }غلبا{ عظاما شجرها، وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع؛ وعن مجاهد: ملتفة؛ }وفاكهة وأبا{ أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ }وأبا{ ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: }عبس وتولى{ فلما أتى على هذه الآية: }وفاكهة وأبا{ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: }فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا{؛ }متاعا لكم ولأنعامكم{ أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي

يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٢٦ - (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

}فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢){.

الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ }أنا ٩ صببنا الماء صبا{ الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء{ ١٠ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق، وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، }ثم شققنا الأرض شقا{ فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكناه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ١١؛ }فأنبتنا فيها حبا{ زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ }وعنبا وقضبا{ وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة؛ وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: }فلينظر الإنسان إلى طعامه{ لحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ }وزيتونا ونخلا{ شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ }وحدائق غلبا{ بساتين، واحدها: حديقة، قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ }غلبا{ عظاما شجرها، وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع، وعن مجاهد: ملتفة؛ }وفاكهة وأبا{ أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ }وأبا{ ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: }عبس وتولى{ فلما أتى على هذه الآية: }وفاكهة وأبا{ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: }فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا{؛ }متاعا لكم ولأنعامكم{ أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تتمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٢٧ - (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]
{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.
الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ {أنا ١٢ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ١٣ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق؛ وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ١٤؛ {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ {وعنبا وقضبا} وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها؛ وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة؛ وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} لحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة؛ قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ {غلبا} عظاما شجرها؛ وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع؛ وعن مجاهد: ملتفة؛ {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار؛ والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.
يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}؛ {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن؛ وكل دابة ترعى.
وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.
٢٨ - (وَعِنَبًا وَقَضْبًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]
{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨)

وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.
الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ {أنا ١٥ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ١٦ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق؛ وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ١٧؛ {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ {وعنبا وقضبا} وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة؛ وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} لحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة؛ قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ {غلبا} عظاما شجرها؛ وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع؛ وعن مجاهد: ملتفة؛ {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.
يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}؛ {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن؛ وكل دابة ترعى.
وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.
٢٩ - (وَزَيْتُونًا وَنَخْلا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]
{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.
الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ {أنا ١٨ صببنا

الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء{ ١٩ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق، وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت، يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء، [أسكناه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٢٠، {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر، {وعنبا وقضبا} وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة، وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} لحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين، {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به، ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل، {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة، قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة، {غلبا} عظاما شجرها، وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع، وعن مجاهد: ملتفة، {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما، {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب، ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها، يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}، {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٣٠ - (وَحَدَائِقَ غُلْبًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.

الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه، {أنا ٢١ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء{ ٢٢ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق، وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي

غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٢٣؛ {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ {وعنبا وقضبا} وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة؛ وقيل: هو الرطب أو القصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} فحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين؛ {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة؛ قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ {غلبا} عظاما شجرها؛ وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع؛ وعن مجاهد: ملتفة؛ {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما؛ {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب؛ ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار؛ والأب: يابسها؛ يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}؛ {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن؛ وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٣١ - (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.

الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه؛ {أنا ٢٤ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٢٥ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق؛ وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت؛ يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء؛ [أسكاه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٢٦؛ {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر؛ {وعنبا وقضبا}

وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة، وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} فحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت مطاعم الآدميين، {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به، ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل، {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة، قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة، {غلبا} عظاما شجرها، وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع، وعن مجاهد: ملتفة، {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما، {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب، ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها، يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}، {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٣٢ - (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٤]

{فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)}.

الله سبحانه يدعو الناس ليتأملوا ويتفكروا فيما يطعمون، أهم الذين أحدثوه وأنشأوه؟ أم هم الذين أنبتوه وأصلحوه؟! وبعد حصولهم عليه برعاية الله وتيسيره ليتدبروا كيف علمهم أن يتناولوه، ثم إذا طعموا خفي عليهم كيف انتفعوا به وكيف هضموه، {أنا ٢٧ صببنا الماء صبا} الله دون سواه هو الذي أنزل الغيث من السحاب وصبه على الأرض صبا عجيبا {. . يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء} ٢٨ وينزله سبحانه بقدر معلوم، ويسكن ما قدر جل ثناؤه أن يسكنه ويسلكه ينابيع في الأعماق، وما الطاعمون ولا المخلوقون بقادرين على إنزال قطرة من مطر نستنبت بها مآكلنا التي هي قوام حياتنا، {ثم شققنا الأرض شقا} فتق الله الأرض وصدعها بالنبات الذي غيب بذره تحت ترابها، ولولا نعمة ربي لجعل أديمها صلدا، لا ينشق عن نبت، يفلق الخلاق العليم بقدرته الحب والنوى، وبلطفه يحيلها بعد همودها إلى حياة وبهجة ونماء، [أسكناه فيها فدخل تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض] ٢٩، {فأنبتنا فيها حبا} زرعا ذا حب من قمح وشعير وسائر ما يذكر من الحبوب مما له سنابل ويحصد ويدخر، {وعنبا وقضبا}

وكرم عنب، وما يقضب أي يقطع من البقول التي تحش فينبت أصلها، وقال بعض المفسرين: القضب: القت والعلف لأنه يقضب بعد ظهوره مرة بعد مرة، وقيل: هو الرطب أو الفصافص: ولعل الرأي الأول أنسب لما صدرت به الآيات من قول المولى تبارك اسمه: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} فحمله على بعض طعام الأناسي أولى من توجيهه إلى ما تطعمه الأنعام، كما أن الآيات بعده ذكرت

مطاعم الآدميين، {وزيتونا ونخلا} شجر الزيتون الذي من ثمره أدم، ومن عصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به؛ ومن ثمر النخل يأكل الناس [بلحا] بسرا ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه زيت وخل؛ {وحدائق غلبا} بساتين، واحدها: حديقة، قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة- لأن الحوطة أو السور أحدق به وأحاطه- وما لم يحط عليه فليس بحديقة؛ {غلبا} عظاما شجرها، وعن عكرمة: عظام الأوساط والجذوع، وعن مجاهد: ملتفة؛ {وفاكهة وأبا} أي ما تأكل الناس من ثمار الأشجار كالتين والتفاح وغيرهما، {وأبا} ما تأكله البهائم من العشب، ونقل الحسن النيسابوري عن جار الله الزمخشري: أن الفاكهة: رطب الثمار، والأب: يابسها، يقول القرطبي: وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية قم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟! ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه.

يقول ابن كثير: فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا بن بشار حدثنا ابن كثير أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: {عبس وتولى} فلما أتى على هذه الآية: {وفاكهة وأبا} قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف؟ فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: {فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا}، {متاعا لكم ولأنعامكم} أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعا لكم أيها الناس ومنفعة، تمتعون بها وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم من الإبل والبقر والمعز والضأن، وكل دابة ترعى.

وفي هذا امتنان من الله الوهاب الرازق بما أسدى إلينا من نعم، وبرهان على أنه سبحانه المتفرد بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، فتبارك الله اللطيف الخبير.

٣٣ - (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)

{الصاخة} الصيحة التي تكون عندها القيامة.

{فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قترة (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢)}.

حين تنهضون من القبور على صيحة مفزعة مذهلة، حين ينفخ في الصور النفخة الأخيرة فإذا الخلق قيام ينظرون، عندها تحشرون وتساقون إلى موقف الحساب حفاة عراة {تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى} ٣٠ يغشاهم الفزع الأكبر، وتشتد عسرة وحسرة الموقف حتى لا يلتفت إنسان إلى أبيه، بل يعرض عنه ويتفلت منه، ولا يقف إلى جوار أمه وزوجته، ولا يعنى بإخوته ولا بعشيرته ولا بذريته، ولا يفتش عن أحوال أخلائه وقرابته. لأن الهول شغله بحاله وبليته، عندئذ تطمئن الملائكة المؤمنين الصالحين {. أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} ٣١ {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٣٢ ويبيض الله وجوه المستقيمين المتقين، ويسر العابدين وأهلهم الخيرين، وتسود وجوه الكافرين والمجرمين. ويذل ويخزي أهل الكبر والفساد وأعوان الظالمين، فآمنوا واستقيموا وأحسنوا يذهب الله عنكم كرب الآخرة ويجعلكم من الآمنين، وصدقوا بالله ولقائه وجزائه واعبدوه عبادة نقية تامة سليمة، وتعاملوا- كما شرع لكم- على طريق مستقيم، وتخلقوا بالشيم الكريمة، وافعلوا الخير لكم ولغيركم، ودلوا عليه من حولكم، تأمنوا يوم بعثكم، وتفوزوا بثواب ربكم، ولنعم دار المتقين.

٣٤ - (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار

٣٥ - (وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٣٦ - (وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)
{وصاحبته وبنيه} وزوجته وأبنائه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٣٧ - (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)
{شأن يغنيه} حال يكفيه، ويشغله عن غيره.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٣٨ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)
{مسفرة} مسرورة مبسوطة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٣٩ - (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٤٠ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)
{غبرة} غبار ودخان.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٤١ - (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)
{ترهقها قترة} تعلوها ذلة وكسوف وسواد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
٤٢ - (أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)
{الفجرة} الخارجون على الخلق والدين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣٣ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٣٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٣٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٣٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٣٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٣٧ {الذي علم بالقلم.
علم الإنسان ما لم يعلم} ٣٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣٩، {ملك الناس. إله الناس} ٤٠.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٤١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٤٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٤٣، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٤٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط

تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٦.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٤٧ {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤٩، {والسماء ذات البروج} ٥٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٥١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٥٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٥٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٥٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٥٥، {والعصر} ٥٦؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٥٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥٨. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٦٠.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٦١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٦٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٦٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٦٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٦٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٦٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٦٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٧٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٧١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٧٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٧٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل

ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٧٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٧٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٧٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٧٧.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٨٠ بعد هذه السبع أكثرها ٨١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٨٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٨٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٨٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٨٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٨٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت}

٨٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٩٠، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٩١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٩٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٩٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٩٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٩٥، {قد أفلح من تزكى} ٩٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٩٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩٨، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩٩، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ١٠٠.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٠١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٠٢، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٠٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٠٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٠٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٠٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٠٧، {سندع الزبانية} ١٠٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠٩.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١١٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١١١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١١٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١١٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١١٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١١٥، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١١٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١١٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٢٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٢١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٢٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٢٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٢٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٢٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٢٧.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا}

١٢٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٣٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٣١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٣٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٣٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٣٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١٣٥؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٣٦؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٣٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣٩؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٤٠؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٤١؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٤٢؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٤٣؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٤٤. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٥.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٤٦، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٤٧ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤٨ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤٩، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٥٠، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٥١، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٥٢، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٥٣، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٥٤، {. . واسجد واقترب} ١٥٥، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٥٦، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٥٧، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥٨، {فصل لربك وانحر} ١٥٩، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٦٠، {قل هو الله أحد} ١٦١، {قل أعوذ برب الفلق} ١٦٢، {قل أعوذ برب الناس} ١٦٣؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٦٤، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٦٥ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٦٦؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٦٧، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦٨، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦٩ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٧٠ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٧١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٧٢ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٧٣، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٧٤، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٧٥، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٧٦ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٧٧، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم

يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧٨، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٧٩، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٨٠، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٨١. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٨٢، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٨٣، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٨٤ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٨٥ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٨٦ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٨٧، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨٨، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨٩، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٩٠، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٩١.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨١ سورة التكوير:

سورة التكوير:
(٨١) سورة التكوير مكية
وآياتها تسع وعشرون
كلماتها: ١٣٩؛ حروفها: ٥٣٣
١ - (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)
{كورت} ذهب ضياؤها.
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا الشمس كورت (١) وإذا النجوم انكدرت (٢) وإذا الجبال سيرت (٣) وإذا العشار عطلت (٤) وإذا الوحوش حشرت (٥) وإذا البحار سجرت (٦) وإذا النفوس زوجت (٧) وإذا الموءودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩) وإذا الصحف نشرت (١٠) وإذا السماء كشطت (١١) وإذا الجحيم سعرت (١٢) وإذا الجنة أزلفت (١٣) علمت نفس ما أحضرت (١٤)}.

إذا أذهب الله ضياء الشمس وبعثر النجوم، وقلع الجبال وسيرها، وألهى الناس فزعهم، فأهملوا- حتى الحوامل من إبلهم- وجمع ربنا القدير الوحوش، وأحر مياه البحار وأشعلها، وقرن كل إنسان بمثله، وكل صنف من المصلحين والمفسدين بصنفه، وسأل الله من دفنت حية عن الذنب الذي بسببه قتلها أهلها شر قتلة، وفتحت صحائف أعمالنا المكتوبة بأيدي الملائكة، وسلمت لأصحابها. وأزيلت السماء وطويت، وزادت ملائكة العذاب في إيقاد النار وإحمائها، وقربت الجنة للطيبين الخيرين المهتدين، عندئذ يعلم كل مكلف ما نفعه وما ضره مما عمل في دنياه.

في صحيحي البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل).

مما أورد القرطبي: وإنما خص {العشار} بالذكر، لأنها أعز ما تكون على العرب، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل، أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه. قال النعمان بن بشير: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وإذا النفوس زوجت) قال: (يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله) وقال ابن عباس ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة: السابقون زوج- يعني صنفا- وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان. اهـ.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الشمس والقمر يكوران يوم القيامة) قال عمر لما بلغ: {علمت نفس ما أحضرت} قال: لهذا أجرى الحديث.

٢ - (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

{انكدرت} تناثرت.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

{سيرت} قلعت وتحركت.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

{العشار عطلت} النوق الحوامل تترك وتهمل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

{الوحوش حشرت} تجمعت.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

{سجرت} حميت واشتعلت.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٧ - (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

{زوجت} صنفت، وقرنت بأشباهها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٨ - (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)

{الموءودة} المقتولة المدفونة حية في التراب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٩ - (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٠ - (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)
{الصحف نشرت} صحف الأعمال التي تكتب الملائكة فيها أعمالنا تفتح وتعرف.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١١ - (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)
{كشطت} أزيلت وطويت.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٢ - (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)
{الجحيم سعرت} النار يزاد في إحمائها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٣ - (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)
{أزلفت} قربت للطيبين.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٤ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)
{أحضرت} عملت.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٥ - (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)
{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.
{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.
يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى؛ ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه؛ يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.
١٦ - (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.
{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.

{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.

يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى، ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه، يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.

١٧ - (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{عسعس} أظلم.

{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.

{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.

يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى، ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه، يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.

١٨ - (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{تنفس} أطل وأضاء.

{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.

{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.

يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى، ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه، يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم

بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.

١٩ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{إنه} إن القرآن الكريم.

{قول رسول} قاله عن الله تعالى وأرسل به جبريل ليبلغه إلى النبي.

{كريم ذي قوة} جبريل رسول صاحب قدر معظم موقر، وله قوة على تبليغ رسالات ربه.

{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.

{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.

يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى؛ ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه؛ يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.

٢٠ - (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{عند ذي العرش مكين} قريب من رحمة ربنا ذي العرش، وله مكانة عند الله سبحانه وجاه.

{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.

{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.

يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى؛ ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه؛ يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.

٢١ - (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]

{مطاع ثم أمين} تطيع جبريل هناك في السماء الملائكة الكرام، وهو مؤتمن على ما يجيء به.

{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.
{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.
يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى، ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه، يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.
٢٢ - (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٥]
{وما صاحبكم بمجنون} وما محمد بذاهب العقل كما افترى السفهاء.
{بالخنس الجوار الكنس} بالكواكب السابحات في أفلاكها ومداراتها، تبدو للناظرين حينا وتختفي حينا.
{فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢)}.
يحلف الكتاب الحكيم بالكواكب السابحات في أفلاكها، الجاريات في مداراتها، الظاهرات أحيانا والمختفيات في مساراتها أحيانا أخرى، ويحلف بالليل حين يقبل ظلامه وحين ينكشف، ومن بعده ينشق الصبح ويضيء النار، يقسم أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل مقدم ملائكة السماء والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه، والأمين على ما أنزله الله به من وحيه، ويبين صدق النبي وفطنته فيما أخبرهم به عن الله سبحانه، يقول الألوسي: {عند ذي العرش مكين} أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريع لا عندية مكان {ثم} ظرف مكان للبعيد. وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه، إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلا وأرجحهم قيلا، وأكملهم وصفا، وأصفاهم ذهنا، فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون. اه.
٢٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ)
{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.
ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا، وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف، وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين، يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه،

وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ١ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ٢ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ٣ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اه.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

٢٤ - (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{الغيب} القرآن وخبر السماء.

{بضنين} ببخيل.

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا؛ وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف؛ وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين؛ يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه؛

وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ٤ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ٥ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ٦ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اه.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور

الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

٢٥ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{شيطان} جني مفسد.

{رجيم} مرجوم ملعون.

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا، وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف، وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين، يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه، وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ٧ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ٨ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ٩ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اه.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

٢٦ - (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{فأين تذهبون} فإلى أين تتجهون وفي أي طريق تسيرون.

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء

بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا؛ وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف؛ وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين؛ يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه؛ وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ١٠ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ١١ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ١٢ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اهـ.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية؛ ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد؛ والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اهـ.

٢٧ - (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{ذكر للعالمين} تذكرة للجن والإنس وغيرهما من العوالم.

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا؛ وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف؛ وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين؛ يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه؛ وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ١٣ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ١٤ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ١٥ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اهـ.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه

الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

٢٨ - (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا، وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف، وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين، يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه، وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ١٦ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ١٧ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ١٨ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اه.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه

الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

٢٩ - (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٣]

{ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا

ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)}.

ولقد رأى النبي محمد جبريل بين السماء والأرض على صورته الأصلية وبأجنحته الملائكية، وعاينه بوضوح- وذلك كما قيل قبل الإسراء بسنين- وإن محمدا لا يبخل بتعليم ما جاءه من ربه ولا يخفى ولا يكتم منه شيئا وإنما يبلغ ما أرسل به كاملا وافيا؛ وما تستطيع الشياطين أن تقول القرآن، أو تنال منه، ولا هي تريده، ولا تمكن منه، فأين تتجه العقول والقلوب بعيدا عن القرآن؟ وأي طريق غيره تسلك؟ إنه تذكرة وموعظة للجن والإنس، وهدى لمن شاء أن يسير على طريق الاستقامة والاعتدال، وكل ما سواه انحراف؛ وليست وجهة الحق تحت مشيئتكم، دائما هي تابعة لمشيئة ربنا الله الكبير المتعال، مصلح الخلق، ومربي العالمين؛ يقول القرطبي: وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لمن شاء منكم أن يستقيم} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم- وهذا هو القدر وهو رأس القدرية- فنزلت {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه؛ وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وفي التنزيل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء} ١٩ وقال تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}. ٢٠ وقال تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. }. ٢١ والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار. اه.

يقول الألوسي: {وإذا الوحوش حشرت}. ذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء). وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معمول عليها يدل على حشر غيرها من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية؛ ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام، وإلى هذا القول أميل. . {علمت نفس ما أحضرت} جواب {إذا} على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة، مبدوءة قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد؛ والمراد بما {أحضرت} أعمالها من الخير والشر، وبحضور الأعمال: إما حضور صحائفها، وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصورة جوهرية. . . وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها. اه.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢٢، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٣ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٤، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٥. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٦ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٧، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٨، {ملك الناس. إله الناس} ٢٩.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٣٠ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣١ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣٢؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٣. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط

تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٤، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٥.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٦، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٧، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٨، {والسماء ذات البروج} ٣٩، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٤٠، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤١ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤٢، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٣، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٤، {والعصر} ٤٥؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٦، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٧. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٨، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٩.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٥٠، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥١. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥٢، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٣ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٤ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٥، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٦، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٧ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٨، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٩، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٦٠، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦١، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي

يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦٢، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٣، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٤، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٥، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٦.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٧. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٨؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٩ بعد هذه السبع أكثرها ٧٠ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧١، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧٢، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٣. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٤ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٥، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٦، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٧، {وإذا الموءودة سئلت.

بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٨، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٩؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨١، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨٢. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٣، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٤، {قد أفلح من تزكى} ٨٥، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٦، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٧؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٨؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٩.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٩٠، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩١؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩٢، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٤، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٦، {سندع الزبانية} ٩٧، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٨.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٩، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٠٠ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠١، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠٢ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٣، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٤، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٥، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٦، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٧، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٨، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٩ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١١٠، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١١، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١٢، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٣، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٤، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٥، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٦.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة

ومهلهم قليلا} ١١٧، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٨، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٩، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٢٠ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢١، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢٢، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٣، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٤؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٥؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٦. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٧، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٨؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٩؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٣٠؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣١؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣٢؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٣. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٤.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٥، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٦ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٧ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٨، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٩، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٤٠، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤١، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤٢، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٤٣، {. . واسجد واقترب} ١٤٤، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٥، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٦، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٧، {فصل لربك وانحر} ١٤٨، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٩، {قل هو الله أحد} ١٥٠، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥١، {قل أعوذ برب الناس} ١٥٢، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٣، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٤ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٥، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٦، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٧، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٨ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٩ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٦٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦١ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦٢، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٣، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٤، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم

ثقيلا} ١٦٥ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٦، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٧، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٨، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٩، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٧٠. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧١، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧٢، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٣ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٤ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٥ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٦، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٧، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٨، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٩، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٨٠.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٢ سورة الانفطار:

سورة الانفطار:
(٨٢) سورة الانفطار مكية
وآياتها تسع عشرة
كلماتها: ٨٠؛ حروفها: ٣٢٧
١ - (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{انفطرت} تشققت.
{إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)}

حين تجيء القيامة تنشقق السماء، وتنهدم، وتساقط الكواكب وتهوي، وتفجر البحار فيجف ماؤها وينقلب باطن القبور ظاهرا، فيخرج من كان مدفونا- عندئذ يعلم كل إنسان ما كان قد عمله في حياته، وما عمل الذين تابعوه على عمله بعد وفاته؛ وقريب منه قول الحق جلا علاه: {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ١.

[{علمت نفس ما قدمت وأخرت} جواب {إذا} لكن لا على أنها تعلم عند البعث بل عند نشر الصحف، لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة بحسب كلمة.

{إذا} وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي. . . ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته] ٢.

٢ - (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{انتثرت} تساقطت.

بسم الله الرحمن الرحيم

{انفطرت} تشققت.

{إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)}

حين تجيء القيامة تنشقق السماء، وتنهدم، وتساقط الكواكب وتهوي، وتفجر البحار فيجف ماؤها وينقلب باطن القبور ظاهرا، فيخرج من كان مدفونا- عندئذ يعلم كل إنسان ما كان قد عمله في حياته، وما عمل الذين تابعوه على عمله بعد وفاته؛ وقريب منه قول الحق جلا علاه: {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ٣.

[{علمت نفس ما قدمت وأخرت} جواب {إذا} لكن لا على أنها تعلم عند البعث بل عند نشر الصحف، لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة بحسب كلمة.

{إذا} وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي. . . ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته] ٤.

٣ - (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{فجرت} ذهب ماءها.

بسم الله الرحمن الرحيم

{انفطرت} تشققت.

{إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)}

حين تجيء القيامة تنشقق السماء، وتنهدم، وتساقط الكواكب وتهوي، وتفجر البحار فيجف ماؤها وينقلب باطن القبور ظاهرا، فيخرج من كان مدفونا- عندئذ يعلم كل إنسان ما كان قد عمله في حياته، وما عمل الذين تابعوه على عمله بعد وفاته؛ وقريب منه قول الحق جلا علاه: {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ٥.

[{علمت نفس ما قدمت وأخرت} جواب {إذا} لكن لا على أنها تعلم عند البعث بل عند نشر الصحف، لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة بحسب كلمة.

{إذا} وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي. . . ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته] ٦.

٤ - (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{بعثرت} قلب أسفلها أعلاها.

بسم الله الرحمن الرحيم
{انفطرت} تشققت.
{إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)}
حين تجيء القيامة تنشقق السماء، وتنهدم، وتساقط الكواكب وتهوي، وتفجر البحار فيجف ماؤها وينقلب باطن القبور ظاهرا، فيخرج من كان مدفونا- عندئذ يعلم كل إنسان ما كان قد عمله في حياته، وما عمل الذين تابعوه على عمله بعد وفاته؛ وقريب منه قول الحق جلا علاه: {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ٧.
[{علمت نفس ما قدمت وأخرت} جواب {إذا} لكن لا على أنها تعلم عند البعث بل عند نشر الصحف، لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة بحسب كلمة.
{إذا} وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي. . . ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته] ٨.
٥ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
{انفطرت} تشققت.
{إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)}
حين تجيء القيامة تنشقق السماء، وتنهدم، وتساقط الكواكب وتهوي، وتفجر البحار فيجف ماؤها وينقلب باطن القبور ظاهرا، فيخرج من كان مدفونا- عندئذ يعلم كل إنسان ما كان قد عمله في حياته، وما عمل الذين تابعوه على عمله بعد وفاته؛ وقريب منه قول الحق جلا علاه: {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} ٩.
[{علمت نفس ما قدمت وأخرت} جواب {إذا} لكن لا على أنها تعلم عند البعث بل عند نشر الصحف، لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة بحسب كلمة.
{إذا} وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي. . . ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته] ١٠.
٦ - (يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)
{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}
نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ١١ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا، {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ١٢، {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ١٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا تسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٤ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها

الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك، والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ١٥.

٧ - (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ١٦ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا؛ {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ١٧؛ {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ١٨، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ١٩ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك، والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٢٠.

٨ - (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ٢١ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا؛ {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ٢٢؛ {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٢٣، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا تسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٢٤ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك؛ والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٢٥.

٩ - (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ٢٦ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا؛ {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ٢٧؛ {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٢٨، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا تسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٢٩ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك؛ والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن

يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٣٠.

١٠ - (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ٣١ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا؛ {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ٣٢؛ {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٣٣، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٣٤ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك؛ والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٣٥.

١١ - (كِرَامًا كَاتِبِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن؛ أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس

إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ٣٦ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا، {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ٣٧، {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٣٨، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٣٩ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك، والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه، لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٤٠.

١٢ - (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٦]

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)}

نداء من الله تعالى لمن غوى، ألا يغتر بحلم العلى الأعلى، الذي خلق فأكمل وسوى وجمّل، وأبدع وعدّل، وصوّر ما شاء وكون، وصنع الأشياء فأتقن، أغرك من مولاك حلمه وفضله؟ أم خدعك الشيطان وغرتك الأماني، وهو سبحانه قد ذكر وأنذر وحذر: {يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} ٤١ لكنهم عموا وصموا، وزعموا أن لن يبعثوا، {كلا} {. . . وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم} ٤٢، {بل تكذبون بالدين} لا تصدقون بيوم البعث والحساب والجزاء {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة. }، هكذا زعموا، فرد الحق عليهم بقوله الحكيم: {. . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد} ٤٣، {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} وإن عليكم أيها الناس والمكلفون رقباء من الملائكة يحفظون أقوالكم وأفعالكم، ويكتبون أعمالكم وآثاركم، وهم كرام على ربكم، ويدرون ماذا تصنعون في خلواتكم وجلواتكم، وفي إسراركم وعلانيتكم {أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} ٤٤ فاستحيوا أن يطالعوا منكم سيئة أو قبيحة، وحاذروا أن يسجلوا عليكم فضيحة، [{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك، وما سيظهر من أعمالك عليك، والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه. . . للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم. . . فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه ويدعو إلى خلافه؟! واختلف في الإنسان المنادي فقيل: الكافر، وقيل: الأعم الشامل للعصاة، وهو الوجه،

لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصله، أعني {علمت نفس} و {إن الأبرار} و {إن الفجار}. . {في أي صورة ما شاء ركبك} أي: ركبك ووضعك في أي صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها. . . وجوز أن تكون شرطية، و {شاء} فعل الشرط، و {ركبك} جزاؤه، أي: إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها، والجملة الشرطية في موضع الصفة ل {صورة} والعائد محذوف. .] ٤٥.

١٣ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

{الأبرار} فاعلو الخير، المطيعون ربهم.

{إن الأبرار لفي نعيم (١٣) وإن الفجار لفي جحيم (١٤) يصلونها يوم الدين (١٥) وما هم عنها بغائبين (١٦) وما أدراك ما يوم الدين (١٧) ثم ما أدراك ما يوم الدين (١٨) يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله (١٩)}.

يبشر القرآن بما أعد الله البر الرحيم من مآل ومرجع للمصلحين، وأنهم يتمتعون وينعمون بما لا تحيط به المدارك من لذة ومقام كريم، ويبين سبحانه جزاء المفسدين وعذابهم في نار الجحيم، يدخلونها بعد حساب عسير، في يوم شره مستطير، وما لظالم من مدافع ولا ولي ولا نصير، وإنما الأمر كله بيد الواحد القهار القوي القدير، وقريب من هذا قول المولى تبارك اسمه: {ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون} ٤٦ وقوله عز وجل: {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} ٤٧ [{وما يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} ٤٨ [{وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين} تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به إثر تفخيم، وتعجيب منه بعد تعجيب والخطاب فيه عام. وقيل الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم] ٤٩؛ روى عن ابن عباس: كل شيء من القرآن من قوله: {وما أدراك} فقد أدراه، وكل شيء من قوله: {وما يريدك} فقد طوى عنه؛ وعن قتادة: قوله: {والأمر يومئذ لله} والأمر والله اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد؛ يقول: يوم لا تغني نفس عن نفس شيئا فتدفع عنها بلية نزلت بها، ولا تنفعها بنافعة وقد كانت في الدنيا تحميها وتدفع عنها من بغاها سوءا، فبطل ذلك يومئذ لأن الأمر صار لله الذي لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر، واضمحلت هنالك الممالك، وذهبت الرياسات وحصل الملك للملك الجبار، وذلك قوله: {والأمر يومئذ لله} يقول: والأمر كله يومئذ يعني الدين لله دون سائر خلقه ليس لأحد من خلقه معه يومئذ أمر ولا نهي ليس ثم أحد يومئذ يقضي شيئا ولا يصنع شيئا إلا رب العالمين] ٥٠.

١٤ - (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

{الفجار} الأشرار والكفار.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٥ - (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

{يصلونها} يصيبهم حرها، ويمس صلاهم وجلودهم.

{يوم الدين} يوم الجزاء.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٦ - (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٧ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٨ - (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار

١٩ - (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٣ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٥١، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٥٢ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٥٣، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٥٤. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٥٥ {الذي علم بالقلم.
علم الإنسان ما لم يعلم} ٥٦، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٥٧، {ملك الناس. إله الناس} ٥٨.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٥٩ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٦٠ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٦١؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٦٢. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٦٣، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٦٤.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٦٥، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٦٦، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٦٧، {والسماء ذات البروج} ٦٨، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٦٩، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٧٠ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٧١، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٧٢، {والضحى. والليل إذا سجى} ٧٣، {والعصر} ٧٤؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٧٥، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٧٦. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٧٧، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٧٨.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء

اتخذ إلى ربه سبيلا} ٧٩، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٨٠. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٨١، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٨٢ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٨٣ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٨٤، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٨٥، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٨٦ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٨٧، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٨٨، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٨٩، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٩٠، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٩١، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٩٢، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٩٣، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٩٤، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٩٥.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٩٦. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٩٧، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٩٨ بعد هذه السبع أكثرها ٩٩ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ١٠٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ١٠١، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ١٠٢. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١٠٣ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ١٠٤، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ١٠٥، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ١٠٦، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ١٠٧، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٠٨، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ١٠٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ١١٠، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ١١١. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ١١٢، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ١١٣، {قد أفلح من تزكى} ١١٤، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١١٥، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١١٦، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١١٧، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ١١٨.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١١٩، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح

والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٢٠، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٢١، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٢٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٢٣، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٢٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٢٥، {سندع الزبانية} ١٢٦، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٢٧.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٢٨، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٢٩ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٣٠، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٣١ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٣٢، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٣٣، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٤، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٣٥، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٣٦، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٣٧، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٣٨ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٣٩، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٤٠، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٤١، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٤٢، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٤٣، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٤٤، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٤٥.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٦، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٤٧، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٤٨، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٤٩ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٥٠، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٥١، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٥٢، {سنقرئك فلا تنسى} ١٥٣؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٥٤؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٥٥. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٥٦، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٥٧، {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٥٨؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٥٩؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٦٠؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٦١؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٦٢. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٦٣.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٦٤، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٦٥ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٦٦ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٦٧، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٦٨، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٦٩، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٧٠، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٧١، {فإذا فرغت فانصب.

والى ربك فارغب} ١٧٢، {. . واسجد واقترب} ١٧٣، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٧٤، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٧٥، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٧٦، {فصل لربك وانحر} ١٧٧، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٧٨، {قل هو الله أحد} ١٧٩، {قل أعوذ برب الفلق} ١٨٠، {قل أعوذ برب الناس} ١٨١؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٨٢، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٨٣ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٨٤؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٨٥، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٨٦، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٨٧ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٨٨ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٨٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٩٠ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٩١، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٩٢، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٩٣، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٩٤ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٩٥، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٩٦، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٩٧، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٩٨، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٩٩. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ٢٠٠، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٢٠١، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٢٠٢ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٢٠٣ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٢٠٤ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٢٠٥، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٢٠٦، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٢٠٧، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٢٠٨، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٢٠٩.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٨٣ سورة المطففين:

سورة المطففين:
(٨٣) سورة المطففين مكية
وآياتها ست وثلاثون
كلماتها: ١٦٦؛ حروفها: ٧٣٠
١ - (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)
{ويل} هلاك وعذاب. أو واد في جهنم.
{للمطففين} للمنقصين غيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويل للمطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦)}.

يخبر القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة عن خسارة وعذاب الذين يغشون في الكيل والميزان، ولا يعاملون الناس بما يحبون أن يعاملهم غيرهم به، فإذا أخذوا لأنفسهم زادوا، وإذا وزنوا لغيرهم نقصوا، ولو علموا أن العدل قامت به السماوات والأرض لما اجترءوا على الظلم، فإن الله تبارك اسمه يقول: {والسماء رفعها ووضع الميزان. أن لا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان} ١؛ لقد جعل المولى الحكيم العليم رعاية الحق والتعامل بالقسط مطلبا تقوم عليه الرسالات: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. } ٢؛ ولقد جاء تطفيف الكيل والميزان مقرونا بإنكار الحقوق على أصحابها وجحدها، حسية كانت أو معنوية، وقرن ذلك بالفتنة في الأرض والفساد، يقول ربنا عز شأنه: {أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين} ٣ ويقول جل ثناؤه: {. . فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} ٤؛ فيا حسرة على الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا؛ {ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. (٤) ليوم عظيم. (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦)} ألم يعلم هؤلاء المبعدون في البغي والغي أنهم إن قدروا على استضعاف الخلق فإن الرقيب الحسيب لهم بالمرصاد؟ يعجل عقوبة الباغين في الدنيا مع ما أعد لهم يوم يأتي كل مجرم يحمل أوزاره {. . ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت} ٥ {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم} ٦؛ والاستفهام في {ألا يظن} قد يراد به التعجيب من استهانة هؤلاء الغافلين بيوم الحسرة ومصير الفجرة، وما أعد الله يوم الدين، من نكال بالمجرمين، وغصة وعذاب أليم، يوم يقف الناس ليحكم بينهم رب الخلق أجمعين؛ روى مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه) رواه البخاري ومسلم؛ [وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس مرفوعا] ٧؛ وأورده القرطبي هكذا: قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر)؛ قال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا [مطفف]؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف

الخفيف، وإنما أخذ من طف الشيء وهو جانبه؛-وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين، بيان بليغ لعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل أخذ وعطاء، بل في كل قول وعمل. . . وقال أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغفاري: (كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلاثمائة سنة لرب العالمين لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر)؟ قال بشير: المستعان الله، قلت: قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا). . . فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلف فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر ابن أبي طالب واعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تيب عليه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار حين طلع عليه سعد بن معاذ: (قوموا إلى سيدكم)، وقال أيضا: من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار)، وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك واعتقد لنفسه فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه- ٨.

٢ - (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

{اكتالوا} أخذوا بضاعة بالمكيال.

{يستوفون} يتسلمون بضاعتهم وافية.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

{كالوهم} كالوا لهم.

{وزنوهم} وزنوا لهم.

{يخسرون} ينقصون ويبخسون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٧ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)

{كلا} ردع وزجر، أو حقا.

{كتاب الفجار} صحائف أعمال الطغاة الكفرة العصاة، أو أعمالهم، أو أرواحهم.

{سجين} خسار وضلال، أو سجن وضيق، أو جب في جهنم، أو علم لكتاب جامع وهو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين.

{كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (٧) وما أدراك ما سجين (٨) كتاب مرقوم (٩) ويل يومئذ للمكذبين (١٠) الذين يكذبون بيوم الدين (١١) وما يكذب به إلا كل معتد أثيم (١٢) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٣)}.

ليس أمر التطفيف هينا، ولا الإفلات من الوقوف بين يدي القهار ممكنا! لا! بل إن صحائف أعمال الفجار تنتظرهم في قاع جهنم، وهم صائرون إلى هذه الهاوية السفلى، وهذا الدرك السحيق، مصير محتوم، وكتاب معلم منقوش مدون مرقوم، وعذابهم لتكذيبهم بيوم

الحساب، وزيغهم عن الخير والعدل والصواب؛ وكل ممتر ومنكر للحق فهو مجرم متعد في أفعاله، مبطل مذنب في أقواله، إذا سمع القرآن قال: حكايات جمعها محمد من أباطيل الأقدمين- ألا لعنة الله على المفترين-.

٨ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

٩ - (كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

{مرقوم} مكتوب كالنقش والرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى؛ أو: لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحدا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١١ - (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

{يوم الدين} يوم الجزاء.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٢ - (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

{معتد} باغ متجاوز الحد.

{أثيم} مبالغ في اجتراح الذنب وارتكاب الإثم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٣ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

{أساطير الأولين} واحدها: أسطورة، الباطل والوهم الذي كتبه الأقدمون وزخرفوه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار

١٤ - (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

{ران} غطى.

{كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤) كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (١٥) ثم إنهم لصالوا الجحيم (١٦) ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون (١٧)}

ليس القرآن ولا البعث مما يكذب به، أو يشك ويرتاب فيه، لكن الكفرة والفسقة غطى على قلوبهم حب الفساد، والعكوف على الجحود والشر والعناد، فالله يحرمهم من رؤيته ورحمته، ويسكنهم في ناره، ثم تقول لهم الملائكة هذا الذي منه تصرخون لم تكونوا به تصدقون {. . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٩ {بل أدارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون} ١٠ {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ١١؛ [{كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} ردع وزجر، أي ليس هو أساطير الأولين، وقال الحسن: معناها حقا {ران على قلوبهم}؛ وقيل في الترمذي: عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو [الران] الذي ذكر الله في كتابه {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون})؛ قال: هذا حديث حسن صحيح؛ وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. . . قال مجاهد: هي مثل الآية التي في سورة البقرة: {بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} ١٢؛ قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون وقال جل ثناؤه: {وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناضرة} ١٣، فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه؛ وقال مالك بن أنس في هذه الآية:

لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقال الشافعي: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا، ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. . .] ١٤.

١٥ - (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

{لمحجوبون} لممنوعون

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٦ - (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ)

{لصالوا الجحيم} لمصطلون بلهبها ونارها وعذابها، وواصل حريق النار إلى جلودهم بل وأفئدتهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٧ - (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٨ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

{الأبرار} المطيعون ربهم، الخيرون، الصالحون.

{عليين} علم لديوان الخير، أو المواضع العلية، والدرجات الرفيعة.

{كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (١٨) وما أدراك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١) إن الأبرار لفي نعيم (٢٢) على الأرائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون (٢٨)}.

تكريم من الله تعالى لمن عملوا الخير، واعتصموا بالدين، أن صحائف أعمالهم ترفع إلى أعالي الدرجات- وما أعظمها- وتصان، ويمنح أصحابها من الله الأمان، ويطالعها أهل الملأ الأعلى؛ وأهل الخير المطيعون لربنا الكبير المتعال يكرمون وينعمون في الجنة، ويجلسون هناك على الأسرة، يمتعون برؤية المولى ذي الجلال، وينظرون إلى ما أوتوا وجوههم تظهر عليها البهجة والسعادة، ويشربون مشارب لذيذة الطعم، طيبة الريح، تستحق أن يتسابق إليها الطالبون، تخلط وتمزج بأصناف أطيب وأجود وأعذب، من شراب أعده البر الرحيم الوهاب الكريم ليسقى منه أحبابه؛ {عليون} قال الفراء: هو اسم موضوع على صفة الجمع. ولا واحد له من لفظه؛ وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع كما تقول: هذه قنسرون، ورأيت قنسرين؛ عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: {ختامه مسك}: خلطه، ليس بخاتم يختم؛ [{عينا يشرب بها المقربون} أي يشرب منها أهل جنة عدن. وهم أفاضل أهل الجنة- صرفا، وهو لغير مزاج؛ {عينا} نصب على المدح؛ وقال الزجاج: نصب على الحال من {تسنيم}، و {تسنيم} معرفة، ليس يعرف له اشتقاق، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ {عينا} نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى: {أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما} ١٥ وهذا قول الفراء إنه منصوب بـ {تسنيم}. . .] ١٦.

١٩ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢٠ - (كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار

٢١ - (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

{يشهده} يحضره.

{المقربون} الذين أدناهم الله تعالى من رحمته وقربهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٢ - (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٣ - (عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)
{الأرائك} الأسرة في الحجال - الستر-
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٤ - (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)
{نضرة النعيم} بهجة النعيم وأثره.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٥ - (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ)
{رحيق} شراب خالص مما يكدر، ولا يغتال العقل ولا البدن.
{مختوم. ختامه مسك} مختومة أوانيه وأكوابه بالمسك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٦ - (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)
{مختوم. ختامه مسك} مختومة أوانيه وأكوابه بالمسك.
{فليتنافس المتنافسون} فليتسابق الراغبون في المبادرة إلى طاعة الله سبحانه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٧ - (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)
{ومزاجه من تسنيم} ما يمزج به هذا الرحيق هو ماء عين تسمى {تسنيم}.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٨ - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٨ إظهار
٢٩ - (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)
{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}
الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء، فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ١٧؛ كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد

رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ١٨.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٠ - (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{يتغامزون} يشيرون بأعينهم سخرية.

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء؛ فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ١٩؛ كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٢٠.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣١ - (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{انقلبوا} انصرفوا ورجعوا.

{فاكهين} متلذذين مسرورين ساخرين.

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء؛ فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون

الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين، وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٢١، كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٢٢.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٢ - (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء، فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين، وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٢٣، كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٢٤.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٣ - (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء، فالله سبحانه

يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٢٥، كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٢٦.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٤ - (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء؛ فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٢٧، كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٢٨.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٥ - (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{الأرائك} الأسرة في الحجال - في الستر-

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة

والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء؛ فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٢٩؛ كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٣٠.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

٣٦ - (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٩]

{هل} تأتي بمعنى قد.

{ثوب} جوزي وأثيب، فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشر.

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)}

الأشرار والفجار، والكفار الطغاة، والفسقة العصاة يزدرون المؤمنين ويسترذلونهم ويستخفون بهم ويسخرون منهم، ويعيبونهم بالقول وبالإشارة، فهم في مجالسهم يلمزون، وفي بيوتهم يتضاحكون، وحين يمر عليهم أهل الإيمان يتخذونهم هزوا، ويرمون المتقين بالرذالة والضلالة؛ {وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)} ما سلطهم الله عليهم رقباء، وما لهم عليهم من وصاية ولا هم عليهم وكلاء؛ فالله سبحانه يجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، فالسعداء الأتقياء يتكئون على أرائكهم في دار النعيم، يعاينون عذاب المستكبرين، ويطالعون الخزي والذلة التي حاقت بالمتجبرين؛ وقريب من هذا قول الله الحكيم العليم: {إنه كان فريق من عبادي يقولون. ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} ٣١؛ كما بين القرآن المبين كيف يزداد سرور المؤمنين، حين يرون أن البر الرحيم أنجاهم من مصير المفتونين، وكيف ينادي السعيد رفقاءه في الجنة ليشهدوا مآل الضالين: {قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ٣٢.

أليس في هذا الجزاء العادل على السخرية من الصالحين؟ بلى! إن في ذلك لتثبيتا للمؤمنين على حقهم، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وصبرا واحتمالا لما يلقون من استخفاف الفاسقين بهم، فإن الخزي والسوء يومئذ على أعدائهم، وإن العز والنعيم للذين يستمسكون بإسلامهم، من يضحك أخيرا يضحك طويلا، والعاقبة للمتقين.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٣٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٣٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٣٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٣٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٣٧ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٣٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣٩، {ملك الناس. إله الناس} ٤٠.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٤١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٤٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٤٣، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٤٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٦.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٤٧، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤٩، {والسماء ذات البروج} ٥٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٥١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٥٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٥٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٥٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٥٥، {والعصر} ٥٦؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٥٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥٨. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٦٠.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٦١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٦٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٦٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٦٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٦٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٦٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٦٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون

الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٧٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٧١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٧٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٧٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٧٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٧٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٧٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٧٧.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٨٠ بعد هذه السبع أكثرها ٨١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٨٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٨٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٨٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٨٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٨٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٨٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٩٠، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٩١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٩٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٩٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٩٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٩٥، {قد أفلح من تزكى} ٩٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٩٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩٨، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩٩، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ١٠٠.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٠١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٠٢، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٠٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٠٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٠٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٠٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٠٧، {سندع الزبانية} ١٠٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠٩.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١١٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١١١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١١٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر.

إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١١٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١١٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١١٥، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١١٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١١٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٢٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٢١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٢٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٢٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٢٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٢٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٢٧.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٢٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٣٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٣١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٣٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٣٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٣٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١٣٥؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٣٦؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٣٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣٩؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٤٠؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٤١؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٤٢؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٤٣؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٤٤. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٥.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٤٦، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٤٧ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤٨ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤٩، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٥٠، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٥١، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٥٢، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٥٣، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٥٤، {. . واسجد واقترب} ١٥٥، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٥٦، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٥٧، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥٨، {فصل لربك وانحر} ١٥٩، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٦٠، {قل هو الله أحد} ١٦١، {قل أعوذ برب الفلق} ١٦٢، {قل أعوذ برب الناس} ١٦٣؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٦٤، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٦٥ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٦٦؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٦٧، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك

والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦٨، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦٩ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٧٠ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٧١، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٧٢ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٧٣، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٧٤، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٧٥، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٧٦ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٧٧، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧٨، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٧٩، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٨٠، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٨١. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٨٢، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٨٣، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٨٤ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٨٥ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٨٦ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٨٧، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨٨، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨٩، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٩٠، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٩١.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٤ سورة الانشقاق:

سورة الانشقاق:
(٨٤) سورة الانشقاق مكية
وآياتها خمس وعشرون
كلماتها: ١٠٧؛ حروفها: ٤٤٠
١ - (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)
}انشقت{ انصدعت.
بسم الله الرحمن الرحيم

}إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥){ وإذا تقطعت السماء وتصدعت- استجابة لأمر الله تعالى- وإذا بسطت ١ الأرض وسويت أعاليها، ونسفت جبالها، فصار سطحها قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت ولا ارتفاع، وإذا بعثر ما في القبور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من موتى وكنوز، متخلية عنه تحقيقا لوعد الله تعالى ومراده، عندئذ تعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وتراه محضرا، ماثلا موفرا، مدونا مسطرا. [وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها، وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت: لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا] ٢: - وقيل: تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى: }وانشقت السماء فهي يومئذ واهية{ ٠٣ . . . }وأذنت لربها{ أي استمعت له تعالى، يقال أذن إذا سمع. . . وقال قعنب:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
وما هم أذنوا من صاح دفنوا
والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة. .
٢ - (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
}وأذنت{ سمعت.
}وحقت{ وأطاعت.
}انشقت{ انصدعت.
بسم الله الرحمن الرحيم

}إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥){ وإذا تقطعت السماء وتصدعت- استجابة لأمر الله تعالى- وإذا بسطت ٤ الأرض وسويت أعاليها، ونسفت جبالها، فصار سطحها قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت ولا ارتفاع، وإذا بعثر ما في القبور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من موتى وكنوز، متخلية عنه تحقيقا لوعد الله تعالى ومراده، عندئذ تعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وتراه محضرا، ماثلا موفرا، مدونا مسطرا. [وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها، وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت: لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا] ٥: - وقيل: تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى: }وانشقت السماء فهي يومئذ واهية{ ٠٦ . . . }وأذنت لربها{ أي استمعت له تعالى، يقال أذن إذا سمع. . . وقال قعنب:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
وما هم أذنوا من صاح دفنوا
والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة. .
٣ - (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{مدت} بسطت ودكت جبالها، لا ترى فيها عوجا بل تسوى.
{انشقت} انصدعت.
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥)} وإذا تقطعت السماء وتصدعت- استجابة لأمر الله تعالى- وإذا بسطت ٧ الأرض وسويت أعاليها، ونسفت جبالها، فصار سطحها قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت ولا ارتفاع، وإذا بعثر ما في القبور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من موتى وكنوز، متخلية عنه تحقيقا لوعد الله تعالى ومراده، عندئذ تعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وتراه محضرا، ماثلا موفرا، مدونا مسطرا. [وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها؛ وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت: لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا] ٨: - وقيل: تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى: {وانشقت السماء فهي يومئذ واهية} ٩. . .
{وأذنت لربها} أي استمعت له تعالى، يقال أذن إذا سمع. . . وقال قعنب:
إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
وما هم أذنوا من صاح دفنوا
والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة. .
٤ - (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{وألقت ما فيها وتخلت} أخرجت ما في بطنها من الموتى، وبعث من في القبور، فخرجوا أحياء؛ وتناثر ما حوت من كنوز، واندلع ما كان كبت فيها من لهيب.
{انشقت} انصدعت.
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥)} وإذا تقطعت السماء وتصدعت- استجابة لأمر الله تعالى- وإذا بسطت ١٠ الأرض وسويت أعاليها، ونسفت جبالها، فصار سطحها قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت ولا ارتفاع، وإذا بعثر ما في القبور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من موتى وكنوز، متخلية عنه تحقيقا لوعد الله تعالى ومراده، عندئذ تعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وتراه محضرا، ماثلا موفرا، مدونا مسطرا. [وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها؛ وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت: لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا] ١١: - وقيل: تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى: {وانشقت السماء فهي يومئذ واهية} ١٢. . . {وأذنت لربها} أي استمعت له تعالى، يقال أذن إذا سمع. . . وقال قعنب:
إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
وما هم أذنوا من صاح دفنوا
والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة. .
٥ - (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{وأذنت} سمعت.
{وحقت} وأطاعت.
{انشقت} انصدعت.
بسم الله الرحمن الرحيم

}إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥)}
وإذا تقطعت السماء وتصدعت- استجابة لأمر الله تعالى- وإذا بسطت ١٣ الأرض وسويت أعاليها، ونسفت جبالها، فصار سطحها قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت ولا ارتفاع، وإذا بعثر ما في القبور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من موتى وكنوز، متخلية عنه تحقيقا لوعد الله تعالى ومراده، عندئذ تعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وتراه محضرا، ماثلا موفرا، مدونا مسطرا. [وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها، وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت: لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا] ١٤: - وقيل: تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى: }وانشقت السماء فهي يومئذ واهية{ ١٥. . . }وأذنت لربها{ أي اسمعت له تعالى، يقال أذن إذا سمع. . . وقال قعنب:
إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
وما هم أذنوا من صاح دفنوا
والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة. .
٦ - (يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)
}كادح{ عامل دائب ترجو عاقبة.
}كدحا{ عملا مجهدا تظهر ثمراته يوم الرجعى- خيرا كان أو شرا-
}فملاقيه{ فواجده، ومواجهه.
}يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه (٦) فأما من أوتي كتابه بيمينه (٧) فسوف يحاسب حسابا يسيرا (٨) وينقلب إلى أهله مسرورا (٩)}.
إحدى عشرة سورة مباركة سبقت هذه السورة الكريمة لم تخل واحدة منها من التذكير بالآخرة ويوم الفصل، والدعوة إلى دار السلام، والتحذير من مصير أهل الكفر والآثام، كالذي بينته الآيات الحكيمة: }إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما{ ١٦؛ }فكيف تتقون إن كفرتم يوم يجعل الولدان شيبا{ ١٧، }. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا{ ١٨ }فإذ نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير{ ١٩ }ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين{ ٢٠ }يقول الإنسان يومئذ أين المفر{ ٢١ }إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا{ ٢٢ }وهذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين{ ٢٣ }ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا{ ٢٤ }فإذا جاءت الطامة الكبرى{ ٢٥ وقوله تعالى: }فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه{ ٢٦ }وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت{ ٢٧ }وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا. { ٢٨ }ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين{ ٢٩، جاءت هذه الآيات البينات ليذكر بها أولو الألباب، ويوعظ بها من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. أن يا بن آدم، ويأيها المكلف: إنك عامل في دنياك ومجد في سعيك تبتغي به تفاخرا وتكاثرا وزينة ومتاعا ولهوا ولعبا؛ أو ترجو به برا، وطاعة لمولاك وشكرا، ومثوبة منه وأجرا، وأنت واجد ما رجوت ومواجهه، مصداقا لوعد الحق الذي لا يتخلف، }من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا{ ٣٠ }ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون{ ٣١.
}فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابا يسيرا{ فأما من كثر في صحائف عمله البر والذكر، والطاعة وفعل الخير فإنه يلقى كتابه بيده اليمنى، وتساق له البشرى، ويعلم أن له عند ربه الحسنى }فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه. إني ظننت أني ملاق حسابيه{ ٣٢ وظننت هنا بمعنى علمت- فهذا ييسر البر الرحيم حسابه، ويتجاوز عن سيئات قد يكون ألم بها، ويتقبل عنه أحسن ما عمل }وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما{ ٣٣؛ ويعود هذا السعيد إلى أهله فرحا مبتهجا بنجاته من العذاب، وفوزه وإياهم بحسن المآب؛ عن ابن الأنباري: قال بعض المفسرين جواب }إذا السماء انشقت{ }أذنت{، وزعم- هذا البعض- أن الواو مقحمة وهذا غلط؛ لأن

العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى وإذا كقوله تعالى: {حتى إذا جاءها وفتحت أبوابها ٣٤} ومع لما كقوله تعالى: {فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه. } ٣٥ والواو لا تقحم مع غير هذين. . . وقيل: جوابها ما دل عليه {فملاقيه} أي: إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه، ومما قال المبرد: فيه تقديم وتأخير، أي {يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه} {إذا السماء انشقت} وعنه أيضا- وهو قول الكسائي:- الجواب: {فأما من أوتي كتابه بيمينه. } أي إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (ليس أحد يحاسب إلا هلك) وفي رواية: (من حوسب يوم القيامة عذب) قلت: يا رسول الله! جعلني الله تعالى فداك: أليس الله تعالى يقول: {فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا} قال: (ذلك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك)، وفي رواية: (ليس ذلك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب) ٣٦.

٧ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

{أوتي} أعطي

{كتابه} سجل أعماله، وصحفه التي كتبتها الملائكة.

{بيمينه} بيده اليمنى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

{يسيرا} سهلا هينا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٩ - (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

{وينقلب} ويرجع ويعود.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٠ - (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

{وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)}

ولكن من أحاطت به خطاياه، وامتلأت صحائفه بالشر والكفر بالله، فإن كتابه الذي طويت فيه صحف أعماله يعلق بشماله من وراء ظهره، فتعظم حيرته، وتشتد حسرته، ويعمى بصره كما عميت بصيرته، كما أنبأ العليم الخبير جل علاه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. } ٣٧، فإذا كان ذلك علته الغبرة، وتمنى لو أن مولاه ما أنشره: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ. ولم أدر ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية} ٣٨ ويعض على يديه ندما، ولكن لات حين مناص، ويصيح: يا ويلاه يا هلاكها، فينادى ومن على شاكلته: {لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ٣٩ وتلومهم الملائكة: الخزنة، ويذكرونهم بان ربنا ما ظلمهم، ولكن جزاهم ببغيهم وبطرهم وكفرهم: {. . وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} ٤٠ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ٤١ {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٤٢ {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٤٣ {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون} ٤٤، تعالى الله عما يقول المفترون الخاسرون! ويا حسرة على الذي جمع مالا وعدده {يحسب أن ماله أخلده} ٤٥ واللعنة على الذين أطغتهم القوة والسيطرة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٤٦ فكيف بهم إذا انقطعوا يوم الدين فما لهم من شافعين، {ولا صديق حميم} ٤٧ عندها يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لا يغني عنهم جمعهم ولا ما كانوا به يستكبرون، فيشهد الواحد منهم على نفسه بالخبال

والضلال، ويقر بمثل ما حكاه كتاب ربنا ذي الجلال: {ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانية} ٤٨.
١١ - (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]
{ثبورا} هلاكا وويلا.
{وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)}
ولكن من أحاطت به خطاياه، وامتلأت صحائفه بالشر والكفر بالله، فإن كتابه الذي طويت فيه صحف أعماله يعلق بشماله من وراء ظهره، فتعظم حيرته، وتشتد حسرته، ويعمى بصره كما عميت بصيرته، كما أنبأ العليم الخبير جل علاه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. } ٤٩؛ فإذا كان ذلك علته الغبرة، وتمنى لو أن مولاه ما أنشره: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ. ولم أدر ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية} ٥٠ ويعض على يديه ندما، ولكن لات حين مناص، ويصيح: يا ويلاه يا هلاكها، فينادى ومن على شاكلته: {لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ٥١ وتلومهم الملائكة: الخزنة، ويذكرونهم بان ربنا ما ظلمهم، ولكن جزاهم ببغيهم وبطرهم وكفرهم: {. . وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} ٥٢ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ٥٣ {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٥٤ {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٥٥ {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون} ٥٦؛ تعالى الله عما يقول المفترون الخاسرون! ويا حسرة على الذي جمع مالا وعدده {يحسب أن ماله أخلده} ٥٧ واللعنة على الذين أطغتهم القوة والسيطرة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٥٨ فكيف بهم إذا انقطعوا يوم الدين فما لهم من شافعين، {ولا صديق حميم} ٥٩ عندها يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لا يغني عنهم جمعهم ولا ما كانوا به يستكبرون، فيشهد الواحد منهم على نفسه بالخبال والضلال، ويقر بمثل ما حكاه كتاب ربنا ذي الجلال: {ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانية} ٦٠.
١٢ - (وَيَصْلَى سَعِيرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]
{ويصلى سعيرا} يدخل نارا مسعرة متقدة يخالط لهبها صلاه وجلده.
{وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)}
ولكن من أحاطت به خطاياه، وامتلأت صحائفه بالشر والكفر بالله، فإن كتابه الذي طويت فيه صحف أعماله يعلق بشماله من وراء ظهره، فتعظم حيرته، وتشتد حسرته، ويعمى بصره كما عميت بصيرته، كما أنبأ العليم الخبير جل علاه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. } ٦١؛ فإذا كان ذلك علته الغبرة، وتمنى لو أن مولاه ما أنشره: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ. ولم أدر ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية} ٦٢ ويعض على يديه ندما، ولكن لات حين مناص، ويصيح: يا ويلاه يا هلاكها، فينادى ومن على شاكلته: {لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ٦٣ وتلومهم الملائكة: الخزنة، ويذكرونهم بان ربنا ما ظلمهم، ولكن جزاهم ببغيهم وبطرهم وكفرهم: {. . وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} ٦٤ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ٦٥ {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٦٦ {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٦٧ {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون} ٦٨؛ تعالى الله عما يقول

المفترون الخاسرون! ويا حسرة على الذي جمع مالا وعدده {يحسب أن ماله أخلده} ٦٩ واللعنة على الذين أطغتهم القوة والسيطرة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٧٠ فكيف بهم إذا انقطعوا يوم الدين فما لهم من شافعين، {ولا صديق حميم} ٧١ عندها يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لا يغني عنهم جمعهم ولا ما كانوا به يستكبرون، فيشهد الواحد منهم على نفسه بالخبال والضلال، ويقر بمثل ما حكاه كتاب ربنا ذي الجلال: {ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانية} ٧٢.

١٣ - (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)}

ولكن من أحاطت به خطاياه، وامتلأت صحائفه بالشر والكفر بالله، فإن كتابه الذي طويت فيه صحف أعماله يعلق بشماله من وراء ظهره، فتعظم حيرته، وتشتد حسرته، ويعمى بصره كما عميت بصيرته، كما أنبأ العليم الخبير جل علاه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. } ٧٣، فإذا كان ذلك علته الغبرة، وتمنى لو أن مولاه ما أنشره: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ. ولم أدر ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية} ٧٤ ويعض على يديه ندما، ولكن لات حين مناص، ويصيح: يا ويلاه يا هلاكها، فينادى ومن على شاكلته: {لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ٧٥ وتلومهم الملائكة: الخزنة، ويذكرونهم بان ربنا ما ظلمهم، ولكن جزاهم ببغيهم وبطرهم وكفرهم: {. . وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} ٧٦ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ٧٧ {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٧٨ {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٧٩ {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون} ٨٠، تعالى الله عما يقول المفترون الخاسرون! ويا حسرة على الذي جمع مالا وعدده {يحسب أن ماله أخلده} ٨١ واللعنة على الذين أطغتهم القوة والسيطرة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٨٢ فكيف بهم إذا انقطعوا يوم الدين فما لهم من شافعين، {ولا صديق حميم} ٨٣ عندها يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لا يغني عنهم جمعهم ولا ما كانوا به يستكبرون، فيشهد الواحد منهم على نفسه بالخبال والضلال، ويقر بمثل ما حكاه كتاب ربنا ذي الجلال: {ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانية} ٨٤.

١٤ - (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٠]

{يحور} يرجع.

{وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثبورا (١١) ويصلى سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)}

ولكن من أحاطت به خطاياه، وامتلأت صحائفه بالشر والكفر بالله، فإن كتابه الذي طويت فيه صحف أعماله يعلق بشماله من وراء ظهره، فتعظم حيرته، وتشتد حسرته، ويعمى بصره كما عميت بصيرته، كما أنبأ العليم الخبير جل علاه: {ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. } ٨٥، فإذا كان ذلك علته الغبرة، وتمنى لو أن مولاه ما أنشره: {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ. ولم أدر ما حسابيهْ. يا ليتها كانت القاضية} ٨٦ ويعض على يديه ندما، ولكن لات حين مناص، ويصيح: يا ويلاه يا هلاكها، فينادى ومن على شاكلته: {لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} ٨٧ وتلومهم الملائكة: الخزنة، ويذكرونهم بان ربنا ما ظلمهم، ولكن جزاهم ببغيهم وبطرهم وكفرهم: {. . وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى

ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} ٨٨ {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} ٨٩ {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} ٩٠ {. . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} ٩١ {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون} ٩٢، تعالى الله عما يقول المفترون الخاسرون! ويا حسرة على الذي جمع مالا وعدده {يحسب أن ماله أخلده} ٩٣ واللعنة على الذين أطغتهم القوة والسيطرة: {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٩٤ فكيف بهم إذا انقطعوا يوم الدين فما لهم من شافعين، {ولا صديق حميم} ٩٥ عندها يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لا يغني عنهم جمعهم ولا ما كانوا به يستكبرون، فيشهد الواحد منهم على نفسه بالخبال والضلال، ويقر بمثل ما حكاه كتاب ربنا ذي الجلال: {ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانية} ٩٦.

١٥ - (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا)

[قوله تعالى: {بلى} أي ليس الأمر كما ظن، بل يحور إلينا ويرجع؛ {إن ربه كان به بصيرا} قبل أن يخلقه، عالما بأن مرجعه إليه؛ وقيل: بل ليحورن وليرجعن؛ ثم استأنف فقال: {إن ربه كان به بصيرا (١٥)} من يوم خلقه إلى أن بعثه] ٩٧.

١٦ - (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ)

{بالشفق} بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى وقت العشاء الآخرة.

{فلا أقسم بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨) لتركبن طبقا عن طبق (١٩) فما لهم لا يؤمنون (٢٠) وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون (٢١)}

[قوله تعالى: {فلا أقسم} أي فأقسم، و {لا} صلة] ٩٨.

يقسم الله تعالى بذهاب ضوء النهار واختفاء وهج الشمس مع بقاء آثار حمرتها في الأفق الغربي، حتى يتمادى الليل، فيعم ويلف بظلامه آفاقا شتى، ويقسم ربنا الحكيم بهذا الظلام الذي غشى جوانب من الكوكب الأرضي، وبالقمر المنير ليلة تمامه واكتماله بدرا؛ والمقسم عليه {لتركبن} لتجتازن معاشر المكلفين أهوالا في الآخرة بعد أهوال، ولتمرن في الدنيا بأحوال بعد أحوال أو: لتشهدن أهل الحق والإيمان يسرا بعد يسر، ونصرا بعد نصر؛ {فما لهم لا يؤمنون} فأي شيء منع الجاحدين والكافرين وصدهم عن التصديق واليقين بالله الملك الحق المبين؟! وماذا فتنهم عن اتباع المرسلين؟ {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} فأي مانع لهم حال عدم سجودهم عند قراءة القرآن؟.

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى: {فما لهم لا يؤمنون} يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات؟! وهذا استفهام إنكار؛ وقيل: تعجيب أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات. . . {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} أي لا يصلون؛ وفي الصحيح: أن أبا هريرة قرأ: {إذا السماء انشقت} فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها. . . اهـ.

١٧ - (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

{وسق} ضم ولف.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

١٨ - (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

{اتسق} استوى وتم وامتلأ.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

١٩ - (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)

{لتركبن طبقا عن طبق} لتركبن أيها الناس هولا بعد هول؛ أو لتلاقن أهل الإيمان فتحا بعد فتح، ونصرا بعد نصر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار

٢٠ - (فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢١ - (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لا يَسْجُدُونَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٦ إظهار
٢٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)

{بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون (٢٣) فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)}

عجيب صدود الضالين وجحودهم، استكبارهم عن الإذعان للحق وعنادهم، فمع وضوح دلائل الإيمان، وظهور البرهان على صدق القرآن لم يذعنوا له، ولا خشعوا لعظمته، ولا استجابوا لدعوته، بل سارعوا إلى تكذيبه، ونهوا عنه، ونأوا عنه، وعملوا على إطفاء نوره؛ {والله أعلم بما يوعون (٢٣)} وربنا أعلم بما افتروه على كتابه الحق من قولهم: {إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ٩٩؛ وصدق الله العلي العظيم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} ١٠٠؛ {فبشرهم بعذاب أليم (٢٤)} أمر من الله تعالى لنبيه أن ينذرهم بما أعد الله لهم من عذاب موجع جزاء على تكذيبهم كتاب ربهم؛ فأخبرهم يا محمد خبرا يظهر أثره على وجوههم وبشرتهم، وتعلمهم به مآلهم ومصيرهم: والتبشير في المشهور الإخبار بسار. . . {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثناء منقطع من الضمير المنصوب في {فبشرهم}، كأنه قال: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، {وعملوا الصالحات} أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم {لهم أجر} ثواب {غير ممنون (٢٥)} غير منقوص ولا مقطوع. . . وذكرنا ناس من أهل العلم أن قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

٢٣ - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]
{يوعون} يجمعون بين الكفران والنكران والجحود.

{بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون (٢٣) فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)}

عجيب صدود الضالين وجحودهم، استكبارهم عن الإذعان للحق وعنادهم، فمع وضوح دلائل الإيمان، وظهور البرهان على صدق القرآن لم يذعنوا له، ولا خشعوا لعظمته، ولا استجابوا لدعوته، بل سارعوا إلى تكذيبه، ونهوا عنه، ونأوا عنه، وعملوا على إطفاء نوره؛ {والله أعلم بما يوعون (٢٣)} وربنا أعلم بما افتروه على كتابه الحق من قولهم: {إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٠١؛ وصدق الله العلي العظيم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} ١٠٢؛ {فبشرهم بعذاب أليم (٢٤)} أمر من الله تعالى لنبيه أن ينذرهم بما أعد الله لهم من عذاب موجع جزاء على تكذيبهم كتاب ربهم؛ فأخبرهم يا محمد خبرا يظهر أثره على وجوههم وبشرتهم، وتعلمهم به مآلهم ومصيرهم: والتبشير في المشهور الإخبار بسار. . . {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثناء منقطع من الضمير المنصوب في {فبشرهم}، كأنه قال: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، {وعملوا الصالحات} أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم {لهم أجر} ثواب {غير ممنون (٢٥)} غير منقوص ولا مقطوع. . . وذكرنا ناس من أهل العلم أن قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

٢٤ - (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

{بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون (٢٣) فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)}

عجيب صدود الضالين وجحودهم، استكبارهم عن الإذعان للحق وعنادهم، فمع وضوح دلائل الإيمان، وظهور البرهان على صدق القرآن لم يذعنوا له، ولا خشعوا لعظمته، ولا استجابوا لدعوته، بل سارعوا إلى تكذيبه، ونهوا عنه، ونأوا عنه، وعملوا على إطفاء نوره، {والله أعلم بما يوعون (٢٣)} وربنا أعلم بما افتروه على كتابه الحق من قولهم: {إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٠٣، وصدق الله العلي العظيم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} ١٠٤، {فبشرهم بعذاب أليم (٢٤)} أمر من الله تعالى لنبيه أن ينذرهم بما أعد الله لهم من عذاب موجع جزاء على تكذيبهم كتاب ربهم، فأخبرهم يا محمد خبرا يظهر أثره على وجوههم وبشرتهم، وتعلمهم به مآلهم ومصيرهم: والتبشير في المشهور الإخبار بسار. . . {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثناء منقطع من الضمير المنصوب في {فبشرهم}، كأنه قال: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، {وعملوا الصالحات} أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم {لهم أجر} ثواب {غير ممنون (٢٥)} غير منقوص ولا مقطوع. . . وذكرنا ناس من أهل العلم أن قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

٢٥ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢٢]

{أجر} ثواب.

{غير ممنون} غير منقوص ولا مقطوع.

{بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون (٢٣) فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)}

عجيب صدود الضالين وجحودهم، استكبارهم عن الإذعان للحق وعنادهم، فمع وضوح دلائل الإيمان، وظهور البرهان على صدق القرآن لم يذعنوا له، ولا خشعوا لعظمته، ولا استجابوا لدعوته، بل سارعوا إلى تكذيبه، ونهوا عنه، ونأوا عنه، وعملوا على إطفاء نوره، {والله أعلم بما يوعون (٢٣)} وربنا أعلم بما افتروه على كتابه الحق من قولهم: {إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٠٥، وصدق الله العلي العظيم: {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} ١٠٦، {فبشرهم بعذاب أليم (٢٤)} أمر من الله تعالى لنبيه أن ينذرهم بما أعد الله لهم من عذاب موجع جزاء على تكذيبهم كتاب ربهم، فأخبرهم يا محمد خبرا يظهر أثره على وجوههم وبشرتهم، وتعلمهم به مآلهم ومصيرهم: والتبشير في المشهور الإخبار بسار. . . {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} استثناء منقطع من الضمير المنصوب في {فبشرهم}، كأنه قال: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، {وعملوا الصالحات} أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم {لهم أجر} ثواب {غير ممنون (٢٥)} غير منقوص ولا مقطوع. . . وذكرنا ناس من أهل العلم أن قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٠٧، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٠٨ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٠٩، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١١٠. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١١١ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٢، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١١٣، {ملك الناس. إله

الناس} ١١٤.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١١٥ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١١٦ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١١٧؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١١٨. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١١٩، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٢٠.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ١٢١، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ١٢٢، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ١٢٣، {والسماء ذات البروج} ١٢٤، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ١٢٥، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ١٢٦ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ١٢٧، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ١٢٨، {والضحى. والليل إذا سجى} ١٢٩، {والعصر} ١٣٠؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ١٣١، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ١٣٢. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ١٣٣، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ١٣٤.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ١٣٥، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ١٣٦. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٧، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ١٣٨ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ١٣٩ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ١٤٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ١٤١، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ١٤٢ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ١٤٣، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ١٤٤، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم

بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ١٤٥، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ١٤٦، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ١٤٧، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ١٤٨، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات
ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ١٤٩، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ١٥٠، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ١٥١.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ١٥٢. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ١٥٣؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ١٥٤ بعد هذه السبع أكثرها ١٥٥ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ١٥٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر

الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ١٥٧، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ١٥٨. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١٥٩ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ١٦٠، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ١٦١، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ١٦٢، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ١٦٣، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٦٤؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ١٦٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ١٦٦، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ١٦٧. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ١٦٨، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ١٦٩، {قد أفلح من تزكى} ١٧٠، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١٧١، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١٧٢؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١٧٣؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ١٧٤. وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٧٥، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٧٦؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٧٧، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٧٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٧٩، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٨٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٨١، {سندع الزبانية} ١٨٢، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٨٣.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٨٤، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٨٥ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٨٦، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٨٧ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٨٨، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٨٩، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٩٠، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٩١، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٩٢، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٩٣، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٩٤ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٩٥، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٩٦، {إن هذا لفي الصحف

الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٩٧، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٩٨، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٩٩، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٢٠٠، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ٢٠١.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ٢٠٢، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ٢٠٣، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ٢٠٤، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ٢٠٥ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ٢٠٦، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ٢٠٧، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ٢٠٨، {سنقرئك فلا تنسى} ٢٠٩؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ٢١٠؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ٢١١. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ٢١٢، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ٢١٣؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ٢١٤؛ {ورفعنا لك ذكرك} ٢١٥؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ٢١٦؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ٢١٧؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ٢١٨. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٢١٩.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ٢٢٠، {ورتل القرآن ترتيلا} ٢٢١ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ٢٢٢ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٢٢٣، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٢٢٤، {سبح اسم ربك الأعلى} ٢٢٥، {فذكر إنما أنت مذكر} ٢٢٦، {أما بنعمة ربك فحدث} ٢٢٧، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ٢٢٨، {. . واسجد واقترب} ٢٢٩، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ٢٣٠، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ٢٣١، {فليعبدوا رب هذا البيت} ٢٣٢، {فصل لربك وانحر} ٢٣٣، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٢٣٤، {قل هو الله أحد} ٢٣٥، {قل أعوذ برب الفلق} ٢٣٦، {قل أعوذ برب الناس} ٢٣٧، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ٢٣٨، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ٢٣٩ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ٢٤٠، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ٢٤١، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ٢٤٢، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ٢٤٣ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ٢٤٤ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ٢٤٥، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه.

بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ٢٤٦ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ٢٤٧، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ٢٤٨، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ٢٤٩، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ٢٥٠ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ٢٥١، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ٢٥٢، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ٢٥٣، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ٢٥٤، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ٢٥٥. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ٢٥٦، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٢٥٧، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٢٥٨ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٢٥٩ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٢٦٠ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٢٦١، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٢٦٢، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٢٦٣، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٢٦٤، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٢٦٥.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٥ سورة البروج:

سورة البروج:
(٨٥) سورة البروج مكية
وآياتها ثنتان وعشرون
كلماتها: ١١٠؛ حروفها: ٤٥٨
١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

{البروج} منازل النجوم والكواكب السيارة أو منازل القمر، أو النجوم العظام، وأصلها: القصور.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والسماء ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣) قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود (٥) إذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧) وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد (٩)}.
يقسم الله تعالى بالسماء ذات المنازل تنزل بها الكواكب، ويقسم سبحانه باليوم الموعود اليوم الآخر، أي الموعود به، وقد وعد الله أن يجمع الناس لهذا اليوم ويجمع أهل السماء والأرض: {وشاهد ومشهود} الشاهد قد يكون المراد به الله جل علاه، نقل ذلك عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير. كما بين القرآن: {. . وكفى بالله شهيدا} ١، {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم. } ٢، وقد يكون المراد به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما جاء ذلك في قوله ربنا تبارك اسمه: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} ٣ وقرأ ابن عباس {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} ٤. . قلت: وقد يشهد المال على صاحبه. . . ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل) أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة).
والمشهود له: الله الواحد يشهد له الخلق بالتوحيد، والمشهود عليه الخلق، تشهد عليهم الأنبياء والملائكة والصحف وتشهد عليهم الجوارح، وقد كثرت الأقوال في معنى الشاهد والمشهود حتى بلغت ثلاثين قولا؛ {قتل أصحاب الأخدود} جواب القسم على حذف اللام منه للطول. والأصل: لقتل. . . وقيل: على حذف اللام وقد، والأصل: لقد قتل. . . وقال بعض المحققين: إن الأظهر أنها دعائية دالة على الجواب، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش لملعونون أحقاء بأن يقال فيهم: قتلوا! كما هو شأن أصحاب الأخدود. لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفرة، وتذكيرهم بما جرى ممن تقدمهم من التعذيب لأهل الإيمان وصبرهم على ذلك، حتى يأتسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أنهم مثل أولئك عند الله عز وجل في كونهم ملعونين مطرودين. . . والأخدود الشق في الأرض.
في صحيح مسلم عن صهيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبلى، فإذا ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؟ فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ قال: أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل

له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقل: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه؛ فذهبوا فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا؛ وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا؛ وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس، في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني به، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني؛ فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السكك، نخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها- أو قيل له اقتحم- ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق) {النار ذات الوقود} بدل اشتمال من الأخدود،

وقد أوقد اللعين نارا كثيرة الحطب متأججة اللهب، {إذ هم عليها قعود} حين أحدق أعوان الطاغية وقعدوا حول النار {وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود} يشاهدون تحريق المؤمنين؛ وقيل: {على} بمعنى مع، والمعنى: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم، وما عابوا منهم ولا كرهوا إلا أنهم ثبتوا على الإيمان بالله الواحد. وكفروا بتأليه الطاغوت ذلك المنهاج من تأكيد المدح بما يشبه الذم، {العزيز الحميد} القاهر الذي يغلب ولا يُغلب، ولا يرافع ولا يُدافع؛ المحمود حقا، والذي يرجى ثوابه {إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم. } ٥؛ {الذي له ملك السماوات والأرض} والله المعبود بحق هو موجد السماوات والأرض ومن فيهما وما فيهما وما بينهما، وهو مليك ذلك كله ومالكه؛ {والله على كل شيء شهيد} فهو عليم سميع بصير رقيب خبير بجميع الأشياء، ومنها صبر المؤمنين على الحق، وإيثارهم رضا ربهم حتى على حياتهم؛ ورقيب سبحانه على فجور الكافرين وشرورهم وفسادهم وبغيهم، وسيجزى كل فريق بما عمل.

٢ - (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)

{اليوم الموعود} اليوم الآخر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ)

{الأخدود} الشق في الأرض.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٧ - (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٨ - (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
{نقموا} كرهوا وأنكروا، وعابوا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٩ - (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)
{فتنوا} محنوا وابتلوا المؤمنين ليفتنوهم ويردوهم عن الدين.
{إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير (١١) إن بطش ربك لشديد (١٢) إنه هو يبدئ ويعيد (١٣) وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد (١٥) فعال لما يريد (١٦)}
وعيد وتحذير للذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وإنذار من الواحد القهار لأصحاب العتو والاستكبار الذين يريدون أن يطفئوا نور ربنا بأفواههم، ويفتنوا المؤمنين والمؤمنات ويصرفوهم عن دينهم، أن المنتقم الجبار يزيدهم عذابا فوق عذابهم {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون} ٦ {. . . والفتنة أشد من القتل} ٧ {. . . والفتنة أكبر من القتل. } ٨ {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها} ٩. فإن يتوبوا يك خيرا لهم، وإلا فالنار مثوى لهم، تحرق أجسادهم باللهب والسعير، وتحرق قلوبهم وأفئدتهم بالخزي والذل والهوان والتحسير، {ثم لم يتوبوا} أي لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا {فلهم عذاب جهنم ولهم} صالحا، ويعتز بانتسابه إلى الدين المرتضى القويم، وربنا صاحب العرش- وقال القفال: {ذو العرض} ذو الملك والسلطان كأنه جعل العرش بمعنى الملك بطريق الكناية والتجوز، وجوز أن يبقى العرش على حقيقته، ويراد بذي العرش الملك لأن ذي العرض لا يكون إلا ملكا. {المجيد} الذي لا حد لمجده ولا نهاية لكرمه وفضله- والله سبحانه المنعوت بذلك. . . تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار ١٠، أي تناهيا فيه حتى يقتبس منهما. . . {فعال لما يريد} أي لا يمتنع عليه شيء يريده-. ١١
١١ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار
١٢ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار
١٣ - (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)
{يبدئ ويعيد} يبدئ الخلق بالإنشاء، ويعيد يوم الحشر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار
١٤ - (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)
{الغفور} عظيم الغفر والستر لمن شاء.
{الودود} المحب كثيرا لمن أطاع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار
١٥ - (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)
{المجيد} العظيم المجد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار

١٦ - (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٠ إظهار
١٧ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)
{هل} أي: قد
{هل أتاك حديث الجنود (١٧) فرعون وثمود (١٨) بل الذين كفروا في تكذيب (١٩) والله من ورائهم محيط (٢٠) بل هو قرآن مجيد (٢١) في لوح محفوظ (٢٢)}

مازالت الآيات الكريمة تثبت فؤاد النبي وكل مستيقن مصدق راسخ الإيمان باقتدار الملك الديان، وانتقامه من أهل الكفر والطغيان؛ قد أتاك نبأ الذين تجندوا على الله ورسله بأذاهم ومكرهم ومكروههم والهم بقتلهم، وعتوهم واستكبارهم عذاب الحريق} وذلك أن الجزاء من جنس العمل؛ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود! قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة- والظاهر أن المراد: ثم لم يتوبوا من فتنهم {فلهم عذب جهنم} أي بسبب فتنهم ذلك {ولهم عذاب الحريق} وهو نار أخرى زائدة الإحراق. . . وقال بعض الآجلة: أي فلهم عذاب جهنم بسبب كفرهم، فإن فعلهم ذلك لا يتصور من غير الكافر، {ولهم عذاب الحريق} بسبب فتنهم المؤمنين والمؤمنات، وفي جعل ذلك جزاء الفتن من الحسن ما لا يخفى. . . وقال بعضهم: لو جعل الخاص على العام للمبالغة فيه لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما كان أقرب. . . وجملة: {فلهم عذاب} وقعت خبرا لـ {إن}، أو الخبر الجار والمجرور، و {عذاب} مرتفع به على الفاعلية: وهو الأحسن، والفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط- ١٢.

يقول القرطبي: وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذبون بعذاب الحريق. فالأول عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرها.

{إن الذين آمنوا}] أي هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله، أي صدقوا به وبرسله؛ {وعملوا الصالحات لهم جنات} أي بساتين {تجري من تحتها الأنهار} من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ {ذلك الفوز الكبير} أي العظيم الذي لا فوز يشبهه، ولا يشابهه شيء اهـ.

{إن بطش ربك لشديد} كأن في هذا الوعد المزيد من تثبيت البشرى في قلب النبي والمؤمنين أن الله مخزي الكافرين، وموهن كيد الجبارين، ومنتقم ممن يشاقق الرسول ويؤذي أولياء الله المتقين؛ فإن البطش يعني: الأخذ الأليم العنيف البئيس؛ {إنه هو يبدئ ويعيد} إنه عز وجل يبدئ الخلق إنشاء، ثم يعيدهم بعد موتهم أحياء، وسيوفهم بما كانوا قد عملوا جزاء؛ {وهو الغفور الودود} وهو الستور يصفح عن ذنوب من يشاء ويسترها عليه فلا يفضح بها يوم تبلى السرائر، ويحصل ما كان في الصدور من النوايا والخواطر كالمحب كثيرا لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يدعو الله ويعمل عما جاءهم من الهدى من ربهم؛ فرعون طغى فلما دعي إلى الحق المبين حشر فنادي {فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى} ١٣ وأغرقه الله تعالى وملأه وجنده، ونجى موسى ومن معه أجمعين؛ وثمود نحتوا من الجبال بيوتا، ودلهم نبيهم صالح على الرشد فاستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: {. . أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا} ١٤ {وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله. } ١٥ {فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٦؛ فاصبر ومن معك فإن العاقبة للمتقين والخزي والسوء على الكافرين؛ {بل الذين كفروا} من قومك لا يصدقون بالوحي الذي جاء، فما هم في جهالة من أخبار فرعون وأعوانه وما غاب عنهم نكال الله تعالى بثمود وقوم صالح، فبيوتهم ما زالت خاوية بما ظلموا؛ {في تكذيب} لكن قومك يكذبون ما تدعون إليه إيثارا لأهوائهم.

{والله من ورائهم محيط (٢٠)} والمعبود بحق مالك أمرهم وسلطانه محيط بهم لن يعجزوا الله تعالى في الأرض ولن يعجزوه هربا، وعلمه سبحانه محيط بكل أقوالهم وأفعالهم وتكذيبهم ومكرهم وهو مجازيهم على ذلك؛ {بل هو قرآن مجيد} بل كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله {. . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. } ١٧ - تحقيق للحق، أي: بل هو كتاب شريف عالي الطبقة. . قال ابن خالويه: سمعت ابن الأنباري يقول: معناه: بل هو قرآن رب مجيد. . {في لوح} أي كائن في لوح {محفوظ}

أي ذلك اللوح من وصول الشياطين إليه، وهذا هو اللوح المحفوظ المشهور. . . ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته ونحو ذلك- ١٨ وربما يكون {محفوظ} من وصف القرآن الكريم ١٩، والله تعالى أعلم.

١٨ - (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

{فرعون} ملك مصر الذي ادعى أنه إله فأهلكه الله تعالى وجنده وأعوانه بعد تكذيبهم دعوة ربهم التي أرسل بها موسى وهارون.

{ثمود} قبيلة كانت تسكن الحجاز أرسل الله تعالى إليهم نبيا منهم هو صالح عليه السلام فكذبوه فأهلكهم ربنا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

١٩ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

٢٠ - (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

{محيط} عالم بما عملوا خبير به فمجازيهم عليه، أو أحاط بهم وحصروا فلا يملكون الإفلات من بأسه وبطشه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

٢١ - (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ)

{مجيد} كثير مجده، رفيع قدره، مقدس ذكره، عظيمة بركاته وخيره.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

٢٢ - (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

{محفوظ} صانه الله العظيم فلا تصل إليه الشياطين.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٤ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٦، {ملك الناس. إله الناس} ٢٧.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣٠، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٣.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٦، {والسماء ذات البروج} ٣٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤١، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٢، {والعصر} ٤٣؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٧.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٩. {٠ . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ

للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦١، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٤.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٧ بعد هذه السبع أكثرها ٦٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٨،

{وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٢، {قد أفلح من تزكى} ٨٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٧.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٤، {سندع الزبانية} ٩٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا

ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} ١١٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢١، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٧؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٨؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٩؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣٠؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤٠، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٤١، {. . واسجد واقترب} ١٤٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٥، {فصل لربك وانحر} ١٤٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٧، {قل هو الله أحد} ١٤٨، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٩، {قل أعوذ برب الناس} ١٥٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٦ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن

يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٨.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه، وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٦ سورة الطارق:

سورة الطارق:
(٨٦) سورة الطارق مكية
وآياتها سبع عشرة
كلماتها: ٧٢؛ حروفها: ٢٩١
١ - (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

{والطارق} والنجم؛ وأصل فعله: طرق، بمعنى: دق. ثم كثر استعماله فيما ينزل ليلا.

بسم الله الرحمن الرحيم

{والسماء والطارق (١) وما أدراك ما الطارق (٢) النجم الثاقب (٣) إن كل نفس لما عليها حافظ (٤)}.

أقسم الله تعالى بالسماء، وأقسم بالطارق الذي هو النجم نافذ الضوء، اللامع في ظلمات الليل، الهادي- بهداية الله- في البر والبحر، يستدل به السالكون، ويعرف السارون طريقهم؛ ولله تعالى أن يقسم بما يشاء، لكن ليس لنا إلا أن نقسم به سبحانه- باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العلا؛ وجواب القسم: {إن كل نفس لما عليها حافظ} ما كل نفس إلا عليها حافظ، يتولاها، ويمن عليها بالخير والنماء والبقاء إلى أن يحين أجلها، ويدفع عنها المهالك، ويهديها إلى المسالك؛ والحافظ: هو الله جل علاه، كما بين الكتاب الكريم

{. فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين} اهو حافظ السماوات والأرضين وما فيهن {. . ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم} ٢، وقيل: الحافظ: الملك الذي يكتب أعمال العباد، ويشير إليه قول الله- تبارك اسمه- {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين} ٣ يكتبون ويحفظون، أو الملائكة الموكلون برعاية العباد وحفظهم من المكاره: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. } ٤ و {من} في هذه الآية الكريمة عند أكثر المفسرين بمعنى الباء؛ {وما أدراك ما الطارق} تفخيما لشأن هذا القسم به؛ وقال سفيان: كل ما في القرآن {وما أدراك}؟ فقد أخبره به، وكل شيء قال فيه: {وما يدريك} لم يخبره به؛ [وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره؛ قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز] ٥.

٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

{الثاقب} النافذ ضوؤه، الذي يُهتدى به في ظلمات البر والبحر.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

{لما} بمعنى إلا، و {إن} قبلها نافية بمعنى: ما.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

{فلينظر} حض على النظر بعين البصيرة، وتحريض على التفكر والتأمل والتدبر.

{فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب والترائب (٧) إنه على رجعه لقادر (٨) يوم تبلى السرائر (٩) فما له من قوة ولا ناصر (١٠)}.

الله سبحانه يدعو المكلفين ليستبصروا ضعفهم وافتقارهم، وهوان نشأتهم وتواضع أصلهم، حتى يحملهم ذلك على الخضوع لجلال ربهم، الذي خلقهم من شيء يسير، من ماء مهين، يندفع من ظهر رجل ومن صدر أنثى، فيجعل الله القدير اللطيف الخبير من قدر صغير من الماءين جنينا يطوره ربنا ويصوره في الرحم كيف يشاء، يخرجه طفلا، ثم يجعل له ما يريد، ويعمره إلى أجل معدود، ويجعل منه نسبا وصهرا إذا شاء- جلت مشيئته- {إنه على رجعه لقادر} إن الذي أوجده من العدم ثم أماته، قادر على أن يعيده ليحاسبه ويجازيه؛ {يوم تبلى السرائر} يوم يظهر ما كانت قد انطوت عليه القلوب في الدنيا مما خفي على الناس، ولم يخف على رب الناس؛ {فما له من قوة ولا ناصر} فما للإنسان يومئذ من قوة فيه يواري بها خطيئته؛ {ولا ناصر} من غيره يمتنع به من بأس الله تعالى حين ينزل به؛- {فلينظر الإنسان مم خلق} متفرع على ما قبله، وليست الفاء بفصيحة ٦،. . كأنه قيل: فليعرف المهين عليه بنصبه الرقيب أو بنفسه، وليعلم رجوعه إليه تعالى، وليفعل ما يسر به حال الرجوع. . . وأما على تقدير أن يكون المراد به العقل فلأنه لما أثبت- سبحانه- أن له عقلا يرشد إلى المصالح ويكف عن المضار، حثه على استعماله فيما ينفعه، وعدم تعطيله وإلغائه، كأنه قيل: فلينظر بعقله وليتفكر به في مبدأ خلقه حتى يتضح له قدرة واهبه، وأنه إذا قدر على إنشاء من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو سبحانه على إعادته أقدر وأقدر، فيعمل بما يسر به حين الإعادة. . . وقيل {من ماء} مع أن الإنسان لا يخلق إلا من ماءين: ماء الرجل وماء المرأة. . لأن المراد به الممتزج من الماءين في الرحم، وبالامتزاج صارا ماء واحدا-. ٧

٦ - (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

{دافق} ينصب مندفعا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار

٧ - (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

{الصلب} الظهر.
{الترائب} عظام الصدر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار
٨ - (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار
٩ - (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)
{تبلى} يفعل بها ما هو كالاختبار فيظهر ما كان خافيا.
{السرائر} ما تكن القلوب وتضمر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار
١٠ - (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٥ إظهار
١١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)
{ذات الرجع} صاحبة النفع أو المطر يأتي من جهتها، أو الملائكة ينزلون منها ويعرجون إليها، والكواكب تدور في فلكها.
{والسماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع (١٢) إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤) إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا (١٦) فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧)}.
{والسماء ذات الرجع (١١)} قسم بعد قسم، بالسماء المظلة، والمقلة للملأ الأعلى، ومن جهتها يأتي المطر الذي به الحياة والسقيا، وتهبط منها الملائكة وتعرج إليها، وفي فلكها تدور الكواكب وتسبح.
١٢ - (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)
{ذات الصدع} صاحبة الشق الذي يجرى فيه النهر، وينفلق عن النبت والشجر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
{والأرض ذات الصدع (١٢)} وقسما بالأرض التي سخرناها، وانقادت لكم وذللناها، فهي تنشق فيكون منها البحار والأنهار، وتؤسس عليها الأبنية وتنفلق عن النبات والأشجار، وفي ذلك برهان على عظيم سلطان الواحد القهار، وحكمة الفاعل المختار.
١٣ - (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)
{فصل} يفصل بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام، وبين الهدى والضلال، وبين السعداء وأهل الخبال.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
{إنه لقول فصل (١٣)} هذا هو المقسم عليه، إن الكتاب المجيد لقول ربكم العزيز الحميد، يفصل بين الغي والرشد، والإثم والبر، والإيمان والكفر، والفوز والخسر.
١٤ - (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
{وما هو بالهزل (١٤)} بالحق أنزلناه وبالحق نزل، وما كنا إذا أوحيناه لاهين ولا لاعبين- تعالى ربنا عن كل نقص وسوء، وتنزه عن إفك المبطلين- ليس القرآن بالباطل واللعب.
١٥ - (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
{إنهم يكيدون كيدا (١٥)} إن أكابر المجرمين، والملأ الكافرين يعملون المكايد. ويحتالون ما وسعتهم الحيلة، ويمكرون المكر الكبير ليطفئوا نور الله بإلقاء الشبهات، والطعن في النبوة، والسعي في قتل النبي والذين يأمرون بالقسط من الناس، وما هو من هذا البلاء

يريدون به الصد عن سبيل ربنا ودينه؛ {كيدا} عظيما، فإن التنوين والتوكيد يشعران بذلك؛ {وأكيد كيدا (١٥)} - سمى جزاء الكيد بالاستدراج والإمهال المؤدي إلى زيادة الإثم الموجبة لشدة العذاب {كيدا}.

يقول صاحب روح المعاني: أي أقابلهم بكيد لا يمكن رده، حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون، أو أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره وإكثار نوره من حيث لا يحتسبون. . . {فمهل الكافرين} فلا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك؛ أو تأن وانتظر الانتقام منهم. . . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. اه

عن السدي: حتى آمر بالقتال، ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل؛ ومما قال ابن زيد. . . لما أراد الانتصار منهم أمره بجهادهم وقتالهم والغلظة عليهم؛ ومما نقل عن الجوهري في {رويدا} أن يكون نعتا للمصدر؛ أي: إمهالا رويدا: ويجوز أن يكون للحال؛ أي: أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب. اه.

فاصبر أيها المؤمن على ما هديت إليه من الدين الذي لم يرتض الله تعالى غيره، ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون، بل استمسك بمنهاج القرآن، وحين يتأذن ربنا بملاقاة أهل البغي والعدوان سيعذبهم بأيدينا وينصرنا عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين.

١٦ - (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٧ - (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)

{أمهلهم} أنظرهم، ولا تستعجل لهم.

{رويدا} قريبا، قليلا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٨، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٩ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٠، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١١. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٢ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ١٣، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٤، {ملك الناس. إله الناس} ١٥.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٦ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٧ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٨؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٩. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها.

والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٠، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٢، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٣، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٤، {والسماء ذات البروج} ٢٥، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٦، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٧ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٨، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٩، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٠، {والعصر} ٣١، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٢، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٣. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٤، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٥.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٦، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٧. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٨، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٩ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٠ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٢، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٣ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٤، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٥، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٦، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٧، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٨، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٩، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا.

وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٠، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥١، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٢.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٣. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٤؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٥٥ بعد هذه السبع أكثرها ٥٦ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٨، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٩. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٠ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦١، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٢، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٣، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٤، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٥؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٧، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٨. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٩، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها

الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٠، {قد أفلح من تزكى} ٧١، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٢، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٣؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٤؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٥.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٦، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٧؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٨، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٠، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨١، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٢، {سندع الزبانية} ٨٣، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٤.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٥، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٦ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٧، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٨ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٩، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٠، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩١، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٢، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٣، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٤، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٥ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٦، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٧، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٨، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٩٩، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٠، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠١، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٢.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٣، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٤، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٥، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٦ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٧، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٨، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٠٩، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٠؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت

الذكرى} ١١١؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٢. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٣، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٤؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٥؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٦؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٧؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٨؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١١٩. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٠.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢١، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٢ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٣ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٤، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٥، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٦، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٧، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٨، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٢٩، {. . واسجد واقترب} ١٣٠، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣١، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٢، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٣، {فصل لربك وانحر} ١٣٤، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٥، {قل هو الله أحد} ١٣٦، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٧، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٨، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٣٩، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٠ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤١، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٢، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٣، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٤ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٥ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٧ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٨، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٩، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٠، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥١ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٢، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٣، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٤، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٥، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٦. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٧، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٨، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٩ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٠ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه

استغنى} ١٦١ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٢، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٣، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٤، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٥، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٦.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٧ سورة الأعلى:

سورة الأعلى:

(٨٧) سورة الأعلى مكية

وآياتها تسع عشرة

كلماتها: ٧٢؛ حروفها: ٢٩١

١ - (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى)

{سبح} نزه وقدس؛ وقل: سبحان ربي؛ وقد يراد بالتسبيح: الصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥)}

نادانا الله العلي العظيم، وخاطبنا في شخص نبيه الكريم أن ننزهه ونقدسه جل علاه، ونكرمه عما لا يليق به، ونبعده عز ثناؤه عن كل سوء ونقص؛ فإنه رفيع المقام، علا وظهر على كل شيء؛ وهو الذي أوجد الخلائق، وأنشأهم وأبدعهم دون مشارك، وعدلهم وأتقن صنعهم، وأحكم تكوينهم {. . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} ١ ولا عيب ولا خلل ولا قصور؛ بل كل مهيأ لما خلق له، وكل ما فطر وبرأ وذرأ فهو بقدر لا يتعداه، ولو تجاوز أي منها قدره لفسدت الحياة؛ وركب في كل مخلوق ما يبلغ به الهدى الذي حد له؛ {والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} من أعلى المخلوقات إلى أدناها تمضي سنة ربنا التي أجراها، يوجد ثم يعدم، ويحيي ثم يميت مهما تخلل بين الأمرين من زخرف وزينة {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن

بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون} ٢، {. . كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما} ٣؛ فالحكيم الخبير ينبت ما ترعاه الدواب بقدرته، وتراه مبهجا مخضرا ثم لا يلبث أن يميل إلى السمرة والسواد ثم يتيبس ويغدو هشيما؛ قال ابن عباس والسدي: {سبح اسم ربك الأعلى} أي عظم ربك الأعلى؛ والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى، وقال الحسن: {سبح اسم ربك الأعلى} أي صل لربك الأعلى؛ مما أورد صاحب روح المعاني؛ نزه أسماءه عز وجل عما لا يليق، فلا تؤول مما أورد منها اسم من غير مقتض. . . ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلا إذا كان مختصا كالاسم الجليل. . . وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه ٤. . . والأعلى: صفة للرب، وأريد بالعلو: العلو بالقهر والاقتدار، لا بالمكان لاستحالته عليه سبحانه؛ والسلف وإن لم يؤولوه بذلك لكنهم أيضا يقولون باستحالة العلو المكاني عليه- عز وجل. اهـ ٥ {الذي قدر فهدى} أي أرشد. . . هدى الإنسان للسعادة والشقاوة وهدى الأنعام لمراعيها؛ وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا ولمراعيهم إن كانوا وحشا.

٢ - (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

{سوى} عدل وأحكم وأحسن، فليس فيما خلق تخليط، وهيأ كل مخلوق لما يبلغ به المراد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)

{قدر} جعل الأشياء على مقادير.

{فهدى} فوجه كل مخلوق إلى ما يصدر عنه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)

{أخرج المرعى} أنبت ما ترعاه الدواب.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)

{غثاء} أخلاطا وهشيما.

{أحوى} شديد الخضرة، أسمر، يابسا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى)

{سنقرئك} سيقرأ عليك أمين وحينا جبريل ما نوحيه إليك من كلامنا.

{فلا تنسى} لن يتفلت منك القرآن، ولن يغيب عنك منه شيء.

{سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكر إن نفعت الذكرى (٩) سيذكر من يخشى (١٠) ويتجنبها الأشقى (١١) الذي يصلى النار الكبرى (١٢) ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٣)}.

يمكن أن تكون الآيات الثلاث الأولى بشرى للنبي صلى الله عليه وسلم بأن مولاه سيعلمه الكتاب العزيز فينتقش في صدره الكريم، فإن ربه به وبكل جهر وسر عليم، وإنه لميسر له ومسهل بهذا المنهاج سبيل اليسر الذي لا عنت فيه ولا عسر ولا مشقة ولا حرج؛ ولقد شهد القرآن أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يعجل في تلاوة ما يسمع من الفرقان إثر قراءة جبريل عليه السلام، فناداه الله جل علاه معلما إياه: {. . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه} ٦ وقال تبارك اسمه: {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرآناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٧؛ [قال مجاهد والكلبي: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها؛ فنزلت: {سنقرئك فلا تنسى} بعد

ذلك شيئا، فقد كفيتكه، ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئا، كقوله تعالى: {خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك. } ٨ ولا يشاء. . . وقيل: {إلا ما شاء الله} أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا، وقد روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نسخت، فسأله فقال: " إني نسيتها "] ٩.

{فذكر إن نفعت الذكرى} فأرشد يا محمد وذكر وانصح وعظ فإنها تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر، كما شهد بذلك القرآن في آية مباركة: {وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون} ١٠. وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع، فحذف، كما قال: {. . سرابيل تقيكم الحر} ١١ والتقدير: وتقيكم البرد، فحذف اكتفاء بالأول، أو تكون {إن} بمعنى: ما، أو بمعنى: قد، أو إذ كقوله تعالى: {. . وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} ١٢ أي إذ كنتم، فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم {سيذكر من يخشى} سيتعظ ويعتبر ويتذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فالخائفون من جلال الله تعالى وغضبه يحذرون مخالفة أمره، وهم الذين ينفعهم الإنذار، والتذكير بحق العزيز الغفار، الواحد القهار، كما جاء في الكتاب الكريم: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن. } ١٣ وكذا الآية الكريمة {. . . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ١٤، أما الذين لا يرجون لقاء الله ورضوا بالمتع الزائلة واطمأنوا بالحياة فلا يتذكرون ولا يزدجرون، ومهما قرئ عليهم القرآن- إلا قليلا منهم- لا يفقهون ولا يؤمنون، يقول الله العليم الخبير: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذ ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} ١٥، ولهذا جاءت الآيتان الكريمتان من هذه السورة بعد ذلك تبينان أن الشقي- أعاذنا الله تعالى من الشقوة - بمعزل عن التذكر والتبصر {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} ١٦ {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشاد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} ١٧، ومن أعرض عن التذكر فقد استأهل- بشقوته- أن يكون في الآخرة من أهل النار، لا يسعد فيها بالحياة، ولا يستريح من عذابها بالممات ١٨.

٧ - (إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

{إلا ما شاء الله} لا يكون نسيان أبدا، إلا أن تنسى قليلا فنذكرك.

{الجهر} ما ظهر من فعل أو قول أو نحوهما.

{يخفى} يغيب ويستسر به، ويستبطن.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى)

{نيسرك لليسرى} نيسر لك ما فيه التيسير على الخلق، الطريقة الأيسر الأسهل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٩ - (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

{فذكر} فأرشد، وعظ.

{إن نفعت}: حذف المعطوف، والتقدير: أو لم تنفع، أو تكون {إن} بمعنى: ما، أو بمعنى: قد، أو إذ كقوله تعالى: {. . وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} ١٩.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٠ - (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى)

{سيذكر} سيتذكر فيتفكر ويتعظ.

{من يخشى} من يتق الله تعالى ويحذر غضبه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١١ - (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)
{ويتجنبها الأشقى} ويتباعد عن التذكر والاعتبار والاتعاظ من غلبت عليه الشقوة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٢ - (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)
{يصلى النار الكبرى} يشوى صلاه وجلده في نار جهنم. وإنها لتزيد على ما عرف الناس من نار الدنيا سبعين مثلا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٣ - (ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا)
{ثم لا يموت فيها ولا يحيى} يخلد، فلا يموت لينقضي عناؤه، ولا يحيا حياة تنفع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٤ - (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)
{أفلح} ظفر بما يرجو، ونجا مما يحذر.
{تزكى} تطهر.
{قد أفلح من تزكى (١٤) وذكر اسم ربه فصلى (١٥) بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)}.

من تذكر واعتبر، فاستجاب لأمر مولاه، وعن مناهيه- سبحانه- ازدجر، فقد فاز وظفر بخيري العاجلة والآجلة، فقد جعلها الله الشكور لمن آمن وأصلح وتزكى وتطهر، وعبد ربه فصلى {. . ولذكر الله أكبر}، لكن زين للناس حب الشهوات فغفلوا عن التدبر، وغرتهم الأماني فأقبلوا على العرض الأدنى، وفضلوه وقدموه مع أنه زخرف ومتاع قليل لا يلبث إلا حينا ثم يفنى، {والآخرة خير وأبقى} إذ نعيم الآخرة لا يعقب ندما، ولا يخالط هما ولا إثما، ولا نصبا ولا مللا ولا هرما، وهو أبدي دائم لا تحول عنه ولا خروج منه ولا موت يقطعه، إنما هي مقاعد صدق عند مليك مقتدر، ورضوان من ربنا العلي الأعلى، لا ييأسون بعده ولا يحل عليهم سخط أبدا، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} إن هداية القرآن الكريم، ومنهاجه القويم، ودعوته إلى الصراط المستقيم لحق شهدت به رسالات الأنبياء السابقين، كما شهد بذلك قول الله العلي العظيم: {وإنه لتنزيل رب العالمين} ٢٠ إلى قوله سبحانه: {وإنه لفي زبر الأولين} ٢١، فقد ثبت فيها معنى العهود والمطالب الربانية الإجمالية التي تضمنها الكتاب الحكيم الذي ختم الله تعالى به الوحي والرسالات؛ فقد نبأنا العليم الخبير ما دعا به إبراهيم وإسماعيل حين رفعا قواعد بناء البيت العتيق، فقال تبارك اسمه: {. . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك أرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} ٢٢.

وقال جل ثناؤه {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} ٢٣.

[وقال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدم زكاتي بين يدي صلاتي؛ فقال سفيان: قال الله تعالى: {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى}؛ وروي عن أبي سعيد الخدري وابن عمر أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد. . . وقد تقدم أن هذه السورة مكية؛ في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر؛ القشيري: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل؛. . وقيل: {وذكر اسم ربه} وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه، ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه؛. . . وروى ثابت عن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، الناس يتكلمون ويذكرون الدنيا؛ قال أبو موسى: يا أنس! إن هؤلاء يكاد أحدهم يفرى الأديم بلسانه فريا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة؛ ثم قال يا أنس، ما ثبر الناس-

أي ما حبسهم وما صدهم ومنعهم عن طاعة الله- ما بطأ بهم؟ قلت: الدنيا والشيطان والشهوات قال: لا، ولكن عجلت الدنيا، وغيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عدلوا- أي ما ساووا بها شيئا- ولا ميلوا، أي: ما شكوا ولا ترددوا. . . وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع) صحيح] ٢٤.

أخرج مسلم وغيره عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة {سبح اسم ربك الأعلى} و {هل أتاك حديث الغاشية} وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا.

١٥ - (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٦ - (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

{تؤثرون} تقدمون وتفضلون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٧ - (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

{أبقى} أدوم، لأنها أبدية لا انتهاء لها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٨ - (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

١٩ - (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

{صحف} جمع صحيفة، نزلت من الله تعالى على رسوليه إبراهيم وموسى عليهما صلوات الله وسلامه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٤ إظهار

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢٥، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٦ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٧، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٨. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٩ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٣٠، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣١، {ملك الناس. إله الناس} ٣٢.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٣٣ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣٤ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣٥، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٦. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا

الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٧، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٨.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٩، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤٠، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤١، {والسماء ذات البروج} ٤٢، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٤٣، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤٤ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤٥، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٦، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٧، {والعصر} ٤٨؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٩، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥٠. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥١، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٥٢.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٥٣، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥٤. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥٥، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٦ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٧ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٩، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦٠ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦١، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٦٢، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٦٣، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦٤، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦٥، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا

ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٦، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٧، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٨، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٩.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧٠. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧١، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٧٢ بعد هذه السبع أكثرها ٧٣ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧٥، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٦. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٧ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٨، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٩، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨٠، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٨١، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٨٢، أما

النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٨٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨٤، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨٥. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٦، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٧، {قد أفلح من تزكى} ٨٨، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٩، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩٠؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩١؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٩٢.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٩٣، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩٤؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩٥، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٧، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٩، {سندع الزبانية} ١٠٠، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠١.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٠٢، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٠٣ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠٤، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠٥ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٦، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٧، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٨، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٩، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١٠، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١١، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١١٢ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١١٣، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١٤، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١٥، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٦، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٧، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٨، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٩.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢٠، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٢١، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٢٢، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى.

فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٢٣ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢٤، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢٥، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٦، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٧؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٨؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٩. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣٠، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣١؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٣٢؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٣٣؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣٤؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣٥؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٦. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٧.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٨، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٩ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤٠ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤١، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٤٢، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٤٣، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤٤، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤٥، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٤٦، {. . واسجد واقترب} ١٤٧، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٨، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٩، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥٠، {فصل لربك وانحر} ١٥١، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٥٢، {قل هو الله أحد} ١٥٣، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥٤، {قل أعوذ برب الناس} ١٥٥، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٦، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٧ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٨، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٩، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦٠، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦١ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٦٢ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٦٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦٤ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦٥، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٦، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٧، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٨ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٩، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧٠، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}

١٧١، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٧٢، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٧٣. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧٤، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧٥، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٦ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٧ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٨ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٩، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨٠، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨١، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٨٢، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٨٣.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٨٨ سورة الغاشية:

سورة الغاشية:
(٨٨) سورة الغاشية مكية
وآياتها ست وعشرون
كلماتها: ٩٢، حروفها: ٣٨١
١ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)
{هل} هاهنا بمعنى: قد.
{أتاك} جاءك، وأوحى إليك.
{الغاشية} الساعة التي تغشى الخلائق بشدائدها وأهوالها يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{هل أتاك حديث الغاشية (١) وجوه يومئذ خاشعة (٢) عاملة ناصبة (٣) تصلى نارا حامية (٤) تسقى من عين آنية (٥) ليس لهم طعام إلا من ضريع (٦) لا يسمن ولا يغني من جوع (٧)}.

يخاطب الله تعالى نبيه لينذر الناس يوم الآزفة، وينذر يوم الجمع لا ريب فيه {فريق في الجنة وفريق في السعير} ١ وسمى يوم الغاشية

كما سمى الواقعة والطامة والصاخة والقارعة لشدة ما يهول الناس ويغشاهم في ذلك اليوم العسير- ندعوا مولانا البر الرحيم أن ينجينا من فزعه وأهواله وعذابه ونكاله- {فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا} ٢ وأسرف ولم يؤمن بآيات ربه، وكذب وتولى عن الحق فهو يومئذ من أصحاب الوجوه الذليلة المنكسرة {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم. } ٣ {. . . خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي} ٤ {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل. } ٥.

روى عن الحسن قال لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل ٦، عليه سواد فلما رآه عمر بكى، فقال له: يا أمير المؤمنين! ما يبكيك؟ قال أهذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة}. {تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية} وزمرة وجماعة أصحاب الوجوه الذليلة تصلى يوم الحساب والجزاء وتذوق لهب النار ويصيبهم صلاؤها وحرها وهي دائما محماة متقدة، ويسقون من عين ماء تناهي حره {. . وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب} ٧ {. . وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم} ٨؛ {ليس لهم طعام إلا من ضريع} طعام المعذبين لا يكون هنيا ولا شهيا وإنما هو الشوك الخبيث الشنيع، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: {فليس له اليوم هاهنا حميم. ولا طعام إلا من غسلين} ٩ وقال هاهنا: {إلا من ضريع} وهو غير الغسلين، ووجه الجمع أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد. {لا يسمن ولا يغني من جوع}. . قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع فنزلت: {لا يسمن ولا يغني من جوع} وكذبوا! فإن الإبل إنما ترعاه رطبا، فإذا يبس لم تأكله.

٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

{خاشعة} ذليلة منكسة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

{عاملة ناصبة} يعمل أصحابها ويتعبون من جر السلاسل، والصعود والهبوط بها في النار.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)

{تصلى} يصيبهم صلاؤها وحرها.

{حامية} دائمة الحمى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ)

{ضريع} نبات ذو شوك خبيث شنيع.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٧ - (لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٨ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

{ناعمة} ذات نعمة.

{وجوه يومئذ ناعمة (٨) لسعيها راضية (٩) في جنة عالية (١٠) لا تسمع فيها لاغية (١١) فيها عين جارية (١٢) فيها سرر مرفوعة (١٣) وأكواب موضوعة (١٤) ونمارق مصفوفة (١٥) وزرابي مبثوثة (١٦)}.

لما أنذر القرآن وحذر من مصير ومآل الكفار والفجار، وعد وبشر بما أعد الله تعالى للمتقين الأخيار، فوجوههم في الآخرة يعلوها السرور، ويظهر عليه البشر والتنعم {تعرف في وجوههم نضرة النعيم} ١٠ يقول أهل اللغة: وهنا واو مقدرة فكأن الكلام: ووجوه يومئذ ناعمة، للفصل بينها وبين ما سبق؛ وقال بعضهم: لم تعطف هذه الجملة على تلك إيذانا بكمال تباين مضمونيهما- {لسعيها راضية} أي: لثواب عملها الذي عملته في الدنيا راضية. حيث نالت به الدرجات؛ {في جنة عالية} ومقام هذه الأنفس في جنة مترفعة أو عالية القدر، فنعيمها حسي ومعنوي وخالد؛ {لا تسمع فيها لاغية} لا تسمع أيها الفائز بالجنات العالية كلمة لغو، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم- كما قال الفراء: [. . وجوز كونها صفة كلمة محذوفة على أنها للنسب أي كلمة ذات لغو؛ وجوز على تقدير كونها صفة كون الإسناد مجازيا لأن الكلمة ملغو بها لا لاغية] ١١.
{فيها عين جارية} في الجنة التي وعد المتقون {عين} قال الزمخشري: التنكير للتكثير كما في {علمت نفس. } ١٢ أي عيون كثيرة تتفجر بالماء العذب، والشراب الطهور، وتتدفق وتجري بمشارب لا تنقطع. بينها قول الحق جل علاه: {. . فيها أنهار من ماء غير آسن وأنها رمن لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} ١٣.
{فيها سرر مرفوعة} في الجنات سرر كثيرة رفيعة السمك عالية أو ذات قدر مرتفع، لنومهم وجلوسهم كما جاء في آيات كريمات أخر {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين} ١٤ {على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين} ١٥ {مكتئين على سرر مصفوفة} ١٦.
{وأكواب موضوعة} وفيها أقداح ليست لها عرا ولا خراطيم، وضعت بين أيديهم ليشربوا بها ما شاءوا من شراب، ولقد وصف الله الأكواب بأنها تكون من الفضة الشفافة: {ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة} ١٧ وتكون من الذهب كما في الآية الكريمة: {يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب} ١٨ إذ التقدير- والله أعلم- بصحاف من ذهب وأكواب كذلك؛ وكونها موضوعة لا ينافي أنه يطاف عليهم بها؛ {ونمارق مصفوفة} مفردها: نمرق، ونمرقة أي وسادة يستندون إليها ويتكئون عليها، صف بعضها إلى جنب بعض؛ {وزرابي مبثوثة} وبسط، وطنافس مبسوطة مفرقة في المجالس وقيل: {الزرابي} البسط العراض الفاخرة: وقيل هي التي لها خمل رقيق.

٩ - (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)
{لسعيها} لثواب عملها الذي عملته في الدنيا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٠ - (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)
{عالية} مرتفعة المحل أو القدر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١١ - (لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً)
{لاغية} لغوا، وهو الكلام الذي لا فائدة منه ولا خير فيه.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٢ - (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)
{عين} فتحات تتفجر ويتدفق منها الماء والأشربة اللذيذة.
{جارية} يتتابع الدفق ولا ينقطع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار

١٣ - (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)
{سرر} جمع سرير.
{مرفوعة} رفيعة السمك أو المقدار.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار
١٤ - (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)
{وأكواب} وقداح لا عرا لها.
{موضوعة} بين أيديهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار
١٥ - (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)
{ونمارق} ووسائد.
{مصفوفة} صف بعضها إلى جنب بعض للاتكاء عليها والاستناد إليها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار
١٦ - (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)
{وزرابي} وبسط وطنافس.
{مبثوثة} مبسوطة متفرقة في المجالس.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٨ إظهار
١٧ - (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)
{الإبل} الجمال والبعران، اسم جمع لا واحد له من لفظه.
{أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠)}.

الحديث من أول السورة عن الآخرة وهولها، وحال أهلها، فالذين آمنوا يعلمون أنها الحق {. . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} ١٩ ويشهدون أن الجنة حق وأن النار حق، لكن الذين ادارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها {بل الذين كفروا في تكذيب} ٢٠، فجاءت الآيات هنا تسوق البرهان الذي يرسخ الإيمان بيوم الحساب، ولا ينكره إلا مسرف مرتاب، فذكرهم سبحانه بأنه الفعال لما يريد، فكيف يعجزه أن يبدئ ويعيد؟! أفلا يفكر المنكرون كيف خلق الله تعالى الأرض والجبال، والسماء والحيوان الذي منه هذه الأنعام من البعران والجمال؟! إنها- كما وصفها العرب- ركوبة حلوبة، أكولة حمولة؛ وإنها تأكل النوى والقت، وتخرج اللبن {وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس} ٢١ كما أنها على عظم خلقه، وكبر جسمها ذللها الله تعالى لنا فهي منقادة مسخرة حتى للطفل والصبية، وفي ذلك يقول الشاعر:

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير.

فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره؛ فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. . . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء ثابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم.

{وإلى السماء كيف رفعت} ولينظروا إلى السماء وليتفكروا كيف رفعها بديع السماوات والأرض رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا علائق تمسكها!

{وإلى الجبال كيف نصبت} ولينظروا ببصائرهم وأبصارهم إلى الجبال التي وضعها الله تعالى وضعا ثابا مثبتا، فهي لا تزول من أماكنها إلا حين يأتي أمر ربنا سبحانه، وهي مثبتة لكوكب الأرض كله حتى لا يضطرب أو يميد، بل في إرسائها الخير الكثير والنفع الوفير، فعلى قممها يتحدر الغيث، وفي أصولها يسكن الله تعالى قدرا منه يختزن فتكون منه العيون، وعلى صخورها تتحدر السيول فتشق الأنهار،

وبين صخورها وعلى سفوحها تكون الزروع والأشجار والمعادن وكريم الأحجار، وصدق الله العظيم: {والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢.
{وإلى الأرض كيف سطحت} وليفتحوا أعينهم، وليوجهوا تأملهم إلى الأرض التي يعيشون عليها ويمشون في مناكبها كيف وطأها ربنا ومهدها، وبسطها ومدها {ألم نجعل الأرض مهادا} ٢٣ ألم يجعلها الله مأوى لكم كالمهاد الذي يفرش للطفل الصغير؟! وجعلها بقدرته وحكمته ذلولا، فلا هي شديدة القساوة فيستحيل أن تحفر فيها الآبار أو تشق الأنهار أو توضع تحت سطحها قواعد البناء، أو يستخرج من باطنها الكنوز والمعادن، ولا هي رخوة تسوخ فيها الأقدام، ويتعذر السعي والتشييد فوقها.
[والمعنى: أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور؟ ويسمعوا إنذارك ويستعدوا للقاء الله بالإيمان والطاعة؟!] ٢٤.
١٨ - (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)
{رفعت} نصبت كالسقف فوق الأرض دون عمد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
١٩ - (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)
{نصبت} وضعت وضعا ثابتا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢٠ - (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)
{سطحت} وطئت ومهدت.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٧ إظهار
٢١ - (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)
{فذكر} فعظ، ومرهم بالتفكر.
{فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمصيطر (٢٢) إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤) إن إلينا إيابهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦)}.
فليس عليك أيها النبي هداهم، ولا على الداعين من المؤمنين أن يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين، وإنما عليكم الوعظ والتذكير، وسوق الحجة والأمر بالتدبر والتفكير {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} ٢٥ {. . إن عليك إلا البلاغ. } ٢٦، {. . وما أنت عليهم بجبار. } ٢٧ {. . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} ٢٨، {إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر} لكن من أعرض عن الحق، وكفر بما دعوت إلى الإيمان به، فإن المعبود بحق يعذبه عذابا ليس فوقه عذاب- و {من} موصولة مبتدأ، وما بعدها صلة، والعائد الضمير المستتر فيه، وقوله سبحانه: {فيعذبه الله العذاب الأكبر} خبر المبتدأ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط- ٢٩.
وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر: المسلط على الشيء، ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، والعذاب الأكبر: عذاب جهنم الدائم عذابها- أعاذنا الله تعالى من المقت والعذاب.
٢٢ - (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)
{بمصيطر} بمتسلط تجبرهم على ما تريد.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٣ - (إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)
{تولى} أعرض.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار

٢٤ - (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٥ - (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)
{إيابهم} رجوعهم.
{إن إلينا إيابهم. (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦)} وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، فإلى ربنا البر الرحيم مرجعنا، نطمع أن يغفر لنا خطايانا يوم الدين، وأن لا يناقشنا الحساب فنكون من المهلكين، وإليه يرجع المكذبون، فيحاسبهم سبحانه على ما كانوا يعملون، ويجازيهم بما يستحقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، روى مسلم عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها في الجمعة مع سورتها.
٢٦ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٥ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٣٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٣١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٣٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٣٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٣٤ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٣٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣٦، {ملك الناس. إله الناس} ٣٧.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٣٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٤٠؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٤١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٣.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٤٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤٦، {والسماء

ذات البروج} ٤٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٤٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٥٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٥١، {والضحى. والليل إذا سجى} ٥٢، {والعصر} ٥٣؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٥٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٥٧.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٥٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥٩. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٦٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٦١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٦٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٦٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٦٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٦٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٦٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٧٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٧١، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن

المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٧٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٧٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٧٤.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقي ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٧٧ بعد هذه السبع أكثرها ٧٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٨٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٨١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٨٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٨٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٨٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٨٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٨٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٨٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٩٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٩١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٩٢، {قد أفلح من تزكى} ٩٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٩٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين

آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٩٧.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٩٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٠٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٠١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٠٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٠٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٠٤، {سندع الزبانية} ١٠٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٠٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٠٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١١٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١١١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١١٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١١٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١١٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١١٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١١٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٢٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٢١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٢٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٢٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٢٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٢٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٢٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٣٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٣١، {سنقرئك فلا تنسى} ١٣٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٣٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٣٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك

ربك فترضى} ١٣٧، {ورفعنا لك ذكرك} ١٣٨، {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣٩، {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٤٠، {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٤١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٤٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٤٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٤٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٤٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٥٠، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٥١، {. . واسجد واقترب} ١٥٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٥٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٥٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥٥، {فصل لربك وانحر} ١٥٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٥٧، {قل هو الله أحد} ١٥٨، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥٩، {قل أعوذ برب الناس} ١٦٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٦١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٦٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٦٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٦٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦٦ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٦٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٦٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٧٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٧١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٧٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٧٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٧٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٧٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٧٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٧٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٨٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٨١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٨٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٨٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٨٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٨٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا

بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٨٨.
وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.
نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.
وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٨٩ سورة الفجر:

سورة الفجر:
(٨٩) سورة الفجر مكية
وآياتها ثلاثون
كلماتها: ١٣٦؛ حروفها: ٦٦٦
١ - (وَالْفَجْرِ)
{الفجر} الصبح، ولأنه يشق الليل ويفجره سمي فجرا.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والفجر (١) وليال عشر (٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤) هل في ذلك قسم لذي حجر (٥)}
أقسم الله تعالى بالفجر كما أقسم بالصبح وبالليل كما في قوله سبحانه: {والليل إذا أدبر. والصبح إذا أسفر} ١، وسمي فجرا لأنه الضوء الذي يفجر الليل ويشقه ويذهب ظلمته، وينفجر عنه النهار، ولعل الأولى إبقاؤه على العموم، فهو قسم بهذا الوقت من الأيام كلها ٢.
٢ - (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)
{ليال عشر} هن العشر الأول من شهر ذي الحجة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
{وليال عشر (٢)} وأقسم ربنا تبارك اسمه بليال عشر كرمها سبحانه وضاعف أجر العاملين فيها- إذ تنكيرها يفيد تفخيمها- ويشهد ٣ لهذا ما أخرجه أحمد والبخاري [عن ابن عباس مرفوعا: (ما من أيام فيهن العمل أحب الله عز وجل وأفضل من أيام العشر)؛ قيل: يا رسول الله! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء).
٣ - (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)
{الشفع} أصله العدد الزوجي لأنه انضم إليه غيره فشفعه.
{الوتر} الفرد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
{والشفع والوتر (٣)} بالعدد كله فرده وزوجه ٤.
٤ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)
{يسر} يمضي.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
{والليل إذا يسر (٤)} والليل ٥ إذا ذهب وانقضىز
٥ - (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)
{لذي حجر} لصاحب عقل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
{هل في ذلك قسم لذي حجر} أليس في هذا الذي أقسمنا به ما يقنع من له عقل! وجواب القسم محذوف، تقديره: ليعذبن، يدل عليه قوله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك} إلى قوله تبارك اسمه: {فصب عليهم ربك سوط عذاب}، والحجر: العقل، لأنه يمنع صاحبه، فيقال لمن ملك نفسه: إنه لذو حجر، قال الفراء: تقوله العرب لمن كان قاهرا لنفسه، ضابطا لها.
٦ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)
{بعاد} بقبيلة عاد.
{ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (٩) وفرعون ذي الأوتاد (١٠) الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢) فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣) إن ربك لبالمرصاد (١٤)}.
تذكر الآيات بسنة الله تعالى في الذين خلوا من قبل {. . . ولن تجد لسنة الله تبديلا} ٦، وأن الماكرين المفسدين، والكافرين الباغين لن يفلتوا من بأس ربنا القوي المتين، وأنه محل بهم بطشه عاجلا وآجلا، مصداقا لوعده الحق: {وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا. أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب. } ٧، ألم تر ببصيرتك وتعلم كيف أهلك الله تعالى عادا الأولى عاد إرم ٨، وقد أوتيت قوة وبأسا ومالا، وأوتيت نعما فافتتنت وبطرت، وازدادت ضلالا وخبالا، وقد أشارت آية كريمة إلى كفورهم وغرورهم، وذلك قول الحق تبارك اسمه: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيتنا يجحدون} ٩، {وثمود الذين جابوا الصخر بالواد} واذكر وذكر بطشة الله تعالى بثمود قوم صالح، وقد قطعوا الصخور، واتخذوا من الجبال بيوتا نحتوها ليعيشوا بمأمن أن تمتد إليهم يد عدو من أعدائهم، لكنهم أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم، واستنكروا على صالح عليه السلام أن يدعوهم إلى توحيد الله، وينهاهم عن عبادة أوثانهم، ولقد بين القرآن جانبا من عماهم وجهلهم فقال: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى. } ١٠ {قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب} ١١، ونبيهم يتابع تذكيرهم {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين} ١٢، {وفرعون ذي الأوتاد} وهذا الذي آتاه الله الملك {فحشر فنادى. فقال أنا ربكم} ١٣ وعلا في الأرض {. . وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين} ١٤، {واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير حق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون} ١٥ وهم بقتل رسول الله موسى وفتنة الذين آمنوا معه: {وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه} ١٦ {. . قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} ١٧ ونصب الأوتاد ودقها ليعذب عليها من خالفه، فجزي الله تعالى الباغين ببغيهم، فأما عاد فأهلكوا {. . بريح صرصرة عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية} ١٨، وبعدا لثمود الذين هموا بقتل نبيهم والذين معه {فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية

لقوم يعلمون} ١٩، وإذا استخف فرعون قومه فأطاعوه، واستنفر أعوانه وجنوده على العدوان فأعانوه، كان من سنة الله أن يأخذهم نكال الآخرة والأولى. {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم. { ٢٠، {فصب عليهم ربك سوط عذاب} أنزل ربنا وأفرغ عليهم نصيبا من العذاب، وألبما من النكال وخليطا، هؤلاء بالإغراق، وأولئك بالصاعقة والريح العقيم في أيام نحسات، {إن ربك لبالمرصاد} إن الولي الحكيم الخبير العليم، لسميع بصير، رقيب حسيب،، يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته {. . . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين} ٢١ {أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} ٢٢، وفي الذي نقص عليكم من أنباء القرى وأهلها المهلكين، كهؤلاء الثلاثة الأقوام الخاسرين، عاد وثمود والفراعين، في ذلك نذير، أن القوي القدير لا يعجزه الانتقام من الكفار والظلام
مهما أوتوا، {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} ٢٣، وقومك ليسوا بأكثر أموالا وأولادا، ولا بأطول أعمارا، ولا هم بأشد مراسا ممن سبقوهم من المجرمين، فإن لم ينتهوا عما فيه يخوضون، لنذيقنهم في الدنيا عذابا عاجلا ويوم القيامة في العذاب محضرون، {أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر، أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} ٢٤، ولقد جاء هذا الوعيد بعد أنباء إهلاك الله تعالى أقواما كثيرين، قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون {ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر} ٢٥.

٧ - (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

{إرم} جدهم، سموا باسم جدهم، أو قبيلة من عاد.

{العماد} طول الجسم أو طول العمر، ووفرة القوة، أو عماد بيوت الرحل يسيرون لا يقيمون.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٩ - (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

{وثمود} القبيلة المعروفة التي بعث الله تعالى إليها رسوله صالحا عليه السلام.

{جابوا} قطعوا

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٠ - (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

{فرعون} ملك مصر الذي بعث إليه موسى وهارون - سلام الله عليهما-.

{ذي الأوتاد} صاحب الأوتاد التي كانت تدق ليلعب له عليها، أو ليعذب بالشد إليها من خالفه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١١ - (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

{طغوا} جاروا وظلموا وتعدوا الحد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٢ - (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

١٣ - (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

{فصب} فأنزل وأفرغ وألقى.

{سوط عذاب} نصيب عذاب، وشديده، وخليطه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٤ - (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)
{لبالمرصاد} ليرصد سبحانه أعمال العباد، ولا يفوتونه، ويسمع ويرى.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٥ - (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)
{ابتلاه} اختبره، ليظهر حبه للعاجلة، وكفره بالنعمة، عامله معاملة المختبر.
{فأكرمه} أعطاه، فيظن أنه أكرم ممن لم يعط.
{ونعمه} بالسعة والكثرة.
{فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦) كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨) وتأكلون التراث أكلا لما (١٩) وتحبون المال حبا جما (٢٠)}.
ثم تبين الآيات أن جنس الإنسان ظلوم كفار، كنود ختار، كما تبين أن المال مع كونه قيام الحياة، فإن الرزاق الوهاب سبحانه يعامل عباده بالمال معاملة المختبر، كما قال المولى سبحانه: {. . ونبلوكم بالشر والخير فتنة} ٢٦ وكذلك حكى القرآن قيل سليمان عليه السلام: {. . قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم} ٢٧، فإذا امتحن الله الإنسان بالثروة والغنى، وأكرمه بالسعة والنعمة فرح بما أوتي وبطر، وتفاخر واستكبر، بل قد تمادى به الفتنة فيظن أنه أكرم ممن ضيق عليهم، وأن نعمته لن تزول، ولن يزول هو عنها: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٢٨ وسرعان ما فتن الضالون المكذبون. {وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين} ٢٩ فرد الله تعالى عليهم بقوله الحكيم: {أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون} ٣٠ {قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنوا} ٣١، {وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن} وجنس الإنسان يقول ربي أهانن إذا هو ابتلى واختبر بالرزق الكفاف، والعطاء الذي يكون بقدر قليل، وينسى أن الله تعالى أعطاه نعما أخرى كثيرة سابغة، ظاهرة وباطنة، نعمة الحياة، نعمة العقل، نعمة القوة، نعمة العافية، نعمة الكفاية، نعمة الإيواء، وتمام النعمة الهداية إلى الحق، هذا شأن أكثر الناس: {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا} ٣٢ لكن أهل العقول السليمة، والفطرة السوية المستقيمة، إذا أعطوا آثروا وشكروا، وإذا منعوا قنعوا وصبروا، وهكذا هدى ربنا إلى المنهاج الحكيم: {لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا} ٣٣، وجلت حكمة ربي، فلم تأمرنا الآية الكريمة بإنفاق كل ما أعطانا، ولكن {مما آتاه الله} و [من] كما هو معلوم للتبعيض، ولهذا مدح أهل التوسط في الإنفاق: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} ٣٤ وجاء الأمر بذلك صريحا: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} ٣٥ كما جاء النهي والتنفير عن الإسراف في أبلغ قول: {. . ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا} ٣٦.
{كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين} كلا: ليس الأمر كما زعمتم، فكم من مكثر طغى وآثر الحياة، وبخل واستغنى وكذب بالحسنى، فهو عند الله مهين، وفي الآخرة من الخاسرين، وينادي يوم الدين، مع الهلكى المعذبين: {. . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق} ٣٧، ورب أشعث أغبر ذي طمرين لا يأبه له الناس لو أقسم على الله لأبره، وقديما ضاق الذين استكبروا من قوم نوح بالضعفاء والفقراء من المؤمنين، فأوحى الله إلى عبده ونبيه نوح عليه السلام ما يزهق باطل اللئام، وبين ربنا في القرآن مقام أهل الإيمان وإن قل مالهم- كما جاء في الآية الكريمة: {. . ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم} ٣٨، وفي الحديث الصحيح أن هرقل عظيم الروم لما

سأل أبا سفيان عن أحوال أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: أفقراء الناس اتبعوه أم أغنياؤهم؟ قال: بل فقراؤهم. . وكان رد هرقل: إنهم أتباع الأنبياء؛ إنما يذل ويخزى من أوتي مالا فضن به وشح على من جعل الله لهم فيه حقا؛ فمنع البر عن اليتيم لؤم، والعدوان على حقه أشأم الظلم: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا. } ٣٩؛ وقسوة القلوب على المحتاج، وقبض اليد عن سد خلته وتفريج كربته غل في أعناق من كز: {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض} ٤٠، وإن أصحاب اليمين، إذ يتساءلون عن المجرمين، يقرون بأن شقوتهم صدتهم عن إعطاء المحرومين: {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين} ٤١؛ وعهد الله إلينا هنا ليس أن نطعم وكفى ولكن أن نبذل لهم ونحض ونحث ونأمر الآخرين بالوفاء بحق المحرومين، وهذا هو التحاض.

وحين يزين للناس حب الشهوات من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لا يبالي أحدهم إلا بالجمع من حلال أو من حرام؛ وإلى هؤلاء جاء النذير في القرآن: {وتأكلون التراث أكلا لما} وتجمعون ما يتوارث، وتلمونه لما واسعا، نصيبكم كان أو نصيب غيركم، لضعيف كان كالمرأة واليتيم، أو لقوي.

{وتحبون المال حبا جما} يشتد حبكم له- وحبك الشيء يعمي ويصم- فيجر ذلك إلى شدة الحرص والشره- وقال الليث: اللم: الجمع الشديد. . . فالآكل يلم الثريد، فيجمعه لقما ثم يأكله؛ وقال مجاهد: يسفه سفا. . . وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم. . ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال. . من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلا واسعا- ٤٢.

١٦ - (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

{فقدر} فضيق، وآتى بمقدار يسير قليل.

{أهانن} أذل وأخزى هذا الذي رزق كفافا!

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٧ - (كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)

{كلا} ردع وتكذيب.

{لا تكرمون اليتيم} لاتعطونه حقه.

{اليتيم} الصغير الذي مات أبوه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٨ - (وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

{تحاضون} يحض بعضكم بعضا، ويحثه، ويأمره.

{طعام} إطعام.

{المسكين} الذي لا يجد غنى يغنيه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

١٩ - (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا)

{تأكلون} تأخذون وتستولون وتستحوذون وتغتصبون.

{التراث} الميراث.

{لما} واسعا، مجموعا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار

٢٠ - (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

{جما} كثيرا، فاحشا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار
٢١ - (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)
{دكت} كسرت وفتت ما عليها، ودقت، وصارت هباء منبثا.
{كلا إذا دكت الأرض دكا دكا (٢١) وجاء ربك والملك صفا صفا (٢٢) وجيئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣) يقول يا ليتني قدمت لحياتي (٢٤) فيومئذ لا يعذب عذابه أحد (٢٥) ولا يوثق وثاقه أحد (٢٦)}.
نهى الله تعالى عن الركون إلى الدنيا، وقطع الرجاء من الآخرة، وشدة الحب للعاجلة، لئلا يلهيهم ذلك عن التزود للآجلة؛ فإن من استمتع بحظه فقد خسر، ولا أجر له: {كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. } ٤٣؛ فإذا كسرت الأرض ودقت وفتت صخرها وقصورها حتى تصير هباء منبثا، ونفخ في الصورة النفخة الثانية، وقام الناس إلى ربهم، ينتظرون ماذا يحل بهم، وأحاطت الملائكة بجموعهم، وبرزت الجحيم ٤٤ لتسعر بهم، فعندما يشد وثاقهم، ويغلظ عذابهم، وتشتد حسرتهم على ما فرطوا في دنياهم لحق به في الحياة الآخرة خسارهم وبوارهم؛ {وجاء ربك} قال منذر بن سعيد: معناه: ظهر سبحانه للخلق هنالك، وليس ذلك بمجيء نقلة. . . وقيل: الكلام على حذف المضاف للتهويل، أي: وجاء أمر ربك وقضاؤه سبحانه. . . وأنت تعلم ما للسلف في المتشابه من الكلام. . . {يومئذ} بدل من {إذا دكت}. . . العامل فيه هو العامل نفسه في المبدل منه. . {يقول يا ليتني قدمت لحياتي}. . وهذه الجملة بدل اشتمال من {يتذكر}، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه. كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يقول: يا ليتني. . . ياليتني قدمت لأجل حياتي هذه أعمالا صالحة أنتفع بها فيها. . ٤٥ [{يومئذ يتذكر الإنسان} أي يتعظ ويتوب، وهو الكافر، أو من همته الدنيا. . . ومن أين له منفعة الذكرى؟! فلا بد من تقدير حذف مضاف. . . {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد} أي لا يعذب كعذاب الله أحد. .] ٤٦.
٢٢ - (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)
{والملك} وجنس الملائكة عليهم السلام.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٣ - (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)
{أنى} من أين؟
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٤ - (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٥ - (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٦ - (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)
{يوثق} يقيد.
{وثاقه} قيده بالسلاسل والأغلال.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢١ إظهار
٢٧ - (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)
{المطمئنة} الساكنة الموقنة، المخلصة المطيعة.
{يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧) ارجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي جنتي (٣٠)}
لما بين المولى سبحانه مآل محبي المال حبا فاحشا، بين في هذه الآيات الكريمة حال الذين يرجون لقاء ربهم ورحمته، ويفرحون بفضله

وهدايته، فإنهم ينادون من لدن ربنا تبارك وتعالى: {يا أيتها النفس المطمئنة} يا أيها الراضي بقدر ربه، القانع بقسمته، تمشي في مناكب الأرض، وتعمل على كسب الرزق ما وسعك العمل، ثم تفوض لله جل علاه العاقبة: {. . ولله عاقبة الأمور} ٤٧، إن أعطى عطاء واسعا آثر وشكر، وإن رزق كفافا حمد الله تعالى وقنع بما آتاه، وصبر، وهكذا جوزي من جنس عمله، فيبشر بالوعد الحق {ارجعي إلى ربك راضية مرضية} فكما رضيت يا صاحب النفس المخلصة الصادقة الموقنة بوعد ربك المطيعة لأمره، فإن ربك سيرضيك، وهو عنك راض: {. . . رضي الله عنهم ورضوا عنه} ٤٨ {فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي} فجيرانك وزمرتك ورفيقك الرسل والسابقون، والعلماء والمقربون، والملأ المكرمون {. . فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما} ٤٩ ودارك ومستقرك جنة الله تعالى ودار كرامته دار السلام*. فأكرم بهذا الجوار، وأنعم بهذه الدار- نسأل مولانا البر الرحيم أن يدخلنا الجنة مع الأبرار .

٢٨ - (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

{مرضية} عند الله عز وجل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

٢٩ - (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)

{فادخلي في عبادي} كوني في جملة عبادي الصالحين المخلصين، وفي زمرتهم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

٣٠ - (وَادْخُلِي جَنَّتِي)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢٧ إظهار

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٥٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٥١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٥٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٥٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٥٤ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٥٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٥٦، {ملك الناس. إله الناس} ٥٧.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٥٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٥٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٦٠؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٦١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد

خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٦٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٦٣.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٦٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٦٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٦٦، {والسماء ذات البروج} ٦٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٦٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٦٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٧٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٧١، {والضحى. والليل إذا سجى} ٧٢، {والعصر} ٧٣؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٧٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٧٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٧٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٧٧.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٧٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٧٩. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٨٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٨١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٨٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٨٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٨٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٨٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٨٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٨٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٨٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٨٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٩٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٩١،

{عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٩٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٩٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٩٤.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٩٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٩٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٩٧ بعد هذه السبع أكثرها ٩٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٩٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ١٠٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ١٠١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١٠٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ١٠٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ١٠٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ١٠٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ١٠٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ١٠٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ١٠٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ١٠٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف

في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ١١٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ١١١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ١١٢، {قد أفلح من تزكى} ١١٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ١١٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ١١٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ١١٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ١١٧. وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١١٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١١٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ١٢٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٢١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٢٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٢٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٢٤، {سندع الزبانية} ١٢٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٢٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٢٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٢٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٢٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٣٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٣١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٣٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٣٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٣٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٣٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٣٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٣٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٣٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٤٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٤١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٤٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٤٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٤٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٤٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٤٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٤٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت

من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٤٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٥٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٥١، {سنقرئك فلا تنسى} ١٥٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٥٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٥٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٥٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٥٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٥٧؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٥٨؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٥٩؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٦٠؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٦١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٦٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٦٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٦٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٦٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٦٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٦٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٦٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٦٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٧٠، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٧١، {. . واسجد واقترب} ١٧٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٧٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٧٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٧٥، {فصل لربك وانحر} ١٧٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٧٧، {قل هو الله أحد} ١٧٨، {قل أعوذ برب الفلق} ١٧٩، {قل أعوذ برب الناس} ١٨٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٨١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٨٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٨٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٨٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٨٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٨٦ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٨٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٨٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٨٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٩٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٩١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٩٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} ١٩٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٩٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٩٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٩٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٩٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٩٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا

فهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٩٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٢٠٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٢٠١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٢٠٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٢٠٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٢٠٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٢٠٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٢٠٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٢٠٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٢٠٨.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٠ سورة البلد:

سورة البلد:
(٩٠) سورة البلد
وآياتها عشرون
كلماتها: ٨٠؛ حروفها: ٢٣٦
١ - (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)
{البلد} مكة.
بسم الله الرحمن الرحيم
{لا أقسم بهذا البلد (١) وأنت حل بهذا البلد (٢) ووالد وما ولد (٣) لقد خلقنا الإنسان في كبد (٤)}

أقسم الله تعالى بالبلد الحرام مكة أم القرى، و {لا} صلة ١، فقد أقسم الله تعالى به دون [لا] في قوله سبحانه: {وهذا البلد الأمين} ٢ كما جاء [لا] صلة في قوله تبارك اسمه {ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك} ٣ بدليل قوله جل ثناؤه {ما منعك أن تسجد} ٤؛ {وأنت حل بهذا البلد} وأنت مقيم به وهو محلك؛ أي: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه لكرامتك علي وحبي لك ٥؛ {ووالد وما ولد} وكل والد وولد من هذا الجنس الذي اخترته من بين سائر الخلائق واستخلفته في أرضي، وأسجدت له ملائكتي، كالذي جاء في الآية المباركة: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} ٦؛ {لقد خلقنا الإنسان

في كبد} هذا جواب القسم، ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقات لتعظيمها و {الإنسان} هنا: ابن آدم، {في كبد} أي في شدة وعناء من مكابدة الدنيا وربما يكون في هذا ما يستنفر الناس ليكدوا، ويصبروا على ما يلاقون في سبيل أداء ما خلقوا له ويجدوا، فلذلك خلقنا، وعلى احتمال المكاره فطرنا ٧، فهي إذن دعوة إلى العمل دون كلل، وحرب على العجز والتبطل والكسل، وحين يدرك الناس أن الدأب والمصابرة من أمانات السماء، ويستيقنون أن الملك المهيمن الوهاب جل علاه قد سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعا، عندها يسعى الجميع لخيره وإسعاد غيره. {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون} ٨.
٢ - (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)
{حل} حال به مقيم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)
{كبد} شدة وعناء ومكابدة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)
{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.
أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٩ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٠، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١١.
٦ - (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{أهلكت} أنفقت.
{لبدا} كثيرا مجتمعا.
{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.
أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ١٢ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٣، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك

الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٤.

٧ - (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.

أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ١٥ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٦، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٧.

٨ - (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.

أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ١٨ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ١٩، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٠.

٩ - (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.

أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٢١ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ٢٢، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم

نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٣.

١٠ - (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{وهديناه} بينا له وأرشدناه.

{النجدين} الطريقين: طريق الخير وطريق الشر.

{أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠)}.

أيظن ابن آدم أنه لن يغلبه الله، ولن يدركه؟! ولن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره كما وصف الله تعالى المستكبرين المختالين، وأن الفخور منهم مغرور: {الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} ٢٤ وذاك المفتون الذي ابتلى فبطر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة} ٢٥، {يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} يتباهى ويتكاثر بما أنفق من مال كثير بعضه فوق بعض، أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه. {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين} إن الذي وهبك الإبصار وأعطاك اللسان الناطق، وغطى فمك بالشفتين، ومنحك الفؤاد المدرك للخير والشر هو القاهر فوق عباده، وإن أخذ سمعكم أو أبصاركم أو ختم على قلوبكم أو سلبكم ما أعطاكم لا يرد مرده أحد فما الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه، وهو المعطي والممكن من الانتفاع؟! وفيما يقارب معنى {وهديناه النجدين} قول المولى عز وجل: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٦.

١١ - (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

{اقتحم} ضغط واشتد ليتجاوز.

{العقبة} ما يعرض من الصعاب.

{فلا أقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣) أو إطعام في يوم ذي مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربة (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨)}

فهلا اقتحم المفاخر المكاثر- المغرور المكابر، هلا اشتد في تخطي وتجاوز ما يرديه من البطر، وما يحول بينه وبين الفوز والظفر؟! هلا أنفق ماله في الطاعات، والبر والصالحات؟! حتى لا يهوى في الدركات، وإنما يتجاوز به إنفاقه الصراط، ويدخله إلى روضات الجنات، والأمن في الغرفات، {وما أدراك ما العقبة} تهويل لشأنها، أي: أي شيء أعلمك ما هي؟ {فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة} إن تخطي العقبات سبيله البذل في القربات، في تحرير عبد وتخليصه من ذل الأسر- وكذا الجارية- أو الجود- ولو كان ما عندك قليل- لتطعم في أوقات العسرة وساعات الشدة اليتيم الضعيف- وأولى اليتامى بالبر الأقرب فالأقرب- أو محتاجا مكروبا؛ {ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة} وكان مع هذا الجود والعطاء مؤمنا، فإن المنفق الكافر لا أجر له، بدليل قول الله الحق: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا} ٢٧ {ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء} ٢٨ {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} ٢٩؛ {وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة} ووصى بعضهم بعضا بالصبر على كل حال؛ ووصى بعضهم بعضا برحمة الخلق والرأفة بهم، وودهم والسعي في خيرهم، وهكذا يؤمر يوم القيامة بالقساة، أو الذين فرطوا ولو قليلا في حق المحرومين، أن يسحبوا إلى النار في أغلال وسلاسل بالغة الطول؛ يقول ربنا وهو أصدق القائلين: {خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٣٠؛ فمن بذل في الخير ووصى غيره بالبذل وكان مؤمنا

ف {أولئك أصحاب الميمنة} أصحاب دار اليمن والجنة، أو: يؤتون كتبهم بأيمانهم، فيكون حسابهم يسيرا، ويجزون جنة وحريرا، ونعيما وملكا كبيرا، أفلا تكون الدعوة إلى هذه المكرمات والنداء لتخطى تلك العقبات مما يحمل المؤمن على أن يطلب المال من حله لينفقه في محله، فيتاجر بذلك مع ربنا العلي الأعلى تجارة لن تبور، بلى وإن ربنا لغفور شكور.

١٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ)

{أدراك} أعلمك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٣ - (فَكُّ رَقَبَةٍ)

{فك} تخليصها من الأسر.

{رقبة} نفس مستعبدة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٤ - (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

{مسغبة} مجاعة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٥ - (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

{يتيما} صغيرا مات أبوه.

{مقربة} قرابة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٦ - (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

{مسكينا} محتاجا.

{ذا متربة} ذا فقر وصاحب حاجة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٧ - (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

{تواصوا} أوصى بعضهم بعضا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٨ - (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

{المشأمة} الشؤم، ونار جهنم.

{والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة (١٩) عليهم نار مؤصدة (٢٠)}

والذين جحدوا وكذبوا وأنكروا ما أقمناه دليلا على الحق والرشد والخير من كتاب وحجة، أو بالقرآن أو بالآيات الكونية الآفاقية والأنفسية هم الذين يذهب بهم يوم القيامة ذات الشمال إلى دار الخبال والنكال، أو هم المشائيم على أنفسهم، أو الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم، مغلقة عليهم أبواب النار حتى لا يخبو سعيرها، ولا يخرج منها أصحابها {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم} ٣١ فاللهم اصرف عنا عذاب جهنم، وآتنا يا ربنا ما وعدتنا، وتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

٢٠ - (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ)

{مؤصدة} مطبقة مغلقة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٩ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٣٢، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٣٣ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٣٤، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٣٥. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٣٦ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٣٧، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣٨، {ملك الناس. إله الناس} ٣٩.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٤٠ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٤١ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٤٢، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٤٣. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٤، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٤٥.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٤٦ {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤٧، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤٨، {والسماء ذات البروج} ٤٩، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٥٠، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٥١ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٥٢، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٥٣، {والضحى. والليل إذا سجى} ٥٤، {والعصر} ٥٥؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٥٦، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥٧. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥٨، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٥٩.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٦٠، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا

مهيلا} ٦١. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٦٢، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٦٣ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٦٤ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٦٥، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٦٦، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦٧ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦٨، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٦٩، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٧٠، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٧١، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٧٢، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٧٣، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٧٤، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٧٥، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٧٦.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد

هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧٧. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧٨، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٧٩ بعد هذه السبع أكثرها ٨٠ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٨١، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٨٢، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٨٣. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٨٤ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٨٥، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٨٦، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨٧، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٨٨، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٨٩، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٩٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٩١، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٩٢. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٩٣، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٩٤، {قد أفلح من تزكى} ٩٥، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٩٦، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩٧، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩٨، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٩٩.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ١٠٠، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ١٠١، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي

سفرة. كرام بررة} ١٠٢، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ١٠٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ١٠٤، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ١٠٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٠٦، {سندع الزبانية} ١٠٧، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠٨.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٠٩، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١١٠ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١١١، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١١٢ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١١٣، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١١٤، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١١٥، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١١٦، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١٧، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١٨، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١١٩ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٢٠، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٢١، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٢٢، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٢٣، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢٤، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٢٥، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٢٦.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢٧، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٢٨، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٢٩، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٣٠ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٣١، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٣٢، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٣٣، {سنقرئك فلا تنسى} ١٣٤؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٣٥؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٣٦. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣٧، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣٨؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٣٩؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٤٠؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٤١؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٤٢؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٤٣. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٤.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٤٥، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٤٦ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤٧ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤٨، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٤٩، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٥٠، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٥١، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٥٢، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٥٣، {. . واسجد واقترب} ١٥٤، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا

الزكاة وذلك دين القيمة} ١٥٥، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٥٦، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥٧، {فصل لربك وانحر} ١٥٨، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٥٩، {قل هو الله أحد} ١٦٠، {قل أعوذ برب الفلق} ١٦١، {قل أعوذ برب الناس} ١٦٢؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٦٣، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٦٤ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٦٥؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٦٦، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦٧، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦٨ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٦٩ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٧٠، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٧١ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٧٢، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٧٣، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٧٤، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٧٥ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٧٦، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧٧، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٧٨، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٧٩، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٨٠. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٨١، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٨٢، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٨٣ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٨٤ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٨٥ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٨٦، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨٧، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨٨، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٨٩، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٩٠.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٩١ سورة الشمس:

سورة الشمس:
(٩١) سورة الشمس مكية
وآياتها خمس عشر
كلماتها: ٥٤؛ حروفها: ٢٤٦
١ - (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)
{ضحاها} إشراقها وبهاؤها، أو حرها.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢) والنهار إذا جلاها (٣) والليل إذا يغشاها (٤) والسماء وما بناها (٥) والأرض وما طحاها (٦) ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكاها (٩) وقد خاب من دسها (١٠)}
يقسم الله تعالى بالشمس وإشراقها وضيائها وحرها وبهائها، وبالقمر الذي يجري على أثرها، وبالنهار الذي يجلي الأرض وموجوداتها، ويظهر ما كان الليل قد غطاه من مرئياتها، وبالليل الذي ينشر ظلامه على ما شاء الله من أرجائها وآفاقها؛ ويقسم بالسماء وعظمة بنيانها ف {ما} مصدرية- وتبارك الذي جعل السماء سقفا محفوظا، ورفعها من غير عمد تحتها، ولا علائق من فوقها؛ ويقسم سبحانه بالأرض وبسطها وتذليلها وتمهيدها، وما أودعها إياه من بركات وأقوات لأهلها- {ما} مصدرية كذلك- ويقسم جل علاه- بأنفس المكلفين العقلاء وتسويتها، وقدرتها على الإدراك ووعيها، وما بين لها وهداها من سبل رشدها، ومسالك غيها، وطرائق استقامتها، وجواد زيغها {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١ وجعل الفوز لمن طهرها ٢ وسما بها، وألزمها منهاج ربها؛ وجعل الخيبة والخسران لمن دنسها ولم يردها عن بغيها وعوجها {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى} ٣؛ أقسم الله تعالى بعجائب كونية: الشمس والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض هذه العجائب الآفاقية؛ ثم جاء القسم بالعجائب الأنفسية: النفس الأمارة، والنفس اللوامة؛ والمقسم عليه- والله أعلم- {قد أفلح. } وما بعدها إلى ختام الآيتين الكريمتين: ٩ و ١٠؛ وذهب الزمخشري إلى أن الجواب محذوف، وتقديره: ليدمدمن الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحا؛ وأما {قد أفلح من زكاها} فكلام تابع لأوله، لقوله: {فألهمها فجورها وتقواها} على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء؛ مما نقل القرطبي: وكانت أجواد العرب تنزل الربا وارتفاع الأرض ليشتهر مكانها للمعتفين- لكل طالب فضل أو رزق- وتوقد النار في الليل للطارقين؛ وكانت اللئام تنزل الأولاج- ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه- والأطراف والأهضام ٤، ليخفى مكانها على الطالبين فأولئك علوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها، وكذا الفاجر أبدا خفي المكان، زمر ٥ المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي. . اهـ.
{ونفس وما سواها} أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة، والتنكير للتكثير.
[والإلهام عبارة عن بيان كيفية استعمالها في النجدين. . عن مجاهد: تعريفهما إياها بحيث تميز رشدها من ضلالها. وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادئ تجنبه وهو تخلية، والتخلية مقدمة على التحلية. وفي الكشاف: التزكية الإنماء والإعلاء، والتدسية النقص والإخفاء، أي: لقد فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنمى نفسه وأعلاها بالتقوى علما وعملا، ولقد خسر من نقصها وأخفاها بالفجور جهلا وفسوقا. .] ٠٦

٢ - (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا)
{تلاها} تبعها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)
{جلاها} جلى الأرض وأظهر ما عليها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)
{ما بناها} بنيانها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)
{طحاها} بسطها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٧ - (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)
{ماسواها} تسويتها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٨ - (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)
{فألهمها} فعرفها.
{فجورها} عصيانها ووزرها.
{تقواها} طاعتها وخشيتها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٩ - (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)
{أفلح} فاز.
{زكاها} طهرها، وسما بها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١٠ - (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)
{دساها} دنسها وأغواها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
١١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)
{ثمود} القبيلة التي بعث إليها صالح عليه السلام.
{بطغواها} بطغيانها كذبت رسالة ربها، حملهم على التكذيب تجاوز الحد.

{كذبت ثمود بطغواها (١١) إذ انبعث أشقاها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥)}.

لعل وعظ الله تعالى بقصة ثمود لقرب ديارهم من أم القرى [مكة]؛ كذبوا رسالة ربهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان، حملهم العتور وتجاوز الحد على الاستهزاء بالرسالة ومن أرسله الله بها- وهو أخوهم صالح عليه السلام- ولم يكتفوا بالتكذيب والاستهزاء بمثل ما حكاه

القرآن الكريم عن قبلهم: {. . . يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء. { ٧ لم يقفوا عند هذا العناد والإصرار، بل تعدوه إلى تدبير قتل النبي صالح والذين آمنوا معه: {وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه ٨} وأهله ٩ ثم لنقولن لوليه ١٠ ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم ١١ خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٢؛ وكانوا قد اقترحوا على نبيهم أن يجيء بمعجزة تدل على صدقه في دعوى النبوة وأن تكون المعجزة أن يخرج لهم من الصخرة ناقة، فأخرج الله القدير بقوته من الصخر ناقة عظيمة، وجعل الله لها حظا من الماء تشربه في يوم، ولهم شرب يوم يوم آخر هو شربهم، وحذرهم نبيهم أن يتعدوا عليها، فقال ما بينه ربنا ذو الجلال: {ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب} ١٣، كما أنذرهم أن يمنعوها شربها، فذلك قسم ربنا سبحانه لها: {ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر} ١٤؛ {إذا انبعث أشقاها} ونهض وتحركت نوازع الشر في أشدهم عتوا، وأكثرهم تجبرا وإفسادا، وعزم على قتل الناقة؛ فكرر لهم نبيهم نذر العذاب الذي ينتظرهم، إذا هم تمادوا في الغي وأعماهم ضلالهم؛ {فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها} لا تقربوا ناقة الله، وأحذركم أذيتها وأحذركم منعها سقياها؛ فكذبوا صالحا فيما وعدهم به من العذاب القريب إن هم عقروها؛ فقام شقيهم وأعانه غيره على قتلها؛ وإنما أضيف العقر إليهم جميعا {فعقروها} لأنهم رضوا بفعله؛ يقول الله الحق جل علاه: {فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر} ١٥ {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} فأطبق الله تعالى عليهم العذاب وأرجف عليهم به وأهلكهم واستووا في الاستئصال، فما بقي من المجرمين أحد، {وثمود فما أبقى} ١٦ فسوى الدمدمة بينهم بحيث لم يهرب منها أحد: {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} ١٧ {. . فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} ١٨؛ {ولا يخاف عقباها} أطبق عليهم ربهم العذاب وأهلكهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد- وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم لأنه قد أنذرهم- ١٩ أقول: ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قول ربنا العلي الأعلى: {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين} ٢٠.

أورد صاحب تفسير القرآن العظيم: قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها) قال زيد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمناهن، ونحن نعلمكموهن؛ ورواه مسلم من حديث أبي معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث وأبي عثمان النهدي عن زيد بن أرقم به. أهـ.

١٢ - (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)

{انبعث} نهض.

{أشقاها} أخبث القبيلة وأشدها فسادا، وأسوأها تجبرا

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٣ - (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

{ناقة الله} ذروا ناقة الله ولا تمسوها بسوء، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله إليهم – صالح عليه السلام- أن يجيئهم بمعجزة ناقة فآتاه الله إياها.

{وسقياها} دعوها واتركوها وحظها من الشرب، فإنها تشرب في يوم وأنتم تشربون في يوم غيره.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار

١٤ - (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)
{فعقروها} فذبحوها وقتلوها.
{فدمدم} فأطبق وأهلك، وأرجف.
{فسواها} فسوى الأمة في العذاب. أكابر المجرمين مستضعفيهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
١٥ - (وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا)
{عقباها} عاقبة الدمدمة وتبعتها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١١ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢١، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٢ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٣، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٤. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٥ {الذي علم بالقلم.
علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٦، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٧، {ملك الناس. إله الناس} ٢٨.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٩ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣٠ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣١؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٢. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٣، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٤.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٥، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٦، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٧، {والسماء ذات البروج} ٣٨، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٩، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤٠ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤١، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٢، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٣، {والعصر} ٤٤؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم

بهذا البلد} ٤٥، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٦. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٧، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٨.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٩، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥٠. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥١، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٢ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٣ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٤، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٥، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٦ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٧، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٨، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٩، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦٠، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦١، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٢، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت

ترابا} ٦٣، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٤، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٥.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٦. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٧، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٨ بعد هذه السبع أكثرها ٦٩ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧١، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٢. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٣ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٤، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٥، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٦، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٧، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٨؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨٠، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨١. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٢، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٣، {قد أفلح من تزكى} ٨٤، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٥، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٦؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٧؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٨.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٩، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩٠، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩١، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٣، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٥، {سندع الزبانية} ٩٦، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٧.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٨، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٩ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠٠، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠١ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٢، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٣، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٤، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٥، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٦، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٧، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٨ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٩، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١٠، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١١، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٢، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٣، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٤، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٥.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٦، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٧، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٨، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٩ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢٠، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢١، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٢، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٣؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٤؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٥. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٦، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٧؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٨؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٩؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣٠؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣١؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٢. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٣.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٤، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٥ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٦ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٧، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٨، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٩، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤٠، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤١، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٤٢، {. . واسجد واقترب} ١٤٣، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٤، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٥، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٦، {فصل لربك وانحر} ١٤٧، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٨، {قل هو الله أحد} ١٤٩، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥٠، {قل أعوذ برب الناس} ١٥١؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٢، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٣ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٤؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٥، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٦، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٧ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٨ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٩، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦٠ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦١، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٢، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٣، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٤ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٥، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٦، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٧، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٨، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٩. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧٠، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧١، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٢ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٣ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٤ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٥، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٦، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٧، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٨، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٩.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم

بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٢ سورة الليل:

سورة الليل:

(٩٢) سورة الليل مكية

وآياتها إحدى وعشرون

كلماتها: ٧١؛ حروفها: ٣١٠

١ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

{يغشى} يغطى.

بسم الله الرحمن الرحيم

{والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤)}.

أقسم الله تعالى بشيء من خلقه، أقسم بالليل إذ يغطى ويستر، وفي ذلك ما فيه من برهان العظمة: {. . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. } ١، كما فيه التذكير بالنعمة، وأقسم بالنهار إذا تجلى وظهر، وتبين وانكشف، فكشف لنا مناكب الأرض لنمشي فيها ونطلب الرزق: {وجعلنا النهار معاشا} ٢ {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله} ٣ {والله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ٤، وخلق الصنفين الذكر والأنثى من بديع صنعه سبحانه فهما من جنس واحد لكن للذكر ما اختص به وللأنثى كذلك.

والمقسم عليه- والله تعالى أعلم-: {إن سعيكم لشتى} إن عملكم معاشر العقلاء المكلفين لمفرق مختلف فكل يعمل على شاكلته.

{يقول تعالى ذكره مقسما بالليل إذا غشى النهار بظلمته فأذهب ضوءه وجاءت ظلمته، والليل إذا يغشى النهار {والنهار إذا تجلى} وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عيانا؛ وكان قتادة يذهب فيما أقسم الله به من الأشياء أنه إنما أقسم به لعظم شأنه عنده. . . آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق؛ بتعاقبهم يتم أمر المعاش والراحة، مع أنهما آيتان في أنفسهما؛ ومعنى {تجلى} ظهر بزوال ظلمة الليل، وتبين بطلوع الشمس] ٥. يجعل {ما} بمعنى من، فيكون ذلك قسما من الله جل ثناؤه بخالق الذكر والأنثى. وهو ذلك الخالق!، وأن تجعل {ما} مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسما بخلقه الذكر والأنثى.

مما أورد صاحب روح المعاني:. . اختلف في سبب نزولها، فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وروي ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. . . وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، فقال له أبو الدرداء: فمن أنت؟ فقال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: {والليل إذا يغشى} قال علقمة: والذكر والأنثى. . . وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحادا لا تجوز القراءة بها. . ٦.
{إن سعيكم} أي مساعيكم، فإن المصدر المضاف يفيد العموم فيكون جمعا- معنى- ولذا أخبر عنه بجمع. أعني قوله تعالى: {لشتى} فإنه جمع شتيت بمعنى متفرق. . . والمراد بتفرق المساعي اختلافها في الجزاء. . . اه.
ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم. . . كقوله تعالى: {وخلقناكم أزواجا} ٧ وكقوله: {ومن كل شيء خلقنا زوجين. } ٨ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادا، ولهذا قال تعالى: {إن سعيكم لشتى} أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة؛ فمن فاعل خيرا، ومن فاعل شرا. . . اه.
٢ - (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{تجلى} انكشف وظهر.
{يغشى} يغطى.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤)}.
أقسم الله تعالى بشيء من خلقه، أقسم بالليل إذ يغطي ويستر، وفي ذلك ما فيه من برهان العظمة: {. . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. } ٩، كما فيه التذكير بالنعمة، وأقسم بالنهار إذا تجلى وظهر، وتبين وانكشف، فكشف لنا مناكب الأرض لنمشي فيها ونطلب الرزق: {وجعلنا النهار معاشا} ١٠ {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله} ١١ {والله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ١٢، وخلق الصنفين الذكر والأنثى من بديع صنعه سبحانه فهما من جنس واحد لكن للذكر ما اختص به وللأنثى كذلك.
والمقسم عليه- والله تعالى أعلم-: {إن سعيكم لشتى} إن عملكم معاشر العقلاء المكلفين لمفرق مختلف فكل يعمل على شاكلته.
{يقول تعالى ذكره مقسما بالليل إذا غشى النهار بظلمته فأذهب ضوءه وجاءت ظلمته، والليل إذا يغشى النهار {والنهار إذا تجلى} وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عيانا، وكان قتادة يذهب فيما أقسم الله به من الأشياء أنه إنما أقسم به لعظم شأنه عنده. . . آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق؛ بتعاقبهم يتم أمر المعاش والراحة، مع أنهما آيتان في أنفسهما، ومعنى {تجلى} ظهر بزوال ظلمة الليل، وتبين بطلوع الشمس] ١٣. يجعل {ما} بمعنى من، فيكون ذلك قسما من الله جل ثناؤه بخالق الذكر والأنثى. وهو ذلك الخالق!، وأن تجعل {ما} مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسما بخلقه الذكر والأنثى.
مما أورد صاحب روح المعاني:. . اختلف في سبب نزولها، فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وروي ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. . . وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، فقال له أبو الدرداء: فمن أنت؟ فقال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: {والليل إذا يغشى} قال علقمة: والذكر والأنثى. . . وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحادا لا تجوز القراءة بها. . ١٤.
{إن سعيكم} أي مساعيكم، فإن المصدر المضاف يفيد العموم فيكون جمعا- معنى- ولذا أخبر عنه بجمع. أعني قوله تعالى: {لشتى} فإنه جمع شتيت بمعنى متفرق. . . والمراد بتفرق المساعي اختلافها في الجزاء. . . اه.
ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم. . . كقوله تعالى: {وخلقناكم أزواجا} ١٥ وكقوله: {ومن كل شيء خلقنا زوجين. } ١٦ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادا، ولهذا قال تعالى: {إن سعيكم لشتى} أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة؛ فمن فاعل خيرا، ومن فاعل شرا. . . اه.

٣ - (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{وما خلق} وخلق، ف {ما} مصدرية.
{يغشى} يغطي.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤)}.
أقسم الله تعالى بشيء من خلقه، أقسم بالليل إذ يغطي ويستر، وفي ذلك ما فيه من برهان العظمة: {. . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. } ١٧، كما فيه التذكير بالنعمة، وأقسم بالنهار إذا تجلى وظهر، وتبين وانكشف، فكشف لنا مناكب الأرض لنمشي فيها ونطلب الرزق: {وجعلنا النهار معاشا} ١٨ {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله} ١٩ {والله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ٢٠، وخلق الصنفين الذكر والأنثى من بديع صنعه سبحانه فهما من جنس واحد لكن للذكر ما اختص به وللأنثى كذلك.
والمقسم عليه- والله تعالى أعلم-: {إن سعيكم لشتى} إن عملكم معاشر العقلاء المكلفين لمفرق مختلف فكل يعمل على شاكلته.
{يقول تعالى ذكره مقسما بالليل إذا غشى النهار بظلمته فأذهب ضوءه وجاءت ظلمته، والليل إذا يغشى النهار {والنهار إذا تجلى} وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عيانا، وكان قتادة يذهب فيما أقسم الله به من الأشياء أنه إنما أقسم به لعظم شأنه عنده. . . آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق، بتعاقبهم يتم أمر المعاش والراحة، مع أنهما آيتان في أنفسهما، ومعنى {تجلى} ظهر بزوال ظلمة الليل، وتبين بطلوع الشمس] ٢١. يجعل {ما} بمعنى من، فيكون ذلك قسما من الله جل ثناؤه بخالق الذكر والأنثى. وهو ذلك الخالق!، وأن تجعل {ما} مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسما بخلقه الذكر والأنثى.
مما أورد صاحب روح المعاني:. . اختلف في سبب نزولها، فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وروي ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. . . وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، فقال له أبو الدرداء: فمن أنت؟ فقال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: {والليل إذا يغشى} قال علقمة: والذكر والأنثى. . . وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحادا لا تجوز القراءة بها. . ٢٢.
{إن سعيكم} أي مساعيكم، فإن المصدر المضاف يفيد العموم فيكون جمعا- معنى- ولذا أخبر عنه بجمع. أعني قوله تعالى: {لشتى} فإنه جمع شتيت بمعنى متفرق. . . والمراد بتفرق المساعي اختلافها في الجزاء. . . اه.
ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم. . . كقوله تعالى: {وخلقناكم أزواجا} ٢٣ وكقوله: {ومن كل شيء خلقنا زوجين. } ٢٤ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادا، ولهذا قال تعالى: {إن سعيكم لشتى} أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة، فمن فاعل خيرا، ومن فاعل شرا. . . اه.
٤ - (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{سعيكم} عملكم
{لشتى} لمختلف، متفرق.
{يغشى} يغطي.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤)}.

أقسم الله تعالى بشيء من خلقه، أقسم بالليل إذ يغطى ويستر، وفي ذلك ما فيه من برهان العظمة: {. . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. } ٢٥، كما فيه التذكير بالنعمة، وأقسم بالنهار إذا تجلى وظهر، وتبين وانكشف، فكشف لنا مناكب الأرض لنمشي فيها ونطلب الرزق: {وجعلنا النهار معاشا} ٢٦ {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله} ٢٧ {والله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا} ٢٨، وخلق الصنفين الذكر والأنثى من بديع صنعه سبحانه فهما من جنس واحد لكن للذكر ما اختص به وللأنثى كذلك.

والمقسم عليه- والله تعالى أعلم-: {إن سعيكم لشتى} إن عملكم معاشر العقلاء المكلفين لمفرق مختلف فكل يعمل على شاكلته.

{يقول تعالى ذكره مقسما بالليل إذا غشى النهار بظلمته فأذهب ضوءه وجاءت ظلمته، والليل إذا يغشى النهار {والنهار إذا تجلى} وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عيانا، وكان قتادة يذهب فيما أقسم الله به من الأشياء أنه إنما أقسم به لعظم شأنه عنده. . . آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق، بتعاقبهم يتم أمر المعاش والراحة، مع أنهما آيتان في أنفسهما، ومعنى {تجلى} ظهر بزوال ظلمة الليل، وتبين بطلوع الشمس] ٢٩. يجعل {ما} بمعنى من، فيكون ذلك قسما من الله جل ثناؤه بخالق الذكر والأنثى. وهو ذلك الخالق!، وأن تجعل {ما} مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسما بخلقه الذكر والأنثى.

مما أورد صاحب روح المعاني:. . اختلف في سبب نزولها، فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وروي ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. . . وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، فقال له أبو الدرداء: فمن أنت؟ فقال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: {والليل إذا يغشى} قال علقمة: والذكر والأنثى. . . وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحادا لا تجوز القراءة بها. . ٣٠.

{إن سعيكم} أي مساعيكم، فإن المصدر المضاف يفيد العموم فيكون جمعا- معنى- ولذا أخبر عنه بجمع. أعني قوله تعالى: {لشتى} فإنه جمع شتيت بمعنى متفرق. . . والمراد بتفرق المساعي اختلافها في الجزاء. . . اهـ.

ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم. . . كقوله تعالى: {وخلقناكم أزواجا} ٣١ وكقوله: {ومن كل شيء خلقنا زوجين. } ٣٢ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضا متضادا، ولهذا قال تعالى: {إن سعيكم لشتى} أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة؛ فمن فاعل خيرا، ومن فاعل شرا. . . اهـ.

٥ - (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٣٣.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} ٣٤ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٣٥، وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٣٦.

قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٣٧ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ٣٨.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ٣٩ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ٤٠ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ٤١ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ٤٢.

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ٤٣ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؛ قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ٤٤، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ٤٥؛ وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ٤٦. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ٤٧.

٦ - (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{وصدق بالحسنى} صدق بموعود الله الذي وعده أن يثيبه كالخلف من عطائه في العاجلة، والدرجات العالية في الآجلة.

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره؛ وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٤٨.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ٤٩ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٥٠، وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٥١.
قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٥٢ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ٥٣.
{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ٥٤ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ٥٥ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ٥٦ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ٥٧.
{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ٥٨ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؛ قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ٥٩، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ٦٠؛ وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ٦١. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ٦٢.
٧ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{فسنيسره} فسنرشده لأسباب الخير حتى يسهل عليه فعلها.
{لليسرى} لما ييسر له الخير في أولاده وفي عقباه.
{أعطى} بذل وأنفق.
{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.
{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٦٣.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ٦٤ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٦٥؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٦٦.

قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٦٧ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ٦٨.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ٦٩ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ٧٠ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ٧١ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ٧٢.

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ٧٣ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقال القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ٧٤، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ٧٥، وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ٧٦. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ٧٧.

٨ - (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{بخل} منع الحق، وضن فلم ينفق في أوجه البر.

{واستغنى} عن موعود ربه.

{أعطى} بذل وأنفق.
{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.
{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.
كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة، فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء، فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٧٨.
إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.
{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ٧٩ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٨٠، وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٨١.
قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٨٢ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ٨٣.
{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ٨٤ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ٨٥ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ٨٦ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ٨٧.
{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين، {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ٨٨ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ٨٩، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف، وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ٩٠، وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ٩١. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا، أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ٩٢.

٩ - (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{وكذب بالحسنى} كذب بموعود الله من الخلف في الدنيا والمثوبة في الآخرة؛ أو كذب بالخصلة الحسنى وهي الإيمان، أو بالملة الحسنى، الإسلام، أو بالكلمة الحسنى: لا إله إلا الله.
{أعطى} بذل وأنفق.
{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.
{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.
كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ٩٣.
إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.
{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ٩٤ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ٩٥؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ٩٦.
قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ٩٧ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ٩٨.
{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ٩٩ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ١٠٠ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ١٠١ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ١٠٢.
{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ١٠٣ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؛ قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ١٠٤، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . .

والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ١٠٥؛ وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ١٠٦. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ١٠٧.

١٠ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{فسنيسره للعسرى} نتركه وزيغه وشيطانه فيرديانه ويوردانه ما تسوء عاقبته.

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة، فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء، فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ١٠٨.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} ١٠٩ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١١٠؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ١١١.

قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ١١٢ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما؛ وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اهـ ١١٣.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ١١٤ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ١١٥ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ١١٦ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ١١٧.

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين، {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ١١٨ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ١١٩، وأما من كان من أهل

الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف، وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ١٢٠، وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ١٢١. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا تركم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ١٢٢.

١١ - (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{ما يغني} لا يغني، أو أي شيء يغني عنه؟!

{تردى} سقط في جهنم، وأدركه النكال.

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره، وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ١٢٣.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ١٢٤ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٢٥؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ١٢٦.

قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ١٢٧ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ١٢٨.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ١٢٩ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ١٣٠ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ١٣١ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ١٣٢.

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ١٣٣ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ١٣٤، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. { ١٣٥، وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ١٣٦. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا تركهم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ١٣٧.

١٢ - (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي؛ وعلينا ثواب هدى المهتدين.

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره؛ وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء؛ فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ١٣٨.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ١٣٩ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٤٠؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ١٤١. قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ١٤٢ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ١٤٣.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ١٤٤ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ١٤٥ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ١٤٦ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم

فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ١٤٧.
{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ١٤٨ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؛ قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ١٤٩، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. { ١٥٠؛ وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ١٥١. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ١٥٢.

١٣ - (وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى.

{أعطى} بذل وأنفق.

{واتقى} انتهى عما نهى الله عنه، وعمل بأمره؛ وخشي ربه عز وجل.

{فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا ترى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣)}.

كان المقسم عليه في الآيات الكريمة السابقة أن أعمال العباد متخالفة؛ فمنهم من آمن وبر، ومنهم من كفر وفجر، وفي هذه الآيات المباركة بيان اختلاف الجزاء، فأما من أدى حق المال، وبذل وأنفق في القربات والحلال، واتقى ربه ذا الجلال، الكبير المتعال، فعمل بما يرضيه وانتهى عن مناهيه، وصدق واستيقن بما هو ملاقيه، من الخلف من عطائه، ومن الدرجات العالية المعدة للذين آمنوا، واتقوا وأحسنوا، فهذا يرشده الله تعالى لأسباب الخير {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} ١٥٣.

إذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء.

{أولئك يسارعون في الخير وهم لها سابقون} ١٥٤ {. . . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} ١٥٥؛ وأما من ضن وشح، ومنع حق المال وغل يده، فسنهيئه ونمد له في الضلالة، كما قال عز من قائل: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} ١٥٦. قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: {فسنيسره للعسرى} وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: {. . فبشرهم بعذاب أليم} ١٥٧ والبشارة في الأصل على المفرح والمسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: {فسنيسره}: سنهيئه. اه ١٥٨.

{وما يغني عنه ماله إذا تردى} لا يغني عنه ماله إذا هلك وسقط في جهنم {يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم} ١٥٩ {. . لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم} ١٦٠ {. . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة} ١٦١ وأي شيء يغني عنهم المال إلا أن يكون مكواة تزيد ألمهم في دار الخبال والنكال؟! {يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} ١٦٢.

{إن علينا للهدى} إن علينا لبيان الرشد من الغي، وعلينا ثواب هدى المهتدين؛ {وإن لنا للآخرة والأولى} وإنا لنملك الدنيا والعقبى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ومن طلبهما من غير مالكهما فقد ضل. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) ١٦٣ وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقل القوم: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؛ قال: (بل اعملوا فكل ميسر أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة ١٦٤، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء- ثم قرأ- {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} لفظ الترمذي؛ وقال فيه: حديث حسن صحيح- وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة، لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر، أعني ما يفضي إلى راحة، وما يفضي إلى شدة. . . وقيل: التيسير أولا بمعنى اللطف؛ وثانيا بمعنى الخذلان. . . والمعنى: أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه، حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها، من قوله تعالى: {فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. } ١٦٥؛ وأما من بخل. . . فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، من قوله تعالى: {. . يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء} ١٦٦. . {وإن لنا للآخرة والأولى} أي التصرف الكلي فيهما. . . أو إن لنا كل ما في الدارين، فلا يضرنا ترككم الاهتداء، وعدم انتفاعكم بهدانا؛ أو: فلا ينفعنا اهتداؤكم، كما لا يضرنا ضلالكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ١٦٧.

١٤ - (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى)

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلى بحرها إلا الشقي؛ وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري؛ وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)؛ وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٦٨ يقول: هي حق. ١٦٩ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا؛ هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

١٥ - (لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{لا يصلاها} لا يذوق صلاها وحرها.

{الأشقى} الشقي.

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن

هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!؛ ولا يصطلى بحرها إلا الشقي؛ وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري؛ وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)؛ وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات؛ قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات؛ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك؛ ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا؛ كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٧٠ يقول: هي حق. ١٧١ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا؛ هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي

الله عنه.
١٦ - (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]
{كذب} بالحق.
{تولى} أعرض عن الرشد.
{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.
{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.
{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.
في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!؛ ولا يصطلى بحرها إلا الشقي؛ وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري؛ وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)؛ وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.
عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.
وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات؛ قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات؛ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك؛ ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!
وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء:

لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٧٢ يقول: هي حق. ١٧٣ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

١٧ - (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{وسيجنبها} وسيبعد عنها.

{الأتقى} المتقي.

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلى بحرها إلا الشقي؛ وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري؛ وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)، وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه

الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة؛ فجعل تكذيبا؛ كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٧٤ يقول: هي حق. ١٧٥ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا؛ هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

١٨ - (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{يؤتي} يعطي، وينفق.

{يتزكى} يرجو به أن يزكو عند الله، وينمو ثوابه.

{فأنذرتكم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلى بحرها إلا الشقي؛ وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه) رواه البخاري؛ وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من

نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)، وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٧٦ يقول: هي حق. ١٧٧ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

١٩ - (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{تجزى} تكافأ.

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى

(١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.
في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلى بحرها إلا الشقي، وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري، وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)، وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.
عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.
وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!
وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٧٨ يقول: هي حق. ١٧٩ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.
يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم.

اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

٢٠ - (إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{ابتغاء} طلب.

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلى بحرها إلا الشقي، وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه) رواه البخاري، وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)، وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال

أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٨٠ يقول: هي حق. ١٨١ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

٢١ - (وَلَسَوْفَ يَرْضَى)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١٤]

{فأنذركم} نخوفتكم وحذرتكم.

{تلظى} تتوقد، وتتلظى، وتتلهب.

{فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)}.

في الآيات السابقات على هذه كان بيان درجات نفوس من أعطى واتقى وصدق، ودركات نفوس من بخل واستغنى وكذب، فكأن هذه- والله تعالى أعلم- فيها نداء إلى الخلق وإعذار للخالق تبارك اسمه: إني أنذرتكم أيها الناس وخوفتكم وحذرتكم نارا تتوهج وتتوقد، وتتلظى وتتلهب، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا فتصلوها في الآخرة!، ولا يصطلي بحرها إلا الشقي، وقيل: يدخلها العاصي والكافر، لكن الاصطلاء: أن تحيط النار به إحاطة تامة، فهذا عذاب الكافر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثني شعبة حدثني أبو إسحاق سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) رواه البخاري، وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)، وقوله تعالى: {لا يصلاها إلا الأشقى} أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسر فقال: {الذي كذب} أي بقلبه، {وتولى} أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري عن محمد بن سنان عن فليح به.

وقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى} أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: {الذي يؤتي ماله يتزكى} أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما {ابتغاء وجه ربه الأعلى} أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {ولسوف يرضى} أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى

الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى} ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقا تقيا، كريما جوادا، بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. . . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود- وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة؛ فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير) فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعي منها ضرورة، فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. وكذلك قوله جل ثناؤه: {ليس لوقعتها كاذبة} ١٨٢ يقول: هي حق. ١٨٣ والزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى} وليس الأمر كما ظنوا؛ هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل ٢.

يقول محقق الجامع لأحكام القرآن: هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفرة طاعة، سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي: أخره عنهم: وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم. اه روى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا رضي الله عنه.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٨٤، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٨٥ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٨٦، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٨٧ {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٨٨ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨٩، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٩٠، {ملك الناس. إله الناس} ١٩١.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٩٢ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٩٣ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٩٤؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٩٥. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا

الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٩٦، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٩٧.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ١٩٨، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ١٩٩، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٠٠، {والسماء ذات البروج} ٢٠١، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٠٢، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٠٣ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٠٤، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٠٥، {والضحى. والليل إذا سجى} ٢٠٦، {والعصر} ٢٠٧، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٢٠٨، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين} ٢٠٩. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٢١٠، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٢١١.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٢١٢، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٢١٣. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٢١٤، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٢١٥ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٢١٦ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٢١٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٢١٨، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٢١٩ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٢٢٠، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٢٢١، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٢٢٢، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٢٢٣، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٢٢٤، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل

يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٢٢٥، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات
ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٢٢٦، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٢٢٧، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٢٢٨.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٢٢٩. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٢٣٠؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى. وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٢٣١ بعد هذه السبع أكثرها ٢٣٢ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٢٣٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٢٣٤، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٢٣٥. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٢٣٦ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٢٣٧، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٢٣٨، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٢٣٩، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٢٤٠، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن

يغنيه} ٢٤١، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٢٤٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٢٤٣، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٢٤٤. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٢٤٥، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٢٤٦، {قد أفلح من تزكى} ٢٤٧، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٢٤٨، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٢٤٩، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٢٥٠، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٢٥١. وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٢٥٢، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٢٥٣، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٢٥٤، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٢٥٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٢٥٦، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٢٥٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٢٥٨، {سندع الزبانية} ٢٥٩، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٢٦٠.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٢٦١، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٢٦٢ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٢٦٣، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٢٦٤ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٢٦٥، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٢٦٦، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفور ا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٢٦٧، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٢٦٨، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٢٦٩، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٢٧٠، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٢٧١ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٢٧٢، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٢٧٣، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٢٧٤، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٢٧٥، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٧٦، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٢٧٧، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ٢٧٨.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ٢٧٩، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ٢٨٠، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ٢٨١، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى.

فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} ٢٨٢ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ٢٨٣، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ٢٨٤، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ٢٨٥، {سنقرئك فلا تنسى} ٢٨٦؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ٢٨٧؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ٢٨٨. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ٢٨٩، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ٢٩٠؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ٢٩١؛ {ورفعنا لك ذكرك} ٢٩٢؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ٢٩٣؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ٢٩٤؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ٢٩٥. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٢٩٦.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ٢٩٧، {ورتل القرآن ترتيلا} ٢٩٨ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ٢٩٩ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٠٠، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٣٠١، {سبح اسم ربك الأعلى} ٣٠٢، {فذكر إنما أنت مذكر} ٣٠٣، {أما بنعمة ربك فحدث} ٣٠٤، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ٣٠٥، {. . واسجد واقترب} ٣٠٦، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ٣٠٧، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ٣٠٨، {فليعبدوا رب هذا البيت} ٣٠٩، {فصل لربك وانحر} ٣١٠، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ٣١١، {قل هو الله أحد} ٣١٢، {قل أعوذ برب الفلق} ٣١٣، {قل أعوذ برب الناس} ٣١٤؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ٣١٥، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ٣١٦ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ٣١٧؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ٣١٨، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ٣١٩، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ٣٢٠ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ٣٢١ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ٣٢٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ٣٢٣ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ٣٢٤، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ٣٢٥، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ٣٢٦، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ٣٢٧ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ٣٢٨، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ٣٢٩، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}

٣٣٠، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ٣٣١، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ٣٣٢. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ٣٣٣، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ٣٣٤، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ٣٣٥ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ٣٣٦ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٣٣٧ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ٣٣٨، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ٣٣٩، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ٣٤٠، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ٣٤١، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ٣٤٢.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٣ سورة الضحى:

سورة الضحى:
(٩٣) سورة الضحى مكية
وآياتها إحدى عشر
كلماتها: ٤٠؛ حروفها: ١٧٢
١ - (وَالضُّحَى)
{الضحى} ضوء الشمس حين ارتفاعها}.

بسم الله الرحمن الرحيم
{والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣)

يقسم الله تعالى- مخاطبا خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - يقسم بالنهار المضيء المبصر. وبالليل الهادئ الساكن المظلم، وكليهما من دلائل قدرة ربنا العظيم، وإتقان صنعته، وبالغ حكمته؛ وهما مع ذلك نعمتان من الكريم الوهاب؛ والمقسم عليه {ما ودعك ربك وما قلى} ما ترك ربك، ولا هو سبحانه بمبغض لك ولا كاره؛ وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه: ورب الضحى.

في البخاري عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد

إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عز وجل: {والضحى (١) والليل إذا سجى. (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣)}.
٢ - (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)
{سجى} سكن الناس، وهدأت الأصوات، وعم الظلام.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)
{ما ودعك} ما تركك.
{قلى} أبغض.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى)
{وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥)}
ولدار الآخرة أبقى وأدوم، وأشرف وأعظم، ولك فيها المقام المحمود الأكرم. أي ما عندي في مرجعك إلي يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا، وازدد يقينا، واثبت وأمتك على الاستبشار بما أعددت لكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر {. . عطاء غير مجذوذ}. ١

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم: {. . فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} ٢ وقول عيسى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك. } ٣ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك) فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد فقل له إن الله يقول لك إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) هكذا أورده صاحب الجامع لأحكام القرآن، لكن محققة قال: رواية الحديث كما ورد في صحيح مسلم في كتاب الإيمان: أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: {رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني} ٤ الآية، وقول عيسى عليه السلام: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} ٥ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي)، وبكى، فقال الله عز وجل: (يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك) فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم، فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم، فقال الله: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك).
٥ - (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٤]
{وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥)}
ولدار الآخرة أبقى وأدوم، وأشرف وأعظم، ولك فيها المقام المحمود الأكرم. أي ما عندي في مرجعك إلي يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا، وازدد يقينا، واثبت وأمتك على الاستبشار بما أعددت لكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر {. . عطاء غير مجذوذ}. ٦

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم: {. . فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} ٧ وقول عيسى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك. } ٨ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك) فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد فقل له إن الله يقول لك إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) هكذا أورده صاحب الجامع لأحكام القرآن، لكن محققة قال: رواية الحديث كما ورد في صحيح مسلم في كتاب الإيمان: أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله

عز وجل في إبراهيم: {رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني} ٩ الآية، وقول عيسى عليه السلام: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} ١٠ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي)، وبكى، فقال الله عز وجل: (يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك) فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم، فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم، فقال الله: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك).

٦ - (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)

{يتيما} مات أبوك.

{فآوى} فوهبك من تأوى إليه ويكفلك.

{ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدث (١١)}.

ومع ما أعددت لك في العقبى، فإني قد وهبتك من آلائي من أول أمرك، فهل بعد اصطفائك واختيارك خاتما للنبيين يتوهم أنا بعد الرسالة نهجرك ونتركك ونخذلك؟! أو- ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود، فيزداد قلبه الشريف، وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا، وانشراحا وحبورا، ولذا فصلت الجملة. . . كأنه قيل: قد وجدك. . . وفي مفردات الراغب: الوجود أضرب. . . وما نسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم. . . واليتيم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، والإيواء: ضم الشيء إلى آخر. يقال: آوى إليه فلانا: أي ضمه إلى نفسه، ألم يعلمك طفلا لا أبا لك، فضمك إلى من قام بأمرك؟!

روى أن عبد الله المطلب بعث ابنه عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتار تمرا من يثرب فتوفى ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أتت عليه ستة أشهر، فلما وضعته كان في حجر جده مع أمه، فماتت وهو صلى الله عليه وسلم ابن ست سنين، ولما بلغ صلى الله عليه وسلم ثمانين سنين مات جده، فكفله عمه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب، وأحسن تربيته صلى الله تعالى عليه وسلم؛- ١١

٧ - (وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى)

{ضالا} غافلا عن أمر الرسالة التي سأبعثك بها.

{فهدى} فأرشدك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

{ووجدك ضالا فهدى (٧)} خفي وغاب عنك الشرع الحنيف، والمنهاج السوي، فأوحيت إليك، وعلمتك ما لم تكن تعلم؛ كما قال الله جل علاه: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء} ١٢ [وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدي بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {ووجدك ضالا} أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ {فهدى} فهديت بك الخلق إلي] ١٣؛ أي: أما وجدك وحدك ليس معك أحد فهدى الناس إليك ولم يتركك منفردا؟!

٨ - (وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى)

{عائلا} مفتقرا.

{فأغنى} فوهبك ما يغنيك.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

{ووجدك عائلا فأغنى (٨)} وكنت مفتقرا، وعلمت حاجتك فأغنيتك، لم تكن صاحب مقتنيات، فأغنيتك بمثل ما حصلت عليه من ربح التجارة إذ سافرت إلى الشام تتاجر بمال خديجة؟.

٩ - (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ)

{تقهر} تستذل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
{فأما اليتيم فلا تقهر (٩)}. وحين أذكره الله تعالى نعمه حتى لا ينسى نفسه أوصاه بأن يتعامل مع الخلق مثل معاملة الله معه، فقال: {فأما اليتيم فلا تقهر} لا تقهره ولا تحقره، ولا تصح به، ولا تعبس في وجهه، ولا تظلمه بتضييع ماله ضعف حاله، والخطاب للنبي والمراد- والله أعلم- أمته، فلقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم رقيق القلب حتى على الحيوان الأعجم، ويعلمنا أنه: من لا يرحم لا يُرحم، فكيف تكون رحمته باليتيم الذي لا ناصر له إلا البر الرحيم رب العرش العظيم؟! في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين) وأشار بالسبابة والوسطى، قال قتادة- في الحض على الإحسان إلى اليتيم، والتلطف به-: كن لليتيم كالأب الرحيم.
١٠ - (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ)
{السائل} المستجدي.
{فلا تنهر} فلا تزجره.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
{وأما السائل فلا تنهر (١٠)} لا تزجر سائلك ولكن أجب سؤله، أو رده بميسور من القول، وليسعه منك- إن لم يسعه مالك- بسط الوجه، فإن لم تسعهم أموالنا، فلتسعهم أخلاقنا، قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال: يحملون زادنا إلى الآخرة، وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء؟! لكن ليس معنى هذا أن نعين على التسول والتبطل، فإن الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم علم: أنه لأن يأخذ الواحد حبله على ظهره فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه، كما كان من هديه صلوات الله عليه أن المسألة لا تحل إلا لذي فقر مدقع، أو غرم مفظع، أو نازلة يعدها العقلاء نازلة، وما سوى ذلك فسحت يأكله صاحبه سحتا، هذا معنى ما أرشد إليه صلى الله عليه وسلم.
قال العلماء: أما إنه ليس بالسائل المستجدي ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره [وقيل: المراد بالسائل هنا: الذي يسأل عن الدين. . . قال ابن العربي: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم، على الكفاية، كإعطاء سائل البر ١٤ سواء] ١٥.
يقول صاحب روح المعاني: ثم النهي عن النهر- على ما قالوا- إذا لم يلح في السؤال ١٦، فإن ألح ولم ينفع الرد باللين فلا بأس بالزجر، وقال أبو الدرداء: المراد بالسائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال، ولعل النهي عن زجره على القول الأول يعلم بالأولى، ويشهد للأولوية أنه لا وعيد على ترك إعطاء المستجدي لمن يجد ما يستجديه، بخلاف ترك جواب سائل العلم لمن يعلم، ففي الحديث: من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار. . .
١١ - (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
{وأما بنعمة ربك فحدث (١١)}. . أخرج البخاري في الأدب. . . عن جابر بن عبد الله – مرفوعا-: من أعطى عطاء فليجز به فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور. اه وفي الصحيحين عن أنس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله! ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: (لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم). فكأن الأمر في الآية يراد به- والله أعلم بالمراد-: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء والتحدث بنعم الله، وأعلى النعم وأتمها نعمة الدين، فبلغ الحي، وأد الرسالة وادع إلى الإسلام، يكن ذلك من أكرم نشر لأكرم نعمة، وشكرا على أن هدانا ربنا إليها {. . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. } ١٧.
[قال مجاهد: ولقد روعي في الترتيب نكتة لطيفة فقدم في معرض المنة النعمة الدينية، وهي الهداية، على النعمة الدنيوية، وهي الإغناء، وأما في معرض الإرشاد فقدم الإشفاق على الخلق، وأخر التحديث، ليكون أدخل في الاستمالة، وأجلب للدواعي، فإنه ما لم ينتظم

أمر المعاش لم تفرغ الخواطر لقبول التكاليف والتزام أمر المعاد.

قال المحققون: التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقا بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدى غيره به، أو أن يشيع شكر ربه بلسانه؛ وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب فالستر أفضل؛ قالوا: إنما أخر التحديث تقديما لحظ الخلق على حظ نفسه لأنه غني وهم المحتاجون، ولهذا رضي نفسه بالقول فقط، ولأن الاستغراق في بحر الشكر ومعرفة المنعم، غاية الغايات، ونهاية الطاعات] ١٨.

وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها وادع إليها، قال: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرا إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة فصلى. اهـ.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٩، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٠ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢١، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٢. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٣ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٤، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٥، {ملك الناس. إله الناس} ٢٦.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٧ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٨ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٩، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٠. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣١، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٢.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٣، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٤، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٥، {والسماء ذات البروج} ٣٦، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٧، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٨ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٩، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٠، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤١، {والعصر} ٤٢؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٣، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٤. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم

به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٥، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٦.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٧، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٨. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٩، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٠ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥١ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٣، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٤ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٥، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٦، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٧، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٨، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٩، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٠، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦١، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا

عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٢، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٣.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٤. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٥، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٦ بعد هذه السبع أكثرها ٦٧ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعائهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٩، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٠. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧١ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٢، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٣، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٤، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٥، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٦؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٨، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٩. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٠، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨١، {قد أفلح من تزكى} ٨٢، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٣، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٤؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٥؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨٦.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا

الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٧، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٨؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٩، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩١، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٣، {سندع الزبانية} ٩٤، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٥.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٦، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٧ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٨، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٩ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٠، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠١، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٢، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٣، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٤، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٥، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٦ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٧، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٨، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٩، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٠، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١١، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٢، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٣.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٤، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٥، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٦، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٧ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٨، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٩، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٠، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢١؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٢؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٣. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٤، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٥؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٦؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٧؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٨؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٩؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٠. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣١.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم،

والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٢، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٣ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٤ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٥، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٦، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٧، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٨، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٩، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٤٠، {. . واسجد واقترب} ١٤١، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٢، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٣، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٤، {فصل لربك وانحر} ١٤٥، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٦، {قل هو الله أحد} ١٤٧، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٨، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٩، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٠، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥١ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٢، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٣، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٤، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٥ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٦ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٨ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٩، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٠، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦١، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٢ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٣، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٤، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٥، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٦، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٧. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٨، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٩، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٠ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧١ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٢ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٣، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٤، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٥، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٦، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٧.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٩٤ سورة الشرح:

سورة الشرح:
(٩٣) سورة الشرح مكية
وآياتها ثمان
كلماتها: ٢٩؛ حروفها: ١٠٣
١ - (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)
{نشرح} نوسع ونفسح، وننر.
بسم الله الرحمن الرحيم
{ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك (٢) الذي أنقض ظهرك (٣) ورفعنا لك ذكرك (٤) فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦) فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب (٨)}
الهمزة للاستفهام و {لم} - كما هو معلوم- للجزم والقلب والنفي؛ وفي الاستفهام طرف جحد فلما جاء بعد حرف النفي والجحد، صار نفي النفي إثباتا، وانقلب المضارع إلى معنى الماضي فصار المعنى: قد شرحنا؛ كقوله تعالى: {أليس الله بكاف عبده. } ١ بمعنى: استيقنوا بأن الله كاف عبده؛ وكقوله تبارك اسمه: {أليس الله بأحكم الحاكمين} ٢ ومعناه: الله أحكم الحاكمين؛ وذهب بعض أهل اللغة إلى أن الحرفين {ألم} بمعنى: أما: فيكون المعنى: أما شرحنا. . ووضعنا عنك. . ورفعنا لك؟!، و {لك} تفيد الاختصاص- يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يذكره آلاءه عنده، وإحسانه إليه، حاضا له بذلك على شكره على ما أنعم عليه به ليستوجب بذلك المزيد منه.
و {نشرح} أي نوسع، وننر، ونفسح!، والشرح المعنوي: نور القلب، وضياء الصدر بالحكمة والعلم، وزوال الضيق والهم والغم؛ [ونقل عن الجمهور أن المعنى: ألم نفسحه بالحكمة؟ ونوسعه بتيسيرنا له تلقي ما يوحى إليك بعدما كان يشق عليك؟] ٣ وقد يكون حسيا، بمعنى شق صدره صلى الله عليه وسلم؛ والأكثرون على أن الشرح هذا أمر معنوي، وهو إما نقيض ضيق العطن، بحيث لا يتأذى من كل مكروه وإيحاش يلحقه من كفار قومه، فيتسع لأعباء الرسالة كلها، ولا يتضجر من علائق الدنيا بأسرها؛ وإما خلاف الضلال والعمه، حتى لا يرى إلا الحق، ولا ينطق إلا بالحق، ولا يفعل إلا للحق- ٤.
٢ - (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)
{ووضعنا} حططنا.
{وزرك} ثقلك، وهمك.
{ووضعنا عنك وزرك. (٢) الذي أنقض ظهرك (٣)}؛ وجائز أن يكون هذا الثقل الذي وضع عنه: إزالة الحيرة التي كانت قبل البعثة؛ أو ما كان تهالك عليه وحرص من إسلام أولى العناد فيغتم لذلك ويشتد أسفه حتى يكاد يموت حزنا، ويعاتب على هذا من لدن

ربنا العلي الأعلى بقوله الحكيم: {لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين} ٥، وقول المولى تبارك اسمه: {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} ٦، فوضعه الله تعالى عنه بأن استجاب له وآمن بدعوته من سبقت لهم الحسنى كأبي بكر وحمزة وعمر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، وبشره الله البر الرحيم بأنه لن يسأل عن أصحاب الجحيم، وأنه لن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وليس عليه أن يهتدوا. وإنما عليه أن يبلغ وينذر {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ٧.
مما أورد القرطبي: وقيل عصمناك من احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس. اه
٣ - (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)
{أنقض ظهرك} أثقلك حمله.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)
{ورفعنا} أعلينا، وعظمنا.
{ذكرك} قدرك ومقامك والحديث عنك.
{ورفعنا لك ذكرك (٤)} وأعلينا قدرك ومقامك والحديث عنك فجعلتك خاتم النبيين، وجعلت أمتك خير أمة، وأنزلت عليكم الكتاب المحفوظ الذي لا يتبدل، وأخذت على النبيين الميثاق وعلى أممهم أن يؤمنوا بما بعثتك به، وقرنت اسمك باسمى في كلمتي الشهادة، وفي كثير من الذكر والقرب والعبادة، وجعلت طاعتك من طاعتي، وصليت عليك وملائكتي، وشرعت للمؤمنين أن يصلوا ويسلموا عليك.
٥ - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)
{العسر} الضيق.
{يسرا} تيسيرا.
{فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦)} فإن مع الضيق تيسيرا، ومع الكرب كشفا وتفريجا، أو سعة وغنى، والتكرير: إما لتوكيد الكلام، كما في الآية الكريمة التي تكررت مرات في سورة الشعراء: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} ٨، وقال ثعلب: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر. اه
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مقلا مخفا، فعيره المشركون بفقره حتى قالوا له: نجمع لك مالا، فاغتم وظن أنهم كذبوه لفقره، فعزاه الله، وعدد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: {فإن مع العسر يسرا} أي لا يحزنك ما عيروك به من الفقر، فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا، أي في الدنيا، فأنجز له ما وعده، فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسع ذات يده، حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنة، فهذا الفضل كله من أمر الدنيا، وإن كان خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى، ثم بدأ فضلا آخر من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم، فقال مبتدئا: {إن مع العسر يسرا} فهو شيء آخر، والدليل على ابتدائه، تعريه من فاء أو واو أو غيرهما من حروف النسق التي تدل على العطف، فهذا وعد عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة. اه.
٦ - (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{العسر} الضيق.
{يسرا} تيسيرا.
{فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦)} فإن مع الضيق تيسيرا، ومع الكرب كشفا وتفريجا، أو سعة وغنى، والتكرير: إما لتوكيد الكلام، كما في الآية الكريمة التي تكررت مرات في سورة الشعراء: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} ٩، وقال ثعلب: إن من عادة

العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر. اه
يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مقلا مخفا، فعيره المشركون بفقره حتى قالوا له: نجمع لك مالا، فاغتم وظن أنهم كذبوه لفقره، فعزاه الله، وعدد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: {فإن مع العسر يسرا} أي لا يحزنك ما عيروك به من الفقر، فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا، أي في الدنيا، فأنجز له ما وعده، فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسع ذات يده، حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنة، فهذا الفضل كله من أمر الدنيا، وإن كان خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى، ثم بدأ فضلا آخر من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم، فقال مبتدئا: {إن مع العسر يسرا} فهو شيء آخر، والدليل على ابتدائه، تعريه من فاء أو واو أو غيرهما من حروف النسق التي تدل على العطف، فهذا وعد عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة. اه.
٧ - (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)
{فرغت} خلصت وانتهيت من السعي لابتغاء الرزق، والدعوة لهداية الخلق.
{فانصب} فاقصد إلى التبتل، ولو أن يدركك التعب والنصب والجهد.
{فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب (٨)} فإذا خلصت وانتهيت من السعي لابتغاء الرزق والدعوة لهداية الخلق، فاقصد إلى التبتل، ولو أن يدركك التعب والنصب والجهد، واثبت على التوجه إلى السميع القريب المجيب، ودم على الرغبة إلى ربك عز وجل والضراعة إليه [إن الله تعالى ذكره أمر نبيه أن يجعل فراغه من كل ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته مما أدى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قربه إليه، ومسألته حاجاته. . .] ١٠. إن القرآن الكريم- وهو أصدق الحديث- ينادي رسول الله منذ بدء الوحي أن يستكثر من التبتل، وتلاوة ما أوحي إليه آناء الليل وأطراف النهار، فمن أوائل ما نزل في سورة المزمل وفي آياتها المباركات عهد الله تعالى إلى نبيه: {يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا. إن لك في النهار سبحا طويلا. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا} ١١ وما أوفاه صلوات الله عليه بعهد ربه، فقد جاء في خواتيم السورة الكريمة مبلغ وفائه والصفوة الذين اتبعوه: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك} ١٢. وفي سورة مباركة أخرى يعلمنا بعض ما حمل من أمانات، وذلك قول الله سبحانه- فيما أنزله عليه-: {إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين. وان أتلو القرآن} ١٣، وكذا أمر الله العلي الأعلى: {أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} ١٤ وهذه سبيل الشاكرين المحسنين الراغبين في ثواب ورضوان رب العالمين: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ١٥ {إن المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} ١٦، فمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا فهذا هو الصراط، فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم آمين.
٨ - (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)
{فارغب} فاثبت على الرغبة إلى الله عز وجل.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٧ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه-

وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٧، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٨ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٩، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٠. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢١ {الذي علم بالقلم.

علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٢، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٣، {ملك الناس. إله الناس} ٢٤.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٥ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٦ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٧، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٨. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٩، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٠.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣١، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٢، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٣، {والسماء ذات البروج} ٣٤، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٥، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٦ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٧، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٨، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٩، {والعصر} ٤٠؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤١، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٢. وقسم القرآن بالملإ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٣، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٤.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٥، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٦. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٧، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٨ {وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٩ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان

يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥١، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٢ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٣، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٤، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٥، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٦، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٧، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٨، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٩، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٠، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦١.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٢. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٣؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما

دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٦٤ بعد هذه السبع أكثرها ٦٥ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٧، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٨. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٩ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٠، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧١، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٢، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٣، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٤؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٦، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٧. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٨، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٩، {قد أفلح من تزكى} ٨٠، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨١، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٢؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٣؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨٤.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٥، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٦؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٧، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٩، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩١، {سندع الزبانية} ٩٢، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٣.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن

ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٤، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٥ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٦، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٧ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٨، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٩، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٠، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠١، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٢، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٣، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٤ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٥، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٦، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٧، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٨، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٩، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٠، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١١.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٢، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٣، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٤، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٥ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٦، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٧، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٨، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٩؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٠؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢١. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٢، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٣؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٤؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٥؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٦؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٧؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٨. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٩.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٠، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣١ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٢ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٣، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٤، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٥، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٦، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٧، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٨، {. . واسجد واقترب} ١٣٩، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٠، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤١، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٢، {فصل لربك وانحر} ١٤٣، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٤، {قل هو الله أحد} ١٤٥، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٦، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٧، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٨، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٩ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٠، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين:

}وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا{ ١٥١، }إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله{ ١٥٢، }إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر{ ١٥٣ }وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين{ ١٥٤ }كلا بل لا يخافون الآخرة{ ١٥٥، }أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة{ ١٥٦ }كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة{ ١٥٧، }فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى{ ١٥٨، }إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا{ ١٥٩، }إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا{ ١٦٠ }كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون{ ١٦١، }ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين{ ١٦٢، }إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين{ ١٦٣، }قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد{ ١٦٤، }بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط{ ١٦٥. }إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فهل الكافرين أمهلهم رويدا{ ١٦٦، }قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى{ ١٦٧، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد{ ١٦٨ }قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها{ ١٦٩ }كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى{ ١٧٠ }أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو آمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى{ ١٧١، }إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد{ ١٧٢، }ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر{ ١٧٣، }أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين{ ١٧٤، }فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة{ ١٧٥.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه ونتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، ونتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٥ سورة التين:

سورة التين:
(٩٥) سورة التين مكية
وآياتها ثمان
كلماتها: ٣٤؛ حروفها: ١٥٧
١ - (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)
{التين والزيتون} الفاكهة والثمرة المعروفتان، وقيل تجوز بها عن منبتيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

{والتين والزيتون (١) وطور سنين (٢) وهذا البلد الأمين (٣) لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥)}

أقسم الله تعالى بالفاكهة والثمرة المعروفتين، التين الذي نأكله غذاء وفاكهة ودواء، والزيتون الذي نتغذى بثمره، ونعتصر منه الزيت أدما ودواء وبركة، وكلتاهما مما يقتات به ويدخر؛ وقيل: تجوز بالتين والزيتون عن منبتيهما اللذين عرفا قديما؛ وهما- كما روى- جبلان قريبان من بيت المقدس؛ وعلى هذا التجوز يمكن أن يشار بهما إلى كرامة موطن رسول الله عيسى -صلى الله عليه وسلم- ومحل مولده؛ ثم القسم بالجبل الذي كلم الله تعالى به موسى عليه السلام جبل الطور الذي بسيناء؛ ثم القسم بالبلد الأمين مكة الذي به المسجد الحرام، أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين {فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا} ١.

والمقسم عليه: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} فما برأ الله جل علاه أقوم من بني البشر؛ فتبارك {الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك} ٢، {. . وصوركم فأحسن صوركم} ٣ كما منحنا - هبة منه وإحسانا- رفعة القدر، وعلو الذكر، وامتن علينا بما وهبنا، لكيلا يغفل عن فيضه الغافلون، يقول - تبارك اسمه-: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} ٤ وملكنا وذلل لنا عوالم السماء والأرض: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} ٥.

وهكذا سوى الله وقوم الآدمي أكرم تسوية حسا ومعنى؛ ثم قد يتطاول بالبعض العمر، فيدركه خرف الهرم، وضعف المشيب حتى ليبلغ أن لا يعلم بعد علم شيئا؛ والأكثرون على أن {أسفل سافلين} إنما هي دركات النار- أعاذنا منها العزيز الغفار- فمن لم يدرك من بني البشر كرامته، ومن كذب بآيات ربه وجحد نعمته، وانسلخ من عروة ربه الوثقى وهجر شريعته، فليس له إلا الهوان، والدرك الأسفل في السعير والنيران؛ لقد وصفهم الله تعالى الحق وما ظلمهم: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون} ٦؛ {. . . ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا} ٧.

[{وفي أحسن تقويم} في أحسن تعديل شكلا وانتصابا؛ وقال الأصم: في أكمل عقل وفهم وبيان. . . وكان بعض الصالحين يقول: إلهنا أعطيتنا في الأول أحسن الأشكال، فأعطنا في الآخرة أحسن الخصال، وهو العفو عن الذنوب، والتجاوز عن العيوب] ٨ - وقال أبو بكر بن طاهر: مزينا بالعقل، مؤديا للأمر، مهديا بالتمييز. . . ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيا عالما، قادرا مريدا متكلما، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما؛ وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: (إن الله خلق آدم على صورته) يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها؛ وفي رواية: (على صورة الرحمن) ومن أين تكون للرحمان صورة متشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني- ٩.

عن ابن عباس {ثم رددناه أسفل سافلين} يقول: يرد إلى أرذل العمر، كبر حتى ذهب عقله؛ وهم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم.

عن عكرمة: {ثم رددناه أسفل سافلين} قال: الشيخ الهرم لم يضره كبره إن ختم الله بأحسن ما كان يعمل؛ وقال آخرون: بل معنى

ذلك رددناه إلى النار في أقبح صورة. . . وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب في ذلك لأن الله- تعالى ذكره- أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال احتجاجا بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت، ألا ترى أنه يقول بعد: {فما يكذبك بعد بالدين} يعني بعد هذه الحجج؛ ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكري معنى من المعاني بما كانوا له منكرين؛ إنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه أو يقرون به وإن لم يكنوا له محسين، وإذ كان كذلك، وكان القوم للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين، وكانوا لأهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين، من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن، والشباب والجلد، إلى الهرم والضعف، وفناء العمر وحدوث الخرف. اهـ.
وخالفه صاحب تفسير القرآن العظيم وقال: ولو كان هذا هو الرد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم؛ وإنما الرد ما ذكرناه، بقوله تعالى: {والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ١٠. اهـ.
٢ - (وَطُورِ سِينِينَ)
{طور سينين} الجبل الذي كلم الله تعالى به موسى.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)
{البلد الأمين} مكة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)
{أحسن تقويم} أفضل اعتدال واستواء وإبداع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)
{رددنا أسفل سافلين} نرده إلينا يوم القيامة كالحا مقبحا، يهوي إلى الدرك الأسفل؛ أو يرد بعضهم إلى أرذل العمر، فيدركه خرف الهرم، وضعف المشيب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)
{آمنوا} صدقوا واستيقنوا بالله وبما أوجب الإيمان به.
{الصالحات} الطاعات والبر والقربات، والانتهاء عما نهى الله عنه.
{ممنون} مقطوع منقوص.
{إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨)}
نرد من كفر وفجر من جنس الإنسان إلى عذاب غليظ يوم القيامة، وهم يومئذ في دركات النار السفلى كالحين مقبوحين؛ أما الذين استيقنوا وصدقوا بالله تعالى وبما أوجب الإيمان به، وعملوا الطاعات والبر والقربات، وانتهوا عما نهى ربنا عنه فلهم ثواب جزيل، وأجر جميل، لا ينقطع ولا يضعف ولا ينقص؛ {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} على ما تقدم استثناء متصل من ضمير {رددناه} العائد على {الإنسان} فإنه في معنى الجمع، فالمؤمنون لا يردون إلى {أسفل سافلين} يوم القيامة، ولا تقبح صورهم، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم، وحسنا إلى حسنهم.
وقوله تعالى: {فلهم أجر غير ممنون} أي غير مقطوع، أو غير ممنون به عليهم، مقرر لما يفيده الاستثناء من خروجهم عن حكم الرد، ومبين لكيفية حالهم؛ وعلى الأخير- الذي يقول أصحابه: الرد إلى أسفل سافلين: هو الرد إلى أرذل العمر- الاستثناء منقطع. . . وحمل غير واحد هؤلاء المؤمنين على الصالحين من الهرمى، كأنه قيل: لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع، أو

غير ممنون به عليهم لصبرهم على ما ابتلوا به من الهرم والشيخوخة المانعين إياهم عن النهوض لأداء وظائفهم من العبادة. أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما)، وفي رواية عنه: ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: (فلهم أجر غير ممنون). أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبدا من عبادي مؤمنا فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب عز وجل: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك) وهو صحيح ١١.

٧ - (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ)

{بالدين} بالجزاء والبعث لملاقاته، أو بالملة التي بعثت بها.

{فما يكذبك بعد بالدين} معنى {ما} ههنا معنى: من، فمن يكذبك يا محمد بعد هذا الذي جاءك من رب العالمين بطاعة الله تعالى، والكف عن محارمه، ومجازاته العباد على ما عملوا؟! أو: فمن الذي يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له عجيب صنع الله تعالى وبديع خلقه للإنسان، وتصريفه أحواله؟!

٨ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

{بأحكم الحاكمين} بأقضى من يقضي بالحق؟!

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

{أليس الله بأحكم الحاكمين} أما الله أقضى من يقضي بين عباده؟! بلى! ومن القضاء الحق أن لا يسوي بين المؤمنين والكفار، ولا بين المتقين والفجار، وهنا عمل ولا حساب، وهناك حساب ولا عمل، فمن عدْله سبحانه بين الخلق أن جعل الآخرة للفصل والجزاء، وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجابا، - {أليس الله بأحكم الحاكمين} أي: أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء؟ وحيث استحال عدم كونه سبحانه أحكم الحاكمين تعين الإعادة والجزاء،. . . وقيل: الحكم بمعنى القضاء، فهي وعيد للكفار، وأنه عز وجل يحكم عليهم بما هم أهله من العذاب.

وأيا ما كان فالاستفهام على ما قيل: تقرير بما بعد النفي، ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي وأبو داود وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ منكم {والتين والزيتون} فانتهى إلى قوله تعالى: {أليس الله بأحكم الحاكمين} فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين} ١٢. ونقل الطبري- بسنده- عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عباس إذا قرأ: {أليس الله بأحكم الحاكمين} قال: سبحانك اللهم، وبلى. . . وعن معمر قال: كان قتادة إذا تلا: {أليس الله بأحكم الحاكمين} قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، أحسبه كان يرفع ذلك.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى وصفاته القدسية وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٧ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٩، {ملك الناس. إله الناس}

٠٢٠.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٣، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٦.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٧، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٩، {والسماء ذات البروج} ٣٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٥، {والعصر} ٣٦؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٨. وقسم القرآن بالملإ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٠.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت

قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٧.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٠ بعد هذه السبع أكثرها ٦١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى

له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٠؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٥، {قد أفلح من تزكى} ٧٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٨؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٩؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٠.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٢؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٧، {سندع الزبانية} ٨٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٩.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٥، {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف

إبراهيم وموسى} ١٠٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٧.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٥؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٦؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٩؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٠؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢١؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٢؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٣؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٤. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٥.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٦، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٧ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٨ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٩، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٠، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣١، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٢، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٣، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٤، {. . واسجد واقترب} ١٣٥، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٦، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٧، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٨، {فصل لربك وانحر} ١٣٩، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٠، {قل هو الله أحد} ١٤١، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٢، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٣، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٤، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٥ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٦، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٧، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٨، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٩ {وما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٠ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥١، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه.

بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٢ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٣، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٤، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٥، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٦ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٧، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٨، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٩، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٠، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦١. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٢، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٣، {أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٤ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٥ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٦ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٧، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٨، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٩، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٠، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧١.

وصاكم الملك القدوس في هذه السورة الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٦ سورة العلق:

سورة العلق:
(٩٦) سورة العلق مكية
وآياتها تسع عشرة
كلماتها: ٧٢؛ حروفها: ٢٨٠.
١ - (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

{ربك} مولاك، ومصلحك، ومعبودك، وخالقك.
بسم الله الرحمن الرحيم
{اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)}.

أمر الله تعالى نبيه محمدا رسوله إلى الكافة وخاتم النبيين أن يقرأ ما يوحى إليه من ربه مفتتحا باسم مولاه الذي برأ وذرأ، وفطر وأنشأ؛ ومن أحسن خلقه، وأبدع صنعه هذا المخلوق المكرم، الإنسان الذي أوجده الله تعالى، واستخلفه في الأرض، وأسجد له الملائكة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا؛ مع أن أصل أبيه التراب، ونسله من نطفة من ماء مهين، ثم من علقة قطعة من الدم متجمدة- بخلاف الدم المسفوح الذي ينصب سائلا- ثم تكرر الأمر توكيدا عليه: {اقرأ وربك الأكرم} ومولاك، ومصلحك ومعبودك، ومربيك، وخالقك هو {الأكرم} الذي يقبل العمل القليل، ويعطي عليه الأجر الجزيل، والثواب الجميل، والذي يحلم عن جهل العباد، فلا يعجل عقوبتهم، وهو الكريم الذي لا نهاية لكرمه، فهو معينك على تلاوة ما يوحى إليك، وأنت الأمي، {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك} ١، ومولاك بقدرته وحكمته سيجمع عليك ما يملي عليك ويقرئك ملك الوحي، وروح القدس، فلا تنسى، {ثم إن علينا بيانه} ٢.

{الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} علم من شاء من خلقه أن يخط بالقلم، فعلم ملائكته كيف يكتبون أعمال العباد، وما شاء الله أن يسطر، وعلم بني الإنسان ما لم يكونوا يعلمون؛ أو علم آدم عليه السلام، فهو أبو الأناسي، أول إنسان؛ وقيل: {الإنسان} هنا: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم- ٣.

وهذه الآيات الخمس المباركات أول ما نزل من القرآن؛ دليله ما رواه البخاري في صحيحة عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة، فجاءه الملك فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم}.

وفي الصحيحين عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث ٤ فيه الليالي ذوات العدد- قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك-؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها؛ حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك، فقال: {اقرأ}، فقال: (ما أنا بقارئ) قال- فأخذني فغطني ٥ حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال {اقرأ} فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني) فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم}).

٢ - (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)
{علق} جمع علقه، وهي الدم المتجمد، طور من أطوار الأجنة؛ والجمع لأن الإنسان أريد به الجمع.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{ربك} مولاك، ومصلحك، ومعبودك، وخالقك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٦ - (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى)
{يطغى} يتجاوز الحد.
{كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠) أرأيت إن كان على الهدى (١١) أو آمر بالتقوى (١٢) أرأيت إن كذب وتولى (١٣) ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦) فليدع نادية (١٧) سندع الزبانية (١٨) كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩)}
-أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة: أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي ليطأن على رقبته، وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار، وهولا، وأجنحة؛ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا) وأنزل الله تعالى: {كلا إن الإنسان} إلى آخر السورة. . . {كلا} ردع لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة الله تعالى عليه، بطغيانه؛ وإن لم يذكر، لدلالة الكلام عليه، وذلك لأن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان، فإذا قيل {كلا} كان ردعا للإنسان الذي قابل تلك النعم الجلائل بالكفران والطغيان. . ومع نزوله في ذلك اللعين، المراد بالإنسان: الجنس- ٦؛ ويجوز أن تكون {كلا} بمعنى: حقا.
{إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} تحققوا أن جنس الإنسان يتجاوز حده، فيتطاول ويتعدى حق الخالق جل وعلا، ويتعدى حق الخلق؛ لأنه رأى نفسه صار غنيا ذا مال وثروة- فالسين والتاء هنا: للصيرورة- ورأى إما بصرية أو بصيرية، أي رأى بعينيه أنه أصبح يملك الأموال، أو دار بفكره أنه جمع مالا وعدده؛ [وقيل: {أن رآه استغنى} بالعشيرة والأنصار والأعوان؛ وحذف اللام من قوله: {ن رآه} كما يقال: إنكم لتطغون أن رأيتم غناكم] ٠٧
٧ - (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)
{أن رآه} لأن رأى نفسه.
{استغنى} صار غنيا ذا ثروة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
٨ - (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)
{الرجعى} الرجوع.
{إن إلى ربك الرجعى} إن إلى ربك المنتهى والمرجع والمآب للسؤال والحساب والثواب- نعيما كان أو عذابا- فهو وعيد للذي طغى، واستكبر وبغى، حين أوتي مالا ونفرا؛ والخطاب إما التفات إلى هذا الجاهل المتطاول، وجائز أن يكون الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن الخطاب في أوائل السورة كان موجها إليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه.
٩ - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى)
{أرأيت الذي ينهى (٩). عبدا إذا صلى (١٠). أرأيت إن كان على الهدى. (١١) أو أمر بالتقوى. (١٢) أرأيت إن كذب وتولى. (١٣) ألم يعلم بأن الله يرى (١٤)} تعجيب من هذا المتجبر الشقي المسرف في العتو والبغي، الذي يمنع أن يُذكر اسم الله، ويريد أن يحول بين العبد ومولاه!! - والخطاب في الكل على ما اختاره جمع لكل من يصلح أن يكون مخاطبا ممن له مسكة. . . وتقييد النهي بالظرف يشعر بأن النهي عن الصلاة حال التلبس بها، وفصل بين الجمل للاعتناء بالتشنيع والوعيد، حيث أشعر أن كل جملة مقصودة على حيالها، فشنع سبحانه على الناهي: أولا- بنهيه عن الصلاة، وأوعد عليه مطلقا بقوله تعالى: {أرأيت الذي} الخ؛ أي أخبرني يا من له أدنى تمييز أو أيها الإنسان عمن ينهى عن الصلاة بعض عباد الله تعالى؛ ألم يعلم بأن الله تعالى يرى ويطلع فيجازيه على ذلك النهي!! وشنع سبحانه عليه ثانيا بنهيه عن ذلك. وأوعده عليه أيضا. على تقدير أنه على زعمه على هدى ورشد في نفس النهي، أو أنه أمر بواسطته بالتقوى، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، أو مستلزم له. . أي أخبرني عن ذلك الناهي! ألم يعلم أن الله يطلع فيجازيه إن كان على

هدى ورشد في نفس النهي، أو كان آمرا بواسطته بالتقوى كما يزعم.
وشنع جل شأنه عليه ثالثا بذلك. . . أي أخبرني عن ذلك الناهي؟ ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله إن كذب بحقيقة ما نهى عنه وأعرض عن فعله. . إدخال حرف الشرط في الأول لإرخاء العنان صورة، والتهكم حقيقة، إذ لا يكون في النهي عن عبادته تعالى، والأمر بعبادة الأصنام هدى ألبتة، وفي الثاني لذلك. والتهكم على عكس الأول، إذ لا شك أنه مكذب متول- ٨.
١٠ - (عَبْدًا إِذَا صَلَّى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١١ - (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٣ - (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٤ - (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٥ - (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ)
{لنسفعا} لنأخذن.
{بالناصية} بشعر مقدم الرأس.
{كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية. (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦)} يزجر المولى الكبير المتعال هذا المسرف الضال، ومن على شاكلته، فوالله لئن لم يرجع عن إسرافه في الغواية لنأخذن بناصيته، ولنسحبنه على وجهه، ليذوق وبال أمره، وستكون عاقبة بغيه خسرا، فالله العلي العظيم يطبع على كل قلب متكبر جبار، ويحل عليه من العذاب العاجل ما يخزيه ويهينه، {. . ومن يهن الله فما له من مكرم} ٩، والكذب يهدي إلى الفجور، وإن كذبا على الله ليس ككذب على أحد؛ والخاطئ: الممعن في ارتكاب الخطايا، كما جاء في القرآن الكريم: {وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء. } ١٠ فالخاطئ يعمد إلى الخطإ والوزر، والفحش والنكر، يخوض فيه قاصدا الخوض؛ لكن المخطئ يعمد إلى الصواب فيفوته ويخطئه.
قال مؤرج: السفع: الأخذ. . والناصية: شعر الجبهة، وتطلق على مكان الشعر. . . وقيل: المراد: لنسحبنه على وجهه في الدنيا يوم بدر، وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته؛ وقد فعل عز وجل، فقد روي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (من يقرؤها على رؤساء قريش)؟ فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله؛ فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام لضعفه وصغر جثته، حتى قالها ثلاثا، وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول: أنا يا رسول الله؛ فأذن له صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة فشرع في القراءة، فقام أبو جهل فلطمه، وشق أذنه وأدماه، فرجع وعيناه تدمعان، فنزل جبريل عليه السلام ضاحكا، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك، فقال عليه السلام: ستعلم؛ فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام: (التمسوا أبا جهل في القتلى) فرآه ابن مسعود مصروعا يخور، فارتقى على صدره، ففتح عينيه فعرفه، فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم؛ فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعالج قطع رأسه، فقال اللعين: دونك فاقطعه بسيفي، فقطعه ولم يقدر على حمله، فشق أذنه، وجعل فيه خيطا، وجعل يجره، حتى جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء جبريل عليه السلام يضحك ويقول: يا رسول الله! أذن بأذن والرأس زيادة. . {ناصية} بدل من الناصية، وجاز إبدالها عن المعرفة وهي نكرة؛ لأنها وصفت بقوله سبحانه: {كاذبة خاطئة} فاستقلت بالإفادة، وقد ذكر البصريون أنه يشترط لإبدال النكرة من المعرفة: الإفادة لا غير. فالإسناد مجازي من إسناد ما للكل إلى الجزء- ١١.
١٦ - (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

{كاذبة خاطئة} أصحابها كاذبون خاطئون.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١٥ إظهار
١٧ - (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)
{نادية} مجلسه وعشيرته.
{فليدع ناديه (١٧)} فليجمع أبو جهل ومن على شاكلته جلساءهم من الضلال، وأهل ناديهم ونفيرهم الجهال، وليستفزز من يستطيع من أهل الخبال، فإنهم لن يعجزوا الله الكبير المتعال، ولن يقدروا على شيء؛ صح أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلي، فقال: ألم أنهك؟! فأغلظ عليه الصلاة والسلام له؛ فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا؟!
١٨ - (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)
{الزبانية} الملائكة خزنة النار.
{سندع الزبانية} إن الملائكة الغلاظ الشداد خزنة جهنم ينتظرون أمرنا ليكبلوا أعداءنا، ويسحبوهم في النار على وجوههم، يوم {يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام} ١٢.
نقل عن أبي الليث السمرقندي قال: روي في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: {لنسفعا بالناصية} قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك! فقال الله تعالى: {فليدع ناديه. سندع الزبانية} اه.
وعن ابن عباس وغيره: لما نزل {عليها تسعة عشر} قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة ١٣ يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم- أي العدد- والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟! وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟! فنزل قوله تعالى: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة} ١٤ أي لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم.
١٩ - (كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)
{واسجد} صل لله تعالى، واخضع لجلاله.
{واقترب} وتقرب من رضوانه.
{كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩)} كأن المعنى- والله أعلم بالمراد -: الأمر ليس كما يزعم أبو جهل، فلا تبال به، ولا يحزنك إسرافه في ضلاله، واثبت على عبادة ربك، والصلاة التي تغيظه، ويشمئز منها من هم على منواله: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة} ١٥، واستكثر من السجود لمولاك الذي يسمعك ويراك، واقترب من مزيد فضله، وعظيم فيضه؛ فإن وليك يعصمك، {. . وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا} ١٦.
روى الإمام مسلم في صحيحه- بسنده- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)، وفي الحديث الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قمن ١٧ أن يستجاب لكم): قوله تعالى: {واسجد} هذا من السجود، يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة؛ قال ابن العربي: والظاهر أنه سجود الصلاة لقوله تعالى: {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى} إلى قوله: {كلا لا تطعه واسجد واقترب} لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في: {إذا السماء انشقت} ١٨ وفي: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ١٩ سجدتين، فكان هذا نصا على أن المراد سجود التلاوة؛. . وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من {اقرأ باسم ربك}، وابن وهب يراها من العزائم- ٢٠.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه-

وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢١، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٢ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٣، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٤. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٥ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٦، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٧، {ملك الناس. إله الناس} ٢٨.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٩ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣٠ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣١، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٢. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٣، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٤.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٥، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٦، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٧، {والسماء ذات البروج} ٣٨، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٩، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤٠ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤١، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٢، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٣، {والعصر} ٤٤؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٥، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٦. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٧، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٨.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٩، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥٠. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥١، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٢ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٣ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٤، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان

يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٥، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٦ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٧، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٨، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٩، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦٠، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦١، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٢، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٣، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٤، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٥.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٦. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٧، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما

دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٨ بعد هذه السبع أكثرها ٦٩ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧١، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٢. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٣ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٤، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٥، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٦، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٧، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٨؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨٠، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨١. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٢، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٣، {قد أفلح من تزكى} ٨٤، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٥، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٦؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٧؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٨.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٩، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩٠؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩١، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٣، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٥، {سندع الزبانية} ٩٦، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٧.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن

ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٨، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٩ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠٠، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠١ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٢، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٣، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٤، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٥، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٦، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٧، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٨ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٩، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١٠، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١١، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٢، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٣، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٤، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٥.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٦، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٧، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٨، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٩ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢٠، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢١، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٢، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٣؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٤؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٥. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٦، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٧؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٨؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٩؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣٠؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣١؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٢. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٣.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٤، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٥ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٦ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٧، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٨، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٩، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤٠، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤١، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٤٢، {. . واسجد واقترب} ١٤٣، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٤، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٥، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٦، {فصل لربك وانحر} ١٤٧، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٨، {قل هو الله أحد} ١٤٩، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥٠، {قل أعوذ برب الناس} ١٥١، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٢، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٣ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٤، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين:

{وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٥، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٦، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٧ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٨ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦٠ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦١، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٢، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٣، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٤ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٥، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٦، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٧، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٨، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٩. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧٠، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧١، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٢ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٣ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٤ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٥، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٦، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٧، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٨، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٩.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٧ سورة القدر:

سورة القدر:
(٩٧) سورة القدر مكية
وآياتها خمس
كلماتها: ٣٠؛ حروفها: ١٢٠
١ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
{القدر} الحكم والتقدير، أو الشرف والعزة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أنزلناه في ليلة القدر (١) وما أدراك ما ليلة القدر (٢) ليلة القدر خير من ألف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر (٤) سلام هي حتى مطلع الفجر (٥)}

رفع الله تعالى قدر الكتاب العزيز، وأعلى ذكر الشهر الذي نزل فيه، والليلة التي أنزل فيها، فالكتاب مبارك كثير الخيرات، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والشهر خير شهور العام {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} ١، ولكأنما فرض المولى صيام نهاره، وسن قيام ليله تثبيتا لصبغة القرآن التي نودي للاصطباغ بها أهل الإيمان، بل هي دعوة البر الرحيم لكل بني الإنسان، بل لكافة أولي الحجا والجنان، من ملائكة أو جان، فاستيقنوا أن الليلة التي أنزلنا فيها هذا الذكر الحكيم ليلة شرف وعزة- عز المنزل، فنسخ سائر الكتب، ولا ينسخه غيره، وعز المستمسكون بشرعته ومنهاجه: {فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك} ٢، وعز من رآه السميع البصير سبحانه في هذا الشهر وفي هذه الليلة صائما قانتا، راكعا ساجدا، ذاكرا عابدا متهجدا، {. . . يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه} ٣، فاستيقنوا أنا نحن- لا وأنا- {أنزلناه}، والضمير هنا يعود على القرآن العظيم، وإن لم يسبق له هاهنا ذكر، للعلم به، حيث جاء في سورة كريمة أخرى: {حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه} ٤، وهل المراد: بدأنا إنزاله {في ليلة القدر}؟ فيكون مجازا، ذكر الكل والمراد البعض وجزء منه؟ أم المراد: أنزلناه جملة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل به ملك الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم نجوما متفرقا حسب الأحوال؟! يشهد لهذا الرأي الثاني قول الله الحق- تبارك وتعالى-: {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا} ٥ وكذا قوله عز شأنه: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا} ٦؛ والجمهور على ذلك، فقد صح عن ابن عباس: أن القرآن أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ونزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة؛ وابن حجر في شرح البخاري قال: والصحيح المعتمد أنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا؛ بل حكى بعضهم الإجماع عليه.

{ليلة القدر}: قال الزهري وغيره: إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها؛ من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة؛ وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها؛ وقيل: ليلة الحكم والتقدير، روى عن ابن عباس وغيره: إنه يقدر فيها ويقضي ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى السنة القابلة، والمراد إظهار تقديره تعالى ذلك للملائكة- عليهم السلام- المأمورين بالحوادث الكونية، وإلا فتقديره تعالى جميع الأشياء أزلي قبل خلق السماوات والأرض ٧.

{وما أدراك ما ليلة القدر} الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد- والله أعلم- أمته، وكل من يصلح للخطاب، وما علمك ما ليلة القدر؟

{إنا أنزلناه في ليلة القدر} الضمير عند الجمهور للقرآن. . . وفي التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره وتعظيم له أي تعظيم لما أنه يشعر بأنه لعلو شأنه، كأنه حاضر عند كل أحد. . . وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين، وتأكيد الجملة. . . وكذا تفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى: {وما أدراك ما ليلة القدر} لما فيه من الدلالة على أن علوها خارج عن دائرة دراية الخلق، ولا يعلم ذلك ويعلم

به إلا علام الغيوب، كما يشعر به قوله سبحانه: {ليلة القدر خير من ألف شهر} فإنه بيان إجمالي لشأنها إثر تشويقه عليه الصلاة والسلام إلى درايتها، فإن ذلك معرب عن الوعد بإدرائها، وعن سفيان بن عيينة: إن كل ما في القرآن من قوله تعالى {ما أدراك} أعلم الله تعالى به نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فيه من قوله سبحانه: {ما يدريك} لم يعلم عز وجل به ٢ -

وخيرية ليلة القدر- كما قال كثير من المفسرين – تعني: العمل والطاعة والعبادة فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. [وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: {. . . يود أحدهم لو يعمر ألف سنة} ٨ يعني: جميع الدهر. . . وقال ابن مسعود: إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت: {إنا أنزلناه} الآية.

{خير من ألف شهر} التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله. . وقال مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر]. ٩

٢ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)

{الروح} جبريل عليه السلام.

{بإذن} بأمر.

{تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر (٤)} تنزل الملائكة عليهم السلام ويهبطون من سماواتهم التي يسكنونها [ومن سدرة المنتهى] ١. ويهبط معهم جبريل، فينزلون إلى الأرض [ويؤمنون على دعاء الناس] ١. ويفيضون الرحمة بإذن ربنا العلي الأعلى، على الذين سبقت لهم الحسنى- نسأل الله أن يجعلنا منهم- بكل أمر قضاه المولى الحكيم في تلك السنة إلى قابل- كما قال ابن عباس: كقوله تعالى: {. . يحفظونه من أمر الله} ١٠ أي بأمر الله.

{والروح} عن الجمهور، هو جبريل عليه السلام، وخص بالذكر لزيادة شرفه مع أنه النازل بالذكر ١١ - وقيل: بكل أمر من الخير والبركة.

٥ - (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

{مطلع} وقت طلوع.

{سلام هي حتى مطلع الفجر} هي ليلة يهب الله تعالى من أكرموا فيها سلاما من كل مخوف، فهي من أقوى أسباب السلامة والنجاة من أهوال الآخرة وعذابها، وفزعها وخزيها، وكل الليلة رحمة وسلام من بدايتها حتى انتهائها، بطلوع فجر اليوم التالي لها؛ والجمهور على أنها في كل رمضان ١٢؛ روى البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى "، فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر ١٣. ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رأوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر "، وفيهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان ". وروى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: " خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة

". يقول صاحب تفسير القرآن العظيم: وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال: إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط، وقوله: " فتلاحى فلان وفلان فرفعت " فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: " إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه "، وقوله: " فرفعت " أي رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود كما يقول جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: " فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة "، وقوله: " وعسى أن يكون خيرا لكم " يعني عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الآخر أكثر؛ ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه- البخاري ومسلم – من حديث عائشة؛ ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان؛ وقالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر. أخرجاه. ولمسلم عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره،. . . والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات؛ وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخيرة منه، ثم في أوتاره أكثر؛ والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: " اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ". . . عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: " قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني: "، وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم من مستدركه، وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين. اه ١٤.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٥، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٦ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٧، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٨. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٩ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٠، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢١، {ملك الناس. إله الناس} ٢٢.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٣ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٤ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٥؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٦. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٧، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٨.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٩، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٠، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣١، {والسماء ذات البروج} ٣٢، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٣، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٤ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٥، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٦، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٧، {والعصر} ٣٨؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٩، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٠. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤١، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٢.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٣، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٤. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٥، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٦ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٧ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٩، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٠ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥١، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٢، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٣، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٤، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٥، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٦، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٧، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٨، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٩.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٠. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦١، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٢ بعد هذه السبع أكثرها ٦٣ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٤، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٥، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٦. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٧ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٨، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٩، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٠، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧١، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٢؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٤، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٥. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٦، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٧، {قد أفلح من تزكى} ٧٨، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية.

فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٩، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٠، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨١، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨٢.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٣، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٤، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٥، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٧، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٩، {سندع الزبانية} ٩٠، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩١.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٢، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٣ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٤، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٥ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٦، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٧، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٨، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٩، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٠، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠١، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٢ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٣، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٤، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٥، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٦، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٧، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٨، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٩.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١١٠، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١١، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٢، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٣ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٤، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٥، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٦، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٧، {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت

الذكرى} ١١٨، {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٩. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٠، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢١؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٢؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٣؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٤؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٥؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٦. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٧.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٨، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٩ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٠ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣١، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٢، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٣، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٤، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٥، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٦، {. . واسجد واقترب} ١٣٧، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٨، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٩، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٠، {فصل لربك وانحر} ١٤١، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٢، {قل هو الله أحد} ١٤٣، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٤، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٥، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٦، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٧ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٨، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٩، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٠، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥١ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٢ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٤ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٥، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٦، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٧، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٨ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٩، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٠، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦١، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٢، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٣. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٤، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٥، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٦ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٧ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه

استغنى} ١٦٨ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٩، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٠، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧١، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٢، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٣.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

٩٨ سورة البينة:

سورة البينة:
(٩٨) سورة البينة مدنية
وآياتها ثمان
كلماتها: ٩٤؛ حروفها: ٣٩٦
١ - (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

{أهل الكتاب} المنتسبون إلى التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى.

{والمشركين} والذين أشركوا بالله تعالى غيره.

{منفكين} منتهين، أو: زائلين.

بسم الله الرحمن الرحيم

{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة (١) رسول من الله يتلو صحفا مطهرة (٢) فيها كتب قيمة (٣) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة (٤) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة (٥)}.

لم يكن اليهود والنصارى وعباد الأصنام ومن على شاكلتهم بمنتهين عن كفرهم حتى بعثة خاتم النبيين إليهم يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وقيل: لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول؛ مما نقل صاحب تفسير غرائب القرآن: الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان، كانوا يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم: لا ننفك عما نحن فيه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي صلى الله عليه وسلم الموعود، الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه. .

- {حتى تأتيهم البينة} قيل: حتى أتتهم، والبينة محمد صلى الله عليه وسلم، {رسول من الله} أي بعيث من الله جل ثناؤه، قال الزجاج: {رسول} رفع على البدل من {البينة}. . {يتلو} يقرأ. . {صحفا} جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، {مطهرة} قال ابن عباس: من الزور، والشك والنفاق والضلالة. . . وهي من نعت الصحف. . . فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن. . وقيل: الصحف المطهرة، هي التي عند الله في أم الكتاب الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب. قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء، {فيها كتب قيمة} أي مستقيمة مستوية محكمة، وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب، فكيف قال: في صحف فيها كتب؟ فالجواب أن الكتب هنا بمعنى الأحكام، قال الله عز وجل: {كتب الله لأغلبن} ١ بمعنى حكم، وقال صلى الله عليه وسلم: " والله لأقضين بينكما بكتاب الله " ثم قضى بالرجم، وليس ذكر الرجم مسطورا في الكتاب، فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى ٢ - [قال سبحانه: {وما تفرق} إلخ، يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق وأقرهم على الكفر إلا مجيئه. . وحاصله أن الأول من باب الحكاية لزعمهم، وقوله سبحانه: {وما تفرق} الخ! إلزام عليهم، حكى الله تعالى كلامهم على سبيل التوبيخ والتعيير. . . أي لم يكونوا منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق، والإيمان بالرسول المعبوث في آخر الزمان، إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتا للاجتماع والاتفاق، فجعلوه ميقاتا للانفكاك والافتراق، وفي التعبير بمنفكين إشارة إلى وكادة وعدهم، وهو من أهل الكتاب مشهور، حتى إنهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أضل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، ومن المشركين لعله وقع من متأخريهم بعدما شاع من أهل الكتاب، واعتقدوا صحته مما شاهدوا مثلا من بعض من يوثق به بينهم من قومهم، كزيد بن عمرو بن نفيل فقد كان يتطلب نبيا من العرب، ويقول: قد أظل زمانه، وإنه من قريش، بل من بني هاشم، بل من بني عبد المطلب. .] ٣.

يقول صاحب جامع البيان: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: معنى ذلك: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مفترقين في أمر محمد حتى تأتيهم البينة، وهي إرسال الله إياه رسولا إلى خلقه. . وقوله {منفكين} في هذا الموضع عندي: من انفكاك الشيئين أحدهما من الآخر، ولذلك صلح بغير خبر، ولو كان بمعنى ما زال احتاج إلى خبر يكون تماما له، واستؤنف قوله: {رسول من الله} وهي نكرة، على {البينة} وهي معرفة، كما قيل: {ذو العرش المجيد. فعال} ٤، فقال حتى يأتيهم بيان أمر محمد أنه رسول الله ببعثة الله إياه إليهم، ثم ترجم عن {البينة} فقال: تلك البينة رسول من الله يتلو صحفا. . . يقول: فلما بعثه الله تفرقوا فيه فكذب به بعضهم وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يبعث غير مفترقين أنه نبي. اهـ.

٢ - (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

{صحفا مطهرة} القرآن العظيم.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

{كتب قيمة} عادلة قويمة مستقيمة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)

{البينة} الدلائل الساطعة والحجج القاطعة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

{حنفاء} متحنفين، جانحين من الشرك إلى التوحيد.

{ويقيموا الصلاة} يؤدوها بحدودها في أوقاتها.

{ويؤتوا الزكاة} يعطوها عند محلها.
{دين القيمة} دين الملة المستقيمة، أو دين الأمة القائمة بالحق.
{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} وما كلفوا إلا بأن يعبدوا الله تعالى، مخلصين العبادة لوجهه الكريم دون سواه، مائلين عن جميع الملل إلى الإسلام، وهو كقول الله جل علاه: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} ٥.
{ويقيموا الصلاة} يؤدوها على وجهها التام، ويداوموا على أدائها في مواقيتها؛ {ويؤتوا الزكاة} ويعطوا الزكاة لمستحقيها عند حلول حولها {وذلك دين القيمة} أي ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة. . وقال الزجاج: ذلك دين الله المستقيم. . أو يقال: دين الأمة القيمة بالحق، أي القائمة بالحق ٦.
٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)
{البرية} الخليقة.
{إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية (٦) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (٧) جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (٨)}.
بعد أن بينت الآيات الأولى من هذه السورة الكريمة حقيقة الدين، وفضل المصدقين المهتدين، في مقابل عناد المستكبرين، وجحود الحاسدين النبي الخاتم على ما آتاه رب العالمين من الهدى والنور المبين، جاءت هذه الآيات تنذر الكافرين ٧ بهوانهم على الملك القوي المتين، وتوعدهم سوء المصير والخلود في العذاب المهين، ثم ختمت السورة المباركة بعلو قدر المؤمنين الصالحين، وأنهم أكرم خلق الله أجمعين، وثوابهم عند مولاهم البر الرحيم؛ بساتين إقامة يمكثون فيها لا يخرجون ولا يموتون، ينعمون بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولهم فوق النعيم الحسي المادي أنس روحاني، وفضل رباني من الغفور الشكور {. . . ورضوان من الله أكبر} ٨؛ وفي تقديم مدحهم بخير البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منح في مقابلة ما وصفوا به، وبيان كونه من عند الله تعالى، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميرهم، وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيدها نعيما، وتأكيد الخلود بالأجود من الدلالة على غاية حسن حالهم ما لا يخفى. . . {ورضوا عنه} وعلل رضاهم بأنهم بلغوا من المطالب قاصيتها ومن المآرب ناصيتها. . {ذلك} أي ما ذكر من الجزاء والرضوان {لمن خشي ربه} فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية والفوز بالمراتب العلية، إذ لولاها لم تترك المناهي والمعاصي، ولا استعد ليوم يؤخذ فيه بالأقدام والنواصي، وفيه إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلا إلى أقصى المراتب {. . . ورضوان من الله أكبر. } بل الموصل له خشية الله تعالى، و {إنما يخشى الله من عباده العلماء} ٩. واستدل بقوله تعالى: {إن الذين آمنوا} الخ على أن البشر أفضل من الملك ١٠ لظهور أن المراد بالذين آمنوا: المؤمنون من البشر؛ وفي الآثار ما يدل على ذلك ١١. وأنت تعلم أن هذا ظاهر في أن المراد بالبرية الخليقة مطلقا، ليتم الاستدلال، ثم إنه يحتاج أيضا إلى إدخال الأنبياء عليهم السلام في عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لا يراد بهم قوم بخصوصهم؛ إذ لو لم يدخلوا لزم تفضيل عوام البشر، أي الذين ليسوا بأنبياء منهم على خواص الملائكة عليهم السلام، وذلك مما لم يذهب إليه أحد من أهل السنة، بل هم يكفرون من يقول به ١٢.
. - ١٣ أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب: " إن الله أمرني أن أقرأ عليك {لم يكن الذين كفروا. . .) قال: وسماني لك!؟ قال: " نعم "، فبكى؛ وعلق عليه القرطبي فقال: وفيه من الفقه: قراءة العالم على المتعلم؛ قال بعضهم: إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة. . . وفيه فضيلة عظيمة لأبي؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه. اهـ.
٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)
}جنات{ بساتين.
}عدن{ إقامة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: }رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا{ ١٤، }الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد{ ١٥ }إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد{ ١٦، }سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى{ ١٧. }. . إنه يعلم الجهر وما يخفى{ ١٨ }الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم{ ١٩، }قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد{ ٢٠، }ملك الناس. إله الناس{ ٢١.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: }إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا{ ٢٢ }نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا{ ٢٣ }وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما{ ٢٤؛ }ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون{ ٢٥. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: }أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم{ ٢٦، }فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم{ ٢٧.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: }كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر{ ٢٨، }فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس{ ٢٩، }فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق{ ٣٠، }والسماء ذات البروج{ ٣١، }والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب{ ٣٢، }والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر{ ٣٣ }والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها{ ٣٤، }والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى{ ٣٥، }والضحى. والليل إذا سجى{ ٣٦، }والعصر{ ٣٧؛ وكذا القسم بالأماكن: }لا أقسم بهذا البلد{ ٣٨، }والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين{ ٣٩. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: }والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا{ ٤٠، }والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا{ ٤١.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة

على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٢، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٣. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٤، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٥ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٦ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٨، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٩ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٠، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥١، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٢، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٣، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٤، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٥، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٦، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٧، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر

من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٨.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٩. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٠، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٦١ بعد هذه السبع أكثرها ٦٢ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٤، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٥. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٦ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٧، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٨، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٩، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٠، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧١؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٣، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٤. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٥، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٦، {قد أفلح من تزكى} ٧٧، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٨، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٩؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٠؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨١.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٢، وأقسم ربنا بطوائف منهم في

آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٣؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٤، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٦، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٨، {سندع الزبانية} ٨٩، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٠.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩١، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٢ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٣، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٤ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٥، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٦، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٧، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٨، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٩، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٠، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠١ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٢، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٣، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٤، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٥، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٦، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٧، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٨.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٩، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٠، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١١، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٢ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٣، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٤، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٥، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٦؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٧؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٨. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٩، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٠؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢١؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٢؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٣؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٤؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٥. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٦.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٧، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٨ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٩ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٠، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا

طويلا} ١٣١، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٢، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٣، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٤، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٥، {. . واسجد واقترب} ١٣٦، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٧، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٨، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٩، {فصل لربك وانحر} ١٤٠، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤١، {قل هو الله أحد} ١٤٢، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٣، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٤؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٥، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٦ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٧؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٨، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٩، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٠ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥١ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٣ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٤، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٥، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٦، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٧ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٨، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٩، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٠، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦١، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٢. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٣، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٤، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٥ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٦ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٧ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٨، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٩، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٠، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧١، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٢.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل

الخير، وتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

٩٩ سورة الزلزلة:

سورة الزلزلة:
(٩٩) سورة الزلزلة مدنية، وآياتها ثمان.
كلماتها: ٣٥، وحروفها: ١٤٩
١ - (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)
{زلزلت} تحركت من أسفلها وأصلها، تحريكا عنيفا متكررا.
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا زلزلت الأرض زلزالها (١) وأخرجت الأرض أثقالها (٢) وقال الإنسان مالها (٣) يومئذ تحدث أخبارها (٤) بأن ربك أوحى لها (٥) يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم (٦) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)}.
تبين الآيات الكريمة بعضا من أحوال وأهوال الآخرة، ومتى يحين وقت هذه الكرب، ليذكر من يخشى، وتقوم الحجة على من كذب بالحسنى؛ ويقارب هذا ما أنذر به العلي الأعلى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} ١ فإذا حركت الأرض من أصلها وأسفلها تحريكا عنيفا متداركا متكررا، ورجت فتشققت عما فيها وقذفت به من أموال وكنوز، عندئذ يعجب الرائي ويستنكر قائلا: ماذا دهاها فهي مضطربة تطوح بما حملته وبمن استودعته؟!
روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعا: " تلقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا "، وجائز أن تكون الزلزلة عند النفخة الأولى تقذف بالكنوز والدفائن، وعند النفخة الثانية ترجف فتخرج الموتى أحياء، وتخرج الذهب والفضة لتكوى بها - بعد أن يحمى عليها في نار جهنم- جباه وجنوب وظهور الذين كانوا اكتنزوها في حياتهم الدنيا، وبخلوا وشحوا ولم يؤدوا حقها.
{وقال الإنسان} أي كل فرد من أفراد الإنسان، لما يبهرهم من الطامة التامة، ويدهمهم من الداهية العامة. . . وذهب غير واحد إلى أن المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث؛ والأظهر هو الأول، على أن المؤمن يقول ذلك بطريق الاستعظام، والكافر بطريق التعجب. ونقل: الكافر؛ لأنه لا يؤمن بالبعث يقول: {. . من بعثنا من مرقدنا} ٢ وأما المؤمن فيقول: {. . هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} ٢.
{يومئذ} منصوب بقوله سبحانه {إذا زلزلت}؛ {تحدث أخبارها} تنبئ الأرض وتبث وتنشر أنباءها؛ في الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {يومئذ تحدث أخبارها} قال: " أتدرون ما أخبارها؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: " فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا كذا وكذا ". قال: " فهذه أخبارها ". قال: هذا حديث حسن صحيح. وليس إقدارها على النطق بمستكثر على الله القوي المجيد الفعال لما يريد، فقد شهد الكتاب الحق أن الأيدي والأرجل تشهد على أصحابها يوم البعث، وتتكلم جوارح وأعضاء لم يكن العهد بها أن تتكلم: {اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون} ٣، {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} ٤، {بأن ربك أوحى لها} بسبب أن ربك جاء أمره إليها أن تنبئ وتخبر فأخبرت استجابة لأمر العلي الأعلى، وطاعة له.

٢ - (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا)
{أثقالها} أمواتها، أو كنوزها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا)
{مالها} ماذا دهاها؟ استنكارا!
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)
{أوحى لها} أمرها.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)
{أشتاتا} أنواعا وأصنافا، وفرقا.
{يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم (٦)} يوم إذ يكون ذلك ينصرف الناس من القبور إلى العرض والحساب والجزاء، ويتجهون فرقا وأصنافا وطوائف متفرقين بحسب طبقاتهم، بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين، وراكبين، وماشين، ومقيدين بالسلاسل، وغير مقيدين ٥.
٧ - (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)
{ذرة} أصغر النمل، وما لا وزن له يعتد الناس به، وما يرى في شعاع الشمس من الهباء.
{يره} يبصر جزاءه.
{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧)} كالتفصيل لما أجمل في قوله تبارك اسمه: {ليروا أعمالهم} فمن كان يعمل في الدنيا صالحا وطاعة وبرا يجد جزاءه حاضرا مهما كان عمله يسيرا، وإن كان وزن هباءة مما نراه في ضوء الشمس يدخل من كوة؛ وربنا يقضي بالحق: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ٦.
روى البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء، فهي على ذلك وزر "، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال: " ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)} رواه مسلم. وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ٧ ير ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير؛ ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، ير عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر ٨.
نقل عن مقاتل وسعيد بن جبير ما حاصله: نزلت هذه الآية في رجلين، وذلك أنه لما نزل: {ويطعمون الطعام على حبه} ٩ كان أحدهما يأتيه السائل فيسأم أو يستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ١٠، ويقول: ما هذا بشيء! وإنما نؤجر على ما نعطي؛ وكان الآخر يتهاون بالذنب الصغير كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن

يعطوه ١١، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يعظم. اه.

فتبارك ربنا الشكور، يتقبل بفضله العمل القليل، ويعطينا عليه الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

في صحيح البخاري عن عدي مرفوعا: " اتقوا النار ولو بشق تمرة ١٢ ولو بكلمة طيبة "، وله أيضا في الصحيح: " لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط "، وفي الصحيح أيضا: " يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرش شاة "، يعني: ظلفها، وكما وعد على الخير ولو كان يسيرا، توعد على الشر وإن كان حقيرا ١٣.

قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} قال: في الحال قبل المآل. اه.

[فالمناسب أن يرجع كل فقرة إلى فرقة ليطابق المفصل المجمل، ولأن ظاهر قوله سبحانه {فمن يعمل} {ومن يعمل} بتكرير أداة الشرط يقتضي التغاير بين العاملين، وقال آخرون: بالعموم، إلا أن منهم من قال: في الكلام قيد مقدر، وترك لظهوره والعلم به من آيات أخر، فالتقدير: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إن لم يحبط، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره إن لم يكفر عنه] ١٤.

هذا وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق- سمى خاتمة سورة الزلزلة: الآية الفذة الجامعة، كما وردت أحاديث في فضلها ١٥، فالله نسأل أن ينفعنا بالقرآن العظيم.

٨ - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٧]

{ذرة} أصغر النمل، وما لا وزن له يعتد الناس به، وما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

{يره} يبصر جزاءه.

{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧)} كالتفصيل لما أجمل في قوله تبارك اسمه: {ليروا أعمالهم} فمن كان يعمل في الدنيا صالحا وطاعة وبرا يجد جزاءه حاضرا مهما كان عمله يسيرا، وإن كان وزن هباءة مما نراه في ضوء الشمس يدخل من كوة، وربنا يقضي بالحق: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما} ١٦.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء، فهي على ذلك وزر "، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال: " ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)} رواه مسلم. وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ١٧ ير ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، ير عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر ١٨.

نقل عن مقاتل وسعيد بن جبير ما حاصله: نزلت هذه الآية في رجلين، وذلك أنه لما نزل: {ويطعمون الطعام على حبه} ١٩ كان أحدهما يأتيه السائل فيسأم أو يستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ٢٠، ويقول: ما هذا بشيء! وإنما نؤجر على ما نعطي، وكان الآخر يتهاون بالذنب الصغير كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه ٢١، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يعظم. اه.

فتبارك ربنا الشكور، يتقبل بفضله العمل القليل، ويعطينا عليه الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

في صحيح البخاري عن عدي مرفوعا: " اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢٢ ولو بكلمة طيبة "، وله أيضا في الصحيح: " لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط "، وفي الصحيح أيضا: " يا معشر نساء المؤمنات

لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرش شاة "، يعني: ظلفها؛ وكما وعد على الخير ولو كان يسيرا، توعد على الشر وإن كان حقيرا ٢٣.
قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} قال: في الحال قبل المآل. اه.
[فالمناسب أن يرجع كل فقرة إلى فرقة ليطابق المفصل المجمل؛ ولأن ظاهر قوله سبحانه {فمن يعمل} {ومن يعمل} بتكرير أداة الشرط يقتضي التغاير بين العاملين؛ وقال آخرون: بالعموم، إلا أن منهم من قال: في الكلام قيد مقدر، وترك لظهوره والعلم به من آيات أخر، فالتقدير: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إن لم يحبط، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره إن لم يكفر عنه] ٢٤.
هذا وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق- سمى خاتمة سورة الزلزلة: الآية الفذة الجامعة، كما وردت أحاديث في فضلها ٢٥؛ فالله نسأل أن ينفعنا بالقرآن العظيم.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢٦، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٧ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٨، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٩. {.. إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٣٠ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٣١، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٣٢، {ملك الناس. إله الناس} ٣٣.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٣٤ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣٥ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣٦، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٧. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٨، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٩.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٤٠، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٤١، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٤٢، {والسماء ذات البروج} ٤٣، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٤٤، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤٥ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤٦، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٧، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٨، {والعصر} ٤٩؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٥٠، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٥١. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم

به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٥٢، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٥٣.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٥٤، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥٥. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥٦، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٧ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٨ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٦٠، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٦١ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٦٢، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٦٣، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٦٤، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦٥، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦٦، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٧، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٨، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا

عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٩، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٧٠.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٧١. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٧٢، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٧٣ بعد هذه السبع أكثرها ٧٤ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧٦، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٧. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٨ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٩، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٨٠، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٨١، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٨٢، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٨٣، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٨٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨٥، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨٦. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٧، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٨، {قد أفلح من تزكى} ٨٩، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٩٠، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٩١، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٩٢، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٩٣.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا

الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٩٤، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩٥، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩٦، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٨، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ١٠٠، {سندع الزبانية} ١٠١، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ١٠٢.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ١٠٣، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٠٤ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠٥، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠٦ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٧، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٨، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٩، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١١٠، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١١١، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١١٢، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١١٣ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١١٤، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١٥، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١٦، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٧، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٨، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٩، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٢٠.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٢١، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٢٢، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٢٣، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٢٤ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢٥، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢٦، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٧، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٨؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٩؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٣٠. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٣١، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٣٢؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٣٣؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٣٤؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣٥؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣٦؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٧. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٨.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم،

والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٩، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٤٠ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٤١ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٤٢، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٤٣، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٤٤، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤٥، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤٦، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٤٧، {. . واسجد واقترب} ١٤٨، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٩، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٥٠، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٥١، {فصل لربك وانحر} ١٥٢، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٥٣، {قل هو الله أحد} ١٥٤، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥٥، {قل أعوذ برب الناس} ١٥٦؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٧، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٨ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٩؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا} ١٦٠، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٦١، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٦٢ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٦٣ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٦٤، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦٥ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦٦، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٧، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٨، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٦٩ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٧٠، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٧١، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٧٢، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٧٣، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٧٤. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧٥، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧٦، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٧ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٨ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٩ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٨٠، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٨١، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٨٢، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٨٣، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٨٤.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٠ سورة العاديات:

سورة العاديات:

(١٠٠) سورة العاديات مكية

وآياتها إحدى عشرة. كلماتها: ٤٠. حروفها: ١٦٣.

١ - (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا)

{العاديات} المسرعات في العدو والجري.

{ضبحا} لها صوت في عدوها السريع.

بسم الله الرحمن الرحيم.

{والعاديات ضبحا (١) فالموريات قدحا (٢) فالمغيرات صبحا (٣) فأثرن به نقعا (٤) فوسطن به جمعا (٥) إن الإنسان لربه لكنود (٦) وإنه على ذلك لشهيد (٧) وإنه لحب الخير لشديد (٨)}.

أقسم الله تعالى بخلق من خلقه على أن الإنسان شديد الجحود لنعمة ربه، ولربنا جل علاه أن يقسم بما شاء؛ والجمهور من المفسرين على أنه قسم بخيل الغزاة في سبيل الله سبحانه، فهي تعدو مسرعة، لأنفاسها صوت حين تجري، فتخرج النار من قدح وصدم حوافرها للحجارة، فالمغير أصحابها على أعدائهم في وقت الصباح ليباغتوهم، ويظفروا بهم، وينتصروا عليهم، فالمهيجات والمحركات بجريها وإغارتها غبارا، فتوسطن بالإغارة والهجوم جمعا من جموع الأعداء؛ وجواب القسم: {إن الإنسان لربه لكنود} إن جنس الإنسان لمنوع ١ لحق ربه وخيره، جحود، غير شاكر لأنعمه، عاص لأوامره، شحيح لا ينفق فيما عهد إليه أن يبذل فيه؛ وإنه على هذا الشح والإقتار والبخل لشديد بظهور أثر الكزازة والإمساك عليه، فالشهادة بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال ٢.

٢ - (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا)

{فالموريات قدحا} فالمخرجات النار من قدح وصدم حوافرها للحجارة.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)

{فالمغيرات صبحا} فالمهاجمات للأعداء وقت الصباح.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا)

{فأثرن به نقعا} فأهجن وحركن بالعدو غبارا.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا)
{فوسطن به جمعا} فتوسطن بالإغارة والهجوم جمعا من جموع الأعداء.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)
{لكنود} لجحود وعاص وبخيل، وأصل الكنود: منع الحق والخير.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٧ - (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٨ - (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)
{الخير} المال.
{لشديد} لقوي.
{وإنه لحب الخير لشديد (٨)} وإن الإنسان لحب المال لقوي، قال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: {وإنه لحب الخير لشديد} قال: الخير: الدنيا، وقرأ: {. . إن ترك خيرا الوصية} ٣ قال: فقلت له: إن ترك خيرا: المال؟ قال: نعم! وأي شيء هو إلا المال، قال: وعسى أن يكون حراما، ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا، لأن الناس يسمونه خيرا في الدنيا، وعسى أن يكون خبيثا، وسمى القتال في سبيل الله سوءا، وقرأ قول الله: {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء} ٤ قال: لم يمسسهم قتال، قال: وليس هو عند الله بسوء، ولكن يسمونه سوءا. اه.
[وجوز غير واحد أن يراد بالشديد: القوي. . وكأن اللام- عليه- بمعنى: في، أي وإنه لقوي ٥ مبالغ في حب المال، والمراد: قوة حبه له. . . تقول: هو شديد لهذا الأمر، وقوي له، إذا كان مطيقا له ضابطا. . وقال الفراء: يجوز أن يكون المعنى: وإنه لحب الخير لشديد الحب، يعني أنه يحب المال ويحب كونه محبا له، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني، كما قال تعالى: {. . . اشتدت به الريح في يوم عاصف} ٦ أي في يوم عاصف الريح، فاكتفى بالأولى عن الثانية] ٧ إذ العصوف للريح لا للأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم، طرح من آخره ذكر الريح.
٩ - (أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)
{*أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩) وحصل ما في الصدور (١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١)}.
{بعثر} قلب وأثير.
أيجحد الإنسان نعمة باريه، ويشتد حرصه على ما يرديه، فلا يعلم مآله {يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر} ٨؟؟ - تهديد ووعيد، والهمزة للإنكار- فليستيقنوا أنهم يوم يبعثون سيعرضون على الواحد القهار، لا تخفى عليه منهم خافية، ولا يتخلف منهم أحد، بل حين تقلب القبور وتثار، ستسلم ما استودعته من الموتى والمقبورين إلى مالك يوم الدين، {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتية يوم القيامة فردا} ٩ ولا يستوي من عمل صالحا ومن أساء، فلكل درجات مما عملوا {. . وكان ربك بصيرا} ١٠ وهو سبحانه: {. . ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين} ١١ {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} ١٢.
مما يقول صاحب روح المعاني:. . إذا بعثر من في القبور من الموتى، وإيراد {ما} لكونهم إذ ذاك بمعزل من رتبة العقلاء. . وتعدى العلم- إذا كان بمعنى المعرفة- لواحد شائع.
١٠ - (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)
{حصل} ميز.

{وحصل ما في الصدور (١٠)} أي جمع ما في القلوب من العزائم المصممة، وأظهر كإظهار اللب من القشر وجمعه، أو ميز خيره من شره، فقد استعمل: حصل الشيء، بمعنى: ميزه من غيره - كما في البحر- وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبر من التبن؛ وتخصيص ما في القلوب؛ لأنه الأصل لأعمال الجوارح، ولذا كانت الأعمال بالنيات، وكان أول الفكر آخر العمل، فجميع ما عمل تابع له، فيدل على الجميع صريحا وكناية.

١١ - (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)

{إن ربهم} أي- رب- المبعوثين، كنى عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء، بعد ما عبر عنهم قبل ذلك ب {ما} بناء على تفاوتهم في الحالين {بهم} بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها {يومئذ} أي يوم إذ يكون ما عد من بعث ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور- وبكل شيء في كل حين- والظرفان متعلقان بقوله تعالى: {لخبير}، أي عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به، كما ينبئ عنه تقييده بهذا اليوم، وإلا فمطلق علمه عز وجل بما كان وبما سيكون. . . اه.

هذا ولعل الأرجح أن السورة الكريمة مدنية، حيث تحدثت فواتحها الخمس وبينت منزلة عدة الجهاد والمجاهدين {والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا} فإن الله الحكيم أقسم بها لعظمتها؛ ومعلوم أنه لم يؤذن للمؤمنين في القتال وإعداد العدة له إلا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، وعلى القول بأن السورة مكية، يكون هذا من إخبار عما سيكون، ليستبشر المؤمنون، ولينذر به الكافرون؛ فاللهم لا تخزنا يوم يبعثون، وأنزلنا منازل الذين عاشوا في سبيل الحق يجاهدون.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٧ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٩، {ملك الناس. إله الناس} ٢٠.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٣؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٦.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل

والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٧، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٩، {والسماء ذات البروج} ٣٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٥، {والعصر} ٣٦؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٨. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٠.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا.

وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٧.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٠ بعد هذه السبع أكثرها ٦١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٠؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٥، {قد أفلح من تزكى} ٧٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى

ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٨، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٩، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨٠.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٢، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٧، {سندع الزبانية} ٨٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٩.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٥، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٧.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٥، {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٦، {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق

مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٩؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٠؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢١؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٢؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٣؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٤. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٥.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٦، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٧ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٨ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٩، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٠، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣١، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٢، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٣، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٤، {. . واسجد واقترب} ١٣٥، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٦، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٧، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٨، {فصل لربك وانحر} ١٣٩، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٠، {قل هو الله أحد} ١٤١، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٢، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٣، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٤، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٥ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٦؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٧، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٨، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٩ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٠ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٢ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٣، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٤، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٥، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٦ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٧، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٨، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٩، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٠، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦١. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٢، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٣، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٤ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٥ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٦ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن

الله يرى} ١٦٧، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٨، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٩، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٠، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧١.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠١ سورة القارعة:

سورة القارعة:

(١٠١) سورة القارعة مكية.

وآياتها إحدى عشرة.

كلماتها: ٣٦؛ حروفها: ١٥٢.

١ - (الْقَارِعَةُ)

القرع: الضَرب بشدة بحيث يحصل منه صوت قوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

{القارعة (١) ما القارعة (٢) وما أدراك ما القارعة (٣) يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥)}.

أنذر الله تعالى المكلفين كربات يوم الدين، يوم يقوم الناس لأسرع الحاسبين، وحين يغشاهم هول مبين، وتجيء الآزفة، فإذا قلوبهم لدى الحناجر كاظمين، وتنشق السماء، وتسير الجبال، وترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض؛ و {القارعة} [فاعلة] من قرع، بمعنى: ضرب بشدة، بحيث يحصل منه صوت قوي، أو اصطكت الكواكب فإذا صوتها يميت. والحادثة الهائلة تسمى: قارعة، والمراد ههنا القيامة، ولا أهول منها! ولذلك قال في الإخبار عنها: {القارعة}؛ لأنه يفيد زيادة التهويل، ثم قال: {وما أدراك ما القارعة} ١ - و {القارعة} مبتدأ، و {ما القارعة} مبتدأ وخبره، والمجموع خبر المبتدأ الأول؛ {وما أدراك} وأي شيء أعلمك {ما القارعة} أي: مدى عظمها، بحيث لا يكتنه علمه بشر، ولا يحيط بوصفه الواصفون. واذكر يوم يكون الناس كغوغاء الجراد، وضال البعوض، والهمج الطائر، وتلك الحشرات التي تطير، ولا تزال تتقحم على المصباح والموقد حتى تحترق؛ [ويقال: هو أطيش من فراشة؛ وقال:

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي] ٢؛ وتصير الجبال كالصوف الذي ينفش فيعود هباء ويزول، وأهل اللغة يقولون: العهن: الصوف المصبوغ، قاله الراغب، فشبهت الجبال به؛ لاختلاف أجزائها في الحمرة والبياض والسواد.
٢ - (مَا الْقَارِعَةُ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)
{وما أدراك} وما أعلمك وأخبرك.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)
{كالفراش} كالطير الرقيق الذي يقصد النار، وهو الهمج الطائر.
{المبثوث} المنتشر المتفرق.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)
{كالعهن} كالصوف.
{المنفوش} المفرق المتطاير كالهباء.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)
{ثقلت موازينه} رجحت الكفة التي توزن بها حسناته.
{فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهية (١٠) نار حامية (١١)}.
والناس يوم القيامة يفترقون، وكذا الجن؛ لأنهم مكلفون، وجميعهم يعرضون على ربنا الملك الحق، ويسألون، وتوزن أعمالهم: {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون} ٣؛ {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} ٤.
{نار حامية} شديدة حرارتها. في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم ". قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: " فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها "؛ يقول صاحب كتاب روح المعاني: وقوله تعالى: {فأما من ثقلت موازينه} إلى آخره: بيان إجمالي لتحزب الناس حزبين، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما. . . وهذا إشارة إلى وزن الأعمال، وهو مما يجب الإيمان به حقيقة، والأشهر الأصح أنه ميزان واحد. . . لجميع الأمم ولجميع الأعمال؛ فقوله تعالى: {موازينه} وهو جمع ميزان. . قيل: للتعظيم، كالجمع في قوله تعالى: {كذبت عاد المرسلين} ٥ في وجه، أو باعتبار أجزائه، نحو: شابت مفارقة؛ أو باعتبار تعدد الأفراد للتغاير الاعتباري، كما قيل في قوله:
لمعان برق أو شعاع شموس
. . . والظاهر أن الثقل والخفة مثلهما في الدنيا، فما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرتفع إلى أعلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين ٦ - وبه صرح القرطبي - والله تعالى أعلم.
٧ - (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)
{راضية} ذات رضا، أو مرضية.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار

٨ - (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)
}خفت موازينه} فلم تكن له حسنات، أو ثقلت سيئاته.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
٩ - (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)
}فأمه هاوية} فمأواه جهنم، أو: أم رأسه تسقط في النار.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١٠ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
١١ - (نَارٌ حَامِيَةٌ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٦ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: }رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٧، }الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٨ }إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٩، }سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٠. }. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١١ }الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٢، }قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٣، }ملك الناس. إله الناس} ١٤.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: }إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٥ }نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٦ }وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٧؛ }ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٨. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: }أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٩، }فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٠.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: }كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢١، }فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٢، }فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٣، }والسماء ذات البروج} ٢٤، }والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٥، }والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل

إذا يسر} ٢٦ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٧، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٨، {والضحى. والليل إذا سجى} ٢٩، {والعصر} ٣٠، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣١، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٢. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٣، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٤.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٥، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٦. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٧، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٨ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٣٩ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤١، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٢ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٣، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٤، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٥، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٦، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٧، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٨، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب

السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٤٩، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٠، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥١.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٢. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٣؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٤ بعد هذه السبع أكثرها ٥٥ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٧، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٨. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٥٩ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٠، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦١، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٢، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٣، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٤؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٦، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٧. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٨، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٦٩، {قد أفلح من تزكى} ٧٠، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧١، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٢؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم

ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٣؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧٤.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٥، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٦؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٧، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٧٩، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٠، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨١، {سندع الزبانية} ٨٢، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٣.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٤، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٥ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٦، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٧ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٨، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٨٩، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٠، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩١، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٢، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٣، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٤ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٥، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٦، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٧، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٩٨، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٩٩، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٠، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠١.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٢، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٣، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٤، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٥ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٦، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٧، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٠٨، {سنقرئك فلا تنسى} ١٠٩؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٠؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١١. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٢، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٣؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٤؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٥؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٦؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن

شانئك هو الأبتر} ١١٧، {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١١٨. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١١٩.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٠، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢١ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٢ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٣، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٤، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٥، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٦، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٧، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٢٨، {. . واسجد واقترب} ١٢٩، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٠، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣١، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٢، {فصل لربك وانحر} ١٣٣، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٤، {قل هو الله أحد} ١٣٥، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٦، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٧، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٣٨، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٣٩ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٠، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤١، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٢، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٣ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٤ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٥، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٦ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٧، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٨، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٤٩، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٠ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥١، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٢، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٣، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٤، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٥. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٦، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٧، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٨ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٥٩ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٠ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦١، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٢، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٣، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٤، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٥.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٢ سورة التكاثر:

سورة التكاثر:

(١٠٢) سورة التكاثر مكية

وآياتها ثمان. كلماتها: ٠٣٦ حروفها: ١٥٢

١ - (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)

{ألهاكم} شغلكم وأنساكم.

{التكاثر} الحرص على طلب العرض الكثير الأكثر؛ أو المفاخرة، والمباهاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧) ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٨)}.

تنعى الآيتان الكريمتان في مفتتح السورة المباركة على الغافلين غفلتهم وشغلهم، ولهوهم ونسيانهم. والمراد: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم، منفقين أعماركم في طلب الدنيا، والاشتياق إليها، والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت، لا هم لكم غيرها عما هو أبلى بكم من السعي لعاقبتكم، والعمل لآخرتكم. . . وزيارة المقابر عليه- عبارة عن الموت- ١ أو تباروا في الكثرة، وتنافس بعضهم مع بعض، فتباهوا بالأحياء، ثم انتقلوا إلى ذكر من في القبور تفاخرا على الآخرين. في صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ٢: {ألهاكم التكاثر} قال: يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت "، وفي رواية أبي هريرة بزيادة: " وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس "؛ وروى البخاري عن ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب ". [لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة؛ وزيارتها من أعظم الدواء ٣ للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة؛ وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة "، رواه ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: " فإنها تذكر الموت "، وفي الترمذي عن بريدة: " فإنها تذكر الآخرة "، قال: هذا حديث

حسن صحيح، وفيه عن أبي هريرة: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور". . . وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء. .

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء، أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن، ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: " زوروا القبور " عاما، وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز، فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور، والله أعلم] ٤.

٢ - (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)

{زرتم المقابر} دخلتم القبور وصرتم من أهلها، أو تفاخرتم حتى بالموتى.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

{سوف تعلمون} عاقبة هذا، وهو وعيد.

{كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤)} ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر، لكن سوف تعلمون عاقبة هذا، ثم سينكشف لكم حصاد تلهيكم ونسيانكم ومباهاتكم، قال مجاهد: وعيد بعد وعيد. اه، وهو تغليظ وتوكيد، قال ابن عباس: {كلا سوف تعلمون} ما ينزل بكم من العذاب في القبر، {ثم كلا سوف تعلمون} في الآخرة! إذا حل بكم العذاب. اه.

٤ - (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار

٥ - (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)

{كلا لو تعلمون علم اليقين. (٥) لترون الجحيم (٦)} وتكرار {كلا} يفيد التوكيد، والمبالغة في الزجر والتنبيه، لو تعلمون اليوم من هول البعث ما سيكون، ومن عظم الجزاء ما إليه تصيرون، لتجلت لكم حقيقة جهنم كأنما تقاسون من حرها، لا تمارون في وجودها، ولا تتوانون في توقي لفحها وسمومها، جواب قسم مضمر أكد به الوعيد، وشدد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيما، ولا يجوز أن يكون جواب لو الامتناعية لأنه محقق الوقوع، وجوابها لا يكون كذلك، وقيل: يجوز، ويكون المعنى: سوف تعلمون الجزاء، ثم قال سبحانه: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآية {لترون الجحيم} يعني: تكون الجحيم دائما في نظركم لا تغيب عنكم، وهو كما ترى {ثم لترونها} تكرير للتأكيد، و {ثم} للدلالة على الأبلغية، وجوز أن تكون الرؤية الأولى: {إذا رأتهم من مكان بعيد} والثاني: إذا وردوها أو إذا دخلوها. . {عين اليقين} أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحق بأن يكون عين اليقين ٥.

٦ - (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]

{لترون الجحيم} في الآخرة، وعيد بعد وعيد.

{كلا لو تعلمون علم اليقين. (٥) لترون الجحيم (٦)} وتكرار {كلا} يفيد التوكيد، والمبالغة في الزجر والتنبيه، لو تعلمون اليوم من هول البعث ما سيكون، ومن عظم الجزاء ما إليه تصيرون، لتجلت لكم حقيقة جهنم كأنما تقاسون من حرها، لا تمارون في وجودها، ولا تتوانون في توقي لفحها وسمومها، جواب قسم مضمر أكد به الوعيد، وشدد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيما، ولا يجوز أن يكون جواب لو الامتناعية لأنه محقق الوقوع، وجوابها لا يكون كذلك، وقيل: يجوز، ويكون المعنى: سوف تعلمون الجزاء، ثم قال سبحانه: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآية {لترون الجحيم} يعني: تكون الجحيم دائما في نظركم لا تغيب عنكم، وهو كما ترى {ثم لترونها} تكرير للتأكيد، و {ثم} للدلالة على الأبلغية، وجوز أن تكون الرؤية الأولى: {إذا رأتهم من مكان بعيد} والثاني: إذا وردوها أو إذا دخلوها.

. {عين اليقين} أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحق بأن يكون عين اليقين ٦.
٧ - (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٥]
{كلا لو تعلمون علم اليقين. (٥) لترون الجحيم (٦)} وتكرار {كلا} يفيد التوكيد، والمبالغة في الزجر والتنبيه؛ لو تعلمون اليوم من هول البعث ما سيكون، ومن عظم الجزاء ما إليه تصيرون، لتجلت لكم حقيقة جهنم كأنما تقاسون من حرها، لا تمارون في وجودها، ولا تتوانون في توقي لفحها وسمومها، جواب قسم مضمر أكد به الوعيد، وشدد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيما، ولا يجوز أن يكون جواب لو الامتناعية لأنه محقق الوقوع، وجوابها لا يكون كذلك؛ وقيل: يجوز، ويكون المعنى: سوف تعلمون الجزاء، ثم قال سبحانه: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآية {لترون الجحيم} يعني: تكون الجحيم دائما في نظركم لا تغيب عنكم، وهو كما ترى {ثم لترونها} تكرير للتأكيد، و {ثم} للدلالة على الأبلغية، وجوز أن تكون الرؤية الأولى: {إذا رأتهم من مكان بعيد} والثاني: إذا ورودها أو إذا دخلوها.
. {عين اليقين} أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحق بأن يكون عين
اليقين ٧.
٨ - (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)
{النعيم} الصحة والفراغ، وسائر النعم.
{ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٨)} ثم لتسألن معاشر المكلفين، يوم تعرضون على الملك الحق المبين، عما متعتم به في حياتكم، أشكرتموه أم كنتم من البطرين؟! يسأل المؤمنون سؤال تبشير، ويُسأل الكافرون الجاحدون سؤال تخسير وتحسير.
قال القشيري:. . الكل يُسألون، ولكن سؤال الكافر توبيخ؛ لأنه قد ترك الشكر؛ وسؤال المؤمن تشريف؛ لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة اه. أقول: وبهذا يفهم ما يمكن أن يكون مرادا من السؤال الذي جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: " ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة "؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: " وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما " فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أين فلان "؟ قالت: يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إياك والحلوب " فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: " والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم " ٨، خرجه الترمذي، وقال فيه: " هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد "، وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التيهان، وذكر قصته، قالوا: واسم هذا الرجل: مالك.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٩، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٠ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو

يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١١، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٢. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٣ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٤، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٥، {ملك الناس. إله الناس} ١٦.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٧ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٨ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٩، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٠. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٣، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٤، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٥، {والسماء ذات البروج} ٢٦، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٧، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٨ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٩، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٠، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣١، {والعصر} ٣٢، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٣، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٤. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٥، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٦.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٧، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٨. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٩، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٠ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤١ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٣، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٤ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى.

ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٥، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٦، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٧، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٨، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٩، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٠، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥١، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٢، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٣.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٤. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٥؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٦ بعد هذه السبع أكثرها ٥٧ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا

من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٩، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٠. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦١ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٢، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٣، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٤، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٥، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٦؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٨، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٩. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٠، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧١، {قد أفلح من تزكى} ٧٢، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٣، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٤؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٥؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧٦.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٧، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٨؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٩، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨١، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٣، {سندع الزبانية} ٨٤، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٥.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٦، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٧ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٨، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٩ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٠، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩١، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم

ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٢، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٣، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٤، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٥، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٦ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٧، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٨، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٩، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٠، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠١، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٢، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٣.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٤، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٥، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٦، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٧ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٨، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٩، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٠، {سنقرئك فلا تنسى} ١١١؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٢؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٣. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٤، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٥؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٦؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٧؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٨؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٩؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٠. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢١.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٢، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٣ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٤ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٥، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٦، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٧، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٨، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٩، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٠، {. . واسجد واقترب} ١٣١، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٢، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٣، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٤، {فصل لربك وانحر} ١٣٥، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٦، {قل هو الله أحد} ١٣٧، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٨، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٩، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٠، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤١ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٢، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٣، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٤، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٥ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين.

ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٦ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٨ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٩، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٠، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥١، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} ١٥٢ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٣، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٤، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٥، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٦، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٧. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٨، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٩، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٠ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦١ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٢ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٣، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٤، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٥، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٦، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٧.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه، وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٣ سورة العصر:

سورة العصر:
(١٠٣) سورة العصر مكية
وآياتها ثلاث

كلماتها: ١٤. حروفها: ٦٨
١ - (وَالْعَصْرِ)
{والعصر} والزمان والدهر.
بسم الله الرحمن الرحيم
{والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)}.
أقسم الله تعالى بالدهر ربما لما فيه من تبدل الأحوال، وفي تصرفها وتقلب شئونها دليل على الاقتدار، وبرهان على حكمة الفاعل المختار، الواحد القهار، وفي ذلك جاءت الحجة والسلطان، يعقلهما من هدي إلى التفكير والاستبصار، يقول تبارك اسمه: {يقلب الله الليل والنهار. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} ١، ولهذا جاء في الحديث القدسي عن رب العزة: " لا تسبوا الدهر، فإني أنا الدهر، بيدي الأمر أصرف ليله ونهاره) وفي رواية: " أقلب ليله ونهاره ". عن الحسن وغيره: العصران: الغداة والعشي؛ وعن قتادة: هو آخر ساعة من ساعات النهار، وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات، قاله مقاتل. . . وفي الصحيح: " الصلاة الوسطى صلاة العصر. " - ٢ [وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه، ويحيل شقاءه وخسرانه عليه، فإقسام الله تعالى به دليل على شرفه، وأن الشقاء والخسران إنما لزم الإنسان لعيب فيه لا في الدهر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " ٣.
٢ - (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)
{خسر} خسارة وهلاك.
{إن الإنسان لفي خسر (٢)} هذا هو المقسم عليه، وفي الآية الكريمة مؤكدات: إنّ ولام التأكيد، و {في} التي تدل على الظرفية، وتنكير ٤ {خسر}؛ وقد يراد بالخسر النقصان، أو الشر، أو الهلاك، والألف واللام في {الإنسان} قد يراد بهما الجنس؛ إذ أكثر الناس يصرفون أعمارهم فيما لا يجديهم، بل قد يضر بهم ويهلكهم ويرديهم، {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} مستثنون من الشر والنقصان والهلاك، فمن استيقن بما يجب التصديق به، واستقام على الخير والبر عمله، والتزمت جوارحه منهاج الرشد قولا وفعلا، فهو من المفلحين الفائزين، المدركين ما طابوا من عز ونعيم.
{تواصوا بالحق} وصى بعضهم بعضا، وحث كل منهم صاحبه بالثبات على الهدى، والحذر من الغي والردى؛ ومما أورد الألوسي في المراد بالحق: الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره، ولا يزول في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كله، من الإيمان بالله عز وجل، واتباع كتبه ورسله عليهم السلام في كل عقد وعمل. اه
{وتواصوا بالصبر} وصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله، وبالصبر عن معصية الله، وبالصبر على قضاء الله، وبالصبر على ما يلاقون من البأس في سبيل الله، وفي السورة من الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ما لا يخفى ٥.
[وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.] ٦.
وجاء في روح المعاني: أخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، عن أبي حذيفة- وكانت له صحبة- قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة {والعصر}، ثم يسلم أحدهما على الآخر. اه.
٣ - (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٢]
{تواصوا} وصى بعضهم بعضا، وحث بعضهم بعضا.
{خسر} خسارة وهلاك.

{إن الإنسان لفي خسر (٢)} هذا هو المقسم عليه، وفي الآية الكريمة مؤكدات: إنّ ولام التأكيد، و {في} التي تدل على الظرفية، وتنكير ٧ {خسر}، وقد يراد بالخسر النقصان، أو الشر، أو الهلاك، والألف واللام في {الإنسان} قد يراد بهما الجنس، إذ أكثر الناس يصرفون أعمارهم فيما لا يجديهم، بل قد يضر بهم ويهلكهم ويرديهم، {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} مستثنون من الشر والنقصان والهلاك، فمن استيقن بما يجب التصديق به، واستقام على الخير والبر عمله، والتزمت جوارحه منهاج الرشد قولا وفعلا، فهو من المفلحين الفائزين، المدركين ما طابوا من عز ونعيم.

{تواصوا بالحق} وصى بعضهم بعضا، وحث كل منهم صاحبه بالثبات على الهدى، والحذر من الغي والردى؛ ومما أورد الألوسي في المراد بالحق: الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره، ولا يزول في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كله، من الإيمان بالله عز وجل، واتباع كتبه ورسله عليهم السلام في كل عقد وعمل. اه

{وتواصوا بالصبر} وصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله، وبالصبر عن معصية الله، وبالصبر على قضاء الله، وبالصبر على ما يلاقون من البأس في سبيل الله، وفي السورة من الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ما لا يخفى ٨.

[وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.] ٩.

وجاء في روح المعاني: أخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، عن أبي حذيفة- وكانت له صحبة- قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة {والعصر}، ثم يسلم أحدهما على الآخر. اه.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٤ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٦، {ملك الناس. إله الناس} ١٧.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٠، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا.

وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٣.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٦، {والسماء ذات البروج} ٢٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣١، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٢، {والعصر} ٣٣، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٧.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٩. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥١، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا.

وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٤.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٥٧ بعد هذه السبع أكثرها ٥٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها

الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٢، {قد أفلح من تزكى} ٧٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧٧.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٤، {سندع الزبانية} ٨٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١١، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت

الذكرى} ١١٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٧؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٨؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٩؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٠؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٠، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣١، {. . واسجد واقترب} ١٣٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٥، {فصل لربك وانحر} ١٣٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٧، {قل هو الله أحد} ١٣٨، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٩، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٦ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه

استغنى} ١٦٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٨.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٤ سورة الهمزة:

سورة الهمزة:

(١٠٤) سورة الهمزة مكية

وآياتها تسع

كلماتها: ٤٩. حروفها: ١٣٣.

١ - (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)

{ويل} عذاب، أو واد في جهنم، أو خزي.

{همزة} يؤذي الناس بيده.

{لمزة} يعيب الناس بلسانه.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويل لكل همزة لمزة (١) الذي جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله أخلده (٣)}

توعد الله تعالى بعذاب السعير، وسوء المصير الذي أعده جل وعز لكل معتد مغتاب، {همزة} ١ يؤذي الناس ويهمزهم بيده، {لمزة} ويعيبهم ويطعنهم ويسبهم بلسانه؛ ونقل مثل هذا المعنى عن ابن زيد ومجاهد؛ {الذي جمع مالا وعدده} أي اكتنزه وأحصى عدده، ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يؤد حق الله فيه، فهذا تتلمظ له النار، كما قال العزيز الجبار: {. . إنها لظى. نزاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولى. وجمع فأوعى} ٢؛ وهكذا فكثرة المال تحمل المكثرين على الاختيال والطغيان، والعتو والاستكبار؛ إلا من عصم الله، وقليل ما هم؛ يقول المولى سبحانه: {إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ٣؛ {يحسب أن ماله أخلده} هو يفاخر بعدد ماله وكثرته، ويظن أن

وفرة هذا العرض ستبقيه حيا لا يموت، أمله مناه الأماني البعيدة، كصاحب الجنتين، إذ آتت كل منهما أكلها، {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا} ٤.
و {أخلده} فعل ماض بمعنى المستقبل، أي: يخلده.
٢ - (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ)
{وعدده} وفاخر بعدده وكثرته.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)
{يحسب} يظن.
{أخلده} أي: يبقيه حيا لا يموت.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)
{كلا} نفى لما ظنه.
{لينبذن} ليلقين، ويرمين.
{الحطمة} جهنم، لأنها تحطم المعذبين فيها.
{كلا لينبذن في الحطمة (٤) وما أدراك ما الحطمة (٥) نار الله الموقدة (٦) التي تطلع على الأفئدة (٧) إنها عليهم موصدة (٨) في عمد ممددة (٩)}.
رد لظن الطغاة المستكبرين، والجبارين المفتونين، الذي يحسبون أن ما أوتوا من مال يسوغ لهم العتو والفخر والاختيال، ويضمن لهم البقاء أحياء دون زوال، وكذبوا، فإن الحي الذي لا يموت يرث سبحانه الأرض ومن عليها، ثم يرد المترف إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا: {في سموم وحميم. وظل من يحموم. لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرون على الحنث العظيم} ٥.
{لينبدن في الحطمة} ليطرحن وليرمين في نار تحطمه وأمثاله وتهشمه.
٥ - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)
{وما أدراك ما الحطمة (٥)} أي شيء أخبرك ما هي هذه النار المهشمة لمن يلقى فيها، تعظيم لهولها.
٦ - (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ)
{نار الله الموقدة (٦)} فهي ليست كناركم التي توقدون، ولكن فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، فالنار التي يوقدها الناس جزء من سبعين جزءا من نار الآخرة، وأضيفت إلى المولى سبحانه لزرع الهيبة والإشفاق في النفوس، فإنه سبحانه مع سعة رحمته، شديدة غيرته، موجعة عقوبته، مصداقا لوعده الحق: {نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم} ٦، {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧، أوقد عليها، وتبقى متقدة ملتهبة {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش. } ٨ {لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. } ٩. ولقد جاء في الحديث: " إن أهون أهل النار عذابا من توضع الجمرة على قدمه فتغلى منها دماغه "، فكيف بأهل {ويل} ومن هم في الدرك الأسفل من النار؟ نسأل العزيز الغفار أن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. {الموقدة} التي أوقد عليها، وتبقى متقدة ملتهبة.
٧ - (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ)
{تطلع على الأفئدة} تحرق أجسادهم حتى تنفذ إلى قلوبهم وأفئدتهم.
{التي تطلع على الأفئدة (٧)} تحرق أجساد أهل العناد والفساد حتى تصل إلى قلوبهم وأفئدتهم، ثم يعيد الواحد القهار إليهم أجسادهم وجلودهم ليذوقوا العذاب {لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور} ١٠ فذاك يصلى النار الكبرى {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ١١.

٨ - (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ)
{مؤصدة} مغلقة.
{إنها عليهم مؤصدة (٨)} غلقت عليهم أبواب سقر، فلا يستروحون {فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد} ١٢.
٩ - (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)
{عمد} جمع عمود.
{ممددة} ممتدة متطاولة أعمدتها.
{في عمد ممددة (٩)} عمد اللهب طويلة، ممتدة تحيط بالمعذبين {إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها} ١٣.
فاللهم اصرف عنا عذاب جهنم يا عزيز يا غفار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٤، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٥ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٦، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٧. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٨ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٩، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٠، {ملك الناس. إله الناس} ٢١.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٢ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٣ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٤، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٥. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٦، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٧.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٨، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٩، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٠، {والسماء ذات البروج} ٣١، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٢، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٣ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها}

٣٤، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٥، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٦، {والعصر} ٣٧، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٨، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٩. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٠، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤١.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٢، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٣. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٤، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٥ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٦ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٨، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٩ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٠، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥١، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٢، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٣، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٤، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٥، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال

صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٦، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٧، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٨.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٩. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٠، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦١ بعد هذه السبع أكثرها ٦٢ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٤، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٥. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٦ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٧، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٨، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٩، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٠، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧١؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٣، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٤. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٥، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٦، {قد أفلح من تزكى} ٧٧، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٨، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٩؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٠؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي

يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٨١.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٢، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٣؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٤، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٦، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٨، {سندع الزبانية} ٨٩، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٠.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩١، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٢ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٣، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٤ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٥، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٦، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٧، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٨، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٩، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٠، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠١ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٢، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٣، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٤، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٥، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٦، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٧، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٨.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٩، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} ١١٠، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١١، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٢ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها} ١١٣، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٤، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٥، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٦؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٧؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٨. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٩، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٠؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢١؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٢؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٣؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٤؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٥. {إذا جاء نصر الله والفتح.

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٦.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٧، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٨ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٩ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٠، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣١، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٢، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٣، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٤، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٥، {. . واسجد واقترب} ١٣٦، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٧، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٨، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٩، {فصل لربك وانحر} ١٤٠، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤١، {قل هو الله أحد} ١٤٢، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤٣، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٤، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٥، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٦ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٧، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٨، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٩، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٠ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥١ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٣ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٤، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٥، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٦، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٧ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٨، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٩، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٠، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦١، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٢. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٣، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٤، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٥ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٦ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٧ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٨، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٩، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٠، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧١، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٢.
وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث

وبحسابه وجزائه، وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين، وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٥ سورة الفيل:

سورة الفيل:
(١٠٥) سورة الفيل مكية
وآياتها خمس
كلماتها: ٢٣؛ حروفها: ٩٦
١ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

{ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١) ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥)}

ألم تنظر ببصيرتك كيف صنع الله ولي المتقين ١، القوي المتين، بأهل الصليب العادين، الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورءاء الناس، يتقدم جيشهم فيل، يريدون هدم البلد الأمين، والبيت العتيق؟!

قال النحويون: قوله {كيف} مفعول {فعل}؛ لأن الاستفهام يقتضي صدر الكلام، فيقدم على فعله بالضرورة، وهو مفعول مطلق؛ والمعنى: فعل أي فعل، يعني: فعلا ذا عبرة لأولي الأبصار: اهـ.

ومما نقل عن أبي حيان: يراعى صدارته! إبقاء لحكم أصله، وتعليق الرؤية بكيفية فعله- تعالى شأنه- لا بنفسه، بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة، دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته. . . وشرف رسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن ذلك- كما قال غير واحد- من الإرهاصات، لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال إبراهيم بن المنذر- شيخ البخاري-: لا يشك في ذلك أحد من العلماء، وعليه الإجماع. . اهـ.

وروى غير واحد من أصحاب السير أن النجاشي ملك الحبشة كان قد استحوذ على أرض اليمن؛ واستعمل عليها عاملا، فغلب عليه أبرهة، وأرسل إلى النجاشي يترقق له ويصانعه، فرضي عنه وأقره على عمله؛ ثم إنه بعث إليه يقول: سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن مثلها قبلها؛ فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة؛ وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارا فاحترقت، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرا حجرا، وتأهب لذلك وسار في جيش كثيف، واستصحب معه فيلا- وروى: أكثر- ومضى أصحاب الفيل حتى وصلوا إلى وادي محسر [وسنورد موجزا

لبقية القصة إن شاء الله بعد تفسير الآيات].
٢ - (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)
{كيدهم} احتيالهم.
{تضليل} تضييع وإبطال.
{ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥)} ألم يجعل الله تعالى احتيال أهل الصليب، وجيش أبرهة الذي كان على مقدمته الفيل، ألم يجعل ربنا احتيالهم في إبطال وتضييع؟ بلى! فقد هموا بما لم ينالوا، وعصم الله تعالى حرمه وبلده وبيته من كل سوء، كادوا البيت أولا ببناء الكنيسة وصرف وجوه الحاج إليها، فضلل الله كيدهم بأن أوقع الحريق فيه، وكادوه ثانيا بإرادة هدمه، فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم- ٢. مما يقول صاحب روح المعاني: بيان إجمالي لما فعل الله تعالى بهم؛ والهمزة للتقرير- كما سبق- لذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها، كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها، وصرف شرف أهلها لهم في تضييع وإبطال، بأن دمرهم أشنع تدمير. اهـ {وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل} وكان أن سلط القوي المتين على هؤلاء العُداة الباغين طيرا متتابعة بعضها في إثر بعض، تجيء من ناحية من هاهنا وهاهنا، جماعات كثيرة ٣، تقذفهم بحجارة من ديوان العذاب ٤؛ وإلى هذا المعنى يشير قول الله جل علاه: {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم} ٥؛ والله تعالى يسلط جنده على من يشاء، {. . ولله جنود السماوات والأرض} ٦؛ وأخذ القوي العزيز أخذ أليم شديد، ورمية جنده سبحانه لا بد أن تصيب من يريد؛ {فجعلهم كعصف مأكول (٥)} فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى صاروا حصيدا خامدين، هلكى ومثخنين، كورق عصفت به الريح فسقط من شجره، أو كالقشر أكل ما بداخله، أو كالغلاف لطعام نخره السوس والدود؛ - والتشبيه بذلك لذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم؛ وذهب غير واحد إلى أن المعنى: كتبن أكلته الدواب وراثته؛ والمراد: كروث، إلا أنه لم يذكر بهذا اللفظ لهجنته، فجاء على الآداب القرآنية، فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، ففيه إظهار تشويه حالهم.
ولقد أطال بعض المفسرين في إيراد القصة ونقلوا عن أصحاب السير نقولا تحكي كيف قتل أبرهة عامل النجاشي على اليمن، وكيف احتال ليسترضي ملك الحبشة فيقبل به عاملا عليها؛ ويصفون جيش الفيل ومسيرته من صنعاء إلى مشارف مكة، وما عرض له في مسيره من ظفر بكل من لاقوه، ثم كيف كانت مصارع القوم، وكيف قابله عبد المطلب بن هاشم، ثم كيف أحجم الفيل عن التوجه نحو الكعبة، وما صفة الطير؟ ومن أين أقبلت؟ وما شكل الحجارة؟ وما حجمها؟ حتى امتلأت بذلك صفحات تضم زهاء ألفي كلمة؛ لكنا نوجز فنقول:
أكثر الرواة على أن أبرهة حين نزل بجنوده وفيله قريبا من مكة، استاق بعض أتباعه إبلا لعبد المطلب- وكان سيد مكة وكبير أشرافها- فذهب إلى هذا القائد المغير يطالبه برد إبله، فقال لترجمانه: قل له: لقد أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدتني فيك إذ كلمتني؛ تترك بيتا هو دينك ودين آبائك، وتكلمني في رد إبل! فقال عبد المطلب: أما الإبل فهي لي، وأما البيت فله رب يمنعه، فقال: لن يمنعه مني! فقال عبد المطلب: أنت وذاك؛ رد أبرهة عليه إبله، وتأهب للزحف على البيت ليهدمه، وذهب عبد المطلب يمسك بباب الكعبة وينشد:
لا همّ إن العبد يمنـ ـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدالك
وبينما يصرخ الباغي في جنده ليدخلوا المسجد الحرام مخربين، أرسل العلي الأعلى، القوي العزيز، فرقا من طير تحمل العذاب والهلاك لهؤلاء المفسدين، فقطع دابر المجرمين؛ والحمد لله رب العالمين.

نقل من شعر عبد الله بن الزبعرى:
سائل أمير الجيش عنها ما رأى فلسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
ومن شعر أبي قيس بن الأسلت:
فولى وأدبر أدراجه وقد باء بالظلم من كان ثم
فأرسل من فوقهم حاصبا يلفهم مثل لف القزم
ومن شعر أمية بن أبي الصلت:
إن آيات ربنا باقيات ما يماري فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى صار يحبو كأنه معقور
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة بور
والسورة الكريمة لها نوع ارتباط بالسورة التي قبلها، وكذا ترتبط بها السورة التي بعدها، [وكأنه لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام، عقب على ذلك بقصة أصحاب الفيل، للإشارة إلى أن عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم. ٠ ويجوز أن تكون كالاستدلال على ما أشير إليه فيما قبلها من أن المال لا يغني من الله تعالى شيئا ٠٧. والله تعالى أعلم.
وقال ابن اسحق: لما رد الله الحبشة عن مكة، عظمت العرب قريشا. وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مئونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم. اهـ.
٣ - (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)
{أبابيل} طرائق، وجماعات متفرقة.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢ إظهار
٤ - (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)
{سجيل} ديوان العذاب.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢ إظهار
٥ - (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)
{كعصف مأكول} كورق جاف سقط من شجر أكل ثمره، أو كالقشر أكل ما بداخله، أو كالغلاف لطعام نخره السوس والدود.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٢ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٨، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٩ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٠، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١١. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٢ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٣، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٤، {ملك الناس. إله الناس} ١٥.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٦ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٧ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٨؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٩. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٠، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٢، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٣، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٤، {والسماء ذات البروج} ٢٥، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٦، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٧ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٨، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٩، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٠، {والعصر} ٣١؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٢، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين} ٣٣. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٤، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٥.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٦، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٧. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٨، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٩ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٠ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٢، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٣ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٤، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٥، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت

قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٦، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٧، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٨، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٩، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٠، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥١، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٢.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٣. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٤؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٥ بعد هذه السبع أكثرها ٥٦ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى

له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٨، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٩. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٠ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦١، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٢، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٣، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٤، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٥، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٧، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٨. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٩، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٠، {قد أفلح من تزكى} ٧١، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٢، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٣، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٤، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٥.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٦، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٧، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٨، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٠، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨١، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٢، {سندع الزبانية} ٨٣، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٤.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٥، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٦ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٧، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٨ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٩، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٠، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩١، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٢، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٣، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٤، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٥ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٦، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٧، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٨،

}والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة{ ٩٩، }اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم{ ١٠٠، }إنا أنزلناه في ليلة القدر{ ١٠١، }رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة{ ١٠٢.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: }وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا{ ١٠٣، }إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا{ ١٠٤، }يا أيها المدثر. قم فأنذر{ ١٠٥، }هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى{، ١٠٦ }يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها{ ١٠٧، }وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين{ ١٠٨، }هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود{ ١٠٩، }سنقرئك فلا تنسى{ ١١٠؛ }ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى{ ١١١؛ }فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر{ ١١٢. }ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد{ ١١٣، { كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها{ ١١٤؛ }ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى{ ١١٥؛ }ورفعنا لك ذكرك{ ١١٦؛ { كلا لا تطعه واسجد واقترب{ ١١٧؛ }إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر{ ١١٨؛ }قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد{ ١١٩. }إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا{ ١٢٠.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، }يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا{ ١٢١، }ورتل القرآن ترتيلا{ ١٢٢ }واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا{ ١٢٣ }وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم{ ١٢٤، }واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا{ ١٢٥، }سبح اسم ربك الأعلى{ ١٢٦، }فذكر إنما أنت مذكر{ ١٢٧، }أما بنعمة ربك فحدث{ ١٢٨، }فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب{ ١٢٩، }. . واسجد واقترب{ ١٣٠، }وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة{ ١٣١، }. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر{ ١٣٢، }فليعبدوا رب هذا البيت{ ١٣٣، }فصل لربك وانحر{ ١٣٤، }فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا{ ١٣٥، }قل هو الله أحد{ ١٣٦، }قل أعوذ برب الفلق{ ١٣٧، }قل أعوذ برب الناس{ ١٣٨؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين }ولا تمنن تستكثر{ ١٣٩، }. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا{ ١٤٠ }فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر{ ١٤١؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: }وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا{ ١٤٢، }إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله{ ١٤٣، }إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر{ ١٤٤ }ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين{ ١٤٥ { كلا بل لا يخافون الآخرة{ ١٤٦، }أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة{ ١٤٧ { كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة{ ١٤٨، }فلا صدق ولا صلى.

ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٩، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٠، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥١ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٢، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٣، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٤، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٥، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٦. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٧، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٨، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٩ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٠ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦١ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٢، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٣، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٤، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٥، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٦.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٦ سورة قريش:

سورة قريش:

(١٠٦) سورة قريش مكية

وآياتها أربع

كلماتها: ١٧؛ حروفها: ٧٣

١ - (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)

{لإيلاف} للزوم، وتهيؤ، وعهد.

{قريش} القبيلة المعروفة.

بسم الله الرحمن الرحيم
{لإيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤)}.
الإيلاف مصدر، يراد به اللزوم أو التهيؤ، أو المؤالفة والمعاهدة، واتفقوا على أن قريشا ١ ولد النضر بن كنانة، واللام في {لإيلاف} للتعليل، والجار والمجرور متعلق- عند الخليل- بقوله: {فليعبدوا} والفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى: إن نعم الله غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه سبحانه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة، ولما لم تكن في جواب شرط محقق لم يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها، [وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها ولا تقرب في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله جل وعز، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة،. . فأهلكه الله عز وجل، فذكرهم بنعمته، أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم] ٢، قال الراغب: الإيلاف: اجتماع مع التئام، وقال الهروي: الإيلاف: عهود كانت بينهم وبين الملوك، فكان هاشم يؤلف ملك الشام، والمطلب كسرى، وعبد شمس ونوفل يؤالفان ملك مصر والحبشة، قال: ومعنى يؤالف: يصالح ويعاهد، {إيلافهم رحلة الشتاء والصيف}
بدل من إيلاف قريش، و {رحلة} مفعول به لـ {إيلافهم} على تقدير أن يكون من الألفة، أما إذا كان من المؤالفة بمعنى المعاهدة فهو منصوب على نزع الخافض، أي معاهدتهم علي، أو لأجل {رحلة} الخ. . - ٣. وكانوا يسافرون بتجارتهم إلى اليمن شتاء، ويرتحلون بتجارتهم إلى الشام صيفا.
٢ - (إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)
{إيلافهم} لزومهم، وتهيئهم، ومؤالفتهم ومعاهداتهم.
{رحلة الشتاء} سفرهم بتجارتهم إلى اليمن شتاء.
{والصيف} وارتحالهم بتجارتهم إلى الشام صيفا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)
{البيت} الكعبة المشرفة، المسجد الحرام.
{فليعبدوا رب هذا البيت. (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤)} أمر الله تعالى قريشا أن تعبد رب الكعبة قيام الناس، دفع عنها كل كيد، ورد عنها كل بغي، وأن تستيقن أنه وحده المستحق للعبادة والتقديس والدعاء، دون ما يدعونه من أصنام وأوثان، وما اتخذوه من شركاء، فإن ولي المسجد الحرام والبيت العتيق واحد لا شريك له، وليعبدوا ربهم الذي رباهم بنعمه، وأسبغ عليهم من فضله، فأطعمهم بدلا من القحط والجوع، وآمنهم بدلا من النهب والسلب، وامتن سبحانه عليهم في آيات أخرى، فقال تبارك اسمه: {. . أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم} ٤ وقال: {. . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا. } ٥.
فللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين.
٤ - (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)
{من جوع} بدلا من القحط، والإملاق الذي كانوا فيه.
{من خوف} بدلا من خوفهم، إذ يتخطف الناس من حولهم.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٣ إظهار
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة

مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.
فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٦، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٧ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٨، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٩. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٠ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٢، {ملك الناس. إله الناس} ١٣.
وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٤ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٥ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٦؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٧. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٨، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٩.
وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٠، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢١، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٢، {والسماء ذات البروج} ٢٣، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٤، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٥ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٦، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٧، {والضحى. والليل إذا سجى} ٢٨، {والعصر} ٢٩؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٠، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣١. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٢، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٣.
وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٤، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٥. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٦، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٧ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٣٨ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٣٩، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ

المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٠، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤١ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٢، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٣، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٤، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٥، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٦، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٧، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٤٨، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٤٩، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٠.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥١. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٢؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب

وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٥٣ بعد هذه السبع أكثرها ٥٤ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٦، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٧. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٥٨ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٥٩، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٠، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦١، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٢، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٣، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٥، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٦. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٧، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٦٨، {قد أفلح من تزكى} ٦٩، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٠، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧١، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٢، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٣.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٤، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٥، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٦، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٧٨، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٧٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٠، {سندع الزبانية} ٨١، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٢.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٣، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٤ {. .

فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٥، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٦ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٧، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٨٨، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٨٩، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٠، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩١، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٢، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٣ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٤، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٥، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٦، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٩٧، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٩٨، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٩٩، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٠.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠١، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٢، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٣، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٤ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٥، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٦، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٠٧، {سنقرئك فلا تنسى} ١٠٨، {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٠٩، {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٠. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١١، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٢، {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٣، {ورفعنا لك ذكرك} ١١٤، {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٥، {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٦، {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١١٧. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١١٨.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١١٩، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٠ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢١ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٢، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٣، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٤، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٥، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٦، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٢٧، {. . واسجد واقترب} ١٢٨، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٢٩، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٠، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣١، {فصل لربك وانحر} ١٣٢، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٣، {قل هو الله أحد} ١٣٤، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٥، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٦، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٣٧، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٣٨ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٣٩، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٠، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك

والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤١، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٢ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٣ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٤، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٥ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٦، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٧، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٤٨، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٤٩ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٠، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥١، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٢، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٣، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٤. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٥، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٦، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٧ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٥٨ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٥٩ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٠، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦١، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٢، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٣، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٤.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٧ سورة الماعون:

سورة الماعون:
(١٠٧) سورة الماعون مكية
وآياتها سبع
كلماتها: ٢٥؛ حروفها: ١١٥
١ - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)
{بالدين} بوحي الله، أو بجزائه وحسابه.
بسم الله الرحمن الرحيم
{أرأيت الذي يكذب بالدين (١) فذلك الذي يدع اليتيم (٢) ولا يحض على طعام المسكين (٣)}
الاستفهام كأنما أريد به التشويق، حتى يعلم المسلم من هو المكذب، فيحترز عنه وعن فعله. وفي الكلام حذف؛ والمعنى: أرأيت الذين يكذب بالدين، أمصيب هو أم مخطيء. ١ [. . يجوز أن يتجوز بذلك عن الإخبار، فيكون المراد ب {أرأيت} أخبرني، وحينئذ تكون متعدية لاثنين: أولهما الموصول، وثانيهما محذوف، تقديره:. . أليس مستحقا للعذاب؟!] ٢ والدين إما أن يكون المراد به الإسلام؛ أو يراد به الجزاء، كما في قوله سبحانه: {مالك يوم الدين} ٣ أي يوم الجزاء؛ فهذا الذي تعجب منه السورة يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه.
٢ - (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)
{يدع} يدفع، ويقهر.
{اليتيم} الصغير يموت أبوه.
{فذلك الذي يدع اليتيم (٢)} فهو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويقهره ويظلمه، ويأكل ماله.
مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن: والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ فإن لم تعرفه فهو الذي يدع اليتيم، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات، وإحجامه عن المحظورات، إنما يكون للرغبة في الثواب، أو الرهبة من العقاب، فإذا كان منكرا للقيامة لم يترك شيئا من المشتهيات واللذات، فإنكار المعاد كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي؛ والغرض منه التعجيب. . . وقيل: الدين هاهنا هو الإسلام؛ لأنه عند الإطلاق يقع عليه، وسائر الأديان كلا دين، أو يتناولها مع التقييد، كقولك: دين النصارى أو اليهود.
٣ - (وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)
{يحض} يأمر، ويحث، ويحرض.
{المسكين} المحتاج.
{ولا يحض على طعام المسكين (٣)} لا يأمر غيره، ولا يحثه على إطعام المحتاج. وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزا، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: {. . أنطعم من لو يشاء الله أطعمه} ٤ فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم؛ فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا.
٤ - (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)
{فويل} فعذاب، أو: فواد في جهنم.
{فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون (٧)}
فعذاب بئيس للذين لا يلتفتون إلى الصلاة، ويسهون عنها سهو ترك لها. روى عن ابن عباس قال: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثوابا، وإن تركها لم يخش عليها عقابا؛ [الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال {للمصلين} الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون؛ إما عن فعلها بالكلية كما قاله ابن عباس، وإما عن وقتها المقدر لها شرعا فيخرجها عن

وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: {عن صلاتهم ساهون}، ولم يقل في صلاتهم ساهون. . . وإما عن الخشوع والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله. ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا] ٥. قال الزمخشري: فإن قلت: أي فرق بين قوله: {عن صلاتهم} وبين قولك: في صلاتهم؟ قلت: معنى {عن} أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفسقة الشطار ٦ من المسلمين، ومعنى [في] أن السهو يعتريهم فيها، بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يخلو منه مسلم؛ وكان رسول الله يقع له السهو في صلاته، فضلا عن غيره. . . ٧.

٥ - (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ)

{ساهون} لا يلتفون إلى الصلاة، ويسهون عنها سهو ترك لها.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ٤ إظهار

٦ - (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

{يراءون} يتظاهرون بالعبادة ليراهم الناس، ولا يبتغون بأدائها رضوان رب الناس.

{الذين هم يراءون (٦)} يري الناس ويظهر لهم عبادة الله، يريد بذلك الثناء والجاه، ولا يبتغي بها وجه مولاه، يصلي تقية كالفاسق، ويحسبه الراءون متعبدا. مما يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن: ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقوله عليه السلام: " ولا غمة في فرائض الله "؛ لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى؛ لأنه لا يلام بتركه، ولا تهمة فيه، فإن أظهره للاقتداء به كان جميلا؛ وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فتثني عليه بالصلاح. اه.

٧ - (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

{الماعون} ما يستعان به مما فيه منفعة، من نقد أو أدوات.

{ويمنعون الماعون (٧)} يمنعون عونهم ٨ عمن يحتاجه، فإن تعين فالعذاب لمن منعه، وفي غير حال الضرورة يكون خدشا للمروءة.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٩، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٠ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١١، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٢. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٣ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٤، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٥، {ملك الناس. إله الناس} ١٦.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٧ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٨ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٩؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٠. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط

تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٣، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٤، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٥، {والسماء ذات البروج} ٢٦، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٧، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٨ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٩، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٠، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣١، {والعصر} ٣٢، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٣، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٤. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٥، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٦.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٧، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٨. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٩، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٠ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤١ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٢، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٣، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٤ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٥، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٦، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٧، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٨، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي

يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٩، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٠، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.
لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥١، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٢، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٣.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٤. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٥؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٥٦ بعد هذه السبع أكثرها ٥٧ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٩، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٠. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦١ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٢، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٣، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٤، {وإذا الموءودة سئلت.

بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٥، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٦؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٨، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٩. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٠، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧١، {قد أفلح من تزكى} ٧٢، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٣، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٤؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٥؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧٦.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٧، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٨؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٩، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨١، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٣، {سندع الزبانية} ٨٤، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٥.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٦، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٧ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٨، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٩ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٠، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩١، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٢، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٣، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٤، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٥، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٦ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٧، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٨، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٩، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٠، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠١، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٢، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٣.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة

ومهلهم قليلا} ١٠٤، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٥، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٦، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٧ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٨، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٩، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٠، {سنقرئك فلا تنسى} ١١١؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٢؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٣. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٤، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٥؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٦؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٧؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٨؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٩؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٠. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢١.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٢، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٣ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٤ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٥، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٦، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٧، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٨، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٩، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٠، {. . واسجد واقترب} ١٣١، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٢، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٣، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٤، {فصل لربك وانحر} ١٣٥، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٦، {قل هو الله أحد} ١٣٧، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٨، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٩، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٠، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤١ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٢، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٣، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٤، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٥ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٦ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٨ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٩، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٠، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥١، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم

ثقيلا} ١٥٢ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٣، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٤، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٥، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٦، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٧. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٨، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٩، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٠ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦١ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٢ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٣، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٤، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٥، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٦، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٧.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٨ سورة الكوثر:

سورة الكوثر:

(١٠٨) سورة الكوثر مكية

وآياتها ثلاث.

كلماتها: ١٠؛ حروفها: ٤٢

١ - (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

{الكوثر} الخير الكثير ١.

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)}

في صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا: ما أضحك يا

رسول الله؟ قال: " نزلت علي آنفا سورة، فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم: إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)} ثم قال: " أتدرون ما الكوثر "؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: " فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير. هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك " {فصل لربك وانحر} فأقم الصلاة، وانحر ٢ نسكك، قال ابن العربي: أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: {فصل} الصلوات الخمس، فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين، وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة، فلأنها مقرونة بالنحر وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر. . . لاقترانها بالنحر. اه.

{إن شانئك هو الأبتر} إن مبغض نبينا هو الذي انقطع خيره وطمس ذكره، أما خاتم رسلنا فهو الذي آتيناه أبرك الخير، وأرفع الذكر في الدنيا والآخرة [و لا يشكل ذلك بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الإيمان من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للإيمان. . فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أحب إليه من نفسه، وأعز عليه من روحه، ولم يكن أبتر، لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه، فيفيد الكلام أن الأبترية معللة بالبغض فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر رضي الله تعالى عنهم. . .

وفي التعبير بالأبتر دون المبتور -على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- ما لا يخفى من المبالغة، وعمم الشيخ - عليه الرحمة- كلا من جزأي الجملة فقال: إنه سبحانه يبتر شانئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خير، فيبتر أهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحا لمعاده. . .] ٣، وأورد صاحب جامع البيان أقوالا تحدث عن سبب نزولها وفيمن نزلت، ومن هو شانئه، ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقل الأذل المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كان الآية نزلت في شخص بعينه. اه. والله تعالى أعلم.

٢ - (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{وانحر} واذبح ذبيحتك التي تتقرب بها إلى ربك.

{الكوثر} الخير الكثير ٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)}

في صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحك يا رسول الله؟ قال: " نزلت علي آنفا سورة، فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم: إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)} ثم قال: " أتدرون ما الكوثر "؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: " فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير. هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك " {فصل لربك وانحر} فأقم الصلاة، وانحر ٥ نسكك، قال ابن العربي: أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: {فصل} الصلوات الخمس، فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين، وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة، فلأنها مقرونة بالنحر وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر. . . لاقترانها بالنحر. اه.

{إن شانئك هو الأبتر} إن مبغض نبينا هو الذي انقطع خيره وطمس ذكره، أما خاتم رسلنا فهو الذي آتيناه أبرك الخير، وأرفع الذكر في الدنيا والآخرة [و لا يشكل ذلك بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الإيمان من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للإيمان. . فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أحب إليه من نفسه، وأعز عليه من روحه، ولم يكن أبتر، لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه، فيفيد الكلام أن الأبترية معللة بالبغض فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر رضي الله تعالى عنهم. . . وفي التعبير بالأبتر دون المبتور -على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- ما لا يخفى من المبالغة، وعمم الشيخ - عليه الرحمة- كلا من جزأي

الجملة فقال: إنه سبحانه يبتر شانئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خير، فيبتر أهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحا لمعاده. . .] ٦؛ وأورد صاحب جامع البيان أقوالا تحدث عن سبب نزولها وفيمن نزلت، ومن هو شانئه؛ ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقل الأذل المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كان الآية نزلت في شخص بعينه. اه. والله تعالى أعلم.

٣ - (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{شانئك} مبغضك

{الأبتر} قليل الخير، منقطع الذكر.

{الكوثر} الخير الكثير ٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)}

في صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا: ما أضحك يا رسول الله؟ قال: " نزلت علي آنفا سورة، فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم: إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)} ثم قال: " أتدرون ما الكوثر "؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؛ قال: " فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير. هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك " {فصل لربك وانحر} فأقم الصلاة، وانحر ٨ نسكك؛ قال ابن العربي: أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: {فصل} الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين؛ وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة؛ فلأنها مقرونة بالنحر وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر. . . لاقترانها بالنحر. اه.

{إن شانئك هو الأبتر} إن مبغض نبينا هو الذي انقطع خيره وطمس ذكره، أما خاتم رسلنا فهو الذي آتيناه أبرك الخير، وأرفع الذكر في الدنيا والآخرة [و لا يشكل ذلك بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الإيمان من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للإيمان. . فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أحب إليه من نفسه، وأعز عليه من روحه، ولم يكن أبتر، لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه، فيفيد الكلام أن الأبترية معللة بالبغض فتدور معه؛ وقد زال في أولئك الأكابر رضي الله تعالى عنهم. . . وفي التعبير بالأبتر دون المبتور -على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- ما لا يخفى من المبالغة؛ وعمم الشيخ - عليه الرحمة- كلا من جزأي الجملة فقال: إنه سبحانه يبتر شانئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خير، فيبتر أهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحا لمعاده. . .] ٩؛ وأورد صاحب جامع البيان أقوالا تحدث عن سبب نزولها وفيمن نزلت، ومن هو شانئه؛ ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقل الأذل المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كان الآية نزلت في شخص بعينه. اه. والله تعالى أعلم.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٠، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١١ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو

يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٢، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٣. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٤ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٥، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٦، {ملك الناس. إله الناس} ١٧.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٨ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٩ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٠؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢١. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٢، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٣.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٤، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٥، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٦، {والسماء ذات البروج} ٢٧، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٨، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٩ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٠، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣١، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٢، {والعصر} ٣٣؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٤، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٥. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٦، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٧.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٨، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٩. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٠، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤١ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٢ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٣، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٤، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٥ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى.

ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٦، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٧، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٨، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٩، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٠، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥١، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٢، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٣، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٤.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٥. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٦؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٧ بعد هذه السبع أكثرها ٥٨ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا

من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٩، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٠، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦١. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٢ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٣، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٤، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٥، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٦، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٧؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٨، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٩، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٠. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧١، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٢، {قد أفلح من تزكى} ٧٣، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٤، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٥؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٦؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٧.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٨، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٩؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٠، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٢، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٤، {سندع الزبانية} ٨٥، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٦.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٧، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٨ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٩، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٠ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩١، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٢، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم

ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٣، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٤، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٥، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٦، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٧ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٨، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٩، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٠، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠١، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٢، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٣، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٤.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٥، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٦، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٧، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٨ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٩، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٠، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١١، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٢؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٣؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٤. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٥، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٦؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٧؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٨؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٩؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٠؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢١. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٢.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٣، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٤ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٥ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٦، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٧، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٨، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٩، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٠، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣١، {. . واسجد واقترب} ١٣٢، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٣، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٤، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٥، {فصل لربك وانحر} ١٣٦، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٧، {قل هو الله أحد} ١٣٨، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٩، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٠، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤١، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٢ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٣، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٤، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٥، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس

وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٦ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٧ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٨، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٩ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٠، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥١، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٢، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٣ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٤، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٥، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٦، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٧، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٨. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٩، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٠، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦١ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٢ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٣ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٤، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٥، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٦، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٧، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٨.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١٠٩ سورة الكافرون:

سورة الكافرون:
(١٠٩) سورة الكافرون مكية

وآياتها ست
كلماتها: ٢٦؛ حروفها: ٩٤
١ - (قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٥) لكم دينكم ولي دين (٦)}.

أورد أبو جعفر الطبري بسنده عن سعيد بن ميناء مولى البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي بيديك خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: {قل يا أيها الكافرون (١)} حتى انقضت السورة، وعن الماوردي: نزلت جوابا، وعني بالكافرين قوما معينين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن فعبد الله، ومنهم من مات أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.
٢ - (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)
{لا أعبد ما تعبدون (٢)} لا أعبد الذي تعبدون من الأصنام والأوثان، وما زعمتموه من شركاء لبارئ الأرض والسماء سبحانه لا شريك له؛ {ولا أنتم عابدون ما أعبد} وأنتم لا تعبدون الله تعالى الذي أعبد، ف {ما} هنا بمعنى: من؛ {ولا أنا عابد ما عبدتم} تأكيد لنبذ الشرك والبراءة منه؛ و {ما} في هذه الآية مصدرية، أي: ولا أنا عابد عبادتكم المبنية على الإشراك.
٣ - (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
{ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣)} قد يكون التكرار للتوكيد، فهي مؤكدة للآية رقم (٣)؛ أو تكون {ما} هاهنا- كذلك- مصدرية، فيكون المعنى: ولا أنتم عابدون عبادتي المبنية على اليقين والتوحيد والإخلاص.
٤ - (وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)
{لكم دينكم} [هو- عن الأكثرين- تقرير لقوله تعالى: {لا أعبد ما تعبدون}، وقوله تعالى: {ولا أنا عابد ما عبدتم}؛ كما أن قوله تعالى: {ولي دين} - عندهم- تقرير لقوله تعالى: {ولا أنتم عابدون ما أعبد}؛ والمعنى: أن دينكم هو الإشراك، مقصورا على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول كما تطمعون فيه، فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات؛ وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضا؛ لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم] ١.
وقال البخاري: يقال: {لكم دينكم} الكفر؛ {ولي دين} الإسلام. وقال غيره: {لا أعبد ما تعبدون} الآن، ولا أجيبكم فيما بقي من عمري؛ {ولا أنتم عابدون ما أعبد}؛ وهم الذين قال: {. . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا} ٢.
مما أورد القرطبي: قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين} فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: {. . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم} ٣ أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. . اهـ. ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهذه السورة وب (قل هو الله أحد) في ركعتي الطواف؛ وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها في ركعتي الفجر.
خاتمة:
السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٤، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٥ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٦، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٧. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٨ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٩، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٠، {ملك الناس. إله الناس} ١١.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٢ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٣ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٤؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٥. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٦، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ١٧.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ١٨، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ١٩، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٠، {والسماء ذات البروج} ٢١، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٢، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٣ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٤، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٥، {والضحى. والليل إذا سجى} ٢٦، {والعصر} ٢٧؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٢٨، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٢٩. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٠، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣١.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٢، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٣. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٤، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٥ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٣٦ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٣٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٣٨، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون

الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٣٩ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٠، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤١، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٢، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٣، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٤، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٥، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٤٦، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٤٧، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٤٨.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٤٩. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٠؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوفر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥١ بعد هذه السبع أكثرها ٥٢ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٣، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٤، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٥. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٥٦ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٥٧، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٥٨، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٥٩، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٠، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦١؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٢، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٣، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٤. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٥، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٦٦، {قد أفلح من تزكى} ٦٧، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٦٨، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٦٩؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٠؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٧١.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٢، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٣؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٤، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٥، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٧٦، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٧٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٧٨، {سندع الزبانية} ٧٩، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٠.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨١، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٢ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٣، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا

إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٤ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٥، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٨٦، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٨٧، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٨٨، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٨٩، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٠، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩١ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٢، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٣، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٤، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٩٥، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٩٦، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ٩٧، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ٩٨.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا} ٩٩، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا} ١٠٠، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠١، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٢ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها} ١٠٣، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٤، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٠٥، {سنقرئك فلا تنسى} ١٠٦؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٠٧؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٠٨. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٠٩، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٠؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١١؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٢؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٣؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٤؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١١٥. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١١٦.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١١٧، {ورتل القرآن ترتيلا} ١١٨ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١١٩ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٠، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢١، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٢، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٣، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٤، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٢٥، {. . واسجد واقترب} ١٢٦، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٢٧، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٢٨، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٢٩، {فصل لربك وانحر} ١٣٠، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣١، {قل هو الله أحد} ١٣٢، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٣، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٤؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٣٥، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٣٦ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٣٧؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا} ١٣٨، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض

يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٣٩، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٠ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤١ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٢، {أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٣ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٤، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٥، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٤٦، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٤٧ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٤٨، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٤٩، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٠، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥١، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٢. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٣، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٤، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٥ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٥٦ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٥٧ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٥٨، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٥٩، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٠، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦١، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٢.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١١٠ سورة النصر:

سورة النصر:

(١١٠) سورة النصر مدنية
وآياتها ثلاث
كلماتها: ٢٩؛ حروفها: ٩٩
١ - (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا (٣)}
إذا يجيء ميعاد تأييد الله تعالى للجند المؤمنين على عدوهم، ويتم لهم فتح المغاليق، والظفر بالبلاد التي ينشرون منها لواء دينهم، وشرح الله صدورا كثيرا بالإسلام فانقادت له وعملت به، فنزه ربك وقدسه، ودم على ذلك واستكثر منه، واحمده واشكره على ما هدى وأولى، وسله العفو عن السيئات، وستر الذنوب والخطيئات، ومحو الهفوات والزلات؛ إنه عظيم الحلم على من أساء ثم استعتب، يحب من أناب إليه، ورجع عما يكون قد طاف به، إلى الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد {. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} ١؛ في صحيح مسلم عن ابن عباس: سورة [النصر] آخر سورة نزلت جميعا. روى الأئمة- واللفظ للبخاري- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت سورة {إذا جاء نصر الله والفتح} إلا يقول: " سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي "، وعنها قالت: كان رسول صلى الله عليه وسلم الله يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي " يتأول القرآن. وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم؛ قال: فوجد ٢ بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم ٣؛ قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: {إذا جاء نصر الله والفتح}؛ فقالوا: أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه؛ فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله، فقال: {إذا جاء نصر الله والفتح} فذلك علامة موتك {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}؛ فقال عمر رضي الله عنه: تلومونني عليه؟ وفي البخاري: فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول؛ [فإن قيل: فماذا يغفر للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: " رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، إنك على كل شيء قدير "، فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظمة ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا. . وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار، وقيل: {واستغفره} أي استغفر لأمتك، {إنه كان توابا}: أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم؛ وإذا كان عليه السلام -وهو معصوم- يؤمر بالاستغفار فما الظن بغيره؟] ٤.
٢ - (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)
[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]
{أفواجا} جماعات جماعات.
بسم الله الرحمن الرحيم
{إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا (٣)}
إذا يجيء ميعاد تأييد الله تعالى للجند المؤمنين على عدوهم، ويتم لهم فتح المغاليق، والظفر بالبلاد التي ينشرون منها لواء دينهم، وشرح الله صدورا كثيرا بالإسلام فانقادت له وعملت به، فنزه ربك وقدسه، ودم على ذلك واستكثر منه، واحمده واشكره على ما هدى وأولى، وسله العفو عن السيئات، وستر الذنوب والخطيئات، ومحو الهفوات والزلات؛ إنه عظيم الحلم على من أساء ثم استعتب، يحب

من أناب إليه، ورجع عما يكون قد طاف به، إلى الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد {. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} ٥؛ في صحيح مسلم عن ابن عباس: سورة [النصر] آخر سورة نزلت جميعا. روى الأئمة- واللفظ للبخاري- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت سورة {إذا جاء نصر الله والفتح} إلا يقول: " سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي "، وعنها قالت: كان رسول صلى الله عليه وسلم الله يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي " يتأول القرآن. وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم، قال: فوجد ٦ بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم ٧، قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: {إذا جاء نصر الله والفتح}، فقالوا: أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله، فقال: {إذا جاء نصر الله والفتح} فذلك علامة موتك {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}، فقال عمر رضي الله عنه: تلومونني عليه؟ وفي البخاري: فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول، [فإن قيل: فماذا يغفر للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: " رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، إنك على كل شيء قدير "، فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظمة ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا. . وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار، وقيل: {واستغفره} أي استغفر لأمتك، {إنه كان توابا}: أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم، وإذا كان عليه السلام -وهو معصوم- يؤمر بالاستغفار فما الظن بغيره؟] ٨.

٣ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ١]

{فسبح بحمد ربك} قل: سبحان ربي وبحمده. نزه الله عن كل سوء، واحمده على نعمه.

{واستغفره} سله الغفران، وهو ستر الذنوب، ومحو الخطايا، والعفو عن السيئات.

{توابا} كثير القبول لتوبة من طلب غفرانه، وثاب إلى طريقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا (٣)}

إذا يجيء ميعاد تأييد الله تعالى للجند المؤمنين على عدوهم، ويتم لهم فتح المغاليق، والظفر بالبلاد التي ينشرون منها لواء دينهم، وشرح الله صدورا كثيرا بالإسلام فانقادت له وعملت به، فنزه ربك وقدسه، ودم على ذلك واستكثر منه، واحمده واشكره على ما هدى وأولى، وسله العفو عن السيئات، وستر الذنوب والخطيئات، ومحو الهفوات والزلات، إنه عظيم الحلم على من أساء ثم استعتب، يحب من أناب إليه، ورجع عما يكون قد طاف به، إلى الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد {. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} ٩؛ في صحيح مسلم عن ابن عباس: سورة [النصر] آخر سورة نزلت جميعا. روى الأئمة- واللفظ للبخاري- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت سورة {إذا جاء نصر الله والفتح} إلا يقول: " سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي "، وعنها قالت: كان رسول صلى الله عليه وسلم الله يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي " يتأول القرآن. وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم، قال: فوجد ١٠ بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم ١١، قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: {إذا جاء نصر الله والفتح}، فقالوا: أمر الله جل وعز نبيه صلى الله

عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله، فقال: {إذا جاء نصر الله والفتح} فذلك علامة موتك {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}، فقال عمر رضي الله عنه: تلومونني عليه؟ وفي البخاري: فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول؛ [فإن قيل: فماذا يغفر للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: " رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، إنك على كل شيء قدير "، فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظمة ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا. . وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار، وقيل: {واستغفره} أي استغفر لأمتك؛ {إنه كان توابا}: أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم؛ وإذا كان عليه السلام -وهو معصوم- يؤمر بالاستغفار فما الظن بغيره؟] ١٢.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٣، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٤ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٥، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٦. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٧ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٨، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٩، {ملك الناس. إله الناس} ٢٠.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢١ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢٢ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٣؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٤. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٥، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٦.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٧، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٨، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٩، {والسماء ذات البروج} ٣٠، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣١، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣٢ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها}

٣٣، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٤، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٥، {والعصر} ٣٦، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٧، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٨. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٩، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٠.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤١، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤٢. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٣، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٤ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٥ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٧، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٨ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٩، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٠، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥١، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥٢، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٣، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٤، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال

صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٥، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٦، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٧.
في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٨. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٩؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.
وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.
وعشر سور ٦٠ بعد هذه السبع أكثرها ٦١ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٣، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٤. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٥ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٦، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٧، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٨، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٩، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٠؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧١، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧٢، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٣. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٤، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٥، {قد أفلح من تزكى} ٧٦، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٧، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٨؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٩؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي

يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٠.
وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨١، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨٢، وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٣، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٤، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٥، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٦، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٧، {سندع الزبانية} ٨٨، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٩.
وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٠، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩١ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩٢، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٣ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٤، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٥، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٦، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٧، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٨، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٩، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٠ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠١، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠٢، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٣، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٤، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٥، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٦، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٧.
وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٨، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٩، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٠، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١١ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١٢، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٣، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٤، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٥، {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٦، {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٧. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٨، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٩، {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٠، {ورفعنا لك ذكرك} ١٢١، {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢٢، {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٣، {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٤. {إذا جاء نصر الله والفتح.

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٥.
وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، }يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٦، }ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٧ }واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٨ }وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٩، }واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٠، }سبح اسم ربك الأعلى} ١٣١، }فذكر إنما أنت مذكر} ١٣٢، }أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٣، }فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٤، }. . واسجد واقترب} ١٣٥، }وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٦، }. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٧، }فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٨، }فصل لربك وانحر} ١٣٩، }فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٠، }قل هو الله أحد} ١٤١، }قل أعوذ برب الفلق} ١٤٢، }قل أعوذ برب الناس} ١٤٣؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين }ولا تمنن تستكثر} ١٤٤، }. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٥ }فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٦؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: }وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٧، }إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٨، }إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٩ }ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٠ }كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥١، }أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥٢ }كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٣، }فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٤، }إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٥، }إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٦ }كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٧، }ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٨، }إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٩، }قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٠، }بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦١. }إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦٢، }قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٣، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٤ }قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٥ }كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٦ }أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٧، }إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٨، }ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٩، }أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٠، }فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧١.
وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث

وبحسابه وجزائه، وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.
نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير، وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين، وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.
وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

١١١ سورة المسد:

سورة المسد:
(١١١) سورة المسد مكية
وآياتها خمس.
كلماتها: ٢٣؛ حروفها: ٨١
١ - (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)
{تبت} خسرت وهلكت، دعاء.
{أبي لهب} عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم.
{وتب} وخاب وخسر وهلك.
بسم الله الرحمن الرحيم
{تبت يدا أبي لهب وتب (١) ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢) سيصلى نارا ذات لهب (٣) وامرأته حمالة الحطب (٤) في جيدها حبل من مسد (٥)}.
روى البخاري- بسنده- عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش فقال: " أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني "؟ قالوا: نعم؛ قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "؛ فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبا لك! فأنزل الله {تبت يدا أبي لهب} إلى آخرها.
أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عباس قال: لما نزلت: {وأنذر عشيرتك الأقربين} ٢ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: " يا بني فهر، يابني عدي "! لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا، لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي "؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ". فقال أبو لهب: تبا لك سائر الأيام، ألهذا جمعتنا؛ فنزلت.
في الصحيحين وغيرهما -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس قال: لما نزلت {وأنذر عشيرتك الأقربين} ورهطك منهم المخلصين ٣. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: " يا صباحاه " ٤! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد؛ فاجتمعوا إليه؛ فقال: " يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب "! فاجتمعوا إليه فقال: " أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلا

تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي "؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ". فقال أبو لهب: تبا لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة.

{تبت يد ١ أبي لهب} سيخيب هذا الجبار العنيد ويهلك، وعيد من الله الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولا يرضى عن القوم الصادين عن هدى الملك الحق المبين، وأبو لهب: أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب- وكان كما نقل- شيخ القبيلة، {وتب} وخاب وخسر وهلك، خاب، فقد حمل أعظم الظلم، وخسر نفسه وأهله، وأي هالك أشقى ممن جعل الله تعالى لعنته قرآنا يتلى، وقبح امرأته، فجعلها أعجب المعذبين المهلكين طرا!!

٢ - (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

{ما أغنى عنه ماله وما كسب} لن تنفعه أمواله ولا أرحامه، ولا يدفع عنه تجبره، ولا سلطانه وطغيانه.

٣ - (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)

{ذات لهب} صاحبة شرر وجمر، تتوقد.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

{سيصلى نارا ذات لهب} سيذوق ويشوى جلده بالنار المسعرة المتقدة، صاحبة الشرر، والعمد الممددة الملتهبة.

٤ - (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

{حمالة} كثيرة الحمل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

{وامرأته حمالة الحطب} وهكلت وخسرت امرأته- واسمها: أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان بن حرب بن أمية- وشاه وجهها، وساء مصيرها، إذ ستكون حمالة لحطب جهنم، ولن يكون حطب الجحيم إلا أهل الشرك، وما اتخذوه شركاء، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} ٥، والآية الحكيمة الأخرى: {. . وقودها الناس والحجارة} ٦.

٥ - (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

{في جيدها} في عنقها.

{من مسد} من فتل ليف أو غيره.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

{في جيدها حبل من مسد} في عنقها حبل محكم الفتل من ليف أو جلد أو حديد أو ما شاء الله.

وهكذا فعذاب القوي القهار يذل ويخزى- نسأل الله أن يجيرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة- وما ظلمها ربنا، فما هو سبحانه بظلام للعبيد، وإنما يجازيها ويجازي سائر العباد بالعدل {. . والله يقضي بالحق} ٧، ويزيد المؤمنين من فضله، ولقد كانت عونا لزوجها في كفره، [فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: {حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد} يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، وهي مهيأة لذلك مستعدة له] ٨، كانت تحمل الشوك فتلقيه على طريق نبي الله صلى الله عليه وسلم. . . وقال آخرون: كانت تحطب الكلام، وتمشي بالنميمة، وتعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر. . . {حبل من مسد}. . هو حبل جمع من أنواع مختلفة. . من ليف وحديد، وجعل في عنقها طوقا كالقلادة.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين، وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين، ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: }رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا{ ٩، }الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد{ ١٠ }إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد{ ١١، }سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى{ ١٢. }. . إنه يعلم الجهر وما يخفى{ ١٣ }الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم{ ١٤، }قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد{ ١٥، }ملك الناس. إله الناس{ ١٦.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: }إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا{ ١٧ }نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا{ ١٨ }وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما{ ١٩؛ }ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون{ ٢٠. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: }أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم{ ٢١، }فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم{ ٢٢.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: }كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر{ ٢٣، }فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس{ ٢٤، }فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق{ ٢٥، }والسماء ذات البروج{ ٢٦، }والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب{ ٢٧، }والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر{ ٢٨ }والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها{ ٢٩، }والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى{ ٣٠، }والضحى. والليل إذا سجى{ ٣١، }والعصر{ ٣٢؛ وكذا القسم بالأماكن: }لا أقسم بهذا البلد{ ٣٣، }والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين{ ٣٤. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: }والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا{ ٣٥، }والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا{ ٣٦.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: }فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا{ ٣٧، }إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا{ ٣٨. }. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم{ ٣٩، }فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير{ ٤٠ }وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر{ ٤١ }إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين{ ٤٢، }أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره{ ٤٣، }كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون

الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٤ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٥، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٦، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٧، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٤٨، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٩، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٠، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥١، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٢، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٣.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٤. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٥؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٦ بعد هذه السبع أكثرها ٥٧ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٨، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٩، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٠. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦١ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٢، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٣، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٤، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٥، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٦؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٧، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٨، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٩. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٠، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧١، {قد أفلح من تزكى} ٧٢، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٣، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٤؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٥؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٦.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٧، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٨؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٩، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨١، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٢، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٣، {سندع الزبانية} ٨٤، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٥.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٦، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٧ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٨، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا

إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٩ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٠، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩١، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٢، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٣، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٤، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٥، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٦ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٧، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٨، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٩، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٠، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠١، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٢، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٣.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٤، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٥، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٦، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٧ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٨، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٩، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٠، {سنقرئك فلا تنسى} ١١١؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٢؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٣. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٤، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٥؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٦؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٧؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٨؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٩؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٠. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢١.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٢، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٣ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٤ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٥، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٦، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٧، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٨، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٩، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٣٠، {. . واسجد واقترب} ١٣١، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٢، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٣، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٤، {فصل لربك وانحر} ١٣٥، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٦، {قل هو الله أحد} ١٣٧، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٨، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٩، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٠، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤١ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٢، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٣، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض

يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٤، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٥ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٦ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٧، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٨ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٩، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٠، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥١، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٢ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٣، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٤، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٥، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٦، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٧. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٨، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٩، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٠ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦١ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٢ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٣، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٤، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٥، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٦، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٧.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١١٢ سورة الإخلاص:

سورة الإخلاص:

(١١٢) سورة الإخلاص مكية.
وآياتها ٤، نزلت بعد الناس.
كلماتها: ١٥. حروفها: ٧٧
١ - (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)}.

المعبود بحق إله واحد، لا إله غيره، ولا معبود سواه؛ بهذا بعث النبي الخاتم، وأرسل كل رسول سبق، وإلى هذا دعا ودعوا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا التوحيد والتمجيد لهجت ألسنتهم، وعكفت على هذا الذكر أممهم، وصدق نبينا محمد الذي لا ينطق عن الهوى، إذ علمنا الحق والهدى: " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله "، فأول أولي العزم من المرسلين نوح عليه السلام كان أول ندائه إلى من بعث إليهم: {. . يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره. } ١، وهود عليه السلام- وقد أرسل بعد نوح- {. . قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره} ٢، وبعث الله {. . إلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره} ٣، وأبطل إبراهيم عليه السلام ما اتخذ قومه من أوثان، ثم نادى على التوحيد، وشهد بذلك الكتاب المجيد في الآية الكريمة: {إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين} ٤، ونودي موسى عليه السلام: {إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني} ٥، وكثير من الآيات جاء الأمر فيها بالتوحيد واضحا بينا، منها الآية الكريمة: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو} ٦، ومنها: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} ٧، {. . وما من إله إلا إله واحد} ٨، {. . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها وحدا لا إله إلا هو. } ٩، حتى لقد تكرر وصف العلي الأعلى بصفة الوحدانية- صريحا- في ثلاثين آية؛ والإقرار بالتوحيد والنطق بالشهادتين أول قواعد الإسلام، وبها تعصم الأموال والدماء، وفي الحديث: " فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام. . . "، وقال صلى الله عليه وسلم: " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " خرجه مسلم.

[{قل هو الله أحد (١)} المشهور أن {هو} ضمير الشأن، ومحله الرفع على الابتداء، خبره الجملة بعده ١٠، ومثلها لا يكون لها رابط؛ لأنها عين المبتدأ في المعنى، والسر في تصديرها به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل، فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن. . . ١١ وجوز أن يكون {هو} ضمير المسئول عنه، أو المطلوب صفته. . فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، والبخاري في تاريخه، والترمذي، والبغوي في معجمه. . والحاكم وصححه. . عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد! انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: {قل هو الله أحد} السورة] ١٢.

قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى. . .

وقال غيره: الفرق بين الواحد والأحد من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه.

وثانيها: أنك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان.

وثالثها: أن الواحد يستعمل في الإثبات، كقولك: رأيت رجلا واحدا، والأحد يستعمل في النفي نحو: ما رأيت أحدا، فيفيد العموم.

قلت: ولعل وجه تخصيص الله بالأحد هو هذا المعنى. . . ومن هنا قال بعضهم: إن الأحد يدل على جميع المعاني السلبية ككونه ليس بجوهر ولا عرض ولا متحيز، وغير ذلك، كما أن اسم {الله} يدل على مجامع الصفات. . فتبين أن قوله: {قل هو الله أحد} يدل على الذات والصفات جميعا ١٣.

٢ - (اللَّهُ الصَّمَدُ)
{الصمد} الذي يقصد، ويصمد الخلق إليه في الحوائج.

{الله الصمد (٢)} ١٤ الذي يقصد ويصمد الخلق إليه في الحوائج، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عمن ناداه؛ قال السدي: إنه المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب.

[سؤال: لم جاء الخبر هاهنا معرفا، وفي وقوله: {الله أحد} منكرا؟ الجواب: لأنه كان معلوما عندهم أنه غني على الإطلاق، ومرجوع إليه في الحوائج، فإذا مس الإنسان الضر دعا ربه، أما التوحيد فلم يكن ثابتا في أوهامهم. . .] ١٥.

٣ - (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

{لم يلد ولم يولد. (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)} ليس الله تعالى شبيه يلحقه، فإنه سبحانه لا ولد له؛ {وما ينبغي للرحمان أن يتخذا ولدا. إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا} ١٦ وليس له شبيه تقدم عليه، فإنه عز وجل لم يولد؛ وليس لربنا الكبير المتعال مثيل ولا شبيه يقارنه، فما له مثلا أحد؛ وقوله تعالى: {الله الصمد} مبتدأ وخبر. . و {الصمد} قال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم؛ وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السؤدد، ويصمد إليه- أي يقصده- كل شيء. . . وعن ابن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله ١٧.

هذا وقد أورد جمهور من المفسرين عدة أسماء لهذه السورة الكريمة ١٨، وذكروا في فضلها عشرات الأحاديث- قريبا من ثلاثين حديثا- لكن صح منها: ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ {قل هو الله أحد} يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي عليه وسلم، فذكر ذلك، وكان الرجل يتقالها- أي يعتقد أنها قليلة، في العمل، لا في القدر- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن "؛ وعنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة "؟ فشق ذلك عليهم؛ وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: " الله الواحد الصمد ثلث القرآن ". في شرح العيني: قوله: (الله الواحد الصمد) كناية عن: {قل هو الله أحد} خرجه مسلم.

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل {قل هو الله أحد} جزءا من أجزاء القرآن "؛ رواه مسلم.

وروى مسلم عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم ب {قل هو الله أحد}؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: " سلوه لأي شيء صنع ذلك "؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أخبروه أن الله عز وجل يحبه ".

روى البخاري في كتاب الصلاة. . . عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب {قل هو الله أحد} حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى؛ فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر؛ فقال: " يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة "؟ قال: إني أحبها، قال: " حبك إياها أدخلك الجنة ".

٤ - (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

[نص مكرر لاشتراكه مع الآية ٣]

{كفوا} نظير.

{لم يلد ولم يولد. (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)} ليس الله تعالى شبيه يلحقه، فإنه سبحانه لا ولد له؛ {وما ينبغي للرحمان أن يتخذا ولدا. إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا} ١٩ وليس له شبيه تقدم عليه، فإنه عز وجل لم يولد؛ وليس لربنا الكبير المتعال مثيل ولا شبيه يقارنه، فما له مثلا أحد؛ وقوله تعالى: {الله الصمد} مبتدأ وخبر. . و {الصمد} قال ابن الأنباري: لا

خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم؛ وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السؤدد، ويصمد إليه- أي يقصده- كل شيء. . . وعن ابن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله ٢٠.

هذا وقد أورد جمهور من المفسرين عدة أسماء لهذه السورة الكريمة ٢١، وذكروا في فضلها عشرات الأحاديث- قريبا من ثلاثين حديثا- لكن صح منها: ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ {قل هو الله أحد} يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي عليه وسلم، فذكر ذلك، وكان الرجل يتقالها- أي يعتقد أنها قليلة، في العمل، لا في القدر- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن "، وعنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة "؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: " الله الواحد الصمد ثلث القرآن ". في شرح العيني: قوله: (الله الواحد الصمد) كناية عن: {قل هو الله أحد} خرجه مسلم.

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل {قل هو الله أحد} جزءا من أجزاء القرآن "، رواه مسلم.

وروى مسلم عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم ب {قل هو الله أحد}، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: " سلوه لأي شيء صنع ذلك "؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أخبروه أن الله عز وجل يحبه ".

روى البخاري في كتاب الصلاة. . . عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب {قل هو الله أحد} حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى؛ فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر؛ فقال: " يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة "؟ قال: إني أحبها، قال: " حبك إياها أدخلك الجنة ".

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٢٢، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٢٣ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ٢٤، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ٢٥. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ٢٦ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ٢٧، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ٢٨، {ملك الناس. إله الناس} ٢٩.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٣٠ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٣١ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٣٢؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٣٣. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط

تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٤، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٣٥.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٣٦، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٣٧، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٣٨، {والسماء ذات البروج} ٣٩، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٤٠، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٤١ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٤٢، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٤٣، {والضحى. والليل إذا سجى} ٤٤، {والعصر} ٤٥، وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٤٦، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٤٧. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٤٨، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٤٩.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٥٠، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٥١. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٥٢، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٥٣ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٥٤ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٥٥، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٥٦، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٥٧ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٥٨، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٥٩، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٦٠، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٦١، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي

يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٦٢، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٦٣، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٦٤، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٦٥، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٦٦.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٦٧. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٦٨؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوفر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٦٩ بعد هذه السبع أكثرها ٧٠ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٧١، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٧٢، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٧٣. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٧٤ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٧٥، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٧٦، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٧٧، {وإذا الموءودة سئلت.

بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٧٨، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٧٩؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٨٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٨١، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٨٢. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٨٣، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٨٤، {قد أفلح من تزكى} ٨٥، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٨٦، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٨٧؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٨٨؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضي} ٨٩.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٩٠، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٩١؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٩٢، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٩٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٩٤، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٩٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٩٦، {سندع الزبانية} ٩٧، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٩٨.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٩٩، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ١٠٠ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ١٠١، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ١٠٢ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ١٠٣، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ١٠٤، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٠٥، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ١٠٦، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ١٠٧، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ١٠٨، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ١٠٩ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١١٠، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١١١، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١١٢، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١١٣، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١١٤، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١١٥، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١١٦.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة

ومهلهم قليلا} ١١٧، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١١٨، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١١٩، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٢٠ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٢١، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٢٢، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٢٣، {سنقرئك فلا تنسى} ١٢٤؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١٢٥؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١٢٦. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١٢٧، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١٢٨؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١٢٩؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٣٠؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٣١؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٣٢؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٣٣. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٤.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٣٥، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٣٦ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٣٧ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٣٨، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٣٩، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٤٠، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٤١، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٤٢، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٤٣، {. . واسجد واقترب} ١٤٤، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٤٥، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٤٦، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٤٧، {فصل لربك وانحر} ١٤٨، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٤٩، {قل هو الله أحد} ١٥٠، {قل أعوذ برب الفلق} ١٥١، {قل أعوذ برب الناس} ١٥٢، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٥٣، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٥٤ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٥٥، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٥٦، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٥٧، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٥٨ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٥٩ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٦٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٦١ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٦٢، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٦٣، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٦٤، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم

ثقيلا} ١٦٥ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٦٦، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٦٧، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٦٨، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٦٩، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٧٠. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٧١، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٧٢، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٧٣ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٧٤ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٧٥ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٧٦، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٧٧، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٧٨، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٧٩، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٨٠.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

١١٣ سورة الفلق:

سورة الفلق:
(١١٣) سورة الفلق مكية
وآياتها خمس
كلماتها: ١٠؛ حروفها: ٩٩
١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

{أعوذ} ألجأ، وأحتمي، وأستجير.

{الفلق} الخلق؛ أو الصبح.

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أعوذ برب الفلق (١) من شر ما خلق (٢) ومن شر غاسق إذا وقب (٣) ومن شر النفاثات في العقد (٤) ومن شر حاسد إذا حسد (٥)}.

أمر الله تعالى نبيه، وأمر كل مؤمن بأن يستجير ١ برب المخلوقات؛ من شر كل ذي شر من المخلوقات؛ ومن شر ليل أو كوكب ٢ إذا أقبل وأظلم؛ ومن شر النفاخات، ينفخن في الخيط ويعقدنه، ومن شر متمن زوال نعمة الغير.

في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره يهودي من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث؛ ثم قال: " يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال [الذي عند رأسي للذي عند رجلي] ٣: ما شأن الرجل؟ قال: مطبوب. ٤ قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومشاطة ٥ وجف طلعة ٦ ذكر تحت راعوفة ٧ في بئر ذي أورالة " ٨، فجاء البئر واستخراجه ٩.

{ومن شر النفاثات في العقد} وأحتمي بك ربي وألوذ وأستجير من شر النفاخات الساحرات ينفخن في الخيط حين يعقدنه.

قال متمم بن نويرة:

نفثت في الخيط شبيه الرقي من خشية الجنة والحاسد

ووجه التأنيث إما الجماعة؛ لأن اجتماع السحرة على عمل واحد أبلغ تأثيرا، وإما لأن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء؛ لأنهن يعقدن وينفثن؛ وذلك أن الأصل الكلي في ذلك الفن هو ربط القلب، وتعليق الوهم بذلك الأمر، وأنه في النساء أوفر، لقلة علمهن، وشدة شهوتهن ١٠. والاستعاذة منهن الاستعاذة من إثم عملهن، أو: من فتنتهن الناس بسحرهن، أو من إطعامهن الأطعمة الردية المورثة للجنون أو الموت.

{ومن شر حاسد إذا حسد} وعلمنا ربنا أن نستعيذ به ونحتمي ونستجير من شر أي حاسد، وهو المتمني زوال نعمة المحسود، إن لم يصر للحاسد مثلها-[والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل؛ فالحسد شر مذموم؛ والمنافسة مباحة، وهي الغبطة -. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " المؤمن يغبط، والمنافق يحسد "؛ وفي الصحيحين: " لا حسد إلا في اثنتين "؛. . والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل وهابيل. . . بارز الحاسد ربه ساخط لقسمته، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكر الغيبة، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين ". والله سبحانه وتعالى أعلم] ١١.

٢ - (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٣ - (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

{غاسق} ليل؛ أو: كوكب.

{وقب} أظلم، وأقبل.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٤ - (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

{النفاثات} النفاخات، الساحرات.

{في العقد} في الخيط يعقدنه.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

٥ - (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

{حاسد} متمن زوال نعمة الخير.

كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

وفي فضل هذه السورة الكريمة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ {قل أعوذ برب الفلق} و {قل أعوذ برب الناس} "؛ رواه مسلم في صحيحه بسنده عن عقبة بن عامر.

وفي الصحيحين عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده، رجاء بركتها "؛ والله تعالى أعلم.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ١٢، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ١٣ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٤، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١٥. {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٦ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٧، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٨، {ملك الناس. إله الناس} ١٩.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ٢٠ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ٢١ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ٢٢؛ {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ٢٣. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٤، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٥.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٦، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٧، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٨، {والسماء ذات البروج} ٢٩، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٣٠، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٣١ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٣٢، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٣٣، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٤، {والعصر} ٣٥؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٦، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين} ٣٧. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٨، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٩.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٤٠، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٤١. {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٤٢، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٤٣ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٤ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤٥، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٦، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٧ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٨، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٩، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٥٠، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما} ٥١، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٥٢، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٥٣، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٤، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥٥، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى

النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٦.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٧. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٨، وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر، كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوفر الثياب، وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٩ بعد هذه السبع أكثرها ٦٠ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل، هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله، وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٦١، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٦٢، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٦٣. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٤ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦٥، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم} ٦٦، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٧، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٨، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٩، أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٧٠، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٧١، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٧٢. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٧٣، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٤، {قد أفلح من تزكى} ٧٥، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٦، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٧، ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٨، {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٩.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا

كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٨٠، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٨١؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٨٢، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٨٣، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٤، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨٥، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٦، {سندع الزبانية} ٨٧، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٨.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٩، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٩٠ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٩١، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٩٢ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٩٣، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٤، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩٥، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٦، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٧، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٨، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٩ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ١٠٠، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ١٠١، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ١٠٢، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ١٠٣، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٤، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠٥، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٦.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٧، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٨، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٩، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١١٠ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١١١، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١١٢، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١١٣، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٤؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١٥؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٦. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٧، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٨؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٩؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١٢٠؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١٢١؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١٢٢؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١٢٣. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٤.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢٥، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٦ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٧ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند

الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٨، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٩، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٣٠، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٣١، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٣٢، {فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب} ١٣٣، {. . واسجد واقترب} ١٣٤، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣٥، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٦، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٧، {فصل لربك وانحر} ١٣٨، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٩، {قل هو الله أحد} ١٤٠، {قل أعوذ برب الفلق} ١٤١، {قل أعوذ برب الناس} ١٤٢؛ وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٤٣، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٤ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤٥؛ وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٦، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الله والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٧، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٨ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٩ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٥٠، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٥١ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٥٢، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٥٣، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٤، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥٥ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٦، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٧، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٨، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٩، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٦٠. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٦١، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٦٢، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٦٣ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٤ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦٥ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٦، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٧، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٨، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٩، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٧٠.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، ونتواصوا بالحق وبالصبر.
فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.
ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.
وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين.

١١٤ سورة الناس:

سورة الناس:
(١١٤) سورة الناس مكية
وآياتها ست.
كلماتها: ٢٠. حروفها: ٧٩.
١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)
{رب} ولي، ومطاع.
بسم الله الرحمن الرحيم
{قل أعوذ برب الناس (١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس (٦)}
أمر الله تعالى أن نستعيذ به، وهو الولي المطاع، وهو الملك المهيمن المسيطر على الناس، والمدبر لشئونهم، وهو المعبود بحق، ما من إله إلا هو، نستعيذ به من شر ما يوسوس، ويلقي باطله في نفس من يصغي إليه {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} ١؛ وإنه لملازم للاستخفاء، كثير الرجوع إلى أوليائه كلما غفلوا عن الحق واستحبوا العمى على الهدى؛ وكثير الفرار من ذكر الله تعالى، وممن أخلصوا دينهم لربهم ٢؛ {من الجنة والناس}.
روى عن أبي ذر ٣ أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقل: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم، لقوله تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن} ٤.
وقال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية.
وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.
و {من} لابتداء الغاية، أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجن، مثل أن يلقي في قلب المرء من جهتهم أنهم ينفعون ويضرون، ومن جهة الناس، مثل أن يلقي في قلبه من جهة المنجمين والكهان أنهم يعلمون الغيب. . . كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى، إلا من تداركه شوافع عصمته، وتناوله واسع رحمته ٥.
[. يعني بذلك: الشيطان الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس جنهم وإنسهم؛ فإن قال قائل: فالجن ناس، فيقال: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس؟ قيل: قد سماهم الله في هذا الموضع ناسا، كما سماهم في موضع آخر رجالا، فقال: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن} ٦، فجعل الجن رجالا، وكذلك جعل منها ناسا. . .] ٧.
مما يقول صاحب غرائب القرآن: وقوله: {من شر الوسواس} المضاف محذوف أي: من شر ذي الوسواس، وهو اسم بمعنى الوسوسة. . . وإنما قال: {. . في صدور الناس} ولم يقل: في قلوبهم؛ لأن الشيطان لا تسلط له على قلب المؤمن الذي هو بين أصبعين من أصابع الرحمن. . . اهـ.
٢ - (مَلِكِ النَّاسِ)

{ملك} الذي يهيمن ويسيطر ويدبر.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٣ - (إِلَهِ النَّاسِ)
{إله} معبود.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٤ - (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)
{الوسواس} الملقي حديثه في نفس محدثه.
{الخناس} الذي يدلف في خفاء، ويرجع كلما وجد منفذا.
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٥ - (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار
٦ - (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)
{الجنة} الجن- ربما سموا بذلك لاستخفائهم-
كلام للمؤلف في آيات المقطع له صلة: الآية ١ إظهار

وفي فضل هذه السورة الكريمة- كالسورة المباركة التي قبلها- يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط {قل أعوذ برب الفلق} و {قل أعوذ برب الناس})، رواه مسلم في صحيحه بسنده عن عقبة بن عامر.

وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم " كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء بركتهما ".

والله تعالى أعلم؛ وللشيطان لمة وللملك لمة، فلمة الشيطان إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فوعد بالخير، وتصديق بالحق.

هذا وإن مولانا البر الرحيم قد أمرنا إذا أردنا أن نفتتح قراءة القرآن أن نستعيذ بالله من الشيطان، وأمرنا في ختام الكتاب العزيز أن نكثر من الاستعاذة بالله العزيز الغفار؛ فاللهم اصرف عنا كيد الأشرار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار. اللهم آمين. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

خاتمة:

السور الثنتان والأربعون (من المزمل إلى الناس) هذه صرف ربنا فيها القول في أسمائه الحسنى، وصفاته القدسية، وأفعاله الحكيمة، وقامت بآياتها الحجة والبرهان على الذين يجادلون في الله بغير سلطان، كما أثنى الحق جل علاه على الملائكة المكرمين، وشهد سبحانه- وكفى به شهيدا- بصدق المرسلين؛ وبشر المتقين، وأنذر الجاحدين؛ ووصى بذكره وشكره وحسن عبادته، والخلق الكريم وجميل الصحبة مع الخلطاء، والبر والعدل حتى مع الأعداء، والرشد والدعوة إليه ومجاهدة السفهاء.

فليهتدي السعداء ويزداد الذين آمنوا إيمانا تنزلت آيات مباركات تبين جلال الأسماء والصفات والأفعال الربانية: {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} ٨، {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} ٩ {إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد} ١٠، {سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى} ١١، {. . إنه يعلم الجهر وما يخفى} ١٢ {الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٣، {قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد} ١٤، {ملك الناس. إله الناس} ١٥.

وبينت مع تقديس أسمائه- سبحانه- وصفاته وأفعاله آثار القدرة والحكمة والرحمة، فأزهقت باطل أهل الجحود والزيغ والغفلة: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ١٦ {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا} ١٧ {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} ١٨، {ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه

في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون} ١٩. فمن غير الله أوجد الآدميين من العدم؟! ومن جعل نسلهم من أخلاط تخرج من صلب لتستقر في رحم؟! ومن يصور الأجنة في بطون الأمهات ويجعل لها السمع والبصر. ويسبغ عليها النعم؟! إنه مولانا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وفاطر الأرض والسموات- وإنشاؤهما أكبر- بث فيهما وأوجد ما نعلم وما لا نعلم، وباركهما رزقا للعالمين، ومتاعا إلى حين: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢٠، {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم} ٢١.

وأقسام القرآن، لعل من المراد بها- والله أعلم-: التذكير بجلال من أتقن هذه الأشياء صنعا، فالظلمات والنور، والشمس والقمر، والليل والنهار كلها من صنع الفاعل المختار، الواحد القهار: {كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر} ٢٢، {فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس} ٢٣، {فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق} ٢٤، {والسماء ذات البروج} ٢٥، {والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب} ٢٦، {والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر} ٢٧ {والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها} ٢٨، {والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى} ٢٩، {والضحى. والليل إذا سجى} ٣٠، {والعصر} ٣١؛ وكذا القسم بالأماكن: {لا أقسم بهذا البلد} ٣٢، {والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البد الأمين} ٣٣. وقسم القرآن بالملأ الكرام عليهم السلام وما عهد إليهم به الحكيم العلام يدلنا على اقتدار وسلطان مولانا ذي الجلال والإكرام: {والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا} ٣٤، {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا} ٣٥.

وعن اليقين بالموت والإحياء، والحساب والقضاء، والمصير والجزاء، بشرت الآيات وذكرت، وحذرت وأنذرت، وأقامت الحجة البالغة على المنكرين والغافلين: {فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} ٣٦، {إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا} ٣٧، {. . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ٣٨، {فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير} ٣٩ {وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر} ٤٠ {إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين} ٤١، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بل قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر. بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره} ٤٢، {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة. كلا إذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن أنه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق} ٤٣ {أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى} ٤٤، {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} ٤٥، {متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس خضرا واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} ٤٦، {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد

لهم عذابا أليما} ٤٧، {إن ما توعدون لواقع. فإذا النجوم طمست. وإذا السماء فرجت. وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل أقتت. لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين} ٤٨، {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالت صفر. ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين. إن المتقين في ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزي المحسنين} ٤٩، {عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون. ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا. وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا.

لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا. إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لا بثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا. وكل شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن المتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دهاقا. لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا. جزاء من ربك عطاء حسابا. رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} ٥٠، {يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة} ٥١، {فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى. يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها} ٥٢.

في سبع سور متتابعات- من سورة المزمل إلى سورة النازعات- جاءتنا آيات محكمات [تقارب المائتين] تثبت الإيمان وتزيده بحياة بعد هذه الأولى، حياة عظيمة أحوالها، مفزعة أهوالها، تجعل الولدان شيبا، {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} ٥٣. {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون} ٥٤؛ وجاءنا فيها البرهان على أن الذي فلق الإصباح، وجعل الليل والنهار خلفة، وخلق الإنسان من ماء مهين، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادر، على أن يحيي الموتى.

وخوف المهيمن العزيز الجبار، من سوء المصير وعذاب النار، فإن سعيرها لا يبقى ولا يذر، وخزنتها جند رب القوي والقدر؛ كما دعانا البر الرحيم إلى دار النعيم، نلقى فيها الثواب الكريم، والفضل العظيم، نرزق فيها أهنأ الطعام والشراب، وآنيتهما صحاف من ذهب وأكواب، ونكسى فيها أوقر الثياب؛ وأكرم من كل ذلك نسعد بالنظر إلى مولانا الملك الوهاب.

وعشر سور ٥٥ بعد هذه السبع أكثرها ٥٦ وعد ووعيد، وبيان لما يكون يوم القيامة من بلاء شديد، تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتسير الجبال وتنسف، وتسجر البحار وتشتعل؛ هذا حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فإذا نفخ فيه أخرى بعثرت القبور، وذلك يوم النشور، حينئذ لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله؛ وربنا يحكم بالحق، ولا يسوي بين المبطلين وأهل الصدق، فوجوه المجرمين عليها غبرة ترهقها قترة، ومقامهم في السعير، ودعاؤهم بالثبور والتحسير {فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد} ٥٧، {وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي} ٥٨، {وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع} ٥٩. {ثم لا يموت فيها ولا يحيا} ٦٠ {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} ٦١، {ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم}

٦٢، {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} ٦٣، {وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت} ٦٤، {فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ٦٥؛ أما النضرة والسرور، ورضوان مولانا الغفور الشكور، فإنه لأهل الإيمان والعمل المبرور: {وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة} ٦٦، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون. إن الأبرار لفي نعيم} ٦٧، {وعلى الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون} ٦٨. {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون} ٦٩، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ٧٠، {قد أفلح من تزكى} ٧١، {وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. وفي جنة عالية. لا تسمع فيها لا غية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة} ٧٢، {يأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي} ٧٣؛ ثم نقرأ بعد ذلك في عشر من السور القصار، ماذا أعد للكفرة والفجار، وما يُلقى المؤمنون الأخيار: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} ٧٤؛ {فأنذرتكم نارا تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى. وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزي. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى} ٧٥.

وعن الإيمان بجند الله الكرام عليهم السلام بينت آيات محكمات ما عهد به المولى سبحانه إلى طائفة منهم ليكونوا خزنة جهنم- أعاذنا الله منها-: {عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر} ٧٦، وأقسم ربنا بطوائف منهم في آيات خمس هي فواتح سورة [المرسلات]، وخمس أخر هن فواتح سورة [النازعات]، وبين حالهم حين يبعث الخلق {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} ٧٧؛ وطائفة عهد ربنا إليهم بصحفه المكرمة، المرفوعة المطهرة {بأيدي سفرة. كرام بررة} ٧٨، وملك الوحي جبريل المبلغ عن الملك القدوس {إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين} ٧٩، {وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون} ٨٠، {إن كل نفس لما عليها حافظ} ٨١، {وجاء ربك والملك صفا صفا} ٨٢، {سندع الزبانية} ٨٣، {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} ٨٤.

وفي التصديق بما نزل من الكتاب، ولزوم تلاوته واتباعه، وفي عاقبة من أعرض عنه جاءت الآيات المحكمات: {. . ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا} ٨٥، {. . فاقرءوا ما تيسر من القرآن} ٨٦ {. . فاقرءوا ما تيسر منه} ١١، {كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا} ٨٧، {ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر} ٨٨ {كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره} ٨٩، {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه} ٩٠، {وإنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ٩١، {فبأي حديث بعده يؤمنون} ٩٢، {إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذبوا بآياتنا كذابا} ٩٣، {إن هو إلا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم} ٩٤، {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} ٩٥ {بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ} ٩٦، {إنه لقول فصل. وما هو بالهزل} ٩٧، {إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى} ٩٨، {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة} ٩٩، {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم} ١٠٠، {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ١٠١، {رسول من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة} ١٠٢.

وعن تصديق النبيين وتأييد الله لهم ولأتباعهم، وبطشته سبحانه بأعدائهم، يقول مولانا تقدست أسماؤه: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٠٣، {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذا وبيلا} ١٠٤، {يا أيها المدثر. قم فأنذر} ١٠٥، {هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى}، ١٠٦ {يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذري من يخشاها} ١٠٧، {وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين} ١٠٨، {هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود} ١٠٩، {سنقرئك فلا تنسى} ١١٠؛ {ونيسرك لليسرى. فذكر إن نفعت الذكرى} ١١١؛ {فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر} ١١٢. {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد} ١١٣، {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها} ١١٤؛ {ما ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى} ١١٥؛ {ورفعنا لك ذكرك} ١١٦؛ {كلا لا تطعه واسجد واقترب} ١١٧؛ {إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} ١١٨؛ {قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد} ١١٩. {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٢٠.

وفي هذه السور المباركة مع الهداية إلى الإيمان الصادق دعوة إلى عبادة الملك القدوس المهيمن، يؤمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة له في ذلك تبع، أو ينادي إليها العباد، {يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا} ١٢١، {ورتل القرآن ترتيلا} ١٢٢ {واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا} ١٢٣ {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} ١٢٤، {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا} ١٢٥، {سبح اسم ربك الأعلى} ١٢٦، {فذكر إنما أنت مذكر} ١٢٧، {أما بنعمة ربك فحدث} ١٢٨، {فإذا فرغت فانصب. والى ربك فارغب} ١٢٩، {. . واسجد واقترب} ١٣٠، {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} ١٣١، {. . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ١٣٢، {فليعبدوا رب هذا البيت} ١٣٣، {فصل لربك وانحر} ١٣٤، {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} ١٣٥، {قل هو الله أحد} ١٣٦، {قل أعوذ برب الفلق} ١٣٧، {قل أعوذ برب الناس} ١٣٨، وتأتي آيات ينهانا ربنا فيها عن أشياء، فإذا انتهينا كنا من العابدين {ولا تمنن تستكثر} ١٣٩، {. . ولا تطع منهم آثما أو كفورا} ١٤٠ {فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر} ١٤١، وآيات أخر يشكر الله فيها عمل الصالحين، أو يقبح طغيان الطاغين: {وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا} ١٤٢، {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} ١٤٣، {إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر} ١٤٤ {ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين. فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين} ١٤٥ {كلا بل لا يخافون الآخرة} ١٤٦، {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه. بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة} ١٤٧ {كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة} ١٤٨، {فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى} ١٤٩، {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه

الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا} ١٥٠، {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوم ثقيلا} ١٥١ {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} ١٥٢، {ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين} ١٥٣، {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} ١٥٤، {قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} ١٥٥، {بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط} ١٥٦. {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} ١٥٧، {قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى} ١٥٨، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لبدا. أيحسب أن لم يره أحد} ١٥٩ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} ١٦٠ {كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى} ١٦١ {أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى} ١٦٢، {إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد} ١٦٣، {ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر} ١٦٤، {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين} ١٦٥، {فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة} ١٦٦.

وصاكم الملك القدوس في هذه السور الثنتين والأربعين أن تستيقنوا بالله وجلاله وآلائه، وبملائكته وكتبه وأنبيائه، وبالموت والبعث وبحسابه وجزائه؛ وصاكم أن تذكروه كثيرا، وتسبحوه ليلا طويلا، وبكرة وأصيلا، وتستغفروه وتنيبوا إليه، وتعبدوه وتتوكلوا عليه، وأنتم بهذا أهل دينه القيم وأصحاب النعيم والرضوان لديه.

نهى عن الكفر والكبر، وترك الصلاة ومنع الزكاة، والافتتان بالعاجلة، والغفلة عن الحياة الآجلة؛ نهى عن البغي والفجور، والتطفيف والتخسير، واللمز والسخرية والتحقير؛ وتوعد الطاغين، والذين يفتنون المؤمنات والمؤمنين، ويصدون عن سبيل رب العالمين، ويحرمون اليتامى والمساكين؛ وسعر الجحيم للمرائين، والأشحة الممسكين.

وحبب إليكم أن تخلصوا له الدين، وتقوموا له قانتين، تفكوا رقاب المستعبدين، وتبسطوا أيديكم بالبر، وتحضوا من استطعتم على بذل الخير، وتتواصوا بالحق وبالصبر.

فاستجيبوا لربكم، وأوفوا بعده يوف بعهدكم.

ونضرع إلى مولانا خاشعين أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل عنا أحسن ما عملنا، ويتجاوز عن سيئاتنا في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.